
نرمین محمد اسعد
ماسة
و شیطان

لو دخل كلٌ منا قلب الآخر لأشفق عليه .

"مصطفى محمود"

الفصل الأول:

أنا ماسة!

لا أدري في الواقع من اختار لي هذا الاسم...

من الطبيعي أن يسمي الابن والداه...

لكن اللقيط من يسميه؟!!!!

نعم...

وجدتني"رحمة" مجرد "قطعة لحم حمراء" كما يقولون ملقاة جوار مسجد في حارتنا الصغيرة...

فاعتبرتني هدية القدر لها بعدما فرّ زوجها هارباً بابنها الوحيد مع زوجته الثانية إلي بلد عربي...

ليبعث إليها بورقة طلاقها بعدها بأيام!!!

رحمة -التي جعل لها القدر من اسمها نصيباً -ربتني كابنتها...

لكن عندما عاد ابنها الحقيقي كان عليها أن تختار بيننا....

خاصة بعد الحادث -المخزي-الذي تعرضتُ أنا له...

وبالطبع....اختارت ابنها...

لأجدني فجأة في وضعي الطبيعي الذي كان ينبغي أن أكون عليه من البداية...

مجرد لقيطة!!!

===========

وقفت في محطة القطار تنتظر وصول قطارها القادم...

تأملت تذكرتها في يدها بنظرة ساخرة مريرة...

إنها ليست مجرد تذكرة سفر...

لكنها وسيلتها للهرب من عالمها الذي عرفته طيلة عمرها....

لم تتصور أبداً ولو في أسوأ كوابيسها أن تخرج يوماً من حضن رحمة...

رحمة التي كانت لها الأم والصديقة والأخت....

والآن تجد نفسها محرومة من كل هذا!!!

لكنها مضطرة...

من أجل رحمة نفسها ...ستفعلها!!

سمعت صوت صافرة القطار فانقبض قلبها بشدة...

لتتحسس أناملها تلقائياً سلسلة صدرها الصغيرة المنقوش عليها اسمه...

عزيز...

"حب قلبها "الذي كان أروع من أن يكتمل في عالم كهذا...

و"خطيئتها" التي دفعتها للهرب رداً لمعروف رحمة التي تستحق تضحية كهذه...!!!

التفتت خلفها وكأنها تبحث عمن يودعها...

لكنها بالطبع لم تجد أحداً !

ماسة صارت وحدها في هذا العالم...

وحدها تماماً هذه المرة!!!

سارت بخطوات متثاقلة نحو القطار المتجه لإحدى مدن الجنوب البعيدة...

حيث اختارت الفرار ...

لكن بمسمى العمل!!!

اختارت مكانها جوار النافذة لتجلس باستسلام ثم أسندت رأسها على زجاج النافذة تراقب الطريق....

شئ بداخلها يرجوها العودة...لكنها تعلم أنها مستحيلة....

تذكرتكِ بلا عودة يا ماسة....

بلا عودة!!!

تناولت هاتفها لتبحث عن آخر ما تبقى لها من عزيز...

خواطره التي يكتبها على مدونته الشهيرة...

والتي تعلم أنها بطلتها الوحيدة....

خواطره التي تلاقي إعجاباً شديداً وشهرة واسعة....

نعم...عزيز ماهر حقاً في الكتابة عن الحب...

وكيف لا؟!!!

وعزيز روحٌ تنبض بالحب...وللحب!!

ظهرت لها آخر كتاباته أخيراً...

لتبتسم في مرارة وهي تتبين تاريخها...

لقد كتبها بالأمس فقط...

كتبها لها هي...

مهلاً يا سيدتي...

مهلاً يا قاتلتي...

ماجئت أقول بأني معتذرٌ...

ماجئت أقول بأني منتظرٌ...

ما جئت أقول وكيف أقول...

وكلامي بعدكِ صار عجوزاً...

يتكئ علي صمتي!!

ما جئت أقول بأنك راحلةٌ..

تاركةً خلفكِ قافلتي...

وجحيماً آخر من أسئلتي...

بل...من أجوبتي!!

ما جئت أقول بأنك كل الأحزان...

وبأنك كل الألوان...

وبأنك كنت الغفران...

لو ضاق الكون بمعصيتي!!!

عفواً...ما جئت أُذكّركِ...
بل جئت وأحمل في كفي أغنيةً...
كانت هي ..أنتِ!!

وبقايا من عمرٍ ولّي...
حين رحلتِ...
ونحيب سطور قد حملت كلماتكِ...
كم قلتِ وقلتِ!!!!

أتراها تشفع لي عندكِ...
أم أنك أنتِ ما عدتِ أنتِ!!!!!

ما جئتُ أقول بأني متهمٌ...

وبأنكِ أنت مُبرئتي...
بل أعرف أن الذنب بعنقي...
والخطأ يطوق خاصرتي!!

وبأنكِ كنتِ علي حق..
إذ قلتِ بأني بركانٌ...
وفؤادكِ ضاق بأبخرتي!!!

ماذا سأقول يبرئني..
ولساني يعترف بذنبي...
تباً لجميع الألسنةِ!!!

كم قلتِ بأني مغرورٌ...
وغروري عطل أجهزتي...
كم قلتِ بأني كالطفل..

لا يعرف وقتاً للجد ووقتاً للعب...

وهذي حقاً مشكلتي!!!

لازلت أحاول أن أرسم

قرصاً للشمس بمسطرتي...!!!

لازلت أحاول أن أطفئ...

ناراً في القش بمروحتي!!!

وأنتِ ما عدتِ بيتاً...

من أقصي الأرض يناديني...

فألقي فيه بأحملتي!!!

ما كنتِ لديّ صدي صوتٍ...

أو تذكاراً...

أو أشعاراً بمفكرتي...!!

بل كنتِ النور بأرجائي..
وملاكاً أسقط عن وجهي كل الأقنعةِ!!!

إن كنتِ ستمضين بعيداً...
فالتفتي خلفكِ وابتسمي...
كي أبقيها في ذاكرتي!!

في الوقت الضائع قد جئتُ...
لا أعرف حمقاً أم ندماً...
أم حسن الظن بمقدرتي...
لا أعرف حقاً سيدتي!!!

إن كنت فقدتكِ ذا اليوم...

سأفتش عنكِ..

في كل مجرات الكون...

وخلف جميع الأزمنةِ!!

وسأجدكِ يوماً ساعتها...

سأغير تاريخ ميلادي...

سأغير اسمي لو شئتِ!!

عفواً..

ما كنتُ لكِ دفئاً

كما كنتِ أنتِ...

عفواً...

ما كنتُ لكِ وطناً...

كما كنتِ أنتِ...

عفواً...

وأكرر أسفي سيدتي!!!!

دمعت عيناها وعادت أناملها تتحسس سلسلته في عنقها....

عزيز يودعها بكلماته...

يعتذر لها عن زلاته التي غفرتها له...

غفرتها دون جهد يذكر...

فقلبها الذي لم يعترف بغيره سيداً ومالكاً...

لم يكن ليحمل نحوه مشاعر أخري سوي الحب...

من للحب سوي عزيز...؟!!!

وما لعزيز سوي الحب!!!!

تنهدت في حرارة...

وذكراه الحبيبة تتخلل مسام روحها ببطء....

هي كل ما تبقي لمؤازرتها في وحدتها الآن....

لتعود بذاكرتها للوراء...

تسترجع لقاءها به أول مرة....

منذ سنوات....

"يا حلو صبح ...

يا حلو طل...

يا حلو صبح...

نهارنا فل"

انبعثت هذه الكلمات بلحنها المميز من المذياع القديم بمطبخ منزل رحمة...

حيث وقفت ماسة تعد لهما الإفطار وهي تشعر بالسعادة المميزة لهذا اليوم...

إنه أول يوم لها في معهد التمريض...

لقد أوفت رحمة بوعدها معها...

وساعدتها علي إكمال تعليمها حتي التحقت بالمعهد...

وهي تنوي استغلال هذه الفرصة جيداً...

لتثبت لرحمة العزيزة أن تضحيتها معها لم تذهب هباءً!!

انتهت من رص أطباق الفطور على المائدة...

طبق الفول "منزوع القشر" حتي لا يؤذي معدة رحمة الحساسة...

وشرائح "الطماطم بالكمون" كما تفضلها....

والجبن قليل الملح مع الخبز الأسمر!!!

إنـها دوماً حريصة على أن يكون طعام رحمة صحياً لأقصي درجة...

فصحة رحمة تشكل لها هاجساً منذ زمن بعيد...

منذ وعت علي هذه الدنيا لتدرك أنها ليس لها سواها...

وأنه لولاها لتلقفتها يد الموت ببساطة بعدما ألقاها -أحدهم-طفلة رضيعة جوار المسجد الصغير!!!!

توجهت لغرفة رحمة كي توقظها...

لكنها توقفت أمام المرآة الكبيرة القديمة في صالة المنزل...

تأملت نفسها بتفحص ...

جسد نحيف لا يغري بالنظر...

ومـلامح عادية بسيطة...

لا يكاد يميزها سوى عينين بلون الفضة ...

رماديتين تزداد حدة لونهما أو تنقص حسب ما ترتديه....

واسعتين كفضاء بلا حدود...

تظللهما رموش كثيفة شديدة السواد ...

ويعلوهما حاجبان رفيعان يمنحانها منظراً ملائكياً!!

ابتسمت في رضا وهي تعيد خصلات شعرها الملساء شديدة السواد للخلف...

وذهبت لتوقظ رحمة عندما استوقفها رنين جرس الباب...

توجهت للباب تفتحه بترقب...

لتطالعها عينان بلون الزمرد الأخضر ممزوجاً بالعسل...

عينان تنبضان بجاذبية كاسحة خاصة لفتاة بلا خبرة مثلها...

تنحنحت في حرج عندما لاحظت تفحصه لها بدوره...

فمنحها ابتسامة-مهلكة-كما شعرت بها وقتها ليسألها بصوته الرجولي الذي لم تسمع أعذب منه:

_الحاجة رحمة هنا؟!!

عقدت حاجبيها في دهشة لتهمس بتساؤل:

_تريد أمي؟!

اتسعت ابتسامته وهو يستند بكتفه علي حاجز الباب ليغمزها بشقاوة قائلاً:

_وأمي أنا أيضاً!

اتسعت عيناها في صدمة لتنتبه ساعتها للشبه الكبير بينه وبين رحمة...

فأشارت إليه بإصبعها هاتفة بلهفة:

_عزيز؟! أنت عزيز؟!!!!

انتبهت من سيل ذكرياتها معه عندما بدأ القطار في التحرك نحو وجهته...

دمعت عيناها وهي تشعر شعور من سُلخ من جلده...

لقد رحلت عن عزيز ورحمة إلي الأبد...

ولم يبقَ لها منهما سوى ذكريات...

ذكريات ستبقى زاد قلبها في رحلته الطويلة....

===============

_رؤى!

هتف بها فهد بلهفة فتوجهت نحوه بسرعة لتهتف بلهفة مماثلة:

_فهد!!لقد كنت أبحث عنك!

التقط كفها ببساطة ليهتف بمرح:

_افتقدتك يا حبيبتي...لكنني سأعوضك عن غياب الأيام السابقة كلها!!

ابتسمت رؤى في حنان وهي تنزع كفها منه بخجل قبل أن تملأ عينيها من ملامحه التي اشتاقتها حد الجنون...

فهد جاسم الصاوي....

ابن جاسم الصاوي رجل الأعمال المعروف...

وحبيب قلبها الذي دخل عالمها منذ بضعة شهور فقط ليقلبه لها رأساً علي عقب...

وكيف لا؟!!!

وفهد هو النموذج المجسم لكل ما تطلبه فتاة في فارس أحلامها...

وسامته...

حنانه...

قوته...

ثراؤه ومركزه الاجتماعي...

وفوق كل هذا حبه ...

حبه العميق الذي تشعر به يطوقها بحنان آسر!!

تأملها بدوره وقد أسعدته نظراتها المتلهفة والممزوجة بعشقها الذي يشعر بكل ذرة منه...

ليهمس لها بتردد:

_كنت أريد أن أطلب منكِ شيئاً...لكنني أخشي أن تسيئي فهمي؟!

هزت رأسها نفياً وهي تهمس بدلال:

_لن أسئ فهمك أبداً!!

ابتسم في حنان وقد بدا عليه التردد للحظات...ثم وجد الشجاعة المناسبة ليقول بعاطفة مست قلبها:

_لقد افتقدتكِ حقاً...أريد أن نتحدث سوياً بحرية دون خوف من أن يرانا أحد...ما رأيك لو أصطحبكِ معي لشقتي ؟!

تجمدت ابتسامتها علي شفتيها وهي ترمقه بنظرات مصدومة للحظات أغنته عن ردها على طلبه...

فأطرق برأسه ليقول بأسف:

_أنا آسف...ظننتُ أن ما بيننا يستوجب الثقة!!

لكنها هزت رأسها لتقول بارتباك:

_ليست مشكلة ثقة يا فهد!! لكنها ....

قاطعها قائلاً بحنان:

_لا بأس يا حبيبتي...أنا أفهمك...أنا فقط أردت أن أحتفظ بكِ وحدي في عالمي لدقائق.

تنهدت في حرارة...

ثم تلفتت حولها لتطالعها العيون المراقبة لهما بنظرات بين الحسد والفضول...

نعم...

فهد الصاوي بكل مميزاته هو قِبلة العيون هنا في الجامعة...

ومحط أنظار الفتيات...

ومن الطبيعي أن تثير علاقته بها الأقاويل...

لهذا تتحفظ كثيراً في خروجها معه...

فلو علم شقيقها عن هذا سيذبحها حقاً دون مبالغة...

لا مزاح لديه في هذه الأمور....

ربما هو محق بشأن لقائه معها في شقته بعيداً عن العيون...

لكنها لا تستطيع...!!!!

إنها تثق به ...

ولو كان هناك أكثر من الثقة لمنحتها له...

فهد أبداً لن يؤذيها...

لكنها لا تستطيع تقبل الفكرة بسهولة...!!!

لاحظ شرودها عنه فهمس بحنان:

_ما الأمر يا حبيبتي؟! هل أزعجكِ طلبي إلي هذا الحد؟!

التفتت نحوه لتبتسم بدورها هامسة:

_لا أبداً...أنا فقط كنت أفكر فيه...

ثم أردفت بثبات وهي تنظر في عمق عينيه:

_أنا أثق بك يا فهد!!

منحها أرق ابتساماته التي خفق لها قلبها طرباً...

فهد من قلائل الرجال الذين يعرفون كيف يرضون عقل المرأة وقلبها معاً...

رغم أنه يكبرها بثلاث سنوات فقط...

لكنها تشعر أن عقله أكبر من هذا بكثير...

قراءاته المتنوعة وثقافاته المختلفة التي اكتسبها من طول أسفاره...

وعمله مع والده منذ سنوات...

كل هذا جعل عقله أكبر من مجرد عقل طالب جامعي في سنته الأخيرة...

وهذا أكثر ما جذبها إليه!!!

قاطع أفكارها عندما نظر في ساعته ليقول بأسف:

_حددي المكان الذي ترغبين الذهاب إليه....لن أستطيع البقاء معكِ أكثر من ساعة فعندي موعد مع والدي بعد قليل.

فابتسمت برقة لتقول برفق وقد حسمت أمرها:

_حسناً...لا أمانع في أن أري شقتك.

===============

فتح فهد باب شقته بهدوء ثم التفت لها قائلاً بحنانه المعهود:

_تفضلي يا أميرتي!!

دخلت بتردد وهي تجيل بصرها في محتويات الشقة حولها...

شقة فاخرة كما تليق بفهد الصاوي...

وذوق بسيط متفرد كما يليق بحبيبها الذي تعرفه!!

جلست علي أحد المقاعد فجلس علي الأريكة جوارها ليقول بعاطفته التي تأسرها:

_لا أصدق أنكِ هنا معي حقاً...سأحرّم علي أي أحد الجلوس علي هذا المقعد بعدك!!

ضحكت بخجل ثم لوحت له بسبابتها قائلة بجدية:

_أنا لم آتِ إلي هنا لنتبادل الغرام يا سيد فهد....أنا جئت لأعرف آخر أخبارك مع والدك.

فتنهد بحرارة ثم قال بحزن واضح:

_لازالت الفجوة بيننا تتسع يوماً بعد يوم...تسلطه على أحلامي وطموحي يجعلني أكره كوني ابنه الوحيد...ربما لو كان لي إخوة لرفع هذا عن كاهلي الحمل قليلاً...لكنه يصر على دفعي لأكون نسخة منه...امتداداً لأعماله ونجاحه....مجرد ظل بلا رأي...كلمتي لا تساوي لديه شيئاً.

فهزت رأسها بأسى ثم قالت بإشفاق:

_لا بأس يا فهد...من يدري...لعل الأيام تقرب بين أفكاركما...

ثم أردفت بحنانها القوي:

_أنا واثقة من أنه سيأتي يوم يدرك فيه قيمتك الحقيقية!!

ابتسم بعاطفة أغرقتها في بحور عشقه أكثر وهو يهمس بامتنان:

_شكراً لأنكِ دخلتِ حياتي لتكوني النور وسط ظلمة روحي.

فابتسمت بدورها وهي تتلفت حولها لتقول بمرح:

_لم أعرفك بخيلاً هكذا....ألن تدعوني لأشرب أي شئ؟!!!

ضحك في مرح وهو يمد لها كفه ....

فمدت له كفها بتردد ليقوما معاً...

ثم توجها إلي ذاك الركن الأنيق في شقته والذي يمثل مطبخاً علي الطراز الأمريكي...

ساعدته في إعداد مشروبين خفيفين لهما...ثم جلسا متجاورين يتجاذبان الأحاديث بمرح...

حتى نظرت هي في ساعتها لتقول بأسف:

_مرت الساعة سريعاً....هيا كي لا تتأخر علي موعدك.

أومأ برأسه إيجاباً...ثم قام معها ليغادرا الشقة بهدوء....

قبل أن تقول هي برقتها الآسرة:

_شقتك جميلة ومريحة مثلك.

ابتسم وهو يتفحص ملامحها بنظراته الحارة ليهمس بحب:

_أقصى ما أحلم به الآن...أن تشاركيني فيها يوماً يا أميرتي!

===========

تململت ماسة في جلستها في القطار...

تتابع الطريق بشرود...

وتضم هاتفها لصدرها تحتضن آخر كلمات عزيز التي بدت كنَعْيٍ أخير لحبهما....

ورغماً عنها عادت ذكرياتها معه تغزو عقلها بعنف....

_عزيز؟!!! أنت عزيز؟!!!!

هتفت بها بلهفة ثم انطلقت تعدو نحو غرفة رحمة لتوقظها بعنف هاتفة بفرح :

_استيقظي يا أمي....عزيز عاد...عزيز هنا!!!

فتحت رحمة عينيها وهتاف ماسة يشق أذنها بفرحتها الطاغية....

فانتفضت لتقول بدهشة والنوم لم يفارق عينيها بعد:

_من الذي عاد؟! من هنا؟!

_أنا عزيز يا أمي!!!

كان هذا هو عزيز الذي اندفع نحوها ليجلس جوارها علي طرف الفراش متفحصاً ملامحها بعطش ...

عطش ابن حُرم من أمه طوال هذه السنوات...

لكنه أبداً لم ينسَ ملامحها التي حفرت في ذاكرته ...

قبل أن يهرب به والده وهو مجرد طفل صغير ليتربى دون حنانها...

فيعاني غربته وقسوة قلب زوجة أبيه في ذات الوقت....

دارت عيناه علي ملامحها التي غيرتها السنون...

وبدت تجاعيد وجهها كعلامات واضحة على أثار الحزن قبل الزمن ...

لكن عينيها لازالتا كما هما...

نفس لون عينيه المميز بلمعة الزمرد والعسل...

لكنهما تحملان نظرة كسيرة...

نظرة امرأة هزمها الزمن ليختطف منها الحزن فرحتها غدراً!!!!

وأمامه كانت رحمة متجمدة مكانها ....

قلبها يتوسلها أن ترفع ذراعيها لتضمه إليها...

لكنها كانت عاجزة عن فعل أي شئ سوى التعلق بوجهه...!!!

إنه هو...عزيز...

ابنها الذي حرمت منه طيلة هذه السنوات...

صحيح أنها كانت تعيش على أمل أن تلقاه يوماً....

لكنها لم تتصور أنه قد صار رجلاً بكل هذه الوسامة والقوة....

مدت ذراعيها بتردد نحوه....

أناملها ترتجف بشدة وهي تتلمس ملامح وجهه...

عينيه وأنفه...

شفتيه ...

ثم تصعد إلي جبينه العريض لتهبط منه إلي وجنتيه...

تحتضنهما بقوة...

قبل أن تدفن وجهه كله في صدرها هاتفة بحرقة:

_آآآآه يا عزيز!!!! إنه أنت أخيراً!!!!

دمعت عينا ماسة بتأثر وهي تشاهد فرحتهما المشتركة...

ودموع رحمة المنهمرة بغزارة مع انتفاضة جسدها المشتعل بانفعاله....

لقد عاد عزيز أخيراً وتحقق دعاء رحمة الغالية...

رحمة تستحق فرحة كهذه...

لقد عاشت عمرها كله تنتظر عودته...

ولم يخيب القدر رجاءها!!!!

التفتت نحوها رحمة لتهتف بسعادة وكأنها لا تصدق:

_هذا هو عزيز يا ماسة...عزيز عاد!!!

ابتسمت ماسة بسعادة حقيقية...

عندما التفت هو نحوها متفحصاً إياها بإعجاب ظاهر...

ثم هتف بمشاكسة:

_أنتِ إذن الماسة التي اختطفت مكاني في حضن أمي؟!!!

احمرت وجنتاها بخجل للحظات...

فأردف بنفس اللهجة الممازحة :

_أنتِ حقاً تستحقين!!

لكن رحمة أدارت وجهه إليها لتقول باشتياق :

_احكِ لي كل شئ عنك يا ابني...أريد أن أسمع صوتك.

تنهد عزيز في حرارة...ثم قال بشرود:

_أبي عاد بنا منذ عام...واستقر هنا في أحد الأحياء الراقية...وأنا افتتحت مشروعاً صغيراً خاصاً بي....

هزت رأسها لتسأله بعتاب يمتزج بالألم:

_عام كامل هنا يا عزيز ....ولم تتذكرني إلا الآن؟!!

قبل كفها بحرارة ليقول بأسف:

_أبي رفض منحي العنوان...وطوال هذه الأيام وأنا أحاول العثور عليكِ...سامحيني...من الآن لن يمر عليّ يوم دون أراكِ...

فتحت شفتيها لتطلب منه شيئاً ما...

لكنها عادت تطبقهما في ألم...!!!

أجل...كادت تطلب منه أن يقيم معها هنا...

لكنها تعلم أن هذا لن يحدث...

ليس فقط بسبب وجود ماسة ...

والذي يجعل بقاءهما معاً في بيت واحد غير لائق...

لكن لأن عزيز الذي تربى على الغنى والرفاهية لن يتحمل العيش في هذه الحارة الفقيرة...

وهذا المنزل البسيط...

هو يستحق أفضل من هذا...

وهي لن تكون بهذه الأنانية لتحرمه من الترف الذي يعيش فيه....!!!!

بينما كان هو يتأمل ملامحها بأسف...

كم يتمني لو يبقى معها هنا...

لكنه علم قبل أن يأتي إلي هنا بحكايتها مع ماسة...

الطفلة التي ربتها كابنتها وأقامت معها طيلة هذه السنوات لتعوضها عن حرمان قلبها الذي أذكاه فقدها له هو...

ويعرف أنه لن يستطيع البقاء معها في وجود ماسة...

لكنه سيزورها يومياً لعله يروي ظمأه لأمومتها....

ويعوضها عن كل ما افتقدته!!!!

قطعت أفكاره عندما تقدمت منه ماسة لتقول بخجل زادها فتنة:

_الإفطار جاهز ...ماذا تحب أن تشرب؟!!!

التقطت عيناه عينيها أخيراً بعدما رفعتهما نحوه...

لتلتقي بحور الفضة بلمعة الزمرد والعسل...

ويبدأ بينهما حديث طويل ...

حديث عرف طريقه لقلبيهما معاً....قبل أن يهمس بحنان لم يتكلفه:

_أي شئ من يديكِ سيكون رائعاً!!!!

دمعت عيناها عندما وصلت لهذه النقطة من ذكرياتها معه....

رغم كل لحظات الحب التي جمعتهما منذ سنوات...

تبقي حلاوة هذه الذكري في قلبها ليس لها مثيل...

إنها ذكرى أول دقة قلب غادرة تخرج عن سياقه المعروف...

أول رجفة لذيذة للروح بعد طول سباتها...

وأول حلم يملك كيانها خلف ستائر وردية...

هكذا كان عزيز...

وهكذا كان حبه...

كان...!!!!

=================

تنهدت رؤى في حرارة وهي واقفة في فناء الكلية تتلفت حولها في قلق...

فهد مختفٍ منذ بضعة أيام ولا تعرف عنه شيئاً...

حتى هاتفه مغلق وهذه ليست أبداً عادته!!!

زفرت في حنق وهي تحاول إعادة الاتصال به دون جدوى.

ثم جلست علي السلالم الخارجية تحتضن حقيبتها في شرود...

لقد تعلقت به حقاً حد الإدمان.....

أيامها تختنق دونه...

لكنه يستحق...

يستحق أن يتملك كل ذرة في كيانها العاشق...

كفاها أنه حافظ عليها عندما استأمنته علي نفسها وذهبت معه إلي شقته...

واحدٌ غيره كان سيستغلها بحقارة...

لكنها كانت تعلم أنه أهلٌ لثقتها هذه!!!

دمعت عيناها اشتياقاً وهي تتساءل في نفسها عما حدث...

ماذا لو كان أصابه مكروه...

كيف يمكنها الاطمئنان عليه؟!!!

قطعت أفكارها عندما رن هاتفها باسمه أخيراً ففتحت الاتصال لتهتف بلهفة:

_فهد؟! أين أنت؟!

لم يصلها صوته للحظات...

لتسمع همسه بعدها يأتيها متألماً بل مذبوحاً:

_أحتاج التحدث إليكِ .

خفق قلبها بقوة لحزنه...فهتفت بسرعة:

_حسناً...لكن كيف نلتقي؟!

صمت للحظات ثم همس بتردد:

_أنا في شقتي لكنني متعَب...لا أستطيع الخروج...

ترددت للحظات...لكن القلق المتنامي في صدرها حسم قرارها بسرعة...

فهتفت بلهفة:

_سآتيكَ حالاً...هل أجلب لك شيئاً معي؟! ألا تحتاج لشئ؟!

لا تدري لماذا شعرت وقتها أنه يبكي...

صوته كان يأتيها مرتعشاً متهدجاً وهو يهمس:

_أحتاجكِ أنتِ...فقط أنتِ!!!

زادت همساته المذبوحة من خفقان قلبها الملهوف...

ثم لم تدرِ كيف اندفعت نحو أقرب سيارة أجرة...

لتجد نفسها فجأة أمام باب شقته...

ترددت أناملها علي الجرس بحذر وجزءٌ من عقلها يدفعها للتراجع...

لكنها نهرته بقوة...

فهد أبداً لن يؤذيها...

لو كان يريد ذلك لفعله منذ أول مرة...

فهد يستحق ما فوق الثقة بكثير!!!

وأخيراً وجدت الشجاعة لترن الجرس ...

فتح الباب بعد لحظة واحدة وكأنه كان ينتظرها...

ليهولها مظهره...

عيناه فقدتا بريقهما ليبدو عليهما الحزن...

ووجهه شاحب ليس به أثر من مرحه المعتاد...

لكن ما روعها أكثر..

هو تلك الضمادة المحيطة بجبهته!!!

شهقت بعنف وهي تدلف إلي داخل الشقة لتسأله بلهفة:

_ماذا حدث يا حبيبي؟!

أغلق باب الشقة ليستند عليه بظهره مغمضاً عينيه وهو يهمس بصوت متقطع:

_شجار مع أبي...حادث سيارة...يومان في المشفي...ثم جئت إلي هنا!

وضعت كفها علي شفتيها ثم همست بقلق:

_أنت بخير؟!

فتح عينيه أخيراً لينظر إليها طويلاً....

ثم همس بخفوت:

_أحتاج إليكِ حقاً!!

ازدردت ريقها ببطء وهي تقاوم لهفتها عليه...

تتمنى لو تضمه لصدرها ...تحتوي كل حزنه وألمه...

فمدت كفها بتردد لتربت علي كتفه....

لتفاجأ به يجذبها إليه بقوة وهو يضمها إليه هامساً:

_افتقدتكِ يا حبيبتي...افتقدتكِ جداً!

ثم تهدج صوته ليهمس بعاطفته التي تدوّخها:

_أنتِ الوحيدة التي شعرت بحاجتي للتحدث معها...لألقي همومي كلها على كتفيها...

ارتجف جسدها بين ذراعيه وهي تشعر بالاضطراب.

...

إنها المرة الأولي التي يضمها فيها هكذا...

ورغم تأنيب ضميرها الذي كان يوخزها الآن بشعور الذنب...

لكنها كانت تشعر حقاً أنه يحتاج لهذا الآن...

تماماً كما تحتاجه هي...

بل ربما لو لم يفعلها هو لسبقته هي وفعلتها!!!

يقول أنه اشتاقها ؟!!!!!

ماذا تقول هي إذن عن شعورها طيلة الأيام السابقة دونه...؟!!!!

لهذا لم تشعر بنفسها وهي تضمه إليها أكثر لتهمس بحنان:

_أنا معك يا حبيبي...أخبرني ماذا يؤلمك إلي هذا الحد؟!!!

تنهد في حرارة وهو يهمس في أذنها:

_لا أريد الكلام عن شئ الآن...أريد فقط الشعور بأنك هنا...معي!!!

أغمضت عينيها بقوة وهي تشعر بهمساته الدافئة تحتل كيانها عنوة...

تتمنى لو يقف الزمان عند هذه اللحظة...

فلا تفترق عنه أبداً...

هذا هو مكانها الطبيعي...

بين ذراعيه ورأسها علي صدره...!!

لكنها انتبهت لنفسها بعد لحظات وقد عاد شعورها بالذنب يوخزها من جديد..

فابتعدت بجسدها قليلاً...

ومع هذا لم يفلتها ...

بل نظر لعينيها هامساً بدفء:

_هل يمكن أن يُختزل العالم كله في شخص واحد؟!!!

ذابت نظراتها في سواد عينيه وهي تشعر أنها عاجزة عن الكلام....

عندما أردف هو بصوت متهدج:

_أنتِ عالمي كله يا رؤى!

ابتسمت في خجل وحروفه تخترق قلبها كسهام من لهيب....

عندما اقترب بشفتيه من جبهتها يقبلها بعمق هامساً:

_شكراً لقدرٍ جعلكِ لي...حبيبتي وصديقتي وتوأم روحي !!!

أغمضت عينيها بقوة وكلماته مع قبلته تدوخها بشعور لذيذ تجربه لأول مرة...

فانسابت شفتاه علي وجهها ببطء لتفقد وعيها -جزئياً - غارقة بدفء عاطفته....

ثم لم تدرِ ماذا حدث بعدها...

ولا كيف تسللت أصابعه لتفك أزرار قميصها...

لتسقط معه في دوامة بلا قرار.....

الفصل الثاني:

_غبية يا رؤى!!! غبية...غبية!!!

هتفت بها جنة -صديقتها المقربة-بغضب هادر وهي تهز كتفيها بقوة .... ثم أردفت بانفعال:

_لا أصدق كيف وقعتِ في فخه بهذه السهولة!!!!

كان جسدها ينتفض بقوة بكائها وكل ذكريات تلك الليلة المشئومة تغزو مخيلتها ببريق كبريق الدم....

أمسكت رأسها بكلي كفيها وهي تصرخ في انهيار:

_لا أدري...أقسم لكِ أنني لم أشعر بنفسي وقتها...كأنني كنت في حلم!!!

كزت جنة علي أسنانها وهي تتأمل انهيارها التام بحسرة لائمة...

رؤى العاشقة الحمقاء سقطت كالعادة في فخ نصبه لها سافل محترف....

لكنها لن تتركها أبداً...

لن تتخلى عنها ولو دفعت حياتها في المقابل....

لهذا ربتت علي كتفها برفق ثم سألتها بحدة:

_وماذا حدث بعدها؟!!

أطرقت رؤى برأسها لتهمس في خزي :

_تركني وحدي في الشقة وغادر...حاولت الاتصال به لكن هاتفه كان مغلقاً...انتظرته لبعض الوقت ثم اضطررت للانصراف حتي لا أتأخر فيوبخني أخي...ومن يومها وأنا عاجزة عن التواصل معه.

هتفت جنة بسخط:

_بالطبع ...هرب الحقير بفعلته!!

عادت رؤى تنتحب بقوة وهي تهمس وسط دموعها:

_لقد ضعت يا جنة...ضعت...!!!

فضمتها جنة لصدرها بقوة وهي تقول بقوتها المعهودة:

_لا تخافي...أنتِ أخطأت حقاً...لكنني لن أتركك تتحملين الذنب وحدكِ...سأعرف كيف أتصرف.

رفعت إليها رؤى عينين ذابلتين من فرط البكاء لكن بعض الأمل عاد يكسوها...

إنها تعرف جنة جيداً...

كلماتها ليست مجرد مواساة...

جنة القوية التي تخرجت منذ ما يقارب الثلاث سنوات لتمتهن المحاماة ظناً منها أنها تستطيع بذلك رد حقوق المظلومين...

جنة التي طالما يبهرها عقلها الراشد وشخصيتها الكاسحة...

وقبلهما...

قلبها الكبير الذي يتسع للكون كله بالحب....

لهذا وجدت نفسها تلقائياً تلجأ إليها عندما وجدت نفسها وحدها في هذه الكارثة....

وأي كارثة!!!!

بينما ربتت جنة علي كتفها للحظات تحاول التفكير في الأمر من جميع جوانبه وحصر كل الخسائر والمكاسب الممكنة....

ثم هزت رأسها لتقول بحسرة:

_ألم تجدي سوى ابن جاسم الصاوي لتتورطي معه؟!!!
ألا تعرفين من هو ومن أبوه؟!!! إنه من حيتان

السوق...وليت الأمر يقتصر علي المال فحسب...لكن نفوذه يصل لأبعد مما يتصور عقلك.

اتسعت عينا رؤى في ارتياع وهي تهتف مرعوبة:

_ماذا تعنين؟!!!

زفرت جنة بقوة ثم عادت تضمها إليها قائلة بتوتر:

_لا تقلقي...سأتصرف!

=============

فتحت ماسة عينيها فجأة لتتلفت حولها في دهشة قبل أن تهز رأسها في إدراك....

إنها لا تزال في رحلتها الطويلة في القطار...

لكن النوم غافلها لدقائق لا تعلم عددها...

ولا تريد أن تعلم...!

من اليوم لن يكون هناك جدوى لحساب الزمن...

لا زمن بعدك يا عزيز...

لا دقائق ولا ساعات...

لقد توقف زمني عندك...

فلا حاضر بات يعنيني...

ولا غد صار يؤرقني...

أنت الأمس الذي سأبقي أسيرته برضايَ...

والماضي الذي ارتاحت جوارحي لسكناه!!!

شعرت بألم في بطنها لتنتبه أنها لم تأكل منذ ساعات طويلة...

ففتحت حقيبتها الصغيرة لتستخرج منها بعض المخبوزات وعلبة عصير....

عندما سمعت هتافاً جوارها يصدح بمرح:

_كنت أنتظر دعوتكِ للمشاركة ...فأنا جائعة ولم أحضر معي أي طعام.

التفتت نحو الفتاة التي تجلس جوارها لتبتسم ابتسامتها الملائكية...

ثم مدت لها يدها بكيس المخبوزات كله قائلة بكرم لا تدعيه:

_تفضليه كله!!!

ضحكت الفتاة جوارها وهي تتناول قطعة من الكيس ثم قضمتها ببساطة لتقول بلهجتها العفوية:

_لا بأس...ليكون "خُبز وملح"!!!!

ابتسمت ماسة بتحفظ فهي لا تتفاعل بسهولة مع الغرباء....

ربما يكون هذا بسبب طبيعتها المتحفظة...

وربما هي تربية رحمة الصارمة التي كانت تخاف عليها حتي من خدش النسيم...!!!!

لكن هذه الفتاة تبدو مختلفة...

ضحكتها الساحرة التلقائية تجعلها تدخل القلب دون استئذان...

ووجهها البسيط بملامحه المنمنمة شديدة الطيبة يجعل من أمامها يستريح لها دونما سبب!!!

قاطعت الفتاة أفكارها عندما مدت لها يدها مصافحة لتهتف بمرح:

_دعاء منصور...محاسبة بدرجة رئيس جمهورية...لن أقبل بمعاملة أقل من هذا!!!

ضحكت ماسة برقة وهي تصافحها بدورها لتقول :

_ماسة....ممرضة بدرجة خادمة لسيادتك...هل يرضيكِ هذا؟!!!

ضحكت دعاء بانطلاق لتلتفت نحوهم أنظار ركاب القطار ما بين استنكار وفضول...

لكن دعاء لم تبالِ بل لكزتها في كتفها بخفة وهي تقول بمرح:

_أعجبتِني!!

ابتسمت ماسة وهي تهز رأسها فعادت دعاء تسألها بفضول:

_لم تخبريني عن اسمك بالكامل.

تجمدت ابتسامتها علي شفتيها وكلمات دعاء البسيطة تنكأ جرحها القديم...

اسمها بالكامل...!!!!

هي ليس لها اسماً كاملاً...

صحيح أنها تملك واحداً علي أوراقها الرسمية...

لكنها تعلم -قبل غيرها- أنه ليس حقيقياً...

هي مجرد دخيلة علي هذه الحياة...

نبتة بلا جذور يسهل اقتلاعها في أي وقت..!!!

لهذا ابتسمت في مرارة ثم همست بحزن صادق:

_فقط ماسة...ماسة فحسب!!!

شعرت دعاء وقتها أن هذه الفتاة جوارها تحمل علي عاتقها أطناناً من العذاب...

عيناها اللتان لم ترَ في حياتها أجمل منهما تفيضان بألم رهيب...

تري ما الذي يدعو فتاة ضعيفة مثلها للسفر وحدها؟!!

دفعتها هذه الفكرة لتسألها بلهفة:

_ما هي وجهتك يا ماسة؟!!

تنهدت ماسة لتغمغم بهدوء:

_مدينة(.......)!!!

فاتسعت عينا دعاء لتهتف بفرح:

_إنها مدينتي...أنا عائدة إليها بعد زيارة لأقاربي هنا....ياللحظ!!! لكن من تقصدين هناك؟!!!

ابتسمت ماسة للمفارقة بدورها...

فهي ارتاحت لدعاء هذه ومن الجيد أن تعرف أحداً في تلك المدينة الغريبة بدلاً من أن تكون وحدها تماماً هناك....

فربتت علي كفها لتقول ببساطة:

_السيد عاصي الرفاعي.

هنا شهقت دعاء في فزع وهي تضع كفها علي شفتيها لتهتف بانفعال:

_الشيطان؟!!!

انقبض قلب ماسة وهي تسمع كلمتها مرادفة لانفعال وجهها الذي لا يبشر بأي خير...

فازدردت ريقها بصعوبة وهي تكرر كلمتها بدهشة لا تخلو من رهبة:

_الشيطان!!!

هزت دعاء رأسها بأسف لتقول بإدراك:

_الآن فهمت...أنتِ إذن الممرضة الجديدة التي جلبها لتساعد زوجته السيدة حورية في ظروف حملها الصعبة!!!

نظرت إليها ماسة في ترقب وهي تشعر بالخطر...

عندما عرضت عليها مديرة المشفى الخاص الذي كانت تعمل فيه هذا العمل ظننته فرصة مثالية للهرب من ظروفها الخاصة....

خاصة مع بُعد هذه المدينة الكبير عن مدينتها هذه...

لهذا لم تكترث كثيراً بالسؤال عن تفاصيل عملها ولا مضيفها...

هي فقط علمت أنه بيت رجل من أثرياء المدينة جلبها لتمريض زوجته التي تعاني ظروف حمل صعبة....

لكن ما تقوله دعاء يثير رعبها حقاً...

لماذا يلقبون هذا الرجل بالشيطان؟!!!

ترجمت فكرتها لسؤال مسموع...

فتنهدت دعاء لتقول بشرود:

_كل المدينة تعرفه بهذا اللقب....لا أحد يخفى عليه جبروت السيد عاصي...مسكينة زوجته السيدة حورية...لا ريب أن معاملته القاسية لها هي ما زاد عليها عبء حملها الذي انتظراه معاً طيلة هذه السنوات....نعم...زواجهما الذي استمر منذ عشرة أعوام ولم يثمر عن طفل سوي من بضعة أشهر فقط...لكن السيد عاصي لم يتغير...رغم أننا توقعنا أن خبراً كهذا قد يذيب جمود قلبه.

عقدت ماسة حاجبيها بشدة وهي تسألها بخشية:

_ما هي حدود جبروته بالضبط؟!! هل هو مجرم مثلاً؟!!!

هزت دعاء رأسها لتقول بهدوء يمتزج بالأسف:

_ليس إجراماً بمعناه الصحيح...لكن السيد العاصي يعتبر كبير مدينتنا....لا تخرج صغيرة ولا كبيرة عن سيطرته...ورث هذا الأمر عن أبيه وجدوده...ولا يدخر وسيلة للحفاظ علي سلطته ...كبيرنا قبل صغيرنا يخشاه ...فالخطأ عنده عقابه أقسي مما يتوقع أي أحد...باختصار ...هو رجل بلا قلب منحته الحياة المال والنفوذ ليقهر بها خلق الله.

وضعت ماسة كفها علي صدرها تتحسس سلسلة عزيز كما اعتادت عندما تشعر بالخوف...

فقالت دعاء بإشفاق:

_لا تذهبي يا ماسة....عودي من حيث أتيتِ...أنتِ فتاة ضعيفة وحدك وأخشي عليكِ بطشه!!

دمعت عينا ماسة وهي تفكر بقهر...

أعود...؟!!!!

أعود إلي أين؟!!!

وأعود لمن؟!!!

أنا تذكرتي بلا عودة ...

بلا عودة!!!

======================

مد يده ليضغط على مشغل الأغاني في سيارته ...

ثم رفع صوته كثيراً وهو يتمايل برأسه مع الألحان الصاعدة...

نظر لنفسه في مرآة سيارته يتأمل ملامحه برضا...

وسيم...؟؟؟

ومن ينكر وسامة فهد الصاوي؟!!!

إنه نجم مجتمعه المخملي بلا منازع...

رجل منحته الدنيا كل ما يريد دون أي جهد...

الوسامة...

القوة...

المال...

النفوذ...

وفوق كل هذا ذكاء شيطاني يمكنه دوماً من الحصول على ما يريد!!!

شقت ابتسامة جانبية طريقها لشفتيه وهو يتذكر آخر -رهاناته- التي ربحها بسهولة...

رؤى..!

دمية لطيفة أتعبته كثيراً حتي نالها...

لكنه يعترف أنه استمتع بالرهان هذه المرة...

وقته الذي ضاع معها لم يذهب هباءً...

الفتاة -حقاً-كانت تستحق!!!

اتسعت ابتسامته العابثة وهو يستعيد ذكري ذلك اليوم عندما تعمد الابتعاد عنها لبعض الوقت ...

حتي يذيبها اشتياقاً...

ثم دعاها لشقته في الوقت المناسب تماماً ...

وبعدها...

ضمادة رأس وصوت متهدج عاطفي مع الكثير من الأداء التمثيلي الذي يجيده...

لتكون دميته صالحة تماماً للعب...

ومن مثله يجيد التلاعب بالدمى؟!!!!

كان قد وصل لوجهته عند باب النادي الذي يرتاده دوماً...

كاد يتوقف بالسيارة عندما فوجئ بجسدها يسقط أمامه فضغط الفرامل بقوة لتحدث السيارة صريراً عالياً...

ثم ترجل من السيارة ليري من هذه !!!!

توجه نحوها باندفاع ليقول بخشونة:

_أنتِ المخطئة...لقد سقطتِ فجأة أمام السيارة.

لكنها تأوهت بضعف ثم رفعت إليه عينين بندقيتين تنبضان بالسحر هامسة بخفوت:

_لا بأس...أنا أعترف أنني المخطئة....كنت شاردة!!

تأملها بنظرات متفحصة وقد أعجبه تأثير عينيها وصوتها عليه...

قبل أن تنتقل نظراته تلقائياً لجسدها المسجي على الأرض...

فابتسم في ظفر...

دمية جديدة!!!!

ولمَ لا؟!!!

اقترب منها ببطء وهو يشير لحارس النادي إشارة خاصة كي يصرف بعض الجموع التي كادت تلتف حول ما ظنوه حادثاً...

ففرقهم الحارس بسرعة تليق بقدسية نادٍ عظيم كهذا...

ليساعدها فهد علي النهوض وهو يقول بصوته المغوي:

_لا بأس يا صغيرتي...يمكنني إيصالك لأي مكان تريدينه.

عادت ترمقه بسهامها البندقية التي تتوهج ببريق خطير يناقض صوتها الذي خرج ضعيفاً يهمس بدلال:

_شكراً يا فهد.

رفع أحد حاجبيه ليهمس بغرور :

_تعرفينني؟!

فابتسمت في غنج وهي تسبل جفنيها هامسة:

_ومن لا يعرف فهد الصاوي؟!!

هنا ابتسم هو في إدراك ليهمس بمكر:

_لم يكن حادثاً إذن؟!!

قالها وهو يرمقها بنظراته العابثة المتفحصة...ليدهشه تورد وجنتيها المناقض لجرأة ما تفعله...

وما همست به بعد ثوانٍ:

_مجرد لقياك حادث...حادث مثير يا فهد!!

فابتسم في ثقة ثم قال لها بنبرته المسيطرة:

_دعينا إذن نتعارف...تعالي !

قالها وهو يتوجه نحو باب سيارته ليفتحه لها بتملق يجيده في هذه الظروف....

لكنها جلست ببساطة وهي تمنحه ابتسامة مهلكة...

فأغلق الباب برفق ...ثم دار حول السيارة ليركب جوارها وينطلق من جديد...

ساد الصمت بينهما للحظات...

فاختلس نظرة جانبية إليها لتدهشه اختلاجة أناملها وصدرها الذي يعلو ويهبط في انفعال...

ما الذي يوترها إلي هذا الحد...؟!!!

هو لم يشعر أنها رافضة أبداً لفكرة مرافقته...

بل علي العكس...

بدت وكأنها تنتظرها!!!

ثم التفت نحوها فجأة ليأسره" وهج البندق" في عينيها من جديد...

لحظات مرت علي لقاء عينيهما...

لتدهشه القسوة التي التمعت للحظة في حدقتيها...قبل أن تكسوهما ظلال من دلالها وهي تهمس:

_إلي أين؟!

ابتسم ابتسامته الآسرة ليهمس بنبرته المسيطرة:

_أنا الذي أقرر...عندما نصل سأخبرك!!

هزت كتفيها في استسلام ...

فمط شفتيه في استياء وأشاح بوجهه يحاول التركيز في الطريق....

هو لا يحب الدمى السهلة...

إنه يعشق الألغاز والأحجية...

وجمال الدمية في عينيه يزداد كلما ازدادت صعوبتها...

لكن لا بأس...

ليلة سهلة لن تضر...

خاصة وهذه المرأة تثير شيئاً ما بداخله لا يعرفه...!!!

كان قد وصل لطريق مظلم خالٍ نسبياً في هذا الوقت من الليل...

فهمست بدلال:

_دعنا نتوقف هنا قليلاً!!

التفت نحوها ليقول بخشونة:

_قلت لكِ أنا من سيقرر!!

هنا التمعت عيناها بقسوة حقيقية وهي ترفع يدها فجأة بمدية سلطتها علي رقبته لتهتف بقوة:

_ليس دوماً يا ابن الصاوي!!

أوقف السيارة فجأة لينطلق منها ذاك الصرير المرعب...

لكن هذا لم يغير من ثبات يدها علي رقبته وهي تقول ببرود مثير:

_لا تتهور يا ابن الصاوي...تهورك سيكون ثمنه حياتك هذه المرة!!

عقد حاجبيه محاولاً التظاهر بالثبات ليقول بهدوء:

_هل تعرفين نتيجة تصرفك هذا....ومع من تلعبين بالنار يا صغيرة!!!

ابتسمت بسخرية مريرة وهي تهمس بثبات:

_مع وغد حقير يتسلي على أعراض النساء.

قالتها وأناملها تعبث بحقيبتها دون أن ترفع عينيها من عليه....

ولا مديتها من علي رقبته!

حتى استخرجت ورقة مطوية بكفها الحر وضعتها علي مقود السيارة أمامه...

ثم ناولته قلماً لتهتف بصرامة:

_وقّع على هذا!

فمد بصره نحو الورقة يقرؤها بسرعة...

إنه عقد زواج عرفي يخصه هو و...

رؤى!!!

معقول؟!!!!

هذه المرأة مسلطةٌ عليه من رؤى إذن!!!!

المخبولة تظن هذا سيمنحها أي حقوق!!!

لهذا ابتسم في سخرية وهو يوقع على الورقة ببرود...

فتناولتها منه لتضعها في حقيبتها وهي علي حذرها منه...ثم قالت له باحتقار:

_أمثالك يصيبونني بالغثيان...لو كنت أضمن سلامتي من عقاب السماء لذبحتك حالاً دون تردد!!

بادلها نظرتها القاسية بنظرة أشد قسوة...ثم همس بصوت كالفحيح:

_ستدفعين ثمن ما فعلتِه غالياً!!

ابتسمت بسخرية باردة وهي تقول ببطء ضاغطة علي حروف كلماتها :

_كلنا يدفع ثمن ما يفعله يا ابن الصاوي!!! كلنا!!

قالتها ثم مالت على ذقنه بضربة من مديتها فتأوه بقوة...والدم يسيل من جرحه متدفقاً...

بينما هتفت هي بقسوة:

_سيترك هذا في وجهك ندبة لن تمحى...لتظل تذكرك أن الأعراض ليست لعبة...

ثم أردفت باحتقار وكأنها تسبه بأبيه:

_يا ابن الصاوي!!

عقد حاجبيه بغضب هادر...لتفاجئه برذاذ من سائل مخدر استخرجته من حقيبتها بخفة....

ليسقط بعدها فاقداً وعيه ورأسه على مقود سيارته...

===========

_أنا خائفة يا جنة!!

همست بها رؤى في توتر وهي تستمع لتفاصيل ما فعلته جنة بفهد...فقالت جنة تطمئنها:

_لا تخشيْ شيئاً...فقط ابقي في بيتك ولا تغادريه أبداً الآن...نحن نملك الآن إثباتاً علي علاقته بكِ...صحيح أنها مجرد ورقة ...لكنها أفضل من لا شئ.

ازدردت رؤى ريقها بصعوبة وهي تسألها بتردد:

_هل سيكون بخير؟! أعني أنك تركتِه ينزف وقد كان فاقداً لوعيه!!!

فكزت جنة علي أسنانها ثم هتفت بسخط:

_لازلتِ تخافين عليه بعد كل ما فعله؟!!! قلبك الأحمق هذا هو ما ورطنا في كل هذا!!!

دمعت عينا رؤى وهي تشعر بالقهر والخزي....

رغم أنها الآن موقنة من حقارته....

وأنها لم تكن سوى لعبة تسلي بها ثم رماها في عرض الطريق...

لكنها لا تزال عالقة ببقايا عالمها الوردي معه...

عالمها الذي تلطخ بدماء غدره وظلمه...

ومع هذا تبقى عاجزة عن تخيل أن كل ما مرت به معه لم يكن سوى وهم!!!

ربتت جنة على كتفها وهي تقول بمواساة:

_خطؤكِ كبير يا رؤي...لكن رحمة الله أكبر.

فتنهدت رؤى بحرارة لتهمس بألم:

_حياتي كلها انتهت.

لكن جنة هزت رأسها نفياً لتقول بثقة:

_بل بدأت...بدأت بخطأ سنصلحه لتتعلمي ألا تفرطي في الثقة...وألا تمنحي أحداً ما ليس له!!

فعقدت رؤى حاجبيها بقلق وهي تهمس:

_أتظنينه سيتركني وشأني؟!!

تفحصت جنة ملامحها الخائفة بقلق وهي عاجزة عن إجابة سؤالها...

هي الأخري تخشى عاقبة بطشه...

لكنها اضطرت لفعل هذا حتى تضمن لرؤى إثباتاً لعلاقته بها...

ولو مجرد ورقة بلا قيمة ستبرزها في الوقت المناسب لو اضطرتها الظروف لذلك....

=============

تأملت ماسة ملامح دعاء المستكينة التي استسلمت للنوم كطفلة بريئة على مقعدها في القطار.....

لم يتبقَ علي وصولهما للمدينة سوى القليل....

لكن...ما الفارق؟!

الناس ينتظرون الوصول ليستريحوا...

وهي أبداً لن تستريح!

الناس يترقبون نهاية الرحلة ليحصلوا على ما يبتغون...

وهي ما عاد لها هدف ولا بُغية!

لقد كُتبت عليها الغربة قدراً لا مناص منه ولا فكاك...

وهي ارتضتها قرباناً لأناسٍ يستحقونها بجدارة!!!

مالت برأسها على زجاج النافذة تتلمس واحدة من ذكرياتها معه...

لعلها تهون عليها ظلام الطريق...

نعم ....

ذكريات عزيز متألقة مشعة مثله....

تعرف أنها دوماً لن تخذلها عندما تحتاجها...

_ماذا تطعمك رحمة حتى تزدادي جمالاً في كل مرة؟!!!

هتف بها عزيز في مرح يمتزج بشقاوته العابثة وهو يلحق بها إلى مطبخ شقة رحمة الصغير...

فهمست باعتراض يمتزج بالخجل:

_عزيز!!

_يا روح عزيز!!

همس بها بهيام فاحمرت وجنتاها وهي تهمس بخجل:

_أخفض صوتك...أمي ستسمعنا!!

اقترب منها وهو يقول بصوته العذب:

_ليت الدنيا كلها تسمعني وأنا أغازل ماستي!!!

تلفتت خلفه في رهبة وهي تخشى أن تسمعه رحمة...

ثم همست برجاء:

_أرجوك يا عزيز...لا أريد أن تشعر أمي بشئ...لو علمت عما بيننا فلن تسمح لنا بالحديث بعد!!

لكنه اقترب منها أكثر وهو يهمس بخبث:

_وما هو هذا الذي بيننا؟!!

رفعت ملعقة خشبية كبيرة ثم دفعتها في صدره لتهتف بحدة وقد تناست حذرها من علو صوتيهما:

_إياك أن تقترب خطوة أخرى!

ابتسم في إعجاب وهو يتراجع رافعاً ذراعيه جواره وهو يهمس في استسلام:

_عندما تتحول ماسة ل"الشاويش عطية"...ساعتها يجب أن أبتعد!

ضحكت برقة رغماً عنها ثم همست بعتاب مصطنع:

_لا أحب التجاوز يا عزيز...أنت تعلم!!

تأمل خجلها الممتزج بصرامتها المصطنعة ليهمس بخبث متعمداً استفزازها:

_أعلم يا ماسة..أعلم...رحمة ربت "رجلاً"!!

قُطع سيل ذكرياتها عندما رن هاتفها فانتفضت بذعر....

إنه رقم غريب!

هي لا ترد على الأرقام المجهولة في العادة...لكنها تشعر بحاجتها لهذا الآن...

لعله يكون هو...!!!

نعم...

هي أخبرته آخر مرة أنها لن ترد على اتصالاته بعد وقد انتهى كل ما بينهما...

لكنها تتمنى الآن لو تسمع صوته....

جوارحها كلها تناديه...

يا إلهي!!!

لقد اشتاقته من الآن...

فماذا ستفعل إذن في خريف أيامها القادمة دونه...؟!!!

يالغربتي بعدك يا عزيز...

ويالاشتياقي!!!!

فتحت الاتصال بأنامل مرتجفة دون أن ترد...

ليقابلها صمت مماثل على الجانب الآخر من الاتصال!

هل يمكن أن تفصح الأنفاس عن هوية صاحبها...؟!!!

نعم...فقط مع عزيز...!!!

هذه أنفاسه التي تحفظها...

بدفئها الذي يداعب أذنيها عندما يرضى..

ولهيبها الذي يحرق قلبها عندما يغضب...

أنفاس عزيز مميزة فريدة مثله...

يميزها قلبها قبل أذنيها!!

لهذا لم تتعجب عندما سمعت صوته الحبيب بعد دقيقة صمت كاملة يهمس باشتياق:

_ماسة!

ازدردت ريقها ببطء...

وقلبها ينتفض كالذبيح بين ضلوعها....

عزيز لم يحتمل فراقها كما ادّعى...

تماماً كما لا تحتملهه هي....

وها هو ذا يخلف وعده معها ليهاتفها...

وبقدر ما هي ساخطة عليه لأنه فعلها....

بقدر ما تتمني لو تشكره !!!

فهي تحتاج صوته الآن...

تحتاجه ليكون زادها في رحلتها الطويلة...

تحتاجه ليطمئنها وسط هذا العالم الغريب الذي هي مقدمة عليه...

تحتاجه...بحق تحتاجه...!!!!

هنا وصلها همسه الدافئ يتمتم برجاء:

_أخبريني فقط أين ستذهبين وأعدكِ ألا أحاول الوصول إليكِ.

أغمضت عينيها بقوة ورجاؤه يكاد يمزق أوصالها...

لا...لن تخبره بالطبع!

عزيز لن يحتمل فراقها...

بضعة أيام وستجده أمامها...

كما كان يفعل دوماً!!!

عزيز لن يستطيع الابتعاد عنها...

لكنه لابد أن يفعل...

هذا هو حكم القدر عليهما ...

فليتقبله هو كما تقبلته هي منذ زمن!!

طال صمتها الذي لم تكسره منذ بدأ حديثه....فعاد يقول بنفس النبرة الراجية:

_حسناً...لا تخبريني عن مكانك...لكن دعيني أسمع صوتك...أريد الاطمئنان عليكِ...أرجوكِ يا ماسة...أرجوكِ.

سالت دموعها علي وجنتيها ببطء...

ورجاؤه الحار يغرس الشوك بين جنبات روحها...

بالله عليك لا تعذبني أكثر يا عزيز...

كفاني احتراقي بك...

كفاني عذابي دونك!

تشبثت بالهاتف بقوة وكأنها تتشبث بغرامهما ...

بذكرياتهما....

بكل ما جمعهما يوماً....ولن يعود!

لتهمس أخيراً بحرارة:

_لن أنساك يوماً يا عزيز...ماستك ستبقى ملكك للأبد!!

ودون أن تنتظر رده أغلقت هاتفها بسرعة وكأنها تخشى التراجع...

ثم استخرجت شريحتها لتلقيها بعنف من النافذة....

لن تعود للخلف من جديد....

لقد انتهت قصتها مع عزيز....

حتى ولو لم ينتهِ حبهما!!!!

==========

جلس راغب في ورشته يتأمل الوجوه الغادية والرائحة بشرود....

ينتظر مرورها من هنا في طريقها لبيتها ككل يوم....

نظر في ساعة يده بترقب....

لقد تأخرت اليوم عن عادتها...

انتابه بعض القلق لدقائق أخرى ليعود ويعنف نفسه على اهتمامه الزائد بها من جديد...!!!!

لا يدري ما الذي فعلته به هذه الفتاة بالضبط؟!!

هو راغب درويش الذي تعرفه المنطقة كلها بخشونته وتحفظ طباعه...

يجد نفسه فجأة غارقاً بمشاعر يجربها لأول مرة في حياته مع فتاة لا يعرف عن شخصها شيئاً....

بل إنه يخشى الفارق الكبير بينهما في المستوى التعليمي...

نعم...

رحم الله رجلاً عرف قدر نفسه...

ربما يكون هو رجلاً ميسوراً ومن عائلة طيبة...

يمتلك ورشته الخاصة وسيارته وبيته...

لكنه يبقى خريج معهد متوسط....وهي ذات تعليم عالٍ !

فهل يقف شئ كهذا بينهما؟!!!

لا يدري....

هذا الأمر يشغل باله منذ فترة....

ولأنه رجل مستقيم لا يعرف الحلول الوسط حدث أخاها في الأمر وطلبها منه للزواج...

وهو الآن ينتظر الرد...

ينتظره بفارغ الصبر حقيقة !!!!

قطعت أفكاره عندما لمحها قادمة من بعيد...

رؤى العزيزة...!!!

لكن ...ما بالها اليوم تبدو متغيرة؟!

كتفاها متهدلان في استسلام...

وخطواتها ما عادت معتزة واثقة...

بل مرتعشة مترددة ...

ورغم أنها كانت تخفي أكثر من نصف وجهها بنظارتها الشمسية...

لكنه شعر أنها كانت...

تبكي!!!

طار قلبه فزعاً وكاد يفقد تحفظه المعهود ليستوقفها...

ويسألها عمّ بها....

لكنه تشبث بمقعده في اللحظة الأخيرة وهو يتابع ظهرها المنصرف عنه بحسرة هامساً لنفسه بحزم...

_الصبر يا راغب....الصبر!!!

===========

_من فعل بك هذا؟!

هتف بها جاسم الصاوي بحدة قاسية أمام فهد في المشفى..

فزفر فهد بقوة وهو يشيح بوجهه دون رد...لكن جاسم عاد يهتف بقسوة:

_هل تعلم ماذا سيكون تأثير فضيحة كهذه عليّ؟!!!
النادي كله يتحدث عن المرأة التي استدرجتك كغر ساذج من أمام النادي لتتركك بعدها غائباً عن وعيك بعدما أهدرت كرامتك بطعنة مدية على وجهك الوسيم الذي تتباهى به!!

عقد فهد حاجبيه وشياطين الغضب كلها تتقافز على وجهه!

لا يكاد يصدق أنه هو...فهد الصاوي قد تعرض لهذا!!

وممن؟!

من امرأة حقيرة كهذه؟!!!

لكنه سيجعلها تدفع ثمن فعلتها هذه غالياً...

لن يكون فهد الصاوي لو تركها تفلت بفعلتها التي تركت أثرها في وجهه...

رغم أنهم أخبروه هنا في المشفى أن الأمر سيتدارك بجراحة تجميلية....

لكنه لن يجريها الآن...

سينتظر حتى يأخذ بثأره منها أولاً...

حتى تبقي ندبته تذكره بما فعلته تلك ال.....

قطع جاسم أفكاره وهو يقول بمرارة لم تخطئها أذناه:

_أنت دوماً تخيب ظني فيك!!

أطرق فهد برأسه وهو يشعر بالاختناق...

والده لن يغير يوماً معاملته له...

سيبقي دوماً يرى خيبته في عينيه كلما رآه...

قديماً كان يسعى لتغيير نظرته هذه لكنه كفّ عن المحاولة منذ زمن...

مهما فعل...

سيبقى في عيني والده مداناً مذنباً...

وهو ما عاد يكترث!!!!

"جريمته"التي ارتكبها وهو لا يزال مراهقاً في الخامسة عشرة من عمره ستبقى بعينه وعين أبيه نهاية علاقتهما الشائكة....

فمنذ تلك الليلة العصيبة التي لن ينساها أبداً...

وقد كُسر شئ ما بينهما....

وكم من الأشياء التي إذا كُسرت فلن نتمكن من إصلاحها أبداً!!!!

==========

فتح عبد الله حاسوبه المحمول علي أحد تلك المواقع الشائنة وهو يراقب باب غرفته بترقب...

ثم عادت عيناه تنشغلان بالمشاهد الساخنة أمامه...

ليتفصد جبينه بعرق خفيف وهو يشعر بالمزيد من السعادة بهذه المتعة المحرمة....

مد أنامله ببطء يتحسس الشاشة بشغف أسود...

ثم فك أزرار قميصه وهو يشعر بارتفاع درجة حرارة الجو فجأة...لتتسع عيناه في صدمة...

والمشهد يحمله لأقصى مما توقع خياله بكثير!!!!

بينما وقفت صفا على باب الغرفة تتأمله بنظرات غريبة....

قبل أن تهمس بعدها بخفوت:

_هل أعد لك الغداء يا عبد الله؟!

أغلق شاشة الحاسوب بعنف ثم نظر إليها بصدمة للحظة...

قبل أن يتمالك رباطة جأشه ليهتف بنبرة جافة:

_ليس بعد....سأنتظر رؤى.

رمقته بنظرة غريبة لم يعد يفهمها ثم عادت للمطبخ بخطوات رتيبة...

صفا المعموري ...

ابنة الحاج ابراهيم المعموري صاحب أكبر محلات الأثاث في المدينة...

ربما لم تكن على درجة عالية من جمال الوجه والجسد...

لكنها تعلم أنها كانت بالنسبة إليه صفقة رابحة...

زوجة لم تكلفه الكثير...

بل على العكس ...

منحته أكثر مما كان يحلم به....

هذه الشقة التي يقيمان فيها مع شقيقته الوحيدة....

والسيارة الفارهة التي أهدتها له منذ بداية زواجهما ....

والمحل الذي اشترته بمالها لتكتبه باسمه حتى يبدأ فيه تجارته....

ومع كل هذا لا تشعر أنه سعيد بها!!!

هي لم ترَ شيئاً بعينيها...

ولا تستطيع الجزم بأنه يفعل ما يشين....

خاصة والناس كلهم يعرفون عن تدينه الظاهر بلحيته الطويلة....

وصلاته التي لا يتركها في المسجد....

لكن قلبها يخبرها أنه انجرف لطريق ما بعيد عنها!

وضعت كفها علي صدرها بحسرة وهي تفكر في -ما تظنه- مشكلتها الحقيقية معه...

ربما لو كانت أنجبت منه طفلاً لما شعرت بكل هذا الخوف من أن تفقده...

لكنها للأسف...لم تستطع!!

جربت كل الطرق...وسافرت للعديد من الأماكن سعياً خلف العلاج...

لكن الفشل كان حليفها في كل مرة!

لماذا؟!!

لماذا تحرمها الأقدار هذه المنة؟!!

وعند خاطرها الأخير استغفرت الله سراً...ثم رفعت وجهها للسماء بتضرع هامسة:

_يارب!

قطعت رؤى دعاءها عندما تقدمت نحوها متظاهرة بالمرح تكتم به دموع روحها الكسيرة....

لتهتف بانطلاق:

_بماذا تدعين بكل هذا الخشوع يا صفا!!!

التفتت نحوها صفا لتبتسم بحنانها المعهود متجاهلةً سؤالها لتهمس ببعض الحزن:

_تأخرتِ اليوم يا رؤى...عبد الله يغضب كثيراً عندما تتأخرين.

ازدردت رؤي ريقها ببطء وهي تقاوم شعورها بالخوف....

مجرد اسم عبد الله يثير ذعرها بشدة....

رغم أنها موقنة من أنه يحبها وقد رباها منذ صغرها كابنته بعد وفاة والدهما....

لكن خشونة طباعه دوماً تنفرها منه....

والآن وبعد مصيبتها الأخيرة مع فهد لا تدري كيف سيمكنها وضع عينيها في عينيه....

يا الله!!!

جسدها ينتفض رعباً كلما تصورت أنه قد يكتشف يوماً خطيئتها...

سيقتلها وقتها حتماً!!!

حتى هذه الورقة التي حصلت عليها جنة بمخاطرة عظيمة لن تشفع لها وقتها...!!!!

_رؤى!!

شهقت بعنف عندما سمعت نداءه العنيف خلفها....

فالتفتت نحوه لتهمس برهبة:

_نعم يا عبد الله!

اقترب منها وهو يقول بلهجة صارمة:

_تأخرتِ اليوم!

كادت تكذب عليه بأحد تبريراتها...لكنه قاطعها بإشارة من كفه ليقول بعدها بخشونة:

_لا أريد لهذا الأمر أن يتكرر!

أومأت برأسها إيجاباً ثم أطرقت بوجهها في خوف....

لكنها لم تلبث أن رفعته نحوه بصدمة واضحة عندما سمعت عبارته التي اخترقت قلبها كرصاصة غادرة:

_لقد تقدم أحدهم لخطبتك....وأنا وافقت!

===========

أنهت جنة عملها في مكتب المحاماة الخاص بها عند العصر....

ثم غادرت المكتب لتتوجه نحو سيارتها الصغيرة لتنطلق بها نحو بُغيتها...

اليوم موعدها مع حسن...

موعدها الذي لم تنسَه منذ ثلاث سنوات...

نعم...

في أول كل شهر وعند الخامسة تماماً بالضبط...

كان هذا موعدهما الذي لم يخلفه أي منهما يوماً...

وهي أبداً لن تفعل حتى بعد رحيله!

توقفت بالسيارة أمام المقابر...

ليقابلها الحارس الذي يعرفها من كثرة ترددها...فيهتف بحنان:

_مرحباً بالأستاذة...في موعدكِ بالضبط!!

أومأت برأسها وهي عاجزة عن الرد...لتتجه بها خطواتها كالمسحورة نحو مكان مقبرته....

أخذت نفساً عميقاً تغالب به دموعها ...

لكن هيهات....

دموعها العزيزة التي لا يكاد يراها أحد تخذلها دوماً هنا....

حسن الحبيب يهون لأجله كل عزيز...

روحها وقلبها...

قبل دموعها!!!

قرأت له الفاتحة بخشوع ثم أتبعتها بدعاء طويل له....

لتتحسس بعدها شاهد القبر بحنان هامسة بألم:

_اشتقتك يا حسن...اشتقتك جداً...تعبت من وحدتي دونك...يظنونني قوية ولا يعلمون...لا يعلمون أنك أنت كنت قوتي كلها...قوتي التي لم يبقَ منها سوي قشرة زائفة ستنهار مني قريباً لأسقط....

غلبتها دموعها ساعتها من جديد لتنتحب هامسة بانهيار:

_نعم سأسقط يا حسن...ولن أجد ذراعيك يسندانني ككل مرة...لقد صرت وحدي...وحدي دونك ولو التفت الدنيا كلها حولي!!!

وضعت كفها علي شفتيها تحاول تمالك انهيارها للحظات....

ثم اندفعت -كعادتها- تروي له كل تفاصيلها وما حدث معها طيلة الشهر...

كأنه هنا معها...

تماماً كما كانت تفعل عندما كان على قيد الحياة!!

مضي بها الوقت سريعاً وهي غارقة في حديثها الهامس الغريب معه...

حتى انتبهت لقرب غروب الشمس...فتنهدت بحرارة لتهمس بحنان:

_سأضطر للانصراف الآن لكنني سآتيك في موعدي الشهر القادم.

قالتها وهي تهز رأسها في أسف...

ثم خرجت من المقابر لتتجه نحو سيارتها التي استقلتها لتعود لمنزلها...

لكنها فوجئت بسيارتين تقطعان عليها الطريق !!!!

توقفت بسيارتها مرغمة وهي تشعر بالخطر عندما ترجل من السيارتين ستة رجال أشداء يحمل كل منهم عصا غليظة ...

فاقشعر جسدها وقد عجزت تماماً عن فعل أي شئ...

بينما تقدم أحدهم ليفتح بابها ويسحبها خارج السيارة هاتفاً بغلظة:

_كوني عاقلة....وتعالي معنا دون مقاومة!

نقلت بصرها بينهم في رهبة وعقلها يحاول العمل بسرعة...

لا تملك سوي الطاعة للأسف...

فالطريق خالٍ ومقفر ولن تتمكن من طلب أي مساعدة....

لكنها شهقت بعنف عندما شعرت بمن يضع عصابة على عينيها يربطها بقوة...

ثم دفعها لتركب معهم السيارة...

ظلت تبتهل إلى الله بالدعاء طوال الطريق وذهنها يحاول التفكير في خلاص من هذه الورطة...

ترى من وراؤها؟!!!

عملها بالمحاماة يجعل لها أعداء كثراً فأيهم فعلها؟!!!

قطعت أفكارها عندما شعرت بتوقف السيارة ثم جذبها أحدهم لتترجل منها ...

سارت معه قسراً حتى شعرت به يجلسها على كرسي ما...

ثم قام بتقييد كفيها خلف ظهرها بقوة!

ضغطت علي شفتيها محاولة التماسك...

أياً كان ما يحدث فهي لن تنهار سريعاً!

شعرت بخطوات تقترب منها ببطء وكأن صاحبها يتعمد إثارة أعصابها...

لكنها لن تمنحه هذه الفرصة....

ازدردت ريقها ببطء وهي تتظاهر بالصلابة...

حتى توقفت الخطوات أمامها تماماً...

بل إنها شعرت به يكاد يلامس ركبتيها!!

ليحل العصابة من على عينيها فجأة فيغشي الضوء عينيها للحظات...

قبل أن تفتحهما لتجد وجهه -البغيض- أمامها يتأملها بقسوة قائلاً:

_هل تدركين ماذا يمكن أن أفعل بحشرة حقيرة مثلك هنا؟!!!!!

==============

الفصل الثالث:

_هل تدركين ماذا يمكن أن أفعل بحشرة حقيرة مثلك هنا؟!

هتف بها بقسوة ظاهرة فابتسمت ساخرة لتقول بثبات استفزه:

_أي شئ...وكل شئ!!!

عقد فهد حاجبيه وهو يتفحصها بدقة....

مظهرها هذا يبدو مختلفاً عن المظهر العابث الذي تعمدته -كما يبدو-في لقائهما -الكارثي-الأول...

ثيابها شديدة التحفظ تليق بمهنتها التي عرفها...

حجاب رأسها الفيروزي الذي يلقي بظلال ساحرة على عينيها البندقيتين فتبدوان أكثر فتنة...

بشرتها النقية الخالية من الأصباغ كبشرة طفل رضيع...

شفتاها الرفيعتان الحادتان اللتان تليقان بطلتها المتمردة...

قبل أن يعود بصره يتعلق رغماً عنه بعينيها ليأسره وهج البندق من جديد...

نظرتها القوية الواثقة تجرده من شعوره بالانتصار...

وهو الذي تمني لو يلمح الخوف في عينيها انتقاماً وتشفياً...

لكن...لا بأس...

لنرَ إلي متي ستصمد نظرتها هذه أمام ما ينتوي فعله بها؟!!!

ابتسم بقسوة وهو ينظر إليها من علوّ ليقول بغرور:

_ظننتِ أنني لن أصل إليكِ؟!!

اتسعت ابتسامتها الساخرة وهي تقول بتهكم:

_عيب يا ابن الصاوي!! هل يجرؤ أحد علي التشكيك في قدراتك؟!!

اختفت ابتسامته المتعجرفة أمام ردها المستفز...

فمال عليها ليمسك كتفيها مقترباً بوجهه من وجهها هامساً بلهجة تهديد مخيفة:

_ماذا تظنيني سأفعل بكِ عقاباً علي فعلتك؟!

اشمأزت من لمسته لكتفيها وأنفاسه التي حاصرت وجهها...

و قد ظهر هذا واضحاً على ملامحها النافرة مما أثار جنونه أكثر فهتف بسخط:

_سأجعلكِ تندمين على اليوم الذي ولدتِ فيه...أنتِ وصديقتك ال....

أتبع عبارته بلفظ بذئ فقست ملامحها وهي تقول بصرامة:

_دع صديقتي خارج الموضوع...حسابك معي أنا!!

اعتدل واقفاً وهو يرمقها بنظرات قاسية...ثم قال ببطء:

_حسناً...أنا موافق...ليكن حسابي معكِ أنتِ!!

رمقته بنظرة محتقرة فتناول مدية من جواره ليقترب بها من وجهها هامساً بقسوة:

_والآن ...هل نقول العين بالعين...والبادي أظلم؟!!

ابتسمت بسخرية أدهشته في وضعها هذا لتقول بصلابة:

_البادي أظلم؟!!! لا أجد هنا أظلم منك يا ابن الصاوي...لكن يبدو أن عقلك أشد سواداً من روحك!!

ضاقت عيناه وهو عالق بنظراتها الواثقة في صدمة جاهد نفسه كي لا يبديها...

من أين تأتي هذه المرأة بتبجحها هذا...؟؟!!!!!

تحرياته عنها أنها ليست سوى محامية حديثة التخرج...

تكبره بثلاثة أعوام فقط...

وليس لها عائلة...

والدها متوفيان منذ فترة...

وتقيم وحدها في منزلها البسيط...

بعد زواج شقيقتيها...

فما الذي يعزز قوتها النابضة في عينيها هذه؟!!!!

مرّر نصل المدية بخفة علي وجنتها وهو حريص ألا يصيبها...

لكنها حتي لم ترمش بعينيها...

بل شردت ببصرها بعيداً وكأنها تذكرت شيئاً ما...

وقد كان هذا فعلاً حقيقياً...

_لا تخافي يا جنة !! الحقي أنتِ بالفتيات وأنا سأحمي ظهركن مع باقي الشباب!!

هتف بها حسن بحزمه الحنون...

وقد كان هذا آخر ما سمعته منه فاضطرت للهروب مع بقية الفتيات...

قبل أن يصلها خبر وفاته بعدها بيوم واحد...

كانت معه في إحدى التظاهرات المنددة بسوء أوضاع السلطة السابقة قبل سقوطها...

عندما هاجمتهم فرقة من قوات الأمن بغرض تفريقهم...

ليتلقى حسن ضربة من هراوة ثقيلة على رأسه أردته قتيلاً في نفس اللحظة!!!

لا تدري لماذا راودتها هذه الذكرى الآن بالذات...

بل هي تعلم!!!

ذكرى حسن الحبيبة هي ضمادة روحها الجريحة في هذا العالم...

تجتاحها رغماً عنها عندما تشعر بحاجتها للأمان الذي كان هو مصدره....

(لا تخافي يا جنة)

بصوته الحنون شديد الثقة والإيمان تملأ كيانها بالقوة دوماً...

لن أخاف يا حسن...

مهما لقيت ومهما واجهت في سبيل مبادئنا المشتركة....

سأبقى على عهدي معك حتى ألقاك...

لن أخاف...

لن أخاف!!

بينما كان فهد أمامها يتأمل شرودها بتفحص ...

غريبة هذه المرأة حقاً!

واحدة مكانها كانت ستبكي وتصرخ ...

وربما كانت قبلت يديه وقدميه ليتركها وشأنها...

لكن هذه تبدو واثقة مطمئنة ساخرة...

وكأنه لا شئ في الدنيا يخيفها...

ولو قرأ ما في قلبها لعلم أنها الحقيقة...!!!

الواقع أنه لا شئ في العالم عاد يعنيها...

هذه التي تبدو قوية واثقة ساخرة...

لم تكن في حقيقة الأمر سوى امرأة خاسرة...

خسرت أعظم ما امتلكته يوماً وبعدها صارت لديها كل الأمور سواء!!!

رفع مديته عن وجهها أخيراً...

فالتفتت إليه من شرودها لتعود ابتسامتها الساخرة علي شفتيها قائلة ببرود:

_والآن...ماذا بعد؟!

ألقي مديته بعيداً وهو يحاول إخافتها أكثر....

لعله يصل لآخر حدود تحملها.....

فنظر إليها متفحصاً مواجهاً عينيها بقسوة عينيه ليقول ببطءواثق:

_اختاري طريقة موتك يا صغيرة!!

اتسعت ابتسامتها الساخرة لتقول بتهكم:

_كريم وابن كرماء...

ثم قلبت شفتيها بامتعاض لتردف باحتقار:

_يا ابن الصاوي!!

هنا مال عليها فجأة وقد فقد أعصابه ليجذبها من ياقة قميصها قائلاً بخشونة:

_لم يجرؤ أحد علي فعلِ ما فعلتِه أنتِ بي...لقد تركت ندبة في وجهي أقسمتُ ألا أعالجها حتى آخذ بثأري منكِ.

واجهته بوهج البندق الآسر في قوته وسحره لتقول بتماسك:

_من يسمعك تتحدث كالرجال لا يصدق حقيقتك الرخيصة!!

هنا هوت صفعته على وجنتها مدوية ليجرح خاتمه شفتيها فتنزف ببطء...!!!!!

لكنها لم تبكِ...

بل أغمضت عينيها بقوة للحظات تحاول التغلب على شعورها بالألم...

لا بأس...

إنها تتوقع منه ما هو أسوأ!!!

بينما كان هو واقفاً أمامها يقبض كفه الذي صفعها بقوة...

إنها أول مرة يصفع فيها امرأة في حياته...

وبرغم يقينه من أنها تستحق فقد استفزته حقاً لأبعد حد...

لكن شيئاً من الندم كان قد عرف طريقه لقلبه قسراً..!!!!

خرج من الغرفة التي يحتجزها فيها لدقائق ثم عاد إليها ليجدها على حالها...

لازالت متجمدة الملامح مغمضة عينيها بقوة!!

عقد حاجبيه وهو يتوجه نحوها بخطوات بطيئة...

ثم مال عليها ليقترب من وجهها ففتحت عينيها تلقائياً...

لتجده يطهر جرح شفتيها بقطعة قطن في يده....

ابتسمت في سخرية رغم الألم الذي تشعر به...ثم قالت بتهكم لاذع:

_وماذا يسمى هذا إذن؟!!! رقة قلبك تذهلني في الواقع!!

رفع إليها عينين مظلمتين ليلتقط وهج البندق في عينيها من جديد...

ثم قال ببرود:

_لا...ليست رقة قلب...لكنكِ صرتِ من ممتلكاتي...وأنا رجلٌ يجيد العناية بما يملك!!

قال عبارته الأخيرة وهو يمرر أنامله على شفتيها ببطء...

فالتمع الغضب في عينيها هادراً وهي تهتف بانفعال:

_ممتلكاتك...أم مسروقاتك...؟!!! أنت ووالدك ومن مثلكما لستم سوى حفنة من اللصوص ...طفيليات تمتص دم البلد...صدقني لو كنت أندم على شئ...فهو على أنني لم أغرس مديتي في رقبتك يومها بدلاً من وجهك!!

ظل ينظر للغضب الهادر في عينيها للحظات...

ثم ابتسم...!!!!!

ابتسم ابتسامة جانبية صغيرة...

اتسعت رويداً رويداً...

حتى تحولت لضحكة عالية...

ثم قال لها بنبرة مستفزة:

_أنتِ حقاً أعجبتِني!!

رمقته بنظرة احتقار طويلة...لكنه ربت على وجنتها برفق ثم قال ببرود:

_سأتركِكِ حتى تتعلمين الأدب...

ثم سار بضع خطوات نحو باب الغرفة ليعود ويلتفت نحوها قائلاً ببرود قاسٍ:

_لو كنت مكانك لمتّ رعباً وأنا أتخيل أسوأ مصير لي هنا!!

فابتسمت بسخريتها المعهودة لتقول ببرود:

_احمد الله اذن أنك لست مكاني!!

رمقها بنظرة مشتعلة أخيرة قبل أن يغادرها بخطوات سريعة....

لتتبدل نظرتها الساخرة لأخرى متألمة وهي تهمس برجاء:

_يارب!

==========

_ما هذا يا دعاء؟!

همست بها ماسة في تساؤل حقيقي مشيرة لتميمة غريبة الشكل علقتها دعاء في صدرها...

فضحكت دعاء لتقول ببساطة لم تُخفِ حرجها:

_أنا أعاني من مشكلة صحية...صراحة أنا مريضة بالصرع!!

التمعت عينا ماسة بشفقة ظاهرة...بينما استطردت دعاء ببساطتها المعهودة:

_والدتي امرأة بسيطة...في طفولتي لم تعتقد أن الأمر له علاقة بمرض ما بل ظننته مساً شيطانياً كما يظن بعض الناس في مدينتنا...لهذا تأخرت كثيراً في علاجي حتى

أرشدها بعض الناس لطبيب ماهر في مدينتنا ...شخّص حالتي بدقة...ومن يومها وأنا أتناول دوائي بانتظام...حالتي تحسنت كثيراً لكن هناك بعض الأعراض لاتزال ملازمة لي...ورغم هذا تصر والدتي على أن أرتدي هذه التميمة التي منحها لها أحد العرافين....وترفض أن أخلعها...

هزت ماسة رأسها لتقول برقتها المعهودة:

_لكن التمائم هذه من المحرمات...أمي كانت دوماً تقول هذا.

فابتسمت دعاء وهي تربت على كفها لتقول بحنان:

_يبدو أن والدتك امرأة مؤمنة!!

دمعت عينا ماسة وهي تهمس بخفوت:

_جداً!

قالتها وهي تشعر بقلبها يكاد ينفطر اشتياقاً لرحمة....

كم تتمني الآن لو تعود...

وتدفن وجهها في صدرها...

لتغمر أنفها رائحتها المميزة...

رائحتها التي تحمل لها حنان الكون وأمانه...

حضن واحد من رحمة تدفع مقابله الآن عمرها كله!!!

ورغماً عنها راودها خاطر مزعج...

تري ما الذي تفعله رحمة الآن...؟؟؟؟!!!!

ومن الذي سيعتني بها وبصحتها...؟!!!

من المؤكد أن رحمة الآن تفتقدها...

لعل عزيز ينتقل للعيش معها الآن ليعوضها عن فقدانها لها...ويهون عليها وحدتها القاسية...

فبرغم كل شئ هي ستبقى مدينة لرحمة طوال حياتها...

حتى بعدما سمعته منها بأذنيها...

لن تنسى أنها كانت لها نعم الأم طيلة هذه السنوات...!!!

قُطعت أفكارها عندما سألتها دعاء في تفحص:

_ماذا بكِ يا ماسة؟! أشعر أنك تخفين جرحاً كبيراً.

فابتسمت ماسة ابتسامة شاحبة وهي تهمس بفتور:

_ومن منا قد سلم من جروح الحياة؟!!

أومأت دعاء برأسها في تفهم...ثم غمزتها بخبث لتهمس بشقاوة:

_الجميلة عاشقة أم خالية؟!

ابتسمت ماسة وهي تهز رأسها بخجل...فهمست لها دعاء بشقاوتها المعهودة:

_أنا عاشقة...لكن هذا سر بيننا!!

ضحكت ماسة بمرح ثم همست لها بدورها:

_أشك أن مثلك يكون لها سر....ظني أن مدينتكم كلها تعلم عن عشقك هذا!!

ضحكت دعاء بانطلاق لتلتفت نحوهما أنظار الركاب من جديد...

ثم تأبطت ذراعها بحركة ودودة لتهمس بهيام:

_الصب تفضحه عيونه!!

تأملت ماسة ملامحها بحنان عندما استطردت دعاء ببساطة:

_هو زميلي في المكتب الذي أعمل فيه بمدينتنا...لكنه لا يشعر بي...وكيف يفعل؟!! والفتيات في المكتب كلهن يتهافتن على نظرة منه.

تركتها ماسة تكمل حديثها المرح عن معشوقها فاتن النساء...

لتسرح بذهنها لذكرى أخري غالية من ذكرياتها مع عزيز....

_كل عام وأنت بخير يا ماسة.

همس بها عزيز بصوته الحنون...ليلتمع الزمرد العسلي بعينه تلك اللمعة التي تأسرها....

فتهمس بخجل:

_وأنت بخير!

تأمل خجلها الذي يعشقه بحنان ثم همس برقته الخاطفة:

_اليوم أكملت ماستنا واحداً وعشرين عاماً...

اتسعت ابتسامتها الخجول وهي تشيح بوجهها عنه...

فأردف بنفس اللهجة الآسرة:

_كم أتمنى لو نحتفل سوياً بعامك القادم ونحن في بيتنا!

أطرقت برأسها وهي تشعر بأن وجنتيها علي وشك الاحتراق...

فهمس برجاء:

_أغمضي عينيكِ.

رفعت إليه عينيها بحذر متوجسة من سبب طلبه...

فمنحها نظرة مطمئنة وهو يومئ برأسه....

أغمضت بعدها عينيها بقوة...

لتشعر به يلبسها تلك السلسلة وهو حريص ألا يمسها كي لا يثير حفيظتها....

تلك السلسلة التي لم تخلعها من عنقها منذ ذاك اليوم...

ولن تفعلها أبداً!

فتحت عينيها ببطء وهي تتحسسها بأناملها لترفع دلايتها المنقوش عليها اسمه أمام عينيها ...

ثم ابتسمت في انبهار طفولي وهي تهمس بسعادة:

_راااائعة يا عزيز...لن أخلعها من عنقي أبداً...لتذكرني بك عندما تكون بعيداً عني.

التمعت عيناه ببريقها الزمردي ليهمس بحزمه الحنون:

_لن أبتعد عنك أبداً...أنتِ في دمي يا ماسة...في دمي وروحي وقلبي.

خفق قلبها بعنف وهمسه الصادق يحتضن خوفها بحنان لا يجيده مثله....

لتهمس بصوت متهدج:

_عزيز...أنا رضيت بحبك تعويضاً عن كل ما لاقيته في حياتي...فلا تعدني لسجن حزني من جديد.

فقبض كفيه بقوة مقاوماً رغبته العارمة بضمها لصدره وهو يهمس بحسم:

_أبداً يا ماسة...أبداً!!!

ابتسمت وهي تشعر بعينيها تضيعان في مروج الزمرد الخضراء....

لتعانق فيهما فرحة أحلامها الوردية بحبهما البرئ....

وتتنفس بين شاطئي حدقتيه الغرام الذي يعدها بغدٍ ينسيها آلام عمرها كلها!

لكنها عادت تهمس بخوف لم تستطع إخفاءه:

_لكنني سأخفيها بين طيات ملابسي حتى لا تراها أمي.

تنهد في حرارة وهو يتأملها بعينيه العاشقتين ليهمس بحنان:

_لن تضطري لهذا طويلاً...فأنا سأفاتح رحمة بنفسي في أمر زواجنا قريباً.

أطرقت برأسها في خجل...فعاد يهمس بخبث:

_ألن تردي لي هديتي؟!

رفعت عينيها إليه لتهمس بدلال طبيعي لا تتكلفه:

_ماذا تريد؟ !

اقترب منها خطوة ليهمس برجاء :

_قوليها يا ماسة...قوليها .

ارتفع حاجباها في تأثر وهي تدرك ما يقصده.... لتهمس ما بيت عتب ودلال:

_وهل تحتاج أن أقولها ؟! أنت تعرف أنني...

قطعت عبارتها وهي تضغط علي شفتها بقوة...

فهمس بعاطفته التي تغرقها عشقاً:

_أحتاج أن أسمعها...مرة واحدة فقط يا ماسة....مرة واحدة...

هنا دمعت عيناها وهي تهمس بصدق:

_أحبك يا عزيز...أحبك.

_ماسة...لقد وصلنا!

قطعت دعاء سيل ذكرياتها عندما هتفت بعبارتها في لهفة...

فنظرت ماسة من نافذة القطار تتأمل ملامح المدينة المجهولة بالنسبة إليها...

ورغماً عنها وجدت أناملها تتشبث بسلسلة عزيز بقوة وهي تتذكر حديث دعاء عن السيد عاصي...

تري ما الذي تخفيه لها أيامها هنا...

مع الشيطان؟!!!!

============

جلست رحمة في مكانها المعتاد على مائدة مطبخها...

تتأمل الأطباق المتراصة أمامها بشرود...

لا تصدق أن ماسة لن تحضر لها الإفطار كالسابق...

لتستيقظ على صوتها الرقيق وهي تقبلها ثلاث قبلات متتالية على جبينها لتهمس بجملتها المعتادة كل صباح:

_صباح الخير يا (كل الرحمة)!!!!

دمعت عيناها رغماً عنها وهي تزيح الأطباق من أمامها بنفور...

لتفكر في عجز...

ألا زلتُ حقاً كل الرحمة؟!!!!

أم أنني خذلتك كالجميع يا ماسةً أرهَقَتها كثرة الخدوش!!!!

هل حافظت عليكِ حقاً كما سعيتُ طوال عمري؟!!!

أم أنني نقضت غزلي بعد قوة أنكاثاً؟!!!

هل كان حكمي عليكِ هو القاسي...

أم أنه حكم القدر علينا جميعاً تقبلناه صاغرين؟!!!

قطعت أفكارها الملتهبة عندما رن الجرس ...فانتفضت مكانها بعنف هامسة بلهفة:

_ماسة!!

اندفعت نحو الباب تفتحه بسرعة...

ليطالعها وجه عزيز الذي لم يكن أفضل منها حالاً...

بشحوب وجهه الواضح...وصوته الذي خرج مهزوزاً وهو يهمس :

_صباح الخير يا أمي!!

نظرت رحمة لعينيه بتفحص ملهوف...

تود لو تسأله هل عرف شيئاً عنها...

لكنها لن تفعلها!!!

لن تفتح هي هذا الأمر معه...

فقد سبق وأغلقته بقرارها الحاسم...

لن يتزوج ماسة!!!

بل ولن تسمح له بلقائها بعد!!!

لا ...لن تسأله عنها....

فمن الواضح أنه لا يعرف شيئاً هو الآخر....

لو كان يعلم لقرأتها في عينيه!!!!

آه من القلق الذي ينهش قلبها كذئب جائع!!!!!

آه من حرقتها علي فراق ابنتها!!!!

نعم...ماسة ابنتها ...

ربما هي لم تنجبها من رحمها...

لكنها ربتها لتكبر أمام عينيها...

يوماً بيوم...

بل ساعة بساعة...

ولا تصدق أنها قد رحلت هكذا بمنتهى البساطة!!!!

لكنها واثقة أنها لن تبتعد كثيراً...

ربما كانت لدى إحدى صديقاتها وستعود...

حتماً ستعود...

إلى من ستذهب...؟!!!

وهي التي ليس لها في هذه الدنيا سواها!!!

ربما غضبت منها ماسة لما سمعته من حديثها مع عزيز...

لكنها تعرف قلب الماسة جيداً...

لا يعرف ضغينة ولا كرهاً...

ستسامحها وستعود لحضنها الذي اشتاقته ...

اشتاقته حقاً!!

تنهدت أخيراً في حرارة وهي تفسح الطريق لعزيز هامسة بضعف:

_صباح الخير يا بني...تعال افطر معي.

أغمض عزيز عينيه بألم وهو يشعر بقبضة باردة تعتصر قلبه...

كل ركن في هذا المنزل يذكره بها...

كيف سيحتمل أن يدخله وهي ليست هنا...؟؟!!!!

كيف سيحتمل فيض ذكرياته الذي يجتاحه الآن بقوة كاسحة...

ليعاتبه بقسوة...

لماذا سمح لها بالرحيل...

لماذا....

لماذا لم يتشبث بها أكثر...؟!!!

لماذا لم يتزوجها ولو رغماً عنها؟!!!

لماذا رضي بفراقها الذي يعلم أنه سيذبحهما معاً؟!

ربما لأنه لم يتصورها جادة في عزمها...

لم يتصور أن ماسة الهشة الرقيقة قادرة على ترك عالمها كله خلف ظهرها لتبدأ من جديد...

لم يتخيل أن قلبها الذي قُسّم- بالعدل -بينه وبين رحمة قادر على الابتعاد عن كليهما!!!!

تري أين ذهبت تلك الغالية؟!!!

لقد بحث عنها في كل مكان...

وسأل كل من كان يعرفها في المعهد وفي المشفى الذي كانت تعمل به...

لكن أحداً لم يمنحه خبراً يريحه...

وكأنها اختفت فجأة...!!!

اختفت لتكون آخر كلماتها له قبل أن يفقد الاتصال بها...

_لن أنساك يوماً يا عزيز...ماستك ستبقى ملكك للأبد!!!

حاول الاتصال بها مراراً بعدها...

لكنه لم يفلح...

الهاتف دوماً مغلق...

تماماً كما هو طريقهما معاً كما صار يراه...

وكما رأته هي قبله...

مغلق...

مغلق!!!!

قطعت رحمة أفكاره التي تكاد تجزم أنها تعرفها...

لتسأله بحزمها المعهود:

_هل ذهبت لرؤية العروس التي اقترحها والدك؟!!

عقد حاجبيه بشدة وهو يهتف بحدة:

_أي عروس في هذه الظروف؟!!!ماسة اختفت ولا نعلم عنها شيئاً.

نظرت إليه طويلاً تكتم عنه مشاعر لوعتها التي تشاركه فيها...

لتقول بعدها بصرامة:

_وما شأنك أنت بماسة؟!!! ماسة لو عادت فستعود لي أنا...لأمها...لكنك لن تكون في حياتها أبداً!!

كاد يرد عليها بحدة ...

لكنها قاطعته بنظراتها المسيطرة وهي تلوح بسبابتها هاتفة بحزم:

_تظن أنني منعتها عنك لأجلك فقط؟؟؟!!! لا يا عزيز...أنا منعتها عنك لأجلها هي أيضاً...ربما تكون حقاً قد أحببتها...لكن حبك ضعيف...لن يحتوي حزن ماسة وألمها...لن يسندها في وجه ظروفها الصعبة...لن يصمد أمام أول اختبار بل سيخذلها ....أنا واثقة من هذا!!!

هز رأسه في رفض وهو يهتف باستنكار:

_لماذا تقولين هذا؟!!! أنا أحبها حقاً !!

صمتت للحظات وهي تحدق في وجهه بنظراتها الخبيرة...

قبل أن تقول ببطء:

_هل تستطيع أن تتخلى عن مشروعك الكبير وسيارتك الفارهة وشقتك الفخمة لتقف في وجه والدك وتخبره أنك تريد الزواج من فتاة لقيطة فقيرة...وليس هذا فحسب....لكنها أيضا...

قطع عبارتها وهو يهتف بقوة:

_لا تقوليها يا أمي...أرجوكِ!!

تنهدت في حرارة...

ثم وضعت كفها على كتفه لتقول بحنان يمتزج بالحكمة:

_حتى لو لم أقلها ...لن يغير هذا من الواقع شيئاً...لهذا قلت لك أنك لن تصلح لماسة...وهي لن تصلح لك...الحب وحده لا يكفي يا بني...صدقني!

أطرق برأسه وهو عاجز عن الاعتراض...

وفي الوقت نفسه عاجز عن التصديق!!!!

كلام رحمة كمشرط الطبيب قاسٍ لكنه شافٍ...

لكن ما حيلته في حب ماسة الذي يحتله من الشريان إلى الشريان....؟!!!

هل هو حقاً ضعيف هكذا ولا يستحق جوهرة كماسته...

أم أنه مكبل بقيود لا يستطيع الخلاص منها ؟!!!

للأسف...

ماسة كانت أكثر شجاعة منه...

واتخذت القرار الذي ظننته الخير للجميع...

ورغم أن هذا ما يوافقه فيه عقله بشدة...

لكن قلبه كان في وادٍ آخر...

منكسراً...ذاوياً...مجروحاً...

مسحوراً ببريق ماسة كانت ملكه يوماً...

و الآن لم تعد...!!!!!

========

تحسست حورية بطنها وهي تتنهد بحرارة....

هذا هو الطفل الذي حلم به عاصي الرفاعي منذ عشر سنوات...

عشر سنوات هي عمر زواجها به...

عشر سنوات قضتها مع "الشيطان" كما يطلقون عليه هنا...

عشر سنوات في سجن بلا مشاعر مع رجل تزوجته كُرهاً...

وعاشت معه كُرهاً...!!

وبقدر ما كان الجميع وأولهم "الشيطان" يتمنون هذا الولد...

بقدر ما كانت هي تتمنى ألا تحمل منه يوماً أي طفل...

لا ....لا تريد نسخة منه!

لا تريد -عاصياً -آخر يلوث العالم بقسوته وغلظته...

لا تريد أن ترى الفرحة على وجه عاصي بامتداد ذِكره بالذرية...

هو لا يستحق هذه البشارة ...

أبداً لا يستحقها!!

ابتسمت في سخرية مريرة وشريط عمرها الذي أضاعته معه يمر أمام عينيها ببطء...

منذ سلمتها له عائلتها العريقة هنا في مدينتهم لتكون صفقة متبادلة بمسمى الزواج....

مجرد طفلة في الخامسة عشرة من عمرها....

تتزوج رجلاً يكبرها بخمسة عشر عاماً لتعميق أواصر المصالح المشتركة بين العائلتين...

ورغم نفورها منه في البداية...

لكنها لا تنكر أنها تأثرت بطلته الآسرة وهيبته- التي تنحني لها الجباه -

ظننت أن له قلباً سيلين لحالها الذي شرحته له بصراحة...

لكنها ما إن تعايشت مع قسوته وغلظة طبعه حتى ازدادت يقيناً أنها أبداً لن تحبه...

بل إنها كانت تتمنى في كل عام يمر عليهما معاً دون أن تنجب أن يتزوج امرأة أخرى كما جرت العادة هنا....

لعلها تشغله عنها...

وعن مراقبته الدائمة لها ...

وخوفها الرهيب من أن تخطئ ولو دون قصد فينالها عقابه...

لكنه -وللعجب-لم يفعل...

ولم تجرؤ هي على سؤاله عن السبب...!!!!

من ذا الذي يجرؤ على سؤال "الشيطان "عن أسباب ما يفعله...؟؟!!!

هنا...

لا كلمة تعلو فوق كلمته...

ولا صوت يعلو على صوته...

الجميع يحنون رأسهم ويصغون للأوامر صاغرين فحسب...

هذا هو قانون عاصي الرفاعي الذي لم ولن يتغير...!!!!

لكنها عرفت كيف تنتقم منه ...

ولو أنها غير راضية تماماً عن الوسيلة...

لكنه يستحق!!!

حتى لو قتلها....

ستستمتع بكل لحظة ترى فيها الألم في عينيه...

لعله يعوضها شعورها بضياع عمرها معه!!!!

قطعت أفكارها عندما فتح باب غرفتها بعنف ...

فانتفضت على سريرها الذي ترقد عليه بأوامر منه منذ علم عن أمر حملها...

لتتعلق عيناها بعينيه القاسيتين وهو يتقدم نحوها ببطء...

ازدردت ريقها بتوتر ثم عجزت عن احتمال قسوة عينيه أكثر...

فخفضت بصرها عنه....

طال صمته لدقائق أمامها حتى شعرت بقلبها يكاد يتوقف ترقباً وقلقاً....

قبل أن يقول بنبراته القاسية:

_تعلمين عقاب الخطأ عندي !

رفعت عينيها إليه برعب حقيقي وهي تهمس باضطراب:

_ليس الأمر كما تظن...أنا....

قاطعها بعنف هاتفاً بصوته المخيف:

_اخرسي!!

انتفض جسدها رعباً وهي ترمقه بهلع...

غضب الشيطان زاد عن حده هذه المرة...

وتخشى أن تحترق بنيرانه ....

لقد ظننت أنها قد رأت منه أسوأ وجوهه على مدار تلك السنوات...

لكنها كانت مخطئة...

غضبه هذه المرة فاق كل كوابيسها....!!!!

لكن لمَ العجب؟!!

الأمر يستحق...

وهو أيضاً يستحق!!!!

نعم...الشيطان يستحق أن يحترق بنيرانه هذه المرة...

كما أحرق بها غيره طيلة هذه السنوات...

ورغم خوفها مما يمكنه فعله بها...

لكنها بداخلها تشعر بنوع من التشفي وهي تراه لأول مرة منذ عرفته بهذه الحيرة....

نعم...حتى لو ذبحها بيديه عقاباً على خطئها الذي لا يزال غير واثق منه...

حتى لو أحرق بركان غضبه عائلتها كلها...

كفاها أنها انتقمت منه كما تمنت طوال تلك السنوات...

اقترب منها ليحرقها لهيب عينيه الزيتونيتين وهو يرمقها بنظراته المخيفة للحظات...

قبل أن يقول بصرامة:

_الممرضة الجديدة على وشك الوصول...ستنفذين أوامر الطبيب بمنتهى الدقة...لا أريد أي خطأ...هل تفهمين؟!

ازدردت ريقها بتوتر وهي تومئ برأسها إيجاباً في خوف واضح...

ليرفع قبضته أمام وجهها هامساً بحزم:

_أما عن عقابك فتأكدي أنه سيكون بحجم خطئك.

ارتعد جسدها وهي تتعلق رغماً عنها بعينيه المشتعلتين ببريق شيطاني...

ليعتقها هو من هذا الأسر عندما أعطاها ظهره ليغادر الغرفة بخطوات بطيئة واثقة....

وضعت كفها علي صدرها وهي تشعر برغبة عارمة في البكاء...

الشيطان سيبقى لعنة عمرها التي لن تنتهي حتى تزهق روحها...

وهي موقنة من قرب لحظة نهايتها...

بل وللعجب...

تنتظرها!!!

وكأنها الخلاص الوحيد من عذابها معه!!!!

===========

جلست رؤى في غرفتها تبكي في الظلام وهي تشعر بالرعب....

عبد الله يريد تزويجها لذاك الخاطب الذي لا تعرفه...

وماذا سيفيدها لو عرفته؟!!!

هو كغيره...

كارثة ستحل بها بعد خطيئتها مع فهد....

ستنكشف حتماً مصيبتها...

وحينها سيقتلها عبدالله لو لم يسبقه زوج المستقبل في هذا!!!!

ورقة الزواج العرفي التي حصلت عليها جنة بمغامرة خطيرة لن تساوي شيئاً الآن...

وعبد الله لن يسمح لها برفض الخاطب...

لهجته الصارمة وهو يخبرها بموافقته جعلتها تدرك أن الأمر منتهٍ!!!

ازداد نحيبها الصامت وهي تستغفر الله سراً وتدعوه الخلاص من هذه المصيبة...

لكنها كانت تشعر بالقنوط من كل شئ...

كانت خجلة حتى من رفع يدها بالدعاء وهي ملوثة بالخطيئة...

بل إنها كانت تنتظر عقاب السماء...

وتخشاه !!!!

شعرت بطرقات خافتة علي الباب...

لا ريب أنها صفا الرقيقة...

جاءت تواسيها في مصيبتها هذه رغم أنها لا تعلم الحقيقة الكاملة.

قامت بتثاقل لتفتح لها الباب...

فاحتضنتها صفا بقوة لتهمس لها بحنان:

_هل هناك عروس تبكي هكذا؟!!

زادت عبارتها الحانية من دموع رؤى المقهورة...وانتفاضة جسدها الذبيح بخطيئته....

عروس؟!!!!

بئست العروس!!!

وبئست الزيجة!!!!!

جذبتها صفا من ذراعها نحو الفراش...لتجلس وتضمها لصدرها هامسة بحنان:

_لماذا تبكين هكذا؟! عبد الله لن يختار لكِ أي رجل....خاطبك رجل ميسور وسمعته طيبة...ورشته الكبيرة...

قاطعتها رؤي هاتفة بصدمة وسط دموعها:

_ورشته؟!!!!!

هزت صفا رأسها بأسف لتهمس لها بتعقل:

_لا تتعجلي الحكم عليه....لا تجعلي هذا السبب البسيط عائقاً بينكما....الرجل يشهد له الجميع بحسن الخلق.

اتسعت عينا رؤي باستنكار وهي تهز رأسها في عدم تصديق...

منذ عدة أيام كانت كالأميرة التي تترقب فارسها المنتظر....

تحلم ببيت يضمها مع فهد الصاوي...

الوسيم الأنيق بمركزه المرموق...

والآن انقلب حلمها لكابوس...

هي لم تعد أميرة...

بل خاطئة عاصية!!!!

وفارسها لم يحملها علي حصانه بل دهس قلبها تحت حوافره....

لتجد نفسها مجرد جثة تنتظر أن يحملها رجل غريب على كتفيه...

رجل يختلف تماماً عن الصورة التي طالما تمنتها!!!!

ورشته؟!!!

هل ستتزوج رجلاً بسيطاً يعمل في ورشة طوال النهار ليأتيها آخر الليل بجسد ملوث وثياب مزرية؟!!!

هل ستتزوج رجلاً يقضي أغلب يومه مع العمال ليتشرب ألفاظهم المنحدرة؟!!!

هل هذه نهاية أحلامها العريضة برجل يعوضها بحنانه عن غلظة عبد الله وخشونة طباعه معها طيلة هذه السنوات؟!!!

لكن ما حيلتها هنا....؟!!!

هي لم يعد لها قرار في قبول أو رفض....

ستنتظر مصيرها المحتوم باستسلام ...

منذ متى كانت لها قدرة على المقاومة؟!

تجمدت نظراتها في الفراغ وهي تضع كفها على صدرها بخوف...

خوف من وجدت نفسها فجأة في خضمّ موج عاصف...

فلا هي تستطيع العوم...

ولا هي قادرة على الرجوع!!!!

============

وقفت دعاء تودعها عند محطة القطار بعدما ألحت عليها طويلاً أن تتناول الغداء معها قبل أن تذهب للسيد عاصي...

لكن ماسة رفضت برقة فقد كانت متلهفة بحق لترى عالمها الجديد هنا...

السيدة حورية زوجةالسيد عاصي لازالت في بداية حملها ...

وهذا يعني أن أمامها بضعة أشهر هنا...

قبل أن تشغل تفكيرها في البحث عن عمل جديد...

أوصلتها دعاء لمنزل السيد عاصي ثم تركتها عند البوابة الكبيرة للقصر وهي تقول بإشفاق:

_لو احتجتِ شيئاً هاتفيني.

هزت ماسة رأسها وهي تتذكر شريحتها التي ألقتها من نافذة القطار بعد اتصال عزيز...

ثم همست بما يشبه الاعتذار:

_اكتبي لي رقمك وسأهاتفكِ عندما أستطيع.

أعطتها دعاء ورقة مطوية كتبت فيها رقمها ثم احتضنتها بقوة لتهمس بحنان:

_أنا أحببتك جداً يا ماسة....سأنتظر اتصالك لأطمئن عليك.

ضمتها ماسة بقوة وهي تشعر بحاجتها لهذا الحضن...

حمدت الله سراً أن منحها هذا الدعم العاطفي من هذه الفتاة الرائعة قبل أن تلج بقدميها إلى هذا المكان الذي ترهبه...

لوحت لها دعاء بكفها مودعة أخيراً فلوحت لها بدورها...

قبل أن تتوجه نحو بوابة المنزل الكبير...

وتطلب من الحارس أن يدخلها للقاء السيد عاصي...

======

استيقظ فهد من نومه الذي لم يهنأ به بعد ساعات قليلة...

شئ ما يقبض قلبه بقوة...

هذه المرأة تثير جنونه!!!

شئ ما بعينيها يجذبه نحوها بقوة...

ليس الأمر في غرورها ولا عنادها...

فقد قابل مثلها كثيرات ونجح في إطفاء غرورهن هذا...

لكنها تلك النظرة الفريدة في عينيها...

نظرة "ملكة مهزومة"!!!

مزيج القوة الكاسحة مع العجز !!!!

نعم...رغم ما تدعيه من ثبات وصلابة...

هناك شئ من القهر في نظراتها يتسلل شعاعه وسط جبال قوتها ليغشي عينيه رغماً عنه!!!

نفض الغطاء عن جسده ...ثم قام من فراشه وهو يشعر بالضيق...

ما هذا الشعور الجديد الذي يملأ قلبه ...

وكأنه...وخز ضميره!!!

ضميره؟!!!

ابتسم في سخرية مريرة...

فهد الصاوي ليس عنده ضمير...

فهد الصاوي قتل ضميره منذ زمن والميت لا يعود للحياة!!!

زفر بقوة وهو يهز رأسه في عجز...

عندما راوده خاطر مزعج...

هل من الأمان أن يترك امرأة جميلة مثلها مع رجاله هناك ...

في ذاك المكان المنعزل...

وحدها ومقيدة؟؟؟!!!!

لا...ليس الأمر خوفاً عليها...

لكنها صارت من -ممتلكاته -كما أخبرها...

وهو رجل يجيد العناية بما يملك!!

انتفض من مكانه وقتها ثم ارتدي ملابسه على عجل...

وبعدها بقليل كان واقفاً أمامها في غرفتها التي احتجزها فيها...

عقد حاجبيه بشدة وهو يتفحص ملامحها الشاحبة...

والمختلفة تماماً عن تألقها بالأمس...

لكنها حافظت علي قسوة نظرتها الساخرة التي رمقته بها في ثبات...

اقترب منها وهو يسحب كرسياً ليجلس أمامها قائلاً ببرود:

_لماذا ترفضين الطعام منذ الأمس؟! هل تنوين الانتحار؟!

ابتسمت في سخرية وهي تقول بصوت خرج رغماً عنها ضعيفاً من فرط تعبها:

_الانتحار للجبناء ومثلي لا يلقى ربه جباناً كافراً.

ابتسم في إعجاب رغماً عنه وهو يتأملها للحظات...ثم أعاد سؤاله بنفس البرود:

_إذن لماذا ترفضين الطعام؟!

أشاحت بوجهها عن ابتسامته البغيضة-كما رأتها-لتقول بثبات:

_يداي مقيدتان...ولن أسمح لأحد من الثيران الذين بالخارج أن يطعمني!!

اتسعت ابتسامته -البغيضة-وهو يقول بخبث:

_إذن تفضلين أن أطعمك أنا؟!

ضحكت في سخرية لتقول بتهكم:

_لا...الانتحار أفضل!!

ضحك ضحكة عالية وهو يشعر أن اللعبة حقاً تروقه...

هذه دمية مختلفة...

لا...

من الظلم أن يطلق عليها لفظة "دمية" كالأخريات...

هذه امرأة مختلفة...

واللعب معها سيكون ممتعاً مثيراً لأبعد حد...!!!!!

لهذا قام واقفاً أمام نظراتها المترقبة...

ثم اقترب منها ببطء ليميل عليها بجسده حتي لاصق وجهها صدره وهو يحيطها بذراعيه...

أغمضت عينيها بقوة وجسدها يرتجف بعنف...

عطره الباذخ يخنق أنفاسها ويصيبها بالغثيان...

ما الذي سيفعله...

ياربي!!!

لا تجعله يؤذِني يارب!!!

قطعت دعاءها الصامت عندما أدركت أخيراً ما يفعله...

لقد كان يفك قيد معصميها المربوطين خلف ظهرها..!!!!!

أخذت نفساً عميقاً عندما انتهى من مهمته ...

لتمسد معصميها برفق متجاهلة الألم النابض فيهما...

بينما عاد هو يجلس أمامها متأملاً ملامحها بتفحص...

ثم نادي على أحد رجاله ليطلب منه الطعام...

وضع الرجل صينية الطعام أمامها ثم انصرف...

فقال فهد ببرود:

_الآن يمكنكِ تناول طعامك...

ثم أردف بتهكم:

_دون أن يطعمكِ أحد!

أطرقت برأسها للحظات وهي تشعر بالإنهاك والتعب....

جسدها كله يؤلمها بشدة...

عظامها تئن وجعاً...

وتشعر بحاجتها للنوم مع هذا الصداع الرهيب الذي يجتاحها بلا رحمة....

لكنها تكابر أمامه كي تفقده لذة انتصاره-الحقير-بعد اختطافها!!!

وأمامها كان هو يشعر بالضيق من إطراقها هذا....

شغفٌ هائل يملؤه لالتقاط وهج البندق في عينيها من جديد...

في استفزازها بقوة حتى تنطلق شرارة القوة في عينيها ....

تلك التي تثير جنونه ...

لكنها تعجبه....تعجبه بحق!!!

لهذا وجد نفسه يقول بوقاحة:

_أريدك بصحة جيدة حتي نتمكن من اللعب كما ينبغي.

رفعت رأسها إليه بحدة...

ليشتعل وهج البندق من جديد كما توقع بالضبط...

ثم رفعت كفها لتصفعه لكنه كان مستعداً لهذا...

فقبض على معصمها بقوة وهو يواجهها بقسوة عينيه هامساً ببطء:

_لستِ غبية إلى هذا الحد...قدري موقفكِ جيداً...أنتِ هنا في قبضتي بالكامل!!

قالها وهو يعيد التفحص في ملامحها لتجذبه بعض خصلات متناثرة من شعرها تفلتت من حجابها ...

فانتابته رغبة قوية في أن يري ما تخفيه تحت هذا الوشاح...

ودون أي مقدمات...

مد يده بعنف لينزع عنها وشاحها مع رابطة شعرها...

فتفلتت خصلات شعرها كله لتنسدل علي كتفيها وظهرها...!!!!

هنا خفق قلبه بشعور غريب...

رغم كل النساء اللاتي عرفهن....

لم يرَ شعراً بهذه- الكثافة -من قبل...!!!!!

إنه ينسدل على كتفيها كشلال غزير...

ثريّ...

فياض...

متألق...

تماماً مثلها!!

أما هي فقد شهقت بعنف وهي تحاول تمالك غضبها...

هي ليست في وضع قوة كما قال...

لكنها لن تستسلم!!!

أغمضت عينيها بقوة وهي تحاول التركيز لتفكر في حل للخروج من هذه الورطة...!!!!

بينما كان هو يتأمل خصلات شعرها الملتمعة ببريق ينافس وهج البندق في عينيها...

ليمد أنامله ببطء كي يتلمس شعرها ولازال قابضاً على معصمها بكفه الآخر...

ففتحت عينيها لتهتف بحنق فجّره عجزها:

_لا فائدة!!! ستظل طوال عمرك تعيش على متع مسروقة..كن رجلاً ولو مرة واحدة في حياتك...جرب شعور الرجولة الحقيقية لعله يعجبك!

قبض أنامله بقوة قبل أن تصل لشعرها ....

ثم سحبها من معصمها الذي يمسكه بكفه الآخر ليقف ويوقفها أمامه هاتفاً بغضب:

_رجولة؟!!!! حسناً...سأعرف كيف أخرس لسانك الطويل هذا!

قالها وهو يجذبها لصدره بعنف ملصقاً جسدها بجسده...

لكنها دفعته بكل قوتها عندما لمحت مديته التي ألقاها بالأمس ملقاة على بعد خطوات...

ثم اندفعت نحوها بسرعة لتلتقطها فهتف بسخرية:

_ماذا ستفعلين بمدية واحدة في مواجهتي أنا والرجال بالخارج؟!

نظرت نحوه بثبات وهي ترفع المدية نحو صدرها لتقول بصوت مهزوز من فرط إرهاقها:

_إذا كنت تريدني فخذني جثة !!

قالتها وهي تكاد تهوي بالمدية علي صدرها هي فقد كانت تعلم أن إيذاءه هو لن يفيدها بشئ....

لكنه قطع المسافة بينهما بخطوة سريعة ليدركها في اللحظة الأخيرة فيمسك بكفها ويمنعها مما تريد...

كانت تقاتل باستماتة لتصل بنصل المدية لصدرها لكنه كان أقوى منها....

هنا مادت بها الأرض وهي تشعر بالدوار...

لتنتبه-لحظتها- أنها لم تأخذ دواءها منذ الأمس....

ومع امتناعها عن الطعام ستكون الغيبوبة -المعتادة- مصيراً متوقعاً!!!!

تثاقل جفناها وهي تشعر بطعم الهزيمة المر في حلقها...

لتسقط بعدها بين ذراعيه فاقدة للوعي!!!!

الفصل الرابع:

أفاقت من غيبوبتها لتجد نفسها ممددة على سرير وثير...

عقدت حاجبيها بدهشة تمتزج بتوجسها وهي تتلفت حولها حتى اصطدمت بنظرته المتفحصة ...

كان جالساً على كرسيه جوار سريرها يراقبها بنظراته الثاقبة....

فحاولت النهوض من رقدتها لكنها لم تستطع...

جسدها مستسلمٌ لإرهاقه خارج حدود سيطرتها...

فأغمضت عينيها بقوة وهي تسأله بثبات رغم ضعف نبرتها:

_ماذا حدث؟!

وصلها صوته الغاضب وهي مغمضة العينين يهتف بحدة:

_هل العناد في المرض أيضاً؟!! لماذا لم تخبريني أنك "مريضة سكر"؟!!لماذا لم تتناولي طعاماً ولم تفكري حتى في طلب دوائك؟!!

طال صمتها للحظات أخرى فعلم أنها لن تجيبه على تساؤلاته...

عنادها هذا يثير جنونه...

لكنه يعجبه...

يعجبه حقاً!!!

فزفر أخيراً بقوة ثم سألها بتفحص:

_لماذا؟!هل خشيتِ مثلاً أن أتهمك بالكذب....أو...ربما... أصدقك فترين الشفقة في عيني؟!!

فتحت عينيها فجأة لتبتسم بسخرية هامسة بصوتها الضعيف:

_شفقة؟! عندك أنت يا ابن الصاوي؟!!!

فابتسم ساعتها ابتسامة حقيقية وهو يقول بخبث:

_الآن أستطيع الاطمئنان عليكِ...مادام لسانك الطويل هذا بخير فأنتِ أيضاً كذلك!!

أشاحت بوجهها للحظات...ثم سألته ببرود:

_أين نحن؟!

مال بجذعه للأمام وهو يقول ببرود مستفز:

_في شقتي!

التفتت إليه بحدة لتهمس بدهشة:

_هل هي نفس الشقة التي كنت تلتقي فيها برؤى؟!

شعر بالضيق عندما ذكرت أمر رؤى...

ربما لأنه تذكر فعلتها- السوداء -به والتي تركت أثرها على وجهه....

لكنه هز رأسه نفياً ليقول بابتسامة ساخرة:

_بالطبع لا...تلك الشقة ليست من مقامك...هذه شقة أخرى ...

ثم غمزها ليقول بوقاحة:

_للغاليات!

خفضت بصرها عنه وهي عاجزة عن مجاراته...

إنها متعبة حقاً...

جسدها كله يؤلمها...

لو كانت فقط تستطيع النهوض لصفعته علي وجهه...

لكنها فعلاً في أسوأ حالاتها...

خائفة؟!!!

لا...!!

لم تكن خائفة للعجب!

بل مستسلمة في يأس ..تنتظر نهايتها المحتومة مع وغد مثله!!!

وأمامها كان هو يتأملها بدقة...

هو يعرف أنه يكذب عليها الآن!!

هذه الشقة -بالذات- لم تدخلها امرأة قبلها...

إنها شقته الخاصة التي يختلي فيها بنفسه عندما يريد الهرب من كل ضغوطه....

لكنه لم يجد مكاناً آخر يذهب بها إليه ليتمكن من العناية بها بعد سقوطها فاقدة للوعي!

العناية بها؟!!!

نعم...كل ما كان يشغل باله عندما سقطت بين ذراعيه أن يستعيدها...

يستعيدها بكامل قوتها!!

امرأة كهذه صنف نادر جديد يشعر أنه سيستمتع كثيراً بترويضه...

شئ ما يجذبه إليها...

ليس اليوم فقط...

بل منذ أول مرة رآها فيها...

ليتعمق شعوره هذا مع كل موقف لها معه...

هذه امرأة مختلفة عن كل من عرف من النساء...

امرأة كانت على استعداد لقتل نفسها حتى لا يمسها...

وهو الذي ترتمي تحت قدميه الفاتنات؟!!!

لقد سقط قلبه بين قدميه عندما وقعت بين ذراعيه منذ ساعات...

في البداية ظنها تتظاهر بفقدان الوعي في حيلة جديدة منها...

لكن زرقة شفتيها وشحوب وجهها الشديد أنبآه بأنها حقاً في مشكلة...

فاستدعي طبيباً خاصاً بسرعة ...

ليخبره أنها "غيبوبة سكر"!!!

و ساعتها لم يملك إلا أن يتعجب كثيراً!!

لم يتصور أن شابة مثلها في حيويتها وانطلاقها قد تكون مصابة بمرض كهذا...

لكن يبدو أن هذه المرأة ستحقق رقماً قياسياً في إثارة ذهوله!!!!

طال صمتهما معاً...

حتى قطعه هو عندما سألها بلهجة محايدة:

_هل تتناولين دواء بعينه؟!

أومأت برأسها إيجاباً ثم قالت دون أن ترفع عينيها نحوه:

_في حقيبتي.

خرج من الغرفة لدقائق تمكنت فيها من تفحص الغرفة بدقة...

غرفة راقية بأثاث فخم يليق بأمثاله...

لها نافذة عريضة ستتفحصها عندما تستطيع النهوض ...

لعلها تجد لها مخرجاً من هذا السجن...

ولو أنها لا تعتقد في جدوي ذلك...

فهد الصاوي سيسحقها بقوة تليق بقوته وبضعفها...!!!!

في عالم كهذا...فهد الصاوي دوماً هو الوجه الرابح للعملة!!!

أغمضت عينيها بقوة وهي تشعر بدوار شديد...

لكنها لن تسمح له برؤية ضعفها...

حتى لو كانت هي النهاية...فستتقبلها وهي مرفوعة الرأس!!!

دخل عليها ليعطيها الدواء فتناولته منه بأنامل جاهدت كي لا ترتجف...

حاولت النهوض لتشرب كوب الماء الذي ناوله لها لكن قوتها خانتها...

اقترب منها ليسند رأسها على ذراعه لكنها قالت بقوة مناقضة لصوتها الضعيف:

_ابتعد...أنا سأقوم وحدي.

ابتسم في جذل وهو يبتعد كما طلبت...

هذه المكابِرة العنيدة غافلة عن أنه حملها بين ذراعيه حتى الفراش!!!

والآن تنكر عليه مجرد إسنادها!!!

لكنه سيمتثل لرغبتها ...فهو يستمتع -حقيقة- بكل ردود أفعالها دون استثناء!!!!

بينما تحاملت هي على نفسها حتى استطاعت النهوض بصعوبة بعد عدة محاولات فاشلة...

تناولت منه كوب الماء لتأخذ دواءها...

ثم أسندت رأسها علي ظهر السرير لتهمس بشرود:

_والآن...ما الذي تنتوي فعله؟!

اتسعت ابتسامته وهو يعاود الجلوس أمامها ليقول بغطرسة:

_سأترك التخمين لسيادتك!!

لكنها ظلت على شرودها للحظات أخرى قبل أن تهمس بخفوت:

_المشكلة أنك تتعامل مع امرأة لم يعد لديها ما تخسره!!

لا يدري لماذا أصابته كلماتها كحجر صُوب نحو قلبه!!

ربما للهجتها اليائسة...

وربما لأنها خالفت قوتها التي صدمته بها منذ أول لقاء...

وربما لأنه شعر بصدقها....

شعر أنها تخفي جرحاً عميقاً بداخلها بعيداً عن واجهتها الشرسة!!

ومع هذا وجد نفسه يسألها بنفس البرود المستفز:

_متأكدة؟!

التفتت نحوه ليلتمع وهج البندق بعينيها من جديد وهي تهمس بثبات:

_صدقني لا أهتم بما يمكنك فعله..لقد أديت واجبي نحو إنسانة ضعيفة احتاجتني...ولست بنادمة...حتى لو ضاعت حياتي فداء لذلك!

فابتسم في سخرية ليقول بوقاحة:

_هذه الانسانة الضعيفة التي تتحدثين عنها ليست قاصراً...هي جاءتني بمحض إرادتها...ولم أجبرها على شئ!!

تنهدت في حرارة ثم عادت تهمس بخفوت:

_نفس ما يقوله الشيطان بعدما يغوي خلق الله...وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي.

هنا عقد حاجبيه بشدة وهو يهتف بسخط:

_أنا شيطان وصديقتك ملك كريم؟!!!

هزت رأسها نفياً لتهمس بثقة:

_كلاكما مخطئ...لكن لماذا تضطر هي لدفع الثمن وحدها؟!!!

_لأنها غبية ومنحطة وبلا أخلاق!!!

هتف بها بحدة وهو يقوم من مكانه ليردف بعدها بغضب هادر:

_كل ما حدث حدث برغبتها هي...هي وقحة متساهلة خائنة بطبعها ككل النساء!!!...

عقدت حاجبيها بشدة وهي تتأمله بتفحص لأول مرة...

غضبه هذا ليس طبيعياً...

وحديثه لا يبدو موجهاً نحو رؤى بعينها...

يبدو أنها نفس القصة القديمة...

لعله عاشق موتور خدعته امرأة يوماً فعاش ينتقم من صورتها في باقي النساء...!!!

لكن ...حتى لو كان هذا صحيحاً...

لن تشفق عليه أبداً ولن تجد له أي عذر!!!

هو ومن على شاكلته ليسوا سوى شياطين إنس...

يظنون الكون كله مسخراً لهم وحدهم...

والشمس تدور في فلكها لأجلهم!!!

بينما تمالك هو غضبه بعد قليل ليعاود جلوسه وهو يزفر بقوة...

ثم سألها ليغير الموضوع:

_منذ متى وأنتِ مبتلاة بهذا المرض؟!

ابتسمت بسخرية شاحبة لتهمس بصوتها المنهك:

_منذ كنت طفلة...لقد ورثته عن والديّ كما ورثت أنت عن أبويك المال والنفوذ!!

فابتسم في مرارة- لم تفهمها- وهو يسألها بلهجة غريبة:

_تحسدينني؟!!

هزت رأسها نفياً لتهمس ببطء:

_كلانا ورث مرضاً يا ابن الصاوي...لكن مرضك أنت ليس له علاج!!

عقد حاجبيه بتساؤل فأردفت بشرود:

_مرضك في سواد روحك...ومرض الروح لا يبرأ بسهولة...بل ربما لا يبرأ أبداً!!

قام من مكانه وقد آلمته كلماتها لأبعد حد...

كيف أمكنها توصيف حقيقته هكذا بهذه السهولة لتعرّي عيوبه كلها أمام نفسه بكلمات بسيطة؟!!

حقاً...صدقت...

مرض الروح لا يبرأ بسهولة...

وربما لا يبرأ أبداً!!!

لقد صدق حدسه...

هذه امرأة خطيرة!!!

زفر بقوة ثم قال بضيق لم يتمكن من إخفائه وهو يستعد للمغادرة وتركها:

_الخادمة بالخارج ستحضر لك الطعام والدواء...أنصحكِ ألا تتهوري فرجالي يحيطون بالمكان ولن يسعدكِ رد فعلهم لو حاولتِ الهرب.

ثم أردف ببرود :

_أما عن انتقامي فسأخبركِ به لاحقاً.

خفضت بصرها عنه دون رد وأناملها تتلاعب بطرف غطائها...

فسار نحو باب الغرفة ثم أمسك مقبض الباب قبل أن يعاود الالتفات إليها وهو يسألها ببرود:

_تريدين شيئاً؟!

انفرجت شفتاها وكأنها ستطلب شيئاً...

لكنها عادت تطبقهما من جديد...

فضاقت عيناه في تفحص وهو يعيد سؤاله بإصرار:

_ماذا تريدين؟!

ترددت للحظات....

ثم توردت وجنتاها بحمرة خفيفة وهي تهمس بخفوت- امتزج بخجلها رغماً عنها- دون أن تنظر إليه:

_وشاح!

ارتفع حاجباه في دهشة للحظة...

ثم ابتسم ابتسامة جانبية وهو يرمق وجهها بنظرات ثابتة....

قبل أن يخرج من الغرفة صافقاً بابها خلفه بعنف...!!!

زفرت في ضيق وهي تسبّه في سرها....

ثم حاولت لملمة خصلات شعرها الثائرة وهي تفكر في حقيقة وضعها الجديد...

وإلى أين ستصل بها الأمور....

عندما فوجئت به يعود بعد دقائق....

وفي يده وشاحها الفيروزي...!!!

نظرت إليه بترقب...

فاقترب منها وعيناه مثبتتان بعينيها في إصرار...

ازدردت ريقها ببطء وهي تمد يدها لتتناوله منه...

لكنه أبعده عن متناول يديها ليقول ببرود مستفز:

_أنا خلعته عنكِ وأنا من سيضعه!

أطرقت برأسها وهي عاجزة عن الجدال...

لقد سئمت هذه المعركة معه...

فليفعل ما يريد...

ولينته الأمر...!!!

لف الوشاح حول رأسها بحرص...ثم تأمل وجهها المطرق للحظات...

هذه امرأة يزيدها حجابها فتنة وليس العكس!!!

رغم إعجابه بخصلات شعرها الثرية ...

لكن حجابها الذي يحيط بصفحة وجهها في تملك يزيد التركيز على ملامحها أكثر...

وكأنه يجذبه لتفحص وجهها الذي بدا له ساعتها كصفحة القمر!

كانت تسبل جفنيها كي لا تلتقي عيناها بعينيه ...

لكنه كان يحفظهما جيداً...

عينان واسعتان كفضاء عريض...

ثائرتان كبحر هائج...

تلتمعان ببريق خاص...بنكهة البندق!!!

ورغماً عنه انتابته رغبة عارمة في تقبيل عينيها...

عينيها فقط!!

لكنه تمالك نفسه ليتراجع عنها ببطء...

ثم همس ببرود يناقض ما يشتعل الآن بصدره:

_ها هو ذا وشاحك!!

ثم أردف بغموض:

_ولو أنكِ لن تحتاجينه أمامي قريباً !!

رفعت رأسها إليه بحدة تنتظر تفسيراً...لكنه ابتسم ببرود...

ثم غادر الحجرة دون كلمة إضافية...

==========

دخلت ماسة لبهو المنزل الكبير الخاص بالسيد عاصي...

منزل؟!!!

لا لا لا!!

من الظلم أن يطلق على هذا القصر الكبير لقب "منزل"!!!

فمساحته كانت شاسعة مهولة...

وأثاثه كان غاية في الفخامة ...

لم تتوقع أبداً أن ترى منزلاً كهذا في مدينة من مدن الجنوب...

بل ولم تتصور ترفاً كهذا حتى في مدينتها الكبيرة...

هذا القصر يبدو أشبه بما كانت تشاهده في التلفاز عن قصور الأثرياء قبل ثورة يوليو!!!

استقبلتها خادمة بسيطة تغطي وجهها بطرف وشاحها لتقول بطيبة فطرية:

_تفضلي يا سيدتي...السيد عاصي سيأتي حالاً!!

ابتسمت في ارتباك وهي تتلفت حولها في حيرة...

عندما تناولت منها الخادمة حقيبتها لتقول برفق:

_سأضع الحقيبة في غرفتك حتى تنهين لقاءك بالسيد عاصي.

أومأت برأسها إيجاباً وقلبها ينتفض بقوة...

هذه هي المرة الأولى التي تقيم فيها في منزل غريب...

وليس أي منزل...

لكنه قصر مهيب ويخص رجلاً أقل ما يوصف به أنه عظيم الشأن...

ومجرد خطأ واحد منها قد تدفع ثمنه غالياً...

حتى ولو كان غير مقصود...

تنهدت في حرارة وهي تتذكر ما روته لها دعاء عن بطش هذا الرجل...

لكنها عادت تطمئن نفسها أنها ستتحاشى التعامل معه...

نعم...مالها هي به؟!!!

ستحرص أن يكون تعاملها مع السيدة حورية فقط...

ومن الواضح أنها امرأة طيبة...وهذا هو ما يعنيها!!!

قطعت أفكارها عندما دعتها الخادمة للجلوس...

فجلست علي أحد المقاعد...

وكعادتها عندما تشعر بالقلق....

تحسست سلسلته الحبيبة في عنقها...

لتلفها حرارة ذكري أخري من ذكرياتها معه....

_خذي هذه !!

همس بها عزيز بشقاوته المعهودة وهو يناولها ورقة بيضاء...

كانت تجلس على كرسيها مقابلة له أمام مائدة المطبخ في شقة رحمة...

فرمقته بنظرة متسائلة ليهمس بمرح:

_ارسمي تصورك لشقتنا المستقبلية حتى يمكنني الاستعداد لأحلامك من الآن.

ابتسمت في سعادة...

وهي تتناول منه الورقة لتخط عليها بعض الخطوط هامسة بنبرة حالمة:

_صالة صغيرة بغرفة استقبال بسيطة...تنتهي بطرقة قصيرة...تؤدي لمطبخ كبير وحمام صغير...وثلاث غرف...

كانت تتبع همساتها بخطوطها المرسومة وكأنها تنفذها...

فارتفع حاجباه في مشاكسة وهو يسألها:

_ولماذا المطبخ بالذات يكون كبيراً؟!!

اتسعت ابتسامتها وهي تقول بفخر طفولي:

_لأن زوجتك سيدة منزل من الطراز الأول...أغلب وقتي سأقضيه في المطبخ!!

التمعت عيناه بعاطفته الصادقة وهو يهمس بحرارة:

_زوجتي؟!

احمرت وجنتاها بقوة وهي تنتبه لما تفوهت به دون قصد...

فأطرقت برأسها وهي تعض علي شفتها بقوة...

ليبتسم هو في حنان متأملاً ملامحها بعشق جارف...وقد قتلته كلمتها- العفوية -اشتياقاً ليوم تكون فيه زوجته بحق.....

فهمس بسعادة لم يستطع إخفاءها:

_أكملي رسمكِ يا زوجتي!!

تنحنحت في حرج...

ثم عادت ترسم علي الورقة المزيد من الخطوط لتهمس بشرود:

_إحدى الغرف الثلاث لأمي فلن نتركها تقيم وحدها أبداً...والثانية لأطفالنا ...سأجعل طلاءها وردياً...لكنني سأترك حائطاً واحداً بطلاء أزرق لتلائم الصبي والفتاة.

اتسعت ابتسامته الحنون وهو يسألها بمكر:

_والغرفة الثالثة؟!!

انتفضت من مكانها لتهمس بخجل يمتزج بعتابها الرقيق:

_عيب يا عزيز!!

انطلق ضاحكاً في مرح...ليرقص قلبها طرباً وهي تختلس إليه نظرات عاشقة...

فيهمس بعدها بعاطفة صادقة:

_يا "قلب" عزيز!كم أعشق خجلك هذا!

_هل ستظلين شاردة هكذا طويلاً؟!!

انتفضت واقفة مكانها وصوته الخشن يكاد يخدش أذنها بقسوته...

فالتفتت نحوه بحدة من شرودها لتغمغم باضطراب:

_السيد عاصي؟!

لم يرد عليها وهو يتقدم ليجلس أمامها...

ثم تفحصها بنظراته الثاقبة قبل أن يقول بنبرته المتسلطة:

_اجلسي!

اختلست نظرة إليه قبل أن تجلس في ارتباك...

لم تتمكن من التفرس في ملامحه...

لكن هذا الرجل يمتلك طلّة كاسحة مسيطرة بلا شك...

إنها تشعر بنظراته الثاقبة تكاد تخترق أعماقها لتسبر أغوارها كلها...

تكاد تقسم أنه بنظرة واحدة من هذه يمكنه استجواب أي أحد عن كل أسراره!!!

لكن ما أذهلها حقاً كان ثيابه...

لقد توقعته كما تتصور الرجال دوماً من مدن الجنوب...

بجلباب واسع وعباءة فضفاضة...

وعمامة رأس!

لكن الرجل أمامها كان يرتدي قميصاً بسيطاً وبنطالاً حديث الطراز من القماش...

جسده كان ضخماً يليق بتصورها السابق عنه...

لكن مظهره كان يعطيها انطباعاً عن سن أكبر مما توقعته...

ربما لخصلات الشيب التي غزت فوديه...

وربما بسبب هيبته الواضحة التي لم تعرف لها سبباً محدداً!

بينما كان هو يتأملها بتفحص مستغلاً إطراقها الصامت...

الفتاة لم تختلف كثيراً عما توقعه منها...

وعما عرفه عنها من معلومات...

لكنها -وللحق-أقل جمالاً مما كان يظن!!!!

ملامحها عادية لا تغري بالنظر...

أو- هكذا كان رأيه - قبل أن ترفع عينيها إليه لتقول بثبات:

_أين السيدة ؟!

اتسعت عيناه للحظة وهو يلتقي ببحر الفضة في عينيها...

ليغير رأيه السابق عن جمالها فوراً...!!

لم يرَ عينين كهاتين من قبل...

لونهما مميز بحق...

وكأنهما خاصتان بها وحدها...!!

أما هي فقد منحتها نظرتها الجديدة نحوه المزيد من تفاصيل ملامحه...

حاجبان كثّان منعقدان بتلك الطريقة التي تظن معها أنهما لن ينفرجا أبداً...

عينان زيتونيتان ثاقبتان أثارتا في جسدها قشعريرة خوف خفيفة...

أنف أشم مرتفعٌ في كبرياء يليق به...

ذقنٌ خفيفة مهذبة راود شعيراتها الداكنة القليل جداً من أثر المشيب الذي زادها رونقاً...

رأسٌ حليق بخصلات شعر داكنة بالغة القصر ...

شفتان...!!!

انقطعت أفكارها عند هذه النقطة وهي تغض بصرها عنه في مزيج من حياء ووجل...

بينما ضاقت عيناه أكثر وهو يعيد التفرس في ملامحها ليقول بصرامة:

_بدلي ملابسك واستريحي اليوم من عناء السفر.... وغداً تتسلمين عملك.

كانت عبارته من الرقة بمكان...

لولا تلك النبرة الصارمة التي يتحدث بها...

ياإلهي!!!

إذا كانت هذه طريقته في التحدث بلطف...

فماذا سيكون أسلوبه لو أراد تعنيفها...؟!!!!

ستتجنبه تماماً...

ستتحاشى حتى مجرد رؤيته...

كان الله في عون زوجته...

إنها بالكاد تحتمل نظراته القاسية...

فكيف بمن احتملته طيلة هذه السنوات؟!!!

قامت من مكانها أخيراً وهي تقول بتهذيب:

_أين غرفتي؟!

نظر إليها بقسوة للحظة ثم قال بصرامة:

_اجلسي!

شعرت بالخوف يجمدها مكانها من تلك الشرارات المشتعلة التي انبعثت بين" زيتونيّتيه"...

لكنها جلست بعدها وهي ترمقه بنظرات وجلة...

ليقول بعدها وهو يلوح لها بسبابته في لهجة تحذيرية:

_من أذن لكِ بالوقوف ؟!!!هذا هو درسك الأول هنا...لن تفعلي شيئاً دون إذني.

ثم وقف مكانه ليقترب منها بخطوات بطيئة مثبتاً بصره بعينيها الخائفتين ...

حتى صار قبالتها تماماً...فقال بلهجته المسيطرة:

_لا أحد هنا يفعل شيئاً إلا بإذني!!

وجدت نفسها رغماً عنها تومئ برأسها في صمت...فقال بخشونة:

_قومي!

قامت من مكانها لتقف قبالته...

وعيناها تتعلقان بعينيه في خوف يمتزج بالترقب...

هذا الرجل لا يستحق هاتين العينين الزيتونتين...

الزيتون رمز "السلام"...

وهذا رجل تدق نظراته طبول "الحرب" في حدقتين مشتعلتين بالقسوة!!

لكنها لن تستسلم لضعفها أمامه...

حتى وهي تعلم أنها تحتاج هذا العمل...

لكنها لن تسمح لهذا الرجل بامتهان كرامتها ...

لن تخفض رأسها له ولا لغيره!!

لقد اكتفت من صفعات قسوة البشر على صفحة براءتها...

ولن تخضع بعد!!!

لهذا أخذت نفساً عميقاً....

ثم واجهته بنظرة قوية أبعد ما تكون عن نظراتها التي كان الخوف يكسوها منذ قليل...

لتقول بعدها بصلابة:

_ أوامرك تقف عند حدود عملي...لكن تصرفاتي الشخصية تخصني وحدي...لو كان هذا لا يناسبك فاطلب من الخادمة أن تعيد لي حقيبتي وسأرحل فوراً.

قست عيناه أكثر وهو يتأملها بنظرات مخيفة...

قبل أن يقول ببطء:

_أعيدي ما قلتِه !

ورغم الخوف الذي كان يغزوها وهي كارهة....

تشبثت بقناع صلابتها فرفعت رأسها بكبرياء ثم أعادت عبارتها بنفس التماسك...

هنا ضاقت عيناه أكثر ثم التمعتا ببريق عجيب...

وقد ساد الصمت بينهما للحظات...

ليقول بعدها ببرود أخافها أكثر من قسوته:

_الخادمة ستذهب بكِ إلي غرفتك.

رمشت بعينيها عدة مرات...

لا تصدق أنه أنهى الحوار هكذا!!!!

هي لاتزال غارقة في أفكارها المتخبطة نحو هذا الرجل...

لا تستوعب ردود أفعاله الغريبة...

لقد توقعت منه غضباً أو ثورة...

أو حتى جدالاً...!

لكن بروده هذا يخيفها!!!

لهذا وجدت قلبها ينتفض ذعراً عندما سمعته ينادي الخادمة...

ليقول لها بعدها بنفس البرود المخيف:

_شعركِ هذا يجب أن تغطيه.

عقدت حاجبيها بشدة فلوح بسبابته قائلاً بلهجة أكثر قسوة:

_هذا ليس تصرفاً شخصياً...هذه عاداتنا هنا!

أطرقت برأسها للحظات...ثم أومأت برأسها إيجاباً...

لترفع وجهها نحوه بعدها مترقبةً المزيد من كلماته...

لكنه كان قد أعطاها ظهره لينصرف...

دون أن ينتظر ردها...!!!!

========================

_كفاك الله شر الحرام يا ابني!!

همس بها الشحاذ الفقير لعبد الله الذي خرج لتوه من صلاة العشاء بالمسجد بعدما أعطاه صدقته...

فوخزت عبارته ضميره...

وهو يشعر بها تملأ كيانه طوال طريق عودته للمنزل....

لكنه نفضها عن رأسه وهو يصعد الدرج نحو شقته...

ليشعر بحمل ثقيل على صدره...

صفا المعموري!!!

امرأة كاملة يحسده عليها الجميع...

صفقة رابحة بدت له في أول الأمر ككنز ثمين...

امرأة عاقلة حنون ...

تحبه كثيراً ولا تبخل عليه بشئ...

لا بعاطفة...

ولا بمال....

لكنه يشعر دوماً أنه لا يكتفي بها!

لا...ليس الأمر في قدرتها علي الإنجاب فهذا الأمر لا يؤرقه كثيراً...

لكن المشكلة أنها -كأنثى-لا ترضيه!

عندما يقارن بينها وبين النساء اللاتي يراهن على تلك المواقع الشائنة....

يشعر أنه قد غُبن حقاً في هذه الزيجة....

ولو أضاف لهذا- شعوره بالنقص- نحوها لأنها أكثر ثراءً منه ....

فالمحصلة هي شعوره بأنها اشترت رجولته بمالها...

وهو ما يشعر به كحجر ثقيل علي صدره!!!!

ولعل هذا هو سبب تهوره معها دوماً...ونفوره -الغير مبرر-منها...

حتى أنه قد ألقى عليها يمين الطلاق مرة من قبل ....

لكنه ردها بسرعة بعدها عندما شعر بحاجته إليها!

كان قد وصل في هذه اللحظة لباب منزله....فزفر في ضيق وهو يفتح الباب بقنوط...

ليهتف كعادته:

_السلام عليكم !

تلفت حوله في دهشة وهو يرى صالة المنزل خالية...

قد تكون رؤى معتزلة بغرفتها كعادتها...

لكن...أين صفا؟!!!

إنها دوماً تنتظره هنا لتكون في استقباله عندما يعود من صلاة العشاء!!!

توجه نحو غرفتهما ليجدها مستلقية علي سريرهما تعطيه ظهرها....

فجلس جوارها علي طرف الفراش يهمس بخفوت لم يُخفِ دهشته:

_صفا...هل نمتِ مبكراً هكذا؟!!!

انتفض جسدها ببكائها فتنهد في حرارة....ثم أدار جسدها نحوه ليهمس بإشفاق:

_لماذا تبكين؟!!

لم تستطع إجابته مع كل هذه الدموع التي كانت تغرق وجهها....

فربت على كتفها برفق ليعاود همسه بحنان لا يدعيه:

_هل هو موضوع الأطفال ثانية؟!!!

أغمضت عينيها بقوة للحظات دون رد...

ثم قامت من الفراش لتتوجه نحو حاسوبه المحمول الذي نسيه مفتوحاً على طاولة مكتبه...

ثم أدارت شاشته نحوه لتهمس بعتاب:

_ما هذا يا "شيخ" عبد الله؟!!!!

===========

_ما الأخبار؟!

هتف بها فهد محدثاً الخادمة في مطبخ تلك الشقة التي يحتجز فيها جنة...

كان قد تركها منذ الصباح ولم يعد إلا الآن...

فأجابته الخادمة بتهذيب خانع:

_تتناول دواءها وطعامها بانتظام ...ولا تقوم من سريرها إلا للصلاة.

عقد حاجبيه بشدة وهو يسألها:

_الصلاة؟!

أومأت الخادمة برأسها إيجاباً ...

فازدرد ريقه ببطء وهو يشعر بشعور غريب...

هذه المرأة...

متى ستكف عن إثارة ذهوله؟!!!

إنها -بالكاد-تستطيع الوقوف...

ومع هذا تحرص على صلاتها بهذا الانتظام!!!

لهذا عقد حاجبيه باهتمام وهو يسألها السؤال الذي كان يشغله منذ الصباح:

_هل تبكي؟!

هزت الخادمة رأسها نفياً لتقول بنفس اللهجة الخانعة:

_لا...إنها دائمة الشرود...وكأنها لا تنتمي لعالمنا...حاولت استدراجها لحديث كما طلبتَ مني...لكنها كانت ترد باقتضاب ثم تعود لشرودها.

أومأ برأسه في إشارة للخادمة بالانصراف ثم تنهد في حرارة وهو يتوجه نحو غرفتها...

كاد يطرق الباب لكنه تراجع...

ليبتسم في خبث وهو يفكر...

لن يطرق الباب بل سيدخل هكذا فجأة...

ليرى كيف ستكون ردة فعلها...!!!!

إنه يحب استفزازها بشدة...

يحب بريق العناد والتحدي في عينيها...

ثم إنها لا تزال تدين له بالكثير...

هو لم يبدأ انتقامه بعد...

وهو رجل لا يترك ثأره أبداً!!

لهذا فتح الباب فجأة لتلتفت هي نحوه بحدة...

فيلمح وجهها الذي كان يلتمع لمعة حقيقية هذه المرة...

لمعة دموع!!

عقد حاجبيه بشدة وهو يقترب منها بخطوات ثابتة...

لكنها أشاحت بوجهها بسرعة...

ثم رفعت ركبتيها إلي صدرها لتحيطهما بذراعيها وتدفن وجهها الباكي بينهما...

لن تسمح له أن يفرح برؤية دموعها أبداً...

لقد أخذها على حين غرة عندما فاجأها بقدومه...

لكن ما ناله من نظرة تشفٍّ ستكون الأولى والأخيرة!!

هي لا تبكي خوفاً منه...

ولا ندماً على ما فعلته...

هي تبكي لأنها تخشى أن يقهرها...

أن يأخذ منها -عنوة-ما هو حق ل"حسن"!!!

حسن وحده هو زوجها الذي يستحق جسدها...

حتى لو واراه التراب...

ستبقى على عهدها معه حتى تلقاه!!!!

جذب الكرسي جوار سريرها ليجلس عليه بهدوء وعيناه عالقتان بوجهها المدفون بين ذراعيها...

لم يتصور أن رؤيتها تبكي ستؤثر فيه هكذا...

لكن يبدو أن هذه المرأة كل ما فيها قوي طاغٍ

قوتها ساحرة...

وضعفها آسر..!!!

ظل على صمته المتأمل لها لدقائق...

لكنها لم ترفع رأسها...

فاضطر لاستفزازها عندما قال ببرود:

_وهكذا تبكين أخيراً مثل بقية النساء ؟!! لماذا جرؤتِ على أن تتفي في وجهي إذن ؟!! ماذا كنتِ تتوقعين كنهاية لتحديكِ الوقح لي؟!!

لم يصله ردها للحظات أخري...

فزادت رغبته في استفزازها أكثر ليقول بسخرية لاذعة:

_يمكنني العفو عنكِ لو قبّلت يدي الآن واعتذرتِ.

ظلت على حالها لدقيقة أخري كاد يفقد فيها صبره فيرفع وجهها إليه ولو قهراً...!!

لكنها رفعت رأسها أخيراً لتمسح دموعها بأناملها في قوة ملكية...

ثم قالت بصلابة:

_تظنني أبكي خوفاً أو ندماً؟!!! لا يا ابن الصاوي...دموع جنة الرشيدي أغلى من أن تذرفها لذلك.

ابتسم في إعجاب حقيقي وهو يدور بعينيه علي ملامحها في انبهار لم يملك سواه في هذه اللحظة...

لكنه سألها ببرود أجاد إخفاء مشاعره الحقيقية:

_وما سبب دموع جنة الرشيدي الآن إذن؟!!

أشاحت بوجهها عنه لتهتف بحدة:

_ليس هذا من شأنك!

هنا اتسعت ابتسامته وهو يقوم من مكانه ليجلس جوارها على طرف الفراش ...

ثم أدار وجهها الذي أشاحت به إليه قائلاً ببطء:

_الآن وقد صارت صحتكِ أفضل...يمكنني البدء في انتقامي.

ابتسمت بسخرية لتقول بتماسك يناقض بكاءها منذ قليل:

_قلت لك ليس لديّ ما أخسره!

ارتفع حاجباه للحظة ثم همس باقتضاب:

_حريتك!

عقدت حاجبيها بتساؤل فأردف ببطء قاتل:

_أنتِ جعلتني أوقع علي عقد زواج رغم أنفي...وأنا سأفعل المثل معكِ...هذا هو العدل أليس كذلك؟!

ارتدت للخلف في صدمة لتهمس بذهول:

_ماذا تقول؟!

ابتسم في رضا واضح عن صدمتها التي كست ملامحها.....

ثم هز كتفيه قائلاً:

_ترى كيف سيكون تصرف شقيق رؤى المتزمت لو علم عن عقد الزواج العرفي الذي تعتبرينه أنتِ كنزاً؟!!!

عقدت جنة حاجبيها بشدة وهي تفكر...

هذا الوغد محق...

تلك الورقة التي أجبرته على التوقيع عليها ليست مكسباً حقيقياً...

لكنها اعتبرتها وقتها أفضل من لا شئ!

ومع هذا لو نفذ ابن الصاوي تهديده وعلم شقيق رؤى بهذا الأمر فسيقتلها...

سيقتلها حقيقة لا مجازاً ودون تفكير!!!!

هي تعرفه جيداً...

لا مزاح لديه في هذه الأمور...

رؤى الحمقاء ستدفع ثمن خطئها غالياً...

أغلى بكثير مما توقعت!!!

لهذا قست ملامحها وهي تقول له بحنكة محامية اعتادت التفاوض:

_ألقِ أوراقك كاملة...أنا أستمع!

ابتسم وهو يشعر بقرب انتصاره ليقول بغطرسة:

_هي ورقة واحدة رابحة يا صغيرة...صمتي مقابل زواجي منك!

عقدت حاجبيها بشدة ليقرأ الرفض في عينيها....

فتناول هاتفه ليلوح به أمام وجهها قائلاً:

_مكالمة واحدة لعبد الله...ونقرأ الفاتحة سوياً لصديقتك صاحبة الصون والعفاف!!!!

هزت رأسها في عدم تصديق لتهتف بعدها بذهول:

_أنت مجنون؟!تسلبها هي شرفها وتريد أن تتزوجني أنا؟!

أمال رأسه يتفحصها بتسلية ثم ابتسم ابتسامته الجانبية المقيتة ليقول ببطء:

_تعودت من صغري أن أتملك كل ما يعجبني...

عقدت حاجبيها بشدة وهي تكز على أسنانها...

فيما أردف هو ببرود مستفز:

_وأنتِ تعجبينني!!

ارتجف جسدها ارتجافة خفيفة...

لا...ليس خوفاً ...

ولاحتى خجلاً!!

لكنها كانت ارتجافة طير ذبح بسكين ثلم!

هي تعرف أن هذا الوغد جاد في عرضه رغم جنونه....

تفهم من هم على شاكلته وتدرك أنها صارت رهانه الجديد...

ومثله يستنكف أن تستعصي عليه امرأة....

تماماً كما تعرف غرضه من هذا الزواج...

ليس أن ينالها...

بقدر أن ينال منها!!!

وهي لن تسمح بكليهما!!!!!

لكن...

كيف تقبل أن تتزوج رجلاً غير حسن؟!!!!

ومن؟!!!!

هذا الوغد ؟!!!!!

لكنها لا تملك حق الرفض...

الحقير أحكم شباكه حولها....

يريد أن يتملكها بعقد زواج وبالطبع سيكون سرياً...

لأن فهد الصاوي العظيم لن يسمح بانتشار خبر كهذا!!!!

ازدردت ريقها ببطء ثم سألته بتماسك تدعيه:

_وماذا لو رفضت ؟!

اقترب بوجهه منها ليهمس بنبرته المسيطرة:

_لو فكرتِ جيداً فستعلمين أنها فرصة لكِ ...أنتِ في قبضتي بالفعل...ويمكنني فعل ما أشاء بكِ لكن هذا ليس غرضي...أنا أريد كسر أنفك هذا...أريدكِ أن تكوني لي كاملة...حريتك ستكون ملكي...حتى يمكنني أن أزهق أنفاسكِ ببطء متي شئت.

ابتعدت بوجهها عن وجهه وهي تعيد التفكير في عرضه...

هي لا تضمن ماذا يمكنه فعله بها حتى دون زواج...

هي فعلا تحت قبضته بالكامل....

كما أن هذا الوغد يهددها بإبلاغ عبد الله لو رفضت...

لكن ماذا عن زواجها به؟!!

كيف تسمح لرجل آخر بتملكها سوى حسن؟!!!

لا...أبداً لن يكون...

لن يكون جسدها إلا لمالك قلبها الأول والأخير...

حسن..

حسن وفقط!!!

إنها مضطرة للقبول...

للأسف هذا الوغد يبدو مريضاً بداء التملك...

ويبدو أنه يراها ضحيته الجديدة...

لكنها ستعرف كيف تترك ندبتها على كبريائه...

كما تركتها على وجهه من قبل!!!!!

وبهذا اليقين رفعت رأسها إليه لتقول بصلابة:

_هل تعرف أنني أكبرك بثلاثة أعوام؟!

ابتسم ساخراً وهو يميل رأسه متفحصاً لها بجرأة قبل أن يهمس بثقة:

_ثلاثة أعوام وستة أشهر ويومين بالضبط....لكن...من يهتم؟!!

ثم أردف ببرود:

_زواجنا لن يعلم به أحد...لكنني سأعرف كيف أخنقكِ به .

عادت تكز على أسنانها وهي تشعر بالغيظ...

الوغد جمع عنها المعلومات الكافية بالطبع...

ويبدو أنه لا شئ سيزيحه عن قراره بالانتقام.

ازدردت ريقها ببطء وهي تهمس بصوت خرج رغماً عنها مهزوزاً:

_كنت متزوجة!!

قست ملامحه فجأة ليلوح بسبابته في وجهها هاتفاً بحدة لم يدرِ سببها:

_عقد قران وليس زواجاً كاملاً.

ثم جذبها من ملابسها فجأة ليهتف بعنف:

_أم أن حسن هذا قد نال منكِ؟!!

شهقت بعنف عندما ذكر اسم حسن....

ثم وضعت كفها على شفتيه بقوة وهي تهتف بقسوة حادة:

_إياك أن تذكر اسم حسن على لسانك ....إياك!!

اتسعت عيناه في صدمة وهو يطالع مزيج المشاعر الغريب في عينيها الآن...

قسوة مفرطة وقوة هادرة وغضب عارم....

لكن كل هذا محاط بغلالة رقيقة من دموع فضحت حسرة لم تنجح في إخفائها!!!

هل كانت تحب حسن هذا إلى هذه الدرجة؟!!!

المعلومات التي جمعها تفيد بأنه كان زميلها في الجامعة...

لكنه كان يكبرها...

وعقد قرانه عليها ليموت بعدها بأيام في إحدي التظاهرات المنددة بالسلطة السابقة...

ومن يومها وهي عازفة عن الزواج...

هل من المعقول أنها لازالت تحبه حتى الآن؟!!!!

لا لا...

لا يصدق أن هناك امرأة بهذا الوفاء!

كلهن سواء...

لعلها فقط لم تجد فرصة أفضل...

وهو سيمنحها هذه الفرصة...

ليثبت لها قبل أن يثبت لنفسه ...

أنه لا وجود للحب والوفاء في هذا العالم....

بل المصالح...

والمصالح فقط!!!

لهذا أزاح كفها عن شفتيه ببطء...

ثم قال لها بخشونة لم يتعمدها:

_سأمر عليكِ في الصباح مع المأذون...لن تخرجي من هذا المكان إلا وأنتِ زوجتي!!

==========

_ما هذا يا شيخ عبد الله؟!!

همست بها صفا بمنتهى الألم....

همسها لم يحمل عتاباً بقدر ما حمل شعورها بالانكسار والخيبة....

لا تزال حتى الآن غير مصدقة لما رأته بمصادفة بحتة!!

لقد كانت تنظف مكتبه الصغير...

عندما انطلق صوت غريب من حاسوبه المحمول....

فتحته وهي تحاول إسكات هذا الصوت....

لتفاجأ عيناها بهذه المناظر البشعة..

لم تتمالك نفسها وهي تعدو نحو الحمام لتفرغ كل ما في جوفها من فرط الاشمئزاز....

لكنها عندما عادت لسريرها منهكة....

انحسر عنها شعورها بالاشمئزاز وعدم التصديق....

ليملأها شعور آخر...

شعور بالنقص...

بالإهانة!!!

لماذا يلجأ عبد الله المتدين و المتحفظ بطبعه لمثل هذه المواقع وهو رجلٌ عفّه الله بالزواج؟!!!

هل هي زهيدة في عينه إلى هذه الدرجة؟!!!

هل هذا هو سبب تباعده عنها منذ فترة؟!!!

أنها لم تعد ترضيه كامرأة؟!!!!

شعورها هذا أحرق صدرها بنيران جديدة....

الآن لم تعد مشكلتها معه مشكلة إنجاب فحسب....

لكن الأمر صار يتعلق بها هي...

بشخصها....

هي التي أحبته ومنحته كل ما يمكنها منحه دون تفكير في مقابل....

لتشعر اليوم...

واليوم فقط...

أنها لم تكن لديه سوى مجرد صفقة رابحة!!!

دجاجة منحته العديد من البيض الذهبي....

دون تعب!!!!

قطع هو أفكارها المذبوحة عندما اندفع نحو حاسوبه ليغلقه بقوة...

ثم أخذته العزة بالإثم ليهتف بحنق:

_كيف تجرؤين على التفتيش في حاجياتي؟!!! هل تراقبينني؟!!

أطرقت برأسها وهي تفكر بألم...

عبد الله لن يتغير...

لن يعترف أبداً بخطئه....

هي دوماً الملومة على كل شئ...

هي وحدها المطالَبة بدفع "فواتير" هذه العلاقة!!!!

لهذا لم يكن غريباً أن رفعت رأسها نحوه بعد لحظات...

لتهمس بخفوت وبكلمات مقتضبة:

_كانت مصادفة...كنت أنظف...آسفة!

قالتها وهي تكاد تتوجه نحو فراشهما من جديد...

لكنه سحبها من ذراعها بقوة وقد أسخطه ردها البارد أكثر...

ليهتف بغضب هادر:

_إياكِ أن تظني أنكِ ستكسرين عيني بشئ كهذا...نعم...أنا أشاهد هذه الأشياء....تدرين لماذا؟!!!
لأنني أفتقد امرأة في بيتي...أنتِ فشلتِ أن تكوني امرأة كما فشلتِ أن تكوني أماً!!

ولم يكد يتفوه بعبارته القاتلة حتى أشاح بوجهه وهو يشعر بالندم ....

لا يدري كيف خرجت منه هذه الكلمات...

بهذه القسوة...

وهذه الحقارة....

ولمن؟!!!

لصفا؟!!!!

وفي موقفه هذا الذي يستوجب أن يشعر بالخجل...

لا أن يتبجح هكذا؟!!!

لكن...لعل هذا بالضبط هو السبب...

هو لن يعترف أبداً بخطئه أمامها...

كفاه شعوره بالنقص معها...

ولن يزيده اليوم بذنوبه التي ظنها مستترة عنها!!!!!

وأمامه كانت هذه -المطعونة-بكلماته في الصميم واقفة في ثبات....

تتلقي سهام كلماته بصبر امرأة ليست عاجزة...

ولا ضعيفة....

لكنها ببساطة...عاشقة!!!!

هي تحبه حقاً...وتعرف أن معدنه أصيل...

لكنها -حتى الآن-عاجزة عن فهم سر هذا التشوه بروحه...

هذا التغير الذي طرأ عليه...!!!

طال صمتهما سوياً بعد عبارته القاتلة...

لتكون هي أول من يقطعه عندما همست بصلابة لعلها تجبر كسر روحها بكلماته:

_ولماذا تُبقي على امرأة -بلا قيمة-مثلي في حياتك؟!!!

كان غضبه الآن قد بلغ ذروته....

شعوره بالخزي مما اكتشفته عنه...

والذي زاد من الحِمل الثقيل الذي يشعر به علي صدره من ناحيتها...

جعله يؤول عبارتها على أنها تسخر منه و تعيّره بمساعدتها الدائمة له....

لهذا لم يشعر بنفسه وهو يهزها بين ذراعيه ليصرخ بحدة:

_هل تعيّرينني ؟!!! تظنين نفسك أفضل مني؟!!!!

أغمضت عينيها بقوة وهي تشعر أن صبرها حقا نفد...

لم تعد قادرة على التظاهر بالبرود والصلابة...

كل هذا كثير علي تحملها....

حقاً كثير...!!!

لهذا واجهته بقوة عينيها -التي تخيفه أحياناً-لتهتف بحدة مماثلة:

_أنت الذي تظن نفسك أقل مني....أنت الذي يشعر بالنقص!!

التمعت عيناه بجنون وهو لا يصدق أنها تجرأت على قولها....

على الضغط بكل قسوة على الجرح القديم...

ليجد نفسه أخيراً يصرخ دون وعي:

_أنتِ طالق!!

الفصل الخامس:

_جنة!!

اندفعت نحوها رؤى وهي تناديها بلهفة لترتمي في حضنها هاتفة وسط دموعها:

_أنا آسفة يا جنة ...أنا السبب...سامحيني!!

ضمتها جنة بقوة وهي لا تصدق أنها هنا معها....

لتهتف بعدها بسخط:

_كيف جئتِ هنا؟! ولماذا؟!!! أنتِ مجنونة؟!!!!!

مسحت رؤى دموعها وهي تهمس بحزن:

_لقد كنت أهاتفكِ لأخبركِ بمصيبتي الجديدة...لأجد فهد هو الذي يرد عليّ ليخبرني أنه يحتجزكِ هنا...ويطلب مني الحضور...لم أستطع الصبر وجئت كما طلب.

ضغطت جنة شفتيها بتوتر وهي تسألها:

_وما هي مصيبتك الجديدة هذه؟!!!

قصت عليها رؤى باقتضاب حكاية الخاطب الجديد...

والتي تأجلت بسبب طلاق صفا وعبد الله...

ولو أنها تثق أن قصة طلاقهما هذه لن تستمر...

عبد الله لن يستطيع الاستغناء عنها...

سيردها لعصمته كما فعل من قبل....

وحينها سيعيد التفرغ لأمرها مع ذاك الخاطب الذي لا تعرف حتى اسمه!

تنهدت جنة في حرارة وهي تضع كفها على رأسها لتهمس بألم:

_ماذا فعلتِ بنفسكِ يا فتاة؟!!!!

عادت رؤى تبكي وهي تشعر بالخزي...

هي لم تورط نفسها فحسب...

لكن ها هي جنة تدفع معها ثمن فعلتها الشائنة...

ومن يدري...ما الذي ينتوي فهد الصاوي فعله بها عقاباً على فعلتها؟!!!!

لكن جنة ضمتها بقوة لتخفيها بين ذراعيها هامسة بحنان رغم ما يملؤها من حزن:

_لا تبكي يا حبيبتي....فرجٌ قريب إن شاء الله!!

بينما كان هو واقفاً يراقبهما من بعيد...

كانوا جميعاً في انتظار المأذون وشاهديه ليتم اتفاقه معها والذي وافقت عليه مكرهة.

كان يشعر الآن بشعور غريب وهو يراها تحتضن رؤى بهذا الحنان الجارف...

وهذا الاحتواء الذي لم يرَه من قبل...

ملامح وجهها التي طالما رأى فيها القسوة والسخرية والبرود تحولت تماماً لملامح تنبض بالحنان والحب...

ورغماً عنه تعلقت عيناه بذراعيها اللذين يضمان رؤى وهو يتخيل نفسه مكانها!!!

لا...

ليس الأمر مجرد رغبة رجل بامرأة...

لكنها رغبته في حضنها هي بالذات!!!

يريد أن يتذوق حنان هذه المرأة الغريبة التي سحرته قوتها...

وأسره ضعفها...

ويكاد يذوب تلهفاً ليعرف كيف سيكون عطاؤها لمن تحب!!!!

ثم طال تأمله الصامت لهما وهو يفكر...

لماذا تساعد صديقتها بهذا التفاني والإخلاص؟!

هذه المرأة إما أن تكون أكثر أهل الأرض حماقة...

أو أكثرهم طيبة!!!

وفي الحالتين هي وقعت في قبضته...

ولن يتركها حتى يفك ألغازها كاملة!!!

ربما هو لا يزال لا يعرف ماذا يريد منها بالضبط...

لكن ...أمامه الوقت كله ليعرف...

بعدما يتملكها كما اعتاد في كل شئ يعجبه!!!

قطعت أفكاره عندما وصل المأذون و شاهداه...

فاقترب من جنة ورؤى ببطء ليقول ببرود:

_لقد أحضرت لكِ صديقتك لتتمّا الأمر معاً كما بدأتماه معاً!!!

قالها وهو حقاً لا يعنيها...

هو أحضر رؤى لكي يضمن تأثيرها علي جنة!!

فهو برغم كل شئ كان يخشى من رفضها...

لكنه أدرك بحدسه أن وجود رؤى بنفسها هنا سيدفع جنة للموافقة دون مماطلة...

وقد صدق حدسه!!

تجاهلت جنة عبارته وهي تشيح بوجهها....

بينما رمقته رؤى بنظرة عميقة....حملت كل عتبها وخيبتها وانكسارها....

هي لا تزال غارقة في صدمتها به...

لا تصدق كل ما حدث في هذه الأيام القليلة....

لا تصدق أنها سمحت لوغد كهذا بالدخول لحياتها فيسممها كلها بسواد خطيئتهما المشتركة...

وليتها كانت حياتها هي فقط...

لكن جنة أيضاً تشاركها عقابها دون جريرة ودون ذنب!!!

لكن فهد تجاهلها تماماً وهو يرمق جنة بنظرة متحدية ليقول ببرود:

_هيا يا عروسي!!

شهقت رؤي بعنف وهي تضع كفها علي شفتيها...

لا...لم تكن غيرة!!

فلم يكن الموقف يسمح بترف هذا الشعور الآن...

خاصة وهي تعلم علم اليقين أن فهد لن يتزوجها إلا ليكسر أنفها فحسب...

جنة القوية العنيدة التي وقفت في وجهه ويريد إذلالها....

لكن شهقتها المشفقة كانت لأنها تعلم وقع هذه الجملة بالذات-علي جنة الآن!!!

جنة التي أغمضت عينيها بقوة ...

لتترنح قليلاً في مكانها بحركة خفيفة لكنها لم تخفَ عليه...

لتسندها رؤي هامسة في أذنها بإشفاق يمتزج بالحزن:

_كوني قوية يا جنة!!

لكن جنة لم تسمعها...

عبارته الباردة أيقظت ذكراها الخالدة...

والتي تعتبرها ملكة ذكرياتها بلا منازع...

_هيا يا عروسي.

بصوت حسن هذه المرة ....

وهو يتأبط ذراعها ليهمس في أذنها ليلة عقد قرانهما بصوته العذب:

_أخيراً...لن يفرقنا شئ!!!!

فتريح رأسها على كتفه وكأنها لا ترى سواه لتهمس بهيام:

_لا شئ أبداً يا حسن!!!

دمعت عيناها وهي تعود لواقعها البائس...

لتصرخ أعماقها دون صوت....

لم أكن أعلم وقتها أن الموت سيفعل يا حبيبي!!

لكنني على عهدنا...

جنتك التي كانت وستكون لك...

لم يطأها قبلك أحد...

ولن يدخلها بعدك أحد...

جنتك التي جفت أشجارها بعدك...

وهجرتها طيور العشق بلا رجعة...

تنتظرك لتزهر معك من جديد...

ربما ليس في هذا العالم...

لكنها ستبقى جنتك وحدك حتي تلقاك!!!!

أخذت نفساً عميقاً تمالكت به دموعها التي لم تفوتها عيناه المتربصتان بها...

ثم ربتت علي كف رؤى لتهمس بثبات:

_هيا بنا!

قالتها وهي تندفع للخارج متجاهلة إياه بشموخ...

وكأنها لا تهتم...

لتتبعها رؤى مطأطأة الرأس وهي تشعر بالخزي والانكسار....

جلست قبالته على الكرسي ...

وأمامهما كان الرجل يتم إجراءاته بطريقة عملية...

لكنها كانت غافلة عن الجميع ...

غارقة بشرودها...

ليلاحظ هو تلاعبها -العصبيّ-بدبلتها الذهبية في إصبعها !!!

اتسعت عيناه بارتياع وبصره يتجمد عليها بشعور خانق...

كيف لم ينتبه أنها لازالت ترتدي تلك الدبلة في يدها؟!!

عقد حاجبيه بغضب وهو يراها تتلمسها بكل هذا الحنان...

ليراها بعين خياله وكأنها تتلمس ذاك الراحل ...

نعم...حسن...

هاجسه الذي يؤرقه منذ سمعها تتحدث عنه بالأمس!!!

ما الذي كان عليه هذا الرجل حتى تحبه امرأة كهذه كل هذا الحب؟!!!

بل وتخلص له حتى بعد سنوات من وفاته...

ما الذي كان يجمع بينهما أكثر مما يجمع أي امرأة برجل؟!!!!

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يلمح الدموع المتحجرة في عينيها الشاردتين....

وارتجافة أناملها المتشبثة بدبلتها الذهبية وكأن روحها فيها....

ليقبض كفه بقوة هو الآخر وهو يضغط على أسنانه بقوة مقسماً لنفسه أن ينزع حسن هذا من قلبها بأي طريقة...

لن يكون فهد الصاوي لو لم يتملكها كاملة...

كاملة....

كاملة!!!!

===========

طرقت ماسة باب غرفة السيدة حورية برفق في يوم عملها الثاني هنا...

هي لم تغادر غرفتها منذ البارحة كما أمرها السيد عاصي....

واكتفت بالراحة من عناء السفر الطويل....

سمعت صوت حورية تدعوها للدخول...

فتنحنحت بارتباك وهي تدلف إلى الداخل لتهمس برقتها الفطرية:

_صباح الخير يا سيدتي.

ابتسمت حورية في حنان وهي تقول بطيبة واضحة:

_صباح الخير يا ماسة....ما شاء الله....أنتِ جميلة حقاً كما تقول الخادمات هنا...منذ جئتِ بالأمس ولا حديث لهن سوى عن ماسة بعينيها الفضيتين.

ابتسمت ماسة بخجل وهي تهمس بارتباك:

_شكراً يا سيدتي.

تأملتها حورية بتفحص لتقول لها بعد لحظات:

_قولي حورية فقط يا ماسة....الفارق في السن بيننا ليس كبيراً إلي هذا الحد ...

أومأت ماسة برأسها إيجاباً وهي تتفحص ملامحها بارتياح...

السيدة حورية امرأة فاتنة...

جمالها جذاب آسر ...

ومريح...

على عكس زوجها تماماً!!!

ثم تقدمت نحوها لتتناول ذراعها وتقيس لها "الضغط"...

ثم طلبت منها كل الوصفات"الروشتات" الطبية التي وصفت لها...

لتتأكد من توافر الأدوية كلها هنا...

ثم أومأت برأسها في رضا وهي تهمس بخفوت:

_الوضع مستقر...لكن يبدو أن الحمل يحتاج لتثبيت ...هذه الحقن كافية...لكن يجب أن تستريحي تماماً ولا تتحركي.

تنهدت حورية بحرارة وهي تسند رأسها علي ظهر سريرها لتهمس بشرود:

_أما عن عدم الحركة فالسيد عاصي لن يدعني أغادر هذا الفراش....لكن ماذا عن الراحة يا ماسة؟!!! من أين يأتون بها؟!!!

تأملتها ماسة بإشفاق وهي تشعر بحزنها المستقر بعينيها...

ثم أطرقت برأسها وهي تسألها بخجل:

_هل تريدين شيئاً آخر ؟! ميعاد حقنتك بعد ساعة.

ابتسمت حورية وهي تقول بحنان:

_ابقي معي قليلاً...دعينا نتحدث في أي شئ...لقد استراح قلبي لكِ كثيراً.

أومأت ماسة برأسها وهي تهمس بامتنان:

_وأنا أيضاً!!

قالتها ثم لاحظت تصلب نظرات حورية على شئ ما خلف ظهرها بخوف واضح....

فالتفتت خلفها بحركة تلقائية...

لتنتفض بدورها من مكانها وهي تعدل حجابها على رأسها كما أمرها هامسة بخفوت:

_مرحباً سيد عاصي.

تجاهلها عاصي تماماً وهو يتوجه نحو حورية بخطوات بطيئة واثقة...

ثم قال لها بصوته القاسي:

_لا تقصير في الدواء...لا نهوض من الفراش...لا طعام إلا في حدود المسموح.

إلى هنا كانت ماسة واقفة مكانها مطرقة برأسها تشعر بأن أوامره -رغم صرامتها- منطقية....

لكنها عادت تلتفت نحوه بحدة عندما سمعته يردف بنفس النبرة القاسية:

_وأي زيارات لكِ غير مسموح بها!!

عقدت ماسة حاجبيها وهي تشعر بالغرابة....

لا زيارات؟!!!

لماذا؟!!!

ربما يخشى عليها من العدوى مثلاً....

أو ربما من الحسد!!!

لكن ماذا عن والديها...

أوامره الصارمة تشمل الجميع....

لماذا؟!!!

ورغماً عنها راودتها ذكريى مشابهة لعزيز...

فابتسمت في حنين دافق وهي تتذكر...

_ألف سلامة يا ماسة!!! ليتني أنا مكانك!!

همس بها عزيز بحنانه المميز وهو يناولها كوب الليمون الذي أعدته رحمة...

مستغلاً انشغال الأخيرة في المطبخ ...

فانتفضت ماسة مكانها لتقوم من فراشها جالسة وهي تهمس بإعياء:

_اخرج يا عزيز...لا يصح أن تدخل غرفتي هكذا.

جلس جوارها على طرف الفراش وهو يهمس بقلق:

_أنتِ لن تتمكني من مغادرة الفراش....وأنا لم أحتمل ألا أطمئن عليكِ...لا تقلقي...أمي مشغولة في المطبخ.

وضعت كفها علي رأسها الذي كان يؤلمها بحق لتهمس بضعف:

_متعَبةٌ كثيراً .

ثم التفتت إليه لتهمس بحب:

_لكنني افتقدتك أكثر...اخرج الآن وسألحق بك.

هز رأسه نفياً وهو يتأملها بقلق صادق ليهمس بلهجة آمرة:

_لن تغادري فراشك...فقط اشربي الليمون وسأغادر بعدها.

تناولت منه الكوب وهي تبتسم هامسة بامتنان:

_شكراً يا عزيز!!

تنهد في قلق وهو يراقب ملامحها الشاحبة...

حتى انتهت من كوبها فتناوله منها ليضعه جانباً...

ثم تناول غطاءها برفق ليضعه عليها هامساً بحزم حنون:

_عودي لنومك ولا تخرجي من الفراش حتى تستردي عافيتك.

عادت تتمدد علي الفراش وهي تشد غطاءها عليها....

وعيناها متعلقتان به في عاطفة صادقة....

ليقترب بوجهه منها هامساً بصدق:

_لم أتمنِ يوماً أن تكوني زوجتي كما الآن...كم أريد أن أضمك لصدري في هذه اللحظة فأمتص كل ألمكِ وتعبكِ.

اتسعت عيناها للحظة شعرت بعدها أن وجنتيها على وشك الاحتراق خجلاً...

لترفع الغطاء حتى غطت به رأسها كاملاً ليصله همسها الخجول من تحته:

_عيب يا عزيز...اخرج الآن...حالاً!!!

ابتسم وقتها بحنان يمتزج بقلقه عليها...

لكنه همس مشاكساً:

_قولي...اخرج يا حبيبي...وسأخرج بعدها فوراً!!!

همست بها بخجل من تحت الغطاء...

فاتسعت ابتسامته ثم همس بهيام:

_اعتني بنفسكِ لأجلي.

_هل أنتِ دوماً شاردة هكذا؟!

شهقت رغماً عنها وصوته القاسي يقطع عليها ذكراها الرقيقة...

فتحسست سلسلتها بحركتها التلقائية لتهمس باضطراب:

_عذراً سيد عاصي!!هل تريد شيئاً؟!!!

ضاقت عيناه بتركيز وهو يقرأ الاسم المنقوش على دلاية سلسلتها ....

فابتسم ابتسامة جانبية ساخرة....اختفت بسرعة كما ظهرت...

ليقول بعدها بصرامة:

_تعاليْ معي!!

==============

جلست رحمة على سرير ماسة تحتضن وسادتها بحنان وهي عاجزة عن التحكم في دموعها...

لا تدري كيف تمكنت ماسة من الاختفاء هكذا...؟!!!

وكيف سيكون حالها وهي تواجه الحياة وحدها....؟!!!

قطعة من قلبها أخذتها ماسة معها وهي راحلة....

بل لا تبالغ لو قالت....قلبها كله...!!!!!

فتحت أناملها المنقبضة علي رسالة ماسة التي تركتها لها قبل رحيلها لتستيقظ فتجدها جوارها علي الوسادة...

أمي الحبيبة...

عذراً لو كنتُ قد خيبتُ أملكِ فيّ دون قصد...

لكنني أبداً لن أفعلها عامدة...

أنتِ منحتِني حياتي السابقة يوم قررتِ أن تكوني لي أماً...

وأنا سأمنحك حياتي القادمة عندما أبتعد عن عزيز...

نعم عزيز كان حياتي القادمة...لكنني سأتركه فقط لأجلكِ عساكِ لا تندمين علي معروفٍ صنعتِه بطفلة يتيمة فكبرت لتخطف فرحة قلبك بابنك....

لا تقلقي على ماستك...فهي صلبة رغم الخدوش...

أحبكِ أمي...وستبقين دوماً بعينيّ كل الرحمة!!

سالت دموع رحمة غزيرة وهي تقبض كفها من جديد على رسالتها بعد أن قبلتها لتهمس وسط دموعها بحرقة:

_لأجلكِ يا ابنتي قبل أن يكون لأجله....عزيز لم يكن ليداوي جرحكِ أبداً...بل كان سيزيده!!

ثم رفعت رأسها للسماء لتدعو بتضرع:

_احفظها يارب أينما كانت...وردها لي...

ثم تهدج صوتها وهي تردف :

_لأمها!!

======

جلست قبالته على مكتبه الضخم بغرفته الكبيرة...

والتي تشبه الغرف العظيمة لل"بكوات" في مصر القديمة كما كانت تراها علي التلفاز...

هذا القصر قديم الطراز لكنه فخم حقاً...

كل قطعة فيه تحفة أثرية...

لم تكن تصدق يوماً أن ترى شيئاً كهذا في الواقع بعدما قضت عمرها السابق كله في حارة رحمة الفقيرة شديدة التواضع.

أطرقت برأسها تنتظر منه أن يبدأ الحديث...

لكنه ظل يتأملها متفحصاً للحظات....

ثم قال لها بنبرته القاسية :

_الطفل الذي تنتظره السيدة هو أهم شئ في حياتي الآن....هل تدركين معنى هذا؟!!!

أومأت برأسها إيجاباً وهي تتحاشى النظر إليه...

ثم همست بخفوت:

_بارك الله لكما...سأبذل قصاري جهدي للعناية بالسيدة.

خبط بقبضته علي المكتب ليهتف بصرامة:

_قلت لكِ الطفل...وليس السيدة...هل تفهمين؟!

خفق قلبها بعنف وهي تشعر بالنفور من قسوة هذا الرجل...

حتى لو كان هذا ما يملأ صدره حقاً...

فلا يليق أن يصرح به هكذا....وبصوته الجهوري هذا...

ألا يخشى أن يسمعه أحد الخدم فيبلغ السيدة حورية...؟!!!

لكن...من ذا يجرؤ هنا على فعلة كهذه....؟!!!!

بل من يملك محاسبة "الشيطان" كما يلقبونه على ما يقول....؟!!!

هو هنا السيد المطاع بلا جدال...

فرغم أنها لم تقضِ هنا سوى يوم واحد...

لكنها سمعت من أحاديث الخدم الكثير عن قسوته وجبروته...

قطعت أفكارها عندما عاد يهتف بصوته الخشن:

_لماذا لا تردين ؟!

التفتت إليه لتختلس نظرة لعينيه القاسيتين قائلة ما أملاه عليها ضميرها بثبات:

_سيد عاصي...اسمح لي...صحة السيدة مرتبطة بصحة الطفل...لو أردت الخير لطفلك فيجب أن توفر لزوجتك ....

قاطعها هاتفاً بصرامة:

_لا تقولي زوجتي...هي السيدة حورية ...

مطت شفتيها في استياء وهي تكاد تقسم أنها لم تقابل في حياتها من هو أشد غلظة من هذا الرجل...

من أين يأتي بكل هذه القسوة التي تغلف نظراته قبل كلماته....؟!!!

إنه حقاً مخيف ك...شيطان!!!

ازدردت ريقها ببطء لتعاود كلامها بصبر:

_حسناً...صحة الطفل مرتبطة بصحة السيدة ...وأنا لاحظت أن حالتها النفسية ليست جيدة...

عقد حاجبيه وهو يسألها ببطء:

_هل اشتكتِ إليكِ بهذه السرعة؟!!!

هزت رأسها نفياً لتهتف بسرعة وقد شعرت بالخوف من أن يؤذي زوجته :

_لا لا ....إطلاقاً...إنه مجرد إحساس.!

نظر إليها طويلاً ليأسرها بقوة عينيه الزيتونيتين فلم تستطع الفكاك من سيطرتهما رغم الخوف الذي كانت تشعر به....

ليعود بعدها بظهره إلي الخلف دون أن يرفع عينيه من عليها قائلاً بنبرته القاسية:

_تتدخلين فيما لا يعنيكِ!!

أخيراً امتلكت الشجاعة لتفك عينيها من أسر عينيه فأطرقت برأسها قائلة:

_لا...أنا أتحدث في صميم عملي....صحة السيدة مسئوليتي...وحالتها النفسية ستؤثر على هذا...لهذا تكلمت بصراحة.

ظل ينظر إليها طويلاً في ثبات...

ثم قال ببرود:

_عودي لغرفتك.

تنفست الصعداء أخيراً وهي تقوم بسرعة لتندفع نحو الباب وهي تشعر بالارتياح لخلاصها من رفقته البغيضة....

لكنها توقفت مكانها عندما سمعت هتافه خلفها:

_هل تحلمين بكوابيس في العادة؟!!!

عقدت حاجبيها بشدة وهي تضع كفها على صدرها...

كيف عرف؟!!!

إنها اعتادت كوابيسها منذ فترة ....

بالتحديد منذ ذلك الحادث الذي تعرضت له....

رحمة العزيزة كانت تنام جوارها دوماً لهذا السبب...

لكن ليلة أمس كانت أول ليلة تقضيها مع كوا بيسها دون حضن رحمة....

لهذا كانت أصعب ليلة مرت عليها منذ وقت طويل....

لكن...كيف عرف هو عن هذا؟!!!

غرفتها تقع في آخر الرواق الذي تقع فيه غرفته....

تراه سمع صرخاتها مثلاً؟!!!!

انقبض قلبها وهي تشعر بالقلق...

هل سيؤثر اكتشافه هذا على عملها هنا؟!!!

ربما ظنها مجنونة أو ما شابه!!!

التفتت نحوه أخيراً ببطء لترمقه بنظرات متسائلة...

لكنه شبك كفيه أمام وجهه دون أن يرفع عينيه من عليها قائلاً ببرود:

_لا شئ هنا يخفى عني.

عقدت حاجبيها بتوتر وهي تنتظر منه المزيد من التوضيح أو الشرح...

لكنه أردف بصرامة:

_عودي لغرفتك!

==========

_لا يا جميلتي...سأكون عندكِ في موعدي بالضبط.

قالها معتصم بصوته الرخيم لمحدثته على الهاتف...

وهو يرمق دعاء بنظراته المتفحصة....

لكنها تجاهلته تماماً وهي تتظاهر بالانشغال في عملها....

كم تود الآن في هذه اللحظة لو تقذفه بأي شئ في رأسه...

لتشوه وسامة وجهه هذه التي تغريه بالعبث مع الفتيات...

حمقاء هي ...

بل قلبها هو الأحمق...

عندما تعلق برجل كهذا...!!!!

قطعت أفكارها عندما شعرت به يقترب من مكتبها ....

ليقول بتحفظ وبلهجة مختلفة تماماً عن لهجته التي كان يتحدث بها مع صديقته:

_كيف حالك يا دعاء؟!!! كيف كانت رحلتك؟! كلنا افتقدناكِ.

_وأنا افتقدتك أكثر أيها الأحمق المغرور.

كادت تلقي بها في وجهه....

لكنها تمالكت نفسها لتقول باقتضاب دون أن تنظر إليه:

_شكراً.

مط شفتيه في استياء لردها البارد ....

ثم جلس قبالتها على المكتب ليسألها باهتمام:

_أنا ألاحظ أنكِ تتباسطين مع الجميع إلا معي أنا....لماذا تعاملينني دوماً بهذا الجفاف؟!!!

رفعت عينيها إليه وهي تشعر بالارتباك...

ماذا عساها تقول له...؟!!!

هو محق في زعمه...

فهي برغم طبيعتها المرحة المتحررة مع الجميع...

تجد نفسها تعامله بحذر شديد...

وكأنها تنظر إليه من خلف قضبان عالية...

قضبان صنعتها حواجز كثيرة تراها هي بينهما...

أعظمها في نظرها هو مرضها الذي تراه مخزياً...

وليست هي فحسب من تراه كذلك...

بل كل من يعرف بحقيقتها...

وأولهم والداها!!!!

والداها اللذان يحاولان قدر استطاعتهما إخفاء حقيقة مرضها عن الجميع...

وتشعر بخوفهما الظاهر كلما تقدم أحد لخطبتها خجلاً من أن يبوحا له بحقيقة العروس "المعيبة" كما يرونها!!!

نعم...هي لم تزد في نظر نفسها ولا في نظر والديها عن كونها مجرد دمية معيبة ...

دمية معيبة لن تعجب الشاري لتبقى طيلة عمرها مركونة على رف الرواكد!!!

فمنذ صغرها وهي تعاني من نوبات سقوطها "الصرعية" المتكررة...

وقد كان هذا يشعرها بالخجل أمام رفيقاتها...

لكن الخجل تطور لخوف عندما سمعت والدتها تتحدث يوماً عن علاقة هذا بمسّ شيطاني أصابها...

لن تنسى أبداً تلك الليلة التي قضتها طفلةً غارقة في دموعها وخوفها من مجهول لا تعرف عنه شيئاً!!!

لكن الله كان رحيماً بها...

عندما ذهبت بها والدتها أخيراً لأحد الأطباء فشخص حالتها بدقة ليعطيها الدواء المناسب...

فتقلصت حدة أعراضها كثيراً حتى أنه لم يعد ينتبه لمرضها أحد...

خاصة وهي تتعمد المرح والمزاح أمام الجميع...

لكنها -هي -كانت تشعر بأنها امرأة ناقصة...

وبأنها لن تجد من يقبل بها على حالها هذا....

وربما كان هذا سبب شخصيتها المزدوجة!!!

فهي علي الرغم مما تبديه من مرح وانطلاق مع الجميع ...

تشعر بداخلها أن روحها مكسورة...

مهزومة في معركة لم تخترها...

لكنها مجبورة على المضيّ فيها وتحمّل عواقبها للنهاية!

لقد كانت قد وطّنت نفسها على وحدتها وتقبلت مصيرها برضا...

لكن حبها لهذا الرجل أمامها والذي تملك قلبها رغماً عنها...

هو ما عاد يملؤها بالخوف لتدق أجراس الحذر بداخلها من جديد!!

لا تدري لماذا هو بالذات من جذبها إليه...

لا...ليس الأمر لوسامته وخفة ظله...

فلم تكن أبداً ممن ينجذبن لهذه الشكليات...

لكنه شئ خاص بنظرة في عينيه لم يخطئها قلبها...

نظرة ميزتها هي بإحساسها قبل عينيها...

نظرة منحتها وعداً بالأمان لم تدرِ مصدره...

لكنه كان يهدهد خوفها برفق خبير...

ليفتح الباب من جديد لأحلامها الوردية التي طالما دفنتها تحت رماد المرض والعجز والخزي....

ومع هذا هي لا تزال حائرة معه....

نظراته تحكي لها الكثير عن مشاعر صادقة لن يغفل عنها قلبها...

لكن أفعاله تناقضها بغرابة....

فهو لا يكف عن مواعدة الفتيات والمزاح معهن بجرأة تصل لحد الوقاحة أحياناً...

رغم أنها شبه واثقة من أنه لا يتمادي معهنّ لحد علاقة جسدية....

لكن مجرد أحاديثه ومكالماته الهاتفية الحارة تثير جنونها ....

خاصة وهي تشعر أنه يتعمد كتمان مشاعره عنها غافلاً عن عينيه اللتين تفضحانها بقوة!!!!

وأمامها كان هو غارقاً في عينيها الواسعتين...

يكاد يقسم أنه لم يرَ في حياته عينين أوسع منهما...

كأنهما بحر عريض ....

أو صحراء شاسعة....

يعدو بها جواد قلبه حراً منطلقاً بلا قيود...

لكنه لا يزال غير قادر على البوح بمشاعره نحوها....

ربما لأنه غير واثق منها...

وربما لأنه يعرف أن دعاء ليست كباقي الفتيات اللاتي يعبث معهن....

واعترافه بمشاعره معها يعني خطوة جادة ....

هو ليس مستعداً لها بعد!!!!

طال اللقاء كثيراً بين عينيهما ....

ليمتد بينهما جسر طويل من مشاعر مرتبكة حائرة...

لازالت تتعثر في خطواتها نحو بر الأمان...

لتكون هي أول من يقطع لقاء عينيهما هذا عندما أشاحت بوجهها ...

لتتناول ملفاً من على مكتبها...

ثم قامت من مكانها لتقول له بحزم واثق:

_لا صحة لما تقوله يا معتصم...أنا أعاملك كبقية الزملاء...كلكم إخوتي.

قالتها وهي تغادر المكتب بخطوات واثقة...

بعيدة تماماً عن قلبها الذي كان يخفق الآن بجنون...

مردداً بين ضلوعها بحسرة...

كاذبة...

كاذبة..!!!!

=========

جلست صفا وحدها على إحدى الأرائك في شقتها المقابلة لشقة عبد الله ...

والتي أقامت فيها بعدما ألقى عليها يمين الطلاق....

كانت قد اشترت هذه الشقة منذ أكثر من عامين...

وكتبتها باسمها هي....

ربما هو شعورها بعدم الأمان مع عبدالله خاصة بعدما طلقها لأول مرة....

وها قد صدق حدسها وطلقها للمرة الثانية!!

طالما خذلتني يا عبدالله...

طالما خذلتني...!!!!

حبي لك أشبه بنقطة سوداء وسط بياض روحي...

فلا أكاد أعرف حقاً نفسي معك...

أنا التي طالما تباهت بقوتها...

وتغنّى الناس برجاحة عقلها...

أجدني معك طفلة تائهة بلا حول ولا قوة...

وليتك تقدر قيمة حبي لك...!!!!

بل على العكس...

طوحته بيديك كورقة طوتها أناملك بلا اكتراث!

يالخسارتي...

بل...يالخسارتك!!!

فما نثرته أنا من جواهر تحت قدميك...

زهيدٌ في عينيك كحفنة من تراب!!!

فمن فينا الخاسر ؟!

ومن الرابح؟!

ومن مِنّا الشقيّ بصاحبه...

ومن السعيد؟!

أنا...أم أنت؟!!!

قطعت أفكارها عندما سمعت طرقاً على الباب...

فمسحت دموعها التي سالت على وجنتيها ....

لتتوجه نحو الباب فتفتحه برفق ثم تبتسم بحنانها المعهود:

_تعاليْ يا رؤى...أهلاً!!

احتضنتها رؤى بقوة وهي تبكي بانهيار....

كل ما فيها الآن كان يبكي وجعاً بعدما عادت من زيارتها لجنّة...

شعور بالندم...بالخزي...بالخذلان...

وبالضيااااع...!!!!!

لتكتمل هذه الصورة عندما عادت لمنزلها فلم تجد صفا...

صفا بحضنها الحنون التي طالما احتوتها...

كما احتوت أخاها...

لكنها لم ولن تجرؤ علي البوح لها بخطيئتها مع فهد!!!!

ضمتها صفا بقوة وهي تربت على ظهرها برفق....

لتهمس في أذنها بحنان:

_لا تبكي يا حبيبتي...أنا بخير!!

أبعدت رؤى وجهها قليلاً...

لتتفرس في ملامح صفا الحانية...

ثم هزت رأسها في عجز...

هل كل الرجال هكذا؟!!

صور مكررة من فهد وعبدالله!!!

هل هذا هو ما يفعله بنا الحب عندما نستسلم له؟!!

يمزق كل خيوط تماسكنا...

ليتركنا بعدها قطعاً مبعثرة تتقاذفها هبّات الرياح !!!!

لكن صفا ربتت على رأسها لتهمس برقتها المعهودة:

_هل تناولت غداءكِ؟!!! هل ذهبتِ للجامعة اليوم؟!!

ابتسمت رؤى وسط دموعها الغزيرة وهي تومئ برأسها صامتة...

صفا العزيزة لن تكف عن اهتمامها بالجميع...

حتى وهي في هذه الظروف...

تسألها لتطمئن على أحوالها...!!!!

أحمق يا عبدالله!!!

أحمق!!!

كانت تهمس بها في سرها وهي لا تعرف تفاصيل طلاقهما الأخيرة...

لكنها موقنة من أن عبد الله هو المخطئ كعادته...

صفا لا تستحق منه هذا....

بل هو الذي لا يستحق ملاكاً مثلها!!!

لهذا سألتها بنبراتها الباكية:

_ماذا حدث بينكما يا صفا؟!!! لماذا حدث هذا؟!!!

أعادت صفا رأسها لتضمه على صدرها قائلة بحنان:

_لا شأن لكِ بما حدث بيننا؟!!! علاقتي بكِ لن تتغير...أنتِ ابنتي التي لم أنجبها يا رؤى!

عادت رؤى تنتحب بين ذراعيها وهي تشعر بحاجتها لهذا الحنان الصادق....

وكذلك صفا التي شعرت وقتها أنها تحتاج حقاً لهذا الحضن...

فضغطت على شفتها بقوة مغمضة عينيها وهي تتذكر آخر مرة ضمها فيها عبد الله هكذا...

كانا عائدين من المشفي...

بعد محاولة جراحية فاشلة جديدة بغرض الإنجاب كالعادة...

ليلتها لم تكن فاقدة للأمل فحسب....

بل كانت فاقدة للشعور بالحياة نفسها!!

لكنه ضمها بين ذراعيه بحنان لم يسبق أن رأته منه...

ليهمس في أذنها بدفء:

_أنا طفلك الأول يا صفا ...هذا شعوري بكِ حقاً...كثيرات هن النساء اللائي يجدن إغواء الرجال بأنوثة براقة...لكنني لن أجد مثلكِ ...تحتوي ضعفي بأمومتها الصادقة....بحنانها الفياض...وبقلبها الذي أعلم أنه لم ولن يكون إلا لي.

سالت دموعها على الرغم منها من جديد...

وهذه الذكري البعيدة تجلدها بسياط الحنين....

لتفتح عينيها ببطء...

فتجده أمام عينيها...

نعم...هو!!!

عبدالله الذي عاد لتوه من عمله...

ليجد باب شقتها مفتوحاً وهي تحتضن رؤى الباكية هكذا!!!!

نظر إليها طويلاً وهو يشعر بقلبه يخفق بجنون....

مرآها وهي تحتضن شقيقته بهذه الطريقة جعله يشعر بالذنب الذي عاد يجلده...

لكن صفا هربت بعينيها منه...

لتربت علي كتف رؤى هامسة بحنان:

_لقد عاد عبد الله...اذهبي وتناولي غداءكِ معه...وسأنتظركِ هنا مساءً لنتحدث كما تشائين.

أومأت رؤى برأسها إيجاباً...

ثم توجهت نحو عبد الله الذي كان لا يزال واقفاً لم يرفع عينيه من على صفا....

لكن صفا أطرقت برأسها ثم أغلقت باب شقتها برفق....

فزفر هو في ضيق...

ثم دخل شقته مع رؤى ليغلق بابها هو الآخر قبل أن يتوجه نحو غرفته ليستلقي على سريره بعنف....

ثم توجه ببصره نحو جانبها الخالي من فراشهما....

فخبط بقبضته على الوسادة جواره هامساً بحنق:

_كيف أضعتها يا أحمق؟!كيف؟!

===========

أغلق فهد باب الشقة عندما انصرف الجميع ليبقى مع جنة وحدهما....

قامت من مكانها لتتوجه نحوه مواجهة إياه بقوتها المعهودة لتسأله بثبات:

_كيف أضمن أنك لن تخبر عبد الله عما كان بينكما أنت ورؤى؟!!!

فاقترب منها بدوره ليمسك كتفيها قائلاً ببرود:

_أنتِ هي الضمان الوحيد.

أطرقت برأسها وهي تتمنى لو يكون كل هذا كابوساً تفيق منه على سريرها لتحتضن صورة حسن جوارها على الكومود ثم تعود لنومها من جديد...

لا تزال لا تصدق كل ما حدث...

كل هذه الأحداث السريعة المتلاحقة...

والتي تجعلها أشبه بمن تلقى ضربة عنيفة علي رأسه...

نعم...

تماماً...هذا هو ما تشعر به بالضبط...

دوار عنيف...

كأن رأسها يلف بسرعة في متاهة بلا نهاية...

وتخشى السقوط...

لأن ذراعي حسن لن يسنداها هذه المرة...

بل...

ربما ذراعا رجل آخر!!!

اقشعر جسدها للفكرة فأزاحت ذراعيه عن كتفها ببعض العنف لتقول بتماسك مصطنع:

_والآن...ما هي خطوتك التالية؟!!

ابتسم في برود مصطنع يداري شعوره العاصف بها الآن...

ليرفع كفها إليه ببطء...

ثم بدأ في نزع دبلتها من إصبعها...

لكنها قبضت كفها بقوة وهي تهتف في حدة:

_ماذا تفعل؟!!

قبض علي كفها بقوة متملكة وهو يقول ببرود:

_هذه هي خطوتي الأولي .

عقدت حاجبيها بشدة....فأردف بتهكم:

_من مبادئ الأستاذة أن تبقي على دبلة رجل وهي في عصمة رجل آخر؟!!!

دمعت عيناها رغماً عنها وهي تشعر بالقهر...

ربما يبدو هذا الوغد محقاً...

لكن...كيف تفعلها...؟!!!!

كيف تنزع دبلة حسن من إصبعها وهي التي بقيت كذلك منذ وضعها بنفسه منذ سنوات....؟!!!!!

وقد أقسمت لنفسها ألا تخلعها أبداً....

لكن هذا الوقح عرف كيف ينال منها...

نعم...ليس من مبادئها أن تبقي على دبلة حسن طالما وافقت على زواجها من فهد بإرادتها...

حتى مع يقينها أنه قد أجبرها على هذه الزيجة لأسبابه المريضة...

لكنها تعودت احترام اتفاقاتها والتزاماتها...

وهذا الوغد لن يكون استثناء!!!

عضت علي شفتها بقوة للحظات....ثم أشاحت بوجهها لتقول بصرامة:

_لا تلمسها أنت...أنا سأخلعها بنفسي!!

عقد حاجبيه بشدة وهو يفهم مغزي عبارتها...

هي لا تريده بينها وبين حسن هذا...

حسن من ألبسها دبلته...

وهي من ستخلعها!!!

فك حصار أنامله عن كفها وهو يترقب ما ستفعله...

ليلاحظ ارتجافة أصابعها وهي تخلعها ببطء...

كأنها تنزع روحها معها...

ورغم ضيقه الذي لم يبدِه لها لكنه شعر نحوها بشئ من الإشفاق!!!!

رغم ما تحاول التظاهر به من قوة وصلابة...

لكنه كان يشعر أنها على وشك الانهيار أمام أول ضغط إضافيّ...

لهذا وقف مكانه صابراً حتى نزعتها من يدها فمد يده ليتناولها منها...

لكنها قبضت كفها عليها لتهمس بشرود:

_أنا سأحتفظ بها حتى أعيدها مكانها بعدما ينتهي هذا ال....عقد!!

كز على أسنانه وهو يلاحظ أنها لا تتحدث عما بينهما على أنه زواج...

بل...مجرد عقد!!!!

حسناً...

عنادها هذا يجعل اللعبة أكثر تشويقاً وإثارة...

وصعوبة...

وهو لم يعشق يوماً الألعاب السهلة!!!

لهذا هز كتفيه وهو يبتسم ابتسامته المعهودة ليهمس بتحدٍ صارخ:

_ومن قال أن (زواجنا) سينتهي؟!!!

كان يضغط على حروف كلمة زواجنا بشدة في مقابل استخدامها للفظة (عقد).....

فزاد انفعالها وهي تهتف بحدة:

_والآن...ماذا تنتظر أنت من هذا الزواج؟!! لا أظن امرأة مثلي قد تغري فهد الصاوي العظيم ليقدم على هذه الخطوة...هلّا أخبرتني عما برأسك؟!

ابتسم ابتسامة جانبية وهو يلتقط سهامها البندقية المصوبة نحو قلبه باحتراف ليهمس ببطء مثير:

_قلت لكِ من قبل أنكِ تعجبينني...وأردت فقط تملكك!!

كان دورها هي لتبتسم في سخرية قائلة :

_وهل تُمتلَك المرأةُ بالزواج في عصرنا هذا يا شهريار؟!!!!

اقترب منها أكثر حتي كاد يلاصقها وهو يهمس ببرود:

_وبمَ تُمتَلَكُ إذن؟!!!

وضعت كفها علي صدرها مكان قلبها تماماً لتهتف بحرارة:

_بهذا ...لكن مثلك لن يفهم لأنه أمات قلبه منذ دهور.

ورغم أن عبارتها أصابت هدفاً حساساً بصدره...

لكنه قال بنفس البرود:

_ستكونين لي كاملة...قلبك سيأتيني راكعاً قبل أن تستسلمي لي بكل جوارحك.

ضحكت ضحكة قصيرة أشرق لها وجهها للحظات...

قبل أن تردف بإشفاق لا تدعيه:

_مثلك يجعلني أشعر بالرثاء...غيرك يموتون لأجل كلمة حق جاهروا بها في وجه الطغيان...وأنت تعيش حياتك تلهث خلف سراب.

كان يتشرب كلماتها رغماً عنه بكل ذرة في كيانه...

لكنه مع هذا ابتسم بسخرية ثم صفق بكفيه هاتفاً:

_مرافعة جيدة يا أستاذة...والحكم بعد المداولة.

هزت رأسها في يأس من هذا الحوار العقيم...

ثم أشاحت بوجهها لتسأله بتوتر:

_متى سيمكنني العودة لشقتي؟!!

لكنه أدار وجهها نحوه ليهمس أمام عينيها بنبرته المتسلطة:

_لن تخرجي من بيتي إلا بإذني...هذه أبسط حقوقي يا أستاذة.

عقدت حاجبيها بضيق لكنه لم يفلت وجهها من بين أنامله...

فازدردت ريقها ببطء لتهتف بحنق:

_وعملي؟!

ظل ينظر إليها للحظات...

وقد عادت إليه رغبته في تقبيل عينيها من جديد...

لكنه تمالك نفسه بصبر..ليقول لها ببرود:

_لن أمنعك من العمل...لكنكِ لن تتحركي خطوة واحدة إلا بعلمي.

تنهدت بحرارة وقد أرهقها هذا الحوار بثقله الجاثم على صدرها...

فأزاحت أنامله من على وجهها لتعطيه ظهرها وتعود نحو غرفتها...

لكنه أمسك مرفقها ليديرها نحوه قائلاً بسخرية وقحة:

_إلى أين تذهبين؟!! لا تقولي أنكِ ستتزينين لزوجكِ كبقية العرائس؟!!

التمعت عيناها بقسوة لم يرها فيها من قبل وهي تهمس بشراسة:

_إذا أردتَ مني شيئاً فخذه غصباً وسرقة كعادتك...أنا لن أمنحكَ شيئاً بإرادتي.

ابتسم وكأنه كان يتوقع ردها ليحيطِ وجهها براحتيه من جديد هامساً ببطء:

_فهد الصاوي لم يمس امرأة يوماً إلا برضاها..

فخفضت بصرها عنه وهي تشعر ببعض الارتياح...

لكنه رفع أحد حاجبيه ليهمس بمكر:

_لكنكِ تستحقين أن تكوني أول استثناء!!

ازدادت قبضتها تشبثاً بدبلة حسن في يدها وهي تشعر بخوف حقيقي...

التقط هو ذبذباته بسهولة ليفك حصار أنامله من على وجهها ببطء...

ثم قابل وهج البندق في عينيها بتحدٍ يمتزج بالإعجاب...

ليهمس بعدها :

_ومع هذا سأنتظر حتى أكسب رهاني...لأتذوق لذة انتصاري مضاعفة!!

أغمضت عينيها بقوة تتحاشي النظر لملامحه البغيضة -كما رأتها-ثم همست بصوت منهَك:

_سأذهب لغرفتي.

شئ بداخله كاد يدفعه لمنعها...

هو يريد استبقاءها معه...

يريد أن ينهل أكثر من بئر بندقيّتيها العنيدتين...

سحر التحدي الذي يروقه مع أي امرأة...

ويجده معها أكثر جاذبية وغموضاً**!!!**

لكن -شيئاً ما- بصوتها الكسير على غير عادته كان يرجوه ألا يضغط عليها أكثر...

فانهيارها الحتمي ليس ببعيد**!**

لهذا أمسك كفها بتملك واضح رغم تشنجه في يده...

ليتوجه بها نحو غرفتها...

ثم دفعها برفق ليدخلها فاستدارت نحوه وهي تتأهب للشجار...

لكنه رفع سبابته في وجهها هامساً بنبرته المتسلطة:

_هذا أول دروسكِ هنا يا أستاذة...قراركِ ليس من رأسكِ بل بيدي أنا.

ابتسمت بسخرية لتهمس بتحدٍ مماثل:

_لا يهم...المهم أن ما أريده أنا هو ما سيحدث في النهاية!!

اشتعلت عيناه بغيظ واضح للحظة...

قبل أن يرمقها بنظرة مشتعلة أغلق بعدها الباب بنفسه ليتركها وحدها....

فانهارت أخيراً على سريرها وهي تفتح كفها المنقبض على دبلة حسن لترمقها باستجداء صارخ...

قبل أن تهمس بألم:

_لن أضعف يا حسن...لن أضعف ولن أخاف.

===============

_ابتعدوا...آآآآآه.

صرخت بها ماسة وهي تقوم من نومها متلفتة حولها في ذعر...

لتنتبه أنه كابوسها اليومي كالعادة...

هذه هي ليلتها الرابعة هنا...

وكل ليلة تشبه سابقتها...

نفس العذاب بكوابيسها كالعادة منذ ذاك الحادث...

لكن الفارق أن رحمة ليست هنا معها...

لتدفن وجهها في حضنها حتى يعود لها أمانها وتنام من جديد!!

سالت دموعها علي خديها وهي تشعر بانقباض قلبها...

وأنفاسها اللاهثة تجاهد للخروج من صدرها...

لكنها التفتت جوارها لتتناول مصحفها الصغير من على الكومود...

فقرأت منه بعض الآيات لعلها تتلمس السكينة....

ثم أغلقته بعدها بأنامل مرتجفة لتعيده مكانه...ثم ضمت ركبتيها إلى صدرها لتدفن وجهها بينهما...

وهي تحاول نسيان هذا الكابوس...

لكن قلبها كان يرتعد بحق ...

لم تدرِ كم ظلت على هذه الحالة....

لكنها نظرت للنافذة لتجد شعاع الشمس قد بدأ في الظهور...

فأطلقت آهة خافتة...

ولازالت أحداث كابوسها محفورة أمام عينيها...

ثم نفضت غطاءها بعنف لترتدي عباءتها وحجابها...

وكل ما ترغب فيه الآن هو أن تخرج من هذه الغرفة إلى أي مكان....

فتحت باب غرفتها لتهبط الدرج الداخلي للقصر بخطوات متمهلة...

وهي تنظر خلفها نحو غرفة السيد عاصي بنظرات خائفة مترقبة....

لكنها شهقت بعنف عندما عادت برأسها للأمام فوجدته واقفاً عند أول السلم...

ينظر إليها بثبات!!!

ازدادت خفقات قلبها رعباً وهي تتوقف مكانها مطرقة برأسها ....

لا تدري ماذا تفعل...

لكن خطواتها بدت وكأن لها إرادة مستقلة....

لتجد نفسها تكمل طريقها وتهبط الدرج حتى وقفت قبالته...

كان جسدها يرتعش وبعض من خصلات شعرها قد تفلتت من تحت حجابها لتلتصق بجبينها المتعرق...

وبقايا من دموعها المتجمدة كانت هناك على وجنتيها تشهد على ليلة عصيبة كالعادة...

شفتاها ترتجفان رغماً عنها وتزداد ارتجافتهما مع مقاومتها المستميتة للبكاء...

وبالطبع كل هذا لم يخفَ عليه ...

لكنه سألها بخشونة:

_أين تذهبين؟!

لم تستطع إجابته ...

ببساطة لأنها لم تكن تعلم...

هي كانت تريد الهرب من غرفتها فحسب...

ولم تفكر سوى في الخروج...

لهذا ظلت على إطراقها الصامت أمامه وهي تشعر بالعجز الكامل...

حتى لو أرادت الكلام والشرح والتفسير...

لن تستطيع...

يبدو أنها لن تستمر في هذا العمل...

هذا الرجل بطباعه الصارمة لن يتقبل غرابة أطوارها وتصرفاتها...

وهو ما لن تلومه عليه كثيراً في الواقع!

_هل استشرتِ طبيباً بخصوص كوابيسك اليومية هذه؟!!!

كانت هذه عبارته التي فجرت دهشتها لترفع رأسها نحوه بصدمة....

فأردف بنبرة أكثر رفقاً:

_أنا أسمع صرخاتك كل ليلة وأنا في طريقي لصلاة الفجر.

أغمضت عينيها بقوة وهي تشعر برغبة عارمة في البكاء لما أحسته من هوان نفسها وحالها....

لكنها لن تفعلها أمامه...

على الأقل الآن!!!

لهذا وضعت كفها على شفتيها تتمالك بكاءها للحظات...

ثم همست بصوت خفيض متقطع:

_سأذهب للحديقة الخلفية...أريد فقط...

لكنه قاطعها بإشارة من كفه وهو يتأمل وجهها للحظات...

ثم أشار لها أن تتبعه...

قبل أن يعطيها ظهره ويسير بخطواته الثابتة....

فلم تجد بداً من اتباعه رغم توجسها منه...

سارت خلفه حتى خرج من القصر ليتوجه نحو ركن قصيّ من الحديقة...

بدا وكأنه منعزل عن بقيتها...

ربما لأنه كان مميزاً ب"تعريشة" من أوراق الشجر الضخمة...لعلها كرمة عنب...

والتي تضافرت مع عيدان الخشب لتصنع ما يشبه غرفة صغيرة وسط الحديقة .....

توقف مكانه وهو لازال يعطيها ظهره...

فتوقفت بدورها وهي تتلفت حولها في خوف يمتزج بالترقب...

رغم أن الشمس شقت طريقها وسط السماء...

ليبسط النور سلطانه على المرئيات...

لكنها كانت تشعر بشئ يقبض قلبها بقسوة....

فرفعت كفها ببطء لتتشبث بسلسلة عزيز بقوة...

عندما استدار هو نحوها ليلمح ما تفعله...

فابتسم في سخرية للحظة...ثم قال بنبرات قوية تحمل شيئاً من الغموض:

_العاقل لا يستمد قوته من ضعيف!!

اتسعت عيناها بدهشة تمتزج بالذعر...

وهي تراه يقرأ أفكارها بهذه السهولة...

لتتجمد يدها مكانها على السلسلة للحظات...

ثم تخاذل ذراعها ليسقط جوارها وهي تعقل عبارته الموحية...

هي حقاً تستمد قوتها من ضعيف!!!

لكن..

أيهما أضعف يا ترى؟!!!!

عزيز...أم سلسلته؟!!!

أطرقت برأسها وعقلها يجيبها بعتابه الصارخ...

عزيز كان أضعف من أن يحافظ على حبه...

لكن قلبها ثار بين ضلوعها هائجاً بثورة بحر عاصف....

عزيز كان ضحية ظروف قاسية...

هو حاول قدر ما استطاع...

لكنها هي التي تسرعت بالهروب....

ربما هو وفاؤها لرحمة ورغبتها في رد جميلها....

وربما هي كرامتها التي دفعتها للرحيل حتى لا تري الشفقة في عيونٍ أحبتها!!!!

بينما تأمل هو إطراقها الصامت للحظات ثم قال بنبرته المسيطرة:

_هذا المكان سيناسبك كثيراً....سأطلب منهم أن يحضروا لكِ الإفطار هنا...وبعدها لن يزعجكِ أحد...لكن لا تنسيْ موعد دواء السيدة.

رفعت رأسها إليه بدهشة تمتزج بامتنانها...

لكنه كان قد تجاوزها ليعطيها ظهره راحلاً...

دون كلمة زائدة!!

=======

الفصل السادس:

جلس جوارها على طرف الفراش بحذر يتأمل ملامحها النائمة المستكينة...

هو يعلم أنها لم تنم إلا بعد الفجر...

فقد قضى ليلته على باب غرفتها وهو في حال عجيب...

لكن حالها هي كان أعجب!!!

وهل هناك أعجب من امرأة تحدث رجلاً ميتاً علي الهاتف؟!!!!

نعم...

هذا ما اكتشفه للأسف!!

عندما كان ماراً بالمصادفة جوار غرفتها في شقته التي جمعتهما بالأمس...

فسمعها تتكلم بصوت خفيض ...

فتح باب الغرفة فتحة صغيرة ليراها ممسكة بهاتفها...

أرهف سمعه ليعلم مع من تتكلم ...

قبل أن يصدمه حديثها صدمة لم يتوقعها في حياته...

لكن يبدو أنه لا شئ عجيب مع هذه المرأة!!

جنة كانت تكلم "حسن"!!!!

كانت تعتذر له وتشرح بإسهاب طويل كل الظروف التي دفعتها لهذه الزيجة....

كانت تتحدث بانطلاق وكأنه يسمعها حقيقة....

أحياناً كانت تضحك وهي تحكي عن كلماتها الجريئة التي قذفتها في وجه فهد....

وأحياناً كانت تبكي وهي تقسم له أنها على عهدها معه!!!!

مجنونة!!!!!

هذا ما خاطب به نفسه وهو يعيد غلق باب الغرفة وقتها....

لكنه لم يستطع منع نفسه من الإنصات لبقية حديثها الذي مس قلبه حقاً...

قلبه الذي ظنه قد مات ودفن تحت أنقاض خطاياه...

ليشعر به الآن قد عاد ليخفق من جديد!!!!

لم يستطع النوم بعدها حتى بعدما عاد لغرفته....

لكنه عاد إليها بعد الفجر ليجدها قد استسلمت لنومها وهاتفها في حضنها....

تناول منها الهاتف بحذر كي لا يوقظها ليسجل الرقم الذي كان ظاهراً أمامه...

والذي لم يرد عليها -بالتأكيد-

لكنه كان يريد التأكد من أنه حقاً رقم حسن هذا!!!!

أعاد الهاتف لمكانه...

ثم تركها لبضع ساعات حاول فيها النوم لكن دون جدوى...

حتى عاد إليها الآن مدفوعاً بقوًى لا يعرفها ليجلس متأملاً ملامحها باستغراب....

مد أنامله ببطء حذر يتخلل خصلات شعرها الثرية...

وهو يشعر بشوق غريب لسهام عينيها البندقية...

لكنه لا يريدها أن تستيقظ الآن فتبدأ حربهما الباردة من جديد!!

ورغماً عنه تسللت أنامله ببطء مغادرةً خصلات شعرها...

لتنحدر على ملامح وجهها كلها وكأنه يرسمها!

هو لا يدري بحق ما سر شعوره الغريب هذا نحوها...

لم تجذبه امرأة في حياته كهذه المرأة...

يريد أن يكسرها بقوة...

نعم....يريد أن يكسب رهانه على قلب هذه المتعجرفة العصيّة....

وقد كان هذا سبب زواجه بها من الأساس!!

لكن هذا الشعور ورغم أنه لازال قائماً...

صار مشوباً برغبة خفية في ترميم كسرها القديم!!!!

شعوران متناقضان يتناحران في صدره....

ولا يعرف كيف يؤلف بينهما....

ولا إلى أيهما سيرضخ...

لكنه واثق من شئ واحد الآن....

أن هذه المرأة ليست بالقوة التي تدعيها...

بل هي حقيقة في غاية الهشاشة...

امرأة لا تزال تحيا في وهم رجل ميت...

تلبس دبلته...

وتقضي الساعات جوار قبره...

بل وتحدثه على الهاتف!!!

هي امرأة حقاً في ورطة....!!!

وتحتاج لمن ينتشلها من جنون ماضيها هذا!!!

وعند خاطره الأخير ابتسم في شفقة ظاهرة وهو يربت على وجنتها برفق...

ثم لامسها بإبهامه في شرود...

مستغرقاً بكيانه كله في ملامحها التي صار يشعر أنها لا تنتمي للبشر...

بل هي صنف نادر وحدها...

أسعده القدر بأن يصادفه في طريقه!

صنفٌ سيروقه ترويضه...سيروقه كثيراً!!

بينما تململت هي في نومها أخيراً وهي تهز رأسها باعتراض ...

ثم فتحت عينيها فجأة لتجده أمامها...

بل...جوارها على السرير!!!!

شهقت بعنف وهي تقوم لتهتف بصوت مختنق لم يغادره النعاس بعد:

_ماذا تفعل هنا؟!!!

عادت ملامحه لسماجتها وقد اختفت شفقته ليقول ببرود ساخر:

_جائع...وأريد أن تحضر لي زوجتي الإفطار!!

اتسعت عيناها في استنكار لتلتمع عيناه بلهفة واضحة وهو يلتقط وهج البندق من جديد....

لكنها لم تنتبه لنظراته وهي تهتف بحدة:

_ماذا تقول؟!

أعاد عبارته بنفس البرود مخفياً مشاعره ببراعة...

فزفرت بقوة وهي تحاول تمالك غيظها...

قبل أن تأخذ نفساً عميقاً تمالكت به خفقاتها اللاهثة...

ثم قالت ببرود مماثل كي لا تمنحه فرصة التشفي:

_حسناً...انتظرني بالخارج وسأعده لك علي المائدة.

ارتفع حاجباه في دهشة تمتزج بالخيبة...

كان يريد المزيد من الجدال والمناوشات...

هذه الشرسة تبدو شهية أكثر عندما تفقد أعصابها...

وبرودها هذا أسوأ وجوهها...

أسوأها على الإطلاق...!!!!

لكنه تدارك خيبته بسرعة ليقوم من جوارها وهو يرمقها بنظرات غريبة لم تفهمها....

قبل أن يغادر الغرفة بخطوات واثقة...

زفرت بقوة وهي تتلفت حولها في قنوط...

لا تصدق كيف انقلبت حياتها هكذا بسرعة...

لتصير هي زوجة لوغد كهذا...

بجرّة قلم...

وفي غمضة عين!!!

دمعت عيناها وهي تشعر بنفسها وحيدة في هذه الحياة....

حتى شقيقتاها لم يشعرا بغيابها هذه المدة...

العلاقة بينهن شبه واهية خاصة مع إقامتها وحدها وانشغالها بعملها....

وهما أيضاً ...كل منهما مشغولة ببيتها وزوجها ولا تتذكرانها إلا في المناسبات....

ومع مشاكل قديمة بخصوص الإرث فالعلاقة بينهن شبه منقطعة.

الجميع تخلى عنها بعد وفاة حسن ورفضها هي للزواج بعده...

كلهم يزعمون أنها مجنونة فقدت عقلها وراءه...

لكنها لا تهتم!

أن تفقد عقلها وراءه خيرٌ لها من أن تصدق أنه حقاً رحل للأبد!!!!!

استغفرت الله سراً...

ثم قامت من فراشها لتتوجه نحو حمام غرفتها الفاخر...

غسلت وجهها وأدت صلاتها ثم توجهت نحو المطبخ الذي لا تزال لا تعرف شيئاً عن محتوياته...

فالخادمة حتى الأمس فقط كانت تعد لها طعامها وتحضره لها في غرفتها...

لكن يبدو أن هذا الوغد صرف الخادمة ليتعمد إذلالها بهذه الطريقة.

لكنها لن تمنحه فرصة الانتصار عليها...

ستواجهه بقوة برودها لعله يمل منها ويزهد لعبته الحقيرة ويدعها وشأنها...

أمضت وقتاً ليس بقليل في المطبخ حتى أعدت إفطاراً مناسباً...

ثم حملت صينية الطعام لتضعها أمامه علي المائدة.

ابتسم ببرود عندما رآها ليقول بسماجة:

_سلمت يداكِ يا أستاذة!

لكنها خفضت بصرها عنه دون رد...وهي تجلس على كرسيها لتتناول قهوتها دون إفطار كعادتها...

بينما بدأ هو في تناول طعامه وهو يكاد لا يرفع عينيه من عليها...

لتعود هي لشرودها كعادتها كي تهرب من جحيم واقعها لإحدى ذكرياتها مع حسن...

_صباحكِ سكر يا جنة الأرض!!

همس بها حسن جوار أذنها كعادته كل صباح...

"!!!!!جنة الأرض"

هذه كانت كنيتها التي طالما كان يناديها بها...

وعندما سألته يوماً عنها ابتسم قائلاً أنها جنته على الأرض حتى تجمعهما معاً جنة السماء!!!!

نظرت إليه وابتسمت في خجل وهي تهمس بشقاوة لذيذة:

_صباح الخير يا "أبو علي"!!!!

ضحك ضحكة عالية وهو يرمقها بنظرات ماكرة...ليعود و يهمس من جديد في أذنها:

_صباح النور يا "أم علي"....كم أتشوق لمجئ "علي" هذا لينتقم لي منكِ !!!!

ضحكت بدورها في خجل...ثم نظرت لعينيه هامسة بحرارة:

_لم أتصور يوماً أن أكون أماً...ولا حلمت بأطفال إلا عندما أحببتك...ساعتها تمنيت لو أجلب للعالم جيشاً منك...بحنانك وحزمك...وقلبك الذي تأسرني صلابته قبل رقته....أحبك يا حسن...أحبك...وأحب أطفالي الذين لم أنجبهم منك بعد...لأنهم سيكونون مثلك.

_هل تناولتِ دواءك؟!!!

شهقت بحدة وصوته البارد يقطع عليها ذكراها الغالية...

لكنه فعلها متعمداً عندما أدرك بحدسه سبب شرودها...

والذي كان يثير ضيقه بشدة.

بينما تمالكت هي نفسها سريعاً لتهمس بخفوت:

_نسيت!

قام من على كرسيه ليغيب فترة بالداخل...

غطت فيها هي وجهها بكفيها وهي تهز رأسها بعجز...

غير قادرة على استيعاب وضعها الجديد معه...

عندما شعرت به جوارها فرفعت كفيها من على وجهها لتنظر إلى عينيه بترقب...

قبل أن تخفض بصرها لكفه الذي جاور شفتيها ممسكاً بقرص الدواء...

هنا شعرت بشئ من الدهشة لكنها لم تتوقف عند شعورها هذا كثيراً....

بل رفعت أناملها لتتناوله منه...

لكنه قربه أكثر من فمها حتى لاصقت أنامله شفتيها...

كادت تجادله كعادتها وتطلب منه القرص لتتناوله بنفسها...

لكنها كانت تعلم أنه يريد استفزازها فحسب...

وهي لن تمكنه مما يريد..

فأغمضت عينيها بقوة وهي تفتح شفتيها لتلتقط القرص بحركة خاطفة!!

ارتجف جسده ارتجافة خفيفة لحركتها وهو يشعر بمزيج من الضيق والنشوة...

الضيق لأنه فشل في استفزازها كما كان يرجو...

و-نشوته- هذه المرة كانت مختلفة مشبعة بملمس شفتيها الفريد!

عاود الجلوس على كرسيه لترمقه بنظرة متفحصة وهي تفكر في سبب تصرفه هذا لتقول بسخرية:

_لازلت تجيد العناية بممتلكاتك!!!

نظر إليها نظرة طويلة أربكتها حقاً ...قبل أن يهمس بعدها ببطء:

_فوق ما تتخيلين!!!

أشاحت بوجهها في ضيق ...

لكنه تناول كفها ليقبض عليه بقوة دفعتها لتعاود النظر إليه مرغمة...

ليهمس أمام عينيها بثقة:

_عندما يمتلك فهد الصاوي شيئاً...فإنه يُدمغ باسمه...فلا يمتلكه أحد بعده...لهذا أحافظ على ما أمتلكه دوماً ...فهو أولاً وأخيراً لي...لي وحدي!!!!

دق قلبها بعنف وهي تشعر بمدى جديته فيما يقول...

ورغماً عنها ارتجف جسدها وهي تجرب إحساس العجز هذا معه....

نعم...

هي عاجزة تماماً عن رؤية مستقبل هذه العلاقة...

وما تخفيه لها الأيام مع وغد كهذا يبدو أنه لن يتركها بسهولة!

حاولت نزع كفها من كفه لكنه لم يفلته...

ليعود يهمس في إصرار:

_قلت لك إن قرارك ليس من رأسك...بل في يدي أنا!!!

فأشاحت بوجهها عنه ...ليصلها صوته قائلاً بصرامة:

_تناولي إفطارك طالما أخذتِ الدواء.

كزت على أسنانها بغيظ وهي تحاول التقاط بعض اللقيمات بكفها الحر...

فقط لتخرس لسانه الذي تتمنى الآن لو تقطعه!!!!

وجوارها هو كان يتأملها بابتسامة جانبية خفيفة...

بعيدة تماماً عن صرامة كلماته وسخافتها...

هذه امرأة ساحرة بكل تفاصيلها...

غضبها المكتوم الواضح في شفتيها المزمومتين بقوة -مهلكة-

وحاجبيها المعقودين بشدة كحارسين غليظين على كنوز البندق في عينيها الثريتين ....

وخصلات شعرها التي تحالفت مع المشهد -كما يبدو- لتشعث قليلاً فتمنحها مظهراً فوضوياً مثيراً...

باختصار...

كان يراها الآن صورة مجسدة من الفتنة التي لم تشبهها فيها امرأة سواها!!

بينما كانت هي غافلة عن كل ما يدور برأسه...

تحاول أن تنهي هذا الموقف السخيف لتعود لغرفتها -الآمنة-

لهذا أزاحت طبقها جانباً لتهمس بخفوت:

_الحمد لله.

رفع أحد حاجبيه ليهمس بمكر:

_هنيئاً يا أستاذة!

رمقته بنظرة حارقة اتسعت لها ابتسامته الماكرة...

ليمد بعدها كفه متناولاً كوب قهوتها...

ثم أداره متلمساً مكان شفتيها ليرتشف منه رشفة وعيناه مثبتتان في عينيها المترقبتين لما يفعله..

قبل أن يعيد الكوب مكانه بعدها ليقترب من وجهها حتى كاد يلاصقه هامساً ب-ما رأته هي-وقاحة:

_لا أحب القهوة...لكنني أردت تجربتها بنكهة شفتيكِ..

احمرت وجنتاها رغماً عنها وهي تود الآن لو تتخلي عن برودها وتصفعه!!!!

صفعة واحدة فقط تشفي بها غليلها ...

وليكن بعدها ما يكون!!!!

لكنها تمالكت غيظها باقتدار لتبتسم بسخرية وهي تقول ببرود مشابه:

_وهل أعجَبَتْك؟!!!

ابتسم بدوره دون أن يرفع عينيه من عليها...

ثم همس بثقة:

_مُرّة...قابضة...لكنها لذيذة...تماماً كما أحب.

فهمت مغزى عبارته فأردفت بنبرة واثقة:

_قد تتمكن من خداع فتيات بريئات بمظهرك الجيد وكلماتك المعسولة....لكن "أسطوانات الغزل القديمة" هذه لن تجدي مع امرأة تعرف حقيقتك جيداً.

اتسعت ابتسامته وهو لا يزال يحاصرها بنظراته ليهمس ببرود:

_ومن قال أني أغازلك؟!!!

مطت شفتيها باستياء ليقترب هامساً في أذنها:

_هذه حقيقة يا أستاذة!!

قامت من مكانها بعنف ولازال كفها محتجَزاً -جبرياً-في قبضته...

فقام ليقف قبالتها في تحدٍ وعيناه تبادلان عينيها سهاماً متراشقة من نظرات حادة...

كانت هي أول من قطع هذا الصراع عندما سألته بخشونة:

_متى سأعود لعملي...لديّ قضايا متأخرة...ومصالح الناس ليست لعبة!!!

هز كتفيه قائلاً:

_الآن ...لو أردتِ...لكن...

قطع عبارته متعمداً لاستفزازها..لكنها تحملت صابرة -على مضض-حتى أكملها هو من نفسه:

_لن تتحركي خطوة واحدة إلا بعلمي!

عقدت حاجبيها بشدة وهي تقول باستخفاف:

_أنا أتنقل طوال اليوم بين المحكمة والمكتب ....هذا بالإضافة لبعض مصالح العملاء التي تقتضي مني بعض المشاوير الإضافية....كيف تريد مني إبلاغك بكل هذا؟!!!

ابتسم بسماجة مقصودة ليقول ببرود:

_لهذا اخترعوا الهواتف المحمولة يا صغيرة!!

اتسعت عيناها باستنكار وهي تهتف بحنق وقد فاض بها الكيل:

_صغيرة؟!!! من هذه الصغيرة؟!!! أنا أكبرك بثلاثة أعوام سناً وبأضعافها خبرة...ماذا تعرف أنت عن الحياة حتى تتبجح هكذا؟!!! بعض العلاقات العاطفية الفاشلة ؟!!!! بعض المشاريع التي تشرف عليها من باب التسلية مع والدك؟!!!بعض الأسفار للسياحة واللهو؟!!! أنت لم تعرف من الحياة سوى قشور وتظن نفسك ملكتها!!!!!

اشتد ضغط قبضته علي كفها حتى تأوهت بضعف...

ليكز هو على أسنانه قائلاً بغضب مكتوم:

_هذا هو ثاني دروسك هنا يا أستاذة...لا ترفعي صوتكِ عليّ أبداً وإلا فلن يعجبكِ عقابي.

عقدت حاجبيها بشدة...

فاقترب منها حتى لاصقها ليردف بقسوة حقيقية:

_أبداً!!

أشاحت بوجهها عنه وهي تتمنى لو تحدث معجزة الآن...

فتنشق الأرض وتبتلع هذا البغيض...

كم تكرهه..

تكرهه!!!!

لكنه أعتق كفها من قبضته أخيراً...

وهو ينفضه عن يده بعنف ليهتف بصرامة:

_سأذهب بكِ الآن لشقتك لتحضري كل حاجياتكِ هنا...وبعدها سأوصلك للمكتب..ولو تحركتِ أي خطوة دون علمي ...فسأغلق لكِ هذا المكتب نهائياً...هل تفهمين؟!!

أشاحت بوجهها في ضيق وهي موقنة من قدرته على تنفيذ تهديده هذا...

فهي لم تنسَ بعد من هو ومن أبوه...

مدت أناملها ببطء تتلمس دعمها من دبلة حسن كعادتها...

لكنها لم تكن مكانها...لأول مرة منذ سنوات!!

فدمعت عيناها رغماً عنها وهي تشعر أن انتقام هذا الوغد بدأ ينال منها...

حقاً...لقد فعل!!!!

=============

_والد ميادة ينتظرنا الليلة على العشاء لنتم الخطبة!

قالها والده بصرامة فغمغم عزيز بتوتر:

_هل سنعود للحديث عن هذه الخطبة مرة أخرى؟!!!

خبط والده علي مكتبه وهو يقول بصرامة :

_لا...لن نعاود الحديث عن الأمر لأنه محسوم!!

زفر عزيز بقوة وهو يقول برجاء:

_أرجوك يا أبي...أنا لا أفكر في الزواج الآن.

قام والده من على مكتبه ليتوجه نحوه ثم وضع كفه على كتفه ليقول بتفحص:

_ألازلت على علاقة بهذه الفتاة؟!

أطرق عزيز برأسه وهو يشعر بالألم...

هذه الفتاة التي يتحدث عنها والده هكذا بهذا الاستخفاف هي حب قلبه الوحيد...

بل هي قلبه كله!!!

منذ رحلت وهو غائب عن هذا العالم ...

يكاد يجن من فرط شوقه تارة...

ومن فرط قلقه تارة أخري...

ماسته الحبيبة كانت أقسي مما تصور...

وربما أشجع!!!!

لم يعد يدري كيف يقيم رحيلها المجنون هذا!!!!

لكن الشئ الوحيد الذي يثق به أنها كسرته حقاً برحيلها...

وهي التي طالما رممت كسور روحه!!!

عاد والده يربت على كتفه وهو يقول برفق:

_أنا علمت أنها تركت منزل والدتك...وتركت عملها كذلك...عساها تكون وجدت حياة أخرى في مكان جديد...فتاة عاقلة...ليتك تكون عاقلاً مثلها وتبدأ حياتك أنت الآخر.

أغمض عزيز عينيه بقوة وهو يشعر بقسوة كلمات والده...

كيف يمكنه تصوير الأمر بهذه البساطة...؟!!!!

ماذا يعرف هو عن جرح ماسة الآن...؟!!!!!

ماذا يعرف عن غربتها ووحدتها وشعورها بالنبذ...؟!!!

ماذا يعرف عن منفاها الاختياري والذي يسميه هو بداية جديدة...؟!!!!!

ماسة ذبحت نفسها بسكين بارد لتتقدم دماءها قرباناً له ولرحمة...!!!

كم يشعر الآن بأنه صغير...

صغير أمام عظم تضحيتها....

فقط لو يعود به الزمن...

فيضمها لصدره ولا يسمح لأي شئ بالتفريق بينهما...

فقط...لو تعود!!!!

عاد والده يقطع أفكاره وهو يقول بحزم:

_يمكننا تأجيل الخطبة قليلاً...لكن ميادة ستعمل معك في مشروعك الجديد...وهي فرصة لتتعرف عليها

أكثر...نسب والدها فرصة كبيرة لا أريد أن تضيع بسبب (طيش شباب)!!!

ابتسم عزيز في مرارة...

طيش شباب؟!!!

هل صار هذا توصيف كل الحب الذي جمعه يوماً بملاك كماسته؟!!!

لكن ماذا عساه يقول؟!!

هو الذي سمح لنفسه بخسارتها...

وكان أضعف من أن يحافظ عليها...

فضاعت منه...

وضاع معها!!!!

=============

_تعاليْ يا ماسة!

هتفت بها حورية بطيبتها الظاهرة فتقدمت منها ماسة بابتسامة بشوش لتقوم بواجباتها اليومية معها...

حتى انتهت من متابعتها لها...

فجلست جوارها على طرف الفراش صامتة تنتظر منها أن تبدأها في الحديث كعادتها...

لقد مضى عليها قرابة الشهر هنا...

لم يتغير فيهما هذا "الروتين" اليومي لها...

تقضي أغلب يومها تتسامر مع السيدة حورية...

ثم تتوجه لغرفتها المنعزلة تجتر ذكرياتها الثمينة مع عزيز وخواطره ...

قبل أن يغلبها النوم ليسلمها لكوابيسها التي لا تنتهي!!!

بينما ابتسمت حورية وهي تتأمل جلستها الملائكية لتسألها باهتمام:

_أين أهلك يا ماسة؟!! منذ جئتِ إلي هنا وأنتِ لم تطلبي يوماً إجازة...ولم أسمعكِ تتحدثين إلى أي أحد على الهاتف.

ابتسمت ماسة ابتسامة حزينة وهي تهمس بشرود

_أنا لا أهل لي...(مقطوعة من شجرة) كما يقولون!

رمقتها حورية بنظرة مشفقة...

لكن ماسة لم ترها بل تلاعبت أناملها بهاتفها الذي حصلت له على شريحة جديدة برقم جديد...

وقد دفعها حديث السيدة حورية للبحث عن آخر ما كتبه عزيز في مدونته...

لعلها تطمئن عليه.....

وأنتِ السعادة لو تعلمين...

وأنتِ الهواء...

وأنتِ السماء...

وأنتِ البكاء...

وأنتِ ابتسامي..

وأنتِ الأنين...

وأنتِ الذنوب التي أهلكتني...

فأشتاق صفحكِ لو بعد حين...

وأنتِ الغرام الذي ضاع مني...

فأقسمت عمري...

أفتش عنه...

على درب عشقك...

مع الهائمين...!!!

أذوب اشتياقاً لبسمة ثغر...

وضمة كف...

ونور الجبين...

أذوب اشتياقاً لهمسة عشق..

وتنهيد شوق...

ولحن قديم...

أذوب اشتياقاً يا كل عمري...

ويا كل يأسي...

ويا كل أملي...

أذوب اشتياقاً...

فهل ترحمين؟!!

ومع آخر كلماته دمعت عيناها بقوة وهي تضع كفها علي شفتيها....

فهمست حورية بقلق:

_ماذا بكِ يا ماسة؟!!! ناوليني هاتفكِ لأرى ما الذي يبكيكِ هذا؟!!!

ترددت ماسة للحظة...

ثم دفعت إليها بالهاتف وهي تشعر بحاجتها للتحدث لأحد ما...

وحدتها القاتلة هنا تكاد تصيبها بالجنون...

كوابيسها المعتادة ليلاً...

وخوفها الدائم من السيد عاصي نهاراً...

نعم...رغم امتنانه لموقفه معها يوم ذهب بها إلى ركنه الخاص في الحديقة عندما شعر بحاجتها إلى هذا...

لكن المواقف التي تراها منه يومياً هنا تزيد شعورها معه بالنفور...

صرامته وقسوته مع الجميع....

وأحاديث الخدم التي لا تنتهي عن جبروته وتسلطه....

لقد رأته بالأمس يصلب رجلاً علي جذع نخلة في الحديقة في عز الظهيرة!!!

صرخات الرجل المتوسلة كانت تملأ القصر...

لكن لا أحد جرؤ على التدخل في الأمر وإلا شاركه المصير!!!!

ووسط كل هذا تبقى ذكرياتها- الرقيقة -مع عزيز هي زاد صحرائها هنا...

أحياناً تراودها نفسها أن تترك هذا المكان الذي صارت تكرهه حقاً...

وتعود من جديد إلى عزيز لتقضي بقية عمرها معه كما حلما معاً منذ سنوات...

لكن صورة رحمة العزيزة تتقاطع دوماً مع رغبتها هذه!

وكلماتها التي سمعتها منها بنفسها ذاك اليوم تكاد تصم أذنيها بقسوة وَقْعِها عليها...

لتجد نفسها مدفوعة للبقاء هنا رغم أنفها...

لأجل أن توفي ديناً عظيماً في رقبتها...

ما له من مناص!!!

قطعت حورية أفكارها وهي تسألها بحنان:

_من عزيز هذا يا ماسة؟!

فابتسمت ماسة ابتسامتها الحزينة لتهمس بشرود:

_عزيز كان حلماً أجمل من أن يتحقق!!

دمعت عينا حورية وهي تسألها بإشفاق:

_يبدو أنه لازال يحبك...كلماته تفيض عشقاً وشوقاً.

أومأت ماسة برأسها لتهمس بيقين:

_يحبني فوق الحب و أكثر....لكننا أبداً لن نلتقي في طريق!!!

ربتت حورية علي كفها وهي تشعر بحزنها الكبير...لتهمس بحنان:

_لا تضيعي الحب من يديكِ يا ماسة...وإلا قضيتِ بقية عمركِ في جحيم.

تنهدت ماسة بحرارة ثم همست بغموض:

_لا أحد يضيع الحب برغبته...هو الذي يتسرب من بين أيدينا رغماً عنا...ليتركنا وحدنا في يُتم أيامنا بعده...لكن عزائي أنني أوفي ديناً قديماً...لن يكفيه عمري كله كي أتم قضاءه.

عقدت حورية حاجبيها بتساؤل...

لكن ماسة عجزت عن الإفصاح عن المزيد...

فاحترمت حورية صمتها واكتفت بتربيتها الصامت علي كفها في مؤازرة..

لتسألها بعدها بحذر:

_هل يسئ السيد عاصي معاملتك؟!!!

هزت ماسة رأسها نفياً .....

ثم نظرت إليها بإشفاق واضح تشعر به يزداد داخلها يوماً بعد يوم....

لا تتصور كيف جمعت الظروف بين رجل في قسوة السيد عاصي وفراشة رقيقة كالسيدة حورية!

لاريب أنها تعذبت معه كثيراً...!

لهذا عقدت ماسة حاجبيها بضيق ثم سألتها بتردد:

_عفواً يا سيدتي...لا أريد التدخل في أموركما الخاصة...لكن...لماذا يمنع أهلكِ من زيارتكِ...ولماذا يرتضون هم بهذا؟!!

تنهدت حورية بحرارة..ثم أسندت ظهرها على وسادتها لتقول بشرود:

_يبدو أنكِ لا تعلمين الكثير عن عاصي الرفاعي...لا أحد من عائلتي بل لا أحد في مدينتنا كلها يجرؤ علي معارضة أوامره أو حتي مناقشتها.

هزت ماسة رأسها في تعجب لتسألها ثانية:

_لكن...لماذا هذا القرار الجائر؟!

ابتسمت حورية في مزيج من السخرية والتشفي...

لتتغير ملامحها البريئة للحظة كما هيئ لماسة وهي تقول ببطء:

_عاصي يشك أن الطفل ليس له...بعد كل هذه السنوات من زواج بلا أطفال.

شهقت ماسة بعنف وهي تضع كفها علي شفتيها هاتفة بذهول:

_يا إلهي!!

اتسعت ابتسامة حورية وهي تقول بنبرة يائسة:

_لهذا يمنعني عن الجميع...لا خروج ولا زيارات...ولا حتى أبي وأمي لأنه لا يثق بأحد...حتى يأتي الطفل.

فهتفت ماسة بانفعال واضح:

_هذا جنون!!!! لماذا يشك في أمر كهذا؟! الرجل الذي يطعن في شرف زوجته بعد عشر سنوات من الزواج هو رجل فقد عقله.

تنهدت حورية لتقول بحسرة:

_فقد عقله كما فقد قلبه منذ دهور !

هزت ماسة رأسها بحزن...

وحدسها السابق يزداد رسوخاً في عقلها ...

عاصي الرفاعي مجنون بالسلطة ...

مهووس بالسيطرة...

لكن حكاية شكه في امرأته هذا جاوزت كل توقعاتها...

ازدردت ريقها بتوتر وهي تشعر بالقلق يعتصر قلبها ...

يبدو أن أيامها هنا تزداد سواداً وقتامة...

وما خفي كان أعظم!!!

=========

سمع عاصي صوت طرقات قوية على باب غرفته عند منتصف الليل...

فانتفض من سريره بغضب...

من ذا الذي يجرؤ على طرق بابه بهذه الطريقة؟!!!

فتح الباب بعنف ليتطلع لجسد ماسة الضئيل التي هتفت بارتباك :

_عذراً سيد عاصي...لكن السيدة حورية تنزف وأنا أخشى...

دفعها من طريقه بسرعة مقاطعاً عبارتها عندما سمع ما قالته...

ليتوجه بسرعة نحو غرفة حورية...ثم سألها بقلق لم يستطع إخفاءه:

_ماذا حدث بالضبط؟!!!

جاءته الإجابة من ماسة التي تبعته لتهتف بانفعال:

_أنا اتصلت بالإسعاف وسيصلون حالاً...لا تقلق ...ستكون بخير.

بينما أشاحت حورية عنهما بوجهها وهي تشعر بلا مبالاة عجيبة!

هذا الطفل لا يعنيها...

بل- بالأدق- هي لا تريده....

قد يتهمها أحدهم بالقسوة والجفاء...

لكنها لا تهتم...

هي لا تريد ولداً لعاصي...

لا تريده أن يفرح لأنه لا يستحق هذه البشارة...!!!!

وبعدها بوقت ما كانت حورية قد نقلت للمشفي القريب حيث تمت السيطرة على النزيف...

لكنها احتاجت لنقل دم وتطوعت ماسة للتبرع لها بسرعة....

قبل حتى أن يطلب منها عاصي ذلك...

لكنها فعلتها حباً في تلك المرأة المسكينة التي طالما أغرقتها بعطفها وحنانها...!!!

وبعدها بقليل...

كانت ماسة جالسة ممسكة كفها برفق لتهتف بأنفاس متقطعة رغماً عنها:

_لا تقلقي يا حبيبتي...كل شئ سيكون علي ما يرام.

ابتسمت حورية بشحوب وهي تتحاشى نظرات عاصي الهادرة...

لتقول لها بحنانها المعتاد:

_أنفاسك منقطعة تماماً يا ماسة....هل جلبتِ معكِ (بخاخ الأنف)؟!!!

هزت ماسة رأسها نفياً لتقول لها بصوت متهدج:

_لا تشغلي بالكِ بي...اهتمي بنفسك.

تقدم منهما عاصي ليقول لماسة بنبرته المسيطرة:

_ما اسم بخاخ الأنف هذا؟!

التفتت نحوه ماسة وصدرها يعلو ويهبط في سرعة غير طبيعية...

لتهمس بخجل:

_لا داعي لتتعب نفسك...أنا...

قاطعها هاتفاً بصرامة:

_ما اسمه؟!!!

ازدردت ماسة ريقها بتوتر ثم ذكرت له اسم بخاخها الخاص...

فتناول هاتفه ليطلب من حارسه إحضاره لها...

بينما أطرقت ماسة برأسها وهي تضع كفها علي صدرها ...

أنفاسها صارت شديدة التلاحق...حتى أنها بالكاد تحافظ علي ثباتها!

لكن الحارس جاء بسرعة محضراً ما طلب منه ...

فناوله لها عاصي وهو يقول بلهجته الآمرة:

_خذيه حالاً!!

لم تكن تحتاج لأمره في الواقع فهي كانت على شفا الاختناق...

لهذا ابتعدت قليلاً نحو زاوية الغرفة لتتعامل مع بخاخها كالعادة...

حتى انتظمت أنفاسها أخيراً...

فسمعت صوته خلفها يسألها بصوته الأجش:

_مادمتِ لا تحتملين المجهود والانفعال...لماذا أصررتِ على المجئ معنا؟!!

أخذت نفساً عميقاً ثم قالت بصدق وهي تتحاشى النظر لعينيه القاسيتين:

_لم أكن لأترك السيدة حورية أبداً.

عقد حاجبيه وهو يتأملها بتفحص ليزداد ارتباكها أمام نظراته الثاقبة...

خاصة عندما اصطحبها معه ليعيدها للمنزل بعدما قرر الأطباء استبقاء حورية في المشفي لوقت غير محدد...

حاولت ماسة الاعتراض لتبقى معها لكن عاصي أصر على أن يعيدها للقصر!!

كانت تجلس جواره صامتة في سيارته طوال الطريق...

وهي تشعر برهبة شديدة وذبذبات من التوتر تملأ الهواء بينهما...

عندما سمعت صوته القاسي جوارها:

_لم أعلم أنكِ تعانين من ضيق التنفس أحياناً.

اختلست نظرة خاطفة إليه لتقول بهدوء:

_لا تخشَ شيئاً سيد عاصي...إنه ليس مرضاً معدياً.

ابتسم ابتسامة ساخرة وهو ينظر إليها قائلاً بخشونة:

_أعرف أنه ليس معدياً....ماذا تظنين عني ؟!!!

أطرقت برأسها دون رد...

لتسمع صوته جوارها يردف بشرود:

_أنا أكملت دراستي الجامعية....درست في كلية التجارة قسم إدارة الأعمال...منذ ما يقارب خمسة عشر عاماً.

التفتت إليه بدهشة وهي تعقد حاجبيها ...

لم تتصور هذا عنه أبداً...

لقد ظننته مجرد رجل جاهل...اكتفى برصيده من أموال عائلته ليقهر بها خلق الله...

ورغماً عنها وجدت نفسها تتفحص هيئته بنظرة جديدة...

ثيابه البسيطة العصرية التي لا تخلو من أناقة مهذبة...

والتي تختلف تماماً عن ثياب عزيز شديدة البذخ والتي تظهره كنجم سينمائي...

تصفيفة شعره الذي غزا الشيب فوديه والتي تجعله أقرب لمظهر الأب العاقل...

على عكس تصفيفة شعر عزيز الجذابة التي تظهر وسامته وعذوبة تقاسيمه....

ابتسامة شفتيه القاسية والتي تصنع مع عينيه الزيتونيتين مزيجاً يقبض قلبها بنفور...

على عكس ابتسامة عزيز بلمعة الزمرد العسلي في عينيه ...والتي كانت ترقص لها دقات قلبها حباً!!!!

ابتسمت في مرارة وهي تفكر في نفسها...

عزيز سيبقى مقياساً لكل الرجال دونه!!!

أي رجل ستقابله سيكون في مقارنة معه...

مقارنة سيربحها عزيز بلا شك...

لأنه أفضل الرجال!!

بينما التفت إليها هو بدوره ليلحظ تفحصها فيه...

فاتسعت ابتسامته الساخرة وهو يقول بغموض:

_ظننتكِ أكثر عمقاً من أن تنخدعي بالمظاهر...أنتِ بالذات....توقعتُ ألا تغريكِ القشور!

ازدردت ريقها ببطء وهي تشعر أنها وقعت أسيرة غابات الزيتون المشتعلة في عينيه...

وقد عجزت عن الفرار من متاهاتها المتشابكة...

هذا الرجل محيرٌ حقاً...

عندما رأته يحافظ على صلاة الفجر ظننت فيه التقوى رغم تعارض هذا مع خوف الجميع منه...

لكن مكوثها هنا جعلها تعرف الكثير عن عادات هذه المدينة....

"كبير البلد" كما يطلقون عليه لابد أن يؤدي صلاة الجماعة في أول صف...

نوع من إثبات السيطرة والنفوذ بعيداً عن قدسية الصلاة كشعيرة...!!!!!

هذا الرجل يعرف كيف يسيطر على كل الأمور بدقة...

وكيف يقرأ أفكار من أمامه بوضوح...

لكن ...ماذا يقصد بقوله إنه توقع ألا تنخدع هي بالذات بالمظاهر؟!!!

وجدت صوتها أخيراً فهمست بتساؤل :

_ولماذا أنا بالذات؟!!

أعتقها أخيراً من أسر عينيه ليعاود النظر أمامه قائلاً بغموضه المريب:

_لأنكِ....ماسة!!

عقدت حاجبيها بشدة وهي تفكر في كلماته...

لماذا يقول هذا؟!!!

هل يعرف شيئاً عن ظروفها وحياتها....

هل يعرف أنها مجرد لقيطة ؟!!!

هل هذا معنى كلامه عن الأخذ بالظواهر؟!!!

أخذت نفساً عميقاً ثم سألته بحذر:

_هل تعرف شيئاً عن حياتي الخاصة؟!!!

فالتفت إليها لتتوه في غابات الزيتون من جديد ...

ويلتقط هو حزنها الذائب في بحار الفضة الآسرة...

للحظات مرت علي لقاء عينيهما...

قبل أن يقول بنبرته المسيطرة:

_لم أكن لأدخل امرأة بيتي قبل أن أعرف عنها كل شئ..

ثم صمت لحظة ليردف بعدها بلهجة مؤكدة:

_كل شئ!!

ارتعشت أناملها وهي تشعر بمزيج من الخزي والخوف...

ما الذي عرفه عنها بالضبط..؟!!!!

إلى أي حد وصلت معلوماته..؟!!!!

قطعت أفكارها عندما وصل بسيارته للقصر...فقالت بصوت مرتبك:

_شكراً سيد عاصي.

نظر إليها طويلاً ثم قال ببرود غلف قسوة عباراته:

_أنتِ تستحقين الشكر على ما فعلتِه اليوم....لكن عاصي الرفاعي لا يشكر أحداً...راتبك سيتضاعف منذ الشهر القادم...عودي لغرفتكِ...واستريحي.

عقدت حاجبيها بشدة وشعورها بالنفور منه يزداد...

ممَّ خلق هذا الرجل؟!!!

إنه يبدو وكأن القسوة قد اختلطت بدمه وعظامه....

فلم يعد له منها مفر!!!

بل كأن قلبه الصخري قد تشبع بجبروته...

فلم يعد هناك هناك مجال لمشاعر أخري!!!

ترجلت من السيارة وهي تشعر بالارتياح لأنها تخلصت أخيراً من صحبته المنفرة....

فيما ظل هو يراقب ظهرها المنصرف بنظرات متفحصة....

وفكرته التي بدأت منذ رآها تزداد تخمراً في رأسه...

هذه الفتاة مناسبة...

مناسبة تماماً لما يريد!!!!

قطعت أفكاره عندما جاءه اتصال ينتظره منذ أيام...

فتح الاتصال ليأتيه صوت محدثه يخبره بشئ ما ضاقت له عيناه بقسوة رهيبة...

ثم همس بصوته المسيطر:

_لا تفعل شيئاً ....أنا قادم!

لم يزد كلمة عن هذا ثم أغلق الاتصال بحسم...

ليعيد تشغيل سيارته وينطلق نحو وجهته....

وبعدها بقليل...

كان واقفاً أمام رجل جسده مربوط علي أحد الأعمدة...

وتبدو على جسده علامات التعذيب...

اقترب منه عاصي ببطء وقد اشتعلت عيناه بغضب رهيب...

فارتجف جسد الرجل تلقائياً وهو يشيح بوجهه عنه...

لكن عاصي وصل إليه ليدير وجهه نحوه هامساً بصوته المخيف:

_كيف جرؤت؟!!

رمقه الرجل بنظرات مرتعدة...

لكنه لم يقوَ علي الكلام....

فتناول عاصي مسدسه من سترته ثم صوبه نحو صدره ليقول بقسوة:

_لم أقتل رجلاً بيدي من قبل إلا أنت...

اتسعت عينا الرجل بذعر واضح...

لكن ملامحه سكنت تماماً بعد الرصاصة التي تلقاها مباشرة...

ليسقط رأسه بعدها على صدره معلناً انقضاء أجله..

نعم..

قتله الشيطان!!

==============

تقلب عبد الله في فراشه وهو يشعر بضيق يخنق أنفاسه...

يكره اعترافه بأنه يفتقدها...

لكنه حقاً كذلك....!!!!

يفتقد وجهها الصبوح بابتسامته الحانية وهي تنتظره كل ليلة عائداً من عمله...

فتساعده في تبديل ملابسه...

لتحضر له طعامه الذي يحبه ساخناً وهي تحرص على أن يكون دوماً كذلك...

ثم تتبعه بصنف خاص من الحلوي يتغير كل يوم كي لا يزهده...

حتى ينهي طعامه فتشاركه كوب الينسون الذي يحبه...

والذي أحبته هي لأجله!!!!

لترافقه بعدها إلى السرير حيث تمسد له ظهره برفق لتخفف عنه آلام يومه الطويل الناتجة عن طول جلوسه في المحل....

المحل الذي اشترته هي بنقودها ومنحته له!!!

ثم تستمع بصبر لحكاياته الطويلة عما حدث له طوال يومه....

ومناكفاته الكثيرة مع التجار والزبائن....

فتمنحه رأيها الذي كان يقدره....

وهل في النساء كعقل صفا؟!

زفر بقوة وهو ينتفض من نومه ليجلس على السرير شاعراً بالسخط...

السخط من نفسه قبل أي شئ...

لماذا لا يستطيع أن يستمتع بحياته معها...

من ذا الذي لا يعشق امرأة كهذه؟!!!!

تنهد في حرارة وهو يدفع عنه الغطاء...ليتوجه نحو شرفة غرفته...

لمح ضوء غرفتها المجاور لغرفته في شقتها المقابلة مضاءً ...

فعلم أنها لازالت مستيقظة مثله...

هل تراها تفتقده كما يفتقد وجودها في حياته....؟!!!!

أم أنه أحرق سفنه كلها لديها؟!!!!

وفي غرفتها كانت صفا جالسة على سريرها لا تستطيع النوم كذلك...

افتقدته بشدة...

عبد الله ليس حبيبها ولا زوجها فحسب...

عبد الله هو ابن قلبها الأول كما قال لها يوماً...

كم تود الآن فقط لو تطمئن عليه...

لو تراه وتسمع منه حكاياه الطويلة عما حدث له في هذه الأيام القليلة التي ابتعد فيها عنها...

لو تتفقد طعامه وشرابه وثيابه كعادتها لتتأكد من أنه لا ينقصه شئ...

لو تسند رأسه على صدرها حتى يسبقها في النوم ككل ليلة...

فتضمه إليها بقوة لتستيقظ بضع مرات بعدها فقط لتطمئن أنه لم يزح غطاءه من على جسده كعادته!!

غريب؟!!!!

لا...ليس غريباً...

هذا هو قلب صفا المعموري..

وهذا هو حبها لعبد الله والذي لم تنل منه عيوبه وزلاته كلها رغم كل شئ!!!!!

قطعت أفكارها عندما سمعت طرقاً خفيفاً علي باب شقتها...

خفق قلبها بقوة وهي تشعر بالخوف...

من سيطرق بابها الآن؟!!!

ازدردت ريقها ببطء وهي تقوم لتتوجه نحو الباب هاتفة بتماسك مصطنع:

_من؟!!!

لم يصلها صوت ....

فزاد توجسها أكثر...

خاصة أنها عندما نظرت في العين السحرية للباب لم ترَ أحداً...

فوضعت كفها على صدرها وهي تشعر بالاضطراب....

لكن الطرقات عادت من جديد...

خافتة...

متباعدة...

وكأن صاحبها يتردد كثيراً فيما يفعل....

فاستجمعت شجاعتها لتفتح الباب فتحة صغيرة...

قبل أن تشهق بعدها بدهشة وهي تهتف :

_أَنَس؟!!!

==============

_ألم تجد سوى تلك الفتاة يا راغب؟!!!

هتفت بها والدته عفاف في ضيق وهي تمصمص شفتيها قائلة بسخط:

_دائماً كلمتك من رأسك ولا تسمع لرأيي!!

ابتسم راغب في حنان وهو يقبل يدها ليقول بصوته الخشن:

_وما الذي لا يعجبكِ فيها يا (ست الكل)؟!!! أنتِ حتى لم تلتقي بها!!!

أشاحت بوجهها لتقول بضيق:

_الخطاب يظهر من عنوانه!!!! هذه فتاة جامعية ستتكبر عليك بتعليمها...تربت بلا أب ولا أم....ماذا ستعرف عن شئون المنزل ؟!!!وبالطبع سترغب في العمل بعد الدراسة لتتركك وبيتك خلف ظهرها....ولو اعترضت أنت...فستعيرك بالفارق بينكما!

تنهد راغب في حرارة ...فشعرت ببعض الأمل دفعها لتقول برجاء:

_عزة شقيقة هيام زوجة أخيك...فتاة ممتازة...و(على قدر يدنا) كما يقولون!!!

زفر زفرة قصيرة وهو يشعر بالمزيد من الضيق...

عبد الله أخبره بموافقته المبدئية وكم كان سعيداً جداً يومها....

لكنه لم يحدد معه موعداً ليذهب لخطبتها رسمياً في بيته...

ووالدته لا تبدو مرحبة بهذه الزيجة...

رغم أنها لم ترَ رؤى ولا مرة ....

لكنها تريد من تزويجه بشقيقة زوجة أخيه...

هيام تسيطر على رأس أمه كثيراً...

وليس أمه فحسب...لكن أخاه أيضاً يتأثر بكلامها...

لو تزوج رؤى كما يتمنى فهيام ستكون غريمتها الحقيقية هنا!!!!

لكن من سيسمح لها بأن تؤذي حبيبته...؟!!!

هو سيحميها حتى من خدش النسيم...

فقط لو تقبل به!!!!

عاد يتنهد أخيراً بحرارة...ثم واجه عفاف قائلاً بحزم:

_رؤى هي اختياري يا أمي...الفتاة رائعة جداً وغداً ستدركين ذلك.

قالها ثم توجه لغرفته مغلقاً بابها خلفه...لترتسم ابتسامة حانية على شفتيه...

وصورة رؤى تملأ كيانه كله....

فيخفق قلبه بعنف وهو يتصورها وقد صارت أخيراً له...

كما يحلم منذ زمن بعيد....

حلم جميل...والأجمل لو ...يصير حقيقة!!!

========

عاد إلى قصره بعد الشروق وقد أنهى مهمته المشئومة...

شعر بضيق هائل يجثم على صدره فلجأ لمكانه المفضل المنعزل في حديقة قصره...

لكنه اقترب بخطوات حذرة عندما وجدها جالسة وحدها هناك...

تبسط كفها على صدرها وهي تنتحب بضعف...

فزفر بقوة ثم تقدم أكثر نحوها حتى انتبهت إليه...

فقامت من مكانها وهي تشعر بالارتباك لتهمس باعتذار:

_عفواً سيد عاصي...أنا كنت...

قاطعها بإشارة من كفه ثم أشار لها بالجلوس دون أن يتكلم...

فعاودت الجلوس وهي تشعر بمزيج الرهبة والغموض الذي ينتابها دوماً أمام هذا الرجل...

مع الكثير من الخجل لأنها تجلس هكذا دون إذنه...

لكنها لم تستطع مقاومة سحر هذا المكان بعدما جربته لأول مرة...

حقا...لقد وجدت سكينتها هنا...

ولم تجد لها سوى هذا المكان تلجأ إليه بعد كوابيس كل ليلة ....

توقعت أن ينصرف ويتركها كما فعل المرة السابقة...

لكنه جلس على الأريكة المقابلة لها ليسألها وهو يتفحص ملامحها بدقة:

_كوابيسك المعتادة؟!!

أطرقت برأسها للحظات...ثم أومأت برأسها إيجاباً....

فقال بنبرته المسيطرة:

_لن تتخلصي منها بسهولة...تدرين لماذا؟!!!

رفعت وجهها إليه بحذر يمتزج بخوفها...

فأردف بغموض:

_لأنها تنبع من داخلكِ أنتِ...لو هزمتِ نفسكِ فستتخلصين من كوابيسكِ كلها.

هزت رأسها بعدم فهم وهي ترمقه بنظرات حائرة...

هذا الرجل يبدو وكأنه يعلم جيداً ما يتحدث عنه...

ابتسم ابتسامته الجانبية وهو يراقب نظراتها الحائرة نحوه ...

ليلوح بسبابته في وجهها قائلاً بحزم:

_أنتِ خصيمة نفسكِ في هذه المعركة.

نظرت إليه مأخوذة بما يقول وهي عاجزة عن الرد...

كتلميذة تتلقى درساً صعباً من معلم ماهر...

لكن ذهولها وصل لذروته عندما عاد يسألها ببرود:

_هل افتقدتِها؟!!! تريدين أن تعودي إليها؟!

ازدردت ريقها ببطء وهي تسأله بحذر:

_من تقصد؟!!

نظر إليها طويلاً تلك النظرات التي تسرق من روحها أسرارها...

ليقول بعدها باقتضاب:

_رحمة!

فانتفضت من مكانها وهي تسأله بدهشة:

_تعرف أمي؟!!

أشاح بوجهه عنها ليقول بنفس البرود:

_وهل هي حقاً أمك؟!!

دمعت عيناها وهي تشعر بالضياع...

هذا الرجل مخيف حقاً...

وجوده حولها يجدد كل أحزانها ومخاوفها...

وغموضه المريب هذا يكاد يدفعها للجنون...

ما الذي يعرفه عنها بالضبط؟!

لكنه عاد ينظر إليها لتعاود عيناها ضياعها بين غابات زيتونه...

ثم قال بحسم:

_لا داعي لدهشتكِ هذه...أنا أعرف عنكِ كل شئ.

ظلت واقفة مكانها تراقبه برهبة...فوقف بدوره ليقول لها بغموض:

_يوماً ما قد أخلصكِ من كوابيسكِ هذه...لكن هل ستقدرين على دفع المقابل؟! !

خفق قلبها بعنف وهي عاجزة عن فهم ما يقول...

فاقترب منها خطوة ليقول بحزم :

_عاصي الرفاعي لا يفعل شيئاً دون مقابل...والمقابل دوماً غالٍ...

تلاحقت أنفاسها وهي تشعر بالاختناق...

هذا الرجل سيقتلها ببطء حقاً لو بقي يحدثها بهذه الطريقة...

وبهذا الكلام الغامض الذي ربما لا تفهمه...

لكنه يقبض قلبها أكثر....

ومع هذا وجدت نفسها بلا وعي تهمس بتساؤل:

_وما هو المقابل؟!!

اشتعلت غابات الزيتون بعينيه للحظة...لكنها انطفأت في بحار الفضة بعينيها ...

ليقول هو بعدها ببطء ضاغطاً على حروفه:

_المقابل...ماسة!

الفصل السابع:

_أنس؟!!!!

هتفت بها صفا في دهشة وهي تطالع ابن عمها أنس الذي كان مطرقاً بوجهه في تهذيب واضح...

ليختلس نظرة إليها قبل أن يقول بهدوئه المعهود:

_آسف لإزعاجكِ في هذا الوقت يا صافي...لكن عمكِ مريض ويطلب رؤيتك.

شهقت صفا بعنف وهي تسمع منه هذا...

عمها هو كل ما بقي لها من عائلتها ...

وهي تحبه كثيراً رغم أنه كان ساخطاً على زيجتها بعبد الله...

فطالما أرادها لولده أنس الذي لم يتزوج حتى الآن...

لا تريد الإفراط في غرورها فتظن أن أنس لم يتزوج بسببها...

لكن جزءاً منها يشعر بذلك!!!

تركته واقفاً على الباب حتى بدلت ملابسها بسرعة...

ثم توجهت معه لبيت عمها الذي لا يبعد عن بيتها الكثير...

وعلى سريره كان عمها ينتظرها بلهفة...

وما إن رأته حتى ارتمت بين ذراعيه وهي تشعر بحاجتها الماسة إليه...

طالما اعتبرت عبد الله عالمها كله...

وعندما خذلها ...وجدت نفسها وحيدة...

كشجرة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار...!!!

دمعت عيناها وهي ترفع رأسها نحوه لتقول بحنانها الفريد:

_شفاك الله يا عمي.

تنهد عمها بحرارة وهو يربت على رأسها...

ثم نظر لأنس الذي كان واقفاً يراقبهما بعاطفة صادقة..ليقول له بحزم:

_اتركني مع صافي قليلاً!!

ابتسمت صفا وهي تسمعه يدللها هكذا كما كان يفعل منذ سنوات...

فيزداد حنينها لتلك الأيام البعيدة حيث كانت طفلة...

لم تحمل هماً بعد...

ولم تدرك ما الذي تخبئه لها الأيام...

دفنت وجهها في صدره تخفي دموعها وهي تهمس بحزن:

_أحتاجك يا عمي...أحتاجك لتكون ظهري الذي أستند عليه...اعتنِ بنفسك أرجوك...لأجلي.

فربت على ظهرها في حنان...ثم قال بغضب مكتوم:

_لقد علمت أنه طلقك للمرة الثانية...وأنكِ تقيمين الآن وحدك.

رفعت رأسها لتمسح دموعها برقة...ثم قالت بتماسك:

_أنت تعرف عبد الله يا عمي...سريع الغضب...لكنه يحبني ولا يمكن أن يتخلى عني أبداً!!

لكنها لم تكد تنهي عبارتها حتى انهارت في البكاء من جديد...

كاذبة...

كاذبة!!!

هي لا تثق في حب عبد الله المزعوم هذا....

بل على العكس...

كل يوم يمر عليها بعدما ألقى عليها يمين الطلاق يشعرها أن المسافة بينهما تزداد بعداً...

وأنها لم تكن تعدو سوى خلف سراب....

كطفلة حمقاء حاولت الاحتفاظ بضوء الشمس بين أصابعها فتفلت منها ...

لتجد نفسها بعد كل هذا العمر معه ...

قد عادت بكف فارغة...وقلب كسير!!!

شعر عمها بكل ما يدور برأسها...فهز رأسه في عجز...

صفا ...بقلبها الكبير وعقلها الأكبر لن تتغير...

ستبقى تدافع عن عبد الله بكل استماتة....

محظوظٌ هو بها...

ومنكوبةٌ هي به!!!

تنهد في حرارة ثم ربت علي رأسها ليهمس بخشوع:

_لله الأمر من قبل ومن بعد...اسمعيني يا ابنتي...أعرف أنه لن يجوز أن أخطبك لولدي وأنتِ لازلتِ في عدتك...لكنني أخاف أن يدركني الموت قبلها...أريحي قلبي يا ابنتي...لو طلبكِ ابن عمك للزواج..فلا ترديه خائباً...لن يحافظ عليكِ مثل أنس.

اتسعت عينا صفا في تأثر لكنها عجزت عن الرد...

لن تستطيع الزواج من أنس...

ليس لعيب فيه...كلا...

بل لأنه لا يستحق بعد كل هذا أن يتزوج امرأة قلبها معلق بآخر...

وهي تظن أنها حتى لو طلقها عبد الله...

فلن يعرف قلبها مالكاً له غيره...!!!

لهذا أطرقت برأسها وهي عاجزة عن الرد...فربت عمها على رأسها في تفهم...

ثم همس برجاء:

_فقط فكري في كلامي...واعقليه.

أومأت برأسها إيجاباً...

لتتركه بعدها بقليل عائدة لشقتها مع أنس الذي أصر على توصيلها في هذا الوقت المتأخر...

لكنه لم يتحدث إليها ولو بكلمة واحدة...

وكذلك هي كانت عاجزة حتى عن النظر إليه بعدما سمعته من عمها...

دخلت شقتها تفكر في كلام عمها بشرود...ثم بدلت ملابسها بتثاقل...

عندما سمعت طرقات عنيفة على باب شقتها...

عقدت حاجبيها وهي تظنه أنس قد عاد ليخبرها شيئاً...

فارتدت حجابها بسرعة وفتحت الباب ...

ليندفع عبد الله إلى الداخل مغلقاً الباب خلفه ....وهو يهتف بغضب هادر:

_ما الذي كنتِ تفعلينه مع هذا الرجل في هذه الساعة؟!!!!

لكنها مدت يدها لتفتح الباب ثانية ...

ثم قالت بهدوء لا يعكس شيئاً من مشاعرها الآن:

_هو ليس رجلاً...هو ابن عمي ...وأنا ذهبت معه للاطمئنان على عمي المريض...لكن أنت...ماذا تفعل هنا...وبأي صفة تسألني عن هذا؟!!!

اشتعل جنونه أكثر وهو يسمعها تحدثه بهذه الطريقة....

صفا لم تكلمه يوماً بهذا الأسلوب ...

بل كانت تحيطه دوماً بحنانها واحتوائها....

كانت تتفهم نيران غضبه وتعرف كيف تخمدها بشلال عاطفتها الجارف....

لهذا هتف بحدة أشد:

_ماذا تقولين؟!!! لا تعرفي صفتي هنا؟!!

عقدت ساعديها أمام صدرها وهي حريصة على ألا تنظر إليه...

نظرة واحدة لوجهه قد تثنيها عن عزمها...

قد تجعلها تستجيب لنداء قلبها الذي يرجوها الآن أن تضمه إليها كعادتها لتحتوي غضبته...

لكنها لن تفعلها ...

فجرحه هذه المرة أكبر من غفرانها...

أقوي من حبها...

وأعمق من شوقها!!

وأمامها كان هو واقفاً يشعر بغليان صدره...

مرآها تسير مع ابن عمها أوقد نيران غيرته...

لم يحتمل أن يراها مع رجل غيره...

صفا المعموري ملكية خاصة له...

لن يصدق إلا هذا مهما حدث...

مهما ادّعت من صلابة وبرود كما تفعل الآن...

سيذيبها بين ذراعيه حباً ...

سيعرف كيف ينتزع استجابة قلبها وجوارحها له من جديد....

فهو يعرف كم تعشقه...

هذه هي الحقيقة الكونية الخالدة التي لن يغيرها شئ!!!

وبهذا اليقين أغلق الباب من جديد ...

فرفعت وجهها إليه بترقب وقد عاد قلبها يخفق بقوة عاطفته...

عندما اعتقل عينيها بحصار عينيه للحظات...

قبل أن يهمس بصدق لا يدعيه:

_افتقدتكِ يا صفا روحي!!

قالها ليس كاذباً ولا مدّعياً...

لا ليسترضيها ولا ليداهنها...

بل قالها وهو يعني كل حروفها....

هي حقاً صفاء روحه التي لا تصفو بسواها....!!!!!

لقد اشتاقها فوق الشوق وأكثر....

رغم كل هواجس عقله الذي يشعر نحوها بالنقص....

ورغم كل ذنوب خلواته التي يشعر أنها تحرقه قبل أن تحرقها...

ورغم مشاعره المتخبطة نحوها والتي لا ترسو أبداً علي قرار...

لكنه ...حقاً اشتاقها...

هل هو مجرد احتياج لما كانت تمنحه له من عناية واهتمام...؟!!!!

ربما....!!!

لكن ما يثق به حقاً هو ضرورة وجودها في حياته...

حتى لو لم يكن لهذا مسميً عنده...!!!!

وأمامه كانت هي تجاهد للحفاظ على ثباتها أمامه...

صفا روحي!!!!

بصوته الهامس هذا تصيب دقات قلبها بالجنون...

هل يعلم هذا الرجل كم تحبه...؟!!!

هل يعلم كم تموت وتحيا آلاف المرات بقربه..؟!!!

هل يعلم أن روحها معلقة بدقات قلبه...؟!!!

أنفاس صدرها تخرج مشبعة برائحته...؟!!!

هل يعلم هذا الغيور الذي ينتفض غضباً الآن...

أن طيفه يقف حائلاً بين عينيها وبين كل الرجال...؟!!!!

فلا تكاد تتبين رجلاً سواه وسط الوجوه؟!!!

ليته يعلم...

بل ليته أبداً لا يعلم!!

أطرقت برأسها أخيراً وكأنها تخشي أن تفضحها نظراتها...

فاقترب منها أكثر ليحتضن وجهها براحتيه هامساً بحرارة:

_رددتكِ يا صفا!

دمعت عيناها وهي تشعر بالمهانة...لتهمس بعتاب ذبح قلبه:

_بهذه البساطة يا شيخ عبد الله؟!!!تطلقني بكلمة وتردني بكلمة؟!

ازدرد ريقه ببطء وهو عاجز عن الرد..

صفا تستحق اعتذاراً لكنه لن يعتذر...

لم يفعلها يوماً ولن يفعلها...

فزمّ شفتيه بتوتر وهو يرمقها بنظرات حائرة...ليهمس بعدها متردداً:

_تريدين اعتذاراً ؟!!!

ابتسمت بسخرية مريرة لتهمس بنفس اللهجة القاتلة وكأنها تقرأ أفكاره:

_وهل يعتذر الشيخ عبد الله؟!!!

أخذ نفساً عميقاً وهو يتوه في وديان عينيها اللائمتين...

ليجد نفسه يهمس دون وعي:

_لو طلبتِها أنتِ فسأفعلها لأجلك!!

أغمضت عينيها بألم وهي تشعر بقلبها يكاد يتوقف...

هي تشعر أنه صادق...

قلبها الذي يحفظ معالم خرائطه كلها يخبرها بذلك...

لكنها تخشى العودة إليه...

تخشاها كما تتمناها!!

لكنه -هو الآخر- قد التقط ترددها بشعوره بها....

ليميل على وجهها الذي يحتضنه بكفيه ...

فيقبل عينيها هامساً بصدق:

_لا تتركيني أبداً يا صفا...أنا حقاً أفتقد نفسي عندما أفتقدك.

سالت دموعها التي طالما أخفتها على وجنتيها...

فمسحها بأنامله هامساً بألم:

_لا تبكي.

نظرت إليه بألم يمتزج برجائها...

لتلتقي عيناهما في حديث طويل...

كلاهما معذّبٌ بصاحبه...

مقيدٌ به...

وضائعٌ معه!!!!

لتقطع هي صمتهما بعد لحظات هامسة بمرارة:

_لم يتبقَ لنا سوى فرصة واحدة يا عبدالله...طلقة واحدة أخيرة وأُحرّم عليك للأبد!!!!

اتسعت عيناه بصدمة وكأنه انتبه فقط الآن لما تقول...

ليجد نفسه يضمها إليه بكل ما أوتي من قوة...

فيعتصرها بين ذراعيه وكأنه يخشي أن يفقدها...

ثم تأوه بعدها هامساً بحرارة:

_أحمقٌ أنا لو أضعتكِ من يدي.

رفعت عينيها إليه برجائها المذبوح ألماً...

فمال على شفتيها ليتناولهما بقبلة مشتاقة...لكنها دفعته برفق هامسة بعتاب رقيق:

_أنا فشلتُ أن أكون امرأة وأماً...أليس هذا...

قاطع حديثها بشفتيه اللتين اعتقلتا باقي عبارتها...وهو يضمها إليه برفق حانٍ...

وكأنه يعتذر بلا كلمات...

ليغمرها بعاطفته الخاصة فتشعر أنه اليوم مختلف...

لمساته أكثر حنوّاً ورفقاً و...حرارة!!!!

وكأنه حقاً مشتاق!!!!

هل حقاً يفتقدها كما يقول...؟!!!!

وهل يدرك أنه لم تعد له معها سوى فرصة واحدة...؟!!!!

غابت أفكارها عن رأسها الذي تشوش بمشاعرها الآن...

ليختفي سؤالها من دائرة إدراكها تدريجياً...

لكنه أبداً لم يغادر عقلها الذي كاد يجن بحيرته...

تري...كيف ستكون نهاية مشوارنا الطويل يا عبدالله؟!

======

جلست ماسة في غرفتها وهي تشعر بالضيق والملل...

السيدة حورية لازالت في المشفى منذ يومين...

والجنين في وضع خطر...

نعم...هي مهددة بفقده...

لهذا أبقاها الأطباء هناك تحت الملاحظة....

وهي هنا لا تدري ماذا تفعل بالضبط...؟!!!!!

عملها يختص بالسيدة...

والسيدة ليست هنا...

فما الذي يتوجب عليها القيام به...؟!!!

لقد بعثت أحد الخدم يستأذن من السيد عاصي أن تذهب لمرافقة السيدة حورية في المشفي...

لكنه بعث إليها برد مقتضب مفاده الرفض!!!

لا...لم تذهب إليه بنفسها...

فهي لم ولن تنسي حديثه الغامض معها آخر مرة...

ولا جملته -الكارثية -التي أنهى بها حواره معها...

ماذا كان يعني بتخليصه لها من كوابيسها مقابل ماسة؟!!!

ماسة هذه كان يقصدها هي بها...؟!!!!

أم أنه لفظ مجازي لشئ ثمين يريده منها فحسب؟!!

وما هو هذا الشئ الثمين الذي تملكه هي لتمنحه له...؟!!!!

وكيف يثق بقدرته على تخليصها من هواجسها بهذه القوة...؟!!!!

كاد رأسها ينفجر من كثرة تساؤلاتها...

لكنها سعت لنفضها وراء ظهرها وهي تحاول إقناع نفسها أنه لم يكن يقصد شيئاً بعينه ...

ربما كان فقط يهذي بأي كلام!!!

لكن عقلها عارضها بقوة....

عاصي الرفاعي كلماته محسوبة بالحرف...

لا حرف يزيد ولا حرف ينقص...

وما قاله كان يعنيه...

وهذا ما يثير جنونها حقاً!!

سمعت طرقات خافتة علي باب غرفتها فقامت لتفتح الباب...

لتفاجأ بالخادمة تدعوها للقاء السيد عاصي في مكتبه...

خفق قلبها بعنف وهي تود لو تهرب من هذا اللقاء...

بل من هذا القصر كله...

نعم...ستفعلها!!!

مع كل هذا الرعب الذي يخنق أنفاسها ستضطر للرحيل...

منحها هذا القرار نوعاً من القوة فذهبت إليه بخطًى واثقة...

حتى وقفت قبالته تنتظر أمره بالجلوس...

فرفع إليها عينين مشتعلتين بغضب لم تعرف له مبرراً...ليقول بعدها بنبرته الآمرة:

_اجلسي!

جلست مكانها وهي تتأهب لتخبره بقرارها في الرحيل...

لكنه بادرها بسؤاله الذي امتزجت كلماته بغضبه المكتوم:

_لماذا بعثتِ برسالتكِ مع الخادمة ولم تأتي إليّ بنفسك؟!!!

أخذت نفساً عميقاً تتمالك به شجاعتها...

ثم تجاهلت سؤاله لتقول بثبات متحاشية النظر لعينيه:

_أنا أريد الرحيل سيد عاصي...لم أعد أرغب في العمل هنا!

لم يصلها رده للحظات فاضطرت لرفع عينيها إليه...

وليتها ما فعلت!

عيناه كانتا أكثر اشتعالاً من أي وقت رأتهما فيه...

ووجهه كان صورة مجسدة للغضب العاصف...

لكنها لم تشأ أن تبدو خائفة أمامه...

لقد تعلمت درسها جيداً...

لن تضعف بعد الآن أمام الضغوط...

كفاها ما قد واجهته من ظلم في ماضيها...

لن تتهاون في حق من حقوقها بعد...

ولن تخفض رأسها لأحد...!!!!

لهذا واجهته بقوة عينيها الصامتة...

تنتظر رده بعد صمته الذي طال كثيراً...والذي أتاها أكثر قسوة بكثير مما توقعت:

_لا أحد يرحل من هنا برغبته...أنا الذي أقرر متى وكيف سترحلين؟!!

انتفضت واقفة مكانها لتهتف بحدة وقد شعرت بالإهانة من كلماته:

_أنا لست محتجزة هنا....ما بيننا عمل قمت بأدائه على أفضل وجه حتى الآن...ولم أعد أرغب في المزيد.

نقر بأصابعه على المكتب عدة مرات وهو يتأمل غضبها بتفحص...

ليقول بعدها بلهجة آمرة:

_أغلقي باب الغرفة وتعاليْ!!

فغرت فاها في ذهول للحظة تحاول التأكد مما سمعته...

ثم رمشت بعينيها للحظات...

قبل أن يحمر وجهها غضباً وهي تهتف بانفعال:

_كيف تجرؤ على...

قاطعها هاتفاً بغضب أخرسها:

_أغلقي الباب وإلا لن تعجبك العاقبة لو قمتُ وأغلقته أنا!

ارتجف جسدها غضباً ثم أعطته ظهرها متجاهلةً أمره وهي تندفع مغادرة الغرفة...

لكنها لم تكد تخطو خطوة واحدة خارجها حتى فوجئت به خلفها تماماً يسحبها من ذراعها ليدخلها ثانية ...

ثم أغلق الباب بعنف ليلصق ظهرها به مواجهاً عينيها بعينين تنبضان بغضب غير محدود ...

قبل أن يكز على أسنانه هامساً ببطء مخيف:

_هل تعرفين عقاب عصيان أوامري هنا؟!!!

كان قلبها يدق بقوة وأنفاسها تتعثر في صدرها فيعلو ويهبط بانفعال واضح...

لكنها حافظت على قوتها لتقول بصلابة وهي تنزع ذراعها منه:

_أوامرك التي هي خارج نطاق عملي لا تعنيني....كان هذا هو اتفاقنا من البداية يا سيد عاصي.

دارت عيناه على ملامحها ببطء متفحص...

فشعرت بمزيج من الارتباك والخجل خاصة وهو يحاصرها بينه وبين الباب المغلق بهذا القرب...

ثم خفضت بصرها عنه وهي تشعر رغماً عنها بالخوف...

لكنه ابتعد عنها ليبقي علي مسافة مناسبة بينهما ...قبل أن يقول بغموض:

_ماسة مخدوشة شديدة الهشاشة لكنها تبقى كنزاً ثميناً...فقط لمن يقدر قيمتها!

رفعت إليه عينيها بحذر وهي تحاول فهم مقصده مما يقول...

لكنها شهقت بعنف عندما مد يده لينزع عنها سلسلة عنقها بحركة مفاجئة جرحت رقبتها!!!

تأوهت بقوة وهي تشعر بالمفاجأة تنسيها الألم....

لكنها لم تستطع منع صرختها وهو يلقي سلسلة عزيز في نيران المدفأة أمامه لتختفي للأبد....

اختنقت أنفاسها في صدرها وهي تشعر بقلبها يكاد يتوقف....

تحركت خطوة نحوها وكأنها ستهمّ بالتقاطها....

ثم هزت رأسها بصدمة وهي تصرخ بحدة:

_لماذا فعلت هذا ؟!!! لماذا؟!!!

قست نظراته كثيراً وعادت غابات الزيتون تشتعل بنيرانها من جديد...

وهو يقول ببطء حاسم:

_زوجة عاصي الرفاعي لن تحمل اسم رجل غيره!!!

=======

كان عزيز جالساً علي مكتبه شارداً في ماسته المفقودة....

يكاد قلبه يتصدع ندماً على تفريطه فيها....

لقد أفسدت أيامه برحيلها...لتصير بعدها باهتة ذابلة بلا روح!

تنهد في حرارة عندما سمع طرقات قوية على مكتبه...

فارتفع صوته يسمح للطارق بالدخول...

لتدخل هي بخطوات واثقة قائلة بالانجليزية :

_صباح الخير ...عزيز!

أطرق برأسه هامساً بتثاقل و-بالعربية-ضاغطاً علي حروفه:

_صباح النور يا ميادة!

ابتسمت بثقة أنثي تعرف قدرها جيداً...وهي تراقب إطراقه الصامت...

عزيز لا يرغب فيها كزوجة!

لا تحتاج لكثير ذكاء لتدرك هذا...

بل إنها تشعر أن في حياته امرأة أخري...

هي تقرأ مدونة خواطره منذ علمت برغبة والديها في ارتباطها به...

كانت تريد التعرف على شخصه أكثر من خلال كتاباته...

وما استنتجته أنه غارق في حب يائس...

وهي تظن نفسها أكثر من قادرة علي انتزاعه من مستنقع ذكرياته الراكد هذا...

لماذا؟!!!!

لأنها ترغب به كزوج لها...

عزيز شاب مثالي بالنسبة إليها من كافة الوجوه....

وسيم...أنيق...ثري...ومهذب....

حب؟!!!!!!

لا لا لا....

هي لا تؤمن بهذه الترّهات....!!!

الحب هذا لفارغات العقول...!!!!

هذا ما استقرت عليه أفكارها بعد سنوات دراستها الأخيرة في الولايات المتحدة الأمريكية...

والتي تعتبرها هي منعطفاً خطيراً في حياتها....

هناك تعلمت كيف تعتمد علي نفسها...

كيف تخطط...وتنفذ...

وتنجح!!!!

تعلمت أن الحب...بل العواطف عموماً...تعوق المرء عن إكمال الطريق...

وأن القلب لا ينبغي أن يدق إلا ليعيش الانسان فحسب!!!

نعم...أول دقة غادرة لوهم الحب هي خطوة للوراء...

والعاقل لا يسير بظهره...

وهي عاقلة!!!!!

عاقلة وجميلة بل فاتنة...

وتدرك قدر نفسها جيداً...

وتعرف هدفها ...وستحققه!!!!

وبثقتها هذه صوبت نحوه أحد سهام عينيها الجريئتين لتقول بالانجليزية:

_هل ستبقى صامتاً هكذا طويلاً...لو كان وجودي يزعجك فسأرحل!

رفع إليها رأسه بحركة خاطفة ليقول بضيق:

_لماذا تتحدثين بالانجليزية يا ميادة؟!!! لا أحب هذا.

أمالت رأسها بدلال تجيده ثم قالت بابتسامة ساحرة و-بالعربية-:

_حكم العادة يا عزيز...الفترة التي قضيتها في "أميريكا" أثرت كثيراً عليّ كثيراً...لكن لا بأس...سأحاول الاعتياد علي التحدث معكِ بالعربية كما تريد.

أشاح عزيز عنها بوجهه وهو يود لو يخبرها أنه لا يريدها أن تتحدث معه أصلاً...!!

أين هذه المائعة المتغنجة بفتنة فجة من ماسة الخجول التي طالما أسرته بدلالها الفطري...؟!!!!

أين عينيها السوداوين الجريئتين بتنمرّ من عيني ماسته الفضيتين النابضتين بحنان الكون كله....؟!!!!

أين ابتسامتها المتحدية الواثقة من ابتسامة الماسة التي يدفع نصف عمره الآن ليراها ...

ويدفع نصفه الآخر ليضمها بين ذراعيه فيحتجز ابتسامتها هذه بين شفتيه ولا يسمح لها بالفكاك منه أبداً!!

أغمض عينيه بألم وهو يعود لواقعه المرير...

حيث لا ماسة...

ولا دلالها...ولا حنانها...ولا ابتسامتها...

بل ميادة...

الصورة المناقضة تماماً لغرام قلبه!!!

وكأنما شعرت ميادة بما يدور في خلده فقالت برقة محاولة جذبه إليها:

_يمكنك أن تدعوني "ميدا" كما يفعل أصدقائي.

تنهد في حرارة ثم قال باستسلام:

_حسناً يا ميدا...كيف هي أخبار عملك هنا؟!!

اختفت ابتسامتها بلحظة عندما أتى علي سيرة العمل كما تعلمت في "أميريكا" ...

إذا ذُكر العمل فلا مجال لغيره!!!!

لهذا تجمدت ملامحها وهي تقول بلهجة عملية :

_مشروعك ينقصه الكثير....بعض التفاصيل الخاصة بال(..........) مهمَلة تماماً...لكن لا تقلق...لقد كان هذا مجال عملي بالخارج....وسأسعي لسد هذا الخلل ...لكن امنحني بعض الوقت.

عقد حاجبيه وقد استراح -نوعاً-للهجتها العملية في الحديث...ليسألها باهتمام:

_كم من الوقت؟!!!

صمتت لحظة واحدة فقط وكأنها تحسب بذهنها...ثم قالت بحسم:

_ثلاثة عشر يوماً!!

ارتفع حاجباه في دهشة للحظة...ثم قال بتشكك:

_أسبوعان فقط؟!!!

قامت من مكانها لتقول بنفس اللهجة العملية...:

_ثلاثة عشر يوما وليس أسبوعان...هذا هو الفارق بينكم هنا وبينهم هناك....الدقة!!

ابتسم رغماً عنه في إعجاب التقطته عيناها بسهولة ولم تفوته...

فسألته بحذر:

_هل انتهى حديثك عن العمل؟!!!

تأملها للحظات في استكشاف ...وكأنه يحاول سبر أغوارها الغامضة...

ثم أومأ برأسه إيجاباً وهو يرمقها بنظرات مترقبة....

فعادت لها ابتسامتها الساحرة وهي تمد له يدها لتقول بدلال:

_إذن اقبل دعوتي علي الغداء.

كاد أن يعترض وقد بدا الرفض علي ملامحه..لكنها لوحت له بسبابتها هاتفة بمرح:

_لا مجال للاعتذار...وإلا صارت الدعوة دعوتين...وكلفتك ثمن الغداء والعشاء معاً!!

ابتسم رغماً عنه ...

ثم قام من مكانه ليصافحها قائلاً بهدوء:

_حسناً....ستكون فرصة لأناقش بقية تفاصيل العمل معك.

التمعت عيناها بخبث وهي ترمقه بنظرات ماكرة شقية....

عزيز يحاول التأكيد لها على أن ما بينهما ليس سوى علاقة عمل....

ويظن نفسه قادراً على الصمود في وجه فتنتها...

وهي سترخي له الحبل كاملاً حتى تحكمه حول قدمه ليسقط في فخها...

كما خططت تماماً...

حسناً يا عزيز...

المعركة لازالت في بدايتها...

ورغم أنك لا تبدو خصماً سهلاً...

لكنك تروقني!!!

وأنا امرأة لن تعرف الهزيمة ...

وكل ما أردته يوماً..صار لي في النهاية!!!!!

=========

_زوجة عاصي الرفاعي لن تحمل اسم رجل غيره!!!

زوجة عاصي الرفاعي؟!!!!

من زوجة عاصي الرفاعي هذه؟!!!

هل يقصدها هي؟!!!!

مجنون!!!!

هذا الرجل مجنون حقاً!!!!!!!

كانت هذه أفكارها العاصفة التي دارت برأسها وهي تنظر إليه بذهول...

لتهمس بعدها بتشتت وهي تتلمس رقبتها المكشوفة تحت حجابها الذي كان متهاوياً نوعاً....

ليبدو جرح رقبتها ظاهراً تحته ....:

_دعني أخرج من هنا سيد عاصي...كفانا ما حدث!!

تجاهل عبارتها وهو يطوقها بنظراته الآسرة....

ثم تعلقت عيناه بجرح رقبتها لتلتمع عيناه بنظرة غريبة....قبل أن يغمغم بغموضه المخيف:

_جرح صغير يؤلمكِ اليوم لكنه سيمنع عنكِ جروحاً أقوى لم تكوني لتحتمليها أبداً.

عادت عيناها لأسرهما بغابات الزيتون خاصته...

وهي ترمقه بنظرات مزجت خوفها بحيرتها...

لكنه أعتقها من هذا الأسر أخيراً ليعود لمكتبه بخطوات واثقة ...

ثم جلس علي كرسيه ليقول بعدها بصوته القوي:

_والآن ...نكمل حديثنا بعدما تأكدتِ أنتِ ممّ يمكنني فعله !

لا تدري لماذا وصلتها عبارته على أنها تهديد ...

بل ربما كان هذا هو ما يقصده حقاً...

لكنها تحتاج لأن تفهم...

تحتاج لفك كل هذا الغموض...

خاصة أنه من الواضح أن هذا الرجل لن يسمح لها بالرحيل بسهولة هكذا!!!

ظلت واقفة مكانها ملتصقة بالباب...

وهي تظنه أكثر الأماكن أماناً هنا بعيداً عن ذاك الرجل هناك...

لكنه عاد يقول بنبرته الآمرة:

_تعاليْ...واجلسي!

أطرقت برأسها للحظة تستجمع شجاعتها...

لكنها حقاً كانت خائفة حد الموت...

ومع هذا تقدمت نحوه بخطى ثابتة حتى جلست لتواجهه قائلة بتماسك:

_ماذا قصدتَ بكل هذا سيد عاصي؟!!

شبك أنامله أمام وجهه وهو يحاصرها بنظراته من جديد....

ليقول بعدها ببطء وكأنه يزن كلماته:

_ستكونين زوجتي يا ماسة.

اتسعت عيناها بصدمة وهي تسمعها منه من جديد...

لا...هذا الرجل لا يهذي...

وليس مجنوناً...

إنه جاد...!!!

عاصي الرفاعي يريد الزواج منها هي؟!!!!!!

حاولت ابتلاع صدمتها وهي تسأله بصوت حاولت أن يكون قوياً:

_لماذا؟!!

ارتسمت ابتسامة جانبية علي شفتيه وهو يقول ببرود:

_هذا هو السؤال المنطقي هنا...لماذا؟!

صمت لحظات بعدها كادت فيها أعصابها تحترق...

ثم أردف باقتضاب:

_ لأنني أريد الولد.

شعرت ببعض الخجل لكن الوقت لم يكن مناسباً لهذا الترف من المشاعر الآن!!!

فازدردت ريقها بتوتر لتهتف بارتباك:

_أنت تنتظر ولداً بالفعل...ولد السيدة حورية!!

قست عيناه للحظة والتمعت ببريق شيطاني مخيف...

حتى أنها تشبثت بمسند مقعدها بقوة وهي تشعر أن خوفها سيوقف قلبها حقاً...

لكن ملامحه عادت لبرودها وهو يقول بنفس اللهجة:

_لا شأن لكِ بولد السيدة...أنا أريد ولداً منكِ أنتِ!!

ظلت متشبثة بمسند مقعدها وهي تتظاهر بالتماسك لتقول بتساؤل يمتزج بدهشتها:

_ولماذا أنا؟!!

عاد بظهره إلي الوراء ليقول باقتضاب:

_ظروفك مناسبة لي!

اتسعت عيناها في إدراك وهي تفهم الآن سر طلبه الغريب....

حقاً...هو جاد في عرضه...

واختار ضحيته المناسبة...

ماسة اللقيطة!!!

تفجرت الدموع من عينيها فجأة عندما وصلها هذا الإدراك لتقوم من كرسيها هاتفة وسط دموعها:

_الآن فهمت...أنت تريد الزواج مني لأنني ضعيفة بلا سند ولا أهل...وعندما تحصل على ولدكِ ستنتزعه مني بالقوة...لترميني بعدها في عرض الطريق...زيجة رخيصة وسهلة...ربما لن تكلفك أكثر من ثمن الحبر على قسيمة الزواج...تفكير جيد يا سيد عاصي...أنت حقاً تجيد استغلال الفرص...لكن هناك مشكلة بسيطة....أن العروس اللقيطة لن تعتبر عرضك هذا كنز عمرها كما تظن...بل سترفض ...نعم...عرضك مرفوض سيد عاصي!!

قام من مكانه ليتوجه نحوها...

ثم وقف قبالتها متأملاً ملامحها بتفحص...

وجسدها الذي كان يرتعش بقوة دموعها وخوفها...

والذي يناقض قوة عباراتها التي قذفتها في وجهه...

ليقول أخيراً وهو يضغط علي كلماته ببطء:

_أولاً...هو ليس عرضاً...عاصي الرفاعي لا يعرض...عاصي الرفاعي يأمر...ويطاع!!

كادت ترد عليه بحدة...

لكنه أخرسها بنظرة واحدة من عينيه...

ليردف بعدها بنفس اللهجة:

_ثانياً..زواجنا لن يكون مؤقتاً كما ظننتِ...أنا أنتوي أن يكون دائماً...لكنكِ أنتِ لن تحتملي العيش معي بطباعي القاسية.....ولو أردتِ الرحيل فلن أمنعكِ وقتها...لكن ابني سيبقى لي بالطبع!!!

هزت رأسها بذهول وهي تنظر إليه غير مصدقة....

ابنه؟!!!!

عن أي ابن يتحدث هذا الرجل بكل هذه الثقة....؟!!!

إنه يتكلم بمنتهي اليقين وكأن الأمر محسوم!!!!!

لكنه حقاً كذلك!!!

لو كان عاصي الرفاعي جاداً في طلبه هذا فلن يثنيه عن عزمه شئ...

هي لن تستطيع مواجهته وحدها....

ولا حتى بمساعدة أحد...

الفترة التي قضتها هنا جعلتها تدرك أنه لا أحد يفلت من تحت قبضته هنا...

لكن...ربما في مكان آخر!!!!

راودتها فكرة طارئة....

فأشاحت بعينيها عن عينيه وكأنها تخشي أن يكتشف فكرتها...

لتغمغم بعدها بتوتر:

_حسناً ...أنا لن أستطيع الرد الآن...سأعطيك كلمتي غداً!!

ابتسم ابتسامة ساخرة...ثم فرد ذراعه علي طوله ليقول بغموض:

_اعتبري أن كلمتكِ قد وصلتني !

اختلست إليه نظرة خاطفة وقد عجزت عن فهم مراده كالمعتاد...

لكن لا يهم الآن...

ما يعنيها في هذه اللحظة أن تخرج من هنا بأي طريقة....

اندفعت بسرعة نحو الباب ...

لكن يدها تجمدت علي مقبضه وهي تسمع صوته خلفها يقول بنبرته التي مزجت الغموض بالهيمنة:

_لا وجود للحب سوى في كتب الأساطير....لو كان هو يحبكِ حقاً لما وصلتِ أنتِ إليّ أنا!!

اتسعت عيناها قليلاً...

لقد قرأ أفكارها كعادته...

لكن الموقف كله لم يعد يحتمل المزيد من الصدمات....

هذا الرجل يبدو أنه يعرف عنها كل شئ....

ولن يذهلها منه شئ بعد الآن...

هكذا كانت تظن...

لكن....ما خفي كان أعظم!!!

===========

_هل جُننتِ؟!!!! انزلي من على هذا الكرسي!!!

هتف بها معتصم بغضب واضح مخاطباً دعاء التي ارتبكت من هتافه العصبي...

حتى كادت تسقط لولا تشبثها بظهر الكرسي...

لتنزل بقدميها علي الأرض مطرقة برأسها في خجل وهتافه الساخط لازال يهدر بأذنيها:

_كيف تقفين هكذا في واجهة المكتب؟!!!

تمالكت نفسها لتقول بخشونتها المعهودة معه:

_أنا كنت وحدي في المكتب ....وكنت أحتاج هذا الملف الذي يصر العامل على وضعه في أعلى رف...

كز على أسنانه وهو يقول بحزم:

_لا تفعليها ثانية . ..وأنا سأنبه العامل أن يبقي كل ملفاتك في متناول يدك.

ورغم سعادتها بغيرته الظاهرة لوحت بكفها هاتفة بسخط:

_وما شأنك أنت بي؟!!

نظر إليها للحظات التمع فيها غضبه بعينيه ...

ثم عاد إلى مكتبه ليجلس عليه دون أن يعاود النظر إليها...

فعادت إلى مكتبها بدورها ثم جلست لتتظاهر بالعمل..

لكن ذهنها كان أبعد ما يكون عنه...

كان هناك عالقاً مع هذا- الغيور -الذي لا تعرف حتى الآن تفسير ما يفعله...

هي تشعر أنها تحمل مكانة لديه...

لكن إذا كان هذا صحيحاً فلماذا لم يعترف لها؟!!!

ولماذا يصر على هذه المراوغة؟!!!

ألأنه لا يجيد سوي التسلية مع الفتيات وهو يعرف أنها ليست كذلك؟!!

أم لأنه ليس مستعداً بعد للزواج؟!!

زواج؟!!!

انقبض قلبها بعنف وهي تفكر...

وهل هي أصلاً تصلح للزواج؟!!!

منه أو من غيره؟!!

ماذا ستقول له لو جاء يخطبها؟!!!

كيف ستصارحه بمرضها المخزي؟!!

وحتى لو تقبله هو؟!!

هل ستتقبله عائلته؟!!!

ولو تقبلته عائلته ماذا سيكون مصير أطفالهما؟!!!

هل سيرثون مرضها المخزي؟!!!

هل ستتحمل أن تنجب "دمية معيبة" أخري لتركنها جوارها على الرف دون أن تجد لها الشاري؟!!!!

أسندت مرفقها علي المكتب لتسند رأسها على ساعدها تكاد تدفن وجهها فيه...

وهي تود في هذه اللحظة لو تدفن حلمها معه!

حلمها بالحب ككل الفتيات...

فارس وبيت وأطفال...

لكن حتى هذا الحلم ليس من حقها...!!!!

لقد كتب عليها القدر أن تبقى وحيدة في هذه الحياة...

هي ومرضها فقط...

ولا طرف آخر في المعادلة!!!

_أنا آسف!

رفعت وجهها إليه عندما سمعت جملته...

فهمست بخفوت وهي تتحاشى النظر إليه:

_لا بأس يا معتصم...انس الأمر.

تأمل الحزن المنقوش بعمق علي ملامحها وهو يشعر بأنه يتورط فيها أكثر...

كلما حاول إبعادها عن عقله عانده قلبه ...

وكلما استجاب لنبض قلبه عنفه عقله...!!!!

دعاء ليست فتاة للهو...

لو أراد الدخول معها في علاقة فلن تكون سوى زواج...

وهو ليس مستعداً الآن...

هو لا يريد توريط نفسه بالزواج قبل أن يبني مستقبله...

بل إنه يفكر جدياً في الهجرة لبعض سنوات حتى يحصل علي جنسية أخري...

قبل أن يفكر في الارتباط الذي سيكبل قدميه أكثر!!!

وبين قلبه وعقله يجد نفسه عالقاً معها...

تنهد في حرارة عندما دخلت إحدي السيدات إلي الغرفة لتنظر لدعاء بتفحص وهي تسألها:

_الآنسة دعاء ؟!!

التفتت إليها دعاء وقد عاد إليها قناع مرحها المصطنع لتهتف بشقاوتها المعهودة:

_يقولون هذا!!

ابتسمت السيدة بطيبة ظاهرة ثم جلست على الكرسي المقابل لها تتفحص ملامحها بإعجاب واضح ...

ثم قالت بعدها بعفوية:

_لن أعطلك عن عملك...سأدخل في الموضوع مباشرة....أنا أريد خطبتك لابني و"أولاد الحلال" دلوني عليك.

عقد معتصم حاجبيه بغضب وهو يرمق المرأة بنظرات حادة...

بينما كانت دعاء غافلة عنه وهي غارقة في ارتباكها ...

لا تعرف بمَ تجيب المرأة...

لكن السيدة بدت وكأنها لم تنتبه لوجود معتصم إلا الآن...

فتنحنحت بحرج وقد تفهمت وضعها فقالت بحنان لم تخطئه عينا دعاء:

_نحن نفهم في "الأصول" يابنتي...أعطني عنوان بيتك وسنزوركم غداً.

هزت دعاء رأسها باضطراب والعجز يطوق كلماتها...

فقامت السيدة واقفة لتقول لها برفق:

_لا بأس يا بنتي...أنا أقدر خجلك....العنوان أمره سهل.

ثم مدت إليها يدها مصافحة...

فصافحتها دعاء بارتباك لكن السيدة فاجأتها بعناق حنون...

ثم قالت لها بطيبة :

_أراكِ غداً يا ابنتي...ما شاء الله...أنتِ حقاً كما وصفوكِ ...بدر منير.

أطرقت دعاء برأسها حتى انصرفت السيدة لتختلس نظرة نحو معتصم الذي كانت نظراته الآن نارية على أهون وصف!!!

ثم عاودت الجلوس على مكتبها وهي تفكر بقلق...

ماذا ستكون عاقبة هذه الزيارة المنتظرة...

هل ستجد "الدمية المعيبة" شارياً؟!!!

أم ستبقى مكانها علي الرف...؟!!!

ورغماً عنها عادت ببصرها لمعتصم ترمقه بنظرة حائرة...

ليقول هو بغيظ واضح:

_مبارك يا عروس!!!

فزفرت بقوة وهي تعاود التشاغل بملفاتها...وعقلها لازال شارداً بهذه الزيارة المنتظرة...

ترى...كيف ستنتهي؟!!!

=========

_ما الذي تفعله هذه الصورة هنا؟!!!!

قالها فهد ببرود يخفي اشتعال صدره وهو جالس أمامها علي مكتبها ...

كان قد قرر المرور عليها لاصطحابها معه للمنزل كأي(زوجين هانئين) !!!!!!

لتفاجأ به يدخل عليها في غرفتها بالمكتب...

شعرت وقتها بالارتباك من وجود مساعدها بنظراته الفضولية...

والذي لا يعرف شيئاً عن زواجهما بطبيعة الحال...كما لا ولن يعرف أحد حسب اتفاقها معه....

لكنها تعاملت معه بصورة شبه طبيعية وكأنه أحد موكليها...

حتى انصرف مساعدها مغلقاً الباب خلفه...

لكنه ما إن جلس على مقعده حتى فوجئ بهذه الصورة على مكتبها...

ليستنتج صاحبها فوراً...

إنه بالتأكيد....حسن!!!!

فيما شعرت هي بمزيج من الارتباك والذنب...

مهما كانت حقيقة هذا الوغد...

فهو صار زوجها...

وهي ستحترم مبادءها ولو علي حساب نفسها...

لهذا تناولت الصورة برفق من على المكتب لتضعها داخل الدرج بهدوء...

فكز علي أسنانه وهو يشعر بمزيد من الضيق...

لم يمر على زواجه منها الكثير...

لكنه يشعر أن كل يوم منها مر عليه كألف عام!!!

لم يصبر على امرأة في حياته كما صبر عليها...

رغم أن توقه إليها فاق كثيراً شغفه بأي امرأة سواها...

حتي أنه فقد التركيز في كل شئون حياته...

ولم يعد له شاغل سوى هذه الغريبة الشرسة التي تخفي بين ضلوعها أرق قلوب الأرض!!!!

نعم...لقد عاد لتوه من شركة الاتصالات حيث يعمل أحد أصدقائه...

ليتأكد حقاً أن الرقم الذي كان على هاتفها تحدثه بخيالها هو ل"حسن"!!!

صديقه أكد له أن هذا الخط لازال يحمل اسم صاحبه...

وأنه مستخدم حتى الآن وفواتيره تدفع بانتظام...

هل هذا معقول؟!!!!

حتى هذه التفصيلة البسيطة لم تنسها في خضم مشاغلها التي رآها بنفسه....

خط هاتفه الذي كان له لم تستطع أن يكون لغيره...

فظلت على استخدامها له وكأنها بهذا تحيي اسمه الذي ظنه الناس قد مات....!!!!

كانت هذه هي فكرته التي سيطرت على عقله ليجد نفسه مدفوعاً للذهاب إليها في مكتبها دون أي تحفظات...

وبعيداً عن أي حذر...

وكأنه بهذا يثبت لنفسه ملكيتها...

ملكيتها التي صارت هاجسه الأول هذه الأيام....!!!!

لكنه جاء ليجد صورة حسن أمامها...

فشعر بصدره يفور غضباً وغيظاً و...

غيرة!!!!

غيرة؟!!!

معقول؟!!!!!

قطعت جنة هدير أفكاره العاصف وهي تقول ببرودها الذي تتعمده مؤخراً لعله يسأم ويعتقها لوجه الله:

_لماذا جئت اليوم؟!!! لا أحبذ زيارتك لي هنا....لا أحد يعلم عن زواجنا...ولا أريد لاسمي أن يزج في إشاعات رخيصة.

لا يدري لماذا أثارته كلماتها أكثر...لكنه حقاً كان غاضباً بجنون...

فوجد نفسه يهتف بسخط:

_أنتِ تقابلين موكلينك هنا في المعتاد...ماذا سيشكل فارقاً بيني وبين غيري؟!!!

تنهدت في حرارة ثم استسلمت لمنطقه هامسة بصوت منهك:

_حسناً...ماذا تريد؟!!

أطفأ صوتها المنهك براكين غضبه كلها...وهو ينتبه فجأة لشحوب ملامحها الواضح...

فعاد ضميره يوخزه بقسوة...

نعم...ضميره الذي استيقظ فجأة منذ دخلت هذه الشرسة إلي عالمه...

لتحيي بصدره ما ظنه قد مات منذ سنوات طويلة...

زفر بقوة ثم قام من مكانه ليقول لها بخشونة:

_سأنتظرك في الشارع المجاور...لا تتأخري.

قالها ثم غادر المكتب بخطوات مندفعة...

فتنهدت في استسلام وهي تمسح وجهها بكفيها للحظات...

تحاول توطين نفسها على وضع حياتها الجديد...

والذي يبدو أنه سيستمر طويلاً على عكس ما ظنت...

فهد الصاوي يعتبرها دميته الجديدة ...

والتي سيمارس عليها ألاعيبه كلها حتى يمتلكها...

لكن نجوم السماء أقرب إليه منها...

ستقاومه دوماً ببرودها لعله يسأم فيزهدها ويرحل!!!!

وبعد دقائق كانت جواره في سيارته التي انطلق بها بسرعة جنونية بمجرد ركوبها...

تشبثت بمقعدها في قوة وهي تشعر بغضبه المكتوم الذي يدفعه للقيادة بهذه الطريقة المتهورة...

كادت تنهاه عما يفعله...

لكنها كانت تعلم أن كلمة منها الآن قد تزيد غضبه...

فتنقلب السيارة بهما معاً!!!!

لهذا عادت بظهرها للوراء مغمضة عينيها في استسلام...

وهي تفكر...

ما الذي يمكن أن يحدث أسوأ من هذا؟!!!

لم يعد يهم...

كل الأمور صارت سواء!!!

شرد ذهنها في أشياء كثيرة لدقائق طالت...

حتى انتبهت على صوته جوارها يقول ببرود لم يخدعها:

_هل تذكرين هذا المكان؟!!

فتحت عينيها لتنظر حولها بتفحص...

إنه نفس المكان الذي قابلته فيه أول مرة عندما أوقفته هنا لتطعنه بمديتها في وجهه...

تنهدت في حرارة وهي تطرق برأسها لتهمس بخفوت:

_لماذا جئت بي إلى هنا؟!!!

نظر لجانب وجهها المطرق في تفحص ليسألها باهتمام:

_لو عادت بكِ الأيام...هل تفعلينها من جديد؟!!!

صمتت لحظة تستجمع تماسكها المبعثر...ثم رفعت رأسها نحوه لتهتف بقوة:

_نعم...أفعلها...ولو عادت بي الأيام ألف مرة...سأفعلها في كل مرة ولن أندم.

عقد حاجبيه بتفحص...

فأردفت بقسوة:

_كنت أعلم أن جرح وجهك يمكن معالجته بجراحة تجميلية بسيطة...وأن الورقة التي أجبرتك على إمضائها ليس لها أي قيمة شرعية أو قانونية......تماماً كما كنت أعلم أنك ستصل إليّ بسهولة...لكنني فعلتها فقط

لأجعلك تتذوق الألم...المهانة...الشعور بأنك تفعل شيئاً ما رغماً عنك.

ضاقت عيناه وهو يقول بلهجة غريبة:

_لكنكِ دفعتِ معي ثمناً ليس لكِ ذنب فيه!!

هزت رأسها لتقول بإصرار:

_لا يهم....أنا قضيتي خاسرة في هذه الحياة...حتى لو كنت دفعت عمري ثمناً للقصاص منك.

عاد ينظر للأمام وهو يفرد ذراعه علي مقود السيارة ليقول بشرود:

_لا تخافين مني؟!!

فابتسمت بسخرية مريرة لتقول بشرود مماثل:

_لو كنت أخاف من البداية...لما كانت هذه حياتي...أنا كنت أخرج في التظاهرات أيام الجامعة للتنديد بالسلطة القائمة آنذاك...في كل مرة كنت أخرج ..كنت أعرف أنني أحمل كفني على يدي...كنت أتوقع أسوأ مصير...لكنني مع هذا كنت أمضي في طريقي ثابتة ...هل تدري لماذا؟!!!

التفت إليها من شروده منتظراً بقية عبارتها...

فهتفت وهي تنظر إليه بدورها:

_لأنني كنت على حق...إيمانك بما تفعله ينزع من قلبك الخوف...يمنحك القوة لتواجه...لتصبر...حتى لو وقعت في منتصف الطريق...ستجد يداً تسندك لتقف من جديد....هذه اليد هي قوتك الداخلية...التي لن ينزعها منك أحد سوى نفسك!!!

أثرت فيه كلماتها كثيراً...

لا يدري لماذا...

ربما لحرارتها...

وربما لصدقها...

وربما لغرابتها...

وربما...لأنها -هي-التي تقولها!!!!

ومع هذا وجد نفسه يبتسم ساخراً ليقول باستهزاء:

_لو كانت مرافعاتك دوماً بهذا المستوي...فلا ريب أنك محامية فاشلة.

أشاحت بوجهها لتنهي هذا الحوار العقيم...

ثم قالت ببرود :

_لو كنت أنهيت غرضك من زيارة هذا المكان...فدعنا نرحل لأنني أكرهه.

أعاد تشغيل السيارة ليغادر المكان فعلاً...

لكنه على عكسها...

كان يشعر أن هذا المكان سيبقى يحمل له ذكري عزيزة منها...

ذكرى عزيزة؟؟؟؟!!!

نعم...رغم أنه يكره الاعتراف بهذا...

لكن حتى لو رحلت هذه الشرسة عن عالمه -ولا يظنه سيسمح لها أن ترحل-

فسيبقى هذا المكان يذكره بأول ضربة تلقاها على وجه غروره...

لعله يفيق!!!!

وصلا المنزل بعد قليل...فقالت له بنبرة محايدة:

_سأبدل ملابسي وأحضر لك الطعام!

لم يرد عليها ...

بل توجه نحو غرفته بخطوات بطيئة متثاقلة...

لتبدل هي ملابسها بسرعة ثم توجهت نحو المطبخ...

حيث كانت قد قامت بالطبخ صباحاً قبل نزولها للمكتب...

وما عليها الآن سوى تسخين الطعام فحسب...

كانت منهمكة في إعداد الأطباق...

عندما شعرت فجأة بكفيه على خصرها من الخلف!!!

خفق قلبها بقوة تأثرها من قربه هذا...لكنها حتى لم تلتفت نحوه....

بل تصنعت البرود لتقول بصوت جاهدت ليكون طبيعياً:

_ماذا تريد؟!

لم تصلها منه إجابة سوى صوت أنفاسه الهادرة جوار أذنها...

فبقيت على حالها تتصنع الانهماك في إعداد الأطباق ...

حتى سمعته يهمس في أذنها من الخلف:

_رائحة الطعام لا تقاوم...شهية مثلكِ...يا أستاذة!!

ها قد بدأ الثعلب مغامرته...

حسناً...أنا لها!!!!

هكذا حدثت نفسها وهي تغمض عينيها بقوة تستجمع قوتها...

ثم التفتت تواجهه لتنظر لعينيه مصوبة سهام البندق نحوه من جديد وهي تقول ببرود:

_منذ أول لقاء لنا...وأنا لم أستخدم اسمك مطلقاً...دائما أقول "ابن الصاوي" فحسب...أتدري لماذا؟!!

ضاقت عيناه بتساؤل وهو ينتبه -لتوه-لحقيقة ما تقول...

فأردفت بنفس البرود:

_لأنني أحب اسمك هذا الذي لا تستحقه...ولا يليق بك...الفهد يا ابن الصاوي هو رمز للشجاعة...للقوة...وأنت أبعد ما تكون عن ذلك...

كز على أسنانه وهو يشعر بغضبه قد تجاوز حدود سيطرته...

فاقترب منها أكثر محاصراً إياها بينه وبين خزانة المطبخ...

ليقول بغضب مكتوم:

_لا تختبري صبري أكثر...لم أعد أضمن رد فعلي لو لم تحفظي لسانك الطويل هذا!!

هنا كان غضبها هي الأخرى قد وصل لذروته...

وهي تشعر به ملتصقاً بها هكذا...

فهتفت به بحدة وبصوتها الجهوري دون تفكير:

_ابتعد عني وإلا...

لكنها قطعت عبارتها وهي تشعر بالعجز...

فابتسم ساخراً ليقول بسماجة:

_وإلا ماذا؟!!! ستحدثين حسن على الهاتف ليأتي وينقذك مني؟!!!

اتسعت عيناها في ارتياع...وهي تشعر بالخزي من اكتشافه لهذا الأمر...

كيف علم عن سرها هذا...

كيف ؟!!!

تفجرت دموعها غزيزة من عينيها وهي تهز رأسها لتهتف بانفعال فقدت سيطرتها عليه:

_أنت حقير....لا تذكر اسم حسن على لسانك القذر ده...أنا...

قطع عبارتها وهو يمسك كفيها بقوة مكبلاً لحركتها...

قبل أن ينقض على شفتيها بقبلة قاسية عنيفة...

أخذت أنفاسهما معاً للحظات ...

قبل أن يدفعها بقسوة ليهتف بحدة:

_قلت لك لن يعجبكِ عقابي لو علا صوتكِ علي ثانية...فلا تدفعيني للمزيد.

وضعت كفها على شفتيها اللتين كانتا تؤلمانها بشدة وهي تشعر بالصدمة...

لقد قبلها...!!!

دنّس شفتيها!!!!

أخذ ما هو حق لحسن!!!!

لتهمس أخيراً بذهول وسط دموعها:

_ماذا فعلت؟!!! يا إلهي...ماذا فعلت؟!!!

أشاح بوجهه عنها وهو يشعر بمزيج من المشاعر الصاخبة ....

التي لا يستطيع وصفها في هذه اللحظة...

لتنهار هي جالسة على ركبتيها في مكانها على الأرض وهي تنتحب بقوة لتصرخ وسط دموعها :

_أنت سرقت حق حسن في زوجته...كما سرق والدك ومن مثله حياته.

انتفض جسده بغضب عندما سمع عبارتها...

لينحني فيرفعها من كتفيها ليوقفها أمامه صارخاً بجنون هو الآخر:

_أنتِ زوجتي أنا....أفيقي من جنونك يا حمقاء...حسن مات...مات...مات...لن يعود حتى لو قضيتِ نهارك على قبره...وقضيتِ ليلك معه علي الهاتف.

كان جسدها الآن يرتجف بقوة مع دموعها الغزيرة وهي تضربه بقبضتيها على صدره صارخة:

_حسن مات مدافعاً عني وعن الحق...وأنت ومن مثلك تعيشون لتغتصبوا حقه...أنا أكرهك ...أكرهكم كلكم.

ظلت تردد صراخها العنيف وهي تضربه بقبضتيها ...

لكنه احتمل ضرباتها صابراً حتى تخاذل ذراعاها أخيراً جوارها

فضمها إليه بقوة وهو يسند رأسه على رأسها!!!!

حاولت دفعه بما بقي لها من ضعيف تماسكها...

لكنه لم يسمح لها بالإفلات...

وهو يدفن وجهها في صدره...

لتشعر هي برائحة عطره تزيدها اختناقاً....

لكنها استسلمت لضعفها رغماً عنها وهي تعود للبكاء بين ذراعيه شبه واعية !!!

بينما ظل هو يربت على ظهرها برفق...وهو عاجز تماماً عن التفوه بأي كلمة!!!!!

أي كلام سيسعفه في موقفه هذا؟!!!

إذا كان هو نفسه عاجزاً عن فهم كل ما يدور...

جزء بداخله يرغب في عقابها على كل ما فعلته...

على كسر غرورها هذا...

على انتزاع حسن هذا من أعماقها بقوة...

لكن جزءاً آخر كان يتمزق حزناً عليها...

هذه هي المرة الأولي التي يراها منهارة هكذا...

وهو الذي طالما بهرته قوتها وصلابتها...

لم يكن يعلم أن انهيارها سيمزقه هو هكذا!!!!

لماذا هي بالذات؟!!!

لا يدري...

ربما لأنها الوحيدة التي وقفت في وجهه واستعصت عليه...

ربما لأنها أوقفته عارياً بعيوبه أمام مرآة نفسه ليري سواد روحه ...

وربما لأنها تناقض بشخصها الرائع هذا شخصه هو ...

شخصه الضعيف الجبان...

الذي لا يليق باسمه كما قالت!!!!

ظل يربت على ظهرها لدقائق لم يدرِ عددها...

وهو يود لو لا يفلتها من بين ذراعيه أبداً...

لا...ليس الأمر مجرد رغبة بها كالأخريات....

لكنه شعوره هو بها هي بالذات...

شعوره بحاجته إليها...و...بحاجتها إليه!!!

أجل...ربما يبدو الأمر وكأنه هو الذي يحتضنها ويربت على ظهرها...

لكنه في الحقيقة كان يحتاج لحضنها أكثر...

وكأنه ترياق لسموم روحه التي ترجو خلاصها مع ملاك مثلها!!!!

كان بكاؤها قد هدأ نوعاً...

فتوقف عن التربيت على ظهرها أخيراً...

ثم قبل رأسها فيما يشابه الاعتذار دون كلمات....

ثم أبعدها عنه قليلاً....

قبل أن يدفعها برفق نحو غرفتها مسنداً لها بذراعيه...

حتى أجلسها على سريرها برفق...

لكنها هي لم تبدُ على وعي بكل هذا!!!!

كانت مغمضة عينيها باستسلام...لكن دموعها لم تتوقف عن السقوط ببطء...

فهز رأسه في أسف ...

ثم مددها على الفراش برفق...ليرفع عليها غطاءها الذي تشبثت به بقوة رغم أناملها المرتجفة...

ولازالت مغمضة عينيها وكأنها تخشي أن تفتحهما فتراه!!!

غاب عنها لدقائق لم تكن فيها مدركة لأي شئ...

سوى لشعورها بالضياع التام....

إنها تشعر اليوم وكأن حسن مات من جديد...

نفس الشعور الذي ذبحها يوم فقدته...

نفس الألم...

نفس الجرح..!!

لكنه عاد إليها بعد دقائق يحمل كوباً من الليمون أعده بنفسه...

ليهمس لها بخشونة لم يتعمدها:

_اشربي هذا ثم نامي.

فتحت عينيها أخيراً ببطء...

لكنها كانت عاجزة عن مواجهة عينيه...

كما كانت عاجزة عن الاعتراض على أي شئ...

كل جوارحها الآن كانت مستسلمة لشعورها بالألم...

كأنها ميتة بلا حياة!!!

ارتجفت أناملها وهي تحاول الإمساك بالكوب شبه واعية...

فأسند رأسها علي ذراعه...

ليطبق بكفه الآخر على أناملها الممسكة بالكوب فيدعمها ...

ثم رفع الكوب لشفتيها ببطء...

حتى شربته كاملاً...

ثم أغمضت عينيها من جديد وهي تتمنى لو لم تفتحهما بعدها أبداً!!!!!

وضع الكوب جوارهما علي الكومود...

ثم بدأ يربت علي وجنتها برفق...

ولازال مسنداً رأسها علي ذراعه حتى انتظمت أنفاسها المتقطعة...

ليدرك أنها نامت أخيراً!!!

أو -بالأدق-هربت من وعيها وإدراكها لكل هذا الذي ترفضه!!!

مال عليها برفق وهو يطبع قبلة حذرة على جبينها لم يستطع مقاومتها....

ثم أغمض عينيه بألم وهو يشعر بالندم من جديد على ما تفوه به معها...

خطأ يا ابن الصاوي...

خطأ!!!!

ضغطتَ على جرحها بقسوة ولم تحسب أن انهيارها سيزلزلك أنت هكذا!!!!

ابتسم في سخرية مريرة...

وهو ينتبه أنه صار يحدث نفسه ب-لقبه- مثلما تفعل هي...

وكأنه اقتنع بقولها...

إنه حقاً...لا يستحق اسمه!!!!

==========

الفصل الثامن:

صعدت إلى غرفتها تكاد تعدو ...

أنفاسها هاربة من صدرها تجاهد للخروج...

وصلت غرفتها أخيراً لتتناول بخاخها...لعلها تهدئ خفقات قلبها المذعورة...

ماذا ستفعل الآن...؟!!!!!

لا حل أمامها سوى الاستعانة بعزيز....

لكن...

كيف ستورط عزيز مع رجل مثل عاصي...؟!!!

عاصي قد يؤذيه...

هي لا تأمن شره ومكره...!!!!

انهارت جالسة على سريرها...

وهي لازالت تفكر بحل...

نعم...السيدة حورية قد تنقذها من هذا الوضع عندما تعود...

هي بالتأكيد لن ترضى عن هذه الزيجة...

لكن...

السيدة حورية ضعيفة مقهورة مثلها....

هي لم تستطع إنقاذ نفسها من بطش عاصي...

فكيف ستنقذها هي؟!!!

رفعت رأسها للسماء في دعاء متضرع للحظات...

ثم تمددت على سريرها وهي تتحسس عنقها المخدوش بحسرة...

عاصي المجرم أحرق سلسلة عزيز....

الشيطان أهلك مصدر سلوتها الوحيدة في هذه الحياة...

سالت دموعها على خديها وهي تشعر بالقهر...

دعاء كانت محقة عندما حذرتها منه...

دعاء!!!!

انتفضت بسرعة عندما وردت على ذهنها لتتناول هاتفها...

اتصلت برقمها لترد عليها دعاء التي رحبت بها بشدة عندما تعرفت عليها...

شرحت لها ماسة الوضع بكلمات سريعة ...

ثم طلبت منها أن تدبر لها سيارة خاصة تنتظرها غداً لتهرب سراً من هذا المكان...

ولم تخيب دعاء ظنها فقد وعدتها بمساعدة سريعة !

أغلقت ماسة اتصالها معها وهي تشعر بنوع من الارتياح...

لعلها تنجح في الفرار من هذا الجحيم الذي وجدت نفسها فيه فجأة...

خاصة والسيدة حورية كما سمعت من الخدم ستصل غداً في الظهيرة...

وستستغل انشغالهم بها لتخرج من القصر دون أن يشعر أحد.

تنهدت في حرارة...

وهي تشعر بحاجتها لخواطر عزيز...

لشعورها بحبه الذي يهون عليها كل مصائبها في هذه الحياة..

حبه الذي يحتضن آلامها كلها ويهدهد روحها الكسيرة....

تناولت هاتفها لتقرأ آخر ما كتبه....

رائعةٌ أنتِ...

كنسمة صيفْ...

ساحرةٌ أنتِ...

كأعذب طيفْ...

قادرةٌ من كانت مثلكِ...

أن تقلب خارطة زماني..

لا أعرف كيف!!!!

لكنّ حبيبة أيامي...

لازالت تملك أزماني...
معجمَ ألفاظي وكلامي...
من أول حرف ...
ولآخر حرفْ!!!

ولذلك عذراً سيدتي...
ما عاد مكانٌ لنشيدكِ...
في قلبٍ ...
لن يتقنَ لسواها العزفْ!!!

كالطفل أقبّل صورتها...
أتنفس عطر براءتها...
حقاً...لن ينصفها وصفْ!!

ألتقط الريشة كي أرسم...

عينينْ وشفتين وأنفْ...

وضياءً يسكن جبهتها...

ويقيناً لا يعرف خوفْ...

وجهاً لا يحمل أصباغاً...

لا يعرف كذباً أو زيفْ...

تسرق عيناها أسراري...

تكتشف -يقيناً-أخباري...

فتنافس كل العرافين...

وقرّاء الكفّ!!

تغتال همومي ضحكتها...

وزهور النور بجبهتها...

فيذوب الحزن بهمستها...

بل يُدفَنُ في أعمق كهف!!!!

أذكرني إذ كنتُ غريباً...

يطرق أبواب مدينتها...

تخنقني الحيرة والأحزان ...

وطول الخوفْ!!

فتحت لي كل الأبواب...

عبرت أيامي كالطيف...

صنعتني بيديها رجلاً...

ملكاً...وهواها لي عرشْ!!

وتراصّت كل شموس الكون...

فدعتني...في أول صف!!!!

وأعادت تسجيل ميلادي...

منحَتْني اسماً وثياباً...

وطناً..

جنسية...

أصحاباً...

وفؤداً لا يعرف ضعفْ!!

فهواها لا يعرف زمناً...

قد كان...

ولا زال...

وسوفْ!!!!

أحتاج لعمرٍ يسعفني...

كي أعشق كل ملامحها...

وأعانق عذب جوارحها...

قفْ عندك يا عمري...قفْ!!!

كي أوفي لغرامي حقاً..

أحتاج لعمرين ونصفْ!!!

عفواً يا ساحرة الكون...

أعترف جمالكِ براقٌ...

حاد كالسيف!!!

وأنيقٌ جداً معطفكِ...

لكن ..لن أرفعه عنكِ...

مائدة عشائكِ تدعوني...

لكن...لست أنا ذا الضيفْ!!!!

تكفيني أحداثي معها...

لن أسمح في قصة عمري...

بإضافة فصلٍ أو حذفْ!!

فحبيبة أيامي أبداً...

لن تبلغ يوماً فتنتها...

واحدة مثلكِ أو ألفْ!!!!

وضعت كفها على شفتيها عندما انتهت من القراءة وهي تشعر بثقل صدرها يزداد...

هناك امرأة أخري تحوم حول عزيز!!!

لعلها العروس التي سمعت رحمة تحدثه عنها وتطلب منه أن يرضخ لرغبة أبيه ويتزوجها...

تأوهت بقوة وهي تشعر بمزيد من القهر يسحق ضلوعها بقسوة...

هل يفعلها عزيز؟!!!!

هل يحب غيرها يوما؟!!!

ربما لن يحب غيرها...

لكنه قد يتزوجها...

قد يرضخ في النهاية لرغبة والديه...

خاصة وقد ابتعدت هي عن حياته نهائياً ولم يعد لها أي اتصال به!!!!

هزت رأسها في عجز وهي تشعر بالضياع...

إنها حقاً لم تعد تعلم ماذا تريد...

ماذا يهمها الآن لو تزوج عزيز من غيرها أو لم يفعل...

طالما هو في النهاية لن يكون لها؟!!!

ارتجفت أناملها وهي تكتب له تعليقاً على خاطرته باسم مستعار....

لم تستطع مقاومة هذا الفعل وهي تشعر بحاجتها إليه....

لعل كلماتها تبرّد نيران صدرها المشتعلة في هذه اللحظة....

قولوا له ...

صارت حبيبتك القديمة دمية صماء...

من كنت تعشق سحر ابتسامتها ...

استكانت للبكاء...

مات الربيع بمقلتيها...

وما أقسي الشتاء...

لكنها لم تكد ترسلها حتى فوجئت برده السريع عليها وكأنه كان ينتظرها:

_ماسة؟!

دمعت عيناها وهي ترفع الهاتف لشفتيها تقبله بقوة هامسة بحرارة:

_نعم يا عزيز...ماسة ...ماسة تفتقدك حد الجنون لو تدري.

لكن طرقات قوية على باب غرفتها انتزعتها من أفكارها...

قامت تفتح الباب بتثاقل...

لتجده أمامها من جديد...

نعم....عاصي!!!

قبضت أناملها بقوة وهي تتحاشى النظر إليه لتقول بصلابة:

_ماذا تريد يا سيد عاصي؟!

دفعها برفق ليدخل ويغلق الباب خلفه فشعرت بالخوف لكنها قالت بثبات:

_أردتني أن أغطي شعري لأجل عاداتكم هنا....فهل يليق أن يغلق علينا باب واحد هكذا؟!

ابتسم لحظة ابتسامة ظهر فيها شئ من الإعجاب...

لكنها اختفت بسرعة كما ظهرت ...

ليقول بعدها بنبرته المسيطرة:

_دعكِ من هذا الكلام الفارغ...أنا كفيل بإخراس كل الألسنة هنا.

أشاحت بوجهها في ضيق...فمد كفه ليقول بلهجة آمرة:

_هاتي هاتفك!

اتسعت عيناها في ارتياع ...ثم ازدردت ريقها ببطء لتهمس بارتباك:

_لماذا؟!

ابتسامة جانبية علي شفتيه كانت هي جوابه...

ليقول بعدها باقتضاب:

_لا أحب المفاجآت!

الآن كانت تشعر كفأر وقع في مصيدة...

لم تعد تعرف كيف تتصرف...

هاتفها هو وسيلة اتصالها بدعاء كي تتمكن من الهرب...

وليس هذا فحسب...

لكنه طريقها الوحيد لعزيز وخواطره التي تشاطرها أحزانها ووحدتها هنا....

ومع هذا هي مضطرة لطاعته....

هذا الرجل سيقهرها علي أي حال ليحصل على ما يريد في النهاية...

رفعت إليه عينين مظلمتين من فرط شعورها بالكره نحوه...

فأمال رأسه ليقول ببرود:

_هل سيبقى كفي هكذا ممدوداً ؟!!!

توجهت نحو هاتفها لتناوله له بأنامل مرتعشة...

ومن حسن الحظ أن رقم دعاء قد رسخ في ذاكرتها لسهولته...

ستحاول الاتصال بها من هاتف آخر لتؤكد عليها الموعد....

وضع هاتفها في جيب قميصه بحركة خاطفة...

ثم قال لها بصرامة وهو ينظر إليها بتلك الطريقة التي تصيب أطرافها بالشلل:

_لا تغادري هذه الغرفة أبداً حتى نكتب عقد الزواج.

هنا كان صبرها قد نفد حقاً...ولم تعد تقوى علي الاحتمال...

لتجد نفسها تصرخ بحدة:

_من تظن نفسك لتسيطر على مصائر الناس هكذا؟!!!

كز على أسنانه بقوة لتشتعل غابات الزيتون بوهجها المخيف...

ثم اقترب منها ببطء ليقول بقسوة خدشت قلبها:

_لم يجرؤ أحد علي رفع صوته أمامي هكذا ...أنتِ تستحقين عقاباً قاسياً...لكنني سأتجاوز عنكِ هذه المرة.

أشاحت بوجهها في نفور واضح...

لكنها شهقت بعنف عندما أحاط فكها بقبضته ليدير وجهها نحوه قائلاً بخشونة:

_لو تكرر هذا فستدركين حقاً لماذا يلقبونني هنا بالشيطان!!

دق قلبها بعنف وهي تشعر أنها تكاد تفقد وعيها رعباً...

لكنها لن تستسلم لطغيانه هذا...

ليس بهذه السهولة...

كفاها استسلاماً لكل طعنات أيامها السابقة...

كفاها!!!

أزاح أنامله عن وجهها بعنف لكنه أبقى علي حصار نظراته القاسية لعينيها المتنمرتين...

واللتين قرأ فيهما سطوراً من التمرد الغريب عليه...

لتقول هي بعدها بهدوء خادع:

_لن تجد المأذون الذي يوافق على عقد القران لامرأة كارهة!

ابتسم في سخرية ثم عاد يميل رأسه ليقول ببرود:

_ليس واحداً بل عشرة...وربما لن يحتاجوا لرؤيتك أصلاً...العقد سيكتب ويوقع ويسجل بينما أنت قد لا تعلمين شيئاً عن هذا!!!

هزت رأسها في عدم تصديق لتهمس بذهول:

_أنت لا تعرف شيئاً عن الشرع؟!!! عن القانون؟!!!

فقست ملامحه أكثر وهو يهتف بصرامة:

_بل أنتِ التي لا تعرف شيئاً عن عاصي الرفاعي!!

وضعت كفها علي صدرها كعادتها ....

فاقترب منها أكثر ليلوح بسبابته في وجهها هاتفاً بقسوة مسيطرة:

_عاصي الرفاعي هنا هو القانون!!

قالها ثم أزاحها من طريقه برفق ليتوجه نحو باب الغرفة فيفتحه....

هنا ...لم تجد بداً من تفجير قنبلتها الأخيرة...

_لست عذراء!

قالتها بقوة خادعة وكأنها لا تهتم!!!

وكأن حروفها لم تكسرها وهي تنطقها....

وخاصة أمامه هو!!!

هو الذي تكرهه كما لم تكره احدا من قبل...!!!!

اغلق الباب الذي فتحه لتوه...ثم توجه نحوها ليقف أمامها مباشرة...

لكنها لم ترفع عينيها إليه...

انها تحاول الحفاظ على قناع قوتها امامه...

وتخشى ان تخذلها دموعها لو رفعت عينيها اليه الان...!!!!

كانت تفضل لو تنشق الارض وتبتلعها قبل ان تبوح له بشئ كهذا...

لكن من يدري؟!

ربما كانت هي وسيلتها للخلاص من هذه الزيجة والخروج من كل هذا الجحيم!

لكنه ظل واقفا امامها لدقيقتين كاملتين دون ان يتحرك...

ودون اي كلمة...

فاضطرت اخيرا لرفع عينيها إليه في توجس..

لتصطدم بابتسامته الجانبية التي تكرهها ...

عقدت حاجبيها بشدة....عندما همس لها بصوته القوي:

_كنت أستطيع رفع وجهك إلي منذ دقيقتين كاملتين...لكنني اردت ان ترفعي -انت-عينيك إلي.!!!

ازداد انعقاد حاجبيها ...فأردف بحزم:

_اعدك انني دوما سأنتظر خطوتك الاولي.

ازدردت ريقها ببطء وهي تسأله:

_هل ستتم الزواج بعدما عرفته؟!!!

امسك كتفيها وهو ينظر لعينيها قائلا بنبرته المسيطرة:

_اعترف انني شديد القسوة في عقاب الناس على أخطائهم...

ارتجف جسدها رغماً عنها وهي لا تنكر الخوف الذي سيطر عليها الآن....

فأغمضت عينيها بقوة ....

وهي تطرق برأسها...

وكأنها بإغماضهما ستهرب من الموقف بأسره...!!!

لكنه رفع ذقنها إليه فعادت تفتح عينيها بترقب وهو يهمس برفق غريب علي قسوته المعهودة:

_لكنني لم احاسب يوما احدا على خطأ لم يقصده!!!

اتسعت عيناها بارتياع...وهي تسأله بذهول:

_انت تعلم؟!!!

نظر إليها طويلا...

ثم قال ببطء وكأنه يدرس كلماته:

_اخبرتك انني لن ادخل امراة لبيتي قبل ان اعرف عنها كل شئ.

هزت راسها بيأس وهي تشعر بالإحباط!

يبدو انه لن يتركها وشأنها...

حتى بعدما عرفه يصر على إتمام هذا الزواج...!!!!

بينما ظل هو يتأملها بتفحص للحظات...

قبل أن يقول بغموض:

_الغريق لا يستأذنه أحد قبل أن ينقذه.

رفعت إليه عينيها بتساؤل للحظة...

قبل أن تهمس باستنكار:

_هل تقصد أنك تنقذني أنا؟!!!

ابتسم ابتسامته الجانبية الغامضة ثم لوح بسبابته في وجهها قائلاً بحزم:

_فقط تذكري أن عاصي الرفاعي لا يأخذ شيئاً بلا مقابل....وسأكون معكِ شديد السخاء!!

شعرت بالإهانة من كلماته فاحمر وجهها غضباً وهي تقول بقوة:

_ومن قال إنني أنتظر مقابلك السخي هذا؟!!!

اتسعت ابتسامته لتلمح نظرة رفق غريبة في عينيه...

قبل أن يصلها همسه الذي يخترق روحها بهيمنة مسيطرة:

_لا تحكمي قبل أن تجربي !

أشاحت بوجهها عنه وهي تشعر أنها على وشك الانهيار....

فرمقها بنظرة أخيرة قبل أن يخرج مغلقاً بابها خلفه بعنف ...

=============

ابتسمت ميادة بسخرية وهي تقرأ خاطرة عزيز الأخيرة على مدونته....

لم تحتج لكثير ذكاء كي تدرك أنه كتب لها هذا الكلام...

هي الفاتنة التي دخلت عالمه رغماً عنه لكنه لن يسمح لها بالبقاء فيه...

لأنه ملكٌ لحبيبته!!!

اتسعت ابتسامتها الساخرة وهي تقرأ تعليق ماسة عليه باسم مستعار....

لتمط شفتيها بتعاطف مصطنع هامسة بتهكم:

_مسكين يا عزيز!!!

قالتها ثم ضحكت بصوت عالٍ وهي تخبط كفيها هاتفة بصوت مسموع:

_غريب أمر هؤلاء العشاق....القلب خُلق لنحيا به لا لنتعذب لأجله!!!

دخلت عليها والدتها في هذه اللحظة لتسمع عبارتها فسألتها باهتمام:

_ما الأمر يا ميدا؟!!! تحدثين نفسك؟!!!

ضحكت لتقول بلا مبالاة مستخدمة لغتها الانجليزية كالعادة:

_لا بأس يا أمي...إنه عزيز...يحب فتاة ويبدو أنها هجرته!

عقدت والدتها حاجبيه بدهشة وهي تهتف :

_عزيز شاكر؟!!!

ابتسمت ميادة بسخرية وهي تهز كتفيها قائلة بنفس اللهجة:

_نعم...عزيز...زوج المستقبل....ماذا في هذا؟!!!هل تظنين ابنتك تافهة العقل حتى تكترث بالحب وهذا الكلام الفارغ؟!!!

هزت والدتها رأسها بيأس وهي تهمس بقلق:

_أحوالكِ لا تعجبني يا ابنتي..لماذا تتزوجين رجلاً لا يحبكِ ولا تحبينه؟!!!

تنمرت ملامح ميادة فجأة وهي تقول بقسوة :

_وماذا فعل الحب لكِ ولأبي؟؟!!!...كنتما متحابين من الصغر وتزوجتما بعد قصة تحاكت عنها كل المدينة ...والنتيجة ...طلاق بعد عام واحد....أثمر عن طفلة كانت عبئاً على كليكما...هو تزوج وعاش حياة جديدة....وأنتِ أيضاً فعلتِ المثل...وبقيت أنا طفلة تربت يتيمة عند جدتها ووالداها علي قيد الحياة...وبعد هذا تريدينني أن أؤمن بالحب؟!!!!

أطرقت والدتها برأسها وهي توقن بعقم الحوار...

للأسف ميادة لن تغير طريقة تفكيرها ...

لقد تربت بعيداً عن حنانها وحنان والدها لتجرب الشعور بالنبذ منذ كانت طفلة...

لكنها حاولت تعويضها عن ذلك بعد وفاة زوجها الذي كان مسافراً بها إلى إحدي الدول العربية...

فعادت إلى مصر ومعها ثروة كبيرة لم تبخل بها عليها...

جعلتها تكمل تعليمها في الولايات المتحدة لتحصل على شهادات تؤهلها للمزيد من النجاح...

ووالدها أيضاً أدرك خطأه متأخراً فعاد يزورها ويهتم بها...

بل إنه هو الذي رشح لها عزيز شاكر كزوج مناسب لها...

في وسامته وثرائه وحسن خلقه!!!

لكن ميادة لا ترى كل هذا...

ميادة لا تري سوى الطفلة المنبوذة التي تخلص منها الجميع لتنشأ كافرة بالحب والمشاعر...

ولا تؤمن إلا بعقلها ومصلحتها فحسب!!!!!

تنهدت والدتها في حرارة ثم تركت الغرفة دون كلمة أخرى..

فمطت ميادة شفتيها باستهزاء هامسة بتهكم:

_حب؟!!!

ثم تناولت هاتفها مدفوعة بقوة عنادها لتقول لنفسها بتحدٍ:

_لنرَ كيف ستصمد أمام ميدا يا عزيز ...حتى مع حبك هذا الذي تتغنى به؟!!!

وصلها صوت عزيز على الجانب الآخر يقول بتحفظ:

_أهلاً ميادة.

غلفت صوتها بأشد نبراتها دلالاً وهي تقول بمرح مصطنع:

_أنتَ مدينٌ لي بدعوة علي الغداء ...وأنا لا أترك حقي بسهولة.

صمت قصير قابلها علي الجانب الآخر من الاتصال...

ثم عاد لها صوته يغمغم بتردد:

_أجليها ليوم آخر.

كانت كرامتها تدعوها الآن لغلق الاتصال في وجهه...

لكن عنادها دفعها لأن تقول بدلال أقوى:

_لأجل خاطري يا عزيز...أنا أريد الخروج وأصدقائي كلهم مشغولون.

ثم أردفت بخبث وهي تعرف أنها تصيب هدفاً قوياً:

_تعال كي نناقش تطورات المشروع...ألا تريد معرفة الجديد؟!!!

كانت تدرك بحدسها الأنثوي أن عزيز قد بدأ يحمل بعض الإعجاب لها...

لكنه لازال عالقاً بماضيه وبوهم حبه الذي يريد التشبث بالوفاء له...

ولهذا يحاول أن يقنع نفسه أن ما بينهما ليس فقط سوى علاقة عمل...

وهي ستغذي له هذا الشعور...

ستصطاده بنفس الطعم الذي ألقاه هو!!

لهذا ابتسمت في انتصار عندما وصلها صوته يقول باستسلام:

_حسناً يا ميدا....نفس المكان السابق لنتحدث في العمل!!

أغلقت الاتصال وهي تكاد تقهقه ضاحكة من رد فعله...

ثم تجمدت ضحكتها علي شفتيها لتقول بمكر:

_حسناً يا عزيز...سيكون التحدي القادم بين قلبك وعقلي...وأنا أكاد أجزم من الآن بهوية المنتصر!!!!!

================

_زواج؟!!!!لماذا يا عاصي؟!!!

هتف بها محدثه على الهاتف باستنكار شديد.....

فكز عاصي على أسنانه وهو يقول ببرود يفضح غضبه:

_منذ متي يُسأل عاصي الرفاعي عن أفعاله؟!!!

زفر محدثه بقوة وصوته يصله عبر الهاتف غارقاً بدهشته واستنكاره:

_أنا طلبت منك فقط أن تحضرها لتعمل عندك حتى تبتعد عن ابني...لكن موضوع الزواج هذا...

قطع عاصي عبارته وهو يقول بلهجته المسيطرة:

_هذه الفتاة ستكون زوجتي يا سيد شاكر...هل تعلم ما الذي يعنيه هذا؟!

لم يرد الرجل للحظات فهو يعرف عاصي الرفاعي جيداً خاصة فيما يتعلق بحرمة بيته....

لكنه عاد يقول بتردد:

_حسناً...لكن أخبرني بأسبابك...

_لا!

قالها عاصي قاطعة صريحة لا تقبل الجدل...

فتنهد الرجل وهو يقول باستسلام:

_على الأقل أخبرني...هل تنتوي أن يكون زواجاً دائماً؟!!

صمت عاصي للحظات...

قبل أن يقول باقتضاب:

_نعم.

صمت شاكر للحظة يستوعب دهشته ثم عاد يقول له برفق:

_أنت تعرف أنني أعتبرك أخي الأصغر يا عاصي...لا تغضب من تدخلي...لكنني لا أراها مناسبة لك بأي حال...لو تغاضيت عن فارق السن الكبير بينكما...فكيف تغفل عن قصة كونها فتاة بلا نسب...إنها..

قاطعه عاصي بصوته الهادر هاتفاً:

_سيد شاكر...أخبرتك أنها ستكون زوجتي ...فلا داعي لكلمة أخرى!!

أدرك شاكر أن عاصي الرفاعي قد حسم أمره بهذا الشأن...

فغمغم باستسلام:

_حسناً يا عاصي...مبارك زواجك.

صمت عاصي للحظات يتمالك غضبه السابق...ثم قال بلهجته المسيطرة:

_لا داعي لأن يعرف ابنك عن أمر زواجها....دعه ينسَ الأمر كله...هي لن تغادر هذا القصر على أي حال.

صمت شاكر لحظات يفكر ثم قال برضا:

_معك حق...دعه ينسَ الأمر كله!!

=========

_لن تتزوج ماسة أبداً...ماذا ستقول لوالدك عنها؟!!! حتي لو تقبل فكرة أنها لقيطة....هل سيتقبل فضيحة اغتصابها؟!!!

انتفضت ماسة لتقوم من نومتها في غرفتها بقصر عاصي الرفاعي....

وكلمات رحمة السابقة التي سمعتها بأذنيها في تلك الليلة البعيدة ترن في رأسها من جديد...

تلك الليلة كانت قد استيقظت من نومها الذي كانت تهرب إليه بعد مصيبتها الأخيرة...

ففتحت باب غرفتها برفق...

لتسمع هذا الحديث الذي كان يدور بين عزيز ورحمة....

والذي انفجرت شظايا كلماته في روحها لتزيدها هلاكاً...

لكنها لا تلوم رحمة...

ومن يلومها؟!!!

عزيز الوسيم الثري لا يليق به أن يتزوج من فتاة مثلها...

خاصة بعدما حدث لها...

وقتها التفت إليها عزيز ليفاجأ بها ويدرك أنها قد سمعت...

فانتفض من مكانه ليتوجه نحوها قائلاً بإصرار:

_سأتزوجك يا ماسة...أنا عند وعدي لكِ ...حتي لو وقفت الدنيا كلها أمامي!

لكن رحمة قامت هي الأخري لتقف بينه وبينها مواجهة لها بنظرة غريبة!!!!

نظرة اخترقت روحها بمعانيها الصادقة....

نظرة حملت إشفاقاً وتضرعاً وعتاباً ووعيداً وحناناً ....

كل هذا معاً!!!!!

إشفاق ....

علي هذه التي فقدت أغلي ما تملكه فتاة بلا أي ذنب...

وتضرع...

لها بأن تترك ابنها لطريقه الذي يليق به ...

وعتاب...

يذكرها بأنها هي التي ربتها طيلة هذه السنوات...

ووعيد...

بأنها لن تسمح لها أبداً بهذه الزيجة....

وأخيراً حنان ...

حنان رحمة الذي لا يترك عينيها أبداً حتى في هذه الظروف...

ووسط كل هذه المشاعر...

فكيف تقاوم ماسة نظرتها المهلكة التي لن تنساها أبداً بعد كل المشاعر العاصفة التي ملأتها هذه...؟!!!!!

قامت ماسة من سريرها أخيراً بعدما تغلبت علىذفيض قسوة ذكراها السابقة....

ثم وقفت تتطلع لمنظر الشروق المهيب من نافذة غرفتها المفتوحة...

لم تراودها كوابيسها هذه الليلة ...

ببساطة....لأنها لم تنم....!!!!

تلك الكوابيس التي لازمتها بعد حادث اغتصابها المريع....

ولم تتركها لليلة واحدة بعده...

ليلتها كانت عائدة من المعهد في ليلة شتاء باردة...

وقد خلا الشارع الضيق المؤدي لمنزلها من المارة....

لتفاجأ بأحد الشباب الذين يشتهرون بفسادهم في حيها يعترض طريقها مع رفيقيه...

هذا الشاب بالذات طالما تحرش بها لفظياً أثناء سيرها...

لكنها كانت تتجاهله بإباء....

لهذا سقط قلبها رعباً عندما رأته مع رفيقيه وقد خلا الشارع الضيق إلا منهم...

والنتيجة كانت محسومة...!!!!

بكت...

وتوسلت...

وقاومت...

وصرخت...

ولكن النهاية أتت لاريب...!!!

فعلها المجرم وصاحباه وهربوا فلم يعلم عنهم أحد....

لتفقد وعيها بعدها فلا تفيق إلا في المشفي....

لتجد أمامها رحمة وعزيز!!!!

وقتها تمنت الموت لأول مرة في حياتها وهي تواجههما بعد هذا الأمر....

رحمة التي كانت تنظر إليها بصدمة....

صدمة من ظل يدخر كنزاً طوال عمره ثم سُرقَ منه في غمضة عين!!!!

لقد ربتها خير تربية طيلة هذه السنوات....

تربية متحفظة صارمة....

حتى أن عزيز طالما كان يشاكسها بقوله أن "رحمة ربت رجلاً"!!!!!!

وطالما كانت تخاف عليها حتى من خدش النسيم ....

والآن يذهب تعبها السابق كله سدى..!!!!

ليضيع شرف الفتاة بحركة غادرة من وغد قذر...

وفي مجتمع قاسٍ كهذا...

ماسة وحدها من سيدفع الثمن!!!!!

بينما كان عزيز واقفاً مكانه يقبض كفيه بقوة...

وهو عاجز عن مواجهتها بعينيه....

جسده كله ينتفض غضباً وثورة....

هو يعرف ماسة جيداً...

ماسة التي كان خجلها الشديد هو ما يميزها بعينه....

لهذا كان موقناً تماماً أن ما حدث لم يكن لها ذنب فيه....

لكنه كان يحترق...

يحترق لأجلها ...

ويحترق معها...

يحترق وهو يتخيل كل لحظة ألم عاشتها في هذا الموقف....

ويحترق وهو يتصور يداً أخري سبقته لجسدها...

هو لم يصف لها شعوره هذا....

لكنها كانت تشعر به في تشنج جسده المرتعد أمامها....

وفي عينيه اللتين كانتا عاجزتين عن مواجهة عينيها بعدها.......

بقيت بعدها في المشفي لعدة أيام حتى استردت عافيتها....

ورغم أن عزيز لم يتركها في هذه الأيام لحظة واحدة...

لكن قلبها كان يدرك أن شيئاً ما بينهما قد كُسر!!!

إلى أن سمعت حديثه مع رحمة بالمصادفة....

لتدرك حقيقة وضعها الجديد جيداً....

وتوقن من أنها لم تعد صالحة لرجل كعزيز....

حتى لو كان يهيم بها حباً كما تعلم....

لن يكون هذا رد معروفها لرحمة...

رحمة التي التقطتها طفلة لتحسن نشأتها وتربيتها...

فتكافئها اليوم بأن تسرق منها ولدها ...

وتسلبها فرحتها بعروس تليق به...

عروس تناسبه في وضعه الماديّ والاجتماعي...

وليست فتاة لقيطة فاقدة لشرفها كما صار الناس يرونها...!!!!

لهذا قررت الابتعاد عن كل شئ...

عزيز كان رافضاً رفضاً قاطعاً لقرارها ...

وتشبث بها طويلاً...

لكنها كانت أكثر تشبثاً بقرارها...

لأجل رحمة...

ولأجله!!!!

أسندت رأسها علي زجاج النافذة المفتوحة...

لتفاجأ بالشمس قد سطعت ليملأ نورها السماء...

فابتسمت بشحوب وهي تقول لنفسها بأمل...

وكأنها تُمدّ روحها بقوةٍ علمت أن لن يمنحها لها سوي نفسها...

_من يدري...لعل لشمس أيامكِ سطوعاً من جديد بعد طول ظلامها يا ماسة!!

=====

فتحت باب غرفتها فتحة صغيرة تراقب الرواق بحذر...

لقد سمعت من الخادمة أن السيدة حورية قد عادت هذا الصباح...

وهي تريد الذهاب إليها بسرعة لتطلب نصيحتها....

هي بالتأكيد لن تكون راضية عن هذه الزيجة..

وستمنحها أقصى دعم ممكن للهرب من هنا..

وضعت كفها على شفتيها تكتم شهقتها عندما رأت عاصي يخرج من غرفة حورية ...

وشياطين الغضب كلها تتراقص علي وجهه...

لكن هذا لم يثِرْ رعبها....

بل ذاك السوط الأسود الذي كان يمسكه في يده !!!!

ما الذي كان يفعله بهذا السوط في غرفة زوجته...؟!!!

انقبض قلبها مع ارتعادة جسدها وهي تكاد تكتم أنفاسها خوفاً من أن يراها....

لكنه أكمل طريقه بخطوات مندفعة....

ليهبط الدرج نحو الأسفل...

فانتظرت قليلاً تتمالك أنفاسها الخائفة....

ثم توجهت بخطًى حذرة نحو غرفة حورية...

طرقت الباب برفق ثم دخلت ليهولها المنظر!!!!

حورية كانت متكومة على الأرض في زاوية الغرفة تبكي بانهيار تام!!

اندفعت ماسة نحوها لتجثو على ركبتيها أمامها هاتفة بلهفة:

_ماذا بكِ يا سيدتي؟!

لم تتمكن حورية من الرد وهي غارقة في انهيارها....

فضمتها ماسة بقوة وهي تهمس بإشفاق:

_لا تبكي هكذا....هذا خطر علي الطفل.

لكن حورية صرخت بيأس غاضب:

_ليته يموت في بطني....بل ليتني أموت معه....عاصي لا يستحق أي طفل...لا يستحق!!

رمقتها ماسة بنظرة مشفقة وهي تربت على ظهرها برفق...

لقد جاءتها بمصيبة لتجدها في مصيبة أكبر!!!

لا تدري كيف تفاتحها في الأمر وهي بهذه الحالة...

لكن حورية فاجأتها بهتافها الباكي:

_قتله يا ماسة...قتله!

شهقت ماسة بعنف وهي تسألها برهبة:

_مَن قتل مَن؟!!!!

هزت حورية رأسها بألم وهي تهمس بصوت يحكي سطوراً من العذاب:

_الشيطان قتل ابن عمي!

وضعت ماسة كفها على شفتيها وهي تشعر بالرعب...

قتل؟!!!!

هكذا بمنتهي البساطة؟!!!!!

أين نعيش هنا؟!!!!

ولماذا؟!!!

انتبهت ساعتها لما روته لها حورية عن شكه في كون الولد ليس له...

إذن هذا الرجل مهووس حقاً...

قتل رجلاً لمجرد شك برأسه المريض!!!!!

ظلت صامتة لدقائق...

تراقب نشيج حورية الصامت بين ذراعيها....

ثم همست لها بخوف يمتزج بحرجها:

_عفواً يا سيدتي...أعرف أن الوقت ليس مناسباً...لكنني في ورطة...وأريد مساعدتك.

رفعت إليها حورية رأسها بترقب....

فروت لها ماسة تفاصيل الأمر بسرعة....

لتتفهم حورية الأمر بسرعة مع اتساع عينيها بخوف صاحب هتافها:

_اهربي يا ماسة....إياكِ وهذه الزيجة....لو كنتِ أنتِ أي امرأة أخري لفرحت لأنها ستخلصني قليلاً من جبروته....لكنكِ أنتِ لن تحتملي ...اهربي...اهربي.

أومأت ماسة برأسها إيجاباً...ثم قالت بانفعال:

_لقد أخذ هاتفي....لكنني استخدمت أحد هواتف الخدم لأتفق مع صديقتي....السيارة ستنتظرني خارج القصر في الخامسة عصراً....أريدكِ أن تشغلي السيد عاصي فقط بأي شئ حتى يمكنني الهرب.

أومأت حورية برأسها موافقة...

فتذكرت ماسة شيئاً جعلها تسألها في جزع:

_لقد رأيته يخرج ممسكاً سوطه....هل كان....؟!!!

قطعت عبارتها وهي تشعر بالحرج من إكمالها...

لكنها تفحصت جسد حورية ببصرها...

فلم تجد أثراً لشئ...

لهذا تنهدت في ارتياح عندما همست حورية بمرارة:

_لا تخافي...لم يفعلها بعد...كان فقط يخيفني به...ومع هذا هو قد يفعلها بلا أي تردد...وفي أي وقت...لعل ما يمنعه الآن فقط هو خوفه علي الطفل.

هزت ماسة رأسها وهي تشعر بالنفور ...

تريد الخلاص من هذا الجحيم كله بأقرب وقت....

صحيح أنها لا تعلم لها وجهة معينة...

لكنها ستعود لمدينتها وبعدها قد تبحث عن عمل آخر....

المهم الآن هو مغادرة هذا القصر المشئوم...

والابتعاد عن الشيطان بأي طريقة!!

شهقت بعنف عندما فتح الباب بقوة ليدخل منه عاصي ويتقدم نحوهما بخطوات ثابتة....

ازداد ارتجاف حورية بين ذراعيها وهي ترمقه بنظرات متجمدة رعباً.....

فضمتها ماسة إليها أكثر وهي تشعر بالاضطراب....

لكنها رفعت إليه عينين متمردتين دون كلام....

فابتسم ابتسامته الجانبية وهو ينظر إليهما من علو قائلاً ببرود:

_لماذا تجلسان على الأرض متعانقتين هكذا؟!!

قامت ماسة لتقف مكانها وهي تسند حورية معها....

ثم دفعتها برفق حتى مددتها على فراشها...

لتسمع صوته الساخر خلفها يقول بتهكم لاذع:

_هل علمت السيدة حورية أن ماسة ستكون عروسي ؟!!

أشاحت حورية بوجهها بينما التفتت إليه ماسة بنظرة حارقة...

هذا الرجل لا يملك قلباً بالفعل...

كيف يواجهها بكلماته القاسية هذه وهي عادت لتوها من المشفى؟!!!

فتقدم عاصي من ماسة يرمقها بنظرات إعجاب تعمد ألا يخفيه ليقول ببطء وبصوته الآسر:

_صورتكِ وأنتِ جالسة كما كنتِ على الأرض لن تفارق رأسي الليلة يا عروسي.

ثم نظر لحورية بتفحص ليردف بقسوة ماكرة:

_لكن حضنك بصورتي لن يكون للسيدة بالطبع!!

احمر وجه ماسة خجلاً وهي تشعر بسخونة وجنتيها كأنهما ستحترقان...

وقح...

وقح...

وقح...!

هذا ما كانت تصرخ به أعماقها دون صوت...

كيف يجرؤ على قول هذا ؟!!!!!!

وأمام زوجته؟!!!!

رباه!!!!!

هذا الرجل ليس شيطاناً...

إنه وحش بشع!!!

بينما اتسعت ابتسامة عاصي الماكرة وهو يراقب احمرار وجنتيها برضا....

ليميل على أذنها هامساً بصوت خفيض:

_يجب أن تتعلمي كيف تتحكمي في خجلكِ هذا أمامي...لأنه يزيدكِ فتنة ...وأنا رجلٌ قليل الصبر .

تجمدت ماسة مكانها وهي عاجزة عن الرد...

جسدها كله يرتعش إن لم يكن غضباً فخجلاً!!!!

لهذا عضت على شفتها بقوة حتى كادت تدميها...

فتعلقت عيناه بشفتيها للحظة....

ثم عاد يهمس في أذنها بنفس النبرة الآسرة:

_أنتِ تزيدين الأمر سوءاً هكذا!

هنا انهارت ماسة جالسة علي طرف الفراش جوار حورية التي كانت مغمضة عينيها في استسلام....

وكأن كل هذا لا يعنيها...

فمد عاصي لماسة كفه قائلاً بصوته الذي عادت له هيمنته :

_تعالي معي ودعي السيدة...تستريح!!

قال كلمته الأخيرة مغلفة بسخرية قاسية...

فرمقته ماسة بنظرة كراهية واضحة...

لكنها التفتت لحورية التي فتحت عينيها أخيراً لتمنحها نظرة مشفقة...

عندما جذب عاصي ماسة من مرفقها ليوقفها قائلاً بصرامة:

_لا أحب تكرار أوامري مرتين!!

استسلمت ماسة لجذبه لها حتى عاد بها إلي غرفتها وهي مطرقة برأسها ...

ليغلق بعدها الباب خلفه وهو يرمقها بنظرات متفحصة....

وكأنه يقرأ رد فعلها عما حدث...

فرفعت إليه عينين مشتعلتين قائلة بانفعال:

_لماذا أنا بالذات؟!!! لأني ضعيفة؟!!! أي فتاة هنا في مدينتك ستكون ضعيفة مثلي إن لم يكن طمعاً في مالك...فخوفاً منك...لماذا اخترتني أنا إذن؟!!

ابتسم مطوقاً عينيها بسحر غابات زيتونه ليهمس بغموض:

_قد أخبركِ يوماً ما!

تاهت عيناها في نظراته التي اعتقلتها رغماً عنها...

هذا الرجل يمتلك سحراً غريباً...

ابتسامته الآن تختلف حتماً عن تلك الجانبية البغيضة القاسية...

مع نظراته المحتوية بدفء قدير...

المفعمة بثقة رجلٍ يعرف جيداً حجم قدراته...

أحست أنه يمتص قوتها بهذه النظرات...

فأغمضت عينيها بقوة لتهرب منهما ...

ثم همست بضعف وصورة عزيز بابتسامته الحنون تملأ رأسها وقلبها....

وكأنها تستنجد به رغم البعد:

_قلبي ملك لرجل آخر!!

لم تتلقَ رداً على عبارتها للحظات طويلة...

ففتحت عينيها بترقب...

لتجد القسوة قد عادت لنظراته مكسوة بسخريته اللاذعة وهو يغمغم بتهكم:

_رجل؟!!!

عقدت حاجبيها بضيق لإهانته المبطنة....

فتناول كفها بقوة ليرفع إبهامها أمام وجهها هامساً ببطء :

_أولاً....الرجل لا يترك امرأته لغيره...بل...لا يتركها أبداً.

ازداد انعقاد حاجبيها وهي تشعر أنه يتكلم بثقة من يعرف الحقيقة كلها....

ورغماً عنها شعرت بالضيق لأن جزءاً منها يدرك أنه على حق...

لكنه قاطع أفكارها وهو مستمر في العد على أصابعها قائلاً بنفس النبرة:

_وثانياً...لا اعتبار للعواطف في حساباتي...وثالثاً...لن يتملك أحدٌ غيري شيئاً أردته أنا....ورابعاً...

صمت بعدها قليلاً ليحكم سيطرته على عينيها المأسورتين بما يقول....

ليردف بثقة:

_لا وجود لكلمة "آخر " في جملة واحدة معي....عندما تعيشين مع عاصي الرفاعي فستدركين أنكِ لم تعرفي رجلاً قبله.

اتسعت عيناها بصدمة وقلبها يخفق بعنف...

تعيش معه؟!!!!

من هذه التي تعيش معه؟!!!!

لا....مستحيل!!!

قرأ صدمتها الرافضة بعينها...

فقال ببطء واثق وكأنه يغرس كلماته في عقلها غرساً:

_سنعقد قراننا أولاً...لكنني لن أعترف بزواجنا حقيقة إلا عندما أقتلعه من روحكِ قبل أن تكوني لي خالصة!!!

شعرت بقوتها تتهاوى أمام سيطرته الكاسحة....

وشعور العجز يدفعها للمزيد من التمرد لتجد نفسها تهتف بلا وعي:

_لا...لا...لا...لن تكون جرحي الجديد ...أنا اكتفيت ظلماً في حياتي...ولن أرضخ للمزيد .

التمعت عيناه بنظرة غريبة لم تفهمها....

وانفرجت شفتاه ببطء وكأنه سيقول شيئاً...

لكنه عاد يطبقهما بقوة....

قبل أن يغادر الغرفة دون كلمة أخرى أمام نظراتها العاصفة....

===========

كان معتصم على مكتبه يكاد ينفجر غضباً منذ الصباح...

دعاء لم تأتِ اليوم...

العروس مشغولة بالاستعداد لخاطبها بالطبع!!!

خبط بكفه على المكتب وهو يشعر بغيرته تخنقه...

غيرة ليست من حقه فهو الذي ضيعها من يده بصمته وطول تردده...

لكن ما حيلته في هذا الصراع الذي بداخله...؟؟!!!!

صراع استمع فيه لصوت عقله ...

وقُضي الأمر!!!

زفر بقوة وهو يستعيد ملامحها الغالية في ذهنه...

يراها بعين خياله تضحك كعادتها بمرح لذاك الرجل ...

أو تبتسم بخجل وهو يلبسها خاتمه في إصبعها...

لتكون بعدها له عروساً فاتنة...

تماماً كما كان يحلم بها!!!

دمعت عيناه بقهر وهو يشعر بالغضب يحرق صدره...

فأمسك الكوب الذي على المكتب ليقذفه بعنف فتهشم بدويّ صاخب...!!!!

وبعدها بساعات ....

كانت دعاء تجلس أمام طاولة الزينة في غرفتها تفكر بشرود...

لم تستطع الذهاب للعمل اليوم...

لم تستطع أن تلتقي عيناها بعينيه بعدما قررت أن تمضي في أمر هذه الزيجة ...

هذا بالطبع لو قبل خاطبها ب"الدمية المعيبة"!!!!

لقد استمعت لصوت عقلها كما ينبغي...

وتجاهلت توسلات قلبها الذي كان يرجوها أن ترفض!!!

لكنها للأسف لم تكن تملك ترف الاختيار...

ربما كان هذا العرض هو فرصتها لتحظى بحياة طبيعية يكون لها فيها بيت وزوج كالأخريات!!!!

سمعت حركة غريبة في الخارج...

فأدركت أن خاطبها وأهله قد وصلوا...

دمعت عيناها وهي تضغط شفتيها بقوة تتمالك ارتجافهما...

كم تمنت لو كان معتصم هنا مكانه...

لكن معتصم لا يفكر في هذا كما يبدو...

لقد سمع بأذنيه عرض السيدة بالأمس ولم يكترث...

بل بارك الأمر لها!!!!

تنهدت في حرارة ثم أخذت نفساً عميقاً تتمالك به دموعها وهي تحدث نفسها ...

ارضي بنصيبك يا صاحبة الوزر الثقيل...

الحب ليس لمن هي مثلك...

الحب للكاملات ...

وأنتِ امرأة ناقصة !!!

فلتحمدي الله لو قبل بكِ الخاطب على عيبك!!!

إنها فرصتك الوحيدة فلا تضيعيها بأحلام المراهقات!!!

وبهذه الأفكار ارتدت قناع مرحها المعتاد لترسم ابتسامة زائفة على شفتيها...

وهي تخرج من غرفتها لتتوجه نحو المطبخ حيث ناولتها والدتها صينية المشروبات كما اتفق...

لتخرج إليهم في غرفة الصالون البسيطة....

وقفت والدته الطيبة لتحتضنها بقوة هاتفة بحنان:

_ما شاء الله....تبارك الله فيما خلق.

احمرت وجنتاها خجلاً وهي تشعر برهبة الموقف تزلزل ثباتها.....

ثم التفتت جوارها حيث وقع نظرها لأول مرة على خاطبها فانقبض قلبها بعنف!!!

يقولون أنه القبول!!!

وتقول هي أنه لقاء أرواح تأتلف أو تختلف!!!!

والواقع أن روحها اختلفت مع هذا الرجل بشدة...

اختلافاً جعلها تشعر بالنفور من مجرد إعادة النظر إليه!!!!

لكن شعوره هو كان مخالفاً على ما يبدو...

فقد رمقها بنظرات متفحصة تحولت إلي إعجاب شديد...

ثم استدار لوالدها قائلاً بابتسامة متحفظة:

_نقرأ الفاتحة يا عمي؟!!!

ازداد انقباض قلبها وهي تسمع والدته تطلق زغرودة مدوية....

لكن والدها تنحنح في حرج وهو يقول بخزي أحست به دعاء يذبحها :

_هناك أمر ما يجب أن تعرفه عن دعاء يا بنيّ قبل أن تمضي في الأمر!

أغمضت دعاء عينيها بألم ووالدها يشرح حالتها بوضوح للرجل دون إخفاء تفاصيل...

لتشعر بعدها وكأنها تنتظر نتيجة اختبار لم يكن لها فيه اختيار...

ولم تضع به جرّة قلم!!!

ومع هذا ستحسم نتيجته حياتها القادمة كلها!!!

ياللظلم!!!!

ويالمهانة!!!!

تشبثت أناملها بطرف ثوبها ونفسها تحدثها أن تهرب من كل هذا...

أن ترفضه هي قبل أن يرفضها ...

وتعود لغرفتها الآمنة...

حيث يمكنها أن تحلم بمعتصم دون أن تشعر بتأنيب الضمير...!!!!

لكن عقلها عارضها بقوة...

وعارضه معه حلم كبر معها منذ كانت طفلة...

حلم بأن تصير عروساً وأماً...

حلم سرقوه منها زاعمين بأنها لا تستحقه بسبب مرضها المخزي...

والآن عادوا يلوّحون لها به...

فهل ترفض هذه الفرصة؟!!!!!

قطعت أفكارها واتسعت عيناها في دهشة عندما التفت خاطبها نحوها ليقول بابتسامته المتحفظة:

_أنا أعرف كل هذا....ولا مانع عندي في إتمام الزواج!!!!!

==========

جلست رؤى تقلب الصور في هاتفها المحمول ...

تسترجع ذكرياتها مع فهد...

وهي تبكي بحرقة..

من يصدق أنها فقدت كل شئ هكذا بغمضة عين؟!!!!

من يصدق أن كل هذا كان لعبة حقيرة منه؟!!!

إنه حتى لم ينظر إليها نظرة واحدة عندما رآها...

تجاهلها وكأنها لم تكن !!!!

بصره كان معلقاً بجنة المسكينة...

التي يعلم الله أي أيام عصيبة تنتظرها مع رجل عديم الضمير مثله!!!!

قطعت أفكارها عندما سمعت طرقات هادئة على الباب...

انتفضت من مكانها بخوف واضح وهي تمسح دموعها بسرعة...

ثم أخفت هاتفها تحت وسادتها بعدما مسحت الصور بسرعة...

لتتوجه نحو الباب فتفتحه قائلة بارتباك:

_كيف حالك يا عبد الله؟!!

رمقها عبد الله بنظرة متفحصة ثم سألها بخشونة:

_لماذا كنتِ تبكين؟!!!

أطرقت برأسها في عجز...

فربت على كتفها برفق غريب على طبعه العنيف معها....

منحها تصرفه هذا بعض السكينة...

فازدردت ريقها ببطء وهي تشعر ببعض الأمل من اهتمامه هذا..

لترفع رأسها إليه هامسة بضراعة:

_أرجوك يا عبد الله...لا أريد هذه الزيجة!!!

عقد حاجبيه بشدة وهو يهتف بغضب هادر:

_ماذا؟!!! هل تريدين مخالفة أمري؟!!!

ارتجف جسدها خوفاً وهي تهمس بتوسل:

_لا يا أخي...أنا فقط أشعر أنني لازلت صغيرة على مسئوليات الزواج.

هدر صوته العاصف في أذنها بنبرته المسيطرة:

_كلام فارغ!!كثيراتٌ يتزوجن في سنك هذا ولا يشكون!

أطرقت هي برأسها وهي تشعر بهوانها وقلة حيلتها...

فجذبها من ذراعها بعنف ليهتف بشك:

_دموعك وسهرك ومظهرك ....كل هذا لا يريحني....هل هناك أحد في حياتك؟!!!

هزت رأسها نفياً بسرعة لتهتف كاذبة:

_أبداً يا أخي...أنت تعرف أخلاقي...أنا تربية يدك.

ظل يرمقها لحظات في شك واضح ثم لوح بسبابته هاتفاً:

_من الأفضل أن تكوني صادقة...وإلا فأنتِ تعلمين ألا مزاح لديّ في هذه الأمور.

شعرت بقلبها قد توقف عن النبض تماماً وهي تسمع تهديده هذا...

لتأتيها جملته التالية كصفعة علي وجه خوفها:

_خاطبكِ سيأتي قريباً ليطلب يدكِ رسمياً...لقد قضي الأمر!

قالها وهو يرمقها بنظرة صارمة...

ليخرج بعدها مغلقاً بابها خلفه...

وتنهار هي جالسة مكانها علي الأرض وهي تلطم وجهها برفق هامسة بذعر:

_يا لمصيبتك يا رؤى!!

===============

ضم قبضته بقوة وهو جالس على الأريكة أمام غرفتها يترقب بابها المفتوح...

هو يعلم أنها استيقظت منذ فترة...

لكنها لا تريد مغادرة الفراش...

وهو لا يعرف كيف يتصرف معها بعد ما حدث بالأمس...

هل من الأفضل أن يدعها لتهدأ بعيدا عن الضغط الذي يمثله وجوده جوارها...

والذي يشعر هو به ...؟؟!!!!

أم أنه لابد أن يبقى جوارها الآن لأنها تحتاجه ....

حتى وإن أنكرت...!!!!

ظل ذهنه يتأرجح بين هذين الخاطرين بقوة...

حتى انتصر أحدهما!

فانتفض من مكانه بعنف...ليتوجه نحو غرفتها...

ثم اندفع نحو النافذة ففتحها بسرعة...

ليملأ ضوء النهار الغرفة كلها...

أغمضت هي عينيها أكثر وهي تشعر بالضوء يؤذيهما...

فاقترب منها ليجلس جوارها على طرف الفراش ...

لكنها لم تفتح عينيها ...

بل ظل جسدها على استسلامه...

فهمس بخشونة لا تعكس شيئاً مما يشعر به الآن:

_أنا أعرف أنك مستيقظة....هيا قومي .

سالت دموعها من بين عينيها المغمضتين....

وقد كان هذا هو رد الفعل الوحيد الذي حصل عليه كإجابة لحديثه!

فرقّ قلبه لها وهو يشعر بدموعها تخترق قلبه كطلقات غادرة...

ليميل عليها هامساً بصوت خرج رغماً عنه متهدجاً:

_دموع جنة الرشيدي غالية جداً....ألم يكن هذا كلامك؟!

هزت رأسها بعجز وهي تود لو تصرخ الآن...

لو تخبره أن دموعها وإن كانت أغلى ما تملكه...

فلن يستحقها سوى حسن...

حسن الذي ستبقى تبكيه عمرها كله...

والذي تشعر الآن أنها فقدته من جديد!!!!

تأمل ملامحها الباكية بأسى وهو يشعر بأن حالها هذا يفوق احتماله...

فامتدت أنامله ببطء لتحتضن أناملها ثم مال عليها أكثر ليهمس في أذنها بحرارة:

_لو لم تتوقفي عن البكاء الآن...فسألتقط كل دمعة منك بشفتيّ حتى آخر دمعة.....وأنتِ تعلمين كم أتوق لذلك...لكنني لازلت أحترم وعدي لكِ.

حاولت نزع أناملها من يده بضعف لم تستطع إخفاءه....

لكنه تشبث بها بقوة...

ليتناول منديلاً من جوارها يمسح به وجنتيها برفق...

وهو يتمنى بحق لو ينفذ تهديده...

لو يطوف بشفتيه على وديان بشرتها الساحرة...

ليتذوق نكهة هذه المرأة الفريدة التي زلزلت كيانه كله...

لو يحارب حزنها الذي يكسرها هذا...

ويحرمه وهج البندق الذي يعشقه في عينيها...

لو يتلقي دموعها الغالية -كما صار يراها-بين شفتيه...

فلا يسمح لها بإراقة المزيد ....!!!!

فتحت عينيها أخيراً لتهمس بضعفها الذي لا يزيدها أمامه إلا قوة وفتكاً:

_دعني...وحدي.

أخذ نفساً عميقاً وهو يعاود تلقي سهامها البندقية من جديد...

ليهمس أمام عينيها بإصرار:

_تعلمين أنني لن أفعلها.

عادت تغمض عينيها من جديد وهي تريد أن تغيب عن كل هذا...

لكنه قام واقفاً ليجذبها من كفها الذي لم يتركه هاتفاً بلهجة آمرة:

_قومي.

هزت رأسها نفياً ولازالت مغمضة عينيها باستسلام...

فانحنى عليها ليهتف بنفس اللهجة الخشنة:

_ستقومين وحدك...أو سأحملكِ !!!

كادت أعماقها تصرخ بآهة عالية وهي تود لو ترجوه أن يتركها وشأنها....

لكنها حتى كانت أضعف من هذا الآن!!!

فتحاملت على نفسها حتى وقفت...

ليضم هو خصرها إليه بكفه الحر ولازال متشبثاً بأناملها في كفه الآخر...

هامساً أمام عينيها الكسيرتين بلهجة ذات مغزي:

_أخيراً!..صباح الخير يا أستاذة!

نظرت إليه نظرة طويلة لم يفهمها...

لأول مرة تخذله مراياها البندقية فلا تمنحه صورة واضحة...

بل تزيد حيرته وقلقه...

لتهمس بعدها بصوت خرج مهزوزاً ضائعاً وكأنه لا ينتمي إليها:

_لو كنت تملك ذرة رحمة واحدة في قلبك دعني وحدي الآن!!

ظهر الرفض في عينيه واضحاً رغم تأثره بما قالته...

فعادت تنظر إليه بيأس وجسدها كله يرتجف بين ذراعيه...

لتهمس بعدها بصعوبة وكأن الكلمات تأبى أن تغادر شفتيها:

_لو أردتَ أن..... أقبل يديك... لتتركني..... فسأفعل!

اتسعت عيناه بصدمة وعيناه تلاحقان عينيها الضائعتين بذهول...

لا يصدق أن تقول هي -صاحبة العزة والكبرياء- هذا الكلام!!!!!

إلى هذه الدرجة هي محطمة...؟!!!

إلى هذه الدرجة وصل بها جرحه لها...؟!!!!

إلى هذه الدرجة تكره وجوده؟!!

رفع ذقنها إليه لتلتقي عيناهما فعادت دموعها تسيل على وجنتيها من جديد...

حينها رفع كفها الذي يمسكه أمام وجهها ليقبل ظاهره ...ثم باطنه...

ثم اقترب من وجهها ليهمس أمام عينيها:

_ولو قبلتُ أنا يدكِ لتسمحي لي بالبقاء جوارك؟!

أغمضت عينيها بقوة وهي تشعر أنها في حلم غريب...

لقد فقدت قوتها كلها فجأة...!!!!!

تشقق القناع الذي طالما حمله وجهها...

لتبدو الآن كما هي على حقيقتها...

محطمة...

كسيرة...

منهارة...

ريشة في مهب رياح لا ترحم وهي الحمقاء التي ظنت نفسها قادرة على التصدي لها!!!

لكنه ضمها إليه ليخفي رأسها في صدره بذراعيه هامساً في أذنها:

_أنتِ تحتاجينني كما أحتاجك...فلا تكابري يا أستاذة!

رفعت رأسها إليه لتهمس بتشتت وكأنها لا تعي كل الذي يحدث:

_أحتاجك؟!!! تحتاجني؟!!!

هزت رأسها في عدم اتزان واضح...

لتهمس بعدها بتثاقل حقيقي:

_ما الذي يحدث...؟!!!

ثم تأوهت بضعف وهي تبتعد عنه لتضع كفها علي رأسها هامسة بإعياء:

_ليس حقيقياً...كل هذا...كابوس!!

رمقها بنظرة مشفقة طويلة ثم أسند كتفيها بكفيه حتى ذهب بها إلى حمام غرفتها...

فتح الصنبور ليتناول القليل من الماء في كفه أمام عينيها شبه الواعيتين لما يحدث...

ثم غسل لها وجهها برفق....

ليمسحه بعدها بالمنشفة برقة..

ثم أحاطه براحتيه ليهمس أمام بندقيتيه الكسيرتين:

_في كل يوم سأفتح لكِ النافذة لتبدد كل هذا الظلام الذي تحبسين نفسك فيه...وسأسندكِ حتى تقومي ولو رغم أنفكِ وإلا فسأحملكِ قهراً لتنهضي من سقوطك هذا الذي لا يليق بكِ ...وسأغسل لكِ وجهكِ بيدي لأزيل عنه إرهاق سهرك ودموعك....ثم أقبلكِ هكذا...

قالها وهو يطبع علي وجنتيها قبلتين...

ليهمس بعدها بصدق واضح:

_قبلتين إحداهما تذكركِ بأنكِ تحتاجينني...والأخري بأنني أحتاجكِ أكثر!!

كانت أعماقها كلها رافضة لما يحدث...

لكن روحها كانت الآن أضعف من أي مقاومة...

هو يزعم أن كليهما يحتاج لصاحبه...

لكنها أبداً لن تعترف بهذا...

أبداً...

======

الفصل التاسع:

فتحت ماسة باب غرفتها فتحة صغيرة تتأكد من خلو الرواق...

السيد عاصي الآن مع السيدة حورية في غرفتها كما اتفقا...

فقد استدعته حورية زاعمة أنها تريد التحدث معه في أمر خاص حتى تلهيه عن تفقد ماسة في هذا الوقت...

حملت حقيبة صغيرة وضعت فيها أشياءها الضرورية فحسب حتي تكون سهلة الحركة...

ثم هبطت الدرج بسرعة...

حتى توجهت لباب خلفي مهمل من الحديقة دلتها السيدة حورية عليه...

وأخبرتها أنه بلا حراسة لأنه لا أحد يعلم عنه شيئاً...

فتحت ماسة الباب القديم بصعوبة...

فقد كان قفله صدئاً من قلة الاستخدام...

لكنها عندما تمكنت من فتحه وجدت السيارة التي أوصت بها دعاء تنتظرها قريباً منه...

ركبت السيارة بسرعة لتأمر السائق بالانطلاق...

لا تصدق أنها أخيراً خرجت بقدميها من هذا السجن!!!!

وفي غرفة حورية كان عاصي واقفاً يسألها ببرود:

_لماذا أرسلتِ في طلبي؟!!

تلاعبت أناملها بطرف الفراش تخفي ارتباكها ثم سألته بتردد:

_لماذا تريد الزواج بعد كل هذه السنوات التي كنت ترفض فيها هذا الأمر؟!! ولماذا ماسة بالذات؟!!

التمعت عيناه ببريق قاسٍ كعادته ثم قال بغموض:

_السبب الذي كان يمنعني من الزواج قد زال.

هزت رأسها في عدم فهم...

فأشاح بوجهه عنها لتعلم أنه لن يمنحها المزيد من التفاصيل...

لكنها عادت تسأله بإلحاح:

_ولماذا ماسة ؟!!

عاد ينظر إليها طويلاً نظرة لم تفهمها...

ثم قال باقتضاب:

_تناسبني!!

أطرقت برأسها للحظات...

وهي عاجزة عن فهمه كعادتها...

طوال هذه السنوات كان عاصي الرفاعي لغزاً كبيراً...

ولا يزال...!!!!!

رفعت عينيها إليه لتراه يحدق فيها بنظرة متوعدة....

فازدردت ريقها بتوتر ثم همست بخوف واضح:

_صدقني...الأمر بيني وبين عدنان لم يكن..

كز علي أسنانه لتقسو ملامحه بشكل مخيف...

ثم اقترب منها ببطء حتى صار قبالتها فانحنى فجأة ليقبض على عنقها هامساً :

_منذ متي تجرؤين على ذكر اسمه على لسانك؟!!!

شهقت بعنف وهي تشعر بالرعب يخنقها فهمست بصوت مختنق حقيقة لا مجازاً:

_ألم تقل أنك ...قتلته...هل...هل تغار...من ...رجل ...ميت؟!!

رفع كفه عن عنقها أخيراً فتنفست الصعداء...

ثم ابتسم ابتسامة قاسية وهو يهمس باحتقار:

_أغار؟!!! عاصي الرفاعي لا يغار على امرأة مثلك!!!

أشاحت بوجهها ودموعها تتساقط رغماً عنها على وجنتيها وسط أنفاسها اللاهثة...

لن تكترث بعد الآن بإهاناته فهذا هو أهون ما ستلاقيه...

ومن يدري...؟!!!!

ربما كان سينتظر حتى تضع مولودها ثم يقتلها هي الأخري...!!!!

ليته يفعل...!!!!

هي حقاً لم تعد تهتم...

هذه حياة ليست كالحياة...

بل كل يوم لها معه هو موت متجدد!!!

هي لا تريد رؤيته ...

ولولا اضطرارها لمساعدة ماسة بهذه الطريقة لما فعلتها....

لهذا عادت ببصرها إليه من جديد هامسة بضراعة:

_اتق الله يا عاصي...أنت تعلم جيداً من فينا الظالم ...ومن المظلوم.

فابتسم ساخراً في مرارة لم تخطئها عيناها...

لينقبض قلبها بعنف...

هذه هي المرة الأولي التي ترى فيها المرارة في عيني الشيطان...

لم يستطع السيطرة على شعوره بالألم هذه المرة...

لحظة واحدة خانته عيناه فيها...

لكنها تكفيها!!!!

تكفيها لتنتقم من كل هذه السنوات التي قضتها معه...

لحظة واحدة من المرارة الممتزجة بألمه ليست هينة...

إنه عاصي الرفاعي!!!!

أطرقت برأسها وهي تشعر بمزيج من المشاعر...

لا تستطيع توصيفها...

لترفعه بعدها في ذعر وهي تسمع صوت باب الغرفة الذي صفقه خلفه بقوة قبل أن يغادرها ....

وكأنه ما عاد يرغب حتى في مجرد الكلام معها!!!!!

====

شردت ماسة بأفكارها طوال الطريق لا تدري إلى أين ستذهب...

النقود التي معها لن تكفيها طويلاً...

لكنها ستحاول تدبر عمل قريباً...

المهم الآن أنها تخلصت من زواجها الكارثي هذا!!!

تنهدت في حرارة ثم مدت يدها إلى عنقها لتعود خائبة!!!

سلسلة عزيز لم تعد مكانها...

لكن من يدري...؟!!!

ربما كان هذا هو الأفضل...

لن تعود ضعيفة تستمد قوتها من أحد سوى نفسها...

حتى لو تخلى الجميع عنها ...

لن تنكسر ...

هذا هو قسمها لنفسها!!!

وكأنما منحتها فكرتها الأخيرة بعض السلام...

فاستسلمت للنوم حتى استيقظت بعد قليل لتشعر بالسيارة وقد توقفت...

تلفتت حولها في دهشة لتجد نفسها فيما يشبه ميداناً كبيراً بمدينة ما...

نظرت إلى السائق تسأله بفضول:

_أين نحن الآن؟!!

لم يرد السائق عليها لكنها فوجئت به يلتفت محدثاً أحداً ما خارج السيارة:

_حسناً يا سيدي...تماماً كما أمرت.

التفتت لمحدثه بحركة تلقائية.....

عندما فُتح الباب الذي جوارها وأمامه كان هو واقفاً يقول ببروده القاسي:

_انتهت الرحلة...لقد وصلتِ!!

======

ترجلت من السيارة وقد تعلقت عيناها بعينيه فما استطاعت الفكاك كعادتها...

كادت دموعها تخذلها لكنها تذكرت قسمها لنفسها فقالت بصلابة :

_دعني وشأني وإلا صرخت وجمعت المارة في الطريق.

عادت غابات الزيتون تشتعل بلهيبها الثائر وهو يهمس ببطء:

_جربي وافعليها!!

تلفتت حولها باستنجاد صامت...

لكنها كانت تعلم أن أحداً لن ينقذها من بطشه...

شئٌ ما بعينيه أخبرها أنها صارت له...

وانتهي الأمر!!!

جذبها من كفها ليصعد معها بناية ما...

ثم توقف معها أمام مكتب علقت عليه لافتة"مأذون شرعي"!!!

فشهقت بعنف وهي ترى الأمر يتطور بسرعة...

ثم التفتت إليه قائلة بقوة حقيقية:

_لو كنتَ عاقلاً بما يكفي لما تزوجت امرأة رغماً عنها...قد أكون فشلتُ في الهرب هذه المرة....لكنني لن أكف عن المحاولة...سأظل أهرب منك ما حييت...وسأنجح يوماً صدقني.

التمع الإعجاب بعينيه لحظة...

لكنه عاد يختفي وراء غيوم غموضه الداكنة...

وهو يقول بثقة:

_افعليها كما تشائين...وأعدكِ أن أعيدكِ في كل مرة كما اليوم!!

هزت رأسها بيأس وهي تسأله :

_كيف علمتِ عن هروبي؟!

ابتسم ابتسامته الجانبية وهو يجيبها بلهجته المسيطرة:

_تظنين أن شيئاً بقصري قد يخفى عني؟!!! أم تظنين أن تمثيلية السيدة حورية التي طلبت لقائي فجأة قد انطلت عليّ...؟!!!

ازدردت ريقها بصعوبة هامسة بكذب واضح:

_السيدة حورية لا شأن لها.

اتسعت ابتسامته الجانبية وهو يدرك دفاعها السريع عن حورية...

ليهمس ببرود خالطه بعض الإشفاق الذي لم تفهمه هي:

_بريئة أنتِ يا ماسة...!!

نزعت كفها من كفه وهي تقول بانفعال:

_لا تظنني فتاة ضعيفة سترضخ لجبروتك...أنت لا تعلم ماذا واجهتُ في حياتي...ضربات القدر التي لم تقتلني زادتني قوة.

اختفت ابتسامته بسرعة كما ظهرت وهو يقول بلهجته المسيطرة:

_وأنا لا أريدكِ ضعيفة...بل أريد قوتكِ هذه!!

أشاحت بوجهها في مرارة حقيقية وهي تغمغم :

_هل تفعل هذا لأنني نوع مختلف عمن عرفت ؟!!! امرأة وقفت في وجهك وقالت لا!!! هل تريد كسري بهذه الطريقة؟!!! لو كان هذا فقط ما يعنيك فسأعتذر لك وأشهد لك بأنك رجلٌ عظيم لا يُقهر...لكن دعني أرجوك...أنت لا تعلم كم عانيتُ لأهرب بنفسي وأستعيدها ثانية....لن أقبل بسجن جديد...

نظر إلى عينيها طويلاً يراقب بحار الفضة التي التمعت ببريق الدموع...

ثم همس ببطء:

_وما يُدريكِ ؟!!! لعل هذا السجن الذي تتحدثين عنه سيكون هو الفضاء الشاسع الذي ستحلق فيه روحكِ كما تحلمين؟!!

هزت رأسها وهي تهمس بعجز:

_بماذا تحاول أن تقنعني؟!!! أنا...

قاطعها بإشارة من يده...

ثم قال ببطء وبكلمات بدت وكأنه عدّها عداً:

_أنتِ لم تستعيدي نفسكِ بعد كما تظنين...أنتِ فقط لملمتِ شظاياها المكسورة...وأنا واثقٌ من قدرتي معك علي إعادتها كما كانت...

نظرت إليه مأخوذة بهذا اليقين الذي يتحدث به...

لماذا يقول هذا؟!!

هل من المعقول أنه قد أحبها؟!!!

لا...غير معقول...

عاصي الرفاعي لا يعرف الحب...

لو كان يعرفه لكان أولي أن يمنحه لامرأته...

إذن لماذا يصر عليها هي هذا الإصرار...؟؟!!!

لمجرد أنها لقيطة ضعيفة بلا أهل ولا سند ستترك له ابنها -المفترض-وترحل ؟!!!

ربما...ربما يكون هذا هو السبب...

لكنه يمكنه العثور علي كثيرات مثلها بنفس الظروف...

فلماذا هي بالذات؟!!!

تشبثت بآخر خيط مقاومة وهي تستنفر نخوته قائلة بمزيج مدهش من القوة والضراعة:

_سيد عاصي...أنا لا أخون...ولا يمكنني أن أفعل....لو تزوجتك فسأخون عزيز معك بجسدي وأخونك معه بقلبي...فهل ترضاها؟!!

أشاح بوجهه للحظات ...

ثم عاد يلتفت إليها قائلاً ببرود:

_هل تعلمين أنني لم أصبر في حياتي علي جدالٍ مع أحد مثلك؟!!

انتعش بعض الأمل في صدرها فهمست بنفس اللهجة :

_لأنك تعلم أنني علي حق!!

هز رأسه نفياً ثم قال بثقة:

_بل...لأنني أشفق عليكِ...أنتِ لازلتِ لا تدركين حاجتك الحقيقية...تلهثين خلف سراب...وتظنين أنك شهيدة...لكن الحقيقة أنكِ مجرد غافلة جديدة سيدهسها قطار لا يعرف الرحمة...قطار اسمه وهم الحب...

كادت تعترض لكنه أشار إليها بكفه ليردف بلهجة أكثر قسوة:

_الحب هذا ليس سوي وهم يسقط عند أول احتكاك بالواقع...

أطرقت برأسها وقد شعرت أن هذا الحوار استنزفها تماماً...

لم تعد تعرف ماذا تفعل...

كيف يمكنها أن تقف في وجه جبروته وهي وحدها تماماً في هذه الحياة..؟!!!

ربما لو كانت نجحت في الهرب منه لكانت لها فرصة...

لكنها الآن تشعر أنه لم يعد لها مصيرٌ سوي الزواج منه...

هو أفضل بدائلها الآن وهي عاجزةٌ أمامه....

بلا أهل ولا بيت ولا مال!!!!

همس باسمها فرفعت إليه سهاماً مشتعلة من الفضة أضرمت النيران في غابات زيتونه...

ليقول هو بعدها ببرود مشتعل لا يجيده مثله:

_لن تخوني أحداً منا يا ماسة...أعدكِ وعداً لا يقبل الجدل أن أقتلع جذوره من قلبكِ قبل أن تكوني كاملة لي!!

قالها ثم عاد يتناول كفها بتملك ليتوجه بها نحو الباب فيرن الجرس ...

وقد كان هذا آخر ما وعته قبل أن تغيب أفكارها في متاهات مضطربة ..

لا تكاد تصدق كل هذا الذي يحدث...

حتى خرجت من مكتب المأذون وهي شبه واعية....

هل هذا حقيقي؟!!!

هل صارت حقاً زوجة عاصي الرفاعي؟!

==================

ركبت معه سيارته عائدين للقصر وهي تشعر بالغضب...

الغضب من نفسها قبله!!!

كيف سيطر عليها حتى تم الأمر هكذا بهذه البساطة...؟!!!

لماذا لم تصرخ...؟!!!

لم تبك...؟!!!

لماذا لم تعدُ هاربة ...؟!!!

ألأنها كانت تدرك أن كل هذا عبث؟!!!!

وأن عاصي الرفاعي سينالها حتماً في النهاية؟!!!

أم لأنها شعرت ببعض الأمان في وعوده؟!!!

أمان؟!!!

مع عاصي الرفاعي؟!!!

الشيطان؟!!!

آآآآه...

تأوهت سراً وهي تتذكر آخر مرة شعرت فيها بهذا الشعور...

أيام كانت في حضن رحمة وحب عزيز يملأ عينيها وقلبها...فترى غدها معهما كل الأمان!!!

رمقها عاصي بنظرة جانبية ثم تناول "شيكا" من" تابلوه "سيارته أعطاه لها قائلاً بحزم:

_مهرك!

نظرت إليه بصدمة للحظة ...

ثم أشاحت بوجهها قائلة:

_لا أريد!

ابتسم ابتسامته الجانبية ليقول وكأنه يتوقع ردها:

_ألا تقرئين قيمته أولاً؟!!!

التفتت إليه بحدة لتهتف بقوة :

_لو كنت أهتم بالمال لكنت وافقت على هذه الزيجة من البداية...أنا تربيت فقيرة...لكن أمي علمتني كيف أقنع بما في يدي ولا أطمع بما ليس لي.

اتسعت ابتسامته الجانبية وهو يضع الشيك جوارها على المقعد...

ثم عاد يركز بصره على الطريق أمامه دون أن ينظر إليها ...

قبل أن يقول باقتضاب:

_أعرف!

ظلت ترمق جانب وجهه بدهشة للحظات...

ثم سألته برهبة:

_لماذا أشعر أنك تعرف أمي وعزيز؟!!!

التفت إليها أخيراً لتشتعل غابات زيتونه من جديد وهو يقول بنبرته المسيطرة:

_كل شئ عنك يا ماسة ...كل شئ.

نظرت إليه بشك ثم أطرقت برأسها تفكر....

لماذا يبدو هذا الرجل وكأنه يعرف تاريخها كله...؟!!!

بل إنه يؤكد على هذا!!!!

من أين يعرفها؟!!!

ولماذا تزوجها؟!!!

ولماذا يجعل الأمر يبدو لها وكأنه يساعدها بهذه الزيجة؟!!!!

لن تنسى يوم قال لها أن الغريق لا يستأذنه أحد قبل أن ينقذه...

هو يراها غريقةً إذن!!!

ويظن نفسه المنقذ؟!!!!

ظلت تفكر في الأمر لدقائق عجزت فيها عن استنباط أي شئ...

فعادت تنظر لجانب وجهه تسأله بترقب:

_هل كنت تعرفني قبل أن آتي إلى هنا؟!!

ظل صامتاً للحظات وصل فيها ترقبها لذروته...ثم قال دون أن ينظر إليها:

_ليس بالضبط..لكنني كنت أعرف عنكِ كل شئ!!!

ازدردت ريقها ببطء ثم عادت تسأله:

_أنت كنت تخطط للزواج مني؟!!

ظل يخبط بكفه علي مقود السيارة للحظات في نغمة رتيبة...

ثم فجر مفاجأته القادمة:

_لا...اتفاقي مع السيد شاكر كان أن أحضركِ فقط إلى القصر لتعملي لفترة مناسبة!!!

اتسعت عيناها في ارتياع وهي تضع كفها على شفتيها....

ثم همست بذهول:

_السيد شاكر...والد عزيز؟!!!!

أومأ برأسه ثم قال باقتضاب:

_أحد شركائي في تجارتي

أطرقت برأسها وقد ملأت الدموع عينيها وهي تشعر بالقهر والإهانة...

والد عزيز أراد التخلص منها حتى يزوّج ابنه من الفتاة التي يريدها...

تعامل معها كأنها أحد المجرمين الذين يجب نفيهم...

ولم يجد أفضل من قصر الشيطان ليكون منفاها!!!!

مسحت دموعها بسرعة بحركة خاطفة كي لا يراها...

لكنه اختلس نظرة جانبية إليها ليلمح بكاءها الصامت....

فاحترم صمتها للحظات...

حتى وجدت هي صوتها أخيراً لتهمس بسخرية مريرة تقطر ألماً:

_لم يكن يعلم أنني أنا التي اخترت الابتعاد؟!!!!كان يظنني وباءً يخشى أن يصيب ابنه...صحيح؟!!!!

قرأ مشاعرها المقهورة في نبرات صوتها الذبيحة...

فرفع كفه من على مقود السيارة ليتناول كفها بقوة مسيطرة دون أن ينظر إليها...

ثم قال برفقٍ غريب على صوته القاسي:

_ولماذا لا تقولين أنه شعر بقوة تأثيرك ؟!

هزت رأسها بلا معني ثم همست بخفوت:

_وعزيز بالطبع لم يكن يعلم!!

ابتسم ساخراً وهو يضغط كفها بكفه أكثر في إشارة واضحة لسيطرته ...

ليقول بعدها بتهكم:

_وهل تظنين علمه كان سيشكل فارقاً؟!!!

التفتت إلى جانب وجهه تنظر إليه بتشتت...

فالتفت إليها بدوره يلتقط نظراتها الضائعة ليأسرها في متاهات عينيه من جديد...

قائلاً ببطء وهو يضغط علي حروف كلماته:

_متى ستدركين أنه كان أضعف من أن يكمل معك طريقك الصعب؟!!

أومأت برأسها ثم أغمضت عينيها تحاول استيعاب جرحها في هذه اللحظة...

ثم ذبحتها فكرة أن يعلم عزيز عن زواجها...

هي تعرف كم سيؤلمه هذا...

بل سيمزق قلبه!!!

فهمست بقوة غريبة في موقفها هذا دون أن تفتح عينيها:

_لا تجعل السيد شاكر يخبره عن زواجنا...لقد انتهت حكايتنا...لا داعي لختمها بجرح جديد!!

ضغط كفها بين راحته ففتحت عينيها تنظر إليه ...

ليشعر ببحارها الفضية تلتمع بأمواج رجائها وهي تهمس:

_هل تعدني بهذا ؟!!

ظل مأسوراً بأمواجها الماسية للحظات ...

ثم سألها بلهجة غريبة :

_وهل تصدقين وعودي؟!!

أسبلت جفنيها لتهمس بعجز:

_وهل أملك غير هذا؟!!

أوقف السيارة فجأة علي جانب الطريق...

فتلفتت حولها في دهشة...

ثم نظرت إليه بتوجس فاقترب بوجهه من وجهها حتى شعرت أن العالم كله قد اختُزل في غابات زيتونه فحسب...

ليقول بنبرة مؤكدة:

_عاصي الرفاعي قلّما يمنح وعداً لأحد...لكنه إذا فعل فلا يخلفه أبداً!!

دق قلبها بعنف وهي تشعر به يسيطر عليها بقوة..

كفه الذي يضغط على كفها...

وعيناه اللتان احتلتا الكون فجأة...

ونبرات صوته التي تغزو أذنيها بقوة لتخترق رأسها فتدوخها...!!!

لكنها مع هذا همست بصلابة أثارت إعجابه:

_إذن عِدني...وسأصدقك.

ابتسم وهو يومئ برأسه...

فأطرقت برأسها لتنتبه ل"الشيك" الموضوع جوارها على المقعد منذ كان يحدثها عنه...

فتناولته لتعطيه له قائلة بحزم يروقه حقاً:

_خذ يا سيد عاصي لا أريده...المهر تأخذه عروس راضية وأنا لست براضية.

التمعت عيناه ببريق عجيب ثم فتح راحتها ليضع فيها "الشيك" ثم يطبق راحتها عليه قائلاً بلهجته المسيطرة:

_المهر تأخذه عروسٌ تستحق...وأنتِ تستحقين!!

أشاحت بوجهها فأدار وجهها إليه قائلاً بلهجة آمرة:

_افتحيه واقرئي قيمته.

تنهدت في استسلام ثم فتحته لتتسع عيناها في ذهول من الرقم الضخم المكتوب عليه...

التفتت إليه بصدمة واضحة وهي تغمغم باضطراب:

_لماذا كل هذا؟!

ابتسم ابتسامته الجانبية ثم أعاد تشغيل السيارة لينطلق بها...

قبل أن يقول بلهجته الغريبة ودون أن ينظر إليها:

_هل تستهينين بماسة؟!!!

===================

وصل بها إلى مدخل قصره فأوقف سيارته ثم قال دون أن يلتفت إليها:

_سنقيم احتفالاً صغيراً للإشهار الليلة في حديقة القصر....ستجدين كل ما يلزمكِ في غرفتكِ...

ابتسمت بسخرية مريرة وهي تهمس:

_دوماً تسيطر على كل التفاصيل!

أطرق برأسه للحظة ثم عاد ينظر للأمام قائلاً:

_لو لم أكن هكذا ...لما وصلتُ لما أدركتُه في عمري هذا.

أشاحت بوجهها دون أن ترد...

ليصلها صوته المسيطر :

_لا أريد أي خطأ في حفل الليلة....استعدي للزفاف جيداً.

شهقت بعنف وهي تلتفت إليه هاتفة باستنكار:

_زفاف؟!!!كنت أظن...أقصد...

تلعثمت عبارتها وهي لا تدري كيف تكملها...

فأطرقت برأسها وهي تشعر بأنفاسها تتلاحق كعادتها عندما تنفعل...

لكنه بدا غافلاً عن مقصدها وهو يقول ببرود:

_غرفتي لا يدخلها أحد...حتى السيدة حورية كانت لها غرفتها ...وكذلكِ أنتِ...عندما أريدكِ سآتيكِ أنا.

فتحت باب السيارة بعنف وهي تشعر بنفسها عاجزة عن احتمال كل هذا....

فناداها بحزم ثم قال ملوحاً بسبابته:

_لا أخطاء الليلة...الحفل سيحضره نخبة القوم.

أومأت برأسها في اقتضاب ثم عادت لغرفتها تكاد تعدو...

تناولت بخاخها بسرعة لعل صدرها يعود لسكونه...

ثم جلست على طرف فراشها تتحسس الثوب الموضوع عليه...

ثوب شديد الفخامة والرقي...

لو كان الأمر بيدها لما اختارت ثوباً مثله...

هي تميل للبساطة وهذا الثوب شديد البذخ بالنسبة إليها...

بل هو قطعاً لا يناسبها...

لكن لم العجب؟!!!!

الواقع أن هذه الزيجة كلها لا تناسبها ...!!!!

خفضت بصرها أرضاً لتري الحذاء الأنيق الذي كان هناك...

مدت قدمها تجربه لتجده مناسباً تماماً لقياسها!!!!

ابتسمت بسخرية وهي تخلعه بعنف لتتجول ببصرها على كل هذه الأشياء التي وجدتها...

بداية من مستحضرات التجميل المتنوعة وزجاجات العطر الباذخة...

والحقائب المكدسة التي لم تفتحها لكنها علمت -بحدسها- ما تحتويه...

لكن ما أسر عينيها للحظات كانت "طرحة الزفاف" التي استلقت كعروس متدللة على ظهر أحد الكراسي..

توجهت نحوها ببطء كالمسحورة تتلمسها بأناملها ثم دمعت عيناها بقوة...

ثوب زفاف وطرحة زفاف وليلة زفاف...

بلا عزيز...وبلا رحمة!!!!

تشبثت أناملها بظهر الكرسيّ لتتهاوى جالسة مكانها على الأرض ...

ثم همست بشرود تحدث نفسها حديثاً تثق الآن أن لا أحد سيكون معها ليقوله لها:

_لا بأس يا ماسة...لا بأس....لن تضعفي...ولن تنكسري...أنتِ قوية بنفسكِ...لا بأي أحد...

===========

لم تكن تعي أي شئ مما يدور...

كل هذا عبث...!!!

ضوضاء وضجيج وأناس يبتسمون ونساءٌ يثرثرن ...

غمزات وهمزات ونظرات تتراوح بين الاستنكار والحسد والفضول...

كيف يتزوج عاصي الرفاعي من فتاة صغيرة كهذه وبلا أصل معروف في مدينتهم الصغيرة...؟!!!!

ولماذا يتزوج الآن بعد أن عوضه الله بحمل زوجته وهو الذي ظل عازفاً عن الزواج طيلة هذه السنوات بلا إنجاب؟!!!

وكيف تم الأمر بهذه السرعة؟!!!

ولماذا هي بالذات؟!!!

كل هذه الهمزات كانت تسمعها في الخفاء من النسوة اللاتي التففن حولها يدّعين الفرح ويتملقنها في الظاهر...

لكنها لم تكن تهتم...

كانت تشاهد الأمر من بعيد وكأنه لا يعنيها...

هذه العروس ليست ماسة...

ماسة هناك عند رحمة...تحلم بفارسها عزيز الذي يعشقها وسيأتي ليحملها على حصانه نحو عالم الحب...!!!!

نفضت رأسها بقوة وهي تغالب دموعها...

وقلبها يكاد يصرخ بداخلها خوفاً واشتياقاً...

أمام صوت عقلها الذي كان ينهرها بقوة...

أفيقي من الحلم أيتها الماسة المخدوشة...

عزيز لم يعد فارسك...

لقد كبا به حصانه فسقط من فوقه ...

تماماً كما سقط الآن من حياتكِ كلها...

عالم الحب صار محرماً على من هي مثلكِ...

فاقنعي بتصاريف القدر...

ولا تضيفي لخدوشكِ واحداً جديداً!!!!

كانت هذه أفكارها وهي تري كما يرى الحالم ظل عاصي يتقدم ليتأبط ذراعها كما العادة...

ثم تبدأ طقوس واحتفالات لم تكن تدرك منها سوى صوت الضجيج...

حتى انتهي كل هذا بصعوده معها إلى غرفتها ثم دخولهما وإغلاقه الباب!!!

هنا التفتت إليه من شرودها لتنظر إليه نظرة غريبة هامسة بعدم تصديق:

_هل...انتهى الأمر؟!!

اعتقل نظراتها كعادته بقوة نظراته الجبرية ثم قال بلهجته المميزة:

_بل بدأ!!

أطرقت برأسها أخيراً بعدما استعادت بعض تماسكها وهي تقبض أناملها بقوة...

والآن ماذا بعد؟!!!!

رغم كل ما حاولت دعم نفسها به...لكنها لازالت تشعر بالخوف...

هل كتب عليها القدر أن تُغتصَب مرتين؟!!!

لكن هذه المرة بغطاء شرعي!!!!

ارتجف جسدها للفكرة فأحاطت جسدها بذراعيها تلتمس بعض الدعم....

لكنه قرأ أفكارها كعادته فاقترب منها قائلاً بلهجة أكثر رفقاً:

_ألم أخبركِ أنكِ لن تخوني أحدنا؟!!! لن أمسّكِ حتى أنتزعه من قلبك.

رفعت عينيها إليه بحذر فقال باقتضاب:

_تصبحين علي خير.

اتسعت عيناها بدهشة للحظة وقد أربكها رد فعله...

هل سيتركها حقاً؟!!!

لكنه منحها إجابة سريعة عندما أعطاها ظهره ليخرج مغلقاً الباب خلفه!!!!

==================

جلس راغب في غرفة الصالون الخاصة بمنزل عبدالله ينتظر قدومها بفارغ الصبر....

كم تمنى هذه اللحظة منذ زمن بعيد ...

ربما منذ أول مرة رآها فيها لتسحره ملامح وجهها التي جمعت براءة الطفولة بفتنة النساء....

اختلس نظرة جانبية لوالدته التي كانت تتهامس مع هيام ....

ثم مط شفتيه في استياء وهو يفكر...

هيام لن تغفر له عزوفه عن الزواج من شقيقتها وإصراره الشديد على رؤى...

لكن والدته طيبة القلب...

ستحب رؤى عندما تتعامل معها...

فهي أولاً وأخيراً لا تعنيها إلا سعادته!!!

قطعت أفكاره عندما دخل عبد الله ليصافحه من جديد هو وشقيقه بترحاب ظاهر ...

وصفا التي اندفعت بدورها لترحب بوالدته وهيام...

جلس مكانه متململاً وهو يطالع الباب بنظرات مختلسة ينتظر قدومها...

حتى انتبه لصوت عبد الله يقول بود ظاهر:

_مرحباً بك يا سيد راغب...سمعتك الطيبة تسبقك في كل مكان...ونسبك شرف لنا.

كاد راغب يرد عليه لولا أن سقط القمر في عينيه فجأة!!!!!

هكذا كان شعوره تماماً وهو يراها تتقدم نحوهم بخطوات خفيفة كفراشة....

وكأن قدميها لا تلامسان الأرض!!!

تعلقت عيناه بها وهو لا يكاد يرى سواها...

لتتشبع حناياه كلها برائحة عطرها الليمونية...

فيخفق قلبه بقوة وهو يتمنى لو يختفي الجميع وتبقى هي وحدها معه!!!!

وتحققت أمنيته بأسرع مما توقع...

فقد تركهما الجميع ليجلسا وحدهما كما اقترح عبد الله حتى يتعارفا أكثر...

أطرقت رؤى برأسها وهي تشعر باليأس يخنقها....

حتى أنها لم تنظر إليه...

لم تكترث أن تتبين شكله فلم يكن الأمر يعنيها...

هي ميتةٌ تسير علي قدمين !!!

الحكاية كلها مسألة وقت...

وستنكشف خطيئتها...

ساعتها سيقتلها عبد الله لو لم يقتلها هذا الرجل بنفسه!!!

للأسف...

قُضي الأمر ولم يعد بيدها شئ..

طوال الشهر الماضي منذ حلت بها تلك الكارثة وهي تحاول العثور على مخرج...

لقد فكرت أن تقوم بإحدى هذه "العمليات الشائنة" التي تلجأ إليها النساء في مثل حالتها...

لكنها تعلم أنها لن تجرؤ...

تخاف تبعات هذا الأمر...

وتخاف أكثر أن يكتشفه عبد الله بأي طريقة فتكون قد عجلت بنهايتها!!!

كما أن -غرضاً آخر في نفسها - يدفعها لتقبل مصيرها كما اقتضته السماء...

لهذا ستستسلم لقدرها...

وليكن ما يكون!!!

كفاها خداعاً!!!

وأمامها كان هو مأخوذاً بمشاهدتها بهذا القرب...

طافت عيناه على ملامحها التي يحفظها حتى توقفت على طابع الحسن الذي يشق ذقنها...

ابتسم رغماً عنه وهو ينتبه له لأول مرة...

كم يليق بها طابع الحسن....وكم تليق به!!!

لو لم تحمل رؤي طابعا للحسن فمن في النساء تستحقه؟!!!

فسّر صمتها الطويل بخجلها فتنحنح قائلاً بصوته الخشن:

_كيف حالك؟!!

رفعت عينيها إليه أخيراً ترمقه بنظرة خاطفة...

لتشعر بارتياح غريب نحوه....ملامحه -رغم خشونتها- بدت لها مألوفة...

فسألته بدهشة :

_هل التقينا من قبل؟!

ابتسم وهو يملأ عينيه من ملامحها كظمآنٍ ينهل من بئر ماء ثم قال بنفس الطريقة المتحفظة:

_أنا كنت أشاهدكِ في طريقك للجامعة ...أنتِ تمرين على ورشتي تقريباً كل يوم!!

أومأت برأسها ثم عادت تخفض بصرها عنه...

همس باسمها وهو يشعر أنه يتلذذ بحروفه التي ينطقها أمامها لأول مرة ...

فعادت ترفع إليه وجهها بنظرات تائهة...

ليردف بصوته الخشن:

_أنا لا أجيد الكلام المنمق كباقي الشباب....لكنني أعدكِ أن أفعل كل ما بوسعي لأسعدكِ.

ازدردت ريقها ببطء ودمعت عيناها رغماً عنها....

لكنه لم ينتبه لهذا وهو يردف بنفس النبرة المتحفظة:

_حياتي كلها ستكون مقسمة بين عملي وعائلتي...وأنتِ بالطبع.... لو وافقتِ علي إتمام الأمر!

تهدج صوته في عبارته الأخيرة واشياً بخشيته من رفضها....

لكنها أطرقت برأسها وهي تزم شفتيها بقوة كي تكتم دموعها...

ليس لي حق القبول أو الرفض يا راغب...

لقد قضى عبد الله بحكمه وانتهي الأمر...

ترى كيف ستكون نهاية قصتي معك...؟!!!!

أنت ستكون القاضي والجلاد...

وأنا حتماً سأكون المتهم...

متهمٌ ستثبت حتماً إدانته ...

وستطبق عليه أقصى عقوبة!!!!!

وأمامها كان هو يجاهد للحفاظ علي تحفظه الظاهر...

مع دقات قلبه التي كانت تتواثب بجنون...

لقد أكّد له هذا اللقاء ما كان يشعر به دوماً...

هذه الفتاة -الليمونية-كما ستحلو له تسميتها من الآن هي توأم قلبه...

ونصفه الآخر الذي سيكتمل به عمره...

وكم سيكون محظوظاً به!!!!

==========

وقفت صفا تراقبه خفية وهو يصلي بخشوع...

لتدمع عيناها عندما ختم صلاته ثم جلس متربعاً ليرفع كفيه للسماء هامساً بصوت متهدج:

_تبتُ يارب...فردني إليك رداً جميلاً...واحفظ عليّ نعمتك.

مسحت دمعتها الخائنة من على وجنتها...

ثم مدت بصرها نحو حاسوبه الذي رفعه بعيداً فوق خزانة ملابسه...

وكأنه يبعده عن متناول يده كي لا يضعف من جديد...

إنها تشعر أن عبد الله قد تغير منذ ردها إليه بعد طلقتهما الثانية...

صار أكثر حنوّاً ورفقاً معها...

وكأنه أدرك أنه لم تعد لهما معاً سوى فرصة واحدة...

ويسعى بكل طاقته لاستغلالها!!!

تقدمت نحوه مبتسمة ثم جثت علي ركبتيها لتكون في مستواه...

قائلة بحنانها المعهود:

_آمين يا شيخ عبد الله...أدام الله عليك نعمه كلها!!!!

قام من مكانه ثم أمسك كفيها ليرفعها إليه هامساً أمام عينيها:

_أنتِ نعمةٌ لن أوفي حق شكرها مهما فعلت.

اتسعت ابتسامتها وهي تتعلق بعنقه هامسة بعشقها اللامحدود:

_أما أنت فلست مجرد نعمة...بل أنت جنتي نفسها.

ضمها إليه بقوة وهو يشعر وكأنما يتشبث بها من ضعف نفسه وهواجسه...

صفا تستحق أن يحارب نفسه من أجله...

أن يصارع كل هواجسه التي تنتابه بشأن علاقته بها....

هي امرأة كاملة وليس ذنبها أنه يرى في نفسه نقصاً...!!!!

رفعت عينيها إليه وهي تهمس بسعادة :

_أنا سعيدة لأجل رؤى...راغب يبدو شاباً مهذباً وسيصونها.

ربت علي ظهرها برفق وهو يقول برضا:

_الحمد لله رب العالمين...أنا سألت عنه جيداً وعلمت أن أخلاقه وطباعه لا غبار عليهما...لهذا تغاضيت عن فرق مستوي التعليم بينهما...لأنه حقاً رجل يعتمد عليه.

أومأت برأسها إيجاباً ثم أسندت رأسها على صدره هامسة بحب:

_أتمني أن تحبه رؤى كما أحبك.

ابتعد برأسه قليلاً ليرفع ذقنها إليه هامساً بمزيج من الامتنان والحب:

_لا أظن امرأة يمكنها أن تعشق مثلك...حب صفا المعموري مميز مثلها...لن تجيده سواها....حب لا يعرف حدوداً ولا غاية...صافٍ مثل صفاء روحها.

ابتسمت في خجل وهي تمرغ وجهها في صدره هامسة :

_حبيبي يا عبدالله...!

تنهد في حرارة وهو يربت على رأسها ثم همس بخفوت:

_هل سامحتِني حقاً من قلبك؟!!!

رفعت وجهها إليه ثم أحاطت وجنته بكفها هامسة بحرارة:

_أنت ابن قلبي كما قلت لي يوماً...مهما أرهقني عصيانك لن أملك معك إلا العفو.

فتناول كفها من على وجنته يقبل باطنه هامساً بصدق:

_صدقيني هذا شعوري أنا الآخر...مهما ابتعدت سُفُني تبقين أنتِ المرفأ الذي أعلم أنني عائدٌ إليه.

==========

_مباركٌ يا دعاء!!!

_ضابط شرطة ؟؟!!! وبهذه الوسامة؟!!! كم أنتِ محظوظة!!!!

_قصة حب ؟!!! أم زواج "صالونات"؟!!!!

_متي سيكون الزفاف؟!!! ستكون الدعوة عامة لنا جميعاً!!!

كانت هذه هتافات زميلاتها في المكتب وهنّ يشاهدن صور حفل خطوبتها على هاتفها المحمول....

بعدما أتيْن يهنئنها على خطوبتها التي تمت بسرعة فائقة كطرفة عين....

حتى أنها لا تزال لا تصدق أن رجلاً مثل حسام خطبها هي!!!!

"الدمية المعيبة" وجدت شارياً ممتازاً حقاً...

تراها محظوظة فعلاً كما يقولون؟!!!

إذن لماذا لا تشعر بالسعادة...؟!!!

قلبها ينزوي بين ضلوعها مكسوراً كطفل يتيم!!!

وعقلها غارقٌ في متاهات متشابكة بخصوص علاقتها بحسام...

حسام الذي يعاملها منذ أول لحظة وكأنها "جنديٌّ" تحت إمرته...

ورغم أنها تفهمت هذا بحكم طبيعة عمله...

لكن ما أدهشها حقاً هو شخصيته المزدوجة...

أمام الناس يعاملها بمنتهي اللطف...ضحكاته مرسومة بعناية كأنه صورة على غلاف أحد المجلات....ثيابه الأنيقة منتقاةٌ بعناية...كلماته شديدة الرقة والرقيّ!!!

لكنه عندما يختلي بها تتغير نظراته لصرامة قاسية مع لهجة مسيطرة قوية لا تسمح لها بأي اعتراض...

بل لا تسمح لها بمجرد إبداء رأي!!!!!

رأي؟!!!!

من يتحدث عن "الرأي" ها هنا؟!!!

وهل تجرؤ من كانت -مثلها-أن يكون لها مع رجل -مثله- أيّ رأي؟!!!!!

تنهدت في حرارة وهي ترتدي قناع مرحها المصطنع كعادتها لترد عليهنّ بسعادة زائفة...

حتى انصرفن إلى مكاتبهنّ...

فجلست هي على مكتبها دون أن تجرؤ حتى على اختلاس نظرة لهذا -المشتعل-على مكتبه جوارها!!!!

لقد قررت أن تتجاهل قلبها وتمضي في طريق العقل حتى النهاية...

ومن يدري؟!!!

ربما يتصالح القلب مع العقل يوماً!!!

قطع معتصم أفكارها وهو يقول ببرود مصطنع:

_مباركٌ يا دعاء!!! تستحقين كل خير!!!

هزت رأسها بلا معني وهي تتحاشي النظر إليه...

فاشتعل غضبه أكثر وهو يسألها بنفس البرود:

_هل أنتِ سعيدة؟!!!

كان دورها هي لتشعر بالغضب هذه المرة وهي تلمح عتاباً خفياً في سؤاله...

علامَ يلومها -هذا - الآن؟!!!

لو كان يملك بعض المشاعر نحوها فلماذا لم يصارحها؟!!!

ماذا كان ينتظر منها؟!!!

أن تتقدم هي لخطبته؟!!!

ألا يكفيها صراعها الحالي بين قلبها وعقلها؟!!

فيزيده هو بعتابه -الصامت-هذا؟!!!!

وبهذه المشاعر المشتعلة التي تملؤها وجدت نفسها تهتف بحدة غير مبررة:

_نعم...سعيدة...سعيدة بأكثر مما يمكنك تخيله...!!

اتسعت عيناه بدهشة للحظة...

لم تلبث أن تحولت لغضب شديد...

فقام من على مكتبه وهو يهمّ بمغادرته عندما اصطدم بحسام الذي كان واقفاً هناك بحُلّته الرسمية يراقبهما بتفحص!!!

قامت دعاء من على مكتبها وهي تهتف بارتباك:

_حسام...تفضل بالدخول...لماذا لم تخبرني...أقصد...أهلاً بك...

بينما رمقه معتصم بنظرة مشتعلة فابتسم ابتسامة قاسية وهو يمد له يده مصافحاً قائلاً بغرور :

_الرائد حسام!! من المباحث العامة!!

صافحه معتصم ببرود وهو يقول له :

_أهلاً وسهلاً يا "سيادة" الرائد!!! فرصة سعيدة!!

قالها ثم غادرهما بخطوات مندفعة تفضح غيظه...

فاقترب منها حسام ليصافحها بقوة شديدة حتى شعرت بالألم وهو يضغط كفها بكفه ....

ناظراً إليها بتفحص فهمست بارتباك:

_ما الأمر يا حسام؟!! لماذا تنظر إليّ هكذا؟!!!

ابتسم بسخرية قاسية وهو يترك كفها أخيراً ليقول بتهكم:

_وكيف تريدينني أن أنظر إليكِ؟!!

أطرقت برأسها وهي تشعر بالإهانة من أسلوبه المتهكم وسيطرته الفجة...

عندما جلس هو ليقول لها بلهجة آمرة:

_اجلسي!

جلست كما أمرها وهي تتهرب من نظراته القاسية...

ليعود يسألها بتفحص:

_نظرات زميلكِ هذا لم تعجبني... هل هو مجرد "زميل" ؟!

كان يضغط علي حروف كلمته الأخيرة بإشارة ذات مغزي..

فازدردت ريقها بتوتر وهي تعود لقناعها -الواقي- فضحكت وهي تقول بمرح مصطنع:

_هل ستبدأ بالغيرة من الآن يا "حضرة الضابط" ؟!!! هل أعد نفسي لدور- زوجة رجل مهم-؟!!!

ظهر الإعجاب في نظراته للحظة مختلطاً بقسوته المعتادة ليصمت قليلاً...

قبل أن يقول ببطء:

_يعجبني مرحكِ هذا...ضحكتكِ التي تنير وجهكِ ...وصوتكِ المزدان بدلاله دون تكلف...

احمرت وجنتاها ببعض الخجل وهي تطرق برأسها ليصدمها بعبارته التالية:

_لكنني لا أحب تهربكِ من الإجابة علي تساؤلاتي؟!!! تَعلّمي أن يكون لديكِ دوماً جوابٌ لسؤالي!!

رفعت إليه عينيها بحذر تتأمل ملامحه الثلجية باستكشاف خائب...

نعم...وجهه الجامد كان كحائط صلب في وجه نظراتها الحائرة...

خاصة عندما أردف بصرامة قاسية:

_أجيبي!!

أشاحت بوجهها وهي تشعر بالضيق من معاملته الجافة الغريبة...

ثم قالت باقتضاب:

_نعم يا حسام.. .مجرد زميل...!!

أومأ برأسه ولازال يتأملها بتفحص...

ثم قال بحزم:

_هيا لنسافر إلى القاهرة...لقد اتفقتُ مع أحد محلات الأثاث هناك...وحجزتُ لنا مكانين على الطائرة.

هزت رأسها بدهشة وهي تسأله:

_سنسافر بالطائرة؟!!الآن؟!!! هكذا؟!! دون أن تخبرني؟!!!

ابتسم بسخرية قائلاً لها ببرود:

_أي اعتراض؟!!!

زاد نفورها من لهجته وأسلوبه المتغطرس...

لكنها لم تجرؤ على الاعتراف بهذا.....

فهمست بخفوت:

_وعملي هنا؟!!

اتسعت ابتسامته الساخرة وهو يقول لها بغرور مسيطر:

_لهذا تعمدتُ الحضور بحلّتي الرسمية....مديرك وافق على أن تأخذي بقية اليوم إجازة بمنتهي السهولة.

تنهدت في حرارة وهي لا تدري بماذا يُفترض أن تشعر الآن؟!!!

بالسعادة لأن هذا الرجل -المهيب المُطاع -سيكون زوجها؟!!!

أم بالخوف لأنه من الواضح أنها لن تجد أمانها معه؟!!!

أغمضت عينيها بقوة تتمالك ضعف مشاعرها في هذه اللحظة...

ثم قامت من على مكتبها لتقول باستسلام سيكون دوماً عهدها معه:

_حسناً...كما تريد!!

ركبت معه سيارته وهي تتغافل عنه بالمرئيات التي تتوالى تباعاً بسرعة فائقة على الطريق...

عندما انتابتها نوبة من نوبات شرودها -المَرضية-لتغيب عن إدراكها لبعض ثوانٍ.....

لكنها انتفضت فزعاً عندما أفاقت بعدها على صوته الغاضب جوارها:

_لماذا لم تجيبيني؟!!! أنا ناديتكِ ثلاث مرات!!!

أطرقت برأسها في خجل للحظات ...

ثم همست بخفوت:

_تنتابني أحياناً نوبات من الشرود أغيب فيها عن الوعي لقليل من الوقت...لا أشعر فيها بأي شئ...هذا من تبعات مرضي الذي تعرفه.

انعقد حاجباه بشدة للحظات...ثم عاد يسألها باهتمام:

_وهل تنتابك في أوقات معينة؟!!!

هزت رأسها نفياً وهي تهمس بنفس الخفوت:

_ليس لها وقت معين...لكنني أفقد فيها الإدراك ...حتى لو ضربني أحدهم فلا أشعر.

أومأ برأسه وهو يسألها بنفس الاهتمام:

_وهل لمرضكِ أعراضٌ أخري ملحوظة؟!!!

ظلت على إطراقها وهي تشعر بالخزي -المعهود-من هذا الأمر لتجيبه باستسلام:

_نوبات التشنج قلت كثيراً بعد انتظامي في الدواء...لكنها تعود على فترات متباعدة.

صمت للحظات طويلة...

ثم قال لها بحزم:

_لن يعرف أحدٌ من عائلتي أو معارفي بأمر مرضكِ هذا...واجهتي الاجتماعية هامة جداً خاصة لرجل في وظيفتي.

ازداد شعورها بالخزي وهي تسمع منه هذا...

لكنها لم تستطع إلقاء اللوم عليه...

أما يكفيها أنه قد قبل بها -علي عيبها-؟!!!

لهذا بقيت على صمتها المستسلم طوال الطريق ...

حتى وصلا إلى محل الأثاث...

وكما توقعت تماماً...

لم يأخذ رأيها في أي شئ!!!!

هو الذي كان يختار ويقرر وهي فقط كانت تمنحه إيماءة رأس!!!!

هذا كان كل دورها في هذا الأمر...

وعندما خرجا من محل الأثاث...

فوجئت به يتوجه معها نحو أحد المطاعم القريبة وهو يقول بلهجته المسيطرة:

_سنتناول غداءنا أولاً قبل أن نبدأ رحلة العودة.

سارت جواره بنفس الاستسلام الصامت حتى جلسا على إحدى الموائد ...

تلاحقهما الأنظار بمزيج الاحترام والتوقير ل"حُلّة حضرة الضابط" الرسمية!!!!!

تناول قائمة الطعام يتفحصها باهتمام أمام نظرات النادل الذي كان واقفاً جواره باحترام مبالغٍ فيه...

ثم أعطى النادل أوامره بلهجته المسيطرة دون حتى أن يسألها عمّ ترغب!!!!

أطرقت برأسها وشعورها بالخزي والاستسلام يزداد رسوخاً في أعماقها...

لقد حدد "سيادة الرائد" دورها جيداً في حياته...

مجرد دميةٍ حلوة المظهر تليق بواجهته الاجتماعية...

دمية ليس لها حق إبداء الرأي أو الاعتراض...

لكن ما يحيرها حقاً هو لماذا اختارها هي بالذات رغم ظروف مرضها التي يعرفها...؟!!!

ربما لو كان قد عاملها ببعض الحنان والرقة لقالت أن في الأمر بوادر حب...

لكنه يصرّ على معاملتها بمنتهى الغرور والغطرسة...

وكأنه يقمع أي محاولة لها للتمرد أو الاعتراض...

هذا الرجل يبدو وكأنه كان يريد جاريةً يؤدي أمامها دور السيد...

وليست زوجة يحبها ويحترمها...

فما هو دافعه وراء هذا؟!!!

قلبها يخبرها أن رجلاً مثله لن يتقبل -عيب دميته- إلا إذا كان هو يحمل عيباً أكبر...

فماذا عساه يكون؟!!!!

==========

_تبدين في غاية الأناقة اليوم...نحن محظوظون بفاتنة مثلكِ هنا!!!

غمغم بها أحد زملائها في المكتب وعيناه تتفحصانها بوقاحة...

فقامت من على مكتبها وهي تمسك قلمها لتتوجه نحوه...

التمعت عيناه بنظرات مشتعلة يرقب خطواتها البطيئة نحوه بشغف من أسفل إلى أعلى وهو يزدرد ريقه بتوتر...

حتى صارت قبالته تماماً ...

لتفاجئه بأن دفعت قلمها بعنف نحو إحدى عينيه!!!

لكنها أوقفته في اللحظة الأخيرة على بعد عدة سنتيمترات منها...

شهق بعنف وهو يتراجع برأسه للخلف...

فلوحت بالقلم أمام عينيه هاتفة بصرامة:

_في المرة القادمة التي ستتجرأ فيها بكلماتك أو نظراتك...لن أتردد عن فقأ عينك هذه!!!

عقد حاجبيه بشدة وهو يرمقها بنظرات ساخطة...

ثم أطرق برأسه متشاغلاً بأوراق العمل أمامه...

وعلى بعد خطواتٍ منهما كان عزيز يراقبهما من خلف نافذة غرفتهما التي تجاور غرفته...

ليبتسم في إعجاب وهو يهز رأسه مندهشاً...

غريبةٌ ميادة هذه...!!!

رغم كل غنجها المتدلل معه تتعامل مع الجميع بطريقة عملية تماماً...

وبرغم ثيابها الكاشفة التي تدفعهم للجرأة معها - كما فعل زميلها هذا الآن- لكنها تعرف كيف توقفهم عند حدهم!!!

لا تبدو له خليعة بطبعها...

بقدر ما تبدو امرأة تعرف كيف تستغل كل إمكانياتها للحصول علي ما تريد!!!!

وهو ليس غبياً أو ساذجاً ليدرك أنها تريده...

تريده كصفقة رابحة تراها...

وليس كأي شئٍ آخر...!!!!

في ظروفٍ أخري ربما كان سيشعر بالفخر لأن امرأة مثلها تسعى خلفه...

لكنه الآن لا يشغل تفكيره سوى ماسة...

ماسته التي تبدو وكأنها تبخرت تماماً...

ولا يعرف عنها أحد أي شئ!!!!

حتى أن رحمة تخلت عن تماسكها -الزائف-بالأمس لتنهار أمامه طالبة منه أن يبحث عنها بأي طريقة...

حتى لو تطلب الأمر إبلاغ الشرطة أو المستشفيات..

وقد كاد يفعل حقاً...

لولا أنه تذكر رسالتها التي أرسلتها إليه رداً علي خاطرته...

قولوا له صارت حبيبتك القديمة دُميةً صمّاء...

من كنت تعشق سحر ابتسامتها...

استكانت للبكاء...

مات الربيع بمقلتيها...

وما أقسي الشتاء!!!

رغم أنها لم تذكر اسمها لكنه عرفها...

وكيف لا يفعل وعباراتها وشت بها...!!!

ابتسم في مرارة وهو يتذكر كم كان يشاكسها بأن عينيها لا تليقان بها...

لونهما الرمادي الذي يذكره بغيوم الشتاء لا يتناسب وربيع روحها الزاهي بألوانه!!!!!

لهذا عرف أنها هي من أرسلتها..

بل يكاد يقسم على هذا...

وهذا ما يطمئنه أنها -على الأقل-بخير...

وأن اختفاءها هو حصاد قرارها الأخير بشأنهما فحسب!!!

تنهد في حرارة وهو يحاول دفع صورتها عن رأسه كي يبتلع حسرته...

ثم توجه بخطوات متثاقلة نحو مكتب ميادة...

ليواجه زميلها هذا هاتفاً بحزم:

_سلّم أوراق عملك لأحد زملائك وبعدها توجه لمكتب شئون العاملين فقد استغنيتُ عن خدماتك.

احمر وجه الرجل خزياً وهو يغادر المكتب دون كلمة إضافية...

فلهجة عزيز الصارمة كانت تعني أنه عرف بما حدث...

وأنه لن يغير قراره!!!

بينما توجهت هي نحوه لتسأله باهتمام:

_لماذا فصلته من عمله؟!!

زفر بخفوت وهو يشيح بوجهه عنها قائلاً:

_لقد رأيت ما كان بينكما منذ قليل.

تأملته بنظرات متفحصة ثم قالت بلهجة عملية:

_ستخيب ظني حقاً لو كنت فعلتها لأجلي لا لأجل العمل.

التفت إليها بحدة...

فأردفت بنفس اللهجة العملية:

_لو كنتُ مكانك لفصلته من عمله لأنه يضيع وقته بلا طائل...وليس من باب المجاملة لصديقتك.

زفر زفرة قصيرة ...

ثم هتف بضيق:

_أنتِ لستِ صديقتي يا ميدا...لا أعترف بصداقة بين رجل وامرأة....كفاكِ تشبثاً بأفكاركِ الغربيّة هذه.

ابتسمت ساخرة وهي تتفحصه ليصله صوتها الذي عاد إلي غنجه:

_وماذا أكون إن لم أكن صديقتك؟!!!

أشاح بوجهه ضائقاً فأردفت بنفس النبرة التي تمزج دلالها بسخريتها:

_هذه هي ازدواجية الفكر يا "صديقي" والتي تعانون منها هنا في مجتمعاتكم الشرقية....أنت تخرج معي وحدنا نتنزه ونتحدث ونضحك...ولا أجدك تمانع هذا...أنت تحب الفعل وتكره المسمّي!!!!

صمت لحظاتٍ عاجزاً عن جدالها...

فعادت تقول بلهجتها العملية:

_أما أنا فلا تعنيني المسميات بقدر ما يعنيني أن أفعل ما أحب وقتما أحب وأينما أحب...هذا ما تعلمته في "أميريكا"...البساطة هي أفضل الطرق التي تعيش بها حياتك.

نظر إليها بتعجب مصبوغ ببعض الاستنكار قائلاً:

_أفكاركِ الغريبة هذه هي ما تدفعهم للجرأة معك.

اتسعت ابتسامتها الساخرة وهي تلوح بقلمها هاتفة بلهجة واثقة:

_خطوطي الحمراء لا يتجاوزها أحد....وحدتي الطويلة علمتني كيف أدافع عن نفسي جيداً.

ثم أشارت بالقلم لجانب رأسها مردفة بنفس الثقة:

_إضافةً إلى عقلي الذي يعرف كيف يزن الأمور فلا أخسر أبداً.

ابتسم فيما يشبه الإعجاب وهو يسألها بحذر:

_تثقين كثيراً في عقلك؟!!!

عقدت ساعديها أمام صدرها لتجيبه بابتسامة واثقة وهي تضغط على حروفها ببطء:

_القلب طالما يخذل أتباعه أيها الشاعر....لكن العقل قلما يفعلها!!!!

هز رأسه بحيرة وهو يتفحصها بنظراتٍ طويلة...

يكاد يقسم أنه لم يرَ في حياته امرأة مثلها...

ويبدو أنه لن يفعل...!!!

لا ينكر أنه شديد الإعجاب بمهارتها في العمل...

بل تميزها الواضح فيه...

لكن طريقة تفكيرها تربكه...

يشعر بها وكأنه تخبطه على رأسه بعنف...

ومع هذا لا ينكر انجذابه لها...

لا...

ليس انجذاب رجل لامرأة...

لكنه انبهاره -المعتاد-بما هو غريب ومعقد....

ومن أكثر من هذه المرأة غرابة وتعقيداً؟!!!!

بينما لاحظت هي تفحصه لها...

فأمالت رأسها بدلال لتقول بلهجة تحدٍ لذيذة:

_نقيضان نحن أيها الشاعر...ومن أشهر قواعد الفيزياء أن الأقطاب المتناقضة تتجاذب.

ضحك رغماً عنه ضحكة قصيرة وهو يهز رأسه قائلاً:

_لكنّ قطارين يسيران متعاكسيْن لا يلتقيان أبداً...

اقتربت منه خطوة ...

لتأسر نظراته الزمردية بأمواجها السوداء وهي تهمس مبتسمة بثقة :

_بل يلتقيان في منتصف الطريق...ومن يدري ؟!!! ربما يغيّر بعدها أحدهما اتجاهه ليسير خلف الآخر!!!!

==========

أسندت جنة رأسها على مكتبها وهي تشعر بصداع قوي....

شهر مرّ على انهيارها الغير مسبوق أمامه بعد قبلته الكارثية التي هدمت آخر حصون مقاومتها...

انهيارها الذي غيّبها تقريباً عن وعيها لعدة أيام بعدها حتى بدأت تستعيد صفاء ذهنها تدريجياً....

شهر بأكمله لم يدخر هو فيها جهداً كي يظهر لها اهتماماً وحناناً لا تصدقه...

رغم أنها لا تنكر أنها كانت تحتاجه!!!!

تمثيل!!!!

كل هذا تمثيل!!!!

هذا ما كانت موقنة به تماماً...

فهد الصاوي يحاول كسب رهانه على قلبها لتحقيق انتصاره الوهمي...

وهدفه من هذا الزواج...

لكن الغافل لا يعلم أن قلب جنة الرشيدي ذهب مع حسن إلي قبره...

ولن يعود!!!

ابتسمت ساخرة وهي تتذكر حرصه الصباحيّ طوال الشهر الماضي على أن يستيقظ قبلها ليفتح لها نافذة غرفتها ....

ثم يتوجه نحوها ليطبع على وجنتيها قبلتين مستفزتين مثله...

يزعم أن إحداهما تذكرها بأنها تحتاجه والأخرى بأنه يحتاجها أكثر...

المحتال يتصورها كفتياته الساذجات ستنزلق قدماها في مستنقع كذبه...

لكنها تفهمه جيداً...

برودها هو سلاحها الوحيد في مهاجمته!!!

فهد الصاوي يعشق استفزازها لأن شراستها تروقه...

ولو تمسكت بقناع برودها هذا قليلاً فسيزهدها ويمل هذه اللعبة ...

ليطلق سراحها وينتهي كل هذا العبث!!!

هذا ما كانت تحدث به نفسها عندما أنهكها التفكير فقامت من على مكتبها ...

ثم حملت حقيبتها لترحل ...

ولم تنسَ بالطبع أن ترسل له رسالة على هاتفه كالعادة تخبره فيها أنها غادرت المكتب إلي المنزل...

كل تحركاتها يجب أن يكون هو على علم بها ....

حسب أوامر السيد!!!

ابتسمت بسخرية تمتزج باحتقارها وصورته تملأ ذهنها...

فطردتها وهي تزفر بسخط...

لا تطيقه!!!!

وكيف تفعل؟!!!

ورؤى هاتفتها منذ قليل وهي شبه منهارة بعدما تحدد موعد زفافها...

الذي سيكشف خطيئتها حتماً...

ومن يدري ما الذي سيفعله به زوجها وقتها؟!!!!

لكنها للأسف لم تدرِ كيف تساعدها....

نصيحتها الوحيدة لها كانت أن تخبر راغب عن الأمر قبل الزواج...

وليس بعده!!!!

حتى لا يتهمها بخداعه فيما بعد...

وربما كانت الأقدار رحيمة بها فيعزف عن فكرة الزواج منها دون أن يخبر عبد الله بأسبابه!!!

لكن رؤى التي تربت علي الخوف والخنوع لم تستجب لنصيحتها...

كانت ترى تأجيل الأمر قدر ما استطاعت...

ورعبها من أن يشك عبد الله بشئ يشلّ حركتها...

بل تفكيرها كله!!!!

وكأنما تنتظر معجزة من السماء تنتشلها من ورطتها دون أي عقاب!!!!

مسكينةٌ رؤى ستدفع وحدها ثمن خطيئتهما المشتركة...

بينهما يعيش ابن الصاوي حياته دونما اكتراث!!!!!

عادت إلى المنزل لتأخذ حماماً دافئاً...

ثم أعدت الطعام واستسلمت لنوم عميق..

استيقظت من نومها لأول مرة منذ شهر وحدها لتجد الغرفة مظلمة...

حتى فتحت هي النافذة بنفسها...

ورغم راحتها -المؤقتة-بالتخلص منه...

لكنها شعرت أن شيئاً ما ...ينقصها!!!!!!!

تنهدت في حرارة ثم غادرت غرفتها ....

لتحاول تمضية وقتها في أي شئ بعيداً عن التفكير في واقعها الغريب..

لم تكن لها شهية للطعام فأعدت لنفسها كوباً من القهوة المرة كعادتها...

ثم جلست على الأريكة لتجد الساعة قد قاربت الثامنة صباحاً...

غريب؟!!!

أين ذهب طوال الأمس واليوم؟!!!

تفقدت هاتفها باهتمام لتجد أنه لم يهاتفها....

لم يصلها منه اتصال واحد منذ الأمس وهو الذي كان عودها طيلة هذه الأيام أن يهاتفها كل ساعة ....

ابتسمت في سخرية وهي تقول لنفسها..

لعلها خطته الجديدة...

سياسة المد والجزر الشهيرة...

يريد إغراقها باهتمامه حتى إذا ما انسحب كما اليوم تشعر هي بالفقد وتشتاقه!!!

ما أشد سذاجتك يا ابن الصاوي!!!

حركاتك مكشوفة تماماً كوجهك!!!

لكنني لست لك...

أخطأتَ التصويب بل أخطأتَ الهدف كله هذه المرة يا صاحب البطولات الرخيصة!!!!

زفرت بقوة ثم تناولت كوب قهوتها لترتشف منه رشفة...

لتجد نفسها دون وعي تتذكر عبارته يوم قال لها عن قهوتها التي بنكهة شفتيها:

_مُرّة...قابضة...لكنها لذيذة...تماماً كما أحب!!

ابتسمت رغماً عنها وهي تهز رأسها بلا معني لتهمس باستهجان:

_وقح!!

أنهت قهوتها بشرود وهي تحاول صرف صورته عن ذهنها...

حتي غلبها النوم من جديد على الأريكة...

لم تدرِ كم مر عليها من الوقت نائمة هكذا...

لكنها استيقظت على حركة أنامله على وجهها...

فتحت عينيها لأول وهلة غير مدركة ...

حتى انتبهت إليه فقامت من نومتها لكنه دفعها برفق ليعيدها مكانها هامساً بلهجة غريبة:

_ابقي كما كنتِ!!

نظرت إليه بدهشة للحظة ...

وهي تشعر بشئ غريب في نظرته...

شئ ربما تراه لأول مرة...

شئٌ صادقٌ لا ينكره قلبها رغم عدم تصديقها...

شئ يشبه ال....اشتياق!!!

أما هو فقد كان في وادٍ آخر...

لقد اضطر للسفر مع جاسم الصاوي في رحلة عمل صباح اليوم السابق...

لم يستطع إخبارها فقد تم الأمر كله بسرعة...

لكنه صنع ما يشبه المعجزة كي يعود إليها بهذه السرعة...

ورغم أن ابتعاده عنها لم يتجاوز يوماً واحداً وبضع ساعات...

لكنه كان يشعر أن الدقيقة الواحدة تمر عليه كألف عام!!!

كل يوم كان يمر عليه معها كان يعلقه بها أكثر...

حتى أنه انتبه الآن فقط أنه لم يمس امرأة منذ زواجه الغريب بها...

أو بالأدق...منذ حادثه الأغرب معها والذي تركت فيه ندبتها على وجهه...

وعلى قلبه أيضاً كما يبدو!!!!

ابتسم في حنان لا يدعيه وهو يداعب وجنتها برفق هامساً:

_لماذا تنامين هنا على الأريكة؟!!

أشاحت بوجهها تبتعد عن لمساته الدافئة لوجنتها قائلة ببرود لا يخلو من خشونة:

_غلبني النوم هنا!

اتسعت ابتسامته وهو يهمس بصوت مُتعَب:

_كم أحسدكِ على هذا يا أستاذة...أنا لم أنم منذ يومين!!

ظلت مشيحة بوجهها دون أن ترد...

وهي تشعر بحصار جسده الجالس جوارها علي الأريكة يربكها...

فدفعته بكفها برفق لكي تقوم...

لكنه أمسك كفها ليهمس بنفس النبرة الغريبة على أذنيها:

_صباح الخير يا أستاذة.

قالها وهو يميل على وجنتيها بقبلتيه كالمعتاد..

فتشبثت بقناع برودها وهي ترد بجفاء:

_صباح النور...دعني أقم من فضلك.

اتسعت ابتسامته ممتزجة ببعض الخبث وهو يهمس بمكر:

_بقيت لديّ قبلتان لم آخذهما صباح الأمس...أنا لا أنسى..ولا أترك حقي...!!!!

خفضت بصرها عنه وقد بدأت تشعر بالضيق يشوب ارتباكها...

عندما شعرت بشفتيه على وجنتيها من جديد...

بقبلتين أكثر عمقاً هذه المرة...

ثم همسه الحار جوار أذنها:

_تحتاجينني...وأحتاجكِ أكثر!!

ازدردت ريقها ببطء تخفي تأثرها ثم ابتعدت بوجهها عنه وهي تشعر بمزيد من الضيق...

هو كاذب كما تعلم...

كاذب ويجيد التمثيل كعادته مع الأخريات...

وهي أبداً لن تتأثر بكلماته ولا أفعاله!!!

لكن كل هذا لا يعجبها...

هي تتصرف عكس طبيعتها النارية التي يستهويها الآن صفعه على وجهه واستفزازه...

لكنها تعلم أن هذا بالضبط هو ما يريده...

هو ما أعجبه فيها وجذبه ليجرب نوعاً من النساء غريباً عليه...

لهذا تدعي البرود لعله يسأم...

لعله يمل...

لكن من الواضح أنه لازال مصراً على هذا العبث...

للأسف!!!

قطع أفكارها عندما سألها بمكر:

_لا تريدين أن تعرفي سبب اختفائي بالأمس...الأستاذة لم تفتقدني؟!!

ابتسمت في سخرية وقد لمعت عيناها قائلة باستهجان:

_مع إحدى رفيقاتك...أو تصطحب والدك في رحلة عمل...أو ربما سهرة عابثة مع رفقائك الماجنين....ماذا يعنيني أنا من كل هذا؟!!! لا أهتم!!

_مرحباً بوهج البندق من جديد...

هذاماحدث به نفسه وهو يتعلق بعينيها الملتمعتين ببريق التحدي والعناد ...

ليتوه فيهما للحظات قبل أن يغمض عينيه بقوة للحظة...

وكأنه يدخر نظراتها هذه في ذاكرته ...

ثم يفتحهما ليقول بهدوء متجاهلاً عبارتها:

_هل تناولتِ طعامكِ أم نسيتِ كالعادة؟!!

أشاحت بوجهها وهي تشعر ببعض الخجل...

لقد غفلت عن هذا تماماً كعادتها...

لكنه قرأ إجابتها على وجهها فزفر زفرة قصيرة ثم هتف بضيق:

_لا فائدة في إهمالكِ هذا!!! هيا قومي...سنتناول إفطارنا في الخارج!!

قالها وهو يقوم ليسحبها من كفها حتى قامت بدورها متأففة في ضيق هي الأخري...

تود لو تقذف في وجهه كل أفكارها السوداء الآن...

لو تخبره أن تمثيله السخيف هذا لن ينطلي عليها...

لو يوفر وقته ووقتها الذي يضيعه في هذه المهزلة...

لكنها كظمت غيظها وهي تعطيه ظهرها لتتوجه نحو غرفتها...

لكنه استوقفها بندائه فوقفت مكانها دون أن تنظر إليه...

وقف قبالتها ليعطيها كيساً أنيقاً وهو يقول بلهجة آمرة:

_لقد أحضرت لكِ هذا معي ...ارتديه كي تخرجي به.

فتحت الكيس ببرود لتستخرج الثوب الذي كان فيه...

فردته بين ذراعيها ثم مطت شفتيها قائلة بخشونة:

_لا أرتدي مثل هذه الأشياء!

أمال وجهه في تسلية وهو يسألها ببرود:

_لماذا؟!!

ألقت الثوب على أحد الكراسي جوارها ثم عقدت ساعديها أمام صدرها لتقول ببرود مماثل:

_هذه الثياب صُنعت لنساءٍ يردْنَ لفت الأنظار...أنا لا أرتدي ثوباً يفصل جسدي ويجعله بضاعة رخيصة لعيون أرخص!!!

التمعت عيناه بإعجاب للحظة...

ثم شعر بالكثير من الضيق...

كيف لم ينتبه إلي هذا وهو يأمرها بالخروج به معه...؟!!!

ربما لأنه لم يتخيله كما تقول...

نعم...لو كان رآه عليها ضيقاً فما كان ليسمح لها بارتدائه!!!

لكنها أساءت فهم الضيق على وجهه فهتفت بانفعال:

_كيف تريد من زوجتك أن ترتدي ثوباً كهذا أمام الناس؟!!! ألا...

قطع عبارتها وهو يتقدم نحوها ليضع سبابته علي شفتيها فصمتت مرغمة ...

ثم أشاحت بوجهها في غضب...

عندما أدار وجهها إليه ليهمس بابتسامة ماكرة:

_معك حق...لا يصح أن ترتدي "زوجتي " هذا الثوب أمام أحد.

كان يضغط على حروف "زوجتي" هذه بقوة وبلهجة ذات مغزى...

ومع هذا تنهدت في ارتياح مؤقت لأنه ابتعد عن هذه الفكرة...

لكنه عاد يهمس جوار أذنها:

_الأستاذة سترتدي هذا الثوب لزوجها فقط!!

اتسعت عيناها في استنكار وقد تأهبت للشجار وليكن ما ليكون...

لكنه قرأ أفكارها بعينيها فلوح بسبابته هاتفاً بخشونة متعمدة:

_ولو اعترضتِ فستدفعينني للوجه الآخر الذي لا يروقكِ!!

غطت وجهها بكفيها للحظات...

تحاول تمالك غيظها لكنها لم تستطع...

غلبها طبعها الناري الذي طالما أحكمت السيطرة عليه طوال الأيام السابقة...

فأزاحت كفيها لتصرخ بحدة:

_أكرهك يا ابن الصاوي...أكرهك.

ضحك ضحكة عالية زادت من غيظها حتى كاد رأسها ينفجر ...

ثم داعب أنفها بسبابته هامساً باستفزاز صارخ:

_لم أسألكِ حبك يا أستاذة!!

أزاحت سبابته بعنف ثم اندفعت نحو غرفتها ليلحق هو بها مناولاً لها الثوب قائلاً بصرامة:

_لن نضطر للخروج...سأطلب الإفطار هنا...هيا...ارتديه.

تناولته منه بحدة ثم دخلت غرفتها صافقة الباب خلفها بعنف كاد يكسره....

فابتسم في جذل ثم تنهد هامساً لنفسه بحرارة:

_رائعة يا أستاذة...في كل أحوالكِ رائعة!!!

وبعدها بقليل...

كان الطعام قد وصل من المطعم القريب...

فطرق باب غرفتها بقوة هاتفاً:

_هيا...الطعام جاهز!!

فتحت باب الغرفة وهي تتحاشى النظر لعينيه ...

وحسناً فعلت!!!!

فعيناه في هذه اللحظة كانت مثالاً حياً للانبهار...

هذا الثوب بدا وكأنه قد صُنع خصيصاً لها...

قماشه الناعم يحتضن جسدها بنعومة فتبدو فيه كملكة جمال في حفل تتويجها...

ولونه العسليّ يغازل وهج البندق في عينيها تارة...

وفي خصلات شعرها تارة أخري...

فيصنع معهما مزيجاً قاتلاً أصاب قلبه في الصميم!!!

فاتنة...

بل ساحرة!!!

لقد كانت محقة عندما رفضت الخروج به...

بل إنه الآن يود لو لم تلبسه حتى أمامه هو...

كل هذا كثيرٌ على صبره!!!

لكنه تمالك مشاعره ببراعة كعادته وهو يمط شفتيه قائلاً ببرود كي يغيظها:

_لا بأس به!!!

رمقته بنظرة لا مبالية...

فتناول كفها كعادته ليجلسها على المائدة ويجلس أمامها...

لم ينسَ دواءها كالعادة ...

والذي يناوله لها بنفسه كل صباح...

كي يختلس تلك الضمة الخاطفة من شفتيها على أنامله عندما يقرب قرص الدواء منهما. ...!!!

بدأت في تناول طعامها بشرود...

فسألها باهتمام لا يدعيه:

_أين شقيقتاكِ؟!!! لم أسمعكِ تتحدثين عنهما طيلة هذه الأيام؟!! هل تعلمان عن زواجنا؟!!!

التفتت إليه بحدة وهي تهتف بانفعال:

_بالطبع لا...لا أحد سيعلم عن هذه المهزلة لأنها ستنتهي قريباً.

رمقها بنظرة تهديدية فأشاحت بوجهها لتخفض صوتها قائلة بيأس :

_مجرد وجودي معك في هذا الشقة دون إعلان زواجنا يهدد سمعتي...لو كان الوضع بيني وبين شقيقتيّ طبيعياً لشرحت لهما الظروف...لكن ...

قطعت عبارتها وقد شعرت أنها استطردت في حديثها معه زيادة عن اللازم...

ماذا يعنيه هو من علاقتها مع شقيقتيها؟!!!

بل ماذا يعنيه من تشويه سمعتها؟!!!

هو تزوجها ليكسرها...

وكل يوم يمر عليهما تشعر أنه حقاً قد بدأ ينجح!!!

أسندت جبهتها على كفها للحظات...

ثم نظرت إليه وهي تهز رأسها قائلة :

_متى سينتهي هذا الأمر؟!!! متى ستشعر أنك اكتفيت من انتقامك؟!!

أطرق برأسه مخفياً عنها حديث عينيه ...

ما أشبهها الآن بطفلة وحيدة عاجزة...!!!!

نعم...هذه التي تدعي القوة والصلابة....

ليست أكثر من شجرة عارية في طريق مقفر...!!!

وحيدة تماماً...

لقد صدقت يوم أخبرته أنها امرأة لم يعد لديها ما تخسره!!!!

كم يود الآن لو يضمها لصدره فيمحو عنها هذا الشعور بالوحدة...

فيقسم لها أنه لم يعد يكترث بهذا الانتقام المزعوم....

وأنه أبداً لن يتركها...

لكن...

هل هذا ما يريده هو حقاً؟!!!

نعم...

نعم...الآن يدرك أنه بحق يريد هذا...!!!

لكن حتى لو كان هذا ما يريده...

فهي -قطعاً-لا تريده!!!!

لهذا قام من مكانه ليسحبها من كفها فيوقفها أمامه قائلاً بلهجة لا تقبل الجدل:

_زواجنا لن ينتهي يا أستاذة...أخبرتكِ أن ما أمتلكه يصير لي للأبد.

ابتسمت في سخرية لم تُخفِ مرارتها وهي تهمس بنبرات مختنقة:

_وهل امتلكتني حقاً؟!!

ترك كفها من كفه ليحيط وجهها براحتيه ...

ثم نظر لعينيها هامساً :

_الآن بيني وبينك خيط رفيع...يشتد سمكه يوماً بعد يوم...الأمر فقط يحتاج لوقت...ويحتاج لصبر...وأنا لا أفتقد كليهما.

دمعت عيناها وهي تشعر بمزيد من العجز...

هل هو محق؟!!!

أي خيطٍ هذا الذي يتحدث عنه...؟!!!!

ليتها تراه مثله فتقطعه...!!!

هي لا تريده...

بل لا تريد الحياة نفسها...

يالله!!!

متى سينتهي هذا الكابوس؟!!!

لمح دموع العجز التي تترك دوماً سهامها في قلبه...

فأسند رأسها على صدره ثم قبل رأسها هامساً:

_غداً...عندما يمر العمر بنا...ستدركين أن كلاً منا كان طوق نجاة للآخر.

وفي عصر نفس اليوم....

كان جالساً مع جاسم الصاوي وبعض رجال الأعمال الكبار في غداء عمل بأحد المطاعم....

يكاد يموت من فرط الإرهاق...

ثلاثة أيام لم يذق فيها ساعتي نومٍ متصلتين...

إن لم يكن بسبب الإرهاق والسفر...

فبسبب "الأستاذة" !!!!

نعم...هذه الساحرة البندقية التي تتملك روحه وعقله يوماً بعد يوم...

فلا يستطيع الفكاك من سحرها -الغادر-الذي ترك أثره على قلبه...

ربما حتى دون أن تقصد هي!!!

مال عليه والده ليهمس في أذنه:

_ماذا بك؟!! تبدو شارداً عن الجميع.

وجه إليه نظرة اعتذارٍ ثم تنحنح ليعاود الاندماج مع الحضور....

ومناقشة تفاصيل عملهم الجديدة...

حتى أنهوا حديثهم وبدأوا في تناول الطعام...

امتدت أنامله لهاتفه ببطء عندما وصله صوت رسالة منها...

فراقب الجميع بحذر...

ثم قرأ رسالتها بسرعة:

_أنا في مطعم(........) سأتناول وجبة سريعة قبل عودتي للمكتب.

ابتسم للمفارقة فقد ذكرت اسم نفس المطعم الذي هو فيه الآن....

كان جالساً معهم في أحد قاعات المطعم المغلقة بحيث لا يمكن لمن بخارجها رؤيتهم...

و المحاطة بزجاج عاكس حيث يمكنه هو مشاهدة من بالخارج ....

فدار ببصره يترقب وجوه رواد المطعم...

حتى لمحها هناك بعيداً في مائدة منزوية تتناول طعامها بشرود كعادتها...

اتسعت ابتسامته الحانية وهو يتمنى لو يترك هذا الجمع الآن ويتوجه إليها هي...

يشاكسها كعادته متلذذاً بوهج البندق في عينيها....

والتمعت عيناه بشغف وهو يتذكر شكلها صباحاً بثوبها العسليّ....

الذي أثار جنونه....!!!!

مقارناً بينه وبين قميصها الأسود المتحفظ الطويل الذي ترتديه الآن...

ابتسم ابتسامة عابثة وهو يكتب لها رسالة:

_الأسود لا يليق بكِ...أنتِ امرأةٌ خُلقت للألوان!!!!

اتسعت ابتسامته العابثة وهو يراقب تعابير وجهها عندما قرأت رسالته....

كيف ارتسمت الدهشة على ملامحها وهي تتلفت حولها بتفحص عاجزة عن رؤيته مكانه...

ثم وصلته رسالتها بعدها:

_كيف عرفتَ أنني أرتدي الأسود؟!!!

_اترك هاتفك هذا وانتبه لنا!!

همس بها جاسم في أذنه من جديد وهو يرمقه بنظرة زاجرة...

فأعاد هاتفه قسراً إلى جيبه وهو يعيد الاندماج مع الجمع المتحاور...

دون أن تغيب عن عينيه المراقبتين لها...

حتى اضطر للالتفات نحو أحد محدثيه وهو يناقشه في أمرٍ هام جذب تركيزه بالكامل لبضع دقائق....

وما إن عاد يلتفت نحوها...

حتى وجد رجلاً غريباً يجالسها علي الطاولة!!!!!

اشتعلت عيناه بغضب مكتوم...

وهو يكاد يندفع نحوهما لولا خشيته من أن ينتبه والده للأمر...

ظل يراقبهما للحظات حتى سمع صوت والده يهتف بلهجة دبلوماسية:

_هكذا يمكننا القول....مباركٌ لنا المشروع الجديد.

تشتت انتباهه عنها عندما وقف الجميع يصافحونه هو وأباه....

ولم يكد يعود ببصره إليها هي وذاك الرجل...

حتى وجدهما قد اختفيا!!!!!

جنّ جنونه وهو يعتذر من والده للخروج لأمر طارئ...

ثم ترك المطعم متعجلاٌ يبحث عن سيارتها لكنه لم يجدها...

تناول هاتفه بسرعة ليتصل بها...

ولم يكد يسمع صوتها حتى هتف بغضب :

_أين أنتِ الآن؟!!!

وصله صوتها مرتبكاً رغم قوته وهي تقول باقتضاب:

_عائدة للمكتب.

كز علي أسنانه وهو يقول بحزم قاسٍ:

_لا تعودي إلى المكتب....أخبريني أين أنتِ الآن بالضبط وتوقفي مكانك حتى آتيكِ!!!

ذكرت له مكانها بنبرة ساخطة....

ثم زفرت زفرة حانقة وصوتها يأتيه مشبعاً بغضبها:

_حسناً أيها السيد!!! أي أوامر أخري؟!!!

أغلق الاتصال بعنف دون أن يجيبها وهو ينطلق بسيارته نحو المكان الذي وصفته حتى وصل إليها...

ولم تكد تغادر سيارتها وتركب جواره حتى هتفت بحدة:

_ألن تكف عن هذا الجنون؟!!! ما سرّ هذا التصرف الأحمق؟!!!

لم يرد عليها...

بل تشنجت عضلة فكه وهو يحاول تمالك غضبه حتى لا ينفجر في وجهها الآن...

فأشاحت هي الأخري بوجهها وهي تزفر بقوة هاتفة بسخط:

_إلى أين سنذهب؟!!!

لم يرد عليها أيضاً هذه المرة وهو يحاول كظم غيظه قدر المستطاع...

هذه هي المرأة الوحيدة التي يتملكه وحش الغيرة في كل ما يخصها...

لو كان الأمر بيده لبنى لها سجناً في ضلوعه لا يراها فيه سواه!!!

بينما عجزت هي عن أن تنال رداً فزفرت مرة أخري ...

ثم عادت تتسلح بقناع برودها من جديد....

وهي -الأخرى -تحاول كظم غيظها لأبعد حد...

حتى تمضي في مخططها -السابق-معه...

برودها هو حصنها الأخير معه...

لعله يسأم هذه اللعبة المملة!!!

وصلا إلى منزلهما وكلاهما متشحٌ بصمته...

حتى أغلق هو باب المنزل لينهار قناع تماسكه فجأة وهو يمسك ذراعها هاتفاً بحدة:

_من هذا الرجل الذي كان يجالسكِ في المطعم؟!!!

انعقد حاجباها بدهشة للحظة...

ثم تحولت لهجتها لسخرية غاضبة وهي تهتف بدورها:

_هل تراقبني يا ابن الصاوي؟!!!

ازداد ضغطه على ذراعها وهو يرمقها بنظرات عاصفة...

فعادت تهتف بانفعال:

_إنه أحد العملاء التقيتُه صدفة هناك...كان يسألني عن شيءٍ بخصوص قضيّته...ثم...

قطعت عبارتها وهي تسحب ذراعها من قبضته لتشتعل نبراتها أكثر:

_لكن لماذا أبرر لك أساساً؟!!! هل أصبح شرفي الآن محل شبهة يا ابن الصاوي؟!!! وممن؟!!! منك أنت يا عديم الشرف؟!!!!

لم تكد تهتف بعبارتها الأخيرة حتى تجمدت ملامحها فجأة وهي تشعر أنها قد تجاوزت حدودها...

خاصة عندما أغلق هو عينيه بقوة للحظات ....

قبل أن يفتحهما لتعكس له مراياها البندقية صورةً من ندم!!!!

ولعل هذا هو ما أنقذها مما كان ينتويه بها!!!

فأشاح بوجهه ثم تركها ذاهباً لغرفته دون كلمة أخري!!!!

راقبت ظهره المنصرف في حيرة حتى اختفى عن ناظريها...

فتوجهت نحو الأريكة لتجلس عليها وهي تهز رأسها بعجز...

ما الذي يجري هنا؟!!!

أي مهزلةٍ هذه؟!!!!

وأي مسرحية؟!!!!

حياتها التي ظنتها قد تخضبت بالسواد بعد حسن...

تراها اليوم صارت أكثر سواداً!!!

وهذا الرجل الغريب الذي هبط على أراضيها فجأة ...

ليقطع كل خيوط تماسكها الواهية...

فتجد نفسها معه بلا هوية!!!!

وكيف تفعل؟!!

وهو يبدل أقنعته يوماً بعد يوم...

تارة هو حنون متفهم يربت على جروح روحها بلينٍ مسيطر...

وتارة هو غاضب كبهر هائج تتقاذفها أمواجه...

وهي وسط كل هذا تجاهد لتحافظ علي تماسكها المزعوم أمامه...

لأنها لا تريد كل هذا...

لا تريد الاستسلام لسمّ حنانه الخطير الذي يتسلل عبر أوردتها لتدمنه خلاياها كلها ببطء شديد....

لهذا ستقاومه بكل ما أوتيت من قوة...

وبكل ما تحمله نحوه من نفور!!!

لكنها مع كل هذا تشعر ببعض الندم على ما تفوهت به منذ قليل...

الألم الذي اكتسح ملامحه عندما أهانته عبارتها كان أقوى من أن تتجاهله!!!

ازدردت ريقها ببطء وهي تمد رأسها تتطلع نحو غرفته بترقب...

ثم زفرت زفرة قصيرة ونفسها تحدثها باعتذار!!!

اعتذار؟!!!!!

اعتذار لابن الصاوي؟!!!!!!!!!

عقدت حاجبيها بشدة وهي تشيح بوجهها هامسة لنفسها بقوة:

_أبداً..!!!!

ثم عاودها عنادها الأصيل وهي تتناول "ريموت" التلفاز فتشغله بصوت عالٍ متظاهرة باللامبالاة...

ثم نزعت عنها حجاب رأسها بحركة عنيفة لتلقيه جوارها بعصبية واضحة.....!!!!

وفي غرفته جلس هو على طرف فراشه ينظر لباب الغرفة بترقب...

رغم الألم الذي شعر به من إهانتها له...

لكن ما قرأه من ندمٍ في عينيها بعدها قد شفع لها عنده...

لا بأس!!

هو يعرف أن طريقه معها طويل...

لكنه يستعذب خطواته كلها...

لا...ليست غريزة التحدي ولا رغبةً في استكشاف جديدها...

بل تعلقاً حقيقياً بها هي...

هي التي يزداد يقينه يوماً بعد يوم أنه ....

يحبها؟!!!!

معقول؟!!!

نفض عن رأسه هذا الخاطر -المزعج-عندما سمع صوت التلفاز الذي شغلته هي بالخارج ليبتسم بجذل...

ساحرته البندقية تشاكسه...!!!!

تتظاهر باللامبالاة ولا تدري أنه صار يفهمها حقاً....!!!

لهذا قام من مكانه ليخرج إليها مقاوماً شعوره بالإرهاق الشديد والذي يتملكه منذ الصباح...

اختلست نظرة مترقبة نحوه وهي تشعر بالاضطراب...

عندما شعرت به يجلس جوارها ليمد ذراعه محيطاً به كتفيها وهو يدير وجهها إليه -قهراً -ليحتل نظراتها البندقية أسوأ احتلال وهو يقول بنبرته الرخيمة:

_تعتذرين أنتِ أم أعتذر أنا؟!!!!

ارتعشت حدقتاها وهي غارقة في حيرتها وارتباكها...

لا تدري لأول مرة معه بماذا ترد...!!!!

لم تتوقع أبداً أن يكون هذا رد فعله على إهانتها...!!!

لهذا أسبلت جفنيها بخجل يناقض قوة عبارتها التالية:

_وهل أخطأتُ أنا كي أعتذر؟!

ابتسم رغماً عنه وقد بدت له في هذه اللحظة كطفلة عنيدة مكابرة....

فرفع ذقنها إليه هامساً بحنان صادق مس قلبها رغماً عنها:

_حتى لو فعلتِ...أنا أسامحك!

أغمضت عينيها بقوة عن فيوض مشاعره التي كانت تجرف في تيارها كل حصون مقاومتها الواهية...

عندما سمعته يردف بنفس الحنان:

_لا أريد أن أنام وأحدنا غاضبٌ من صاحبه!!

فتحت عينيها لتشيح بوجهها قائلة ببرود:

_لستُ غاضبة...لو كنتَ أنتَ غاضباً فهذا شأنك.

اتسعت ابتسامته الحنون وهو يتفهم مكابرتها الواهية وبرودها المشتعل....

ثم فك ذراعه من على كتفيها ليتمدد جوارها على الأريكة مسنداً رأسه على ساقيها وهو يهمس بإرهاق حقيقي:

_ألا تتشدقين دوماً بأنكِ أكبر مني سناً..؟؟!!!!.اعتبريني الآن ابنك ..!

ثم تأوه بحرارة هامساً بصوت منهك:

_ابنكِ المُرهَق جداً...لم أنم منذ فترة طويلة.

ثم تناول كفها ليضعه -قسراً-على وجنته ويحتضنه هامساً بخفوت:

_ابقيْ هكذا فقط حتى أنام.

قالها وهو يغمض عينيه مستسلماً لتعبه الواضح...

وكذلك كانت هي مستسلمة لشعورها الغريب به في هذه اللحظة...

ملامحه الآن تبدو لها مختلفة...

بعيدة عن عبثه ومكره...

وغضبه وحدته...

وحتى عن حنانه وتفهمه!!!

ملامحه الآن وقد رسم التعب عليها ألف خط...

بدت لها كملامح طفلٍ غلبته شقاوته طوال النهار حتى استكان آخر الليل نائماً في حِجر أمه...

صمت للحظات طويلة حتى ظننت أنه قد نام....

ثم وصلها صوته الهامس كالهذيان وهو بين اليقظة والنوم يداعب أوتار روحها بصدقه:

_متعبٌ أنا ...متعَبٌ جداً...ليس اليوم فقط...بل...منذ سنوات...

عضت على شفتها بقوة تتمالك تأثرها من هذيانه الناعس...

عندما أردف بعدها بخفوت شديد:

_لو كانت مثلك...لما قتلتها!!!

اتسعت عيناها في ارتياع وهي تستمع لعبارته الأخيرة...

لتهمس بعدها بدهشة:

_قتلتها؟!!! من هذه التي قتلتها؟!!!!

لم يصلها رد سوى صوت أنفاسه التي انتظمت ببطء لتدرك أنه قد نام أخيراً...

ظلت تتأمل ملامحه للحظات بصدمة...

هل كان يهذي؟!!!

أم أنه حقاً قد قتل امرأة؟!!!!

ظلت غارقة في حيرتها للحظات...

قبل أن تنفض عنها أفكارها بعجز وهي تطمئن نفسها بأن كل هذا هراء...

لابد أنه لم يكن يعني ما يقول!!!

شردت بأفكارها التي استعمرها هو من جديد ....

لتغافلها أناملها المحتضنة لوجنته فتربت على وجهه برفق....

شهقت بخفوت وهي تفيق من شرودها لتنتبه -أخيراً-لما تفعله...!!!!!

فازدردت ريقها ببطء وأناملها تتلمس ندبته التي تسببت هي بها على ذقنه...

والتي زعم أنه لن يعالجها حتى يثأر منها...

أتراه حقاً قد فعل؟!!!!!

سحبت كفها ببطء من كفه كي لا توقظه....

ثم عقدت ساعديها على صدرها كي لا تغافلها أناملها من جديد...

مُقاوِمةً رغبتها في تخلل خصلات شعره بأناملها...!!

أعادت رأسها إلى الخلف مستسلمة للنوم جالسة في هذا الوضع...

تخشى عليه من فرط ما أحسته من إرهاقه...

أن تقوم من مكانها فتوقظه!!!!!

لكنه استيقظ بعدها بوقتٍ ما...

ليتلفت حوله بدهشة ثم يرفع عينيه لرأسها المستلقي علي الأريكة ...

حيث غلبها النوم في هذا الوضع...

رفع رأسه عن ساقيها وهو يبتسم بحنان...

لقد تركته ينام هكذا ولم تحاول دفعه بعيداً هذه المرة...

وهذه خطوة جيدة تعني له الكثير في طريقهما الطويل الذي ينتوي إكماله معها....

قام من على الأريكة ثم ربت على وجنتها برفق ليوقظها...

لكنها كانت مستغرقة تماماً في النوم كعادتها ...

وهذا من مميزاتها التي يراها في حالتهما الغريبة هذه...

"نومها الثقيل"!!!!

فاتسعت ابتسامته وهو يحملها بين ذراعيه ليسير بها برفق حتى وضعها على فراشها...

عندها فتحت عينيها بدهشة للحظة ثم عاد النوم يغلبها...

فتثاقل جفناها لتغمضهما من جديد!

بينما زفر هو زفرة قصيرة وهو يرفع رأسه لأعلي مقاوماً إحساسه الحار بها الآن...

ليهمس لنفسه بحزم:

_الصبر يا ابن الصاوي....الصبر...لا يزال الطريق طويلاً....

==========

الفصل العاشر:

_كل عام وأنت بخير يا ميدا.

هتف بها عزيز ببعض التحفظ وهو يصافحها في منزل والدتها حيث أقامت حفل عيد ميلادها...

فابتسمت بطريقتها العملية لتقول ببساطة:

_لا داعي للتهنئة...أنا لا أعرف لماذا يحتفل الناس بأعياد ميلادهم...من الأولَي أن أحزن لأن عاماً من عمري ذهب ولن يعود.

هز رأسه وهو يقول بشبه ابتسامة:

_لا فائدة!!أفكارك الغريبة دوماً مثيرة للجدل.

اتسعت ابتسامتها وهي تميل رأسها هامسة بدلال:

_لكن لا تنكر أنها دوماً صائبة!!!

عاد يهز رأسه وهو ينظر لعينيها هامساً بشرود:

_ما عدتُ أعرف مقياساً حقيقياً للصواب والخطأ.

اقتربت منه خطوة لتحيطه بهالتها السحرية المميزة وهي تقول ببطء واثق:

_لأن بوصلتك فاسدة...مؤشرها ثابتٌ في اتجاه واحد لا يتغير....نعم...قلبك أيها الشاعر ليس هو الدليل في عالمٍ كهذا.

رفع رأسه لأعلى للحظات...

ثم قال بضيق:

_هذا الجو الصاخب لا يناسبني...عودي لضيوفك...وسأذهب أنا إلى شرفة الحديقة الخارجية.

قالها وهو يعطيها ظهره ليتوجه نحو الشرفة حيث احتلّ القمر عينيه لدقائق طويلة...

طالما كان القمر يذكّره بماسته...

خاصة هذه الليلة...

وقد بدا في وضع الهلال كأنه منكسر!!

وكذلك ماسته الآن في غربتها التي لا يعرف عنها شيئاً...

لكنه موقنٌ من أنها تتألم دونه!!!

طالما حدثته نفسه بأنه لا يستحقها...

وبأنه كان أضعف من أن يحافظ على حبها له...

لكنه ما عاد يعرف سبيلاً للتراجع...

لقد اختارت ماسة طريق الفراق لهما معاً...

وليس بوسعه إلا أن يسير فيه!!!

ربما لو عادت...

لو سمحت له أن يطرق بابها من جديد...

فلن يتركها أبداً !!!

قطعت أفكاره وهي تهمس خلفه بدلالها المعهود:

_هل تسمح لي برفقتك ؟!

تنهد في حرارة ثم همس بفتور:

_يسعدني هذا...لكن لا داعي لتتركي ضيوفك.

سارت بضع خطوات حتى وقفت قبالته لتقول بابتسامتها الواثقة:

_أظن أنك تحتاجني أكثر منهم...

ابتسم وهو ينظر إليها هامساً بتعجب:

_أنا أحتاجك؟!

التمعت عيناها ببريق ثقتها المعهود وهي تقول:

_لقد قرأت خاطرتك الأخيرة ورغم أنني لا أحب هذا النوع من الشعر ولا تستهويني أفكاره...لكن آخر بيتٍ فيها قد لفت نظري.

ضاقت عيناه وهو يتأملها بتفحص...

فتلاعبت أناملها بهاتفها الذي تحمله حتى وصلت لصفحة مدوّنته...

وبدأت في قراءة خاطرته الأخيرة بصوت مسموع:

ويوم افترقنا...

تناسيتُ اسمي...

تناسيتُ قلبي...

تناسيتُ ما كان ينبض فيه...

تناسيتُ عمراً بحبك أضحى..

حصن الأمان الذي أبتغيه...

وأصبحتُ صنماً بلا أغنياتٍ...

بلا أمنياتٍ...

وسخطت على القلب لياليه...

أُسائل يا قلبي...

متى ستصحو...

فألقي القناع الذي أرتديه؟!!!

وأسأل يا صبحُ...

متى ستطلع...

لتكشف ظلمة ما أرتئيه...؟!!

لكن قلبي ...

قد تاه مني...

ما عدتُ أعرف ما يبتغيه...

والصبح ما عاد بعدكِ صبحي...

أضحي رماداً...

بلون الغيوم.....

وضلّت عن الكون أغانيه...

والفرح بعدكِ نجمٌ عنيد...

بعيدٌ عني...

بعيدٌ عني...

بعيدٌ عني...

فما يُدنيه؟!!!

وكم مرّ يا عمري منذ افترقنا...

ولازال قلبي ذاك الشريد...

يموت...

فتُحييه ذكرى منكِ...

يصحو...

ويموت من جديد...

فأسأل يا قلب...

لازلتَ تعشق؟!!!

فيقول حقاً إني أسيرٌ...

والعشق قيدٌ من حديد...

أذوب اشتياقاً لعهدٍ مضي...

فمن ذا يذيب جبال الجليد؟!!!

أريد الخلاص من الأسر لكن..

حنايا الفؤاد لا تستجيب...

أريد افتراقاً...

أم أريد لقاءً...

ماعدتُ أعرف ماذا أريد!!!

انتهت من قراءتها لتعيد عبارته الأخيرة بلهجة ذات مغزي:

_ما عدتُ أعرف ماذا أريد.

ثم رفعت رأسها إليه قائلة بنبرة مؤكدة:

_لهذا تحتاجني أيها الشاعر...لأنك حقاً لا تعرف ماذا تريد.

أشاح بوجهه في ضيق وهو يزفر بقوة...

لماذا فعلت هذا؟!!!

لماذا قرأت خاطرته بصوتها؟!!!

لماذا أقحمت نفسها بينه وبين ماسته؟!!!

ولو قرأ ما برأسها لعلم أن هذا -بالضبط-ما كانت تريده!!!!

نعم...

أول خطوة لتحتل عقله أن تنتزع منه وهم حبه القديم أولاً...

ولن يكون هذا إلا لو استغلت ثغرات الظروف لتستبدل صورة حبيبته القديمة بصورتها...

لا...لن يحدث هذا في يوم وليلة...

بل ...رويداً رويداً...

حتى يبتلع الشاعر طُعم اصطياده كاملاً...

وبعدها ....!!!!!

تألقت ابتسامة قاسية على شفتيها الجميلتين عندما أكمل لها عقلها فكرتها....

ثم عادت تقول بنبرة انتصار واضحة:

_صدقني يا عزيز...عندما يخذلك اختيار القلب..فلن تجد سوى اختيار العقل كي يؤازرك!!!

===========

_كُلي يا دعاء...لا تخجلي يا حبيبتي...البيت بيتك.

هتفت بها والدته في ودٍ ظاهر وهي تربت على كتفها...

فابتسمت لها دعاء برقة....

لكن ابتسامتها ماتت على شفتيها عندما هتف هو بلهجته القاسية:

_لا تفرطي في تناول الطعام...حتى لا يزداد وزنك أكثر.

أطرقت دعاء برأسها في خزي مستسلمة لفظاظته كعادتها...

هي تعلم أن جسدها ممتلئُ بعض الشئ...

لكنه متناسق ...

مرسومٌ بلا إفراط...

بل إن الكثيرات من رفيقاتها يحسدنها على قوامها -المثير-على حد تعبيرهنّ...!!!!

لكن يبدو أن هذا ليس رأي "سيادة الرائد"!!!

رمقته والدته بنظرة عاتبة...

ثم عادت تربت على كتفها قائلة بطيبتها الواضحة:

_أنتِ رائعةٌ هكذا...قوامك مثاليّ!!

لم تستطع حتى رفع رأسها للمرأة مع كل هذه المرارة التي كانت تشعر بها في أعماقها...

لكنها تمالكت نفسها بعد لحظات...

لترتدي قناع مرحها المصطنع كعادتها هاتفة :

_سيادة الرائد يبدو بخيلاً يا عمتى....هو يقول هذا فقط ليوفّر لكِ الطعام.

ضحكت والدته وهي ترمقها بنظراتٍ عطوف ...

ثم غمغمت بحنان:

_كمّلكِ الله بعقلكِ يا ابنتي...لا تتصورين كم أحبك.

ابتسمت لها دعاء بود ظاهر وهي تتحاشى النظر إليه كعادتها...

أما هو فقد كان يتأملها بنظراتٍ متفحصة...

وابتسامة إعجاب خفيفة تداعب جانب شفتيه متحالفةً مع نظرات عينيه اللامعتين !!!!

لكنها تجنبت الحديث معه بعدها تماماً وهي تتظاهر بالانشغال مع والدته في جمع الأطباق ...

ثم قامت لتغسلها بنفسها مع اعتراض والدته الشديد...

لكنها كانت تريد الهرب من صحبته بأي طريقة...

استأذنتها والدته لتصلي فشردت أفكارها في حالها الجديد....

كانت قد أنهت عملها كالمعتاد بعد العصر...

عندما فوجئت به أمامها في المكتب يخبرها أنها ستتناول غداءها معه هو ووالدته اليوم بعدما استأذن والدها...

ورغم ما تشعر به من سوء في ظل صحبته المنفرة...

لكنها لا تنكر أنها كانت تشعر ببعض الرضا...

خاصة عندما فتح لها باب سيارته أمام زميلاتها بمنتهى الذوق...

ثم انطلق بها تحت نظراتهنّ المُعجبة...

نعم...حسام بوسامته وواجهته الاجتماعية وأسلوبه الأنيق الذي يحرص على معاملتها به أمام الآخرين هو حقاً كان حلماً بالنسبة إليها...

لكنها عندما تختلي به لتحترق بنيران قسوته وتسلطه تدرك حقاً أن حياتها معه ستكون مسلسلاً طويلاً من الألم...!!!

كانت تغسل آخر طبق في يدها وهي تتأهب لأن تخرج وتستأذنهما في الانصراف...

فقد كانت حقاً كارهة لوجودها هنا...

لكنها فوجئت به خلفها تماماً يحيطها بذراعيه دون أن يتحدث إليها....

بل تناول الطبق منها ليغسله بنفسه دون أن يفلتها من بين ذراعيه...!!!!

كانت والدته لاتزال في غرفتها تصلي...

وهذا يعني أنها الآن هنا معه وحدها....

خفق قلبها بقوة مع ارتجافة جسدها وهو يلتصق بها بهذه الطريقة...

لكنها لم تجرؤ على الاعتراض!!!

للحظاتٍ مرت وكأنها دهور...

حتى رفع الطبق مكانه ...

ثم جفف يديه بمنشفة قريبة ولازال يحتجزها مكانها....

ليتناول كفيها بعدها فيجففهما تحت نظراتها المرتبكة....

ثم أدار كتفيها نحوه لينظر لعينيها هامساً ببطء:

_هل ضايقتك كلماتي ؟!!!

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تخفض بصرها عنه هرباً من نظراته الكاسحة...

لتهز رأسها بلا معني...

فرفع ذقنها إليه هامساً بلهجة مسيطرة:

_يجب أن تحافظي على مظهرك لأنه جزء من مظهري أنا.

تفجر شلال مرارتها كله ليغرقها معه وهي تهمس بألم:

_وما دمتَ مهتماً بالمظاهر إلى هذه الدرجة فلماذا اخترتَ واحدة مثلي؟!!! مادمتُ أنا لا أعجبك فلماذا تقدمتَ لخطبتي؟!!!

ضاقت عيناه في تفحص...

عندما سالت دموعها على وجهها رغماً عنها وهي تردف بنفس الألم:

_لماذا تتجاهل رأيي وكأنني مجرد ظلٍ لك؟!!!!....ولماذا تصرّ دوماً على انتقادي بهذه الصورة ؟!!!

نظر إلى عينيها نظرة طويلة لم تفهمها...

ثم مسح دموعها بأنامله هامساً بلهجة غريبة:

_من قال أنكِ لا تُعجبينني؟!!!

خفق قلبها بقوة مع لمساته...

عندما أردف هو بنفس النبرة الرخيمة:

_عيناكِ رائعتان حقاً...واسعتان كمحيطٍ بلا نهاية تتوه فيه العيون .

ازداد ارتباكها ولمساته تنتقل إلى شفتيها متزامنة مع همساته الحارة:

_وشفتاكِ تتألقان في ضحكتهما في دعوة صريحة ل...

احمرت وجنتاها حد الاشتعال....

عندما قطع عبارته ليقترب بشفتيه من شفتيها فشهقت بعنف وهي تضع كفها على شفتيه مبتعدةً بوجهها عنه...

قبل أن تهتف بانفعال:

_لا!!

اشتعلت عيناه ببريق خاطف وهو يمسك كفها الذي كان على شفتيه بقوة هامساً بحزم:

_إياكِ أن تقولي "لا" هذه مرة أخري أمامي...هل تفهمين؟!!!

اختنقت أنفاسها في صدرها وهي تهمس بأنفاس متقطعة:

_هذا لا يليق يا حسام...نحن لازلنا في فترة الخطوبة...ليس من حقك أن...

قطع عبارتها بابتسامته القاسية وهو يهمس بسخرية:

_هل هذا ما تسعين إليه إذن؟!!! أن نعجّل بعقد القران؟!!!!

اتسعت عيناها بصدمة من عبارته....

عندما أردف بقسوة أشد:

_تخافين أن تضيع منكِ فرصة كهذه...زوجٌ مثلي لفتاة في ظروفك مكسبٌ ثمين...صحيح؟!

في هذه اللحظة انقلبت كل شلالات مرارتها وخوفها إلى براكين من غضب لم تعرفه من قبل....

غضب أسود قاتم لم تكن ترى سواه...

ومشاهد متفرقة من حياتها تغزو مخيلتها بقوة....

مرضها الذي طالما كان يضعها في مواقف محرجةٍ في طفولتها بين رفيقاتها...

والذي تحول بمرور الوقت لقيد ثقيل يوثق أحلامها كلها....

وعندما ظنت أن قيودها قد انحلّت جميعها ورضت بحكم القدر في هذه الزيجة....

فوجئت أنها هربت من النار لتلقي بنفسها في الجحيم!!!!!

ومع كل ما يملؤها الآن من سخط وغضب....

لم تشعر بنفسها وهي تدفعه بقوة....

لتنتزع بعدها دبلته من إصبعها وتضعها بعنف على طاولة المطبخ هاتفة بحدة مشتعلة:

_احتفظ بمكسبك الثمين لنفسك....ودعني لعيبي يا سيادة الرائد!!!

==========

استيقظت من النوم على صراخها كالعادة ....

فأخفت رأسها بين كفيها وهي عاجزة عن السيطرة على أنفاسها اللاهثة...

تناولت بخاخها من على الكومود جوارها لعلها تجد خفقات قلبها الهاربة...

ثم وضعت كفها على صدرها عاجزة عن منع دموعها المنهمرة كالسيل...

متى ستنتهي هذه الكوابيس؟!!!!

متى سيمكنها النوم دون هواجس؟!!!

التفتت إلى باب الغرفة الذي فتحه ليدخل...

فالتقت نظراتهما في مزيج عجيب...

بحار فضتها كانت عكرة هذه المرة...

يعلوها زبدٌ من الذعر والقلق والألم الذي لم تستطع إخفاءه....

هو أيضاً غابات زيتونه كانت مختلفة الآن...

لم تكن مشتعلة كعادتها...

بل كانت ساكنة هادئة رفيقة كأنها تتمايل مع النسيم!!!

اقترب منها ببطء ليسألها السؤال الذي يعرف إجابته:

_كوابيسك ؟!

أطرقت برأسها دون أن تملك حتى القدرة على الرد...

فمد لها كفه قائلاً:

_تعاليْ.

ظلت تنتظر إلى كفه الممدود للحظات لا تجرؤ على مد أناملها نحوه...

والعجيب أنه لم يستعجلها...

بل صبر عليها حتى ناولته كفها أخيراً بعد تردد...

لتسير معه وهي غافلة عن وجهتهما...

حتى توقف بها أمام غرفته!!!!

التفتت نحوه بدهشة وقد تذكرت حديثه عن أنه لا أحد يدخل غرفة عاصي الرفاعي ...

حتى حورية نفسها...

لتهمس بصوت متقطع من أثر البكاء:

_ألم تقل...؟!!

قاطعها بإشارة من كفه ثم فتح باب الغرفة ليدخلها ويغلق الباب خلفها....

نظرت إليه بخشية لازالت عالقة بدهشتها...

فالتقط أمواجها الفضية بين أوراق غاباته ليقول بنبرته المميزة:

_أنتِ أول من أتجاوز له عن دخول غرفتي!!

هربت من أسر عينيه لتتأمل الغرفة حولها بتفحص....

الغريب أنها لم تكن بفخامة باقي القصر...

كانت أقرب للبساطة ...

ولسبب ما لا تعرفه شعرت ببعض الراحة تتسرب إلى نفسها عندما دخلتها...

يبدو أن عاصي الرفاعي يجيد اختيار خلواته...

غرفته الخاصة وتلك التي في الحديقة تشي بذوق فريد...

ذوق من يعرف كيف يختلس راحته الناعمة من بين أنياب واقع قاسٍ!!!

كان كفها لازال في راحته فسار بها إلى الفراش العريض ...

ثم أزاح الأغطية ليقول لها بلهجة آمرة:

_عودي لنومك!

أطرقت برأسها للحظات...

شئٌ ما بداخلها يحذرها من تلبية أمره...

لا...لم يكن خجلاً...

هو وعدها ألا يمسها وهي -لسبب ما لا تعرفه - تثق بوعده!!

لكنه شعورها القديم بالرهبة منه ...

كيف تهرب من كوابيسها إلى غرفته هو؟!!!

الشيطان ؟!!!

الرجل الذي أجبرها على زيجة غريبة بظروف أغرب لا تكاد تعلم عنها شيئاً؟!!!

ومع هذا كانت تشعر الآن -مع كل الذعر الذي يملؤها- أن صحبته أهون من وحدتها بهواجسها على أي حال!!!!

لكنه فاجأها عندما أحاطها بذراعيه يحاول ضمها برفق لعله يطمئنها...

ففوجئ هو أكثر بردة فعلها العنيفة وهي تدفعه بقوة غريبة هاتفة دون وعي:

_ابتعدوا!!!!

عقد حاجبيه بضيق وهو يتأمل جسدها الذي كان ينتفض ...

وكلمتها تدوي في رأسه بفكرة خاطفة...

لقد قالت"ابتعدوا" وليس "ابتعد"!!!

ماسة لا تراه هو الآن بل تري مغتصبيها في صورته!!!

أعطته ظهرها للحظات تستعيد بعض تماسكها...

ثم قالت له بكلمات متقطعة دون أن تنظر إلىه:

_لا أحب أن يقترب مني أحد هكذا.

ظل يتأمل ظهرها المرتجف بغضب للحظات...

لا...ليس غضباً منها...

بل من الأوغاد الذين فعلوها...!!!!

ضم قبضتيه بقوة حتى ابيضت مفاصله وقد قست نظراته كثيراً...

لتلتمع عيناه ببريق خاطف للحظات...

ثم اقترب منها قائلاً بخشونة لم يتعمدها:

_سأراعي هذا لاحقاً.

التفتت نحوه دون أن تجرؤ على النظر إليه هامسة بارتباك:

_الأفضل أن أذهب إلى غرفة الحديقة.

هز رأسه قائلاً بحزم:

_ستنامين هنا الليلة...وكل ليلة حتى تتخلصي من كوابيسك هذه.

رفعت عينيها إليه أخيراً بحيرة تمتزج بخوفها...

فصمت بصبر وهو يأسرها بنظراته من جديد...

لكنها هذه المرة كانت مختلفة...

كانت تحمل وعداً بالأمان...!

وعداً تلقته عيناها وصدقته روحها واطمأن إليه قلبها...

نعم...قلب الماسة الذي لم يخذلها أبداً!!

تحررت من قيود عينيه أخيراً...

فتوجهت بخطوات بطيئة نحو الفراش لتتمدد عليه ببطء ولازال جسدها يرتعش ارتعاشة خفيفة....

تدثرت بغطائها مغمضة عينيها بقوة وهي تتحاشي لقاء نظراته....

جلس جوارها على طرف الفراش ثم تناول كفها قائلاً برفق:

_احكي لي ماذا ترين في كوابيسك؟!!

فتحت عينيها بذعر ثم هزت رأسها نفياً وقد عادت الدموع تنهمر من عينيها...

فأومأ برأسه في تفهم ثم قال بغموض:

_أول خطوة للتخلص منها هو أن تستطيعي الكلام عنها.

همست بصوت مبحوح:

_لا أستطيع!

ثم تعلقت بعينيه هامسة برجاء الغريق الذي يتعلق بقشة:

_أنت قلت أنك قد تخلصني منها.

أومأ برأسه قائلاً بثقة:

_نعم...سأفعل.

هزت رأسها بتساؤل...

لكنه لم يعقب ...فقط قال برفقه الغريب:

_دعينا الآن فقط نجرب شيئاً...أغمضي عينيكِ وتخيلي قرص الشمس في وسط النهار.

أغمضت عينيها وفعلت كما قال لتشعر ببعض السكينة ...

فعاد يردف بنفس اللهجة:

_تخيلي حقلاً من الورد تعدو به طفلة بفستان قصير لتشرب من جدول ماء عليه طائر يغرد.

ابتسمت ابتسامة شاحبة وسط خيطي الدموع اللذين انحدرا على خديها رغماً عنها ....

ودون أن تفتح عينيها همست بعفوية:

_لا أصدق أن السيد عاصي يقول هذا الكلام.

مست عفويتها قلبه بصدقها الملائكي ليزداد إشفاقه عليها.....

أخذته ابتسامتها الضعيفة والتي بدت وسط دموعها كشمس صغيرة تجاهد لتشرق بعد المطر.....!!!!!

كانت ابتسامتها رغم شحوبها تفتت أضعف جدران قلبه قسوة لتعبر من خلالها إليه...

فأخذ نفساً عميقاً ثم وضع سبابته على شفتيها قائلاً بحزم:

_انسي السيد عاصي...وانسي ماسة...لا تفكري سوى في الطفلة والجدول وحقل الورد...

عقدت حاجبيها للحظة تنفذ ما يقول....

لكنه كان صعباً...

في كل مرة كانت تحاول التركيز لكن المشهد الذي يحتل كوابيسها دوماً كان يعاند تخيلها....

عادت دموعها تسيل وهي تهمس بعجز:

_لا أستطيع.

تنهد في حرارة ثم قال بنفس الرفق الذي كانت تتعجبه كثيراً على طبعه القاسي:

_عندما كنتُ طفلاً كنت أحب الزراعة...يوماً ما زرعتُ نبتة مميزة لكن أحدهم نزعها بالخطأ من تربتها...غضبت كثيراً وظننتها قد ماتت ...لكنني لم أستسلم...زرعتها من جديد في تربة أخري ولحسن الحظ كانت محتفظة ببعض جذورها ...وظللت أرعاها يوماً بيوم حتى أنبتت من جديد...من وقتها تعلمت أن الموت والحياة يبدآن من عقولنا....نحن الذين نمنح الأشياء الحياة أو ندفعها للموت.

كانت لا تزال مغمضة عينيها تستمع إليه بشبه تركيز...

وقد بدأ النعاس يداعب جفنيها من جديد...

فهمست بخفوت:

_ماذا تقصد؟!

ضغط كفها في راحته ثم اتكأ على جانبه المجاور لها يداعب منابت شعرها بأنامله الحرة محاولاً الحفاظ على مسافة مناسبة كي لا يثير ذعرها من جديد....

ثم قال:

_ما حدث لم يكن ذنبك ...ولا يعيبك في شئ...لا تغذي رأسكِ بأفكار غير هذه....أنتِ لازلتِ ماسة ...ماسة حقيقية لن تؤثر على قيمتها أي خدوش.

كانت تسمعه وهي بين اليقظة والنوم...

وقد راقتها حركته المداعبة لمنابت شعرها ...

والتي جعلتها تستسلم للنوم أكثر وهي تشعر بأمان غريب...

خاصة عندما اقترب من أذنها هامساً بخفوت:

_نامي ولا تخافي....لن تلاحقك كوابيس في غرفة عاصي الرفاعي!

كان هذا آخر ما وعته منه قبل أن تستسلم لنعاسها من جديد...

بينما ظل هو يتأمل ملامحها بتفحص...

ولازال على مداعبته لشعرها وإحساس نحوها يتملكه لأول مرة...

لا...لم يكن يراها -امرأة -نائمة على فراشه....

بل كان يراها -طفلة -يتيمة مقهورة أحيت مشاعر الأبوة التي طالما تمناها طيلة هذه السنوات....

ورغم أنه كان دوماً يهفو لمولود ذكر...

لكنه الآن يشعر برغبة شديدة في مولودة تشبهها...

بعينيها الماسيتين الملتمعتين ببحار فضتها.....

ابتسم ابتسامة حقيقية...

وهو يتعجب من نفسه!!!!

لماذا هي بالذات استنفرت مشاعر أبوته؟!!!

ربما لفارق السن الكبير بينهما...

وربما لأنه يعرف ظروفها جيداً ويعرف قيمة معدنها الأصيل...

وربما لأنها تناقض ببراءتها ونقائها سواد هذا العالم الذي يحياه...

وربما لأنه حقاً يتمني لو يرزقه القدر بفتاة مثلها...

في مزيج قوتها وبراءتها الغريب...

الذي لم يرَه في امرأة من قبل...

نعم...قوتها التي يستشعرها حقيقية تنبع من داخلها ولا تدعيها...

قوتها التي جعلتها تهرب من رجل تعلم أنه يحبها وتحبه فقط لترد معروف المرأة التي ربتها...!

قوتها التي جعلتها تلجأ للاعتماد على نفسها...

والعمل في بلد لا تعرفه و هي واثقة من قدرتها على تخطي فضيحتها التي تناقلها الناس بلا ذنب منها ...

قوتها التي جعلتها تقف في وجهه هو وترفض زيجة تتمناها الكثيرات...

قوتها التي يثق أنها ستحملها لبر الأمان وهو سيكون معها!!!!

ورغماً عنه شعر برغبة خفية في فعل شئ لم يفعله يوماً مع أحد...

ولا حتى مع حورية...

لكنه سيفعله لأجل هذه البريئة كطفلة لكن قوتها تعادل عشرات الرجال...

ماذا فعل؟!

عاصي الرفاعي انحني برأسه ليقبل رأس امرأة لأول مرة في حياته!!!!!!!!

=========

أغلق راغب باب غرفتهما ليهمس بصوت متهدج:

_أخيراً يا رؤى!!!

قالها وهو غارق في تفاصيلها التي يعشقها...

عيناه كانت تطوفان على وجهها وجسدها الذي احتضنه ثوب زفافها بصورة مدهشة...

بدت فيه كما تمناها منذ أيام لم يعد يعلم عددها...

حورية من حوريات الحسن اللاتي كان يسمع عنهن في حكايات طفولته...

والآن يجد الواقع معها أجمل...

ما أشد ما يليق بها اسمها...

رؤى!!!

هي فعلاً أجمل من أن تكون حقيقة...

هي رؤىً لا يستشعر جمالها إلا من غاب عن وعي شعوره ....

ليدخل معها عالمها الخاص الذي لا يكون مع سواها...

رؤى من حب ونور تغزو الروح برقة لكنها تتملكها بقوة!!!!

أما هي فلم تستطع الشعور بكل اللهفة التي حملها صوته ....

وكيف تفعل مع كل هذا الرعب الذي كان يملؤها في هذه اللحظة....؟!!!!

قلبها الذي تلاحقت دقاته كان يخبرها أن هذه الليلة ستنتهي بكارثة..

اقترب منها ليمسك كتفيها هامساً بصوته الخشن:

_لماذا تنتفضين هكذا؟!لا تخافي!!

قالها وهو يشعر بجسدها يرتجف بشدة ...

عيناها دامعتان تدوران بلا هدف وكأنهما فقط تهربان منه....

شفتاها ترتعشان كأنها على وشك البكاء...

بل إنها بدأت في البكاء بالفعل!!!

ضمها إليه بقوة وهو يسألها بقلق:

_ما الأمر يا رؤى؟!!!هل أنتِ خائفة إلى هذه الدرجة؟!!!

ابتعدت بوجهها عنه ثم دفعته برفق لتهمس بصوت متقطع:

_هل من الممكن فقط...أن تسمعني...للنهاية؟!!

عقد حاجبيه بدهشة وهو لازال متعجباً من رد فعلها المتطرف...

هو يعرف أن الأمر قد تم بسرعة فلم يتجاوز ثلاثة أشهر...

هو كان متعجلاً لكنه كان جاهزاً -مادياً-لكل شئ...

وعبد الله لم يمانع!!!

لهذا تم الأمر بسرعة قياسية فهل هذا سبب ارتباكها هذا؟!

حافظ على مسافة مناسبة بينهما كي لا يزيد خوفها أكثر...

ثم قال بصبر:

_حسناً....أنا أسمعك...قولي ماذا تريدين!

تمالكت بعض قوتها ثم ذهبت إلى أحد الأدراج تستخرج منه هذه الورقة التي حصلت عليها من فهد الصاوي تلك الليلة بعد مغامرة جنة الخطيرة....

ثم عادت إليه تعطيها له بأنامل مرتجفة وقلبها يكاد يتوقف في أي وقت...

تناول منها الورقة بحذر ثم جرت عيناه على السطور بسرعة ...

ودون حتى أن يكمل قراءتها عاود النظر إليها وهو يهتف بصدمة تحولت بعدها لغضب هادر:

_زواج عرفي؟!!!!

تراجعت للخلف وهي تقول بخوف وسط دموعها:

_اسمعني فقط ...أرجوك.

اقترب منها ليمسك ساعديها ويهزها بعنف هاتفاً بجنون:

_هل خدعني شقيقك ؟!!!يظن أنه قد ورطني بهذه الزيجة؟!

هزت رأسها نفياً وهي تكاد تسقط أرضاً من فرط الانفعال لكنها قالت بنبرات مرتعشة:

_عبد الله لا يعرف...أقسم لك ...أنا التي...

قطعت عبارتها عندما هوت صفعته على وجهها لتسقطها أرضاً ...

لكنه عاد يرفعها إليه من جديد وهو يصرخ :

_سافلة...حقيرة.

كانت صفعاته تهوي على وجهها تباعاً لكنها لم تكن تقاوم...

ولا حتى كانت تصرخ...

كانت تكتم صرخاتها كما تعودت أن تكتم آلامها طوال الأيام السابقة...

لقد كانت تتوقع أن تكون هذه ليلتها الأخيرة...

كانت تعتبر هذا انتقام السماء على خطيئتها...

وتقبلته صابرة لعلها تتطهر من هذا الإثم!!!

لقد كان أملها الأخير أن يكون راغب أكثر تفهماً...

لكنه قطع هذا الأمل الأخير...

وهي لا تلومه...

أي رجل مكانه كان سيفعل مثله وربما أكثر!!!

وأمامها كان هو عاجزاً عن السيطرة على غضبه...

يداه كانتا تتحركان وكأنهما بإرادة مستقلة تبطشان بجسدها الذي كان مستسلماً لضرباته ...

استسلام من لم يعد لديه ما يفقده!!!

حتى أنه لم يتوقف عن صفعاته إلا عندما آلمته يداه....

فوجد نفسه يدفعها عنه فجأة بقوة حتى اصطدم رأسها بأحد قطع الأثاث...

لم تكن الصدمة قوية إلى هذا الحد...

لكن الدوار الذي احتل رأسها من هول صفعاته القاسية تشارك معها لتسقط مكانها فاقدة الوعي!!!

======

سقطت أمامه على الأرض فظل يتأملها بجمود للحظات وهو عاجز عن التصديق...

رؤى الرقيقة الملائكية فعلت هذا...؟!!!

حبيبته التي طالما سكنت أحلامه طوال هذه الأيام كانت يوماً لغيره...

كانت له بمجرد ورقة!!!!

وكأنها فتاة شوارع تزوج نفسها بنفسها مقابل لاشئ...؟!!!!!

رخيصة ...

رخيصة!!!!

اشتعل صدره عند هذه الفكرة فانحني على الأرض يعتصر رقبتها بيديه...

ليروعه مظهر وجهها الذي كان غارقاً في الدموع والدماء تسيل من شفتيها النازفتين...

ففك قبضتيه من حول رقبتها ببطء مغمضاً عينيه عن صورتها البائسة أمامه!!!

ثم صرخ صرخة عالية وهو يرفع وجهه إلى أعلى بقهر...

لم يدرِ كم مر عليه من وقت هكذا...

لكنه سمع جرس الباب يرن ...

لاريب أنها والدته تريد الاطمئنان على ابنها في ليلة العمر!!!

ابتسم بسخرية مريرة وهو يعاود النظر لجسدها المسجى على الأرض...

ثم تمالك نفسه ليقوم بسرعة ويبدل ملابسه كما ينبغي به...

قبل أن يخرج ليغلق باب غرفتهما خلفه...

توجه نحو باب الشقة ليفتحه فطالعه وجه أمه تقول بترقب:

_لا تؤاخذني يا بني...أنا سمعت صوت شئ يسقط...وبعدها هيئ إلىّ أنك تصرخ...لهذا جئت لأطمئن.

كانت شقته تعلو شقة والدته مباشرة ....

ومن الطبيعي أن تشعر بكل هذه الجلبة التي كانت هنا...

لكن يبدو أنها لم تسمع شيئاً لحسن الحظ!!!!

اغتصب ابتسامة باردة يعلم الله كم جاهد ليتصنعها وهو يقول باقتضاب:

_لا بأس يا أمي...لا تقلقي.

حاولت أن تبحث بعينيها وراءه عن أثر للعروس لكن باب غرفتهما كان مغلقاً...

فربتت على كتفه وهي ترتفع برأسها لتميل على أذنه هامسة:

_هل كل شئ على ما يرام؟!!

ظل صامتاً للحظات وهو يفكر بما تبقي له من عقل بعد صدمته ....

ثم أخذ قراره الذي رسا عليه أخيراً فأومأ برأسه وهو يقول بجمود:

_نعم يا أمي...كل شئ على ما يرام.

أطلقت والدته زغرودة قوية دمعت لها عيناه بقهر...

وما أقسى قهر الرجال!!!!

ثم تركته وهي تدعو له بالبركة فأغلق الباب خلفها برفق...

ثم عاد بخطوات بطيئة نحو الغرفة...

كانت لا تزال ملقية على الأرض كخرقة بالية...

تجمدت دماء جرحها على شفتيها وتورم وجهها كثيراً من أثر صفعاته ...

لكن شعوره بالغدر والاشمئزاز غلب عاطفته نحوها في هذه اللحظة...

فجلس على طرف الفراش يغض بصره عنها وكأنها لا تعنيه!!!!!

تركها مكانها لوقت لم يعد يدري قيمة حسابه في هذا الموقف العصيب...

حتى اخترق صوت ضميره جدران قسوة غضبه وهو يتذكر عبارتها التي قالتها الليلة:

_هل من الممكن فقط...أن تسمعني...للنهاية؟!!

عقد حاجبيه بشدة وهو يفكر ...

ماذا كانت ستقول له؟!!!

ما الذي يمكن أن يبرر لها فعلتها السوداء؟!!!

أي عذرٍ؟!!!وأي سببٍ قد يسوغ لها هذه الخطيئة؟!!!!

لكنه مع هذا وجد قلبه يرق لها من جديد فعاود النظر إلى جسدها الساكن...

وأمام تحالف قلبه وضميره لم يملك إلا أن يقوم من مكانه ليتوجه نحوها...

حملها بين ذراعيه حتى وضعها على الفراش...

ثم أحضر زجاجة عطر نفاذة ليقربها من أنفها...

تغضن وجهها وهي تعود ببطء لوعيها مع أنّات ضعيفة متألمة خرجت منها رغماً عنها...

حتى فتحت عينيها لتجده أمامها فالتمع الذعر فيهما واضحاً...

لكنها عادت تغمضهما في استسلام وهي تكتم آلامها بضغطها الشديد على شفتيها!!!

ظل يتأمل وجهها للحظات بعدما تمالك صدمته...

ثم قال لها بغلظة:

_قومي لتغسلي وجهك...وبعدها أخبريني بما كنتِ تريدين قوله!

تحاملت على نفسها لتقف بصعوبة...

وترنحت مكانها بالفعل لكنه حتى لم يقوَ على إسنادها...

جزء بداخله كان يخشي منها على نفسه أن يضعف قلبه أمامها من جديد...

وجزء آخر كان يخشي من نفسه هو عليها أن يؤذيها ثانية...

لهذا ظل مكانه ساكناً حتى غسلت وجهها وعادت بخطواتها المترنحة لتجلس جواره على طرف الفراش.

أغمضت عينيها بقوة وهي تشعر بنفسها ميتة بلا روح...

حتى ألمها لم تعد تشعر به...

كل الأمور الآن صارت سواءً...

فليفعلوا بها ما يشاءون !!!!

وصلها صوته الجامد أمامها يقول بخشونة فظة:

_قولي ما عندك!

لم تفتح عينيها وهي تهمس بصوت ضعيف متقطع:

_أنا أعرف أنني ظلمتك..لقد تورطتَ في عروس لا تليق بك..لكنك كنت أملي الوحيد في التخلص من مصيبتي...لن أقول بأنني كنت ضحية...أنا مذنبة وأعترف بخطيئتي....لو أردتَ أن تفضحني أمام عبد الله فلن ألومك..لكن لو ساعدتني في هذه المحنة فسأرد لك معروفك هذا يوماً.

كز على أسنانه محاولاً تمالك أعصابه ليسألها بنفس الطريقة الفظة:

_كيف أساعدكِ؟!وكيف ستردين معروفي؟!!

فتحت عينيها وقد بدأت تشعر ببعض الأمل لتهمس بضراعة:

_أنا أعرف أنك لم تعد راغباً في زوجة مثلي...لكننا سنحافظ على زواجنا فقط لبعض الوقت...حتى أنقذ سمعتي...وبعدها تطلقني ...أنا أعرف أن هذه الزيجة كلفتك الكثير من المال...وأنا سأرده لك كله...فلديّ وديعة باسمي في أحد البنوك سأتسلمها بعد بضعة أشهر...تركها لي والداي وليس لعبد الله شأن بها ...وبهذا لن تكون خسرت شيئاً!!!

كظم غيظه إلى أبعد حد ...

وهو يتجاهل سيل براءتها الذي كان يقطر من كلماتها

...

هذه الساذجة تظن الأمر بهذه البساطة؟!!!

مجرد أموال خسرها وستعيدها إليه؟!!!

لاعجب أنها وجدت وغداً يستغل براءتها هذه !!!!!

زفر بقوة ثم قال بغضب مكتوم:

_سأتستر على خطيئتك لكن ليس في مقابل مالك...وإنما لأن الله أمر بالستر!!

خفضت بصرها وهي تشعر بالخزي يعتصر ضلوعها...

ما أهونكِ اليوم يا رؤى...

وما أعظم ذُلّك!!!

كان صوته في هذه اللحظة أقسي من مدلول كلماته وهو يردف بنفس الخشونة الفظة:

_بضعة أشهر ستقضينها هنا على ذمتى لكنني لن أقربك...راغب درويش لن يقبل بفضلات رماها غيره!!

أغمضت عينيها بألم تبتلع إهانته التي ذبحتها ببطء...

لكنه لم يكترث لها وهو يردف بنفس النبرة:

_لكنكِ ستحترمين اسمي الذي تحملينه....لن تخرجي من باب هذا البيت...ولن تحملي هاتفاً...ستكونين مجرد خادمة لأمي تساعدينها في شئون المنزل...ولو اشتكت إلىّ منكِ فلن أرحمك...لو كان الشيخ عبد الله قد عجز عن تربية شقيقته فأنا سأفعلها....هل تفهمين؟!

أومأت برأسها إيجاباً دون أن تفتح عينيها...

فترك لها الغرفة لها صافقاً الباب خلفه بعنف...

هنا فقط سمحت لدموعها المقهورة أن تسيل على خديها...

وماذا بعد يا رؤى...؟!!!!

لقد نجوتِ -مؤقتاً-من الفضيحة بعد وعده لكِ...

وفررتِ بنفسك من موتٍ محقق لو كان عبد الله قد عرف عن الأمر...

لكن ماذا عن الأيام القادمة لكِ هنا معه..؟!!!!

انقبض قلبها بقوة والإجابة الملتهبة تأتيها من عقلها ....

أيامكِ القادمة هنا ستكون أسوأ من الموت!!!!

=========

عاد لشقته بعدما أنهي عمله مع جاسم الصاوي ليجدها في غرفتها تصلي...

كانت قد أرسلت له رسالة تخبره أنها ذهبت لزفاف رؤى ويبدو أنها عادت منذ قليل...

وبرغم دهشته من زواج رؤى السريع هذا بعد فعلته معها ...

لكنه تذكر عقد الزواج العرفي الذي أرغمته جنة على توقيعه...

ثم إلقائه يمين الطلاق عليها بعدها ذاك اليوم الذي عقد فيه قرانه على جنة....

لعلها وجدت بهذا مخرجاً من ورطتها....

لكن هل يعدّ هذا زواجاً؟!!!!

وهل يعديمينه طلاقاً؟!!!!!

لم يدع الأمر يشغل الكثير من تفكيره...

فهو يراها -ككل النساء-فاسقة تستحق أسوأ مصير...!!!!

وماذا عن جنة؟!!!!

لا...هو يشعر أن جنة من نسيج خاص وحدها...

شعوره بها ليس أنها مجرد امرأة...

بل مزيجٌ ساحرٌ من كل ما يعشقه من صفات...

يظلمها حقاً لو أدرجها تحت تصنيف النساء...

فهي ساحرته الاستثنائية التي لم ولن يجد مثلها!!!!

ظل واقفاً مكانه يراقبها تصلي وهو يشعر بسكينة غريبة...

وابتسامته تتسع تدريجياً على شفتيه ...

ونظراته تحتضن صورتها بقدسية لم يعرفها إلا لها...

لها هي فقط!!!

انتهت من صلاتها لتجلس متربعة على الأرض تدعو بخشوع وهي لا تشعر بوجوده...

فاقترب منها بخفة حتى جلس متربعاً قبالتها هامساً بصوتٍ دافئ:

_مساء الخير يا أستاذة!!

أشاحت بوجهها في نفور وهي عاجزة حتى عن النظر إليه...

هي تكاد تموت قلقاً على رؤى في هذه الليلة بالذات ولا تدري ماذا سيحدث معها...

وهو السبب في مصيبتها هذه!!!

أدار وجهها إليه وهو يهمس بنفس النبرة الدافئة:

_ألا تردّين التحية ؟!!!

ابتعدت بوجهها عن أنامله وهي تتحاشى لقاء نظراته لتقول بنفاد صبر:

_ابتعد عني هذه الليلة بالذات...لا أريد أن أري وجهك ولا أن أسمع صوتك.

اشتعلت عيناه بالغضب للحظات...

ثم هتف بحدة:

_هل ستحملينني ذنب صديقتكِ من جديد؟!!! أخبرتكِ من قبل أنني لم أجبرها...كل شئ تم برضاها.

ثم عاد يدير وجهها إليه ليحتجز نظراتها هاتفاً بنفس الحدة:

_أنتِ عشتِ معي طوال هذه الأيام وعرفتِ طبعي...هل أجبرتكِ على شئ؟!!!

هزت رأسها وهي تهتف باستنكار:

_حتى لو كانت مذنبة....لماذا تدفع هي الثمن وحدها؟!!

اشتعلت عيناه أكثر وهو يهتف بانفعال جعل كلماته خارجة عن سيطرته:

_ومن قال أنني لم أدفعه ...أنا دفعته غالياً...غالياً جداً...ودفعته مقدّماً كذلك...!!

قالها وهو يقوم من مكانه ليبتعد عنها بضع خطوات....

معطياً إياها ظهره وهو يحاول التحكم في ارتجافة جسده الغاضب....

بينما ظلت هي على جلستها تتأمله بدهشة ممتزجة بالأسف...

لا تستوعب كل هذا الغموض في هتافه المشتعل بألمه...

قلبها يخبرها أنه ليس سيئاً كما كانت تظن...

لكنه ربما كان ضحية هو الآخر لتجربة سيئة جعلت منه هذا المسخ !!!!

ومع هذا لم تكن شفقتها عليه نقية تماماً...

فهي لازالت تشعر نحوه بالنفور المختلط بالحذر...

لهذا هتفت بعنادها المعتاد:

_هي تابت عن خطيئتها وتستحق فرصة جديدة.

ظل صامتاً للحظات...

ثم التفت إليها بنظرة غريبة لم تفهمها....

قبل أن يعود ليجلس متربعاً أمامها كما كان...

ليهمس أمام عينيها بحذر:

_وكيف تكون التوبة التي تستحق هذه الفرصة؟!!!

أطرقت برأسها وقد صدمها سؤاله للحظات..

ثم همست بجدية دون أن تنظر إليه:

_التوبة لها شروط...أولاً أن تقلع عن الذنب....

ابتسم ابتسامة باهتة وهو يتناول كفها بين راحتيه هامساً بصدق اخترق قلبها رغماً عنها:

_أنا لم أمسّ امرأة منذ تلك الليلة التي تركتِ فيها نُدبتكِ على وجهي!

عقدت حاجبيها في دهشة ممتزجة بعدم تصديق...

فأومأ برأسه مؤكداً ...

ثم عاد يسألها بتوجس:

_وثانياً؟!!!!!

ازدردت ريقها بتوتر وهي تهمس بخفوت:

_أن تندم على ما فات....!!!

أغمض عينيه وهو يهمس بألم حقيقي مسّ روحها التي ذاقت مثله يوماً:

_أنا أندم منذ سنوات...ليس على ذنوبي أنا فحسب...لكن على ذنوب غيري التي أُلقيَت على ظهري رغماً عني.

عقدت حاجبيها بدهشة متسائلة ...

وقد حيّرها غموض كلماته مع الألم المنقوش على ملامحه...

لكنه عاد يتمالك نفسه ليفتح عينيه متسائلاً :

_وثالثاً؟!!

عضت على شفتيها بارتباك لم تعرف سببه...

ثم همست بحزم:

_العزم على عدم العودة!

اتسعت ابتسامته الشاحبة وهو يضغط على كفها أكثر هامساً بما يشبه الرجاء:

_لهذا أحتاجكِ معي.

أشاحت بوجهها بعنف وهي تحاول سحب كفها منه...

لكنه تشبث به أكثر وهو يعاود سؤالها بخشية:

_لو فعلتُ هذا فهل تُقبل توبتي مع كل ذنوبي؟!!

أطرقت برأسها للحظات وهي تحاول استقراء ما وراء كلماته...

لو استمعت لصوت قلبها فهو حقاً رجلٌ نادمٌ يحترق بذنوبه ولو لم يظهر هذا...!!!!

ولو استمعت لصوت عقلها فهو ممثلٌ قدير يحترف التظاهر بكل هذه المشاعر....!!!!

وبينهما هي حائرة لا تدري من تتّبع!!!!!

لكنها استمعت لصوت ضميرها أخيراً والذي حكم بينهما لترفع رأسها إليه هامسة بيقين:

_لن يقبلها الله فحسب...بل سيفرح بها...ألا تعلم أن الله أكثر فرحاً بتوبة عبده منه؟!

قام من مكانه ليسحبها من كفها فيوقفها أمامه وهو يهمس ببعض التردد:

_لم أُصَلّ ركعةً في حياتي كلها...فهل...؟!!!

قطع سؤاله المصبوغ بمزيج من الخزي والعجز....

فالتمعت عيناها بشفقة ظاهرة ...

وهي تشعر به الآن كطفلٍ ضالّ فقَدَ من يرشده...!!!

لتأتيه كلماتها مشبعةً بحنانها هذه المرة وهي تقول بحزم:

_إذن ...فلتفعل الآن...ولتكن هي البداية.

تاهت عيناه بشرود وهو يغمغم بحيرة غريبة على طبعه الواثق:

_وهل تظنّينني أثبُت؟!!!

ابتسمت لأول مرة منذ بدأ هذا الحوار لتقول بيقين:

_لو صدَقتَ الله ...فسيصدُقك الله.

هز رأسه بتساؤل وكأنه لا يفهمها...

فأردفت بحسم:

_لو صدقت توبتك...فسيرزقك الثبات.!!!!

===============

وقفت جنة شاردة في المطبخ تعد قهوتها...

عندما سمعت صوته خلفها:

_أريد مشاركتكِ في قهوتك!!

التفتت نحوه لتقول بضيق وهي تتحاشى النظر لعينيه:

_ألم تقل أنك لا تحبها؟!

نظر إليها طويلاً وهو يلاحظ أنها تتجنب النظر لعينيه...

إنه يشعر أنها ليست على ما يرام منذ بضعة أيام...

شرودها زائد وتتحاشي الحديث معه أو حتى مجرد النظر إليه...

تقضي أغلب وقتها في مكتبها ولا تكاد تعود للمنزل سوى بضع ساعات...

وكأنها تهرب منه!!!

قلبه يخبره أن تصرفاتها هذه ليس لها سوى معني واحد...

أنها بدأت تميل إليه بقلبها لهذا تهرب!!!!

وكم يتمنى لو كان هذا صحيحاً!!!

اقترب منها فاضطرت لرفع عينيها إليه عندما أمسك كتفيها بقوة وهو يهمس بنبرة دافئة:

_أحببتُها بنكهة شفتيكِ!

أدارت وجهها عنه بعنف للحظة...

ثم هتفت فجأة بحدة لم يكن لها ما يبررها:

_اخرج حتى أعدها!!

ابتسم رغماً عنه وهو يستشعر أن حدتها تخفي شيئاً يستحق الانتظار هذه المرة...

ولم يشأ أن يضغط عليها أكثر...

وعندما شعرت بخروجه استندت بكفيها على طاولة المطبخ تكتم دموعها...

وجود هذا الرجل حولها يربكها...

أفعاله الحنون التي تستشعر صدقها تناقض فكرتها السابقة عنه...

مع توبته-المستحدثة-التي تري أثرها في حياته....

وقد هدأ حقدها نحوه -بعض الشئ-عندما علمت أن مصيبته مع رؤى قد مرت على خير...

لقد زارتها منذ أيام مع صفا وعلاقتها براغب بدت لها طبيعية تماماً..

صحيح أنها لم تتمكن من الاختلاء بها لمعرفة تفاصيل...

لكنها -رؤى-كانت تتحدث معهم بهدوئها المعتاد وزوجها كذلك!!!

لهذا لم تعد رؤى تشكل مصدراً لقلقها في علاقتها معه بقدر ما كان حسن يحتل دائرة تفكيرها الكبرى..

فموعدها معه غداً لتزوره في قبره ككل شهر...

وهي تشعر بتأنيب ضميرها لأنها فعلتها مرتين من قبل دون علم فهد...

فهل تفعلها الثالثة...وهل ستبقى تخفي عنه هذا الأمر؟!!!

هي تعلم أنها مخطئة بهذا التصرف....

لكنها لم تستطع إخلاف موعدها مع حسن ولو لمرة واحدة....

ألا يكفي أنها تشعر أنها ابتعدت تدريجياً عن ذكراه...؟!!!!

لم تعد تحدثه على الهاتف كما كانت تفعل...

ولا عادت تتنعم بذكرياتها العامرة معه...

أفكارها كلها صارت مشوشة بسبب ذاك الرجل...

ابن الصاوي!!!!!

حنانه واهتمامه- رغم يقينها أنهما مفتعلان -لكنها لا تنكر أنها بدأت تتأثر بهما...

صباحها الذي يبدأ بقبلاته على وجنتيها...

ويومها الذي أجبرها أن تخبره عن كل تحركاتها فيه...

حتى صارت تشعر أنه معها دائماً...

ورغم أنها لم تعرفه سوى منذ فترة قصيرة...

لكنه ...

لكنه..للأسف ..صار...!!!!!!

عجزت عن إكمال فكرتها فخبطت على الطاولة بعنف لتسقط الغلاية الكهربائية بمائها المغلي على قدمها!!!!

صرخت بقوة من فرط الألم والمفاجأة لتجده أمامها في خلال ثوانٍ ...

أدرك الوضع بسرعة فحملها من خصرها ليمددها على مائدة المطبخ...

ثم أحضر بعض الأكياس المثلجة بسرعة ليضعها برفق على قدمها وسط تأوهاتها الباكية...

ثم ربت على رأسها بأنامله المرتجفة وهو يهتف بقلق واضح:

_لا بأس...الثلج سيهدئ الأمر حتى أتصل بطبيب.

هزت رأسها نفياً وهي تهمس بألم:

_لا داعي لطبيب...مرهم الحروق في الحمام...أنا أحتفظ به للطوارئ.

ذهب بسرعة ليحضره فيما تأملت هي ظاهر قدمها بتفحص وسط أنّاتها المتألمة...

ليعود هو حاملاً أنبوبة المرهم ثم بدأ في وضعه على قدمها برفق..

لكنها كانت تعض على شفتها بألم وهي تئن بصوت خفيض...

فكز على أسنانه وهو يشعر بأنّاتها تكوي صدره....

قبل أن يرمي أنبوبة المرهم من يده بسرعة ثم حملها من جديد ليهتف بانفعال:

_لن أنتظر...سنذهب للمشفى.

لم تتمكن من الاعتراض وهو يحملها هكذا حتى ركبا سيارته ...

ثم توجه بها إلى المشفى القريب حيث طمأنه الطبيب أنه حرق من الدرجة الأولي ولا يستدعي القلق...

وبعد عدة إسعافات سريعة عادت معه إلى منزله ...

كان يصر على حملها رغم اعتراضها على هذا حتى وضعها على فراشها...

فهمست بخفوت وهي تتحاشى النظر إليه كعادتها مؤخراً:

_شكراً...لقد تعبت معي كثيراً.

تجاهل شكرها وهو يجلس جوارها على طرف الفراش ثم سألها بقلق:

_لازالت تؤلمك؟!!

نظرت إليه بدهشة تمتزج بخشية وهي ترى قلقه الواضح في عينيه...

هل من المعقول أنه يجيد التمثيل إلى هذا الحد؟!!!

إنها تشعر بصدق قلقه ولهفته عليها...

قلبه كان يخفق بقوة وهو يحملها نحو المشفي...

قلبه؟!!!

وهل يملك فهد الصاوي قلباً؟!!!

وضعت كفها على رأسها وهي تشعر أنها مُتعَبة...

لا...ليس قدمها...!!!!

بل رأسها الذي أنهكه التفكير...

أغمضت عينيها بقوة وكأنها بهذا ستحجب عن ذهنها صورته...

فربت على وجنتها هامساً بنفس القلق لكن يشوبه حنان خاص هذه المرة:

_لا بأس...نامي الآن واستريحي.

ظلت مغمضة عينيها لعله يقتنع أنها نامت فيرحمها من قربه الذي يربكها هذا...

لكنه ظل جوارها يتأمل ملامحها بقلق ممتزج بالدهشة...

هو لم يشعر بالقلق هكذا على أحد في حياته...

أبداً!

هذه هي المرة الأولي التي يجرب فيها هذا الشعور...

مجرد رؤيتها تتألم كانت تذبح قلبه وهو يود لو يتألم هو مكانها...

شعوره وهو يحملها بين ذراعيه كان فريداً...

وكأنه يود لو يحميها بجسده من كل سوء.

هذه هي أول امرأة لا تسبقه إليها رغبة جسده...

بل رغبة قلبه في حمايتها...

والاحتماء بها في نفس الوقت...!!!

نعم...كما يخبرها كل يوم مع قُبْلتيه...

تحتاجه...ويحتاجها أكثر....!!!!

فتحت عينيها أخيراً بعدما يأست من رحيله...

لتلتقي عيناها بهذه النظرة في عينيه...

نظرة لا تكفي لوصفها كتب!!!

نظرة جمعت قلقه وحنانه ولهفته واحتياجه وخوفه...

نظرة اخترقت قلبها بصدقها رغم كل شئ!!!

فعادت تغمض عينيها هاربة وهي تهمس بخفوت محاولة الابتعاد عن أفكارها الحالية:

_لماذا تبيت هنا كل ليلة؟!! ألا يتساءل والدك عن ذلك؟!!

وصلتها تنهيدة حارة منه قبل أن يهمس بشرود:

_أبي يعرف أنني شاب عابث ولا يكترث لهذا...المهم عنده هو العمل...هذا هو الشئ الوحيد الذي لم أخيب رجاءه فيه...هو يعدّني لكي أكون خليفته في السوق...

فتحت عينيها وهي تسأله بدهشة:

_ودراستك؟!!! ألا تعني له شيئاً؟!!!

ابتسم ساخراً وهو يقول بتهكم:

_مجرد أمر شكليّ!!! نجاحي مضمون حتى لو لم أحضر اختباراً واحداً!!!!

أومأت برأسها في إدراك ثم عادت تسأله بتوجس:

_وإقامتك معه في بيته؟!! ألا يهتم بشئٍ كهذا؟!

أشاح بوجهه دون أن يرد فعلمت أن في الأمر سراً...

ابن الصاوي لا يبدو على وفاق مع أبيه...

يبدو أن بينهما شقاقاً ما يجعلهما بهذا التباعد إلا فيما يخص العمل...

ألهذا كان يقول أنه يحتاجها؟؟!!

هزت رأسها بعنف وهي تفكر ...

لا يا جنة ...لا...!!!!!

لا تصدقي كل ما يقول...

حتى لو كان هذا صحيحاً...

هذا شأنه هو وليس لكِ به علاقة!!

تأوهت بقوة ...وقد اختلطت عليها أفكارها بكلماتها فهتفت بانفعال دون وعي :

_اخرج...اخرج...اخرج من الغرفة...ومن رأسي...بل اخرج من حياتي كلها!!!

التفت إليها بدهشة للحظة...

ثم أومأ برأسه في إدراك!!

جنة تخاف التعلق به حتى لا تخون حسن...

أفعالها كلها تفضح خشيتها من مشاعرها الوليدة نحوه...

رغم أنها تنكر وتتشبث بعنادها وقسوة ردودها لكن قلبه يخبره أنها بدأت تشعر به...

لهذا قام من جوارها حتى لا يضغط عليها أكثر...

ثم همس بخفوت:

_سأخرج...لكنني سأعود بعد قليل لأطمئن عليك.

اختلست نظرة سريعة لظهره المنصرف...

ثم همست بخفوت وكأنها تقنع نفسها بما لا تريد تصديقه:

_كاذب يا ابن الصاوي...كاذب!

==========

استيقظت من نومها لتتحسس قدمها ببطء...

لقد خف الألم لكنها لا تعرف هل ستستطيع المشي عليها مع ضغط الحذاء على بشرتها...

اليوم موعدها مع حسن ولن تخلفه مهما حدث...

شعرت باهتزاز هاتفها جوارها فتعجبت لأنها لم تتركه على وضع "الاهتزاز" هذا!!!!

تناولته لتجد منه رسالة :

_أنا ضبطت هاتفك على وضع الاهتزاز حتى لا يقلقك رنينه...عفواً لأنني لم أفتح لكِ النافذة ككل يوم لأنني كنت أريدكِ أن تنامي لأطول وقت...لقد اضطررتُ للمغادرة فلديّ اختبار في الجامعة...لكنني لم أنسَ حقي في قُبلتيّ لهذا الصباح ...سآخذه عندما أعود...صباح الخير يا أستاذة.

ابتسمت رغماً عنها وهي تقرأ رسالته العابثة...

ثم تنهدت بحرارة وعيناها تدمعان...

وضعت كفها على شفتيها وهي تعيد قراءة رسالته بشغف لا تنكره....

ثم ألقت هاتفها بعيداً بعنف وكأنما تتخلص من أفعى سامة...!!!!!

نعم...

هذا هو فهد الصاوي بالضبط...!!!

أفعى تسمم أفكارها وحياتها...

بل والأهم وفاءها القديم لحسن!!!

نفضت عنها غطاءها بعنف عندما وصلت أفكارها لهذه النقطة...

لتنظر لساعة الحائط التي أشارت للثالثة عصراً...

لا تصدق أنها نامت طوال هذا الوقت...

لقد كادت تفوت موعدها مع حسن...

تناولت هاتفها بتردد وهي تفكر ...

هل تخبره بوجهتها كما تفعل دوماً...؟!!!!

أم تتجاهل الأمر كما فعلت من قبل حتى لا تثير غضبه...

ظلت تفكر في الأمر طويلاً وهي عاجزة عن اتخاذ قرار...

ثم غلبها عنادها لترسل له رسالتها أخيراً:

_أنا ذاهبة إلى قبر حسن.

تنهدت في ارتياح عندما أرسلت رسالتها ...

وكأنها بهذه الحركة البسيطة تستعيد سيطرتها على نفسها...

وتسترد كينونتها القديمة...

فليغضب ابن الصاوي...أو لا يغضب...

لن تهتم...

لن تخلف أبداً موعد حسن مهما حدث!!

نزلت بقدميها على الأرض تنتعل خُفّيها محاولةً المشي..

كان الأمر مؤلماً بعض الشئ لكنه محتمل...

كل شئ يهون فداءً لهذا اللقاء الشهري الذي تحتاجه روحها أكثر من أي شئ!!!

وبعدها بنصف ساعة كانت أمام قبر حسن كعادتها كل شهر...

تحكي له بإسهاب عن أخبارها كلها...

لكنها كانت تتجنب الحديث عن فهد كما كانت تفعل في المرتين السابقتين...

وكأنها الآن تستشعر بعض الذنب لأنها قد تكون...

تعلقت به!!!

تنهدت في حرارة عندما قادتها أفكارها لهذا المنعطف الخطر...

ثم همست بحزن:

_ضائعة يا حسن...لا أذكر أنني كنتُ يوماً كما أنا الآن.

والواقع أن هذا بالضبط كان ما يعذبها ...

شعورها أنها مشتتة...

مُبعثرة...كأوراق لعب بين أيدي الصبيان!!!

لهذا دمعت عيناها وهي تردف بحيرة مشوبة بالألم:

_حياتي لم تعد كحياتي...وقلبي ما عاد كقلبي...وكأنني تهتُ عن نفسي...لهذا أحتاجك...لأنك ستبقى الحقيقة الوحيدة في حياتي..الحقيقة التي ستردني لعالمي مهما ضللتُ عنه.

سمعت صوت أذان المغرب...

فرددته بخشوع...

عندما سمعت صوتاً خلفها يقول برفق:

_عذراً يا ابنتي...أنا أراكِ تأتين هنا كثيراً...وأحياناً أسمعكِ دون قصد.

التفتت لمصدر الصوت لتجد شيخاً معمماً يغض بصره عنها وهو يردف بنفس الرفق:

_زيارة القبور يا ابنتي لها أصول...ليست محرمة...لكن ما تفعلينه أنتِ يدخل في باب المغالاة...ارضي بقدر الله يا ابنتي...ليس بلسانكِ فحسب...بل بقلبك...ولا تستغيثي بميت لم يعد له حول ولا قوة...بل استغيثي بالله واطلبي منه الصبر والعوض.

شعرت بكلمات الرجل وكأنها تنير شيئاً ما بداخلها...

وكأنها ترفع الستار عن بقعة في روحها كانت خافية...

هل هي حقاً راضية بقلبها كما تنطق بلسانها؟!!!!

أم أن ما تفعله هو نوع -خفيّ-من السخط على قضاء الله؟!!!!

ازداد شعورها بالحيرة والشتات أكثر....

لكنها أومأت برأسها وهي تغادره هامسة بارتباك:

_جزاك الله خيراً يا شيخ...سأعمل بنصيحتك.

خرجت من المقابر تتعثر في خطواتها...

وكأنه كان ينقصها هذا الشعور الجديد بالضلال ...

بأنها تائهة في صحراء شاسعة بلا دليل...

اليوم لم تشعر بنفس السكينة التي كانت تملؤها عندما تزور قبر حسن...

خيوطٌ خفية من الذنب والحيرة تشابكت مع إحساسها الآن...

لعلها كلمات الشيخ...!!!!

ولعله احساسها المستحدث بتأنيب ضميرها على مشاعرها الوليدة التي لا تريد الاعتراف بها...!!!!

ولعله خوفها وترقبها لرد فعل ابن الصاوي عندما يعلم عن زيارتها هذه....!!!!

شهقت بعنف عندما وصلت لسيارتها فوجدته واقفاً مستنداً عليها عاقداً ساعديه أمام صدره ...

ينتظرها!!!!

وفي عينيه غضبٌ لم ترَه من قبل!!!!

=========================

الفصل الحادي عشر

تقدمت نحوه وهي تمشي بعرج ملحوظ...

فحافة الحذاء كانت تضغط على ظاهر قدمها المحترق...

تأمل عرجها بغيظ وهو يكاد يغلي...

لقد احتملت ألمها هذا فقط لتأتي حسن في موعدهما كما زعمت...

حسن الذي لم تنسه ومن الواضح أنها لن تفعل بسهولة...

لكنه لن يستسلم...!!!

سيخرجها من وهمها هذا مهما كان الثمن!!!

وصلت إليه وقلبها ينتفض خوفاً من رد فعله مع هذا الغضب البادي على وجهه...

لكنها تصنعت البرود وهي تسأله بتماسك:

_لماذا جئتَ إلى هنا؟!!

كز على أسنانه وهو يمسك مرفقيها بعنف هاتفاً:

_أنا جئتُ هنا لزوجتي...السؤال هو لماذا جئتِ أنتِ إلى هنا؟!!!

ارتجفت بين ذراعيه رغماً عنها وهي تحاول التظاهر بالقوة:

_أنا أرسلتُ لك رسالة وأخبرتك...

_اخرسي!

قاطع عبارتها بكلمته وهو يدفعها نحو سيارته بعيداً عن سيارتها ....

حتى ركبت جواره ليقود السيارة بعدها بسرعة جنونية كعادته عندما يغضب...

تشبثت بمقعدها في خوف وهي تختلس نظرات وجلة نحو جانب وجهه...

حتى توقف بالسيارة أمام المنزل...

وبمجرد أن اغلق الباب خلفه اندفع نحوها ليمسك كتفيها هاتفاً بغضب هادر:

_ماذا تسمين فعلتك اليوم؟!!! كيف تذهبين إلى هناك ؟!!!

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تقول بقوة مصطنعة:

_وماذا في هذا؟!! هذا موعد لم أخلفه منذ سنوات؟!!

هز كتفيها بقوة أكبر وهو يعاود هتافه الغاضب:

_لا تستفزيني...إياكِ أن تكرريها مرة أخرى.

نفضت ذراعيه من على كتفيها وهي تهتف بحدة وقد فقدت أعصابها:

_بل سأفعل...أنت تزوجتني وأنت تعلم أنني لازلت أحبه ومخلصة له...أنت أجبرتني على هذه الحياة التي لا أريدها....بأي حق تتبجح هكذا؟!!! هل تظنني زوجتكِ حقاً؟!!!

اشتعلت عيناه بالغضب للحظات ثم كسا البرود وجهه فجأة...

فأيقنت أنه مقبلٌ على مصيبة...

وصدق حدسها عندما قال أخيراً ببرود تدرك جيداً أنه مصطنع:

_معكِ حق...أنتِ لستِ زوجتي بعد...وبما أنكِ استطعتِ المشي على قدمك...فهذا يعني أنه يمكننا السفر.

هتفت بدهشة تمتزج بغضبها:

_أي سفر؟!!

اقترب منها حتى لاصقها وهو يقول بنفس البرود المشتعل:

_"شهر عسل" يا عروسي!!!!

ابتعدت عنه وهي تمشي بظهرها تهتف بجنون لم تعد تستطيع السيطرة عليه بعد انفعال الأيام الماضية:

_أخيراً عجزت عن تحقيق رهانك الرخيص على قلبي...وعدتَ لأسلوبك الأصلي في السرقة والغصب...ما عدتَ قادراً على إتمام تمثيليتك السخيفة التي ظننتَ نفسك أجدتَها طيلة الأيام السابقة....لكنني لم أصدقها ولو للحظة ...ابن الصاوي فشل في تمثيله كما سيفشل في كل شئ في حياته.

كان يقترب منها ببطء ونظراته تتحول من غضب إلى جرح شديد في عينيه...

لم يكترث بإهانتها بقدر ما آلمه أنها لا تصدق إحساسه الحقيقي بها بعد كل هذا...

لم يكن يعلم أنه سيشعر بهذا الألم عندما تُكذّب مشاعره نحوها...

هي لا تثق به ة.

ويحق لها أن تفعل...

هو بنظرها مجرد وغد يريد تحقيق انتقامه بكسرها...

تظن نفسها لديه مجرد رهان رخيص...

والواقع أنها لو رأت ما في قلبه الآن لعلمت أنها صارت أغلى ما في حياته!!!!

بينما كانت هي تعود بظهرها للخلف هرباً منه...

ومن روحها قبله...!!!!

روحها التي بدأت تتعلق به في غفلةٍ منها لتنازع عقلها على ما يحاول إقناعها به...

حتى التصقت هي بالحائط خلفها لتجد نفسها فجأة محاصرة بجسده...

كان صدرها يعلو ويهبط بجنون ونظراتها تفضح خوفاً وغضباً...

وأمامها كان هو ينظر إليها بعمق وكأنه يقاوم انفعالاً قوياً بداخله...

نظراته كانت تحمل نوعاً من الألم الذي لم تفهمه هي...

لكنه وصل قلبها صادقاً دون تزييف...

خاصة عندما أمسك كفها ليبسطه على صدره هامساً بنبرة غريبة:

_دقات قلبي...تمثيل؟!!

ارتجف جسدها كله وكفها يستشعر نبضاته الهادرة تحته...

تكاد تصرخ تحت أناملها بدويّ هائل!!!

فرفعت عينيها إليه بخشية ليلتقط هو وهج البندق الذي طالما أثار جنونه مردفاً بنفس النبرة:

_نظراتي هذه...تمثيل؟!

غاصت عيناها لأول مرة بهذا العمق في سواد عينيه....

لتلمح عاطفة لا تقبل الجدل...

مشاعر صافية لا يمكن الطعن في كذبها...

بحر هائج من أحاسيس امتزج فيها الحب بالألم والرجاء...!!

لكنه اقترب بوجهه أكثر ليمس وجهها كله بشفتيه مساً بطيئاً هامساً بين كل قبلة وأخرى:

_إحساسي...تمثيل؟!!

أحست بنفسها تكاد تتهاوى بين ذراعيه وقد عجزت عن فعل أي شئ...

عندما أحاط وجهها بكفيه وهو ينظر لعينيها هامساً بصوت متهدج:

_آآه...لو تعلمين...كم تمنيتُ تقبيل عينيكِ ؟!!!

أغمضت عينيها بقوة لتتنساب شفتاه أخيراً كما تمنى وهو يقبلهما بعمق...

ثم تلمّس جفنيها المطبقين بأنامله بهيام هامساً بحرارة:

_آه من وهج البندق الذي يلمع فيهما...ويثير جنوني كلما نظرتُ إليهما!!!

تشبثت بآخر خيوط مقاومتها وهي تشعر أنها ما عادت قادرة على الثبات أكثر...

ففتحت عينيها لتهمس بصوت مرتعش:

_فهد...اتركني ....أرجوك.

ابتسم وهو يسمعها تناديه باسمه لأول مرة....

فانحدرت أنامله إلى شفتيها تتلمسها بنفس الطريقة الهائمة- وكأنه يعزف عليها- هامساً بدفء:

_فهد؟!!!! وليس ابن الصاوي!!!!!

اتسعت عيناها بصدمة وهي تنتبه لما يقول....

لكنها عادت تغمضهما بقوة عندما شعرت به يقترب من شفتيها هامساً بعاطفة مشتعلة:

_أريد أن أتذوق اسمي على شفتيكِ.

تشبثت بكفيها في الجدار خلفها وهي تشعر بنفسها في حلم عجيب...

لو كان كل هذا تمثيلاً فكيف إذن تكون حرارة الحب في قلوب العاشقين...؟؟؟!!!!

وكيف يكون الإحساس في أرواح الهائمين؟!!!

إنها تصدقه...

بقلبها تصدقه...

بروحها تصدقه...

حتى ولو لم يؤيدها عقلها الذي تراجع كثيراً مفسحاً المجال لشعورها الجديد....

لتجد نفسها تستجيب للمساته وقبلاته التي كانت تدغدغ أنوثتها برفق مسيطر....

قبل أن يتراخى كفاها تدريجياً على الجدار خلفها وهي تستسلم أخيراً دون قيود...

وآخر سؤال دار في عقلها قبل أن يستتر خلف حُجُب عاطفته....

هل كسب ابن الصاوي رهانه على قلبها أخيراً؟!!

==========

استيقظ من نومه ليفتح عينيه ثم ابتسم تلقائياً وهو يتذكر أحداث الليلة الماضية...

تلفت جواره لكنه لم يجدها على الفراش كما كانت...

اتسعت ابتسامته وهو يسترجع استسلامها -اللذيذ - له...

لم يتصورها ستكون بين ذراعيه بهذا المزيج المدهش من الاشتعال والذوبان...!!!!

ومع كل النساء اللائي صادفهنّ في دربه...

لم تترك إحداهنّ أي أثر على قلبه...

لكن هذه بالذات امرأة بنكهة خاصة...

دافئة كشمس الشروق...

حارقة كشمس الظهيرة...

ساحرة كشمس الغروب...

لكنها في جميع أحوالها شمس ساطعة بالعاطفة والعطاء....!!!!

جنة الرشيدي التي شعر بالأمس فقط أنه قد بدأ يحمل مكاناً في قلبها...

ربما هو لازال في بداية الطريق...

لكنه سيكمله...

سيكمله معها وبها ...ولها...لها فقط!!!

نفض الغطاء وهو يقوم ليذهب إليها...

لكنه لم يجدها..

بحث عنها في الشقة كلها لكن لم يكن لها أثر!!!

اتصل على هاتفها فوجده مغلقاً...

عقد حاجبيه بضيق وهاجسٌ مزعج يملأ رأسه جعله يتوجه لخزانة ملابسها ليجدها فارغة!!!

كز على أسنانه بغضب ثم بدل ملابسه بسرعة ليخرج بحثاً عنها...

لكنه اصطدم برسالتها ملتصقة على باب الشقة من الداخل :

_عساك تكون كسبت رهانك واسترحت...أشهد أنني خسرت أمامك...وها قد حصلتَ أنت على ما أردت....فلنُنْهِ إذن أمر زواجنا بسرية كما بدأناه...عد لحياتك ...ودعني لحياتي.

التقط الرسالة يقرأها عشرات المرات ثم طواها في قبضته ليلقيها بعيداً...

زفر بقوة وهو يضع كفه على صدره يحاول تهدئة خفقاته...

جنة لا تزال تظنه يتسلي بها...!

تظن أن ما حدث بينهما لم يكن سوى إثبات لانتصاره عليها...

لكن ...لماذا يلومها؟!!!

وهو الذي زرع في عقلها هذه الفكرة من البداية...

لكن الأمر الآن مختلف...

لقد أحبها حقاً...

أحبها كما لم يفعل طوال عمره...

وحدها جنة الرشيدي استطاعت نزع قلبه من ذنبه القديم ...

لتغير له كل قناعاته...

وتثبت له أنها امرأة استثنائية...

وكأنها خُلِقت ليعشقها...

وأبداً لن يضيعها أبداً...!!!!

================

عاد إلى شقته ليلقي مفاتيحه بغضب على المائدة وهو يزفر بضيق...

ثم قادته خطواته إلى غرفتها -الخالية-ليجلس على طرف الفراش وهو يجول ببصره في المكان باشتياق غزا روحه باكتساح...

عاد بظهره إلى الوراء ليتمدد مكانه وهو يحتضن وسادتها التي علق بها عطرها وقلبه يخفق بجنون...

ستة أيام مرت على اختفائها -الفجائي-من حياته ولم يعثر لها على أثر...

شقتها مغلقة...

وكذا مكتبها مغلق...

ولا أحد يعلم عنها شيئاً!!!!

لقد بحث عنها في كل الأماكن التي اعتادت أن ترتادها دون جدوي...

الأستاذة أجادت -الاختفاء-كما أجادت السيطرة على قلبه الذي يكاد يذوب شوقاً وقلقاً عليها!!!!

حانت منه التفاتة للكومود جواره ليجد علبة دوائها التي نسيتها عليه...

تناولها بأنامل مرتعشة يتلمسها بوجد ...

ثم دمعت عيناه وكيانه كله يرتجّ تأثراً...

وهو يتذكر ضمّة شفتيها على أنامله كل صباح وهو يناولها القرص بنفسه...

ازدرد ريقه ببطء وهاجسٌ مزعجٌ يجتاحه بقسوة...

تراها بخير؟!!!

أم أنها قد آذت نفسها -ندماً-بعدما حدث بينهما؟!!!

قبض أنامله بقوة وهو يفكر...

ليته ما تسرّع معها هكذا...

ليته صبر أكثر...!!!

هو كان راضياً بوجودها هكذا في حياته ...

أمام عينيه حتى ولو لم يمسها....!!!!

لكنه لم يستطع تمالك نفسه ليلتها...

فقد السيطرة على شعوره -الجارف-بها وهي بين ذراعيه...

ورغم هذا كان من الممكن أن يتوقف لو شعر - ولو للحظة- أنها كارهة...

لكن استسلامها قد غرّه بالمزيد...

بل إنه يكاد يقسم أنه أحس وقتها أنها -حقاً-تشعر نحوه بعاطفة ما...!!!

ربما شعورها ليس عميقاً كشعوره...

لكنه كان مستعداً -ولايزال-لأن يصبر حتى يصل لقلبها كاملاً...!

قطع رنين الهاتف أفكاره فتناوله ببطء متثاقل لكنه فتح الاتصال عندما تعرف على هوية المتصل...

ليهتف بانفعال:

_هل وصلت لشئٍ يا حسام؟!!!

حسام القاضي !!

ضابط في المباحث العامة تعرف عليه في إحدى الحفلات التي يقيمها والده ...

ثم التقاه بعدها مصادفةً في رحلة مع أصدقائه إلى إحدى مدن الساحل...

وتوطدت علاقته به بعدها حتى صار من أقرب أصدقائه...

ورغم عودة حسام بعدها إلى مسقط رأسه في مدينته بالجنوب...

لكن علاقتهما بقيت قوية على عهدها...

خاصة مع تعاطفه الشديد مع حسام بعد قصته التي يعرف تفاصيلها الكاملة...

والتي أثرت -سلباً - على شخصيته كثيراً لكنه يعذره!!!

وبالذات بعدما جرب شعوره مع جنة...

والذي يدرك الآن أنه حب حقيقي!!!!

قاطع حسام أفكاره وهو يقول بنبرته العملية:

_السيارة التي أعطيتني أرقامها موجودة في مدينة (......) وقد كلمت أحد زملائي هناك وجمعت لك كل التفاصيل.

برقت عينا فهد وهو يسأله بلهفة:

_صاحبة السيارة بخير؟!!!

وصلته ضحكة حسام الساخرة عبر الهاتف وهو يقول بتهكم:

_اطمئن يا صديقي...صاحبتها بخير تستأجر شقة هناك منذ بضعة أيام وتقيم فيها وحدها.

ثم أردف بلهجة ماكرة:

_لكن يبدو أنها لن تبقى وحدها طويلاً...بلهفتك هذه لا أستبعد أن تكون عندها صباحاً.

عقد فهد حاجبيه بضيق وهو يهتف بحدة:

_اسكت يا حسام...هي ليست كما تظن.

صمت حسام للحظات وهو يستشعر أن غضبة صديقه تخفي شيئاً جديداً هذه المرة....

لكنه فغر فاه مذهولاً عندما أردف فهد بحسم:

_إنها ...زوجتي!!

==============

دخلت دعاء إلى مكتبها لتجده واقفاً مع إحدى زميلاتها يضاحكها بمرح...

فتجاوزتهما بعدم اكتراث ظاهر يخفي مشاعرها الكسيرة...

ثم جلست على مكتبها تمارس عملها لعلها تتناسى التفكير في همومها...

لكن شرودها غلبها وذكرى قاسية من طفولتها تهاجم رأسها الآن بضراوة...

كانت طفلة مجتهدة في دراستها بشهادة جميع معلماتها...

ولهذا كانت رفيقاتها يحسدنها...

وذات يوم طلبت منها المعلمة أن تكتب كلمة ما على "سبورة" الفصل...

هاجمتها إحدى نوبات شرودها -المرضيّة-ولم تنتبه إلا بعد عدة ثوانٍ على ضحكات رفيقاتها العالية...

والمعلمة تصيح فيها بغضب:

_هل تستهزئين بي؟!!!

تلفتت حولها بدهشة لتجد نفسها قد اتجهت -لا شعورياً- نحو باب الفصل بدلاً من أن تتجه نحو السبورة!!!

يومها أحست بالانكسار وقد امتلأت عيناها بدموع القهر ...

والفتيات يسخرن منها مع تقريع معلمتها الشديد ...

لكن المعلمة تفهمت ظروف مرضها عندما أخبرتها بها -سرّاً-فيما بعد...

وقد كانت هذه إحدى المرات التي اصطدمت فيها بتبِعات مرضها -المخزي- والتي تركت ندبتها على روحها الجريحة....

تلاعبت أناملها بقلمها في شرود...

وذكرياتها تحملها لمحطة أخرى عندما كانت في المرحلة الثانوية...

تفتحت براعم أنوثتها...

ليشهد الجميع بأنها فتاة مميزة منطلقة مرحة فاتنة...

وذات يوم وهي جالسة في غرفتها سمعت إحدى جاراتهنّ تتحدث إلى والدتها تطلب منها خطبتها لابنها...

ليلتها دق قلبها بعنف وهي تري نفسها بعين خيالها الوردية لأول مرة عروساً بثوبها الأبيض...

تتأبط ذراع فارسها وتسير معه برأس مرفوعة...

لكن صورة خيالها الوردية تلطخت بالسواد...

ووالدتها تصارح الجارة بمرضها على استحياء وتطلب منها بمنتهي الخزي ألا تخبر أحداً عن هذا...

وبالطبع خرجت الجارة من ليلتها ساحبةً عرضها -السخيّ-ولم تعد...!!!!

وكذلك حلمها الورديّ لم يعد!!!

ظل حبيس صدرها لسنواتٍ بعدها أيقنت فيها من كونها مجرد دمية "معيبة" ليس لها الحق حتى في الحلم!!!!

إلى أن خانها قلبها في غفلةٍ منها ليتعلق بمعتصم!!!

اختلست نظرة خاطفة إليه وهو لايزال يضاحك رفيقته بمرح مبالغ فيه...

فابتسمت بمرارة...

وهي تعود لفيض ذكرياتها -المؤلم- لتختتمه بمشاهد حياتها القصيرة مع حسام...

سيادة الرائد الذي لا تعرف حتى الآن لماذا وافق على خطبتها هي بالذات...

رغم عيبها الذي يعرفه...

والذي يتناقض مع اهتمامه الشديد بالمظاهر الاجتماعية...

فردت أناملها أمام عينيها ببطء تتأمل إصبعها الذي عاد خالياً من الخواتم بعدما ألقت له دبلته بالأمس...

ويبدو أنه سيبقى كذلك!!!!

عضت على شفتيها تكتم دموعها ...

عندما قفزت ماسة إلى ذهنها...

كم تشعر بالشفقة نحو هذه المسكينة...

لقد حاولت مساعدتها في الهرب من عاصي الرفاعي لكنها كانت تعلم -مسبقاً-أنها لن تنجح...

ما تعرفه عن عاصي الرفاعي أنه لن يسمح لها بالفكاك من أسره طالما أرادها...

وقد صدق حدسها...

فالمدينة كلها تتحدث عن زواجه -الغريب -بها ....

وقد حاولت الاتصال بها مراراً لتطمئن عليها....

لكن هاتفها دوماً مغلق...

يبدو أن "الشيطان" يريد أن يغلق أمامها كل سبل الخلاص!!!

أحاطت وجهها بكفيها وهي تشعر بالاختناق...

ما أشبهها بماسة!!!

كلتاهما فتاة بسيطة لم تكن تطمع من الحياة في الكثير...

لكن ضعفهما جعل مجرد الحلم جريمة...

في عالمٍ لم يعد يعترف سوى بالقوة!!!

وهي لن تقع في هذا الخطأ من جديد...

لقد جعلتها تجربتها الأخيرة مع سيادة الرائد تدرك قيمتها -الزهيدة-أكثر...

ليزداد يقينها أنها ستبقى وحيدة في مشوار حياتها الصعب...

أفاقت من أفكارها على صوته أمامها وهو يسألها باهتمام:

_ماذا بكِ يا دعاء؟!!! أنتِ بخير؟!!!

ظلت على حالها للحظات...

ثم أزاحت كفيها من على وجهها ببطء لتقول دون أن تنظر إليه:

_نعم...بخير...لا تهتم!!

قالتها وهي تعاود النظر لأوراقها تحاول استعادة تركيزها ...

عندما أمسك كفها فجأة يعتصره بكفه وهو يهتف بانفعال:

_أين دبلتك؟!!

شهقت بعنف للمفاجأة...

ثم سحبت كفها من كفه بعنف وهي تهب واقفة هاتفة بغضب هادر:

_هل جُننت؟!!!كيف تتجرأ على أن تمسك يدي؟!!!

تأملها مبهوتاً للحظة وهو يشعر بالصدمة...

لقد كان يتعمد المزاح مع زميلته هذه كي يداري شعوره الخانق بالخسارة كلما رأى دبلتها في إصبعها....

كان يحاول إقناع قلبه بأنها مجرد امرأة كسائر النساء وليس بها ما يميزها...

لكنّ شعوره الآن ياللهفة والأمل وكأنه وجد كنزه المفقود لمجرد أنها عادت حرة ليس له سوى معنيً واحد...

أنها أبداً ليست كغيرها...

وأن خسارتها لن تُعوض كما كان يظن!!!!!

وقف بدوره وهو يهز رأسه هاتفاً بغضب هو الآخر:

_دعكِ من هذا الهراء وأخبريني ....هل فسختِ خطبتك؟!!!

اشتعلت ملامحها بكل ما يملأ روحها المنكسرة من ألم وهي تصرخ بوجهه:

_وما شأنك أنت؟!!!هل تظنني مثل بقية رفيقاتك ؟!!!

ارتدّ خطوة للخلف مصعوقاً من فورة غضبها الممزوج بألمها الذائب في عينيها....

وهو يشعر بالعجز...

يود الآن لو يصارحها بمشاعره نحوها...

لكن لسانه يعانده...

وبرغم ما يشعر به الآن من سعادة لأنها صارت حرة أخيراً...

لكن هذا الألم المستكين الآن بعينيها يخبره أن شيئاً ما بداخلها قد كُسِر...

وأنها لن تعود كما كانت...!

أما هي فقد تناولت حقيبتها بعنف وهي تتجاوزه بخطواتٍ سريعة لتغادر...

لكنه اعترض طريقها مغمغماً برجاء ممزوج بالأسف:

_لا تغضبي ...أنا آسف.

أشاحت بوجهها عنه تكتم دموعها التي تخاف أن تخونها الآن في أي لحظة...

عندما أردف هو بصوت مختنق بعاطفته :

_صدقيني أنتِ لستِ كالأخريات...أنا...

التفتت إليه بحدة تقاطع عبارته هاتفة بانفعالٍ فقدت سيطرتها عليه:

_أنتَ ماذا....تحبني؟!!!

اتسعت عيناه بصدمة بالغة ثم عقد حاجبيه بغضب شديد وهي تردف بنفس الحدة:

_ابحث لنفسك عن تسلية أخرى.

اقترب منها خطوة وهو يكز على أسنانه هاتفاً بسخط:

_لماذا تتحدثين معي بهذه الطريقة؟!!!

تشبثت أناملها بحقيبتها وهي تطرق برأسها للحظات...

قبل أن تواجهه بقوة عينيها المناقضة لدموعها التي سالت على وجنتيها الآن وهي تهمس بصوت ذبيح:

_دعني لشأني يا معتصم...لو كنتُ أعزُّ عليك فلا تحمّلني ما لا أطيق.

دق قلبه بجنون وهو يتمنى الآن لو يطوقها بين ذراعيه ...

ويخفي رأسها في صدره...

لعلّه يمحو عن عينيها كل هذا الألم الذي يفيض منهما كشلال هادر...

لم يتمنّ يوماً أن يصارحها بمشاعره كما هو الآن...

لكنه يشعر أن حاجزاً خفيّاً يقف بينهما...!!!!

كلمةٌ واحدة ينبض بها قلبه...

ويستحلفه أن يعترف لها الآن بها...

كلمةٌ واحدة...

تختصر كل شعوره بها طوال الأيام السابقة...

كلمةٌ واحدة...

تستحقها هي ولم يشعر بها لسواها...

كلمةٌ واحدة...

لكنها تقف كغصّة في حلقه لا يقوى على النطق بها...!!!!

أما هي فقد كانت غافلةً عن كل هذا...

تجاوزته بخطواتٍ متثاقلة وهي تشعر بروحها تنزف ألماً...

وهي لا تعرف لها ذنباً في كل هذا...

لقد خذلها اختيار القلب...

وعندما استمعت لصوت العقل...خذلها اختياره أكثر...!!!

ومن أشقى من امرئٍ خانه عقله وقلبه معاً؟!!!

ظلت على شرودها الذبيح طيلة طريق عودتها للمنزل...

حتى توقفت أمام الباب لحظات...

لتأخذ نفساً عميقاً تحاول استعادة قناع مرحها -الواقي- كعادتها...

فوالداها في غاية الحزن منذ الأمس بعدما علما عمّا حدث بينها وبين حسام...

وقد بدت لهما مجنونةً حقاً لترفض زيجةً -ثمينة- كهذه دون سببٍ قويّ!!!!

وكأنّ احترامها لنفسها ورفضها لأسلوبه المتعجرف مجرد رفاهية في حق من هي مثلها!!!

فتحت الباب برفق لتتلقاها والدتها بين ذراعيها ...

فضحكت ضحكة مصطنعة وهي تهتف بمرحها المعهود:

_ماذا أعددتِ لنا على الغداء ؟!! أنا أكاد أموت جوعاً.

أشارت لها والدتها بسبابتها على فمها كي تصمت...

فهزت رأسها بتساؤل...

عندما سمعت صوت والدها يناديها من غرفة "الصالون"...

التفتت نحو الغرفة بتلقائية...

لتشهق بعدها بعنف وهي تجد حسام جالساً جوار أبيها يرمقها بنظراته الغريبة...

تجمدت مكانها للحظات...

ثم سمعت والدها يناديها من جديد.....

فتقدمت نحوهما بخطواتٍ بطيئة مختنقة كروحها الآن...

وبرغم احترامها الشديد لوالدها دوماً...

لم تنتبه لأمره لها بالجلوس...

وهي تتقدم نحو حسام الذي وقف عندما دخلت...لتقول له بلهجة قوية :

_لماذا جئت؟!!!

نهرها والدها بعنف واحتدّ عليها بحديثه...

لكنها لم تكن تسمعه...

عيناها كانتا تضخّان فيض غضبها العاصف أمام هذا الرجل الذي فجّر براكين جروحها الخامدة كلها...

لتندلع حممها فتصهر كل ما تحاول التظاهر به من صلابة...

أما هو فقد تلقى رصاص نظراتها بصبر...

وابتسامة شاحبة تشق طريقها لشفتيه وهو ينظر إليها للحظات...

قبل أن يلتفت نحو والدها قائلاً بتهذيب واضح:

_أستأذنك أن تتركني مع دعاء وحدنا يا عمي...

ثم عاد يقتنص نظراتها بمهارة وهو يردف بثقة :

_سأعرف كيف أصالحها...فلا يليق أن تبقي غاضبة ونحن سنعقد قراننا غداً!!!!

===========

جلست ميادة تنتظره في النادي كما طلب منها على الهاتف منذ قليل...

ارتسمت على شفتيها ابتسامة انتصار قوية وهي تسترجع أحداث أيامها الماضية معه...

عزيز شاكر ...

صيدها الثمين أوشك على الوقوع في حبائلها...

لقد استطاعت كسب صداقته مع شعورها أنه معجبٌ بتفكيرها كثيراً...

صحيحٌ أنها تعلم يقيناً أن قلبه لازال بعيداً كالسماء...

لكن مالها هي وقلبه؟!!!

فليمنح الشاعر قلبه لماسته المفقودة...

ولتمتلك هي كل ما تبقى منه!!!!

صفقة رابحة!!!

رابحة حقاً يا ميادة!!!

هكذا كانت تحدث نفسها بثقة ممتزجة بالظفر عندما حانت منها التفاتة نحو طفلةٍ كانت تبكي وحدها وهي تجلس على الحشائش الخضراء هناك...

اختفت ابتسامتها القاسية للحظة...

وهي تري الطفلة أشبه ما تكون بها عندما كانت في سنها...

نفس الشعر المشعث الأسود متوسط الطول...

والجسد النحيل ذي الكدمات نتيجة سقوطها المتكرر على الدرج في منزل جدتها القديم لأنها كانت تلعب عليه وحدها...

والثوب الذي اتسخ ببقع الطعام -رغم فخامته-!!

والأهم...تلك النظرة الكسيرة في عينٍ تتنازعها البراءة والألم....

لم تشعر بنفسها وهي تقوم من مكانها لتتقدم نحوها بخطواتٍ بطيئة كالمسحورة...

حتى جلست على ركبتيها أمامها غير آبهةٍ باتساخ ملابسها الأنيقة....

ربتت على كتف الصغيرة برفق وهي تسألها بحنانٍ قلّما يتسرب لكلماتها:

_لماذا تبكين يا "سُكّر"؟!!!!

كانت هذه هي لفظة تدليلها للصغار عموماً...

طالما كان الأطفال نقطة ضعفها الكبري...

كانت تراهم قطعاً من السكاكر تحلو بهم الحياة...

لكن براءتهم تذوب -كما السكر-في ماء الحياة المالح عندما يكبرون ...

فلا تعود هناك حلاوة...

ولا يعود هناك "سكّر"!!!!

التفتت الصغيرة نحوها بنفس النظرة المهلكة وهي تهتف بغضب طفوليّ:

_أمي مشغولةٌ بهاتفها ولا تريد أن تصنع لي جديلة!!

ابتسمت بمرارة وهي تسترجع ذكرياتها رغماً عنها...

لتسأل الصغيرة بشرود:

_هل تنامين في حضنها كل يوم؟!!

هزت الصغيرة رأسها نفياً وهي تهتف بين دموعها:

_هي تنام أمام التلفاز في غرفتها وتتركني مع ألعابي في غرفتي.

اتسعت ابتسامتها المريرة وهي تعاود سؤالها :

_هل تذاكر معك دروسك؟!!

مسحت الصغيرة دموعها بكفيها الصغيرين وهي تقول ببراءة:

_المعلمة تأتيني في المنزل كي تذاكر معي.

ربتت على رأسها وهي تقول بعطف:

_هل تشاركِكِ طعامكِ وألعابكِ؟!!!

هزت الصغيرة رأسها نفياً وهمسها البرئ يصل أذنيها كسيراً:

_الخادمة تفعل!!

ضمتها ميادة لصدرها بقوة للحظات....

ثم أبعدتها قليلاً لتمشط لها شعرها بأناملها قدر ما استطاعت...

ثم جدلته لها بشكل عشوائي لكن الصغيرة فرحت بهذا كثيراً...

وقبّلتها على وجنتها بقوة...

فأحاطت ميادة وجهها بكفيها وهي تنظر لعيني الصغيرة بقوة هامسة بثقة:

_يوماً ما يا صغيرتي تكبرين...فلا تحتاجين لمن يجدل لك ضفائرك...ولا لمن يشاركك طعامك وحياتك...يوماً ما تعتادين أن تخوضي الحياة بقوة وحدك...فتتعلمين أن وحدتكِ هي سرّ قوتك.

نظرت إليها الصغيرة بعدم فهم ...

فابتسمت لها وهي تحرر وجهها من بين أناملها...

لتقوم الصغيرة وتعدو نحو رفيقاتها من الأطفال سعيدة ضاحكة....

ظلت تراقب الصغيرة للحظات وهي جالسة مكانها...

لتخونها دمعة يتيمة سقطت على وجنتها فمسحتها بسرعة...

عندما شعرت بكفه الممدود جوار رأسها...

رفعت عينيها إليه بدهشة لتلتقط ابتسامته الحنون على شفتيه...

وتلك النظرة الغريبة الذائبة في بحر الزمرد تأسرها للحظة...

قبل أن تستعيد نفسها لتتشبث بكفه وهي تقوم من مكانها ...

نفضت ثيابها بسرعة وهي تقول ببساطة مفسرة موقفها:

_طفلة صغيرة كانت...

قاطع عبارتها وهو ينظر إليها نفس النظرة الغريبة على عينيها قائلاً بتفهم:

_لقد سمعتكما.!!

عقدت حاجبيها بضيق للحظة وهي تشيح بوجهها عنه...

خطأ يا ميادة ...

خطأ!!!

عندما يرى أحدهم لحظة ضعفك فإن هذا يمنحه نقطة قوة...

فلا تسمحي بهذا!!!!

لهذا قلبت الأدوار بذكاء وهي تبادره بالسؤال:

_لقد قلتَ أنك تحتاج للتحدث معي...دعنا نجلس لنري مشكلتك.

نظر إليها للحظات وهو يشعر أنه حقاً أمام لغزٍ كبير...

هو يعرف الكثير عن ظروف نشأتها بطبيعة الحال...

في بداية الأمر كان ينظر إليها على أنها فتاة مدللة افتقدت تربية والديها فنشأت منفلتة بلا قيود...

وساعدتها دراستها في "الولايات المتحدة" على أن تكون أكثر تحرراً وانفلاتاً...

لكنه يتأكد كل يوم من خطأ هذه الفكرة...

ميادة ليست منفلتة ...

ربما تكون متحررةً بعض الشئ لكنها ليست فاسدة الأخلاق...

أفكارها غريبة شديدة العمليّة وكأنها لا تقيم للمشاعر وزناً...

بل إنها حقاً كذلك!!!

لكن موقفها الآن مع هذه الصغيرة جعله يفهمها أكثر...

هذه امرأة عانت من جفاف مشاعرها حتى صارت تكفر بها من الأساس...

إذا كان أقرب الناس هم من خذلوا قلبك...

فلا تتعجب لو صار للحجر أقرب!!!

تنهد في حرارة وهو يسير جوارها صامتاً حتى جلس قبالتها على المائدة...

فابتدرته بالسؤال:

_ماذا بك أيها الشاعر؟!!!

ابتسم وهو ينظر لعينيها قائلاً باستكشاف :

_أشعر وكأنّكِ تُعيّرينني عندما تنادينني ب"الشاعر"!!!

هزت كتفيها وهي تقول ببساطة:

_لماذا تفهمها هكذا؟!!! أنا فقط أناديك كما أراك...شاعرٌ حالم يظن الحياة تستقيم بجناحٍ واحد ويتعجب من عدم قدرته على الطيران...!!!!

عقد حاجبيه للحظة...

ثم هز رأسه ليقول بتعجب:

_ماذا تعرفين عني بالضبط كي تحكمي علىّ بهذا؟!!!

ابتسمت ابتسامة ساحرة وهي تميل بجسدها للأمام على المائدة لتقول بنظرات ثاقبة:

_علمتني الحياة ألا ألقي أوراقي كاملة...لكن دعنا نقُل أنني أعرف عنك الكثير.

أطرق برأسه للحظات...

فسألته بحذر:

_أشعر أنك تريد التحدث في أمرٍ ما....لكنك تتردد.

رفع رأسه إليها بدهشة ثم ابتسم قائلاً بإعجاب:

_ذكاؤكِ يخيفني أحياناً!!

أمالت رأسها وهي تقول بثقة :

_أحياناً؟!!! أتوقع أن يخيفك دائماً!!!

ضحك ضحكة قصيرة ثم قال بصدق:

_يعجبني الحديث معك...أشعر أنني في مبارزة كلامية.

ضحكت بدورها وهي تعود لتسند ظهرها للوراء متفحصةً نظراته الزمردية باهتمام قائلة:

_قل ما لديك يا عزيز...أنا أسمعك.

صمت للحظات يستجمع شتات أفكاره ثم حسم أمره ليقول بصراحة:

_أنا متورطٌ بفتاة يريد أبي تزويجي منها...لكن قلبي عالقٌ مع أخرى...المشكلة أن أبي يضغط عليّ بشدة في هذا الشأن هذه الأيام بالذات...وأنا لا أريد أن أظلم هذه الفتاة معي.

ابتسمت وهي تنقر بأصابعها على المائدة للحظات...

قبل أن تقول بلهجتها الواثقة:

_عندما تسلك طريق الصراحة فأكمله لآخره ...ولا داعي لهذه المواربة.

ضاقت عيناه بتفحص وهو يترقب ردها...

فأردفت بنفس اللهجة:

_لكن دعني أحدثك بلغتك أيها الشاعر...أنت لن تظلم "هذه الفتاة" معك كما تقول...فهي تعرف جيداً ماذا تريد منها ...وماذا تريد هي منك.

انعقد حاجباه بشدة...

وكذلك انعقد لسانه وهو عاجزٌ عن الرد أمام صراحتها المفرطة....

لتكمل هي حديثها ببساطة متناهية:

_أنا لا يعنيني شأن قلبك هذا...زواجنا بالنسبة إلىّ مجرد عقد بشروط...صفقة يراها عقلي رابحة لكلينا.

ثم قامت من مكانها لتتناول حقيبتها وهي تقول بحسم:

_لو أردتَ رأيي ...أرضِ والدك واستمع لصوت العقل هذه المرة.

وقف بدوره مواجهاً لها وهو يشعر بغرابة موقفها...

ألن تكف هذه المرأة عن مفاجأته بأفعالها؟!!!!

صادمةٌ هي في كل ما تقول...

وما تعتقد...

وما تفعل!!!

لكنه لا ينكر أنه معجبٌ باختلافها هذا!!!!

شئٌ ما فيها يكمل جزءاً شاغراً بأعماقه...

ربما لأنها تمثل صوت العقل المجرد بلا عاطفة...

وهو المذبوح بعاطفته من الشريان إلى الشريان!!!!

ويتوق لهدنةٍ من هذه الحرب التي استنزفت مشاعره....!!!!

نعم...

ربما كان هذا هو السبب...

وربما هو شعوره -المستحدث-بالشفقة نحوها وهو يستكشف سبب أفكارها الغريبة ....

حرمانها من الحب والاهتمام منذ صغرها...

شفقة؟!!!

نعم...هذا هو أفضل توصيف لإحساسه بها...

وإلا فماذا يكون؟!!!

عاد ينظر إليها بحيرة وكلماته سجينةٌ بين جدران تردده...

لكنها قرأت أفكاره بعينيه كعادتها فابتسمت وهي تقول بيقين:

_سأنتظر منك مكالمةً لنحدد موعد الخطبة!!!!

==========

_مباركٌ زواجكِ يا ابنة عمتى!!

هتف بها عبدالله بود ظاهر مخاطباً ابنة عمته التي تزوجت منذ شهر واحد....

وقد اصطحب معه صفا ليباركا لها زواجها كما اقتضت العادات...

ابتسمت صفا بطيبتها المعهودة وهي تقول بحنان:

_لقد كنتِ في غاية الجمال ليلة الزفاف...بارك الله لكِ يا حبيبتي.

ابتسمت العروس بدورها وهي تنظر نحو عبدالله نظرة خاصة لم تفوتها عين صفا....

فقد كانت تعلم أن عمته تريد تزويجه من ابنتها...

نعم...لم تكن تمانع في أن تكون زوجة ثانية له...

فقد كانت تعلم أن ابنتها لو حملت طفلاً منه بعد زواجها فوجود صفا لن يعني له شيئاً وقتها...

خاصةً مع ضيق حالهم وثراء عبد الله بالنسبة إليهم...

لكن عبد الله صارح عمته بأنه لن يفكر أبداً في الزواج بامرأة أخرى ...

بل إنه قال لها بالحرف أن صفا ستكون زوجته الأولي والأخيرة....

وكم شعرت بالامتنان نحوه وقتها...

ومع هذا يبقى هذا خوفها الأعظم...

أن يتزوج عبد الله من أخرى طمعاً في الولد!!!!

لهذا شعرت بخنجر مسموم يطعن صدرها عندما قالت ابنة عمته بلهجة خاصة مشبعة بالشماتة:

_لن تباركا الزواج فحسب...لقد علمت فقط بالأمس أنني أنتظر طفلاً.

لكزت عمته ابنتها في جنبها وهي تتمتم بكلماتٍ لم تسمعها صفا...

لكنها استنتجت فحواها...

خاصة عندما قالت عمته بعدها بارتباك:

_ليس الأمر مؤكداً بعد...لازالت في البداية...هذه الأمور لا تأتي بسرعة هكذا .

ثم فردت أصابعها الخمسة في وجهيهما -بتلك الحركة الشهيرة -وهي تقول بلهجتها الشعبية البسيطة:

_خمسة أيامٍ وهي مريضة ...ولا نعرف لهذا سبباً...وهي تظن أنها أعراض حمل!!!!

أطرقت صفا برأسها وهي تكتم دموعها...

نفس القصة التي تتكرر...

مشاعرها التي يذبحونها ما بين الشماتة والخوف من الحسد....!!!!

أغلب صديقاتها وجاراتها يخفن من أن تحسدهنّ فيكتمن عنها خبر حملهنّ ...

وعندما تعرف هي بهذا يتحاشين اللقاء معها...

وحتى بعدما يضعنَ صغارهنّ تشعر دوماً بالخوف في عيونهنّ ...

وكأنها ستتمنى أن يُحرَمن النعمة كما حُرمت هي منها!!!!!

ويعلم الله أنها لم تعلم يوماً عن حمل أي امرأة إلا ودعت لها بالبركة...

ودعت لنفسها بالمثل!!!!

لكن ما حيلتها؟!!!

والكل يجلدها بذنبٍ ليس بذنبها!!!!

شعر عبد الله بما تعانيه فقد كان يفهم كل ما يدور حوله ...

وكم شعر بالغضب لأجلها!!!

لهذا تناول كفها في كفه وهو يخاطب ابنة عمته قائلاً ببرود:

_قدّر الله وما شاء فعل...أنا عن نفسي كنت أرجو أن تستمتعي بحياتكِ قليلاً قبل أن تتحملي مسئوليةً كبيرة كهذه .

ثم التفت نحو عمته قائلاً بلهجة ذات مغزي:

_أنا أحمد الله أن حمل صفا قد تأخر حتى لا يشغلها عني شئ...فأنا أدمنتُ اهتمامها الكامل بي...ولا أستوعب أن يشاركني فيه أحد ولا حتى طفلي.

ثم وقف ليوقفها معه وهو يقول باقتضاب:

_عموماً...مبارك لكِ ما رزقكِ الله .

قالها ثم استأذن بالانصراف بسرعة وكأنه ما عاد يطيق البقاء أطول...

وبعد انصرافهما ظلت صفا صامتةً طويلاً .....

كان يقود السيارة بتمهل عائداً للمنزل ...

ثم التفت نحوها فجأة ليسألها بحنان:

_ما رأيك لو أركن السيارة قريباً ونسير سوياً على "الكورنيش"؟!!!

أومأت برأسها في رضا....

فأوقف السيارة ليترجلا منها ويسيرا سوياً بخطواتٍ متمهلة....

تأبطت ذراعه وهي تهمس بشرود:

_العمر يجري بنا يا شيخ عبد الله...هل تذكر مِشيتنا هذه منذ سنوات أول زواجنا؟!!!

ربت على كفها برفق وهو يقول بعاطفة صادقة:

_وما يعنينا لو يمرّ العمر....ما دمنا معاً؟!!!!

التفتت نحوه لتقول بأسف كسير:

_وحدنا !!!

تنهد في حرارة ثم عاد يربت على كفها قائلاً برضا:

_إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

تعلقت عيناها بعينيه وهي تهمس بحزنٍ صافٍ:

_كم أتمنى لو أقول لك الآن كما تقول النساء في ظروفي...اذهب وتزوج من أخرى كي تتنعم بالذرية...لكنني ....لا أستطيع أن أقولها.

ابتسم وهو يحتضن نظراتها بعينيه هامساً بحنان:

_ولو قالتها نساء الدنيا كلهن...صفا المعموري لن تقولها...ليست غيرة ولا أنانية...ولكنه إدراككِ بأنني لن أكون إلا لكِ.

ثم أردف بما يشبه الوعد:

_النجم لا يتفلّت من مداره حول مركزه أبداً.

أغمضت عينيها على صورته وهي تود لو لا تعود تري سواها...

وكم تمنت وقتها لو تصمّ أذناها كذلك فلا تعود تسمع شيئاً بعد وعده الساحر...

لو تغزل من حروف كلماته غلالةً من الأمان تطوقها وتحميها من برد خوفها الذي ينخر عظامها بقسوة....

لكن ما حيلتها ؟!!!!

وحبها له كقاربٍ يتأرجح في بحر هائج بلا شطآن...

وهي فوقه هائمةٌ حائرة شاردة....

تخشى الغرق...!!!!

لكنه شعر بها فقال بحزم رفيق:

_انزعي الظنون السوداء من رأسك...وتذكري قول الله تعالي"إنّا كل شيءٍ خلقناه بقدَر".

هزت رأسها وهي تتمتم بخفوت:

_ونعم بالله.

ثم رفعت عينيها إليه بوجل وهي تهمس برجاءٍ خفيّ:

_لي لديك رغبةٌ فلا تردني خائبة.

ابتسم في حنان وهو ينظر لعينيها هامساً :

_ما عاش ولا كان من يردّك خائبة يا صفا روحي!!

تنحنحت بارتباك...

فهز رأسه مشجعاً لتقول هي بعدها بنبرة متوسلة :

_أنت تعلم أن أنس ابن عمي يمتلك مدرسة خاصة...كنت أريد أن أستأذنك في العمل هناك كمعلمة.

انعقد حاجباه بغضب وتوقف عن السير ليقول بضيق:

_ماذا تقولين؟!!!

تلفتت حولها وهي تري الأنظار تتجه إليهما....

فغمغمت بخفوت:

_اهدأ يا عبد الله واسمعني.

أشاح بوجهه وهو يعاود السير فصمتت للحظات حتى تهدأ غضبته...

ثم غمغمت برجاء:

_الوحدة تكاد تقتلني ...وأنت لا تعود من عملك إلا بعد صلاة العشاء...فكّر في الأمر يا عبد الله.

التفت نحوها ليهتف بسخط:

_تريدين أن يتحدث التجار في السوق أن زوجة الشيخ عبد الله تخرج للعمل..؟!!!لماذا؟!!!!تحتاجين مالاً؟!!!!

دمعت عيناها وهي تهمس بحزنٍ اخترق قلبه كرصاصة قاسية:

_أحتاج أطفالاً!!!

أخذ نفساً عميقاً وهو يرفع رأسه لأعلى للحظات....

ثم زفر ببطء دون أن يرد....

ظل على صمته لدقائق يفكر في اقتراحها الصادم....

لو كانا في ظروفٍ أخرى لما وافقها على ما تقول أبداً...

لكنّ هذا الألم الذي يفترس نظراتها بشراسة يكاد يخنقه حزناً عليها...

صفا تستحق السعادة كاملة....

وهو لن يدخر جهداً في سبيل هذا...

لو لم يتنازل لأجلها...

فلمن يفعلها إذن؟!

التفت نحوها يتأمل ملامحها المنكسرة بأسف...

ثم استغفر الله سرّاً ليقول بعدها بلهجة لينة:

_حسناً يا صفا...لو كان هذا يسعدكِ فافعليه.

==================

_ماذا تريدني أن أفعل؟!!!

همست بها رؤى وهي مطرقة برأسها كعادتها عندما تحدثه...

منذ ليلة زفافهما الكارثية وهو يتحاشاها ...

ينام على الأريكة في زاوية الغرفة ليلاً...

ويقضي نهاره أمام التلفاز متظاهراً بمتابعته...

لو كان الأمر بيده لترك لها البيت منذ أول يوم ...

لكنه أراد الحفاظ على الصورة العامة لهما كعروسين هانئين!!!

ابتسم في سخرية مريرة عندما وصل بأفكاره لهذه النقطة...

لكن ابتسامته اختفت لتعلو وجهه ملامح قسوة عنيفة وهو يلوح بسبابته في وجهها:

_من اليوم سأذهب إلى عملي في الورشة...لن أعود قبل المغرب...ستقيمين مع أمي حتى أعود تخدمينها وترعين شئون المنزل.

أومأت برأسها في طاعة دون أن تجرؤ على النظر إليه...

رغم أنها شاكرة له على ستره لخطيئتها ...

ولا تكاد تصدق حتى الآن أنها تخلصت من هذه الفضيحة...

لكنها الآن غارقة في مصيبة أكبر...

هذا الرجل يخيفها بحق!!!

مجرد رؤيته تثير ذعرها...

لقد هربت من خوفها من عبد الله لتلاقي رعباً محققاً مع هذا الرجل!

لكنها ستحاول إرضاءه بكل الطرق...

هي لا تملك معه الآن سوى السمع والطاعة...

إن لم يكن امتناناً له على صنيعه فخوفاً من بطشه الذي عاينته بنفسها ليلة زفافها!!!

رمقها بنظرة مشتعلة أخيرة ثم تناول كفها ليخرج معها من شقتهما لكي يتوجها نحو شقة والدته...

وهناك احتضنته والدته بقوة وهي تتمتم له بالدعاء حتى خرج...

ثم التفتت لرؤى ترمقها بتفحص وهي تقول بتهكم:

_لماذا فقدتِ الكثير من وزنكِ هكذا؟!!لقد صرتِ أشبه بعصا المكنسة!!

كانت تتبع نصائح هيام زوجة أخيه التي أوصتها أن تكسر أنفها منذ البداية حتى لا تتكبر على ابنها بجمالها أو بالفارق بينهما في مستوي التعليم.

والحقيقة أنها لم تكن في حاجة لهذه التوصية...

فقد شعرت بقلب الأم أن ابنها حاد الطبع- كما يعرفه الجميع -قلبه شديد التعلق بهذه الفتاة...

والرجل لا يكسره إلا قلبه كما علمتها الحياة!

لهذا فلن تسمح لهذه الفتاة أن تسيطر على ابنها أكثر...

ستكسر شوكتها حتى تعرف مكانتها الحقيقية في هذا المنزل...

ولا تتجاوز حدودها!!!

صحيح أنها تتجاوز كثيراً لهيام على تسلطها وسيطرتها على زوجها...

لكن الأمر مع رؤى يختلف...

رؤى زوجة راغب...

ابنها المفضل والذي تعتمد عليه في كل شئونها!

أجل ...رغم أن راغب هو ابنها الأصغر لكنها تشعر أنه سندها ودعامتها في هذه الحياة...

هو رجلٌ حقيقي تفخر برجاحة عقله التي يتحدث عنها الجميع...

وتخشي عليه مصير شقيقه الذي يتبع زوجته في كل شئ كالمسحور...

لكن عزاءها أنها تعرف جيداً متى توقف هيام عند حدها...

وتلجم جموح جيادها الطليقة!!!!!

وأمامها كانت رؤى واقفة بتهذيب ...

لم تعرف بماذا ترد عليها فتقبلت عبارتها بصبر...

لكن هذا لم يعجب والدته عفاف على ما يبدو فمطت شفتيها لتسألها بنفس النبرة المتهكمة:

_هل تجيدين شئون المنزل أم أنكِ فاشلة كما يبدو عليكِ؟!!

ابتلعت رؤى إهانتها الثانية وهي تغمغم بنفس النبرة المهذبة:

_قولي لي ماذا تريدين مني...وأنا سأفعله!

رمقتها عفاف بنظرة متفحصة تقييمية وهي تشعر بالغرابة...

الفتاة حقاً تبدو مهذبة ولم يصدر منها ما يجعلها تنفر منها...

لكن لماذا إذن لا تشعر بالارتياح نحوها؟!!

قطعت هيام أفكارها عندما دخلت من باب الشقة لتهتف بسخرية وقحة:

_أهلاً بالعروس...لا أصدق أنكِ صرتِ بهذا الشحوب بعد أسبوع زواج واحد...يالحظك يا راغب!!!! مساحيق التجميل كانت تخفي الكثير!!!

دمعت عينا رؤى وهي تشعر بالقهر...

أي مساحيق تجميل هذه التي تتحدث عنها؟!!!

هي لم تستعملها أبداً إلا يوم زفافها!!!

جمالها المتورد النقي طبيعيّ لا يحتاج للمسات إضافية...

صحيح أنها تشعر بشحوب وجهها وذبوله منذ بضعة أيام...

لكن هذا طبيعي مع قلة شهيتها وسوء حالتها النفسية...

إنها بالكاد تتذوق طعم النوم...

تقضي ليلها خائفة مذعورة على سريرها وذهنها يسترجع ضربه المبرح لها ليلة الزفاف!!!

وتقضي نهارها حبيسة في غرفتها مخافة أن تلتقيه فيقذفها بإهاناته المعتادة...

فماذا تتوقع أن يكون شكلها بعد كل هذا؟!!!

قطعت عفاف أفكارها وهي تقول لهيام بلهجة آمرة:

_خذيها وعلميها كيف تسير الأمور هنا في هذا المنزل...من الآن فصاعداً هي التي ستقوم بشئون المنزل كلها.

=============

غادر راغب ورشته وهو يشعر بمزيج غريب من الضيق والاشتياق...

نعم...اشتاقها للأسف...!!!!

قلبه الأحمق لازال يعشقها...

سبعة أيام مضت له معها في بيته كانوا كجحيم حقيقي له...

جسده يرغبها ....

وعقله يشمئز منها .....

وضميره يؤنبه لأجلها...

وبين كل هذا قلبه معلقٌ بها تعلق طفلٍ بجلباب أمه!!!

خنوعها واستسلامها لإهاناته وسوء أسلوبه يصيبانه بالجنون...

ليتها تصرخ أو تجادل أو حتى تعترض...

لكان وجد لنفسه عذراً في المزيد من الإساءة إليها...

لكنها على العكس تبدو رقيقة كفراشة ...وبريئة كطفلة!!!

طفلة؟!!!

طفلة تزوجت بعقد عرفي وفرطت في شرفها ؟!!!!!

زفر بقوة وهو يتأهب للصعود نحو منزله ...

مر على شقة والدته بحكم العادة فتلقته بالترحيب والدعاء كعادتها...

ألقي السلام بفتور على هيام التي كانت ترمقه بنظراتها المستفزة...

ثم دار بعينيه حوله هاتفاً بلهجته الخشنة:

_أين رؤى؟!

كادت والدته تجيبه لكن هيام بادرته بقولها:

_في شقتها منذ أن غادرت أنت المنزل...رغم أنه من المفترض أن تساعد "الحاجة" في شئون المنزل...لكن لا بأس...لازالت عروساً ويحق لها التدلل!!!

عقد راغب حاجبيه بغضب ليغادرهما صاعداً نحو شقته...

فتح باب غرفتهما ليجدها متمددة على الفراش...

تأوهت بضعف وهي تحاول الوقوف لكنها لم تستطع...

هيام جعلتها تقوم بشئون المنزل كلها ...

طهو الطعام وتنظيف الشقة...

بل إنها جعلتها تقوم بمسح سلم المنزل كله مرتين...

وهي لم تقوَ على الاعتراض...

فهي تعلم أنها لا سند لها هنا ولن يسمع شكواها أحد!!!

اقترب منها وقد زاد غضبه لمرآها هكذا متمددة على الفراش فهتف بحدة:

_هل كان هذا اتفاقي معك؟!!! هل تحبين أن أذكركِ بقسوة عقابي كل مرة؟!!

قالها وهو يقبض كفه أمام وجهها فارتجفت بذعر هامسة بخوف شديد:

_أنا فعلت كما طلبتَ مني...نفذت أوامر "الحاجة" كلها ...وقمت بكل عمل المنزل ....ألم تسألها؟!!

عقد حاجبيه بشك وهو يتأملها بتفحص...

إنها تبدو صادقة وهو لا يثق بحديث هيام على أي حال...

لكنه لن يشغل باله بتفاهات النساء هذه...

يكفيه همّه بها!!!!

لهذا أشاح بوجهه عنها فهمست بتردد:

_ماذا تريدني أن أفعل الآن؟!!

التفت إليها في ضيق وقد بدت له كطفلة مذعورة...

خوفها هذا يقتله ...

يفقده الشعور برجولته معها...

الرجل الحقيقي في نظره ليس الذي تخاف منه امرأته...

بل تجد أمانها معه!!!

لكن ما حيلته معها؟!!

لقد وجد نفسه فجأة معها هكذا في منتصف طريق...

لا يدري كيف بدأه ولا كيف سينهيه؟!!

تحاملت على نفسها رغم آلام ظهرها لتقف مواجهة له قائلة بنفس الرقة الخائفة:

_قل لي فقط ماذا تريد ...وفيمَ أخطأت...وأنا لن أعيدها ثانية!!

دق قلبه بقوة وهو يستشعر رقتها تذيب جموده...

هل من المعقول أنها تدعي كل هذه البراءة والرقة؟!!

لا...مستحيل!!!

هو عايش كثيراً من صنوف البشر بحسب طبيعة عمله...

ويدرك أن هذه الفتاة حقاً شديدة البراءة ...

ولعل هذا ما يعذبه بها أكثر!!!!

أطرق برأسه وهو يقول لها باقتضاب:

_أعدي لي الطعام...أحبه دوماً ساخناً عند عودتي من الورشة!

أومأت برأسها إيجاباً وهي تهرول نحو المطبخ...

جسدها كله يؤلمها من عمل اليوم الشاق...

لكنها لن تجرؤ على التفوه بكلمة!!!

أعدت الأطباق كلها ووضعتها على الصينية الكبيرة...

ثم انحنت لتحملها لكن عضلات ظهرها تقلصت فجأة فتأوهت بقوة ثم خانتها يداها فسقطت الصينية كلها أرضاً بدويّ هائل!!

اندفع نحو المطبخ على أثر الضجيج...

فنظرت إليه بذعر وهي تنكمش على نفسها هامسة بصوت متقطع:

_لم أقصد...والله العظيم...كان رغماً عني.

ثم انحنت لتجلس على ركبتيها تجمع شظايا الزجاج المكسور وقلبها يكاد يتوقف خوفاً...

حتى أنها لم تهتم أن جرحت أناملها ....

لكنه انحنى ليمسكها من مرفقيها ويرفعها نحوه فهتفت ودموعها تغرق وجهها :

_آخر مرة والله....سأنتبه في المرة القادمة...أرجوك لا تغضب.

استغفر الله سراً وهو يري الذعر الواضح على ملامحها يكاد يقتلها ويقتله معها!!!

جذبها من ذراعها بعيداً عن الزجاج المكسور ثم ذهب بها إلى حمام شقتهم حيث غسل لها أناملها المجروحة ليزيل أثر الدم...

ثم ضمدها لها برباط من الشاش وهي ترقبه بتوجس...

تتوقع أن يبطش بها في أي لحظة...

لكنه انتهى مما يفعله ثم قال لها بخشونته المعهودة :

_اذهبي إلى غرفتك.

ازدردت ريقها ببطء وهي تقول بخشية:

_أنت لم تتناول طعامك..سأعد لك طعاماً آخر ...لن أتأخر.

أشاح بوجهه عنها ثم قال بضيق:

_لم تعد لديّ شهية للطعام ...لا شأن لكِ بي!!!

ظلت واقفة مكانها ترقبه برهبة...فالتفت إليها هاتفاً بحدة:

_عودي إلى غرفتك!!

ارتجف جسدها فزعاً وهي تومئ برأسها ثم توجهت نحو غرفتها بسرعة ...

لتتمدد على الفراش وترفع غطاءها عليها حتى رأسها...

سالت دموعها على وجنتيها وهي تشعر بأنها لن تحتمل هذا الجحيم أكثر...

قلبها سيتوقف حقاً من كل هذا الرعب الذي تعيشه هنا!!!

ظل جسدها على ارتجافته مع دموعها التي عجزت عن منعها...

حتى استسلمت أخيراً لإرهاق يومها الطويل فسقطت في نوم عميق!!!

وفي الخارج توجه هو للمطبخ حيث أزال شظايا الزجاج المكسور ...

ونظف الفوضي الناتجة عن كسر الأطباق...

كاد يغادر المطبخ لولا أن استوقفته قطرات من دمها نتجت عن جرح أصابعها كانت هناك على الجدار...

أغمض عينيه بألم وهو يتحسسها بأنامله...

قلبه يكاد ينفطر كلما رأى حالها أمامه...

لكنه عاجزٌ مثلها تماماً لا يقوى على معاندة نفسه أكثر!!!

ظل جالساً على الأريكة في صالة المنزل يفكر في شرود...

حتى شعر برغبته في النوم...

دخل الغرفة ليجدها على حالها العجيب..

رافعة غطاءها حتى رأسها وكأنها تدفن نفسها تحته!!!

توجه نحوها- بلا وعي - حتى رفع الغطاء عن وجهها النائم الذي هاله شحوبه الشديد....

وقد بقيت عليه آثار دموعها المتجمدة...

ليهز رأسه بأسف ثم تنهد تنهيدة حارة وهو يهمس بأسى:

_لماذا يا رؤى؟!!! لماذا؟!!!

===============

استيقظت من نومها لتتأمل الغرفة حولها بدهشة...

شهقت بعنف وهي تنتفض من مكانها ...

هل كان هذا حقيقياً؟!!!

هل نامت في غرفة عاصي الرفاعي ؟!!!

وعلى فراشه؟!!!

جلست على طرف السرير وهي عاجزة عن تحديد الوقت...

لكنها نامت كثيراً كما يبدو...

فالشمس تبدو خلف زجاج النافذة المغلق وكأنها وقت الظهيرة....

وضعت كفها على رأسها وهي تستعيد حديثه معها بالأمس...

والذي بدا لها الآن كأنه كان حلماً!!!!

هل كان عاصي الرفاعي يخاطبها بكل هذا الرفق...؟!!!

هل كان يحتضن كفها ويداعب شعرها بهذه الطريقة؟!!!

هل طلب منها حقاً أن تنام في غرفته -المحرم على الجميع دخولها -كل ليلة؟!!!!

هل فعل كل هذا فقط ليحميها من كوابيسها؟!!!!

كوابيسها؟!!!

وضعت أناملها على شفتيها وهي تتبين أنها نامت بعدها دون أن يقطع نومها شئ!!!

نوم طويل متصل لم تعرفه منذ زمن بعيد...

غريب!!!!

لكن...لعلها مصادفة...

لعلها كانت مرهقة في آخر هذا اليوم الطويل...!!!!

طرقات هادئة على باب الغرفة قطعت أفكارها ...

فانتفضت مكانها ثم قامت من مكانها لتفتح الباب بحذر...

نظرت إليها الخادمة ببشاشة وهي تقول بتهذيب:

_السيد عاصي سافر منذ الصباح وطلب مني أن أخبركِ ألا تغادري غرفته حتى يعود.

عقدت حاجبيها بدهشة ثم سألتها بارتباك:

_ودواء السيدة حورية؟!!!

اتسعت ابتسامة الخادمة وهي تقول :

_لم يعد هذا مقامك يا سيدتي....السيد عاصي أحضر ممرضة جديدة بالأمس.

ازدادت دهشتها وهي تفكر أنه ربما كان هذا أفضل...

لن تستطيع أن تنظر في عيني حورية بعد ما حدث...

كيف تصدقها لو علمت عن مبيتها هنا الليلة الفائتة؟!

أمرٌ كهذا لن يخفي علىها خاصة في هذا القصر...

الخدم لن يكون لهم حديث سوى عن ماسة العروس التي دخلت غرفة السيد عاصي المحرمة!!!!

هزت رأسها ثم زفرت بخفوت...

هل يمكن أن تكون حورية الآن تشعر بالغيرة؟!!!

إنها لم تشعر أبداً بوجود مشاعر حب بينها وبين عاصي...

وهي تعذرها في هذا حقيقة....

حتى بعد ما رأته منه من تفهم ورفق في الليلة السابقة...

لكنه لازال في عينيها غامضاً منفراً لحد كبير!!!!

قطعت الخادمة أفكارها وهي تقول بنفس التهذيب المرح:

_إفطار العروس جاهز يا سيدتي.

ابتسمت في سخرية مريرة رغماً عنها...

ثم ربتت على كتف الخادمة بطيبة قائلة:

_أجليه الآن فلا شهية لديّ.

أغلقت الباب برفق بعد رحيل الخادمة وهي تفكر بشرود...

أين سافر عاصي؟!!!

ولماذا طلب منها ألا تغادر غرفته حتى يعود؟!!!

وما سر معاملته المختلفة لها بالأمس؟!!!

هل يشفق عليها؟!!!

ولماذا إذن لا يشفق على زوجته المسكينة التي يذيقها الويل بسوء معاملته؟!!!

انقبض قلبها بعنف وهي تتذكر حديث حورية عن قتله لابن عمها لمجرد شكه فيه...

قاتل؟!!!

هل من المعقول أن يصل جبروته إلى هذا الحد؟!!!

انتقل بصرها رغماً عنها للفراش الذي كانت تنام عليه...

تستعيد صورته بالأمس وهو يحتضن كفها مداعباً شعرها برفق ليحمل لها الأمان بحديثه الذي لم تسمع مثله يوماً...

هزت رأسها وهي تعاود سؤال نفسها بحيرة....

هل كان هذا حقيقياً؟!!!

عاصي هذا لغز كبير!!!

كبير حقاً!!!!!

==========

تمددت ماسة على الأريكة في غرفته تحدق للسقف في شرود...

لقد تأخر الوقت وعاصي لم يعد بعد...

إنها تشعر بالملل من جلستها هكذا...

وبالطبع هي ما عادت قادرة على مسامرة حورية كالسابق...

بأي وجه ستنظر إليها بعد ما حدث؟!!!

تنهدت في حرارة عندما سمعت صوت طرقات على الباب...

قامت من مكانها بسرعة تعدل ثيابها ثم فتحت الباب بحذر لتصدمها نيران غاباته الزيتونية للحظة...

قبل أن تنطفئ كما هيئ إليها وهو يدخل الغرفة مغلقاً بابها خلفه قائلاً باهتمام:

_كيف كان نومكِ ؟!!هل عاودتكِ كوابيسك؟!

هزت رأسها نفياً باقتضاب ثم سألته بخفوت وهي تطرق برأسها:

_لماذا طلبتَ مني ألا أغادر الغرفة؟!

تجاهل سؤالها وهو يسألها بدوره:

_هل تناولتِ غداءكِ؟!

مطت شفتيها في استياء لتجاهله إجابتها...

ثم قالت بضيق:

_لا.

أومأ برأسه قائلاً باقتضاب:

_هذا أفضل!

اتسعت عيناها بدهشة للحظة قبل أن يردف بلهجته المسيطرة:

_لن تتناولي طعامكِ بعد الآن إلا معي.

أطرقت برأسها للحظة ثم عادت ترفعه قائلة بقوتها المميزة:

_هذا يدفعني لسؤالكِ عن شكل زواجنا كيف سيكون؟!!لا أريد أي ضغط نفسي على السيدة حورية.

ابتسم ساخراً ليقول:

_لا تقلقي...زواجنا لن يقلقها بأي شكل ...هي لا تهتم.

تنهدت في حرارة عندما سمعت صوت طرقات خافتة على الباب...

لتدخل الخادمة حاملة صينية ضخمة عليها أنواع كثيرة من الطعام...

وللأسف...كلها من الأسماك...!!!

جلست أمامه على المائدة الصغيرة في زاوية الغرفة وهي تشعر بالحرج...

أشار إليها أن تبدأ في تناول الطعام فأطرقت برأسها هامسة بخجل:

_لا أحب أكل السمك.

أخفى ابتسامته بصعوبة لكنها ظهرت في عينيه اللتين التمعتا بحنان غريب...

كل يوم تتأكد له فكرة أنها طفلة...

طفلة تستفز كل مشاعر أبوته التي يشتاقها منذ عهد بعيد...!!

لهذا قطع لها بالسكين قطعة من نوع غريب من السمك لم تجربه قبلاً...

ثم قربها بالشوكة من فمها قائلاً بلهجة آمرة لم تخلُ من الرفق:

_جربي هذا فقط...وإن لم يعجبكِ فسأرسل لهم كي يحضروا لكِ شيئاً آخر.

اقتربت بوجهها تتناوله منه ثم همست بخفوت:

_لا بأس.

أحس أنه لم يعجبها فقام من مكانها لينادي الخادمة قائلاً لها بصيغته الآمرة:

_السيدة ماسة لا تحب أكل السمك...أخبريهم بهذا حتى يصنعوا لها يومياً صنفين من طعامها المفضل.

انصرفت الخادمة تلبي أمره فأشاحت هي بوجهها في ضيق...

لكنه التقط ضيقها بسهولة كعادته فسألها بحذر:

_ما الأمر؟!

أطرقت برأسها دون أن ترد...

فأمسك كفها يضغطه براحته قائلاً بنبرته المسيطرة:

_تعلمي ألا تجعليني أعيد السؤال مرتين.

رفعت إليه عينيها ثم قالت بضيق:

_سيد عاصي أنا تربيت في بيت فقير يعرف قيمة نعمة الله...لا داعي لكل هذا الإسراف...كما أنني لا أحب أن تدعوني خادمة في سن أمي ب"السيدة ماسة" ...لم أعتد هذا...ولا أريده.

أشاح بوجهه عنها للحظة ثم عاد ينظر إليها قائلاً:

_لا تحبين أن تكوني سيدة مطاعة؟!!

أطرقت برأسها لتهمس بخفوت:

_بل أفضل أن أكون امرأة محبوبة فحسب...تماماً مثل أمي.

لم يستطع منع ابتسامته هذه المرة وشعوره بها كطفلة بريئة يترسخ بوجدانه أكثر...

فربت على كفها قائلاً برفق:

_رحمة أجادت تربية ابنتها.

دمعت عيناها وهي تردد خلفه بشرود:

_ابنتها؟!! نعم...ابنتها!!

تأمل شرودها بتفحص وهو يقرأ اشتياقها الشديد لرحمة...

هذه الفتاة قاست كثيراً .....

أكثر بكثير مما يحتمل عمرها الصغير....

عاد يربت على كفها ينتزعها من شرودها قائلاً:

_بعد تناول الطعام سآخذكِ لمكانٍ سيروقك كثيراً.

أومأت برأسها إيجاباً ثم قالت له بتردد:

_ما اسم نوع السمك هذا؟!! طعمه جيد.

ابتسم من جديد وهو يقطع لها قطعة أخرى قائلاً بلهجته الواثقة:

_هذا يعلمكِ أن تثقي في اختياراتي...تأكدي أنها دوماً ستلائمك.

هربت بعينيها من عينيه تتجاهل تلميحه الواضح...

وبعدما أنهيا طعامهما وجدته يسحبها من كفها ليقول بغموض:

_رحلة ستعجبكِ قبل مفاجأة الليلة.

عقدت حاجبيها في تساؤل ...

لكنه أشاح بوجهه فعلمت أنه لن يفصح عن المزيد...

خرج بها من القصر إلى شاطئ النيل القريب منه....

حيث كان قد جهز مركباً ضخماً ذا طابقين كان سائقه ينتظرهما على المرفأ....

صعدت معه إلى الطابق العلوي من المركب حيث كان المنظر مهيباً ...

والقمر في وضعه كبدر مكتمل يتربع بملكية على عرش سماء الليل الأبنوسية...

وحوله رعاياه من نجومٍ تلتمع ببريق ساحر وكأنها تتملقه!!!

رفعت ماسة بصرها نحو السماء هامسة بانبهار:

_لم أرَ السماء يوماً بهذا المنظر الخلاب.

نظر إلى عينيها اللتين كانتا مشغولتين عنه بترقب السماء مأخوذاً...

عيناها الفضيتان كانتا تبدوان الآن له وكأنهما سرقتا نجمتين من هذه النجوم...

لمعتهما الصافية بسحرهما البراق كانت شديدة الأثر عليه هذه الليلة...

هاتان عينان لا تليقان ببشر...

بل هما للملائكة أقرب...!

هذا الموج الذي يترقرق بهما ما بين مد وجزر قادرٌ على جرف أي شئ في تياره...

حتى لو كان هذا الشئ هو جبروت عاصي الرفاعي الذي عاش عمره كله يقويه...!!!!

التفتت إليه من شرودها لتلحظ تفحصه الغريب لعينيها...

فاحمرت وجنتاها بخجل ثم أطرقت برأسها قائلة :

_هل هناك شئ ما خطأ؟!

ابتسم ابتسامته الجانبية قائلاً بغموض:

_بل هناك شئٌ ما رائع.

رفعت عينيها إليه بشك...

ما الذي يقصده يا تري؟!!!

هل من المعقول أنه يغازلها؟!!!

عقدت حاجبيها بشدة وهي تتذكر مغازلته الوقحة لها أمام زوجته من قبل عندما ذكر شيئاً عن خجلها الذي يزيدها فتنة...

شعرت بالضيق عندما تذكرت هذا...فسألته باهتمام:

_هل تزوجتني لتنتقم من السيدة حورية؟!!!

ابتسم ساخراً وهو يسألها بتفحص:

_ما رأيكِ أنتِ؟!!هل تظنين عاصي الرفاعي يفعلها؟!!يتزوج امرأة ليغيظ أخرى؟!!!

هزت رأسها نفياً ثم تنهدت في حرارة لتقول بما يشبه الرجاء:

_إذن لماذا يفعلها عاصي الرفاعي؟!!أعطني سبباً واحداً.

استند بمرفقيه على سياج المركب صامتاً للحظات...

ثم قال بغموض:

_أسباب كثيرة...وليس سبباً واحداً.

نظرت إليه بترقب...

لكنه التفت إليها قائلاً بنفس الغموض:

_فيما بعد يا ماسة...يوماً ما سأخبرك.

تعلقت بعينيه اللتين غاب بريقهما خلف غيمة غريبة من حزنٍ لم تعرف سببه...

لكنه مس قلبها بصدق...فعادت تهمس بتردد:

_سبب واحد يا سيد عاصي...أهدئ به حيرة عقلي الذي لا يكف عن التفكير...أنت كنت تعرف ظروفي كلها ومع هذا اخترتني...بل أجبرتني على هذه الزيجة...لماذا؟!

أغمض عينيه للحظة ثم عاد يفتحهما لتروعها غيمة الحزن فيهما من جديد...

خاصة عندما قال باقتضاب:

_دين قديم!

عقدت حاجبيها وهي تكاد تسأله عن المزيد لكنه رفع كفه أمام وجهها قائلاً بحزم:

_أنتِ طلبتِ سبباً واحداً...وأنا منحتكِ إياه.

هزت رأسها لتقول بشك:

_دينٌ قديم؟!! تعني أنك تزوجتني من باب الشفقة؟!!هل هذا ما كنتَ تعنيه عندما ذكرت أن الغريق لا يستأذنه أحد قبل إنقاذه؟!!!

تناول كفها براحته ثم نظر لعينيها قائلاً بلهجته الآسرة:

_أنا سعيدٌ لأنكِ تتذكرين كلامي جيداً...لكن لا أحد يتزوج امرأة بدافع الشفقة فحسب...خاصة رجل مثلي يعرف جيداً قيمة ما يأخذ...وما يعطي.

تنهدت ثانية وهي تقول بأسف:

_أنت تزيد حيرتي يا سيد عاصي...أنا حقاً لا أفهمك.

التمعت عيناه بمرارة لم تخطئها عيناها وهو يقول بشرود:

_لا أحد يفهم عاصي الرفاعي يا صغيرة.

تأملت شروده بتفحص لعلها تصل بقلبها لحقيقة هذا الرجل الغريب...

لكنها لم تستطع...

هذا الرجل بئر عميق لا أحد يصل لآخره...

وللأسف ...هي تورطت به...

تورطت أكثر مما ينبغي...!!!!

ابتسمت في نفسها بسخرية مريرة وهي تتذكر أنها هربت إلى هذا العمل كي تبدأ حياة جديدة بعيدة عن كل الضغوط...

لتفاجأ بنفسها قد ولجت في حقل ألغام دون أن تدري!!!!

لكنه التفت إليها من شروده ليقرأ أفكارها في مرايها الفضية كعادته...

فابتسم ابتسامته المميزة قائلاً:

_ماذا يهمكِ من أن تفهميني أو لا؟!!! المهم أنني أنا أفهمكِ جيداً.

عقدت حاجبيها بغضب وهي تقول بضيق:

_وهل هذا يكفي؟!!

ضغط كفها في يده قائلاً بحزم مقتضب:

_نعم....يكفي!!

أشاحت بوجهها في يأس...

ثم تذكرت شيئاً جعلها تقول له في رجاء:

_لن يكون لهم حديث في القصر سوى عن ماسة العروس وحكاياها مع السيد عاصي...فلا داعي لأن نكرر مثل هذه النزهة...ولا داعي كذلك لمبيتي في غرفتك...هذه الأحاديث ستضايق السيدة حورية...وربما تؤثر على صحة حملها...لن أسامح نفسي لو حدث لها أو للجنين شئ...أرجوك يا سيد عاصي.

زفر بقوة وقد عادت ملامح وجهه لقسوتها...

وعادت غابات الزيتون تشتعل بنيرانها المضرمة وهو يعتقل نظراتها هاتفاً بقسوة:

_لا تتجاوزي حدودكِ معي...لا أحد يخبرني ما الذي ينبغي فعله وما لا ينبغي...أنا أمسك كل الخيوط بيدي...وأعرف أيّها أشده وأيّها أرخيه!!!

أغمضت عينيها بقوة تهرب من قسوة نظراته التي كادت تحرقها...

ثم أطرقت بوجهها صامتة...

غريب هذا الرجل...

تارة مشتعل كبركان هائج...

وتارة غامض ككهف قديم...

وتارة مسيطرٌ كملك منتصر...

وتارة حنونٌ كوالدٍ رحيم!!!!

أحواله معها كلها مدهشة...كأنه يتعمد أن يلقي في طريقها الألغاز واحداً تلو الآخر...

كي تبقى دوماً حائرة فيه...!

لكن ما هي واثقة منه الآن أنه ليس شيطاناً كما كانوا يصورونه...

هو شديد القسوة نعم...لكنه يعرف كيف يروض وحش قسوته متى يريد!!!!

شديد الغموض نعم...لكنه يعرف متى يغرس فكرته في رأسها بوضوح الشمس!!!!

_افتحي عينيكِ!

قالها بلهجته الآمرة التي خالطها بعض الرفق المستحدث في كلامه معها مؤخراً...

ففتحت عينيها ببطء لتطالعها نظرة عينيه التي حملت شيئاً غريباً لم تفهمه...

خاصة عندما قال بغموض:

_أتمنى أن يكون المنظر هنا قد أراح أعصابكِ نوعاً...حتى تكوني جاهزة لمفاجأة الليلة!

رمقته بنظرة متوجسة وهي تسأله بترقب:

_أي مفاجأة؟!!

ابتسم ابتسامته الجانبية وهو يقول بنفس الغموض:

_مفاجأة أعدها لكِ منذ مدة...وسافرتُ اليوم خصيصاً من أجلها!!!!

===========

جذبها من كفها ليهبط بها نحو قبو القصر الذي لم ترَه -بالطبع-من قبل...

ارتجف كفها في يده فشد عليه قليلاً ثم استمر معها في هبوط تلك السلالم التي بدت وكأنها لن تنتهي...

حتى وصل بها إلى غرفة مغلقة فتوقف أمامها ...

ثم التفت إليها ليمسك كتفيها بقوة دون أن يتكلم للحظات...

ازدادت ارتجافة جسدها وقد تلاحقت أنفاسها لتهمس بخفوت:

_لماذا أتيتَ بي إلى هنا؟!!

اشتعلت عيناه ببريقها الذي تعرفه وهو يقول بنبرة قاسية:

_عندما ندخل هذه الغرفة ستعلمين أن هذا الموقف لم يكن هيناً عليّ...لكنني فعلتها لأفي بوعدي لكِ.

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تهمس :

_أي وعد؟!

ازداد اشتعال عينيه حتى شعرت بالخوف يخنقها وهو يقول باقتضاب:

_كوابيسك!

هزت رأسها في عدم استيعاب...

فزفر زفرة مشتعلة لم تفهم سببها...

ثم أمسك كفها بقوة ليركل الباب بقدمه ويدخل الغرفة معها...

شهقت بعنف وهي تري ثلاثة رجال مكممي الأفواه ومقيدي الأيدي على كراسيهم....

وعلى وجوههم وأجسادهم آثار تعذيب مخيفة...

لكن شهقتها تحولت لصرخة مدوية وهي تتعرف على ملامحهم ...

نعم...

إنهم هم المجرمون الذين انتهكوا براءتها...

ودمروا حياتها كلها في دقائق معدودة!!!

ارتجف جسدها كله بعد صرختها وأحداث تلك الليلة تتداخل مع كوابيسها التي تراها كل ليلة في رأسها...

لتتدافع إليها ذكريات بغيضة...

سحبت كفها من كفه بعنف لتغطي وجهها بكفيها وهي تئن أنّات قصيرة مكتومة وكأن أحداً ما يعذبها....!!!!!

فالتفت إليها هامساً بصوت خفيض لكنه حازم:

_كوني قوية...لا تنهاري أمامهم هكذا.

رفعت كفيها عن وجهها ببطء وهي تحاول العمل بنصيحته...

لتعاود رفع عينيها إليهم من جديد...

لكنهالم تستطع...!!!

ازدادت ارتجافة جسدها وقد عجزت عن التحكم في دموعها التي سالت كشلال غزير على وجنتيها...

ثم اندفعت نحو الجدار القريب تلصق وجهها به محتضنة جسدها بذراعيها وهي تعطي الجميع ظهرها....!!!!

عقد حاجبيه بغضب هادر...

وهو يري انتفاض جسدها بدموعها ...

وحالة الذعر التي تلبستها حتى وصلت لهذا الحد...!!

اقترب منها ثم وضع يده على كتفها لكنها صرخت بعنف دون أن تغير وضعها:

_ابتعدوا!!!

كز على أسنانه وهو يشعر أنه يبذل مجهوداً خرافياً للسيطرة على نفسه في هذا الموقف الصعب...

ثم أمسك كتفيها بقوة ليديرها نحوه قسراً وهو يقول بحزم:

_قولي فقط أنهم من فعلوها!

لم يكن بحاجة لهذا الذي يطلبه ...فردّ فعلها كان أقوى من أي قول...

لكنه أعاد أمره بحزم أكبر...

فأومأت برأسها إيجاباً ولازال جسدها على انتفاضته...!!!

هنا تناول مسدسه من سترته قائلاً:

_هذا ما كان ينقصني!

انطلقت همهمات راجية من أفواههم القذرة المكممة....

لكنه لم يكترث لهم وهو يصوب مسدسه نحوهم....

فشهقت بعنف وهي تتشبث بكفه الممسك للمسدس هاتفة بتوسل وسط دموعها:

_لا...لا تفعلها...أرجوك.

التفت إليها بعنف هاتفاً بحدة:

_هذا هو القصاص...لو تركتهم الآن فستتكرر فعلتهم مع واحدة أخرى وربما عشرات.

وقفت أمامه تمنعه بجسدها قائلة بنفس النبرة الراجية:

_لو كنت تظن أن هذا هو ما سيمحو كوابيسي فأنت مخطئ...على العكس...هذا سيزيدها...لن أحتمل هذا الذنب في عنقي....لن أحتمل كل هذا العنف والدم...أرجوك لا تفعلها ...أرجوك.

أزاحها من أمامه بخشونة...

ثم أعاد تصويب مسدسه نحوهم وقد انعقد حاجباه بقسوة شيطان حقيقي....

لكنها ظلت تهتف برجائها مرات متعاقبة جواره...

وجسدها ينتفض ببكاء هستيري...

ليجد يده لأول مرة ترتعش لتتراجع عن فعلٍ قد صمم عليه...!!!!

فخفض ذراعه الممسك لمسدسه أخيراً ثم التفت نحوها قائلاً بلهجة قاسية:

_أنا لن أقتلهم...لكنني سأعاقبهم عقاباً أقسى من الموت...لن أمرر لهم فعلتهم .

أطرقت برأسها وهي تحتضن جسدها المنتفض بذراعيها....

ثم همست بضعف شديد:

_أرجوك أخرجني من هنا.

رمقهم بنظرة قاسية أخيرة قبل أن يمسك مرفقها بتملك ليصعد بها السلالم وهي تكاد تتعثر في سيرها...

حتى وصل بها إلى غرفته هو فأغلقها خلفه...

لكنه لم يكد يلتفت حتى فوجئ بها تدفن وجهها في صدره وهي تتشبث بقميصه وتنشج بصوت ضعيف!!!

ضم قبضتيه بقوة وهو يشعر بشعور غريب...

بالأمس فقط قالت له أنها لا تحب أن يقترب منها أحد هكذا...

والآن تحتمي هي بصدره لتخفي وجهها فيه وكأنها تستجدي منه أمانها!!!!

لهذا ارتفع ذراعاه -ببطء شديد - يضمانها إليه أكثر...

وشعوره -المستحدث-بالأبوة نحوها يتضاعف حتى يكاد يملأ قلبه...

ازدادت حدة بكائها فشدد من احتضانه لها حتى كاد يعتصرها بين ذراعيه هامساً بقوته المعهودة:

_أعرف أنه كان موقفاً صعباً ليس عليكِ فقط...بل علىّ أنا أيضاً...أنتِ الآن عرضي أنا...لكنني فعلتُها فقط لكي تتخلصي من شعوركِ بالظلم والانتهاك...أنتِ لم تخيبي ظني في براءتكِ وتسامحكِ كالعادة...لكن مجرد شعوركِ بأن الانتقام كان بين يديكِ وأنتِ التي ترفعتِ عنه سيمنحكِ القوة اللازمة لنفض كوابيسكِ كلها...ماسة الآن تعلم أنها ليست ضعيفة...بل قوية.... لكنها تعفو لأنها تريد أن تعفو...لم تترك حقها ضعفاً بل ترفعاً!!!

هدأت حدة بكائها تدريجياً بعد دقائق....

وهمسه الغريب يخترق رأسها كعادته ليغزو تفكيرها بسيطرة قاهرة...

ثم انتبهت لوضعها بين ذراعيه فابتعدت وهي تمسح دموعها لتهمس بصوت متهدج:

_لا أريد الحديث عن هذا الأمر بعد.

أمسك كفها وهو يقول بحزم واثق:

_بل ستفعلين الآن...ستخبرينني وحدي بتفاصيل كوابيسك ...وبكل ما عجزتِ عن البوح به لأحد طوال هذه الأيام...لن تتخلصي من هواجسكِ مالم تلفظيها خارج صدرك...ولن تجدي مثلي يعينك على هذا...

نظرت إليه بتردد تعقل حديثه وهي تشعر بالتشتت...

لكنه دفعها برفق لتتمدد على الفراش كليلتها السابقة...

ثم قال لها بحزم:

_أغمضي عينيكِ واحكي كل ما يدور بذهنك دون خوف أو خجل...لن يؤذيكِ أحد بعد وأنتِ هنا.

أغمضت عينيها بقوة كما قال وهي تشعر بالانهيار...

بكاؤها السابق استنزف كل قوتها ولم تعد تميز الحقيقة من الوهم...

هل فعلها عاصي حقاً وانتقم لها منهم...؟!!!

هل تراجع عن قتلهم فقط استجابة لرجائها...؟!!!

هل صارت ماسة الآن حقاً قوية تملك قرار العفو أو الانتقام...؟!!!

أحست بأنامله تداعب شعرها بحركته المميزة فزادت سكينتها شيئاً فشيئاً....

حتى وجدت نفسها دون وعي تحكي...!!!!!

تحكي عن شعورها الرهيب بالنبذ بعد الحادث...

صدمتها في موقف رحمة التي رأتها لا تناسب ابنها بعد ما حدث لها ....

رغم يقينها في حسن أخلاقها وأنه كان رغماً عنها...!!!!

وخجلها من مواجهة عزيز بعدما حدث...

وفضيحتها التي كانت تطاردها في حيها الشعبي البسيط وفي عملها والتي دفعتها للهروب بعيداً عن كل هذا.....

وألمها الذي لم تحتمله كلما تذكرت أن حياتها كلها تدمرت بسبب خطإ لم يكن لها ذنب فيه...

كوابيسها التي تراهم فيها يذبحونها ذبحاً وهي عاجزة عن فعل شئ سوى الصراخ...

وأخيراً...يقينها القوي بأن حياتها ستمضي للأفضل برغم كل هذا وأنها لن تسمح لأحد بأن يكسرها من جديد...!!!!

كانت تحكي وكأنها تتحدث مع نفسها بكلام بدا كالهذيان...

حتى انتظمت أنفاسها بعد وقت طويل ليدرك أنها قد نامت أخيراً....!!!

أغمض عينيه أخيراً وهو يزفر بقوة...

ثم أسند رأسه على ظهر الفراش يفكر في كل هذا الألم الذي تحملته هذه -الطفلة-!!!.

لا يتصور كيف استوعبت فتاة في سنها كل هذا العذاب...

لقد كان يعلم جانباً كبيراً من الحقيقة أخبره به والد عزيز....

وعرف جانباً آخر منها بتحرياته عنها بعدما أيقن من رغبته في الزواج بها...

لكن الأمر يختلف تماماً عندما يسمعها منها هي بهذه التفاصيل...

بهذه الشفافية..

وبهذا الألم...!!!!

سمع أنّاتها الخفيضة جواره وهي نائمة فرقّ قلبه لها أكثر....

ليجد نفسه يميل على أذنها هامساً بخفوت وكأنه يريد غرس كلماته في روحها:

_لا تخافي ولا تحزني...ماستي الثمينة لن يخدشها شئ بعد اليوم....هذا وعد عاصي الرفاعي الذي لن يخلفه...

=========

الفصل الثاني عشر:

_أيّ سنٍ ترغبين في التدريس له؟!!

قالها أنس بتهذيب وهو يغض بصره عنها كعادته...

كانت تجلس أمامه على مكتبه في مدرسته الخاصة والتي تضم جميع الأعمار...من سن الروضة وحتى المرحلة الثانوية...

مبنيً ضخم يضم العديد من الأبنية الأنيقة...

وقد نجح أنس -خاصةً مع تفرغه دون زواج- في جعله أشهر مجمع تعليمي في المدينة كلها!!!

ابتسمت صفا برقتها المعهودة وهي تقول بصوت خرج متهدجاً رغماً عنها:

_أصغر سن يا أنس...أصغر سن!!

ابتسم في حنان مصبوغ بالشفقة وهو يرفع عينيه إليها للحظة...

لتتألقا ببريق خاطف من عاطفة واضحة كالشمس...

قبل أن يتمالك نفسه فيخفض بصره عنها من جديد وهو يغمغم بلهجته المهذبة:

_كما تشائين يا صافي...المدرسة كلها تحت أمرك...متى تحبين أن تبدئي حتى نكتب العقد؟!!!

اتسعت ابتسامتها وهي تقوم من مكانها هاتفة بلهفة:

_اليوم....بل الآن!!!

قام واقفاً بدوره قبالتها وهو يتحاشي النظر لعينيها مغمغماً بشرود وسط نبرته الحانية:

_لم تتغيري يا صافي...دوماً عجولة...ما أشبه لهفتكِ الآن بلهفتكِ على المثلجات التي كنا نشتريها من العم (......)في صغرنا!!!!

ضحكت ضحكة صافية وهي تتذكر ما يحكي عنه ...

ثم أردفت وهي تشرد بماضيها هي الأخري:

_و"عصير القصب" الذي كان عمي يصطحبنا لشرائه سوياً من المحل في آخر المدينة زاعماً أنه أفضل من يبيعه.

ضحك بدوره وتيار الحنين يجرفه عندما أردفت هي بصوت حالم:

_و"غزل البنات" الذي كنت أتحايل عليك كي آخذ نصيبك مع نصيبي.

تنهد في حرارة وهو يطرق برأسه هامساً بصوتٍ خانه ليفضح حزناً لا يحب إظهاره:

_لم يكن تحايلاً منكِ...أنا كنتُ أشتريه كل مرة وأنا أعلم أنني سأمنحكِ نصيبي حتى ولو لم تطلبيه!!!!

لكنّ عينيها هي كانتا غافلتين عن كل هذا الحزن الذي غلف صوته...

وقلبها يتأرجح كالصغير بين- الحنين لماضيها -عندما كانت طفلة لا تحمل هماً ولا تعرف يأساً...

وبين- غدها- الذي لا تعرف حتى الآن كيف سيكون...!!!

وبالرغم من أن عبد الله شديد التفهم والمراعاة لها هذه الأيام لكنها لازالت متوجسة...

فقط لو تمنحها الأقدار نعمة الولد!!!

ربما ساعتها يطمئن قلبها ويرتاح من عذاب أفكاره!!!!

وأمامها كان العاشق الصامت يقاتل نبض قلبه كعادته كي لا يفضحه...

وأيّ قتالٍ أصعب على المرء من قتال نفسه التي بين جنبيه...؟!!!

صفا لم تكن معشوقة عادية...

بل كانت رفيقة الطفولة والصبا...

والتي حرّمت عليه عندما كبرا ...

فليتهما بقيا صغاراً!!!

قلبه الذي تفتحت براعمه على أشعة شمسها الدافئة أبى أن يكون لسواها....

روحه التي تعلقت بها منذ كان طفلاً مبهوراً بجديلتها الطويلة على ظهرها لم تجد لها وطناً غيرها!!!

هي حليلة قلبه الأزلية...

ولو حرمتها عليه كل القوانين والأعراف!!!!

صمتٌ ثقيلٌ ساد بينهما كانت هي أول من قطعته عندما التفتت إليه من شرودها هامسة بصوتٍ متشح بالحنين:

_كانت أجمل أيام!!

رفع رأسه إليها للحظة ثم عاد يشيح بوجهه عنها -آسفاً- وهو يغمغم بدعوة صادقة:

_جمّل الله أيامكِ كلها يا صافي...أنتِ تستحقين كل الخير.

ابتسمت ابتسامتها الملائكية وهي تهتف بمرح متألق نابع من قلبها الذي يكاد يطير فرحاً الآن:

_هيا إذن يا عبد الله ...أريد أن أري أطفالي!!!!

ظهر الألم في عينيه واضحاً وقد عجز عن كتمانه...ليرد عليها مغمغماً بصوت متهدج:

_أنا أنس يا صافي!!

اتسعت عيناها للحظة ثم قالت باعتذار بسيط :

_عفواً يا أنس...حكم العادة .

أومأ برأسه بلا معني ثم سار أمامها يتقدمها نحو الفصل الذي ستقوم بالتدريس فيه....

وما إن فتح هو باب الفصل حتى شعرت هي وكأنه باب فُتح للجنة...!!!!

دمعت عيناها رغماً عنها وهي ترى كل هؤلاء الأطفال أمامها...

تقدمت نحوهم -كالمسحورة-وهي تود لو كان حضنها الآن بسِعَةِ السماء ..حتى تضمهم جميعاً في نفس الوقت!!

وخلفها كان هو يدرك شعورها جيداً...

وعزاؤه أن القدر جعله سبباً في هذه السعادة الظاهرة على محياها الآن...

ابتسم في مرارة حقيقية وهو يرمقها بنظرة أخيرة قبل أن يخرج مغلقاً الباب خلفه!!!

التفتت للحظة نحو الباب الذي أُغلق -لتوه-بدهشة....

لكن بصرها عاد يتعلق ب"قُرّة عينيها" الجديدة...

كان الصغار يتأملونها بمزيج من الترقب والبراءة الطفولية....عندما رفع أحدهم يده مستأذناً بالحديث...

فأومأت له برأسها وعلى شفتيها ابتسامة بحجم كل سعادة الكون...

وقف الصغير يسألها ببراءة:

_ما اسمكِ يا "ميس"؟!!!

لم تملك ساعتها دموعها التي سالت على خديها وعيناها الظمآنتان تتشربان نظرات الصغار حولها بنهم...

ثم قالت بصوتها الملائكيّ:

_"ماما صفا"...أريدكم جميعاً أن تدعونني كذلك!!!

سادت الفوضى في الفصل بعدها وارتفع صوت ضجيجهم الذي كانت تراه هي منتهي اللذة...

وكيف لا؟!!!

وهي التي طالما أرّقها صقيع الصمت والوحدة!!!!

وخفق قلبها بسعادة حقيقية ...فتناولت هاتفها من حقيبتها لتسمع صوته وتشاركه فرحتها كما اعتادت...

لهذا لم يكد يفتح الاتصال حتى سمع هتافها الراقص من فرط السعادة:

_هل تسمع الضجيج يا عبدالله؟!! أنا صرتُ أمّاً...الآن...لديّ ...أطفال!!!!!

===========

_عبد الله!!

هتفت بها صفا وهي تستقبله بصالة المنزل كعادتها بعدما أدّى صلاة العشاء...

فاندفع نحوها بابتسامة واسعة لتلقي بنفسها بين ذراعيه وهي تضمه بكل قوتها هامسةً باشتياق:

_افتقدتك جداً...جداً.

ضمها إليه أكثر وهو يربت على ظهرها بحنان هامساً برضا:

_تبدين سعيدة يا صفا روحي!!

رفعت وجهها إليه لتدهشه خيوط النور التي أضاءت ملامحها وهي تقول بفرحة غامرة:

_وأيّ سعادة؟!!! لن أستطيع أن أصف لكِ شعوري اليوم...جنة يا عبد الله....جنة....!!

اتسعت ابتسامته وهو يداعب أنفها بأنفه هامساً بمشاكسة:

_لم أعد ابن قلبكِ الوحيد إذن...هل ينبغي علىّ الآن أن أغار؟!!!

احتضنت عينيه بعينيها وهي تهمس بعشقها اللا محدود:

_أنت ابن قلبي الأول...ولو رزقني الله ألف طفل!

قبّل شفتيها بخفة ثم قال بنبرة مازحة:

_هل وجدتِ وقتاً لإعداد الطعام أم أهيئ نفسي ل"أكل المطاعم"؟!!!

هزت رأسها نفياً وهي تقول بحنان:

_لا شئ يشغلني أبداً عن راحة الشيخ عبد الله ومطالبه.

قبل رأسها بامتنان فدفعته برفق وهي تتقدمه نحو المائدة هاتفةً بمرح:

_طعام اليوم استثنائيّ احتفالاً بعملي.

ضحك وهو يجلس أمامها على كرسيه متأملاً صنوف الطعام المتعددة على المائدة ليقول بمرح:

_لو كان الطريق إلى قلب الرجل معدته...فأنتِ امتلكتِ قلبي كاملاً منذ زمن!!!

ضحكت بدورها وهي تناوله طبقاً فارغاً لتهتف ببساطة:

_لا تحكم قبل أن تتذوق يا أنس...الوصفات كلها جديدة...لقد نقلتها من...

قطعت عبارتها عندما روعتها نظرة الغضب التي اشتعلت فجأة في عينيه...

وقد بدا على وجهه أنه يكز على أسنانه بقوة كعادته عندما يتملكه وحش انفعاله...

فانتبهت لخطئها في اسمه باسم "أنس" وهي تعرف أنه لن يمررها لها بسهولة...

ازدردت ريقها بتوتر ثم غمغمت باعتذار حاولت صبغه ببعض المرح:

_أنا آسفة يا عبدالله...يبدو أن هذا العمل سيؤثر على عقلي...صباحاً أخطأت وناديتُ "أنس" باسمك...والآن...

قاطع عبارتها وهو يهتف ببرود مشتعل:

_عندما تخطئين في اسمه فهذا طبيعي...لكن خطأكِ في اسم زوجك ليس كذلك...صحيح؟!!!

ضغطت شفتيها بقوة...

ثم قامت من مكانها لتتوجه نحوه قبل أن تجثو على ركبتيها جواره مربتةً على ركبته ...

ثم رفعت عينيها إليه هامسة برجاء:

_لا تغضب يا حبيبي...بالله عليك لا تفسد عليّ فرحتى اليوم بأمور لا قيمة لها.

وكأنما أخمدت كل حرائق الغضب بعينيه بشلالات عاطفتها الجارفة....

ساحرةٌ هذه المرأة في تأثيرها عليه...

وفي قدرتها على امتصاص ثورته لتبدلها بحبها برداً وسلاماً...!!

لهذا أشاح بوجهه عنها للحظة...ثم عاد يلتقط نظراتها الراجية بعتاب هامساً:

_كم مرةً أخبرتكِ أنني لا أحب جلوسكِ هكذا!!

قالها وهو يرفعها من كتفيها حتى أجلسها على ساقيه ...

ثم طوق خصرها بذراعيه فتعلقت بعنقه وهي تهمس أمام عينيه بعاطفتها الصادقة:

_أنا أحب جلوسي عند قدميك...لعلك تشعر وقتها أنك -وحدك- سيد قلبي.

شدد إحكام ساعديه حولها وقد مسته عبارتها في الصميم...

خاصةً منها هي التي يدرك كم تعتز بنفسها!!!

ربما لأنها بهذا تضمد -دون قصد-جرحه العتيق معها...وشعوره -الذي يخنق روحه-بالنقص أمامها...

ذكيةٌ أنتِ يا صافية الروح والقلب...!!

تعرفين كيف تلعبين دوماً على وتر قلبي الصحيح...

لتنبعث منه النغمة التي تريدينها...

وهذا سرّ تميزكِ!!!

ابتسم أخيراً بعد لحظات صمتٍ طويلة تبادلت فيها العيون حديثاً لا يليق بكلام الحروف...

ثم اقترب بوجهه منها هامساً بنبرة دافئة:

_تري...أيهما ألذ ...أنتِ أم طعامك؟!!!

ضحكت ضحكة صافية وهي تسند رأسها على كتفه وغرامها يشعل همسها الذائب:

_كلانا لك يا حبيبي...كلانا لك.

============

استيقظ من نومه على الأريكة كعادته ليجد الفراش خالياً منها مثل كل يوم...

تستيقظ بعد ما تصلي الفجر لتبدأ عملها في شقتهما...ثم تعد له الإفطار حتى تنزل معه إلى شقة والدته...

فيذهب هو إلى ورشته وتبقي هي هناك حتى يعود بها إلى شقتهما بعد رجوعه من عمله!!!

زوجة مثالية!!!لولا إجراء واحد بسيط...

أنها ليست زوجته بعد ...ولن تكون...!!

حتى لو أقرّ زواجهما الشرع والقانون...فهو لن يقرّ به...!!!

هي مجرد ضيفة في بيته ستغادره عندما تحين الفرصة المناسبة!!!!

وفي المطبخ كانت هي واقفة تعد الإفطار وهي تشعر بالدوار...

هذا المجهود صار عنيفاً حقاً...تنظف شقتها هي صباحا...

ثم تنزل لشقة والدته تنظفها وتبدأ عملها في طهو الطعام للعائلة كلها...

وبعدها تجبرها هيام على تنظيف السطح ومسح السلم كله مرة على الأقل...

مجهود كبير على بنيتها الضعيفة....والمشكلة أنها لم تعتد عليه...

لقد كانت مدللة جداً بهذا الشأن في منزل عبدالله...

صفا كانت تستعين بخادمة لمساعدتها...وتتكفل هي بباقي شئون المنزل...

لهذا تشعر بنفسها الآن وكأنها في سجن مع أشغال شاقة مؤبدة!!!

لم تعد تحسب عدد الأيام التي قضتها هنا...

كلها متشابهات...!!!

غير مسموح لها بالخروج ولا حتى لزيارة عبدالله...

عبد الله وصفا هما من يزورانها من وقتٍ لآخر....وبالطبع هي لم تروِ لصفا أي تفاصيل عن هذه الزيجة البائسة!!!

لكن ما يؤرقها حقاً هو أن الدراسة على الأبواب...

فماذا سيفعل راغب معها؟!!!

هل سيمنعها من الذهاب للجامعة؟!!!

بالطبع سيفعل!!!!

وهي لن يمكنها طلب مساعدة من عبدالله في إقناعه...

فهي لازالت تخشى أن يعترف له بالحقيقة...

ستتقبل قدرها على أي حال...فهي لم تعد طامعة في شئ...

لقد فقدت رغبتها في التعليم والعمل...

وحتى في الحياة نفسها!!!!

ترنحت مكانها وهي تشعر بالدوار يلف رأسها أكثر...

فتشبثت بطاولة المطبخ لتشعر بكفيه يسندان كتفيها وهو يقول بلهجته الخشنة:

_ماذا بكِ؟!

شهقت بقوة عندما التفتت إليه لتتمالك نفسها وهي تهمس بخوف:

_لا شئ..!!

عقد حاجبيه وقد راوده هاجس مزعج فسألها بغضب:

_هذا الدوار ما قصته؟!!! هل من الممكن أن تكوني....؟!!

قطع عبارته- التي رأتها هي تهديدية -دون أن يكملها...فهزت رأسها نفياً بقوة وهي تهمس بخوف أكبر:

_لا لا...ليس كما تظن...أنا واثقة.

أشاح بوجهه عنها ثم تناول صينية الطعام التي أعدتها ليضعها على المائدة...

تبعته في استسلام حتى جلست جواره صامتةً دون أن تشاركه الطعام ...لينتبه ساعتها أنه لم يرها تأكل منذ تزوجا...

هي لا تشاركه الإفطار...وعندما تعد له الغداء آخر اليوم تعود لغرفتها دون أن تتناوله معه....

تفحصها ببصره ليلاحظ نحول جسدها الشديد ...لقد فقدت الكثير من وزنها في هذه الأيام ....

وتبدلت نضارتها لشحوب شديد!!!!

وبعيداً عن أفكاره كانت هي شاردة في وادٍ آخر...

هي مُتعبة اليوم حقاً...لن تستطيع القيام بشئون المنزل...

لكنها تخشى بطش هيام التي تذيقها الويل كل اليوم...بلسانها القاسي وتصرفاتها السليطة...

بل إن الأمر تطور إلى "مد الأيدي"!!!

نعم...لقد دفعتها بقبضتها دفعة قوية بالأمس ...

وعندما تأوهت بقوة زعمت هيام أنها كانت تمزح معها!!!!

قطع أفكارها عندما قام من مكانه بعدما أنهى طعامه...فقامت بدورها لتصطحبه للأسفل...

وهي عاجزة عن الاعتراض أو الشكوي!!

وفي منتصف اليوم شعرت بدوارها يزداد ...فاستأذنت "الحاجة" في الصعود لشقتها...لكن هيام قالت لها بتسلط:

_امسحي السلم أولاً!

نظرت عفاف إلى هيام نظرة ساخطة لكن هيام مالت على أذنها هامسة:

_لا تنخدعي بهذا الدلال...لو سكتنا لها هذه المرة فستتمادى.

هنا أطرقت عفاف برأسها وهي حائرة بينهما...

فاضطرت رؤى لحمل الأدوات والصعود إلى السطح لتمسح السلم من أوله...

لحقت بها هيام وهي ترقبها بتفحص هاتفة بسخريتها المقيتة:

_لماذا قبلتِ بالزواج مادمتِ عاجزة عن احتمال مسئولياته؟!!!

صمتت رؤى كعادتها تتقبل إهاناتها...فشعرت هيام بالغيظ أكثر وهي تهتف بحقد واضح:

_السيد راغب رفض الزواج من شقيقتي....ليتزوج واحدة مثلك لا تساوي شيئاً في سوق النساء!!!!

شعرت رؤى بدوارها يزداد فقالت بضيق:

_اسكتي من فضلك...أنا مُتعبة ولا ينقصني حديثكِ هذا!

وكأنما كانت هيام تنتظر منها أي رد فعل...

فاندفعت نحوها لتلكمها لكمة قوية في ذراعها هاتفة بغلّ:

_ها قد سمعنا صوتكِ العالي يا من كنتِ تدّعين الأدب!

تأوهت رؤى بقوة من عنف الضربة التي شلّت ذراعها كله...

ثم تراجعت خطوة بظهرها للخلف لتتعثر بدلو الماء الذي أحضرته معها...

صرخت بقوة وجسدها يسقط متدحرجاً على درجات السلم حتى استقرت على قاعدته...

========

عاد راغب من ورشته ليجد والدته متجهمة على غير عادتها...

قبل يدها باحترام كعادته ثم جلس جوارها يسألها باهتمام:

_ما الأمر يا أمي؟!

اندفعت هيام تقول بحزن مصطنع:

_نحن نصبر على سوء خلق زوجتك منذ فترة طويلة...لكنها اليوم تجاوزت كل الحدود...لقد ادعت أنها مريضة وعندما صعدت إليها أعرض علىها مساعدتها لتستريح هي من العمل اليوم فاجأتني بسيل من السباب والشتائم...لم أرد عليها لكنني قلت لها أنني سأشكو ل"الحاجة" فقالت أنها لا يهمها أحد هنا!!

عقد حاجبيه بغضب وهو يقول بحدة:

_ألن ننتهي من حركات النساء هذه؟!!! هل أتعب في عملي طوال النهار حتى أعود لأتفرغ لتفاهاتكنّ؟!!!

التفتت نحوه عفاف لتقول بعتاب :

_كرامة والدتك صارت تفاهات يا راغب؟!!!

زفر بقوة ثم قام من مكانه قائلاً بنفاد صبر:

_حسناً يا أمي....سأطلقها حتى نستريح جميعاً!!!

شهقت عفاف بعنف بينما امتلأت عينا هيام بالتشفي وهي تراه يصعد غاضباً نحو شقته....

فالتفتت إليها عفاف قائلة بشك:

_هل أنتِ واثقة أنها قالت هذا؟!! الفتاة مهذبة لا تنطق بكلمة عندما تكون هنا!!

تصنعت هيام المسكنة وهي تقول:

_أنا أيضاً تعجبت مثلك لكن يبدو أنها تجيد التمثيل...لهذا أخشى على راغب من سحرها.

كانت تعلم أنها تلعب على الوتر الصحيح...!!

راغب هو نقطة ضعف عفاف الكبري..وهي تغار على قلبه من أن تتملكه زوجته كاملاً...

وراغب أيضاً لا يحتمل أن يمسّ أحدهم والدته بكلمة....

وصعوده الغاضب الآن سينتهي بكارثة على رأس تلك الباردة التي تزوجها!!!!

وحتى لو أخبرته رؤى أنها هي من دفعتها للسقوط من على السلم فستنكر هذا وتقول أنها تعثرت وحدها...

كلمة رؤى أمام كلمتها هي !! ....ولم يكن أحد معهما كي يؤيد واحدة دون الأخري...

لكن عفاف ستقف في صفها هي ضد رؤى...

ليس لأنها تكرهها لكنها فقط تخشي تأثيرها عليه ...!!!!

لهذا كانت واثقة أن الأمور ستؤول لصالحها...

بينما صعد هو ليفتح باب غرفتهما بعنف هاتفاً بخشونته المعهودة:

_كيف جرؤتِ على هذا؟!!

ارتعد قلبها خوفاً من قسوة نظراته...لتهمس برعب وسط دموعها التي سالت على وجهها:

_لم أفعل شيئاً...صدقني...لم أفعل شيئاً.

اقترب منها ببطء وشياطين غضبه كلها تتراقص على وجهه...

فتراجعت بظهرها تلقائياً حتى التصقت بالحائط خلفها وعيناها معلقتان بعينيه اللتين فضحتا وعيده...

حتى صار قبالتها تماماً فلوى ذراعها خلف ظهرها وهو يهتف بحدة:

_لقد حذرتكِ من قبل!

لم تكن حركته بهذه القوة لكنها تأوهت بشدة فوقع بصره على كدمة بشعة أعلى ذراعها...!!

فانعقد حاجباه وهو يسألها:

_من فعل بكِ هذا؟!!

ازداد انهمار الدموع من عينيها وجسدها كله ينتفض انهياراً...لا تستطيع أن تخبره...

هو لن يصدقها...!!!!

لكنه ترك ذراعها ببطء وهو يشهد انهيارها هذا....

ثم أشاح بوجهه عنها للحظة يحاول مقاومة مشاعره نحوها....

لكنه فشل!!

فعاد ينظر إليها بأسف...

ثم ضمها إليه برفق للحظات كاد قلبه فيها يذوب اشتياقاً إليها....

رائحة شعرها الليمونية تداعب أنفه بسحرٍ لاذع يشبهها...

نعم...هذه امرأة بنكهة الليمون...

حارقة...لاذعة...لكنها جذابة منعشة!!!!

كان قلبه يتوسله أن يدفن أنفه في شعرها...

أو ترقد شفتاه على رمال بشرتها الناعمة تتلمس دفء شمسها...

أو حتى يبقيها كما هي هكذا أسيرة ذراعيه للأبد...!!!

لكنه ردع تمرد عواطفه الثائرة بقوته المعتادة ليقول بخشونة:

_أخبريني من فعل هذا؟!

بينما كانت هي عاجزة عن الكلام...بل عن التنفس...!!!

أنفاسها كانت مختنقة مذعورة تأبى مغادرة صدرها!

فتنهد بقوة ثم حاول أن يضمها إليه أكثر لعلها تهدأ قليلاً...

لكنه ما كاد يربت على ظهرها حتى تأوهت بعنف وجسدها ينتفض تحت لمسته!

عقد حاجبيه بشك وهو يدير ظهرها نحوه ثم رفع قميص منامتها ليفاجأ بهذه الكدمات المنتشرة على ظهرها كله...

كز على أسنانه بغضب حاول التحكم فيه...

ثم عاد يدير وجهها الباكي نحوه ليقول بغضب مكتوم:

_من فعلها؟!!!

وضعت كفها على شفتيها تحاول التقاط أنفاسها لتهمس بصوت متقطع:

_لن أستطيع...لن تصدقني.

زفر زفرة حارقة ثم ربت على كتفها قائلاً بانفعال مكتوم:

_اهدئي الآن فقط.

قالها وهو يسحبها من كفها لتجلس على السرير...

لكنها ما إن جلست حتى تأوهت بقوة وهي تضع يدها على ظهرها بألم...

فازدرد ريقه بتوتر ثم سألها باقتضاب:

_هيام؟!!

نظرت إليه بخوف ما عاد يفارق نظراتها وهي تهمس بتوسل:

_لا أريد المزيد من المشاكل أرجوك...أنا هنا وحدي معها طوال النهار ولا أضمن ماذا ستفعل بي.

انتفض واقفاً مكانه وهو يسألها بحدة :

_هل فعلتها من قبل؟!!

تأوهت بقوة وهي تقوم لتقف أمامه قائلة وسط دموع عجزها :

_لا يهم...أنا سأستريح اليوم وسأكون بخير غداً...لكن لا داعي للمشاكل.

نظر إليها نظرة طويلة لم تفهمها...

ثم توجه نحو خزانة الملابس ليحضر حقيبة سفر ضخمة...

عضت على شفتها بألم ما عادت تحتمله ...ثم همست بخزي:

_هل ستعيدني إلى عبد الله؟!!

لم يرد عليها وهو يضع ثيابها في الحقيبة....

فأغمضت عينيها مستسلمة لدموع قهرها التي ما عادت تملك غيرها...!!!

ظلت مغمضة عينيها لدقائق حتى انتهي مما يفعله...فوقف أمامها ليهتف بخشونته المعهودة:

_هيا بنا!

فتحت عينيها أخيراً لتهمس برجاء:

_أنا لم أخطئ في شئ...أنا حتى لم أكن أشكو طوال هذه الأيام...فلا تخبر عبد الله عن سري أرجوك.

أغمض عينيه دون أن يرد عليها فعاودت همسها الذليل:

_لو كنت تريد تطليقي فاذكر له أي سبب آخر....أنا لن أعترض.

لم يستطع البقاء معها أكثر...

فغادر الغرفة حاملاً حقيبة السفر وهو يقول دون أن ينظر إليها:

_انتظريني هنا!

وضعت كفها على صدرها وهي تشعر بأنها ما عادت قادرة على الاحتمال...

آلام جسدها مع شدتها لا تساوي شيئاً أمام ما مرت به طوال الأيام السابقة...

من ذل وإهانة وخوف وتوتر...

لكنه عاد إليها بعد دقائق فسارت جواره بصعوبة وهي تئنّ بخفوت رغماً عنها...

فأسند كتفيها بذراعيه قائلاً برفق غريب:

_لا بأس...تحملي فقط حتى نركب السيارة!!!

ظل يسندها حتى نزلت السلم بصعوبة وهي تبكي من فرط آلام ظهرها...

حتى قابلتهما هيام ووالدته على السلم...

فنظرت إليهما عفاف بدهشة وهي تسأله بتوجس:

_إلى أين ستذهب بها يا راغب؟!!! هل ستطلقها حقاً؟!!!

التمعت عينا هيام بشماتة لكنها بدت كمن سقط عليه دلو ماء بارد عندما قال هو بخشونة لا تخلو من عتاب:

_بل سآخذ زوجتي ونرحل من هذا المنزل...البيت الذي تُهان فيه زوجتي وتمتد عليها فيه يد ليس ببيتي!!!!

شهقت عفاف بقوة ...ثم نادته عدة مرات محاولة منعه....

لكنه تركهما خلفه وهو يعاود هبوط السلم معها حتى ساعدها في ركوب السيارة....

ثم ركب مكانه بدوره وشغل السيارة منطلقاً بها بسرعة خفيضة حتى لا يزيد ألمها...

فأطرقت برأسها تهمس بخفوت دون أن تجرؤ على النظر إليه:

_أنا آسفة.

اختلس نظرة جانبية إليها لكنه لم يرد ...

حتى وصل بها إلى بناية ضخمة توقف تحتها بسيارته ثم قال لها برفقه الغريب عليها:

_هيا بنا...سنصعد الآن إلى الطبيب ليتفحصك.

فتحت الباب لكنه قال بحزم :

_انتظري حتى أسندك.

قالها ثم ترجل من السيارة حتى دار ليقف جوارها ...

ثم انحنى مسنداً كتفيها لتتمكن هي من الوقوف بعد عدة أنّات خفيضة لم تستطع التحكم فيها...

وعند الطبيب كان راغب يراقب وجهها المتألم أثناء فحصه لها وهو يكاد يحترق...

بعيداً عن غيرته الآن من انكشاف جسدها ولو أمام طبيب!!

لكنه كان يتعذب بآهاتها...

لا يصدق أنها كانت ستحتمل ألماً كهذا حتى الصباح فقط لأنها تخشاه وتخاف أن تخبره...!!

حتى انتهي الطبيب من فحصه لها ليقول له بأسف:

_لن أستطيع الجزم بشئ قبل إجراء أشعة على ظهرها...لكنها على أي حال تحتاج للراحة الكاملة دون أي مجهود لأسبوعين على الأقل....مع هذه الأدوية والمراهم.

ثم أردف بتعاطف:

_ووجهها يبدو شديد الشحوب...يفضل إجراء تحاليل كاملة.

خرج بها من عند الطبيب ليركبا سيارته وينطلق بها من جديد...

ثم سألها دون أن ينظر إليها :

_كيف حدث هذا؟!!

ترددت للحظات...ثم روت له ما حدث بشئ من التوجس فهي لم تكن تعلم نيته بعد....

لينعقد حاجباه بشدة وهو يعقل حديثها...

هي ليست كاذبة فما أدراها أن هيام كانت ترغب بتزويجه من شقيقتها؟!!!

لولا هذه التفصيلة ربما ما كان صدق هذا الوجه البشع لزوجة أخيه!

كز على أسنانه وهو يعيد سؤالها :

_وماذا كان يحدث أيضاً طوال الأيام الماضية؟!!

ازدردت ريقها بتوتر ثم همست بخوف :

_لماذا تسألني عن هذا؟! هل تصدقني حقاً؟!!! أم أنك توقع بي لتسخر مني؟!

أوقف السيارة لينظر إليها أخيراً قائلاً بضيق :

_لماذا افترضتِ أنني لن أصدقك؟!!! ولماذا لم تخبريني بكل ما كان يحدث؟!!!

أطرقت برأسها وقد عادت إلىها دموع القهر من جديد ....

فرقّ صوته أكثر وهو يعيد سؤالها:

_إلى متى كنتِ ستحتملين ؟!!!

انتفض جسدها بعنف وهي تهتف بانهيار تام:

_إلى النهاية...أي نهاية...أنا كنت متقبلة لأي عقاب...حتى أكفر عن ذنبي...كل ما كنت أخشاه هو أن يعرف عبد الله...ليس لأنني كنت أخاف عقابه بقدر ما كنت أخشي رؤية الخزي في عينيه...هو الشيخ عبد الله الذي يعلم الجميع عن تقواه والتزامه والذي لم يقصر في تربيتي طوال هذه السنوات...لا يستحق أن أمرغ وجهه في التراب ...أو أن يضيع مستقبله لو قتلني....وهو كان سيفعلها لو عرف...أنا واثقة من هذا...أنا أنهيتُ حياتي بخطإ ...وسأرضى بقسمة الله لي ...هو وحده يعلم أنني...

عجزت عن إتمام عبارتها عندما انهارت تماماً في بكاء هستيري...

فدمعت عيناه هو الآخر ثم اقترب ببطء ليضمها لصدره بذراعه دون أن يجد كلاماً يقال....

ظلت تبكي على كتفه لعدة دقائق حتى تمالكت نفسها...

ثم رفعت وجهها إليه أخيراً لتهمس بامتنان لم يغادره خوفها بعد:

_شكراً...أنت رجل طيب...تستحق من هي أفضل مني بكثير.

تنهد في حرارة وهو يشيح بوجهه عن ملامحها البريئة التي لا يصدق حتى الآن كيف ارتكبت هذه الخطيئة...

ثم فك حصار ذراعه حولها ليعيد تشغيل السيارة منطلقاً بها من جديد...

تلفتت حولها في دهشة ثم نظرت إلى جانب وجهه تسأله بتوجس:

_هذا ليس الطريق لمنزل عبد الله...أين سنذهب؟!!

ظل مركزاً بصره على الطريق أمامه قائلاً دون أن ينظر إليها:

_عندما نصل سأخبرك!!

===========

_سأعرف كيف أصالحها...فلا يليق أن تبقى غاضبة ونحن سنعقد قراننا غداً!!!!

أصابتها عبارته بما يشبه الشلل وهي تنظر إليه مصدومة!!!

عقد قران؟!!!

غداً؟!!!

يا إلهي!!!

ألم تنتهِ من هذه المصيبة بعد؟!!!!

انفرجت شفتاها وهي تهمّ بالرد عليه بحدة لكن والدها رمقها بنظرة زاجرة أخري...قبل أن يتركهما ويخرج !!!

رفعت عينيها إلى عينيه الصقريتين وهي تحاول التحكم في نبرات صوتها:

_لماذا جئت اليوم؟!!

استخرج دبلتها التي كانت قد خلعتها في لقائهما السابق من جيب قميصه ليرفعها أمام وجهها قائلاً بلهجته الصارمة:

_جئتُ أعيد لكِ هذه!!

ابتسمت ابتسامة هازئة وهي تعقد ساعديها أمام صدرها قائلةً بنبرة متحدية:

_لم تعد لي يا سيادة الرائد...لو كنتُ أريدها لما خلعتُها !!

ابتسم ابتسامة جانبية يخالطها بعض الإعجاب وهو يرمقها بتفحص أثار ارتباكها للحظات...

قبل أن يقول بحزم واثق:

_اجلسي لنتفاهم.

زفرت بقوة ثم أشاحت بوجهها للحظة قبل أن تجلس على كرسي "الصالون" المجاور له مطرقةً برأسها تنتظر أن يقطع صمتهما...

لكنه ظل يتأملها بتفحص للحظات قبل أن يسألها ببطء حذر:

_ما الذي أغضبكِ مني بالضبط ؟!!!

رفعت رأسها إليه بحدة وهي تهتف بانفعال:

_بل اسألني عمّا لم يغضبني...سيادة الرائد يظنني بضاعة راكدة تفضّل هو على أهلي بشرائها...وللأسف أنا التي منحتك هذه الفرصة باستسلامي لأسلوبك المتعجرف...لكنني تعلمت درسي...أن أسير طريقي وحيدة وأكمله خيرٌ لي من أسيره مع من يعرقل خطواتي.

ابتسم ابتسامة حقيقية وهو يقترب بجذعه منها هامساً ببعض الرفق:

_كل هذا لأنني كدتُ أقبّلك؟!!! ألم تفكري للحظة أنه كان اختباراً مني لكِ؟!!!

ابتسمت بسخرية وهي تشبك كفيها قائلةً بتهكم مرير:

_واستهزاؤك بي دوماً ؟!! وتهميشك لرأيي؟!! وأسلوبك المزدوج في التعامل عندما نكون وحدنا وعندما يرانا الآخرون؟!!! كل هذه اختبارات أيضاً؟!!!

عقد حاجبيه بضيق وهو يراها تواجهه بعيوبه هكذا ليكابر ويسألها بانفعال مكتوم:

_ماذا تريدين الآن؟!!! اعتذاراً؟!!!

قامت واقفة وهي تقول بحدة بعيدة عن طبعها المرح:

_لا يا سيادة الرائد...أنا أعرف أنك لن تعتذر مهما كان خطؤك...كما أنني زاهدةٌ في اعتذاركِ هذا...لا أريده...ولا أريدك.

وقف بدوره وهو يكز على أسنانه هاتفاً بسخط :

_كيف تجرؤين على التحدث معي هكذا؟!!! هل تعلمين مع من تتكلمين؟!!!

ازدادت حدة انفعالها حتى احمر وجهها وصوتها يقارب الصراخ:

_لا تظنني غبية ..أنت لن تقبلني على عيبي ما لم تكن تحمل عيباً أكبر!

ارتفع كفه رغماً عنه يهمّ بصفعها دون شعور...

لكنه تجمد مكانه عندما فوجئ بها بعد عبارتها تسقط أمامه وجسدها كله يتشنج بقوة...

اتسعت عيناه بصدمة وهو يري جسدها المتشنج على الأرض ينتفض بجنون وهي تصدر صوتاً غريباً...

وازدادت صدمته عندما وجدها تعض -بلا وعيٍ- على لسانها بقوة حتى سال منه الدم...

ظلت على تشنجها للحظات حتى هدأ جسدها لتفقد وعيها بعدها...

لقد أصابتها نوبة الصرع من جديد ليشهد بعينيه ما ينتظره معها لو كان يرغب حقاً في إكمال عرضه- السخيّ - على دميته "المعيبة"!!!!!

=========

أفاقت من إغماءتها لتجد نفسها على فراشها في غرفتها...

فتحت عينيها ببطء وهي تشعر بجسدها كله يئنّ ألماً كعادتها بعد نوبات صرعها هذه...

تأوهت بضعف وهي تدور بعينيها في الغرفة فسمعت صوت والدتها جوارها تغمغم بارتباك جزع:

_هل أفقتِ يا ابنتي؟!!!

التفتت نحوها ببطء ثم اتسعت عيناها بارتياع وهي تجده واقفاً جوار والدها يرمقها بنظراتٍ غريبة...

شهقت بخفوت وهي تهرب من عينيه لتتشبث بكف والدتها وهي تسألها بخوف متمنيةً ألا يكون ما في بالها صحيحاً:

_ماذا ...حدث...؟!!!

خرج صوتها ضعيفاً مهتزاً لأن لسانها كان مجروحاً بعد ما حدث....

عندما اختلست والدتها نظرةً محرجة نحو حسام ثم غمغمت باستسلام لم تملك غيره:

_لقد أصابتكِ النوبة منذ قليل.

أغمضت عينيها بألم وهي تحاول تذكر ما حدث...

آخر ما وعاه عقلها هو مشادّتها الكلامية مع حسام وهو يهمّ بصفعها!!!!

دمعت عيناها بخزي ممتزج بالقهر وهي تود لو تنشق الأرض وتبتلعها الآن!!!

لماذا هو بالذات يحدث لها هذا أمامه؟!!!

أما كفاها سخريته واستهزاءه بها؟!!!

هل كانت تنقصها هذه الحادثة كي يزداد لها تحقيراً؟!!!

لكن...لا بأس!!!

لعله خير!!!

من يدري ربما كان هذا ترتيباً قدرياً حتى تتخلص منه...

فلا تظنه سيستمر معها بعدما رآه بعينيه!!!!

قُطعت أفكارها عندما سمعت صوته يسأل والدها بتهذيبه المبالغ فيه:

_عذراً يا عمي...هل ستمنعها هذه النوبة من عقد القران غداً أم أنها مجرد عَرَضٍ طارئ؟!!!

لم يكد يتفوه بعبارته حتى التفتت إليه ثلاثة أزواجٍ من العيون بصدمة...

نعم...هي التي كانت مذهولة بتمسكه -العجيب-بها خاصةً بعدما حدث...

ولم يكن والداها أقلّ منها ذهولاً...!!!

لكن ذهولهما كان ممتزجاً بالكثير من الامتنان...

والأسباب -بالطبع-معروفة!!!!

لهذا هتف والدها بسرعة :

_لا يا ابني لا تقلق...غداً ستكون بألف خير...إنها حالة مؤقتة تزول سريعاً.

ثم استدرك بتساؤل قلق:

_لكن هل أنت واثقٌ من رغبتك في إتمام الأمر؟!!! لقد كان صوتكما عالياً عندما...

قطع عبارته بعجز...

لكن حسام احتوى ارتباكه بابتسامته الودود وهو يقول بنفس اللهجة :

_دعاء تتدلل يا عمي ...والدلال يحق للعروس.

ثم أردف بتهذيبه الذي لا يُردّ من يتحدث به:

_أستأذنك أن أكمل معها حديثنا وحدنا كي أراضيها.

اتسعت عينا دعاء مصدومةً من طلبه الجرئ...!

كيف يطلب من والدها أن يبقي معها وحدهما في غرفة نومها وهي نائمةٌ هكذا....؟!!!

لابد أن والدها سيرفض!!!!

لكن والدها تردد قليلاً وبدا عليه بعض الارتباك وهو يرمق زوجته بنظرة استشارة...

فقامت والدتها من جوارها وهي تقول بلهفة أم تريد الخير لابنتها:

_بالطبع يا ابني ....هي في حكم زوجتك...عقد قرانكما غداً.

أغمضت دعاء عينيها تخفي دموع عجزها وألمها وهي ترى والديها يتعاملان معه بهذا الخنوع..

لو كانت هي فتاةً طبيعية لما سمح والداها بهذا التجاوز...

لكنهما يغضان الطرف ويتنازلان حتى تتم الصفقة الرابحة...

بل إنها تتوقع أنهما الآن سيسجدان لله شكراً لأنه سيتمّ الزيجة بعدما رآه!!!!

ثم راودها خاطر مزعجٌ جعلها تشعر بالخزي أكثر...

من الذي حملها حتى أرقدها على فراشها...؟!!!

في كل مرة تنتابها هذه النوبة ينتظر والداها حتى تفيق مكانها على الأرض...

فلا أحد منهما قادرٌ على حملها...

ووجودها الآن على فراشها يعني أنه هو من فعلها!!!!!

والدها تركه يحمل جسدها بين ذراعيه وكأن هذا من حقه!!!!

تنازلٌ تلو تنازل!!!!

وخزيٌ يعقبه خزيٌ!!!

وكل شيءٍ يهون فداءً لسيادة الرائد العظيم الذي بعثته الأقدار هديةً لابنتهم المريضة زهيدة القيمة!!!!

ظلت مغمضةً عينيها باستسلام وقد خانتها دموع خزيها وقهرها...

عندما جلس هو أمامها على طرف فراشها قائلاً بنبرة محايدة خالية من أي انفعال:

_حمداً لله على سلامتك.

ظلت على حالها من البكاء الصامت وهي عاجزةٌ حتى عن فتح عينيها...

كيف يمكنها رفع عينيها في عينيه بعد ما رآه...؟!!!!

لقد رآها في أسوأ حالاتها...وأشدها خزياً!!!!

هل تراه الآن مشفقاً أم شامتاً بعدما ناله من إهاناتها؟!!!

وكأنما قرأ أفكارها فقد اقترب بجذعه منها ليمسح دموعها قائلاً بنفس اللهجة المحايدة:

_لا تبكي...لا أحب أن أراكِ ضعيفةً هكذا.

ابتعدت برأسها عنه وهي تتحاشى النظر إليه هامسةً بصوتها الضعيف:

_ابتعد ... لا تلمسني!

قبض أنامله مبتعداً عنها قبل أن يقول بلهجة غريبة :

_غداً تكونين لي!!

هزت رأسها نفياً لتعاود همسها القويّ رغم ضعفه:

_لا...لن أكون لك...أنا لا أوافق.

ابتسم ابتسامة جانبية وهو يقترب أكثر ليكبل ذراعيها بكفيه بقوة وهو يميل بجذعه فوقها مقترباً بوجهه من وجهها قبل أن يهمس بنبرة متملكة:

_هل تراهنين؟!!!

ارتعد جسدها بخوف حقيقي وعيناه الصقريتان تعتقلان نظراتها باقتدار....

وخفقات قلبها تتراقص بجنون مع ثقل جسده الجاثم فوقها...

للحظات مرت قبل أن تهمس بصوت متقطع:

_ابتعد ..ابتعد.

لكنه بدا وكأنه لم يسمعها فقط عيناه التمعتا بقسوة وهو يهمس أمام عينيها بغضب لم تفهمه:

_تظنين نفسكِ مقاتلة شريفة في معركة الحياة؟!!! لا يا صغيرة...ستستسلمين كما استسلم غيرك...وستبيعين وتقبضين المقابل كما الجميع.

التفتت برأسها المستلقي على وسادتها نحو الباب وهي تهمّ بنداء والديها...

لكنه قام بسرعة مغلقاً الباب بالمفتاح ثم اقترب منها ليرفع عنها غطاءها هامساً بنبرة تهديد:

_والآن ماذا؟!!! هل تفضلين فضيحة قبل أن يتوسلني والداكِ لإتمام الزواج؟!!!

انقبض قلبها رعباً من تهديده فنهضت من فراشها بصعوبة تحاول الصراخ لكن صوتها اختنق بحلقها ....

عندما وجدته يضع كفه على شفتيها وهو يقول بصرامة:

_من تنادين يا صغيرة؟!!! والداكِ في صفي أنا وأظنكِ تعرفين السبب.

انهمر سيل دموعها المقهورة على وجنتيها حتى أغرقت أنامله على شفتيها...

فرفع كفه ببطء عنها وهو يهمس بصوته المسيطر:

_الآن نتفاهم إذن بعدما أدركتِ قوة موقفي.

أومأت برأسها في خوف وهي تهمس وسط دموعها:

_افتح الباب أرجوك.

رمقها بنظرة صارمة أخيرة قبل أن يقوم ويفتح الباب من جديد بمنتهي البساطة ...

ثم عاد يجلس جوارها وهو يحاصرها بنظراته القاسية...

حتى وجدت بعضاً من قوة لتسأله برهبة وقد أدركت أنها وقعت تحت قبضة شيطان حقيقي:

_لماذا أنا بالذات؟!!لماذا تتمسك بالزواج بي؟!

لوح بسبابته في وجهها وهو يقول بصرامته المتغطرسة:

_حسام القاضي يَسأل ولا يُسأَل!!

أغمضت عينيها عن صورته وهي تتمنى لو يكون كل هذا مجرد كابوس...

لكن صوته القاسي وصلها وكأنه فهم ما يدور برأسها وهو يهمس بلهجة مهيمنة:

_افتحي عينيكِ أو أغلقيهما ...لا فارق هناك...أنا في حقيقتك وفي أحلامك.

فتحت عينيها ببطء وهي تهمس بخفوت:

_ماذا تريد مني بالضبط؟!

ظلت ملامحه على جمودها وهو يجيبها ببرود:

_أريد الزواج منك....وسأفعل!

قالها ثم قام من مكانه ليربت على وجنتها برفق هامساً أمام عينيها:

_نامي جيداً واستعدي لعقد قراننا غداً.

ازدردت ريقها ببطء تتابع خطواته المنصرفة باضطراب....

لكنه توقف عند باب الغرفة ليلتفت نحوها من جديد قائلاً بحزم:

_ولا تبكي كثيراً حتى لا تفسدي رونق عينيكِ في الحفل غداً.

============

استيقظت من نومها على حركة أنامله -الفريدة-التي تداعب شعرها برفق غريب على طبعه الذي تعرفه...

لكنها لا تنكر تأثيرها عليها رغم كل شئ...

وكأنه يبثها عبرها المزيد من قوته هو... مع وعود بالأمان الذي تحتاجه الآن أكثر من أي وقت...

لا تدري سرّ حركته هذه...!!!

لقد جعلتها تبوح له بما لم تبح به لأحد...

لكن...ربما ليس السرّ في حركة أنامله المداعبة لشعرها...

وإنما فيما تحمله لها من شعور!!!

شعور بالدفء..

بالأمان...

بالاحتواء!!

فتحت عينيها ببطء لتتطلع لملامحه الشاردة....

وقد بدا لها في هذه اللحظة كأغرب مرة تراه فيها...

هذا الرجل لغزٌ محير...

لقد فعل لأجلها ما لم تتصور أن يفعله أحد...

لقد ثأر لها من هؤلاء المجرمين...

وليس هذا فحسب...

بل أحضرهم تحت قدميها لتشعر بمدى قوتها -الجديدة-!

ورغم أنه كان يريد قتلهم ...

لكنه تراجع فقط استجابة لرجائها هي!!!!

لقد شعرت بالأمس -ولأول مرة في حياتها-أنها قوية...

وأن لها سنداً داعماً في هذه الحياة....

حتى أن كوابيسها لم تهاجمها في ليلتها السابقة أيضاً....

رغم أن نومها كان قلقاً تتخلله نوباتٌ من استيقاظها الملهوف على صوت أناتها المتألمة...

لكنها كانت تجده مستيقظاً في كل مرة تفتح فيها عينيها فيربت على وجنتها برفق وهو يداعب شعرها بحركته -الفريدة-

مع همسه بجملته التي كانت تتخلل وعيها بين صحوها ومنامها...

_لا تخافي...ولا تحزني.

فتعود لنومها مطمئنة وقلبها يستكين -رغماً عنها- لشعوره الجديد بالاحتواء!!!!

التفت إليها من شروده لتتسع عيناه للحظة تألقت فيها شموسه الزيتونية وهو يهمس باهتمام:

_هل استيقظتِ ؟!!!

أومأت برأسها وهي تقوم من رقدتها لتشيح بوجهها في خجل...

هامسة بارتباك:

_هل تأخرت في الاستيقاظ؟!!

ابتسم في رفق وهو يقول بهدوء ممزوج بالإشفاق:

_لا عليكِ...لقد كانت ليلة صعبة.

تحاشت النظر لعينيه وهي تنهض لتجلس على طرف الفراش فتتلاعب أناملها بطرف غطائها هامسة بشرود:

_لم تنتابني كوابيسي الليلة الماضية أيضاً.

ربت على كفها برفق وهو يهمس بنبرته المسيطرة:

_ألم أخبركِ أن كوابيسكِ لن تطاردكِ هنا في غرفتي؟!!!

رفعت إليه وجهها بحذر...

فتنهد بحرارة ثم أردف بحزم:

_لكن الأمر لم ينتهِ بعد...أنتِ تحتاجين لعلاج.

عقدت حاجبيها بشدة وظهر الاستنكار في عينيها واضحاً...

فضغط كفها في راحته وهو يهمس بنفس الحزم:

_شعوركِ المؤقت بالأمان لا يعني أنكِ شُفيتِ تماماً...أنتِ تحتاجين لعلاج متخصص.

عضت على شفتها بارتباك مع ارتعاشة خفيفة سرت في جسدها وهي تهمس بترقب:

_هل ستدعني أذهب إلى طبيب نفسي؟!!

ابتسم ابتسامته الجانبية وهو يجيبها بحسم:

_أولاً ليس طبيباً بل طبيبة...أنا لا أتسم بالمرونة في هذه الأمور!

خفضت بصرها عنه في حياء وهي تشعر بشعور غريب...

رغم ما توحي به كلماته من سيطرة وتملك...

لكنها -للعجب-لم تكن منفرة بالنسبة إليها...

بل زادت من شعورها -المستحدث-معه بالحماية...

بالأمان!!!

قطع أفكارها وهو يردف بنفس النبرة :

_وثانياً...أنتِ لن تغادري هذا القصر...ستأتي الطبيبة إليكِ في مواعيدها الدورية ...إنها أفضل طبيبة نفسية في مصر ...وعيادتها في القاهرة تحظى بسمعة ممتازة.

ارتفع حاجباها بدهشة وهي تغمغم:

_وهل ستأتي من القاهرة إلى هنا لأجلي؟!!!

امتزجت ابتسامته ببعض المرارة وهو يجيبها:

_إنه سحر المال يا صغيرة!

تعلقت بشموسه الزيتونية المتألقة والتي غمرتها بدفء أشعتها للحظات....

قبل أن تهمس بحيرة :

_ولماذا تفعل أنت هذا لأجلي؟!!

أشاح بوجهه دون أن يرد...

فعادت تهمس بترقب:

_نفس الدين القديم؟!!!

التفت نحوها لينثر بعض الأمان وسط أمواج فضتها الهادرة متجاهلاً سؤالها -المفخخ-وهو يقول برفق:

_ألم يكن هذا وعدي لكِ؟!!!

أومأت برأسها إيجاباً....ثم قالت بصوت مهزوز:

_هل تظن أنني قد أتخلص من كوابيسي كلها يوماً ما؟!!

أومأ برأسه في إجابة قاطعة ونظرته الواثقة تذيب مخاوفها كما الملح في الماء...

ثم ربت على كفها برفق قائلاً بنبرة حازمة:

_اغسلي وجهكِ والحقي بي في غرفة الحديقة الخارجية...سنتناول إفطارنا هناك.

===========

أنهت إفطارها معه في الحديقة ثم تركها ليخرج لقضاء بعض أعماله...

عادت إلى غرفته وهي تشعر بالفراغ...

وحدتها هي أقسى ما يمكن أن تعانيه الآن...

لأنها تترك عقلها فريسة لذكرياتها السوداء كلها...

وليس عقلها فحسب...

بل قلبها الذي يكاد يذوب اشتياقاً لماضيه...!!!

تنهدت في حرارة وهي تحاول جاهدة صرف أفكارها هذه عن رأسها...

ولمّا فشلت خرجت من الغرفة لتجد نفسها أمام غرفة حورية...

مدت كفها نحو الباب بتردد ممتزج بالخشية...

لكنها حسمت أمرها سريعاً وطرقت الباب برفق...

حتى سمعت إذنها بالدخول...

دخلت الغرفة بخطوات بطيئة مترددة لكن ابتسامة حورية المشفقة نسفت كل هذا وهي تغمغم بحسرة:

_فشلتِ في الهربِ يا ماسة!

ازدردت ماسة ريقها بتوتر وهي تشعر بغرابة موقفهما...

حورية لا تبدو غاضبة منها...

ولا يبدو على وجهها أي مظهر للغيرة ...

بل على العكس...

إنها تبدو وكأنها تشعر بالشفقة نحوها...

وهي التي كانت تخاف أن تكون ناقمة عليها!!!!

ويبدو أن حورية قد فهمت ما يجول بذهنها فقد قالت لها بأسي:

_لا تتعجبي يا ماسة...لن تجدي امرأة في هذه الدنيا أكثر زهداً في زوجها منّي!!!

هزت ماسة رأسها بتساؤل حقيقي يشغل رأسها منذ فترة...

لماذا يعاملها عاصي بهذا الرفق والتفهم...

في الوقت الذي رأت فيه بنفسها قسوته وتسلطه مع حورية؟!!!!

بينما ابتسمت حورية بمرارة وهي تقول بشرود:

_قصتي مع عاصي الرفاعي بدأت منذ سنوات طويلة...أنا وابن عمي عدنان كنا متحابيْن منذ صغرنا...وعاصي كان يعلم هذا...لكن المصالح المشتركة بين عائلة الرفاعي وعائلتي اقتضت أن أتزوج به...ورغم أنني ذهبت لعاصي قبل الزواج ورجوته ألا يتمّ هذا الأمر لأنني لا أريده...إلا أنه استسلم لعناده ودعوة المصالح ...وعندما علم عدنان بزواجي خرج

من المدينة كلها إلى مدينة أخري بعيدة...ولم يعد سوى منذ بضعة أشهر فقط....

اتسعت عينا ماسة وهي تسألها بترقب:

_هذا يعني أن عودته تزامنت مع حملك...لهذا يشك السيد عاصي في نسب الطفل؟!!!

أومأت حورية برأسها إيجاباً وهي تردف بنفس الشرود:

_لا أقول أن هذه السنوات مع عاصي الرفاعي كانت نعيماً...بل على العكس ...لقد كانت سجناً قاسياً...لكن كل هذا لا يساوي شيئاً أمام فعلته الأخيرة...إنه لم يقتل عدنان فقط...بل قتلني معه.

ارتعش صوتها في عبارتها الأخيرة ثم انخرطت في بكاء عنيف وهي تهتف وسط دموعها:

_هل تتصورين شعوري وأنا أراني سبباً في موت الرجل الوحيد الذي أحببته؟!!

دمعت عينا ماسة وهي تندفع نحوها لتحتضنها بقوة جالسةً جوارها على طرف الفراش...

عندما أردفت حورية وسط نشيجها المتألم:

_لماذا قتله وتركني أنا؟!كي يعذبني بذنبه؟!!!

سالت دموع ماسة على خديها وهي عاجزة عن استيعاب كل هذا الظلم...

وكل هذا الألم...

لا تصدق أن عاصي الرفاعي الذي منحها أماناً لم يمنحه لها أحد....

له هذا الوجه الشيطانيّ!!!!

لهذا صمتت لدقائق حتى هدأت حورية نوعاً ثم سألتها برفق متردد:

_ألا يحتمل أن ابن عمكِ قد أخطأ في شيءٍ آخر؟!!هل يُعقل أن يقتله السيد عاصي لمجرد شك؟!!

ابتسمت حورية ببعض الإشفاق وهي تتطلع لملامح ماسة البريئة ثم همست بشرود:

_هو ابن أبيه يا ماسة...حماد الرفاعي هو الذي زرع بذوره الشيطانية في ابنه الوحيد ليعلمه كيف يملك الدنيا بقبضة يده منذ صغره .

ازدردت ماسة ريقها ببطء وهي تتصور القصة التقليدية...

الأب القاسي الذي يسرق زهور طفولة ابنه ليمنحه بدلاً منها سيف طغيان!!!

فتكون النتيجة رجلاً بلا قلب...

لكن ...هل هكذا عاصي حقاً؟!!!

لا...هي لا تراه كذلك...

وبالذات بعدما حدث بينهما منذ زواجها -الغريب-به...

على العكس...

هذا الرجل يعرف متى يفيض حنانه كشلالٍ جارف....

ومتى يوقفه خلف سدود سيطرته!!!

يا لحيرتي معك يا سيد عاصي!!

ويالظلمةَ مصيري معك!

تنهدت في حرارة وهي تربت على رأس حورية المستقر في حضنها...

فرفعت حورية عينيها إليها وهي تقول بحسرة :

_لازلتُ أسأل نفسي لماذا اختاركِ أنتِ!!

ثم التمعت عيناها فجأة وهي تسألها بجزع:

_هل يعلم أنكِ كنتِ تحبين رجلاً آخر؟!!

شهقت ماسة بقوة وعقلها يقارن تلقائياً بين وضعها ووضع حورية...

لترى بعين خيالها عزيز مكان....عدنان!!!!

معقول؟!!!

هل كان هذا ما يقصده عندما وعدها أن ينتزعه من روحها قبل أن تكون كاملةً له؟!!!!

هل ينتوي...قتله؟!!!

لا....مستحيل...

والد عزيز يرتبط معه بعلاقة عمل كما أخبرها وهو لن يُقدم على إيذاء ابنه....

لا...لا...لن يقتله....

لكن...ربما يؤذيه!!!

وقد أكملت لها حورية أفكارها -السوداء-وهي تردف بانفعالٍ شديد:

_بالتأكيد يعلم...وهذا هو سبب إصراره على هذه الزيجة...عاصي الرفاعي مهووس بالسرقة وحب الامتلاك...عندما أعجبتُه أنا سرقني من عدنان...وهاهو ذا يكرر فعلته معكِ.

اتسعت عينا ماسة بإدراك ومشهدٌ واحد يتملك عقلها مُهيمناً...

مشهد عاصي وهو ينتزع سلسلة عزيز من عنقها بقوةٍ جرحتها ثم يلقيها في نار المدفأة!!!

قشعريرة باردة سرت في جسدها وهي تفهم الآن فقط سبب زواجه منها...

السيد العظيم أعجبته الفتاة الفقيرة وأثارت لديه غريزة التملك عندما علم عن عشقها لغيره...

فأراد فقط أن يثبت سيطرته ويرضي غروره...

غرور شيطانٍ وجد ماسةً في طريقه فسرقها لتكون له قبل غيره!!!

=============

سمعت صوت طرقاته مساءً على باب غرفته التي تقيم فيها حسب أوامره...

فانتفضت مكانها بخوف لم يغادر نظراتها حتى دخل ليتقدم نحوها قائلاً برفق:

_كيف حالكِ الآن؟!!!

أشاحت بوجهها رغماً عنها في نفور لم تستطع التحكم فيه وحديث حورية يحتل أفكارها عنوة...

لتجد نفسها رغماً عنها تتخيل عزيز مكان عدنان...!!!!

ارتجف جسدها للفكرة فأحاطته بذراعيها وهي تهمس بصوت متهدج:

_الحمد لله.

تفحصها ببصره للحظات...ثم سألها بنفس النبرة الرفيقة:

_لماذا عاد الخوف لملامحك؟!! كنتِ أفضل حالاً في الصباح!!!

ازدردت ريقها ببطء وهي تتحاشى النظر إليه....

فاقترب منها خطوة لكنها تراجعت -تلقائياً-للخلف وهي تهرب بعينيها منه...

عقد حاجبيه وهو يشعر بأن ثمة شيئاً ما خطأ!!!

لقد اختفت نسائم الأمان التي كان يراها محتضنة لنظراتها نحوه...

لتحل محلها رياح عاصفة من خوفها القديم....

وهذا لن يكون له إلا سبب واحد...!!

لهذا ابتسم ابتسامته الجانبية وهو يسألها بيقين:

_هل تحدثتِ إلى السيدة حورية؟!!!

كانت عبارته للجواب أقرب منها للسؤال...

لكنها تجاهلتها وهي لا تزال تتجنب الضلال من جديد في غابات زيتونه....

عندما سمعته يردف بلهجة غامضة تمزج اللوم بالأسف:

_ظننتُ أن ماسةً عانت من كثرة خدوشها لن تنخدع بصور المرايا المكسورة!!!!

رفعت عينيها إليه بوجل...

وهي تحاول استقراء ما يخفيه خلف كلماته ...

إنه يقايضها بشعورها بالظلم الذي لازمها طيلة حياتها على وجوب أن تحسن الظن فيه هو...!!!!

لكنها حقاً حائرة...

لقد رأت منه وجهين في غاية التناقض...

جزء منها يرتاح إليه بلا حواجز ولا حدود...

نعم ...لا يمكنها نكرانِ شعورها بالأمان معه...!!!!!

لكن جزءاً آخر يخافه بجنون...

ويود لو يهرب منه هروبها من الموت نفسه!!!!

وبهذه الحيرة التي تملؤها وجدت نفسها تتجاهل عبارته ثانية لتقول له بصلابة :

_لقد صرتُ أفضل حالاً...أفضل النوم في غرفتي الليلة.

اتسعت ابتسامته الجانبية وهو يرمقها بنظرات غامضة للحظات...

قبل أن يفرد لها ذراعه على طوله بإشارة موحية...!!

أطرقت برأسها وهي تشعر بالكثير من الارتياح لأنه لم يستبقِها قهراً....

لكن شعوراً آخر -بالخيبة - تسلل إليها رغماً عنها و هي تتجه نحو باب الغرفة بخطواتٍ متثاقلة ...

وعندما وضعت كفها على مقبض الباب سمعته خلفها يقول بلهجته المسيطرة:

_عودي عندما تريدين دون خجل.

ارتجفت أناملها على المقبض وهي تشعر بأنها ستودع أمانها -المؤقت-لو تركت هذه الغرفة...

لكنها استجابت لنداء أعماقها التي كانت تناشدها بالهرب من كل هذا الفيض من المشاعر المتناقضة...

ففتحت الباب وخرجت لتغلقه خلفها في تصميم...

ثم توجهت إلى غرفتها بخطوات سريعة تنتحل القوة...

حتى أغلقت بابها خلفها فعاد إليها شعورها بالخوف من جديد...

فتحت أنوار الغرفة كلها وتمددت على فراشها تتشبث بغطائها وهي تحدق للسقف بشرود...

حاولت النوم لساعات طويلة مرت بعدها...

لكنها لم تستطع...

أفكارها كانت تلتهم رأسها كوحوش ضارية...

ذكرياتها السوداء تحالفت مع قلقها أسوأ تحالف لتجد نفسها رغماً عنها ممزقة بينهما!!!

سمعت أذان الفجر فقامت تصلي وهي تدعو الله بتضرع...

لكن ذهنها كان مشتتاً ضائعاً بين متاهات أفكارها ومخاوفها!!!

عادت إلى فراشها تحاول النوم من جديد...

لكنها عجزت بالطبع...

كلما أغمضت عينيها يتنازعها خوفها على عزيز مع خوفها -المرضي-من هواجسها...

فتعود تفتحهما بقوة مغالبةً تعبها وكأنها بهذا تهرب من شعورها!!!

حتى بدأ نور الصبح يغازل السماء بتمهل...

فتنهدت في حرارة...

ثم قامت من نومتها لترتدي عباءتها وتخرج إلى مكانها المفضل في غرفة الحديقة...

جلست في مكانها المعتاد وهي تشعر بنور الصبح مع زقزقة العصافير يحارب مخاوف ليلها المظلمة...

فحمدت الله سراً...

ثم ابتسمت ابتسامة باهتة...

وهي تلمح هناك على الأرض بعضاً من الأوراق وقطعة صغيرة من الغاب مع بكرة خيط ...

وكأن أحداً ما كان يحاول صنع طائرة ورقية هنا!!!!

قامت من مكانها بلهفة لتجلس على الأرض متناولة أشياءها -الثمينة-كما كانت تراها...

وأصابعها -كأنها ذات إرادة مستقلة -تعمل وحدها في صنع طائرتها الورقية...

بينما كانت أفكارها بعيدة تماماً ....

مأسورة بأقوى وأقسى شعور...

الحنين!!!!

هذا الوحش الضاري الذي يخدعنا بلون ذكرياته الوردي ورائحة ماضيه الساحرة...

بينما تلتهمنا أنيابه بقسوة الشوق ومرارة الحرمان!!!!

ثم ارتفع صوتها نوعاً وهي تدندن بهذه الغنوة التي طالما كانت تعشقها...

وتغنيها مع رحمة وهي صغيرة...

طيري يا طيارة طيري يا ورق وخيطان
بدي ارجع بنت صغيره ع سطح الجيران
وينساني الزمان على سطح الجيران

علّي فوق سطوح بعاد ع النسمه الخجولة
أخذونى معهم الولاد وردّوا لي الطفولة
ضحكات الصبيان وغنانى زمان
ردّتلى كتبى ومدرستى والعمر اللي كان
وينساني الزمان على سطح الجيران

لو فينا نهرب ونطير مع ها الورق الطاير
تنكبر بعد بكير شو صاير شو صاير
يا زهر الرمان ميل بهالبستان

يتسلو صغار الأرض ويحلو الزمان!!!

طيري يا طيارة طيري...

يا ورق وخيطان...

بدي أرجع بنت صغيرة ...

ع سطح الجيران...!!!

وخلفها ببضع خطوات كان هو واقفاً يستمع إليها مأخوذاً...

وشعوره بها -كطفلة يتيمة-يزداد رسوخاً بداخله....!!

صوتها المشبع بنغماتها القديمة ذات الشجن كان له تأثير السحر عليه...

وبراءتها المنقوشة على ملامحها تشع نوراً ينافس نور الصبح حوله...

ماسة...

إنها حقاً ماسة!!!

تخطف القلب والبصر!!!!

أما هي فقد كانت غافلة عن كل هذا ....

تتلقفها أمواج الحنين بين ذكريات غنوتها الأثيرة...

حتى انتهت من صنع طائرتها الورقية...

فقامت من مكانها وهي تتأملها بفخر وابتسامتها تتحول لضحكة مشرقة....

حتى حانت منها التفاتة نحوه فتجمدت ضحكتها على شفتيها...

وهي تنظر إليه بترقب...

اقترب منها بخطوات بطيئة معتقلاً نظراتها جبرياً كعادته.....ثم قال بلهجته المميزة:

_صوتك يشبهك!!

احمرت وجنتاها بخجل وهي تنتبه أنه قد استمع إلى غنائها...

فأطرقت برأسها وقلبها يخفق بجنون...عندما أردف هو بنفس اللهجة:

_برئ...قوي...ساحر...لكنه كسير!!

رفعت عينيها إليه بحذر...

فتناول كفها بطريقته المسيطرة وهو يسير بها نحو القصر دون أن يتحدث إليها...

اختلست نظرة جانبية إليه وهي تود لو تسأله عن وجهتهما...

لكن صوتها ضاع منها تماماً...

كان مختنقاً بتأثير مشاعرها الصاخبة التي تتأرجح مع هذا الرجل بين أقصي اليمين وأقصي اليسار....!!

حتى فوجئت به يصعد معها الدرج نحو سطح القصر الذي كانت تراه لأول مرة بطبيعة الحال...

اتسعت عيناها بانبهار وهي ترى هذه المساحة الشاسعة أمامها...

والتي كانت خالية تماماً ...

رفعت عينيها للسماء التي سيطر علىها ضوء الشمس في تملك...

لتشعر براحة غريبة ...

مع نسائم الهواء الباردة التي داعبت وجهها لتمنحها شعوراً خاصاً بالاسترخاء....

التفتت نحوه بعد لحظات ليغمرها دفء شموسه الزيتونية وهي تسأله بتماسك هش:

_لماذا جئنا إلى هنا؟!

أشار بعينيه إلى طائرتها -الورقية- المستقرة بين أناملها وهو يقول ب-شِبه- ابتسامة:

_وينساكِ الزمان على سطح الجيران!

ابتسمت رغماً عنها بخجل...

لكن صوته قد عادت له جديته وهو يردف بحزم يخالطه بعض الرفق:

_يمكنكِ اللهو والغناء هنا كما تريدين...لكن لا تفعليها ثانية في الحديقة...قد يسمعكِ أحد...والخدم هنا لا يكتمون سراً.

تضاعف خجلها وهي تطرق برأسها دون أن تجد رداً...

فأردف بنفس النبرة:

_سأنتظركِ في غرفتي عندما تنتهين من "صديقتك الطائرة".... حتى تنامي!

رفعت عينيها إليه بتردد وهي لا تعرف بماذا تجيب...

لهجته توحي أنه يعلم أنها لم تنم ليلتها!

ثم أتتها كلماته مصبوغة باهتمامه الذي لا تنكر احتياجها إليه الآن:

_أنا أعرف أنكِ لم تنامي ليلة الأمس...لقد ظل نور غرفتكِ مضاءً طوال الليل!!!

أغمضت عينيها المرهقتين وهي تشعر بالدوار...

نعم...

دوار مشاعرها الذي كان يدوخها الآن بلا رحمة...

كيف يمكنها التغافل عن كل هذا الحنان الذي يعاملها به؟!!!!

وكيف يمكنها تجاهل ما عرفته عن قسوة ماضيه...؟!!!

خائفة منه لأقصي حد...

ومع هذا تشعر أنها لا أمان لها الآن إلا معه....

فماذا عساها تصنع؟!!!!

وكأنما قرأ هو أفكارها...

فقد أمسك كتفيها بقوة ليلتقط سحر كنوزها الفضية وهو يهمس بنبرته المسيطرة:

_يبدو أنك لن تتمكني من النوم بعد الآن إلا في غرفة عاصي الرفاعي!!

===========

سارت على شاطئ البحر الذي خلا إلا منها تقريباً في هذا الوقت من العام...

ورغم الرياح الشديدة التي كانت تعاند خطواتها...

لكنها لم تكن تشعر بالبرد مع الحرارة التي كانت تشعر بها في قلبها...

تنهدت في حرارة وهي تتذكر كيف تركت كل شئ خلفها وهربت...

وكيف لا تفعل...؟!!!

وقد أحست بنفسها خائنة......

نعم...لقد خانت كل شئ...!!!!

خانت مبادئها وماضيها ...

خانت عهدها مع نفسها...

وخانت حسن...!!!

وليتها خانته بجسدها فقط...

ربما كانت وجدت لنفسها مبرراً من ضعف بشريّ...

لكنها خانته بقلبها كذلك...!!!!

هي وحدها التي تستطيع الجزم في هذه القضية...

نعم ...هي شاهد الإثبات الوحيد في قضية خيانتها القلبية هذه...

والتي تستوجب في عرفها أقصي عقوبة!!!

هزت رأسها وهي تشعر بثقل على صدرها...

كيف يمكنها وصف ما شعرت به تلك الليلة...

عندما أفاقت من سحر عاطفتها معه لتجد نفسها موصومة بخطيئتها...

خطيئة لن يعاقبها عليها شرع ولا قانون...

لكنها تعلم أنها ستبقى تجلد نفسها بها طوال عمرها...!!!!

فهد الصاوي حقق انتقامه الذي توعدها به منذ أول يوم...

عرف كيف يلعب على أوتار ضعفها كلها حتى تسلل لقلبها بخفة تليق بلص قلوبٍ ماهر مثله...

حنانه المشبع بسيطرته الرجولية كان يرضي ظمأ أنوثتها...

ظمأ امرأة عاشت سنوات من الوحدة والحرمان متشحة بالماضي محتجبةً خلف جدارٍ من الذكريات...!!!

لقد أجاد اختيار الطُعم المناسب وسحب سنّارته في أشد أوقاتها احتياجاً إليه!!!

أسبوع كامل مر بها هنا لا تدري ماذا ستفعل بعدها...؟!!!!

لقد سلمت قضايا المكتب لمحامٍ آخر...

وسافرت إلى هنا حيث لا أحد يأتي لهذا المصيف في هذا الوقت البارد من الشتاء...

كما أغلقت هاتفها لتكون في منفاها الاختياري هنا كما تشاء...

وكأن أحداً سينتبه لغيابها...!!!!

شقيقتاها غافلتان عنها...

ورؤى منشغلة في حياتها الجديدة مع راغب وانقطعت عنها أخبارها فهاتفها دوماً مغلق لكنها تطمئن عليها من صفا...

وفهد ...

آه من فهد!!!

تراه عاد لمغامراته بعدما أحرز نصره الأخير...؟!!!!

أم تراه ينتظرها ليتشفى في قوة "الأستاذة" التي خذلتها أخيراً...؟!!!!

أغمضت عينيها بقوة وهي تتذكر نظراته في ليلتهما الأخيرة...

هل من الممكن أن يكون كل ما رأته في عينيه وهماً...

أم أنها هي التي فقدت إحساسها بالصدق والكذب؟!!!

هل كان يحتاجها حقاً كما كان يهمس في أذنها مع قبلتيه كل صباح...؟!!

أم أن هذا كله كان من مسوغات دوره التمثيلي المتقن...؟!!!

ياللخسارة يا أستاذة!!!

لقد فقدتِ قدرتكِ على التمييز بين الحق والباطل...

وكأن روحك النقية التي كانت ترشدكِ دوماً للصواب قد تلوثت منذ دخلتِ إلى عالم هذا الرجل..!!!

افتقَدَته؟؟!!!!

نعم...للأسف...!

افتقدت نور الصباح يداعب عينيها وأول ما تراه صورته أمام النافذة بعدما يفتحها لها قائلاً بصوته الرخيم..."صباح الخير يا أستاذة"..

وافتقدت قبلتيه على وجنتيها تذكرانها بحاجة كل منهما لصاحبه...

وافتقدت مشاكساته وتحديه السافر لقوتها المزعومة...

تماماً كما افتقدت حنانه واهتمامه ...

وافتقدت أقراص دوائها بنكهة أنامله على شفتيها ...!!!!

افتقدته...

افتقدته...

كاذبة لو ادعت غير ذلك!!!!

هنا شعرت بكفه يحتضن كفها فالتفتت جوارها بعنف...ثم شهقت هاتفة:

_فهد!!

لم ينظر إليها نظرة واحدة....

بل سار جوارها مشبكاً أنامله في أناملها هامساً بحزم:

_اسكتي حتى نصل إلى المنزل.

لم تكن في حاجة لأمره هذا فهي كانت عاجزة حقاً عن الكلام...

وجوده الآن معها مفاجأة...

ليس لأنه كان سيعجز عن معرفة مكانها...

فهي لم تنسَ -بعد-أنه فهد الصاوي ابن جاسم الصاوي بنفوذه وعلاقاته!!!!

لكن ...ل-سبب- وجوده هذا...

لماذا جاء خلفها؟!!!

ألم يكتفِ بما كان؟!!!

كانا قد وصلا للشقة الصغيرة التي كانت تستأجرها منذ جاءت إلى هنا...

ففتحت باب الشقة بوجل وهي تختلس نظرات مترقبة إلى وجهه ...

حتى دخلا...

أطرقت برأسها للحظات تستعيد تماسكها لتجده قد أحاط خصرها بكفيه في تملك هامساً :

_انظري إليّ.

رفعت عينيها إليه بخشية فشعر بنفسه وكأنه يسافر على قوارب البندق في بحار حدقتيها شرقاً وغرباً...

ليهمس بعدها بحرارة:

_منذ رأيتكِ على الشاطئ وأنا أقاوم النظر لعينيكِ...لأنني كنت أعلم أنني لن أحتمل ألا أعانقهما بعد كل هذا الفراق.

اضطربت أنفاسها في صدرها ...

فأغمضت عينيها تهرب من لقاء عينيه المفخخ هذا...

لتشعر بشفتيه على عينيها تقبلانهما بعمق وهو يهمس:

_اشتقتكِ يا ساحرتي البندقية!!

حاولت دفعه برفق وهي تهمس باعتراض:

_فهد...دعنا أولاً...

لكنه وضع سبابته على شفتيها مقاطعاً همسها المعترض بهمسه المسيطر:

_دعينا أولاً نصفي حساباتنا...قبل أن نبدأ الجديد.

عقدت حاجبيها هامسة بتساؤل مستنكر:

_حساباتنا؟!!!

مال على أذنها هامساً بدفء كاد يذيبها:

_سبعة أيام تساوي أربع عشرة قبلة متأخرة.

دق قلبها بقوة وهي تغمض عينيها باستسلام لم تعد تملك غيره...

وهي تسمعه قد بدأ العد بصوت مسموع- متزامناً- مع قبلاته على وجنتيها...

لتشعر بنفسها قد غابت عن هذا العالم ......

لترتقي إحدى الغيمات الناعمة في سماء خيالها المزدانة بنجومه...

حتى سمعت همسته الأخيرة بعدما أنهي عدّه -المهلك-:

_أربعة عشر.

ثم مال على أذنها هامساً بجملته التي اشتاقتها كما اشتاقته:

_تحتاجينني...وأحتاجكِ أكثر.

فتحت عينيها أخيراً لتبتعد بنفسها قليلاً...

لكنه جذبها نحوه أكثر هامساً باشتياق جرفها معه في تياره:

_لا تبتعدي...لم ينطفئ شوقي إليكِ بعد...حسابنا لم ينتهِ...بقيت ضريبة التأخير يا أستاذة.

ابتسمت رغماً عنها بخجل فالتقط ابتسامتها بشفتيه يتذوقها هامساً بعاطفة لم يعد يمكنها إنكارها:

_جنة...أنتِ حقاً جنة...نعم...أنتِ جنتي وجحيمي!!

قالها وهو يزيح حجابها عن رأسها برفق لتتوه أنامله في خيوط شعرها الثريّ...

ويتوه هو معها في عالم من عاطفتهما الخاصة...

لمساته التي كانت تنافس قبلاته في دفئها وحرارتها كانت تفضح لها طول اشتياقه...

واستسلامها البعيد عن طبيعتها -النارية العنيدة- كان يفضح له اشتياقها كذلك!!!!

حتى شعر بدموعها تبلل شفتيه أخيراً مع ارتجاف جسدها كله...

رفع وجهه إليها بدهشة للحظة...

ثم أطرق برأسه في إدراك وهو يستوعب الآن سبب دموعها...

الآن هو يفهمها جيداً...

هي تخاف ضعفها معه لأنها لازالت لا تثق فيه...

حتى مع شعوره أنها افتقدته كما رأى هذا في عينيها...

لكنه لازال يعلم أن الطريق معها سيكون طويلاً...

وهو مستعد ...!

نعم...هي جنته وجحيمه كما أخبرها...وهو أبداً لن يضيعها من يده!!!

لهذا رفع وجهها إليه بعد لحظات يمسح دموعها بأنامله هامساً:

_لن أسألكِ عن سبب دموعكِ لأنني أعلم..لكنني فقط أريدكِ أن تمنحينا بعض الوقت.

هربت بعينيها من عينيه وهي تهمس بصوت باكٍ مدعية التماسك:

_الوقت لماذا؟!!أنت تخدع نفسك أم تخدعني؟!! أنت جعلتني أخون كل مبادئي...وأخون قلبي قبلها.

ضم رأسها لصدره هامساً جوار أذنها:

_أنتِ لم تخوني قلبكِ يا أستاذة...أنتِ فقط استمعتِ إليه عندما دقّ لمالكه الجديد.

ابتعدت برأسها عنه وقد عادت إليها حدتها لتهتف بانفعال:

_مالكه الجديد؟!!! من هذا المالك الجديد؟!!!

ثم راودتها نفسها بالكذب لتردف بصوت متهدج:

_لو كنت تظن هذا فأنت واهم...استسلامي لك تلك الليلة كان مخططاً حتى تملّ وتتركني لحياتي بعدما منحتك ما كنت تريده.

نظر إليها طويلاً بعد عبارتها الكاذبة...

فأشاحت بوجهها وهي تكتم انفعالها بصعوبة...

لكنه أعاد وجهها إليه ليهمس بحزم واثق:

_كاذبة!!

أغمضت عينيها بقوة تخفي عنه فيض مشاعرها...

لكن همسه وصلها بنفس الحزم ممزوجاً بعاطفته هذه المرة:

_إذا كنتِ أنتِ تشكين في مشاعرك نحوي...ومشاعري نحوك.....فأنا لستُ كذلك...أنا واثق من كليهما!

فتحت عينيها ببطء ليعاود تعلقه بخيوطها البندقية مردفاً:

_استسلامكِ لم يكن مخططاً...على العكس...لقد كان الشئ الوحيد الذي فعلتِه معي برغبة قلبك فحسب دون أي تأثير لعقلك.

عادت تغمض عينيها هاربة لتهمس في ألم وقد عجزت عن الإنكار:

_لماذا التقينا؟!!لقد كنتُ راضية بحياتي.

فلامس وجنتها بأناملها برفق وهو يهمس بعتاب:

_وهل كانت هذه حياة؟!!

أشاحت بوجهها وهي تزفر بقوة...

فأمسك ذقنها يعيد التقاط أشعتها البندقية هامساً بحزم حنون:

_لقد كنت أتعمد أن أذكّركِ في كل يوم أنك تحتاجينني كما أحتاجك...ربما كنت أنا أحتاجكِ لتطهري لي حياتي من كل ذنوبي...لكنكِ تحتاجينني لأعيد لكِ الإحساس بالحياة نفسها.

ارتعشت حدقتاها وهي تتعلق بليل عينيه الساحر...

فعلم أنه قد بدأ يلمس جانباً من روحها شجعه لأن يردف بنفس الحزم:

_جنة الرشيدي صنعت لنفسها قبراً من ذكريات الماضي...والآن تستكثر عليّ نبشه؟!!! لا يا جنة ...أنا الذي سأخرجكِ ولو قسراً من هذا القبر وأنفض عنكِ غباره...حتى تستعيدي عمركِ الضائع وحياتكِ المفقودة.

أسندت جبهتها على كتفه تهرب من نظراته الآسرة...

ثم همست بضعف وكأنها تحاول محاولة أخري يائسة لإقناع نفسها:

_أنا لا أصدقكِ...ولن أصدقك!

لكنه ابتعد برأسه قليلاً ليرفع وجهها نحوه ملتقطاً عينيها من جديد ...

ثم همس بابتسامة ماكرة:

_لا تقولي هذا وأنتِ مختبئة بين ذراعيّ ...تجرئي وقوليها في عيني.

تخلصت من حصار ذراعيه برفق لتبتعد عدة خطوات معطيةً له ظهرها...

وكأنها ما عادت قادرة على مواجهته.....

بل على اتخاذ أي قرار...

فتركها احتراماً لصمتها لبضع دقائق..

ثم توجه نحوها ممسكاً كتفيها ليديرها نحوه قائلاً بنفس النبرة المسيطرة:

_إذا كنتِ هربتِ مني لأجل الذي حدث بيننا تلك الليلة فأعدكِ ألا يتكرر .

انعقد حاجباها بشك فضحك وهو يشيح بوجهه للحظة قبل أن يعود ليقول بجدية هذه المرة:

_نعم...لن أمسكِ ثانية حتى أزيل من قلبكِ كل هذه الهواجس والظنون...حتى أشعر أن روحكِ تفتح ذراعيها لي دون قيود...فهل يكفيكِ هذا الوعد؟!!

تنهدت في حرارة وهي تطرق برأسها...فاحتضن وجنتها براحته هامساً بحزم:

_وإياكِ أن تهربي مني ثانية...وإلا حبستكِ في غرفة مغلقة مفتاحها الوحيد معي...وأنتِ تعلمين أنني قادر على ذلك.

رمقته بنظرة عاتبة ظللت أشعتها البندقية فأحاط وجنتها الأخرى بكفه هامساً بنبرة أرق:

_أنتِ لا تعلمين كيف كان حالي طوال الأيام السابقة.

نظرت إليه بتساؤل تريد المزيد من الوصف!!!

لكنه مال على أذنها هامساً بمكر:

_لن أخبركِ حتى لا تشمتى بي يا أستاذة!

ابتسمت أخيراً رغماً عنهاوهي تطرق برأسها فضمها إليه من جديد مع آهة حارة...

ثم قبل رأسها هامساً بدفء أمام مليكتيه البندقيتين:

_انزعي الأسود من ألواني...وامنحيني لوناً يشبهكِ ..في نقائه وطهره....شيطانٌ أنا ...جاءكِ ليتوب على يديكِ ...فتكونين له جنة...ألا تقبلين؟!!

==============

_نوّرتِ بيتك يا أستاذة!!

همس بها بمرح جوار أذنها وهو يدخل معها باب شقته ...

ثم وضع حقيبة ملابسها على الأرض مغلقاً الباب خلفه بالمفتاح ...

قبل أن يواجهها ببصره من جديد ملوحاً بالمفتاح في وجهها وهو يهمس بحزم عاتب:

_تعلمين كم تراودني نفسي الآن بأن ألقي هذا المفتاح من النافذة فلا يخرج أحدنا من هنا!!!!

أشاحت بوجهها هاربةً من فيوض عاطفته الملتمعة بليل عينيه الأسود...

ثم جالت ببصرها في المكان وهي تشعر باشتياق غريب...

رغم أنها لم تبتعد سوى بضعة أيام...

لكنها تشعر بحنين جارف لكل ركنٍ في هذا البيت!!!

وضع المفتاح في جيبه بخفة ثم تقدم منها ليحتضن وجهها بكفيه هامساً أمام عينيها:

_عيناكِ تحكيان سطوراً من اشتياق ...للبيتِ أم لصاحبه؟!!!!

أغمضت عينيها بقوة وكأنها تكتم عنه حديثهما...

عندما شعرت به يقترب أكثر ليهمس جوار أذنها بمكر:

_قلبي يخبرني أنه...للاثنين؟!!

خفق قلبها بعنف وهي تدفعه برفق متجاهلةً الرد على عبارته...

لتهمس بخفوت:

_أريد أن أبدل ملابسي وأنام ..فأنا متعبة من السفر.

ابتسم في حنان وهو يربت على كتفها قائلاً:

_لا نوم قبل تناول طعامكِ ودوائك.

ثم قرص وجنتها مداعباً وهو يقول بعتاب:

_أكاد أقسم أنكِ كنتِ تهملينهما طوال تلك الفترة.

رفعت عينيها إليه بابتسامة امتنان لم تظهر سوى في مرايلها البندقية...

بينما ظل وجهها على جموده وهي تهمس بفتور:

_حسناً...سأبدل ملابسي وأعدّ الطعام.

فاتسعت ابتسامته الحنون وهو يداعب وجنتها بأنامله قائلاً:

_الأستاذة ستستريح على فراشها حتى أعد أنا الطعام.

ظهر الاعتراض على ملامحها وهمّت شفتاها بالرفض لكنه عاجلها بقبلة خفيفة عليهما قبل أن يهمس بحزم:

_هذا أمر وليس اقتراحاً يا أستاذة.

تنهدت بحرارة وهي تبتعد بوجهها عنه لتتوجه بخطواتٍ سريعة نحو غرفتها وكأنها تهرب منه...

والحق...أنها فعلاً كانت كذلك!!!

بدلت ملابسها بإرهاق واضح....

ثم تمددت على فراشها لدقائق لم تدرِ عددها...

قبل أن تتناول وسادتها لتدفن وجهها فيها....

كم اشتاقتها!!!!

كما اشتاقت كل شيءٍ في هذا المنزل...

لكنها لم تكد تفعلها حتى وجدت عطره -المميز-عليها...

رباه!!!!

هل كان...؟!!!

قطعت فكرتها عندما سمعت صوت طرقاته على الباب...

فقامت من فراشها ولازالت تحتضن وسادتها حتى فتحت له الباب ليقول هو بحنان وعيناه تلمعان بمرح:

_الطعام جاهز يا أستاذة!

لكنها رمقته بنظرة مرتبكة لم يفهمها ثم سألته بترقب:

_هل كنت...تنام..هنا ..على فراشي؟!!!

ظهرت الدهشة في عينيه للحظة قبل أن ينتبه لوسادتها التي تحتضنها...

فابتسم في إدراك وهو يهمس بعاطفة صادقة:

_نعم يا جنتي...كنت أتلمس بقايا عطركِ على وسادتك...لعلها تطفئ بعضاً من شوقي إليكِ.

ثم تهدج صوته أكثر مردفاً:

_كل ليلة.

ارتجف جسدها تأثراً وهي تردد خلفه كالمسحورة:

_كل ليلة؟!!!

فأومأ برأسه مؤكداً وهو يكرر قوله:

_كل ليلة!

أغمضت عينيها بقوة تحاول تمالك هذا الطوفان من المشاعر الذي اجتاحها في هذه اللحظة...

قلبها كان يرقص ثملاً وكلماته المسكرة تدوخه....

وتتخلل مسام روحها بتملّكٍ قدير حتى تحتلها كلها...

أسوأ احتلال...

وأجمل احتلال!!!!

لكنه قطع عليها هدير عواطفها الصاخب عندما اقترب منها مقبّلاً ساحرتيه البندقيتين...

قبل أن ينتزع منها وسادتها برفق فيلقيها جانباً ويسحبها من كفها نحو صالة الشقة حيث كان النور مطفئاً إلا من

شمعة واحدة على مائدة الطعام التي رصت عليها أنواع كثيرة مختلفة...

لا يُعقل أنه أعدها كلها الآن...!!!!

ومن هناك انبعثت أنغامٌ هادئة ذابت فيها روحها وهي تشعر باسترخاء غريب...

خاصة عندما احتضن خصرها بكفيه وهو يهمس بصوته الآسر:

_احتفالٌ صغير بمناسبة عودتك إليّ...نفتتحه برقصة...تسمحين؟!!

تعلقت عيناها بنجوم عينيه الملتمعة وسط ليله الأسود...

وذراعاها يلتفان حول عنقه ببطء قبل أن تجد كلماتها أخيراً لتهمس بخفوت:

_يبدو أنك كنتَ مستعداً لهذا...هل كنتَ واثقاً من عودتي معك إلى هذه الدرجة؟!!

ضمها إليه أكثر وهو يغوص تماماً في بحار عينيها هامساً بيقين:

_لم أكن لأعود دونك....مهما حدث!!

دمعت عيناها تأثراً وهي عاجزة عن استيعاب كل هذا الغرام الذائب بعينيه...

خاصةً عندما اقترب منها بوجهه أكثر هامساً بصوتٍ يكاد يذوب عشقاً:

_أخبريني الآن بماذا كنتِ تشعرين وأنتِ بعيدة عني؟!!!

أغمضت عينيها بقوة وهي تدفن وجهها في صدره هاربةً من جحيم نظراته...

أو -بالأدق- من نعيمها!!!!!

لكنه أكمل همسه المصبوغ بعشقه يكاد يسكبه نهراً من عسلٍ في أذنها:

_كنتِ تشعرين بكل دقيقة تمرّ عليك وكأنها ألف عام من ألم...كنتِ ترين صورتي على جميع الوجوه وتسمعين صوتي على كل الألسنة...كنتِ تستعيدين ذكرياتنا القصيرة دون سواها وكأنها صارت فجأة عمركِ كله!!!!

رفعت عينيها إليه برجاء صارخ أن يكفّ عن هذا الحديث الذي يوجع روحها بصدقه...

الأمر يبدو وكأنه يتحدث عنها هي...

مع أنها توقن من أنه يقصد نفسه!!!!

وما الفارق ها هنا؟!!!

هو أو هي....؟!!!

ما الفارق؟!!!

كلاهما كان غارقاً بنفس الشعور...ولو اختلفت الضمائر!!!!

لهذا وجدت نفسها دون وعي تتشبث به أكثر عندما ألصق جبينه بجبينها وهو يردف:

_كنتِ كالجسد الذي عُلّقت روحه بين سماء العشق وأرض الحرمان.

ابتعدت برأسها عنه وهي تهمس برجاء مصبوغ بالألم:

_اسكت يا فهد...اسكت.

التقت نظراتهما للحظات تألق فيها وهج بندقها في سواد ليل عينيه الحالك...

قبل أن يهمس ببطء:

_ولماذا أسكت؟!!

هزت رأسها بعجز وهي تحاول الهرب من سهام عينيه قائلةً بصوت مرتعش:

_أنت تحاصرني بعاطفةٍ لا قِبَلَ لي بها...تُشوّش على تفكيري بكل هذه المشاعر التي لا أستطيع مواجهتها...وفي نفس الوقت ...لا أستطيع تجاهلها.

ثم تهدج صوتها أكثر وهي تردف:

_لو كان هذا حباً فأمهلني...ولو كان انتقاماً فارحمني.

رفع كفها إليه يقبل باطنه وهو يحاصر نظراتها من جديد هامساً بصدقٍ زلزل روحها:

_بل حياة!!...نعم...ما بينك وبيني ليس حباً ولا انتقاماً ولا عقد زواج...ما بيني وبينك حياةٌ دونها الموت.

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تشعر برأسها يكاد ينفجر من كثرة الضغوط...

ما أشقاها من امرأة ممزقةٍ بين قلبها وعقلها...

بين ماضيها وحاضرها...

بين -ما تعتقده -و-ما تشعر حقاً -به!!!!

لكن كل هذا لم يُساوِ شيئاً عندما وجدته يفك حصار ذراعه حولها أخيراً...

ليلتقط خاتماً ماسياً من جيب قميصه ثم يرفع كفها الذي يمسكه ليهمّ بوضعه في إصبعها...

مكان دبلة حسن!!!!

فشهقت بعنف وهي تسحب كفها منه بقوة لتقبضه على صدرها هاتفة :

_لا!

انعقد حاجباه بغضبه الأسود فارتجف جسدها كله ودموعها تتحرر من سجونها البندقية أخيراً وهي تهتف بانفعال:

_ليس هذا الإصبع بالذات...حرامٌ عليك يا فهد...حرامٌ عليك...!!!

_حرامٌ عليّ أنا؟!!!

هتف بها بانفعال وهو يمسك مرفقها ليهزها بعنف...

فدفنت وجهها في صدره وقد بدا لها أكثر الأماكن الآن أماناً من غضبته الهادرة مادامت قد عجزت عن الشرح والتفسير...

بل عن الكلام!!!!

ماذا عساها تقول وهي تشعر كمن يُسلَخ من جلده؟!!!!

من تكون جنة الرشيدي دون مبادئها و عقائدها...

ودون حسن؟!!!!

والآن يأتي فهد ليسحبها بقوة قاهرة بعيداً عن كل هذا!!!!

ليحملها خارج وطنها الذي ألفته كي يبقيها معه على جزيرة منعزلة بعيداً عن كل العالم!!!!

ليأخذ منها كل حروف أبجديتها التي تعرفها ويمنحها حروفاً جديدة لازالت تتعثر في نطقها!!!!

هل يظن هذا سهلاً؟!!!!!

إنها تشعر بنفسها الآن وهي بين ذراعيه مجرد خائنة...

نعم...خائنةٌ لشعاراتها وأخلاقياتها وحبها القديم الذي أقسمت ألا يمحوه الدهر...

خائنة...

خائنة!!!!

_لستِ خائنة يا جنة!

هتف بها بعد زفرة قصيرة وكأنما قد قرأ أفكارها الصامتة...

ثم ضمها إليه بساعده الذي أحكمه على خصرها ولازال متشبثاً بخاتمه في كفه الحر...

وهتافه الحار يشعل قلبها وروحها قبل أذنيها:

_حكمك ظالم يا أستاذة...يحتاج لاستئناف سريع قبل أن تنفذي العقوبة فيّ أنا وفي نفسك قبلي.

رفعت إليه عينيها ببطء ليذوب غضبه تدريجياً في ينابيع عينيها التي فاضت بالحيرة والعجز...

لدقائق مرت بينهما ثقيلة كدهور...

وهي تبدو كمن تعلق على مشنقته متأرجحاً بين ثلجٍ ونار....

كل ما فيها يصرخ...

إن لم يكن ألماً...

فعجزاً واحتياجاً....!!!!!

غرامه الصادق بالنسبة إليها بعثٌ بعد العدم....

لكنها تخشى الموت من جديد...

وما أقسى أن يموت المرء مرتين!!!!

لكنه قطع عليها طريقها بحسم عندما أعاد رفع كفها وعيناه مثبتتان في عينيها تأبيان إطلاق أسرهما...

ثم وضع خاتمه في إصبعها ببطء قويّ مسيطر حتى استقر مكانه أخيراً...

أمام عينيها المستسلمتين - أخيراً- باستكانة بعدما استنزفتها حرب المشاعر هذه....

والتي انتهت بقبلته لإصبعها المزدان بخاتمه وهو يهمس بعاطفة مشتعلة:

_أنتِ لي ...لا تصدقي حقيقةً سوى هذه!

ثم ضمها إليه أكثر وهو يردف بنبرة أقوي:

_أنتِ لي!

أطرقت برأسها دون أن تجد رداً....

فسحبها من كفها نحو المائدة حيث جلس جوارها كالعادة...

ثم قال بلهجة حازمة لا تخلو من مرح:

_انتظري حتى أعطيكِ دواءكِ!

أومأت برأسها دون أن ترفعه فاقترب هامساً جوار أذنها:

_اشتقتُ لضمّة شفتيكِ على أناملي كل يوم.

رفعت عينيها إليه تفضحان شوقها هي الأخري ...

فغمزها غمزة ماكرة ابتسمت على إثرها ابتسامة حقيقية لم تعرفها منذ زمن بعيد....

ابتسامة شعر هو بها وكأنها جائزته الحقيقية بعد حرمان تلك الأيام...!!!!!

فتنهد بحرارة ثم أعطاها دواءها قبل أن يبدأ في تناول الطعام...

وبعدما أنهيا طعامهما قالت له بصوت شاحب:

_سأذهب الآن للنوم.

رمقها بنظرة راجية أن تبقى معه لوقت أطول...

لكنها تجاهلتها وهي تتوجه نحو غرفتها ثم أغلقت بابها لتتمدد على فراشها تطالع السقف بشرود...

رغم ما تشعر به من إرهاق يهد جسدها هداً...

لكن عقلها- الذي يعلن الحرب على كل ما يحدث هذا - منعها النوم لما يقرب من ساعة....

حتى سمعت طرقاته -الخافتة جداً -على باب غرفتها....

وكأنه لا يريد إيقاظها لو كانت قد نامت...!!

ابتسمت رغماً عنها وكأن جزءاً منها كان ينتظره...!!

ثم قامت من فراشها لتفتح الباب فيطالعها ليل عينيه الملتمع الآن ببريقٍ أخاذ وهو يهمس بعاطفةٍ لم تستطع تجاهلها:

_لم تنامي كما توقعت...سأحافظ على وعدي لكِ ...لكن...هذه الليلة فقط أريدكِ أن تنامي بين ذراعيّ حتى أصدق أنكِ عُدتِ إليّ من جديد.

لم تدرِ كيف أومأت برأسها إيجاباً...

ولا كيف سارت جواره حتى تمدد جسدها المرهق على الفراش...

هي لم تشعر سوي بضمّة الأمان العذبة بين ذراعيه...

ومذاقها المسكر يخدر آلام روحها كلها...

ورائحة عطره تتسلل إلى خلاياها كلها رافعةً أعلامه على أرض قلبها المحتلة!!!!

كل هذا كان متزامناً مع دقات قلبه التي كانت تكاد تصرخ تحت أذنها بصوتٍ مدوٍ...

لا يعلوه سوى صوت دقاتها هي...

أخيراً تسلل الفهد بقوته وخفته ليعبر أسوار جنته العالية...

ليكتب قصة جديدة في دفتر العاشقين...

قصة جنة وفهد....

ماسة وشيطان...

شيطان...لم يعد شيطاناً!!!

الفصل الثالث عشر:

_زواج بهذه السرعة يا عزيز؟!!

هتفت بها رحمة بدهشة وهي جالسةٌ جواره على الأريكة في صالة منزلها البسيط...فتنهد بحرارة قبل أن يقول باستسلام:

_نعم يا أمي...للأسف أبي ورطني في الأمر...كنت أنتوي مجرد خطبة حتى أستطيع تقبل الأمر على الأقل لكنه فاجأني أمام والدها بطلبه للزواج مباشرة بعد أسبوع.

اتسعت عيناها بصدمة للحظة قبل أن تهز رأسها مغمغمة بأسف:

_كنت أتمنى لو أبارك لك زواجك وآضمك لحضني كما تفعل كل أم مكاني...لكن كيف أفعلها وأنا أراك لست سعيداً بهذه الزيجة .؟!!

ابتسم في مرارة وهو يقترب منها ليضع رأسه على صدرها هامساً بحزن:

_سأتجاهل صوت قلبي يا أمي وأستمع لعقلي هذه المرة...ميادة فتاة جيدة ...إذا كنتُ عجزت عن الحصول على السعادة فمن يدري...ربما منحتها لغيري.

ضمته إليها بقوة وهي عاجزة عن الرد...

هي ليست راضيةً عن شخص ابنها -الضعيف - نتاج تربية أبيه المتسلطة....

ربما لو كان تربى في حضنها هي لكانت صنعت منه رجلاً قوياً يعرف كيف يدافع عن قراره...

لكن نشأته المرفهة الباذخة في كنف أبيه جعلت منه هذا الكيان الضعيف المهتز رغم حنان قلبه اللا محدود...

هذا الكيان الضعيف الذي لا يجيد الوقوف سوى على أرضٍ ممهدة كالحرير..

لم يكن يوماً ك-ماسة - التي علمتها كيف تستقر خطواتها ولو على أرض صخرية حادة...

أو طينية لزقة...!!!!

أغمضت عينيها بقوة عندما تذكرت ماسة تقاوم دموع حنينها إليها...

ترى كيف حالها الآن...؟!!!

أين تعيش؟!!! ومع من تعيش؟!! بل ....كيف تعيش؟!!!

وكأنما شعر عزيز بها فقد رفع رأسه إليها ليسألها برجاء:

_ألم تعرفي شيئاً عن ماسة بعد؟!!! ألم تتصل بكِ؟!!

أشاحت بوجهها عنه تخفي دموعها فعاد يقول برجاء أقوي:

_أرجوك يا أمي أخبريني لو كنتِ علمتِ عنها شيئاً.

عادت تلتفت نحوه بإشفاق بدا واضحاً في عينيها الحنونتين...

قبل أن تضم رأسه لصدرها من جديد هامسةً بحكمة:

_ماسة ستعود لي يوماً يا عزيز...حضن رحمة وطنها الذي ستعود إليه مهما اغتربت ...لكنها أبداً لن تعود إليك...

ثم صمتت لحظة لتردف بنبرة أكثر حسماً:

_ما بينكما كان أشبه بكأسٍ من لبن...سقطت فيه قطرة خمرٍ فدنسته للأبد.!

=========

وقفت ميادة أمام مرآتها تتأمل نفسها في ثوب الزفاف الأبيض الفخم...

والذي اختارته من أرقى بيوت الأزياء الباريسية...

الليلة ليلةٌ حاسمةٌ ...

ليلة انتصارها على "قلب الشاعر"!!!

نعم...الليلة تكسب رهان عقلها كالعادة وتنتزع عزيز من ماضيه - الباهت- لتجذبه لعالمها الزاهي بألوانه...

فتحت والدتها باب الغرفة لتدخل وهي تبتسم بسعادة متفحصةً إياها بإعجابٍ صارخ.....فالتفتت إليها ميادة لتقول بفتور لم تتعمده:

_ما رأيك؟!! هل أبدو جميلة؟!!

دمعت عينا الأم وهي تندفع لتضمها إليها بقوة هامسة وسط دموعها المنهمرة:

_بل جميلة الجميلات يا ابنتي.

تيبس ذراعا ميادة جوارها تقاوم احتضان والدتها كما العادة واكتفت بوقفتها الجامدة حتى رفعت والدتها رأسها إليها لتهمس وهي تتأمل ملامحها بعاطفة جياشة:

_ما أشبهكِ بي ليلة زفافي...سبحان الله...كأنني أتطلع لنفسي في المرآة ليلتها.

ابتسمت ميادة بسخرية لاذعة وهي تميل رأسها قائلة:

_أي ليلة تقصدين؟! الأولى أم الثانية؟!!

أغمضت الأم عينيها بألم وهي تخفي حسرتها متجاهلةً سؤالها المهلك...

ابنتها لم تنسَ لها فعلتها...ويبدو أنها لن تفعل...!!!

لكنها تغلبت على شعورها بالخيبة متجاهلةً عبارتها القاسية وهي ترفع إليها كفها ب"دبوس" ماسيّ فخم على شكل فراشة أنيقة...قائلةً بحنان:

_هذه كانت أولي هدايا والدكِ لي...يومها تمنيتُ لو يرزقني الله بفتاة ويمنحني العمر الطويل حتى ألبسها إياه بنفسي.

اشتعلت عينا ميادة بغضب عاصف ثم جذبت "الدبوس" بعنف لتكسره وتلقيه جانباً ...قبل أن تهتف بحدة :

_الفراشة ينكسر جناحاها عندما تعشق يا سيدتي...ألم تتعلمي هذا الدرس بعد؟!!

تراجعت الأم بظهرها مبهوتةً من قسوة ابنتها التي تزداد يوماً بعد يوم...

بينما أردفت ميادة وهي تلوح بسبابتها في وجهها مردفة بنفس الحدة:

_لا حاجة لي بفراشات الحب هذه...أنا كفرتُ به من زمن...ولن تزلّ قدمي بشراكه مثلك.

لم تتمالك الأم دموعها وهي تسمع هذا منها ...

وفي هذه الليلة بالذات...!!!!

هذه الليلة التي تتمناها كل أم لابنتها كي تراها ملكةً متوجة على عرش الحب...

لكن ابنتها حالةٌ خاصة للأسف...

ومع هذا هي لا تلومها...فهي صنيعة يديها هي ووالدها...

هما تركاها في أشد حاجتها إليهما والآن يدفعان الثمن!!!

لكنها هي الأخري تدفعه معهما...حمقاء مكابرة تظن نفسها كافرة بالحب والمشاعر وهي أحوج ما تكون إليهما!!!

ولم يكن هذا رأيها وحدها...

بل كان هذا ما يدور برأس عزيز أيضاً وقد أتى به القدر في هذه اللحظة ليستمع -مصادفةً-للحديث من أوله...

تنحنح بحرج وهو يلقي السلام...

فالتفتت إليه والدتها بارتباك وهي تمسح دموعها هاتفةً بمرح مصطنع:

_تعال يا ابني...ميادة تسألني إن كانت تبدو جميلة أم لا...ما رأيك أنت؟!

تقدم عزيز نحوهما ملتقطاً عيني ميادة المتنمرتين باشتعالٍ بعيد عن برودتهما المعتادة...

ليبتسم بحنانه المعهود قائلاً بهدوء:

_الأمر لا يحتاج لرأي.

ابتسمت والدتها وهي تربت على كتفه قائلةً بطيبة :

_بارك الله لكما يا ابني...هيا كي لا نتأخر على القاعة.

قالتها ثم غادرت الغرفة بسرعة وهي تخاف أن تخذلها دموعها من جديد...

فانحنى عزيز ليتناول ال"دبوس" المكسور من على الأرض...ثم وضعه في جيبه ببساطة قبل أن يقول لها بعتاب رفيق:

_لماذا تعاملين والدتكِ هكذا؟!!

أشاحت بوجهها دون رد..فأحاط وجنتها براحته يدير وجهها إليه قائلاً بحنان عاتب:

_أنا أيضاً تربيتُ بعيداً عن والدتي...لهذا اعتبرتها هدية السماء عندما عدت إلى حضنها الدافئ.

ازدردت ريقها بتوتر غريب على ثباتها المعتاد وهي تقول باقتضاب:

_ظروفنا مختلفة يا عزيز...من فضلك لا أحب الحديث عن هذا الأمر.

التمعت ينابيعه الزمردية بالحنان وهو يري هذا الجانب ال-خفيّ-من روحها...

والذي تحاول دوماً أن تتجاهله رغم أنه الآن يوقن أنه سبب شخصيتها الغريبة...

جانب الطفلة -المُهمَلة -التي نسيها أبواها خلفهما ورحلا...

ولما يأست من أن يعيدهما صراخها صمتت للأبد!!

كانت نظراته تحمل لها الكثير من المشاعر -اللا مُسمّاة- لكنها لم تفهمها...

لقد عودت نفسها منذ زمن أن تكون غنيةً عن كل هذا...وألا تفتقر إلى أحد...أي أحد!!!

ومسكينٌ من يجرب الفقر بعد الغني!!!

لهذا تجاهلت فيوض الحنان العذبة بلمعة العسل في عينيه...لتتأبط ذراعه بحركة آلية وهي تقول بحسم:

_هيا بنا حتى لا نتأخر.

============

دخلا سوياً إلي شقتهما بعد انتهاء حفل الزفاف...فالتفتت إليه لتقول بلهجتها العملية:

_سأبدل ملابسي وأنتظرك في غرفتنا.

ابتسم رغماً عنه وهو يهز رأسه!!!

في ظروفٍ أخري كان سيتعجب من ردودها الغريبة...

لكنه الآن لم يعد يستغربها...الآن هو يفهم لماذا صارت هكذا...

ظل واقفاً مكانه للحظات يتابع خطواتها الواثقة نحو غرفتهما بشرود...

قبل أن يرفع كفه أمام وجهه يتأمل دبلته الفضية الجديدة...

لقد صار زوجاً...!!!

زوجاً لامرأة ليست ماسة...ماسة التي أضاعها بجبنه وتردده...

أم تراهم هم الذين اختطفوا فرحته بها يوم فعلوا بها ما فعلوه...؟!!!

أغمض عينيه بألم وهو يسترجع شعوره ليلتها...

ليلة علم بما حدث لها...

يظنون أنها وحدها من انتُهكت تلك الليلة؟!!!

لا...هو أيضاً انتُهكت رجولته ألف مرة...

في كل ساعة كان يتخيل فيها ما حدث...

في كل ساعة كان يرى فيها صورتها -برأسه -معهم ويكاد يسمع صدى صرخاتها...

في كل ساعة كان جسده يقشعر لتسري دماء الغضب في أوردته وهو يدرك أن يداً أخري سبقته لملامستها...

حتى وهو يعلم أنه كان رغماً عنها...لكنه كان يحترق بنيران غضبه وعجزه...!!!

عجزه عن حمايتها من ألسنة الناس بعد الحادث...

وعجزه عن مواجهة أبيه برغبته في الزواج منها بعدما حدث...

وعجزه عن النظر في عينيها -هي نفسها - بعدها ...

بل وعجزه حتى عن النظر لنفسه في المرآة وهو يري نفسه بهذا الضعف الذي كرهه لكنه لم يملك غيره!!!

شعورٌ رهيب لن يعرفه إلا من ذاق خزيه ومرارته!!!

تنهد في حرارة وقلبه يشتعل بالشوق لماسته من جديد...

لكنه توجه ببصره نحو غرفته -الجديدة- فزفر بخفوت...قبل أن يتوجه إليها بخطوات متثاقلة...

حيث كانت هي تنتظره هناك كمثال مجسدٍ للفتنة...

بقميصها الناعم شديد الأنوثة والإغراء...

وشعرها المنسدل بتموجٍ مغوٍ...

وعطرها الذي لم يكن أقل إغواءً...

تأملها ببصره في إعجاب لا يُلام عليه للحظات...ثم تقدم منها ليمسك كتفيها متعلقاً بنظراتها الأبنوسية ذات اللمعة الآسرة...والتي بدت له الآن مختلفة بظلالٍ من حزنٍ لم تخفَ عليه...

فاقترب بوجهه أكثر ليقبل جبينها برفق قبل أن يهمس بصوتٍ دافئ اخترق قلبها بصدقه:

_لا أدري إن كنتِ ستفهمينني أم لا...ولا أدري إن كان طريقانا سيلتقيان يوماً أم أننا فقط نكابر...ولا أدري إن كنتُ ظلمتكِ معي أم ظلمت نفسي أكثر...لكن ما أدركه بحق أنني أريدكِ سعيدة.

خفق قلبها بجنون لأول مرة في حياتها بهذا الشعور المتلألئ الشفاف وهي تسمع عبارته الأخيرة...

وازدادت خفقاته جنوناً عندما أراح رأسها على كتفه ليردف بنفس النبرة الدافئة:

_ضحكتكِ تبدو ساحرة لكنني لم أحسها يوماً صادقة...والآن أراهن نفسي أن أرسمها بيدي يوماً ما كما أتمناها.. بريئةً....مشرقةً...حارةً...كضحكة طفلةٍ لم تعرف شيئاً بعد عن هموم الحياة.

اشتعلت أعماقها باحتياج صارخ لهذا الحنان الذي يصب كالسّيل من كلماته...

لكن عقلها أعلن نفير الحرب على هذا العدوان الغاشم على حصونه....فرفعت رأسها نحوه لتقول بلهجتها الباردة العملية:

_إذا كنتَ تقول هذا لأجل الذي سمعتَه بيني وبين أمي ف...

وضع سبابته على شفتيها مقاطعاً حديثها ليهمس بحزم حنون:

_ولهجتكِ الجليدية هذه...لم تعد تثير ضيقي كالسابق...الآن أدرك أنها مجرد قشرة رقيقة تخفي براكين عاطفة تخاف الظهور للنور.

ابتسمت بسخرية وهي تبتعد عنه لتقول بجمود:

_يؤسفني أن أخيب توقعاتك إذن أيها الشاعر...اتفاقنا من الأول كان واضحاً...زواجنا مجرد صفقة رابحة...وبصراحةٍ أكثر...لو وجدتها خاسرةً يوماً فسأنسحب منها بكل بساطة.

ارتفع حاجباه للحظة بدهشة...ثم قال بمرح وقد غلبته طبيعته المشاكسة:

_حديث مبهج جداً في ليلة كهذه!!!

تحولت ابتسامتها الساخرة لأخري حقيقية وهي تشيح بوجهها للحظات...

قبل أن تعاود التفاتها إليه لتلمح نظرات إعجابٍ بعينيه تطوقها بحرارة لافحة...لكن إعجابه عاد يتواري خلف التردد الذي غلف نظراته ببطء...

لتقرأ -بذكائها-فيهما ما لم يجرؤ على البوح به...!!!!

ابتعدت عنه خطوة وهي تعقد ساعديها أمام صدرها مميلةً رأسها بدلالها الممتزج بسخريتها لتقول :

_قلب الشاعر يخفق بصدره الآن معلناً عصيانه على خيانة محبوبته القديمة .

كانت عبارتها أقرب للجواب منها للسؤال...

ورغم إعجابه الدائم بذكائها لكنه كان يشعر بالحرج منه هذه المرة...

لقد قرأت بحدسها ما كان يدور بباله منذ بداية هذه الليلة...

بل منذ ورطه والده في هذه الزيجة من البداية...

لهذا أطرق برأسه دون أن يجد رداً مناسباً...

لكنها لم تنتظر رده فقد ابتلعت خيبتها بسرعة وتقبلت هزيمتها -المؤقتة-ببراعة...

لتتوجه نحو فراشهما فتتدثر بغطائها قبل أن تقول -بالانجليزية- بحسم:

_كما تحب أيها الشاعر...تصبح على خير.

عقد حاجبيه بدهشة ممزوجة بالضيق للحظة وهو لا يكاد يصدق انتهاء الحوار بينهما هكذا ببساطة!!!

ثم خلع سترته ليتوجه نحو شرفة الغرفة لعل نسائم الهواء تخفف بعضاً من لهيب صدره...

استند على السور بساعديه وهو يرفع بصره نحو السماء لعله يري صورة ماسته على وجه القمر كعادته...

لكن السماء بدت وكأنها تعانده -مثل مصيريهما - فقد كانت مظلمةً تماماً...

بلا قمر ولا نجوم...!!!!

زفر زفرة مشتعلة وهو يشعر بضياع غريب...

فتناول هاتفه لعله يفرغ مكنون صدره في خواطره كالعادة لكنه -للعجب-لم يستطع الكتابة...

وكأن فقر قلبه وروحه قد انتقلت عدواه لكلماته...!!!!

هز رأسه بقنوط ثم عاد للغرفة ليبدل ملابسه ...قبل أن يندس جوارها في الفراش ملقياً نظرةً عابرة على وجهها النائم ليتنهد بعدها تنهيدة حارة ظنها نهاية هذه الليلة الغريبة...

لكنه قام من نومه بعدها ببضع ساعات على أنينها المتوجع جواره...فانتفض جالساً ليهتف بجزع:

_ما الأمر يا ميدا؟!! ماذا بكِ؟!!

ارتسم الألم واضحاً على ملامحها وهي تهمس بصوت متقطع :

_حقنة "......." بسرعة يا عزيز ...أنا نسيتها في بيت أمي.

قام من الفراش بسرعة وهو يهمّ بتبديل ملابسه للخروج لإحضارها....

لكنه تناول هاتفه ليقول بسرعة :

_لن أتركك وحدكِ ...سأطلبها من الصيدلية..لا تقلقي سيحضرونها بسرعة.

أتبع قوله بفعله ثم أغلق الاتصال ليسألها بقلق:

_ما الذي يؤلمك بالضبط؟!

تأوهت بخفوت وهي تضع كفها على بطنها لتهمس بصعوبة:

_لا تقلق...إنها نوبات متقطعة من المغص تزول بحقنة مسكنة...الطبيب يقول أن معدتي حساسة للانفعال...أمر بسيط.

عقد حاجبيه بقلق ثم أمسك كفها يربت عليه برفق..

ولم تمضِ بضع دقائق حتى وصل الدواء فقد كانت الصيدلية أسفل المنزل لحسن الحظ...

وبعد أن أعطاها الحقنة جلس جوارها ليربت على كتفها قائلاً بحنان:

_لعلها لم تؤلمك...أمي دوماً تقول أنها لا تؤلمها من يدي.

ابتسمت بشحوب وهي تسند رأسها على وسادتها هامسة بصوت متعب:

_هل تعلمتَها لأجل والدتك؟!!

أومأ برأسه إيجاباً ثم قال باستطراد:

_أمي تحتاج لثلاث حقنٍ أسبوعياً...ماسة كانت تتولي هذا الأمر...لكن بعد رحيلها تعلمته أنا لأجلها.

ضاقت عيناها بإدراك و هي تتذكر هذا الاسم- الذي كتبت صاحبته- تعليقاً ما يوماً على خاطرته التي نشرها على مدونته...

نعم...كان اسمها ماسة...!

هي تتذكر الاسم جيداً...!!

لهذا سألته بترقب:

_من ماسة؟!

تنهد بحرارة ثم قال باقتضاب:

_إنها ابنة والدتي المتبنّاة.

التمع الفضول في عينيها وقد ظهر الاهتمام في صوتها وهي تسأله:

_ولماذا تتبنى والدتك طفلة؟!!

احتضن كفها برفق ليبتسم بحنان وهو ينظر لعينيها قائلاً:

_قصة قديمة...لا تشغلي بالكِ...هل أنتِ الآن أفضل؟!!

عاد قلبها يخفق من جديد وأمطاره الزمردية تنبت الزهر بين صخور روحها الجامدة...

لتجد نفسها تهمس بشرود دون وعي:

_إنها المرة الأولي التي يكون معي فيها أحد عندما تنتابني هذه النوبات.

ارتفع حاجباه بدهشة وهو يسألها مذهولاً:

_معقول؟!!

أومأت برأسها إيجاباً ثم أغمضت عينيها لتهمس :

_بدأت معي منذ بداية سفري ل"أميريكا"...وقتها كنت أقيم وحدي فتعلمت كيف أعطي الحقن لنفسي أمام المرآة حتى لا أحتاج لمساعدة أحد...وعندما عدتُ إلي مصر حافظتُ على هذه العادة حتى مع إقامتي مع أمي...بل إنها حتى لا تعرف عنها شيئاً.

أومأ برأسه في إدراك وهو يشعر أنه يقترب من فهمها أكثر فأكثر...

هذه امرأة عانت من وحدتها حتى ألفتها ...

بل ..أدمنتها!!!

فما عادت ترغب في أن يقترب منها أحد...وكأنها بهذا تحمي نفسها من مرارة الشعور بالنبذ من جديد...

ويالله من شعور قاسٍ...!!!

أقسى بكثير من واجهتها الصلبة التي تواجه الجميع بها...

وهي بداخلها مجرد طفلة...نسيها أبواها في الظلام!!!

======================

فتح باب الشقة برفق وأضاء أنوارها...

ثم عاد يسند كتفيها وهو يقول برفقٍ لا يخلو من خشونته المعتادة:

_ابقي هنا حتى أحضر الحقيبة من السيارة.

أومأت برأسها في طاعة وهي تجلس على أقرب كرسي وجدته كاتمةً أنّات ألمها..بينما كانت عيناها تتأملان الشقة حولها بفضول لا يخلو من توجس!!!!

تركها هو ليخرج ...فتنهدت في حرارة وهي لا تدري أيهما يؤلمها أكثر...

جسدها...أم رأسها الذي أرهقه التفكير...؟!!!

لماذا جاء بها إلى هنا؟!!!وما الذي ينتوي فعله بها؟!!!

هل كان جاداً فيما قاله لوالدته عن تركه للمنزل معها؟!!!

هل كان صادقاً في دفاعه عنها؟!!!أم أنها مجرد وسيلة لانتقام جديد؟!!!

شعرت بألمٍ حاد في ظهرها فسمحت لأنّاتها المكتومة بالتحرر...وهي تعض على شفتها بألم مغمضةً عينيها بقوة...

لم تدرِ كم ظلت على هذا الوضع...لكنها فتحت عينيها عندما شعرت بكفيه على كتفيها يرفعانها إليه برفق...

خفضت بصرها عنه بسرعة وهي تعود تكتم أنّاتها من جديد...

ثم سارت معه حتى غرفة مجاورة أجلسها على حافة فراشها وهو يقول بنفس النبرة الخشنة:

_سنقيم في هذه الشقة من اليوم...لقد اشتريتها من فترة للتجارة بها...كنت أؤجرها مفروشة للطلبة...ومن حسن الحظ أنها خالية الآن...لكنها تحتاج لبعض التنظيف.

ازدردت ريقها بصعوبة وهي ترفع إليه عينيها بحذر تحاول استكشاف نيته ...ثم غمغمت بوداعتها النقية:

_هل...أقوم لتنظيفها الآن؟!!

زفر بقوة وهو يشيح بوجهه عنها...

عن أي تنظيف تتحدث هذه الساذجة؟!!!!إنها بالكاد تقف على قدميها!!!!

لكنها لم تفهم ما يدور بخلده...فقط زفرته الحارة عادت تخنقها بالذعر من جديد ...فتحاملت على نفسها لتقف هامسة بخوف:

_لا تغضب...أنا فقط كنت....

التفت إليها ليروعه كل هذا الخوف الممتزج بالألم في عينيها...وقد بدت كطفلة مذعورة!!!

كم يود الآن لو يضمها إليه فيمحو عنها كل مشاعرها هذه...ويبثها عاطفته التي لم يشعر بها لسواها...

لكنه لم يعد يضمن ردود أفعاله معها...كل ما فيه خارجٌ عن سيطرته أمامها...

قلبه...وروحه..وجسده..!!

ولولا بقيةٌ من تعقله - الذي بالكاد يجده معها-والذي يلجّم كل هذا ...لا يدري ما الذي كان سيفعله بها!!!!

أساءت فهم غضبه الواضح على ملامحه فخلعت حجابها بسرعة...ثم شمرت عن ساعديها وهي تغمغم بارتباك هاربةً من لقاء عينيه العاصفتين بالغضب:

_من أين أبدأ؟!!

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يهتف بخشونة رغماً عنه:

_هل تظنينني أترككِ تفعلين شيئاً بحالتكِ هذه؟!!! اجلسي هنا واستريحي وأنا سأتولي الأمر.

ارتجف جسدها رغماً عنها وهي تومئ برأسها في طاعة...ثم عادت تجلس على طرف الفراش وهي ترمقه بنظراتٍ متوجسة...حتى خرج من الغرفة...

ظلت مكانها لوقتٍ ليس بالقصير وهي تسمع صوت حركته بالخارج...

كانت تعض على أناملها بتوتر وهي لا تفهم سر تصرفه الغريب هذا...

كم هو متناقضٌ في أفعاله...!!!

خشونة أقواله الفظة تناقض مروءة تصرفاته معها...

لكنها لازالت تخشى بطشه...بل إنها لم تشعر في حياتها بالرعب من أحد كما تشعر معه...

قطعت أفكارها عندما سمعت صوت باب الشقة الخارجي يغلق ...

فقامت من مكانها بسرعة جعلتها تصرخ ألماً رغماً عنها...

لكنها تحاملت على نفسها حتى خرجت لترى ماذا هناك...

بحثت عنه في كل الغرف لكنها لم تجده...

توجهت لباب الشقة تحاول فتحه لكنه كان موصداً بالمفتاح من الخارج!!!!

وضعت كفها على شفتيها وهي تشعر بالخوف...!!!!

هل هذا ما كان يخطط له؟!!!هل ينتوي حبسها هنا وحدها؟!!!!

خفق قلبها بعنف ودموعها تسيل رغماً عنها تغرق وجهها وهي تتلفت حولها بذعر....

ثم انهارت جالسة على الكرسي جوار باب الشقة وهي تحتضن جسدها بذراعيها وتنشج بانهيار تام...

لم تدرِ كم مر عليها من الوقت هكذا...لكنها شعرت وكأنها في هذا المكان منذ ألف عام...

ظلت تبكي مكانها في عجز حتى سمعت صوت المفتاح في الباب فانتفضت واقفة وهي تتأوه بقوة...

عندما دخل هو ليفاجأ بانهيارها الباكي هذا...

أغلق الباب خلفه بعنف وهو يضع الأكياس التي كان يحملها أرضاً...ليسألها بغلظة لا تخلو من جزع:

_ماذا حدث؟!!! لماذا تبكين هكذا؟!!!

اختنقت كلماتها مع أنفاسها المذعورة وهي تضع كفها على صدرها ناظرة إليه بخوف كعادتها..

مما زاد غضبه أكثر ...فقبض كفيه وهو يهتف بها بخشونة:

_تكلمي...لماذا تبكين؟!!!!

انتفض جسدها أكثر على هتافه وازدادت حدة بكائها وهي تشعر بأن قلبها يكاد يتوقف مع ارتجافة شفتيها الشديدة وهي تتمتم بصعوبة:

_لا شئ...لا شئ.

ظلت تتمتم بها في خوف هستيري وعيناها معلقتان به كمن ينتظر حكماً بإعدامه...!!!!

وهنا ...

لم يتمالك هو نفسه فاقترب منها ليطوقها بذراعيه برفق وهو لا يجد ما يسعفه من كلمات....

ازدادت انتفاضة جسدها لوهلة..فظل يربت على رأسها حتى هدأت نوعاً...

وعادت أنفاسها لسكونها من جديد بعد بضع دقائق كاد يتوقف فيها قلبيهما معاً!!!!!

وأخيراً وجد هو كلماته ليغمغم ببعض الرفق:

_لماذا كنتِ تبكين؟!

لم يصله ردها للحظات...فابتعد برأسه قليلاً ثم رفع ذقنها إليه يتأمل عينيها الذابلتين بحرقة لا يدركها إلا عاشقٌ محروم مثله...

ثم انساب إبهامه رغماً عنه يتلمس طابع الحسن على شق ذقنها الذي طالما أثار جنونه...

فازدرد ريقه ببطء وعيناه تحتضنان ملامحها -الحبيبة- بلوعة ممتزجة باشتهاء...قبل أن يهمس بصوت متهدج:

_قولي ولا تخافي...لماذا كنتِ تبكين؟!!!

خفضت بصرها عنه هرباً من ملامحه التي تثير ذعرها...ثم تمتمت بصوت متقطع:

_ظننتك...ستحبسني هنا...وحدي!!

انعقد حاجباه بغضب من سوء ظنها فيه...

لكنها التفتت نحو باب الشقة مردفةً بنفس النبرة المختنقة:

_الباب...كان...مغلقاً...من الخارج!!

اتسعت عيناه في إدراك ثم تنحنح ليقول بما يشبه الأسف:

_لا بأس...إنه مجرد اعتياد...لقد تعودت إغلاقها بالمفتاح دوماً بعد خروجي ولم أنتبه أن هذا سيثير ذعركِ هكذا.

أطرقت برأسها وهي لا تجد رداً...

وكيف تفعل؟!!!

جسدها كله كان يستغيث ألماً وضعفاً وخوفاً...

حتى أنها ترنحت قليلاً بين ذراعيه...

فضمها إليه أكثر وهو يعاود التربيت على رأسها...

ثم سار بها مسنداً كتفيها حتى مائدة الطعام هناك ليجلسها برفق...

قبل أن يتوجه نحو أكياس مشترياته هناك فأحضرها ليرص أمامها الطعام على المائدة ....

ثم جلس جوارها وهو يقول بلهجة آمرة:

_لا تهاوُن بشأن طعامك من الآن فصاعداً...كلي جيداً..

أومأت برأسها في طاعة كعادتها معه...وهي تمد أناملها للطعام بتردد..

ولم تكد تضع أول لقمة في فمها حتى شعرت وكأنها ستغص بها !!!

اختلست نظرة خاطفة إليه...ثم عضت على شفتها وهي تشعر بالقهر...

فعادت تبكي رغماً عنها من جديد...

استغفر الله بصوت مسموع وهو يستدير بجسده نحوها قائلاً بضيق ومظهرها البائس هذا يدمي قلبه:

_لماذا تبكين ثانية؟!!!

رفعت عينيها إليه بحذر ممتزج بالخوف وهي تهمس بألم وسط دموعها :

_لست جائعة...لا أريد...جسدي كله يؤلمني...لم أعد أحتمل.

تنهد بحرارة ثم تناول الملعقة ليملأها بالطعام ويدفعها نحو فمها هامساً بلهجة آمرة:

_كلي ولو نذراً يسيراً حتى لا يؤذي الدواء معدتك.

فتحت فمها تتناول منه الطعام مجبورة...ولم تكد تتم ثلاث ملاعق حتى عادت تهمس برجاء:

_يكفي هذا ...أرجوك...لم أعتد أن أزيد عن هذا!!

عقد حاجبيه بتفحص وقد لفتت عبارتها نظره لنحول جسدها المستحدث...

فأظلمت عيناه وهو يسألها بترقب:

_لم تشاركيني الطعام يوماً منذ تزوجنا...ألم تكوني تتناولينه أيضاً عند أمي طوال تلك الفترة؟!!!

أطرقت برأسها دون أن ترد ...وقد وجدت من السخافة أن تصارحه بما كان يحدث...

ماذا يمكنها أن تخبره؟!!!

أنها كانت تقوم بعمل البيت كله دون راحة ودون طعام...؟!!!

نعم...كانت تستحي أن تأكل في بيت حماتها مع الطريقة السيئة التي كانت تعاملها بها...

وعندما كانت تصعد إلي شقتهما معه بعد العشاء كانت تستحي من مشاركته الطعام حرجاً وخوفاً منه...

فكانت تكتفي ببضع لقيمات في الصباح الباكر قبل نزولها إلي حماتها خاصة مع فقدانها للشهية مع كل هذه الضغوط...

لكنه استنتج بحدسه ما عجزت عن قوله ...فخبط بكفه على المائدة وهو يهتف بغضب:

_لا أصدق...كنتِ تقضين اليوم كله بلا طعام؟!!! هل كنتِ تقتلين نفسكِ؟!!!

عاد جسدها لارتجافة خوفه وهي عاجزة عن مواجهة نظراته...

فأسند جبهته على أنامله للحظات يتمالك شعوره بالغضب منها....ولأجلها!!!!

لا يصدق أنها كانت تحتمل كل هذا بصبر ودون شكوى...

ولولا اكتشافه الأمر بالمصادفة لكانت استمرت في عذابها الصامت!!!

ساد الصمت بينهما للحظات كانت هي فيها مطرقة برأسها تكاد تفقد وعيها ألماً وخوفاً...

حتى التفت إليها ليقول بنبرة حاسمة:

_اسمعي هذا الكلام وافهميه جيداً....أنا لم أحافظ على زواجنا نكايةً بكِ أو عقاباً لكِ...بل فعلتها ابتغاء وجه الله...فلا تحمليني ذنبك...من اليوم تنتبهين لطعامك وصحتك ...مفهوم؟!!!

أومأت برأسها دون رد...فقام من مكانه ليسند كتفيها حتى وصل بها إلي فراشها ...

ثم قال بلهجة آمرة:

_استلقي على بطنك حتى أدهن لكِ ظهركِ بالمرهم كما قال الطبيب.

شعرت ببعض الخجل وهي تنفذ أمره...

لكن الألم الشديد الذي كانت تشعر به غلب أي شعورٍ سواه!!

استلقت على بطنها ليبدأ هو في دهن ظهرها بالمرهم الذي كتبه الطبيب...

كان جسدها ينتفض ألما مع تأوهاتها المكتومة تحت لمساته ...لكنها لم تكن وحدها من يتألم!!!!

هو أيضاً كان غارقاً في ألمٍ من نوع خاص...

ألم لن يشعر به إلا من جربه...

ألم رجلٍ فقد حلمه في المرأة الوحيدة التي أحبها...

ولم يكن قبلها لسواها...لا بقلبه ولا بجسده...

واليوم تكون بين يديه ...

زوجته حليلته ومع هذا لا يستطيع أن يمسها!!!!

ولن يستطيع...!!

ربما لو كانت امرأة أخري سواها لكان استجاب لرغبة جسده فيها...

لكنها هي بالذات لن يقبل فيها شراكة!!!!

هو رجلٌ لا يرتضي أن تسبقه لجسد امرأته يد...

فكيف بها هي وهي ليست أي امرأة؟؟؟

بل إنها هي.... هي!!!

من كانت في عينيه يوماً كل النساء!!!!

هو لم يكن يوماً من العابثين...

كانت حياته جادة ملتزمة منذ وعى على هذه الدنيا...

ورغم أنه كان أصغر من أخيه...

لكن من قال أن الشعور بالمسئولية يحتاج للسن؟!!!

هو كان يشعر منذ صغره بمسئوليته عن الجميع...ورغم أنه لم ينجح في مشوار تعليمه...

لكنه وجد نفسه في عمله لهذا برع فيه...

حتى صارت ورشته مضرب الأمثال في المهارة والنزاهة أيضاً...!!!

وكم كان يشعر بالفخر لهذا حتى دخلت هي حياته...

في البداية كان يخشى أن ترفضه لفارق مستوي التعليم بينهما...

لم يكن يعلم وقتها أن هذا سيكون أبسط العوائق التي ستكون أمامهما...وليته علم!!!!

تنهد في حرارة وهو يفيق من شروده عندما توقف صوت أنّاتها ...

وقد شعر بانتظام أنفاسها...

همس باسمها بصوت خفيض كي لا يوقظها لو كانت قد استسلمت للنوم...فلم يتلقَ رداً!!!

تنهد في حرارة وهو يعيد تغطية ظهرها العاري بقميصها...ثم مد أنامله يربت عليه برفق شديد وهو يهمس بألم :

_ما حيلتي معكِ وأنتِ في قلبي ثلجٌ ونار؟!!!...لو استجبتُ لشوقي لأذبتكِ بين ذراعيّ عشقاً...ولو استجبتُ لغضبي لقتلتكِ بين يديّ ثأراً...ثأراً لقلبٍ عاش بكِ ويموت دونك!!!!

==============

خرجت من المكتب لتجده ينتظرها بسيارته ...

تلفتت حولها لتجد الشارع خالياً فاستقلت السيارة جواره وهي تغمض عينيها بقوة...دون أن تتحدث إليه...

تناول كفها يقبله وهو يهمس بمشاكسة:

_هل تنتوين اليوم أن تكوني جنتي...أم جحيمي؟!!

لكنها لم تستجب لتدليله بل هزت رأسها بلا معني ثم همست بفتور:

_انطلق بالسيارة يا فهد...هذا مكان عملي...ستكون مصيبة حقيقية لو رآنا أحد هكذا.

عقد حاجبيه بضيق وهو يستشعر ألمها الذي تخفيه...

جنة لم تعد تعاني بسبب مشاعرها نحوه فحسب...

ولا حتى بسبب خوفها من تقلب أحواله...

بل زاد على هذا خوفها من أن تنكشف علاقتهما...

وهو ليس مستعداً بعد لإشهار هذا الزواج...

ليس خوفاً من جاسم الصاوي...

لكن خوفاً عليها هي من بطشه!!!

نعم...جاسم الصاوي لن يرضى أبداً عن هذه الزيجة التي تضيع طموحاته بشأن ولده الوحيد...

وعدم الرضا عند جاسم الصاوي لا يساوي خيراً أبداً....!

لكنه سينتظر قليلاً حتى ينهي اختباراته القريبة ويسافر بها إلى مدينة أخري...

كي يبتعد بها عن عيون جاسم الصاوي...

وليته يفلح!!!

ضغط كفها في يده فالتفتت إليه بملامح متعَبة ليتلقي نظراتها الحائرة هامساً بأسف:

_لا بأس...سأحاول مراعاة هذا في الأيام القادمة...حتى أتدبر الأمر ونغادر هذه المدينة كلها.

انعقد حاجباها بشدة وهي تهتف بانفعال:

_نغادر المدينة؟!!! وعملي؟!!!وأهلي؟!!! أنت تريدني أن أهرب معك كالساقطات؟!!!

زفر زفرة مشتعلة ثم هتف بحدة هو الآخر:

_لا ترفعي صوتكِ عليّ يا أستاذة...حدثيني بالعقل كما أحدثك.

دمعت عيناها وهي تهز رأسها قائلة باستنكار:

_عقل؟!!! وهل ما بيننا يخضع لأي عقل؟!!!

أشاح بوجهه في غضب ثم ترك كفها وهو يعيد تشغيل السيارة لينطلق بها بسرعة جنونية كالمعتاد...

أغمضت عينيها بقوة وهي تعود برأسها للخلف...

ورأسها تزاحمه أفكارٌ تنهشه بقسوة ...

حتى لو استسلمت لعاطفتها -الشائكة -نحوه...

لا يزال بينهما الكثير!!!!!

فهد الصاوي نغمة شاذة على لحن حياتها المستقيم...

ومع هذا تشعر أنها تعلقت به برباطٍ لا تدري كيف سينقطع...

والمصيبة الحقيقية أنها لا تريده أبداً أن ينقطع!!!

قطعت أفكارها عندما توقفت السيارة فتلفتت حولها لتجده نفس المكان الذي استدرجته إليه أول مرة...

يوم ظننت أنها ثأرت لرؤى منه...

ثم اكتشفت بعدها أنها قد زلت بقدميها في أرض حياته الزلقة...

ويبدو أنها لن تستطيع الوقوف من جديد!!!!

طال صمته جوارها فالتفتت نحو جانب وجهه الذي كان مطرقاً به في ألمٍ واضح لم تعرف سببه...

ساعتها شعرت بقلبها يخفق من أجله...

غريبٌ هذا الإحساس -بالأمومة- الذي يتملكها -بشدة- نحوه....

غريبٌ...

مسيطرٌ...

قاهر!!!!

لهذا لم تشعر بنفسها وهي تتجاوز حديثهما المشحون السابق...

لتمد كفها فتربت على كتفه دون حتى أن تحاول سؤاله عن شئ...

فقد شعرت أن ألم روحه الآن -وإن لم تفهم أسبابه - لن تسعفه كلماته...

ارتجف جسده على لمستها ليلتفت نحوها وعيناه تفيضان برجاء خفيّ ممتزج بألم لم تفهمه...

لكنّ نظراتها البندقية كانت تحتضنه بحنان لم يتذوقه من قبل بهذه الطهارة...

لهذا وجد نفسه يقترب منها أكثر ليلقي رأسه على صدرها مطوقاً خصرها بساعديه وهو يهمس بصوتٍ خفيض يكاد لا يُسمع:

_ضميني يا جنة...ضميني بكل قوتك.

أسبلت جفنيها بتوتر وهي تشعر أنها لم تكن تحتاج لأمره هذا...

فقد ارتفع ذراعاها ببطء ليضمانه إليها أكثر ...

تأوه بقوة لكنه كتم آهته في صدرها فربتت على ظهره دون أن تجد ما تقول...

قلبها يخبرها أنه يعاني كثيراً...

أكثر بكثير مما قد يبدو على مظهره الواثق العابث...

إنها تشعر أنه يخفي جرحاً شوه معالم روحه لكنه يجاهد كي يخفيه...

انفرجت شفتاها وهي تهمّ بسؤاله عمّا به...

لكنها عجزت...!!!

حروفها كلها تخونها معه عندما تشعر بعاطفتها نحوه...

عقلها الذي يستميت في إبعادها عن شراك هذه العلاقة المفخخة ينجح دوماً في السيطرة على كلامها...

لكنه يفشل فشلاً ذريعاً في السيطرة على دقات قلبها الثائرة أمام كل ما يتعلق بشأنه...

دقات قلبها التي كان لها دويٌّ هائلٌ الآن وهو أقرب ما يكون إليها!!!

ظلا على هذا الوضع لدقائق ...

حتى رفع وجهه إليها وهو يهمس بنبرة غريبة لا تخلو من ألم:

_لو تعلمين كم أخاف عليكِ...هذا الشعور الذي لم أعرفه يوماً في حياتي...منذ عرفتكِ وأنا أخشى أن أفقدك.

اختفى وهج البندق خلف غمامتين من الدموع وهي تشعر بصدق حديثه...

لكنها لازالت لا تملك رداً!

فقط عيناها كانتا متعلقتين بملامحه تعلّق الغريق بطوق نجاته...

لكنه عاد يخفي رأسه في صدرها وهو يضمها أكثر قائلاً بضيق يائس:

_أنا أعرف أنني ظلمتكِ معي...لكنني لم أستطع ألا أتشبث بكِ...أنتِ أشبه بماسةٍ وضعها القدر في طريقي ولم أكن بهذا الحمق كي لا ألتقطها.

ثم رفع عينيه إليها مردفاً بحزم:

_ولن أضيعها من يدي أبداً.

أشاحت بوجهها هاربةً من شعورها الجارف به في هذه اللحظة...

ولو استجابت له لصارحته الآن بأنها مثله...

لا تريد أن تفقده...أبداً!!!!

_جنة!

داعبت همسته أذنها بصوته الرخيم...

فالتفتت إليه بحذر...

لتخونها عيناها بالسقوط في ليل عينيه الأسود من جديد...

وما أحلاه من سقوط!!!

لكن ابتسامته الشاحبة أنقذتها من سقوطها عندما تعلقت بها عيناها وهو يهمس بصوتٍ لا يخلو من ألم:

_هل قلتُ لكِ أنني...أحبك؟!!

اتسعت عيناها بدهشة ومراياها البندقية تمنحه صورة واضحةً عن أعماق روحها الثائرة الآن...

فاتسعت ابتسامته -رغم مرارتها-ثم فك ساعده من على خصرها ليحتضن وجنتها براحته مردفاً:

_لن أقولها لكِ...تدرين لماذا؟!!!

ظهر التساؤل في عينيها واضحاً ولازال لسانها منعقداً...

فرفع رأسه ليقترب بوجهه من وجهها حتى ما عادت تشعر حولها سوى بليل عينيه الساحر الذي سرق نظراتها باقتدار وهو يهمس ببعض الندم:

_لأن لساني قالها كاذباً لغيرك...وأنتِ امرأةٌ لا يليق بها كلامٌ مكرّر...فاقرئيها أنتِ على لساني حتى ولو لم أقلها...كما أقرأها أنا بلون البندق في عينيكِ كل يوم.

أغمضت عينيها وكأنها تخاف أن يقرأ اعترافهما كما يقول...

لكن قبلتين عميقتين منه عليهما كانتا لها بالمرصاد...

أتبعهما بهمسه الدافئ:

_عيناكِ حبيبتايَ تفضحان شعوركِ يا جنتي...لهذا أحبهما.

ارتجّت أعماقها كلها بالتمرد على صمتها المستفز هذا...

لكن عقلها قمع التمرد بقوة كعادته محافظاً على صمتها فعادت تفتح عينيها بحذر مدّعية الصلابة...

عندما تحسس شفتيها بإبهامه مردفاً بنفس النبرة:

_لكن شفتيكِ عنيدتان مثلكِ تتمنعان عن الاعتراف...لهذا...

قطع عبارته وعيناه معلقتان بشفتيها...

فابتسمت رغماً عنها ابتسامة باهتة وهي تهمس بخفوت:

_لهذا ماذا؟!!! تكرههما؟!!

رفع عينيه إلى عينيها للحظة بعاطفةٍ لا يحتويها الكون على سعته...ثم عاد يتعلق بشفتيها هامساً بصوتٍ ذائب:

_بل أدللهما حتى ترضيان...فتبوحان.

قالها وهو يطبع على شفتيها قبلاتٍ خفيفة متتالية...

فشعرت بروحها تكاد تنسحب منها وخافت ضعفها معه من جديد...

لهذا دفعته برفق وهي تهمس باعتراض :

_فهد...هل نسيتَ وعدك؟!!

زفر زفرة قصيرة...

ثم أشاح بوجهه للحظة قبل أن يعود ملتقطاً سحرها البندقيّ وهو يقول بعتاب لا يخلو من عاطفة:

_إلى متى تكابرين؟!!!

تنهدت في حرارة ثم رفعت رأسها لأعلى قائلة بانفعال:

_ليست مكابرة...بل حيرة وعجز...أنا لا أتصور مستقبلاً لعلاقتنا...ابن جاسم الصاوي هو النقيض لكل مبادئي وعقائدي...وزواجي منه لعنةٌ على رأسي.

لكنه كان يتفهم انفعالها هذه المرة فرفع كفها إلي شفتيه يقبل باطنه قبل أن يهمس بترقب:

_وفهد؟!!!

عادت تتنهد في حرارة وهي تطرق برأسها هامسة بعد لحظات:

_فهد...هو...

قطعت عبارتها عاجزة عن إكمالها ....فرفع ذقنها إليه هامساً بحزم :

_فهد ماذا؟!!! قولي....

دمعت عيناها وهي تهمس بعجز مصبوغ بمرارة قوية:

_هو رهاني الأخير في هذه الحياة...فإما كسبته وكسبت معه حياتي...وإما خسرتهما معاً كما خسرتُ من قبل.

لم تكد تتم عبارتها حتى جذبها إليه بقوة ليعتصرها بين ذراعيه مخفياً رأسها في صدره للحظات...

وهو يحاول احتواء ارتجافة جسدها بدموعها....

آه لو تعلم ما الذي فعلته بها كلماتها هذه؟!!!!

لقد أجادت "الأستاذة" اختيار كلماتها بمهارة...

منحته السم والترياق بنفس اليد!!!!

ماذا تظنه يفعل بعدما سمعه منها الآن سوى أن يعدها بهذا الوعد:

_أقسم لكِ بحق من جعلكِ نوراً في طريقي...ألا أعود لظلمتي بعدكِ أبداً!!!

============

استيقظت من نومها لتجده جالساً أمامها على طرف الفراش....

يحتضن كفها براحتيه على شفتيه وهو يتأملها بعشقٍ لم يعد لديها شك فيه...

فابتسمت وهي تفتح عينيها بصعوبة لتهمس بصوت ناعس:

_كم الساعة الآن؟!

قبل كفها بعمق قبل أن يهمس بصوت خفيض:

_لا أدري.

تثاءبت رغماً عنها فوضعت كفها على شفتيها ثم تناولت هاتفها لتنظر في شاشته...قبل أن تعيد سؤاله بدهشة:

_لم يؤذن لصلاة الفجر بعد...لماذا لم تنم حتى الآن؟!!

انحني بجذعه ليريح رأسه على صدرها وهو يهمس بصدق خالطه حزنٌ لم تعرف سببه:

_لقد نمتُ فعلا...واستيقظتُ بعدها مرتين لأخرج من غرفتي إليكِ فقط لأطمئن أنكِ لازلتِ هنا.

ثم رفع رأسه إليها هامساً أمام عينيها بنفس الصدق المشبع بالحزن:

_لقد أصبتِني ب"عقدة الفقد" ...هاجس رحيلك لم يعد يفارقني.

ارتفع حاجباها في تأثر لتجد نفسها دون وعي ترفع ذراعها الحر لتضم رأسه إلي صدرها قبل أن تهمس بتردد:

_لا أعتقد أنني سبب هاجسك هذا...هل فقدت قبلي شخصاً أحببته؟!!

لم يصلها رده للحظات فعلمت أن حدسها لم يكذبها...

تماماً كما كانت تعلم أنه لن يبوح بأسراره بهذه البساطة...

لهذا ربتت على رأسه برفق ثم همست بحنانها الفطري:

_لو لم تكن تريد الإجابة فلا بأس...أنا أحترم أسرارك.

رفع إليها عينين غائمتين بعاطفته وهو يهمس بشرود:

_هل تعلمين؟!منذ رأيتكِ تحتضنين رؤى أول مرة وأنا تمنيتُ لو أتذوق طعم حنانكِ هذا .

أغمضت عينيها بألم وهي تشعر بمزيج مضطرب من المشاعر...

لماذا يذكر هذا الأمر الآن؟!!!

إنها -بالكاد-تتناساه!!!

قلبها يخبرها أن- ابن الصاوي- الذي آذى صديقتها ليس أبداً- فهد- الذي تراه الآن أمامها...

ومع هذا لازال عقلها يقرع ضميرها بمطرقة الذنب...

وبينهما هي عاجزةٌ لأول مرة في حياتها ...

واقفةٌ على خيط رفيع بين سواد ماضيه وبياض توبته...

توبته التي تستشعر صدقها بحق ويزداد يقينها بها يوماً بعد يوم...

التفتت إليه من شرودها لتلاحظ تثاقل جفنيه وعينيه المجهدتين اللتين يجاهد كي يبقيهما مفتوحتين...

فعادت تربت على رأسه المستكين على صدرها وهي تهمس برقة:

_نم يا فهد...أنا معك...لن أرحل.

رفع رأسه إليها ليهمس بصوت ناعس:

_هل يمكنني النوم هنا ؟!

أومأت برأسها إيجاباً فتمدد جوارها على الفراش ولازال محتضناً كفها براحتيه حتى سقط في النوم بعدها بدقائق معدودة...

ابتسمت في حنان وهي تتأمل ملامحه النائمة ...

تماماً ككل مرة تراه فيها نائماً تشعر وكأنه طفلها الذي أرهقه التعب فعاد ليغلبه النوم في حضنها...

اتسعت ابتسامتها وهي تربت على وجنته بكفها الآخر برفق لدقائق ...

حتى غلبها النوم هي الأخري!!!

لتستيقظ صباحاً على صوته كالعادة وهو يقبل وجنتيها بعدما فتح النافذة:

_صباح الخير يا أستاذة.

لكنها هزت رأسها في اعتراض وهي تهتف باستنكار ملأ صوتها الناعس:

_لا يا فهد....لن أستيقظ الآن...ألا يكفي أنك قلقتَ نومي بالأمس؟!!

ضحك ضحكة قصيرة ثم انحنى ليقبل شفتيها بخفة قبل أن يقول بمشاكسة:

_وسأقلق نومك كل ليلة حتى تستسلمي وتتركيني أنام هنا معك.

ابتسمت وهي تنهض من نومتها لتسند ظهرها على الوسادة تتأمله للحظات...

قبل أن تسأله أخيراً باهتمام:

_ماذا بك يا فهد؟! لم تكن طبيعياً ليلة أمس.

أشاح بوجهه هارباً من نظراتها المتفحصة للحظات...

ثم عاد ينظر إليها ليقول مغيراً الموضوع:

_هل أنتِ مرتبطةٌ بقضايا اليوم؟!!

هزت رأسها نفياً ثم قامت واقفة أمامه لتسأله باهتمام:

_لماذا تسأل؟!!!

جذبها من ذراعها فجأة ليرفعها عن الأرض محتضناً خصرها بساعده ...

فشهقت بدهشة لكنه غمزها بمكر وهو يدور بها بسرعة هامساً أمام عينيها بشقاوة لذيذة:

_سأخطفك ...هل لديكِ مانع؟!

تخضبت وجنتاها بحمرة خجلها وهي تدفن وجهها في كتفه هامسةً:

_أنزلني يا فهد...أنت تُدوّخني هكذا.

فأنزلها على الأرض برفق ولازال يضمها إليه بساعده ثم رفع ذقنها إليه هامساً بدفء:

_اليوم فقط يا جنتي ...ننسى فيه كل شئ...لا قواعد ولا قوانين...لا ماضي ولا مستقبل...فقط أنا وأنتِ.

تاهت عيناها في ليل عينيه الأسود وكل ذرة في كيانها تناشدها الاستسلام...

فأومأت برأسها موافقة!

ولم تكد تفعلها حتى أمطرها بقبلات خفيفة متتابعة على وجهها كله ...

فضحكت بانطلاق وهي تبتعد بوجهها عنه محاولةً دفعه بعيداً عنها..

لكنه ضحك بدوره ضحكة رائقة قبل أن يقول بعاطفة مشتعلة:

_شكراً يا جنتي.

ثم همس وهو يحتضن ملامحها بعينيه الهائمتين:

_هل تعلمين أنها أول مرة أراكِ فيها تضحكين هكذا؟!!

تجمدت مكانها للحظات وهي تفكر في عبارته قبل أن تهمس بشرود:

_نعم...معك حق...أنا نفسي لا أذكر آخر مرة ضحكتُ فيها هكذا.

التمعت عيناه بحنان لكن شرودها أقلقه فجذبها من كفها ليتوجه بها نحو خزانة الملابس هاتفاً بحزم:

_هيا بنا نعد الحقيبة...لن نضيع الوقت.

التفتت إليه تسأله بدهشة :

_أين سنذهب؟!!

قرص وجنتها مداعباً وهو يغمزها هامساً:

_دعيني أفاجئك!

وبعدها بوقت قصير كانت تستقل سيارته جواره وهي عاجزة عن تبين وجهتهما...

ولما كان نومها بالأمس مضطرباً فقد استسلمت لإرهاقها مع طول الطريق...

حتى أفاقت على صوته جوارها وهو يهتف بمرح:

_وصلنا يا أستاذة....حمداً لله على السلامة.

تلفتت حولها بدهشة لتجد السيارة متوقفةً أمام "شاليه" ساحلي شديد البذخ والأناقة....

بشاطئ خاص أمامه ...

ترجل من السيارة قبلها ثم دار حولها ليفتح بابها ويجذبها من كفها لتسير جواره بتردد...

حتى وصلا لباب ال"شاليه" فنظرت إليه بترقب لكنه ابتسم قائلاً:

_ادخلي ولا تخافي يا أستاذة....إنه ملكي.

أطرقت برأسها وقد تجهمت ملامحها فجأة...

فمال على أذنها هامساً:

_لا تقلقي...لم تدخله واحدة قبلك ولن تدخله أخري بعدك.

رفعت إليه عينيها وقد عاد إليها شعورها بالغربة معه من جديد!

بعيداً عن علاقاته النسائية العديدة فلم تعد هي مشكلتها الوحيدة معه...

لكن موقفاً كهذا يذكرها بمن هو ومن يكون أبوه...

شاب في سنه يمتلك مكاناً كهذا- هو ثروة وحده -بينما غيره لا يملكون مقدم إيجار شقة تحميهم وذويهم من العراء...؟!!!

لو كان حقه من مصدر شريف لما اعترضت على قسمة الله سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب...

لكنها تعلم كيف يسيطر جاسم الصاوي على السوق بطرقه الغير مشروعة لينهب خير البلد...!!!

لهذا شعرت بغصة في حلقها وقد عاد ضميرها يجلدها بسياط الذنب من جديد...

لكنه قرأ ترددها من جديد في عينيها فعاد يهمس بمزيج من الحزم والرجاء:

_اليوم بلا قيود يا جنتي...بلا تفكير...ألم نتفق على هذا؟!

تألق وهج البندق في عينيها للحظات منذراً بثورة قريبة...

لكنه عاد يخبو خلف سحب عاطفتها -القاهرة- لتجد نفسها تومئ برأسها إيجاباً...

قبل أن تدلف معه إلى الداخل ....!!!!

أشرقت عيناه بالفرح وهو يشعر بتحرر مشاعرها من أغلالها لأجله هو...

ولو كان يستقرئ الغيب لأدرك أن تنازلاتها هذه وإن كانت اليوم (له)...

فغداً قد تكون (عليه)!!!!

لكنه كان غافلاً عن كل هذا بفرحة قلبه -الوليدة-بها...

احتضن خصرها بساعده وهو يسير جوارها ليريها المكان كله ...

فالتفتت إليه لتهمس بابتسامة شاحبة:

_المكان رائع.

انحنى بوجهه على وجهها يقبل وجنتيها بعمق قبل أن يعود لحبيبتيه البندقيتين فيأسرهما ببريق نجوم ليله الأسود هامساً:

_وأنتِ تجعلينه أروع!

أسبلت جفنيها بخجل لا تدعيه...

خجل يثير جنونه أكثر ويزيد من قدسية الهالة المحيطة بهذه المرأة الأسطورية -كما يراها-

لهذا أحاط وجهها بكفيه يقربه منه أكثر وهو يهمس بعاطفة:

_أوَ تعلمين؟!!!أتمنى الآن لو أجوب بكِ كل الأماكن التي وطأتها قدماي قبلك...لتطمسي آثار كل ما سبقك و-من- سبقكِ إلي حياتي.

دمعت عيناها في تأثر وهي ترى الصدق في عينيه- قبل حديثه -يزيد متانة نسيج شعورها نحوه...

لكنه لمح دموعها فانحني على عينيها يقبلهما بعمق قبل أن يهمس بدفء:

_لا يا جنتي...نحن اتفقنا...لا دموع اليوم ولا قيود...فقط...إحساسكِ وإحساسي.

أومأت برأسها في رضا فسألها باهتمام:

_تجيدين السباحة؟!

ارتفع حاجباها بدهشة للحظة...ثم ابتسمت قائلة:

_أعشقها.

ارتفع حاجبه بمكر وهو يداعب أنفها بسبابته هاتفاً:

_سألتكِ...تجيدينها؟!!!

تألقت عيناها بوهج البندق من جديد وهي ترد له حركته فتداعب أنفه بسبابتها هي الأخري هاتفةً بثقتها المعهودة:

_عندما تعشق جنة الرشيدي شيئاً فهي لا تهدأ حتى تجيده.

ضحك ضحكة عالية وهو يضمها إليه بقوة للحظات قبل أن ينظر لعينيها هامساً : ...

_أعشق حديثكِ بهذه الطريقة يا أستاذة.

خفق قلبها بجنون مع صدى ضحكته التي كانت تدق أجراس الفرح بين جنبات روحها...

لكنه عاد يقول بأسف:

_نسينا أن نحضر لك ثياباً للسباحة.

ثم أردف بسرعة:

_لكن لا مشكلة!!!

قالها وهو ينحني فجأة ليحملها بين ذراعيه فشهقت للمفاجأة وهي تغمغم بكلماتٍ معترضة...

لكنه اندفع بها نحو الشاطئ وهي تحاول التملص من ذراعيه دون جدوي...

لتجد نفسها معه فجأة في عرض البحر...!!!!!!

هنا..أنزلها برفق وهو يضحك ضحكة منطلقة طويلة قبل أن يهتف بمرح:

_نتسابق يا أستاذة؟!

ضحكت بدورها وهي تسبح جواره لتهتف بمرح هي الأخري:

_نتسابق يا سيد فهد .!

ثم هزت رأسها لتقول باستنكار لا يخلو من مرح:

_ أيها المجنون!!!

عادت ضحكته تجلجل حولها بصداها المدوي وهو يدفع الموج بذراعيه محاولاً أن يسبقها...

لكنها كانت ماهرةً حقاً كما زعمت فلحقته بعد قليل مما دفعه ليزيد سرعته أكثر...

ثم انتبه لها بعد دقائق عندما التفت خلفه ليجدها تناديه باستغاثة ملهوفة...

عاد إليها بسرعة وقلبه ينتفض قلقاً ليضم جسدها الذي تراخى تماماً بين ذراعيه وقد ابيضت شفتاها وشحب وجهها تماماً....

فهتف بها وهو يحملها من جديد بين ذراعيه:

_جنة! ماذا بكِ؟!! هل تعبتِ؟!!

كانت عيناه تصرخان بالخوف الذي يسكنهما مؤخراً كعادته...

وقلبه جاوزت دقاته حد الجنون بكثير...

خاصةً وقد تقطعت أنفاسها وهي تهمس وسط لهاثها السريع:

_أنا بخير...لا تقلق.

لم يدرِ كيف وصل بها إلي المنزل ليرقد جسدها على الفراش قبل أن يلفه كله بغطاءٍ خفيف...

ثم ضبط مكيف الهواء على درجة حرارة مناسبة...

ليجلس بعدها جوارها على طرف الفراش يدلك كفيها الباردين كالثلج وهو يهتف بصوت مرتعش:

_أنا آسف يا جنة...آسف...أنا أحمق كبير لأنني فعلت هذا...أرجوكِ كوني بخير...أنا آسف...أنا آسف.

ظل يكررها تباعاً وجسده المبلل كله ينتفض لا يدري برداً أو خوفاً...

لكنه لم يكن يهتم سوى بعينيها اللتين تعلقت بهما نظراته في لهفة...

قبل أن تجد هي صوتها لتهمس بتأثر وقد مستها لهفته الصادقة هذه:

_أنا الآسفة على قلقكِ هذا.

ثم أردفت بابتسامة شاحبة:

_يبدو أنني لستُ ماهرةً كما كنتُ أزعم...لقد أصابني التعب بسرعة.

اعتصر كفها بين راحتيه وقد شعرت بتشنج جسده كله ...

قبل أن يرتجف بوضوح وقد وشت ملامحه بخوف لا محدود...

انعقد حاجباها وهي تشعر أن خوفه هذا غير طبيعي...

بل إنها تراه الآن بصورة "مَرضية"!!!

خاصةً لو ربطته بسلوكه الغريب معها ليلة أمس...

هذا الرجل فقد يوماً امرأة أحبها بجنون...

ولو صدق حدسها فهو يحمل نفسه مسئولية فقدها كذلك!!!

لهذا يخاف عليها هي هكذا بهذه الصورة المغالية...

تحاملت على نفسها لتنهض وتسند ظهرها على وسادتها هامسة بتماسك:

_أنا صرتُ بخير يا فهد...قم أنت وبدل ملابسك كي لا تصاب بالبرد.

لم يبدُ عليه أنه سمعها فقد ظل جسده على ارتجافته مع الخوف الذي كان يطل من عيونه هادراً بعنف وكفاه يتشبثان بكفها باستماتة...

فربتت على وجنته الباردة بكفها الحر وهي تهمس بحزم لا يخلو من قلق:

_قم يا فهد الآن...وتعال بسرعة فأنا أريد الحديث معك في أمر هام.

أغمض عينيه بقوة للحظات وكأنه يقاوم ألماً عظيماً بداخله...

فعادت تربت على وجنته بحنوّ بالغ ليفتح عينيه بصعوبة بعدها...

ثم حرر كفها من قبضتيه أخيراً ببطء شديد قبل أن يقوم بتثاقل ليبدل ملابسه ...

قامت من فراشها هي الأخري وهي تشعر ببعض الدوار...

لكنها تحاملت على نفسها لتبدل ملابسها وتسبقه إلى صالة المنزل ...

حيث جلست على الأريكة عاقدةً ساعديها أمام صدرها بشرود...

حتى أفاقت من شرودها على مجيئه حاملاً كوبين من مشروب دافئ ناولها أحدهما ووضع الآخر على المائدة...

ثم تمدد على الأريكة جوارها مسنداً رأسه على ساقيها وهو يتطلع لعينيها بنظراتٍ تتأرجح بين الخوف تارة...والحزن تارةً أخري...

والغريب أنها لم تفهم سبباً لكل هذا...

قد تستوعب مشاعره الخاصة نحوها...

لكنها لا تجد مبرراً لهذا الخوف -المَرضي-الذي صار طاغياً على إحساسه بها!!!!

لهذا وضعت الكوب جوارها على مسند الأريكة...

ثم مدت أناملها برفق تتخلل خصلات شعره حالكة السواد وهي تنظر لعينيه هامسةً بحنانها الفطري:

_ما الأمر يا فهد؟!! ما الداعي لكل هذا الخوف ؟!!

أغمض عينيه وهو يشعر بلمساتها الحانية تحمله لعالم آخر من السكينة...

فهدأت نفسه رويداً رويداً ...

حتى شعر بخفقات قلبه تعود لرتابتها من جديد بعد جنونها السابق...

لكنه لازال عاجزاً عن البوح بكل ما يجيش بصدره...

لهذا اكتفى بتنهيدة حارة قبل أن يتجاهل الرد على سؤالها الحائر لكنه همس بخفوت:

_لو كان العمر يُشتَري...لابتعتُ ألف عمر أقضيه بين يديكِ فقط هكذا.

ربتت على صدره برفق وهي تشعر بهمسه الصادق يتغلغل داخل روحها متملكاً كل خلاياها...

لكنها عادت تهمس بنفس النبرة الحانية:

_ألم تكن تقول لي دوماً أنني أحتاجك وأنك تحتاجني أكثر؟!!!الآن أنا أصدقك...وأثق أن القدر جمعنا لحكمةٍ قد لا نعلمها الآن لكنها ستظهر لنا واضحةً فيما بعد....لهذا أتمنى لو أعرفك أكثر...لو تكشف لي أسرارك دون غموض...دعني أرَ فهد على حقيقته دون رتوش إضافية.

ظل مغمضاً عينيه للحظات بعدها قبل أن يفتحهما لتتخلل أشعتها البندقية ظلمات روحه الباردة ناشرةً الدفء بين حناياه بقوة قديرة...

فابتسم بمرارة باردة قبل أن يهمس بشرود:

_ومن أخبركِ أنني أريدكِ أن تعرفي حقيقتي الكاملة؟!!!
أنا أريدكِ ألا تشاهدي سوى وجهي الجديد

معكِ...صدقيني وجهي القديم كان أشبه بمسخ مشوه... لا يسعدني أن تعرفي شيئاً عنه.

تنهدت بحرارة وقد أدركت بحدسها أنه لن يبوح بما هو أكثر...

فعادت تربت على صدره برفق حنون هامسةً بعاطفة زلزلت كيانه بصدقها:

_قل ما تشاء...وأخفِ ما تشاء...لكن تشبث بوجهك الجديد النقيّ هذا...صدقني لن يليق بك غيره.

اتسعت ابتسامته وهو يتناول كفها من على صدره ليقبله هامساً:

_فقط كوني معي...واختاري الوجه الذي يليق بعاشقكِ...أعيدي رسم ملامحي كما تحبينها...فلم أعد أرى لنفسي صورةً إلا في مراياكِ.

انحنت برأسها تقبل جبينه بحنان وقلبها يكاد يحتضنه بدقاته...

فما عادت تشكّ مثقال ذرة في صدق شعور كل منهما نحو الآخر..

لكنها بداخلها كانت تعرف أنهما لا يزالا في بداية طريق وعرٍ محفوف بمخاطر لا قِبَل لها بها...

وشعورٌ غامضٌ بداخلها يخبرها أن فهد الصاوي لازال يخفي عنها الكثير ...

وأن القدر يدخر لها مفاجآت أكثر....

==================

_لماذا لم تأتِ للنوم هنا كما اتفقنا؟!!!

قالها عاصي متفحصاً ملامحها المرهقة وهالات عينيها السوداء والتي فضحت له قلقها وعدم قدرتها على النوم...

فأطرقت برأسها للحظات وهي تفكر في السبب الحقيقي...

لقد ظلت تلعب بطائرتها الورقية لدقائق على سطح القصر وهي تشعر بفرحة عارمة وبانطلاق لم تعرفه من قبل...

وكأن سنوات عمرها تناقصت فجأة وعادت مجرد طفلة عابثة لا تعرف هماً ولا حزناً...

ولكنها عندما أفاقت لنفسها بعد قليل ...

وجدت نفسها تنهار جالسة مكانها على الأرض تبكي بحرقة فجأة!!!!!

وهي تعود لواقعها المرير...

هي لن تعود طفلة...

ولن تعود لرحمة...

ولن تعود لعزيز...

فكيف إذن تكون ماسة؟!!!!

ظلت على بكائها على أرض سطح القصر للحظات ...

حتى استعادت بعضاً من قوتها لتقف من جديد ململمة شظايا روحها المكسورة....

تركت طائرتها الورقية ملقاة على الأرض مكانها بعدما رمقتها بنظرة مودعة أخيرة...

ثم هبطت الدرج متجهة نحو غرفته كما اتفقا...

وبالفعل حملتها خطواتها المتثاقلة حتى باب غرفته لا شعورياً وكأنها سلمت أنها صارت ملاذها الآمن الوحيد...

وما إن رفعت أناملها لتطرق الباب قبل دخولها حتى تجمدت مكانها في الهواء لبضع لحظات دون حركة أخري...

لتأخذ قرارها بعدها سريعاً وتعود بخطوات حاسمة نحو غرفتها هي...

مغلقةً بابها خلفها بالمفتاح!!!!

استسلمت بعدها لنومٍ متقطع مرهق لتستيقظ بعده والصداع يكادٍ يفلق رأسها نصفين...

وبعدها سمعت صوت طرقاتٍ خافتة على الباب...

كانت للخادمة تدعوها لتناول الغداء معه في غرفته كما اتفقا....

_لماذا؟!!!

قطع تساؤله شرودها فرفعت رأسها إليه بحدة...

وبحار فضتها تتألق بلمعة آسرة سحرته للحظات...قبل أن تقول بقوة حقيقية:

_لأنني لن أستمد أماني من أحد بعد الآن ...قوتي ستكون نابعة من روحي أنا...لن أستجديها من سلسلة

عاشق حول عنقي...أو جدران غرفة رجلٍ - يُفترض - أنه زوجي.

ثم دمعت عيناها رغماً عنها وصوتها يرتعش رغم قوته:

_ماسة تعلمت درسها جيداً...لو لم أمنح نفسي القوة فلن يهديها إليّ أحد...!!

ظهر شبح ابتسامة على شفتيه وتألقت شموسه الزيتونية ببريق إعجاب ناقض قسوة عبارته التالية:

_من الجيد أنكِ لم تعودي تذكرين اسمه...وإلا ما كنتُ أعرف كيف سيكون عقابك.

ثم لوح بسبابته في وجهها قائلاً :

_لا مجال للمقارنة بين عاصي الرفاعي ومن سبقه.

ارتجف جسدها رغماً عنها وهي تشعر بسهام قسوته تصيب روحها بشدة...

وخوفها على عزيز منه يعاودها ...

لكنها لم تشأ أن تظهر خوفها أمامه فأمسكت ملعقتها لتبدأ في تناول طعامها متظاهرة بعدم الاكتراث...

ظل يتفحصها بنظراته حتى كادت تغص بالطعام في حلقها...

لكنها تجاهلت نظراته تماماً وهي تحاول التشاغل بتناول كوب العصير...

حتى قال بحسم:

_جلسات علاجك ستبدأ غداً.

ارتجفت أناملها الممسكة للكوب بشدة حتى سقط بعض العصير على ثوبها...

فوضعته بارتباك على المائدة ...

بينما قام هو من مكانه ليتناول واحدة من المناشف الورقية...

ثم انحني ليزيل أثر العصير المسكوب على الثوب!!!!

تضاعف ارتباكها كثيراً وهي تشعر أن دقات قلبها تلهث بجنون...

لماذا يفعل هذا بنفسه...؟!!!

عاصي الرفاعي ينظف لها ثوبها؟!!!!!!!!

لم تكن أول مرة يقترب منها هكذا...

لكنها الآن تشعر بشعور غريب لا تتبين كنهه...

هل تغير عاصي الرفاعي؟!!!

هل توارت غيوم قسوته خلف أمطار احتوائه ورفقه؟!!!

أم أنها هي من تغيرت؟!!!

هي التي صارت أكثر هشاشة نحوه...

أكثر احتياجاً...

وأكثر حيرة؟!!!!

انتهى مما يفعله فوضع المنشفة على المائدة...

وقد حافظ على انحناءته حتى تكون عيناه في مستوي عينيها...

فيلتقط ماساتها المتوهجة بحيرتها وعجزها بين كنوز عينيها الفضية ...

ثم همس بنبرة غريبة:

_الماس يبرق في الضوء أكثر...فلا تستسلمي لظلامك.

عادت تتوه بنظراتها في غابات زيتونه المتشابكة بمشاعر لا تفهمها...

والصمت يخنق كلماتها للحظات...

قبل أن تقف وهي تسحب كرسيها للخلف مبتعدة عنه وهي تهمس بخشية:

_لا أريد هذه الجلسات.

اعتدل بظهره لتشعر بنظراته تحتضنها برفق...ثم أمسك كتفيها هامساً بنبرته القوية:

_لماذا؟!!!

ارتجف جسدها بدموعها فجأة ....وهي تضغط على شفتيها لعلها تتمالك نفسها وسط فوضى المشاعر التي تجتاحها الآن بلا رحمة...

وتعلقت عيناها بعينيه بما يشبه الرجاء...

فضمها إليه برفق وهو يربت على ظهرها ليصله همسها المذبوح بين دموعها:

_أنت لا تفهم...أنا لا أريد الحديث عن هذا الأمر...كلامي عنه يمزقني...يهدم كل جسور قوتي التي أحاول عبورها نحو الغد...لا أريد أن أعود للوراء...لا أريد ...لا أريد.

ظلت تتمتم بها مراراً وسط نشيجها المتألم...

فضمها إليه أكثر حتى شعرت أنها قد صارت جزءاً منه...

وبرغم ما كانت تشعر به نحوه من رهبة ونفور...

لم تستطع مقاومة إحساسها بالأمان بين ذراعيه...

على الأقل الآن...!

وهي تشعر أنها في أشد لحظات حياتها ضعفاً...

واحتياجاً...

ووحدة!!!!

لهذا لم تملك إلا أن دفنت وجهها في صدره تتنشق عطر الأمان الذي يعدها به...

وتمحو بدفئه صقيع مشاعرها الذي يقتلها ببطء...

والعجيب أنها وسط فوضى المشاعر هذا لم تجد مكاناً للخجل...!!!!

ولا تدري ما السبب...

ربما لأن شعورها به لم يكن أبداً ولن يكون كشعورها بأي رجل...

نعم...

شعورها به غريب ...

لا يمكنها وصفه مهما حاولت...

لكنه يشبه كثيراً شعورها نحو ...رحمة!!!

خفق قلبها بقوة عندما وصلت لهذا الإدراك...

نعم...عاصي الرفاعي -رغم نفورها من قسوته وتسلطه- يشبه في حنانه وقوته معها صورة الأب التي طالما تمنتها...

وحرمتها الأقدار منها...!!!

وحتى مع عشقها الجارف لعزيز...

لم يستطع إرضاء هذا الجانب -الظمآن-بروحها...

جانب الطفلة التي حُرمت قوة الوالد الحانية...

وحزمه الرفيق!!!!

لهذا كادت تذوب تأثراً وهو يهمس جوار أذنها بلهجته التي تمزج قوته بحنانه في مزيج مدهش:

_لهذا كنتُ أقول لكِ أن سحر الماس أقوى تحت الضوء...أنا أريدكِ أن تتخلصي من كل قيود

ظلماتك..ظلماتكِ التي تغشي عينيكِ فيؤلمها نور الصبح...مع أنه يليق بهما أكثر.

رفعت وجهها إليه بعينين حائرتين....

فأردف بصوته الذي يغرس القوة بروحها الكسيرة:

_لا تهيلي التراب على الجمر المشتعل...أطفئيه أولاً...!!

شردت ببصرها للحظات تعقل حديثه...

وهي تشعر بالتشتت...

برغم كل شيءٍ هو محق...

وهي تريد الخلاص من رواسب ماضيها كلها...

تلك الرواسب التي تعكر صفو أحلامها بالغد...

غدٍ متألق بخيوط النور بعيدٍ عن ظلمات جروحها الحالكة...

عادت ببصرها إلى عينيه تستمد دفئها من شموسه الزيتونية التي كانت تتوهج الآن توهجاً آسراً...

كان هو لا يزال يضمها بين ذراعيه وراحتاها مبسوطتان على صدره...

وعلى عكس دقات قلبها التي كانت تتقافز بجنون...

كانت دقات قلبه تحت راحتيها هادئة...رتيبة...مستقرة...

وكم كانت تغبطه على هذا!!!

تمالكت شعورها بصعوبة وهي تبتعد عنه ببطء متثاقل...

قبل أن تستجمع قوتها لتقول وهي تهرب من غزوه -الزيتوني-:

_لن أستطيع أن أشكرك على ما تفعله لأجلي قبل أن أفهم كل شئ...

ابتسم ابتسامته الجانبية المميزة وتألقت عيناه ببريق ماكر وهو يهمس بغموض:

_أنتِ شكرتِني بالفعل...وقبل أن تفهمي أي شئ!!

وقعت عيناها في شباك عينيه من جديد وانعقد حاجباها بتساؤل...

فمد أنامله برفق يمسح بقايا دموعها المتجمدة على وجنتيها هامساً بنفس النبرة :

_في كل مرةٍ تهديني عيناكِ رسائلها الفضية بالامتنان...في كل مرة تخونكِ فيها شفتاكِ فتبوحان لي بخفايا لم يسمعها غيري...في كل مرة تتوسدين فيها صدري شاعرةً بالأمان...فاعلمي أنكِ قد شكرتِني.

اتسعت عيناها مصدومةً بكل ما أثارته فيها كلماته من حرب مشاعر حقيقية....

ما بين إحساس بالخوف...والأمان...

والرهبة ...والسكينة...

والنفور...والأنس...

والكراهية....وال.....

ال.....؟!!!!

ماذا؟!!!!

هل تقول الإعجاب؟!!!!

نعم...

برغم كل شئٍ هي لا تنكر إعجابها ب-بعض-صفاته...

بل إنها تتمنى أحياناً لو تسرق من عينيه قبساً من نار قوته الساحرة هذه !!!!

لهذا شعرت بلذة -خفية-يخالطها شعورها -المستحدث- معه بالأمان عندما اقترب منها أكثر ليضمها إليه برفقه المسيطر من جديد هامساً جوار أذنها بمزيج من الإعجاب والفخر:

_وهل بعد ضمّ الماسِ شُكر؟!!!!!

=============

خرجت من غرفتها عند الفجر كالعادة وهي تشعر ببعض الهدوء...

جلسات علاجها بدأت تؤتي ثمارها بعد بضع مرات مع هذه الأدوية التي كتبتها لها الطبيبة....

وتظن أن الوضع ربما كان سيتحول للأفضل فقط لو لم تكن علاقتها بعاصي مضطربة كما هي هذه الفترة...

إنها تتحاشى لقاءه تماما سوى في أوقات الطعام...

وحتى في هذه الأوقات تتجنب الحديث معه أو حتى مجرد النظر إليه...

والغريب أنه يبدو وكأنه لا يهتم!!!!

هو لا يجبرها على أي شئ وكأنه اكتفي بإجباره لها على هذه الزيجة من الأساس!!!!

هذا الرجل صار لعنة حياتها الجديدة...

وجوده مثل غيابه...

كلاهما مربكٌ ...محير...مسيطر لأقصي حد!!!

لكنها لن تستسلم لطغيان شعورها به...

رغم امتنانها لكل ما فعله من أجلها لكنها تعلم أن الكثير من الأبواب المغلقة لازالت بينهما!!!

كادت تصل إلى غرفتها المفضلة في الحديقة عندما سمعت صوت أنين قوي يأتي من بعيد...

تتبعت الصوت يقودها فضولها حتى وجدته يصدر من هناك ...

اتسعت عيناها مصدومة وهي ترى رجلاً مصلوباً على جذع نخلة وعلى جسده أمارات تعذيب...

امتلأت عيناها بالخوف وهي تنظر للرجل برهبة...

هذه ليست أول مرة تراهم يصلبون رجلاً هنا...

وبالطبع هي أوامر السيد عاصي...

لا تدري سر حب هذا الرجل لتعذيب الناس...

حتى لو كان هذا الرجل مخطئاً...

لماذا لا يسلمه للشرطة فيخضع لسلطة القانون...

قانون؟!!!

ابتسمت في نفسها بسخرية مريرة وهي تتذكر يوم قال لها أن عاصي الرفاعي هنا هو القانون!!!

أفاقت من شرودها على صوت الرجل المتقطع من فرط الألم وهو يناديها بلهفة:

_سيدة ماسة...أرجوكِ فكي قيودي قبل أن يعود الحارس...كل المدينة تتحدث أنكِ لستِ قاسية مثل الشيطان الذي أكاد أقسم أنه أجبركِ على الزواج منه.

نظرت إليه بتردد وهي عاجزة عن اتخاذ قرار...

لو علم عاصي عن فعلتها فلا تدري بماذا سيعاقبها...

كما أنها لا تدري ذنب هذا الرجل الذي دعا عاصي لعقابه...

لكن جزءاً بداخلها عارضها وهي تشعر برغبة عارمة في التمرد...

في تحطيم جدار القوة الذي يحيط عاصي الرفاعي نفسه به...

أو حتى اختراق ثغراته!!!

لهذا حسمت قرارها بسرعة خاصةً عندما أردف الرجل برجاء متوسل:

_ارحميني يا سيدتي وأطلقي سراحي لعل الله يجزيكِ خيراً بإطلاق سراحكِ أنتِ الأخري من هذا المكان الملعون.

تلفتت حولها بحذر متجاهلةً كل إشارات التعقل التي كانت تنهاها عن هذا الفعل...

ثم اقتربت منه لتفك قيوده بسرعة قبل أن يعود الحارس....

شكرها الرجل بلهفة وهو يمسد معصميه بألم قبل أن يولي هارباً بكل سرعته وهو يكاد يتعثر في خطواته...

وقفت ماسة مكانها مصدومة بعدها وهي لا تصدق ما تجرأت على فعله...

ورغم أن جزءاً منها كان سعيداً بأنها تمردت على خوفها وأنقذت هذا الرجل من بطش عاصي الرفاعي...

لكن جزءاً آخر كان يشعر ببعض الذنب المغلف بالخوف من عقابه لو علم عن فعلتها!!!

لكنها تمالكت نفسها بعد دقائق لتعود لغرفتها بخطوات متثاقلة وهي تشعر أن هذا الموقف قد أفسد عليها صفاء اليوم الذي بدأ به...

لم تدرِ كم مر عليها من الوقت...

لكنها انتفضت بعنف عندما فتح باب غرفتها فجأة ليدخل هو منه ويغلقه خلفه...

قبل أن يتقدم نحوها هاتفاً بقسوته التي تعرفها:

_كيف جرؤتِ على هذا؟!!

راودتها نفسها بالكذب خوفاً لكنها تمالكت قوتها وهي تقف لترفع رأسها نحوه قائلة بتماسك:

_ماذا تقصد؟!!

اشتعلت غابات الزيتون بحرائقها التي لفحها لهيبها وهو يهتف بنفس القسوة:

_أنتِ التي حررتِ ذاك الرجل من قيوده....لا تكذبي...حراس البوابة أمسكوه واعترف بكل شئ.

هدرت بحار الفضة بعينيها بأمواج ثورتها هي الأخري وهي تقول بصلابة:

_ولماذا أكذب؟!!نعم فعلتها...لأنني لن أسكت عن ظلم رأته عيني بعدما عرفتُ طعمه.

ازداد بريق القسوة في عينيه للحظات لكنها لم تستجب لخوفها منه هذه المرة....

حتى عندما أمسك مرفقها بقسوة ليقول ببرود مشتعل:

_تريدين أن يتحدث الناس أن زوجة عاصي الرفاعي تعصي أوامره؟!!!

نفضت ذراعها منه بكل قوتها لتهتف بثورة عارمة:

_هل هذا هو كل ما يهمك؟!!صورة الشيطان المرعب الذي يخافه الجميع ويرهبون عصيانه؟!!لا يا سيد عاصي...لم أفعلها لأتحداك...بل فعلتها لأنني رأيته مظلوماً مثلي...حررتُه لعلى أجد من يحررني من هذا السجن.

قبض أنامله ليرفعها أمام وجهها قائلاً بحروف تقطر قسوة:

_هذا الرجل "المظلوم" قاطع طريق...ألقى رجالي القبض عليه بعد عناء أيام طويلة.!!!

اتسعت عيناها بصدمة وقد جمدتها المفاجأة...

لكنه لم يمنحها فرصة للرد وهو يقبض على رقبتها بأنامله فجأة ليردف بنفس النبرة:

_أنتِ لم تحرريه...تماماً كما لن يحرركِ أحدٌ من هنا.

شهقت بعنف وأنفاسها تتلاحق بجنون...

كانت نظراتها على عنادها وقوتها تحمل طيفاً خفيفاً من ندم...

بينما اصطبغت نظراته بكل غضب الدنيا وهو يقول بصرامة ولازالت رقبتها في قبضته:

_لو حكمتُ عليكِ بحكم عاصي الرفاعي فسأصلبكِ مكانه!

ارتجف جسدها رغماً عنها وقد اختنقت كلماتها وأنفاسها معاً...

لكنه رحمها أخيراً عندما فك أنامله من حول رقبتها ببطء...

قبل أن يدفعها بقوة لتسقط على ظهرها على الفراش...

ثم اقترب منها ليلوح بسبابته في وجهها هاتفاً بحزم:

_لكنني سأراعي ظروف مرضك...لهذا ستبقين حبيسة هذه الغرفة لأسبوع...لن تغادريها أبداً حتى أرسل لكِ بمن يسمح لكِ بالمغادرة ...سيكون سجناً حقاً كما تزعمين.

تجمعت دموع الذل والقهر في عينيها لكنها أبت أن تسقط أمامه...

بل ظلت تنظر إليه بثبات ...

للحظات اشتد فيها هدير أمواجها مع اشتعال غاباته...

حتى أعطاها ظهره ليرحل مغلقاً باب غرفتها خلفه بالمفتاح من الخارج...

كأنها -حقاً- سجن!!!

================

جلست على فراشها تحتضن ركبتيها مسندةً ذقنها إليهما وهي تحدق للفراغ بشرود...

لا تدري هل انتهى أسبوع -سجنها-الانفرادي هنا أم لا...

وما الفارق...؟!!!

كل أيامها متشابهات...

ثوانيها تشبه الدقائق والساعات...

بتفاصيلها الباهتة وشعورها الرهيب بالضياع...

رغم إحساسها بأنها كانت على خطأ في فعلتها الأخيرة...

لكنها كانت ناقمة على كل شئ...

حتى نفسها!!!

لأول مرة تجرب هذا الشعور المزدوج بأن تكون على الخط الفاصل بين الأبيض والأسود...

بين الخطأ والصواب...!!!

قطعت أفكارها عندما فتح الباب ليدخل هو متقدماً نحوها بخطواته الثابتة...

لكنها حتى لم تلتفت نحوه بل ظلت على جمودها حتى جلس جوارها على طرف الفراش صامتاً لدقائق..

قبل أن يقول بنبرته المسيطرة:

_موعد جلستك الآن..الطبيبة ستأتيكِ هنا.

لم تنظر إليه وهي تهمس بجمود:

_هل انتهى أسبوع سجني؟!

صمت للحظة قبل أن يسألها بلهجته الثلجية:

_ألا تعرفين؟!

ابتسمت بسخرية مريرة وهي تلتفت إليه أخيراً لترميه بسهامها الفضية قائلة بتهكم:

_وكيف أعرف؟!يومٌ هنا مثل بقية الأيام..ما الفارق؟!

قست ملامحه أكثر وهو يقول بلهجته التي امتزجت قسوتها ببرودها:

_عساكِ تكونين تعلمتِ درسكِ جيداً حتى لا تتجاوزي حدودكِ فيما بعد.

اتسعت ابتسامتها المريرة مع بريق شراسة طغا على أمواج فضتها وهي تقول:

_لا تقلق يا سيد عاصي...لن يكون درسي الأول هنا ...ولن يكون الأخير.

انعقد حاجباه للحظات قبل أن يقول بصرامة:

_من يخطئ يجب أن يُعاقب هذا هو قانون عاصي الرفاعي الأول.

هنا ظهرت موجةٌ جديدة من التحدي في عينيها وهي تسأله بنبرة قوية:

_ولو أخطأ عاصي الرفاعي...من يعاقبه؟!

اشتعلت غابات الزيتون بعينيه للحظات ثم انطفأت فجأة لتجتاحها سيولٌ من مرارةٍ لم تفهمها وهو يجيبها بغموض:

_صدقيني...قد أكون أقسى عقاباً لنفسي من غيري.

ظلت عيناهما في لقائها العجيب ما بين مشاعر مختلطة ظاهرها التحدي والقوة...

وباطنها مزيجٌ من عتابٍ وألم واحتياج متبادل...

مع تساؤلاتٍ بلا أجوبة ظلت هائمةً بين نظراتهما حتى قطع هو هذا اللقاء بأن أشاح بوجهه عنها...

قبل أن يقوم من جوارها قائلاً بحزم:

_بعدما تنتهين من جلستكِ مع الطبيبة سنتناول غداءنا بالأسفل مع أحد ضيوفي وزوجته.

عقدت حاجبيها بتساؤل لكنه تجاهلها مغادراً الغرفة دون كلمة أخري.

============

أنهت جلستها مع الطبيبة وهي تشعر ببعض الارتياح...

وبرغم غضبها على عاصي الرفاعي بعدما حدث مؤخراً بينهما...

لكنها لم تستطع منع شعورها نحوه بالامتنان بعد كل جلسةٍ كهذه ...

ابتسمت بسخرية مريرة وهي تغادر غرفتها لتتجه للأسفل حيث سيتناولان الغداء مع ضيفيه...

وكل ما يملؤها الآن هو شعورها بالحيرة نحو هذا الرجل الذي فجر بداخلها كل ينابيع مشاعرها المتناقضة...

احترامٌ واحتقار...

امتنانٌ وحقد...

أمانٌ ورهبة...

احتياجٌ ونفور...

ومن أخطر على المرأة من رجلٍ يثير ربيعها وخريفها معاً في نفس الوقت؟!!!

للأسف هذا هو عاصي الرفاعي...

وهذا ملخص حياتها معه!!!

قُطعت أفكارها عندما وصلت لبهو القصر حيث كان هو ينتظرها وفي قبضته شئٌ لم تتبين ماهيته...

ثم توجه بها نحو غرفة المائدة وقبل أن يفتح بابها التفت نحوها بنظرة غريبة لم تفهمها...

نظرةٍ حملت شيئاً جديداً على شموسه الزيتونية القوية التي تعرفها...

لعله طيفٌ من ترددٍ ممتزج ببعض القلق!!!!

تردد وقلق؟!!

في عيني السيد عاصي؟!!

معقول؟!!!

عقدت حاجبيها وقد انقبض قلبها برهبة لم تعرف سببها...

خاصةً عندما رفع كفه لتتبين ماهية الشئ الذي كان يحمله...

لقد كان...نقاب وجه!!!!!!

رفعت عينيها إليه بتساؤل لكنه تجاهل نظراتها وهو يلبسها النقاب بنفسه ...

فازدردت ريقها بتوتر...

ما الذي يعنيه هذا؟!!!

في البداية أمرها بالحجاب وزعم أنه من عاداتهم هنا...

والآن يلبسها نقاباً؟!!!

هي لا تعترض على هذا أو ذاك...

على العكس..

هي كانت ترغب في ارتداء الحجاب منذ فترة طويلة لكنها -كقريناتها-كانت لا تزال ترى نفسها صغيرة على الالتزام به...

كانت تكتفي بثيابها المتحفظة وتعد نفسها بالحجاب الصحيح عندما تتزوج عزيز ...

لم تكن تتصور يوماً أن ترتديه بهذه الطريقة...

تماماً كما لم يدُر بخلدها -البرئ- وقتها أنها لن تتزوج عزيز!!!

انتهى مما يفعله فأشاح بوجهه عنها ليصمت للحظة...

قبل أن يطرق الباب برفق ويدخل ممسكاً كفها في تملك كعادته...

وقعت عيناها أولاً على زوجة الرجل فابتسمت مع دهشتها تحت نقابها وهي تراها فاتنةً حقاً...

بثيابها العصرية الكاشفة والغريبة تماماً عن مجتمع كهذا...

لكن ابتسامتها تجمدت على شفتيها وعيناها تنتقلان عفوياً لزوج المرأة الذي قام محيياً....

فقد كان...

عزيز!!!!

============

خفق قلبها بجنون وعيناها غارقتان في صدمتهما...

لكن عاصي ضغط كفها بقوة آلمتها فأطرقت برأسها وهي عاجزةٌ عن الاستيعاب بعد...

عزيز هنا؟!!!

معها ؟!!!

تراه من جديد؟!!!

تملأ عينيها من فيوض عينيه الزمردية بلمعة العسل....

وتذوب روحها في هالة الحنان والدفء التي تحيطه؟!!!!

عزيز هنا؟!!!!

أتاها وسط كل هذا السواد الذي لوّن حياتها ليمنحها ورديّة العشق الساحر؟!!!

أتاها في عز احتياجها وضعفها ليساندها بقوة حبه...

أتاها هنا؟!!!

في بيت عاصي الرفاعي؟!!!

كان هذا طوفان الفرحة الذي غمرها لأول وهلة عندما وقعت عيناها عليه....

لكن هذا الطوفان تراجع خلف سدود صدمتها ليترك خلفه جدياً مقفراً من خيبتها عندما قال عاصي بصوته المهيب:

_السيد عزيز أحد شركائي في التجارة والسيدة ميادة زوجته!!....

قالها وكأنه يعرفه لها!!!!!

بعد كل هذه السنوات التي قضاها قلبها ناسكاً في محراب عشقه...

يأتي -أحدهم-ليعرّفه لها!!!!

أمرٌ مضحك...صحيح؟!!!!

لكن...لم لا؟!!!

إنها حقاً تحتاج الآن لمن "يعرّفه" لها!!!!!

من هذا الرجل؟!!!!

هل هو حقاً عزيز؟!!!

هذا الذي يحتضن كف امرأةٍ أخري يزعمون أنها زوجته....

هو عزيز؟!!!

هذا الذي يبتسم ل-سواها-متعلقاً بعينيها وغافلاً عنها هي ...

هو عزيز؟!!!

هذا الذي طالما نظم لها قصائد الحب والغزل...

الآن يلتقيها فلا يعرفها!!!

حتى لو كانت تغطي وجهها...

منذ متى يتعارف عاشقان بوجهيهما؟!!!!

ما جدوي اتحاد الأرواح إذن!!!

أم أن كل هذا عبث؟!!!

نعم...صحيح...

كل هذا هراء...

كل هذا عبث!!!!!

طالما انتهت قصة عزيز وماسة التي ظننتها خالدة خلود الشمس والقمر...

فكل هذا عبث!!!!

يا ليتها ماتت قبل هذا وكانت نسياً منسياً!!!!

قطع عاصي نزيف أفكارها الصامت وهو يكمل التعارف بنفس النبرة المسيطرة:

_السيدة.....زوجتي.

حملت ابتسامتها المرارة هذه المرة تحت نقابها وهي تلاحظ أن عاصي تعمد عدم ذكر اسمها...

أتراه كان سيشكل فارقاً؟!!!

ماذا سيفيدها الآن لو عرفها عزيز أو لم يعرفها؟!!!

لقد قضي الأمر...بمنتهي السرعة...بمنتهي البساطة...

جفت الأقلام ورُفِعت الصحف!!!

مدت لها ميادة يدها مصافحةً بدبلوماسية أنيقة ففك عاصي حصار كفه لأناملها مضطراً...

لكنه عاد يتملكها بقوة مهيمنة بعدما أنهيتا مصافحتهما الباردة...

والتي عجزت فيها ماسة عن النطق ولازالت تحت تأثير صدمتها...

قبل أن يجلسوا جميعاً على مائدة الطعام ولازالت عينا عزيز مشغولتين عنها ب....زوجته!!!!

ولازال كف عاصي يعتصر أناملها تحت المائدة...!!!!

شعرت بدوارٍ عنيف يكتنف رأسها وهي تود لو يكون كل هذا كابوساً من كوابيسها الليلية المعتادة!!!

أو حلماً سخيفاً من أحلام يقظتها التي طالما أرقتها في أيام -سجنها-السابقة...

لكنه للأسف لم يكن كذلك...

بل كان واقعاً أحرق -ما تبقى-من زهور روحها كاملة...

فلم يُبقِ لها سوى رمادٍ تذروه الرياح!!!!

أطرقت برأسها صامتةً ليصلها صوت عزيز يقول بحنان مخاطباً -زوجته-:

_لا تنسي نصائح الطبيب بخصوص الطعام.

ثم التفت نحو عاصي موضحاً:

_عفواً سيد عاصي...زوجتي معدتها حساسة جداً...تصور أننا قضينا "شهر العسل " كله تقريباً في المشفي.

أومأ عاصي برأسه قبل أن يقول برزانة :

_مباركٌ زواجكما...لقد تعمدتُ دعوتكما اليوم لنتحدث في تفاصيل مشروعكما الجديد...السيد شاكر يمدح كثيراً فيه.

اتسعت ابتسامة عزيز وهو يلتفت نحو ميادة قائلاً بمزيج من الإعجاب والفخر:

_إنها فكرة ميادة...طالما أبهرتني بذكائها.

رفعت ماسة عينيها إليهما بمزيج من الألم والحسرة...

ورغم دهشتها من رغبة عاصي في ارتدائها لنقاب وجهها قبل دخولها...

لكنها الآن تتفهمها ...

بل ربما تشكره يوماً عليها!!!!

يوماً ما عندما تستعيد قوتها كاملة...

وتلملم كل شظاياها المبعثرة لتبني نفسها من جديد...

دون حاجةٍ لفاكهة عشق محرمةٍ يمنحها لها (ضعيفٌ)....ك"عزيز"..

أو" فُتات "أمانٍ يلقيه لها (جبارٌ)...ك"عاصي"!!!!

هي ماسة...وستبقي ماسة...

دون عشق ذاك...أو وعود أمان هذا!!!

انتبهت ميادة لنظرتها الغريبة نحوهما فشعرت بالفضول وهي تسألها بتودد مصطنع :

_لم أتشرف باسمكِ يا سيدتي.

أغمضت ماسة عينيها للحظة تعلقت بها فيها جميع العيون...

ثم فتحتهما لتتحدث لأول مرة منذ بدأ هذا اللقاء -الكارثي - قائلة بنبرة غريبة:

_ما قيمة الأسماء هنا؟!! أنا زوجة السيد عاصي الرفاعي فحسب...يكفيني هذا الشرف.

ابتسم عاصي ابتسامته الجانبية وهو يضغط أناملها بين كفيه أكثر...

وكذلك ابتسمت ميادة معجبةً بذكاء ردها...

وحده عزيز اتسعت عيناه بصدمة وهو يميز صوتها أولاً...

ثم عينيها الفضيتين الباديتين من فتحتى نقابها...

ليتحرك بعدهاحركة عصبية تلقائية وكأنه سيهمّ بالوقوف...

لكنه تمالك نفسه بصعوبة قبل أن تنفرج شفتاه وهو يحدق فيها باشتياقٍ ممتزج بذهوله....!!!!

رمقه عاصي بنظرة قاتلة وهو يسأله بنفس الرزانة:

_ما الأمر يا سيد عزيز...؟!! ألم يعجبك ال......"طعام"؟!!!

انتشل عزيز نظراته الغارقة في بحار عينيها الماسية بصعوبة...

ليلتفت نحو عاصي متمتماً بكلماتٍ مبهمة لم يتبينها...

وعقله يضخ إليه أفكاره العاصفة بجنون...

ماسة هنا؟!!!

ماسة تزوجت؟!!!

تزوجت عاصي الرفاعي ؟!!!!

طوال هذه الفترة وهي تعيش هنا معه؟!!!

لماذا فعلتها؟!!

وكيف؟!!!!

ظلت أفكاره تلتهم عقله بشراسة وهو يقاوم اختلاس النظر إليها كي لا يثير حفيظة عاصي...

لكن ماسة قطعت عليه طريق شقائهما المشترك عندما سحبت كفها من قبضة عاصي لتقف قائلة باعتذارٍ رقيق مع صوتها المتهدج:

_عفواً..أنا أشعر بالتعب..أستأذنكم في العودة لغرفتي...تشرفتُ بمعرفتك يا سيدتي.

قالتها وهي تصافح ميادة بآلية متجاهلة النظر لعزيز جوارها والذي بدا وكأن نظراته قد التصقت بها !!!!

ثم غادرت الغرفة بخطواتٍ سريعة ...

فقام عزيز من مكانه بعدها بلحظات ليقول بارتباك مفضوح:

_عذراً سيد عاصي...سأجري مكالمة هامة بالخارج.

اشتعلت عينا عاصي بالغضب وهو يكز على أسنانه...

لكن عزيز لم ينتبه وهو يغادر الغرفة بسرعة آملاً في اللحاق بماسة...

ماسة التي قادتها خطواتها المندفعة الثائرة نحو غرفتها الأثيرة في الحديقة...

حيث جلست هناك مكانها لترفع عن وجهها نقابه ثم تخلعه بعنف لتلقيه بعيداً!!!

لم تعد له فائدة هنا...

لقد سقطت جميع الأقنعة...

وانكشفت كل الوجوه...

ارتج جسدها ببكائها وهي تتحسس عنقها مكان سلسلته ...

والتي لم يبقَ مكانها سوى ندبة جرح عاصي يوم نزعها منها...

كم كان صادقاً يومها عندما قال لها أن جرحاً صغيراً سيكفيها جروحاً أكبر...

هل كان يعلم؟!!!

بالتأكيد كان يعلم...

رحمة أيضاً كانت تعلم...

الكل كان يعلم أن عزيز أضعف من أن يحتوي كسرها ويجبره...

وهي كانت "المغفلة" الوحيدة هناك..!!!!

المغفلة التي كانت تظن الحب وحده يكفي...

لكن ...هل كان هذا حباً؟!!!

لا...ما كان...ولا سيكون!!!

لو كان حباً لكان صمد في وجه كل شئ...وأي شئ!!!

وهي الساذجة التي احتمت خلف بابٍ متهالكٍ تواجه به هبوب الريح...

فاقتلعته الريح لتسقط هي على ظهرها دون سند...!!!!

_ماسة!

قالها عزيز بلهفة فالتفتت نحوه بحدة....

ثم قامت من مكانها تتوجه نحوه وهي تمسح وجهها بكفيها قائلة بصلابة يعرف كلاهما أنها تدعيها:

_ماذا تريد يا عزيز؟!

تهدج صوتها رغماً عنها ولسانها يستعيد حلاوة نطق اسمه أمامه رغماً عنها...

لكنها غالبت شعورها وهي تردف دون أن تنتظر رده:

_أياً كان ما تريده...فهو ليس هنا.

انعقد حاجباه بدهشة وهو يغمغم بذهول:

_ماسة...أنا لا أصدق...أنتِ هنا...أنت..تزوجتِ عاصي الرفاعي؟!!!

أشاحت بوجهها عنه وهي تقول بثبات يناقض نبرات صوتها المرتعشة:

_نعم يا عزيز...أنا تزوجت عاصي...وأنت تزوجت ميادة...انتهى السطر بنقطة...وانتهت قصتنا بزواجنا.

ظل ينظر إليها طويلاً والصدمة تشل تفكيره ولسانه...

حتى وجد كلماته ليسألها بصوتٍ لاهث يملؤه الاستنكار:

_عاصي الرفاعي يا ماسة؟!!!الذي تعلم الدنيا كلها عن قسوته وجبروته؟!إلكِ أنتِ ؟!!

التفتت إليه لتسأله بسخرية مشبعة بالألم:

_هل هذا هو كل ما يعنيك؟!!لا تهتم أنني تزوجت بقدر ما تعنيك هوية الرجل الذي تزوجته؟!!

ازداد انعقاد حاجبيه وقد صدمته عبارتها...

لكن ما صدمه أكثر كان أسلوبها الجديد...

هذه ليست ماسته شديدة الهشاشة والرقة ...

هذه ماسةٌ مكسورة قادرةٌ على إيذاء أي أحد تقترب أنامله من موضع كسرها الحاد...

لكنها لم تكترث بصدمته وهي تردف بنفس النبرة التي امتزجت فيها القوة بالسخرية:

_أجل يا عزيز...تزوجت "الشيطان" كما يلقبونه هنا...فهل تعلم ماذا قدّم لي!!

اشتعلت عيناه بمشاعر لا يعرف لها مسمى...

بينما أردفت هي :

_لقد أخذ لي ثأري ممن ظلمني...جاء بهم تحت قدميّ لأنتقم منهم كما أشاء...جعلني زوجته أمام الجميع...أسير مرفوعة الرأس هنا والناس حولي ينادونني زوجة السيد...ساعدني لأبني نفسي من جديد...فماذا قدمت أنت لي؟!!

أغمض عينيه بألم وكلامها ينكأ جروحه...

ويذكره بضعفه -الغبي-معها...

لهذا لم يتعجب عندما أكملت زفرات روحها الملتهبة:

_بعض الكلمات عن الحب؟!!...مع القليل من الوعود ...والكثير ..بل الكثير جداً من الأحلام...صحيح؟!!!

فتح عينيه ببطء يراقب بحارها الفضية التي تتابعت أمواجها بين اندفاعها ب(مدّ) القوة...

وانحسارها ب(جَزْرِ) حسرتها ...

خاصةً عندما أردفت بنبرتها ال-جديدة-عليه:

_كلمات الحب رائعة...والوعود أروع ...والأحلام كانت أكثر روعة...لكنها جميعها كانت صفراً في خانة اليسار عندما تلقت أول صفعات القدر.

هز رأسه وهو يهتف بعجز:

_لا تقولي هذا يا ماسة...أنتِ لا تعلمين شيئاً عن شعوري طوال الأيام السابقة....وندمي على تفريطي فيكِ...ربما كنتُ ضعيفاً كما تقولين...لكنني لم أكن كاذباً في شعوري نحوك...أنا لم أخنكِ كما تظنين...أنا أحببتكِ وسأبقي أحبك...أنتِ..

رفعت كفها أمام وجهه تقاطع عبارته وقد اشتعلت عيناها بغضب أسود لم يره من قبل ...

قبل أن تهتف بحزم:

_لا تنتهك حرمة البيت الذي تقف فيه...أنا الآن زوجة عاصي الرفاعي...ما عاد هناك كلامٌ يقال.

تجمد مكانه مصدوماً لا يصدق ردود أفعالها الجديدة...

بينما تجاوزته هي لتعود للقصر ...

لكنها توقفت لحظة قبل أن تعاود الالتفات إليه قائلةً بحزم رغم صوتها الذي خانها ليبدو مرتعشاً:

_بلّغ رحمة مني السلام....وأخبرها أنها كانت على حق...لم يكن كلانا يليق بالأخر.

قالتها ثم أكملت طريقها بخطواتٍ أقرب للركض نحو غرفتها...

غافلةً عن عيني عاصي الذي كان يستمع لحوارهما -خفيةً -من أوله....!!!!

============

وضع يده على مقبض الباب عندما أتاه صوت شهقاتها الباكية من الداخل...

ساعتها شعر بقلبه يدق دقة غريبة لم يعهدها من قبل...

هو ....الذي لم تهزه دموع الرجال!!!

تهزه دموع فتاة كهذه؟!!!

ظل واقفا مكانه لدقائق يستمع لصوت بكائها في غضب ممتزج بشعوره ال-غريب-نحوها...

من يرى القوة التي كانت تحدثه بها لا يصدق انها ستبكي بعدها هكذا...

هذه امراة تحدثته هو بكل جبروته!!!!

لكنها فشلت في تحدي هذا الجرح الذي يملؤها...

تنهد في حرارة وهو يكاد يقسم انه قد ذاق يوماً مثله...

ويومها كاد قلبه ينشق فكيف بفتاة -هشةٍ - كهذه !!!

لقد استمع لحوارها كاملاً مع ذاك ال"فتى" بالحديقة...

ماسته-الأصلية الأصيلة- لم تخيب ظنه فيها....

في قوتها ...وعزة نفسها...وذكاء ردودها...

وقبل هذا كله في احترامها لاسمه الذي تحمله رغم كل ما بينهما!!!!

ورغم رغبته الشديدة في تلقين عزيز هذا درساً لجرأته على حرمة بيته...

لكن...منذ متى يستجيب عاصي الرفاعي لصوت رغباته فحسب؟!!!

عقله دوماً يسبقه في حساب خطواته...

عقله الذي دعاه لتجاهل الأمر تماماً ومعاملة ضيفيه بمنتهي البساطة والاحترام حتى رحلا بسلام!!!!

والآن يجئ دور ماسته الكسيرة المتمردة...

ترى كيف ستواجهه الآن؟!!!

حاول فتح الباب لكنه كان مغلقا من الداخل...

فطرقه بقوته المعهودة...

ليتوقف صوت بكائها فجأة قبل أن يصله صوتها بتماسك يدرك الان انه مصطنع:

_من؟!

أخذ نفساً عميقاً قبل أن يهتف بصرامة:

_انا.

لم يصله صوتها للحظات قبل أن تقول بصلابة:

_دقيقة واحدة.

كانت قد توجهت لحمام غرفتها حيث غسلت وجهها جيدا تخفي اثار دموعها....

ثم أخذت نفسا عميقا لتتوجه نحو الباب وتفتحه بقوة...

قبل أن تعطيه ظهرها دون ان تنظر اليه...

لكنه جذبها من ذراعها فالتفتت اليه لتلتقي عيناها بظلمة عينيه العاصفة رغماً عنها!!!

عقد حاجبيه وهو ينظر لعينيها اللتين فقدتا بريق عنادهما لكنها تداري هذا خلف قناع من القوة يعرف انه لن يصمد سريعا...

ثم مد يده ينتزع المفتاح من الباب بقوة قبل أن يسحبها من ذراعها حتى وصل لنافذة الغرفة...

ألقى المفتاح بكل قوته من النافذة ثم نظر لعمق عينيها هامسا بصوته القوي:

_انا لا يغلق في وجهي باب...هل تفهمين؟!

أغمضت عينيها وكأنها شعرت انه يمتص قوتها بهذه النظرات المسيطرة...

فاقترب منها اكثر وهو يهمس بحزم:

_انظري إلي.

ظلت على إغماضها لعينيها للحظات وهي تود الآن لو ترجوه أن يرحل...

لكنها لن تفعلها...

ستظل قوية حتى اخر لحظة...

لن تضعف...

لماذا يأتيها الآن؟!!!

شامتاً أم مشفقاً؟!!!

ولماذا أتى بعزيز هنا من الأصل؟!!!

ليكسرها؟!!!

ليتشفى في قناعاتها الساذجة؟!!!

أم إمعاناً في إذلالها وقهرها؟!!!

قاطع افكارها وهو يضغط اكثر على ذراعها ففتحت عينيها لتهمس ببرود:

_ماذا تريد الآن؟!

ابتسم في سخرية رغم بريق الاعجاب الذي تالقت به شموسه الزيتونية قبل أن يهمس بنبرته المسيطرة:

_اريد اعترافك بان الحب هذا ليس سوى وهم يسقط عند اول اصطدام بالواقع كما أخبرتكِ يوماً.

ابتعدت بعينيها عن عينيه لتهز رأسها نفياً....

قبل أن تهمس بشرود وكانها تهذي:

_يوما ما سارحل من هنا...لأبني نفسي من جديد...امرأة قوية لا يقف امامها شئ...ساعتها سألتقي بالحب الذي أؤمن به...سأقابل رجلاً يستحقني...ليس مثلك...ولا مثل ذاك البائس الذي رحل منذ قليل...ساعتها...

قطع عبارتها وهو يقبض على فكها بكفه فشهقت بعنف عندما همس وهو يكز على اسنانه:

_كيف تجرؤين على مجرد التفكير في رجل اخر وانت على ذمتي؟!!!

شعرت بالخوف يتسلل إليها من جديد رغماً عنها....

لكنها نفضته عن روحها بسرعة لتقبض بأناملها على ساعده فتزيح كفه من على وجهها بكل قوتها...

قبل أن تهتف بحدة:

_إنه حلمي.

أمسك كتفيها بقوة يهزها بعنف وهو يقول بصرامة:

_حتى أحلامك ملكي أنا!

نفضت ذراعيه من على كتفيها وزأرت أمواجها الفضية بغضب هادر وهي تهتف بقوةٍ لم يرَها فيها من قبل:

_لا يا سيد عاصي...أحلامي ستبقى ملكي أنا...مهما فعلت أنت..لا تظن أنك كسرتَني عندما أحضرتَه إلي هنا لأراه مع زوجته...على العكس...أنت كسرتَه هو...نعم...كسرتَ الصنم الأجوف الذي كان له بقلبي...لكنني أنا لن أنكسر...

ثم خبطت بقبضتها على صدرها مردفة بنفس القوة:

_عندما لا يعود لديك ما تخسره فكل ما سيحمله لك القدر غنيمة...وأنا خسرتُ كل شئ...وأنتظر غنائم قدري.

ثم لوحت بسبابتها في وجهه مردفةً بتحدٍ صارخ:

_مهما علت أسوار سجنك ....يوماً ما سأحلق بعيداً عنها في سماءٍ لا تعترف بطغيانك...

اشتعلت غابات زيتونه من جديد بحرائق غضبه ...

ولم تكن عيناها أقل اشتعالاً وهي تنهي هذا الحوار بجملتها :

_السماء لا تكافئ الشياطين بالماسات...وأنا أعرف قدر نفسي كماسة...ماسة لن تكون يوماً لشيطان.

===============

الفصل الرابع عشر:

جلس مكانه في الطائرة عائداً لمدينته بعدما انتهت زيارته -الصادمة- لعاصي الرفاعي...

لقد ضاعت منه ماسته ...

ضاعت للأبد...!!!

ستبقى حبيسة قصر عاصي الرفاعي ولن يستطيع أحد انتزاعها منه...

عاصي الرفاعي الذي يعرف -كما الجميع- مدى تسلطه وجبروته...

لكن من يلوم الآن سوى نفسه؟!!!

هو الذي عجز أن يعشقها كما يعشق "الرجال"...

فأضاعها من يده ك"الأطفال"...

والآن دوره ليبكيها ك"النساء"!!!

وجواره كانت ميادة تتأمل شروده بتفحص...

عزيز لا يبدو على طبيعته منذ بداية هذه الزيارة ...

بل بالتحديد منذ بدأت زوجة عاصي الرفاعي بالحديث...

لقد انتفض جوارها ساعتها عندما سمع صوتها بل إنه خرج خلفها عندما غادرتهم متذرعةً بإعيائها...

هل من المعقول أنه خرج ليحدثها؟!!!

هل امتلك الجرأة ليفعلها؟!!!

لقد اعتذر عاصي منها بعدها بتهذيب لا يخلو من غضب استشعرته واضحاً ليخرج خلفهما....

لكن الغريب أنه كان أكثر هدوءاً عندما عاد إليهما بعدها بل إنه ودعهما بترحيبٍ خالٍ من التحفظ الذي استشعرته بحدسها في بداية لقائه بهما!!!!

فما الذي حدث بالخارج وقتها؟!!!

ظلت غارقةً في أفكارها المتخبطة لدقائق طويلة حتى التفت هو نحوها ليسألها بحنانٍ يغزوه حزنٌ لم تفهم سببه:

_هل أنتِ بخير؟!

ابتسمت ابتسامة حقيقية وهي تشعر بصدق حنانه الذي يلون روحها الباهتة بلونه الدافئ...

والذي منحه لها بلا حساب منذ ليلة زفافهما رغم أن "قلب الشاعر" لم يزل يحرّمها على نفسه كزوجة...

صحيحٌ أنها تظهر أمامه عدم مبالاتها بهذا الأمر وطالما زعمت له أن زواجهما ليس بالنسبة إليها أكثر من صفقة رابحة...

لكنها في نفسها تعتبر فعلته إهانةً تستوجب في شرع -أنوثتها- أقصى عقوبة!!!

لهذا أمالت رأسها بدلالٍ تجيده ثم احتضنت ذراعه لتسند رأسها على كتفه ناظرة لفيوضه الزمردية بلمعتها العسلية والتي اكتست بظلالٍ من حزنٍ أسود ....لتهمس بغنج:

_كانت رحلةً شاقة...أتمنى لو لا نعيدها!

أسند رأسه على رأسها المستريح على كتفه ثم ربت على كفها قائلاً بشرود:

_اطمئني...لن نعيدها!

زادت لهجته الغامضة من شكوكها فعادت تسأله بحذر:

_هل يعني هذا أننا سنرفض شراكة عاصي الرفاعي؟!

أومأ برأسه قائلاً بنفس الغموض الذي احتل شروده :

_ما عادت تجوز لي معه شراكة...هو أخذ كل شئ!!

ضاقت عيناها بتفحص لملامحه وسؤالها القادم يجذبه من شروده قسراً:

_ماذا تعني بأنه قد أخذ كل شئ؟!

انتبه في التوّ لما تفوه به دون قصد فرفع رأسه ليشيح بوجهه بعيداً للحظات...

قبل أن يقول بحزم :

_أنا سأكتفي بمشروعي...لو أراد أبي شراكته فليفعل.

كانت تعلم أنها تضغط عليه أكثر لكنها أكملت الحوار بقوة:

_لم يكن هذا رأيك عندما قبلنا دعوته إلى هنا.

زفر زفرة مشتعلة ثم هتف بحدة لم تجد هي لها مبرراً:

_لم أشعر بالراحة في الحديث معه...رجلٌ متغطرسٌ بارد يظن نفسه قد ملك الدنيا بين كفيه!!!

أومأت برأسها بلا اقتناعٍ حقيقي لكن ذكاءها أخبرها أنه من الأفضل إنهاء الحوار الآن...

فأغمضت عينيها متظاهرةً بالنعاس على كتفه حتى انتهت رحلتهما بالطائرة....

ولم يكادا يصلان إلى منزلهما حتى ابتدرته بقولها:

_سأجري اتصالاً هاماً...اسبقني أنت لغرفتنا ولو أردت النوم فلا بأس!

اغتصب ابتسامة باهتة وهو يربت على رأسها قبل أن يذهب لغرفتهما بخطواتٍ متثاقلة ورأسٍ منكّس كما العائدُ من جنازة بعدما فقد أغلى من يملك!

والواقع أن هذا حقيقةً كان ما يملأ قلبه الآن....

كلمات ماسة التي ألقتها -كالرصاص-في صدر رجولته أصابته بمهارة....

لقد تخاذل وضعف وجبن...والآن يندم وقتَ لم يعد ينفع الندم!!!

بدّل ملابسه بلا وعيٍ تقريباً ثم تمدد على فراشه يناظر السقف بشرود ....

وقلبه يكاد ينزف ألماً وحسرة...

قبل أن يرحمه عقله بالاستسلام لغيبوبة نومٍ طمعاً في الهروب!!

وفي مكانها تناولت ميادة هاتفها لتتصل بالرقم الذي سيفك لها كل هذه الطلاسم....

فهي لن تهدأ حتى تتبين لها كل الحقائق ...

وخيوط اللعبة يجب أن تبقى كاملةً في يدها...

لهذا ما كاد الاتصال يُفتح حتى هتفت بمرح مصطنع:

_عمي شاكر...كيف حالك؟!

ضحكة رائقة وصلتها متبوعةً بهتافه الودود:

_كيف حالكِ أنتِ يا ابنتي؟!! وكيف حال عزيز؟!

انتقت كلماتها بحذر وهي تقول ببساطة مصطنعة:

_نحن بخير...لقد عدنا لتوّنا من (.....).السيد عاصي الرفاعي دعانا هناك ليناقش معنا فكرة المشروع التي اقترحتها عليك.

وصلتها ذبذبات التوتر في صوته ممتزجةً بدهشته وهو يسألها:

_عاصي دعاكما لبيته؟!أمرٌ غريب!!

حاولت التظاهر بالسذاجة وهي تقول بمرح:

_وما الغرابة؟! نحن عروسان...والمناظر هناك ساحرة...الرجل لم يدخر وسعاً في الترحيب بنا هناك بل إنه دعانا لنزهةٍ نيلية خلابة...لقد كانت زيارةً مميزةً ومختلفة.

لم يرد عليها للحظات استشعرت فيها حيرته أكثر...

فأردفت بنفس اللهجة المتباسطة:

_وزوجته أيضاً تبدو امرأةً رائعة!

لم تكد تتم عبارتها حتى اخترق أذنها هتافه القلق:

_زوجته؟!!!هل التقيتما بزوجته؟!

أجابته بالإيجاب في اقتضاب ...

فأردف بقلقٍ أكبر:

_أيهما؟!الأولى أم الثانية؟!

كان يدرك سذاجة سؤاله فهو يعلم أن زوجة عاصي الرفاعي الأولى لا تغادر فراشها بسبب ظروف حملها...

لكنه كان يريد التأكد مما في باله...

لتجيبه ميادة بقولها:

_لا أدري...هي كانت ترتدي نقاباً على وجهها...ويبدو أنه يقدرها كثيراً فهو لم يترك كفها منذ دخل بها حتى غادرتنا!

سمعت صوت زفرته الحانقة قبل أن يسألها بترقب:

_هل تحدثت إليكما؟!

تأكدت شكوكها بعض الشئ لكنها أجابته محاولةً استنباط المزيد:

_ليس كثيراً...فقد اعتذرت بسرعة وتركتنا.

ثم أردفت ببطء وهي تلقي بآخر أوراقها:

_لكنّ عزيز لم يبدُ على طبيعته هناك...حتى أنه أخبرني برفضه لشراكة عاصي الرفاعي رغم تحمسه في البداية.

لتسأله بعدها أهمّ سؤالٍ أجرت لأجله هذه المكالمة:

_هل تعرف اسم زوجة السيد عاصي يا عمي؟!

تنهد شاكر بضيق قبل أن يجيبها ببعض التحفظ:

_إحداهما تدعى حورية والثانية ماسة...لا أدري بالضبط من منهما كانت في استقبالكما..لماذا تسألين؟!!

هنا تأكدت شكوكها تماماً وهي تسمع اسم "ماسة" الذي كان يحتل ظنونها منذ البداية...

فصمتت قليلاً ثم استعاد صوتها قوته الكاملة وهي تقول:

_دعنا نتحدث بصراحة يا عمي...أنا أعرف أن عزيز كان على علاقة بماسة هذه قبل زواجها من عاصي الرفاعي...لكنني أريد معرفة تفاصيل الأمر منك!

صمت هو الآخر لبعض الوقت فبدا وكأنه يستوعب مفاجأته ....

ثم قال بحزم:

_لا تدعي هذا الأمر يشغل بالكِ يا ابنتي...مجرد علاقة فاشلة وانتهت...إنها مجرد فتاة لقيطة بلا أصل ألقت شباكها حول عزيز مستغلةً علاقتها بوالدته...لكنني تدخلتُ في الوقت المناسب وطلبتُ من عاصي استجلابها للعمل في قصره هناك كممرضةٍ لزوجته بعيداً عن عزيز...لكن يبدو أن تلك الفتاة ليست سهلةً أبداً...فلم يكد يمضي وقتٌ قصير على عملها

هناك...حتى فوجئت بعاصي يبلغني برغبته في الزواج منها.

سكتت للحظات تعقل حديثه ثم سألته باهتمام:

_وما الذي دعاها لترك عزيز هنا والسفر للعمل بعيداً هكذا؟!

كانت كلماته مفاجئةً لها وهو يجيبها باقتضاب:

_يقولون أنها تعرضت لحادث اغتصاب فهربت من فضيحتها هنا!

اتسعت عيناها بإدراك وخيوط القصة تكتمل في رأسها ...

فأنهت الاتصال بلباقة وهي تقول له ما تعلم أنه يريد سماعه...

قبل أن تعبث أناملها في هاتفها باحثةً عن صفحة مدونة عزيز الاليكترونية...

لتقرأ كتاباته من جديد بتفحص محاولةً فهم ما حدث بينهما بالضبط...

انقبض قلبها بشعور غريب أرجف أعماقها وهي تقرأ الآن كلماته لها...

ورغم أنها لم تكن المرة الأولي التي تقرأ فيها أشعاره بل إنها طالما سخرت منها...

لكنها هذه المرة كانت تشعر بمرارةٍ لم تتبين سببها...

أو ربما...لم تشأ الاعتراف به!!!

ميادة التي كان عقلها دوماً سيّد قراراتها بلا منازع...اليوم تشعر بقلبها يظهر من خلف أستاره التي طالما تواري خلفها ليطعنها في ظهرها طعنة غدر بشعورٍ لم تختبره من قبل...

الغيرة!!!!

لكنها نفضت هذه الفكرة عن رأسها و استعادت قوتها بسرعةٍ تُحسَد علىها لتلقي هاتفها بعنف على الأريكة...

قبل أن تجلس عليها وهي تمسك رأسها بكفيها تفكر لدقائق...

الصورة كما تفهمها الآن أن عزيز تخلى عن ماسة هذه بعدما حدث لها لكن ضميره لازال يؤنبه...

وقلبه "عدوها الحقيقي" في علاقتها معه يعذبه بماضيه معها...

عزيز ضعيفٌ حقاً كما كانت تظن به...لكن قلبه هو أقوى ما فيه...

قلبه الذي ستشرب اليوم نخب هزيمته !!

فهي لن تحتمل بعد لحظة انتظارٍ واحدة!

لا تعنيها الآن أسبابٌ لما تشعر به من ضيق....المهم الآن أن تستحوذ على عزيز كاملاً وبأي طريقة....

رفعت كفها الذي تزين إصبعه بدبلته الماسية أمام وجهها لتبتسم ابتسامة انتصار ...

ثم التمعت عيناها بقوة وهي تهمس لنفسها بصوتٍ مسموع:

_حسناً يا "قلب الشاعر"...فلنطرق الحديد وهو ساخن...الليلة تكون جولتنا الأخيرة!

وبعدها بساعات....

استيقظ هو من نومه قرب منتصف الليل على صوت موسيقا صاخبة تنطلق من الخارج...

عقد حاجبيه بدهشة وهو يتلفت حوله بتفحص...قبل أن يقوم من فراشه ليبحث عنها...

فتح باب الغرفة لتتسع عيناه بصدمة وهو يشاهد المنظر أمامه...

فعلى الأنغام الصاخبة هناك كانت هي تتمايل بحركاتٍ ناعمة غايةً في الأنوثة والإغراء...

بثوب رقصٍ شعبي بعيدٍ عن أناقتها -الغربيّة -المعتادة...

أظهر مفاتنها بسخاء فلم يبخسها شيئاً من أثرها...

وقد نثرت شعرها حول وجهها بشكلٍ غجريٍّ مثير مع إضاءةٍ مميزةٍ في المكان بدت وكأنها تقصدها لتلقي عليها بظلالٍ جعلتها أشبه بالحلم...

مع رائحة عطريةٍ غريبة أثارت حواسه كلها بصورة مذهلة!!!

وقف مكانه يراقبها مبهوتاً لدقائق وهو يشعر أنها ليست حقيقية...

بهذه الفتنة وهذا السحر الذي يدعوه فلا يملك إلا أن يستجيب...

حتى التفتت إليه وسط رقصها الثائر بالفتنة لترمقه بنظراتٍ داعية لم يخطئ تأويلها...

قبل أن تتقدم نحوه بخطواتٍ راقصة دفعت دقات قلبه للجنون مع اشتعال خلاياه كلها باشتهاءٍ خالص...

لتتوقف على بعد خطوة واحدةٍ منه هامسةً بإغواء:

_تعال ارقص معي يا عزيز.

قالتها وهي تتعلق بعنقه لتزداد نظراتها حرارة وهي تردف:

_الأغنية ستعجبك!

ازدرد ريقه ببطء وكفاه يحيطان بخصرها ليقربها إليه أكثر...

وعيناه تتوهجان بسهامٍ زمرديةٍ آسرة اختفي منها حنانه المعهود معها لتحل محلها مشاعر أخرى تدركها هي الآن جيداً...

لتسير الأمور بعدها كما خططت تماماً...

والنتيجة..... هزيمةٌ ساحقة ل"قلب الشاعر"!!!

=============

استند على جدار الشرفة بكفيه وهو يتطلع للسماء بشرود...

دارت عيناه بحثاً عن القمر كعادته عندما وجده هناك في كامل استدارته...

لكنه -للعجب-لم يشعر بنفس الشعور الذي كان يتملكه كل مرة عندما يراه...

بل على العكس...

كان يشعر بالغربة في كل شئ...

هذه السماء ليست سماءه التي طالما حلقت فيها أحلامه...

ولا هذا القمر هو نفسه الذي كانت ترتسم عليه صورة حبيبته الضاحكة...

ولا هذه النجوم تعلن ولاءها الأبديّ لحبهما الذي هوى من بينها نجماً محترقاً!!

الليلة فقط يمكنه القول أنه خانها...!

نعم...بالأمس كان يرى نفسه ضعيفاً متخاذلاً...

واليوم صار خائناً أيضاً!!!

لكن...لماذا يلوم نفسه؟!!

ألم تفعلها هي قبله؟!!!

ألم تسلم نفسها راضيةً لعاصي الرفاعي وهي التي طالما أقسمت له أن ماسته ستبقى ملكه للأبد؟!!

ألم تعلنها صريحةً في وجهه أنها صارت زوجة عاصي الرفاعي وأن حبه كان كصفرٍ كبير في خانة اليسار؟!!!

حسناً...لقد تساوت الرؤوس الآن..

خيانةٌ بخيانة...والبادي أظلم!!

كان هذا حديث عقله الصاخب بحسرته وفداحة خسارته...

لكن هناك...في عمق ضلوعه ...كان "قلب الشاعر" ينتحب بمرارة ناعياً خسارته مرتين...

مرة بفقدان حبيبته ...ومرةً بخيانتها...!

وكلتاهما أقسى من الأخرى!!

قطعت أفكاره عندما وضعت هي كفها على كتفه من الخلف لتقول بنبرة قوية أخفت بها مرارتها هي الأخرى:

_نادمٌ أنت؟!

التفت إليها من شروده ليهرب من عينيها اللتين التمعتا ببريق غريب...

مزج "شهد" انتصارها ب"علقم" خيبتها ...

خيبة امرأةٍ يهرب زوجها من نهر عطائها لهثاً خلف سراب في بيداء أحلامه...

لتنقلب كل موازينه...

فيصير حبه لمعشوقته شرفاً يستحق الإخلاص...

وتصير علاقته بزوجته خيانةً تستوجب الندم!!!

لهذا لم تتعجب صراحته وهو يقول بصوتٍ كسير:

_ليس ندماً ....أنا فقط...لم أكن أريد أن أظلمك معي.

ابتسمت بسخرية باردة تناقض اشتعالها الغاضب وهي تغمغم:

_ألستَ متأخراً قليلاً في إدراكك هذا؟!

عقد حاجبيه بضيق فجّرته فوضى مشاعره التي تكتسحه الآن بلا رحمة وهو يلوح بسبابته في وجهها هاتفاً بحدة غريبةً على طبعه الهادئ:

_أنا لم أخدعك...أنتِ كنتِ تعلمين أنني أحب امرأة أخرى لكنكِ مع هذا اعتبرتِ زواجنا صفقة رابحةً كما كنتِ تزعمين!!

أثارتها حدته أكثر لتجد نفسها تهتف بانفعال فاجأها قبله:

_ومن قال أنني أريد حبك هذا؟!! بماذا أفاد حبك ماستك المفقودة؟!! لقد تخليتَ عنها كما الجميع...حبك هذا لم يعالج ضعفك وقلة حيلتك...لتدفعها بيديك للزواج من رجلٍ منحها القوة التي افتقرتَ أنتَ إليها!!

نظر إليها مصدوماً للحظات وهو يكاد يكذّب أذنيه...

ليهمس بعدها بدهشة:

_كيف عرفتِ كل هذا؟!!

أشاحت بوجهها دون ردّ وهي تشعر بالسخط على نفسها...

لقد بدأ عقلها يفقد السيطرة على أفعالها ويرضخ لانفعالاتها...وهذا خطأ..!!

خطأًلا تدري هل سيتكرر...وهل سيمكنها تداركه أم لا...

لكنه أمسك ذراعها بعنف ليهتف بحنق:

_أخبريني ماذا تعرفين أيضاً؟!!

تأوهت بقوة وأصابعه تنغرس في لحم ذراعها لتفقد أعصابها من جديد وهي تهتف بعصبية:

_أنا لا أترك شيئاً للمصادفات..كل الأمور يجب أن تبقى واضحةً أمامي كالشمس.....والدك أخبرني تفاصيل القصة كلها...التفاصيل التي ربما لا تعرفها أنت كاملة...عمي شاكر هو الذي طلب من عاصي الرفاعي إقصاءها عن هنا بطلبها للعمل لديه حتى يبعدها عنك...لم يكن يعلم أنه ليس بحاجةٍ لهذا وأن ابنه سيتخلي عنها قبلها !!

ترك ذراعها بعنفٍ أكبر وعيناه تتوهجان بغضبٍ أسود لم ترَه فيهما من قبل...

وهو يكز على أسنانه ليهتف بنبرةٍ أخافتها:

_إذن...أبي هو من كان خلف سفرها الغريب هذا!!!

أشاحت بوجهها عنه وهي تشعر بالاضطراب...

لقد أفلتت منها الأمور تماماً ويبدو أنها أيقظت مارد غضبه الكامن دون قصد واغترت بطول حلمه...

لهذا حاولت تدارك الأمر وهي تغمغم بتوتر:

_والدك فعل ما رآه في صالحك!

اشتعل غضبه أكثر بسخريةٍ قاتمة هذه المرة وهو يغمغم بشرود:

_نعم...كما كان يفعل طوال عمري!!

قالها وذهنه يستعيد ذكريات طفولته البعيدة....

عندما اختطفه والده من حضن والدته غدراً ليسافر به بعيداً عنها لسنوات...

فيحرمه من حضنها الدافئ ويستبدله بلياليه الباردة الموحشة التي قضاها وحده دونها...

ويقحم امرأة غريبةً في حياته لم يرها يوماً إلا زوجةً لأبيه بصورةٍ مناقضة تماماً لما كانت عليه رحمة الحنون ذات الخلق كما كان يذكرها ...

والآن يحرمه من حبيبته غدراً بنفس الطريقة...

فيلتف من خلف ظهره ليعبث بحياته ويرسمها له كما يشاء...

وللأسف...هو سلّم له عنقه ليسوقه أينما يريد....

لكن...ليس بعد!!!!

لقد انتهى هذا العهد...!

هذه كانت القشة الأخيرة التي قصمت ظهر بعير ضعفه واستسلامه...!!!

أما هي فقد عقدت حاجبيها بقلق وهي تشعر بغرابة رد فعله عما توقعته منه....

خاصةً عندما أزاحها عن طريقه بعنف ليندفع مغادراً الغرفة ...

بل والشقة كلها!!!

لكنها لحقت به عند الباب لتجذب كفه هاتفةً :

_إلى أين ستذهب الآن؟!

نفض كفها من كفه ليرمقها بنظرة مشتعلة أخيرة...

قبل أن يهتف بقسوة لم تتخيل يوماً أن يملكها:

_يؤسفني إبلاغكِ أن صفقتكِ لم تكن رابحة كما ظننتِ...من الليلة لن يكون لي أي علاقة عمل بالسيد شاكر ...سأترك له كل ماله وأعود لأقيم مع أمي وأبدأ من جديد.

شهقت بعنف وهي تضع كفها على شفتيها قبل أن تصرخ بانفعال:

_أنت مجنون؟!!علامَ كل هذا؟!!أنا لن أقبل بهذا أبداً..!!!

ازدادت عيناه توهجاً بغضبه الكاسح وهو ينزع دبلته من كفه ليلقيها أرضاً بعنف قبل أن يرد بنفس القسوة الغريبة على طبعه:

_كما تشائين...أنتِ طالق!!!!!

============

خرج معتصم من محل عمله ليهيم على وجهه في الطرقات وهو يشعر بالاختناق...

حديثه الأخير مع دعاء أنهك روحه حقاً...

وبقدر سعادته اللا متناهية والتي لا يستطيع إنكارها الآن عندما علم أنها تحررت من خطبتها أخيراً...

لكن هذا عاد يضعه أمام حيرته من جديد..

هو لا يريد الارتباط الآن...

لا يريد تقييد نفسه بهذه المسئولية التي يعلم أنه لن يتحملها...

وهو يخشى أن يظلمها معه...

خاصةً وهو يعلم أن فتاة مثلها بجمالها وشخصيتها الجذابة ستكون حلماً لمن هو أفضل منه بكثير...

ولعل خطيبها السابق أفضل مثال...

من هو كي يقارن نفسه بسيادة الرائد العظيم الذي كان يستقل سيارة يكفي ثمنها وحده لشراء شقة كاملة لعائلته بدلاً من منزلهم المتهالك الذي يوشك على السقوط...؟!!!

طالما كان معجباً بالمثل الشعبي القديم " مُدّ لحافك على قدر رجليك"...

وهو الآن يعلم أنه حتى لا يملك هذا "اللحاف"...!!!!

فلماذا يورطها معه بحياة بائسة شاقة وهو الذي -بالكاد- يحمل همه وهم أسرته...؟!!!!

ولا ينقصه أن يحمل همها هي الأخرى...

أو على أفضل تقدير يأتي بها لتحمل الهم معه!!!!

لهذا سيكتفي منها بالحلم ...

ولو أن مجرد الحلم لمن في ظروفه "رفاهية" !!!

فليَدَعْ ماسةً قيمةً كدعاء لمن يقدرها بقيمتها.... وليكتفِ هو ب"فصوص الزجاج المكسورة " اللائي يضيع معهن وقته فهنّ فقط من يليق بهن ويلِقنَ به!!!

لا يدري كم ظل على سيره الهائم هذا لكنه عاد لبيته في النهاية لتستقبله والدته بقلق هاتفة:

_لماذا تأخرت هكذا يا معتصم؟!!وهاتفك مغلقٌ أيضاً؟!!

ابتسم بسخرية مريرة وهو يطرق برأسه...

لم يشأ أن يخبرها أنه باع هاتفه منذ يومين لتوفير مصاريف أخيه الدراسية على أمل أن يتمكن من شراء آخر من راتب الشهر الجديد....

بل إنه يذهب ويعود من عمله سيراً على قدميه حتى يوفر مصاريف مواصلاته...

لهذا اكتفي بصمته العاجز قبل أن يتمتم بخفوت:

_آسف يا أمي...هاتفي "فرغ شحنه"!!!

أومأت والدته برأسها وهي تربت على كتفه قائلةً بحنان:

_بدل ملابسك حتى أعد لك الطعام...ال"ملوخية بالأنارب" التي تحبها!!

ابتسم رغماً عنه وهو يتذكر كيف تصر والدته على نطقها ب"الأنارب" بدلاً من "الأرانب" كل مرة...

وكيف يشاكسها هو كل مرة أيضاً بدعواه أنه لن يأكلها حتى تنطقها صحيحة...

لكن الحوار دوماً ينتهي بخبطتها له في كتفه وهي تمصمص شفتيها مغمغة بعتاب:

_لا تتكبر على من علمتك الكلام...الآن تأتي لتسخر مني يا ولد؟!!

وحينها يضعف هو فيقبل رأسها بعمق امتنانه لهذه المرأة التي ترملت صغيرة ومع هذا كافحت بصبر حتى تربيه هو وأخاه رافضة الزواج رغم حاجتها لرجلٍ وهي التي ليس لها أحد!!

لكنها بدت وكأنها قرأت أفكاره فاختصرت الطريق وخبطته بكفها في كتفه كالعادة هاتفة بطيبتها المعهودة:

_وإياك أن تسخر مني يا ولد!!

ضحك ضحكة قصيرة وهو يرفع كفيه أمام وجهه هاتفاً بمرح:

_لم أقل شيئاً يا أم معتصم ...قوليها كما تشائين المهم أن آكل...فأنا أكاد أموت جوعاً.

شهقت وهي تضع كفها على صدرها هاتفة بجزع:

_حبيب أمك يا ابني...حالاً!!!!

التمعت عيناه بتأثرٍ لحنانها وهو يراها تهرول نحو المطبخ بخطواتٍ مندفعة...

ثم التفت للأريكة الصغيرة هناك حيث كان أخوه نائماً جوار كتبه فتنهد بحرارة وهو يفكر...

لا بأس ...هذان الاثنان يستحقان التضحية...!!!

ذهب لغرفته ليبدل ملابسه ثم رفع كفه أمام عينيه يتأمله بشرود هائم...

دعاء!!!

ماسته باهظة الثمن التي لا يملك حق تملكها...لهذا يكتفي فقط بنظراته المنبهرة بها...

واليوم لا يصدق أنه تجرأ وأمسك كفها...!!!!

ابتسم بعبث وهو يفرك أنامله محاولاً تذكر شعوره وقتها ...

غريبٌ أمر هذا القلب!!!!

رغم أنه يصادق العديد من الفتيات وبعضهن يتجرأن معه لما يجاوز لمسة كف بريئة...

لكن شعوره اليوم بلمستها هي كان مختلفاً...

غريباً...

حارقاً ملتهباً حاراً ومع هذا بعث فيه قشعريرة باردة !!!!

كشعوره برشفة شاي ساخن تصدم أسنانه بعد المثلجات...!!!

كلفحة الهواء الباردة التي تواجه بشرته عندما يفتح النافذة فور استيقاظه منعماً بدفء فراشه...

أو كموجة غادرة تضرب وجهه بعنف اصطدامها قبل أن تنحسر مبتعدةً بسرعة...

تنهد بحرارة وهو يفكر بحسرة...

ماذا لو كان بإمكانه أن يتزوج امرأة فقط لأنه أحبها ويريد أن يكمل عمره معها...؟!!!

ماذا لو كان بوسعه أن يجذبها من كفها إلى هنا في بيته لتصبح زوجته أمام الجميع دون تعقيدات مهر وشبكة وشقة وأثاث...؟!!!!

ماذا لو كان الزواج حقاً كما يزعمون قبولاً وإشهاراً فحسب؟!!!

هكذا ببساطة...!!!!دون أية تعقيدات!!!!

قطعت والدته أفكاره وهي تدعوه لتناول طعامه فخرج ليسحب كرسياً ويجلس جوارها على المائدة ...

قبل أن ينتبه لشئ جعله يسألها باهتمام:

_من أين أتيتِ بالنقود لكل هذا الطعام؟!!

قالها وعيناه تدوران على أطباق المائدة العديدة مع طبق كبير من الفواكه المتنوعة ...

فابتسمت والدته بحرج وهي تغمغم بهدوء مصطنع:

_عمك عاد يرسل ال"شهرية" كما كان يفعل!!!

انعقد حاجباه بغضب وهو يخبط على المائدة بكفه هاتفاً :

_ماذا؟!!! ولماذا قبلتِها يا أمي؟!!!

ثم هب من مقعده هاتفاً بنبرات مشتعلة غضباً وقهراً:

_وأنفقتِها أيضاً؟!!! هذا يعني أن أتورط في ردها الشهر المقبل .!!!

ثم لوح بذراعه وهو يردف رغماً عنه بثورة عارمة:

_ارحموني ...أنا تعبت...أنا أبذل ما في وسعي لنعيش بكرامة وأنتِ تقبلين معونته كالشحاذين ...!!!

قطع عبارته عندما اصطدمت عيناه بدموع العجز في عينيها ...

فأشاح بوجهه للحظاتٍ محاولاً تمالك غضبه...

ثم زفر بقوة قبل أن يعاود جلوسه متناولاً كفها ليقبله هامساً باعتذار:

_سامحيني يا أمي...لم أقصد إهانتك ...أنا فقط...

قطع عبارته وهو يدفن وجهه في صدرها ضاماً لها بذراعيه وهو يهمس بيأس:

_تعبت...تعبت !!!

ضمته لصدرها أكثر وهي تربت على رأسه هامسةً وسط دموع قهرها هي الأخرى:

_لهذا قبلت مساعدته هذا الشهر يا ابني...أتظنني لا أشعر بك وبما تفعله لأجلنا؟!!!...أنت تنحت في الصخر لتوفر مصاريف المعيشة لي ولشقيقك...وعندما ذكرت أمامي أنك تبحث عن وظيفة أخرى مسائية أشفقتُ عليك من هذا المجهود...سامحني يا ابني...فعلتها لأجلك ويشهد ربي على هذا!!

ظل مخفياً وجهه للحظات في صدرها وكأنه يخفي معه عجزه وقلة حيلته...

ماذا عساه يصنع في بلدٍ ينهب خيره الحيتان ولا يبقون لصغار السمكِ سوى الفتات ؟!!!

وحتى عندما فكر في الطفو على السطح بفرصة للسفر لأي بلد عانده الحظ ليبقي مكانه واقفاً مكتفياً بمراقبة عمره الذي يتسرب من بين يديه دون ثمن!!!

عادت والدته تربت على رأسه وهي تهمس برجاء:

_استغفر الله يا ابني...ما ضاقت إلا وفُرجت!!!

رفع إليها عينين غارقتين بالهمّ فربتت على وجنته مردفةً بحنان:

_كُل يا حبيبي الآن قبل أن يبرد الطعام...وبعدها نتفاهم!

ابتسم بشحوب وهو يعتدل بجسده ليبدأ في تناول طعامه ...

ثم التفت إليها يسألها باهتمام:

_هل تناول وليد طعامه؟!!

ابتسمت وهي تومئ برأسها فقال لها برجاء:

_اهتمي بدروسه يا أمي...أريده أن يحصل على مجموع عالٍ هذا العام حتى يلتحق بكلية محترمة.

ظهر التردد في عينيها وهي تغمغم بارتباك:

_كلية؟!! كنت أفكر...

عقد حاجبيه بضيق وهو يرمقها بنظرة متسائلة...

فأردفت بتلعثم:

_لا داعي للكلية ومصاريفها ...كفاه تعليماً لهذا الحد...وليعمل أي عمل كي يساعدك.

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يهتف بحزم:

_لا يا أمي....وليد سيكمل تعليمه تحت أي ظروف...سنصبر قليلاً ونضغط على أنفسنا حتى نكمل

الطريق الذي بدأناه...وليد هو أمانة أبي التي تركها في عنقي ولن أفرط فيها أبداً!

اتسعت ابتسامتها الحنون وهي تربت على كتفه قائلة:

_أرضاك الله يا ابني...كما ترضيني!!

ابتسم أخيراً ثم عاد يلتفت للطعام قبل أن يقطع لها قطعة من لحم "الأرنب" ليضعها في فمها هاتفاً :

_خذي هذه من يدي يا "زوزو"!!!

ضحكت وهي تمضغها قبل أن تخبطه في كتفه قائلة :

_"زوزو" هكذا فقط ؟!!!

ضحك بانطلاق هذه المرة قبل أن يتراقص حاجباه وهو يقول بمكر:

_ألا أذكركِ ب"الذي مضى" عندما أناديكِ بها؟!! أبي لم يكن يناديكِ إلا هكذا!!!

عادت تخبطه على كتفه وهي ترمقه بعتاب ممتزج بحنانها...

قبل أن تتنهد بحرارة هامسة:

_رحمه الله!!

اتسعت ابتسامته وهو يعود لتناول طعامه متظاهراً بالمرح كي لا يثير ضيقها...

قبل أن يقوم ليتوجه نحو غرفته ممنياً نفسه بخلوة مع أفكاره الرمادية الخانقة...

يالله!!!!

كل ما في عالمه صعبٌ بعيدٌ يعانده...!!!

حتى شعوره بالحزن يحتاج لخلوة كي يسمح لمارده بالتحرر من صدره دون أن يراه أحد...

لقد تعود منذ زمن بعيد أن يكون هو صاحب المسئولية الذي يحمل همّ الجميع...

ولا يجب أن يحمل همّه أحد!!!

لهذا استلقى على سريره بانهيارٍ سبقته فيه روحه قبل جسده....

ثم دفن وجهه في وسادته قبل أن يطلق عدة آهاتٍ مكتومة وهو يشعر بأن جدران الغرفة كلها تكاد تنطبق على صدره...

لم يدرِ كم مرّ عليه من الوقت هكذا...

لكنه سمع باب الغرفة يفتح...

وشعر بوالدته برائحتها المميزة ...رائحة الحنان والسكينة تربت على ظهره برفق...

رفع رأسه من على وسادته وقد خانته عيناه لتفضحا حَكَايا حزنه وعجزه كلها...

فعادت والدته تربت على كتفه وهي تهمس بقلق:

_ماذا بك يا ابني؟!! قلبي يخبرني أنك تخفي عني شيئاً يحزنك.

ابتسم بشحوب وهو يغمض عينيه لعله يحاول الهرب من نظراتها التي تخترقه بسهولة لتسبر أغواره كاملة ...

عندما شعر بها تضع كفها على جبهته ل"ترقيه" الرقية الشرعية كعادتها معه ومع أخيه ....

فاستسلم لشعوره الحالي بالطمأنينة قبل أن يستغفر الله سراً داعياً إياه بما يحفظ من أدعية...

حتى انتهت والدته مما تفعله...

ثم سألته بتردد:

_هل تريد الزواج يا معتصم؟!

اتسعت عيناه بدهشة للحظة قبل أن ترتسم ابتسامةٌ ساخرة على شفتيه وهو يغمغم بفتور:

_الزواج هذه الأيام صار ك"الحجّ" يا أمي...لمن استطاع إليه سبيلاً!!

كست المرارة عينيها الحانيتين للحظات ...قبل أن تهمس بحزن ممتزج بالترقب:

_مَن دعاء هذه ؟!!

قام من نومته في رد فعلٍ عنيف زاد من يقينها بما تشعر به ...خاصةً عندما هتف بضيق:

_ماذا تقصدين ؟!!

تنهدت بحرارة وهي تفتح درج الكومود المجاور لسريره لتستخرج منه ورقة فردتها أمامه هامسة بحنانها الفطري:

_وجدتها وأنا أنظف غرفتك!

ازدرد ريقه بتوتر وهو يتعرف على هذه الورقة التي رسم عليها بالقلم الرصاص ملامح دعاء كما يتصورها وقد رسم اسمها تحت الصورة بطريقة مزركشة ...

طالما كانت هذه طريقته الوحيدة في التسرية عن نفسه كلما راودته أحلامه بها...

لا يذكر كم مرةٍ فعلها منذ غافله قلبه "الغني" بعاطفته متناسياً "فقر " حاله لينطلق في سماء لم يكن من المفترض أن ينتمي إليها والآن مصيره كما ارتفع...أن يقع!!

لهذا كان يمزق الورقة بعنف بعدما يفرغ فيها كل شحنات عاطفته الحبيسة ...

لكنه نسيها هذه المرة كما يبدو لتقع في يدي والدته...

والدته التي قرأت ب"قلب الأم" كل نزيف أفكاره العاجزة...

فمالت عليه لتضم رأسه بذراعيها إلى صدرها هامسة بحنان:

_لمن سوايَ تشكو همك يا ابني؟!! ألديك من هو أقرب مني؟!!

ظل مخفياً وجهه في صدرها للحظات وهو يتمنى الآن لو يعود طفلاً صغيراً لا يعرف شيئاً عن هموم الكبار...

ووسط كل هذا الطوفان الهادر من مشاعره الممتزجة بيأسه شعر بحاجته حقاً الآن لأن يحكي...فحكي!!!

حكي لها وكأنه يحدث نفسه عن مشاعره نحو دعاء...

وتفاصيل علاقته بها حتى انتهي لما حدث بينهما اليوم...

ليختم "فضفضته" الصادقة بهمسه الحار:

_كانت عيناها تتوسلانني أن أبوح...أن أعترف بمشاعري نحوها...أن أنقذها من الغرق في بحرٍ لا تجيد السباحة فيه...لكنني عجزت...لم أستطع أن أمنحها أملاً أنا أول من يعرف أنه كاذب...الغرق يأساً أهون عليها من الموت عطشاً في صحراء حبٍ ساعيةً خلف سراب...

سكتت والدته للحظاتٍ وقلبها يكاد ينفطر على حاله...

لكنها قالت أخيراً بحكمة :

_أنت أخطأتَ يا ابني...أخطأتَ عندما منحتَ نفسك وحدك الحق في الحكم على هذه العلاقة...طالما تحبها وهي كما تقول تبادلك شعورك...فلماذا لم تتقدم لخطبتها شارحاً ظروفك كلها ...من يدري؟!! ربما يوافقون عليك.؟!!!

رفع رأسه إليها أخيراً بابتسامة ساخرة قائلاً:

_من لا يرى خلال "الغربال" أعمى كما يقولون...كيف أتقدم لخطبتها بظروفي هذه؟!!! أنا بالكاد أعيش...أهلها سيرفضونني قبل حتى أن أكمل كلامي.

التمعت عيناها ببريق إصرار وهي تقول بحزم:

_ساعتها ستكون بذلت ما في وسعك...حتى لا تلوم نفسك فيما بعد على تفريطك فيها.

أشاح بوجهه في عدم اقتناع هاتفاً بنفاد صبر:

_دعي "الطابق مستوراً" يا أمي!!! لا أريد أن أخسر كرامتي أمامها.

أدارت وجهه إليها من جديد لتهتف بلوعة:

_أليس هذا أفضل من أن تكسر قلبك وقلبها؟!!!

أغمض عينيه بألم وهو يسند ظهره على ظهر السرير عاجزاً عن الرد...

عندما سمعها تقول ببعض الأمل:

_أنا أدخر بعض الأساور الذهبية منذ زمن بعيد..بِعْها وتصرف بثمنها...ويمكنكما العيش معنا حتى تجد فرصةً

في السفر...ومادامت هي الأخرى تعمل فراتبها على راتبك يكفيكما...والله يبارك في القليل!!

ابتسم ابتسامة باهتة دون أن يرد...

ماذا عساه يصنع بهذه الأساور التي تحكي عنها؟!!!

وكيف يقيم مع دعاء هنا في هذا البيت المتهالك الصغير.؟!!!

إنه بالكاد يكفيهم هو ووالدته وأخاه...!!!!

وأي راتبٍ هذا الذي سيكفيهما معاً؟!!!

لكنها قرأت سخريته المريرة في عينيه فقالت بحزم:

_اسمع كلامي يا ابني...المرأة قد تتقبل العاشق العاجز لكنها لا تتقبل أبداً العاشق الضعيف...توكل على الله ودعنا نذهب معاً غداً لخطبتها كي نطرق الحديد وهو ساخن...مادمتَ تقول أنها فسخت خطبتها اليوم فهذا يعني أن أهلها لا يزالون غارقين بخيبتهم ...دعنا نستغل هذه الفرصة مادامت الفتاة تحبك.

انتعش بعض الأمل في صدره من حديثها...

لكنه عاد يغمغم بتردد:

_لكن ماذا لو رفضني أهلها؟!! كيف سأستطيع النظر في وجهها وهي تعمل معي؟!!!

هزت رأسها وهي تقول بابتسامة حانية:

_لن تستطيع رفع رأسك في وجهها حقاً لو خذلتَها كما كنت تنتوي...افعل كل ما تستطيع لأجلها وفي النهايةلا يكلف الله نفساً إلا وسعها!!

============

انتفضت والدته من مكانها عندما سمعت صوت الباب يفتح لتهتف بقلق:

_ماذا فعلتَ معهم يا حسام؟!!! هل وافقت دعاء على العودة إليك؟!!

اكتست ملامحه بقسوة فظة وهو يغلق الباب خلفه بعنف قائلاً ببرود :

_وهل تجرؤ على الرفض؟!!

هزت والدته رأسها باستياء لا يخلو من حزن ثم تقدمت إليه لتقول برفق:

_دعاء فتاة طيبة ومعدنها أصيل يا ابني...لا تجعلها تدفع ثمن ماضيك.

التمعت عيناه ببريقٍ حاد وهو يهتف بصرامة:

_ألم أخبركِ قبلاً ألا تفتحي هذا الموضوع من جديد؟!!!

ازدردت ريقها بتوتر وهي تهمس بأسي:

_سامحني يا حسام...أنا فقط لا أريدك أن...

زفر بقوة وهو يقاطعها هاتفاً بسخط:

_لا داعي لهذا الكلام...لقد اتفقتُ معهم على عقد القران مساء غدٍ!!

شهقت بدهشة متمتمة:

_عقد قران؟!!! غداً؟!!!

أشاح بوجهه دون رد...

فتفحصت ملامحه بقلق قبل أن تهمس بتردد:

_هل أخبرتَها بال.....حقيقة يا ابني؟!!

التفت إليها بحدة فتراجعت برأسها للخلف مردفةً بحسرة ممتزجة بالحزن:

_حقها أن تعرف الآن قبل العقد حتى لا...

اشتعل وجهه بغضب صارخ حتى نفرت عروقه وجسده كله يهتز انفعالاً:

_حتى لا تتراجع؟!!! ومن هي كي تقبل أو ترفض؟!!! من الذي سيعطيها حق التراجع؟!! ألا يكفي أنني اخترتها على عيبها؟!!! مَن مثلها يجب أن تبقي كسيرة العين والوجه تحمد الله كل يوم أن وجدت رجلاً مثلي يقبلها !!!

قالها ثم اندفع لغرفته بخطواتٍ سريعة صافقاً بابها خلفه...

فأغمضت عينيها بألم وهي تهمس بحسرة موجوعة:

_كان الله في عونك يا ابني!!

ثم تنهدت بحرارة وهي تعاود النظر لغرفته مردفةً :

_أم أقول...هداكَ الله لنفسك ولتلك المسكينة !!

وفي غرفته كان هو يدور فيها كأسدٍ غاضب...

وملامح دعاء لا تكاد تغادر رأسه...

خاصةً عيناها...

عيناها الواسعتان كسماء رحبة بلا غيوم ...

كبحرٍ بلا أمواج...

كصحراء شاسعة لا يبلغ مداها بصر...

عيناها اللتان تحملان شعلة تمرد يقسم لنفسه كلما رآها أن يطفئها...

وجرحاً -للعجب-يستفزه كي يداويه...!!!

ورغم أنه لا يفهم نفسه معها لكن من قال أنه يهتم...؟!!!

لقد كفّ عن التفكير منذ زمن بعيد وقرر أن يقتنص من الحياة كل فرصها ...

ودعاء ليست سوى "فرصة مناسبة" وقعت في طريقه مصادفةً وزادها عنادها وتمردها فتنةً في عينه...

تمردها الذي يعشقه كما يمقته!!!!

لكنه سيقمعه على أي حال...

يجب أن يكسرها...

أن تخضع له بأي طريقة!!!

تمردها الذي يثير كل ذرة في كيانه ...

والذي -ربما-لو كان يمتلك مثله يوماً لتغيرت حياته كلها!!!!

زفر بقوة وهو يضرب قبضته في الجدار بعنف...

وملامح دعاء تختفي من مخيلته لتحل محلها ملامح أخرى أكثر بساطةً وربما أقل جمالاً...

لكنها وحدها من تملكت قلبه بعقد ملكيةٍ لن يبلى ولن ينتهي...

وكأنما كانت تلك الملامح برداً وسلاماً على نيران روحه التي خمدت الآن عندما ذكرها...

ليتوجه نحو خزانة ملابسه فيفتح خزانة صغيرة مغلقة بداخله حَوَت كل تذكاراته الصغيرة معها...

ومنها كان عقد "فلّ" جافّ اصفرت وريقاته لكنه احتفظ بما تبقى منه لعله يذكره كل مرة بما صارت إليه حياته بعدها...

يقولون أن لكل امرئٍ من اسمه نصيباً...

وهي كانت مثل اسمها ... "طيفاً " عبر حياته بسرعة خاطفة ليصبغها بلونٍ فريد....

حتى إذا ما رحلت عاد عالمه باهتاً بلا ألوان...

"طيف" كانت حب قلبه الأول...والأخير...

وجرح روحه الذي لن يبرأ أبداً...

بل تزيده الأيام التهاباً وألماً!!!

طيف كانت ضحيته وقاتلته...

وما أقسى الضحية عندما تتحول لقاتلة!!!

أغمض عينيه بألم وذكرياته العامرة معها تجتاحه بلا رحمة ...

فتارةً تنثر بتلاتٍ من زهور الحنين لعشقٍ تملّكه سحره...

وتارةً تفجر شظايا انفجار مكتوم هو وحده شاهده وضحيته...!!!

مد أنامله يتلمس عقد "الفلّ" الذابل بشجن ثم وضع يده على صدره هامساً بصوتٍ ذبيح:

_آه يا طيفي الذي أتاني زائراً...واحتلني ثائراً...وتركني مغدوراً وغادراً...غداً أكون لامرأة أخرى سواكِ ...غداً أفعلها من جديد...لكنني هذه المرة لن أخونكِ كما المرة السابقة...بل ربما أكون أثأر لكِ!!!!

==========

ظلت دعاء تتقلب في فراشها بغضب ممتزج بالغيظ ....

لقد كان أسوأ يومٍ مرّ عليها في حياتها كلها....

مواجهتها الصباحية مع معتصم الذي لا يزال متشحاً بغموضه وجبنه...

مروراً بصدمتها في عودة حسام البغيض لحياتها...

وانتهاءً بخزي مرضها الذي كسرها أمامه فلم تستطع الاعتراض وهو يعاملها كالجواري!!!!

لكن...هل ستستجيب لطغيانه هذا حقاً؟!!

إنها وبرغم خوفها من بطشه واستغلاله لوظيفته لكنها لا تستسيغ الاستسلام الخانع هذا...

لقد صارت تكره حتى رؤيته...فكيف تقبله زوجاً؟!!!

قضت ليلتها مسهدةً مؤرقة حتى استقر رأيها على أن تبلغ والديها برفضها القاطع لهذا الزواج...

لقد قررت المقاومة وليكن ما يكون...

لكنها ما كادت تغادر غرفتها حتى سمعت حوار والديها بشأنها...

والديها اللذين كانا في غاية السعادة وكلاهما يبوح للآخر بفرحته لأنه اطمأن عليها أخيراً...

حتى أنها رأت دموع والدها لأول مرة وهو يخلع نظارته ليمسح عينيه قبل أن يقول لوالدتها بتأثر:

_لا أصدق أنني أخيراً سأطمئن عليها في عصمة رجل...كنت أخاف أن يدركني الموت قبلها.

لترد والدتها بفرحة غامرة:

_ولا أنا أصدق !!! الفتاة صبرت ونالت...أخيراً لن تنالني نظرات الشماتة من الجارات والأقارب...كلهنّ كنّ يعايرنني بابنتي المريضة التي لن يقبل بها أحد...وهذه الزيجة سترفع رأسنا بين الجميع.

أومأ والدها برأسه في رضا ثم غمغم بقلق:

_لكنني أخاف رأس ابنتك الصلب...لقد كادت تُطير الرجل من يدها الليلة بسوء تصرفها معه.

ضحكت والدتها بطيبة وهي تربت على ركبته قائلة:

_دلالٌ زائد يا حاج!!! والرجل قدّر هذا ويبدو أنه يحبها حقاً...لقد كاد قلبي يتوقف عندما رآها في حالتها تلك...لكنه أثبت أنه حقاً متمسكٌ بها.

ثم رفعت رأسها ويديها للسماء مردفةً بدعاء ملهوف:

_أتمم فرحتنا على خير يارب...!!!

ثم تهدج صوتها بدموعها:

_سأخبرك شيئاً لم أصارحك به من قبل...لقد كنتُ أخاف أن يراها أحدٌ في نوبات مرضها لهذا كنت أتجنب زيارات الأهل والأصدقاء...بل إنني أنا نفسي كنتُ أخاف منها عندما تنتابها هذه الحالة...كنتُ أظنها ممسوسةً كما كانوا يدّعون فينتفض قلبي بين ضلوعي وأنا حائرة...كم مرةٍ تمنيتُ لو أضمها لصدري لكنني كنتُ...أخاف!!!

دمعت عينا والدها فاضحةً تأثره...عندما أردفت والدتها بين دموعها الغزيرة:

_كنتُ أشفق عليها من مرضها الغريب ...حتى أنني تمنيتُ كثيراً لو لم أكن أنجبتُها من الأساس!!

أغمضت دعاء عينيها بألم وحديثهما هذا يدمي روحها أكثر...

خاصةً عندما قال والدها بحزنٍ صادق:

_أنا الآخر تمنيتُ لو ننجب بعدها ولداً ذكراً يسند ظهري ويكون لها هي الأخرى سنداً...لكنني خشيتُ أن نبتَلي فيه مثلها...فرضيتُ بقسمة الله لنا!!

هزت والدتها رأسها موافقةً لتقول بعدها بفرحة وسط دموعها:

_وعوّضنا الكريم بفضله...الحمد لله!

ساعتها لم تشعر دعاء بنفسها وهي تعود لغرفتها خائبة بخطوات تئنّ ألماً...

قلبها لم يطاوعها أن تفسد فرحتهما التي رأتها بنفسها على ملامحهما الكسيرة....

نعم...مرضها لم يكسرها وحدها...بل كسرهما هما قبلها...

كسرهما خزياً وقهراً....وخوفاً عليها !!!

والآن يجئ حسام وسط كل هذا كهدية قدريةٍ لامعةٍ براقة فكيف تطالبهما برفضها؟!!

كان عقلها يستغيثها بأن ترفض وتقاوم وتصرخ ....

لكن قلبها الذي طالما تجرّع كئوس قهره ويأسه وألمه لم يرضَ لوالديها مثلها....

وبينهما كانت هي حائرة حتى حسم ضميرها الصراع بينهما...

قُضي الأمر الذي فيه يستفتيان...

وحسام صار خيارها الأخير...والوحيد أيضاً!!

===========

_أين دعاء يا عمي؟!!

قالها حسام بلهجته "شديدة التهذيب" وهو ينظر لوالد دعاء باحترام في "صالون" منزل الأخير حيث أنهى المأذون إجراءاته وبقي فقط توقيعها ...

قام والدها يهمّ بحمل الدفتر إليها في غرفتها...

فسحبه حسام من ذراعه برفق إلى جانب مستتر من الشقة ليقول بقلق مصطنع:

_ما الأمر يا عمي؟!! لم أرَ دعاء منذ أول الليلة ولا تريد الرد على مكالماتي.

ثم أردف بنبرة خاصة وهو يدرك أنه يصيب هدفاً رابحاً:

_أخشى أنها لا توافق على هذه الزيجة ...دعني أنا أحمل إليها الدفتر لأتأكد من موافقتها بنفسي.

نظر إليه والدها بتردد وهو يتلفت حوله قائلاً بحرج:

_لكن الأصول يا سيادة الرائد أن...

قاطعه حسام قائلاً بنبرته الأنيقة:

_لا تدعُني "سيادة الرائد"...أنا الآن في مقام ابنك يا عمي.

ابتسم الرجل وهو يشعر بالحرج أكثر عندما أردف حسام محاولاً إقناعه:

_لا أحد هنا غريب...أنا فقط أريد أن أسمعها منها بنفسي...فقد كانت حالتها مضطربة تماماً بالأمس.

عاد والدها يتلفت حوله ليصطدم بنظرات والدتها القلقة ثم أطرق في استسلام وهو يناول حسام الدفتر مغمغماً بفتور:

_تفضل يا ابني...تعال معي.

تناول حسام الدفتر ثم قال بلهجة حازمة:

_وحدي يا عمي...دعاء تكون مُقيدةً بحضوركم...وأخشي أنكم تجبرونها على هذا الأمر.

صمت والدها للحظات متردداً...

ثم غمغم وقد حسم أمره:

_ولماذا نجبرها يا ابني؟!! هل ستجد من هو مثلك؟!!! اذهب وتأكد بنفسك من موافقتها لكن عُد بسرعة حتى لا يقلق المأذون.

ابتسم حسام بانتصار وهو يومئ برأسه قبل أن يعطيه ظهره ليتوجه نحو غرفتها بخطواتٍ واثقة...

ثم طرق الباب بقوة ينتظر إذنها بالدخول...

وفي غرفتها كانت هي جالسةً أمام مرآتها تتأمل صورتها بخواء...

كان من المفترض أن تكون هذه أسعد ليلة في حياتها...

لكنها تشعر وكأنها ستُساق إلى القبر!!

ومع هذا ستفعلها ...

لو لم يكن خوفاً من بطش "سيادة الرائد"..

فلأجل والديها وما سمعته بأذنيها بالأمس...!

لقد تحولت من "دمية معيبة" ل"وزرٍ ثقيل"يجب أن يتحمله عنهما أحد...

ورغم أنها لا تفهم سر تمسك حسام هذا بها...

لكنه الآن فرصتها الوحيدة...

فلتستسلم إذن لكلمة القدر ولتدع قلم الأيام يكتب عنها بقية الحكاية ..

حتى كلمة النهاية!!!

سمعت صوت طرقاته على غرفتها فظنته والدها ....علا صوتها وهي تسمح للطارق بالدخول...

فاتسعت عيناها بدهشة للمفاجأة وهي تراه يدخل عليها حاملاً الدفتر بنفسه بدلاً من والدها ...!!!!

اقترب منها بخطواتٍ بطيئة متعمداً إثارة توترها قبل أن يقول بحزم ساخر:

_توقيع العروس!

اشتعلت عيناها بجذوة تمرد ملتهبة للحظات ...

لكنها لم تلبث أن خبت تماماً كما كان يخطط عندما تعمد أن يدخل عليها -هو -بالدفتر وكأنه يخبرها بلا كلمات أنها صارت أسيرته للأبد...

أسيرته هو وحده!!!

لكن صوتها حمل بعض الحدة وهي تهتف بانفعال:

_لا أدري سرّ تمسكك بامرأة لا ترغبك...لكن دعني أخبرك أنك ستندم...يقولون إن المرأة كالقهوة لا تُشرَب باردة!!

ابتسم بتسلية وهو يميل رأسه متأملاً إياها بنظراتٍ متفحصة ...

قبل أن يميل عليها هامساً بجرأة وقحة:

_لا تحملي همّ قهوتي...فأنا....أجيد تسخينها !!

التمعت عيناها بدموع قهرها وهي تتمنى الآن لو تصفعه على وجهه...

لكنها اكتفت بنظرة حملت كل احتقارها وهي تهمس بحدة :

_قبولي بك لا يعني سوى شيءٍ واحد...أنني وصلتُ لقمة يأسي...فاحذر امرأة يائسة أنت محطة حياتها الأخيرة.

أغمض عينيه للحظات وعبارتها تصيب قلبه في مقتل...

وذكرى معينة تلتمع بخياله الذي يحاول تناسيها...

قبل أن يفتحهما لتتدفق منهما مرارته التي لم يستطع إخفاءها وهو يهمس :

_لا أحد يعرف شيئاً عن محطته الأخيرة قبل أن يتوقف القطار تماماً...ساعتها يمكنه الحكم بصدق!!

ارتعشت حدقتاها وشعورها الغامض نحو هذا الرجل يكتنفها من جديد...

هذا رجلٌ محملٌ بأعباء ماضٍ ثقيل وهي للأسف ستحمله معه...

شاءت أم أبت!!!

هذا رجلٌ مذبوح بجرح قديم ولن يكون لها معه إلا خياران ...

إما أن تشفيه من جرحه بعدما تخضب كفاها بدمائه رغماً عنها...

وإما أن تبقى لتشهد موته الكامل...

وفي الحالتين هي ليست رابحة...

فمن مثلها اعتادت الخسارة حتى احترفتها..!!!!

لهذا أخذت نفساً عميقاً ثم تناولت منه القلم والدفتر...

لتمنحه "توقيع العروس"!!!

ثم رفعت عينيها إليه بترقب لتجده يتناول منها الدفتر فيضعه جانباً...

قبل أن يتناول منديلاً ورقياً من جوارها ليفاجئها بأن مسح زينة وجهها البسيطة بعنف...

قبل أن يهمس أمام عينيها بنبرة مسيطرة:

_لا أحب المرأة الملطخة بالأصباغ...دعيني دوماً أراكِ على حقيقتك.

أطرقت برأسها وهي تشعر بأنها في حلم...

بل كابوس!!!

حتى أنها لم تشعر به وهو يمسك مرفقها بتملك وبيده الأخرى يتناول الدفتر...

ليخرج من غرفتها سائراً جوارها بعينين تفيضان بمزيج غريب من النصر والهزيمة...

والشراسة والألم!!!

ثم سلم والدها الدفتر وسط عاصفة من الزغاريد والتهاني...

لم يكن كلاهما يسمع أو يعي منها شيئاً وسط خفقات القلب الصارخة بجنون...

وهناك على باب منزلها كان هناك قلبٌ آخر يصرخ ...

وقد سقطت باقة زهورٍ كان يحملها تحت قدميه...

وهو يراها كما تمناها دوماً في خياله ...

عروساً ماسية متألقة...

لكن الفارق بين حلمه والواقع أنها الآن....ليست له!!!!

ليفيق من صدمته على صوت والدته التي هزت رأسها بأسى وهي تحتضن ذراعه بكلي ذراعيها ...

قبل أن يلتفت إليها هامساً بابتسامة مذبوحةٍ بحزنها:

_تأخرنا يا أم معتصم!

=====================

_السماء لا تكافئ الشياطين بالماسات...وأنا أعرف قدر نفسي كماسة...ماسة لن تكون يوماً لشيطان!!

كانت عبارتها تدوي في أذنه وهو عاجزٌ عن التفكير فيما سواها...

بكل ما حوته من حسرة وألم وخيبة ولو تغلف كل هذا برداء شفاف من كبريائها الماسيّ!!!

لقد تركها بعدها وخرج دون كلمةٍ أخرى فقد شعر أن كل الحديث هذه الليلة سيكون بلا طائل...

ربما لو كان قد سمع هذه الكلمات من سواها...

أو منها هي نفسها في ظروفٍ أخرى لنالها من عقابه الكثير...

لكنه كظم غيظه معها لأنه يدرك الآن بحق مدى جرحها....

وها هو ذا يحاول النوم منذ ساعات بلا جدوى...

هذا أصعب يومٍ مرّ عليه منذ وقتٍ طويل...

لم يكن من الهين عليه أبداً أن يرى لهفة ذاك "الفتى" عليها وسعيه خلفها ليعترف لها بما يزعم أنه "حب" !!!!

هنا!!!!

في بيته!!!

بيت عاصي الرفاعي الذي لا يجرؤ أحدٌ على التعدي على حرماته...

لكنه كان يتوقع شيئاً كهذا ...

بل وربما كان ينتظره !!!

كان يريد معرفة رد فعلها هي أمامه...

وعزيز هذا يعود إليها باسطاً كفيه الملطخين بدماء خيانته لها بوهم الحب الذي يزعمه!!!!

حب؟!!!

حب؟!!

ماذا يعرف هذا عن الحب؟!!

فليسأله هو الذي عاش يكتوي بناره صامتاً لسنوات قبل أن يحترق به وله!!!

فليسأله كيف يعشق الرجل حتى لا يبقي في خلاياه كلها مثقال ذرة سوى لامرأته ومع هذا لا يقوى على نطقها أو حتى مجرد إظهارها؟!!

فليسأله عن أن يعيش مذبوحاً بجرحها وجرحه معاً...

فلا يدري هل ينزف قلبه ألماً عليها أم عليه!!!

ومع هذا يأبى أن يفرط فيها أو يدعها ترحل عن عالمه لأنه يعلم أنها لو غادرته فلن يعود أبداً كما كان!!!

فيحتفظ بحبها جمرة مشتعلةً في كفه يأبى أن يتركها حتى ولو احترق بها!!!

هذا هو الحب الذي يعرفه عاصي الرفاعي وليس هذا الوهم الشبيه بخيوط العنكبوت والذي يدعيه ذاك "الفتى" !!!!

قام من نومته ليستند بظهره على الفراش وأفكاره تعود رغماً عنه لماسة....

ماسته الليلة مذبوحة بخنجر بارد وللأسف هو من فعلها ...

تنهد بحرارة وهو يرفع رأسه للسقف بشرود ثم التفت لجانب الفراش الخالي جواره وهو يتذكر كيف كانت تنام هنا تحت لمساته المطمئنة فلا تنتابها كوابيسها المعتادة...

كوابيسها التي غادرتها منذ فترة لا بأس بها بعد العلاج...

لكن....هل تراها تعاودها هذه الليلة بالذات؟!!!!

لم يكد يتم فكرته حتى سمع صوت صرختها الطويلة آتيةً من غرفتها...

فانتفض من فراشه ليتوجه بسرعةٍ نحو غرفتها ولم يكد يدخلها حتى راعه ما رآه...

ماسة لم تكن تصرخ فحسب...

لقد كانت في حالة هياجٍ لم يرها عليها من قبل...

كانت تدور حول نفسها ببطء في منتصف الغرفة محتضنة جسدها بقوة دون أن تتوقف عن الصراخ...

وقد بدت وكأنها ليست في وعيها...!!!

حتى أنها لم تنظر إليه عندما دخل بل ظلت على حالها من الدوران البطئ المصحوب بصرخاتها الذبيحة حتى ترنحت لتسقط جالسةً على الأرض وقد تقطع صوتها من الصراخ لتغرق بعده في بكائها الهستيري ولازالت تحتضن جسدها بذراعيها وكأنها تقوي نفسها بنفسها وقد علمت أن لا أحد سيفعلها لها...!!!

لكنها ما كادت ترفع رأسها لتنتبه لوجوده أخيراً حتى قامت من مكانها ترمقه بنظراتٍ متحفزة وجسدها كله يرتجف انفعالاً...

قبل أن تمتد يداها لتلقي بكل ما تجده في طريقها على الأرض في اندفاعٍ مجنون...!!!

وقف مكانه مبهوتاً وقد عجز عن مجرد الحركة...

وانتصبت شعيرات جسده كلها بقشعريرة باردة غلفت قلبه بخوفٍ لم يعرفه من قبل...

كانت الأشياء حوله تتكسر بدويٍ هائل لكنه لم يكن يسمع سوى صوت نفسه اللائم علىٍ ما تسبب لها فيه!

أما هي فقد كانت غائبةً عن شعورها بالمرة...

كان جسدها يتحرك وكأنه بإرادة مستقلة وهي تحاول تكسير كل ما تقع عيناها عليه...

حطام...حطام...!!!!!

هذا هو ما ينبغي أن يكون كل شيءٍ عليه الآن...

حطامٌ يشبه روحها التي تفنن الجميع في كسرها دون أي ذنب منها...

كلهم كسروها...

كلهم!!!

كانت هذه صرخات روحها التي تملأ عقلها الآن وهي لا تكاد تعي سواها!!!

لكنه أفاق أخيراً من صدمته بمرآها هكذا عندما شعر أنها قد تؤذي نفسها في حالتها هذه...

فاندفع نحوها ليطوق ظهرها بذراعيه من الخلف مانعاً حركتها لكنها ظلت تضرب بيديها في الهواء وكأنها عاجزةٌ عن السيطرة على انفعالها الثائر على كل شئ...

ظلت تنتفض بين ذراعيه للحظات مقاومةً حصاره لها...

لكنه كان يتشبث بها بقوة وقد نفرت كل عروق جسده انفعالاً وخوفاً وغضباً....

غضباً من نفسه قبل أي أحد!!!

لهذا ما كاد يشعر بانهيار جسدها بين ذراعيه أخيراً حتى ارتفع صوته ينادي الخادمة آمراً لها بالبقاء معها حتى يعود...

غادر غرفتها ليهاتف الطبيبة غير آبهٍ بالوقت المتأخر من الليل...

ولم يكد يسمع صوتها حتى هتف بها بغضب هادر:

_ألم تقولي أن هذه المواجهة ستكون في صالحها؟!!! أنا وافقتكِ فقط لهذا السبب والآن هي في أسوأ حالاتها...

صمتت الطبيبة للحظات قبل أن تطلب منه المزيد من التفاصيل...

زفر زفرة مشتعلة ثم تحكم في غضبه ليسرد لها تفاصيل ما حدث...

حتى انتهي من روايته فطمأنته الطبيبة أن هذا أمرٌ طبيعي وطلبت منه فقط أن يعطيها حقنة مهدئة كانت قد كتبتها لها من قبل...

أغلق الاتصال معها بعنف لم يتعمده...

وهو يرسل في طلب الممرضة الجديدة التي استدعاها لحورية ...

وعندما دخلا عليها غرفتها كانت قد هدأت من هياجها الهستيري نوعاً...

لكن جسدها بقي على انتفاضته المحمومة والخادمة تحاول احتضانها وتهدئتها دون جدوى...

صرف الخادمة بدعوة حازمة ثم جلس جوارها على طرف الفراش يطوقها بذراعيه حتى تمكنت الممرضة من إعطائها الحقنة المهدئة ثم انصرفت لتتركه معه وحدهما...

لكن ماسة كانت غائبةً عن كل هذا في غياباتٍ من ذكرياتٍ تشابكت ببعضها في عقلها لتتركها في دوامات من الألم...

ابتسامة عزيز التي لقيها بها أول مرة...

لمعة عينيه الزمردية التي طالما داعبت خيالاتها بأطياف الحب الملونة...

أول مرة اعترف لها عزيز بحبه ...

صورته وهو يلبسها سلسلته التي نقش عليها اسمه وكأنه يعلن بهذا ملكيته لها...

كلمات حبه التي كانت ترفعها كالأميرات فوق عرش الهوى..

صوته الحبيب الذي كان شفرة قلبها الخاصة فلم ينفتح لرجلٍ قبله...

الورقة التي رسمت عليها بيتهما كما تتمناه...

البيت الذي ما كان...

ولن يكون يوماً لهما!!!

فقد استبدله ببيت آخر لامرأة أخرى...

أخرى أخذت مكانها على صدره ليبدأ معها حياته من جديد ناسياً تلك التي لم تعد تليق به كما يزعمون!!!

كل هذه الذكريات كانت تتداخل مع كوابيسها حتى ما عادت تفرق بين الحقيقة والخيال!!!!

وجوارها كان عاصي يتأمل ملامحها الغارقة بدموعها بمزيج من الغضب والألم...

حتى هدأت ارتجافة جسدها بين ذراعيه فمددها برفق على الفراش...

ثم تمدد جوارها ليضمها إليه برفق قبل أن تعرف أنامله طريقها لشعرها في حركته المميزة...

عادت لجسدها ارتجافته للحظات...

فضمها إليه أكثر حتى استكانت من جديد وقد شعر بارتخاء جسدها كله بعد تشنجه السابق...

ظل صامتاً للحظات يحاول تمالك انفعاله الصاخب في هذه اللحظة...

قبل أن يهمس في أذنها بحرارة غاضبة ملتاعة ودّ لو تستشعرها مثله:

_لم أفعلها إلا لأجلك!!!

للحظاتٍ بدت وكأنها لم تسمعه حتى شكّ أنها قد استسلمت لنومها...

فابتعد بوجهه قليلاً لينظر إليها فتخبره دموعها السائلة بصمتٍ أنها لازالت مستيقظة ...

كانت أنامله لازالت تبعث الأمان والسكينة في روحها وهو يعاود همسه في أذنها:

_احكي لي ما رأيتِه في كوابيسك الليلة ليجعلكِ هكذا...اطردي كل مخاوفكِ على صدري وأقسم لكِ أن أمحوها كلها.

شهقت عدة شهقاتٍ باكية لكنها عجزت عن فتح عينيها مع هذا الشعور بالاستسلام الذي انتابها فجأة بعد هياجها السابق...

فلم ينله منها سوى صمتٍ طويل...

تحمله صابراً لدقائق مرت وكأنها ساعات...

حتى يأس من استجابتها...

فاكتفي بضمه الصامت لها مع مداعبته لشعرها بأنامله ....

لتهمس هي بعدها بخفوت شديد دون أن تفتح عينيها:

_رأيتهم يذبحونني مثل كل مرة.

تشنج جسده بغضب وهو يتمنى الآن لو يقتلهم ألف مرة لكن عزاءه أن عقابه لهم كان أسوأ من الموت!

بينما أردفت هي بنفس الهمس الخافت المختنق بألمه:

_لكن هذه المرة...هو كان ....كان ....يذبحني معهم.

تجمدت ملامح وجهه رغم طوفان مشاعره الغاضب الذي كان يكتسح روحه بلا رحمة...

مع أنها لم تذكر اسمه لكنه كان موقناً أنها تعني عزيز..

ضمها إليه بكل قوته وهو يود لو يخفيها الآن بين ضلوعه...

لكن همساتها التالية أصابت قلبه بسهم غادر:

_وأنت...كنت...هناك!!

رفع وجهه إليها بصدمة وهو يتطلع إلى ملامحها التي سكنت أخيراً...

ما الذي تعنيه بعبارتها؟!!!

هل تساويه بهم؟!!!

هل كانت تراه يذبحها معهم؟!!!

أم أنه كان يدافع عنها أمامهم؟!!!

ماذا تراه هي الآن؟!!!!

شعر بألم مفاجئٍ في رأسه الذي ضج من كثرة التفكير فازدرد ريقه بتوتر وهو يهمس بقلقٍ قلما يشعر به:

_ماذا كنتُ أفعل؟!!

لم تصله إجابتها وقد تثاقل رأسها على ذراعه مع انتظام أنفاسها أخيراً فأدرك أنها قد نامت...

زفر بخفوت وهو يسند رأسها على وسادتها برفق ساحباً ذراعه من تحته...

ليمد أنامله ويمسح بقايا دموعها على وجنتيها بحنان ...

قبل أن يطبع على خدها قبلة خفيفة وعيناه تسبحان في ملامحها التي استكانت أخيراً وقد عادت إليها ملائكيتها ...

ثم عاد يهمس وهو يداعب شعرها بشرود:

_دوماً سأكون هناك يا ماسة...لن أترككِ وحدكِ أبداً!!

============

استيقظت من نومها لتجد نفسها وحدها على فراشها...

تأوهت بقوة ورأسها يكاد ينفلق من الصداع الرهيب...

قامت من نومتها لتسند رأسها على وسادتها وهي تتطلع للغرفة بدهشة لأول وهلة ...

ما كل هذه الفوضى؟!!!

شردت ببصرها للحظات وهي تحاول تذكر ما حدث بالأمس...

لتعود إليها ذكريات اليوم السابق كله...

بدايةً من لقائها بعزيز...ثم مواجهتها العنيفة مع عاصي...

ومروراً بكوابيسها التي عادت إليها أكثر قسوة وضراوة...

وانتهاءً بحالة الهستيريا التي أصابتها والتي لا تذكر ماذا حدث لها بعدها...

سوى بقايا من لحظاتٍ خاطفة رأت فيها عاصي يحتضنها هنا على فراشها هامساً بكلامٍ لا تذكره!!!

تلفتت جوارها تتحسس الفراش بحيرة ثم هزت رأسها بألم وهي تشعر بالضياع...

رباه!!!!

هل أصيبت بالجنون؟!!!

إنها صارت عاجزة عن تمييز الحقيقة من الوهم...

لكن ما الجديد؟!!!

ابتسمت في سخرية مريرة وهي تردد لنفسها ...

طالما عجزتِ عن ذلك يا حمقاء!!!

حياتكِ السابقة كلها لم تكن أكثر من وهم...

عشتِ مع امرأة لم تكن أمكِ...

في بيتٍ لم يكن بيتكِ...

باسمٍ ربما هو ليس اسمك...

وحتى عندما أحببتِ...

كان عشقكِ وهمكِ...!!!

ما أجهلكِ يا سيدة الأوهام...!!!

وما أكثر حماقاتك!!!

مرايا أيامكِ كلها تآمرت عليكِ لتعطيكِ دوماً الصورة الخاطئة...

وللأسف...لم تكتشفي هذا إلا بعد فوات الأوان!!!

تنهدت بحرارة ثم قامت من فراشها لتتوجه نحو حمام غرفتها الصغير...

قبل أن تخرج لتؤدي صلاتها بقلب أثقلته الهموم.

ولم تكد تنتهي حتى سمعت طرقات الخادمة على الباب تدعوها للطعام معه في غرفته كالعادة.

ازداد قلبها انقباضاً وكادت تبلغ الخادمة باعتذارها لأي سبب ملفق...

لكنها كانت تعرف أنه لن يتركها وشأنها...

لو لم تذهب هي إليه فسيأتيها هو...

عاصي الرفاعي صار قدرها الذي يجب أن تتقبله أو ربما...تواجهه!!!!

لهذا بدلت ملابسها بأخرى ربيعية الألوان...

ثم مشطت شعرها باهتمام متجاهلةً ارتداء حجابها كما العادة...

قبل أن تكحل عينيها الرماديتين بكحل شديد السواد أظهر جمالهما أكثر...

مع بعض اللمسات الإضافية لمداراة شحوب وجهها الواضح...

وعندما شعرت بالرضا عن صورتها في المرآة خرجت من غرفتها لتطرق باب غرفته طرقاتٍ قوية ثابتة...

قبل أن تدخل وعيناها مثبتتان عليه تحاول تبين رد فعله على مظهرها الجديد...

لكنه -للعجب-لم ينظر إليها!!!!

بل ظل محدقاً للفراغ أمامه حتى جلست هي متظاهرة باللامبالاة...

ألقي عليها نظرة عابرة لترتسم ابتسامة جانبية صغيرة على شفتيه اختفت بسرعة وهو يتشاغل عنها بالنظر للأطباق أمامه...

لقد كان يراهن نفسه عليها منذ الصباح...

ماسة التي يعرفها لم يكن أمامها سوى خيارين بعد ليلة أمس...

إما أن تستمر في انهيارها الصامت حتى تذبل زهورها كاملةً...

وإما أن تنبت بذورها الجديدة لتعانق سيقانها أشعة الشمس رافعةً رأسها ببراعم تتفتح بصبر واثق!!!

ويبدو أنها اختارت الأخير!!!

لكنه كان يعلم أنه من الأفضل لهما أن يبتعد هو الآن...

لقد علمته خبرته الطويلة في الحياة متى يشد اللجام ومتي يرخيه حول خيوله الجامحة...

وماسته ليست أكثر من فرسٍ جامح سيسعد كثيراً بترويضه !!!

لهذا حافظ على صمته الغامض مكتفياً بتناول طعامه دون أن ينظر إليها!!!

وأمامه شعرت هي بالحيرة أول الأمر من صمته الغريب هذا...

لكنها فكرت أنه ربما كان هذا أفضل...

فآخر ما ينقصها الآن هو الجدال مع هذا الرجل الغريب...

ليته يكتفي بصمته هذا للأبد ويتركها وشأنها!!!

لهذا أنهت طعامها بسرعة ثم قامت دون كلمة إضافية...

لتغادر الغرفة متوقعةً أن يستبقيها بكلمة أو أمرٍ من أوامره التي لا تنتهي...

لكنه حافظ على صمته البارد بمنتهى الأمانة!!!

وعلى الغداء تكرر هذا الأمر بتفاصيله فلا هي تخلت عن صمتها ولا هو تنازل عن بروده...

لكن وجبة العشاء حملت تعديلاً بسيطاً...

فلم تكد تضع يدها على مقبض الباب لتغادر الغرفة...

حتى سمعته خلفها يقول بلهجةٍ آمرة:

_نامي جيداً فلديكِ أمرٌ هامٌ صباحاً!!

التفتت نحوه وهي تهمّ بسؤاله لكن نظرته الجامدة رغم شرودها أخبرتها أنه لن يفصح عن المزيد...

فتمسكت ببرودها هي الأخرى لتخرج مغلقة الباب خلفها بعنف وكأنها تفرغ فيه كل غضبها...

ظلت ساهرةً في غرفتها بعدها لساعات تخاف النوم حتى لا تعاودها كوابيسها....

توجهت ببصرها نحو باب الغرفة ونفسها تراودها أن تخرج إليه طالبةً حقنةً مهدئةً كالأمس...

لكن كبرياءها منعها حتى من إعادة التفكير في الأمر...

ستتناسى مأساتها هذه...

وستبدأ من جديد...

وأول خطوة في طريق البداية أن تشغل نفسها بشيءٍ تحبه حتى لا تقتلها أفكارها...

هكذا علمتها رحمة ...

وهكذا يجب أن تفعل...

ستشغل نفسها بالحق قبل أن تشغلها هي بالباطل!!!

لهذا استراحت لفكرة ما تراودها منذ وقتٍ طويل...

وقررت تنفيذها غداً...

حسناً يا سيد عاصي موعدنا الصبح...

أليس الصبح بقريب؟!!!

وفي الصباح توجهت لغرفته بخطواتٍ أكثر ثقة وقوة...

لتجلس أمامه متمتمة بخفوت:

_صباح الخير.

رفع عينيه إلى عينيها بنظرة مستكشفة فقد قضى ليلته كلها مؤرقاً بسببها...

ورغم أنه يكره الاعتراف بهذا لكن نفسه راودته كثيراً أن يذهب ليطمئن عليها لكنه كان يتراجع بحسم...

ومَن مثل عاصي الرفاعي في كبح جماح نفسه عما تشتهيه؟!!!

ولما اطمأن لمظهرها الهادئ وعينيها المستريحتين رد تحيتها الصباحية الفاترة بأخرى أكثر فتوراً...

ظلا على صمتهما لبضع دقائق أخرى إضافية حتى قطعت هي هذا الصمت بقولها المقتضب:

_أريد مالاً!!

رفع عينيه إليها بحدة متفحصاً تعابير وجهها الجامدة للحظات..

ثم قام من مكانه ليتوجه نحو الكومود المجاور لسريره حيث استخرج دفتر "شيكاته" ...

وقّع بسرعة على إحدي وريقاته ثم وضعها أمامها قائلاً بحزم:

_اكتبي المبلغ الذي تريدينه...أنا وقّعت!!

وبرغم أن حركته هذه أثارت عجبها لكنها أزاحت الدفتر جانباً وهي تقول دون أن تنظر إليه:

_لا داعي لهذا...أنا لا أحتاج إلا مبلغاً بسيطاً!

عاد يجلس أمامها منتظراً تفسيرها...

فرفعت عينيها إليه ببحار فضتها التي انسابت أمواجها هادئة ولكنها قوية وهي تردف بنبرة واثقة:

_أريد أن أنشئ مشغلاً صغيراً ل"التريكو" ...سأستغل موهبتي في التصميمات وتعليم بعض الفتيات حتى يمكنني التوسع أكثر...وسيكون خيرياً بأسعار زهيدة لمساعدة الفقراء.

ظل ينظر إليها بوجه جامد دون تعبير...

فأردفت بنفس النبرة لكنها اكتست بسخرية مريرة بعض الشئ هذه المرة:

_فكرتُ أن أعمل بالتمريض لكنني رأيت هذا لا يليق بزوجة السيد عاصي الرفاعي...أعتقد أن فكرة المشغل ستكون أفضل لواجهتك الاجتماعية.

ظل وجهه على جموده وهو يسألها:

_ولماذا تعملين من الأساس؟!!

عادت بحار الفضة بعينيها تزأر بأمواجها وهي تجيبه باقتضاب:

_حتى لا أُصاب بالجنون هنا!!

غامت عيناه بطيفٍ رماديٍ من مرارته التي لا تفهمها دوماً...

قبل أن تعود الصلابة لغابات زيتونه وهو يومئ برأسه موافقاً...

فقالت بلهجة محايدة:

_لي صديقة هنا ...أريد منها مساعدتي.

ارتسمت ابتسامة شاحبة على شفتيه وهو يقول :

_دعاء.

كانت كلمته أقرب للإجابة منها للسؤال ...

لكنها لم تعد تتعجب من هذا...

لا ريب أنه كان يعلم أنها هي من ساعدتها في الهرب من القصر قبل عقد قرانهما مادام تمكن من منعها بتلك البساطة...

لهذا أومأت برأسها إيجاباً وهي تقول بقوتها ال-مستحدثة-:

_لا تقلق...لن أحاول الهرب من جديد...ماسة القديمة خسرت كثيراً لأنها دوماً كانت تهرب...ماسة الجديدة ستبقى وتواجه ...وتكسب!!

ابتسم ابتسامة حقيقية هذه المرة وهو ينظر إليها نظرة خاصة...

قبل أن يقوم من مكانه ليرفعها من كتفيها فيوقفها أمامه لتتلاقى نظراتهما بشراراتٍ من مشاعر مختلفة...

ومعها اصطدمت هي بنظرة حارة في عينيه غريبةٍ عن برودته المسيطرة التي تعرفها...

وبرغم أنها حاولت أن تشيح ببصرها عنه...

صدقاً حاولت وبقوة!!!

لكنه بدا وكأنه حاصر نظراتها داخل غابات زيتونه التي اشتعلت الآن بنظرة خاصة رفعت الدماء رغماً عنها لوجهها الذي تخضبت وجنتاه بحمرة خفيفة ...

قبل أن يميل على جبينها بقبلة عميقة ليهمس بعدها في أذنها بلهجة خاصة:

_هذه لأجل ماسة ال-جديدة-التي ستبقى وتواجه و...

صمت لحظة ليعطي كلمته التأثير المطلوب...ثم همس بحرارة لفحتها:

_وتكسب!!

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تحاول الابتعاد عن حصار كفيه...

لكنه تشبث بها أكثر وهو يعيد احتضان ملامحها بعينيه بنظراتٍ أكثر حرارة...

قبل أن يميل على أذنها الأخرى هامساً بجرأة وقحة-كما رأتها-وقتها:

_وتذكري ما قلته لكِ من قبل على أثر خجلكِ هذا على فتنتكِ أمام رجلٍ قليل الصبر مثلي.

خفق قلبها بجنون وهي تشعر الآن أن إحساسها به لم يعد مجرد شعورها بالأب الذي افتقدته...

وأن شعورها الجديد ب-خجلها- هذا أمامه يعني أنها قد بدأت تنظر إليه نظرة أخرى!!!

لكنها نهرت نفسها عن هذا التفكير وهي تطرق برأسها في ارتباك نسف مظهرها الواثق الذي دخلت به...

فرفع ذقنها إليه ليستمتع بترقرق أمواجها الماسية بشعورها الجديد الذي أدركه بحدسه...

والذي انعكس على مراياه الزيتونية التي التمعت ببريق خاص وهو يهمس ببطء واثق:

_ماستي تستحق المفاجأة التي أعددتها لها!!

تمالكت قوتها من جديد وهي تغمغم بسخريةٍ لاذعة:

_ما عاد لديك شئٌ يفاجئني...قبعة الساحر نفدت من عصافيرها الطائرة!!

اقترب بوجهه منها أكثر وهو يهمس بثقة:

_قبعتي لا تنفد أبداً...خاصةً أمامكِ أنتِ.

أشاحت بوجهها في عدم رضا متجاهلةً وثبات دقاتها المجنونة ...

عندما سحبها من كفها إلى إحدى غرف القصر ...

ولم يكد يرفع يده ليطرق الباب حتى تشبثت بكفه في قوة بكلتي يديها وهي تهمس بانفعالٍ حار:

_من بداخل الغرفة؟!!

كاد يجيبها برد ساخرٍ من ردوده اللاذعة...

لكن ارتجافة جسدها وصدرها الذي كان يعلو ويهبط في توترٍ مذعور وعيناها اللتان امتلأتا بالدموع فجأة ...

كل هذا جعله يصمت محاولاً اختيار كلماته...

عندما عاودت هي همسها المرتجف وهي تتشبث بكفه أكثر:

_أنا كاذبة...كاذبة...لست قادرة بعد على أي مواجهة جديدة...أنا كاذبة ...كاذبة.

قالتها وهي تبتعد دون أن تترك كفه وكأن كفيها التصقا به لتهمس بتوتر أكبر:

_سأعود لغرفتي...لا أريد أن أري مفاجأتك هذه...لا أريد.

انعقد حاجباه بقلق حقيقي وهو يرى ذعرها يعاودها...

فجذبها إلى صدره بقوة ليخفي رأسها في كتفه للحظاتٍ حتى شعر بهدوء أنفاسها...

ثم ربت على ظهرها برفق هامساً :

_لا تخافي...صدقيني هذه المرة ستشكرينني على مفاجأتي.

رفعت عينيها إليه بترقب لكن شموسه الزيتونية غمرتها بدفء من السكينة كانت تحتاجه الآن...

لتحمل ابتسامته الحقيقية بعدها أشعة ملونة من حنانه أشعرتها بالأمان أكثر...

ساعتها رفع هو كفها هي ليجعلها هي التي تطرق الباب!!

ثم أشار لها برأسه أن تفتحه ...

ولم تكد تفعلها حتى شعرت بقلبها يتوقف مكانه للحظة قبل أن يرقص بين ضلوعها وهي تصيح بفرحة :

_أمي!!!!

===============

وقفت في مطبخ "الشاليه" تعد لهما القهوة عندما شعرت به يطوقها بذراعيه من الخلف مسنداً ذقنه على كتفها وهو يهمس لها بحرارة:

_لقد أدمنتُ قهوتك هذه.

أمالت رأسها ناظرة لرأسه المستكين على كتفها لتتوهج أشعتها البندقية بدفء عاطفتها وهي تهمس بدلالٍ :

_قهوتي فقط؟!

ارتفع حاجباه بدهشة للحظة من تغير أسلوبها معه...

قبل أن يضحك ضحكة طويلة وهو يضمها إليه أكثر قبل أن يهمس في أذنها من جديد:

_قهوتكِ..وطعامكِ...وهج البندق في عينيكِ...وعناد شفتيكِ...سحر كلامكِ...وصخب صمتك...شعوري كالطفل بين ذراعيكِ...وإحساسي بسكينتكِ أنتِ على صدري...حاجتي إليكِ...وحاجتكِ إلىّ...

ثم حررها من ذراعيه ليديرها نحوه مردفاً أمام عينيها:

_باختصار...أدمنتكِ كلّك!!

تعلقت بذراعيها في عنقه وهي تهمس بدفءٍ حنون:

_كلامكِ جميل لكنه لا يساوي شيئاً أمام شعوري بصدقه...أنا امرأة لم تغرّها يوماً كلمات ...لكن قلبي طالما كان دليلي في مشوار حياتي كله.

اقترب بوجهه أكثر وهو يضمها إليه هامساً بمكر :

_وماذا يخبركِ قلبكِ عني؟!!

أغمضت عينيها للحظة قبل أن تفتحهما لتهز رأسها هامسةً باستسلام:

_قضية صعبة!!

داعب أنفها بأنفه وهو يهمس بثقة:

_سنكسبها يا أستاذة!!

ضحكت بانطلاق وهي تعود برأسها للخلف قبل أن ترتفع على أطراف أصابعها لتقبله على وجنته بخفة هاتفةً بمرح غريب عليها:

_انتظرني إذن بالخارج حتى أعد القهوة...وجودك معي يربكني.

ابتسم بسعادة جارفة وهو يتحسس موضع قبلتها على وجنته هامساً بدهشة ممتزجة بالفرح:

_إنها أول مرة تقبّلينني فيها هكذا!!!

تنهدت بحرارة وهي تملأ عينيها من ملامحه قبل أن تقول بحنانها الفطري:

_لأنك اليوم مختلف...شعوري بك مختلف...لا أدري ما السبب .

قالتها وهي تعنيها بكل حروفها...

هذا الرجل أمامها يختلف تماماً عن ابن الصاوي الذي تركت مديتها يوماً ندبتها على وجهه!

يختلف عن ابن الصاوي الذي تزوجها قهراً ليكسرها انتقاماً...

يختلف حتى عن ابن الصاوي الذي أغرقها باحتوائه وحنانه وتفهمه...

هذا الرجل أمامها بحرٌ هائجٌ من عواطف صاخبة افتقدها عالمها الهادئ الرتيب...

بحرٌ تخشى الغرق في أمواج المجهول التي تهدر حولها فيه...

لكن ما يطمئنها أن شطآنه تعدها بأمانٍ بلا حدود.

أمانٍ يأسرها بقيوده الحانية رغماً عنها فتستسلم له دون شروط!!!!

هذا رجلٌ وُلد من جديد على يديها...

ليكون لها -هي نفسها- حياةً جديدة في عالم جديد...

فهل هناك أروع من رجلٍ جمع لامرأته سحر الميلاد ونشوة البعث بعد الموت؟!!!

وأمامها كان هو يقرأ كل رسائلها بوضوح في مراياها البندقية التي لم تكذبه يوماً...

والتي منحته الآن أجمل صورة قد يتمنى رؤيتها فيها...

صورة امرأة عاشقة بحق ...

وليس هذا فحسب...

بل إنها أيضاً ...سعيدة!!!

هاتان الصفتان اللتان تمنى أن تحملهما هي بالذات منذ تسلل حبها إلى خلاياه بخفة ساحرة حتى تملكها كلها...

فصار بكل ما فيه ملكها هي...هي فقط!!!

لهذا وجد نفسه يجذبها من مرفقيها ليلصقها بصدره هامساً بحرارة:

_بل أنتِ التي كانت وستبقى مختلفة ...كيف يمكنكِ أن تكوني هكذا..؟!!.كيف اختزلتِ كل سحر النساء في عينين لم تعرفا يوماً فن الغواية ...ومع هذا سقطت أنا في أسرهما منذ أول لقاء...لأجد نفسي كل يومٍ أتعلق بكِ أكثر...أعشقكِ أكثر...وأذوب فيكِ أكثر وأكثر.

انتهت همساته الحارة بلقاء شفتيهما الأكثر حرارة والذي التهبت فيه عاطفتهما معاً للحظات...

قبل أن يطمع هو بالمزيد ....

لكنها تمالكت نفسها وهي تبتعد بوجهها عنه لتدفنه في صدره هامسةً برجاء :

_فهد...أنت وعدتني!!

اعتصرها بين ذراعيه بقوة وهمساته اللاهثة الحارة تلهب أذنيها:

_إلى متى؟!!

رفعت عينيها إليه بتوسل قبل أن تهمس بعجز:

_رغماً عني ...صدقني...لا أريد أن أري نفسي بعينيك مجرد علاقة عابرة ككل النساء اللائي سبقنني إليك...دعني فقط أتمالك أنفاسي من هذا الطريق الذي قطعتُه عدواً ...دعني أستكين بين ذراعيك حتى تثبت خطواتي المرتبكة على أرضك.

تألقت عيناه بنجومها البراقة وسط ليلها الساحر...

لتلمح فيهما عاطفةً من نار!!!

قبل أن يزفر بقوة فابتسمت وهي تربت على وجنته بما يشبه الاعتذار...

لكنه أومأ برأسه في تفهم وهو يدرك الآن شعورها...

هي تخاف أن تكون مجرد اسم في سجلّ علاقاته الحافل...

لا تريد أن تكون علاقتهما مجرد علاقة رجل وامرأة...

بل إنه حتى فهم ما لم تتمكن من البوح به...

أنها تعتبر علاقتهما الجسدية نقيصة في قدرها مع ما تعلمه عن علاقاته السابقة خاصةً وهي لازالت لا تري مستقبلاً واضحاً لعلاقتهما...

لا تريد أن تتحول لمجرد عشيقة سرية ورفيقة فراش ...!!!

جنة الرشيدي لا تزال لا تعترف به زوجاً وإن كان قلبها يصرخ باعترافات عشقه في كل حين!!!

لكن...لا بأس...

الأيام كفيلةٌ بهذا الأمر...

كلاهما يحتاج للتمهل في المرحلة القادمة حتى يزداد يقينه من عاطفته نحو الآخر...

ولو كان هذا هو- البرهان- الذي سيثبت لها به أنه حقاً يحبها لنفسها لا لأيّ غرضٍ آخر فسيقدمه لها بطيب خاطر.

لهذا وجد نفسه يقبل كفها الذي تربت به على وجنته قبل أن يتبعها بقبلة عميقة على رأسها المستريح على صدره وهو يبتسم هامساً بشقاوة لذيذة:

_ثقل حسابكِ يا أستاذة...وأنتِ تعلمين أنني رجلٌ لا ينسى حقه...يوماً ما سأقتص منكِ على دلالكِ هذا!!!

ابتسمت في خجل وهي ترمقه بنظراتٍ مفعمة بعاطفتها ...

قبل أن تبتعد عنه قائلةً بحزم مصطنع:

_القهوة بردت...اخرج حتى أعد غيرها .

==============

خرجت من المطبخ حاملةً صينية القهوة لتضعها أمامه على المائدة...

فجذبها ليجلسها على ساقيه ثم رفع كفه المضموم أمام وجهها ليهتف بمرح:

_حزري ما هذا!!

ابتسمت بترقب وهي تحاول تخمين ماهية الشئ الذي في يده للحظات..

قبل أن تمسك كفه لتفتحه عنوة وهي تهتف بمرح مشابه:

_لن أتعب نفسي في التفكير اليوم...ألم تعدني بذلك؟!!!

ضحك ضحكة قصيرة ثم فتح كفه ليبدو الشئ الذي كان يحمله...

_طلاء أظافر؟!!!

هتفت بها جنة باستنكار ممتزج بالدهشة وهي تقلبه بين يديها ...

فتناوله منها ليهمس أمام عينيها بدفء:

_رأيته على أصابع امرأة على غلاف إحدي المجلات...أعجبني لونه النبيذيّ ...لا أدري لماذا رأيت ملامحكِ أنتِ وقتها على وجهها...فأرسلتُ في شرائه مع ثوب وطلاء شفاه بنفس اللون.

زادت الدهشة في عينيها عندما فتح الزجاجة الصغيرة ليتناول أناملها فيفردها أمامه ويبدأ في طلاء أظافرها بنفسه تحت نظراتها المصدومة بما يفعله...

أما هو فقد بدا مستمتعاً جداً بما يقوم به وهو يردف بصدقٍ وجد صداه في قلبها:

_هل تعلمين؟!! أصبحتُ لا أري أي امرأة سوى بملامحكِ أنتِ...وكأنكِ صرتِ فجأة كل النساء!!

خفق قلبها بقوة وهو يرفع أناملها -المطليّة-أمام شفتيه لينفخ فيها كي يجف طلاؤها...

قبل أن يصطدم بنظراتها الغريبة فهمس بترقب:

_ما الأمر؟!!ألم يعجبكِ لونه؟!!

رمشت بعينيها للحظات ...ثم سألته فجأة:

_لماذا أنا بالذات ؟!!

ابتسم وهو يهز رأسه قبل أن يتناول كفها الآخر ليكمل ما بدأه...

وهو يهمس بشرود:

_هذا هو السؤال الذي أتمنى لو أعرف إجابته.

ثم التفت إليها من شروده ليردف بابتسامة حملت عشق الدنيا كله:

_وأظنني لن أعرفها يوماً...وهذا هو سر سحركِ الخاص ...أنه مجهول !!

ظلت ترمقه بنظرات حائرة للحظات..

قبل أن تنتقل ببصرها لكفيها هامسةً بابتسامة غريبة:

_أنت حقاً غريب..كيف تستفز كل مشاعر أمومتي في لحظة ثم تعيدني بين ذراعيك طفلةً في اللحظة التي تليها؟!!!

ثم هزت رأسها لتردف بنفس النبرة المشدوهة:

_لم أسمع يوماً عن رجلٍ أجلس حبيبته على ساقيه ليطلي لها أظافرها!!!

وضع ما بيده جانباً ثم أمسك كفها يقبله عدة قبلاتٍ متتابعة...

قبل أن يهمس أمام عينيها بعينين غارقتين بعاطفتهما:

_ومن قال أنك حبيبتي؟!!

دمعت عيناها بتأثر بينما أردف هو بحرارة:

_أنتِ قلتِها بنفسك...أنتِ أمي وابنتي...وصديقتي وزوجتي...أنتِ ستّ النساء...وكل النساء!!

تأوهت بقوة وهي تسند رأسها على صدره هامسةً بشرود:

_لا أذكر آخر مرة وضعت فيها طلاء أظافر أو زينتُ وجهي كالنساء...لا أذكر آخر مرة أسدلت فيها شعري

على ظهري أو ارتديتُ حذاءً بكعبٍ عالٍ...لقد عشتُ طويلاً أتناسى أنني امرأة حتى نسيتُ حقاً!!!

ربت على رأسها برفق ثم رفع ذقنها إليه هامساً بمكر:

_أنا أذكر!!

رمقته بنظرة متسائلة فتحسس ندبة ذقنه بحركة ذات مغزى...

تنهدت بحرارة وهي تتذكر ذاك اليوم الذي التقته فيه لأول مرة عندما اضطرت لتبدو بذاك المظهر الجذاب -نسبياً-كي تلفت انتباهه إليها...

ثم مدت أناملها تلامس موضع ندبته هامسةً بعاطفةٍ مفعمة بالمرارة:

_إلى الآن لا أدري...هل كانت أعظم لحظات حياتي حظاً...أم أشدها حماقة!!!!

أحاط خصرها بكفيه ليقف ويوقفها معه أمامه قائلاً بحزم:

_ألم نتفق أن اليوم ليس للتفكير؟!!

ابتسمت وهي تومئ برأسها...

فعاد يقول بنفس الحزم :

_الآن تذهبين لغرفتك ...وترتدين الثوب النبيذي الذي اشتريته لكِ ...ستجدينه على السرير...والحذاء جواره .

ثم احتضن وجهها بكفيه هامساً بنبرة أرق:

_اليوم أريدكِ أن تشعري بأنوثتكِ كما لم تفعلى من قبل...أريدكِ أن تريْ نفسكِ كما أراكِ...ماسةً متوهجة بالسحر والفتنة.

احمرت وجنتاها بخجل حاولت مغالبته وهي تنسحب من أمامه بسرعة إلى غرفتها فتغلق بابها خلفها...

قبل أن تتناول الثوب النبيذي من على الفراش متأملةً له بسعادة طاغية...

وكأنها طفلةٌ يهديها أحدهم يوماً ثياب العيد!!!

وبعدها بدقائق...

كانت جالسةً على كرسيّ الزينة تتأمل صورتها الجديدة في المرآة بمزيج من مشاعر مختلطة...

مشاعر امرأة دفنت نفسها حيةً لسنوات حبيسة قبرٍ من الماضي...

جفت فيه كل زهور مشاعرها وأنوثتها...

والآن تشعر بها تتفتح براعمها من جديد بأمل!

هل يمكن أن تختلف زينة المرأة عندما تشعر بالحب؟!!!

إنها الآن وهي تطلي شفتيها تتمنى لو يقرأ عليهما كل ما يزدحم بقلبها من مشاعر نحوه...

فتبدوان لها أكثر جمالاً!

إنها الآن وهي تكحل عينيها تتمنى لو يرى فيهما كل ما عجزت عن قوله من كلامٍ ...

فتبدوان لها أشد سحراً!!

بل إنها عندما أسدلت شعرها الكثيف على ظهرها تمنت لوتطول أيامهما معاً بقدر عدد شعيراته!!!

يزعمون أن الحب للجميلات...

ولا يعلمون أن الحب هو الذي يهب المرأة جمالها...

هو الذي يزيد توهجه وبريقه...

ودونه جمالها باهتٌ شاحب كأوراق الخريف!

قطعت أفكارها عندما فتح باب الغرفة ليدخل وهو يتأملها بنظراتٍ مفتونة...

مد لها كفيه ليتناول كفيها فيوقفها أمامه متفحصاً لها بهيام...

قبل أن يترك كفيها ليمشط شعرها بأنامله هامساً بحرارة:

_ما رأيك؟!!

ابتسمت بخجل وهي تخفض بصرها عنه حياءً قبل أن تهمس:

_من المفترض أن أسألك أنا هذا السؤال!!

قرّب وجهها إليه لتنساب شفتاه على بشرتها بقبلاتٍ هائمة متبتلة...

قبل أن يهمس بصوت متهدج:

_أنا لا أحتاج لسؤال...وأنتِ لا تحتاجين لإجابة.

اتسعت ابتسامتها وهي تهرب من نظراته الحارة لتنظر لقدميها قائلة بمرح لا يخلو من خجل:

_أجمل ما في هذا الحذاء أن كعبه العالي قد قارب بين طولينا...رغم أنني لم أحمل يوماً لقب "قصيرة" لكنني أشعر أمامك أنني كذلك.

ضحك بدوره وهو يضمها إليه هامساً أمام عينيها بمكر:

_وما حاجتكِ للكعب العالي؟!! أنا أحملكِ متى تريدين!!

قالها وهو يرفعها من خصرها بكفيه فأطلقت صيحة دهشة عالية...

تبعتها بضحكاتٍ رنانة وهي تضرب الهواء بقدميها هاتفةً بمرح طفوليّ لم تعرفه منذ زمن بعيد:

_أنزلني يا مجنون.!!!!

نظر إليها بمكر عابث وهو يرفعها أكثر ليهتف بشقاوته اللذيذة:

_ها قد صرتِ أطول مني ...راضية؟!!

تشبثت بكتفيه وهي تهتف وسط ضحكاتها العالية :

_راضية ...راضية...أنزلني!

ضحك بانطلاقٍ هو الآخر وهو ينزلها برفق فأخفت وجهها في صدره للحظات...

قبل أن ترفع عينيها إليه هامسةً بحبٍ زلزل أركان روحه:

_ماذا أفعل فيك؟!!

ألصق جبينه بجبينها وهو يهمس بين شفتيها :

_أحبيني...فقط أحبيني!!

ضجت روحها بعاصفة من مشاعرها حتى شعرت أن قلبها يكاد يتوقف...

لتجد نفسها دون وعي تمد كفها لتحتضن به رقبته كي تلصق وجهه بوجهها أكثر وهي تهمس بصوتٍ مرتعش:

_هل تفعلها يوماً يا فهد؟!!

حاول أن يبتعد بوجهه قليلاً لينظر لعينيها...

لكنها تشبثت بكفها على رقبته كي تبقيه ملتصقاً بوجهها ...ليشعر بجسدها كله يرتجف بين ذراعيه فهمس بقلق:

_أفعل ماذا؟!!

اختنق صوتها بغصة حلقها للحظات شعر هو بها عندما أردفت بصوتٍ خفيضٍ جداً يكاد لا يُسمع:

_هل ...تتركني...يوماً؟!!

دق قلبه بقوة وكفاه ينغرسان أكثر في خصرها وكأنه يتشبث بها في إجابةٍ غير منطوقة لسؤالها...

لكنها أردفت بنفس الهمس الخفيض المختنق:

_هل أصحو يوماً من نومي فلا أرى نور الصبح بعينيك أمام نافذتي؟!!ولا أسمع همسك اللاهث باحتياجكِ في أذني؟!!!ولا...

عاد صوتها يختنق بغصة دموعها فصمتت للحظات قبل أن تردف برجاء حار:

_لا تفعلها بي ثانيةً ...لا أريد أن أتذوق هذا الجرح من جديد...سأموت حقاً هذه المرّ..

قطع همسها بشفتيه اللتين اعتقلتا شفتيها بقوة كاسحة حملت كل عشقه وخوفه من فقدها هو الآخر...

قبل أن يبتعد بوجهه عنها ليهمس بحزم أمام عينيها اللتين غامتا بفيض من المشاعر والدموع:

_حتى تزهق آخر أنفاسي ...لا أفارق ولا أخون!!

تعلقت عيناها بعينيه تقرأ فيهما مراسم قَسَم عشق ملكية توجتها على عرش قلبه للأبد...

وحكايات غرامٍ طويلة تعدها بحبٍ لا يعرف نهاية...

وأغاني حبٍ ساحرة بألحانٍ قدسية تشدو بنبض الخلود.!!!

قبل أن يقطع هو حديث عينيهما بقوله :

_ما رأيك لو نتمشى على الشاطئ تحت ضوء القمر؟!!

ابتسمت وهي تومئ برأسها في رضا...

فأحاط كتفيها بذراعه وهو يخرج معها إلى الشاطئ حيث خلعت حذاءها لتسير جواره حافية القدمين مستمتعةً بملمس الرمال الناعمة...

وبدفء عاطفته أكثر...

حتى أنهكها السير فتلتفتت حولها قبل أن تشهق هاتفة بجزع:

_لقد نسيتُ وخرجتُ هكذا قد يرانا أحد!!

قالتها وهي تضع يدها على رأسها فضمها إليه أكثر وهو يقول ضاحكاً :

_لا تخافي...كل هذه الأرض ملكنا أنا وأبي...لا أحد هنا سوانا أنا وأنتِ!!

انعقد حاجباها بضيق خفي وهي تطرق برأسها...

ثم جلست مكانها على رمال الشاطئ لتلاعب الرمال بأناملها في شرود ...

وأفكارها المتخبطة نحو "ابن الصاوي" توخز ضميرها من جديد!!!

لكنه كان غافلاً عن هذا وهو يتمدد على ظهره على الرمال أمامها مسنداً رأسه إلى ساقيها وهو ينظر للسماء الصافية التي التمعت بنجومها للحظات...

قبل أن ينظر لعينيها اللتين أظلتا عينيه بعاطفتهما المتوهجة...

فابتسم هامساً بسكينةٍ كانت تملأ روحه الآن:

_هل تعلمين أنني كنت أخاف الليل جداً..؟!!! .طالما كان أصدقائي يسخرون مني لهذا السبب...طالما رأيتُ السماء بالليل سقفاً يوشك أن يسقط على صدري...حتى نجومه كنت أشعر بضوئها يلسعني ...يجلدني بسياطٍ لا أراها لكن ألمها محفورٌ على جلدي.

رق قلبها له أكثر فربتت على وجنته بحنان ثم امتدت أناملها تداعب خصلات شعره...

أغمض عينيه باستسلامٍ لهذا السلام الذي يشعر به الآن رطباً بين جنبات روحه التي طالما تشققت بجفافها...

قبل أن يعاود همسه الصادق:

_الآن لم أعد أخافه...هذي السماء صارت ملاذاً أهرب إليه من ضيق أرضي...ونجومها صارت شواهد على مكنون صدري...ضوؤها الآن يبدو وكأنه نابعٌ من روحي أنا...وكأن ومضاتها متزامنة مع دقات قلبي.

ابتسمت وهي تتمتم بشرود:

_صرتَ شاعراً يا ابن الصاوي.

انعقد حاجباه بضيق وهو يتأمل شرودها للحظات...قبل أن يسألها :

_لماذا عدتِ تنادينني هكذا؟!!

أفاقت من شرودها على نظراته الضائقة قبل أن تعي سؤاله...

فأغمضت عينيها تخفي عنه حديثهما ثم همست بحزنٍ شفاف انسلّ لقلبه بسهولة:

_لا تهتم...مجرد عادة!!

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يغمغم بشك:

_عادة؟!!

فتحت عينيها أخيراً وهي تشعر بالصراع يدور في رأسها من جديد...

بين فهد...و "ابن الصاوي"!!!!

لكنها نفضت أفكارها متشبثة بما تبقى في هذا اليوم الذي ارتضته خارج حدود زمانها وأفكارها ومخاوفها...

فابتسمت برقة وهي تميل على جبينه بقبلة ناعمة همست بعدها بحنان:

_لقد بدأت أشعر بالبرد...هل نذهب للنوم؟!!

مط شفتيه باستياء وعيناه تناجيان عينيها برجاء هامساً:

_لا أريد النوم هذه الليلة...لو نمتُ سينتهي هذا اليوم الذي انتزعناه خارج حدود الزمن...وأنا لا أريده أن ينتهي.

اتسعت عيناها بتأثر وهي تشعر أنه يتحدث بلسانها...

كلاهما كان يتمنى لو لا ينتهي هذا اليوم...

لو يلقي كل شئ خلف ظهره فلا يعود يذكر سوى عشقه لصاحبه...

لو تتوقف الأرض عن دورانها فلا يعود هناك ماضٍ يخنقهما بسواده...

ولا مستقبل يؤرقهما بخوفه...

بل هذه اللحظة فحسب وكلاهما متشبثٌ بالآخر تشبثه بالحياة نفسها!!!!

لهذا بقيا على هذا الوضع لوقتٍ لم يعلما مقداره...

لكن الحياة بخيلةٌ حقاً على العاشقين!!!

فقد مضت الساعات في عدوها كالدقائق...

ليعودا بعدها إلى داخل الشاليه ...

بدلت ثيابها في غرفتهما بأخرى مريحة أكثر بينما اختفي هو بالخارج للحظات...

قبل أن يعود حاملاً بعض الشطائر والمشروبات...

فابتسمت وهي ترفع الغطاء لتتمدد على الفراش جاذبة حاسوبها المحمول من على الكومود جواره وهي تقول ببساطة:

_سأكتفي بشطيرة واحدة حتى أتناول دوائي.

اندس جوارها في الفراش وهو يقول بضيق:

_ولماذا تفتحين حاسوبك الآن؟!!ألم نتفق أن هذا اليوم خاص بنا وحدنا؟!!

تلاعبت أناملها بأزراره وهي تغمغم بما يشبه الاعتذار:

_سأقرأ آخر الأخبار على بعض المواقع فحسب...قد يكون هناك ما يتعلق بقضيتي الأخيرة...فموكلي قلق للغاية بشأن قضيته ويتهمني بالتقصير وأنا...

لكنها قطعت عبارتها وعيناها تتسعان بارتياع وهي تقرأ هذا الخبر أمامها على الشاشة...

فالتفت نحوها وقد أقلقه مظهرها ليدير الشاشة نحوه وهو يقرأ ما أثارها هكذا...

قبل أن ينعقد حاجباه بغضب وهو يكز على أسنانه فقد كان الخبر أمامه صادماً لأبعد حد:

_سر العلاقة المشبوهة بين ابن رجل الأعمال الشهير جاسم الصاوي ومحامية تكبره سناً .

=====================

الفصل الخامس عشر:

_سر العلاقة المشبوهة بين ابن رجل الأعمال الشهير جاسم الصاوي ومحامية تكبره سناً ....

لم يكد يستوعب صدمته بالخبر السابق حتى تناول هاتفه بسرعة ليتصل برقمٍ ما وما إن أجابه حتى هتف بلهجة آمرة:

_جريدة (.....)الاليكترونية تسحب الخبر حالاً وتنشر تكذيباً واعتذاراً ....لقد تم نشره منذ ساعة واحدة فقط ....هددهم بإغلاق الجريدة كلها...وتابع هذا الأمر بنفسك.

ثم أردف بنفس النبرة الآمرة

_ولا أريد أن يصل الخبر لأبي.

قالها ثم أغلق الاتصال بعنف ليلتفت نحوها قائلاً بتوتر :

_لا تقلقي ...أنا كفيل بقطع هذه الألسنة.

لم يبدُ عليها أي رد فعل فقد كان بصرها شارداً في الفراغ وملامح الصدمة على وجهها...

فاقترب منها ليردف بحزم لم ينجح في إخفاء توتره هو الآخر:

_اطمئني ...الخبر لم يذكر أي تفاصيل عنكِ أنت.....سيمر الأمر كإشاعة وأعدكِ ألا يتكرر.

ظل وجهها على جموده بينما كان جسدها كله مشدوداً وأناملها ترتجف بقوة على حاسوبها...

فتصدع قلبه بشعوره الرهيب الآن بالذنب و العجز ليهتف بحدة فجرها انفعاله:

_جنة..ردي علىّ...لا تسكتي هكذا!!

التفتت إليه أخيراً من شرودها لتهمس مصدومة :

_جنة؟!!!

ثم صمتت لحظة لتردف بعدها بنفس النبرة المشدوهة:

_أين جنة؟!! أنا؟!!!!

انعقد حاجباه بشدة وقد فقد كلماته فجأة...

عندما هبت هي من الفراش لتهتف بعدها بثورة عارمة:

_جنة الرشيدي التي أعرفها لن تكون مجرد إشاعة رخيصة...جنة الرشيدي لن تكون علاقة مشبوهة يتستر

عليها صاحبها بنفوذه...جنة الرشيدي لن تعيش في ظل رجلٍ ينفق عليها من مالٍ حرام!!!

انتفض من الفراش هو الآخر ليقف قبالتها محيطاً كتفيها بذراعيه هاتفاً بانفعال :

_ومن أخبركِ أنني راضٍ عن هذا الوضع؟!!! لو كان الأمر بيدي لأخذتكِ الآن إلى والدي وواجهته بحقيقة زواجنا لكنني أخاف عليكِ أنتِ...جاسم الصاوي لا يعتبرني أكثر من مشروعٍ استثمر فيه عمره كله ...ولن يسمح لأحد أن يفسد مخططاته بشأني...ولا حتى أنا نفسي.

نفضت ذراعيه من على كتفيها بحدة فأردف بحدة أقوى:

_ومال أبي ليس حراماً...هو ليس لصاً ولا قاطع طريق...فلا تتماديْ في أحكامك.

اشتعل جسدها بثورتها وهي تصرخ بما هي مقتنعة به:

_ليته كان لصاً أو قاطع طريق ...ربما كان ضحاياه أقل...جاسم الصاوي لا يسرق شخصاً أو عائلة...بل يسرق وطناً بأكمله...هذا الشاليه الفخم وما حوله من الأراضي التي تتباهى أنت بها ليست حقك ولا حقه...هذا

هو حق البلد الذي ينهبه بصفقاته المشبوهة...وأنت تساعده في هذا.

كز على أسنانه بغضب وهو يهتف مدافعاً:

_ابن الطبيب يكون طبيباً مثله...وابن العامل يكبر ليكون كأبيه...إذا كان كل رجلٍ يرث مهنة والده فما العجب في شأني أنا؟!!

هزت رأسها ولازالت تصرخ بثورتها :

_إذا كنت تريد إرث أبيك في سرقاته فلا شأن لي بك...أنت حرّ!!!

نفرت عروق جبهته بغضبه الذي يحاول السيطرة عليه لكنها لوحت بسبابته في وجهه صارخة بعنف:

_معك حق...ابن الشريف شريف...وابن اللص لصٌ مثله!!!

ارتفعت أنامله بحدة تقبض على كفها وهو يكز على أسنانه هامساً بنبرات مشتعلة:

_اسكتي الآن حتى لا تجبريني على فعلٍ أكرهه...أنا أقدر ثورتك فلا تستغلي صبري.

لكنها جذبت كفها من كفه لتعطيه ظهرها للحظات وهي تكتف ساعديها محاولةً التقاط أنفاسها مع انتفاضة جسدها المرتجف...

قبل أن تهمس بصوتٍ مبحوح من فرط صراخها السابق:

_دعني وحدي الآن.

أدار كتفيها إليه وهو يهتف بانفعال صارم:

_لا...لم يعد لأحدنا أن يكون وحده بعد الآن...أنا وأنتِ صرنا كياناً واحداً شئتِ أم أبيتِ!!

تشنج جسدها تحت كفيه وقد اشتعلت عيناها بثورتها من جديد ...

عندما أردف هو بنفس النبرة الصارمة:

_أنا سأعرف كيف أخفيكِ عن عينيه كي أحميكِ من بطشه!!

هزت رأسها بانفعال وهي تخبط بقبضتها على صدرها هاتفةً بحدة:

_تخفيني؟!!!أنا أعرف رجلاً دافع عني بعمري كله....حماني بصدره العاري حتى آخر نفسٍ فيه...والآن تأتي أنت لتكون أقصى تضحياتك سجناً مظلماً بعيداً عن عيون أبيك!!!

وعند ذكرها ل"حسن" لم يستطع إخماد بركان غضبه الذي ثارت حممه كاملة في داخله ليجد نفسه يعتصر ذراعيها بقبضتيه وهو يهزها بعنف هاتفاً بلهجة أخافتها :

_لو ذكرتِه ثانيةً بيننا فسأكسر رقبتك...هل تفهمين؟!!!

قالها وهو يدفعها بقوة حتى سقطت على ظهرها على الفراش لتتأوه بألم...

لكنه غادر الغرفة بسرعة صافقاً بابها خلفه وهو يخشى أن يدفعه غضبه للتهور عليها أكثر...

قادته قدماه للشاطئ حيث كانا هنا منذ قليل...

ليبتسم بسخرية مريرة وهو يتذكر كيف تبدل الحال في لحظات!!

خلع قميصه ثم ألقاه جانباً ليتوجه إلى البحر محاولاً إفراغ شحنات غضبه في السباحة...

ورغم برودة الجو ساعتها لكنه لم يكن يشعر بشيءٍ مع هذه النيران التي تحرق صدره...

كان يضرب الماء بذراعيه بقوة وهو يود لو يهدم كل هذه السدود التي يوقن الآن أنها تقف بينهما...!!!

هو يعلم أنها على حق...

هو في عينيها مجرد خطيئة سوداء في تاريخها ناصع البياض...

لكنه حقاً لا يعرف كيف يمكنه التصرف؟!!!

لو كان الأمر بهذه البساطة لذهب إلى والده وطلب منه أن ينفصل عنه بعمله مصرحاً له بزواجه منها!!!

لكنه يعرف أن جاسم الصاوي لا يقبل أن يأخذ منه أحدٌ شيئاً يملكه...

فكيف ب-ابنه- الذي يعدّه ليكون خليفته في امبراطوريته العظيمة؟!!!

جاسم الصاوي لن يكتفي بلومه أو حرمانه من ماله ...

بل سيكون عقابه أشد مما يتوقع ...

عقابٌ سينالها هي الأخرى وهذا الذي يثير كل خوفه...

فهو لن يحتمل أن يصيبها أدني سوء بسببه أو أن يُحرَم منها تحت أي ظرف!!!

لهذا كان من الأسلم لهما أن يبقيا علاقتهما مخفيّةً عن عيني والده...

ليس جبناً أو تخاذلاً منه...

لكنه إدراكه الحقيقي لشخص أبيه الذي لن يمرر فعلته على خير!

والمشكلة هي أن جنة لا تفهم هذا...

شخصيتها الثائرة بطبعها تأبى الهروب وتعشق المواجهة ولو كان فيها هلاكها...

لكنه لن يسمح لها بذلك...

لن يسمح لها أن تؤذي نفسها ولو أجبرها بكل الطرق!!!

حتى لو رأته جباناً متخاذلاً وليس بطلاً أسطورياً كحبيبها السابق!!!!

عند هذه النقطة ثارت نفسه أكثر ليعود أدراجه من جديدٍ إليها وهو يشعر رغم كل ما يملؤه من غضبٍ وثورة أنه حقاً...افتقدها!!!

وعلى سريرها كانت هي مستلقيةً على ظهرها ترمق السقف بشرود...

وقد انحسرت أمواج ثورتها مخلفةً وراءها شطآناً عاريةً من الحزن والألم...!!!

أغمضت عينيها بقوة تستجدي دموعها لعلها تريحها قليلاً لكنها عاندتها هي الأخري...

وكأن الجفاف الذي طال روحها وعقلها وقلبها قد وصل لعينيها أيضاً!!!

قلبها يكاد يذوب قلقاً على فهد الذي لا تعلم إلى أين غادر...وعقلها وكرامتها ينتفضان بالتحدي ضد ابن الصاوي...!

جزءٌ منها يشعر بالندم على إهانتها له...

على هذا الجرح الذي رأته صارخاً في عينيه...

لكن كيانها كله يتمرد بثورته على عاطفتها نحوه من جديد...

فهد سيبقى ابن الصاوي مهما حاولت التفريق بينهما !!!

شعرت به يعود للغرفة من جديد فأغلقت عينيها محافظةً على جمود وضعها...

عندما اندس جوارها في الفراش ليتكئ على مرفقه ناظراً إليها من علوّ للحظاتٍ صامتاً...

قبل أن يهمس بحزنٍ صادقٍ عرف طريقه لقلبها:

_لم أطلب سوى يومٍ واحد ننسى فيه كل شئ...لكن حتى هذا استكثرته علينا الظروف.

ظلت على صمتها وقد عجزت عن الرد...

همسه المختنق غضباً وألماً حمل لها مشاعره كاملةً دون نقصان...

لكنها لم تكن أقل منه غضباً وألماً...لهذا اكتفت بنحيب دقات قلبها الصامتة ...

عندما شعرت برأسه على صدرها وهو يحتضن خصرها بذراعيه مردفاً بنبرة غريبة مشتتة:

_أنا...أشعر بالبرد!!

ارتجف جسدها بقشعريرة قوية....وهي تشعر ببرودة جسده الحقيقية...

ففتحت عينيها لتري خصلات شعره المبتلة لتغلبها عاطفتها -الأمومية- نحوه وهي تهتف باستنكار جزع:

_هل كنت تسبح في هذا البرد؟!!

لم يرد عليها وقد أغمض عينيه باستسلام لدفئه جوارها...

فتنهدت بحرارة وهي تحاول بصعوبة رفع الغطاء عليه بإحكام مع تشبث ذراعيه المحكم بها ....

ظلا على هذا الوضع للحظات ....

ساد فيها صمتٌ ثقيلٌ بينهما وهي تجد نفسها -عفوياً- رغم ثورتها وغضبها تضم جسده المرتجف برداً وانفعالاً ...

صمتٌ ثقيل لم يقطعه سوى صوت دموعها التي وجدتها أخيراً وهي تشعر شعور الأم بابنها العاقّ المريض...

فلا هي تستطيع مسامحته ولا هي تقوى على هجرانه...

هذا هو -بالضبط-فهد الصاوي عندها!!

وكأنما قرأ بحركتها -العفوية-كل ما يدور بقلبها.. .

فقد رفع رأسه إليها وهو يضمها بعنفٍ أكثر حتى تأوهت ألماً قبل أن يمسح دموعها بشفتيه هامساً بحزمٍ قاسٍ:

_هل علمتِ الآن لماذا لن أتخلى عنك أبداً.؟!..لأنني أعرف أن دفئي لن يكون إلا بين ذراعيكِ...مهما أنكرتِ وكابرتِ ...قلبكِ صار ملكي يا أستاذة...وما هو ملكي لا أتنازل عنه !!

أغمضت عينيها بقهر ممتزج بعجزها عندما شعرت بوجنته الباردة تلتصق بوجنتها وهو يردف بنفس النبرة القاطعة:

_لن أسمح أن تضيعي مني أبداً حتى لو حاربتك أنتِ نفسك...!!!

========

لم يستطع كلاهما النوم في هذه الليلة...

ورغم أنه كان يعتقلها -حرفياً-بين ذراعيه طوال الليل وكأنه يخشى أن يفلتها لحظة فلا يجدها...

لكنها كانت تشعر أنه بعيد...

بعيدٌ كالسماء...كالحلم...وكالسراب!!!

لو كان أحداً ما أخبرها أنها ستعشق رجلاً مثله لاتهمته بالجنون...

والآن تجد نفسها غارقةً حتى أذنيها ببحر عشقه الهائج دون معين...

سواه!!!

نعم...هو الآن البحر ...وشطآنه...

هو الصحراء ...وواحتها...

وهو بعد الجفاف...المطر!!!

هو كل الألوان...

أبيض نقائها وسواد ذنوبها...وردية أحلامها وزرقة رهبتها....خضرة بهائها وصفار خريفها...

هو كل الأنغام...

برتابتها تارة...وحالميتها تارة...وجنون صخبها تارة أخري!!

هذا رجلٌ ظهر لها من العدم ليحتل عالمها كله فيقلبه لها رأساً على عقب قبل أن يساوي وحده كل البشر!!!

رفع رأسه إليها أخيراً ليتطلع إلى عينيها المفتوحتين بشرود...

فزفر زفرة قصيرة قبل أن يقبل وجنتيها كعادته كل صباح...

لكنه تخلى عن همسه في أذنيها هذا الصباح مكتفياً بقوله المقتضب:

_صباح الخير.

أغمضت عينيها دون رد للحظات...

قبل أن تقول بنبرة قاطعة:

_أريد الرحيل من هنا.

قام من جوارها وهو يقول بفتور:

_كما تريدين.

قامت بدورها من الفراش لتغسل وجهها قبل أن تبدل ثيابها لتخرج إليه حيث كان ينتظرها بملامح جامدة...

غادرا الشاليه بسرعة وكلاهما يتحاشى مجرد النظر للآخر حتى ركبت جواره سيارته...

لتسند رأسها على ظهر مقعدها صامتةً لوقت طويل بينما اكتفى هو بنظراتٍ مختلسة نحو جانب وجهها أثناء قيادته...

حتى قطعت هي هذا الصمت بقولها دون أن تنظر إليه:

_ماذا ستفعل لو رزقنا الله يوماً بطفل؟!! هل ستخفيه كما تخفيني عن عيني والدك؟!!

اختلس نظرة خاطفة نحوها قبل أن يقول ببرود قاسٍ:

_والدي لن يؤذي طفلي...لكنه قد يؤذيكِ أنتِ...لهذا فوجود طفل لن يغير من الأمر شيئاً...أنا لا أهتم إلا بكِ!

ثم التفت إليها مردفاً بتهكم مرير:

_ثم من أين سيأتي الطفل إذا كانت "الأستاذة"لا تعترف بي كزوج بعد؟!!!

رمقته بنظرةٍ عميقة حملت كل ألمها المصبوغ بحبها الجارف له...

فابتسم بمرارة قائلاً:

_هذا هو الفارق بيني وبينك...أنتِ أغلى ما في حياتي لكنني في حياتك مجرد خطإٍ تندمين عليه!!

أغمضت عينيها بتأثر قبل أن تهمس بأسى:

_أنت حتى لا تمنحني فرصة الندم...لم أعد قادرة حتى على التقاط أنفاسي بعيداً عنك.

ثم أطرقت برأسها لتخفيه بين كفيها هاتفةً بانهيار بين دموعها:

_ماذا فعلتَ بي؟!!!

زفر زفرةً مشتعلة وبكاؤها الهستيري جواره يزيد إحساسه بالألم والعجز...

فتوقف فجأة بالسيارة لتصدر صريراً مزعجاً قبل أن يجذب رأسها بذراعه إلى صدره بقوة هاتفاً بحدة:

_ماذا فعلتُ أنا أم ماذا فعلتِ أنتِ بي؟!!!أنا الذي لم أحمل يوماً همّ شئٍ في حياتي أجدني فجأة أعيش في سجنٍ من خوفي عليك..أخاف أن أكون سبباً في أن يصيبك أذى...وأخاف منكِ أن تتركيني...وأخاف من نفسي أن أخذلك...ووسط كل هذا تنظرين أنتِ إلىّ على أنني مجرد وغد جبان يستغلك في السرّ ولا يرتقي لدرجة بطلك السابق الذي افتداكِ بحياته...ويشهد ربي أنني لن أتردد أن أموت لأجلكِ كي أثبت لكِ...

قاطعت عبارته بشهقتها العنيفة مع أناملها التي وضعتها على فمه وهي ترفع رأسها إليه هاتفةً بجزع:

_لا تنطقها!!!

ثم تهدج صوتها بعدها بدعائها:

_أبقاكَ الله لي!

أشاح بوجهه للحظات وهو عاجزٌ عن احتواءصخب مشاعره ومشاعرها معاً....

ثم عاد يقبل رأسها على صدره الذي بدا وكأنه ضج من فرط دقاته الثائرة بجنون....

قبل أن يبعدها عنه برفق ليعاود القيادة صامتاً حتى وصل بها إلى منزله فقال دون أن ينظر إليها :

_انزلي أنتِ...لديّ شأنٌ هام!!

نظرت إليه بترقب لكنه كان عاقداً حاجبيه بشرود وهو يردف بحزمٍ قاسٍ:

_وإياكِ أن تفكري في الهروب مني ثانيةً لأن تصرفي وقتها لن يعجبك!!

أشاحت بوجهها في غضب ممتزج بقلة حيلتها وهي تغادر السيارة بتثاقل متوجهة للمنزل ...

قبل أن تلقي نظرة آسفة على سيارته التي انطلق بها بسرعة جنونية كعادته عند غضبه .

وفي السيارة كان هو يشعر بثقلٍ جاثم على صدره...

ورغم صعوبة ما ينتويه لكنه كان عازماً عليه ليس فقط من أجلها...

ولكن من أجل نفسه أيضاً!!!

هو الذي يحتاج الآن أن يحترم نفسه حقاً قبل أن يطلب منها احترامه...

يحتاج أن ينخلع عن رداء أبيه الذي ألقاه قسراً على كتفيه ويبدأ بداية جديدة تليق بها وبتوبته بعدها...

يحتاج أن ينسلخ من جلد ماضيه مغتسلاً بمطر حبها الطاهر لعله يصالح بعدها صورته في مرايا ضميره!!!

قطعت أفكاره عندما وصلت سيارته للمكان الذي يقصده...

فأوقفها مكانها وهو يستجمع قوته قبل أن يغادرها ليدخل ...

شركة جاسم الصاوي!!!

=====================

_كيف حالك؟!لماذا تكاسلتَ عن متابعة مشروعنا الجديد؟!!

قالها جاسم الصاوي بعدم اكتراث وهو يتابع شاشة حاسوبه باهتمام...

فتجاهل فهد الشقّ الثاني من السؤال وهو يرد بفتور مماثل:

_أنا بخير.

رفع جاسم عينيه إليه بسخرية حملتها شفتاه بابتسامة وهو يقول بما يشبه التحقير:

_ولماذا لا تكون كذلك؟!!حياتك كلها لملذاتك فقط...حتى العمل الذي أعتمد عليك فيه بدأت تهمله.

أطرق فهد برأسه للحظات وقد اعتاد منه هذه اللهجة فلم تعد تثير ضيقه وإن كانت لا تزال تثير حزناً دفيناً بقلبه...

ورغم أن هذه المقدمة لا تشجعه إطلاقاً على ما يريد محادثته فيه...

لكنه عزم على إتمام الأمر معه...

لهذا قال بحزم لا يخلو من توقير:

_كنت أفكر أن أفتتح مشروعاً خاصاً بي وحدي.

التمعت عينا جاسم بغضب مفاجئ قبل أن يستدير نحوه بكرسيه مشبكاً أصابعه أمام وجهه ...

قبل أن يقول من بين أسنانه:

_وماذا أيضاً؟!!

تحاشى فهد النظر إليه وهو يقول بنبرة من حسم أمره:

_لقد اكتسبتُ خبرة كافية وأريد خوض التجربة وحدي .

ابتسم جاسم بسخرية وهو يقول باستهجان:

_تريدني أن أثق في عملٍ تديره وحدك؟!!

تألقت عينا فهد بتحدٍ واضح وهو يواجهه بنظراته الواثقة قائلاً:

_لا أجد ما يمنع...أنا أثبتُ تفوقاً واضحاً في عملي معك منذ أكثر من ثلاث سنوات رغم صغر سني.

اتسعت ابتسامة جاسم الساخرة وهو يرد بنفس النبرة المستهجنة:

_كل ما فعلتَه أنت كان تحت رقابتي وإشرافي...أنا لن أغامر بقرشٍ واحد من مالي في يد سفيه مثلك!!

ابتلع فهد إهانته بصبر من اعتادها ...

قبل أن يفجر قنبلته التالية:

_إذن امنحني نصيبي في إرث أمي!!!

لم يكد يهتف بها حتى بدا وكأن الغرفة كلها قد اشتعلت ببركان أسود...

بركانٍ من غضب جاسم الصاوي الذي هب واقفاً وهو يكرر بثورة هادرة:

_إرث أمك؟!!! لا أصدق أنك اليوم جئت تتبجح مطالباً بإرث أمك!!!

كز فهد على أسنانه وهو يقبض أنامله بقوة وهذا الموضوع يفجر كل جروح ماضيه بقسوة قاتلة...

عندما دار جاسم حول المكتب ليتوجه إليه جاذباً إياه من ياقة قميصه وهو يهدر بعنف:

_إرث أمك الذي تحكي عنه لن تحصل عليه أبداً...أتدري لماذا؟!!

دمعت عينا فهد بقهر عاجز وقد عجز عن مواجهة والده الذي صوب لقلبه سهمه الأخير وهو يردف باحتقارٍ ممتزج بالمرارة:

_لأن القاتل لا يرث!!!

=====================

غادر فهد الشركة وهو يتعثر في خطواته وقد شعر بغشاوة سوداء على عينيه ....

لم يدرِ كيف حملته خطواته نحو السيارة وما إن ركبها حتى رفع زجاجها العاكس كله بلونه القاتم...

ليلقي رأسه على مقودها بيأس أسود صبغ خلاياه كلها...

جرح ماضيه الذي طالما تناساه عاد الآن ينزف من جديد...

جنة الرشيدي محت كل تاريخه الأسود مع النساء لكنها أحيت الجمر المشتعل تحت الرماد...

والذي كان سبباً في تحوله أصلاً لهذا المسخ الذي صار إليه حتى دخلت حياته لتمتلك قلبه!

لقد كان يتوقع رفض جاسم الصاوي لقراره بالانفصال عنه في أعماله...

لهذا لم يجد له سبيلاً سوي إرث أمه رغم أنه لم يحسب يوماً أن يمد يده لقرشٍ منه...

لكنه لم يحسب حساب هذه الطعنة الغادرة....

جاسم الصاوي لم ينسَ له فعلته...

وهو يعذره برغم كل شئ لأنه لم يعرف الحقيقة كاملة!!!!

الحقيقة التي كتمها وحده في صدره طوال هذه السنوات فلم تغادره أبداً لتبقى كالرمح المكسور في جسد مطعونٍ مغدور لم يستطع نزعه ولو بعد حين!!!

الحقيقة التي منعته النوم لسنوات خوفاً من عقاب السماء أو فضيحة بين أهل الأرض...

الحقيقة التي جعلته يفقد الثقة في كل النساء ولولا جنة الرشيدي التي وضعها القدر مصادفةً في طريقه لظل في ضلاله القديم!!!!

تنهد بحرارة عندما ملأت صورة جنة ذهنه فاحتلته كاملاً حتى لم يعد يذكر سواها...

أو -بالأدق-لم يعد يريد أن يذكر سواها...

هي حقاً جنته التي شاءت الأيام أن تمنحها له على الأرض...

والتي يتمنى بحق لو لا يخيب ظنها فيه...

لو يعشقها كما تستحق ويمنحها الأمان الذي ترجوه...

لو يعلنها أمام الجميع مليكته الشرعية الوحيدة الأبدية النقية وال....طاهرة!!!!

عند الكلمة الأخيرة عاد ذهنه يتلطخ بسواد ماضيه....

لكنه هز رأسه بعنف هارباً من أشباح الذكرى..

وهو يحاول التشبث بخيوطها الماسية التي زينت قلبه كالنجوم في ليلة بلا قمر...

ورغم فشله في مسعاه بالتحرر من قيود جاسم الصاوي لكنه -على الأقل-كان يشعر بأن حجراً ثقيلاً قد انزاح عن صدره أو كما يقولون...يكفيه شرف المحاولة!!!

شرف؟!!!!

ابتسم باستهزاء مرير عندما جالت الكلمة الأخيرة بخاطره...

وهو يفكر أنها اليوم بالذات أبعد ما تكون عن نسبه -العظيم-كابن الصاوي!!!!!

لم يدرِ كم ظل على حالته هذه لكنه رفع رأسه أخيراً بملامح كسيرة قبل أن يعاود تشغيل السيارة ليهيم بها في الطرقات دون هدف...

حتى حل المساء لينتبه فجأة لهاتفه الذي نسيه في وضع صامت منذ الأمس...

الأمس الذي اختاره معها ليكون يوماً خارج حدود الزمن لهما وحدهما ...

ولولا ما حدث في آخره لأقسم أنه أروع يوم في حياته...

بل لا يبالغ لو قال أنه يساوي كل حياته!!

تناول الهاتف بترقب يبحث عن مكالمات فائتة منها ...

لكنه لم يجد شيئاً...

يبدو أنها ستبدأ في التراجع عن الطريق الذي ظن أنها ستكمله معه للنهاية...

بعدما حسم عنادها الصراع بين قلبها وعقلها!!!

جعله هذا الخاطر الأخير يستسلم ليأسه أكثر فتعمد التأخر عن المنزل حتى منتصف الليل...

قبل أن يعود إليه بخطواتٍ متثاقلة ليجد نفسه يتوجه نحو غرفتها وكأن شيئاً ما يجذبه إلى هناك رغماً عنه...

ورغماً عن كبريائه الرجوليّ الذي كان يدعوه لتجاهلها كما تجاهلته!!!

وعلى فراشها كانت هي كمن يتقلب على جمر...

وأصابعها تحتضن هاتفها بقوة وهي تغالب نفسها التي تتوسلها الاتصال به فقط لتطمئن عليه بعد الحالة الغريبة التي تركها فيها والسرعة العالية التي انطلق بها...

لكنها تحكمت في عاطفتها بأقصى ما استطاعت وهي تحاول أن يكون عقلها سيد المرحلة القادمة حتى لا تخسر أكثر مما خسرته...

لهذا ما كادت تشعر بدخوله الغرفة ليحتل عطره كل خلية من خلايا جسدها المتيم بحبه حتى تجاهلت عاطفتها تماماً لتغلق عينيها متظاهرةً بالنوم...

وأمامها جلس هو على طرف الفراش يتأمل ملامحها بألم متشحٍ بالعجز وهو يتمنى لو كان قد نجح في مسعاه ليعود إليها بحلٍ يخرجهما -ولو جزئياً- من هذه المتاهة التي يدوران فيها...

ثم تناول كفها برفقٍ ليدفن وجهه فيه وهو يهمس بصوتٍ خفيضٍ جداً ...

يكاد لا يُسمع:

_رغماً عني...كل ما في حياتي كان رغماً عني...أنتِ الشئ الوحيد الذي اخترته برضايَ لهذا سأتمسك به حتى آخر لحظة في عمري.

تجمعت الدموع بعينيها المغلقتين وهي تشعر بصدق حديثه الذبيح...

محاولةً الحفاظ على ثباتها بصعوبة...

لكن جسدها ارتجف بانفعالها عندما شعرت ببلل دموعه الصامتة على كفها ...

فقامت من نومتها لتضم رأسه إلى صدرها هامسة بجزع:

_فهد....ماذا حدث؟!!!..أنت....؟!!

قطعت عبارتها مشفقةً عليه من إكمالها وهي تعرف أنه لن يحب أن ترى هي دموعه...

فاكتفت بضمتها القوية له دون كلمات وهي تشعر أنه يخفي عنها جرحاً كبيراً لن يفصح عنه بسهولة....

ليخفي هو وجهه في حضنها للحظات طويلة....

مطارداً طيور سكينته في سماء عشقها الواسعة...

قبل أن يبتعد ليمسح وجهه بكفيه هامساً بخشونة لم يتعمدها:

_لم أعرف أنك مستيقظة...أنا سأنام هنا الليلة.. ...تصبحين على خير.

قالها وهو يستلقي جوارها دون أن يجد القدرة حتى على تبديل ملابسه معطياً لها ظهره ...

فعضت على شفتها بتوتر وأناملها تقترب منه ببطء تكاد تلامس كتفه لكنها تراجعت في آخر لحظة...

وهي تتشبث بأقصى ما استطاعته من جمود لتعطيه ظهرها هي الأخري متجاهلةً نحيب قلبها الصامت لأجله...

وهي تحدث نفسها بحزم:

_كفاك تنازلاً يا أستاذة...حكّمي عقلكِ حتى لا تضلي الطريق.

=====

جلس عبد الله في المحل يتابع حركة البيع والشراء بشرود...

لقد مضى قرابة الشهر على عمل صفا الجديد في المدرسة...

ورغم سعادته لأجلها وشعوره بأنها حقاً كانت تحتاج هذا العمل بالذات لتروي ظمأ أمومتها...

لكنه يشعر وكأنها قد -خُطفت - من بين يديه!!!

لم يعد اهتمامها الملهوف خاصاً به وحده...

بل إنه صار في المرتبة الثانية في حياتها بعد عملها هذا...

عملها الذي لا يقتصر على ساعات تواجدها بالمدرسة بل صار يمتد لما بعدها أيضاً فهي تقضي وقتها بعده في التفكير لأنشطة للأطفال وشراء مستلزماتها ...

بالإضافة لفكرها الذي صار مشغولاً دوماً بمشاكلهم النفسية والاجتماعية التي لا تنتهي...

فهي لم تعد تكتفي بالتدريس للصغار...بل امتد نشاطها للمرحلة الإعدادية والثانوية...

حيث تساعد الأخصائيات الاجتماعيات في احتواء تطورات مراهقتهم كما تزعم!!!

وهذا بالطبع يستنزف وقتها وعقلها قبل قلبها الذي تباعد عنه كثيراً...!!!!

من يصدق أن صفا التي كانت تنتظره دوماً بعد صلاة العشاء عندما يعود من عمله ليجد طعامه ساخناً كما يحب ...ثم تسامره حتى ينام على صدرها...الآن صارت تنام قبله؟!!!!

مكتفيةً بوضع الأطباق له على المائدة !!!!

زفر بخفوت عندما رن هاتفه فتناوله ليجيب المتصل...

والذي كان أحد شركائه في التجارة يحدثه بشأن صفقة جديدة بينهما...

فدعاه عبد الله على الغداء في منزله لأن الرجل كان قادماً من سفر بعيد...

ثم أغلق الاتصال معه ليهاتف صفا التي بادرته بقولها المتعجل:

_لن أستطيع الكلام الآن ...انتظرني خمس دقائق فقط يا عبد الله وسأهاتفك أنا!!

أغلق معها الاتصال بعنف وهو يشعر بدمه يغلي غضباً...

هو الذي اعتاد حنانها وتدليلها المسرف له...

وكأنه عندها الدنيا بما فيها ومن فيها!!!

الآن لم يعد يستطيع حتى مهاتفتها في أي وقت!!!!

زفر بقوة وهو يلقي الهاتف بعيداً ليغمغم بتهكم غاضب:

_ننتظر حتى تجد "السيدة" وقتاً لتكلمني!!!

لكنه لم يكد يرفع رأسه نحو باب المحل حتى احتلت عيناه تلك القادمة تجذب خلفها طفلاً وتتوجه نحوه بخطواتٍ مرتبكة...

وعلى عكس ثيابها البسيطة التي تشي برقة الحال كانت ملامحها -باذخة-الفتنة!!!

عيناها الكسيرتان رغم لمحة الحزن فيهما كانتا تشعّان بسحرٍ أنثوي خاص...

أنفها الدقيق المرتفع في شموخ يناقض ما يبدو على حالها من ذل...

شفتاها المتوردتان بصورة طبيعية لتنتهيا بشامة سوداء على جانبيهما زادتهما فتنةً لم تكن تنقصهما!!!

وجسدها...!!!!

أشاح بوجهه عنها عند هذه اللحظة وهو يستغفر الله في نفسه شاعراً بالذنب....

وهو يجدد عهد توبته التي عاهد الله عليها منذ زمنٍ ...

ثم أطرق برأسه محاولاً التشاغل بمحتويات درجه المفتوح...

لكن "الفاتنة" وقفت أمامه مباشرة وهي تغمغم بتلعثم منحها جاذبية خاصة عنده:

_الشيخ عبدالله؟!!

رفع بصره إليها من جديد بنظرة خاطفة ...

قبل أن يغضه عنها متمتماً بفتور :

_نعم!!

زادت نبرته الفاترة من تلعثمها وهي تغمغم بنبراتٍ متهدجة:

_خمس دقائق فقط من وقتك يا شيخ عبد الله!!!

ابتسم بسخرية مريرة من -المفارقة- وبصره يتوجه تلقائياً لهاتفه الذي ينتظر هو الآخر منه مكالمةً بعد خمس دقائق!!!!

لكنه كتم ابتسامته وهو يشير للكرسيّ أمامه قائلاً دون أن ينظر إليها :

_تفضلي.

جلست "الفاتنة" لتحمل الصغير على ساقيها وهي تقول بنبراتٍ ممطوطة توحي بأصلها الريفي :

_أنا زوجة "مرعي" رحمه الله....وهذا ابنه!!!

عقد حاجبيه بإدراك وهو يتذكر الرجل...

عاملٌ بسيط كان يعمل هنا في المحل لكنه لقي حتفه بحادث سيرٍ منذ بضعة أشهر...

ويبدو أنها قادمةٌ طلباً لمساعدة مادية...

لهذا تناول مبلغاً معقولاً من المال من درجه ثم وضعه في مظروف ليناوله لها قائلاً بتحفظ متحاشياً النظر لوجهها:

_رحمه الله...كان رجلاً طيباً...خذي هذا المبلغ الذي يعادل راتبه ...ولكِ مني مثله كل شهر.

لم تصله منها إجابة كما لم تمد يدها لتتناول المظروف...

فاضطر لرفع وجهه إليها ليلمح العبرات المترقرقة في عينيها وهي تغمغم بحرج:

_لقد أسأتَ فهمي يا شيخ عبد الله...لم آتِ طالبةً للصدقة...بل...للعمل!!!

انعقد حاجباه بضيق وملامحها الخلابة تنغرس بمخيلته أكثر...

قبل أن يقول بخشونة لم يتعمدها:

_أي عمل؟!!

ازدردت ريقها بتوتر وهي تغمغم بارتباك:

_أريد العمل هنا مكان "مرعي"!!

هز رأسه نفياً وهو يقول باستنكار:

_كل العاملين في المحل رجال...لا يُعقل أن تقفي وسطهم هكذا!

سالت دموعها على وجنتيها وهي تهمس بتوسل:

_أرجوك يا شيخ عبد الله...طالما كان مرعي -رحمه الله- يصفك بطيبة القلب...لهذا قصدتك اليوم...أنا لا أطلب سوى عمل شريف يغنيني عن سؤال الناس الذين

يطمعون في من هي في ظروفي...أنا غريبة في هذه المدينة منذ غادرتُ قريتنا....مرعي كان هو كل أهلي هنا...وأنت تعرف كيف ينظر الناس لامرأة مثلي.

رق قلبه لها فأومأ برأسه مغمغماً برفق:

_لا يمكنكِ العمل هنا كما أخبرتك...لكنني سأحاول تدبر عملٍ آخر لكِ.

التمعت عيناها بلهفة الحاجة وهي تهمس برجاء:

_أي عمل يا شيخ !!!

عاد يومئ برأسه فيما يشبه الوعد وهو يمد يده لها بمظروف المال من جديد...

لكنها همست بخجل:

_اعذرني يا شيخ...يعزّ عليّ أن أرد يدك...لكنني لن...

زفر بضيق يناقض شعوره الحالي نحو هذه "الفاتنة" وهو يقول بلهجة جافة:

_هذه ليست صدقة...هذا راتب مرعي الذي لم يحصل عليه قبل وفاته...كان ينبغي أن أرسله أنا إليكم لكنني لم أعرف لكم عنواناً.

أطرقت برأسها دون رد...

فرفع عينيه نحو الصغير الذي بدت عليه علامات "اليُتم" المبكر...

وقد وضع إصبعه في فمه ينظر إليه بفضول ممتزج بالخوف...

فابتسم عبد الله وهو يسأله بلطف:

_ما اسمك يا حبيبي؟!!

رفع الصغير رأسه لأمه وكأنه يستأذنها فأشارت له برأسها ليعود وينظر إليه هامساً بخجل:

_محمد!

اتسعت ابتسامة عبد الله وهو يناوله المظروف قائلاً بحنان:

_اسم جميل...خذ يا محمد!!

عاد الصغير يرفع رأسه لأمه ثم قال له ببراءة:

_أمي تنهاني أن آخذ شيئاً من أحد.

أطرق عبد الله برأسه للحظات في إعجاب خفيّ من هذه المرأة عزيزة النفس...

ثم عاد يرفعه إليها مغمغماً :

_هاتفيني هنا على رقم المحل بعد يومين...لعلى أتمكن من إيجاد عمل مناسب لك.

وقفت "الفاتنة" حاملةً صغيرها وهي تقول شاكرةً:

_بارك الله لك يا شيخ...!!!

قالتها وهي تعطيه ظهرها لتغادر لكنه استوقفها منادياً:

_محمد!! نسيتَ هذا!

قالها ثم قام من على كرسيه ليواجه الصغير قائلاً بحنان:

_هذا لك أنت!!

ثم نظر إليها قائلاً :

_صدقيني هذا حقكما وليس إحساناً مني.

ظلت واقفة مكانها للحظات بتردد...

ثم مدت إليه أناملها المرتجفة لتلتقط منه المظروف بخجل...

قبل أن تتوجه بخطوات سريعة خارجةً من المحل بينما كان الصغير يلوح له بكفه مودعاً!!!!

فلوح له عبد الله بكفه هو الآخر وابتسامة حزينة ترتسم على وجهه...

قبل أن يتمتم بدعاء خاشع لله أن يرزقه وصفا الولد الصالح الذي يتمنيانه...

ظل واقفاً مكانه للحظات شارداً...

قبل أن يرن هاتفه برقم صفا فتناوله ليهمس بعتاب:

_هل وجدتِ الوقت لي أخيراً؟!!

وصله صوتها الغارق بعاطفته تتمتم باعتذار:

_رغماً عني يا حبيبي...أنت تعلم أنني...

قاطعها بنفاد صبر قائلاً :

_لا بأس !!!المهم الآن أن تستعدي لاستقبال ضيف هام على الغداء اليوم.

صمتت قليلاً ثم غمغمت بارتباك:

_اليوم؟!!! لن أستطيع يا عبد الله...حفل المدرسة غداً وتدريب الأولاد...

عاد يقاطعها هاتفاً بغضب:

_أحدثكِ عن ضيف هام من شركائي في التجارة وتحدثينني عن حفل أطفال؟!!!

تنمر صوتها بحدة غريبة عليه وهي تهتف بدورها:

_عملي مهم بالنسبة إليّ كما هو عملك بالنسبة إليك...يمكنك دعوة ضيفك على الغداء في أحد المطاعم...سيكون هذا أكثر راحة...وأناقةً أيضاً!!!!

صمت مبهوتاً من تغير أسلوبها الجديد معه....

صفا حقاً خُطفت من بين يديه كما كان يظن....

صفا "القديمة" لم تكن أبداً لتناطحه بالكلام هكذا...

بل لم تكن لتعترض على أوامره أبداً...!!!!

ولما طال صمته شعرت هي ببعض الذنب فعادت تتمتم بما يشبه الاعتذار:

_لا أقصد مضايقتك يا عبد الله...أنا فقط....

أغلق الاتصال دون أن يستمع لبقية عبارتها ....

ثم عاد يجلس على كرسيه متجاهلاً اتصالاتها العديدة بعدها...

إنه بحاجة لتنظيم أفكاره ليعرف كيف يستعيدها من جديد ...

لقد افتقدها حقاً جواره ...

لقد أدمن اهتمامها -الكلّي -به وانشغالها عنه مؤخراً يكاد يصيبه بالجنون...!!!!

لكنه لن يسمح لها بهذا...

هي له وحده...ويجب أن تبقي كذلك!!!!

وفي المساء انتظرته هي بلهفة ممتزجة بشعورها -المستحدث-بالذنب...

هي تعترف أنها تشاغلت عنه كثيراً منذ انغمست في عملها الجديد...

لكنها -للحق-لا تراه مجرد عمل...بل عالماً كاملاً من كل ما حُرمَت هي منه طيلة هذه السنوات...

لقد تفجرت ينابيع أمومتها الفطرية كاملةً منذ وجدت نفسها فيه...

لتكتمل أنوثتها الحقيقية فتشعر بعذوبة الارتواء بعد الظمأ...

وهو شعورٌ عظيمٌ حقاً خاصةً لمن افتقده طويلاً!!!!

لكنها مع هذا تعذر عبد الله على غضبته اليوم...

هو تحملها كثيراً طيلة الأيام السابقة ولم يتذمر مراعياً حاجتها للعمل الجديد...

ويجب عليها أن تنتبه إليه أكثر حتى لا تزداد غضبته التي تعلم أنها تحرق في طريقها الأخضر واليابس!!!!

لم تكد تتم فكرتها حتى سمعت صوت مفتاحه في الباب تبعه دخوله بوجه متجهم تعرف أنها ستتعب كثيراً كي تراضيه...

لهذا تقدمت منه بابتسامتها الحانية لتضع كفيها على صدره هامسةً بعاطفة لا تدعيها:

_افتقدتك يا حبيبي...افتقدتك جداً!

أشاح بوجهه في ضيق لم يحاول إخفاءه وهو يرد بتهكم :

_حقاً؟!!!منذ متي؟!!

أحاطت وجنته براحتها تدير وجهه إليها لتتعلق بعينيه وهي تهمس بحرارة:

_لا تعاملني هكذا!! أنت تعلم أنني لا أحتمل منك هذا الأسلوب.

حملت عيناه المزيد من عتابه وهو يقول بجفاء:

_هل تعلمين عدد الليالي التي عدتُ فيها لأجدك نائمة؟!! وفي الصباح تكونين متعجلة للحاق بمدرستك؟!! لقد كدتُ أنسى أنني متزوج!!

عضت على شفتها بارتباك المذنب وهي تداعب وجنته بأناملها لتهمس بعدها بنعومة:

_معك حق...أنا أسرفتُ في الاهتمام بعملي وأنتَ كنتَ مراعياً لأبعد حد...سامحني!

زفر بخفوت وهو يخفض بصره عنها..

فاستطالت على أطراف أصابعها لتقبل رأسه قبل أن تهمس أمام عينيه برقتها :

_صفا روحك تتدلل عليك...ألا يحق لها الدلال؟!!

ابتسم رغماً عنه وهو ينظر إليها بعاطفة لم يغادرها العتاب بعد ...

قبل أن يحيط وجنتيها بكفيه هامساً بصدق:

_أنا مستعدٌ لاحتمال أي شئ في سبيل أن تكوني سعيدة...إلا أن تبتعدي عني...ربما كان هذا خطأك ...أنكِ أسرفتِ في حبي حتى أدمنتكِ .

أغمضت عينيها للحظات وقلبها يخفق في صدرها بقوة ...

ماذا عساها تفعل بعد كلماته هذه إلا أن تحبه أكثر؟!!!

لكن...هل هناك أكثر؟!!!

إنها حقاً تعشقه بكل ذرة في كيانها ...

وتود التكفير عن خطئها بإهماله بأي ثمن...

لهذا فتحت عينيها لتتطلع إليه بنظراتٍ معتذرة قبل أن تهمس بحنانها الفطري:

_اعذرني يا حبيبي...أنت أكثر من يعلم عن معاناتي دون أطفال طوال هذه السنوات...لأجدني فجأة في جنة حقيقية من مشاعر أعيشها معهم بكل طاقتي...لكن مع

هذا...لو كنت تريدني أن أترك العمل فلن أعترض...أنت عندي أغلى من أي شئ.

تنهد في حرارة دون أن يجيبها للحظات...

لقد كان هذا حقاً ما ينتويه الليلة عقاباً لها على أسلوبها الجديد معه...

لكنها نسفت غضبه كله بفيض عاطفتها كالعادة...!!!

عجباً لها من امرأة تستطيع في لحظة أن تكون في غاية الضعف...

لكن ضعفها هذا منتهى قوتها أمامه!!!

لهذا ضمها إلى صدره بقوة اشتياقه وحاجته اللامتناهية لها ليهمس في أذنها بحرارة:

_لن أقوى على حرمانك من شئٍ تعشقينه لكن في المقابل ...لا تحرميني منكِ!!

==========

كان يدور في صالة المنزل بغضب ممتزج بقلقه البالغ وهو لا يدري كيف يتصرف...

لقد عاد للمنزل بعد صلاة العشاء كالعادة لكنه لم يجدها...

حاول الاتصال بها مراراً لكن هاتفها كان دوماً مغلقاً!!!

لهذا لم يجد بداً من الاتصال بأنس ليسأله عنها آخر الأمر لكن هاتفه كان مغلقاً كذلك...

وهو الآن لا يدري كيف يتصرف...

ولا أين يمكنه البحث عنها !!!!

خبط على المائدة بعنف وهو يدور في أرجاء الشقة بعجز ...

يبدو أنها لم تعد منذ غادرتها هذا الصباح...فأين عساها تكون؟!!!

ارتجف جسده بانفعال وهو يتوجه نحو باب الشقة وقد قرر الذهاب لمنزل عمها لعله يسأل أنس عنها...

لكنه فوجئ بها أمامه تفتح الباب وهي تنظر إليه بترقب هاتفةً بلهفة:

_عبد الله!!! هل عدت؟!!!

زأرت عيناه بغضب شيطانيّ وهو يجذبها من ذراعيها بقوة لصدره هاتفاً بحدة:

_أين كنتِ؟!!!

تأوهت بضعف وأصابعه تنغرس في لحم ذراعيها بقوة غضبه قبل أن تقول بخوف لا يخلو من ضيق:

_ما الأمر يا عبد الله؟!!! أنا أخبرتك بالأمس أن حفل المدرسة اليوم...علامَ كل هذا الغضب؟!!!

هز جسدها بقوة بين ذراعيه وهو يهتف بجنون ثائر:

_علامَ كل هذا الغضب؟!!! أعود للبيت ولا أجدك...وهاتفكِ مغلق ...ولا أعرف مكانك...وتريدينني ألا أغضب؟!!!

حررت نفسها من ذراعيه بقوة وهي تهتف بانفعال:

_أحد أطفالي طلب هاتفي ليلعب به ثم وقع منه وانكسر...وانشغلتُ في إعدادت الحفل ولم أتمكن من مهاتفتك...لم أنتظر أن تغضب هكذا!!!

لوح بذراعه وهو يهتف بنفس الثورة:

_صحيح...لماذا أغضب؟!!! المفترض أن أعتاد على انشغالك هذا...على أن تذهبي لأي مكان دون علمي وتعودي في أي وقت!!!!

وضعت كفيها على صدغيها وهي تشعر بصداع عنيف...

لقد كان اليوم حقاً شديد الإرهاق عليها...

وأحدٌ من "أطفالها" سقط من على الدرج واضطرت للذهاب معه إلى المشفى قبل أن تغادره مضطرة بعد أن اطمأنت عليه لتلحق بالحفل الذي تعبت كثيراً كي يبدو في أفضل صورة...

ووسط كل هذا غافلها النسيان فلم تتمكن من الاتصال به لتخبره...

وظنت أنه يذكر حديثها بالأمس عن حفل اليوم...

لم تتوقع منه هذه الثورة العارمة!!!

لهذا زفرت بقوة وهي تقول بانفعال:

_أجّل الشجار للغد يا عبد الله...أنا مرهقة جداً!!!

اشتعلت عيناه أكثر ثم تناول مزهرية كانت أمامه ليلقيها على الأرض فانكسرت بدويٍ هائل زاد من ألم صداعها أكثر...

فوجدت نفسها تهتف بحدة رغماً عنها:

_اهدأ قليلاً...لماذا تعاملني هكذا وكأنني كنت في مرقص؟!!! مادمتَ قلقاً هكذا لماذا لم تتصل ب"أنس" لتسأله عني؟!!!

ورغم أنه فعل هذا حقاً لكن شيطانه جعله يضم أنامله بقوة ليرفع قبضته في وجهها صارخاً:

_لأنه ليس من المفترض أن أسأل رجلاً آخر عن مكان زوجتي...زوجتي التي نسيت نفسها ونسيتني!!!

هزت رأسها بيأس من هذا الحوار العقيم...

ثم تركته لتتوجه نحو غرفتهما حيث استلقت بكامل ملابسها عاجزةً حتى عن تبديلها...

فقط خلعت حجابها لتلقيه بإهمال على أحد الكراسي...

قبل أن تتناول مسكناً قوياً لعلّه يخفف من صداع رأسها هذا!!!

لكنه دخل عليها بعد دقائق طويلة بملامح متجهمة وقد تراجعت ثورته قليلاً ليحل محلها عتابه الصامت...

وهو يقف أمامها قائلاً بجفاء:

_غداً تذهبين معي لنشتري لكِ هاتفاً جديداً...ولن تتحركي خطوة بعد الآن إلا بعلمي....هل تفهمين؟!!!

كادت ترجوه أن يتركها وحدها فهي كانت في غاية الإرهاق والألم...

لكنها اكتفت بقولها المقتضب:

_لا تتعب نفسك...أنا تلقيتُ اليوم راتبي...سأشتريه أنا غداً!

وكأنها بقولها -العفوي-قد أشعلت فتيل ثورته من جديد ...

لتجده يعاود الصراخ فيها بجنون :

_أنتِ لا تعملين من أجل المال...زوجة الشيخ عبد الله لن تنفق شيئاً من مال رجل آخر!!

استفز صراخه ألمها أكثر لتنتفض من نومتها هاتفة بكلماتٍ لم تحسب حسابها حقاً:

_صفا المعموري لا تحتاج لمالك ولا لمال أي أحد آخر....هل نسيتَ من أنا؟!!!

لم تكد تتفوه بعبارتها حتى شعرت بفداحة ما قالته...

لقد ضغطت دون قصدٍ على جرحه القديم معها ...

وعبد الله لن يتسامح أبداً في هذا الأمر!!!!

لهذا كانت دهشتها بالغة عندما اكتفي بإغماض عينيه للحظات ذاب فيها قلبها ندماً ....

قبل أن يفتحهما مخفياً جرح رجولته وهو يقول قبل أن يغادر الغرفة ...

بل والشقة كلها:

_لا لم أنسَ...ولن أنسى!!!

================

استيقظ من نومه على صوت حركتها المضطربة بالخارج...

فقام من فراشه ليتوجه نحو المطبخ حيث مصدر الصوت ليجدها واقفةً تعد الإفطار بحركاتٍ بطيئة من ألمها الذي فضحته أنّاتها ...

عقد حاجبيه بضيق وهو يسألها بخشونته المعهودة:

_ماذا تفعلين؟!!

انتفضت مكانها وهي تلتفت نحوه لتهمس بارتباك:

_أعد الإفطار.

اقترب منها لينتزع الطبق الذي تمسكه بيدها فيضعه جانباً قبل أن يهتف بحنق:

_ألم يوصيكِ الطبيب بالراحة لأسبوعين كاملين؟!!!

ازدردت ريقها بتوتر وهي تتطلع لعينيه بترقب هامسة بصوت مرتجف:

_أرجوك لا تغضب ...أنا لم أقصد مخالفة أمرك....أنا فقط فكرت ...من سيعدّ الإفطار لو لم أفعل أنا؟!!

أشاح بوجهه عن وجهها الذي اكتست ملامحه بالخوف كالعادة...

ثم قال بلهجة أكثر رفقاً :

_أنا لن أذهب للورشة هذين الأسبوعين...سأبقي معكِ لأعتني بكِ.

اتسعت عيناها بدهشة للحظة وهي تنظر إليه مصدومة...

قبل أن تهمس بارتباك :

_لا...لا داعي لتتعب نفسك...أنا..

قاطع همسها المرتبك بحديثه الصارم:

_لا بديل لهذا...لو كانت الأمور في بيت أمي على ما يرام لتركتكِ في رعايتها...لكنني أعرف أن هيام ستستغل شخصكِ الضعيف هذا.

دمعت عيناها وهي تشعر بهوان نفسها لتهمس بعدها بخفوت شديد:

_يمكنني العودة إلى بيت عبد الله.

هز رأسه نفياً وهو يقول بنفس النبرة الحازمة:

_صفا الآن تخرج للعمل...وحتى لو لم تكن كذلك...زوجة راغب درويش لا تخرج من بيته إلى بيت أخيها إلا زائرة!!

أومأت برأسها في طاعة ثم أطرقت برأسها هامسة باستسلام :

_ماذا تريدني أن أفعل؟!!

عاد قلبه يفيض بالشفقة على مظهرها البائس هذا...

فمد كفه ليربت على كتفها...

لكنه ما كاد يلمسها حتى انتفضت بفزع وهي تعود بظهرها للخلف فاصطدمت بطاولة المطبخ لتتأوه بعدها بقوة...

هز رأسه بأسف للحظة ثم اقترب منها ليمسك كتفيها قائلاً أمام عينيها الخائفتين:

_لا داعي لكل هذا الخوف الذي تعيشين فيه...أنا لن أؤذيكِ بعد.

ارتجف جسدها تحت كفيه وهي عاجزةٌ عن الكلام...

ليت الأمر بهذه البساطة...

يريدها ألا تخاف منه وهي التي عاشت أيامها السابقة كلها تخشى مجرد المرور جواره...

إنها -وبرغم شهامته ومروءته مؤخراً معها- لكنها لم تنسَ ما فعله بها منذ تزوجا...

فظاظته الواضحة وخشونة ألفاظه وإهاناته المتكررة...

كل هذا يمتزج مع ذكريات ليلتها الأولى معه والتي أوسعها فيها ضرباً...

وبعد كل هذا يريدها ألا تخاف!!!!

ومع هذا فقد أومأت برأسها في طاعة وهي تتحاشى النظر لعينيه...

وربما لو كانت فعلت لاصطدمت بفيوض عاطفته التي أطلت منهما واضحة وهو يراها بين ذراعيه هكذا!!!!

لكنه تمالك نفسه ليزدرد ريقه الجاف الآن قبل أن يقول لها برفقه -الخشن-:

_استريحي في فراشكِ حتى أعد الإفطار.

ثم التفت نحو الطاولة مردفاً بأسف:

_أنتِ أعددتِ كل شئ بالفعل...لا تفعليها ثانيةً...والتزمي بالراحة !!

عادت تومئ برأسها وهي تنتظر أن يفك حصار كفيه حول كتفيها...

وما إن فعل حتى عادت بخطواتٍ متثاقلة نحو غرفتها حيث استلقت على ظهرها على الفراش كما أمرها...

وبعدها بدقائق عاد ليضع صينية الإفطار أمامها على السرير قبل أن يجلس على طرف الفراش قائلاً:

_هيا...تناولي طعامكِ حتى تتناولي الدواء.

اختلست نظرة خاطفة لوجهه وهي تشعر أن ملامحه الخشنة قد اكتسبت بعض الوسامة...

أم أن هذا تأثير مواقفه الأخيرة معها...؟!!!!

ورغماً عنها وجدت نفسها بلا وعي تقارنه بفهد...!

فهد الصاوي أسطورة حياتها الخيالية...!!

بملامحه الوسيمة ومظهره الأنيق وكلماته المنمقة التي كان يداعب بها أنوثتها بمهارة.

كم يختلف عن راغب ببشرته السمراء التي لوحتها أشعة الشمس ومظهره البسيط وكلماته الخشنة التي تميل معها هي بالذات للقسوة والجفاء!!!!

لكن جزءاً من عقلها نهرها وهو ينبهها أن تنظر للأمر من جانب آخر...

كيف تقارن بين من فضحها ومن تستر عليها؟!!!

بين من أخذ منها أغلى ما تملك دون أن يمنحها اسمه...

وبين من منحها اسمه دون أن يطالبها بشئ؟!!!

بين من تركها وحدها تواجه مصيرها بنذالة...

ومن أبى أن يتركها وحدها في ظروفها الحالية وترك عمله وأهله كرامةً لها !!!!

لم تكد هذه الأفكار تملأ رأسها حتى شعرت بنفسها يراودها إحساسٌ جديد نحو هذا الرجل أمامها...

إحساسٌ بعيد تماماً عن الخوف أو الامتنان...

إنه إحساسٌ بالتقدير والاحترام لرجلٍ يستحق هذا اللقب...

لقب "رجل"!!!!

رفع عينيه إليها فجأة ليلاحظ نظراتها المختلسة إليه فاشتعلت عيناه بنيران عاطفته للحظة ...

قبل أن يطفئها بقوته المعهودة ليكمل إفطاره متجاهلاً النظر إليها من جديد...

وما إن انتهيا من الإفطار -الصامت- حتى أعاد الصينية مكانها للمطبخ ثم بدل ملابسه ليذهب إليها قائلاً باقتضاب:

_سأخرج لإحضار نتيجة التحاليل وبعدها سأذهب للطبيب لأرى رأيه.

قالها وهو يتوجه لباب الشقة دون أن ينتظر ردها...

لكنها استوقفته بندائها الملهوف:

_انتظر!!

قامت من الفراش بصعوبة لتتوجه نحوه هاتفةً بتوسل:

_لا تتركني هنا وحدي...أرجوك...خذني معك.

انعقد حاجباه بغضب وهو يهتف بانفعال:

_ما لعب الأطفال هذا؟!!! هل أنا ذاهبٌ في نزهة؟!!!

ارتجفت أناملها التي رفعتها على صدرها لتهمس بارتباك وسط دموعها التي سقطت رغماً عنها:

_اسمعني فقط...أنا ...لا أعرف هل ستفهم...أنا...

ازدادت ارتجافة جسدها أمام ملامحه الغاضبة...وقد شعرت بسخافة ما تريد قوله ...

لكن ما حيلتها؟!!

إنها الحقيقة للأسف...

إنها تعاني خوفاً مرضياً من الوحدة -يزداد في الأماكن الغريبة-لم تتخلص منه منذ سنوات!!!!

أما هو فقد زفر بقوة وهو يشعر أن كل هذا يفوق احتماله...

لقد أوشك صبره على النفاذ...

لو كان قد نجح -بصعوبة- في التغلب على إحساسه بها ك"امرأة فاتنة"..

فكيف يقاوم شعوره الآن نحوها ك"طفلة مذعورة"..؟!!!!

هذه المرأة ستدفعه للجنون حتماً بفوضى المشاعر التي تثيرها صاخبة في أعماقه...!!!!

اقترب منها أخيراً ببطء ليكظم غيظه بعسر مشبكاً كفيه خلف ظهره هاتفاً بأقصى ما استطاعه من هدوء:

_أنا أسمعكِ ...ما الذي تريدين قوله؟!!

عضت على شفتها بتوتر ثم غمغمت بارتباك:

_منذ وفاة والديّ وأنا أصبتُ بما سماه الأطباء "رهاب الوحدة" .. أخاف البقاء وحدي دوماً في أي مكان...حتى في تلك الفترة التي طلق فيها عبد الله صفا كنت أذهب للبقاء معها حتى يعود عبد الله من عمله...صدقني ...الأمر خارجٌ عن إرادتي...قلبي يكاد يتوقف ذعراً عندما أجد نفسي وحدي في أي مكان.

عقد حاجبيه بإدراك وهو يتذكر حالة الذعر الغريبة التي انتابتها بالأمس عندما تركها وخرج...

فصمت قليلاً ثم تنهد بحرارة عندما أردفت هي برجاء:

_خذني معك ...لن يكون الأمر مرهقاً كما تظن.

نظر لعينيها لحظة بإشفاق شديد وهو يشعر أن إحساسه بها لم يخطئ...

هي مجرد طفلة يتيمة افتقدت حنان والديها ومع شدة طباع أخيها كما يعرفها فقد ضلت طريقها لهثاً خلف أول من طرق باب مشاعرها المحرومة...

لكن الطارق -للأسف- لم يكتفِ بالطرق بل خلع الباب كله ....ليتركها بخطيئتها في العراء!!!!

زفر بخفوت وهذا الأمر يشعل جوارحه بالغضب من جديد...

لكنه سيطر على انفعاله وهو يدفعها برفق أمامه قائلاً:

_حسناً...هيا لتبدلي ملابسك.

تنهدت في ارتياح وهي تراه قد استجاب لدعوتها أخيراً...

لكن ارتياحها لم يدُم وهو يعود معها إلى غرفتها لتجده يفاجئها بمساعدتها في....

تبديل ملابسها ....!!!!!!

كانت تشعر بالخجل يغالب آلام جسدها وهي تختلس نظراتٍ خاطفة نحوه ...

لكن ملامحه بدت باردة تماماً وقد بدت حركاته آلية تماماً على عكس بركان عاطفته الذي كان يثور في أعماقه الآن ...

لقد تعود منذ زمن أن يكبح جماح رغباته...

وقد زادت سيطرته على نفسه بعدما تزوج امرأة تشتهيها كل خلايا جسده لكن عقله وكرامته ورجولته يقفون له بالمرصاد!!!

لهذا بدا كتمثال من الصخر أمامها على عكسها هي التي كادت تذوب أمامه خجلاً حتى أنها لم تستطع أن تهمس بكلمة شكر ...

فقط استجابت لكفيه الذين أسندا كتفيها برفق وهو يسير معها نحو باب الشقة....

وقد شعرت بحاجتها لهذا فقد كانت أقل حركة منها تبعث الألم في جسدها من جديد...

وبعدها بقليل كان معها عند الطبيب عقب استلامهما للتحاليل والأشعة التي طلبها...

نظر الطبيب في الأوراق أمامه ثم تطلع لرؤى بإشفاقٍ واضح قبل أن يسألها باهتمام:

_هل كنتِ تسيرين على حمية غذائية معينة؟!!

اختلست نظرة خائفة كعادتها نحو راغب لم تفوتها عين الطبيب...

قبل أن تهمس بارتباك :

_لا...أقصد ...نعم...لا ..لا أدري.

كانت أفكارها مضطربة وهي لا تدري لماذا يسألها الطبيب عن هذا...

نظراته المشفقة نحوها كانت تخيفها أكثر...

ولا تدري لماذا شعرت وقتها أنها مريضةٌ بمرض خطير...

وربما...تموت!!!!

لكن الطبيب قطع أفكارها المظلمة وهو يقول لراغب بحزم:

_اجعلها تنتظرنا في الخارج فأنا أريد التحدث معك وحدك.

ازدادت نظراتها خوفاً بينما سقط قلب راغب بين قدميه في هذه اللحظة توجساً....

لكنه امتثل لأمر الطبيب قبل أن يعود إليه وحده ليسأله بقلق بالغ:

_ما الأمر يا سيدي؟!!

نظر إليه الطبيب بتفحص للحظة ثم سأله باهتمام:

_ما هي العلاقة بينكما بالضبط؟!!

غمغم راغب بتوتر:

_أنا زوجها.

هز الطبيب رأسه ثم قال بما يشبه اللوم:

_أنت في سن ابني فاقبل نصيحتى...زوجتك تبدو في غاية الذعر منك...لا أريد التدخل في أموركما الشخصية لكنها مجرد نصيحة ...اتقِ الله فيها يا ابني.

أطرق راغب برأسه وقد زادته كلمات الطبيب همّاً على همه...

لكن الرجل عاد للهجته العملية بعدها ليقول :

_تحاليلها طبيعية باستثناء "الأنيميا"...ستحتاج لهذه الحقن تحت الجلد لفترة...مع الاهتمام بالطعام المناسب...أما عن الأشعة...فلا بأس بحالة ظهرها...مجرد كدمات تحتاج للراحة.

زفر راغب بارتياح وهو يسأله بلهفة:

_هكذا فقط؟!!!

ابتسم الطبيب للهفته الواضحة ثم أومأ برأسه إيجاباً قبل أن يوصيه بإعادة التحاليل بعد أسبوعين لمتابعة الحالة...

خرج راغب من عنده ليسندها حتى وصل بها إلى السيارة متحاشياً النظر إليها...

وحديث الطبيب قد زاد من شعوره بالذنب نحوها...

ظلا على صمتهما طوال الطريق...

حتى وصلا إلى شقته فساعدها في تبديل ملابسها...

ثم دفعها برفق إلى الفراش وما إن جلس أمامها على طرفه حتى التفتت إليه تسأله بترقب لا يخلو من خوف:

_ماذا قال لك الطبيب ؟!!!

أطرق برأسه دون أن يرد...

فعادت تهمس بنبرات مختنقة:

_هل قال أنني.... سأموت؟!!

رفع رأسه إليها بحدة وقد وخزت كلمتها قلبه ...

فأردفت بنفس النبرة التي امتزجت فيها براءتها بألمها:

_عبد الله كان يقول أنه لا يجوز أن يدعو الإنسان على نفسه بالموت...لولا هذا لطلبتها من الله في كل صلاة.

ثم أغمضت عينيها لتهمس باستسلام:

_لم أعد سوى وزر ثقيل على الجميع...وعلى نفسي أولاً...صدقني لم أعد أرغب في هذه الحياة...لعل موتي الآن هو الحل الأفضل.

شعر بغصةٍ في حلقه وهو يتأمل ملامحها الشاحبة ...

والتي اكتست بظلالٍ رمادية من يأسها وألمها ...

الآن لم يعد يراها حبيبته التي طعنت قلبه بخنجر غدر مسموم...

ولا زوجةً خاطئة تستوجب العقاب...

بل مجرد فتاة في ورطة تحتاج للمساعدة وهو أبداً لم يبخل على من احتاجه يوماً...

فكيف بها هي؟!!!!

التمعت عيناه بتصميم وهو يجد نفسه قد حسم أمره بشأنها أخيراً...

فتناول كفها يضغطه بين راحتيه قائلاً بحزم:

_افتحي عينيكِ يا رؤى.

بدا وكأنها لم تسمعه للحظات ...

قبل أن تفتح عينيها اللتين اختفى منهما الخوف ليحتلهما ألمٌ خالص مشبعٌ باستسلام من لم يعد يملك من الأمر شيئاً...

ضغط كفها أكثر وهو يقول بنبرته القوية الحازمة:

_انزعي من رأسكِ هذه الأفكار السوداء...أنتِ الآن بخير...وغداً ستكونين بألف خير...مجرد أعراض سوء تغذية نتيجة الأيام السابقة...وسنتجاوز هذا الأمر معاً .

بدأت عيناها تعودان للحياة من جديد ...

وغيوم عينيه القاسية التي طالما هددتها بخوفٍ خانق...

قد انشقت-للعجب- عن سيول من حنانٍ جارف لا تدري متى ولا كيف أغرقها في لحظات...

بينما أردف هو بقوة رأتها الآن سنداً لها وليست عدواناً عليها:

_أنا لن أستطيع أن أكون لكِ زوجاً...لكنني قد أكون كل شيءٍ آخر...صديقاً وأخاً وأباً ...كما تريدين...سنفتح اليوم صفحة جديدة سأساعدكِ فيها بكل قوتي كي تتحرري من كل ذنوب الماضي وتبني نفسكِ من جديد...سيكون هذا عطائي الأخير لكِ قبل أن ...نفترق!

تهدج صوته رغماً عنه في كلمته الأخيرة ...

فازدرد ريقه ببطء وهو يكمل حديثه :

_عندما نفترق ربما تجدين رجلاً يعاملكِ كأميرة تستحقه ويستحقها...أما أنا فلن أستطيع سوى أن أضعكِ على أول هذا الطريق.

دمعت عيناها وهي تشعر بشعور غريبٍ ينتابها نحوه لأول مرة...

شعورٍ لم تستطع وصفه ...

خاصةً مع ارتجافة يديه المحتضنين لكفها والتي رأتها غريبة على قوته وخشونته المعتادة...

مع هذه النظرات الغريبة بعينيه والتي لم تفهمها يوماً...

لكنها بدت لها الآن وكأنها نظرات ....حب!!!!

حب؟!!!

معقول؟!!!

لا....مستحيل!!!

هنا وجدت نفسها تسأله بعفوية فاجأتها هي نفسها قبله:

_لماذا اخترتني أنا بالذات للزواج؟!!

اتسعت عيناه بصدمة للحظة...

لتنفجر فيهما عاطفة كالبركان غشيت عينيها للحظات...

قبل أن يتحكم هو فيها ببراعة كما اعتاد ليحل محلها جدارٌ صلبٌ من مرارة باردة...

وهو يجيبها بكلمة يتيمة:

_نصيب!!

=========

_استيقظي يا رؤى...موعد الدواء!!

قامت من نومها على هتافه الخشن في ظاهره والذي صارت تعرف أنه يخفي خلفه حناناً بلا حدود...

حناناً تذوقته بنفسها طوال الأيام السابقة وتكاد تقسم أنها لم تذق يوماً مثله بعد وفاة والديها...

حتى في علاقتها القصيرة مع فهد ...

والتي تميزت بوهج ثائر من المشاعر الصاخبة لكنها لم تحمل ولو مثقال ذرة من هذا الحنان الذي يفيض من هذا الرجل -الغريب-كشلالٍ دافق بلا منبع ولا مصبّ!!!!

إنه يعتني بها وكأنها ابنته المدللة ...

بل إنه ترك عمله وكل شيءٍ خلفه فقط ليبقى معها عندما علم عن عقدتها -المرضية-بالخوف من البقاء وحدها...

ورغم أنها كانت تحمل هم رفقته التي كانت تراها منفرة لها...

لكنها الآن تشعر أنها أدمنت وجوده هذا...

صحيحٌ أنه لا يزال شديد التحفظ في كلماته بل ونظراته نحوها...

لكن أفعاله تفضح اهتمامه وشعوره...

شعورٌ فسرته هي بأنه مروءة وشهامة...

أو ربما...شفقة...!

وأحياناً ينتابها إحساسٌ أنه يشعر بالذنب نحوها بعد ظروفها الأخيرة...

لكن إدراكها لم يصل بها لأبعد من هذا...

خاصةً بعد حديثه معها عن أنه لن يكون يوماً لها زوجاً!!!

قطع أفكارها عندما وضع صينية الطعام أمامها كالعادة وهو يقول ببعض الرفق -المستحدث-على أسلوبه :

_هذه هي الأطعمة التي أوصى بها الطبيب.

ابتسمت وهي تتطلع لصنوف الطعام أمامها قبل أن يتوقف بصرها على طبق من "البلح الأسود" منزوع القشر والنواة ...وقد وضع جواره شوكة ليسهل عليها تناوله...!!!!

فامتلأت عيناها بحنينٍ ممتزج بامتنانها وهي تقول برقتها -المهلكة-كما يراها:

_سبحان الله...أبي -رحمه الله- كان يقشر لي "البلح" هكذا في صغري لأنني كنتُ أرفض تناوله ...وكان يحشوه لي بال"شيكولاتة" حتى يغريني بالمزيد.

ثم تنهدت بحرارة وهي تردف :

_عبد الله ظل يفعلها لسنوات بعد وفاته لكنه نسي هذه العادة مع الوقت ...كما نسيتها أنا !!

ارتسم شبح ابتسامة على شفتيه وتوهجت عيناه بعاطفته وهو يغمغم بصوتٍ حاول بصعوبة أن يكون جافاً:

_حسناً...في العشاء أحشوه لكِ ب"الشيكولاتة" كما تحبين.

ابتسمت وهي تغمغم بحرج متحاشية النظر إليه:

_لا لا...لا تتعب نفسك...لم أقصد أن...

قاطعها وهو يغرس الشوكة في طبق البلح ثم يضعها في فمها قائلاً بحزم:

_كُلي...وكفاكِ ثرثرة!!

التمعت عيناها بضحكة بريئة يراها لأول مرة منذ تزوجها ...

ضحكة لم تصل لشفتيها لكنها تألقت بنظراتها كشهابٍ ساحر...

لكن الشهاب اختفى سريعاً كما ظهر لتعود لعينيها نظرتهما الكسيرة وهي تمضغ الطعام ببطء قبل أن تطرق برأسها في صمت...

خفق قلبه بجنون وهو يكاد يتوسلها أن تضحك...

حتى لو لم تكن ضحكة الشفاة التي يعرفها...

تكفيه ضحكة عينيها الساحرة هذه والتي بدت وكأنها سرقت من الشمس نورها ومن القمر بهاءه...

هو الذي لم يهتز جسده شعرة لجمال أي امرأة رآها غيرها ...

لكن خلاياه كلها تتمرد بالثورة على تماسكه مع كل تفصيلة من تفاصيل ملامحها مهما كانت بسيطة...

ولا يعرف لماذا هي بالذات شاء القدر أن تكون سيدة قلبه ...

وهي الموصومة بعارها التي لا يرتضيها كبرياؤه الرجوليّ أكثر من مجرد جارية!!!

تنهد بحرارة عندما وصلت أفكاره إلى هذه النقطة...

فرفعت عينيها إليه بقلق هامسة بوداعتها المعهودة:

_ما الأمر؟!!

هز رأسه وهو يشيح بوجهه قائلاً بخشونته :

_لا شئ.

ظلت تنظر إليه بقلق وهي تشعر أن شيئاً ما يؤرقه...

فعادت تهمس بتردد:

_هل يضايقك بقاؤنا هنا؟!! يمكننا العودة لمنزل والدتك متي تحب.

نظر إليها للحظات صامتاً...

ثم قال بحزم:

_لن نعود إلى هناك حتى تأتيكِ هيام بنفسها إلى هنا وتعتذرمنكِ...وساعتها يحق لكِ قبول اعتذارها أو رفضه كما تريدين.

اتسعت عيناها بدهشة للحظة...

فأردف بنفس النبرة الحازمة:

_كرامة زوجتي مثل كرامتي تماماً...لا أسمح أن يمسها أحد!!

رمشت بعينيها للحظات وهي تشعر بالغرابة...

هل هذا الرجل حقيقي؟!!!

يتحدث عن كرامتها التي لا يسمح بالمساس بها رغم فعلتها -الشائنة-والتي تقف إلى الآن بينهما؟!!!

كيف يمكنه أن يكون هكذا؟!!!

مزيجٌ غريب من القوة والمهابة والحزم مع الحنان والتفهم والاحتواء...

ياللخسارة!!!

لو كانت تملك بعضاً من الأحلام الوردية لجعلت له نصيباً منها....

لو كان قد تبقى لها بعضٌ من فُرُش الحب لبسطتها تحت قدميه...

لكنها للأسف صارت الآن فقيرةً من الحب وأحلامه...

مُعدَمةً لا تملك شروى نقير في هذا العالم الذي وطأته قدماها مرة ثم عوقبت بالنفي منه بعد خطيئتها...

فماذا يمكنها أن تمنح له وهي البائسة الفقيرة المعدمة وهو القوي الغنيّ المعطاء؟!!!

هي خالية اليدين معه...

وستبقى كذلك!!!!

لهذا عادت تهمس بصوتٍ غارق في خزيه ومرارته:

_أنا أعرف أنك تحب والدتك جداً...لا أريد أن تخسرها لأجل واحدة مثلي!!

انعقد حاجباه بغضب وقد غلبه طبعه الانفعاليّ من جديد ليهتف مكرراً عبارتها:

_ماذا تقولين؟!!! أخسر والدتي لأجل واحدة مثلك؟!!!!

عاد الخوف لنظراتها التي كانت عالقةً به في ترقبٍ وجِل وقد عجزت تماماً عن فهم ما أغضبه هكذا...!!!!

فزفر بقوة ثم استغفر الله بصوت مسموع...

قبل أن يمسح وجهه بكفيه ليقول بعدها وهو ينظر لعينيها بقوة عاصفة:

_لا شئ في هذه الدنيا يجعلني أخسر والدتي...هي أغلى ما في حياتي...أنا أهاتفها كل يوم للاطمئنان عليها...وخروجي من المنزل لا علاقة له ببرّي لها...لكنني لا أتهاون فيما يخص كرامتي...هذا هو عيبي الذي لم أستطع التغلب عليه للأسف...كرامتي أولاً قبل أي شئٍ آخر.

أومأت برأسها في تفهم وهي تشعر بالمزيد من الاحترام له...

قبل أن يقترب منها أكثر لتلين نظراته وهو يربت على كتفها برفق هامساً بحزم:

_ولا تقللي من شأن نفسكِ بعد الآن...ربما أنا لن أسامح لكن الله غفورٌ رحيم...لا تجعلى من الماضي عائقاً حتى لا تضيعي مستقبلكِ.

دمعت عيناها في تأثر قبل أن تمنحه واحدة من ابتساماتها -المهلكة- وهي تومئ برأسها كطفلة مطيعة...

فازدرد ريقه بتوتر وهو يشيح بوجهه عنها مردفاً :

_أنا "ابن سوق" علمتني الحياة أن أزن الناس بموازينهم...هيام يجب أن تعترف بقوتك حتى تحترمك...لو بقيتِ ضعيفةً هكذا فلن تسلمي من بطشها...يمكنني اختيار الطريق السهل ببقائنا بمفردنا هنا...لكنني أريدكِ أن تتعلمي كيف تكونين قوية...كيف تنتزعين حقك من أنياب السبع كما يقولون!!!

اتسعت ابتسامتها لتشبيهه عندما التفت إليها ليردف بنبرة أرق:

_تعلّمي متى تكونين رقيقة كورقة الشجر ومتي تشتدين كجذعها...حتى تثبتي جذوركِ في أي مكان.

ثم ارتعش صوته رغماً عنه وهو يكمل حديثه:

_لعل هذا يكون الدرس الذي أنجح في تعليمه لكِ قبل أن أخرج من حياتك.

اكتسي صوته بمرارة خاصة في عبارته الأخيرة...

لكنها كانت غافلةً عن هذا وهي تسأله بترقب :

_هل من الممكن أن أسألك عن شئٍ دون أن تغضب؟!!

عاد يربت على كتفها برفق وهو يومئ برأسه مغمغماً :

_قولي ولا تخافي بعد!

ترددت للحظة ثم حسمت أمرها لتسأله:

_هل ستسمح لي بالذهاب إلى الجامعة لاستكمال تعليمي؟!!

ظهرت المفاجأة على وجهه للحظة بدت بعدها علامات الرفض على ملامحه...

فغمغمت برجاء:

_أتمم معروفك معي وساعدني أن أكمل طريقي كما وعدتني.

أطرق برأسه دون رد...

فأكملت بنفس النبرة التي مزجت براءتها برجائها:

_سأقسم لك على المصحف أنني سأحفظ اسمك الذي أحمله...لن أتحرك خطوة واحدة دون أن أخبرك...لو تريدني حتى ألا أتحدث إلى صديقاتي فلن أفعل...صدقني أنا لستُ سيئة كما تظن...أنا فقط كنت...

قطعت عبارتها بدموعها التي غلبتها وهي تشعر بعارها يزيد من ذلها أمامه ...

لتهمس بين دموعها بندم صادق:

_لا يهمّ ماذا كنت...لن أزعم أنني كنتُ ضحية وغد بلا ضمير لأنك لن تصدقني...لكنني حقاً أريد أن أبدأ من جديد ...أن أتحرر من كل قيود خوفي وندمي ...أن أستغل الفرصة التي منحها الله لي.

رفع رأسه إليها أخيراً...

ليميل عليها بجذعه ضاماً رأسها إلى كتفه للحظات...

حتى هدأت حدة بكائها نوعاً فربت على رأسها برفق...

قبل أن يهمس جوار أذنها بشرود مشبعٍ بالمرارة:

_هل تعلمين كيف كانت أول مرة رأيتكِ فيها؟!!كنتُ واقفاً أمام الورشة مساءً بينما كنتِ أنتِ عائدة من أحد دروسك الخصوصية تضمين كتبك إلى صدرك

وتخفضين بصركِ في سيْرِكِ...غافلةً عن أحد الشباب الذي كان يتتبعكِ بعينين لا تحملان خيراً...ورغم أنني وقتها لم أكن أعرف عنكِ سوى أنكِ جارتي في نفس المنطقة...لكنني شعرتُ بالقلق عليكِ .سرتُ خلفكما بمسافة مناسبة حتى أتدخل لو حاول مضايقتك...لكنني رأيته يقترب منكِ أكثر عندما خلا الطريق من المارة ليقول كلاماً لم أسمعه...لأفاجأ بكِ تلتفتين خلفكِ لتضربيه بكتبكِ على رأسه ..

رفعت رأسها إليه وهي تتذكر هذه الواقعة التي يحكي عنها ...

بينما أردف هو بنفس الشرود :

_اقتربتُ أنا منكما وقتها بخطواتٍ سريعة فخاف الشاب وجرى...لكنكِ رفعتِ كتبكِ في وجهي أنا الآخر وكأنكِ تهددينني بها ...رفعت لكِ وقتها كفّي بإشارة مطمئنة فنظرتِ إلىّ نظرة رادعة متوعدة قبل أن تنسحبي بخطواتٍ مندفعة نحو منزلك.

ابتسمت ابتسامة شاحبة وهي تهمس بإدراك:

_لهذا بدا وجهك مألوفاً لي عندما رأيتك أول مرة في منزل عبد الله.

أومأ برأسه إيجاباً ثم أكمل حديثه:

_ليلتها تتبعتكِ حتى عرفت هويتك...رؤى الفاتنة المهذبة شقيقة الشيخ عبد الله والتي يتحدث الجميع عن جمالها وحسن خلقها.

أغمضت عينيها بألم ممتزج بحسرتها وهي تود الآن لو تنشق الأرض وتبتلعها...

حقاً ...كانت كذلك...

كانت مضرب الأمثال في الجمال والخلق...

قبل أن تُضيع هي كل هذا بخطإٍ ساذج...

لا...ليس مجرد خطأ...بل خطيئة!!!!

خطيئة سلبتها فرحتها بتقدير رجلٍ كهذا الذي أمامها...

والذي تتمنى الآن لو كانت الأمور قد سارت معه بصورة طبيعية...

لو كانت له ...قبل أن تكون لغيره...!

لكن للأسف...

لقد تلطخت لوحتها بسواد ماضيها الذي طمس كل ملامحها الجميلة ولم يترك لها سوي الحسرة والندم على ما كان...

عضت على شفتها بألم وهي تنظر إليه لتتمتم بحرارة وسط شهقاتها الباكية:

_أنا آسفة...آسفة.

ظلت ترددها للحظات وعيناها تصطدمان بأحجار عينيه الصلبة بقوتها ...

والتي تفتتت رويداً رويداً مع كل قطرة من دموعها الصادقة ...

لتتنساب شلالات حنانه الجارفة مكانها أخيراً...

وهو يعيد ضم رأسها إلى كتفه هامساً بحزمه الرفيق:

_أنا لا أقول هذا لإهانتكِ أو تقريعك...أنا فقط أذكّر نفسي قبل أن أذكّرك بمن تكونين...لعلّي أتمكن من موافقتكِ على ما ترغبين به.

استسلمت لدفء شعورها -الجديد-به للحظات...

قبل أن ترفع عينيها إليه بنظراتٍ مزجت حيرتها بامتنانها...

فابتسم ابتسامة باهتة وهو يربت على رأسها مردفاً:

_أنا أحب التفكير بصوتٍ عالٍ...كل من يعرفني يعرف هذا عني...هذا فقط كل شئ!!

أغمضت عينيها بقوة وهي تهمس بسخرية مريرة:

_أما أنا فلم أعتد التفكير أصلاً...طالما كنتُ "المفعول به" في جُمَل حياتي كلها !!!

عقد حاجبيه بشكّ وقد راوده هاجسٌ جعله يسألها:

_هل أرغمكِ عبد الله على الزواج مني؟!!

ظلت مغمضةً عينيها للحظات...

قبل أن تفتحهما لينهمر منهما سيلٌ من براءتها المذبوحة وهي تتمتم باستسلام:

_وهل يشكل هذا فارقاً؟!!!

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يشعر بالضيق يتملكه أكثر...

عندما أردفت هي بنفس الاستسلام المختنق:

_هو اختارك زوجاً مثالياً لشقيقته ...ولم يعلم أنها هي التي ليست كذلك!!

أشاح بوجهه للحظات يحاول تمالك شعوره الجارف بها...

ثم عاد يلتفت نحوها ليدفعها برفق حتى أسند ظهرها على وسادتها قبل أن يناولها بعض المناديل الورقية من على الكومود جوارها ليقول لها بعدها متجاوزاً حديثهما السابق....

وهو يراقب ملامحها الحبيبة الشاحبة بحنان:

_سنؤجل التفكير في موضوع الجامعة هذا حتى تستردين عافيتك كاملة...عبد الله هاتفني اليوم ليطمئن عليكِ ...لم أخبره بشأن مرضكِ كي لا يقلق...وأمي أيضاً تبعث إليكِ بسلامها ودعواتها بالشفاء لكنني لا أريد أن يزورنا أحدٌ هنا حتى أشعر أنكِ قد تحسنتِ.

ابتسمت بضعف وهي تهز رأسها موافقة...

فابتسم بدوره ابتسامةً مشجعة وهو يتناول طبق "البلح الأسود" من جواره ليغرس الشوكة فيه من جديد وهو يقول بحزمه الحاني:

_والآن أكملي طعامكِ كله.

====================

_أمي!!

صرخت بها ماسة في فرحة وهي تندفع بين ذراعي رحمة التي غلبتها دموعها هي الأخري وقد عجزت عن الكلام...

فابتسم عاصي وهو يتقدم منهما قائلاً بحفاوة :

_مرحباً بكِ يا سيدتي.

ثم ربت على كتف ماسة مردفاً بلهجته الواثقة:

_بيت ماسة هو بيتك!!

التفتت نحوه ماسة بحدة وهي عاجزةٌ عن التصديق...

عاصي الرفاعي أحضر لها رحمة إلى هنا؟!!!!

أم تراه عزيز هو من أخبرها؟!!!

وقد جاءتها الإجابة مباشرةً من رحمة التي قالت لعاصي بامتنان وسط دموعها:

_أشكرك يا ابني...لم أصدق أذنيّ عندما هاتفتني لتخبرني عن الأمر حتى وصلني رسولك ليلة أمس بتذاكر الطائرة .

أطرقت ماسة برأسها وقتها مكتفيةً بحضن رحمة الدافئ الذي اشتاقته ...

بينما رد عاصي باقتضاب:

_سأترككما الآن وحدكما...لاريب أن لديكما الكثير لتتحدثا عنه!!

قالها قبل أن يغادرهما بخطوات واثقة تخفي ابتسامة ارتياحٍ كبيرة لم تحملها ملامحه منذ زمن بعيد...

ولم يكد يخرج من باب الغرفة حتى جلست رحمة على الأريكة متشبثةً بماسة بين ذراعيها وهي تتأمل وجهها بتفحص لتهتف بصوت مرتعش:

_لا أصدق أنني رأيتك من جديد...كيف هنتُ عليكِ لتتركيني هكذا أكاد أموت قلقاً عليكِ؟!!

قبلت ماسة يدها بعمق قبل أن تدور بعينيها على ملامحها الحبيبة تتفحصها بلهفة هاتفةً بدورها:

_أنتِ بخير؟!!! صحتكِ جيدة؟!!!!

ثم تهدج صوتها وهي تردف بانفعال:

_سامحيني يا أمي...لم أفعلها إلا لأجلك...لأجل أن...

قطعت عبارتها وهي تجهش بالبكاء عاجزةً عن السيطرة على شعورها الحار في هذه اللحظة...

فضمتها رحمة أكثر وهي تربت على ظهرها هامسةً بحنان:

_كفاكِ بكاءً يا ابنتي!!! اهدئي الآن وأخبريني بالضبط ماذا حدث معك؟!!وكيف تزوجتِ هذا الرجل الطيب؟!!

مسحت ماسة دموعها بأنامل مرتجفة من فرط تأثرها ثم ابتسمت مكررة خلفها بسخرية مريرة:

_طيب؟!!

عقدت رحمة حاجبيها وقد أنبأتها لهجة ماسة أنها تخفي الكثير...

فعادت تسألها ببطء متفحص:

_ما الأمر يا ماسة؟!! أريد معرفة كل التفاصيل!!

تنهدت ماسة بحرارة وهي تلتصق بها أكثر قبل أن تتمالك نفسها لتروي لها ما حدث معها منذ تركت بيتها وحتى الآن...

كانت رحمة تستمع إليها بصبر وعقلها يختزن كل التفاصيل الصغيرة التي كانت ماسة ترويها بعفوية...

رغم انفعال قلبها الصارخ بألمه على ابنتها التي واجهت كل هذا وحدها!!!

حتى انتهت ماسة بقولها :

_أنا حقاً لا أفهمه يا أمي...لا أدري لماذا تزوجني أنا بالذات وهو يعرف كل ظروفي؟!!! ولماذا يعاملني بهذه الطريقة الحانية رغم تسلطه...في الوقت الذي يعامل فيه زوجته بأقسى طريقة؟!!! لماذا أحضر عزيز إلى هنا وكأنه يقصد كسري وإذلالي وفي نفس الوقت يهتم بعلاجي حتى أكثر مما أفعل أنا؟!!!

هزت رحمة رأسها وهي تفكر بشرود...

قبل أن تقول بحيرة:

_والأغرب أنه زعم لكِ أنه تزوجك من أجل الولد...ومع هذا تقولين أنه لم يمسكِ حتى الآن تقديراً لظروفك!!!

هزت ماسة رأسها وهي تغمغم بارتباك:

_عندما أكون بين ذراعيه فيحتضنني بحنان الأب الذي حُرمتُ منه طوال عمري أشعر بأمان الدنيا كلها...لكنني عندما أرى قسوته وتسلطه مع الآخرين بل ومعي أنا في بعض الأحيان أشعر أنني أكرهه كما لم أكره أحداً من قبل...خاصةً وقد أجبرني هذا ال"شيطان"كما يلقبونه هنا على هذه الزيجة لأسباب لا أعرفها !!

صمتت رحمة قليلاً تدير الأمر في رأسها قبل أن تقول أخيراً بحكمة سنوات عمرها الطويلة:

_لا أرى "شيطاناً" في كل ما ذكرتِه يا ابنتي...على العكس عاصي الرفاعي معكِ رجل حقيقي كما كنت أتمنى دوماً لكِ...امنحي نفسكِ وامنحيه الفرصة لاستمرار حياتكما معاً ...ربما أنا متحفظةٌ كثيراً بشأن كونكِ زوجة ثانية...لكن قدّر الله وما شاء فعل....لو شئنا الإنصاف لقلنا أن ما فعله معكِ عاصي الرفاعي لم يكن ليقوى رجلٌ آخر على فعله!!!!

أومأت ماسة برأسها موافقة قبل أن يعود لها خوفها وهي تقول بتوجس:

_لكنه قتل رجلاً يا أمي...قتل ابن عم زوجته هكذا ببساطة دون خوف من عقاب أرض أو سماء!!!

انقبض قلب رحمة عند هذه النقطة وقد ظهر هذا على ملامحها التي تغضنت بقلق...

بينما أردفت ماسة بنفس التوجس:

_وزوجته المسكينة التي يحبسها في غرفتها فلا يكاد يزورها أحد والتي تعيش في ذعر من أن يقتلها هي الأخري بعدما تضع طفلها.

ربتت رحمة على ظهرها وهي تقول برفق:

_لا تصدقي كل ما تسمعينه يا ابنتي...أنتِ تستمعين فقط لطرف واحد والقصة لا تكتمل إلا بطرفيها!!

هزت ماسة رأسها نفياً وهي تهتف مدافعة:

_تقصدين أنها تكذب؟!! لا يا أمي...أنا رأيت بعيني كيف يقسو عليها...بل إنني رأيته يوماً يخرج من غرفتها حاملاً سوطاً بيده...لا يا أمي...حورية لا تكذب.

ابتسمت رحمة بإشفاق وهي تقبل وجنة ماسة بحنان قبل أن تقول بتعقل:

_لا أقول أنها تكذب...لكن ربما هي لا تري سوى جزء من الحقيقة...الحنان لا يتجزأ يا ابنتي...وهذا الرجل يمتلك منه الكثير...لكنه يخفيه خلف واجهته الصلبة التي ربما يحتاجها لفرض سطوته هنا!!

تشبثت ماسة بها أكثر وهي تخفي وجهها في طيات ثوبها لتهمس برجاء:

_لا تتركيني يا أمي...ابقي معي هنا أو خذيني معك!!!

دمعت عينا رحمة وهي تشعر بقلبها يتمزق برجائها...

لكنها تمالكت قوتها لتقول لها بحزم:

_لن أستطيع البقاء هنا بالطبع...بل إنني سأرحل بعد قليل وكفاني أنني اطمأننتُ عليكِ...لكنكِ أنتِ ستبقين هنا زوجةً معززة مكرمة لرجلٍ فعل لأجلكِ الكثير الذي يستحق الشكر عليه...رغم أن قلبي لا يسامحه على زواجك القسري به...لكن يشفع له عندي كل ما تلا ذلك من عطفه واهتمامه!!!

قالتها وهي تتمني حقاً لو تفعل كما تطلب ماسة...

لو تبقى هنا معها أو ترحل بها...

لكنها كانت تعلم أن كلي الأمرين الأمرين صعب!!!

ماسة تحتاج لأن تستعيد قوتها بنفسها أولاً ثم بمعونة هذا الرجل الذي تشعر أنه هدية القدر لابنتها بعد كل ما سمعته...

هو فقط تنقصه فرصةٌ تمنحها له ماسة لتراه بوجهه الحقيقي بعيداً عن خوفها وتوجسها...

عاصي الرفاعي-في ظنها-ليس شيطاناً كما تزعم ماسة....

ربما هو كهفٌ عتيقٌ مغلقٌ بأسراره...

لكن الرجل الذي يفعل مثلما فعل هو لابنتها ليس أبداً بشيطان!!!!

قاطعت ماسة أفكارها عندما تنهدت بحرارة وقد عجزت عن الرد....

فتفحصت رحمة ملامحها بحنان ممتزج بالأسف وقد راودها هاجسٌ جعلها تسألها:

_ألازلتِ ناقمةً علىّ لأجل عزيز؟؟! صدقيني يا ابنتي...أنا فعلتها لأجلكِ قبل أن يكون لأجله!!

ابتسمت ماسة بمرارة وهي ترفع رأسها إليها قائلة بيقين :

_لا تفتحي دفاتر الماضي يا أمي....الآن أدركِ كم كنتِ محقة...لم يكن لي....ولم أكن له!!

========

ذهبت لتسأل عنه في غرفة مكتبه لكن أحد الخدم أرشدها لمكانه في ركنٍ بعيد يقع في خلفية القصر....

لقد فهمت من ثرثرة الخادم أن هذا هو أحد أماكن السيد عاصي المفضلة....

والذي يلجأ إليه عندما يشغله أحد الأمور الهامة....

سارت بخطواتٍ مترددة نحوه وهي تتأمل المكان حولها بفضول لا يخلو من رهبة....

المكان كان غريباً عن بقية الحديقة المحيطة بالقصر....

كانت مساحته صغيرةً نسبياً مقارنةً بباقي مساحة القصر الشاسعة وحديقته المحيطة به....

لكنها تبقي شديدة الاتساع بل إنها تعادل ثلاثة أضعاف مساحة شقة رحمة وربما أكثر...!!!

أرضه غير ممهدة مفروشة بالأحجار الصغيرة ....

ووسط كل هذا لا يوجد سوى قائم خشبي علقت عليه لوحة بيضاء بدوائر متداخلة سوداء لم تدرك جدواها لأول وهلة...

وقفت مكانها تتأهب لمواجهته بما جاءت لأجله قبل أن تنظر لظهره المواجه لها والذي انتصب فجأة موجهاً مسدسه نحو هدفٍ ما هناك قبل أن يطلق النار !!!

صرخت مجفلةً للمفاجأة فالتفت إليها بحدة قبل أن يتجاهلها تماماً وهو يعيد التصويب نحو هدف جديد...

كانت قد وصلت إليه عندما كادت أصابعه تضغط على الزناد من جديد فتشبثت بكفه هاتفةً بنبرة مهزوزة:

_هذا الصوت يوترني...اسمعني فقط لدقيقتين...وبعدها سأرحل.

لم يلتفت نحوها لبضع لحظات ظل فيها كفها متشبثاً بكفه وهي تراقب جانب وجهه بشعور غريب...

حتى فوجئت به يلتفت نحوها بحركة مباغتة ملصقاً فوهة مسدسه بصدرها...!!!

شهقت شهقة قصيرة وهي تتعلق بغابات زيتونه التي كانت الآن -للعجب- في قمة صفائها وهدوئها...

لتتوه فيهما للحظات ...

قبل أن تسحب نظراتها منهما قسراً نحو المسدس على صدرها ...

والعجيب أنها لم تشعر بمثقال ذرة من خوف!!!

صوتٌ ما بداخلها يخبرها أن عاصي الرفاعي مع كل قسوته وجبروته لن يؤذيها هي أبداً...

ربما هو يريد أن يكسرها...

أن يخمد لهيب تمردها وعصيانها...

أن يتملك روحها العنيدة التي تستعصي عليه...

أن يستحوذ على قلبها الذي كان يوماً لسواه...

وهو الذي اعتاد أن يتملك كل ما يريد مهما كان الثمن!!!

لكنه مع كل هذا لن يمسها بسوء...

هذا هو شعورها به الذي لن يكذبها أبداً!!!

وكأنه عقدٌ غير مرئيٍ بينهما تقرأه عيناه لها في كل لحظة....

أن يمنحها الأمان الذي تبتغيه دون شروط...

ودون حدود!!!!

لهذا دمعت عيناها في عجزِ من غاب عنه الفهم لكن لم يغبْ عنه الإحساس!!!

بينما سألها هو بنبرة جامدة:

_خائفة؟!!

أغمضت عينيها بقوة وهي تهز رأسها نفياً...

فابتسم ابتسامته الجانبية ولايزال مصوباً مسدسه لصدرها قائلاً بنفس النبرة:

_لماذا؟!

ظلت مغمضة عينيها للحظات وكأنها تخشى أن يقرأ فيهما ما تشعر هي حقاً به...

لكنها لم تشأ أن تبدو ضعيفة أمامه لهذا فتحت عينيها وقد انفرجت شفتاها لتهمّ بالرد عليه بأحد ردودها القوية الساخرة...

لكنه لامس شفتيها بكعب مسدسه قائلاً بثقةٍ :

_لا تتحدثي كي لا تكذبي!!ماسة لم تعد تخاف عاصي الرفاعي بل على العكس صارت تجد أمانها معه...لكن لسانها العنيد لن يعترف بهذا بسهولة.

عقدت حاجبيها بضيق حقيقي وهي تشعر بنظراته المتفحصة تكشف كل خبايا روحها بسهولة...

لكنه أعتقها من أسر نظراته أخيراً وهو يخفض يده الممسكة بالمسدس جواره قبل أن يسألها بترقب:

_لماذا جئتِ؟!!

أطرقت برأسها قليلاً قبل أن تهمس بتردد:

_لقد رحلت أمي منذ قليل...جئتُ أشكرك على إحضارك لها إلى هنا.

ابتسم ابتسامة حقيقية مصبوغة بحنانٍ خاص لم يعرفه إلا لها وهو يعاود سؤالها :

_زعمتِ قبلاً أنكِ لن تشكريني قبل أن تفهمي أسبابي.

رفعت إليه عينيها بأمواجها الفضية التي ترقرقت الآن كأروع ما تكون بأمواج هادئة من سكينتها وهي تهمس بامتنان لم تستطع نكرانه:

_هذا الأمر لا يحتاج لفهم...كفاني أنك جعلتني أراها من جديد...لن تتصور ماذا يساوي هذا عندي.

هز رأسه بتفهم وهو يستمتع بنظراتها الرائقة أخيراً بعد طول فورانها ليقول بحسم:

_بل أدرك تماماً أهمية هذا عندك...لهذا اتفقت معها أن أرسل إليها لتزوركِ هنا مرةً كل شهر...

عقدت حاجبيها بقلق قائلة:

_صحتها لن تحتمل السفر بالقطار لهذه المسافة الطويلة.

اتسعت ابتسامته -الخاصة بها- وهو يقول برفق:

_لا تقلقي....ستذهب وتعود بالطائرة...أنا سأتولى الأمر.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة امتنان رغماً عنها ثم سرحت ببصرها بعيداً وهي تهمس بشرود:

_أمي كانت سعيدة حقاً ...ابنتها التي تعبت في تربيتها طوال هذه السنوات لم تنكسر كما كانت تظن...لقد عادت

لتجدني هنا أعيش سيدةً في هذا القصر...مرفوعة الرأس محفوظة الكرامة....لقد اختفت نظرة الألم التي طالما كانت ترمقني بها بعد الحادث...لتحلّ محلها نظرتها القديمة التي طالما خصتني بها...نظرة تقدير وفخر لماسة لم تخيب ظنها فيها.

ثم اغرورقت عيناها بالدموع وهي تردف بنفس الشرود وكأنها تحدث نفسها:

_لا أدري من الذي اختار لي اسمي...لكن أمي كانت دوماً تقول أنه يليق بي وأليق به...لقد ربتني رغم فقرنا على أن أكون ملكة بحق ...لا بمال ولا بنسب...بل بثراء روحي القوية الواثقة التي تعرف قيمتها مهما كانت الظروف.

تألقت شموسه الزيتونية بدفئها الذي غمرها بإعجاب حقيقي ...

لكنها كانت غافلةً عنه بشرودها وهي تستأنف بَوْحها المنطلق باستفاضة:

_لا تتصور سعادتها بصورنا التي التقطت لنا ليلة الزفاف رغم بساطتها...لقد كانت تضمها لصدرها بكل فخر وكأنها ترى فيها نجاحها هي في تأدية أمانتها

...الطفلة اللقيطة التي تلقفها ذراعاها وهي بعد قطعة لحم حمراء والتي ظلمها الناس قبل أن تظلمها الظروف لم تعد ضعيفة عاجزة بل صارت ....سيدة!!

تهدج صوتها في كلمتها الأخيرة فعضت على شفتها تكتم دموعها قبل أن تتمالك نفسها لتكمل:

_لقد أخذت إحدى الصور لتعلقها في صالة منزلها كما كانت تحلم طوال عمرها ...صورة ماسة بثوب عرسها الأبيض جوار...

صمتت قليلاً وقد قطعت عبارتها بتأثر ...

قبل أن تطرق برأسها مكملةً بصوتٍ أكثر خفوتاً:

_زوجها!

أفلت مسدسه من يده ليسقط جواره ثم اقترب منها ببطء ليحتضن وجهها براحتيه قبل أن يرفعه إليه هامساً بإعجابٍ واثق:

_عندما أسمعكِ تتحدثين هكذا...أدرك أنكِ حقاً ...ماسة!

تجاهلت الرد على عبارته وهي تهرب بعينيها من عينيه اللتين تألقتا ببريق زيتونيٍ آسر لتهمس بامتنان لم يخفِ حسرتها البائسة:

_لم آتِ لأشكرك على سعادتي أنا بحضور أمي فحسب...بل على سعادتها هي أيضاً...سعادتها التي رأيتها بعيني اليوم والتي أفتديها بعمري كله.

داعب وجنتيها بأنامله المحتضنة لوجهها برفق غريب على طبعه القاسي دون رد...

فرفعت عينيها إليه بتردد لتهمس ببعض التوجس:

_ألا تمانع علاقتي بأمي واتصالي بها؟!!

ضاقت عيناه بتفحص متسائل...فازدردت ريقها ببطء لتهمس موضحة:

_لأنها....أمه هو أيضاً؟!

التمعت عيناه ببريق عابث وأنامله تضغطان أكثر على وجنتيها بتملكٍ أدركته بحدسها الأنثوي...

قبل أن يهمس ببطء واثق:

_أنا أثق بكِ كما أثق بنفسي!

ارتفع حاجباها بدهشة للحظة من هذه الثقة التي يتحدث بها عنها...

لتعود عيناها للتّيه من جديد في عينيه ...

وهي تشعر بقلبها تكاد دقاته تفضح انفعالها الآن وتأثرها بهذا المزيج الفريد من المشاعر التي يثيرها فيها هذا الرجل...

لكنه بدا وكأنه يرى قلبها في مرآة خفية لا تبصرها سوى عينيه وحده.....

فقد قرب وجهها إليه أكثر حتى لم يعد يفصل بينهما سوى أنفاسهما...

وهو يسألها بنبرته التي تخلط الحنان بالقوة في مزيج متجانس:

_لماذا لم تعودي تخافين "الشيطان"؟!!

انعقد لسانها للحظات وعقلها يستحلفها ألا تجيب...

لكنها وجدت نفسها تقول بنفس الانطلاق الغريب في البوح الذي لم تعرفه بعد "رحمة" إلا معه هو فقط:

_إنه سرّي الصغير في عينيك...في البداية كانتا تبرقان بقسوة شيطانية مخيفة تثير نفوري...لكنني بعدها بدأت أميز خيوطاً زيتونية لامعة فيهما تدعوني للتعلق بها لعلى أفهمها...أحياناً تبدوان كغاباتٍ كثيفة من الزيتون أتوه فيها فلا أستطيع قراءتهما جيداً...وأحياناً تشتعلان

بجنون فأدرك أنك غاضب...وأحياناً تبدوان وكأن أغصان هذه الغابات تتمايل مع رقة النسيم فيصلني شعورٌ بهدوء روحك...وأحياناً تغرق هذه الغابات في بحارٍ من مرارةٍ لا أفهمها لكنني أشعر بقوتها....وفي أحيانٍ أخري قليلة..تختفي هذه الغابات وتظهر مكانها شموسٌ زيتونية صغيرة تتألق بوهجٍ دافئ يغمرني بالسكينة عندما أحتاجها.

لمست كلماتها قلبه كما لم تفعله به أي كلماتٍ من قبل...

وهو يشعر أن همساتها تشبهها...صادقة...نقية...وآسرة...!!!!

فتوهجت عيناه ببريق خاطف وهما تدوران على ملامحها بتفحص ثائر بعاطفة استشعرها جسدها الذي ارتجف بقوة وهو يعاود سؤالها :

_والآن ...كيف تبدوان؟!

انتبهت لنفسها فجأة ولخطورة ما صرحت به دون وعي...

وقد عاد إليها ارتباكها المذعور وسط فوضى مشاعرها -اللا مسمّاة - نحوه....

فرفعت أناملها ببطء تزيح كفيه عن وجنتيها وهي تستدعي بعض قوتها هاربةً من حصار نظراته لتتجاهل سؤاله قائلةً بتماسك هشّ:

_ماذا بشأن "المشغل" الذي حدثتك عنه؟!!

ظلت عيناه تطوقان ملامحها بقوة تشبهه للحظات...

قبل أن يبتعد عنها متفهماً ارتباكها المشوب بذعرها والذي يعرف أسبابه بعد الحادث الذي تعرضت له....

والذي يقسم لنفسه كل مرة تكون فيها بين ذراعيه أن يمحوه عنها للأبد.....

ثم التقط مسدسه من جديد وهو يعاود النظر للوحة التصويب قائلاً بصوتٍ عادت إليه برودته:

_لقد تدبرتُ لكِ مكاناً قريباً من القصر...يمكنكِ الذهاب غداً مع أحد الحراس لشراء ما يلزمك .

التمعت عيناها بدهشة وهي تهمس بترقب:

_هل ستتركني أخرج من القصر؟!

التفت إليها بنظرة مسيطرة وهو يقول بحزم:

_أظنكِ الآن تدركين جيداً أنك ستكونين تحت عيني في أي مكان...في القصر ...أو خارجه.

زفرت بضيق وقد عاد إليها شعورها بالنفور من هذا القصر الذي يبدو كسجنٍ كبير...

لكنها غمغمت بفتور:

_شكراً يا سيد عاصي.

قالتها وهي تعطيه ظهرها لتتأهب للمغادرة...

لكنها عادت بخطوات بطيئة لتقف قبالته ناظرةً لعينيه بترقب حائر...

ثم همست بما يشبه الاستئذان:

_سؤال واحد يؤرقني بشأنك!!

ابتسم ساخراً رغم شموسه الزيتونية التي كانت تغمرها بدفء سكينتها الآن ليقول بنبرته المسيطرة:

_سؤال واحد فقط؟!! ظننتكِ تملكين عشرات الأسئلة!!!

عاد الخوف يسكن أمواجها الماسية وهي تهمس بصوت مهزوز وكأنها تخشى مجرد السؤال:

_هذا أكثرها قسوة.

ضاقت عيناه بتفحص وهو يومئ برأسه منتظراً سؤالها...

فغمغمت بتردد وهي تخاف إجابته أكثر مما تخاف غضبه:

_هل حقاً قتلت ذاك الرجل ...عدنان؟!!

اشتعلت عيناه بوميض صاخب من غضبٍ شيطانيٍ هائج أغشى عينيها للحظات ...

قبل أن يهتف من بين أسنانه:

_لا تتدخلي فيما لا يعنيكِ....هل تفهمين؟!!

أشاحت بوجهها في انفعال وهي تشعر رغماً عنها أن خوفها منه يعاودها...

فابتعدت عنه متوجهةً نحو القصر بخطواتٍ مندفعة ....

ليرتجف جسدها بخوف حقيقي عندما دوى صوت رصاصاته من جديد خلفها وقد بدا أنه يفرغ غضبه كله في طلقاته المتتالية...

فعادت برأسها للخلف ترمق ظهره المواجه لها بنظراتٍ حائرة...

وهي تهمس لنفسها بقلق مصبوغ باليأس...

_ماذا تراه وراؤك يا سيد عاصي؟!!

==============

كان واقفاً في نافذة غرفته يتطلع للسماء بشرود...

وبينما كان قلبه لايزال عالقاً بين جرحه وذنبه القديم...

كانت أفكاره الآن كلها متجسدة في ماسة!!!

تلك الفتاة التي أدخلها عالمه قسراً وفاءً لدينه القديم...

وليته حقاً يستطيع الوفاء به!!!

ماسة لابد أن تقوم من عثرتها...

أن تستعيد قوتها كاملة لتسير بين الجميع مرفوعة الرأس...

فلا يعيرها أحد بنسب مفقود لم يكن لها ذنب فيه....

ولا بجريمة من الظلم أن تكون فيها الضحية التي تنال كل العقاب!!!

قطعت أفكاره عندما سمع صوت طرقاتٍ واثقةٍ على باب غرفته...

فابتسم بثقة وهو يكاد يقسم أنها هي!!

هي الوحيدة في هذا القصر التي تطرق باب غرفته بهذه الثقة ويحق لها أن تفعل...

فهو مهما بلغت قسوته على الجميع...

تبقى لها هي عنده مكانةً خاصة!!

ربما لأنه تفجر مشاعر أبوّته التي حُرم منها...

وربما لأنه حقاً معجبٌ بقوتها وصلابتها...

وربما لأنها تذكره بتلك التي كانت يوماً مثلها ورحلت...

رحلت دون أن يستطيع مساعدتها للأسف!!!

وربما هو مزيجٌ من كل هذا!!!!

توجه نحو الباب ليفتحه بقوة فطالعه وجهها الذي يتشبث بحبال صلابتها وهي تقول دون أن تنظر إليه:

_كنت أريد أن أستأذنك أن تعيد إلىّ هاتفي...لأطمئن على أمي.

سحبها من ذراعها إلى الداخل ليغلق الباب خلفها ويسندها عليه ممسكاً بكتفيها قبل أن يقول بحزم:

_عندما تريدين شيئاً فلا تطلبيه على باب غرفتي كالمتسولين...أنتِ الآن سيدة هذا القصر.

هربت بعينيها من نظراته التي تسرق منها تماسكها وهي تشعر رغماً عنها بالكثير من الامتنان له...

حتى لو كان "شيطاناً" مع الجميع...فهي لا تراه معها كذلك كما قالت لها رحمة !

لهذا أومأت برأسها في طاعة دون أن تنظر نحوه....

ليصلها همسه القوي المشبع بسيطرته:

_غداً أجلب لكِ هاتفاً جديداً!

تنحنحت بحرج لتشعر بارتباكها يعاودها وهي تقف أمامه هكذا بهذا القرب...

فقالت لتنهي الحوار:

_شكراً وأعتذر على إزعاجك...تصبح على خير.

قالتها وهي تعشم نفسها بفرار سريع من حضوره الطاغي هذا!!

لكنه أجهض فكرتها عندما رفع ذقنها إليه ليهمس أمام عينيها:

_لماذا اعتذرتِ الليلة عن العشاء معي؟!

انعقد لسانها وهي عاجزة عن الرد...

ماذا عساها تقول له؟!!!

أنها تحاول الهرب من تواجدها معه لأنها لم تعتد هذه المشاعر الضبابية التي تجتاحها في وجوده؟!!!

هي التي لم تعرف في حياتها سوى بياض الحب أو سواد الكراهية...

لكنه يجبرها على وضعه في خانةٍ رمادية باهتة فلا تكاد تعرف وصفاً لما تشعر به معه!!!

لهذا كانت نفسها تسول لها الكذب بأي عذر...

لكنها كانت تعلم أنها حتى لو أرادت فهو سيكشف خبيئتها بسهولة كعادته...

لهذا اكتفت بصمتها المرتبك ولازال هو يحيط ذقنها بأنامله ليهمس بعد لحظات:

_هل تعلمين؟!منذ زمنٍ بعيد...كنت أجيد الرسم ...ليتني رأيتك وقتها ...كنتُ سأصنع من وجهكِ لوحةً أسطورية!!

توردت وجنتاها بخجل أبت الاعتراف به...

لتستعيد سيطرتها على قوتها بسرعة وهي ترفع إليه عينيها بسهامها الفضية المشتعلة الآن قائلة:

_اليد التي تمسك سلاحاً لن تستقر فيها فرشاة رسم....والقلب الذي يستهويه إرهاب الأرواح لن تشبع نهمه مجرد لوحة!

لم تكد تنتهي من عبارتها حتى شعرت ببعض الندم ...

مع بحار المرارة التي غرقت فيها غابات زيتونه وهو يتمتم بعد لحظات بنبرة غريبة:

_معكِ حق!!

اتسعت عيناها بترقب وهي تشعر أنها تتمنى الآن بحق لو تغوص في عينيه أكثر...

لو تقرأ في حديثهما الصادق- الذي لا يَخفي عليها- كل ما كان من ماضيه...

لو تروي ظمأ فضولها نحو هذا الرجل الذي تخطى كل دوائرها التي تحيط به نفسها...

ليصل لمركزها ويثبت قدميه هناك...

فيصير فجأة هو الأقرب إليها....مع أنه حقاً أبعد ما يكون!!!

طال شرودها في عينيه المشبعتين بألغازه...

فلم تشعر باقترابه -الخطير- منها حتى لم يعد يفصل بينهما سوي صوت تردد دقات قلبها المذعورة...

وأنامله تتلمس شفتيها برفق قبل أن يهمس ببرود مشتعل لا يجيده مثله:

_هل منحتِ شفتيكِ طواعيةً لرجلٍ قبلي؟!!!!!

اتسعت عيناها للحظات بصدمة من سؤاله وهي تكاد تُكذّب أذنيها فيما سمعته....

قبل أن تزأر أمواجها الفضية بغضبها الهادر وهي تشعر بالإهانة...

لتجد نفسها دون وعي تدفعه ببعض الخشونة وهي تهتف بانفعال:

_ومادمتَ تشكّ في هذا فلماذا قبلتَ الزواج من فتاةٍ مطعونةٍ في شرفها؟!!!

عاد يتشبث بكتفيها بقوة أكبر وهو يعتقل نظراتها التي مزجت قوتها بجرحها في مزيج مدهش...

ليهمس بعدها ببطء وكأنه ينقش كلماته على جدران روحها:

_أنا -قطعاً- لا أشك...أنا أريدكِ أنتِ أن تقوليها...أن تتذوقي حروفها...أن ترفعي رأسكِ بها لتتخلصي من شعوركِ القديم بالانتقاص.

ثم عاد يتلمس شفتيها من جديد هامساً بنبرةٍ أكثر دفئاً:

_ماسة لم تمنح نفسها ولن تفعلها إلا...لزوجها...

ثم اشتعلت عيناه أكثر وهو يردف بتملّك حاسم:

_أنا!

ارتجف جسدها بانفعاله وهي لا تدري هل زادتها كلماته ثقةً وقوةً..

أم أورثتها المزيد من الضعف تجاهه؟!!!

وقد تشوشت نظراتها عندما شعرت باقترابه يزداد خطورة...

مع اختناق أنفاسها الذي بدا واضحاً وهي تشعر أنها على وشك السقوط أرضاً!!!

لكن طرقاتٍ مترددة على باب الغرفة الذي تستند عليه أنقذتها....

فأغمضت عينيها ببعض الارتياح وهي تشعر به يزيحها جانباً ليفتح الباب بغضب شعرت به وإن لم يبدُ في صمته الأسود...

عندما اخترق مسامعها هتاف الممرضة الجديدة التي ميزت صوتها:

_أدركنا يا سيدي...السيدة حورية...!!!!!

لم ينتظر إتمام عبارتها وهو يندفع نحو غرفة حورية التي كانت ممددةً بلا حراك على فراشها...

فالتفت للممرضة التي جاءت خلفه عدواً لتهتف بجزع:

_إنها تنزف...وأخشي أنها قد ...فقدت الجنين!!!

==============

الفصل السادس عشر:

رن الجرس في منزل رحمة ففتحت الباب لتضحك بارتياح لم تعرفه منذ زمن بعيد قبل أن تهتف بحنان:

_عزيز!! افتقدتك يا ابني!!

فتحت له ذراعيها كعادتها لتفاجأ به يلقي رأسه على كتفها بإنهاك وهو يضمها بقوة احتياج استشعرته أمومتها بصدق...

فربتت على ظهره برفق وهي تسأله بقلق:

_ما الأمر يا عزيز ؟!!أنت لا تبدو بخير!!

ظل صامتاً للحظات قبل أن يرفع وجهه نحوها ليبتسم قائلاً بمرارة:

_على العكس...أنا في طريقي لأكون بخير!

انعقد حاجباها بقلق وهي تغلق الباب خلفه لتجذبه من كفه نحو الأريكة حيث ضمته لحضنها وهي تجلس جواره لتهتف بجزع:

_ماذا حدث؟!هل تشاجرتَ مع زوجتك؟!

أطرق برأسه دون رد للحظات...

قبل أن يتجاهل سؤالها ليسألها باهتمام:

_لقد مررتُ عليكِ هنا بالأمس ولم أجدكِ...وهاتفكِ كان مغلقاً...أين كنتِ؟!!

تلون وجهها بمشاعر شتى وهي تجيبه بصوت متهدج:

_كنت عند ...ماسة!!

اتسعت عيناه بصدمة قبل أن يبتعد عنها بجسده ليسألها بتشتت وسط انفعاله:

_وكيف عرفتِ مكانها؟!!هل اتفقتِ أنتِ الأخرى مع أبي؟!!

تنهدت بحرارة وهي تربت على كتفه قائلة بهدوء :

_ماسة أخبرتني عما فعله والدك ...هو من سعى لإبعادها عن هنا إلي قصر عاصي الرفاعي...لكنني بالطبع لم أكن أعلم شيئاً عن هذا.

ثم أردفت بإشفاقٍ أمام الألم الذي غزا ملامحه:

_وكم أود الآن لو أشكر أباك على فعلته...عاصي الرفاعي هو الرجل الذي كنت أتمناه بحقٍ كزوج لها.

اشتعلت ملامحه بغضبه وهو يهتف بانفعال :

_بالطبع...عاصي الرفاعي القوي الجبار المتسلط هو الذي يليق بماسة...لكن عزيز الضعيف المتخاذل لا يستحق سوى أن يعيش عمره نادماً عليها!!!

انعقد حاجباها بقلق ممتزج بالدهشة من لهجته العاصفة التي لم تعتدها...

بينما أشاح هو بوجهه صامتاً للحظات...

قبل أن يقول باقتضاب:

_أنا طلقت ميادة!

شهقت بجزع وهي تضع كفها على صدرها هاتفةً باستنكار:

_طلاق؟!!! لماذا يا ابني؟!

كز على أسنانه وهو يلتفت إليها ليهتف بحزم:

_لقد ذهبت إلى أبي وواجهته بما علمته...وتخليتُ له عن كل ما منحه لي...الشركة والسيارة ورصيد البنك..

ثم صمت لحظة ليردف ببعض التهكم المرير:

_والعروس الفاخرة التي انتقاها لي!

هزت رحمة رأسها باستنكار ممتلئ بحسرتها وهي تهتف بحدة:

_وزوجتك ما ذنبها؟!! هل سحبتك مغمض العينين للمأذون دون إرادتك؟!!لماذا تحمّلها هي ذنب ضعفك؟!!

قام من مكانه ليقف هاتفاً بسخط:

_أنا لم أحملها ذنب شئ...هي تزوجت عزيز شاكر ابن المليونير...صفقتها الرابحة كما كانت دوماً تزعم...والآن لم أعد أنا كذلك...لقد تركتُ له كل شئٍ بإرادتي...وسأبدأ من جديد هنا معكِ أنتِ...وهي لن تحتمل شيئاً كهذا!!

استغفرت الله بصوت مسموع وهي تقوم بدورها لتربت على كتفه محاولةً كظم غيظها ....

ثم قالت له محاولةً احتواء انفعاله العاصف:

_اجلس هنا وأخبرني بالتفصيل عما حدث...حتى أعطيك رأيي.

زفر بضيق وهو يطرق برأسه قبل أن يستجيب لدعوتها فيجلس جوارها مخبراً إياها بتفاصيله ...

صدمته برؤية ماسة بعد كل هذا الفراق ليجدها قد تزوجت...

وليتها تزوجت رجلاً طيباً يطمئن عليها معه لكنها تزوجت رجلاً هو مضرب الأمثال في القسوة والتسلط...

ومواجهة ماسة العاتبة له على ضعفه وتخاذله...

وبعدها مواجهة ميادة له بنفس الحقيقة مع استهزائها وقسوة كلماتها...

والتي تبعتها بمفاجأتها عن أن والده هو الذي كان خلف كل هذا...

ساعتها لم يشعر بنفسه وهو يرغب في التمرد على كل شئ...

حتى على نفسه هو!!!!

لهذا ما كاد يلقي عليها يمين الطلاق حتى اندفع نحو منزل والده ليواجهه بما عرفه...

والده الذي انفعل عليه بحديثه ليخبره أنه لازال غراً ساذجاً يحتاج لمن يوجهه وأنه لم يفعل هذا إلا لمصلحته...

لكن عزيز الذي كان قد فاض به الكيل واجهه وقتها بكل ما في صدره من سخط وألم...

ليس بسبب ماسة فحسب بل بسبب الماضي كله....!!!!

ليتركه بعدها وقد عزم على قراره الأخير...

سيختار لنفسه بدايةً جديدة بيده هو هذه المرة...

لا كما يريدها له أي أحد!!!

بينما كانت رحمة تستمع إليه بمزيج مختلف من مشاعرها المتخبطة...

بقدر ما هي سعيدة لأنه تحرر من قيود أبيه التي طمست شخصيته طوال عمره...

بقدر ما هي حزينة لأجله ولأجل تلك التي ظلمها دون سبب...

لهذا ربتت على كتفه برفق لتقول بعد تفكير :

_طالما الأمر كما تقول...فلماذا حرمتَها حق الاختيار؟!!لماذا حكمت وحدك على علاقتكما دون أن تسمع رأيها؟!!

ابتسم ساخراً ليرد بتهكم:

_وهل تظنينها تقبل أن تأتي لتعيش هنا وتبدأ معي من تحت خط الصفر بعيداً عن أموال السيد شاكر؟!!

ابتسمت رحمة وهي تومئ برأسها لتقول بحكمة:

_لا تحكم على أحد قبل أن تمنحه لحظة اختيار حر...وقليلةٌ هذه اللحظات في حياتنا...قليلةٌ حقاً لكنها فارقة!!

أشاح عزيز بوجهه وهو يحاول التفكير في كلماتها...

عندما اصطدمت عيناه بصورة ماسة مع عاصي ليلة زفافهما معلقةً على الجدار...!!!!

ليجد نفسه دون وعي يتقدم نحوها بخطواتٍ بطيئة وروحه تكاد تكذّب عينيه فيما تراه...!

هذا هو المكان الذي اختاره مع ماسة يوماً ليعلقا عليه صورة زفافهما يوماً ما كما كانا يحلمان...

فتشاء الظروف أن يتحقق الحلم ...

بنفس العروس ونفس الثوب ونفس الصورة على نفس الجدار...

لكن....دونه هو!!!

فيالخسارته...عندما يتحول الحلم إلى كابوس!!

لكن رحمة تقدمت منه وهي تلاحظ تعلق بصره بالصورة لتربت على ظهره قائلةً بحنان ممتزج بشفقتها:

_لا تنتظر قطاراً فاتك موعده...لقد مضت في طريقها ...وانتهى الأمر.

أومأ برأسه صامتاً للحظات...قبل أن يكرر عبارتها بحسرة مختنقة بألمها:

_وانتهى الأمر!

تنهدت رحمة بحرارة وهي تشعر بقلبها يكاد ينفطر حزناً عليه...

لكن عزاءها أن انتفاضته التي خلفت كل هذا التمرد ستصنع منه رجلاً جديداً...

رجلاً تفخر بأنه ابنها حقاً...

وليس مجرد كيان مهمش يتوارى خلف أستار أبيه...!!

لهذا ابتسمت ابتسامة حقيقية مفعمةً بالارتياح عندما التفت هو نحوها ليهمس بصوت متعَبٍ رغم حزم عبارته:

_أنا أحتاج للنوم الآن...وأعدكِ أن أفكر في كلامك.

=================

بدلت ميادة ملابسها وهي تستعد للخروج ....

الألم لا يحتمل هذه المرة وتلك الحقنة "اللعينة" التي طلبتها من الصيدلية جوارها لم تعد تحدث مفعولها القديم...

ويبدو أنها تحتاج للذهاب للمشفي لكنها لا تريد أن تشعر والدتها بشئ...

كتمت آهة ألمها وهي تنحني على نفسها ممسكةً بطنها بقوة...

قبل أن تنهار جالسةً على فراشها وهي تحاول الانتظار قليلاً لعل مفعول الحقنة يظهر مع الوقت...

ثم انهمرت دموعها رغماً عنها لا تدري ألماً أم خيبة...

بل...ربما اشتياق!!!

نعم...اشتياقٌ لرجلٍ لفظها من حياته كخرقة بالية دونما تردد...

بعدما منحها -بسخاء- كل ما حُرمت منه طوال عمرها...

ذاك الحنان الفائض الذي احتواها بدفئه بعد سنوات الصقيع هذه...

وأقام جدار روحها الذي كاد أن ينقض دون أن يتخذ عليه أجراً!!!

لقد منحها شربة الماء بعدما أنهكها الظمأ ثم عاد يسحب الكأس منها بعدما أدمنت عذوبته!!!

للأسف...لقد دخل قلبها في حساباتها رغماً عنها...

وكسرها بدقاته الخائنة...!

لكنها لن تستسلم لكل هذا...

عقلها سيبقى سيد قراراتها دون شريك....

والصفقة مع عزيز الآن خاسرةٌ بلا جدال...

وهي امرأةٌ لا تحب المجازفة !!!!

وعلى باب شقة والدتها كان هو واقفاً يطرق الباب بتردد وهو يخشي عواقب هذه الزيارة...

هو لا يريدها أن تعود إليه...

فقد صارت بالنسبة إليه مجرد رمزٍ من رموز تسلط أبيه على حياته...

وهو طمس تلك الرموز كلها بتخلّيه عن كل شئ...

فلماذا يُبقي عليها هي؟!!

لكنّ رحمة كانت محقة في حديثها...

طالما اختارا البداية معاً فلابد أن يختارا النهاية معاً كذلك...

لهذا قرر أن يأتيها اليوم ليشرح لها ظروفه الجديدة...

فإما قبلت العيش معه على حاله البسيط ...وإما رفضت...

وليتها تفعل فتريح نفسها وتريحه!!!

قُطعت أفكاره عندما فتحت والدتها الباب لتطالعه بدهشة ممتزجة باستيائها قبل أن تغمغم بفتور:

_تفضل يا ابني.

دخل بخطواتٍ متثاقلة وهو يتحاشى النظر لعينيها العاتبتين ليسألها بتحفظ:

_ميادة هنا؟!كنت أريد التحدث إليها.

هزت المرأة رأسها وهي تغمغم بحسرة:

_لقد أصابتكم "العين" يا ابني...لا أصدق أنك طلقتها بهذه السرعة!!

ثم رفعت إليه عينيها لتهمس بعتاب مشوب بالخزي:

_ألم تفكر في سمعتها وماذا سيحكي الناس عن سبب طلاقها السريع هذا؟!!

اتسعت عيناه بصدمة وهو ينتبه الآن فقط لما تحكي عنه...

كيف لم يفكر في هذه النقطة من قبل؟!!

بل كيف لم يكترث أنه طلقها هكذا مباشرةً بعدما كان بينهما تلك الليلة؟!!

لقد تصرف كوغدٍ حقير نالها ثم تخلص منها!!!

شعر بوخزٍ في ضميره عندما راودته هذه الفكرة فازدرد ريقه بتوتر ليقول ببعض الأسف:

_أين هي الآن؟!

التفتت المرأة نحو غرفة ابنتها المغلقة لتقول بأسي:

_لا أدري ماذا بها..لقد اتصلت تطلب حقنةً ما من الصيدلية ودخلت بعدما استلمتها إلي غرفتها دون كلمة واحدة...وأنا آلمتني يداي من كثرة الطرق على الباب لكنها لا تريد أن تفتح لي...ميادة عنيدة في العادة وعندما تتألم يزداد عنادها أكثر...هذا طبعها للأسف!

انعقد حاجباه بقلق وهو يشك أن آلام معدتها قد عاودتها لكنها لا تريد أن تخبر والدتها عن الأمر كالعادة...

لهذا تنهد بضيق قبل أن يقول للمرأة بنبرة استئذان:

_أنا سأجرب ...ربما سمحت لي بالدخول!

أشرق وجه والدتها بالأمل وهي تدعو الله سراً أن يصلح بينهما...

بينما تقدم هو نحو غرفتها ليطرق الباب برفق قائلاً ببعض الحزم:

_ميادة...افتحي..أنا عزيز!

شهقت بعنف ضاعف ألمها وهي تسمع صوته خلف الباب ...

لماذا أتى الآن؟!!ولأي غرض؟!!

كان قلبها يتوسلها أن تفتح لتراه فربما جاء معتذراً نادماً...

لكنها أحرقت توسلاته بنيران غضبها وهي تتمالك صوتها بصعوبة لتهتف :

_لا أريد أن أرى أحداً...اذهب!

ربما في ظروفٍ أخرى كان سيقتنع بهذا القول بل ويتخذه ذريعةً للذهاب حقاً بلا عودة...

لكنه يعتقد الآن أن تلك الحمقاء مريضة وتكابر وهو لن يتركها هكذا خاصةً وهو يعلم عقدتها مع والدتها والتي ستجعلها تخفي ألمها عنها...

لهذا عاود طرق الباب بقوة أكبر وهو يهتف ببعض الحدة:

_دعيني فقط أدخل لنتحدث!!

انطلقت منها آهة غادرة كتمتها بكفها وهي تفكر في تجاهله حتى يملّ ويرحل...

لكن كبرياءها سول لها أن تفتح له الآن لتكيل له سيلاً من إهاناتها تشفي به غليلها منه...

أو ربما هذا ما حاولت أن تقنع به نفسها استجابةً لنداءات قلبها الضعيفة...

لهذا تحاملت على نفسها لتتوجه نحو باب الغرفة فتفتحه لتهتف بغضب:

_ماذا تريد؟!!ليس لديّ وقتٌ لك..أنا في طريقي للخروج.

انعقد حاجباه بغضب من لهجتها المنفرة لكن عينيه وقعتا على تلك الحقنة الفارغة الملقية هناك على طاولة زينتها لتتأكد ظنونه...

فدفع الباب بقوة ليدخل ويغلقه خلفه مستغلاً مفاجأتها بحركته قبل أن يسألها بقلق لا يدعيه:

_أنتِ مريضة؟!

كزت على أسنانها بقوة تكتم صرخة ألمها لكن دموعها خانتها فأغلقت عينيها بقوة لتهمس وسط دموعها بصوت خفيض متقطع :

_لم يعد لك شأنٌ بهذا...أنا...بخير...ولا تخبر..أمي!!

انفلتت منها آهة قصيرة بعدها رغماً عنها وهي تنثني على نفسها ممسكةً بطنها بألمٍ غزا ملامحها...

فأمسك كتفيها هامساً بحزم:

_لابد أن نذهب للمشفى...هذه هي نفس الحالة التي أتتكِ من قبل...طالما الحقنة لم تحدث مفعولاً.

رفعت عينيها إليه بدهشة متسائلة عن كيفية علمه بهذا...

لكنه جذبها من مرفقها برفق هاتفاً :

_هيا بنا!!

نزعت مرفقها منه بعنف وهي تهمس بحدة رغم خفوت صوتها المختنق بألمه:

_أنا كنت في طريقي للمشفي فعلاً...سأذهب وحدي...لكنني لا أريد أن تشعر أمي بشئ...لهذا اذهب الآن من فضلك...وشكراً لشعورك النبيل!!

قالتها وهي تتناول حقيبتها لتضعها على كتفها ثم فتحت باب غرفتها متوجهة نحو الباب الخارجي للمنزل وسط نظرات والدتها المترقبة ...

لكنه لحق بها على السلم ليمسك كفها قائلاً بصرامة:

_سآتي معك!!

حاولت تخليص كفها من كفه لكنه كان متشبثاً به في استماتة...

فهتفت بانفعالٍ زاده ألمها:

_سأكون بخير وحدي ...كما كنتُ دوماً.. لن...

لم تستطع إكمال عبارتها مع تلك الصرخة الطويلة التي أطلقتها ....

والتي أوجعت قلبه حقاً فضم كتفيها إليه بذراعه دون أن يرد وهو يهبط بها الدرج ...

حتى وصل بها إلي سيارتها فهتف بحزم:

_هاتي مفاتيح سيارتك فلم تعد لديّ واحدة.

نظرت إليه بتردد للحظة وهي عاجزة عن التفكير....

لكنه جذب منها حقيبتها بسرعة ليستخرج منها المفاتيح قبل أن يفتح السيارة ليجلسها برفق..

ويجلس هو على كرسي القيادة متوجهاً للمشفى القريب...

وهناك قاموا لها بفحوصات كاملة قبل أن يعتنوا بها علاجياً حتى هدأت تلك النوبة المعتادة...

وبعدها جلس هو جوارها أخيراً على طرف الفراش ليهمس بحنان لا يخلو من بعض التحفظ:

_حمداً لله على سلامتك.

أشاحت بوجهها لتهمس بفتور:

_شكراً...لم يكن هناك داعٍ لتعبك...أنا كنت سأتدبر أمري.

أطرق برأسه وشعوره بالذنب نحوها يتملكه أكثر...

بينما قاومت هي شعور قلبها الجارف -المستحدث-نحوه باستماتة...

لتعاود الالتفات نحوه قائلة بصلابة:

_لماذا جئت اليوم؟!

رفع عينيه إليها طويلاً بأشعته الزمردية التي تطوق روحها بحنانٍ لم تعرفه إلا معه...

ليسألها فجأة دون مقدمات:

_هل تريدين أن أعيدك لعصمتي؟!

رفرف قلبها بسعادة غامرة عندما داعبها الأمل في أن يعود بدفئه لحياتها...

لكنها لم تشعر بها مع تلك الصفعة التي شعرت بها من وقع كلماته التي لم تحمل اشتياقاً ولا ندماً...بل مجرد أطياف ذنب!!!

لهذا اغتصبت ابتسامة قاسية على شفتيها وهي تميل رأسها قائلةً بحزم:

_شكراً لكرمك الحاتمي سيد عزيز!!

انعقد حاجباه وهو يتفحص ملامحها التي بدت متنمرةً رغم إنهاكها...

ليهمس بتردد:

_هل ترفضين؟!

ارتجف جسدها بقوة انفعالها وهي تهتف به بحدة:

_نعم ..أرفض...وللأبد!!

فزفر بحرارة مطرقاً برأسه قليلاً وهو يشعر أنه لم يعد يفهم نفسه...

لقد كان ذاهباً اليوم إليها وهو ينتظر جملةً كهذه كي يغلق معها هذه الصفحة للأبد...

لكنه الآن-بعدما سمعها منها- لا يريد أن يتركها ويرحل...!!

هل هو مجرد شعور بالذنب وتأنيب الضمير...؟!!

أم أنه حقاً بدأ يجد لها مكاناً وسط زحام مشاعره ؟!!!

هو لا يعرف!!!

حقاً لا يعرف!!!

لهذا احتضن كفها برفق في راحته ليهمس أمام عينيها بصدق :

_أنتِ حقاً رائعة...لكنني لا أستطيع البقاء معكِ!

أغمضت عينيها بألم خدش جدران روحه وهي تعود برأسها للوراء وجملته الأخيرة تعيدها لذكريات طفولتها الخانقة لتجد نفسها تهمس دون وعي :

_والداي أيضاً كانا يقولان هذا قبل أن يتركاني كل مرة !

اعتصرت عبارتها قلبه ليتشبث بكفها أكثر...بينما بدت هي وكأنها لا تراه بل ترى شريط ماضيها...

حيث كان والداها يكتفيان بزيارات متباعدة لها عند جدتها...

زياراتٍ محملة بالكثير من الهدايا الباهظة لكنها كانت بعينيها زهيدة بخسة...

وهي تناشد كلاً منهما البقاء كل مرة معها ...

أو حتى أخذها هي معهما لكنها لم تكن تعود إلا بخيبتها...

وعندما كانت تتوسلهما بأنها طفلةٌ مطيعة ولن تسبب لهما أي مشاكل كانت إجابتهما -للمفارقة-نفس عبارة عزيز السابقة...!!!!

لهذا سالت دموعها دونما إرادة منها وهي لازالت مغمضةً عينيها لتردف بشرود:

_دوماً أنا الرائعة التي لا يبقى معها أحد...القوية بنفسها دون أي أحد!

وخزت كلماتها قلبه بكل ما حملته من كبريائها المشبع بلوعتها ...

فاقترب بجذعه منها ليربت على وجنتها بكفه الآخر هامساً :

_إنه ذنبي أنا...أنّي التقيتك في التوقيت الخطأ!

فتحت عينيها ببطء لتغتاله نظراتها التي بدت له في هذه اللحظة كنحيب طفلة تائهة...

بعيدةٍ تماماً عن تلك- المرأة الحديدية -التي يعرفها والتي أسره سحر ذكائها وقوتها...

تلك القوة التي بدأت تعود لنظراتها رويداً رويداً حتى تملكتها كاملة وهي تقول بكبرياء :

_مادام هو ذنبك أنت...فاحمله وحدك!!

سحب كفه برفق من على وجنتها وهو يسألها بتفحص:

_ماذا تقصدين؟!

استعادت طبيعتها العملية بسرعة لترد ببرود يناقض سعير أعماقها الآن:

_أنت صرت مجرد صفقة خسرتها وسأتقبل خسارتي بروح رياضية...متى ستوثق طلاقنا؟!

تنهد بحرارة وهو يستعيد حديثه مع والدتها منذ قليل قبل أن يقول بحسم:

_لن أوثق الطلاق قبل شهرين على الأقل من الآن ...لا أريد أن يمس سمعتكِ أحد.

ابتسمت بسخرية قاسية وهي ترد ب-الانجليزية- إمعاناً في استفزازه:

_ياللبطولة!!

اشتعلت ملامحه بغضب وقد نجح استفزازها لأبعد حد...

فأردفت هي بنفس النبرة :

_لا تعنيني عاداتكم السخيفة المتخلفة هنا...أنا سأغادر إلي "أميريكا" بعد الطلاق مباشرةً بلا رجعة!!

اتسعت عيناه بصدمة من قرارها المفاجئ هذا ليهتف بدهشة:

_ووالداك هنا؟!!

اتسعت ابتسامتها الساخرة وهي ترد بقسوة:

_طالما تركاني هما بإرادتهما...والآن دوري لأتركهما أنا!!

كز على أسنانه بغضب وهو يهتف بها بانفعال:

_هذه النيران السوداء بداخلكِ ستحرقكِ أنتِ قبلهما!!

وبرغم أن عبارته مست شيئاً ما بروحها الذبيحة لكنها تشبثت بواجهتها الباردة وهي تسحب كفها من راحته بعنف لتقول بصلابة:

_لم يعد لك شأنٌ بي...لقد انتهينا!!

ارتعش صوتها في كلمتها الأخيرة لكنه لم ينتبه لهذا وهو يقوم من مكانه ليهتف بغضبٍ ممتزج بأسفه:

_لن أطلقك قبل شهرين على الأقل كما قلت...إن لم يكن لأجلكِ فلأجل والديكِ اللذين لا يستحقان أن يخوض أحد في عرضهما!

تنمرت ملامحها باستنكار واضح...

قبل أن تتجاهل عبارته وهي تشيح بوجهها لتهتف بعناد:

_لقد صرتُ بخير...يمكنك الرحيل الآن.

فزادت لهجتها العنيدة من اشتعال غضبه ليدير وجهها نحوه فيرد بعنادٍ أقوى لم تعهده هي فيه :

_لا...لن أتركك وحدك...سأغادر معك كما جئتُ معك!!!

==========

_أعتذر منك سيد عاصي...لقد فقدنا الجنين!!

غمغم بها الطبيب في المشفى الذي انتقل إليه عاصي مع حورية وماسة التي أصرت على القدوم معه...

فشهقت ماسة بارتياع وهي تتطلع لملامح عاصي التي تجمدت تماماً...

لكن عينيه كانتا غارقتين بمرارتهما وهو يقول بنبرته المسيطرة التي لا تخونه في مثل هذه الظروف:

_والسيدة؟!!هل ستكون بخير؟!!

انتقلت ماسة ببصرها إلي جسد حورية المسجى على الفراش جوارها بلا حراك...

وقد شحب وجهها تماماً لتصلها كلمات الطبيب المتحفظة :

_لن أخفيك قولاً سيدي!!!حالتها متأخرة جداً...أنا آسفٌ حقاً لقول هذا لكنني مضطر...حتى لا تتهمني بعد هذا بالتقصير.

ارتج جسد ماسة ببكائها في هذه اللحظة وهي تجلس على طرف فراش حورية تحتضن كفها برفق للحظات ...

قبل أن تجد قوتها لتهتف بحدة في وجه الطبيب وسط دموعها التي أغرقت وجهها:

_لا تقل هذا...ستكون بخير...ابذلوا قصارى جهدكم .

رمقها عاصي بنظرة رادعة وقد ساءه أن تتحدث في وجوده...

فأطرقت برأسها مكتفيةً بنحيبها الصامت...

بينما هتف الطبيب مدافعاً:

_لقد تناولت علبة كاملة من تلك الأقراص الدوائية وكأنها كانت تتعمد الانتحار...للأسف لقد تأخرتم في اكتشاف الأمر.

ضم عاصي قبضته بغضب لم يظهر على ملامحه التي بدت جامدة كالصخر...

وهو يقول من بين أسنانه:

_لم نتأخر...وهي ستكون بخير...لا أريد أن أسمع إلا هذا...هل تفهم؟!!

تنهد الطبيب بضيق وهو يلعن حظه الذي ورطه في حالةٍ تخص رجلاً كهذا...

ثم غمغم بفتور وهو يغادر الغرفة:

_إن شاء الله...والآن تفضل معي لتوقيع بعض الأوراق.

نقل عاصي بصره بين جسد حورية المستكين وماسة جوارها...

قبل أن يتوجه نحو ماسة لتلمح في عينيه نفس الخوف -الغريب- الذي لم ترَه سوى يوم لقائها هي بعزيز...

خوفٌ ممتزج بمرارة شاحبة لوّن عينيه بظلٍ أسود قاتم...

وكأنه سمح لبعض مشاعره بالظهور عندما مال على أذنها ليهمس بصوتٍ متحشرجٍ رغم قوته:

_ابقي أنتِ معها حتى أعود...أنا لا أثق بأحدٍ مثلكِ هنا!!

رفعت إليه عينيها الدامعتين لكنه لم يكن ينظر إليها هي...

فعيناه كانتا عالقتين بحورية بنظرة أدهشتها !!

نظرة حملت مزيجاً غريباً من الاتهام والذنب والحسرة والأسف...

لكنها اتشحت بطيف شاحب من عاطفة تراها لأول مرة بعينيه...

عاطفة رآها قلبها النقي صادقةً لا تقبل الجدل رغم تكذيب باقي جوارحها...

عاطفة لا يمكن أن تكون إلا ....حباً!!!!!

حب؟!!!!

اتسعت عيناها أكثر عند فكرتها الأخيرة وهي تتمعن في ملامحه أكثر لعلها تتأكد من فكرتها...

فلم يزِدْها تمعنها إلا يقيناً...!!!

عيناه اللتان كانتا معلقتين بوجه حورية بتشبثٍ شديد وكأنه لا يريد أن يرفع بصره عنها للحظة فلا يجدها!!!

شفتاه اللتان ارتجفتا للحظة خاطفة لم تخطئها عيناها قبل أن يطبقهما بقوة ليحكم سيطرته على انفعاله...

وأنامله التي ضغطت على كف ماسة بقوة قاسية آلمتها لكنها تحملتها وهي تشعر أنه يفرغ فيها مكنون صدره..!!!!

رباه!!!

عاصي يحب زوجته حقاً!!!

إذن لماذا كان يعاملها بهذه الطريقة حتى دفعها لهذه النهاية؟!!!

شعرت أن رأسها على وشك الانفجار من فرط انفعالها وتشوشها...

لكنها رفعت أناملها ببطء حذر لتربت على كفه هامسة بصوت متهدج:

_لا تقلق...ستكون بخير!

التفت إليها بحدة من شروده الذي غيّبه للحظات...

قبل أن يترك كفها بعنف دون رد وهو يعطيها ظهره ليخرج من الغرفة لاحقاً بالطبيب...

مسحت ماسة دموعها وهي تميل على جسد حورية هامسةً بإشفاق:

_لماذا فعلتِ هذا؟!!لماذا قتلتِ حلمكِ وحلمه طوال هذه السنوات؟!!لماذا حرمتِه وحرمتِ نفسكِ هذه الفرحة؟!!

تحشرج صوتها ببكائها في جملتها الأخيرة...

فاستجابت لسيل دموعها للحظات قبل أن تمسح وجهها لتتناول بعدها كف حورية الذي كان بارداً كالثلج...

فتدلكه بين كفيها برفق لعلها تكسبه بعض الدفء...

ثم همست بقوة وكأنما تظن أنها تسمعها:

_لا تستسلمي للموت فتخسرين كل شئ...هل تصدقينني لو قلت لكِ أنني اليوم شعرت أن السيد عاصي يحبك حقاً..؟!!.لا أدري هل شعرتِ أنتِ بهذا مثلي أم لا...لكنني واثقة مما رأيته في عينيه...كوني بخير وعودي إلينا...لعل ما حدث يجعله يغير طريقته معكِ ومع الجميع...لعل الخوف الذي رأيته اليوم بعينيه عليكِ أنتِ يصلح الأمور بينكما!

ثم تنهدت بحرارة وهي تدعو الله لها سراً في خشوع لدقائق....

قبل أن تنتبه لاهتزاز جفني حورية ببطء وكأنها على وشك الإفاقة...

فربتت على وجنتها برفق وهي تهتف بانفعال:

_حبيبتي...أفيقي...!!!

ظلت تكررها بصوت لاهث من فرط لهفتها وأناملها تربت على رأسها ووجنتها برفق...

حتى فتحت حورية عينيها بضعف وهي تتأمل المكان حولها باستسلام...

قبل أن تزدرد ريقها الجاف بصعوبة لتهمس بضعف:

_ماذا حدث؟!

انحنت ماسة على جبينها تقبله وهي تقول بنفس الانفعال:

_لا تخافي...كل شيءٍ سيكون على ما يرام..

أغلقت حورية عينيها من جديد وهي تهز رأسها هامسة :

_أبداً...لقد فقدتُ كل شئ.

ضغطت ماسة كفها في راحتها وهي تقول لها مطمئنة:

_لا تقولي هذا...أنتِ بخير.

تأوهت حورية بضعف فاشتعلت ملامح ماسة بقلقها وهي تهتف رغماً عنها بعتاب ممتزج بشفقتها:

_لماذا فعلتِ هذا؟!!هل أردتِ الانتقام منه بحرمانه من طفله؟!!

فتحت حورية عينيها ببطء وهي تنظر لماسة نظرة طويلة لم تفهمها...

قبل أن تهمس بحسم رغم نبرات صوتها المتهالكة:

_ليس طفله!!

تجمدت ماسة مكانها للحظات والجملة تخترق رأسها بعنف...

قبل أن تردف حورية وسط لهاثها السريع وكأنها تلفظ آخر أنفاسها:

_ابني ...لحق...بأبيه!!!

صرخت ماسة صرخة قصيرة كتمتها بكفها وهي لا تكاد تصدق ما سمعته...!!!!

الطفل لم يكن ابن عاصي...!

عاصي كان محقاً في شكوكه...!!

حورية ....؟!!!!!!

انتقلت أفكارها لهمساتها الغارقة بانفعالها وهي تهز رأسها في عدم استيعاب:

_الطفل كان لعدنان حقاً كما كان زوجكِ يشك؟!!!

أومأت حورية برأسها وهي تهمس بصعوبة وقد شعرت بدنوّ أجلها:

_أجل...أنا خنت عاصي الرفاعي...عرفت كيف أنتقم منه على ما ضاع من عمري معه...والآن خسرت كل شئ...حبيبي وابني و....حياتي!!!

لم تكترث ماسة لحالتها وقد تراجعت صدمتها ليحل محلها غضب هادر وهي تهمس بصوت خفيض خشية أن يسمعهما أحد:

_لا أصدق أنكِ فعلتِ هذا!!! كيف جرؤتِ؟!! كيف استحللتِ الخيانة كانتقام؟!!! كيف؟!!!

سالت دموع حورية على وجنتيها وهي تهمس بألم:

_أنا لم أعترف بعاصي الرفاعي زوجاً ولو لساعة واحدة...هو لم ينلني مرةً منذ زواجنا إلا غصباً...طوال هذه السنوات وأنا أتناول أدوية لمنع الحمل دون علمه...لكنه اكتشف الأمر في النهاية...ليكون عقابه المزيد من العنف معي .

هزت ماسة رأسها وهي تهتف بانفعال:

_كاذبة!!! أنا لن أصدقك في حرف واحد بعد هذه اللحظة...السيد عاصي لا يمكن أن يفعل هذا!!!!

قالتها وهي تسند رأسها بكفيها وقد انقلبت كل موازينها فجأة...

ماسة الآن هي التي تدافع عن عاصي الرفاعي أمام زوجته؟!!!!

وتقسو عليها لأجله؟!!!

لكن....لماذا لا تفعل؟!!!

وهي تراها تتهمه -هذا الاتهام بالذات- في الوقت الذي كان هو فيه معها هي في غاية التفهم؟!

لا لا لا!!!!!

هي لن تصدقها...

إنها امرأة استحلت خيانة عرض زوجها فكيف تأمن لحديثها؟!!!!

لكن حورية قاطعت أفكارها وهي تهمس بصوت ضعيف متهالك:

_لم يعد في العمر ما يسمح بالجدال...كنت أعرف أن هذه ستكون نهاية قصتي معه...أنا فقط عجلتها....ادعي الله لي يا ماسة أن يسامحني...لم أعد أرجو إلا رحمته!!!

كان صوتها يخفت تدريجياً مع نظراتها التي شخصت للفراغ أمامها للحظات....

قبل أن يرتخي رأسها مائلاً على جانبه ...!!

صرخت ماسة صرخة قصيرة وهي تتفحصها بخبرتها الطبية لتدرك بعدها الحقيقة ...

لقد رحلت حورية للأبد...!!

رحلت محملةً بخطيئتها وعارها وجريمتها في حق نفسها قبل أي أحد!!!!!

رحلت ظالمة وربما...مظلومة!!!

هي لم تعد تفهم شيئاً.....

كل الأمور تشوشت وتداخلت فما عادت تتبين صواباً من خطأ!!!

دخل عاصي في هذه اللحظة على صوت صرختها ليندفع نحوها هاتفاً بانفعال:

_لماذا تصرخين؟!!!

رفعت إليه عينيها بفيض دموعها وشهقاتها الباكية لتهز رأسها وهي عاجزة عن النطق!!!!

فاتسعت عيناه بصدمة لتزداد قتامة نظراته وهو يهمس بذهولٍ ذبيح:

_ماتت؟!!!

ازدادت حدة بكائها بينما اندفع هو ليجلس على الفراش جاذباً جسد حورية الساكن بين ذراعيه وهو يصرخ بانفعال:

_قومي!!!لا تموتي الآن!!!بيننا حسابٌ لم ينتهِ وكلامٌ لابد أن يُقال!!!

خفق قلب ماسة بجنون وهي تشعر لأول مرة بالشفقة نحوه....

خاصةً وقد استمر في صراخه بل اوعي وهو يحتضن جسد حورية أكثر :

_ليس الآن...ليس الآن!!!!

ظل يصرخ بها تباعاً وجسده كله يرتجف بانفعاله ..

حتى هدأ صوته فجأة مع ترقرق الدموع في عينيه اللتين أغمضهما بقوة للحظات...

كاد فيها قلب ماسة يتوقف حزناً وجزعاً...

حتى فتح عينيه فجأة لينظر إليها وكأنه حقاً لا يراها ...

فتختفي غابات زيتونه كاملةً ويظهر مكانها فضاءٌ شاسعٌ من ألم بلا حدود لم تتصور أن تراه يوماً في عينيه هو بالذات!!!

ألم بدا وكأنه قديمٌ....قديم....

قِدم السموات والأرض!!!

ألمٍ غيّر ملامحه القوية المسيطرة التي تعرفها لأخري تائهة مشتتة!!!!

وكأنه حفر أخاديده العميقة على وجهه فلن يصفو بعده أبداً!!!

ليهمس أخيراً بصوتٍ لم يفقد ثباته رغم كل هذا:

_اخرجي الآن ودعيني وحدي...ولا تدعي أحداً يدخل !!

ترددت قليلاً ونفسها لا تطاوعها أن تتركه الآن وحده مع كل ما تشعر به من جرحٍ في أعماقه...

لكنها امتثلت لأمره أخيراً وهي تعلم أن عاصي الرفاعي لن يسمح لأحد أن يشاركه هذه اللحظة ...

ورغم أنها لم تعد تفهم شيئاً عن طبيعة العلاقة بين عاصي وحورية...

لكن ما هي واثقةٌ منه الآن أنه كان...يحبها!!!!

لهذا لملمت بقايا روحها الكسيرة بكل هذا الألم الذي عايشته في ساعات قصيرة...

لتغادر الغرفة بخطواتٍ متعثرة قبل أن تلقي نظرةً أخيرة على ظهره وهو لازال يحتضن جسد حورية الساكن بكل قوته...

مخفياً وجهها الذي غابت عنه الحياة في صدره الذي كان يئنّ بخفقاته...

فانسابت دموعها الحائرة أكثر وهي تخرج أخيراً مغلقةً الباب خلفها لتسند ظهرها عليه محاولةً استيعاب كل هذا الذي حدث!!!

وفي مكانه كان هو يهمس في أذنها بما عجز عن قوله منذ رآها...

والآن يبوح به وهو يثق أنها أبداً لن تسمعه:

_الآن ترحلين دون أن تعلمي ...دون أن تفهمي...دون أن تشعري ولو بمثقال ذرة من حبي لكِ...لا...لم يكن حباً...بل كان وهماً تملكني فلم يُكتَب لي منه شفاء...أنا الذي استطعت ترويض كل ما ومن أردتُ إلا قلبي و...أنتِ!!!!

قالها وهو يضم جسدها إليه أكثر ليردف بمنتهي الألم:

_أنتِ التي عجزتُ أن أجعل قلبي يزهدها...أو أن أجعلها ترغبني...كلانا قتل الآخر...ولم أكن أنتظر لنا نهايةً أفضل...فمنذ عرفتكِ وأنا موقنٌ أن بداية الجرح عندك ونهايته أيضاً عندك!!

آهة قصيرة تبعت قوله رغماً عنه وهو يتذكر افتتانه بها منذ وقع بصره عليها في إحدى المناسبات التي جمعت عائلتيهما...

وبرغم جمالها الهادئ الذي لم يكن يميزها عن الكثيرات وقتها...

لكنه شعر بجاذبية غريبة في بريق عينيها اللتين كانتا تلمعان بسعادة حقيقية بدت وكأنها تنبع من روحها...

سعادة كان يغبطها عليها وهو يراها جالسةً وسط رفيقاتها بتلك الهالة الغريبة من السحر حولها...

سحرٍ تدفق في عينيها ممتزجاً بطيفٍ من كبرياء أنثويٍ واثق وهما تدوران في الحضور بتفحص برئ...

حتى وقعتا عليه هو!!!

ساعتها اختفت ابتسامتها لتمط شفتيها ببعض النفور -عفوياً -وهي تشيح بوجهها بعيداً!!!

وحينها فقط...قرر أنه يريدها...!!!!

جمع عنها كل ما استطاعه من معلومات ليفاجأ أنها فتاة كاملة...!!!

وبرغم صغر سنها وقتها لكنه كان يراها مثالية...خاصةً مع نسبها الذي يحتاجه لتوطيد سلطته هنا!!

فعزم على المضيّ في الأمر...

رغم أنه كان عازفاً عن الزواج منذ سنوات قبلها وقد أورثته تربية حماد الرفاعي الجافة عدم الرغبة في الزواج والإنجاب...

حتى بعد وفاته!!!

طالما كان يرى نفسه في صورة والده ذات القسوة والجبروت...

ويرى أولاده صورةً من نفسه هو...

صورة نابضة بالكراهية والنفور!!!

والده الذي انتزعه انتزاعاً من العالم الذي كان يرجوه...

ليغرسه غرساً في دنياه التي لا تعترف إلا بلغة القوة...

ولو كان الأمر بيده هو لأكمل دراسته الجامعية واحترف هوايته في الرسم كما كان يحلم!!!

لكن حماد الرفاعي كان يريد خليفةً له على كل هذا السلطان من المال والأرض...

خليفة لايقل عنه في القوة والسيطرة!!!

في البداية كان يشعر ببعض النفور والرغبة في التمرد على أوامر والده...

لكنه عندما تذوق طعم السلطة والسيطرة أدرك أن لهما سحراً لا يردّ...

سحراً تملّكه ببطء حتى أدمنه بتلك النشوة التي تسري في عروقه وهو يري نفسه في موضع السيادة...

فلا كلمة له تردّ...ولا أمراً يعصَى!!

يكذب لو قال أنه قد كره هذا القدر...

على العكس...لقد أعجبته سطوته وإن كان في بعض الأوقات يحنّ لحلمه القديم...

بعيداً عن غيابات هذا العالم الأسود الذي انجرف في تياره...

لتتبدل فرشاة الرسم بسلاح لا يكاد يغادر جيبه...

ويندثر حلمه الخاص باستكمال تعليمه خلف تهميش والده لهذه الرغبة...

فما قيمة التعليم إذا كان هو أولاً وأخيراً سيكون سيد هذه المدينة بماله وعائلته مع القليل من الجهد...؟!!!

أو فلنقل..."العنف"!!!

ورغم أنه -غالباً- لا يخالف القانون...

لكنه صنع لنفسه قانونه الخاص...

كل ما أراده فهو ملكه...وما هو ملكه لن يحصل عليه أحد!!!!

وبهذا القانون الصارم التقاها...فأرادها...وما بعد هذا مجرد هامش على جانب الصفحة!!

فالمصالح المشتركة بين العائلتين جعلت الأمر أكثر سهولة!!!

وفي كل مرة كان يلتقيها بعدها كانت نظراتها النافرة منه تزيده رغبةً فيها...

هو الذي احترف اقتناص صيده مهما كان عسيراً...

وكلما ازدادت صعوبة الحصول عليه كلما كانت نشوة النصر أكبر...!!!

كان هذا تفكيره وقتها...

والآن يسأل نفسه بعد كل هذه السنوات...

هل كان الأمر حقاً يستحق؟!!!

يستحق هذا العذاب الذي أقحم نفسه وأقحمها فيه؟!!!

لماذا لم يسمع لها عندما أتته تخبره -بكل صراحة- قبل الزواج أنها تحب ابن عمها منذ صغرها وأنها غير راضية عن هذه الزيجة؟!!!

لماذا استجاب لصوت غروره وغريزة تملكه وقتها فلم يزده هذا إلا تشبثاً بها؟!!!

لماذا استحل أن يهدر دماء كرامته وقلبها في نفس الوقت؟!!!

لكنه وقتها -للأسف- لم يكن يري سوى بريق التحدي...

شيطانه الذي أعماه ساعتها عن كل شئ سوى أن يحظى بها كما حظي بكل شئٍ أراده...

وعنادها الممتزج بكبريائها كان يثيره نحوها أكثر...

فتزداد رغبته فيها وهو يراها بعين خياله قد رضخت له طوعاً كما كل شئٍ في حياته!!!!

خاصةً وقد غادر ابن عمها ذاك المدينة بعدها قانعاً بخسارته...

فظن أن هذا سيقهرها أكثر في حربها الباردة معه...

لكنه لم يكن مصيباً!!!

فالحورية -الذبيحة بألمها والتي أقسمت له منذ أول ليلة في زواجهما ألا تكون له إلا غصباً -قد برّت بقسمها كاملاً!!!

طوال هذه السنوات وهو يحاول قهر عنادها وقلبها معاً!!

وقد أفلح في الأول لكنه فشل في الثاني!!!

قسوته المفرطة معها روضت وحش عنادها لتتحول مع الأيام لصورة شاحبة لامرأةٍ كانت يوماً ذات عزة وكبرياء...

فتصير بعدها مجرد شبح هزيل يرتجف خوفاً كلما رآه!!!

لكن قلبها لم يرضخ يوماً..!!!

نظراتها التي امتلأت ذلاً وقهراً كانت تذكره كل مرة بخسارته أمام قلبها العنيد الذي ظل على عهده القديم!!!

تماماً كما ظل قلبه هو على عهده معها رغم قسوته الظاهرة معها...

قلبه الذي كان يجلده بسياط الذنب نحوها لكنه كان عاجزاً عن التعبير عما فيه...

طالما حدثته نفسه أن يحاول الاقتراب منها بحنان يليق بعاطفته نحوها...

لكن كبرياءه كان يقف حاجزاً بينهما وهو يرى عشقها القديم يكاد يصرخ في عينيها مع نظرات احتقارها لها هو...!!!

ربما كان سوء حظها هو الذي أوقعها في طريقه هو بالذات...

هو الذي كان وقتها في فورة شعوره بالسيادة بعد وفاة أبيه ليتملك هو زمام السيطرة على الأمور بعده...

وربما هو سوء حظه -هو- الذي أوقعه في فخاخ هذه العلاقة التي دمرتهما معاً!!!!

تجمعت الدموع في عينيه عندما راودته هذه الفكرة وهو يجاهد نفسه كي لا تسقط...

حتى أطلق تنهيدة حارة مشبعةً بندمه وهو يهمس لها وكأنها ستسمعه:

_طوال هذه السنوات وأنا أرفض الزواج من أخرى بغرض الإنجاب لأجلكِ أنتِ...هل تتصورين صدمتي وقتها عندما اكتشفت أنكِ أنتِ من تحرمينني طفلاً منكِ؟!!

ثم أغمض عينيه بألم وهو يتذكر كيف اكتشف تلك الأقراص عندما فتش في أغراضها بعدما صرح له أحد الأطباء بشكه في هذا الاحتمال!!!

يومها لم يشعر بنفسه وهو ينهال عليها ضرباً بحزامه لينالها بعدها بقسوة لم يعرفها من قبل...

وبالرغم من أنه لم يمسها يوماً منذ زواجهما إلا قهراً...

كانت تلك المرة هي الأعنف والأقسى والأشد أثراً على كليهما معاً!!!

كان يظن أن كل لمسة باطشة له على جسدها تثبت ملكيته لها أكثر...

لكنه بعدما انتهى منها أدرك من نظرة عينيها المتوهجة بالوعيد وقتها أن شيئاً ما بينهما سيتغير!!!!

لم يكن يدري وقتها أنها على مشارف السقوط في بئر الانتقام...

وأن انتقامها سيشطره نصفين بسيف لا مردّ لنصله...

سيف الخيانة!!!!

هنا اشتعلت نظراته بلهيب من غضبه وهو يعتصر جسدها بين ذراعيه هامساّ بانفعال:

_كيف جرؤتِ على فعلها لترحلي هكذا دون أن تذوقي عقابي؟!!! أنا قتلت ذاك الوغد لكنني كنت أعد لكِ مصيراً أسوأ من الموت...كنت فقط أنتظر أن تضعي الطفل حتى أتأكد من نسبه...والآن...

قطع عبارته وهو يدفع جسدها بعنف ليبعده عنه وهو يلهث من فرط انفعاله....

ثم نظر بعدها لوجهها الذي جمدت ملامحه للأبد نظراتٍ ما عاد يعرف معناها...

عندما تشوشت الرؤية في عينيه فجأة وهو ينتبه لدموعه التي تحررت أخيراً من سجون عينيه...

وكأنها تنعي حكايتهما البائسة...

ليتذكر ساعتها قولها له ذات يوم:

_اتقِ الله يا عاصي...أنت تعرف من فينا الظالم ومن المظلوم!!!

فأغمض عينيه بألم ودقات قلبه تكاد تصرخ من فرط قوتها وهو يهمس بنبرات روحه المتصدعة بكسورها:

_ما عاد هناك ظالم ولا مظلوم...أنتِ أجدتِ الانتقام من جلادك...وانتهت الحكاية!!

====================

وقف أمام مرآته عاري الجذع مكتفياً بسرواله يتأمل تلك الندوب القديمة على ظهره وكتفه بنظراتٍ تحتضر ألماً...

موت حورية فتح كل دفاتر الماضي التي طواها النسيان...

وكأنها أبت إلا أن تهيج براكين روحه كلها برحيلها الصادم!!!

اشتعلت عيناه بوميض الذكرى وهو يسترجع ذاك اليوم الذي ربطه فيه حماد الرفاعي على جذع النخلة في الحديقة ليجلده بنفسه عقاباً له على تجرئه للدفاع عن تلك" الطفلة"...

لكنه لم يستطع ألا يفعلها...!!

نظرات تلك "الطفلة" الكسيرة وهي تتشبث بجلباب والدتها لاتزال محفورةً في مخيلته...

وكم تمنى وقتها لو يستمع إليه والده !!!!

لكن حماد الرفاعي وقتها لم يكن يري فيه سوى فتيً مراهق على وشك التمرد...

ولابد من قمع عصيانه في مهده حتى لا يفلت منه الزمام...

ليفاجأ به عاصي ينزع عنه قميصه بعنف ليقيده أمامه على ذاك الجذع في الحديقة ثم ينهال عليه جلداً بسوطه دون رحمة...

ذاك الجذع الذي أمر رجاله باقتلاعه بعد وفاة والده وكأنه بهذا سيمحو الذكرى!!!!

ذكري تلك الجلدات القاسية التي لم تكن فقط تهوي على ظهره وكتفه بل على كرامته وروحه...

روحه التي اكتست بعدها بالسواد وهو يدرك أنه لا مكان للعدل والإنصاف في هذا العالم...

وأن القوة والقسوة هما سلاحه الوحيد فيه...!!!

وكلما كان قلبه يراوده ببعض الرحمة كان يستعيد هذه الذكري ليخلع عنه ملابسه فيتطلع لتلك الندوب بتمعن وكأنه يجلد نفسه من جديد...

وهو يرى في المرآة صورة أبيه وليس صورته هو...

نعم للأسف...!!!

لقد تحول لنسخة شيطانية من والده الذي طالما كرهه...

وللعجب...صار بعدها مثله!!!

أحياناً يقف ليسأل نفسه...هل كان مخيراً فيما صار إليه من صورة صارخة بالبطش والقسوة؟!!

أم أنه سار في الطريق الذي رُسِم له؟!!!

لكنه لم يكن يجد أبداً إجابة...

هو وُلد ليكون شيطاناً....فكان!!!!!!

طرقاتها على الباب قاطعت أفكاره فزفر بضيق وهو يبتعد عن المرآة ليجلس على الأريكة مستنداً بمرفقيه على ركبتيه دون أن يرد لعلها تسأم وتمضي كما تفعل كل مرة منذ أيام...

وبالتحديد منذ عادا إلى هنا بعد وفاة حورية!

لكن طرقاتها حافظت على إصرارها لدقائق طويلة بعدها وكأنها حقاً لا تنتوي المغادرة هذه المرة حتى تدخل...

لهذا وجد نفسه أخيراً يرفع صوته بالسماح لها بالدخول وهو يدّعي لنفسه كونه مضطراً لهذا...

ولو شاء الإنصاف لاعترف الآن أنه بحاجةٍ إليها...

لا....هو ليس بحاجة للحديث...!!!

عاصي الرفاعي اعتاد دفن خواطره في بئر روحه السحيق ولن يبوح لأحدٍ بمكنون صدره...

لكنه يشعر أنه بحق يحتاج فقط لوجودها أمامه...!!!

مجرد رؤية ماسةٍ نقية مثلها تثير في نفسه ارتياحاً بلا حدود...

وكأنها بطهرها وصفائها مع قوتها تعاكس روح الشيطان بداخله!!!

نعم...

هي الوحيدة التي تفجرت لها آبار حنانه كلها دونما سبب...

بل ربما...لألف سبب...

لكنه لا يكاد يميز منها الآن شيئاً!!!!!

بينما فتحت هي الباب بقوة تناقض تردد خطواتها الخجولة نحوه...

وقد تسمرت مكانها للحظات لتحمرّ وجنتاها بخجل وهي تراه عاري الجذع هكذا...!!!

لكنه رفع وجهه إليها ولازال مسنداً مرفقيه على ركبتيه ليصطدم بحمرة خجلها فيقول بسخرية سوداء:

_يمكنكِ الانصراف لو شئتِ...أنتِ التي تلحّين في الطرق منذ دقائق!!

أطرقت برأسها للحظات تستجمع بعض قوتها ثم أكملت خطواتها نحوه لتجلس جواره صامتةً لفترة...

ثم همست بنبرة مهتزة ودون أن تنظر إليه:

_أنا ...أريد...أن ..أكون ...جوارك!!

قالتها وهي لا تصدق أنها أخيراً تمكنت من قولها...!!

منذ ليلة وفاة حورية وهي غارقة في مشاعرها الصاخبة نحوه...

لا تصدق أن إحساسها به انقلب هكذا في لحظات...

الشيطان الذي كان يثير رعبها ونفورها صار فجأة مجرد عاشق مغدور...!

والحورية الملائكية التي كانت روحها تفيض بالشفقة عليها هي التي تحولت لشيطانة خائنة...!

وبين الفكرتين لازالت هي تتعثر في ارتباكها وتخبطها في طريقها الشائك نحوه...

لكنها قررت ألا تهرب بعد...!

قلب ماسة النقي سيكون دليلها في هذا الطريق...!

فقط لو تغمض عينيها عما يراه الآخرون وتستمع فقط لإشارات روحها الصادقة بشأنه!!

كانت هذه أفكارها الصاخبة التي غلفت صمتها بعد عبارتها الأخيرة...

بينما التفت هو إليها متفحصاً ملامحها للحظات قبل أن يسألها ببرود صارت توقن الآن أنه مصطنع:

_لماذا؟!!

شبكت أناملها في حجرها وهي تختلس نظرة جانبية إليه لتقول بقوة لم تخذلها هذه المرة:

_أنت تحتاجني الآن!!

لم يصلها منه رد للحظات...

فاضطرت لرفع عينيها إليه لتلمح ابتسامته الساخرة وكأنه يستهزئ من عبارتها...!!

ابتسامته التي ناقضت سيول المرارة والحزن في عينيه الصارختين بألمهما...

فمدت أناملها ببطء متردد لتربت بها على ساعده هامسةً بمزيج مدهش من قوتها وحنانها:

_أنا أعرف أن عاصي الرفاعي لا يشكو حزنه لأحد...ولا يبوح أبداً بخفايا صدره...لكنني لا أريد سوى أن أبقى جوارك حتى ولو بقيتَ صامتاً.

ثم تهدج صوتها رغماً عنها وهي تردف ببعض الألم:

_صدقني لن تجد أقدر مني على سماع صمتك...لقد صرتُ أجيد هذا!!

اختفت ابتسامته الساخرة رويداً رويداً ...

مع انكسار نظراته الباهتة التي غاب عنها تألقها وهو يتعلق بأمواجها الفضية التي كانت الآن في غاية سخائها بحنان يحتاجه الآن حقاً ولو لم يعترف به...!

ليخفض بصره بعدها إلي كفها المستقر على ساعده .....

قبل أن يميل بجسده عليها لتفاجأ به وقد ألقى رأسه على صدرها وهو يحتضن خصرها بذراعيه !!!!

ألجمتها المفاجأة لوقتٍ لم تستطع تبينه وسط فورة مشاعرها التي كانت تجتاحها الآن ...

وهي تشعر بنفس إحساسها الضبابي به...

مزيجٌ صار خاصاً به وحده من الإعجاب والنفور...والأنس والوحشة...

وإن كان الآن صار مغلفاً ببعض الإشفاق!!

عضت على شفتها بتوتر زاده خجلها المشوب بارتباكها -المَرضيّ-بعد حادثها...

ليتيبس جسدها بين ذراعيه لدقائق طالت كدهور...

قبل أن يمتد ذراعاها ببطء شديد لتضمه هي الأخري ببعض التردد...

ولم يكد هو يشعر بضمة ذراعيها حول عنقه حتى اشتددت ضمته هو الآخر...

ليتحول ترددها إلي تشبثٍ حنون به حتى ما عادت تدري من منهما الذي يحتضن الآخر!!!!

ظلا على هذا الوضع لدقائق لم يكن كلاهما بحاجة لحسابها...

هو الذي كان يحتاج حقاً للتدثر بهذا الدفء البكر الذي يشع من روحها النقية...!

يحتاج لخلع قناع تماسكه وقوته المصطنعة الآن ليتخفي بحزنه وألمه خلف أستار حنانها السخي اللا مشروط !!!!

يحتاج لقربها هذا منه بإرادتها وما يعنيه له من مشاعر صادقة صارت تحملها له!!

بينما كانت هي غارقة في بحر ذكرياتها القصيرة معه...

تستعيد كل لحظة وقف فيها جوارها ليمنحها الدعم الذي تحتاجه دون مقابل...

وتتذكر كلمات رحمة عنه في لقائها الأخير معها...

لتدرك الآن بعدما سمعته بأذنيها من حورية أنها حقاً ظلمته!!

وعند خاطرها الأخير اصطدمت عيناها بتلك الندوب تحت ذراعيها على كتفيه وظهره...

فانفرجت شفتاها وهي تهمّ بسؤاله عمن تجرأ على فعل هذا به!!!!

لكنها أطبقتهما في آخر لحظة وهي تدرك أنه الآن أغنى ما يكون عن الحديث...

رغم أنها تسمع في صمته حَكايا ألمٍ طويلة تشبه حكايا روحها هي الأخري!!!

لتكتفي بعدها بإغماض عينيها في سكينة وهي تطرد عن رأسها كل هواجسه...

وقد صارت واثقةً من أن هذا الرجل لم يولد هكذا...

شئٌ ما ..وربما شخصٌ ما هو الذي شوه ملامح روحه ليجعله بهذه القسوة...

وربما...كان هذا الشخص هو والده كما كانت حورية تزعم...!!

وعند تذكرها لحورية عادت مطارق الذنب تقرع قلبها من جديد....

لتجد نفسها تهمس بخفوت شديد وكأنها تخشى أن يجرحه صوتها أكثر:

_أنا أسأتُ الظنّ بك...فهلّا سامحتني؟!!

لم يرد عليها للحظات حتى شكت أنه لم يسمعها لولا أنه شدد حصار ذراعيه حول خصرها أكثر وكأنه يمنحها إجابة غير منطوقة...

فأردفت بتردد:

_هي اعترفت لي بالحقيقة قبل موتها...الآن أعلم لماذا قتلتَ ذاك الرجل!!

لم تكد تتم عبارتها حتى رفع رأسه إليها بحدة وقد عادت غابات الزيتون في عينيه لاشتعالها القديم وهو يسألها بقسوة أخافتها:

_ماذا قالت؟!!

ارتجف جسدها بين ذراعيه وهي تشعر بخوف حقيقي منه هذه المرة...

وقد عجزت عن تلقي المزيد من سهام عينيه المشتعلة فخفضت بصرها عنه لتهمس بخفوت:

_الطفل لم يكن...!!!

بترت عبارتها وقد عجزت عن إكمالها !!!

تماماً كما عجزت حتى عن رفع عينيها إليه لبعض الوقت....

لكنها عندما فعلت اصطدمت بتلك الدموع المتحجرة في عينيه للحظة واحدة خاطفة...

قبل أن يغلقهما هو بقوة وكأنه استنكف أن تقرأ هي حديثهما...

رفرف قلبها بين ضلوعها كطير ذبيح وهي تشعر أنها تكاد تختنق بهذا الألم الذي رأت وميضه في عينيه ...

والذي لم تتصور يوماً أن تلمح مثله في عيني عاصي الرفاعي بالذات!!!

لكنها كانت تعذره فما تعرض إليه ليس بهيّنٍ على أي رجل ...

فكيف عليه هو؟!!!

وأمامها كان هو يحتضر بنزيف روحه الصامت...

الآن ما عاد هناك شك في خيانتها..

وبقدر ما كان يشعر برياح الغضب تعصف بروحه...

بقدر ما تخللها شعورٌ مقيتٌ بالذنب وهو يدرك أنه هو من دفعها لهذا المصير!!

وساعتها فقط راوده سؤالٌ محير..

لماذا لم يعاملها كماسة؟!

لماذا لم يحاول اجتذابها لدواخل عالمه الشائك لتشعر بحبه؟!!

ربما لأنها بادلته التحدي منذ أول يوم برفضها له؟!

وربما لأن تشبثها بذكرى حبها القديم قد وقف بينها وبين كبريائه!!

وربما لأن عاصي الرفاعي نفسه تغير!!!

أجل...لقد عرف حورية في ذروة انتشائه بجنون التسلط والسيطرة...

ليكون تملكها هوساً أكثر من كونه عاطفةً !!!

لكن ماسة أتت بعدما صار زاهداً في كل هذا!!!!

وربما لأن ماسة نفسها حالةٌ خاصة في حياته...

فشعوره الغريب نحوها لم يعرفه أبداً مع سواها...

حتى مع حورية!!!

نعم...شعوره مع حورية كان يذكي نيران قسوته وتملكه وعنفه...

لكن شعوره بماسة على العكس يضئ قناديل روحه القديمة...

ويحرق شيطان نفسه بطهر نقائه!!!

عاطفته نحو حورية كانت غريزية بحتة ...

لكن عاطفته نحو ماسة مزدانة بمشاعر أبوة حانية !!!

كان هذا نزيف أفكاره الصارخة بصمته والتي قاطعتها ماسة بهمسها الحاني:

_لم أكن لأفضح سرها لولا أنني كنت أعرف أنك تشك في الأمر...كما أنني لا أريدك أن تعيش في عقدة ذنب بسبب امرأة...

صمتت لحظة قبل أن تستغفر الله بصوت مسموع لتردف بعدها ببعض الأسف:

_لقد أفضت إلي ما قدمت وانتهى الأمر...هي الآن بين يدي حكيمٍ عليم...وعند الله تجتمع الخصوم.

فتح عينيه أخيراً ليعتقل نظراتها بجحيم زيتوني خالص استعر في عينيه وهو يكز على أسنانه هامساً بحدة وذراعاه يكادان يحطمان جسدها الضئيل بين ذراعيه:

_إياكِ أن تعيدي هذا الحديث ولو حتى مع نفسك...كلمة واحدة عن هذا الأمر ثانيةً تساوي عمرك كله...هل تفهمين؟!!

كان صوته يعلو تدريجياً وهو يواصل حديثه حتى وصل حد الصراخ في عبارته الأخيرة...!!!

فانتفضت بخوفٍ وهي تغمض عينيها هاربة من سعير نظراته الحارقة...

وقد سرت قشعريرة كالثلج في جسدها ولولا ذراعاه المحيطان بها ككلابتين من الفولاذ لولّت بالفرار إلي غرفتها دون تردد...

فاكتفت بصمتها العاجز وهي لا تدري ماذا تقول ولا ماذا تفعل في موقفٍ كهذا لم تختره هي بل أجبرتها عليه الظروف...

لتفيق بعد لحظات من أفكارها المحتلة بالخوف والعجز على اصطدام وجهها بصدره القوي وهو يكاد يخفيها بين ذراعيه من جديد مسنداً ذقنه على رأسها ...

وكأنما امتلك عصا ساحر حولت أشباح خوفها لفراشات رقيقة من الأمان في لحظات!!!

انهمرت دموعها في هذه اللحظة غزيرة وهي تتشبث به أكثر ...

ولا تدري لماذا شعرت في هذه اللحظة بالذات أن كليهما يحتاج الآخر بأقوى مما يتصور...

ربما بدا الأمر وكأنها تحتاجه أكثر...

تحتاج قوته وحنانه واحتواءه...فهذا الرجل صار يمتلك مفاتيح خوفها وأمانها كاملة وحصرية...!!!!

لكنها تشعر الآن أنه هو الآخر يحتاجها...!!!

يحتاج من يرى خيوط النور التي تتسرب ببطء بين شقوق جدران روحه المظلمة...

يحتاج من يسمع شكواه دون حديث...

من يقرأ حكايا عينيه دون كلام...

من يحترم أسوار كبريائه وقوته فلا يخترقها لكنه يعبر فوقها إليه ليبصر ما خلفها من خفايا فؤاده...!!!

نعم...هو يحتاجها حتى ولو كابر...

وهي تحتاجه لكنها لن تكابر بعد!!!

كانت هذه أفكارها المنسابة كفيض سخي بالعاطفة بين جنبات روحها...

وهي تشعر أن حضنه هذه المرة يختلف...

هذه المرة هو لا يمنحها الأمان فقط كما اعتادت...

بل يجده أيضاً معها...!!!!

أنفاسه اللاهثة التي تتخلل خصلات شعرها الآن بمشاعره الثائرة التي تحرقه ببطء وتحرقها معها...أخبرتها!!

دقات قلبه التي طالما حسدته على برودها والتي تدوي الآن صاخبةً تحت أذنيها ...أخبرتها!!!

ارتجافة جسده التي عجز عن التحكم فيها وسط براكين انفعاله ....أخبرتها!!!

أخبرتها وهي صدقتها!!!

ولو كانت فقط رفعت رأسها السجين الآن بين ذراعيه وذقنه وصدره...

لرأت دمعته الكسيرة التي خانته بالسقوط ...

كما سقط قبلها قلبه في دوامة جرحه القديم التي اتسعت ببطء حتى ابتلعته كاملاً...

الحورية التي ظن أنه أسرها طوال هذه السنوات مفرغاً فيها شحنات قسوة ماضيه عاقبته أبشع عقاب...

وإن كانت بخلت عليه بقلبها العصيّ فقد زادت بخلها عليه بولدٍ منه...

وكأنها أبت أن تمنح ولدها إلا لمن منحته قلبها...

لتغرس خنجر خيانتها المسموم بقلبه -هو- بقسوة لم ينتظرها...

قسوة بقسوة والبادي أظلم...

وهو الذي كان البادي بكل شئ...

فمن كان أظلم منه؟!!!

ومن صار أشقى منه؟!!!

قطعت أفكاره عند هذه النقطة عندما رفعت هي رأسها إليه لتمنحه عيناها نظرة حملت مشاعرها صادقةً دون زيف...

التقطتها عيناه فذابتا فيها ليهمس بعد لحظات صمت طالت:

_هل تعلمين ؟!!!عندما أستعرض الآن شريط حياتي كاملاً...أراكِ أنتِ أنقى ما فيه!!!

ارتعشت حدقتاها تأثراً وقد عجزت عن الرد فربت على وجنتها برفق هامساً بابتسامة مظلمةً كعينيه الآن:

_ليتكِ تبقين كذلك!!!!

======================

الفصل السابع عشر:

_لماذا لا ترد على اتصالاتي؟!

همست بها صفا وهي تجلس جواره في المحل بعد أيام من شجارهما الأخير غاب هو فيهما عن المنزل دون أن يكلمها...

فاضطرت أن تجئ إليه هنا رغم علمها أنه سيكره هذا...لكنها لم تستطع الصبر أكثر....

نعم...أتت كي تسترضيه ولو أنها تشعر أن هذا لن يكون سهلاً هذه المرة!!!

وقد صدق حدسها كما يبدو فهو حتى لم يرفع عينيه إليها وهو يغمغم بفتور:

_هل تحتاجين شيئاً؟!

تلفتت حولها في ارتباك لتعاود همسها الراجي:

_لن نستطيع الكلام هنا ...هل يمكن أن تعود معي إلى البيت الآن؟!

حافظت ملامحه على جمودها وهو يرد دون أن ينظر إليها:

_مشغول!

دمعت عيناها بعجز وهي تقترب بكرسيها منه أكثر لتهمس بعتاب:

_أنت تتعمد إذلالي يا عبد الله؟!هل هذه قيمتي عندك؟!

التفت نحوها بحدة عندما قالتها لترتعش شفتاه بغضب وعيناه تفضحان عاطفته نحوها رغم قسوة عبارته:

_العفو يا سيدتي...من ذا الذي هو قادرٌ على إذلال صفا المعموري بجلالة قدرها؟!!

أطرقت برأسها تمسح دمعتها الفارّة على وجنتها وهي تشعر أنها خالية اليدين معه حقاً هذه المرة...

لقد تمادت -دون قصد-في الضغط على جرحه القديم والآن لا تدري كيف السبيل لمداواته!!

بينما أشاح هو بوجهه وكل خلايا جسده تشتعل غضباً...

منذ تلك الليلة التي قذفته فيها بكلماتها الجارحة وهو يكاد يجنّ...

لا يصدق أن "صفا روحه" التي طالما احتوته بحنانها ودفئها وتفانيها ذبحته هكذا بسكين بارد!!!

لتخرج مارده القديم من مصباحه الذي -بالكاد-أغلقه عليه...

وتعيده للدوران في تلك المتاهة المتشابكة من مشاعره المتناقضة نحوها...

بين امتنانه...وشعوره بالنقص...!!

بين احتياجه إليها ك"امرأة"...ونفوره منها "كرجل"...!!

بين "سكن " جوارحه إليها...و"وحشة" كبريائه في حضرتها...!!

لكن ومع كل هذا...

تبقى دموع "صفا المعموري" غاليةً مثلها!!

لهذا عاود النظر إليها وقد رقت ملامحه -نوعاً- ليغمغم بجفاف يخفي حقيقة شعوره:

_لا تبكي يا صفا...هذا ليس مكاناً مناسباً للحديث..أمري لله..سأعود للمنزل الليلة لنتفاهم.

مدت أناملها خُفيةً تحت مكتبه لتحتضن كفه بقوة هامسة بعاطفتها الكاسحة:

_سامحني يا عبد الله...أقسم لك أنني لم أكن في وعيي وقتها.

كز على أسنانه وهو يرمقها بنظراته التي عاد إليها اشتعالها ليهمس بحدة :

_هذه الأشياء التي نقولها خارج حدود وعينا دوماً هي الأصدق...هذا ما يستقر برأسك لكنكِ تخفينه خلف أسوار ادعائك.

هزت رأسها نفياً وهي تقول بانفعال:

_صدقني هذا ليس...

_عفواً يا شيخ عبد الله...هل تسمح لي بدقيقتين من وقتك؟!

قطعت هذه العبارة جملتها فالتفتت بحدة نحو صاحبتها وهي تترك كفه ببطء متفحصةً هذه المرأة أمامها...

بينما التفت عبد الله نحو المرأة بغضب ليجدها تلك "الفاتنة" التي مرت عليه هنا قريباً تبحث عن عمل...

ومعها صغيرها كالمرة السابقة...

فزفر رغماً عنه ثم استغفر الله بصوت مسموع ليقول ببعض الرفق:

_تفضلي.

ثم اتجه ببصره للصغير الوسيم الذي ورث ملامح والدته على ما يبدو ...

فلانت نظراته تماماً وهو يمد يده مصافحاً له بحنان قبل أن يقول بودّ:

_أهلاً يا محمد...كيف حالك؟!

ابتسم الصغير ببراءة وهو يصافحه بخجل ...

ورغم أن وجود فتون بجمالها المبهر كان سيزعج أي امرأة مكان صفا ...

لكنها ابتسمت وكأنما أنساها وجود "الصغير" أي شئٍ آخر...!!!

نعم...غلبتها مشاعر أمومتها كالعادة فقامت من مكانها لتتناوله من أمه فحملته بين ذراعيها مقبلةً جبينه قبل أن

تعاود الجلوس وهو على ساقيها لتقول له بحنانها الطاغي:

_كم عمرك يا محمد؟!

عدّ الصغير على أصابعه ببراءة قبل أن يقول بفخر طفولي:

_أربعة فقط...لكنني رجل!!

ضحكت صفا بانطلاق وقد أعجبها رده فضمته إلى صدرها أكثر قبل أن تهتف :

_بالطبع...وأفضل رجلٍ أيضاً!!!

فابتسمت "الفاتنة" بشحوب وهي تغمغم بحرج:

_أكرمكِ الله يا سيدتي.

رمقتها صفا بنظرات متسائلة عن سبب تواجدها هنا الآن...

لكن "الفاتنة" لم تنتبه لهذا وهي تطرق برأسها قائلةً بخجل:

_أنا أعتذر لو كنتُ ألح عليك في السؤال يا شيخ...لكن..هل وجدتَ لي عملاً؟!

غض عبد الله بصره عنها وهو يتشاغل ببعض الأوراق على مكتبه قبل أن يقول بما يشبه الاعتذار:

_لقد انشغلت كثيراً في الأيام السابقة ولم أتمكن من تدبر الأمر للأسف...لكن...

قاطعت صفا عبارته وهي تنظر ل"الفاتنة" قائلة باهتمام:

_أنا زوجة الشيخ عبد الله...أيّ عملٍ تبحثين عنه بالضبط؟!

التمعت عينا "الفاتنة" بلهفة "الحاجة" لكنها حافظت على "عزة" كلماتها وهي تقول :

_أي عمل يا سيدتي...طالما كان شريفاً فلا أمانع.

تنحنح عبد الله ببعض الحرج وهو يقول لصفا:

_لقد كان زوجها يعمل هنا لكنه تُوفي منذ فترة قريبة...وهي تبحث عن عمل.

تأملتها صفا ببصرها بنظرات متفحصة وهي تشعر نحوها بالارتياح...

فهي على الرغم من بساطة مظهرها الذي فضح فقرها لكنه يبدو نظيفاً مهندماً...

كما أن نظراتها التي حملت أطناناً من الحزن والانكسار لم تكن خالية من عزة نفس لم تفوتها عيناها الخبيرتان...

ومع نظرة أخري منها نحو الصغير المستكين ببراءة على ساقيها كانت قد حسمت أمرها تماماً!!!

فسألتها بحنان مشوب بشفقتها:

_هل لديكِ مكانٌ تقيمين فيه؟!

أطرقت "الفاتنة" برأسها للحظة لكن الصغير هتف بحزن طفولي:

_سيطردوننا من بيتنا لأننا تأخرنا في دفع الإيجار.

رفعت إليه أمه عينيها بنظرة زاجرة فانكمش الصغير أكثر في حضن صفا التي قالت لعبد الله بنبرة استئذان:

_أنا أحتاج لمن تساعدني في شئون المنزل...ما رأيك لو تعمل لدينا وتقيم في غرفة السطح التي كانت للبواب القديم؟!

انعقد حاجبا عبد الله وهو يشعر بعدم ارتياح لا يدري سببه...

أو ربما هو يعرف ويكابر...!!!

هو لا ينكر تأثير هذه "الفاتنة" عليه منذ رآها أول مرة...

فإذا كان مجرد وجودها قربه يربكه هكذا فكيف سيسمح لها أن تدخل بيته بصورة دائمة؟!!

ورغم أنه في عمله طوال النهار ولا يعود إلا بعد صلاة العشاء لكن هناك نسبة مجازفة لا بأس بها في احتكاك هو أغنى ما يكون عنه...

لهذا أشاح بوجهه وهو يقول باعتراض:

_هذا العمل لا يناسبها...سأبحث لها عن عمل أفضل.

لكن "الفاتنة" بدت وكأنها تتعلق بأي قشة فهتفت بسرعة:

_على العكس...السيدة تبدو شديدة الطيبة وسأكون مرتاحة بالعمل لديها.

بينما التفت الصغير نحو صفا ليهتف بفرح :

_هل ستبنين لنا بيتاً جديداً؟!

ضحكت صفا من قلبها وهي تقبل وجنته لتقول بحنانها الفطري:

_أنا لن أبنيه...هو موجود بالفعل..لكنني سأمنحك مفتاحه لأنك ستكون "رجل البيت" ...صحيح؟!

ضحك الصغير وهو يصفق بكفيه ...بينما ارتسمت على ملامح "الفاتنة" أمارات الارتياح رغم الحزن الذي حفر أخاديده وسطها...

فقلب عبد الله بصره بين الجميع وهو يشعر أن اعتراضه الآن سيبدو غير منطقيّ...

لهذا قال ل"الفاتنة" دون أن ينظر إليها :

_إذا كان هذا العمل يناسبكِ فتفاهمي مع السيدة على التفاصيل...أنا لا شأن لي بالأمر.

قالها وهو يقوم من مكانه ليغادرهما...

عندما سمع صفا من خلفه تسألها بطيبتها :

_ما اسمك؟!!

ورغماً عنه وجد نفسه يرهف السمع لتصدمه إجابتها:

_فتون!

ارتسمت ابتسامةٌ ساخرة على شفتيه وهو يكمل خطواته مبتعداً عنهما ...

لو كان لكل امرئٍ من اسمه نصيب فهذه المرأة أخذت نصيبها كاملاً دون نقصان...!!!!

لو كانت الفتنة حقاً تتجسد في امرأة لكانت هي بلا جدال!!

تنهد بحرارة وخطواته تحمله خارج المحل ليطالع الطريق بشرود وهو يشعر بثقلٍ جاثم على صدره...

مع إحساس مبهم -بالخطر- بدأ يتسلل لنفسه ببطء...

وحدساً ما بداخله يخبره أن أيامه القادمة ستحمل له الكثير من المفاجآت...

الكثير!!!!!!

===========

جلس أمامها على طرف فراشها ليوقظها ككل يوم عندما فوجئ بابتسامتها الواسعة في نومها مع همهماتٍ ناعمة لم يتبينها فأدرك أنها تحلم...

ابتسم بحنان جارف وقد تراجع عن فكرته بإيقاظها مكتفياً بتأمل ملامحها بهذه الابتسامة الخلابة التي قلما يراها في صحوها...

ثم امتدت أنامله ببطء تتحسس ملامح وجهها باشتياقٍ -لا منطقيّ- فهو تقريباً لا يتركها منذ أسبوعين...

ومع هذا يشعر أن قربها كالماء المالح لايروي ظمأه بل يزيده !!

استمرت أنامله في تبتلاتها الطائفة على بشرة وجهها حتى وصلت لشق ذقنها الذي هو أكثر ما يأسر عينيه في ملامحها...

وكل ملامحها له آسرة!!

لتجذبه ابتسامتها من جديد قسراً إلى شفتيها اللتين تزينتا بابتسامتها الحالمة فوجد نفسه دون وعي يقترب منهما ببطء مسحوراً حتى كاد يمسهما بشفتيه...

لكنه تراجع في آخر لحظة وهو يجاهد نفسه في الابتعاد بوجهه...

وإن بقي قلبه على عميق قربه ...بل تشبثه!!!

تنهد بحرارة وهو يسحب أنامله بعيداً لكنه عجز عن منع عينيه من ملاحقة ملامحها الملائكية التي بدت له الآن كأروع ما تكون !!!

يقولون أن المرأة الجميلة تفقد الرجل عقله ....وليتها تفعل!!!

ليتها تحرره من قيود عقله وكبريائه حتى يستطيع مسامحتها...

حتى يستطيع التجاوز عن فعلتها التي طعنته غدراً!!!

انعقد حاجباه عند هذه النقطة وهو يرى بعين خياله رجلاً غيره رآها هكذا لينال منها ما حرّمه -هو -على نفسه!!

فشعر بنيران قلبه تستعر من جديد ليشيح عنها بوجهه وهو يستغفر الله بخفوت....

لكنه عاد بعد دقائق يختلس النظر لوجهها وقد غلبته عاطفته نحوها من جديد....

لتتحول نظراته المختلسة إلى تأملٍ عميق وكأنه يرتشف سحر ملامحها...

قطرة... قطرة!!

لكنها قطعت عليه سحر تأمله عندما فتحت عينيها أخيراً لتفاجأ بوجوده ...

فقامت من نومتها بارتباك لتقول بصوت لم يغادره النعاس بعد:

_صباح الخير...هل تأخرتُ في الاستيقاظ؟!

ابتسم بحنان وهو يلتقط أشعة عينيها النقية ثم هز رأسه نفياً ليقول بصوته الخشن:

_لا أبداً...خشيتُ فقط أن تفوتي ميعاد دوائك.

أطرقت برأسها مخفيةً ابتسامة امتنانها لكل هذا الحنان الذي يغرقها فيه مؤخراً بعد انتقالهما للعيش هنا...

والذي كانت تحتاجه بحق لتعبر كل ما كانت تعانيه منذ شهور ...

وبالتحديد منذ كارثتها الأخيرة مع فهد...

وعند ذكرى فهد تغضنت ملامحها ببغض وهي مندهشة من تغير حالها الجديد...

فالآن عندما تستحضر في مخيلتها ملامحه لم تعد تراها وسيمة كالسابق...

بل صارت تراها-للعجب- شيطانيةً منفرة !!!

وحتى ذكرياتها القصيرة معه والتي كانت تعتبرها حصاد عمرها الثمين...

الآن تطردها من رأسها كلما جالت فيه كأفعى سامة!!!

لقد تكفل الزمن بإزالة الستار كاملاً عن اللوحة القديمة...

لتبدو حقيقتها الكريهة ...

مجرد ألوانٍ صارخة متداخلة على قطعة قماش مهترئة بلا إطار...

فبئست اللوحة...وبئست الحقيقة!!!

بينما قاطع هو أفكارها ليسألها برفق حنون ولازالت نظراته المتبتلة على طوافها العاشق:

_يبدو أنني قاطعتُ حلماً سعيداً ...كنتِ تبتسمين في نومك!

اتسعت ابتسامتها وهي تومئ برأسها لتهمس بشرود مستعيدة أحداث حلمها :

_لقد رأيت أبي في الحلم يضمني بقوة...ويربت على رأسي بالدعاء كما كان يفعل رحمه الله...لكنه تركني بعدها ليذهب بعيداً وعندما رجوته أن يأخذني معه التفت نحوي مبتسماً ليقول لي بفخر إن طريقي لا يزال طويلاً !

ربت على كفها بحنان وقد أسعده حلمها مثلها ليقول بنبرة مطمئنة:

_إن شاء الله ستحققين كل أمنياتك.

نفضت عنها غطاءها وهي تقوم من الفراش لتقول له ببعض الانطلاق الغريب على تحفظها معه:

_أنا أريد أن أعد أنا الإفطار اليوم ...لقد صرتُ بخير!

قام بدوره وقد بدا على وجهه الاعتراض لكنها توجهت نحوه لتقول بوداعتها البريئة:

_حسناً...لا تعترض...نعده سوياً!!

ابتسم رغماً عنه وهو يجذبها من كفها ليقول بحزم رفيق:

_اغسلي وجهكِ أولاً والحقي بي.

أومأت برأسها في طاعة لتلحق به بعد قليل فتعاونه في إعداد الطعام وحمل الأطباق نحو المائدة...

ثم جلست جواره لتقول بهدوء:

_هيام كانت مختلفة جداً عندما زارتنا بالأمس...لقد اعتذرت لي أمام والدتك عندما غادرتنا أنت.

أومأ برأسه وهو يسألها باهتمام:

_وهل قبلتِ أنتِ اعتذارها؟!

نظرت إليه بتردد وهي لا تدري بماذا ترد....ثم همست بخفوت:

_ماذا تريدني أن أفعل؟!

ربت على كتفها برفق ثم قال بحزم وهو ينظر في عمق عينيها:

_افعلى ما تريدينه أنتِ!!

خفضت بصرها عنه للحظات ثم همست بطيبة واضحة:

_أنا لا أحب الخصومة...أريد أن نعود للعيش مع والدتك فقد تحملتَ أنتَ ما يزيد عن طاقتك طوال الأيام السابقة...وأنا سأتدبر أمري هناك.

رفع ذقنها إليه ليلتقط نظراتها من جديد قائلاً بلهجة آمرة:

_وستخبرينني بكل شئ يحدث في غيابي!

أومأت برأسها وهي تبتسم بارتياح ظهر على ملامحها التي تلونت بسكينتها الآن...

فابتسم بدوره وهو يسألها باهتمام:

_ألم تسأمي من الجلوس هكذا حبيسة المنزل؟! ما رأيك لو نخرج للتنزه اليوم؟!!

التمعت عيناها بفرحة طفولية وهي تهتف بلهفة:

_حقاً؟!

انفرجت ابتسامته عن ضحكة خشنة قصيرة وهو يري سعادتها ليرد بعدها بحنانه المشبع بعاطفته:

_نعم...بعد العصر نخرج لتناول غدائنا بالخارج .

وبعدها بساعات كانا يتجولان معاً في أحد "المولات" الكبيرة حيث شاهدا أحد أفلام السينما بعد تناول الغداء ثم انشغلا بالتسوق في المحلات...

كان هو يشعر بالسعادة وهو يري ملامحها التي عادت إليها ترانيمها الملائكية بتلك الابتسامة التي لا يدري من أين سرقت سحرها هذا...!!!

كان يسير جوارها مغيباً عن الواقع وهو يراها كما تمناها دوماً في أحلامه...

كفها يغفو كرضيعٍ هانئٍ في راحته وعيناها تلتمعان بتلك اللمعة الآسرة...

وكلماتها البريئة العفوية تكاد ترفعها لمصافّ الملائكة...

وبعيداً عن تحذيرات عقله من تماديه -القسري-في شعوره الجارف بها كان قلبه يجري كفرس جموح في ربوع عشقها الواسعة...

حتى التفتت نحوه لتسأله بعفوية:

_هل تعبتَ من المشي؟!

ابتسم وهو يثني لها ذراعه لتتأبطه قبل أن يميل على أذنها هامساً ببعض المرح:

_من بنا المريض؟! أنا أم أنتِ؟!

ضحكت ببساطة -مهلكة-وهي ترد عليه ببراءتها :

_أنا لا يمكن أن أتعب من التسوق أبداً...أنا أعشق مراقبة الواجهات الزجاجية للمحلات حتى لو لم أكن أنتوي الشراء.

ربت على كفها برفق ثم قال وعيناه تحتضنان ملامحها بحنان:

_يمكنكِ شراء ما ترغبين .

توردت وجنتاها بخجل وهي تهمس باعتراض :

_لا شكراً...أنا لا أريد شيئاً!

تنهد بحرارة مكتفياً بابتسامته التي عكست شعور قلبه في هذه اللحظة ...

عندما توقف بها أمام أحد المحلات التي كانت تعرض ثياباً للسهرات حيث لاحظ تعلق بصرها بأحد الأثواب الذي كان معروضاً هناك...

ابتسم -للمفارقة-وهو يري الثوب بلون الليمون بتلك الدرجة المميزة بين الأصفر والأخضر...

تماماً كما يراها هي بعين خياله...

امرأة بنكهة الليمون!!

لاذعةٌ لكنها منعشة!!

لينتبه وقتها فقط أنها تنتقي أغلب ملابسها بهذا اللون...

بل إن عطرها المميز كذلك يحمل رائحةً ليمونية واضحة!!

قطعت أفكاره عندما انتبه لذاك الشاب الذي وقف على بعد خطواتٍ بعيدة منهما ....

والذي كان مثبتاً بصره عليها هي باهتمام ممتزجٍ بإعجاب ذكوريٍ لم تخطئه عيناه!!!

انعقد حاجباه بغضب هادر وهو يرمق الشاب بنظرة زاجرة فأشاح الشاب بوجهه...

ليلتفت هو نحو جانب وجهها حيث كان بصرها لا يزال متعلقاً بالثوب غافلةً عن كل هذا....

لكنه ضغط على كفها بقوة آلمتها وهو يسألها بهمس غاضب:

_هل تعرفين ذاك الشاب هناك الذي يرتدي الأبيض؟!

اختلست نظرة جانبية حيث أشار لتجيب بارتباك عاد إليه خوفها:

_لا...أبداً!!

ازداد ضغطه المؤلم على كفها دون وعي حتى دمعت عيناها وهو يهمس بحنق:

_إنه لم يرفع عينيه من عليكِ...وهو لن يجرؤ على هذا ما لم يكن يعرفك حقاً!!

لكنها أغمضت عينيها بألم واضح وهي تهمس مدافعة:

_أقسم لك أنني لا أعرفه.

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يشعر بمخالب الغيرة تمزق صدره...

عندما فوجئ بالشاب نفسه يتقدم نحوهما مبتسماً بلزوجة...

فتحفزت عضلاته وهو يهيئ نفسه للشجار...

لكنه فوجئ به يتجاوزهما نحو فتاة أخري كانت خلفهما تماماً ليلتقط كفها ويغادر معها...!!!

بينما لم ترَ هي كل هذا فقد أطرقت برأسها بخزي بعد سؤاله وهي تشعر بالدونية والانتقاص...

هو أبداً لن يثق فيها...

ستبقي في نظره دوماً مثار شكٍ واتهام...!!!

لكن لماذا تلومه وهي التي فرطت أولاً في حق نفسها قبل أي أحد!!!

بينما رمقها هو بعدها بنظرة طويلة مطعمةٍ بأسفه ولوعته...

قبل أن يسحبها من كفها دون اعتراض منها ليغادرا المكان نحو سيارته...

ظلا على صمتهما طوال الطريق حتى وصلا إلى البيت...

وهي غارقةٌ في شعورها بالذنب...

ولأول مرة لا تخشى ردة فعله بقدر ما تخشي أن تسيئ إليه...!!

هو لا يستحق أن يصيبه مثقال ذرة من أي أذى بسببها بعد كل ما فعله لأجلها...

لهذا لم يكد يدخل ويغلق الباب خلفه حتى تقدمت نحوه منكسة الرأس لتهمس باستسلام خانع:

_أنا أعرف أنك لا تثق بي...ويحق لك ذلك...وأنا للأسف لا يمكنني أن أثبت لك العكس..لهذا أرجوك ألا نخرج ثانيةً...لا أريد أن أرى أحداً ولا أن يراني أحد...حتى موضوع الجامعة ...أنا صرفت النظر عنه.

ازدرد ريقه الجاف بصعوبة وهو لا يدري ماذا يقول ولا ماذا يفعل...!!!!

في حالتها هذه... الحضن والاعتذار فريضة !!!

لكنه للأسف لا يستطيع...

في هذه النقطة بالذات سيبقي كبرياؤه حاجزاً بينهما...

رأسه الصلب المنغلق على أفكاره الثابتة لن يطاوع قلبه وضميره مهما حاول...

لهذا بذل مجهوداً خرافياً ليتجاوزها متجاهلاً الرد على عبارتها قبل أن يدخل غرفته ويغلق بابها خلفه بسرعة وكأنه يخشي أن تراوده نفسه بما لا يطيق!!

بينما نظرت هي للباب المغلق بحسرة ممتزجة بخزيها للحظات...

قبل أن تذهب لغرفتها هي الأخري فتبدل ملابسها وتستلقي على فراشها تطالع السقف بشرود...

ما أقسى أن يكون المرء دوماً في موضع اتهام...!!!

أن يقضي غالب وقته غارقاً في تفسير حسن نيته وخلقه...

والبعض الآخر مختنقاً بخزيه وخذلانه!!

ما أقسى أن تكون المجرم والضحية فلا تدري هل تحتقر نفسك أم تشفق عليها؟!

ورغما عنها انصرفت أفكارها لذاك الرجل الغريب...

الذي عاملها بأشد ما تكون القسوة...وبأرق ما يكون الحنان!!!

الذي أعاد إليها بعضاً من روحها لكنه لازال يعتقل بقيتها بسجونه- الفارهة-!!!

نعم...غموضه سجن...

وشكوكه سجن...

وقسوته سجن...

وحتى حنانه الذي تخشى إدمانه...سجن!!!!

وليتها تستطيع مع كل هذا أن تكرهه أو تلومه...بل على العكس!!!

إنها -وبكل أمانة-تعذره!!!

انقطعت أفكارها مع شهقتها العنيفة عندما انقطع التيار الكهربائي فجأة لتتسارع نبضات قلبها بجنون وخوفها -المَرضي-يعاودها ...

دمعت عيناها بعجز وهي تهمّ بالنداء عليه لكنها تذكرت أنه غاضبٌ منها الآن وقد يقسو عليها أكثر...

فقامت من فراشها ببطء وهي تحاول تحسس طريقها نحو حقيبتها لتحضر هاتفها لعلها تستمد منه بعض الضوء فهي لا تدري إن كانت هذه الشقة تحتوي على كشاف للضوء أو حتى بعض الشموع!!!

كانت خطواتها بطيئة متمهلة وهي تكاد تسمع صوت دقات قلبها اللاهثة بجنون فزِع...

عندما سمعت صوته يهتف قريباً منها مع ضوء كشاف هاتفه الصغير :

_رؤى...أين أنتِ؟!

تنحنحت بارتباك وقد بدا وكأنها فقدت القدرة على النطق ...

لكنه وصل إليها ليضمها إليه برفق قائلاً باعتذار لا يخلو من خشونة:

_لا بأس...لقد انتقلنا حديثاً هنا لهذه الشقة ولا يوجد ما أضئ به سوى هاتفي.

كان جسدها يرتجف بقوة خوفها -المرضي- فضمها إليه أكثر وهو يهمس بحنانٍ فجرته عاطفته نحوها:

_اهدئي...لا تخافي!

ظل يربت على ظهرها للحظات بعدها حتى هدأت ارتجافتها فجذبها برفق حتى فراشها ليغمغم بعدها بحنان مشوب بحزمه:

_عودي لنومك...أنا سأبقى معك حتى يعود التيار الكهربائي.

تمددت على الفراش وهي تتشبث بكفه بينما جلس هو على طرفه ليربت بكفه الآخر على جبينها الذي كان بارداً كالثلج منديأً بعرق خفيف ...

فازداد انعقاد حاجبيه وهو يشعر أن انفعالها هذا زائد عن الطبيعي...

لكنها همست مفسرةً ببعض الارتباك:

_أنا فقط...جبانة جداً!!

عاد يربت على جبينها برفق وهو يتذكر ما أخبرته به عن رُهابها المَرضي...

يبدو أنها لا تخاف الوحدة فحسب...بل والظلام أيضاً!!

بعض الرجال يتذمر من المرأة الضعيفة ويراها عبئاً على كاهله...

لكنه -لحسن حظها-لم يكن كذلك بل على العكس...

طبيعته الخشنة وشخصيته القوية المسئولة كانت تميل دوماً للمرأة الرقيقة الخانعة المستكينة...

وهو مالم يكن ينقصها على أي حال!!!

لهذا تنهد بحرارة وهو يحس أن احتياجها إليه يزيد من عمق عاطفته نحوها....

فاحتضن كفها بين راحتيه برفق ليغمغم بخفوت:

_لا تؤاخذيني على انفعالي منذ قليل....هذا طبعي للأسف...شديد العصبية وأفقد سيطرتي عند الغضب.

انكمشت على نفسها أكثر وشعور الذنب يعاودها لتعيد له ما قالته من قبل:

_أنا آسفة...لا أستطيع أن أطلب منك أن تثق بي...لهذا أرى من الأفضل أن أبقى في المنزل حتى لا يتكرر موقف كهذا.

عادت تنهيدته الحارة تلهب صدره وهو يرد عليها بحزم بعد دقائق صمت طالت:

_لا يا رؤى...سأنفذ وعدي لكِ ...ستعودين للجامعة مع بدء الدراسة كما ترغبين.

أغمضت عينيها بعدها بقوة وهي لا تدري ماذا تقول...

هل تشكره على كل ما فعله ولا زال يفعله من أجلها...؟!!!

أم ترفض عرضه هذا حتى لا تثير المزيد من الشك والمشاكل؟!!!

هل تقبل عرضه السخي بالحرية والانطلاق..؟!!

أم تبقى في سجنها حتى لا تثير حفيظته بأي صورة؟!!

عاد التيار الكهربائي في هذه اللحظة فأغشي النور المفاجئ عينيهما للحظات...

قبل أن يقوم هو من جوارها ليقول برفق حنون:

_تصبحين على خير.

قالها وهو يكاد يترك كفها أخيراً ليهم بمغادرة الغرفة لكنها تشبثت بكفه فعاد يلتفت نحوها لتأسره نظراتها الراجية الطفولية وهي تهمس بوداعتها المعهودة:

_هل يمكن أن يعود التيار الكهربائي للانقطاع ثانية؟!

ظل حبيس حدقتيها المشتعلتين- بفتنة امرأة وبراءة طفلة -للحظات طويلة...

غاب فيها عقله عن الوعي مشدوهاً بترانيم قلبه المغرمة الآن...

حتى انفك السحر رويداً رويداً ليعود له إدراكه ...

فابتسم ابتسامةً حملت كل حنان الدنيا وهو يجلس من جديد على طرف الفراش لتعاود أنامله العزف على جبينها الوضاء قبل أن يهمس بصوت متهدج:

_نامي ولا تخافي...أنا سأبقى معك!

=====================================

_ما حكاية هذه المحامية ؟!!!

قالها جاسم الصاوي ببرود دون أن يرفع بصره نحو فهد الذي كان يجلس أمامه على مكتبه في شركته...

لكن فهد تمالك انفعاله ببراعة وهو يسأله ببرود مشابه:

_أية محامية؟!!!

قالها وهو يعد نفسه لكل الاحتمالات التي يفرضها سؤال مثل هذا...

خاصةً بعدما تناولت الأمر بعض مواقع التواصل الاجتماعي تزامناً مع طلبه المفاجئ للانفصال عن أبيه في عمله...

لكن جاسم الصاوي منذ تلك الساعة التي تواجها فيها لا يكاد يمرر يوماً دون أن يكلفه بعملٍ ما وكأنه يتحداه...!!!!

ورغم أن فهد كان يدرك هذا تماماً لكنه رضخ برغبته كي لا يثير شكوكه أو غضبه...

وهو أغنى ما يكون عن كليهما!!!

لهذا سقط قلبه بين قدميه وجاسم يجيبه بنفس النبرة الثلجية:

_اسمها جنة الرشيدي...أحد رجالي يقول أنه ساعدك في اختطافها يوماً!!

حافظ فهد على جمود ملامحه بشق الأنفس رغم إعصار الخوف الذي كان يجتاحه الآن بلا رحمة...

ثم لوح بكفه متظاهراً باللامبالاة :

_مجرد امرأة!!

زفر جاسم بضيق وهو ينظر إليه من تحت نظارته الطبية ليقول بغضب مكتوم:

_لا شأن لي بعلاقاتك العابثة...أنا فقدتُ رجائي فيك منذ زمن...لكن عندما يصل الأمر إلىّ أنا فلن أسكت!!

ابتلع فهد إهانته كالعادة وهو يزدرد ريقه بصعوبة متسائلاً بترقب وجِل:

_ماذا فعلَت هي؟!

ابتسم جاسم بسخرية وهو يرد عليه باحتقار :

_يبدو أن "حبيب القلب" غدر بها فتريد أن تنتقم منه في شخص أبيه!!

تشبث فهد بمقبض كرسيه محاولاً كظم غيظه وانفعاله ...

بينما أردف جاسم بنفس النبرة المستهجنة :

_أرض المشروع الجديد التي حصلنا عليها منذ فترة...كانت تشتمل على قطعة كبيرة لرجلٍ أحمق فانتزعتها منه بحركة ماهرة من أحد المحامين التابعين

لي دون أن أدفع قرشاً واحداً....لكن يبدو أن هذا الأحمق ذهب لتلك المرأة لترفع قضيةً علىّ أنا شخصياً!!!

اتسعت عينا فهد بارتياع وهو لا يصدق أن تصل جرأتها لهذا الحد!!!!

هو الذي يحاول قدر استطاعته إخفاءها عن عيون أبيه...

لتذهب هي بقدميها إليه !!!!

اشتعلت عواصف غضبه وخوفه في هذه اللحظة فما عاد يعرف أيهما يغزوه أكثر....

خاصةً عندما أكمل جاسم بنبرة غارقة بوعيدها:

_لا أريد المزيد من التشويش على سمعتي والانتخابات على الأبواب...لو كنت لا تزال على اتصالٍ بتلك المرأة فأقنعها أن تبتعد عن طريقي وإلا فسأقنعها أنا بطريقتي!!

تجمد فهد مكانه وقد فقد كلماته كلها مع خوفه الرهيب من أن يكتشف جاسم الصاوي طبيعة العلاقة الحقيقية بينه وبين جنة...

الحمقاء جعلته يضعها في رأسه وجاسم لن ينسى اسمها بسهولة بعدها!!!

غادر مكتب أبيه بعدما وعده باقتضاب أن ينهي هو الأمر...

ليتوجه نحو منزلهما بسرعة جنونية وقد بلغ به الغضب مبلغه!!!

وعلى الأريكة كانت هي جالسة في صالة المنزل تقلب في بعض أوراق عملها بتفحص...

كان الوقت لايزال عصراً عندما فوجئت به يدخل المنزل في غير موعده ليصفق الباب خلفه بعنف صارخاً بها:

_هل جُننتِ؟!!! ترفعين قضيةً على أبي؟!!

تشبثت بتماسكها وهي تحاول التشاغل بأوراقها لتقول ببرود:

_أنا لم أرفع قضية على أبيك...أنا رفعتها على جاسم الصاوي المحتال الذي ينهب حق غيره!

اندفع نحوها بخطوات غاضبة ليجذبها من مرفقها نحوه وهو ينتزع منها أوراقها ليرميها أرضاً...

قبل أن يصرخ بحدة :

_أنا لم أصدق عندما أخبرني...أنا أسعى لإخفائك عن عينيه بكل طاقتي وأنتِ تقتحمين عالمه بنفسك؟!!!هل فقدتِ عقلك؟!!

نزعت مرفقها منه بعنف لتهتف بحدة مماثلة:

_أنا لم أفقد عقلي ...على العكس...أنا استعدته...لن أخالف ضميري لأجل علاقتنا مهما حدث!!

أمسك كتفيها يهزها بعنف وهو يهتف بسخط:

_لم يطلب منكِ أحدٌ مخالفة ضميرك...لكن أن تسعيْ أنتِ بنفسكِ إليه فهذه حماقة!!

أشاحت بوجهها وهي تقول بمكابرة:

_لم أسعَ إليه كما تظن...موكلي جاءني بالمصادفة ولم أعتد رفض قضية أراها عادلة!!

كانت تعلم أنها كاذبة...

فموكلها لم يقصدها هي شخصياً بل ذهب إلى أحد زملائها الذي رفض القضية خوفاً من نفوذ جاسم الصاوي المعروف...

وعندما علمت هي عن الأمر مصادفةً اتصلت بالرجل بنفسها تعرض عليه تولي القضية التي رفضها الغالبية لنفس السبب!!!

لماذا فعلتها؟!!!

لأنها كانت تريد التمرد!!!

هذا هو كل شئ!!!

كانت تريد استعادة طبيعتها المحاربة القديمة...

كانت تريد كسر دائرة الذنب التي تدور فيها معه ولا تعرف لها نهاية...

كانت تريد أن تثبت لنفسها أن مبادئها ستغلب عاطفتها لو تصارعا يوماً!!!

ربما يراها هو حمقاء...

لكنها حقاً تحاول استعادة هويتها المفقودة...

تحاول التشبث بما بقي من طيف "جنة الرشيدي" التي لن تسكت عن ظلمٍ تراه عيناها...!!!

لهذا تنمرت ملامحها بعصيانٍ متمرد بينما أخذ هو نفساً عميقاً لعله يهدئ به لهيب أعماقه...

قبل أن يلوح بسبابته في وجهها هاتفاً بلهجة مهددة:

_ستعتذرين عن هذه القضية وإلا ....

قطع عبارته عامداً وقد تصدعت ملامحه بقسوتها...

فاشتعل غضبها أكثر وهي تهتف بدورها:

_وإلا ماذا؟!! هل تهددني؟!!

لم تكد تتم عبارتها حتى ارتجف جسدها بصدمته وهو يحيط وجهها بكفيه بقوة آلمتها ليهز رأسها بعدها بعنف هاتفاً بنفاد صبر:

_أخبرتكِ قبلاً أنني لن أخسرك حتى لو حاربتك أنت نفسك!!!

قالها وهو يرمقها بنظراتٍ حارقة للحظات...

قبل أن ينزع كفيه عن وجهها ليتوجه للداخل بخطواتٍ مندفعة وقد لحقت هي به لتجده ينتزع مفاتيح المنزل من حقيبة يدها ويضعها في جيبه...!!!

انعقد حاجباها بغضب مشوب بدهشتها وهي تسأله بحدة:

_ماذا تفعل؟!!

التفت نحوها بعنف هاتفاً بحزم:

_لن تغادري هذا المنزل بعدُ... إلا معي!!!

صرخت ملامحها باستنكار هادر...

لكنه تجاهله وهو يلوح بسبابته في وجهها مردفاً:

_أنا سأغادر الآن لأن لديّ عملاً مع أبي..أتعشم أن تكوني قد عدتِ لصوابكِ عندما أرجع في المساء.

قالها وهو يغادر الغرفة بخطواتٍ سريعة نحو باب الشقة لتهرع هي خلفه وهي تسحب كفه بعنف هاتفةً بانفعال:

_تعال هنا...لا تتركني هكذا كالمساجين...أنا لستُ جاريةً عندك!!!

التفت نحوها بنظرة طويلة صهرت غضبه مع عتابه ...

ليتكِ كنتِ جارية يا جنة!!!

مصيبتي معكِ أنك ملكتي الوحيدة...

ملكتي التي أقسمت لنفسي بالولاء لها طوال عمري مهما حدث...

ملكتي التي ذبحتُ على أعتاب قصرها ما مضى من أيامي...وقدمتُ ما بقي قرباناً لرضاها...

ملكتي التي كانت ولا تزال وستبقي ...كنز عمري كله!!!

كان هذا أنين قلبه الصامت الذي لم يقوَ على البوح به مكتفياً بنظراته الصارخة...

قبل أن ينزع كفه من يدها بعنف ليخرج ويغلق باب الشقة خلفه من الخارج بالمفتاح!!!!!

بينما ظلت هي واقفةً مكانها للحظات مصدومةً من ردة فعله ...

قبل أن تتلفت حولها بعجز وهي لا تدري ماذا تفعل...

لقد حبسها فهد هنا -حرفياً- حتى يعود!!!

زفرت بضيق مصبوغ بحيرتها ثم عادت للجلوس على الأريكة وهي تفكر في وضعهما الغريب...

وقد بدا لها حبهما في هذه اللحظة كمنحنيً تصاعد تدريجياً حتى وصل لذروته ذاك اليوم الذي استرقاه من الزمن في "الشاليه" البعيد...

ليعود بعدها للانحدار من جديد!!!

نعم...منذ ذلك اليوم وعلاقتهما تزداد تباعداً وفتوراً...

وستكون صادقةً مع نفسها لتعترف أنها هي السبب!!!

هي التي تمادت بعدها في تجاهله والإعراض عنه...

وهو كان مستميتاً في البداية لاستعادة صفو علاقتهما حتى دفعه كبرياؤه لتجاهلها كما تتجاهله...

وها هي النتيجة...

لقد عادا غريبين يسكنان في بيتٍ واحد...

لكنّ كلاً منهما يوقن أن قلبه لدى الآخر!!!

ورغم أنه من يومها يحرص على النوم جوارها كل ليلة دون أن يمسها كما وعدها...

لكنها تشعر أن ما بينهما قد تغلف ببرودة ثلجية بعيدةٍ تماماً عن لهيب عشقهما الماضي!!!

مجرد أيام مضت لكنها تشعر بها دهوراً طويلة من عذابٍ وألم...

تنهدت بحرارة وهي تحاول التشاغل عن نحيب قلبها الذي اشتاق لحظاتهما الدافئة...

فتناولت أوراقها من جديد ليلهيها فكرها بعدها لما يقارب الساعتين...

حتى رن هاتفها برقم موكلها الذي لأجله قامت كل هذه المشكلة...

ترددت للحظات ونفسها تراودها ألا ترد عليه حتى يعود فهد فتتناقش معه...

لكنها كانت تعلم أن النقاش معه سيكون عقيماً...هو لن يغير رأيه...وهي كذلك!!!

لهذا حسمت أمرها لترد على الاتصال بتماسك...

لكنها فوجئت بالرجل يخبرها أن ابن جاسم الصاوي التقاه منذ قليل ودفع له ثمن أرضه كاملاً مقابل أن يتنازل عن القضية ...

وهو سيفعل!!!

لهذا اتصل يشكرها معتذراً عن القضية واعداً إياها بأتعابها كاملة!!!

اتسعت عيناها بدهشة وهي تغلق الاتصال شاعرةً بمزيج غريب من الخيبة والارتياح...!!!

لقد تدارك فهد الأمر بسرعة ليغلق عليها هذا الباب ...

ولا تدري هل من المفترض أن تشعر الآن بالاسترخاء بعدما عاد الحق لصاحبه بسببها...

أم بالهزيمة لأن فهد لم يفعلها سوى لأجل حمايتها هي وليس دفاعاً عن حقٍ هو مقتنعٌ به!!!!!

ألقت الأوراق من يدها بعنف وهي تحاول الاسترخاء على الأريكة دون جدوي...

فقد كان رأسها مشتعلاً بأفكاره ...

وقلبها مذبوحاً باشتياقه...

وضميرها مختنقاً بمرارته...

ووسط كل هذا كانت هي تتخبط في متاهات روحها بلا نهاية!!!!

لم تدرِ كم ظلت على هذا الوضع...

لكنها فوجئت بظلام المكان حولها يقطع عليها أفكارها...

فانتبهت لمرور الساعات دون أن تشعر ...

مسحت وجهها بكفيها ثم قامت لتفتح أنوار الشقة كلها...

قبل أن تعد لنفسها كوباً من القهوة صار مرتبطاً في ذهنها به هو ...

لتعود بعدها لأريكتها فتشغل جهاز التلفاز محاولةً التسرية عن نفسها...

لكنها ما كادت تطالع الشاشة حتى ارتجفت مكانها ليسقط كوب قهوتها منها وهي تقرأ الخبر الذي ظهرعلى الشريط المتحرك أسفل الشاشة بوضوح !!!!!

صرخت صرخة قصيرة وهي تتناول هاتفها لتتصل بفهد لكن هاتفه كان مغلقاً...

فدوت صرختها عاليةً هذه المرة وهي تقلب في القنوات لتجد الخبر يحتلها كلها...

_مجهولون يطلقون النار على سيارة جاسم الصاوي التي كان بداخلها هو وابنه الوحيد!!!!

========================

تهاوت جالسةً على الأرض وقد عجزت قدماها عن حملها وهي تشعر أن الدنيا حولها تدور بها...

تشبثت بهاتفها وهي تحاول من جديد الاتصال به لكنها لم تنل سوى تلك الرسالة اللعينة بأن الهاتف ربما يكون مغلقاً!!!!

ظلت تحاول وهي عاجزة عن منع فيض دموعها المنهمرة والقلق ينهش أعماقها بقسوة ...

حتى وجدت بعض قوتها لتقوم وتبدل ملابسها بسرعة حتى تخرج وتتقصى عن الخبر...

لكنها ما كادت تصل لباب الشقة محاولةً فتحه حتى انتبهت أنه قد أغلقه عليها من الخارج قبل مغادرته!!!

عادت تصرخ من جديد بانهيار تام هذه المرة وهي تخبط رأسها في الباب لعدة مرات قبل أن تبتعد عنه وهي تتلفت حولها في عجز...

ما الذي يمكنها فعله الآن؟!!!

وما الذي يمكن أن يكون قد حدث له؟!!!

هل من الممكن أن يكون قد أصيب بأذى...؟!!

أو ربما....؟!!!!

شهقت بعنف وهي تطرد ذاك الخاطر الرهيب...

قبل أن ترفع كفيها للسماء مضمومين وهي تدعو الله بصوت باكٍ وسط دموعها ...

حتى وجدت بعض سكينتها فتوجهت نحو التلفاز لتقلب قنواته من جديد لكنها لم تجد ما يطمئنها...

فلازال الخبر يذاع كما هو دون إضافة جديد...

ساعتها فقط انهارت جالسةً على الأرض تبكي بحرقة وهي تستعيد ذكرى فقدها لحسن...

رباه؟!!!

هل يفعلها بها القدر مرتين؟!!

هل تفقد فهد حقاً هذه المرة أيضاً؟!!!

انفطر قلبها حزناً عند فكرتها الأخيرة وهي تشعر بالندم يمزقها على سوء معاملتها له طوال الأيام الماضية...

لتضرب بقبضتها على صدرها عدة مرات وسط صرخاتها الباكية....

وهي تتمنى لو يعود الآن فقط لتسكب غرامها على صدره ضاربةً بكل شيءٍ عرض الحائط وليكن بعدها ما يكون!!!

لن تعاند قلبها بعد الآن ...

هي تحب فهد الصاوي ...بل تعشقه...!!

فلتكن هذه حقيقتها الثابتة قبل أن تتشعب منها أي حقائق أخري ...

مركز نواتها الذي تدور حوله كل حياتها ولا شئ سواه!!!

لا...لم تعد نفسها تسول لها بافتراق أو تباعد أو مكابرة أو تجاهل...

فقط ...لو يعود!!!!

لم تدرِ كم ظلت بالضبط على انهيارها الصامت هذا...

فقد كان هذا الطنين الغريب بأذنيها مع دموعها المنهمرة يشوش عليها الشعور بكل شيئ...

حتى انتبهت على صوت مفتاحه يدور في الباب ...!!!!

خفق قلبها بجنون وهي تراه يدخل من الباب ليتقدم نحوها بملامح متجهمة...

لكنها ظلت تنظر إليه بجمود يناقض بركان انفعالها وسط شهقاتها الباكية دون أن تجد القدرة حتى على الوقوف!!!!

حتى صار قبالتها تماماً فانعقد حاجباه بشدة وهو يري انهيارها الباكي على الأرض ليسألها بخشونة:

_لماذا تبكين هذا؟!ماذا حدث؟!!

ازدادت حدة شهقاتها الباكية وهي عاجزة عن الرد مع ارتجاف جسدها بدموعها ...

عندما انتبه هو لشاشة التلفاز أمامها والخبر الذي كان يظهر على الشريط أسفلها فزفر بقوة وهو يستنتج ما حدث....

ثم انحنى ليجذبها من مرفقيها فرفعها نحوه وهو يدرك أنها ستسقط في أي لحظة من فرط انفعالها لو تركها الآن...

ضمها لصدره بقوة وهو يربت على ظهرها محتوياً ارتجافة جسدها للحظات قبل أن يهمس بصوت مختنق:

_اهدئي...لم يحدث شئ...أنا بخير!!

مدت ذراعيها تتشبث بعنقه أكثر وهي تهتف بصعوبة وسط شهقاتها الباكية:

_كنت ....سأموت يا فهد... لو أصابك... مكروه!!!

دق قلبه تأثراً بمشاعرها الصارخة فضمها إليه أكثر وهو يشعر أن هذا أصدق اعتراف بالحب يمكن أن يسمعه منها....

لكنه مع هذا همس بلهجة جافة مشبعة بعتابها:

_لماذا؟!!ربما كان من الأفضل لكِ أن تتخلصي من ذنبك الأسود لتعود الأستاذة لعالمها النظيف!!!

شددت ضغط ذراعيها على عنقه بكل قوتها للحظات...

قبل أن تضربه بقبضتيها على ظهره برفق هامسة بألم:

_اسكت يا فهد ولا تزدْ عذابي...حرامٌ عليك!!

عاد يزفر من جديد وهو يربت على ظهرها برفق للحظات أخرى حتى هدأت انتفاضة جسدها وسكنت أنفاسها اللاهثة...

فرفعت عينيها إليه لتسأله بلهفة:

_ماذا حدث؟!!

هرب بعينيه من عينيها وهو يشعر بالاختناق...

هو يشعر أنه يحارب في كل الجبهات وحده وجنة لا تساعده...

بل تزيد من ثقل الوزر على عاتقه...!

هو يحتاجها الآن أكثر من أي وقتٍ مضى وهي تحرمه حتى مجرد الإحساس بدفء مشاعرها...

بل إنها تجعله دوماً يشعر أن حبها له مجرد خطيئة تندم عليها!!

لهذا قست ملامحه وهو يقول بجفاء:

_لا تهتمي...ما حدث لا يخصك!!

ربتت على وجنته برفق وهي تهمس بعتاب ممتزج برجائها:

_كل ما يخصك يخصني.

ابتسم بسخرية قاسية وهو يحررها من ذراعيه ليعطيها ظهره متوجهاً نحو غرفته دون رد...

فلحقت به لتقف أمامه هاتفةً برجاء خالص هذه المرة:

_ليس الآن يا فهد...عاقبني بجفائك هذا كما تشاء لكن ليس الآن...أرجوك!!

اشتعلت عيناه بمشاعره الساخطة وهو يواجهها بنظرات عتابه للحظات...

قبل أن يستلقي على الفراش بعنف جاذباً غطاءه عليه ليقول لها باقتضاب خشن:

_أيقظيني بعد ساعة لأعود لوالدي...لا أريد تركه هذه الليلة...أنا جئت فقط لأفتح لكِ باب الشقة لكنني أكاد أسقط تعباً.

قالها ثم أعطاها ظهره دون انتظار ردها ..

فاقتربت منه حتى جلست جواره على طرف الفراش لتربت على ظهره برفق دون أن تجد ما تقوله...

حتى انتظمت أنفاسه بعد دقائق طويلة فانطلقت منها تنهيدة حارة وهي تسند رأسها على ظهرالفراش جواره وأناملها تتشبث برقة بكتفه وكأنها تخشي أن تفقد دفء شعورها به بعد رعب الساعات السابقة...

وجوارها لم يكن هو يشعر بشئ وقد أسلمه توتر وإنهاك اليوم كله لغيبوبة نوم طويلة سحبته لكابوسه القديم...

ذاك الكابوس الذي كان يراه كل يوم لشهور طويلة بعدما قتلها...

حتى تباعد تدريجياً ليختفي تماماً بعدها...

ولو أن الذكرى لم تختفِ مثله...!!!

بل بقيت متوهجة بنيران ظلت تحرقه طوال هذه السنوات بصمتٍ صارخٍ وبأصداء لا يسمعها سواه...

نفس المشهد الذي رآها عليه آخر مرة...

بدمائها التي أغرقت ظهرها العاري على فراش والده...

ونظرتها الأخيرة التي رمقته بها والتي امتزج فيها الرعب بالخزي والندم...

تلك النظرة التي لم ينسها يوماً ولا يظنه سيفعل!!!

لكنها في هذا الكابوس الآن تحولت لنظرة أكثر اتهاماً وقسوة...

قبل أن يتحول وجه والدته الذي يعرفه إلى وجوه كثيرة تتبدل كل ثانية...

وجوه لم يتذكرها في البداية حتى تبينها...

إنها وجوه كل الفتيات اللائي غدر بهنّ...!!!

لتنتهي الصورة بوجه رؤى البرئ الذي كان يرمقه بقسوة عاتبة!!!

قبل أن تتداخل صورة والده في كابوسه بنظراته المحتقرة وهو يصرخ فيه بحدة:

_أنتَ قتلتها!!

فيعود بظهره للوراء هارباً من كل تلك الوجوه التي كانت تشتعل عيونها بنيرانٍ ألهبته حرارتها فيصرخ بألم ...

قبل أن يسقط على ظهره ليرفع كفيه أمام وجهه بخوف كان يزلزل قلبه...

فيروعه منظر الدم العالق بهما ليجد نفسه يصرخ بجنون وكأن اعترافه سينجيه مما فيه:

_نعم...قتلتها...قتلتها!!!

انتفضت جنة جواره وهي تلاحظ تململ جسده النائم جوارها مع تصبب العرق الغزير على وجهه وسط أنفاسه اللاهثة وتمتماته الهاذية التي تحولت لصرخاتٍ مكتومة قبل أن تميز كلماته:

_قتلتها!

فاتسعت عيناها بارتياع وهي تتبين أنها ليست المرة الأولي التي تسمع منه هذا الاعتراف في نومه...

قبل أن يغلبها خوفها عليه فهزت كتفه برفق هاتفة:

_قم يا فهد...قم!!

ظلت ترددها عدة مرات حتى انتفض من نومه صارخاً بحدة:

_قتلتها!!

شهقت بانفعال وهي تربت على كتفه للحظات قبل أن تقول بجزع:

_اهدأ يا فهد...إنه مجرد كابوس!!

التفت إليها بحدة قبل أن تدور عيناه في الغرفة في دهشة ...

ثم ارتخت ملامحه ببطء وهو ينفض عنه غطاءه ليعطيها ظهره ويجلس مبتعداً عنها على طرف الفراش الآخر مخفياً وجهه بين كفيه...

فانتقلت جواره لتحيط كتفيه بذراعها هامسةً بحنان قلِق:

_لا بأس...لاريب أنه كان يوماً عصيباً!

لم يرد عليها وهو لايزال غارقاً في أحداث كابوسه المريعة...

والذي لايعرف لماذا عاد إليه الآن بعد كل هذه السنوات؟!!!

هل هي صحوة ضميره بعدما دخلت جنة الرشيدي إلى عالمه...؟!!!

أم هو خوفه الحقيقي اليوم على والده بعدما تعرضا لإطلاق النار منذ ساعات...؟!!!

نعم...لقد شعر وقتها بخوف حقيقي على جاسم الصاوي...

فهو -وبرغم كل ما بينهما- يشعر ببعض الذنب نحوه...!

ربما لأنه خاف أن يرحل ساخطاً عليه دون أن يدرك الحقيقة كلها...

الحقيقة التي يريده أن يعرفها حتى يعذره...

وفي نفس الوقت كتمها طوال هذه السنوات خوفاً !!!

أجل...خوفاً من ألا يصدقه...

وخوفاً أكبر من أن يصدقه فتفتضح حقيقة تلك المرأة سليلة أرقى العائلات والتي كانت مضرب الأمثال في الأخلاق وطيب الأصل!!!

قاطعت جنة أفكاره الصاخبة وهي تضمه إليها أكثر قبل أن تميل على رأسه تقبله بحنان لتهمس بعاطفتها السخية:

_قم اغسل وجهك...وستكون بخير.

سيكون بخير؟!!!

لا..هو لن يكون أبداً بخير...

سيعيش عمره محملاً بخطايا ماضيه التي لن يطهرها منه شئ...

سيبقى يدور في هذه الحلقة المفرغة من العذاب حتى يلفظ آخر أنفاسه...!!

هذا هو قدره الذي لن يفر منه مهما حاول كما يبدو!!!

وبهذه الفكرة الأخيرة قام من جوارها بجمود فقامت بدورها لتتمسك بذراعه هاتفةً بقلق:

_ما الأمر يا فهد؟!!لماذا...

قطع عبارتها وهو ينفض ذراعه عنها بعنف هاتفاً بحدة مفاجئة:

_لا شأن لكِ بي...هل تهتمين الآن بحالي؟!! عودي لصومعتكِ النقية واتركي شيطاناً مثلي لجحيمه!!

دمعت عيناها بعجز وهي تدرك أنها قست عليه حقاً طوال الأيام الماضية ...

لكنها لم تقسُ عليه هو فقط...

بل على نفسها أيضاً...

وليتها ما فعلت!!!

انفرجت شفتاها وهي تهمّ بالاعتذار له...

لكنه لم يمنحها الفرصة وهو يدفعها جانباً من طريقه ليخرج بخطواتٍ ثائرة من الغرفة متوجهاً نحو باب الشقة...

لكنها لحقته بسرعة وهي تدرك نيته عندما رأته يرتدي حذاءه فسبقته لتستند بظهرها على باب الشقة مانعةً إياه من الخروج وهي تهتف بحزم مصبوغ برجائها:

_لن أدعكَ تخرج وأنت في هذه الحالة!!

زفر زفرة مشتعلة قبل أن يصرخ بها في انفعال:

_ابتعدي الآن يا جنة قبل أن أفقد صوابي!!

هزت رأسها نفياً وهي تهتف بقوة تناقض دموعها المنهمرة الآن رغماً عنها:

_لا...لن أتركك حتى تهدأ !!!

كان الغضب المشوب بإرهاقه قد بلغ منه الآن مبلغه فلم يشعر بنفسه وهو يمسكها من ذراعيها بعنف ليبعدها عن الباب..

لكنها تشبثت بمكانها بقوة فهز جسدها دون وعي بشدة ليخبط ظهرها بالباب صارخاً بجنون:

_ابتعدي!!

صرخت صرخة عالية ومقبض الباب ينغرس في ظهرها بقوة ...

ثم تحسست ظهرها بيدها وهي تتأوه بألم جعله يفيق من فورة غضبه ليعاوده خوفه -المَرضي-عليها!!

فرمقها بنظرات مصدومة للحظات ثم أدار ظهرها نحوه ليرفع قميصها ويتفحصه بذعر ...

قبل أن يديرها نحوه من جديد وهو يضمها إليه بقوة وأنامله تمسد كدمة ظهرها برفق هامساً بصوت يقطر ألماً:

_أنا آسف يا جنة....آسف على كل شئ!!

اختنق صوته أكثر في عبارته الأخيرة فكتمت تأوهات ألمها قسراً حتى لا تؤذيه أكثر...

لتكتفي بدفء إحساسها لدقائق بين ذراعيه والصمت يظلللهما برداء ثقيل قاس ...وموحش....

حتى تمالكت نفسها لترفع عينيها إليه هامسةً فجأة:

_أنا أحبك يا فهد!!

تجمدت أنامله التي تمسد ظهرها للحظات وعيناه تدوران على ملامحها بعدم تصديق...

ليعاودهما صمتٌ قصير هذه المرة...

حتى أردفت هي بنبرة حارة:

_أحبك وأحب قدري معك...وسأدافع عن حقي فيك بكل ذرة في كياني!!

أغمض عينيه ساعتها بانفعال وأنامله تعاود تدليك ظهرها برفق ...

لتكمل هي حديثها الذي كان هو أحوج ما يكون إليه الآن:

_نعم...أحبك...أحب فهد الصاوي الذي تمرد على شيطان نفسه لأجلي...أحب روحك التي طهرها عشقي ...وأحب قلبك الذي أوقن أنه لم يخفق إلا لي...أحب الأمس الذي جمعني بك...وأعشق الحاضر الذي جعلني لك...ولا أخاف الغد ما دام معك!!

تأوه بقوة وهو يزرعها الآن بين ضلوعه ليدفن وجهه في شعرها وهو يشعر بالاستنزاف...!!!

نعم...كل ما فيه الآن يئنّ بمشاعر متضاربة لا يجوز أبداً أن تجتمع معاً..

ألمٌ وراحة...!

غربةٌ وسكن...!

مرارة جرحٍ ولذة شفاء...!

دموع انكسارٍ وفرحة جَبرْ...!

وميضٌ يبدد ظلمات روحه بنورٍ ونارْ!!!!

ولما طال صمته المحير أمامها رفعت وجهها إليه لتهمس باسمه في تساؤل قلق...

ففتح عينيه ببطء لتسحرها نجوم ليله الأسود التي عادت لبريقها وهو يهمس بنبرة ذائبة:

_هل تدركين معنى اعترافك هذا؟!!

تزينت شفتاها ب-شبه -ابتسامة وقد فاضت عيناها بعشق بلا حدود...

عندما طافت شفتاه على بشرتها بقوة متملكة لترفعها لأعالي قمم إحساسها به...

قبل أن يميل على شفتيها ليهمس بصوت مختنق بعاطفته التي أدركت الآن أنها لن يوقفها شئ:

_الآن...ما عاد بيننا سدود ...الآن أنتِ لي...كاملة!!!

=================

كانت تجلس على الأريكة ورأسه مستقرٌ على ساقيها لتداعب شعره بأناملها هامسةً بترقب:

_ما الذي تخفيه عني يا فهد؟!

أغمض عينيه باستسلام لدفئه الذي لا يجده إلا بين ذراعيها للحظات طويلة...قبل أن يهمس باقتضاب:

_الكثير!

ابتسمت رغماً عنها وهي تشعر بأنه مجرد طفلٍ كبير في نومته هذه فانسابت أناملها بنعومة على وجهه وهي تهمس بدلال آسر:

_ألن تخبرني؟!

تنهد بحرارة دون رد...

وحيرته تتملك زمام عقله بقوة متملكة...

فبقدر ما يشعر الآن بالذات برغبة عارمة في البوح بكل شئ...

لها هي فقط!!!

بقدر ما كان يخاف منها هي بالذات..!!!!

كان يخاف احتقارها واستهزاءها أو ربما...شفقتها...!!!

لهذا أطبق شفتيه قانعاً بصمته طويلاً...

لكنها ازدردت ريقها ببطء لتحسم أمرها وتسأله مباشرةً السؤال الذي تخشى إجابته:

_من هي المرأة التي قتلتها؟!!

فتح عينيه فجأة ليرفع رأسه إليها بحدة ...

قبل أن ينتفض ليعتدل في جلسته هاتفاً بانفعال:

_من أخبركِ بهذا؟!

أغمضت عينيها بألم وقد تأكدت مخاوفها لكنها عادت تفتحهما لتمسك كفه هامسةً برجاء:

_فهد...أنا أحبك حباً لن يتأثر بأي شئ..لكنني أريد أن أعرف عنك كل شئ...لو كنتَ تحبني حقاً كما تقول فلا تُخفِ عني الحقيقة...أيّاً كان ماضيك صدقني لن يؤثر على مستقبلنا.

احتقن وجهه بانفعاله الصارخ قبل أن يشيح به في رفضٍ واضح...

فرفعت كفه الذي تمسكه لشفتيها في قبلاتٍ ناعمة...

قبل أن تهمس بحنان أدركت بحدسها الأنثويّ أنه طريقها الوحيد إليه رغم خوفها -اللا محدود- من حقيقة ما يخفيه:

_هل تظنني أتركك تحمل هذا الوزر الثقيل وحدك؟!!
دعني أشاركك همك كما تشاركنا كل شئ!!

مست عبارتها قلبه بحنانها الذي هو ترياق سموم روحه كلها....

فسحب كفه من يدها برفق ليقوم متوجهاً نحو تلك النافذة هناك فيفتحها ...

ثم تطلع للسماء بشرود وهو يشعر أنه حقاً يشاركها هذه الرغبة...

هو أيضاً يريد أن يشاركها حِمله فهو ما عاد قادراً على الصمود وحده...

ألا يكفيه خوفه من غده كي يجمع عليه خوفه من ماضيه كذلك؟!!!

بينما لحقت هي به لتحتضن ظهره بذراعيها هامسةً بحنان:

_هل عدتَ للخوف من الليل بسمائه ونجومه؟!!

ابتسم بشحوب دون رد...

فأراحت رأسها على ظهره لتضمه أكثر وهي تهمس بدفءٍ يجيد احتواءه حقاً كما ينبغي:

_لو أردتَ المزيد من الكتمان فلن ألومك ..لكن لو صارحتَني الآن فسأدرك بحق مكانتي عندك.

تنهد بحرارة وهو يتطلع لنجمة بعيدة هناك كانت تلتمع أكثر من رفيقاتها...

خطفت عينيه ببريقها الفريد وكأنها تومض الآن له وحده...

فظل أسير سحرها لدقائق تَسيّدها الصمت الذي احترمته جنة بعمق إحساسها به...

قبل أن يحتضن هو كفيها المستندين على صدره بكفيه بتملك وكأنه يتشبث بها أكثر...ثم همس بألمٍ كسير:

_هل يسعدكِ أن تعلمي أنكِ تحبين رجلاً ...قتل....أمه؟!!

اتسعت عيناها بصدمة وهي تضغط شفتيها كاتمةً شهقة ارتياعها...!!!!

قبل أن تتحكم في نفسها بصعوبة وهي تحمد الله أنه يعطيها الآن ظهره حتى لا يري ردة فعلها التي تمالكتها بكثير من العسر ...لتهمس بعد لحظات صمتٍ ثقيلة:

_أكمل يا فهد...لن أقاطعك حتى تنتهي!!

أغمض عينيه بانكسارٍ للحظات قبل أن يفتحهما ليعاود التطلع لتلك النجمة البعيدة هناك هامساً بشرود وقد حسم تردده:

_كنت لا أزال في الخامسة عشر من عمري...ذهبت مع أصدقائي في رحلة كان من المفترض أن تستغرق ثلاثة أيام لكنني عدت بعد يومٍ واحد لظروف لا أذكرها دون أن أبلغ أحداً فقد كنت أًعلم أن والديّ مسافران لبعض أقاربنا ذاك اليوم...دخلت البيت فلم أجد الحارس على البوابة على غير عادته...فشعرت ببعض التوجس وأنا أتقدم نحو الداخل بحذر عندما سمعتُ صوت رجلٍ غريبٍ بالطابق العلوي...وبفكري المراهق وقتها لم يدُر بذهني سوى أنه لصٌ ...أخذتني حمية الشجاعة وقتها لأتناول مسدس أبي من مكتبه وأتوجه للأعلى بحماسة وكأنني مقبلٌ على "فيلم مغامرات"...لم أكن أعلم أنه حقاً "فيلم" لكن من نوعٍ أرخص!!

اشتعلت أعماقها بالألم المصبوغ بغضبها وهي تتنبأ بحدسها بما صار حتى قبل أن يردف هو بمرارة أقوى:

_لا تحتاجين كثير ذكاءٍ لتدركي ماذا رأيتُ وقتها على فراش أبي الذي كان يحتله الآن رجلٌ لا أعرفه ولم أستطع تبين ملامحه فقد كانت الغرفة شبه مظلمة ك-رأسي- وقتها...لم أشعر بنفسي ويدي على الزناد تفرغ مشاعر غضبي كاملة ...لكن الوغد هرب بسرعة لتأخذ هي وحدها نصيبها الكامل من رصاصاتي!!

سالت دموعها على وجنتيها غزيرة وهي تتصور شعوره الرهيب وقتها...

عندما يرى أمه التي هي هالة الطهر المقدسة في حياته بهذا الوضع المشين...!!!!

لاعجبَ أنه فقد سيطرته على انفعاله وقتها مع سنّه الصغير والسلاح الذي لم يحسب حسابه في يده...

لكن...

هل يعرف جاسم الصاوي عن هذه الفضيحة؟!!

وكيف أفلت فهد من هذه الجريمة؟!!

أم أن جاسم الصاوي قد تستر عليهما معاً؟!!

لكن فهد بدا وكأنه قرأ أفكارها فقد عاد يكمل اعترافه -الكارثي-:

_لم أكد أفيق من صدمتي وقتها حتى توجهتُ نحو جسدها الغارق بدمائه لأهزها بعنف عندما أدركت حقيقة أنها ماتت...ظللتُ عاجزاً عن التفكير بعدها لوقت طويل...وكل ما يشغلني هو الفضيحة...ماذا سيقول الناس عن أمي عندما يعلمون ...الفضيحة لم تكن لتنالها هي وحدها ...بل ستنالني أنا وأبي والعائلة كلها...لهذا هداني تفكيري لفكرةٍ نفذتها ببراعة وخدعت الجميع.

انتبهت حواسها وهي تسمعه يردف بأسى:

_اتصلت بأبي وطلبتُ منه الحضور بسرعة للمنزل ثم وضعت عليها ملابسها الكاملة بنفسي لأستر جسدها العاري قبل أن أتناول زجاجة خمرٍ كان أبي يقدمه أحياناً لضيوفه...لأشرب منها لأول وآخر مرة في حياتي ...ورغم أن الخمر أدار رأسي وقتها لكنني كنت واعياً عندما عاد أبي للمنزل ليفاجأ بتلك الكارثة أمامه...وسط هذياني المشتت وقتها عن ظني في وجود لص قد هرب...والنتيجة كانت كما أردتُ أنا تماماً...فجاسم الصاوي إلى الآن يظنني قتلتها بلا وعيٍ تحت تأثير تهيؤاتي الكاذبة بفعل الخمر.

هزت رأسها بألم وهي لا تكاد تصدق ما تسمعه...

لا تستوعب كيف تحمل هذا الوزر وحده في ذاك السن الصغير!!!

كيف كان شعوره وهو يضع عليها ثيابها ليستر عريها وفضيحتها ...؟!!!

وكيف كان خزيه أمام والده وهو يراه مجرد مراهق مستهتر تسبب في قتل أمه بفساد أخلاقه؟!!!

فضمت ظهره إليها أكثر وكلاهما عاجز عن مواجهة الآخر بعينيه لوقت قصير...

قبل أن تسأله بتردد:

_وكيف مرّ الأمر هكذا دون تحقيق رسمي؟!!وكيف بررتم سبب وفاتها؟!!

ابتسم بسخرية مريرة وهو يجيبها بفتور:

_حادثة سرقة عادية نتج عنها قتل السيدة صاحبة المنزل...والسلاح تم إخفاؤه...والبلاغ قُيّد ضد مجهول!!

أومأت برأسها في إدراك قبل أن تسأله ببعض الإشفاق:

_وجاسم الصاوي لا يزال لا يعرف الحقيقة إلى الآن؟!!

صمت للحظات ثم استدار نحوها ليواجهها بنظراته أخيراً وهو يحتضن عينيها باحتياج صارخ ...

قبل أن يهمس بصوت متهدج:

_لم أستطع أن أخبر أحداً عن هذا .....إلا أنتِ!!

ألقت رأسها على صدره وهي تحتضنه من جديد بكل قوتها بينما أردف هو بشرود نابض بالألم:

_أنتِ لا تعلمين كم كان أبي يحبها حباً رفعها لمصافّ الملائكة في عينيه...ليس هو فقط...كل أقاربنا ومعارفنا كانوا يصفونها بالكمال...لقد كبرت وأنا أراها بعيني أفضل نساء الدنيا...لهذا لم يسامحني أبي ولا أظنه سيفعل بعدما حدث...هل تصدقين أن جاسم الصاوي بكل عيوبه التي تعرفينها لايزال يعيش على ذكراها وقد رفض أن تحمل سواها اسمه حتى بعد رحيلها؟!!

دمعت عيناها بتأثر و أفكارها تنساب كالطوفان في عقلها...

فهد الصاوي قتل والدته دون وعي لأنه رآها تخون والده في فراشه...

لكنه أخفى هذه الحقيقة المشينة عن الجميع ليكتوي وحده بنيرانها طوال هذه السنوات...

وهذا يفسر -ولكنه لا يشفع- لسلوكه الشائن مع الفتيات وآخرهنّ رؤى...!!!!

وحينها فقط تذكرت قوله عن رؤى يوماً أنها خائنةٌ ككل النساء......

فهد كان ينتقم من صورة والدته في كل فتاة ظاهرها الأدب والأخلاق..

وكأنه كان يريد أن يثبت لنفسه أنهنّ جميعاً سواء...

يتظاهرن بالفضيلة ويضمرن الخيانة!!

وهذا يفسر أيضاً لماذا أحبها هي رغم أنها تكبره سناً...

لقد رأي فيها هي الصورة التي كان يتمناها لوالدته وخذلته....

لكنها هي لن تخذله!!!

نعم...لن تخذله أبداً!!!

لهذا رفعت إليه عينيها ليتألق وهج البندق بعينيها من جديد وهي تهمس بالكلمة التي توقن أنه ينتظر سماعها منها الآن بعدما عرفته:

_أحبك!

افتر ثغره عن ابتسامة اتسعت تدريجياً وهو يرفعها من خصرها بكفيه ليكون وجهها في مستوى وجهه....

قبل أن يغرقها بقبلاته التي حطتّ على وجهها عميقة متتابعة مشتاقة كسرب حمامٍ عاد لوطنه بعد طول اغتراب...

ثم أراح رأسها على كتفه وهو لازال يرفعها عن الأرض بذراعه ليتأوه بقوة قبل أن يهمس بارتياح :

_لم أكن أعلم أنني سأشعر بالراحة هكذا عندما أصارحكِ بالحقيقة...

ثم أعاد رأسه للخلف ليلتقط عينيها من جديد مردفاً بنبرة أرق:

_أنتِ حقاً...جنة!!

ابتسمت بحنان وهي تتشبث به لتعود بقدميها إلى الأرض ...

ثم سألته باهتمام وقد تذكرت ما حدث قبل قليل:

_ماذا حدث لوالدك الليلة بعد إطلاق النار؟!

هز رأسه وهو يقول ببعض التوتر:

_لم يحدث شئ والحمد لله..لكنه يشعر بالخوف من تكرار المحاولة...صراعاته السياسية اتخذت أبعاداً أكثر خطورة.

تشبثت به أكثر وهي ترد بقلق :

_ليس وحده يا فهد...أنت أيضاً معه في نفس الكفة!

زفر بقوة وهو يشيح بوجهه ليقول بضيق:

_لقد حاولت الانفصال عنه في العمل لكنه رفض رفضاً قاطعاً...جاسم الصاوي وبرغم سوء علاقتنا المريضة لازال يراني استثماره الوحيد ...العمل هو الشئ الوحيد الذي لم أخيب رجاءه فيه كما يزعم دوماً.

أومأت برأسها في تفهم وهي تدرك الآن الصورة الكاملة...

ارتباط فهد بأبيه ليس ارتباطاً عادياً لكنه ممتزج بشعوره القديم بالذنب...

لهذا سيكون من الصعب حقاً أن ينفصل عنه !!

لهذا تنهدت بحرارة ثم عادت تقول ببعض التردد وقد تذكرت شيئاً:

_وماذا رأيت في كابوسك الليلة؟!!

أطرق برأسه دون رد فربتت على رأسه لتهمس بحنانها المعهود:

_دعني أفهم ما يؤرق روحك بالضبط حتى أستطيع مساعدتك.

صمت قليلاً وكأنه يعقل حديثها ثم بدأ في سرد ما رآه بكابوسه بتماسك هش محاولاً كتمان خوفه وألمه حتى انتهى من روايته...

بينما كانت هي تستمع إليه وروحها تنبض بألم مع كل ما يحكيه....

هذا رجلٌ يحترق حياً بذنوبه ولا يعرف سبيلاً للنجاة...!!!

آثام ماضيه تطوق عنقه بحبالٍ من لهب!!!

وكم يحتاج لمن ينتشله من كل هذا!!

لهذا احتضنت وجهه بكفيها في احتواء حنون ثم همست بحزم رفيق:

_أنت نادمٌ يا فهد...رغم أنك ترفض الاعتراف بهذا...روحك تطلب التطهر ...حتى لا تغتالها جروح الماضي.

تنهد بحرارة وهو يضمها بقوة عشقه ليخفي وجهه بين طيات شعرها هامساً:

_كيف؟!

صمتت قليلاً ثم قالت بحسم :

_يجب أولاً أن تعترف بخطئك فيما سبق ...أنت ظلمت الكثيرات بلا ذنب...ورغم أنني لا أعفيهنّ من المسئولية لكن تبقى أنت صاحب وزر الغواية الأكبر...لهذا أرى إن كنت حقاً ترغب في توبة صادقة أن نذهب سوياً غداً لشيخٍ أعرفه كي يفتينا في هذا الأمر....أما عن المستقبل وعلاقتك بعمل أبيك فسنفكر معاً حتى نجد حلاً.

أغمض عينيه باستسلام وهو يغمغم بموافقته...

فرفعت رأسها إليه لتداعب وجنتيه بأناملها في حنان وشفتاها تحملان ابتسامة لم يرَ أنقى منها من قبل...

ثم همست بملء ما تحمله روحها من شعور:

_أحبك...أحبك...أحبك...

ظلت ترددها تباعاً مع ابتسامته التي كانت تتسع تدريجياً في كل مرة تهمس بها...

حتى أردفت قبل أن تقبل وجنته بقوة:

_سأظل أقولها الليلة حتى تفيض بها روحك فلا تعود ترى في أحلامك سوايَ!!

ضحك ضحكة قصيرة وهو يعتصرها بين ذراعيه هامساً بحرارة:

_أنا أشعر أنني وُلدتُ من جديد هذه الليلة...قلبي يكاد يقف من فرط إحساسي معك.

رفعت إليه عينيها بوهج البندق الذي كان الآن مطعماً بنكهة عاطفتها الكاسحة وهي تداعب أنفه بأنفها هامسة بثقة:

_لا تقلق على قلبك فقد صار لي..وأنا مثلك أجيد العناية بممتلكاتي!

ابتسم وعيناه تطوقان ملامحها بمشاعر ما عاد يجد لها وصفاً نحو هذه المرأة الأسطورية...

التي جمعت وحدها شعوره بها ككل نساء الأرض...

هي ابنته وأمه...وصديقته وحبيبته...

هي السماء حين تصفو...والأرض حين تُنبت...

هي النار عندما تدفئ بعد برد...والمطر عندما يغسل بعد دنس...

هي الغفران بعد معصية...وجزل العطيّة بعد طول منع!!!!

والآن وهو يتأملها بين ذراعيه كأشهى ما تكون...

وأنقى ما تكون...

وأعذب ما تكون...

يشعر بحق أنها أول الطريق ومنتهاه مهما تفرعت به الشعاب!!!

لكنه أفاق من فورة شعوره بها على نظرة عابرة للساعة المعلقة على الحائط فحملت نظراته الكثير من الأسف وهو يهمس لها:

_لو كان الأمر بيدي لما تركتك هذه الليلة بالذات لحظة واحدة...لكنني يجب أن أكون جوار أبي الآن!

شعرت ببعض الضيق عندما قالها لكنها غلّبت شعورها بالواجب على ما سواه...

فأومأت برأسها موافقة قبل أن تلتقي شفاهما في وداعٍ قصير...

ثم سارت معه حتى باب الشقة فهمس وعيناه معلقتان بعينيها في استماتة وكأنه يجاهد نفسه حقاً كي يتركها الآن:

_بضع ساعات فقط...وأعدكِ أن أكون هنا قبل أن تستيقظي لأفتح لكِ النافذة ككل يوم.

ابتسمت وهي تهز رأسها موافقةً عندما أعطاها ظهره ليغادر...

لكنها استوقفته بعد لحظة بهمسها باسمه ...

فعاود الالتفات نحوها بترقب...

عندما فوجئ بها تتشبث بساعديه وهي تستطيل على أطراف أصابعها كي تقبل وجنتيه كما يفعل هو كل صباح...

لتهمس هي في أذنيه هذه المرة:

_تحتاجني...وأحتاجك أكثر!!!

==================================

================================

الفصل الثامن عشر:

تمدد جاسم الصاوي على فراشه متدثراً بغطائه وهو يسند رأسه إلى ظهر الفراش الوثير...

لقد كان الموت الليلة منه قاب قوسين أو أدنى!!!

ولولا معجزةٌ قدرية لكانت تلك الرصاصات قد عرفت طريقها إليه وإلى ابنه الوحيد!!

"الوحيد"؟؟؟؟!!!

ظلت هذه الكلمة تتردد في عقله بوميض خاص متقطع متزامنٍ مع تلك الذكرى البعيدة...

والتي حاول طمسها في غياهب ذاكرته لسنوات طويلة تتجاوز العشرين عاماً...

حتى ظن أنه نجح!!!

لكن حادث الليلة جعلها تطفو على سطح أفكاره لتحتلها كلها...

فبرغم كل ذنوبه- التي يعلم وحده مدى ثقلها على كاهله- يبقى هذا الأمر -بعينيه-أعظم خطاياه!!!

طرقاتٌ خافتة على باب غرفته قاطعت أفكاره تبعها دخول فهد بخطوات مترددة كعهده كلما دخل إلى هذه الغرفة التي شهدت جريمته منذ سنوات...

لهذا لم يكن يدخلها إلا مضطراً كهذه الليلة ...

ويبدو أن أباه قد قرأ أفكاره فقد تفرس ملامحه ببطء ثم قال بلهجة رفيقة غريبة عن قسوته المعتادة معه:

_تعال يا فهد...وأغلق الباب خلفك.

أطاعه فهد باستسلام ثم عاد ليجلس جواره على طرف الفراش مطرقاً برأسه يحاول البحث عن كلمات مناسبة في هذا الموقف ...

لقد تعطلت علاقته العاطفية بوالده منذ الحادث وكل يومٍ كان يزيد من حجم هذا "العطل"!!!

والآن لا يدري كيف يعبر له عن شعوره الحقيقي كابنٍ وأبيه في هذه الظروف!!

هو يعلم أن جاسم الصاوي يحتاجه الآن بالذات...

يحتاج فهد...ابنه الوحيد...وليس رجل الأعمال الذي يعده ليكون خليفته على سلطانه !!!

وفهد أيضاً كان يحتاج هذا مثله...

لكنه لم يكن يجد مدخلاً مناسباً...

خاصةً وهذه الغرفة بالذات تهيج الجرح القديم لكليهما فتجعل الأمر أكثر صعوبة!!!

لهذا ساد صمتٌ ثقيلٌ بينهما وكلاهما عالقٌ في شباك أفكاره ...

حتى قطع الصمت جاسم وهو يقول بشرودٍ :

_ما حدث الليلة جعلني أعيد تقييم بعض الأمور!

رفع فهد عينيه إليه بترقب وهو يشعر من تعابير وجه والده التي يحفظها أنه سيسمع أمراً جللاً...

عندما عاد جاسم الصاوي لصمته الشارد قليلاً قبل أن يقول بنبرة غريبة:

_هل تدرك كم كنتُ أحب والدتك رحمها الله؟!وماذا كانت مكانتها عندي؟!

أغمض فهد عينيه بألم وهو يشعر ببركان هائج في صدره من مشاعر متباينة...

فتنهد جاسم الصاوي ليردف بنفس النبرة :

_أنا لا أقول هذا لتقريعك على ذنبك القديم...أنا فقط أريدك أن تتفهم ما سأعترف لك به الآن.

ازدرد فهد ريقه بتوتر وهو يعاود النظر إليه بتوجس ...

ليكمل جاسم حديثه الذي بدا على قدر كبير من الخطورة:

_لقد تأخرت والدتك في الحمل بعد زواجنا...وساءت نفسيتها كثيراً لهذا الأمر...حتى أنها احتاجت لعلاج نفسي من الاكتئاب لفترة طويلة...وأنا كنت وقتها شاباً في مقتبل عمري ...ضعفت أمام رغباتي وتزوجت سكرتيرتي سراً لبضعة أشهر...ولما أفقتُ لنفسي وخشيت أن يتسرب الأمر لوالدتك طلقتها ...خاصةً أن والدتك فاجأتني وقتها بنبأ حملها الذي أصلح الأمور بيننا كثيراً وعادت حياتنا بعدها لطبيعتها ...

عقد فهد حاجبيه وهو يقول بتوجس وقد أدرك بذكائه أن الأمر يحوي ما هو أعظم من هذا:

_لكن أمر سكرتيرتك هذه لم يقف عند هذا الحد!!

أومأ جاسم برأسه ثم بدا عليه التردد قليلاً قبل أن يحسم أمره قائلاً:

_أنت لست ابني الوحيد...ولست الأكبر كذلك!

اتسعت عينا فهد بصدمة وهو يتراجع برأسه مشدوهاً:

_ماذا؟!

أطرق جاسم برأسه للحظات...ثم قال بأسف:

_لقد اتصلت بي تلك المرأة بعد طلاقنا ببضعة أشهر وهي بين الحياة والموت تخبرني أنها وضعت طفلتنا وأنها لا تريد شيئاً سوى أن أمنحها اسمي..... كانت والدتك لاتزال في شهور حملها الأولى بك...فلم أستطع وقتها صدمتها بأمرٍ كهذا...كما أني خشيت من الفضيحة...لهذا....

انعقد حاجبا فهد بغضب وهو يهز رأسه هاتفاً بحدة:

_لا تقل أن المرأة ماتت وأنت رميت الطفلة لأهل والدتها!!!

تنهد جاسم بحرارة وهو يشيح بوجهه قائلاً:

_للأسف تلك المرأة كانت وحيدة تماماً بلا أهل ولا سند وهذا ما سهّل أمر زواجنا السريّ من البداية.....المرأة ماتت حقاً لكنني لم أعرف شيئاً عن الطفلة...لقد تسلمتها بعد وفاة والدتها ثم أمرت أحد رجالي بأن يتخلص منها

فوضعها أمام أحد المساجد في منطقة شعبية...وظل يترقب الأخبار بعدها حتى أخبرني أن امرأة طيبة التقطتها لتربيها وقد منحها أحد رجال الحي اسمه قانوناً فقط !!

تألقت عينا فهد وهو يهتف بلهفة:

_وما هو هذا الاسم؟!

هز جاسم رأسه وهو يهمس بخفوت:

_لا أدري...أنا لم أهتم وقتها بمعرفة التفاصيل..كنت فقط أريد التخلص من هذه الفضيحة بأي طريقة....كل ما أذكره عن الطفلة أنها كانت تشبه والدتها تماماً بعينين رماديتين.

هب فهد واقفاً وهو يلوح بذراعيه هاتفاً بانفعال:

_ولماذا تهتم؟!!! مجرد خطأٍ تجاوزته وانتهى الأمر!!! لتعود لحياتك الطبيعية وتفرح بزوجتك سليلة الحسب والنسب التي ترضي واجهتك الاجتماعية وابنها الذي تفتخر به...صحيح؟!!

انعقد حاجبا جاسم بغضب وكلمات فهد توخز ضميره أكثر ليجد نفسه يهتف بحدة:

_احترم نفسك يا ولد !!

اشتعل غضب فهد أكثر وهو مستمرٌ في ثورته:

_وأنت لماذا لم تحترم آدميتك؟!!كيف استطعت النوم طوال تلك الليالي وأنت تعرف أن لك ابنة لا تعرف عنها شيئاً؟!!كيف ارتضى ضميرك أن تربيني أنا في كل هذه الرفاهية والدلال بينما تتجرع هي كأس الفقر والذل والمعايرة بين الناس بنسبها المجهول الذي لا ذنب لها فيه؟!!

أغمض جاسم عينيه بألم وهو يطرق برأسه من جديد...

فصمت فهد لدقائق يتمالك انفعاله بصعوبة وهو لا يكاد يصدق...

جاسم الصاوي ضحى بابنته لأجل حبه لزوجته؟!!

رمى طفلته التي هي قطعةٌ منه لأجل امرأة؟!!!

ترى ماذا سيكون رد فعله لو علم أنه فعل كل هذا لأجل امرأة خائنة؟!!!

امرأة كانت تستبيح عرضه ...وعلى فراشه!!!!!!

نعم...هذا الفراش الذي يرقد هو عليه الآن ...بل كل ليلة...

يتذكرها متحسراً ويلومه هو لأنه شابٌ عابثٌ أضاع حياة والدته بفساده!!!!!

لكن الواقع أنه لم يفعل هذا لأجل حبه لتلك المرأة الراحلة فحسب...

بل لأجل واجهته الاجتماعية أيضاً...!!!

جاسم الصاوي استنكف أن تكون له ابنة من امرأة لا تنتمي لمجتمعه المخملي...

واستكبر أن يتحدث الناس عن زواج ثانٍ له من امرأة لا تليق...

فرد له القدر الضربة مرتين!!!

مرة في زوجته التي يعلم فهد وحده الآن أنها لم تكن تستحق هذه التضحية...

ومرة في ابنه...!!

نعم...جاسم الصاوي ضحى-طوعاً- بزوجة وابنة.... فخسر-قسراً- زوجةً أخرى وابناً آخر!!!

حقاً...ما أعدل السماء!!!

وعند هذه الفكرة الأخيرة تنهد فهد بحرارة ململماً أذيال ذكرياته المشبعة بحسرته...

ليعاود الجلوس جوار أبيه هامساً بلهجة أكثر هدوءاً:

_أبي...أنت تعترف الآن لي بهذا الأمر لأنك تنتوي تصحيحه !

كانت عبارته للجواب أقرب منها للسؤال...

ففتح جاسم عينيه ليتمتم بعجز:

_للأسف...لا أستطيع.

انعقد حاجبا فهد في تساؤل فأردف جاسم بضيق:

_رجلي الذي كان يعرف عن تفاصيل الأمر ترك العمل معي بعدها واختفى...وأنا تناسيت الأمر بدوري...لم أذكره إلا الليلة ...لقد صارحتك به فقط حتى أوصيك عليها لو ظهرت يوماً ما تطالب بحقها ولم أكن أنا وقتها على قيد الحياة.

هز فهد رأسه وهو يهتف بقنوط:

_هذا يعني أنك لا تعرف أي شيءٍ عنها ولا حتى اسمها أو مكان إقامتها؟!!

هز جاسم رأسه في إجابة واضحة بالنفي...فأردف فهد بضيق:

_وكيف ستعرف هي إذن عن نسبها؟!!

زفر جاسم بقوة وهو يرد بتردد:

_لا أدري...ربما أحد معارف والدتها....أو...

قاطعه فهد هاتفاً بحدة :

_لا تخدع نفسك يا أبي...لو كان أحدٌ يمكنه كشف الحقيقة لفعلها منذ زمن...شقيقتي لن تظهر إلا إذا بحثنا نحن عنها بكل طاقتنا!!

رفع جاسم رأسه لأعلى وهو يقول باعتراضٍ مشوب بخزيه :

_الانتخابات على الأبواب ولا أريد أي تشويش على صورتي....ستكون فضيحة !!

هب فهد واقفاً من جديد وهو يهتف ثائراً:

_فلتذهب الانتخابات هذه للجحيم!!!عمرنا كله كان سينتهي الليلة أنا وأنت...لولا لطف القدر!!

أشاح جاسم بوجهه في تردد وقد بدأ الغبار ينزاح عن ضميره المثقل...

فعاد فهد يهتف برجاء هذه المرة:

_أرحْ ضميرك يا أبي...خفف ذاك الوزر عن ظهرك...أخبرني فقط باسم ذاك الرجل الذي يعرف الحقيقة وأنا سأجده بطريقتي .

ازدرد جاسم ريقه بتوتر ثم ذكر له اسم الرجل وهو يلتفت نحوه فاختزنه فهد في ذاكرته...

قبل أن يقول جاسم بعدها بفتور:

_ولو وجدناها؟!!

عقد فهد حاجبيه وهو يقول بحزم:

_لو تأكدتُ أنها هي فسأعترف بها كأختي..حتي ولو لم تفعل أنت!!

زفر جاسم بقوة ثم بدا عليه التفكير لدقائق قبل أن يقول باستسلام:

_دعنا نبحث عنها أولاً...ولو وجدناها سنرى وقتها ما يمكننا فعله.

انحنى عليه فهد ليشد بقبضته على ساعده هاتفاً بحسم:

_سأجدها يا أبي...ولن أستريح حتى تعود لها حقوقها كاملة بدايةً باسمها وانتهاءً بكل شيءٍ آخر!!

رفع إليه جاسم عينيه بتردد ولأول مرة في حياته يشعر بعدم قدرته على اتخاذ قرار...

بل إنه لا يدري لماذا قفزت هذه الذكرى بالذات إلى ذهنه بعد حادث الليلة...

جزءٌ ما بداخله يناشده أن يريح ضميره برد ابنته لحضنه...

لكن جزءاً آخر يحذره من أن يكون هذا سبباً في تصدع صرح جاسم الصاوي العظيم خاصةً أن فضيحةً كهذه لن تكون هينة الوقع على الآذان!!!

وبين الخيارين كان هو غارقاً في حيرته حتى حسم الأمر بقوله:

_سنؤجل التفكير في الأمر حتى تنتهي الانتخابات.

هم فهد بالاعتراض لكنه أشار له بكفه هاتفاً:

_هذا آخر كلامي...اخرج الآن وأغلق الباب خلفك.

هز فهد رأسه في عدم رضا لكنه امتثل لأمره وخرج من الغرفة بخطوات سريعة...

بل من المنزل كله...

ولم يكد يستقل سيارته حتى تناول هاتفه ليتصل برقم ما وما إن فُتح الاتصال حتى قال بود:

_كيف حالك يا حسام؟!...لا ...لا تقلق...أنا ووالدي بخير الآن ...لكنني كنت أريدك في أمر آخر.

ثم صمت لحظة ليقول بعدها بحسم:

_رجلٌ اسمه(.......) كان يعمل مع أبي منذ سنوات ونريد أن نعرف مكانه ..لكن بسرية تامة ودون أذى يا حسام...هل تفهمني؟!!

===================

_أنتِ أخطأتِ يا دعاء!!

هتفت بها ماسة بحنق مشوب بإشفاقها أمام هذه التي كانت تبكي بحرقة وهي تهمس بين دموعها:

_رغماً عني يا ماسة!!!

تنهدت ماسة بحرارة وهي تحتضنها بقوة متمنيةً بحق لو تتمكن من مساعدتها...

لقد استيقظت من نومها اليوم صباحاً لتجد هاتفاً جديداً على الكومود المجاور لها فاستنتجت أن عاصي هو من جلبه لها...

وعندما توجهت نحو غرفته لتشكره وجدتها خالية لتعرف بعدها أنه غادر القصر باكراً وأنه سيتغيب لأيام طويلة في مكانٍ لم يخبر به أحداً...

ورغم أنها كانت تشعر بالامتنان نحوه لأنه لم ينسَ أمر هاتفها برغم كل ما حدث...

لكن غيابه هذا أصابها ببعض الضيق ...

والكثير ...بل الكثير جداً من "عدم الاتزان"!!!

نعم...هي اعتادت وجوده الذي يمنحها الأمان...

حضوره الطاغي الذي يحتل حواسها عنوة...

كلماته التي هي -رغم اقتضابها- ثرية بمعانٍ كثيرة لا تكاد تتبينها إلا عندما تختلي بنفسها لتتذكرها بعقلها الذي يتشرب حروفه حرفاً حرفاً!!!

لكنه للأسف ...رحل الآن وحرمها كل هذا!!!

رحل حتى دون أن يخبرها وكأنه استنكف أن تشاركه همه بعدما كان بينهما في آخر لقاء...

نعم...يبدو أن عاصي الرفاعي استكبر أن يراه أحدٌ في أشد لحظات ضعفه خاصةً لو كانت امرأة!!

وبرغم ما ملأتها به هذه الفكرة من حزنٍ وحسرة لكنها لم تستسلم لكل هذا كما عاهدت نفسها منذ زمن...

ماسة لن تنكسر بعد الآن لأي شئ...أو لأي شخص!!!

لهذا هاتفت رحمة لتطمئن عليها وتخبرها بما حدث لكنها حافظت على سر حورية كما عاهدت نفسها أن تفعل...

كما هاتفت دعاء لتطلب منها الحضور إليها هنا فقد كانت بحاجة للتحدث إليها...

لكن دعاء فاجأتها بتفاصيلها الأخيرة التي استنكرتها ماسة بشدة رغم إشفاقها على دعاء التي وقعت ضحية بين ظروف مرضها وحبها لوالديها !!!

لهذا عادت ماسة تربت على كتفها وهي تقول برفق هذه المرة:

_لو كنت مكانك لما قبلتُ الزواج من رجلٍ طالما قلبي معلقٌ بآخر...لكن هذا لم يكن خطأكِ الوحيد...خطؤك الأعظم في نظري أنكِ رضختِ لتصرفات حسام المتسلطة ولم ترفضي عقد القران هذا لمجرد إرضاء والديكِ!!!

هزت دعاء رأسها وهي تهتف بين دموعها:

_لم أستطع...كل الظروف كانت ضدي !!

أومأت ماسة برأسها في تفهم ثم عادت تقول لها بحزم حنون:

_إذن فاقبلي قدركِ مع حسام...لا تقفي هكذا حائرة في مفترق الطرق...طالما اخترتِ هذا الطريق فأكمليه ولا تفكري في شئٍ آخر....انسيْ معتصم تماماً...وامنحي حسام فرصةً أخرى ...ومن يدري لعل الحب يعرف طريقه بينكما يوماً!!

ابتسمت دعاء بمرارة ثم رفعت رأسها إليها لتسألها بتردد:

_هل من الممكن أن تشعري يوماً بالحب نحو عاصي الرفاعي؟!!

تنهدت ماسة بحرارة وهي تلاحظ تقارب وضعيهما ثم اغتصبت ابتسامة باهتة على شفتيها لتهمس بفتور:

_أنا حقاً...أحبه!!!

شهقت دعاء بدهشة ...

فبرغم كل ما أخبرتها به ماسة من تفاصيل علاقتها بعاصي لكنها لم تتوقع أن تصل الأمور بينهما لهذا الحد...

لكن ماسة أردفت بشرود :

_ربما هو ليس الحب الذي عرفته يوماً مع عزيز...لكنه حبٌ من نوعٍ آخر....أنا أحبه كأبي الذي لم أعرفه...كصديقي التخيليّ الذي طالما رويتُ له حكاياتي ...كأخي الذي طالما تخيلت حضنه ولم أتذوق طعمه!!!

ابتسمت دعاء ابتسامة شاحبة وهي تغمغم بيقين:

_لكنه حتماً ليس حب امرأة لزوجها!!!

هزت ماسة رأسها نفياً فتنهدت دعاء لتهتف بعدها بحسرة:

_لكنكِ قد تصلين معه لهذا يوماً...أما أنا فلا أظنني سأعرف هذا الشعور مع حسام...هل تصدقين أنه لم يكلمني منذ ليلة عقد قراننا ؟!!!والدته تتصل دوماً لتطمئن عليّ وقد أخبرتني أنه قد سافر في أمرٍ ما يخص عمله...بينما هو قد تجاهلني تماماً طوال تلك الأيام وكأن كل غرضه مني كان امتلاكي بورقة زواج!!

ربتت ماسة على كتفها وهي تقول بحنان:

_ما رأيكِ لو تبدئيه أنتِ بالمصالحة؟!!ربما هو فقط يحتاج الشعور بأنكِ تريدينه!!

تعلقت دعاء بعينيها في حيرة فأردفت ماسة بأسى:

_أحيانا نضطر لنحني هاماتنا كي لا تصطدم جباهنا بصخور واقعنا....هذه ليست دعوة مني لتتهاوني في كرامتك لكنني فقط أريدكِ أن تمنحيه وتمنحي نفسكِ فرصةً أخرى!

أومأت دعاء برأسها موافقةً فضمتها ماسة لصدرها من جديد...

وهي تشعر أن كلامها لم يكن موجهاً لدعاء وحدها...

بل لنفسها أيضاً...

نعم....هي الأخرى تحتاج لمنح عاصي فرصة أخرى لعل القدر يكتب لهما بدايةً جديدة...

بمشاعر أخرى !!!

=========

فتح عزيز باب بيت رحمة ليدخل بهدوء فتقدمت نحوه لتحتضنه بقوة حنانها كالعادة...

قبل أن تتفحص ملامحه المنهَكة لتقول بإشفاق:

_أنت ترهق نفسك كثيراً في عملك الجديد يا ابني...كما أنك لا تنام جيداً!

تنهد بحرارة وهو يبتعد عنها برفق ليتوجه نحو أحد الكراسي هناك فيجلس متأوهاً بقوة...

قبل أن يقول بصوته المُتعب:

_أحتاج أن أعمل كثيراً يا أمي...ليس فقط كي أثبت نجاحي لكن...كي أنسى كل ما خسرته!!

جلست على أحد الكراسي جواره وهي تربت على ساعده لتسأله بتردد:

_هل فكرت ماذا ستفعل مع ميادة؟!

أشاح بوجهه وهو لا يدري بماذا يرد...

هو لا يحاول حتى التفكير بشأن ميادة ...

إحساسه بها معطلٌ...ليس بها هي فحسب...

بل بكل شئ...

قلبه الآن يبدو كجديب مقفر ...

دقاته فقيرة مفلسة تنبض بخواءٍ لم يعرفه يوماً...

هل هذا هو عقاب القدر له على أنه لم يقدر قيمة الحب الذي كان له يوماً بملء الكون ...؟!!!

أم هو الدرس الذي كان يجب أن يتعلمه بثمنٍ غالٍ؟!!

وما أغلى من العمر لو تسرب من بين أناملنا بلا هدف...وبلا معنى؟!!

لهذا زفر بقوة ثم عاود الالتفات نحوها ليقول مغيراً الموضوع:

_كيف حال ماسة؟!

هزت رأسها بأسف وهي تحكي له باقتضاب عن انتحار حورية ...

فهب من مكانه ليهتف بانفعال:

_أنا أخبرتكِ عن جبروت هذا الرجل ولم تصدقيني....لقد دفع زوجته للانتحار...فهل سنترك له ماسة ليفعل بها المثل؟!

نظرت إليه رحمة بتفحص وهي تفكر...

هي لا تنكر أن هذه الفكرة جالت برأسها أيضاً عندما علمت عن الأمر واشتعل صدرها قلقاً على ماسة...

لكن ماسة نفسها هي التي بعثت في نفسها الطمأنينة من جديد وهي تشرح لها -دون التطرق لسر حورية المشين- كيف يعاملها عاصي بمنتهى الحنان والاحتواء!!

لهذا صمتت قليلاً ثم قالت بهدوء:

_ماسة سعيدة معه ...اطمئن!!

يطمئن؟!!

كيف له أن يطمئن؟!!

كيف له أن يشعر بالراحة أو أن يحاول حتى التفكير في مستقبله مع ميادة وهو مكبلٌ بقلقه على ماسة...؟!!!

بثقل وزر ضميره اللائم له على تفريطه فيها حتى دفعها بين أحضان ذاك الرجل القاسي؟!!

ماسة لم تكن فقط حبيبته التي حرمته منها الظروف...

ماسة ستظل مسئوليته مثل رحمة تماماً...!!!

وعاصي الرفاعي كما يعرف الجميع ليس أهلاً لبريئةٍ نقية مثلها...

بل ووحيدة بلا سند!!!

سيكسرها كما كسر زوجته الأولى ومن يدري ربما دفعها لنفس مصيرها في النهاية...!!!

فكيف بعد كل هذا يطمئن؟!!

لكن ماذا بيده الآن وماذا بقي له في جعبته؟!!!

العروس راضية ورحمة مطمئنة وأي حديثٍ له في هذا الشأن صار محرماً عليه!!!

لهذا عاد يزفر بقوة من جديد ثم توجه نحو غرفته رافضاً دعوة رحمة للطعام بدعوى أنه ليس جائعاً...

قبل أن يغلق الباب خلفه بقوة لتحمله قدماه إلى فراشه الذي استلقى عليه بإنهاك...

نعم...هذا الفراش الذي كان يوماً لماسة قبل أن ترحل من هنا...

لهذا مد أنامله ببطء يتحسس وسادته التي كانت ملقيةً أمامه وهو يسترجع ذكرياتهما البريئة المطعمة بالسحر...!!!

ثم دمعت عيناه وهو يشعر أن الوزر ثقل حقاً على قلبه حتى ما عاد يحتمل...

لابد أن يفيق من أضغاث هذا الحلم...

نعم...ماسته الرائعة لم تعد سوى حلمٍ رقيق داعب خياله يوماً بأروع مشاعر عرفها لكنه للأسف أبى أن يستمر....

وكما أقسم لنفسه أن يتخلص من كل قيود ماضيه فيجب أن يكون قيد ماسة أول ما ينكسر...

حب ماسة الذي بدأ نقياً طاهراً كشعاع شمسٍ بكرٍ أشرق على الدنيا لينير كل ما يسقط عليه...

لكنه انتهى بوزرٍ ثقيل كزجاجة حبرٍ سقطت على أوراق عمره فلطختها للأبد!!!

والآن عليه أن يتجاوز كل هذا الحطام من أشلاء ماضيه لعله يدرك ما بقي من أيامه...

لعله يكمل طريقه الذي بدأه واختاره بنفسه بعيداً عن سلطان أبيه...

وبهذه الفكرة الأخيرة اعتدل في فراشه من جديد ليتناول حاسوبه المحمول من جواره...

ويشرع في الكتابة على مدونته...

قلبي...

وجفت من دموع اليأس مآقيه...

سيرجوكِ ألا ترحلي ...

فلا تسمعيه!!

سينهاكِ عن أن تهجري...

فانهريه!!

سيصرخ أنه دونكِ نجمٌ ...

فقد الليل الذي يؤويه!!!

بالله لا تترددي...

امضي بعيداً واتركيه!!!

صُبّي عليه لعنات يأسكِ...

ولشأنه دعيه!!

صوبي نحوه رمح الغدر...

وبحزمٍ أطلقيه!!!

أحمقٌ قلبي كملاح الهوى...

يبحث عن بحرٍ يتوه فيه!!

فبالله مهما تضرع إليكِ...

لا ترحميه!!

مَن ذي سواكِ ملكت مفاتِحه؟!

مَن ذي سواكِ تغللت كالسحر في نواحيه؟!!

مَن غير ماسته استباحت هزيمته...

ونثرت الشوك في طرقات ماضيه؟!!

من قال أن السماء تنسى حمائمها...

والشمس تنكر أفقها الذي تعتليه؟!!

يا من غزلتِ العمر نسجاً بين كفيكِ...

كما أجدتِ أسر القلب يوماً...

أعتقيهْ!!

لملمي عنه ثوب عشقكِ...

ومن فردوسكِ اطرديه!!

لا تمنحيه عبير ذكرى تارةً تدميه...

وتارةً تشفيه!!

قد قدّر الهوى لنا فراقاً...

وسخطت علينا لياليه!

وانطفأ نجم الحب في مقلتينا...

فلن أوقظه أنا...ولن تشعليه!!

والقلب بعدكِ ما عاد يعنيني...

عدمٌ...

جمادٌ لا بعث يحييه...

ما عاد يجديني قلبٌ أشقى بحرقته...

ما عاد يجديني قلبٌ أنتِ فيه!!!

وفي مكانها كانت ميادة تقرأ كلماته التي كانت تترقبها كل يوم ....

وهي تراها نافذةً صادقة على ما يدور بقلبه...

لكن عينيها اتسعتا بصدمة وهي تقرأ آخر ما كتبه عزيز بعد هذا...

لقد كتب أنها قصيدته الأخيرة وأنه سيغلق مدونته بعدها نهائياً!!!!

هذه الكلمات التي زلزلت كيانها فلم تعد تدري هل تفرح لأن قلب الشاعر تمرد على ساكنته القديمة...

أم تحزن لأنها -هي- لن تكون له يوماً مليكةً جديدة!!!

للأسف..لقد ظنت أنها انتصرت على "قلب الشاعر" ...والحقيقة أن كليهما خرج من حربه مهزوماً جريحاً!!!

"عزيز قلبها" الذي تسلل خلسةً بين دقاته ليعبث بها وينشر الفوضى في أرجاء روحها التي طالماظننت أنها تملكتها بزمام العقل...

والآن تشعر أنها -مثله- تائهة...ضالةٌ في صحراء بلا دليل...

وأن حياتها - كما حياته- أبداً لن تعود كما كانت...

نعم...كلاهما خسر هذه المعركة...

عقلها...و"قلب الشاعر"!!!

=====

_دعاء...دعاء!!!

ظلت زميلتها تكررها مراراً لكن دعاء كانت غارقة في إحدى نوبات شرودها -المرضي- حتى انتبهت لها أخيراً...

فتصبب وجهها عرقاً وهي تشعر بالارتباك كعادتها عندما تفيق من نوباتها هذه لتهتف بتوتر:

_ماذا حدث؟!

نظرت إليها زميلتها بتفحص للحظات ثم قالت بدهشة:

_أنا أناديكِ منذ دقائق وأنتِ لا تردين...أنا حتى خبطتك في كتفكِ لكنكِ لم تكوني تشعرين بشئ.

ازدردت دعاء ريقها بصعوبة وهي تمسح جبينها المندّى بعرقها قبل أن تختلس نظرة نحو معتصم الذي كان يرمقها بنظرات قلقة وقد بدا عليه الاهتمام عندما قالت هي بتلعثم:

_لا شئ...كنتُ شاردة فحسب!!

عقدت زميلتها حاجبيها بشك وهي تعاود قولها بإلحاح:

_لم يكن شروداً عادياً...لقد كنتِ تقريباً فاقدةً لوعيك رغم عينيكِ المفتوحتين...اسمعي نصيحتي وراجعي طبيباً...ربما يكون الأمر...

قاطعتها دعاء بسرعة وهي تهتف بعصبية غريبة على طبعها المرح:

_أنا لست مريضة...والآن أخبريني ماذا كنتِ تريدين؟!

انعقد حاجبا معتصم والقلق يعتصر قلبه أكثر عليها...

هذه ليست المرة الأولى التي يلاحظ فيها نوبات شرودها هذه...لكنه كان يعزو الأمر لانشغال فكرها بشئٍ ما...

لكن انفعالها هذا الآن مع ارتباكها الواضح ربما يعني ما هو أكثر...

أتراها تكون حقاً...مريضة؟!

انقطعت أفكاره عندما رأى زميلتها تخرج غاضبة بخطوات مندفعة فالتفت نحوها وهو يتردد في الكلام حتى حسم أمره ليسألها ببعض التحفظ:

_أنتِ بخير؟!

اختنق قلبها بفرط مشاعره وهي تشعر بهذا الحنان الذي كان يقطر من كلماته رغم تحفظها...

لكنها لامت نفسها على هذا الشعور فهو لم يعد من حقها بعدما اختارت بإرادتها رجلاً آخر...

لهذا أطرقت برأسها وهي تتمتم بخفوت:

_الحمد لله.

أغمض عينيه بألم وهو يتمنى الآن لو يقترب منها أكثر...

أكثر بكثير...لو يغرسها بين ضلوعه...لو يلصقها وشماً على بشرته...لو يمتلك حتى أنفاسها فلا تكاد تلتقطها إلا مشبعةً برائحته...

لو....!!!

ولو.....!!!!

وكم من "لو" في صدره حلم بها لكنها تبقى مجرد أمنيات...!!!

لهذا تنهد في حرارة وهو يطرق برأسه هو الآخر مستحضراً صورتها ليلة عقد قرانها تتأبط ذراع ذاك الرجل -العظيم - الذي أسعدته الظروف بتملك كل شئ...

المال والوجاهة والنفوذ...و"هي"!!!

بينما حرمته هو كل هذا!!!

أما هي فقد كانت هائمةً في وديان حزنها المشبع بحيرتها وعجزها ...

لهذا ابتسمت بسخرية مريرة عندما سألها هو بلهجة أكثر مرارة :

_سعيدة؟!

وتنهيدةٌ حارة عقبت تلك الابتسامة قبل أن تغمغم هي بألم شق قلبيهما معاً:

_راضية!!

ثم أردفت بضحكةٍ قصيرة مختنقة:

_مشيناها خُطيً كُتبت علينا...ومن كُتبت عليه خُطيً مشاها!!

زاد ألمها الصارخ بعجزها من ضيقه وهو يتأملها بتفحص...

ما الذي حدث لها؟!!!

وكيف تبدلت هكذا في أيام قليلة؟!!

أين هذه الشاحبة البائسة من "دعاء" محبوبته التي كانت تملأ الدنيا صخباً ومرحاً؟!!!

أين هذه الشاردة دامعة العينين من صورتها القديمة بتألقها وضحكتها الرائقة؟!!!

ألا يُفترض أن تكون الآن سعيدة ؟!!!

لكنها للأسف تبدو على العكس...

لقد ذبلت وردته...جفت بتلاتها النضرة وانثنت على عودها وكأنها تنتظر النهاية!!!

هل هو حقاً من خذلها؟!!

أم هي من خذلته؟!!

أم أن الأيام خذلتهما معاً؟!!!!

وبهذا الشلال الجارف في صدره من شعوره الكاسح والذي انهارت أمامه كل سدود كتمانه وتعقله...وجد نفسه يهتف بانفعال:

_لا!!!لا تتذرعي بالقدر والمكتوب...ربما لم أختر أنا قدري...لكنكِ أنتِ اخترتِ!!

وعند هذه اللحظة سالت دموعها التي طالما حبستها علي وجنتيها وقد تهاوت كلماتها ساجدة أمام صمتها الجريح...

فاستفزته دموعها أكثر ليهتف بانفعال أقوى:

_لم أختر ظروفي...لم أختر مسئولياتي...ولم أختر فقري...

ثم زفر بقوة وهو يشير نحوها بإصبعه المرتعش انفعالاً ليردف:

_أنتِ الشئ الوحيد الذي اخترته ...وللأسف...لم يكن لي.

تهدج صوته في عبارته الأخيرة وهو يلوم نفسه -مرة- على اندفاعه...

و-ألف مرة- على اعترافه!!!!

اعترافه الذي استجدى دموعها أكثر والصورة تتضح الآن في ذهنها كاملة...

معتصم لم يتخلّ عنها زهداً بل عجزاً!!!!

الغافل ظنها سترفضه لفقر حاله الذي يعيبه ولم يدرِ أنها مثله "معيبة"!!!

نعم...كلاهما وقف أمام حائط مسدود من "عيب" لم يكن له ذنب فيه...

فقره...ومرضها!!!!

وربما لو كان أحدهما قد مد يده للآخر لتمكنا سوياً من هدم الحائطين معاً!!!

لكن للأسف...بقيت النفوس على صمتها...وبقي الحائط على حاله!!!!!

لهذا رفعت رأسها إليه وهي تهتف بحسرة مشوبة بعتابها:

_تقولها الآن يا معتصم؟!!الآن؟!!

اشتعلت ملامحه أكثر بعاطفته المختنقة بعجزه وهو يخبط بكفه على المكتب ليهتف دون وعي وقد أنساه الموقف الزمان والمكان:

_أنا أتيت حتى باب بيتكِ تلك الليلة...أتيتُ رغم يقيني من أن الثمرة المحرمة لن تكون لي...لكنني فعلتها فقط كي لا ألوم نفسي فيما بعد عن خذلاني لك ولنفسي قبلك.

اتسعت عيناها بصدمة وهي تنظر إليه هامسةً بذهول:

_أتيت لبيتي؟!متى؟!

أغمض عينيه بألم وهو يطرق بوجهه مغمغماً بيأس وهو يشعر أن كل هذا مجرد حلم يقظة من أحلامه التي لا تفارقه بها:

_ليلة عقد قرانك...جئتُ لأراكِ ...معه!!

ثم رفع إليها عينين صاخبتين بغيرةٍ سوداء وهو يردف بغضب قاسٍ:

_يده تحتضن يدك...وعيناه متعلقتان بك...وشفتاه تلاصقان أذنكِ بحديث لا أسمعه لكنني أكاد أستشعر حرارته تحرقني.

شهقت بعنف وهي تضع كفها على شفتيها لتجيبه بدموع هي أبلغ من أي حديث...!!!!

لقد جاءها معتصم أخيراً معترفاً بحبه...

شاكياً لوعته وغيرته...وآه لو يعلم!!!

لو يعلم أن يد "الآخر" لم تكن تحتضن يدها...بل...تعتصرها!!!

لو يعلم أن عينيه لم تكونا متعلقتين بها حباً بل...تسلطاً!!!

لو يعلم أن همسه -الذي اكتوى بتخيل حرارته- لم يكن مناجاة عشق بل ...أوامر صارمة!!!

لو يعلم أن ما رآه وأحرقه غيرةً هكذا...أحرقها هي قبله لكن بنيرانٍ أخرى...

نيران يأسٍ وعجزٍ...وتخبط بين دوامات ابتلعتها كاملة فما عادت ترى فارقاً بين وهمٍ وحقيقة...

أو صوابٍ وخطأ!!!

بينما كان هو يحتضن ملامحها الباكية بعينين عاجزتين قهراً ليغمغم بعد لحظات صمت طالت:

_لا تبكي يا دعاء...أرجوكِ...أنا آسفٌ لانفعالي ...آسفٌ لاعترافي هذا الذي لا أدري كيف غادر سجونه بعدما حرصت أنا طوال تلك الفترة على حبسه...لكنني لن أزعجكِ بعد الآن.

مسحت دموعها بأناملها وهي ترمقه بنظرة متسائلة...

فأردف بحزن قاتم:

_لقد جاءتني فرصة السفر التي طالما حلمت بها...والآن لا أدري هل سيخف الحمل حقاً أم سيزداد ثقلاً..لكن يبدو أن القدر اختار ابتعادي عن هنا هذا الوقت بالذات رحمةً بكلينا!!

رفعت رأسها لأعلى وهي تتمنى الآن لو تصرخ...

صرخة عالية بحجم كل هذا القهر الذي يبسط سلطانه على روحها ...

بحجم كل هذا الألم الذي اصطبغت به أيامها...

وبحجم كل هذه الحسرة التي نسجت شباكها على القلب كخيوط العنكبوت...!!!

لكن حتى هذه الصرخة بدت عزيزة المنال...

فدفنتها داخل دوامة الصمت التي عادت تبتلعها وهي تسمعه يقول بلهجته المتحسرة الغريبة على أذنها اليوم:

_أنتِ اخترتِ البديل الأفضل...فلا تلومي نفسك.

لتلتقي بعدها عيناهما فيما بدا كوداعٍ قصير انتهى بقوله :

_فقط...كوني سعيدة لأنكِ تستحقين هذا!

تجمدت وقتها مكانها وهي تشعر أنها صارت جثة بلا روح...

حتى أنها لم تشعر به وهو ينسحب بعدها ليخرج من المكتب تاركاً إياها وحدها ...

لتبقى دقائق غارقةً في شرودها -الآثم- به وهي تشعر أنها عالقةٌ بين خيارين أحلاهما مرّ...

رجلين تنازعا السلطة على عالمها البسيط ...

أحدهما بحبٍ عاجز...والآخر بقسوة متسلطة...

فهل يمكن لعاقل أن يسلم دفة سفينته لأيٍّ منهما؟!!

ورغماً عنها وجدت نفسها تتساءل ذات السؤال الأزليّ الذي طالما اغتال أحلامها الوردية...

هل سيبقى معتصم على حبه الذي يزعمه لو علم عن مرضها؟!!!

هل ستحتفظ نظراته بوهج عاطفتها لو رآها في إحدى نوبات صرعها؟!!

هل سيشعر وقتها بهذه الغيرة التي يحكي عنها من حسام أم سيحمد له صنيعه أنه خلصه من ورطة كهذه؟!!

تنهدت بحرارة وهي تسند رأسها على كفيها مدركةً أن تساؤلاتها لن تجد لها جواباً...

وأن العقل والمنطق وقبلهما...الضمير يناشدونها الاستسلام لمصيرها مع حسام...

نعم...

ربما يكون معتصم حلماً وردياً لكنه يبقى مجرد حلم...

ووحده حسام هو الواقع الذي منحه لها القدر وربما عليها الآن أن تقبله شاكرة!!!

لم تكد تتم فكرتها حتى سمعت رنين هاتفها باسمه...

نعم...حسام!!!

ابتسمت بسخرية باهتة وهي تفتح الاتصال لتلقي السلام بفتور...

عندما وصلها رده أكثر فتوراً :

_أنا أنتظرك بالأسفل...سنتناول الغداء في بيت أمي.

قالها ثم أغلق الاتصال دون كلمة أخرى!!!

إذن فقد عاد سيادة الرائد من مأموريته أخيراً ليتذكر تلك التي تركها خلفه طيلة تلك الأيام دون حتى سؤال...!!!

وكأنه يؤكد لها أنها ليست سوى دمية امتلكها يلاعبها متى شاء ثم يعيدها مكانها على الرف ريثما يعاوده مزاجه للمزيد من اللعب!!!

نعم...لازالت ترى نفسها تلك "الدمية المعيبة" بَخْسة القدر زهيدة الثمن!!

وبهذه النظرة السوداء ختمت صراع أفكارها ثم تطلعت لساعتها لتجد ميعاد الانصراف حقاً قد آن...

سيادة الرائد يعرف حقاً متى يقتنص فرصته في الموعد المناسب بالضبط!!

زفرت بحرارة مشتعلة وهي تلتقط حقيبتها لتلقي نظرةً حارة على مكتب معتصم -الخالي- قبل أن تتخذ طريقها لتغادر...

===============

ركبت جواره السيارة وهي تختلس نظراتٍ مترقبة لجانب وجهه الذي لم يلتفت به إليها منذ ركبت ولا حتى بتحية !!!

ورغم أن هذا لم يعد يدهشها مع تصرفاته الغريبة التي لا تفهمها لكنها شعرت بضيقٍ زاد من الثقل الجاثم على صدرها...

لتستعيد وقتها كلمات ماسة معها وهي تنصحها بأن تتقبل حسام طالما صار الآن هو خيارها الوحيد...

مع شعورها -الخفيّ- بالذنب نحوه بعدما كان من حديثها منذ قليل مع معتصم ...

نعم...حسام- مهما كان -الآن زوجها وكان يجب عليها أن تحترم غيبته ...

لكن ما حيلتها وقد سارت الأمور هكذا بلمح البصر ليأتيها اعتراف معتصم في هذا التوقيت بالذات...؟!!!

ك-كسرة خبزٍ فاسدة- لا تسمن ولا تغني من جوع!!!

لهذا تنهدت بحرارة ثم استجمعت قوتها لتغمغم دون أن تنظر إليه:

_متى عدت؟!

التفت نحوها دون رد لتلتقي عيناهما لأول مرة منذ ركبت جواره...

فانتابتها قشعريرة باردة وهي تشعر بعينيه -الصقريتين- تجرحانها!!!

رباه!!!

هل من الممكن أن تكون النظرات هكذا لاسعة حارقة مدببة بسنون من قسوة باردة؟!!!

نعم...لقد بدت لها نظراته وقتها كسياطٍ ألهبت روحها جلداً...

أو كجحيمٍ أسود هوت في قراره دون رحمة!!!

لهذا ازدردت ريقها ببطء ثم أطرقت برأسها هرباً من عينيه لتهمس بصوت خرج رغماً عنها مرتعشاً:

_حسام...اسمعني جيداً...إذا كنا سنمضي في حياتنا معاً فلنغير هذا الأسلوب...دعنا ننسَ كل ما فات...ولنبدأ صفحة جديدة.

ابتسامة ساخرةٌ ولدت الآن على شفتيه ثم اتسعت رويداً رويداً حتى تحولت لضحكة سوداء طويلة قبل أن يقول بتهكم لاذع:

_ممتاز...وماذا نسمي هذا إذن؟!!مبادرة صلح ؟!

ارتجف جسدها دونما سبب وهي تشعر بخوف حقيقي لكنها استدعت بعضاً من قوتها لتهمس ولازالت عاجزةً عن النظر إليه:

_نعم...يمكنك اعتبارها كذلك...أنا حقاً تعبت!!

كان قد وصل ساعتها إلى بيته فأوقف سيارته ثم التفت نحوها لتلتمع عيناه ببريق عابث وهو يقول بلهجته التي مزجت تهكمها بقسوتها:

_هل هذا تأثير غيابي عنكِ طوال هذه الأيام؟!!

أغمضت عينيها تخفي عنه استنكارها لما يقول ..

لكن إن كان يروقه أن يفهم هذا فليفهمه!!!

إن كان يريد الشعور بأنها اشتاقته فليفعل!!!

فقط فليكفّ عنها أذاه وليسمح لها بهدنة لتلتقط أنفاسها بعد كل صخب المشاعر هذا!!

فتحت عينيها عندما شعرت به يترجل من السيارة ليفتح الباب جوارها ثم يلتقط كفها - بمنتهى الأناقة- كعادته في الأماكن العامة...

فاستسلمت لشعورها -الزائف-بالرضا وهي تسير جواره حتى صعدا لشقة والدته التي أغلق بابها خلفه...

ليتطلع إليها بنظراتٍ متفحصة زادت ارتباكها...

فتلفتت حولها لتسأله بتوتر:

_هل أساعد والدتك في إعداد الطعام؟!

اقترب منها أكثر حتي لاصقها أمام نظراتها التي تصارعها الخجل والخوف ليكتنف وجهها براحتيه هامساً بقسوته الثلجية:

_نحن وحدنا ...أمي ليست هنا.

شهقت بعنف ودقات قلبها تتسارع بجنون لتهمس وسط لهاثها السريع:

_لكن أنت قلت...

تسلل إبهامه إلى شفتيها مقاطعاً حديثها وهو يضغطهما ببعض القوة ليهمس بنفس النبرة المسمومة:

_قلت سنتناول الغداء في بيت أمي...ولم أقل أنها ستكون موجودة!!

ارتجف جسدها أكثر وهي تتشبث بحقيبتها لتهرب بصعوبة من حصار عينيه هاتفةً بارتباكٍ لم يدارِ خوفها:

_هذا لا يليق يا حسام...نحن لازلنا...

قطعت عبارتها مع شهقتها الحادة وهو يجذب منها حقيبتها ليلقيها بعيداً قبل أن تنغرس أنامله بعنف في خصرها فتأوهت بضعف وصوته يصلها قاسياً كعادته:

_كنتِ تريدين ورقة زواج لتضمني فرصتكِ الثمينة...وأنا منحتها لكِ...فماذا تريدين أكثر؟!

تبدل كل خوفها غضباً في لحظات وهي تدفعه بكفيها في صدره لكنه لم يحرك ساكناً بل اشتعلت نظراته أكثر لتهتف هي بانفعال:

_هل ستعود لهذا الحديث؟! ألن تتوقف عن إهاناتك؟!!

هز جسدها بعنف وأنامله تنغرس أكثر في خصرها ليهتف بغضب أسود:

_لماذا تخجلين من الحقيقة؟!ألم تبيعي حبكِ لزميلك ذاك لأجل صيدٍ ثمينٍ مثلي؟!!

ارتخى جسدها كله بين ذراعيه فجأة من وقع صدمتها !!

ثم هزت رأسها هامسة بذهول:

_ماذا تقول؟!

اقترب بوجهه من وجهها ليهمس ببطء حارق:

_أنا ...سمعت...كلامكما ...في المكتب....منذ قليل.

أغمضت عينيها في انهيار تام وهي تتوقع الأسوأ...

لتجد نفسها تتمتم دون وعي:

_ليس الأمر كما تظن!

كز على أسنانه بغضب وهو يود الآن لو يخنقها خنقاً..

لقد كان يشك في وجود علاقة ما بينها وبين زميلها ذاك منذ رآه معها في المكتب أول مرة...

فنظراتهما العاشقة لم تكن لتفوتها عيناه الصقريتان...

لكنه تأكد اليوم عندما كان ذاهباً إليها بالمصادفة ليستمع لحوارهما كله...

ويفهم الحقيقة -كما صورها له عقله-..

الحقيقة التي جعلته يتوعدها بانتقامه أكثر وهو يراها صورة من نفسه -هو- في الماضي!!!!

نعم...نفس الصورة الدنيئة للمرء عندما يبيع- حبه -لأجل المادة...

عندما يبيح لنفسه الغدر تحت مسمى "المصلحة"!!!

عندما يذبح قلباً آخر لا ذنب له سوى أنه آمن له بعذر "النصيب"!!

لقد فعلها هو يوماً فحصد ندم العمر كله...

والآن يقسم لنفسه أن يجعل هذه المرأة أمامه تحصد مثله!!!

ربما هو لم يقصد في البداية أن يتزوجها لأجل هذا...

بل لغرضٍ آخر...

نعم....كانت مجرد "فرصة مناسبة" لرجلٍ في "ظروفه" ...

جمالها الذي يرضي واجهته الاجتماعية التي أقسم ألا يمسها أحد...

ومرضها الذي سيجعلها مجرد جارية تحت قدميه لا تجرؤ حتى على رفع عينيها في وجهه!!

خاصةً مع "عيبه" الذي لم تكن لتقبله امرأة أخرى بسهولة!!!!

لكنه الآن بعد ما عرفه عن ماضيها والذي هو صورةٌ لماضيه سيحرص أن ينتقم منها الانتقام الذي تمنى لو ينتقمه من نفسه هو!!!

نعم...سيأخذ منها حق "طيف" الذي عجز أن يأخذه من نفسه...

ويعلم قلبها الدرس الذي تعلمه هو جيداً لكن بعد فوات الأوان!!

هذه "العابثة" التي تظن نفسها تتلاعب بقلوب الرجال فتوقع زميلها ذاك في حبائلها ثم تضعه على قائمة الانتظار حتى تجد من هو أفضل...!!!

والآن فرصته ليريها ماذا سيفعل بها هذا "الأفضل"!!!

وبهذا التفكير -المريض- الأسود دفعها أمامه ولازال مطبقاً بقبضتيه على خصرها حتى وصل بها إلى إحدى الغرف أمام نظراتها المذعورة...

ثم توقف أمام أحد الأدراج الذي فتحه ليستخرج منه زوجاً من الأساور المعدنية التي أحاط بها معصميها بسرعة ثم أغلقهما بعنف وسط صدمتها المهولة بما يفعله!!!!

لكنها ما كادت تفيق من صدمتها حتى هتفت بحدة رغم ارتجاف صوتها:

_هل جُننت؟! أنت تلبسني الأساور المعدنية كالمجرمين؟!!

برقت عيناه الصقريتان أكثر وهو يدفعها ليجلسها على الأريكة بعنف...

ثم جذب مقعداً ليجلس قبالتها وهو يميل بجذعه عليها هامساً ببرود قارص أمام عينيها المرتعدتين:

_يقولون أنني أفضل ضابط استجواب...أعرف دوماً كيف أنتزع الاعتراف من بين شفتي المرء ...وبأي طريقة!!

قست نبراته أكثر في عبارته الأخيرة فتجمدت مكانها وهي تطالعه برعب حقيقي قبل أن تشهق بعنف وقبضته تعتصر عنقها بقسوة مع همسه الذي بدا لها كالفحيح:

_حتى لو فككت عنكِ هذه الأساور...يجب أن يبقى هذا شعوركِ معي دائماً...أنتِ سجينتي...أسيرتي التي لن يكتب لها عتق...هل تظنين نفسكِ ذكية بما يكفي لتبدلي الرجال في حياتكِ كقطع الشطرنج؟!!لا يا صغيرة...لقد وقعتِ في شر أعمالك...حسام القاضي لا يتلاعب به أحد!!

سالت دموعها المذعورة على وجنتيها وهي تشعر بالألم من فرط ضغطه على رقبتها فهمست برجاء مذعور:

_اتركني يا حسام...أنا أختنق!!

ظل يحاصرها لدقائق بين نظراته الصقرية وقبضته المحكمة على عنقها حتى ما عادت تدرك أيهما يخنقها أكثر...

ثم بدأ في فك حصار أنامله حول رقبتها ببطء فتنفست الصعداء ثم صمتت لدقائق تستجمع أنفاسها اللاهثة أمام نظراته القاتلة....

حتى وجدت بعض القوة لتهمس بين عبراتها:

_أنت أخطأت الفهم...هو فقط كان...أقصد ...مجرد...

قطعت عبارتها بذعر وهي تراه يقترب منها من جديد لينزع عنها حجابها ببطء قتلها ترقباً...

قبل أن تمتد أنامله بنفس البطء لتفك أزرار ردائها ونظراته تتثاقل عليها مع همسه المرعب:

_لازلتِ تصرين على المراوغة...نجرب إذن طريقة أخرى!!

عادت بظهرها مبتعدةً إلى الوراء وقد أنساها غضبها خوفها لتهتف بانفعال:

_هذا الكلام تقوله للعاهرات اللائي تصادفهن في عملك...وليس لزوجتك...تعقل يا حسام وإلا سأصرخ وستكون فضيحة!!

لم تكد تتم عبارتها حتى فوجئت بقبضته تلجم فكها وهو يميل عليها بجسده الذي جاورها على الأريكة قبل أن يهمس بتهكم قاسٍ:

_لماذا تبالغين هكذا يا "زوجتي العزيزة"؟!!!ألا تريدين تجربة "الجنة" التي بعتِ حبكِ من أجلها؟!!

صرخت بقوة لكن صرختها لم تغادر حلقها مع أنامله التي كتمتها وهي تشعر بلمساته الخشنة تنتهكها بقسوة لا آدمية...

وجسدها ينتفض بقوة ذعرها وإحساسها الرهيب بالقهر والذل...

حتى شعرت بالدوار يلفها لدقائق غابت فيها عن إدراكها الفعلى ....بل عن الحياة ....!!!

لكنها أخيراً وجدت بعض القوة لتدفعه بركبتيها في صدره قبل أن تميل بجسدها للأمام فتفرغ كل ما بمعدتها على الأرض !!!!!

تراجع بظهره للوراء وهو يرمقها بغضب مشتعل...

فمسحت شفتيها بأناملها ثم رفعت عينيها الذابلتين إليه لتهمس باحتقار بين لهاثها السريع:

_هذا ما تثيره فيّ فقط يا سيادة الرائد...اشمئزازي!!!

هنا هوت راحته على وجنتها بصفعة مدوية قبل أن يقف ليهتف بقسوة:

_أنا سأعرف كيف أجعل أيامكِ معي جحيماً حقيقياً...ستتمنين الموت ألف مرة ولن تناليه!!

هبت واقفةً من مكانها وهي ترفع يديها المكبلتين أمام وجهه لتهتف بصوت متقطع غارق في انفعاله:

_لا تظن أن أساورك هذه هي قيودي الوحيدة؟!!لا يا سيادة الرائد...قيدي معك بدأ بمرضي وانتهى بأهلي...أهلي الذين صاروا لا هَمّ لهم سوى الخلاص من وزري الثقيل...أنا لم أفعل ما أخجل أن أصارحك به...نعم ...أحببت معتصم لكنه كان مثلي مقيداً بأغلاله فلم يتمكن أحدنا من تحرير الآخر...أنا لم أتلاعب بأحد ...أنا رفضت الزواج منك بقدر استطاعتي لكنني فقط رضخت لرغبة والديّ...وربما كان هذا هو ذنبي الوحيد.

ظل يرمقها بنظراته الصقرية للحظات ثم أعطاها ظهره ...

فاقتربت منه بحذر لتقول بحزم مشوب بالرجاء:

_طلقني يا حسام...طلقني وصحح هذا الخطأ..لازلنا في مرحلة عقد القران والحمد لله أننا لم نتورط في زواج حقيقي....مادمت تشك في أخلاقي فلماذا تُبقي على زوجة مثلي؟!!

التفت نحوها متفحصاً ملامحها الشاحبة والتي بدت صادقة لأبعد حد...

قبل أن يقول بصوت عاوده بروده القاسي:

_لو كنت أشك في أخلاقك لما خرجتِ أنتِ من مكتبكِ إلا جثة هامدة.

تطلعت إليه بدهشة وهي تشعر أنها حقاً لم تعد تفهم شيئاً...

هذا الرجل كابوسٌ حقيقي...غاصت بقدميها في وحل جنونه وعقده النفسية المريضة...

ويبدو أنها لن تستطيع الخلاص!!

لكن بعض الأمل انتعش في صدرها عندما وجدته يلتقط هاتفه ليجري اتصالاً وقد لمحت على الشاشة رقم والدها...

هل اقتنع بكلامها حقاً وسيطلقها؟!!

أم أنه ينتوي فضحها أمام والديها؟!!

ظلت ترقبه بتوجس وهو يتحدث إلى والدها بتهذيبه -الأنيق- الذي صارت تدرك -بحق- مدى زيفه...

وقلبها يخفق بصدرها في ترقب منتظراً كلماته التالية...

كلماته التي أصابتها في مقتل وهو يعاود الالتفات نحوها معتقلاً عينيها بسجون قسوته وهو يردف بنفس اللهجة الأنيقة:

_لا أجد داعياً لنطيل فترة عقد القران هذه يا عمي...شقتي جاهزة وأنا سأتكفل بما بقي من أشياء...دعنا نحدد موعداً قريباً للزفاف.

رفعت أناملها المقيدة على شفتيها تكتم صرخة دهشتها وقهرها فتألقت عيناه ببريقها الصقري أكثر...

وهو يقول ضاغطاً على حروفه:

_نعم يا عمي...دعاء معي...وهي موافقة!

=================

كانت ماسة عائدةً من المشغل بصحبة أحد الحراس الذي لم يكن يفارقها حسب أوامر السيد عاصي...

نعم...برغم أنه لم يعد للمدينة منذ ما يزيد عن عشرين يوماً لكنها فوجئت منذ أيام بأحد الحراس يخبرها أن المشغل قد تم تجهيزه كاملاًً وأن بإمكانها الذهاب إليه متى شاءت حسب أوامر السيد عاصي...

وبرغم سعادتها الجارفة بهذه المفاجأة لكنها كانت تتمنى لو يخبرها هو بنفسه...

اشتاقته؟!!

نعم...كثيراً...

كثيراً جداً في الواقع!!

لكن يبدو - للأسف- أنه لا يشاركها هذا الإحساس...

فهو لم يهاتفها طيلة هذه الفترة ولو مرةً واحدة...

وحتى عندما فعلتها هي منذ أيام لتعرف مكانه أو على الأقل تطمئن عليه... لم يرد على اتصالها!!!!

نعم...فعلتها مرة...وأبى عليها كبرياؤها أن تعيدها!!!

فاستسلمت لهذا الوضع كارهة واكتفت بعملها الجديد الذي يستهلك الكثير من وقتها وتفكيرها...

وكم هي بحاجة لهذا الآن...!!!

قُطعت أفكارها عندما وصلت إلي القصر فتركها الحارس لتدخل هي إلي البهو الكبير...

لكنها فوجئت بسيدة كبيرة السن تجلس على أحد الكراسي هناك ويبدو أنها تنتظرها!!!

تقدمت منها ماسة بخطواتٍ بطيئة وهي ترمقها بنظراتٍ متوجسة فقد كانت المرأة تنظر إليها بطريقة غريبة أقرب للقسوة...

حتى صارت ماسة قبالتها تماماً فقالت بهدوء لم يُخفِ دهشتها:

_عفواً يا سيدتي... هل تنتظرين أحداً؟!

لكن الإجابة كانت صفعةً قاسية من كف المرأة الذي هوى على وجنتها وهي تصرخ بجنون:

_أنتظركِ أنتِ يا "خاربة البيوت"!!!!ابنتي قتلت نفسها وابنها حسرةً على زوجها الذي رميتِ شباككِ حوله!!!

وضعت ماسة كفها على وجنتها وقد دمعت عيناها بألم قبل أن تدرك الأمر لتهمس بعد لحظات:

_أنتِ والدة السيدة حورية؟!!

انتحبت المرأة بقوة وهي تنهار جالسةً على كرسيها من جديد لتهتف بين دموعها وهي تلطم خديها :

_ابنتي الغالية ماتت في عز شبابها بسببك أنتِ!!!لا أدري كيف استطعتِ أنتِ سحر رجلٍ مثل عاصي الرفاعي الذي قضى كل هذه السنوات دون زواج رغم أن الله لم يقسم لهما الولد!!!! وعندما يأذن القدر لابنتي بالفرج تأتين أنتِ لتقهري قلبها على زوجها؟!!!!

اتسعت عينا ماسة بصدمة وهي تستمع لكلمات المرأة !!!!

هل ترى الأمر حقاً هكذا؟!!

بالتأكيد!!!

فحورية -بالطبع-لم تخبر أحداً عن خيانتها لعاصي!!!

ومن الطبيعي أن يرى الجميع الأمر الآن هكذا!!!!

السيدة حورية انتحرت يأساً وكمداً بعدما مزقت الغيرة قلبها على زوجها الذي تزوج بممرضتها الفقيرة التي لا أصل لها !!!!

لاريب أن الناس في هذه المدينة الصغيرة الآن ينظرون إليها باعتبارها تلك الشيطانة الصغيرة التي أغوت سيدها لتخطفه من زوجته وتقتلها حسرةً!!!

قطعت أفكارها عندما فوجئت بالخدم يندفعون نحو السيدة الكبيرة التي كانت تصرخ بجنون وسط بكائها الهستيريّ وهي تهمّ بالتهجم عليها من جديد...

ليقفوا بينها وبين ماسة التي كانت لازالت مصدومة...

عندما سمعت بعضهم يرجوها أن تصعد لغرفتها بسرعة بينما شرع البعض الآخر يهدئ والدة حورية وهم جميعاً مشتتون لا يعرفون التصرف الصحيح في هذا الموقف...

فلو علم السيد عاصي أن أحداً ما قد صفع امرأته في بيته فغضبه سيحرق الأخضر واليابس!!!

وفي نفس الوقت هذه المرأة هي والدة السيدة حورية التي كانت سيدة القصر قبل وقتٍ قريب وكانت لها مكانتها هنا!!!

لكن ماسة قطعت عليهم حيرتهم عندما اندفعت بسرعة نحو غرفتها التي أغلقت بابها خلفها لتستلقي بعدها على سريرها وهي تبكي بحرقة!!!

هل كُتبت عليها الفضيحة في كل مكانٍ تسكنه؟!!!

ودونما ذنبٍ منها؟!!!

هل صار لزاماً عليها أن تتقبل الظلم والنظرات المنتقصة لقدرها دون جريرة؟!!!

ازداد نحيبها وهي تشعر بوحدتها هنا تزيد عذابها أكثر...

تناولت هاتفها وهي تفكر في الاتصال برحمة لعلها تخفف عنها...

لكنها لم تشأ أن تثقل عليها بالقلق لأجلها...

فارتجفت أناملها وهي تتلكأ على رقمه هو أمامها وقلبها يستحلفها أن تهاتفه هو الآن...

أن تخبره أنها تحتاجه...!!!

أن ترجوه العودة في أقرب وقت !!!

أن تتجرأ وتشكو إليه ما تعانيه منذ رحل وتركها!!!

لكنها لم تستجب لكل هذا وهي تلقي هاتفها جوارها بعنف لترفع عليها غطاءها وهي تهمس لنفسها بحزم:

_كوني قويةً يا ماسة...به أو دونه!!!

ابني حصنكِ بنفسكِ واحتمي به ...

ارفعي بيديكِ أسوار قلعتكِ وتواريْ خلفها...

هو قال لكِ يوماً أن العاقل لا يستمد قوته من ضعيف...

لكنكِ اليوم تدركين أن العاقل لا يستمد قوته من أي أحد ...قوياً كان أم ضعيفاً!!!

وبهذه الأفكار أغمضت عينيها بقوة تستجلب النوم الذي عاندها لساعات ...

وهي تتململ على سريرها كمن يتقلب على جمر...

حتى انتفضت من فراشها وهي تشعر برأسها يكاد ينفجر من كثرة التفكير...

فتأوهت بقوة وهي تسند رأسها بكفيها قبل أن تنفض عنها غطاءها لتقوم من فراشها وهي تتخذ طريقها لتغادر غرفتها ...

لتجد قدميها تحملانها قسراً لغرفته الخالية الآن وقد عجزت عن منع نفسها عن هذا...

طرقت الباب بخفوت كما تفعل كل مرة وهو موجود وكأنها تتمنى أن يرد عليها كالعادة...

لكن الصمت الثقيل كان نصيبها فتنهدت بحرارة وهي تفتح الباب برفق لتدخل وتغلقه خلفها...

دارت عيناها في الغرفة التي لم تدخلها منذ أيام طويلة ...

وبالتحديد منذ سافر هو منذ ما يزيد عن عشرين يوماً...

لتتوقف ببصرها على تلك الأريكة هناك حيث كانت هي بين ذراعيه ليلتها تشاركه حزنه بإحساسها الصامت مكتفيةً بوجودها جواره!!

دمعت عيناها وأعماقها كلها تصرخ باحتياجها إليه ...

فكتفت جسدها بذراعيها وهي تتقدم ببطء نحو فراشه لتتمدد عليه باستسلام...

ثم ألقت رأسها على الوسادة بإعياء وهي تتذكر عندما كانت تقضي ليلتها هنا معه...

ليحتويها بحنانه الدافئ وأنامله تغرس السكينة بين خصلات شعرها بحركته الفريدة...

فيبوح له لسانها بما عجزت عن البوح به لسواه ...

ليستمع إليها بصبرٍ ينافس حنانه في سخائه....

فتنام بعدها قريرة العين مطمئنة وقد غادرتها مخاوفها وكوابيسها بلا رجعة!!!

ابتسمت رغماً عنها ببعض الحنين وهي تتذكر كل هذا...

ثم لم تدرِ بعدها كيف استكانت نبضاتها لمجرد الإحساس بأنها في غرفته...

برائحة عطره التي كانت عالقةً في ذرات الهواء حولها...

والتي تخللت مسام روحها برفق متملك مسيطر يشبهه...

حتى استسلم جفناها لإطباقهما المتهالك...

لتغرق أخيراً في سباتها العميق!!!

==========================

استيقظت من نومها على ملمس أنامله الخشنة على وجنتها ففتحت عينيها ببطء لتنتفض مكانها وهي تنظر حولها في دهشة ...

قبل أن تعاود عيناها التعلق بشموسه الزيتونية التي افتقدتها وهي تهمس بصوت لاهث لم يغادره النعاس بعد:

_هل عدت حقاً؟!

اختفت شموسه الزيتونية لتعاود غاباته المشتعلة احتلال نظراته وهو يغمغم بقسوة ولازالت أنامله على وجنتها:

_أين صفعتكِ بالضبط؟!

ازدردت ريقها ببطء وهي تهمّ بسؤاله عمّن أخبره...

لكنها أدركت -للتوّ-مدى سخافة سؤالها...

عاصي الرفاعي لا يخفى عليه شئٌ في قصره سواءً في حضوره أو في غيابه!!!

لهذا لم تتعجب عندما أردف هو بنفس القسوة:

_تذكري مكان صفعتها جيداً لأنك ستصفعينها في نفس المكان قبل أن أنفي تلك العائلة بأسرها من هذه المدينة.

شهقت بعنف وهي تضع كفها على شفتيها ثم همست برجاء:

_لا يا سيد عاصي أرجوك...أنا مسامحةٌ في حقي.

ازداد اشتعال عينيه وهو يمسك كتفيها بقوة ليهزهما هاتفاً بغضب هادر:

_تسامحكِ هذا هو الذي كسركِ مرة...وسيكسركِ ألف مرة...الضعيف لا مكان له في هذا العالم.

وبرغم الألم الذي كانت تشعر به من ضغط أنامله على كتفيها تألقت بحار فضتها بسكينة لا تدعيها وهي ترد بقوة :

_تسامحي ليس ضعفاً بل منتهى القوة...كنت أستطيع أن أفضح السر بمنتهى البساطة...كنت أستطيع أن أصرخ أنني لم أسعَ لهذه الزيجة بل إنك أنت من أجبرني عليها...كنت أستطيع أن أسلط عليها الخدم والحراس هنا ليثأروا لي منها ...كنت أستطيع فعل أي شئ وكل شئ في غيابك لكنني لم أشأ فعل هذا...هل تدري لماذا؟!! لأنه لو زلّت قدمي في بئر الانتقام فلن تقوم لي قائمة بعده !!!

ازداد ضغط كفيه علي كتفيها وهو يكاد يعتصرهما ناظراً إليها بغضب للحظات...

وبقدر ما شعر هو أنها تعاظمت قدراً في عينيه بعدما ذكرته الآن...

بقدر ما هيجت كلماتها -البريئة النقية- كل جروحه القديمة....

والتي كادت تهلكه حزناً وكمداً طوال تلك الأيام السابقة التي قضاها وحده في منفاه الاختياري...

وكأنه بهذا سينسى !!!!

لهذا أغمض عينيه بقوة للحظات متمالكاً شعوره العاصف...

قبل أن يقوم من جوارها ليتوجه نحو نافذة غرفته ففتحها بعنف وهو يحاول التقاط أنفاسه الثائرة...

هي محقة...وهو الآن أكثر من يدرك هذا...

الانتقام سلاح ذو شفرتين يؤذي صاحبه قبل أن يؤذي غيره...

لكن ما حيلته في نفسه؟!!

ليت الأمر بهذه السهولة!!!

إنه الآن يقف أمام سنوات عمره التي قاربت الأربعين ليطالب نفسه بتبديل كل ما تربى عليه...

فكيف يفعلها ؟!!

هو الآن يعادي نفسه...!!

يعادي" عاصي الرفاعي" الذي عرفه طوال هذه السنوات...!!

يعادي صورة مرآته بظهرها العاري وآثار الجلد على بشرته...!!

بل إنه يهدم صرح جبروت عاصي الرفاعي الذي عاش عمره كله يبنيه!!!

لهذا هتف باقتضاب حاد وهو يتطلع للفراغ أمامه دون أن ينظر إليها:

_سامحي في حقك كما تريدين...لكنني أنا لن أفعل...هذه المرأة انتهكت حرمة بيت عاصي الرفاعي وصفعت امرأته...وهذا في قانوني يساوي الكثير.

هزت رأسها بأسف وهي تكاد تتوسله العفو عنهم من جديد...

لكنها الآن صارت تفهمه جيداً...

كلماته الحادة المقتضبة ليست مجرد كلمات...

بل قراراتٍ صارمة ربما يكون قد بدأ فيها بالفعل!!

لهذا اضطرت -مرغمةً -لتجاوز الأمر وهي تتقدم نحوه لتطالع ظهره المواجه لها بنظراتٍ غارقة في شعورها الجديد نحوه...

قبل أن تتوقف على بعد خطوة واحدة منه لتهمس بترقب:

_هل عدت فقط لهذا السبب؟!

ظل على وقفته الجامدة وهو يجيبها بنفس الاقتضاب المشتعل:

_نعم...لقد عدتُ فور ما أخبروني بما حدث؟!

خفق قلبها بقوة وهي تراه بعين خيالها يعود في هذا الوقت المتأخر من الليل فقط ليدافع عنها هي!!!

وكم ملأها هذا الشعور فخراً مزيناً بالفرحة!!!

لكن هاجساً آخر قطع عليها فرحتها وهي تفكر أنه -ربما- لم يعد دفاعاً عنها هي...

بل عن جبروت عاصي الرفاعي الذي لا يقبل هو أن يتحداه أحد!!!

عن مكانته ووضعه هنا والذي خشي أن يهتز بعد فعلة تلك المرأة!!!

لهذا أطرقت برأسها للحظات ثم همست بحزنٍ صبغ صوتها رغماً عنها:

_هل ستخبرني أين كنت؟!

زفر بقوة ثم قال ببرود لم يخدعها:

_مكانٌ ما أذهب إليه عندما أريد أن أختلي بنفسي.

أغمضت عينيها بألم وهي تشعر به وكأنه يتعمد إبعادها عن منطقته الخاصة...

ورغم أنها كانت تثق أنه يحتاجها الآن بحق...

لكن شعورها -الخفي-بإهانته الباردة وردوده المقتضبة جعلها تغمغم بما يشبه الاعتذار:

_أنا سأعود لغرفتي...آسفة علي إزعاجك.

قالتها وهي تبتعد عنه بخطواتٍ سريعة لكنه لحق بها ليمسك ذراعها ويديرها نحوه ملتقطاً نظراتها التي مزجت حزنها بعاطفتها في مزيج ساحر...

قبل أن يسألها ببعض الرفق:

_لماذا كنتِ تنامين هنا الليلة؟!!هل عاودتكِ كوابيسك؟!!

انتزعت عينيها قسراً من سجونه الزيتونية لتخفض بصره عنه وهي تهز رأسها نفياً ...

فقربها منه أكثر ليرفع ذقنها نحوه هامساً بحنانه الذي عاد يكتسح كلماته:

_كيف حالكِ مع جلسات علاجك؟!

ابتسمت بشحوب وهي تهمس ببعض الامتنان :

_الطبيبة أخبرتني أنها تعطيك تقريراً كاملاً بعد كل جلسة ...أنت لست في حاجة لهذا السؤال.

ابتسم بدوره وهو يشعر أن مجرد رؤية ابتسامتها ولو كانت شاحبةً هكذا تكفيه ...

ثم عاد يتطلع لعينيها بشعور جارف يجتاحه الآن بعمق...

ويأبى أن يعترف أنه اشتياق...!!

نعم...وسط كل هذه الفوضى من المشاعر التي يغوص فيها الآن حتى النخاع لم يعد قادراً على تمييز أي شئ...

لكن ما هو واثقٌ منه أن هذه التي تقف أمامه الآن تعني له الكثير ...

بل الكثير جداً!!

لهذا اتسعت ابتسامته الحانية وهو يعاود سؤالها :

_والمشغل؟!

أومأت برأسها في رضا عندما سمعا صوت أذان الفجر...

فصمتا للحظات قبل أن يقول هو بلهجته التي عادت إليها قوتها المسيطرة:

_سأذهب الآن لصلاة الفجر...انتظريني هنا حتى أعود!

قالها ثم تركها بخطوات متثاقلة لتتأمله هي بتفحص مشوبٍ بحيرتها...

في البداية كانت تتعجب من حرص رجلٍ مثله علي الصلاة في المسجد...

فهي بالطبع لم تكن ترى أفعاله على هذا القدر من التقوى ...

لكنها بعد إقامتها هنا أدركت أن عادات هذه المدينة تعتبر هذا من تمام سلطان الرجال هنا...

وعاصي الرفاعي هو كبير هذه المدينة الذي يجب أن يكون في أول صفوف الصلاة في إثبات واضح لهيمنته علي أمور الجميع...

نعم...حتى أمور الدين صار سلطان الدنيا يستغلها لصالحه!!!

تنهدت بحرارة وهي تتوجه لحمام غرفته الصغير حيث توضأت لتخرج وتؤدي صلاتها...

ثم جلست مكانها تنتظره - كما أمرها-!!!

وبرغم بعض النفور الذي انتابها من أمره المتسلط لها بالانتظار...

لم تستطع منع تلك النشوة الخفية التي دغدغت حواسها فرحاً بعودته...

أو -بالأدق-عودة أمانها بين ذراعيه!!

تربعت مكانها وهي تستند برأسها علي كفها مداعبةً طرف ثوبها بشرود وهي تستعيد ذكرياتها -الغريبة- معه...

منذ أول لقاء لهما...وحتى كلماته الحانية هنا منذ قليل...

لتضبط نفسها -متلبسةً- بجُرم ابتسامة حقيقية رسمها قلبها قبل شفتيها...!!!

ابتسامة هي مزيجٌ من امتنان واحتياج وألفة كل هذا مصبوغٌ بإعجابٍ خفيّ وإن كان لا يخلو من بعض التوجس!!!

قطعت أفكارها عندما انتبهت لكفه الممدود أمام عينيها فرفعت رأسها إليه بسرعة...

وعيناها تفضحان شعورها كالعادة...بينما كانت عيناه هو غائمتين بحزنٍ لم يخطئه إحساسها به...

ثم تشبثت بكفه لتقوم واقفةً قبالته قبل أن يقول لها برفقٍ :

_لم تخبريني بعدُ لماذا كنتِ تنامين هنا الليلة!!

هربت بعينيها من حصار نظراته وهي تغمغم بمراوغة:

_لو كان هذا قد ضايقك فلن أكررها.

ابتسم في إدراك وهو يفهم بواطنها كعادته...

يبدو أن ماسته كانت تحتاجه حقاً كما توقع منذ علم عما حدث...

ولهذا قطع سفره ليأتي مسرعاً...

نعم...على الأقل لازال في دنياه ما يستحق أن يعيش لأجله...

حتى ولو كان مجرد فتاة في ورطة وتحتاجه...

لكن...هل هي حقاً كذلك فحسب؟!!!

نفض عنه تساؤلاته الرمادية الخانقة التي صارت تؤرقه مؤخراً...

ثم غمغم بحنانه الذي يخصها هي فقط:

_هل تريدين النوم؟!!أم تفضلين اقتراحاً آخر؟!

رفعت إليه عينيها بتساؤل...فأردف بنفس النبرة الحانية:

_كنت أفكر في مراقبة الشروق من على سطح القصر...هل تحبين مرافقتي؟!

ابتسمت وهي تشعر باستحسانها الشديد للفكرة...

ثم أومأت برأسها لتسير معه حتي صعدا الدرج نحو سطح القصر حيث كانت أشعة الشمس قد بدأت في مداعبة السماء على استحياء...

سارت معه تطوقها غلالة من مشاعرها الرائقة حتى جاورا سور السطح الذي بدا على اتساعه كفضاء عريض بلا حدود...

فترك كفها لتفاجأ به يجلس على الأرض مستنداً إلى حائط السور القصير!!!

ابتسمت لعفويته -الغريبة- على طبعه الوقور ثم انحنت وهي تكاد تفعل مثله...

لكنه هتف بها بحزم:

_لا تجلسي على الأرض!

تجمدت مكانها لكنه لم يدع لها فرصةً لمزيد من الدهشة عندما مد ذراعيه ليتملك خصرها ويجذبها لتجلس على ساقيه كطفلة!!!

احمرت وجنتاها بخجل وقد عجزت عن رفع عينيها إليه ...

عندما وصلها همسه الذي يجيد مزج حنانه بقوته:

_أحمقٌ من يترك ماسته تلامس الأرض قبل أن يلتقطها...فهل عهدتني أنتِ أحمقا؟!

خفق قلبها بجنون وهي تشعر بذعرها -المرضي- يعاودها ...

لكنها تعترف أنه هذه المرة كان أقل كثيراً مما سبق...

ربما لأن جلسات علاجها قد بدأت تؤتي ثمارها...

وربما لأنها صارت توقن أنه لن يأخذ منها إلا ما تريد -هي- منحه...

وربما لأن شعورها - هي- به اختلف...!!!!

نعم...هي ما عادت تراه ذاك الشيطان الذي يثير نفورها بل على العكس...

هي لا تنكر هذا الظل الوارف من الأمان الذي يحتويها في وجوده...

ذاك الإحساس الغامض الذي يدغدغ خلاياها برقة ساحرة....

تلك السعادة المتخفية خلف ستائر وردية شفافة تتمايل مع نسيم خجلها معه!!!!

بينما شعر هو بارتباكها فربت على ظهرها برفق...

ثم قال ليصرف تفكيرها عما يعرف أنه يشغل ذهنها ويخيفها الآن:

_الكثيرون يعشقون منظر الغروب لكنني أحب مراقبة شروق الشمس أكثر.

ويبدو أن محاولته في شغل انتباهها قد نجحت فقد رفعت عينيها إلى السماء حولها للحظات...

حتى استعادت هدوء خفقاتها لتهمس بعد فترة بأسى:

_كم من الليالي قضيتها ساهرة وكل أملي فقط أن تطلع الشمس حتى أتمكن من النوم دون خوف...لهذا فأنا مثلك أحب الشروق أكثر.

ابتسم وهو يشير بكفه نحو شئ ما هناك قائلاً :

_طائرتكِ الورقية هناك...لقد أمرتهم أن يتركوها مكانها حتى تعودي إليها متى شئتِ!

ابتسمت بدورها وهي تتوجه ببصرها حيثما أشار ثم غمغمت بشرود:

_كنتُ أظنني استرجاع هناءة الماضي بأغنية قديمة وطائرة ورقية...لكنني أدركتُ أن ما مضى لا يعود أبداً حتى لو استجديناه بألف ذكرى وألف ألف أغنية!!!

رفع أنامله ببطء ليداعب خصلات شعرها تحت حجابها الذي أزاحه برفق...

ثم همس بشرود:

_غنّي دوماً يا ماسة...لا تكفّي يوماً عن الغناء...غنّي وأنتِ تطيرين فرحاً...غنّي وأنتِ تذوبين حزناً...غنّي وأنتِ تشعين قوة...غنّي وأنتِ تئنين ضعفاً..غنّي ولو خذلك صوتكِ وضاعت منكِ الألحان...لو هجرتِ الغناء ستموتين ...نعم...ستموتين حتي لو خدعتِ الجميع بأنفاس صدرك الرتيبة التي تدّعي الحياة...لكنكِ وقتها ستكونين الشاهد الوحيد علي أشلاء روحك الممزقة بداخلك...فإياكِ أن تفعلي هذا بنفسك!!

التفتت برأسها نحوه لتري عينيه بهذا القرب ...

وقد احتل الحزن حدقتيه فما عادت هناك شموسٌ ولا غابات زيتون...

بل صحراء قاحلة من مرارة سوداء جعلت قلبها ينقبض أكثر...

وهي تشعر الآن أنه لا يتكلم عنها هي...بل يتكلم عن نفسه...

نعم...هذا الرجل فقد لبّ روحه يوماً ولن يستريح حتى يستعيده!!

بينما التفت نحوها هو الآخر من شروده ليلتقط رسائلها الفضية الرائقة بمشاعرها الجديدة...

فابتسم ابتسامة باهتة وهو يجذب رأسها ليريحه على صدره هامساً بصوت تضافر حزنه مع حنانه:

_لو طلبتُ منكِ الغناء الآن فهل تفعلينها لأجلي؟!

اتسعت عيناها بدهشة غلبت خجلها وهي لا تدري كيف تصف شعورها الآن...

لو كان أحدهم أخبرها يوماً أنها ستغني في حضرة رجل كهذا لاتهمته بالعته!!!

لكنها الآن وهي تجلس على ساقيه هكذا كطفلة وجدت أمانها بعد طول خوف...

ورأسها يستقر على صدره لتسمع صوت نبضاته الهادرة تحت أذنيها فاضحةً بركان مشاعره الكامن تحت قشرة زائفة...

وأنامله تداعب شعرها بتلك الحركة التي لا تدري كيف ولا لماذا تحتل كل ذرات كيانها بشعور فريد لم تعرفه إلا معه هو...

مع كل هذا...توقن أنها لاريب ستفعلها!!!

نعم...ستغني!!!

ستترك صوتها حراً صادحاً بنفس قوة إحساسها الآن...

وتطارد الألحان كطير طليق حتى تنتشي بها روحها كاملة...

وتنتقي كلماتٍ لن تفكر لماذا اختارتها ولا كيف سيفهمها...

فالآن لا سلطان لعقلٍ أو ذاكرة...

حيث يبسط الإحساس سلطانه فلا مقام لتردد أو تعقل!!!

وبهذا الشعور المنطلق الذي اكتسح روحها...

بدأت تهمهم باللحن المميز لهذه الأغنية للحظات...

قبل أن يرتفع صوتها بالكلمات...

انا بعشق البحر زيك يا حبيبي حنون

وساعات زيك مجنون....

ومهاجر ...ومسافر...

وساعات زيك حيران....

وساعات زيك زعلان....

وساعات مليان بالصمت ....

دانا بعشق البحر...

انا بعشق السما علشان زيك مسامحة...

مزروعة نجوم وفرحة...

وحبيبة ......وغريبة....

وعشان زيك بعيدة....

وساعات زيك قريبة...

بعيون متنغمة ....

دانا بعشق السما

انا بعشق الطريق...

لانه فيه لقانا ....

وفرحنا وشقانا....

اصحابنا.... شبابنا .....

وفيه ضحكت دموعنا.....

وفية بكيت شموعنا....

وضاع فيه الصديق....

دانا بعشق الطريق....

انا بعشق البحر ....

وبعشق السما ....

وبعشق الطريق...

لانهم حياة ....

وانت يا حبيبي... انت كل الحياة!!!

بينما كان هو يسمعها وهو يشعر بصوتها يرفعه لأعالي حدود الأفق ...

حيث لا شئ سواهما فقط في هذا الفراغ الفسيح...

لا أشباح ماضٍ ولا رؤى مستقبل...

لا ذنب يخنق ولا حزن يشنق ولا ألم يذبح...

بل أطياف مشاعر رائقة تلون الكون حوله بلونها الماسيّ!!!

وكما بدأت بهمهمات اللحن المميزة ختمت بها أيضاً لتبقي بعدها على حالها ورأسها مزروعٌ على صدره لدقائق...

قبل أن ينحني هو برأسه ليقبل رأسها في فعلٍ لم يعرفه إلا لها ...هي فقط من بين نساء العالمين!!!

قبل أن يهمس بترقب:

_لماذا هذه الغنوة بالذات؟!

لم تحرك ساكناً وهي ترمق الأفق أمامها بشرود هامسة:

_لا أدري...لقد قفزت إلى ذهني فجأة ...ربما لأنني... اشتقت البحر.

ورغم أنه لم يقتنع أن هذا هو السبب الحقيقي لاختيارها رفع ذقنها إليه لينظر لعينيها هامساً :

_غداً آخذكِ لنزهة نيلية...وربما قريباً نتمكن من السفر .

ابتسمت في امتنان وهي تومئ برأسها ...

ليحتضن ملامحها بعينيه هامساً بعد شرود طويل:

_هل تعلمين؟!ربما لو كنتُ تزوجت في وقتٍ مناسب لكنتُ حظيت بابنة في عمرٍ يقارب عمرك.

اتسعت ابتسامتها وهي تهز رأسها قائلةً بانطلاقها -الذي ما عادت تتعجبه- في البوح معه:

_لا أخفيك قولاً..أنا أيضاً أشعر بهذا كثيراً...لقد ربتني رحمة على خير وجه ولست أنكر هذا مطلقاً...لكنني طالما كنت أتمنى تجربة الشعور بوجود أب...ذاك السند الذي لا يتهاوى عندما نحتاجه...ذاك المزج المتجانس بين الحزم والحنان...تلك القوة التي تشعر أنها دوماً لك ولن تكون أبداً عليك...والتي هي قادرةٌ على البطش بكل من يفكر في مجرد الإساءة إليك.

أغمض عينيه بتأثر وهو يضمها إليه أكثر فدمعت عيناها وهي تردف بحرارة صادقة:

_شكراً يا "سيد "عاصي...شكراً على هذا الشعور وعلى كل شئ...لم أعد بحاجة لأن أفهم قبل أن أشكرك...فما فعلتَه لأجلي يستحق ما فوق الشكر وأكثر!!!

عادت شموسه الزيتونية لتألقها الدافئ لتشرق بنورها على بحار فضتها التي غشيتها السكينة....

وكلاهما يدرك الآن أن ما بينهما يفوق ما يتحدثان عنه بكثير...

يتجاوز شعور الأب بابنته أو الابنة بأبيها...

ربما بدأ الأمر هكذا...لكنه الآن يتعمق أكثر ليتملك القلب بسحر خاص...

سحرٍ يتملك روحيهما في كل يوم أكثر...

لكن للأسف...كلاهما يأبى الاعتراف بهذا...

خاصةً -هو- الذي كان غارقاً بشعور ماضيه القديم ...

ذبيحاً بسيف مزدوج من الذنب والغدر...

وقد أقسم على نفسه ألا يعود لطريق الحب الذي حرمه على نفسه للأبد!!!

لكنه -ومع كل هذا- لم يستطع مقاومة شعوره بالراحة جوار هذه الرقيقة الملائكية...

التي يشعر أن مجرد وجودها أمام عينيه...دواء!!!

لهذا امتدت أنامله تداعب وجنتها برفق حنون حتى وصلت لشفتيها تتحسسهما برقة صاحبت همسه الأجش:

_قولي عاصي فقط يا ماسة...ما عاد هناك مجالٌ لألقاب بيننا.

توردت وجنتاها وهي تخشى أن يستمع لدقات قلبها التي كانت تدوي في صدرها بقوة إحساسها الجارف الآن...

لكنها أرادت تجاوز الأمر فقالت ببساطة رغم قوة نبراتها:

_أوافق لكن بشرط!

ارتفع حاجباه بدهشة وهو يتفحصها بإعجاب لم تخطئه عيناها...

قبل أن يميل رأسه في تساؤل منتظراً إجابتها...

فتنهدت بحرارة ثم قالت بما يشبه الرجاء:

_أريدك أن تصارحني بكل شئ...افتح لي هذا الصندوق المغلق من الأسرار حتى أطمئن...أو على الأقل اسمح لي بمشاركتك ألامك.

رفع رأسه للسماء التي كانت الشمس قد تسيدتها الآن بوضوح ليهمس بقوة لم تخفِ وميض حزنه:

_ليس الآن...ربما يوماً ما!

وعندها تزينت شفتاها بابتسامة صادقة لتمتد أناملها بتردد فتضع كفها على صدره هامسةً بثقة:

_سأعتبر هذا وعد عاصي الرفاعي الذي لا يخلفه أبداً!

عاد ببصره إليها ليلتقط ابتسامتها الرائقة بنَهَم عاطفته...

قبل أن تنتقل عيناه لكفها الموضوع على صدره والذي احتضنه هو بكفه للحظات...

ثم أومأ لها برأسه وعيناه تحملان ألف وعد ووعد...!!

قبل أن يتملك خصرها بكفيه من جديد ليقف ويوقفها معه قائلاً بحزم حنون:

_هيا بنا لنتناول إفطارنا معاً...لم تشاركيني الطعام منذ زمن بعيد.

ابتسمت وهي تعاود السير جواره ليغادرا المكان وهي تشعر بقلبها يكاد يضج بمشاعره...

رغم أنها كانت ترفض تحجيمها في إطار معين...أو مسميً مخصوص...

لقد كانت سعيدة وكفى...

مطمئنةً وكفى...

راضيةً وكفى...

حتى ولو كان بالعقل ألف سؤال يتوق لإجابة...

تعرف أنها حتماً لن تحصل عليها الآن!!!

=============

الفصل التاسع عشر:

_الحقير!!!!

هتفت بها ماسة بحنق وهي تستمع من دعاء التي -زارتها في قصر الرفاعي-لتفاصيل ما حدث بينهما في آخر لقاء....

فهتفت دعاء بعجز:

_لقد أساء فهم ما سمعه...ظنني أتلاعب بالرجال حتى أضمن فرصة مناسبة...ورغم أنه يزعم أنه يثق بأخلاقي لكنه عاملني كالبغايا....لن تتخيلي بشاعة ما شعرت به في تلك اللحظات التي...

قطعت عبارتها وقد عجزت عن إكمالها فغامت عينا ماسة بذكرياتها -البغيضة- لتهمس بعد شرود قصير:

_بل أتخيل...وأدرك قسوة هذا الشعور.

ثم تنهدت بحرارة لتنفض عن رأسها التفكير في هذا الأمر وهي تلتفت نحو دعاء من جديد هاتفةً بانفعال:

_وماذا ستفعلين الآن؟!

تأوهت دعاء بقوة ثم أجابتها وهي مغمضة العينين في استسلام:

_سأمضي في طريقي معه للنهاية.

أجابتها ماسة بصيحة استنكار لكن دعاء حتى لم تفتح عينيها وهي تردف بنفس الاستسلام:

_هل تعلمين؟!!عندما غادرته بعدها كنت أفكر في مصارحة والدي بكل شئ...نعم...رغم أنني كنت أشفق عليه من خيبة أمله بعد كل تلك الفرحة التي نالها أخيراً بزواجي هذا...ورغم أنني كنت أعلم أنه قد لا يصدقني فحسام يبدو أمام الجميع شديد التهذيب واللياقة...لكنني كنت على استعداد للمجازفة فقط لأستعيد شعوري بذاتي...بقيمتي...بأنني أستحق الأفضل .

دمعت عينا ماسة وهي تربت على كتفها لتسألها بهمسٍ مشفق:

_وما الذي غيّر رأيك؟!

ابتسمت دعاء بسخرية مريرة وهي تجيبها ولازالت عاجزةً عن فتح عينيها:

_بينما كنت أصعد الدرج نحو بيتنا سمعت حوار جارتينا اللتين لم تنتبها لي...إحداهما كانت تحسد دعاء المريضة التي نالت زوجاً متميزاً لم تنله أيٌّ من بناتها كاملات الحسن والصحة...والثانية كانت تواسيها بقولها أن هذه الزيجة لن تستمر وأن "العريس المغفل" سيفيق لنفسه سريعاً وينفد بجلده من هذه الورطة.

انعقد حاجبا ماسة وهي تشعر بالغضب فهتفت بانفعال:

_هل ستتزوجينه فقط لأجل المظاهر؟!!لأجل كلام الناس؟!!

فتحت دعاء عينيها ببطء لتجيبها بشرود:

_ولمَ لا؟! إلى متى سأبقى أحتمل السخرية والانتقاص من قدري؟!!إلى متى سأظل "الدمية المعيبة" التي زهدها المشترون فبقيت مكانها على الرف؟!!العقل يقول أن حسام فرصتي الأخيرة.

أمسكت ماسة كتفيها تهزهما بعنف وهي تهتف بحدة:

_أيّ عقلٍ هذا؟!!هل تدركين ماذا ستكون عليه حياتكِ مع وغدٍ قاسٍ كهذا؟!!

عضت دعاء على شفتيها بقوة تكتم دموعها وهي ترد بصلابة زائفة:

_سأحتمل...لن أواجه أقسى مما تحملته طوال عمري....ومن يدري ربما ينصلح حاله معي مع الأيام!!!!

هزت ماسة رأسها وهي تهتف بغيظ فجره خوفه على هذه البائسة أمامها:

_وكرامتك ؟!!!

أطرقت دعاء برأسها وهي تهمس بمرارة:

_وأين ستكون كرامتي تلك لو طلقني حسام الآن؟!!لو كانت فرصي في الزواج قبله قليلة فبعده ستكون معدومة!!

خبطت ماسة أحد كفيها بالآخر وهي تهتف محاولةً إقناعها:

_الزواج ليس نهاية العالم...ليس جائزة "اليانصيب "التي ستفتح لك أبواب السعادة...على العكس ...هذا الرجل قادرٌ على تحويل حياتكِ لجحيم....وربما بقاؤكِ وحيدة خيرٌ لكِ من مرافقة رجلٍ مثله في طريق حياتكِ الطويل.

صمتت دعاء للحظات ثم رفعت إليها عينيها لتقول بابتسامة شاحبة:

_هل تعلمين أنني قلتُ له يوماً هذا الكلام؟!! وكنت وقتها مقتنعةً به تماماً...لكنني الآن وبعدما سمعت بأذنيّ حديث والديّ عن حملي الثقيل عليهما ...وخدشت نميمة الجيران أذني والتي لن تكون أول ولا آخر مرة...اقتنعت أنني محظوظةٌ حقاً بحسام...هو نعمة القدر التي لن أكفر بها!

همت ماسة بالاعتراض ورأسها يكاد ينفجر غيظاً عندما رن هاتف دعاء لتجدها والدة حسام...

فتحت الاتصال لتجيب المرأة الطيبة بودٍ لا تدعيه فهي حقاً تحبها بصرف النظر عن تصرفات ابنها المريضة...

ثم أنهت الاتصال معها بعد قليل لتقوم من مكانها قائلةً لماسة بابتسامة مصطنعة وقد عاد إليها قناع مرحها الواقي:

_حماتي تريدني في أمرٍ هام الآن...سأذهب لأرى ماذا تريد.

تنهدت ماسة بحرارة ثم ضمتها إليها بقوة وهي تغمغم بحزمٍ حانٍ:

_اعتني بنفسكِ يا دعاء...أنتِ لستِ منقوصة القدر بل هم منقوصو العقل والإيمان...المرض ابتلاءٌ من الله ليس لنا ذنبٌ فيه...حتى لو اخترتِ أن تكملي طريقكِ مع حسام هذا فكوني قوية....لا تجعليه يكسرك...بل رممي أنتِ شروخ روحه التي جعلت منه ذاك الصنم القاسي...أنا واثقةٌ أنكِ قادرةٌ على فعلها...فقط ثقي بنفسكِ أكثر!!

رفعت إليها دعاء رأسها بابتسامة امتنان...

ثم أومأت برأسها إيجاباً وهي تخفي دموعها خلف ابتسامتها المكسورة قبل أن تغادر غرفة ماسة التي أوصلتها للخارج...

ثم عادت تتوجه نحو غرفة عاصي فقد كان ينتظرها على الغداء كعادته...

طرقت الباب برفق تنتظر أمره بالدخول...

لكنها فوجئت به يفتحه بنفسه فابتسمت تلقائياً وهي تقول بعفويتها - المستحدثة - معه:

_يبدو أنني تأخرت.

تألقت عيناه بوهجٍ دافئ وهو يمد ذراعه ليجذبها برفقٍ من كتفها قائلاً بعتاب حنون:

_جداً!

قالها ثم أغلق الباب خلفها برفق فتقدمت لتجلس مكانها على المائدة الصغيرة في زاوية الغرفة...

قبل أن يجلس هو جوارها فالتفتت نحوه لتهمس باعتذارٍ رقيق:

_آسفة...دعاء واقعة في ورطة...الحديث بيننا طال ولم أنتبه للوقت.

انعقد حاجباه بضيق ثم سألها بحذر:

_هل يمكنني المساعدة؟!

ابتسمت بامتنان وهي تهز رأسها لتهمس بهديلها الذي داعب أذنيه :

_عفواً...أسرار شخصية ولا يمكنني البوح بها.

ازداد تألق عينيه بإعجابٍ صارخ رغم هدوء عبارته بعدها:

_غريب!! ما أعرفه أن النساء ثرثاراتٌ جداً في العادة.

اتسعت ابتسامتها التي نثرت الدرّ في أمواج فضتها لتزداد فتنة وهي تغمغم ببعض المرح:

_يمكنك إذن استثنائي من صنف النساء في هذا الشأن.

فتوهجت شموسه الزيتونية بألَقٍ دافئ وهو يقترب بجسده منها أكثر ليهمس أمام عينيها:

_ليس في هذا الشأن فقط...أنتِ دوماً بين كل النساء...استثناء!!

تجمدت ابتسامتها على شفتيها مع تلك الرعدة التي سرت في أوصالها ...

وذاك الارتباك اللذيذ الذي غزا روحها الآن....!!

فأطرقت برأسها بسرعة هاربةً من مشاعرها الغريبة التي صارت تخيفها حقاً مؤخراً...

وهي تجاهد نفسها لتفكر في شئٍ آخر بعيد عن هذا الرجل وما يثيره بداخلها من فوضى حقيقية...

فجذبت عقلها قهراً لمشكلة دعاء محاولةً البحث لها عن حل...

المسكينة واقعةٌ بين ضغط أهلها وضغط المجتمع...

تخاف العنوسة أكثر مما تخاف الظلم الذي ستلقاه على يد رجلٍ غريب كحسام...

وتقنع نفسها كما تفعل الكثيرات مثلها بأنه سيتغير مع الأيام...

وأن" المرأة العاقلة قادرةٌ على احتواء عيوب زوجها"..

تلك المقولة التي داست بين قدميها أحلام الكثيرات ممن تجاهلن نداء العقل ولهثن فقط خلف حلم الزواج الوردي وبريقه الآسر!!!

لكن ...من يدري؟!!!

ربما كان حسام حقاً معذوراً فيما فهمه....!!!

أيّ رجلٍ مكانه- خاصة في مجتمع منغلق كهذا -كان سينتفض غضباً وغيرة عندما يرى خطيبته التي هي في مقام زوجته تجالس رجلاً آخر ويعترفان لبعضهما بالحب !!!!

ربما جاءت ردة فعل حسام متطرفةً بعض الشئ...

لكن....لعلها طبيعة عمله التي جعلته أكثر ميلاً للعنف والتسلط!!!

وعند هذه الفكرة وجدت نفسها تتعجب تفكيرها بشدة...

لماذا الآن تدافع عن حسام هكذا؟!!!

ولماذا تشعر ببعض الميل لبقاء دعاء معه رغم تحفظها الشديد على قسوته ورغم أنها منذ دقائق فقط كانت تحاول إقناع دعاء نفسها بالعكس؟!!

ألأنه...يذكرها بعاصي مثلاً؟!!!

نعم...!!!

بل ...لا!!!!!

عادت الحيرة تتلقفها بين ذراعيها القاسيين وهي لا تدري حقاً...

هل يكون حسام بحنان عاصي رغم قسوة واجهته الصلبة؟!!

أم أن عاصي الرفاعي حالةٌ خاصه وحده بين الرجال...

نسيجٌ مختلف من قوة تضافرت مع حنان عجيب ليصنعا معاً ثوب أمانٍ تشتهيه أي امرأة...!!

ترنيمة سحرية من لحن صعب يشاكس روحها فلا يمكنها التغني به مع أنها تعشق سماعه!!!

هذا الذي يحدثها أنها بين النساء استثناء ولا يدري أنه هو الذي صار بعينيها كل الرجال!!!

وجوارها كان هو يتأمل ارتباكها -اللذيذ-برضا خفيّ...

وهو يكاد يستقرئ حديث روحها بشفافية تامة...

غريبةٌ هذه المرأة التي تتبدل وجوهها الساحرة ...

فتارةٌ هي طفلةٌ تائهةٌ تمد له كفها -ضعفاً-على استحياء...

وتارةً هي امرأةٌ قوية تكاد تمسك الشمس بنفس الكف!!!

نعم...هي المزيج الآسر بين القوة والضعف...

بين صلابة الصخر ورقة الندى...

هي المذاق الفريد للحُلو بعد المالح...والمالح بعد الحُلو!!!

وبهذا الشعور تناول كفها ليحتضنه بأنامله هامساً:

_طال شرودكِ يا ماسة.

رفعت إليه عينيها برسائلها الفضية الصادقة فغمغم ببعض الأسف:

_تبدين حزينة لأجل صديقتك.

تزينت شفتاها بابتسامة باهتة وهي ترد بامتنان:

_لا تشغل بالك.

تركت أنامله كفها لتعرف طريقها إلى شفتيها حيث تحسست ابتسامتها الشاحبة برقة مقاوماً شعوره الجارف بها الآن بجهاد كبير...

قبل أن يعتقل نظراتها بسجونه الزيتونية هامساً بشرود:

_لم أرَ ضحكتكِ مرة واحدة منذ التقينا!

أغمضت عينيها ببعض الألم وعبارته تهيج جروح روحها القديمة...

قبل أن تهمس برضا:

_على الأقل أنا الآن أبتسم...يوماً ما ظننتني لن أفعلها أبداً!

ثم فتحت عينيها لتعاود التعلق بشموسه الزيتونية وهي تردف بحنانها الفطري:

_أنت أيضاً...لم أركَ يوماً تضحك ...لكن ابتسامتك تغيرت...

داعبت أنامله وجنتها بحنان قبل أن تتخلل خصلات شعرها لتجذب وجهها برفق نحوه أكثر...

ثم همس بترقب:

_كيف تغيرت؟!

توردت وجنتاها بخجلها -الآسر- وهي تهمس بصدق مس قلبه:

_كانت جانبية مختنقةً بقسوة سوداء...ثم تلونت بالحنان شيئاً فشيئاً حتى صارت حقيقية كمرآة صادقة لقلبك...لكنها للأسف تصطبغ أحياناً بمرارة رمادية تجعلها بعيني أقسى من الدموع.

كان وجهه الآن يكاد يلاصق وجهها...

حتى ما عاد يفصل بينهما سوى أنفاسهما وهو يبحر بنظراته العميقة وسط أمواج فضتها التي كانت تهدر الآن بمشاعرها المضطربة...

للحظات طويلة بسط فيها الصمت سلطانه...

حتى قطعه هو بهمسه الحاني:

_تجيدين قراءة ابتسامتي...كما أجدتِ قراءة عينيّ من قبل.

ازدردت ريقها بتوتر وهي تبتعد بوجهها في ارتباك لم يخفَ عليه...

فربت على رأسها برفق ...ثم قبل جبينها هامساً بصوته الذي احتكر قوة العالم وحنانه معاً:

_ستعود ضحكتكِ تدوي قريباً في أذني كأجمل لحن...هذا وعد!!

ابتسمت وهي ترفع عينيها إليه لتهمس بترقب:

_وأنت؟!

أشاح بوجهه وهو يتنهد بحرارة ثم صمت قليلاً ليهمس بشرود:

_وهل تظنين الشياطين تضحك؟!

مدت أناملها بتردد لتدير وجهه إليها من جديد فتهولها تلك المرارة التي التهمت بريق عينيه فرأتهما باهتتين كعهده مؤخراً...

قبل أن تهمس بقوتها الرفيقة وسهامها الفضية تغزوه برقة مسيطرة:

_لست شيطاناً يا عاصي...أنت فقط تلبست قناعه لسببٍ لا أعلمه....لكن روحك تجاهد للخلاص من كل هذا...فلماذا لا تطلق سراحها وتنزع عنك هذا القناع؟!

تناول أناملها المتعلقة بوجنته ليقبل باطن كفها برقة دغدغت مشاعرها...

قبل أن يعاود التقاط رسائلها الفضية الرائقة هامساً بشرود:

_الذنب بعد الذنب قيدٌ فوق قيد...وأنا أعلم الناس بذنوبي وقيودي...فلا تسرفي بحسن ظنك فيّ ...دعي الأيام تصدر حكمها بشأني.

==============================

_كيف حالك يا ابنتي؟!

قالتها والدة حسام بطيبتها الشديدة أمام دعاء التي كانت تجلس معها في صالون بيتها ...

فردت دعاء بفتور:

_الحمد لله .

ربتت المرأة على كتفها وهي تقول برفق:

_وما هي أخبارك مع حسام؟!

أطرقت دعاء برأسها ونفسها تسول لها الكذب بأنهما بخير لكنها عجزت حتى عن الكذب...

فاكتفت بصمتها العاجز الذي قرأته المرأة بخبرتها فتنهدت بحرارة...

ثم قامت لتحضر "ألبوم" صورٍ كبير ناولته لدعاء وهي تقول بحزنٍ غلف نبرات صوتها :

_تفحصي الصور وأخبريني هل هو نفسه حسام الذي تعرفينه الآن!!

فتحت دعاء "الألبوم" بتردد لتطالعها صور كثيرة له منذ كان طفلاً صغيراً بحركات بريئة...

ومروراً بصورٍ أخرى له في مراهقته التي بدا فيها أكثر تحرراً وانطلاقاً مع أصدقائه...

لتأسر عيناها صورته بعدها في "بدلة" التخرج الأنيقة

...

لا...لم تأسرها وسامته ولا أناقته ...بل تلك النظرة الغريبة على ما اعتادته هي في عينيه الصقريتين...

نظرة رضا!!!

نعم...نظرةٌ مشعة بالسكينة والسعادة والاطمئنان...

بعيدةٌ تماماً عن نظراته الحالية المشبعة بقسوتها وسخطها!!!

ورغماً عنها شعرت بقلبها يخفق في صدرها بقوة وهذه الصورة -بالذات-تستفز حنانها نحوه...

لا...لم تعد تراه ذاك الوغد السادي المريض الذي أذاقها ويلات إهاناته ...

بل تراه شاباً عادياً تنطق ملامحه بالحيوية والأمل...

قبل أن تعاود أناملها التقليب في صوره لتستشعر بقلبها بداية التغير التدريجي...

لقد بدأ الحزن يسكن العينين الصقريتين بهيمنة مسيطرة...

حتى تملكها تماماً في الصور التالية كلها...

ليزداد يقينها هي أن وراء كل هذا سراً ما...

لكن أناملها تجمدت تماماً مع نظراتها وهي تقلب الصور لتصطدم بهذه الصورة...

صورة زفاف!!!

نعم...حسام ببدلة العرس جوار امرأة فاتنة يبدو على هيئتها عظيم الثراء!!!

شهقت بدهشة وهي ترفع عينيها نحو والدته لتهتف بعدها باستنكار:

_حسام متزوج؟!!

أومأت والدته برأسها وهي تغمغم بإشفاق ممتزج باعتذارها:

_ألم يخبركِ والدكِ؟!! لقد كان يعلم!!

ارتجف جسد دعاء بمشاعرها وهي تشعر بمزيج من الغضب والخزي...

زوجة ثانية؟!!!

والدها كان يعلم لكنه لم يخبرها بالطبع!!!

لم يخبرها أحد!!!!

ولماذا يفعلون؟!!!

الكل تعامل معها -كما العادة- على أنها دميةٌ معيبة لا يحق لها الاعتراض...

فقط عليها أن ترضى ب"كرم الشاري" الذي دفع الثمن المناسبِ وكفاها خزي "البور" على رفوف الانتظار!!!

لكن والدته قرأت مشاعر الخيبة على وجهها فأردفت بنفس النبرة المشفقة:

_لقد طلقها يا ابنتي منذ فترة.

ارتسمت ابتسامة مريرة على شفتيها وهي تفكر بيأسٍ تخلل كيانها كله...

حسناً...لا بأس...

هذا أفضل من أن تكون زوجة ثانية!!!

وحتى لو كانت زوجة ثانية...هو أفضل من أن تحمل وزر "العنوسة" الثقيل!!!

أي شئٍ صار في عينيها أهون من نظرات الاستخفاف في عيون الناس...و "همّ الخزي" في عيون والديها!!!

لهذا تمتمت بلامبالاة حقيقية وسط شرودها الغائم:

_لا يهمّ...!!!

فتنهدت المرأة بحرارة وهي تشعر بألمها الحقيقي لتقول بحنان آسف:

_أكملي تفحص الصور.

انتزعت دعاء نفسها من شرودها لتعاود تقليب الصور بفتور...

لتنتبه وقتها فقط لتحول نظراته من حزنٍ إلى قسوة...

نعم...هاتان عيناه اللتان تعرفهما بصورتهما الحالية...

بتسلطهما القاسي وبرودهما القاتل...

هل هذه هي القصة إذن؟!!

زواجٌ فاشل غيّر طباعه!!!!

والمفترض بها الآن أن تحتوي ألمه وتعيده لسابق عهده إن استطاعت...

أو تحتمل عقده النفسية المريضة إن لم تستطع!!!

حسناً..في الحالتين هي سلمت أن لا خيار لها ...

وستجلس على مقاعد الانتظار تشاهد -كما الجميع- كيف ستنتهي هذه القصة وكأنها لا تقوم فيها بدور بطولة!!!

لهذا أغلقت "الألبوم" باستسلام وهي تضعه جوارها على المنضدة...

عندما بدأت والدته في سرد الحكاية :

_كما رأيتِ بنفسك...حسام تغير كثيراً منذ تزوج تلك المرأة...بل..منذ فكر في الزواج منها من الأصل.

رفعت إليها دعاء عينيها بتساؤل وقد بدأ الاهتمام يتملكها...

عندما أردفت المرأة بشرود:

_كان يحب فتاةً قبلها من مدينتنا هنا...بسيطةً في كل شئ...توفيت والدتها ولم يكن لها سواها...فأوصاني أحدهم عليها ...أتيتُ بها إلى هنا فقد كنت أقيم وحدي في سنوات دراسة حسام ...والفتاة بحق كانت طيبة الخلق والمعدن...كانت تعاونني في شئون المنزل لكنني لم أشعر يوماً أنها مجرد خادمة...عقلها كان متفتحاً جداً رغم أنها لم تكمل تعليمها لكنها كانت تحب القراءة والكتب...وقد منحها هذا عمراً يفوق عمرها الصغير وقتها ...فتعلق بها قلبي جداً واعتبرتها ابنتي وصديقتي...لكنني لاحظت تعلق حسام بها في الأيام القليلة التي كان يأتي فيها إلى هنا ولم أشأ المجازفة

بوضع "البنزين" جوار "النار" كما يقولون...فأوجدت لها عملاً مناسباً ومكان إقامةٍ آخر في مدينة مجاورة لتبتعد عن هنا...

ثم تنهدت بحرارة قبل أن تقول بحزن:

_يشهد الله أنني بذلت ما في وسعي لحمايتها وتأدية أمانتها ...وأن ما حدث لم يكن ذنبي أنا!!

ازدردت دعاء ريقها بصعوبة وقد بدأ قلبها ينقبض بشعور القلق لتهمس بتوجس:

_وماذا حدث؟!

زفرت المرأة بقوة ثم استغفرت الله بصوت مسموع قبل أن تقول بأسف:

_حسام تغير بعدها كثيراً...وابتعد عني بعدما كان يصارحني بكل شئ..لم أفهم وقتها أنه كان واقعاً في حبها بالفعل....حتى فاجأني برغبته في الزواج من ابنة رئيسه في العمل...يومها كنت في غاية الفرح فالفتاة التي اختارها كانت مثالية...ورغم أن زواجه منها كان سيبعده عني أكثر لأنه كان سيقيم معها في مدينتها

هناك...لكنني كنت أشعر بالفخر وهذه الزيجة ترضي طموح أي أم لابنها...

عقدت دعاء حاجبيها وقد بدأت بعض الخيوط تتضح في ذهنها...

إذن...سيادة الرائد باع حبه للفتاة الفقيرة لأجل تلك "صاحبة المعالي" ابنة رئيسه في العمل...

لتومض الآن في ذهنها عبارته يوم قال لها :

_تظنين نفسكِ مقاتلة شريفة في معركة الحياة؟!!! لا يا صغيرة...ستستسلمين كما استسلم غيرك...وستبيعين وتقبضين المقابل كما الجميع.

إذن فهو يظنها الآن مثله...؟!!!

باعت حبها لأجل "الفرصة الأفضل"؟!!!

وهذا يفسر لها تصرفاته السادية المريضة!!!

هو يعاقبها هي بذنبه لأنه يرى فيها صورته هو!!!!

لكن بعض التفاصيل لازالت ناقصة!!!!

لماذا طلق تلك المرأة ؟!!!

ولماذا لم يعد لحبيبته بعدما طلقها؟!!!

ألم يكن من الأولى -لو كان حقاً شعر بالندم- أن يصحح خطأه؟!!!!

لتأتيها إجابة والدته مجيبةً على تساؤلها الصامت عندما قالت بحزنٍ كبير وبنبرات مرتعشة:

_لم أعرف وقتها أن هذه الزيجة ستكون وبالاً على الجميع...فقد انتحرت تلك الفتاة عقب زفافه ... ليبقى ذنبها في رقبته أبد الدهر.

صرخت دعاء بارتياع قبل أن تهتف بانفعال:

_انتحار؟!!إلى هذه الدرجة؟!!

دمعت عينا المرأة وهي تشعر بألم "حقيقي" في صدرها جعلها تتأوه بخفوت قبل أن تردف بأسى:

_الظلم يا ابنتي!!! الإحساس بالظلم صعب...لقد أخبرتني هذه الفتاة يوماً أن والدها رجلٌ ميسور الحال لكنه رفض الاعتراف بها...فاضطرت والدتها للهرب بها بعيداً عن هنا كي لا تواجه الناس بفضيحتها...لكن الفتاة عادت إلى هنا بعدما كبرت لعلها تتمكن من استعادة حقها..ومع الأسف كان والدها قد توفي وخشيت من بطش أهله فاضطرت للرضوخ للأمر الواقع...ويبدو أن تخلي

حسام عنها ليتزوج من فتاة ذات حسب ونسب قد هيج جرحها القديم...فاستسلمت ليأسها وانتهى الأمر.

أخفت دعاء وجهها بين كفيها وهي تشعر بالاستنزاف...

ما كل هذا الظلم؟!!!

وما الذي يدفع فتاةً كهذه لكي تخسر كل شئ؟!!!

دنياها وآخرتها؟!!!

لكنها...لم تخسر وحدها...

نعم....حسام مثلها قد خسر!!!

خسر آدميته واحترامه لنفسه....قبل أن يخسر قلبه!!!

ذنبها سيبقى لعنةً تطارده طوال عمره!!!!

لقد اختار بعقله الزوجة المناسبة...وأهمل صراخ القلب بعشق فتاة "لا تليق"!!!!!

فخسر الاثنتين معاً!!!!

وبهذه المشاعر الصارخة أزاحت أناملها عن وجهها لتسأل المرأة بصوتٍ باكٍ:

_ألهذا طلق زوجته؟!!!

تغيرت ملامح والدته لارتباكٍ شديد جعلها تصمت قليلاً...

قبل أن تضع كفها على صدرها وهي تشعر بألم صدرها يزداد بقوة حتى بدا على ملامحها لتهمس بصوتها المتقطع:

_لا...طلقها لسببٍ آخر...لكنني أفضل أن تعرفيه منه هو!!!

نظرت إليها دعاء بتفحص لتلاحظ لهاث أنفاسها التي بدأت في التسارع...

مع قطرات العرق التي نبتت على جبينها بغزارة...

فقامت من مكانها مذعورة حيث كانت تعلم أن المرأة مريضةٌ ب"القلب"...

وقد صدق حدسها عندما تأوهت والدته بقوة قبل أن تهتف بألم:

_كلمي حسام ليأتي بالطبيب بسرعة ....الألم لا يحتمل!!!

========================

صفيرٌ طويل عقبته صيحة إعجاب جعلها تلتفت نحوه مجفلةً...قبل أن تهتف بخجل ممتزج بعتبها:

_فهد!!!أفزعتني!!!

ضحك بانطلاق وهو يتأملها بنظراتٍ متفحصة حارة زادتها خجلاً...!!!

كان قد عاد للبيت الآن في غير موعده دون أن يخبرها...

ليفاجأ بها واقفةً في المطبخ ترتدي أحد أثوابها القصيرة التي تخجل من ارتدائها عندما يكون معها...

نعم...رغم كل ما كان بينهما...لازالت تشعر بالخجل منه...!!!

لكن خجلها لا يضايقه...على العكس...

بل إنه يزيدها في عينيه جاذبية مشعةً بإحساس خاص لم يعرفه إلا معها هي..!!!!

لهذا تقدم منها بنظراتٍ عاشقة ليلتقطها بين ذراعيه مشاكساً:

_هذا إذن ما ترتديه "الأستاذة" في غياب زوجها الموقر!!!!

ثم تناول كفها ليرفع ذراعها فيديرها حول نفسها قسراً مع صفيره المشاكس قبل أن يغمزها هامساً بمكر:

_من زعم أن الأحمر لون الفتنة لم يركِ ترتدين الأزرق!!

ثم احتضن خصرها بكفيه مردفاً بحرارة:

_تذهبين العقل بسحرك يا "أستاذة"!!

احمرت وجنتاها بقوة وهي تخفي وجهها في كتفه خجلاً...

فضحك ضحكة عالية قبل أن يربت على ظهرها هامساً بجدية هذه المرة:

_ حقاً يليق بكِ الأزرق...الآن أدرك لماذا تعشقينه...لأنه لون الراحة...لون السكينة...لون السحر الغامض المسيطر الذي يتملك القلوب دون استئذان...

رفعت إليه عينيها بوهج البندق الذي ازداد بريقاً بعشقها الذائب فيه....

فأردف بنبرة أكثر حرارة:

_هل تصدقينني لو أخبرتك أنك تشبهين كل شئ جميل في هذه الدنيا؟!!تشبهين زقزقة العصافير وقت الفجر...سحر الشمس عند الغروب...موج البحر عندما يسكن بعد هياج...لمعة الرمال في لهيب الشمس...تمام القمر في ليلة بلا نجوم!!!

دمعت عيناها بتأثر وهي تشعر بصدق حديثه الذي لم يكن في أذنيها مجرد كلمات...

بل قطرات مطر نقية عرفت طريقها لجديب روحها فأحيته بعد عدم...

نسمات باردة داعبت قلبها بعدما كاد يهلكه دخان ماضيه فانتعش بعد اختناق...

ثياباً ناعمة احتضنت جسدها بعد طول عُريٍ وبرد لتمنحه دفئاً لا ينقطع....!!!

لهذا ارتفعت بقدميها لتقبله على وجنته بقوة شعورها الآن ....

ثم دفعته برفق لتهتف بحزم ممتزج بدلالها :

_كفاك مغازلة يا سيد عاشق ...اذهب إلى غرفتك وبدل ملابسك حتى أعد الطعام!!

لكنه تشبث بها أكثر وهو يمطرها بقبلاته على وجهها قبل أن يهمس بما يشبه الاعتذار:

_لن أستطيع البقاء طويلاً...أنا جئت فقط لأبدل ملابسي قبل الحفل.

عقدت حاجبيها بتساؤل ...فتنحنح ليقول بحرج:

_أبي يقيم الليلة حفلاً بمناسبة تخرجي...أعرف أن النتيجة ظهرت منذ أكثر من شهر لكنه يريدها الآن خدمة لدعايته الانتخابية...الحفل سيحضره نخبة من رجال المجتمع البارزين في الاقتصاد والسياسة...وهو ما سيفيده كثيراً!

أومأت برأسها في تفهم ثم أطرقت به صامتة...

وهذا الموقف ينكأ جرحها معه ويذكرها بحقيقة وضعها في حياته...

مجرد زوجة سرية خلف حجب الظلام لا يحق لها الظهور !!

لا يحق لها مرافقته أو الاحتفال معه في مناسبة كهذه...

بل لا يحق لها حتى الحلم بهذا!!

لكنه رفع ذقنها إليه هامساً بأسف:

_أنا أعرف فيمَ تفكرين...أنا أتمنى هذا أكثر منكِ...أتمنى لو لا تفارقيني لحظة واحدة ...لو أعلنها أمام الجميع أنك زوجتي الوحيدة...لكن الظروف أقوى مني.

فأشاحت بوجهها لتغتصب ابتسامة باهتة وهي تقول باقتضاب:

_هذا ليس وقتاً مناسباً للكلام...تعال لنرى ماذا سترتدي !

قالتها وهي تنفلت من بين ذراعيه لتجذبه من كفه خلفها حتى وصلت إلى خزانة ملابسه...

ثم تظاهرت بالانشغال في محاولة اختيار "بدلة" مناسبة...

لكنه كان يشعر بألمها في هذه اللحظة...

والذي كان يشاركها مثله لكنه للأسف لم يكن لديه ما يفعله الآن سوى الصبر لعله يجد حلاً مناسباً عن قريب...!!

بينما قطعت هي أفكاره عندما ناولته "بدلة"أنيقة تليق بالمناسبة...

فالتقطها منها ليقول بلهجة حاول صبغها ببعض المرح:

_سأرتدي رابطة عنق زرقاء.

ابتسمت وهي تهز رأسها لتعاود التقليب في الخزانة حتى استخرجت له رابطة عنق زرقاء ...

تناولها منها برفق ونظراته تحمل ألف اعتذار...

لكنها وأدت نحيب قلبها كالعادة وهي تقول بحنانها المعتاد:

_ما دمت لن أحضر الحفل...فعلى الأقل دعني أساعدك في ارتداء ملابسك.

أغمض عينيه في انفعال وهو يلعن سراً هذه الظروف التي اضطرتهما لهذا الوضع...

حيث تبقى هي هنا حبيسة الظلال...بينما هي الأحق بأن تكون جواره ملكةً في النور!!!

لكنه استجاب لرغبتها حتى انتهى من ارتداء ملابسه بمساعدتها...

ثم استسلم لأناملها وهي تلف له رابطة عنقه بمهارة جعلته يسألها بدهشة:

_تجيدين هذا أيضاً؟!

رفعت إليه عينين غائمتين وهي تهمس بشرود:

_لم أكن أجيدها...لكنني تعلمتها لأجلك.

تنهد بحرارة ثم جذبها لصدره بقوة وهو يدفن وجهه بين خصلات شعرها الثرية...

هو الآن يدرك أنها تقصد -بعبارتها-أكثر بكثير من لف رابطة العنق!!!

جنة تغيرت كثيراً حقاً منذ عرفته...

واحتملت أشياء -هو أكثر من يعلم - أنها لم تكن لتحتملها لولا حبها له!!!

وهو سيبقى أسير صنيعها هذا طوال عمره....

بل سيفديها بعمره كله لو لزم الأمر!!!

لهذا قبل رأسها بعمق امتنانه قبل أن يهمس بحرارة:

_وأنا أيضاً...سأفعل أي شئٍ لأجل رضاكِ.

منحته ابتسامة شاحبة وهي تبتعد قليلاً لتحضر فرشاة شعره...

ثم بدأت في تمشيطه بنفسها ....

قبل أن تتناول زجاجة عطره لترش منها على ثيابه ببذخ....

ثم تأملته بعدها بتفحص وهي تحتضن كتفيه بكفيها هامسةً بإعجاب غلفه حنانها:

_هكذا ستكون بحق نجم الليلة!

انعقد حاجباه بضيق وهو يشعر أنها تتكلف كل هذا كي تداري إحساس مرارتها...

فزفر بقوة ثم هتف بانفعال:

_جنة...أنا...

وضعت أناملها على شفتيها تقاطع حديثه وقد فهمت كلام عينيه ...

ثم همست وهي تتأمله بعاطفتها المشتعلة:

_مبارك يا حبيبي...أنا فخورة بك حقاً!

نزع أناملها من على شفتيه ليقبلها برقة قبل أن يهمس بضيق مكتوم:

_ليس بعد يا جنة...يوماً ما ستكونين حقاً فخورةً بي.

أغمضت عينيها تداري عنه لوعتهما فقبلهما بقوة عاطفته...

قبل أن يردف بثقة:

_وأعدكِ أن يكون قريباً!!

=====================

دخلت حديقة قصر جاسم الصاوي حيث أقيم الحفل الكبير بمناسبة تخرج ابنه الوحيد...

والذي يعده ليكون خليفته في امبراطوريته العظيمة...

تباطأت مشيتها بغنج مثير وثوبها الأحمر يتآمر مع فتنتها الطبيعية على عيون رجال الحفل...

وشعرها الأصفر المتموج ينافس عينيها الذهبيتين في بريقهما الأخاذ...

ليرسم مع وجهها المرسوم بإتقان صورة صارخة بالإغراء لم تخذلها نظرات الحضور!!!

لكنها لم تكن تكترث إلا به هو...

هو نجم الحفل...من يعنيها...

نعم...فهد الصاوي ...ومن سواه؟!!

رفعت ذقنها بكبريائها المعهود عندما تقدم نحوها جاسم الصاوي مرحباً بحفاوة :

_أهلاً يسرا...أين السيد رفعت؟!! لماذا لم يشرفنا بالحضور؟!!

ابتسمت يسرا وهي تمد له يدها مصافحةً لترد بغرور:

_أبي مشغول...أنت تعلم أنه يستعد لصلاحيات منصبه الجديد.

ضحك جاسم ضحكة بادية الافتعال وهو يقول مجاملاً:

_كان الله في عونه !!

اتسعت ابتسامتها المتعالية وهي تدور بعينيها في الحضور منتشيةً بنظراتهم المخترقة لجسدها لتقول بتكلف :

_مباركٌ نجاح فهد...ولو أن ابن جاسم الصاوي لم يكن محتاجاً لشهادة!

عاد جاسم يضحك وهو يسير معها ليصطحبها نحو فهد الذي كان واقفاً وحده بمعزل عن الجميع في أحد أركان الحديقة...

عندما التفت فهد نحوهما لتتغير ملامحه الجامدة عندما لمحها لضيقٍ خفيّ...

قبل أن يصافحها بفتور مغمغماً :

_أهلاً يسرا...شرفتِ الحفل.

ابتسمت يسرا بغنج وهي تهز رأسها بحركة بدت عفوية ليتناثر شعرها على كتفه قبل أن تقول بدلال:

_مباركٌ نجاحك...لا تجعل عمي يتهاون في هديتك.

ابتعد فهد بنفور واضح عنها ثم اغتصب ابتسامة سخيفة على شفتيه بينما ضحك والده قائلاً:

_مادمتِ توسطتِ له...فله ما يريد !

ضحكت هي بدلال مثير وهي ترمق فهد بنظرات جريئة متفحصة بينما أشاح هو بوجهه وهو يكاد يختنق من ثقل الحوار...!!!

حتى انسحبت هي بلباقة لتتلحق بإحدى صديقاتها...

فانسحب جاسم بدوره ليرحب ببقية الضيوف...

بينما بقي فهد وحده متطلعاً للسماء بشرود...

وبصره معلقٌ بالنجوم كعهده مؤخراً ليبتسم بحنين وهو يتذكر جنة...

فتحسس رابطة عنقه الزرقاء بحنان شغوف وهو يتخيلها مكانها على صدره!!!

كل هذا الحفل بحضوره لا يثير انتباهه...

بل كل الوجود لا يعنيه مادامت هي ليست معه!!

هي أول ناسه وآخرهم...

هي ملكته وقصره وشعبه...

وتاج شرف الحب على رأسه!!

لهذا تنهد بحرارة قبل أن يتناول هاتفه وهو ينظر حوله بترقب ليتصل بها...

وما إن سمع صوتها حتى همس بحرارة:

_جنة...لا تعلمين كم افتقدتك.

لم يصله ردها للحظات فأدرك أنها عاجزةٌ عن الكلام مختنقةٌ بمشاعرها الآن....

وهو أيضاً مثلها...

لو كان الأمر بيده لأعلنها أمام الجميع الليلة زوجته وحبيبته...

لكنه مثلها مقيدٌ بخوفه عليها...

لو علم جاسم الصاوي عما بينهما فلن يعتبر جنة مجرد زوجة سرية أو حتى خطأ يمكن إصلاحه...

بل سيراها عدواً يريد هدم هذا البناء الذي أفنى فيه عمره...

وجاسم الصاوي ليس متسامحاً مع أعدائه...

بل ليس متسامحاً على الإطلاق!!!

ولما طال صمتها على الهاتف دون رد...عاد يهمس برجاء:

_قولي أي شئ...لا تسكتي هكذا!!

سمع تنهيدتها الحارة على الجانب الآخر من الاتصال تلاها همسها المختنق:

_أنا بخير يا فهد...عد لضيوفك.

زفر بقوة وهو ينهي الاتصال بعنف...

ثم غرس أنامله في شعره وهو يرفع رأسه للسماء من جديد محاولاً الصبر حتى نهاية الحفل...

لكنه لم يحتمل البقاء أكثر فاستجاب لجنونه مغادراً الحفل خلسةً غافلاً عن عينيها اللتين كانتا تراقبانه بتفحص حتى سمعت همس صديقتها المحذر في أذنها:

_لا تتماديْ في النظر إليه يا يسرا...العيون الآن كلها عليكِ.

التفتت نحو صديقتها وهي تقول بغرور:

_وما الجديد؟!!العيون دوماً عليّ!!

هزت صديقتها رأسها وهي تسألها بحذر:

_ماذا يدور برأسك نحو فهد الصاوي؟!

تألقت عينا يسرا ببريق عابث ثم عضت على شفتها وهي تقول بجرأة:

_يعجبني!

كتفت صديقتها ساعديها وهي تضحك بميوعة قبل أن تعاود سؤالها بخبث:

_وماذا بعد؟!

عادت يسرا برأسها إلى الوراء مداعبةً رقبتها بأناملها في حركة مغوية وعيناها تشتعلان ببريق خاطف...

قبل أن تهمس بحسم:

_سيكون لي!!

اقتربت منها صديقتها وهي تقول بلهجة تحذير:

_هو يصغركِ سناً...كما أنه لم يسبق له الزواج ...بينما أنتِ...

تنمرت ملامحها بقسوة متملكة وهي تقاطعها بحزم مشبع بالغرور:

_كلامكِ صحيح لو كنت أنامرأة عادية...

ثم رفعت رأسها لتدير عينيها في الوجوه المحيطة المحدقة بها بإعجاب لتردف بلهجة أكثر غروراً:

_لكنني أنا يسرا الصباحي ....وكَفَى!!!

==========

_جنة!

هتف بها فهد وهو يفتح باب شقتهما ليجدها متكومةً على الأريكة تحتضن ركبتيها بذراعيها...

فاندفع نحوها ليجذبها بين ذراعيه وهو يشعر بألمها المكتوم فهمس بحرارة:

_أنا آسف..آسفٌ حقاً...أنتِ تعلمين أن كل هذا ليس بيدي.

أخفت وجهها في صدره للحظات تخفي عنه دموع عينيها...

قبل أن تهمس بضعف:

_لا بأس يا حبيبي...أنا بخير.

رفع ذقنها إليه ليلتقط نظراتها بلهفة وهو يهمس بحنان:

_أنا تركت الحفل كله لأجلك.

ابتسمت بشحوب مع دموعها التي ملأت عينيها وهي تهمس بخفوت :

_وأنا تركت عالمي كله لأجلك!!

أغمض عينيه بتأثر وهو يضمها إليه أكثر حتى كاد يعتصرها بين ذراعيه...

ليهمس بتردد:

_ماذا بكِ يا جنة؟!!لم تكوني هكذا عندما تركتك!!!

تعلقت بعنقه لتتشبث به أكثر وهي تهمس بأسى:

_شقيقتي اتصلت بي منذ قليل...بعد كل هذه القطيعة اتصلت فقط لتخبرني أنها في طريقها للهجرة إلى كندا مع شقيقتي الأخرى بعد أيام.

ربت على ظهرها برفق وهو يسألها بإشفاق:

_هل اتصلت تريد وداعك قبل سفرها؟!!

رفعت عينيها إليه صامتةً للحظات...ثم ضغطت شفتيها قبل أن تهمس بتهكم مرير:

_كنت أظن هكذا مثلك...لكنها فقط تريد موافقتي على بيع حصتي من قطعة أرض نمتلكها لتضمن سرعة التنفيذ.

قالتها ثم انهارت مقاومتها فجأة ليرتجف جسدها بالبكاء بين ذراعيه وهي تهمس بصوت مرتعش:

_الآن لم يعد لي أحدٌ بحق...لقد صرتُ وحيدة تماماً !!

ظل يربت على ظهرها برفق للحظات وقلبه يشاطرها حزنها ...

ثم احتضن وجهها بين كفيه ليمسح دموعها بأنامله هامساً بحرارة:

_لا تقوليها هكذا...بل قولي أنكِ صرتِ لي وحدي كما أنا لكِ لوحدك!

نظرت إليه وعيناها تحملان رجاءً خفياً أجابته نظراته بقَسَم وفاءٍ غير منطوق...

فأومأت برأسها في موافقة ليقبل هو جبينها هامساً أمام عينيها:

_الآن أدرك كم نحن متشابهان...كلانا وحيد ناقص...لا يكتمل إلا بالآخر!!

أغمضت عينيها بقوة ثم همست بألم:

_آه لو تعلم!! حبك وجعي وشفائي...خطيئتي وثوابي.

تنهد بحرارة وهو يضمها إليه من جديد هامساً بعتاب:

_لازلتِ تشعرين أنكِ نادمة؟!

مرغت وجهها في صدره للحظات تستمد منه شعوراً لم تعد تدري هو كمالٌ أم انتقاص!!

لترفع وجهها إليه بعد صمت طويل هامسة بصوت مرتعش:

_بل...سارقة!!

انعقد حاجباه في تساؤل فيما أردفت هي بحسرة:

_نعم...سارقة...أنا أشعر أن كل لحظة سعادة أقضيها معك مسروقة...ليست من حقي...أنا التي لم تخف الثورة على الطغيان في وضح الشمس أجدني الآن هاربة مستترة في الظلام؟!!أنا التي لم أتخاذل يوماً عن جلب حقٍ لصاحبه أعجز الآن عن انتزاع حق نفسي؟!!

زفر بقوة ثم ربت بعدها على ظهرها وهو لا يجد ما يسعفه من كلمات....

قبل أن يوخزه همسها المذبوح قهراً:

_الأيام تمر ولا شئ يتغير...لم أعد أحتمل هذا الوضع يا فهد!!!

أغمض عينيه بانفعال وهو يرفع رأسه لأعلى قبل أن يعاود التعلق ببندقيتيه الكسيرتين يبثهما شعوره الصادق...

من قال أنه لا يعاني مثلها؟!!!

كل يوم يمر له معها يزيده بها تعلقاً...وعليها خوفاً..!!!

كل ثانية يقضيها في رحاب أنفاسها تجعله يندم على ما ضاع من أيامه قبلها!!!

هو يعلم أن طريقهما لا يزال طويلاً...وهو مستعد فيه لأي تضحية إلا أن يفقدها هي!!!

لهذا احتضن وجنتيها بكفيه هامساً بعتاب ممتزج برجائه:

_أنتِ قلتِ أنكِ ستدافعين عن حقك فيّ بكل قوتك!!!

هزت رأسها وهي تغمغم بيأس:

_قوتي؟!! أين هي قوتي هذه؟!!

جذبها برفق ليجلس على الأريكة ويجلسها في حضنه هامساً بحرارة:

_قوة كلينا في حضن صاحبه...أعدك أن أبذل كل ما في وسعي لتغيير هذا الوضع...أبي يفكر في توسيع نشاطه بالخارج...لو تمكنت من إقناعه بأن أسافر فستكون هذه فرصتنا لنبدأ حياة جديدة بعيداً عن هنا...ساعتها سنكون أكثر حرية بعيداً عن عيونه ونفوذه.

هزت رأسها في عدم اقتناع لكنها لم تدرِ بماذا ترد...

طريقها مع فهد صار مسدوداً تماماً...

ربما لو لم تكن علمت بأمر -أخته المفقودة- لرأت بعض الأمل في مصارحة جاسم الصاوي بعلاقتهما...

لكنها وبعد ما عرفته أدركت أن هذا الرجل لا يعاني فساداً أخلاقياً فحسب...

بل عطباً دائماً بقلبه!!!

نعم...فهد لم يكن مبالغاً في خوفه -المرضي-عليها من والده...

ذاك رجلٌ رمى ابنته الرضيعة في العراء دون أن يرمش له جفن...لأن وجودها كان يهدد طموحه!!!!

فماذا عساه سيفعل بها هي لو علم عن زواجها بابنه الوحيد؟!!!

خائفة؟!!!

نعم...للأسف!!!

هي التي لم تكن يوماً تخاف بدعوى أنها امرأةٌ لم يعد لديها ما تخسره...

الآن عاد الخوف يسكنها كشبح استباح حرمة بيت مهجور...!!!!

وكيف لا؟!!!

والآن هي لديها ما ستبكي دماً لو خسرته...

لديها حبٌ بحجم الكون...

وآمالٌ بعمق البحر...

وأحلامٌ بسعة السماء!!!

لهذا رفعت إليه عينيها بمزيج من الخوف والرجاء هامسة بصوت مرتعش:

_خائفة يا فهد...خائفة جداً!!

ضمها إليه أكثر وشفتاه تنسابان على وجهها بشغف حنون...

لتزرع قبلاته الأمان على بشرتها أينما حلت...

قبل أن يصلها همسه الصادق:

_لا تفكري في شئ الآن...فقط...احلمي...

رمقته بنظرة طويلة غلبت حيرتها عشقها ...فلامس شفتيها بشفتيه بخفة قبل أن يردف بحنان:

_احلمي حتى تجعلي لحياتي أنا قيمة...نعم...أنا لن أعيش بعد الآن إلا كي أحقق لك أحلامك!!

هنا...

ولدت ابتسامةٌ ضعيفة على شفتيها دللها هو بطريقته للحظات...

قبل أن تسند رأسها على صدره لتهمس بشرود:

_أحلم بطفلة لي منك !!

داعبت أنامله شعرها وهو يهمس بدفء:

_نسميها "ملك" حتى تليق بجنتي!!

فابتسمت برقة وهي ترد:

_نعم...وتكون حنونةً مثلك!!

أسند ذقنه على رأسها المستند على صدره وهو يهمس بهيام:

_وتأخذ منكِ وهج البندق في عينيها حتى تهيم بها كل العيون!!

فرفعت رأسها إليه لترد بعاطفتها الحارة:

_بل تشبهكَ كثيراً حتى تؤنسني في غيابكِ وأرى صورتك على وجهها فأشبعها تدليلاً حتى تعود فتكمل أنت المهمة.

ضحك ضحكة قصيرة ثم تلاعبت أنامله بحمالة ثوبها الأزرق وهو يكمل همسه الحالم:

_وتعشق الأزرق مثلك فتنتقي به كل ثيابها.

تأوهت بخفوت وهي تكاد ترى صورة طفلتها منه الآن بعين خيالها لتهمس بنفس النبرة الهائمة:

_نعم...وأصمم لها ثياباً تشبه ثيابي تماماً حتى تبدو وكأنها نسختي المصغرة.

تألقت عيناه ببريق عاطفته وهو يتمنى بحق لو يحقق لها هذا الحلم...

لو تمنحه الأقدار صورة من جنته يشبعها حباً وتدليلاً...

لو يمتلئ عالمه الذي طالما عانى وحدته ووحشته بأطياف الحب!!

لهذا ربت على وجنتها برفق ثم همس بحنان:

_وأنا ألتقط لكما الصور ...كل يوم صورة...حتى تكبر هي فيكون لديها ألبوم صور بعدد أيام حياتها...سنحتفظ دوماً بذكرياتنا في الصور حتى تكون كنز عمرنا فيما بعد.

كان الحوار ينساب بين شفتيهما رقراقاً وقد بدا الأمر وكأن روحيهما قد امتزجتا ليتحد الخيال وينفرد الحلم...!!!

كل منهما كان يرى الآن بنفس العين...

يسمع بنفس الأذن...

وكأن دقات قلب كل منهما تنبض في صدر الآخر!!!

وكأنهما روحٌ واحدة كتب عليها القدر أن تنفصل في جسدين...

والآن عاد كل شقٍّ للآخر فالتأم شرخ الروح واكتملت الصورة!!!

لهذا ظللهما صمتٌ صاخبٌ بالمشاعر للحظات...

وكلاهما يتشبث بالآخر تشبثه بالحياة نفسها...!!

حتى كانت هي أول من قطعه عندما امتدت أناملها برفق تتحسس ندبة ذقنه التي تسببت بها هي يوماً...

لتهمس ببعض الخجل:

_لماذا لم تعالجها بعد؟!الأمر يبدو بسيطاً!!

تألقت نجوم عينيه بليلها الساحر كعادته وهو يتناول أناملها ليقبلها برقة هامساً:

_لا أريد أن أمحو أي شيءٍ يذكرني بكِ.

التمعت عيناها بتأثر ثم ابتسمت لتهمس ببعض المكر:

_لكنها تشوه وسامة ابن الصاوي ساحر النساء!!

فاقترب بوجهه منها أكثر ليهمس بصدق:

_ومالي أنا وابن الصاوي ووسامته؟!أنا فهد الذي لا تهمه سوى صورته في عينيكِ أنت!!

أغمضت عينيها وهي تشعر بهمسه الصادق يتخلل روحها برفق...

ليذيب هواجسها رويداً رويداً...

فألصقت جبينها بجبينه وهي تضع كفها على صدره هامسةً برجاء:

_أريدك أن تعدني ألا تعود لطريقك القديم...حتى لو لم أكن معك...فهد لم يتغير لأجلي بل لأجل نفسه...أنا لست ماستك...ماستك الحقيقية هنا...في قلبك...ماستك هي ضميرك الذي عاد يلتمع الآن ببريقه فلا تجعلها تبهت أبداً!!

شعر بغصة في حلقه وكلامها يوخز قلبه وقد بدا وكأنه وصية وداع....!!!

فابتعد بوجهه عنها ليهمس بقلق:

_لماذا تقولين هذا الآن؟!

أطرقت برأسها دون رد...

فجذب رأسها لصدره بقوة هاتفاً :

_دوماً سنكون معاً!!!لا تفكري بشئ سوى هذا!!

استسلمت لدفء ذراعيه للحظات لعله يدحض صقيع خوفها...

ثم رفعت إليه رأسها لتسأله وقد تذكرت :

_هل هناك جديدٌ بشأن أختك؟!!

هز رأسه نفياً وهو يقول بأسف:

_ليس بعد...لكنني أعرف حسام جيداً...رغم أنه ليس معنا في نفس المدينة لكنه طالما وضع الأمر في رأسه فلن يهدأ حتى يجد ذاك الرجل!!!

أومأت برأسها في استحسان وهي تبتعد عنه لتبتسم قائلةً بحنان:

_هل تناولت عشاءك بالحفل؟!

قرص وجنتها برفق وهو يقوم واقفاً قبل أن يجذبها لتقف معه قائلاً بعتاب :

_أنتِ تعلمين أنني لم أعد أتناول عشائي إلا معك.

ضحكت أخيراً بسعادة صادقة وهي تتأبط ذراعه لتصطحبه نحو المطبخ قائلة بمرح:

_بدل ملابسك أولاً حتى لا تتسخ بدلتك الأنيقة.

ضحك بدوره وهو يقبل وجنتها بخفة قائلاً :

_البدلة وصاحبها فداكِ !

ثم أردف بخبث وهو يلتقط نظراتها المغرمة:

_لكنني أريد تعويضاً...أنا تركت حفلاً وأريد حفلاً مثله!!

وقفت مكانها لتضحك بدورها قبل أن تضع كفها علي خصرها هاتفةً باستنكار:

_مثله؟!!!لا أبداً...بل أفضل بكثير...!!!!

ثم تشبثت بقميصه بقبضتيها لتردف بدلال:

_أنت لا تعرف جنة عندما تقرر أن تدلل حبيبها!!

توهجت ملامحه بشموس عشقه وعيناه تدوران على ملامحها بشغف مجنون...

قبل أن يضمها إليه أكثر هامساً جوار أذنها بحرارة:

_بل أعرفها...تلك الساحرة التي أسرتني وأسرتها!!

انتهت كلماته بإعصار عاطفته الذي غابا في دوامته كالمعتاد...

قبل أن ينقطع سحر هذه الدقائق برنين جرس الباب...

فانتفضت بين ذراعيه وهي تهمس بقلق:

_من الذي سيطرق الباب الآن؟!!

تمالك أنفاسه اللاهثة بصعوبة وهو يعدل ملابسه ليقول لها بتوتر:

_ابقي أنتِ هنا...لعله البواب يريد شيئاً!!

قالها وهو يغادر المطبخ ليتوجه بخطوات وجلة نحو الباب فيفتحه...

قبل أن تتسع عيناه بارتياع وهو يهمس بصدمة:

_أبي!!

======

_سلمت يداكِ يا بنتي!

قالتها عفاف بحنان فوضعت رؤى الصينية أمامها على المائدة وهي تغمغم برقة:

_ليتها تعجبك!

ابتسمت عفاف وهي تتناول فنجانها لترتشف منه رشفة قبل أن تقول بابتسامة صافية:

_جميلة مثلك...أرضاكِ الله يا ابنتي.

ابتسمت رؤى بسعادة وهي تجلس جوارها على الأريكة ...

منذ عادت مع راغب للإقامة هنا في بيت والدته وقد تغيرت معاملة عفاف لها تماماً....

فقد صارت أكثر حنواً وعطفاً معها ...

ربما لأنها أدركت أنها ظلمتها بتحريضٍ من هيام...

وربما لأنها كانت تخشى أن يتركهم راغب من جديد لو شعر أنها غير راضية هنا...

وربما لأنها كانت تحمد لها عودتها هنا بعد كل ما كانت تلاقيه وهو ما جعل عفاف تدرك بحق أنها فتاة طيبة القلب...

وربما هو كل هذا...!!!

هيام أيضاً تحسنت معاملتها لرؤى كذلك...

ليس فقط لأن رؤى اكتسبت بعض القوة لمواجهتها بصمود بعد دعم راغب لها...

لكن لأن عزة شقيقة هيام -والتي كانت ترغب في تزويجها له- قد تمت خطبتها بالفعل لأحد شباب الحي الأثرياء ولم يعد هناك ما يدعو للعداوة...

باستثناء بعض المشاكل الطفيفة التي تنتج كالعادة بفعل الغيرة...

لكن رؤى كانت تتجاوز الأمور بمزيج من الشدة واللين كما علمها راغب...

فتحسنت أمورها هنا كثيراً وصارت تشعر أنه حقاً صار بيتها وأن لها مكانتها فيه...

قطعت عفاف شرودها وهي تضع فنجانها جوارها لتضمها لصدرها قائلةً بحنان:

_لماذا أنتِ شاردة يا ابنتي؟!! هل هناك ما يضايقك؟!

رفعت إليها رؤى عينيها بوداعتها المعتادة وهي تغمغم برضا:

_أبداً يا عمتي...الحمد لله.

قبلت عفاف وجنتها بحب ثم أبعدتها برفق لتخلع عن عنقها تلك القلادة الذهبية الضخمة ...

ثم ألبستها لرؤى تحت نظرات - الأخيرة - المندهشة وهي تقول بود:

_لو دققتِ النظر ستلاحظين أن هيام ترتدي مثلها تماماً...نعم...كنت أمتلك منها اثنتين اشتراهما لي والد راغب رحمه الله منذ سنوات طويلة.....أهديت هيام واحدة وادخرت الأخرى لزوجة راغب ...لكن لم تسنح الفرصة لأعطيها لكِ من قبل.

ابتسمت رؤى في امتنان ثم قبلت جبينها بحنان...

فغمغمت عفاف بشرود:

_هذه القلادة بالذات لم أخلعها من عنقي منذ زمن طويل ولها ذكرياتها الغالية عندي...لهذا ادخرتها لزوجة راغب بالذات...لا أخفيكِ قولاً...راغب هو أحبُّ ولديّ لقلبي.

اتسعت ابتسامة رؤى وهي تقول بصدق:

_هو أيضاً طالما يخبرني أنكِ أعز الناس عنده ...بارك الله لكِ فيه يا عمتي...ونعم الابن!

ربتت عفاف على كفها وهي تقول ببعض الندم:

_لا تؤاخذيني يا ابنتي على ما كان من قبل...كنت فقط...

لكن رؤى قاطعتها وهي تقول بتسامحها المعهود:

_لقد نسيتُ ما كان كله يا عمتي...أدام الله علينا رضاكِ.

تأملتها عفاف بتفحص للحظات ثم قالت بحنان:

_إذن ناديني "أمي"...كم تمنيتُ من الله ابنةً جميلةً مثلك.

ضحكت رؤى ضحكة صافية ثم أمسكت كف عفاف تقبله باحترام قبل أن تقول بطيبتها الفطرية:

_حسناً يا أمي.

ضمتها عفاف لصدرها بقوة حانية وهي تضحك بدورها....

عندما دخل راغب في هذه اللحظة ليرتجف قلبه بشعوره وهو يراها هكذا في حضن والدته...

وإعصارٌ كاسحٌ من مشاعره يضرب صدره بقوة...!!!

عيناه متشبثتان بملامحها التي كساها الرضا واحتضنتها الطمأنينة مؤخراً فما عادت ذابلةً شاحبة بل عادت لتوردها وجمالها القديم...

وشفتاه مطبقتان على ارتعاشتهما التي تحكم فيها بصعوبة وهو يتمنى لو تكون الآن بين ذراعيه هو...

وأنامله مضمومةٌ بقوة جوار جسده يخاف أن يبسطها فتخونه لتسبقه إليها فتضمها إليه شارحةً ما عجز عنه لسانه...

وأذنه صماء عن كل ما حوله سوى عن دقات قلبه الهادرة الآن باشتياق ما عاد يقوى على تحمله...

عذابٌ...عذاب...!!!!

نعم...هواها كأس عذابٍ يرتشفه صاغراً قطرة...قطرة..

لحنٌ مشبعٌ بالألم تعزفه روحه -قسراً- دون توقف...

تعويذةٌ سحرِ عشقٍ أسود تُليت على أعتاب قلبه فتملكته بوعْدٍ....ووعيد...!!!!!

_راغب!!لماذا تقف هكذا؟!!

كانت هذه والدته التي انتبهت إليه أخيراً فتقدم نحوهما ببطء متجاوزاً مشاعره كعادته...

ليقبل جبين والدته باحترام...قبل أن يلتفت نحو -معذبته البريئة- قائلاً باقتضاب :

_مساء الخير...كيف حالكما؟!

ابتسمت رؤى بسعادة حقيقية وهي تشعر أن مجرد وجوده يكمل هذه الصورة الرائعة...

هذا هو البيت الذي تمنت دوماً العيش فيه...

بيتٌ بسيط بأمٍ حانية...ورجلٍ حقيقي هو الأب والأخ والصديق...

حتى وإن كانت خطيئتها القديمة قد حرمته عليها كزوج!!!

لكنها راضية...

نعم...

هذا رجلٌ يكفيها منه القليل...والقليل منه عظيمٌ لو يدري!!!

هذا رجلٌ تحتاج مثله أي امرأة كي تضفي على حياتها نكهة الأمان...

هذا رجلٌ عرف من أين تبدأ الرجولة...وأين تنتهي...

ب"الاحتواء"!!

لهذا تطلعت إليه بمزيج مشاعرها هذا لتهمس برقة:

_الحمد لله...كيف حالك أنت؟!

انتزع نظراته منها بصعوبة ليناول والدته الكيس الذي كان يحمله قائلاً بحنانه الفريد:

_كل عام وأنتِ بخير يا "ست الكل"...غداً عيد ميلادك.

ابتسمت عفاف وهي تربت على كتفه هاتفةً :

_لا تنساني أبداً يا راغب!!

قالتها ثم انساب لسانها بالدعوات الصادقة له...

فأحنى رأسه ببعض الخجل لترمقه رؤى بنظراتٍ عجيبة وقلبها يخفق بين جنباتها بقوة...

كيف يمكنه أن يكون هكذا؟!!

من يراه الآن ورأسه منكسٌ مع احمرار أذنيه خجلاً أمام ثناء والدته ...

لا يصدق أنه هو نفسه الذي كانت ترتعد أوصالها هي رعباً من قوته !!!!

كيف استطاع هكذا احتواء كل هذه التناقضات؟!!!

حنانه وقوته...عطاؤه ومنعه...رقته وبطشه...

حقاً...لقد جمع وحده كل الصفات!!!

لكن والدته قطعت عليها شرودها الحالم به عندما قالت له بحنان:

_إياك أن تكون قد نسيت هدية رؤى!!

تنحنحت رؤى في حرج وهي تقول بارتباك:

_هدية لي أنا؟! لماذا؟!!

أشاح راغب بوجهه بينما التفتت نحوها عفاف لتقول مفسرة:

_والد راغب رحمه الله عودني على هذا كلما كان يحضر هدية لوالدته رحمها الله كان يحضر لي مثلها....وفهمي شقيق راغب أيضاً يحافظ على هذه العادة.

رمقتها رؤى بنظرة إعجاب واضحة وهي تستشعر غرابة الموقف...

حماتها لا تريد أن تغار منها زوجة ابنها لو خصها هي بهدية !!!!

ونعم النساء!!!

لكن عفاف ربتت على كتفها لتقول بحزم حانٍ:

_هيا يا ابنتي...اصعدي مع زوجكِ فلا ريب أنه جائع ومتعَب!!

أومأت برأسها وهي تقوم لتغادر معه شقة والدته صاعدين نحو شقتهما...

وبعدها بقليل كانت تجاوره على مائدة الطعام ...

حيث ابتدرها هو بقوله الحاني رغم خشونة لهجته:

_ستأكلين معي حتى لو كنتِ تناولتِ طعامك من قبل.

ابتسمت برقة وهي تومئ برأسها في طاعة...

ليشرعا معاً في تناول طعامهما صامتين لدقائق...

قبل أن يختلس نظرة لعينيها...

فعاد يستسلم لأسرها -الأزليّ- للحظات...

وعيناه تسعيان لريّ ظمأ اشتياقه الملهوف لها بطواف سريعٍ على ملامحها بهيامٍ لم يتعمده...

حتي تجمدتا على تلك القلادة التي استقرت على جيدها...

فانعقد حاجباه فجأة قبل أن يشير بإصبعه عليها هاتفاً بضيق:

_من أعطاكِ هذه؟!

شعرت بذبذبات التوتر التي ملأت الهواء بينهما فجأة وهي ترى الغضب المتنامي في نظراته...

غضب وازاه خوفٌ اكتسح عينيها وهي تهمس بوداعتها المعهودة:

_والدتك منحتها لي...قالت..أنها كانت تدخرها لمن ستكون زوجتك!

زفر بقوة وهو يشيح بوجهه وقد عجز عن الرد...

هذه القلادة لم تخلعها والدته من عنقها منذ سنوات...

وطالما أخبرته أنها تدخرها لعروسه هو بالذات...

وبعدما تعلق قلبه برؤى منذ أول لقاءٍ له بها كان يرى صورتها دوماً على هذه القلادة ...

وكم حلم باليوم الذي سيراها فيها على جيدها في بيته...

في غرفته...في فراشه...وعلى صدره...

لكنه كان قد تناسى هذا الحلم مع ما تناساه من أحلام..

فلماذا يذكرونه به الآن..؟!!!

لماذا يصرون على نبش هذا القبر الذي يحاول دفن حبه فيه حياً...

وقد يأس من أن يموت!!!

وجواره كانت هي تتأمل ملامحه بخوف ممتزج بالخزي...وقد أساءت فهم سبب غضبه...

فخلعت القلادة برفق لتضعها أمامه قبل أن تهمس باعتذارٍ ذبحه برقته وحزنه:

_أنا آسفة...أعرف أنني لا أستحقها....لكنني لم أستطع رفضها من والدتك.

لكنه لم يعرف بماذا يجيبها الآن فظل مشيحاً بوجهه للحظاتٍ أخرى أذابتها ترقباً...

فأردفت وهي تظن أنها بحديثها تواسيه:

_أرجوك لا تحزن...يوماً ما ستجد من هي أفضل مني لترتديها...أنا أثق بعدالة القدر وما فعلته أنت معي لن يكون له إلا خير جزاء...أنا..

_اسكتي!!

هتف بها بحرقة مقاطعاً عبارتها ثم أعقبها بزفرة حارة...

فدمعت عيناها بتأثر وهي تشعر لأول مرة كم ظلمته ولازالت تظلمه...

هو رجلٌ كان يسعى للزواج كي يستقر ويبني أسرة...

لتورطه هي في علاقة -بلا مسمى- ودون أي ذنب منه سوى عظيم أخلاقه!!!

نعم...أخلاقه التي منعته من فضيحتها بل ودفعته بعدها لاحتوائها بحنان لم تعرفه من قبل ...

أخلاقه التي تجعله يعاملها كابنته المدللة ...

والتي تعلم أنها هي نفسها التي تقف بينه وبين قبولها كزوجة!!!

نعم...طباعه الأصيلة ك"ابن بلد" حقيقي سيفٌ ذو نصلين...

أحدهما أحياها...والثاني قد يقتلها!!!

وهي ستتقبل منه أي شئ فهي لا خيار لها معه...

لا خيار!!!

وهي لا تملك الآن إلا أن تطرق برأسها صامتةً تنتظر أمره التالي...

لهذا تجمدت مكانها وهي تشعر به يعاود وقوفه جوارها قبل أن يلتقط القلادة ليلبسها لها بنفسه هذه المرة!!!

رفعت عينيها إليه بدهشة غارقة في حيرتها!!!

فأغمض عينيه يداري عنها شعوره وهو يقول بخشونة:

_أمي ستغضب لو علمت أنكِ خلعتِها...وربما تسيئ فهمكِ ونعود للمشاكل من جديد.

وقفت بدورها قبالته لتهز رأسها بطاعة وهي تتحاشى النظر لعينيه ثم همست برقتها الحزينة:

_سأعيدها لك يوماً...عندما...نفترق!

غُصّ حلقها بكلمتها الأخيرة لكنها لم تشعر بهذه الغصة مع ضمته العنيفة المفاجئة لها...

والتي حرمتها حتى مجرد شهقة دهشة...!!!!

فقد ذابت كلياً بين ذراعيه وهي تشعر أنها اختفت تماماً في ربوع صدره العامرة بحنانها...

لا.. لم تكن هي فقط من اختفت...

كل الوجود حولها تلاشى فما عادت تميز سوى صوت دقات قلبه الصارخة بجنون...

والتي تمنت وقتها لو تجاورها للأبد....لو تكون سجينةً ضلوعه ما بقي لها من عمر!!!

ورغم أنها لم تكن أول مرة يحتضنها فيها هكذا...

لكن هذه المرة كانت هي الأكثر دفئاً !!!

لماذا؟!!

هي لا تفهم...ولم يعد يعنيها أن تفهم...

بل إنها تعتقد أنه ليس من حقها حتى أن تفعل!!!

كل عطاياه لها - كما تراها هي- منعدمة الأسباب لكنها فخمة القدر عظيمة القيمة ولا تنتظر المقابل..

فكيف تردها وهي أفقر ما تكون إليها؟!!!

وأمامها كان هو -مثلها- غائباً عن شعوره بكل شئ ...إلا بها!!

الغافلة تظنه قد يسمح لأخرى أن ترتدي هذه القلادة بعدها !!!!!

ولا تدري أنه حتى لو تركها كما اتفقا فهو لن يستطيع منح أي امرأة سواها ما كان لها -هي - يوماً!!!

هدير نبضات القلب...

وزفير اشتعال الروح...

وصك ملكية باسم الحب...

ولمعة ذهبية لقلادة ما تمنى يوماً رؤيتها إلا على جيدها هي!!!

ظلا على هذا الوضع لدقائق كان كلاهما فيها غارقاً في أفكاره...

حتى رفعت هي عينيها إليه لتهمس بوجل:

_ماذا بك؟!تبدو الليلة مختلفاً!!

أبعدها عنه برفق وقد روعه أن يستجيب هكذا لمشاعره نحوها...

فربت على رأسها متجاهلاً سؤالها قبل أن يتنحنح مستعيداً خشونة صوته:

_لا شئ!

قالها ثم سحبها من كفها خلفه نحو منضدة قريبة حيث لمحت هذه الأكياس العديدة عليها...

فالتفتت نحوه بنظرة متسائلة ليقول هو ببعض الرفق:

_لقد اشتريتُ لكِ بعض الثياب الجديدة ...حتى تكوني مستعدة للعودة للجامعة .

ابتسمت بسعادة غارقة في امتنانها وهي تقول برقة:

_لماذا أتعبت نفسك؟! أنا لديّ الكثير!

ربت على كتفها برفق قائلاً:

_لم يكن الأمر متعباً...كنت أشتري لأمي هديتها على أي حال...أرجو أن يناسبكِ ذوقي...أما المقاس فلا تقلقي أنا أحفظه جيداً منذ اشترينا ثوب الزفاف.

اتسعت ابتسامتها مع بعض الخجل الذي انتابها و هي تتوجه نحو الأكياس لتفضها بلهفة طفولية زادته جنوناً بها...

قبل أن تلتمع عيناه بعاطفة طاغية وهي تحتضن أحد الأثواب هاتفةً بانبهار:

_رباه!!!! هذا هو الثوب الذي توقفت أمامه يوم خرجنا معاً!

ابتسم بحنان غلّف كلماته بعدها:

_لقد لاحظتُ يومها أنكِ تعلقتِ به...يبدو أنكِ أيضاً تحبين هذا اللون كثيراً!

ضحكت ببراءة مهلكة وهي تقول بخجل:

_أنا مجنونة بعشق "الأصفر"!!

رقص قلبه بفرح على إيقاع ضحكتها لكنه أغمض عينيه بقوة ليتمالك مشاعره الآن...

عندما عاودت هي اقترابها منه لتهمس بحرارة وقد منحها إغماضه لعينيه بعض الشجاعة:

_راغب! كيف أشكرك؟!ليس على الهدايا فحسب بل على كل شئ.

ضم أنامله بقوة للحظات وهو يفتح عينيه ببطء ليواجه عينيها ببركان عاطفته الثائر ...

قبل أن يخمده قسراً لتعود لكلماته طبيعتها المتحفظة وهو يتجاهل عبارتها:

_الحمد لله أنها أعجبتك.

ابتسمت برقة ثم عادت تتأمل الثوب وهي ترفعه بين يديها مغمغمةً بأسف:

_لن أستطيع الخروج به لأنه مكشوف الصدر والذراعين...كما أنه ثوب للحفلات...أين سأرتديه؟!

عادت لشفتيه ابتسامتهما الخاصة بها وهو يقول بحنان غلب خشونة نبراته:

_بسيطة...نقيم الآن حفلة!

رمقته بنظرة متسائلة فاتسعت ابتسامته وهو يردف بحزم:

_نحن لم نحتفل بنجاحك عندما ظهرت نتيجتك...وعيد ميلاد أمي سيكون غداً ...ما رأيك لو ندمج المناسبتين معاً ونقيم احتفالاً لجميع العائلة الليلة؟!!

ضحكت بفرحة بريئة وهي تومئ برأسها موافقة...

ثم تركته بخطواتٍ سريعة وهي تتوجه نحو غرفتها لترتدي الثوب باندفاعٍ طفولي...

ولهفة قلب اشتاق للفرحة بعد كل ما عاناه من ألم وخوف...!!!

لتخرج إليه بعد دقائق وقد ارتدت الثوب وصففت شعرها بعناية لتسدله كله على أحد جانبي وجهها ...

واكتفت من زينتها بطلاء شفاه ورديّ جعل من شفتيها مع "طابع حسنها" الآسر كارثةً مزدوجة!!!

تقدمت نحوه بتردد مكسوٍّ ببعض الخجل وهي تهمس ببراءتها المعهودة:

_ما رأيك؟!مناسب؟!

أطرق برأسه وهو لا يدري بماذا يرد...

مناسب؟!!!

هل تسأله هي عن كونه...مناسباً؟!!!

نعم...مناسبٌ لامرأة تريد أن تملك فتنة الدنيا كلها بين كفيها!!!

مناسبٌ لسحرٍ بدأ وانتهى في مقلتيها...

مناسبٌ لقلبٍ -كقلبه- يراها الآن ملكة نساء الأرض...

ومناسبٌ كي يفقده عقله جنوناً بها!!!

لهذا صمت قليلاً قبل أن يرفع رأسه لينظر في اتجاهٍ آخر متجاهلاً الحديث الذي تفيض به نفسه ....

وهو يتحاشى النظر إليها باستماتة ليقول بحزم:

_ارتدي عليه السترة القصيرة التي اشتريتها معه.

ارتبكت قليلاً وهي تقول بتردد:

_أخوك مسافر...لن يكون هناك سوى والدتك وهيام.

اشتعلت ملامحه بغضب لم تفهمه وهو يقول ببرود عاصف:

_لا أحب أن تظهر امرأتي هكذا لأحد ولو أمام النساء.

ورغم -استنكارها الخفي- لما يقول لم تملك سوى أن تومئ برأسها في طاعة...

فأعطاها ظهره ليقول قبل أن يغادر:

_سأذهب لشراء ما يلزم.

راقبت ظهره المنصرف بحيرة ثم ذهبت إلى المرآة تطالع صورتها بتفحص...

لتشعر بمزيج من الرضا والامتنان نحو هذا الرجل الذي أسعدها القدر بوضعه في طريقها...

عندما انتابها خاطرٌ جعلها تبتئس أكثر...

لماذا لا يراها هو كأنثى؟!!

لماذا يحرمها على نفسه؟!!

بل إنها تشعر بغضب مكتوم في عينيه كلما اقتربت منه عفوياً!!!!

لتومض في ذهنها تلك الذكرى ليلة زفافهما البغيضة على نفسها وهو يصرخ بها أنه لا ينظر لفضلات غيره...

انقبض قلبها بقسوة وشعورها بالدونية يزداد ...

نعم...هي بالنسبة إليه مجرد نفاية!!!

خرقة بالية مزقها أحدهم وألقاها في طريقه فالتقطها لكنه...أبداً لن يرتديها!!!

ثمرةٌ معطوبة سقطت على رأسه فأمسكها لكنه ...أبداً لن يشتهيها!!!

دمعت عيناها بقهر وهي تشعر أنها برغم كل شيءٍ لا تلومه...

هي فرطت ...وهو تغاضى وستر...لكنه أبداً لن يغفر!!!

وبهذا الشعور الحارق توجهت نحو غرفتها لترتدي السترة القصيرة على الثوب كما أمرها...

وهي تشعر أنها صارت تكره جسدها...

بل تكره نفسها التي أوردتها هذا المصير!!!

مرت بها الدقائق ثقيلة قاسية...

حتى سمعت صوت الجلبة بالخارج فعلمت أنهم جميعاً قد وصلوا...

ساعتها تمالكت مشاعرها المضطربة لتخرج إليهم باستسلام...

عندما شهقت حماتها بانبهار وهي تتمتم بإعجاب:

_ماشاء الله لا قوة إلا بالله...قمر يا ابنتي...قمر!!!

بينما رمقتها هيام بنظرة حاسدة قبل أن تشيح بوجهها في ضيق...

لكن راغب وضع ذراعه على كتفها ليقول بإكبار:

_رؤى أرادت أن نحتفل بعيد ميلاد أمي هنا الليلة...لكنني وجدتها فرصة لنحتفل بنجاحها أيضاً!

ابتسمت عفاف برضا بينما غمغمت هيام بسخط:

_وهل ستدعها تكمل تعليمها؟!!بماذا سيفيدها هذا؟!هل ستحتاج لعملها أم لراتبها!!

انتفضت رؤى بقلق وهي تخشى أن يؤثر حديثها على راغب ...

لكنه ربت على كتفها برفق قبل أن يقول لهيام بصرامة:

_أنا اتفقت معها على ذلك قبل الزواج... ومادامت تريده فلتفعله!

ابتلعت هيام لسانها قسراً...

بينما ابتعد راغب قليلاً ليرص الأطباق على المائدة مع رؤى ثم بدآ بوضع الحلوى والطعام...

فالتف أطفال هيام حول المائدة يتراقصون بمرح...

ويغنون أغنية عيد الميلاد الشهيرة ...

ساعتها ابتسمت رؤى ابتسامة صادقة وهي تشعر بدفء هذه العائلة يطوقها...

هذا الدفء الذي افتقدته منذ وفاة والديها...

والذي عاد إليها من جديد..

لكن ابتسامتها تجمدت على شفتيها عندما هتفت عفاف بحنان:

_عسى أن يكون احتفالنا المرة القادمة بولدك أنت يا راغب!

سقط قلبها بين قدميها وهي تختلس نظرة ملتاعة نحوه...

لتروعها تلك المرارة التي اكتست بها عيناه للحظة خاطفة ذبحتها..

قبل أن يعاود تظاهره المتقن بالرضا وهو يقول باقتضاب:

_كل شئ بأوان**!!**

====================

_هل فعلتها حقاً؟**!!**

هتفت بها ماسة باستنكار وهي تدخل عليه غرفة مكتبه فأجاب ببرود دون أن ينظر إليها وهو يدرك جيداً ما تعنيه:

_نعم**!**

هزت رأسها بقنوط وهي تتقدم منه ببطء...

إذن فقد خذلها هذه المرة...

استجاب لشيطان قسوته كالعادة**!!!**

المدينة كلها تتحدث عما فعله عاصي الرفاعي بنسبائه القدامى...

لقد نفاهم -حرفياً- من المدينة كلها ...

نعم...أصدر أوامره إليهم بترك المدينة كلها وإلا فالمصير ...معروف!!!

وهم امتثلوا صاغرين!!!

وليس هذا فحسب..

بل إنه وضع يده على أملاك والد حورية بالذات وانتزع منه أرضه قوةً وعدواناً!!!

والمصيبة أن الجميع ينظرون إليها هي نظرة سوء...

يظنونها هي من دفعته لهذا الانتقام بعد الصفعة التي نالتها!!!

لهذا جلست أمامه على مكتبه لتهمس برجاء:

_أنت لم ترفض لي طلباً أردته...أرجوك...تراجع عن...

رفع رأسه إليها مقاطعاً حديثها وهو يهتف بقسوة عاودت احتلال نبراته:

_كم مرةٍ قلت لكِ ألا تتدخلي فيما لا يعنيكِ!!

هبت واقفةً لتهتف بلهجة مدافعة:

_هذا الأمر يعنيني...ألم تفعلها لأجلي؟!!

اشتعلت عيناه بغضب صارخ وهو يقول بحسم:

_أنتِ أسقطتِ حقكِ ورفضتِ رد صفعتها...لكنني أنا لا أسقط حقي أبداً!

دمعت عيناها بعجز وهي تطارد سراب الحنان الذي اختفى وسط اشتعال غابات زيتونه...

لتهمس بعتابٍ:

_لماذا يا عاصي؟!!لماذا تصر على نصر شيطانك؟!!إلى متى ستظل هائماً في هذا الطريق الذي أخذ منك أكثر مما أعطاك؟!!

أشاح بوجهه لدقائق وملامحه تحكي سطوراً من ألم...

حتى عاود فتح عينيه ليقول بحزم:

_هذا طريقٌ لا يعود سالكه...إما أن يكمله أو يموت مكانه!!

هزت رأسها بعدم اقتناع ...فأردف بشرود:

_لازلتِ صغيرةً يا ماسة...لا تعلمين أنه حتى الحق يحتاج لقوة تحميه...لو لم أكن أنا صاحب الضربة

الأولى فستكون التالية على رأسي...هذا قانونٌ لم يتغير هنا...وأنا فقط ألتزم به!!

ازدردت ريقها بتوتر وهي تهمس برجاء:

_فقط...فكر مرة أخرى...صورتي بين الناس ...

قطع عبارتها بتهكم غاضب:

_صورتك؟!

أغمضت عينيها بألم وقد وصلتها عبارته كإهانة!

فأشاح بوجهه في ضيق وهو مستاءٌ من كل هذا الحوار الذي يراه بلا طائل...

وقد أدرك أنها أساءت تأويل كلمته التي لم يقصدها...!!

فخبط على المكتب بكفه خبطةً أجفلتها وهو يقوم من مكانه ليهتف بحدة:

_عودي لغرفتك الآن ولا تجعليني أعيد الكلام مرتين!!

أغمضت عينيها بقوة وكأنها تحمي قلبها من أن يراه في هذه الصورة المنفرة...

قبل أن تعطيه ظهرها لتغادر مكتبه بخطواتٍ مندفعة ثائرة عائدة لغرفتها كما أمر "السيد"!!!

وفي غرفتها استلقت على سريرها وهي تطالع السقف بشرود بائس...

يبدو أنها تمادت كثيراً في حسن ظنها فيه كما زعم...

وها هو ذا يثبت لها في أول صدام بينهما أن شيئاً ما لن يتغير...

هو سيبقى السيد عاصي الرفاعي الذي يفتخر بلقبه ك- شيطان - ترتجف أمامه القلوب...

وهي ستبقى ماسة اللقيطة التي ينهش الناس في سيرتها بكل باطل دون رادع!!!

تلك الممرضة اللعوب التي تلاعبت برأس سيدهم لتختطفه من امرأته فتدفعها للانتحار كمداً قبل أن تحرضه للنيل من نسبائه كذلك ونفيهم خارج المدينة!!!

ومع كل هذا هي لا تملك حق الاعتراض...

لقد كان محقاً في سخريته من اهتمامها بصورتها...

من مثلها يجب أن تقتنع بأي صورة !!!!

وبهذا اليأس المظلم استسلمت لجحيم أفكارها لساعات...

حتى سمعت طرقاته التي صارت تميزها علي باب غرفتها ...

فنهضت بتثاقل لتتوجه نحو الباب فتفتحه ببطء...

قبل أن تطالعها عيناه تتفحصانها بعاطفة لم تعد تنكرها وقد عادت شموسه الزيتونية تتألق بوهجها الدافئ الخافق بشعوره والمناقض للهجته المتسلطة بعدها:

_أنا ذاهب إلي المركب...تعاليْ معي!

كادت تشير برأسها نفياً وتخبره أنها لا تريد منه شيئاً!!

لكن اقتراحه في الحقيقة كان أقصى ما تحلم به الآن...

هي تريد الذهاب...

تريد معانقة سماء الليل الرحبة لعلها تخفف ضيق صدرها في هذه اللحظة...

تريد اختزان كل نسمات الهواء بين ضلوعها لعلها تعوض ضياع أنفاسها...

وتريد اعتلاء حلمها وسط القمر ونجومه لعلها تنسى هوانها على أهل الأرض!!!

لهذا أومأت برأسها إيجاباً بعد لحظات من التردد ثم جذبت وشاحها لتغطي رأسها بإهمال يعكس مشاعرها الخانقة...

فجذبها من كفها لتخرج معه نحو وجهتهما...

كانت شاردة طوال الطريق تشعر أن صدرها صار خالياً بلا قلب...

أعماقها تنبض بخواء كأنها مجرد هيكل فارغ!!!

وكأن كل مشاعرها التي تملكتها نحوه طوال تلك الأيام توارت خلف سدود خذلانه لها !!!

فتركت عقلها فريسةً لشروده الهائم يعبث فيه كيفما شاء حتى وجدت نفسها معه علي سطح المركب كالمرة السابقة...

تجاهلت النظر إليه وهي ترفع رأسها للسماء تعانقها بعينيها بنَهَمٍ شديد...

لكن السماء هذه المرة كانت مختلفة...

بخلت عليها بقمرها ونجومه!!!

نعم...السماء كانت صافية لكنها مظلمة...

وكأنها مثلها افتقدت كل سبيل للنور...!!!

وأمامها هو كان يتأمل صفحة وجهها بشوق ما عاد يرتوي منه أبداً...

لقد افتقد هذه النظرة في عينيها...نظرة الانبهار التي تعد بابتسامة وشيكة...!!

ورغم أن عينيها تعلقتا بالسماء غافلتين عنه...

لكن أمواجهما الماسية لم تكن عنه بغافلة...!!!!

بل كانت تناديه بجاذبيتها نداءً لا يملك إلا أن يجيبه...!!!

نداءً يجد صداه في قلبه وروحه مهما كابر عقله وتشبث بأسوار ماضيه...!!!

وعندها خفضت هي بصرها نحوه أخيراً لتلحظ تأمله المتفحص لها بتلك النظرة الغريبة على عينيها...

والتي حملت شيئاً جديداً يعرف طريقه لأول مرة بينهما!!!

شيئاً لا يمكنها وصفه...يجعلها لا تدري هل تريد الاقتراب منه أكثر...

أم تريد الابتعاد؟!!

وهل هذه اللذة التي تستشعرها حقيقية ؟!!!

أم أنها مرادفٌ خفيٌ للخوف الذي يسكنها تجاهه؟!!

ازداد ارتباكها وهي تشعر بقلبها يكاد يختنق بدقاته التي بدت لها وكأنها إشارات استغاثة!!

فتحركت خطوة للخلف لكنها تعثرت بطرف عباءتها لتترنح مكانها...

عندما جذبها هو إليه بقوة ليحيط خصرها بساعده هامساً بلهجة غريبةعلي أذنها:

_عيناكِ خطيرتان جداً في ليلة كهذه.

تجمد جسدها وهي تشعر بسيطرته القاهرة عليها...

إن لم يكن بساعده المحكم علي خصرها...

فبغابات زيتونه التي كانت تنبض الآن بوميض لم تره من قبل...

وميض أغشى عينيها ليأسرهما بقوة لا تقبل الاعتراض...

لكنها وجدت بعضاً من قوة لتهمس بصوت مرتعش:

_ماذا تقصد؟!

اقترب بوجهه من وجهها ليهمس بنفس النبرة الغريبة التي تشعر وكأنها تقيد روحها بأغلال غير مرئية:

_عندما يغيب القمر فكأنه يستودع فيهما فقط كل نوره وسحره.

اتسعت عيناها بدهشة للحظة ثم ارتعشت حدقتاها وهي عاجزة عن الرد...

قبل أن يحتل العتاب حدقتيها لتصيب سهامها الفضية أهدافها لديه كالعادة...

فمال على أذنها هامساً بحنانه الذي يبدو وكأنه خُلق لها وحدها:

_ماسة غاضبة وتحتاج إلى ترضية ؟!!أم أنها صارت تدرك قيمتها عندي؟!

اختنقت الكلمات في حلقها وهي تشعر أنها الآن في حلم غريب...

وقد بدا لها عاصي في هذه اللحظة شخصاً آخر...

ليس كما عرفته في البداية بتسلطه وقسوته ...

ولا حتى كما صار بعدها بحنانه -الأبويّ -واحتوائه...

كل ما فيه مختلف...

إحساسها -هي -به مختلف...كأنه ملكٌ أسطوريٌ مزق حجب الحلم ليسقط على أرض واقعها فيختطفها أسيرةً في مملكته...

لا...ليست أسيرة...بل ملكة ترى تاجها يتلألأ بوضوح بين كفيه ينتظر منها موافقةً ليضعه بنفسه على رأسها!!!

كما أنها تشعر أن إحساسه -هو -بها الآن مختلف...

كيف تتجاهل نظراته بأمطار مشاعر تتملكها حتى ولو لم تكن تفهمها!!!

كيف تغض الطرف عن ربيعٍ لم يولد إلا بين حدقتيه بزهور تعدها ألا تكون لسواها؟!!

بل كيف تقهر نبض قلبها الذي يتراقص الآن بلحنٍ بدا وكأنه لن يولد ولن يموت إلا بين ذراعيه؟!!

لهذا اختنقت أنفاسها الملتهبة بشعورها واحمرت وجنتاها بشدة وهي تشعر بسخونتهما تكاد تذيبها...

فتفحص ملامحها باشتهاء قبل أن يمد أنامله الحرة ببطء يتحسسهما هامساً بنفس النبرة:

_وجنتاك دافئتان شديدتا الإغراء لرجل مثلي ...قد سأم برودة أيامه!!!

ازدردت ريقها بصعوبة ثم أغمضت عينيها لعلها تهرب من سجن عينيه القسري...

عندما شعرت بشفتيه علي وجنتيها تمطرانها حناناً بلا حدود...

قبلاته؟؟!!!!!!

هل هذه..... قبلاته؟؟؟؟!!!

لا لالا...!!!!

لم تكن تتخيل أن قبلات هذا الرجل ستكون هكذا شديدة النعومة علي عكس طبعه القاسي...

لقد بدا وكأنه فقط يلامس بشفتيه بشرة وجهها...

وكأنه يربت عليها برفق ...

ليمنحها شعوراً لم تعرفه من قبل...

فغابت معه في عالمٍ تخطوه قدماها لأول مرة بهذه الصورة!!

ثم لم تدرِ بالضبط كم مضى على غزوه الناعم هذا..

لكنها انتفضت بقوة عندما وصل إلى شفتيها...!!!

فشهقت بعنف وهي تفتح عينيها محاولةً الابتعاد...

وذهنها يستعيد تلقائياً أحداث تلك الدقائق الشنيعة التي عاشتها تلك الليلة البعيدة على يد وحوش بلا ضمير...!!!

لكنه بدا وكأنه يقرأ أفكارها كعادته فأحكم ساعده على خصرها أكثر كي لا يسمح لها بالابتعاد...

ثم امتدت أنامله تحت حجابها المتهاوي تداعب منابت شعرها بحركته المميزة التي لا تنكر تأثيرها عليها...

لتشعر هي بالسكينة تعود إليها ببطء...

وبهذا الأمان الغريب الذي لا تعرفه إلا معه يغلف عقلها قبل قلبها ليدفع عنها كل هواجسها...

فأغمضت عينيها باستسلام لم تملك سواه في هذه اللحظات...

ليتحول غزوه الناعم لآخر يشبهه قوي متملك ومسيطر...

غرقت فيه بكامل كيانها دون تفكير...!!!!

حتى أفاقت لنفسها بعد بضع دقائق...

فابتعدت بوجهها عن وجهه لتدفنه في صدره وهي تتشبث بقميصه ...

وكأنها لا تهرب منه.... بل تستغيث به- هو -من هذه المشاعر التي لا خبرة لها بها ..

والتي تجتاحها لأول مرة!!!!

وأمامها كان هو -مثلها للعجب-يجرب هذا الشعور الفريد لأول مرة...!!!

وكأن القدر ادخرها لها طوال سنوات عمره التي قاربت الأربعين ليعيش معها هي بالذات سحر هذا الإحساس!!!!

نعم...بعد كل سنوات زواجه السابقة يجد نفسه لأول مرة يجرب لذة الأخذ عن رضا لا عن غصب...

لذة امتزاج الروح بتوأمها لينصهرا معاً حتى تمام الذوبان!!!

لذة خفقان القلب بدقاتٍ يجد كلاهما صداها في صدر الآخر!!!

لذةٌ جعلته يندم حقاً على كل ثانية من عمره ضاعت قبل أن يعرفها!!!

لهذا ضمها إلى صدره بقوة وهو يكاد يستقرئ ما بداخلها قبل أن يهمس بصوته المسيطر الذي كسته الآن نبرة خاصة :

_الجو صار شديد البرودة...سنعود إلي القصر.

لم تستطع رفع عينيها إليه خجلاً...

لكنها ابتعدت ببطء وهي تطرق برأسها...

ليجذب كفها من جديد فيعودا معاً إلي القصر...

وأفكارها التائهة وسط فوضى مشاعرها تلتهم ما بقي لها من تركيز...!!!

لم تدرِ كيف صار الطريق فجأة قصيراً هكذا...

أم أن شرودها هو الذي غيبها عن حساب الوقت...؟!!!

لا تدري...

لقد وجدت نفسها -فجأة -في الرواق الذي يضم غرفتيهما...

فوقفت لتتجه نحو غرفتها لكنه تشبث بكفها هامساً بحزمٍ رفيق:

_من الليلة ستنامين معي في غرفتي كما السابق.

اتسعت عيناها في ارتياع وهي تشعر بالارتباك...

بعدما حدث بينهما منذ قليل لا تعرف كيف سيكون الأمر معه...

حدسها يخبرها أن شيئاً ما بعلاقتهما قد تغير وأنها اتخذت منحنيً جديداً لن يعود بعدها لما كان عليه...

لكنه لم يسمح لها بالتفكير وهو يجذبها من كفها حتى صارا أمام باب غرفته...

وهنا...

رفعت هي عينيها إليها برجاء حملته أمواجها الفضية وعجز لسانها عن البوح به...

رجاء ذبيح بهواجس ماضٍ لازالت تؤرقها رغم عزمها على تجاوزها...

رجاء ممتزج بخوف لا حيلة لها فيه ....

لكنه عرف طريقه إلى قلبه بيسر كعادتها معه..!!!

فزفر زفرة مشتعلة ثم أغمض عينيه بقوة وكأنه يقاوم انفعاله بكل طاقته وهو يتفهم شعورها...

ليقول بحزم دون أن يفتح عينيه:

_أمامكِ دقيقة واحدة...تعودين فيها إلى غرفتك...لو لم تكوني راغبة.

ارتجف كفها في يده وهي تنظر إليه بتشتت...

فبرغم كل ما كان بينهما هي لم تتوقعه سيكون بهذا التفهم...

هذا الرجل بئر عميق من التناقضات...

لوحة تصارع فيها الأبيض والأسود بجدارة فلم ينتصر أحدهما واحتفظ كل منهما بمساحته بالعدل!!!

لكنها وللعجب تجد أمانها معه....!!!!

قلبها يخبرها أن مكانها دوماً سيكون في الرقعة البيضاء من هذه اللوحة...

ومن يدري؟!!!

ربما يجيئ هذا اليوم الذي ينتصر فيه الأبيض ليحتل اللوحة كلها فيرد سوادها مدحوراً!!!

لكنه فتح عينيه فجأة ليلتقط التردد الذي اكتسح أمواج عينيها بين مد وجزر...

تردداً وليس.... رفضاً!!!

والرفض في قانونه- الذي ابتدعه لها هي بالذات -يختلف عن التردد...

فالرفض يمنعه لكن التردد...هو كفيلٌ به!!!

لهذا انحنى ليحملها فجأة بين ذراعيه وهو يميل بوجهه على وجهها هامساً جوار أذنها بصوته الآسر:

_غيرت رأيي...ولا ثانية واحدة!!!

شهقت بعنف وهي تتعلق بذراعيها في عنقه بحركة تلقائية...

ليدخل الغرفة مغلقاً الباب خلفه بقدمه...

ثم سار بها مطوقاً عينيها بسحر غابات زيتونه التي اشتعلت الآن ببريق خاص...

انعكس على بحار فضتها فزادها تألقاً وفتنة....

حتى وضعها برفق علي الفراش...

قبل أن ينحني بوجهه علي وجهها هامساً بلهجته المسيطرة:

_هل وفّى عاصي الرفاعي بكل وعوده معك؟!!

سيطرت على نفسها بصعوبة مع ارتجافة جسدها في هذه اللحظة ...

وهي تدرك ما يقصده...

لقد وعدها ألا يمسها قبل أن ينتزع جذور حب عزيز من قلبها فلا تخون أحدهما...

وحقاً فعلها...!!!

بل إنها الآن عندما تتذكر ما كان بينهما يبدو لها وكأنه كان حلماً بعيداً....

بل وهماً من خيوط عنكبوت تمزقت فكانت هباءً منثوراً!!!

لهذا دمعت عيناها وهي تومئ برأسها في إجابة واضحة على سؤاله...

فاقترب بوجهه أكثر ليعاود سؤالها بنفس اللهجة:

_هل غادرتكِ كوابيسكِ كلها؟!!

ضغطت شفتيها بقوة تتمالك ارتجافتهما ثم عادت تومئ برأسها إيجاباً...

فمد كفه ببطء يزيح حجابها لتعرف أنامله طريقها لمنابت شعرها بحركته الأثيرة لديها...

ثم اقترب بوجهه أكثر حتى لم تعد ترى سوى صورتها في مراياه الزيتونية ليهمس أمام عينيها بصوت متهدج هذه المرة:

_هل تذكرين المقابل؟!!

تاهت عيناها بعينيه لتمتزج أمواج فضتها بغابات زيتونه في مزيج ساحر...

وهي تهمس بتشتت:

_المقابل؟!!!!

وعندها ألصق هو جبينه بجبينها ليهمس أخيراً بحرارة أذابتهما معاً:

_ماسة!

==============

الفصل العشرون

_أبي!!

هتف بها فهد بصدمة بينما اشتعلت عينا جاسم الصاوي بغضبه وهو يدفعه ليدخل مغلقاً الباب خلفه...

قبل أن يدور بعينيه في المكان ليتوقف بصره على حذاء نسائي جوار الباب...

فعاد ينظر إليه هاتفاً باستنكار غاضب:

_ألهذا غادرتَ الحفل خلسة؟!

ازدرد فهد ريقه بتوتر وقد تجمد تفكيره من المفاجأة...

عندما استمر هدير والده العاصف:

_ألن تكف عن حماقاتك؟!!ألن تتوقف عن تخييب أملي فيك؟!!حفلٌ يضم نخبة رجال البلد في المال والسياسة تتركه لأجل شهواتك الرخيصة؟!!

كز فهد على أسنانه وهو يدعو الله سراً أن تتمسك جنة بثباتها ولا تغادر مكانها في المطبخ الذي كان بابه -لحسن الحظ-مخفياً عن صالة المنزل...

لكنها ما كادت تتبين هوية الطارق حتى هرولت خفيةً إلى غرفتها المستترة نوعاً عن بقية الشقة لتدخل وتغلق الباب خلفها...

قبل أن تتوقف أمام مرآتها تنظر لجسدها شبه العاري في ثوبها القصير وهي تشعر بالصدمة !!!

هل هذه جنة؟!!!

تلك التي هربت كالعاهرات خوفاً من أن يراها جاسم الصاوي؟!!

تلك التي تتوارى في غرفة مستترة تداري جسدها المكشوف...وزواجها السريّ؟!!

وهي التي كانت تخرج في وضح النهار ترفع لافتات ضد الظلم والفساد؟!!!

أيُ حبٍ هذا الذي يشوه ملامحنا فلا نكاد نعرف صورتنا في مرايانا؟!!!

أيُ حب هذا الذي يغتال حمائم النور بداخلنا لينشر بدلاً منها وطاويط خوف سوداء ؟!!!

أي حب هذا الذي يهدم قصوراً من كبرياء ليبني مكانها قبوراً مظلمة من خزي وعار؟!!!

أي حبٍ هذا الذي ينتزع منا هويتنا فلا يكاد يبقي لنا سوى ذاكرة خاوية وشهادة ميلاد بلا اسم ولا وطن؟!!!

لا...هذا ليس بحب!!!

بل موتٌ مُقنّع خدعها سحر قناعه...والآن آن الأوان لينفك السحر!!!

نعم...الآن...الآن!!!

وبهذا التصميم بدلت ملابسها بأخرى ساترة...

وكأنها لا تستر جسدها فحسب...بل تستر كل ما تعرّى من سوءات ضعفها أمام هذا الحب اليائس!!!

ثم فتحت باب غرفتها بعنف لتتوجه بخطوات عازمة نحو جاسم الصاوي بالتحديد!!!

========

قبض فهد أنامله بغضبٍ عندما رآها تتقدم نحوهما قبل أن يرمقها بنظرات مزجت رجاءها بغيظها وقد أدرك من نظراتها المشتعلة ما تنتوي فعله...

لكنها لم تكن تنظر إليه...

عيناها تعلقتا بعيني جاسم في تحدٍ سافر وهي تتجاوز فهد لتقف أمامه رافعةً رأسها بكبرياء لن تفرط فيه بعد!!!

وأمامها كان جاسم الصاوي يقرأ نظراتها بعينين خبيرتين...

هذه المرأة ليست عاهرة...

هذه اللمعة بعينيها هو يعرفها!!!

لمعة مقاتلة على وشك بدء معركة -هي تعرف قبل غيرها- أنها لن تكون هينة!!!

ومع هذا تطمح في الانتصار!!!

لهذا تمعن في ملامحها للحظات قبل أن تضيق عيناه وقد بدا أنه قد تذكر شيئاً....

ثم اشار نحوها بإصبعه قائلاً بتشكك:

_أنا رأيتكِ من قبل!!

حافظت جنة على صمتها مع نظراتها القوية المتحدية...عندما أردف وهو يهز رأسه بإدراك:

_جنة الرشيدي!!رجالي أحضروا لي صورتك مع ملف كامل عنكِ عندما تجرأتِ على رفع قضية ضدي!!

ثم ابتسم ساخراً وهو يقلب بصره بينها وبين فهد ليقول للأخير باستهانة واضحة:

_أهذه التي تركت حفلاً كهذا لأجلها؟!!

ثم التفت نحو جنة ليردف باحتقار:

_وأنتِ لهذا السبب تنازلتِ عن القضية؟!!ونعم الشرف!!!

شعرت جنة بالدماء تفور في رأسها وهي تتقدم نحوه خطوة أخرى وقد عزمت على فضح الأمر وليكن ما يكون...

عندما فوجئت بفهد يجذبها خلف ظهره ليقف بينها وبين والده قبل أن تدوي كلمته الوحيدة في المكان كطلقة غادرة:

_زوجتي!

كست الصدمة وجه جاسم للحظات ...وقد بدا عليه عدم التصديق...

قبل أن تبرق عيناه بشرر مخيف وهو يصرخ بحدة:

_أيتها الحقيرة!!!كيف دفعتِه لهذه الفعلة؟!!

ارتجفت جنة مكانها خلف فهد رغم ما حاولت التظاهر به من قوة خاصة عندما صاح فهد بغضب مماثل:

_دع كلامك معي أنا يا أبي!!!

اشتعل وجه جاسم باحمرار غضب صريح مع صدره الذي كان يعلو ويهبط في انفعال كظمه بعد دقائق صمت صاخبة بلا كلمات...

حتى هدأت ملامحه فجأة ليقول بعدها بنبرة باردة لم تخلُ من وعيد:

_كلام؟!!لا ...أنا لم يعد لديّ كلام!!

وحينها انقبض قلب فهد بقوة خوفه بينما لم تكن جنة أفضل منه حالاً رغم محاولتها المستميتة للتظاهر بالصلابة...

عندما غادرهما جاسم بخطوات سريعة صافقاً الباب خلفه بعنف!!!

فالتفت نحوها فهد ليمسك كتفيها هاتفاً بغضب:

_لماذا خرجتِ إليه؟!!لماذا تعجلتِ بالمواجهة التي ستغلق أمامنا كل الطرق؟!!

هزت رأسها وهي تهتف بغضب مماثل:

_ولماذا إذن اعترفت له أنت بزواجنا؟!!

اعتصر كتفيها بين قبضتيه أكثر وهو يهدر بانفعال:

_ماذا كنتِ تنتظرين مني أن أفعل ؟!!لم أحتمل أن يمس كرامتك بسوء أمامي بعدما وضعنا عنادك في هذا الموقف السخيف!!!

أزاحت كفيه من على كتفيها بعنف وهي تهتف بدورها وقد أعماها غضبها:

_وأنا أيضاً لم أحتمل...لم أحتمل الاختباء في غرفتي منتظرةً أن يفتشها ليضبطني كالبغايا...أنا لن أتنازل بعد الآن...لقد وقعت الكارثة وانتهى الأمر.

ضم قبضته أمام وجهها وهو يهتف بانفعال ممتزج بخوفه:

_الكارثة لم تقع بعد يا حمقاء!!!أنتِ لا تعرفينه مثلي!!

دمعت عيناها بقهر ورغم أن قلبها كان يشاركه خوفه ولوعته لكنها تشبثت بعنادها وهي تهتف باندفاع:

_طلقني إذن ...ودعنا نن....

انقطعت عبارتها بضمته العنيفة لها وهو يخفي وجهها في صدره بقوة انفعاله...

فكلماتها كانت تضغط على أقسى مخاوفه الآن...أن يجبره جاسم على تطليقها...أو ربما ماهو أسوأ!!!

لهذا كز على أسنانه هاتفاً بغضب زاد خوفها:

_سأعاقبكِ على كلمتك هذه ولكن ليس الآن!!

أغمضت عينيها بألم ودقات قلبه تلاصق جبينها المزروع في صدره تكاد تصم أذنيها...

فارتجف جسدها وهي تشعر بضياع رهيب...

وقد بدت فجأة كطفلة تائهة لم تعد تعرف شيئاً...

لكنها استسلمت لأمان صدره للحظات قبل أن ترفع عينيها إليه لتروعها دموع العجز والغضب التي ملأت عينيه فجأة...

وكأنه يشاركها مشاعرها بالتخبط والضياع...!!!

فتأوهت بقوة ثم خبطت رأسها بصدره عدة مرات قبل أن تعيد الاحتماء به هامسة بيأس:

_أنا وعدتك أن أدافع عن حقي فيك لكن في النور...وأنت تصر على حبسي في الظلام...فكيف سنتفق؟!!كيف؟!!!

انتهت همساتها العاجزة بسيول دموعها التي غلبتها في هذه اللحظة...

فضمها إليه أكثر وهو يربت على ظهرها دون أن يجد ما يقال في موقف كهذا...

حتى هدأت ارتجافة بكائها فرفع وجهها بين راحتيه ليقول بحزم:

_لا بأس...لقد قُضي الأمر وعلينا الآن أن نفكر في السفر بسرعة ...سأذهب الآن خلفه وأحاول ترضيته بأي طريقة حتى نكسب بعض الوقت.

زفرت بقوة وهي تشيح بوجهها ثم هتفت باعتراض:

_الهروب ثانيةً؟!!أنت لا تفكر سوى بهذه الطريقة!!!

ضغط وجهها بين راحتيه أكثر وهو يهتف بنفاد صبر:

_لا توجد طريقة سواها ...أنتِ لا تفهمين أبي مثلي.

هزت رأسها بعدم اقتناع فاشتعلت عيناه ليصرخ بجنون هذه المرة:

_ستسافرين معي يا جنة حتى ولو رغماً عنكِ!

انتفض جسدها مع صراخه لكنه دفعها ببعض القوة وهو يردف بانفعال:

_ابقي هنا ولا تتحركي حتى أعود ...سأذهب لتهدئة الأمور معه حتى أتبين ما ينتوي هو فعله.

أعطته ظهرها وهي تكتف ساعديها هاربةً من لقاء نظراته...

فزفر بقوة ثم غادر الشقة بخطوات مندفعة دون أن ينتظر ردها...

استقل سيارته بسرعة وهو يتخذ طريقه لبيت والده متأملاً أن يكون قد عاد إلى هناك...

وصل إلى باب حديقة القصر حيث كانت الآن -بعد الحفل- مظلمة بعد طول تألقها بالنور...

تماماً -كقلبه-الآن!!

ليستقبله حارس الأمن على البوابة مخبراً إياه بأن والده لم يعد بعد!!!

خبط على مقود السيارة بعنف وهو لا يدري ماذا يفعل...

حتى هداه تفكيره لأن ينتظره بالداخل حتى يعود...

لكن الساعات مرت به بطيئة متثاقلة وهو غارق في خوفه وعجزه...

ترى ما الذي ينتوي والده فعله معه ومع جنة؟!!

وإلى أي حد سيصل بعقابه لهما؟!!

بالتأكيد سيطلب منه تطليقها...وليته يكتفي بهذا فقط...!

انقبض قلبه أكثر عند خاطره الأخير لكن ما كان يطمئنه قليلاً أن الانتخابات على الأبواب...

وأن جاسم الصاوي لن يخاطر في هذا التوقيت بأي مجازفة تؤذي سمعته!!!

ومع هذا هو لا يأمن مكره...

فقد رأى منه الكثير طوال هذه السنوات التي عمل فيها معه...

لهذا هو يرى الخروج من دائرة سطوته هو الحل الأسلم...

ليس جبناً كما ترى جنة ولكن حسن تقدير لموقفه!!!

وعند ذكر جنة عاد قلبه يخفق بقوة وهو يتردد بين بقائه لانتظار والده حتى يمتص غضبه -مؤقتاً-بأي ترضية...وبين العودة لجنة حتى يهدئ مخاوفها هي الأخرى!!!

فاستقر على انتظار والده حتى الفجر وبعدها سيعود إليها حتى ولو لم يقابله...

لكن الوقت مر ولم يعد جاسم الصاوي بعد...

فاضطر هو للعودة إلى جنة وهو ينتوي تعجيل ما كان يفكر به من أمر السفر في أقرب فرصة!!

لكن مفاجأة قاسية كانت تنتظره في بيتهما عندما عاد...

فالمكان كان خالياً تماماً وعليه آثار اقتحام بالقوة...

نعم...جنة لم تكن هناك...لكن هذا لم يكن أسوأ ما في الأمر...

بل قطرات الدم التي تناثرت على الأرض بغزارة والتي هوى معها قلبه صريعاً!!!

==========

_ماذا حدث يا أمي؟!!

هتف بها حسام بجزع وهو يدخل عليها غرفتها قرب منتصف الليل...

فوضعت سبابتها على شفتيها في إشارة له أن يصمت وهي تشير بعينيها نحو دعاء التي كانت نائمة في وضع الجلوس على كرسيها جوار فراش والدته!

انعقد حاجباه بضيق وهو يهمس بخفوت:

_ماذا تفعل "هذه" هنا الآن؟!

هزت والدته رأسها بأسف من فظاظته ثم همست بصوت خفيض:

_لقد فاجأتني الأزمة منذ ساعات...الله وحده يعلم ماذا كان مصيري سيكون لو لم تكن هي معي...هاتفك كان مغلقاً لكنها تصرفت باقتدار...هاتفت هي الطبيب الذي جاء ليتفحصني ثم كتب لي دواءً جديداً جلبته لي بنفسها...ورفضت أن تغادرني حتى تعود أنت.

انعقد حاجباه بقلق ثم رمق تلك- النائمة - بنظرة عابرة قبل أن يجلس على طرف الفراش هامساً بتوتر:

_المهم...كيف حالكِ أنتِ الآن؟!!ماذا قال الطبيب بالضبط؟!!سأهاتفه بنفسي لأطمئن.

أومأت برأسها وهي تهمس برضا:

_لا داعي للقلق يا ابني...الحمد لله مجرد أزمة عابرة.

زفر بخفوت ثم غرس أنامله في شعره هامساً بأسف:

_انهمكت في عملي كالعادة ونسيت الهاتف مغلقا.

ابتسمت والدته وهي تربت على كتفه لتقول محاولةً تحسين الأمور :

_لا بأس يا ابني...زوجتك قامت بالواجب.

مط شفتيه باستياء وهو يشيح بوجهه فأردفت المرأة بامتنان:

_لقد كنت أخاف أن يدركني الموت قبل أن أطمئن عليك...لكنني ما عدت خائفة...دعاء فتاة ممتازة...اعتني بها يا حسام.

لكنه عاد يزفر زفرة مشتعلة دون أن يرد...

عندما وصله همس والدته الحنون:

_لقد نامت الآن لتوها...المسكينة تعبت معي طوال هذا اليوم.

عاد يختلس نظرة خاطفة نحو دعاء ثم قام ليعدل وضع رأسها المائل على ظهر الكرسي ليهمس مخاطباً والدته:

_دعيها إذن تنام جوارك على الفراش .

لكنه لم يكد يتم عبارته حتى فتحت دعاء عينيها فجأة لتنتفض من مكانها عندما التقت عيناها بعينيه الصقريتين ...

قبل أن تضع كفها على صدرها محاولةً تدارك خوفها...!!!!!

فهتفت والدته بجزع:

_بسم الله الرحمن الرحيم...لا تخافي يا ابنتي...حسام عاد لتوّه وكنا نشفق عليكِ من نومتكِ هكذا على الكرسي.

تمالكت دعاء انفعالها وهي تطرق برأسها هامسة بصوت لاهث:

_لا بأس يا عمتي...مادام حسام قد عاد سأتصل بأبي ليأتي كي يصطحبني إلى المنزل.

رمقها حسام بنظراته الصقرية دون رد...

بينما قالت والدته برجاء:

_تناولي عشاءكِ مع حسام أولاً وبعدها سيوصلكِ هو إلى منزلك .

انتقل كفها من على صدرها إلى رأسها الذي كان يضج الآن بصداع عنيف ثم غمغمت بصوت لم يغادره النعاس بعد:

_شكراً يا عمتي...لا أشعر بالجوع .

عاودت المرأة توسلاتها الحنون بينما وقف حسام يراقبها بنظراته الصقرية وقد بدا عليه عدم الاكتراث بكل هذا...

ثم تناول هاتفه ببرود ليتصل بوالدها فعلا صوته وهو يقول بلهجته بالغة الأناقة والتهذيب:

_شكراً لسماحك لدعاء بالبقاء مع والدتي يا عمي...لقد أجدتَ تربيتها حقاً...لا ...لا...لا تتعب نفسك..أنا سأقوم بتوصيلها بنفسي بعد قليل...تصبح على خير يا عمي.

رمقته والدته بنظرة حنون وقد أساءت تأويل تصرفه على أنه اهتمام!

وحدها دعاء تطلعت إليه بيأس ممتزج بخيبتها وهي تدرك مغزى تصرفه...

مجرد إثبات ملكية لدميته المعيبة !!

فتنهدت بحرارة ثم وقفت مكانها تنتظر دورها التالي في هذه المسرحية العبثية التي يُفترَض أن تقوم فيها بدور بطولة!!!

بينما تقدم هو منها ليتملك كفها بأنامله متجاهلاً النظر إليها وهو يقول لوالدته برفق:

_استريحي أنتِ يا أمي...أنا سأعد معها العشاء لنتناوله معاً ...هل تريدين أنتِ شيئاً؟!

هزت المرأة رأسها نفياً ثم انساب لسانها بدعواتها الصادقة لهما...

بينما أطرقت دعاء برأسها وهي تسير معه باستسلام نحو المطبخ حيث وقفت أمام "الميكروويف" لتبدأ في تسخين الطعام...

عندما عقد هو ساعديه مستنداً بكتفه على الباب ليقول بلهجة مستفزة:

_أريد "بطاطس" محمرة!!

كظمت غيظها بصعوبة وهي تسبّ -سراً- ذاك الوقح الذي يطلب منها الآن الوقوف لقلي "البطاطس" في هذه الساعة من الليل وهي -بالكاد- تقف على قدميها بعد عناء الساعات السابقة مع والدته...

لكنها كانت تعلم أنه يحاول استفزازها قدر استطاعته ليكسر روحها أكثر...

وهي قررت الصمود في هذه المعركة للنهاية...

لو كان هو لا يريدها زوجة بل مجرد " واجهة اجتماعية"...فهي -الأخرى- لا تطمح في أكثر من هذا!!!

كلاهما وجد حاجته لدى الآخر...مجرد ستار !!!

لهذا توجهت نحو ركن المطبخ لتحضر بعض "البطاطس" لتقشيرها بينما شرد هو فيها ببصره يتأملها للحظات وقد ذكرته وقفتها هذه ب"طيفه" القديم...

قبل أن ينسحب ذهنه تدريجياً لإحدى ذكرياته معها...

وبالتحديد ...أول لقاء له ب"طيفه" الساحر الذي لوّن حياته البيضاء بألوان"قوس قزح" ثم تركه فجأة ليدعها مجرد صورة باهتة بلا حياة...

ليلتها كان عائداً في إجازة قصيرة ليفاجأ بهذه الفتاة مع والدته التي أخبرته أنها جلبتها لتساعدها في شئون المنزل...

لكن الفتاة لم تبدُ أبداً كالخادمات...

ورغم أنها لم تكن جميلة بما يكفي لجذب انتباهه بل بدت كصبي عابث في ثيابها "المسترجلة"...

لكن شيئاً ما بوجهها لفت انتباهه..

عيناها!!!

عيناها كانتا مشتعلتين ببريق قوة آسر بدا له وكأنه يتحدى الكون كله أن يطفئه!!

وهو كان مولعاً بالتحديات!!!

لهذا ما كادت تسنح له فرصة عندما جاءته بكوب الشاي -في غرفته-والذي طلبه منها متعمداً بعد نوم والدته...حتى حاول استغلالها أو -هكذا كان يظن-!!!

عندما وضعت هي الكوب ب-حسن نية- على مكتبه وأعطته ظهرها لتنصرف ....

ففوجئت بها يسحبها ليجلسها على ساقيه فجأة مكبلاً حركتها بذراعيه وهو يهمس جوار أذنها بمكر:

_أحضرتِ الشاي دون كعك...وأنا أحب ال"تحلية" معه!!

انكمشت بين ذراعيه وهي تتوسله همساً أن يتركها وشأنها لكن صوتها -الذي لم يسمع في حياته أرق منه- أثاره أكثر..

فانسابت قبلاته على رقبتها ليغرق في نشوة إحساسه بها قبل أن يصرخ بحدة وهو يشعر بالألم الحارق في ساقه ليفاجأ بها قد تحررت من أسره بعدما سكبت كوب الشاي الساخن عليه!!!

وقتها اشتعل وجهه بالغضب وهو يطلق سباباً عالياً وقد همّ بضربها...

لكنها اندفعت تغادر حجرته بسرعة لتعود لغرفتها مغلقةً بابها خلفها بالمفتاح!!!

ليلتها توعدها بانتقام يوازي فعلتها لكنها كانت تتجنب الاحتكاك به محتميةً بوالدته وبباب غرفتها المغلق دوماً بمفتاحه حتى انتهت أجازته القصيرة ليعود لدراسته ...

وقد كاد ينساها تماماً في هذه الفترة بعدها لكن ذاك "الحرق" -الذي احتاج علاجاً لأيام والذي استحى أن يعرف أحدٌ ما عن سببه- كان يذكره بها ...

وبانتقامه الذي وعد نفسه به...

حتى عاد في تلك الإجازة بعدها ليجدها على حالها من تجنبها له وإن حملت نظراتها -القوية-شيئاً من القسوة التي لم يفهم سببها وقتها...

لكنه أدركه فيما بعد...

عندما أخبرته والدته عن ظروف نشأتها وأنها مجرد ابنة غير شرعية هربت بها والدتها بعدما رفض والدها الاعتراف بها وخافت بطش أهله من بعده...

ساعتها أدرك -هو- مغزى نظراتها التي لو كانت نطقت لصرخت به أنها لن تسمح أبداً أن تكون ضحيةً كوالدتها...

وأنه -هو ومن مثله- هم الذين دفعوها لمصير كهذا!!!

لهذا شعر نحوها بشئ من الشفقة وتأنيب الضمير وهو ما جعله يتجنبها هو الآخر لبعض الوقت...

حتى جاء يومٌ لمحها وهي تحمل سجادة كبيرة لا تتناسب مع حجمها الصغير فوق كتفها وقد بدا أنها في طريقها للصعود نحو سطح البيت حتى تنظفها...

لم يستطع منع ابتسامته العابثة وقتها وقد غلب شعوره نحوها بالفضول أي شعور آخر...

وقف على باب السطح يراقبها خلسة وهي ترمي بالسجادة المطوية على الأرض لتزفر بتعب واضح...

قبل أن تعاود فردها باجتهاد واضح متأهبةً لتنظيفها...

اتسعت ابتسامته العابثة وهو يراقب مفاتنها بتسلية وقد بدت له في ضوء النهار أكثر أنوثةً من ذاك "الصبي المسترجل" الذي سكب الشاي على ساقه منذ أيام!!!

نعم...حركاتها العفوية رغم بساطتها الآن كانت في عينيه بمنتهى الإغواء...

خاصةً عندما أنهكها التعب أخيراً فجلست على السجادة نفسها على ركبتيها ثم رفعت عينيها إلى السماء المشرقة الآن بنظرة حملت كثيراً من الأمل...

قبل أن تخفض رأسها لتستخرج من طيات ملابسها شيئاً ما جعل عينيه تضيقان بترقب قبل أن تتسعا في ذهول...

فقد كان هذا الشئ...كتاباً!!!

نعم...الصبية "المسترجلة" تجيد القراءة على ما يبدو..

لكن...تري ماذا عساه يكون هذا الكتاب؟!!

زادت دقات قلبه جنوناً عندما لمح ابتسامتها التي ولدت على شفتيها كرضيع برئ...

ثم اتسعت رويداً رويداً وعيناها تجريان على سطور كتابها بنهم وقد بدا وكأنها قد نسيت كل شئ حولها عدا ذاك العالم الذي انطلقت روحها بين سطوره...

لم يدرِ كم مر عليه من الوقت يراقبها وهو يجاهد نفسه كثيراً في عدم الاقتراب...

حتى فوجئ بها تستلقي على ظهرها في أريحية وقد غرها خلو المكان لتستأنف قراءتها بنفس الابتسامة الحالمة...

ثم ضمت الكتاب لصدرها بقوة قبل أن تتنهد بحرارة وهي تغطي به وجهها ليرتخي جسدها كله بعدها وكأنها راحت في سبات عميق...

هنا...

لم تعد له بقية من مقاومة...

اقترب منها ببطء حتى جثا على ركبتيه أمامها...

ثم اختطف الكتاب من على وجهها بغتة !!!

صرخت بقوة وهي تنتفض جالسةً مكانها ثم وضعت كفها على صدرها وقد احتل الذعر ملامحها...

حتى أن أنفاسها اختنقت تماماً في حلقها وهي تنظر إليه برعب!!!

فابتسم وهو يشير لها بكفه إشارة مطمئنة ثم قال ببعض الخبث:

_ومادمتِ جبانةً هكذا فلماذا تتصرفين بهذا الطيش؟!

ارتجف جسدها بقوة خوفها وهي تشعر أن وجوده معها الآن وحدهما لن يمر على خير...

حاولت الوقوف لتفر هاربة لكن جسدها كله كان متجمداً مع نظراتها التي تعلقت بعينيه في مزيج غريب من القسوة والبغض والخوف...

فالتمعت الدموع بعينيها مع انتفاضة جسدها القوية حتى خشي- بحق- عليها ...فقال برفق:

_اهدئي...لن أفعل بكِ شيئاً.

تحررت دموعها من سجون عينيها ولازالت أنفاسها مختنقةً رعباً...

ومع هذا وجدت بنفسها بعض القوة لتغمغم بصوت مرتجف:

_ماذا تريد؟!

أمال وجهه بتسلية وهو يقول بلهجة تقريع:

_هل جئتِ هنا لتنظيف السجادة أم للجلوس تحت الشمس؟!!

ثم اقترب بوجهه من وجهها ليهمس بلهجة تهديد:

_ماذا ستفعل بك السيدة لو علمت أنك تهملين تنظيف المنزل لتضيعي وقتكِ في هذه التفاهات؟!

قالها وهو يلوح بالكتاب في يده...

فرفعت ذقنها بكبرياء غريب لتهتف بثقة وقد استعادت المزيد من قوتها:

_السيدة تعلم...وتشجعني على هذا أيضاً.

ارتفع حاجباه بدهشة للحظة ثم ابتسم بعبث وهو يقترب بوجهه أكثر هامساً بخبث:

_وماذا كنتِ تقرئين في هذا الكتاب ليجعلكِ تشردين هائمةً هكذا؟!!قصة حب؟!!

توردت وجنتاها بحمرة قانية وقد ألجم الحياء لسانها...

مما شجعه ليقترب أكثر هامساً جوار أذنها بحرارة:

_أخبريني فقط ماذا كان يفعل البطل وأعدكِ أن أحول الخيال لواقع!

شهقت بحدة من وقاحته ثم هبت واقفة لتغافله بسرعة هروبها التي لم يحسب حسابها...

هب واقفاً بدوره محاولاً اللحاق بها لكنها كانت وكأنها تحولت لآلة عدو سريع....!!!

زفر للحظة في ضيق ثم لم تلبث ملامحه أن تراخت وهو يقلب الكتاب في يده بتفحص...

لينعقد حاجباه بعدها في إدراك...

لا...لم تكن رواية عاطفية كما تصور...

بل.. قصة كفاح...!!!!

نعم...قصة كفاح فتاة فقيرة بدأت من القاع حتى وصلت إلى القمة...

عاود جلوسه على الأرض من جديد وهو يقلب الصفحات بنهم ليفاجأ بتعليقات على الهوامش بدت وكأنها هي من كتبتها...

تعليقات منحته انطباعات كثيرة عما قاسته طوال أيامها السابقة ...

وليس هذا فحسب!!!

بل وما تعزم على الوصول إليه أيضاً!!!

ليبتسم بإعجاب وهو يقرأ ما كتبته هي عند نهاية الرواية...

_يوماً ما سيكون الماضي مجرد صخور ملقاة على الأرض بينما أكون أنا في السماء... جارة للقمر أمسك النجوم بكفي وأضحك...!!

ساعتها فقط دق قلبه دقة غريبة لم يعرفها من قبل...

دقة أخبرته أن هذه الفتاة مميزة...مميزة حقاً!!!

أفاق من شروده عندما رأى لهيب النار يرتفع أمام الموقد الذي وقفت أمامه دعاء متجمدة وقد داهمتها إحدى نوبات شرودها -المرضية- والتي ازدادت مؤخراً...

فهتف بحدة:

_انتبهي!

قالها وهو يندفع نحوها ليجذبها بعيداً ويغلق الموقد بسرعة قبل أن يغطي الإناء المشتعل بمنشفة كبيرة حتى خمد لهب النار...

التفتت نحوه دعاء بدهشة وقد أفاقت-لتوها- فازدردت ريقها بصعوبة متمتمة:

_ماذا حدث؟!!

عقد حاجباه بغضب وهو يقول بانفعال:

_أنتِ مصيبة متحركة!

دمعت عيناها تأثراً بإهانته وهي تمسك معصمها المحمر والذي كان قد طاله اللهب...

فزفر بقوة وهو يدفعها بخشونة ليضع معصمها قهراً تحت ماء الصنبور البارد لدقائق قصيرة حتى هدأ احمراره...

قبل أن يقول بنفس النبرة المستفزة:

_حافظي على نفسك جيداً...أنا فقط من يملك حق إيلامك.

أغمضت عينيها وهي تحاول كتم دموعها...

بينما مسح هو معصمها بمنشفة ناعمة ثم تفحصه قليلاً...

قبل أن يقول بغلظة:

_بسيطة!

ثم أردف بتهكم قاسٍ:

_كنتِ تستحقين المزيد من الألم!

نزعت معصمها منه برفق وهي تتجاهل إهانته بتصميم بارد...

لتطرق برأسها في جمود...

فيما تفحصها هو ببصره للحظات قبل أن يسألها باهتمام:

_لماذا تذهبين إلى قصر عاصي الرفاعي؟!

لم ترفع رأسها نحوه وهي تجيبه بآلية :

_زوجته صديقتي.

ابتسم متهكماً ليقول متعمداً إهانتها:

_تلك الممرضة اللعوب التي أدارت رأس عاصي الرفاعي صديقتك؟!! بالتأكيد...مستغلةٌ مثلك...الطيور على أشكالها تقع.

ابتلعت إهانته من جديد بصبر بينما أردف هو بقسوة مغموسة بالكراهية:

_ولو أنه يستحق ما هو أسوأ...يبدو أن صديقتكِ هذه ستكون أول مسمار يدقه بنعشه!

رفعت إليه عينيها بدهشة وهي تتأمل القسوة المغروسة في ملامحه...

هي تعلم أن جميع أهل المدينة يخافون عاصي الرفاعي وأغلبهم يبغضونه...

لكن هذه النبرة المختنقة بالمرارة توحي بعداء شخصي بين حسام وعاصي....

ترى ما سببه؟!!!

لكنه التفت نحوها ليقطع أفكارها قائلاً بازدراء:

_هل هناك فتاة محترمة يوافق أهلها أن تبقى حتى هذا الوقت المتأخر في بيت خاطبها؟!

حافظت على إطراقها الصامت للحظات قبل أن تقول ببرود ذبيح بألمه:

_نعم...أهلي يفعلونها إكراماً للزوج المثالي المنتظر الذي سيكفيهم هَمّ ابنتهم المريضة.

ابتسم بسخرية قاسية وهو يرفع ذقنها إليه هامساً:

_وأنتِ لماذا فعلتِها؟!! تظنين أنكِ بهذا ستخدعينني وترققين قلبي عليكِ؟!!

ابتسمت بسخرية مشابهة وهي تبتعد بوجهها عن أنامله لتلقي سهمها في عمق جرحه:

_قلبك؟!!قلبك مات معها!!

انعقد حاجباه بغضب وهو يمسكها من مرفقها هاتفاً بحدة:

_من تقصدين؟!!

اقتربت منه خطوة لتنظر في عمق عينيه هاتفة بثبات:

_تلك التي تنتقم مني لأجلها...لأنك تراني أنا صورة من غدرك القديم!

اتسعت عيناه في دهشة لم تلبث أن تحولت لغضب صارخ...

فيما نزعت هي مرفقها منه لتردف بنفس النبرة الثابتة:

_لا دخل للقلوب في علاقتنا يا سيادة الرائد...كلانا لا يرى في الآخر سوى مجرد صفقة...وأنا قبلت!

======

كان عبد الله يصعدالدرج نحو شقته عندما فوجئ بها تغادرها نحو غرفتها السفلية والتي كانت للبواب القديم قبل أن تتخذها هي للسكن مع صغيرها منذ عملت لديهم قبل بضعة أيام...

تنحنحت بحرج عندما التقت عيناها بعينيه لتهمس بخفوت:

_السلام عليكم يا شيخ!

رد السلام بفتور وهو يشيح بوجهه قبل أن يتنحى ليفسح لها الطريق وهو يشعر بنفس الضيق الخفي الذي يراوده كلما رآها...

ربما لهذا الصراع الذي يجد نفسه عالقاً فيه وتلك المرأة بالذات تواجهه بكل أسلحتها -دون قصد-وترفع في وجهه كل نقاط ضعف علاقته بصفا..

فتنتها الساحقة أمام جمال صفا المحدود...

ضعف احتياجها له أمام غنى صفا وتميزها عنه...

وأخيراً اكتمال أنوثتها بأمومة حرمت الأقدار صفا منها!!!

زفر بقوة وهو يتذكر كيف ساءت الأمور مؤخراً بينه وبين صفا ...

حتى بعد استجابته لتوسلاتها وعودته للمنزل عقب زيارتها له في المحل ظل كلاهما على ابتعاده...

شئٌ ما بينهما قد فُقد وقد فشل كلاهما في العثور عليه...

نعم..لأول مرة تفقد صفا مهارتها العتيقة في احتواء غضبه بحنانها منشغلةً عنه بعالمها الجديد!!

قطع أفكاره قسراً وهو يفتح الباب لتستقبله صفا بابتسامة حذرة وهي تتقدم نحوه لتحتضنه هامسةً :

_حمداً لله على سلامتك يا حبيبي.

ربت على ظهرها برفق وهو يطبع قبلة سريعة على وجنتها ...

فرفعت عينيها إليه لتهمس برقتها الفطرية:

_بدّل ملابسك بسرعة قبل أن يبرد الطعام.

أومأ برأسه دون كلام وهو يتوجه نحو غرفتهما صامتاً مكبلاً بأفكاره...

حتى جاورها على مائدة الطعام بعد دقائق ...

سمّى الله جهراً ثم بدأ بتناول الطعام أمام نظراتها المتفحصة...

لكنه ما كاد يمضغه حتى عقد حاجبيه وهو يقول بضيق:

_هذا ليس طعامك!

تنحنحت بحرج وهي تقول بما يشبه الاعتذار:

_لقد تأخرت اليوم في المدرسة وفتون -جزاها الله خيراً- هي التي تولت إعداد الطعام!

ألقى الملعقة من يده بعنف على المائدة وهو يكز على أسنانه بغضب...

فأردفت بنبرة آسفة:

_صدقني رغماً عني...إحدى الطالبات كانت على وشك الاختطاف من أمام باب المدرسة لولا لطف الله...والوقت مرّ ونحن...

خبط على المائدة بكفه وهو يهتف بغضب حاد:

_لا شأن لي بكل هذا.

قالها وهو يقوم من مكانه فقامت بدورها لتسرع نحوه قبل أن تمسك ذراعه هاتفة برجاء:

_أكمل طعامك يا عبد الله...وأعدك أن تكون آخر مرة.

حرر ذراعه منها بعنف وهو ينظر إليها طويلاً قبل أن يقول بعتاب وخز قلبها:

_طوال هذه السنوات لم آكل طعاماً إلا من يديكِ أنتِ!!

دمعت عيناها وهي تربت على كتفه هامسة :

_لا داعي لكل هذا الغضب ...مجرد ظرف طارئ!!

التوت شفتاه في ابتسامة ساخرة وهو يقول بمرارة:

_ظرف طارئ؟!!حياتنا كلها صارت مجرد ظرف طارئ...أنا لم أعد أجدك حولي...وكأن حاجتك إليّ انقطعت بمجرد انغماسك في عالمك مع أطفالك.

شهقت بعنف ثم اقتربت منه أكثر لتتعلق بعنقه وهي تدفن وجهها في صدره هاتفة بعتاب حنون:

_بعد كل هذه السنوات تقول هذا؟!!هل جاء اليوم الذي أحتاج فيه لتقديم برهان على حبي يا عبدالله؟!!

تنهد بحرارة مكتفياً بصمته المحترق...

بينما رفعت هي إليه عينين مذنبتين وجزءٌ منها يعلم -بل يوقن- أنه على حق!!

تكذب لو قالت أن شعورها به الآن كالسابق..

تحبه...نعم تحبه...

بكل ذرة في كيانها تفعل...لكن...!!!

لم يعد جنوناً أقرب للهوس -كالسابق- بل أخذ مكانه الطبيعي في قلبها عندما روت ظمأ أمومتها بنوع آخر من العاطفة...

والمشكلة أن عبد الله اعتاد حنانها المسرف هذا ويرى الآن كل ما هو دونه انتقاص من قدره لديها...

فماذا عساها تفعل؟!!

ويبدو أنه قد فهم ما كان يجول بخاطرها فقد أبعدها برفق ليهمس بنبرة لائمة:

_معكِ حق...لم أحتج يوماً لبرهان على حبك...ولو أتى هذا اليوم الذي أحتاجه فيه فهذا سيعني أنه حقاً ما عاد موجوداً!!

عضت على شفتها بتوتر بينما أعطاها هو ظهره ليتوجه نحو غرفتهما ...

حيث تمدد على سريره يطالع السقف بشرود...

وهو يشعر أن روحه تتسرب منه ببطء...

وكيف لا...وصفا تبتعد عنه في كل يوم أكثر مما قبل...

يحبها؟!!

هو لا يدري..

ولم يتوقف يوماً ليسأل نفسه هذا السؤال...

هل يُسأَل المرء عن عشقه لأمه...

أو..لوطنه...؟!!

هذه هي صفا المعموري لديه بالضبط...

أم...ووطن!!

حتى ولو غلبه شيطان غريزته يوماً وسوّل له الانتقاص من قدرها كأنثى...

تبقى هي بعينيه في مكانة لا يجوز معها السؤال عن عشق أو غرام...

هي أسمى من هذا ...

هي -صفا روحه- باختصار مهما -عكرتها- شوائب الحياة!!!

لكن -الغافلة-لا تدري كم يكافح شيطان روحه فيما يتعلق بتلك التي أدخلتها بيتهما...

فتون التي صارت فجأة مسئولة عن كل شئون البيت...

تلك "الفتنة" التي يخشى على نفسه منها في كل يوم يشعر أنها تشغل فراغاً كان ل"صفا" يوماً...

ملابسه التي تغسلها وتكويها وتعلقها مكانها في خزانة ملابسه فيجد نفسه كل يوم يجاهد خيالاته -الجامحة- بملمس أناملها عليها ....

وفراشه الذي ترتبه بلمستها قبل أن تعطره بعطر مِسكيّ خاص يثير جوارحه كلها والذي لم تكن صفا لتختاره أبداً...

وأشياؤه التي ترصها له بطريقة -شبه فوضوية تشبه مشاعره نحوها- بخلاف طريقة صفا بالغة التنظيم والدقة...

جهادٌ كبير صار يحياه بين امرأة يشتهيها كجسد...وامرأة تسكنه كروح ويسكنها هو كوطن !!!

توقف هدير أفكاره عندما شعر بها جواره على طرف الفراش فأشاح بوجهه صامتاً...

بينما اقتربت صفا منه أكثر لتمسد كتفيه بأناملها كعادتها بعد رجوعه من عمله آخر اليوم...

تلك العادة التي حافظت عليها لسنوات لكنها نسيتها مؤخراً في خضم انشغالها بعالمها الجديد...

فتأوه بخفوت وهو يغمض عينيه مستسلماً لدفء حركاتها...

حتى اقتربت بوجهها أكثر لتنثر قبلاتها الناعمة على وجهه هامسةً بمزيج حنانها ودلالها الآسر:

_أنت ابن قلبي الأول يا عبدالله..لا تنسَ هذا أبداً مهما حدث بيننا.

فتح عينيه ببطء ليلتقط نظراتها الهائمة والتي اصطبغت باعتذارها لتمتد أنامله فتتشبث بعنقها من الخلف كي تبقي وجهها ملتصقاً بوجهه قبل أن يهمس بعتاب :

_لم أعد أقنع بلقب ابن قلبك الأول هذا!! أريد أن أكون الوحيد!!

ابتسمت بحنان وأناملها تداعب لحيته برقة هامسة بين شفتيه:

_الأول...والوحيد...والأغلى!

انتهت همساتها ذائبة كالشمع بلهب قبلاته التي حملت لها شعوره الجارف بالاشتياق...

بينما هو غرق هو بكليته في إحساسه بها كعادته...

لكن رائحة ذاك العطر المسكية -الجديدة- التي التصقت بفراشه متملكة أنفه بل كل جوارحه بدت وكأنها تسربت لخلاياه كلها...

جعلته لا يرى بين ذراعيه صفا روحه بل...امرأة أخرى سواها!!

امرأة زينها له -شيطان-خياله بأروع ما تكون لتستحق عن جدارة ذاك الاسم الذي لم يكن يليق بها سواه!!!

نعم...فتون!!!

بينما كانت صفا تشعر بشيءٍ مختلف معه هذه المرة...

لمساته كانت أكثر قسوة وعنفاً وكأنه يعاقبها على ذنب لا تعرفه...

أو ربما تعرفه وتكابر!!!

نعم...هي تعلم أنها تتمادى كثيراً في انغماسها بعالم أمومتها الجديد....

لكنها لا تستطيع التوقف...

ومن يلومها؟!!!

وهل يُلام الظمآن لو استسلم لرِيّ عطشه؟!!!

لكن أفكارها انقطعت بحدة عندما فوجئت به يدفعها بعنف هاتفاً:

_لا...ابتعدي!!!

شهقت بعنف وهي تبتعد عنه مجفلةً بينما علا صوته باستغفار لاهث للحظات قبل أن يدفن وجهه بين كفيه صامتاً...

وبركان أفكاره العاصف يقذفه بحمم من لهيب!!!

ما بين رغبته التي تتأجج في تلك "الفاتنة" التي استعمرت خياله...

وبين تأنيب ضميره نحو صفا روحه التي لا تستحق مثقال ذرة من خيانة ولو بالخيال!!!

وفوق كل هذا شعوره بالذنب أمام خالقه وقد أقسم على نفسه من قبل بتوبة لا انتكاس بعدها!!!

لهذا ظل يتمتم باستغفاره في خفوت قبل أن تهمس هي بدهشة ممتزجة بالقلق:

_ما الأمر يا عبد الله؟!!أنت غاضبٌ مني إلى هذا الحد؟!!

رفع عينيه إليها بنظراتٍ وجلة قبل أن يجذبها لصدره بعنف هامساً جوار أذنها بصوت متقطع:

_صفا...أنتِ لستِ فقط زوجتي...أنتِ...

قطع عبارته عاجزاً عن إكمالها لكن شعوره وصل قلبها صادقاً...

فرفعت وجهها إليه لتهمس بحرارة:

_طوال هذه السنوات وأنت لم تعترف لي بكلمة حب صريحة...لكنني كنت أقرأها بعينيك دون كلام...أنا أعرف قيمتي عندك يا عبد الله ...تماماً كما أعرف قيمتك عندي!

وخزت عبارتها قلبه أكثر فأبعدها عنه برفق ليتجاهل عبارتها عمداً وهو يغمض عينيه بألم هامساً:

_تصبحين على خير..أنا أرغب في النوم.

لكنها ربتت على وجنته برقة وهي تقول برجاء:

_ليس قبل أن تأكل...أي شئ...لأجل خاطري أنا!

فعادت عيناه تلتمعان ببريق حاد وهو يهتف وكأنه يتشبث بآخر خيوط مقاومته:

_لا أريد أن آكل إلا من يدكِ أنتِ !

ابتسمت بحنان وهي تلقي رأسها على صدره فربت على ظهرها برفق وهو يهمس بشرود :

_طوال عمري يا صفا...لا أريد أن تعتني بي امرأة غيرك ولو بمجرد وجبة طعام!

ضحكت بسعادة وهي تتشبث بعنقه هامسة بحب:

_هذا هو عبد الله الذي أعشقه...مهما غضب مني يصفو بلحظة ليعود ويدللني كطفلته.

ابتسم ابتسامة شاحبة وهو يعاود التربيت على ظهرها...

فابتعدت عنه لتقوم واقفة وهي تقول بمرح:

_سأعد لك أفضل وجبة تحبها الآن لكن لا تلزمني بوقت....اختر ما تشاء!

ظل ينظر إليها طويلاً وكأنه يستمد من ملامحها السكينة التي يحتاجها...

والقوة لمجاهدة شيطان نفسه...

قبل أن يبتسم ابتسامة حقيقية هذه المرة وهو يقول بصدق:

_أي شئ يا صفا...المهم أن يكون من يديكِ أنتِ!

==========

كان جالساً على مكتبه في عمله الجديد يتابع أوراقه في اهتمام...

عندما شعر ببعض الملل فترك قلمه ليشرد ببصره غارقاً بأفكاره...

لقد استعاد بعض هدوء أفكاره مؤخراً بعدما استقر في عالمه الجديد مع رحمة...

واستكانت جروح روحه نوعاً بعدما أدرك خطأ ضعفه القديم وعزم على تغيير مستقبله...

لكن تبقى عقبة واحدة في طريقه لازال حائراً بشأنها...

نعم...ميادة!!!

ابتسم ببعض الحنين وهو يستعيد بعض ذكرياته معها لتنتابه رغبة -خفية-في الاطمئنان عليها خاصة مع ظروف مرضها الذي تخفيه عن الجميع والذي يعلم أنه يزداد شدةً مع انفعالها...

لكنه شعر بالحرج فهو لم يفكر في هذا منذ لقائهما الأخير والذي كان منذ أكثر من شهر...

فتردد قليلاً قبل أن يحسم أمره ويتناول هاتفه ليتصل بها ...

لكنه فوجئ برنة هاتفها -المميزة-تصدح جواره فرفع وجهه بسرعة ليجدها هي _نفسها-أمامه!!!

اتسعت عيناه بصدمة من المفارقة وهو يقف مكانه مذهولاً ليهمس :

_ميادة!

ثم أردف بابتسامة خفيفة وهو يرفع هاتفه أمامها:

_كنت أتصل بكِ لتوّي!!

لم تتغير ملامحها الجامدة وهي تتناول هاتفها من حقيبتها لتغلقه...

قبل أن تتلفت حولها لتطالع عيون زملائه التي اختلط فضولها بإعجابها ثم عادت تنظر إليه بجمود قائلة:

_أريد التحدث معك!

تلفت هو الآخر حوله ببعض الحرج ثم دعاها للجلوس بإشارة من يده...فجلست واضعة إحدى ساقيها فوق الأخرى بينما سألها هو ببعض الدهشة:

_كيف عرفتِ مكان عملي؟!

رفعت نظارتها الشمسية على رأسها لتنظر إليه بقوتها المعهودة قائلة:

_عمي شاكر أخبرني...هو يراقب أخبارك من بعيد ليطمئن عليك!

انعقد حاجباه ببعض الضيق وهو يعاود سؤالها:

_هو الذي أرسلكِ إلى هنا؟!!

فالتوت شفتاها بابتسامة ساخرة وهي تميل رأسها مغمغمة بتهكم:

_ماذا تظنني بالضبط؟!!حمامة سلام؟!!

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يقترب بجذعه من المكتب أكثر قائلاً:

_إذن لماذا جئتِ؟!!

نظرت إليه نظرة غريبة لم يفهمها ثم قالت بمواربة:

_أخبرني أولاً لماذا كنت تتصل بي؟!!

تنهد بحرارة وهو يطرق برأسه ثم عاد يرفعه إليها ليعاود الحنان إبحاره في بحاره الزمردية وهو يهمس بصدق اخترق جدار قلبها المحصن:

_كنت أريد الاطمئنان عليكِ!

ومع هذا اتسعت ابتسامتها الساخرة وهي تهرب بعينيها منه قائلة بالانجليزية :

_حقاً؟!!ياالك من عطوف!!!

زفر بضيق وهو يحاول قراءة ملامحها الجامدة...

عيناها الجميلتان تبدوان ذابلتين رغم مغالاتها في تزيينهما...

وملامحها الشاحبة تفضح حزنها الذي فشلت مستحضرات التجميل في مداراته...

وشفتاها المطليتان ترتجفان لتمنحه أسوأ تأثير مع كل هذا وهو يتذكر ليلته الوحيدة معها...

ربما...لو لم يكونا الآن في مكان عمله لضمها بين ذراعيه وما سمح لها بالفكاك حتى يحررها من أسوار عنادها كلها لتسكب آلامها على صدره...

نعم...هو الآن لم يعد يراها تلك المرأة القوية الناجحة التي تجيد استغلال عقلها...

بل يراها تلك الطفلة التي هجرها أبواها فانزوت بركن قصيّ تبكي وحدها حتى كبر جسدها وعقلها...

لكن قلبها بقي على حاله...

قلب يتيم!!

أغمض عينيه بألم وهو يشعر بالحيرة نحوها تعاوده...

هو يتأرجح في شعوره بها بين فكرتين...

فكرة تبعده عنها وهو يراها مجرد قيد من قيود والده التي عزم على الخلاص منها كلها...

وفكرة تقربه منها وهو يراها رهان القدر الجديد على قوته التي يزعمها...

لقد خذل ماسة من قبل...فهل يخذل ميادة أيضاً؟!!!

وبين الفكرتين كان هو مشتتاً حتى انتبه أنها -هي- التي سترجح إحدى الكفتين...

لو اختارته حقاً فلن يخذلها...

لكن لو رأت أن تفارقه فسيعتبر هذا نهاية لكل هذا الصراع!!!

لهذا نظر في ساعته ليتبين الوقت...

عندما قالت هي وكأنها تثبت له أنها تمتلك دوماً زمام الأمور:

_موعد انصرافك بعد دقائق...سأنتظر حتى نغادر معاً لنتحدث في مكانٍ آخر بحرية.

رفع عينيه إليها بدهشة للحظة وهو يتبين أنها كعادتها تجمع كل المعلومات الممكنة لتجيد استغلالها....ثم ابتسم بإعجاب لا يدعيه وهو يهز رأسه ...

قبل أن يرفع سبابته في وجهها هامساً بحزم لم يغادره حنانه المعهود:

_حسناً...لكنني أنا من سيختار المكان!

عادت ابتسامتها الساخرة تحتل ملامحها لكنها تجمدت على شفتيها وهو يردف ببعض المكر:

_سنتناول الغداء مع أمي...فرصة مناسبة لتشاهدي عالماً لم تجربيه من قبل!

==========

_أنت تسكن هنا؟!!!

هتفت بها ميادة باستنكار وهي تتوقف بسيارتها أمام بيت رحمة في حيها الشعبي البسيط....

فكتم عزيز ابتسامته بصعوبة وقد بدأت اللعبة تروقه...

ميادة المرفهة صاحبة اللكنة الأمريكية تضع قدميها الآن على أحد الأحياء الشعبية البسيطة....

ثقافتها الأجنبية أمام هذا التراث العتيق ....!

تبرجها المحترف أمام نقاء وجوههم بمشاعرهم الصادقة...!!

ودلالها المنعّم أمام شقاء هذه الأجساد الكادحة التي -بالكاد-تجد لقمة عيشها.!!...

لقد تعمد إحضارها لهنا حتى ترى بنفسها طبيعة حياته الجديدة التي اختارها بنفسه حتى يخيرها على نور بين استمرار زواجهما...أو إنهائه...

لهذا صمت قليلاً ثم قال بجدية :

_نعم ...أقيم هنا...وأنا أكثر من راضٍ بهذا!!

ثم أردف بنفس الجدية المصطنعة:

_وأركب الحافلة العامة كل يوم أيضاً...وراتبي بالكاد يكفيني!!!

زفرت بحنق وهي تترجل من السيارة فترجل بدوره ليسير نحوها حيث اصطحبها للمنزل البسيط ...

لتستقبلهما رحمة بحفاوة شديدة وهي تضم ميادة إليها بقوة حنانها هاتفة :

_أهلاً يا ابنتي ...نورتِ بيتك!

أغمضت ميادة عينيها بتأثر وهي تشعر بحنان رحمة الصادق- والذي يشبه حنان عزيز- يمحو عنها كل مشاعرها السلبية التي تملكت قلبها منذ وصلت إلى هنا...

يبدو أن عزيز ورث قلب رحمة لكنه لم يرث قوتها...

على الأقل...حتى الآن!!!

لكنها كتمت تأثرها وانفعالاتها كالعادة لتبتعد بجسدها وهي تقول بنبرة متكلفة:

_شكراً لترحيبك...لكنه لم ولن يكون بيتي.

مط عزيز شفتيه باستياء وهو يرمق رحمة بنظرة اعتذار...

لكن رحمة نفسها كانت غافلةً عنه بتفحص ميادة بحكمتها...

قلبها يخبرها أن هذه الفتاة تخفي وجهاً آخر غير هذا الوجه الثلجي المتغطرس...

نظراتها المتعالية تخونها لتتسرب من بينها نظرة ألم واحتياج تعرفها -هي - جيداً...

نظرة تشبه نظرة ماسة قديماً!!!

لهذا ربتت على كتفها برفق وهي تسحبها من كفها متجاهلة عبارتها لتقول بنفس النبرة الحنون:

_تعاليْ يا ابنتي...الطعام جاهز .

ازدردت ميادة ريقها بتوتر وهي تشعر بشعور غريب وعيناها تدوران في المكان بتفحص...

شعور بالدفء تسلل لروحها ببطء متملك ليمنحها سكينة غريبة...

فالمكان على بساطته وتواضعه كان غاية في النظافة والذوق...

غريبٌ عن عالمها المبهرج بزينته وأضوائه...

لكنه مريحٌ لأبعد حد...

يشبه تلك المنازل القديمة التي كانت تراها على شاشة التلفاز في بيت جدتها وهي طفلة فتحسد ساكنيها على لمّتهم ودفء مشاعرهم المناقض لبرودة وحدتها...حتى

أنها لا تبالغ لو قالت أنها شعرت في هذه اللحظة أنها تود البقاء فيه للأبد!!!

نهرت نفسها عند فكرتها الأخيرة والتي تناقض ما جاءت للحديث بشأنه...

خاصةً عندما لمحت صورة ماسة بثوب زفافها معلقة هناك على الجدار فعادت لوجهها برودته وهي تقول بغطرسة:

_لم آتِ لتناول الطعام...أنا جئت للتحدث مع عزيز بشأن خاص!

عادت رحمة ترمقها بنظرات متفحصة بينما ضغط عزيز كفها في يده بقوة آلمتها وهو يقول لأمه بغضب مكتوم:

_سلمت يداكِ يا أمي...أنا حقاً جائعٌ جداً!

أطرقت رحمة برأسها للحظة ثم قالت بحنان لازال يطوق كلماتها:

_أنا سبقتكما بتناول طعامي كي آخذ دوائي...سأترككما لتكونا بحرية أكثر...لو احتجتَ شيئاً أخبرني!

قالتها وهي تتجه نحو غرفتها قبل أن تغلق بابها برفق...

فالتفت عزيز نحو ميادة هامساً بحدة:

_اسمعي...أمي بالذات خط أحمر...التزمي بالأدب معها وإلا...

ابتسمت بسخرية قاسية وهي تسحب كفها منه لتعقد ساعديها أمام صدرها قائلة:

_وإلا ماذا؟!!

انعقد حاجباه بغضب للحظات ثم دفعها نحو المائدة ليجلسها قسراً قبل أن يلوح بسبابته في وجهها قائلاً:

_أولاً...يا سيدة المجتمع الراقي...من باب الذوق أن تجيبي دعوة سيدة أتعبت نفسها لأجل إكرام ضيافتك.

احمر وجهها انفعالاً وهي تشعر ببعض الخجل عندما أدركت أنه على حق بينما أردف هو :

_وثانياً...أنتِ التي أتيتِ بقدميك إليّ لتتحدثي ...فاقبلي شروطي...وأولها أن تحترمي المكان الذي أنتِ فيه!

توهجت عيناها ببريق غضبها عندما انفرجت شفتاها وقد بدا أنها على وشك الانفجار في وجهه...

لكنها بذلت مجهوداً خرافياً للسيطرة على نفسها مكتفية بالإشاحة بوجهها المحتقن...

فزفر هو زفرة مشتعلة...

ثم سحب كرسياً ليجلس جوارها قبل أن يمد لها طبقاً فارغاً وهو يقول بلهجة آمرة:

_ماذا أحضر لكِ؟!!

ظلت على صمتها للحظات حتى ظن أنها لن ترد...

لكنها فاجأته بأن التفتت نحوه لتهمس بتوتر أثار دهشته:

_لن أستطيع حقاً يا عزيز...أنت تعرف مشاكل معدتي.

ملأ لها ملعقة من الأرز ثم قربها من فمها قائلاً بحزم:

_ولأنني أعرف مشاكل معدتك فيجب أن تأكلي الآن...الطبيب قال ألا تمر عليك ساعتان دون طعام.

أغمضت عينيها وهي تشعر بضعف غريب على ما ألفته بنفسها من قوة...

لكن ما العجيب؟!!

لقد تبدلت أحوالها مؤخراً كلها...

عقلها خذلها في حساباته وقلبها خذلها بمشاعره أكثر...

لحظة واحدة فارقة أطاحت بكل معادلاتها الحسابية وتركت لها مجرد صفر كبير في خانة اليسار!!!

بينما كان هو يتفحص ملامحها ليتبين هذا الألم الذي كسا وجهها فحملت لهجته بعض الرفق وهو يهمس بحنان:

_ميدا...كلي الآن ولا تفكري في شئ...سنتناقش لاحقاً في كل ما تريدين.

فتحت عينيها ببطء لتتعلق من جديد بزوارق عينيه الزمردية لتجد نفسها دون وعي تقترب بشفتيها من الملعقة التي لازال يضعها جوار فمها...

فتتناول منه الطعام ببطء وهي تشعر أنها تحتاج هذا الآن...

تحتاج هذا الاهتمام...وهذا الحنان...حتى ولو بلا مسمى...

تحتاج لأن ترتاح قليلاً من دوامة أفكارها التي ابتلعتها طوال أيامها السابقة...

هدنة قصيرة فقط من هذه المعركة التي استنفذت أغلب رصيد قوتها لتتركها شبه مُفلسة!!!

لكنها ما كادت تبتلعه حتى تذكرت ما جاءت لأجله فرفعت كفها أمام وجهه لتهمس ببعض الصلابة:

_يكفي هذا يا عزيز...!

وضع الملعقة جانباً وهو يشعر أنها حقاً ليست في حالتها الطبيعية....فأمسك كفها ليسألها باهتمام:

_ما الأمر يا ميدا؟!!لا تبدين بخير.

وكأنك تهتم يا عزيز!!!

لو كان شأني يهمك حقاً ولو بمثقال ذرة فلماذا تركتني كل هذه الأيام دون كلمة واحدة؟!!!

نبذتني من حياتك كما فعل والديّ من قبل...

هل العيب فيّ أنا؟!!!

هل هو قدري أن أبقى دونما أحد...

أم هي لعنة الوحدة التي أصابتني ولن يجرؤ قلبٌ على كسرها؟!!!!

لكن وبرغم كل شئ...أنا لن أنكسر...!!!

وبهذه المشاعر التي ملأتها تشبثت أناملها بكفه للحظة شعر هو بها جيداً...

قبل أن يستعيد عقلها سيطرته فسحبتها منه لتطرق برأسها وهي تحاول استجماع قوتها...

فتنهد هو قائلاً بحذر وهو يخشى إجابتها:

_جئتِ تطلبين الطلاق من جديد؟!!

رفعت عينيها إليه صامتة للحظات قبل أن تقول بتماسك :

_بل جئت أخبرك أننا لابد أن نكمل حياتنا معاً!!

اتسعت عيناه بدهشة وهو يشعر بالغرابة...

ليس فقط من طلبها...

لكن لأنها -هي - من تطلبه!!!

هو يعرف الكثير عن عنادها وكبريائها وما تفعله الآن لن تجرؤ عليه في ظروف عادية...

إلا إذا....!!!

راوده خاطر مزعج فنظر إليها بجمود متسائلاً:

_لماذا؟!

فتحت حقيبتها لتستخرج منها ورقة مطوية ناولتها له بحدة...

فالتقطها منها ليجدها صورة من تحاليل طبية قرأها بسرعة....

قبل أن تتسع عيناه بصدمة لم تلبث أن تحولت لغضب وهو يتأكد من هاجسه الذي راوده فهتف بتسرعه المعهود:

_هذه إذن خطتك الجديدة مع السيد شاكر؟!!تريدين إقناعي بأنك تحملين طفلي وأنا لم أقربكِ إلا ليلة واحدة؟!!!وبالطبع تريدين التأثير عليّ لأعود لوالدي حتى يتربى الطفل في عز جده ...صحيح؟!!

صمتت طويلاً ترمقه بنظراتٍ مزجت عتبها بكبريائها حتى شعر ببعض الندم...

بينما قالت هي أخيراً بنبرة قوية رغم ألمها:

_أنا لا أريدك زوجاً...ولن أفعل..أنا فقط أريدك أباً لابني الذي اقتضت الظروف أن يكون منك.

انعقد حاجباه بشدة وهو لايزال غارقاً في صدمته...

عندما أردفت هي بصوت خرج رغماً عنها مرتعشاً...مختنقاً بلوعته:

_لا أريد أن ينشأ ابني مثلي بلا والديه..لن أتركه يتذوق هذه المرارة....لا أريده أن يلومني عندما يكبر على غياب أبيه...لا أريده أن يكرهني...لن أفعلها أبداً مهما كان الثمن الذي سأدفعه...ولولا هذا لما قبلت البقاء على ذمتك لحظة واحدة.

ارتجف جسده كله بانفعاله وهو يرفعها من كتفيها ليقف ويوقفها أمامه هاتفاً بحدة:

_لا تكذبي!!! قولي الحقيقة...هل أنتِ حقاً...؟!!

انقطع هتافه الحاد بانتفاضة جسدها بين ذراعيه وهي تقاطعه هاتفة بين دموعها التي قهرتها أخيراً وهي تشعر بمزيج من القهر والإهانة لتصرخ رغماً عنها بكلمات غير منتظمة:

_لم أكن أريده...لكنه جاء رغماً عني ليربطني بك ...وكم أكره هذا...لكنني مضطرة...أنا لن..

بترت عبارتها عندما فوجئت به يجذبها لصدره بعنف وهو يكاد يعتصر جسدها بين ذراعيه لا يكاد يصدق هذه المفاجأة...

إنها المرة الأولى التي يراها فيها بهذه الصورة من التشتت والضعف...

وهو أيضاً!!!

لقد فاجأته الأقدار بكلمتها هذه المرة لتدفعه معها من جديد في طريق واحد...

هو الذي ظن أن قصتهما قد انتهت ...أو أوشكت على الانتهاء...

يجدها الآن تبدأ بداية جديدة...

وغير متوقعة!!!

هذه الذي تبكي الآن بين ذراعيه ليست ميادة قيد والده الثقيل...

ليست تلك "البراجماتية" ذات الطابع "الأمريكي" والعقل الذي طالما أبهره تفكيره...

ليست تلك القوية الواثقة التي تعرف جيداً موضع قدميها...

بل هي أنثى شديدة الهشاشة...

لا تريد لطفلها أن يعيش ما عاشته هي من ضياع...

طفلها؟!!!

لا...بل...طفلهما؟!!!!

هو سيكون لديه طفل؟!!!

هو سيكون...أباً؟!!!

عند خاطره الأخير راوده طيف ماسة بحلمهما القديم عن أطفالهما...

لكن طيفها هذه المرة كان -للعجب- باهتاً...

ماسة هي الحاجز الذي أقسم لنفسه أن يتخطاه...

أن يتجاهله...

أن ينساه!!!

لكن...دون أن ينسى درسه الذي تعلمه منه...

الضعف في لحظة الاختيار قد يكون ثمنه ....حياة!!!

والصمت في موضع الكلام خطيئة لا تغتفر!!!

لهذا ضم إليه ميادة أكثر وهو يحاول ترتيب أفكاره...

لكنها ابتعدت عنه لتمسح دموعها بقوة تليق بها ...ثم قالت بصلابة:

_لو كنت تشك في أمر الحمل فيمكننا...

وضع أنامله على شفتيها وهو يتنهد بحرارة...

ثم عاودت عيناه اجتذاب نظراتها بين شطآنه الزمردية التي حملت الكثير من الندم....

قبل أن يهمس بخفوت:

_أنا آسف!الخبر فقط كان مفاجئاً!!

أشاحت بوجهها في مكابرة للحظات ...

قبل أن تضع كفها على صدرها قائلة بكبرياء:

_أنا قبلت التنازل لأجل ابني...ودورك الآن أن تفعل المثل!!

انعقد حاجباه من جديد وهو يتوقع عبارتها التالية:

_لا أظنك ستقبل أن يتربى ابنك هنا في هذا المكان الحقير ...عد لعقلك وصالح والدك وأعد شركتك...لعب الأطفال هذا لم يعد يليق بك!

احتقن وجهه بانفعاله وهو يقترب منها أكثر حتى ظهر بعض الخوف على ملامحها...

لكنه كظم غيظه وهو يكز على أسنانه قائلاً:

_هل أنهيتِ كلامك؟!!

ترددت في الإجابة وهي تشعر أنها حقاً لم تعد تفهمه...

عزيز الحنون الذي كانت عاطفته تغلب عقله لم يعد هكذا تماماً...

شئٌ ما بداخله تغير....بل انكسر!!

والآن هي تواجه شخصاً آخر ربما هو بنفس الحنان لكن الجرح أكسبه بعض الخشونة...

وعليها أن تتوخى الحذر معه أكثر...

لهذا استعادت قناع صلابتها وهي تواجهه عندما لوح بسبابته في وجهها قائلاً بصرامة:

_أنا لن أعود للاستكانة تحت جناح أبي...لقد اخترت حياتي الجديدة هنا ولن أغيرها...إذا أردتِ أن يستمر زواجنا بصورة طبيعية فابقيْ معي هنا في هذا المنزل...ولو لم يناسبكِ هذا فلنفترق بهدوء.

اتسعت عيناها بارتياح وهي تدرك أنها وقعت في فخ حساباتها هذه المرة...

عقلها لم يحسب حساب تمرد عزيز هذا والذي أجبرتها ظروف حملها -المفاجئ- أن تحتمل وزره معه...

بينما ابتسم هو ببعض المرارة وهو يردف بالانجليزية مقلداً لهجتها:

_هذه هي الصفقة هذه المرة يا ميادة...اقبليها...أو ارفضيها!!!

وخلف باب غرفتها كانت رحمة تبتسم والصوت يصلها بوضوح...

تبتسم بفرحة أم تنتظر حفيدها بلهفة وتدرك بحدسها أن هذا الطفل أتى في موعده-بالضبط- ليكون طوق نجاة لهذه الزيجة التي كادت تبوء بالفشل...

قلبها يخبرها أن ميادة ليست بهذا السوء الذي تحاول التظاهر به...

هي فقط تريد المزيد من الحنان والتفهم والصبر وهي لن تبخل عليها بكل هذا لو رضيت بالبقاء هنا معهما...

كما أنها تشعر أن عزيز يحمل بعض المشاعر لها حتى ولو لم يكن هو نفسه يعلم...

هو يحتاج امرأة في قوتها لتستنفر التحدي في روحه المستكينة...

وتثبته على طريقه الجديد الذي اختاره...

فقط لو رضيت بالبقاء...

نعم...هذا هو السؤال الآن...

هل ستقبل ميادة الصفقة هذه المرة؟!!!!!

=================

أعدت له الشاي الذي صارت تعرف أنه لا يستغني عنه أبداً بعد كل وجبة...

ثم ابتسمت بحنان وهي تتلفت حولها لتتأكد من أن لا أحد يراها قبل أن ترفع الكوب لشفتيها فتقبله برقة وهي تشعر بعواطفها الجديدة نحوه تغزوها...

لا...ليس حباً...!!!ولن تسمح له أن يكون...!!!

فهي وعت درسها جيداً ...

الحب يكسرنا ويجعلنا نضعف وهي الآن لا تعيش سوى لأجل أن تكون قوية....

هي أحبت فهد فاستباح كل حرماتها وتركها خلفه مجرد جثة بلا روح...

ولو استسلمت لحب راغب هذه المرة فهو لن يكون أكثر من تمثيل بهذه الجثة بعد موتها...

كلاهما محطة في حياتها ...ستصل بعدها لوجهتها الحقيقية....

لقوتها التي ستنتزعها قسراً ولن يمنحها لها أحد...حتى لو بقيت بعدها وحيدة...!!!

وبهذا الفكر الجديد وضعت الكوب على الصينية ثم حملتها لتخرج إليه حيث كان جالساً على أرضية الشرفة الخارجية رافعاً إحدى ركبتيه أمامه وهو يسند ذراعه عليها....

فاقتربت منه ببطء ليتناول منها الكوب متمتماً بشكر مقتضب...

قبل أن تجلس هي على ركبتيها أمامه على الأرض لتسأله بوداعتها المعهودة:

_ما الأمر؟!لماذا تبدو شارداً هكذا؟!!

تأمل ملامحها التي أضفى عليها ضوء القمر سحراً خاصاً ليتوه فيها للحظات...

قبل أن يغمغم بشرود:

_أحد أصدقائي متردد في تطليق زوجته....ويريدني أن أعطيه رأيي.

انقبض قلبها عندما ذكر هذا الأمر فغمغمت بتردد:

_ولماذا يفعل؟!

أغمض عينيه بألم تفيض به روحه ثم همس بخفوت:

_متعبة!

بل مهلكةٌ يا رؤى لو تعلمين!!!

مهلكةٌ بكل تفاصيلك المتناقضة...

ببراءتك النقية ...وإثمك العظيم...

بفتنة ملامحك...وقبح ماضيكِ...

بعنفوان حبك ...وكسوره...

واستحالة فراقك...رغم وجوبه...

بفرحتي بكِ وحزني عليكِ...

بخوفي عليكِ من قسوتي ...وإشفاقي لو تركتكِ لغيري ألا يحافظ عليكِ...

برغبتي فيكِ...ورغبتي عنكِ...!!!

مهلكة يا رؤى...بل قاتلة!!!

كان هذا نزيف أفكاره الصامت الذي قطعته هي بهمسها الضعيف:

_ولماذا يحتملها مادامت كذلك؟!!

صمت لحظة ليبتلع غصة حلقه وهو يهمس دون أن ينظر إليها:

_يحبها!

ابتسمت لتهمس بسخرية مريرة :

_حب؟!!!

ثم رفعت رأسها للسماء تراقب القمر الذي كان الآن يتوارى ببطء خلف الغيوم...

لتردف بشرود:

_دعه إذن يطلقها...الحب هذا ليس سوى وهم كبير...سرابٌ يطارده الحمقى حتى يهلكهم ظمأً...وحشٌ نربيه في صدورنا حتى إذا ما كبر التهمنا دون رحمة.

قطعت حديثها عندما خفضت رأسها لتجده يتأملها بتفحص لا يخلو من غضب...

غضبٌ أحرقه كالبركان وهو يسمعها تتحدث بهذه الحرقة مدركاً أنها تعني نفسها...

أيّ صبرٍ هذا الذي يحتاجه رجلٌ مثله ليستمع لامرأته وهي تشكو لوعة حبها القديم!!!!

حبها؟!!!

هل كان حباً حقاً؟!!!

وعند هذه الخاطرة الأخيرة اكتشف فجأة أنه لا يعرف أي تفاصيل عن زواجها السابق هذا!!!

لكن من قال أنه يريد أن يعرف...؟!!!

بل من قال أنه سيحتمل أن يعرف...؟!!!

أي كلمة بل أي حرف في هذا الأمر ستذبحه بلا رحمة...

فهل من العقل أن يزيد عذابه بها بالمزيد ؟!!!

بينما احمرت وجنتاها هي خجلاً وهي تشعر أنها تمادت في حديثها ليعاودها خوفها منه...

فقامت من مكانها لتقول بلهجة اعتذار:

_آسفة...لم يكن يليق أن...

_اجلسي!!

قاطعها بهتافه الآمر الذي لم يخلُ من خشونته المعهودة فازدردت ريقها بتوتر لتعاود جلوسها وهي تفرك كفيها باضطراب لاعنةً لسانها المنفلت الذي غافلها بهذه الكلمات...

عندما حسم هو أمره ليقول بغضب مكتوم:

_عندما علمتُ عن زواجك العرفي ذاك توقعتك فتاة جريئة عابثة تعرف جيداً كيف تحصل على ما تريد دونما اكتراث بالآخرين...لكنني فوجئتُ بكِ في غاية الضعف بل إنك تكادين تخافين من خيالك...فكيف جرؤتِ على فعلها؟!!

ضمت قبضتيها بقوة مقاومةً ارتجاف جسدها بخوفها الآن وهي تعد نفسها للمزيد من إهاناته وتقريعه....دون أن تجرؤ على النظر إليه...

لكنه اكتفى بصمته الطويل بعدها فرفعت إليه عينيها بحذرلتطالعها نظراته التي غلب ألمها غضبها...

وهزم حنانها قسوتها ...فعادت دقات قلبها لانتظامها ببطء وهي تستمد بعض سكينتها من عينيه ...

لتهمس باستسلام بعد لحظات صمت أخرى:

_مذنبة!

أغمض عينيه وهو يعود برأسه إلى الوراء مستنداً على سور الشرفة وهو يضغط الكوب بين يديه بقوة حتى كاد ينكسر...

بينما أردفت هي بمرارة وهي تشعر برغبتها في هذا الحديث له هو بالذات:

_نعم...مذنبة...ولست أبداً بريئة...

ثم أردفت بسخرية قاتمة:

_نفس القصة القديمة التي كنا نراها في الأفلام
...الحمقاء الساذجة التي يستدرجها أحدهم لتكون فريسته
...لكننا دوماً نظن أننا أذكى من الآخرين وأننا لن نقع يوماً في الفخاخ التي سقطوا فيها...

ظل على إغماضه لعينيه مخفياً تأثره بحديثها بينما أردفت هي بنفس المرارة:

_لكن حتى لو كان هو وغداً بلا ضمير...لماذا لم أحترم أنا تربية أخي؟!!لماذا لم أخفْ الله كما كنت أخاف عبد الله؟!! لماذا تساهلت وتنازلت هكذا وكأنني "فتاة شوارع"؟!!مذنبة...نعم مذنبة...خاطئة ...عاصية...تستحق الرجم والجلد ...بل تستحق الموت...

كانت كلماتها تهوي كالسياط على روحه المثقلة بألمها وهو ممزق بين شعورين...

أحدهما يريد أن يستمع لقصتها كاملة حتى يروي ظمأ فضوله...

والثاني يقسم له أنه لن يحتمل...

وربما ينتهي الأمر بأن يفقد سيطرته على نفسه ليقسو عليها دون وعي...

ويبدو أن شعوره الأخير انتصر فقد فتح عينيه فجأة ليرفع كفه فجأة في وجهها منهياً حديثها...

قبل أن يشيح بوجهه وهو يسألها بخشونة:

_لماذا لم تلجئي لتلك العمليات التي يجرونها هذه الأيام؟!!كنتِ ستتخلصين من أثر خطيئتك للأبد!!

_لأنني ...أردت التطهر!!

همست بها بخفوت وهي تطرق برأسها لتردف بين دموعها الآن:

_تلك الليلة التي سبقت ليلة زفافنا ظللت أدعو الله طوال الليل أن يقبل توبتي...أن يطهرني من إثمي...لا أدري لماذا شعرت وقتها أنه تقبل دعائي...جزءٌ بداخلي كان ينتظر عقابك ويعتبره قربان توبتي حتى أنني وددت لو تقسو أكثر...صدقني لم أكن أريد خداعك لأظفر بزوج يستر خطيئتي...بل كنت أريد جلد نفسي بذنبها حتى أوقن أن توبتي قد قُبلت.

عاد يلتفت نحوها ببطء وهو يشعر بصدق حديثها...

لو كانت حقاً كما تقول فظنه أن الله الغفور سيقبل توبتها...

لكنه لا يستطيع أن يفعل...

لقد حاول...صدقاً حاول!!!

حاول بكل ذرة من كيانه المولع بها...

استنجد بكل قوة عشقه لها...

توسل بكل رجاءات أشواقه...لكنه فشل!!!

رجولته وكرامته وقبلهما كبرياؤه ...كلهم يرفضونها...

ينفرون منها...

فماذا يفعل بنفسه و"بعض نفسه" يقاتل "بعض نفسه"؟!!!!!

أما هي فقد مسحت دموعها بسرعة وهي ترفع عينيها إليه هامسة بابتسامة شاحبة:

_أنا أعرف أنني ظلمتك...وأدخلتك في حسابات لا تخصك...لكن صدقني كان رغماً عني...احتملني فقط قليلاً وأعدك عندما أحقق حلمي أن أذكرك دوماً في دعائي حتى ولو لم تكن معي...

تجاهل الجزء الأخير من عبارتها والذي أدمى قلبه...ليسألها بصوته الذي حافظ على خشونته:

_وما هو حلمك هذا؟!!

غلبتها دموعها من جديد وهي تفكر في سؤاله قبل أن تهمس بصوت متهدج:

_ألا أخاف!!

استسلمت لدموعها للحظات بعدها ثم عادت تمسحها وهي تحاول الابتسام لتهمس بشرود:

_ألا أخاف الوحدة...ولا أخاف الظلام...ولا أخاف أحداً...

ثم ارتعش صوتها وهي تردف:

_ولا حتى أخاف نفسي..!!

رمقها بنظرة متسائلة قبل أن يهمس :

_تخافين نفسك؟!!

اتسعت ابتسامتها الشاحبة وهي تهمس :

_أخاف ضعفها وترددها...أخاف احتياجها وخسارتها...أخاف ضلالها وتيهها...

أومأ برأسه وهو يشعر بصدق مخاوفها التي تحكيها...

ليس فقط مخاوفها المرضية من الظلام والوحدة...

لكن مخاوفها من الاحتياج والضعف!!

فتاة مثلها حُرمت من أبويها في سن صغير وعاشت في كنف أخ متسلط عصبيّ الطباع ...من الطبيعي جداً أن تكون دوماً أسيرة هذا الشعور...

لكنها قطعت أفكاره وهي تقوم من مكانها لتتناول منه كوب الشاي متصنعة بعض المرح وهي تقول بما يشبه الاعتذار:

_لقد برد الشاي ...سأعد لك غيره.

لكنه قام بدوره لينظر لعينيها طويلاً قبل أن يقول :

_هل تعدينني لو حققتِ حلمك هذا أن تخبريني حتى ولو لم أكن معك؟!

قاومت دموع تأثرها وهي تومئ برأسها قبل أن تقول مؤكدة:

_سأجئ إليك حينها بنفسي وأخبرك...لكن عساك وقتها تذكرني!

ابتسم بسخرية ذبيحة بألمه قبل أن تتحول ابتسامته لضحكة مختنقة بمرارتها وهو يهمس بنبرة غريبة لم تفهمها:

_نعم...عساني أذكرك!!!

انعقد حاجباها بتساؤل وهي تشعر بغموض لهجته...

بينما ربت هو على كتفها وهو يستعيد جفاف نبراته:

_لا داعي للشاي...أنا سأنام ...تصبحين على خير!!

قالها ثم أعطاها ظهره ليتوجه نحو غرفتهما حيث تمدد على الأريكة كعادته...

نعم...منذ زواجهما وهو يفضل النوم هنا...

صحيح أنه فكر يوماً في النوم في الغرفة المجاورة لكنه تراجع...

هو يعرف عن خوفها -المرضي-من الوحدة والظلام...

كما أنه هو الآخر اعتاد وجودها معه ...

حتى لو لم يمسها ...لكن كفاه أنه يشاركها أنفاسها في ذات المكان!!!

نومةٌ متعبة؟!!!وما الجديد؟!!

ليت تعبها يقتصر على هذا!!!

رفع غطاءه الخفيف على رأسه مغمضاً عينيه وهو يحاول النوم دون جدوى...

جملتها الأخيرة كانت تدوي في رأسه بهدير صارخ...

"عساك تذكرني"!!!

بل عساني أنساكِ يا رؤى!!!

ولا أظنني يوماً سأفعل ..

حتى لو سلمت لحكم القدر فينا وتحرر كلانا من قيود هذه الزيجة...

فلا أظنني سأقوى يوماً على منح قلبي لسواكِ!!

انقطعت أفكاره عندما داعب عطرها الليموني أنفه تزامناً مع دخولها للغرفة...

قبل أن تتوجه نحو فراشها وهو يشعر بخطواتها تتوقف قليلاً أمامه ليذوب قلبه ترقبا وهو مستمر في تظاهره بالنوم...

لتعتقه هي أخيراً من قيود لوعته وتستأنف سيرها نحو الفراش الذي جلست عليه بشرود...

رفع الغطاء عن رأسه قليلاً بحذر وهو يراقب شرودها خلسة...

حتى أفاقت منه بعد دقائق طويلة ليفاجأ بها تستخرج دفتراً أصفر اللون من تحت وسادتها لتسنده على ركبتيها المرفوعتين...قبل أن تتناول قلماً من جوارها وتبدأ في الكتابة...

ازدادت خفقات قلبه جنوناً ووحش الشك ينهش صدره من جديد...

ماذا عساها تكتب الآن؟!!!

ولمن تكتب؟!!!

ولماذا لم تفعلها إلا عندما تأكدت من نومه؟!!!

هل يُعقل أنها تخدعه ببراءته هذه؟!!

أم أنه يبالغ في سوء ظنه؟!!!

ظل على حاله من مراقبته المختلسة لها وهو يكاد يشتعل غضباً وغيرة...

حتى انتهت من كتابتها لتعيد دفترها تحت الوسادة...

قبل أن تتمدد لتستسلم لنومها بعد وقت قصير...

انتظر هو بعدها لدقائق مرت عليه ثقيلة قاسية حتى تأكد من نومها...

ثم نفض غطاءه بخفة ليقوم متوجهاً نحوها بحذر ويسحب الدفتر ببطء شديد من مكانه....

ثم عاد لأريكته وهو يفتحه بلهفة لتطالعه كلماتها البسيطة...

لا.. لم تكن أشعاراً...ولا مذكرات...

بل هي كلمات أقرب لحديث المرء مع نفسه!!!

رفع عينيه لجسدها المستسلم لنومه ببراءة ليبتسم بحنان دافق...

قبل أن تجول عيناه على السطور ليقرأ ما كتبته...

لقد بدأت كتابتها منذ تلك الليلة التي ألبسها فيها قلادة والدته...

ليجد كلماتها :

اليوم عندما ألبسني قلادته بنفسه شعرت بمزيج من الفخر والخوف...

هذا الرجل يدفعني بلا وعي لتلك المنطقة التي حرمتها على نفسي...

يجذبني لمشاعر ستحرق جناحاتي قبل أن أهوي في جحيمه...

مشاعر ليست من حقي...

قلادته على رقبتي تحيرني...

منذ قليل فقط كنت أراها قيداً ثقيلاً أود التخلص منه بسرعة وهي تذكرني بخطيئتي التي حرمت رجلاً عظيماً مثله على قلبي الآثم...

والآن عندما أتلمسها بأناملي وحدي أشعر بدفء غريب يشبه دفء حضنه الذي شعرت به اليوم مختلفاً...

ليته كان لي...

وليتني...كنت له...!!

انعقد حاجباه بتأثر وهو يعيد قراءة كلماتها بتمعن وكأنه يغرسها غرساً بأرض روحه المجدبة إلا من واحات عشقها...

ثم قلب الصفحة لتطالعه بعض الكلمات التي كتبتها في الأيام السابقة....

كلها كانت تحمل مشاعر امتنانها له وندمها علي ما كان من ماضيها...

مع بعض رواياتها عن مواقفها مع والدته وهيام...

كانت تكتب بمنتهى السلاسة والبراءة وكأنها تبوح لصديق...

حتى أنه كاد يرى ابتسامتها وهي تحكي بعض طرائف أبناء شقيقه...

وغيظها وهي تحكي عن مناوشات هيام...

وحنانها وهي تتحدث عن والدته وكيف صارت تعاملها بعاطفة حقيقة عوضتها افتقاد والديها...!!!

لينتبه وقتها -فقط- أن رؤى حقاً ليس لها صديق...

هو منعها استخدام الهاتف...

وهي لا تطلب الخروج أبداً بعدما حدث في آخر مرة خرجا فيها...

حتى صفا التي كانت تزورها باستمرار انشغلت في عملها الجديد...

وعبد الله يكتفي بمهاتفته هو من آن لآخر ليطمئن عليهما!!!

ربما لهذا لجأت لفكرة مصادقة الورق هذه!!!!

وبرغم شعوره بالذنب والشفقة نحوها...لكنه يشعر أنه حقاً يحتاج لهذا...

يحتاج لقراءة ما تخفيه نفسها بصدق دون قيود خوفها وتحرجها منه...

ومع أنه كان يشعر ببعض الإثم في قراءة ما تكتبه دون علمها...

لكنه أباح لنفسه هذا...

كل شيءٍ مباحٌ في الحرب...والحب!!!

وهو يعيش معها حباً بنكهة الحرب...وحرباً على أرض حب!!!

لهذا عاد يقلب الصفحات بأريحية أكثر حتى توقفت عيناه على ما كتبته هي منذ قليل قبل نومها:

يوماً ما سنفترق...

ليعود كل منا لطريقه المنفرد...

ستترك يده يدي لأتعلم السير وحدي...

قدماي سيخطوان للأمام لكن عينيّ ستنظران للخلف بحثاً عنه...

رغم علمي أنه لن يتبعني بعد...

لكنني سأبقى أبحث!!!

إذا تعثرتُ سأتخيل يديه تشدان يدي لتوقفني من جديد...

وإذا وصلت لمنتهى الطريق سأتخيل يديه أيضاً تصفقان لي باحترام أتمنى لو أراه بعينيه يوماً...

نعم...عيناه طالما جادتا بالحنان والعطف والاحتواء...

لكنهما بخلتا بالاحترام!!!

ومن يلومهما؟!!

ومثلي تلطخت بوحل خطيئتها للأبد!!!

لقد كذبت عليه!!!

أخبرته أنني لو حققت حلمي فسأعود لأخبره...

لكنني لن أفعلها...

لو خرجت من حياته فلن أعود لأذكره بتلك النقطة السوداء في صفحته من جديد...

بيني وبينه بحارٌ هائجة لن أستطيع عبورها لهذا سأقنع بالانتظار على شواطئها أرقب الأفق وأفكر...

ماذا لو كان هو الأول...

ماذا لو كنت قابلته بضفائري التي لم تحل إلا على كتفه؟!!!

ماذا لو كنت عرفته كطفلة تنتظره لعبور الطريق قبل أن تدهسها إحدى سياراته؟!!

ماذا لو كان ما بيننا سحر بداية لا ألم نهاية؟!!

ماذا لو ...؟!!!

قلب الصفحة بسرعة ليقرأ الباقي لكن كلماتها كانت قد انتهت هنا...

ليلاحظ بسهولة تلطخ الحبر في سطورها الأخيرة مع انكماش الورقة مدركاً أنه أثر دموعها!!!

فزفر بقوة وعيناه تدمعان رغماً عنه...

لو استجاب لجنونه الآن لأيقظها من نومها حالاً وأشبعها ضماً وتقبيلاً حتى يكافئها على شعورها الذي أحسه صادقاً بين كلماتها...

لكن عقله لازال يوبخه على حماقاته....

كلماتها هذه لم تغير من حقيقة الوضع شيئاً...بل زادته تعقيداً!!!

لازالت هي مدنسة بخطيئتها...ولازال هو أسير كبريائه...!!!

والعفو يبدو بعيداً جداً مثل السماء...

ومثلها هي!!!

==================

فتحت عينيها بعد نوم عميق استغرق بضع ساعات....

لتجد رأسها مستقراً على صدره العاري فتوردت وجنتاها بخجل وهي تسترجع ما حدث بينهما منذ قليل...

ذاك العالم الذي ظننته سيبقى محرماً عليها للأبد وبابه محروسٌ بهواجسها المرضية بعد الحادث...

لكنه عرف كيف يسحبها إليه معه برفق حذر حتى اطمأنت لدخوله دون خوف...

لتجده معه جنةً من سحر خاص مدموغ باسمه وحده...!!!

أحبته؟!!

لا تعلم!!

وكيف تعلم وهي لا تجيد من أبجديته سوى بضعة حروف لا تكفي وحدها لتكوين كلمة...؟!!!!

والحب في شريعتها أن تصوغ معه آلاف الجمل!!!

يحبها؟!!

هي أيضاً لا تعلم!!!

وكيف تعلم وهو كهفٌ غامضٌ من أسرار مظلمة لا تكاد تكفيه شعلتها الضعيفة لتبث النور فيه!!!!

إذن هي لا تعلم إن كانت تحبه أم لا...

ولا تعلم إن كان يحبها أم لا...

لكن ما تعلمه وتثق به تماماً أن لها مكانتها -الخاصة- عنده كما له مكانه -الفريد-لديها!!!

لهذا ترددت قليلاً قبل أن ترفع إليه عينيها بمزيج مشاعرها الرائق...

ليلتقط هو نظراتها بتفحص قبل أن يهمس بحنان مشوبٍ بالقلق:

_أنتِ بخير؟!

أومأت برأسها إيجاباً وهي تعاود خفض بصرها في حياء...

وكلماته المشبعة بحنانه- على بساطتها- تنافس في أذنيها أرق عبارات الغزل!!!!

فابتسم بارتياح وهو يرفع ذقنها إليه هامساً بنبرة مؤكدة :

_ماسة تجاوزت هذا الحاجز أيضاً!!

قالها وهو يشعر بالراحة أخيراً بعد هذه الساعات التي قضاها مسهداً بالخوف والترقب...

فبرغم استسلامها -المطمئن-لطوفان عاطفته لكنه كان لايزال متوجساً بشأن ماضيها المؤلم...

نعم...برغم تلك اللذة التي تذوقها معها -كاملة-لأول مرة كانت لا تزال مشوبةً بقلقه عليها!!!

بينما تلاحقت أنفاسها -هي- باضطراب وهي تتخبط كطير جريح بين جدران مشاعرها....

ما بين خجلها المطعم بعاطفتها نحوه...

وخوفها الذي يقف عاجزاً أمام أسوار غموضه...

وأمانها الذي كان يغشاها وهي تتوسد صدره...

وأخيراً...امتنانها لكل ما فعله من أجلها ...

وآخره ما كان بينهما منذ قليل...!!!

احتواؤه وتفهمّه الذي كانت تحتاجه حقاً لتتغلب على مخاوفها بعد حادثها البشع...

لتستعيد ثقتها في قدرتها على العيش كأنثى طبيعية من جديد..

لتتجاوز هذا الحاجز كما يقول هو الآن!!!

لهذا أغمضت عينيها باستسلام قانع عندما قبل رأسها المستكين على صدره هامساً :

_قوة الماسة لم تخذلني يوماً في أي اختبار...رهاني بكِ دوماً رابح.

تنهدت بحرارة ثم عاودت فتح عينيها ليغمرها دفء شموسه الزيتونية التي تألقت بعاطفة صاخبة...

لكنها تذكرت كلماته التي همس بها قبل أن يغيبها معه بدوار عاطفته عن أن زواجهما كان مجرد مقابل لمساعدته لها...

فتنحنحت بارتباك قبل أن تجد صوتها أخيراً لتهمس برجاء:

_كنت ..أريد شيئاً!

اتسعت ابتسامته الحانية وهو يداعب وجنتها بأنامله قبل أن يومئ برأسه دون كلام...

لكن عينيه حملتا ألف وعد...

تلك النظرة التي فاضت بها عيناه رغم صمته...

وكأنها تقسم لها أنها لو أرادت الدنيا كلها -الآن- لوضعها بين كفيها!!!

لهذا ارتسمت على شفتيها ابتسامة وليدة وهي ترفع أناملها لتضعها على صدره هامسة بقوتها الرقيقة:

_دينك القديم الذي تزوجتني لأجله!

تنهد بحرارة وهو يشيح بوجهه لتشعر بخفقات قلبه تحت كفها تزداد سرعة وضراوة...

فارتفعت برأسها قليلاً لتعاود همسها القوي:

_عاصي الذي أعرفه رد لي حقوقي كلها....ولن يبخل عليّ بهذا الحق !

عاود التفاته نحوها ليلتقط نظراتها الراجية و المناقضة لقوة همسها...

ثم احتضن كفها على صدره صامتاً للحظات قبل أن يهمس بشرود:

_كانت...أختي.

اتسعت عيناها بتساؤل لكنها احترمت صمته الذي استمر قليلاً...

قبل أن يردف هو بغضب مكتوم:

_هل رأيتِ تلك الندوب على كتفي وظهري؟!

ازدردت ريقها بتوتر وعيناها تدوران على ما ظهر من هذه الندوب على كتفيه الآن ...

والتي رأت ما خفي منها على ظهره من قبل ...

لكنها لم تتفوه بكلمة...

هو الآن أغنى ما يكون عن حديثها ....والصمت أسلم!!!

لهذا اكتفت بدفن وجهها في كتفه وهي تتلمس ندوبه بأناملها برفق...

لا تدري هل تواسيه بهذا أم تختنق الآن معه بدخان ماضيه...!!!

بينما أردف هو وكأنه لا ينتظر إجابتها:

_حماد الرفاعي عاقبني يومها على دفاعي عنها...لقد استغل ضعف والدتها ليقهرها بعلاقة غير شرعية...وعندما وضعتها المرأة رفض الاعتراف بها...فهربت بفضيحتها...لتعود بعد سنوات وطفلتها في يدها لعل قلبه يرق لحالهما البائس...لم تكن بحاجة لإثبات نسب...فالطفلة كانت نسخة من أبي في ملامحها...لكنه طردها أمامي لتغادر المكان بخيبتها...لكن صورتها لم تغادر رأسي أبداً...

رفعت رأسها إليه بعينيها الدامعتين وهي تدرك الآن سر معاملته لها...

لقد رأى فيها صورة أخته التي لم يستطع مساعدتها يومها...

عاصي ليس قاسياً بطبيعته بل هو صنيعة تربية والده القاسية كما أخبرتها حورية يوماً...

هو جُبر على طريق الشر في بدايته...لكنه اختار بإرادته المضيّ فيه...

ربما لم يختر أوله...لكنه رسم آخره...!!

ومع هذا هي تشعر أن بداخله بؤرة ضوء تجاهد في التحرر من جدرانه المظلمة....

لهذا لم تتعجب عندما أكمل هو حديثه المختنق بمرارته:

_حاولت الوصول إليها بعدها لكنني لم أستطع..فالمرأة غادرت المدينة خوفاً من جديد...وبعد وفاته اجتهدتُ في البحث أكثر لسنوات....تتبعت كل الخيوط في كل مكان ذهبت إليه...حتى وجدتها أخيراً.

شهقت بدهشة ثم همست بارتياح:

_وجدتها؟!

انعقد حاجباه للحظات وقد بدا عليه بعض التردد قبل أن يهمس باقتضاب :

_ انتحرت!!

صرخت صرخة قصيرة وهي تعاود إخفاء رأسها في صدره...

بينما أردف هو بشرود غاضب:

_ كانت هنا في المدينة جواري وأنا لا أعلم...عادت بعدما صارت شابة يافعة لتحاول إثبات حقها...لكنها جبنت كما يبدو عندما سمعت ما يتداوله الناس هنا عني...خافت من أخيها "الشيطان" فقنعت بحالها قهراً....كانت تخدم في البيوت لتتدبر أمر معيشتها وأنا هنا أعيش مرغداً في هذا القصر لا أكاد أعرف عنها شيئاً...

ثم صمت قليلاً ليكمل بلهجة أشد غضباً:

_علمتُ بعدها أن أحدهم وعدها بالزواج ثم تخلى عنها لأجل نسبها المفقود...

رفعت وجهها إليه وهي تهمس بإشفاق غلب ذهولها:

_خذلها مثل الجميع....وهي استسلمت لشيطان ضعفها....وانتحرت!!!

قالتها ثم فاضت عيناها بالدموع وهي تقارن نفسها بها...

قصة أخرى لعزيز وماسة!!!

لكن عزيز لم يكن بهذه النذالة...

وهي أيضاً لم تكن بهذا الضعف!!!

قوتها عصمتها من استجداء عاطفته التي كانت تعلم أن طريقها مسدود...

فكَفَت نفسها وكفته شر نهاية كهذه!!!

بينما صمت هو للحظات يحاول اجتياز أمواج غضبه وشعوره القديم بالذنب...

مع كل سطوته وماله لم يتمكن من مساعدة أخته كما تستحق...

خطيئة أبيه التي تهرب منها بقيت هي تحمل وزرها للنهاية....

وعندما التقى بماسة وأدرك تشابه ظروفها معها لم يستطع منع نفسه عن الوفاء بدينه القديم...

عن منحها اسمه ودعمه لترفع رأسها وسط الجميع ...

ويداوي معها كل جروح ماضيها لتعاود الحياة بقلب سليم!!!

ظللهما الصمت للحظات...

وكلاهما غارقٌ في أفكاره الخاصة لا يكاد يجرؤ على تجاوزها...

حتى كانت هي أول من قطعه وهي تبتعد عنه لتنهض من رقدتها مستندةً على ظهر الفراش ...

قبل أن تهمس بامتنان ممتزج بخيبة لم تستطع تجاوزها :

_إذن...دعني أخبرك أنك وفيت دينك كاملاً...لقد منحتني مالم يكن غيرك قادراً على منحه لي.

نهض بدوره ليستند على ظهر الفراش جوارها وهو يستقرئ مشاعرها النابضة بمراياها الفضية...

فجذبها برفق لصدره من جديد قبل أن يهمس بحزم حنون:

_أخبرتكِ من قبل أن لا أحد يتزوج امرأة بدافع الشفقة فحسب...خاصة رجلٌ مثلي يعرف جيداً قيمة ما يأخذ وما يعطي...لم أكن محتاجاً لعقد زواج فقط كي أساعدك.

توهجت عيناها بسؤالها القديم والذي عاندها كبرياؤها قبل لسانها في التفوه به...

لكنه رآه طافياً على سطح أمواجها الفضية التي كانت هادرة بقوة شعورها الآن...

فتملك وجنتها بأنامله ليرفع وجهها إليه هامساً ببطء وكأنه يريد حفر كلماته على جدران روحها:

_اخترتكِ ..لأنكِ ماسة...ماسة أدركت قيمتها منذ أول لحظة ولم أكن لأدعها أبداً.

تشبثت نظراتها بخيوطه الزيتونية التي حملت لها الآن أمان العالم كله...

فهدأت بعض مخاوفها وإن بقي عقلها على سابق توجسه...

عندما ازداد بريق عينيه وهو يسألها ببطء:

_وأنتِ...لو كان الزمان يعود بكِ...هل كنتِ ستختارين عاصي الرفاعي زوجاً دون إجبار؟!!

غامت عيناها بحيرتها وهي عاجزة عن الرد...

لو استمعت لحكم قلبها فيه فستجيبه ب"نعم"....

بل ألف "نعم"!!!

لكن حُكم عقلها لازال يحتاج لمداولة...

لازال يتخبط في ظلمات بطشه وجبروته...

لازال يجد "أَسوَد" لوحته يتناحر مع "أبيضها" باستماتة...

وطالما لازال الصراع قائماً فالإجابة قطعاً لن تكون ب"نعم"!!!

لهذا انفرجت شفتاها وهي تهمّ برد موارب...

لكن شفتيه اقتربتا منهما ببطء ليهمس بعاطفة أذابتها:

_لا تقوليها...دعيني أنا أقرأها على شفتيكِ ...لعل الجواب أصدق وأسرع!!

===========

انتهت من مكالمتها مع رحمة كعادتها صباح كل يوم لتصارحها بما استجد من أمورها مع عاصي وتطلب منها النصيحة...

عندما شعرت بفرحة رحمة الصادقة وهي تبارك لها تمام زواجها أخيراً لتخبرها بسعادة أن عزيز ينتظر طفلاً وأنها تتمنى لو تسمع منها خبراً قريباً مثله....

لكن هذا الأمر كان بعيداً تماماً عن ذهن ماسة الآن...

هي لن تطمئن للإنجاب من عاصي حتى يستقر عقلها بشأنه...

عاصي بظروفه الحالية ليس هو الوالد الذي ترجوه لطفلها...

لهذا يجب عليها التريث في هذا الأمر حتى تدرك طبيعة الأمور هنا بالضبط...

قطعت أفكارها عندما طرق هو باب الغرفة ليدخل قائلاً بابتسامته الحنون التي تبدو وكأنها خُلقت لها هي فقط:

_لم أشأ أن أوقظكِ...كنتِ تبدين مُتعبة!

ابتسمت بدورها وهي تقوم من فراشها لتقول بانطلاق:

_لا أصدق أنني نمت طوال هذا الوقت...وكأنني أقتص من كل تلك الليالي التي قضيتها بلا نوم.

اتسعت ابتسامته وهو يرمقها بنظرات متفحصة...

كل ابتسامة على شفتيها كنز جديد يضاف لرصيده...

كل نظرة رضا تحتضن أمواجها الفضية تمحو أمامها سجلات طويلة من ذنوب ماضيه...

مجرد رؤياها أمامه تضئ بجنبات روحه المزيد من قناديلها الصدئة لتعيد لها رونقها وبهاءها....

لهذا اقترب أكثر يضمها بقوة شعوره نحوها قبل أن ينظر إليها هامساً بلهجته المسيطرة التي ما عادت تثير حفيظتها:

_سنذهب الآن في رحلة صيد ستعجبك كثيراً!

توهجت عيناها بلهفة طفولية وهي تبتعد برأسها هاتفة:

_حقاً؟!!

أومأ برأسه ثم جذبها من كفها وهو يتوجه بها نحو خزانة الملابس ليفتحها قائلاً:

_سنختار فقط ملابس ثقيلة لأن الجو ربما يفاجئنا ببرودة غير متوقعة.

التفتت نحوه لتغمغم بدهشة:

_من الذي نقل ملابسي هنا؟!!

تجاهل سؤالها مؤقتاً وهو يتخير لها ملابس مناسبة ثم وضعها جانباً ليمسك كتفيها قائلاً بحزم:

_لقد صارت هذه غرفتنا معاً.

تألقت عيناها بوهج فضتها للحظات قبل أن تخفض بصرها قائلة بلهجة ذات مغزى:

_هل ستشاركني حياتك كما شاركتني غرفتك؟!!أم أن صلاحياتي تنتهي خارج حدود هذه الغرفة؟!!

ظهر الإعجاب في عينيه جلياً وهو يحيط وجهها بكفيه هامساً:

_يعجبني ذكاؤكِ كثيراً.

هزت رأسها برفق وهي تقول بعتاب:

_ليس ذكاءً بل تحديد مواقف...حتى لا تفاجئني بإهانتك كالسابق!

ارتفع حاجباه بدهشة للحظة ثم ابتسم بحنان وأنامله تداعب وجنتيها هامساً:

_لازلتِ غاضبة؟!!

عضت على شفتها بتوتر وهي تهمس بحيرة رغم تورد وجنتيها بخجلها:

_بالأمس عندما دخلنا إلى هنا جعلتَ الأمر يبدو وكأنه مجرد صفقة...بل إنك قلتَ حرفياً أن علاقتنا مقابل مساعدتك لي...فهل ترى الأمر حقاً هكذا؟!!

أغمض عينيه للحظات ثم عاد يفتحهما لتتوه من جديد في غابات زيتونه بغموضها القديم...

قبل أن يسألها بلهجة محايدة:

_وكيف ترينه أنتِ؟!!

صمتت طويلاً ثم عادت ترفع عينيها إليه لتهمس بشرود:

_ليس بعد يا عاصي!!...عندما ينتهي الصراع سأخبرك.!

انعقد حاجباه بشدة وهو يسألها بحذر:

_أي صراع؟!!

ابتسمت وهي تميل رأسها لتقول ببعض المكر:

_تظن أنك وحدك من يجيد لعبة الغموض...لا يا سيد عاصي...ربما أجيدها مثلك.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة إعجاب واضحة قبل أن يقول بمراوغة ماكرة:

_وربما فقط تتهربين من الإجابة!!!

وضعت سبابتها على صدره وهي تقول بثقة:

_كلانا يتهرب من الإجابة...لكن الأسباب قطعاً مختلفة.

ازداد بريق الإعجاب في عينيه وإن حمل همسه مرارته العتيقة التي تشعر هي بها:

_تجيدين مجادلتي أيضاً يا ماسة...لم يفعلها أحد قبلك!

هدرت أمواج فضتها بقوتها وهي تقول بأسف:

_لم أقبل يوماً أنصاف الحلول وأنت تجبرني على هذا.

أشاح بوجهه للحظات ثم عاد ينظر إليها قائلاً بنبرة حاسمة:

_فقط ثقي في شيئين...أولهما أنني لن أؤذيكِ أبداً.

ابتسمت بشحوب وهي تغمغم :

_والثاني؟!

اقترب بوجهه أكثر حتى امتزجت أنفاسهما وهو يقول بمزيج غريب من حنانه وقوته:

_أنكِ وصلت لمكان لم يبلغه أحد قبلك.

أغمضت عينيها تحاول التشبث بأسوار عقلها كي لا تغلبها عاطفتها _اللا مسماة- نحوه ثم همست بشرود:

_وهل يبلغه أحدٌ بعدي؟!!

انعقد حاجباه بتفحص وهو يحاول قراءة ما خلف كلماتها...

لكنها أبقت على إغماض عينيها وهاجسها الحالي يؤرقها...

عاصي الرفاعي -على حبه الذي رأته بعينيها لحورية- تزوج منها هي ...

فهل يمكن أن يفعلها من جديد ؟!!!

هل يمكن أن يكون كل غايته منها هو الولد ثم ينتزعه منها ليتركها بعدها؟!!!

قلبها يخبرها أنه لن يفعلها...

لكن عقلها يتوعدها ويستحلفها بكل ذرة إهانة وانتقاص رأتها في حياتها ألا تسلم قلاع مدينتها كاملة...

أن تتريث في سيرها معه حتى تنقشع كل هذه الغيوم...

لكنها أفاقت من شرودها عندما همس هو بقوة أخافتها هذه المرة:

_لو تركتِ أنتِ مكانكِ برغبتك..فلا تلوميني لو وضعت غيرك فيه!

أطرقت برأسها وعبارته تؤجج مخاوفها أكثر...

لكنه تجاهل كل هذا ليجذبها من كفها قائلاً بلهجة آمرة:

_بدلي ملابسك حتى لا نتأخر ..الصيد يجب أن يكون باكراً...

وبعدها بقليل كانت تجاوره علي أحد القوارب في منتصف النهر حيث اصطحبها لمنطقة خاصة زعم أنها مفضلته في الصيد...

تناولت سنارتها لتجلس جواره منتظرة -نصيبها- مثله...

عندما التفت هو نحوها ليقول بلهجة ذات مغزى:

_ستحبين الصيد...يحتاج لصبر...وأنتِ لا تفتقرين إليه!

ابتسمت ابتسامة شاحبة وهي تختلس نظرة نحوه قبل أن تشرد ببصرها في الفضاء حولها قائلة:

_المهم أن يكون الصيد نفسه يستحق الانتظار!!

ابتسم وهو يفطن لمغزى عبارتها قبل أن يعاود النظر أمامه صامتاً...

بينما تأملت هي المكان حولها بافتتان...

لوحة طبيعية تفيض بالسحر...

تلك الزروع التي انتشرت على جانبي النهر والتي بدت كعرائس فاتنة نزلت بأقدامها في الماء...

والماء الذي انعكست عليه أشعة الشمس ليتلألأ ببريق أخاذ يشبه الفضة الذائبة...

وعلى مرمى البصر كانت السماء صافية إلا من سحب بيضاء بدت كملائكة من نور تطل عليها من عليائها...

يالله!!!

المشهد حولها كان ساحراً...

لكن وجوده جوارها كان أشد سحراً على قلبها الذي وجد أمانه معه...

لهذا التفتت نحوه لتهمس ببعض الخجل:

_هل يمكنني أن أزيد في مهري؟!!

التفت نحوها ببعض الدهشة قبل أن يقول بخبث:

_المهر يُطلب قبل العُرس وليس بعده!

هزت كتفيها وهي تقول باعتراض:

_أنت منحتني مالاً وأنا لم أكن أريده.

تفحصها ببصره للحظات وشعوره بها يزداد عمقاً...

كيف يمكنها أن تكون بهذه البساطة...وبهذه الفخامة في ذات الوقت؟!!!

كيف جمعت براءة الطفولة وسحر النساء في عينين لم يرَ يوماً مثلهما...؟!!!

كيف تمزج هكذا بين قوة ثقتها...وضعف احتياجها نحوه؟!!

هذه امرأة لو طلبت قطعة من السماء لأتاها بها تحت قدميها...!!!

لهذا ابتسم بحنان وهو يقول برفق:

_ماذا تريدين؟!

التفتت نحوه لتهمس بتردد:

_لوحة!

اتسعت عيناه بصدمة للحظة بينما أردفت هي بما يشبه الرجاء:

_أنت أخبرتني أنك كنت تجيد الرسم يوماً...أريد لوحة ترسمها أناملك لي هنا في هذا المكان بالذات.

فأغمض عينيه بمرارة وهو يغمغم بخفوت:

_هل نسيتِ رأيك؟!! اليد التي تمسك السلاح لن تستقر فيها فرشاة رسم!

هزت رأسها وهي تقول بإصرار:

_إذن تترك السلاح!

فتح عينيه ليعاود الشرود في الفضاء أمامه هامساً:

_لو تركت السلاح لحظة فسأجد غيري يصوبه لصدري...مضى وقت التراجع!!

أطرقت برأسها في يأس من مجادلته ليسود بينهما صمت ثقيل للحظات...

وكلاهما متشبث بسنارته غريقاً بأفكاره...

حتى شعرت باهتزاز سنارتها بعنف فوقفت لتهتف بلهفة:

_يبدو أنه صيدٌ ثمين.

وقف بدوره ليساعدها في تخليص تلك السمكة الكبيرة التي علقت بسنارتها...

ليضعها في تلك السلة جوارهما...

بينما كانت هي تضحك بسعادة طفولية وهي تراقب حركة السمكة التي كانت تتلوى بعنف مصفقةً بكفيها في مرح....

وكأنها عادت طفلة نسيت كل همومها بلعبة جديدة!!!

قبل أن ترفع عينيها إليه لتلحظ تأمله المتفحص فيها...

فنظرت إليه بتساؤل...ليقترب منها هامساً ببطء:

_أنتِ...تضحكين!!

توقفت عن الضحك للحظة وكأنها فوجئت بما يقول....

لتتذكر حديثهما منذ قريب عندما وعدها أن يعيد لها ضحكتها...

فابتسمت وهي تنظر إليه قائلة باستسلام:

_نعم يا عاصي...أنا أضحك.

ابتسم بدوره وعيناه تحتضنان شفتيها بنَهَم ...

عندما أردفت هي بمزيج امتنانها وعاطفتها:

_كما وعدتَني!!!

تنهد بحرارة وهو يشيح بوجهه بعيداً...

لتكمل هي بما يشبه الدعاء:

_عساني قريباً أرى ضحكتك أنت الآخر...ضحكة يرسمها قلبك قبل شفتيك!

========

_غبي!!!غبي!!!

ظل يكررها لنفسه مراراً وهو يجوب الشوارع كالمجانين عاجزاً عن فعل أي شئ...

والده لا يرد على اتصالاته ومع هذا لا يغلق هاتفه وكأنه يتعمد إثارة قلقه أكثر...

قلق؟!!!

بل إنه فعلياً يوشك على فقدان وعيه انفعالاً ورعباً...!!!!

وضميره يثقله باللوم لأنه تركها وحدها بعدما حدث...

لكنه لم يتوقع أبداً أن تأتي ردة فعل جاسم الصاوي بهذه السرعة...

إنها مجرد بضع ساعات تركها فيها...فكيف تمكن من فعلته بهذه السرعة؟!!!

فِعلته؟!!!

وما هي فعلته بالضبط؟!!!

هل حقاً آذاها؟!!

قطرات الدم هذه كانت لها؟!

هل من الممكن أن يكون...؟!!!

عاد يخبط على مقود السيارة بجنون وهو يزيد سرعته للقصوى غير آبه بأنه يسير داخل المدينة في هذا الوقت من الصباح مخالفاً للقوانين...

وأي قوانين بقيت في هذا العالم؟!!!

ظل على قيادته المجنونة هذه حتى وصل لشركة والده

....

صعد لمكتب والده منتظراً الساعة العاشرة بفروغ الصبر فهو يعلم أن جاسم الصاوي لم يغير عادته في الذهاب لشركته في هذا التوقيت منذ سنوات طويلة...

وفي تمام العاشرة بالضبط كان جاسم الصاوي يفتح باب مكتبه ليهب فهد واقفاً وهو يسأله بغضب لم يتحكم فيه:

_أين جنة؟!

حافظ جاسم على برود ملامحه وهو يتقدم بخطوات واثقة نحو مكتبه حيث جلس بمنتهى الهدوء دون حتى أن ينظر إليه فسيطر فهد على انفعاله نوعاً وهو يقول بصوت متهدج:

_أرجوك يا أبي...قل فقط أنها بخير.

رفع جاسم عينيه إليه بتفحص يطالع عينيه المحمرتين مع ارتجافة شفتيه بخوفه...

وتشنج أطرافه التي بدت وكأنها مشدودة كقوس...

ليدرك وقتها أن هذه المرأة تعني الكثير حقاً لدى ابنه...

وهو ما ينتوي استغلاله لأبعد حد...

لهذا ضاقت عيناه بغضب وهو يقول آمراً:

_اجلس!

جلس فهد وعيناه معلقتان بملامح والده يريد فقط أن يستشف بحدسه ما يمكن أن يكون قد حدث لجنة...

لكنه فشل في قراءة ملامح أبيه الثلجية فعاد يقول بلهجة أكثر عنفاً:

_ماذا فعلت بها؟!!

ارتسمت على شفتي جاسم ابتسامة ساخرة مع قوله المقتضب:

_هي بخير.

تنهد فهد بارتياح لترتخي ملامحه فجأة لكنها عادت تتوتر عندما أردف جاسم بقسوة:

_حتى الآن!

ازدرد فهد ريقه بتوتر وهو يشعر أن رأسه يكاد ينفلق من فرط انفعاله ليقول بقلق:

_وذاك الدم الذي كان....

عجز عن إكمال عبارته جزعاً لكن جاسم لوح بسبابته قائلاً بنبرة وعيد:

_مجرد "قرصة أذن" صغيرة حتى تدرك أنت ما يمكنني فعله بها ....

ثم أردف بنفس النبرة المتوعدة:

_أنا كنت أتغاضى عن علاقاتك العابرة لأنها لم تكن تعنيني...لكن عندما يصل الأمر لزواج ونسب فسأسحق كل من يفكر في هدم ما عشت عمري كله أبنيه...

عقد فهد حاجبيه وهو يقول ببعض الرجاء:

_أبي!..إنها مريضة سكر...لو تأخر عنها الدواء ستكون في خطر.

ظل جاسم صامتاً للحظات ثم أتاه بضربته القاصمة:

_هل تريد أن تعيش بذنبها هي الأخرى بعد والدتك؟!!

أغمض فهد عينيه بألم وحديث والده يضغط على أكثر جروحه قسوة...

لقد اختار جاسم العزف على الوتر الصحيح...

فهد الذي لازال يحترق بذنب والدته حياً لن يستطيع تحمل ذنب جنة أيضاً...

لهذا لم يتعجب جاسم عندما هز فهد رأسه نفياً ثم قال باستسلام :

_ماذا تريد مني؟!!

شبك جاسم أصابعه أمام وجهه وهو يقول بحزم:

_طلقها!

أطرق فهد برأسه وهو يدرك أنه وصل لنهاية طريق مسدود...

حياة جنة الآن مقابل بقائها معه...

وهو لن يخاطر بأن يصيبها مكروه مهما كانت التضحية...

لقد تحقق أسوأ كوابيسه للأسف...

جنته حُرّمت عليه كشيطانٍ لن يكون له بعدها سوى التلظي بنيران جحيمه!!!

لكن ما حيلته؟!!

وهو ضحية لشيطان أكبر ذبح قلبه منذ زمن بسيف المادة وغرته الدنيا كما غرت سواه!!!

لهذا أومأ برأسه في استسلام لم يعد يملك غيره...

فأردف جاسم بلهجة أكثر تسلطاً:

_وزفافك على يسرا الصباحي سيكون أول الشهر القادم!!!

رفع فهد إليه عينيه بصدمة وهو يتمتم بذهول:

_يسرا؟!!أنا؟!!!لا...مستحيل!!!

انعقد حاجبا جاسم بشدة فهز فهد رأسه مردفاً بغضب لازال غارقاً بصدمته:

_نعم...مستحيل...لقد..كانت...زوجة صديقي!

خبط جاسم بكفه على المكتب وهو يهتف بحدة:

_المستحيل هو ما فعلته أنت بزواجك من تلك ال"نكرة"...يسرا الصباحي هي بطاقتنا الرابحة في الفترة القادمة...منصب والدها الجديد سيضمن لي مكاني في المجلس أنا الآخر...وأنا لن أضيع فرصة كهذه لأجل تفاهة أفكارك!!

احمر وجه فهد وقد غلبه غضبه ليهتف بغيظ:

_أي فرصة؟!!إنها تكبرني سناً بأكثر من عامين...ومطلقة بعد بضعة أشهر من زواجها !!!

ابتسم جاسم بسخرية سوداء وهو يقول باحتقار:

_وتلك المحامية ...ألا تكبرك بثلاثة أعوام؟!!

ازدرد فهد ريقه بتوتر وهو يشيح بوجهه دون رد...

فأردف جاسم بنفس النبرة:

_وأظنك تعلم لماذا طلقها "صديقك"...أو بالأدق...لماذا طلبت هي الطلاق؟!!

زفر فهد بقوة وهو يشعر بالهواء ينسحب من الغرفة تدريحياً...

مع ضيق صدره بكل هذا الانفعال...

لقد أغلق جاسم الصاوي في وجهه كل الأبواب...

هو فقط لا يطلب منه تطليق جنة بل يدفعه للزواج من امرأة كيسرا الصباحي...

والتي لا يرتضي أبداً أن يمنحها اسمه مهما بلغت مناصب أبيها!!!

هو الذي يعرف كيف تخلت عن حسام القاضي بمنتهى البساطة عندما علمت عن أزمته ورفضت معاونته فيها...بل خلعته كحذاء قديم لتبدأ سعيها خلف حذاء جديد...

والمفترض أن يكون هو الآن هذا الحذاء!!!

لا ورب العالمين!!!

لن يكون لها مهما حدث!!!

لكنه للأسف مضطر لمجاراة والده حتى يضمن سلامة جنة أولاً...

ومن يدري لعله يجد لهما مخرجاً فيما بعد!!

ولما طال صمته الغارق بعجزه وقلقه اضطر جاسم لقوله الحاسم:

_لا مجال للرفض...رفعت الصباحي هو الذي طلب نسبنا بنفسه وأنا لن أستطيع رفض طلبه...زواجك من يسرا أمام حياة رفيقتك!

رفع إليه فهد عينين غائمتين وهو يدرك أنه صار مجرد بيدق في لعبة شطرنج يتحرك وفق الأوامر فحسب...

لكن الأمر لم يعد يتعلق به وحده...

بل بحياة أقرب الناس لقلبه...والتي وعد نفسه قبل أن يعدها أن يفتديها بعمره كله...

لهذا همس بصوت مرتعش بانفعاله :

_زوجتي...وليست رفيقتي!

قالها دونما اكتراث لغضب أبيه...نعم!!!

إلا شرف جنة!!!

لن يتهاون في أن يمسه أحد يوماً وهو الذي عاش عمره كله مذبوحاً بخنجر تلك الكلمة بعد حادث والدته...

"الشرف"!!!

بينما انعقد حاجبا جاسم بغضب وتوهجت ملامحه بتهديد واضح فقام فهد واقفاً ليردف بحزم:

_سأنفذ كل ما تريد يا أبي...لكن دعها هي وشأنها!!

تفحص جاسم ملامحه للحظات وكأنه يستقرئ جديته فيما يقول...

ثم قام بدوره وهو يقول بصرامة:

_إذن دعنا ننهِ الأمر بسرعة...ستأتي معي الآن وتطلقها.

هز فهد رأسه موافقاً وأقصى أمانيه الآن أن يراها سالمة...

وبعد قليل كان يدخل مع والده أحد البيوت المنعزلة في مكان بعيد خارج حدود المدينة...

ليجدها هناك وسط عدد من رجال أبيه منزوية على نفسها في أحد الأركان جالسةً على الأرض...

فاندفع نحوها ليرفعها إليه قبل أن يتفحص ملامحها بلهفة ممتزجة بقلقه....

وعندما اطمأن أنها بخير همس بخفوت:

_سامحيني يا جنة .

رمقته بنظرة طويلة وقد أدركت من لهجته ومجيئه الآن مع جاسم الصاوي أنها النهاية...

فأغمضت عينيها باستسلام عندما وصلتها كلمات جاسم حادة قاطعة كالسيف:

_الآن ترمي عليها يمين الطلاق ثم تغادر هي المدينة بلا رجعة...لو علمت أنها عادت ترمي شباكها حولك فستكون نهايتها محتومة.

اعتصر فهد كفيها بين قبضتيه وهو يحاول اقتناص نظرة أخيرة منها...

لكنها أبقت على إغماض عينيها للحظات قبل أن تفتحهما لترمقه بنظرة غريبة لم يرَها من قبل...

لقد عاد وهج البندق يخبو في عينيها فلا يكاد يميز سوى أمطار سوداء من ألم قاتم...

نظرتها كانت تحمل كل المعاني المتناقضة التي لا يجوز أبداً أن تجتمع سوياً...

كانت تلومه....وتشفق عليه...

كانت تصفعه....ثم تحتضنه...

مشبعةً بخيبتها تارة وبتفهمها تارة....وباعتذارها تارة أخرى!!!

نظرتها كانت تنعي حباً لم يكن ليصحّ في ظروف خاطئة...

وما أقسى الحب الخاطئ!!!

بينما كانت نظرته تحمل ألماً بحجم الكون...

ألم قلبٍ خيروه بين موتٍ....وموت!!!

فبئس الخيار!!!

لتأتي كلمته أخيراً وكأنها تذبحهما معاً:

_أنتِ...طالق!!

=================

الفصل الحادي والعشرون

_جنة؟!!!!

هتفت بها رؤى بدهشة ممتزجة بسعادتها وهي تستقبلها في بيت حماتها عندما فوجئت بها تطرق الباب...

قبل أن تضمها بقوة مردفة باشتياق حقيقي:

_كم افتقدتك حبيبتي!!!

ربتت جنة على ظهرها برفق وهي تضمها بقوة أكبر وسط نظرات عفاف وهيام الفضولية..

قبل أن تهتف عفاف بترحاب:

_أهلاً يا ابنتي...تفضلي.

التفتت نحوها رؤى لتقول ببعض الخجل:

_عفواً يا أمي...سأصطحب جنة لشقتي حتى نتحدث براحتنا بعيداً عن الأطفال.

مطت هيام شفتيها باستياء ثم هتفت بتحفز:

_تقصدين أن أولادي مزعجون؟!!

تجهمت ملامح رؤى وهي تشعر بالحرج من جنة لكن عفاف تداركت الموقف وهي تقول بحنان:

_لا بأس يا ابنتي...ولو أننا كنا نود الترحيب بصديقتك.

ابتسمت جنة بشحوب وهي تتمتم بعبارات شكر مبهمة...

بينما سحبتها رؤى من كفها لتصعد بها إلى شقتها وكأنها تمسك كنزاً...

حتى أغلقت الباب خلفها لتحتضنها بقوة من جديد هاتفة بحرارة:

_جنة حبيبتي...لا تتصورين قدر احتياجي للحديث إليكِ.

دمعت عينا جنة وهي ترمقها بتفحص لتهمس بصوت متحشرج:

_دعيني أولاً أطمئن عليكِ....صفا تخبرني دوماً أنك بخير لكن عدم امتلاكك هاتفاً كان يؤرقني وكنت أشعر بالحرج من زيارتك.

ابتسمت رؤى وهي تدفعها برفق لتجلسها على الأريكة وتجلس في حجرها مسندةً رأسها على ساقيها قبل أن تهتف بمرح :

_هل تذكرين عندما كنت أزوركِ في مكتبك لأنام هكذا على ساقيكِ على الأريكة بالساعات نتسامر ونحكي؟!!

دمعت عينا جنة وهي تتذكر- شخصاً آخر- كان يحب هذه الجِلسة أيضاً...

شخصاً ...ما عاد ينتمي الآن لحياتها وقد وقفت بينهما كلمة القدر...

شخصاً توقن كم أحبها وأنه لم يبتعد إلا لأجلها...ومع هذا كانت تتمنى لو كان أقوى في المواجهة!!!

بينما أردفت رؤى بعاطفة صادقة:

_منذ تعرفت عليكِ صدفةً منذ سنوات وأنتِ لستِ مجرد صديقة...بل أختٌ وأم.

أغمضت جنة عينيها بألم وهي تشعر بالذنب نحو رؤى...

ماذا عساها تخبرها الآن...؟!!

أنها أحبت ذاك الرجل الذي انتهك حرمتها بل سمحت له بامتلاكها هي الأخرى؟!!!

أنها ضعفت أمام نداء قلبها وتجاهلت كل نداءات العقل والمنطق؟!!!

أنها استسلمت لوهم لم ولن يكون لها ونسيت أو -تناست- مبادئها التي لم يعد لها الآن سواها؟!!

ياللخزي!!!

بينما شعرت رؤى بألمها الواضح فرفعت إليها رأسها لتقوم قائلة بلهفة:

_ماذا بكِ يا جنة؟!! يا لغبائي!!!كيف نسيت أن أسألكِ عن حالكِ مع ذاك الوغد؟!!لا ريب أنه يؤذيكِ!!!

سالت دموعها على خديها أخيراً فمالت رؤى عليها لتحتضنها هاتفة بدموع أسفها:

_يا إلهي!!!سامحيني يا جنة...أنا من فعلت بكِ هذا...سامحيني!!!

تماسكت جنة نوعاً وهي تمسح دموعها فعادت رؤى تتفحصها مردفة بجزع:

_ماذا فعل بكِ؟!

ماذا فعل بي؟!!

ليتني أعلم حقاً ماذا فعل بي؟!!

أيّ جنونٍ تلبّسني وأنا أهيم معه في بحر عشق هائج تاركةً عقلي على الشاطئ؟!!

أي غفلةٍ طوقتني وأنا أذوب في لهيب هواه بلا حول ولا قوة؟!!!

بل أي لعنة أصابتني وأنا أسير مغمضة العينين -بعصابة مزركشة الألوان بالحب- نحو الهاوية؟!!

كانت هذه أفكارها الصامتة المزدحمة المشتعلة و التي ناقضت كلمتها الباردة الوحيدة:

_طلّقني!

تنهدت رؤى في ارتياح ثم هتفت بسعادة:

_الحمد لله أنكِ تخلصتِ من هذه المصيبة ...طالما كنتُ أدعو الله لكِ أن يخلصكِ من شره.

ابتلعت جنة غصتها وهي تغتصب ابتسامة شاحبة لتعاود سؤالها بحنان:

_دعكِ مني وأخبريني...كيف حالكِ مع زوجك ؟!! صفا تكاد تنظم فيه أشعاراً.

ابتسمت رؤى بخجل ممتزج بعاطفة قرأتها جنة بسهولة خاصةً عندما همست رؤى بحرارة:

_يستحق يا جنة ...يستحق وأكثر!!

ربتت جنة على رأسها وهي تهمس ببعض القلق:

_أموركما...طبيعية؟!!

ترددت رؤى قليلاً وهي تنظر لجنة بتفحص ممزوج بتوجسها...

بينما رمقتها جنة بنظرة حملت تساؤلها الخجول عن الأمر الذي استحت السؤال عنه...

لكن رؤى أطرقت برأسها بعد لحظات هامسة باقتضاب :

_من ستره الله لا يفضحه أحد!

تنهدت جنة بارتياح محترمةً تحفظها في الحديث عن الأمر....

بينما حافظت رؤى على إطراقها الصامت...

كم تود الآن لو تخبرها بحقيقة علاقتها براغب كاملة ...لكن شيئاً ما بملامح جنة الذبيحة بألمها يجعلها تشعر أنها لن تحتمل المزيد من الحزن...

كما أنها ارتأت أن تبقى علاقتها براغب سراً شخصياً بينهما هما فقط دون تدخل مخلوق حتى ولو كانت جنة رفيقة روحها...

لهذا اكتفت بابتسامة كبيرة حقيقية وهي تعاود إسناد رأسها على ساقي جنة مسترجعة ذكرياتهما السعيدة معاً...

وكأن هذه الجلسة أعادت لها تلك اللحظات من الدفء الذي كان يغمرهما قديماً...

قبل أن تهمس بوداعتها التي اكتسبت الآن شيئاً من الانطلاق:

_رجلٌ حقيقيٌّ يا جنة...حنانه وقوته...عطفه وشدته...الأمان الذي أشعر به جواره والذي لم أعرفه إلا معه...هل تصدقينني لو قلت لكِ أنه يبدو لي وكأنه أعاد تشكيل روحي من جديد كعجينة طرية في يده؟!!

ابتسمت جنة بمزيج غريب من السعادة والشجن...

رؤى تبدو وكأنها تتحدث بلسانها هي عن فهد...

لقد منح القدر للصديقتين حباً بحجم السماء قلب حياتيهما من أقصى اليمين لأقصى اليسار...

وإن كان نصيب جنة أن تنتهي قصتها ها هنا...فيبدو أن قصة رؤى ستستمر لتمنحها السعادة التي تستحقها...

لهذا عادت تربت على رأسها هامسةً بصوت متهدج:

_أنا سعيدة لأجلكِ حبيبتي.. أنتِ صرتِ كل أهلي هنا بعد سفر شقيقتيّ...لهذا جئت لأودعكِ قبل رحيلي.

شهقت رؤى بعنف وهي تنتفض من مكانها هاتفة بجزع:

_رحيلك؟!!لماذا؟!!وإلى أين؟!!

جاهدت جنة نفسها لتتكلف ابتسامة شاحبة قبل أن تغمغم بمرح مصطنع:

_(......)مدينة هادئة سأثبت وجودي فيها أكثر كمحامية...أنتِ تعلمين أن العاصمة ليست مكاناً مناسباً للمبتدئين؟!!

اتسعت عينا رؤى بدهشة وهي تتبين ابتعاد هذه المدينة التي ذكرتها لتهتف بحسرة واضحة:

_يا إلهي!!لكنها بعيدة عن هنا!!

ثم دار بخاطرها هاجس جعلها تسألها بمزيج من الأسف والذنب:

_أنتِ تفعلين هذا للهروب من فهد؟!!هل يهددك ؟!!

نظرت إليها جنة طويلاً وهي لا تدري بماذا ترد...

الصديقتان كلتاهما كانت تشعر بالذنب نحو الأخرى !!!

ولأول مرة منذ بدأت صداقتهما تخفي كل منهما عن الأخرى خبيئة نفسها !!!

ربما اختلفت الأسباب ...لكن تبقى النتيجة واحدة...

لقد تشقق جدار صداقتهما المتين لكنه لايزال آمناً للاستناد عليه!!!

لهذا قطعت جنة صمتهما الطويل لتقول بصلابة:

_ما عاد هناك مجالٌ للتفكير في ماضٍ رحل بالنسبة لكلينا...عيشي حياتك واستغلي عطية القدر لك في زوجك الحنون...وأنا سأعاود شق طريقي وحدي كما تعودت منذ زمن بعيد.

دمعت عينا رؤى وهي ترمقها بحب ممتزج بالقلق...

بينما قامت جنة لتقول بنفس الصلابة:

_اعتني بنفسكِ حبيبتي ولا تشغلي نفسكِ بي...سأكون بخير.

قامت رؤى بدورها لتحتضنها من جديد بقوة هاتفة وسط دموعها التي انهمرت الآن:

_سأفتقدكِ يا جنة...متى ستعودين ؟!!

أغمضت جنة عينيها بقوة تأثرها بهذا الوداع مستسلمةً لحضن رؤى للحظات..

قبل أن تقول بحزم غارقٍ بأشجانه:

_لن أعود يا رؤى...لن أعود.

====================

_راغب!!!لماذا عدتَ باكراً هكذا؟!!

هتفت بها عفاف بجزع وهي تتبين ملامحه الشاحبة التي دخل بها...

بينما امتقع وجه رؤى هي الأخرى وهي تشعر بالقلق عليه فيما أجاب هو بصوت محتقن:

_لا تقلقي يا أمي... يبدو أنها نزلة برد...سأحتاج فقط للراحة قليلاً!

ثم ألقى تحية مقتضبة على هيام قبل أن يلتفت لرؤى ملاحظاً شحوب وجهها قلقاً فسألها ببعض الرفق:

_كيف حالكِ يا رؤى؟!هل أنتِ بخير؟!

انفرجت شفتاها وهي تهم بالرد عندما اندفعت هيام تهتف كقذيفة مشتعلة:

_ولماذا لا تكون بخير؟!!نحملها على كفوف الراحة وصديقاتها يأتين إلى هنا وكأنه أصبح نادياً للمراهقات!!!

رمقتها عفاف بنظرة زاجرة فيما نظر راغب لرؤى بتساؤل لكن ملامحها المذعورة كعهدها لم تمنحه جواباً شافياً...

فزفر بقوة ثم قال لهيام بحزم:

_لم يمنعكِ أحد من استضافة صديقاتك...رؤى عروس جديدة ومع هذا لا تطلب الخروج والتنزه كمن في ظروفها ..فهل ستحرّمين عليها زيارة صديقاتها أيضاً؟!!

كان يتوقع منها المزيد من الجدال والتقريع لكنه فوجئ بها تنخرط في بكاء عنيف قبل أن تغادر شقة عفاف إلى شقتها بخطوات مندفعة!!!

فالتفت نحو والدته يسألها بدهشة:

_ماذا حدث لكل هذا؟!!

شاركته رؤى دهشته لرد فعل هيام المتطرف لكن عفاف أجابته بتنهيدة حارة سبقت قولها:

_شقيقتها عزة واقعة في ورطة...اكتشفوا أن خاطبها شابٌ سيئ يدمن المخدرات...وعندما طلبت منه الانفصال بالمعروف هددها بأن يسوئ سمعتها في الحي...وأنت تعرف أن هيام وشقيقتها يتيمتان فمن سيقف لهذا الوغد و شقيقك كما تعلم لا يحب المشاكل؟!!!

انعقد حاجبا راغب بشدة وهو يهتف بحدة رغم صوته المبحوح:

_أنا سأقف له!!! هل يظن أن "بنات الناس" لعبة في يده؟!!سأريه مقامه الحقيقي غداً وآخذ لها حقها ولو من عينيه!!!

ابتسمت عفاف بفخر وصوتها يعلو بالدعاء له للحظات...

بينما ارتسمت على شفتي رؤى ابتسامة كبيرة وهي تتأمله بإعجاب حقيقي...

هذا هو من سميت "الرجولة" باسمه...

هذا رجلٌ تتمناه كل امرأة بأي صفة...

ليته أبوها...أخوها...ابنها...صديقها...وكل أقاربها...

بل ليته يكون كل الرجال!!!

لكن شرودها الهائم به انقطع عندما فوجئت به يجذبها من كفها برفق ليقول لأمه بنبرة اعتذار:

_سأصعد الآن لأستريح...هل تريدين شيئاً؟!!

تغيرت ملامح عفاف عندما تذكرت تعبه فهتفت بجزع:

_سلامتك يا ابني!!!تناول طعامك ونم جيداً وأنا سأصعد مساءً للاطمئنان عليك.

ثم التفتت نحو رؤى توجه لها بعض الوصايا بخصوص طعامه وراحته ...

قبل أن يصعدا معاً إلى شقتهما ...

توجه بخطوات منهكة نحو الأريكة في غرفة نومهما وهو يشعر بالألم يكاد يدك عظامه...

عندما أمسكت رؤى ساعده وهي تهمس بتردد:

_نم على السرير ...هو أكثر راحة!

هز رأسه باعتراض وهو يكاد يستأنف سيره نحو الأريكة لكنها تشبثت بساعده وهي تعاود همسها الراجي لعلها تقنعه بأي طريقة:

_والدتك قد تزورنا في أي وقت ...ماذا ستقول لو وجدتك نائماً على الأريكة؟!

زفر بقوة وهو يتبين منطقية ما تقول...

عندما أردفت هي ببعض الحرج:

_سأنام أنا على الأريكة اليوم حتى تكون على راحتك.

تجاهل عبارتها وهو يندس في الفراش تحت الأغطية دون أن يقوى حتى على تبديل ثيابه...

فاقتربت منه ببطء لتهمس بعاطفة حقيقية لمست قلبه المتيم بها:

_سلامتك!!ألف سلامة!!

أشاح بوجهه قسراً وهو يخشى قراءة ما تفضحه عيناها عندما أردفت هي بنبرتها البريئة:

_سأعد لك كوب ليمون ساخن مع قرصين من (........)وعندما تستيقظ سأكون قد أعددت لك حساء الخضروات...صفا كانت تفعل هذا كلما كنت أصاب بنزلات البرد...وكان فعالاً جداً.

قالتها وهي تهرول خارج الغرفة بسرعة وكأنها طفلة طلب منها أحد الكبار إنجاز مهمة وتريد إبهاره!!!

فابتسم رغماً عنه وهو يتتبع ظلها المنصرف بعينيه...

قبل أن تداعب أنفه رائحة عطرها الليمونية الممتزجة برائحتها الخاصة على وسادتها تحته...

فلم يشعر بنفسه وهو يسحب الوسادة ليضمها إليه ثم دفن وجهه فيها بعمق لوقت لم يتبينه...

حتى سمع هديلها الوديع جواره:

_راغب!!!الليمون والدواء!!

ألقى الوسادة جانباً بعنف وكأنما يلقي دليل إدانته بجُرْم....قبل أن يقوم من نومته ليجلس متناولاً منها الدواء والكوب...

عندما جلست هي على طرف الفراش جواره لتهمس بتردد وهي تتذكر ما قالته هيام منذ قليل:

_هل تريد أن تسألني عن شئ؟!!

رمقها بنظرات متفحصة وهو يرفع الكوب على شفتيه للحظة ...

قبل أن يغمغم بخشونته المعهودة:

_هل تريدين أنتِ قول شئ؟!!

أطرقت برأسها دون رد...فأردف ببعض اللين:

_صديقتك هذه التي زارتك اليوم...من أين تعرفينها؟!!

رفعت إليه عينيها بخوف لم تخطئه عيناه ...

فربت على كفها برفق هامساً:

_هو ليس تحقيقاً...لو أردتِ ألا تجيبي فلا بأس.

ارتجفت شفتاها بشبه ابتسامة أذابت قلبه فضغط على كفها أكثر بينما غمغمت هي بشرود:

_جنة صديقتي منذ سنوات...التقيتها أول مرة في أحد دروس المسجد التي كان يصر عبد الله على أن أحضرها...منذ عرفت هي عن ظروف يتمي وهي لم

تعتبرني صديقتها فحسب بل كانت تعاملني كابنتها رغم أنها لا تكبرني سوى ببضع سنوات.

انعقد حاجباه مع سعاله القصير الذي هاجمه للحظات...

قبل أن يتنحنح قائلاً بصوت مبحوح:

_هل كانت تعلم عن زواجك العرفي هذا؟!!

عاد الخوف يتملك عينيها وهي ترمقه بنظرات مترددة...

ثم حسمت أمرها لتهمس بصوت مرتجف:

_أنا سأخبرك بالحقيقة كلها...لكن عدني أن...

انقطع حديثها بغصة حلقها فجذبها من كفها برفق ليقربها منه هامساً وقد حسم أمره:

_قولي ولا تخافي يا رؤى...مهما كان ما ستقولينه فهو لن يغير من حقيقة ما بيننا شيئاً.

ازدردت ريقها ببطء وهي تمسح دمعة خانتها لتتمالك قوتها وهي تغمغم باضطراب:

_لم يكن زواجاً...هو...هو استدرجني لشقته ...ثم فعل فعلته....وبعدها ساعدتني جنة لنجعله يوقع على تلك

الورقة ...جنة كانت تعلم أنها لا تساوي شيئاً...لكنها قالت أنها أفضل من لا شئ...

اتسعت عيناه بصدمة للحظات مرت عليها طويلة كدهور...

قبل أن يهتف هو أخيراً بحدة وقد تمالك صدمته:

_لم أكن أظن الأمر هكذا...تعنين أنه حتى لم يكن زواجاً؟!!

أشاحت بوجهها في خزي بينما أردف هو بتشكك:

_هو لم يقربكِ إلا مرة واحدة...رغماً عنكِ؟!!

هزت رأسها نفياً وهي تهمس بمزيج من الذنب والخوف:

_لن أكذب...لم يكن رغماً عني!!

اشتعلت عيناه وقد تحفزت عضلات جسده كلها وبدا على وشك الفتك بها...لكنها أردفت بصدق اخترق قلبه:

_لم يكن رغماً عني...ولم يكن أيضاً برغبتي تماماً...هي لحظة ضعف فقدت فيها عقلي وإرادتي...يمكنني الكذب عليك لأكتسب تعاطفك لكنني عاهدت الله أن أصدقك دوماً مهما حدث!

خبط بقبضته على الفراش جواره فانتفضت مكانها برعب...بينما هتف هو بحنق:

_تزعمين أنها مرة واحدة؟!!

عضت على شفتها السفلى وهي تهمس بمرارة:

_أجل!!خطأ واحد قد يساوي أحياناً خسارة عمر !!!

أغمض عينيه وهو يعود برأسه للوراء يفكر....

نعم...حتى لو افترض صدقها فيما تزعم هي محقة في قولها...

خطأ واحد قد يساوي أحياناً خسارة عمر...

بل ربما...عمرين معاً!!!

لهذا فتح عينيه ببريقهما المشتعل الآن وهو يعاود سؤالها بغلظة لم يتعمدها:

_ولماذا جاءت اليوم لزيارتك؟!!هل تحمل لكِ أخباراً عنه؟!!

جاءت عبارته الأخيرة كصفعة لها وهي تدرك أنه لن يسامحها أبداً على فعلتها...

وأن الشك سيبقى ثالثهما في هذه العلاقة الغريبة...

فقامت من مكانها لتهمس بقوة غريبة على طبعها المستكين وكأنما اكتسبت بعض الصلابة من ثقتها بما ستقول:

_ربما أكون قد أخطأت يوماً...لكنني ندمت...والآن أعرف كيف أصون الرجل الذي منحني اسمه...لو كنت تشك في علاقتي بها أو بغيرها فاطمئن...هي جاءت لوداعي قبل مغادرتها للمدينة لوقت طويل...وأنا لم يكن لي صديقات سواها.

أشاح بوجهه وهو يشعر بنيران هائلة تلفح صدره...وبرغم سعادته "الخفية" بقوتها "المستحدثة" والثقة التي تتحدث بها لكن روحه كانت هائمة في وادٍ آخر....

قلبه يقسم له أنها صادقة...

بينما يطرق الشك بنفسه ألف باب...وما اعترفت به الآن يكوي ضلوعه كيّاً!!!!

لتزيد آلام جسده هي الأخرى من توتره....

فوضع الكوب الذي بيده على الكومود برفق وهو يهم بالنوم متجاهلاً الرد عليها...

لكنها عادت تقول برجاء:

_على الأقل اشربه و خذ دواءك...لا تحملني ذنبك يا راغب أرجوك.

وهل يمكنه تخييب رجاءها ؟!!

وهمسها الساحر باسمه يداعب كل أوتار رجولته بلحن لم ولن تعزفه روحه إلا لها؟!!!

لهذا عاد يمسك بالكوب ليتناوله جرعة واحدة مع الدواء قبل أن يعاود اندساسه بين الأغطية....

حتى شعر بابتعاد خطواتها البطيئة وإغلاقها للباب خلفها فعاد يحتضن وسادتها بقوة وتأوهاته المكتومة التي لا يسمعها سواه تكاد تصم أذنه...

وذهنه يرسم له آلاف الصور لها مع رجل غيره نال منها ما حرمه هو على نفسه...

ليعاود الاحتراق بذنبها القديم من جديد...

فلم يشعر بنفسه وهو يلقي الوسادة على الأرض لينتفض من مكانه وقد قرر ألا ينام على هذا الفراش مهما حدث...

لكن أنامله اصطدمت بدفترها الليموني الذي نسيته تحت وسادتها...

فاستخرجه بلهفة وقد كاد ينسى أمره ليقرأ آخر ما سطرته أناملها بعفوية:

اليوم جاءتني جنة لأرى في عينيها صورتي القديمة ببراءتها قبل أن تدنسها خطيئتها...

جاءت كهدية قدرية لأضحك معها ضحكة حقيقية لم أعرفها منذ زمن...

لكنها للأسف جاءت لوداعي ...وكأن القدر يأبى إلا أن يهدم أركان الأمان بعالمي كاملة...

بالأمس رحل والداي...ثم رحل "الغادر" بعدما طعنني بخنجر خيانته...

واليوم ترحل جنة...وغداً يرحل راغب...

وأبقى وحدي!!

فكم من القوة تلزمني لأكمل هذا الطريق؟!!!

وكم من العمر يكفيني لأنسى حنان رجل مثله؟!!

رجل منحني دون مقابل...ولو يقبل لمنحته حياتي كلها!!

أغمض عينيه بتأثر وهو يغلق دفترها بعنف ليعيده مكانه...

كل حرف قرأه كان سهم صدقٍ مصوباً لقلبه عرف طريقه بإتقان!!!

ورغم الألم الذي كاد يشق رأسه بل جسده كله قام من مكانه وهو ينتوي ألا يعود لجحيم هذا الفراش أبداً...

سينام على الأريكة...لكن قبلها...فليطمئن على تلك "البائسة" أولاً!!!

لو لم يكذبه ظنه هي الآن في المطبخ تعد طعامه ...وتبكي خوفاً وخزياً!!!

لهذا فتح باب الغرفة وتوجه نحو المطبخ بتثاقل ليجدها كما توقعها تماماً أمام الموقد تمسح وجنتيها بظاهر كفها وهي تتمتم بكلمات لم يسمعها...

فاقترب منها ببطء ليربت على كتفها برقة جعلتها تستدير نحوه بدهشة ...

فضمها إليه بقوة وأنامله تتلمس ظهرها برفق للحظات ثم همس بصوته المبحوح:

_لا تبكي بعد!!

أومأت برأسها في طاعة دون أن تقوى على رفعه نحوه...فرفع هو ذقنها إليه ليردف :

_أعجبتِني وأنت تتحدثين عن نفسك منذ قليل بهذه الثقة والقوة....ليتكِ تبقين هكذا!

التمعت عيناها ببريق آسر ظاهره دهشة وباطنه فرح... وهي تتمتم بارتباك آسر:

_أعجبتُك؟!

قالتها ثم تزينت شفتاها بابتسامة ساحرة قبل أن تداريها بأناملها في خجل وهي تشيح بوجهها....

فوجد نفسه دون وعي يبتسم بدوره وهو يحتضن وجنتها براحته ليدير وجهها إليه ملتقطاً نظراتها الخجول...

قبل أن يزيح أناملها من على شفتيها برقة كي يستمتع بابتسامتها ليهمس بحنان :

_نعم ..أعجبتِني وستعجبينني في كل مرة تثبتين لي فيها قوتك .

اتسعت ابتسامتها بفخر طفوليّ وهي تهز رأسها في حماسة...

ثم هتفت ببراءتها الآسرة التي خالطها بعض المرح:

_انتظر حتى تتذوق هذا الحساء المميز أيضاً...سأعجبك أكثر!!

فضحك ضحكة قصيرة قضبل أن يجلس على الكرسي أمام مائدة المطبخ وقد نسي تعبه ليقول باستسلام غارقاً بعاطفته:

_حسناً ...سأنتظر معكِ هنا حتي تنتهين...لنأكل سوياً!!

===================

_أين وثيقة طلاقك؟!!

هتف بها جاسم الصاوي لفهد الذي كان واقفاً أمامه في مكتبه...

فتجمدت ملامح فهد وهو يستخرج ورقة مطوية من جيبه ليناولها له....

انعقد حاجبا جاسم وهو يتفحصها قبل أن يقول بغيظ ممتزج بغضبه:

_زواج رسمي يا أحمق؟! رفعت الصباحي سيكتشف هذا بسهولة...ماذا أفعل فيك؟!!

التوت شفتا فهد بابتسامة سوداء وهو يقول بتهكم مرير:

_وماذا في هذا؟!!ألم تتزوج ابنته نفسها من قبل ؟!!

زفر جاسم زفرة مشتعلة وهو يلقي الورقة بإهمال في درج مكتبه قبل أن يلوح بسبابته في وجهه هاتفاً بلهجة تهديد :

_ستكون آخر مرة أتهاون معك فيها...هذه المرة تمكنتُ من إصلاح خطئك قبل فوات الأوان...لو تكرر هذا الأمر فسأنسى أنك ابني الوحيد وسيكون عقابي رادعاً.

أطرق فهد برأسه وهو يتمتم بفتور:

_لا تقلق يا أبي...أنا تعلمت درسي جيداً!!!

تفحصه جاسم ببصره وكأنه يتأكد من صدق قوله...قبل أن يردف بتسلط:

_كلّم خطيبتك واتفق معها على التفاصيل...كل أوامرها مجابة...المهم أن يتم الزفاف أول الشهر.

أومأ فهد برأسه دونما اهتمام...

وعيناه تحدقان في الفراغ أمامه وكأنهما بلا حياة...

بعد رحيل جنة هو صار جسداً نزعوا منه روحه ولم يبقَ منه سوى جثة ...

فليفعلوا بها إذن ما شاءوا!!!

وكأنما شعر جاسم بما يدور في نفسه فابتسم ساخراً ليقول باستخفاف:

_حزنك هذا لن يستمر طويلاً...طيش شباب سيمضي لحاله...

ثم أردف ببعض الخبث:

_يسرا الصباحي بفتنتها لن تنسيك ماضيك فحسب...بل ستُنسيك اسمك!!

تنسيني اسمي؟!!!

نعم ...ربما كان هذا ما أحتاجه الآن بالضبط!!!

أن أنسى اسمي!!!

اسمي الذي كان لعنتي منذ البداية...

"ابن الصاوي" الذي كُتب عليه أن يكون شيطاناً كأبيه!!!

ربما لو لم يكن دخل "الجنة" لما كان اكترث بهذا المصير...لكنه للأسف دخلها!!!

دخلها ليستمتع بكل لحظة قضاها فيها والآن غادرها مطروداً إلى أرض لعنته من جديد وقد حرموها عليه للأبد!!!

كانت هذه أفكاره الصامتة التي ابتلعها قبل أن يقوم من مكانه بجمود ليغادر مكتب أبيه بتثاقل...

ثم استقل سيارته ليتناول بعدها هاتفه ويجري اتصالاً...

ولم يكد يسمع صوت محدثه حتى قال بصوت منهَك:

_أحتاج للتحدث معك يا حسام...لا...لن يسعفني حديث الهاتف...أريد أن أراك...هل ستأتي أنت أم آتيكَ أنا؟!!

وفي مكانه عقد حسام حاجبيه وهو يشعر أن لهجة فهد لا توحي بخير...فأجاب بلهجته العملية:

_أنا كنت قادماً على أي حال لشراء بعض الأشياء للعرس...سأكون عندك مساءً.

أغلق فهد الاتصال معه بعد شكر مقتضب...

وأنامله تتوسله اتصالاً آخر يسكت به نحيب قلبه...

لكنه لم يستجب!!!

لو كان يحبها حقاً فيجب عليه أن يبتعد الآن...وهو لا يحبها -فقط- بل إنها الآن أغلى من حياته...

عاد برأسه إلى الوراء مغمضاً عينيه باستسلام ليتذكر وقتها أنه لم ينم منذ تلك الليلة العصيبة التي فاجأه فيها والده بقدومه والتي تبعتها أحداث سريعة لا يذكر منها سوى تلك الورقة التي أعطاها لأبيه منذ قليل...

قسيمة الطلاق!!!

التوت شفتاه بابتسامة مريرة وهو يفكر كيف يمكن أن ينتهي حب كحبه لجنة بمجرد ورقة؟!!!

كيف صارا الآن غريبين حقاً؟!!!

بل ربما أبعد من ذلك...!!!

الغريبان قد يلتقيان مصادفة لكن حتى هذا لم يعد متاحاً بعدما أصدر والده أمره لها بأن تغادر المدينة ولا تعود أبداً...

وهو واثقٌ أنه حتى دون أمر أبيه جنة كانت ستفعلها على أي حال...

جنة بقوتها التي يعرفها ستنفض عنها رداء ذاك الحب الذي خذلها لتختار رداءً آخر يناسب كبرياءها...

ربما ستتألم كثيراً لكن هذا أفضل من أن يفقدها تماماً وهو ما يثق بقدرة والده على فعله بمنتهى البساطة!!!

لهذا تنهد بحرارة وهو يعاود فتح عينيه ليتطلع لشاشة هاتفه بشرود...

قبل أن يحسم تردده برسالة أخيرة قرر أن يرسلها إليها:

_أنتِ جنة ...وأنا شيطان...والشيطان لا يدخل الجنة...بل دخلها مرة ...ثم حُرمت عليه للأبد بسواد خطيئته!!

ضغط زر الإرسال وشفتاه ترتجفان بانفعال وهو يتخيلها أمامه عندما تقرأها...

هل تراها ستعذره؟!!أم ستلعنه؟!!

هل سترفع كلماته لشفتيها تقبلها كما كانت دوماً تفعل؟!!!

أم ستلقي هاتفها لتكسره كما انكسر ما بينهما؟!!

هل تفهم أنه كان مضطراً لفعلته؟!!

أم تظنه جباناً باعها بلا ثمن؟!!

ليأتيه الرد بأسرع مما توقع مع رسالتها التي أرسلتها الآن قبل أن تغلق هاتفها تماماً:

_كنتَ محقاً يوم قلت إنه عندما يمتلك فهد الصاوي شيئاً فإنه يُدمغ باسمه للأبد..مفتاح جنتك سيبقى بيدك فإما هزمت شيطانك وعدت لتفتحها...وإما ألقيته في قلب جحيمك ليحترق وتحترق أنت معه!

==============

_طلقتها؟!!

هتف بها حسام بدهشة وهو يجلس مع فهد في أحد المطاعم حيث التقيا بعد وصوله ليستمع منه لتفاصيل ما حدث...

فأومأ فهد برأسه في أسف...بينما هز حسام كتفيه وهو يقول بتعجب:

_ظننتك لن تفعلها أبداً!

أشاح فهد بوجهه وهو يقول بنبرات مختنقة:

_ربما لو كان حبي لها أقل من هذا ولو مثقال ذرة لتجرأت على المحاولة...لكنني لم أحتمل المجازفة بحياتها.

ثم أردف بألم:

_الخوف أحياناً يكون أقوى من الحب...أنت لا تتخيل كيف كان رعبي عندما رأيت قطرات الدم على الأرض ليلتها...

غامت عينا حسام بحزنٍ قاتم وهو يستعيد ذكرى مشابهة ليتمتم بشرود:

_أو رماداً أسوداً يخبرونك أنه كان يوماً لها!!

اتسعت عينا فهد بإدراك وهو يتبين ما يدور بعقل حسام الآن...

لقد مر بأسوأ مما مر هو به عندما أرسلت له طيف رسالة على هاتفه تخبره بعزمها الانتحار قبل أن يعرف من أمه أنها أحرقت بيتها الصغير المنعزل في أحد أنحاء مدينتها المجاورة وهي بداخله!!!

لكن هذه ليست تمام الحكاية...حسام يشك أن أخاها هو من قتلها لأنه تدخل بنفوذه لمنع التحقيق في هذا الأمر !!!

أخاها الذي رفض الاعتراف بها قتلها كي لا تطالب بحقها في إرث أبيها وقبلها اسمه!!!

لكن رسالتها التي أرسلتها تناقض هذا!!!

فهل انتحرت يأساً بعدما خذلها حسام بزواجه من يسرا؟!!!

أم سبقها أخوها بقتلها بهذه الطريقة بعدما أجبرها على إرسال تلك الرسالة ليوهم الجميع أنه انتحار؟!!!

وبين الفكرتين ظل حسام يتعذب بذنبها طوال هذه الأيام...فهو يحمّل نفسه إثم موتها سواء بخذلانها بزواجه أو بعدم قدرته على حمايتها من بطش أخيها الشيطان!!!

وأمامه كان حسام غارقاً بنفس الأفكار ورسالتها الأخيرة على هاتفه تدوي في رأسه لتحرق قلبه بجحيم مستعر

_اليوم أستريح من حياة لا مكان فيها لمن هي مثلي...سأحرق نفسي عساك تحترق بذنبي في كل لحظة من عمرك بعدي.

كانت هذه آخر كلمات وصلته منها قبل أن يعلم عن انتحارها بهذه الطريقة البشعة...

ليته ما استجاب لشهوات طمعه وقتها بالزواج من يسرا الصباحي بكل ما حمله من مميزات...

لم يستطع مقاومة طموحه وهو يرى فيها سلماً سيصعد به إلى مستقبل مشرق...

لم يدرِ وقتها أنه سيسقط من على درجاته لتتكسر قدماه وقد خسر الأمس والغد أيضاً!!!

وأمامه كان فهد يتفحصه وهو يفهم ما يجول بنفسه قبل أن يقول بتردد:

_لم تخبرني عن رأيك في زواجي من يسرا!!

أفاق حسام من شروده ليبتسم ساخراً وهو يقول باستخفاف:

_تظنني أغضب أو أغار مثلاً؟!!

أشاح فهد بوجهه وهو لا يدري ماذا يقول في موقف كهذا...

كلاهما يفهم الآخر جيداً...وهو أكثر من يعرف أن يسرا لا تساوي شيئاً لدى حسام الآن...

لكنه مع هذا يشعر بالحرج نحوه وقد وضعه تسلّط والده في هذا الموقف...

بينما ربت حسام على كتفه وهو يقول بلهجة أكثر رفقاً:

_أنا فقط أشفق عليك يا صديقي...لن تحتمل الزواج بأخرى وقلبك معلق بجنة.

تأوه فهد بقوة وهو يخبط رأسه بظهر مسند مقعده ليهتف بعجز:

_ماذا أفعل يا حسام؟!!حياتها أمام فراقنا وزواجي من يسرا....يد جاسم الصاوي ستطالها في أي مكان تذهب إليه لو لم أطاوعه!!

هز حسام رأسه وهو يقول بأسف:

_قصتكما كانت منتهية منذ البداية...والدك لم يكن ليتركها وشأنها أبداً...لم تكن لها ولم تكن لك.

أغمض فهد عينيه بألم وهو يهمس بخفوت:

_بل لم يكن لي إلا هي!!

تنهد حسام بحرارة وهو يعاود التربيت على كتفه....

ورغم شعوره بلوعة صديقه التي عاش مثلها من قبل لكنه عاد يقول بلهجته العملية:

_انسَها يا فهد...ولا تعاند قدرك...يسرا ليست بهذا السوء...أنا أعذرها في طلبها للطلاق مني ...أي واحدة مكانها كانت ستفعلها...من يدري ربما كان حظك معها أفضل!!

فتح فهد عينيه المحمرتين إجهاداً ليهتف بضيق:

_مجرد سيرتها تخنقني...كفانا حديثاً عن هذا الأمر وأخبرني عن موعد عرسك.

مط حسام شفتيه باستياء وصورة دعاء تعيد صراع نفسه القديم ليقول باقتضاب:

_بعد أسبوع.

عقد فهد حاجبيه وهو يسأله بدهشة:

_بهذه السرعة؟!!

ابتسم حسام وسخريته اللاذعة تعاود غزو شفتيه:

_ولماذا نتأخر؟!!

هز فهد رأسه بتفهم بينما أردف حسام بود ظاهر:

_وأنت بالطبع ستكون أول المدعوين.

ابتسم فهد بمودة وهو يربت على ركبته ثم سأله باهتمام:

_هل من جديد بشأن أختي؟!!

هز حسام رأسه بأسف وهو يقول بحزم:

_الرجل اختفى ولم يترك خلفه أثراً...لكنني وصلت لطرف خيط سيدلني على مكانه... سأصل إليه حياً أو ميتاً!

ثم عاد يربت على كتفه مردفاً :

_لا تقلق...لن أستريح حتى نجدها.

===================

_ياللجمال!!

قالتها يسرا بدلال وهي تتناول من فهد ذاك الطاقم الماسي الذي أرسل جاسم الصاوي لطلبه خصيصاً من الخارج...

كانا يجلسان على أحد الأرائك بحديقة قصر رفعت الصباحي بعدما أعلنا خطبتهما بالأمس...

فابتسم فهد بتكلف وهو يقول بتحفظ:

_أبي أرسل في طلبه خصيصاً لكِ.

ضحكت بغنج وهي تقترب منه بجسدها لتهمس بعتاب مشبع بدلالها:

_وأنت لماذا لم تختره على ذوقك؟!!

أشاح بوجهه في نفور لم يخفَ عليها وهو يقول بتكلف:

_لم يكن هناك وقت.

فألقت رأسها على كتفه وهي تهمس بتردد:

_لماذا أشعر أنك تتباعد عني؟!!هل يوغر حسام صدرك ضدي؟!!هل يسئ الحديث عني؟!!

تمالك فهد نفسه بصعوبة هو يقول ببرود:

_حسام لا يذكر هذا الأمر أبداً...هو على وشك الزواج وأظنه طوى صفحتكما للأبد.

ارتفع حاجباها بدهشة وهي ترفع رأسها من على كتفه لتقول باستخفاف:

_زواج؟!!ومن هذه الحمقاء التي قبلت به ؟!!

كز فهد على أسنانه مخفياً غضبه ...بينما أردفت هي باستهزاء:

_مطلقة يائسة أم عانسٌ فاتها قطار الزواج ؟!!

قام فهد واقفاً وقد أثقله هذا الحوار لكنه كان مضطراً لتحمل رفقتها فقال بسرعة وهو يتحاشى النظر إليها:

_لا أحب أن يدور بيننا حديث عن حسام...هو أولاً وأخيراً صديقي.

قامت بدورها وهي تشعر بغضبته فأراحت كفها على صدره وهي تحتضن وجنته بالآخر هامسةً برقة:

_تغار؟!!

تعلقت عيناه بملامحها للحظة قبل أن يتوه عقله في شروده...

فاتنة حقاً يسرا...!

قادرةٌ على إدارة رأس أعتى الرجال...!!

والده كان محقاً عندما قال أنها قد تنسيه اسمه...

لكنه وإن نسي أنه "ابن الصاوي" فلن ينسى أنه "فهد"..

فهد حبيب جنة...!!

وعند خاطره الأخير انسابت ذكرياته معها تغلف قلبه بستار من حزن ممتزج بشوق حارق...

ليته يراها مرة...

مرة واحدة يسمع منها وتسمع منه ...

يشرح لها وضعه...

يشرح؟!!!

ماذا سيشرح ؟!!

أسباب فراقه أم زواجه الجديد؟!!!

هو الآن في عُرف جنة الرشيدي خائنٌ جبان مهما كانت مبرراته!!!

لكن يسرا أساءت فهم شروده المتفحص فيها فاقتربت بوجهها منه أكثر لتهمس بنبرة أشد حرارة:

_إلى هذه الدرجة تعلقت بي في هذه المدة القصيرة؟!!

أفاق من شروده على جملتها مع اقترابها الخطير الذي أشعل حواسه...

فدفعها برفق ليقول بلهجة متحفظة:

_يسرا...نحن في الحديقة.

ضحكت ضحكة عالية وهي تغمزه قبل أن تهتف بمرح:

_من يرى تحفظك هذا لا يصدق أنك فهد الصاوي بسمعته المعروفة.

أشاح بوجهه وهو يقول بضيق:

_لا تصدقي كل ما تسمعينه...مجرد إشاعات.

اقتربت منه أكثر لتدير وجهه إليها قبل أن تنظر لعمق عينيه هامسة ببطء واثق:

_وحتى لو كانت حقيقة...لا أهتم...أنت من الآن ملكي أنا فقط...

ثم امتدت أناملها تداعب وجنته وهي تهمس بثقة:

_سأنسيك كل امرأة عرفتها قبلي...ولن تكون لأخرى بعدي.

عاد يشيح بوجهه عنها عندما امتدت أناملها ل"ندبة ذقنه" مع همسها المستنكر:

_ما هذه الندبة البشعة؟!

انتفض جسده وهو يبتعد بوجهه عنها هاتفاً بغضب لم يتحكم به:

_لا تلمسيها!

ابتعدت عنه بارتباك وهي تغمغم بنبرة اعتذار:

_آسفة يا فهد...لم أكن أظنها تؤلم.

ضم قبضتيه بقوة جواره وهو يهمس بجمود رغم انكسار نظراته:

_نعم تؤلم...

ليردف بعدها بوجع صادق:

_جداً!

فابتسمت بإشفاق وهي تربت على كتفه قائلة باهتمام:

_ألن تعالجها قبل حفل الزفاف؟!!ألن يكون لطيفاً أن تظهر في الصور!!

أخذ نفساً عميقاً ثم رفع رأسه لأعلى مع زفرة حارة قبل أن يقول بنبرة مختنقة منهياً هذا الحوار :

_ليتَ لها علاج!!

==============

كانت تسير في الطريق بشرود تحاول استكشاف المدينة لكن عينيها كانتا غائمتين لا تكادان تبصران المرئيات حولها...

منذ انتقلت للعيش في هذه المدينة البعيدة منذ أيام وهي تشعر أنها فاقدة للتوازن...

بهذه البساطة انتهت قصتها معه برسالتين على الهاتف...وكلمة طلاق!!!

وكأن ما بينهما كان مجرد قطع ورق ممزقة...فما ذنب الريح لو نثرتها ؟!!!

تنهدت بحرارة وهي تتحسس خاتمه الماسي في إصبعها...

لتبتسم بسخرية وهي تتذكر دبلة حسن قبلها...

هل كتب عليها القدر ألا ينالها من حبها يوماً سوى مجرد ذكريات؟!!!!

وبرغم كل هذا هي لا تلوم فهد...بل تعذر خوفه -المرضي-عليها...

بل إن قلبها يكاد يقسم أنه يعاني مثلها وأكثر...

لكن ما حيلتها ها هنا وهو اختار الاستسلام؟!!!

أو ربما هو الاختيار "الواقعيّ" وما دونه هو افتراضاتٌ مثالية تليق ب"يوتوبيا الأحلام" فقط!!!

انقطعت أفكارها عندما توقف بصرها عند أحد محلات بيع العصافير ليلفت نظرها قفصٌ صغير حوى عصفورين أحدهما أصفر والآخر أزرق...

دمعت عيناها باشتياق جارف وهي تتذكر عبارته لها والتي بدت وكأنها كانت منذ زمن سحيق:

_حقاً يليق بكِ الأزرق...الآن أدرك لماذا تعشقينه...لأنه لون الراحة...لون السكينة...لون السحر الغامض المسيطر الذي يتملك القلوب دون استئذان...

فخفق قلبها بجنون وجسدها كله يرتجف بانفعالها في هذه اللحظة...

لكنها تمالكت قوتها بعد قليل وهي تهمس لنفسها بحزم:

_كان ماضياً يا جنة...حلماً أروع من أن يصير حقيقة...ربما خسرتِه أنت لكنكِ لم تخسري نفسكِ بعد.

ثم تنهدت بحرارة وهي تتقدم نحو المحل لتشتري العصفورين...

قبل أن تعود لمنزلها البسيط فتضعهما في شرفته ....

ثم وقفت أمامهما تتأملهما بحنان قبل أن تهمس وكأنها تحدثهما:

_أنتما الآن صديقايَ الوحيدان...سأسميكما فهد وجنة...لكنني لن أفرق بينكما أبداً...!!

تهدج صوتها ببكائها عند جملتها الأخيرة ....فاستسلمت له للحظات...

قبل أن تمسح وجهها لتردف بابتسامة مصطنعة:

_لا ...لا يليق أبداً أن نبدأ لقاءنا ببكاء...تناولا طعاميكما أولاً.

قالتها وهي تضع لهما طعامهما في مكانه المخصص لتنطلق زقزقتهما عالية ...

فابتسمت ابتسامة شاحبة وهي تراقبهما بنظرة طويلة حزينة قبل أن تدلف إلى الداخل لتستلقي على الأريكة باسترخاء تحاول التفكير في مستقبلها هنا...

إنها بصدد إنشاء مكتب جديد...

والنقود التي حصلت عليها من بيع قطعة الأرض خاصتها وشقيقتيها جاءت في الوقت المناسب...

على الأقل هي مؤمنةٌ مالياً الآن ...والغد يحمل لها طريقاً كانت قد نسيته لكنها ستعود إليه الآن...

لكن أفكارها انسحبت رغماً عنها إلى فهد...

ترى كيف هو الآن؟!!

هل يعود بعد فراقهما لنزواته وعلاقاته؟!!!

هل يستسلم لأبيه فيسير تحت كنفه حتى يصير نسخةً منه؟!!

هل لا يزال يحافظ على صلواته واستقامته كما صار مؤخراً؟!!

أم أن كل هذا كان مرتبطاً بها هي والآن هو نسيها ونسي كل شئ؟!!!

سمعت صوت الأذان فتنهدت بحرارة...

ثم قامت لتؤدي صلاة العصر قبل أن تهوي بجبينها إلى الأرض تدعو بخشوع:

_اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس...أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟!! إلى بعيد يتجهمني أم إلى قريبٍ ملكته أمري؟!!إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي...

ظلت تكرر جملتها الأخيرة حتي ارتعش صوتها ببكائها وهي تشعر بهوان نفسها...

ثم تمالكت بعض قوتها وصورته الآن تملأ قلبها لتردف برجاء:

_اللهم كما رزقتني حبه فاحفظه وثبت قلبه على التوبة ....ولو لم يكن معي.

==================

_معتصم يبلغك السلام!

قالتها زميلتها التي شغلت مكتبه المجاور لها بعد سفره ...

فالتفتت نحوها دعاء بحدة وهي تغمغم بتوتر:

_سلمه الله!!!كيف تحدثتما؟!

ابتسمت زميلتها بعفوية وهي تكمل عملها في أوراقها لتقول ببساطة:

_عبر "الانترنت"...وجدت حسابه مصادفة على "الفيسبوك" وفرحت جداً عندما اطمأننت أنه استقر أخيراً في عمله الجديد...معتصم"ابن حلال" ويستحق كل خير.

شعرت دعاء بضيق غامض وهي تتبين بحدس الأنثى إعجاب زميلتها هذه به...

لكنها نفضت عنها هذا الشعور بسرعة...ما شأنها هي به أو بغيره الآن؟!!!

قصتهما انتهت...

قصتهما؟!!!

وهل كان لهما -أساساً- قصة؟!!!

زفرت بقوة وهي تتظاهر بالانشغال في عملها هي الأخرى بينما استأنفت زميلتها ثرثرتها بانطلاق:

_لقد سألني عن الجميع هنا....هو يفتقدنا كلنا....وفرح كثيراً عندما علم عن موعد زفافك القريب وطلب مني أن أبلغكِ مباركته.

أغمضت دعاء عينيها على نظراتها المتألمة وهي تحاول التشبث بأسوار مقاومتها الجديدة...

هي لن تعود لدوامة الحيرة هذه من جديد...

هي ستكمل طريقها مع حسام ولن تنظر للخلف بعد...

ما عاد هناك مجالٌ للرجوع...هو آخر محطات قطارها كما أخبرته يوماً!!!

ولم تكد تتم فكرتها حتى وجدته هو نفسه يدخل من باب مكتبها متوجهاً نحوها بخطوات ثابتة كعادته...

لكن ابتسامته "الأنيقة" عاودت شغل "وظيفتها" على شفتيه عندما لمح زميلتها تراقبه بشئ من الإعجاب...

فتقدم نحو دعاء ليلتقط كفها بين راحتيه ببرود "ظاهره الحرارة" قبل أن يقول بتكلف:

_افتقدتكِ حبيبتي.

توردت وجنتا زميلتها بخجل وهي تعض على شفتها قبل أن تنسحب باستئذان سريع من المكان...

بينما كانت دعاء نفسها أكثر برودة من تمثال رخامي وهي تتلقى نظراته الساخرة بعدها مع قوله:

_أعجبك تمثيلي؟!

رفعت إليه عينيها اللتين صار- هو -يخشاهما مؤخراً بقوتهما الجديدة وهي تهمس بصوت واثق رغم حزنه:

_ليس تمثيلاً يا "سيادة الرائد"...بل انتفاضة طير ذبيح..."حلاوة روح" كما يقولون!!!

انعقد حاجباه بغضب أشعل ملامحه وهو يكز على أسنانه هامساً بقسوة:

_استمري في حديثك بهذه الطريقة وسأقطع لسانكِ هذا يوماً.

اغتصبت ابتسامة ساخرة نافست ابتسامته السابقة وهي تعاود النظر لأوراقها قائلة:

_لماذا جئت؟!

لم يرد عليها وهو يجلس أمامها ليتأملها بمزيج هائل من مشاعره المتطرفة الآن...

هو لم يعد يراها "دعاء" تلك الفتاة المريضة بظروفها -المثالية- لوضعه الجديد...

بل يراها _مسخاً مشوهاً- لصورته هو "الخائنة"...!!!

يرى فيها كل "عورات" نقصه هو لهذا يكرهها في كل ساعة...بل في كل لحظة أكثر وأكثر!!!

لكن شعوره الجديد بها يؤرقه...

عندما يسمعها تتحدث بهذه الطريقة الواثقة وهذه القوة المشعة تكسو ملامحها لا يراها صورة من "نفسه" بل من "طيفه القديم"...

نعم...معضلته الحقيقية معها الآن أن صورتها بعينيه تتبدل ك"الحرباء".

فتارة يراها خائنة مستغلة كصورته القديمة....

وتارة يراها قوية متمردة واثقة ك"طيف"...!!!!

تارة يراها تتوارى خلف ستار أسود من طمع واستغلال...

وتارة يراها خلف غلالات رائقة من كفاح أنثى ضعيفة قررت المقاومة...!!!!

ولو كان منصفاً لأدرك أنه حتى الآن لم يرَ "دعاء الحقيقية"...

هي حتى الآن مجرد "إسقاطات" لعقده القديمة فحسب...

وإن كان يتظاهر بالقسوة والقوة في مواجهتها فهو -مثلها- يخشى نهاية هذا الطريق!!!

لهذا أطلق زفرة مشتعلة وهو يجيب أخيراً على تساؤلها:

_الزفاف بعد يومين ولم نشترِ الثوب بعد...أنجزي ما بيديكِ بسرعة لنذهب لشرائه.

اتسعت ابتسامتها الساخرة وهي تهز كتفيها بلا مبالاة حقيقي مستأنفةً ما كانت تقوم به...

فعاد بظهره إلى الوراء مغمضاً عينيه عندما راودته إحدى ذكرياته مع "طيفه القديم"...

_هذه لكِ!!!

شهقت بحدة وهي تجده واقفاً خلفها في الشرفة بينما كانت تقوم ب"نشر الغسيل" ...

فالتفتت نحوه لتتطلع نحو الكتب التي كان يرفعها الآن نحوها وهو يقول بخبث:

_هل ستكون هذه دوماً ردة فعلك كلما رأيتني؟!!

أشاحت بوجهها دون رد فغمغم بما يشبه الاعتذار:

_أعدكِ بشرفي ألا أضايقك بعد!!

كان هذا أول لقاء لهما بعد لقائهما الأخير على سطح البيت فرمقته بنظرة متفحصة خبيرة غريبة على سنها الصغير ...

ليبتسم ابتسامة حقيقية وهو يقرب الكتب نحوها أكثر:

_النبي قَبِل الهدية**!!**

لكنها لم تبتسم بل ظلت على تأملها المتفحص له ....

لا لم يكن تأمل جرأة ولا عبث...

بل تأمُل استكشاف شعر هو به وكأنها تقرأ بعينيها -المتمردتين-خبيئة نفسه....

خاصة عندما قالت هي بعدها بنبرة جافة:

_ماذا تريد بالضبط يا سيدي؟**!!**أنا لست للتسلية وأظن أن مظهري خير دليل على هذا.

فاتسعت ابتسامته وهو يقول باحترام لم يكن يدعيه:

_لا لستِ للتسلية ...أنا فقط أردت الاعتذار لكِ بطريقة عملية.

ضاقت عيناها بتفحص أكثر ثم بدا عليها الاطمئنان وهي تتناول منه الكتب لتقرأ عناوينها بلهفة...

قبل أن تغمغم بجدية:

_مجموعة مميزة حقاً...شكراً يا سيدي...لكنني سأدفع ثمنها من راتبي.

بدا على وجهه الاعتراض لكنها عادت تدفعها نحوه لتهتف بتحفز:

_وإلا لن آخذها.

ساعتها ضحك هو قائلاً بمرح:

_هل أنتِ دوماً عصبية المزاج هكذا؟!!تكشيرتك هذه ستلتصق بملامحك!!

كتمت ابتسامتها قسراً وهي تشيح بوجهها لكنه أدرك بعدها أنها سامحته...

وقد كان هذا الموقف بداية قصتهما بعدها...

قصة ربما لم تكن غريبة في تفاصيلها لكنها كانت ثرية بمشاعرهما معاً...

هو الذي رأى فيها نوعاً مختلفاً عما عرفه من النساء بقوة شخصيتها وعزيمة كفاحها لتحقيق ذاتها...

وهي التي رأته سندها الوحيد في هذا العالم الذي بدا وكأنه يقف كله ضد حقوقها وطموحاتها...

أفاق من سيل ذكرياته على رنة هاتفه برقم صاحب المحل الذي سيقصده لشراء ثوب الزفاف فأجابه ....

وأمامه كانت هي تستمع لمكالمته بفتور...

زفاف؟!!!حفلٌ؟!!ثوب؟!!

عبث!!!

كل هذا عبث!!!

لكن لا بأس...الدمية المعيبة ستنال أخيراً فرصتها...

"سندريللا" زهيدة القيمة ستتزوج "الأمير" في حفل ضخم ولا يهمها إن عاد كل شئ لطبيعته بعد منتصف الليل!!!!

المهم أنها أرضت ظمأ شعورها بالزهو أمام كل من انتقصوا من قيمتها يوماً...

وأولهم...والداها!!!

وليكن بعدها ما يكون!!!

لكن أفكارها -المتخبطة- انقطعت بسؤاله الساخر لها بعدما أنهى مكالمته:

_أين زميلك "العاشق"؟!!هل ترك العمل بعدما صدمتِه بغدرك؟!!

اشتعلت عيناها بغضب أثار فيه عواصف مشاعره نحوها من جديد...

واستفز تحديه أكثر فأردف بنبرة مستهزئة:

_خسر عمله لأجل واحدة مثلك؟!!

احتقن وجهها بحمرة داكنة وانفرجت شفتاها فتوقع منها صراخاً يرضي زهوة انتقامه...

لكنها همست ببطء ضاغطة على حروفها التي بدت كنصال سامة:

_هو خسر عمله لكنها "هي" خسرت حياتها...فأيّ ذنبينا أعظم يا "سيادة الرائد"؟!!!

اتسعت عيناه بصدمة لدقيقة كاملة وهو يراها بكلمات بسيطة تعرّي كل سوءات ماضيه ...

بينما شعرت هي بمزيج متناقض من الندم والتشفي...!!!

لكنه لم يترك لها مجالاً للمزيد من المشاعر عندما وقف فجأة ليجذبها بعنف من ياقة قميصها وعيناه تكادان تقذفان شرارات من لهب وهو يهمس بأنفاس حارقة أمام وجهها:

_لو ذكرتِ هذا الأمر ثانية فلا تلومي إلا نفسك...لا تفتحي باب جحيم ستحترقين به حية!!!

اختنقت أنفاسها بخوف حقيقي وهي تغمض عينيها بقوة عن شياطين الغضب التي كانت تتقافز على وجهه...

لهذا كانت صدمتها بالغة عندما فوجئت به بعدها بلحظة واحدة يعدل لها ثيابها قبل أن تستعيد ملامحه برودتها القاسية وكأنها لم تستعر بالغضب -لتوها- وهو يهمس بحزم:

_والآن هيا لنشتري ثوبكِ...

ثم التوت شفتاه بمزيج احتقار وسخرية مع كلمته بعدها:

_يا عروسي!

وبعدها بقليل كانت تقف معه في المحل ليمنحهما الرجل الثوب الذي اختاره "سيادة الرائد " على ذوقه دون أخذ رأيها كالمعتاد...

فتوجه بها نحو إحدى الغرف الداخلية ليقول بلهجة آمرة:

_جربيه كي أراه عليكِ أولاً...لا أريد أي مفاجآت.

لكن العاملة هناك تنحنحت بارتباك وهي تتقدم منهما مغمغة بحرج:

_عفواً يا سيدي...لكنهم دوماً يقولون أن رؤية العريس لعروسه بثوب الزفاف نذير شؤم.

زجرها حسام بعبارة ساخطة فهرولت مبتعدة عنهما باعتذار مرتبك...

بينما ابتسمت دعاء بسخرية وهي تفكر...

نذير شؤم؟!!

علاقتنا كلها نذير شؤم يا سيادة الرائد ...

لكنها فرصتي الأخيرة لرفع رأسي أمام الجميع...

الثمن الذي سأتلقاه مقابل عمري القادم معك....

والذي سأستمتع بارتشاف شهده كله....كما سأتجرع علقمه كله!!!

وبهذا الإصرار توجهت للغرفة لتغلق ستارتها بحزم قبل أن ترتدي الثوب الذي بدا على قدر كبير من الفخامة...

ورغم ضيقها -الطبيعي -من اختياره للثوب دون أخذ رأيها لكن هذا لم يقلل من تقييمها له...

لقد كان تحفة فنية على أقل تقدير...!!!

بتصميمه الأنيق رغم بساطته والذي لاءم جسدها -الممتلئ-نوعاً ليظهره بشكل رائع....

وماساته التي تناثرت بندرة على صدره...ومع هذا لم تفقد سحر تأثيرها الأخاذ...

تأملت نفسها في المرآة للحظات بمزيج من الإعجاب والأسى...

عندما شعرت به خلفها يزيح الستار ويرمقها بنظرات عميقة لم تفهمها...!!!!

بينما كان هو يتأملها غارقاً في تفاصيل الثوب أكثر من تفاصيلها هي...

هذا هو الثوب الذي رسمته طيف على أوراقها يوماً...

وتمنيا معاً أن ترتديه له هو!!!

لازال يذكر ارتجافة أناملها على الورقة واحمرار وجنتيها وهي تراقب رد فعله على رسمها...

تلك الورقة التي احتفظ بها طوال هذه المدة ولم يستطع مقاومة تحقيق حلمه ب"الثوب" رغم أنه فقد "العروس"!!!

لهذا طلب صنعه خصيصاً كما رسمته "طيف" دونما اكتراث ل"من" سترتديه!!!

لم يكن يظنه سيكون بهذه الروعة والسحر لا يكاد ينقصه سواها هي...

طيف!!!

وبهذا الشعور الجارف الذي انتابه وجد نفسه يقترب منها ببطء ليتحسس كتفيها وذراعيها بأنامله دون أن ينظر إليها...

عيناه كانتا مخطوفتين بسحر ثوب تلبّسه سحر الماضي فجعله دوامة عشق جذبته من رأسه إلى قدميه...

فلم يشعر بنفسه وهو يضمها إليه بقوة ليخفي أنفه في تجويف عنقها متمتماً بنبرة ذائبة لم تسمعها منه قبلاً:

_منتهى الروعة!!!...كما حلمنا به تماماً...

انعقد حاجباها بذهول وهي تشعر بارتجافة جسدها بين ذراعيه...

لا تكاد تصدق هذا التغيير الرهيب في أسلوبه في مجرد لحظات...

فانفرجت شفتاها تهم بالتعبير عن دهشتها لكنه سبقها بهمسه الشارد :

_لا ينقصه سوى "عقد الفل" على رأسك كما كنتِ ترغبين.

ساعتها انعقد حاجباها بإدراك وهي تتبين سر تحوله...

حسام الآن لا يراها هي بل ....محبوبته القديمة وذنبه الذي يرجو الخلاص منه....!!!

ورغم أنها كان من المفترض أن تشعر بالغضب في موقف كهذا ...

أو ربما بالغيرة...لكنها على العكس كانت تشعر نحوه بالكثير من الإشفاق...

هذا رجلٌ يحترق بذنبه حياً...

وما تراه منه الآن هو وجهه الحقيقي الذي يداريه خلف قناع قسوته!!!

لهذا وقفت عاجزة عن التصرف للحظات وهي تشعر بأنفاسه اللاهثة تكاد تلهب أذنيها...

حتى دفعته أخيراً ببطء وهي تهمس بنبرة رفيقة رغم قوتها:

_حسام...أنا دعاء.

فتح عينيه فجأة لتتلمح السعير الذي تأجج فيهما للحظات بعدما أفاق من دهشته ...

وهو يشعر بالخزي من ضعفه الذي ظهر أمامها رغماً عنه...والذي أقسم لنفسه أن تدفع ثمنه حتى ولو لم يكن ذنبها...

فابتعد عنها بضع خطوات أخرى وهو يستعيد جفاف نبراته قائلاً:

_سأنتظركِ بالخارج!!!

===================

دخل غرفته ليجدها جالسة على كرسيها أمام المرآة تمشط شعرها...

فارتسمت ابتسامته "الخاصة بها" على شفتيه وهو يقترب منها قبل أن يسحب بيده كرسياً ليضعه خلف كرسيها بالضبط...

ثم امتدت أنامله تمشط شعرها برفق فهمست وهي تنظر إليه عبر المرآة:

_هل تعلم أن ملامحك تتغير تماماً عندما تبتسم هكذا؟!

لم يرد عليها للحظات....فقط جذب رأسها نحوه أكثر برفق لتداعب أنامله منابت شعرها بحركته المعهودة...

قبل أن تفاجأ بأنه يصنع لها جديلة!!!!

فابتسمت بعمق شعورها به الآن لتتسع ابتسامتها أكثر عندما انتهى من صنع جديلتها ثم أمالها على أحد كتفيها ليضم ظهرها إليه بساعديه وهو يهمس جوار أذنها:

_كل ما فيّ يتغير معك...وكأنكِ خلقتِ لتكوني كل استثناءاتي!!

تنهدت بحرارة وهي تريح ظهرها ورأسها على صدره بينما أخفى هو وجهه في خصلات شعرها لدقائق طالت...

حتى همست هي بعد صمت طويل:

_لم أعد فقط أجيد قراءة صمتك...بل صرت أحب هذا!

رفع وجهه أخيراً لينظر لصورتهما في المرآة بشرود قبل أن يهمس بنبرة غريبة:

_تعلمين كم سنة مرت عليّ لم تحمل لي هذه المرآة سوى صورتي وحدي؟!!

أزاحت ساعديه من على صدرها برفق لتستدير نحوه بجسدها ثم تطلعت لعينيه اللتين التمعتا بمرارتهما القديمة...فمدت أناملها ببطء لتضعها على صدره في موضع قلبه تماماً...

قلبه الذي كان يخفق الآن بعنف وهي التي طالما حسدته على ثباته...

كم تود الآن لو تخبره أنها لن تتركه أبداً...

أن تعده أن مرآته التي طالما ملّت صورته الوحيدة ...ستحمل له دوماً صورتهما معاً...

وأن العمر الذي قضاه تائهاً بين طرقات جحيمه كشيطان هائم سيبدأ من جديد معها بداية مضيئة....

لكنها للأسف لم تقوَ على البوح بكل هذا...

فاكتفت بأن اقتربت بشفتيها لتحط بهما على موضع قلبه بدلاً من أناملها...

ساعتها ضمها هو إليه بقوة أكبر وقد وصله إحساسها كاملاً...

لتزداد خفقاته جنوناً رغم ثبات همساته التي داعبت أذنها واثقة قوية:

_قلبي يخبرني أن قبلتكِ هذه له هو...بالذات!!

فرفعت عينيها إليه لتهمس بيأس ممتزج برجائها:

_ليتها كانت كافية لتفتيت صخور قلبك ...طريقنا لازال طويلاً وشاقاً.

عاد يغمض عينيه وقبلاته تتناثر خفيفة متتابعة على شعرها ووجهها قبل أن يهمس أمام عينيها ببعض الخبث:

_لم أكن يوماً مغرماً بالطرق السهلة.

هزت رأسها بيأس من مجادلته بينما ربت هو على رأسها ليقوم من مكانه قائلاً بحزم وقد استعاد سطوة كلماته:

_سأتغيب طوال اليوم لا تنتظريني على الغداء.

قالها ثم توجه بخطوات سريعة نحو الباب لكنها لحقت به لتتشبث بساعده قائلة بنبرة استئذان:

_حفل زفاف دعاء سيكون الليلة..كنت أريد حضوره.

أشاح بوجهه وهو يهتف بحزم:

_لا!

تجهمت ملامحها وهي تهتف باعتراض:

_أرجوك يا عاصي إنها صديقتي الوحيدة هنا.

توتر الجو حولهما فجأة بذبذبات من احتقان متبادل عندما اشتعلت عيناه بغضبها وهو يحاول السيطرة على انفعاله:

_لماذا لا تطيعين الأوامر فحسب؟!!!..أنا لا أحب المجادلة.

توهجت عيناها ببريق غضبها هي الأخرى وهي ترد مدافعة:

_وأنا لم أعتد تنفيذ أمر لا أفهمه..ما الذي يمنعني من حضور زفاف صديقتي؟!!

_لأنني قلت هذا فحسب!!!

قالها بنبرة مشتعلة وهو يفتح باب الغرفة متأهباً للخروج...

فأعطته ظهرها وهي تكتف ساعديها لعلها تحتوي مشاعر غضبها...

عندما سمعت صوت الباب يغلق خلفها فزفرت بقوة وهي تطرق برأسها في يأس...!

رغم قوة ما تشعر به بينهما لكن الكثير من الحواجز لازالت هناك...

حواجز لا تثق بقدرتها على تخطيها ولا برغبته هو في ذلك!!!

لكنها شعرت بكفيه على كتفيها من الخلف فالتفتت إليه بدهشة وقد كانت تظنه قد خرج...!!

بينما قال هو بحزم ملتقطاً أنين فضتها الذائبة:

_لم أعتد تبرير أفعالي...لكنني سأمنحكِ سبباً...الناس جميعاً هنا يعلمون أنني لا أحضر احتفالاتهم.

هزت رأسها وهي تقول بضيق:

_حتى لا تتأثر هيبة عاصي الرفاعي!!!يجب أن تظل دوماً محاطاً بهالة غموضك التي تعزز قناع الشيطان!!!!

أشاح بوجهه دون رد رغم أنه يعلم أنها على حق...

سنوات مرت عليه وهو يرسي دعائم سطوته هنا على طريقة أبيه كما تعلمها...

والحقيقة أنها كانت صائبة...على الأقل حتى الآن...

لكن هذا ليس السبب الوحيد في عدم موافقته على حضور الزفاف...

فقد علم من رجاله أنهم أحبطوا عدة محاولات لإطلاق النار عليه دون أن يصلوا لمن خلف هذا...

وهو لا يريد المخاطرة بخروجه مع ماسة في هذه الظروف...

لكنها عادت تهتف بإصرار:

_لو كنت لا تريد الذهاب معي...فسأذهب مع أحد الحراس.

عاد يرمقها بنظراته المشتعلة وقد بدا أنه يبذل مجهوداً خرافياً ليكظم غيظه...

قبل أن يقول بحسم:

_لا!

قالها ثم خرج صافقاً الباب خلفه بعنف هذه المرة ...

فاندفعت لتستلقي على الفراش بعنف وهي تخبط وسادتها بقوة لتهتف بيأس:

_لا فائدة...لن يتغير!!!

قالتها ثم أغمضت عينيها محاولة الهروب من التفكير بالنوم كعادتها لكنها فشلت لوقت طويل..

قبل أن تستدير على جانبها لتداعب جديلتها وجنتها بخفة وكأنها تذكرها برقة ملمس أنامله على شعرها...

فتنهدت بحرارة وهي تعود لصراعها القديم بشأنه ما بين قلبها وعقلها...

ما بين جنة حنانه وجحيم قسوته...

ما بين "يأسها"منه و"أملها" فيه!!!

حتى انتبهت فجأة لمرور الوقت والشمس التي أوشكت على المغيب خلف زجاج نافذة الغرفة...

كم كانت تتمنى حضور هذا العرس لتكون جوار دعاء في هذا اليوم وهي تعلم كم تحتاج إليها...

لكن "السيد" أصدر قراره بعدما تفضل عليها ب"تبريره" وانتهى الأمر!!!

سمعت صوت الأذان فقامت من فراشها لتؤدي الصلاة...عندما انتبهت لرنة هاتفها المميزة بوصول رسالة...

فتناولته لتقرأها عندما وجدتها منه ثم ابتسمت بسعادة غامرة وهي تكاد تعانق كلماته :

_سأعود في التاسعة لأصطحبك إلى العرس...ستلقين السلام على صديقتك فقط ثم نرحل...كوني جاهزة في الموعد!

==========

جلست جواره على منصة العرس تتأمل وجوه المدعوين بنَهَم...!!!!

نعم...أول عروس تعرفها لا يغزو ملامحها ارتباك ولا يخضب وجهها خجل!!!!

بل كانت نظراتها نحو الجميع طامعة...جائعة...

فقيرةً تتسول إعجاباً وتقديراً...أو حتى حسداً**!!!**

لا يهم**!!!**

ما يعنيها الآن هو أن "ترقع" ثوب أنوثتها المثقوب بمرضها المخزي...

وأن تستمتع بتلقي الثمن الذي لأجله قبلت هذه الصفقة**!!!**

ثم انتقلت نظراتها تلقائياً لوالديها اللذين وقفا هناك يستقبلان الضيوف بزهو ...

وكأنهما مثلها- يرقعان - ثوب عجزهما وصبرهما لسنوات على ابتلاء لم يكن لهما ذنب فيه**!!**

لتبتسم أخيراً فيما يشبه الانتصار وهي تلاحظ نظرات الفتيات بالذات نحو حسام جوارها والذي بدا في بدلته الأنيقة ووسامته المفرطة كنجم سينمائي...

أخيراً تحققت الصورة التي طالما حلمت بها منذ الصغر...

هي بثوب زفافها الأبيض جوار الأمير الوسيم...

ولا يعنيها الآن أن "الأمير" سيتحول ل"وحش" آخر الليلة بعد انصراف الجميع...**!!!**

فقد تلقت المقابل باهظاً من نظرات الحضور ورضا والديها ...ومن الإنصاف أن تدفع الثمن!!!

وجوارها كان حسام -على العكس-غافلاً عن كل ما حوله...

ابتسامته الأنيقة الباردة أدت دورها بإتقان على ملامحه فيما كان قلبه غارقاً بذكرياته ....

_كم افتقدتك يا طيف!!

همس بها بحرارة وهو يقف أمامها ببيتها الجديد الذي انتقلت إليه بعدما تركت العمل لديهم بأمر والدته التي لاحظت ما بينهما ورأت ابتعادها أسلم حل...

فأطرقت برأسها وهي تهمس بنبرة قوية رغم حزنها:

_لا يليق أن تقف هكذا...الجيران يعلمون أنني أقيم وحدي...ارحل يا..سيدي!!

تهدج صوتها في كلمتها الأخيرة ...فانعقد حاجباه وهو يغمغم بعتاب:

_سيدي؟!!هل عدتِ تنادينني هكذا؟!!

حافظت على إطراقها الصامت للحظات ثم همست ببرود كان هو يعلم حقاً ما تخفيه وراءه:

_المقامات محفوظة يا "حضرة الضابط".

أمسك مرفقها بقوة وهو يهتف بانفعال:

_أنا تفاجأت مثلك بتصرف أمي...صدقيني لو كنت موجوداً ...

رفعت رأسها إليه أخيراً بعينيها القويتين لتقول بصلابة:

_ماذا كنت ستفعل؟!!

تلجم لسانه للحظات فيما أردفت هي بحدة أكبر:

_هل تعرف من أنا يا سيدي؟!!هل تتذكر شيئاً عن ماضيّ؟!!!هل تظنني أكرر خطأ والدتي؟!!هل تعتبرني حقاً بهذه الحماقة؟!!

هز مرفقها بعنف وهو يهتف بدوره:

_وأنا لست بهذه النذالة كي أتخلى عنكِ ...سأقف جوارك حتى تأخذي حقكِ من أخيكِ...وبعدها سنتزوج.

نزعت مرفقها منه لتهتف بصرامة:

_ولو لم نستطع أخذ حقي؟!هل تعلم أمام مَن سنقف؟!!عاصي الرفاعي بنفسه!!!!

كسا التردد وجهه للحظات كانت أكثر من كافية لها لتردف بتحدٍ :

_لو أردت الزواج مني بظروفي الحالية فافعلها أمام الجميع ولا تنتظر معجزة السماء...وإلا فاذهب لمن تليق بمقامك يا "حضرة الضابط"!

قالتها ثم أغلقت الباب في وجهه بحزم تاركةً إياه غارقاً في حيرته...

لم يكن يعلم وقتها أن هذه ستكون آخر مرة يراها فيها ...وأنه سيذهب حقاً لمن تليق بمقامه...

يسرا الصباحي ...

والدها كان رئيسه في العمل وقد لمح له برغبته في تزويجه من ابنته...

مع "وعود مستترة" ب"مستقبل مضمون" !!!

ومع جمال "العروس" ومواصفاتها القياسية كان الإغراء أكبر كثيراً من تحمله...

من توسلات قلبه الصارخة بحبه ل"طيفه "والتي خفت صوتها تدريجياً حتى اختفى تماماً وهو يقبل الصفقة بعقلٍ راضٍ!!!

انقطعت أفكاره عندما لمحهما يدخلان من باب القاعة ...

عاصي الرفاعي جوار زوجته...

فانعقد حاجباه بغضب وكفاه يتشبثان بمقبضي مقعده وهو يرمق عاصي بنظرات مشتعلة...

بينما كانت ملامح عاصي جامدة تماماً وهو يمسك كف ماسة متوجهاً نحوه بخطواته المهيبة أمام نظرات الحضور التي مزجت دهشتها بفضولها...

هذه هي المرة الأولى التي يحضر فيها عاصي الرفاعي أحد الأعراس هنا...

لكن البعض عزا هذا لمكانة حسام المميزة ..

وبعضهم تغامز أنه تأثير زوجته "اللعوب" الجديدة التي أدارت رأسه فهي صديقة للعروس كما يبدو!!!

وقف عاصي أخيراً مع ماسة أمام حسام ودعاء التي قامت من مكانها بسرعة لتحتضن ماسة هامسة جوار أذنها:

_حبيبتي!!!شكراً لحضورك...كنت أحتاج دعمكِ حقاً.

فضمتها ماسة بقوة لتهمس هي الأخرى بحزم في أذنها:

_لم أكن لأترككِ في ليلة كهذه...كوني قوية للنهاية...قوتك ستنقذكما معاً أنتِ وهو...لو ضعفتِ سيغرق كلاكما...أكملي الطريق الذي اخترتِه للنهاية.

بينما وقف حسام في مواجهة عاصي وقد فضحت عيناه عداءً قرأه عاصي بخبرته ...

لكن نظراته حافظت على جمودها وهو يقول بصوته المهيب:

_مبارك!

فتمالك حسام نفسه أخيراً بصعوبة ليمد نحوه كفه مصافحاً ببرود:

_حضورك شرفٌ لنا سيد عاصي.

صافحه عاصي ببرود مشابه وهو يتفحص ملامحه بقوة...

قبل أن يلتفت نحو دعاء بمباركة خافتة ...

ثم نظر لماسة نظرة خاصة فتنحنحت بحرج قبل أن تصافح دعاء بحرارة قائلة بحنان:

_مبارك زواجك حبيبتي...عفواً لن نستطيع البقاء أطول!

قالتها ثم رمقت حسام بنظرة متفحصة وكأنها تقرأ دواخله لكنه بدا مشغولاً عنها بنظراته السوداء نحو عاصي الذي جذبها برفق ليغادر معها المكان...

وبينما هما في طريقهما للخروج فوجئت بأحدهم يصطدم بها عفوياً..

فرمقه عاصي بنظرة غاضبة وهو يجذب ماسة نحوه عندما غمغم الآخر باعتذار متحفظ:

_عفواً يا سيدتي!

أومأت له ماسة بإشارة تفهم وهي تغادر مع عاصي...

فابتسم الشخص- الذي كان هو فهد-وهو يسترجع لون عينيها الفضي والذي ذكره بأخته المفقودة...

ثم تنهد بحرارة وهو يدعو الله سراً أن ينجح في العثور عليها ....!!

تقدم بدوره إلى حسام ليقف بجانبه ويربت على كتفه وهو يراقب شروده بنظرات متفهمة...

قبل أن تنسحب أفكاره لزفافه الذي اقترب هو الآخر...

زفاف...برتبة إعدام!!!

============

انتهى حفل الزفاف بعد وقت قصير...

لتخفت الأضواء وتتباعد الأصوات وينفض الجمع وتجد نفسها معه وحدهما في غرفتهما...

فأغمضت عينيها باستسلام تنتظر مبادرته ...عندما التفت نحوها ليهتف بخشونة:

_هل ستقفين هكذا؟!!ساعديني في تبديل ملابسي.

ظهرت الصدمة على ملامحها للحظة بينما أمسك هو مرفقها بقسوة ليردف:

_لماذا تبدين مصدومة هكذا؟!!!ماذا تنتظرين إذن؟!!أن أخلع عنكِ ثوبك لأبدي انبهاري بجمال الملاك الذي تزوجته؟!!!

حاولت الحفاظ على برود ملامحها مستدعية كل قوتها لكنها شهقت بعنف عندما فاجأها بأن شد سحاب ثوبها بعنف ليخلعه عنها بخشونة فيسقط تحت قدميها وهو يكمل هتافه الحاد:

_أنتِ هنا مجرد خادمة بالنهار وجارية بالليل...لا تطمعي في أكثر من هذا.

كان جسدها يرتجف رغماً عنها لكنها بذلت مجهوداً خرافياً لتحافظ على ثبات نظراتها وهي تغمغم ببرود:

_هل انتهيت؟!

استفزه برودها أكثر خاصةً عندما تجاوزت ثوبها لتدهسه تحت قدميها بقوة وهي تقول بنفس البرود:

_دوره انتهى...أنا أخذت نصيبي من هذه الصفقة وراضيةٌ به...وبقي أن أدفع الثمن.

اشتعلت ملامحه بغيظها وهو يدفعها من أمامها بقسوة قبل أن يتوجه نحو حمام الغرفة الصغير صافقاً بابه خلفه...

خلع ملابسه بعنف ليلقيها أرضاً ثم فتح الماء بكامل برودته ليقف تحته وهو يكتم آهة جاهدت لتغادر صدره...

هذه المرأة ستثير جنونه...

لماذا تغير وجهها الضعيف المستغل ليحمل هذه القوة المتمردة؟!!!

لماذا تتخلع من ثوب يرى فيه "ذنبه" لترتدي آخر يرى فيه "حبه"؟!!

لماذا تضغط على كل نقاط ضعفه لتعيد نكأ جروح أمسه؟!!

أم أنه هو الذي صار أسير مرايا ماضيه فما عاد يبصر إلا من خلالها؟!!!

وفي الخارج بدلت هي ثيابها بأخرى مريحة لا تلائم إطلاقاً ليلة زفاف...

وعقصت شعرها خلف رأسها بلا اكتراث بعدما مسحت زينة وجهها كاملة....

ثم راودتها نفسها أن تلقي نظرة على شكلها في المرآة لكنها لم تهتم...

بماذا سيفيد هذا الآن...؟!!!

هي وقعت حكم الإعدام على أنوثتها بهذه الزيجة...

لكنها لن تستسلم لضعف انكسارها أمامه...!!

كانت هذه آخر أفكارها قبل أن تستلقي على الفراش وهي تتطلع لسقف الغرفة بشرود وكأنها جثة بلا روح...

حتى سمعت صوت باب الحمام يفتح قبل أن يخرج هو منه ليستلقي على الفراش جوارها...

تجمدت أنفاسها بترقب لكنها حافظت على ثبات ملامحها بينما أعطاها هو ظهره ليغلق المصباح الصغير جواره...

فعمّ الظلام الغرفة كما عم قلبيهما معاً وكلاهما يبيت هذه الليلة غارقاً في سواد أفكاره...

نعم كلاهما كان أقرب ما يكون لصاحبه...وأبعد ما يكون عنه!!

==========

عادت إلى منزلها قرب المغرب هي تشعر ببعض السعادة لأول مرة منذ افتراقها عن فهد...

لقد وجدت مكاناً مناسباً لتفتتح مكتبها الجديد هنا بعد ما كادت تموت مللاً من أيامها الطويلة التي قضتها هنا...

ورغم أنها لم تكمل شهراً واحداً على رحيلها عن العاصمة لكنها كانت تشعر وكأنه عمرٌ آخر من اشتياق وألم!!

لكنها لن تستسلم لهذا الشعور بعد...

ستمضي في حياتها لرسالتها التي نذرت نفسها لها منذ زمن...

مساعدة كل مظلوم حتى تعيد إليه حقه...

وقفت أمام مرآتها ثم ابتسمت بفتور وهي ترفع إصبعها الذي لازال يحمل خاتمه الماسي لتهمس بحسرة:

_لقد عادت "الأستاذة" لعالمها ....فهل عدتَ أنت "ابن الصاوي" أم لازلت "فهد"؟!!

قالتها ثم احتضنت جسدها بذراعيها بقوة لتتأوه بخفوت قبل أن تردف بألم:

_افتقدت حضنك يا فهد...أنت وعدتني ألا تتركني ...فلماذا فعلتها...لن أسامحك...لن أسامحك أبداً...

قالتها ثم غلبتها دموعها للحظات...

قبل أن تكمل همسها الموجع:

_بل أسامحك...أعلم أنك فعلتها لأجلي...لكن ماذا أفعل في اشتياقي؟!!..أنت أخرجتني من قبور الماضي لتبني لي قصراً من عشقك...أدمنتك حد الموت والآن كيف أنزع حبك من ضلوعي وقد تشربت به خلاياي كلها...حبك يشبهك يا فهد...حنون وموجع...قويٌّ وهش...موتٌ وحياة!!!

ثم هزت رأسها بيأس لتمسح دموعها ...

قبل أن تبدل ملابسها لتتناول دواءها قبل الطعام وهي تبتسم بحنين مسترجعة مذاق أنامله على شفتيها في كل مرة كان يصر أن يعطيه لها بنفسه...

ثم همست لنفسها بلوعة:

_هل كان حباً حقاً ؟!!أم أننا كنا نتوهم؟!!هل عشقني فهد؟!!أم أن ابن الصاوي أجاد الانتقام؟!!

وساعتها اجتاحتها ذكرى بعيدة لهما وهو يراقصها في بيتهما مجيباً على تساؤل شبيه:

_ما بيننا ليس حباً ولا انتقاماً...ما بيننا حياة دونها الموت!!

فسالت دموعها على خديها وهي تعاود همسها لنفسها:

_حياة دونها الموت...وأيّ موت!!!

سمعت زقزقة العصفورين في هذه اللحظة فقامت من مكانها لتتوجه نحوهما ....

تأملتهما بحنان ممتزج بحسرتها قبل أن تهمس بابتسامة كسيرة:

_استمتعا بكل لحظة تقضيانها معاً...فلا أحد يعلم ما يحمله الغد...هل تعلمان؟!!كنت يوماً ما سعيدة مثلكما...كان لي حبيب يخاف عليّ من خدش

النسيم...لا...ليس واحداً بل اثنين...الأول افتداني بعمره...والثاني افتداني بحبه...محظوظةٌ أنا!!

قالتها ثم ضحكت ضحكة مختنقة لم تلبث أن تحولت لدمعاتٍ حارة...

قبل أن تتلفت حولها هامسة :

_أنتِ على وشك الجنون يا أستاذة!!!تحدثين نفسك والعصافير!!!

ثم مسحت دموعها وهي تردف في محاولة أخيرة للتماسك:

_كوب من القهوة وقطعة كبيرة من الشيكولاتة و"فيلم كوميدي"أكثر من كافية لتبديل مزاجك...الحياة لا تتوقف مادام في الصدر نفَسٌ يتردد.

قالتها وهي تعاود الدخول من الشرفة لتعد لنفسها ما وعدتها به...

قبل أن تستلقي على فراشها لتتناول حاسوبها المحمول وترفعه على ركبتيها...

تلاعبت أناملها بالأزرار تحاول البحث عن محتويً مناسب ...

لكنها تلكأت قليلاً وهي تفتح أحد المواقع الإخبارية وكأنها تتلمس ولو خبراً بعيداً عنه...

ولم تخيب الأقدار رجاءها بالخبر الذي ذبحها ذبحاً:

_عرس السحاب...زفاف ابن جاسم الصاوي رجل الأعمال الشهير وابنة رفعت الصباحي الليلة .

==========

تجمدت أناملها على الأزرار وعيناها تتابعان بعض الصور التي أرفقت مع الخبر لفهد ويسرا...

اقتربت بوجهها من الشاشة وهي تكذب عينيها للحظات...

قبل أن تتمتم بصدمة :

_كذب!!كذب!!!إشاعات!!!إشاعات!!!فهد لن يفعلها...لن ي..

انتهت جملتها بصرختها الطويلة وهي تنتفض من مكانها لتخبط حاسوبها بالحائط قبل أن تعاود صراخها بانهيار:

_لا يا فهد!!!إلا هذا!!!!لن أسامحك فيه أبداً!!!!

قالتها وهي تعاود خبط حاسوبها في الحائط عدة مرات دون وعي حتى تهشم تماماً...

لكن صرخاتها لم تتوقف حتى بح صوتها تماماً مع انهيار قوتها أخيراً فتهاوت على الأرض وهي تضع كفها على صدرها هامسة بذهول :

_بهذه السرعة؟!!بهذه البساطة؟!!

ثم تلفتت حولها وكأنها تبحث عن شئ وهمي لتردف بألم:

_بعت نفسي بلا ثمن!!!

آهة طويلة حارقة انطلقت من حلقها بعدها قبل أن تتكفئ على وجهها على الأرض مسندة جبينها على ساعدهاوهي تبكي بانهيار...

وجسدها كله ينتفض بلوعته ويأسه...

الليلة تكون له زوجة سواها...؟!!!

زوجة ستحتل مكان أنفاسها على صدره؟!

تبدأ صباحها بهمساته وربما يخصها مثلها بعبارته...تحتاجينني وأحتاجك أكثر؟!!

لكن...هل احتاجها فهد حقاً أم كانت مجرد محطة في حياته؟!!

تجربة جديدة وجذابة لكنها لم تستحق عناء الحرب لأجلها!!!

هو الذي كان يزعم أنها لديه كل النساء!!!!

هو الذي أقسم لها يوماً وكفها على صدره أنه حتى تزهق آخر أنفاسه لا يفارق ولا يخون!!!

هو الذي كان منذ أيام فقط يضمها لصدره ويحلم بطفلتهما؟!!!

هل نسي بهذه السهولة؟!!

أم أنها كانت تتوهم حباً كان أضعف من أن يقاوِم ويثبت؟!!!

ظلت على حالها بعدها لساعات منكفئة على وجهها على الأرض لا يكاد يقطع الصمت حولها سوى صوت نحيبها ودقات الساعة الرتيبة التي كانت تذكرها بعمرٍ سيمضي بها دونه...

ويمضي به مع أخرى سواها...

أخرى أعلنها الآن أمام الناس زوجته بينما كانت هي رفيقة الظلام التي انتهى دورها في حياته بكلمة!!!

كلمة طلاق!!!

وبئست المقارنة!!!

====================

وقف يراقصها على منصة العرس أمام حشد من نجوم المجتمع اعتاد وجوده مؤخراً...

وبينما بدت هي وكأنها أمسكت السماء بين كفيها بسعادتها التي صبغت ملامحها الفاتنة...

بدا هو غارقاً بشروده الحائر فاقتربت من أذنه بشفتيها هامسة بدلال:

_فيمَ كل هذا الشرود؟!

ابتسم ابتسامة شاحبة وهو يغمغم بمواربة:

_فيكِ بالطبع!

ابتسمت برقة وهي تسند رأسها على صدره فأردف بشرود:

_هذه الليلة بالذات لا يجوز أن أفكر بشئ سواكِ.

ورغم أنها لم تكن الزيجة الأولى لها...

ورغم أن الخجل الشديد لم يكن يوماً من صفاتها...

لكن كلماته داعبت وتراً خاصاً في قيثارة أنوثتها جعلها ترتجف حقيقة بين ذراعيه...

ثم رفعت عينيها إليه محافظة على رشاقة خطواتها الراقصة لتهمس برقة:

_أريد أن أنسى بك العالم يا فهد...أريد أن أمضي العمر كله معك.

أغمض عينيه بقوة يخفي عنها حديثهما وقلبه يكاد يتصدع باشتياقه لأخرى يتمنى لو كانت هي التي بين ذراعيه الآن...

بينما عادت هي تهمس باستفاضة وقد شعرت بحاجتها لهذا الحديث:

_لا أدري كيف شعرت هكذا بالاطمئنان نحوك في هذه الفترة القصيرة ...رغم أن تربية أبي تدفعني دوماً للشك في الآخرين بحكم طبيعة عمله...لكنني معك بالذات أشعر براحة غريبة...وكأنني أعرفك منذ زمن بعيد.

مط شفتيه باستياء وحديثها يوخز قلبه بشعور ليس في موضعه الآن ليهمس ببرود:

_أنتِ فعلاً تعرفينني منذ زمن بعيد.

انعقد حاجباها بضيق وهي تفهم تلميحه عن زواجها السابق فتوقفت عن الرقص فجأة لتهمس بتحفز وقد تسارعت أنفاسها :

_ألم تخبرني قبلاً أنك لا تحب أن نذكر هذا الأمر بيننا؟!!هل ستبقى تعيرني بهذا الشأن؟!

فوجئ برد فعلها -الهستيري-نوعاً خاصة عندما لمح بعض المدعوين يرمقونهما بتساؤل وقد لاحظوا انفعالها...

فجذب خصرها نحوه ليعاود الرقص معها هامساً بحزم:

_يسرا...يجب أن تتحكمي في طبعك الانفعالي هذا ..خاصة في المناسبات العامة.

دمعت عيناها مع تشنج جسدها بين ذراعيه فعاد يتلفت حوله متظاهراً بالبرود ليردف:

_ماذا حدث لكل هذا الانفعال؟!!!جملتي كانت بريئة.

التصقت به أكثر وهي تتعلق بذراعيها في عنقه هامسة بانفعال:

_أنا لا أشعر أنك معي....دوماً شارد في وادٍ آخر...تعاملني بتكلف واضح وكأنك مجبر على هذه الزيجة.

اغتصب ابتسامة باهتة وهو يتأمل ملامحها قبل أن يهمس بفتور:

_هل تنظرين في المرآة يسرا؟!

انعقد حاجباها وهي لا تفهم مغزى سؤاله عندما عاود همسه :

_امرأة في فتنتك ووضعك هي مطمعٌ لأي رجل...أنتِ بالتأكيد لا تحتاجين إطرائي....فعن أي إجبارٍ تتحدثين؟!!

نظرت إليه بحيرة وهي تشعر أنها عاجزة عن فهمه...

كلماته تعطيها معنىً مخالفاً عما يشعر به قلبها...

نظراته نحوها تبدو وكأنها موصدة فلا تستطيع قراءتها...لكنها تجذبها نحوه أكثر...

أتراها أحبته؟!!

هي لم تعترف يوماً بهذا الحب الذي يروون عنه في القصص....

الحب هو أن تريد ...فتتعلق....فتحتاج ...فتحلم...فتطلب... ثم تمتلك...

لكن حياتها السهلة اختصرت كل هذه المراحل لأولها وآخرها فحسب...

هي تريد ...فتمتلك!!!

لكن هل امتلكت فهد الصاوي حقاً؟!!!

ذابت تساؤلاتها الحائرة مع صخب الحفل الذي ازداد بعدها ...

وتناسى عقلها حيرته مع إجهاد جسدها الذي استسلم للرقص مع رفيقاتها لساعات بعدها...

حتى انتهى بهما المقام في غرفة نومهما ببيتهما الجديد الذي لا يقل فخامة عن قصر والديهما...

فخلع هو رابطة عنقه ببطء ليضعها جانباً وهو يتحاشى نظراتها...

بينما همست هي بخجل حقيقي تعجبته في نفسها قبله:

_سأبدل ملابسي في الحمام.

زفر بخفوت وهو يتابع ظلها المنصرف ثم جلس على طرف الفراش وهو يفكر في أكثر ما يشغله الآن...

هل علمت جنة عن الأمر؟!!!

أم تخدمه الظروف فلا يصلها الخبر؟!!

ولو علمت هل ستعذره وتدرك أنه كان رغماً عنه؟!!

أم ستظنه خانها كما فعل مع سواها؟!!!

لقد حاول الاتصال بها مراراً ليشرح لها حقيقة الأمر لكنها أغلقت هاتفها منذ آخر رسالة كانت بينهما!!!

دق قلبه بعنف صارخاً بألمه وهو يحاول تخيل حالتها لو عرفت...

خاصة وهي الآن وحدها تماماً وليس لها أحد ...

فدمعت عيناه بعجز وهو يخفي وجهه بين راحتيه لوقت ما...

حتى شعر بلمستها الناعمة على كتفه مع همسها بدلال:

_لماذا لم تبدل ملابسك؟!

رفع عينيه إليها لتصطدم نظراته بقميصها المغوي الذي احتضن جسدها بنعومة نافست نعومة همساتها وأناملها تمتد لتفك أزرار قميصه:

_دعني إذن أساعدك.

================

انتبهت لآلام جسدها بعد هذه الساعات التي قضتها في نومتها على الأرض فتأوهت بقوة وهي تحاول القيام من مكانها بصعوبة...

حتى استقامت لتتوجه نحو زر الإضاءة فضغطته لتفاجأ بالساعة قد قاربت الرابعة فجراً!!!!

هزت رأسها بألم وهي تتعجب كيف مر بها الوقت هكذا دون أن تشعر...

لكنها عادت تحدث نفسها بيأس...

لم يعد هناك جدوى لحساب الزمن...

ما عادت هناك قيمة للدقائق والساعات....بل والأيام...

كلهن صرن متشابهات...مجرد دقات قلب فارغة بلا روح تنتظر النهاية!!!

تنهدت بحرارة وهي تتوجه بخطوات متثاقلة نحو غرفتها لتريح ظهرها الذي كان يئن بألمه....

لكنها توقفت مكانها عندما سمعت صوت جرس الباب!!!

انقبض قلبها برعب وهي تسترجع ذكرى أخرى مشابهة عندما هجم عليها رجال جاسم الصاوي لاختطافها من شقة فهد منذ وقت قصير....

فتشبثت بالحائط خلفها وهي تدعو الله بتضرع...

لكن الجرس عاود رنينه بإلحاح أكبر لدقائق طالت...

فارتدت حجابها ثم تناولت سكين المطبخ لتتوجه نحو الباب هاتفة بصوت أجادت اصطناع قوته:

_من؟!!

لم يصلها رد أيضاً فزادت خفقات قلبها جنوناً لكنها تشبثت بالسكين خلف ظهرها وهي تستجمع شجاعتها لتفتح الباب...

فهد؟!!

لا...لا...لا...

إنه وهم!!!

إنها تتخيله من فرط ما فكرت فيه طوال الساعات السابقة...

هل فقدت عقلها بصدمتها؟!!

أم أنه هو حقاً؟!!

لو كان حقيقياً فلماذا يقف كالصنم هكذا ولا يتحرك؟!!!

كل ما فيه ساكنٌ متيبس لكن مهلاً... !!!!

عيناه تتحركان...

نظراتهما تنساب كشلال شوق جارف أغرق جسدها كله...

قبل أن تعود لتتجمد هي الأخري -كجسده- أمام عينيها!!!

سقط السكين فجأة من يدها عندما أحست أنها فقدت السيطرة على أطرافها ...

بل على كل جسدها ...فشهقت بقوة وكأنها تستنجد ببعض الهواء لأنفاسها المختنقة....

ورغم أن قلبها كاد يقفز للأمام نحوه لكن قدميها انسحبتا بخطوة للخلف وهي تغمض عينيها بقوة هامسةً برجاء وجسدها كله يرتعش انفعالاً:

_بالله عليك لا تكن وهماً...تكلم...قل أنك حقاً هنا...قل أنني لازلت بعقلي.

لكنّ صوتاً لم يصلها للحظات سوى صوت انغلاق الباب ...

ففتحت عينيها بترقب وجل وهي تنتظر اختفاء الطيف...

عندما فوجئت به يجذبها لصدره هامساً بحرارة:

_لم أستطع...لم أستطع.

تأوهت بقوة وذراعاها يكادان يعتصران رقبته وهي تدفن وجهها بصدره تملأ برائحته أنفاس صدرها التي تلاحقت بجنون....

بينما ازدادت ارتجافتها لتربك جسديهما معاً فضمها إليه أكثر مردفاً بألم:

_لم أستطع أن أكون لغيرك...لم أستطع حتى ولو لأجلكِ أنتِ!

لم يبدُ عليها أنها سمعته ...

كانت كالغريق الذي يتشبث بطوق نجاته ولا يعنيه الآن من الدنيا غيره...

تمرغ وجهها في صدره ببطء ولازال ذراعاها معلقين برقبته حتى أنها لم ترفع وجهها إليه ...

فقط كانت تتمتم بين دموعها بلا وعي وكأنها لازالت لا تصدق:

_فهد هنا...هذا صوته...أنا لا أتوهم!

أغمض عينيه بتأثر من حالتها ثم رفع كفه لذقنها محاولاً جذب وجهها إليه...

لكنها تشبثت بوجهها في سجن ضلوعه...عيناها مغمضتان تكادان تلاصقان قلبه وأنفها يجاهد لالتقاط أنفاس عطره... لتعاود تمتمتها الهستيرية:

_لا !!!!...لا ترفع ذراعيك عني!!!احتضنني من جديد...لا أريد أن أراك...لا أحتاج أن أراك...فقط أحتاج أن..أن أشعر بك...أن...

انقطعت همساتها بآهة ألم أطلقتها وهو يعاود احتضانها بقوة كادت تكسر عظامها للحظات...

قبل أن يكتنف خصرها بكفيه ليرفعها قسراً حتى صار وجهها في مستوى وجهه تماماً...

نجوم ليله الأسود التي اشتاقتها تعاود ترانيم عشقها لها...

تحكي لها حكايا شوق طويلة لم تكتب نهايتها بعد...

وتعدها بالمزيد من أساطير عشق لها وحدها لم يسمع بها قبلها إنس ولا جان. ..

فعاد وهج بندقها يتألق رويداً رويداً حتى اشتعل بشغف خالص وهي تهمس بصوت مبحوح:

_تكلم...قل أي شئ!

انفرجت شفتاه ببطء وعيناها تستجديان كلماته عندما بدا على وشك الحديث.

لكنها فوجئت بغزوهما الساحق لشفتيها وكأنما اختصرت قبلاتهما حديثاً طويلاً لم يكن ليقوى أحدهما عليه!!!

فتلاحقت أنفاسها أكثر وهي تدفعه أخيراً بكل ما أوتيت من قوة لتهمس وقد استعادت وعيها وتمييزها للواقع:

_فهد...لم يعد هذا من حقنا...أنت طلّق..

قطعت عبارتها وهي تعود بقدميها إلى الأرض أخيراً لتتحسس بدلته بأناملها ...ثم همست بارتباك:

_هذه بدلة عُرس؟!!!أنت حقاً .....تزوجت!!!

رفع رأسه لأعلى دون أن يفك حصار ذراعيه حولها هامساً بأسف:

_أجل...تزوجت!

غادرت الدماء وجهها فجأة وهي تزيح ذراعيه عنها ببطء لتهز رأسها مع همسها المختنق:

_إذن ماذا تفعل هنا؟!!

عاد كفاه يطوقان كتفيها بانفعال مشتعل ...وهو يهتف بقوة :

_أنتِ لي...ملكي...بأي شرع...وبأي قانون.

أغمضت عينيها وهي تضع كفها على صدرها تكاد تشعر أنها على وشك فقدان وعيها انفعالاً في أي لحظة...

لكنه هز كتفيها بعنف مردفاً بحزم أقوى:

_بدلي ملابسك ...سنخرج حالاً!

فتحت عينيها اللتين تصارعتهما مشاعر عدة ما بين خوف واشتياق ورجاء ...

لتسأله بارتباك ولازالت تشك أن كل هذا حلم يقظة ستفيق منه قريباً:

_إلى أين؟!

انغرس كفاه في كتفيها بقوة شعوره الآن بينما انعقد حاجباه وهو يقول بحسم:

_لا أدري إن كان طلاقنا الإجباري واقعاً أم لا...ولا أدري إن كان يمكنني ردك بمجرد كلمة...لكنني أريد أن نكتب عقداً جديداً بشروط جديدة هذه المرة...

اتسعت عيناها بترقب وقد زادتها كلماته حيرة بينما أردف هو بنفس النبرة:

_هذه المرة لن تتزوجي ابن الصاوي بل ستتزوجين فهد...وأظنكِ تدركين الفارق...كذلك لن يكون زواجنا سرياً بل في العلن...لكن ليس هنا...

هزت رأسها بتساؤل فيما أكمل هو حديثه:

_سنكتب العقد الآن ونسافر بعد يومين لتركيا ...أنا أعددت كل شئ...وسأخفي كل أثر لنا حتى لا يتعقبنا

أبي...طوال الأيام السابقة وأنا أداهنه كي أصرف انتباهه عنا...والآن وقد تمت زيجتي البائسة من ابنة الصباحي كما كان يرغب فهو في غاية الاطمئنان ولن يتوقع هذا التصرف السريع مني.

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تهمس بتوتر :

_قد يصل إلينا هناك...سنكون دوماً في خطر...هو لن يغفر لك هروبك هذا.

زفر بقوة ثم قال باقتضاب:

_لا تخافي...سأبقى دوماً أسبقه بخطوة...سيكون لديّ هنا من يخبرني دوماً بتحركاته.

ثم التوت شفتاه بشبه ابتسامة وهو يردف بتهكم مرير:

_ابن الصاوي تربية أبيه سيستغل كل ما علمه له!!!

انقبض قلبها بخوف وأناملها تمتد لتتحسس بطنها دون وعي...

قبل أن تهمس بشرود:

_وماذا عمن سيتورط معنا بلا ذنب؟!

انعقد حاجباه أكثر وهو يسألها بدهشة:

_تقصدين من؟!

صمتت للحظات وقد بدا عليها التردد...قبل أن تغمغم بفتور:

_زوجتك!

كز على أسنانه وهو يهتف بحدة:

_أنا لا زوجة لي سواكِ...ورقة طلاقها ستصلها بمجرد ما نغادر هذا البلد.

وبرغم سعادتها الخفية بما يقوله لكن قلبها كان لايزال غارقاً بمخاوفه...

جاسم الصاوي لن يمرر لهما فعلتهما هذه المرة ...

سيكون انتقامه أقسى مما تتوقع...

وليت الأمر سيتعلق بها هي فحسب...بل بأحب الناس إلى قلبها الآن...!!!

لكنه عاد يهز كتفيها قائلاً بنفاد صبر:

_هيا يا جنة...بدلي ملابسك...أنا أعددت كل شئ.

==============

غادرا معاً مكتب المأذون الذي بدا وكأنه كان ينتظرهما رغم هذه الساعة المتأخرة من الليل...

فهد فعلاً أعد عدته لكل شئ....

واختار الليلة بالذات حيث لن يتوقع أبوه -حتى وإن كان يترصده- أن يغادر مسكنه مع عروسه بعد انتهاء الزفاف...

القليل من الأقراص المنومة في- كوب العصير -كانت كافية ليتخلص منها مؤقتاً....

وبعدها تم كل كل شئ كما خطط له تماماً...!!

بينما بدت هي شاردة في عالم بعيد حتى عاد بها إلى منزلها محافظاً على صمته هو الآخر...

حتى ترجل من السيارة ليفتح حقيبتها الخلفية مستخرجاً علبة ضخمة قبل أن يعود لجنة ليصعد بها إلى شقتها...

أغلق الباب خلفه ثم منحها ما يحمله هامساً بابتسامة عرفت طريقها إلى شفتيه أخيراً:

_ثوب زفاف لعروسي...ألم أقل لكِ أن هذه المرة مختلفة؟!

دمعت عيناها بتأثر وهي تتناول منه العلبة الضخمة لتفتحها بتردد...

قبل أن تلتقط أناملها ذاك الثوب الرقيق الذي لم ترَ في حياتها أجمل منه...

الثوب كان أبيض اللون انسيابياً على عكس فساتين الزفاف الواسعة لكن صدره وأكمامه كانت شفافة بزهور صغيرة زرقاء تناثرت على خصره وازدادت كثافتها حتى ملأت ذيله الطويل...

فردته بين ذراعيها بإعجاب لم يخفِ نظرات الحزن التي غلفت عينيها وهي تهمس بلهجة غامضة:

_تظنه سيناسبني؟!!

تألقت عيناه ببريق خاطف وهو يهمس بنبرة دافئة:

_ارتديه أولاً...لا أطيق صبراً على رؤيته عليكِ.

ابتسمت بشحوب وهي تبتعد به لبعض الوقت ...

حتى عادت إليه وهي ترتديه ....

وقد رفعت شعرها كله إلى أعلى رأسها لينسدل من خلف تاج فضي على رقبتها وظهرها بانسيابية ساحرة...

واكتفت من زينتها بكحل أسود أظهر وهج البندق في عينيها وهي تتقدم منه بخطوات بطيئة لا تدري بفعل مشاعرها المترددة ...أم ذاك الحذاء ذي الكعب العالي الذي ترتديه...

وما إن وصلت قبالته حتى توهجت نجوم ليل عينيه بألَق ساحر وهو يتفحصها بنظرات حارة...

قبل أن يهمس بحزم:

_اخلعي حذاءكِ.

نظرت إليه بدهشة للحظة لكنها نفذت أمره رغم عجبها...

فضمها إلى صدره بقوة ليلصق جبينها بصدره قبل أن يتأوه بحرارة صاحبت همسه :

_نعم...هكذا يا جنتي..هكذا يكون مكانكِ بالضبط على صدري...عيناكِ حبيبتايَ أقرب ما تكونان لقلبي...رموشهما تكاد تعانق دقاته.

اختلجت شفتاها بابتسامة شوق حالمة وهي تستسلم لدفء صدره للحظات...

قبل أن يرفعها بكفيه من خصرها ليتلاصق وجهاهما وهو يردف بنبرة أكثر حرارة:

_وأنا أحملكِ متى شئت لأروي نهم عينيّ إليك...فلا أدري أيهما أكثر لكِ شوقاً...قلبي أم عيناي؟!!

تشبثت أناملها بكتفه وهي ترتشف من كئوس العشق بعينيه ماطاب لها من أحاديث...

وتداوي بحرارة همساته ما جرحته برودة لياليها دونه...

لتهمس بعد صمت طويل :

_كيف عرفت مكاني؟!!كنت...تراقبني؟!

ابتسم وهو يعيدها إلى الأرض ليتلفت حوله قائلاً ببعض الخبث:

_أين العصفوران؟!

اتسعت عيناها بدهشة ثم ابتسمت بدورها وهي تهز رأسها وقد فهمت مغزى سؤاله...

بينما رفع هو ذقنها إليه ليهمس بعاطفته المشتعلة:

_تظنينني كنت سأتركك تغيبين عن عيني لحظة واحدة؟!!أبداً يا جنتي...حتى ولو كنتِ بعيدة...كل

خطواتك كانت تصلني أولاً بأول...ولولا هذا ما احتملت كل هذا الغياب.

لكنها عضت على شفتها وهي تهمس بشرود:

_وهل ستتركني ثانية؟!!

لامست أنامله شفتيها بحنان وهو يهمس ببعض الأسف:

_لابد أن أعود قبل أن تستيقظ هي...لا أريد أن يفسد كل شئ في اللحظة الأخيرة...لن نلتقي إلا بعد يومين في المطار حتى نستغل المفاجأة...لا تخافي ..أنا أمّنتُ الأمر تماماً هذه المرة.

لكنها أطرقت بوجهها لتهمس بعجز:

_ستهرب كمجرم لتعيش بلا أهل ولا وطن؟!!

فاحتضن وجهها براحتيه ليلصق جبينه بجبينها هامساً:

_بل كعاشق...أنتِ أهله ووطنه!!!

ثم انسابت قبلاته على وجهها مع همسه المتقطع:

_حتى ...تزهق...آخر...أنفاسي...

لتنتهي جملته "القديمة الجديدة " بين شفتيها:

_لا أفارق ولا أخون!

غامت عيناها بعاطفتها وهي تتأوه بخفوت...قبل أن تهمس بشكواها منه إليه:

_لا تدري كيف كان حالي منذ قليل قبل وصولك...عندما قرأت الخبر كدت...

قطع حديثها بشفتيه اللتين اختصرتا حديثاً طويلاً واعتذارات أطول ...

قبل أن يهمس بحرارة:

_صدقيني كل هذا فعلته قسراً لأجلك...أنا لم أعد أعيش إلا لأجلك.

تأملته بهيام للحظات وهي تشعر بالفخر...

فخر عاشقة وُلد حبيبها على يديها من جديد!!!

فهد الصاوي لم يترك فقط الحرام من أجلها...بل ترك الحلال أيضاً!!!

ترك زوجته حليلته ليلة زفافه ليهرع إليها هي ...

ترك عالم أبيه بل سيترك بلده كلها لأجلها هي....

وكأنها صارت كل أهله...وكل وطنه...

كما صار هو كل ذلك!!!

فابتسمت أخيراً ابتسامة حقيقية وأناملها تداعب وجنتيه بهمسها الذي مزج كل براءة حواء بكل إغوائها:

_حبيبي يا فهد.

فانحنى فجأة ليحملها بين ذراعيه وهو يتوجه بها نحو غرفة النوم هامساً بحب:

_الليلة...أنتِ وحدكِ عروسي...لم أكن لأرضى بمقابل عن قسوة هذه الليلة بأقل من أن ينام أحدنا في حضن صاحبه!!

ثم وضعها برفق على الفراش ليردف بشغف :

_مفتاح جنتي سيبقى معي للأبد...ولن تغلق أبوابها في وجهي أبداً!

وبعدها بساعة كانت تفتح عينيها على ضوء الصباح الذي ملأ الغرفة ..

وملأ قلبها معها...وهي تشعر بشفتيه الدافئتين على وجنتيها...

مع تحية صباح بنكهة الحب...

وعبارته التي اشتاقتها تعاود مغازلة أذنيها من جديد...

_تحتاجينني...وأحتاجكِ أكثر!!

============

الفصل الثاني والعشرون

_كيف تترك عروسك في هذه الظروف يا حسام؟!!

هتفت بها والدته باستنكار عقب عودته أخيراً إلى البيت بعد غياب استغرق اليوم كله...

منذ استيقظ صباحاً على خبر هجوم بعض اللصوص على منزل والدي دعاء منتهزين انشغالهم بالعرس لكنهم لم يحسبوا حساب عودتهما المبكرة عن الموعد المتوقع...

والنتيجة كانت جريمة قتل بغرض السرقة!!!

دعاء المسكينة فقدت والديها في "ليلة العمر" كما يقولون...

ضربة قاصمة لم يكن يتخيلها أحد!!!

وما كاد حسام يسمع عن الأمر حتى غادر المنزل مسرعاً إلى عمله دون حتى أن يسمعها مجرد كلمة عزاء...

طبيعته العملية جعلته ينظر للأمر وكأنه إهانة شخصية له و"لوظيفته" ول"واجهته الاجتماعية"أمام الناس!!!

هؤلاء المجرمون سيدفعون ثمن جريمتهم مرتين...

مرة لأنهم فعلوها...ومرة لأنهم تجرأوا على اختراق خصوصية "سيادة الرائد" وإيذاء أهله!!!

لهذا هتف بصرامة أمام والدته العاتبة:

_كان لابد أن ألقي القبض عليهم بسرعة...لم أكن لأترك الناس يتغامزون أن المجرمين فعلوها بنسبائي وأفلتوا دون عقاب؟!!

هزت والدته رأسها وهي تهتف باعتراض:

_كرامتك أهم من زوجتك حتى تحرمها وجودك جوارها؟!!

زفر بقوة وهو يشيح بوجهه قبل أن يهتف مدافعاً:

_أنا نجحت في إلقاء القبض عليهم جميعاً في وقت قياسي...سيعاقبون على فعلتهم بالقانون...أليس هذا أفضل لها من جلوسي جوارها كالنساء تاركاً إياهم يفلتون بجريمتهم؟!!

أطرقت والدته برأسها في يأس من مجادلته....

للأسف هذه هي طبيعة ابنها التي فقدت الأمل في تغييرها...

صورته أمام الناس تأتي في المقام الأول وبعدها أي شئ آخر...

هوسه المبالغ فيه بالمظاهر يزداد يوماً بعد يوم...خاصةً مع ماضيه المطعون بمرارته بين "طيف" و "يسرا"!!!

لكن ما ذنبها تلك "المسكينة" التي فقدت والديها -لتوها- وبالتأكيد تحتاج دعمه؟!!!

لهذا اكتفت بصمتها المشبع بعتابها ...بينما أردف هو ببعض التردد:

_أنا واثقٌ أنكِ اعتنيتِ بها كما يجب...كيف هي الآن ؟!!

نظرت والدته نحو باب غرفتها البعيدة لتغمغم بقلق:

_لم تنم إلا تحت تأثير الأقراص المهدئة...حالها غريب يا ابني!!!

ورغم أن عبارتها وخزت قلبه ببعض الإشفاق لكنه وأد هذا الشعور ليغمغم بفتور:

_الأمر صعب لكنها ستنسى...ستبكي ليومين ثم يمر الأمر كغيره!!!

لكن والدته اقتربت منه لتقول بدهشة ممتزجة بقلقها:

_الغريب أنها لا تبكي...تتقبل العزاء من الجميع بوجه بارد دون انفعالات...عيناها شاخصتان في الفراغ وكأنها لا ترى ولا تسمع!!!

عاد يزفر من جديد مشيحاً بوجهه فغمغمت المرأة برجاء:

_اعتني بها يا حسام...هي الآن لم يعد لها سواك!

انعقد حاجباه بضيق وهو يغادر والدته دون رد نحو غرفة دعاء ...

أغلق الباب خلفه ليتوجه نحو جسدها الساكن بخطوات متثاقلة ...

ثم جلس على طرف الفراش جوارها يتأمل ملامحها النائمة ببعض الدهشة...!!!

من هذه؟!!

إنه يشعر الآن وكأنه لا يعرفها....وكأنها امرأة غريبةٌ نائمة في فراشه...!!!

بعيدة عن صورته التي يراها على وجهها أحياناً بطمعها وأنانيتها...

وبعيدة عن صورة طيف التي يراها أحياناً أخرى على نفس الوجه بقوتها وتمردها...

إنه الآن يشعر وكأنها أول مرة يراها -هي-فيها وليس مجرد انعكاس لصور ماضيه!!!

وأمامه كانت هي غارقة في أحلام متشابكة كدوائر متداخلة...

تارةً ترى نفسها ملكة بثوب زفافها الأسطوري وتارة ترى نفسها عارية بثياب ممزقة لا تكاد تسترها...

تارةً هي تدخل من بوابة سحرية نحو عالم مبهر بأضواء ساطعة لتصعد درجاً مفترشاً بالحرير حتى تعتلي قمته...

وتارةً هي تقف مذعورةً على حافة هاوية تنتظر أن يدفعها - أحدهم- للسقوط...!!!

تارة عزيزة كنجمة السماء...وتارة زهيدة كحصاةٍ على الأرض!!!

حتى اتحدت دوائر الحلم أخيراً لتتركز في مشهد أخير...

كانت ترى نفسها بثوب العرس والجميع ينظرون إليها نظرات تقدير لا تخلو من حسد...

ووالداها واقفان هناك يرمقانها بفرحة غامرة...

ثم فوجئت بقطرات الدم التي لوثت ثوبها فجأة فصرخت مستنجدة بأبويها لكنهما أعطياها ظهرهما لينصرفا بصمت...تلفتت حولها بخوف تبحث عمن تستعين به...

لكن الجميع اختفوا فجأة...

المكان صار خالياً إلا منها...

ووسط كل هذا الرعب الذي غزا روحها وجدته- هو- يتقدم نحوها ببدلة العرس التي تعرفها...

خطواته متثاقلة بطيئة لكنها كانت تغرس الخوف بقلبها أكثر...

كل خطوة منه نحوها كان مردودها خطوة خلفية منها...

ومع هذا وجدته فجأة أمامها فشهقت بعنف عندما امتدت أنامله تعتصر رقبتها بقوة...

لتختنق أنفاسها رويداً رويداً وهي تتمتم بين دموعها:

_خاسرة...خاسرة!!!

وأمامها أفاق هو من شروده المتفحص فيها عندما رأي دموعها التي بدأت تسيل من عينيها النائمتين مع همهماتها التي لم يفهمها ...

امتدت أنامله دون وعي لتمسح دموعها النائمة لكنه توقف في آخر لحظة قبل أن يلامس بشرتها...!!!

ثم انعقد حاجباه بضيق وهو يشعر بالعجز...

خطأ...خطأ...!!!

هو لا يريد أن يشعر بالشفقة نحوها...

لا يريد أن يرى فيها سوى صورة انتقامه من ذاته...

هو يريد أن يكسرها...أن يعاقبها العقاب الذي لم يعاقبه لنفسه...

ولا يريد أن يثنيه عن عزمه هذا شئ حتى ولو وقعت في مصيبة كمصيبتها الآن!!!

قسوة؟!!

نعم...ربما...هو لم يعد يكترث بهذه المشاعر...!

هو رجلٌ يعيش ليحترق بالندم على ماضيه وقد نضبت خزائن روحه من أي أحاسيس دونه!!!

وبهذا الإدراك الأخير انتزع نفسه انتزاعاً من جوارها ليقوم بجمود ويغادر الغرفة نحو والدته التي ابتدرته بالسؤال عنها...

فغمغم بضيق لا يدعيه :

_نامي أنتِ جوارها الليلة يا أمي واعتني بها....أنا لا أصلح لهذا "الدّور"!!

=============

وقفت في شرفة بيت رحمة تتطلع للشارع البسيط الذي تجمع فيه بعض الأطفال يلعبون بالكرة...

واختلطت أصوات المارة والباعة الجائلين ببضاعتهم...

فاستندت بمرفقيها على سور الشرفة وهي تراقب وجوه الرجال الجالسين على مقهى قريب يلعبون "الطاولة" وتتعالى ضحكاتهم بتلقائية افتقدها عالمها الأنيق شديد الإحكام والانضباط حتى في ضحكاته!!!

ثم انجذبت عيناها لشابة بسيطة في مثل عمرها تحمل صغيرها الذي لم يتجاوز عامه الأول بعد وتسير به جوار زوجها وعلامات السعادة محفورةٌ على وجهيهما...

ولم يكادا يقتربان من الأطفال حتى تركوا اللعب بالكرة ليتجمعوا حولهما متسابقين بلهفة لحمل الصغير الذي كان يضحك الآن بانطلاق عبر سنتيه الأماميتين في ثغره الذي خلا إلا منهما...

وهو يلوح لهم بكفيه الصغيرين محاولاً التملص من ذراعي والدته ليلعب معهم!!!

فوجدت نفسها تبتسم تلقائياً مع شعور الدفء والحميمية الذي طوقها لتتحسس بطنها باشتياق هامسةً في نفسها:

_لأجلك يا صغيري فعلتها...لأجلك رضيت بالبقاء هنا!!

ولم تكد تتم فكرتها حتى شعرت بكف رحمة يربت على كتفها وهي تقول بحنانها المعتاد:

_كيف حالك اليوم يا ابنتي؟!!

التفتت نحوها بحدة وقد استعادت طبيعتها المتنمرة لترد باقتضاب :

_مثل كل يوم!!

تنهدت رحمة بحرارة ثم استندت بدورها على السور جوارها لتراقب الطريق مغمغمة بشرود:

_لا أدري عن شعوركِ الآن وأنتِ تقفين مكانكِ هكذا...لكنني أنا أشعر بالأمان في وقفتي هذه...عمري كله قضيته هنا في هذا البيت مع هؤلاء الجيران...ورغم أن والد عزيز تركني في وضع صعب لكنهم لم يبخلوا عليّ بمساعدتهم يوماً...وحتى عندما قررت أن أتبنى ماسة يوم وجدتها أمام ذاك المسجد هناك وقفوا جميعاً جواري وأيدوني...وكأنهم كانوا يشعرون بحاجتي لهذا بعدما هرب زوجي بابني الوحيد.

اختلست ميادة نظرةً مشفقةً إليها وقد بدأ قلبها يرق نحوها نوعاً...ثم سألتها ببعض التردد:

_لماذا فعل عمي شاكر هذا؟!!

ابتسمت رحمة بمرارة وهي ترد عليها بنفس الشرود:

_هذا هو السؤال الذي ظللت أسأله لنفسي طوال هذه السنوات ولم أعثر له على إجابة سوى الغدر!!!

انعقد حاجبا ميادة بتفحص وشعورها بالتعاطف نحو رحمة يزداد بينما أردفت رحمة بنفس النبرة:

_هل تدركين شعور زوجة أمضت يومها تنظف البيت وتغسل الملابس وتعد الطعام لتنتظر زوجها الذي غادر مع ابنها ثم لم يعودا أبداً!!

دمعت عينا ميادة رغماً عنها ورحمة تكمل ذكرياتها الموجعة:

_ظللت بعدها لأيام عاجزةً عن التصديق...رغم الأخبار المؤكدة التي وصلتني عن سفره مع عزيز وزواجه بأخرى لكنني كنت أنتظرهما كل يوم مكذبةً الواقع حولي...ولولا عطية السماء لي وقتها بماسة ربما كنت قد فقدت عقلي خلفهما!!!

أطرقت ميادة برأسها وحديث رحمة يشعل ذكرياتها القديمة...

كم تراها الآن تشبهها رغم فارق العمر...

كلتاهما جربت شعور النبذ ممن تحب وذاقت مرارة الوحدة بعدهم...

لكنها عرفت كيف تنفض عنها غبار ضعفها لتعاود الحياة بقوة تليق بها...

ومع هذا تبقى في القلب مرارة جرحٍ قديم لازالت تعكر مذاق شهد انتصاره على حزنه مهما طال العمر!!!

لكن رحمة قاطعت أفكارها عندما التفتت نحوها لتقول بابتسامة حنون:

_ولأن البِرّ لا يبلى..والذنب لا يُنسى والديان لا يموت ...عاد ابني إلى حضني بعد كل هذه السنوات ليعوضني عن كل لحظة حزن عشتها في غيابه...وفي أشد أوقات عمري احتياجاً إليه!!!

هنا شعرت ميادة بتأنيب الضمير وهي ترى الأمر من هذه الزاوية لأول مرة...

هي كانت تريد أن يعود عزيز لوالده وأمواله ومكانته الاجتماعية التي تليق به وبها...

لكنها غفلت عن مكان رحمة وسط كل هذا...

تلك المرأة الصابرة التي تحملت وحدتها وغدر زوجها طوال هذه السنوات...

وقد آن الأوان أن تحصد ثمار هذا الصبر في أواخر أيامها..

وعزيز أيضاً الذي عاش عمره السابق محروماً من أمه وهي على قيد الحياة يحتاج الآن أن يشعر بدفء حضنها..

"العقل" يقول أن عزيز أخطأ عندما ترك ثروة أبيه خلفه...

و "القلب والضمير" يحكمان أن يندفع عزيز في حضن رحمة أمامه!!!

لكن ماذا عنها هي؟!!

هي التي وجدت نفسها فجأة وسط هذا الصراع...لكن من تلوم سوى نفسها وهي التي اختارت من البداية للنهاية...؟!!!

لكن رحمة بدت وكأنها قرأت أفكارها فعادت تقول لها بحنانها المعهود:

_لا تتصوري سعادتي بإقامتكما معي يا ابنتي...يعلم الله أنني أحبك الآن كعزيز وماسة تماماً...لقد حرمني القدر ابناً يوماً ثم رده إليّ ثلاثة!!!

ولأن كلماتها كانت صادقة فقد لامست ذاك الوتر الحساس بقلب ميادة التي ابتسمت هذه المرة ابتسامة حقيقية لكنها عجزت عن إيجاد كلمات...

فضمتها رحمة لصدرها بقوة حنانها لتردف بعاطفة جياشة:

_عزيز يحتاجكِ جواره يا ابنتي...يحتاج قوتكِ ليستند عليها في بناء نفسه من جديد...أنا أعلم قدر التضحية التي تحملتِها لأجل طفلكما...وغداً عندما تحملين ابنك بين ذراعيكِ ستدركين أنه حقاً كان يستحقها!!!

===============

_هل ستخرج اليوم؟!!

هتفت بها ماسة وهي تتعلق به بجزع فزفر بقوة ثم هتف بضيق بالغ:

_هل تنتظرين أن أبقى حبيس البيت كالنساء؟!!

دمعت عيناها بقلق حقيقي وهي ترمقه بنظرات راجية...

لن تنسى هذا الرعب الذي عاشته ليلة زفاف دعاء عندما أطلق عليهما النار مجهولون ولولا ستر الله ثم يقظة الحرس لكانت مصيبة...

لقد أصابتها ليلتها نوبة اختناقها المعتادة في الأزمات واضطر هو لملازمتها طوال اليومين السابقين ...

ولأول مرة تشعر بالامتنان لمرضها الذي جعله يبقى معها طوال الوقت فيكفيها شر هذا القلق الذي يكاد ينهش صدرها عليه...

لكنه يريد أن يخرج الآن وهي لا تدري كيف تمنعه...

فازدردت ريقها ببطء وهي تلصق راحتيها على صدره هامسة برجاء:

_ابقَ معي اليوم فقط.

أشاح بوجهه وهو يقول بتذمر واهٍ:

_أنتِ تقولين هذا كل يوم...وأنا لديّ أعمالي .

دمعت عيناها بعجز وهي لا تجد رداً سوى انقباض قلبها خوفاً عليه...فأزاحت كفيها عنه لتهمس باستسلام كاره:

_حسناً...كما تريد.

عاد يلتفت إليها بترقب ليلتقط نظراتها التي فاضت بعاطفتها وقلقها...

مشاعرها الماسية باهظة القيمة والتي يدرك هو قدرها جيداً...

وكيف لا؟!!

وهو الذي عاش عمره -على غناه- لكن قلبه كان يشكو فقر احتياجه لهذا الشعور!!!

فابتسم رغماً عنه وهو يجذبها من خصرها ليقربها نحوه هامساً بنبرة عاد إليها حنانها:

_تخافين عليّ؟!

أخفت وجهها في صدره وقد خانتها كلماتها كالعادة....

لكنه رفع ذقنها نحوه لتغوص نظراته في كنوز عاطفتها الفضية التي التمعت الآن ببريق خاص...

ثم همس بنبرة غريبة:

_لقد اعتدت أن يخاف الناس مني...هذه أول مرة أشعر فيها أن أحداً يخاف عليّ!!

ذابت الكلمات على شفتيها لكن نظراتها حملت إليه مشاعرها كلها ...

فاتسعت ابتسامته وهو يربت على وجنتها هامساً بلهجة شاحبة:

_لا تخافي!! مَن هو مثلي لا تمنحه الحياة رفاهية الجروح...إما حياةٌ أو موت!!

تأوهت بخفوت وهي تعاود دفن وجهها في صدره ليضمه ذراعاها بكل قوتها وهي تهمس بجزع:

_أنت تخيفني أكثر بحديثك هذا ...أنا...

قطعت عبارتها عاجزة عن إكمالها وهي تشعر بالقنوط من وضعهما هذا...

لقد ظننت أن الأيام ستحسم حيرتها بشأنه لكن العكس هو ما حدث...

كل لحظة لها معه تزيد قلبها عشقاً لكنها تلهب عقلها قلقاً...

وهو واقف كالطود مكانه لا يتحرك...كل مساعيها لتغييره تفشل أمام قناعاته الراسخة بأن القوة والبطش هما سبيله الوحيد لفرض سطوته وحماية نفسه...

هي تقف وحدها بعلاقة لم تتجاوز بضع شهور أمام سنوات عمره السابقة كلها...

والتي تركت ندوبها البارزة على صفحة قلبه!!!

لكنه قطع أفكارها بمداعبته الرقيقة لمنابت شعرها وهو يستحثها لتكمل عبارتها هامساً بمكر:

_أنتِ...ماذا؟!!

رفعت إليه عينيها متجاهلةً سؤاله الماكر لتهمس بما يشبه الرجاء:

_أروع ما في عاصي الرفاعي أنه رد الأمان لعالمي....فلماذا تصر على إعادتي لسجون خوفي؟!!

تنهد بحرارة ثم قبل جبينها بعمق قبل أن يسحبها من كفها نحو خزانته الصغيرة جوار الفراش...

حيث فتحها أمامها ليستخرج منها مفتاحاً صغيراً ناوله لها قائلاً بلهجته الغامضة:

_لا تخافي...حتى لو حدث لي مكروه أنتِ ستكونين آمنة...هذا مفتاح خزانتي الخاصة في بنك (....) وبها الأوراق التي تلزمك ...فقط اتصلي ب(......) المحامي

الخاص بي...وهو سيتدبر كل شئ...لكن أولاً غادري هذه المدينة...لا تبقيْ فيها لحظة واحدة بعدي!!!

ارتج جسدها ببكاء مكتوم للحظات....

قبل أن تمسح وجهها براحتيها لتلقي المفتاح على الفراش ثم تشبثت بكتفيه هاتفةً بحدة عاطفية:

_أماني ليس في نقود وأوراق...أماني هو أنت يا عاصي...متى ستفهم هذا ؟!!متى ستستمع إليّ؟!!

ابتسم بحنان جارف وهو يطوقها بين ذراعيه قبل أن يمسح دمعاتها الفارة هامساً بصوته الآسر:

_يقولون أن لكل امرئ من اسمه نصيب...وأنا "عاصي"!

لكنها هزت رأسها نفياً لتهتف بمكابرة:

_ولماذا لا تكون عاصياً لشيطانك...لماضيك...لكل ما يؤجج نيران قسوتك...؟!!!العصيان اختيارٌ وليس قدراً!!

فاتسعت ابتسامته الحانية وهو يتجاهل عبارتها ليعاود تقبيل جبينها هامساً بفخر حقيقي:

_ماشعرت يوماً باستمتاعي بحديث مثل حديثي معك.

أشاحت بوجهها في -شبه غضب-كساه بعض الدلال بينما انسابت نظراته الحارة تطوق ملامحها وهو يردف بمكر لم يخفِ عاطفته:

_أظنكِ تحتاجين لشغل فراغكِ بطفل !

اتسعت عيناها بقلق قرأته عيناه بسهولة لكنه تجاهله مؤقتاً وهو يردف بنبرة أرق:

_أشتاق لرؤية طفلة تشبهكِ بعينين ماسيتين وشعرٍ بلون الليل الحالك...أو طفلٍ في عنادك وقوة مجادلتك.

فصمتت للحظات تستجمع شجاعتها قبل أن تحسم أمرها لتقول بصلابة:

_هذا ما كنتُ أرغب في التحدث معك بشأنه منذ أيام.

انعقد حاجباه بتفحص وهو يقرأ ملامحها بخبرته عندما رفعت عينيها إليه لتفجر جملتها التالية:

_كنت أريد أن نؤجل التفكير في أمر الأطفال هذا لبعض الوقت.

لم تكد تتم عبارتها حتى عادت غابات زيتونه تشتعل بحرائقها القديمة...

فاكتست نظراتها ببعض الخوف جمد كلماتها للحظات...

حتى قطع هو الصمت بقوله الحاد كالسيف:

_ولو رفضتُ أنا؟!!!!هل ستتناولين موانع للحمل مثلها؟!!

اتسعت عيناها بصدمة وهي تستنتج ما آل إليه تفكيره...

يا إلهي!!!

حورية!!!

كيف نسيت هذا ؟!!!

عاصي سيبقى شديد الحساسية في هذا الشأن بعد ماضيه معها!!!

جرحه -الطازج-بها لا يزال ساخناً تكاد تكفيه لمسة واحدة لينفجر نزيفه الدامي!!!!

عاصي يظنها مثل حورية ترفض الإنجاب منه نفوراً...

وهي كالحمقاء لم تتخير كلماتها...

لهذا ارتبكت قليلاً وهي تهمس بما يشبه الاعتذار:

_عاصي...أنا لم أقصد...

لكنه دفعها ببعض الخشونة وقد استعاد وجهه القاسي ليلوح بسبابته في وجهها هاتفاً:

_لقد كان ما بيننا اتفاق أديتُ أنا فروضه كاملة...وبقي دورك أنت!

فاحتقن وجهها انفعالاً وهي تهتف بحدة:

_كُفّ عن التحدث بهذه الطريقة...لماذا تصر على تحويل ما بيننا لصفقة أو اتفاق؟!

_لأنه كذلك!!!

هتف بها بصرامة أخرستها للحظات...

قبل أن يردف بنبرة أقسى:

_قلبكِ ليس كقلبي!!

قالها وجرحه القديم يحكم سيطرته على أعماقه...

أجل يا ماسة...يا ذات الروح الملائكية في حضرة شيطان مكبل بآثامه...

قلبكِ مؤمنٌ بالحب متبتلٌ بصلواته...وقلبي كافرٌ به غارقٌ بإلحاده...فكيف يلتقيان؟!!

كانت هذه أفكاره الساخطة المتشحة بمرارتها ...

فيما دمعت عيناها هي بقهر وهي لا تعرف كيف انتهى الحوار هذه النهاية...

هي لم تقصد إهانة رجولته أو الانتقاص منه...

بل إنه حتى لم يسمع مبرراتها فيما تطلبه...لهذا عادت تهمس بعتاب:

_تعني أن هذا فقط دوري هنا؟!!

لكنه عاد يلوح بسبابته في وجهها هاتفاً بنبرة أخافتها:

_اتفاقنا كان واضحاً!!!الزواج لأجل الولد!!

هزت رأسها باعتراض ثم عادت تهتف بانفعال:

_أنا لم أرضَ عن هذا الاتفاق ...أنت فرضته عليّ فرضاً!!!

ازداد تأجج السعير في زيتونيتيه اللتين فاضتا الآن بمرارتهما المعهودة رغم تسيد مشاعر الغضب...

هي لا تدري شيئاً عن شعوره الآن بقرب نهايته...

إنها المرة الأولى التي يتعرض فيها لتهديد كهذا ولا يعرف شيئاً عن مصدره...

إحساسه- الذي يعرفه لأول مرة- بفقدان السيطرة يجعله كوحش جريح في قفص لن يهدأ حتى يقتنص مهاجمه قبل أن يصل إليه...

هو اعتاد الشعور بالخطر منذ سلك هذا الطريق على خطى والده ...

لكن حدساً ما بداخله يخبره أن هذه المرة مختلفة وأنه لن يخرج منها سالماً...

ولهذا يريد الآن بالذات طفلاً**!!!**

يريد أن يرى ثمرة قلبه التي سيتركها خليفةً له على كل ما تعب طوال عمره في السعي خلفه...

يريد أن يطمئن أن خطواته في هذه الطريق لن تكون الأخيرة وأن ابناً من صلبه سيكمله بعده...

نعم...يريده بشدة ...الآن أكثر من أي وقت مضى**!!!**

وعلى العكس منه كانت هي لا تريد هذا الآن بالذات...

ليس قبل أن تطمئن لغدها المجهول هنا في هذه الظروف الشائكة...

لهذا زفرت بقوة ثم عادت تردف بنبرة أكثر ليناً:

_فقط...اسمعني أولاً...كيف تريدني أن آمن على طفل في هذه الظروف؟!!لقد تعرضنا لتوّنا لإطلاق نار...فكيف تريدني أن أمنح الأمان لطفلي وأنا نفسي لا أجده؟!!

أشاح بوجهه المتشنج دون رد...

فاقتربت منه خطوة لتهمس بتوسل:

_عاصي...أنت تعرف عن ظروف نشأتي...لا أريد أن ينشأ طفلي مثلي مشتتاً ضائعاً...أريد أن أؤمن له طريقه قبل أن أراه.

لكنه ظل صامتاً مشيحاً بوجهه للحظات طويلة قبل أن يلتفت نحوها قائلاً ببرود قاسٍ:

_كما تشائين.

تنهدت في ارتياح وهي تكاد تمنحه ابتسامة امتنان عندما أردف هو بنبرة أقسى:

_لكنني سأتزوج أخرى تجد طريقها معي مؤمَّناً!!

شهقت بعنف قبل أن تجمدها الصدمة للحظات وهي ترى أسوأ هواجسها يتحقق ...

بينما أكمل هو سيل كلماته السامة:

_وتذكري أنكِ أنتِ من نقض الاتفاق!!

قالها ثم توجه بخطوات سريعة نحو باب الغرفة مغادراً لتبقى هي مكانها مصعوقة للحظات لا تكاد تصدق ما سمعته منه...!!!

هل هذا هو مكانها الحقيقي هنا فقط؟!!!

وهل هذا ما يريده منها فحسب؟!!!

الولد؟!!!

وماذا لو لم تمنحه له؟!!

هل سيتخلى عنها ؟!

سيتركها ويتخير غيرها ببساطة؟!!!

وماذا لو منحته له؟!!

هل سترضى أن يكون ابنها نسخةً من أبيه..كما كان عاصي نفسه صورة من حماد الرفاعي؟!!!

هزت رأسها بعجز وقسوته التي عادت تكسو ردوده تؤجج هواجسها القديمة بشأنه...

وتهيل التراب على جمر عاطفتها ال-متذبذبة- نحوه...

فاشتعلت ملامحها بغضبها قبل أن تلحق به بسرعة في الرواق الخارجي لتدركه على أول السلم فتشبثت بذراعه هاتفة بانفعال:

_حسناً يا سيد عاصي...مادمتَ تراه اتفاقاً فقط فأنا لن أنقضه...لكنني ...

قطع عبارتها وهو يجذبها من مرفقها بعنف ليقرب جسدها نحوه هامساً أمام عينيها بصوت كالفحيح:

_لا تنسيْ وضعك هنا!!!لا صوت يعلو فوق صوت عاصي الرفاعي!!!

وبينما انزوى قلبها بين ضلوعها مكسوراً بإهانته توهجت بحور فضتها بألقٍ عاصف وهي تعاود هتافها الحاد:

_أنا لم أنسَ وضعي...أنت الذي تتناساه!!

هنا كان غضبه قد بلغ ذروته فدفعها بخشونة ليزيحها من طريقه عندما تعثرت بدرجة السلم لتطلق صرخة

عالية وهي تسقط لعدة درجات بثقل جسدها كله على ذراعها...

======

_سلامتك يا ابنتي!!!

هتفت بها رحمة التي قدمت مع عزيز بأسرع ما استطاعت عندما علمت من ماسة عن كسر ذراعها...

فابتسمت ماسة بشحوب وهي تجلس على فراشها بغرفتها القديمة في قصر عاصي الرفاعي لتقول بمرح مصطنع:

_لم يكن الأمر يستحق تعبك يا أمي...أنا بخير.

قالتها وهي تتحاشى النظر نحو عزيز الذي بادرها بقوله القلق:

_كيف حدث هذا يا ماسة؟!!

هربت بعينيها منه فأدرك أنها ستكذب -كما يعلم عن تفاصيلها التي يحفظها -بينما غمغمت هي بتلعثم:

_لقد تعثرت على الدرج فحسب.

فزفر بقوة وهو يتأكد من فكرته ثم تمتم بتوتر:

_سلمكِ الله من كل شر!!

دخل عاصي غرفتها في هذه اللحظة وعيناه تكادان تقدحان بشرر متطاير وهو يرى عزيز يجلس على كرسيه جوار فراشها ...

كان قد خرج لقضاء بعض مصالحه وعندما عاد أخبره الحرس بوجودهما لكنه لم يتصور أن يجدهما جالسين هنا...

فقامت رحمة من مكانها لتقول بحنانها المعهود:

_أهلاً يا ابني...معذرةً لمجيئنا المفاجئ..إصابة ماسة أقلقتنا!

لكنه سيطر على غضبه كعادته وهو يصافحها قائلاً باحترام:

_البيت بيتكِ يا سيدتي...مرحباً بكِ في أي وقت.

قالها ثم التفت نحو عزيز الذي رمقه بعداء واضح وهو يتقدم نحوه مصافحاً قبل أن يقول بحزم:

_لي حديثٌ معك يا سيد عاصي..لكن ليس هنا!

فاشتعلت عينا عاصي بغضب صارخ ناقض برودة قوله :

_بالطبع سيد عزيز...غرف النوم لا تليق بأي حديث!!!

قالها وهو يضغط على حروف كلماته بنبرة ذات مغزى ...

فشعرت رحمة بمزيج من الحرج والضيق لأنها لم تنتبه إلى هذا...

بينما لم يبدُ على عزيز الاهتمام وهو يغادر معه الغرفة بملامح متجهمة...

فالتفتت رحمة نحو ماسة هامسة بقلق:

_أخشى أن يسبب وجود عزيز مشكلة بينك وبين زوجك ...أنا اضطررتُ لاصطحابه معي فلم أكن أستطع القدوم وحدي!!!

تنهدت ماسة بحرارة وهي تهمس بألم :

_لا يهم!!!

هنا عقدت رحمة حاجبيها وهي تقترب منها لتحتضنها هامسة بلهفة:

_ما الأمر يا ماسة؟!!لا تبدين سعيدة كما كنتِ في مكالماتنا السابقة!!

هنا انخرطت ماسة في البكاء بين ذراعيها وهي تشعر بحاجتها للحديث ...

فروت لها تفاصيل ما حدث ما بينها وبين عاصي مؤخراً وشعورها بما استجد بينهما...

شهقت رحمة بدهشة ثم هتفت باستنكار:

_تعنين أنه هو من دفعكِ للسقوط من على الدرج؟!!

رفعت ماسة عينيها إليها وهي تومئ برأسها إيجاباً قبل أن تغمغم بين دموعها:

_لكنني لا أريد أن أظلمه يا أمي...هو لم يكن يقصد إيذائي..أنتِ لم تريْ وجهه ساعتها....لقد بدا وقتها وكأن روحه هي التي سقطت....كان في غاية القلق والجزع حتى جاء الطبيب لتجبير ذراعي.

أومأت رحمة برأسها في تفهم ثم غمغمت بأسف:

_علاقتكما صعبة حقاً...الحواجز بينكما كثيرة...وأنتِ ضغطتِ دون قصد على جرحه القديم...ليس أقسى على الرجل من أن ترفض امرأته الإنجاب منه...ورغم أن

أسبابكِ تبدو مقنعة...لكنه لم يكن يرى أمامه وقتها سوى صورة زوجته الراحلة التي كانت تنفر منه طوال هذه السنوات ...عاصي الرفاعي رغم واجهته الصلبة لازال يعاني خللاً في ثقته بالشعور بحب الآخرين له...خاصةً أنتِ!!!

مسحت ماسة دموعها وهي تهمس بألم:

_المشكلة ليست في هذا فحسب...أنا لم أعد أشعر معه بالأمان كالسابق...تهديده اليوم بأن يتزوج أخرى هزني بقوة...أنا أعرف أنه قادر على فعلها في أي وقت...وأنا لا أريد أن أنجب طفلاً من رجل فقط لأضمن وجوده جواري...هل تشعرين بي يا أمي؟!!

ضمتها رحمة بقوة للحظات وهي تستعيد مأساتة حياتها مع شاكر من قبل...

لتهمس بشرود بعد صمت قصير:

_وأحياناً لا يكون الطفل نفسه ضماناً لوجوده جوارك!!

فغمغمت ماسة بحيرة:

_إذن ماذا أفعل؟!!

تفحصتها رحمة ببصرها للحظات...ثم قالت بحكمة:

_أنتِ لن تفعلي شيئاً...أطيعي زوجكِ فحسب..لو لم يخنّي ظني هو الذي سيسعى لترضيتك.

هزت ماسة رأسها باعتراض وهي تهتف باستنكار:

_الأمر أكبر من هذا يا أمي...أنا لم أعد أسعى لمجرد ترضية...أنا أريده أن يتغير...أن يترك الجزء الأسود من عالمه حتى يشعرني بالأمان...أن...

لكن رحمة قاطعتها بحزم هامسة:

_تظنين أنكِ ستتمكنين من تغيير رجلٍ كزوجكِ بين يوم وليلة ؟!!!لا يا ماسة...ظننتكِ أذكى من هذا...الرجل لا يحب أن تشعره امرأته بأنها تكره صفاته وتسعى لتغييرها...وفطنة المرأة الحقيقية أن تفعل هذا بمنتهى الصبر والحساسية...الرجال لا يحبون السقوط في فخاخ التغيير لكن مهارتك أن تجيدي تغطيتها بحنانك وعاطفتك حتى يكون سقوطه مرضياً لكبريائه.

تنهدت ماسة بحرارة وهي تحاول استيعاب نصيحتها ...قبل أن تهمس ببعض اليأس:

_حسناً...سأحاول يا أمي...سأحاول!!

وفي غرفة مكتبه جلس عاصي أمام عزيز الذي ابتدره بقوله الحازم:

_سيد عاصي...ربما تعرفني عن طريق أبي وعلاقتنا بالعمل...لكنني أيضاً أعتبر نفسي أخاً لماسة...فوالدتي هي التي ربتها.

حافظ عاصي على برود ملامحه وهو يقول بلهجته المسيطرة:

_وماذا بعد؟!

فاقترب منه عزيز بجذعه ليقول بغضب لم يكتمه:

_روايتها الكاذبة عن تعثرها على الدرج لم تقنعني!!!أنا لن أسمح لأي أحد أن يؤذيها بعد!!

توهجت عينا عاصي بغضب صارخ ليهتف من بين أسنانه :

_هل تجرؤ على تهديدي في بيتي؟!!

فهبّ عزيز واقفاً مكانه ليهتف بغضب مماثل:

_كما جرؤتَ أنت على إيذائها في بيتك...إياك أن تظنها ضعيفة منكسرة الجناح بسبب ظروفها ...ماسة ستبقى أمانة في عنقي ما حييت ولن أتهاون في حقها أبداً.

هنا وقف عاصي بدوره ليتقدم منه خطوة قائلاً بنبرة حاسمة لا تقبل الجدل:

_لولا احترامي للسيد شاكر لكان لي معك تصرف آخر...عاصي الرفاعي لا يشارك أحداً الحديث عن أهل بيته!!

فاحتقن وجه عزيز بانفعاله وهو يهم بالحديث عندما أردف عاصي بنبرة أقسى:

_الحوار انتهى!!

===========

أسندت رأسها على ظهر الفراش بعد رحيل رحمة وعزيز وهي تفكر في حديث رحمة معها...

ثم غلبها ألم ذراعها فتأوهت بضعف وهي ترفعه أمامه متأملة جبيرته للحظات...

لا تكاد تصدق أن عاصي هو من فعل بها هذا...

لكن لمَ العجب؟!!

وهي تدرك منذ البداية أنه بحرٌ هائج من تناقضات لا تنتهي...

وأن قسوته -كحنانه- بلا حدود!!

انقطعت أفكارها عندما شعرت به يدخل إلى الغرفة فأطرقت برأسها حتى جلس جوارها على طرف الفراش ...

كانت عاجزة عن رفع عينيها نحوه وهي تشعر أن قلبها الآن يتمرغ في خيبة حسرته...

لكنها اضطرت للنظر إليه عندما وصلها همسه الغاضب:

_كيف تسمحين له بالدخول لغرفتك ورؤيتك هكذا دون حجاب؟!!

تمالكت قوتها بصمت قصير قبل أن تهمس بنبرة محايدة:

_آسفة...تصرفت بحكم العادة ...أنت تعلم أنه كان...

لكنه قاطعها فجأة بصيحة هادرة:

_اخرسي!!

دمعت عيناها رغماً عنها وهي تشيح بوجهها عندما أردف هو بنفس النبرة المشتعلة:

_هذا الرجل لم يحفظ حرمة بيتي ولهذا لن يدخله بعد...ولو حتى مع والدتك...هل تفهمين؟!!

وبرغم الخوف الذي بدأ يتسلل لنفسها من جديد وجدت نفسها تهمس مدافعة:

_هو لم يقصد هذا...هو تربى في الخارج ولا يدرك عاداتنا المتحفظة هنا...كما أنه اعتاد...

انتهت عبارتها بآهة ألم عندما اعتصرت قبضته فكها وهو يهمس بقسوته التي عاودت احتلال نبراته:

_لا يغرنّك حلمي عليكِ بعد...لن أسمح لك بعد الآن بالمجادلة...ستنفذين أوامري فحسب دون كلمة واحدة.

أغمضت عينيها بقوة وهي تشعر أنها تقاتل في جبهتين...!!!

تقاتل قلبها الذي لايزال لا يستوعب هذا الوجه القاسي بعد طول حنانه...

وتقاتل عقلها الذي لا يكاد يستوعب غيره!!!

قلبها الذي يتخبط بين جدران ارتباكه وخيبته مردداً أن هذا الرجل ليس "عاصي"...

وعقلها -على العكس-يقسم أن هذا هو "عاصي" الحقيقي...!

وأن ما رأته من حنانه واحتوائه لم يكن سوى قشرة واهية لن تلبث أن تتشقق عند أول صدام!!!

لهذا اكتفت بسكون جسدها المستسلم لذبذبات غضبه التي كادت تزلزل كيانها كله...

وهو يردف بغضب مشتعل وكأنه لا يزال لا يصدق جرأة عزيز عليه:

_هذا "الفتى" تجرأ ليوصيني بكِ أنت؟!!يهددني لو آذيتكِ؟!!

فتحت عينيها بدهشة عندما أزاح أنامله من على فكها لتتمتم بذهول:

_هو فعل هذا؟!!

أشاح بوجهه الذي كاد ينفجر انفعالاً فابتلعت صدمتها بجرأة عزيز الجديدة عليها...

قبل أن تغمض عينيها بألم حقيقي وهي تعاود إسناد رأسها على الفراش باستسلام...

ربما تكون قد أخطأت حقاً عندما غفلت عن غيرة عاصي وسمحت لعزيز بالدخول لغرفتها لكنها كانت حقاً مشوشة...

عقلها كان محتلاً بعدوان أفكارها المشتعلة بما حدث...!

وأمامها كان هو يكاد يحترق بلهيب مشاعره..

بركانٌ هائجٌ من نار غضب يقذف حممه بداخله...

الغضب من نفسه لأنه آذاها ولو دون قصد...

والغضب من ذاك "الفتى" الذي يجئ الآن بعد طول خذلانه لها ليتصنع رجولة مستحدثة ويهدده هو لو عاود إيذاءها...

والغضب منها هي التي تثير في نفسه زوابع عاصفة لا تنتهي من أحاسيس لم يعرفها إلا معها...

قوتها كماسة حقيقية تثير الرهبة في نفسه أحياناً رغم عشقه لهذه القوة...

ربما لأنه يدرك أن قوتها سلاحٌ نافذ ربما يكون هو نفسه أول ضحاياه يوماًَ!!!

وربما لأنه يخاف عليها من نفسه أن تتكسر قوتها هذه يوماً بسببه!!!

وربما لأنه يدرك أنها على حق في شعورها بعدم الأمان معه!!!

وربما هو كل هذا!!!

لهذا زفر زفرة مشتعلة ثم التفت إليها أخيراً لترق لهجته نوعاً وهو يلاحظ احمرار كفها الذي ظهر -بالكاد-تحت جبيرتها...

فغمغم بصوت لم تغادره قسوته بعد:

_لماذا عدتِ لغرفتك هذه؟!!

حافظت على إغماض عينيها وهي تهمس بفتور:

_هل كنت تريدني أن أستقبلهما في غرفة عاصي الرفاعي المحرمة؟!!

كز على أسنانه وهو يجيبها بانفعال غريب على ثباته المعهود:

_وهل عَدِمَ القصر غرفات ضيوفه حتى تستقبلينهم في غرف النوم؟!!

هنا سالت دموعها على خديها أخيراً في صمت...

فتشنج جسده بقوة انفعاله وهو يقاوم نفسه الآن كي لا يضمها لصدره...

كي لا يمسح دموعها التي كانت تحرق ضلوعه بحسرتها...

كي لا يعترف لنفسه بسبب انفعاله الآن وهو أنه اليوم -ولأول مرة- شعر بالغيرة عليها!!!

هذا الشعور الذي أذكى نيرانه كلها واستنكف أن يطفئها بفيوض عاطفتها!!!

فقام من جوارها فجأة وكأنه حسم هذا الصراع لصالح وجه قسوته...

قبل أن يقول بنبرة جافة:

_لن أطلب منكِ العودة لغرفتي...أنتِ تركتِها وحدك...فعودي وحدك!!!

لم تتغير ملامحها الساكنة التي نقش الحزن عليها الآن ألف خط...

فزفر بقوة وهو يتوجه نحو الباب بخطوات مندفعة...

لكن أنامله تجمدت على مقبض الباب عندما سمع صوتها خلفه أخيراً يكاد يبكي بخيبته:

_اليوم أخلف عاصي الرفاعي وعده معي لأول مرة!!

وقف مكانه ثابتاً للحظات وكأنه يفكر في كلماتها قبل أن يستدير نحوها برأسه عندما أردفت هي بمزيج كبريائها وعتابها:

_وعدتني ألا تؤذيني...وقد فعلت!!

======================

ظل طوال ليلته يتقلب على فراشه كالنائم على جمر...

لقد اعتاد نومتها جواره...!

همسها اللهاث باسمه وهي تندس كطفلة تائهة بين ذراعيه كل ليلة بدعوى أنها تخاف أن تعاودها كوابيسها...!

عاداتها الليلية التي صار يحفظها...

شعرها الذي تجمعه كله فيما يشبه كعكة كبيرة فوق رأسها كي لا يضايقها في نومها...

عطرها الهادئ برائحة الزهور...

وقمصانها الطويلة التي تفضلها زاعمةً أنها تخشى انكشاف ساقيها عند نومها ليلاً...

وتمتماتها الداعية بخشوع وهي تردد أذكارها قبل نومها كما علمتها رحمة...!!!

لقد صارت هذه الطقوس اليومية جزءاً من حياته التي أدمنها معها...

فكيف الآن تحرمه كل هذا؟!!!

صوتٌ بداخله يدفعه الآن لانتزاعها من فراشها بغرفتها الأخرى وحملها هنا قسراً دون تردد...

لكن صوتاً خافتاً من الماضي يحذره من إعادة العدو في الطريق الخطأ...!!

إن كان اختارها ماسةً حقيقية ليكفر بها ذنوب تاريخه الأسود فليلتزم بالقواعد التي وضعها هو بنفسه لها...

وأولها...لا إجبار!!!

شئٌ واحد فقط سيجبرها عليه قسراً ليس فقط لأنه كان اتفاقهما من البداية...بل لأنه يتمناه حقاً ومنها هي بالذات...

نعم...الولد!!!!

سمع النداء لصلاة الفجر فقام من مكانه ليبدل ملابسه...

ثم توجه نحو الرواق بخطوات متثاقلة لتحمله قدماه نحو باب غرفتها حيث امتدت أنامله تلامس المقبض للحظات...

عندما وصله صوت تأوهاتها الضعيفة...

فانعقد حاجباه بألم وهو يتذكر عبارتها الأخيرة...

هو حقاً أخلف وعده معها...هو آذاها !!!

طبيعته القاسية غلبت عاطفته ولو دون قصد...

واليوم أضاف لخدوش ماسته خدشاً جديداً من صنع يديه هو!!!

لكنها هي التي دفعته لهذا...

الغافلة لا تدرك أنها بعود ثقاب واحد أضرمت النيران وسط أحطاب ماضٍ لم يمتْ وما كان له أن يموت...

صفحته السوداء مع حورية لم تنطوِ بعد...

بعمق شعوره بالجرح من خيانتها تارة...

ورفضها الإنجاب منه طوال هذه السنوات تارة أخرى...

وبعظيم شعوره بالذنب نحوها في ذات الوقت وهو يوقن أنه هو من دفعها لهذه النهاية!!!

ووسط كل هذا تأتيه ماسة بعشقها الذي يلتمع كشمس الظهيرة في مقلتيها لكنها مع هذا تأبى الاعتراف به وكأنها تؤكد له أنه لا يستحقه...

والآن ترفض أن تمنحه الولد الذي طالما تمناه...!!

لهذا عاند إرادته بقوة سيطرته المعهودة على نفسه لتترك أنامله مقبض الباب قبل أن يعاود طريقه للخروج...

لكنه عند عودته كان قد فقد آخر حبات عقد مقاومته التي انفرطت كاملة على باب غرفتها من جديد...

ليجد نفسه يفتح الباب بحسم مسكتاً أصوات كبريائه بدعوى الشفقة...!!!

لكنها للأسف لم تكن هناك...

نعم...فراشها كان خالياً منها بل والغرفة كلها...!!

انعقد حاجباه بقلق وهو يعاود الخروج للبحث عنها في الحديقة ...

لكن حدساً ما جعله يرفع بصره للأعلى شاعراً أن ماسته الآن بحاجة لتراقب شروق الشمس لعله يبذر النور في جديب روحها المظلمة الآن حزناً...

لهذا تقدم بخطوات ثابتة ليصعد الدرج نحو سطح المنزل حيث كانت واقفة هناك -كما تصور تماماً- كصورة رائعة لملاك حزين...

شعرها كان يتطاير حولها بخفة متخلياً عن حجابها الذي انزلق على كتفيها ليمنحها مظهراً متمرداً يليق بوضعهما الجديد...

وجسدها كان يرتجف بقوة مع النسمات الباردة التي اشتدت في هذا الوقت من الصباح...

فاقترب منها ببطء ليحتضن كتفيها براحتيه هامساً بصوته القوي الذي افتقر الآن لأي انفعال:

_ماذا تفعلين هنا؟!!

ظل جسدها على ثباته وكأنها لم تفاجأ به...!!!

بل على العكس قلبها النقي بدا وكأنه كان ينظر في بللورة عشقه السحرية ويكاد يقسم لها أنه لن يصبر على خصامها أكثر...!!!

لكن عقلها كان يحذرها من أن الأمر لا يعدو كونه مجرد "سطوة امتلاك"...!

وأن عاصي الرفاعي لا يعتبرها أكثر قيمة من جوادٍ رابح حتى الآن...لكنه لن يتردد في منحه "رصاصة رحمة" متى صار في غنيً عنه!!!!

لهذا حافظت على سكون وضعها -الظاهر- قبل أن تتمتم بلا شعور:

_واقفة...مكاني!!

انعقد حاجباه بضيق وهو يعلم أن عبارتها تحمل ما يفوق كلمتيها الوحيدتين بكثير...

لكنه لم يكن يريد الخوض في هذا الأمر...

لهذا أدارها نحوه ليلتقط نظراتها الفائضة بحزنها والتي روضت وحوش قسوته ليجد نفسه يغمغم ببعض الرفق:

_الأولى أن تستريحي في غرفتك...أنتِ لم تنامي طوال الليل.

أطرقت برأسها وهي تغمغم بنبرتها التي مزجت عتابها بمرارتها:

_أمرٌ جديد من السيد عاصي يستوجب الطاعة.

زفر زفرة حارقة وقبضتاه يحكمان الوثاق على كتفيها أكثر ليهتف بحدة:

_طالما كنتِ تستخرجين أفضل ما فيّ...صورتي بمرآتك كانت دوماً هي الأجمل...لماذا الآن تدفعينني للظهور بهذا الوجه أمامك؟!!

اغرورقت عيناها بدموعها وهي ترفعهما نحوه لتقرأ الندم الذي تخلل غابات زيتونه ممتزجاً برياح هوجاء من غضب أسود جعلها تتمتم بخيبة:

_لست أنا من فعلها...للأسف عندما تَنازَع شيطانك مع ماستك كانت الغلبة للشيطان.

انعقد حاجباه بغضب أكبر وهو يستشعر صدق حديثها ...فيما أردفت هي بنفس الخيبة:

_أنت حتى لم تسمع مبرراتي...أصدرت حكمك ومنعتني حتى الاعتراض!!!

ثم خانتها دمعة غادرة سقطت على وجنتها فمسحتها بسرعة لتعاود همسها بقوة أكبر:

_طوال الليلة الماضية وأنا أشعر بالصراع الذي كان يدور بداخلك...أعرف أنك لم تذق النوم مثلي...كنت أطالع مقبض الباب في كل دقيقة أنتظر نتيجة حسم الصراع بين قلبك وشيطانك...بين حاضرنا وماضيك....لكنك...

قطعت عبارتها لتبتلع غصة حلقها قبل أن تردف بألم:

_خذلتني!

عادت عيناه تشتعلان بلهب غضبته وهو يهتف بحدة:

_ماذا كنتِ تنتظرين؟!!لم يُخلق بعد من يلوِ ذراعي !!!

فذابت حسرتها في بحورها الفضية لتمتزج بنظراتها اللائمة:

_إذن تعتبر ما بيننا "ليّ ذراع"؟!!

هنا كان غضبه هادراً وهو يراها تحاول بكل قوتها أن تجذبه لهذه المنطقة التي لا يريد التواجد فيها...

هو لن يستدرج لفخ الحب من جديد...

فعلها مرة واكتوى بنارها عمراً...ولن يعيدها مهما حدث...

هذا الشعور الذي يغزوه نحوها يجب أن يروضه...أن يقهره...

لن يكون هناك سلطانٌ على قلب عاصي الرفاعي إلا سلطانه هو نفسه!!!

وبهذا الإحساس الجارف الذي اجتاحه وجد نفسه يهز كتفيها غير آبه بألمها وهو يهتف بقسوة :

_افهمي!!!ما بيننا ليس سوى اتفاق!!!اتفاقٌ لا يخضع لوهم حب لن أمنحه لكِ أو لغيرك!!!عاصي الرفاعي لا يعترف إلا بلغة مصلحته ...مصلحته فقط!!!

وبرغم ألم ذراعها الذي كانت تشعر به في هذه اللحظة وهو يهزها هكذا...

لكن ألم روحها الآن كان يفوقه بكثير...

مع عتاب عقلها الذي طالما حذرها من تماديها بحلم لن يتحول يوماً لحقيقة...

ونحيب قلبها المتواري خلف أستار خيبته...

خاصةً عندما أردف هو بنبرة أقسى:

_ستمنحينني طفلاً كما كان اتفاقنا...هذا كل ما يعنيني!!!

أغمضت عينيها بتعب ما عادت قادرة على احتماله...

ربما لو كانت زوجة أخرى مكانها لشعرت بالسعادة والفخر وهي ترى زوجها يطلب منها طفلاً بهذا التشبث والإصرار...

لكنها معه الآن تشعر بالإهانة...

بالانتقاص...

هي ليست لديه الآن سوى وعاء لطفل لا يمكنها حتى الشعور بالاطمئنان عليه وسط هذا الجو المشحون بالخوف والشر...

لهذا فتحت عينيها ببطء لتزأر أمواجها الفضية بقوتها من جديد وهي تواجهه بقسوة لا تقل عن قسوة نظراته :

_أنت جعلتني أندم على كل لحظة شعرت فيها بالامتنان نحوك...ماسة لم تكن لديك سوى وفاء بدين قديم واتفاقٍ على ولي عهد جديد...وبين هذا وذاك أنا لم أختر أحدهما..ولم أطلبه....أنت أجبرتني على هذه الحياة بهذه الشروط والآن أقولها لك أنا لا أريد كل هذا...لا أريده!!!

فومضت عيناه بحريق ثائر وهو يهمس ببطء قاسٍ:

_امنحيني الطفل أولاً...وبعدها...

اتسعت عيناها بمزيج من الاستنكار والترقب عندما اقترب بوجهه أكثر ليردف بمزيج غريب من القسوة والمرارة:

_إذا أردتِ الرحيل فلن أجذبكِ قهراً...عاصي الرفاعي لا يكرر خطأه مرتين.

ارتجف جسدها بقوة لا تدري ألماً أم خوفاً...

وهي تحاول البحث عن كلمات لكن حروفها كلها كانت مفلسة...

أعدمتها هذه القسوة التي عادت تستوطن نبراته...

وهو ينهي هذا الحوار بجملته الحاسمة:

_عندما يتحسن حال ذراعك سنتابع طبيبة بشأن موضوع الحمل!!!

==========

نيرانٌ هائلةٌ من غضب أسود كانت تلفحها بعد مغادرته مع والدته للسفر إلى ماسة...

منذ علم عما حدث لها وهو يكاد يختنق بغضبه ولهفته التي قرأها قلبها بحسرة ذبحتها...

ورغم أن عقلها اليقظ بتفكيره العملي كان يدفعها للتريث بدعوى أن الأمر لا يتعدى مجرد حمية رجولية لامرأة ضعيفة في ورطة...

لكن قلبها كان في وادٍ آخر يئن بين ضلوعها كاتماً لوعته!!!

لهذا لم تشعر بنفسها وهي تجذب تلك المزهرية من مكانها لتقذفها بعنف فتهوي محطمةً على الأرض ...

قبل أن تخطو نحوها لتدوس على إحدى شظاياها بقوة هاتفة بين أسنانها:

_ذوقي الألم يا ميادة...ذوقيه كي تتعلمي درسكِ جيداً...إنه ذنب قلبكِ الذي طاوعتِه هذه المرة.

لكن عبارتها انتهت بآهة ألم أطلقتها وقد أفاقت لنفسها أخيراً لتتحسس بطنها بقلق وقد غلب خوفها على طفلها أي إحساس سواه...

فتحاملت على نفسها لتسير نحو حمام الشقة الصغير حيث غسلت قدمها المجروح بصعوبة رغم ألمها...

قبل أن تربطه بضمادة وجدتها هناك في رف صغير خصصته رحمة لهذه الأشياء...

ثم سارت بخطوات حذرة نحو فراشها لتستلقي عليه شاخصة ببصرها في الفراغ...

وقد دفعتها غيرتها لفكرة واحدة الآن...

هي لن تخرج من هذه الصفقة خاسرة...

عزيز لابد أن يعود لأبيه ويترك هذا المكان الذي سيبقى يذكره بماسة...

ليس من أجلها فحسب بل من أجل طفلها الذي ستضحي لأجله بكل شئ...

وبهذا الشعور العاصف تناولت هاتفها من جوارها لتتصل بوالد عزيز ...

وما إن أجاب الاتصال حتى بادرته بقولها:

_لقد وجدت الطريقة يا عمي...كيف سنجبر عزيز على ترك هذا المكان والعودة إليك مرغماً...حسناً...سأخبرك!!!

قالتها ثم اندفعت تروي له تفاصيل خطتها البسيطة والفعالة في ذات الوقت...

والتي استحسنها شاكر بدوره ووعدها بسرعة تنفيذها بعد شكر وافر!!!

لتغلق هي الاتصال بعدها بعنف يناسب عاصفة شعورها الآن...

ورغم الابتسامة الظافرة التي ارتسمت على شفتيها ...كان قلبها يوبخها بشعور سخيف بالذنب لن تلتفت له بعد...

لقد أعاد عقلها السيطرة على زمام الأمور ولا عزاء لقلب تبعثرت دقاته في وديان ليست له...ولن تكون!!!

وبهذا الإصرار سحبت غطاءها على رأسها لتستدعي نوماً عاندها طويلاً...قبل أن يستجيب أخيراً ليرحمها من كل هذا الصراع!!!!

==========

_ميدا!!!استيقظي...ماذا حدث؟!!!

هتف بها عزيز بقلق وهو يحاول إيقاظها مع رحمة بعد عودتهما وقد روعهما منظر المزهرية المكسورة مع قطرات الدم على الأرض...

ففتحت عينيها ببطء لتصطدم بنظرات حنانه المشبعة بقلقه وهو يعاود سؤاله بلهفة:

_أنتِ بخير؟!!

أشاحت بوجهها دون رد...

عندما اقتربت منها رحمة لتهتف بدورها:

_ما الذي حدث يا ابنتي؟!!يا إلهي...لم يكن ينبغي أن نتركك وحدك!!!

قامت من نومتها لتستند على ظهر الفراش مغمغة باقتضاب:

_لم يحدث شئ!!أنا بخير!!

رمقتها رحمة بنظرة مشفقة وهي تشعر بالذنب...

ذهاب عزيز معها لماسة كان خطأً كبيراً لم تحسب حسابه...

خطأً قرأته في غيرة عاصي الرفاعي منذ قليل وتقرأه الآن في عيني ميادة...

لكنها لم تفكر بهذا...

دفعها قلقها على ماسة للسفر ولم تستطع الذهاب وحدها...!!!!

لهذا تنهدت بحرارة ثم تقدمت نحو ميادة لتهتف بنبرة اعتذار:

_سامحينا يا ابنتي!!!الظروف اضطرتنا لهذا!

أغمضت ميادة عينيها لتتجاهل الرد مكتفيةً بصمتها....فعادت رحمة تربت على كتفها قائلة:

_سأحضر لكِ العشاء ومشروباً دافئاً.

غمغمت ميادة بكلمات اعتراض مبهمة لم تأبه لها رحمة وهي تندفع للخارج نحو المطبخ لتنفذ ما أرادته...

بينما رفع عزيز قدمها أمامه برفق متفحصاً ليغمغم بقلق:

_أخشى أن يحتاج لتقطيب .

لكنها سحبت قدمها من كفه لتدسه تحت غطائها هاتفةً بحدة دون أن تنظر إليه:

_لا شأن لك بي!!

انعقد حاجباه بضيق للحظة ثم اقترب منها أكثر ليحتضن كفها بكفيه هامساً بحزم:

_انظري إليّ!!

ظلت مشيحة بوجهها للحظات لكنها اضطرت لرفع عينيها إليه عندما ضغط كفها بقوة أكبر بين راحتيه مردفاً بنفس الحزم:

_أنا الآن أخاطب عقل ميادة الذي لن يخدعه أحد...فهل تسمعين؟!!

اشتعلت عيناها ببريق تحدٍ راقه كثيراً فابتسم بإعجاب زاد من لمعة العسل في زمرديتيه قبل أن يقول بجدية تامة:

_أنا أعرف أن وضعنا غريب...وزواجنا كان أغرب...لكن أفضل ما في علاقتنا أن كلينا يصدق الآخر ولا يكذبه...صحيح؟!!

ازدادت لمعة التحدي في عينيها دون رد فأردف بصدق:

_أنا لم أذهب لماسة على أنها حبيبتي ...فما بيننا انتهى بحق منذ زمن...أنا ذهبت إلى ماسة أمانتي التي لن أفرط فيها أبداً...ولن أسمح لطغيان الرفاعي أن ينالها كما نال زوجته السابقة.

أطرقت برأسها وهي تشعر بصدق حديثه لكن لا تزال هناك غصةٌ في القلب لن يبتلعها بمجرد كلمات...

فيما أكمل هو حديثه:

_أنا خذلتها مرة كعاشق وندمت على هذا حقاً...لكنني لن أخذلها كأخ متى احتاجتني.

هنا كان دورها لتبتسم بسخرية هامسة بمرارة لم تستطع إخفاءها:

_وهل يتحول الحب ل"أخوّة" في "قلب الشاعر"؟!!

فأطرق برأسه للحظات ثم عاد يقول بثقة:

_نعم...إذا فقد شغف الامتلاك ولم يبقَ منه سوى الامتنان لذكرياتٍ ذهبت ولن تعود.

أشاحت بوجهها في عدم اقتناع فعاد يديره نحوه ملتقطاً نظراتها الثائرة بفيض حنانه الزمردي...

حتى لانت نظراتها نوعاً مع همسه الدافئ:

_"قلب الشاعر" كاد يموت قلقاً عليكِ منذ قليل عندما رأيت الدم على الأرض!!

ورغم أن عبارته دغدغت حواسها برقة لكن هذا دفعها للرد بثورة عارمة:

_لا يعنيني قلقك ولا قلبك...فلا تلعب هذه اللعبة معي...بقائي هنا معك لأجل طفلنا ليس أكثر...

انقطعت عبارتها عندما فوجئت به يترك كفيها ليقوم ويغلق باب الغرفة بإحكام...

فارتجف جسدها دون وعي وهي تتعلق بنظراته التي اكتسبت بروداً ثلجياً وهو يتقدم نحوها ليعاود الجلوس جوارها من جديد...

ازدادت ارتجافة جسدها وهي ترمقه بنظرات قلقة...فانحني بجذعه نحوها ليهمس بصرامة:

_أولاً...لا ترفعي صوتكِ هنا ثانية...لا أحب أن تعرف أمي شيئاً عما بيننا...

ازدردت ريقها ببطء وهي تخفض بصرها عنه لتهمس بنبرة جاهدت لتخرج قوية:

_وثانياً؟!!

والإجابة كانت قبلة عميقةً على جبينها مع همسه الذي عاد إليه حنانه:

_أنا آسف لأنني تركتما وحدكما!!

قالها وهو يمسد بطنها بأنامله برفق حانٍ فرفعت إليه عينيها بتردد ...

لتنهل من بئره الزمردي الذي توهجت أشعته العسلية بعاطفة خاصة الآن تلمحها عيناها لأول مرة...

ويشتهيها قلبها من زمن...

عاطفة تعدها بغنىً بعد فقر...وسكنٍ بعد طول غربة...

عاطفة تستجديها كل جوارحها ويتعفف عنها عقلها بدعوى "الاستغناء"...

ف"قلب الشاعر" كما يبدو قد بُعث من قبور ماضيه ليلتقط أول أنفاسه في بستانها هي!!!

فهل تمنحه فرصة أم تطرده وتكتفي بما نالها من جراح؟!!!

وأمامها كان هو يتأملها بشعور غريب يتملكه يوماً بعد يوم...

وغرابته تتناسب مع غرابة هذه المرأة أمامه...

تلك التي أبهره عقلها بذكائه لكنه عندما اقترب أكثر وجد نفسه قد تعثّر بنداءات قلبها الخفية التي كانت تدعوه لاحتضان يتمه برفق...

وبين كليهما وجد نفسه ينجذب إليها بعاطفة ظن أنه لن يعرفها من جديد....

لكنها منذ قبلت عرضه بالبقاء هنا وقد زادت قيمتها في عينيه أكثر...

لم يتصور أن ميادة التي اعتادت رفاهيتها ورغد عيشها قد تقبل الإقامة معه هنا...

ليكتشف بنفسه وجهاً جديداً لها زاده إليها انجذاباً...

وجه امرأة قد تضحي بأي شئ لأجل من تحب!!!

امرأة قرر أن ينذر لها ولطفلها ما بقي من عمره لتعويضها عما لاقته...

لهذا اقترب هو بوجهه أكثر مردفاً بحنانه الذي رافقه بعض الخبث هذه المرة:

_هل توصلين رسائلي إلى طفلي من فضلك؟!!

وإن كانت قد نجحت في الهروب بعينيها لكن قلبها للأسف غافلها بعميق تشبثه بهمساته التي استشعر صدقها...

عندما طوق وجنتيها براحتيه ليهمس بحرارة:

_أخبريه أنني أحبه كثيراً وأنني أنتظر اليوم الذي أراه فيه بفارغ الصبر.

فارتسمت على شفتيها رغماً عنها ابتسامة واهية تحسسها بإبهامه للحظات...

قبل أن يقترب بعينيه أكثر مردفاً :

_أخبريه أن له أفضل أم في الدنيا...وأنني لن أنسى لها تضحيتها لأجلي وأجله..وسأعيش ما بقي لي من عمر كي أسعدها وأسعده!!!

خفق قلبها بجنون وهي لا تكاد تصدق ما تسمعه منه...

بل -للعجب-تصدقه!!!!

كل ذرة في كيانها تكاد تقسم على صدقه!!!

تخبرها أن عزيز قد ألقى ماضيه خلف ظهره حقاً وأنه يريدها له رفيقة عمر...

وتهدهد أحلام قلبها الذائب بعاطفته لتمنحها شعوراً بالأمان لم تعرف دفأه من قبل....

خاصةً عندما أكمل اعترافه بين شفتيها:

_وأخبريه أن الماضي انتهى...والمستقبل فقط أنتِ وهو!!!

===============

_كنتِ على حق يا ماسة!!الصفقة كانت خاسرة!!!

تمتمت بها دعاء بحسرة أمام ماسة التي زارتها لتوها في بيت حماتها عندما علمت الخبر...

فتنهدت ماسة بحرارة لتربت على كتفها قائلة بمواساة:

_لا تفكري في الأمر هكذا...على الأقل هما رحلا راضيين عنكِ مطمئنين عليكِ.

مسحت دعاء دموعها وهي تغمغم بشرود:

_أحياناً أصبّر نفسي بهذا...وأحياناً أخرى أشعر بالندم لأنني وافقت على الزيجة لأجلهما والآن يرحلان ليتركانني أواجه مصيري بمفردي.

تأملتها ماسة للحظات وهي تشعر بعظم مصيبتها...

دعاء رضخت للضغوط حولها وقبلت هذا الزواج إرضاءً لوالديها والآن تشعر أنها عادت خاوية اليدين بعد ما حدث...

لقد غادرا عالمها ولم يبقَ لها سوى طريقها الذي ستحتمل مشاقه وحدها...

وليتها كانت ستسيره منفردة ربما ساعتها كان الوضع ليكون أهون...لكنها وضعت رقبتها تحت مقصلة رجلٍ لا يرى فيها سوى سواد ماضيه...

باعت عمراً بأكمله لتشتري سعادة ليلة رأت نفسها فيها كما تمنت دوماً...

امرأةً تستحق التقدير!!!

لهذا ربتت على كفها برفق قبل أن تقول بحزمها الرفيق:

_لا تفقدي قوتك يا صديقتي....إنه مجرد اختبار سنجتازه كما اجتزنا غيره.

هزت دعاء رأسها وهي تهمس بين دموعها:

_هل تتصورين أنه لم يتحدث إليّ بكلمة منذ زواجنا ولا حتى كلمة عزاء؟!!رغم نظراته العميقة التي أشعر بها تكاد تقيدني لكنه لا يتكلم...أنا أخافه يا ماسة...كوابيسي به لا تنتهي.

ضمتها ماسة لصدرها وهي تهمس بشرود:

_قلبي يخبرني أنه ممزقٌ بداخله مثلك وربما أكثر...جرحه ليس هيناً يا دعاء...وربما هو يخشاكِ كما تخشينه تماماً...لا أدري إن كان شعوري صحيحاً أم لا...لكن رجلاً كحسام لا أستطيع توقع ردود أفعاله بسهولة...

ثم غمغمت وهي تتذكر موقفاً شبيهاً لها مع عاصي:

_ربما هو يريد الاقتراب لكن كبرياءه يعانده...وقبله ماضيه...ماضيه الذي يحرّم عليه سعادة يرى نفسه لا يستحقها ويدفعه للظهور بهذا القناع القاسي...

رفعت إليها دعاء رأسها لتهتف بدهشة:

_أنا لا أصدق...تدافعين عنه؟!!

أفاقت ماسة من شرودها لتهز رأسها نافية ثم قالت بهدوء لا يخلو من شجن:

_بالطبع لا...أنا فقط أريدكِ أن تمنحيه فرصة كاملة حتى النهاية...فلا يكون له بعدها عذر!!!

انعقد حاجبا دعاء بتفحص وهي تشعر أن حديث ماسة يحمل الكثير على عكس كلماتها البسيطة...

فنظرت لذراعها المجبّر نظرة شك قبل أن تغمغم بحذر:

_ماسة...من فعل بك هذا؟!!

أشاحت ماسة برأسها دون رد للحظات...

قبل أن تهمس بشرود:

_قصتنا متشابهة يا صديقتي ...هو ذات الصراع بين شيطان ماضٍ ينشب مخالبه في قلب العمر وماسة الخير التي تجاهد للحفاظ على بريقها رغم الخدوش...والآن دورنا أن ننتظر نتيجة هذا الصراع!!

=============

_أدركني يا فهد...بسرعة!

كانت هذه جملتها المختنقة على الهاتف منذ قليل والتي لم ينتظر هو بعدها دقيقة واحدة كي يستقل سيارته نحو مدينتها الأخرى ...

حاول الاتصال بها مراراً بعدها لكنها لم تكن ترد وقد أخبره رجله الذي وضعه لمراقبتها أن بعضاً من رجال أبيه توجهوا لمنزلها منذ قليل ثم غادروه مسرعين ...وعندما صعد ليطرق الباب لم يجبه أحد!!!

كاد يصاب بالجنون حقاً وهو يتجاوز بسيارته كل حدود السرعة المعقولة ليصل في أقرب وقت...

وبمعجزة ما كان واقفاً أمام باب شقتها في أقل من ساعة ليفتحه بمفتاحه قبل أن تصل لأنفه رائحة الغاز التي انتشرت في المكان...

سعل بقوة وهو يهتف باسمها مراراً باحثاً عنها في أرجاء الشقة حتى وجدها على الأرض مسجاةً بلا حراك...

وجهها شاحبٌ كالموتى ونبضها يكاد يخبو...

سقط قلبه بين قدميه وهو يربت على وجنتها بسرعة ثم هز رأسه بارتباك وقد أفقدته المفاجأة قدرته على التفكير...

حتى استعاد تماسكه فقام ليغلق مفتاح الغاز بسرعة وسط سعاله الحاد ثم حملها بسرعة بين ذراعيه ليتوجه بها نحو المشفى الذي كان مجاوراً لمنزلها لحسن الحظ...!!

جلس خارج غرفة الطوارئ منتظراً خروج الطبيب بفارغ الصبر...

كانت أنفاسه متلاحقة سريعة كهذه الأحداث التي مرت بهما مؤخراً...

منذ علم جاسم الصاوي عن زواجهما ومروراً باختطافه لها ثم إجباره له على تطليقها والزواج من يسرا...

وانتهاء بعودته إليها لينفذا خطة الهروب كما اتفقا..

والتي كان من المفترض أن تتم اليوم بلقائهما في المطار مساءً ...

نظر في ساعته ليتبين كم من الوقت تبقى على موعد الطائرة عندما سمع صوته جواره:

_لن تدركها!!

رفع عينيه إلى جاسم الصاوي الذي كان واقفاً الآن -مع حارسيه الشخصيين -أمامه كجبل ضخم من قسوة وغضب...

فوقف بدوره وهو يكز على أسنانه قائلاً بحزم رغم ارتعاش نبراته:

_لو حدث لها مكروه فلن أسكت على حقها أبداً!!

ابتسم جاسم بسخرية قاتمة وهو يقترب منه أكثر قائلاً بقسوة:

_أنا حذرتك وأنت لم تستمع ...ظننتَ نفسك أذكى مني...وتجرأت على معارضتي بفعلة ستهدم كل ما بنيته.

التمعت عينا فهد بغضب هادر...

فيما أردف جاسم باحتقار:

_غبي!!!أين كنتَ تظن نفسك ستهرب معها؟!!كنت سأصل إليكما في أي مكان !!

احتقن وجه فهد وهو يهتف بحدة :

_أنت لم تمتلكني!!!أنا سأفعل ما أريد مع من أريد.

فانعقد حاجبا جاسم وهو يتمتم بين أسنانه :

_أخفض صوتك ...سأعرف كيف أعيد تربيتك أيها السفيه!!

ضم فهد قبضته ليلكم الحائط جواره هاتفاً دونما اكتراث بأمره:

_لم يعد لي شأنٌ بك...أنا سأترك لك كل شئ ودعني لحالي.

صمت جاسم للحظات متفحصاً ملامحه بخبرته...

وقد أنبأه ذكاؤه أن الشدة لن تجدي الآن ففهد في هذه اللحظة على وشك الانهيار وربما يفسد هذا كل شئ..

لهذا عاد يغمغم بعينين غارقتين بقسوتهما رغم هدوء نبراته:

_لا تراهن على جواد خاسر...لم يكن رجالي ليتركوها إلا ...منتهية!!!

انقبض قلب فهد عند كلمته الأخيرة لتشتعل أنفاسه بمزيج من غضبه وخوفه...

لكنه رفع رأسه ليقول بصوت لاهث وهو يلوح بسبابته في وجهه:

_لا!!!جنة ستعيش...وسآخذها بعيداً عن هنا.

فهز جاسم رأسه وهو يغمغم بتهكم ممزوج باحتقاره:

_أين ستعيش وكيف ستعيش دون أموالي؟!!

لوح فهد بذراعه وهو يصرخ بجنون وقد فقد السيطرة على أعصابه:

_لم أعد أريد منك شيئاً!!!فقط دعنا وشأننا...لا أريد أموالك ومكانتك .. بل لا أريد أُبوّتك...أنت..

انقطعت عبارته عندما فتح باب غرفة الطوارئ فجأة ليخرج منها الطبيب ممتقع الوجه...

فاندفع فهد نحوه بسرعة هاتفاً بلهفة:

_أفاقت؟!!

لكن الطبيب تفحصه بإشفاق للحظات ثم أطرق برأسه مغمغماً بأسف:

_للأسف..لقد تأخرت في إحضارها...إنها تُحتضر!!!

وكأنما تجمدت أنفاسه عندما سمعها...بل كأنما تجمد الكون كله!!!

ستموت؟!!

جنة...ستموت؟!!

أبوه قتلها...بسببه؟!!

سيعيش يحمل ذنبها كأمه؟!!

وإن كانت أمه قد رحلت محملة بخطيئتها فما كان ذنب جنة ؟!!

أنها فقط ...أحبته ؟!!

وهو ...هو لم يستطع حمايتها...!!!

هو جذبها -قسراً-لجحيم الشياطين هذا لتحترق به دونما ذنب!!!

هو استجاب لأنانية شعوره بها وغرّه ذكاؤه الذي خانه هذه المرة ...

والثمن كان...حياتها...!!!!

جنة...ستموت؟!!

ستموت؟!!

ظل ثابتاً مكانه لدقيقة كاملة بعدها...

وعقله يحاول فقط استيعاب الحقيقة القاتلة...

حتى أفاق من صدمته أخيراً ليدفع الطبيب بعنف صارخاً:

_كاذب!!!كلكم كاذبون!!!جنة لن تموت..أنتم ستنقذونها بأي طريقة!!!

اندفع نحوه بعض العاملين في المشفى لتهدئته مع الحارسين الشخصيين لأبيه لكنه تخلص منهم جميعاً ليتوجه نحو الغرفة حيث تمدد جسد جنة الساكن على الفراش...

انطلق نحوها بسرعة ليحتضن جسدها الخامد الذي غابت عنه ملامح الحياة صارخاً بلا وعي:

_قومي يا جنة...قومي لندرك موعد الطائرة...لن أتركك بعدها ثانية واحدة...لكن قومي...قومي...

ثم سقطت دمعة حارة على وجنته وهو يردف بألم:

_قومي لأجلي...ولأجل ملك...لا تتركيني يا جنة...أنا لم أكن أعيش إلا لأجلك.

قالها وهو يضم جسدها بحرارة أكبر وكأنه بهذا سيمنح بعض الحياة للجسد الساكن...

ليصرخ بعدها بحدة وهو يكاد يعتصرها بين ذراعيه:

_لن تموتي يا جنة!!!!لن تموتي!!

ومع صرخته الأخيرة شعر بتلك الأيادي التي امتدت لتبعد جسده عنها ...

لم يكن وقتها يميز أي شيءٍ مما حوله سوى تشبث ذراعيه بها صارخاً وهو يقاومهم دون جدوى:

_اتركوني معها!!!اتركوني!!!

لكنهم جذبوه بعيداً عنها بصعوبة بعد صراع استمر لدقائق طويلة...

كان يقاومهم بكل ما أوتي من قوة لعله يدرك آخر لحظات له معها...

قبل أن يتناهي لسمعه صوت الطبيب الذي تفحصها أخيراً قبل أن يغمغم بأسف أن الأمر قد قُضي!!!

ليجد عينيه أخيراً دون وعي معلقتين بالغطاء الذي رفعوه أخيراً على وجهها معلنين بهذا كلمة النهاية...

قبل أن تتشوش المرئيات حوله بضباب كثيف وصرخته المدوية باسمها كانت آخر ما سمعه قبل أن يسقط فاقداً وعيه....

============

لم يدرِ كم مرّ عليه من الأيام في ذاك المشفى الفاخر بالعاصمة والذي أصر والده على نقله إليه...

هو لم يكن يستعيد وعيه إلا لساعات محدودة تنتابه فيها نوباتٌ من هياج هستيري كانت تنتهي دوماً بالمزيد من الحقن المهدئة التي تعيده لعالم اللاوعي...

وهناك في أحلامه كان يراها كأجمل ما تكون...

بثوبها الأبيض الذي رآها فيه آخر مرة ...لكن زهوره الزرقاء كانت تتجمع وتتكاثف على نفسها لتتركز عند بطنها التي استدارت حتي تحولت لمهد طفل صغير...

بل طفلة في غاية الجمال تشبهه في كل ملامحه إلا عينيها...

كانتا بندقيتين كعيني أمها الساحرتين...

ولها أيضاً نفس ابتسامتها الحانية!!!

كانت هذه الرؤيا تسيطر على أحلامه كلها ...

لكنها أحياناً كانت تتقاطع أيضاً مع كابوسه "القديم" والذي عاد يراوده بقسوة أكبر ليجد نفسه عالقاً بين جحيم كابوسه بخطاياه القديمة ونعيم رؤياه ب"جنة" وطفلتهما ...

وبينهما كان هو يتأرجح بأنشوطة ذنبه الملتفة حول عنقه في عذابٍ بدا وكأنه بلا نهاية....!!!!

لكنه استيقظ هذا الصباح وهو يشعر أنه قد استعاد بعض تمييزه...

نظر للنافذة جواره ليجد نور الصباح يعلن عن وجوده مع زقزقة العصافير التي حملت له ذكراها...

ذكراها؟!!

هل صارت جنة الآن مجرد ذكرى؟!!

لا...مستحيل...!!!

إنه يكاد يستشعر دفء جسدها بين ذراعيه...

رائحة شعرها بين أنفاسه...

بل إنه يكاد يستمع لهمسها الساحر في أذنيه كما كانا آخر ليلة!!!!

خبط رأسه بعنف بظهر الفراش في هذه اللحظة وهو يطلق آهة ألم عالية!!

عندما فُتح باب الغرفة ليدخل منه جاسم متفحصاً ملامحه بجمود...قبل أن يغلق الباب خلفه قائلاً ببروده المعهود والذي ناقض نظرات القلق في عينيه:

_لماذا تتأوه هكذا؟!!هل تحتاج لحقنة أخرى؟!!

لكن فهد أشاح بوجهه وهو يكز على أسنانه دون رد...

بينما تقدم جاسم ليجلس على الكرسي جوار فراشه قائلاً بعد صمت قصير:

_أراك اليوم أفضل!!يسرا في غاية القلق عليك...أنا أخبرتها أنني أرسلتك في مهمة عمل طارئة كي أفسر لها غيابك طوال تلك الأيام.

ظل فهد مشيحاً بوجهه للحظات ثم قال بحزم:

_أريد الخروج من هنا!

تفحصه جاسم للحظات ثم أومأ برأسه قائلاً ببعض الرفق:

_يمكننا المغادرة اليوم للبيت.

التفت نحوه فهد بحدة ليهتف بصرامة قاسية:

_لن أعود لبيتك ولا لشركتك...ولا لحياتك كلها...من اليوم ستضعني خارج حساباتك تماماً!!

زفر جاسم بقوة وقد بدا أنه يتوقع هذا الرد...ثم قام من مكانه قائلاً بلا مبالاة:

_طيش شباب!!!غداً تعود لرشدك وتشتاق لحياتك القديمة!!

قالها وهو يعطيه ظهره ليتوجه نحو باب الغرفة قاصداً الخروج عندما هتف فهد بغضب :

_أين تم دفنها؟!!

وقف جاسم مكانه للحظة ثم التفت إليه ليقول ساخراً:

_لماذا؟!!تريد زيارة قبرها؟!!تظن نفسك بهذه القوة لمواجهة ذنبك؟!!!

ثم تحولت لهجته ليحتلها غضبٌ ممتزج بقسوته:

_أنت حتى لم تفعلها مع والدتك طوال هذه السنوات!!!

رمقه فهد بنظرة عاصفة اختصرت صمت سنوات...

وذهنه يستعيد مرارة تلك الذكرى التي حمل وزرها وحده على كاهله طوال هذه الأيام....

بينما أردف جاسم وقد عادت لصوته برودته:

_لقد تم دفنها في مقابر(.....) لو كنت تهتم كثيراً.

أطرق فهد برأسه وهو يشعر أن جدران المكان تكاد تنطبق على صدره...

ولأول مرة يدرك كم هو والده على حق!!!

من هذا الذي سيقوى على زيارة قبرها؟!!!

إنه -بالكاد -يلتقط أنفاسه ليستوعب فكرة رحيلها...

ورغماً عنه انتابته ذكراها عندما كانت تزور قبر حسن...

كيف كانت تحتمل هذا بكل هذا الجلد؟!!

كم كانت قوية لتفعلها!!!

نعم...كانت قوية...

كانت!!!

الآن لم يعد ينبغي أن يتحدث عنها سوى بصيغة الماضي...

وهي التي كانت الحاضر والمستقبل!!!

وعند خاطرته الأخيرة اشتعلت أعماقه ببركان غضب أسود طمس كل ما سواه...

غضبٍ عمرُه سنوات من صمت لم يزده إلا حرقةً وخزياً...

والآن حان الوقت لتنكشف الحقائق وتتعرى الصور...

ليجد نفسه فجأة يصرخ بانفعال:

_كانت خائنة!!!

انعقد حاجبا جاسم بشك للحظات وهو لا يدرك معنى حديثه...

ثم عاود الاقتراب منه متسائلاً بترقب:

_زوجتك؟!

فنفض فهد غطاءه وهو يقوم من فراشه ليواجهه هاتفاً بالحقيقة التي أخفاها لسنوات:

_بل زوجتك...أنت!!!!

صمت جاسم للحظات محاولاً استيعاب ما يسمع قبل أن ينقض على فهد ممسكاً بياقة منامته ليهتف بغضب:

_اخرس أيها الحقير!!!هل ستخوض في شرف والدتك أيضاً؟!!

لكن فهد خلص نفسه منه ليلوح بذراعه وهو يهتف بغضب أكبر:

_شرف والدتي؟!!طوال هذه السنوات وأنا أحتمل وحدي الوزر كي لا أشوه صورتها بعينيك؟!!ألم تسأل نفسك مرة واحدة طوال هذه السنوات عن حقيقة ما حدث؟!!أنا الذي لم أشرب الخمر في حياتي كيف فعلتها ليلتها؟!!هي التي زعمت أنها ستبيت لدى أقاربها لماذا كانت في المنزل تلك الليلة؟!!لماذا صرفت هي الحارس ذاك اليوم وأعطته إجازة؟!!!رصاصاتي التي اخترقت جسدها كيف لم تُصب ملابسها الكاملة؟!!!

اتسعت عينا جاسم بصدمة وهو ينتبه لما قاله له المحققون منذ سنوات بخصوص هذه" النقطة الأخيرة بالذات"!!!!

وقد انتبهوا لهذه الحقيقة لكنه استغل نفوذه وماله وقتها ليشتري ضمائرهم فيتكتموا على هذه الحقيقة حتى يخمد الأمر ولا تكون فضيحة...

لكنه وقتها لم يتصور الأمر هكذا...

لقد ظن أن فهد نفسه ربما هو الذي اعتدى عليها تحت تأثير الخمر...

هذه الفكرة التي أثارت جنونه لكنه لم يجرؤ حتى على إعادة التفكير فيها بينه وبين نفسه ...

فما باله بالسؤال عنها؟!!!

وهذا يفسر الحقد الذي أضمره لابنه الوحيد طوال هذه السنوات...

لكنه لم يتصور ولو في أسوأ ظنونه أنها هي التي كانت تخونه...

لا...لا...مستحيل!!!

انقطعت أفكاره عندما عاود فهد هتافه الحاد :

_نعم...كانت خائنة...رأيتها بعيني ليلتها مع رجل آخر ....على فراشك ...فراشك الذي كنت تبكيها كل ليلة عليه بعدها!!!!

هنا هوت صفعته على وجه فهد مع صرخته الهادرة:

_اخرس!!!

لكن فهد لم يكترث بل استمر على هتافه الذي بدا وكأنه نزيف روحه:

_لا...لن أخرس بعد...كانت خائنة...خائنة...تلك التي رميت ابنتك على قارعة الطريق من أجلها كانت خائنة...فافرح بصفقتك الخاسرة يا سيد جاسم...بعت ابنتك التي من دمك لأجل من لطخت شرفك في الوحل!!!

انقض عليه جاسم وقتها ليمسك بتلابيبه صارخاً بثورة عارمة:

_اخرس أيها المجنون!!!يبدو أن هذه الأدوية أثرت على عقلك!!!إياك أن تتفوه بكلمة عن هذا الأمر بعد وإلا

ألقيتك في مصحة عقلية ما بقي لك من عمر...هل تفهم؟!!!

قالها ثم دفعه بعنف ليسقط على ظهره على الفراش قبل أن يردف بنفس الثورة:

_لم أعد أريد أن أرى وجهك أيها ال(......)...ولن تحصل على قرش من مالي لا في حياتي ولا بعد موتي!!!

وقد كانت هذه آخر كلماته قبل أن يغادر صافقاً الباب خلفه بعنف...

فظل فهد مكانه على الفراش للحظات يحاول استعادة أنفاسه اللاهثة...

وهو لا يكاد يصدق أنه اعترف أخيراً بالحقيقة التي أخفاها لسنوات...

لكنه ليس نادماً ...

لعل جاسم الصاوي الآن يتجرع نفس مرارة الكأس التي تجرعها هو برحيل جنة...

عن أي مالٍ يتحدث ؟!!!وأي حرمانٍ يقصد؟!!!

وهل بعد فقدان جنته خسارة؟!!!

وعندها دمعت عيناه بحسرة اختنقت بها حناياه كلها...فقام من مكانه ليزفر بقوة قبل أن يرفع وجهه لأعلى متأوهاً بألم:

_آآآه يا جنة!!!أي خسارة بعدك هينة !!!

قالها وهو يشعر بحاجته للصراخ ...

لتدمير كل ما تطاله يداه...

لتمزيق جسده بيديه لعله يلحق بها!!!

لماذا تركته وحده؟!

هو الشيطان الذي فر من جحيمه إلى جنتها...فلماذا حرمته منها؟!!!

ليهيم الآن وحده كروح شاردة بلا مأوى!!!

جنة رحلت؟!!!

نعم...كان لابد أن ترحل...

روحها الطيبة كانت أجمل من أن تعيش بعالم أشبه بغابة...

رحلت...لكن حبها لن يرحل...

سيبقى بصدره كجمرة نار يستمد منها دفأه تارة...

ويشتعل بحسرتها تارة...

لكنها أبداً لن تنطفئ!!!

=========

_فهد؟!!!

هتف بها حسام بدهشة وهو يجده أمامه ببيت والدته جوار حقيبة ملابسه...

فصافحه بقوة مرحباً قبل أن يجذبه للداخل قائلاً بقلق وقد أنبأته هيئة صديقه بكارثة:

_لماذا لم تسافر بعد؟!!ألم يكن من المفترض أن تكون الآن في تركيا مع جنة؟!!

ثم أغلق الباب وهو يجذب حقيبته ليردف بنبرة اعتذار:

_كان من المفترض أن أتصل لأطمئن عليك لكنني انشغلت بوفاة والدي زوجتي.

دمعت عينا فهد وهو يشيح بوجهه مبتلعاً غصة حلقه...قبل أن يتمتم بنبرات مختنقة:

_الموت الذي نظنه بعيداً كالنجوم قد يكون أقرب إلينا من أنفاسنا.

ثم التفت نحوه مردفاً:

_هل يمكنني المكوث لديك هنا لبضعة أيام؟!!

عقد حسام حاجبيه بقلق أكبر وهو يقول بانزعاج:

_ما الأمر يا فهد؟!!هل...

لكن فهد انهار جالساً على أحد الكراسي فجأة ليقاطع عبارته مغمغماً باقتضاب كسير:

_جنة....رحلت!!

تحشرجت حروف كلمته الأخيرة فارتفع حاجبا حسام بصدمة .....

قبل أن يقرأ الفاجعة على ملامح صديقه فتجمد مكانه للحظات ...قبل أن يهمس مصعوقاً:

_يا إلهي!!!لا تقل أنه والدك!!!

أومأ فهد برأسه في اقتضاب قبل أن يطرق به هامساً بمحاولة للتماسك:

_لقد تركت له كل شئ ...لم أعد أريد منه شيئاً..لن أنسى له ما فعله أبداً ولو كنت أثق أن الأمر سيجدي لأبلغت عنه بنفسي دونما اكتراث لأي شئ...لكنني أعلم أنه لن ينال أي عقاب...سيجد ألف شاهد وألف دليل على براءته...هذا العالم يتسيده من هم مثله ولا عزاء للشرفاء!!

زفر حسام بقوة عقبتها آهة ألم وهو يجلس جواره ليربت على ركبته هامساً بإشفاق:

_لن أسألك عن تفاصيل الآن...تعال لتستريح من عناء الطريق...الشقة السفلية خالية ومجهزة ...اعتبرها لك.

أومأ فهد برأسه بلا معنى وهو يتوجه معه باستسلام نحو الشقة التي قصدها...

كان يتحرك بلا وعي كعادته مؤخراً...

ذهنه كان دوماً مكدساً بذكرياته العامرة معها...

لا يستطيع بل -ولا يريد- مغادرتها لأرض الواقع...

لا خير في حياة هي لا تشاركه فيها...

كل شئ بعدها عدم!!!

لكنه أفاق من شروده عندما وضع حسام حقيبته على الأرض جوار فراشه مغمغماً بتفهم:

_نم واسترح الآن...وعندما تستيقظ سيكون لنا حديثٌ طويل.

هز فهد رأسه وهو يتوجه نحو حقيبته ليستخرج منها وسادة ما وضعها على الفراش بحرص قبل أن يستلقي عليه مسنداً رأسه عليها ليهمس بنظرات زائغة:

_هل تظنني سأستريح يوماً يا حسام؟!

جلس حسام جواره على طرف الفراش وهو لا يدري بماذا يجيبه...

هو مصدومٌ مثله بما حدث وإن كان لا يتعجب شيئاً كهذا من جاسم الصاوي....

هو يعلم تماماً أن فهد عند أبيه ليس مجرد ابن...

بل هو استثمارٌ قادم حيث يعده ليصبح خليفته على كل هذه الامبراطورية...

ولم يكن ليسمح لأي أحد أو أي شئ بأن يسلبه هذا الحلم مهما كان الثمن!!!

لكن ما ذنبها جنة؟!!!

وما ذنبه فهد الذي يبدو وكأنه سيلحق بها حزناً؟!!!

نعم...هو أكثر من يتفهم شعور فهد الآن...

ومن سواه يشعر به وهو الذي ذاق مرارة هذا الموقف من قبل؟!!!

ياالله!!

وكأن فهد الآن يذكره بنفسه عندما علم بفقده لطيفه....

نفس الحزن الذي لون العينين بلون الدم...

نفس الألم الذي انغرس في الملامح كتجاعيد عمرٍ آخر لن يمحوها الزمن...

نفس انكسار الجبين بهزيمة لن يرفع بعدها راية رجولته أبداً...

ما أشبه الليلة بالبارحة...

وما أشبه جرح صديقه بجرحه القديم!!!!

لهذا ربت على كتفه برفق وبصره معلقٌ بالوسادة التي أحضرها فهد معه ليسأله وهو يعرف الجواب:

_وسادتها؟!

أغمض فهد عينيه وهو يتمتم بحديث أشبه بالهذيان:

_لا أصدق أنه لم يبقَ لي منها سوى بقايا عطر على وسادة!!!كل يوم...بل كل لحظة أحاول أن أقنع نفسي بأنها رحلت ولن تعود...لكنني لا أستطيع التصديق...هي معي يا حسام...بكل تفاصيلها معي...عيناها لا تغادران مخيلتي بآخر نظرة رمقتني بها وكأنها كانت تشعر أنها الأخيرة...أناملها التي تشبثت بساعدي لدقائق طويلة وكأنها كانت ترجوني ألا أتركها...وليتني لم أفعلها...ليتني بقيت معها ليكون عمري كله فداءً لها...بل ليتني استمعت لتهديد والدي ولم أعد إليها...حبي لها قتلها...بل قتلنا معاً!!

تيبست أنامل حسام على كتفه وهو يرى خيطي الدموع اللذين سالا على خدّيه ببطء...

ليبتلع غصة حلقه هو الآخر محترماً دموع صديقه...

عندما يبكي الرجال فهذا يعني أن الوجع أكبر كثيراً من أن يحتمل...

وأي وجعٍ أكبر من أن يفقد المرء حباً هو هويته ووطنه...

وليس هذا فحسب...بل يجد نفسه السبب في هذا؟!!

========

_قم يا فهد!

هتف بها حسام ببعض الحزم وهو يقف جوار فراشه لكن فهد ظل على وضعه المستكين...

فزفر حسام بيأس وهو لا يدري كيف ينتزعه مما هو فيه...

ثلاثة أيام مرت عليه هنا وهو لا يكاد يغادر فراشه ...

هائمٌ في حالٍ غريب بين يقظته ونومه وكأنه لم يعد ينتمي لهذا العالم...

هو يشعر بحجم مصيبته لكنه لن يسمح له بأن يسقط في قاع هذه الهوة السحيقة أكثر...

لهذا هز كتفه برفق وهو يعيد هتافه بحزم أكبر:

_قم يا فهد!!!استيقظ!!

ففتح فهد عينيه الذابلتين ليهمس بخفوت :

_لماذا؟!

تنهد حسام بحرارة ثم جلس جواره قائلاً ببعض الرفق:

_الحياة تستمر برغم أنوفنا...ما تفعله هذا لن يفيدها بعد...هل تظنها كانت لتشعر بالرضا عنك وأنت في حالك هذا؟!!

فغامت عينا فهد بشروده الذي جذبه لذكرى أخرى معها:

_أريدك أن تعدني ألا تعود لطريقك القديم...حتى لو لم أكن معك...فهد لم يتغير لأجلي بل لأجل نفسه...أنا لست ماستك...ماستك الحقيقية هنا...في قلبك...ماستك هي ضميرك الذي عاد يلتمع الآن ببريقه فلا تجعلها تبهت أبداً!!

لتلتمع عيناه ببريق حقيقي من دموع قبل أن يتمتم بصوت متحشرج:

_أريد أن أصلي!

ارتفع حاجبا حسام بدهشة للحظة...ثم هز رأسه بتفهم ليقوم من مكانه قائلاً بحزم:

_قم توضأ وصلِّ...وبعدها سنخرج لتناول الطعام بأحد المطاعم المطلة على النيل.

هز فهد رأسه باعتراض لكن حسام جذبه من ذراعه ليردف بصرامة:

_لن أتركك هكذا حتى تقتل نفسك...يجب أن تخرج من حزنك هذا يا رجل!!!

زفر فهد بحرارة وهو يقف أمامه أخيراً ثم عادت عيناه تغيمان بشرودهما الحزين...

ليصمت للحظات قبل أن يعود لهمسه الشبيه بالهذيان:

_هل تظن أن الله عاقبني بفقدانها على كل ما فعلت؟!!هل هي ذنوبي التي حرمتني منها؟!!

أطرق حسام برأسه دون رد...

عندما أردف فهد بانفعالٍ مشبع بحسرته وكأنه لا يصدق:

_منذ أيام فقط كانت معي...ملء ذراعيّ وقلبي...كيف رحلت ...كيف؟!!

ثم خبط بقبضته على صدره مكملاً بنبرة أقرب للصراخ:

_هل هو عقابي يا حسام؟!!لم أكن أظنه سيكون بهذه الشدة!! أنا تُبت...تُبت...فلماذا حرمني الله منها؟!!الماذا؟!!

أمسك حسام كتفيه وقد بدأ يخشى على صديقه الانهيار حقاً...فهتف بنبرته الحازمة:

_استغفر الله يا فهد!!!هو قدرها وقدرنا الذي يجب أن نرضى به!!!يجب أن تكون أقوى من هذا...هيا قم للصلاة لعل قلبك يهدأ...وأنا سأنتظرك بالخارج.

قالها ثم ربت على كتفه مشجعاً قبل أن يجذبه من ذراعه نحو الحمام القريب حيث توضأ فهد بحالٍ أقرب للا وعي...

ثم خرج ليفترش سجادة الصلاة التي تركها له حسام مكانها قبل خروجه...

وبرغم أنه كان يظن أنه سيشرد في صلاته فاقداً تركيزه...

لكنه وجد نفسه على العكس يردد الكلمات بقلبه قبل لسانه...

حتى أنه لم ينتبه لدموعه التي أغرقت وجهه وهو يلقي برأسه على الأرض بعد ختام صلاته ...

لم يكن يعرف بماذا يدعو ولا ماذا يطلب...

هو فقط كان يرددها بتضرع من لم تعد له حيلة سواها...

_يارب!!!يارب!!!

لم يدرِ كم ظل يرددها ولا كم مر عليه من وقت...

فقط قلبه كان يغتسل بطهر شعوره بالافتقار إلى خالقه...

حتى شعر ببعض السكينة التي تسربت إليه رويداً رويداً فقام من مكانه ليمسح وجهه...

قبل أن يطوي سجادته ليضعها جانباً...

ثم خرج إلى حسام الذي كان ينتظره بالخارج ليتوجه معه إلى أحد المطاعم هناك...

لكنهما ما كادا يجلسان مكانهما حتى انتبها لبعض الضحكات الصاخبة لبعضهم على مائدة مجاورة مع هتافات مرحة باسم حسام... فلوح لهم حسام بكفه ثم غمغم بأسف:

_عفواً يا فهد...إنهم زملائي في العمل...لن يكفوا عن صخبهم حتى أذهب إليهم...لن أتأخر.

أومأ له فهد برأسه وهو يتطلع إلى صفحة النيل التي بدت هادئة خلف زجاج نوافذ المطعم...

عندما قاطع النادل أفكاره وهو يسأله عما سيطلبه...

فغمغم بشرود:

_قهوة...بدون سكر!!

أومأ النادل برأسه ثم تركه فالتوت شفتاه بابتسامة حنين وتلك الذكرى تراوده...

_لقد أدمنت قهوتكِ...

_قهوتي فقط؟!!!

_قهوتكِ..وطعامكِ...وهج البندق في عينيكِ...وعناد شفتيكِ...سحر كلامكِ...وصخب صمتك...شعوري كالطفل بين ذراعيكِ...وإحساسي بسكينتكِ أنتِ علي صدري...حاجتي إليكِ...وحاجتكِ ليّ..باختصار...أدمنتكِ كلّك!!

_كلامكِ جميل لكنه لا يساوي شيئاً أمام شعوري بصدقه...أنا امرأة لم تغرّها يوماً كلمات ...لكن قلبي طالما كان دليلي في مشوار حياتي كله.

_وماذا يخبركِ قلبكِ عني؟!

_قضية صعبة!!

_سنكسبها يا أستاذة!!

دمعت عيناه بألم خالص مع هذه الغصة التي وجدها في حلقه...

وهو يردد لنفسه...بل خسرنا يا جنة...خسرنا!!!

ثم تنهد بحرارة وهو يقبض كفيه أمامه على الطاولة مطرقاً برأسه...

عندما شعر بكف صغير يربت على ذراعه...توجه ببصره نحوها ليجدها طفلة صغيرة بثوب أزرق تحتضن دميتها...

فابتسم بحنان وهو يحملها ليجلسها على ساقيه هامساً:

_ما اسمك يا جميلتي؟!

ضحكت الصغيرة بفخر وهي تهتف ببراءة:

_ملك!!

اتسعت عيناه بدهشة للحظة ثم ضمها إليه أكثر ليهمس بتأثر:

_ياالله!!!اسمكِ جميل مثلك!!!

ثم أبعدها برفق لينظر لوجهها الصبوح مردفاً:

_ماذا كنتِ تريدين؟!!

ابتسمت ابتسامة ملائكية وهي تربت على وجنته بكفها الصغير لتهمس ببراءة:

_لا أريد شيئاً..رأيتك حزيناً فجئت لأربت على ذراعك.

دمعت عيناه رغماً عنه وهو يعاود ضمها بقوة هامساً بشرود :

_تعلمين؟!!يوماً ما كنت سأحظى بطفلة مثلك ....

فرفعت وجهها الصغير إليه لتهمس بفضولها البرئ:

_وماذا حدث؟!!

أغمض عينيه بألم وهو يهمس بنبرة كسيرة:

_رحلت!!

ولم يكد ينطقها حتى تركت دميتها لتضمه بذراعيها الصغيرين وهي تقبل وجنته بقوة هامسة:

_لا تحزن!!!

_فهد!!!

انتفض مكانه عندما سمع صوت حسام جواره ففتح عيني...

ثم تطلع بدهشة إلى ذراعيه الخاليين ...

قبل أن يقف متلفتاً حوله وهو يهتف بذهول:

_أين ذهبت؟!!

تلفت حسام حوله بدوره متسائلاً:

_من هي؟!!

زاغت عينا فهد وهو يغمغم باضطراب:

_ملك...كانت هنا...طفلة صغيرة كانت هنا الآن بين ذراعيّ!!!

انعقد حاجبا حسام بقلق وهو يرمقه بنظرات مشفقة...

هو يراقب شروده منذ غادره ويدرك أنه كان أسير تخيلاته...

لهذا ربت على كتفه برفق ثم أجلسه قائلاً بحزم:

_اجلس الآن فقط!!!

جلس فهد وهو لازال يشعر بالاضطراب وعيناه تجوبان المكان بحثاً عن طفلة خياله...

فهز حسام رأسه بأسف على حال صديقه ثم قال بنبرة رفيقة على قوتها:

_يجب أن نفكر الآن فيما ستفعله في حياتك القادمة...لا يُعقل أن تستسلم لحزنك هكذا.

زفر فهد بيأس عندما أردف حسام بلهجة حاسمة:

_ستقيم معي هنا...وسأجد لك عملاً مناسباً...لن يخرجك من حزنك سوى هذا.

ابتسم فهد بمرارة وهو يغمغم بفتور:

_أي عمل هذا؟!!

اقترب حسام منه بجذعه ليجيبه بحزم:

_ألا تريد الانخلاع عن عباءة أبيك؟!!ستعمل بشهادتك كأي شاب في ظروفك...لا تقلق ..أنا...

انقطعت عبارته عندما رن هاتفه فتناوله ليجيب المتصل...

قبل أن تلتمع عيناه بلهفة ممتزجة بالظفر وهو يغلق الاتصال بكلمات مقتضبة...

ثم التفت نحو فهد هاتفاً بحماس:

_عصفورين بخبطة واحدة!!!لا أكاد أصدق نفسي....طوال هذه الفترة وأنا أبحث عنه حتى عاد إلى المدينة أخيراً!

انعقد حاجبا فهد بتساؤل عندما ابتسم حسام ببعض القسوة وهو يقول بشرود:

_لن تصدق!!!!سرحان الجندي...الرجل الذي كان يعمل مع والدك وأخفى سر أختك هو نفس الرجل الذي أشك أنه وراء إحراق منزل طيف بأوامر من عاصي الرفاعي.

فاتسعت عينا فهد بصدمة وقد عادت إليهما الحياة قبل أن يهتف بلهفة هو الآخر:

_وجدته؟!

هنا التفت نحوه حسام من شروده ليضم قبضته أمام وجهه قائلاً بحزم قاسٍ:

_لن يمر اليوم حتى أعرف منه الحقيقة كلها!!!

=================

الفصل الثالث والعشرون

وأخيراً وجد الجرأة ليدخل إلى غرفة نومه التي لم يستطع دخولها منذ أيام...

بالتحديد منذ أخبره فهد بالحقيقة التي كتمها طوال هذه السنوات...

هي كانت خائنة!!!

هي كانت مع رجل غيره هنا...على نفس الفراش!!!

نفس الفراش الذي ظل ينام عليه طيلة هذه السنوات إكراماً لذكراها!!!

هو الذي كان يجلد نفسه كل ليلة بذنبه القديم لأنه تزوج امرأة سواها في "الحلال"..

وهي التي عاشت تخدعه بوجهها البرئ في العلن...لترقص سراً على مسارح "الحرام"!!!!

هو الذي رمى ابنته في العراء خوفاً من أن تعلم هي....

وهي التي هتكت شرفه على مرأىً ومسمع من ابنه؟!!!

فبئست المقارنة!!!!

تقدم نحو الفراش بخطوات متثاقلة...

وعيناه تجتران آخر ذكرى "حية" له معها...بقبلتها الدافئة على وجنته...وابتسامتها التي كانت تجيد صباغتها بالنقاء...وصوتها الذي كان ينافسها في قوة خداعه...

لتحتل صورتها الأخيرة كيانه كله الآن وجسدها مسجىً على ذات الفراش ليلتها مضرجةً بدمائها وقد فارقت الحياة...وهو واقفٌ أمامها يصرخ بابنه يكاد يقتله بسبب فعلته!!!!

وما بين الصورتين كاد رأسه يضج بمشاعره الصاخبة...

صورتان كلتاهما خادعة!!!

فلا هي كانت بالبراءة التي كانت تدعيها؟!!

ولا ابنه قتلها بسبب فساده؟!!

هل تدركون شعور رجلٍ بلغ هذا العمر ليدرك فجأة أنه عاشه كله مخدوعاً؟!!!

هل سمعتم عن الأخسرين أعمالاً؟!!

الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً؟!!!

هل جربتم حسرة من بلغ آخر الطريق ليدرك في منتهاه أنه ...ضالّ!!!

هذا بالضبط ما كان يمور بصدره وهو واقفٌ -بهذا الحمل الثقيل على قلبه- أمام الفراش...

ليرفع كفه الخالي أمام وجهه مباعداً بين أنامله وهو يهمس بذهول:

_كيف تسرب العمر هكذا من بين أصابعي لأجدني في النهاية ...مجرد خاسر كبير؟!!!

ثم دمعت عيناه وهو يتذكر طفلة رضيعة حملها بين ذراعيه يوماً ...ثم رماها بلا أدنى شعور ودون حتى أن يهتم بمصيرها...

ليعاود همسه الكسير:

_لو كانت على قيد الحياة...فهي شابةٌ يافعة الآن!!

ثم اختنق بغصة حلقه وهو يحدث نفسه بألم:

_أنا حتى لم أعرف اسمها!!!بعتها بلا ثمن فداءً لسراب!!!!

قبل أن تنطلق من حلقه آهة ألم حملت كل انكساره وخيبته...

ليتذكر بعدها مؤخراً ما فعله بابنه وزوجته!!!

وكل هذا لأجل ماذا؟!!!

لأجل حفنة أموال لن تشاركه قبره!!!

لأجل مركز وسلطة لن تدوم له كما لم تدُم لغيره!!!!

لأجل متع زائلة يشعر الآن فقط كم كانت لا تستحق!!!!

وبهذا الإدراك الأخير أخرج قداحته الأنيقة من جيب سترته ليشعل النيران في طرف ملاءة الفراش ....

وكأنه بهذا سيحرق هذا الماضي الذي التهم عمره كله دون أن يشعر...

ثم وقف مكانه يراقب اشتعالها بشرود ....

وضميره الذي استيقظ مؤخراً يعاود جلده بسياط ندمه...

ندم لم يعد ليفيد أحداً بعدما نفد السهم في قلب الضحية!!!

لينتبه أخيراً من شروده على صوت هاتفه الذي رن بجيبه فوجده اتصالاً من مدير حملته الدعائية بخصوص الانتخابات الأخيرة...

وكأنما انقلب حاله بلحظة!!!

ليعاود طمعه دفن ضميره تحت أثقال طموحٍ "شبّ"عليه ويبدو أنه "سيشيب" عليه!!!

نعم...يشيب ابن آدم وتشب معه خصلتان:الحرص وطول الأمل!!

وحصاد سنواتٍ من الذنوب لن ينطفئ بندم ساعة!!!

لهذا وجد نفسه يفتح الاتصال بلهفة ليطمئن من الرجل على آخر تطورات الوضع...

قبل أن يغلق الاتصال منتبهاً للحريق الصغير الذي نشب في الغرفة...

فخرج منها بخطواتٍ متثاقلة قبل أن يلقي نظرة أخيرة على الفراش المشتعل...

ثم نادى أحد الخدم ليأمره بإطفاء هذا الحريق بسرعة وإغلاق هذه الغرفة للأبد!!!!

لكنه ما كاد يغادر المنزل حتى وجد هاتفه يعاود رنينه فانعقد حاجباه بضيق وهو يقرأ اسم المتصل...

أو بالأدق...المتصلة!!!

أشاح بوجهه للحظات في ضيق وهو يفكر في تجاهل الاتصال...

ثم فتحه أخيراً ليهتف بترحاب مصطنع:

_أهلاً يسرا...كيف حالك يا ابنتي؟!!

لكنه اصطدم بصراخها الهستيري :

_أين فهد يا عمي؟!!كيف يسافر ويترك عروسه هكذا ببساطة ولو لأجل العمل؟!!كما أن هاتفه مغلق دوماً؟!!ما الذي تخفيه عني؟!!

فزفر بخفوت وهو يبعد الهاتف قليلاً عن أذنيه اللتين أصمهما الصراخ ..

ليقول بارتباك:

_هو مشغولٌ للغاية يا ابنتي...لا يكاد يجد وقتاً لأي شئ...أنتِ لا تعلمين مدى اهتمامه بعمله!!!

كان يعلم أن حديثه هذا لن يقنع طفلاً صغيراً...فما باله بامرأة كيسرا ؟!!!

فهد الأحمق سيزج به في مشاكل لا قِبل له بها مع رفعت الصباحي وابنته!!!

وهو لا يدري ما الذي ينتوي فعله بعد ما حدث بينهما!!!

لكنه يثق أنه لن يبتعد كثيراً!!!

مادامت هذه المرأة قد اختفت تماماً من حياته فهو سيعود إليه صاغراً...

ربما سيحزن قليلاً وربما يعيش فترة ناقماً عليه...

لكنه حتماً سيعود!!!

لن يستطيع الاستغناء عن حياته الرغدة التي اعتادها !!

سيعود!!!

سيعود!!!

وبهذا اليقين أردف بثقة محدثاً تلك المشتعلة على الجانب الآخر من الاتصال:

_بضعة أيام فقط يا ابنتي...وسيعود إليكِ!!!

بينما أجابته هي بالمزيد من صراخها المعترض...

قبل أن تغلق الاتصال بعنف وهي تلقي هاتفها جانباً تكاد تلهث من فرط انفعالها...

ما الذي يحدث من وراء ظهرها؟!!

أين اختفى فهد؟!!

ولماذا هجرها هكذا بسرعة ؟!!

بل إنه حتى لم يمسها كزوجته!!!

ذاك الصباح الذي عقب ليلة زفافهما استيقظت من نومها مشوشة لتجده جالساً على الأريكة يتشاغل بحاسوبه المحمول عنها...وهكذا كان حاله في اليومين التاليين...

كان يتحاشى الجلوس معها هارباً بالنوم بأسباب ملفقة لم يكن إجهاده أولها ولا آخرها...

وكلماته -مصطنعة الود -لها لم تقنعها بمشاعره...

كما أن نومها "الغريب" المفاجئ كل ليلة أخافها!!!

نعم...لقد خشيت أن يكون هذا تأثير الأقراص التي داومت على تعاطيها مؤخراً بإيعاز من أحد صديقاتها...

تلك الأقراص التي صارت تحتاجها حقاً لتحسين مزاجها الناري الذي يزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم!!!

تماماً كما الآن!!!

رأسها يكاد ينفجر وخلاياها كلها تئن بحاجتها لهذه الأقراص!!!

أدمنتها؟!!

وما المشكلة؟!!

مادامت تملك دوماً ثمنها وتعرف الطريق إليها!!!!

هي يسرا الصباحي...ومتى أرادت شيئاً فسيكون تحت قدميها!!!

لهذا عادت تتناول هاتفها لتتصل برقم ما وما كاد الاتصال يُفتح حتى هتفت بعصبية:

_الليلة الساعة العاشرة...دعكِ من هذا "التنقيط"...أريد كمية تكفيني لشهر كامل!!!

=================

_ماذا بكِ يا فتون؟!!

هتفت بها صفا وهي تلاحظ شرودها أثناء غسيلها للأطباق في مطبخ شقتها فشهقت فتون للمفاجأة قبل أن تغمغم بارتباك:

_لا شئ يا سيدتي...شكراً لسؤالك!

تفحصتها صفا باهتمام وهي تلاحظ غرابة حالها منذ أيام ...

لكن الصغير محمد كفاها المزيد من التفكير عندما هتف بثرثرته المعهودة:

_حسني يضايقها...هي تبكي كلما تحدث إليها!!

التفتت نحوه أمه بحدة وقد كانت مفاجأتها أكبر لملاحظته هذا الشئ ثم نهرته بكلمات مضطربة...

بينما نقلت صفا بصرها بينهما للحظات قبل أن تقول للصغير بحنانها الفطري:

_محمد حبيب "ماما صفا"...سيذهب الآن لمشاهدة التلفاز ولو حافظت على هدوئك سأعد لك مفاجأة حلوة مثلك!!

صفق الصغير بكفيه في مرح ثم احتضنها بقوة قبل أن يهرول للخارج ...

فالتفتت صفا نحوها لتغمغم بقلق:

_من حسني هذا ؟!!ولماذا يضايقك؟!!

انفجرت فتون في البكاء فجأة وهي تترك ما بيدها...فجذبتها صفا إلى مقعد قريب لتربت على كتفها قائلة بحنان مشوب بالقلق:

_تكلمي يا فتون...أنتِ تعلمين مكانتكِ عندي...يشهد الله أنني أعتبرك كشقيقتي ...طوال هذه الأيام التي عملتِ فيها هنا وأنا لم أرَ منكِ إلا كل خير....لهذا سأساعدكِ بكل طاقتي...فقط أخبريني.

لكن فتون استسلمت لانهيارها الباكي للحظات...قبل أن تهمس بألم:

_الناس لا ترحم يا سيدتي...وخصوصاً امرأة مثلي في ظروفي...ماذا أقول لكِ عن المغازلات التي أسمعها كل يوم في طريقي لشراء حاجيات المنزل..؟!!!وليت الأمر يقتصر على هذا بل تطور الأمر لمضايقات صريحة...حسني هذا هو "بواب" عمارة مجاورة...فوجئت به بالأمس يطرق عليّ باب غرفتي بمنتهى الجرأة ليلمح لي برغبته في زواج سري !!!

شهقت صفا بدهشة قبل أن ينعقد حاجباها في غضب وهي تهتف:

_السافل!!!ولماذا لم تصفعيه على وجهه وقتها وتطرديه من غرفتك؟!!الماذا لم تصرخي وتستنجدي بأي أحد؟!

فرفعت إليها فتون عينين كسيرتين وهي تهمس بخزي:

_خفت يا سيدتي...خفت!!!

هزت صفا رأسها بأسى فيما أردفت فتون بمرارة:

_لعن الله جمالاً لمن كانت في ظروفي!!!الناس تنظر إليّ وكأنني شيطانة متحركة...أرملة وحيدة بطفلها وفقرها لن تكون في نظرهم سوى غانية تنتظر الإشارة لتقبض الثمن!!

دمعت عينا صفا في تأثر بينما ابتسمت فتون بسخرية مريرة لتكمل نزيف روحها:

_تعلمين ماذا كان سيحدث لو كنت فعلت كما تقولين؟!!!لم يكن أحدٌ ليصدقني!!!كان سيفتري عليّ بالباطل... بل ربما كان سيزعم أنني من كنت أغويه لأحضره لبيتي...صدقيني يا سيدتي...الناس لا يرجمون إلا المرأة بحجارة ظنونهم ....وخاصةً لو كانت مثلي!!

ضمتها إليها صفا بحنان للحظات وهي تفكر في حديثها...

هي -نسبياً- على حق!!!

للأسف امرأةٌ ك"فتون" في هذا المجتمع هي دوماً من يقع عليها العقاب...

هي في نظر الجميع مدانةٌ حتى تثبت براءتها وليس العكس!!!

جمالها المبهر مع وحدتها وفقرها يجعلون منها لقمة سائغة لمن تسول له نفسه إرضاء جوعه بصيد رخيص!!!

وإن كانت "فتون" أكثر حظاً من غيرها لأنها وجدت من يساعدها فهناك ألف "فتون" غيرها لا يجدن من يمد لهنّ يد العون فيتخبطن بين ظلمات العوز وسوء الظن !!!!

لهذا ربتت على ظهرها برفق قبل أن تقول لها بحزم رفيق:

_لا تحملي هماً...أنا سأكلم الشيخ عبد الله ليوقفه عند حده ولن يضايقك بعد...لكنني لا أريدك أن تكوني ضعيفة هكذا...طالما أنتِ لم تخطئي فقفي في وجه العالم كله واصرخي بحقك...ضعفك هذا قد يؤوله البعض على أنه رضا عن الخطأ...هل تفهمينني؟!!

أومأت فتون برأسها وهي ترمقها بنظرة امتنان...

فابتسمت صفا بدورها وهي تردف بإشفاق:

_ولا تجعلي الصغير يشعر بشئ...محمد ذكي...وإدراكه يفوق سنه بكثير... خاصةً وأنك أنتِ كل عالمه!!

تنهدت فتون بحرارة ثم غمغمت بفتور:

_حسناً يا سيدتي.

ثم قامت من مكانها لتعاود عملها وهي تردف بامتنان:

_آسفة لإزعاجك بمشاكلي...جزاكِ الله كل خير!!!

فقامت صفا بدورها لتربت على كتفها بمؤازرة عندما عاود الصغير اقتحام المكان ليهتف بلهفة طفولية:

_لا أستطيع أن أحافظ على هدوئي أكثر من هذا....فأين المفاجأة؟!!

ابتسمت فتون بحنان فيما انطلقت صفا ضاحكةً وهي ترفعه بين ذراعيها لتغرقه بقبلاتها قبل أن تهتف بمرح:

_ألم تكن غاضباً منذ أيام لأنك كنت تريد احتفالاً بيوم ميلادك كابن الجيران؟!!ما رأيك لو نقيم احتفالاً صغيراً الآن؟!!

ضحك الصغير بسعادة فيما غمغمت فتون باعتراض مشوب بالحرج...

لكن صفا أوقفته أرضاً لتتوجه نحو خزانة المطبخ مستخرجةً علبة ضخمة تحوي سيارة بلاستيكية كبيرة أعطتها له فتلقفها منها بلهفة قبل أن يغمغم بغضب طفولي:

_لكن هذا ليس احتفالاً...أين الكعكة والأغاني؟!!

زجرته والدته بعنف لكن صفا أشارت لها بالصمت قبل أن تتوجه نحو ثلاجة المطبخ لتستخرج كعكة كانت قد أحضرتها خصيصاً لأجله...

ثم وضعتها على مائدة المطبخ لتقول له بمرح:

_ها هي الكعكة يا بطل...!!!!

قبل أن تتوجه نحو الحاسوب هناك لتشغل بعض أغاني الأطفال الشهيرة بصوت عالٍ....

فتعالت ضحكات الصغير وهو يضع اللعبة جانباً...

ليتمايل بحركات راقصة ماهرة لا تتناسب وسنه الصغير... جعلت صفا وفتون ينفجران في الضحك للحظات من منظره العجيب...

قبل أن تسحب صفا فتون من ذراعها هاتفة بمرح:

_هيا ارقصي...افرحي مع ابنك...وانسيْ همومك...لا شئ يستحق الحزن!!!

فابتسمت فتون وهي تتقدم نحو صغيرها ليرقص ثلاثتهم بمرح مع تصفيقهم الحاد لدقائق مرح صاخبة طالت ....

_ما الذي يحدث هنا؟!!!

شق صراخه الهادر المكان رغم صخب الألحان فشهقت فتون بخوف وهي تضم صغيرها لتتوقف مكانها مصدومة...

بينما تمالكت صفا نفسها لتتوجه نحو الحاسوب وتغلقه بسرعة هاتفة بارتباك:

_عبدالله!!!لماذا عدتَ مبكراً؟!!

كز على أسنانه بغضب وهو يصيح باستنكار:

_غناء ورقص في بيت الشيخ عبد الله؟!!هل جننتِ يا صفا؟!!

احمرت وجنتاها خجلاً وهي تشعر بالحرج من تعنيفه لها أمام "خادمتها"...

بينما غمغمت فتون مدافعة:

_إنه خطئي أنا يا شيخ عبد الله...الصغير...

_من أذن لكِ بالكلام هنا؟!!

كان هذا صراخه العنيف الذي قاطع حديثها والذي أردف بعده بثورة أكبر وقد فقد السيطرة على أعصابه تماماً:

_مجرد وجودكِ في هذا البيت خطأ...اخرجي حالاً...لم أعد أريد رؤية وجهكِ هنا!!!

انفجر الصغير باكياً بين ذراعيها فكادت صفا تحمله لتهدئ من روعه لكن عبد الله أكمل هديره العاصف:

_خذي ابنك وارحلي ...استغنينا عن خدماتك.

ضمت فتون صغيرها لصدرها بقوة وهي تهرول لتغادر المكان بينما اندفع عبد الله لغرفته ليغلق بابها خلفه بعنف تاركاً صفا خلفه مذهولةً مما حدث!!!

هي تعرف عن عصبية طباعه وتشددها أحياناً لكنه اليوم لم يبدُ في حالة طبيعية...

لقد بدا وكأنه بركانٌ خمد عمراً لينفجر فجأة دون سابق إنذار!!!

مهما كان استياؤه مما رآه لم يكن الأمر يستحق أن يطردها من عملها!!!!

وفي غرفته توجه هو نحو النافذة ليفتحها بعنف محاولاً استنشاق بعض الهواء لعله يخمد حرائق روحه...

و"جسده"!!!

نعم.. لازالت صورتها الراقصة بدلال مع صغيرها تحتل عقله بل كيانه كله...

لتجرف في تيارها كل سدود مقاومته التي يحاول التشبث بها...

لقد صارت تلك المرأة "هوسه الخاص"!!!

نهاره صار يقضيه في صراعه مع عقله ليطرد خيالاتها "الماجنة" التي تلهب حواسه...

وليله الذي تغتاله أحلامه الجارفة بها وكأن الأرض فجأة عدمت نساءها فلم يعد يرى سواها!!!!

هل هو حب؟!!!

لا...هو ليس غراً ساذجاً ليخطئ تمييز الحب في قلبه...

شعوره بتلك "الفاتنة" أقرب لرغبة "المدمن" في مخدرٍ يرضي حواسه رغم اعتراض عقله...

فلا هو قادرٌ على إطفاء اشتهاء حواسه....ولا هو بأصمَّ عن صوت عقله وضميره...!!!

وبينهما هو مكبلٌ بقيود شياطين رغبته المحمومة التي تذكيها تلك المرأة يوماً بعد يوم!!!

انقطعت أفكاره عندما سمع صوت باب الغرفة يُفتح لتدخل منه صفا التي اقتربت منه ببطء...

فبادرها بقوله دون أن يستدير نحوها:

_اخرجي الآن...لا أريد الحديث!!!

لكنها بدت وكأنها لم تسمعه فقط امتدت أناملها تمسد كتفيه كعادتها وهي تهمس بحنانٍ تدرك الآن أنه يحتاجه:

_لن أتحدث يا عبد الله...دعني فقط أبقَ جوارك!!

اقشعر جسده لملامستها فانتفض بقوة وهو يهمّ بالابتعاد لكنها تشبثت بكتفيه هامسة بنفس النبرة الحانية:

_لا تبتعد ...صدقني أنت تحتاج هذا الآن حتى ولو لم تدرك أنت ذلك.

فزفر بخفوت وهو يستسلم أخيراً للمساتها القوية الحانية...

والتي أشعلت صراعه الداخلي أكثر بين انتمائه "القديم" لها...ورغبته"الحديثة" في التمرد على هذا الانتماء!!!

ليقبض أنامله بقوة مع تشنج جسده الذي شعرت هي به...

فصمتت طويلاً قبل أن تهمس بتردد:

_إنها أول مرة أعجز فيها عن احتواء تعبك...هل فقدت لمساتي قدرتها؟!!

عاد يزفر بقوة قبل أن يزمجر بضيق:

_ألم تقولي أنكِ لن تتحدثي؟!!

تيبست أناملها على كتفيه وهي تشعر بالغرابة...

عبد الله يخفي عنها شيئاً عظيماً لا يقوى على البوح به وهي التي كانت دوماً مستودع أسراره...

فما الذي جدّ عليهما؟!!

ورغم ما تشعر به الآن نحوه من قلق لكن لهجته الجافة أشعرتها ببعض الإهانة فسحبت كفيها جوارها لتهمس بعتاب:

_هكذا إذن ؟!!حسناً...سأتركك كما تريد.

قالتها وهي تهمّ بالمغادرة لكنها ما كادت تخطو بضع خطوات حتى شعرت به يجذبها لصدره بعنف ليخفي وجهه في تجويف عنقها دون كلمة واحدة...

فقط أنفاسه اللاهثة فضحت لها انفعالاً وغضباً استشعرته بقلبها قبل جسدها...

فضمته إليه بكل قوتها للحظات...

قبل أن يصلها تأوهه الخافت الذي سبق همسه :

_لا تتحدثي يا صفا...فقط ضميني هكذا.

زادت من تشبث ذراعيها الحنون به وهي تربت على رأسه برفق...

لتفاجأ به يهمس بعد لحظات مناقضاً قوله:

_لا...بل تكلمي...قولي أي شئ...أغرقي أذنيّ بصوتك فلا أكاد أسمع غيره...امزجي أنفاسكِ بأنفاسي تكلمي...

ثم اعتصرها بين ذراعيه مردفاً بحرارة:

_ساعديني يا "صفا روحي"...ساعديني!!

انعقد حاجباها بقلق ممتزج بالشك وهي تستمع لهمساته التي مست قلبها بصدقها...

لترفع وجهها نحوه هامسةً بجزع:

_ماذا بك يا حبيبي؟!!

اشتعلت عيناه بلهب الصراع الذي يغزو روحه الآن بعنفوان كاسح للحظات...

قبل أن يخمد بريقهما تماماً وهو يبعدها عنه برفق وقد استرد صوته قوته ليقول باقتضاب:

_لاشئ...أنا شعرت ببعض التعب لهذا عدتُ مبكراً.

قالها ثم استدار عنها ليبدل ملابسه قبل أن يندس في فراشه صامتاً...

فابتسمت بحنان لتذهب إليه فتتمدد جواره وهي تدفن وجهه في صدرها هامسة:

_تريد حكاية قبل النوم؟!

رفع إليها وجهاً استنار ببسمته أخيراً وهو يتشبث بخيوط حنانها اللامعة بعينيها قبل أن يهمس بشرود:

_احكي لي حكايتنا...أحب دوماً سماعها منك.

تنهدت بحرارة وهي تداعب شعيرات لحيته بأناملها لتهمس بفخر امرأة عاشقة :

_وهل هناك أجمل من حكايتنا؟!!حكاية عبد الله وصفا روحه!!

أغمض عينيه باستسلام ليصله همسها الدافئ يهيل التراب على جمرات شيطانه فيخمدها:

_كانت هناك فتاةٌ يتيمة رباها عمها...كبرت بداره وكبر معها احتياجها لرجل يعوضها بحبه عن يتمها...حتى اصطدمت عيناها ذات يوم بذاك الوسيم الذي كان يعمل بمكتبة أمام مدرستها الثانوية...كانت تتذرع بحجج كثيرة لتذهب إليه هناك مع أنه لم يكن ينتبه إليها....لكن وسامته لم تكن فقط ما جذبها إليه...بل تدينه

واستقامته...أحبته كمراهقة رأت فيه فارس أحلامها حتى ترك هو العمل بالمكتبة وتركت هي مدرستها لتلتحق بالجامعة ....

ابتسم بحنان وهو يستعيد معها ذكرياتها ثم طبع قبلةً عميقةً على باطن كفها ...بينما أردفت هي بنبرتها الدافئة:

_ظننت هي أن حكايتهما انتهت ها هنا..أنهت دراستها الجامعية وعقب نجاحها أهداها عمها سيارة حديثة الطراز وأرسلها لتتعلم القيادة...لكن البائسة في أول محاولة لها للخروج وحدها بسيارتها صدمت أحدهم في الطريق ...وعندما ترجلت من سيارتها لتتفحصه فوجئت أنه فارسها القديم!!!

اتسعت ابتسامته وهو يهز رأسه هامساً بتعجب:

_في كل مرة أسمع منكِ هذه الرواية لا أكاد أصدق...أنا لا أذكر أبداً أنني كنت أراكِ أثناء عملي في المكتبة.

فربتت على وجنته لتهمس بفخر:

_أنت كنت تغض بصرك...ليس عني أنا فحسب...بل عن جميع الفتيات...طالما كنت خلوقاً يا حبيبي!!

ازدرد ريقه ببطء وكلماتها تنكأ جرحه من جديد...وتوخز ضميره قبل قلبه....

ليزفر بحرارة قبل أن يهمس بشرود:

_كانت فترة صعبة في حياتي...توفي والداي وتركاني وحدي مع رؤى...لأجد نفسي مسئولاً عن كلينا في هذا السن الصغير...حياتي وقتها لم تكن تسمح لي حتى بالتفكير في رفاهية ملاحظة الفتيات...

قبلت جبينه بعمق وهي تضمه إليها أكثر لتعاود الغوص في بحار ذكرياتها معه وحدها...

مالم تخبره به أنها عانت كثيراً تلك الفترة كي تقنع عمها بالموافقة على زواجه منها خاصةً مع رغبة عمها في تزويجها من أنس...

لكنها آثرت عبد الله رغم أنها كانت تشعر بتردده في التقدم لخطبتها لفارق المستوى الاجتماعي بينهما...

بل إنها ستصدق نفسها وتعترف أنها هي -تقريباً- من دفعته لهذه الخطوة بشبه تصريح له بمشاعرها...

شئٌ ما بداخلها وقتها أخبرها أنه سيكون رجل عمرها كله...

الرجل الذي سينتمي لها وتنتمي له ليكملا معاً الطريق!!!

لهذا لم تبخل عليه بشئ قبل زواجهما ولا بعده...

هي اشترت له هذه الشقة والمحل الذي أداره هو بمهارته حتى صارت له سمعته المعروفة...

وهو أيضاً تحمل معها مشاق علاجها وانتظارهما الطويل لطفلهما الذي لم يأتِ بعد...

لكنها واثقةٌ أنه سيأتي...

حب كحبهما يستحق أن يمتد أثره في هذا العالم بقطعة هي منه ومنها...!!!

لهذا ربتت على رأسه برفق هامسة:

_رغم غرابة قصتنا...لكنني أصدق في حسن تصاريف القدر.

فرفع رأسه إليها ليقبل جبينها بعمق قبل أن يهمس بمزيج من مرارة وعشق:

_بل أنتِ رزقي الذي ساقه لي القدر من غير حولٍ مني ولا قوة...رزقٌ أخشى ألا أؤدي حق شكره فأعاقَب بالفقر دونه..

انقبض قلبها بقلق وهي تعاود التطلع لعينيه هامسة :

_لماذا تقول هذا الآن ؟!

أغمض عينيه ليدفن حديثهما تحت أنقاض كتمانه مكتفياً باحتضانه الصامت لها...

فاحترمت سكوته لدقائق قبل أن تهمس بتردد:

_عبد الله...لي لديك رجاء!!

اكتفى بهمهمة صامتة دون أن يفتح عينيه فتنحنحت بارتباك ثم عاودت همسها الراجي:

_محمد لم يكن له ذنب...الصغير كاد يموت رعباً من صراخك...ثم أنك أنت المخطئ. .عدت مبكراً عن موعدك ولم تخبرني.

رفع إليها رأسه بحدة ليهتف باستنكار :

_بعيداً عن أنه ليس من المفترض أن أستأذن قبل دخول بيتي...لكنني فعلت...لقد كلّت يدايَ من طرق الجرس لكنك بالطبع لم تسمعيه مع ذاك "المهرجان" الراقص!!!

عضت على شفتها بخجل ثم غمغمت بدلال تعرف تأثيره عليه:

_الصغير كان يحتاج لاحتفال كهذا...وأنت تعرف نقطة ضعفي...سامحنا يا شيخ!!

أتبعت قولها بقبلة عميقة على وجنته فزفر مشيحاً بوجهه...

بينما أردفت هي باستطراد:

_والمسكينة فتون أيضاً...تصور أن ...

ثم حكت له تفاصيل ما روته لها فتون عن مضايقة الناس لها خاصةً ذاك المدعو "حسني"...

فتشنج جسده بغضب مكتوم لم تفصح عنه كلماته بينما أنهت هي حديثها بقولها :

_الشيخ عبد الله صاحب القلب الطيب لن يرضى بظلم أحد...خاصةً امرأة مثلها وابنها...أرجوك يا حبيبي دعها تستمر في عملها هنا...أنا أحتاجها.

تنهد بحرارة وهو يبتعد عنها ليعطيها ظهره ساحباً الغطاء على رأسه دون رد...

فابتسمت وهي تربت عليه من فوق الغطاء لتردف بحنان:

_أنا أعرف أنك لن تخيب رجائي!!!!

================

جلست على أحد الكراسي في حديقة فناء المدرسة تداعب الأرض بعصا طويلة في يدها وهي تفكر ...

حالها مع عبد الله يؤرقها ...

جدران عاطفتهما تتصدع ولا تستطيع تبين السبب...

تراه موضوع الإنجاب ؟!!!

لكن عبد الله لم يشكُ من هذا الأمر يوماً...على العكس هي التي كانت تسعى للعلاج بكل عزيمتها حتى كادت تفقد الأمل فقررت الاستسلام لمصيرها...

إذن ماذا عساه يكون؟!!

هل تراه عاد لتلك المواقع المشينة التي كان يتابعها؟!!!

أم لعلها امرأة حقيقية هذه المرة؟!!!

انقبض قلبها عند خاطرها الأخير فألقت عصاها أرضاً ثم كتفت ساعديها لتغمض عينيها في شرود...

عندما وصلها صوته الهادئ:

_ماذا بك يا "صافي"؟!!

فتحت عينيها لتنظر إليه بدهشة عندما جلس على كرسيه جوارها ثم ابتسمت ابتسامة شاحبة وهي تغمغم بمودة ظاهرة:

_لو تعلم كم أحب اسم "صافي"هذا!!!وكأنه يعيدني طفلة في كل مرة أسمعه فيها!!!

ابتسم هو الآخر والحنين يتوج أفكاره مع قوله في شرود:

_هل تذكرين شجرة "الجوافة" التي كنا نلعب تحتها في حيّنا القديم؟!!

فضحكت بانطلاق وهي تتذكر ما يحكي عنه لتقول بمرح:

_كنت تتسلقها لتحضر لي بعض ثمارها...ويوماً ما علقت ثيابك بالأغصان ولم يخلصك إلا عمي قبل أن يعاقبك بحبس أسبوع كامل في المنزل!!

ضحك بدوره وقد اكتست عيناه بعاطفته التي كانت هي غافلةً عنها وهي تردف بنفس الشرود الغارق في الحنين:

_وتلك الخطوط المتقاطعة التي كنا نرسمها ب"الطبشور" على الأرض لنقفز فوقها على ساق واحدة... مع أطفال الحي!!

فتنهد بحرارة ثم غمغم بهدوء لم يُخفِ حزنه:

_بالطبع أذكر...بل إنني لا أستطيع تذكر يومٍ واحد من طفولتي دون أن تشاركيني فيه!!

دمعت عيناها بتأثر وقد استشعرت الحرج هذه المرة...

لازال أنس يحيرها بشأنه...

هي تعلم أنه كان يرغب في الزواج منها قبل عبد الله لكنه لم يلمح لها يوماً بأي مشاعر...

حتى أنها كانت تظن أن الزواج هذا كان فكرة عمها...فهي لم تنظر لأنس يوماً إلا على كونه أخاها ورفيق طفولتها...

لكن إعراضه عن الزواج حتى الآن...واهتمامه الدائم بها...

وتلك النظرات الدافئة التي تتسلل أحياناً رغماً عنه إليها...

كل هذا يشعرها أنه -ربما- يحمل لها بعض المشاعر غير الأخوة...خاصةً مع وصية عمها الأخيرة لها بعد طلاقها -الثاني- من عبد الله أن تتزوجه هو !!!

وعند ذكر طلاقها الثاني هذا تقلصت كل الأفكار في ذهنها لتعاود صورة عبد الله احتلالها لكيانها كله فزفرت بقوة قبل أن تغمغم بشرود:

_ليتنا بقينا صغاراً!!

تفحصها ببصره للحظات وهو يقرأ حزنها على صفحة وجهها فانعقد حاجباه وهو يقول باهتمام:

_لا تبدين سعيدة يا صافي...ما الأمر؟!!

أطرقت برأسها دون رد فأردف بضيق:

_هل عاد عبد الله يضايقك؟!

رفعت رأسها إليه بسرعة لتهتف مدافعة:

_لا...أبداً...عبد الله يبذل قصارى جهده لإسعادي...أنا فقط أشعر أننا....

قطعت عبارتها عاجزة عن إكمالها ...فقال بأسف:

_أنتما تتباعدان!!

رفعت إليه عينيها بدهشة للحظة قبل أن تهز رأسها في موافقة...

فنظر للأفق أمامه بشرود قبل أن يردف :

_عبد الله طفل كبير...ظروف نشأته جعلته يكتسب بعض الأنانية وكثرة التطلب...وأنتِ للأسف عمقتِ سلوكه هذا بإسرافك في عطائك معه...هو لم يعد يدور إلا في فلك نفسه...ورغم تدينه الواضح لكنه لازال لا يدرك مفهوم "الرضا"...أن يقنع بما في يده فحسب...وهو لن يسعد أبداً مادام لا يرى في مراياه سوى صورة نفسه...

ازدردت ريقها بتوتر وهي تشعر بصحة حديثه...

خاصةً عندما أردف هو بابتسامة شاحبة:

_أراهن أن عملكِ هنا هو سبب مشكلتكما الحالية...هو لا يقدر حاجتك إليه...يريد اهتمامك كاملاً كما اعتاد منذ بداية علاقتكما.

أومأت برأسها في موافقة وقد أدهشها أنه يلاحظ كل هذا رغم أنها لم تخبره عن شئ من هذا من قبل...

ثم هتفت بتعجب:

_غريبٌ أن تجيد قراءة حياتنا بهذه المهارة.

لكنه أطرق برأسه متمتماً بأسى:

_أنا أحفظ كل تفاصيلك صغيرها وكبيرها...أنتِ لا تدركين قيمتكِ عندي.

قالها ثم أشاح بوجهه في ضيق وكأنه ندم على تسرعه بما لم يشأ البوح به...

فاتسعت عيناها بدهشة لم تلبث أن تحولت لارتباك واضح وهي تشعر بصدق عاطفته في كلماته...

مما جعلها تقوم من مكانها لتهتف بتلعثم:

_سأغادر الآن للأولاد...شكراً على اهتمامك.

لكنها ما كادت تستدير عنه حتى فوجئت بعبد الله أمامها يرمقها بنظراتٍ عاصفة على أقل تقدير...!!!!!

شهقت بحدة وقد تسمرت مكانها مدركةً أنهما مقبلان على "مصيبة"بعد ما سمعه...!!!!

بينما تقدم هو منها ليجذبها من ذراعها بعنف هاتفاً بثورة عارمة:

_هل هذا ما تقضين به نهارك هنا ؟!!

دمعت عيناها خوفاً وارتباكاً بينما قام أنس ليهتف بدوره مدارياً شعوره بالحرج:

_اهدأ يا شيخ عبد الله...إن بعض الظن إثم!!

لكن عبد الله لكمه بعنف في صدره ولازال يتشبث بذراع صفا بقوة آلمتها مع صراخه المجنون:

_سوء ظن؟!!أنا هنا منذ بدأ الحوار أيها ال(.......).

أتبع عبارته بلفظ بذئ غريب على تهذيبه المعهود وقد همّ بالشجار مع أنس عندما تجمع حولهم بعض العاملين لتهدئة الوضع وقد عجزوا عن فهم المشكلة...

فجذب عبد الله صفا من ذراعها خلفه بحدة مخترقاً بها جمع الناس ليغادرا معاً المدرسة مع انهيارها الباكي...

ولم يكد يستقل معها سيارته حتى التفت نحوها ليصفعها على وجهها بعنف هاتفاً:

_حسابي معك في بيتنا يا صاحبة الفضيلة.

قالها ثم أعاد تشغيل سيارته لينطلق بها بسرعة نحو المنزل...

بينما وضعت هي راحتها على وجنتها تتحسس ضربته بذهول ...

عبد الله صفعها هي؟!!!

يتهمها هي في شرفها؟!!!

يشكك في إخلاصها له؟!!!

بعد كل هذا العمر؟!!!

بعد كل هذا الحب؟!!

ماذا حدث له؟!!!

بل ماذا حدث لهما؟!!!

لا لا لا...هذا حلم...بل كابوس!!!

انتهت أفكارها الشاردة بوصولهما لبيتهما عندما أغلق الباب خلفه بعنف ليجذبها نحوه بقوة وهو يرفع كفه ليهم بصفعها من جديد...

لكنها أمسكت كفه بكفها لتوقفه في الهواء هاتفةً بصلابة ناقضت دموعها المنهمرة على خدها الآن:

_أنا صفا يا عبد الله...أفق لنفسك!!

اشتعلت عيناه بغضبه الهادر لكن عينيها لم تكونا أقل اشتعالاً ليسودهما صمتٌ صاخب مختنق بدخان أسود من انفعالات مختلفة ....

وقد بقي كفاهما معلقين في الهواء للحظات بدت وكأن الزمن قد توقف فيها...

هو الذي كان يشعر وكأنه سقط فجأة من قمة جبل عالٍ بعدما سمعه بأذنيه بينها وبين أنس بمصادفة قدرية بحتة...

كان قد أحس بالتعب هذا الصباح أيضاً وقد رغب في العودة للمنزل...

لكنه خشي أن يعود فيجد فتون وحدها فيه بعدما ألحت عليها صفا في الرجوع للعمل...

لهذا فكر أن يمر على صفا في المدرسة ليصطحبها معه للبيت ولم يكن يدري أن الظروف ستضعهم جميعاً في هذا الموقف العصيب...

وهي التي كانت تشعر بالصدمة وقد وجدت نفسها معه -لأول مرة-في موضع اتهام!!!

وليس أي اتهام!!!

هي التي أعطت فتون اليوم إجازة لتتفنن في صنع يوم خاص لهما بعد انتهاء عملها في المدرسة...

لم تكن تعلم أن القدر يدخر لها هذه المفاجأة القاسية!!!!

بينما وقف للحظات يتمالك غضبته وهو الآخر لا يصدق أنه صفعها !!!!

قبل أن يسحب كفه من كفها ليعتصر كتفيها بقبضتيه هاتفاً :

_كيف تسمحين لنفسك بعرض أسرار بيتك على رجل غريب؟!!!كيف تسمحين له بانتقاص قدري أمامك؟!!كيف تماديتِ معه إلى حد مغازلته لكِ؟!!!كيف؟!!

نفضت كفيه من على كتفيها لتهتف بين دموعها:

_أنت لا تريد إلا أن ترى الصورة بسوادها؟!!!أنت تقول أنك استمعت لحوارنا من البداية...أي أسرار فضحتها؟!!وعن أي مغازلة تتحدث؟!!!هو ابن عمي وأعتبره كأخي...فلماذا...

لكنه بدا وكأنه لم يسمعها عندما قاطع هتافها بصراخه الثائر:

_هي كلمة واحدة ولن أغيرها...لن تذهبي لهذه المدرسة ثانية...ولن تدخلي بيت عمك هذا ما حييت.

هزت رأسها باعتراض وهي تهتف بحدة:

_لا يا عبد الله...إلا المدرسة!!!!!إلا أولادي!!!

فكز على أسنانه وهو مستمر في صراخه:

_هم ليسوا أولادك...أفيقي من هذا الوهم.

لكنها لوحت بكفها وجسدها كله ينتفض بانفعاله هاتفة بنفس الحدة:

_أولادي يا عبد الله...أولادي...لماذا تريد حرماني من حقي في إحساسي بالأمومة؟!!!أنا لم أحرمك شيئاً...عمري وحبي ومالي!!!

مالي!!!!

مالي!!!

مالي!!!!

وكأنما اختفت كل كلماتها لتدوي هذه الكلمة وحدها في رأسه بطنين رهيب...!!!

لتضغط على جرحه النازف معها دون رحمة....

وهنا تجمدت ملامحه فجأة ليسودهما صمت قصير...وكلاهما يلهث انفعالاً وترقباً مدركاً أن لحظة حاسمة بينهما ستأتي الآن...

قبل أن يقطعه هو بقوله القاسي كنصل سكين:

_إذن هي حقوق!!!لا تريدينني أن أحرمكِ حقك في الأمومة؟!!!!...لا تحرميني إذن حقي في الحصول على طفل!!

اتسعت عيناها في صدمة قبل أن تتمتم مصعوقة:

_ماذا تعني ؟!!

فاقترب بوجهه أكثر ليهمس من بين أسنانه :

_سأتزوج!!

ارتجف جسدها بانفعالها رغم الصدمة البادية على ملامحها وهي تتمتم بانهيار:

_تتزوج غيري يا عبد الله؟!!

قالتها وهي تشعر بغرابة جملتها...

بل بغرابة كل شئ حولها...!!!

حتى حروف اسمه التي خرجت من بين شفتيها الآن بدت وكأنها لا تعرفها...!!!!

لكنه أردف بقسوة أكبر:

_نعم...تعلمين من ستكون العروس؟!! فتون!!!

فتون؟!!!

هكذا إذن؟!!!

هذا هو سبب تغير طباعه طوال الفترة السابقة؟!!

هذا هو سبب شروده وتباعده؟!!!

قلب "عبد الله" عشق امرأة سواها؟!!!

معقول؟!!!

هزت رأسها في عدم تصديق قبل أن تهتف باستنكار:

_فتون؟!!فتون؟!!!خادمتي ؟!!!ستتزوج خادمتي؟!!!

فهتف بدوره بغضب:

_خادمتك التي أوكلتِ أنتِ إليها مهامك...خادمتك التي صارت أهم في بيتي منك...نعم يا صفا...سأتزوجها.

هنا لم تشعر بنفسها وقد أعماها غضبها الذي أشعلته شياطين غيرتها ...

فزأرت عيناها ببريق عاصف وهي تهتف دون وعي :

_حقاً...هذا هو مقامك الحقيقي....إذا تركت صفا المعموري فلن تكون إلا لخادمتها!!!!

لم تكد تتم عبارتها حتى هوت صفعته على صدغها أكثر حدة هذه المرة مع صراخه الحاد:

_اخرسي...أنا بكِ وبدونك...أنا الشيخ عبد الله الذي طالما سعيتِ أنتِ خلفه حتى تزوجك.

وقد كانت هذه آخر قشة قصمت ظهر بعير احتمالها فصرخت هي الأخرى بثورتها:

_لن تشاركني امرأة في زوج ما حييت!!!!أنا التي أطلبها هذه المرة...طلقني يا عبد الله...طلقني!!!

لتأتي كلمته أخيراً مسدلةً الستار على هذا الفصل من قصتهما:

_أنتِ...طالق!!!

==============

كان واقفاً في ورشته يراقب العمل بعينين شاردتين...

لقد بدأ العام الدراسي منذ يومين وعادت رؤى لجامعتها كما وعدها...

ورغم أنه سعيدٌ لأنه أوفى بوعده معها لكنه لم يستطع بعد ترويض هذا الوحش الذي يزأر في أعماقه ليحرمه الراحة...

نعم...الشك!!!

إنه يشعر معها وكأنه يسير على أشواك من ماضٍ لا يستطيع نسيانه وإن حاول تناسيه...

ودون وعيٍ وجد نفسه يستجيب لهاجس ما جعله يلقي ما في يده جانباً ليغادر ورشته ويتوجه نحو سيارته التي استقلها نحو جامعتها!!!

نظر في ساعته ليتبين الوقت عندما أدرك أنه موعد مغادرتها كما أخبرته عن "جدولها" الذي أصرت هي أن تعطيه له بنفسها قبل أن تعده أنها ستلتزم بمواعيده فقط وستعود للبيت فور انتهاء محاضراتها...

ظل واقفاً مكانه يراقب الوجوه التي تدافعت أمامه من باب الخروج حتى لمحها تخرج وحدها...

ترددت أنامله على مقود السيارة وهو يهمّ باللحاق بها ليصطحبها معه كما كان ينتوي...

لكن هاجسه أيضاً جعله يفضل تتبعها من بعيد !!!

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ حانية وهو يتابع تفاصيلها التي بدت له -على بساطتها-أسطورية!!!

لفة حجابها الأنيقة مع تحشمها والتي كادت تغطى نصفها العلوي كله...مع لونها الرقيق الذي منح بشرتها الصافية رونقاً خاصاً...

رداءها الطويل الذي حرصت أن يكون ساتراً لكن نسمات الهواء كانت تتلاعب به لتشعل به نيران خاصة من اشتهاء لن يطفئها مطر صبره بعد!!!

خطواتها الوقور المتمهلة والتي انتهت بوقوفها في المكان المخصص لتستقل سيارة أجرة تبعها هو بسيارته حتى وصلت عند أول شارعهم...

هنا توقف بسيارته لاعناً سوء ظنه وهو يهمّ بالعودة لورشته القريبة عندما لمح أحدهم فجأة يتقدم منها بسرعة ليتحدث إليها ببضع كلمات....

قبل أن يعطيها ورقة مطوية نظرت إليها للحظات قبل أن تعيدها له وهي تتلفت حولها بنظرات مرتبكة وابتسامة زادت تأجج السعير بداخله!!!

انعقد حاجباه بمزيج من الغضب والغيرة وهو يراقب الموقف بتفحص...

عندما فوجئ بالشاب يبادلها ابتسامتها وهو يومئ لها برأسه قبل أن يعيد الورقة لجيبه وينصرف بخطوات سريعة إلى طريق جانبي قبل حتى أن يفكر في اللحاق به!!!

جنّ جنونه وهو يركن سيارته في أقرب مكان وجده قبل أن يغادرها بسرعة محاولاً إدراك الشاب لكنه كان قد اختفى تماماً...

وتلك "الغافلة" أكملت طريقها للبيت بمنتهى البساطة دون أن تنتبه لكل هذا!!!

وقف مكانه في وسط الشارع فجأة وهو يشعر برأسه يكاد ينفجر...

يتلفت برأسه ذات اليمين وذات اليسار كمن فقد شيئاً وهو لا يدري ماذا يفعل...

حتى أن بعض المارة التفتوا نحوه بدهشة وبعضهم ممن يعرفه ألقى عليه السلام لكنه كان في عالمٍ آخر لا يكاد يدرك شيئاً مما حوله سوى زئير وحشه الرابض في أعماقه...

لم يدرِ كم ظل على وقفته -التائهة-هذه لكنه أفاق لنفسه أخيراً عندما سمع هتاف أحد جيرانه بجانبه:

_ما الأمر يا ابني؟!!لماذا تقف هكذا؟!!

التفت نحو الرجل مغمغماً بكلمات لم يتبينها قبل أن يجد بعض قوته ليعاود سيره بخطوات متثاقلة...

لا...لم يعد إلى البيت...

لم يكن قادراً الآن على مجرد رؤيتها أمامه...

لو لمحها الآن فقط فلا يضمن أي رد فعل!!

شكوكه بها حملته لأفكار لم يظن أن تراوده يوماً...رغم تكذيب قلبه الذي كاد يقسم على براءتها...

لهذا كظم غضبه صاغراً ليعود لورشته القريبة والتي قضى فيها بقية النهار حتى أغلقها مساءً ككل ليلة...

قبل أن يعود لمنزله أخيراً وكل ذرة في كيانه تنضح غضباً...

لقد ظن أن الوقت يكفيه لإخماد ثورته وإحكام عقله...

لكنه ما كاد يلمحها خارجةً من باب المطبخ بشقة والدته حتى اشتعلت أعماقه ببراكينها من جديد...

كانت تحمل بين كفيها كعكة كبيرة مزينة وتتبادل ضحكاتها مع والدته التي كانت تهتف بمرح:

_تبدو شهية يا ابنتي!!!سلمت يداكِ.

فهتفت هيام بمناوشاتها المعهودة:

_انتظري حتى نتذوقها أولاً...المظهر ليس هو كل شئ!!

فالتفتت نحوها رؤى لتهتف مدافعة:

_لا شأن لكِ أنتِ هنا...أنا لم أصنعها لأجلك.

_اخرسي!!

كانت هذه هي صيحته هو والتي تزامنت مع صفعة قاسية على وجنتها جعلتها تلتفت نحوه بذهول غلب ألمها...

لتسقط الكعكة من يديها على الأرض مع صيحة والدته المستنكرة ...

لكنه أمسك كتفيها بعنف يهزهما مع هتافه الساخط:

_لا ترفعي صوتكِ هذا هنا ثانية!!!هل تفهمين؟!!

تجمدت مكانها مصعوقة وقد عادت لنظراتها ذعرها بينما جذبتها عفاف من بين ذراعيه لتهتف باستنكار:

_ما الأمر يا راغب؟!!الأمر لا يستحق كل هذا؟!!

أشاح بوجهه في غضب لتصطدم عيناه بنظرات هيام الشامتة لكنه لم يبالِ...

فيما ربتت والدته على كتف رؤى التي كانت لا تزال مصدومة مكانها لتقول بإشفاق وهي تتبين أثر صفعته على وجنتها:

_اذهبي يا ابنتي واغسلي وجهك...لا بأس...هو يبدو متعباً ولم يقصد...

لكنه عاد يجذب رؤى من ذراعها بغلظة مقاطعاً والدته وهو يهتف بحدة:

_لن تغادر حتى تنظف هذه الفوضى وتمسح المكان...

ثم نظر لعيني رؤى الذاهلتين مردفاً بقسوة:

_يجب أن تتعلم أن خطأها ستحمله وحدها ولن يشاركها فيه أحد!!!

همت والدته بالاعتراض بكلمات عاتبة لكنه قاطعها بقوله الحاسم:

_لا أحد يتدخل بيني وبين زوجتي!!!

قالها ثم دفع رؤى بخشونة هاتفاً:

_هيا نظفي المكان وبعدها ابكي كما تشائين....لم يعد أحد هنا يأبه ل"دموع التماسيح" هذه!!!

وقف الجميع متسمرين مكانهم مع انتهاء كلماته وكأنهم لا يصدقون تحوله هذا!!!

حتى هيام اختفت من نظراتها الشماتة ليحل محلها الذهول وهي ترى راغب الحنون الخلوق يعامل زوجته بهذه الطريقة!!!!

لكن رؤى كانت أول من أفاقت من ذهولها ربما بدافع ذعرها المعهود لتسرع نحو الداخل حيث أحضرت منشفة كبيرة وبعض الأغراض لتنظيف الأرض كما أمرها...

بينما وقف ثلاثتهم ساكنين يراقبونها بصمت حتى انتهت فغمغم هو بخشونة:

_والآن اصعدي لشقتنا...أنا سأتناول طعامي هنا مع أمي!

كانت تكتم دموعها بكل ما أوتيت من قوة حتى تحافظ على ما بقي لها من كرامة أمامهم...

وما كادت تسمع عبارته حتى هرولت للخارج بخطوات أقرب للعدو...

فالتفتت والدته نحوه لتهتف بعتاب:

_حرامٌ عليك يا ابني!!!هي واقفةٌ على قدميها منذ عادت من الجامعة لتعد لك هذه الكعكة عندما علمت أنك تحبها...!!!

أشاح بوجهه دون رد فتنهدت والدته بحرارة وهي تتمتم له بالدعاء بالهداية...

بينما هتفت هيام باستحسان:

_أكثر ما يعجبني فيك أنك رجلٌ حقيقي...ولا يعجبك الحال المائل!!

فالتفت نحوها بحدة ليهتف بضيق:

_هيام!!!لا تصطادي في الماء العكِر...ودعيني وشأني!!!

مطت شفتيها في شبه استياءٍ غطته نظرات الشماتة الواضحة في عينيها...

لكنه تجاهل هذا ليسألها دونما اهتمام حقيقي ولكن ليغير الموضوع:

_ما هي أخبار شقيقتك مع ذاك الوغد؟!!!هل امتنع عن مضايقتها بعد حديثي معه؟!!

تنهدت هيام في حزن حقيقي أنساها سوء طباعها -لحظياً- ثم غمغمت بحسرة:

_ألسنة الناس لا ترحم...وخاصةً فتاة يتيمة مثلها تعيش وحدها...وتركها خاطبها بعد وقت قصير من خطبتهما...صحيحٌ أن ذاك الوغد وقف عند حده بعد شجارك معه...لكنّ رَميته أصابت هدفها وانتهى الأمر!!!

زفر بضيق وهو يشعر بثقل الحديث يزيد هم صدره أكثر لكنه غمغم بفتور:

_لا تحملي هماً...غداً يرزقها الله من هو أفضل منه.

ثم جلس أخيراً على مائدة الطعام ليقول بنفاد صبر:

_الطعام بسرعة يا أمي!!

رمقته والدته بنظرة متفحصة طويلة وهي تشعر بقلبها أن ابنها يخفي هماً ثقيلاً ففعلته مع رؤى منذ قليل غريبةٌ تماماً على طبعه ...

لكنها آثرت الصمت الآن فانتظرت حتى انتهيا من تناول طعامهما معاً بعد انصراف هيام...

ثم اقتربت منه لتسأله بحنان:

_ماذا بك يا ابني؟!!لم أرَكَ يوماً هكذا!!

تنهد بحرارة وهو يشيح بوجهه...

ماذا عساه يخبرها عن وجعه الذي يكاد يشطر قلبه نصفين؟!!!

عن جرحه الذي لا تزيده الأيام إلا نزفاً!!!

فاكتفى بصمت قصير أتبعه بقوله المقتضب:

_أريد أن أطلقها!!!

قالها وكأنه يحسم بينه وبين نفسه هذا الصراع الذي استنزفه طوال هذه الأيام...

حياته معها مستحيلة...

وهذا الوضع سيصيبه بالجنون حتماً لو استمر أطول من هذا...

بينما شهقت والدته بحدة وهي تخبط بكفها على صدرها قبل أن تهتف بجزع:

_لا يا ابني!!!إلا الظلم!!!الفتاة طيبة القلب ولم أرَ منها إلا كل خير...أنا...أنا صرت أعتبرها كابنتي تماماً!!!

ازدرد ريقه ببطء وهو يحاول البحث عن سبب...فهداه تفكيره لأن يقول كاذباً:

_لأجل الإنجاب!!

عقدت والدته حاجبيها بشك وهي تقول بحيرة:

_وهل ذهبتما لطبيب ما وأخبرك أنها لا يمكنها الإنجاب؟!!

زفر بقوة وهو يدرك أن هذا الأمر بالذات هو الذي سيقنع والدته بسبب طلاقه....

ثم استمر في كذبه ليقنعها بحجته:

_نعم...هي كذلك!!

ظهرت الخيبة على ملامحها الطيبة فأردف بخشونة:

_لكنكِ ستقسمين لي على كتاب الله أنكِ لن تخبري أحداً بهذا!!

أومأت برأسها في طاعة عندما غامت عيناه بحزنٍ لم تخفه حشرجة صوته بعدها:

_لا نريد أن نسوئ سمعتها لعل الله يرزقها بعدي من هو أفضل!!

هزت والدته رأسها وهي تغمغم بعدم اقتناع:

_لكن يا ابني...العلاج قد...

قاطعها بحسم وهو يقف مكانه هاتفاً بصرامة:

_أنا قررت هذا...وانتهى الأمر...سأنتظر حتى تخف صدمة شقيقها بطلاقه ثم أفاتحه في الأمر.

أطرقت برأسها للحظات في حزن واضح ثم تمتمت بأسى:

_لله الأمر من قبل ومن بعد...فكر مرة أخرى يا ابني...لا تظلمها!!!

لكنه تجاهل عبارتها ليتركها بخطوات متثاقلة نحو "عذابه " المقيم بالأعلى ...فهتفت والدته فجأة من خلفه وكأنها تذكرت شيئاً:

_لكن دع معها نقوداً كافية عند ذهابها للجامعة...اليوم استوقفها محصل رسوم الكهرباء لكنها لم تكن تملك مالاً كافياً...وأنا كنت بالخارج مع هيام نزور قبر والدك كما تعلم!!!

انعقد حاجباه بدهشة للحظة قبل أن يتمتم بارتباك:

_محصل ماذا؟!!!متى كان هذا؟!

عقدت حاجبيها قبل أن تجيبه بالإجابة التي كان يتوقعها!!!!

فعاد يزفر بقوة وهو يشيح بوجهه لاعناً نفسه ألف مرة...

كيف ظن بها سوءاً مع رجلٍ يحدثها أمام باب بيته؟!!!

وهل لو كانت بينهما علاقة لتجرأ على المجئ إلى هنا؟!!

غبي يا راغب...غبي!!!

بل مغيب...!!!

شكك فيها يحتل عقلك بضلالاته ولا يترك المجال لأي منطق!!!

شكك الذي يجعلك تتبعها خفية كضابط يتربص بلص...

والذي يدفعك لأن تؤذيها كل مرة وتؤذي نفسك قبلها!!!!

كانت هذه أفكاره التي احتلت رأسه قبل أن يعود لشقتهما...

لتحمله قدماه إلى غرفتهما التي استلقت هي على فراشها وقد رفعت غطاءها إلى رأسها كعادتها عندما تخاف...

كز على أسنانه بغضب جارف من نفسه ومن كل هذه الضغوط التي صار يرزح تحت أثقالها منذ تزوجها...

بل منذ عشقها...

لكن غضبه كله تلاشى ليحل محله شعورٌ جارف بالندم وهو يلاحظ ارتجافة جسدها الصامتة تحت غطائها...

فتقدم منها ببطء ليجلس على طرف الفراش وقد ذابت كلماته كلها على شفتيه...

ليلاحظ سكون حركتها وقتها وكأنها شعرت به فتظاهرت بالنوم...

ناداها همساً فلم تجب مكملةً تظاهرها "الفاشل"...

لكنه رفع الغطاء من على رأسها برفق ليهمس بصوت مختنق:

_أنا أعرف أنكِ مستيقظة!

كانت متكورةً على نفسها في وضع الجنين تحتضن جسدها بذراعيها...لكنها فتحت عينيها الباكيتين لتقوم من نومتها وهي تتحاشى النظر نحوه هامسة بصوت متقطع من البكاء:

_هل تريد شيئاً؟!!

فامتدت أنامله دونما إرادة منه ليمسح دموعها فاصطدمت عيناه بتلك العلامات الحمراء على خدها مكان صفعته...

انعقد حاجباه بألم وهو يتنهد بحرقة توازي عذاب قلبه بها لتقرأ هي كل هذا على ملامحه فتهمس بلوعة لونت براءتها:

_أنا لم أفعل شيئاً!!

أغمض عينيه عن ملامحها اللائمة ونفسه تحدثه باعتذار...

بل بألف اعتذار!!!

لكن كبرياءه لم يطاوعه في هذا فاكتفى بلمساته الحانية على وجهها...

بينما فاجأته هي بقولها :

_أنا أعلم!!

فتح عينيه ساعتها بحدة فرمقته بنظرة تذوب حسرة وهي تردف بين دموعها:

_أنا رأيت سيارتك تتوقف خلفي وعلمت أنك رأيتني مع ذاك الرجل...لكنني لم أتصور أبداً أن تصل شكوكك لهذا الحد...لقد ظننتك ستتبعني إلى هنا وتعجبت عندما تأخرت...لكن صفعتك تلك جعلتني أستنتج ما آل إليه تفكيرك!!

رفع رأسه بقنوط إلى أعلى وهو لايزال عاجزاً عن الرد فأكملت هي تدافع عن نفسها كما وجدت نفسها مضطرة:

_هو محصل رسوم الكهرباء ...الجيران أرشدوه إليّ عندما...

وضع أنامله على شفتيها مقاطعاً وهو يهمس بصوت متحشرج:

_أمي...أخبرتني!!

ثم أردف بنبرة تقطر غيرة :

_لكن حتى لو كان الأمر كذلك...لم يكن ينبغي لكِ أن تقفي معه هكذا تتبادلان الابتسامات كالحمقى في وسط الطريق!!

ابتلعت إهانته بصبر ثم غمغمت بأسف:

_الأمر لا يتعلق بابتسامة ولا وقوف...أنت لن تثق بي أبداً!!

أشاح بوجهه دون رد فأزاحت أنامله من على وجهها برفق ثم تكلفت ابتسامة واهية لتهمس بطيبتها النقية:

_حسناً...لا بأس...أنا آسفة لأنني أسقطت الكعكة...وددت لو تتذوقها!!

التفت نحوها ببعض الدهشة متأملاً ملامحها الكسيرة...

تعتذر؟!!!

هي التي تعتذر؟!!!

لكن لمَ العجب؟!!

هذه هي رؤى !!!

ملاكه -الآثم -الذي يصطلي بنار جحيمه معه دون أمل في رحمة!!!

بينما أحست هي بندمه فأردفت وكأنها تواسيه:

_لست مذنباً...بل أنا..بعض الخطايا لا تغفرها توبة.

ثم تهدج صوتها ببكائها من جديد وهي تردف بألم:

_ولو أنني كنت أتمنى لو...

انقطعت عبارتها عندما جذبها إلى صدره بقوة ليخفي وجهها في صدره للحظات قبل أن يرفعه نحوه متأملاً ملامحها بمزيج من ندم واشتهاء تملك كل خلاياه في هذه اللحظة....

ليجد نفسه يطوف بشفتيه على بشرة وجهها متمتماً دون وعي:

_أنا آسف...آسف..آسف...

فتذوب آخر حروفه مع قبلاته التي فقد السيطرة عليها تماماً...!!!

نعم...اعتذر أخيراً قاهراً أغلال كبريائه ...!!!!

ليس كبرياؤه فقط...بل مقاومته كلها...!!!

لينهل أخيراً من هذا النبع الذي طالما حرمه على نفسه ...

وهو يغيب معها تحت ظلال عاطفة محمومة سحبتهما معاً لدقائق عاصفة...

قبل أن ينتبه لصوت أناتها المكتومة بين شفتيه فانتفض رغماً عنه ليبتعد عنها بوجهه مخفياً إياه في خصلات شعرها التي أثارتها أنامله من لحظات...وهو يكاد يعتصر جسدها الضئيل بين ذراعيه بقوة غضبه في هذه اللحظة...

قبل أن يخبطها بقبضتيه على ظهرها ببعض القوة وهو يقاوم إحساسه الهائج بها الآن ...

ليهمس بألم ممتزج بغضبه:

_لماذا؟!!لماذا؟!!

قاومت إحساسها بالألم بين ذراعيه وهي تشعر أنه الآن يفوقها ألماً...

هو يريدها...

هو لا يبخسها قدرها كأنثى كما كانت تظن...

إحساسها منذ قليل بين ذراعيه كان أشبه بطوفان!!!

لقد عاشت مثل هذه اللحظات من قبل مع فهد لكنها لم تكن بهذه الحرارة...

ربما لأنها كانت مغلفة بإحساسها بالذنب وقتها...

وربما لأنها لم تكن بمشاعر حب حقيقية من ناحيته هو على الأقل...

لكن شعورها مع راغب الآن يختلف...

شعورها به دافئ مثله...

لماذا؟!!!

تراه مثلاً...يحبها؟!!

خفق قلبها بجنون مع هذا الأمل الذي انتعش في صدرها وهي تسترجع كل ما فعله لأجلها منذ زواجهما...

لا...هذه ليست مجرد مروءة...

هذه تصرفات "عاشق" بثياب "فارس" كانت محظوظة كثيراً بملاقاته!!!!

وأمامها كان هو يكاد يحترق....

وكأنما نُسفت جبال عاطفته كلها فجأة لتتفتت صخورها مدميةً قلبه وروحه....!!!

كان يضغطها بين ذراعيه بقوة شعوره بقيمتها...

وخسارتها!!!!

أناتها الضعيفة التي جعلته يُعرِض عنها كانت تدوي في أذنيه كأصوات القنابل...

وهو يتصور غيره سمعها هكذا...بهذه الحرارة وهذا الشغف...!!!

ليتأجج سعير الجحيم بصدره من جديد وهو يدفعها عنه أخيراً بخشونة...

قبل أن يهب واقفاً مكانه وهو يلهث بعنف....

مستحيل...!!

كل ما يمكن أن يجمعهما مستحيل!!!

هو لن يستطيع أن يتناسى خطيئتها...

وها هو ذا بدأ يفقد مقاومته وسيطرته على نفسه...

وهذا هو الشئ الذي لن يسامح نفسه عليه أبداً!!!

هو لن يكون الرجل الذي باع كبرياءه لأجل شهوة عاطفته ...

سيمزق قلبه بيده لو أجبره عليها!!!!

لهذا تمالك رباطة جأشه بعد صمت قصير...

ثم حسم أمره ليهتف أخيراً بحزم:

_لابد أن نسرع بأمر الطلاق...كلانا يظلم الآخر بهذه الزيجة!!!

طلاق؟!!!

طلاق!!!!!

والآن؟!!

بعدما كادت توقن من عاطفته نحوها؟!!!

اتسعت عيناها بصدمة للحظات تحاول استيعاب كلماته...

لماذا يريد أن يتركها؟!!

لماذا يظلمها؟!!

لا...هو لم يظلمها...

هي تتفهم دوافعه خاصةً بعدما حدث بينهما منذ قليل...

هي التي تظلمه بعلاقة كهذه تحرمه كل حقوقه....خاصة لو كان حقاً يحبها كما تظن !!!

لهذا استجمعت كل قوتها لتقف هي الأخرى أمامه هامسة بصوت متهدج:

_معك حق!!أنت تحملتني كثيراً...أنا كنت أنتظر أن تقولها في أي وقت!!

ورغم أن عبارتها كانت شديدة الاستسلام...لكنها استفزت مشاعره كلها ليجد نفسه يهتف بحدة وكأنه يقنع نفسه قبل أن يقنعها:

_أنا يحق لي أن يكون لي زوجة وأطفالاً...يكفينا ما ضاع في هذه العلاقة التي لا معنى لها!!

فابتسمت ابتسامة واهية وهي تقترب منه لتنظر لعينيه نظرة طويلة وكأنها تودعهما...

قبل أن تقول بتماسك:

_ربما كانت لديك بلا معنى...لكنها كانت تعني لي الكثير...أنت محق...وأظن هذا التوقيت مناسباً...غداً نغادر لبيت عبد الله في الصباح الباكر...لا أريد أن

يراني أحد وأنا راحلة...وأنا سأخبر عبد الله أننا اتفقنا على الطلاق ...

أشاح بوجهه دون رد ..فأردفت بشرود:

_عبد الله يحتاجني الآن بعد طلاقه لصفا...وظني أنه لن يجادلك كثيراً في أسباب...كبرياؤه سيمنعه من استرضاء رجل رفض شقيقته...لا تقلق...سيكون الأمر سهلاً!!

تحشرج صوتها في كلمتها الأخيرة لتلتقي عيناهما في حديث طويل...

ولأول مرة يقف كلاهما أمام الآخر وهو يفهمه تماماً...

لم تعد هناك أي حواجز بين عقليهما...

أو قلبيهما...

الآن وضحت الصورة...

هو حبٌ لا تؤيده سوى العاطفة ويعارضه كل ما سواها!!!

وحبٌ كهذا هو أشبه بجنين مشوه لن يُكتَب له اكتمال ...

========

قضى ليلته في الغرفة المجاورة وقد عجز أن يبقى معها في نفس الغرفة ككل ليلة...

وبينما بدت ملامحه وكأنما قُدّت من صخر كان قلبه ينتفض بثورته خلف أسوار ضلوعه...

كيف سيفرط فيها هكذا ؟!!

كيف سيتركها؟!!

هو يعلم عن مخاوفها المرضية من الوحدة فماذا ستفعل في بيت عبد الله وحدها بعد طلاقه لصفا وغيابه طوال اليوم؟!!

انعقد حاجباه بغضب وهو يهب من فراشه ليصرخ به عقله...

وماله هو ومالها؟!!!

هل سيبقى عالقاً في هذه الدوامة للأبد؟!!!

بقاؤهما معاً يهذا الوضع ظلمٌ لها نفسها قبل أن يكون ظلماً له...

هي تستحق زوجاً وحياة...

وهو الآخر !!!

نداء العقل لا يدعُ مثقال ذرة لتردد في هذا القرار...

الطلاق هو أسلم حل!!!

وبهذا الإصرار قام من مكانه ليتطلع للساعة جواره وقد أشارت عقاربها للسادسة صباحاً..

توقيتٌ مناسب لو أراد رحيلها قبل أن يستيقظ أحد كما كانت ترغب...

غادر غرفته إلى غرفتها ليجدها ترتدي ملابسها الكاملة استعداداً للخروج ولم تكد تلمحه حتى تقدمت نحوه لتهمس دون أن تنظر إليه:

_صباح الخير...أنا مستعدة!!

التفت برأسه نحو حقيبة ملابسها التي كانت قد أعدتها هناك وتركتها مفتوحة بينما تناولت هي علبة كبيرة من على طاولة زينتها لتردف بتماسك هش:

_هذه هي كل هداياك...

زفر بقوة دون رد عندما امتدت أناملها لتخلع قلادتها مع بقية كلماتها:

_لا تنقصها سوى هذه!!

لكنه ما كاد يدرك نيتها حتى قبض على أناملها بقوة ليمنعها ....

فالتقت عيناهما في دقيقة صمت حملت دهوراً من مشاعر ...

قبل أن يقطعه هو بقوله الخشن وكأنه يبرر لنفسه ولها:

_لا تخلعيها...هي هدية أمي وليست هديتي.

دمعت عيناها في تأثر ثم همست بعاطفة غلبت امتنانها:

_يعلم الله كم أحببت والدتك حقاً...لو كان الأمر بيدي لطلبت منك أن أبقى على اتصال بها...لكنني أعلم أن هذا لن يليق.

سحب أنامله بعيداً عنها وهو يشيح بوجهه كاتماً غصة حلقه...

فتمالكت صلابتها من جديد لتقول بابتسامة شاحبة:

_لم يتبقَ لي سوى بعض الأشياء البسيطة ...سأحضرها لنرحل!!

قالتها وهي تغادر الغرفة بخطوات سريعة عندما وقع بصره على دفترها الليموني مندساً بحقيبة يدها المفتوحة

...

فلم يستطع مقاومة فضوله ليقرأ ما كتبته...

لآخر مرة...!!!

على الرغم مني قد رحلت...

وخلف سدود يأسي...وقفت...

فما حيلتي...

سوى صمت...وصمت؟!!!

بإثمي أقف على باب حب...

وليتني أمامه ما وقفت!!!

أنتظر رجماً يطهر ذنبي...

فهلّا فعلت!!!

بميدان الخطيئة أنا قد صُلبت...

ووراء قضبان ذنبي سُجنتْ...

وبيني وبينك برقٌ ورعدٌ...

ومطرٌ وبرقْ...

والشمس ماتت على أرضنا...

بلا أي صوت...

فسافر حبيبي حيث شئت...

ارحل وجرب ما أردت...

لكن تذكر مهما ابتعدت...

ستبقى الحياة بعينيّ ...أنت**!!!**

على الرغم مني قد رحلت...

وطوحت شوقي في الهواء...

لأني أعلم مهما اقتربت...

وجودي وغيبتي لديك سواء...

فقل لمن ستجئ بعدي..

أني عشقتك بلا رجاء...

وبأن حبك في دمي ...

قد كان أكبر الأخطاء...

قد كان أسلم الأخطاء...

قد كان...أجمل الأخطاء!!!

أغلق الدفتر بأنامل مرتجفة وهو يلعن نفسه التي دفعته للقراءة...

لماذا يصر على جلد نفسه بها؟!!!

ألم يكفهِ ما ناله من عذاباتها؟!!!

هي سوطٌ من ضعف يجلد ظهر كبرياءه...

وهو لم ولن يكون يوماً رجلاً ضعيفاً...

لكن ماذا عساه يفعل في تلك القبضة الثلجية التي تعتصر قلبه بعد كلماتها الآن..؟!!!

وكيف يتركها وهو يدرك الآن بحق أنها تبادله عاطفته؟!!!

آه...لو كان العفو يُشتَرى لافتدى عفوه عنها بكل ما يملك...!!!

لكنه لا يستطيع...

ذنبها القديم لازالت شياطينه تتراقص على ملامحها البريئة فتطمس ملائكيتها لتجعلها أشبه بمسخ مشوه!!!

وليته كان يؤذي نفسه فقط بهذه العلاقة بل يؤذيها هي الأخرى...

صفعته القاسية لها بالأمس لن تكون الأخيرة طالما جواد الشك بقلبه لازال ينطلق بجموح يوازي جموح عاطفته...

العقل يقول أن "البتر" الآن أرحم بهما معاً من علاجٍ طويل مؤلم ربما لن يؤتي ثماره!!!

انقطعت أفكاره عندما شعر بحركتها القريبة فأعاد دفترها مكانه بسرعة قبل أن تدخل هي حاملةً بعض حاجياتها لتضعها في حقيبتها المفتوحة ثم تغلقها بحزم ...

قبل أن تهتف بقوة هو يدرك الآن أنها مصطنعة:

_هيا بنا قبل أن يستيقظ أحد!!

أغمض عينيه بألم ونفسه تسول له وداعاً قصيراً...

مجرد إحساس أخير بها بين ذراعيه ...!!!

لكنه أخمد كل هذا بقوة سيطرة يُحسد عليها قبل أن يحمل حقيبتها ليغادرا معاً شقتهما نحو الباب الخارجي للمنزل...

بينما كانت هي تهبط معه الدرج وهي تشعر بكل درجة تسحب روحها أكثر...

قلبها صار يخفق بقوة حتى شعرت أنها تفتقد أنفاسها التي تلاحقت بجنون...

وانتابتها ارتعاشة قوية جعلتها تتشبث بحقيبة يدها بشدة وكأنما تستمد منها أي دعم...

هل حقاً سينتهي الأمر ها هنا؟!!!

هكذا بهذه البساطة؟!!!

هل حقاً ستغادر حياته للأبد؟!!!

نعم...هذه هي الحقيقة التي قضت ليلتها تحاول إقناع نفسها بها..

هذا هو الواقع الذي يجب عليها تقبله....

هذا هو عقاب القدر لها على خطيئتها التي لن تمحوها توبة....

هذا هو جزاؤها العادل الذي ستتقبله راضية بمنتهى القوة...

قوة؟!!!

أين هي؟!!!

أين قوتها المزعومة التي ظنت أنها ستسندها في موقف كهذا؟!!

أين قلاع صلابتها التي تعشمت في الاختباء خلف أسوارها؟!!!

أين سحب الأمل التي ظلت تطاردها طمعاً في أن تمطر فرجاً قريباً؟!!!

هي لا تريد الرحيل...

لا تريد العودة لبيت عبد الله البارد لتجد نفسها وحيدة من جديد...

لا تريد أن تُطرد بخطيئتها خارج هذه الجنة التي عاشتها هنا بدفئها وحميميتها معه هو وعائلته...

لا تريد التخبط من جديد كطير ذبيح بين جدران ماضيها الملوث وغدها المجهول....

فلتمت قبلها!!!

فليخرج آخر نفس لها هنا...جواره...في بيته!!!

قلبها يشعر أن أمانها كله سيتلاشى متى غادرت هذا البيت...

قوتها "المستحدثة" التي تدعيها ستنهار مع أول خطوة لها بعيداً عنه...

هو كان مصدر أمانها وقوتها ولو تركها...

ست....!!!!

انقطعت أفكارها عندما وصلا لباب المنزل لتتعلق عيناها بهلع بمفتاحه الذي أخرجه من جيبه ...

وما كاد يولجه في مكانه حتى امتدت أناملها المرتجفة لتتشبث به بقوة هامسة بصوت لاهث:

_انتظر...فقط...قليلاً...

تشنج كفه تحت لمستها لكنه لم يشعر به مع تعلق عينيه بملامحها التي شحبت فجأة وصدرها الذي كان يعلو ويهبط في انفعال فضحته أنفاسها اللاهثة...

فانعقد حاجباه بقلق طغا على عاطفته وهو يلاحظ برودة كفها المتشبث به ليهتف بجزع:

_أنتِ بخير؟!!

ازداد كفها تشبثاً به حتى بدت وكأنها تعتصره بقبضتها الصغيرة لتزداد ارتجافة جسدها مع همساتها اللاهثة:

_لا أريد...

وضع حقيبتها جانباً بعنف ليمسك كتفيها مسنداً إياها وقد بدت على شفا فقدان وعيها عندما همست بضعف من بين شفتيها الزرقاوين الآن:

_لا أريد ترك هذا البيت...لا أريد...

لتنقطع عبارتها بسقوطها مغشياً عليها بين ذراعيه!!!

=============

أفاقت من إغماءتها القصيرة على همسه الجزع باسمها ففتحت عينيها لتجد نفسها على فراشها بغرفتهما...

كانت تشعر ببرودة أطرافها مع ارتخاء جسدها كله بوهن ...

لتنتبه لمذاق الماء المملح في فمها حيث أمسك هو كوباً صغيراً ليسقيها منه هاتفاً ببعض الارتياح رغم القلق المسيطر على نبراته:

_ضغطك كان منخفضاً للغاية...لابد أن نراجع طبيباً!!

رفعت إليه عينيها المتعبتين لتهمس وقد استعادت تركيزها:

_لا داعي لهذا...هي مجرد حالة طارئة!!

ثم تحاملت على نفسها لتقوم من نومتها فتستند على ظهر الفراش مردفة بقلق:

_هل شعر أحدهم بشئ ما؟!!

انعقد حاجباه بضيق وهو يهز رأسه نفياً...

فأومأت برأسها دون رد عندما قام هو من جوارها ليقول بنبرته الخشنة:

_سأحضر لكِ شيئاً تأكلينه ...ربما هذا هو سبب إغماءتك!!

لكنها جذبت كفه لتهز رأسها نفياً قبل أن تهمس برجاء:

_اجلس يا راغب...أريد التحدث إليك في أمر ما.

فجذب كفه ببعض الخشونة التي عارضت عبارته الحنون:

_لا حديث قبل أن تأكلي !!!

تنهدت بحرارة مغمضةً عينيها بينما تركها هو ليعود بعد قليل حاملاً بعض الشطائر ...

ليلفهما صمتٌ قصير حتى اطمأن على حالها نوعاً بعد تناولها للطعام...

فسألها باهتمام:

_تشعرين أنكِ أفضل؟!!

رفعت إليه عينيها بنظرة طويلة حملت كل مشاعرها قبل أن تهمس بتردد:

_تريدني أن أفعل؟!

تنهد بحرارة وهو يدرك مغزى سؤالها خاصةً بعد إغمائها الانفعالي الذي جعله يتأكد أكثر من مشاعرها نحوه...

ثم ربت على كفها هامساً بألم لم يغادره حنانه بعد:

_افهميني يا رؤى!!!قراري هذا ليس لأجلي أنا فحسب بل لأجلكِ أيضاً...أنتِ تستحقين أن تعيشي حياة طبيعية مع رجل يقدرك...حياتكِ معي ستدفنكِ حية.

فدمعت عيناها وهي تهمس برجاء مشبع بعاطفتها:

_ولو أخبرتك أنني أنا أريد البقاء هنا...لا أريد ترك بيتك هذا...أنا لم أشعر في حياتي كلها بالأمان كما شعرت هنا...

أشاح بوجهه في ضيق وهو يشعر أنه لن يحتمل كل هذا الضغط...

هو بالكاد تحامل على نفسه ليقنعها بوجوب افتراقهما...

توسلها هذا يهد آخر حصون مقاومته...

من سيقدر على إبعادها وهي ترجوه البقاء بكل هذه الحرارة؟!!!

من سيقدر على خذلانها وهي تستنجد برجولته قبل عاطفته ؟!!

من سيقدر؟!!

خاصةً عندما أردفت هي بين دموعها:

_اعتبرني مجرد رفيقة سكن...لو أردت حتى ألا أجعلك تراني فسأفعل...أنا لا أريد منك سوى أن أظل هنا!

عاد يلتفت إليها بملامحه التي فضحت معاناته ...فأكملت رجاءها بحرارة:

_تزوج كما تشاء...ولو أردتني أن أشرح حقيقة وضعنا لامرأتك الجديدة فسأفعل.

انعقد حاجباه بشدة وهو يضغط كفها في راحته هاتفاً :

_وما الذي يجبرك على هذا؟!!هل تظنين العمر لعبة؟!!

هزت رأسها نفياً وهي تمسح دموعها هاتفةً بانفعال:

_ولأنه ليس لعبة أنا لا أريد المجازفة...أنا وجدت أماني هنا في بيتك وسط عائلتك...ولا أريد أن أضحي بكل هذا الآن.

هز رأسه دون اقتناع فأردفت برجاء خافت:

_أنت وعدتني أن تكون لي أخاً وصديقاً...وأنا لن أطمع بالمزيد...فقط كن بجانبي!!

قالتها وهي تلقي رأسها بين ذراعيه لتريح جبينها على كتفه فكتم آهة ألم كادت تغادر قلبه قبل شفتيه...

يالصبري عليكِ يا وجعي...

ويالحيرتي معكِ!!!

ماذا أفعل فيكِ وأنتِ تتوسلين قربي بكل هذه الحرارة؟!!!

لقد تواطأتِ مع قلبي عليّ...

كلاكما يحنّ لصاحبه ووحدي أقف بينكما مكبلاً بقيودي...

كلاكما يشدني لطريق لا تشتهيه خطواتي ...

كلاكما يذبحني بعاطفة لا طاقة لي بها...ويقهرني بسلطان لا أملك مقاومته...

كلاكما دائي يا رؤى...

أنتِ وقلبي!!!

وكعادته كتم كل هذا بين ضلوعه مكتفياً بتنهيدة حارة وهو يربت على رأسها للحظات...

قبل أن يهمس بخفوت:

_حسناً يا رؤى...كما تشائين.

رفعت إليه عينين ممتنتين رغم الخيبة التي ظللتهما...

وقد شعرت الآن فقط أنه حتى ولو أبقاها على ذمته فهي لن تكون له يوماً زوجة...

وأن وجودها هنا واجبٌ ثقيل تحت رداء مروءته...

لكنها لا تملك خياراً آخر...!!!

قطع أفكارها عندما قام من جوارها ليقول برفق:

_هيا لتذهبي إلى أمي كي أكون مطمئناً عليكِ....أراكِ مساءً.

وعند عودته في المساء كانت تنتظره بترقب ..لتفاجأ بطلبه الغريب أن يتناولا العشاء مع والدته وليس في شقتهما كالعادة...!!!

كانت تراقبه بتفحص ملهوف وهي تشعر بانقباض صدرها دونما سبب...

عندما أنبأتها طريقته الجديدة في تحاشي النظر إليها أن شيئاً ما بينهما تغير...

رغم تقبله لرجائها بالبقاء هنا...

حتى انتهيا من طعامهما فذهبت لتعد له الشاي ولم تكد تحضره لتضعه أمامه...

حتى فوجئت بقوله المقتضب لوالدته:

_أخبري هيام أنني أريد الزواج من شقيقتها!!

====================

في أحد المستشفيات الاستثمارية الكبيرة ب"أبو ظبي" جلس على طاولة طعامه في مطعم العاملين يتابع حاسوبه المحمول باهتمام...

غافلاً عن عينيها اللتين كانتا تراقبان تفاصيله بنهم...

شاله الفلسطيني المميز بلونيه الأبيض والأسود والذي يصر على ارتدائه في جميع أوقاته متى خلع معطفه الأبيض...

وكأنه لا يعيش إلا داخل ردائين لا ثالث لهما...

عمله ووطنه...

طبيبٌ...وفلسطيني!!!

وإن دفعته الظروف لمغادرة وطنه قسراً فهو لايزال يحمل رائحته بين أنفاسه...!!!

لتنتقل عيناها بعدها لتفحص باقي ملامحه...

لحيته التي زينت وجهه مع شاربه المنمق...

أنفه الأشم المرتفع دوماً في كبرياء...

عيناه الزرقاوان الصافيتان بلون البحر...

واللتان تعكرتا الآن بمرارة حقيقية جعلتها تدرك ما يطالعه على الشاشة أمامه!!!

دكتور "جهاد" كعادته يتابع الأخبار السياسية أولاً بأول...

ويقينه أنه سيعود يوماً لأرض وطنه ليعيش آمناً دون خوف !!!

_زهرة!!!كُفّي عن هذا!!!

كانت هذه زميلتها التي أردفت بنبرة عاتبة:

_لا تتعبي نفسكِ في التعلق بحبال واهية...الجميع يعلمون أن دكتور جهاد ليس لديه وقتٌ للحب...هو لا يفكر سوى في عمله فحسب!!!

فابتسمت زهرة بحنان لتعاود ترقبه بلهفة حملت عاطفتها قبل أن تجيبها بحالميتها المعهودة:

_وهذا ما يعجبني فيه...هذا الرجل عندما يعشق ستكون امرأته هي وطنه الثاني!!!

فابتسمت زميلتها بدورها وهي تهز رأسها هامسة:

_حتى لو فعل!!هل تظنينه ينظر لممرضة تعمل معه؟!!

مطت زهرة شفتيها في استياء وهي تدرك صحة منطق زميلتها...

لكن من قال أن القلوب تعترف بمنطق؟!!!

الحب شعاعٌ من نور يخترق قلوبنا دونما استئذان...

فيصم آذاننا عن أي صوتٍ عداه!!!

هي تعلم أن الفوارق بينهما كبيرة...

هي مجرد ممرضة حديثة التعيين هنا...وهو أمهر طبيب في هذا المشفى!!

هي عادية الملامح لا يكاد يلاحظها أحد...وهو شديد الوسامة تلاحقه أنظار النساء أينما حلّ...

هي هادئة الطباع ممن يفضلون "السير جوار الحائط" على حد تعبيرنا الشعبي...

وهو صاحب بثورته على الظلم والفساد مهما ناله من مشاكل!!!

باختصار...

هي قطرة ندى حطت برقة على ورقة شجر...

وهو بحرٌ هائج بأمواج هادرة لا تعرف سكوناً !!!

ورغم كل هذا عشقته...

وتعشقه...

وستظل تعشقه بكل كيانها لأنه ...يستحق!!!

لهذا تجاهلت اعتراض زميلتها لتحمل كوب "الشاي الأخضر" الذي تعرف أنه يحبه بعد تناول طعامه...

ثم توجهت نحوه لتقول بابتسامة فضحت عشقها للجميع إلا هو:

_"الشاي" يا دكتور!!

رفع إليها عينيه بعدم اكتراث للحظة قبل أن يغمغم بامتنان:

_شكراً يا زهرة...لا تتعبي نفسكِ فيما بعد...أنا سأحضره لنفسي متى رغبت!!

ورغم شعورها بالخيبة من عبارته لكنها تشبثت بابتسامته الواسعة التي منحها لها بعدها واعتبرتها جائزة اليوم كله...!!!

لتغادره بخطواتٍ مرتبكة جعلتها تتعثر في سيرها ليزداد ارتباك خطواتها...

قبل أن تعود لزميلتها التي كانت تراقبها وهي تكتف ذراعيها هامسةً بخبث لا يخلو من مرح:

_رحم الله عقلك يا شهيدة العيون الزرقاء!!!

==================

كانت واقفةً أمام نافذة غرفتها ترقب السماء بشرود...

لقد فاتها منظر الشروق اليوم وكم كانت تحتاج إليه...

نعم...هي الآن تفتقد أي شعور بالدفء...بالأمل...بالاحتواء...

ولو حتى من مجرد مراقبة شعاع شمسٍ سيختفي كما ظهر لأنها سنة الحياة!!!

أيامها الأخيرة هنا كانت قطعة من عذاب ولولا مكالماتها اليومية لرحمة لأصيبت بالجنون...

محبوسةٌ طوال اليوم في غرفتها هنا...وعندما طلبت منه الخروج للمشغل رفض بسبب إصابة ذراعها...

نعم...عاصي تغير كثيراً منذ مواجهتهما الأخيرة واستعاد قناع قسوته كاملاً...

بل إنها -بالكاد- تراه ...إذ يكتفي بمجرد سؤال عابر عليها في آخر كل ليلة قبل أن يعود وحيداً إلى غرفته...

حتى مواعيد الطعام التي كان يحافظ عليها لأجل تناوله معها أهملها وصار يأكل وحده...

وكأنه يبرهن لها على وضعها الجديد هنا...

مجرد وعاء لطفله المنتظر...!!!

واليوم موعدهما ليذهبا للمشفى للاطمئنان على حال ذراعها ومتابعة طبيبة نسائية كما يريد هو...

أغمضت عينيها في ألم ونفسها تفيض حسرةً ...وحيرة!!!!

إنها لا تريد هذا الطفل...وكم تود لو تدعو الله ليل نهار ألا يأتي...

لكنها -للعجب- تتمناه!!!

نعم...تريد طفلاً من الرجل الذي أحبته كما لم تحب رجلاً قبله...

ومنحها ما لم يمنحه لها رجلاً قبله...

وخذلها كما لم يفعلها رجلٌ قبله!!!

نعم...بالأمس خذلها عزيز بضعفه لكنها تقبلته بنفسٍ راضية...

واليوم يخذلها عاصي بقسوته لكنها لا تستطيع تقبل هذا أبداً!!!

ربما لأن حبها لعاصي أقوى ...

احتياجها له أشد...

انتماؤها له أرسخ...

ماذا تحكي عن اشتياقها له طوال هذه الأيام رغم نفورها من وجهه الجديد؟!!

وصراع قلبها وعقلها بشأنه صار جحيماً حقيقياً تكتوي بناره كل يوم...

بل كل دقيقة تمر بها دونه...

قُطعت أفكارها عندما انتبهت للخادمة خلفها ترص أطباق الطعام على المائدة وهي تخبرها أن السيد عاصي سيتناول إفطاره هنا معها وليس في غرفته...

فابتسمت بمرارة وهي تدرك مغزى تصرفه...

عاصي لن يدعوها لغرفته من جديد...

هي خرجت منها برغبتها فلتدخلها إذن برغبتها كما أخبرها يومها...

تنهدت بحرارة وهي تتخذ مكانها على المائدة تنتظر حضوره عندما دخل هو بخطواته الثابتة ليصرف الخادمة بأمر صارم...

لكن الخادمة وقفت مكانها لتغمغم بتردد:

_السيدة لا تستطيع تناول طعامها بمفردها ...ذراعها...

لكنه قاطعها بصيحة هادرة وهو يعيد أمره لها بالخروج فهرولت للخارج مغلقةً الباب خلفها وكأنها تهرب من عقاب توقن أنه سيلحق بها حتماً...

بينما اكتفت ماسة بإطراقها الصامت للحظات وهي تلمحه يتخذ مقعده أمامها ...

فتحاشت النظر نحوه قبل أن تنتبه لأنامله التي امتدت بشطيرة صغيرة أمام شفتيها...

فابتعدت بوجهها في إباء ثم رفعت ذراعها الأيسر السليم لتقول بمكابرة:

_لا تتعب نفسك...يمكنني استخدام هذا.

لم يرد عليها للحظات قاومت فيها النظر إليه باستماتة...

قبل أن يقوم من مكانه ليجلس جوارها ثم تملّك قبضتها اليسرى بأحد كفيه وكأنه يمنعها استخدامها...

ليعاود تقريب الشطيرة من شفتيها بإصرار صامت!!!

أغمضت عينيها بقوة وهي تحاول الحفاظ على ثباتها أمامه بشق الأنفس...

جسدها كله يحسد أناملها المستكينة بدفء قبضته...

يالله...كم افتقدت شعورها بالسكينة معه...

ولولا سدودٌ من تعقل وكبرياء لألقت رأسها على كتفه الآن تستعيد هويةً لم تعد تجدها إلا معه!!!

خاصةً عندما همس بصوته الذي مزج حنانه بسيطرته:

_أنا لن أملّ...وأنتِ تعلمين أنني لا أستسلم!!

فانفرجت شفتاها ببطء وهي تقضم الشطيرة باستسلام غافلةً عن نظراته الدافئة التي كانت تطوق ملامحها بحنانٍ مدموغ باسمها ...هي فقط!!!

حتى انتهت منها كاملة فتمتمت دون أن تنظر إليه:

_شكراً..لقد شبعت...يمكنك الآن تناول طعامك!

قالتها وهي تحاول سحب كفها من قبضته لعلها تستعيد سيطرتها على نفسها...

لكنه تشبث بها وهو يبدأ في تناول طعامه بصمت مكتفياً بنظراته المتفحصة نحوها والتي شعرت هي بها لكنها لم ترفع عينيها نحوه...

رحم الله امرئ عرف قدر عشقه!!!

وهي تدرك جيداً أن نظرة واحدة لشموسه الزيتونية الآن كافية لإذابة جليد مشاعرها كله لتفيض أنهارها مغرقةً إياها من جديد...

حتى انتهى من طعامه فقالت هي بفتور:

_متى سنخرج ؟!

قام من مكانه ليوقفها معه قائلاً بحسم:

_الآن...هيا لتبدلي ملابسك.

أومأت برأسها ثم قالت بهدوء مصطنع:

_حسناً...كما تريد!!

رمقها بنظرة طويلة وهو يشعر بعظم مقاومتها لإحساسها به...

نعم...ربما يكون عشقها قوياً لكنها- هي- لا تقل عنه قوة!!!

وهو يثق بقدرتها أن تدهس كل مشاعرها تحت قدميها متى تعارضت مع مبادئها وثوابتها...

تماماً كما يثق بقدرته -هو -على فعل المثل!!!

كلاهما عنيدٌ مكابر...يحتاج لصاحبه...

لكنه لا يعترف!!!

لهذا اقترب منها أكثر ليمسك كتفيها برفق هامساً ببعض الخبث وهو يضغط على حروف كلماته:

_ملابسكِ في غرفتي.

فازدردت ريقها ببطء وهي تتبين أنها لم تنقل ملابسها كاملةً إلى هنا مكتفيةً ببعض القطع المنزلية البسيطة فهي لم تكن بحاجة للخروج من قبل...

لكنها لم تفهم ماذا يريد من كلماته التي تفوق معناها المجرد بكثير...

أن تنقل ملابسها من غرفته إلى هنا؟!

أم تعود هي إلى غرفته؟!!

عقلها وكبرياؤها يوسوسان لها بالأولى...وقلبها يكاد يقسم على الثانية...!!!!!

ووسط حيرتها بينهما عادت تغمغم بفتور:

_هل تريدني أن أنقلها هنا؟!

فشدد ضغط قبضتيه على كتفيها وقد استفزه كثيراً هروبها من لقاء نظراته ليهمس ببرود اكتسى ببعض القسوة:

_أنتِ..ماذا تريدين؟!

خفق قلبها بقوة وهي تشعر أنها تبذل الكثير لتقاوم كل هذا الصراع الذي تعيشه معه...

لتستوعب كل هذا القدر من متناقضاته الغريبة...

حنانه الذي يرفعها لأعلى سماوات الرضا...

وقسوته التي تخسف بها أرض الحرمان!!!

وبينهما يقف هو مكانه راسخاً كجبل مطالباً إياها بالاختيار...

وكأنه أبقى لديها خياراً!!!!

لهذا أخذت نفساً عميقاً تتمالك به قوتها ثم قالت بحسم:

_لا داعي لتلميحك هذا الآن...أنا لم أترك غرفتك تدللاً ولا عصياناً..فأنا امرأة تعرف حقوق زوجها جيداً...أنا فقط لم أشأ إزعاجك أثناء فترة إصابتي...لكن اليوم يمكننا العودة لما كنا عليه!

قالتها وهي تزيح كفيه من على كتفيها برفق لتغادر غرفتها نحو غرفته حيث فتحت خزانة ملابسها ببعض العصبية عندما لحقها هو ليغلق الباب خلفه وهو يرمقها بنظراتٍ متفحصة...

لازالت تلك الماسة تبهره بردودها...

لقد توقع منها المزيد من العناد أو التمرد...

أو ربما -على العكس- استسلاماً عاطفياً حاراً...

لكنها لم تمنحه هذا ولا ذاك!!!!

بل أعطته مجرد طاعة باردة بنكهة النفور !!!

ومن سيرضى بهذا؟!!!!

هو؟!!!

أبداً!!!!

هي عادت لغرفته بإرادتها كما كان يرغب والآن دوره هو ليحيي عنقاء عاطفتها التي تجاهد هي لدفنها تحت رمادها...

وبهذا الإصرار توجه نحوها عندما انتهت من اختيار ملابسها فوضعتها جانباً لتغمغم باقتضاب:

_هلّا دعوت الخادمة لمساعدتي في تبديل ملابسي؟!

لكنه اقترب منها بخطوات ثابتة ليهمس بحزم:

_أنا سأفعل!!

اتسعت عيناها بدهشة للحظة لكنها عادت تغمضهما بقوة عندما امتدت أنامله تفك أزرار منامتها مع همسه الحاني :

_ألم تفتقدي اعتنائي بك كطفلتي؟!!

هنا وجدت أناملها دون وعي تتشبث بأنامله هو على صدرها ...تضمها إليها باشتياق...!!!!

كم أحتاجك...

أحتاجك أكثر من أنفاسي...

لا تصدق انعقاد الحاجبين سلني أنا عن مقلتين تحتهما تذوبان اشتياقاً...

لا يغرك برود صوت في حضرتك كم اختنق بدموعه في غيابك...

لا تستمع وسط كل صراخ صمتي إلا لهمسة روحي الصادقة...

أحتاجك!!!

حتى في فورة غضبي...أحتاجك...

في قمة سخطي...أحتاجك...

وكيف لا؟!!

وأنت الدمع والضحكات...

وأنت الحِلّ والترحال...

وأنت البحر...والمرفأ...!!

أحتاجك...

فوق ما يتصور عاشق...

وأكثر مما يتغنى به شاعر...

شعوري بك ليس مجرد عاطفة أنثى لرجلٍ منحته قلبها...

بل شعور لاجئ بوطن...

شعور غريبٍ بسكن...

وشعور خاطئٍ بتوبة!!!

أحتاجك رغم كل سدود الخوف التي تقف بيننا...

رغم الأنواء العاصفة التي تجذب كلينا بعيداً عن صاحبه...

رغم ألف "لا" تغرس مخالبها في صدر عشق يهفو لكلمة"نعم"!!!!

أحتاجك...

أحتاجك!!!!

كانت هذه نداءات قلبها الصامتة التي عاندتها شفتاها باقتدار لكنها وصلته كاملةً دون نقصان...

وكأنها اخترقت صدرها لصدره بنورانيتها لتصيب هدفها برمية سديدة!!!

فاقترب بوجهه أكثر ليهمس آمراً:

_افتحي عينيكِ!

لكنها هزت رأسها نفياً وهي تحاول التشبث بأسوار كبريائها لتهمس بنبرة عاتبة رغم خفوتها:

_لن تقوى على حديثهما!!

فتألقت عيناه بعاطفة خالصة وهو يلصق جبينه بجبينها هامساً:

_تظنين أنكِ بهذا تخفين حديثهما عني؟!!

ذابت الحروف على لسانها وقد عدمت أبجديتها فجأة....

لتعرف شفتاه طريقهما إلى شفتيها بشغف حنون وهو يردف بحسم :

_أنا أجيد انتزاع أسرارك!!

======

انتفضت في غرفتها عندما سمعت صوت إطلاق النار بالخارج فقامت من مكانها لتخرج نحو بهو القصر مستفهمة عن مصدر الصوت فأنبأها أحد الخدم أنه السيد عاصي في مكانه الخاص بالرماية...

عقدت حاجبيها بدهشة وقد توجست خيفة من الأمر...

عاصي لا يمارس تدريبه هذا في هذا الوقت من الليل...

فما الذي يدفعه لهذا الآن؟!!

لكن الخادم أكمل ثرثرته المتعاطفة معها مخبراً إياها أنه -عاصي-يبدو شديد الغضب منذ عاد من الخارج وهذه هي طريقته المفضلة في إفراغ غضبه!!!

فزفرت بضيق ثم صرفت الخادم بأمر رفيق عندما لمحت عاصي يدخل من باب القصر بخطوات مندفعة نحو غرفة مكتبه دون أن يلمحها...

تسمرت مكانها وهي تراقب دخوله العاصف للغرفة قبل أن يصفق بابها خلفه بعنف...

فترددت قليلاً قبل أن تحسم أمرها لتدخل إليه...

ولم يكد يلمحها حتى التمعت عيناه ببريق غريب قبل أن يغمضهما بقوة هاتفاً بحدة:

_ماذا تريدين؟!

لم تكترث لحدة لهجته فقد صارت تدرك ما خلفها....

لهذا تقدمت نحوه بخطوات ثابتة لتجلس أمامه على المكتب قبل أن تقول بترقب:

_ما الأمر؟!!هل جدّ هناك ما يسوؤك؟!!

فتح عينيه فجأة لتشتعل غابات زيتونه ببريقها العاصف وهو يهتف بغضب لم يكبح جماحه كعادته:

_دوماً يكون هناك ما يسوؤني..لكنني أجيد السيطرة على كل شئ!!!

ورغم الثقة التي كان يتحدث بها إليها لكنها شعرت -بحدسها- أنه بداخله يخفي ما هو أكبر...

لهذا امتدت أناملها ببطء لتحتضن كفه على المكتب برفق مع همسها الدافئ:

_عاصي...أنا وأنت الآن في مركب واحد...أخبرني ماذا هناك!!

وكأنما كانت لمستها الدافئة كافية ليخفت بريق اشتعال عينيه مع غرقهما في بحار مرارتهما القديمة في ظلال صمت حاوطهما لدقائق...

قبل أن يغمغم باقتضاب :

_طعنة غادرة لم أكن أتوقعها!!!

عقدت حاجبيها بتساؤل لكنه أشاح بوجهه فعلمت أنه لن يفصح عن المزيد...

خاصةً عندما أردف بنبرة آمرة:

_عودي لغرفتي...لا تقلقي!

تنهدت بحرارة وهي تقف مكانها وقد أدركت عقم محاولتها لاستدراجه بالحديث...

عندما اصطدم بصرها بمظروف ورقي كبير على مكتبه يحمل اسم المشفى الذي ذهبا إليه هنا منذ وقت قصير...

فتناولته بلهفة لتهتف باهتمام:

_هل هذه نتيجة التحاليل والأشعات؟!!

لكنه قبض على كفها بقوة ليهتف بحدة:

_دعيه!!

زأرت أمواج فضتها بقلق هائل وهي تراقب تعابير وجهه التي انقلبت ل"خوفه" النادر...

ذاك الخوف الذي لم ترَه في عينيه إلا عليها هي...و"حورية"!!!!!

الخوف الذي يؤكد لها أن قلب"الشيطان" لازال ينبض بالحياة تحت أنقاض آثامه!!!

لهذا سحبت المظروف بعنف لتبتعد به وتخرج محتوياته...

ثم جرت عيناها على السطور بسرعة قبل أن تهمس بذهول:

_أنا؟!!معقول؟!!

وقف بدوره ليدور حول مكتبه هاتفاً بعنف:

_لماذا تعصين دوماً أوامري؟!!ألم آمركِ ألا تقرئيه؟!!

لكنها بدت وكأنها لم تسمعه...

عيناها كانتا معلقتين بالكلمات الأخيرة التي كتبت في آخر التقرير...

والتي جاءت صدمتها لتقلب لها مشاعرها رأساً على عقب...

فارتجفت أناملها الممسكة بالأوراق بقوة لكنه انتزعها من يديها ليلقيها أرضاً هاتفاً بحدة:

_خطأ!!!هراء!!!سنعيدها مرة أخرى!!!بل مائة مرة!!!

رفعت إليه عينيها المذهولتين وهي تتمتم مصدومة:

_وهل سيغير هذا الحقيقة؟!!

اعتصر ذراعيها بين قبضتيه وهو يهزها بعنف هاتفاً بانفعال:

_أي حقيقة؟!!!أنا لن أصدق إلا حقيقة واحدة ...أنتِ ستمنحينني طفلاً!!!

ظلت تنظر إليه صامتة للحظات...

ثم انطلقت فجأة في ضحكات هستيرية عالية جعلته يعقد حاجبيه بقلق...

قبل أن تتحول ضحكاتها لدموع غزيرة صاحبت هتافها الانفعالي:

_كنتَ محقاً...هي طعنةٌ غادرة لم يحسب عاصي الرفاعي حسابها...عاصي الذي اعتاد تملك ما يريد ومن يريد وقتما يريد...الآن يعجز عن الحصول على مجرد طفل!!!!

كز على أسنانه وهو يشعر بحديثها يعرّي ظنونه التي كادت تخنقه منذ علم عن الأمر...

هل هذا هو انتقام الدهر منه على سوءات ماضيه؟!!!

هل بدأ العد التنازلي وآن ميعاد سداد فواتير آثامه؟!!!

هل هي بداية النهاية؟!!!

أن يُحرَم الطفل الذي عاش طوال هذه السنوات يتمناه؟!!!

وبهذه الحرقة التي كوت قلبه وجد نفسه يصرخ فيها بحدة:

_أنا لن أعجز عن الحصول على طفل...منكِ أو من غيرك؟!!

فاتسعت عيناها الدامعتان وهي تتأمل ملامحه العاصفة بغضبها للحظات...

قبل أن تمسح دموعها بأناملها المرتجفة لتقول بنبرة قوية أجهضت حتى عتابها له على ما قاله:

_معك حق!!!العيب مني أنا لحسن الحظ...الآن لم يعد لزواجنا أي معنى...أنت وفيت بدينك القديم...وأنا لن أكون أماً لولي عهد جديد...

اشتعلت غابات زيتونه بغضب متشح بعجزه هذه المرة...

فيما أردفت هي بنفس القوة:

_يمكنك الآن الرهان على جواد آخر ....ماستك فقدت قيمتها يا سيد عاصي...الآن صارت مجرد قطعة زجاج مزيفة لا تستحق عناء الحفاظ عليها.

لم تكد تتم عبارتها حتى جذبها إلى صدره بقوة كاسحة وهو يكاد يخفي جسدها بين ذراعيه...

ثم أغمض عينيه بألم حقيقي شق صدره...!!!!

ألمٍ لأجلها هي قبل أن يكون لأجله...

تلك التي تظن أنها فقدت قيمتها لديه ولا تدرك أنه الآن يكاد يموت حسرة عليها...

فهو منذ علم عن الأمر ورأسه يكاد ينفجر بغضبه...

هل صدقت نبوءتها يوم قالت له أن السماء لا تكافئ الشياطين بالماسات؟!!!

هل هو قدرهما ألا يكملا هذا الطريق لآخره؟!!!

هل صار حبهما عقيماً ...مثلها؟!!

وعلى صدره لم تكن هي فقط تفرغ دموعها وألمها...بل كانت ترتشف هذا الأمان الذي تعرف أنها لن تجده إلا معه...

أمانٌ تحتاجه ليبدد ظلمات خوفها ويأسها الآن...

هي لن تكون أماً لطفله؟!!

أو لطفل غيره؟!!!

هي لن تجرب هذا الشعور الذي طالما غزا مخيلتها كأي فتاة...!!!

هي لم تعد "كاملة" في عينيه كما كان دوماً يراها...

شجرتها توشك على فقدان أوراقها بخريفه لتبقى مجرد أغصانٍ عارية...

لوحة "البازل" فقدت إحدى قطعها. ..بل أهمها!!!

والآن في عز شعورها بالضعف والانتقاص أمامه...لا تشعر بحاجتها إلا إليه...!!!!

حتى وإن صرخت في وجهه أن ما بينهما فقد ماهيته تبقى هي وحدها تدرك قيمته لديها...

حتى وإن تصنعت بروداً يغلف قناع قوتها تبقى هي وحدها تكتوي بنيران حسرتها...

حسرتها على طفل منه تمناه قلبها من السماء بكل تضرع...

وإن لعن عقلها أمنيتها !!!

والآن يتوارى القلب بخيبته خلف أستار عجزه ليتسيد العقل الموقف باقتدار...

ماسة لن تفقد قوتها ولو في موقف كهذا...

لقد تراكبت "النصال" على "النصال" في جسدٍ اعتاد طعنات أيامه...

الجروح فقدت مقدرتها على الإيلام وبقي لها فقط مثوبة الصبر!!!

لهذا رفعت إليه عينيها بنزيف فضتها الأليم لتهمس بمزيج من سؤال وجواب:

_انتهينا.

فاعتصرها بين ذراعيه أكثر وأنامله تتحسس طريقها بين خصلات شعرها بحركته -الأثيرة-للحظات ...

قبل أن يهمس بحسم:

_أبداً!

التوت شفتاها ب-شبه-ابتسامة وهي تهمس بسخرية مريرة:

_عنادك لن يجدي هنا سيد عاصي...أنت قلت أن ما بيننا لم يكن سوى هذا الطفل والآن...

لكنه قاطعها بقوله الهادر:

_سنحصل عليه!!!

أغمضت عينيها بألم مع حركة أنامله في شعرها والتي اكتسبت الآن بعض القسوة مع همسه الثائر:

_أنا عاصي الرفاعي!!!لم يعاندني يوماً قدر ولم توقفني ظروف!!

فابتعدت عنه لتهمس بأسى:

_للأسف...ستتعلم الدرس هذه المرة ...لكن ..بالطريقة الأصعب!!

لكنه عاد يقربها نحوه وكأنه فقط يثبت ملكيته لها ليعلو صوته المسيطر:

_مضى عهد الدروس يا صغيرة!!أنا واجهت اختباراتي ونجحت فيها كلها باقتدار...

غاصت عيناها في غابات زيتونه التي اشتعلت بغضبها للحظات قبل أن تختفي تماماً....

لتستحيل إلى فضاء عريض من مرارة ممتزجة بحسرتها ...

عندما همس بصوت خفيض...خفيض جداً يكاد لا يُسمَع:

_أنا لم أتمنَّ شيئاً في حياتي كما تمنيت طفلاً منكِ أنتِ!!

فعادت عيناها تفيضان بدموعها وهي تشعر بشمس عاطفته التي تجاهد لاختراق جدران روحه المظلمة...

أسندت جبينها على صدره وهي تهمس بخفوت بين دموعها:

_أنا أيضاً كنت أتمناه...لكنني الآن أشعر بالرضا عن هذا المصير.

ثم رفعت عينيها إليه لتصطدم بنظراته التي عاد الغضب يحتلها لتردف بنبرة أقوى:

_الآن يمكننا فضّ هذا"الاتفاق" كما تحب أنت دوماً أن تدعوه!!أنا لم أعد أريد البقاء هنا!!

لم تدرِ لماذا قالت له هذا الآن...

هل هو كبرياؤها الذي دعاها لرفضه قبل أن يرفضها هو؟!!

أم هو شعورها بأن ما حدث هو إشارة قدرية لها بوجوب فراقهما؟!!!

أم أنها أرادت أن تنتهي هذا الصراع الذي أنهكها بين قلبها وعقلها بشأنه؟!!

أم هو -ببساطة-كل هذا؟!!!!

لكنه بدا وكأنه تفاجأ بعبارتها فعاد يعتصرها بين ذراعيه بقوة آلمتها مع همسه الحازم:

_ليس برغبتك!!!

هنا قست عيناها كما لم تكن من قبل وهي تتذكر شيئاً ما جعلها تضغط على حروفها ببطء هامسة:

_ماذا؟!!! تراك ستنالني غصباً كما كنت تفعل "معها"؟!!

هنا اشتعلت ملامحه ببركان من غضب أسود وذكرياته "الآثمة" مع حورية تعاود تشكيل قناعه الشيطاني من جديد...ليهزها بعنف هاتفاً:

_كيف علمتِ عن هذا؟!!ماذا أخبرتكِ هي أيضاً؟!!

فصمتت للحظة تراقب تغير ملامحه مصعوقة.....ثم هزت رأسها في عدم تصديق وهي تغمغم بذهول:

_إذن كانت صادقة؟!!أنت كنت تقهرها طوال هذه السنوات ؟!!أنت الذي دفعتها لهذه النهاية؟!!

قالتها وهي تشعر بالصدمة تحيط قلبها بطوق من نار!!!

لم تتوقع وهي تستدرجه بكلماتها أن يعترف بهذا...

لهذا أردفت بنبرتها المصدومة:

_لم أكن أصدقها...أنا كذّبت حديثها يومها...قلت لنفسي أن عاصي...عاصي الذي انتزع لي حقي ممن اغتصبني لن يفعلها...لكنك الآن...الآن تؤكد لي حديثها...أنا لم أعد أعرفك...وجوهك العديدة صارت تربكني...من أنتَ حقاً؟!!!بربك أخبرني...من أنت؟!!

علا صوتها ب-شبه انهيار- في جملتها الأخيرة لتنهار تماماً في هتافها بعدها:

_أنت الأب الذي عشت عمري أتمناه؟!!أم الصديق الذي ساندني في أصعب فترات حياتي؟!!أم الزوج الذي أعاد لي شعوري بأنوثتي؟!!أم...أم الشيطان الذي يتبينه الجميع وعجزت عيناي أنا عن رؤيته؟!!!

فدفعها بخشونة ليهتف بقسوة:

_لا تعيدي فتح أبواب ماضٍ كالجحيم!!!الجهل أحياناً نعمة وخاصة لامرأة مثلك لم ترَ من الألوان إلا بياضها!!

هزت رأسها للحظات وكأنها تحاول استيعاب الحقيقة كلها...

هي الآن لم تعد ترى حورية مجرد امرأة خائنة...

الوجه الآخر للحقيقة تبين لها الآن...

قسوة عاصي الرفاعي هي التي دفعتها لهذا المصير...

ولو أن الخيانة لا مبرر لها لكن يبقى هو محملاً بأوزار تسلطه وجبروته....

لهذا اقتربت منه خطوة لتهمس بإدراك:

_دينك القديم معي إذن لم يكن لأختك فحسب...أنت كنت تحاول التكفير بي أنا عن ذنبك معها.

ثم أردفت بعتاب ممتزج بحسرتها:

_ظننتَ أن الحياة ستصفو لك مع امرأة...بعدما لوثت حياة امرأة أخرى؟!!!

أشاح بوجهه للحظة في انفعال وهو يشعر بكلماتها كالصفعات تدوي على صفحة وجه ضميره لتدميه!!!!

ثم عاد يلتفت إليها صارخاً بثورة عارمة:

_عودي لغرفتك الآن...لم يعد هناك ما يُقال!!!

فرمقته بنظرة طويلة قبل أن تهمس بقوتها التي لم تخنها رغم كل شئ:

_نعم يا سيد عاصي...لم يعد هناك ما يقال!!

الفصل الرابع والعشرون

_أخبري هيام أنني أريد الزواج من شقيقتها!!

اخترقت العبارة قلبها قبل أذنيها لكنها حاولت الحفاظ على ثبات ملامحها قدر ما استطاعت...

هي كانت تتوقع هذا على أي حال...بل إنها هي التي طلبته منه صباحاً...

وكما يقولون ..."وقوع البلاء أفضل من انتظاره"...

لهذا اكتفت بصمتها المستسلم بينما رمقتها عفاف بنظرة مشفقة قبل أن تقول لراغب ببعض التردد:

_أنت واثقٌ من قرارك هذا يا ابني؟!!

أشاح راغب بوجهه محاولاً ألا تلتقي نظراته برؤى التي أطرقت برأسها الآن...

فتنهدت والدته بحرارة قبل أن تغمغم بخفوت:

_لله الأمر من قبل ومن بعد.

ثم التفتت نحو رؤى لتقول بإشفاق:

_أنتِ كنتِ تعلمين عن هذا؟!!

اغتصبت رؤى ابتسامة شاحبة وهي تشعر بتعلق نظراتهما معاً بها ...لتقول بتماسك زائف:

_بالطبع يا أمي!!أنا لا أمانع!!

أومأت المرأة برأسها في استسلام وهي تتمتم لهما بالدعاء...

قبل أن يغادرها كلاهما ليصعدا نحو شقتهما كالمعتاد ولم يكد يغلق بابها خلفه حتى التفتت نحوه لتبادره بقولها:

_مباركٌ مقدماً.

ابتلع غصة مرارته وهو يسير بضع خطوات مبتعداً عنها ثم قال دون أن ينظر إليها:

_أنتِ واثقةٌ أنكِ ستحتملين هذا الوضع؟!

سارت نحوه بخطوات متمهلة حتى وقفت قبالته لتقول بصلابتها المدّعاة:

_نعم سأفعل!

التفت نحوها أخيراً لتلتقي عيناهما لأول مرة منذ علمت هي عن الخبر...

فروعته تلك النظرة الذبيحة في عينيها رغم استطرادها الواثق في الكلام بعدها:

_هذا حقك...وأنا لن أخسر شيئاً على كل حال...أنت لم تكن لي يوماً زوجاً ...بل كنت وستبقى صديقي الذي أثق به...

ثم تهدج صوتها وهي تردف :

_والذي أتمنى أن يأتي يوم ويثق بي هو الآخر!

انفرجت شفتاه وكأنه سيهمّ بقول شئ ما مع امتداد أنامله وكأنه سيربت على كتفها لكنه تراجع ليعيدها مكانها جواره قبل أن يطرق برأسه دون رد...

لقد فعل الصواب...!!!

لا أحد يمكنه لومه على ما فعله...

هو أولاً وأخيراً حقه في أن يعيش حياته بصورة طبيعية...

أن تكون له زوجةٌ هو أول من يقتطف زهور أنوثتها...

زوجةٌ ترضي كبرياءه ورجولته...

زوجةٌ يأمن عليها داخل داره وخارجها لا أن يقضي يومه يصارع شكوكه بشأنها!!!

العقل والمنطق يقولان هذا!!!

حتى ولو خالفتهما تضرعات قلب يوقن أنه لن يتنفس إلا هواءها هي...

هي "رؤى" فحسب!!!

حسناً...لكن لماذا عزة بالذات؟!!

ربما لأنه يشعر بمسئوليته تجاهها بعد ظروفها الأخيرة والظلم الذي تعرضت له...

وربما لأنها فقط "متاحة" وهو يريد إتمام الأمر بسرعة...

بسرعة؟!!!

نعم...يريد أن يقطع على عقله طريق تردده في هذا الأمر...

ويريد أن يثبت لرؤى قبل أن يثبت لنفسه أنه جاد بهذا الشأن لعلها تعدل عن رغبتها بالبقاء على ذمته...

لعلها توافقه في صحة قراره بوجوب فراقهما...

فراقهما الذي سيذبحه قبلها لكنه للأسف لا يملك خياراً آخر...!!!

لهذا بادلها الصمت الطويل للحظات قبل أن يتنحنح ليقول بصوته الأجش:

_كما تريدين!!لن يتغير وضعكِ كثيراً...ستقيمين هنا في هذه الشقة وسأنهي تشطيب الشقة العلوية لتكون ...لها!!

انقبض قلبها بشعور حارق بالغيرة لم تعرفه من قبل عندما سمعت منه فقط عبارته الأخيرة...

لتدرك وقتها -بحق- أن الأمر لن يكون بالسهولة التي تظنها ...

لكنها لا تملك الآن رفاهية الاعتراض...

قلبها وعقلها وكيانها كله يقسمون لها أن مكانها الوحيد هنا...

هنا ...بجانبه...

بأي مسمى...وبأي صفة...

المهم أن تكون جواره!!!

فأغمضت عينيها بألم وصله صادقاً رغم ما تحاول التظاهر به من ثبات ....

ليتنهد بحرارة قبل أن يردف بنبرة أكثر رفقاً:

_أنا أخبرت أمي أنكِ تعانين مشكلةً ما تمنعكِ من الإنجاب...اضطررتُ لهذا لأمنحها مبرراً منطقياً ..لكن لا تقلقي.. هي أقسمت لي أنها لن تخبر أحداً...حتى هيام لن تعلم سوى أنني سأتزوج شقيقتها فقط لحمايتها من ذاك الوغد خطيبها السابق...أنا تعمدت هذا كي لا تؤذيكِ لو شعرت بضعف موقفك.

هزت رأسها للحظات قبل أن تشيح بوجهها لتهمس بخفوت:

_لا تقلق...لن يؤذيني شئٌ هنا بعد الآن!!

رمقها بنظرة أخيرة طويلة حملت لها بعضاً من صراع نفسه الآن ...

قبل أن يغادرها بتثاقل نحو غرفتهما لتكون كلماتها هذه آخر ما يدوي في أذنيه هذه الليلة:

_كن سعيداً يا راغب...لأجلك ولأجلي...صدقني من الآن ستكون سعادتك أنت هي سعادتي أنا...فلا تحرم كلينا منها!!

========================

_ما هذا الكلام الذي سمعته؟!!

هتف بها عبد الله وهو يجلس في غرفة "الصالون" الخاصة ببيت راغب الذي حافظ على صمته بينما كان هو يهدر بعنف:

_تتزوج امرأة أخرى على شقيقتي أنا؟!!لماذا؟!!

عقد راغب حاجبيه وقد أسقط في يديه فلم يعد يدري ماذا يقول...

لن يستطيع إقناع عبد الله الثائر الآن بما أقنع به أمه أو ما حاول أن يوصله لهيام...

لن يستطيع أن يدعي "عيباً" لرؤى ولا أن يتذرع ب"مروءة" حملته على زواج ثانٍ...!!!

لهذا اكتفى بصمته المطرق الذي استفز عبد الله ليصرخ فيه بعنف أقوى:

_لماذا لا تجيبني؟!!لماذا تريد الزواج بأخرى؟!!

_لأنني عاجزةٌ عن الإنجاب!!

قالتها رؤى بنبرات مرتعشة وهي تدخل الغرفة بملامحها التي عاد إليها ذعرها وإن حاولت صبغه بقوتها الهشة هذه المرة...

فالتفت كلاهما إليها ليهب عبد الله واقفاً مكانه وهو يهتف بذهول:

_ماذا؟!!ماذا تقولين؟!!

ضم راغب قبضتيه جواره وهو يرمقها بنظراتٍ مشفقة رغم صدمته بتصرفها...

لكنها أخذت نفساً عميقاً لتكمل كذبتها بصلابة:

_نعم يا عبد الله...هذه هي الحقيقة التي اكتشفناها...حقه أن يتزوج من أخرى لأجل هذا...ألم تكن على وشك فعلها مع صفا؟!!

اتسعت عيناه بذهول للحظات قبل أن تفيضا ببحور من ألم...

إنه -بالكاد- يحاول تجاوز خسارته الفادحة ل"صفا روحه" التي فقدها بلا رجعة هذه المرة...

والآن تأتيه صفعة القدر هذه لترد له "دَيْنَه" في شقيقته!!!

هل هو عقاب السماء له على تفريطه في امرأة كانت له "رزق العمر"؟!!

لا...لم تزرْ وازرةٌ يوماً وزر أخرى...

لكن هذا لا يعني أن رؤى على حق...!!!

هو الآن لا يمكنه الاعتراض على زواج راغب الثاني وقد أوشك هو نفسه على فعلها...

لكنه يمكنه -ببساطة- أن يعيد شقيقته لحضنه وأن يكفيها ذل العيش كزوجة مهمَلة منبوذة من زوجها...

لهذا صمت قليلاً يستوعب صدمته...ثم التفت نحو راغب ليسأله بحدة:

_هل هذا صحيح؟!!

أشاح راغب بوجهه دون رد وقد ألجمه تصرف رؤى المندفع وعجز في نفس الوقت عن تكذيبها...

فانهار عبد الله جالساً مكانه ليتمتم بأسى:

_لا حول ولا قوة إلا بالله!

ساد الصمت ثلاثتهم بعدها وقد غرق كل منهم في أفكاره الخاصة...

حتى كان عبد الله أول من قطعه وهو يواجه راغب ليقول بحزم:

_حتى ولو كان الأمر هكذا...لن أرضى لشقيقتي أن تذوق هذا الذل...طلاقها عندي أهون من أن تكون زوجة مهجورة!!!

رفع إليه راغب عينيه بحدة وهو يهمّ بردٍ عنيف...

لكن رؤى قاطعته بقولها الحاسم:

_لا يا عبد الله...أنا لا أريد الطلاق!!

اشتعل وجه عبد الله بانفعاله وهو يقف ليلوح بذراعه في وجهها هاتفاً:

_منذ متى تتجرأين على معارضتي؟!!أنتِ لا تعرفين مصلحتك!!

فدمعت عيناها وهي تقترب منه أكثر لتقول بعتابها الهادئ:

_وهل تعرفها أنت؟!!

احمرت عيناه غضباً وهو يرمقها بنظراته النارية فيما أردفت هي بنفس الوداعة اللائمة:

_ماذا تعرف أنت عن حياتي كي تقرر مصلحتي؟!!أنت حتى لم تزرني هنا في بيتي إلا مراتٍ معدودة....وكأنني مجرد حملٍ ثقيل سعدتَ بإزاحته عن كاهلك!!!

كانت كلماتها صفعة أخرى على وجه ضميره الذي كان يؤيدها فيما تقول...

ليدرك الآن فقط أنه لم يحفظ أمانته كما ينبغي...

هو الذي طالما تشدق برعايته لشقيقته بعد وفاة والديهما ليعيَ الآن أنه حقاً كان يتصرف معها على هذا الأساس...

مجرد وزرٍ على كاهله!!!

لكن...لا...

هو حقاً يحبها...

هي قطعةٌ من روحه...

هي كل من بقي له من عائلته...

ربما أهملها كثيراً في خضم طموحه وسعيه خلف نجاحه في عمله لكنه كان دوماً مطمئناً لكونها في أمان...

وحتى عندما قرر تزويجها اختار لها الرجل الصالح الذي اطمأن لحسن خلقه رغم أنه لم يكن أكثر خاطبيها جاهاً أو ثروة!!!

ربما كان عنها "غافلاً" لكنه أبداً لم يكن "جاحداً"!!!

لهذا عقد حاجبيه بضيق خالطه بعض الحرج من حديثها هذا أمام راغب لتأخذه العزة بالإثم وهو يهتف بانفعال:

_لا تكوني حمقاء!!!أنتِ لا تدركين كم ستكون معاناتك لو تزوج من غيرك!!!

لكن رؤى مسحت دموعها بظاهر كفها لتهتف بقوتها -المستحدثة-:

_لست حمقاء يا شيخ عبد الله...لكنني أعرف حقوق زوجي...أليس هذا ما علمتني إياه؟!!

فازداد انعقاد حاجبيه وهو يرمقها بنظرة ساخطة قبل أن يلوح بسبابته في وجهها هاتفاً:

_كما تشائين!!!لكن تذكري أنني حذرتك!!

قالها ثم غادر المكان بخطوات سريعة تحت هتاف راغب الذي اندفع خلفه:

_انتظر يا شيخ عبد الله...دعني فقط...

لكنه أغلق الباب خلفه بعنف دون أن يتوقف لسماع المزيد...

فالتفت راغب نحو رؤى التي وقفت مكانها كتمثال صخري ليسألها بضيق لم يخلُ من إشفاق:

_لماذا قلتِ له هذا؟!!لم أتصور يوماً أن تواجهيه هكذا!!!

لكنها أخذت نفساً عميقاً ثم ابتسمت وهي تقترب منه لتهمس ببراءتها التي اكتسبت الآن بعضاً من الصلابة:

_وأنا أيضاً لم أتصور أني سأفعلها...إنها أول مرة أقول له فيها "لا"!!

تفحص ملامحها باستكشاف امتزج ببعض الإعجاب وهو يسمعها تردف بسعادة طفلة عبرت الطريق وحدها لأول مرة:

_هذا أول قرار آخذه أنا في حياتي...هل تتصور شعوري؟!!أنا سعيدة...حقاً سعيدة!!!

أمسك كتفيها بقوة وعيناه حائرتان في توصيف مشاعره الآن...

إعجابه بقوتها التي بدأت تعرف طريقها لعقلها قبل قلبها...؟!!!

أم حزنه لأجل هذه الحسرة التي يراها كالشمس في عينيها...؟!!!

أم دهشته من هذه -الحمقاء- التي تعلن سعادتها في هذا التوقيت بالذات أمام زوجها الذي سيتزوج أخرى؟!!!

لكن...ماذا عساه يقول؟!!!

إنها رؤى!!!

معضلته الأبدية!!!

طفلته التي فتحت عينيها على قسوة الحياة مؤخراً لتبدأ في تحسس طريقها الوعر بصعوبة ...

فتمتزج براءتها بصدمة شعورها الجديد بالاستكشاف!!!

لهذا ازدرد ريقه بتوتر وكفاه يضغطان على كتفيها أكثر ليهمس بضيق اصطبغ بحزنه هذه المرة:

_أنتِ حقاً سعيدة؟!!

وكأنما حملتها عبارته من سماء شعورها الجديد بالاستقلال والقوة...إلى أرض واقعها الملغمة بعجزها وقلة حيلتها !!!

لتختفي ابتسامتها تدريجياً وهي تغمض عينيها بقوة قبل أن تربت بأناملها على كفه المستند على كتفها هامسة بحسم :

_نعم يا راغب..سعيدة...من وجد أول الطريق يوشك أن يصل!!!

==================

_فكر في الأمر يا جهاد...إنها عروسٌ ممتازة!!

هتف بها صديقه وهو يجلس أمامه على مكتبه في غرفته بالمشفى بما يشبه الرجاء...

فهز جهاد رأسه ليقول بحسم:

_لا...لا أرغب في الزواج!!!

زفر صديقه بضجر قبل أن يهتف باستنكار:

_ماذا تنتظر يا فتى؟!!لقد أوشكت على بلوغ الثلاثين.

ثم تفحصه ببصره ليردف ببعض الخبث:

_أم تراك تنتظر الوقوع في الحب؟!!

ضحك جهاد ضحكة عالية كانت هي جوابه الوحيد...

فعقد صديقه حاجبيه بتشكك ليسأله:

_ماذا؟!!لا تقل لي أنك لا تؤمن بالحب؟!!

تنهد جهاد بحرارة ثم شرد ببصره للحظات قبل أن يقول بأسى:

_على العكس...أنا أؤمن به حد أنني لا أصدق أنني أستحقه...

أمال صديقه رأسه بتساؤل فأردف جهاد بابتسامة شاحبة:

_الحب يمنحك الوطن...الانتماء...الهوية...وأنا عشت عمري محروماً من هذا...فكيف أصدق أنني قد أصادف امرأة تمنحني كل هذا؟!!

رمقه صديقه بنظرة طويلة قبل أن يقول بأسف:

_وكيف تصادفها وأنت تغلق كل الأبواب في سبيل هذا؟!!أنا أعرف العديد من الفتيات قلنَ لي صراحةً إنهن معجباتٌ بك لكنك لم ترغب حتى في التعرف إليهن!!

اتسعت ابتسامة جهاد التي حملت شيئاً من الخبث هذه المرة وهو يقول بنبرة تهديد:

_لو علمت زوجتك عن حديثك المتمادي هذا مع الفتيات فسأكون سعيداً برؤية رد الفعل!!!لازلتُ أذكر المزهرية التي كادت تحطم رأسينا معاً تلك الليلة!!!

قهقه صديقه للحظات وهو يتذكر آخر مشاجراته مع زوجته لأجل شئ شبيه....قبل أن يهز رأسه قائلاً:

_معك حق!!!هي أكثر من مجنونة في هذا الشأن!!

ثم قام من مكانه ليربت على كتف جهاد قائلاً بمرح:

_أقنعتَني...ابق عازباً هذا أفضل!!!

ضحك جهاد ضحكة قصيرة وهو يغمزه بعينه غافلاً عن تلك التي كانت تستمع إليهما خلسةً من خلف باب غرفته المفتوح...

أسطورة!!!

هذا الرجل أسطورة!!!

أسطورة حياتها التي لم تعرف رجلاً قبله ولن يجوز أن تسع رجلاً بعده!!!

ورغم أن ما سمعته لم يكن ليمنحها أملاً ما..لكن مجرد معرفتها أن قلبه لايزال خالياً كان سبباً لهذه الخطوات الطائرة بل -شبه الراقصة- التي عادت بها إلى غرفة الممرضات حيث تفحصتها زميلتها بترقب...

قبل أن تقرص وجنتها هامسة في أذنيها بخبث:

_أنا أعرف هذه الابتسامة مع حمرة الوجنتين...دعيني أخمن...طبيبك الوسيم...صحيح؟!!

اتسعت ابتسامة زهرة وهي تطرق برأسها للحظة قبل أن ترفعه نحوها لتهمس بشرود:

_تراه يشعر بي يوماً؟!!!يقولون أن الحب كالشمس لا يمكن إخفاؤه...فهل يأتي يومٌ تسكن فيه شمسي سماءه؟!!

وكزتها زميلتها بسبابتها في كتفها لتهمس باستنكار:

_وكيف يفعل ما دمتِ لا تهتمين بلفت انتباهه؟!!!الرجال كالسمك...ينتظرون الطعم المناسب كي يقعوا في الأسر !!

هزت زهرة رأسها بتردد وهي تسألها بحذر:

_وكيف أفعل؟!!

تألقت عينا زميلتها بمكر مع تراقص حاجبيها:

_سأخبرك!!!

==========

كانت مستلقية على فراشهما تحاول فقط استيعاب ما عرفته منذ ساعات....

هذه الحقيقة التي وصفها هو بأنها "طعنة غادرة" لكنها شعرت بها وكأنها "رصاصة رحمة" لهذه العلاقة الغريبة التي جمعتها به!!!

حقاً...كل ما كان بينهما عجيب...

علاقة تجمع كل المتناقضات وتجعل القلب والعقل دوماً معاً في حالة تحفز!!

ورغم أن المنطق كان يستدعي أن يكون خبر "عقمها" الصادم هو المسيطر على مشاعرها الآن...

لكنه على العكس كان في آخر قائمة توجساتها بعد ما علمته عن ماضي عاصي مع حورية..

هذا الماضي الذي أكد ظنون عقلها السوداء بشأنه وألقى قلبها في جحيم حسرته ملوماً مدحوراً!!!

وجه "الشيطان" الذي انكشفت "بعض" ملامحه وما خفي كان أعظم!!!!

انقطعت أفكارها عندما شعرت به يدخل إلى الغرفة بخطواته البطيئة ليتمدد جوارها على الفراش...

فأغمضت عينيها بقوة وهي تقاوم رغبتها في الاندساس في حضنه ككل ليلة...

رغم أنها الآن في قمة احتياجها إليه لكنها لا تستطيع فعلها...

شئٌ ما بداخلها يخبرها أنها لم تعد له...ولم يعد لها!!!

وأن هذا الحب الذي كبل قلبها بأغلاله يوشك على فقد سطوته عليها...

فلا سلطان للحب على أرضٍ فقدت سماء أمانها ...

نعم...لا سلطان!!!

وجوارها كان هو يتطلع للسقف بترقب ظاهره الشرود...

والوقت يمضي به ثقيلاً متباطئاً...

ذبذبات جسدها المتوترة جواره تلهب كيانه كله ...

ينتظرها أن تدفن وجهها في صدره ككل ليلة...تستجدي أماناً تعرف -كما يعرف هو- أنها لن تجده إلا بين ذراعيه...

تسكب دموعها على صدره فيحتوي حزنها بلمساته التي هي لغته الوحيدة في التعبير عن حب لن يستسلم له عناد لسانه...

لكنها لم تفعلها!!!

ظلت ساكنة مكانها كتمثال صخري لامرأة كانت يوماً تنبض بالحياة...

فتملكه الغضب وقتها وهو يشعر بتباعدها...

ليسول له شيطانه الآن أن يتركها وحدها ويغادر حتى تأتيه هي بقدميها...

لكنه ما كاد يتم فكرته حتى شعر بحركتها جوارها فتأهبت خلاياه كلها لاستقبال إحساسه -الفريد-بها بين ذراعيه...

لكنها للأسف أعطته ظهرها لتفرغ دموعها الصامتة على وسادتها هذه المرة!!!

قبض كفيه بغضب ممتزج بعجزه وهو يشعر بمرارة الخسارة في حلقه...

ذاك الطعم الذي لم يعرفه في حياته سوى مرات قليلة...

لكنه لم يكن يوماً أشد قسوةً عليه من الآن!!!

نعم...هو يشعر أنه يخسرها...

ماسته الثمينة التي أخذت مكانها بين ضلوعه توشك أن تختطفها منه يد القدر...

ورغم أنه يثق بقدرته على استبقائها قهراً لكنه لن يفعلها!!!

هو يريدها ملكةً على عرش حب لم تمنحه له سواها...

وليست جارية مكبلة بقيود جبروته!!!

بينما كانت هي تضع كفها على شفتيها وكأنها تريد كتم أنينها عنه...

قلبها كان ينتفض بين ضلوعها اشتياقاً لوطنه على صدره لكن عقلها كان يحذرها من غربة يعقبها اعتقالٌ في سجون سطوته!!!

فكيف الخلاص من رجلٍ هو الآن وطنٌ وغربة؟!!

وما حيلة النفس في حبٍ بنكهة السجن والحرية؟!!

وما السبيل لأنفاس بعمق الحياة إذا كانت أنامله نفسها هي ما تعتصر عنق عاطفتها؟!!!

_ماسة!

همس باسمها جوار أذنها عندما استدار أخيراً نحوها ليشرف عليها برأسه فارتجف قلبها بثورته متمرداً يطالب بحقه فيه...

بينما أردف هو بصوتٍ لم تخنه فيه قوته كعهده:

_هل ستغيرين عادتك هذه الليلة؟!!

عضت على شفتها بألم وهي تدفن وجهها أكثر في وسادتها قاهرةً كل نداءات عاطفتها...

هي قالتها له يوماً...قوتها لن تستمدها من غيرها...

لو لم تمنحها لنفسها فلن يهبها إياها أحد!!!

والآن هي تشعر بحدسها أن طريقها الذي تشاركته معه توشك الآن أن تكمله وحدها...

ابتلاءٌ شديد لمن كانت مثلها...لكنها لن تضعف!!

لهذا اكتفت بصمتها الطويل الذي أذكي نيرانه هو أكثر...

ليجد نفسه يقترب منها فيطوقها بساعده بقوة ملصقاً ظهرها إلى صدره وهو يردف بنبرة أقوى:

_حتى لو غيرتِها أنتِ...أنا لن أغيرها!!!

ساعتها ارتجف جسدها بقوة بكائها الذي علا صوته للحظات...

قبل أن تستدير بجسدها فجأة لتدفن وجهها في صدره وهي تتعلق بذراعيها في عنقه بقوة تعلقها بالحياة نفسها!!!

فضمها إليه أكثر وهو يتنهد بحرارة قبل أن يهمس جوار أذنها بحنانه الذي لم تنتزعه منه سواها:

_لا تبكي!!لم يتغير شئ!!

رفعت إليه عينيها الدامعتين ببطء...فأردف بنفس النبرة الحانية رغم حزنه المحفور على ملامحه:

_هو اختبارٌ ستجتازه ماسة بمهارة كما تفعل دوماً!!

أومأت برأسها للحظات دون أن تحيد بعينيها عن شموسه الزيتونية التي توهجت بدفء حنانه الآن...

قبل أن تهمس بثقة لم تخلُ من مرارة:

_أعرف أنني سأجتازه...لكن السؤال الآن هل ستكون أنت معي وقتها؟!!

ضمها إليه أكثر وقد فضحت عيناه خوفاً سجنته شفتاه باقتدار ...

خوفاً وازى خوفها هي الذي أطلقته همساتها القوية رغم ما تحمله من رجاء:

_قل إنك تحبني...قل إنك لن تكمل طريقك مع غيري...قل إن هذه الغرفة لن تدخلها امرأة بعدي كما لم تدخلها واحدة قبلي!!

ازدرد ريقه ببطء ونظراته تطوق ملامحها بعاطفة متشحة بعجز لم يستطع إخفاءه...

كم يود الآن لو يقولها...

لو يقسم عليها...

لو ينقشها بقبلاته على بشرتها كوشم لا يبلى...

لكنه...لن يفعلها!!!

حتى وهو يدرك الآن أنه لم ولن يعشق امرأة كما عشقها لكنه لن يعترف بها...

لن تغادر صدره إلى لسانه أبداً...

ليس فقط لأنه لايزال يرى الحب ضعفاً وهو لن يكشف ضعفه لأحد...

لكن لأنه لن يستطيع أن يعدها بما تريد...

هو يريد الولد...

ولو لم يحصل عليه منها فلن يتردد في الحصول عليه من غيرها...

العمر لم يعد يسمح برفاهية البحث عن بدائل...

وحصاد أيامه السابقة كلها رهين هذا الطفل الذي يرجوه!!!

لهذا زفر زفرة حارقة وهو يشيح بوجهه عن نزيف فضتها الكسير...

فقرأت إجابته على ملامحه لتبتسم بمرارة مع همسها الواثق:

_لن تستطيع منحي وعد "عاصي الرفاعي" هذه المرة!

لكنه التفت إليها لتشتعل غابات زيتونه من جديد مع همسه الغارق بانفعاله:

_الأمر لا علاقة له بالمشاعر..ليس لديّ بديل...ينبغي أن أحصل على هذا الطفل بأي مقابل!!

ارتخى ذراعاها على عنقه وهي تسبل جفنيها في استسلام من أدرك قرب النهاية...

بينما أردف هو بنبرة أكثر اشتعالاً:

_كل هذا الذي بنيته طوال هذه السنوات يوشك أن يضيع في غمضة عين...أنا لا أخاف الموت لكنني أخاف أن أرحل بكف خاوية...دون أثر خلفي يمتد بعد رحيلي.

أطرقت برأسها دون رد ليدرك أن كلماته جرحتها أكثر...

فزفر بقوة قبل أن يرفع ذقنها نحوه هامساً ببعض الرفق:

_لكن حتى لو تزوجت بأخرى س...

_ستطلقني!

قاطعت بها عبارته بقوتها الحاسمة فانعقد حاجباه بغضب لكنها أكملت هتافها بنفس القوة:

_نعم ...ستطلقني في نفس اللحظة التي تفكر فيها أن تشاركني فيك غيري...أنا لن أكون مجرد قطعة أثاث في قصر الرفاعي تملكها لغرض الاقتناءفحسب...لن أكون كذلك أبداً!!

ثم أزاحت أنامله عن ذقنها لتستطرد بتهكم اختنق بمرارته:

_عن أي بنيان تتحدث؟!!وأي أثرٍ ترغب في تركه؟!!عن طغيان عاصي الرفاعي الذي ورثه عن أبيه ويريد توريثه لابنه؟!!

ازداد انعقاد حاجبيه وقد احتقن وجهه بانفعاله الصامت مع كلماتها التي كانت تكشف عورات ضعفه كلها:

_هذا البنيان الذي تتحدث عنه والذي رسم قناع شيطانك هو نفسه ما يقف بيني وبينك...قلاع الظلم والسطوة والجبروت التي تحصنت أنت خلف أسوارها لن أرضى أنا بالبقاء بها...

ثم اختلج صوتها بارتجافة بكاء لم تؤثر على قوة نبراتها:

_ربما كان الأمر صعباً قبل اليوم لأن كلاً منا كان يرتجي حاجةً لدى الآخر...أنا كنت أرغب في الأمان جوارك...وأنت كنت تريد طفلاً مني...لكن الآن...

قطعت عبارتها لتصمت للحظات تحاول لمّ شتات روحها ....

فتوهجت عيناه بلهب ثائر وهو يضغط على حروفه هامساً ببطء:

_الآن ماذا؟!

دفعته بكفيها في رفق لتبتعد عنه أكثر وهي تقول باقتضاب دون أن تنظر إليه:

_كلانا صار غنياً عن صاحبه!!

_كاذبة!!

هتف بها بقسوة عاودت احتلال نبراته مع الريح التي عصفت بزيتونيتيه وهو يردف بنبرته المسيطرة:

_لم يعد لكِ إلا قصر الرفاعي يا صغيرة...أمانكِ لن تجديه إلا هنا ...بين جدران هذه الغرفة...وإلا إلى أين تظنين نفسكِ ذاهبة؟!!

زأرت أمواجها الفضية بغضبها هي الأخرى وقد ألجمتها عبارته بينما استطرد هو بغضب ممتزج بقسوته:

_هل ستعودين لبيت رحمة الذي ازدحم بابنها وزوجته؟!!أم ستعيشين وحدكِ لتنتهككِ ألسنة الناس قبل نظراتهم كما كنتِ في الماضي؟!

كان يعلم مدى قسوة عباراته لكنه لم يستطع تلجيم لسانه هذه المرة...

كل ما فيه صار يخرج عن سيطرته هذه الأيام وكأنه ما عاد يعرف نفسه...

لعله صراعه الذي يكاد يشق رأسه بضراوته بين ماضٍ رسم حياته...ومستقبلٍ يخاف أن يخذله !!!

أو لعله خوفه الحقيقي من فقدانها هي بعدما لونت حياته الباهتة ببريقها الماسي...

لهذا أشاح بوجهه وهو يخبط بقبضته على الفراش جواره...

أما هي فقد بدا الجرح في عينيها جلياً وكلماته تكشف اللثام عن وحدتها الحقيقية في هذا العالم....

ورغم يقينها من صحة ما يقول لكنها تمالكت قوتها لتقول بثبات:

_أنا دخلت بيتك لعمل معين...وفشلت فيه...لهذا سأخرج منه كما دخلته...مجرد ممرضة!!

فالتفت نحوها ليقرب وجهها منه ببعض القسوة هاتفاً بحسم:

_لن تقويْ على الخروج من هنا...كلانا لن يكون له بديلٌ !!

لكنها عادت برأسها إلى الخلف لتهتف بصلابة هي جديرةٌ بها:

_تذرع أنت بهذه الحجة كما تشاء...لكنني أنا...

ثم أشارت بكفها على صدرها لتردف بحسم:

_أنا تعلمت أنه حتى لو لم أجد البديل ..فسأخلقه!!!

==============

_اجلس يا سرحان!

هتف بها عاصي بلهجته الآمرة وهو يجلس على كرسيه بغرفة مكتبه ...

فابتسم الرجل ابتسامة صفراء وهو يجلس أمامه قائلاً:

_كيف حالك يا سيد عاصي؟!مرت أيام طويلة منذ التقينا آخر مرة!لقد فرحت كثيراً عندما جاءني رسولك يطلب مني الحضور إليك.

رمقه عاصي بنظرة طويلة متفحصة قبل أن يعود بظهره للوراء ليقول ببطء قاسٍ:

_لماذا عدتَ إلى هنا؟!!ألم نتفق أن تغادر المدينة للأبد؟!!

اتسعت ابتسامة الرجل الصفراء وهو يطرق برأسه قائلاً بمسكنة مصطنعة:

_ضيق الحال يا سيد عاصي...والعمر لم يعد يحتمل مشقة الترحال!

فاشتعلت عينا عاصي بغضب أسود ناقض برودة كلماته الثلجية:

_ذاك الرائد حسام ...ماذا كان يريد منك؟!!

شحبت ملامح الرجل فجأة وكأنه فوجئ بمعرفة عاصي بهذا الأمر...

فتنحنح بارتباك قبل أن يغمغم بتلعثم:

_مجرد ...اشتباه...في...

قطع عبارته عندما سحب عاصي مسدسه من جيب سترته فجأة ليصوبه نحوه هاتفاً بصرامة:

_أمامك دقيقة واحدة لتخبرني بالحقيقة كلها...أنت تعرف أني قليل الصبر!

فزاد شحوب الرجل وهو يرفع كفيه أمام وجهه هاتفاً بخوف:

_اهدأ يا سيد عاصي...أنا واحدٌ من رجالك...وأبداً لن أخون سرك.

انعقد حاجبا عاصي وهو يقول ببرود :

_مرت نصف دقيقة!!

فهتف الرجل بسرعة:

_كان يسألني عن شيئين...أحدهما يتعلق بحريق بيت تلك الفتاة...والثاني يتعلق بابنة رجل شهير كنتُ قد ساعدته في التخلص منها.

تفحصه عاصي ببصره بنظرات خبيرة قبل أن يقول باقتضاب:

_التفاصيل !

فازدرد الرجل ريقه بتوتر قبل أن يقول باستطراد:

_هو طلبني للحضور لديه في قسم الشرطة عقب عودتي للمدينة وكأنه كان يترصدني...هو يكاد يوقن أنني وراء حريق البيت بتحريض منك لكنه لا يملك الدليل...لهذا ضغط عليّ كثيراً بأساليب مختلفة لكنني لم أفضح السر...أقسم لك يا سيد عاصي أنني لم أفعلها!

رمقه عاصي بنظرة متفحصة أخيرة قبل أن يعيد مسدسه لجيب سترته ..

ثم مال بجذعه إلى الأمام قائلاً بنبرة تهديد:

_أصدقك يا سرحان...أنت لن تخون عاصي الرفاعي أبداً...لأنك تعلم جيداً ما الذي يمكنني فعله...ليس بك وحدك بل بعائلتك كلها!

ارتجف الرجل مكانه للحظات قبل أن يقول بتوتر:

_سرك في أمان يا سيد عاصي!

فقام عاصي من مكانه ليتوجه نحو نافذة الغرفة ثم شرد ببصره للحظات...

قبل أن يسأله باهتمام:

_لماذا تظنه يهتم بهذا الأمر إلى هذا الحد؟!!لقد حُفظ التحقيق في هذه القضية منذ وقت بعيد فما الذي يدعوه للنبش خلفه بهذه الدقة؟!!

هز الرجل رأسه بحيرة وهو يقول بارتباك:

_لا أدري...لكن الأمر بدا لي شخصياً...وكأنه يترصدك أنت بالذات...أو وكأنه اهتمامٌ بالفتاة نفسها!!

هنا تألقت عينا عاصي ببريق خاطف وهو يتذكر شيئاً ما جعله يلتفت نحوه ليقول بإدراك:

_تذكرت!!حسام القاضي هذا هو صاحب البيت الذي كانت تعمل فيه الفتاة لفترة قبل أن تغادره للمدينة المجاورة!!

فضاقت عينا الرجل محاولاً التذكر ليجيبه بعض لحظات صمت:

_نعم...بالضبط!!أنا أيضاً شعرت أن اسمه مألوفٌ لديّ!!

ثم هز رأسه ليقول بحيرة:

_لكن...ماذا يعنيه هو من خادمة كانت تعمل لديه؟!!

فاشتعلت عينا عاصي بلهيب ثائر للحظات...قبل أن يقول باقتضاب:

_لا بأس!!هو لن يصل لشئ...دعه يتتبع خطواتٍ خادعة لن توصله لنهاية!!

ابتسم الرجل ابتسامة جانبية بغيضة وهو يقول بخبث:

_بالتأكيد لن يصل لشئ!!نحن أجدنا خطتنا بإحكام.

فهز عاصي رأسه قبل أن يخرج من جيبه حزمة من النقود ألقاها على مكتبه بعنف قائلاً :

_من اليوم ستعود للعمل معي...لا أريدك أن تغيب عن عيني لحظة...كما أنني أحتاج رجالك في مهمة عاجلة!

توهجت عينا الرجل بطمعه وهو يتلقف المال بين يديه بنَهَم ثم هتف بتملّق بغيض:

_أنا ورجالي تحت أمرك !!

رمقه عاصي بنظرة صارمة قبل أن يقول بلهجته المسيطرة:

_أريد أن أعلم من الذي يلاحقني هذه الأيام...لابد أنك سمعت عن حادث إطلاق النار الذي تعرضت له منذ قريب!

فوقف الرجل ليقول بابتسامة ماكرة:

_لا تقلق يا سيد عاصي...سآتيك بالخبر اليقين كما عهدتَني!

أومأ عاصي برأسه إيجاباً ثم صرفه بإشارة من كفه...

فاندفع الرجل ليغادر بخطوات سريعة لكن عاصي استوقفه فجأة ليسأله باهتمام:

_ما حكاية تلك الفتاة الأخرى التي كان ذاك الضابط يريدك بشأنها؟!!

التفت نحوه سرحان ليقول بعدم اكتراث:

_جاسم الصاوي...لابد أنك تعرفه...كنت أعمل معه منذ سنوات وساعدته في التخلص من ابنته الرضيعة التي أنجبها بزواج سريّ...وضعتها أمام باب مسجد في إحدى المناطق الشعبية ...وهو كان يريد مني معرفة المكان بالضبط ليتحرى عنها.

انعقد حاجبا عاصي باهتمام وهو يسأله :

_وما علاقته هو بجاسم الصاوي وابنته هذه؟!!

هز الرجل كتفيه في إشارة لكونه لا يعلم...

فأردف عاصي بنفس الاهتمام:

_وما هو هذا المكان ؟!!

ثم اتسعت عيناه بصدمة حقيقية والرجل يذكر له اسم الحي الذي تربت فيه ماسة مع رحمة...

ليسأله بلهفة حقيقية غلبت بروده المعهود هذه المرة:

_متى كان هذا بالضبط؟!!

فأجابه الرجل بهدوء:

_منذ ما يزيد عن عشرين عاماً!!

هنا قام عاصي من مكتبه ليتوجه نحوه أمام نظراته المتعجبة لاهتمامه بهذا الشأن...

قبل أن يقول ببطء ضاغطاً على حروف كلماته:

_تعني أن تلك الرضيعة التي ألقيتها أمام باب المسجد في حي (.......) هي ابنة جاسم الصاوي نفسه؟!!

فأومأ الرجل برأسه إيجاباً قبل أن يغمغم بارتباك:

_ما الأمر يا سيد عاصي؟!لماذا تهتمون جميعاً فجأة بهذا الأمر؟!!

لكن عاصي تجاهل سؤاله ليقترب منه أكثر ولايزال وجهه غارقاً بصدمته...

ثم سأله بترقب:

_وماذا تعرف أنت عن هذه الفتاة أيضاً؟!!

فبسط الرجل كفيه ليجيبه باستغراب:

_لا شئ...أنا فقط ظللت أحوم حول المكان بعدها لأيام بدافع الفضول...فعلمت أن امرأة من أهل الحي قررت تربيتها بعدما منحها أحدهم اسمه...ولأن الحادثة كانت غريبة في حيّ صغير كهذا فقد تناقل الناس أخبارها بكثير من الاهتمام...وأظنني سمعتهم وقتها يقولون أنهم أسموها اسماً غريباً لم أكن سمعته من قبل.

فتشنج جسد عاصي بانفعاله وهو يسأله بعصبية:

_ماذا أسموها؟!

ليجيبه الرجل بالإجابة التي كان يخشاها:

_ماسة!!

هنا جذبه عاصي من تلابيبه ليهتف بحنق:

_وما علاقة حسام هذا بها ليسأل عنها؟!!لا تقل أنك أخبرته بما أخبرتني به الآن!!!

فظهر الرعب جلياً على وجه الرجل وهو لا يدري فيما أخطأ هو بالضبط...

فدفعه عاصي بعنف ليصرخ به :

_غبي!!!غبي!!!

عدّل الرجل ثيابه وهو يغمغم بتوتر:

_ماذا هناك يا سيد عاصي؟!!ما حكاية هذه الفتاة؟!!أخبرني كي لا أكرر خطئي!!

لكن عاصي طرده بصرخة هادرة قبل أن يعاود جلوسه بانهيار على كرسي مكتبه...

ماسة؟!!

معقول؟!!

ماسة هي ابنة جاسم الصاوي نفسه؟!!

طوال هذه الأعوام وهي تعيش كلقيطة في الظلام ولا تدري أن أباها بهذا الثراء والنفوذ؟!!

مفاجأة لم يحسب حسابها أبداً...

ربما لو لم يكن رجله هو الذي أخبره بنفسه لما صدقه...

ترى ماذا ستفعل هي لو علمت عن هذا؟!!!

وفي هذا التوقيت بالذات!!!

سيشجعها هذا على قرارها الأخير بالانفصال عنه...

لا...لن تعلم!!!

لن يخبرها...

لن يسمح أن تضيع من يده...

جاسم الصاوي الذي رماها طوال هذه السنوات لا يستحق ابنة مثلها الآن!!!

لكنه لو أخفى عنها الحقيقة فسيحرمها حقها في اسم أبيها وثروته...

لا يهم...

هو سيعوضها عن كل هذا...

هو سيعوضها دعم أبيه وماله ولن يجعلها تحتاج لأحد!!!

نعم...لن يطلعها على الحقيقة أبداً ...

ماسته ستبقى هنا معه ولن ينتزعها منه أحد....

لكن....ذاك الضابط يعلم!!!

يعلم الحقيقة كاملة وبتفاصيلها...

كما أن زوجته صديقتها المقربة هنا...

لهذا لن يكون من الصعب عليه أن يصل إليها...

لكن ما مصلحته من كل هذا؟!!!ولماذا يسعى خلف ماسة؟!!!

كما كان يسعى خلف طيف؟!!!

تراه ذاك الرجل الذي علم أنه تخلّى عنها ليتزوج من أخرى؟!!!

ماذا كانت حدود علاقته بها؟!!

وهل هو من دفعها للمصير الذي اختارته؟!!

نعم...نعم...المنطق يقول هذا...

هي كانت تعمل لديهم قبل رحيلها للمدينة المجاورة ويبدو أن القصة بدأت وانتهت في ذاك البيت!!!!

حسام القاضي صار لغزاً كبيراً يجب عليه حله...

خاصةً وهو يتعلق الآن بأهم امرأتين في حياته....

طيف....وماسة!!!!

===================

_أين دعاء يا أمي؟!!

هتف بها حسام وهو يدخل إلى شقة والدته باندفاع فمطت شفتيها باستياء قبل أن تغمغم بنبرة عاتبة:

_الآن تهتم؟!

عقد حاجبيه بضيق دون رد فاستغفرت الله بصوت مسموع ثم قالت باقتضاب:

_ذهبت للمقابر!

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يهتف بسخط:

_وحدها؟!!

رمقته والدته بنظرة متفحصة ثم قالت بأسف:

_أنت تعلم أن صحتي لم تعد كالسابق!!الفتاة رغبت في زيارة قبر والديها ولم أستطع أن أطلب منها انتظارك...فأنت لا تهتم بها من الأساس!!!

أشاح بوجهه في غضب للحظات قبل أن يهتف بانفعال:

_ماذا سيقول الناس عني لو رأوها تذهب هناك وحدها !!؟

لوحت بكفها في وجهه وهي تهتف باستنكار:

_الناس!!!الناس!!!الناس!!!!دوماً لا تهتم سوى بهذا؟!!

زفر زفرة حارة وهو يعطيها ظهره دون رد....

فأردفت هي بنبرة مشتعلة:

_ما تفعله بهذه الفتاة حرام...لا يرضي رباً ولا عبداً..هل تزوجتها لترميها هنا كخرقة بالية ؟!!أنت تكاد لاتتحدث إليها منذ زواجكما ...ولولا إقامتها معي هنا لأصيبت بالجنون!!!

زم شفتيه بغضب مكتوم وهو يدرك صحة حديثها لكنه قال مكابراً:

_هل اشتكتني إليكِ؟!!

أدارت كتفه نحوها لتقول بنبرة أكثر رفقاً:

_الفتاة لا تشكو يا ابني...لكن حالها يوجع ضميري...حرامٌ عليك هذا !!!

انكسرت عيناه بألم غشيهما للحظات فشعرت هي به بقلب "الأم" الذي لا يخطئ قراءة وحيدها...لتهمس له برجاء:

_أرح نفسك وامنحها فرصة جديدة للحياة...أنت تعذب روحين بذنب واحد.. أفقْ من وهمك يا ابني قبل أن تظلم نفسك وتظلمها أكثر!!!

قالتها وهي تربت على صدره برفق لتفاجأ به يرتمي بين ذراعيها ليلقي رأسه على كتفها...!!!!

دمعت عيناها وهي تضمه إليها بقوة لتنطلق منها آهة حارة قبل أن تهمس بصوت متهدج:

_هل تعلم كم مرّ على آخر مرة لجأتَ فيها لحضن أمك هكذا؟!!

كانت تعلم أنه لن يجيبها...

لن يتكلم...!!!

حسام اعتاد دفن حديث نفسه منذ زمن بعيد وليس من السهل عليه الآن أن يبوح...

لكنها تشعر به...

كل دقة ألم ينبض بها قلبه تدوي في صدرها هي قبل صدره...

عذابه عظيم...وذنبه أعظم...لكنه يسير بظهره في عكس الاتجاه...!!!!

يظن أنه يداوي جرحه وهو يضغط عليه أكثر!!!

قطع أفكارها عندما رفع رأسه أخيراً ليقبل جبينها صامتاً قبل أن يغادرها بخطوات متثاقلة نحو شقته بالأعلى...

وهناك أمام خزانة ملابسه وقف ساكناً للحظات...

قبل أن يستخرجه من مكانه ليقلبه بين أنامله برفق...

نعم...إنه "عقد الفل" الذي اصفرت اوراقه وجفت تماماً كأيام عمره بعدها...

عقد الفل الذي كانت "طيفه" تحلم أن تزين به رأسها ليلة زفافهما بعيداً عن الشكل التقليدي ل"تاج العروس"...

طالما كانت أقرب "للطبيعية" في كل تفاصيلها...

لا يذكر أنه يوماً رأى وجهها ملطخاً بأي أصباغ...

ولا حتى عرفت عيناها طعم "التكحل"!!!

كانت ترى أن زينة المرأة نوعٌ من أنواع الخداع...

وأن المرأة التي تتفنن في تزيين وجهها بأحد كفيها فهي توقع وثيقة "شعورها بالنقص" بكفها الآخر!!!!

غريبةٌ كانت هي في كل ما تفعل وما تعتقد....

لكنها كانت مميزة!!!

وأكثر ما كان يميزها بعينيه قوتها وثقتها بنفسها رغم كل ظروفها الخانقة...

وبعد كل هذا يريدون إقناعه أنها انتحرت؟!!!

لا...لا يصدق...

إلا لو كان الجرح الذي خلّفه هو بقلبها كان أكبر من كل هذه القوة التي امتلكتها...

فهو لم يكتفِ فقط بجرح جديد...بل أدمي ب"فعلته " جرحها القديم كذلك!!!

انقطعت أفكاره عندما شعر بها تدخل من باب الغرفة لتتقدم نحوه بجمود ما عاد يفارق ملامحها...

فارتبك لثانية واحدة قبل أن يستعيد تماسكه ليعيد "عقد الفل" مكانه قبل أن يغلق باب الخزانة بعنف...

لكنها لاحظت ما كان يفعله لتدوي في رأسها جملته يوم رآها بفستان الزفاف ذاك اليوم:

_منتهى الروعة!!كما حلمنا به تماماً....لا ينقصه سوى عقد الفل على رأسكِ كما كنتِ ترغبين!!

هنا ارتسمت على شفتيها ابتسامة مريرة والأمور تتضح لديها أكثر...

"سيادة الرائد" كما يبدو لازال قلبه ينبض تحت ركام آثام ماضيه...

يختنق بدخانه الأسود الذي يمنعه الرؤية الصحيحة...

ويخنقها معه!!!

التفت نحوها أخيراً ليهتف باقتضاب دون أن ينظر إليها:

_لا خروج دون إذني فيما بعد!!

فاتسعت ابتسامتها المريرة وهي تميل رأسها لتقول بتهكم:

_لا نريد أن نشغل "سيادة الرائد" بمسائل تافهة كهذه!!

رمقها بنظرة مشتعلة ثم لوح بسبابته في وجهها هاتفاً:

_لا أحب أن أكرر كلامي مرتين...هل تفهمين؟!!

أطرقت برأسها دون رد ثم تجاوزته لتفتح خزانة ملابسها هي...

فاستفزه برودها أكثر لكنه كان يحتاج إجابة لهذا السؤال:

_هل تعرفين مكان صديقتك زوجة عاصي الرفاعي الآن بالتحديد؟!!

التفتت إليه بدهشة لتهتف بقلق:

_ماسة؟!!لماذا تسأل عنها؟!!

فارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة وهو يزيح حجابها عن رأسها برفق قبل أن تعرف أنامله طريقها لأزرار ثوبها الأسود مع كلماته الأكثر سواداً:

_وظيفتكِ هنا أن تريحيني فحسب.

ارتجف جسدها بخوف منطقي وهي تبتعد عنه لتعطيه ظهرها قائلة ببرود مصطنع:

_هي تكون عادة في المشغل في هذا الوقت من اليوم...هل أراحتك الإجابة؟!!

قالتها وهي تلتقط أحد مناماتها داكنة اللون والتي لم تعد ترتدي سواها بعد وفاة والديها...

عندما سمعت هتافه الحازم خلفها:

_أبيض!

أدارت رأسها نحوه بتساؤل متوجس لتصطدم بنظراته الحارقة قبل أن يحيط خصرها بأحد ساعديه بينما امتد كفه الحر يلتقط أحد ثياب نومها القصيرة الذي رفعه أمام وجهها هامساً بنبرة قاسية:

_ثوب نوم أبيض قصير يليق بالعروس التي تأخرت فرحتي بها!!

دمعت عيناها بعجز وقد انتابتها ارتعاشة نفور ...فآخر ما كان يمكنها تقبله الآن أن يمسها هذا الرجل...

حتى ولو كان حقه!!!

لهذا ازدردت ريقها ببطء وهي تواجهه بقوة نظراتها لتهتف ببرودها الذي يستفزه أكثر:

_حسناً...حقك أن تفرح ب"العروس" لكن أخبرني أولاً...

ثم حررت نفسها من ساعده لتردف بنبرة أقوى:

_من التي ستراها بين ذراعيك الآن؟!!صورتي الخائنة التي تشبهك...أم صورة حبيبتك القديمة بعقد الفل على رأسها؟!!

اتسعت عيناه بصدمة للحظة وهو يراها تقرأ كل ما يدور برأسه واضحاً دون مواربة...

كيف علمت عن كل هذا؟!!

كيف استطاعت قراءته بهذا اليسر وكأنها سكنت قلبه وعقله؟!!

كيف استطاعت بمجرد كلمات أن تفجر كل هذه الزوابع والأعاصير في كيانه الذي كان يغلي الآن على مراجل الغضب؟!!!

كيف؟!!

لكن هذا -للأسف- لم يزده إلا حنقاً عليها لينطلق مارد قسوته بكل قوته خارج "مصباح" سيطرته !!!!

البائسة أشعلت النار بين أحطاب ماضيه ولم تدرك أنها ستحترق بها معه...

العاصفة التي تلت عبارتها لم تكن في حسبانها وهو يجذبها نحوه ليفرغ غضبه كله في لمساته التي انتهكتها

بقسوة قبل أن تفيق من صدمتها على ثقل جسده فوقها على الفراش...

لتزداد أنفاسها اختناقاً وهي تشعر أن روحها تكاد تزهق بين يديه...

فتدوي جملة ماسة في رأسها عندما قالت لها:

_قصتنا متشابهة يا صديقتي ...هو ذات الصراع بين شيطان ماضٍ ينشب مخالبه في قلب العمر وماسة الخير التي تجاهد للحفاظ على بريقها رغم الخدوش...والآن دورنا أن ننتظر نتيجة هذا الصراع!!

للأسف...انتصر الشيطان في هذه الجولة...

وزادت خدوش الماسة واحداً!!!

===============

_وجدتها يا جنة!!

همس بها فهد أمام وسادتها التي جلس أمامها على فراشه وكأنه يستحضر صورتها ليردف بصوت متهدج:

_وجدت شقيقتي!!هل تذكرين كم كنت أقول لكِ دوماً أنك ماستي؟!!هل تذكرين يوم قلتِ لي أن ماستي الحقيقية هنا

في صدري؟!!!.هي ضميري الذي استيقظ تحت شعاع نورك؟!!واليوم وجدت شقيقتي لأجد اسمها ماذا يكون؟!!!

ثم صمت لحظة وكأنه يسمعها تبادره بالسؤال ...

بوهج البندق المتألق بحماسته...وتلك الشقاوة الممتزجة بالإصرار على ملامحها...وتلك الابتسامة العذبة على شفتيها والتي كان يحلو له تذوقها ليجد فيها جنة حقيقية على هذه الأرض....

ليبتسم أخيراً مع الدمع الذي ترقرق في عينيه وهو يردف بخفوت:

_اسمها ...ماسة!!

قالها ثم انحنى برأسه ليدفنه في الوسادة مردفاً بألم:

_وجدت ماسة أخرى يا جنة لكن خسرتكِ أنتِ !!!لم أرَها بعد...لكنني علمت عنها كل شئ...هل تصدقين أنها قد تعرضت لحادث اغتصاب ؟!!!نعم...أختي أنا اغتصبوها...هو حق كل فتاة آذيتها أنا ...الآن أشعر وكأنما اقتص لهنّ القدر جميعاً ليوجعني في أختي ....هل تدركين شعوري الآن يا جنتي ؟!!

انتهت كلماته بآهة قوية كتمها في وسادتها قبل أن يهمس بنبرات مرتعشة:

_نعم...أنتِ تشعرين بي!!أليس كذلك؟!!أنا أشعر بحضنك يضمني...قلبي يخبرني أنك حولي...معي...رائحتك في أنفاسي...لهذا أدعهم يزعمون موتكِ كما يشاءون لكنني وحدي أعلم أنك حية...بل ...أنتِ الحياة نفسها!!!

قالها والحزن يكاد يعتصر قلبه الذي كان ممزقاً بين شعورين...

فقده ل"جنته"..وعثوره "الكارثي" على شقيقته !!!

نعم...كارثي!!!

لقد علم عن كل ما أصابها طوال هذه السنوات لينتهي بها المقام هنا في نفس المدينة -للمفارقة-كزوجة لرجل أقل ما يوصف به أنه طاغية!!!

لكنه لن يتركها تحت سطوته لحظة واحدة بعد الآن...

ماسة هي قضية عمره الجديدة التي سيعيش من أجلها...

ولن يخسرها أبداً!!!

انقطعت أفكاره عندما شعر بدخول حسام للغرفة ...

كان مشتتاً للغاية بعد ما حدث بينه وبين دعاء....

ولازالت خلايا جسده تئن بانفعال مكتوم...

نظراته كانت زائغة نوعاً على عكس حدتها الصقرية المعهودة لكنه استرجع طبيعته الصلبة وهو يلاحظ ما يفعله فهد الآن...

فألقى انفعالاته كلها جانباً ليستعيد قناعه القوي....

عندما تنهد بحرارة وهو يقترب منه لينتزع منه الوسادة برفق ويضعها بعيداً....

قبل أن يجلس جواره قائلاً بحزم ممتزج بإشفاقه:

_فهد...أنا أقدر شعورك تماماً...لكن أختك الآن تحتاجك...يجب أن تنفض عنك حزنك هذا لننقذها مما هي فيه!

أومأ فهد برأسه وهو يلتفت نحوه بشرود للحظات قبل أن يقوم من مكانه هاتفاً بحسم:

_هذا بالضبط ما أنتويه....سنذهب إليها الآن وننتزعها من قصر ذاك الرجل!!!

لكن حسام وقف بدوره ليقول بأسف:

_الأمر ليس بهذه البساطة...عاصي الرفاعي ليس سهلاً...كما أننا لازلنا لا نضمن رد فعل أختك نفسها!!!

انعقد حاجبا فهد بغضب وهو يهتف بنفاد صبر:

_إذن ما الخطة كما ترى؟!!

فتوهجت عيناحسام الصقريتان وهو يقول بقسوة ظاهرة:

_هذا رجلٌ لا تصلح معه خطط..كما أن أختك رسمياً زوجته....معركتنا معه لن تكون سهلة!!

هنا احتقن وجه فهد بغضبه وهو يهتف بانفعال:

_وأختي هي الأخرى ليست هينة القدر...هي ابنة جاسم الصاوي!!

رمقه حسام بنظرة طويلة قبل أن يغمغم بتردد:

_هذا ما كنت أود الحديث معك بشأنه؟!!هل ...هل سيعترف والدك بنسبها؟!!

فخبط فهد بقبضته على صدره ليهتف بحدة:

_أنا سأجبره على فعلها!!حتى ولو اضطررتُ لفضحه على الملأ...

ثم أردف بمرارة صاحبت ألمه:

_حق ماسة وجنة سيبقى في رقبتي ما حييت....لن أضيعه !!

صمت حسام للحظات مفكراً....ثم قال وقد حسم أمره:

_إذن هيا بنا...دعاء أخبرتني أنها في المشغل الآن...هي فرصة مناسبة لنتحدث إليها بعيداً عن قصر الرفاعي حتى نعلم موقفها أولاً!!

===============

وقفت في المشغل تباشر عمل الفتيات بذهن مشوش متظاهرةً بالانهماك...

حتى عملها هنا لم يعد مجدياً لتتناسى آلامها...

كل ما حولها صار غابات متشابكة من أشواك تدمي روحها...

أنفاس الهواء ذاتها تدخل صدرها مشبعة برائحة المرارة...والخسارة!!!

لقد ظننت أن "للشيطان" توبة بعد طول عصيان...لكنه أثبت لها أن شهوة السلطة والجبروت تفوق أحياناً قوة الحب ...

وأن رهانها عليه -بعكس رهانه هو عليها كما يزعم دوماً- خاسرٌ ...

خاسر!!!

نعم...هي التي كانت تتعلق بغيمة حب ناعمة في سماء لا تعرف حدوداً ...

وهو الذي ظل راسخاً بقدميه على أرضٍ زرع فيها بذور طغيانه ووقف يراقبها حتى أنبتت حقولاً واسعة لن يحرقها الآن بلهب مشاعر لا يريد الاعتراف بها...

حبها له بعينيها كوليدٍ برئ تمنته أمه بكل جوارحها...

لكن حبه لها بعينيه مجرد "طفل خطيئة" لن يعترف به!

هي "الماسة" التي رغم خدوشها لازالت تجاهد للحفاظ على بريق الخير بفطرتها...

وهو "الشيطان" الذي أعرض بجانبه عن كل نداءات القدر الداعية للغفران غارساً مخالبه في جدران طغيانه القديم...

فكم بينهما؟!!

كم بينهما!!!

تنهدت بحرارة وهي تكتف ساعديها وقد شعرت بأنها على وشك البكاء...

فعادت لغرفتها الصغيرة في المشغل لعلها تستعيد تماسكها لكنها ما كادت تجلس على كرسيها هناك حتى لمحتهما واقفين على الباب يرمقانها بنظرات طويلة مترددة....

فاتسعت عيناها بدهشة للحظة وهي تتعرف على هوية حسام -دون مرافقه-.

لتهب واقفة مكانها مع ذاك الهاجس المفزع الذي جعلها تندفع نحو حسام هاتفة بقلق:

_ماذا هناك يا سيادة الرائد؟!!!دعاء بخير؟!!

أومأ حسام برأسه دون كلمات وقد عاودت كلماتها الجزعة تذكيره بما يحاول تناسيه.....

بينما كان فهد جواره يتفحص ملامحها بعاطفة هادرة لم تُخفِ دهشته...

هذه الفتاة لم تحمل شيئاً من ملامح جاسم الصاوي...

أي شئ!!!

وكأنه عقابٌ آخر غير مرئي من القدر ألا يرى جاسم فيها شيئاً من نفسه...

أو وكأنها إشارةٌ إلى أن هذه -الماسة- أمامه لا تعرف أي شبهٍ ب-شيطان- أبيه!!!!

ورغم أنه ظن أنه سيتلقفها بين ذراعيه فور ما يراها لكنه الآن يقف أمامها مصدوماً وكأنما تكبلت قدماه في الأرض !!!!

هل من الممكن أن تكون هذه "الغريبة" أخته؟!!!

غريبة؟!!

لا...إنه لا يشعر بها كذلك...

شئٌ ما بملامحها يشعره بالألفة...بالسكينة...

هل "يحنُّ الدم" كما يقولون؟!!!

أم أن وجهها الملائكي هو الذي منحه هذا الإحساس؟!!!

نعم...هو يعرفها...يحسها...

عيناها الفضيتان تومضان له بإشارات خاصة تجد مكانها في قلبه...

هي أخته...

نعم...الآن هو متأكدٌ من هذا تماماً ...

روحه تكاد تقسم على هذا بكل يمين!!!

وأمامه كانت هي ترمقه ببعض التوجس وقد أربكتها نظراته المتفحصة الطويلة...

فتنمرت ملامحها رغم احمرار وجنتيها لتعود ببصرها نحو حسام هاتفةً بنبرة عصبية:

_هل يمكنني معرفة سبب هذه الزيارة؟!!

ابتسم فهد بحنان فاض في ملامحه رغم حزنها لكنه عجز عن قول كلمة واحدة مع هذا الطوفان الذي جاش بصدره الآن...

مهما حكى لن يستطيع وصف شعوره بها ...

ظهورها الآن بالتحديد في حياته بعد رحيل جنة هو نعمة قدرية...

بل إنه يعتبرها إشارة من السماء لقبول توبته ودعوةً له للثبات عليها...

وكأن الحياة التي سلبته "جنته" بأحد كفيها...عادت تمنحه "ماسته" بالكف الآخر...

فيالرحمة القدر بالقلوب الكسيرة !!!

لكن حسام هو الذي تولى زمام الموقف وهو يقول بنبرته المسيطرة:

_لقد جئنا إليكِ في أمر هام...وقصدنا أن يكون هنا بعيداً عن عاصي الرفاعي.

ازداد التوجس في عيني ماسة وهي تقلب بصرها بينهما بتفحص...

فزفر حسام زفرة قصيرة حسم بها أمره ليشير بكفه نحو فهد أخيراً مع كلماته المقتضبة:

_فهد جاسم الصاوي...أخوكِ!!

=================

_أخي!!!

أخي!!!

ظلت هذه الكلمة تدوي في أذنها بصدى غريب يوازي غرابة تلك التفاصيل التي سمعتها من حسام لتوها...بعدما أخبرها هو بما عرفه عن الحقيقة الكاملة....

هذا الرجل حقاً أخوها؟!!

هي صار لديها أخٌ...

وأبٌ...

وعائلة بأسرها كما يزعمون!!!!

هي الآن ليست ماسة اللقيطة التي طالما نهشتها ألسنة الناس وتجرعت مرارة انتقاصهم لقدرها...

بل هي ماسة جاسم الصاوي...

جاسم الصاوي!!!

ذاك الرجل المهيب الذي رأته كثيراً على شاشات التلفاز وصفحات الأخبار...

ذاك الرجل الذي يتناقل الناس اسمه الشهير في أحاديثهم اليومية عن السياسة والاقتصاد باعتباره أحد أعمدة هذا المجال...

ذاك الرجل الذي لم تحلم يوماً ولم تتوقع أن تقابله ولو بالمصادفة...

هو...والدها؟!!!

لا.. لا ...لن تصدق....

إنها مزحة...

مقلبٌ سخيف...

أو لعلها مجرد مكيدة!!!!

لهذا هتفت بانفعال وهي تلوح بذراعيها:

_مهلاً يا سيادة الرائد!!!كيف أصدق هذا الذي تدعيه؟!!امنحني دليلاً واحداً!!

ثم التفتت نحو فهد لتردف بعصبية أكثر:

_وأنت لو كنت أخي حقاً كما تزعم...لماذا تذكرتني الآن؟!!وما مصلحتك في ظهوري؟!!وأين والدك الذي تزعم أنه والدي أنا الأخرى؟!!

تنهد فهد بحرارة وهو يدرك منطقية أسئلتها...

لكنه قال بود حقيقي لم تخطئه عيناها:

_أبي لا يزال لا يعلم أنني وجدتك...لم أخبره بعد...

ثم اقترب منها خطوة ليردف بعاطفة حقيقية:

_وأما عن مصلحتي في ظهورك فهي أكبر كثيراً مما تتخيلين...أنا أحتاجكِ حقاً الآن...

ثم تقدم خطوة أخرى ليردف بصوت متهدج:

_أحتاج أختي!!!

ورغم أن عينيها كانتا تتفحصان ملامحه بجوع احتياجها العاطفي هي الأخرى لكنها كانت لا تزال مشوشة غارقةً في ارتباكها...

آلاف التساؤلات تجوب رأسها بازدحام يمنعها التركيز...

ومع أن ما يقولانه الآن لم يخالف توقعاتها التي طالما رسمها خيالها منذ صغرها عن حقيقة نسبها لأناسٍ رموها خشية الفضيحة...

لكن الواقع أنها إلى الآن ...لا تصدِّق!!!

لهذا ابتعدت عنه قليلاً لتهتف بحدة :

_ابتعد...لا تقترب مني هكذا...أنا...

_ماذا تفعلان هنا؟!!

كانت هذه صيحته الهادرة التي قطعت عبارتها وهو يدخل إلى الغرفة ليغلق بابها خلفه بعنف....

فاندفعت نحوه لتتشبث بذراعه دون وعي هاتفة :

_عاصي!!!

بكل لهفتها نطقتها...

بكل احتياجها وعاطفتها ورغبتها الآن في الشعور بالأمان...

بكل إحساسها أنه هو ...هو فقط من منحها هذا الشعور بصدق...

هو فقط من تحتاجه الآن!!!

وبرغم كل مشاعرها السلبية الأخيرة نحوه...

لكنها الآن كانت تتعلق به بكل قوتها وجسدها كله يرتعش بانفعاله مع كلماتها المبعثرة:

_هما ...يزعمان أنني...أنهما...يعرفان...

_الحقيقة!!!

هتف بها حسام مقاطعاً كلماتها وعيناه الصقريتان تناطحان "غابات الزيتون" بعداء واضح ...

لقد آن الأوان لكشف الأوراق كلها....

بل وربما للحساب أيضاً!!!

ورغم اشتعال ملامحه بغضبه لكن صوت عاصي خرج بارداً كالثلج:

_أي حقيقة يا "حضرة الضابط"؟!!

تقدم منه حسام خطوة وقد فاضت عيناه بقسوة مشتعلة مع كلماته البطيئة الإيقاع:

_الحقيقة التي ستقلب موازينك يا سيد عاصي...حقيقة نسب زوجتك لجاسم الصاوي...وحقيقة مقتل طيف وليس انتحارها!!!

كز عاصي على أسنانه فازدادت ماسة تشبثاً بذراعه وهي تغمغم بشحوب:

_طيف!!!وما علاقة عاصي بطيف؟!!

لم ينظر إليها حسام...ولم يتعجب من معرفتها عن أمر طيف فهو يعلم عن صداقتها المتينة بدعاء...

بل حافظ على ثبات نظراته القاسية نحو عاصي وهو يجيبها بحسم:

_أخته التي قتلها!!!!

ضم عاصي قبضته متحفزاً مع شهقة ماسة الملتاعة وهي تحاول جمع كل الخيوط في رأسها الآن...

طيف حبيبة حسام الراحلة هي شقيقة عاصي التي حكى لها عنها...

دينه القديم!!!

لا...هو لم يقتلها!!!

حسام هذا إما مفترٍ أو واهم!!!!

لهذا تشبثت بذراع عاصي أكثر وهي تواجه حسام لتهتف مدافعة:

_عاصي لم يقتل أخته....هي انتحرت!!!

فالتوت شفتا حسام بشبه ابتسامة قاسية وهو يقول بازدراء:

_هذا ما حاول إقناع الجميع به كي يخفي جريمته...بداية من رسالتها التي أرسلتها لهاتفي وانتهاءً بالبيت الذي احترق عن آخره بيد رجاله.

وأمامهما وقفت ماسة غارقة بحيرتها وقد بدا لها كلاهما صادقاً واثقاً...

فأين الحقيقة ؟!!

هل انتحرت طيف بعد تخلّي حسام عنها كما كانت تظن؟!!

أم أن عاصي حقاً هو من قتلها؟!!!

لا...لا مستحيل ...عاصي لن يفعلها أبداً!!!!

بينما اشتعلت عينا عاصي ببريق عاصف وهو يسأله بحدة:

_أي رسالة؟!!

فتناول حسام هاتفه من جيبه ليقلب فيه بأنامله قليلاً قبل أن يرفعه أمام عيني عاصي اللتين ازداد توهجهما وهو يقرأ الكلمات...

قبل أن يهتف بغضب:

_إذن كنت أنت...أنت من وعدها بالزواج ثم تخلى عنها ؟!!

فاتسعت ابتسامة حسام الساخرة وهو يعيد الهاتف لجيبه قائلاً بتهكم:

_عذراً لو لم أكن ب"شهامة" والدها الذي رماها طفلة أو أخيها الذي قتلها عندما كبرت!!!

هنا انتزع عاصي مسدسه بسرعة من جيب سترته لكن حسام لم يكن أقل منه تحفزاً وهو يفعل المثل...

لينتهي المشهد بهما وكلاهما يصوب مسدسه إلى صدر الآخر!!!!!

العيون الآن اشتعلت جميعها برغبة حقيقية في الثأر لما ظن كل منهما أنه حقه...

لتأتي شهقة ماسة الخائفة وتقطع هذا الجو المشحون بالعداء عندما هزت ذراع عاصي الذي تشبثت به لتهتف بجزع:

_بالله عليكما توقفا!!!

لكن كليهما كان لايزال يترقب الآخر بتحفز وكأنه ينتظر مجرد بادرة ليطلق الزناد...

لتأتي عبارة فهد حاسمة للموقف أخيراً وقد وجد الوقت المناسب لتدخله في هذه العاصفة....

عندما جذب حسام نحوه بقوة:

_حسام!!هو سينال عقابه حتماً...لكن ليس بهذه الطريقة...

ثم التفت نحو عاصي ليهتف بصرامة :

_أظنك الآن تعرف من أنا !!!

ثم لوح بسبابته في وجهه مردفاً بنبرة عدائية واضحة:

_أختي لن تبقى على ذمة رجل مثلك بعد الآن...سأخلصها من جحيمك هذا ولو كان الثمن عمري كله!!

لكن عاصي رمقه عاصي بنظرة طويلة عجز فهد عن قراءة معانيها التي تناقضت بين تهديد وخوف...

وقوة وضعف...

وتسلط ورجاء...

ورغم العجز الذي ملأ روحه الآن لكنه هتف أخيراً بحزم واثق:

_أختك نفسها لن ترضى بأن تفارقني!!

تجمدت ماسة مكانها وهي تشعر بالعيون كلها تتسلط عليها...

لكن كلمة واحدة كانت تدوي في رأسها الآن...

أختك!!!

عاصي قالها...أختك!!!

عاصي لم يبدُ مندهشاً بهذا الخبر الذي زلزلها هي وكأنه كان يعلم!!!...

كان يعلم؟!!!

لهذا رفعت عينيها المصدومتين إليه وهي تغمغم بذهول:

_أخته؟!!إذن هو صادق؟!!

رفع عاصي رأسه لأعلى دون رد سوى زفرة مشتعلة...

فتراخى ذراعها المتشبث به لتردف بألم غلب دهشتها:

_وأنت...كنت تعلم؟!!

التفت نحوها بحدة ليهتف بانفعال:

_لم أعرف إلا منذ ساعات!!

فابتسم حسام بسخرية ليهتف بازدراء وكأنه فقط يخبره أنه يراقبه:

_صدقيه يا سيدتي!!!كلبه الوفي سرحان لم يخبره بالحقيقة إلا صباحاً!!

هنا جذبه عاصي من ياقة قميصه ليهتف بغضب غلب حذره المعهود:

_الزم حدودك يا هذا....بدلتك الرسمية هذه لن تحميك من بطش عاصي الرفاعي وأظنك تعلم هذا...فلا تتمادَ!!

لكن حسام دفعه بقوة ليهتف بحدة هو الآخر:

_بطش عاصي الرفاعي هذا مضى عهده!!!نهايتك اقتربت كثيراً ويسعدني أن تكون على يدي!!!

وأمامهما كانت ماسة تراقبهما بذهول...

ما الذي يحدث؟!!

لقد ظننت أنها رأت أسوأ وجوه عاصي الرفاعي لكن الواضح أن الأسوأ لم يأتِ بعد!!!

ما كل هذا السواد الذي أحاط بلوحتها فجأة...

حرق وقتل وإخفاء نسب؟!!!

هل هذا هو "أمان" عاصي الرفاعي الذي كانت تنشده؟!!!

ووسط كل هذا وجدت نفسها رغماً عنها قد تعلقت عيناها بعيني فهد الذي كان يراقبها هو الآخر بتفحص مفعمٍ بعاطفته....

لتمنحها عيناه الحنونتان وعداً بالمؤازرة خاصة مع هتافه القوي بعدها:

_تعاليْ معنا يا ماسة!!بالله عليكِ لا تبقيْ لحظة بعد الآن مع هذا الرجل!!

لكن عاصي جذبها من ذراعها بقوة ليلصقها به هاتفاً بلهجته المسيطرة:

_هل تتصور أنك ستخرج بزوجة عاصي الرفاعي من هنا دون إذنه؟!!

فاقترب منهما فهد ليجذب ذراعها الآخر هاتفاً بدوره:

_لا تنسَ أنها ابنة جاسم الصاوي أيضاً يا هذا!!!

هنا نقلت ماسة بصرها بينهما للحظات بذهول لاتزال عالقة به...

كلاهما الآن يتشاجر لإبقائها جواره!!!!

"فهد" الذي ظهر من العدم فجأة ليمنحها "حقيقة" الأخ والأب والعائلة والسند...

و"عاصي"...

عاصي الذي هو بعين "قلبها" كل ما سبق...

وبعين "عقلها" لا شئ مما سبق!!!

لهذا أغمضت عينيها بقوة تخفي عاصفة شعورها المضطرب الآن.....

قبل أن تحسم أمرها لتقول أخيراً بحزم:

_أنا سأبقى هنا!

ارتخت ملامح عاصي المتشنجة أخيراً مع تنهيدة ارتياح كادت تغادر شفتيه رغماً عنه....

بينما عقد حسام حاجبيه بضيق وهو يشيح بوجهه...

أما فهد فقد وقف يرقبها بنظرات متفحصة حنون لم تخلُ من أسف وكأنه يحاول قراءة سبب تصرفها هذا بعد ما عرفته...

فنظرت إليه بتشتت ناقض عبارتها القوية:

_قل لأبيك الذي رمى ابنته طوال هذا السنوات...إن كان يريدني فليأتيني هنا!!!

=================

جلست في غرفة الحديقة المستترة على الأريكة تحتضن ركبتيها المرفوعتين لتشخص ببصرها في الفراغ...

وأفكارها العاصفة تزيد تصدع بنيان روحها الكسير...

تحاول فقط استيعاب بعض الحقائق التي عرفتها...

هي ليست لقيطة...

هي ابنة رجل مرموق ألقاها على قارعة الطريق باعتبارها خطأ سهو لا يستحق عناء النظر خلفه...

والآن يريد -مثلاً- إصلاح هذا الخطإ في أواخر عمره؟!!!!

وكأنّ العفو يُشتَرى بضغطة زر!!!

انقطعت أفكارها عندما شعرت به يجلس جوارها صامتاً للحظات...

قبل أن يقول بنبرته التي امتزج فيها حنانه بتسلطه:

_كنت أعلم أنك ستختارين البقاء معي بإرادتك.

لم تلتفت نحوه وهي تقوم من جواره لتسير بضع خطوات معطيةً إياه ظهرها قبل أن تقول ببرود لم يخفِ انكسارها:

_أنا لم أختر البقاء معك...أنا اخترت البقاء هنا...هل تدرك الفارق؟!!

انعقد حاجباه بضيق وهو يقوم بدوره ليتوجه نحوها قبل أن يدير كتفيها نحوه ليلتقط هدير أمواجها التي كانت تزأر بقوة الآن مع استطرادها:

_لا أظننا سنكون "معاً" بعد الآن...حتى لو بقيت أنا هنا!!

تنهد بحرارة وهو يشيح بوجهه للحظات قبل أن يعاود اعتقال نظراتها بنظراته التي فاضت بمرارتها مع همسه الأجش:

_هل تصدقين أنني قتلتها؟!!

أغمضت عينيها للحظات دون رد كاد فيها يذوب ترقباً لردها على هذا السؤال بالذات....

قبل أن يفاجأ بها تضع كفها على صدره في موضع القلب تماماً...

لتهمس بيقين دون أن تفتح عينيها:

_لا...عاصي الرفاعي لن يقتل أخته التي جُلد على ظهره لأجل الدفاع عنها!

التوت شفتاه ب-شبه- ابتسامة وهو يحتضن كفها على صدره بينما فتحت هي عينيها وهي تردف بشرود:

_لكنك كذبتَ عليّ ليلة أخبرتني أنها انتحرت!!

عقد حاجبيه بتفحص وهو يتأمل ملامحها بعمق عندما التفتت إليه من شرودها لتردف بثقة:

_لازالت على قيد الحياة...رجلك ذاك دبر الأمر ليوهم الجميع بانتحارها بجثة متفحمة ليست لها...بينما اخفيتها أنت في مكانٍ ما كي لا تواجه الناس بخطيئة أبيك القديمة...خشيتَ علي اسمك وسط الناس أن تُلصق به "ابنة حرام" كما يقولون...

ثم ارتسمت ابتسامة مريرة على شفتيها وهي تهمس بتهكم غارق بالأسف:

_عاصي الرفاعي الذي أنكر على أبيه فعلته وجد نفسه يتصرف بنفس الطريقة عندما صار مكانه...ياللمفارقة!!!

ضمها إليه بقوة وهو يخفي وجهه في خصلات شعرها دون رد...

لم يعد يتعجب قدرة ماسته على اختراق أسراره...

وإن كان لايزال ينبهر بهذا كل مرة!!!!

بينما دمعت عيناها وهي تهمس بنفس التهكم المرير:

_أرأيتَ كم صرتُ أجيد قراءة صمتك؟!!ماهرةٌ أنا ...صحيح؟!!

لم يجبها سوى بأن زاد من قوة ضمه لها وكأنه عجز عن مواجهتها بعينيه في هذه اللحظة...

لو تعلم كم هي محقةٌ في قولها...

نعم...عاصي الذي طالما كره أفعال أبيه وجد نفسه صورةً منه عندما وضعته الظروف في نفس الموضع...

لينتهي به الأمر كأبيه تماماً...

مسخٌ مشوه لا يكاد يبصر سوى حدود سلطانه الذي يبسطه بالقوة والبطش...

ليدهس في طريقه كل ما يعوقه!!!

لقد أحسنت ماسته استنتاج ما حدث بالضبط...

هو لم يكن ليقتل أخته أبداً...

لكنه كذلك عجز عن الاعتراف بها...

منعته أنفته أن يمنحها اسم أبيه رغم يقينه من نسبها...ليكتفي فقط بمنحها نصيبها الشرعي من ماله سراً!!!

نعم...هذه كانت الصفقة التي رضي كلاهما بها بعدما عثر عليها أخيراً...

لكنه لم يكن يعلم عن تلك الرسالة التي أرسلتها لحسام...

هي لم تخبره عن هوية ذاك الرجل الذي تخلى عنها بل اكتفت بمنحه معلومات مقتضبة لتبرر له -هي الأخرى- رغبتها في الاختفاء تماماً لتبدأ من جديد في مكان آخر...

ثم انقطعت عنه أخبارها تماماً بعدها...!!!

نعم.."الصغيرة"ردت له صفعته برفضه الاعتراف بنسبها لتستغني هي الأخرى عن مجرد معرفته!!

ورغم أنه حاول كثيراً بعدها أن يعثر عليها ثانيةً أو يعرف عنها أي خبر لكنه فشل...

"الصغيرة" أجادت الاختباء من جديد دونما أي أثر هذه المرة!!!

ورغم أن هذا كان من المفترض أن يشعره ب-ببعض- الارتياح لغيابها ب-ماضيها- عن حدود سلطانه...

لكنه -على العكس- كان يشعر بوخز ضميره كلما تذكر أنه لم يساندها كما كان ينبغي أن يفعل...

اكتفى بحفنة من المال ألقاها في وجهها ك"متسولة" وهي التي كانت تستحق أن تعيش مرفوعة الرأس باسمها الحقيقي في بلدها وسط أهلها!!!

لهذا لم يكن عجيباً أن يساعد ماسة بكل قوته عندما ظهرت فجأة في حياته...

لعله يكفر بهذا عن ذنبه القديم مع من كانت يوماً في مثل ظروفها!!!

وبينما كان هو غارقاً في سواد ماضيه الذي يوشك أن يلطخ حاضره...

كانت ماسة أمامه -تكاد- تسمع صوت أفكاره...

نعم...لقد تعلمت أن تسمع "صمت" رجلٍ توقن أن كلام الشفاه ليس معترفاً به كلغة عنده!!

وأن الطريق إلى قلبه مستترٌ خلف غابات متشابكة من أسرار يكتمها ويرفض البوح بها لأحد...

لهذا رفعت عينيها إليه أخيراً لتدفعه برفق هامسة بأسى:

_والآن...ماذا بعد؟!!

توهجت شموسه الزيتونية بدفء عاطفته ليغمغم بعد صمت قصير:

_ابقيْ معي يا ماسة...هذا الرجل لا يستحق أن تكون له ابنة مثلك...

أطرقت برأسها للحظات فرفع ذقنها إليه ليردف بنبرة أكثر حزماً:

_يمكنكِ تجاهل كل ما سمعتِه اليوم!!

ابتسمت بسخرية مريرة لتهمس بعدها:

_بهذه البساطة؟!!

فقربها إليه أكثر ليحتكر نظراتها بين غابات زيتونه التي عادت الآن لاشتعالها وهو يقول بانفعال غريب على ثباته المعهود:

_ماذا تريدين منه؟!!أي شئٍ سيمنحه لكِ أكثر مما فعلت أنا؟!!

لكنها أسندت جبينها على صدره بتعب حقيقي وهي تجيبه بنبرة خائبة:

_لا شئ!!!كلاكما تخلى عني في أشد أوقاتي احتياجاً إليه!!!

ابتلع غصة حلقه وهو يشعر بصدق حديثها...

لكنه كان عاجزاً عن الرد...

كبرياء عناده منعه الاعتراف لنفسه- قبل أن يعترف لها- أنه حقاً خذلها!!!

بينما رفعت هي إليه رأسها بعد دقيقة صمت تمالكت فيها قوتها من جديد لتقول بصلابة لا تدعيها:

_أنا تعلمت درسي جيداً...من اليوم لن أفرط في حقٍ هو لي...لو لم يعترف بي فسأجبره على فعلها...سأنتزع اسماً هو حقي ولن أتنازل عنه أبداً!!!

اختلط الإعجاب بالتردد في نظراته التي اكتسبت الآن شيئاً من الغضب عندما أردفت هي بصوت متهدج هذه المرة:

_كنت تتحدث عن "البديل"؟!!أنا الآن وجدته!!!

خفض بصره عنها لراحتيها اللتين استقرتا على صدره ...

حيث كانت أناملها تتشبث بقميصه- دون وعي منها - لتناقض همسها الشارد بعدها :

_الآن يمكنني أخذ قراري دون ضغوط!!

لكنه شدد ضغط ساعديه على خصرها ليهمس بقسوة عاودت احتلال نبراته:

_تظنين أن أحداً سينتزع من عاصي الرفاعي امرأته دون رغبته؟!!

أفاقت من شرودها لتنتبه لأناملها المتشبثة به فسحبتها ببطء لتبتعد عنه بجسدها قبل أن تهمس بخفوت:

_لن تجبرني على البقاء يا عاصي...لن تكرر خطأك القديم...ستخسرني طواعية هذه المرة...

ثم دمعت عيناها وهي تشعر بمرارة الخسارة في حلقها لتردف :

_سأكون أحد قرابينك لذاك الشيطان الذي سمحت له بتملكك.

هنا اشتعلت عيناه ببريق غضب لم يثبت صحة نبوءتها...

ولم يُنفِها كذلك...!!!

ليغزوه طوفانٌ من حيرة تضافرت مع عجزه...

ترى سيتغلب على شيطان نفسه هذه المرة؟!!

أم تكون ماسته كما قالت -لتوها- قرباناً لشيطان؟!!

=============

عاد من الخارج بعد شروق الشمس وقد تعمد ألا يعود إليها هذه الليلة فهو لم يكن قادراً على مواجهتها...

لا يريد الاعتراف بأن ضميره يوخزه على ما فعله بها...

لكنها الحقيقة!!!

رغم نفوره الدائم منها أو بالأدق من -صورتها المشوهة- التي رسمها بعين خياله ...

لازال صوت نشيجها الباكي يطنّ في أذنيه بدويّ رهيب بعدما نالها بأسوأ طريقة قد ينال بها رجلٌ زوجته!!!

هي استفزت شيطان غضبه وهو استجاب دونما رادع من شفقة أو تعاطف مع امرأة فقدت والديها وسندها ولم يعد لها سواه...

تصرف معها كنذل حقير أبعد ما يكون عن الرجولة!!!

لكن عزاءه أنه لم يكن في وعيه عندما فعلها...

ذاك الغضب الهائج الذي تملكه وقتها لم يجعله يبصر بها سوى متنفساً لبركان صدره...!!!

زفر بقوة وهو يشعر بالسخط على نفسه وعلى كل شئ...

موقفه الأخير مع دعاء والذي تلاه مواجهته الحامية مع عاصي الرفاعي استنزفت رصيد تماسكه كله...

ليجد نفسه الآن في أضعف حالاته...

ولولا كبرياؤه لفضّل الآن أن يأوي لحضن أمه -كطفلٍ ضال -لعله يستعيد شعوراً بالسكينة فارقه لوقتٍ طويل...

ويبدو أنه سيفتقده لوقت أطول!!!

قادته خطواته المتثاقلة لغرفة نومهما وهو يتمنى سراً أن يجدها نائمةً في هذا التوقيت...

ليتنفس الصعداء بكثير من الارتياح وهو يجد الغرفة خالية منها...

لاريب أنها فضلت قضاء ليلتها عند والدته بعد ما حدث بينهما...

لكن هل عساها تخبرها بما كان؟!!

لا...لا يظنها قد تفعلها...

أو من يدري ...ربما!!!!

انعقد حاجبيه بدهشة وهذا الخاطر الأخير بالذات يهيج عقله أكثر...

ما الذي يعرفه عن دعاء من الأساس كي يمكنه التكهن بتصرفاتها؟!!!

هو -إلى الآن- لم يستطع...بل ولم يهتم بها "هي"!!!

لازالت صورتها بعينيه مجرد انعكاس في مرايا ماضيه...

ويبدو أنها لن تتجاوز هذا أبداً!!!

وبهذا الإدراك الأخير أوقف نزيف أفكاره ليبدل ملابسه بإرهاق قبل أن يتوجه نحو فراشه ليزيح أغطيته...

لكنه ما كاد يفعلها حتى فوجئ بورقتها على وسادته :

_أنتظرك على سطح المنزل كي تتم انتقامك كما ينبغي!!!

انعقد حاجباه بدهشة للحظة قبل أن يندفع عدواً للخارج وقلبه يخفق بصدره بجنون ...

ما الذي تعنيه بكلماتها؟!!!

ياالله!!!

هل هذا ما تنتويه حقاً؟!!

الانتحار؟!!

لا...ليس ثانيةً!!!

هو لم يبرأ بعد من ذنبه القديم حتى تباغته بجرح آخر...!!!!

كان يقطع الدرجات وثباً ولأول مرة منذ عهد بعيد يلهج لسانه بالدعاء...

حتى وصل أخيراً ليجدها واقفةً على بعد خطوات من سور السطح القصير عاقدةً ساعديها أمام صدرها وكأنها تنتظره...

اندفع نحوها بغضب فضحته ملامحه قبل هتافه الساخط بين أنفاسه اللاهثة الآن:

_ماذا تفعلين هنا؟!! ألن تكفي عن حماقاتك؟!!

لكنها عادت بظهرها إلى الوراء لتجلس على حافة السور القصير قبل أن ترفع كفيها أمامها هاتفة بجمود أخافه أكثر:

_لا تقترب...خطوة واحدة أخرى وسأسلم نفسي لسقوط النهاية!!!

وقف مكانه عاجزاً وهو يتلفت حوله بارتباك...

فابتسمت بسخرية سوداء وهي تقول بنبرة ميتة الإحساس:

_هل تذكر حديثنا عن امرأة أنت محطتها الأخيرة؟!!

ازدرد ريقه الجاف بصعوبة وهو يقبض أنامله المتشنجة انفعالاً...

هي لا تبدو بحالتها الطبيعية وهو يخاف أن يثيرها بأي كلمة أو حركة فتنفذ تهديدها...

البيت مكون من خمس طوابق وسقوطها من هذا الارتفاع سيكون كارثياً!!!

لهذا تمالك ثباته الانفعالي باقتدار وهو يرفع كفيه أمامه مهدئاً ليهتف ببعض الرفق:

_حسناً...سأنفذ لكِ ما تريدين!!!

هزت رأسها قليلاً لتتسع ابتسامتها الذبيحة مع سخريتها السوداء:

_أنا لم أعد أريد شيئاً...أنت الذي تريد!!!

اكتست ملامحه بخوف حقيقي وهو لا يدري كيف يتصرف...

بينما أردفت هي بشرود كسير:

_يوماً ما أنا كنت أريد...كنت أريد فقط أن أعيش كأي فتاة عادية...كنت أريد أن أقابل "الأمير الوسيم" الذي

يراقصني في حفل كبير لا تلعنني فيه نظرات الناس بسبب مرضي...كنت أريد فقط ألا أُجلَد بسياطهم لأجل قدرٍ لم أختره ولم تكن لي يدٌ فيه...كنت أريد أن أكمل الحلم لآخره...بيتٌ وزوجٌ وأطفالٌ لا يرثون مرضي ...كنت أريد كل هذا لأكتشف الآن أنني كنتُ شديدة الطمع...لهذا لم أعد أريد شيئاً...صدقاً...لم أعد أريد!!

أغمض عينيه بتأثرٍ حقيقي وقد عجز عن الرد...

فصمتت هي للحظات قبل أن تفيق من شرودها لتسأله بلهجتها التي عادت إليها سخريتها المريرة:

_والآن دورك لتخبرني...ماذا تريد أنت؟!!

فتح عينيه ليرمقها بنظرة طويلة عاجزة...

سؤالها يبدو يسيراً...

لكنه بعينيه شديد العسر...

هو لا يعلم ماذا يريد منها الآن بالضبط؟!!

ربما في البداية كان يعلم...مجرد زوجة مناسبة لظروفه!!

لكن الأمور الآن تشابكت...

كل الصور تداخلت بعينيه فما عاد يملك رؤية صحيحة...

هي "دعاء"...

بصورتها الانتهازية التي تشبهه عندما باعت حب زميلها الفقير لأجل الفرصة الأفضل...؟!!!

أم "دعاء"....

بصورتها القوية المكافحة التي تشبه صورة طيفه الراحل...؟!!!

أم "دعاء"...

تلك الفتاة البسيطة التي ابتليت بمرضها وشاء القدر أن تشاركه طريقه؟!!!

هو لا يعرف...وربما لو عرف لأدرك -بالضبط-ماذا يريد منها!!!!!

لكنها قطعت أفكاره لتجيبه بنفس النبرة الذبيحة:

_دعني أنا أخبرك...أنت تراني صورةً من نفسك الخائنة التي دفعت حبيبتك للانتحار...تنتقم مني الانتقام الذي

عجزت عن أن تفعله بنفسك...وكأنك تريد دفعي أنا لنفس مصيرها...

ورغم يقينه من بعض الصحة في ما تقول لكنه هتف بانفعال:

_كل هذه أوهامٌ برأسكِ ...عودي لعقلكِ فلا مزاح في هذا الأمر!

فردت ذراعيها جوارها مغمضةً عينيها وهي تشعر أن الوجود كله اختفى فما عاد هناك سواهما في هذا الفضاء الفسيح وهي تقول بنبرة غريبة وكأنها حقاً ليست في وعيها:

_الأوهام برأسك أنت ...لكنني سأريحك كما زعمتَ أنتَ أنها وظيفتي الوحيدة هنا...

ثم فتحت عينيها لتردف بخفوت:

_لن تنتهي لعبتنا إلا هكذا...سأريحك ...وأريح نفسي!!

اقترب منها بحذر وهو يقول مهدئاً:

_دعاء...قد أكون أخطأتُ بالتصرف معكِ فيما مضى...لكن يمكننا فتح صفحة جديدة.

لكنها ابتسمت بمرارة حقيقية وصوت الريح الآن يعوي في أذنيها ليذكرها بكل خسائر ماضيها ...

صوت الريح الذي اختلط الآن بضحكات رفيقاتها الساخرة على مرضها عندما كُنّ صغاراً...

أحاديث والديها التي كانت تخدش أذنها عن "الحمل الثقيل" الذي يريدان التخلص منه...

كلام الجيران المتهكم عن "الدمية المعيبة" التي لا يحق لها الحلم بالسعادة...

وداعها القصير ل"معتصم" بعد اعتراف "عقيم" بحب وقف عاجزاً أمام كلمة القدر...

فاحتضنت جسدها بذراعيها لتعود برأسها للخلف مع كلماتها:

_هل هذا ما تريده حقاً؟!!صدقني لا...أنت تريد قرباناً رخيصاً لذنب قديم...وأنا سأمنحك إياه...

قبل أن يتغير صوتها لنبرة عالية وهي تهتف بانفعال هائج زاد يقينه أنها ليست بحالة طبيعية:

_انظر إليّ جيداً...أنا الآن أنت...بطمعي وأنانيتي قتلتُ "طيف"... بتخاذلي وضعفي ضيعتُّها...صورة بشعة للخيانة لا تستحق الحياة...

ثم أغمضت عينيها بقوة وهي تعود للخلف أكثر مستسلمة للثقل الذي يجذبها لأسفل لتردف بنبرة جديدة فقدت الحياة تماماً هذه المرة:

_تقدم يا حسام...خطوة خطوة ...وعند آخر خطوة ستحقق انتقامك الكامل...ونرتاح معاً!!!

كانت كلماتها تطعنه بنصال الحقيقة وهو ينظر إليها مصدوماً...

جزءٌ بداخله يريد العدو لإنقاذها بسرعة ...

لضمها بين ذراعيه وتقبيل رأسها باعتذار تستحقه بعد كل ما فعله بها...

لكن جزءاً آخر كان يستريح لرؤيتها هكذا...

يترقب سقوطها بلهفة منتشية ...

يريد أن يحقق بها انتقاماً عجز أن يمضيه في نفسه...!!!!

أما هي فكانت تشعر بخطواته البطيئة المتقدمة نحوها تحرقها...

وكأنه يدفعها للسقوط للخلف أكثر...

كانت ترى الصراع على وجهه رغم عينيها المغمضتين بين وجه متشفٍ يرتاح لهذه النهاية...

ووجه آخر لازال يحمل بقايا من ضمير...

لكنها كانت تعود للخلف أكثر وهي تشعر بصوت الريح حولها يزداد صخباً مع هدير ذكرياتها العاصف....

وكأنه يعلن عن النهاية...

بطيئة ...

قاسية...

وغير عادلة...

لكن من قال أن الأرض بيت العدل؟!!

العدل هناك في السماء عندما ينصب الميزان أمام الخلائق فتنتظر نفسٌ ما قدمت وما أخرت!!!

لتنتهي فكرتها بشعورها المفاجئ بانقباض قلبها مع ذراعيه اللذين جذباها بقوة ....

قبل أن تسقط بثقل جسدها لكن ليس للخلف بل للأمام !!!!

فينتهي بها المقام على صدره مع سقوطهما معاً على أرضية السطح!!!

ظلت مغمضةً عينيها للحظات طويلة وهي تلهث بسرعة مع ارتجاف جسدها بانفعاله...

لكن تمتمته شديدة الخفوت وسط لهاثه السريع اخترقت أذنها:

_الحمد لله!

فرفعت رأسها أخيراً نحوه بترقب وقد امتزجت الآن أنفاسهما اللاهثة مع نظراتهما المفعمة بمشاعرها...

لكن عينيه الآن كانتا تبرقان ببريق مختلف...

اختفت نظرتهما الصقرية لتعود لهما لمعتهما القديمة وإن شابها حزنٌ خالص هذه المرة...

حزنٌ مسّ قلبها بصدقه ربما لأنها صادفت في صدرها مثله..!!!

مع دقات قلبه تحت كفيها المستندين على صدره والتي كانت تزأر بجنون دفعها للابتعاد...

لكنها ما كادت ترفع جسدها عنه حتى عاود جذب رأسها لصدره بقوة متشبثاً بها بين ذراعيه دون أن يهمس بكلمة واحدة....

ومع شدة انفعالها الذي كاد يشق رأسها بهديره استسلمت-مرغمةً- لدفء شعورها -المستحدث- بين ذراعيه هذه المرة...

ليختفي صوت الريح تدريجياً من قلبها قبل أذنيها...

فيسمح لزقزقة العصافير حولها في هذا الوقت من الصباح أن يداعب خلاياها بدلاً منه...

وكأنها تعلن لها منذ هذه الساعة بداية جديدة مع هذا الرجل...

أو ربما...مجرد نهاية لهذه الجولة!!!

==================

الفصل الخامس والعشرون

_هل جننتِ يا دعاء؟!!لا أصدق أنك أقدمتِ على فعلٍ كهذا؟!!

هتفت بها ماسة في استنكار لم يخفِ شفقتها على صديقتها التي روت لها تفاصيل ما حدث مع حسام كاملة وهي تجلس معها في المشغل...

فغمغمت دعاء بثقة رغم شرودها وهي تستعيد بدورها ذكرى ما حدث:

_كنت أعلم أنه لن يتركني أسقط...رغم كل مساوئه كنت أراهن على بقايا قلب لازال ينبض بصدره!!

اتسعت عينا ماسة بدهشة للحظة قبل أن تبتسم لتهتف في عدم تصديق:

_إذن...كنتِ تخدعينه؟!!

تنهدت دعاء بحرارة لتفيق أخيراً من شرودها وهي تلتفت نحو ماسة قائلة بأسى:

_ليس خداعاً!!!هو كان يحتاج صدمة كهذه ليفيق من أوهامه التي تغذي قسوته عليّ وعلى نفسه قبلي...أنا فقط أردت أن أريه الصورة البشعة في مرآة الانتقام كيف تبدو...

ثم أطرقت برأسها لتردف بخفوت:

_وهو لم يخيب ظني فيه...على الأقل في هذه النقطة .

ربتت ماسة على كتفها في مؤازرة ...فرفعت دعاء إليها رأسها بابتسامة شاحبة لتقول بنبرة قوية:

_لقد تذكرت عبارتك يوم قلتِ لي أن قوتي أنا هي ما ستنقذنا معاً..لهذا انتشلت نفسي من شعوري بالضعف والإهانة بعد ما فعله بي لأنفذ هذه الخطة.

هزت ماسة رأسها وهي تسألها باهتمام:

_والنتيجة؟!!

اتسعت ابتسامة دعاء الشاحبة وهي تجيبها بانطلاق:

_كنت على حق في شعوري به...هو ليس بهذه القسوة التي يتعمدها ...كان فقط يحتاج للتغلب على شيطان انتقامه مني ومن نفسه قبلي بسبب شعوره بالذنب.

تفرست ماسة في ملامحها وهي تفكر بحيرة....

هل من الصواب أن تخبر دعاء الآن بأن طيف لاتزال على قيد الحياة؟!!

أم أن الأفضل أن يبقى الأمر سراً؟!!!

ليس فقط لأنها وعدت عاصي بهذا ...

لكن للحفاظ على علاقة صديقتها بزوجها والتي تشعر أنها بدأت تتخذ منحنيً جديداً مشرقاً ....

وتخشى أن يؤثر هذا الأمر عليهما...!

لهذا آثرت كتمان هذه الحقيقة عن صديقتها حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً....

بينما أردفت دعاء وقد عادت لشرودها:

_تعلمين؟!!بعدما أنقذني ووجدت نفسي بين ذراعيه سمعته يتمتم بحمد الله بخفوت شديد...لكن وقعها على أذني أنا كان عظيماً...لقد كان يخشى أن يخسرني...هل تدركين معنى هذا لامرأة عاشت طوال عمرها تشعر أنها بلا قيمة؟!!

دمعت عينا ماسة في إشفاق وهي تضمها لصدرها بقوة فيما أردفت دعاء بتأثر:...

_لم يتركني لحظة واحدة بعدها حتى نمت على صدره...حضنه كان عامراً بدفء انتظرته طويلاً...بالتأكيد هو ليس شعور العشق الذي أسمع عنه...لكنه شعورٌ بالاحتواء...بالسكينة...هو لم يهمس بكلمة واحدة لكنني كنت أشعر بحرارة انفعالاته...ورغم أنه حتى لم يعتذر لكنني قرأت بعينيه ندماً بلا حدود...

ربتت ماسة على رأسها وهي تسألها بحذر:

_هل سامحتِه بهذه البساطة؟!!

تنهدت دعاء بحرارة وهي تهمس بصوت كسير:

_لا أدري...حقاً...لا أدري...أنا متعَبة...مستنزفة...لا طاقة لي الآن بأن أعاتب أو أكره أو حتى أقسو...منذ وفاة والديّ وأنا أحتاج لدعم كهذا الذي منحه هو لي بالأمس...قد تظنينني حمقاء تهاونت بشأن كبريائها أمام أول بادرة عطف... ونسيت طول ساعات قسوته أمام أول حضن...لكنني حقاً ...كنت أحتاجه!!

تنهيدةٌ حارة سبقت عبارتها الأخيرة التي عقبتها نوبة بكاء خفيضة جعلت ماسة تضمها إليها أكثر وهي تدرك بحق شعورها الآن...

دعاء التي عاشت كل هذا العمر بعقدة "الدمية المعيبة" تحتاج الآن حقاً لعاطفة رجل مثل حسام...

ليس فقط لمميزاته التي تجعله فتى الأحلام الوردي لأي فتاة...

لكن لأنه ارتضاها كما هي...بعيوبها- التي علمها- قبل مميزاتها -التي ربما لم يستكشفها كلها بعد-...

هو يرضي عقدة -شعورها بالنقص- التي تخنق أنوثتها خنقاً!!!

وإن كان شعوره هذا لم يرتقِ بعد لمرحلة الحب لكنها واثقةٌ أن الأيام كفيلةٌ بأن تؤلف بين قلبيهما...

فقط لو يعطي هو نفسه فرصة ليعرف دعاء الحقيقية بعيداً عن أطياف وهواجس ماضيه!!!

لهذا صبرت قليلاً حتى انتهت دعاء من بكائها ثم نظرت لعينيها هامسة بقوة:

_أنتِ بدأت خطوة صحيحة على أول الطريق...وظني أن الخطوة التالية ستكون له هو...لو أردتِ مسامحته فلن يلومكِ أحد...ولو أردت معاقبته فافعلي...فقط تخلصي من شعورك بالنقص كما تخلص هو من شعوره برغبة الانتقام...ربما ساعتها فقط تلتقي خطواتكما في نفس الطريق.

أومأت دعاء برأسها في تفكر...

بينما قالت ماسة بعد تردد:

_أعتقد أيضاً أنه لن يسمح لكِ بزيارتي فيما بعد....هل يعلم عن مجيئك هنا اليوم؟!!!

هزت دعاء رأسها نفياً قبل أن تغمغم بقلق:

_لا...أنا جئت بعد ذهابه لعمله...لكن لماذا تقولين ذلك؟!!

زفرت ماسة بقوة ثم مضت تروي لها تفاصيل اللقاء -الكارثي- بينها وعاصي وفهد وحسام....

كانت دعاء تستمع إليها مذهولة حتى انتهت من روايتها فهتفت مصعوقة:

_يا إلهي!!!كل هذه الحقائق دفعة واحدة!!!

ثم هزت رأسها لتبتسم قائلة بعينين ملتمعتين:

_فهد الصاوي الذي يقيم عندنا....أخوك؟!!

"أخوك"!!!

داعبت الكلمة أذني ماسة لتدغدغ قلبها بشعور غريب جعلها تبتسم بدورها وهي تقول بحنان:

_احكي له عنه يا دعاء...ما هو رأيك فيه؟!!

رفعت دعاء أحد حاجبيها بمكر وقد عاد إليها مرحها -نوعاً-لتهتف بانطلاق:

_وهل يحتاج فهد الصاوي لرأي؟!!لو لم أكن قد تورطت بحسام هذا لطلبته منكِ للزواج!!!

ضحكت ماسة أخيراً ضحكة قصيرة وهي تخبطها في كتفها قبل أن تغمزها هامسة:

_سأبلغ سيادة الرائد أنك تغازلين أخي!!!

فابتسمت دعاء ابتسامة حقيقية أزالت بعض شوائب حزنها لترد بجدية هذه المرة:

_فهد صديق حسام منذ فترة طويلة...لقد عرفت عنه كل شئ من والدة حسام بعد إقامته معنا...قصته غريبة جداً...

ثم تنهدت بحرارة وهي تقول بأسف:

_جاسم الصاوي هذا جبار...لقد ظلمه كما ظلمك!!!

عقدت ماسة حاجبيها بتساؤل بينما اندفعت دعاء تروي لها ما تعرفه عن قصة فهد وانتهائها بمقتل جنة بعد زواجه من طليقة حسام ...

وهو ما دفعه لترك كل شئ خلفه والمجئ إلى هنا...

فشهقت ماسة بحدة وهي تضع كفها على شفتيها قبل أن تتمتم بذهول:

_جاسم الصاوي قتلها؟!!اقتل زوجة ابنه؟!!

ابتسمت دعاء بإشفاق وهي تهز رأسها قائلة:

_لماذا تتعجبين؟!!رجلٌ رمى ابنته رضيعة طوال هذه السنوات ...ماذا تريدين منه؟!!

فتوهجت عينا ماسة بقسوة ممتزجة بالإصرار وهي تجيبها:

_أريد حقي!!

رمقتها دعاء بنظرة متعاطفة فيما أردفت هي بقوة أكبر:

_لو لم يأتيني هو فسأذهب إليه أنا....لن أتنازل عن حقي في اسمه...ليس فخراً ولا طمعاً...لكن لأنني لن أفرط في حقي بعد الآن...ولو دفعت عمري بالمقابل.

ربتت دعاء على كتفها وهي تتمتم لها بالدعاء...قبل أن تقول برفق:

_لا تقلقي...فهد سيساعدك...لن تكوني وحدك في مواجهته.

فأومأت ماسة برأسها ثم قالت لها بعزم:

_أريد أن أراه ثانية يا دعاء...أحتاج حقاً أن أتكلم معه وحدنا.

=====================

_أين زوجك يا يسرا؟!!لم تظهرا سوياً منذ زواجكما!!!

هتفت بها إحدى صديقاتها في تساؤل غارق بشماتته لكنها تمالكت نفسها بأنفتها المعتادة لتضع إحدى ساقيها فوق الأخرى مع قولها بكبرياء ممتزج بدلالها:

_لا تذكريني بمعاناته !!!والده دفعه للسفر لأجل عمل هام وهو يكاد يموت هناك اشتياقاً إليّ!!!

رفعت الفتاة أحد حاجبيها في شك...

فيما هتفت أخرى بخبث وقح:

_لم تحكي لنا تفاصيل ليلتكما الأولى يا "ياسّو" !!!مع "فهد الصاوي" بالتأكيد كانت ليلة مميزة!!!

كُنّ يجلسن في النادي بركنٍ خاص لهن اعتدن التجمع فيه لسرد أخبار "غزواتهن" العاطفية...

لا فارق بين متزوجة وعازبة...

فلا خطوط حمراء في الحديث ها هنا!!!

ورغم أنها كانت أحدثهن انضماماً لهذه "الرفقة الفاسدة" لكنها تكيفت معهن بسرعة...

أو -للحق- هنّ اللائي سعَينَ لاجتذابها نحوهن بعد منصب والدها الجديد!!!

في البداية كانت تنفر من تلك الأحاديث -الجريئة- التي كُنّ يتناقلن تفاصيلها ببساطة...

لكنها بعد فترة وجدت نفسها تنغمس معهن فيها دون خجل بل بدت بعدها مجرد نكات-خفيفة الظل- تهوّن عليها سخافة يومها الطويل...

كانت قد تناولت -قرصها السحري- منذ ساعة واحدة ولهذا كانت تشعر بأنها تطير فوق السحاب...

فقالت بنبرات ممطوطة تناسب قولها الوقح:

_ولا في الأحلاااام!!!لقد عرف كيف ينسيني أنني كنت متزوجة قبله...

ثم لوحت بسبابتها لهنّ تدعوهنّ للاقتراب ....

فانحنين جميعاً بأجسادهنّ يقتربن من المائدة...

فيما شرعت هي تروي لهنّ تفاصيل -خيالية- غاية في الجرأة حتى احتقنت وجوههن جميعاً في انفعال مع صيحاتهنّ المتباينة وضحكاتهن الرقيعة...

فتوهجت عيناها ببريق انتصار -زائف-وهي تراقب نظرات الحسد في عيونهنّ بظفر...

قبل أن تقوم من مكانها لتقول بغرور:

_يكفيكنّ هذا اليوم ...لن تحتملنَ جرعةً أكبر!!!

عادت ضحكاتهن الرقيعة تجلجل في المكان بصخب فيما تناولت هي حقيبتها لتسألها إحداهنّ بفضول:

_والدتك عادت من لبنان؟!!

غامت عيناها بسحابة حزن قاتمة قبل أن تستعيد ابتسامتها المتعجرفة وهي تقول بتعالٍ:

_نزهتها لم تنتهِ بعد...لقد أجرت جراحة تجميل ناجحة فتحت شهيتها للسفر أكثر.

فهتفت إحداهنّ بمرح :

_سيادة اللواء محظوظ بزوجته الفاتنة...

ثم غمزتها لتردف بخبث:

_وابنته أكثر حظاً بفهد الصاوي!!!

رمقتهن بنظرة متعالية أخيرة ثم غادرتهن بخطواتٍ مدروسة وهي تتمايل بخيلاء لتعود إلى سيارتها خارج النادي...

ولم تكد تستقلها حتى أسندت رأسها إلى مقودها سامحةً لدموعها بالانهمار...

حديث هولاء السخيفات عن والدتها أفقدها تأثير "قرصها السحري"!!!!

محظوظٌ سيادة اللواء بزوجته!!!

نعم...صحيح!!!

محظوظٌ بامرأة خنقها خنقاً بجبروته وتسلطه ليمتص رحيق شبابها بنَهم امتزج بقسوته...

ومع هذا لم تستطع يوماً الإفلات من براثنه...!!!

لقد عاشت عمرها كله شاهدةً على تفاصيل حياتهما البائسة...

رأت -سيادة اللواء العظيم- كيف يتفنن في إهانة والدتها بشتى الطرق دون أن تجرؤ على الاعتراض...

رأت بعينيها كيف امتدت إهانته لها حد الضرب وهي صابرة...

لهذا أقسمت لنفسها ألا تكون يوماً صورةً من والدتها مهما حدث...

لن يتحكم فيها رجلٌ ولن تذلها عاطفة!!!

لكن -سيادة اللواء-فاجأها بأمر مباشر بالزواج من رجلٍ -مثله -اختاره لها وهو يعده ليكون خليفته...

نعم...حسام القاضي!!!

لم تستطع وقتها الرفض خوفاً من أبيها ف"العريس" كان "كاملاً" بلا عيوب!!!

وسامته...ثراؤه....مركزه...مستقبله...

والأهم...دعم أبيها الذي كان سيضمن له المزيد!!!

لهذا وافقت صاغرةً على هذه الزيجة لكنها ما كادت تعلم عن -عيب- حسام حتى وجدتها فرصتها الذهبية للتخلص منه!!!

صبر؟!!

تضحية؟!!

شفقة؟!!

لا لا لا!!!!

هذه المسميات لم يكن ليعرفها قاموسها مع رجلٍ تزوجته قهراً!!!

بل إنها تكاد تقسم أنها لم تشعر يوماً بالسعادة كما شعرت يوم طلقها!!!

يومها هي لم تتخلص من زوجٍ -لم يعد لائقاً بها- فحسب...

بل تخلصت من -قيد أبيها الثقيل- الذي أحاط بعنقها وكانت تخشى أن يجعلها صورةً ممسوخة كوالدتها!!!

لكن فهد الصاوي يختلف!!!

هي التي اختارته بإرادتها وزجّت باسمه لأبيها بمناورة ماكرة لتلفت نظره إلى هذا النسب!!!

وعندما تمت هذه الخطبة كانت تشعر وكأنها أمسكت أحد نجوم السماء...

والآن تكاد تجنّ من اختفائه غير المبرر...

ونفوره -الغريب- منها قبلها!!!!

أين ذهب هكذا دونما خبر ولا حتى اتصال؟!!!

أتراه هرب من البلد كلها ليتسكع مع إحدى رفيقاته كما كانت تسمع عن مغامراته؟!!!

أم ربما...أصابه مكروه؟!!

انقبض قلبها بخوف حقيقي عند خاطرها الأخير جعلها تزفر بقوة وهي ترفع رأسها أخيراً من على مقود السيارة لتطلق صيحة غاضبة وهي تتناول أحد سجائرها من حقيبتها لتشعلها بنفاد صبر...

قبل أن تنفث دخانها في الهواء بسخط وهي تدير مفتاح السيارة لتنطلق بها نحو وجهتها.....

==========

_أريدك في أمر هام!!!

هتف بها فهد بجمود وهو يدخل غرفة مكتب أبيه الذي كان الآن في اجتماع هام مع بعض مرؤوسيه...

فابتسم جاسم الصاوي ابتسامة دبلوماسية مع التماع نظراته بانتصار وهو يقول له بهدوء مصطنع:

_حمداً لله على سلامتك...كنت أنتظر عودتك!!!

حافظ فهد على جمود ملامحه وهو يتقدم نحوه بخطوات ثابتة...

فتفحصه جاسم بنظرات خبيرة وقد رأى أن يلين قليلاً معه مادام عاد إليه بقدميه...

خبرته في الحياة علمته أن يتدارك الخسارة بأقرب وقت...

وهو لا يريد فقد ابنه على أي حال...!

لهذا بسط راحته بهدوء أمامه وهو يقول بلهجة عملية:

_انضم للاجتماع كي تدرك ما فاتك من أخبار!

فابتسم فهد بسخرية وهو يقول بنبرة جافة:

_أرى أن تنهي هذا الاجتماع كي تسمعني وتدرك ما فاتك- أنت- من أخبار!!!

تبادل الحضور نظراتٍ متسائلة بفضول حقيقي فعقد جاسم حاجبيه ليقول بلهجة آمرة:

_حسناً...نؤجل الاجتماع للغد!!!

وبعد انصراف الجميع وقف أخيراً ليواجهه هاتفاً بسخط:

_ألم تكتفِ من حماقاتك بعد؟!!لقد ظننتك عدتَ لعقلك !!!

اقترب منه فهد وهو يقول بحزم:

_عودتي إليك هي الجنون ذاته يا سيد جاسم...بيني الآن وبينك دم...دمٌ لن تمحوه الأيام مهما طالت!!!

فازداد انعقاد حاجبي جاسم وهو يهتف بشراسة:

_إذن لماذا جئت اليوم؟!!

عقد فهد ساعديه أمام صدره وهو يقول ببطء :

_لولاها هي لما نظرت في وجهك نظرة واحدة بعد فعلتك!!!

رمقه جاسم بنظرة طويلة قبل أن يسأله بشك:

_هي؟!!!من هي؟!!

_أختي...ماسة جاسم الصاوي!!!

قالها فهد بثقة وهو يضغط على حروف كلماته فشحب وجه جاسم للحظات...

قبل أن يتمتم مصدوماً:

_ماذا تقول؟!!

اتسعت ابتسامة فهد القاسية وهو يقول له بحزم:

_سرحان ...رجلك القديم...يبلغك السلام...لقد وجدته أخيراً واعترف لي بالحقيقة التي ساعدتني حتى وجدتها.

اتسعت عينا جاسم بذهول وهو يزيح مقعده ليقترب من فهد هاتفاً :

_وجدتها؟!!

اختفت ابتسامة فهد مع هذا الألم المكسوّ بغضبه وهو يهتف بانفعال:

_نعم يا سيد جاسم!!!وجدتها...هل تعلم ماذا اكتشفت عن ابنتك التي رميتها أنت طوال هذه السنوات؟!!

تشنج جسد جاسم بمزيج من المفاجأة والترقب...

فيما أردف فهد بنبرة أرادها قاسية:

_ابنتك تربت فقيرة في حي شعبي مع امرأة كانت أحنّ عليها منك...وعندما كبرت الصغيرة بلا سند طمع فيها الكلاب واغتصبوها .

شهق جاسم بفزع وهو يرفع كفه بانفعال ...

فأردف فهد صارخاً بغضب:

_نعم...اغتصبوا ابنتك يا سيد جاسم وأنت مشغولٌ بمنصبك وصفقاتك...فافرح بحصاد عمرك يا صاحب المجد!!!

تفصد جبين جاسم بعرق غزير وقلبه ينتفض بين ضلوعه بجنون...

لكنه جذب فهد من ياقة قميصه ليهتف بثورة عارمة:

_كاذب!!!كاذب!!!أنت تقول هذا لتنتقم مني لأجل تلك المرأة !!!

فحرر فهد نفسه منه ليقول بقسوة:

_لا يا سيد جاسم...حق جنة أغلى من أن آخذه بطريقة خسيسة كهذه...لو أردت التأكد من الحقيقة فاذهب لابنتك...هي الآن تقيم في مدينة(......) تزوجها رجلٌ حقيرٌ هناك قسراً دون رغبتها...

هز جاسم رأسه في عدم تصديق ...

فانسحب فهد مغادراً بخطوات ثابتة قبل أن يستدير نحوه ليهتف بحزم قاسٍ:

_ستعترف بها وتمنحها جميع حقوقها...أنا الذي سأقف لك هذه المرة...لكنني سأمنحك فرصة للتفكير!!!

ثم خرج صافقاً الباب خلفه بعنف تاركاً خلفه رجلاً صار يدرك يوماً بعد يوم كم هو خاسر...

وكم هي عادلةٌ مقادير السماء!!!

ظل جاسم بعدها واقفاً مكانه للحظات مصعوقاً لا يكاد يصدق ما سمعه...

حتى انهار جالساً على كرسيه أخيراً محدقاً للفراغ بشرود...

هل تراه تفاجأ بما حدث لابنته؟!!

ماذا كان ينتظر لها إذن بعدما رماها بلا حول ولا قوة وسط عالم قاسٍ كهذا؟!!

هل يوجعه قلبه الآن على ذنبه معها؟!!!

وبما يفيده -أو يفيدها- الندم على ما كان؟!!

هل سيعيد لها أيام عمرها التي ارتشفتها مغموسة في الذل؟!!

هل سيعوضها شرفها الذي انتهك وكرامتها التي سُحقت؟!!

هل سيمنحها -ولو مثقال ذرة - من عِوض!!!

لو كان الأمر حقاً كما يقول فهد فقد أجادت الأقدار الانتقام من خطاياه وغرست رماحها السامة في صدره كما يستحق!!!

بينما غادر فهد الشركة ليتوجه نحو سيارته التي استقلها لينطلق بها بسرعة جنونية وكأنه يهرب من هذا المكان الذي ما عاد يطيق التواجد فيه...

أحس بأنفاسه تختنق في صدره بفعل كل هذه الضغوط...

هو -يكاد - يقسم أن جاسم الصاوي لن يعترف بابنته أبداً...

وبالذات في هذا التوقيت الموازي للانتخابات..

لكنه لن يترك حقها !!!

ستكون هي قضيته القادمة التي لن يخسرها هذه المرة!!!

ورغماً عنه دمعت عيناه بتأثر وهو يهمس لنفسه:

_كم أحتاجك الآن يا جنتي!!!

ثم تسربت خلايا عقله لذكرى منها غزت الآن كيانه بعنف:

_هل قلتُ لكِ أنني...أحبك؟!!

_لن أقولها لكِ...تدرين لماذا؟!!!

_لأن لساني قالها كاذباً لغيرك...وأنتِ امرأةٌ لا يليق بها كلامٌ مكرّر...فاقرئيها أنتِ علي لساني حتي ولو لم أقلها...كما أقرأها أنا بلون البندق في عينيكِ كل يوم.

_عيناكِ حبيبتايَ تفضحان شعوركِ يا جنتي...لهذا أحبهما...

_لكن شفتيكِ عنيدتان مثلكِ تتمنعان عن الاعتراف...لهذا...

قطع عبارته وعيناه معلقتان بشفتيها...

فابتسمت رغماً عنها ابتسامة باهتة وهي تهمس بخفوت:

_لهذا ماذا؟!!! تكرههما؟!!

_بل أدللهما حتي ترضيان...فتبوحان...

قالها وهو يطبع علي شفتيها قبلاتٍ خفيفة متتالية...

فشعرت بروحها تكاد تنسحب منها وخافت ضعفها معه من جديد...

لهذا دفعته برفق وهي تهمس باعتراض :

_فهد...هل نسيتَ وعدك؟!!

_إلي متي تكابرين؟!!!

_ليست مكابرة...بل حيرة وعجز...أنا لا أتصور مستقبلاً لعلاقتنا...ابن جاسم الصاوي هو النقيض لكل مبادئي وعقائدي...وزواجي منه لعنةٌ علي رأسي...

رفع كفها إلي شفتيه يقبل باطنه وهو يهمس بترقب:

_وفهد؟!!

_فهد...هو...

قطعت عبارتها عاجزة عن إكمالها ....

فرفع ذقنها إليه هامساً بحزم :

_فهد ماذا؟!!! قولي....

دمعت عيناها وهي تهمس بعجز مصبوغ بمرارة قوية:

_هو رهاني الأخير في هذه الحياة...فإما كسبته وكسبت معه حياتي...وإما خسرتهما معاً كما خسرتُ من قبل...

لم تكد تتم عبارتها حتي جذبها إليه بقوة ليعتصرها بين ذراعيه مخفياً رأسها في صدره للحظات...

وهو يحاول احتواء ارتجافة جسدها بدموعها....

آه لو تعلم ما الذي فعلته بها كلماتها هذه؟!!!!

لقد أجادت "الأستاذة" اختيار كلماتها بمهارة...

منحته السم والترياق بنفس اليد!!!!

ماذا تظنه يفعل بعدما سمعه منها الآن...؟!!!!

سوي أن يعدها بهذا الوعد:

_أقسم لكِ بحق من جعلكِ نوراً في طريقي...ألا أعود لظلمتي بعدكِ أبداً!!!

ظلت العبارة الأخيرة تدوي في رأسه طوال طريق عودته بصخب هادر...

كل نفسٍ خرج من صدره كان يقسم يمين الولاء لوعده لها...

ورغم طول الرحلة بالسيارة لكنه لم يشعر بمرور الوقت وهو يسترجع ذكرياته الدافئة معها...

يكاد يستشعر دفأها بين ذراعيه...

حتى وصل أخيراً لمنزل حسام فركن سيارته قريباً ثم ترجل منها ليتوجه نحو الباب ...

لكنه ما كاد يفتحه حتى اصطدم بصره بها واقفةً جواره على بعد خطوات ترمقه بغضب ...

فتجمدت نظراته وهو يهمس بضيق:

_يسرا!

===========

خرجت من المشغل لتجده يغادر سيارته متجهاً نحوها باندفاع وهو يتلفت حوله بحذر....

توجهت نحوه بدورها فجذب مرفقها نحوه بلهفة قبل أن يهتف بحنق:

_ألم أخبركِ ألا تذهبي إلى أي مكان دون علمي؟!

أطرقت برأسها وهي تشعر بارتباك لذيذ أجادت إخفاءه...

ورغم خشونة نبراته لكنها لم تغضبها كعادتها معه...

ربما لأنها شعرت أنها تخفي قلقاً حقيقياً هذه المرة وليس مجرد رغبة في التسلط!!!

نعم.. بعد ما سمعته من ماسة عن مواجهته الأخيرة مع عاصي الرفاعي لاريب أنه الآن يتوقع منه أي أذى له وربما...لها!!!

لهذا رفعت إليه عينيها بنظرة متفهمة قبل أن تهمس بهدوء:

_لا تقلق...لم يحدث شئ!!

زفر بقوة وهو يعاود السير بها نحو سيارته ثم فتح لها الباب -كعادته- فجلست مكانها ...

قبل أن يستدير هو ليجلس مكانه هو الآخر ثم قال بحزم دون أن ينظر إليها:

_لن تجيئي إلى هنا ثانية...ولن تزوري قصر الرفاعي بعد...بالتأكيد ماسة أخبرتكِ عما حدث بيننا.

فقالت وهي تختلس نظرة إلى وجهه المتجهم:

_معك حق في قصر الرفاعي...لكنني سأبقى أزور ماسة هنا...لن أستطيع قطع علاقتي بها.

التفت نحوها بحدة وهو يهتف بانفعال:

_ألن تكفي عن عنادك هذا؟!!

تطلعت إليه بنظرات قوية تعمدتها لكنها ناقضت حزن عبارتها بعدها:

_ليس عناداً!!!لكنني أحتاج صداقتها ...بعد وفاة والديّ لم يعد لي سواها.

وخزت عبارتها قلبه لتشعره بالمزيد من الذنب نحوها..لكنه تجاهل معناها -مؤقتاً -ليقول مكابراً :

_أي صداقة هذه؟!!هي لم تمكث هنا أكثر من بضعة أشهر!!!

فأطرقت برأسها لتغمغم باقتضاب:

_المشاعر لا تعترف بزمن!!

زفر زفرة حارقة وهو يشعر بصراع نفسه معها يعود ليؤرقه...

منذ أنقذها من حادثة السقوط وهو لا يدري ماذا يقول ولا ماذا يفعل...

هي تستحق أن يعتذر لكنه رجلٌ لا يجيد فن الاعتذار....

طوال الساعات السابقة ونفسه تعذبه بندمٍ شديد لكنه كان عاجزاً عن مواجهتها....

ربما لو لم يكن رجاله أخبروه أنها جاءت إلى هنا لفضّل الهرب من لقائها حتى تصفو أفكاره بعد هذا الطوفان

الهادر من المشاعر الذي اكتسحه بعد محاولتها الفاشلة للانتحار...

لا يدري ماذا به...

حالةٌ من عدم الاتزان تغلف عقله بغشاوة عكرة فلا تسمح له بصفاء فكر...

لكنه قرر أن يتبع شعوره -دون تفكير -هذه المرة حتى يستعيد سطوة عقله الذي انغمس تماماً في متاهات أحداثه الأخيرة...

لهذا لم يقاوم نفسه عندما أراد احتضان كفها براحته ليقول ببعض الرفق:

_سنستعيد ماسة قريباً من براثن هذا الرجل...ستعود إليكِ وإلى أهلها وإلى نفسها قبل كل هذا...لكن حتى تأتي هذه اللحظة عديني ألا تأتي إلى هنا!!

أطرقت برأسها تخفي عنه انفعالات وجهها وقلبها ينبض بصدرها بقوة...

رغم أنها لم تكن أول مرة يمسك فيها يدها هكذا لكنها كانت تشعر بها ...مختلفة!!!

هذه المرة هو لا يتكلفها أمام أحد ليتظاهر...

ولا يحاول أن يثبت بها ملكية أو هيمنة...

بل فعلها...لأنه أراد احتواءها في هذه اللحظة...

أراد أن يشعرها ب-اهتمامه -...وقد أفلح!!!

ومن مثلها قادرٌ على تمييز هذا الشعور وقد افتقدته طوال عمرها الذي عاشته تبحث عنه؟!!!

لكن هل هذا وحده يكفيها؟!!

نعم...الآن هي قانعةٌ بهذا فحسب....

هو لن يعطي أكثر...!

وهي لن تطلب أكثر...!!

كلاهما مرهقٌ محملٌ بأوزار مشاعره التي أنقضت ظهره ....

فلا بأس من محطة راحة قبل معاودة السير في هذا الطريق....

كانت تلاحظ تحاشيه النظر إليها وكأنه يقاوم شعوره بالذنب نحوها ....

لكنها أرادت لكليهما أن يتجاوز هذه النقطة فرفعت عينيها إليه أخيراً وهي تومئ برأسها هامسة باستسلام:

_حسناً...أعدك!

تلقفت عيناه نظراتها وكأنه يحاول التشبث بها هو الآخر ليقرأها ....

وقد اختفت حدة عينيه الصقريتين لتسكنهما نظرة حزن جديدة شابه بعض الندم...

قبل أن يغمغم أخيراً بتردد:

_نحتاج أن نتحدث طويلاً...صحيح؟!

تيبست أناملها في يده وهي تشعر أنها تعود لدوامة حيرتها معه....

فضغط كفها أكثر في راحته ليردف بتساؤل حقيقي:

_هل تظنيننا يمكننا البدء من جديد؟!!

غاصت بعينيها في سواد عينيه وهي تسأله:

_تريدها حقاً؟!

فازداد تشبثاً بنظراتها وهو يرد لها سؤالها بسؤال:

_تريدينها؟!!

عضت على شفتها وهي تفطن لتردده مثلها فغمغمت وكأنها تملي شروطاً:

_هل ستسمعني؟!!

اقترب منها بجسده أكثر وقد امتزج غموضه برجائه:

_هل ستحكين؟!!

فتمسكت أناملها به تفضح احتياجها أكثر رغم أنها بدت وكأنها تكمل شروطها:

_هل ستثق بي؟!!

فتزينت شفتاه ب-شبه ابتسامة- وهو يقترب أكثر مع همسه:

_هل ستصارحينني؟!!

وكأن كليهما كان يجيب الآخر عن السؤال بسؤال!!!!

غريب!!!

لا...ليس غريباً...

فكلاهما في هذه اللحظة كان عاجزاً عن منح الآخر إجابة تريحه...

كلاهما كان يبدو -في بحر حزنه وحيرته-غريقاً ...

فكيف يتشبث غريق بغريق؟!!

كلاهما كان مكبلاً بقيود عقده وماضيه...

فكيف يحرر أسيرٌ أسيراً؟!!!

لهذا حافظت الشفاه على صمتها طويلاً قبل أن تستجمع هي قوتها لتهمس :

_هل ستفهمني؟!!

فدارت عيناه على ملامحها بتفحص حقيقي مع همسه الصادق:

_أنا حقاً أحتاج أن أفهمك!!

غامت عيناها بدموع أبت أن تسكبها في هذه اللحظة ...

فشبك أنامله في أناملها وهو يهمس مغالباً كبرياءه:

_هل ستسامحين في ما مضى؟!!

أغمضت عينيها بقوة للحظات ثم عادت تفتحهما لتهمس بقوة:

_لو أردت عفوي فستحصل عليه...لن تعدم الوسيلة فقط لو أردت!

فابتسم ابتسامة حقيقية هذه المرة وهو يميل عليها أكثر ليضمها إليه بقوة مقبلاً رأسها في -شبه-اعتذار!!!

فتشبثت به بدورها وهي تشعر أنها حقاً تحتاج هذا الآن...

حتى ولو كانت مجرد محاولة للخروج من هذه -الحلقة المفرغة- التي يدوران فيها معاً...

قلبها يخبرها أنه صادق في رغبته ببداية جديدة...

لكن العقل لازال يتردد بحكمه في هذه العلاقة.....

هل هي حقاً -علاجٌ شافٍ- ل-مرض- روحها القديم؟!!!

أم هي فقط مجرد -مُسكّن- سيفقد أثره بعد حين؟!!

===============

شهقت بعنف وهي تلقي أقراص "الطعمية" في الزيت لتصدر صوتاً عالياً جعلها تتراجع بحدة عندما سمعت ضحكاته العالية خلفها !!!!

التفتت نحوه بحركة سريعة لكنه اقترب منها ليحتضنها بقوة هاتفاً بين ضحكاته:

_متعة مشاهدتك في المطبخ لا تُقاوم!!!

ابتسمت في خجل وصوت ضحكاته يدغدغ قلبها رغماً عنها...

لقد تغير عزيز كثيراً...

لم تعد أشباح الذنب تجوس على ملامحه البائسة بل استرد مرحه وعفويته...

وصار يغدق عليها حناناً بلا حدود ترتشف قطراته المسكرة بنشوة عاشقة حقيقية رغم عناد عقلها!!

عقلها الذي لايزال يريد "الكعكة" كاملة ...

لا تنقصها قطعة"ماله" و"مركزه الاجتماعي"!!!!

لهذا أشاحت بوجهها في دلال وهي تهمس باعتراض:

_عزيز!!اخرج حتى أعد الإفطار!

لكنه تجاهل اعتراضها وهو يتناول منها الملعقة الخشبية ليقلب "الأقراص" في المقلاة هاتفاً بمرح:

_رائحتها شهية...لا أصدق أنكِ أنتِ من أعددتِها!!!

تألقت عيناها بفخر طفولي طفا على سطح كبريائها المعهود وهي تهتف باندفاع:

_لقد أحببت الطبخ حقاً!!!كانت تجربة مسلية!!!

عادت ضحكته تجلجل ثم مال عليها ليغمزها قائلاً بمكر:

_"الطعمية" ليست طبخاً يا صغيرتي!!!انتظري حتى تتعلمي من أمي إعداد "المحشي" و "الرقاق"و "الباشاميل" و....

لكنها قاطعته بشهقتها قبل أن تهتف باستنكار:

_تظنني سأعجز عن تعلمها؟!!أمهلني فقط بضعة أيام ولن تأكل بعدها إلا من يدي!!!

تراقص حاجباه بمشاكسة ثم قال مداعباً:

_تقصدين بضعة أسابيع!!!!

مطت شفتيها باستياء مصطنع وهي تحاول انتزاع الملعقة منه لكنه أبعدها عنها ليهتف بمرح:

_لا يا صغيرتي!!!كي لا تتكسر أظافرك التي تعبتِ في طلائها!!!

_عزيييز!!!!!

هتفت بها في عتاب طفولي قبل أن تقرصه في كتفه مردفة:

_هل تسخر مني؟!!

أطلق آهة عالية مصطنعة تبعتها ضحكة رنانة قبل أن يميل عليها وكأنه سيهمس بسر خطير:

_لست وحدي هنا!!!لو علمت أمي أنكِ تضربينني فستعلمين حقاً قدرات "الحماة المصرية"!!!

ضحكت بدورها في مرح ثم عاودت قرصه بعناد هامسة بنفس النبرة:

_والدتك ستؤيدني أنا كما تفعل دوماً...أنت الوحيد هنا وليس أنا!!!

هز رأسه برضا وهو يتناول أحد الأطباق ليلتقط الأقراص التي اكتسبت لوناً ذهبياً ثم قال بتلذذ:

_هكذا يكون إفطار يوم الجمعة المميز..."الفول والطعمية" و"العسل الأسود"!!!

ابتسمت بسعادة خالصة وهي تضع الأطباق على مائدة المطبخ لتجلس جواره...

لكنه جذبها برفق ليجلسها على ساقيه هامساً بحنان:

_اجلسي هنا كي أطعمك بيدي!!

احمرت وجنتاها بخجل وهي تمد رأسها بحذر نحو الباب هامسة باعتراض:

_عزيز!!السنا وحدنا!!!لو جاءت والدتك ف...

قاطع عبارتها بقبلة خفيفة على شفتيها قبل أن يهمس برفق:

_أمي لن تغادر غرفتها...هي تحرص على خصوصيتنا يوم الجمعة بالذات...تعرف أنه اليوم الوحيد الذي أستطيع قضاءه معكِ كاملاً!!!

أطرقت برأسها وهي تتفهم حكمة رحمة وحساسيتها الشديدة معهما...

تحاول دوماً ألا تتدخل في شئونهما لتمنح ميادة شعورها ب"الاستقلالية" وهو ما يؤرق -بالتأكيد-أي زوجة مكانها تقيم مع حماتها في نفس المنزل...

لقد أحبتها ميادة حقاً...

فقد أجادت رحمة بحنانها وذكائها سد جميع ثغرات تحفظها و استيائها من هذا الوضع...

قطع عزيز أفكارها وهو يمسد بطنها بحنان هامساً:

_كيف حال صغيري اليوم؟!!

أمالت رأسها في دلال وهي ترمقه بنظرة جانبية لتهمس بعناد:

_ومن أخبرك أنه" صغيرك"؟!!ألا يحتمل أن تكون "صغيرتك"؟!!

ثم اقتربت منه بوجهها لتهتف بتحفز:

_أم أنك من هؤلاء الذين يكرهون إنجاب "البنات"؟!!

تأملتها عيناه بتفحص حار أربكها...

ثم مال عليها ليداعب أنفها بأنفه هامساً:

_لو تضمنين لي أنثى نارية مثلك تفيض عذوبة وسحراً فاهلاً بألف منها!!!

أغمضت عينيها بتأثر وهمساته الحانية تطوق روحها برفق خبير...

هذه هي العاطفة التي عاشت محرومةً منها حتى جحدت بها ...

والآن تأتيها مزينةً بحنانه على طبق من فضة فكيف ترفضها؟!!

عزيز الآن هو أهم ما في حياتها ولن تسمح أن يضيع منها بأي ثمن!!!

لكنه عاد يقطع أفكارها وهو يتناول كفها لينتزع منه دبلته الماسية برفق ...

فانقبض قلبها بجزع وهي تهتف بتوتر:

_ماذا تفعل؟!!

لكنه ابتسم بحنان وهو يتناول دبلةً ذهبية عادية من جيبه ليضعها في إصبعها مكان الأخرى ...

ثم ناولها الدبلة الماسية هامساً ببعض الحزم:

_ربما تكون الدبلة الجديدة أقل قيمة لكنها من مالي أنا...وهذا يعني لي الكثير!!!

ارتبكت ملامحها رغم سعادتها بما تعنيه كلماته خاصةً عندما أردف بصدق أيده قلبها:

_كنت أنتظر قبض راتبي بفارغ الصبر كي تكون أول هداياي لكِ أنتِ!!

دمعت عيناها بتأثر وهي تخفض بصرها عنه لتتأمل دبلته الجديدة بشرود...

ما فعله عزيز الآن يعني أنه لم يعد يراها قيداً من قيود والده ...

بل خياراً حقيقياً يرتاح إليه ويرضيه....

وكأنه قرأ بحدسه ما يدور برأسها فضم رأسها لصدره هامساً بأسف:

_أنا أعرف أنني ظلمتكِ كثيراً...ليتني حقاً أستطيع تعويض كل هذا!!!

ازدردت ريقها بتوتر وهي تشعر بنيران الصراع الذي اندلع -لتوه- في أعماقها...

نعم...بقدر سعادتها بحديثه الآن بقدر خوفها من أن تفشل خطتها التي أعدتها مع شاكر ...

لو افتضح أمرها لعزيز فستنقلب كل موازينها...

لكن للأسف...

لقد بدأ شاكر في تنفيذها بالفعل ولم يبقَ لها إلا الانتظار...

لهذا عضت على شفتها بتوتر ثم نظرت إليه لتسأله فجأة :

_ألن تعود للكتابة في مدونتك؟!!

اتسعت عيناه بصدمة للحظة ثم غمغم بذهول:

_أنتِ كنتِ تقرئين أشعاري؟!!

أومأت برأسها إيجاباً فزفر بقوة وهو يحاول إدراك صعوبة أثر هذا على نفسها...

ثم ضمها إليه أكثر ليهمس بعتاب ممتزج بالأسف:

_عقلك الذي يريد دوماً الإلمام بكل التفاصيل آذاكِ كثيراً!!

خدشت عبارته كبرياءها فرفعت أنفها وهي تهم بالرد عندما وضع سبابته على شفتيها ليهتف مقاطعاً:

_وإياكِ أن تزعمي أنكِ لا تبالين!!!

تأرجحت نظراتها بين عناد وخوف وألم...

فاحتضن وجنتيها براحتيه ليردف بعمق:

_لقد تخطينا مرحلة الثقة منذ زمن ...أنا رضيت بحكم عقلك في علاقتنا...وظني أنه يؤيدني كثيراً!!

أغمضت عينيها بموافقة فتنهد بحرارة ثم همس برجاء:

_لا تفتحي دفاتر الماضي يا ميادة...أنا تجاوزته بحق...أنتِ وطفلنا الآن أهم ما في حياتي!!!

فتحت عينيها ببطء لتتلقى عطايا حنانه الفاخرة التي غشيتها كعادتها ...

لتبتسم بعدها ابتسامة حقيقية أجهضت مخاوفها حقاً ...

فبادلها ابتساماً بابتسام ثم بدأ بإطعامها وقد عاد إليهما المرح رويداً رويداً...

حتى انتهيا من طعامهما فقامت واقفة لتقول بإرهاق:

_سأذهب لأريح ظهري قليلاً!!

ربت على ظهرها برفق وهو يقوم بدوره ليراقب خطواتها المنصرفة برضا...

ثم ذهب إلى غرفة رحمة ليطرق بابها برفق حتى سمع إذنها بالدخول...

دلف إلى الداخل بخفة ليقبل يدها ثم جلس جوارها ليسألها بتفحص:

_ماذا بكِ يا أمي؟!!أحوالكِ لا تعجبني منذ أيام!!!

تنهدت رحمة بحرارة وقد ترددت للحظات في إخباره...

لكنها حسمت أمرها أخيراً لتقول بأسى:

_ماسة!

انعقد حاجباه في قلق مع تشنج جسده وهو يهتف بجزع:

_ماذا عنها؟!!هل آذاها ذاك الوغد ثانية؟!!

هزت رحمة رأسها نفياً ثم انطلقت تحكي له تفاصيل ما عرفته من ماسة عن حقيقة نسبها التي ظهرت....

بالإضافة لاكتشافها مشكلة تمنعها من الإنجاب...

وتزامن هذا مع التهديدات التي يتعرض إليها عاصي وتدفعه للرغبة في الزواج السريع للحصول على الولد في أقرب وقت....

كان عزيز يستمع إليها بذهول أولاً من معرفة نسبها لجاسم الصاوي...

قبل أن يغلبه حزنه عليها وقلبه يكاد ينفطر علىها بعد ذاك الخبر عن عقمها...

كل هذا كثيرٌ على أن تتحمله وحدها...

ورغم أنه يثق في قوتها لكن هذا لم يمنع تلك الغصة التي شعر بها في حلقه وهو يدرك معاناتها...

لن يستطيع أن يعفي نفسه من شعوره بالذنب نحوها مهما حدث...

إن لم يكن بتخاذله معها فلأن والده كان السبب الرئيسي في دفعها إلى عرين الرفاعي...

لهذا لن يمكنه التنصل من مسئوليته عنها يوماً حتى ولو غربت شمس حبهما فلم يعد بعدها لهما إلا الظلام...!!!

أطرق برأسه قليلاً يفكر ثم رفع رأسه إلى رحمة ليقول بثقة:

_ماسة لن تقبل أن تكون زوجة ثانية مهما كان!!!ربما كان ابتلاؤها هذا رحمة بها لتتخلص من ذاك الرجل!!!

هزت رحمة رأسها بحيرة وهي تغمغم:

_رغم خبرتي الطويلة في الحياة لم أسمع يوماً عن رجلٍ مثل عاصي هذا...للأسف لا أستطيع الحكم عليه ولا التكهن بأفعاله...لكن ما يؤرقني حقاً هو ماسة نفسها...ماسة ستتكسر حقاً لو تركها!!

عقد عزيز حاجبيه بشك ليهمس:

_تحبه؟!

ثم ابتسم ليردف باستهانة:

_لا أظن...هو فقط شعور بالامتنان نحوه لكن رجلاً كهذا لن يؤتمن عليها أبداً...وها هو ذا يبيعها في أول اختبار!!

تنهدت رحمة بحرارة وهي تقول باعتراض:

_لا يا ابني...أنا لا ألومه...أنت لا تفهم أهمية الولد لرجل مثله خاصةً مع شعوره بالخطر الذي يهدد حياته في أي لحظة...برغم كل شئ أنا أتفهم موقفه!!

أشاح عزيز بوجهه في عدم اقتناع ليقول بحسم:

_أظن القدر يمنحها الآن فرصة لحياة جديدة باسم جديد...ماسة تستحق هذه البداية لتنعم بالسعادة التي تستحقها.

ثم أردف بشرود مفكراً :

_لو كنت مكانها لفكرت في السفر...ليس فقط للعلاج لكن للبحث عن نقطة انطلاق جديدة!

=====================

_تتزوجني يا أنس؟!!

قالتها صفا دون أن تنظر إليه....

قالتها بصيغة غريبة أقرب للأمر وهي تستقل معه سيارته حيث أصر على توصيلها لمنزلها بعد انتهاء عملها في المدرسة...

والذي تأخرت فيه كثيراً كعادتها خاصة بعد طلاقها من عبد الله...

فرمق جانب وجهها الشارد بنظرة طويلة آسفة قبل أن يعود ببصره للطريق قائلاً بتهكم مرير:

_تعرضين نفسكِ عليّ يا ابنة عمي؟!!

التفتت نحوه بحدة وقد أثارتها عبارته لتشتعل أعصابها بثورة كعادتها مؤخراً فتهتف بانفعال:

_ماذا قلت؟!!هل تدرك معنى كلامك؟!!

فأوقف السيارة مكانها برفق ثم التفت نحوها بدوره ليطفئ نظراتها المشتعلة بحنان عينيه الفائض مع هدوء عبارته:

_وهل تدركين أنتِ معنى كلامك؟!!

دمعت عيناها مع ارتجاف جسدها بعواطفها الثائرة في هذه اللحظة...

ما الذي يحدث لها؟!!!

هي لم تعد تفهم نفسها...

تشعر بحالة من عدم الاتزان وكأن قدميها فجأة افتقدتا أرضهما الثابتة...

نعم...عبد الله كان هو أرضها التي استقرت عليها خطواتها والتي تزلزلت تحتها فجأة قبل أن تتصدع قشرتها لتسقط هي فوقها بلا حول ولا قوة...

لكنها لن تستسلم لهذا السقوط...

ستقف من جديد ولو على أرض جديدة هذه المرة...

لن تحاول حتى أن تنظر للخلف كي تتبين أخطاءها ....

لا يهم...

من كان فيهما المذنب؟!!

لا يهم...

من أعطى ومن جحد؟!!!

لا يهم...!!!

من ضحى ومن خذل؟!!

لا يهم...!!!

لم يعد يهم!!!

لقد انتهى الأمر بينهما فما عاد هو "ابن قلبها" ولا عادت هي "صفا روحه"!!!

وعند خاطرتها الأخيرة انهمرت دموعها غزيرة رغماً عنها فارتج جسدها ببكائها وهي تدفن وجهها بين كفيها ...

فتنهد أنس بحرارة ثم غمغم بأسف احتل نبرته الحانية:

_هذا ما أعنيه تماماً يا صافي...أنتِ لم تتعافيْ من جروحك كلها بعد...لن أستطيع أن آخذ كلماتك الآن على محمل الجد.

استسلمت لبكائها للحظات قبل أن تمسح دموعها أخيراً لتهمس بتشتت:

_أنت لا تريد الزواج مني؟!!

قالتها وكأنها فقط تريد "ترقيع" ثوب أنوثتها الممزق ولو بمجرد شعور بأنها لازالت "مرغوبة"!!!

فتأوه بخفوت مخفياً عنها فيض مشاعره وهي تسأله السؤال الوحيد الذي لا ينبغي أن تسأله هي بالذات!!!!

والذي يتمنى لو يجيبها عليه الآن بقلبه لا بلسانه...

لكنه سينتظر ...

هي التي تعلّم هو في محراب عشقها ابتهالات الصبر حتى استلذها...

فصارت حلاوتها من حلاوة هواها...

صبراً يا حاكمة القلب صبراً...

لو كان الصبر لغيركِ جميلاً فهو لأجلك أجمل!!!

لهذا رفع عينيه نحوها بنظرة دافئة ثم قال بتعقلٍ يخفي جنونه بها:

_أخبريني بصراحة لماذا تريدين الزواج مني ؟!

هزت رأسها بلا معنى قبل أن تسنده على ظهر مقعدها لتجيبه دون أن تنظر إليه:

_لأنني ...أريد...

قطعت عبارتها عاجزة عن إيجاد سبب لهذا الجنون الذي تلبسها...!!!!!

ماذا تفعلين يا صفا؟!!!

تطلبين بنفسك الزواج من رجل ؟!!

ثم ابتسمت بداخلها في سخرية مع عتاب روحها المرير...

وماذا في هذا ؟!!

ألم تفعليها من قبل؟!!

على الأقل أنتِ الآن تختارين الرجل الصحيح لا الرجل الخطأ!!!

الرجل الخطأ؟!!!

هل صار عبد الله الآن "الرجل الخطأ"؟!!

انقبض قلبها بقسوة شعورها الآن لتعاودها رغبتها في البكاء لولا أن سمعت عبارته :

_تريدين الانتقام منه؟!!أم تريدينني مجرد "محلل" لتعودي إليه بعدي؟!!

شهقت بعنف وهي تلتفت نحوه بملامح مذعورة...

وكأنها مجرد طفلة عاصية ضبطت بخطأ عظيم!!!

فابتسم بحنان وهو يطوق ملامحها بعينيه مردفاً بنفس النبرة المتعقلة :

_تنسين دوماً أنني أحفظك كخطوط كفي يا ابنة عمي!!!

عضت على شفتها بألم وهي تشيح بوجهها للحظات قبل أن تهمس بنبرة مشتتة:

_اعذرني يا أنس...أنا لم أعد أعرف ماذا أريد...أنا ممزقة...أشعر وكأن...وكأن...

صمتت للحظة تحاول وصف شعورها له عندما أكمل هو لها عبارتها بشجن:

_وكأن جزءاً منكِ قد بُتِر فلن تعودي بعده أبداً كاملة!!!!

عادت تلتفت نحوه بدهشة من قدرته على تجسيد ألمها بهذه الدقة....

فابتسم من جديد بشحوب وهو يهمس بحنان :

_صدقيني لن يشعر بك أحدٌ مثلي...ولو كنت أملك أن أفتدي حزنك هذا بعمري كله لما ترددت!!!

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تتبين عاطفته بوضوح الشمس في عينيه هذه اللحظة...

لكن طيفاً ما عاد يحول بينها وبينه...

نعم...طيف عبد الله!!!!

هل من السهل عليها بعد كل هذه السنوات أن ترى رجلاً غيره؟!!

هي التي لم تتفتح براعم أنوثتها إلا تحت شمسه وسمائه ...

بل لم تروِها إلا قطرات مطره...

فكيف تراها تجد له بديلاً؟!!!

لكنه فعل!!!

هو وجد لها بديلة...

وليست أي بديلة...

بل خادمتها!!!!

خادمتها!!!!

عادت رياح الغضب تعصف بكيانها من جديد عند خاطرتها الأخيرة لتستعر نيران شعورها بالغدر في أوصالها...

لكنه قرأ كل هذا بعينيها فزفر بقوة وهو يعاود تشغيل سيارته قائلاً بضيق لم يستطع كتمانه:

_عامةً حديثنا عن أمر الزواج هذا سابقٌ لأوانه...عدتكِ لم تنتهِ بعد!!

رمقته بنظرة مشتتة طويلة ...

عِدّتها ؟!!

تلك الكلمة التي عاشت خلف أسوارها مرتين قبل هذه...

كانت تتعذب بأيامها التي كانت تعدها يوماً يوماً...

لكنه في كل مرة كان يرحمها من هذا العذاب فيعود إليها طالباً غفرانها...

وهي كانت تمنحه له دون تردد...

لكن هذه المرة مختلفة...

هو لن يعود وقد صار محرماً عليها للأبد...

وهي ما عادت قادرة على منحه الغفران...!!!

ربااااه!!!

كيف تنساه...

كيف يمكن أن تنسى رجلاً احتل خلاياها عشقه واصطبغ بدمها شوقها إليه؟!!!

كيف تنساه وهي لازالت تتلمس حرارة وجوده؟!!!.

نعم...لازالت تقيم في شقتها التي اشترتها أمام شقته وكأنه ينقصها عذابها بحرمانها منه وهو بكل هذا القرب؟!!

لكن عزاءها أنه يشاطرها هذا العذاب...

نعم...لو كانت تتعذب لفراقه مرة فهو يتعذب ألف مرة...

هي أدرى بقيمتها عنده مهما أغوت عينيه نساء...

صفا المعموري ستبقى غصة قلبه التي لن يتجاوزها أبداً...

ثمرته المحرمة التي سيبكيها دماً لا دموعاً!!!

انقطعت أفكارها عندما أوقف أنس سيارته أمام باب منزلها فترجلت منها لتصطدم عيناها بعيني عبد الله الذي كان عائداً هو الآخر لتلتقي عيناهما بحديث طويل...

باطنه فيه الشوق...

وظاهره من قِبَله غضبٌ مشوبٌ برغبة انتقام!!!

وأمامها كان هو يقبض كفيه بقوة مخفياً تشنج جسده بغضب هادر وهو يراها تغادر سيارة أنس بكل أريحية وهو ما لم تكن تجرؤ على فعله سابقاً...

لكنها صفقت باب السيارة بعنف لترمقه بنظرة متحدية طويلة اختفى منها حنانها القديم...

قبل أن تلقي بسلام عابر على أنس الذي كان يراقبهما بتحفز...

ثم مضت في طريقها بخطوات ثابتة لتتجاوزه في كبرياء أجاد وأد اشتياقها بمهارة!!!

كز عبد الله على أسنانه وهو يعود ببصره إلى أنس بنظرات نارية لكن الأخير أطرق برأسه قبل أن يمضي في طريقه بسرعة ...

ظل واقفاً مكانه للحظات وهو يشعر بثورة قلبه بين ضلوعه تكاد تفقده صوابه...

رغبة عارمة في تدمير كل ما تطاله يداه...

منذ طلقها وهو يشعر أنه اقترف الخطأ الذي لا يغتفر...

كيف فعلها؟!!

كيف طاوعه لسانه؟!!

أين كان عقله وهو يوقع وثيقة إعدام قلبه؟!!

يشهد الله أنه لم يكن في وعيه عندما فعلها...

شعوره الرهيب وقتها بإهانتها المتكررة له بمالها ذبح كل ذرة تعقل حاول التشبث بها...

طول تجاهلها لمشاعره كرجل بذل كل جهده كي لا يخونها ولو بخياله...

انغماسها في عالمها الجديد الذي لفظته خارجه كطفل معاقب...

وهي التي طالما احتوته كطفل مدلل!!!

كل هذا نصر "شيطان" غضبه على "ماسة" حبهما التي بهت بريقها مع الوقت...

وإن لم تفقد قيمتها في قلبه أبداً!!!!

لكن يبدو أنها لا تعاني مثله...

مجيئها هكذا مع أنس بمنتهى الجرأة وتحديها السافر له يعني أنها لم تعد تهتم...

صفا؟!!!

معقول؟!!

أثار هاجسه الأخير جنونه والعجز يزيد حفيظته أكثر...

لقد خسرها تماماً هذه المرة...

وما عاد له سلطانٌ على تلك التي كانت له يوماً سكن روحه وصفاءها...

والتي يبدو أنها وجدت عنه...بديلاً!!!!

أدارت كلمته هذه رأسه فوجد نفسه يستجيب ل"شيطان انتقامه هو الآخر" متوجهاً نحو غرفة فتون السفلية فيطرق بابها بتصميم...

وما إن فتحت الباب حتى فاجأها بقوله الحازم:

_مرّي عليّ غداً في المحل...أريدك في أمر هام!!!

===============

_لماذا جعلتها تحضر العرس يا ابني؟!!

همست بها عفاف في أذنه بعتاب حنون وهي تختلس نظرة مشفقة نحو رؤى التي جلست على أحد الكراسي هناك مطرقةً برأسها...

كان حفل الزفاف بسيطاً بل إنه يكاد يشابه جلسة عائلية متحفظة في منزل راغب ولم يحضره إلا القليل من معارفهم الذين تعجبوا كثيراً من هذه الزيجة الثانية في هذا الوقت القصير !!!

خاصةً والعروس "الأولى" تحضر الزفاف بنفسها ولا يبدو عليها أي ضيق ظاهر!!!

لكن الجميع كانوا يعلمون أن راغب درويش لا يناقشه أحد في قراراته وطالما اختار هذا فهو حقه خاصةً وهم يعتبرونه كبير هذه العائلة مقاماً وإن لم يكن سناً!!

زفر راغب بقوة ثم مال على أذن والدته بدوره هامساً بسخط:

_هي التي أصرت وأنتِ نفسكِ شهدتِ على مدى تصميمها!

قالها وهو يختلس النظر إليها بدوره وهدوؤها -المصطنع-يذبحه بسكين ثلم خاصة وهو يدرك ما وراؤه...

ثم ازدرد ريقه الجاف بصعوبة وهو يتأملها في ثوبها الرمادي القاتم والذي يعلم أنه بعيدٌ تماماً عن ذوقها -المشرق-في ألوان ثيابها...

ورغماً عنه انتابته ذكرى قريبة لها بثوبها "الليموني" الذي اشتراه هو لها...

كم بدت يومها نضرةً متألقة بعيدةً تماماً عن هذه الشاحبة بثوبها الرمادي!!!

ليحاول بعدها التقاط نظرة واحدة منها حتى ولو نظرة عتاب...

لكنه لم يفلح...

نظراتها كانت مسلطةً على الأرض طوال الوقت وقد التصقت ابتسامتها -الباردة-بشفتيها اللتين استشعر برودتهما في مكانه...

فعاد يزفر مرة أخرى وهو يلتفت نحو عروسه التي انشغلت عنه بابتسامة -حقيقية-وهي تتابع الحضور بترقب ممتزج بالخجل...

طيبة القلب عزة!!

لا تحمل طباع هيام المتحفزة القاسية بل على العكس تبدو دوماً كطفلة منبهرة خجول...

جميلة؟!!!

لا يدري!

هو فقد قدرته على تذوق النساء من زمن...

بالتحديد منذ سلم قلبه رغماً عنه ل-ملاكه الآثم- دونما رجعة!!!

وعند خاطره الأخير عاد بصره يطارد نظراتها برجاء خالص هذه المرة...

وقلبه ينافس ضميره في جلده بسياط الندم!!!

وحده عقله كان مقتنعاً بما فعل...

هذه المهزلة لابد أن تنتهي به...وبها!!!

لكن عينيه دمعتا بقهر وهو يلاحظ ارتجافة جسدها التي خانتها قبل أن تكتف ساعديها بقوة وهي مستمرة في تظاهرها -الفاشل-باللامبالاة!!!

لينقبض قلبه برجاء حار يتوسله أن يأخذها ويرحلا معاً بعيداً عن كل هذا...

لكنه تشبث بمسندي مقعده بقبضتيه قبل أن يغمض عينيه على صورتها التي احتلت الآن رأسه كله!!!

وفي مكانها كانت هي تتوارى خلف قناعها -المستحدث- من قوة لازالت تجاهد للتحلي بها...

دموعها تتقافز في عينيها اللتين تشوشت رؤيتهما لكنها لم تستجب لضعفها هذه المرة...

تماسكي يا رؤى...تماسكي...

العيون كلها مسلطة عليكِ...

تجاهلي كل هذه الغمزات واللمزات عن تلك ال-حمقاء- التي تحضر زفاف زوجها على أخرى بهذه البساطة!!

تحاشيْ النظر لعيني هيام الشامتتين بدهاء وعيني عفاف المشفقتين برحمة...

وعينيه هو الغارقتين بفيض من أسف وغضب!!!

كان هذا حديث نفسها الذي تحاول ترميم صدوع روحها به...

لكن صوتاً -أنانياً- بداخلها كان يصرخ بغضب طفولي...

ليته لا يسعد هذه الليلة...

ليته يكتشف أن زوجته الجديدة -ملطخة-مثلها...

ليته يصطدم بسوء طباعها وينفر منها...

ليته يندم على هذه الزيجة ويعود إليها صاغراً!!!!!

وحينها انتابتها قشعريرة باردة فاحتضنت جسدها بذراعيها لتضغط شفتيها بقوة وهي تعنفُ نفسها على هذا الفكر الجاحد...

لتعاود تفكيرها الصامت ب-ما يشبه الدعاء-

لا...ليته يسعد هذه الليلة...

بل...كل ليلة!!!

ليته يجد في عروسه الجديدة ما افتقده معها...

ليتها تسقيه الحب الذي عجزت هي عن منحه إياه...

ليته يستريح -أخيراً- في نهاية هذا الطريق الذي جرحت قدميه أشواكه دونما أي ذنب منه!!!

نعم...ليته فقط يفرح!!!

وعند خاطرتها الأخيرة أفلتت منها دمعة مسحتها بظاهر كفها خلسة وهي تأخذ نفساً عميقاً ...

فكري في أي شئ آخر...

أي ذكرى حلوة...

أي أحد!!!

وهل بقي أحد؟!!

جنة توأم روحها لم تعد تعرف عنها شيئاً بعد ما ودعتها منذ وقت طويل...

وصفا التي انقطعت أخبارها بطلاقها من عبد الله...

عبد الله الذي أخذته العزة بالإثم منذ حوارهما معاً آخر مرة فتمادى في خشونة حديثه معها وإن كان لايزال يطمئن عليها هاتفياً من آن لآخر...

فمن بقي إذن؟!!

ولمن تهرب في أحلام يقظتها إلا له هو ...

هو راغب...و فقط!!!

وكأنما جاءت فكرتها الأخيرة برداً وسلاماً على نيران قلبها المستعرة...

ليختفي من أمام ناظريها كل هذا الحضور ولا تعود ترى سوى حلمها الدافئ بنفسها بين ذراعيه...

لتختفي خشونة نبراته المعتادة فتتبدل لهمسات حارة ذائبة بغرام تفضحه عيناه قبل لمساته...

وساعتها فقط تحولت ابتسامتها الباردة لأخرى حقيقية وإن كانت لمجرد خيال!!!

لكن للأسف!!!

هذه الزغاريد العالية قطعت عليها شرودها الهائم به وكأنما استكثروا عليها مجرد الحلم!!!

لترفع عينيها بحسرة نحوه أخيراً وقد وقف جوار عروسه متأهبيْن للصعود نحو شقتهما ...

هنا تدافع الحضور نحو العروسين يهنئهما لتشعر أنها صارت فجأة وحدها وكأنها على جزيرة منعزلة وسط بحر هائج يوشك أن تبتلعها أمواجه...

فقامت لتقف بدورها وهي ترفع رأسها للأعلى بدعاء خافت بالصبر...

بينما كان راغب مكانه يراقبها بتفحص وعيناه لا تحيدان عنها...

كان يصافح مهنئيه بحركات آلية افتقدت حتى ابتسامة مجاملة بينما تشنج جسده كله متأهباً وهو يخشى أن تفقد تماسكها -المزعوم- هذا في أي لحظة...

حتى رآها تقف ثم ترفع رأسها لأعلى فانعقد حاجباه بقلق ثم مال على أمه هامساً بحزم:

_اذهبي أنتِ إلى رؤى...لا تتركيها أبداً...دعيها تبتْ ليلتها هنا معكِ وليس في شقتنا.

تنهت عفاف بحرارة ثم ربتت على كتفه لتهمس بحنان:

_لا تحمل هماً يا ابني...افرح أنت بعروسك الليلة...ولا تقلق عليها!

قالتها ثم اتجهت نحو رؤى التي وقفت في أحد الأركان هناك وقد تشنجت ابتسامتها البائسة مع محاولاتها الواهية للتماسك...

فجذبتها إلى صدرها بحنان لتهمس في أذنها بحزم رفيق:

_يكفيكِ هذا يا ابنتي!!!ادخلي غرفتي وأغلقيها عليكِ ...لا داعي لرؤيتهما الآن!

لكن رؤى رفعت رأسها إليها لتهمس بصوت متحشرج:

_أنا بخير يا أمي...لن تكون..

انقطعت عبارتها مع تعلق بصرها بالعروسين اللذين اقتربا منهما الآن بسيرهما الحثيث مع صوت الألحان القوية...

تعقبهما هيام التي تنثر بتلات الزهور الصغيرة فوقهما بسعادة ممتزجة بالظفر...

وأصوات الزغاريد حولها تكاد تصمّ أذنيها بدويّ هائل...

لتشعر بنفسها تكاد تفقد تماسكها هذا كله في لحظة...

كم تود الصراخ الآن...

الصراخ بكل قوتها حتى يُبح صوتها...

لم تكن تظن الأمر سيكون شاقاً هكذا...

لكنها -بحق- تحترق!!!

كل ذرة في كيانها تئن بالألم وكأنما يسلخونها حية!!!

ربااااه!!!

لو كان هذا بقية حسابها على ذنبها فقد وفته كاملاً دون نقصان!!!!

لكن نظرةً واحدة إلى عينيه في هذه اللحظة قلبت حالها تماماً...

نظرةً اخترقت روحها لتغلف قلبها بوشاح من نور...

نظرةً كانت تستجدي قوتها وتمنحها لها في نفس الوقت!!!

وكأنما كان يرجوها أن تتماسك لأجليهما معاً!!!!

وهي لم تخذله...

نعم...منحته إيماءة خافتة من رأسها مع بقايا ابتسامتها الهزيلة قبل أن يغيب مع عروسه عن ناظريها تدريجياً ...

فتخفت الأصوات شيئاً فشيئاً حتى تشعر بالصمت المفاجئ يكاد يربت على روحها بعد طول صخب...

وهنا فقط...سمحت لدموعها بالانهمار كطوفان جارف بين ذراعي عفاف التي ضمتها بقوة وقلبها يكاد ينفطر على حالها...

أما هو فقد صعد مع عروسه إلى شقتهما لتتلكأ خطواته قليلاً أمام شقته مع رؤى لكنه عاد يجر خطواته جراً للأعلى وقد تحول حزنه لطاقة رهيبة من إصرار أن يتم هذا الزواج لآخره...

لن يتوقف في منتصف الطريق لأي سبب...

هو تزوج عزة بكامل إرادته ولن يظلمها...

لهذا ما كاد يغلق باب الشقة خلفهما حتى أخذ نفساً عميقاً ثم التفت نحو عزة التي كان وجهها متخضباً بحمرة خجل زادته فتنة لم تؤثر فيه شعرة لكنه اكتنف كتفيها بكفيه ليهمس برفق:

_مبارك يا عزة...أنتِ تبدين ...في غاية الجمال هذه الليلة!!

كان صوته مهزوزاً وكأنما ينتزعه انتزاعاً من حنجرته التي غصت بمرارته...

لكن -الغافلة- أمامه لم تنتبه لهذا بل ازداد خجلها أكثر وهي تطرق برأسها...

فدار بعينيه على ملامحها قبل أن تمتد أنامله لتلامس وجهها باستكشاف شغوف...

عيناها ...

أنفها...

شفتاها...

ذقنها...

أين شق ذقنها؟!!!

أغمض عينيه بألم وقد أوشكت أنّةٌ خافتة أن تفلت من شفتيه...

أفقْ يا راغب...

أفقْ...

إنها ليست رؤى صاحبة طابع الحسن...بل صاحبة الحسن كله!!!!

إنها عزة...زوجتك التي اخترتها لتكمل معها طريقك بصورة طبيعية هذه المرة فلا تجعل قلبك يفسد عليك حياتك كعادته...

لهذا عاود فتح عينيه ببطء لينزع عنها طرحة زفافها برفق...

ثم قبل جبينها بخفة وأنامله المرتجفة تعرف طريقها لسحاب ثوبها الأبيض فتأتي شهقتها الخجول مخلصةً لكليهما في هذه اللحظة...!!

حيث تذرع هو بها ليقول برفق لم يخلُ من ضيق:

_بدلي ملابسك على راحتكِ في غرفتنا...وأنا سأنتظرك.

لم يكد ينتهي من عبارته حتى انسحبت من أمامه بخطوات سريعة فضحت خجلها المرتبك قبل أن تدخل غرفتهما لتغلق بابها خلفها بسرعة...

ظل ينظر للباب المغلق للحظات ثم تنهد بحرارة وهو يمسح وجهه بكفيه...

خلع سترته ورابطة عنقه بعنف ليلقيهما بعيداً ثم وضع كفه مبسوطاً على صدره وهو يشعر بالاختناق...

رؤى...معذبته الأبدية!!!

نظرتها النابضة بألمها لا تكاد تفارق عينيه...

ابتسامتها التي تدعي قوة- يوقن أنها لا تملكها -سحقت فؤاده...

وملامحها التي حملت ألف رجاء له أن يبتعد...وأن يقترب!!!

آه يا رؤى...

وكأنك أنشودة عذاب يصر قلبي أن تعزفها دقاته بلا توقف...

دقة دقة!!!

هز رأسه بعجز وهو يتوجه نحو الشرفة الخارجية ليستند بكفيه على السور وهو يراقب السماء بشجن...

ثم حانت منه التفاتة نحو شرفة شقته السفلية مع رؤاه والتي كانت الآن مظلمة تماماً ...

الشقة كلها بدت نوافذها مظلمة ليتأكد وقتها أنها باتت مع والدته كما كان يتوقع...

حل أزرار قميصه بإهمال وهو يشعر بانقباض صدره الذي لم يكن بيده...

ماذا بك يا راغب؟!!

هل كُتب عليك ألا تفرح أبداً؟!!!

انزع عنك هذا الوهم!!!

زوجتك الجميلة تتهيأ لك...

امرأة صالحة لم تمسها يدٌ قبلك...

جسدٌ عفيف ينتظرك لتكون أول من يغزوه ...

وروحٌ طاهرة تكاد الآن تفتح لك أبوابها لتهيم في سماء عاطفتك معها...

فلماذا تعلق قلبك بجسد مدنس وروح آثمة؟!!

خبط بقبضته على السور بقوة حتى آلمه كفه....

لكنه لم يشعر بالألم مع رفرفة قلبه الذي سقط بين قدميه وصرخاتها الضعيفة رغم خفوتها تخترق أذنه...!!!!

انعقد حاجباه بشك وهو يرهف سمعه أكثر...

هل هي صرخات رؤى حقاً أم أنه يتوهم؟!!!

لكن تلك الأنوار التي أضيئت تباعاً واحداً تلو الآخر في الشقة السفلية أكدت له شكوكه...

ظل واقفاً مكانه لدقائق حائراً فيما يفعله...

ثم لم يشعر بنفسه وهو يغادر الشقة مندفعاً نحو الدور السفلي حيث شقتهما ليفتح الباب بهدوء مستكشفاً...

وقد زاد قلقه أكثر وهو يرى أنوار الشقة كلها مغلقة من جديد...!!!!!

فانعقد حاجباه بشك!!!

ما الذي يحدث هنا؟!!

لينتبه وقتها لصرخة خافتة أخرى وكأن صاحبتها تكتمها ولا تريد أن يسمعها أحد!!!

قبل أن يغشي عينيه نور غرفة نومهما الذي أُضيئ لتوه فتوجه نحوها بخطوات سريعة ليهوله ما رآه...!!!!

كانت رؤى وحدها هناك جالسةً على الأرض في زاوية ضيقة بين خزانة الملابس والحائط..تحتضن جسدها بذراعيها وتدفن وجهها بين ركبتيها المرفوعتين...

لكن هذا لم يكن فقط ما أثار ارتياعه...

لقد كانت شبه عارية بقميصها الداخلي القصير الذي كشف عن جسدها وقد كان كله مخدوشاً بجروح حديثة وكأنها آثار أظافرها...!!!

وشعرها؟!!!

ربااااه!!!

خصلات شعرها المقصوصة كانت متناثرة حولها على الأرض جوار مقص ضخم !!!!

اندفع نحوها بلهفة منادياً ثم جلس على ركبتيه أمامها ممسكاً كتفيها يهزها هاتفاً بجزع:

_يا إلهي!!!رؤى!!!ماذا فعلتِ بنفسك؟!!

كان صوته يأتيها من بعيد وكأنه يتحدث من بئر سحيق....

هي لم تشعر بنفسها بعدما عادت إلى هنا وحدها متوسلةً إلى والدته أن تتركها لحالها...

الظلام والوحدة...!!!

هاجساها اللذين طالما أرقاها طوال عمرها...

الليلة فقط شعرت بحاجتها أن تتخطاهما...

ربما..تستمد لنفسها بعض القوة في طريقها الجديد....

لهذا حاولت في البداية أن تتغلب على هذا الخوف لكنها لم تستطع...

قلبها كاد يتوقف وهي تجد نفسها هنا وحيدة وسط الظلام...

لتمتد أناملها رغماً عنها فتفتح الأنوار كلها مستسلمةً لضعفها المخزي...

لكنها ما كادت تقف أمام مرآتها حتى شعرت أنها تكره نفسها...

تكرهها كما لم تفعل من قبل...

تكره جسدها الذي لم تحفظه فلم يحفظها!!!

أذلته...فأذلها...

لتنتابها وقتها رغبة عارمة في فعل شئ لم تقاومه...

لم تشعر بنفسها وهي تخلع ملابسها مكتفيةً بقميصها الداخلي القصير قبل أن تبدأ في خمش جسدها كله بأظافرها وكأن الألم سيطهرها من شعورها الآن بالذنب والدونية...

ثم التقطت عيناها هذا المقص هناك فتلقفته أناملها بعصبية لتقص خصلات شعرها بطريقة عشوائية وكأنها فقط ...تشوه أنوثتها!!!

تعيث فساداً في كل ما ظننته سبب تعاستها...

لو لم تكن أنثى ضعيفة لما تجبر عليها عبد الله...

ولما استغلها فهد ...

ولما زهدها راغب ...

لكن ضعف أنوثتها هو ما استجلب لها كل هذا!!!

ضعيفة!!!

رخيصة!!!

مذنبة!!!

لكنني لن أرضى بهذا بعد!!!!!

وبهذا الشعور الجارف الذي عصف بها عادت تطفئ الأنوار بحزم وكأنها تختبر نفسها من جديد...

نفسها التي خذلتها أيضاً هذه المرة فلم تستطع هزيمة خوفها -المرضي-كالعادة...

وعادت تفتح الأنوار بذعر سبقته صرختها!!!

خاسرة يا رؤى!!!

خاسرة وضعيفة!!!

كانت هذه الكلمات آخر ما دوى في أذنيها وهي تنهار جالسةً في هذه الزاوية قبل أن يصلها صوت راغب من جديد وهو يجذبها لصدره بقوة هاتفاً بنبرة أعلى:

_ردي عليّ يا رؤى!!!ماذا حدث؟!!لماذا تركتكِ أمي وحدك؟!!

ثم رفع ذقنها إليه ليردف بجزع:

_لماذا بقيتِ وحدكِ هنا في الظلام وأنتِ تعلمين عن حالك؟!!

كانت تنظر إليه بتشوش ...عيناها زائغتان لكن بلا دموع...أنفاسها متلاحقة مع همسها المتقطع:

_هذه الليلة بالذات...كنت..أريد أن أشعر ...بأني قوية...

ثم ارتعشت شفتاها مع صوتها الذي تهدج فجأة :

_الليلة بالذات...كنت أحتاج أن أفعل شيئاً يجعلني....أحترم نفسي!!!

وعند عبارتها الأخيرة انتفض جسدها فجأة ببكاء عنيف مع تأوهات مكتومة وكأنما عاد إليها للتو إدراكها لما حدث لتستعيد الآن فقط شعورها بالألم من كل هذه الجروح التي ملأت جسدها...

بينما ضم هو رأسها إلى صدره بقوة وهو يكاد يخفيها بين ذراعيه هامساً بألم وقد شاركتها عيناه دموعها:

_توقفي!!!بالله عليكِ توقفي!!أنتِ تذبحيننا معاً!!!

وكأنها لم تسمعه!!!!

فقط رفعت إليه عينيها وهي تتحسس قميصه الأبيض الذي لطخته دماء جروحها وكحل عينيها لتهمس بصوت متقطع بين دموعها:

_أنا لوثت قميصك...كما لوثت حياتك ...بل لوثت كل شئ.

ساعتها خفض بصره إلى قميصه لينتبه لجروحها هي الدامية فمسح عينيه بسرعة ثم دفعها برفق ليقوم واقفاً مع هتافه القلق:

_سأعود حالاً!

لم يصله منها رد سوى ارتعاش نظراتها المشوشة عندما عاد إليها بعد قليل ليطهر جروحها برفق ...

ثم رفعها من كتفيها ليوقفها ويحاول لمّ شعرها الذي تشعثت خصلاته بشكل بشع !!!

كانت أنامله ترتجف وهو يتناول وشاحاً صغيراً غطى به شعرها ثم جذبها برفق نحو الفراش تحت نظراتها

الزائغة ليتمدد جوارها هامساً بقلق وهو يشعر أنها ليست في وعيها تماماً:

_رؤى!!انظري إليّ!!

كان ذراعاه يطوقانها برفق وأنامله تربت على ظهرها لكن ارتجافة جسدها لم تهدأ ...

بل زادت عليها أنات ألمها الذي لم تعد تدري هل ينبع من أماكن جروحها فحسب أم من داخل روحها نفسها...

بينما لم يكن هو أفضل منها حالاً بل على العكس ...

مطارق الذنب كانت تهوي على روحه لتسحق قلبه أكثر...

موجوعٌ هو بها...

موجوعٌ هو لها...

وجعاً يبدو وكأنه بلا شفاء!!!

أما هي فلم تستطع تنفيذ أمره بالنظر إليه...

كانت مشوشة بين أفكارها وهواجسها لا تكاد تميز واقعاً من خيال...

فاعتصرها بين ذراعيه أكثر وهو يقبل رأسها بعمق هامساً بنبرات مضطربة بين خوف ورجاء:

_حسناً..فقط اسمعيني...لا تعذبي نفسكِ أكثر...ربما العيب فيّ أنا...أنا الذي أعجز عن العفو.

ثم رفع ذقنها إليه مردفاً بعجز متشح بالألم:

_رغماً عني...صدقيني.

أغمضت عينيها بضعف استسلمت له أخيراً بعد طول محاولات للتظاهر بالقوة...

فعاد يخفي وجهها في صدره هامساً بصوت متهدج:

_أنتِ ضغطتِ على نفسكِ كثيراً هذه الليلة...لم أكن أتخيل أنكِ ستكونين بهذه القوة**!!**

رفعت إليه عينيها بابتسامة ساخرة ضعيفة وقد عجزت عن النطق...

لكنه قرأها في نظراتها التي غشيتها الخيبة فأردف بنبرة أكثر حزماً رغم حنانها:

_نعم قوية...لا تصدقي غير هذا...امرأةٌ أخرى مكانكِ لم تكن لتحتمل كل هذا...لكنكِ فعلتِها وحدك ...تقبلتِ عقاب

السماء بصبر لتتطهري من ذنبك...أنتِ حقاً قوية بل أنتِ أقوى امرأة عرفتها في حياتي.

تحولت ابتسامتها الساخرة لأخرى حقيقية رغم الدموع التي كانت تسيل الآن على وجهها...

والتي مسحها هو بأنامله مقاوماً رغبته الآن في حقه فيها بكل قوته...

عندما همست هي أخيراً بشرود:

_أنت كنت على حق...وعبد الله أيضاً...أنا لن أحتمل هذا الوضع...حياتنا معاً مستحيلة.

جف حلقه فجأة مع هذه الغصة التي استحكمته رغماً عنه...

قد يبدو الحديث عن الفراق سهلاً في أي لحظة...إلا هذه!!!

كيف وهي تنتفض الآن بين ذراعيه كعصفور بلله المطر فالتجأ إلى صدره؟!!

كيف وجسدها النابض -رغم برودته الظاهرة- يكاد يشع بحرارة تحرقه؟!

كيف وهي بكل هذه البراءة وبكل هذا الإغواء؟!!

بكل هذه القوة وبكل هذا الضعف؟!!

كيف وهي...هي؟!!!

هي الأولى والأخيرة ...والسابقة واللاحقة مهما تعاقبت بعينيه نساء!!!

لهذا انسابت شفتاه على وجنتيها تمسحان دموعها بعاطفة هادرة لتغزل بينهما نسيجاً آخر من شعور جديد أقوى وأمتن...

لكنها قطعت كل هذا عندما ابتعدت عنه برفق وقد استعادت المزيد من وعيها- وإن بدت أنها لم تسترجعه كاملاً- لتهتف بجزع:

_يا ربي!!!راغب...ماذا تفعل هنا؟!!لماذا تركت زوجتك؟!!

وكأنما أعادت له عبارتها وعيه هو الآخر ...

أي عقلٍ بقي له ليترك امرأة تتهيأ له في ليلة زفافها بوعدٍ كامل لريّ اشتهائه...

فيهرع إلى أخرى مكتفياً منها بمجرد ضمة بين ذراعيه؟!!

أي عقلٍ بقي له وهو يتناسى ابتسامات عزة الخجول بملمس بشرتها الطازج بين أنامله...

ليذوب بكامله في مذاق دموعها -هي- الفريد بين شفتيه؟!!

أي عقل؟!!

وهل تركت له- هي- عقلاً؟!!

تنهد بحرارة وهو يعاود جذبها إلى صدره من جديد هامساً بحزم:

_لن أتركك ...على الأقل الآن!

فشهقت باعتراض مع هتافها المستنكر:

_لا يا راغب...لا تحملني ذنبك أرجوك...

ثم أردفت بصوت لازال متهدجاً بانفعاله:

_اصعد أنت لعروسك...أنا صرت بخير...سأذهب لأمي ولن أعود لحماقاتي...بل سأذهب من هنا تماماً...سأعود لعبد الله...لن..

_لن أغادر حتى تنامي...

قطعت عبارته الحازمة سيل هذيانها المتقطع مع أنامله التي انسابت على طول ذراعها صعوداً وهبوطاً وهو يهدهدها كطفلة مخفياً وجهها في صدره بين ذقنه وذراعيه...

فأغمضت عينيها باستسلام وقد بدأ الخدر يسري في أوصالها ليستجيب جسدها أخيراً لإرهاقه...

ويغرق عقلها في غيبوبة اختيارية حملت -عرضاً- مسمى النوم...

بينما ظل هو على ما يفعله لدقائق طالت بعدها رغم يقينه من نومها وانتظام أنفاسها...

وكأنه يخشى أن يتوقف فتعود لها ارتجافتها ودموعها...

حتى ابتعد برأسه أخيراً ليتأمل ملامحها بوجد...

وقد انحسر الوشاح عن خصلات شعرها المشعثة متفاوتة الطول بعدما فعلته هي بها...

واحمر وجهها وجسدها في مواطن كثيرة بفعل أظافرها...

وتورم جفناها كثيراً بعد كل هذه الدموع...

ومع كل هذا بدت له في هذه اللحظة أجمل نساء الأرض..!!

فأعاد ضمها لصدره بقوة مستسلماً لنعاسه هو الآخر وآخر ما تناهى لسمعه همستها في نومها وكأنها تحلم:

_سأرحل!!

================

أنهت مكالمتها مع رحمة لتوها بعدما أخبرتها عما استجد من أمورها عندما فتح هو باب الغرفة ليدخل ...

فقامت لتتوجه نحوه متفرسة في ملامحه التي كانت الآن تحمل شيئاً غريباً عليها جعلها تسأله بتوجس:

_ما الأمر يا عاصي؟!!هل جدّ هناك شئ؟!

ارتفع كفاه يحتضنان كتفيها بتملك للحظات قبل أن تضطرم نيران خاصة بغابات زيتونه ...

نيرانٌ برائحة الخوف...وربما...الخسارة!!!

فازدردت ريقها بتوتر وهي تقترب منه أكثر لتتشبث أناملها بكتفيه هامسةً بتساؤل:

_عاصي؟!!

رمقها بنظرة أخرى طويلة قبل أن يهمس ببطء:

_جاسم الصاوي هنا!!

اتسعت عيناها بصدمة وأناملها تزداد تشبثاً به حتى كادت أظافرها تنغرس في قميصه وهي تهمس مكررة بذهول:

_جاسم الصاوي هنا؟!!

ربت على كتفيها برفق وهو يدرك صعوبة الموقف عليها فهمس بحزمه الحنون:

_لماذا تتعجبين هكذا؟!!كنت أتوقع هذه الزيارة...هو أولاً وأخيراً أب وجد ابنته بعد كل هذه السنوات!!!

_أب؟!!

صرخت بها بثورة وهي تبتعد عنه بظهرها بضع خطوات قبل أن تردف بصوت هادر:

_أي أب؟!!إذا كان هو تنكر لي طوال هذه السنوات ولم يعترف بي فأنا أيضاً لا أعترف به..سأنتزع منه اسمي فحسب...لا أريد منه شيئاً آخر...

فاقترب منها ليقول برفق مقدراً ثورتها:

_اهدئي..لن يجبركِ أحدٌ على فعل شئ....قولي فقط أنكِ لا تريدين مقابلته...وأنا سأتصرف.

ارتجف جسدها انفعالاً وهي لا تدري كيف تصف شعورها في هذه اللحظة...

طفلةٌ بداخلها تبكي بعنف !!!

تتوسلها أن تهرع إلى ذاك الرجل الذي يزعم أبوتها لترتمي بين ذراعيه...!

تشكو إليه ما فعلته بها الأيام في غيابه...!

تلقي على كتفيه همومها التي حملتها وحدها طوال هذه السنوات وهي مطمئنةٌ أنه سيرعاها...

لكن صوتاً آخر يعارضها...

أفيقي يا غافلة!!!

ذاك الرجل نفسه هو من فعل بكِ هذا...

كل ذرة ألم تجرعتِها في حياتك كانت بسببه....

كل انتقاص وكل إهانة وكل انتهاك!!!

فكيف -بربكِ- تظنين أن الملاذ عنده إذا كان هو من أسلمكِ طواعيةً لأنياب مصيرك؟!!

لهذا احتضنت جسدها بساعديها بقوة وقد غلبتها دموعها التي انهمرت كالسيل فجأة على وجنتيها لتهتف بعجز:

_ماذا أفعل يا عاصي؟!!

جذبها إلى صدره برفق ليطوقها بذراعيه صامتاً للحظات...

قبل أن يهمس بنبرته القوية التي تخللها حنانٌ تشربته روحها العطشى إليه الآن بالذات:

_افعلي ما تشائين...وأنا معكِ في أي قرارٍ ستتخذينه!!

مرغت وجهها في صدره للحظات تستمد منه قوة تحتاجها في هذه اللحظة....

قبل أن ترفع رأسها لتبتعد عنه أخيراً ...

مسحت دموعها بصلابة ثم قالت بنبرتها القوية:

_سأذهب إليه.

قالتها وهي تندفع مغادرة فجذبها من مرفقها ليقول بحزم:

_سآتي معك...لن أتركك وحدك.

لكنها خلصت مرفقها منه لتهتف بانفعال:

_بل وحدي!!!أنا لا أحتاج لأحد.

رمقها بنظرة طويلة عاتبة لكنها تجاهلتها لتتخذ خطوات واسعة نحو باب الغرفة...

ثم توقفت فجأة عند الباب ليرتجف جسدها رغماً عنها...

فأسندت جبينها على القائم الخشبي للباب وهي تشعر أنها ستنهار انفعالاً ...!!

بينما جاهد هو نفسه ليحافظ على ثباته هو الآخر منتظراً ردة فعلها....

حتى رفعت هي إليه عينيها أخيراً بنظرة احتياج راجية مع همسها الخافت باسمه فحسب....

دون أي كلمة أخرى!!!!

فتوجه نحوها ليحتضن كتفيها بذراعه هامساً بنبرة أكثر حناناً:

_لم أكن لأترككِ وحدكِ في هذا الموقف حتى لو طلبتِها أنت...هيا بنا!!

التصقت به أكثر وهي تهبط معه الدرج نحو بهو القصر لتتقدم بخطواتٍ ثابتة لم تخذلها رغم كل شئ...

حتى لمحته هناك وقد قام واقفاً عندما انتبه إليهما....

كانت تعرف شكله من قبل فطالما تصدرت صوره الأخبار ووسائل الإعلام المختلفة....

لكنها هذه المرة كانت تراه بصورة أخرى...

كانت تبحث في ملامحه عن أي شئ يثبت نسبها إليه...

أو ينفيه!!!

نعم...هي التي عاشت طوال عمرها تتمنى أن تلتقي بوالديها الحقيقيين...

لكن هذا الرجل لا يشرفها أبداً أن يكون هو أباها...

رجلٌ استحل دماء زوجة ابنه وما خفي كان أعظم!!!

لهذا كان رد فعلها بارداً وهي تتقدم منه بثبات ولازالت تلتصق رغماً عنها بعاصي الذي كانت تشعر الآن بحق أنها تحتاجه أكثر من أي لحظة في حياتها....

وأمامها كان جاسم الصاوي -على العكس- يرمقها بنظراتٍ مذهولة للحظات...

وقد انفرجت شفتاه بانفعال جارف قبل أن ترتجفا بقوة مع همسه الخفيض:

_يا إلهي!!!وكأنها هي!!

ثم اقترب منها أكثر ليتفرس في ملامحها بقوة قبل أن تشتعل عيناه بعاطفة حقيقية وهو يهمس بحرارة :

_أنتِ ابنتي!!

دمعت عينا ماسة مع هذا الإعصار الذي اجتاح كيانها كله بمشاعر متناقضة نحو هذا الرجل الذي يُفترض أن يكون أقرب أهل الأرض إليها...

ومع هذا تشعر نحوه بغربة شديدة فكيف يزعم أنها من دمه؟!!!

أي دم؟!!وأي نسب؟!!!

لهذا علا صوتها رغماً عنها وهي تشيح بعينيها عنه هاتفة بخشونة:

_لماذا جئت اليوم يا سيد جاسم؟!!

لم ينتبه جاسم لجفاف نبراتها وهو غارقٌ لأذنيه في مشاعره الدافئة بها ...

فقط غمغم بارتباك ولازالت نظراته مشوشة بحيرته:

_جئت أتأكد من الحقيقة!!

فابتسمت بسخرية وهي تكتف ساعديها هاتفة بصلابة:

_وهل تأكدت؟!

لم يرد عليها للحظات بل بدا كتمثال صخري وهو يراقب ملامحها بعاطفة صادقة...

قبل أن تمتد أنامله المرتجفة ليلتقط من جيبه صورة فوتوغرافية قديمة مع بعض الأوراق الرسمية التي ناولها لها دون مزيد كلام....

فتعلقت نظراتها بالصورة للحظة ثم انطلقت منها صيحة قصيرة وهي تكاد تعتصرها بين أناملها...

فالصورة القديمة كانت لامرأة تشبه ماسة تماماً في كل شئ...

شعرها ...

عينيها...

شفتيها...

ربما لولا اختلاف طراز ثيابها القديم لظننتها صورتها هي!!!

لهذا لم تتمالك انفعالها في هذه اللحظة وهي تلتفت نحو عاصي هاتفة بين دموعها:

_هل تراها مثلي ؟!!هل هي حقيقية أم أنني أتوهم؟!

ضمها عاصي إليه بذراعه أكثر وهو يشعر بالقلق عليها أن تعاودها حالتها الهستيرية التي -بالكاد-تخلصت منها بعد الحادث...

فنقل بصره بينها وبين جاسم المذهول بدوره للحظات بتردد قبل أن يقول بحزم:

_حقيقية ...وتشبهكِ تماماً!!

رمقته بنظرة مشتتة طويلة وهي تتحاشى النظر نحو جاسم فأومأ لها برأسه مطمئناً...

بينما غمغم جاسم بنبرات متهدجة بانفعاله هو الآخر:

_هذه الأوراق تخص والدتك رحمها الله...

هنا التفتت نحوه بحدة لتسأله السؤال الذي كان يشغلها الآن بقوة :

_كان زواجاً صحيحاً؟!!

أومأ جاسم برأسه وهو يشير بإصبعه المرتجف نحو وثيقة الزواج الرسمية بيدها قائلاً:

_نعم...كان زواجاً سرياً...لكنه رسميّ وموثق!!!

ضمت الصورة لصدرها بقوة ولازال جسدها ينتفض بانفعاله مع تمتمتها الخافتة:

_الحمد لله!!!الحمد لله!!!

اغرورقت عينا جاسم بدموع تأثره وهو يراها أمامه في هذا الحال....

لكن الكلمات جفت على شفتيه تماماً فما عاد يدري ماذا يقول ولا كيف يبرر فعلته...

بينما مسحت ماسة دموعها بعد لحظات لتقول دون أن تنظر إليه:

_وماذا بعد ما تأكدت من الحقيقة؟!!هل ستعترف بي أم أنها مجرد صحوة ضمير مؤقتة؟!!

شحب وجه جاسم وقتها بشدة وقد بدا له سؤالها -رغم منطقيته الآن -شديد الصعوبة....

لهذا صمت طويلاً قبل أن يغمغم بارتباك:

_بالتأكيد يا ابنتي سأمنحكِ حقوقك كلها...لكن...

قطع عبارته بعجز فتشبث عاصي بماسة أكثر وكأنه يمنحها دعمه الذي كانت تحتاجه في هذه اللحظة لتهتف بتنمر:

_لا يوجد لكن...أنا لا أحتاج مالك ولا سلطتك...لكنني لن أتنازل عن حقي في اسمك...عن حق أولادي في ألا يعايرهم أحد بنسب والدتهم.

وكأنما قالت عبارتها الأخيرة دون وعي...!!

ولم تكد تنتبه إليها حتى التفتت نحو عاصي بنظرة عاجزة ضجت بألمها...

نظرة شطرت قلبه بحق وهو يدرك مرارة إحساسها الآن...

عن أي أولاد تتحدث؟!!

فاعتصرت أنامله كتفها وهو يشاطرها عجزها في هذه اللحظة ...

ليس فقط عن الكلام بل عن فعل أي شئ!!!

عندما عاود جاسم حديثه المرتبك بصعوبة:

_حقك يا ابنتي...لكن...ليس الآن!!!

التفتت نحوه بحدة فأردف مهدئاً:

_لم يتبقَ على نتيجة الانتخابات سوى وقت قصير...أعدكِ بعد نجاحي فيها أن أنفذ لكِ ما ترغبين به!!!

هنا...ضحكت هي ضحكة قصيرة ساخرة ابتلعت معها ما تبقى من دموعها لتهتف بعدها بتهكم:

_انتخابات؟!!

عقد عاصي حاجبيه بغضب هو الآخر...

ورغم أن الأمور إلى الآن تصب في صالحه لكنه كان يتألم بحق لأجلها...

بعد كل سنوات الحرمان هذه هي لا تستحق أن يكون لها أبٌ كهذا...

يؤجل فرحته بها لأجل أمر تافه كهذا!!!

بينما اكتست ملامح جاسم بخزي لم يستطع مداراته عندما أردفت ماسة بنفس التهكم المرير:

_وبعد نجاحك في الانتخابات؟!!ألا تخاف أن تؤثر فضيحةٌ كهذه على منصبك؟!!تفاصيل أمرٍ كهذا لن تخفى على الصحف والإعلام...ساعتها ستكون "اللقيطة والسياسي" قضية الموسم!!!

ورغم يقينه من صحة ما تقول لكنه قال مكابراً:

_لا تقلقي....وقتها سأعرف كيف أتدبر الأمر.

أشاحت بوجهها في عدم اقتناع فزفر جاسم بقوة عندما رن هاتفه باتصال هام من جهة سيادية عليا جعل وجهه يشحب أكثر وهو يفتح الاتصال بتوتر ليتلقى الكلمات المقتضبة...

ثم أغلقه ليقول لها بسرعة:

_أنا مضطرٌ للانصراف الآن...عذراً!!

فالتفتت نحوه ماسة لتهتف بنفس النبرة الساخرة:

_كان الله في العون يا سيدي!!!

نظر إليها جاسم نظرة آسفة طويلة ثم اقترب منها أكثر وهو يتمنى لو يضمها الآن بين ذراعيه ...

لكنه كان يشعر بقوة هذا الحاجز الذي لايزال يقف بينه وبين ابنته...

لهذا اكتفى بأن يمد لها يده مصافحاً فخفضت بصرها إلى أنامله المرتجفة بحسرة خائبة...

دون أن تمد إليه كفها...

وخزت نظرتها قلبه بحق فغمغم بصوت متهدج:

_ألن تصافحيني حتى يا ابنتي؟!!

رفعت إليه عينيها اللتين غامتا بمرارتها وهي تقول بصلابة:

_لا ابنة لديك هنا يا سيد جاسم حتى تنتهي انتخاباتك...

ثم أشاحت بوجهها مردفة:

_وأنا لا أصافح الغرباء!!!

عقد حاجبيه بغضب مشوب بخزيه وهو يشعر بالضيق...

ورغم تحرجه مما قالته أمام عاصي لكن جزءاً -أبوياً- بداخله كان يشعر بالارتياح وهو يراها ملتصقة به هكذا تستمد منه دعمها...

نعم.. يبدو أن ما قاله فهد عن عاصي الرفاعي لم يكن صحيحاً تماماً...

نظرته الثاقبة أخبرته بوضوح أن هذا الرجل يجيد حقاً الاعتناء بابنته...

أو -ربما- هذا هو ما حاولت -بقايا ضميره- أن تغرسه في يقينه حتى يتركها ويرحل...!!!

فرمقها بنظرة طويلة ثم انسحب مغادراً بخطواتٍ سريعة ليلحقه حارساه بالخارج ....

ظلت ماسة تراقب ظهره المنصرف بحسرة غارقة في ألمها وهي تحاول التماسك قدر ما استطاعت...

حتى اختفى تماماً عن ناظريها فانهارت أخيراً في بكاء هستيري وقلبها يئنّ بين ضلوعها بيأس...

يأس جثم على صدرها كجبلٍ و جعل أنفاسها تتلاحق بسرعة وكأنها تختنق...

طوقها عاصي بذراعيه بقوة وهو يربت على ظهرها بقلق مع همسه المذبوح لأجلها:

_اهدئي يا ماسة!!!اهدئي!!!

لكنها رفعت إليه وجهها المحتقن لتهمس بصعوبة بين أنفاسها المتلاحقة:

_لا ...أستطيع ...التنفس!!!أنا ...أختنق!!!

اتسعت عيناه بذعر للحظة ثم صرخ منادياً أحد الخدم ليحضر لها "بخاخ الأنف" الخاص بها بسرعة...

ورغم أنها تحسنت كثيراً بعده بوقت قصير...

لكنها عادت تهمس بصوت متقطع:

_أريد الخروج من هذا القصر..أشعر أن هذا المكان يخنقني!!!

ربت على وجنتها برفق ولازال خوفه عليها يعتصر قلبه ثم أحاط كتفها بذراعه ليخرج بها إلى المركب القريب...

وهناك استندت هي على سياجه لتأخذ أنفاساً عميقة متتالية...

كل شهيقٍ كان يجذبها قسراً لإحدى خسارات حياتها الطويلة...

لكن كل زفير كان يخرج من صدرها كانت تطرد معه أي شعور باليأس...

لن تنكسر...

لن تنهزم...

رأسها سيبقى مرفوعاً مهما علت أمواج الخطوب...!

وجوارها كان هو يحتضن خصرها بذراعه ليضمها إليه بقوة وقد احترم صمتها للحظات شعر فيها بحاجتها لأن تركن لنفسها فقط...

ثم همس أخيراً بحنان اصطبغ بعاطفته:

_أنتِ بخير الآن؟!!

أومأت برأسها في شرود وهي ترقب السماء التي خلت الآن من نجومها تماماً....

فقط كان القمر وحده هناك تحيطه غيومٌ لم تخفِه تماماً ...

فبدا خلفها كسجينٍ يرغب في الفرار...!!!

لتجد نفسها تهمس دون وعي:

_القمر وحيد هذه الليلة!

رفع عينيه إلى السماء ليدرك ما تخفيه خلف عبارتها ....

فاختنق قلبه بغصة قلقه عليها أكثر...

شدد ضغط ساعده على خصرها وهو يهمس بحنانه -الخاص بها-:

_تكلمي يا ماسة...أنا أسمعك.

التوت شفتاها بابتسامة مريرة ولازالت تحدق في القمر لتغمغم بشرود:

_وهل هناك كلامٌ يقال؟!!

مال على رأسها يقبله بعمق فاستدارت نحوه لتدفن وجهها في كتفه للحظات طالت...

قبل أن تهمس بألم:

_هل تدري كم مرة حلمت بهذا اللقاء؟!!كم مرة تخيلت شكل والدي؟!!ربما عوضتني رحمة عن حنان الأم لكن رغبتي في والد حنون لم تغادر قلبي يوماً...كل مرة كان يغضبني فيها أحدهم كنت أهرع إلى غرفتي فأغلق بابها خلفي وأقف أمام مرآتي أحدثه...أشكو إليه ممن ظلمني...أتخيل رده الحنون...حضنه الدافئ...ردوده العاقلة...

ثم رفعت عينيها الدامعتين إليه لتردف:

_هل تدرك قسوة كلمة "ابنة حرام" على قلبي؟!!

ربت على ظهرها برفق وشفتاه تنسابان على جبينها بعاطفة لا يجيد التعبير عنها إلا هكذا...

فأكملت نزيف روحها الكسيرة:

_لم يعيرني بها أحد من أهل الحي...لكنني كنت أقرأها في عيونهم...في حرص رحمة المبالغ فيه على التزامي بالتحشم وعدم الخلطة...كم مرة كنت أنظر إلى اسمي الرسمي المزيف الذي حوته أوراقي لأتلمسه بأصابعي ...وأتخيل لو تشكل بشراً من لحم ودم...لو أستعيد حقي الطبيعي في الشعور بهويتي.

مسح دموعها بأنامله وشموسه الزيتونية تفيضان عليها بأشعة عاطفتها الهادرة...

فأغمضت عينيها لتتأوه بقوة ثم همست بألم:

_واليوم تأكدت أنني "ابنة حلال"...اليوم عرفت هوية أبي...وليتني ما عرفت...لم أكن أريد جاسم الصاوي بكل ماله ونفوذه ...كنت أريد رجلاً بسيطاً يضمني لحضنه وينسى العالم أول ما يراني...لا رجلاً يتركني بمجرد مصافحة ليهرع خلف مكالمة هاتفية!!!

اعتصر الألم قلبه وهو يراها أمامه كسيرة هكذا...

كم يود في هذه اللحظة لو يعاقب جاسم هذا على ما فعله بها...

لكن لماذا يلومه؟!!!

وهو فعل مثله يوماً وربما أكثر...

صحيحٌ أنه ندم على فعلته...لكن من قال أن الندم وحده يكفي؟!!!

بعض الخطايا كالنقش على الحجر لا يفنيها الدهر مهما مرّ!!!

لهذا تنهد بحرارة وهو يلامس وجنتيها بأنامله هامساً بنبرة غريبة:

_لا تتحاملي عليه كثيراً...ربما هو يتألم أكثر منكِ...ندمه يحرقه بذنب لن تطفئ نيرانه توبة!!!

فتحت عينيها ببطء وهي تفهم ما يعنيه - كاملاً-فتلتمع أمواجها الفضية بحسرتها على نفسها...

وعليه قبلها!!!

فيما أردف وهو يميل بوجهه على وجهها أكثر :

_أعرف أنكِ تحملتِ كثيراً..لكنني أثق بقدرتك على النهوض من عثرتك ككل مرة!!

أومأت برأسها دون رد فضم رأسها يخفيه في صدره وأنامله تتخلل شعرها بحركته التي صارت إدمانها هي الخاص...

لتتوه بعدها في دوامات من ذكريات تشابكت بعقلها كخيوط عنكبوت....

بعضها بعيدة ...وبعضها قريبة...

لكنها كانت ترتشف منها قوةً تحتاج التحلي بها في هذا الوقت بالذات....

حتى غمغمت أخيراً بشرود ولازالت تسند جبينها على صدره:

___غنّي دوماً يا ماسة...لا تكفّي يوماً عن الغناء...غنّي وأنتِ تطيرين فرحاً...غنّي وأنتِ تذوبين حزناً...غنّي وأنتِ تشعين قوة...غنّي وأنتِ تئنين ضعفاً..غنّي ولو خذلك صوتكِ وضاعت منكِ الألحان...لو هجرتِ الغناء ستموتين ...نعم...ستموتين حتي لو خدعتِ الجميع بأنفاس صدرك الرتيبة التي تدّعي الحياة...لكنكِ وقتها

ستكونين الشاهد الوحيد علي أشلاء روحك الممزقة بداخلك...فإياكِ أن تفعلي هذا بنفسك!!

قالتها وكأنها تسترجع نصاً تحفظه عن ظهر قلب...!!!!

فابتسم بحنان جارف وهو يهمس بتأثر:

_أنتِ تحفظينها كما قلتها...لم أكن أعلم أن كلماتي وقتها أثرت فيكِ هكذا!!

صمتت طويلاً دون رد...

لكنها كانت تعلم في قرارة نفسها أن نصيحته هذه ستبقى محفورةً على جدران قلبها طوال حياتها...

حتى ولو لم يكن معها!!!

بينما ربت هو على رأسها ليهمس متسائلاً :

_تريدين الغناء؟!!

لم ينله منها سوى صمتٍ آخر طويل تقبله متفهماً...

قبل أن تبدأ هي في همهمة خافتة بلحنٍ شجي...

وبصوت خفيضٍ جداً...يكاد لا يُسمَع ...كانت تغني...

زمان...

زمان وأنا صغير...

كنت بحلم أبقى كبير...

تعب القلب واتحير...

م الدنيا و م المشاوير....

الحلم.. كان برئ ..مليان بالورود...

والقلب ..كان جرئ ..مليان بالوعود...

ولما كبرت قلت ياريت...

ما كنت حلمت ولا اتمنيت...

قلت ياريتني فضلت صغير..

زي زمان...

وحلمت زمان ببيت...

وبقلب يكون معايا...

و م الأحلام صحيت...

على جرح مالوش نهاية...

وداريت...

داريت...

الجرح في قلبي داريت...

ولقيت الكون كله بيتغير...

قلت ياريتني فضلت صغير...

أنا من صغر سني...

حاسس بشئ جوايا...

وحلمت زمان أغني...

والكون يسمع غنايا...

غنيت..

غنيت...

وفي وسط الغنوة بكيت...

ولقيت العمر يا دنيا قصير...

قلت ياريتني فضلت صغير!!!

كانت الكلمات موجعة بحق لكليهما معاً...

صوتها الشجي المختنق بغصته كان يشاطره الإحساس بمعاني كلماتها التي ذاب فيها بكليته هو الآخر...

فاعتصرها بين ذراعيه وكأنه يتجرع معها نفس الكأس...

نفس الجرح...

نفس الخيبة...

نفس العجز...

وإن كان تحت قناع متقن ل"شيطان"....

=========================

الفصل السادس والعشرون

_يسرا!!!

همس بها فهد بضيق وهو يراها واقفة أمام سيارتها على بعد خطوات منه...

تراها كانت تتبعه طوال تلك المسافة الطويلة؟!!

والإجابة جاءته منها وهي تتقدم نحوه لتهتف بذهول مشتعل بالغضب:

_طوال الطريق وأنا أكذب عيني!!لا أكاد أصدق أنك تركتني لتقيم هنا مع صديقك!!

كانت قد ذهبت إلى شركة جاسم الصاوي لتسأله عن فهد بعدما لاحظت تهرب جاسم من الرد على اتصالاتها الهاتفية...

لكنها فوجئت بفهد نفسه يخرج من الشركة ليستقل سيارته...

فتبعته إلى هنا وهي تتساءل طوال الطريق الطويل الذي استغرق بضع ساعات عما يمكن أن يكون وراء اختفائه الغريب هذا...

لكنها ما كادت تتبين المدينة حتى قفز اسم زوجها السابق لذهنها...

حسام القاضي!!!

معقول؟!!

هل اختفى فهد عنده طوال هذه الأيام؟!!

لماذا؟!!

وكيف؟!!

وإلى متى كان ينتوي الاستمرار في هذا العبث؟!!!

ألم يتذكرها ولو حتى بمجرد مكالمة هاتفية؟!!

أم أن الأمر كله مخطط؟!!

وعند خاطرها الأخير التهبت جميع خلاياها برغبة في الانتقام تنافس رغبتها في الصراخ بكل قوة!!!!

بينما انعقد حاجباه هو بغضب وهو يحاول كظم غيظه ما استطاع!!!

كيف نسي أن يطلقها بعد كل ما حدث؟!!

لكن الحقيقة أنه نسيها هي -نفسها- تماماً !!!

صدمته بموت جنة ثم ظهور ماسة جعلت رأسه يدور في دوامات لا متناهية من حزنه وحيرته...

لكن لا بأس...

هذا خطأ يسهل إصلاحه...

ب"كلمة"!!!

لكنها قطعت أفكاره وهي تلوح بذراعيها مردفةً بهياج هستيري:

_هل هذه خطتك مع حسام الحقير؟!!هل هي مؤامرتكما لتدميري؟!!تظنان أنكما ستنالان مني؟!!

تلفت حوله بضيق وهو يرى كيف اجتذب صياحها المارة والجيران...

فجذبها من مرفقها نحو المدخل ليغلق الباب خلفه مع مقاومتها العنيفة له وسط صراخها:

_كلاب!!كلكم كلاب!!!لكنني لن أسكت!!سأخفيكم خلف الشمس!!!لست أنا من تلعبون بها هذه اللعبة الدنيئة!!!سأدمركم ...سأدمركم كلكم!!!

كان حديثهامتزامناً مع ضربات عشوائية بكفيها له على كتفه ...

بينما زاد صراخها الهستيري من غضبه وإرهاقه فأمسك ذراعيها بعنف ليلصقها بالجدار خلفها مقيداً حركتها وهو يهتف بانفعال:

_اهدئي يا مجنونة!!!كلها خيالات مريضة برأسك!!!

لكنها كانت تهز رأسها بانفعال مبالغ فيه وكأنها ممسوسة...

جسدها كله كان ينتفض بانفعالها المحموم وتأثير "قرصها السحري" كان قد تلاشى...

وبالطبع كانت خلاياها كلها تئن بحاجتها إليه لكن الحقيبة كانت في سيارتها ...

لهذا دفعته بعنف لتفتح الباب وتندفع نحو سيارتها ...

وقف مكانه متردداً للحظة في أن يتبعها لكنه حسم تردده سريعاً وقد غلبه قلقه على تلك "المجنونة" التي قد تؤذي نفسها بأي حركة تهور...

فلحق بها بدوره ليستقل سيارتها جوارها عندما لاحظ ارتعاش أناملها الشديد وهي تتناول من حقيبتها شريط أقراص أدرك ب-سابق خبرته-ماهيته ومفعوله!!!

فاختطفه من يدها ليهتف بحنق:

_مخدرات؟!!هل وصلتِ لهذه الدرجة؟!!

لكنها صرخت به بجنون وهي تحاول انتزاع الشريط منه:

_لا شأن لك بي!!!هاتِه حالاً وإلا قتلتك!!!

رفع شريط الأقراص بعيداً عن متناول يديها لكنها كانت تقاتله بعنف لتحصل عليه هاتفة :

_دعني وانزل من السيارة ...انزل!!

لكن قلقه كان يتزايد مع تصاعد وتيرة انفعالها الذي أكد ظنونه بخصوص هذه الأقراص ...

فهتف هو الآخر بانفعال:

_لن أتركك في هذه الحالة!!!

ولما يأست من مقاومته صرخت صرخة هستيرية أخيرة وهي تستدير بجسدها لتشغل السيارة ...

قبل أن تهتف بجنون:

_حسناً!!!لا تريد أن تتركني؟!!!فلتذهب معي إذن إلى الجحيم!!!

قالتها وهي تنطلق بالسيارة بأقصى سرعتها فمد يده يحاول السيطرة على المقود وقد أنبأه حدسه بما تنتويه لكنها تشبثت به بدورها وقد فقدت سلطتها تماماً على عقلها المشوش...

فاستمر الصراع بينهما على القيادة لبضع دقائق فقد فيها اتزانه بفعل توتره....

قبل أن ينتهي بهما الأمر باصطدام السيارة بإحدى السيارات الأخرى بقوة مقلقة جعلت رأسها يصطدم بالمقود قبل أن تفقد وعيها بعدها تماماً....

===================

_أنت زوجها؟!

قالها الطبيب لفهد في المشفى الذي انتقلا إليه بعد الحادث فأومأ فهد برأسه إيجاباً وهو يتطلع بقلق لجسدها المسجى على الفراش وقد أحاطت رأسها المستلقى على الوسادة ضمادة كبيرة...

فخفق قلبه لها بعطف وقد أثار المشهد ذكرى أخرى له مع- جنته -المفقودة...

لكنه ازدرد ريقه ببطء مبتلعاً غصته وهو يقول للطبيب بحذر:

_ماذا بها؟!

عدّل الطبيب نظارته بارتباك ثم قال بحرج:

_جرح رأسها بسيط...لكن التحاليل التي أجرتها أثبتت وجود مواد مخدرة بالدم...الأمر قد يخضع لتحقيق رسمي!

عقد فهد حاجبيه بضيق ثم قال بحزم محاولاً تدارك الموقف:

_أنا فهد جاسم الصاوي وهي يسرا رفعت الصباحي!!لا أحتاج لإخبارك بما يفترض عليك فعله!!!

قالها وهو يشعر بالضيق لأنه اضطر لاستغلال منصبي والديهما لكنه لم يجد حلاً أفضل لتدارك هذه الفضيحة ولو مؤقتاً....

فازداد ارتباك الطبيب وهو يغمغم بمداهنة:

_لا تقلق يا سيدي**!**أعدكِ بتسوية هذه المسألة**!**

لكن فهد اقترب منه أكثر ليقول بنبرة أكثر صرامة:

_الأمر سريٌ تماماً..لن يعرف عنه أي أحد**!**

أومأ الطبيب برأسه في طاعة فأردف فهد :

_ولا حتى والدها سيادة اللواء.

غمغم الطبيب بموافقة قاطعة ثم غادره مسرعاً...

فتنهد فهد بحرارة ثم عاد ليجلس جوارها على طرف الفراش متأملاً ملامحها الساكنة...

وقد بدت له الآن في أضعف حالاتها بعيدة تماماً عن تلك المتنمرة المستفزة التي طالما احتك بها...

ظل يرقب وجهها لوقت قصير وهو يشعر ببعض الذنب نحوها ...

خاصةً عندما بدأت تسترد بعض وعيها لتهذي بلا توقف:

_كلاب...خونة...كلهم نسخة منه...كلهم "رفعت الصباحي".

كانت تكررها بلا توقف ورأسها يهتز يمنةً ويسرى حتى بدت وكأنها تختنق بهمساتها...

فانعقد حاجباه بإدراك وهو يرى هذا الوجه منها لأول مرة...

هل تكره يسرا أباها؟!!

هل هي حانقة عليه كما هو حانق على أبيه؟!!

عجباً!!!

لقد كان يظنها دوماً راضية متفاخرة بنسبها !!!

لكنها قطعت أفكاره عندما عادت لهذيانها الذي صاحبته دموعها هذه المرة :

_أمي...أمي...أريد أمي...لماذا رحلت وتركتني؟!!أمي...

ففاض قلبه بالعطف وهو يربت على كتفها دون كلمات...

لقد تشقق القناع عن وجه "الشقراء المتعالية" أخيراً لتبدو تحته على حقيقتها...

مجرد طفلة ضالة!!

بل ربما "ماسة" مدفونة في "الوحل" تنتظر فقط أن يكتشفها أحدهم ليطهرها من دنسها فيسمح لبريقها بالتوهج تحت شمس سماء "نقية"...

بعيدة تماماً عن هذا المستنقع "الآسن" الذي تعيش فيه...

نعم...لقد تعلم من "جنته" أن بداخل كل امرئ ماسةً وشيطاناً يتصارعان...

ومصيره مرهونٌ دوماً بنتيجة هذا الصراع...

لكن...هل يصلح هو لهذا الدور؟!!

وكيف يفعل؟!!

إنه الآن يتنفس الصعداء لأنه تخلص من كل ما يربطه بعالم جاسم الصاوي...

ولن يعود إليه أبداً!!!

فكيف يساعد هذه البائسة التي تغرق ب"ثقل أوزارها" المربوط في قدميها...

بل إنه -ربما- لو مد إليها يداً منقذة فسيغرقان معاً!!!!

انقطعت أفكاره عندما شعر بحركة غريبة في الخارج ...

تبعتها همهمات عالية قبل أن يميز الحرس الخاص ب"سيادة اللواء" الذي ظهر في الصورة أخيراً ليدلف إلى داخل الغرفة هاتفاً بنبرته المتسلطة:

_ما الأمر يا فهد؟!!ماذا تفعلان هنا؟!!

قام فهد واقفاً ليصافحه ثم قال بأقصى ما استطاعه من هدوء:

_لا تقلق يا سيادة "اللواء"...مجرد حادث بسيط!

رمقها رفعت بنظرة قلق عابرة قبل أن يتلفت حوله هاتفاً بصرامة:

_هذا المكان لا يليق بها!!!سأنقلها إلى العاصمة!

لكن فهد خشي من افتضاح الأمر فهتف بسرعة:

_لا داعي يا عمي...الأمر بسيط...هي ستخرج اليوم!

نظر إليه رفعت بتفحص ثم سأله بنفس اللهجة الصارمة:

_أين كنت مختفياً طوال الفترة السابقة؟!!ولماذا جئتما إلى هنا؟!

صمت فهد للحظة مفكراً وشئ من الحيرة يغزوه...

هاجسٌ عظيم بداخله يدفعه للتخلص من هذه الزيجة الآن والمبرر موجود...

فالعروس المصون مدمنة للمخدرات ولن يلومه أحد لو رغب في تطليقها...

مجرد "بضاعة فاسدة" سيردها لصاحبها!!!!

لكن نبضاً ضعيفاً بداخله كان يحضه على مساعدتها للخروج من أزمتها...

للقيام بنفس الدور الذي قامت به جنة معه...

لعله عندما ينقذها يجد نفسه هو الآخر ك"فهد".... لا ك"ابن الصاوي"!!!!

ويبدو أن الغلبة كانت لشعوره الأخير ...فقد ابتسم بدبلوماسية ليقول بلهجة مقنعة اكتسبها من طول العمل مع أبيه:

_للأسف انشغلت بمشروع جديد ولهذا أردت تعويض يسرا ب"شهر عسل" هنا!

عقد رفعت حاجبيه بتشكك وهو يقول بنبرة مستنكرة:

_هنا؟!!ألم تجد سوى هذه المدينة؟!!

ضحك فهد بتكلف وهو يقول بنفس النبرة:

_هي رغبة يسرا يا عمي...لقد قالت أنها تريد بدء الرحلة من هنا من باب التغيير.

كان يعلم أنه يقامر بهذه الكذبة لكنه كان يراهن على ما يعرفه من تباعد العلاقة بين الأب وابنته...

لهذا لم يتعجب كثيراً عندما قال رفعت أخيراً بنفاد صبر:

_حسناً...هل ذكروا متى ستفيق ؟!!

التفت فهد نحوها ليلاحظ تململ جسدها فاقترب منها ليبادرها بقوله :

_يسرا!هل أفقتِ؟!!

فتحت عينيها ببطء وهي تتلفت حولها بدهشة أول الأمر...

قبل أن تنتبه لوجود والدها فارتعشت نظراتها ببعض الخوف قبل أن تعود ببصرها نحو فهد الذي ربت على كفها مطمئناً...

قبل أن يقول لها برفق:

_لا تقلقي...مجرد حادث بسيط .

ثم غمزها غمزة خفيفة ليردف:

_أنا أخبرت "سيادة اللواء" أننا سنبدأ نزهتنا من هنا كما كنتِ تريدين.

نظرت إليه بتشتت حقيقي وهي تشعر برأسها يكاد ينفجر من الألم...

لكن شعورها بالخوف من أن يكتشف والدها حقيقة إدمانها غلبها أكثر...

لهذا اكتفت بالصمت بينما اقترب منها رفعت بخطواته الثابتة ليقول بنبرته الصارمة:

_انتبهي لصحتكِ يا فتاة!لا تقودي السيارة برعونتك المعهودة وإلا سحبتها منك!

ثم قبل جبينها قبلة روتينية جامدة قبل أن يقول بلهجة عملية:

_حمداً لله على سلامتك...استمتعا بوقتكما!

ثم صافح فهد بقوة قبل أن يتخذ طريقه للمغادرة مع حرسه الخاص...

راقبت يسرا حركاته المنصرفة بترقب حتى اطمأنت لرحيله تماماً...

فالتفتت نحو فهد لتسأله بانزعاج:

_هل علم؟!

هز فهد رأسه نفياً فتنهدت بارتياح ....

ثم انخرطت فجأة في بكاء عنيف جعله يقترب منها أكثر ليهمس لها برفق:

_أولاً وقبل أي شئ يجب أن تخضعي لعلاج من هذا السم الذي أدخلتِه لجسدكِ طواعية!

بدت أنها لم تسمعه للحظات قبل أن تئن بخفوت أنّاتٍ متألمة مع همسها المتقطع:

_لم أكن أظن الأمر سيصل لهذه الدرجة....هذه الأقراص كانت تريحني...وكنت أضمن أنها ستكون دوماً متوفرة.

ثم استعادت بعض تنمرها لتعود هاتفةً بحدة:

_ثم ما شأنك أنت بي؟!!ألم تكن تنتوي تدميري بمؤامرتك مع صديقك؟!!لكنني لن أسكت سأ...

_يسرا!

هتف بها مقاطعاً سيل عباراتها الغاضب ثم زفر بقوة قبل أن يردف بحزم مشوب بالأسف:

_أعلم أنني ظلمتكِ يوم أدخلتك في حسابات لا تخصك...لكن الأمر لم يكن بيدي...

رمقته بنظرة متسائلة وقد غلب فضولها ألمها...

فأكمل بنبرات مختنقة وقد عاودته -ذكراها -المهلكة:

_زواجنا كان مقايضة أمام حياة أغلى انسانة في دنيايَ كلها!

اتسعت عيناها بذهول مع هذه العاطفة التي انسابت كالسيل بين حدقتيه وهو يروي لها باقتضاب حكايته مع جنة...

وكيف أجبره والده على هذه الزيجة بتهديده له بقتلها...

الأمر الذي فعله أخيراً على أي حال!!!

فشهقت بارتياع وهي تضع كفها على شفتيها للحظات...

قبل أن تهمس مصدومة:

_قتلها؟!

أشاح بوجهه أخيراً يخفي ضعف رجولته بدمعه قبل أن يجيبها بتماسك:

_هو لم يرَها أكثر من حجر عثرة في طريقه...أزاحه ببساطة ليعبر نحو هدفه .

تأملته للحظات بمشاعر متباينة ما بين غيرة وإشفاق قبل أن تسأله بفضول هزم كبرياءها:

_لماذا أحببتها إلى هذا الحد؟!ما الذي جذب فهد الصاوي بمكانته ومغامراته لامرأة مثلها حتى يتنازل طواعية عن كل شئ لأجلها؟!

شرد ببصره للحظات مستعيداً ذكرياته العامرة معها ثم همس بعاطفة لم يتمكن من إخفائها:

_كلنا "نعيش" لكن القليل من يحيا حياة حقيقية...هي علمتني كيف يكون للعمر معنىً وهدف...كيف أحترم نفسي عندما أقهر شيطاني...هي كانت "جنة" حقيقية وسط جحيم عالم مستعر بخطاياه...

فمسحت دموع عينيها لتهمس بلهجة امرأة خاسرة:

_هل كانت فاتنة إلى هذا الحد؟!

أفاق من شروده ليبتسم ساخراً قبل أن يقول بيقين:

_تظنين رجلاً مثلي يفقد عقله لأجل جمال امرأة؟!!ربما كنت هكذا قبلها...لكنني معها تعلمت أن جمال المرأة ينبع من روحها...

ثم أردف بصوت متهدج:

_وروحها بالذات احتكرت جمال الأرواح كلها.

عادت برأسها للوراء وهي تشعر بأنها عالقة في متاهات من مشاعر صاخبة....

الآن فهمت سر تباعده الغريب عنها منذ عرفها...

ولماذا لم يتأثر بفتنتها كغيره...

قلبه كان مزدحماً بزهور حب لم تسمح لها بموطئ قدم!!!

لا تدري- بعد ما صارحها به -هل تسخط أم تشفق عليه؟!!

هل تلعنه أم تواسيه؟!!

هل غدر بها أم غُدر به؟!!

كم تود الآن بالصراخ...

صرخة طويلة...

بل ...صرخات !!!

تريد أن تنسى كل ما سمعته ...

لا...بل تتذكره...!!!!

تنقشه نقشاً على جدران روحها الخربة حتى تعمر بالأمل...

أن تستعيد لذاتها التي فقدت الإحساس بها...

أن تجد معنىً لحياتها الفارغة...

أن تكون مثل "جنة" لعلها تكسب قلباً كقلب "فهد" يبيع لأجلها الدنيا وما فيها!!!

ورغم مرارة شعورها الآن بالغيرة والخسارة...

لكن قبساً من نور تسرب ليضئ جنبات روحها برغبة حقيقية في التغيير...

لماذا الآن بالذات؟!!

وهل ينقلب حال المرء هكذا في لحظة؟!!

ربما...

ربما هو شعورها بأنها كادت تفقد حياتها في لحظة طيش؟!!

ربما هو خوفها -الذي جاء متأخراً- من نتيجة إدمانها ...

ليس فقط من غضب والدها لكن ..حسرة والدتها عليها؟!!

وربما هي صدمتها الأخيرة بفهد و"جنته" التي جعلتها تدرك أي عبثٍ كانت تحياه وهي غافلة؟!!

وربما...

هوكل هذا!!

ماذا يضيرها لو جربت هذه المرة أن تركض خيولها الجامحة في فضاء "الأبيض" ؟!!

ألم تكتفِ بما نالها من "دنس" السواد؟!!

فلتكن "مغامرة" كغيرها لعل الأمر يستحق المجازفة هذه المرة!!!

لكنه قطع أفكارها عندما قال لها بحزم:

_هل تريدين أن أساعدكِ لتتجاوزي هذه المحنة وتحظيْ ببداية جديدة دون علم والدك؟!!أم تريدين الاستسلام لما كنتِ منغمسةً فيه؟!

رفعت إليه عينيها بتردد وقد ضاعت كلماتها في صحراء حيرتها...

فاقترب بوجهه منها ليحتكر نظراتها مردفاً بحسم:

_لن أستطيع أن أمنحكِ مشاعر زوج لزوجته...ولن أكون ابن جاسم الصاوي بماله ونفوذه...سأعيش حياتي التي اخترتها ك"فهد" وفقط...لكنني قد أمنحكِ مساعدتي لتتجاوزي أزمتكِ هذه...وبهذا أكون قد كفرت عن ذنبي تجاهك...هذا هو عرضي كاملاً فهل تقبلينه؟!!

أغمضت عينيها في استسلام للحظات كان هو فيها ينتظر ردها بترقب...

هو لن يفكر فيها يوماً كامرأة فقد ماتت بعينيه كل النساء يوم فقد جنته...

لكنه فقط يريد بحق أن يساعدها...

قربانٌ آخر لغرام "الأستاذة" التي علمته كيف تكون الرجولة وكيف يكون الشرف...

لهذا ابتسم بارتياح حقيقي عندما فتحت عينيها أخيراً لتومئ برأسها موافقة مع همسها:

_أنا أقبل!

=============

_يا لخيبتكِ!!!تعنين أنه لم يبتْ ليلته هنا؟!!!

هتفت بها هيام بغيظ وهي تستمع من عزة لما حدث بالأمس...

فغمغمت عزة بضيق:

_نعم!!ظللت أنتظره حتى مللت وعندما خرجت لأبحث عنه لم أجده بالخارج!!!

كزت هيام على أسنانها وهي تهتف بغضب:

_ماذا تفعل هذه الفتاة من خلف ظهورنا؟!!!اتراها تذهب لأحد السحرة كي تضمن تشبثه بها؟!!

أشاحت عزة بوجهها في ضيق مع غمغمتها الحانقة:

_أي سحر يا هيام؟!!هي فتاة متعلمة ولن تلجأ لهذه الخرافات؟!!

وكزتها هيام في كتفها وهي تهتف بغيظ أكبر:

_خرافات؟!!ألم أقل لكِ أنك حمقاء؟!!كيف تفسرين إذن حب حماتي الشديد لها بعدما كانت لا تطيقها ؟!!كيف تبررين أن يتركك زوجك ليلة زفافك ليهرع إليها؟!!

زفرت عزة بضيق ثم قالت بنبرة قانطة:

_لم أكن مقتنعة بهذه الزيجة من البداية..ما الذي يدفعني لأن أكون زوجة ثانية لرجلٍ تزوجني فقط من باب الشهامة؟!!

فاحتقن وجه هيام وهي تهتف بانفعال:

_ظروفك يا حمقاء!!!هل تظنين أنكِ كنتِ تملكين حق الاختيار؟!!خطيبك السابق لوث سمعتك في كل

مكان...وأنتِ تعلمين كيف تسريِ هذه الأحاديث بين الناس كالنار في الهشيم!!

أجهشت عزة في البكاء فجأة ثم انهارت جالسةً على فراشها ...

فتنهدت هيام بحرارة ثم جلست جوارها لتضمها لصدرها هامسة بنبرة أكثر رفقاً:

_لقد كدت أطير فرحاً عندما طلبك راغب للزواج ..راغب رجل حقيقي سيتقي الله فيكِ.

فرفعت إليها عزة عينيها لتهتف بين دموعها:

_وكيف يفعل وهو يعشق امرأته الأولى بهذه الصورة؟!!!لقد تركني من أول ليلة!!!

فعاد الغضب يكسو ملامح هيام التي هتفت باندفاع:

_لا تكوني ضعيفة هكذا!!!أنا سأجعلها تدفع ثمن دموعك هذه في ليلة عمرك!!لن أكون هيام لو لم أخلع قدميها من هذا البيت!!!

لكن عزة مسحت دموعها لتهتف بسرعة:

_أنا لا أتحامل عليها...أنا التي تعديت على حياتها مع زوجها...بل إنني حتى الآن لا أفهم كيف رضيت هي عن زواجه الثاني بهذه السرعة بل وحضرت الزفاف أيضاً؟!!

عقدت هيام حاجبيها بشك وهي تفكر في هذا الأمر...

حال راغب مع رؤى غريب حقاً...

أحواله معها ليست طبيعية...

لو كان حقاً يحبها بهذه الصورة فلماذا تزوج عليها؟!!

مروءة؟!!

لا ...لن يقنعها هذا التفسير الساذج رغم ملاءمته لشهامة راغب...

لكن حتى لو كان الأمر هكذا معه هو فلماذا وافقت رؤى على هذا؟!!

ما الذي يجبرها على هذا الوضع المهين؟!!

هناك سرٌ ما في الأمر!!!

ولن تهدأ حتى تعرفه!!!

لكن عزة قطعت أفكارها وهي تقول أخيراً بأسى:

_دعكِ من هذا كله فأنا أعلم أنني قليلة الحظ دوماً...أخبريني لماذا جئتِ باكراً هكذا؟!!

هنا أفاقت هيام من شرودها لتهب واقفةً مع شهقتها...

قبل أن تهتف بانفعال:

_يالحماقتي!!!لقد نسيت...الحاجة مريضة وقد جئت لأخبر راغب!!!

فشحب وجه عزة وهي تهتف بدورها:

_وتضيعين الوقت في الحديث يا هيام؟!!!اذهبي وأخبريه بسرعة!!!

تركتها هيام بخطوات مندفعة لتغادر نحو شقة رؤى بالأسفل...

فيما وقفت عزة مكانها حائرة لا تدري ماذا تفعل...

وما هو دورها الحقيقي هنا؟!!

هي لم تكن تطمح بالكثير...

فقط أرادت "الستر" كبقية الفتيات...

أرادت أن تؤويها جدرانٌ آمنة تخفيها عن أعين الطامعين...

هي لم تختر راغب...

وكذلك لم تختر خطيبها السابق...

كل ما كان يعنيها في الأمر أن تجد "رجلاً" يمنحها الأمان وهي اليتيمة التي ليس لها أحد!!!

لهذا لم تتردد في الموافقة على راغب رغم علمها أنها ستكون زوجة ثانية...

فمع الإشاعات الحقيرة التي بث سمومها خطيبها السابق بين ألسنة أهل الحي لم يكن لديها خيارٌ أفضل...

والآن تجد نفسها منبوذة من أول ليلة وكأنها مجرد واجب ثقيل أداه زوجها مجبوراً...

فهل تلومه؟!!

أم تلوم نفسها التي دفعتها لهذا المصير؟!!

أم تلوم هذا المجتمع الذي خاض في شرفها بالباطل لمجرد أنها يتيمة وتقيم وحدها؟!!

ثم تنهدت بحرارة وهي تتلمس نعومة "روبها" الحريري الأبيض الذي احتضن جسدها لتهمس بابتسامة مريرة:

_يالهامن بداية ل"حلم العمر"!!!

=============

فتح عينيه ليجدها نائمة على صدره فابتسم بحب وهو يظنه حلماً أول الأمر...

حتى استعاد كامل إدراكه بعدها ليتذكر كل أحداث الليلة الماضية...

فتنهد بحرارة وقلبه يوخزه ألماً على تلك المستكينة بين ذراعيه...

ثم دارت عيناه على جسدها الذي هدأت جروحه نوعاً وإن كان أثرها باقياً -على قلبه -قبل بشرتها!!

فازدرد ريقه ببطء وهو يقاوم إحساسه -المشتعل- الآن بها...

ثم أشاح بوجهه عنها بكل ما أوتي من قوة وهو لا يدري كيف يفسر لعزة بقاءه هنا الليلة الماضية...

لاريب أنه جرحها حقاً بفعلته لكنه لم يفكر...

طالما احتاجته مليكته فسيلبي النداء بكل روحه مهما كان!!

لكن ما ذنبها عزة هي الأخرى في صراع قلبه وعقله هذا؟!!

لابد أن يعود إليها الآن بأي تبرير يرضي كبرياءها المهدور...

هو اختار هذا الطريق فليكمله لآخره إذن...

فليس هو من يظلم امرأة منحها اسمه!!!

لهذا حاول دفع رؤى برفق لينهض من رقدته متحاشياً إقلاق نومها...

لكنه ما كاد يبتعد بجسده حتى فوجئ بأناملها تتشبث به بضعف مع همهمة غير مفهومة ...

فتنهد بحرارة ثم عاد يستقر مكانه مربتاً على ظهرها برفق لتصله تمتمتها في حلمها :

_أبي خذني معك!!

انعقد حاجباه بضيق وهو يرى ارتجافة جسدها التي عادت إليها مع شهقاتها المكتومة في نومها...

لقد رآها يوماً تحلم بأبيها وكانت مبتسمةً وقتها بسعادة....

فلماذا تبدو الآن وكأنه تختنق؟!!!

بل إن جسدها ازداد ارتجافاً فرفع الغطاء عليها أكثر وهو متردد في إيقاظها وقد بدا له أنها الآن ترى كابوساً...

لكنها قطعت عليه حيرته عندما انتفضت فجأة من نومها لتصرخ صرخة قصيرة...

فقام بدوره ليطوقها بذراعيه هاتفاً بقلق:

_لا تخافي!إنه مجرد كابوس!

التفتت إليه بحدة ولازالت تحت تأثير نومها لتغمغم بنبرة تائهة:

_أبي....كان يضربني...لم يفعلها يوماً !!

أغمض عينيه بألم للحظة ثم ضم رأسها لصدره وهو لا يجد ما يقول...

لكنها كانت -شبه-غافلة عنه وهي تردف بشرود مسترجعةً أحداث حلمها:

_نعم...كان يضربني لكنني لم اكن اشعر بألم...

ثم رفعت إليه وجهها بابتسامة مرتبكة لتكمل :

_على العكس... كل ضربة كانت تشعرني أنني قوية اكثر.. حتى إذا ما انتهى شعرت وكأنني ولدت من جديد!!

ابتسم بحنان اختنق بحزنه وهو يلصقها بصدره أكثر...

فاتسعت ابتسامتها وهي تهمس بوداعتها المعهودة والتي اكتسبت الآن بعض القوة:

_أنا وجدت طريقي ...ولن ارضى بضعفي بعد!

قبل رأسها بعمق وهو يربت على وجنتها هامساً:

_لا بأس! أنا معك!

وكأنما نبهتها عبارته للواقع أخيراً فابتعدت بجسدها عنه لتهتف بإدراك:

_أنت قضيت ليلتك هنا؟!

رمقها بنظرة طويلة حملت كل عاطفته لكنه غمغم باقتضاب:

_لم أكن لأترككِ هكذا!!

هزت رأسها وهي تدور بعينيها في المكان ليقع بصرها على خصلات شعرها المقصوصة هناك على الأرض..

فشهقت بحدة وهي تضع كفها على رأسها لتتلمس شعرها بأناملها للحظات...

مستعيدة بدورها ذكرياتها المشوشة بالأمس ...

لينتابها الآن شعورٌ جارف بالتمرد على كل هذا الضعف...

فصمتت طويلاً تستجمع قوتها ثم رفعت رأسها لأعلى متحاشية النظر إليه وهي تقول بنبرة أكثر تماسكاً:

_عد لعروسك...أنا لن أكون عبئاً على أحد بعد الآن!

تشبثت نظراته بعينيها لكنها لم تنظر إليه وهي تحرر نفسها من ذراعيه لتقوم واقفة ...

توردت وجنتاها بخجل وهي تنتبه لقميصها القصير الذي كانت ترتديه لكن مرأى تلك الخدوش على جسدها جعلها تستعيد شعورها بالدونية...

فتناولت "روبها" الطويل لترتديه على عجل عندما وقف هو بدوره ليتوجه نحوها قائلاً بحزم مشوب بحنانه:

_لن تبقيْ هنا وحدك!ستقيمين مع أمي!

لكنها كتفت ساعديها لتقول بحزم غريب على طبيعتها الخانعة:

_لا!يكفينا هذا!

عقد حاجبيه بضيق وهو يسألها بترقب:

_ماذا تعنين؟!

تحركت بضع خطوات مبتعدة عنه لتقول بعدها بتصميم:

_لقد كنت أنانية حقاً عندما أصررت على البقاء معك!شهامتك وضعفي سيجعلان مني دوماً عائقاً في طريقك...لكنني سأصحح هذا الوضع.

ثم أطرقت برأسها لتردف بنبرة قاطعة رغم تهدج صوتها:

_سأعود اليوم لعبد الله وأنتظر منك ورقة الطلاق!

لكنه اقترب منها ليرفع وجهها إليه قائلاً بضيق لم يستطع التحكم به:

_لكن هذا لم يكن رأيك من قبل!!

فارتعشت شفتاها ب-شبه -ابتسامة وهي تهمس بإصرار:

_كنت حمقاء...والآن عاد إليّ عقلي!

اختنق صوته بغصته للحظة قبل أن يهمس بعجز:

_رؤى...أنا...

صمت لحظة وكأنه يبحث عن كلمات تسعفه...

لكنها أغمضت عينيها لتهمس بنفس النبرة القوية:

_أنت كنت جائزتي مع عقابي....بياض توبتي مع سواد إثمي...هدية السماء لقلب أراد مبتدأ الطريق لكنك لن تكون منتهاه!

انقبض قلبه بعنف وهو لا يدري بماذا يرد...

هو ما عاد قادراً على احتمال عذاب قربها...

ولا هي كذلك!!!

وجودهما سوياً يعذبهما بعاطفة يائسة لن يحتضنها أمل...

نعم...ربما كان فراقهما مهلكاً لكن لا مفر منه الآن!!

ورغم شعوره في هذه اللحظة بأن قلبه يحتضر لكنه كان يدرك أنها على حق...

لهذا ربت على كتفها برفق ثم تنحنح ليستعيد خشونة صوته:

_انتظري فقط بضعة أيام حتى تهدأ جروح جسدك...لا أريد أن يراكِ أخوكِ هكذا!!

هزت رأسها بعدم اقتناع وهي تهم بالاعتراض عندما سمعت صوت رنين جرس الباب الطويل وكأن الطارق لا يرفع إصبعه من عليه...

فأشاحت بوجهها في ضيق وهي تعد نفسها للسان هيام الطويل فلا ريب أنها هي الطارقة...

بينما لم يكن راغب أقل منها ضيقاً وهو يتوجه نحو الباب ليفتحه بقوة هاتفاً بغضب لم يتحكم فيه إزاء كل هذه الضغوط:

_ماذا هناك؟!!هل هذه طريقة ترنين بها الجرس؟!!

أجفلت هيام من صياحه الغاضب فعادت برأسها للخلف وهي تتفحصه ببصرها...

إنه لا يزال بثياب الأمس دون سترته...

فلماذا لم يبدلها بملابس أكثر راحة؟!!

ثم تعلقت عيناها بقميصه الذي تلطخ بما يشبه الدم وسواد الكحل!

فعقدت حاجبيها بحيرة للحظة قبل أن تستعيد شراسة نبراتها وهي تهتف بانفعال:

_عفواً يا "عريس"!!!انتزعناك من عروسك...لكن والدتك مريضة بالأسفل وتحتا..

لم يكد يسمع عن مرض والدته حتى أزاحها بعنف من طريقه ليهبط الدرج متوجهاً لشقتها...

ولم تكن رؤى أقل منه استجابة فسحبت حجاباً ساتراً غطت به "كارثة" شعرها ثم اندفعت بدورها للأسفل متجاهلةً نظرات هيام النارية لها...

وأمام فراش والدته وقف الجميع بقلق فقد كانت حالتها سيئة حقاً...

بل إنها بدت وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة...

لهذا هتف راغب بانفعال:

_سأتصل بالإسعاف حالاً!

===============

_يمكنكِ العودة إلى البيت الآن...لقد نجحت الجراحة بفضل الله...وهي الآن أفضل!

قالها راغب في المشفى الذي انتقلت إليه والدته ...والتي استدعت حالتها إجراء جراحة عاجلة ...

فردت رؤى وهي تمسك بيد والدته التي استسلمت للنوم:

_لا...سأبقى معها هنا!

رمقها بنظرة مشفقة طويلة ناقضت خشونة نبرته:

_أنتِ هنا منذ الأمس ...عودي للبيت واستريحي ويمكنكِ القدوم مساءً!

هزت رأسها باعتراض وهي تقول بحسم:

_أنا ليس لديّ ما يشغلني...اذهب أنت لزوجتك.

ثم التفتت نحو هيام الواقفة جوار زوجها لتردف:

_وهيام أيضاً ينبغي أن تعود لأولادها.

فزفر بقوة ثم هتف ببعض الحدة:

_لن أنتظر حتى تسقطي أنتِ الأخرى من التعب !

وهنا تدخلت هيام في الحديث هاتفة:

_دعها تبقَ كما تشاء...ولنعد نحن الآن للمنزل...وفي المساء نتبادل الأدوار حتى يستريح الجميع.

فالتفت نحوها راغب ليهتف بتذمر:

_اذهبي إذن مع زوجك لأولادكما...أنا لن أترك أمي.

هنا اشتعلت ملامح هيام بالغيظ مع قولها:

_ألن تعود لعزة التي تكاد تموت قلقاً عليك؟!!

قبض أنامله بقوة محاولاً كظم غيظه وهو يلاحظ تلون وجه رؤى بانفعالها عندما سمعت اسم عزة...

فقال بتهكم غاضب:

_صحيح؟!!ولماذا لم تأتِ لتطمئن عليّ وعلى حماتها إذن؟!!

نظرت هيام إلى رؤى نظرة حقودة ثم ردت بنبرتها المستفزة:

_كانت تريد هذا لكنني منعتها...العروس لا تخرج من بيتها هكذا عقب زفافها مباشرة!!

زفر راغب بقوة ثم قال لأخيه بنفاد صبر:

_خذ زوجتك وعودا للمنزل...أنا باقٍ هنا!

وبعد انصرافهما اقترب من رؤى ليهمس برفق:

_استريحي على السرير الآخر ...لن يمر عليها الطبيب قبل ساعة.

لكنها تشبثت بكف والدته وهي تنظر إليها هامسة بأسى:

_أنا لا أشعر بالتعب...كما أنني أريد أن أشبع من صحبتها.

وخزت عبارتها قلبه وقد أدرك صدق شعورها...

بينما دمعت عيناها هي وهي ترقب وجه عفاف بعاطفة حقيقية...

لقد رأت فيها "أماً" ثانية...فهل من العدل أن تذوق اليتم مرتين؟!!

لكنها مع هذا لن تتراجع عن قرارها...

مشرط "الجرّاح" ربما يكون قاسياً لكنه قد يكون العلاج الوحيد !!

لكنها فوجئت به يقترب منها أكثر ليحتضن كفها الممسك بكف والدته ...!!!!

فرفعت إليه عينيها بنظرة متسائلة لكن لسانه كان معتقلاً خلف أسوار كبريائه...

فقط عيناه كانتا سخيّتين بحديث وصل قلبها زاخراً بفاخر عطاياه من عاطفة وأسف وحزن تشاركاها معاً لدقائق طويلة بلا كلمات...

حتى سحبت هي كفها منه لتشبكه بكفها الآخر في إشارة ذات مغزى...

وصلته كما أرادتها تماماً...

لن يمتد كفي إلا لكفي!

ولن تشتبك أناملي إلا بأناملي...!!

هو طريقي الذي سأكمله وحدي ...

وحِملي الذي لن يسعه إلا ظهري!!

لكن طرقات الباب الخافتة قطعت حديث عيونهما الصامت هذا...

عندما دخل الطبيب الشاب ليتفحص الأم باهتمام ...

ثم طمأنهما على الحالة ليلاحظ راغب وقتها تعلق بصر الطبيب الشديد بروى قبل أن تنتقل عيناه بحركة غريزية نحو أناملها وكأنه يبحث عن خاتم زواج...!!

فاشتعل وجهه بغيرته كالعادة حتى إذا ما انصرف الطبيب التفت نحو رؤى ليغمغم بضيق:

_لقد نسيتِ ارتداء دبلتك.

فابتسمت بسخرية مريرة وقد لاحظت هي الأخرى تعلق نظر الطبيب بأناملها...

لترد بنبرة شاحبة رغم قوتها:

_آن الأوان أن تتخلص من هواجس شكك وغيرتك...أن تنسى هذا الخطأ الذي تأخر إصلاحه كثيراً...لقد قرب الخلاص !

هنا شعر حقاً أنه سيختنق لو بقي معها أكثر...

كل هذا كثيرٌ على حدود احتماله ...

فلترحل ولينتهِ كل هذا العذاب...

لكن أن تبقى هكذا عالقةً في منتصف الطريق بين قلبه وعقله فهو الجحيم بعينه!!!

لهذا غادر الغرفة بخطوات مندفعة لينتظر بالخارج...

ولم يعد إليها إلا بعد عودة هيام مع أخيه الذي قال مخاطباً رؤى:

_يمكنكِ الآن العودة للمنزل كي تستريحي!

كادت تهم باعتراض لكن راغب حسم الأمر بقوله:

_لا نقاش!!!هيا لأقوم بتوصيلك.

ولا تدري لماذا شعرت ساعتها بعدم رغبته الحقيقية في وجودها هنا...

لكن غالب ظنها أن الأمر يتعلق ب"الطبيب الشاب"!!!

لهذا احترمت غيرته لتقول بنبرة قوية:

_لا داعي لتأتي معي...لازال الوقت مبكراً...ابقَ أنت مع أمي ربما يحتاجون شيئاً!!

ثم انصرفت بخطوات سريعة حاسمة دون أن تنتظر رده...

تاركةً إياه خلفها يراقبها بمرارة خائبة...

وطوال طريقها في سيارة الأجرة كانت تفكر في أمر طلاقهما الحتمي...

وما تنتوي فعله بعدها...

لن تسمح لأحد أن يتحكم في حياتها بعد...

ستنهي دراستها...ثم تقيم مشروعاً بسيطاً بنقود وديعتها التي تركها لها والداها...

ستحصل على دورات متقدمة في مجالات بعينها تؤهلها لفرص عمل أفضل...

ستسافر لأماكن كثيرة كما كانت تحلم دوماً...

ستعود لشغفها بالقراءة الذي نسيته في خضم أحداث حياتها الأخيرة...

ستصنع عالمها بنفسها...

عالماً لن تطاردها فيه خطيئة كفرت عنها باقتدار...

ولن تعود لتنظر بعدها للخلف قط!!!

كانت قد وصلت إلى البيت وقتها فاستخرجت مفاتيحها من حقيبتها لتفتح الباب...

لكنها فوجئت به موارباً في إهمال!!!

يبدو أن هيام وزوجها كانا متعجلَيْن فنسياه مفتوحاً!!

صعدت الدرج بخطوات مثقلة من فرط إعيائها لكنها ما كادت تصل لشقتها حتى انقطع التيار الكهربائي فجأة...

شهقت بعنف وخوفها -المرضي-يعاودها...

لكن الأمر ازداد سوءاً بتلك الجلبة التي سمعتها من أعلى...

بالتحديد...من شقة عزة!!!

فتحسست محتويات حقيبتها محاولة التقاط هاتفها لتتصل براغب...

لكنها وجدته قد فرغ شحنه منذ ليلة الأمس...!!!

وقفت مكانها للحظة وقد تصبب جبينها بعرق غزير ...

وقد راودتها نفسها بالخروج من جديد...

لكنها لم تشأ الهروب هذه المرة!!!

لن تفشل كما فعلت من قبل...

هذه المرة ستقهر خوفها وضعفها...

ولتكن فقط مجرد بداية...

لهذا تحاملت على نفسها لتصعد الدرج في الظلام بخطوات مترددة...

يغلبها خوفها تارة...

وتسعفها شجاعتها أخرى....

كانت تصعد السلم درجة...

درجة...

ومع كل درجة كانت قدماها وكأنهما تدهسان ذكرى بغيضة ...

تفاصيل ليلتها الوحيدة مع فهد...

تفاصيل ليلة زفافها براغب...

إهانات هيام...

جفاء عبد الله...

نظرات راغب المشبعة باحتقاره ورفضه لها كزوجة...

ليلة زفافه على عزة...

نظرات الناس الشامتة...

خصلات شعرها المقصوصة التي تناثرت على الأرض...

خدوش جسدها الدامية...

ليختفي كل هذا ويحتل ذهنها فقط حلمها الأخير بوالدها...

ضربة تلو ضربة...

لكن الضربات لم تعد موجعة...

بل صارت تجعلها أقوى...

نعم...أقوى يا رؤى!!!

هيا اصعدي المزيد من الدرجات...

ستصلين...حتماً ستصلين!!!

ومع كل درجة كانت تصعدها كانت تردد قسمها لنفسها أنها ستكون أكثر صلابة.....

لن تخاف الظلام...

لن تخاف الوحدة...

لن تخاف عبد الله...

لن تخاف فراق راغب...

لن تخاف ضعف نفسها...

لن تخاف...

لن تخاف!!!!

حتى وصلت أخيراً لشقة عزة ليصلها صوتٌ غريب بالداخل:

_تظنين أنكِ ستفلتين مني؟!!أنا سأعرف كيف أرد الضربة لكِ ولذاك الوغد الذي تحداني!!لقد كنت أترصد البيت منتظراً الفرصة...لم أظنها ستأتي بسرعة هكذا...

اتسعت عيناها بذعر وهي تدرك هوية المتحدث...

لابد أنه خطيب عزة السابق ...

انتهز فرصة انشغال الجميع بمرض الأم ليقتحم المنزل ...

لكن ذعرها بلغ مبلغه مع صرخات عزة المكتومة والتي تبعها هتاف ذاك السافل:

_لماذا تقاومينني هكذا؟!جربيني ربما كنت أفضل من زوجك الحقير!!

زادت خفقات قلبها جنوناً وهي لا تدري ماذا تفعل...

خوفها يدفعها للعدو هرباً الآن وليكن ما يكون...

كفاها ما تحملته حتى الآن بل إنها تشعر وكأن قدميها لن تحملاها بعد!!!

لكن...

إنه "شرف" راغب...!!!!

راغب الذي حفظ لها شرفها طوال هذه الأيام...

ألا يستحق أن ترد له صنيعه بمثله؟!!

بلى...يستحق!!!

ولو دفعت عمرها بالمقابل!!!

لهذا أخذت نفساً عميقاً تتمالك به شجاعتها ثم دلفت إلى الداخل لتصرخ بكل قوتها :

_دعها أيها الوغد...

بوغت الرجل بصراخها فارتبك للحظة كانت كافية لتتحرر منه عزة التي اندفعت نحو النافذة لتصرخ بكل قوتها طالبة الغوث...

فاندفع بدوره ليهرب لكن رؤى سدت الباب بذراعيها وقد منحها شعورها ب-قرب وصول نجدة -المزيد من الشجاعة...

فما كان منه إلا أن انتزع مديته التي التمع نصلها إزاء الضوء الخافت في الظلام أمام عينيها...

فأطلقت صرخة أخيرة قبل أن تستقر المدية في صدرها!!

============

_تضحكين يا حسناء؟!!أنتِ السبب في هذا الموقف...سيظنني الآن مجرد فتاة رخيصة تسعى لجذب انتباهه!!!

هتفت بها زهرة لصديقتها التي لم تتوقف عن الضحك منذ أخبرتها زهرة عن نتيجة "خطتها" الفاشلة...

لقد فعلت ما نصحته بها حسناء فانتظرته بعد انتهاء الدوام وقد ارتدت ثوباً ملفتاً شديد الضيق بطراز مثير لا ترتديه في العادة...

وتزينت بأبهى صورة حتى أنها أزاحت حجابها للخلف كثيراً ليبدو شعرها المميز تحته ...

ثم انتظرته عند سيارته حتى اقترب فتظاهرت بالتعب ثم طلبت منه توصيلها لمنزلها ...

_لا أصدق أنه رفض طلبكِ بهذه البساطة!!

قاطعت بها حسناء سيل أفكارها الحانقة...

فتناولت زهرة كوب الماء المجاور لتهددها به هاتفةً بسخط:

_تعلمين؟!!كم أود الآن لو أسكبه على رأسك لتدركي شعوري وقتها وهو يتجاوزني ببساطة ليطلب من إحدي الطبيبات أن توصلني هي!!!

ضحكت حسناء بانطلاق وهي تخفي وجهها بكفيها ...

فهزت زهرة رأسها بيأس هامسة:

_هذا الرجل سيصيبني بالجنون ....ماذا أفعل له كي يراني؟!!

كانتا جالستين في أحد المطاعم أمام المشفى تتناولان وجبة العشاء كعادتهما بعد انتهاء دوامهما...

عندما دخلت إحداهن للمكان فهتفت زهرة بلهفة:

_إنها مريم...سأناديها لتجلس معنا.

فمطت حسناء شفتيها باستياء لتميل عليها هامسة:

_لا أدري لماذا تثقين في مريم هذه هكذا!! إننا لم نتعرف عليها سوى منذ أسبوع واحد وأنتِ تصرين على أن تنضم إلينا في كل مرة نلتقي بها هنا.

فهزت زهرة رأسها وهي تقول بحنانها الفطري:

_دخلت قلبي منذ أول لقاء.

_لأنكِ حمقاء كعادتك!!

غمغمت بها حسناء بقنوط لتردف:

_أنا أراها غريبة الأطوار...وكئيبة أيضاً...ثم إننا لا نعرف عنها أي شئ!!!

فابتسمت زهرة وهي تخرج لها لسانها مغيظة إياها...ثم همست لها بمرح:

_يكفيني أنها مصرية مثلنا...أم أنكِ تغارين منها عليّ؟!!

خبطتها حسناء على كفها بغضب مصطنع فضحكت زهرة بمرح قبل أن تنادي مريم بلهفة...

ابتسمت مريم بدورها وهي تلوح لها بكفها ثم لم تلبث أن انضمت إليهما ليتشاركن العشاء...

عندما قالت حسناء وهي تتفحص مريم ببصرها:

_مع من تقيمين هنا يا مريم؟!!

التفتت نحوها مريم لتقول ببساطة :

_مع طفلي!

فارتفع حاجبا حسناء بدهشة مع قولها:

_فقط؟!

أومأت مريم برأسها إيجاباً فسألتها زهرة بإشفاق:

_وماذا عن زوجك؟!

أطرقت مريم برأسها للحظات ثم همست باقتضاب:

_منفصلان!

رمقتها زهرة بنظرة عطوف طويلة...بينما حملت لهجة حسناء الكثير من الشك وهي تسألها بحذر:

_ومن أين تعيشين إذا كنتِ لا تملكين عملاً هنا؟!!

فرفعت إليها مريم عينيها لتقول بابتسامة متحفظة:

_لديّ ما يكفيني!!

مطت حسناء شفتيها بعدم اقتناع...

بينما تجاهلت مريم شعورها السلبي نحوها لتخاطب زهرة بقولها:

_تبدين مختلفة هذه الليلة..طلّتكِ تبدو....

صمتت لحظة تحاول البحث عن تعبير مناسب غير جارح...

ثم أردفت :

_أكثر تحرراً!!

_بل منحلة!!!

هتفت بها زهرة بحنق وهي ترمق حسناء بنظرة غيظ طويلة قبل أن تردف:

_فليجازِ الله من كان السبب!!!

عادت حسناء تضحك بمرح للحظات ثم استأذنتهما للذهاب للحمام المجاور...

فابتسمت مريم ابتسامة مشرقة وهي تتفحص ملامح زهرة ثم قالت بهدوئها الحاني:

_لماذا أشم رائحة "رجلٍ ما" في الأمر؟!

تورد وجه زهرة بخجله وهي تومئ برأسها إيجاباً...

فربتت مريم على كفها وهي تقول بنفس النبرة الحانية:

_ربما تكون علاقتنا حديثة العهد لكنني أشعر أنكِ قريبةٌ بحق لقلبي...فاقبلي نصيحتي.

أومأت زهرة برأسها فأردفت مريم بحزم حنون:

_أرخص طريق لكسب قلب رجل هو الجسد...من يعشقكِ لجسدك فسيستهويه جسد غيرك...لكن من يعشق قلبك فلن ينظر لسواكِ!

ابتسمت زهرة ببعض الخزي وهي تعيد حجابها المتهاوي لتستر به شعرها كاملاً ثم همست لها بخجل:

_معكِ حق...لكنني فقط كنت...

قطعت عبارتها وقد عجزت عن إكمالها فابتسمت مريم بحنان وهي تتفحص ملامحها البريئة لتهمس لها :

_تحبينه؟!

أومأت زهرة برأسها إيجاباً ثم قالت بارتباك:

_لكنه لا يراني...بل لا يرى أي امرأة.

_ربما كان معقداً...أو مريضاً بمرض يمنعه من الزواج!!!

هتفت بها حسناء -التي عادت لتوها - وهي ترفع أحد حاجبيها بمكر...

فشهقت زهرة بعنف ثم قامت لتخبطها في كتفها هاتفة :

_الملافظ سعد!!!

تأوهت حسناء بألم مصطنع فالتفتت لهن أنظار رواد المطعم بفضول...

بينما ابتسمت مريم بهدوء وهي ترقبهما بمودة...

ليستمر الحديث بينهن لوقت طويل بعدها بمرح أزال الكثير من شوائب التحفظ وبالذات من حسناء نحو مريم التي استأذنتهما الآن في الانصراف على وعد بلقاء قريب...

فراقبت زهرة انصرافها بحنان ثم قالت لحسناء بعطف:

_طيبة القلب وتبدو منكسرة وحزينة.

فأومأت حسناء برأسها ثم قامت من مكانها وهي تقول بلهفة:

_لقد تأخر الوقت ...هيا !

فتناولت زهرة حقيبتها لتسير جوارها مغادرتيْن المكان...

عندما التفتت نحوها حسناء فجأة لتقول وكأنها تذكرت شيئاً:

_نسيت أن أخبرك...كاتبتك المفضلة دخلت المشفى اليوم في حادث بسيط..فرصتكِ للتعرف إليها!

=============

وقفت فتون في غرفتها تجمع حاجياتها في حقيبة كبيرة وهي تتجهز للرحيل...

عندما هتف محمد ببراءته الطفولية:

_هل سنغادر لمنزل آخر من جديد؟!

أومأت برأسها إيجاباً دون رد...فعاد الصغير يهتف بحزن:

_لماذا؟!!أنا أحب "ماما صفا" ولا أريد أن أتركها!

فابتسمت بمرارة وهي تتمتم بخفوت:

_ولأننا نحبها فلابد أن نرحل من هنا!

نظر الصغير إليها بحيرة مشوبة بحزنه وقد بدا لها الآن -بالألم الذي انحفر على ملامحه- كيوم عرف عن وفاة أبيه...

نظرت إليه نظرة طويلة حاولت أن تتشبث فيها بتماسكها...

لكن دموعها خانتها وهي تتذكر حديثها صباحاً مع عبد الله...

كانت قد ذهبت إليه في المحل كما طلب منها لتفاجأ به يعرض عليها الزواج...

ظننته يستهزئ بها في أول الأمر وقد كانت الفكرة وحدها كفيلة بأن تستجيب لكبريائها وترحل...

لكنها وقتها تذكرت كيف صارت صفا تتحاشاها تماماً منذ طلاقهما...

وعندما حاولت الصعود إليها في شقتها المقابلة لشقة عبد الله كادت تطردها...!!!

يومها تعجبت معاملتها الجديدة الجافة لها لكنها عللت هذا بسوء مزاجها بعد الطلاق...

لكنها الآن تشك أن طلاقهما في هذا التوقيت بالذات له علاقة بها...

خاصةً بعد طلب عبد الله الغريب...

والذي كان جوابها عليه هو الرفض القاطع!!!

نعم ...

لقد قالت له بحزم أنها لن تخون عشرة المرأة التي طالما ساعدتها...

لن تعضّ اليد التي امتدت لها بالخير ...

ولن تكسر قلب امرأة أدخلتها بيتها فتخربه!!!

سترحل من هنا وتبحث عن عمل جديد والرحمن لا يغفل عن عباده!!

_لماذا تبكين يا أمي؟!!

قاطع بها الصغير أفكارها العاصفة فمسحت دموعها بأناملها بسرعة ثم غمغمت :

_لا شئ يا حبيبي!لا تقلق كل شئ سيكون على ما يرام!

لم تكد تتم عبارتها حتى سمعت طرق الباب فانعقد حاجباها بقلق...

ثم تناولت طرحتها لتغطي شعرها وقد انقبض قلبها بتوجس لكنها ذهبت لتفتح الباب بحذر ...

قبل أن تغمغم بضيق لم يخلُ من خوف:

_حسني!!ماذا تريد؟!!

ابتسم الرجل بخبث وهو يدفعها برفق ليدخل ويغلق الباب خلفه بجرأة...

لكنها عاودت فتحه بسرعة وهي تهمس بتوتر:

_لا داعي للفضائح يا حسني!!!ارحل وإلا صرخت لتكون فضيحة!

فاتسعت ابتسامته الماكرة وهو يتقدم نحوها أكثر ليركل الباب بقدمه فيغلقه من جديد هامساً بصوت كالفحيح:

_حقاً ستكون فضيحة لكن ليس لي...لكِ أنتِ!

توهج الخوف في عينيها وهي تحاول التحلي بشجاعتها مسترجعةً حديث صفا معها عن ذاك الأمر...

فهتفت بصلابة مصطنعة:

_ماذا تريد مني؟!

دارت عيناه ببطء متمهل على جسدها الفائر بأنوثته فشعرت وكأنه يجردها من ملابسها بنظراته الوقحة...

لتستمر في تباعدها عنه بظهرها ...

لكنه جذبها فجأة من مرفقها نحوه ليهمس أمام عينيها المذعورتين:

_أريد تذوق الكعكة كالجميع!

اتسعت عيناها باستنكار وهي تفهم المعنى المبطن لكلماته فغمغمت بارتباك :

_اتقِ الله يا حسني...أنا لست من هذا النوع!

ابتسم ساخراً وهو يرفع أحد حاجبيه ليهمس وهو يقترب بوجهه منها أكثر:

_أم أنني أنا الذي لست نوعك المفضل؟!!هل تفضلين أن أربي لكِ ذقني كي أعجبك؟!!

سحبت مرفقها منه بعنف وهي تهتف بحدة رغم خوفها:

_اخرس أيها الحقير...ماذا تقصد؟!

فتملك ذراعيها بكفيه ليدفعها أمامه ملصقاً ظهرها بالحائط وهو يقول بغضب:

_لا تدّعي العفة بعد يا فتاة...الحي كله يتحدث عنكِ وعن الشيخ عبد الله الذي طلق زوجته بسببك!!

اتسعت عيناها بذعر وهي تهز رأسها نفياً لتهتف بجزع:

_كذب!!!كذب وافتراء!!الشيخ عبد الله لن...

لكنه لم ينتظر إكمال عبارتها وهو ينقض عليها لينال منها ما يرضي ثورة جسده...

فصرخت صرخة قصيرة قبل أن تهتف بعجز وهي تدفعه بكل قوتها :

_ابتعد ولا تجعلني أرفع صوتي بالصراخ!

لكنه كتم فمها بكفه وهو يلتصق بها أكثر هامساً بين أنفاسه اللاهثة:

_لن ينجدكِ أحدٌ مني!!الليلة أنتِ لي!!

قالها بحسم وقد ازدادت جرأة لمساته لها مع انتفاضة جسدها الكاره فأغمضت عينيها بعجز وقد تحولت صرخاتها المكتومة لأنين بائس ...

لكنها كانت غافلةً عن الصغير الذي كان يراقبهما بذعر في زاوية الغرفة منذ دخل هذا الوغد ...

كانت طفولته البريئة عاجزة عن فهم ما يجري لكنه ما كاد يرى هذا الرجل يكتم صرخات أمه حتى اندفع بسرعة ليفتح باب الغرفة ويهرع إلى البيت الوحيد الذي يعرفه هنا...

نعم...شقة عبد الله!!!

=============

كان عبد الله جالساً على أريكة الصالة بعدما عاد للبيت عقب صلاة العشاء كعادته ...

لم يستطع النوم في فراشهما هذه الليلة...

وكيف يفعل وقد وقّع اليوم وثيقة خيانتها بطلبه للزواج من فتون...

ورغم أن رفضها قد خدش كبرياء رجولته...

لكنه لا ينكر أنه قد شعر ببعض الارتياح!!!

وكأنه لم يكن مقتنعاً تماماً بما أوشك على فعله...

نعم...للأسف...

لازال طبعه الانفعالي يغلب على عقله ...

هذا الطبع -الذي لولاه- لما طلّق "صفا روحه" ثلاثاً!!!

تنهد بحرارة وهو يستغفر الله سراً ليتبعها بدعاء خاشع بالهداية....

لكنه سمع طرقات عنيفة على الباب فأجفل مكانه ثم قام ليفتحه ....

عندما اصطدم بصره بالصغير الذي اصفر وجهه مع هتافه المذعور:

_أدرك أمي يا شيخ!!

لم ينتظر عبد الله المزيد من التفاصيل فانطلق معه للأسفل ليجد باب الغرفة مواربًا..

والمشهد خلفه أبلغ من أي شرح!!!

فهتف بغضب هادر وهو يندفع ليسحب الرجل من ملابسه :

_أيها ال(.......)!!!

كانت لفظته الخارجة كافية لإثارة غضب الرجل الذي التفت نحوه متمالكًا دهشته ليهتف بصفاقة :

_تريد إنقاذ عشيقتك يا شيخ!!!لا تقلق يمكننا اقتسامها!!!

هنا ازداد احتقان وجه عبد الله بغضبه الذي قلّما يتحكم به...

فعاجله بلكمة قوية في فكه أدمت شفتيه قبل أن يتبعها بأُخَرَ متفرقات على صدره ووجهه...

لكن الرجل لم يكن أقل منه قوة وهو يتفادى لكماته تارة...

ويردها له تارة أخرى ليزداد تصعيد الموقف مع ظهور أحد الجيران على الباب ...

ثم لم يلبث الأمر أن تحول لفضيحة حقيقية بتجمع المزيد من الجيران الذين تدخلوا لفض النزاع بطبيعة الحال وسط صراخ حسني واتهاماته الباطلة ودفاع عبد الله الثائر بدوره...

وفي زاوية الغرفة كانت -هي- تقف صامتة...

تحمل الصغير ضامةً إياه لصدرها بقوة وهي تغمض عينيها بيأس!!!

لازالت واقعة بين شقيّ رحى ظروفها البائسة...

جمالها...وحدتها...فقرها...

المثلث الشهير الذي يستدعي -بعيون مجتمع مريض- أن تضم أضلاعه أنثى عاهرة!!!

وربما لو نظرنا -بعين الرحمة- لوجدنا الأضلاع نفسها تنحني لتضم امرأة ضعيفة لا تطمع سوى في العيش بكرامة وشرف!!!

لهذا لم تجد من يسندها في موقفها هذا سوى دموعها التي اختلطت بدموع صغيرها على صدرها وهي تشعر بالظلم يكوي خلاياها!

كانت تستمع للأصوات حولها بخوف ممتزج بحرجها في بادئ الأمر قبل أن يتحول شعورها تدريجياً للامبلاة حقيقية...

فليقولوا ما يشاءون...

هي في نظرهم مجرد" أيقونة "للخطيئة ولن يتغير هذا ...

إلا إذا....!!!

ومع خاطر أخير غزا روحها باكتساح...

خفتت الأصوات تماماً حولها لتنتبه أخيراً أنها صارت وحدها مع صغيرها بعدما انفض الجمع !!!

ساعتها رفع محمد الصغير رأسه إليها ليسألها بحزن طفولي:

_لماذا يفعلون بنا هذا يا أمي؟!!

فخرجت منها تنهيدة بحرارة شعورها بالظلم والقهر ثم قبلت الصغير بعمق لتهمس بأسى:

_لأننا وحدنا يا صغيري!!!ليس لنا أحد!!

عاد الصغير يبكي وهو يتشبث بها بذراعيه فربتت على ظهره وهي تسير به لتغلق باب الغرفة عليهما لعلها تستعيد شعورها بأمان مؤقت...

ثم وضعت الصغير على الفراش لتستلقي جواره حتى اطمأنت لنومه...

وقد عادت أفكارها تلتهم كيانها بأنياب من قنوط...!!!

ستبقى مطمعاً للذئاب مالم تلجأ لجوار آمن...

حتى لو رحلت من هنا وتخلصت من "حسني" هذا...

ستجد العشرات من "حسني" يلاحقونها بخِسة!!!

لا خيار لها لمن هي مثلها في صراع الحياة هذا...

لا مجال ل"رفاهية" الوفاء!!!

فسالت دمعتها الحارة على وجنتها وصورة صفا في خيالها تجلدها بسياط الذنب...فهمست لنفسها بأسى:

_سامحيني يا سيدتي!!!ليس بيدي!!!

وبعدها بقليل كانت تغادر غرفتها لتصعد نحو شقة عبد الله باندفاع تعمدته قبل أن تغير رأيها...

وما كاد يفتح الباب بوجهه المكدوم حتى هتفت بين دموعها:

_أنا أوافق على الزواج يا شيخ!!

================

_هل أعجبكِ المكان؟!

قالها حسام وهو يسير معها على شاطئ الفندق الذي اصطحبها إليه لقضاء إجازة قصيرة شعر بحاجة كليهما إليها...

فالتفتت نحوه لتقول برضا:

_ساحر حقاً...رغم أني لا أحب البحر.

ابتسم بدهشة وهو يجذبها من كفها ليجلسا متجاورين على كرسيين من كراسي الشاطئ ...

ثم سألها بترقب وهو يرمق جانب وجهها الذي استند على ظهر مقعدها:

_لماذا لا تحبين البحر؟!هذا غريب!

ظلت ترقب الفضاء بشرود للحظات...

ثم غمغمت بهدوء:

_أعتقد أن أولئك الذين يحبون البحر هم المولعون بالمغامرة والتحدي...لكنني على العكس...أحب الشعور بالأمان أكثر...لهذا أفضل مشهد النيل الهادئ في مدينتنا عن هذه الأمواج الهادرة.

ورغم أن عبارتها عكست له الكثير من مشاعر الخوف بداخلها...

والذي انتزع منه شعوراً بالحمية لاحتوائها...

لكنه هتف مشاكساً:

_جبانة...وأنا الذي كنت أنتوي السباحة معك؟!!

فالتفتت إليه بضحكة ساحرة تبعها قولها المرح:

_لو كنت تقصد بهذا استفزازي لفعلها فلن تفلح في استدراجي كما تفعل مع المجرمين يا "حضرة الضابط".

ثم أشارت بكفها على صدرها لتردف بفخر مصطنع:

_أجل ...أنا جبانة!

ضحك بدوره ضحكة طويلة ثم عاود احتضان كفها بأنامله ليهتف بعفوية:

_أعجبتِني!

ورغم أن كلمته كانت عفوية تماماً لكنها مست شعورها القديم ب"النقص"...

فتيبست ملامحها للحظات أمام نظراته المتفحصة...لتباغته بقولها:

_صفني كما تراني!

همست بها بلهجة غريبة بين رجاء وخوف...

فلم يدرِ أيهما فاجأه أكثر...

عبارتها...

أم اللهجة التي اتشحت بها- والتي جعلته يدرك بحق -أن مرحها الواثق ليس أكثر من قناع....؟!!!

فخفق قلبه بشعور غريب نحوها لكنه رفع أحد حاجبيه ليهمس بخبث وهو يميل عليها:

_تريدين مغازلة؟!

اغتصبت ابتسامة باهتة وهي تهز رأسها نفياً لتجيبه :

_أنت لن تغازلني!

ثم عاد بريق المرح يلتمع بعينيها مزداناً بنظرة واثقة قبل أن تردف :

_الآن على الأقل!

فتألقت عيناه ببريق إعجاب -لم يخطئه حدس أنوثتها- مع تلويحه بسبابته في وجهها قائلاً بنفس النبرة المشاكسة:

_أنا لا أجيد المجاملة!

هزت رأسها وهي ترمقه بنظرة طويلة لم يفهمها ثم همست بثقة:

_وأنا لا أريدها...لهذا سألتك وأنا واثقة من صراحتك!

فتنهد بحرارة ثم عاد يسند ظهره على كرسيه مغمضاً عينيه للحظات قبل أن يغمغم بشرود:

_حسناً...فلنبدأ بشعرك...هل تعلمين أنه يشبه شخصيتك كثيراً؟!!نعم...ليس ناعماً منسدلاً في استسلام ولا خشناً ثائراً بتمرد..هو بين هذا وذاك....لكنه قوي...ملمسه مميز خاصةً لرجل مثلي يكره التطرف في أي شئ.

ابتسمت بدهشة للحظة ثم قالت بمرح مكسوّ بنبرة عاتبة:

_تبدو خبيراً يا سيدي!

فابتسم بدوره دون أن يفتح عينيه ليردف بعدها وكأنه يراها بعين خياله:

_عيناكِ أجمل ما في ملامحك ...لم أرَ عينين في حياتي بهذا الاتساع...منذ أول مرة رأيتكِ فيها وأنا تبينت فيهما فضاء عريضاً يكفي الناظر لينطلق فيه دونما حدود براحة غريبة.

ضحكت طويلاً هذه المرة ففتح عينيه لينظر إليها بدهشة عندما هتفت بمرح :

_ماذا كنت ستقول إذن لو أردت مجاملتي؟!!

فأمال رأسه قليلاً ليرمقها بنظرة متفحصة من أسفل لأعلى قبل أن يهمس وقد عادت إليه نبرته المشاكسة:

_ربما لو ذكرت شيئاً عن إعجابي بجسدك فلا تصدقيني...لا أحب البدينات!

اتسعت عيناها بدهشة عقبها غضب طفولي وهي تسحب كفها منه بعنف هاتفة بانفعال احمرت له وجنتاها ب-ما وجده هو-لذة خاصة :

_أنا لست بدينة...نحن اتفقنا على الصراحة لا الوقاحة !

فتعالت ضحكاته المرحة تحت نظراتها الساخطة للحظات...

قبل أن يغلبها مرحها فابتسمت بدورها وهي تشيح بوجهها...

لكنه عاود احتضان كفها برفق ليتراقص حاجباه بمداعبة مع عبارته الماكرة:

_هل أكمل؟!!

زمت شفتيها بغضب مصطنع فعاد يميل عليها هامساً :

_حسناً...لن أكمل...لكن باختصار...أراكِ امرأة مميزة يمكنني التفاخر أمام الجميع بأنها زوجتي.

وهنا ابتسمت ابتسامة حقيقية وهي تطرق برأسها..

ورغم أن عبارته أكدت لها -هوسه-العتيد برأي الآخرين لكنها أرضت كبرياء أنوثتها...

بينما عاد هو يسألها بجدية هذه المرة:

_لماذا سألتِني هذا السؤال؟!

التفتت نحوه بنظرة أخرى طويلة لم يفهمها أيضاً...

ثم عادت تطرق برأسها دون رد...

ماذا عساها تخبره؟!!

إنها تحتاج حقاً لتعرف كيف يراها...

تحتاج لنظرة رجل تخبرها أنها ليست "دمية معيبة"...

تحتاج أن ترتشف نظرات الإعجاب هذه في عينيه تروي بها ظمأ سنوات من شعور بالانتقاص...

وهو ما منحه لها بسخاء!!!

وأمامها كان هو يتأملها بتفحص وكأنه يريد قراءة ما تخفيه خلف صمتها...

كلاهما يبذل قصارى جهده ليغلق دفاتر الماضي ويبدأ من جديد...

لكنه مع هذا يشعر بحاجز غير مرئيٍ يقف بينهما...

لا ..ليس الأمر في كونها ستسامح فيما مضى...

فقربه منها في الأيام القليلة السابقة جعله يفهمها أكثر...

والآن يظن أن قلباً -كقلبها- سيغفر ما كان...

لكن...ماذا عما سيكون؟!!

عن "عيبه" الذي لا تعرفه حتى الآن؟!!

لكنها قطعت هدير أفكاره عندما رفعت إليه عينيها لتقول فجأة:

_حدثني عن طيف!

تجمدت ملامحه فجأة قبل أن تتلون بألم مشوب بالغضب...

حمقاء يا دعاء!!!

حمقاء!!

الرجل -بالكاد- شعر بكِ أخيراً وبدأ يسعى في طريقه إليكِ ...

فلماذا تذكرينه بآثام الماضي؟!!

لماذا تسمحين لها بالطفو على سطح مستنقع راكد لن تغوص فيه بعدها بسهولة؟!!!

لكن هذا -بالضبط- ما كانت هي تبتغيه وقتها...

أن تجعله يواجه هواجسه بدلاً من الهروب منها...

أن تجعله يبوح لها- بنفسه -بما يخفيه في صدره لأن هذا مكسبها الحقيقي في هذه المرحلة معه...

لهذا أردفت بنبرة أكثر ليناً:

_ألم نتفق على أن نكون صديقين؟!وأنا صارحتك بحقيقة ما كان بيني وبين معتصم.

زفر بحرارة فتشبثت بأنامله لتكمل حديثها بهدوء مشوب بحنانها:

_لا أريد مضايقتك...لكنني أريد أن أسمع منك عنها...أريدك ألا تتعامل مع الأمر كذنب مقدس لا يجوز الاقتراب منه...بل مجرد ماضٍ يسهل الحديث عنه.

هز رأسه للحظات وعيناه تتعلقان بالأمواج الهادرة أمامه...

ثم قال بنبرة أرادها قوية لكنها شعرت بالعكس:

_بعدما عرفت حقيقة قتلها على يد أخيها لم يعد شعوري نحوها بالذنب كما كان...لكن هذا لا ينفي شعوري بخذلانها...ربما لو لم أستجب لطموحي وقتها لاستطعت حمايتها من بطش الرفاعي.

وكأنما أعادت لها عبارته قلقها على ماسة فسألته بجزع:

_هل تظنه حقاً قتلها؟!!هل يعني هذا أنه قد يؤذي ماسة؟!!

فابتسم ساخراً ليجيبها بقسوة احتلت نبراته:

_لن تمهله الظروف حتى يفعل...نهايته اقتربت.

شهقت بخوف لتهتف بقلق بالغ:

_ماذا تعني؟!!هل تعرف عن هوية من يترصده؟!!

فأومأ برأسه إيجاباً دونما رد...لتردف هي ببعض الغضب:

_ولماذا لا تلقي القبض عليه؟!!

فاتسعت ابتسامته الساخرة وهو يقول بتهكم:

_فكرتكِ عن الضابط واللص لا تزال طفولية يا صغيرة...بعض الأمور نتغاضى عنها طواعيةً فيما يتعلق بهؤلاء الحيتان...لماذا نتعب أنفسنا في إيجاد طريقة للخلاص منهم إذا كان يمكن لغيرنا أن يفعل؟!!!...ساعتها نكتفي فقط بالمراقبة ثم نتدخل في اللحظة الأخيرة لنحصد النتائج !

انقبض قلبها بخوف كسا عينيها فحملت ملامحه بعض الرفق وهو يردف :

_لا تقلقي على ماسة...لن يصيبها مكروه.

تنهدت بحرارة وقد عجزت عن الرد...

ماسة واقعةٌ حقاً في ورطة...

وأي ورطة أكبر من أن تعشق رجلاً كعاصي الرفاعي؟!!

عاصي الذي تعلم هي -كما يعلم الجميع- أنه لا يفكر إلا في نفسه فقط...

وليس هذا فحسب...لكن يبدو أنه قد آن الأوان لتسديد دفاتر ماضيه القديمة...

وكما يقول حسام فالنهاية تبدو وشيكة...

ولترحم الأيام قلباً تعلق بعشق لا يليق به!!!

لكنه سحبها من أفكارها عنوة عندما قام واقفاً ليجذبها معه هاتفاً باقتضاب :

_دعينا من هذا الآن...فهناك ما أرغب في التحدث إليكِ بشأنه!!

رمقته بنظرة قلقة متسائلة لكن ملامحه اكتست بجمودها طوال طريق عودتهما لغرفتهما بالفندق...

حتى أغلق الباب خلفه فالتفتت نحوه لتسأله بحذر:

_ماذا هناك؟!

تألقت عيناه ببريق خاص وهو يحتضن خصرها بكفيه ليعانق ملامحها بنظرات متفحصة حارة...

ثم اقترب بوجهه منها هامساً:

_نسيت أن أقول لكِ...ضحكتكِ مهلكة!!

فاحمرت وجنتاها بانفعال خجول مع ضحكة خافتة...

عندما أزاح حجابها برفق ليردف بمكر:

_أريد أن أكمل وصفي على مهَل!!!

قالها وشفتاه تترنحان على ملامحها بشغف فهمست باعتراض:

_حسام...ألم نتفق أن ...

قطعت عبارتها خجلاً من أن تكملها ...

فقد اتفقا سوياً منذ ذاك اليوم الذي اصطحبها فيه من مشغل ماسة أن يتريث في علاقته بها...

فلازالت تفاصيل ليلتهما الأولى القاسية تشعرها بالكثير من النفور نحوه...

وقد تفهم هو رغبتها بكثير صبر...

ربما لأنه اعتبره تكفيراً بسيطاً عن ذنبه معها...

وهو ما حمدته له على كل حال...

فلم تكن يوماً ممن يطمع بالكثير!!!

لكنه الآن احتضن وجنتها براحته برفق ليهمس بسيطرة رجولية لم تخلُ من حنوّ:

_هذه المرة ستكون...مختلفة!!

وقد صدق وعده...

حقاً...كانت مختلفة...

مختلفة بما يكفي لري ظمأ أنوثةٍ طال غبنها خلف أسوار اعتقاد بأنها مجرد "دمية معيبة"....!!!!

==========

_عاصي!!

اندفعت نحوه بلهفة لتجده راقداً على فراشهما يستند برأسه إلى ظهره...

فألقت نفسها بين ذراعيه تضمه إليها بكل قوة عاطفتها هامسة بين دموعها التي انهمرت الآن غزيرة:

_أنت بخير؟!!

ربت على ظهرها برفق ثم قبل رأسها ليرد بفتور:

_حتى الآن!

ظلت مخفية رأسها في صدره للحظات تتمالك انفعالها قبل أن ترفع عينيها إليه لتسأله بجزع:

_ماذا حدث؟!

مسح دموعها بأنامله بشرود قبل أن يهمس بنبرة استسلام غريبة على أذنيها:

_هذه المرة كان قريباً جداً مني...استغل غفلتي ليباغتني بسلاحه في وجهي.

شهقت بحدة وهي تضمه إليها أكثر وكأنها تحميه ...!!!

منذ سمعت الخبر وقلبها لا يكاد يكف عن ارتجافه...

ستموت يوماً من فرط خوفها عليه!!

لكنه التفت إليها من شروده ليردف بغضب مكتوم:

_ليته قتلني ساعتها...لكنه تعمد ألا يفعلها...وكأن الوغد كان فقط يريد إثبات قوته بحركة غدر كهذه!!

ازدردت ريقها الجاف بصعوبة مع همسها القلق:

_تعني أنه اكتفى بالظهور أمامك فحسب...لم يهددك بشئ؟!ألم يطلب أي شئ؟!!

هز رأسه نفياً ثم غمغم وقد عاد لشروده:

_كان ملثماً ومع هذا شعرت أني رأيته من قبل....لقد كانت عيناه مشتعلتين ببريق غضب كاسح ...توقعت معه أي رد فعل إلا أن يتركني هكذا مكتفياً بطلقات نارية في الهواء ...

ثم أردف بنبرة قاسية:

_تماماً كما يفعل كل مرة...وكأن غرضه الحقيقي ليس إيذائي بل إثارة قلقي فقط.

بسطت راحتها على صدرها تحاول تهدئة خفقاتها المرتجفة ثم تمالكت أنفاسها أخيراً لتهتف باستنكار:

_وأين كان حراسك؟!!كيف استطاع الوصول إليك ثم الهرب بهذه السهولة؟!!

كز على أسنانه بغضب اشتعلت له غابات زيتونه ثم دمدم بين أسنانه:

_اشترى أحد حراسي ممن لم أكن أشك لحظة في ولائهم ...تسرب خفيةً إليّ في الطريق بعدما أدينا صلاة الفجر مستغلاً ظلام المكان.

انعقد حاجباها بقلق مضاعف وهي تهمس بإدراك:

_إذن هو يعرف عاداتك جيداً...يعرف أنك تكتفي بحارس واحد في صلاة الفجر...حارس أمكنه شراؤه رغم ولائه كما تزعم.

أومأ برأسه موافقاً قبل أن يقول بشراسة جعلتها ترتجف أمامه:

_لكن الخائن نال عقابه على أي حال كي يكون عبرة لغيره.

_قتلته؟!!

همست بها بذعر وهي تتراجع عنه بجسدها ...فأشاح بوجهه قائلاً باقتضاب:

_القتل ليس سهلاً عندي كما تظنين...لكن عقابي أحياناً يكون أقسى من الموت.

رمقته بنظرة طويلة حملت كل تناقضات مشاعرها نحوه...

قبل أن تعاود الاقتراب منه لتضع كفها مبسوطاً على صدره هامسةً برجاء:

_عاصي!!دعنا نبتعد عن هذه البلدة بأكملها...لن أحتمل أن يصيبك مكروه...رفقاً بقلبي وبنفسك قبلي.

لكنه هدر في وجهها وهو ينتفض مكانه خابطاً بقبضته على صدره :

_أنا الذي عشت عمري كله أسداً مهيمناً في عرينه ...تريدينني الآن أن أهرب كفأر مذعور في مصيدة؟!!

هزت رأسها نفياً وهي تهتف بدورها في انفعال:

_ليس هروباً...بل بداية جديدة...بداية نظيفة طاهرة بلا ذنوب ولا كراهية ولا انتقام.

فابتسم ساخراً ليهتف بقسوة فجرتها انفعالاته:

_أخبرتك من قبل أن هذا الطريق لا يعود سالكه...إما أن يكمله لآخره أو يموت مكانه!!

ضغطت راحتها على صدره أكثر وكأنها تطلب مؤازرة قلبه الذي تثق أنه يدعمها في اعتقادها...

لتهتف بمزيج غريب بين القوة والتوسل:

_من قال هذا؟!!إنها مجرد اعتقادات رسخها ماضيك في قلبك...كل طرق الحياة ذات اتجاهين...باب الرجوع مفتوحٌ دوماً فقط لمن أراده.

كانت نبضات قلبه تدوي صارخة تحت أناملها في هذه اللحظة فاضحة انفعاله الذي ناقض ملامحه الآن وقد عاد إليها برودها ...

مع قوله الصارم بعدها :

_نعم...لمن أراده...وأنا لا أريد!!!

أغمضت عينيها في يأس بينما أكمل هو مبرراً:

_لن أضيع كل ما بنيته طوال هذه السنوات ...الأمر ليس مجرد فرض سلطة أو نفوذ...لكنه حصاد عمري كله...هل تفهمين؟!!

ظلت مغمضة عينيها للحظات عاجزة عن جداله...

ثم فتحتهما فجأة لتطالعها عيناه بنظرة غريبة...!!!

غمامة ترددٍ رمادية أمطرت على غابات زيتونٍ تشابكت قسوتها مع غموضها ...

وجعلتها تتوقع ما يسوؤها أكثر...

قبل أن يرحمها من ترقبها أخيراً ليقول ببطء:

_أنا طلبت إحدى بنات عمومتي للزواج!

هل فاجأها؟!!

يظن نفسه قد فعل؟!!

هي -للعجب-قرأتها في عينيه قبل أن يتفوه بها...!!

قرأت سطوراً من عاطفة اختنقت بعجزها أمام طغيان لن يهتز...

قرأت نحيب روح تتعطش للخلاص من جحيم خطايا مستعر...

قرأت غضباً مرتعشاً بخزيه أمام شعوره بعظم الذنب...

قرأت نظرة رجلٍ يعرف أنه يذبحها لكنه يستجديها المغفرة!!!

لهذا صمتت طويلاً هذه المرة...

ثم عادت برأسها قليلاً إلى الوراء لتأخذ نفساً عميقاً وهي تسبل جفنيها متحاشيةً سهام نظراته...

ثم همست بصوت خانها ليغادر حلقها مهتزاً:

_هل هو قرارك الأخير؟!

فأشاح بوجهه عن أطياف الألم التي لونت ملامحها ليهتف بخشونة:

_ليس لدي بديل!

فتحت عينيها ببطء لتزأر أمواج فضتها بقوتها الثائرة التي انعكست على صوتها:

_هل تدري ما معنى هذا؟!!

فعاود التفاته نحوها وقد أدرك ما تنتويه...

ليصمت لدقيقة كاملة...

قبل أن يتراقص لهب الألم بعينيه مع ارتعاش صوته وهو يهمس بنبرة "عزيز قلبٍ ذَل":

_يشهد الله أنني لم أرجُ أحداً في حياتي...لكنني الآن..

قطع عبارته بزفرة حارة وكأنه استنكف أن يكملها مع تشبثه بأناملها في كفه...

لكن معناها وصلها كاملاً!!

فابتسمت بمرارة لتهمس وهي تداعب أنامله بأناملها في شرود:

_ويشهد الله أنني لم أخذل رجاء أحد في حياتي...

ارتخت ملامحه ببعض الارتياح لكنها عادت تهمس بكبرياء لم يخذلها هنا:

_إلا هذا!!

فعاد يهتف بنفاد صبر:

_لماذا لا تنظرين للأمر كما أراه؟!!الأخرى لن تكون سوى مجرد أم لطفلي!!

فالتوت شفتاها بابتسامة ساخرة مع قولها:

_لو كنت مكاني ...هل كنت لتحتمل؟!!

انعقد حاجباه بغضب فائر ازدادت ثورته مع استطرادها:

_أن تراني مع رجلٍ آخر....تقضي ليلك وحيداً تتخيلني بين ذراعيه...حتى أفاجئك ببشرى أنني سيكون لي طفلٌ منه؟!

فاشتعلت النيران في غابات زيتونه وهو ينقض على فكها فجأة ليتملكه بقبضته هامساً بين أسنانه:

_كفى!!اسكتي!!

لكنها أزاحت أنامله عن شفتيها لتبتعد برأسها هاتفة بانفعال:

_لماذا؟!تظنني سأحتمل عذاباً حقيقياً وأنت لا تجرؤ فقط على تخيله؟!!

قبض أنامله بغضب قبل أن يشيح بوجهه دون رد...

فأشاحت بوجهها هي الأخري لوقت قصير...

ثم همست بابتسامة ذابت في مرارتها:

_طالما كنتَ تزعم أن رهانك عليّ دوماً رابح...وطالما كنتُ أنا أكذّب شعوري أن رهاني عليك ...خاسر!

انعقد حاجباه أكثر وهو يلتفت نحوها بحدة...

لتمتد أنامله فتقبض على كفها بقوة آلمتها...

كان الآن يصارع أقوى شخص يمكن أن يصارعه يوماً...

كان يصارع...نفسه!!!

جزء صغيرٌ بداخله يتمنى حقاً لو يحقق لها رغبتها...

لو يهرب ب-ماسته- النقية خارج جحيم شيطانه...

لو تعود ليده- التي صادقت سلاحه البارد-فرشاة رسمها بألوانها الدافئة...

لو يمزق كل دفاتر ماضيه ليبدأ معها -وبها- صفحة بيضاء جديدة تليق بنقائها...

لكنه يعلم أنه لن يفعلها...!!!

صرح عاصي الرفاعي الذي بناه ساعة بساعة لن يهدمه بلحظة ضعف فجرتها عاطفة...

لا...ليس هو!!!

لهذا عاود همسه الذي اهتز كثيراً هذه اللحظة:

_هذه الزيجة يجب أن تتم في أقرب وقت...أخاف أن يداهمني الموت هذه المرة فلا أجد من يحمل اسم "الرفاعي" بعدي.

يبرر؟!!!

هل هذا ما يفعله الآن؟!!

ماذا تبرر يا سيد عاصي؟!!

خذلانك لي أم لنفسك قبلي؟!!

خسارتي لك أم خسارتك لي؟!!

للأسف ...

إذا خسف القمر وكسفت الشمس وانكدرت النجوم فليس خلف الظلام...

إلا الظلام!!!

وسحب الصيف خادعة لن تبشر يوماً بمطر!!!

لهذا فاجأته بأن مدت أناملها الحرة لتحتضن كفه الممسك بكفها الآخر ثم ترفعه إلى شفتيها ...

فتقبله قبلة عميقة قبل أن ترفع إليه عينيها لتهمس بامتنان لا تدعيه:

_هذه لأجل تلك الليلة التي أخذتَ لي فيها حقي ممن انتهكوني.

اضطربت خفقات قلبه مع احتقان ملامحه وقد التصقت نظراته بغمامتيها الفضيتين اللتين خاف قراءتهما هذه المرة...

عندما عاودت تقبيل كفه بين كفيها لتردف بعدها بنفس النبرة الغريبة بين الامتنان والخذلان:

_وهذه لأجل كوابيسي التي خلصتني منها!

زمّ شفتيه بضيق مكتوم مقاوماً انقباض قلبه في هذه اللحظة...

بينما منحته هي آخر قبلاتها على كفه والتي طالت كثيراً هذه المرة لتهمس بعدها:

_وهذه لأجل كل لحظة منحتني فيها الأمان الذي لم أعرفه إلا معك...لأجل كل مرة ربتت فيها أناملك على

شعري...لأجل كل حضنٍ دافئ لم أنكر احتياجي له....لأجل دور الأب والصديق الذي أديته أنت باقتدار...

ثم سحبت كفيها منه أخيراً ببطء لتردف :

_كنتَ حقاً محطةً هامة في طريقي!!

فازداد انقباض قلبه رغماً عنه وهو يغمغم بانفعال مكتوم:

_كنت؟!!

ابتسمت وهي ترفع كفها أمام عينيها -متجاهلةً الرد على كلمته -لتغمغم بشرود:

_أنتَ لم تلبسني "دبلة" زواج طيلة هذه الأيام.

كانت عبارتها تبدو غامضة في هذا الموقف لكنه قرأ بقلبه ما تعنيه...

فجذبها من ذراعها بقوة نحوه ليلصقها بصدره هاتفاً بلهجته المسيطرة:

_نعم...لم أفعل...عاصي الرفاعي لا يحتاج لهذا كي يثبت حقه في امرأة أرادها!!

لكنها حررت ذراعها منه بقوة شبيهة وهي تقول ببرود خادع:

_ربما هذا هو تفسيرك...أما أنا فلم أفهمها هكذا...

ثم قامت من جواره لتقف قائلة بكبريائها الماسيّ:

_أنا فهمتها على أنني سأبقى حرة حتى ولو خنقتني ب"عقد زواج"!!!

اشتعلت عيناه بغضب أسود وقد انفرجت شفتاه وكأنه سيهمّ بقول شئ ما...

لكنه عاد يطبقهما بقوة مكتفياً بنظراته المتحدية نحوها....

فأردفت وهي تعطيه ظهرها ببطء وبنبرة ذات مغزى:

_سأتركك...كي...تستريح!!

خدشت عبارتها قلبه وهو يشعر أنها تحمل أكثر بكثير من معناها الظاهر...

ماسة تودعه!!!

فعلتها بقبلاتها الممتنة لكل ما فعله وكأنها تسدد له -فواتير مشاعر- قديمة قبل أن تمزقها تحت قدميهما معاً!!!

فعلتها بهمساتها الدافئة التي بخلت ب-اعتراف حب- فضحته نظراتها بسخاء...

فعلتها بقوة تليق بها...

وبتحدٍ يليق به!!!

لكنه لم يشأ الاعتراف بأي ذرة ندم أو تراجع...

فاكتفى بمراقبة ظهرها المنصرف بحسرة لم يستطع نكرانها....

قبل أن يسألها بقلق غلب غضبه:

_أين ستذهبين؟!!

التفتت نحوه بجانب وجهها صامتة للحظات قبل أن تقول بحسم:

_لأخي!!

هذه الكلمة التي لم يألفها لسانها بعد...

لكن كم كانت تحتاجها في هذه اللحظة بالذات...

وكأنها يوم همست "لو أن لي قوة أو آوي إلى ركن شديد"

جاءها المدد بأسرع مما توقعت...

قدرٌ رحيم لم يسلبها أسلحتها كاملة في حرب عاطفتها هذه...!!!

نعم...برغم كل ضربات الأيام الموجعة على ظهر احتمالها...

تأتي تربيتةٌ ناعمة من السماء مبشرة ...

إن مع اليسر يسراً...

و"لسوف يعطيك ربك فترضى"!!

بينما عقد هو حاجبيه وهو يقول لها بلهجته المسيطرة:

_لن أطلقك !

هنا استدارت له بكامل جسدها لتبتسم بمرارة قائلة وهي تكتف ساعديها:

_ستفعل!!اتفاقنا من البداية كان أن "لا إجبار" ...وأنت لن تكرر خطأ حورية معي.

فقام من الفراش ليهتف بحنق وهو يلوح بقبضته في غضب أثاره عجزه:

_حتى مع هذا ....ستبقين زوجتي مادام في صدري نفسٌ يتردد.

تنهدت بحرارة ثم أخذت خطوة نحوه لتميل رأسها قائلةً بتهكم مرير:

_إذن تريد أن يبقى ما بيننا مجرد ورقة؟!!

فاقترب منها مندفعاً ليجذبها نحو صدره بقوة هاتفاً بنبرة مشتعلة:

_أنتِ تعلمين جيداً حقيقة ما بيننا!!

وساعتها تشقق بعضٌ من جدار قوتها لتنحسر أمواج فضتها بخيبة لم تستطع مداراتها وهي تهمس بعتاب:

_لو كان ما بيننا أكثر من مجرد ورقة لما استطعت أن تستبدلني بهذه البساطة...أنت حتى لم تمنحنا فرصة لانتظار علاج!!!

فهزها بعنف مع صرخاته الثائرة:

_لست أنا!!!لكنها الظروف...أنا فوجئت مثلك بالدنيا تشتعل حولي ولن أنتظر حتى أحترق!!!

رفعت رأسها لأعلى بعجز وقد أدركت عقم هذا الجدال...فزفرت هامسة:

_لا فائدة!

ثم نفضت ذراعها منه لتعاود سيرها نحو باب الغرفة

....

ثم توقفت أمام المرآة للحظة...

قبل أن تستدير نحوه لتقول بنبرتها القوية رغم مرارتها:

_هل تذكر صورتنا في هذه المرآة ذاك اليوم الذي جدلت لي فيه شعري؟!!ساعتها قلت لي أن هذه المرآة لم تحمل لك سوى صورتك وحدك طوال هذه السنوات ...

أغمض عينيه بألم وهو يتذكر ما تحكي عنه....

بينما أردفت هي بنفس النبرة:

_ترى أي صورة ستحملها لك مرآتك بعد اليوم يا "سيد" عاصي؟!!

أشاح بوجهه في حسرة وكلماتها -الخبيرة ببواطنه- تخترق روحه كسهام خبيرة يعرف كل منها موضعه وأثره...

ثم انتفض فجأة مكانه على هذا الصوت جواره ....!!!

عندما قذفت هي إحدى قوارير عطرها بعنف نحو المرآة فتصدعت بخدوشها التي أصابتها كلها....

قبل أن ترمقه بنظرة طويلة ذات مغزى عقبتها مغادرتها للغرفة بخطوات ثابتة لا تعكس شيئاً من انفعالاتها الآن....

بينما ظل هو واقفاً مكانه للحظات بعد رحيلها....

قبل أن يتقدم بخطوات متثاقلة نحو المرآة التي منحته صورة مشوهة لنفسه ليست أفضل بكثير مما يرى عليه حاله الآن...

للأسف...

لقد خسر ماسته...

خسرها...فداءً لشيطانه!!!!

================

صراخٌ ...

صراخٌ...

صراخ...

ثم أظلمت الدنيا في عينيها فجأة...

قبل أن تفتحهما من جديد -بعد وقت لم تعلمه -على همسه الحار :

_رؤى.....بالله عليكِ تماسكي....افتحي عينيكِ.

تشوشت الرؤية في عينيها للحظات...

لكنها تبينت وجهه أخيراً وقد احتضن كفها بين راحتيه ...

فابتسمت بوهن وعيناها تميزان الجدران البيضاء للمشفى وتلك الأسلاك الرفيعة التي اتصلت بجسدها...

بينما هتف هو بلهفة:

_أنتِ تسمعينني؟!

أومأت برأسها في ضعف...

ثم همست بصعوبة :

_اقترب!

اقترب منها بجذعه حتى كاد يلاصق وجهها لتلمح الدمع المترقرق في عينيه...

فاتسعت ابتسامتها الواهنة وهي تتعلق بنظراته لتهمس بصوتها المتقطع:

_أنا أنقذت... شرفك.... كما أنقذت أنت شرفي...فهل وفيت... ديني؟!

امتلأت عيناه بدموعه التي بللت كفها وهو يقبله بلهفة عدة قبلات متتابعة...

وقد عجز عن الكلام...

فعادت تهمس بتأثر:

_هل تبكي ...لأجلي؟!

اعتصر أناملها بين كفيه مبتلعاً غصة حلقه قبل أن يهمس بخفوت شديد:

_ولمن سواكِ أفعلها؟!

فأغمضت عينيها بتعب للحظات ثم عادت تفتحهما لتلتقط نظراته التي كانت الآن تقطر عشقاً...

تشتعل بعاطفة طالما تمنتها لكنها لم تكن من حقها...

لهذا تشبثت بأنامله بضعف وهي تهمس بابتسامتها التي لم تغادر شفتيها:

_طالما كنت أسأل نفسي...ما هو الثمن الذي عليّ دفعه كي أحظى بنظرة احترام في عينيك... أنت بالذات...لو كان عمري هو المقابل فأنا راضية.

تأوه بقوة وهو يضم كفها لصدره الذي كان يضج بخفقاته...

ثم همس بحرارة:

_لقد نلتِ ما فوق الاحترام بكثير منذ زمن...ودون أن تحتاجي لثمن!

لكنها بدت وكأنها لم تفهم ما يعنيه فأسبلت جفنيها بوهن...

بينما أردف هو بهمسه المتهدج:

_استريحي الآن فقط ولا تتحدثي كثيراً.

لكنها عادت تهمس بنبرة سعادة طفولية هزمت ضعف صوتها:

_هل علمت ما حدث؟!!أنا هزمت خوفي...لم أخشَ الظلام...لم أخشَ الوحدة.

فابتسم بدوره وهو يقبل باطن كفها بعمق هامساً بتأثر:

_نعم حبيبتي...كنتِ بطلة!

_حبيبتك؟!

همست بها لا تكاد تصدق ما سمعته ...

بينما أردف هو وكأنه ما عاد قادراً على كتمان شعوره أكثر:

_حبيبتي...أجل حبيبتي...حبيبتي منذ أول مرة رأيتكِ فيها...فلم أرَ بعدكِ امرأة أخرى...حبيبتي التي تعذبت بها ولأجلها...حبيبتي التي لن تغادر قلبي حتى يلفظ آخر دقاته.

قالها بعمق شعوره بها منذ عرفها...

بقوة خوفه أن يفقدها فيفقد نفسه معها...

بلهب حسرته الذي كاد يهلكه عندما علم بما حدث لها...

لقد ظن أنه نال من عذابها كفايته ...

لكنه كان مخطئاً!!!

فقد كاد يفقد عقله طوال الساعات السابقة حتى استعاد خفقاته الآن عندما فتحت عينيها!!!

بينما ضحكت هي ضحكة قصيرة تبعتها آهة ألم ...

ثم امتدت أناملها ببطء تحتضن وجنته لتمسح دموعه هامسة:

_تكفيني من الدنيا هذه الكلمات.

ثم أغمضت عينيها لتردف بتردد:

_هل ستصدقني لو أخبرتك ...أنني أحببتك أيضاً؟!!

فتلمس جفنيها المطبقين بأنامله بين أنفاسه اللاهثة:

_افتحي عينيكِ وأنتِ تقولينها.

فتحت عينيها ببطء لترفرف رموشها للحظات قبل أن تتحرك شفتاها بها في تمتمة خافتة...

فمال عليها برفق يحتضن شفتيها بشفتيه هامساً بينهما:

_أصدقك حبيبتي...أصدقك.

تشبثت عيناها بعينيه الهائمتين ليدور بينهما حديث طويل...

عيناها كانتا مشبعتين بشعور عارم لم تعرفه منذ زمن بعيد...

شعور بالرضا...

أخيراً تحررت روحها المثقلة بذنبها لتحلق في سماوات نقية...

أخيراً نفضت عنها رداء ضعفها لتنهض من كبوتها...

أخيراً تذوقت لذة السكينة والاطمئنان بعد طول خوف ووحشة...

أخيراً!!!

بينما كانت عيناه تسردان أساطير عشق لم يعرفه إلا لها...

تلونان الهواء حولها بألوان سحرية ...

وتغزلان لها ثياباً ملكية تليق بسلطانة لم يتربع على عرش قلبه سواها...

تطوقانها بحنان يزرع بين جنباتها ألف زهرة...

ويعزف ألف ألف أغنية...

لتهمس هي أخيراً بوداعتها المعهودة:

_راغب...أنا سعيدة...سعيدة جداً!

فابتسم وهو يبتعد عنها بجسده لتلاحظ تلك "اللاصقة الطبية" على ذراعه فرمقته بنظرة متسائلة...

عندها شبك أنامله بأنامله من جديد ليهمس بحنان:

_لقد اختلطت دماؤنا...

هزت رأسها بضعف فاتسعت ابتسامته وهو يردف:

_نعم...دمي الآن يسري في عروقك .

اتسعت عيناها بإدراك للحظة ثم ضغطت برفق على كفه قبل أن تغمض عينيها لتهمس بشرود:

_سبحان الله...وكأنما أراد القدر أن يتطهر جسدي من دم أفسدته خطيئته...لتحل دماؤك النقية مكانه.

لكنه قبّل ظاهر كفها بتقديس استشعرته خلاياها كلها...مع همسه الذي امتزج حنانه بصدقه:

_ولمَ لا تقولين أنها رسالةٌ لي أنا؟!!كي أدرك أنكِ صرتِ بحق قطعةٌ مني...لن أفترق عنها ولن تفترق عني.

فابتسمت وهي تفتح عينيها لترتشف من عينيه نظرة عشق أخيرة...

قبل أن تهمس بنبرة غلب ارتياحها تعبها:

_أريد أن أنام الآن...مطمئنة راضية مُرتاحة...كما لم أفعل منذ زمن بعيد.

ثم أغمضت عينيها باستسلام عامر بسكينته....

لتشعر بشفتيه تطوفان على أطراف أناملها بتبتل عاشق...

جعلها تشعر وكأنها عادت طفلة تتأرجح بسعادة فترتفع ساقاها تكادان تلامسان السماء ...

ما أجمل الشعور بالطهر بعد الدنس...

بالأمن بعد الخوف....

بالبعث بعد طول عدم...

==========================

الفصل السابع والعشرون

_ماسة!

هتف بها فهد بفرحة غامرة وهو يفتح باب شقته في منزل حسام ليجدها أمامه...

تفحص ملامحها بلهفة وهو يتقدم نحوها باندفاع وقد همّ باحتضانها ...

لكنه تذكر تحفظها الشديد في لقائها السابق معه فتوقف مكانه للحظات بارتباك منتظراً ردة فعلها !!

وأمامه لم تكن هي أقل ارتباكاً...

وجهها كان شديد الاحمرار كعادتها عندما تنفعل...

عيناها الفضيتان كانتا تدوران على ملامحه بمزيج من ترقب واستغراب لرجل يفترض أن يكون أقرب أهل الأرض إليها ومع هذا لم تعرفه إلا منذ أيام!

لكن قلبها كان يشعر نحوه بكثير ارتياحٍ وهي التي تعلمت منذ زمن أن تثق بحكم قلبها فيما يراه...

ومع هذا كانت غرابة الموقف تملؤها رهبة لم تستشعرها من قبل حتى في لقائها مع جاسم الصاوي...

ربما لأن عاصي وقتها ساندها...

وربما لأن -نفورها- من والدها غلب -عاطفتها- نحوه...

وربما لأنها الآن تشعر بحاجة حقيقية لفهد...وتخشى أن يخذلها كما الجميع!!!

ويبدو أنه شعر بكل هذا فقد حاول تخفيف الأمر عليها عندما مد يده ببطء كي يصافحها مع ابتسامته التي اتسعت تدريجياً حتى تحولت إلى ضحكة قصيرة مشعة بعاطفته...

بينما تألقت عيناه ببريق فرح حقيقي لمس قلبها بصدقه ...

لكنها وقفت جامدة تراقب كفه الممدود نحوها للحظات بتردد...

قبل أن تفاجأ هي -نفسها- قبله بأن ألقت رأسها على صدره وسط سيل دموعها المنهمر!!!

دمعت عيناه بتأثر وهو يضمها إليه بكل قوته مقبلاً رأسها بحنان وقد فقد كلماته فجأة أمام هذا الشعور الذي اكتسحه الآن باقتدار...

فهو لم يكن يراها الآن مجرد "أخت" اكتشفها مصادفة بعد كل هذه الأعوام...

بل كانت بعينيه "هدية القدر" لقلب كاد يموت ذبيحاً بحسرته على "حب" رحل...

فعوضه عنه ب"حب" من نوع آخر يحتاجه الآن بشدة!!!

وهو تعلم احترام "هدايا القدر" منذ زمن!!

بينما كانت هي ترتجف بشدة بين ذراعيه مع بكائها المنفعل فربت على رأسها برفق هامساً بحنان :

_لا بأس يا حبيبتي...اهدئي!

ثم أبعدها برفق لينظر لعينيها مردفاً ببعض المرح رغم اختناق صوته بتأثره:

_هل يعني هذا العناق أنك صدقتِ الحقيقة؟!

مسحت دموعها بأناملها وهي تومئ برأسها لتهمس بصوت متقطع:

_جاسم الصاوي أتاني هنا بنفسه...ربما لا تعلم أنت عن هذا فأنا أعرف عن توتر علاقتكما.

انعقد حاجباه بدهشة للحظات ثم جذبها برفق ليدلف معها إلى داخل الشقة مغلقاً الباب خلفهما..

قبل أن يجلس جوارها ليهتف بتوتر:

_ماذا فعل أبي هنا بالضبط؟!

شبكت أناملها في حجرها وقد عاد إليها انتظام أنفاسها تدريجياً ثم همست بمرارة ساخرة:

_جاء يحمل صورة أمي ليتأكد بنفسه من الحقيقة ثم تركني خلفه من جديد منتظراً نتيجة "الانتخابات"!!

زفر فهد زفرة مشتعلة ثم ضمها إليه بذراعه قائلاً بغضب:

_سيعترف بكِ أمام الجميع ...لو كانت ذريعته هي الانتخابات...فالنتيجة ستظهر في خلال بضعة أيام...وبعدها لو لم يفعلها طواعية فسنجبره عليها قهراً.

ورغم أن كلماته منحتها الأمان الذي كانت تنشده لكن بعض الخوف كسا نظراتها وهي تهز رأسها هامسة:

_لا أريد منه أي شئ سوى اسمي الحقيقي...وبعدا سأخرج من حياته للأبد لو شاء...فقط أريد هوية صحيحة أواجه بها قدري الجديد...لقد تشبعت من إهانات الناس للقيطة عديمة النسب...لا...

انقطعت عبارتها بدموعها التي غلبتها الآن...

فعاد يضمها إليه بقوة للحظات..

قبل أن يربت على رأسها هامساً بتأثر:

_كفى يا ماسة...كفى!!

ثم رفع ذقنها إليه مردفاً بحزم حنون :

_من اليوم لن تبكي أبداً...أنتِ ماسة جاسم الصاوي ...سأصرخ بها معكِ في وجه الجميع حتى نستعيد حقك.

منحته ابتسامة ودود وهي تشعر بصدق رغبته في مساعدتها...لكن هاجساً ما جعلها تسأله بتردد:

_لقد علمت أنك قررت الابتعاد تماماً عن طريق جاسم الصاوي فكيف ستكمل حياتك؟!

تنهد بحرارة ثم صمت بشرود قصير قبل أن يقول بضيق:

_كل الأبواب في هذا البلد ستبقى مسدودة في وجهي...هو لن يسمح لي بالخروج عن دائرة سيطرته...لقد فكرت جدياً في البدء بعمل جديد بمساعدة حسام...لكنني أفهم أبي جيداً...سيحطم جناحيّ قبل أن أحاول التحليق خارج سرب طموحه.

انعقد حاجباها بقلق وهي ترمقه بنظرة تعاطف مع همسها :

_والحل؟!

_السفر!

قالها بحسم واثق ثم استطرد وقد عاد لشروده:

_يجب أن أخرج بعيداً عن خيوط شبكته العنكبوتية هنا...يجب أن أبدأ في مكان جديد لا يعرفني فيه أحد وليس لسلطان جاسم الصاوي مكانٌ فيه!

هزت رأسها تفكر في ما يقول وقد بدا الجزع على ملامحها...

عندما التفت نحوها ليردف بابتسامة شاحبة:

_لا تخافي...لن أسافر قبل أن أعيد إليك حقك...كما أن يسرا بحاجتي لبعض الوقت.

ازداد انعقاد حاجبيها وهي تغمغم بحيرة:

_يسرا؟!!ما أعرفه أنك لم تكن تريد هذه الزيجة من البداية.

ظهر التردد على ملامحه للحظات ثم حسم أمره ليقول لها بحزم لم يغادره حنانه:

_ما سأخبركِ به سيبقى سراً بيننا...أنا أعرف أنه يمكنني الوثوق بكِ.

اتسعت عيناها بترقب وهو يحكي لها ما استجد بشأن يسرا وحاجتها للعلاج دون علم أبيها...

ورغبته الصادقة في منحها هذا الدعم الذي تحتاجه ...

ليستطرد بعدها باهتمام:

_سأغادر معها إلى العاصمة في أقرب وقت حتى نبدأ في العلاج....لقد تواصلت مع الكثير من المتخصصين وعلمت أنه بإمكاننا التداوي في المنزل تحت رعاية خاصة وهو ما سأحرص عليه بمنتهى الكتمان حتى لا يعرف والدها عن الأمر شيئاً...

ثم أنهى حديثه بقوله المقتضب:

_هو حقٌ عليّ سأؤديه لعله يمنحني الغفران على طول سنوات من الخطايا.

فابتسمت ماسة بإعجاب وهي تتأمل ملامحه باشتياق..

اشتياق؟!!!

نعم...اشتياق!!!

اشتياق لذاك الأخ الذي حلمت به طوال عمرها والآن تجده حقيقةً أمامها...

بحنانه وتفهمه ودعمه...

وقبلها...بمثالية خلقه البعيد تماماً عن واقع أبيه!!!

لهذا ربتت على كتفه باعتزاز ثم احتضنت كفه لتقول بفرحة صادقة:

_على قدر خيبتي في أبيك يوم لقيته...على قدر فخري بك يا "أخي".

ابتسم بدوره وهو يحتضن ملامحها بحنان قبل أن يعاود تقبيل رأسها هاتفاً بعاطفة حقيقية:

_الفخر لي أنا يا ماسةً تستحق اسمها.

اتسعت ابتسامتها -الآمنة-بعد طول خوف... وهي تشد بأناملها على كفه أكثر....

لكنه عاد يرمقها بنظرة قلقة مع قوله :

_زوجك يعلم عن مجيئكِ إلى هنا؟!!

وكأنما سحبتها عبارته من سماء سعادتها إلى أرض خذلانها...

لتتبدل ملامحها بلحظة فقدت فيها تألق نظراتها...

قبل أن تغتصب ابتسامة باردة لتجيبه باقتضاب:

_دعك منه الآن...أنا سأبقى معك هنا حتى نرحل سوياً إلى العاصمة..

ثم شردت ببصرها لتردف:

_ربما يوماً ما...أخبرك عن تفاصيل قصتي معه ...

تفحصها ببصره باهتمام وقد أنبأه قلبه أن أخته تخفي الكثير حول هذا الرجل...

خاصةً عندما أنهت عبارتها بصوت متهدج:

_قصتنا التي انتهت!

==============

_صباح الفل يا "بطة"!!

هتف بها حسام بمرح مع قرصة مفاجئة لخصرها من الخلف فانتفضت مكانها مع شهقة خافتة...

ليضحك هو بانطلاق مع استطراده:

_لم تعتاديها رغم أنني أفعلها كل يوم تقريباً.

بسطت كفها على صدرها وهي تستدير نحوه لتتمالك خفقاتها للحظة....

ثم كادت تخبطه بقبضتها في كتفه هاتفة بدورها:

_أولاً...أنت فعلاً خفيف الحركة كاللصوص...من عاشر القوم...

لكنه قاطع عبارتها ليدرك قبضتها قبل أن تصل لكتفه ثم جذبها بعض العنف نحو صدره مع همسه الحار بين شفتيها:

_وثانياً؟!!

توهجت وجنتاها بخجل يوازي اشتعال الشغف بعينيه لكنها حاولت التماسك مع هتافها بغضب مصطنع:

_ثانياً...لا تنادني بلقب "بطة" هذا لأنه مستفز مثلك!!

بادرها بقبلة خفيفة ثم عاد يضحك بمرح للحظات ...

قبل أن يفلتها ليحرك كفيه في إشارة معروفة ل"منحنيات جسد أنثى "مع تراقص حاجبيه بمشاكسة:

_وماذا أدعوكِ إذن بكل" مقوماتك" هذه؟!!

ضحكت ببعض الخجل وهي تعطيه ظهرها من جديد لتكمل إعداد الإفطار قبل أن تشاكسه هي الأخرى بقولها ذي الدلال:

_الآن تسخر مني؟!!لم تكن تراني ك"بطة" ليلة أمس !

فابتسم وهو يطوق خصرها بكفيه من الخلف مع همسه الماكر في أذنها:

_وماذا حدث ليلة أمس؟!!ذكريني ربما أكون قد نسيت!!

رمقته بنظرة جانبية واثقة وهي تزيح كفيه من على خصرها لتبتعد عنه بضع خطوات قائلة بنبرة تهديد مرحة:

_حسام!!!ستتأخر عن عملك!!!

فضحك وهو يجلس على كرسي المائدة قائلاً بخبث:

_معك حق....حديث الليل لا يُذكر إلا ليلاً!!

ثم أردف بإعجاب حقيقي:

_ولو أنكِ مغريةٌ بالحديث في أي وقت!!

اتسعت ابتسامتها الواثقة وهي تضع الأطباق أمامه على المائدة...

ثم جلست أمامه لتتأمله وهو يتناول طعامه بتفحص حنون...

علاقتهما تتحسن يوماً بعد يوم...

هذه العلاقة التي -ربما- أرهقتها كثيراً لكنها منحتها "الأكثر"!!

منحتها الثقة التي كانت تحتاجها للتغلب على عقدة "الدمية المعيبة" التي طالما خدشت جدار أنوثتها!!!

نعم...الآن صارت ترى نفسها أنثى جديرة بالعشق في جميع أحوالها...

صحيحٌ أنها كانت تشعر بالخجل أولاً من نوبات شرودها المرضية التي كانت تنتابها أحياناً في أشد لحظاتهما خصوصية ...

لكنه ساعدها على تجاوز الأمر بتفهمٍ كبير حتى صار هذا الأمر لا يقلقها كثيراً...

حتى أنها أصابتها ليلة أمس تحديداً وهي بين ذراعيه في ذروة اشتعال عاطفتهما....

لتفيق منها على "نظرة " بعينيه كانت تساوي لديها الكثير!!!!

لا...لم تكن نظرة إشفاق أو عطف تؤذي كبرياء أنوثتها...

بل كانت نظرة شغف وضيق رجلٍ يريد إذكاء عاطفة امرأته!!!

وكم بين النظرتين من فروق لو تعلمون!!!

هذه النظرة الأخيرة وحدها كانت كفيلة بمحو تاريخ طويل من شعور بالانتقاص والدونية...

لقد نجح حسام في منحها صورة حقيقية لنفسها تفخر بها أمام مرآتها بعد كل هذا العمر...

فكيف تشكره؟!!

ورغماً عنها تخلل تأملها -الممتن- له صورةً باهتة لمعتصم...

ترى لو كان مكانه هل كان سيقبل عيبها رغم ما كان يزعمه من حب؟!!

هل كان حبه لها -وحده- كافياً لرأب صدع جدرانها المتآكلة؟!!

وهل كان حبها له -وحده- ضماناً لنجاح هذه العلاقة؟!!!

أم أن الحب وحده-في حالتهما- لا يكفي!!!

إذن...هل أحبت حسام؟!!

هي لا تدري...

شعورها معه أقرب لمن آوى إلى ركن حصين وهو لا يطمع سوى في الأمان...

الثقة...

والكثير ...بل الكثير جداً من العاطفة حتى وإن لم تكن بلا مسمى!!!

وحسام يمنحها كل هذا بسخاء حتى ولو لم يكن مزيناً بزهور الحب التي لم تنبت في قلبها سوى ل"معتصم"!!!

نفضت عن رأسها الخاطر الأخير بعنف زاجرةً نفسها عن التفكير فيه ....

قبل أن تتنحنح بارتباك لتغمغم وهي تشعر بالذنب على خواطرها السابقة:

_شكراً يا حسام.

توقف عن مضغ الطعام للحظة رمقها فيها بنظرة متسائلة فابتسمت لتردف بامتنان:

_أنا سعيدة معك.

غامت عيناه بحزن مفاجئ كسا مقلتيه للحظات قبل أن يغمض عينيه دون رد...

وكأنه يقاوم الرد عليها بكلمات ستفصح عن مكنون صدره الذي لا يريد له أن يطفو على السطح...

سعيدة؟!!

حقاً؟!!

بعدما كل فعله بها؟!!

لكن لماذا العجب؟!!

هذه هي دعاء التي عرفها على حقيقتها جيداً في الأيام السابقة...

قلبٌ من "الماس" يرضى بالقليل بعدما عانى من كثرة خدوشه!!!

لكن...هل يخفف هذا من وزر شعوره بالذنب نحوها؟!!!

لهذا تنهد بحرارة وهو يعاود فتح عينيه مع قوله بابتسامة شاحبة:

_اللهم دوماً!

اتسعت ابتسامتها وهي تربت على كفه بحنان مس قلبه بصدقه...

لكنه أبى الاستسلام لتصديقه فاغتصب ضحكة مختنقة مع قوله:

_لماذا لا تأكلين معي؟!!هل وضعتِ سماً في الطعام؟!!

ابتسمت وهي تهز رأسها هاتفة بمرحها المعهود:

_اخلع عقليتك البوليسية هذه مع حذائك على باب البيت يا "سيادة الرائد"...خنقتني!!

ثم بدأت بتناول طعامها مردفة:

_لم لا تقول أن "البطة" تريد إنقاص وزنها فراراً من سخريتك!!!

ضحك ضحكة صافية هذه المرة وهو يضع لها المزيد من الطعام في طبقها ثم غمزها بشقاوة هاتفاً:

_لا متعة تضاهي النقار معكِ يا "بطة"..كلي كما تشائين وكلما زاد وزنك زادت مشاكساتي!!!

حاولت أن تعبس بوجهها في غضب طفولي لكن مرحها -الصادق هذه المرة - غلبها ...

فوجدت نفسها تبتسم وهي تخرج له لسانها مغيظة إياه...!!!!

انتهيا من تناول الطعام بعدها بدقائق فقام من مكانه ليقول برفق:

_أعدي نفسكِ لحفل زفاف اليوم...سيحضره جميع زملائي وأريدكِ أن تكوني ملكة النساء بلا منازع!

فقامت بدورها لتبسط كفها جوار رأسها في تحية عسكرية مع قولها بصرامة مصطنعة:

_تمام يا "أفندم"!!

قرص وجنتها مداعباً قبل أن يميل على وجنتها الأخرى بقبلة مفاجئة صاحبت قوله:

_تمام يا "بطة".

===============

_ما رأيك؟!

غمغمت بها بلهجتها الواثقة الجديدة بعدما أكملت ارتداء ثيابها...

فانعقد حاجباه بتفحص للحظات وهو يديرها حول نفسها ثم هز رأسه بعدم رضا...

قبل أن يفتح خزانة ملابسها ليلتقط لها ثوباً آخر قائلاً باهتمام:

_ارتدي هذا أفضل...هو أكثر فخامة!

تناولته منه ببعض الخيبة وهي تشعر بضياع مجهودها في الدقائق السابقة...

لكنه لم ينتبه لهذا وهو يتناول علبة مصوغاتها ليتخير لها طاقماً ماسياً باهظ الثمن كان قد أهداه لها منذ فترة مردفاً بنفس الاهتمام:

_وارتدي هذا أيضا .

أومأت برأسها إيجاباً ثم بدأت في تبديل ثوبها بالآخر الذي اختاره حتى انتهت لتواجهه بمظهرها الجديد

الذي تفحصه باهتمام أكبر مع قوله العملي:

_وجهكِ يبدو شاحباً...استعيني ببعض مساحيق الزينة.

فالتوت شفتاها بابتسامة باهتة مع قولها ببعض الضيق:

_زعمت أنك لا تحب وجهي ملطخاً بأصباغ.

لكنه لم ينتبه لرنة الضيق في صوتها وهو يدفعها برفق نحو المرآة قائلاً بنفس النبرة المغالية في الاهتمام:

_لا بأس...هذه الليلة فقط...لا أريد أي انتقاد لمظهرك...إنها أول مرة يرونكِ فيها بعد زفافنا.

مطت شفتيها في استياء وهي تتناول فرشاة زينتها لتضفي بعض الحمرة على وجنتيها تحت نظراته المتفحصة ...

ثم عادت تواجهه ببصرها في ترقب فأومأ برأسه في استحسان...

قبل أن يتناول قارورة عطر بعينها ليتشممها بأنفه مقارناً بينها وبين ثلاث أُخَر...

ثم ناولها لها قائلاً:

_هذه مميزة.

كان ضيقها واضحاً هذه المرة وهي تجذب قارورة العطر ببعض العصبية من يده هاتفة بضجر:

_ما الأمر يا حسام؟!هل ستكون مغالياً هكذا في اهتمامك بمظهري كلما خرجنا؟!!

أشاح بوجهه بضيق هو الآخر للحظة قبل أن يحاول تغليف نبرته ببعض الرفق مع قوله:

_تعودت دوماً أن أحتكر نظرات الإعجاب في أي مكان أذهب إليه...ماذا يضيركِ لو حافظتِ لي على هذا المستوى؟!

تنهدت بحرارة وهي تستعيد ذكريات هوسه الواضح بالمظاهر منذ عرفته...

فحاولت إقناع نفسها بأن الأمر يتعلق بطبيعة وظيفته التي تكسب ذويها بعضاً من الفخر والاعتزاز بالنفس...

لهذا رفعت قارورة العطر نحو رقبتها تكاد تغرق نفسها بزخات متتابعة وكأنها تفعلها فقط لترضيه...

قبل أن تضعها جانباً لتهمس باستسلام ساخر:

_ما رأيك؟!جاهزة؟!

تملك كتفيها بقبضتيه وهو يتأملها متفحصاً باهتمام قبل أن يقبل جبينها بعمق هامساً بإعجاب حقيقي:

_مذهلة!

ابتسمت رغماً عنها برضا وكلمته اليتيمة تغازل أنوثتها بحنوّ لتطمس معالم عقدة نقص قديمة...

قبل أن تتأبط ذراعه لتغادر معه الغرفة نحو باب الشقة ...

وقبل أن يضع كفه على المقبض استوقفته بهمسها المترقب باسمه...

فالتفت نحوها بدهشة لتتشبث بنظراته في استقراء صامت للحظات قبل أن تسأله ببطء:

_مادمتَ مهتماً بالمظاهر إلى هذا الحد فلماذا اخترتني للزواج رغم مرضي!

اختلجت عضلة فكه كاشفة انفعاله الذي حرص على إخفائه بشدة مكتفياً بصمته المظلم مع إطراق رأسه للحظات مرت بها كساعات...

فعاودت همسها برجاء هذه المرة:

_حسام!أرجوك أجبني.

رفع إليها عينين مشتعلتين عادت إليهما نظراتهما الصقرية للحظات كاد قلبها يتوقف فيها خوفاً...

قبل أن يحتل الحزن الشفاف مقلتيه رويداً رويداً ليغرس بصدرها هي ألف خنجر من قلق وألم!!

ما الذي تخفيه خلفك يا حسام؟!!

وأي سرٍ تداريه خلف قضبان قسوتك؟!!

لماذا أشعر بحاجز لا مرئي بيننا يمنعنا من التلاقي رغم محاولاتنا الجاهدة؟!!

لماذا اخترتني أنا بالذات ؟!!

لماذا ارتضيت السير في هذا الطريق رغم قسوة بداياته؟!!

لماذا؟!!لماذا؟!!

بقيت تساؤلاتها بلا جواب لكنها بدت وكأنها غادرت رأسها لتظللهما معاً بغمامات رمادية ...

ولما يأست من أن يمنحها غموضه الكتوم جواباً غيرت سؤالها لآخر أكثر يسراً:

_ألا تخشى مثلاً أن تصيبني إحدى نوباتي أمامهم فيفتضح شأني؟!!

اشتعلت عيناه بقلق مفاجئ للحظات قبل أن يخفي هذا بمهارة مع جوابه المقتضب:

_لن أتركك لحظة ...حتى لو حدث هذا سأتدبر الأمر.

ثم حاول صبغ نبرته ببعض المرح الذي لم يخدعها:

_لا تكوني متشائمة هكذا...دواؤكِ يؤتي أثاره بفعالية تامة...ونوبات شرودكِ هذه لا تستغرق سوى بضع دقائق على الأكثر...فلا تدعيها تفسد علينا حياتنا.

اغتصبت ابتسامة باهتة على شفتيها وهي تطرق برأسها مدركة عقم الحوار...

ليسودهما صمت طويل طوال الطريق بسيارته ...

لم يكن أحدهما قادراً على النظر لصاحبه وكأن كليهما يخشى انكشاف ستر الخفايا بنفس القدر!!

حتى اختار هو قطع الصمت بقوله ببساطة مصطنعة:

_فيمَ أنتِ شاردة؟!

تنهدت بحرارة وهي تنظر لجانب الطريق هامسة بشرود:

_حلمٌ غريب رأيته البارحة يسيطر على تفكيري.

وكأنما منحته- النجدة- بتغيير موضوع الحديث الذي يؤرقهما معاً...

فالتفت نحوها بابتسامة ماكرة ليهتف مشاكساً:

_ماذا؟!!حلمتِ أنني سأتزوج أخرى؟!!

منحته ابتسامة باهتة وهي تعاود التفاتها نحوه لتجيب بنفس الشرود :

_حلمت أنني أسير في حديقة واسعة رائعة الجمال...وكأنها الجنة ...كنت سعيدة حقاً...وأقول لنفسي هل الجنة بهذا الجمال؟!!حتى برز أمامي فجأة جبل كبير

تعلوه عينٌ ضخمة بشكل غريب أثارت فزعي لكنني وجدتها قد كُتب عليها "الله أكبر"!

ورغم أن حلمها أثار انقباضه كذلك لكنه ربت على كفها برفق قائلاً بهدوء:

_الحلم تفسيره بسيط...جنة وعينٌ و لفظة "الله أكبر"!!!

هزت رأسها بتساؤل فأوقف السيارة التي كانت الآن أمام قاعة الحفل بالضبط ليستدير نحوها بجسده مع غمزة مشاكسة ناسبت غرور قوله:

_يحسدونكِ عليّ يا "بطة"!!!

فابتسمت ابتسامة باهتة وهي تطرق برأسها دون رد...

عندما رفع ذقنها إليه مردفاً بنبرة أكثر جدية:

_لا "أريد " ابتسامتكِ هذه...بل "أريد" ضحكتك الساحرة التي تنير وجهك...نحن على وشك الدخول للحفل ..."أريدكِ"أن تكوني نجمته..."أريدكِ" أن تخطفي قلوب الجميع قبل أبصارهم..."أريد"أن تكون زوجة حسام القاضي حديثهم للأيام القادمة.

رفعت إليه عينيها ببعض القلق وانقباض قلبها يزداد دونما سبب...

هل انتبهت كم مرةً تكررت كلمة "أريد" في عبارته؟!!

هل لمحت تلك الجذوة المشتعلة في عينيه؟!!

هل اشتمت تلك الرائحة النفاذة لغرورٍ يخفي خلفه نفايات شعوره بالنقص؟!!

نعم...فعلت...

ولم يزدها هذا إلا ارتباكاً!!!

لكنها تجاوزت عن كل هذا وهي تأخذ نفساً عميقاً تستدعي به قوتها....

قبل أن تترجل من السيارة لتتأبط ذراعه بفخر حقيقي هذه المرة!

ستعيش الحلم لآخره هذه المرة...

سترتشف كأس عطاياها لآخر قطرة!!!

تجاوزا باب القاعة نحو ذاك الجمع الذي التف هناك حول العروسين لتبتلعها عاصفة باردة من التهاني الحارة في ظاهرها...

لكنها كانت تشعر أنها تخفي خلفها نظراتٍ متفحصة تقييمية تليق كثيراً بمغالاة حسام الشديدة في الاهتمام بمظهرهما!!!

ولم تمضِ بضع دقائق حتى انسابت موسيقا هادئة في المكان تدعو الجميع لمشاركة العروسين الرقص ...

فأحاط خصرها بكفيه وهو يجذبها نحوه مقرباً إياها إليه مع همسه الناعم في أذنها:

_تجيدين هذه الرقصة أم ننسحب؟!

رفعت إليه عينيها بتردد لتلمح نظرة حنان حقيقية في عينيه شجعتها لتهمس ببعض الرجاء:

_لا أجيدها...لكنني أريدها...

ثم ابتسمت بخجل مردفة:

_أظن الأمر بسيطاً...احتضنني فحسب وأنا سأساير خطواتك.

نظر إليها بتردد للحظة قبل أن تدور عيناه حول النظرات المتربصة بهما من كل صوب...

ثم همس بحذر:

_لا بأس...لكن انتبهي لخطواتك.

اتسعت ابتسامتها الحالمة وهي تتأمل ملامحه المنشغلة بترقب الحاضرين لتهمس بدلال:

_حسام...كن معي أنا...أنا فحسب!

استقرت عيناه أخيراً على عينيها اللتين منحتاه أخيراً صورة مشبعة بالرضا ...

فابتسم ابتسامة- حقيقية -وهو يقترب بوجهه منها أكثر هامساً :

_تبدين سعيدة...هل أعجبكِ الحفل؟!

تناست كل هواجسها -عمداً -وهي تتشبث بخيوط إحساسها الجديد معه لتهمس بصدق:

_أعجبتني صورتي في عينيك.

ثم تأوهت بخفوت وهي تسند جبينها على ذقنه مردفة :

_تبدو فخوراً بي حقاً...وكم يعني لي هذا الكثير.

ارتعشت ابتسامته الواثقة للحظات اختلجت فيها عضلة فكه انفعالاً كعادته....

وعبارتها تعكس له شعورها صادقاً...

لكن ماذا عن شعوره هو؟!!

شفقة؟!!

إعجاب؟!!

خوف؟!!

نعم...خوفٌ منها وعليها!!!

خوفٌ أن تعرف ما يجعلها تتركه ...

وخوفٌ أن يضيف لرصيد ذنوبه المزيد من الخطايا!!!

لكنه تجاهل كل هذا ليعاود همسه بعد تنهيدة حارة:

_بالطبع فخورٌ بكِ...أنتِ رائعة.

ارتجف جسدها انفعالاً بين ذراعيه وهي تسمعها منه بهذا الصدق ...

وبهذه الحرارة!

هل اندثرت أسطورة "الدمية المعيبة" أخيراً؟!!!

الآن ترى نفسها أنثى حقيقية يحق لها الحب..

بل تحق لها الحياة!!!

أنثى يراقصها زوجها بفخر أمام الجميع دون أن يشعر أحدهما بأي نقصان في شخصها...

لكن...هل كان هذا صحيحاً؟!!

ورغماً عنها انسحبت عيناها تراقبان نظرات الحضور بظمإ آن الأوان لريّه بنَهَم...

وأناملها تتشبث به تشبثها بحلمها الوردي الذي طالما داعب مخيلتها!!!

وفي نفس اللحظة تقريباً انسحبت عيناه هو الآخر لنظرات الناس بنفس التعطش!!!

وكأن كليهما كان لا يريد رؤية -صاحبه- بقدر ما يريد رؤية -انعكاس صورتهما- في عيون الآخرين!!!

فيالها من علاقة غريبة...لكنها عادلة!!!

كلاهما أخذ من هذه الزيجة ما كان يحتاجه...

إلى الآن على الأقل!!

انتهت الرقصة أخيراً -بسلام- دون أن تخذله ، فابتعد عنها برفق....

قبل أن يقبل جبينها قبلة عميقة لا يدري إن كانت برغبة حقيقية...

أم أنها فقط كانت مجرد إضافة -أنيقة -للّوحة المرسومة بإتقان أمام الجميع؟!!

لكنها تقبلتها بشعور مفعم بالرضا وهي تسبل جفنيها بدلال أنثوي تحرر -مارده -أخيراً من -مصباح- طال حبسه فيه!!!

لم تدرِ كيف مرت بهما الدقائق بعدها في مجاملات وحوارات كثيرة مع معارفه وزملائه لم تخذله فيها أيضاً بمرحها العفوي وجاذبيتها التي صقلها شعورها الجديد بالثقة...

تسلطت عليها الأنظار بانبهار زاد خيلاءها أكثر لكنه زاد ارتباكها كذلك...

فاستأذنته خفية للذهاب نحو الحمام القريب برغبة لم تقاومها في الاطمئنان على مظهرها...

لتبتسم ساخرة مع قولها لنفسها في طريقها:

_يبدو أن هوسك بالمظاهر سينتقل إليّ يا سيادة الرائد!

اتسعت ابتسامتها وهي تصل أخيراً للردهة القصيرة المؤدية للحمام المرفق بالقاعة...

عندما استوقفتها ضحكات امرأتين تعطيانها ظهريهما مع هتاف إحداهما:

_هل رأيتِ زوجة حسام القاضي؟!الماكر لا يقع إلا واقفاً!!

فضحكت الأخرى لترد بنبرة حسد واضحة:

_هل رأيتِ كيف يعاملها وكأنها نجمة هبطت عليه من السماء؟!!

هزت الأخرى كتفيها وهي تقول ببساطة:

_طبيعي...مادامت قبلته على عيبه!!!

خفق قلب دعاء بعنف عند سماعها لعبارتها الأخيرة....

فاتخذت من الجدار المجاور لها ساتراً تختبئ خلفه وهي ترهف سمعها أكثر لتصلها عبارة المرأة الأخرى :

_عيبه؟!!وهل لحسام هذا عيوب؟!!إنه يبدو كبطل سينما وعيون النساء تلاحقه أينما ذهب!!!

فضحكت رفيقتها ساخرة لتجيبها:

_أنا الوحيدة التي أعلم عن هذا لأنه كان يتردد على عيادة زوجي بالعاصمة قبل طلاقه من يسرا الصباحي.

عقدت الأخرى حاجبيها بشك للحظات ...

قبل أن تردف بإدراك ممتزج بذهولها:

_عيادة زوجك؟!!!تعنين أنه....؟!!!!!

فأومأت رفيقتها برأسها لتقول بحسرة مصطنعة:

_نعم...لكن ليبقَ هذا سراً بيننا فقط... حسام لديه مشكلةٌ ما تمنعه تماماً من الإنجاب.

==================

_تريدين الطلاق يا يسرا؟!

هتف بها باستنكار ونظراته تحمل انكساراً لم يعرف مثله من قبل...

لكنها لم تكترث له وهي تهتف بانفعال:

_نعم...وبلا جدال...

ثم أشارت بكفها للملف الورقي أمامها لتردف بحدة:

_التقرير يقول إنك لن يمكنك الإنجاب يوماً فلماذا أربط نفسي بحياة كهذه؟!!

أغلق عينيه بألم ضاعف انكسار قسماته فيما استطردت هي وكأنها لا ترى كل هذا:

_امرأةٌ في وضعي..باهرة الجمال صغيرة السن...لماذا ترضى بنصف رجل؟!!

نصف رجل!!!

نصف رجل!!!

أفاق من شروده على هذه العبارة التي مزقت خيوط كبريائه من وقتها...

ولازالت تفعل كلما ذكرها...

لقد ردت له الأقدار العادلة ضربته الغادرة ل"طيفه" الراحل...!!!!

وكما لفظها هو من حياته استكباراً وعلواً ليرضي طموحه ب-من ظنها- الأفضل...

لفظته الأخرى بنفس التكبر لتبحث بدورها عمن هو أفضل!!!

جرحٌ بجرح...والبادئ أظلم!!!

لقد غادر يسرا ليلتها بعدما ألقى عليها يمين الطلاق دون مجادلة...

وكأنه يبادر بتسديد دينه القديم...

و عندما اختلى بنفسه في غرفته القديمة بعدها...

قادته خطواته ل"عقد الفل" الذي اندس مكانه منذ وقت بعيد لتتناوله أنامله بحذر مشوب بالندم...

لقد باع نبض قلبه بحب ملك روحه فداءً لواجهته الاجتماعية...

لصورته "الفخمة" أمام الجميع...

وإن كان سيعيش بقية عمره بندمه وإحساسه بالذنب فإنه لن يسمح لهذا أن يطفو على سطح مشاعره...

سيبحث عن امرأة لا يعنيها "عيبه" هذا...

امرأة ترضي غروره بجمالها وتألقها لكنها تحمل هي الأخرى "عيباً " يجعلها دوماً كسيرة العين أمامه!!!

امرأة لا يؤرقها كونه "نصف رجل" مادامت هي الأخرى "نصف امرأة"!!!

وبهذه "السياسة العوراء" اختار دعاء بقرار واثقٍ...

كلاهما يناسب صاحبه لكنه لن يخبرها عن "عيبه " أبداً...

سيجعل الأمر يبدو وكأن العيب منها هي...!!!

سيشعرها دوماً أن مرضها هو الذي يمنعه من حقه في الإنجاب!!!

نعم....لن تذبح امرأة رجولته بعد!!!

وعند الخاطر الأخير عادت نظراته الصقرية تحتل عينيه وهو يدور بهما في أنحاء القاعة يتلقى النظرات المعجبة به -وخاصةً من النساء- برضا غامر...

وكأنه يرمم بها شروخ جدار كبريائه الذي لن يسمح له يوماً أن ينقض!!!

انقطعت أفكاره عندما لمحها تعود من بعيد فتحولت نظراته لحنان -حقيقي -وهو يقوم من مكانه ليتناول كفها متفحصاً ملامحها باهتمام مع تساؤله الهامس:

_لماذا تأخرتِ هكذا؟!

أخذت نفساً عميقاً وهي تشيح بوجهها دون رد...

فانعقد حاجباه وهو يتبين حمرة أنفها ووجنتيها ليهمس بقلق:

_ماذا حدث؟!هل كنتِ تبكين؟!

انفرجت شفتاها عن ابتسامة باهتة وهي تهز رأسها نفياً مع قولها بنبرة ثابتة:

_أشعر ببعض التعب...هل يمكننا الانصراف الآن؟!

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يتلفت حوله ثم عاود النظر إليها قائلاً بضيق:

_ألا يمكنكِ الصبر قليلاً؟!!الكثير من القيادات الهامة على وشك الوصول مع زوجاتهن وكنت أريدكِ أن تلتقي بهن.

فاتسعت ابتسامتها مع بعض السخرية وهي تهمس بنفس النبرة الثابتة:

_أخشى فقط أن يؤدي إرهاقي لنوبة جديدة خاصةً أنني نسيت تناول دوائي....ستكون فضيحة!!

تهدج صوتها في عبارتها الأخيرة وقد بدت على وشك البكاء ...

فظهر القلق الحقيقي في ملامحه عقب حديثها...

لكنه عاود ارتداء قناعه -الأنيق- وهو يرسم على شفتيه ابتسامته الجذابة مع قوله وهو يتابع نظرات الحضور لهما دون أن ينظر إليها:

_حسناً...هيا بنا!

استجابت من جديد لعاصفة التهاني والمجاملات التي اجتاحتهما بصخب مع رحيلهما قبل أن تستسلم لصمت طويل لفّهما طوال الطريق...

حتى صارت معه أخيراً في غرفتهما فالتفت نحوها ليسألها برفق:

_كيف حالكِ الآن؟!

التمعت عيناها ببريق غامض لم يفهمه مع قولها الواثق:

_سأكون أفضل.

فابتسم وهو يطوق كتفيها بكفيه هامساً باعتزاز:

_لقد سرقتِ قلوب الحضور قبل عيونهم...كنتِ أكثر من مذهلة.

ضغطت شفتيها بقوة وهي تغمض عينيها لتهمس أيضاً بنفس النبرة الواثقة:

_سأكون أفضل!

عقد حاجبيه بشك ليهمس باسمها في تساؤل متفحص...

ففتحت عينيها ببطء وقد غامتا بسحابة داكنة ....

قبل أن تترنح مكانها فتشبث بها أكثر مع هتافه القلق:

_هل أنتِ متعبةٌ إلى هذا الحد؟!!هل أستدعي طبيباً؟!

والإجابة -المكررة - جاءته منها وكأنها علقت بشفتيها:

_سأكون أفضل!

هز رأسه بانفعال وهو يتفحص ملامحها التي بدت له أكثر شحوباً وقد هم بسؤال لم يغادر شفتيه...

عندما بادرته هي بقولها الذي صاحب ابتسامتها الباهتة:

_ألم تفهم بعد؟!!

ضاقت عيناه بحذر وهو يحاول قراءة ما برأسها عندما أردفت هي بنبرتها الثلجية:

_الشحوب والدوار وشعوري الدائم بالإعياء...كل هذا يعني أننا...

ثم صمتت لحظة لتضغط على حروفها :

_ننتظر طفلاً!!

اتسعت عيناه بصدمة للحظات وقد انعقد لسانه...

قبل أن تتحول نظراته لبركان من غضب مع صرخته:

_مستحيل!!

ثم صمت لحظات محاولاً تمالك انفعاله قبل أن يعتصر كتفيها بقبضتيه مردفاً :

_هل تأكدتِ من الأمر؟!!أم أنه مجرد استنتاج؟!

أزاحت كفيه من على كتفيها وهي تبتعد عنه بضع خطوات لتعطيه ظهرها مع قولها المتهكم:

_لماذا تتعجب الأمر هكذا؟!

زادت برودة لهجتها من غضبه الذي لم يستطع التحكم فيه أكثر وهو يجذبها من كتفها ليديرها نحوه من جديد مع هتافه الصارم:

_لا تجيبي عن سؤالي بسؤال...أخبريني حالاً عن مدى ثقتكِ بما تزعمين!

_أخبرني أولاً....لماذا طلقت يسرا؟!!

ساد الصمت لحظات بعد عبارتها الأخيرة التي انفجرت كقنبلة في المكان ....

هل عرفت شيئاً؟!!

بالتأكيد!!

وإلا لماذا ربطت سؤالها بسؤاله!!!!

من أخبرها؟!!

والدته لن تفعلها ...

وهو ترك العاصمة كي لا تنفلت الأحاديث لتنال شخصه...وفضل العودة إلى هنا لهذا السبب...

لكن الأهم الآن...ماذا ستفعل بعدما عرفت؟!!

لكنها قاطعت أفكاره عندما اقتربت منه خطوة لتنزع قناعها الثلجي سامحةً لمشاعرها الحقيقية بالانفجار في وجهه مع هتافها:

_لماذا أخفيت الأمر عني؟!!لماذا خدعتني؟!!

تسمر مكانه وقد أصيبت دقات قلبه بالجنون مع انفعاله الذي ازدادت وتيرته مع صراخها الثائر:

_أنا لم أخدعك...لم أدارِ عليك مرضي...لم أجذبك قهراً من عالمك لأسجنك داخل فقاعة كاذبة!

كز على أسنانه بغضب مكتوم وأنامله تنغرس في لحم كتفها بقسوة لكنها لم تتوقف عن سيل بوحها الذي لن توقفه سدود هذه المرة:

_لقد سامحتك على كل ما فعلته...تجاوزت عن تاريخك الأسود معي منذ البداية...عفوت عما لا يمكن لامرأة أن تتسامح فيه...

ثم دفعته بعنف مع صرختها التي بدت وكأن روحها تحتضر خلفها مع كلماتها :

_بالأمس انتهكتَ جسدي وروحي وكنت تريد انتهاك غدي كذلك؟!!

_اسكتي!!

صرخ بها هو الآخر بأقصى ما احتملته روحه التي كانت تنزف هي الأخرى بدماء عجزه وشعوره بالذنب...

لكنها لم ترَ هذا وسط عاصفة غضبها التي طوحت بها من أقصى يمين إرضائه لأنوثتها لأقصى يسار سخطها ...لتكمل صراخها دون وعي:

_لا...لن أسكت..لن أسكت بعد...لن أرضى أن أكون مجرد صورة مكملةً لزينتك أمام الناس...أنت غشاش..أنانيّ....مخادع...

_وأنتِ كاملة؟!!

صرخ بها بهياج مخرساً بقية عبارتها لتتجمد ملامحها بألم عميت عنه عيناه وهو يردف بنفس الثورة:

_كلانا كان مناسباً للآخر...فلا أظنك تريدين أطفالاً يرثون عيبكِ ومعاناتك!

ازدادت ارتجافة جسدها فطوقته بساعديها لتحاول التماسك مع نبرتها المرتعشة:

_على الأقل...كنت منحتني حق الاختيار.

_اختيار؟!!

بسخرية أليمة نطقها لتقع في صدرها كخنجر مسموم....مع استطراده الهادر:

_أي اختيار لمن هي مثلك؟!!أنا كنت فرصتك كما كنتِ أنتِ فرصتي ...فاعرفي قدر نفسكِ ولا تتعاليْ.

أغمضت عينيها بقوة وهي تشعر بقرب انهيارها إزاء كل هذا الانفعال...

لكنه لم يكن يرى سوى صورة عجزه في مرآة كبريائه المكسورة...

تلك الصورة التي كانت وحدها كفيلةً بتهييج جروحه كوحش ثائر...

ليجد نفسه يجذبها من ياقة ثوبها الثمين فتسمع هي صوت تمزق القماش يصاحب قسوة عبارته:

_ارجعي بذاكرتكِ لحفل الليلة وتبيني كم امرأةً تمنت مكانكِ جواري...أنا حسام القاضي...لن ينتقص قدري شئٌ...هل تفهمين؟!!

ثم دفعها بعنف ليغادر الشقة كلها باندفاع...

تاركاً إياها خلفه وقد انتابت جسدها تشنجاته القوية لتعاودها أعراض نوباتها بأشد صورها ضراوة في نهاية مأساوية لهذه الليلة العصيبة...

نعم...هذه المرة لم يقتصر الأمر على مجرد إغماءة وعضة لسان دامية ...

فالسقوط هذه المرة كان ثمنه غالياً...

أغلى بكثير مما كانت تتوقع يوماً!!!!!

=========

_حمداً لله على سلامتك يا سِتّ البنات!!

قالها عبد الله في المشفى بنبرة مرتعشة غريبة على أسلوبه الجاف معها وهو يضمها إلى صدره برفق متحاشياً مكان إصابتها فابتسمت بسعادة حقيقية وهي ترفع عينيها إليه مرددة بتأثر :

_ستّ البنات؟!لازلت تذكر يا عبد الله؟!

دمعت عيناه بتأثر هو الآخر وهو يقبل رأسها هامساً:

_طالما كان أبي يدعوكِ هكذا...وأنا لن أناديكِ إلا بهذا اللقب منذ اليوم.

اتسعت ابتسامتها النقية وهي تدفن وجهها في كتفه لتجرب هذا الشعور الذي افتقدته معه منذ عهد بعيد...

شعورها بالراحة والأمان في كنف الأخ الذي ليس لها سواه...

هذا الشعور الذي كان يغمرها عبد الله به بلا حدود بعد وفاة والديهما قبل أن تسحبه الحياة في دوامتها ليتلاشى هذا الشعور ببطء ويتحول إلى مجرد شعور بأسيرة وسجانها!!!

بينما كان هو يضمها إليه بحنان يوازي قوة خوفه من فقدها عندما سمع عن الخبر الصاعق...

لم يدرِ حتى كيف حملته قدماه إلى هنا ...كل ما يذكره هو تشبثه بمصحفه ودعائه ودموعه التي بللت لحيته وهو يدعو الله بخشوع أن يعيدها إليه كي يعوضها عن طول غفلته عنها...

لقد شعر وقتها أن القدر الرحيم الذي طالما أغدق عليه النعم واحدة تلو الأخرى يوشك على عقابه بفقدانها طالما لم يؤدِ حق شكرها...

في البداية خسر "صفا روحه" ...

ثم خسر مالاً كان يتصرف فيه كما يشاء...

فهل يخسر شقيقته أيضاً؟!!

لهذا لم يكن مبالغاً عندما سجد لله شكراً بمجرد أن سمع عن إفاقتها ونجاتها من هذا الحادث الغادر...

لقد اعتبرها وقتها إشارة السماء بفرصة ثانية للتوبة بعد طول غفلة...

والآن وبعد مرور أيام على هذه الحادثة وقرب تماثلها للشفاء يجد نفسه يضمها إليه كما فعل تلك الليلة التي توفي فيها والداهما...

فسبحان من جعل التضرع وقت البأس عبادة الغافلين كي يعودوا ، ولم يذرهم في طغيانهم يعمهون!!

لهذا عاود تقبيل رأسها بحنان قبل أن يقول لها باعتزاز:

_أنا فخورٌ بكِ حقاً...بنتٌ بمائة رجل!!

رفعت وجهها إليه بخجل ممتزج بفرحتها عندما قال راغب الواقف أمامهما بجدية تامة لكنها لم تُخفِ عاطفته نحوها:

_كلنا فخورون بها يا شيخ عبد الله...ونِعم التربية!

تمتم عبد الله بالحمد في خشوع قبل أن يبعدها برفق وهو يربت على كتفها وقد فاضت عيناه بندم حقيقي استشعرته

هي بروحها الشفافة فربتت على كتفه بدورها وهي تقول بوداعتها :

_سلمك الله يا أخي وأبقاك لي!

هز عبد الله رأسه وهو يقوم من جلسته جوارها على الفراش ليصافح راغب بود لم يخلُ من تحفظ ...

فلايزال بصدره عليه عُتبٌ لا يملك تخطيه ...

وكيف لا؟!!

وهو يحمّله -وإن لم يقلها صراحةً- مسئولية ما حدث لشقيقته!!!

لهذا قال بنبرة عاد إليها حزمه المعهود:

_لقد علمت أنهم سمحوا لها بالخروج من المشفى اليوم...أستأذنك أن تعود معي لبيتي فالوضع في بيتك ليس ملائماً لها الآن.

فنظر إليها راغب بقلق يطلب مؤازرتها لكنها اكتفت بإطراق رأسها الصامت وكأنها توافق عبد الله على قوله...

لينعقد حاجباه بغضب حاول كظمه قدر المستطاع لكنه سيطر على نبراته:

_أنا لم أقصر في حقها يا شيخ...لم أتركها لحظة واحدة منذ الحادث...والحادث نفسه كان قدرياً ولم يكن لي ذنبٌ فيه.

ثم أردف بنبرة أقوى:

_زوجتي ستخرج إلى بيتي ...لا جدال في هذا يا شيخ!

قالها وهو يشعر لأول مرة بضعف موقفه معها...

لو أصرت رؤى على الطلاق كما كانت تنتوي فهذا الحادث الأخير سيجعل عبد الله أكثر إصراراً على إتمام الأمر ....

وساعتها سيكون اعتراضه هو غير مقبول فهي كادت تموت بسبب زوجته الثانية فمن يلومها لو اختارت الفراق الآن؟!!!

بينما تجمدت ملامح عبد الله للحظات وقد همّ بالاعتراض لكنه تذكر ما عاهد الله عليه بشأنها بعد الحادث...

فالتفت إليها ليسألها بنبرة رفيقة:

_رؤى...أنتِ صاحبة القرار وأنا سأوافقكِ عليه أياً ما كان.

صاحبة القرار!!!!

يالله!!!حقٌ مسلوبٌ طالما انتظرته!!!

فأي ثمنٍ كان عليها دفعه لتناله؟!!

لكن...رب ضارة نافعة!!

الحادث الأخير رغم قسوته كان بمثابة شهادة ميلاد جديدة لها...

جعلها تدرك مشاعر الجميع الحقيقية نحوها والتي أغدقوها عليها بمنتهى الكرم...

عبد الله وراغب ووالدته التي حرصت على زيارتها رغم مرضها...

وحتى هيام التي طوق رقبتها صنيع رؤى مع شقيقتها!!!

لقد صارت فجأة محل اهتمام الجميع وتدليلهم لتعوض بهذا طول فاقتها لكل هذا!!!

والآن...ماذا بعد؟!!

هل توافق عبد الله على ما يريده؟!!

أم تستجيب لرجاء راغب النابض بعينيه ؟!!

هل تكتفي بهذا القدر الذي نالته من عاطفة رجل لم تعشق غيره وتستمع لنداء عقلها وكبريائها؟!!

أم تبقى قليلاً تتنعم بالتحليق فوق غمام سماء الحب بعدما شفيت جناحاتها المكسورة؟!!

لا تدري!!!

القرار أصعب كثيراً مما تحتمله مقاومتها !!!

لهذا ظلت مطرقة برأسها للحظات كاد فيها قلب راغب يتوقف ترقباً...

قبل أن ترفع رأسها لتقول مخاطبةً عبد الله بنبرة واثقة جديدة على طبيعتها الخانعة:

_سأناقش الأمر مع راغب وأخبرك بما اتفقنا عليه...لكنني سأعود اليوم لبيته على أي حال.

فابتسم راغب بفرح بينما تفحصها عبد الله بقلق حقيقي قبل أن يعاود سؤالها بإشفاق:

_واثقة يا رؤى؟!

دمعت عيناها رغماً عنها وهي تشعر بعظم مسئولية القرار لكنها كانت سعيدة رغم هذا لأنها من ستدير دفة مركبها هذه المرة...

وليس هذا فحسب بل تحظى بدعم أخيها كذلك ...لهذا عضت على شفتها بانفعال قبل أن تومئ برأسها هامسة بنبرة مؤكدة:

_واثقة يا أخي.

تنهد عبد الله في استسلام ثم ربت على كتفها موافقاً مع همسه الحاني في أذنها بخفوت وكأنه يعتذر عما سبق من طول غفلته عنها:

_لن أفوّت يوماً دون زيارتك كي أطمئن عليكِ.

دمعت عيناها بتأثر وهي تمنحه نظرة متسامحة قابلها بفيض نظراته الحنون قبل أن يلتفت لراغب قائلاً برفق:

_اعتنِ بها.

_في عينيّ يا شيخ!

قالها راغب بصدق فغادرهما عبد الله بعدما رمقها بنظرة عطوف أخيرة...

ولم يكد راغب يغلق الباب خلفه حتى اندفع نحوها ليجلس جوارها مطوقاً إياها بذراعيه قبل أن يهمس باشتياق:

_أخيراً انفردتُ بكِ.

ابتسمت ابتسامة شاحبة وهي ترفع عينيها إليه عندما أردف هو بانطلاق يناقض تماماً تحفظه السابق معها:

_كنت على وشك أن أطرد الجميع وأكتب على الغرفة "ممنوع الزيارة"...لكن لا بأس...اليوم تعودين لبيتي ولن أسمح أن يراكِ أحدٌ غيري .

اتسعت ابتسامتها الشاحبة وهي تحاول تجاهل تلميحه العاطفي لتهمس بنبرة غريبة:

_أمي أتعبت نفسها كثيراً عندما أصرت على زيارتي صباح اليوم.

لكنه رفع ذقنها إليه محتضناً ملامحها بعينين عاشقتين حد الثمالة...

ثم همس بمواربة:

_تحبك!

ازدردت ريقها بتوتر وهي تسبل جفنيها مدركةً مقصده الحقيقي بعبارته...

قبل أن يردف هو بحرارة :

_تحبكِ جداً...جداً يا رؤى!

قالها وهو يميل بشفتيه على وجهها فتوقعت أن يقصد شفتيها لكن غايته كانت هناك...

على شق ذقنها الساحر الذي استقرت عليه شفتاه بشغف حار مع همسه المدلل:

_ومن لا يحب "ست الحسن" صاحبة "طابع الحسن"؟!!

احمرت وجنتاها بانفعال خجول وهي تسمعه يغازلها صراحةً لأول مرة...

بينما ابتعد هو بوجهه أخيراً مكتفياً بملامسة ذقنها بإبهامه لينفجر سيل كلماته العاطفي الذي طالما حجزه خلف سدود كتمانه :

_وكأنما خُلقتِ هكذا ليعشقكِ كل البشر...أنتِ امرأةٌ خُلقت من حب...بل خُلقت للحب!

ارتجف جسدها تأثراً وهي تشعر بكلماته تسحبها بعيداً عن التيار الذي تريد أن تسبح فيه...

نعم...بعد طول تفكيرها في الأيام السابقة كانت قد وصلت لقرار أخير...

قرار يحاربه هو الآن بفيض عاطفته التي يشهد الله كم تحتاجها حقاً لكنها...لن تقبلها!!!

لهذا استجمعت كل قوتها لتعاود تجاهل عبارته وهي تقول مغيرة الموضوع:

_هل سمعت عبد الله وهو يقول أنه فخورٌ بي؟!لقد تغير كثيراً.

وكأنما أدرك محاولتها البائسة للفرار من حصار عاطفته وهو ما لن يسمح به على أي حال...

لهذا عاد يطوف بشفتيه على وجهها كله وهو يضمها إليه أكثر هامساً بين قبلاته:

_كلنا محظوظون بكِ يا "ست الحسن"!!

لكنها دفعته برفق متشبثةً بما انتوته لتهمس بمرح مصطنع يداري مشاعرها:

_أنت تدعوني "ست الحسن" وعبد الله يدعوني "ست البنات"؟!!استصيبونني بالغرور!!

فضحك ضحكة قصيرة وهو يسند ذقنه على رأسها المزروع بين ضلوعه هامساً بنبرة رخيمة غادرتها خشونته المعتادة أخيراً:

_يحقّ لكِ الغرور كله...

ثم احتضن وجهها براحته ليرفعه نحوه من جديد مردفاً:

_والدلال كله...

فخفق قلبها بعنف تأثره وهو يقترب منها أكثر لينهي عبارته بين شفتيها:

_والعشق كله!!

أغمضت عينيها باستسلام مستجيبة لطوفان إحساسه للحظات بدت لها وكأنها خارج حدود الزمن...

هي التي عاشت عمرها كله تقريباً تفتقد للعاطفة حتى زلت قدماها في بئر الخطيئة...

والآن تسطع شمسها في سمائها لتمنحها دفئاً ليس كمثله دفء...

فهل من العقل أن تعاود دفن رأسها في رمال مظلمة ؟!!

نعم...للأسف...

هذا هو الحل الوحيد الآن !!!

فالحب يستمد شرعيته في قانون العاشقين طالما كان طرفاه اثنين فحسب...

لكن دخول طرف ثالث فيه يجعله ثالوثاً مدمراً للجميع...

لهذا وجب عليها الانسحاب ليس لأنها الطرف الأضعف...

بل على العكس...لأنها الآن الطرف الأقوى!!!

وبهذا الخاطر الأخير انتزعت نفسها انتزاعاً من جنة عناقه لتبتعد عنه تماماً هذه المرة قبل أن تتنحنح بارتباك هامسة:

_أريد التحدث معك بشأن مهم!

فابتسم بحنان وهو يحتضن كفها براحتيه هامساً:

_ولماذا تتعجلين الحديث هنا؟!!انتظري حتى نعود لبيتنا...أمامنا العمر كله!!

لكنها ابتسمت بسخرية مرددة كلمته:

_العمر كله؟!

انعقد حاجباه بقلق وهو يتفحص ملامحها متسائلاً :

_ما الأمر يا رؤى؟!

تأوهت بخفوت ثم رفعت إليه عينين ثابتتين مع سؤالها مباشرة:

_هل رأيت عزة بعد الحادث؟!

_عزة!!!

همس بها بتشتت وكأنه لم يدرك إلا الآن مأزقهم الحالي...!!!

لكنها أساءت فهم لهجته مع ما تعرفه عن طبيعته المتشككة فهتفت مدافعة:

_لا تقل إنك أسأتَ إليها...هي لم يكن لها ذنب في ما فعله ذاك الوغد...أنا شاهدة أنها...

قطع عبارتها هاتفاً بضيق:

_لا داعي لكل هذا...أنا لم أرَها أصلاً منذ يوم الحادث...ألم تلاحظي أنني لم أتركْكِ طوال هذه الأيام؟!!

اتسعت عيناها بدهشة للحظة قبل أن تستوعب الوضع كاملاً لتهمس بذهول :

_لم تذهب إليها منذ ذاك اليوم؟!!

زفر بقوة وهو يشيح بوجهه لوقت قصير قبل أن يعاود التفاته نحوها هامساً :

_ولو كانت الشمس طلعت من مغربها ما كنت لأترككِ وحدكِ ثانية واحدة !!

هل ظن أنه بهذا أسعدها؟!!

على العكس...لقد صعّب الأمر عليها أكثر!!!

لهذا أغمضت عينيها بألم ثم همست بيأس:

_هذا ما كنت أريد التحدث معك بشأنه...وضعنا هكذا سيظلمنا جميعاً.

انعقد حاجباه بضيق وهو يقترب منها ضاغطاً كفها بقوة أكثر مع كلماته المنفعلة:

_ماذا تعنين؟!!ألم تخبري أخاكِ لتوكِ أنكِ ستبقين معي؟!!

ففتحت عينيها ببطء وهي تحاول سحب كفها منه لكنه تشبث به أكثر ...ما جعلها تهتف بانفعال مماثل:

_قلت له أننا سنتفق على قرار أولاً .

أججت كلماتها حرائق خوفه فهز رأسه بعنف وهو يهتف بثورة عارمة:

_لو تصورتِ للحظة أنني سأسمح بفقدكِ بعد كل هذا الرعب الذي عشته طوال الأيام السابقة فأنتِ واهمة!!

تساقطت دموعها رغماً عنها وهي تهمس بعجز:

_لن أحتمل أن تشاركني فيك أخرى!!لن أحتمل!!

قالتها ثم انخرطت بعدها في بكاء عنيف فزفر زفرة مشتعلة...

ثم ضمها إليه بقوة وقد لانت نبرته نوعاً مع همسه الذائب بوجده:

_هل تعلمين كم ليلة عشتها قبل زواجنا أحلم بكِ؟!!كم ليلة عشتها بعد زواجنا أشتهيكِ؟!!كنت أموت في اليوم ألف مرة وأنتِ أمامي...حليلتي... ولا أستطيع أن أمَسَّكِ...بل لا أستطيع حتى أن أعترف لكِ بمشاعري...حتى عندما قررت أن طلاقنا هو الحل

الأسلم كنت أشعر أنني سأنتزع من روحي من جسدي لو فعلتها...ومع هذا فعلتها لأجلك أنتِ...بل إن زواجي منها نفسه كان أيضاً لأجلك!!

رفعت عينيها إليه بدهشة هامسة:

_لأجلي؟!

فضغطها بين ذراعيه أكثر وقد عاد الغضب يكتسح نبراته:

_نعم لأجلك...أقسم بربي لأجلك...كنت أريدكِ أن تبتعدي عن جحيم شكي مادمت عاجزاً عن إدخالك جنة غرام لم أعرفه لسواكِ...كنت أريدكِ أن تتحري من قيدي..أن تعيشي الحلم من جديد حتى ولو لم يكن معي...لكن القدر أبى إلا أن يدخرك لي ...والآن بعدما انتصر حبكِ على شيطان ظنوني تريدين الرحيل؟!

دفنت وجهها في صدره وهي عاجزة عن الرد مع كل هذه المشاعر التي اجتاحتها الآن...

لقد ظننت يوماً أنه يحبها...لكن شعوراً كهذا يُبخَس قدره بحق لو منحناه أي تسمية...

هو فوق الغرام وأعلى من العشق وأشد من الشغف...

هو حياة!!

لا تصدق أن القدر رزقها حب رجل كهذا...

رجل يبدو وكأنه كان يعيش حياته فقط طائفاً في مدارها وحدها !!!

لهذا لم تتعجب عندما أردف ببعض الندم:

_أنا الذي كنت عاجزاً عن العفو رغم يقيني من صدق توبتك...لكن ذاك الحادث جعلني أثوب لرشدي...ربما تظنين الميزان قد تعادلت كفتاه بتضحيتك...شرفٌ بشرف...لكن الحقيقة أنني أنا الذي أدين لكِ الآن...أنتِ كدتِ تدفعين روحكِ مقابلاً لأجلي...بينما بخلت أنا طوال تلك الأيام بمجرد اعتراف بمشاعري...حتى كدتُ أفقدك...وقتها عاهدت ربي لو ردّكِ إليّ ألا أكف عن قولها أمامك.

ثم مال على أذنها هامساً :

_أحبكِ ...ولن أحتمل أن أتنفس هواء لا تشاركينني فيه...اطلبي أي ترضية...لكن لا ترحلي.

تشبثت بأناملها في طيات قميصه للحظات...

قبل أن تقبضهما ببطء وكأنها عاجزةٌ عن منحه الوعد الذي يريده...

ثم تنهدت بحرارة وهي تبتعد بوجهها لتهمس دون أن تنظر إليه:

_تظنني سأطلب منك تطليقها؟!

فتنهد بدوره وهو يجذب وجهها إليه ليلتقط نظراتها بين جنان عشقه الوارفة للحظات صمت طويلة...

قبل أن يقطعه هو بقوله الحازم:

_أنتِ لن تطلبيها...وأنا لن أفعلها!!!

أسبلت جفنيها بعجز وهي تدرك صدق عبارته... فقبل جبينها بعمق هامساً بما يشبه الاعتذار:

_لو كانت هي امرأة أخرى بظروف أخرى لما ترددت لحظة في فعلها لأجلك...لكن طلاقي لها الآن خاصةً بعد الحادث الأخير سيسيئ إليها أكثر...هي مسئوليتي وأنا لم أعتد الفرار من واجباتي.

أومأت برأسها في تفهم مع همسها الراجي:

_لهذا هو دوري أنا لأرحل...هي تحتاجك أكثر مني...

ثم أردفت ببعض الصلابة:

_أنت وعدتني أن تعيد إليّ قوتي وقد أفلحت...لكن مجرد رؤيتي لك جوارها ستعيدني لنقطة الصفر...ستظل تذكرني بذنبي القديم الذي حرمني زوجي كاملاً...أرجوك يا راغب افهمني ولا تضغط عليّ!!

هنا عادت ملامحه تشتعل بغضبه من جديد ليهب واقفاً مع قوله بانفعال:

_لا تفكري مجرد تفكير في الأمر!!يشهد ربي أنني لم أتسم بالأنانية يوماً...لكنني الآن سأسمح لنفسي أن أكون أنانياً...لن تخرجي من حياتي إلا بخروج روحي مهما فعلتِ!

توترت ملامحها بانفعال مشابه وهي تهمّ بالرد...

لكن طرقاتٍ خافتة على الباب قاطعتها...

قبل أن يفاجأ كلاهما بدخولها الغرفة...

نعم...

كانت عزة نفسها!!!

==================

قبل دقائق فقط كانت تهمّ بطرق الباب عندما سمعت بداية حديثهما الذي استنفر فضولها لتكمله لآخره...

وليتها ما فعلت!!!

طوال الأيام السابقة وهي حبيسة غرفتها تفكر في حالها ومصيرها مع راغب بعد ما حدث...

السؤال الوحيد الذي كان يؤرق خاطرها لماذا لم يزرها مرة واحدة طوال هذه الفترة للاطمئنان عليها؟!!

هي تعلم أن والدته كانت مريضة هي الأخرى وتعلم عن حالة رؤى الحرجة...

لكن ألم يجد وسط هذا ساعة واحدة يطمئن فيها على من تسمى -ولو على الورق- زوجته؟!!

تصرفه هذا لا معنى له إلا أنه غاضبٌ منها أو أنه زاهد فيها!!!

ولما كانت عاجزةً عن تفسير الأمرين وكاد رأسها ينفجر بحيرته قررت أن تتخذ هي هذه الخطوة...

كما أنها رأتها فرصتها لتشكر رؤى- بحق- على ما فعلته لأجلها...

لكن تواجدها الآن -بالذات -جعلها تسمع بأذنيها الحقيقة التي -ربما- أراحت حيرتها...

لكنها أشعلت جوارحها كلها بشعور آخر...

شعور بالهوان!!!

نعم...الآن لا ترى نفسها سوى مجرد حملٍ ثقيل على كاهل الجميع!!!

راغب لا يريد تطليقها لشهامته، ورؤى -الملائكية- تريد أن تتركه لها!!

راغب يعشق زوجته حد الجنون لكن -ذنباً ما - كان يقف بينهما والآن سامحها عليه ولم يعد يقف بينهما سواها هي!!!

هي التي كانت مجرد "مفعول به" في جملة يفترض أن تكون "مبتدأها" بل و "خبرها" أيضاً !!!

فمن تلوم الآن سوى نفسها التي رضيت هذا الوضع منذ البداية؟!!

لهذا تمالكت شجاعتها وهي تطرق الباب برفق قبل أن تدلف إلى الداخل لتقرأ نظراتهما المتوترة بتفهم...

ثم جلست جوار رؤى على فراشها قائلة بامتنان:

_زيارة تأخرت كثيراً...صحيح؟!

ابتسمت رؤى ابتسامتها الوديعة رغم اختناق نظراتها بألمها وهي تنظر إليها قائلة :

_لا عليكِ...كنت ممنوعةً من الزيارة على أي حال!

فالتفتت عزة إلى راغب لتسأله بهدوء لم يدارِ حسرتها:

_كيف حالك يا راغب؟!

شعر راغب بمزيج من الذنب والحرج وهو يمد لها يده مصافحاً بهمهمة لم يتبين فحواها...

عندما لمح الغيرة تشتعل بعيني رؤى التي أطرقت برأسها وكأنها تهرب من رؤيتهما معاً!!

فعقد حاجبيه بحيرة وهو يجلس جوار عزة على طرف الفراش ليتناول كف رؤى بين راحتيه قائلاً برفق وعيناه معلقتان بحبيبته فحسب:

_الحمد لله هي صارت بخير...وستعود معنا الليلة إلى بيتها.

كانت تفهم أنه يعوضها بعناق كفيهما عن مصافحته للأخرى...

فهل سيكون هذا حالهما في الأيام القادمة؟!!

وهل سيغنيها أي عِوضٍ عن تلك الغيرة التي تنهش قلبها العاشق؟!!

لهذا ظلت مطرقة برأسها ورأسها مشتعلٌ بأفكاره...

كيف ستحتمل هذا الوضع ؟!!

لقد كادت تحترق الآن من- مجرد مصافحة- فكيف يريد منها التعايش مع- حياة- كاملة؟!!

لكن عزة نقلت بصرها بينهما بتفهم نادر قبل أن تقول لرؤى ببعض الغموض:

_لا أجيد عبارات الشكر فماذا عساني أفعل لأرد لكِ صنيعك؟!

رفعت إليها رؤى عينيها ببطء ثم قالت بصوت مختنق:

_لا داعي للشكر ...أنا...

اختنقت باقي عبارتها في حلقها مع هذا الانفعال الذي كان يجتاحها الآن في هذا الموقف الغريب...

لكن عزة التفتت لراغب الذي كان يراقب رؤى بعاطفة متشحة بالذنب... لتبتسم بشحوب هامسة له:

_وأنا مدينةٌ لك أيضاً .

انتزع عينيه انتزاعاً من على ملامح رؤى ليوجه لعزة نظرة متسائلة ...فألقت مفاجأتها أمامهما وقد حسمت أمرها:

_أنا سمعت حديثكما الآن كله !!

اتسعت عينا رؤى بصدمة قبل أن تتحول لقلق بالغ...

ولم يكن راغب أقل منها ضيقاً وقلقاً لكنه ضغط كفها أكثر بين راحتيه مطمئناً إياها...

بينما أكملت عزة حديثها الهادئ رغم تشبعه بمرارته:

_لم أقصد التصنت لكنني لم أستطع مقاومة فضولي...والحمد لله أني سمعت بنفسي حقيقة الأمر.

تشبثت رؤى بكف راغب بخوف وقد عجزت عن استنباط ما فهمته عزة وكأنها تناشده دعماً لم يبخل به

عندما ربت على أناملها برفق قبل أن يستعيد تماسكه وهو يقول بحذر مخاطباً عزة:

_ما الذي سمعتِه بالضبط؟!ربما تكونين قد أسأتِ الفهم.

فترددت عزة قليلاً قبل أن تمد أناملها ببطء لتربت على -كفيهما المتشابكين -ثم قالت أخيراً:

_أنا الدخيلة على هذه العلاقة منذ البداية...لكنني للأسف لن أستطيع الرحيل الآن.

تبادل راغب ورؤى نظراتٍ حائرة...فيما أردفت عزة باستطراد:

_لم أكن أريد هذه الزيجة...ولم أتقبل فكرة أن أكون زوجة ثانية...لكنني كنت خائفة...خائفة من ظلم الناس لي...وخائفة على سمعتي...وخائفة من الوحدة ...لهذا تشبثت بأول يد مساعدة امتدت إليّ ...فمن يلومني؟!!

تفحصتها رؤى بأسى وكلماتها البسيطة تؤجج نيرانها أكثر...

كم تشعر الآن أنها -عزة- تشبه روحها القديمة...!!!

نفس الضعف الذي يحتل النفس بتشعب مسيطر كخيوط العنكبوت...

نفس الخوف الجاثم على الصدر بثقل كالجبال...

نفس الحيرة والترقب والحسرة كمن يسير على جسر رفيع يوشك أن يتهاوى به في جحيم مستعر!!!

ولم يكن راغب أفضل منها حالاً وهو يشعر بعظم المأزق الذي هو فيه...

فبعيداً عن حكم القلب الذي لا يملكه...

هو مطالبٌ بقَسَمه فيما يملكه ...

العدل بينهما !!!

هو أخذ خطوة في هذا الطريق ولن يمكنه الآن العودة!!!

لهذا تنحنح بارتباك ليغمغم بصوته الخشن وقد فضل تأجيل النقاش:

_لا داعي لهذا الكلام الآن...رؤى لازالت متعبة.

فابتسمت عزة بشحوب وهي تلتفت نحو رؤى هامسة:

_وأنا أريد أن أريحها..

ثم عادت ببصرها نحو راغب مردفة:

_أريحكما معاً!!

صمتٌ ثقيل ساد في الغرفة بعد عبارتها وكأنما خشي ثلاثتهم قطعه وقد غشيتهم سحبٌ داكنة من مرارة وعجز...

لكن عزة التي حملت راية المصارحة من البداية بدت وكأنها ستكمل جهادها نحو الخلاص...

فقد قالت أخيراً بحزم:

_أنا لا أريدك زوجاً يا راغب...أنا أستحق رجلاً يمنحني قلبه كاملاً...كما سأمنحه نفسي كاملة!

ورغم أن هذه العبارة كفيلة بجرح رجولته لكنه شعر بها تزيح حملاً ثقيلاً من على كاهله ....خاصةً عندما أردفت هي مخاطبةً رؤى التي كانت ترمقها بدهشة مشوبة بتعاطفها:

_ربما تأخرت كثيراً بهذه الخطوة لكن الأوان لم يفُتْ بعد...زوجكِ سيبقى خالصاً لكِ...هذا عهد ثلاثتنا أمام الله...لكنني أستأذنكِ أن يبقى هذا الزواج صورياً أمام الناس لفترة قصيرة...حتى أطمئن على خلاصي من ذاك الوغد في السجن...فلا أظنه سيتركني لشأني بعدما ناله بسببي...وبعدها سأخرج من حياتكما إلى حياتي أنا التي لن أسمح أن يتحكم فيها أحدٌ سوى نفسي.

اتسعت عينا رؤى بإدراك وهي تنتبه لأمر ذاك الرجل...

خطيب عزة السابق في السجن الآن بعد اعتدائه عليها وهي بالتأكيد لن تفلت من انتقامه وبالذات لو عادت وحيدة...

كما أن ألسنة الناس ستعاود نهش سمعتها بِنَهَمٍ أكبر لو رجعت تجر أذيال خيبتها بطلاقها الآن!!!

لكن راغب قطع أفكارها عندما قال مخاطباً عزة بحميته الرجولية:

_حتى ولو لم تكوني زوجتي...هذا الوغد لن يمسكِ بسوء ما دمت على ظهر الأرض...لو كان استغل انشغالي بمرض أمي في المرة السابقة فلن أسمح له بإعادة الكَرّة...أنا أيضاً أجيد استعمال الأساليب القذرة مع من يستحقها.

ابتسمت عزة بامتنان وهي تومئ برأسها قبل أن تعاود قولها برجاء:

_لا أريد أن تعرف هيام شيئاً عن هذا الاتفاق...سيبقى سراً بين ثلاثتنا فحسب!

انعقد حاجبا راغب بضيق عندما أتت بذكر هيام رغم يقينه من الاختلاف الشاسع بينهما...

لكن غصةً ما في حلقه لم يستطع تجاوزها وهو يشعر بالذنب المشوب بشفقته على عزة...

لقد صدق ظنه في طيب خصالها وها هي ذي تثبت له أنها أقوى كثيراً مما توقع...

هي الوحيدة التي كانت قادرة على حل أضلاع هذا المثلث الفائض بألمه لتمنح ثلاثتهم الراحة!!!

وهو لن يتخلى عنها مالم يضمن لها الأمان بعد فراقهما...

هذا هو قسمه لنفسه الذي لن يحنث به قط!!

فيما قامت عزة من مكانها لتقول لرؤى بامتنان:

_حمداً لله على سلامتك...

ثم التفتت لراغب مردفة بابتسامة شاحبة:

_بل على سلامتكما معاً.

قبل أن تغادر الغرفة بخطوات سريعة لا تنتظر رداً...

لقد انتقلت راية الجهاد من رؤى التي صقلت ماسة قوتها أخيراً إلى عزة التي ستسير بدورها هذا الطريق...

فهل ستكمله لآخره؟!!

==========================

_أنتِ طيف الصالح صاحبة رواية"ما بعدالنهاية"؟!!

هتفت بها زهرة بانبهار وهي تنظر إلى كاتبتها المفضلة التي استكانت باسترخاء في فراشها بالمشفى...

فابتسمت طيف ابتسامة واثقة مع إجابتها:

_هل قرأتِها؟!

هزت زهرة رأسها وهي تجيبها بإعجاب :

_تحفة فنية ...لقد حرمتني النوم يومين كاملين حتى أنهي قراءتها كاملة.

فاتسعت ابتسامة طيف مع قولها ببعض المكر:

_ألم تعترضي على نهايتها؟!

تنحنحت زهرة بحرج ثم جلست جوارها على طرف الفراش لتقول بتردد:

_تريدين رأيي الحقيقي؟!

رمقتها طيف بنظرة ثابتة أخافتها للحظة قبل أن تمنحها شعوراً غريباً بالثقة...

غريبةٌ هذه المرأة!!!

بعيداً عن أنها خيبت ظنها في شكلها البسيط والبعيد تماماً عن مقاييس الجمال المعروفة...

لكن لها هالةً من رهبة مشوبة بجاذبية خاصة تحيط بها تجذب المرء للدنو منها لكن بحذر!!!

هل هو شئٌ ما خاص بالمشاهير؟!!

لا....لا تظن..!!!

فبحكم عملها هنا هي لقيت بعضاً منهم ولم يتشارك جميعهم هذه الصفة...

لكن هذه المرأة حقاً مختلفة...

وكتأكيدٍ لفكرتها فوجئت بطيف تسحب كفها لتضغطه بكفها بقوة قبل أن ترفعهما معاً لأعلى قائلة بصوت مشع بالقوة:

_لديكِ رأي؟!قوليه...أصواتنا لم تخلق لتبقى حبيسة حناجرنا بل لنصرخ بها بحقوقنا متى نشاء.

تألقت عينا زهرة بإعجاب أكبر وهي تكتم ضحكتها بكفها الحر...

فمنحتها طيف ابتسامة أكثر رفقاً وهي تترك كفها أخيراً لتقول بنبرتها الثابتة:

_أنا أسمعك.

عادت زهرة تتنحنح قبل أن تتمالك بعضاً من قوتها لتقول بحيرة:

_لماذا تميلين دوماً للنهايات الحزينة في رواياتك؟!هذه ثالث رواية أقرأها لكِ...ورغم روعة الوصف والأحاسيس والتفاصيل لكن النهاية دوماً تقبض قلبي.

ثم رفعت عينيها إليها مع استطرادها الحذر:

_أراكِ دوماً متحاملةً على الرجال!

_وهل بقي هناك رجال؟!

قالتها طيف وكأنها تبصق كلماتها لتردف باستهجان:

_لا أظنني التقيت رجلاً حقيقياً في حياتي...فكيف أكتب عن خيالٍ لم أرَه!!

طرقاتٌ هادئة على باب الغرفة تلت عبارتها...

فالتفتت كلتاهما نحو الباب الذي دخل منه جهاد ملقياً السلام بنبرته العملية....

قبل أن يقول مخاطباً طيف بتهذيب:

_كيف حالكِ اليوم يا آنستي؟!دكتور (....) أوصاني بالاهتمام بكِ رغم أنه ليس تخصصي هنا.

تراقصت طيور العشق بعيني زهرة كعادتها كلما رأته لتلتوي شفتاها بابتسامة خرقاء وقد احمرت وجنتاها بخجل لم يمكنها التحكم فيه ....

لتأتي كلمات طيف الصادمة- مخاطبةً جهاد- وكأنها دلو ماء بارد على رأسها :

_ومادام هو ليس تخصصك فأنا لا أريد اهتمامك هذا...أنا أكثر من راضية عن آداء طبيبتي التي سبقتك في الحضور إلى هنا.

رمقها جهاد بنظرة تقييمية طويلة قبل أن يضع كفيه في جيبي معطفه الأبيض قائلاً ببرود وكأنه يرد لها بضاعتها:

_جيد...هو كان واجباً ثقيلاً على أي حال.

قالها ثم أعطاها ظهره ليغادر الغرفة بهدوء تلاحقه أنظار زهرة الشغوف والتي لم يمنحها هو أي اهتمام...

فزفرت بضيق وهي تشيح بوجهها ...

عندما ابتسمت طيف ببراءة -وكأنها لم تحرجه لتوها - لتقول لها بنبرة خبيرة:

_أنتِ تحبين هذا الرجل.

التفتت نحوها زهرة لتهز رأسها نفياً بسرعة وكأنها طفلة صغيرة ضبطت بفعل خاطئ...

فأمالت طيف رأسها وهي ترفع أحد حاجبيها بمكر...

ليزداد احمرار وجه زهرة وهي تعود لتومئ برأسها إيجاباً مع همسها بخجل طفولي:

_هل أنا مفضوحةٌ إلى هذه الدرجة؟!

فابتسمت طيف لتقول ساخرة مع شرودها:

_يوماً ما حملتُ مثلكِ هذه النظرات...يوم ظننت أن فراشات الحب قادرة على التحليق في أعالي السموات دون قيود...قبل أن أدرك أن هذا العالم يحرق جناحات الفراشات لتهوي بعشقها المزعوم في قيعان الجحيم.

رمقتها زهرة بنظرة مشفقة طويلة رغم هذا الخوف الثلجي الذي غلف قلبها فجأة...

فاقتربت منها طيف بوجهها لتردف بحزم:

_لا تمنحي رجلاً نظرة قبل أن يمنحكِ هو عينيه...لا تقتربي منه خطوة قبل أن تسمعي لهاث هرولته إليكِ...لا تُسمعيه صوت دقاتك حتى يهبكِ قلبه كاملاً...لا تهديه عشقاً قبل أن يلقي حياته تحت قدميكِ...ما عدا ذلك فستنتهين مجرد متسولة على أرصفة الهوى.

تنهدت زهرة بحرارة ثم أومأت برأسها في وعدٍ صامت تدرك أنه ليس سهل التنفيذ كما يبدو...

ثم قالت لتهرب من الحديث في الأمر:

_أنتِ مصرية مثلي...لماذا تقيمين هنا؟!!

رمقتها طيف بنظرة طويلة غامضة قبل أن تقول بنبرتها الثابتة:

_تثرثرين كثيراً يا فتاة...ألم يخبروكِ أن المرضى بحاجة للراحة؟!!

شعرت زهرة بالحرج وهي تقوم من جوارها لتتمتم باعتذار مرتبك:

_عفواً...لم أقصد إزعاجك...أنا فقط...

لكنها اصطدمت بابتسامة طيف الحنون وهي تعاود جذبها لتجلسها جوارها من جديد قائلة :

_حسناً...لقد أثرتِ شفقتي بوجه أطفال "الكارتون" هذا!!!اجلسي وتحدثي كما تشائين لكن لا تتدخلي في شئون خاصة!!!

ضحكت زهرة ببراءة لاءمت تعبيرها عن "أطفال الكارتون" هذا وقد شعرت بارتياح غامر نحوها...

ثم مضت تتحدث معها لبعض الوقت في أحاديث عامة ...

إلى أن قالت أخيراً بتردد:

_أنا لي بعض المحاولات البسيطة في الكتابة...فهل تساعدينني بتطويرها ثم نشرها؟!!

_أنتِ طامعةٌ إذن ولستِ معجبةً كما تدعين!!!

هتفت بها طيف بتحفز -مصطنع- فاندفعت زهرة بدفاع حقيقي حار :

_لا والله!!!لم أقصد...كنت أريدك...

هنا تبدلت ملامح طيف المتحفزة لأخرى مشبعةٍ بحنان حقيقي وهي تقاطع عبارتها المرتبكة لتربت على كفها قائلة:

_لا بأس ..كنت أمازحكِ...لكن دعيني أقرأها أولاً.

ثم تناولت هاتفها من جوارها لتردف بود:

_سأعطيكِ رقمي الخاص فلن أطيل المكوث في المشفى...يمكنكِ مهاتفتي في أي وقت.

=================

_زهرة!!

هتفت بها مريم بدهشة وهي تميز كيان الفتاة الضئيل أمام باب شقتها الصغيرة فابتسمت زهرة بخجل مع غمغمتها المرتبكة:

_آسفة لتطفلي عليكِ...لكن هاتفكِ مغلق ولم تعودي تظهرين في المطعم.

ابتسمت مريم بحنان وهي تجذبها من ذراعها لتدخلها الشقة هاتفة بترحاب:

_أهلاً بكِ حبيبتي...من الجيد أنكِ تذكرتِ العنوان .

ثم أردفت ببعض الأسى:

_صحتي لم تكن على ما يرام طيلة الأيام السابقة.

رمقتها زهرة بنظرة مشفقة مع تساؤلها الجزع:

_ماذا كان بكِ؟!

لكن مريم أجلستها على الأريكة لتجلس جوارها وقد عاد لصوتها مرحه مع إجابتها:

_لا تقلقي ...مجرد دوار مع انخفاض لضغط الدم.

ثم ربتت على كفها لتردف باهتمام :

_دعكِ مني وأخبريني كيف حالكِ أنتِ...افتقدتكِ جداً!!

ابتسمت زهرة بمودة وهي تنطلق معها في الحديث كعادتها لوقت طويل ساردة لها بعض مشاكل العمل حتى انتهى حديثها ب"جهاد " كما صارت عادتها مؤخراً فضحكت مريم بانطلاق مع كلماتها:

_يا إلهي!!!!جهاد ثانيةً؟!!!هذا الرجل سيذهب عقلك يا فتاة!

اتسعت ابتسامة زهرة الخجول مع همسها:

_عقلي وقلبي معاً لو أردتِ الحق.

ثم رفعت إليها عينيها بسؤالها المتردد:

_هل تظنينني مهووسةً به حقاً كما يزعمون أم أنني طبيعية؟!!هل جربتِ الحب يوماً يا مريم؟!

تلاشت الابتسامة تدريجياً من على شفتي مريم التي تجمدت ملامحها بشرود قصير قبل أن تتنهد بحرارة مع إجابتها:

_لا أظن أحداً ذاق حلاوة الحب كما ذقتها.

تألق الفضول بعيني زهرة المتفحصتين بينما استطردت مريم بأسى:

_ولا تجرع مرارته كما فعلت.

تأملتها زهرة بنظرة مشفقة أخرى ثم سألتها بتردد:

_كان زوجك؟!

دمعت عينا مريم مع إجابتها بابتسامة شاحبة:

_كلاهما كان زوجي!!

_كلاهما؟!!

هتفت بها زهرة مصدومة فأومأت مريم برأسها إيجاباً مع قولها الشارد:

_يزعمون أن القلب لا يعرف الحب إلا مرة واحدة...لكنني عرفته مرتين...بأشد ما يكون...وألذ ما يكون...وأمرّ ما يكون!

ربتت زهرة على كفها بمؤازرة مع تساؤلها الفضولي:

_هل كانا يشبهان بعضهما إلى هذه الدرجة؟!!

فضحكت مريم ضحكة مختنقة مع إجابتها التي عاد إليها شرودها:

_على العكس...الفارق بين شخصيتهما كالفارق بين المشرق والمغرب...أحدهما كان محارباً لم يترك سيفه حتى كُسر في يده وهو يدافع عني...والآخر كان عاشقاً حد الخوف عليّ من خدش النسيم لهذا فضّل الاختفاء بي خلف ستار.

ثم التفتت نحوها لتسألها بابتسامة حملت بعض مرارتها:

_برأيك من منهما أحبني أكثر؟!!

صمتت زهرة للحظات بحيرة تفكر قبل أن تغمغم بتردد:

_لا أستطيع المقارنة...كلٌ منهما أحبكِ بطريقته!

هنا زفرت مريم بحرارة ثم هزت رأسها لتقول موافقة:

_معكِ حق...كلٌ يعشق بطريقته...

ثم أردفت بلهجة حاولت صبغها ببعض المرح:

_حتى لا تظني بي سوءاً وتتهميني بتعدد الأزواج...الأول سبقنا إلى دار الخلد...رحمه الله من بلاء هذه الدنيا.

شهقت زهرة بارتياع وهي تضع كفها على شفتيها فأشاحت مريم بوجهها مخفيةً دموع تأثرها...

لكن زهرة عادت تسألها بجزع:

_والثاني؟!!

تنهدت مريم من جديد لتتمتم بخفوت:

_الثاني يظنني أنا الميتة!!

_ماذا؟!!

هتفت بها زهرة التي لم تتبين عبارتها جيداً فالتفتت نحوها مريم لتقول بابتسامة مزيفة:

_الثاني بخير...عسى الله أن يحفظه أينما كان.

تفحصت زهرة ملامحها باهتمام لتعاود سؤالها بفضول:

_ولماذا إذن تركتِه؟!

فتنهدت مريم بحرارة قبل أن تهمس بشرود:

_تركته...ولم أتركه!!

ثم تحسست بطنها لتردف بعاطفة حارة:

_ليس أحبّ على قلب امرأة عاشقة من طفل تنتظره من رجلها...هو قطعة منه تكبر بداخلها يوماً بعد يوم!!!

رمقتها زهرة بنظرة حائرة وهي تحاول تبين بروز بطنها الذي لا يزال بسيطاً واشياً بشهور حملٍ أولى...

ثم ضحكت ضحكة بريئة مع قولها بعينين لامعتين:

_هل هذا ما كنتِ تعنينه بقولك أنك تقيمين مع طفلك؟!!يا إلهي!!!سنحظى بطفل قريباً؟!!

قالتها وهي تصفق بكفيها بمرح طفولي فضحكت مريم بدورها ...

عندما انطلق فجأة صوت زقزقة قريبة...

فقامت زهرة فجأة من مكانها لتهتف وهي تمد رأسها نحو الشرفة :

_مريم...هل تملكين عصافير هنا؟!

أومأت مريم برأسها ثم تأوهت بخفوت وهي تقوم واضعةً يدها على بطنها لتقول بمرح خالطه بعض الشجن:

_تعاليْ أعرفك إلى صديقيّ!!

ثم جذبتها من كفها نحو الشرفة التي احتوت قفصاً صغيراً في منتصفها وبداخله كان عصفوران رائعا الجمال أحدهما أصفر اللون والآخر أزرق...

تأملتهما زهرة بانبهار طفولي للحظات قبل أن تمد إصبعها لهما مداعبةً مع قولها بسعادة:

_أهلاً...أهلاً بالقمريْن!

فابتسمت مريم بحنان وهي تتقدم نحو العصفورين لتقول وكأنها تعقد تعارفاً حقيقياً بينهما ملوحةً بكفها نحوهما:

_زهرة...فهد و جنة!

_فهد و جنة؟!!غريب!!!

غمغمت بها زهرة ببعض الدهشة قبل أن تسأل مريم :

_أنتِ اخترتِ لهما هذين الاسمين؟!

أشعت العاطفة من عيني مريم وهي تراقب عصفوريها بشجن هامسة:

_نعم...وأقسمتُ لنفسي ألا أفرقهما ...ولا أفترق عنهما أبداً.

تفحصتها زهرة بفضول مشوب بإشفاقها وقد شعرت بحدسها أنها تخفي الكثير الذي لن تحب البوح به الآن...لهذا احترمت رغبتها هذه...

ومع هذا لم تقاوم سؤالها بتردد:

_مريم...هل يمكن أن تفكري يوماً في العودة لزوجك؟!

فتبدلت نظرات مريم ليحل الحزم محل العاطفة في قولها:

_سأعود...حتماً سأعود...لكن ليس وحدي...

ثم أردفت وهي تتلمس بطنها برفق:

_لن أعود إلا وابني معي.

=========

_أنا سأعهد إليكِ بإدارة المشغل في غيابي.

قالتها ماسة لإحدى العاملات التي توسمت فيها الأمانة والقدرة فهتفت المرأة بدهشة:

_هل ستتركيننا يا سيدتي؟!

دارت ماسة بعينيها في المكان بتأثر انحفرت سيماه على ملامحها قبل أن تجيب بخفوت:

_نعم.

شهقت المرأة بجزع وقد ظهر الفضول في ملامحها لكن ماسة أردفت باقتضاب:

_رحيلي لا يعني أن ينقطع سيل الخير الذي كان هنا...سيستمر العمل كما لو كنت موجودة تماماً...وقائمة المستحقين للمساعدات لديكِ في مكتبي...

ثم تهدج صوتها رغماً عنها وهي تكمل:

_لو احتجتِ شيئاً فاطلبيه مباشرةً من السيد عاصي...هو سيحرص أن يستمر العمل هنا بأفضل صورة.

قالتها وهي حقاً تعنيها...

نعم...برغم قوة شعورها بخذلانه لها لكنها توقن أنه سيرعى بذرة الخير التي تركتها هنا بعد رحيلها...

رحيلها؟!!

تراه سيسمح برحيلها عن المدينة بهذه البساطة؟!!

فليسمح ...أو لا يسمح!!!

هي ستفعلها على أي حال ...

هي ما عادت "ماسة اللقيطة" التي تتقاذفها أيدي الظروف ...

هي الآن "ماسة جاسم الصاوي" التي ستنتزع حقها من براثن الطغيان مهما كان صاحبه!!!

لهذا أخذت نفساً عميقاً ثم صرفت المرأة بعد وداع قصير...

قبل أن تتوجه نحو غرفتها الصغيرة هناك حيث وقفت تجمع بعض مشغولاتها المميزة التي كانت تعتز بها...

لتتوقف عيناها على قطعتين بالذات...

إحداهما كانت قفازاً يدوياً صنعته يوماً له لكنها عجزت أن تمنحه إياه...

تماماً كما عجزت طوال هذه الفترة عن أن تنطق له بكلمة حب واحدة رغم أن قلبها يكاد يصرخ بها في كل وقت...

ورغم أن هذا كان يثير دهشتها أحياناً بل وربما...استياءها!

لكنها اليوم تحمد لنفسها هذا الفعل...

ما جدوى الاعتراف بحبٍ خاسر؟!!

نعم...ليس أسوأ من حب "ضعيف" سوى حب بلا حصاد...

أصفاره كلها في خانة اليسار تنعي هزيمتها!

لهذا تنهدت بحرارة وهي تدس القفاز أخيراً في حقيبة يدها تخفيه بين محتوياتها وكأنها تدفن عزيزاً رحل دونما وداع!!

قبل أن تعاود أناملها التقاط القطعة الأخرى والتي كانت ثوباً قصيراً لرضيع بلونٍ رمادي ،وله غطاء رأس من نفس اللون لكنه مزينٌ بزهور وردية صغيرة مع حبيبات من اللؤلؤ الأبيض...

ضمته لصدرها بقوة مقاومةً دموعها بصعوبة وهي ترفع عينيها لأعلى وكأنما تستجدي السماء فرجاً قريباً...

قبل أن تهمس لنفسها بثقة:

_يوماً ما ستتحقق كل الأحلام.

لم تكد تنتهي من عبارتها حتى شعرت به يدخل إلى الغرفة صافقاً بابها خلفه بعنف!

اضطربت خفقات قلبها رغماً عنها لهذا تحاشت النظر إليه تماماً وهي تعاود انشغالها بجمع حاجياتها ...

لكنها قالت ببرود أجاد وأد انفعالاتها :

_من الجيد أنك أتيتَ الآن.

استمر في تقدمه البطئ نحوها لكنها تجنبت لقاء عينيه باستماتة وهي تردف بنفس النبرة المحايدة:

_أتمنى أن يبقى هذا المكان بعد رحيلي لخدمة من يحتاجه...أنا أوكلت إدارته ل(......)هي أفضل من سيقوم بهذا.

لم يصلها منه رد وكأنه يتعمد استفزازها بصمته لترفع عينيها إليه...

لكنها كانت حريصة على ألا تفعل!!!

فقط أكملت حديثها الذي اكتسب بعض الحزم هذه المرة:

_أنا راحلةٌ إلى العاصمة مع فهد ...ليتك تعيد النظر بشأن الطلاق لأنني لا أريد أي مشاكل.

كان قد اقترب منها تماماً في هذه اللحظة حتى كاد يلاصقها...

فارتجف جسدها تأثراً بهذه الهالة التي تخصه وحده...

هذا الإحساس الدافئ الذي يحتل خلاياها ب"شفرة سرية" لا يجيد قراءتها غيره...

هذا الشوق الذي يبدو وكأنه لا ينتهي حتى وهي بين ذراعيه...

وكأنما حاجتها إليه أبدية سرمدية ...لن تنفد يوماً مهما ظنت العكس!!!

يالعذابي بك يا سيد "الأضداد"!!

ما حيلتي فيك و"بعضك" يناقض "بعضك" ؟!!

و"بعضك" يحارب "بعضك"

و"بعضك"يقتل "بعضك"

فكيف أعشقك "كلّك"؟!!

حبي غريبٌ على أرض يسميها قلبي "الوطن" ويحسها عقلي "منفى"...

نبضي حائرٌ بين "اشتعال" جوارحي بك و"اختناق" حلمي فيك...

أمانٌ "كاذبٌ "كان يلون أيامي معك ...لكنه "رحيم"..

فهل أفضله على" قسوة يقيني "بوجوب الفراق؟!!

يا سيد "الأضداد" لا تقف بي في منتصف الطريق...

فليس أقسى من "سواد"الجرح إلا "رمادية"الأوهام!!!

يمناك تحمل رايةً بيضاء تجذب حمائم قلبي لتحط رحالها لديك...

لكن يسراك لازالت تفخر بسيف قسوتها ...

فكم أخاف من سيفك على حماماتي!!

يا سيد "الأضداد"كن "لي"أو "لاتكن"...

لكن- بربك- لا تكن كالطيف يلون حياتي ولا يسعني لمسه...

لا تكن كالنار بين يدي ضرير...لن يفيده نورها مهما اقترب....

ولن يسعه دفؤها لو ابتعد!!!

أرني موضعي في قلبك لعلّي أستريح...

أرني مدينتي على خرائط قلبك ...حتى ولو لم أسكنها...

أشرْ لي على نجم في سمائك قد حمل يوماً اسمي... حتى ولو احترق!!!

لكن لا تذرني هكذا في حيرتي أتساءل...

هل كنتُ لديك يوماً أكثر من عابرة سبيل؟!!

ليلةٌ واحدة مضت على فراقنا الذي أتنبأ له بطول عمر...

ليلة واحدة!!!

كانت وحدها تكفي لتجف كل ينابيع فرحي...

فياويلتي من شبيهات الليالي!!!

ماسةٌ تبرق بروحك يكاد بريقها يغشي عيني...

لكن مخالب شيطانك لازالت تخدش جدران روحي تمنعني الاقتراب...

فما حيلتي بين ماسة و شيطان؟!!

كانت هذه زفرات روحها الحارة التي كادت تذيبها ألماً...

لكنها أبت أن يبدو منها شئٌ على ملامحها التي تجمدت على ياقة قميصه...

حيث تعلقت عيناها هناك رافضةً أن تتجاوزها لعينيه...

فما أغناها الآن عن التيه في غابات زيتون لن تحفظ طرقاتها يوماً مهما حاولت!!!

لهذا ازدردت ريقها الجاف بصعوبة وصمته المظلم يحرقها ترقباً ولهفة...

وربما...اشتياقاً!!!

ثم أغمضت عينيها معاودة حديثها "أحاديّ الطرف حتى الآن" :

_لماذا أتيت؟!

_سترحلين...لكن ستعودين!

وأخيراً نطق!!!

وبأي لهجة نطق؟!!

لا...لم تكن مسيطرةً متعجرفة كما اعتاد...

ولا راجية نادمة كما يُفترَض...

بل بدت وكأنها نبوءة!!!

نعم...نبوءة روح تصطلي بنيران جحيمها وتحلم بالخلاص!!!

الخلاص الذي لن يكون إلا بها...ولها!!!

لهذا اختنقت أنفاسها في صدرها الذي كان يعلو ويهبط في انفعال ما عادت قادرة على كتمانه أكثر فهتفت ولازالت تسجن مشاعرها خلف عينيها المغمضتين:

_لن أعود...لقد انتهى ما بيننا...انت...

انقطعت عبارتها بين شفتيه عندما وجدت نفسها فجأة أسيرة ذراعيه ...

بل أسيرة عاطفته التي طوقتها بجنون لم تعرفه قبل هذه المرة!!

جنونٍ قاومته هي أولاً بكل قوتها قبل أن تستسلم له بجنونٍ مشابه!!!

دقائق عاصفة مرت بكليهما ساخنة حد الاشتعال قبل أن تلتقي عيناهما أخيراً ليهمس هو بنبرة ساخرة وسط أنفاسه اللاهثة:

_انتهى؟!!

استفزتها لهجته الواثقة وهي تشعر بها تهدم كل حصون مقاومتها فانفرجت شفتاها تهمان برد غاضب...

لكنه بادرها بلقاء شفتيه -القصير- هذه المرة قبل أن يبتعد بوجهه ليعتقل نظراتها باقتدار مردفاً:

_لا تتعبي نفسك في حديث كاذب...أنا أجيد انتزاع ما يروقني من أفكارك.

هنا اشتعلت عيناها بالغضب وهي تبتعد عنه بجسدها هاتفةً وهي تشير بقبضتها على صدرها:

_أنا دهستُ حب سنوات تحت قدميّ لأجل إكرام امرأة ذات فضل عليّ...أفلا أفعلها الآن بعلاقة لم تتجاوز بضعة شهور ولأجل نفسي هذه المرة؟!!

فانعقد حاجباه بغضب مماثل وهو يلوح بسبابته في وجهها هاتفاً بشراسة:

_لا مجال للمقارنة...وأنتِ تعلمين!!

لكنها ابتسمت بسخرية مريرة مع هتافها:

_ومن الذي سيقف ليقارن؟!!أنا امرأةٌ طالما اختارت السير للأمام فلن تنظر للخلف بعد!!

قبض أنامله جواره بقوة للحظات أغمض فيها عينيه محاولاً كتم انفعاله الذي خرج في تنهيدة حارة...

قبل أن يعاود فتحهما وهو يحتضن كتفيها بأنامله هامساً بصوت مشبع بتعب حقيقي:

_لولا خوفي عليكِ من الخطر هنا لما تركتكِ ترحلين.

امتلأت عيناها بدموع أبت أن تسقط أمامه وهي تستشعر الضعف الكامن في روحه بهذا الوضوح لأول مرة...

عاصي متعبٌ حقاً...

ملامحه ذائبة في أنين صامت يسمعه قلبها بوضوح...

هل تصف نفسها بالغرور لو ظنت أن عذابه بفقدها عقابٌ له على ما كان من زلاته؟!!!

أم أنها لم ترتقِ بعد لمنزلة أكبر من مجرد "حالة تقمص" عاشها قبل أن يغلب طبعه تطبّعه؟!!!

هل تصدق قلبها في شعوره بأنها امرأته الأولى والأخيرة...

بأنها "شمسه" الاستثنائية وسط ظلام طغيانه؟!!

أم تصدق كل القرائن على أنها عنده ك-سواها- وأنه لن يتأثر بفقدها مثقال ذرة!!!

لا!!!

لن يمكنها غض الطرف عن كل هذا الألم المستعر بحدقتيه وكأنه سيضيع روحه لو ضيعها!!!

يالله!!!

هل أقسى على القلب من أن يعذب بحاله وحال معشوقه معا؟!!

بينما فاضت عيناه بعاطفة هادرة وهو يتشبث بنظراتها النقية مردفاً بنبرة مرتعشة:

_عديني لو أصابني مكروه أن تعتني بابني!

انقبض قلبها لهذا الخاطر لكنها ابتلعت غصة حلقها لتهمس بابتسامة ساخرة:

_وما شأني أنا؟!!فلتعتنِ به أمه.

فاقترب منها خطوة أخرى ليهمس بحزم:

_عديني يا ماسة!

_لا!

هتفت بها قاطعة كالسيف في وجهه قبل أن تردف بنبرتها القوية:

_من اليوم لن أحيا إلا لأجل ماسة فحسب...ماسة ستعيش...ستفرح...ستصعد سلم أمنياتها درجة درجة.....ستجني حصاد صبرها الطويل...ماسة لن تسدد حسابات غيرها ولن تغوص بقدميها في وحل ماضٍ لا ذنب لها فيه.

أغمض عينيه بألم كاتماً آهة كادت تخونه...

وكأنما كانت تغرس مع كل كلمة نطقتها خنجراً في صدره لن يخرج إلا بخروج روحه...

بينما أكملت هي سيلها الثائر باندفاع:

_عن أي ابن تتحدث؟!!لازلت مغروراً متجبراً تظن الكون يمشي وفق حسابات عاصي الرفاعي؟!!لازلت غافلاً عن رسائل القدر لك ؟!!استيقظ من أوهامك هذه

التي ستفقدك كل شئ...حتى لو تزوجت تلك المرأة كما خططت فهل تضمن أن تنجب لك الولد الذي تريد؟!!

قالتها ثم اندفعت لتغادر المكان قبل أن تغلبها دموعها من جديد...

لكنها ما كادت تتحرك بضع خطوات حتى شعرت به يسحبها من ذراعها نحو صدره ليطوقها بذراعيه من جديد...

لا...لم يكن عناقاً عادياً هذه المرة...

لقد شعرت وكأنه يحتجزها بين ضلوعه نفسها...

وكأنه جعل لها من روحه بُسطا وسقفاً !!

بل إنها لا تبالغ لو قالت أنها شعرت في هذه اللحظة أن خلاياهما قد انصهرت تماماً معاً لتشكل كياناً واحداً لا يتجزأ...

نعم...مع كل ما مر بهما معاً من أيام...

كانت هذه أصدق لحظة عاشتها معه ...

وكأنه ادخر عناقاً كهذا ليليق بوداعهما الآن!!

لهذا لم تتعجب حرارة أنفاسه التي لفحتها وهو يهمس جوار أذنها:

_لا تملئي قلبك حقداً عليّ...دعيه لإحساسه.

رفعت إليه عينيها ببطء تتشبث بخيوطه الزيتونية التي اكتست الآن بألم خالص لانت معه لهجتها رغماً عنها وهي تهمس أخيراً:

_لو كنت طلبت حياتي نفسها لما ترددت في افتدائك بها...لكن كرامتي لن تكون يوماً قرباناً لشيطانك!

لكنه زفر زفرة حارة وهو يبعدها عنه بإرادته هذه المرة مردفاً بنبرة مختنقة :

_عندما تقترب النهاية فلا جدوى من الندم على سوء اختيار البدايات.

غص حلقها بمرارة قوية وقد غلب خوفها عليه أي شعور آخر الآن...

لم تعد تدري ماذا يمكنها فعله مع هذا الرجل...

كيف تجذبه قهراً من بحر رماله المتحركة الذي يوشك على ابتلاع كيانه كاملاً...؟!!!

لهذا رفعت كفيها باستسلام تنظر إليهما بعجز قبل أن تتأوه بصوت عال...

ثم أطرقت برأسها وهي تعاود طريقها إلى الباب الذي فتحته بقوة وهي تأخذ نفساً عميقاً وكأنها تستقبل منذ هذه اللحظة حياة جديدة ستختلف حتماً عن حياتها السابقة...

قبل أن تلتفت برأسها إليه قائلةً بصوت منهَك:

_اعتنِ بنفسك كما سأعتني أنا بنفسي.

لكنه أعطاها ظهره مقاوماً رغبته العنيفة الآن في احتجازها قسراً لتصله عبارتها الأخيرة:

_وداعاً..."سيد" عاصي!

============

_للأسف...وضعها سيئٌ تماماً.

غمغم بها الطبيب بارتباك وهو يرمق حسام بنظرة مشفقة...

قبل أن يتنحنح بحرج مع استطراده:

_نوبة الصرع تسببت في سقوطها مباشرةً لتصطدم عينها بالمقبض المعدني للدرج...لقد نجحنا بصعوبة في

إيقاف نزيف العين....لا أريد أن أدخلك في تفاصيل طبية دقيقة لكنها للأسف...فقدت عينها اليمنى تماماً.

انقبض قلبه بمرارته وهو يغمض عينيه محاولاً تجاوز ذكرى ذاك الموقف عندما عاد للمنزل بعدها ليجد عينها تنزف بغزارة وهي تتخبط في مشيتها تصرخ بجنون ولا تعي ما حدث بالضبط...

لكن الطبيب جذبه عنوة من قسوة أفكاره وهو يقول بإشفاق:

_أظن أنه بإمكانها استخدام نوع من العدسات اللاصقة بعد فترة علاج مناسبة لأجل المظهر فحسب...لكن العين نفسها...

قطع عبارته مشفقاً من إكمالها ...ففتح حسام عينيه ببطء وهو يومئ برأسه موافقاً قبل أن يقوم من مكانه ليغادر غرفة الطبيب متوجها نحو غرفتها في المشفى بخطوات متثاقلة ...

ليتوقف أمام الغرفة بعجز وقد أبت قدماه التقدم أكثر كعهده كل يوم منذ ذاك الحادث...

نعم...لم يستطع مواجهتها بعدما كان...

لم يستطع رؤية شبح ذنبه -الجديد- على وجهها...

لقد ظن أنه ذاق أسوأ عذاباته عندما حمل وزر "طيف" على ظهره...

لكن وزر "دعاء" هذه المرة قصم ظهره بحق!!!

ربما لأن طيف قد حمل لها الموت راحةً من كل عناء هذه الحياة بأسرها...

لكن دعاء ستعيش ب"عاهتها" ما تبقى لها من عمرها!!!!

فكيف يمكنه تحملّ هذا الذنب؟!!

لهذا قبض أنامل كفيه جواره وهو يسند جبينه على الباب المغلق بيأس لم يعرفه في نفسه من قبل...

حتى عاد يبتعد عن الباب المغلق مكتفياً بالجلوس على المقعد أمامه وهو يطرق برأسه في خزي مذنبٍ يعلم أنه سيحترق بذنبه طوال حياته...

لكن الباب المغلق فتح أخيراً لتخرج منه والدته التي رمقته بنظرة عتاب طويلة أفلت منها بعينيه وهو يشيح بوجهه...

بينما تقدمت هي نحوه لتجلس جواره هامسةً ببعض الإشفاق:

_عاجزٌ عن الدخول إليها ككل يوم؟!

ظل مشيحاً بوجهه دون رد...

فتنهدت والدته بحرارة ثم ربتت على كفه لتهمس بأسى:

_هي التي طلبت رؤيتك هذه المرة.

التفت نحوها بحدة لتلمح هذا الدمع المتجمد في عينيه مع همسه المنفعل:

_هي طلبت ذلك؟!

دمعت عيناها بحزن لألم وحيدها الذي تدرك عِظمه وشدته مهما واراه خلف جموده...

لهذا عاودت تربيتها على كفه وهي تهمس بصوت متحشرج:

_نعم...وأقسمت عليّ أن أجعلك تدخل.

حاول ازدراد ريقه الجاف بصعوبة وهو يدرك اقتراب المواجهة التي جبن عنها منذ الحادث...

لكنه لم يجد بداً من النهوض ليتوجه نحو الغرفة بخطوات مترددة...

هل هناك أقسى من أن يواجه المرء ذنباً كهذا وجهاً لوجه؟!!

أن يرى صنيعة يده بامرأة كان وجهها يوماً قطعةً من القمر والآن صار مشوهاً؟!!

طالما أخبرها أن عينيها بفضائهما الواسع العريض -أجمل- ما في ملامحها...

بحلمهما المنطلق دون قيود في مقلتين متألقتين - كالماس- بالمرح رغم الألم...

وطالما أخبرته هي أن قسوته وغروره- أسوأ- ما في طباعه...

بقدرتهما على طمس ملامح انسانيته وقتما يتحكم بهما شيطانه...

فهل هذه نتيجة الصراع بين ماستها وشيطانه؟!!

رفعت وجهها إليه بعينها السليمة والأخرى التي أحاطتها ضمادةٌ كبيرة التفت حول رأسها كله...

لتقول بثبات لم يتوقعه:

_تعال يا حسام وأغلق الباب خلفك.

أغلق باب الغرفة برفق وهو يتقدم ليجلس جوارها على طرف الفراش محاولاً البحث عن طرف خيط يبدأ به حديثه...

نفسه تراوده باعتذار...

بل بألف اعتذار...

لكنه لن يفعلها...

ليس أنفةً ولا كبراً...بل استهانة!!!

ما الذي سيجديه اعتذاره الآن لها ؟!!

لو عاش عمره كله يقولها بعدد خفقاته لما عوضها عن مصابها شيئاً!!!!

_أنا آسفة!

كانت منها هي للعجب!!!

لهذا رفع إليها وجهه بحدة دون أن يجد القدرة على النطق ولو بطلب تفسير...

لكنها أردفت بنفس الثبات:

_آسفة لو كانت كلماتي جرحتك تلك الليلة...وآسفة على شعور الذنب الذي ستعيش به طوال عمرك بعد اليوم.

اختلجت عضلة فكه كعادته وقد بدا على وجهه انفعالٌ عاصف لم تسعفه كلماته...

بينما استطردت هي بنبرة أكثر خفوتاً:

_وآسفة لنفسي قبلك...لأنني كنت بكل هذا الضعف.

انفرجت شفتاه أخيراً ليهمس بتردد:

_دعاء...أنا...

لكنها قاطعته بقولها الشارد وكأنها لا تراه :

_هل تذكر حلمي الذي رويته لك تلك الليلة؟!!هل تذكر قولي لك بأنني سأكون أفضل؟!!

غص حلقه بمرارته التي أعادته لصمته...

فيما عادت هي تلتفت نحوه لتهمس بحزم مشوب بالرجاء:

_تريد عفوي يا سيادة الرائد؟!

فاضت عيناه بمزيج من ندم وألم وهو يتجاهل سؤالها ليقول بنبرة أرادها حازمة فخرجت رغماً عنه مرتعشة بانفعاله:

_لا تفكري بشيءٍ الآن سوى صحتك.

لكنها تجاهلت عبارته لتكرر سؤالها بنبرة أقوى:

_تريد عفوي؟!!

رفع رأسه لأعلى مع آهة انفعال أفلتت من فمه وهو يمرر أنامله بين خصلات شعره ...

فأردفت بلهجة ثابتة رغم ما حملته من أسى:

_دميةٌ مزينة للعرض...هكذا كنت أنا بعينيك...ودميةٌ معيبة...هكذا كنت أنا بعيني نفسي...وما بين دمية مزينة ودمية معيبة ضاعت هويتي!

ثم أشارت بكفها على صدرها لتستطرد بقوة تحسد عليها في موقفها هذا:

_ربما كنت أحتاج أن أحب نفسي أكثر...أن أثق بها أكثر...أن أمنحها القوة التي لن يمنحها لي غيري...هل تذكر يوم قلت لك أنك محطتي الأخيرة...اليوم فقط أشعر كم كنت مخطئة...لستَ محطتي الأخيرة يا حسام

بل...محطة انطلاق نحو غد تصنعه يدي ولا يختاره لي غيري!!!

خفض بصره نحوها بنظرة حملت مشاعره العاصفة كلها...

فأشارت نحوه بسبابتها لتهمس بتهكم مرير:

_من المؤكد أن الخبر قد انتشر في المدينة كلها...عالمك الذي كنت تزعم أنني خطفت قلوب ساكنيه قبل أبصارهم سيعرف الحقيقة...لن يمكنك التفاخر بي بعد...لم أعد صالحةً لترقيع ثوب شعورك بالنقص..

ثم زفرت زفرة حارقة مع همسها المختنق:

_لم أعد دميتك المزينة!!!

_كفى!

هتف بها بألم بالغ وعبارتها توخز صدره بعذاب لم يذق قبله...

ليردف بانفعال:

_الطبيب يقول أن عدسة لاصقة مع علاج كافٍ ستجعل الأمر غير ملحوظ...ولو تطلب الأمر السفر فلنسافر لآخر العالم بحثاً عن علاج!

فابتسمت بمرارة لتسأله:

_ومرضي الذي لابد قد علم الجميع عنه الآن؟!

أشاح بوجهه دون رد للحظات قبل أن يغمغم بضيق:

_سأطلب نقلي من هنا لمحافظة أخرى لا يعرفنا فيها أحد!

ضحكت ضحكة مختنقة فالتفت نحوها ببعض الدهشة لتهمس بألم:

_كما هربت من العاصمة إلى هنا؟!!إلى متى ستظل تهرب يا حسام؟!!

ولأن عبارتها كانت صادقة لأبعد حد ...ومست جرحه لأبعد مدى ...فقد انتفض من جوارها ليهتف ملوحاً بكفه:

_ماذا تريدينني أن أفعل؟!هذه طبيعتي التي فطرت عليها ولن أغيرها....أنا اعتدت مكانةً معينة لن أحتمل أن ينتقص منها أحد.

_هذا بالضبط ما أريده ...لك ولي.

قالتها باقتضاب واثق فانعقد حاجباه بتساؤل وهو يرمقها بنظرات حذرة...

لتردف هي بنبرة عادت إليها قوتها:

_لثالث مرة أسألك...هل تريد عفوي؟!!

زفر بقوة وهو يعاود الجلوس جوارها صامتاً للحظات...قبل أن يومئ برأسه إيجاباً بحذر دون كلمات منتظراً شروطها الجديدة...

فأخذت نفساً عميقاً ثم هتفت بحزم بدا وكأنه لن يثنيه شئ بعد:

_امنحني حريتي...طلقني يا حسام.

====================

_هل ستفعلها حقاً يا حسام؟!

هتفت بها والدته في استنكار وهي تجذبه من كفه عقب خروجه من غرفتها وقد سمعت حوارهما كله...

فأغلق باب الغرفة خلفه ببعض العنف مع قوله الحاسم:

_نعم.

شهقت بعنف وهي تهز رأسها لتهمس بصوت خافت كي لا يصل لمسامع تلك البائسة بالداخل:

_هل ستتخلى عنها بعد ما حدث؟!

رمقها بنظرة طويلة وقد تجمدت ملامحه تماماً دون رد...

فاستطردت والدته باستنكار أكبر:

_ألن تكف عن أنانيتك؟!!ألن ترى عيناك يوماً أبعد من صورة نفسك؟!!لا أصدق أنك ستنفذ لها طلبها!!

ورغم أن كلماتها كانت من القسوة بمكان...

لكن...هل لجرحٍ بميتٍ وجع؟!!

لهذا لم تتغير ملامحه الجامدة وهو يقول ببرود:

_أنتِ قلتِها بنفسك...طلبها هي!!

اشتعلت ملامحها بغضب هادر ولم تكن كلماتها أقل منها غضباً:

_هل تتغافل أم تتغابى ؟!!أين قلبك؟!!أين ضميرك؟!!!أنت ابني الذي ضاع عمري في تربيته؟!!هل هذا هو حصاد صبري؟!!تظنني فخورة

ب"سيادة الرائد" الذي يتجبر على رؤوس الخلائق بسلطان "بدلته الرسمية"؟!!لا وألف لا...أنا أريد حسام ابني الذي سقط مني في جحيم شيطانه.

أغمض عينيه بقوة على نظراته التي غابت عنها الحياة...

فيما استطردت هي :

_لقد صبرت كثيراً على حالك...كنت أقول لنفسي أن صدمتك في ابتلائك كانت كبيرة وتحتاج لوقت كي يمكنك استيعابها...كنت أستبشر بدعاء خيراً وأشعر أنها ستكون ملاكك المنقذ...من ستزيل غشاوة عينيك ليعود لك نور بصيرتك... لكن لو نفذت ما برأسك وطلقتها فسأفقد الأمل فيك للأبد!!!

ظل مغمضاً عينيه للحظات فلانت ملامحها تدريجياً حتى غلبتها عاطفتها الأمومية نحوه...

لتتنهد بحرارة وهي ترفع أناملها لتربت على كتفه...

لكنه انتفض مبتعداً عنها خطوة ليفتح عينيه فجأة مع قوله الأخير بجمود وكأن كل ما قالته لم يحرك فيه شعرة:

_ستبقى معك حتى تتعافى تماماً...وأنا سأبحث عن مكان آخر أقيم فيه.

انعقد حاجباها في عدم فهم وهي ترمقه بنظرة تساؤل خشيت البوح به...

فسار مبتعداً عنها بخطواتٍ ثابتة قبل أن يلتفت نحوها برأسه مردفاً:

_أخبريها أنني سأرسل لها ورقة الطلاق في أقرب وقت.

ثم مضى في طريقه دون انتظار لردها ليغادر المشفى كله...

استقل سيارته بنفس البرود ليتخذ طريقه إلى محل عمله...

ولم يكد يدخل إلى غرفة مكتبه حتى أغلق بابها خلفه بإحكام مصدراً أوامره بألا يدخل عليه أحد...

جلس على أحد الكرسيين أمام مكتبه ليفرد ساقيه على الآخر في مظهر -خادع - بالاسترخاء...

قبل أن يتناول لفافة تبغٍ من علبته التي لم يقربها منذ شهور مرت...

لكنه يشعر بحاجته إليها الآن...

أشعلها ببطء ليأخذ منها نفساً عميقاً ثم عاد ينفثه ببطء مراقباً خيوط الدخان التي تجمعت أمام عينيه لتشكل -بعين خياله- صورةً لكتاب!!!

نعم...كتاب طيف الذي اختطفه منها لأول مرة!!!

لتتوالى بعدها ذكرياته العامرة معها بوهجها ذي الشجن...

ثم ضاقت عيناه بألم عندما تحولت خيوط الدخان نفسها أمام نظراته المشوشة لتمنحه صورة لطفل صغير...

طفل ...لن يكون له يوماً!!!

ليختلط هذا كله بصوت يسرا في عبارتها القاتلة:

_لماذا أرضى بنصف رجل!!

قبل أن يدخل صوت دعاء في هذه المعمعة مع عباراتها التي تواترت كالسيل في مخيلته:

_بالأمس انتهكتَ جسدي وروحي وكنت تريد انتهاك غدي كذلك؟!!

_أنت كذاب أناني مخادع!!!

_على الأقل كنت منحتني حق الاختيار!!

_لم أعد دميتك "المزينة"!!!

وعند العبارة الأخيرة تحولت خيوط الدخان بمخيلته لأنشوطة تقترب لتحكم الوثاق حول رقبته....

مذنب!!

مذنب!!

الحكم واضح ولا يحتاج للمزيد من الأدلة ...

ولم يبقَ له سوى انتظار العقوبة...

بل أشد عقوبة!!!

اختنق حلقه بغصته وهو يرفع كفه الحر أمام عينيه ...

فيُهيّأ إليه أنه ملطخٌ بالدم...

لكن...أي دم؟!!

دم "طيف" التي لايزال يحمل ذنب موتها؟!!!

أم دم "دعاء" التي سيظل يحمل ذنب تدمير حياتها؟!!

ورغماً عنه تخللت كلمات والدته الأخيرة الصورة لتضعه بحق في قلب الصراع...

هل يحتفظ بدعاء في حياته مواجهاً الجميع ب"عيبها"...

بل ب"عيبيهما " معاً؟!!

أم يلقي كل ما حدث خلف ظهره ليحظى ببداية جديدة تليق ب"صنمه" الذي لن يسمح أن يكسره أحد؟!!

هل يستجيب لنداء انسانيته الذي يدفعه للتشبث بزوجته ومعاونتها لتجاوز أزمتها؟!!

أم يحافظ على حصاد "ميدالياته الذهبية" في سباق نحو لقب "الأفضل"؟!!

ماذا يختار؟!!

ترنيمة سلام يلقي -مع ألحانها الخافتة- رأسه مرتاحاً على وسادته وبحضنه امرأةٌ قلبها كالماس؟!!

أم لحنٌ صاخبٌ ملهبٌ للأسماع يوازي ارتفاعه على منصة طموحه؟!!

ماذا يختار؟!!

وأي كفةٍ يرجح؟!!

ولمن ستكون غلبة الصراع؟!!

_أفق يا حسام من كل هذا العبث!!

قالها لنفسه أخيراً مصدراً الحكم الأخير...

_عالمك ليس مكاناً لهذه المثاليات...أنت تريد امرأة ترتفع معها لسطح تطلعاتك لا مجرد قيدٍ ثقيل مربوط في قدميك يجذبهما للقاع...

ثم التوت شفتاه ب-شبه-ابتسامة مع همسه بصوت مسموع:

_لا يليق بك دور "التضحية" و"البطولة"...أنت احتكرت دور "الشيطان" باقتدار...

ثم أغمض عينيه مردفاً :

_فات أوان الإصلاح يا سيادة الرائد...لقد أحرقت سفنك كاملة...لا رجوع...لا رجوع!!!

وعند خاطرته الأخيرة سال خطان رفيعان من الدموع على وجنتين تشقق من عليهما جدار الكبرياء...

ليفاجأ بنفسه وقد امتدت أنامله بلفافة تبغه المشتعلة لتغرسها بقوة في معصم كفه هذا!!!

كز على أسنانه بقوة كاتماً صرخاته التي اختزلت في أنين ألم...

ألمٌ حارقٌ...

مشبعٌ بخزي...

بعجز...

بلذة!!!

نعم...كان يستشعر -لذة -تطهرٍ خفية جعلته يعاود فعلته عدة مراتٍ بعدها في مواضع متفرقة من جسده...

مرة ....

تلو مرة...

تلو مرة....

لينتهي هذا المشهد المهيب بسقوط رأسه الذي غرق في عرق غزير على سطح مكتبه وسط أنفاس لاهثة..

انتصارٌ آخر للشيطان في هذه الجولة...

فهل ل"الماسة" رأيٌ آخر؟!!

==========================

الفصل الثامن والعشرون

_أظنكِ ستُرزقين طفلة...يقولون إن الفتاة تجعل أمها في حملها أجمل!!

قالتها رحمة بحنان وهي تراقب وجه ميادة الذي استدار بفتنة زائدة مع تقدم شهور حملها...

فابتسمت ميادة الجالسة جوارها على أريكة صالة منزلها البسيطة لترد بامتنان:

_شكراً يا عمتي...أنتِ تعتنين بي كثيراً.

ربتت رحمة على كفها وهي تقول بمزيج من حنان ولوم:

_ألن تدعوني "أمي" بعد؟!

ارتبكت نظرات ميادة لتهرب بعينيها إلى الأرض وهي تشعر بكثير من الذنب...

ماذا لو علمت رحمة عما تدبره مع شاكر؟!

هل ستبقى متشبثةً بهذا الطلب الأخير؟!!

وبرغم أنها كانت تعاتب نفسها كثيراً فيما يدور خلف الستار...

لكن عقلها كان لا يزال يدير دفة أمورها كما اعتادت...

ولو أن الأمر لم يعد يسيراً كالسابق..

فالصراع بين قلبها وعقلها يزداد ضراوة في كل يوم تقضيه هنا منعمةً بعاطفة رحمة وعزيز!!

لكن رحمة انتشلتها من كل هذا عندما تجاوزت عن إجابتها التي لم تمنحها لها ...

لتمد أناملها ببطء فتبسطها على بطن ميادة متمتمةً بالرقية الشرعية في خشوع...

تأملتها ميادة بدهشة وهي تتابع حركة شفتيها بترقب مشوب بفضولها...

حتى انتهت رحمة مما تفعله فغمغمت ميادة بحيرة:

_ماذا كنتِ تفعلين؟!

اتسعت ابتسامة رحمة الحنون وهي تجيبها ببساطة:

_أرقيكِ...كي يحفظكِ الله مع طفلك.

ثم ضحكت لتشع ملامحها بطيبة أكثر مع سؤالها:

_ماذا؟!!ألم تسمعي عن الرقية من قبل؟!

عضت ميادة على شفتها بانفعال فضحته ملامحها وعيناها تغيمان في ماضٍ بعيد....قبل أن تهمس بتأثر:

_بلى...جدتي كانت تفعلها أحياناً في طفولتي.

تنهدت رحمة بحرارة ثم قالت بنبرتها الحنون:

_رحمها الله...يبدو أنها كانت تحبك كثيراً.

دمعت عينا ميادة رغماً عنها وهي تعود بذهنها لتلك الفترة الحرجة من حياتها لتتمتم بلا وعي:

_لم يحبني أحد...لم أكن سوى حِمل ثقيل سعى الجميع للتخلص منه.

تفحصت رحمة شرودها بتمعن وقد شعرت أنها وضعت يديها على طرف خيط قد يوصلها لقلب زوجة ابنها غريبة الطباع...

فجذبت ذقنها إليها برفق مع سؤالها المباشر :

_وهل أحببتِ أنتِ نفسك؟!

اتسعت عينا ميادة بصدمة للحظة قبل أن تتنمر ملامحها فجأة لتلتمع عيناها السوداوان ببريق حاد مع قولها:

_نعم...أحببتها...ولا أظنني سأفكر يوماً إلا فيها...وحدها ميادة تستحق مني الاهتمام...الجميع قد يغدر في لحظة...لكنني مستعدة تماماً لهذا...لقد عودت نفسي كيف أكون قوية وحدي دون حاجة لأحد.

هزت رحمة رأسها لبضع ثوانٍ ثم نظرت في عينيها مباشرة لتقول بحكمة:

_لا يا ابنتي...للأسف...أنتِ لم تحبي نفسكِ كما تظنين...أنتِ زدتِ شقاءها أكثر عندما تجاهلتِ حاجتها الحقيقية بينما تغرقينها بما لا تحتاجه...

ثم ربتت على ركبتها لتردف بحنان:

_يقولون أن حاجات الروح أكثر ضراوة من حاجات الجسد...والروح ياابنتي لا تتوهج إلا بجذوة الحب...ومتى انطفأت فلن يسعد بعدها جسد ولن يهدأ دونها بال.

_سلم لسانكِ يا "حاجة"!!!

هتف بها عزيز الذي خرج من غرفة نومهما لتوه ثم توجه نحو رحمة مقبلاً كفها...

فابتسمت له مع دعاء بالبركة قبل أن يجلس هو في المنتصف بينهما ليضمهما معاً بذراعيه قائلاً بمرح:

_هل فاتني شئ أثناء نومي؟!

خفق قلب ميادة بعاطفة خاصة وهي تلصق نفسها به أكثر مناقضةً كل ما كانت تدعيه...

وقد بدا لها هذا المشهد -لهم جميعاً معاً -كحلم بعيد طالما راودها يوماً...

بعائلة حقيقية تنعم معها بالحنان والدفء قبل أن يندثر كل هذا تحت أنقاض عمرٍ عاشته تزعم أن وحدة قلبها هي سر قوتها!!

بينما قامت رحمة من مكانها لتسمح لهما بمزيد من الخصوصية -كعادتها- وهي تقول لعزيز بمرح مشابه:

_فاتك الكثير...سأترككما معاً كي تحكيه لك زوجتك.

قالتها ثم عادت إلى غرفتها لتغلق بابها خلفها برفق فتابع عزيز خطواتها بحنان..

قبل أن يلتفت نحو ميادة ليقبل وجنتها بعمق هامساً بنبرته الدافئة:

_هل فاتني الكثير حقاً؟!

رفعت عينيها إليه بنظرة طويلة لتغرق في بحوره الزمردية التي ماجت الآن بعاطفة خالصة هدهدت روحها بسحرها الأخاذ الذي بسط سطوته عليها للحظات...

قبل أن تطرق برأسها لتفرك أناملها بحركة عصبية....

لكنه رفع ذقنها إليه ليعاود سؤاله بنبرة أكثر جدية:

_ما الأمر يا ميدا؟!أشعر أن شيئاً ما يؤرقك!

هزت رأسها نفياً كاذبة وهي تغمض عينيها ...فتنهد بعمق ثم قال بحذر:

_منذ عرفتِ عن عودة ماسة للعاصمة وانفصالها عن زوجها.

فتحت عينيها فجأة لتشتعل نظراتها بغضب أكد له ظنه ...

رغم أنها حاولت تكذيبه بقولها الذي مزج برودها بسخريتها:

_تظنني أغار؟!أم تظن قصتكما لازالت تحمل مشاهد إضافية؟!

ورغم السخرية الواضحة في نبرتها لكنها بداخلها كانت تعلم أن هذا الأمر صار هاجسها الآن...

بعدما علمت عما استجد بشأن ماسة وهي تخشى أن ينهار هذا العالم الآمن من حولها...

لقد جربت شعور "النبذ" من قبل من أقرب الناس إليها....

وتدرك أكثر من أي أحد كيف هي قسوته...

فهل تتجرع هذا الكأس من جديد مع عزيز ؟!!

لكنها لن تتجرعه وحدها هذه المرة...

طفلها سيشاركها إياه!!!

فهل ستحتمل ؟!!

_لا يا ميدا!

انتشلها من خواطرها بعبارته لتعاود الاستسلام لأسره الزمردي الذي اكتسب قوة خاصة مع قوله الحازم:

_الإجابة على السؤالين هي "لا"....فقصتي معها لن تحتمل المزيد...وأنتِ...

ثم صمت لحظة ليقترب بوجهه منها أكثر مردفاً بقوة وكأنه يضمد بكلماته جروح روحها بحنان خبير:

_أنتِ امرأة لا تليق بها غيرة...لن ينتزع منكِ أحد شئ تريدينه دون إرادتك.

كان يعلم أنه يغازل ذاك الجزء" القوي " بشخصيتها والذي تحاول هي دوماً تعزيزه...

رغم أنه كان يدرك -بطول تعامله معها -أن خلف هذه الواجهة الصلبة طفلة ضعيفة تبكي في صمت...

وعليه أن يتعامل مع "الاثنين" بحذر كي يكسبهما معاً!!!

لهذا رفع خصلات شعرها التي تهدلت على جبينها ليضعها خلف أذنيها بحنان ...

فبدت له صفحة وجهها بوضوح أكبر كأجمل ما تكون...

قبل أن يقربها إليه أكثر بذراعه الآخر الذي يضمها... مع همسه الدافئ أمام عينيها:

_هل تدركين قوة ما بيننا؟!

فارتعشت حدقتاها لتبدو من خلفه صورة باهتة لعاطفتها التي حاولت إخفاءها بهمسها الذي امتزجت مرارته بسخريته:

_وما هو الذي بيننا؟!

ابتسم بحنان ممتزج بامتنانه ثم قبل جبينها بعمق ليجيبها بثقةٍ ودّ بحق لو تصلها كما يشعر بها:

_ما بيننا حياة قبلتِ أنتِ أن تشاركيني مُرّها وأقسمت أنا ألا يكون حلوها إلا لكِ.

دمعت عيناها بانفعال وهي تشعر بصدق حديثه...

بينما تناول هو أناملها ليقبل أطرافها واحداً واحداً ولازال يأسرها بزمرديتيه مع استطراده بنفس النبرة:

_كل يوم...بل كل لحظة تتشبثين معي هنا بعالمي الذي اخترته تجعلكِ تكبرين بعيني أكثر...

أفلتت أنّةٌ خافتة من شفتيها وضميرها يوخزها بالندم من جديد...

خاصة عندما استقرت شفتاه على باطن كفها بقبلة عميقة تبعها بهمسه :

_كنت أحتاج امرأة بقوتك لتدعمني...وأنتِ لم تخذليني قط.

أخفت وجهها في كتفه وكأنها ما عادت قادرة على كتمان عاطفتها التي اتشحت الآن بالمزيد من شعورها بالذنب...

بينما ترك هو كفها برفق ليتخلل خصلات شعرها بأنامله مردفاً:

_أنا اخترت اسم ابنتنا القادمة.

رفعت إليه عينيها فجأة مع سؤال حائر ظلل رموشهما...

فابتسم بحنانه -آسرِها- ليهمس:

_أريدها...ميادة...مثلك.

ثم شبك أنامله بأناملها ليضعها جميعاً على بطنها مع قوله الذي أراد به نسف كل ذرة من شكوكها:

_أريد أن تكون حياتي كلها لميادة...

ثم رفع أناملهما المتشابكة لشفتيه يقبلها مستطرداً:

_و...ميادة!!

ابتسمت ابتسامة ابتسامة صادقة لأول مرة منذ زمن بعيد وهي تهمس باسمه بعد تنهيدة حارة :

_عزيز!

_حياة عزيز!!

بمنتهى الصدق نطقها ....

لكنها لم تكتفِ بها مع سؤالها التالي:

_و"قلب" عزيز؟!

أشاح بوجهه عنها للحظات...ثم عاد يلتقط نظراتها المشتعلة بتحفزها لتطفئها أمطاره الزمردية الحنون مع همسه بصدق:

_الحب ليس العمود الوحيد الذي ترتكز عليه أي علاقة...ربما يكون ما بيننا أقوى كثيراً منه...ما بيننا تفاهم وثقة وطفل سيمنحه كلانا عمره...دعينا نتمهل الخطى في هذا الطريق لعلنا نصل للحب أيضاً في آخره.

التوت شفتاها بابتسامة شاحبة لتهمس :

_على الأقل كنتَ جاملتني وقلتَها كاذباً!!!

ابتسم وهو يشير بسبابته لجانب رأسها قائلاً باعتزاز:

_عقل ميادة لن يصدق أنه ربح قلب "الشاعر" بهذه البساطة...ولن يرضى بكذب مجاملة...لكنه يصدقني وهذا يكفيني.

اتسعت ابتسامتها وهي تومئ برأسها الذي قبله هو بحنان قبل أن يتركها قائماً ليقول :

_سأعد لك العصير معي.

همت بالاعتراض وهي تكاد تقف لكنه دفعها برفق ليجلسها مردفاً برفق:

_ابقيْ مستريحة...سأعده أنا فرحمة تحبه بطريقتي.

راقبته بشرود وهو يتوجه نحو المطبخ المقابل عندما رن هاتفها برقم غريب ...

فتناولته لتفتح الاتصال عندما وصلها صوت شاكر مغمغماً بحذر:

_ميادة...هل يمكنك الحديث الآن؟!

اكتست عيناها بتوتر ملحوظ وهي تراقب انهماك عزيز فيما يفعله لتهمس بخفوت :

_نعم...هل جدّ هناك شئ؟!

عاد صوته الواثق يغزو أذنيها بقوة:

_نعم...رجلي هناك في إدارة الحي أخبرني أن أمر إزالة المنزل على وشك الصدور..بعدها سأتدبر أمر عمل عزيز هو الآخر...وساعتها لن يجد له ملجأً غيري.

ازدردت ريقها بصعوبة وهي حائرة في شعورها الآن...

هل تفرح لقرب نجاح خطتها؟!

أم تخاف من عاقبة أمرها لو انكشفت الحقيقة؟!!

لكن شيطان "طمعها" غلبها وهي تقنع نفسها أنها لن تخسر شيئاً...

"حب" رحمة و"أمومة "طفلها المنتظر و"حنان" عزيز و"ثراؤه" أيضاً...!!!

كل هذا ستملكه بين كفيها عما قريب ...

ودون أن تضطر لتضحية!!!

لهذا غمغمت برد استحسان مقتضب لشاكر قبل أن تغلق الاتصال بسرعة ...

لتعيد هاتفها جوارها عندما عاد عزيز إليها حاملاً كوب العصير ليسألها باهتمام مشيراً بعينيه للهاتف الذي كان قد سمع رنينه:

_والدتك؟!

أومأت برأسها كاذبة وهي تتناول منه الكوب فابتسم ليقول بحزم حنون:

_لم نزرها منذ وقت طويل...وأنتِ تكتفين فقط بمكالمات الهاتف....الليلة موعد متابعتك لدى الطبيبة...ما رأيك لو نذهب إليها بعدها؟!

_لا!

هتفت بها بضيق وهي تشيح بوجهها ...

فتنهد بحرارة ثم احتضن وجنتها براحته يدير وجهها إليه مع همسه الحازم:

_متى ستسامحين؟!

_وهل سامحت أنت أباك؟!

هتفت بها بتحفز وقد عادت عيناها تشتعلان بغضبهما فانعقد حاجباه بغضب مشابه...

لكنه كتم انفعاله بأقصى ما استطاعه من قوة ليقول بمزيج من حزم وعتاب:

_وضع أبي مختلف...أولاً أبي لم يؤذني وحدي...لو كان الأمر يتعلق بي فحسب لكنت تجاوزت عنه..لكنه حق أمي وحق ماسة التي دفعها بيديه لطريق رجل بلا ضمير كي يدمر لها ما بقي من حياتها.

أطرقت برأسها عاجزة عن مجادلته وهي تدرك في نفسها منطقية ما يقول...

بينما استطرد هو بنفس النبرة:

_وثانيا...أبي لا يريد مني مجرد عفو...بل يريد طمس شخصيتي...صهر كياني في كيانه هو...وأنا أريد أن أكمل طريقي كما أرتئيه لا كما يختاره لي غيري.

اعتصرت أناملها كوب العصير بقوة محافظة على إطراقها الصامت...

وقلبها يؤيده في كل كلمة نطقها لكن شيطان "طمعها" كان يشوش على وضوح الصورة...

عندما أردف هو بنبرة أرق:

_لكن والدتك ليست كذلك...ليس من العدل أبداً أن نظل العمر كله نجلد انساناً بذنب قديم تاب عنه...هي تحتاجك الآن كما تحتاجينها.

_أنا لا أحتاج أحداً!!!

هتفت بها بانفعال وهي تقوم واقفة لتردف بقسوة:

_أنا قضيت عمري السابق كله أقوي نفسي كي لا تحتاج أحداً...ولن أضيع كل هذا الآن.

هز رأسه بيأس وهو يقوم واقفاً بدوره ...

ثم تنهد بعمق قائلاً:

_حسناً...بعض الدروس تحتاج المزيد من الوقت لتعلمها.

ارتجف جسدها بغضب مكتوم وهي تشيح بوجهها الذي احمر بانفعاله...

فابتسم رغماً عنه بحنان وقد بدت له كطفلة ثائرة...

ليتناول من يدها كوب العصير ثم يرفعه نحو فمها بنفسه مردفاً ببعض المرح:

_هلّا شربتِ الآن العصير حتى ندرك موعدنا!!

عادت عيناها تتعلقان بعينيه لتتلقى بنَهم دفء نظراته الحنون....

فتشققت شفتاها عن ابتسامة وليدة...

كبرت شيئاً فشيئاً حتى أضاءت وجهها كله قبل أن تتجرع رشفة من الكوب...

فضحك بمرح وهو يرفع أحد حاجبيه ليقول مشاكساً:

_لديكِ ابتسامة عجيبة قادرة على تحويلك في ثانية واحدة من "الساحرة الشريرة" إلى "سنووايت" نفسها!!!

ضحكت بانطلاق ضحكة منفعلة طويلة انتهت بخيطين من الدموع على وجنتيها وهي تضع أناملها على شفتيها المرتجفتين...

كم هو صادق في عبارته!!!

هي تتأرجح في أفعالها بين "شر طمعها" و..."احتياج عاطفتها المنسية"...

بين حصاد سنوات من "النبذ" و...وعدٍ مزركش بال"الاحتواء"...

فلا هي وأدت ضميرها بمنجل "الشر"...ولا هي قادرةٌ على ارتداء قناع "البراءة"!!!

ويبدو أنه لمح كل هذا مرسوماً في حدقتيها المرتعشتين بانفعال يناقض قوتها المعهودة...

فاقترب منها مبتسماً ليحتضن كتفيها بكفيه هامساً بجدية هذه المرة:

_لن أتحدث معك في هذا الأمر ثانية...

ثم شدد ضغط قبضتيه على كتفيها وكأنه يمنحها دعماً يدرك أنها تحتاجه :

_سأنتظر منك أن تفاجئيني.

تنهدت تنهيدة بعمق حيرتها وهي تطرق برأسها أخيراً بينما ابتعد هو ليقول بصوت عاد إليه حنانه:

_سأذهب لأعطي لأمي كوب العصير مع دوائها وأجلس معها قليلاً حتى تبدلي ثيابك.

أومأت برأسها إيجاباً وهي تعود لغرفتهما الصغيرة ...

حيث وضعت كوبها جانباً بعدما ارتشفته ببطء شديد...

وكل رشفة منه كانت تحمل لها ذكرى "حنون" من عزيز ورحمة...

تقابلها ذكرى "قاسية" من والديها...!!!

وبين فيض ذكرياتها كان "قلبها" يترنح بضعفٍ أخافها خلف ضبابات "عقلها "الذي لم يخذلها يوماً ...

فلم تدرِ أيهما تتبع هذه المرة؟!!

بدلت ثيابها بسرعة ثم مشطت شعرها لتتأمل صورتها التي بدت لها أكثر بهاءً!!

فابتسمت وهي تتحسس بطنها الذي برز قليلاً خلف ثوبها الواسع نسبياً وهي تتذكر عبارة رحمة عن أن الفتيات يجعلن أمهاتهن أجمل....

وهنا اجتاحها سحرٌ غريب وهي تحتضن بطنها بذراعيها...

يزعمون أن الأمومة شعورٌ رائع...

لكنها الآن تدرك أنه يفوق هذا بكثير...

هو سحر الامتزاج بروح أخرى ارتبطت بها للأبد...

أمانٌ خالص مشبعٌ برغبة عارمة في العطاء لمخلوق صغير لن تسمح أن تفترق عنه أو يفترق عنها...

وإن كان والداها فعلاها يوماً...فهي لن تفعلها أبداً!!!

تنهدت بحرارة وهي تبتلع أفكارها أخيراً لتتوجه نحو نافذة الغرفة التي فتحتها لتلفح وجهها نسمات الهواء مختلطة بألوان السماء القرمزية المميزة للغروب...

قبل أن تجول بعينيها في الوجوه "الطيبة " التي كانت تراها في الطريق...

ولا تدري لماذا بدت لها الآن أكثر عذوبةً من ذي قبل...!!!

ثم دارت بعينيها في الشرفة حولها بحنين -تعجبته في نفسها -مع عبارة دوت بداخلها:

_غداً..يصير كل هذا مجرد حطام...

زفرت بقوة عند خاطرها الأخير...

لتنتفض فجأة عندما شعرت بكفه يربت على ظهرها مع صوته الحنون:

_مستعدة؟!

فالتفتت نحوه لتومئ برأسها قبل أن يغادرا معاً ...

لتحافظ على صمتها الشارد طوال الطريق والذي لم يحاول هو قطعه احتراماً لأفكارها...

لكنه أبقى على احتضان كفها وكأنه يمنحها دعماً غير مشروط...

حتى أنها لم تدرِ كيف وجدت نفسها فجأة على سرير الكشف في غرفة الطبيبة التي دارت على بطنها العاري بذاك الجهاز الصغير المميز...

لتتابع عيناها بلهفة تلك الصورة على الجهاز بلونيها الأبيض والأسود...

والتي كانت أكثر وضوحاً واكتمالاً للجنين من المرات السابقة...

قبل أن يصل لسمعها أخيراً صوت الطبيبة تغمغم بنبرة مرحة:

_لا أستطيع الجزم الآن...لكن أغلب الظن أنها فتاة.

صيحة فرِحة خرجت من شفتيها رغماً عنها ...

صاحبتها ضحكة حنون من عزيز الذي ضغط كفها ليهمس في أذنها بعاطفة هادرة:

_ميادة كما كنت أريد.

لكنها كانت غافلةً عنه ونظراتها متشبثة بالصورة أمامها تكاد تراها بعيني خيالها طفلة حقيقية...

زمردية العينين كأبيها...

حنونة الطباع كرحمة...

وقوية مثلها!!!

دمعت عيناها بتأثر عندما أمرتها الطبيبة بالقيام لتهتف بلهفة:

_لا...دعيني قليلاً أريد أن أملأ عينيّ من صورتها.

رمقها عزيز بنظرة حنون ثم غمغم باعتذار واهٍ للطبيبة التي قالت بتفهم:

_لا بأس!!!الطفل الأول دوماً هكذا.

لكن الصورة بقيت محفورة في قلبها حتى بعدما غادرا سوياً عيادة الطبيبة...

وكأنها لمست ب-بساطة -نقاء فطرتها لتنثر النور فجأة في جنبات روحها !!!

طلبت منه التمشية قليلاً ليجيب دعوتها بترحاب...

كانت تتأبط ذراعه بأحد ذراعيها وتحتضن بطنها بالآخر في عاطفة لم تعرفها في نفسها من قبل...

عندما التفت هو نحوها ليسألها بتأثر:

_هل تشعرين كما أشعر؟!

ففاضت عيناها برجاء أبى كبرياؤها أن يبوح به لسانها ...

لكنه قرأه كاملاً فشدد ضغط ذراعه عليها ليقربها نحوه أكثر قبل أن يميل عليها هامساً:

_أشعر أن ميادة الصغيرة ستكون تميمة الحظ لنا...هي وحدت طريقانا بعدما كدنا نفترق.

فرفعت عينيها إليه بتردد احتجزه صمتها القصير للحظات...

قبل أن تقول بنبرة مرتجفة:

_عزيز...ما رأيك..لو...

هز رأسه بتساؤل وهو يمنحها نظرة مشجعة فحسمت أمرها لتردف بخفوت:

_نذهب لنزور أمي؟!

هنا ابتسم هو بسعادة وهو يتلفت حوله قبل أن يميل عليها من جديد هامساً:

_لولا خوفي من اتهام بفعل فاضح في الطريق العام لمنحتك أجمل قبلة بعد عبارتك هذه.

ابتسمت بخجل حقيقي وهي تلتصق به أكثر بينما تنهد هو ليهمس بارتياح:

_أخيراً يا ميدا...ألم أقل لكِ أنني أنتظر مفاجأتك؟!

==========

_مسكينة يسرا!!

همست بها ماسة بإشفاق وهي تطالع جسدها الذي استكان أخيراً بعد جرعة عقار مهدئ أخرى...

قبل أن تسقط في سبات عميق!!

فأومأ فهد برأسه ثم جذبها من كفها ليغادرا الغرفة بهدوء...

كانت ماسة قد انتقلت للإقامة معهما هنا في منزلهما بالعاصمة منذ بضعة أيام ريثما تتاح لها الفرصة لمواجهة جاسم الصاوي...

و يفي فهد بوعده لزوجته في مساعدتها في العلاج الذي بدأوه فور عودتهم.

التفتت نحوه لتسأله باهتمام مشوب بشفقتها:

_هل ستتعذب هي هكذا طويلاً؟!صرخات ألمها تكاد تشق صدري وأنا لا أملك التخفيف عنها فلا خبرة لي في علاج الإدمان.

سار معها حتى غرفتها وهو يجيبها بأسف:

_العلاج الجسماني لا يستغرق الكثير من الوقت...سبعة أيام على الأكثر...سنستعين فيها بالمهدئات....المشكلة ستكون في العلاج النفسي وآثار الانسحاب...يقولون أنها ستستغرق وقتاً أطول حسب استجابتها كي نضمن عدم عودتها لتعاطي تلك السموم.

دخلت الغرفة لتغلق بابها خلفهما وهي ترد بحذر:

_وهل سيمكنك تكتم الأمر طوال هذه الفترة؟!

تنهد بحرارة وهو يستلقي على الأريكة بإجهاد قائلاً:

_أنا أبذل قصارى جهدي...من حسن الحظ أن والدتها مسافرة لوقت طويل ويمكننا تدبر أمر مهاتفاتها التليفونية...و"سيادة اللواء" لا وقت لديه لتفقد ابنته وسط مشاغله...كما أنني صرفت طاقم الخدم بدعوى خصوصيتنا مكتفياً بواحدة أثق بها كثيراً.

جلست جواره لتربت على ركبته بعطف قائلة:

_لا بأس...أظن الأمر سيكون أيسر ما دامت هي الأخرى ترغب في العلاج.

مسد جبينه بإرهاق واضح وهو يومئ برأسه إيجاباً...

فغمغمت بحنان:

_أنت لا تنام جيداً منذ جئنا إلى هنا.

زفر بقوة ثم أسند رأسه إلى ظهر الأريكة ليقول بضيق:

_رأسي يكاد ينفجر.

تنهدت بحرارة ترقب ملامحه بتعاطف ناسب قولها:

_أنت تحمل الكثير على ظهرك دون شكوى يا أخي...ما بين اعتنائك بيسرا وانشغالك بشأن مواجهتنا مع والدك.

ثم صمتت لحظة لتردف بخفوت:

_وحزنك الذي تداريه عن الجميع لكنني أقرأه دوماً في عينيك.

أغمض عينيه بألم للحظات قبل أن يهمس بصوت متقطع:

_هذا البيت يخنقني...لم أتصور لحظة أن أعود للإقامة فيه برغبتي .

هزت رأسها بتفهم عندما فتح هو عينيه ليردف بضيق:

_متى سيأتي اليوم الذي ألقي فيه كل هذا خلف ظهري؟!

ابتسمت لتمنحه بعض الأمل وسط كل هذا مع قولها الواثق:

_صبراً يا فهد...لازال الطريق طويلاً لكنني أثق أنك ستبلغ منتهاه.

فرد لها ابتسامتها بأخرى باهتة وهو يجيبها بامتنان:

_شكراً يا ماسة...وقوفك جواري وجوار يسرا في الأيام السابقة دين في عنقي.

ألقت رأسها على كتفه وهي تربت على صدره هامسة:

_لا دين بين الإخوة.

ثم رفعت عينيها إليه لتردف بامتنان:

_أنت سندي يا فهد...لا تتصور مدى فرحتي بك واحتياجي إليك هذه الأيام بالذات.

توهجت عيناه ببريق حنان غشي قلبها قبل عينيها ...

فاستطردت بشرود اجتاحته أفكارها العاصفة:

_حضن رحمة الذي عدت إليه...واهتمام عزيز...وحنانك أنت...كل هذا سيكون زاد طريقي الجديد ...

ثم همست لنفسها دون صوت:

_ماسة ستكون أقوى بكم جميعاً...حتى ولو فقدت "سيد" قلبها.

لكنه انتزعها من شرودها بقوله :

_كفانا إذن تأجيلاً للمواجهة...

فرمقته بنظرة متسائلة ليردف بحسم:

_أعدي نفسك...الليلة سنذهب إلى جاسم الصاوي لتبدأ معركتنا معه.

===========

وقف أمام مرآته بخيلاء وابتسامته الظافرة تحتل شفتيه...

بريق الفوز يتوهج بعينيه وهو يعدل ياقة قميصه بفخامة تليق بمن هو في منصبه الآن...

لقد فاز فوزاً ساحقاً في معركته الانتخابية الأخيرة ليقتنص كرسي المجلس باقتدار...

وبعد قليل موعده مع أشهر القنوات التلفزيونية في أول لقاء له بعد فوزه بالمنصب...

ليشرح للشباب قصة كفاحه الطويل وكيف يحضهم على الطموح والجد لأجل رفعة الوطن و تقدمه و....

و....

و...كل هذا "الهراء" الذي تكفل -أحدهم- بكتابة خطبة طويلة بشأنه سيلقيها -كعهده- بمنتهى الحماس!!

لكن كل هذا لا يكفيه...

هو لازال يطمع بالمزيد...

كرسي المجلس مجرد خطوة تؤهله لحلمه برئاسة المجلس كله...

وهو هدفه التالي الذي سيحرص أن يحققه عما قريب.

طرقاتٌ خافتة على الباب قطعت أفكاره تلاها دخول أحد الخدم مع قوله بتهذيب:

_السيد فهد ينتظرك بالأسفل.

انعقد حاجباه بغضب مفاجئ وهو يصرف الخادم بصيحة هادرة...

قبل أن يندفع مغادراً الغرفة نحو بهو قصره منتوياً تعنيف فهد الأحمق الذي يصر على إحراجه...

ماذا سيقول الخدم لو وجدوه ينتظره بالأسفل طالباً رؤيته كالغرباء؟!!!

ألا يكفيه انتشار الشائعات عن ابن جاسم الصاوي الذي خرج عن عباءة أبيه؟!!

لكنه ما كاد يصل إليه حتى رآها معه...!!!!

ترمقه بنظرات ثابتة خلت تماماً من العاطفة رغم براءة قسماتها...

نعم...ماسته التي فرط فيها يوماً بإرادته...

فهل آن الأوان لتعويضها؟!!

أم أن الزمان الذي دار دورته لن يغير قراره لو أعاد الاختيار؟!!

لهذا وقف أمامها بنظراتٍ اجتاحتها عاطفة غلبته دونما إرادة منه...

وهو يراها صورة مصغرة من تلك المرأة التي تزوجها يوماً ليقتطف زهرة شبابها قبل أن يلقيها وابنتها في العراء فداءً لأخرى خائنة؟!!

والنتيجة...؟!!!!

تنهد بحرارة وهو يغمض عينيه بألم واضح للحظات..

لكنه ما كاد يفتحهما أمامها من جديد حتى اخترقتهما سهامها الفضية الماضية بقوة لا يدري من أين اكتسبتها في ظروفها هذه...

فلا يدري هل تخيفه لأنها تشكل خطراً عليه؟!!

أم تثير إعجاب ذاك "الجانب الأبوي" الذي يجاهد للطفو على سطح مشاعره الأخرى؟!!!

لكن فهد قطع عليه هدير أفكاره وهو يقول ببرود ساخر:

_مبارك نجاحك سيد جاسم...عساك سعيد!!

وكأنما أعادته لهجة فهد الساخرة لسلطان جبروته الذي أعاد لملامحه جمودها وهو يشيح بوجهه قائلاً ببرود:

_لماذا جئتما؟!

ظهر القلق في عيني ماسة وقد انفرجت شفتاها تهمّ بتذكيره بوعده...

لكن فهد سبقها بقوله الصارم:

_أنت تعلم...فلا داعي للّف والدوران.

_تأدب يا ولد...أنت تحدث أباك.

هتف بها جاسم بغضب وقد احمر وجهه بانفعال من يدرك ضعف موقفه لكن فهد ضحك ليقول ساخراً:

_بالضبط!!هذه تربيتك يا سيد "جاسم" ...ماذا تنتظر مني غير العقوق؟!

ثم لوح بسبابته في وجهه ليردف بأقسى نبراته:

_أنت علمتني جيداً كيف أستغل ثغرات خصمي لأحصل على ما أريد ولا أظنك تريد اختبار مهاراتي.

_خصمك؟!!

هتف بها جاسم من بين أسنانه قبل أن يردف باستنكار:

_هل صرت الآن خصمك؟!

فاقترب منه فهد خطوة ليجيبه بازدراء واضح:

_لا ليس الآن...بل منذ استبحت دم زوجتي الذي لن أسامح فيه.

زفر جاسم زفرة مشتعلة وهو يشيح بوجهه دون رد...

فاستطرد فهد وقد عادت لصوته برودته القاسية:

_لكن هذا ليس شأننا الآن...

ثم أحاط كتفي ماسة بقبضتيه داعماً ليردف بحسم:

_ماذا ستفعل بشأنها؟!

نقل جاسم بصره بينهما للحظات...

ثم أعطاهما ظهره بصمت تعمده حتى يمكنه فرض شروطه التي مهد لها بقوله:

_من الجيد أنك عدت ليسرا...

ثم التفت نحوه برأسه ليردف بنبرة ساخرة:

_يبدو أن فتنتها غلبت وفاءك ل"المرحومة" التي تخاصمني لأجلها!!!

اكتست ملامح فهد بانفعال جارف وقد شعر بقبضة باردة تعتصر قلبه الذي لايزال مذبوحاً بمصيبته...

لكن ماسة- التي كانت تشعر الآن جيداً بما يعانيه- رفعت إليه عينيها بفيضها الحنون....

ثم ربتت على كفه القابض على كتفها برفق قبل أن تواجه جاسم بأول مشاركة لها في هذا الحوار:

_لن أفرط في حقي يا سيد جاسم حتى لو كان عمري هو المقابل.

ازدرد جاسم ريقه بتوتر وقد هزته عبارتها رغماً عنه...

لكنه لم يشأ أن يعترف بهذا لهذا عاد يعطيهما ظهره متجاهلاً عبارتها ...

ليبتعد بضع خطوات قبل أن يقول بنبرته القوية:

_حسناً يا فهد ...مادمتَ ربطت نفسك بها فاقبل شرطي .

تبادل فهد وماسة نظرات قلقة قبل أن يقول فهد بنبرة لا تقل عن نبرة أبيه قوة:

_وما هو شرطك؟!

فصمت جاسم للحظات كما اعتاد في صفقاته ليعطي كلماته أبلغ أثر...

قبل أن يستدير نحوهما بجسده ليقول ببطء:

_كما عدت ليسرا،فستعود للعمل معي كالسابق وتحت نظراتي تماماً هذه المرة!

_على جثتي!!

بحسم قاطع هتف بها فهد فانعقد حاجبا جاسم بغضب ...

بينما استطرد هو بنبرة وعيد :

_ماسة ستأخذ حقها كاملاً وأظنك تدرك ما يمكن لابنك "المجنون" فعله خاصةً وأنه لم يعد لديّ ما أخسره.

ثم ضرب بقبضته على صدره ليردف بحزم:

_أما أنا فانسَ شأني تماماً ...لم يعد بيننا سوى اسم على الأوراق الرسمية ولو كان الأمر بيدي لتنازلت عنه بطيب خاطر.

كز جاسم على أسنانه بغضب ثم لوح بسبابته في وجهه ليقول مهدداً:

_لن تكون شوكة في خاصرتي...لو لم تعد لي صاغراً فسأنسى أنك ابني وأدمرك في أي مكان تذهب إليه.

فابتسم فهد ابتسامة متحدية وكأنه كان يتوقع الرد...

ثم نظر في ساعته ليقول ببطء واثق:

_لديك مقابلة تلفزيونية بعد قليل...سنتركك الآن لها...لكن إن لم تمنحني رداً قريباً بشأن ماسة فستكون المقابلة التلفزيونية القادمة لي أنا...

ثم ضم ماسة إليه أكثر مردفاً بنبرة ذات مغزى:

_وأختي.

قالها ثم دفعها برفق أمامه ليغادر القصر منهياً الحوار...

بينما تسمر جاسم مكانه يراقب رحيلهما بقلب موجوع رغم ما اكتست به ملامحه من جمود...

لماذا لا يموت قلبه كما مات ضميره؟!!

أم أن هذا هو عذابه الذي بقي له بعد سوءات عمله كلها؟!!

أن يبقى يراقب خساراته في أعز أهل الأرض لقلبه دون أن يقوى على التراجع!!!

أن يبقى "شيطانه" غارقاً في غِيّه بينما روحه تئن ألماً بجرح لا يدركه غيره!!!

فأي عذاب!!!

وأي خسران!!!

لكنه تمالك نفسه أخيراً ليتجاهل كل هذا ليعاود النظر في ساعته...

قبل أن يتحرك مغادراً القصر بدوره ليدرك"مقابلته التلفزيونية"!!!

=====

استيقظ من نومه ليلاً ليتفقدها على فراشها لكنه لم يجدها...

تنهد بحرارة وهو يسترجع شرودها الطويل منذ عادت إلى البيت بعد خروجها من المشفى منذ بضعة أيام مضت...

ورغم محاولاته المستميتة لإخراجها من هذه الحال لكنها كانت تبدو وكأنها تقاوم نفسها قبل أن تقاومه هو...

تقضي يومها مع أمه وعندما يعودان لشقتهما ليلاً بعد انتهاء عمله بالورشة تتهرب منه بذريعة رغبتها في النوم...

لقد ظن أن هيام عادت تضايقها لكنه رأى بعينيه كيف تغيرت معاملة هيام لها تماماً بعد الحادث وكأنها تحفظ لها صنيعها مع شقيقتها...

كما أن عزة لا تكاد تغادر شقتها حفاظاً على مشاعرها هي الأخرى بعد الوعد الذي شهده ثلاثتهم في المشفى...

الجميع يدللونها كما تستحق...فما الذي يشغل بالها بعد؟!!

غادر الغرفة بحثاً عنها عندما وجدها جالسةً على كرسي المائدة تعطيه ظهرها...

فاقترب منها بخطوات متمهلة مستكشفاً ليجدها تكتب في دفترها الليموني...

ابتسم بحنين جارف وهو يسترجع بذهنه آخر ما كتبته في هذه الأوراق...

والذي يعتبره بحق -رغم بساطته -أجمل وأصدق ما قرأه في عمره كله...

لهذا اقترب بحرص أكبر حتى صار خلفها تماماً لكنها لم تكن تشعر به مع انهماكها في الكتابة...

مبعثرةٌ هي الكلمات ...

كما هي مشاعري الآن...

بين "مد" عشق يدفعني إليه...

و"جزر" خوف يسحبني بعيداً...

بين "صفعات" أمسٍ يزعم أنه قد رحل...

و"أحضان" غدٍ تعدني بالأمان...

بين "كوكب دري" يلتمع في سمائي لم يشرق إلا بحبه...

و"بئر سحيق" أقف بحيرتي على حافته!!!

قدماي لا تزالان ترتعشان على أرضٍ تدور بي بسرعة فأنّى لي الثبات؟!!

والغد الذي ظننتني امتلكت مفاتِحه لازال يهرب مني كعصفور عنيد...

هل يعيش الحب لو ظل مقيداً بسلاسل الخوف؟!!

هل تزهر براعمه تحت سماء ملبدة بغيوم الشك؟!!

هل تمتد يد الفرح لتصافحه أم يبتر وحش الماضي أنامله ؟!

هل يتنفس؟!!

هل يحيا؟!!

_نعم ...يحيا!

همس بها في أذنها مقاطعاً وهو ينحني عليها ليطوق ظهرها بذراعيه من الخلف ...

قبل أن تحط شفتاه على عنقها ...

فأغلقت دفترها بسرعة لتبسط كفها عليه وهي تزيحه بعيداً مع التفاتتها الواهنة نحوه بقدر ما سمح به احتضانه القوي لها...

قبل أن يرفع هو عينيه إليها ليردف بصدق:

_ولو مات حب العالم أجمع...حبكِ أنتِ سيحيا تحت أي ظرف.

احتضنت نظراته بعاطفتها التي سطعت كالشمس في عينيها لكنها تنحنحت لتهمس بارتباك:

_هل قرأت ما كتبته؟!

فك ارتباط ساعديه حولها ليرفعها نحوه بأحد ذراعيه قبل أن يلتقط دفترها بالآخر مجيباً بعاطفة ما عاد يختنق بكتمانها:

_ليس هذا فحسب...قرأت دفترك كله.

ثم رفع الدفتر لشفتيه بقبلة امتنان مردفاً بنفس النبرة:

_من أول كلمة....لآخر كلمة.

شهقت شهقة حادة ثم توهجت وجنتاها بانفعال وهي تشيح بوجهها...

لكنه احتضن وجنتها براحته ليقربها نحوه من جديد هامساً:

_ممَ تخافين؟!

أغمضت عينيها للحظات قبل أن تستند بجبينها على صدره لتهمس بأسى:

_خائفة أن أعود لنقطة البداية...لا أظن أن ما بيننا سيصفو بهذه البساطة؟!

_بساطة؟!

غمغم بها باستنكار وهو يرفع ذقنها إليه ليردف :

_كدتُ أفقدكِ للأبد...وتصفين هذا ب"البساطة"؟!!

هزت رأسها بانفعال يليق بعبارتها بعدها:

_هل تريد إقناعي أنك تخلصت من كل شكوكك نحوي؟!هل تزعم أنك ستثق بي ؟!

فابتسم بحنان مقدراً انفعالها ليسألها برفق:

_نتحدث بالعقل؟!!أم بالقلب؟!

صمتت حائرة دون رد فداعب وجنتها بأنامله ليقول بجدية تامة:

_سأبدأ بحديث العقل...أنا أدين لدفترك هذا بالكثير.

قالها وهو يلوح لها به أمام وجهها قبل أن يلقيه برفق على المائدة جواره ليردف :

_وكأن القدر أوقعه في طريقي من أول مرة ليجعلني أقرأ ما بداخلكِ دون رتوش إضافية...بمنتهى

الشفافية...قرأت فيه صدق توبتك وندمك...قرأت فيه مشاعرك نحوي...خوفك الذي تودين لو ينتهي...قوتك التي كنتِ تتشبثين بها بإرادة من فولاذ..وكأنني رأيتكِ بين سطوره تمزقين ماضياً أرهقكِ وتحلمين بغد نقي مثلك...فهل هناك ما هو أصدق من هذا كي أثق به؟!

أسبلت جفنيها بتعب أثاره طول تفكيرها في هذا الشأن...

فضم رأسها لصدره برفق قبل أن يستند برأسه عليه مكملاً بنبرة دافئة:

_أنهينا إذن حديث العقل...فهل تسمعين حديث القلب؟!

لم تستطع إجابته بأكثر من همهمة خافتة ...

وهي تدفن وجهها في صدره تستنشق عبير عاطفته وتنتشي بلحن دقاته الصاخبة الآن...

لينساب همسه نهراً من عسل في أذنيها:

_أنا الذي عشقتك بكل صورك...عشقتكِ فتاة تحتضن كتبها بين ذراعيها وهي تسير في الطريق...وعروساً فتنتني بالابيض يوم ارتدته لي...وامراة افتدت شرفي بروحها فشاركتها دمي ...عشقت ضعفكِ لما كان يحتل خلاياي كلها مستنفراً للدفاع عنكِ بكل ما أملك..وعشقت

قوتك لما كانت درعاً جديداً للأميرة في غياب حارسها...فماذا تريدين أكثر؟!

ثم رفع ذقنها إليه ليردف بحرارة:

_انبذي عنكِ الخوف يا" ليمونية"...فعيبٌ على ملكة القلب أن تخاف!

ابتسمت بخجل زين وجنتيها بحمرة لذيذة مع تساؤلها :

_ليمونية؟!

فتأوه بخفوت وإبهامه يداعب "شق ذقنها" بهيام احتل نبراته:

_طالما أحسستكِ امرأة بنكهة الليمون...غرامها لاذع لكنه منعش...لا يترك القلب إلا ثائراً بخفقاته.

اتسعت ابتسامتها للحظات ثم عاودت إسناد رأسها على صدره فداعب شعرها بأناملها ليسألها برفق خبير:

_هل هذا فقط ما يؤرقك؟!

رفعت عينيها إليها بحذر مشفق ليقرأ توجسها في نظراتها ...

قبل أن تهمس بتردد:

_عزة.

كان يعلم أن هذا جزء آخر من عذابها لكنه أرادها أن تتكلم من تلقاء نفسها...

فاكتفى بنظرة مشجعة آتت ثمارها عندما أردفت هي بين إشفاق وغيرة:

_أخاف أن أظلمها...وأن ..تظلمني.

أسبل جفنيه ليبتعد بنظراته عنها متعمداً كي يمنحها الشجاعة لقول ما تريد...

فأردفت هي بانفعال أكبر:

_كيف أقاوم تفكيري أنني سأخسر معها المقارنة أمام تفكير رجل مثلك يريد أن يكون الأول في حياة امرأته؟!وفي نفس الوقت كيف أتقبل عذاب ضميري وأنا أراها صورة مني في قلة حيلتها وحاجتها إليك؟!

ضمها إليه أكثر محتوياً انفعالها بحنان يصطبغ بقوته ثم قال بحزم واثق:

_أما عن غيرتك فلن ألومكِ عليها...بل سأدع الأيام تثبت لكِ عشقاً لن ينافسكِ فيه أحد...

ثم أخذ نفساً عميقاً ليردف:

_وأما عن عزة نفسها فهي أمانتي...لن أتخلى عنها حتى أضمن لها معيشةً آمنة.

انفرجت شفتاها تهم بسؤال فضحته عيناها ...

لكنه وضع سبابته على شفتيها مردفاً بحزم راجٍ:

_رؤى...تذكري دوماً ألا تفسدي الغد بالأمس...أنا وأنتِ دفعنا ثمناً غالياً كي نصل لهذه النقطة...فلا تضيعي عذابنا بلا ثمن...اصبري حبيبتي ...

ثم اقترب بوجهه منها أكثر هامساً بنبرة أرق:

_ألا يستحق ما بيننا القليل من الصبر؟!

لانت نظراتها رويداً رويداً أمام فيض عاطفته الذي اكتسح قلبها باقتدار...

حتى تزينت شفتاها أخيراً بابتسامة دللها بشفتيه للحظات ...

قبل أن يبتعد عنها قليلاً ليعاود تناول دفترها ممسكاً بالقلم في وضع الكتابة...

فهتفت بدهشة وهي تراقب ما يفعله:

_ماذا تفعل؟!

لم يرد عليها للحظات مكملاً ما بدأه حتى أغلق آخر ورقة في الدفتر ليرفعه نحوها قائلاً بعاطفة سبقها احترام طالما اشتاقته منه هو بالذات:

_أحبك.

ثم لوح بالدفتر في وجهها مردفاً بنبرته الدافئة:

_كتبتها على كل صفحاته الباقية ...فلا تكتبين شيئاً بعد حتى تقرئينها قبله...أريدها أن تكون الحقيقة التي ترين من خلالها أي شئ آخر...أن تدوري في فلكها كما أفعل أنا منذ عرفتك.

دمعت عيناها بتأثر وهي تنقل بصرها بينه وبين دفترها للحظات...

قبل أن ترتمي على صدره لتطوق خصره بذراعيها بكل قوتها مع همسها الحار:

_حبيبي يا راغب!

اعتصرها بين ذراعيه وأنامله تلامس "قلادتها " بهيام مصطبغ باشتياق مع همسه:

_منذ أخبرتني أمي أنها ستكون لعروسي...لم أحلم أن ترتديها امرأة سواكِ.

رفعت أناملها برفق لتتشابك بأنامله على قلادتها ثم همست بتأثر:

_وأنا منذ ارتديتها أول مرة وددت لو لا أخلعها أبداً.

انتهت عبارتها بين شفتيه وقد عانقتا شفتيها أخيراً...

لتكتبا عهود ميثاق جديد بينهما هذه المرة...

ميثاق بدا وكأنه بعمق الحياة...

بقوة العشق...

وبطول العمر!!!

قبل أن يغازلها بعده همسه الدافئ في أذنيها:

_أما آن الأوان أن يفطر الصائم ؟!!ما عاد في الروح قوة لجهاد!!

فازدادت خفقاتها جنوناً وهي تفهم ما يقصده ....

قبل أن تومئ برأسها في خجل ذاب بدوره وسط عاصفة المشاعر التي اجتاحتهما سوياً الآن...

وما بقي- بعدها- كان كافياً لطمس نقوش ماضٍ ظن كلاهما ألا نجاة من براثنه...

فما عاد أحدهما الآن يرى سوى صاحبه...والحب!!!

======

_ستكون بخير يا عزيز؟!

هتفت بها ميادة وسط دموعها المنهمرة وهي ترقب جسد رحمة المسجى على الفراش دون حراك...

لقد سقطت مغشياً عليها بمجرد ما سمعت خبر القرار الذي صدر من الحي بإزالة البيت !!!!!

ذاك الخبر الذي لم يحتمله قلبها الضعيف فانهارت إزاءه...

ضمها عزيز إليه بقوة ليقول مهدئاً رغم قلقه هو الآخر:

_لا تخافي...الطبيب يقول أنها ستكون بخير...هي فقط تحتاج للراحة بعد الدواء.

كانت ماسة جالسة جوار رحمة على الفراش تحتضن كفها بكفيها وقد أبت أن تتركها منذ علمت الخبر...

لكن عزيز التفت نحوها الآن ليقول بإشفاق:

_ماسة...أنتِ لم تتناولي طعاماً منذ جئتِ.

فغمغمت بقلق وعيناها معلقتان برحمة لا تحيدان عنها:

_ليس قبل أن أطمئن عليها.

وعند آخر كلمة منها انتحبت ميادة بقوة بين ذراعي عزيز لتهتف بنشيج باك:

_قولوا أنها ستفيق قريباً...قولوا أنها بخير.

ثم أمسكت ساعدي عزيز تهزهما بقوة مع استطرادها الهستيري:

_افعل أي شئ يا عزيز لكن دعني أسمع صوتها من جديد.

عقد عزيز حاجبيه بدهشة من انهيارها الغريب على ثباتها الذي يعرفه...

لكنه عاد يضمها إليه برفق قائلاً بحزم يحتاجه الموقف:

_اهدئي يا ميادة...انهياركِ هذا سيؤثر على الطفل.

لم يكد يتم عبارته حتى تأوهت رحمة بخفوت وهي تفتح عينيها...

فاندفعت ميادة نحوها لتجلس على ركبتيها على الأرض محتضنة كفها لتهتف مع دموعها المنهمرة:

_أنتِ بخير؟!

التفتت نحوها رحمة بعينين ذابلتين وهي تحاول الإيماء برأسها...

قبل أن تنتبه لماسة جوارها فانفرجت شفتاها لتهمس ببطء:

_ماسة...أنتِ هنا...هل علمتِ ماذا حدث؟!

تماسكت ماسة بصعوبة وهي تحتضن كفها الآخر لتقول بابتسامة مصطنعة:

_لا تحملي هماً يا رحمة...كل شئ سيكون على ما يرام...فقط كوني بخير.

لكن رحمة هزت رأسها نفياً لتهمس بما بدا كالهذيان:

_لن أترك بيتي ...هو عمري كله...سأموت قبل أن أخطو خطوة واحدة بعيدة عنه.

هنا عادت ميادة تنخرط في بكاء حار مع همساتها المختنقة:

_لا تخافي يا أمي...أنا وعزيز لن نترككِ أبداً.

هنا ابتسمت رحمة بشحوب مع سؤالها الذي انغمس بحنانها رغم ضعفها:

_أمي؟!هل دعوتِني "أمي" أخيراً؟!!

مسحت ميادة دموعها بسرعة وهي تحاول التقاط أنفاسها لتهتف بتماسك مصطنع:

_نعم...من الآن لن أدعوكِ إلا هكذا...لكن ...

قطعت عبارتها عندما تأوهت رحمة بخفوت ثم أسبلت جفنيها بضعف لتعود لسباتها...

فشهقت ميادة بحدة وهي تنظر إليها برعب...

قبل أن تسأل ماسة بانهيار:

_ماذا حدث؟!لماذا لا تفيق؟!

رمقتها ماسة بنظرة مشفقة لتقول مطمئنة:

_لا تقلقي يا ميادة...الدواء الذي أعطاه لها الطبيب سيجعلها تنام للصباح...وهذا أفضل كي تستريح.

ثم أردفت بحزم رفيق:

_لا تجلسي على الأرض هكذا...ستؤذين طفلك.

لكن ميادة بدت وكأنها لم تسمعها...

عيناها كانتا متشبثتين بملامح رحمة الساكنة...

ومطارق الذنب تهوي على ضميرها بلا رحمة...

هي السبب في سقوط رحمة هذا...

هي السبب!!!

لقد ردت الإحسان بأبلغ إساءة...

قابلت حنان رحمة بمنتهى القسوة...

وردت لها إخلاصها بطعنة غدر!!!!

لكنها لم تكن تتوقع أن يصيبها هذا...

كل تفكيرها كان محصوراً في أن تغلق كل الأبواب أمام عزيز حتى لا يجد له ملجأً إلا حضن أبيه!!!

فسوّل لها شيطانها هذه الفكرة غير مدركةٍ لأثرهذا على رحمة الغالية!!!

غالية؟!!

نعم...غالية!!!

ربما آن الأوان أن تعترف بمشاعرها نحو الجميع...

أن تسمح لشعاع الشمس باختراق قلبها ليذيب كل هذا الجليد...

أن تصرخ بأعلى صوتها أنها "محتاجة"..

نعم...محتاجة...

محتاجة ل"عشق" عزيز ...

و"حنان" رحمة...

و"أمومة" والدتها...

و"اهتمام" أبيها!!!

محتاجة... بل تكاد تموت تعطشاً لعاطفة طالما كفرت بها خلف دعوى "الاستغناء"!!!

محتاجة... لحسم الصراع بين "ماسة " الحب التي بدأ بريقها يخطف بصرها بروعته و"شيطان" طمعها الذي يريد الاستحواذ على كل شئ!!!

لكن عزيز قطع أفكارها عندما رفعها من كتفيها برفق نحوه ليوقفها قائلاً بحنان:

_قومي واستريحي في غرفتنا...ستكون بخير...لا تقلقي.

رمقته بنظرة غارقة بشعورها بالذنب لكنه لم يفهمها مع استطراداه المشفق:

_إنها المرة الأولى التي أراكِ فيها بهذه الحالة...لم أكن أعلم أن رحمة غالية عندكِ هكذا.

فعادت ببصرها نحو رحمة لتهمس أخيراً بخفوت وقد حسمت بداخلها -قراراً- ما:

_نعم...غالية...غالية جداً يا عزيز!

=======

وقفت في شرفة منزل رحمة بعدما اطمأنت لاستقرار حالتها تتطلع للسماء بشرود...

وقد خلت من نجومها وقمرها لتبدو كصفحة سوداء قاتمة آلمت قلبها أكثر...

ورغماً عنها اجتاحتها ذكرى منه بدت لها بعيدة كما هذه السماء:

_عيناكِ خطيرتان جداً في ليلة كهذه...عندما يغيب القمر فكأنما يستودع فيهما فقط كل نوره وسحره!

دمعت عيناها باشتياق وهي تضم جسدها بذراعيها لتستند بهما إلى سور الشرفة القصير...

لتجذبها ذكرياتها إلى طيف ساحر آخر منه وهو يجدل لها شعرها مع همسه :

_كل ما فيّ يتغير معكِ وكأنكِ خلقتِ لتكوني كل استثناءاتي!!!

هنا لم تستطع منع دموعها التي سالت على وجنتيها كخطين رفيعين مع همسها لنفسها:

_للأسف...ما عدت استثناءً...خضعت مثل الجميع لقواعد جبروت عاصي الرفاعي.

ثم مسحت دموعها بسرعة وهي تحاول دفع ذكراه الهادرة عن كيانها لتعاود انشغالها بالمارة في الطريق...

عندما سمعت صوته الحنون خلفها:

_لماذا أنتِ ساهرة حتى الآن؟!

التفتت نحوه برأسها ثم تنهدت بحرارة لتهمس بحسرة:

_سيهدمون بيتنا يا عزيز!

هز رأسه نفياً وهو يشرد بدوره في الفراغ أمامه قائلاً:

_لا أدري من أين تأتيني هذه الثقة...لكن قلبي يخبرني أن بيت رحمة لن يسقط أبداً...بل سيبقى حتى يسع أحفادها .

والغريب أن الأمل الذي كان يشع بين كلماته انتقل إليها بمنتهى السلاسة...

كعهدها القديم معه...كلمات عزيز تترك دوماً أثرها في القلب...

ربما لأنها تخرج أيضاً من القلب....!!!

لهذا ابتسمت ببعض الارتياح عندما أفاق هو الآخر من شروده ليتأمل ملامحها هامساً ببعض الشجن:

_نفس الوِقفة يا ماسة!

رفعت عينيها إليه ببطء وهي تدرك ما يتحدث عنه ...

عندما كان يغار عليها من الوقوف هكذا في الشرفة كي لا تلاحقها أنظار أهل الحي...

لكنها كانت تخبره أنها لا تقف هكذا إلا لتنتظر مجيئه!!!

وكم أثار هذا من خلافات بينهما....

خلافات كانت تنتهي باعتذارها ووعدها بألا تفعلها ...

ذاك الوعد الذي كانت تخلفه بعدها بقليل عندما كان شوقها يغلبها إليه فلا تطيق صبراً على انتظاره هكذا في موعد قدومه...!!!!

لكن الأيام مرت...وها هي ذي تقف في نفس المكان...

لا لتنتظره هو...بل لتنعي حباً آخر أوشك هو الآخر على الغروب في سماء عمرها القصير!!!

بينما تقدم هو بهدوء ليقف جوارها محافظاً على مسافة مناسبة بينهما ....

ثم استند مثلها بذراعيه على السور مردفاً بنفس النبرة:

_هل تذكرين كم كنت أتشاجر معك كلما رأيتكِ تقفين هكذا؟!

فابتسمت بشجن لترد بشرود:

_نعم...أذكر...

ثم أطرقت برأسها لتردف بأسى:

_لكن ...تغير الكثير!!

تنهد بحرارة متفحصاً ملامحها البائسة ليقول بإشفاق:

_نعم...عيناكِ وقتها كانتا أكثر بريقاً.

ثم أردف بتفهم وكأنه -مثلها- يضع الحدود الجديدة لعلاقتهما:

_ولم تكوني ترتدين حجابكِ أمامي!

وكأنه لم يقصد مجرد "غطاء رأس" بل "حجاب قلب" كذلك!!!

وهو ما كان يصله تماماً دون نقصان!!

ماسة لم تعد له ...كما لم يعد هو لها...

قولاً حاسماً هذه المرة!!!

بينما تحسست هي وشاحها برفق وهي تتذكر ذاك اليوم الذي غضب فيه عاصي منها لأنها قابلت عزيز دون حجاب...

غيرته التي اكتسحت غابات زيتونه لأول مرة يومها...

والتي صبغت مشاعره بلون خاص وقتها...

فعادت الدموع تملأ عينيها وهي ترد على عبارته بألم:

_وقلبي كان أكثر براءة.

وخزته عبارتها في الصميم وهو يحمل نفسه الكثير من ذنبها ليهمس بانفعال :

_إياكِ يا ماسة ...إياكِ أن تخسري براءة قلبك مهما حدث.

أخذت نفساً عميقاً في محاولة أخيرة منها للتماسك ثم قالت لتغير الموضوع:

_هل نامت ميادة أخيراً؟!!كانت تبدو في غاية القلق.

أومأ برأسه إيجاباً ثم عاد يتفحص ملامحها باهتمام مع سؤاله:

_وأنتِ...كيف حالك؟!

وبرغم بساطة سؤاله لكن الحنان الذي كان يقطر بين حروفه لمس روحها بحق...

وكأنما كان كافياً وحده لتنهار آخر سدود تماسكها المزعوم....

لينهمر خلفها سيل دموعها مع اعترافها الذي ما عادت قادرة على كتمانه:

_موجوعة يا عزيز...موجوعة بحق....قلبي يكاد ينفطر.

زفر بقوة وهو يرفع رأسه لأعلى بعجز مدركاً حرقة شعورها الآن...

دموعها كانت تحرق رجولته وهو مكبل اليدين لا يدري كيف يساعدها...

ليسودهما صمت طويل بعدها حتى تمالكت هي دموعها أخيراً ...

فعاد يسألها بحذر مشوب بحنانه:

_أحببتِه؟!

هزت رأسها بقوة وهي تهمس بألم:

_ليته كان مجرد حب...ليتها كانت قصة تقليدية لزوجة عاقر هجرها زوجها ليتزوج أخرى طمعاً في الولد...ليته كان ال"سيناريو" الشهير لامرأة تضحي بحبها لأجل كرامتها...لكن الحقيقة أبعد من كل هذا...أنا...أنا...

قطعت آهتها الطويلة عبارتها لتشعر بسيخ من نار يكوي صدرها مع استطرادها:

_أنا أشعر أنني قطعةٌ منه يا عزيز...قطعةٌ منه كما هو قطعةٌ مني...هو منحني كما لم يمنحني أحد...وجرحني

كما لم يجرحني أحد...بعض روحي يلعنه على خيانته وما بقي منها يكاد يموت خوفاً عليه...جزءٌ بداخلي يدفعني للابتعاد عنه بكل قوتي... لكن جزءاً آخر يلومني أني تركته وحده...يرجوني أن أبقى جواره ...أمامه...حوله...أدافع عنه بروحي...فلا يصيبه خطر إلا ويصيبني قبله!!!

ثم عادت دموعها تغلبها بنحيب عالٍ مع شهقاتها وهي تردف بعجز:

_لو لم تذبحني خيانته فسيقتلني خوفي عليه!

أغمض عينيه بألم عن انهيارها الذي لم يشهد مثله من قبل ...

لكنه انتظرها صابراً حتى هدأ بكاؤها نوعاً ليقول بتعقل لم يغادره حنانه:

_لن تضلي الطريق يوماً يا ماسة...أنتِ فعلتِ الصواب...لعل رحيلكِ عنه يكون صفعة إفاقة له...كثيرنا لا يدرك قيمة الشئ حتى يفقده.

ظهر بعض الأمل في مقلتيها وهي تتمنى لو يكون ما يقوله صحيحاً...

فابتسمت ابتسامة باهتة وهي تومئ برأسها...

ليبتسم بدوره وهو يقول ببعض الشجن:

_من كان يصدق أنه سيأتي اليوم الذي تشكين أنتِ فيه لي أنا من حب رجل آخر؟!وفي هذا المكان بالذات؟!!

أغمضت عينيها باستسلام وهي تتمتم بضعف:

_ألم أخبرك قبلاً؟!!تغير الكثير!!!

_نعم...تغير الكثير.

قالها بيقين وهو يرمقها بإشفاق للحظات...

قبل أن يحاول انتشالها من بحور حزنها التي أوشكت على ابتلاعها من جديد..

فقال ليغير الموضوع:

_ماذا فعلتِ مع والدك؟!

فتحت عينيها بعد لحظات وكأنها لم تفهم سؤاله من أول لحظة...

قبل أن تغتصب ابتسامة ساخرة لاءمت لهجتها:

_تقصد جاسم الصاوي؟!

عقد حاجبيه بدهشة متسائلة...فتنهدت بعمق ثم روت له تفاصيل مقابلتها الأخيرة له مع فهد...

حتى انتهت منها بقولها الذائب بحسرته:

_لقد خذلني من جديد!!!

صمت لدقائق مفكراً ثم عاد يرفع عينيه إليها ليقول بحسم:

_سافري يا ماسة!

رفعت إليه عينيها بصدمة فهز رأسه ليضيف بثقة:

_نعم...سافري واتركي خلفكِ كل هذا...جاسم الصاوي لن يمنحكِ اسمه بهذه البساطة...خصومه السياسيون سيستغلونكِ للإيقاع به.

ثم صمت لحظة ليردف بأسف:

_وربما نالك الكثير من حقاراتهم مع ذاك الحادث القديم الذي تعرضتِ له...سيكون اسمكِ على كل لسان في البلد لقمةً سائغة لكل من يسول له خياله المزيد من الفضائح.

اتسعت عيناها بارتياع وهي تتبين صحة ما يقول...

فانعقد حاجباه بضيق وهو يهتف بانفعال:

_ماسة أنا لا أقصد مضايقتك...أنتِ تعلمين مكانتك عندي...أنا فقط أريد أن أريكِ كيف تسير الأمور في هذا البلد...جاسم الصاوي له أعداءٌ كثيرون...ستدخلين طرفاً في صراع لا قِبَل لكِ به!

هدأت ملامحها نوعاً وهي تحاول أن تعقل حديثه دون تحيز...

لكنه عاد يبتسم بثقة ليمنحها بعض القوة:

_ربما يكون هذا هو الحل الأفضل...أن يمنحكِ جاسم الصاوي الأوراق التي تمنحكِ حقوقك لكن دون إعلان لهذا وأظن أنه بنفوذه يمكنه التكتم على الأمر.....ومع سفركِ سيأمن هو ألا يكشف الأمر أحد ...وهكذا تستعيدين اسمك دون أن يخسر هو شيئاً من سمعته .

صمتت لوقت قصير تفكر في اقتراحه...

عندما عاود قوله بحزم حنون:

_سافري واصنعي لنفسكِ كياناً جديداً...بعيداً عن كل محطات ضعفك هنا...بعيداً عن جحود جاسم الصاوي...وعن طغيان عاصي الرفاعي...

ثم صمت لحظة ليفوح الذنب من كلماته :

_وعن خذلاني لكِ قبلهما.

اعتدلت في وقفتها لتفك ارتباط ساعديها ثم أخذت نفساً عميقاً سبق قولها بمودة:

_لا تحمل نفسك ما لا تطيق يا عزيز...كلانا لم يملك سوى أن يستجيب صاغراً لكلمة القدر.

أومأ برأسه وهو يعتدل في وقفته بدوره ليقول برفق :

_لكن هذا ليس غرضي الوحيد من دفعك للسفر.

رمقته بنظرة متسائلة فأردف بحماس:

_أمي أخبرتني عن مشكلتكِ الخاصة بالإنجاب ...وأنا استشرت أحد أصدقائي بشأنها...هو طبيب ماهر متخصص بهذا الشأن تعرفت عليه عندما كنت مع والدي في دبي قبل عودتي إلى مصر...هو الآن يعمل في مشفى كبير ب"أبو ظبي"...عرضت عليه الأمر لكنه أراد أن يرى أوراقك بنفسه...

فانعقد حاجباها بتفكر للحظات مع همسها بتردد:

_لكن...

لكنه قاطعها بحزم:

_هو سيساعدكِ في العمل أيضاً كممرضة معه في المشفى...ألا تريدين ممارسة عملكِ الذي تعشقينه و طالما قلتِ إنه رسالتكِ في الحياة؟!

أومأت برأسها في تردد فابتسم ليقول باستحسان:

_ستكون فرصة لضرب العديد من العصافير بحجر واحد...أنتِ تحتاجين عالماً جديداً تتنفسين فيه بنقاء بعيداً عن دخان ماضيكِ هنا.

ابتسمت أخيراً بشبه اقتناع وقد بدأت فكرته تروقها لتهمس بامتنان حقيقي:

_أعدك أن أفكر في الأمر...شكراً يا عزيز...شئٌ جميل سيبقى بيننا مهما طال العمر.

أومأ برأسه موافقاً ثم همس بما يشبه الوعد:

_ربما عجزت عن منحكِ الحب الذي تستحقين...لكنني لن أبخل عليكِ دوماً بصداقة أوقن أنكِ تحتاجينها..أنتِ أمانة في عنقي مثل رحمة تماماً.

توهجت عيناها ببريقها الماسي من جديد وهي تشعر بالصدق في كلماته...

بينما تنحنح هو أخيراً ليقول بحنان:

_كفاكِ سهراً حتى الآن...اذهبي للنوم.

منحته نظرة امتنان أخيرة وهي تعطيه ظهرها لتنصرف ...

قبل أن تعاود الالتفات نحوه لتسأله بفضول:

_ما اسم صديقك الطبيب هذا؟!

فاتسعت ابتسامته وهو يجيبها:

_طبيب فلسطيني... اسمه "جهاد الريحاني".

======

_صفا؟!

هتف بها أنس بدهشة وهو يراها تدخل عليه في مكتبه بالمدرسة بمظهرها الجديد تماماً على عينيه...

وقد تحول حجابها العريض الذي كان يغطي نصف جسدها العلوي تقريباً إلى وشاح قصير انحسر عن خصلات شعرها المصبوغة بلون أحمر مثير...

وأظهر رقبتها ومقدمة صدرها خلف ياقة قميص زاهي الألوان يعلو تنورة شديدة الضيق أبرزت جسدها بشكل

ملفت خاصةً بعدما فقدت الكثير من وزنها مع حمية خاصة دوامت عليها لفترة لتستعيد رشاقتها...

انعقد حاجباه بضيق وهو يراقب مشيتها المتعثرة بحذائها ذي الكعب العالي الذي يعلم أنها لم تعتده بعد حتى جلست أمامه واضعة إحدى ساقيها فوق الأخرى مع نبرة متعالية لم تعد تفارق صوتها:

_ما الأمر؟!!ألا تعجبك طلّتي الجديدة؟!

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يطرق برأسه مغمغماً:

_كثيرٌ من أمورك لم يعد يعجبني .

فالتفتت نحوه بحدة هاتفة:

_لماذا؟!!لأنني قررت أن أستعيد الشعور بأنوثتي؟!!

رفع إليها عينيه بنظرة طويلة حملت مزيجاً من أسفه وضيقه قبل أن يسألها بنبرة عاتبة:

_منذ متى كانت أنوثة المرأة باستعراضها لجسدها؟!!

دمعت عيناها بجرح لايزال ينبض في حدقتيها مع هتافها المنفعل:

_لقد نسيتُ أنني امرأة...طوال هذه السنوات وأنا ألهث خلف سراب أمومة لم أدركه...غافلةً عن أيام عمري التي كان يتآكل فيها شبابي بوهن...

ثم لوحت بكفها مردفةً بنبرة أكثر انفعالاً:

_لكنني أفقت لنفسي الآن...سأكف عن حماقة العطاء دون مقابل...وسآخذ من الدنيا كل ما يمكنني أخذه...سأستعيد الشعور بأنني امرأة كاملة لا ينقصها شئ!!

هز رأسه بضيق وهو يرد عليها باستنكار:

_ليس بهذه الطريقة !قيمة المرأة ليست في مظهرها!

وكأنما لدغتها عبارته كأفعى فقد هبت من مقعدها فجأة لتصرخ بثورة:

_لو كان الأمر كذلك لما تركني هو لأجل خادمتي!!!

أغمض عينيه بألم وهو يشعر بجرحها يكويهما معاً...

خاصةً عندما سالت دموعها أخيراً على وجنتيها مع استطرادها الثائر المشبع بمرارته:

_مشاعر سنوات لم تشفع...عطاء قلبٍ لم يعشق غيره أيضاً لم يشفع...حبي واحتوائي وحناني ...كل هذا لم يشفع...نسفته فتنة امرأة أخرى بلحظة!!

_ومن الذي أدخل هذه المرأة بينكما؟!

قالها بصرامة قاسية وقد قرر أن تكون كلماته صفعة إفاقة لها...

وقد كان له ما أراد فقد اتسعت عيناها بصدمة للحظات قبل أن تغمغم بارتباك:

_أنت تحملني أنا المسئولية؟!!تزعم أنني أنا المخطئة؟!!

زفر بخفوت ثم قام من مقعده ليتوجه نحوها قائلاً بأقصى ما استطاعه من هدوء:

_كلاكما كان مخطئاً...لكنني لا أريدكِ أن تعيشي دور الضحية التي تسعى لانتقامٍ أنتِ أول من سيكتوي بناره.

ظلت الصدمة تحتل ملامحها التي غابت في شرود بائس...

بينما اقترب هو منها أكثر ليردف بحزم:

_أنا لا أنكر ذنب عبد الله لكنني لا أنكر خطأكِ كذلك...ذاك الخطأ الذي تحاولين إصلاحه الآن بخطأٍ أكبر.

التفتت إليه من شرودها بملامح حادة لكنه أكمل بنفس الحزم:

_أغلقي هذه الصفحة تماماً يا صفا...لا تحرقي نفسكِ بنارٍ لن يراها سواكِ...لا تفقدي هويتكِ وإلا فلن تعودي بعدها لنفسكِ أبداً.

هويتي؟!!

وهل بقيت لي بعده هوية؟!!

هو كان الهوية والوطن...

فياحسرةً على غربتي بعده!!!

تنهدت بحرارة وهي تضع كفها على صدرها كاتمةً نزيف أفكارها الصامت...

قبل أن تعاود جلوسها مع كلماتها المقتضبة وكأنها فقط تغير موضوع الحديث:

_هل خططت للشكل النهائي لحفل آخر العام؟!!الديّ بعض الأفكار المبتكرة ستروق "أولادي" كثيراً.

فابتسم بحنان للفظة "أولادي" التي قالتها ببساطة...

هذه هي صفا الحقيقية التي عشقها ...

بحنانها وفيض عطائها ...

والتي سيبذل ما في وسعه لينتشلها من صحراء تيهها وتخبطها...

وأول الخطوات هنا ألا تهرب كما تفعل الآن...

بل أن تواجه وتصمد وتتعلم من خطإ لن تكرره...

لهذا عاود جلوسه هو الآخر أمامها متجاهلاً عبارتها السابقة ليقول ببطء حذر:

_عبد الله زارنا في منزل أبي بالأمس.

انتفض جسدها انتفاضة خفيفة مع ارتجافة شفتيها رغماً عنها وهي تهمس بترقب:

_ماذا كان يريد؟!

تأمل ملامحها- الواشية بعمق عاطفتها - بأسف للحظات قبل أن يستعيد صوته هدوءه الحاني:

_جاء يرد لكِ الشقة وأصل رأس مال المحل مع أرباحه مناصفةً بينكما .

فانعقد حاجباها بغضب لتقف من جديد هاتفة باستنكار:

_يظن أنه بهذا أعاد لي حقي؟!!لا وألف لا!!!

ثم مالت عليه بجذعها مردفةً بنبرة ثائرة:

_أنا أريد المحل كله...كل هذا حقي أنا...كل ما بناه هو طوال السنوات السابقة كان بفضلي أنا...أنا...أنا.

كان صراخها هادراً في كلماتها الأخيرة التي عكست مشاعرها ...

فاحترم ثورتها للحظات قبل أن يقف مواجهاً لها بقوله الحازم:

_بل بفضل الله ثم بفضل مجهوده هو...الرجل تصرف بمنتهى الأمانة رغم أن أحداً لم يجبره على هذا...لكنه كان مصراً على إعادة أموالكِ إليكِ.

_وعمري؟!!هل سيعيده أيضاً؟!!

همست بها بصوت مختنق بعبراتها فأشاح بوجهه في ألم...

بينما أردفت هي بلهجة امرأة خاسرة:

_وكرامتي؟!!وقلبي؟!!وأمان غدٍ ظننته سيكون معه؟!!هل سيرد لي كل هذا؟!!

أغمض عينيه عاجزاً عن مجادلتها وهي في هذه الحالة...

بينما ابتسمت هي أخيراً بسخرية مريرة مع استطرادها:

_عظّم الله أجر الشيخ ...على الأقل لم يتزوج أخرى في شقتي !!!

انقبض قلبه لحزنها الذي شق صدره بمرارته وهو يقف في أسوأ موقف قد يوضع فيه عاشق...

عندما تضطره الظروف أن يستمع لهمساتها الذبيحة بغرام آخر فلا يدري هل يواسيها أم يواسي قلبه؟!!

لكنها رحمته من كل هذا عندما انسحبت أخيراً بخطواتٍ مندفعة لتغادر الغرفة ...

بل والمدرسة كلها!!

ثم استقلت أول سيارة أجرة وجدتها لتعود لشقتها آملةً في وحدة منعزلة تفرغ فيها أحزانها ...

لكنها ما كادت تصل لباب شقتها حتى وجدت باب شقته المقابل مفتوحاً وقد همّ بالخروج منها حاملاً حقيبة ملابسه...

التقت نظراتهما في حديث طويل...

ولأول مرة تختلف لغة الحديث فلا تفهمها العيون...

شراسة نظراتها أمام ندم نظراته...

بريق قسوتها أمام وميض عجزه...

ووسط كل هذا اشتياقٌ خفيٌ يجاهد كي يطفو على سطح كل هذه المشاعر...

لكنه كان يكفي ليتحرك كل منهما نحو صاحبه دون وعي حتى لم تعد تفصلهما سوى بضع خطوات...

ليلفهما بعدها صمتٌ طويل كان هو أول من قطعه وعيناه تدوران عليها بمظهرها الجديد مع كلماته التي اختصرت الحال:

_تغيرتِ يا صفا.

فالتوت شفتاها بابتسامة قاسية مع إجابتها المقتضبة:

_جداً يا شيخ!

ثم حطت عيناها على حقيبته للحظة قبل أن ترفعهما إليه هاتفةً ببطء قاس:

_تزوج امرأة...واعبث بأخرى...جرّب عشرةً ومائةً وألفاً...وأتحداك لو وجدت مثلي...تدري لمَ؟!!

قبض أنامله بقوة وقد أثارته عبارتها رغم صدقها...

بينما استطردت هي بنفس الثقة القاسية:

_لأن ترياقي الذى سرى في عروقك قطرة قطرة ويوماً بيوم حد الإدمان سيقتلك اشتياقاً قبل أن تستلذ بخيانة...صورتي ستقف بين عينيك وبين كل النساء...خذها كلمةً مني لن تنساها يوماً!

فاشتعلت عيناه بعجزٍ أورثه المزيد من الغضب الذي احتلّ همسه الثائر:

_وأنتِ...هل ستنسين؟!!

عقدت ساعديها أمام صدرها مع اتساع ابتسامتها القاسية لتجيب بنبرة كراهية يسمعها منها لأول مرة:

_ومن قال أنني أريد نسيانك؟!!على العكس...لن يشغلني بعد اليوم إلا مراقبة كل خساراتك بعدي.

هز رأسه مصدوماً بقسوتها التي تخدش قلبه لأول مرة بهذه الضراوة...

لكنها رمقته بنظرة مظلمة أخيرة ثم عادت لشقتها صافقةً بابها في وجهه بعنف ....

قبل أن تستند بظهرها إلى الباب نفسه الذي تهاوى خلفه جسدها في انهيار تام ...

لتحتوي ارتجافتها العنيفة بذراعيها أخيراً مع همسها المختنق بدموعها:

_لن أسامحك أبداً يا عبد الله...لن أسامحك.

========

_لمن هذه الشقة يا فهد؟!!

هتفت بها ماسة وهي تدلف للداخل فيما أغلق فهد الباب خلفه برفق مبالغ فيه وكأن ارتجافة أنامله تعانده...

ليصمت رغماً عنه للحظات...

قبل أن تغلبه رعشة صوته وهو يهمس بابتسامة شاردة:

_للأستاذة!

التفتت نحوه ماسة بدهشة للحظة ...

قبل أن تتنبئها ملامحه عمن يعنيها ...فأومأت برأسها بتفهم هامسة:

_زوجتك الراحلة؟!

_بل زوجتي الوحيدة!

قالها بحزم قابضاً أنامله بقوة جواره مع انعقاد حاجبيه وهو يردف بانفعال:

_لا أحب أن يدعوها أحد ب"الراحلة"!!مَن مثلها خُلقت لتبقى ...لن ترحل أبداً كما تظنون.

تنهدت بحرارة ثم اقتربت منه أكثر لتربت على صدره برفق محاولةً استيعاب انفعاله بقولها الرفيق:

_معك حق...امرأةٌ مثلها خُلقت لتبقى ذكراها ملهمة بالخير...بالجهاد في سبيل الحق.

تأوه بخفوت وهو يضمها إليه ليهمس بألم:

_افتقدتها يا ماسة...افتقدتها حد الجنون....يزعمون أن الأيام تجعلنا ننسى فمالي لا يزيدني الوقت إلا شوقاً وحسرةً عليها؟!!

دمعت عيناها بتأثر وهي تعاود تربيتها على صدره فعاد ينظر إليها مردفاً بابتسامة شاحبة:...

_أنتِ تذكرينني بها...نفس النقاء الذي لم يلوثه سواد الحياة...هل تعلمين أنها كانت تبحث معي عنكِ قبل عثوري عليك؟!كم كانت تريد رؤيتك ومساعدتك...لهذا أتيت بكِ اليوم إلى هنا...

ثم دار بعينيه في المكان بحنين ارتجفت له خلاياه كلها....ليقول بنبرة مختنقة:

_وددت لو نجتمع سوياً.

ابتسمت وسط دموعها التي مسحتها بأناملها بسرعة وهي تدور ببصرها في المكان الذي بهرها بأناقته البسيطة و ذوقه الذي تميز بالرقي ..

لتسأله أخيراً بأسى:

_هذه الشقة كانت لكما؟!

تنهد بحرارة وهو يدور بعينيه في المكان مستشعراً تلك الرجفة التي عصفت بجسده كله مع فيض ذكرياته الغامر معها هنا...

قبل أن يجيبها بشرود :

_بل لها هي فقط ...أنا كتبتها باسمها سراً بعد زواجنا لكنني لم أخبرها...كانت سترفض أي شئ من أموال جاسم الصاوي .

تأملت ماسة شروده بإشفاق وقد ترددت بين أن تتركه لذكرياته أو تحاول التخفيف عنه بالانتقال للحديث عن شأن آخر...

لكن نظرةً واحدة لملامحه حسمت ترددها...

هذا رجلٌ غارقٌ في مشاعره حتى النخاع...

أي أمرٍ مهما كان لن يصرفه الآن عن ذكراها التي انحفرت بسن الوجع بين ملامحه فسكنتها للأبد...

لهذا وجدت نفسها تقول له بمزيج من شفقتها وحنانها:

_احكِ لي عنها يا فهد!

بدا لوهلة أنه لم يسمعها ...قبل أن يبتسم ابتسامة باهتة وهو يجذبها من كفها نحو أحد الأرائك ليجلس جوارها قائلاً بأسى:

_لن يسعفني في وصفها كلام يا ماسة...طالما عجزت عن تفسير شعوري نحوها...ظننتني يوماً خبيراً في شئون النساء حتى إذا ما التقيتها أحسست وكأنني صبيٌ

مراهق يرى امرأة لأول مرة في حياته...ومن يومها وهي صارت بعيني أول النساء وآخرهن.

ربتت ماسة على ركبته بحنان لتسأله بفضول غلبها:

_كيف تعرفت إليها؟!

تأوه بصوت مسموع وهو يعود برأسه ليستند على ظهر الأريكة قبل أن تدمع عيناه وهو يتحسس ندبة ذقنه هامساً:

_من هنا كانت البداية...ليلتها قالت لي أن ندبتها ستترك أثراً لن يمحى ...وكم كانت صادقة!!!

قالها ثم بدأ يحكي لها تفاصيل قصته مع جنته باستطراد مستمتع...

نعم...برغم كل ذاك الوجع الذي كان يغرس مخالبه في صدره كانت ذكراها الرطبة لا تزال بلسم أسقامه...

حتى انتهى من روايته بقوله:

_جاسم الصاوي ظن أنه سيستعيد ابنه لو تخلص منها...ليته أدرك أنه يوم قتلها...قتلني معها!!!

أشاح بوجهه عند عبارته الأخيرة التي تهدج فيها صوته فاضحاً انفعاله...

فصمتت تحترم حزنه للحظات...قبل أن تقول بحزم رفيق:

_فهد...اسمعني جيداً...لا أريد أن أقول كلاماً مكرراً لكن حياتك يجب أن تستمر...يسرا ليست امرأة سيئة كما كنت أظن...ألا يمكنك التفكير في منحها -بل منحكما سوياً- فرصة أخرى؟!

_مستحيل!!

هتف بها باستنكار مع التفاتته الحادة نحوها ....

فانعقد حاجباها بضيق فيما زفر هو بقوة ليردف مشيراً لصدره بألم:

_جنة هنا...هنا بقلبي ولن تبرحه حتى تسكن خفقاته...صدقيني لم يمنعني من اللحاق بها إلا رغبتي في ألا أخذلها بعد رحيلها....أن أثبت لها أن حياتها التي فقدتها بسببي لم تضع هباء...وأنني سأمنحها حياتي التي سأعيشها على طريقتها هي!!!

ابتسمت باعتزاز وهي تتبين ذاك الإخلاص الهادر في كلماته لتهمس بفخر:

_كم هي محظوظة برجلٍ أخلص لها حتى بعد موتها...

ثم اكتست عيناها بغمامة داكنة حملت ذكرى برائحة "غابات الزيتون".....

لتزدرد ريقها بألم هامسة بشرود أخذت دورها فيه الآن:

_كثيراتٌ يذقن مرارة الخيانة وهنّ لازلن على قيد الحياة.

نظر إليها بتفحص محاولاً استقراء ما وراء كلماتها لكنها ابتسمت بتكلف لتغير الموضوع...

ثم احتضنت ساعده بذراعيها قائلة بنبرة استئذان:

_هل يمكنني البقاء هنا؟!

انعقد حاجباه برفض فأردفت بما يشبه الرجاء:

_لا أريد أن أقتحم خصوصية يسرا أكثر..رغم صداقتنا الوليدة لكن يسرا شخصية تعتز بكبريائها...إحساسها بوجودي شاهدة على معاناتها في العلاج سيجعل مزاجها أسوأ.

هز رأسه نفياً وهو يقول بحسم:

_انسيْ الأمر تماماً...لن أتركك وحدك.

مطت شفتيها باستياء ثم عادت تقول بإلحاح:

_أرجوك يا فهد...يمكنك أن تزورني كل يوم للاطمئنا....

لكنه قاطعها بصرامة أكبر:

_أبداً!!هذا الأمر لا نقاش فيه!!

ورغم أنها كانت ترغب حقاً في الابتعاد عن خصوصيته مع يسرا...

لكن عبارته الحمائية داعبت نفسها بشعور غامر بالحنان والاحتواء....لتهتف بدلال مشوب بحنانها:

_ماذا؟!! لا تأتمنني على شقة الأستاذة؟!

فابتسم وهو يقبل جبينها بحنان ليقول بصدق سمعته بقلبها قبل أذنيها:

_يا حبيبة أخيكِ أنا كلي لكِ...لكن الأمر ليس هكذا...

ثم ربت على كفها مردفاً :

_أنا أحتاجكِ بجانبي ربما أكثر من حاجتك لي...

وعند كلمته الأخيرة عصفت به أكثر ذكرياته دفئاً وشجناً لتذيبه اشتياقاً ولوعة ....

_تحتاجينني وأحتاجك أكثر!!

مع قبلتين صباحيتين ب"طعم الحياة"...

على وجنتين ب"نقاء الماس" و"رائحة الجنة"!!!!

_فهد!!!هل عدت لشرودك؟!!

انتزعته بها من ذكرياته فابتسم لها ابتسامة باهتة لتردف بغضب مصطنع:

_لماذا تتحكم فيّ هكذا؟!!من فينا الأكبر كي يملي أوامره على الآخر؟!

اتسعت ابتسامته وهو يقرص وجنتها بمرح قائلاً:

_أنتِ تكبرينني ببضعة أشهر لكن انظري لفارق الحجم بيننا ...أنتِ تبدين جواري كعصفور ضئيل.

فهزت رأسها لتقول بمرح مشابه:

_هي بالحجم إذن؟!!

ضحك بخفة وهو يقوم من جوارها قائلاً بمرح مشابه:

_نعم..أي اعتراض؟!!!

ضحكت بدورها وهي تهز رأسها...

فسألها باهتمام:

_ماذا تشربين؟!

تلفتت حولها لتقول بدهشة وكأنها انتبهت للأمر الآن فقط:

_المكان نظيف تماماً.

أومأ برأسه وهو يسبقها إلى المطبخ قائلاً :

_نعم...أنا كنت مهتماً أن أرسل من ينظفه كل فترة...وكنت هنا أول يوم عدنا فيه إلى العاصمة.

ابتسمت بإدراك وهي تلحق به لتقول بنبرة دافئة:

_يعجبني اهتمامك بالتفاصيل.

فالتفت نحوها وهو يمسك أحد الأكواب ليسألها بابتسامة حنون مع قوله:

_تشربين القهوة معي؟!

لكنها تناولت منه الكوب لتزيحه جانباً مع قولها :

_نعم...لكنني أنا من سيصنعها.

وقف يراقبها بحنان وهي تعدها عندما تذكر- شيئاً ما- جعله يسألها بترقب:

_ماسة...أنتِ لم تخبريني عن علاقتك بزوجك كيف كانت.

تيبست أناملها فجأة على الملعقة التي كانت تمسكها...

ثم التفتت نحوه متصنعة البرود الذي ناسب قولها:

_أخبرتك أن قصتنا انتهت.

هز رأسه في استحسان ثم قال باهتمام:

_لا أريد الخوض في دفاتر قديمة مادمتِ ترغبين بذلك...لكن أخبريني هل اتفقتما على الطلاق؟!

عادت تتشاغل بصب القهوة في الكوب لتقول بأقصى نبراتها بروداً:

_لا تقلق...أظنه سيفعلها قريباً.

قالتها كاذبة وقلبها يخبرها أن عاصي الذي عشقته بكل كيانها لن يتخلى عنها أبداً...

لينتابها أمل ضعيف أشرق بقلبها رويداً رويداً وكلمات عزيز تراود عقلها بقوة...

نعم...من يدري؟!!

لعل رحيلها عنه الآن يجعله يرجع عن طريقه...

لعل افتقاده لها يرده إليها داحراً شيطان طمعه وجبروته...

لعل شظايا "الماس" التي نثرتها بدربه تدله على طريق الوصول إليها...

بل...ربما يمنحها "المهر" الذي طلبته منه يوماً...

لوحة ب"فرشاة" ترسمها يده بعدما تلقي"سلاحه"!!!

لهذا تنهدت أخيراً بحرارة وهي تمسك الكوب لتناوله إياه

...

عندما أصابتها عبارته بمقتل:

_هل تعلمين أنه تزوج ليلة أمس؟!

==================

_انتبهي!!!

هتف بها فهد بجزع وهو يبعدها برفق عن شظايا الكوب الذي وقع منها فانكسر...

وليته أدرك كم فجرت عبارته في صدرها شظايا اكثر!!

تزوج؟!!!

عاصي تزوج؟!!

ما بالها متعجبة هكذا؟!!

ألم يخبرها أنه سيفعل؟!

ألم تهجره لأجل هذا؟!!

ألم تقضي أيامها السابقة تؤهل نفسها لهذا المصير؟!!

ألم تتوقع خسران "ماسته" أمام "شيطانه"؟!!!

يالله!!!

فارقٌ كبير بين ما نتوقعه وما نلاقيه!!!

برغم كل ما أعدته بنفسها من قوة لتحتمل ...تجد عذابها أقوى!!!

عزيز كان مخطئاً في حكمه...

وهي كذلك!!!

رحيلها عنه لم يكن سوى حجر جديد في الجدار الذي قام بينهما...

خطوة أخرى في طريق ستسيره بدونه...

"إجابة صحيحة "في "ورقة امتحان" تَساوَى فيه النجاح والرسوب ..

في الحالتين هي خاسرة...

إن لم يكن "كرامتها" ....ف"قلبها"!!!

_ماسة!!!

هتف بها فهد من جديد مراقباً صدمتها بقلق مع قوله الآسف:

_لم أعلم أن الخبر سيضايقكِ هكذا...ظننتكِ ...

قطع عبارته متفحصاً إياها بجزع حقيقي لكنها التفتت نحوه أخيراً لتهمس بصوت مرتعش:

_لا أهتم.

نظر إليها بشك ونظراتها الزائغة تناقض قولها بصورة فجة...

لكنها تمالكت نفسها أكثر لتبتسم مردفة:

_ما يعنيني لو تزوج؟!ألم أخبرك قبلاً أن قصتنا انتهت؟!

ربت على وجنتها برفق ولازال يرقبها بقلق مشوب بحنانه...

لكنها عادت تقول برجاء حار:

_فهد...دعني هنا وحدي لساعة ...ساعة واحدة فقط...أرجوك.

انفرجت شفتاه يهم بالرفض خاصةً مع حالتها هذه...

لكنها اعتصرت كفه بكفيها مع همسها برجاء أقوى:

_أنا أحتاج هذا بشدة...لا تجادلني الآن...أرجوك.

أشاح بوجهه في ضيق للحظة ثم عاد يضمها إليه بقوة لدقيقة كاملة...

قبل أن يبعدها برفق هامساً :

_ساعة واحدة فقط لكن بشرط...ستخبرينني بكل شئ عندما أعود.

أومأت برأسها موافقة وهي تقاوم انهيارها باستماتة...

لكنه ما كاد يغلق الباب خلفه حتى تركت العنان لدموعها لعلها تطفئ هذه النيران التي اشتعلت بصدرها الآن...

ابكيه يا ماسة...

ابكيه بكل قوتك الآن حتى لا يبقى في دموعك ما يذرف عليه بعد...

أهلكي قلبكِ الأحمق حزناً حتى لا يبقى فيه موضعٌ لاشتياق...

تدثري بحسرتكِ وسط برد خيانته حتى تدركي قيمة الدفء بعد...

ابكي...

واصرخي...

والبسي الأسود حداداً على عشق مات غدراً ولا دية له!!!

كان هذا هذيان روحها بترنيمة عذاب لم تعلم لها أولاً من آخر ...

والتي قطعها أخيراً رنين هاتفها...

ظلت تنظر طويلاً للهاتف الذي تراقصت أضواء شاشته برنته المميزة التي اختارتها له...

لحن أول أغنية سكبت إحساسها معها على صدره الذي توسدته يومها بمنتهى الأمان...

"أنا بعشق البحر"

كالبحر كنت ولا تزال...

حنوناً...مثيراً...هائجاً..غامضاً...

وغادراًً!!!

لم تجب الاتصال لمرتين وثلاث وشرودها يختطفها بين واقع وخيال...

لكن نغمات الجهاز عادت تنتزعها من أفكارها فتناولته بأنامل مرتجفة لتفتح الاتصال....

وكأنها فقط تقطع على نفسها تأثرها ....

لتصمت تماماً منتظرةً سماع صوته الذي غاب عنها متدثراً بصمته هو الآخر...

لدقائق طالت كثيراً ولم يجرؤ أحدهما على قطعها...

_عاصي!!

همستها اليتيمة شقت ستار الصمت أخيراً لتذبح قلبه ب"ألمها" الذي شق صدرها ...

ب"عاطفتها" التي كانت تقطر بين حروفها...

ب"اشتياقها"الذي اختبأ خائفاً بين ذبذبات صوتها...

و ب"وعيدها" الذي كان يغلف نبرتها:

_يقولون أنك....

قطعت عبارتها عاجزة عن مجرد النطق بها...

لتصلها حرارة أنفاسه عبر الهاتف فتصهر خلاياها بشعورها الدافئ به تماماً وكأنها على صدره!!!

فوجدت نفسها تردف بهمس مضطرب بين تكذيب ورجاء:

_هل فعلتها حقاً؟!

اعتصر هاتفه بيده وصوتها يعيده رغم عنه لسجون اشتياقه...

لكنه قهر هذا الشعور بقوة لا يجيدها مثله...

ليهمس بصوت ظاهره "القوة" وباطنه" خزيٌ " لم يستشعره سواها:

_نعم...عاصي الرفاعي لا يخلف كلمةً أعطاها.

أغمضت عينيها بألم وهي تعتصر الهاتف بين أناملها هي الأخرى في "توافق قدري" غريب بينهما...

لتحاول بعدها قول شئ...

أي شئ!!!

عتاب...

استنكار...

تهنئة ساخرة...

لكن لسانها بدا وكأنه التصق بسقف حلقها الجاف فعاد الصمت يلفهما من جديد لوقت أطول هذه المرة...

حتى راودتها نفسها بغلق الاتصال لكنها للأسف...لم تستطع!!

وفي نفسها ...لعنت ضعفها مرة...

و غدره ألف مرة...

وعشقها له ألف ألف مرة...

لكنها لم تقوَ على التفوه بمجرد كلمة !!!

بينما لم يكن هو أفضل منها حالاً...

يتمنى لو يقطع المسافة بينهما بلحظة...

لو يغرسها غرساً على صدره ليمحو أثر امرأة سبقتها لم تنل منه سوى- ثورة جسد-..

لو يخفي وجهه بين خصلات شعرها متنشقاً عبير عشق لم تمنحه له سواها...

لو يسبح ببحار ماسيّتيها مغتسلاً بعد دنس خطيئته...

لكنه يعلم كم جاهد نفسه كي لا يفعلها...

لقد عاش عمره كله يضع الحجر فوق الحجر كي يكتمل بناء صرحه...

فهل من العقل أن يهدم كل هذا بلحظة "ضعف"؟!!

نعم...ماسة هي ضعفه الذي لن يستسلم له...

هي ستبقى في حياته...لكن...بشروطه!!!!

وأولها...ألا يتنازل!!!

لهذا سكت....

وسكتت....

ولما استبطأت كلماته عادت تمتلك الزمام بقوتها لتهمس بصوتها الذبيح رغم قوته:

_تكلم...الآن فقط أنا أطلب منك الكلام...ما عدت قادرةً على قراءة صمتك كالسابق.

ثم اختنق صوتها بعبراتها التي اختطفت أنفاسها مع استطرادها:

_لقد فقدت أنا مهارة فهمك ...وفقدتَ أنت...قلبي!

_لم أفقده ...ولن أفعل!!

صرخ بها بانفعال جعلها تنتفض مكانها مع دموعها التي انهمرت كالسيل على وجنتيها ....

لكنها كتمت شفتيها بقبضتها بقوة مخافة أن يدرك أنها تبكي...

ليصلها هديره العاصف بعدها بثورة لم تعهدها فيه من قبل وكأنما فقد أعصابه فجأة:

_لن أخسر شيئاً...هي فقط مسألة وقت وتعود كل الخيوط في يدي كما كانت...وأولها أنتِ!

لم تستطع إجابته وهي بالكاد تلتقط أنفاسها وسط دموعها الصامتة...

للحظات ما عادت تتبين لها طولاً من قصر...

لكنه بدا وكأنه شعر بما تعانيه عندما افتقد صوتها لهذا الوقت الطويل...

فارتجفت نبرته فجأة ارتجافة خوف ميزها قلبها العاشق بسهولة:

_ماسة...تكلمي!

أبعدت يدها الممسكة بالهاتف بأقصى امتداد ذراعها وهي تشيح بوجهها....

لكن صوته الهادر وصلها بوضوح عاكساً قلقاً حقيقياً توقن أنه لا يدعيه:

_ماسة...لماذا لا تجيبين؟!

أتبع جملته بعدة نداءات لاسمها بوتيرة خوف متصاعدة ....

حتى سمعت صوت شئ ما يتكسر على الجانب الآخر من الاتصال مع صراخه الذي كاد يصم أذنيها رغم ابتعادها:

_لو لم تتكلمي حالاً فسأنتزعكِ من مكانكِ أينما كنتِ لأعيدكِ هنا رغماً عنكِ وعن أي أحد.

والغريب أن عبارته لم تصبها بالخوف ...

بل بالشفقة!!!

كانت تعلم أنه الآن قد وصل لآخر حدود احتماله...

وأن صراخه هذا- الغريب- على ثباته المعهود لا يعني سوى أنه يترنح ذبيحاً بين جدران ضعف لم يعتده من هو مثله...

نعم...هي تفهمه...

لكنها ...لا تعذره!!!

للأسف...فعلته الأخيرة أحرقت ما تبقى له من زهور الحب في قلبها فلم تذر بعدها إلا أرض بور...

أو -هكذا- كانت تظن!!!

لهذا تنفست بعمق محاولة استعادة ثبات نبراتها...

ثم أعادت الهاتف جوار أذنها لتجيب عن سؤال لم يسأله لكنها كانت تعلم أنه يحترق الآن به:

_لا تخف..أنا بخير..

ثم ابتسمت ساخرة وكأنه سيراها لتردف بنفس النبرة:

_اطمئن..لن أكون "ديناً جديداً" يجبرك الزمان على سداده...فلا أنا عدت بهذا الضعف لأسقط ...ولا أنت عدت بهذه القوة لتحتمل المزيد.

ثم أغلقت الاتصال لتكون هذه آخر كلماتها له...

قبل أن تلقي بهاتفها تحت قدميها فتكسره بكعب حذائها مع همسها المنفعل:

_أعانك الله على نفسك يا "عاصي" القلب...

ثم رفعت رأسها لتردف بحسم:

_ما عاد أحدنا دواء الآخر...كلانا كفيلٌ بجرحه!!!

الفصل التاسع والعشرون

عاد إليها بعد قليل ليجدها جالسةً مكانها على الأريكة ... وحالها يغني عن أي سؤال!!!

لكنها ما إن رأته حتى مسحت دموعها بسرعة لتقول بابتسامة مرتجفة:

_اتفقنا على ساعة يا نصاب...لم يمضِ أكثر من نصفها!!!

ومع إدراكه لمرحها المصطنع عقد حاجبيه بضيق وهو يقترب منها قائلاً:

_لم أحتمل تركككِ أكثر.

وهنا انتبه للهاتف المكسور تحت قدميها فجلس جوارها ليضمها إليه بقوة هامساً بحزم:

_ماذا حدث؟!هل هاتفتِ ذاك الرجل؟!

وضعت أناملها على شفتيها تكتم بكاءها للحظات قبل أن تهمس بصوت متحشرج:

_هو من فعل!

ربت على رأسها برفق ثم رفع ذقنها إليه ليقول بنبرة قوية:

_ماذا كان يريد؟!

لم تستطع منع دموعها أكثر مع قوة إحساسها بحنانه وتفهمه...

فأجهشت بالبكاء وهي تدفن وجهها في كتفه ...

ليزفر هو بقوة قبل أن يهتف بحدة:

_قولي لي ماذا فعل وأنا سأعرف كيف أرد لك حقك لكن لا تبكي هكذا.

ظلت على بكائها لدقائق وكأنها لم تسمعه ...

فلانت ملامحه رويداً رويداً حتى قبّل رأسها أخيراً مع همسه الحاني:

_إحكي لي يا ماسة...أنتِ وعدتِني أن تحكي لي كل شئ.

تأوهت بخفوت وهي تهز رأسها قبل أن ترفع وجهها إليه أخيراً لتهمس بابتسامة مريرة:

_عمّن تريدني أن أحكي؟!!عن عاصي الذي أعرفه أم عاصي الذي تعرفونه أنتم؟!

عقد حاجبيه وهو يتفحص ملامحها باهتمام عندما شردت ببصرها لتردف بحسرة:

_عن رجلٍ ردّ إليّ كرامتي بل ردّ إليّ نفسي؟!!أم عن رجلٍ طعنني بخنجر غدر في قلبي؟!!

ثم عادت ببصرها إليه لتهمس بألم:

_وليته هانئٌ بخيانته!!!!أنا موقنةٌ أنه يتعذب مثلي وأكثر...ظلم نفسه قبل أن يظلمني.

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يسألها بحيرة:

_ولماذا إذن فعلها؟!

أخذت عدة أنفاس متتابعة وكأنها تمنح نفسها فقط بعض القوة ...

قبل أن تزفر زفرة واحدة قوية سبقت قولها باقتضاب :

_ببساطة...لأنه "عاصي"!

هز رأسه بقوة وهو يهتف بعناد:

_أريد أن أعرف كيف بدأ أمركِ مع هذا الرجل...الآن!

ترددت للحظات ثم غامت نظراتها بسحب اشتياق طوقتها رغم أنين روحها...

ثم مضت تروي له كل حكايتها معه بتفاصيلها من البداية...

حتى انتهت بقولها الغارق في حسرته:

_وددتُ لو يكون مثلك...لو يهزم عشقه شيطانَه!!!

صمت فهد للحظات يفكر في حديثها وهو عاجز عن الرد...

عاصي الرفاعي ليس وغداً كما كان يظن...

على الأقل مع أخته!!

على العكس ...لقد ساندها في أشد أوقات حياتها صعوبة حتى عادت تقف على قدميها من جديد...

وهو ما عجز عن فعله أقرب أهل الأرض إليها!

قد يقدّر رغبته في الحصول على طفل خاصة في ظل التهديدات التي يتعرض لها الآن...

لكن ...ألم يكن من الأولى به -طالما يحب ماسة هكذا- أن يهرب بها -ومعها- من هذا الجحيم كما طلبت منه يوماً؟!!

لهذا تنهد بحرارة ثم ربت على وجنتها ليقول أخيراً بحزم :

_تريدين رأيي؟!كلاكما لم يعشق صاحبه كما ينبغي.

زأرت أمواج فضتها باعتراض فضحته عيناها بينما استطرد هو بأسف:

_هو جعل أولويته لنفسه كما فعلتِ أنتِ...هو فضّل الوريث عليكِ وأنتِ فضّلتِ كبرياءكِ عليه...

ثم شرد ببصره هامساً بمزيج من حنين ولوعة:

_الحب الذي أعرفه هو الذي يمزج الأرواح فلا يصير هناك "أنا" و"هي" بل...هي أنا وأنا هي!

ابتلع غصته الخانقة عند همسته الأخيرة ليستعيد صوته بعض حزمه وهو يواجهها بقوله:

_حبكما ناقصٌ يسير على قدم واحدة...وحبٌ كهذا لن يصل يوماً لمنتهاه.

هزت رأسها وهي تبتعد عنه لتهتف باستنكار:

_أنت تلومني يا فهد؟!أتراني قد قصرت في حقه؟!

ابتسم بحنان وهو يطوق ملامحها بعطفه قبل أن يقول أخيراً:

_لا يا "حبيبة أخيكِ"...ما أريد قوله أن كليكما اختار...ولم يبقَ له سوى حصاد نتيجة هذا الاختيار.

ثم اكتسب صوته بعض الجدية وهو يقول بحزم:

_وما دام الأمر كذلك...فالبتر هنا أفضل من علاج غير نافع!

لمعت عيناها بنظرة متسائلة فلوح بسبابته في وجهها مردفاً بنفس الحزم:

_لن أسمح له أن يؤذيكِ أكثر...ستنالين حريتكِ رغماً عن أنفه.

_لا!

هتفت بها بنبرة أكثر حزماً ثم استطردت بقوة:

_حريتي سأنالها بطريقتي...لا أريد أن يتدخل أحد بيني وبينه...كما بدأت حكايتنا بنا وحدنا فستنتهي كذلك.

انعقد حاجباه بضيق للحظات ثم زفر زفرة قصيرة سبقت قوله:

_حسناً...دعينا نؤجل الحديث عن هذا الأمر الآن حتى تهدئي قليلاً.

أطرقت برأسها للحظات ثم وقفت مكانها لتبتعد عنه بضع خطوات مع قولها بحسم:

_أنا سأسافر.

صدمه قولها لبرهة قبل أن يقف بدوره ليتوجه نحوها قائلاً بدهشة:

_رحلة استجمام مثلاً؟!

لكنها أدارت وجهها نحوه لتبتسم بشحوب مع قولها:

_رحلة علاج...وعمل!

ظهر التساؤل في عينيه جلياً فاستطردت بتماسك مصطنع:

_أحد أصدقاء عزيز يعمل كطبيب في "أبو ظبي"...سيساعدني في العلاج والعمل معه كممرضة.

_ممرضة؟!

هتف بها باستنكار وهو يمسك ساعدها بقوة ليردف:

_ابنة جاسم الصاوي تسافر لتعمل ممرضة؟!

اتسعت ابتسامتها الشاحبة مع قولها الشارد:

_لهذا السبب بالذات أريد السفر...أنا لا أحتاج مالاً ...فعاصي أنشأ لي حساباً بنكياً بمبلغ يكفل لي العيش كملكة هنا...لكنني لا أريد العيش بمال جاسم الصاوي ولا عاصي الرفاعي.

تنهد بحرارة وهو يدرك سر تصرفها ليقول بعد تفكير:

_حسناً...اصبري فقط لبعض الوقت وسنسافر معاً.

لكنها هزت رأسها لتقول باعتراض:

_يسرا تحتاجك هنا...لن تستطيع السفر أنت قبل شهرين على الأقل...وأنا أريد السفر اليوم قبل غد.

_وأنا لن أتركك تسافرين وحدك.

هتف بها باعتراض أقوى فتجمعت الدموع بعينيها من جديد....

ثم رفعت رأسها لأعلى لتصرخ بانهيار هزم كل حصون تماسكها:

_أرجوك يا فهد افهمني...أنا أريد أن أبتعد عن هنا...أعلم أنك تحتاجني...ورحمة كذلك...لكنني سأختنق حقاً لو بقيت هنا أكثر..

ربت على ظهرها بإشفاق وقد غلب خوفه عليها أي شعور آخر خاصةً مع انهيارها هذا....

فتحسست رقبتها بأناملها لتردف بصوت مبحوح:

_أريد أن أستعيد نفسي ...لو بقيت هنا فلن أرى سوى حطام ماسة تهشمت بمطارق طغيانهم..

ثم التفتت نحوه لتقول في محاولة أخيرة لإقناعه:

_وأظنها ستكون فرصةً مناسبة لإقناع جاسم الصاوي بالاعتراف بي دون قلق.

هز رأسه في عدم اقتناع لكنها استدارت بجسدها نحوه لتحيط كتفيه بكفيها هامسة برجاء:

_لأجل خاطري يا فهد...دعني وما أريد...سأسافر أنا الآن والحق بي أنت فيما بعد عندما تستعيد يسرا كامل عافيتها.

زفر زفرة قصيرة ثم ضم رأسها لصدره لبضع لحظات...

قبل أن يقول أخيراً بحزم:

_حسناً...دعيني أفكر.

=============

أعطني الناي وغنِّ .. فالغنا سرّ الخلود

وأنين الناي يبقى .. بعد أن يفنى الوجود

هل تَخَذت الغاب مثلي .. منزلاً دون القصور

فتتبّعت السواقي .. وتسلّقت الصخور

هل تحمّمت بعطر .. وتنشّفت بنور

وشربت الفجر خمراً .. في كؤوس من أثير...

هل جلست العصر مثلي .. بين جفنات العنب

والعناقيد تدلّت .. كثريّات الذهب

هل فرشت العشب ليلاً .. وتلحّفت الفضا

زاهداً في ما سيأتي .. ناسياً ما قد مضى

أعطني الناي وغنِّ .. فالغنا عدل القلوب

وأنين الناي يبقى .. بعد أن تفنى الذنوب

أعطني الناي وغنِّ .. وانْسَ داءً ودواء

إنّما الناس سطور .. كُتبت لكن بماء...

شرد جهاد ببصره مع هذه الأنغام المنبعثة من الجهاز جواره...

غافلاً عن تلك التي اختبأت في ركن مستتر كعادتها تراقبه بهيام...

وقد أضفى شروده المزيد من السحر على عينيه الزرقاوين...

وتزينت شفتاه بابتسامة وقور اعتقلت قلبها هي بسجون فارهة من أحاسيس لم تعرفها إلا معه...

وتلاعبت أنامله ب"شاله المميز" بلونيه الأبيض والأسود وكأنه يعزف عليه لحن الأغنية!!!

كانت تتابع تفاصيله بحنان فطري فيها غلب خجلها المعهود...

لكنها شهقت بحدة عندما اصطدمت أنامله فجأة بكوب "الشاي الأخضر " على مكتبه ...

فسقط الكوب بما فيه على ذراعه...

لم تشعر بنفسها وهي تندفع نحوه بسرعة لتهتف بانفعال:

_أنت بخير؟!

التفت نحوها بدهشة قبل أن يطلق تأوهاً ضعيفاً وهو يشعر بألم حارق في ذراعه...

ثم توجه نحو الحوض الصغير في زاوية الغرفة حيث غسل ذراعه سريعاً تحت نظراتها القلقة...

وبعدها عاد إليها مبتسماً مع قوله:

_لحسن الحظ لم يكن شديد السخونة....

ثم قطع عبارته ليهتف بدهشة:

_لماذا تبكين؟!

انتبهت في هذه اللحظة لدموعها التي غلبتها مع انفعالها كالعادة...

فمسحت وجهها بسرعة مضحكة لتهمس بخجل:

_أبكي؟!!أنا لا أبكي!!!!لا تظنني حمقاء...فقط...كنت...

قطعت عبارتها التي بدت لها أكثر حماقة من دموعها الخرقاء...

وقد سولت لها نفسها الهرب الآن من أمامه بسرعة...

لكن خطواتها عاندتها قبل قلبها الذي كان يرجوها البقاء...

خاصةً مع ابتسامته التي اتسعت كثيراً وهو يعود ليجلس على مكتبه قائلاً ببساطة:

_يبدو أنك شخصية انفعالية.

تجرأت لترفع عينيها نحوه مع سؤالها بحياء:

_وهل هذا جيد أم سيئ؟!

ضحك بخفة وهو يمسح آثار الفوضى على المكتب بمنشفة صغيرة...مع استطراده:

_وطيبة جداً أيضاً!!

احمرت وجنتاها أكثر وكأنه أسمعها قصيدة غزل...

قبل أن تندفع لتساعده فيما يفعل حتى انتهيا من الأمر فقال برفق:

_شكراً يا زهرة...سلمت يداك.

ألجمت مشاعرها لسانها وقد عجزت عن الرد...

فقط دقات قلبها كانت تدوي كقرع الطبول مع صوته الآسر بلكنته المميزة....

فابتسم من جديد وهو يدعوها للجلوس بقوله:

_يمكنكِ الجلوس...تحبين "فيروز"؟!

_أحبك أنت!!

كان هذا هتاف قلبها" الصامت" والذي ترجمه لسانها تلقائياً لرد مقتضب:

_ومن لا يحبها؟!

تنهد بحرارة وقد عاد لشروده مع قوله -وكأنه فقط يحدث نفسه ولا يراها-:

_أنا أعشق صوتها...يذكرني ببيت جدي القديم في منطقة تسمى" باب العمود"..قريبة جداً من المسجد الأقصى...لقد قضيت طفولتي هناك معه .

جلست أمامه وقد وجدتها فرصة لتبادل الحديث معه فتنحنحت لتسأله برقة اصطبغت بخجلها:

_وكيف كان هذا البيت؟! صفه لي.

اتسعت ابتسامته وقد راق له استرجاع الذكريات فقال بانطلاق:

_كان بيتاً بسيطاً مكوناً من ثلاثة غرف ومطبخ صغير تطل نافذته على حديقة البيت ...الحديقة نفسها كانت جنة...لازلت أذكر دالية العنب التي كان جدي يجلس تحتها ليروي لي حكاياته الطويلة...قبل أن تقاطع جدتي جلستنا بطبق من "كعك القدس" الذي كنت أعشقه.

ابتسمت لتباسطه معها وقد منحتها كلماته الجرأة لتسأله دون كلفة:

_إذن تحب "فيروز" و"بيت جدك"و "كعك القدس" ...وماذا أيضاً؟!

تلاشت ابتسامته تدريجياً مع طيف الألم الذي كسا عينيه وهو يجيبها بصوت شرخه حزنه:

_أحب وطني كله يا زهرة...كله!

امتزج الفخر بالعاطفة في عينيها البريئتين وهي تهمس في نفسها...

لو كان من الممكن أن أحبك أكثر لفعلت...

لكنني وصلت معك لآخر حدود إحساسي!!!

كيف استطعت أن تكون هكذا؟!!

كيف احتكرت وحدك كل صكوك الحب ومواثيقه...

فزيّل إمضاؤك كل أوراقه؟!!

كيف عبثت بنور الشمس وضوء القمر...

فجعلتهما خيوطاً تلمع في عينيك؟!!

كيف ملكت الريح وطويت الأرض بكفيك...

لتصير بعينيّ أول الرجال وآخرهم؟!!

يا من حملت من اسمك نصيباً...

تقاسمته أنا معك...

فأنت -بدربك- في جهاد...

وأنا -بحبك- في جهاد!!

وبهذا الخاطر الأخير ابتسمت برقة ناسبت قولها:

_عساك تعود له عما قريب.

تنهد بحرارة وهو يطرق برأسه للحظات قبل أن يسألها ببعض الاهتمام:

_أنتِ مصرية كما أعلم...هل تقيمين هنا وحدك؟!

أومأت برأسها إيجاباً مع إجابتها البسيطة:

_نعم...أنا أذهب لمصر فقط في إجازاتي السنوية لزيارة والديّ.

هز رأسه بتعجب ليقول ببعض الإشفاق:

_حياة صعبة لفتاة في سنك.

لكنها هزت كتفيها لتقول ببراءتها العذبة:

_اعتدتها...ولدَيّ هنا رفيقات ثقات يساعدنني كثيراً.

أومأ برأسه بلا معنى ثم تذكر شيئاً جعله يسألها باهتمام:

_أحد أصدقائي أوصاني بقريبته...هي مصرية مثلك وأظنكما ستنسجمان ...ستأتي للعمل هنا قريباً كممرضة معنا في المشفى...هل يمكنكِ تدبير سكن مناسب لها.

تهللت أساريرها وقد أسعدها أن يطلب منها شيئاً فهتفت مرحبة:

_بالطبع...أنا أقيم مع حسناء في شقة صغيرة إيجارها مناسب...والشقة التي أمامنا خالية...سأستأذن صاحب المنزل إن كان يرغب في تأجيرها.

أومأ برأسه في استحسان مع ابتسامة كانت لها أبلغ شكر...

ثم قال ببعض الحزم:

_يمكنكِ العودة لعملكِ الآن...لا أريد أن أعطلك.

لتغادر هي بعدها الغرفة شبه -طائرة- وهي تشعر أن باباً جديداً يوشك أن يفتح لها معه...

وليته كان كذلك!!!

=========

_أين كنتِ؟!

قالها عزيز بجمود وهو يقف مكانه في صالة منزل رحمة...

فازدردت ريقها بتوتر وهي تغلق الباب خلفها برفق مع قولها المقتضب:

_شأنٌ هام وجب عليّ قضاؤه.

ظل يرمقها بنظرات باردة للحظات...

قبل أن يتقدم نحوها ليسألها ببرود لم يُخفِ عتابه:

_ألم يكن من الأجدر بكِ البقاء مع أمي حتى لا تبقى وحيدة خاصةً في ظروفها هذه؟!

أطرقت برأسها للحظات ثم غمغمت بما يشبه الاعتذار:

_كنت أعلم أنك لن تتأخر...ولم أتركها إلا بعد ما نامت...كما أن...

قطعت عبارتها لتصمت قليلاً دون رد...

فابتسم بسخرية غريبة على حنانه المعهود معها ليسألها بتهكم وب-الانجليزية- مقلداً لهجتها القديمة:

_ماذا؟!!أكملي عبارتك ...التردد لا يليق بكِ يا "سيدة العقل "!

لكنها لم تنتبه للسخرية في عبارته وسط زئير مشاعرها التي كانت تجتاحها الآن..

كانت قد ذهبت إلى شاكر لتطلب منه أن يوقف الأمر الذي بدأه بشأن منزل رحمة...

ولما رفض هددته بفضح الأمر مهما كانت العواقب ...

نعم...لم تحتمل أن تكون سبباً في إيذاء رحمة ولو كان هذا يعني أن تتخلى عن ثراء عزيز للأبد!!!

لكن عزيز لاحظ شرودها الغريب...

فاقترب منها ببطء ليتفحص ملامحها بتمعن مع قوله الذي اكتسى ببعض الصرامة هذه المرة:

_أخبريني أين كنتِ.

رفعت عينيها إليه أخيراً لتقول ببعض الانفعال:

_ما الأمر يا عزيز؟!هل هو تحقيق رسمي؟!!

فجذبها من مرفقها ليهتف بحدة:

_لا ...ليس تحقيقاً...لكن من حقي أن أعرف أين كانت زوجتي.

ورغم خشونة تصرفه وحدة نبراته التي لم تعتدها منه...

لكنها همست أخيراً وكأنها تلقي حملاً ثقيلاً من على ظهرها:

_عند عمي شاكر.

ترك ذراعها ببطء ونظراته تكاد تخترقها بغضب أسود...

لكنها لم ترَ كل هذا فهي لم ترفع بصرها نحوه...

بل ثبتت نظراتها على باب غرفة رحمة المغلق هناك وهي تردف بجمود:

_أجل...أنا التي دبرت كل هذا...الخطة كلها كانت لي...ليس منزل رحمة فحسب لكن عملك أيضاً!

انعقد حاجباه بغضب وقد اشتعلت ملامحه كلها مع هتافه الهادر:

_وتعترفين أيضاً؟!!!آمنّاكِ أنا وأمي لتفعلي بنا هذا؟!!

شعرت بألم بطنها المعتاد عند انفعالاتها الشديدة يراودها ...

لكنها كتمت تأوهها مع قولها بانفعال زاده ألمها:

_نعم...فعلتها تلك الليلة التي تركتني فيها هنا وحدي لتلحق بماسة في آخر الدنيا...فعلتها لأجل طفلي الذي لم أحتمل أن يلاقي ما لاقيته أنا من نبذ وهجران...فعلتها لأنني لم أعتد الخسارة .

_خسارة؟!!

هتف بها باستنكار وهو يشير بكفه نحو صدره مردفاً:

_أنا منحتك عمري القادم كله ...وأمي اعتبرتك كابنتها تماماً...وتقولين خسارة؟!

هنا انهمرت دموعها رغماً عنها لتغرق وجهها كله مع زفرات ندمها الحارة:

_ولهذا خرجت منذ قليل ...لقد ذهبت إلى والدك لأقنعه بالتخلي عن الفكرة لكنه رفض...فانطلقت بنفسي إلى ذاك الرجل في إدارة الحي وهددته بفضح الأمر لو مضى في تنفيذ القرار...دفعت له ضعف المبلغ الذي دفعه والدك لأقنعه بإيقاف الإجراءات...

ثم انفلتت منها آهة ألم ابتلعتها بسرعة لتهمس بانهيار:

_لم أحتمل أن تنهار أمي بسببي...لم أستطع...

_لا تقولي أمي!!!

صرخ بها في غضب مقاطعاً لكنها هتفت بنبرة أكثر انفعالاً:

_بل أمي...أمي يا عزيز...ولولا شعوري بصدق هذا لما اعترفت لك بالحقيقة.

هز رأسه بعدم تصديق وهو يبتعد عنها ليقول باستنكار :

_لم أصدق "سكرتير" والدي الذي هاتفني منذ قليل يخبرني أنكِ عنده...الرجل الطيب ظنني تصالحت مع والدي واتصل ليوصيني عليه...لكنني ربطت هذا مع قول صديقي في إدارة الحي والذي أخبرني أن الأمر

يبدو مدبراً...ومع انهيارك الغريب يومها تأكدت أنك وراء كل هذا!!

_أخطأت!!

صرخت بها بحدة جعلته يلتفت نحوها لتلوح هي بذراعيها مع سيرها نحوه مردفة بهياج:

_أخطأت كما يفعل الجميع...كما فعل أبي وكما فعلت أمي...وكما فعلت أنت...ما المشكلة؟!!على الأقل أنا اعترفت بخطئي وصححته قبل فوات الأوان...فماذا فعلتم أنتم؟!

انعقد حاجباه بانفعال وقد بدأ يشعر بالقلق من ثورتها...

خاصةً مع حركة أناملها التي كادت تعتصر بطنها...

لكنه عجز عن الكلام مع استطرادها الثائر:

_كلكم ندمتم على أخطائكم لكن بعد ما دمرتم من تحبون...أما أنا فأنقذت نفسي في الوقت المناسب...

ثم انفلتت منها آهة أخرى مع همسها بانهيار:

_يا إلهي!!!ماذا فعلتَ بي؟!!أنت هدمت كل ما سعيت عمري في بنائه...أعدتني لسجون احتياجي وضعفي...سحبت...آآه...

انقطعت عبارتها بصرخة ألم قوية لم تستطع كتمانها...

عندما فتح باب غرفة رحمة التي خرجت منها أخيراً لتهتف بجزع:

_اهدئي يا ابنتي..لا تصرخي هكذا.

لكن ميادة لم ترد عليها وعيناها تتسعان بارتياع مع شعورها الغريب بأن ثمة شيءٍ ما خطأ...!!!!

قبل أن تتشبث بساعد عزيز فجأة لتهمس أخيراً بألم:

_أنا أنزف...

أطلقت رحمة صيحة خوف وهي تندفع نحوها بجزع...

بينما تجمد عزيز مكانه بصدمة مع انهيارها الكامل بين يديه وهي تهمس برعب:

_بنتنا يا عزيز!!!

=========

_أنت قسوتَ عليها يا عزيز!

قالتها رحمة بعتاب حنون خارج غرفة الكشف التي اختفت بداخلها ميادة مع الطبيبة...

فغمغم عزيز بضيق:

_أنتِ التي تقولين هذا يا أمي؟!ألم تعلمي ماذا فعلت؟!

ابتسمت رحمة بحنانها المعهود قبل أن تقول بحكمة:

_لو كنت فكرت قليلاً لتبينت أنها اعترفت لك بالحقيقة قبل أن تعيَ هي أنك كشفت الأمر...بل و سَعت لتصحيح خطئها كذلك.

زفر بقوة وهو يشيح بوجهه قائلاً بانفعال:

_كيف أنسى أنها كانت تخدعنا طوال ذاك الوقت وهي تدبر لنا مكيدة في الخفاء؟!

ربتت رحمة على كتفه برفق امتص غضبه مع كلماتها المتعقلة:

_زوجتك ليست إلا طفلة كبيرة...كبر جسدها وبقي قلبها على ضعف احتياجه...أنا أقدّر غيرتها من ماسة التي دفعتها لهذا الطريق وأقدّر أكثر رغبتها في الإحساس بالأمان المادي...

ثم تنهدت بحرارة لتردف بإشفاق:

_فقر المشاعر يورث المرء الكفر بها يا ابني.

أطرق عزيز برأسه دون رد للحظات وكأنه يعقل حديثها...

قبل أن يغلب قلقه غضبه فرفع رأسه أخيراً ليقول برجاء:

_ادعي لها يا أمي...هي والصغيرة.

أغمضت رحمة عينيها ببطء ثم رفعت كفيها لتتمتم بدعاء خاشع...

بينما غرق عزيز في لجة أفكاره وهو لا يدري أين الصواب....

كيف يأتمنها بعد هذا على نفسه ووالدته وطفلته وهي التي كانت تدبر كل هذا خلف ظهره؟!!

لكن...ربما...

رحمة محقة...!!!

نعم...ميادة كانت مخطئة...لكن من مِنّا بلا خطايا؟!!!

هو يعلم أكثر من غيره كم يتحكم فيها ماضيها ...

ماضيها الذي جعل منها هذه الصورة القاسية!!!

لكن عندما وضعها القدر في لحظة اختيار...

بين "ماسة" الحب و"شيطان" الطمع...غلبت ماستها شيطانها!!

انقطعت أفكاره عندما فتح الباب أخيراً لتخرج منه الطبيبة مبتسمةً مع قولها بارتياح:

_الطفلة بخير...لكن زوجتك تحتاج للراحة والنوم على ظهرها لبضعة أيام حتى لا يتكرر النزيف.

تنهدت رحمة بارتياح واضح وهي تحمد الله سراً...

بينما اندفع عزيز بعاطفته التي تغلبه- كعادته -نحو ميادة الراقدة على سرير الكشف...

لكنها لم تكن تنظر نحوه...

عيناها كانتا معلقتين بشاشة الجهاز بشرود ...

وأناملها تتحسس بطنها مع همهمتها الخافتة وكأنها تحدث نفسها!!!

جلس جوارها ليحتضن كفها هامساً برفق:

_لا تخافي.

لم تستطع النظر نحوه وهي تهمس دون أن تنظر إليه:

_وكيف لا أخاف؟!

ثم التفتت نحوه وحركة أناملها على بطنها تزداد انفعالاً...

لتهمس بضعف استسلمت له أخيراً:

_أنا أحبها يا عزيز...رغم أني لم أرَها بعد لكنني أحببتها أكثر من أي شئ في حياتي...

ثم أغمضت عينيها بقوة لتردف بألم:

_خشيت أن أفقدها...أن ترحل عني كما الجميع.

صفعت عبارتها قلبه بذاك الألم الذي خنق حروفها ...

فضغط كفها في راحته أكثر ليهمس بحنان:

_ستكون بخير...وستمر الأيام سريعاً فتجدينها حقيقةً بين يديكِ.

رفعت عينيها إليه بتوسلٍ متشح بالندم..

وسؤالٌ حائر يظلل مقلتيها لكن كبرياءها -العتيد-منعها البوح به...

سؤالٌ قرأه "قلب الشاعر" فتنهد بحرارة مع همسه مؤكداً:

_أنا لست غاضباً منكِ بعد...كنتِ محقة...أنتِ تراجعتِ عن الخطأ في التوقيت المناسب .

ابتسمت ابتسامة شاحبة وهي تميل رأسها على وسادتها لتتفحص ملامحه بتمعن...

قبل أن تعاود تحسس بطنها بأناملها الحرة هامسة بعاطفة طاوعها لسانها فيها لأول مرة:

_محظوظةٌ "ميادة" الصغيرة بأب حنون مثلك.

فرفع كفها إلى شفتيه يقبله مع همسه الرائق:

_بل نحن المحظوظون ب"ميادة" الكبيرة .

أغمضت عينيها بقوة- وكأنها تعاود الاختباء من عاطفتها- مع سؤالها بخفوت:

_من قلبك يا عزيز؟!

فلامس جفنيها المطبقين بأنامله ليجبرها أن تفتح عينيها من جديد...

لتتلقى فيوض حنانه الزمردية بلمعة العسل التي اكتسبت الآن بريقاً خاصاً ناسب همسه :

_منذ أول لقاء لنا وأنتِ تتساءلين عن نتيجة الصراع بين عقلك و"قلب الشاعر"..فماذا ترين عاقبة الأمور؟!

ابتسمت وهي تتذكر ما يحكي عنه لتصمت قليلاً...

قبل أن تجيب بخفوت:

_حنان "قلبك" هزم حسابات "عقلي"...إذن...

واتسعت ابتسامتها مع استطرادها:

_كسب "قلب الشاعر"...وخسر عقلي بحساباته.

ضحك ضحكة رائقة وهو يضم كفها لصدره قبل أن يقترب بجسده منها وهو يهز رأسه نافياً مع همسه:

_لم يخسر أحدنا ...على العكس...كلانا كسب الآخر ...وهذا وحده يكفي!!!

أومأت برأسها موافقة وهي تشعر أخيراً بالسكينة تظلل روحها...

قبل أن تتلفت حولها متسائلة بقلق:

_أين أمي؟!!هل هي غاضبة مني؟!

وعند الباب المفتوح ظهرت رحمة أخيراً لتهمس بارتياح:

_لا يا ابنتي...صدقيني...لم أكن يوماً أكثر رضًا منّي الآن...حمداً لله على سلامتك.

قالتها وهي تتوجه نحوها لتربت على كتفها برفق...

قبل أن تلتفت نحو عزيز لتقول بحزمها الحنون:

_ابقَ مع زوجتك...فلديّ مِشوارٌ هام.

عقد عزيز حاجبيه مع قوله بتعجب:

_لم تستعيدي كامل عافيتك بعد...ألا يمكنكِ تأجيله؟!

لكنها ابتسمت ابتسامة شاحبة لتقول بغموض:

_كفاه تأجيلاً...لقد تأخرت فيه لسنوات.

======

_رحمة!!

هتف بها شاكر بدهشة وهو يراها تقتحم عليه مكتبه وخلفها مساعدته تهتف باعتذار:

_عذراً سيدي...أخبرتها ألا يجوز لها الدخول دون موعد لكنها...

تنحنح شاكر بحرج مقاطعاً إياها بقوله:

_لا بأس!!اخرجي أنتِ الآن.

رمقتها مساعدته بنظرة فضولية قبل أن تغلق الباب خلفها...

فتقدمت نحوه رحمة لتقول ببرود:

_أصيل يا شاكر...على الأقل لم تطلب "موظف الأمن" ليطردني!

أطرق بوجهه دون رد وقد عجز عن مواجهتها بعينيه...

بينما أكملت هي سيرها نحوه لتردف بتهكم :

_ابن الحاج"جاد" لازال يفهم في "الأصول"...لازال يطرق برأسه عندما يخطئ كما كان يفعل وهو صبيٌّ صغير يسرق الحلوى من دكان جده...فتعنفه أمه ليهرع إلى أمي ويطلب منها الاختباء في بيتنا.

رفع إليها عينين زائغتين وهو يتذكر ما تحكي عنه...

رحمة لم تكن زوجته وأم ابنه فحسب!!!

بل كانت جارته ورفيقة طفولته في حيهما القديم لسنوات لم يعد يذكر عددها...

نقطة ضعفه التي يصر عقله على إلقائها في ركن ذاكرة مهمَلٍ كي لا تعيده لماضٍ لا يريد تذكره!!!

لكنها وصلت إليه أخيراً لتكتسي عيناها بقسوة قلما حملتها ملامحها الطيبة...

مع قولها ببطء متعمد:

_كبر الصغير...وسرق مكان "الحلوى" طفلاً...وبعدما كان يختبئ في بيتي ،اختبأ مني!!

كز على أسنانه بغضب وكلماتها الصادقة توخزه بسِنَان سامة...

لكنه كان لا يزال عاجزاً عن الرد مع شعوره العظيم بالخزي...

طوال هذه السنوات وهو يهرب من لقائها وجهاً لوجه...

كان يعلم أن سواد ماضيه مسطورٌ على جبينها بحبرٍ لن يزول...

ربما لو كانت امرأة أخرى سواها لفضحته في كل مكان مطالبةً بحقوقها..

لكن رحمة لم تفعلها...

بل إنها حتى لم تعاتب...

وكأنها اعتبرت مجرد حرمانه منها عقاباً كافياً!!!

لهذا وقف مكانه أخيراً ليواجهها بقوله الذي تذبذبت لهجته بين خزي وضيق:

_ماذا تريدين الآن يا رحمة؟!

وجوابها كان صفعة!!!!

نعم...صفعة مدوية على وجنته مع هتافها بانفعال:

_صفعة تأخرت طوال هذه السنوات....ليس لأجل عمري الذي استحللت إزهاقه...ولا لأجل الغدر الذي طعنتني به دون ذنب مني...ولا حتى لأجل العِشرة الطويلة التي خنتَها بمنتهى الخسة...لكن لأجل ابني الذي كدت تدمر حياته!!!

نفرت عروق جبينه بغضب هادر وقد اشتعلت نظراته مع صراخه:

_كيف تجرؤين؟!

_كما جرؤت أنت على تحطيم ابني وسعادته...لقد كاد يفقد زوجته وطفلته بسبب مؤامرتك!

هتفت بها بقوتها التي هزته رغماً عنه مع استطرادها وهي تلوح بسبابتها في وجهه:

_ابتعد عن عزيز يا شاكر...وإلا سأفتح عليك أبواب ماضٍ لن يروقك كشفه!!!

قالتها ثم أعطته ظهرها لتتخذ طريقها نحو الباب...

لتتوقف أناملها على قبضته أخيراً مع استدارة رأسها نحوه بقولها الواثق:

_أنت هربت به صغيراً لتبعده عن حضني...لكن عدالة القدر شاءت أن يعود إليّ الآن في أشد أوقاتي احتياجاً إليه...ربما كسبت أنت حفنة أوراق مالية تتكاثر بحسابك البنكي...لكنني أنا كسبت ابني يا شاكر...

ثم ابتسمت مكررة بحزم:

_كسبت ابني!

قالتها ثم فتحت الباب لتخرج قبل أن تصفقه خلفها بعنف...

تاركةً إياه غارقاً في خضمّ ذكرياته ...

لقد استجاب لنزوة عاطفته مع تلك المرأة التي تزوجها سراً بعد رحمة ليهرب معها إلى بلد آخر بعدما وعدته بمساعدة قريب لها في حصوله على عمل جديد...

ومع إغراء العرض لم يستطع مقاومة طمعه...

كانت نيته أن يبتعد لبضع سنوات فقط حتى يدخر ما يكفيه من مال...

لكن سنوات عمره انفرطت من عقدها بسرعة البرق سنةً خلف سنة...

وكلما كان ضميره يوخزه بالندم على حرمانها من طفلها وحرمان عزيز منها هو الآخر...

كان يئد صوته بالمزيد من السعي خلف ملذاته!!!

نعم...هو في قرارة نفسه يعلم أنه ظلمها ظلماً لن يغفره تسامُحها مهما عظم...

لكن ما عسى يجديه اعترافه بعد كل هذه السنوات؟!!!

وهنا عاد ينهار جالساً على كرسيه من جديد وهو يتحسس مكان صفعتها...

رحمة محقة...

هو بعد كل هذا السعي لم يكسب سوى حفنة أوراق نقدية...

لكنه خسر قبالتها ابنه...

فبئس السعي...

وبئست الصفقة!!

======

_بالرفاء والبنين!!

قالها الشيخ المعمم بابتسامة رتيبة وهو يغلق دفتره قبل أن يصافح عبد الله مردفاً:...

_مباركٌ زواجك يا شيخ!

صافحه عبد الله بفتور احتل نبرته كاملة وهو يغمغم بكلمات لم يدرِ فحواها...

ثم اصطحبه ليغادر الشيخ المكان مع راغب الذي صافحه مهنئاً بعفوية...

قبل أن يرحل بدوره مع أخيه الذي حضر معه كشاهدين على العقد...

بينما امتنعت رؤى -بإرادتها- عن المجئ تضامناً مع صفا...

فقد كانت ترى طلاق أخيها لها ورغبته بأخرى جريمة لا تغتفر في حق امرأة ك-صفا -أعطت أكثر مما أخذت بكثير!!!

أغلق باب الشقة خلفه ثم استند عليه بظهره وهو يرمق تلك الجالسة مكانها هناك بنظرة طويلة شاردة ...

لقد قُضِي الأمر يا عبد الله!!!

تلك المرأة التي طالما ألهبت خيالاتك صارت اليوم حليلتك !!!

فيالسعادتك!!!

بل يالشقاؤك!!!

وهل أشقى من المرء إذا تشوشت رؤيته بطريق مقفر فما عاد يعرف بُغيته؟!!

ها قد تزوجت امرأة الحلم التي كانت هاجسك...

فاتنتك -الضعيفة- التي ترضي -غرور رجولتك- مع وعد حالم ب-ذرية -كنت قد فقدت الأمل فيها!!!

فهل من مزيد؟!!

افرح وارضَ يا عبد الله...

أم أن كلمات صفا الأخيرة قد عكرت- صفو- حياتكِ للأبد!!!

وكأنما قرأت -هي- حيرته بعينيه فقامت من مكانها لتتوجه نحوه هامسةً بتردد:

_ما الأمر يا شيخ؟!هل أخطأتُ أنا بشئ؟!!

قالتها وهي تشعر بالعجب من شأنه فملامحه كانت بعيدة تماماً عن ملامح رجل سعيد بزواجه...

لكن لو لم يكن راضياً عن هذه الزيجة فلماذا طلبها من الأساس؟!!

بل إنها تشك -كما الجميع- أنها سبب طلاقه من صفا!!!

فلماذا يبدو الآن وكأنه متهم سمع -لتوه-حكماً بإعدامه؟!

لكن الصغير محمد قطع أفكارها عندما اقترب منهما وهو يرمق عبد الله بنظرة قلقة مع قوله بحيرة طفولية:

_هل سنبيت معك هنا يا شيخ؟!

وكأنما كانت كلمات الصغير طوق نجاة له من شروده الحائر...

فابتسم بحنان وهو ينحني ليحمله بين ذراعيه قائلاً برفق وهو يتلفت حوله في المكان:

_هل أعجبتك الشقة الجديدة؟!!

أومأ الصغير برأسه قبل أن يقول بحزنٍ يفوق عمره بسنوات:

_لم أعد أريد أن أفرح ببيت جديد حتى لا أغادره ككل مرة.

دمعت عينا فتون بتأثر وهي تربت على ظهر صغيرها...فيما ضمه عبد الله لصدره بقوة قائلاً بحنان:

_لا يا صغيري...أعدك أن يبقى هذا بيتك دوماً فافرح كما تشاء.

ابتسم محمد بفرحة ثم مال على وجنته بقبلة عفوية مع هتافه المنطلق:

_شكراً يا شيخ...أنت طيب القلب حقاً كما تقول أمي.

وهنا التقت عينا عبد الله بعيني فتون- الراجيتين- وكأنما تطالبه بالوفاء بوعده...

فازدرد ريقه بتوتر وهو يهرب بعينيه منها قبل أن ينتزعه الصغير من ارتباكه بسؤاله البرئ:

_هل ستنام معنا؟!

احمر وجه فتون بخجل وقد عجزت عن الرد لكن عبد الله تدارك الأمر بذكاء:

_والدتك ستنام معك الليلة...لكنك كبرت ويجب أن تعتاد النوم وحدك...صحيح؟!

نقل الصغير بصره بينهما بحيرة ثم هتف باعتراض:

_لا ...أنا أريد أن تنام أمي معي كل ليلة.

خفض عبد الله بصره بضيق حقيقي وهو يشعر بغربة حقيقية في هذا المكان...

ما الذي يفعله هنا؟!!

لا البيت بيته...ولا المرأة امرأته...ولا الصغير ولده!!!

ورغماً عنه اكتسحت كيانه ذكرى قريبة ل"صفا روحه" وهي تستقبله بحنانها المعهود بعد صلاة العشاء كل ليلة لتمنحه من السكينة ما يكفيه عمراً!!!

فكتم آهة ندم غادرة كادت تغادر حلقه عندما تناولت فتون منه الصغير بين ذراعيها لتغمغم باضطراب:

_عفواً يا شيخ...سأنيمه في غرفته.

اغتصب ابتسامة باهتة وهو يربت على رأس الصغير برفق قبل أن يراقب بشرود مغادرتهما معاً نحو الغرفة الجانبية...

تنهد بحرارة ثم رفع رأسه للسماء باستغفار قلب مثقل بهمه...

قبل أن يتحرك بخطوات متثاقلة نحو غرفته حيث جلس بكامل ثيابه على الفراش مستنداً بمرفقيه على ركبتيه في شرود لم يدرِ إلى متى طال...

حتى قطعه دخولها المرتبك إليه مع همهمات اعتذارها:

_اعذرني يا شيخ...الولد لم يعتد بعد على الوضع الجديد.

أطرق برأسه متحاشياً النظر إليها مع عبارة بدت وكأنها تصف حاله هو الآخر:

_لا بأس...غداً يعتاد جديده وينسى القديم.

تأملته ببصرها متفحصة للحظات وقد مستها عبارته بالحزن الذي كان يقطر من حروفها والذي ضاعف حيرتها بشأنه أكثر...

فتقدمت ببطء لتجلس جواره على طرف الفراش ثم سألته ببعض الخزي:

_لماذا لم تدعُ أحداً لحضور عقد قراننا ؟!!

صمت طويلاً دون رد فغمغمت بتردد:

_هل تخجل من زواجنا يا شيخ؟!

نعم...

أخجل !!!

ولو داريتها عن العالمين فلن أخفيها عن عيني أنا...

لكنني لا أخجل منك بل من نفسي!!!

أخجل من خيانة أستشعر وزرها ولو حللها الشرع وساندتها الأعراف...

أخجل من ذنب قد يغفره ربي لكنني لن أسامح فيه نفسي...

أخجل من شعوري كالطفل الضال الذي وقف بمنتصف الطريق حائراً لا يدري فيمَ جاء ولا إلى أين يذهب...

لكنه أخفى كل هذا خلف ابتسامة باهتة مع قوله أخيراً برفق دون أن ينظر إليها:

_ولماذا أخجل؟!!البساطة حالك؟!!يوماً ما كنت مثلك حتى أغناني الله من فضله ...

ثم التفت نحوها أخيراً ليردف بفتور:

_كل ما في الأمر أن ما تبقى من عائلتي لا يقيمون هنا في نفس المدينة الآن...وأنا لا أملك الكثير من الأصدقاء سوى شركائي في السوق...وهؤلاء لا أحب أن يعرفوا عن حياتي الخاصة شيئاً...

رفعت عينيها إليه بعدم اقتناع مع همسها المتردد:

_وشقيقتك ؟!!

أطرق برأسه مجيباً:

_رؤى لازالت في مرحلة التعافي بعد الحادث..لكن زوجها حضر مع أخيه.

ظلت ترمقه بنظرة متشككة وهي تشعر بالضيق المغروس في ملامحه...

ثم عادت تسأله بتفحص:

_لماذا اخترتني أنا للزواج؟!!

تنهد بحرارة وهو يقوم من مكانه ليتوجه نحو شرفة الغرفة الصغيرة ...

حيث وقف يتأمل السيارات الغادية والرائحة بشرود...

فلحقت به لتتابع حديثها من خلفه:

_هذا هو السؤال الذي عجزت عن معرفة إجابته طوال الأيام السابقة...لو كنت حقاً تريد الزواج لأجل الإنجاب فلماذا احتملت كل هذه السنوات؟!!ولماذا لم تتخير امرأة أفضل مني؟!!

التفت نحوها برأسه ليرمقها بنظرة جانبية طويلة مع ابتسامة مريرة غلفت قوله بلهجة غريبة:

_ألا يحتمل أن أكون...قد أحببتك؟!!

_لا!

هتفت بها واثقة وهي تهز رأسها نفياً ...

قبل أن تردف بلهجتها البسيطة ذات النبرة الممطوطة الواشية بأصلها الريفي:

_ربما أبدو بسيطة في عقلي لكنني يمكنني تمييز نظرة حب رجل لامرأة عندما أراها...نظرة كهذه التي كنت ألمحها في عينيك نحو سيدتي صفا كل ليلة بعد عودتك للبيت.

وكأنما ضغطت بعبارتها البسيطة على جرحه فاستدار نحوها بحدة هاتفاً بغلظة:

_لا تذكريها بيننا ثانيةً...هل تفهمين؟!!

ارتجفت مكانها بخوف حقيقي وهي ترى الغضب الذي عصف بملامحه...

لتدرك وقتها أنها لا تعرف شيئاً عن هذا الرجل الذي قبلت الزواج منه...

لكن...هل كان لديها حقاً مزية الاختيار؟!!

هي قبلت زواجه مرغمة...لكن ماذا عنه هو؟!!

لماذا يبدو وكأنه هو الآخر كان مجبوراً مثلها؟!!

بينما زفر هو بضيق وهو يحاول تمالك انفعاله ...

ثم عاد يدلف إلى داخل الغرفة مغلقاً شرفتها بعنف لتتبعه هي صاغرة وقد عجزت عن فهم ما يجري...

لكنها حاولت تبديد هذا الجو من التوتر الذي ساد بينهما ...

فاقتربت منه بتردد لتنزع عنه سترته ثم قالت بلهجتها الخانعة:

_هل أعد لك العشاء؟!

التفت نحوها أخيراً بتفحص ووجودها بهذا القرب يشعل حواسه...

فتعلقت عيناه بشفتيها للحظات تأججت فيها نيران جسده...

وبالتحديد عند شامتها- الآسرة- التي بدت وكأنها تدعوه بغنج للاقتراب...

ولم يظن نفسه بقادر على خذلان دعوتها وهي التي كانت هاجسه الشيطاني لليالي مرت...

فغامت عيناه بنظرة داكنة وهو يزدرد ريقه ببطء ليقترب منها أكثر...مع همسه الشارد:

_هل تدلكين كتفي؟!

ابتسمت بخجل لا تدعيه وهي تفك أزرار قميصه بارتباك كان هو أشد ما يكون غفلةً عنه...

وعيناه شاردتان في وادٍ آخر بين خيالات ما عاد يدرك لها صحة من وهم...

لكنه انتفض مكانه بحق وأناملها تعرف طريقها لكتفيه في حركة لم تكن تجيدها سوى امرأة أخرى!!!

امرأة لم تكن حركتها هذه مجرد لمسات بل كانت قطرات خبيرة تعرف كيف تسقي جديب روحه...

امرأة كانت وحدها تجيد العزف على أوتار روحه لينبعث منها اللحن الذي أرادت متى أرادت وكيف أرادت...

امرأة ضيعته...وضيعها...

فتساوت الخسارة عندما نصب الميزان بكفته وكفتها...

نعم...الآن بعد فراقهما كلتاهما خالية!!!

وهنا اخترقت عبارتها الأخيرة ذهنه :

_تزوج امرأة...واعبث بأخرى...جرّب عشرةً ومائةً وألفاً...وأتحداك لو وجدت مثلي...تدري لمَ؟!لأن ترياقي الذى سرى في عروقك قطرة قطرة ويوماً بيوم حد الإدمان سيقتلك اشتياقاً قبل أن تستلذ بخيانة...صورتي ستقف بين عينيك وبين كل النساء...خذها كلمةً مني لن تنساها يوماً!

فتأوه بقوة وهو يبتعد عنها بسرعة ليعطيها ظهره ...

وقد تصبب جبينه بعرق غزير مع تمتمة لم تفهمها...

ورغم شعورها بالاضطراب الطبيعي لقربها منه هكذا لأول مرة ...

لكن حيرتها وقلقها على وضعها -وعلى ابنها - قبلها غلبا خجلها!!!

فعاودت الاقتراب منه من جديد لتغمغم بارتباك شديد:

_ماذا حدث؟!هل أخطأت بشئ؟!!

بل أخطأت أنا..

تهور وعناد واندفاع ورغبة متخبطة في إثبات شئ ما لم أعد أعرفه...

كل هذا دفعني إلى هنا كغرٍ أحمق!!!

لأجدني قد ضللت طريقي في عرض البحر دونما دليل!!!

نعم...بالضبط!!!

هذا هو ما كان يشعر به الآن في متاهة أحاسيسه الغريبة التي أطفأت -للعجب- نيران رغبته المتأججة ب-الفاتنة- ليعاود عقد أزرار قميصه بأنامل مرتجفة...

قبل أن ينظر إليها بعينين زائغتين أثارتا ارتباكها وخوفها أكثر...

لكنه أراحها من كل هذا عندما اندفع بسرعة خارجاً من الغرفة بل...

من الشقة كلها!!!

لم يدرِ كم مر عليه من الوقت هائماً في الطرقات على قدميه أسيراً لأفكاره....

لكن صوت الآذان القريب استوقفه لينتبه أنها الخامسة فجراًاً!!!

فتنهد بحرارة ثم استغفر الله بصوت مسموع قبل أن يأخذ طريقه إلى المسجد...

أدى الصلاة بعقل غائب وهو يجاهد شيطانه في استحضار خشوعه...

حتى انتهى ليجلس مكانه متربعاً على الأرض وقد أسند جبهته على أنامله المتشابكة في صورة نابضة بالضياع...

لم يدرِ كم ظل على حاله لكنه انتبه من شروده على تربيتة على كتفه مع صوت حنون:

_ماذا بك يا ابني؟!!ادعُ ربك يكشف همك...وأنت تبدو على قدر كبير من الصلاح!

رفع عينيه الدامعتين لصاحب الصوت والذي كان إمام المسجد الذي أمّهم في الصلاة ...

ثم غمغم بصوت متعَب:

_لا تجعل المظاهر تخدعك يا شيخ!!أنا أشعر الآن أنني أشقى عباد الله وأعظمهم معصية!!

ابتسم الرجل بحنان وهو يقول بحكمة:

_الشقي من لا يدرك حجم خطاياه ...وأنت على ما يبدو تدركها جيداً...الله سبحانه وتعالى أقسم بالنفس اللوامة...فاحمد الله على بصيرة لازالت تنير دربك واستعجل التوبة مادمت تعرف الذنب.

تأوه عبد الله بصوت مسموع ثم همس بعجز:

_لم يعد يفيد الندم...لقد عوقبت بالحرمان على نعمة لم أؤدّ حق شكرها...شيطان نفسي غلبني حتى خسرتها.

عقد الشيخ حاجبيه بتأثر ثم عاود تربيته على كتفه قائلاً:

_ما هي حكايتك يا ابني؟!

تنهد عبد الله بحرارة ثم شرد ببصره قائلاً برجاء مشوب بالندم:

_سأحكي لك يا شيخ...لعل الله أرسلك إليّ في هذه اللحظة بالذات كي تريح قلبي.

قالها ثم مضى يحكي له تفاصيل قصته وكأنه فقط يسمح لنفسه بإلقاء الوزر عن كاهله...

حتى انتهى من روايته بقوله:

_يشهد ربي أنني كنت أقاوم شيطاني بكل ما أوتيت من قوة...لكنني أشعر أن علتي فيّ أنا...زوجتي الأولى لم تكن تكفيني...كنت أبحث فيها عن طيف ما يكمل نقصاً بداخلي...ولما وجدت هذا الطيف في زوجتي الثانية وجدتني عاجزاً حتى عن لمسها...

ثم استغفر الله بصوت مسموع قبل أن يهز رأسه ليردف بالمزيد من الندم:

_عنادي واندفاعي وعجزي...كل هذا دفعني لهذه الزيجةالثانية...والآن أشعر أنني غريب في وسط الطريق...أنا لا أعلم ماذا بي...لا...بل أعلم...أعلم...هو عقاب ربي على جحودي.

تهدج صوته في عبارته الأخيرة فاضحاً حسرته ...

فتنهد الشيخ قبل أن يومئ برأسه قائلاً بحزم رفيق:

_علّتك يا ابني لم تكن في جحودك...فالجاحد لا يرى أثر النعمة...وأنت كنت تراها لكنها لم تكن تكفيك...علتك الحقيقية كانت في عدم الرضا...وعدم المصارحة....أنت أردت امرأة كاملة ونسيت أن الكمال لله وحده...وتكتمت على بركان غضبك في نفسك حتى ثار وابتلعتك

حممه...ربما لو كنت أكثر صراحةً مع زوجتك الأولى لما وصلتما لهذه النهاية...

ثم صمت لحظة ليردف بأسف:

_لقد سبق السيف العزل كما يقولون...لم يبقَ لك سوى زوجتك الثانية...استفد من أخطاء ماضيك...لا تظلمها هي الأخرى وارضَ بما قسمه الله لك.

أغمض عبد الله عينيه بألم وهو يومئ برأسه في استسلام...

ثم قام واقفاً ليشكر الشيخ بكلمات مقتضبة ...

عندما وقف الشيخ بدوره ليصافحه بابتسامة بشوش:

_لا تتعجل...لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً!!!

وكأنما منحته كلمات الرجل بعض السكينة فانتقلت ابتسامته البشوش إليه...

قبل أن يغادر المسجد بخطوات متثاقلة...

ثم عاد إلى منزله ليجدها تنتظره في غرفتهما...

وفي عينيها ألف سؤال!!!!

ألقى السلام بفتور وهو يغلق الباب خلفه ...

ثم بدأ في خلع ملابسه عندما تقدمت هي منه ...

وقد منحها قلقها جرأة أكبر لتمد كفها نحوه هامسة بحذر:

_أساعدك؟!

لكنه تراجع عنها دون وعي وقد انفرجت شفتاه عن حديث لم يبُح به لسانه وإن فضحته عيناه باقتدار...

فعادت تبتعد عنه خطوة لتفاجئه بابتسامة شاحبة مع همسها بإدراك:

_أنا فهمت!

زفر زفرة مشتعلة وهو يعطيها ظهره مع قوله الذي خرج مشبعاً بتعبه :

_ماذا تقصدين؟!

تجرأت لتتقدم نحوه من جديد مقابلةً إياه بوجهها مع همسها المشفق:

_قلبك لا يطاوعك أن تخونها.

أغمض عينيه بعمق شعوره بالضياع الآن...

ماذا يريد؟!!

هو ما عاد يعرف ماذا يريد!!!!

ليته كان حقاً بهذه المثالية التي تظنها...

لكنه يبدو كجسد معلق في أنشوطة يتأرجح بين نار الوفاء وجحيم الخيانة...

كلاهما قاتل...!!!

ليهمس أخيراً بخفوت وكأنه فقط يحدث نفسه:

_أخونها؟!!وماذا بقي بيننا كي أخون أو لا أخون؟!!هي حُرمت عليّ للأبد...وأنا...

قطع عبارته بأسف وهو يرفع رأسه لأعلى دون أن يجد ما يكملها....

فعادت هي تسأله بإدراك :

_أنت تشعر أنك تورطت في هذه الزيجة؟!!

مسد جبينه بأنامله دون رد ...فتنهدت هي أخيراً لتقول بحزن:

_حسناً...مادمت لا تريد إخباري بسبب زواجك مني فسأخبرك أنا بسبب قبولي .

عاد ببصره إليها في نظرة متسائلة لتقول هي بلهجة ذات مغزى وكأنها تمنحه الحل:

_الستر...الستر فقط يا شيخ!!!

انعقد حاجباه بتفحص وهو يتأمل ملامحها بتمعن عندما أردفت هي بصوت متهدج:

_لو كان الأمر بيدي لما خنت سيدتي صفا أبداً...لو كنت أملك حق الاختيار لرفضت أن أشاركها رجلاً لا أظنه سيعشق سواها.

عادت ملامحه تشتعل بغضب ممزوج بألمه لكنها غمغمت برفق:

_لا أريد معرفة تفاصيل ولن أسألك عما لا تريد البوح به...لكن فقط عدني ألا تتخلى عني وعن محمد.

ثم ضمت ملابسها عليها بحركة ذات مغزى لتردف بخفوت :

_أما عن زواجنا فلن أحرمك حقك لكنني ...لكنني...أظنك زاهد فيه...

ثم همست أخيراً بحسم وكأنها تأخذ القرار لهما معاً:

_مثلي تماماً...والسبب واحد!

قالتها ثم غادرت الغرفة بخطوات سريعة وكأنها لا تحتاج لرد...

وعلى الفراش استلقى هو وحيداً لتراوده أحلامه المشعثة بذكرياته القديمة معها...

أحلامه التي كانت بطلتها "فتون" يوماً ...

والآن يجدها هي بطلتها...

نعم...صفا...!!!

وبين حقيقة وخيال دمعت عيناه مع همس بلهب الندم:

_لم أخن يا "صفا روحي"...لم أخن!!!

ليغمض عينيه بعدها على صورتها مع تمتمته:

_هل أعرف الراحة بعدكِ يوماً؟!!

وعندها أراحه عقله من هذه الدوامة التي يدور فيها بلا انقطاع عندما استسلم للنوم أخيراً...

وآخر ما علق بذهنه من كلمات الشيخ ...

_ارضَ بما قسمه الله لك.

نعم...دون الرضا تهلك عرائس النعم وتضل خطى الأقدام...

فأي ضياع تحياه يا عبد الله...

أي ضياع!!!

=====

بدأ مسلسل الحصاد بالخسران لمن غرّه حِلم "العظيم"...

فلما نسوا ما ذُكّروا به فتح عليهم أبواب كل شئ ...حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذهم بغتة...

فإذا هم مبلسون!!!

نعم...صدق الله وعده وحقت كلمته على الظالمين...

وانغمست كلمات النهاية بالندم الذي فقد قيمته...

عندما هوى القلب المشبع بأطماعه من أعلى قمم طموحه ...

فما أقسى السقوط وما أشنع العاقبة!!

وقفت تراقب الجسد المسجى أمامها على الفراش بالمشفى بأسى حقيقي غلب طول حقدها عليه....

لتدمع عيناها وهي تلتفت نحو فهد هامسة:

_لا أصدق ما حدث!!!

وبينما كانت عيناه دامعتين هو الآخر لكنه تمالك نفسه ليهمس بشرود:

_لا أحد يصدق...يقولون أنه كان في قمة سعادته عندما تلقى خبراً مؤكداً بمنصبه الجديد كرئيس للمجلس...وبعدها بساعات سمع أحد الخدم صوت استغاثته في غرفة نومه...فاستدعى الإسعاف بسرعة.

ضغطت شفتيها بقوة لتكتم دموعها ثم أسندت جبينها على كتفه لتهمس بارتياع:

_أنا أعلم جيداً عن هذا المرض يا فهد...سيتعذب كثيراً .

ضمها إليه برفق وهو لا يدري ماذا يقول...

المفاجأة كانت صادمةً للجميع ...

لم يتخيل أحد أن جاسم الصاوي الذي كان يتمتع بقدر وافر من الصحة والعافية قد يصاب بهذا المرض النادر!!!

ومتى؟!!

في عز فرحته بتمام سطوته!!!

لقد كسب "كرسي المجلس" وخسر "كل شئ آخر"!!!

صحته وسعادته وولديه.....وقبل كل هذا نفسه!!!

ورغم أن فهد كان ناقماً عليه بما ظن أنه لن يُمحى بينهما أبداً...

لكنه لم يستطع منع أساه على مصابه بأي حال!!!

انقطعت أفكاره عندما فتح جاسم عينيه أخيراً ليدور بهما حوله قبل أن تستقرا عليهما...

ليهمس بخفوت لم يدارِ خوفه:

_ماذا حدث؟!

تبادلت ماسة مع فهد نظراتٍ مفعمة بالمشاعر قبل أن يقول الأخير ببعض الرفق:

_لا شئ يا أبي...مجرد نوبة اغماء عادية.

لكن جاسم ابتسم ابتسامة شاحبة ناسبت قوله الساخر:

_عادية؟!!

ثم غلبته آهة ألم قوية سبقت همسه بإدراك:

_أنا أعلم أنها النهاية.

تشبثت ماسة بكف فهد أكثر وهي عاجزة عن قول أي شئ ولو من باب المجاملة...

لسانها انعقد في حلقها وسط فوضى مشاعرها الآن...

هل تدعي أنها تشعر الآن نحوه بأي عاطفة؟!!

هل تكذب زاعمةً أنها تكن له من المشاعر مثقال ذرة مما حملته نحو عاصي ورحمة وفهد أو حتى عزيز؟!!

هل ترتقي الشفقة لمقام الحب يوماً؟!!

لا...لا...وألف لا!!!!

من قال أن المشاعر تولد بداخلنا دونما سبب؟!!

الأحاسيس قرينة المواقف...متى اسودت الثانية أظلمت الأولى!!!

وهو لم يترك لها يوماً إلا السواد!!!

لكنه بدا وكأنه قد قرأ أفكارها عندما التصقت نظراته بها للحظات...

قبل أن يهمس بصوت ضعيف:

_اقتربي يا ماسة...أريد الحديث معكِ وحدنا.

نظرت ماسة إلى فهد بحيرة وكأنما ترجوه ألا يتركها وحدها معه...

لكنه ارتاح لأن يفعل...

ربما ل"أملٍ ما" نبت في صدره أن تكون ماسة هي طوق النجاة الأخير لوالده...

خاصةً بعد مصابه الأخير!!!

نعم...جاسم الصاوي فقد "ابنه" بعد فعلته التي لا تغتفر ب"زوجته"!!!

دم جنة سيبقى بينهما للأبد...

لكن ماسة...لا يزال لديها معه البقية من أمل!!!

لهذا ربت على كتف ماسة مشجعاً قبل أن يقول بحزم:

_سأنتظر بالخارج لدقائق.

قالها ثم غادر الغرفة بعدما منح ماسة نظرة حنون أخيرة...

فأغمضت عينيها بقوة للحظات قبل أن تتقدم لتجلس على الكرسي جوار فراشه هامسةً دون أن تنظر إليه:

_حمداً لله على سلامتك.

_انظري إليّ يا ابنتي.

وليته لم ينطقها!!!

وكأنه هيج بها جروحها القديمة كلها ...

أشعل بها الحرائق التي طالما دمرت وديان سعادتها...

لتجد نفسها تنسى الزمان والمكان وتتذكر فقط ما أصابها بسببه...

فتهتف بانفعال جرف في تياره ما استجد من شفقتها:

_ابنتك؟!! بأي أمارة؟!!

أشاح بوجهه في ألم فضحته قسماته لكنها لم تكن ترى سوي جرحها هي...

جرح سنوات جعلها تردف بعتاب قاسٍ:

_كل ما أصابني في حياتي كنت أنت السبب فيه...كل ذرة ألم تغلغلت بروحي كنت أنت مصدرها...لو كان قلبي يعرف الكراهية لكنت أنت الأحق بالمركز الأول.

أطلق آهة ألم أخرى لم يدرِ هل كانت حقيقية من جسد ضج بوجعه...

أم من قلبٍ فاض بسواد إثمه؟!!

لكن دموعها التي سالت على وجنتيها الآن ناقضت همسها القاسي:

_إياك أن تعود لضميرك...إياك أن تعتذر وتطلب مني السماح...إياك أن تفعلها الآن...ارحل من حياتي كما دخلتها ...مجرد طاغية بلا قلب ...لا أريد ندمك ولا أبوتك...لا أريد أن أحزن عليك ...لا أريد.

انتهت كلماتها بنشيج مرتفع وهي تدفن وجهها بين راحتيها ...

فدمعت عيناه بعجز وهو يهمس بألم:

_لا تخافي...حتى لو أردت...مضى عهد الندم...ليس في طريقي رجوع.

وكأنما لدغتها عبارته كأفعى لتهب من مقعدها هاتفة بثورة:

_أنت تتحدث مثله...كلاكما نسخة واحدة...أنت وعاصي الرفاعي لعنة حياتي التي سأكسرها مهما كان الثمن!!!

رمقها بنظرة طويلة أذابت قسوتها شيئاً فشيئاً ....

حتى لانت نظراتها أخيراً مع همسه ب"حمية "أبوية مست قلبها بصدقها رغم كل شئ:

_هل آذاكِ ذاك الرجل؟!!كلمة واحدة مني تلقيه خلف حدود الشمس!

آهةٌ طويلة منها شقت صدرها ...وصدره!!!

كيف يمكنها وصف شعورها في هذه اللحظة؟!!

كل ثوابتها انهارت فما عادت تجد تحت قدميها أرضاً تستند عليها!!!

هل من المفترض أن تسعد الآن وهو يعرض عليها "رداء" أبوة قديم حال لونه وتهلهل برُقَعه؟!!

أم تلقيه في وجهه لتقف وحدها وسط رياح برد تنخر عظمها ؟!!

هل تشكره على حمية غيرة تأخرت كثيراً؟!!

أم تعترف لنفسها -قبله - أن نخوته هذه قد انتهى تاريخ صلاحيتها؟!!

هل تشكو من عاصي إليه؟!!

عاصي الذي احتل عشقه حصون "الأب "و"الأخ "و"الصديق "قبل أن ترتفع رايته وحدها على قلعة "الحبيب"؟!!

عاصي الذي كانت تلقي على صدره خبايا روحها التي لم يعرفها سواه!!!!!

فهل تجئ اللحظة التي تشكو هي منه ....لغيره؟!!

والإجابة جاءتها قاطعة من قلب لازال مكبلاً بأغلاله!!!

لا...عاصي لا تجوز الشكوى منه إلا له!!!

هو -الشمس -مهما أحرقنا لهيبها ننتظرها في كل يوم لأننا نعلم أن غيابها يعني النهاية!!!

لهذا مسحت دموعها أخيراً برفق لتهمس ببعض الرفق:

_تأخرتَ كثيراً يا سيد جاسم...لا تقلق بشأني... أنا بخير.

ثم عادت تجلس أمامه لتقول بصلابة حاولت بها مداراة شفقتها نحوه:

_لن أضايقك بوجودي بعد فأنت تحتاج للراحة...لكن هل فكرتَ فيما أبلغك به فهد بشأني؟!!

ازدرد ريقه الجاف بصعوبة ثم سألها بترقب:

_أين تريدين السفر؟!

_الإمارات!

قالتها باقتضاب رافق شحوب وجهه مع سؤاله بضيق لم تعرف سببه:

_ولماذا "الإمارات" بالذات؟!!ألا تختارين بلداً آخر؟!

فابتسمت ساخرة مع قولها بفتور:

_حكم الظروف.

لم تكد تتم عبارتها حتى سمعت جلبةً شديدة بالخارج...

قبل أن يدخل فهد بسرعة مغلقاً الباب خلفه مع قوله بضيق:

_الصحافة والإعلام لا يريدان تفويت هذا الخبر...والأمن بالخارج يحاول منعهم دون جدوى.

ظهر القلق في عيني جاسم اللتين خبا بريقهما المسيطر ليحل محله شحوب منهَك...

فتقدم منه فهد ليقول بحزم:

_أظنها اللحظة المناسبة ...صحح هذا الخطأ الذي أحرق صدرك لسنوات...هي خطوةٌ واحدة...أفتح معها باب الغرفة لتعترف للجميع بابنتك.

ظهر التردد في عيني جاسم وهو يدور ببصره في الغرفة حوله...

لتتكسر نظراته مع هذا الألم الذي كان يكتسح جسده بلا رحمة ....

وشبح الموت القريب يخنق أنفاسه برائحة الخسارة...!!!

لكن صوتاً بداخله عاد يصدح بقوة كعادته...

جاسم الصاوي لن ينهزم!!

لن يكسره مرضٌ ولن يغلبه عجز!!!

هي مجرد كبوة للجواد سيعود بعدها سريعاً لجموح انطلاقه!!!

وبهذا الخاطر الأخير عادت عيناه تتوهجان ببريق قوتها مع التفاتته نحو فهد بقوله:

_سأطلب طائرة خاصة لنقلي للعلاج بلندن...لن أعترف بتخريف الأطباء هنا.

ثم عاد يلتفت نحو ماسة مردفاً بنبرة قاطعة:

_اذهبي مع أخيكِ الآن حتى لا يتساءل أحد عن هويتك...وعقب عودتي من لندن سأتدبر الأمر مع

محاميّ بسرية كما اتفقنا شريطة أن تسافري بعدها من هنا.

اشتعلت ملامح فهد بغضب أسود وقد انفرجت شفتاه ليهمّ بالانفجار فيه...

لكن ماسة ابتلعت انفعالها بصمود كعادتها وهي تحتضن ذراعه بساعديها لتبعده وتبتعد معه مع قولها الحاسم:

_هيا بنا يا فهد...انتهى الكلام!

====================

_وهذه هديتي ل"ست البنات"!!

قالها عبد الله بحنان وهو يناولها ما بيده فتبادلت نظرة متسائلة مع راغب...

عندما أردف عبد الله بابتسامة واسعة:

_لقد حجزت لكما في فندق مميز ب"شرم الشيخ"...رحلة قصيرة تحتاجينها كي تعوضي الفترة الصعبة السابقة.

ضحكت رؤى بسعادة خالصة وهي تهتف بامتنان:

_شكراً يا عبد الله.

ثم رفعت عينيها إلى راغب لتسأله بتردد:

_لكن عملك...هل..؟!

ربت راغب على كتفها مقاطعاً ليقول برفق:

_فِداكِ !!!ما دمتِ ترغبين في ذلك!

نقل عبد الله بصره بينهما بتفحص وقد اطمأن قلبه نوعاً من نظراتهما العامرة بالعاطفة...

بينما استأذن منهما راغب للرد على هاتفه فوجدها عبد الله فرصة مناسبة ليسألها باهتمام:

_أنتِ سعيدة حقاً يا رؤى؟!ألا ينقصكِ شئٌ هنا؟!

هزت رؤى رأسها نفياً وهي ترمقه بحنان...

منذ ذاك الحادث وقد تغير عبد الله معها كثيراً...

لا يكاد يمر يومٌ دون أن يزورها ليطمئن عليها...

حقاً...رب ضارة نافعة!!!

وكأن الأقدار التي حرمتها حنان الأخ والحبيب عادت لترد لها كل هذا أضعافاً مضاعفة...

لهذا تنهدت أخيراً بارتياح لتقول بصدق:

_اطمئن يا أخي...لم أكن يوماً أسعد حالاً مني الآن.

أومأ برأسه وهو يربت على كفها ليقول بارتياح:

_الحمد لله...أدامها الله عليكِ نعمة لا تزول.

تبدلت نظراتها المطمئنة لأخرى مشفقة وهي تلاحظ نحول جسده وشحوب وجهه الذي لم تخفه ابتسامته ...

لتسأله بتعاطف:

_وأنت كيف حالك مع زوجتك؟!

وكأن كلماتها هيجت جروحه من جديد...فأشاح بوجهه للحظات دون رد...

عندما تنهدت هي بحرارة لتسأله بحنان لا يخلو من عتاب:

_طاوعتك نفسك أن تتزوج بعد صفا؟!!وممن؟!!خادمتها؟!

التفت نحوها بحدة وقد غلبه طبعه -الانفعاليّ- ليهتف باستنكار:

_رؤى!!منذ متى تتدخلين في شئوني؟!

وبرغم لهجته العنيفة لكنها لم تغضب ولم تخفْ كعادتها...

بل اقتربت منه أكثر لتربت على كتفه قائلة بحنان مصطبغ بقوتها -الجديدة-:

_منذ أصبحنا إخوة ب-حق -لا على الورق.

لانت نظراته نوعاً وقد مست كلماتها قلبه عندما استطردت هي بنبرة أكثر حناناً:

_منذ عدت أخي الذي يسند ظهري ...يده في يدي لا تفارقها...و عيناه تفهمان نظراتي قبل كلامي،وحقك عليّ الآن أن أشاركك همك.

دمعت عيناه بتأثر لم ينكره فأغمضهما للحظات...

قبل أن يفتحهما من جديد مغمغماً بابتسامة شاحبة:

_كبرتِ يا صغيرة!

تفحصته ببصرها بقلق وقد شعرت بأن حملاً ثقيلاً يكاد ينقض ظهره...

فرفعت كفه إلى شفتيها تقبله باحترام مع همسها الموقر:

_لو كبرت على الدنيا كلها فلن أكبر عليك يا شيخ.

اتسعت ابتسامته وهو يرمقها بتشتت للحظات...

قبل أن يسألها بحذر:

_هل تهاتفينها؟!

هزت رأسها وهي تدرك من يقصدها بالسؤال لتجيبه بأسف:

_نعم...في البداية كانت لا ترد على اتصالاتي...لكنها صارت تفعل.

توهجت عيناه بعاطفة أشرق لها وجهه كله مع سؤاله بلهفة:

_هي بخير؟!

ترددت للحظات في إخباره بما تحسه....

قبل أن تحسم أمرها لتشاركه حيرتها بقولها:

_صفا تبدو وكأنها اختُطفت منا لتعود واحدة أخرى...لقد تحولت شخصيتها مائةً وثمانين درجة...لهجتها...اهتماماتها...مظهرها...لم أعرفها يوم التقيتها في الطريق...ساعتها ظننتها امرأة شبيهة!

ازدرد ريقه بتوتر وهو يطرق برأسه قبل أن يهمس بلهجة غريبة:

_أنا السبب!!

كانت عبارته للجواب أقرب منها للسؤال...

لكنها ردت بتعقل:

_لست وحدك يا أخي...كلاكما شدّ الحبل بأقصى قوته في عكس الاتجاه حتى انقطع فسقطتما معاً.

زفر زفرة مشتعلة قبل أن يرفع وجهه إليها أخيراً ليقول باستسلام النادم:

_نعم...كلانا صنع من عيوب صاحبه خنجراً أخفاه خلف ظهره...حتى إذا ما اختلفنا طعنّا بها صدورنا بلا رحمة.

دمعت عيناها بحزن حقيقي وهي ترى بؤس حاله...

لقد كانت تعتب عليه ظناً منها أنه نسي صفا مع غيرها...

لكن هيئته توحي لها بالعكس...ويحق له هذا وأكثر!!!

صفا لم تكن مجرد زوجة ...صفا كانت له -ولها قبله- أماً وصديقة وعائلة...ووطناً!!!

لهذا كان قلبها يكاد ينفطر على حالهما وبالذات هو...

ليس فقط لأنه أخوها...

بل لأنها تشعر أنه -رغم زواجه- هو النادم الأكبر...

بينما صفا لم تزدها مصيبتها إلا تجبراً وعناداً...

تعدو بكل قوتها لكن في الطريق الخطأ!!!

لهذا مسحت دمعتها الخائنة بسرعة وهي تضغط على شفتها السفلى ...

وقد سولت لها نفسها الكذب عليه لعلها تمنحه بعض السلوى...

كذبة "بيضاء" في ظنها جَمّلها لسانها بقولها:

_لا أظنها حاقدة عليك...هي تسألني عليك دوماً لتطمئن.

و-بعكس توقعها- شحبت ملامح وجهه أكثر مع انعقاد جبينه بألم كسا ملامحه...

قبل أن يقوم من مكانه ليقول لها بشرود:

_لو سألتكِ عني ثانية ...قولي لها أنها كانت "صفا" روحي...ولن تصفو لي بعدها حياة.

وقفت بدورها وقد وخزت عبارته قلبها لتهمّ بالرد...

عندما قطع راغب حديثهما بدخوله مع قوله بنبرة اعتذار:

_عفواً يا شيخ...مكالمة عمل هامة.

همهم عبد الله بعبارة تفهّم مقتضبة قبل أن يربت على وجنة رؤى وهو يقبل جبينها قائلاً بحنان:

_اعتني بنفسك يا "ست البنات"...سأزوركِ غداً في نفس الموعد.

أومأت برأسها في تعاطف صامت وهي تراقب مغادرته مع راغب الذي أوصله حتى باب المنزل...

قبل أن يعود إليها بخطوات سريعة ليجذبها نحوه بعنف جعلها تشهق مع همسها :

_راغب...ماذا...

انقطعت عبارتها عندما حطت شفتاه على جبينها بعمق مرة تلو مرة تلو مرة...

قبل أن تطوفا بتمهل على وجهها كله مع همسه العاشق:

_لا أريد أن تتذكر بشرتك إلا ملمس شفتيّ أنا...أنا فقط.

ابتسمت بعاطفة اكتسحتها بعنف وهي تدفعه برفق مع همسها المستنكر:

_تغار من أخي؟!

لامس شفتيها بهيام يليق بغرامه قبل أن يهمس بجدية :

_ومن تراب الأرض لو لامس قدميكِ!

اتسعت ابتسامتها وهي تلقي برأسها على صدره لتهمس بسعادة صبغت صوتها بلون الحب:

_كل هذا كثير على قلبي...أنا أشعر وكأنني أحلم.

فابتسم وهو يضمها إليه أكثر مع همسه بمكر في أذنها:

_هل أقرصكِ كي تتأكدي أنها حقيقة؟!

ضحكت بخجل وهي تدفن وجهها في صدره أكثر...

قبل أن ترفع إليه رأسها لتقول ببراءتها المهلكة:

_لم أكن أظنك ...هكذا!!

وكأنما أوقدت ضحكتها آلاف القناديل في روحه التي طالما أظلمت باشتياقها ...

ليضحك بدوره وهو يميل رأسه ليسألها بنفس النبرة الماكرة:

_ماذا تعنين ب"هكذا"؟!

احمرت وجنتاها أكثر وهي ترفع كفيها لتغطي بهما وجهها الذي شعرت بسخونته مع همستها بارتباك :

_هكذا...جرئ...هكذا!

ضحك بانطلاق وهو يرفع كفيها من على وجنتيها المحمرتين ليتأمل ملامحها بوَله ...

ثم هز رأسه ليهمس بنبرة دافئة:

_أنا أيضاً لم أكن أظنك "هكذا"!!

ارتفع حاجباها بدهشة مع نظرة متسائلة...

فدار بأنامله على ملامحها بتبتلٍ عاشق يليق بهمسه:

_تسرقين القلب بسكناتك قبل حركاتك...كل ما فيكِ مهما كان بسيطاً يتلقاه قلبي كمعجزة لن تتكرر ولا بعد ألف عام...لمعة عينيكِ...رفرفة رموشك...احمرار وجنتيكِ ...ضحكتكِ التي تمزج براءة الطفولة بفتنة الغواية...شق ذقنكِ الذي يبدو كنجم لامعٍ تحت شفتين بدفء الشمس وسحر القمر.

أسبلت جفنيها وهي تهمس بخفوت شديد:

_راغب...توقف!

قالتها بلهجة غريبة ظاهرها يرجوه السكوت وباطنها يتوسله المزيد...!

ولم يكن هو بالغافل عن نداءاتها ولو كانت صامتة...

لهذا استمر على حركته مردفاً بنفس النبرة الذائبة بإحساسها:

_كل يوم أقسم لنفسي أنه من المستحيل أن أحبك أكثر...فأجدني مع كل يوم أحنث بقسمي...لو كان الحب رزقاً كما يزعمون...فكم فاض عليّ القدر بأرزاقه!!!

فتحت عينيها ببطء لتسبح فوق غمام الحب الذي علا فضاء عينيه...

عندما اقترب بوجهه منها لتكمل شفتاه حديثاً ستغبنه الكلمات حقه...

فغرقت معه في فيض عاطفته للحظات...

قبل أن يقطع سحر المشهد رنات هاتفه اللحوحة التي صدحت مراراً...

فزفر بقوة وهو يبتعد عنها قسراً ليتناوله وفي نيته إغلاقه...

لكن اسم المتصل جعله يتراجع عن قراره خاصةً مع همسها هي بحزنٍ لم تستطع إخفاءه:

_إنها عزة...من المفترض أن تبيت معها هذه الليلة.

أخذ نفساً عميقاً وهو يرفع رأسه لأعلى متمالكاً مشاعره...

قبل أن يفتح الاتصال ليقول بنبرة محايدة:

_أهلاً عزة...

ثم صمت لحظات يستمع إليها باهتمام قبل أن يعقد حاجبيه قائلاً بتفهم:

_حسناً...لقد فهمت...أنا كنت سأصعد إليكِ الليلة على أي حال.

قالها ثم أغلق الاتصال لتسأله رؤى بقلق:

_ماذا هناك؟!

التفت نحوها ليربت على وجنتها برفق مع قوله :

_لا شئ...عزة تقول أن هيام بدأت تنتبه لبرود علاقتي مع عزة...لقد حادثتها مباشرةً في هذا الشأن صباح اليوم ...وعزة تخشى أن ينكشف الأمر.

ورغم ما كان يجيش بصدرها من انفعالات لكنها ربتت على كتفه لتقول بتعقل حولت به منع طوفان مشاعرها:

_معها حق...هيام لن يفوتها شئ كهذا...وأول ما ستفكر فيه أنني أحاول إفساد الأمر على شقيقتها وربما تعود لسابق معاملتها السيئة لي.

ثم صمتت لحظة لتردف بنبرة أكثر قلقاً:

_كما أننا إلى الآن لا نعلم ما الذي سمعته عزة من حوارنا بالضبط بالمشفى ليلتها...وأخاف أن ...

وضع أنامله على شفتيها مقاطعاً بحزم:

_لا أريد أن أسمع منكِ كلمة "أخاف" هذه مرة أخرى.

ثم زفر بقوة ليردف بنفس الحزم:

_نحن سنمضي فيما اتفقنا عليه بصرف النظر عن أسبابنا...من حق عزة علينا أن نحفظ لها كرامتها أمام شقيقتها فلا تظهر وكأنها منبوذة من زوجها خاصةً وهي لا تطالب بشئ من حقوقها....صحيح؟!

ورغم أن حديثه كان شديد الحيادية ومنطقياً إلى حد كبير لكنها شعرت بالغيرة تنهش قلبها رغماً عنها ...

فأشاحت بوجهها وهي تبتلع غصة حلقها مع همسها المختنق:

_معك حق.

احتضن وجنتها براحته ليقرب وجهها نحوه من جديد هامساً بحنان لم يغادره حزمه:

_أنا أقدر شعوركِ جيداً...لكن ألم نتفق على الصبر ؟!

أومأت برأسها دون رد فابتسم مداعباً "شق ذقنها" بإبهامه هامساً:

_ابتسمي إذن.

خفضت بصرها عنه لتخفي مشاعرها فعاد يهمس في أذنها مشاكساً:

_تبتسمين من تلقاء نفسك أم أدغدغكِ أنا حتى يصل صوت ضحكاتك ل"الحاجة" بالأسفل كالمرة السابقة؟!

ابتسمت رغماً عنها وهي تتذكر ما يحكي عنه وخجلها تلك الليلة من تصريح والدته بهذا ...

لتهمس وهي تعاود رفع عينيها إليه :

_حسناً..ها قد ابتسمت...يمكنك الذهاب الآن.

لكنه عاد يجذبها نحوه من جديد ليهمس بين شفتيها بعاطفة حارة:

_ليس قبل أن نكمل حديثنا الذي قطعه الهاتف...لازال في قلبي الكثير!

================

أنهت آخر محاضراتها لتجمع أشياءها بلهفة كي تغادر الجامعة...

هبطت الدرج بخطوات سريعة وابتسامتها التلقائية تزين شفتيها مع ذكرياتها حول الأيام القليلة السابقة التي قضتها معه في "شرم الشيخ"...

أيامٌ بدت لها وكأنها اقتطفتها من الجنة ...

هي و هو وثالثهما الحب!!!

بلا شوائب من ماضٍ ولا خوف من حاضر ولا قلق من مستقبل...

عبد الله كان محقاً في حاجتها لهذه الإجازة...

"شهر عسل" تأخر كثيراً لكن حلاوته كانت تستحق!!!

انقطعت أفكارها عندما استوقفها أحد زملائها قرب باب الخروج ليسألها بتهذيب:

_لقد قرأت اسمك في طلبات الانضمام لدورة "الإسعافات الأولية" التي تنظمها أسرتنا هنا تحت إشراف "الهلال الأحمر"..صحيح؟!

أومأت برأسها إيجاباً وهي تقول بتحفظ:

_نعم...كان هذا منذ فترة لكنني تراجعت عن الأمر عندما علمت أنه سيتطلب الخروج من الجامعة وظروفي...

قطعت عبارتها فجأة عندما رأته أمامها!!!

يتقدم نحوهما بنظرات جامدة جعلت قلبها يسقط بين قدميها...

حتى صار أمامهما تماماً فشحب وجهها وهي تتذكر ما حدث منه يوماً في موقف مشابه...!

انفرجت شفتاها وهي تهمّ بالشرح لكن لسانها بدا وكأنه قد انعقد بخوفها الذي عاد يحتل كيانها من جديد....

لكن راغب نقل بصره بينهما بجمود مع قوله :

_ما الأمر؟!أنا زوجها!

التفت نحوه الشاب بابتسامة مهذبة قبل أن يمد له يده مصافحاً ليقول بهدوء:

_تشرفت بك ..

ثم أشار لرؤى مردفاً باهتمام:

_كانت قد طلبت الانضمام لدورة "الإسعافات الأولية" لكنها ترددت عندما علمت أن الأمر سيتطلب بعض الأنشطة الخارجية .

عاد راغب ببصره نحو رؤى التي كانت مطرقةً برأسها وكأنها تنتظر كارثة...

فيما أردف زميلها الذي لم يكن يشعر بكل هذا :

_لكن النتيجة تستحق يا سيدي...لو كان الأمر بيدي لطلبت تعميمها على جميع الطلاب هنا...خبرة الإنسان في هذا المجال قد تكون سبباً في إنقاذ حياة.

صمت راغب للحظة وقد التقطت عيناه ارتجافة جسدها والعرق الذي عاد يتصبب على جبينها كعادتها عندما ترهب شيئاً...

فاقترب منها أكثر ليمسك كفها فيضغطه برفق بكفه مع قوله بنفس الجمود:

_ما رأيك يا رؤى؟!هل تريدينها حقاً؟!

رفعت عينيها إليه بحذر غلفه خوفها وهي تتمنى لو يمنحها نظرة مطمئنة ...

لكن نظراته لم تكن أقل جموداً من لهجة حديثه !!!

فاعتصرت قبضة باردة قلبها وهي تشعر بالخوف يكاد يخنق أنفاسها...

ربما هو ليس خوفاً منه هذه المرة...

لكن خوفاً من أن تعود معه لنقطة الصفر...!!!

أن تعود له هواجس شكه وعدم ثقته فيها!!!

وهنا اجتاحتها ذكرى تلك الليلة التي أنقذت فيها عزة من ذاك الوغد...

تلك الليلة التي كانت فاصلاً هاماً في حياتها كلها...

لتستعيد ذاكرتها درجات السلم التي كانت تصعدها ببطء ...

وكأنها تدهس بقدميها مع كل درجة هاجساً من هواجسها...

قبل أن يغزو فكرها قَسَمها الذي أقسمته لنفسها تلك الليلة...

ستتشبث بقوتها دوماً...ولن تخاف!!!

هي دفعت فاتورة خطيئتها كاملة...ولن تدفع المزيد!!!

وهنا تلاشت سحب الخوف التي ظللت روحها شيئاً فشيئاً...

حتى استعادت هدوء أنفاسها تدريجياً...

وهي تمسح عرق جبينها بمنديلها في ثقة ناسبت قولها أخيراً وهي تخاطب زميلها:

_سأفكر وأخبرك برأيي غداً.

أومأ زميلها بإشارة موافقة قبل أن يغادرهما بتحية مهذبة...

بينما حافظ راغب على صمته المقلق...

فتنحنحت هي لتقول دون أن تنظر إليه:

_هيا بنا.

ظهر شبح ابتسامة على شفتيه لكنه أخفاه سريعاً وهو يسير جوارها صامتاً حتى وصلا إلى سيارته...

فاختلس نظرة جانبية إليها وهو يركب جوارها لكنها كانت شاخصةً ببصرها في الفراغ أمامها ...

ظلا على صمتهما الثقيل طوال الطريق حتى دخلا لبيتهما ...

لتندفع هي بسرعة نحو غرفتهما مغلقةً بابها خلفها بعنف!

ظل واقفاً مكانه للحظات وكأن شيئاً ما يشغل تفكيره...

قبل أن يتقدم بدوره ليفتح الغرفة ويدخل فوجدها جالسةً بكامل ملابسها على طرف الفراش لم تحاول حتى رفع عينيها إليه...

جلس جوارها برفق يتفحص ملامحها المنفعلة ثم سألها بنبرة محايدة:

_لماذا لم تبدلي ملابسك بعد؟!

وقفت مكانها لتسير بضع خطوات مبتعدة عنه مع قولها بنبرة مختنقة:

_أنتظر عقابك كيف سيكون هذه المرة...صفعة تتبعها إهانة...؟!!أم تراك تكتفي بطردي لبيت أخي؟!

قبض أنامله جواره بعنف وهو يتلقى عبارتها كسوط حاد على صدره...

قبل أن تردف هي بنفس الانفعال ولازالت تعطيه ظهرها:

_أراهن أنك تراقبني كل يوم في انتظار دليل إدانة...واليوم وجدته عندما رأيتني واقفةً مع ذاك الرجل...صحيح؟!

لم يصلها منه رد...فالتفتت نحوه برأسها لتهتف بحدة غريبة على لهجتها الوديعة:

_لن تنزلق قدمي في هذا البئر من جديد...أنا دفعت ثمناً غالياً كي أكسر تلك الدائرة التي كنا ندور فيها بلا نهاية...ولن أعود بظهري مهما كان الثمن.

كان صدرها يعلو ويهبط في انفعال جارف .....

فاحتضنت جسدها بذراعيها وهي تعود برأسها للأمام...

عندما وقف هو أخيراً ليتوجه نحوها ثم احتضن كتفيها بكفيه ليديرها نحوه قائلاً :

_هل انتهيتِ؟!

ارتجفت شفتاها وكأنها على وشك البكاء مع همسها المنفعل :

_أنا مللت الدفاع عن نفسي في كل موقف شبيه بهذا...مللت الشعور بأنني محل شك وانتقاص...مللت...

قطع حديثها بشفتيه في قبلة عميقة وهو يضمها إليه بقوة حانية...

قبل أن يبعدها برفق ليمسح دموعها المحتجزة بين رموشها هامساً بحنان:

_كنت أنتظر هذا الانفجار...والحمد لله أن انتظاري لم يطُلْ.

رمقته بنظرة حائرة بين ملامحها المنفعلة ...فضم رأسها لصدره مردفاً برفق:

_طوال الأيام السابقة وأنا أشعر بخوفكِ وتوجسك من القادم...كنت أقرأه في عينيكِ في كل مرة نخرج فيها معاً...حتى رحلتنا الأخيرة التي كنتِ ترفضين فيها

مغادرة غرفة الفندق وكأنك تخشين تواجدنا وسط الناس...لكنني لم أشأ أن أحدثكِ في الأمر ...الكلام لم يكن ليكفيكِ مالم يحدث موقفٌ كهذا الذي حدث اليوم.

رفعت عينيها إليه بترقب فمد أنامله ليزيح عنها حجابها برفق ...

ثم حرر شعرها من رباطه لينثره بحرية ثائرة حول وجهها...

لتليق طلتها باستطراده الحازم:

_لم أكن أراقبكِ ولم أشكّ لحظة في سلوكك...جئت بالمصادفة لأدعوكِ لتناول الغداء بالخارج ...وعندما رأيتكِ واقفةً معه وجدتها فرصة لكلينا كي نتجاوز هذا الحاجز الأخير...

هزت رأسها بلا معنى فاحتضن وجنتيها براحتيه ليهمس باعتزاز:

_أنا فخورٌ بصغيرتي القوية...الآن صارت معتدة بنفسها...لن تسمح لأحد أن يدوس لها على طرف مادامت لا تفعل ما تخجل منه!!

عادت عيناها تمتلئان بالدموع من جديد وهي تتفحص ملامحه وكأنها تتأكد من صدق ما يقول...

ثم أخفت وجهها في صدره ليضمها هو بكل قوته مع همسه بلهجة اعتذار:

_أنا آسف يا رؤى...آسفٌ حقاً على ما مضى...وآسفٌ أكثر لأنني لم أجرؤ على قولها قبل اليوم.

ثم قبل رأسها بعمق مع استطراده:

_كوني هكذا دوماً...قوية حرة ثائرة بحقك ...فالخوف لم يُخلق لقلب نقي كقلبك.

رفعت إليه وجهها أخيراً بابتسامة رائقة...

قبل أن تستطيل على أطراف أصابعها لتقبل جبينه بامتنان يليق بهمسها:

_أنتَ الذي بُعثت بغرامه من جديد...كنت قبلك أكره نفسي لكنني معك أحببتها...أحببتها لما رأيت صورتها في عينيك...عمري كله لن يكفيك كي أريكَ أيَّ عاشقةٍ قوية صنعتها يداك.

وهنا اعتصرها بين ذراعيه بقوة عشقه...

وكأنه يريد طيّ هذه الصفحة الأليمة من حياتيهما للأبد...

ما عاد هناك مجالٌ لشك أو ظنون...

بعد كل ما كان بينهما كلاهما يستحق الراحة بعد طول تعب!!!

لهذا أبعدها أخيراً برفق ليربت على ظهرها قبل أن يميل رأسه ليسألها باهتمام:

_لماذا لم تخبريني عن أمر تلك الدورة قبل أن تنضمي إليها؟!

عادت عيناها تتألقان ببريق براءتها مع همسها المشفق:

_أنا آسفة...كان يجب أن أستأذنك أولاً لكنني فعلتها دون تفكير...

ثم عادت تسند جبينها على صدره مع استطرادها :

_فعلتها لأجل أمي...عندما أصابتها نوبتها الأخيرة شعرت بالخوف عليها...وددت لو كان بإمكاني مساعدتها بأي شئ...لهذا لم أفكر عندما رأيت الإعلان عن هذه الدورة...شئٌ عظيم حقاً أن تتمكن من إسعاف شخص يحتاج المساعدة.

ابتسم باعتزاز وهو يقبل رأسها من جديد ليهمس بفخر:

_أعجبتِني يا "ليمونيّة"!!

ضحكت بفرح طفولي وهي تتعلق بذراعيها في عنقه لتهمس بدلال:

_"الليمونيّة" جائعة...فهل أستحق دعوة الغداء التي كنت تنتويها؟!!

هز رأسه نفياً وقد ظهر الرفض على ملامحه...

فانعقد حاجباها بدهشة عندما التمعت عيناه بخبث لذيذ...

وهو يمد أنامله ليحل رباط سترتها هامساً بمكر:

_الطعام سيأتينا حتى هنا...أما الآن..

ثم تثاقلت نبرته مع استطراده بحرارة:

_لدينا حديثٌ أهم!!

=======

الفصل الثلاثون

_كيف حال عمي جاسم الآن؟!

هتفت بها يسرا وهي تندفع نحو فهد وماسة فور عودتهما للمنزل...

فاكتفى فهد بإيماءة مقتضبة فيما قالت ماسة بهدوء مصطنع:

_سيسافر لإعادة الفحوصات بلندن...لعله مجرد تشخيص خاطئ!!

غمغمت يسرا بكلمات مطمئنة تقليدية...

بينما تركهما فهد بخطوات متثاقلة ليقول بنبرة منهكة:

_سأصعد لأستريح.

رمقته ماسة بنظرة مشفقة طويلة...فيما لحقت به يسرا بسرعة لتسير جواره مع همسها بقلق:

_فهد...ابقَ معي قليلاً...أريد أن أطمئن عليك.

تنهد فهد بتعب واضح دون رد مكتفياً بسيره الصامت جوارها...

حتى وصل لغرفته التي دخلها وهي خلفه تهتف بتوتر:

_ماذا فعل والدك مع ماسة؟!هل سيعلن نسبها الحقيقي؟!

فالتفت نحوها فهد بنظرة ساخرة حملت مرارته مع كلماته:

_ما رأيك أنت؟!هل تظنين جاسم الصاوي يفعلها؟!

تفحصته بعينين زائغتين للحظات قبل أن تغمغم بشرود:

_لا...لن يفعل!

أومأ برأسه موافقاً وهو يتحرك بضع خطوات نحو النافذة ...

ليقول أخيراً بحسم:

_لن أجعلها تحتاج إليه ولا لأي أحد...كنت أرى أن أعلن أنا الأمر ولنعلنها حرباً عليه...لكن للأسف هي رفضت...الآن هي لا تريد منه سوى اسمها الحقيقي ولو سراً وبعدها ستسافر بعيداً عن هنا.

_تسافر؟!

غمغمت بها في استغراب فعاد يلتفت نحوها ليقول مؤكداً:

_نعم...ستذهب إلى أبو ظبي .

ازدردت ريقها الجاف بتوتر وهي تقترب منه أكثر مع سؤالها:

_وأنت ستسافر معها؟!

رمقها بنظرة متفحصة طويلة ثم حسم أمره ليقول بنبرة محايدة:

_سأقوم بتوصيلها حتى أطمئن عليها هناك...وبعدها سأعود .

شحب وجهها فجأة مع تلاحق أنفاسها السريع وقد تجمدت مكانها للحظات...

قبل أن تنهار أخيراً في بكاء هستيري صاحب هتافها:

_لا...لن تعود...أنت مللت مني...تريد أن تتركني !!!

انتهت كلماتها بصرخات متتابعة قصيرة وهي تنهار بركبتيها على الأرض ...

فانحنى ليرفعها من كتفيها إليه هاتفاً بأقصى ما امتلكه من مراعاة لحالتها:

_لا يا يسرا...أقسم لكِ أنني سأعود...أنا وعدتك...اهدئي فقط.

هزت رأسها في عدم تصديق مع انهمار دموعها أكثر...

وجسدها يتشنج بقوة انفعالها بين ذراعيه...فعاد يقول مهدئاً:

_يومان فقط...صدقيني.

أخفت وجهها بين راحتيها في نحيب صامت للحظات فزفر بضيق وهو لا يدري ماذا يفعل...

قبل أن يفاجأ بها أخيراً تلقي برأسها على صدره لتضمه بذراعيها بقوة!!

وكأنما لدغته أفعى!!!

فلم يشعر بنفسه وهو يدفعها بقوة بعيداً عنه...قبل أن يتحرك مبتعداً عنها هو الآخر بحركة عنيفة!!!

كانت نظراته مشتعلة بغضب حارق جعلها تشعر بالخوف ...

قبل أن ينكسر هذا الغضب تدريجياً مع تثاقل أنفاسه...

ليحل محله ألم هائل أغلق عليه جفنيه وهو يعطيها ظهره أخيراً ...

فعادت تقترب منه لتهمس بين دموعها:

_إلى هذه الدرجة لا تطيق أن تلمسني؟!

لكنه بدا وكأنه لا يسمعها...

كفه كان مبسوطاً على صدره في موضع القلب تماماً مع ذكرى أخرى له مع -جنته- وهو يضمها إليه مع همسه:

_اخلعي حذاءكِ.

_نعم..يا جنتي...هكذا يكون دوماً مكانكِ على صدري...عيناكِ الحبيبتان أقرب ما تكونان لقلبي...رموشهما تكاد تعانق دقاته.

فدمعت عيناه المغمضتان باشتياق فاق ألمه...

آه يا جنتي وجحيمي!!

إنه مكانكِ أنتِ على صدري...فكيف أسمح لسواكِ أن تشغله ولو شفقةً أو مواساة!!!

هو لكِ وسيبقى لكِ...

كما كان ولا يزال كل ما فيّ لكِ!!!

وعند الباب المفتوح وقفت ماسة تراقب الموقف بقلب كسير...

لا تدري على أيهما تشفق أكثر!!!

على أخيها الذي لازال أسير عشق رحل...؟!!!

أم على زوجته التي تحتاجه حقاً في هذا الوقت وليس لها سواه!!!

فتنهدت بعمق شعورها ثم تقدمت منهما لتتنحنح مع قولها مخاطبة يسرا:

_فهد متعَبٌ للغاية يا يسرا...دعينا نتركه الآن فأنا أريدك في حديث هام!

كان قولها مقروناً بتربيتة هادئة على كتف يسرا ...

لكن الأخيرة انتفضت مكانها لتزيح عنها كفها مع هتافها الثائر:

_فهد متعَب؟!!وأنا...لست مُتعَبة؟!!

ضم فهد قبضته بانفعال محافظاً على ثباته بأعجوبة...

فيما استطردت يسرا بهياج طبيعي في حالتها:

_لم أعد أريد العلاج...أعيدوني لأقراصي...إنها تجعلني أنسى...وأنا أريد أن أنسى...أريد الأقراص حالاً!!!

انتهت كلماتها بعودة أخرى لبكاء حاد...

فاحتضنتها ماسة بقوة وهي تتبادل مع فهد نظرات مفعمة بمشاعر يفهمها كلاهما ...

قبل أن تجذبها معها قائلة بحنان لا يخلو من حزم:

_تعاليْ معي فقط...سنتحدث قليلاً.

قالتها وهي تسحبها معها خارج الغرفة لتغلق بابها خلفها برفق بعدما رمقت فهد بنظرة مؤازرة أخيرة ...

وقد أخبرها حدسها أنه هو الآخر على وشك الانهيار مع كل هذه الضغوط التي يواجهها وحده!

وما كادت تغلق بابها خلفها حتى سمح هو لآهة عميقة أن تغادر صدره...

وكم ود لو تحمل معها كل ما يحشو قلبه من ألم!!!

ليتوجه بعدها إلى فراشه الذي استلقى عليه بكامل ملابسه قبل أن تحين منه التفاتة نحو هاتفه...

ابتسم بسخرية مريرة وهو يتذكر كيف كان يتعجب من جنة عندما كانت تهاتف حَسَن -بخيالها- بعد موته!!!

والآن فقط عندما صار مكانها يود لو يفعل المثل!!!

مجرد تفكيره فيها يمنحه راحةً خاصة...

جنة...هي حقاً جنة...

امرأةٌ ذِكْرُها سكينة...وذكراها سلوى...وتذكُّرُها داءٌ مزمنٌ و شفاء...

فماذا تكون إلا ...جنة؟!!!

تناول هاتفه بأنامل مرتجفة وهو يقلب في صوره ليستعيد ذكرياته العامرة معها...

لتتوقف عيناه أخيراً على آخر صورة كانت لهما في وضع "السيلفي" الشهير وهي نائمة على صدره وابتسامتها تنافس ابتسامته في سعادة من القلب!!!

ليلة من الليالي التي حلما فيها معاً ب"ملك" الصغيرة عاشقة الأزرق كأمها!!!

ليته استطاع تخزين كل لحظة جمعتهما سوياً...

ليته اختزن حنانها...عذوبتها...شقاوتها...

وهج البندق في عينيها...بريق النور على شفتيها...

سحرها "الأزرق" الذي لن تنافسها فيه امرأة سواها!!!

ليهمس أخيراً :

_افتقدتك يا جنة...افتقدتك جداً.

قالها ثم استسلم أخيراً لنوم عميق...

فلم يشعر بباب غرفته الذي فتح بعدها بوقت طويل....

لتطل هي منه برأسها للحظات تتيقن من نومه قبل أن تتقدم منه ببطء...

رغم حديث ماسة المتعقل معها لكنه لم يستطع إخماد تلك النيران المشتعلة بصدرها...

ساعات وهي تحاول النوم دون جدوى ولولا بقية من إرادة بداخلها لخرجت تبحث عن "أقراص دوائها السحرية" بنفسها...

جلست على طرف فراشه تراقب ملامحه التي استكانت باستسلام مرهَق...

لتلمح عيناها هاتفه الذي احتضنه على صدره بأنامله...

فامتد كفها يتناوله ليعيده مكانه عندما اصطدمت عيناها بصورتها...

صورة "غريمتها"!!!

خفق قلبها بعنف وهي تنشب أظفارها في شاشة الهاتف تخدشها...

بل تكاد تكسرها!!!

صورة فهد وهو يضمها إليه بحنان مبتسماً معها أدمت قلبها بجرح غائر!!!

إعصارٌ أسود من غيرة اجتاح روحها عاصفاً مدمراً في طريقه ما سواه!!!

ليحتل "شيطان" غيرتها الصورة وهي تقارن نفسها ب-جنة-!!

من هي حتى تحظى بقلب رجل كفهد حيةً وميتة؟!!!

من هي حتى يتنازل لأجلها عن والده وثروته وسلطته ونفوذه ؟!!

من هي حتى تسرقه من عالمه لتدفنه في أرضها ؟!!

من هي حتى يتركها هي لأجلها؟!!

لا...لن تسمح لها...بل...لن تسمح له هو!!!

الأحمق يفر من حضنها هي -يسرا الصباحي ملكة مجتمعها المخملي الفاتنة- ليعانق صورة في هاتف لامرأة ميتة!!!!

أحمق يا فهد!!!

أحمق وعنيد ومكابر!!!

لكنني لن أسمح لك أن تضيع نفسك في ذكريات ماضٍ وتضيعني معك!!!

لن أرتضي أن تخرج من حياتي بهذه البساطة!!!

أنت لي ما دمت قررت -أنا- هذا!!!

وسأعرف كيف أجتذب قلبك لتكون لي زوجاً -بحق- لا مجرد حبر على ورق!!!

وبهذا الخاطر الأخير تلاعبت أناملها بشاشة الهاتف لتمسح جميع صورهما معاً ...

وكأنها بذلك ستمحوها من قلبه!!!

لتتنهد أخيراً بارتياح وهي تعيد هاتفه مكانه على صدره لتخرج بعدها من الغرفة بخطوات ثابتة...

وكأنها لم تفعل شيئاً!!!!

==========

_جنة!

همسته الناعمة داعبت أذنيها مع قبلتيه على وجنتيها ملحقتين بهمستهما الخاصة:

_تحتاجينني... وأحتاجكِ أكثر!!

ففتحت عينيها ببطء لتتلقى ضياء نجومه الملتمعة في سواد عينيه...

قبل أن تخرج حروف اسمه من شفتيها مشبعةً بعشق جارف...

عشق تلقفته شفتاه بشغف وهو يضمها إليه بقوة ليرفعها معه في أعالى سماوات الحب للحظات...

قبل أن يعاود معانقة وهج البندق في عينيها مع همسه الذائب في عتبه:

_لماذا تركتِني؟!

فانفرجت شفتاها تبحثان عن رد...

عندما شعرت به يبتعد عنها فجأة لتجذبه امرأة أخرى نحوها بهتاف واثق:

_لم يعد لكِ ...يا أستاذة!!!

ومع تهكمها الصارخ في كلمتها الأخيرة ...

اختفى طيف فهد فجأة من أمامها لتجد نفسها وحدها...فتناديه بلا جدوى...

فهد...

فهد...

انتفضت من نومها فجأة لتتحسس رقبتها بإعياء وهي تشعر بالاختناق...

أزاحت غطاءها عنها لتقوم واقفةً فتنتابها نوبة دوارها المعتاد بسبب انخفاض ضغطها الذي صاحب حملها...

فتشبثت بظهر الفراش للحظات ...قبل أن تستعيد توازنها لتتوجه نحو النافذة فتفتحها بسرعة سامحةً لضوء الشمس أن يملأ الغرفة لعله يبدد ظلمات روحها بعد هذا الحلم المقبض...

ثم احتضنت جسدها بذراعيها وهي تراقب السماء بشرود...

قبل أن تتحسس بطنها لتهمس بأسى:

_ترى لازلت على عهدنا يا فهد؟!أم استسلمت لشيطانك؟!

دمعت عيناها رغماً عنها وهي تتذكر تلك الصورة التي ذبحتها ذبحاً منذ بضعة أيام له مع يسرا على أحد مواقع التواصل الاجتماعي...

والخبر المرفق تحتها مفاده أن فهد الصاوي اختطف زوجته من بؤرة الأضواء هذه الأيام ليختفيا معاً فيما يبدو وكأنه "شهر عسل" خاص!!

ورغم أنها لم تصدق "تماماً" ما ورد في الخبر...

لكن الغيرة القاتلة نهشتها وهي تتبين أن يسرا الصباحي إلى الآن لا تزال على ذمته!!!

تراه عاد إليها بعد ظنه في وفاتها؟!

وهل تمكن جاسم الصاوي مما أراده باختفائها؟!!

هل نسيها فهد مع الأيام وارتد على عقبيه إلى طريق أبيه؟!

أم أن وديعتها "الماسية" في قلبه لازالت تعصمه من الزلل؟!!

كلها أسئلةٌ ظلت تتردد في عقلها دون جواب...حتى تنهدت بحرارة وهي تعاود تحسس بطنها لتهمس بأمل:

_غداً يا صغيري نعود...معاً نعود...

ثم شردت ببصرها لتردف بنبرة مختنقة:

_ولنرَ وقتها هل يستحقكِ والدك أم لا!!!

انقطعت عبارتها عندما سمعت رنين هاتفها فتحركت لتتناوله بخفة عندما وجدت الاتصال من زهرة التي بادرتها بقولها:

_هل تناولتِ إفطارك؟!اليوم إجازة...ما رأيك لو نتناول الإفطار معاً في المطعم؟!

أجابتها برفضٍ واهٍ متعللة بسوء مزاجها...

لكن زهرة عادت تلح بقولها بانبهار طفولي كالعادة:

_لن تصدقي من ستأتي معنا...كاتبتي المفضلة التي حدثتك عنها...لقد صارت صديقتي !

ابتسمت جنة ابتسامة شاحبة وقد همت بتأكيد رفضها...

لكن زهرة عاودت إلحاحها وعزّ عليها ردها خائبة...

فردت بالقبول مرغمة...

لتلتقي بعدها بهنّ في المطعم كما اعتادت...

جلست لبعض الوقت تستمع بصمت إلى أحاديثهن الصاخبة...

ثم مضت تراقب اختلافهن بعينيها الخبيرتين...

حسناء بنظراتها المتحفزة على الدوام...

وزهرة بانطباعاتها الطفولية التي تجعلها تبدو دوماً كطفلة منبهرة...

وطيف...غريبة الأطوار التي لفتت انتباهها بطبيعتها الساخرة رغم الحزن الغائر في عينيها...

لتدرك جنة بحدسها أن هذه المرأة هي الأخرى تحمل سراً...

ويبدو أن طيف قرأت نظراتها المتفحصة فقد سألتها باهتمام:

_ماذا كنتِ تعملين يا مريم؟!!

ابتسمت جنة بتحفظ وهي تجيب باقتضاب:

_خريجة كلية حقوق!

ثم تهربت من سؤالها بسؤال موازٍ:

_وأنتِ؟!ماذا كنتِ تدرسين؟!

فتراجعت طيف برأسها للوراء لتقول بما بدا وكأنه افتخار بلهجة سخرية:

_لم ألتحق بأي جامعة...بل إنني حتى لم أكمل تعليمي.

صمت ثلاثتهن بدهشة من جوابها ...فضحكت ضحكة قصيرة أتبعتها بقولها:

_نعم...لم اكمل تعليمي..قبل قدومي إلى هنا...كنت أعمل خادمةً في البيوت حتى أجد ما يسد رمقي...لكن آخر سيدة عملت لديها لاحظت شغفي بالقراءة فشجعتني...وكانت تمنحني المال لشراء الكتب أيضاً.

ضاقت عينا جنة بتفحص وهي تتأملها ببعض الإعجاب...

فيما هتفت زهرة بطيبتها المعهودة:

_يالها من امرأة طيبة!

اتسعت ابتسامة طيف الساخرة وهي تقول بمرارة لم تختنق بدخان سخريتها:

_نعم...كانت طيبة...حتى حدث ما حدث!

وهنا اتسعت عينا زهرة بترقب وهي تسألها كمن يشاهد عرضاً سينمائياً:

_وماذا حدث؟!

_ابنها أحبني!!

قالتها طيف بنبرة زاد حدّ تهكمها لكن أصابعها التي كانت تنقر على المائدة بتوتر فضحت انفعالها...

فيما شهقت زهرة بانبهار ناسب تصفيقها بلهفة قولها:

_ابنها أحبك؟!وماذا فعلتِ لتجعليه يحبك؟!أخبريني!!

كتمت جنة ابتسامتها بصعوبة وهي تدرك مغزى سؤال زهرة برائحة "جهاد" التي تفوح من كل كلماتها...

فيما أجابت طيف بمواربة وهي تضع إحدى ساقيها على الأخرى بتلذذ ساخر:

_سكبت الشاي الساخن عليه!!

ضحكت حسناء ضحكة طويلة بينما اكتفت جنة بابتسامة هادئة...

فيما ظهر الإحباط على وجه زهرة التي غمغمت باستنكار:

_ماذا؟!

وهنا ضحكت طيف بانطلاق لتلتفت نحوها أنظار رواد المطعم...

لكنها تجاهلت هذا وهي تقترب بوجهها من زهرة لتقول بسخريتها الواثقة:

_ألم تسمعي في الأمثال الشعبية أن الرجل كطابع البريد...كلما تبصقين عليه يزداد التصاقاً!

تراجعت زهرة برأسها في اشمئزاز واضح من التشبيه...

فيما عادت حسناء لضحكاتها العالية...

بينما تفحصتها جنة باهتمام لتقول أخيراً بجدية:

_وبعضهم كوشم على الجلد...يحفر بالنار...ولا ينزع إلا بالنار!!!

وهنا تجهمت ملامح طيف فجأة وكأن كلمات جنة أصابت وتراً حساساً بنفسها...

ربما لأن ذكرها ل"النار" أوقد -ذكرى ما - بداخلها...!!!!

لتصمت للحظات قبل أن تعاود قولها بسخرية:

_يقولون أيضاً أن النار لا تحرق مؤمناً...وهنا بالذات...أنا مؤمنة جداً!!!

وهنا لم تملك جنة إلا الابتسام لذكاء ردها...

فيما غلبت حسناء دعابتها وهي تهتف مشاكسة:

_يا ولد يا مؤمن!!!

انطلقت ضحكاتهن مجلجلة بعدها للحظات...

قبل أن تتوجه جنة بسؤال حذر لطيف:

_لكنكِ تبدين على قدر كبيرمن الثراء...كيف أكملتِ طريقكِ هنا؟!

هزت طيف كتفيها وهي تشيح بوجهها في إشارة لامتناعها عن الجواب...

فتجاهلت زهرة الأمر لتهتف ببراءتها المعهودة:

_حسناً...استمعن الآن لخطتي الجديدة مع جهاد...وأخبرنني عن رأيكن فيها!

مطت طيف شفتيها باستياء لتقول باستهجان واضح:

_لا أدري ما الذي يعجبك في جهاد هذا؟!إنه يبدو كدمية أطفال بعينيه الباردتين!!!

_باردتين؟!

هتفت بها زهرة باستنكار فهدأتها جنة بتربيتة على كتفها لتسألها بحنان:

_قولي يا صغيرة...ماذا تنتوين؟!

هنا نسيت زهرة استنكارها لتشتعل عيناها بحماس مع قولها:

_لقد أوصاني بإحدى قريباته ...ستأتي هنا قريباً للإقامة والعمل...وأنا استطعت تدبير سكنٍ مناسب لها

أمامنا...ستكون فرصتي للتقرب إليها وبما أنه شديد الاهتمام بها...فستكون هي طريقي إليه.

_ياالخيبتك!

هتفت بها طيف باستهجان لتقول بعدها :

_ألم تفكري أنها ربما تكون غريمتك في قلبه!

لوحت زهرة بسبابتها نفياً وهي تقول بنفس الحماس:

_لا...هي متزوجة لكنها تواجه مشكلةً تمنعها من الإنجاب...لهذا ستأتي ليعالجها أيضاً.

وهنا عادت طيف تقترب منها لتوكزها بسبابتها في جانب رأسها مع قولها :

_ألا تستخدمين عقلكِ هذا أبداً؟!ما الذي يدفع امرأة متزوجة للإقامة هنا وحدها بل والعمل دون زوجها إلا لو كانا منفصليْن؟!

عادت جنة تبتسم لفطنتها فيما شحبت ملامح زهرة لتقول بخيبة:

_ماذا؟!!لم أفكر في هذا الاحتمال!!

شعرت جنة بالإشفاق نحوها فربتت على كفها لتقول بحنان :

_زهرة حبيبتي...الحب قدر ...لا تجوز معه خطط ولا يسبقه تدبير...ادعي الله فقط أن يرزقكِ القلب الطيب الذي يسعدك.

وهنا تدخلت طيف في الحوار لتهتف بحمائيتها:

_ولماذا لا تسعد المرأة إلا بقلب رجل ؟!!لماذا لا تسعد بنجاحها؟!باستقلالها؟!بنظرات التقدير التي يجلبها لها تميزها؟!!

فالتفتت نحوها جنة لتقول بتعقل مع ابتسامتها:

_نعم...تسعد بكل هذا...لكن فطرة الله التي فطر الناس عليها أن تميل الأنثى لرجل فيكون بينهما مودة ورحمة.

لكن طيف أشاحت بوجهها في استنكار مع قولها:

_أنتِ قلتها...تميل الأنثى لرجل...فأينَ الرجال هذه الأيام؟!

ابتسمت جنة ابتسامة يائسة وهي تهز رأسها مدركة عقم الجدال...

فيما نقلت زهرة بصرها بينهما بحيرة للحظات...

قبل أن تسند ذقنها على راحتها وقد بدت كمن سقطت على رأسه صاعقة....

لتقول أخيراً بشرود:

_غريمة جديدة على قلب جهاد؟!!معقول؟!!

===============

_صوت ضحكاتكما كان واصلاً إليّ هنا في مكتبي!!!

هتف بها أنس في غضب غريب على طبعه الحليم أمام صفا التي جلست أمامه في مكتبه بالمدرسة...

وقد وضعت إحدى ساقيها على الأخرى لترد بمكابرة:

_وماذا في هذا؟!!هل حرّموا الضحك هذه الأيام؟!!

زفر بقوة قبل أن يكز على أسنانه ليقول معنفاً:

_هذا المعلم الجديد لا يعجبني...طريقته في التودد إليكِ ملفتة...وأحاديث الناس لن ترحمك.

ضحكت ضحكة ساخرة وهي تعود بظهرها للخلف مع كلماتها:

_هم لن يرحموني على أي حال...فلماذا أهتم؟!

نظر إليها نظرة طويلة يائسة حملت كل مشاعره...ثم غمغم بحسرة:

_أنتِ تَضيعين يا صفا.

ورغم أن عبارته زادت تشققات جدران روحها المتصدعة...

لكنها تمسكت بقناعها الجديد لتقول بنفس النبرة الساخرة:

_أضيع منك؟!!

ضاقت عيناه بألم للحظة وقد عزّ عليه أن تستخف بمشاعره...

قبل أن يبتلع مرارته كاملةً كما اعتاد معها منذ زمن ليستعيد صوته حزمه المصطبغ بحنانه:

_بل تضيعين من نفسك...تشوهين كل جميلٍ تزينت به روحك...جعلتِ من عشقكِ القديم قبراً من نار دفنتِ فيه نفسكِ حية...لو كان هو طعنكِ مرة فأنتِ تطعنين نفسكِ ألف مرة.

توهجت عيناها ببريق قاسٍ لتشرد ببصرها مع همسها وكأنها لم تسمع شيئاً مما قاله:

_سأعرف كيف أجعله يندم على ما فعله!!

هز رأسه بيأس وهو يدرك أن عنادها غالبها الآن...قبل أن يعاود سؤالها بضيق:

_ما الذي تريدينه بالضبط؟!

_أن أتزوج!!!

قالتها بحسم خلا تماماً من خجل يُفترض في هذا الموقف...

لكنه لم يتعجب هذا منها مع استطرادها بانفعال مكتوم:

_هذا المعلم طلبني للزواج...وأنا أفكر في القبول.

_ماذا؟!!

هتف بها باستنكار وهو يخبط بقبضته على سطح مكتبه بقوة أخافتها قليلاً...

خاصةً عندما هب واقفاً ليتوجه نحوها مردفاً بسخط :

_هل جننتِ يا صفا؟!إنه يصغركِ ببضعة أعوام ومن الواضح أنه طامعٌ في مالك!!!

فابتسمت ساخرة وهي تقف قبالته لتعقد ساعديها أمام صدرها قائلة:

_وما الجديد؟!!لن يكون أول من يفعلها !!!

شعر بالدم يرتفع لرأسه مع فرط انفعاله وغيظه...

لقد زاد الأمر عن حده حقاً...

صفا تمادت كثيراً ولم يعد يعرف حدّاً لهذا الجنون الذي تلبسها!!!

لو كان الأمر بيده لصفعها على وجهها لعلها تفيق من ضلالاتها...

ضلالاتها التي جعلتها تردف الآن بتنمر واضح:

_حياتي لن تقف...رحل رجلٌ وسيأتي غيره!!!

نفرت عروق جبينه بغضب مستعر وقد احمر وجهه انفعالاً ليهتف بحدة:

_ومن سيسمح لك بهذا؟!هل أنتِ بلا أهل؟!!تظنين الزواج لعبة؟!!أنا بالكاد أمنع أبي عن التصدي لكِ بدفاعي عنكِ...ولولا مرضه الشديد لكان لنا معكِ تصرف آخر!!

دمعت عيناها بقوة لتتسلل منهما نظرة -مذنبة- عبر غيوم القسوة التي صارت تحتلهما مؤخراً...

لكنها عادت لعنادها بسرعة مع قولها بتحدّ سافر:

_أنت تعلم رغبة عمي جيداً...لو علم أن خاطباً آخر يريدني فسيجبرك على الزواج مني ولو قسراً.

ثم لوحت بسبابتها في وجهه لتهتف بانفعال:

_ما رأيك إذن يا ابن عمي؟!أتزوجك أنت أم ذاك الرجل؟!

_وهل يجب أن تتزوجي أحداً الآن؟!!

هتف بها في استنكار واجهته هي بهتافها الثائر وهي تلوح بذراعها:

_نعم...يجب أن أتزوج الآن...يجب أن أرد له ضربته...أن أجعله يتذوق المرارة التي ذقتها بزواجه...سأذبحه كما ذبحني!!!

تهدج صوتها في عبارتها الأخيرة ليفضح ضعفاً مستتراً خلف قناع شراستها المستحدث هذا...

ضعفاً زاد عذابه بها وهو يراها لا تزال تدور في فلك واحد لن تخرج عنه...

عبد الله...وفقط!!!

حنانها كله كان له...والآن قسوتها أيضاً له!!!

عطاؤها ومنعها ...كلاهما له!!!

البائسة تكاد تضيع سمعتها وكرامتها ومستقبلها فداءً لانتقام مزعوم!!!

فأي جحيم أسود تدفع نفسها نحوه؟!!

أي جحيم؟!!

لكنها عادت تنتزعه من أفكاره بقولها البارد رغم اشتعاله:

_ماذا قلت؟!تتزوجني أنت أم أطلب من الرجل التقدم لخطبتي من عمي؟!!

نظر إليها نظرة عاتبة طويلة...ثم قال بحسم:

_لا يا صفا...لن أتزوج امرأةً تتخذني وسيلة للانتقام!

انعقد حاجباها بغضب فلوح بسبابته في وجهها ليردف ضاغطاً على حروفه:

_ولن أسمح لكِ بفعلها مع غيري.

شعرت برفضه يوجع كبرياءها الذي لا يزال مضرجاً بدماء جرحه القديم...

لتصمت للحظات بدت له كدهر كامل...

قبل أن ترتعش ملامحها مع تمتمتها الخافتة:

_أنت...تحبني!!!

تجمدت عيناه عليها وهو يسمعها منها بهذه الصراحة لأول مرة...

لكن صدمته لم تكن في -كلماتها- بقدر ما كانت في- اللهجة- التي نطقتها بها...

توكيد؟!

رجاء؟!

استغاثة؟!

اعتذار؟!

ندم؟!

كل هذه المعاني حملتها...

لكنها كانت أبعد ما تكون عن السؤال!!!

وكأن حبه لها -حقيقة ثابتة- تظلمها "علامة استفهام" ولا يليق بها سوى "نقطة" في آخر السطر!!!

لهذا أخذ نفساً عميقاً وهو يشيح بوجهه عنها للحظة...

قبل أن يعود إليها بعينيه ليقولها لها هو الآخر لأول مرة:

_نعم...أحبك يا صفا...ولم أحب امرأة سواكِ طوال هذه السنوات.

ورغم أنه كان من المفترض أن يصيبها تصريحه بالفخر وهو يشبع غرور أنوثتها...

لكنها على العكس شعرت بالخزي الذي جعلها تسبل جفنيها مع استطراده:

_ولهذا السبب لن أوافقكِ على الزواج الآن!

ضغطت شفتيها بانفعال وقد عجزت عن رفع عينيها إليه كطفلة مذنبة...

فيما تنهد هو بحرارة ليقول أخيراً بحزم لم يطفئ حسرته:

_لم أنتظر كل هذه السنوات حتى ألقاكِ في منتهى الطريق مجرد جثة باردة أحملها على كتفي لأرحل بها.

هنا عادت ترفع عينيها إليه بحدة ساخطة وهي تهمّ برد عاصف...

عندما قطع رنين الهاتف نيتها ليتناوله وهو يفتح الاتصال بسرعة ...

قبل أن تتسع عيناه بصدمة مع ارتجافة صوته:

_أبي!

صرخت صفا صرخة قصيرة وهي تقترب منه بسؤال ملتاع...عندما أغلق هو الاتصال مغمضاً عينيه بهمسه المختنق:

_البقاء لله!

====

_الحمد لله !

غمغم بها عبد الله بعدما أنهى إفطاره متحاشياً النظر نحوها كعادته ...

فهتف محمد الصغير ببراءته المعهودة:

_أكملها يا شيخ!

رمقه عبد الله بنظرة حنون فأردف الصغير بنبرات متباطئة وكأنه يستظهر نصاً يحفظه:

_قل الحمد لله الذي ...أطعمنا...و سقانا...وجعلنا...

قطع عبارته متلعثماً لا يتذكر بقيتها...

فابتسم عبد الله وهو يربت على رأسه ليكملها له:

_مسلمين!

كررها الصغير وراءه ثلاث مرات سريعاً وكأنه يحفظها...

لتبتسم فتون بقولها الحاني:

_لن ينساها بعد يا شيخ...ما دمتَ أنت من قالها له.

رفع إليها عينيه بحذر لتردف وهي تنظر للصغير ببعض الإشفاق:

_هو لا ينسى شيئاً من كلامك.

خفق قلب عبد الله بشعور غريب وهو يتأمل الصغير بتفحص...

ولا يدري لماذا ذكّره بنفسه في مراهقته...

نفس النظرة الضائعة في عينين مصطبغتين بمرارة اليتم وخوف الحاجة!!!

ربما يكون محمد أصغر سناً منه عندما فقد والديه...

لكن تبقى لنظرته نكهة خاصة تعيده لماضٍ قديم ترك أثره بنقوش بارزة على جدران روحه!!!

لهذا لم يقاوم أن يضمه إليه بقوة عاطفة اكتسحته الآن ....

ليضمه محمد أكثر بذراعيه الصغيرين وكأن قلبه -البرئ- يتنعم بهذا الحنان الذي يحتاجه...

فيتشبث كلاهما بحضن صاحبه حتى لم يدرِ عبد الله أيهما كان أشد احتياجاً لهذا الحضن...

هو أم الصغير؟!

بينما راقبتهما فتون بفرحة حقيقية لم تخلُ من توجس وهي تخشى أن تفيق من هذا الحلم على حرمان جديد...

لهذا ازدردت ريقها بتوتر وهي تحاول سحب الصغير بقولها الفاتر:

_يكفي هذا يا محمد...ستعطل الشيخ عن عمله.

لكن الصغير أصدر صوتاً متذمراً فتشبث به عبد الله لبضع لحظات أخرى قبل أن يبعده برفق مع قوله الحنون:

_سأعود اليوم مبكراً كي نذهب في نزهة إلى مدينة الألعاب التي وعدتك بها.

صفق الصغير بكفيه في سعادة قبل أن يقبل وجنة عبد الله بقوله البرئ:

_أنت طيب جداً يا شيخ...ليتك كنت أبي!

شحبت ملامح فتون فجأة وهي تحمل الصغير قسراً من بين ذراعيه لتقول له بلهجة آمرة:

_اذهب لغرفتك يا محمد...ودع الشيخ كي يذهب إلى عمله.

ذهب الصغير إلى غرفته مسرعاً وقد هددته نظرتها الزاجرة بعقاب قريب...

فيما التفتت هي نحوه لتلتقط الحزن المنقوش على ملامحه فتهمس بأسف:

_اعذره...فهو طفلٌ لا يفهم شيئاً.

استغفر الله بخفوت ثم أطرق برأسه ليقول برفق:

_هو لم يخطئ في شئ...أنا أيضاً تمنيت ولداً مثله منذ أول مرة رأيته فيها.

ترقرق الدمع في عينيها وهي تلمح كسرة الألم في عينيه...

بالتأكيد هو تمنى الولد...ولازال يتمناه ...لكن ليس منها...

من سيدة قلبه التي ملكته ولازالت ...حتى بعد هذا الفراق!!!

والغريب أنها لم تشعر بغيرة ها هنا...

بل على العكس...كل شعورها كان منغمساً بمذاق الذنب!!

ولعل هذا ما جعلها تقول له الآن برجاء لم تفارقه عزة نفسها المعهودة:

_بالله عليك يا شيخ لا تخذل ابني...أنا أعلم أن زواجنا غريب...بل إنني حتى لا أفهم لماذا رغبت أنت فيه...لكن محمد لا ذنب له في هذا...لو كنت تنتوي لنا فراقاً فلا تعلق الصغير بك أكثر...

ثم تهدج صوتها مع استطرادها بألم:

_لا تجعله يتذوق اليتم مرتين!

تنهد بحرارة وكلماتها تصيب قلبه في الصميم...

ليربت على كتفها برفق مع قوله :

_لا تخافي...لن أتخلى عن محمد أبداً...سأذهب إلى البنك غداً لأنشئ له وديعة بنكية باسمه بمبلغ مناسب لن يُمَسّ قبل بلوغه...وسأتولى تعليمه كاملاً بأرقى مستوى...

ابتسمت وهي تمنحه نظرة امتنان راجية...

فشرد ببصره وهو يردف بخفوت:

_لن أجعله يذوق مر الحاجة مثلي...لن أجمع عليه همّ اليتم والفقر معاً!!!

قالها وهو يتذكر تفاصيل متفرقة من ماضيه بعد وفاة والديه...

واضطراره وقتها للعمل في أكثر من وظيفة كي يستطيع تربية شقيقته!!!

كم من ليلة قضاها مسهداً يفكر كيف يعيش مرفوع الرأس بكرامة فلا يكون عالة على أحد...

كم من أيام قضاها متخبطاً بين أعمال بسيطة تستنزف وقته ولا تمنحه إلا القليل من المال...

كم من ثيابٍ اشتهاها وغض طرفه عنها لأنه لم يكن يملك وقتها ثمنها...

وكم من وجبة عفّ عنها ليدخر ثمنها لما هو أهم!!!

أيام تلتها أيام وهو يتحمل مسئولية وجدها ملقاةً على عاتقه فجأة...

قبل أن يمنحه القدر عوضاً كافياً -بل أكثر من كافٍ- ب"صفا روحه"!!

نعم...صفا كانت أهلاً لما غاب الأهل...

كانت أماناً يوم احتاج المال...

كانت حناناً يوم قسا الدهر...

بل كانت حياةً يوم افتقد "الحياة"!!!

قد كانت يوماً...فماذا كانت؟!!

كانت "صفا روحه" وكفى!!!

وبهذا الخاطر الأخير زفر زفرة حارقة...

ثم عاد إليها ببصره متجاهلاً نظرة امتنانها ليقول برفق:

_أعدي نفسك و الصغير للخروج اليوم كما وعدته.

وبعدها بساعات اصطحبهما معاً لمدينة الألعاب كما وعد الصغير...

لينغمس معه في شعور جديد يجربه لأول مرة....

كان يراقب ملامحه الصغيرة بشغف وانبهار وكأنه يراه لأول مرة...

طوال هذه السنوات وهو لم يشعر بالتوق إلى أطفال...

رغبته كانت لأجل "صفا" فحسب!!

وحتى عندما كان يجدّ معها في السعي إلى الأطباء لم يكن يشعر بقلق حقيقي...

لكنه كان يفعلها لأجلها فقط!!!

ربما لأن سعيه خلف طموحه ردم الكثير من الركام فوق جمر عاطفته...

فنسي فطرة "الأبوة" كما نسي "شقيقته"...بل ونسي نفسه!!

نعم...ظل يدور في حلقة مفرغة من السعي خلف -ما ظن أنه قد حُرم منه- ...

ونسي التنعم بما جادت به السماء عليه!!

والآن يجد قلبه يعود للحياة رويداً رويداً بمشاعر تنبت الزهر في أعماقه...

بدايتها كانت رؤى...والآن محمد...

محمد الذي أوقد قنديلاً قديماً بروحه ظل منطفئاً لسنوات...خاصةً الآن...

فالصغير كان يتعلق بقميصه كلما شعر بالخوف من إحدى الألعاب...

يحتضنه بعفوية مع ضحكة عالية كلما شعر بالفرحة...

يحكي له حكايات من نسج خياله الخصب وهو يسير جواره كفه الصغير في راحته...

وحتى عندما اشترى له الحلوى فوجئ بالصغير يقتسمها معه...

بل ووضعها بنفسه في فمه مع قوله بصوته البرئ:

_نصفها لك....كي تصير صديقي...فأنا ليس لي أصدقاء!

وحينها لم يتمالك عبد الله نفسه وهو يضمه إليه بقوة ليغرق وجهه الصغير بقبلاته وقد عجز عن الرد...

بينما كانت فتون تراقبهما بتأثر وقلبها ينتفض بين ضلوعها ...

لم ترَ ابنها يوماً سعيداً هكذا منذ وفاة والده...

ورغم أن هذا كان سبباً لأن تفرح وتطمئن...

لكنها على العكس كانت تشعر بالقلق أكثر...

فطريقها مع هذا الرجل لايزال مشوشاً بغيومه...

والخطوة الخاطئة لن تضرها هي فقط...بل وصغيرها أيضاً!!!

لكنها سلمت أمرها لله كعادتها وهي تحاول الاستمتاع معهما بهذا الوقت...

حتى انتهت رحلتهما بنوم الصغير على حجرها في طريق عودتهما بسيارته...

ليرمقه عبد الله بنظرة حنون طويلة مع همسه المشفق:

_من كان يرى فرط حركته منذ دقائق فقط لا يصدق استسلامه للنوم بهذه السهولة.

فابتسمت وهي تداعب شعر الصغير بأناملها مع همسها:

_هكذا هو دوماً.

عاد ببصره للطريق أمامه فترددت لحظة قبل أن تقول له بامتنان:

_جزاك الله عنا خيراً يا شيخ.

رمقها بنظرة جانبية دون أن يجرؤ على المزيد...

ترى هل سيجزيه الله عنها خيراً حقاً؟!!

وكيف وهو قد ظلمها بهذه الزيجة...تماماً كما ظلم نفسه!!!

لكن ما حيلته في نفسه ...

و"طيف صفا" يبدو كلعنة أبدية ليس له منها فكاك!!!

كيف صور له عناده يوماً أنه قد يهنأ بامرأة أخرى؟!!

كيف سول له شيطان انتقامه أن يعاقبها بهذه الطريقة؟!

ألم يكن يدرك وقتها أنه يعاقب نفسه قبلها؟!!

وهذه المسكينة التي ظلمها معه بلا داعٍ!!!

لكنه وجد نفسه مضطراً لهذا خاصةً بعد الفضيحة التي أحدثها لها ذاك الوغد بعدما كاد يعتدي عليها!!!

انقطعت أفكاره عندما وصل أخيراً إلى منزله...

ليوقف سيارته مكانه ويترجل منها ليحمل منها الصغير على كتفه حتى أوصله لفراشه بغرفته التي تخصه مع أمه...

لتلحق هي بهما وفي عينيها ألف نظرة شكر...وألف ألف نظرة رجاء!!!

لكنه لم ينتبه لهذا وهو يتجاوزها سريعاً مع همسه الخافت:

_تصبحين على خير!

راقبت انصرافه بارتباك مشوب بخجلها...

قبل أن تغلق الباب خلفه برفق...

وقلبها يخونها بأول دقة -غريبة -تعرفها له!!!

له هو؟!!معقول؟!!

احمرت وجنتاها أكثر وهي تتوجه نحو مرآتها تتأمل ملامحها بحيرة...

_هل اشتهيتِ الرجل يا فتون؟!

_وماذا في هذا أليس زوجي؟!

_أفيقي أيتها الحمقاء هو لا يزال لا يرى سوى "سيدتك" صفا!!

_لم تعد بعد "سيدتي" ...أنا الآن زوجته وهي مجرد ماضٍ!!

_يالكِ من جاحدة...تعضين اليد التي امتدت لكِ بالخير؟!

_أنا لم أخطفه منها!!!هو تقدم للزواج مني برغبته بعد ما طلقها ثلاثاً وحُرمت عليه!!!

_وتظنين نفسكِ قادرة على امتلاك قلبه بعدها؟!وكيف وهو لا يطيق حتى لمسكِ وفاءً لها!!!

وعند خاطرها الأخير تغضنت ملامحها بألم وهي تتحاشى النظر لصورتها في المرآة ...

لتعود ببصرها نحو الصغير النائم في فراشه...

قبل أن تهمس أخيراً بصوت مسموع:

_رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه...لا تطمعي فيما ليس لكِ...وعيشي لابنكِ فقط...ابنك فقط يا فتون!!

===========

وقف أمام ذاك الحاجز الخشبي بدوائره المميزة المتداخلة وهو يصوب مسدسه نحوه...

ضاقت عيناه بتركيز محاولاً إصابة هدفه كالعادة...

لكن أنامله ارتجفت على مسدسه وهذه الذكرى تراوده فجأة:

_لماذا لم تعودي تخافين "الشيطان"؟!!

_إنه سرّي الصغير في عينيك...في البداية كانتا تبرقان بقسوة شيطانية مخيفة كانت تثير نفوري...لكنني بعدها بدأت أميز خيوطاً زيتونية لامعة فيهما تدعوني للتعلق بها لعلي أفهمهما...أحياناً تبدوان كغاباتٍ كثيفة من الزيتون أتوه فيها فلا أستطيع قراءتهما جيداً...وأحياناً تشتعلان بجنون فأدرك أنك غاضب...وأحياناً تبدوان وكأن أغصان هذه الغابات تتمايل مع رقة النسيم فيصلني شعورٌ بهدوء روحك...وأحياناً تغرق هذه الغابات في بحارٍ من مرارةٍ لا أفهمها لكنني أشعر بقوتها....وفي

أحيانٍ أخري قليلة..تختفي هذه الغابات وتظهر مكانها شموسٌ زيتونية صغيرة تتألق بوهجٍ دافئ يغمرني بالسكينة عندما أحتاجها

_والآن ...كيف تبدوان؟!

ازداد انعقاد حاجبيه ورصاصته تخرج من مسدسه لتخطئ هدفه...

فزفر بقوة وهو يلقى مسدسه أرضاً بعنف!!!

لقد اعتاد دوماً تفريغ غضبه بهذه الطريقة...

رصاصاته التي تغادر مسدسه كانت تحمل معها -عادةً- شحنات توتره...

لكن يبدو أنها فقدت صلاحيتها للأسف...

أو ربما هو شعوره الآن أكثر اشتعالاً من أن يطفئه شئ!!!

هل يجرؤ على الاعتراف الآن أن أيامه فقدت مذاقها بعدها؟!!

هل يمكنه مصارحة نفسه أنها تركت بداخله فضاءً شاسعاً لن تملأه سواها؟!!

هل يستطيع الآن البوح بأنه ....يفتقدها؟!!

ماسة لم تكن فقط زوجته...

بل كانت طفلته...وصديقته...

نعم ..."طفلته" التي هام بها -قلبه-بقوة حرمانه من الذرية طوال هذه السنوات...

لتنهمر عاطفته فجأة معها كسيول جرفت في تيارها كل شئ...

و"صديقته" التي أحبها -عقله- بعمق شعوره بأنها تجيد قراءته...

تجيد فك شفرة روحه التي انغلقت أمام الجميع سواها....

لكنها هي فقط كانت تفهم...

تفهم نظراته...ابتسامته...صمته...

ضعفه الذي يشهد الله أنه لم يبدُ أمام أحد سواها...

حزنه "الشفاف "الذي غاب عن عيون العالمين إلا عينيها...!!!

عاد يتنهد بحرارة وهو يتلفت حوله بعجز وكأنه يبحث عن شيءٍ ما لا يدري كنهه...

قبل أن يغادر مكانه إلى غرفة الحديقة المجاورة ...

دارت عيناه في المكان بحزن غائر وهو يتذكر طيفها الذي طالما كان هنا...

لقد كانت هذه الغرفة ملجأها المفضل عندما كانت تشعر بالألم...

لماذا لا يشعر أنها فارقت مكانها -هناك- على الأريكة...؟!!

بل إنه لا يبالغ لو زعم أنه يشعر بدفء أنفاسها على صدره كما كانت هنا آخر مرة...

صوتها الرنان يصدح بأغنيتها في أذنه وهي تصنع طائرتها الورقية...

وابتسامتها ذات الشجن ترتسم أمام مقلتيه فلا يكاد يرى سواها...

أشاح بوجهه في انفعال ضج به قلبه ليغادر المكان بخطواتٍ متثاقلة حتى سحبته قدماه لسطح القصر...

لتحين منه التفاتةٌ إلى ذاك الجدار هناك...

توجه نحو الجدار ليجلس أمامه على الأرض مسنداً ذراعه على ركبته المرفوعة....

فتذكر يوم جلست هنا على ساقيه لتغني له لأول مرة...

له هو...هو فقط...

يومها قال لها أن الأحمق هو من يترك ماسته تلامس الأرض قبل أن يلتقطها...

فهل فعل الآن ما استنكر على نفسه الإتيان به يوماً؟!!

نعم...للأسف...

لقد سمح لها بالسقوط من يده ليزيد خدوشها من جديد...

لكن عزاءه أن كل هذا لن يطول...

نعم...غداً تعود له السيطرة على كل شئ...

غداً يحصل على الولد الذي تمناه...

ويتخلص من مهاجمه المجهول...

وحينها سيستعيد ماسته ...

وسيكون كفيلاً بمداواة جروحها كلها!!!

ولأول مرة يشعر أنه -يكذب -على نفسه...

وصوتٌ بداخله يخبره أن النهاية اقتربت كثيراً وآن ميعاد السداد!!!

فتنهد أخيراً بحرارة وهو يرفع عينيه للسماء بترقب وكأنه ينتظر حقاً أن يأتيه العقاب في هذه اللحظة...

لم يشعر يوماً بمرارة الوحدة...كما الآن...

بألم الفقد...كما الآن...

بفداحة الخسارة...كما الآن...

بل بدا له الأمر وكأن العالم كله تحول فجأة ل"قبر" كبير دفنوه فيه حياً ...

فلم يبقَ له بعد العذاب...إلا العذاب!!

انقطعت أفكاره عندما رن هاتفه فتجاهله لبعض الوقت...

قبل أن تلتقطه أنامله بتثاقل لتعاود غاباته الزيتونية اشتعالها وهو يفتح الاتصال ليهتف بحدة:

_أين أنت يا رجل؟!لقد وصل الأمر لحريق في ساحة القصر الخلفية بالأمس...وأنت لا تفعل شيئاً سوى الهراء!!!

ليصله صوت رجله "سرحان" على الجانب الآخر من الاتصال يقول بارتباك:

_لقد توصلت إليه يا سيدي...عرفته!!

هنا ازدادت عيناه توهجاً ببريق قسوتها وهو يسأله من بين أسنانه:

_مَن؟!

والجواب أتاه بسرعة فاعتدل واقفاً ليفكر لبعض الوقت...

قبل أن يقول لرجله بحزم:

_لا تفعل شيئاً الآن...اكتفِ بالمراقبة!

=====

_هل استرحت الآن؟!

هتفت بها والدته بعتاب وهي تراه يجمع بعض ملابسه في حقيبته...

فقال بجمود دون أن ينظر إليها :

_نعم...وهي أيضاً استراحت!

قالها وهو مستمر فيما يفعله دون أن ينظر إليها فهتفت باستنكار:

_هل هذا ما تحاول به إقناع نفسك لإخماد صوت ضميرك؟!!أنت...

_شيطان!!!

هتف بها بعنف مكملاً عبارتها فتراجعت مكانها خطوة وهي ترى انفعاله الذي سيطر على ملامحه قبل نبراته:

_نعم...شيطان...لا يرى سوى صورة نفسه فقط...هذا هو طبعي ولن أغيره!!!

رمقته بنظرة آسفة طويلة فأشاح بوجهه محاولاً تمالك انفعاله...

فيما قالت هي أخيراً بحسرة أم على ابنها الوحيد:

_كلنا بشر يا حسام...ليس منا ملكٌ كريم أو شيطانٌ رجيم...أنت الذي أضعت فرصتك مع زوجتك.

فزفر بقوة وهو يغلق سحاب حقيبته الصغيرة مع قوله الذي عاد إليه جموده:

_لم تعد زوجتي...هل نسيتِ أنني طلقتها بالأمس؟!!

لكنها عادت تقترب منه قائلةً بحذر:

_ردها...لن تكون أول ولا آخر رجلٍ يفعلها!!!

فضحك ساخراً قبل أن يرفع حقيبته على كتفه ليقول بنبرة متغطرسة:

_وهل عهدتِ ابنك يعود في كلمته؟!

دمعت عيناها بحزن حقيقي وهي تتمتم بأسى:

_هداك الله يا ابني!!

لم يرد عليها وهو يتناول نظارته الشمسية ليرتديها باعتناء مع قوله الذي رافق قبلة على جبينها:

_سأسافر لرحلة قصيرة مع بعض أصدقائي...اعتني بنفسك.

رمقته بنظرة عاتبة أخيرة تجاهلها رغم قسوة مردودها على قلبه...

ليغادرها بخطوات سريعة نحو سيارته التي استقلها بسرعة ملقياً حقيبته خلفه لينطلق بها بسرعة جنونية...

أدار مشغل الأغاني على لحن غربي صاخب محاولاً التركيز في عالم آخر ...

لكن كلمات دعاء التي قالتها له بالأمس لازالت تدوي في أذنيه...

_هل تذكر ليلة عقد قراننا عندما أتيت لي بالدفتر بنفسك لتثبت لي فقط أنك صاحب القرار؟!أنا اليوم سعيدة لأنني صرت صاحبة القرار...نعم...لا تتوهم أنك تخليتَ عني بنذالة...لا...لو أردتُ أنا لاستغللت شفقتك...أو ضغوط والدتك...بل وربما كنت هددتك بفضيحة وسط عالمك الذي تتفاخر به...لكنني أنا من لا أريد...اختياري لي هذه المرة يا حسام...ولا تعلم أنت كم يساوي هذا عندي!!

خبط على المقود بأنامله في حركة رتيبة وهو شارد في الطريق أمامه...

ترى هل اختارت دعاء حقاً ؟!!

أم أنه هو من تشبث بقناع "الشيطان" حتى النهاية؟!!

هل كان محقاً عندما تركها لحياة جديدة تبدأ فيها بداية نقية تستحقها؟!

أم أنه اتخذها مجرد ذريعة ليرضي أنانيته بالتخلص منها بعد ما حدث؟!

هل يستحق لقب "رجل" بعد تخليه عنها في هذه الظروف؟!!

أم أن دماء رجولته أريقت على قارعة طريق جحوده؟!!

أفاق من شروده فجأة عندما كاد يصطدم بسيارة آتية من الاتجاه المقابل ...

ليتفاداها بأعجوبة قبل أن يتوقف على جانب الطريق محاولاً التقاط أنفاسه...!!!!!

صادمةٌ هي الحياة يا حسام...

قد تنتهي في لحظة كما حدث الآن...

فلا تُضيع وقتك في تفنيد ما كان...

أنت اخترت...ولا تزعم أنك أخطأت الاختيار...!

أكثر الناس حماقة من يقف على حافة بئر الندم...

فلا هو عاش بقلب قديس ولا هو قد ثمل بخمر خطيئةٍ أسكرت ضميره فغيبته!!!

وعند خاطره الأخير عاد يعدل شكله في مرآة سيارته ليتناول هاتفه متلاعباً بشاشته قبل أن يفتح الاتصال ليقول هو بنبرة عابثة:

_أنا قادم في خلال دقائق...أريد ضبط مزاجي بالكامل!

والجواب كان ضحكة مرحة من صديقه مع سؤال ماكر:

_بالكامل؟!!

ليطلق هو ضحكة ساخرة فجة ناسبت مغزى قوله الوقح:

_ابذل قصارى جهدك...أنا الآن رجل عازب!!

قالها ثم أغلق الاتصال ليعاود السير في طريقه...

طريقه الذي اختاره!!

==========

_دعاء!!

هتفت بها ماسة بحرارة وهي تضمها إليها بقوة لتردف بتأثر:

_حبيبتي...كم افتقدتك...كم أنا سعيدة بمجيئك هنا.

ضمتها دعاء بقوة أكبر وهي تقول بعاطفة مماثلة:

_لم أحتمل فراقك أكثر...كنت أحتاجك!

رفعت ماسة إليها عينيها لتتأمل وجهها بتأثر لم تستطع إخفاءه...

وتلك "النظارة السوداء" تخفي نصف ملامحه...

بينما تلفتت دعاء حولها لتهمس بدهشة:

_لم أتوقع أن تكوني هنا...عندما هاتفتك ظننتكِ ستكونين في بيت أخيكِ.

تنهدت ماسة بحرارة ثم جذبتها لتجلسها جوارها قائلةً وكأنها تنفي عن نفسها تهمة:

_لم أتصور أنني سأرضخ لرغبة جاسم الصاوي بالإقامة في بيته...لكنني اضطررت لهذا.

رمقتها دعاء بنظرة متسائلة وهي تلاحظ ذكرها لأبيها باسمه المجرد بما يوحي بسوء العلاقة بينهما...

فيما استطردت ماسة بشرود بائس:

_حالته النفسية ساءت كثيراً بعد عودته من لندن وتأكده من تشخيص مرضه النادر...في البداية طلب حضوري هنا ليبدأ محاميه في تدبير أمر إثبات نسبي وتغيير اسمي على الأوراق الرسمية...لكنه طلب مني البقاء بعدها معه ولم أستطع الرفض مع حالته الصحية الصعبة.

هزت دعاء رأسها لتقول بأسف:

_هل استيقظ ضميره إذن؟!

فتأوهت ماسة بصوت مسموع قبل أن تهمس بشرود:

_نظراته تفضح أسفاً وندماً ورجاءً حاراً لي أن أقترب الخطوة التي لا يجرؤ هو على الإتيان بها...

ثم التفتت إليها من شرودها لتردف بمرارة:

_هل تعلمين أنه لم يحتضنني مرة واحدة منذ التقينا؟!

عقدت دعاء حاجبيها بدهشة ممتزجة بالضيق فيما هزت ماسة رأسها لتستطرد بنفس المرارة:

_يداه ترتجفان في كل مرة يصافحني فيها...أكاد أستشعر رغبته الجارفة في أن يضمني لصدره كأي أب...عيناه تبرقان في حضوري بريقاً حقيقياً لا أراه إلا وهو معي...لكن كل هذا يعاود الاختفاء خلف سدود كتمانه...ومطامعه التي لم يلجمها مرض ولم يردعها مُصاب...

ثم ابتسمت ساخرة لتهمس باستهجان:

_حتى الخدم هنا لا يعرفون أني ابنته ...يظنونني مجرد ضيفة !

_غريب!

همست بها دعاء بإشفاق غلب تعجبها...

فابتسمت ماسة وهي تعود لشرودها مع همسها:

_لم أعد أستغرب شيئاً...خبرتي مع عاصي جعلتني أدرك كيف يسيطر شيطان النفس على القلب بقبضة من حديد فلا يسمح له إلا بالنبض الفارغ...بينما تبقى المشاعر ترفاً إضافياً لا يستحقه عبد شيطانه!!!

أومأت دعاء برأسها في أسف وهي تتذكر- خبرة- مشابهة...

أثارتها ماسة بسؤالها التالي:

_ماذا ستفعلين بعد طلاقك من حسام؟!

_سأعيش!!

هتفت بها بسرعة واشية بمدى انفعالها قبل أن تضحك ببساطة ناسبت قولها المرح كعادتها :

_امرأة عشرينية جميلة...ملفوفة القوام...تجيد الطبخ وأعمال المنزل....لديها من المال ما يكفيها...وشهادة

جامعية محترمة...وفوق كل هذا حرة تماماً بلا قيود...!!!

رمقتها ماسة بنظرة مشفقة طويلة قبل أن تقول بحذر:

_دعاء...أنتِ لا تحتاجين ارتداء قناع مرحكِ هذا أمامي...ما فائدة صداقتنا لو أخفت كلٌ منا آلامها عن الأخرى؟!

فابتسمت دعاء بحنان وهي تربت على كتفها لتقول بصدق:

_لم يعد "قناعاً"...بل "قناعة"!!

ارتفع حاجبا ماسة بإعجاب حقيقي فيما سألتها دعاء بابتسامة هادئة:

_تعلمين أنني أصر على ارتداء نظارتي هذه حتى وأنا وحدي؟!!

هزت ماسة رأسها بتساؤل...فيما كانت تستطرد هي بنفس النبرة الراضية:

_كي أذكر نفسي فقط بالحقيقة التي أريد تصديقها...لو فكرت بعقليتي القديمة فسأقول أن الدمية المعيبة اكتسبت

المزيد من العيوب...زيجة فاشلة...يتمٌ ووحدة...و عيني التي فقدتها...

ثم صمتت لحظة لتعاود همسها الواثق:

_لكنني بعقليتي الجديدة لم أعد أراني دمية معيبة...بل امرأة كاملة لا ينقصها شئ...أنا هدمت صنمي بيدي يوم رضيت بقدري...وليتني فعلتها منذ زمن.

اتسعت ابتسامة ماسة الفخورة وهي تضمها إليها قبل أن تهمس بأسف:

_لم أتصور أن يطلقك حسام بهذه البساطة!!!فهد أيضاً عاتبه كثيراً في هذا لكنه أخبره أنها رغبتك أنت.

تنهدت دعاء بحرارة ثم قالت برضا حقيقي لا تدعيه:

_نعم...رغبتي...رغم أن والدته توسلتني كثيراً كي أعود في قراري وكانت لي نعم الأم طوال الأيام السابقة...لكنني أصررت على قراري...حسام كان نقطة هامة في صفحة حياتي الماضية...مشاعره الوليدة نحوي بإعجاب حقيقي كانت سبباً في استعادتي لثقتي بنفسي كأنثى تستحق الحب...ربما لولا هذا لظللت طوال عمري سجينة إحساسي بالنقص...

تفحصتها ماسة ببصرها وهي تدرك بإحساسها أنها ترى الآن "دعاء" جديدة...

أكثر ثقة...أكثر قوة...ربما لأنها أكثر "رضا"!!!

بينما أردفت دعاء بنبرة أكثر قوة :

_لكن استمراره معي كان سيخنق ثقتي هذه...أنا تحررت من قيود الماضي وأولها شعوري بالانتقاص ولم أكن لأسمح لأحد أن يعيدني لذاك السجن.

ثم ابتسمت وهي تقول بمرح:

_الناس في مدينتنا يصفونني بالمجنونة لأنني تخليت عن زوج كحسام...وبعضهم لا يصدق أنني أنا من طلبت الطلاق...ولسان حالهم "رضي بالهم ...والهم لم يرضَ به"!!!

ابتسمت ماسة بحنان وهي تضم رأسها إليها لتقبله بعمق عاطفتها...

قبل أن تحيط وجنتيها بكفيها هاتفةً بحمائية صديقة مخلصة:

_هَمّ؟!!أنتِ همّ؟!!أنتِ قطعة سكر!!!

فضحكت دعاء ضحكتها الساحرة وهي تلوح بكفيها مشيرةً لامتلاء جسدها...مع غمزتها الماكرة التي ناسبت دعابتها:

_قطعة واحدة بهذا الحجم!!!!عيبٌ عليكِ!!أنا الشِوال كله!!

ضحكت ماسة ضحكة طويلة وهي تعاود ضمها إليها بقوة لتمتزج ضحكاتهما للحظات... قبل أن تسألها أخيراً باهتمام:

_هل فكرتِ ماذا ستفعلين بمستقبلك؟!

أومأت دعاء برأسها مع إجابتها التي اتشحت بالأمل:

_لقد تركت عملي في مدينتنا وجئت للبحث عن عمل هنا...كنت أريد بداية جديدة في مدينة لا يعرفني فيها أحد...كما أن فرصتي لاستكمال علاج عيني ستكون هنا في العاصمة أفضل.

ابتسمت ماسة بمؤازرة وهي تقول بحماس:

_لا تقلقي...أنا علمت أن العدسة اللاصقة في حالتك تجعل الأمر يبدو طبيعياً تماماً...لكنها فقط تحتاج لمزيد من الوقت كي نتمكن من استخدامها.

فابتسمت دعاء بدورها وهي تعدل وضع نظارتها السوداء على وجهها مع قولها بسكينة راضية:

_الحمد لله...لطفه سبق قضاءه.

هنا احتضنت ماسة كفها بقوة بين راحتيها لتقول بحزم حنون:

_دعاء...اسمعيني جيداً...منذ أول لقاء لنا في القطار وقد شاءت الظروف أن تتحد أقدارنا...لن أستطيع أن أتركك وحدكِ هنا...ما رأيك لو تسافرين معي؟!

انعقد حاجبا دعاء بصدمة فيما أردفت ماسة بحماس لتقنعها:

_ستكون فرصتك في العلاج أكبر...كما أننا سنكون معاً يداً واحدة كما اعتدنا.

ابتسمت دعاء بارتباك وقد راقتها الفكرة لكنها تمتمت بحيرة:

_لكن...ماذا سأعمل هناك؟!وأين سأقيم؟!!وماذا...

لكن ماسة قطعت عبارتها بقولها الحاسم:

_سنتدبر الأمر معاً ...فقط قولي نعم...حتى نتدبر أمر أوراقك.

صمتت دعاء تفكر لبضع دقائق...

قبل أن تسأل ماسة بتردد لا يخلو من تعاطف:

_هل قرار سفرك هذا نهائي ؟!هل يعني هذا أن حكايتك مع عاصي...

قطعت عبارتها وهي مشفقة من إكمالها ...

لكن ماسة أومأت برأسها دون رد سوى شحوب ملامحها بحزن كسير...

فربتت دعاء على كتفها لتسألها باهتمام:

_ألم يحاول الاتصال بكِ طوال هذه الفترة؟!

غامت عينا ماسة بشرود وهي تهمس بنبرة بلا حياة:

_غيرت رقم هاتفي ثلاث مرات...وفي كل مرة ينجح في العثور على رقمي الجديد...يتصل بي كل ليلة وكأنه يتعمد إشعاري أنه لازال يحكم قبضته حولي...ورغم أنني لا أرد على اتصاله لكنه يفعلها يومياً في نفس الموعد...

ثم خفت صوتها أكثر ليصل حد التمتمة مع جملتها:

_نفس الموعد الذي اعتاد النوم فيه.

دمعت عينا دعاء بتأثر ثم ازدردت ريقها بتوتر لتقول باندفاع:

_يقولون أن زوجته الجديدة...

_لا أريد أن أعرف عنها شيئاً!

هتفت بها ماسة مقاطعة إياها وهي تهب واقفة بحركة عصبية...

قبل أن تزفر بقوة مع قولها بنبرة اعتذار:

_لا أريد الحديث بهذا الشأن يا دعاء.

أومأت دعاء برأسها في تفهم وهي تقف بدورها...فقبلت ماسة وجنتها لتبتسم مع قولها :

_تعالي معي إذن كي أريكِ غرفتك...سنبقى معاً حتى نسافر .

هزت دعاء رأسها بحرج ولازالت غارقة بترددها...لتصطحبها ماسة نحو إحدى الغرف قبل أن تتركها لتستريح...

وما إن أغلقت باب غرفة دعاء حتى تنهدت بحرارة وقدماها تسحبانها نحو غرفة جاسم...

فتحت باب الغرفة ببطء لتطالع وجهه النائم بنظرات مضطربة...

وجهه الغارق بشحوبه...وأنفاسه المتلاحقة مع انفراجة شفتيه...

وذاك الأنين الصامت بألمه الذي لم ينقطع حتى في نومه...

كل هذا جعل عينيها تدمعان بتأثر وهي تسمح لنفسها بنظرات عميقة نحوه بمشاعر لا تستطيع إبداءها في صحوه...

لتتشبث أناملها بمقبض الباب للحظات ورغبة بداخلها تتزايد بجنون...

أن تتوجه نحوه لتلقي رأسها على صدره ...حضنٌ واحد!!!

أن تقبل كفه كما تفعل الابنة البارة مع أبيها...قبلة واحدة!!!

أن تخبره أنها سامحته...كلمة واحدة!!!

لكن كل هذا كان عسيراً عليها بحق!!!

فاكتفت بدعاء صامت استودعت فيه حاجتها لرب العالمين كما علمتها رحمة...

قبل أن تعاود غلق الباب ببطء كما فتحته لتعود إلى غرفتها...

وضعت رأسها على وسادتها تتوسل النوم أن يأتيها باكراً هذه المرة ليرحمها من "حرب" كل ليلة ...

لكن هيهات!!!

كل ما فيها كان ينتظر اتصاله ...

عيناها معلقتان بشاشة هاتفها تنتظران تراقصها المضئ برقم هاتفه...

أذناها مرهفتان تنتظران سماع رنته المميزة بأغنية غنتها يوماً على صدره...

قلبها يتواثب بجنون وكأن دقاته صارت مرهونة بهذا الاتصال الذي يمنحه "إكسير" الحياة...

أنفاسها مختنقة وكأنها لن تصالح الهواء إلا بنشوة إحساسها بأنه معها رغم كل هذا البعد!!!!

حمقاء؟!!!

ربما ...ومَن أقرب للحمق من العاشقين؟!!

لكن عزاءها أن كرامتها لم تخدش معه ...

فليعربد القلب بحانات عشقه كما شاء...مادامت روحها في محراب كبريائها تتعبد!!!!

لهذا أخذت نفساً عميقاً عندما اهتز الهاتف في يدها بنغمته الأثيرة والتي لا يعقبها رد منها كما اعتادت...

لتضمه لصدرها بقوة مع همسها لنفسها بألم:

_شكراً لأنك على الأقل تطمئنني أنك بخير.

لم تكد تنهي همسها حتى انقطعت رنة الهاتف لتصلها رنة وصول رسالة...

خفق قلبها بجنون وأناملها تتواثب بسرعة على شاشة هاتفها لتقرأ رسالته:

_مرآتي لا تزال متصدعة بخدوشها...كما كسرتِها بيدكِ فلن أصلحها حتى تعودي.

دمعت عيناها بوجع حقيقي وهي تدرك ما خلف عبارته...

تقرأ بين حروف رسالته القليلة آلاف السطور من الاشتياق...

اشتياق يوازي اشتياقها وربما أكثر!!!

لكن...هل قال "تعود"؟!!

تعود؟!!

والكلمة نسجت بخيالها طيفاً وردياً للقصر بمشهده المهيب...

غرفة حديقته التي كانت خاصة بهما هو وهي فقط...

غرفتها القديمة التي طالما وقفت في نافذتها تنتظر شروق الشمس...

سطحه الذي استقرت عليه طائرتها الورقية تنتظر حلماً راهنت على تحقيقه ...

وأخيراً غرفة نومه هو التي لم تدخلها امرأة سواها...

بل...ربما الآن قد حدث!!!

وهنا تحولت "وردية" طيفها ل"رمادية" خانقة...

لتعتصر هاتفها في يدها بقوة قبل أن تخفيه قسراً عن عينيها تحت وسادتها...

لتغمض عينيها أخيراً مع همسها بقوة لم تُخفِ حسرتها:

_لن أعود يا "عاصي القلب"...لن أعود!!

=========

وفي غرفتها التي اصطحبتها إليها ماسة وقفت دعاء أمام مرآتها للحظات...

اقتربت بتمهل حتى كادت تلاصقها...

ثم امتدت أناملها المرتجفة تخلع عنها نظارتها ببطء شديد كعادتها في كل مرة تفعلها...

ضغطت شفتيها بقوة قبل أن تحمد الله بصوت مسموع...

على الأقل ...هي لم تعد تشعر الآن بالغرابة أو النفور...

لن تنسى أبداً أول مرة رأت فيها عينها -المصابة- بعد الحادث...

لقد كادت تكسر مرآتها يومها بصوت صراخها الذي لازال يدوي في أذنيها...

شعورٌ قاتل أن يفقد الإنسان جزءاً من جسده مدركاً أنه لن يعود...

فما بالنا بعينه؟!!

لقد حدثها شيطانها يومها أنها لا تستحق كل ما حدث لها...

وأن الله لا يحبها كي تصاب بكل هذا القدر من المصائب المتتابعة...

لكن ذاك الحلم الذي حلمت به ليلة مصابها عاودها...

الجنة...والجبل الضخم...بكلمة "الله أكبر" على قمته!!!

لتعود السكينة تغشى روحها رويداً رويداً لتدرك معنى ما قرأته يوماً أن الله يبتلي المرء على قدر إيمانه...

فمن رضي فله الرضا...ومن سخط فله السخط!!!

وهي رضت...وترضى...وسترضى...

لن تفشل أبداً في هذا الاختبار!!!

وبهذا اليقين عادت ابتسامتها "المميزة" تزين ثغرها ...

قبل أن تستخرج ثيابها من حقيبتها لتبدل ملابسها بأخرى مريحة...

ثم توقفت أناملها على سلسلة عنقها التي حوت يوماً ما "تميمة"!!!

نعم...تميمة صنعها أحد السحرة لوالدتها يوم ظنت مرضها درباً من المس الشيطاني...

وحتى بعدما تيقنت من كونه مرضاً عضوياً كانت تأبى أن تجعلها تخلعها!!!

ماسة قالت لها يوماً أنها محرمة...

لكنها لم تخلعها لهذا السبب...

بل لأنها كانت بعينيها رمزاً لتسلط مرضها على تفكيرها!!!

تجسيداً بارزاً لعقدة "الدمية المعيبة" التي طالما خنقت عنفوان أنوثتها...

لهذا استبدلت "التميمة" بصورة قديمة لها مع والديها...وضعتها في إطار مذهب كي تكون دوماً أقرب ما تكون إلى قلبها...

تلك التي رفعتها الآن أمام عينيها لتهمس بابتسامة شاحبة:

_ليتكما أدركتما كم كنت أحتاج لدعمكما...أرأيتما كم صرت الآن قوية وحدي؟!لم يكن الزواج حجر حظي كما ظننتم ...بل كان الرجل الذي قبلتموه لعنة على رأسي.

ثم أخذت نفساً عميقاً لتردف بنبرة مطمئنّة:

_لا أدري من أين تأتيني هذه الثقة؟!لكنني أشعر أنني الآن أفضل...وغداً سأكون أفضل وأفضل...حلمي تجاوز الثوب الأبيض والفارس المتأنق...إلى رغبة حقيقية في الشعور بكينونتي...بحريتي...بقيمتي التي لن تنتظر رجلاً ليقدرها....وظني أنني لن أُحرَم الحب أيضاً في نهاية الطريق!

وبهمستها الأخيرة استلقت على فراشها بارتياح...

وهي ترسم لنفسها عشرات الأحلام...ومئات الخطط...

ورغم غرابة المكان الذي تنام فيه لأول مرة...

لكن النوم اقتنص وعيها أخيراً لتغرق بعده في حلمها الأثير الذي راودها من جديد وكأنه بشارة السماء لصبرها...

جنة...وجبل...وكلمة "الله أكبر"..

========

دخلت عليه لتجده جالساً في مجلسه المعتاد بشرفة قصره الواسعة...

اقتربت منه ببطء وهي تنظر إليه بثبات لا يعكس شيئاً من شعورها الآن ...

هل تغيرت ملامحه أم أنها تتوهم؟!!

غابات الزيتون في عينيه صارت أكثر غموضاً وتشابكاً...

لكنها عادت تختفي خلف شموس دافئة تنبض باشتياق هي أكثر من تشعر به...

ربما لأنها تشاركه مثله!!!

الشيب غزا فوديه أكثر ليبدو أكبر سناً أو ربما أكبر هماً...

حاجباه الغليظان ينعقدان انعقادة خفيفة كعادته عندما يكتم انفعاله...

وعضلة فكه متشنجة بصورة لا تلحظها إلا عين خبيرة به -مثلها-

شفتاه مطبقتان بقوة بتلك الطريقة التي تبرز خطوط فكه الجانبية...

لحيته نمت بإهمال لم يقلل وسامته في عينين لازالتا تريانه" أوسم الرجال"...بل "كل الرجال"!!!

ظل الحديث يدور بين عينيهما طويلا...

حتي قطعته هي لتقول بجمود:

_أحتاج لموافقتك علي سفري...يقولون ان موافقة الزوج ضرورية لإكمال أوراقي.

لم تتغير ملامحه الثلجية ...

لكنه قام من مكانه ليقترب منها أكثر حتي وقف قبالتها تماماً ليقول ببرود لم يخدعها:

_ومن قال أنني سأسمح ل"زوجتي" بالسفر؟!!

ضغط علي كلمة"" زوجتي"" في إشارة واضحة لكنها تجاهلتها وهي ترفع رأسها لتقول بكبرياء:

_يبدو أنك نسيت وضعي الجديد...ماسة اللقيطة التي كنت تستقوي عليها بجبروتك تختلف بالتأكيد عن ماسة ابنة جاسم الصاوي أكبر رجل أعمال في مصر.

ابتسم بسخرية وهو يلاحظ ارتجافة جسدها المنفعل والمناقضة تماماً لثباتها المزعوم...

قبل أن يقول ببروده المعهود:

_ماسة اللقيطة هي ماسة الصاوي...في الحالتين ...هي زوجتي.

فأشاحت بوجهها عن نظراته الثاقبة وهي تقول بضيق:

_لم يعد لك نفس السلطان عليّ.

ورغم أن كلماتها أصابت أعظم مخاوفه...لكنه دارى كل هذا ببراعة عندما ارتفع حاجباه في تسلية ليبتسم ساخراً مع قوله:

_لو كنت أريد انتزاعك من سريرك في غرفة نومك بقصر والدك لفعلت...وأنتِ تعلمين أنني أكثر من قادر علي ذلك...

ثم اقترب بوجهه من وجهها ليهمس بحزم:

_لكنني أردتك أن تعودي وحدك!

أثارتها عبارته أكثر وقد أحنقها أن يفهم الأمر هكذا...فهتفت بسخط:

_أنا جئت من أجل موافقتك علي سفري فحسب.

اتسعت ابتسامته الساخرة وهو لا يزال يطوق نظراتها بعينيه هامساً:

_كنتِ تستطيعين فعل ذلك دون المجئ بنفسك إلي هنا...بل ربما كان بإمكان والدك أن يدعوني لأجئ بنفسي لمنزلكم.

ازدردت ريقها ببطءوهي تشعر بحصار نظراته المتفحصة التي تكشف خبايا روحها بسهولة كعادتها..

نعم ...ببساطة كان يمكنها فعل ذلك...لكنها فضلت أن تأتيه بنفسها؟!!

لماذا؟!!

ربما لأنها لم تشأ إقحام أحد في علاقتهما ...

وربما لأنها تعودت مواجهة أزماتها لا الهرب منها...

وربما لأنها أرادت رؤيته هنا بعينيها مع زوجته بوضعهما الجديد لعل قلبها -الأحمق- يدرك أنها حقاً "النهاية"!!!

لكنه قطع عليها أفكارها عندما أمسك ساعديها ليردف ببطءٍ وكأنه يقرأ دواخلها ككتاب مفتوح:

_لكنكِ أردتِ المجئ هنا بنفسك...لأنك افتقدت هذا المكان....افتقدتِني.

ثم اقترب أكثر ليهمس في أذنها :

_افتقدتِ الحديث معي عن أسرارك التي لم تبوحي بها لأحد غيري...افتقدتِ ضمتي لكِ فتسيل دموعك علي صدري معلنة خضوعك لوعدي بالأمان...افتقدتِ أناملي تربت علي شعرك في كل ليلة ترين فيها كوابيسك المزعجة...وافتقدتِ قبلاتي التي طالما كانت تسرق الكلام من علي شفتيك لتلقيه بقلبي.

اتسعت عيناها وقلبها يدق بعنف وهي تنظر إليه كمن ضبط متلبسا بجرم!!!

وهل هناك جرم أكبر من ان تظل تعشق رجلا كهذا؟!!!

وبعدما فعله؟!!

بينما نظر هو لعينيها اللتين فضحتا شعورها كله ليذوب بروده كله في لحظة...

ثم رفع ذقنها إليه وهو يهمس أخيراً بضعف غريب علي قوته المعهودة:

_أم تراني أنا الذي افتقدت كل هذا؟!

قالها وشفتاه تقتربان بتمهل مهلك من شفتيها باشتياق لم يعرفه يوماً إلا لها...هي فقط!!

نعم...وحدها من أشعلت بصدره حرائق عاطفة لا تليق بالطريق الذي سار و-سيسير- فيه...

لكنها ابتعدت بجسدها عنه فجأة لتهتف بصلابة:

_افتقدْ أنت أو لا تفتقد...لم يعد كل هذا يعنيني.

ثم أخذت نفساً عميقاً تتمالك به نبضاتها الثائرة...

قبل أن تعطيه ظهرها لتهرب بعينيها من عينيه المشتعلتين مردفةً بحزم:

_عاصي...لأجل كل ما كان بيننا... لأجل كل ما تزعم الآن أنك تفتقده...امنحني حريتي.

لم يصلها جوابٌ على عبارتها سوى صمت طويل ...

قبل أن تشعر بقبضتيه تطوقان كتفيها مع قوله الصارم:

_لا!

استدارت نحوه بحدة وهي تحاول إزاحة كفيه عنها لكنه تشبث بها أكثر مع استطراده العاصف:

_لن أجبركِ على البقاء معي...لكنني لن أسمح لكِ بالخروج عن دائرتي...سأمنحكِ الحرية بذاك القدر الذي يكفي لعدم اختناقك لكن لا تطمحي في ما هو أكثر.

ثم ضم قبضته أمام وجهها هامساً من بين أسنانه:

_أنتِ لي...قلبكِ لي...جسدكِ لي...روحكِ لي...صرخاتكِ وأغنياتكِ لي...كل ذرة فيكِ لي...لي أنا!!

احمر وجهها بانفعال مع تجمد الدموع في عينيها وهي تهتف بحدة:

_لازلتَ تنصر شيطان طمعكِ...تريد امتلاك كل شئ...المال والسلطان والبنون والحب...

قاطع عبارتها بضمة عنيفة لجسدها ألصقتها به وكأنه يثبت لها صدق عبارتها...

كان كفاه ينغرسان في خصرها بقوة توازي" غضبه "الذي يحرقه...

و"اشتياقه" الذي يعصف به...

و"خزيه" الذي لا يريد الاعتراف به!!!

و-كعادتها- انعكس لها كل هذا في مراياه الزيتونية....

لكنها رفعت عينيها إليه بسهامها الفضية التي لم تخطئ يوماً طريقها لقلبه مع همسها الراجي رغم قوته :

_لا تفعلها بي يا عاصي...أبقِ على تلك الشعرة الرفيعة التي تمنعني من كراهيتك وامنحني ما أريد.

انعقد حاجباه بشدة وهو يعتصرها بين قبضتيه أكثر ...

وقد بدت كلمتها وكأنها صفعة على وجهه مع لهجة مصدومة تمتم بها :

_كراهيتي؟!!

ثم هز رأسه وكأنه لا يصدق كلمتها ليقترب بوجهه منها أكثر محتكراً نظراتها بسؤاله الذي ارتعشت نبرته رغماً عنه:

_أنتِ...قد تكرهينني أنا يوماً؟!!!

ازدادت ارتجافتها بين يديه وهي تتعذب به...وله!!!

خاصة عندما أردف هو بنفس النبرة:

_لو كرهني العالم كله...ماسة لن تفعل!!

ثم علت نبرته أكثر وكأنه يطلب منها الوعد ليصدقه:

_لن تكرهيني!

وحينها كانت تحتاج من القوة الكثير لتهزم نبض قلبها الثائر بعشقه فتهتف بصلابتها المعهودة:

_سأحبك بالقدر الذي يعصمني من زلل حقد أو انتقام...وأكرهك بالقدر الذي يمنعني الرجوع إليك!

أغمض عينيه بقوة مع انعقادة حاجبيه أكثر وكأنه يقاوم إعصاراً عنيفاً بداخله ...

قبل أن يسند جبينه أخيراً على جبينها وكأنه هنا- فقط - يجد راحته ...

ليهمس بنبرة دفاع غريبة على طبيعته المتعجرفة:

_لا أراني خنتكِ بهذه الزيجة...لم تكن أكثر من مجرد وسيلة للحصول على طفل...صفقة سأربحها كغيرها!!!

ثم ابتعد بوجهه قليلاً ليتعلق بنظراتها ينشدها غفراناً هو أحوج ما يكون إليه الآن...

لكن مراياها الفضية لم تمنحه ما اشتهاه...فزفر بقوة مع همسه المشتعل بانفعاله :

_لم أدخلها غرفتي...لم تشاركني فراشاً كان لنا يوماً...هل تصدقين لو أخبرتكِ أنني كثيراً لا أذكر ملامحها ؟!!

_كفى!

هتفت بها في تنمر وهي تضربه بقبضتيها على صدره لتردف بانفعال:

_هل تظن أن اعترافك هذا يرضيني؟!!هل تظنني أقبل مبرراً لأن تمس امرأة غيري لمجرد أنه لم يكن على فراشي؟!!هل تعيّرني بوفائك المزعوم لي مقارنةً ببقية نسائك؟!!في البداية حورية ثم أنا ثم تلك البائسة ولنترك القوس مفتوحاً حتى يقرر السيد عاصي إغلاقه!

ثم هزت رأسها وقد عجزت عن منع دموعها من الانهمار مع اختناق نبراتها:

_قد أسامحك يوماً على رغبتك في ولد لم أستطع منحه لك...لكنني لن أسامح نفسي لو رضيت أن أكون مجرد اسم في قائمة نسائك.

اعتصرت كلماتها قلبه بألم يفوق ألمها بكثير لكنه كان عاجزاً عن منحها ما يواسيها به...

نعم...لأول مرة معها هي -بالذات- يجد كفه خاليةً لا تملك العطاء...

لتنفلت حروف اسمها من شفتيه مشبعةً بإحساسه في همسة غادرة ...

وأنامله تنغرس في خصرها بقوة آلمتها...

لكنها دفعته بقوة لتبتعد عنه مردفةً بنبرة قاسية:

_يمكنني أن أرفع قضية خلع لن يعجز جاسم الصاوي عن جعلها رابحة...ويمكنني أن أجعله يجبرك على تطليقي بأكثر طرقه قذارة...لكنني لن أفعلها...تدري لماذا؟!!

تسمر مكانه مصدوماً للحظة...

قبل أن يغلب غضبه ذهوله فاشتعلت عيناه ببريق قسوة خاطف وهو يتقدم نحوها خطوة ...

ثم وقف مكانه فجأة وقد بدا أنه يبذل مجهوداً رهيباً للسيطرة على بركان انفعاله الصامت...

فيما تجاهلت هي كل هذا عمداً لتلوح بسبابتها في وجهه مجيبةً على سؤالها بنفسها:

_لأنني أريد أن يبقى أمرنا بيننا فقط...أن تفقدني بملء إرادتك...دون إجبار إلا مني أنا....أن تكتوي بنيران خسارتي وأنت تعلم أنك لن تعوضها...لا أدري إن كان قلبك قد عرف حبي يوماً لكن ما أثق به أنك ستحترق يوم تفلتني من قبضتك ...وأقسم لك أنني سأجعلك تفعلها!

ثم قست نبرتها أكثر لتردف ببطء متعمد:

_أنت جعلتني أتزوجك قسراً...وأنا سأجعلك تطلقني قسراً...هكذا نكون متعادلين.

اتسعت عيناه بذهول وهو لا يكاد يصدق قسوة لهجتها التي احتلت كلماتها القاتلة...

من هذه؟!!

هل هذه ماسة ؟!!

ماسته النقية التي لم تلوثها بعد شوائب حقد أو كراهية؟!

ملاكه البرئ الذي لم يعرف يوماً مذاق القسوة؟!!

نعم....للأسف ...

هي ماسة...

ماسة صنيعة يد "الشيطان" الذي كسرها فجرحته شظاياها!!!

لهذا زفر بحرارة وهو يرفع وجهه للأعلى للحظات ...

قبل أن يعاود النظر إليها بملامح باردة هذه المرة ناقضت اشتعال عبارته:

_روحكِ صارت معلقةً بي في جحيم واحد...لو تحررت روحي من سعيرها فأعدكِ أن أمنحكِ خلاصكِ.

التقت عيناهما بعدها في لقاء طويل....

لتدرك هي -كما فعل هو- أن شيئاً ما بينهما قد تغير...

أنها صارت تملك من القوة ما يؤهلها لتكون نداً له في هذه العلاقة...

لا...ليس الأمر مجرد أثر لنفوذ والدها...

لكنه- أثرها -هي في نفسه...!!!!

لكن تراهما كان أكثر فتكاً :

أثر -غيابها -الذي بعثر ذرات روحه كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف...؟!!

أم أثر -قربها- الذي أدمنته أنفاسه كما الهواء؟!!

أثر -نقائها- الذي طالما اغتسل بأمواج فضته في حدقتيها !!؟

أم أثر -قسوتها- حديثة العهد حادة الأظافر؟!!

لهذا وجد نفسه يتناول أناملها ليرفعها ببطء نحو صدره ثم يضغطها بقوة مع همسه المشبع برائحة الخسارة:

_لو فعلتُها يوماً فاعلمي أن آخر دقات قلبي لحقتها...لن أفرط فيكِ إلا وأنا أثق ألا حياة بعدكِ .

ورغم أنها كانت أكثر عبارة عاطفية سمعتها منه ...

لكن عناد مقلتيها طغا على أي شعور آخر...

ذاك العناد الذي بدأ فتياً كصقر جارح في سماواتها الفضية حتى امتزج بعتبها رويداً رويداً ...

لتتحول صقور نظراتها الحادة لحمائم رقيقة من عاطفة متشحة بلومها...

فارتجفت أناملها على صدره وهي تسبل جفنيها تعباً...

وأي تعب!!!!

عندما عاود هو همسه جوار أذنها بصدق غارق في بساطته بعيد تماماً عما اعتادته منه....وكأنه قرر فجأة خلع غلالة غموضه وكتمانه:

_عندما أضع كفك على صدري هكذا...أشعر أنني لست وحدي...أنتِ فقط من منحتني هذا الشعور...بعد كل هذا العمر ...ورغم من أحاطني من بشر...لم يعبر جدران وحدتي إلا أنتِ...كل الناس حولي ...أمامي...خلفي...جواري... لكن أنتِ...أنتِ اخترقتِني...اخترقتِني لأبعد عمق!!!

كاذب!!!!!

منافق!!!!

مدّعٍ!!!

ودت لو تلقي كل هذه الأوصاف في وجهه!!!

لو تخمد بها نيران عقلها الذي ضج من فرط التفكير...

أو -على الأقل- لو تقنع بها ذاك -الأحمق العاشق- الذي يترنح كالذبيح بين ضلوعها الآن!!!

لكن كل هذا كان عسيراً بحق!!!

وكيف لا؟!!

وكل همسة نطقها سمعها قلبها قبل أذنيها!!!

صدقتها جوارحها قبل عقلها!!!

أقسمت عليها روحها -هي- قبل أن يحملها لسانه!!!

لترتجف شفتاها باسمه في همسة غادرة انغمست حروفها بعشقها ...

فأغمض عينيه بقوة مع انعقاد حاجبيه وكفه الآخر يجذبها نحوه ببطء ليريح رأسها على صدره...

_لا!

همست بها وهي تبتعد عنه في آخر لحظة ...

لتسحب أناملها منه مع استطرادها بنبرة مرتجفة :

_يوماً ما كان صدرك لي وطناً...لكن ليس بعد...ليس بعد أن استحلته امرأة غيري!

فاضت عيناه بمشاعر مضطربة صاخبة...

فيما أعطته هي ظهرها ثانية وهي تكتف ساعديها بقوة لعلها تتمالك أنفاسها الثائرة هي الأخرى...

آه يا عاصي القلب!!!

لو كان الحب وحده يكفي لكنت اكتفيت بك عن العالمين...

لكن...للأسف...هو وحده لا يكفي...!!!

ليلفهما بعدها صمتٌ ثقيل حارق...وكلاهما يبدو أقرب ما يكون لصاحبه...

لكنه...أبعد ما يكون عنه!!!

قبل أن تقطع هي هذا الصمت بقولها الحازم:

_وافق على سفري.

فعاد يدير كتفها نحوه ليلتقط نظراتها بتفحص مع سؤاله بنبرة عادت إليها قوتها:

_لماذا تريدين السفر؟!

وهنا ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة تليق بقولها :

_بل سلني...لماذا أبقى هنا؟!!

ضغطت أنامله على كتفها أكثر فاستطردت بقوة نبراتها:

_سأسافر حتى أنقذ ما تبقى مني...حتى تبرأ روحي من أسقامها...حتى أتنفس هواءً نقياً لا يلوثه غدر عاصي الرفاعي أو جحود جاسم الصاوي...حتى أنجح في آخر

اختباراتي كما كنت أنت دوماً تصفني...هل تكفيك هذه الأسباب؟!

زفر زفرة مشتعلة ثم ترك كتفها أخيراً....

ليصمت لحظات أخرى وهو يعطيها ظهره مفكراً بشرود انتهى بقوله ب-ما ظنّه- لهجة باردة:

_والدكِ مريض...هل ستتركينه هكذا؟!

كانت تعلم أنه يخفي خلف عبارته الكثير...

ظاهرها يستنفر شفقتها على أبيها المريض...

وباطنها يستجدي عشقها له هو...قلقها بشأنه...

خوفها عليه في هذه الظروف!!!

لازلتَ تجيد استغلال الأوراق الرابحة يا سيد "عاصي"...

لكنني أنا لم أعد أريد "اللعب"!!!

لهذا سارت حتى وقفت قبالته لترد بنبرة متحدية:

_أنت وجاسم الصاوي وجهان لعملة واحدة..كلاكما يظنني سأنتظره جوار جدار احتياجي حتى يلتفت

نحوي...لكن الحقيقة أن الجدار انقضّ منذ زمن وأنا غادرت مكاني ولن أعود.

ورغم أنها توقعت أن تثير عبارتها غضبه...

لكن عينيه غامتا بسحابة داكنة وهو يهمس بصوت دكه حزنه دكاً:

_ستعودين...ستعودين كما عدتِ هذه المرة...وكما ستعودين في كل مرة تفتقدين فيها هذا المكان...

ثم صمت لحظة ليردف بخفوت شديد:

_لكن ربما لن أكون أنا هنا في المرة القادمة.

ورغم خفوت صوته الذي كاد لا يُسمَع لكن عبارته أصابت قلبها بدويّ هائل كاد يقتلعه من مكانه...

وقد بدت لها ك-نبوءة -من نبوءاته التي -تصادف- دوماً أن تصدق!!!!

فانهمرت دموعها غزيرة بصمت وكأنها تنافس دعواتها الحارة له بالحفظ من كل سوء ...

وهي تشعر بكيانها يتزلزل كله...

قبل أن يرتفع ذراعاها فجأة فيتشبثان بذراعيه يهزانه بعنف مع هتافها بانفعال يائس:

_لماذا لا يمكنني اختطافك من هنا كما اختطفتني أنت من عالمي؟!!لماذا لا أستطيع تقييدك ونقلك قسراً لمكان أحتجزك فيه وحدك كما فعلت بي؟!!لماذا لا أهدم هذا القصر وأهدم معه سنوات من جبروت تتوارثونه بلا ملل ؟!!لماذا هذا ليس من حقي ؟!!لماذا؟!

وهنا ارتفع حاجباه في تأثر ثم امتدت أنامله تمسح دموعها برقة بالغة...

مع ابتسامة شاحبة ولدت على شفتيه ناسبت همسه ذا الشجن:

_ليتكِ تفعلين! تحكي الأساطير دوماً عن الأمير الذي يخطف الأميرة ويقتل التنين ...فهل تستطيع صغيرتي عكس الأدوار؟!

ثم تنهد بحرارة ليردف بأسى:

_ربما لم يكن ينبغي أن نلتقي...قلبكِ الطفل يتقافز بخفة منتظراً ربيعه...لكن قلبي كهلٌ يستند على عصا ماضٍ مهترئة منتظراً خريفاً لن يزول!

أغمضت عينيها بيأس بينما استمر هو يمسح دموعها بأنامله للحظات ...

قلبه يحرقه اشتياقاً لملمس بشرتها على شفتيه لكنه يعلم أنها -هي- حرمت نفسها عليه !!!

فابتلع خسارته باقتدار يليق بمثله ليهمس أخيراً :

_حسناً...سافري ما دمتِ ترغبين بذلك...

فتحت عينيها ببطء وكأنها تتيقن من جديته فيما يقول...

لكنه كان حقاً كذلك...

إحساسه بها أخبره أنها تحتاج لهذا حقاً...

وأن انهيارها وشيك لو لم يفعلها...

ورغم أن هذا كان يناقض بشدة رغبته العارمة في احتجازها هنا معه...

لكنه فضل ألا يضغط عليها أكثر خاصةً والخطر لا يزال يحوم حوله ولم ينتهِ منه تماماً بعد!!!

لهذا ابتسم هو ب-غلالة- الأب التي يجيد اختيار توقيت ارتدائها معها:

_صغيرتي تحسن انتزاع ما تريده مني!

أشاحت بوجهها وعضّتها على شفتها تكاد تدميها مع استطراده الدافئ:

_لن تغيبي عن عيني لحظة ...تماماً كما كان الأمر هنا...سفركِ لن يكون وداعاً...ولا حتى هروباً...كل البلدان تتشابه مادام وطنكِ هنا...هنا فقط يا ماسة!

قالها وهو يعيد غرس أناملها على صدره في موضع القلب تماماً...

لتعاود هي التفاتها إليه بحدة وقد ساءها تلميحه أنها ستكون تحت رقابته...

فسولت لها نفسها انتقاماً يشفي غليل كبريائها بهمسها:

_حتى الوطن...نهاجر منه أحياناً متى أتعبنا!

أصابت كلماتها هدفها فلم تدرِ هل تفرح تشفياً أم تبكي ندماً عندما عادت عيناه لفضاء مرارتها الواسع...

الذي ابتلع نظراتها العطشى كاملة وهي تغرق فيه قسراً للحظات ما عادت تتبين لها طولاً من قصر...

قبل أن يقطع هدير صمتهما صوت امرأة:

_عفواً...ظننتك وحدك.

عقد عاصي حاجبيه بغضب هادر وهو يلتفت نحو زوجته الجديدة...

لتنتقل أنامله تلقائياً من وجنة ماسة إلى كفها الذي اعتصره بقبضته بقوة ...

لكنها لم تشعر بهذا مع التفاتتها بدورها نحو المرأة تتفحصها باهتمام وشعورٌ بداخلها ينمو بسرعة حتى ابتلع كل شعورٍ دونه...

غيرة؟!!

لا.. للعجب..لم يكن كذلك!!!

بل ...شفقة!!!

فأمامها كانت تقف امرأة بملامح شديدة الوداعة ترمقهما بخوف واضح...

امرأة تعرفها ماسة فقد قابلتها مصادفةً في مناسبة عائلية هنا من قبل...

هي ابنة عم عاصي ال....أرملة!!!

نعم...توفي زوجها بعد عام واحد من زواجهما وتركها و-طفلها-خلفه!!!

إذن عاصي لم يختر امرأة عذراء هذه المرة...

لقد فقد رفاهية "التجربة" مع ضيق الوقت فاختار -بعقله- من يضمن صلاحيتها للحصول على وريث بسرعة!!!!!!

وعند هذا الخاطر ابتسمت بسخرية مريرة وهي تتابع ملامح المرأة التي شحبت أكثر مع هتاف عاصي الذي عاد إليه قناع تسلطه:

_ألا تستأذنين قبل الدخول؟!

عجزت المرأة عن الرد مع ارتجاف جسدها بخوفه فتراجعت خطوة قبل أن تجد أخيراً صوتها لتهمس بتلعثم:

_آسفة...سأعود إلى غرفتي.

قرنت قولها بفعلها وهي تنسحب بخطوات شبه راكضة نحو غرفتها...

فشردت ماسة ببصرها تراقبها بمشاعر متداخلة...

هل تشعر بالسخط عليها لأنها قبلت الزواج من عاصي تحت هذه الظروف؟!

أم تعذرها وهي تعلم أن لا أحد يستطيع الاعتراض على أوامر الرفاعي هنا؟!!

هل تغار منها وهي التي حظيت بمكانها لديه؟!!

أم تشفق عليها وهي تراها مجرد جسد يستغلونه لنيل رغباتهم؟!!

جحيم مستعرٌ يندلع الآن بين جنبات روحها الثائرة...

فلا تطفئه أمطار عشقها مهما هطلت!!!

وحينها شعرت بصوته وكأنه يخدش أذنها رغم خفوته:

_ماسة.

ظلت متجمدة مكانها للحظات تستعيد شتات روحها...

ثم التفتت نحوه برأسها لتهمس أخيراً بقوة لا تدعيها:

_حورية قالت لي يوماً أنني لن أجد امرأة أكثر زهداً في زوجها منها هي.

انعقد حاجباه بغضب عادت تشتعل معه غابات زيتونه متوقعاً عبارتها التالية وهي تشير لصدرها :

_أنا الآن أكثر زهداً منها!

ثم نزعت كفها من كفه لتهتف أخيراً بسخرية نافست مرارة العلقم في نبراتها:

_أنا أديت غرضي من الزيارة يا سيد عاصي...عد أنت لزوجتك ولا تضيع وقتك !

======

على مقعدها في الطائرة جلست تراقب السحاب بشرود...

عندما ربتت دعاء على كفها لتقول بمرحها المعهود:

_فيمَ أنتِ شاردة؟!!ألا يكفي أنني تركت لك المقعد المجاور للنافذة؟!!

ابتسمت ماسة ابتسامة شاحبة وهي تدير وجهها إليها هامسة:

_أنتِ فضيحة في الأماكن العامة...هل تذكرين لقاءنا الأول في القطار!!

ضحكت دعاء ضحكة طويلة وهي تتذكر ما تحكي عنه....

قبل أن تلتفت برأسها نحو فهد النائم على مقعده خلفهما هامسةً بإشفاق:

_لأجل أخيكِ المسكين فقط لن أحدث جلبة!!!

عادت ماسة برأسها للخلف بدورها ترمق فهد بنظرة حنون...قبل أن تعاود دعاء سؤالها بمرح:

_هل تظنين المال معنا يكفينا للتسوق هنا؟!مع ما أشاهده على "الانترنت" سينتهي بي الحال هنا إما متسولة أو سارقة!!!

ابتسمت ماسة بمرح وهي تتفحصها بحنان صادق...

دعاء تجاوزت أزمتها حقاً...

تجاوزتها بنفسها دون أحد!!!

لقد ظننت أن طلاقها من حسام سيبقى ندبة في قلبها طوال عمرها...

لكنها أثبتت لها أنها أقوى كثيراً مما تظن...

وأن الضربة التي لا تقتل تمنحنا المزيد من القوة!!!

انقطعت أفكارها عندما سمعت ذاك الصوت معلناً وصولهم...

فانقبض قلبها بقوة وهي تشعر بخوف غريب يسكنها...

لا...ليس خوفاً من الغربة فقد جربتها من قبل...

لكن...لعله خوف من نفسها هي!!!

خوفٌ من أن يهلكها قلبها اشتياقاً...أو تهلكه هي تجاهلاً!!!

لكن فهد -الذي استيقظ لتوه- جذبها من كفها ليوقفها جواره وكأنه شعر بما تفكر فيه...

ثم همس جوار أذنها بصوت لم يغادره نعاسه بعد وهما يسيران معاً :

_لا تخافي يا "حبيبة أخيكِ "...قلبي يخبرني أنها ستكون رحلة خير لكِ...بل لنا جميعاً.

فابتسمت دعاء وهي تسير خلفهما لتقول بمرح:

_بركاتك يا شيخ "فهد"...من فمك لباب السماء!!

ضحك فهد بخفة وهو يهبط معهما سلم الطائرة قبل أن يقول لدعاء مشاكساً:

_لديك أذنان تسمعان دبة النملة...ألا أستطيع الحديث مع أختي بحرية؟!

هزت دعاء كتفيها وهي تسحب كف ماسة الآخر لتقربها نحوها مع هتافها:

_استمتع بها قليلاً...وبعدها ستكون لي وحدي!

ضحك ثلاثتهم بمرح نجح في إخفاء سحب التوتر العالقة في سماوات نفوسهم الغائمة...

فهد الذي كان يشعر بالقلق على أخته وهو مضطر لتركها هنا للعودة ليسرا بأقرب وقت مخافة أن يؤثر انهيارها على شوط العلاج الكبير الذي اجتازاه بشق الأنفس...

مع ذاك الهاجس الذي يقبض قلبه منذ اكتشف اختفاء صوره مع جنة من على هاتفه فجأة...

ورغم أنه كان شبه واثق من أن يسرا هي من فعلتها...لكنه لم يشأ مواجهتها في هذه المرحلة الصعبة التي تمر بها...

فكظم غيظه قسراً لكن هذا لم يطفئ حسرته على رصيد ذكرياته مع جنته الذي اختفى فجأة...

بل والأشد خطورة...معنى هذا التصرف الذي قامت به يسرا لو أنها حقاً من فعلتها!!!

بينما حافظت دعاء على ابتسامتها المشرقة وهي تثبت نظارتها السوداء على وجهها بحركة صارت ملازمة لها...

وكأنها تذكر نفسها بمعنى "الرضا" الذي دفعت ثمنه غالياً كي تدرك قيمته!!!

أما ماسة فكانت تدور بعينيها في العيون حولها وهي تهرب!!!

نعم...تهرب!!!

"غابات زيتونه" كانت عالقة بين رموشها فلا تكاد تبصر شيئاً إلا من خلالها!!!

لماذا لم تحتفظ منه بتذكار يمنحها قوة في موقف كهذا؟!!

بل إنها حتى لا تحمل بأصابعها "دبلة" زواج!!!

ورغماً عنها تسللت أناملها تحت وشاحها عند موضع ندبته على رقبتها منذ ذاك اليوم الذي نزع فيه سلسلة عزيز منها...

لتدور عليها أطراف أصابعها بشرود وهي تفكر...

هل هذا ما بقي لها منه؟!!

ندبة تذكرها به!!!

فأي خيرٍ إذن تنتظره من رجل دخل حياتها ب"ندبة" وخرج منها ب"ندبة"؟!!

وإن كانت الأولى على- رقبتها- قد برأت منذ زمن...

فهل عسى ندبته على -قلبها - تبرأ؟!!!

انقطعت أفكارها عندما انهمكت مع فهد في إنهاء إجراءات الوصول بسرعة تليق بمركزه...

قبل أن تسمع صوتاً مميزاً خلفها يقول بلهجة شامية محببة:

_يا أهلاً بالغوالي!

التفتت نحوه بفضول فيما صافحه فهد بتهذيب ناسب قوله:

_دكتور جهاد...أهلاً بك!

صافحه جهاد بحرارة وهو يقول بنبرته الدافئة:

_أهلاً سيد فهد...سعدت بلقائك...من الجيد أنكم لم تتأخروا في إجراءات...

انقطعت عبارته بصورة ملحوظة وعيناه تقعان على ماسة لأول مرة...

لتتسع عيناه بارتباك للحظة مع انفراجة شفتيه ببطء...

ياالله!!!

كم تشبهها!!!

فدوى!!!

رفيقة طفولته التي كان يلعب معها في صغره قبل أن تلقى حتفها في غارة صهيونية على حيهم القديم...

لازال يذكر عينيها الفضيتين بابتسامتها المميزة عبر أسنانها المكسورة ...

وضفيرتيها القصيرتين بلون الليل على جانبي رأسها ...

واللتين تلطختا بالدم في آخر مشهد رآها فيه!!!

لم يدم شروده أكثر من ثانيتين لكنه كان ملحوظاً لفهد الذي لاحظ تفحصه في ماسة ...

فقال بضيق مشبع بغيرة واضحة:

_ما الأمر يا "دكتور"؟!هل هناك شئٌ ما خطأ بمظهر أختي؟!

كتمت دعاء ابتسامتها بصعوبة وهي تلاحظ غيرة فهد الواضحة...

فيما تنحنح جهاد بحرج قائلاً :

_لا...إنها فقط ...تشبه...إحدى قريباتي.

بينما ابتسمت ماسة بعفوية قائلة ببشاشة:

_لي الشرف يا "دكتور"...لو لم أكن مصرية لوددت أن أكون فلسطينية.

رمقها فهد بنظرة مغتاظة لم تلحظها ....

فيما ضحك جهاد بمرح أنار قسماته لتلمع عيناه الزرقاوان أكثر مع قوله:

_كلنا إخوة يا ...

بتر عبارته لحظة وكأنه نسي الاسم قبل أن يعقد حاجبيه متذكراً:

_ماسة...السيدة ماسة ....صحيح؟!

اتسعت ابتسامة ماسة وهي تسمع اسمها منه بلكنته المميزة التي تكسر حرف السين أكثر مما تفتحه...

وقد شعرت بارتياح غامر نحوه لم تعرف له سبباً...

فيما قال جهاد مخاطباً فهد بعفوية:

_لقد تخيرت لهما سكناً مناسباً هنا...ماسة ستعمل ممرضة معي في المشفى كما اتفقنا...لكن السيدة دعاء سنبحث لها عن عمل قريباً...

أومأ فهد برأسه وقد بدا على ملامحه عدم الارتياح...

ليسير جواره مغادرين المطار...

فيما تعمدت دعاء التأخر عنهما بضع خطوات وهي تسحب ماسة إليها لتهمس جوار أذنها بمرح:

_أخوكِ يغار عليكِ من هذا "الصاروخ" الفلسطيني...ويحق له أن يفعل!!!

لكن ماسة لم تبتسم....

مع شرودها الذي عاد يحتل كيانها كاملاً لبضع لحظات...

قبل أن تهمس بأسى:

_أنا امرأة لم تعد تجوز عليها غيرة...

ثم تنهدت لتردف بخفوت :

_قلبي احترق عن آخره....فهل للرماد حياة؟!!

الفصل الحادي والثلاثون

_زهرة هذه تبدو طيبة القلب!أرأيت كيف استقبلتنا بحرارة هنا؟!

قالتها ماسة لفهد وهي تعاونه في رص ملابسه في الخزانة عقب دخولهما لشقتها الصغيرة في "أبو ظبي"...

لتستطرد بعدها في محاولة منها لطمأنته:

_أظننا سنكون صديقتين...هي جارتي هنا وستعمل معي في المشفى...يمكنني الاعتماد عليها لو احتجت شيئاً هنا.

لكن فهد التفت نحوها ليقول بضيق خفي:

_لكن ذاك الطبيب لا يريحني...نظراته نحوكِ كانت...

_فهد!!

هتفت بها تقاطعه بحزم...قبل أن تأخذ نفساً عميقاً لتردف بابتسامة شاحبة:

_لا تخف عليّ!

زفر مشيحاً بوجهه للحظة قبل أن يكتنف كتفيها بكفيه قائلاً بقلق:

_وكيف لا أفعل؟!أنتِ الآن في أضعف حالاتك وأخاف أن يدفعكِ هذا الضعف في طريقٍ ليس لكِ.

أسندت جبينها على صدره للحظات وكأنها تستمد منه بعض القوة...

قبل أن ترفع عينيها إليه لتقول بامتنان حقيقي:

_من قال أنني في أضعف حالاتي؟!!أنا قوية بك...وبأمي...بعزيز...ودعاء...

ثم شردت ببصرها في ماضٍ بدا الآن بعيداً كبعد السماء ...

لتهمس بخفوت:

_ماذا تقول إذن عن أيام كنت فيها وحدي تماماً؟!

دمعت عيناه بتأثر وهو يقبل جبينها بمواساة...

فابتسمت وصوتها يستعيد تماسكه لتشير بعينيها نحو- الوسادة -التي أصر على إحضارها معه إلى هنا لتقول بنبرة ذات مغزى:

_والآن أخبرني...هل ضعفتَ أنت كي أضعف أنا؟!

رمق الوسادة -الأثيرة- صاحبة العطر المميز بنظرة دافئة حملت كل مشاعره...

نعم...إنها وسادة جنة التي لم يعد يستطيع النوم إلا عليها...

وكأنها -بقايا وطنٍ - يصر أن ينتمي إليه مهما أجبروه على الاغتراب...

تسأله إن كان قد ضعف؟؟!

لا...لم يفعل ولن يفعل...

فقد وهبته -جنته المفقودة- قَبَساً من "وهج البندق" الذي تغلغل بين أعماقه ليمنحه قوةً لن تبهت أبداً...

لهذا عاود الالتفات نحوها ليرفع ذقنها إليه هامساً بحزم حنون:

_افهميني يا "حبيبة أخيكِ"...أنا لا أقصد أن أحرّم الحب عليكِ...على العكس...كم أتمنى لو أراكِ سعيدةً مطمئنة في كنف رجل يستحقكِ خاصةً بعد كل ما عانيتِه...كل خوفي فقط أن يستغل أحدهم فراغاً بقلبك.

_فراغاً بقلبي؟!!

تمتمت بها بمرارة تحمل الكثير من الاستنكار الذي أساء هو فهمه...

فزفر بقوة مع قوله بحذر:

_لا تنسيْ أنكِ لازالتِ على ذمته...رسمياً!!!

أغمضت عينيها بألم لتكتم آهة كادت تخونها...

رسمياً؟!!

ليته كان هكذا فحسب...

ليتها كانت الأوراق- فقط- هي ما تثبت أنها كذلك...

دقات قلبها تقسم أنها "على ذمته"...!

خطوط باطن كفها ترسم خريطة عشق تثبت أنها "على ذمته"...!!

بقايا "سحر أنامله" على منابت شعرها تحكي أسطورةً تؤصل أنها "على ذمته"...!!!

دموعها المحتضنة لصورته خلف سجون رموشها لو أطلقتها لكانت نشيداً يردد أنها... "على ذمته"!!!

وكأنه بداية العشق ومنتهاه...

وأول الرجال وآخرهم...

فكيف تكون إذن إلا..."على ذمته"؟!!!

لكنها فتحت عينيها أخيراً لتقول بتماسك:

_لا داعي لقلقك هذا...أختك تجيد التصرف.

مط شفتيه بعدم اقتناع ثم قال بتردد:

_أنا أفكر في مد فترة إقامتي معكِ هنا...حتى...

لم يكد يتم عبارته حتى رن هاتفه باسم "يسرا"...

فابتسمت ماسة وهي تلوح بكفها هاتفة ببعض المرح:

_قلبها يشعر بك!

رمقها بنظرة عاتبة سبقت زفرة ضيق قبل أن يفتح الاتصال ليصله صوتها ب"هستيريتها " المعهودة:

_أين أنت؟!!لم تهاتفني عندما وصلت كما اتفقنا...أنت نسيتني...نسيتني يا فهد!!!

أبعد الهاتف عن أذنه يتقي صراخها المنفعل للحظات...

قبل أن يتمالك ضيقه ليقول بحِلم يُحسَد عليه:

_لا يا يسرا...لم أنسَكِ...انشغلت فقط ببعض الأمور.

وردها كان بكاءً انخرطت فيه بانفعالٍ مَرضي لا يُستغرَب في حالتها...

فرقت ملامحه وهو يردف بحنان :

_لا تبكي...أنا عائد قريباً...اهدئي يا يسرا...الأمر لا يستحق كل هذا.

_بل غداً يا فهد...غداً...سأنتظركِ من الآن!

قالتها يسرا بانفعال فضح مشاعرها فتنهد بحرارة ليمنحها وعداً بعودة قريبة قبل أن يغلق الاتصال برفق...

فغمغمت ماسة التي كان صوت يسرا يصلها من فرط ارتفاعه :

_يسرا تحتاجك حقاً يا فهد...طبيبها يقول أنك سبب رئيسي في استجابتها للعلاج.

أومأ برأسه موافقاً قبل أن يلقي هاتفه بعدم اكتراث على الفراش الذي جلس عليه أخيراً ليغمغم بصوت مُرهَق:

_معكِ حق...لكنني أخشى تبعات هذا...أحياناً أشعر أنني أخطأت باستمراري معها ...يسرا تنجذب نحوي كل يوم أكثر من سابقه...وقرار انفصالنا يزداد صعوبة ساعةً بعد ساعة...ولا أدري ما الحل!!

جلست جواره لتربت على ركبته بتفهم...

فالتفت نحوها ليقول بحيرة:

_أنا كنت صريحاً معها منذ البداية...أخبرتها أن قلبي لن يَسَع امرأةً بعد جنة...لكن تعلقها بي لم يعد يعرف حداً...وأخاف أن يؤثر هذا سلباً على علاجها.

تنهدت ماسة بحرارة قبل أن تقول أخيراً بتعقل:

_طالما لا ترى فيها أكثر من صنيع معروف فأتممه للنهاية...كن جوارها بعقلك وجسدك وأبقِ قلبك ل"مالكته".

ثم تناولت "وسادة جنة" من جوارهما لترفعها أمامه مردفةً بنبرة ذات مغزى:

_افعل ما يرضيك أن تواجه به وسادتها كل ليلة...ما يليق بك وب"الأستاذة".

==============

_فهد...افتقدتك جداً...سبعة أيام كاملة!!!

هتفت بها يسرا وهي تندفع نحوه في بهو المنزل فور وصوله وحركة جسدها تعد بعناق وشيك...

لكنه اكتفى بمصافحة فاترة مع نظرة زاجرة في عينيه وهو يبتعد بجسده ...

قبل أن يغمغم بما يشبه الاعتذار:

_لم أكن أستطيع الحضور قبل أن أطمئن تماماً على ماسة كما اتفقنا.

ثم تلفت حوله قائلاً بدهشة مشوبة بالضيق:

_ما هذا الذي فعلتِه؟!

كانت قد أخلت المكان من الأثاث ليبدو أكثر اتساعاً...

بينما امتلأت أرضيته بشموع مربعة صغيرة صنعت مع الموسيقا الهادئة المنبعثة من أحد الأركان مزيجاً رومانسياً ناعماً...

خاصةً مع ثوبها ال"كلاسيكي" الأرجواني عاري الأكتاف و الذي انسدل على جسدها باحترافية تصميمه ليبرز مفاتنها بإغراء زادته لهجتها حرارةً مع همسها:

_ما رأيك في هذه المفاجأة؟!أعجبتك؟!

قالتها وأنامله في كفه تزداد تشبثاً به...بينما أناملها الحرة تتعلق بكتفه مع تمايل جسدها بنعومة مع الألحان...

لكنه ابتعد عنها برفق ليترك كفها قائلاً بضيق لم يفقده حلمه:

_نعم...لكنني متعَبٌ من السفر...سأستأذنكِ في الصعود لغرفتي ...تصبحين على خير.

قالها وهو يكاد يعطيها ظهره لكنها تشبثت به ليعاودها هياجها الهستيري:

_لا تتركني هكذا وكأنني مجرد نكرة بلا قيمة...لو لم تجلس هنا معي فسأعود للخروج مع رفقتي القديمة...مادام زوجي يراني لا أرتقي لمستواه.

كظم غيظه باقتدار مراعياً ظروفها وقد انتوى في نفسه مراجعة طبيبها ليتدبر أمر تعلقها به هذا...

ليقول بأقصى نبراتها هدوءاً:

_حسناً...سأجلس معكِ هنا كما تريدين...لكن دعينا نفعل هذا أولاً...

قالها وأنامله تمتد لزر الإضاءة لتعود للمكان كامل إضاءته مع استطراده مبرراً:

_الضوء الخافت سيجعلني أميل للنوم أكثر وأنا أريد التحدث إليكِ بشأن هام.

تألقت عيناها فجأة ببريق حقيقي وقد منحتها عبارته أملاً في اهتمامه بها...

فجلست جواره على الأريكة لتسأله بلهفة:

_ماذا تريد؟!

تنهد بحرارة ثم رفع وجهه إليها ليقول برفق محاولاً تخير كلماته:

_ما رأيك لو نخبر والدتك عن الأمر كي تعود من سفرها لتكون جوارنا هذه الأيام؟!

اتسعت عيناها بارتياع للحظات قبل أن تصرخ بانفعال:

_هكذا إذن؟!أنت مللتَ مني حقاً؟!تريد إلقاء الحمل عن كاهلك ؟!لكنني سأريحك...سأريحكم جميعاً...

قالتها وهي تهبّ واقفةً مكانها لكنه جذبها من كفها ليجلسها جواره من جديد هاتفاً بصرامة :

_اجلسي وكفي عن لعب الأطفال هذا...أنا قلت تبقى "جوارنا" وليس "جوارك"!!

سالت دموعها على وجنتيها وهي تشعر بهوان نفسها على الجميع لتهمس أخيراً بيأس:

_أمي لن تعود ...هي بالكاد أفلتت من قبضة رفعت الصباحي...لو علمت ستطلب مني السفر إليها...وأنا...أنا...

ثم تشبثت أناملها به بكل قوتها لتردف بعاطفة قوية:

_أنا أريد البقاء هنا معك.

وخزه قلبه بشعوره الجارف بالذنب والذي زادته هي باقترابها الخطير منه مع استطرادها بعمق احتياجها:

_لماذا لا تراني ؟!لا تشعر بي؟!أنا زوجتك يا فهد...زوجتك!

كانت قد التصقت به تماماً عند كلمتها الأخيرة وأناملها تضغط وجنته بشغف...

فكز على أسنانه بقوة محاولاً تمالك انفعاله وهو يزيح أناملها برفق ليبتعد عنها قائلاً بغضب مكتوم:

_زوجتي الحقيقية ماتت...وما بيننا لن يتجاوز مجرد ورقة...اتفاقنا كان واضحاً من البداية يا يسرا.

_إذن نغيره!!

هتفت بها بغضب أقوى وهي تعاود وقوفها لتصرخ من جديد:

_أنت أحمق...بل أكثر من رأيتهم في حياتي حماقة...تترك أموال والدك ونفوذه...وتضيع عمرك في الوفاء لجثة تحت التراب وتترك امرأة مثلي يتمناها ألف رجل...

ثم سولت لها نفسها إهانته لتستفزه أكثر:

_بل ربما ...من يدري...ربما كنت تعاني من -ما تخشى- أن يفضح رجولتك!!

اشتعلت عيناه بغضب لم يعد يملك التحكم فيه فلم يشعر بنفسه وهو يقف لترتفع راحته هامّاً بصفعها...

لكنه توقف في آخر لحظة مكتفياً باعتصار ساعدها بين أنامله مع قوله من بين أسنانه:

_احمدي الله على بقايا صبرٍ لازلت أملكه...واتركيني وحدي الآن.

فانهارت في البكاء من جديد وهي تهمس بين دموعها:

_لماذا ماتت هي وعشت أنا؟!ليتني مِتّ مكانها...أنا لا أحد يحبني...لا أحد.

قالتها وانخرطت في نشيج مرتفع ارتجف معه جسدها كله...

فلانت ملامحه تدريجياً مع بكائها ليعود ويذكر نفسه بظروفها ووجوب وقوفه جوارها في محنتها...

فخفف ضغط قبضته على ساعدها ليرفع بعدها كفيه محيطاً كتفيها مع قوله أخيراً بصوتٍ عاد إليه هدوؤه:

_اسمعيني جيداً يا يسرا...أنتِ تستحقين أكثر من مجرد رجلٍ أحمق كما تزعمين يعيش على بقايا ماضٍ رحل...أنتِ امرأة قوية فلا تسمحي لشئ أن يكسرك...عودي لنفسك وتمسكي بالطريق الذي سرتِ معظمه فلم يبقَ إلا القليل...صدقيني بعد تمام شفائكِ ستنظرين للأمور نظرة أخرى.

رفعت إليه عينيها بنظرات راجية فمنحها إيماءة مشجعة رافقت قوله:

_لن أتخلى عنكِ أبداً حتى نكمل ما بدأناه...لكن...

ثم تهدج صوته أكثر مع استطراده :

_لا تحمليني ما لا أطيق.

فابتلعت خسارتها بحسرة وهي تمسح دموعها بأناملها هامسةً بنبرة اعتذار غارقةٍ بألمها:

_لا تغضب مني يا فهد...أنا أشعر أنني أحترق...رأسي لا يكف عن التفكير...وأخاف أن أضعف وألجأ لتلك الأقراص من جديد.

ثم تأوهت بضعف لتردف بصوت متقطع:

_بالأمس أغلقت باب غرفتي بالمفتاح وألقيته من النافذة كي أمنع نفسي قسراً من الخروج للبحث عنها...أنا أعرف أنني أثقل عليك...لكنني أكاد أجنّ!!

تنهد بإشفاق وهو يربت على كتفها ليهمس بحنان:

_لا بأس...غداً نذهب معاً إلى طبيبك لتدبر هذا الأمر...هو سيخبرنا ما يتوجب علينا فعله...وسننفذه معاً!

عادت عيناها تتوهجان ببعض الأمل...

فابتسم مردفاً :

_لا تقلقي...هي فترة صعبة حقاً لكننا سنتجاوزها معاً..

لم يكد يتم عبارته حتى رن هاتفه فالتقطه بخفة ليفتح الاتصال قبل أن ينعقد حاجباه بضيق مع قوله بعد لحظات:

_حسناً...أنا قادمٌ حالاً!!

ثم أغلق الاتصال ليندفع خارجاً مع هتافه المنفعل:

_أبي مريضٌ جداً...يقولون أنه يريد رؤيتي.

=========

تنحت الممرضة لتفسح له الطريق قبل أن تهمس في أذنه بأسف:

_مؤشراته الحيوية منخفضة للغاية...وأخشى أن...

قطعت عبارتها وهي تسبل جفنيها في إشارة ذات مغزى قبل أن تخرج مغلقةً الباب خلفها...

فابتلع غصته بصعوبة وهو يتوجه نحوه ليجلس جواره على طرف الفراش هامساً بخفوت:

_أبي!

ظل جاسم مغمضاً عينيه للحظات قبل أن يفتحهما بأنين موجع مع همسه :

_الألم...لا...يُحتمل!!

دمعت عينا فهد بتأثر وهو يراقب تغير ملامحه...

وجهه الذي اكتسى فجأة بسواد غريب...

عينيه اللتين غارتا لتذبل نظراتهما باستسلام يائس...

شفتيه اللتين تشققتا وشحب لونهما كالموتى...

جسده الذي هزل تماماً في وقت قياسي حتى بدا وكأنه مجرد "كومة عظام"...

ليعاود أنينه اختراق أذنيه مع دموعه التي سالت على وجنتيه مع همسه المتوجع:

_افعلوا شيئاً...عالجوني أو اقتلوني...لكن لا تتركوني هكذا...لم أعد أستطيع!!

أشاح فهد بوجهه في عجز وهو لا يدري ماذا يفعل...

لقد اعتاد أن يرى والده دوماً في صورة قوية مهيمنة وضعفه هذا يربكه...

يثير بداخله مشاعر شفقة لم يظن أن يحملها يوماً له هو بالذات...

وخاصةً بعد ما فعله بجنة!!!

وها هو ذا يجد نفسه أخيراً قد غلبته مشاعر بُنوّته له ...

ليخفق قلبه بألمه وحسرته عليه رغم كل شئ...

لهذا عاود النظر إليه بعد لحظات ليربت على كفه مؤازراً دون أن يجد ما يقول...

لكن جاسم عاد يهتف بصوت متقطع :

_لا أريد... أن يضيع سعيي في هذه الدنيا ... هدراً...أنت... ستخلفني ...في كل شئ!

عقد فهد حاجبيه في اعتراض وقد وشت ملامحه باستنكار هادر...

عندما تشبث جاسم بساعده ليردف بنبرة جاهد كي تكون قوية كعادته:

_المال...النفوذ...كرسي المجلس...كل شئ...كل شئ!!

انتهت كلماته بآهة وجع قوية اخترقت صدر فهد بقوة تأثره...

فربت على كفه ليقول بانفعال:

_عمّ تتحدث الآن؟!!كل هذا هباء...كل هذا لم يشفع للحظة ألم واحدة مما تعانيها...كل هذا لن يجديك يوم تقف بين يدي ربك!!

لكن جاسم بدا وكأنه لا يسمعه وقد غامت عيناه بشرود قاتم مع قوله:

_ستكون جنازتي مهيبة بحق...سيحضرها أعظم رجال الدولة...حتى الموت لم يهزمني...ابني سيكمل طريقي...اسمي لن يندثر...اليوم جاسم الصاوي...وغداً فهد جاسم الصاوي!!

كان صوته يتصاعد من حلقه بصعوبة مع شعوره باختناق أنفاسه....

لكن هذا لم يمنعه من اعتصار ساعد فهد بقبضته أكثر مع استطراده بنبرة آمرة كما اعتاد:

_اذهب لمكتبي حالاً وتسلم كافة الأمور من جديد ...أنا كتبت لك توكيلاً عاماً تركته مع محاميّ هناك.

_لا!

هتف بها فهد قاطعة وهو يبعد ساعده عنه ليردف بحزم.

_يحرمُ عليّ طريقك هذا ما حييت!!

فانعقد حاجبا جاسم بغضب وهو يكز على أسنانه كاتماً ألمه مع قوله:

_لا وقت لعنادك السخيف هذا...كفّ عن حماقاتك!

أشاح فهد بوجهه في رد قاطع...

فدفعه جاسم بقبضته في صدره ليهتف بانفعال:

_إذن اخرج من هنا أيها الجاحد!!!لو كنت ربيت كلباً لكان أكثر وفاءً لي منك...اخرج ...اخرج!!

انعقد حاجبا فهد بغضب مماثل وهو يهب واقفاً...

قبل أن يقول باستنكار:

_إلى متى ستظل تكابر؟!خسرتَ زوجتك وقبلها شرفك...خسرتَ ابنك وقبله ابنتك...ماذا تريد أن تخسر أيضاً كي تدرك عظم ذنبك؟!!أفق يا أبي قبل فوات الأوان...أفق!!!

لكن جاسم هز رأسه بانفعال وهو يلوح بسبابته في وجهه هاتفاً:

_لا أريد أن أسمع صوتك...اخرج هيا...اخرج.

وقف فهد مكانه متردداً للحظات قبل أن يتخذ طريقه نحو باب الغرفة بخطوات متثاقلة...

كاد فيها قلب جاسم يتوقف ترقباً وهو يرى نفسه ب-عين خياله -يموت وحيداً دون سند...

فالتهم الذعر قلبه وهو يشعر بالألم يتملك منه أكثر وأكثر...

لهذا ما كاد فهد يفتح الباب حتى استوقفه بندائه...

ليفجر بعدها قنبلته النارية:

_تلك المرأة لم تمت!

تجمدت أنامله على طرف الباب للحظات هُيئ إليه فيها أن قلبه توقف عن النبض...

بينما راح عقله في صدمة قصيرة ...

قبل أن يستند على الباب مقاوماً ارتجافة جسده وهو يسأله السؤال الذي إجابته لديه حياةٌ و موت:

_من تقصد؟!

فأسبل جاسم جفنيه مجيباً بحسم:

_جنة الرشيدي!

جنة!!!

جنة لم تمت!!!

جنة لازالت حية!!!

حية في الدنيا كما هي في قلبه!!!

قلبه الذي جُنت دقاته الآن بخفقاتها وهو يعاود إغلاق الباب بعنف ليندفع نحوه هاتفاً بانفعال بحّ به صوته:

_خدعة جديدة ؟!!أم خطة بديلة؟!!

ثم انكب على كفه يقبله بعمق ليهمس بصوت مرتعش بين دموعه المتحجرة بعينيه:

_أرجوك يا أبي لا تفعل بي هذا...أخبرني الحقيقة..أرجوك!!

أتبع قوله بعدة قبلات لكف والده وجسده كله ينتفض بانفعال حارق...

ليصله أخيراً صوت جاسم يقول بنبرة متهالكة:

_هي التي دبرت كل هذا!

رفع فهد عينيه إليه بصدمة لدقيقة كاملة...

قبل أن يتمتم بذهول:

_ماذا؟!هي؟!!

فابتسم جاسم ساخراً وهو يسرد عليه تفاصيل ما حدث....

رقمٌ غريب رن على رقمه الخاص الذي لا يعرفه سوى المقربين...تجاهله مراراً قبل أن تصله منه رسالتها:

_أنا جنة الرشيدي...سأرسل إليك صورة لورقة ما...وبعدها سترد حتماً على اتصالي.

انعقد حاجباه بقلق وهو يقلب في ملف الصور على هاتفه لتتسع عيناه بصدمة وهو يرى ورقتها التي تثبت زواجها بفهد في نفس تاريخ زواجه بيسرا تقريباً...

جُن جنونه وهو يتصل بها ليكيل لها إهاناته وتهديداته التي تلقتها صابرة ...

قبل أن تقول أخيراً بثقة:

_لن تستطيع أن تمسّ ظفراً مني...أنا لست بهذا الغباء كي أواجهك دون أن أحمي نفسي...لو أصابني أي مكروه...فصورة هذه الورقة ستكون قضية رابحة لأكثر القنوات الفضائية نزاهة وتأثيراً...نفوذك لن يتكتم على الأمر هذه المرة...وحملتك الدعائية للانتخابات ستوازيها

حملة أكثر شراسة من مهاجميك...ليس بزواجي من فهد فحسب...بل أيضاً بشأن ابنتك التي رميتها بعد زواج سري...ستكون فضيحة مزدوجة كفيلة بزلزلة الأرض تحت قدميك.

جف حلقه وهو يستمع منها لهذه الكلمات بهذه الثقة...

قبل أن يلعن فهد سراً وهو يدرك أنه من فضح لها تلك الحقيقة الأخيرة....

ليحاول جاهداً استعادة ثبات نبراته مع تساؤله الحذر:

_ماذا تريدين بالضبط؟!!

وجوابها كان صمتاً طويلاً تلاعب بأعصابه...

قبل أن تقول أخيراً بنبرة قوية:

_كلانا يريد نفس الشئ...أنت تريد إبعادي عن ابنك وأنا أيضاً أريد ذلك...هو يجبرني على العيش معه وكلما هربت منه يجيد العثور عليّ...لهذا أريد مساعدتك في إبعاده عني للأبد هذه المرة...ستساعدني في السفر بعد أن نقنعه بموتي .

صمت بضع دقائق يفكر في عرضها...قبل أن يسألها بقلق:

_وما الذي يضمن لي ألا تعودي لتنصبي شراككِ حوله؟!

وإجابتها الصارمة وقتها كانت تكفيه:

_أنا هي ضمانتك الوحيدة...أنا التي لا أريد ابنك .

_كَذِب!!!كذب!!!

صرخ بها فهد وهو يهب واقفاً ليكور قبضته أمام وجهه مع استطراده بهياج ثائر:

_لن أصدق أن تفعل جنة هذا أبداً..أبداً!

فتناول جاسم هاتفه من جواره ليريه رسالتها مع صورة الورقة التي حصلت عليها من المأذون وقتها لتثبت زواجهما ...

فنظر إليها فهد مصدوماً للحظات...

قبل أن يستطرد جاسم بتهكم غلب ضعف نبراته:

_هي التي أخبرتني عن موعد سفركما للهرب...وهي التي دبرت أمر حادث الغاز هذا...اتصلت بك يومها لتطلب منك الحضور...وأخبرتني أنك تترك رجلاً لمراقبتها...لهذا طلبت مني أن أجعل بعض رجالي

يتصنعون محاولة الهجوم على بيتها كي ينطلي الأمر عليك...وحال وصولك للمكان أبلغها أحد رجالي ففتحت هي صنبور الغاز لتتصنع الإغماء...كانت تعلم أنك ستنقلها للمشفى المجاور لبيتها و الذي تدبرت أنا الأمر فيه لنقنعك بموتها!

انفرجت شفتا فهد بآهة خافتة وهو يبسط كفه على صدره ...

هدير خفقات قلبه يدوي كالطبل بين ضلوعه...

فلا يدري هل يفرح لأنها لاتزال على قيد الحياة؟!

أم يبكي على غدرها الذي لم يحسب يوماً حسابه؟!!

لتنتشله كلمات جاسم من أعاصير انفعالاته وهو يهمس أخيراً بأضعف صوت حملته نبراته يوماً...

كمن يلقي حملاً ثقيلاً من على كتفيه:

_لم أكن أريد إيذاءك...بل ...حمايتك.

لكن فهد عاود الالتفات إليه بملامح مشتعلة ليصرخ بانفعال:

_أين هي؟!أين سافرت؟!وكيف؟!

لم ينتبه في خضمّ ثورته لأنفاس والده التي تلاحقت تماماً وكأنه يوشك على لفظ آخرها مع همسه المختنق:

_سافرت باسم مستعار.

_أي اسم هذا؟!قل بسرعة!!

لكن عينا جاسم غامتا بنظرة غريبة وقد عجز عن الكلام للحظات...

مع ارتخاء ذراعيه بوهن ليميل رأسه على أحد كتفيه...

فشهق فهد بفزع وهو يرتمي جواره ليلتقط كفه بين راحتيه هاتفاً بانهيار:

_أبي...تماسك أرجوك حتى أنادي الطبيب.

لكن جاسم تشبث بكفه ليهمس أخيراً بين جفنيه المغلقين:

_ماسة...اعتَنِ بها...اطلب منها...أن تسامحني.

لتكون هذه آخر كلماته قبل أن تتحشرج أنفاسه بصوت غريب...

لتدوي تلك الصافرة من الجهاز القريب بدويٍ مميز في أذني فهد الذي لم يستطع منع خيطي الدموع على وجنتيه ...

قبل أن يخفي وجهه في صدر والده لدقائق ارتجف فيها جسده بقوة بكائه الذي غلبه بعد طول انفعاله...

وقد عجز عن فعل أي شيءٍ آخر...

وعلى الفراش استلقى جسدٌ قد خمدت أنفاسه مؤكدةً حسم صراعه بين "ماسة فطرته" و"شيطان طمعه"...

لتقرع طبول النهاية مدوية بإعلان انتصار ساحق لشيطانه...

وها قد تم تسليم ورقة الاختبار بعد امتحانٍ طويل ...

ما عاد هناك مجالٌ لزيف أمل أو تسويف توبة...

وصدق وعد الكبير المتعال...

"لقد كنت في غفلةٍ من هذا فكشفنا عنك غطاءك...

فبصرك اليوم حديد"

==================================
==================================
==================================
===========

نسم علينا الهوا من مفرق الوادي
يا هوا دخل الهوا خدني على بلادي
يا هوا يا هوا يللي طاير بالهوا
في منتورة طاقة وصورة
خدني لعندن يا هوا
فزعانة يا قلبي
أكبر بهالغربة
ما تعرفني بلادي
خدني على بلادي

شو بنا شو بنا يا حبيبي شو بنا؟
كنت وكنا تضلو عنا وافترقنا شو بنا
وبعدا الشمس بتبكي
عالباب وما تحكي
يحكي هوا بلادي
خدني على بلادي

_دكتور جهاد!

هتفت بها ماسة في حرج فالتفت إليها من شروده في الألحان...

لتشرق ملامحه مع توهج عينيه بزرقتهما الصافية ...

قبل أن يبتسم قائلاً بلكنته المميزة:

_أهلاً ماسة!هل ناديتني من قبل؟!

فابتسمت بدورها وهي تشير نحو هاتفه الذي انبعثت منه الألحان لتقول بما يشبه الاعتذار:

_ثلاث مرات...لكنك كنت منهمكاً بالأغنية!

أشار إليها بالجلوس فاستجابت ليقول هو ببساطة آسرة:

_فيروز في هذه الأغنية بالذات ساحرة...عندما أسمعها منها أشعر وكأنني عدت لفلسطين.

ثم أمال رأسه ليقول بتفحص:

_تعرفين أنك تشبهينها؟!

اتسعت ابتسامتها وهي تسأله بدهشة:

_فيروز؟!

_لا ...فلسطين!

غمغم بها بشجن خفي مس قلبها بصدقه...ليردف بنفس النبرة الدافئة:

_شئٌ ما فيكِ لا أدري كنهه يذكرني بوطني...ربما لأنك تشبهين طفلةً كانت تلعب معي.

_طفلة؟!

غمغمت بها بتعجب فأومأ برأسه ليجيب بأسى:

_نعم...عاشت وماتت طفلة...بطلقة غدر!

انعقد حاجباها بتأثر وهي تتمتم ببعض كلمات مواساة...

فتصنع ابتسامة باهتة وهو يقول بجدية:

_لا بأس...ماذا كنتِ تريدين؟!

تنحنحت بارتباك وهي تقول :

_يلزمني الكثيرمن التدريب هنا...أنت تعلم أن خبرتي ضئيلة.

فاتسعت ابتسامته وهو يقول مشجعاً:

_كلنا كنا كذلك...يوماً بعد يوم ستكونين أفضل من أقدم ممرضة هنا!

التمعت عيناها ببريق امتنان لتشجيعه قبل أن تعاود سؤاله بتردد:

_كنت أريد سؤالك عن مشكلة علاجي أيضاً...عزيز أخبرني أنك لن تستطيع الجزم بشئ قبل رؤية أوراقي.

هز رأسه برفق وهو يتناول أوراقها من أحد أدراج مكتبه ليقول ببعض الدهشة:

_لست أدري ما الذي دفعكِ للسفر هنا للعلاج...إنها جراحة شهيرة كان بوسعكِ إجراؤها في مصر .

فتجهمت ملامحها للحظات قبل أن تقول بمرارة ساخرة:

_حقاً؟!!يبدو أن القدر كان له رأيٌ آخر!!

ضاقت عيناه بتساؤل بينما غابت هي في شرود قصير...

ماذا لو كان عاصي قد صبر عليها قليلاً حتى تستجيب للعلاج؟!

ماذا لو كان فضّلها -هي- على وريثه -المنتظر فلربما كسبهما معاً؟!!

لكن ماذا عساها تقول؟!!

وكأن القدر وضعه في هذا الاختبار فقط ليضع الأمور في نصابها...

عاصي الرفاعي لم يكن ليدع شيئاً للصدفة أو للظروف...

لازال يظن خيوط اللعبة كلها بيده وليته يفيق قبل فوات الأوان!!

_خائفة يا ماسة؟!

هتف بها بحنان زاد بريق عينيه وهو يلمح الحزن الذي غزا مراياها الفضية...

فانتشلها من شرودها لتبتسم وهي تهز رأسها مع قولها بخجل:

_تنطق اسمي بطريقة غريبة.

كانت حقاً تعنيها فطريقته في نطق اسمها كانت غريبة على أذنها بتشديده للسين مع إمالتها للكسر أكثر من الفتح ...

لكنه ضحك بمرح وهو يرد بانطلاق تعجبه في نفسه نحوها هي بالذات:

_ها قد اختبرنا ذكاء المصريين...يجيدون التهرب من الأسئلة!

ضحكت بدورها وهي تهز رأسها لتقول بعدها بجدية تامة:

_لا يا دكتور...لست خائفة...لقد مررت بأسوأ من هذا وتجاوزته...كل ما أرجوه منك أن تصدقني القول ولا تمنحني أملاً كاذباً...أنا أثق بمهارتك.

فتنهد بحرارة ثم شبك أنامله ليقول بإيمان :

_الأمر كله بيد الله..نحن مجرد أدوات....وما علينا إلا الأخذ بالأسباب...

ثم لوح بسبابته في وجهها ليقول بحزم:

_وحتى لو كان الأمل واحداً بالمائة وجب عليكِ أن تسعيْ خلفه!

هنا ابتسمت بامتنان حقيقي وهي ترمقه بنظرة إعجاب طويلة...

رغم قصر المدة التي قضتها هنا لكن الجميع يتحاكون عن مهارته ...

ومع هذا لم يزده مديحهم إلا تواضعاً وإيماناً...

يبدو أنها كانت على حق عندما شعرت بالارتياح نحوه من أول مرة رأته فيها...!!!!

بينما كان هو أمامها غارقاً في شعور لم يألفه من قبل...

ليجد عينيه دون وعي تتعلقان بأناملها الخالية من الخواتم!!!

ولا يدري لماذا شعر براحة خفية من هذا الاكتشاف...

رغم أنه يعلم أنها متزوجة لكن وجودها هنا وحدها وتخليها عن دبلتها يعني أنها منفصلة عن زوجها...

بل وربما ...في طريقها للطلاق!!

وعند خاطره الأخير أنّبه ضميره بقوة...

ليستغفر الله سراً وهو يخفض بصره عن أناملها بضيق...

هو لا يدري ماذا أصابه...

شئٌ ما بهذه المرأة يجذبه بقوة رغم أنه لم يتعرف إليها إلا منذ أيام...

شئٌ يبدل ملامحه ليعيده طفلاً هانئاً بضحكات صاخبة لم تنهشها مخالب الفقد بعد...

شئٌ معطرٌ بعبق الماضي وربيع الطفولة ومذاق الوطن...

نعم...بالضبط...

إنها امرأةٌ بنكهة الوطن!!

_الشاي يا دكتور!!

هتفت بها زهرة لتنتزعه من أفكاره...

فالتفت نحوها بحدة غافلاً عن الغيرة التي كانت تلتهم نظراتها له ولماسة التي التفتت نحوها بدورها لتقول بترحاب حقيقي:

_أهلاً زهرة.

لم تستطع زهرة الرد عليها مع هذه الغصة في حلقها...

فاكتفت بإيماءة خافتة وهي تضع كوب "الشاي الأخضر" على المكتب عندما قال جهاد بامتنان:

_شكراً يا زهرة...لا تنسين هذا أبداً!

فابتسمت ماسة وهي تقف مكانها لتربت على كتف زهرة قائلة بصدق:

_لا أدري ماذا كنت سأفعل هنا دونها..لقد جعلتني أنسى أنني غريبة هنا...

وهنا عادت عيناه تتوهجان بإعجاب لم يستطع إخفاءه وهو يقول بحنان :

_لم تعودي غريبة...بل صرتِ منّا بحق!

فنقلت زهرة بصرها بينهما بحيرة مفعمة بالضيق قبل أن تقول لماسة بنبرة متجهمة:

_لقد انتهت مواعيد عملنا...تعاليْ نتناول طعامنا في المطعم كالعادة.

أومأت ماسة برأسها موافقة قبل أن تستأذن من جهاد في الانصراف...

لتحافظ زهرة على تجهمها طوال الطريق للمطعم حتى سألتها ماسة بحذر:

_ما الأمر يا زهرة؟!هل ضايقكِ أحد؟!

فاغتصبت ابتسامة باهتة وهي تقول بتكلف:

_لا أبداً...مجرد صداع!

قالتها وهي تفتح باب المطعم لتصطدم عيناها بجنة جالسةً هناك فاندفعت نحوها لتهتف وكأنها وجدت كنزاً:

_مريم!!أين كنتِ مختفيةً منذ أيام؟!

احتضنتها جنة بقوة مع قولها الرفيق:

_متاعب الحمل لا تنتهي كما تعلمين.

ثم انتبهت لماسة التي ترافقها فامتدت أناملها لها بمصافحة رقيقة لتقول بابتسامتها البشوش:

_من المؤكد أنكِ ماسة...زهرة حكت لي عنكِ ...أنا مريم.

صافحتها ماسة بود مماثل لتجلس جوارها قائلة بمرح:

_يبدو أن زهرة جعلتني ذائعة الصيت هنا!

ثم تفحصت جنة باهتمام لتقول بحيرة:

_أشعر وكأنني رأيتك من قبل...لكنني لا أذكر أين.

ضحكت جنة بخفة قبل أن تنتبه لملامح زهرة البائسة...

فتنحنحت بارتباك لتقول بلباقتها التي لم تخذلها هنا:

_يقولون أن الغربة تؤلف القلوب...منذ علمنا أنكِ مصرية وقد دخلتِ قلوبنا حتى قبل أن نراكِ.

فأنارت الابتسامة وجه ماسة مع استطراد جنة ببشاشة:

_انتظري حتى تلتقي بطيف أيضاً...ستنبهرين بحق!

انتهت عبارتها بضحكة مميزة فرمقتها ماسة بنظرة حائرة مع تساؤلها:

_من طيف؟!

أجابتها جنة وهي تتفحصها باهتمام:

_صديقتنا...مصرية أيضاً...كاتبة معروفة هنا...

ثم مررت سبابتها على عنقها بحركة ذات مغزى ناسبت استطرادها:

_وتكره الرجال بتطرف...لو كان الأمر بيدها لأعدمتهم جميعاً في ميدان عام!!!

ضحكت ماسة بانطلاق للحظات قبل أن تقول بنفس المرح:

_حسناً...يسعدني أيضاً أن تتعرفن على صديقتي دعاء...هي تقيم معي لكنها الآن في شأن هام يخص عملها هنا...سأحضرها معي المرة القادمة.

ثم اقتربت بجسدها منهما لتقول وكأنها تفشي سراً خطيراً:

_دعاء هذه كارثة كونية...قنبلة ضحك تنفجر في أي مكان تذهب إليه...أظن أننا لو اجتمعنا سوياً هنا فسيطردوننا من المكان شر طردة!!

ضحكت جنة بمرح وهي تلكز زهرة المتجهمة -خفيةً- كي تشترك معهما في الحديث...

فابتسمت زهرة ابتسامة سخيفة وهي تحرك رأسها بلا معنى...

عندما رن هاتفها لتجد الاتصال من جهاد فاحمرت وجنتاها بقوة وهي تهتف بانفعال فاضح:

_جهاد!!معقول!!!إنها أول مرة يهاتفني خارج العمل!!

داست جنة على قدمها في حركة مستترة لتقول في محاولة للتستر على مشاعر تلك الحمقاء -المفضوحة-:

_وماذا في هذا؟!بالتأكيد هو يريد شيئاً هاماً...افتحي الاتصال...افتحي!

قالتها وهي تدوس على قدمها من جديد لعلها تفيق من حالة -البلاهة- التي أصابتها فجأة وهي متجمدة أمام الهاتف...

فتنحنحت زهرة لتفتح الاتصال ثم ردت بأقصى نبراتها دلالاً :

_دكتور جهاد...خيراً!!

كتمت جنة ابتسامتها بصعوبة بينما كانت ماسة غافلة عن كل هذا عندما التفتت زهرة نحوها أخيراً لتقول بنبرة مظلمة بعد أن أغلقت الاتصال:

_دكتور جهاد يريدك في أمر عاجل الآن في المشفى...يقول أن هاتفك مغلق!

وقفت ماسة مكانها لتهتف بقلق:

_ألم يخبركِ ما هو هذا الأمر؟!

هزت زهرة رأسها نفياً وهي تشيح بوجهها ...

فاندفعت ماسة لتخرج بسرعة بعد تحية مقتضبة لتغادر المطعم عائدة إلى المشفى...

فالتفتت جنة إلى زهرة لتقول بإشفاق:

_زهرة...يجب أن تتعلمي التحكم في مشاعرك أكثرمن هذا.

لكن زهرة التفتت نحوها بدورها لتهتف بانفعال:

_رغماً عني يا مريم...نارٌ تأكل قلبي كلما رأيتها معه...لم تمر عليها بضعة أيام في المشفى والجميع يلاحظون نظراته الغريبة نحوها..

_إنها متزوجة أيتها الحمقاء!

هتفت بها جنة مدافعة فهزت زهرة رأسها في عدم اقتناع ...

لتعاود جنة سؤالها باهتمام:

_ألم تخبركِ أي تفاصيل عن زواجها؟!

فهتفت زهرة بسخط:

_لا...حاولت سؤالها مراراً لكنها تتهرب مني...كتومة لأبعد حد!!

ربتت جنة على كتفها وهي تعاود نصائحها الودود لها بصبر رفيق...

حتى ابتسمت زهرة أخيراً لتقول مشاكسة:

_حسناً...حسناً...تجعلينني أظن نفسي بلهاء في كل مرة تتحدثين فيها إليّ هكذا!

فضمتها جنة برفق لتقول بحنانها الفطري:

_بل شديدة الطيبة ...وهذا ما يخيفني عليكِ حقاً!!!

وبعيداً عنهما كانت ماسة تندفع مهرولة نحو مكتب جهاد ....

وقد أنبأها حدسها أن استدعاءه الآن خلفه أمرٌ جلل...

لتدخل أخيراً هاتفةً بين أنفاسها اللاهثة:

_ماذا حدث؟!

رمقها بنظرة مشفقة طويلة قبل أن يشير نحو هاتفه قائلاً بحرج:

_عزيز يقول أنه يحاول الاتصال بكِ لكن هاتفك مغلق.

فبسطت كفها على صدرها تنتظر المصيبة المتوقعة مع همسها بقلق:

_ماذا يريد أن يخبرني ؟!

فأطرق هو برأسه ليهمس بخفوت:

_البقاء لله!

هنا سقط قلبها بين قدميها ....

وقد عادت "غابات الزيتون" تحتل الطريق بين رموشها ومقلتيها لتفقد ساقاها القدرة على حملها...

فاستندت بكفها على ظهر المقعد لتهمس أخيراً بصوت مبحوح:

_من؟!

وهنا أتاها جوابه مريحاً قلبها من ناحية ومعذبه من ناحية أخري :

_والدك!

=================

لم تدرِ كيف حملتها قدماها لشقتها الصغيرة حتى دخلت غرفتها ...

لقد مات جاسم الصاوي...

مات حتى دون أن تمنحه نظرة وداع...

مات دون أن يترك لها سوى اسم على -الأوراق - الرسمية وبعض -الأوراق- النقدية!!!

نعم...لم ينلها منه ك-أب- سوى بضعة أوراق...

ولن يناله منها الآن سوى دعواتٍ بالمغفرة!!!

فأي أبوة هذه؟!!

لقد رحل جاسم الصاوي...

رحل محملاً بإثمه لتبقى صورته بعينيها ملطخة بجحوده أبداً...

رحل دون أن يضمها لصدره مرة واحدة في عناق أبويّ عاشت عمرها تحلم به...

رحل دون أن تسمعه كلمة "أبي" التي لم ولن تقولها لأحد بعد...

رحل ...!!!

وهل أتى كي يرحل؟!!

ابتسامة ساخرة شقت أخاديد الدمع على وجنتيها بعد خاطرها الأخير...

لتشعر بقلبها يكاد ينفطر بحزنه ...

فامتدت أناملها نحو هاتفها تفتحه بعد طول إغلاقه لتتصل بأقرب القلوب إليها ...

وأحنّها...

نعم...رحمة!!!

ولم يكد الاتصال يفتح حتى سمعت لهفة صوتها تربت على قلبها :

_ماسة...أين أنتِ يا ابنتي؟!

كتمت بكاءها وهي تتصنع التماسك لتقول بجمود:

_أنا بخير يا أمي...لقد علمت الخبر...البقاء لله.

لكن جمودها هذا لم يخدع رحمة التي هتفت بحنانها المعهود:

_عودي يا ماسة...عودي لحضني يا ابنتي...أنا لم أكن أوافقكِ على سفرك هذا من البداية...لا تجمعي علي نفسك هم الغربة والحزن معاً!

فأخذت ماسة نفساً عميقاً قبل أن تقول بنفس الجمود:

_من قال إني حزينة؟!أنا راضية بوضعي الجديد...أما عن جاسم الصاوي فالموت حقٌ علينا جميعاً...سأزور قبره عندما أعود في إجازتي القادمة.

صمتت رحمة قليلاً قبل أن تقول بحكمتها المعهودة:

_حافظي على قلبك يا ماسة...خافي عليه أن يقسو كما تخافين عليه أن ينكسر...لا تسمحي لشيطانك بتملكك في لحظة ضعف...أجمل ما في ابنتي التي ربيتها على يديّ أن قلبها كاسمها...ماسة لن يخبو بريقها رغم الخدوش!

عادت دموعها تسيل على وجنتيها مع كلمات رحمة الخبيرة التي استطردت بحنان عاتب:

_ وددتُ لو كنتِ أقوى...لو كنتِ اخترتِ المواجهة بدل الهرب.

فهتفت ماسة بانفعال :

_أنا لم أهرب يا أمي...أنا تركت خلفي قضايا خاسرة لأبدأ من جديد.

هنا تنهدت رحمة بحرارة لتقول أخيراً بنبرة ذات مغزى:

_جاسم الصاوي مات دونك يا ماسة...فهل تحتملين أن يموت آخرٌ دونكِ أيضاً؟!!

والكلمة أوجعت قلبها لأبعد حد...

حد الصراخ الذي احتل نبراتها بخوف لم تهزمه قسوة عبارتها:

_هما اختارا يا أمي....كلاهما اختار...كلاهما أقصاني عن عالمه برغبته...وأنا لن أشتري من باع!!!

قالتها ثم أنهت الاتصال بكلمات مقتضبة بعد وعد باتصال قريب ...

وقد شعرت أن كلمات رحمة تدمي روحها أكثر...!!!

رحمة تلومها على قسوتها ولا تدري أن تلك القسوة هي آخر خطوط دفاعاتها...

ولو انهار...ستنهار هي معه!!!

لا أحد يدرك كمّ الوجع الذي يعتصر قلبها هنا!!!

كمّ الشوق والاحتياج والحزن المصطبغ بحنين لا تعرف منه ملجأً ولا مفراً!!!

وهنا تعلقت عيناها بشاشة الهاتف لتهمس بين دموعها وكأنه سيسمعها:

_أين أنت؟!كنت دوماً جانبي عندما كنت أحتاجك!!!

ويبدو أنها حقاً سمعها...!

لعله ذاك الرباط القدري الغريب بينهما...!!

أو -فلنقل- إحساسه المفرط بها والذي يحتل بقعة النور الوحيدة وسط حطام روحه المظلم...!!

لهذا ما كادت تتم همسها ببضع دقائق حتى عاد هاتفها لرنينه...

وهذه المرة لم تنتظر انقطاعه كما كانت تفعل معه...

بل فتحت الاتصال بلهفة لتضم الهاتف إلى صدرها دون كلمة للحظات...

قبل أن ترفعه أخيراً لأذنيها ليصلها صوته القلق:

_لماذا كنتِ تغلقين هاتفك؟!أنا أكلمكِ منذ الأمس!!

حاولت أن تصبغ صوتها بجمود كهذا الذي تحدثت به مع رحمة لكنها عجزت...

انهارت مقاومتها مع إحساسها بل -يقينها- أنها -دونه هو- وحيدة...

وأن أحداً لن يعوضها هذا الشعور الذي لا تجده إلا معه!!!

فانخرطت فجأة في بكاء حاد مع همساتها المتقطعة:

_لماذا تفعلون بي هذا؟!!أنتم لا تمنحونني حتى فرصة للتنفس؟!!لم أعد أستطيع تقييم أي شئ...لا أستطيع أن أكون طيبة القلب التي تسامح... ولا أقدر أن أكون قاسية المشاعر التي تفارق...جاسم الصاوي تركني طوال هذا العمر ليعود في النهاية ويمنحني مجرد اسم وحفنة أموال ...وحسرةً ستبقى في قلبي العمر كله...

انقطع حديثها مع عبارتها الأخيرةالتي شعرت بها تمزق قلبها....

فانفطر قلبه بعمق إحساسه بها وهو يعلم أنه خذلها -مثل أبيها- وربما أكثر...

لكنه عجز عن الكلام ودموعها تلهب صدره قبل أذنيه..

عندما استطردت هي أخيراً بانفعال أكبر:

_هل من المفترض الآن أن أدّعي حزناً عليه؟!!أم على نفسي قبله؟!!أن أدعو له برحمةٍ حرمني هو منها؟!أن أتصنع نحوه حباً لم يشعر هو به نحوي؟!!أن أكون له "ابنة" وهو الذي انتزع مني شعوري بنعمة "الأب"؟!!كيف؟!!كيف؟!!

زفر زفرة حارقة ود لو تخرج معها روحه منهيةً هذا العذاب الذي ينهش صدره...

قبل أن يقول أخيراً بنبرة غريبة على أذنها وكأنه يتحدث عن نفسه لا عن والدها فحسب:

_هو أرادكِ...أحبكِ حقاً لكن ذنوبه قيدته...تظنين الرجوع سهلاً كالذهاب؟! لا يا صغيرتي...في طريق الخطايا خطوة للأمام تساوي ألف ألف خطوة للوراء ...فمن ذا يقوى على فعلها؟!!

ثم صمت لحظة ليردف بخفوت:

_الحب تمثالٌ مهيب من شمع تنصبه القلوب في ساحاتها...لكن الشمع يا صغيرتي ينصهر بلهب

الخطايا...يذوب..يتحلل...ينهار التمثال فلا يبقى منه سوى أثرٍ ممسوخٍ يحكي...هنا كان يوماً تمثال حب!!

وخزت كلماته قلبها أكثر لتعاود ضم الهاتف لصدرها للحظات...

قبل أن تعيده لأذنها مع همسه الذي وصلها صادقاً لأبعد حد:

_سامحيه يا ماسة...وادعي له بالرحمة...هو أحبكِ لكنكِ...لكنكِ جئتِه بعد فوات الأوان!!

وكأنما كان ضعف قلبها نحوه موازياً لشدة قسوتها التي احتلت نبراتها وهي تهتف به أخيراً قبل أن تغلق الاتصال بعنف:

_لا...لن أسامحه...ولن أسامحك...أبداً يا عاصي...أبداً!!!

=========

وقف يراقبها بافتتان لم يعد يغادر نظراته نحوها حتى انتهت من صلاتها ...

فرفعت عينيها إليه مع قوله بابتسامته العذبة:

_تقبل الله!

طوت سجادة الصلاة وهي تقوم واقفة لتتوهج عيناها ببريق عشقها مع تمتمتها الخافتة:

_منا ومنكم!

تلقفها بين ذراعيه باحتضان رفيق تلته قبلته -المعتادة- على شق ذقنها ككل ليلة مع همسه الدافئ:

_كيف حال "ليمونيّتي" اليوم؟!

ابتسمت بسعادة وهي تومئ برأسها لتهمس بصدق مس قلبه:

_بخير...مادمت معك!

ثم تنحنحت بارتباك مع قولها:

_كنت أريد التحدث إليك في أمر ما.

جذبها من كفها برفق ليتمدد على الفراش بإرهاق احتل نبراته بقوله:

_لقد شعرت بأن هناك شيئاً ما عندما لم أجدكِ عند أمي عقب عودتي ككل ليلة.

فخلعت إسدال صلاتها لتجلس جواره على طرف الفراش هامسة بوداعتها المعهودة:

_قلبك دوماً يشعر بنا يا حبيبي.

غامت عيناه بقلق وهو يضغط كفها براحته هامساً:

_هل ضايقكِ أحد؟!

هزت رأسها نفياً ثم عادت تقول برفق:

_إنها عزة...أتتني اليوم تطلب مني التوسط لديك كي تسمح لها بما تريده.

أشاح بوجهه في إشارة واضحة للرفض فاقتربت منه لتربت على وجنته بكفها الحر مع قولها في محاولة لإقناعه:

_أرجوك يا حبيبي...اسمعني فقط.

_أسمع ماذا؟!إنها تريد العمل ب"الطبخ" للآخرين وكأنها مجرد خادمة...ماذا يقول الناس عنا؟!!

هتف بها في سخط فتغضنت ملامحها للحظات...

قبل أن تربت على صدره لتقول بهدوء:

_إنها هوايتها الوحيدة...أنت تعلم أنها لم تكمل تعليمها...وهي حقاً ماهرة في الطهي...لقد أنشأت لنفسها صفحة على "الفيسبوك" جمعت العديد من المتابعين ...وصفاتها ممتازة وهي تطور نفسها بالقراءة والممارسة وتجميع الوصفات من جميع أنحاء العالم...ولو سمحت لها بهذا المشروع الذي تريده فستثبت نفسها حقاً....ليس الأمر كما كان قديماً...الطبخ الآن صار عالماً واسعاً والماهرون فيه يُشار إليهم بالبنان.

هز رأسه في عدم اقتناع ليقول بعدها باستنكار:

_ألم تجد سوى هذه الهواية؟!إنها تحقر من شأن نفسها وشأننا معها!!!

عادت تربت على صدره مهدئة لتقول بدفاع مخلص:

_من قال هذا؟!العمل الشريف لا يعيب أحداً...وأنا واثقة أنها عندما تمارس شيئاً تحبه فستبرع فيه!

ثم رفعت كفه إلى صدرها تضمه بقوة مع رجائها:

_قدّر ظروفها يا حبيبي...أنت تعلم أنها تكاد لا تفعل شيئاً طوال النهار...تراني أنا منهمكة بدراستي

وجامعتي...وهيام متفرغة لأطفالها...أرجوك يا راغب اسمح لها بهذا الأمر لعلها تجد نفسها فيه.

زفر بضيق وهو يعاود الإشاحة بوجهه...

فهتفت وقد راودتها فكرة ما:

_ما رأيك لو نفتح لها المحل أسفل المنزل تتلقى فيه الطلبات ونحضر لها عاملتين لمساعدتها...سيبدو الأمر وكأنه مشروعٌ محترم يليق بك.

التفت نحوها بحدة ليقول معترضاً:

_ماذا تقولين يا رؤى؟!أتركها تقف في الشارع طوال اليوم عُرضةً للرائح والغادي؟!

هزت رأسها وهي تقول مجادلة:

_ليس في الشارع...هي ستقوم بالطبخ في شقتها معززة مكرمة...المحل سيكون فقط لاستقبال الطلبات وتوصيلها للمنازل...ولجعل الامر يبدو أكثر أناقة!!

صمت لبعض الوقت مفكراً...فعادت تقول برجاء:

_راغب...دعها تشعر بقيمة نفسها في فعل الشئ الذي تحبه...نجاحها سيدعمها كما كنت دوماً تخبرني.

ثم صمتت لحظة لتسأله بتردد:

_بالمناسبة ...ما هي أخبار ذاك الوغد خطيبها السابق؟!

عقد حاجبيه بضيق وهو يقول :

_أخذ حكماً قضائياً بالسجن لكنني أعرف أنه لن يمرر الأمر هكذا.

ثم لوح بسبابته في وجهها قائلاً:

_لا تخبريها بهذا...كفاها الذعر الذي تعيش فيه بسبب ذاك الرجل.

أومأت برأسها في تفهم مع قولها:

_لهذا أرى أن نشغل تفكيرها بشئ آخر...ومن يدري؟!ربما طورت هوايتها هذه لاحتراف يؤهلها لعمل مرموق!

_دعيني أفكر!

قالها أخيراً منهياً النقاش لكنها شعرت ب-إحساسها- به أنه سيوافق...

فمنحته أجمل ابتساماتها وهي تميل على وجنته بقبلة عميقة قبل أن تقول بدلالها الفطري:

_مطلبٌ آخر...!!

رفع أحد حاجبيه بمكر وهو يجذبها نحوه ليقول مشاكساً:

_تعلمين أنني لا أفعل شيئاً دون مقابل!!

ضحكت بمرح مشوب بخجلها وهي -تغلظ- صوتها مقلدة صوته لترد بشقاوة محببة:

_عيب يا أستاذ...أنت زبون قديم وسنكرمك!

ضحك ضحكة طويلة وهو يضمها إليه أكثر مخفياً رأسها في صدره للحظات...

فضحكت بدورها وهي ترفع إليه عينيها أخيراً مع همسه الحاني:

_ماذا تريدين؟!

أراحت وجنتها على صدره مع تشبث عينيها بعينيه لتهمس برفق:

_أمي تريد السفر للحج...وتقول أنك لا توافق.

ابتسم وهو يداعب شعرها بأنامله ليهمس بمرح مشوب بحنانه:

_هل صرتِ المتحدث الرسمي للجميع هنا؟!!

فهزت كتفيها لتهمس بدلال آسر:

_يزعمون أنك لا ترفض لي طلباً!!

_صدقوا!

همس بها بين شفتيها في قبلة خاطفة قبل أن يردف بحرارة:

_يعلمون أنكِ نقطة ضعفي!

ابتسمت بفخر عاشقة تتلقى اعترافاً كهذا بهذه الحرارة...

لكنه عاد يقول بجدية:

_لكن صحة أمي لا تسمح لها بالسفر .

_سنسافر معها!

هتفت بها بحماس مع استطرادها المنفعل:

_نعم...حتى نعتني بها تماماً...لا تتصور مدى تعلقها بالأمر...إنها تطلبها من الله في كل صلاة...وأنا أيضاً.

ارتفع حاجباه بدهشة مع مداعبته لوجنتها هامساً بحنان:

_تطلبينها لأمي؟!

لكنها زمت شفتيها لتهمس بعدها برجاء رقيق:

_ولي!

ثم تنهدت بحرارة وهي تخفي وجهها في عنقه وكأنها لا تريد مواجهة عينيه بما ستقول:

_قلبي يتمناها وكأنها علامة قبول توبته!!!

أومأ برأسه في إدراك وهو يرفع ذقنها نحوه ليهمس بابتسامته الدافئة التي تكفي وحدها لإذابة صقيع هواجسها:

_وأنا لن أترك شيئاً يسعدكِ إلا وأفعله!

توهجت عيناها بفرح حقيقي وهي تنهض من على صدره لتهتف بسعادة :

_حقاً يا حبيبي؟!!وافقت!!!

تبعت قولها بتصفيق حاد زاد من طلتها الطفولية...خاصةً عندما وقفت لتردف بجذل:

_أمي و عزة ستفرحان كثيراً.

قالتها وهي تكاد تعطيه ظهرها لكنه جذبها نحوه ببعض العنف ليجلسها جواره من جديد هاتفاً بعينين مشتعلتين بعاطفته:

_إلى أين؟!

خفق قلبها بجنون إدراكه لمغزى سؤاله لكنها تصنعت البراءة بقولها:

_سأذهب لأفرحهما بموافقتك؟!

ليقترب هو بشفتيه من شفتيها مع همسه الحار وهو يضغطها بين ذراعيه :

_ألا تفرحينني أنا أولاً؟!

تثاقل جفناها بعمق إحساسها وهي تتلقى فيض عاطفته بشغف قبل أن تبادله مثله...

لتهمس أخيراً بعد دقائق مضت بهما مشتعلة ...:

_أحبك!

_أعلم!

قالها وهو يداعب أنفها بسبابته مشاكساً مع ضحكته الخشنة المميزة...

فابتسمت وهي تلصق وجنتها بوجنته لتهمس بحرارة:

_أنا لا أقولها...أنا أتنفسها...أعيش بها...

ثم عادت بعينيها إليه مع استطرادها:

_حبك كان شهادة ميلاد جديدة لامرأة ماتت في عين نفسها قبل الجميع!

فطافت شفتاه على وجنتها بشغف رفيق أفقده كلماته للحظات...

قبل أن يهمس أخيراً أمام عينيها:

_يزعمون أن الكلمات تظلم المشاعر ...إلا كلامكِ أنتِ...كل حرفٍ منه يتلقفه قلبي كقطرة ماء على فم ظمآن!!

فاتسعت ابتسامتها العاشقة وهي تلتصق به أكثر في تعلقٍ صار يتملكها نحوه يوماً بعد يوم...

وكيف لا؟!!

وهو الحب الحقيقي الذي جادت به الأقدار بعد طول حرمان!!!

قبل أن تبتعد هي عنه بجسدها أخيراً لتعقد ساعديها أمام صدرها قائلةً بدلال طفولي:

_مسرحيتي المفضلة ستعرَض على التلفاز بعد قليل...ولديّ مخزونٌ هائل من "اللب والحمص" في انتظار سهرتنا ككل خميس.

ثم وكزته في صدره بسبابتها بخفة مردفة:

_"اللب" لك و "الحمّص" لي!!

هز رأسه مع ضحكة مرحة صاحبت قوله:

_هوسك ب"الأصفر" صار يقلقني...حتى في طعامك !!!

لكنها جذبته من كفه لتوقفه قائلةً بضحكة عفوية:

_لم أنتبه للأمر إلا بعد تلميحك...يبدو أنني مسحورة ب"الأصفر" حقاً!!!

عاد يضحك بمرح وهو يقبل وجنتها بعمق قبل أن يقول لها برفق:

_حسناً...سأستحم وأبدل ثيابي ريثما تعدين "حفلة الخميس" ككل أسبوع.

وبعدها بقليل كان يجلس على الأريكة في انتظارها عندما أتته تحمل صينية الطعام والمشروبات...

قبل أن تنتبه لشاشة التلفاز فزمت شفتيها وهي تضع ما بيديها على المائدة لتقول باعتراض:

_لماذا غيرت القناة؟!لن تشاهد الأخبار بل المسرحية!!!

لوح ب"الريموت" في يده وهو يقول بابتسامة حانية:

_سنفعل كما تشائين...كنت فقط أشاهد جنازة جاسم الصاوي...كانت مهيبة بحق!!

تجمدت ملامحها للحظات كان هو غافلاً عنها قبل أن تتصنع اللامبالاة مع قولها:

_ومالنا وهؤلاء؟!

هز كتفيه وهو يشير نحو الشاشة حيث كانت مثبتةً على صورة لفهد وسط الجموع يتلقى التعازي:

_ابنه يبدو حزيناً جداً ...يقولون أنه سيخلفه في عمله السياسي.

جلست جواره لتتشبث بكفه بين راحتيها وكأنها تحتمي به من هواجسها لتقول بهدوء مصطنع:

_هؤلاء الناس لا يحزنون...إنه مجرد تمثيل أمام الكاميرات...وغدٌ ذهب... وسيخلفه وغدٌ مثله.

اتسعت ابتسامته وهو يضم رأسها لكتفه قائلاً :

_لم أعهدكِ تهتمين بالسياسة!!

لكنها رفعت عينيها إليه لتقول بشرود:

_لا ليس السياسة...بل الإنسانية...أشعر أن هؤلاء الناس قد نُزعت من قلوبهم الرحمة.

قالتها وغابت مع نفسها في شرود طويل وقد حملها الحدث لأشد ذكرياتها سواداً...

فهد الصاوي وحطام خطيئتها القديمة...

ترى هل من الصواب أن تخبر راغب عنه ولا تخفيه شيئاً؟!!

أم أن هذا سيذكي نيراناً خمدت منذ زمن ؟!!

لا...لا...

لن تفعلها...

ستستجيب لصوت العقل هذه المرة وتردم التراب على خطيئة سترها القدر...

والأولى أن تسترها بدورها...!!!!

بينما انغمس هو في مشاهدة المسرحية غافلاً عن شرودها الطويل...

حتى انتبه لوجومها المفاجئ فسألها باهتمام:

_ماذا بكِ؟!

التفتت إليه من شرودها لتقول بعد صمت قصير:

_هل تذكر صديقتي جنة التي حدثتك عنها يوماً؟!!لقد افتقدتها حقاً...لم أسمع عنها شيئاً منذ ودعتني قبل سفرها..وبالأمس حلمت بها ...وكانت...كانت تبدو حزينة جداً!

دمعت عيناها مع شعورها الذي اكتسحها الآن بافتقادها لجنة...

والذي ألبته ذكرياتها السوداء مع فهد...

لكنه قبل وجنتها بعمق ليهمس بحنان:

_لا تقلقي...غداً تعود من سفرها وتطمئنين عليها.

عاد الذنب يحتل نظراتها نحوه وقد شعرت بتأنيب ضميرها لمجرد تفكيرها في هذا الأمر من جديد...

فسألته لتغير الموضوع:

_كنت أريد أن أسألك عن شئ لكنني أخشى أن تسيئ فهمي.

رمقها بنظرة عاتبة مع قرصة خفيفة لوجنتها...

فابتسمت وهي تضع كفها على صدره لتهمس بحيرة:

_لماذا اخترتني رغم فارق مستوى التعليم بيننا؟!ألم تخشَ مثلاً أن أتكبر عليك؟!!

ابتسم ابتسامة واسعة وهو يرفع أناملها لشفتيه مقبلاً برقة...

قبل أن يهمس بنبرته العاشقة:

_أولاً...أنا لم أختر...حبكِ أصابني كقدرٍ فلم يسعني إلا الإيمان به...خيره وشره!!

ضحكت بسعادة غامرة وهي تقبل كتفه بحب...

فيما استطرد هو بنبرة أكثر جدية:

_وثانياً...لا أنكر أن هذا جعلني أتردد في البداية خوفاً من أن يرفضني أخوكِ لهذا السبب...لكنني عاهدت نفسي وقتها لو وافقتِ ألا أعترض طريق نجاحكِ أبداً ...لأنه سيكون طريقي أنا الآخر.

لم يكد يتم عبارته حتي انتزعت كفها منه برفق لتتعلق بذراعيها في عنقه وقد عجزت أن تجد من الكلمات ما يوفيه حقه...

بل إنها لعنت تفكيرها يوماً عندما كانت تستكثر نفسها عليه قبل أن تعرفه لمجرد مقارنة ظاهرية بينه وبين فهد...

والآن دارت الأيام دورتها لتثبت لها حقيقة الأدوار...

وتريها الفارق بين المعدن النفيس والمعدن الصدئ...

لقد اختارت لها السماء قدرها فكان أجمل قدر...

وأعظم حب!!!

============

_هل أتيتَ يا "صاحبي"؟!!

هتف بها محمد الصغير وهو يندفع نحوه عقب عودته للبيت بعد صلاة العشاء...

فضحك عبد الله وهو يتلقفه بين ذراعيه ليحمله قائلاً بحنان:

_نعم يا "صاحبي"...وأحضرت لك لعبتك التي طلبتها!

ابتسمت فتون بسعادة وهي ترى منهما هذا لكنها عاتبت الصغير برفق:

_لماذا تدعو الشيخ هكذا؟!ألم نتفق أن نحترم "الكبار"؟!!

لكن الصغير أشار نحو عبد الله بسبابته ليقول بدفاع طفولي:

_هو موافق...فلا تتدخلي بين" الرجال"!!!

انطلق عبد الله ضاحكاً من فطنة الصغير...

فيما ضحكت فتون بدورها قائلة بعتاب مرح:

_هكذا إذن يا محمد؟!صرت أنا الدخيلة هنا؟!

فالتفت الصغير نحوها ليقول ببراءة:

_الآن أنا صاحبه وهو صاحبي...وعندما أكبر أناديه الشيخ عبد الله ويناديني الشيخ محمد!!

عاد عبد الله يضحك من جديد وهو يربت على ظهره قبل أن ينزله أرضاً ليقول بحماس:

_هيا إذن يا صاحبي...نفتح اللعبة ...لنلعب معاً.

لكن فتون هتفت باعتراض:

_تناول طعامك أولاً يا شيخ!

لكنه لوح بسبابته نفياً وهو يتوجه نحو مائدة الطعام حيث فتح العلبة مستخرجاً محتوياتها من أدوات الحرب و"العساكر" البلاستيكية والحواجز والأسلحة...

لينهمك مع الصغير في رصها واللعب بها لوقت طويل دونما ملل...

فيما جلست فتون تتأملهما بحنان ممتزج بتوجسها الذي لازال يملؤها...

رغم أن اهتمام عبد الله بالصغير يزداد يوماً بعد يوم ...

لكن من يضمن لها أنه لن يتخلى عنهما؟!!

خاصةً بظروف زواجهما العجيبة والذي لا يزال -إلى الآن - لا يتعدى كونه حبراً على ورق!!!

_أين "ماما صفا"؟!لماذا لم أعد أراها؟!

سؤال الصغير اخترق شرودها كطلقة غادرة...

فانعقد حاجباها وهي ترمق عبد الله بنظرة متفحصة ....

بينما اختفت ابتسامة عبد الله فجأة وهو يطرق برأسه للحظة...

قبل أن يقول للصغير بصوت متهدج:

_افتقدتها؟!!

_جداً!!!

هتف بها محمد باندفاع طفولي قبل أن يردف برجاء:

_دعنا نزرها يا "صاحبي"...هي أيضاً كانت تحضر لي اللعب وتشاركني فيها!!

_محمد!!

هتفت بها فتون بنظرة زاجرة قبل أن تذهب إليه لتجذبه من كفه قائلةً بحزم:

_كفاك لعباً اليوم...دع الشيخ ليأكل ويستريح...إنه ميعاد نومك!

أومأ الصغير برأسه في طاعة رغم الضيق الواضح على ملامحه...

لتذهب به إلى فراشه في غرفته قبل أن تعد الطعام على المائدة ليتناوله عبد الله بشرود ....

ثم قام من مكانه أخيراً ليقول بنبرة فاترة:

_سلمت يداكِ!

رمقته بنظرة طويلة وقد صارت مشاعرها نحوه تربكها...

كم تود لو ينتبه إليها ك"امرأة" في بيته لا مجرد رفيقة سكن...

بل إنها حتى لا تشاركه طعامه ...!!!

هو لم يطلبها منها وهي تشعر بالحرج أن تفعلها من تلقاء نفسها...

وكيف تفعل؟!!

وهو يتهرب حتى من النظر إليها وكأنه إثمٌ عظيم!!!

أفاقت من خواطرها عندما انتبهت لمغادرته نحو غرفته وإغلاقه لبابها خلفه...

فتنهدت بحرارة وهي ترفع الأطباق نحو المطبخ...

قبل أن تغسلها بشرود لتعاود طريقها نحو غرفتها مع الصغير...

جافاها النوم لوقت طويل وهي تشعر بالقلق من مستقبلها هنا...

ترى هل سيفي الشيخ بوعده نحوها ونحو الصغير؟!!

ال"شيخ"؟!!

ما هذا الغباء الذي تتمسكين به يا فارغة العقل؟!!

طالما لازلتِ تنادينه ب"الشيخ" وتتمسكين بثيابكِ السخيفة هذه أمامه فمن المحتم أنه لن ينظر إليك أبداً كامرأته!!!!

قومي...

قومي واستغلي هذا الجمال الذي وهبه القدر لكِ!!!

الرجل ليس راهباً!!!

ولو لم ينل حاجته منكِ فسيبحث عن غيرك!!!

نعم...ما المانع؟!!

كما تزوجكِ بعد امرأته الأولى فما يمنعه من الزواج عليك؟!!

ووقتها ربما يلقيكِ وابنكِ في الشارع!!!!

إلا إذا....

إلا إذا حملتِ أنت بطفله الذي ينتظره بشوق طوال هذه السنوات!!!!

نعم...هذا ما سيثبت قدميكِ بحياته ويضمن ألا يهجركِ لأجل أخرى!!!

قومي أيتها الحمقاء وأدركي حالكِ قبل فوات الأوان!!!

أنت تتزينين لزوجك لا لرجل غريب!!!!

وبهذا الخاطر الأخير انتفضت من فراشها لتتوجه نحو خزانة ثيابها...

لتستخرج منها أكثر قمصانها فتنة...

قبل أن تتوجه نحو مرآتها لتنزع عنها طرحتها التي لا تكاد تخلعها...

ثم حلت شعرها الطويل من رباطه لتمشطه باهتمام...

لتتزين بعدها برقة أبرزت فتنتها الباهظة...

نظرت لصورتها أخيراً في المرآة لتمنح نفسها نظرة راضية...

قبل أن تعود ببصرها للصغير النائم بنظرة مطمئنة...

ثم سارت بخطوات متمهلة نحو باب الغرفة...

وفي صالة المنزل كان هو جالساً وقد دفعه أرقه للخروج من غرفته لعل ذهنه يهدأ من عنيف خواطره...

سؤال الصغير البرئ عن صفا أحيا شوقه المستعر نحوها...

وأغرقه في دوامة الذنب من جديد!!!

الصغير يريد رؤيتها...

وهو يتوق أن يفعل!!!

أن يلقي رأسه على صدرها ككل ليلة ليروي لها حكايا يومه الطويل...

أن يتذوق طعامها الذي لا يتصور أن تشاركه فيه سواها...

أن يتدلل عليها برغبته في حكاية قبل النوم فتحكي له حكايتهما لتنهيها بقولها الخالد:

_وهل هناك أجمل من حكايتنا؟!

انقطعت أفكاره عندما فتح باب غرفة فتون لتتغضن ملامحه وهو يراها قادمة نحوه بخطوات مرتبكة ناسبت قولها :

_ما الأمر يا شيخ؟!هل تحتاج شيئاً؟!

قالتها وهي تعدل طرحتها على رأسها بحركة عصبية وكأنها تتشبث بها!!!!

ما هذا الجنون الذي أوشكت على فعله؟!!

ربما تكون بحق في حاجة هذا الرجل...

لكنها امرأة عزيزة النفس...

لن تفرض نفسها على رجل ولو كان زوجها!!!

الحمد لله أنها عادت لعقلها في الوقت المناسب!!!

_بعض الأرق فحسب...عودي لنومك!

أجاب بها على تساؤلها وهو مطرق برأسه ...

فلم تملك إلا أن تجلس جواره على مسافة مناسبة وهي تقول بحنانها البسيط غير المتكلف:

_أنا أعرف أن سؤال الصغيرعن "سيدتي صفا" قد ضايقك...سأفهمه ألا يفعلها ثانيةً!

هز رأسه نفياً وهو يقول بشرود:

_لا...لم يضايقني...على العكس.

أذكت عبارته نيران غيرتها التي لم تملك في أمرها شيئاً...

لكنها تجاهلتها لتقول بإشفاق حقيقي:

_هل أعد لك كوباً من "الينسون"؟!سيدتي صفا كانت تقول أنك تحبه بعد العشاء!!

رفع عينيه إليها بحدة فلعنت غباءها الذي جعلها تقول هذا له الآن...

لكنه فاجأها بقوله بلهجة شاردة:

_وماذا كانت تقول عني أيضاً؟!

اتسعت عيناها بدهشة وعبارته البسيطة تقع في قلبها أعظم موقع!!!

هذا رجل عاشق ...

عاشق بحق!!!

يبحث عن بقايا من ذكر امرأة له وسط الناس!!!

يأنس بماضيه معها ويزهد بحاضر حقيقي بين يديه!!!

هل هذا هو العشق الذي كانت تسمع عنه ولم تجربه يوماً؟!!

أم أن هذا الرجل مخبول؟!!

أفاقت من أفكارها على نظرته المترقبة نحوها ...

فازدردت ريقها ببطء لتهمس بارتباك:

_الكثير...هي لم تكن تحكي إلا عنك!

ابتسم رغماً عنه وهو يعود برأسه للوراء ليغمض عينيه وهو يكاد يرجوها أن تكمل حديثها...

لكنه كان يعلم أنه يظلمها بهذا أكثر...

شعوره بالذنب نحوها يزداد يوماً بعد يوم وهو يرى أنه يحرمها حقها كزوجة...

لكن ماذا عساه يصنع في هذا الحاجز النفسي الذي يقف بينهما...

من يصدق أن هذه المرأة التي لا تزال تحافظ على حجابها في بيته ولا يستطيع أن يمسها...

هي نفسها التي طالما اشتعلت بها أحلام ليله قديماً؟!!

لكن ماذا عساه يقول!!!

هل سُمّي القلب قلباً إلا لكثرة تقلبه؟!!

لعله ذنبه القديم الذي يستوجب أن يدفع ثمنه برضا...

لعل السماء تمن عليه بفرج قريب!!!

وأمامه كانت هي تدرك بحدسها ما يدور برأسه...

على الأقل ما يختص بصفا!!!

لهذا عفته من حرج السؤال لتندفع متطوعة بحديث طويل عن صفا....

عن حبها الكبير له...

عن حكاياتها الطويلة عن طباعه...

كيف كانت تنتظره بشوق كل ليلة يتأخر فيها...

وكيف كانت رغبتها في طفل منه!!!

كانت تحكي بإسهاب وهو مغمضٌ لعينيه يكاد يرجوها ألا تتوقف أبداً...

وعجباً له!!!

كانت صفا بين يديه فكاد يجن بفتون...

والآن فتون معه...فيتركها لحديث قديم عن صفا!!!

فيالشقاؤك يا عبد الله!!!

يالشقاؤك!!!

انتظمت أنفاسه أخيراً وهو مسندٌ رأسه على الأريكة مستسلماً لنومه...

فتوقفت عن الحديث لتنتظر إليه بإشفاق ممتزج بحيرتها...

قبل أن تذهب لتحضر له غطاءً خفيفاً لتضعه عليه وقد خافت أن توقظه فيعود لأرقه...

ثم رمقته بنظرة أخيرة حملت تساؤلها القلق نحوه...

ماذا تخفي لي الأيام معك يا شيخ؟!!

ماذا؟!

===============

_أنس...أين كنت مختفياً طوال الفترة السابقة؟!

هتفت بها صفا بانفعال وهي تدخل عليه مكتبه في المدرسة...

فأشاح بوجهه دون رد عندما جلست هي أمامه لتردف بقلق:

_لقد مر أكثر من شهرين على وفاة عمي لم أركَ فيهما مرة واحدة...ماذا حدث؟!

ظل مشيحاً بوجهه للحظات...

قبل أن يعاود الالتفات إليها بعينين ذابلتين مع قوله بابتسامة شاحبة:

_دعكِ مني وأخبريني عن أحوالك.

زفرت زفرة مشتعلة وهي تطرق برأسها لتهمس بخفوت:

_الحمد لله.

ثم عاودت رفع عينيها إليه لتقول بنبرة راجية:

_لا تتركني ثانيةً يا أنس...أنا لم يعد لي سواك

فغامت عيناه بنظرة غريبة لم تفهمها قبل أن تعود لشفتيه ابتسامتهما الباهتة مع قوله المتحفظ:

_اعذريني يا ابنة عمي...تعلمين أنه لا يمنعني عنكِ إلا أمرٌ جلل.

رمقته بنظرة أكثر قلقاً وهي تقترب منه بوجهها لتسأله باهتمام:

_وما هو الأمر الذي استدعى غيابك عن المدرسة كل هذا الوقت؟!أنت لم تفعلها يوماً!!

ثم أطرقت برأسها لتردف ببعض الخجل:

_أنت حتى لم تكن ترد على اتصالاتي...ألازلتَ غاضباً مني لأجل ما حدث بيننا في آخر حوارٍ لنا؟!

تنهد بحرارة وهو يتلاعب بقلمه بملامح جامدة للحظات امتنع فيها عن الرد...

فرفعت عينيها إليه لتسأله بتردد:

_أنت كنت وراء ذاك القرار بفصل ذاك المعلم من هنا؟!

_نعم!

قالها قاطعةً دون تردد...

قبل أن يلوح بقلمه في وجهها قائلاً بتجهم:

_سأحميكِ من كل من تسول له نفسه التلاعب بك...بل ومن نفسك لو اقتضى الأمر.

عاد الذنب يلتهم ملامحها وهي تشعر بشيءٍ ما تغير في ملامحه شديدة الطيبة...

نظراته الحنون غلفتها غلالةٌ رائقة من حزن استشعرت أنها هي وحدها سببه...

بينما انتزعها هو من أفكارها أخيراً بقوله الشارد:

_اخلعي الأسود يا ابنة عمي...الحداد في القلب لا في الملبس!

رمقته بنظرة متفحصة طويلة قبل أن تغمغم بلهجة مذنبة:

_لماذا لم تعد تناديني "صافي" كالسابق؟!

فالتفت إليها من شروده ليبتسم بتهكم مرير مع قوله:

_عندما تعود "صافي" فسيعود إليها اسمها...أنتِ الآن ابنة عمي فحسب.

دمعت عيناها بتأثر من تغير لهجته معها لتنفرج شفتاها وهي تهمّ باعتذار...

لكنه بادرها بقوله المفاجئ:

_أنا أريد الزواج منكِ!

اتسعت عيناها بصدمة حقيقية وهي تتفرس في ملامحه وكأنها فقط تتيقن من صدق قوله...

لكنه حافظ على جمود ملامحه وهو ينظر إليها نظرة ثابتة...

لتزدرد هي ريقها بتوتر هامسة:

_لماذا غيرت رأيك؟!

غامت عيناه بسحابة داكنة لتنفلت منه نظرةٌ نحو درج مكتبه قبل أن يعود ببصره إليها ليقول بنفس النبرة الجامدة:

_لقد أعدت التفكير...ما فائدة حبي لكِ لو لم ينتزعكِ من هذا الجحيم الذي أنتِ فيه؟!

ثم صمت لحظة ليبتلع غصة مريرة بحلقه قبل أن يردف بصوت مختنق:

_إذا كنت عجزت عن منح نفسي السعادة فلماذا لا أمنحها لكِ أنتِ؟!

سالت دموعها على وجنتيها وهي تشعر بتمزق هائل...

وكأنها وجدت نفسها فجأة ضالةً في طريق مقفر...

هي لم تعد تفهم شيئاً...حتى نفسها...

كل ما يعنيها الآن أن تنتقم...

أن ترد لقاتلها طعنته بأقسى منها!!!

أن تغرس في صدره خنجراً تلوث بدمائها قبله!!!

وكأنما قرأ هو ما بعينيها كعادته ليقول أخيراً بنبرة غامضة:

_نعم يا ابنة عمي...سأمنحكِ سيف الانتقام ...لتريْ بعينيكِ مدى ثقله على يدين لم تعتادانه!

========

ارتجفت أناملها وهي تمسك القلم لتوقع على الدفتر ...

قبل أن ترفع عينيها إليه بنظرة عميقة حملت كل مشاعرها المتناقضة الآن...

ورغم أن ملامحه حافظت على جمودها لكن نظراته كانت دافئة لأبعد حد...

وكأن عاطفته التي التهبت بها أعماقه بحثت عن أضعف قشرة في سطح أرضه لتنفجر من عينيه بركان عشقٍ ثائر لن يخمد بعد ذلك أبداً!!!

فلانت ملامحها نوعاً وهي تضع القلم جانباً ليصلها صوت الرجل وكأنه ينبعث من خلف جدار بعيد:

_مباركٌ زواجكما!

انقبض قلبها بعنف والزغاريد تنبعث جوارها تصفع قلبها بحدتها...

قبل أن تشعر بكفه يسحبها إليه ليوقفها مع همسه في أذنها:

_تصنعي ابتسامة ...فالجميع ينظرون إليكِ!

ارتجفت شفتاها بشدة وهي تحاول الابتسام كما نصحها...

لتتلاعب أناملها بقماش فستان زفافها الذي أصرت على اختياره ملفتاً لأبعد حد...

تماماً كما أصرت أن يكون الزفاف في أكبر فنادق المدينة وأفخمها...

وكل ما كان يدور في ذهنها وقتها أن زفاف صفا المعموري يجب أن يكون حديث الناس لأيام طويلة بعده...

خفق قلبها بجنون عندما شعرت به يجذبها نحو حلقة الرقص ليحيط خصرها بكفه مع تمسك الآخر بكفها...

فدمعت عيناها رغماً عنها وهي تعض على شفتها محاولةً كتم دموعها بكل ما أوتيت من قوة...

صوتٌ بداخلها يلومها...

خنتِ يا صفا؟!!

طاوعكِ قلبكِ أن تسلمي جسدكِ لرجل آخر؟!

أين عهودكِ لمن قلتِ له يوماً أنه "ابن قلبك" الأول والوحيد؟!!

تظنين أنك تنتقمين منه؟!!

أيتها البائسة!!

أنتِ تنتقمين من نفسكِ قبله!!

حمقاء كنتِ في عشقكِ وأكثر حماقةً في انتقامك...!!!!

فيالكِ من خاسرة!!!

لينبعث من داخلها صوتٌ آخر يطغى على الأول...

_بل رابحة!

انظري لزوجكِ الذي يليق بكِ وبمقامكِ...لا ك-سابقه - الذي مننتِ عليه بقبولك الزواج منه!!

رجلٍ عشقكِ طوال هذه السنوات دون مقابل...لا كمن ادعى عاطفة داسها بقدميه ليلهث كالكلب خلف خادمتك!

رجلٍ يتمنى رضاكِ ولن يكون يوماً كمن جعل "يمين الطلاق" المقدس علكة في فمه يبصقها وقتما يشاء...

رجلٍ بحق يستحق صفا المعموري كما تستحقه!!!

وبهذا الخاطر الأخير حسمت صراع نفسها لتمسح دموعها الخائنة بخفة....

قبل أن تتسع ابتسامتها المصطنعة وهي تتمايل بجسدها مع الأنغام متجاهلةً نظرات الجميع الفضولية نحوها...

لتتشبث عيناها بنظراته التي شعرت بها تخترق أعماقها بقوة خبرته بها ...

ولأول مرة تشعر بالضيق من فهمه الشديد هذا لها...

لتهمس أخيراً بنبرة منفعلة:

_ما الأمر يا أنس؟!لماذا تنظر إليّ هكذا؟!

فابتسم ابتسامة باهتة وهو يدور بعينيه على ملامحها هامساً :

_أبحث عنكِ!

لامست عبارته قلبها بصدق مرادفها ولعل هذا ما جعلها تهمس بنبرة أكثر عصبية:

_كفّ عن هذا الحديث وكأنك طبيب نفسي...لا تعطِ الأمور أكبر من حجمها...أنا سعيدة وأنت سعيد...كلانا حقق غرضه من هذه الزيجة.

وهنا ضمها إليه بقوة أكبر ليلصق جسدها به مع همسه البطئ في أذنها:

_ليس بعد ...غرض كلينا لم يتحقق بعد!

لم تشعر بنفسها وهي تبتعد عنه بحدة وكأن تياراً كهربياً ضرب جسدها من ملامسته...

يا ويلها!!!

ماذا فعلت بنفسها ؟!!

ماذا فعلت؟!!

لكنه شعر بنفور جسدها يضربه في مقتل رجولته ضربةً يكذب لو قال لم يتوقعها...

على العكس...لقد توقع ما هو أعظم...!!!

بل إن مجرد ثباتها هذا أمامه يعتبره قوةً لم يتوقعها منها!!!

لهذا لم يضغط عليها أكثر عندما أشار بيده لمنظم الحفل إشارة خفية كي يبادر بإنهائه...

ليعاود جلوسه معها على منصة العرس يتلقيان التهاني بشرود ...

وكلاهما غارقٌ في جحيم خالص من أفكاره...

حتى انتهى بهما المقام في بيتهما....

أو فلنقل....ببيت عبد الله!!!

نعم...صفا المعموري أصرت أن يسكنا معاً في شقتها القديمة مع عبد الله...

لتكون غرفته لأنس بعده!!!

والغريب أن أنس وافقها دون أي معارضة...

سوى نظرة عاتبة لم تعرها انتباهاً وسط فوضى مشاعرها الجارفة!!!

لتتوقف أخيراً أمام مرآتها تتأمل صورتها -الغريبة- بثوب العرس جوار أنس...

هذه أنتِ يا صفا!!

امرأة قوية قامت من عثرتها...

رددتِ له ضربته الموجعة بأخرى أكثر إيلاماً...

تزوجتِ غيره في شقته ...

بل...ستنامين معه على فراشه!!!

فراشه الذي كنتِ تعدينه له كل ليلة بيديكِ والآن...

تفعلينها...لرجلٍ آخر!!!

ذكية يا صفا...

ذكية وقوية...وقادرة!!!

كوني فخورة بنفسك كما يجب أن تكوني!!!

انقطعت أفكارها عندما انتبهت له وهو يخلع سترته ليقترب منها ...

فجنت خفقاتها أكثر وهي تراه يمد أنامله لينتزع عنها حجابها ...

قبل أن يحتضن خصرها بكفيه ليتطلع إليها بنظراته الدافئة للحظات طال فيها صمتهما...

قبل أن يهمس وعيناه معلقتان بعينيها:

_والآن ...ماذا تريدين؟!

عجباً لهذا الضعف الذي تسلل لأوردتها فجأة...

أين ذهبت قوتها المزعومة؟!!

أين قسوتها التي حافظت على قناعها طوال هذه الأيام؟!!

أين درع الانتقام الذي ظننته سيحميها في موقف كهذا؟!!

لا...لا...

لن تضعفي يا صفا...

لن تعودي كرةً يتقاذفها معشوقكِ بين قدميه...

ثوري على ردائك القديم وانزعيه تحت قدميكِ...

اجتاحي ضعفكِ كالإعصار فلا تبقي خلفكِ حتى مجرد بقايا جرح...

انسفي كل حقول ألغام عاطفةٍ فاسدة لم تنالي منها سوى الخسران...

اثبتي ....رسخي قدميكِ أكثر...

لكن....

أين تفرّ بروحها من قلبها الأحمق هذا؟!!

خائنة يا صفا !!!

خائنة!!!

لم تكن تظن أن مذاق الخيانة بشع هكذا!!!

كيف استساغه عبد الله إذن؟!!

كيف استطاع؟!!

لا...لا...

لن تكون أضعف منه...

ستقوى مثله على فعلها...

ستقهر قلبها وقبله جسدها...

ستفعلها...ستفعلها ولو ماتت بعدها كمداً!!!

وهنا ازدادت ارتجافة جسدها حتى بدت انتفاضتها كمحمومة بين ذراعيه ...

لتزداد نظرته عمقاً وكفاه يتراخيان ليبتعدا عنها ببطء مع همسه الذي غلب كبرياؤه حسرته:

_لا تريدينني أن ألمسك.

تلاحقت أنفاسها بجنون ليتصبب عرقها غزيراً على جبهتها...

وهي تتشبث بكفيها في ذراعيه لتهتف بصوت مرتعش جعله يخشى عليها بحق:

_أنا التي أرجوك أن تلمسني...أن تمحو كل آثاره على جسدي...انتزعه من قلبي حتى ولو سكنت بعدها خفقاته...اقتلعه من روحي حتى ولو خرجت معه...اقتله بداخلي حتى ولو قتلتني معه...لوثني بخيانته كما تدنس هو قبلي ..دع كفتي الميزان تتساويا...غدرٌ بغدر...والبادي أظلم!!!

هل تذبح الكلمات؟!!

ربما لو كانت تفعل لكان هو الآن جثة هامدة!!!

حروفها كانت تقطر سماً تغلغل بين خلاياه بقسوة قاتلة...

لكنه لن يخلف عهده مع نفسه مهما كان الثمن!!

سينفذ -ما تزعم أنها ترغبه الآن-

و-ما يقسم هو أنه يرغبه منذ سنوات...

ستكون -حليلة جسده -كما كانت منذ الأزل -حليلة قلبه-!!!

وهنا عاد يضمها إليه من جديد ليطفئ لهيب شفتيه على شفتيها اللتين كانتا باردتين كالثلج...

قبل أن تنسحب هي ببطء لتهمس كالمغيبة:

_انتظر حتى أتزين لك...أريد أن أكون بعينيك الليلة كأجمل مرة رأيتني فيها!

زم شفتيه بانفعال مكتوم وهو يعطيها ظهره ليبتعد بضع خطوات نحو الحمام القريب حيث بدل هو ملابسه...

ليعود إليها بعد دقائق وقد بدت له كما كانت بخياله منذ سنوات...

وكأن الأيام لم تمر ...!!!

هي هي...حلم عمره الذي كاد يلمسه بأنامله...!!!

بينما اقتربت هي منه بخطوات مرتجفة...

ثوب نومها القصير مع شعرها المنسدل على كتفيها يكتبان مع عطرها الصارخ دعوة صريحة للفتنة...

لولا عيناها الزائغتان ك-مغيبة -...

وشفتاها الشاحبتان ك-ميتة-...

وجسدها المرتجف ك-غريقة-

لزعم أن هذه هي أسعد لحظات حياته...!!!!

بينما وجدت هي صوتها أخيراً لتهمس بنبرة غريبة:

_جميلة يا أنس؟!أنا...امرأة جميلة؟!

هنا لم يستطع كبح جماح نفسه وهو يجيبها بفعلٍ أبلغ من أي كلام...

فيضان عاطفته الذي طالما انحسر خلف سدود كتمانه انفجر الآن بكل قوته ليحطم في طريقه كل ما عداه...

ليتذوق معها هذه اللذة التي ما حلم بها مع من سواها!!!

حتى إذا ما خمد الشغف وهدأت الأنفاس تلاقت العيون بحديث طويل...

ظاهره دفء وباطنه صقيعٌ أدرك كلاهما مدى قسوته...

خاصةً عندما انسحبت هي من جواره ببطء لتضم الغطاء عليها قبل أن تتوجه بصمت قاتل نحو حمام الغرفة لتغلق بابه خلفها برفق ...

وهنا فقط انهارت بجسدها أرضاً وهي تتشبث بغطائها حول جسدها بقوة ...

لتسمح لدموعها بالانهمار في نحيب مرتفع قبل أن تقول بصوت مسموع ودت لو تصرخ به الآن بكل قوتها :

_خنتك يا عبد الله...خنتك يا"ابن قلبي" ...خنتك كما خنتني...في بيتك وعلي فراشك!!

وعلى الجانب الآخر من الباب استند هو بظهره لتطعنه كلماتها في الصميم...

وأي طعنة على قلب رجلٍ أقسى من هذه؟!!!

لكنه أخذ نفساً عميقاً وهو يرفع رأسه لأعلى مخفياً جرح رجولته بصمتٍ أقسم من الآن أن يطول...

هو نذرٌ وجب عليه قضاؤه...

وقيدٌ سيقاتل الدنيا كي لا يكسره...

==========

_صفا تزوجت يا عبد الله!

_صفا تزوجت!

_تزوجت!

ظلت الكلمة تدوي في أذنه للحظات طويلة لتفقده وعيه جزئياً حتى أنه لم يدرك كيف أنهى الاتصال مع رؤى ولا كيف ترك المحل ليعود لبيته وهو لا يسمع سواها...

كلمة كذبها قلبه قبل أذنيه...

لا...صفا لن تفعلها...!!!!

بل فعلتها!!!

سلمت نفسها لرجلٍ غيره!!!

بل سلمها -هو-إليه...

نعم...تخلى عنها مرة واثنتين وثلاث...

ومنحها صك عتقها من أسره للأبد!!!

هو أضاعها...وهي...

هي ضيعته!!!

استقبلته فتون بدهشة ممتزجة بقلق وهي تسأله عن سبب عودته مبكراً...

لكنه حتى لم ينظر إليها...

قدماه ساقتاه بحركة آلية لغرفته التي أغلقها خلفه برفق...

قبل أن تتراجع صدمته رويداً رويداً لتحل محلها ثورة عارمة...

ثورة أضرمت النيران بين ضلوعه وهو يفيق على معنى الكلمة المريع...

صفا تزوجت...

رجلٌ غيره رآها...اشتهاها...لمسها...بل....!!!

صرخة هادرة انطلقت من حلقه وهو يندفع ليلقي كل ما تطاله يداه على الأرض بجنون!!!

قبل أن تتكور قبضته ليضرب الحائط بكفه عدة ضربات متتالية تزامنت مع صراخه الهائج دون وعي...

حتى شعر فجأة بتنميل ذراعه مع خيط الدماء الذي سال على معصمه ولم يعرف مصدره...

لينهار أخيراً جالساً على فراشه وهو يتلفت حوله وكأنه يبحث عن شئ ضاع منه...

لعلها...روحه!!!

نعم...روحه!!!

هي كانت "صفا روحه" والآن...الآن...

أطلق آهة عالية وهو يرفع وجهه للسماء هاتفاً بأعلى صوته :

_يارب!!!

ظل يهتف بها تباعاً حتى بح صوته فوضع كفه على صدره لعله يتمالك أنفاسه الثائرة...

لكن هيهات...

صدره كان يغلي بغضب ومخالب الغيرة تنهش صدره بمخالب من نار...

لتأتيه صفعة ضميره مؤنبةً بعذابٍ جديد...

نعم يا عبد الله تزوجت...

تزوجت من يراها امرأة كاملة ...

ألم تكن تراها دوماً ناقصةً بعينيك؟!!

ألم تفتقر معها لأنوثة تشبع ظمأ رجولتك؟!!

ألم تزعم دوماً أنها تمنحك شعور "الأم" و "الصديقة" لكنها تفشل في دور "الزوجة"؟!!

الآن وجدت من تغلو بعينيه بعد طول زهدك!!!

لكن...

كيف؟!!

كيف جرؤت؟!!

هو الذي عجز أن يلمس زوجته طوال هذه الأيام لتأتي هي وتفعلها هكذا ببساطة؟!!

الخائنة!!!!

لا!!!!

هو لن يخلص لها بعد!!!

سيخونها بجسده كما فعلت!!!

_فتوووووووووووون!!!!!

صرخ بها بكل غضبه فانفتح الباب بعد دقائق لتدخل هي منه بهدوء رغم انكسار نظراتها مع همسها الذابل:

_نعم يا شيخ!!

انقض عليها بعنف ليغلق باب الغرفة خلفها قبل أن يجذبها نحوه هامساً بنبرة مشتعلة:

_سنتمم زواجنا...الآن!!

لكنها دفعته بكفها برفق لتهز رأسها مع همسها بألم:

_لم تتغير يا شيخ...لم تتعلم شيئاً بعد كل ما حدث!

وكأنما سكبت كلماتها دلواً من ماء بارد على نيران روحه لتخمد مخلفةً وراءها حطاماً ورماداً...

لتردف هي بعدها بمواساة منغمسة ببساطتها المميزة:

_رؤى هاتفتني لتطمئن عليك وعندما سمعت صراخك وصوت تحطيمك للأشياء سألتها عن الأمر وعرفت السبب.

أغمض عينيه بقوة مع انعقاد حاجبيه وهو يعطيها ظهره ...

فأردفت بنفس النبرة:

_اسمح لي يا شيخ...اندفاعك هذا هو ما ضيعها منك !!

هنا التفت نحوها بحدة ليهتف بهياج :

_هكذا إذن؟!كلكم الآن تلومونني أنا؟!أنا الذي كنت شيطان هذه الحكاية ؟!

فاقتربت منه لتربت على ذراعيه بكفيها بحنانها البسيط الذي ناسب قولها:

_لم أقصد هذا...على العكس...أنا لا أريدك أن تظل هائماً في شعورك بالذنب...

ثم صمتت لحظة لتستجمع شجاعتها مع استطرادها:

_كلاكما انتقم من الآخر بهذه الطريقة...أنا أكاد أقسم أنها تحترق الآن كما تحترق أنت...لقد كنت شاهدةً لأيام طويلة على حبها العظيم لك..."سيدتي" صفا مجروحة...أنا أشعر بها...زواجها...

_لا تذكري هذا أمامي الآن....اخرجي!!!

صرخ بها بثورته مقاطعاً عبارتها وهو يشعر بهذه الكلمة تؤجج نيرانه من جديد...

فغلبتها دموع تأثرها وهي ترمقه بنظرة مشفقة قبل أن تخرج لتغلق الباب خلفها...

ولم تكد تفعلها حتى أطلق هو آهةً خافتة قبل أن ينهار ليستلقي على فراشه رافعاً غطاءه عليه وكأنه يريد عزلةً عن هذا العالم بأكمله...

وبعدما تحولت صدمته لثورة نهشت صدره بمخالبها ...

و"خيالاته" عما تفعله الآن مع من "صار زوجها" تكاد تصيبه بالجنون...

تراجعت أخيراً نيران ثورته لتخمد شيئاً فشيئاً مخلفةً وراءها فضاءً شاسعاً من شعوره بالضياع...

لقد حدث ما كان يخشاه معها منذ البداية...

عوقب على تفريطه في حقها بالحرمان منها...

وأي عقاب!!!

لماذا يا صفا؟!!

لم أكن أظنكِ تفعلينها أبداً !!!

لقد أجدتِ الانتقام كما أجدتِ العشق!!!

أجدتِ المنع كما أجدتِ العطاء...

وبعدما كنت أنا "ابن قلبك" جعلتِني "ذبيح قلبك"...

فيالقسوتك يا رحيمة العينين!!!

يقولون دوماً اتقِ شرّ الحليم إذا غضب...

فماذا عن شرّ الرحيم إذا قسا...

عن شرّ العاشق إذا حقد...

عن شرّ المأمون إذا غدر...

عن "شرّ" امرأة كانت يوماً "كل الخير"!!!

مضت به الساعة تلو الساعة وهو على ذات الوضع ...

لم يكن يغادر فراشه إلا للصلاة التي كان يطيل فيها سجوده صامتاً دون دعاء...

وقد شعر أن ما في قلبه أعظم من أن تصوغه كلمات...

لكن رب العالمين يدرك لوعته وهو وحده القادر على إجلائها...

ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟!!

وبعد منتصف الليل بقليل سمع صوت الباب يفتح برفق...

لكنه بقي على وضعه بلا مبالاة...

عندما فوجئ بمحمد يصعد لينام جواره مربتاً على وجنته بكفه الصغير مع همسه بحزن طفولي:

_ماذا بك يا "صاحبي"؟!

لم يستطع حتى الابتسام له فاكتفى بضمته الرفيقة مع سؤاله الخافت:

_لماذا لم تَنَم حتى الآن؟!!

عندها تعلق بعنقه بذراعيه الصغيرتين بكل قوته ليهمس ببراءة:

_قلقت عليك يا "صاحبي"!

ربت عبد الله على رأسه وهو يهمس بحنان لم يدارِ حزن صوته:

_لماذا؟!أنا بخير.

فهز محمد رأسه نفياً وهو يقول بانفعال طفولي:

_لا...لا تكذب ...الكذب حرام...كنت تصرخ وتكسر الأشياء ...وأنا اختبأت في غرفتي كي لا أسمع.

شرد عبد الله ببصره وهو يهمس بما يشبه الاعتذار:

_خفت مني؟!

فلوح الصغير بسبابته نفياً وهو يقول بتلقائيته العذبة:

_بل...خفت عليك !

ثم عاد يدفن وجهه في صدره ليردف ببراءة:

_أنا أحبك يا "صاحبي"!!

هنا ضمه عبد الله بكل قوة مشاعره وهو يغرق وجهه بقبلاته...

قبل أن يرفع وجهه إليه ليهمس بحنان بين دموعه التي لم يستطع وقفها:

_من الآن ستناديني "أبي"...اتفقنا؟!

ظهرت المفاجأة على وجه الصغير للحظات قبل أن تشرق ملامحه الوسيمة بفرحة غامرة وكأنه كان ينتظر منه هذا الأمر ...

لتنطلق من فمه المنمنم ضحكة عفوية قبل أن يومئ برأسه هامساً :

_هل يبكي الرجال يا "أبي"؟!!

قالها وأنامله الصغيرة تمسح الدموع عن وجنة عبد الله ولحيته ...

فاختلج قلب عبد الله بين ضلوعه وهو يسمعها منه لفظة "أبي" بهذه البساطة وكأنه يقولها منذ وعى على هذه الدنيا...

قبل أن ينتبه لسؤاله البرئ الذي عاد يذكي حرائق روحه...

فقبل جبين الصغير بعمق هامساً بصوت شديد الخفوت يكاد لا يُسمع:

_نعم يا صغيري...فقط...عندما ينكسر الرجل...يبكي!

لكن محمد رفع عينيه إليه بهمسه المتسائل:

_ماذا؟!

فابتسم عبد الله أخيراً ابتسامة باهتة وهو يداعب شعر الصغير بأنامله ليهمس بصوت ذبيح:

_لا ...الرجل لا يبكي!

فعاد محمد يداعب لحيته بأنامله الصغيرة قبل أن يتثاءب بقوة مع سؤاله الأخير:

_وماذا يفعل إذن عندما يحزن؟!

صمت عبد الله طويلاً وهو يجذب رأس الصغير لصدره ليربت على ظهره بحركة رتيبة...

مع همسه الشارد :

_يتألم ...ثم يتجاهل...ثم يتعايش...ثم...ينسى!!

انتهت عبارته لتنتظم معها أنفاس الصغير معلنةً استسلامه للنوم ...

فعاد برأسه للوراء قليلاً يتأمل ملامحه الوديعة بحنان ...

قبل أن يقبل رأسه مردفاً بنبرة كسيرة:

_وكيف ينسى يا صغيري؟!كيف ينسى؟!

===============

الفصل الثاني والثلاثون

_ألم تعثر على حبيبة القلب بعد؟!

هتفت بها يسرا بنبرتها المستفزة وهي تراقب شرود فهد عبر نافذته...

فالتفت نحوها من شروده بزفرة مشتعلة...

لتقترب هي منه مردفةً بدهشة لا تخلو من تقريع:

_شهران مرا على وفاة عمي جاسم ولازلت عاجزاً عن الخروج من قوقعتك هذه!!!

أطرق برأسه دون رد للحظات...

قبل أن يرفعه نحوها ليقول بحزم:

_من قال هذا؟!أنا أخذت قراراتي في كل ما يتعلق بحياتي القادمة!

اقتربت منه أكثر وهي تتفرس ملامحه بتفحص ...

عندما أردف هو بنفس الحزم:

_سأرد كل حق أعرفه إلى صاحبه ...لعل هذا يخفف من أوزار أبي -رحمه الله- ....وما بقي لي أنا وماسة سأقسمه بيننا ...سأستغل نصيبي في بدء عمل جديد بعيد تماماً عن نشاط أبي السابق.

اتسعت عيناها بصدمة للحظة قبل أن تهتف باستنكار:

_أنت مجنون؟!أي حقوق هذه التي تريد ردها لأصحابها؟!أنت تتحدث في مليارات ...هل ستتخلى عنها بهذه البساطة لتبدأ من جديد؟!

تنهد بحرارة وهو يشيح بوجهه عنها ليعاود شروده في النافذة مع قوله بألم:

_هذه المليارات التي تتحدثين عنها لم تشفع لأبي في النهاية...لم تخفف عنه مثقال ذرة من ألم في مرضه الأخير...عاش عمره يجمعها حراماً ليستعر بنيرانها في النهاية...فمن بنا العاقل ومن المجنون؟!

هزت رأسها بعدم اقتناع وقد ساءها تخليه عن ثروته بهذه البساطة لتعود تهتف بمكابرة:

_دعك من هذه المثاليات التي لا تسمن ولا تغني من جوع...اعترف أن كلامك هذا ليس من رأسك...هل هذا

ما بقي لك من أفكار حبيبة القلب الغادرة التي سممت عقلك قبل أن تهرب منك؟!!

انعقد حاجباه بغضب وهو يشعر بالندم لأنه صرح ليسرا بما عرفه عن وجود جنة على قيد الحياة...

لكنه لم يستطع وقتها إلا أن يفعل...

كان كالمجنون وهو يدرك فجأة أي شرك وقع فيه بسذاجة عندما صدق قصة موتها الملفقة!!!

لقد حاول بعد وفاة أبيه جمع أي معلومات من رجاله عن جنة لكنه لم يصل لشئ!

حتى حسام عجز عن مساعدته هذه المرة فلم يستطع العثور على طرف خيط خاصة وقد سافرت هي باسم مستعار لا يعرف عنه شيئاً!!!

للأسف...الأمل الآن أن تظهر جنة من تلقاء نفسها !!!

وظنه أنها ستفعلها قريباً!!!

جنة التي يعرفها لن تفعل شيئاً كهذا غدراً ولا ظلماً...

من المؤكد أن لها أسبابها وهو لن يهدأ حتى يعرفها...

لكن مهما كانت مبرراتها فهو لن يسامحها على ما ناله -هو- بسببها...

على حرقة قلبه طوال هذه الأشهر وهو يظنها فارقت الحياة...

بل وبسببه!!!

فليعثر عليها أولاً ...وبعدها سيريها كيف يكون ثأره ثمناً لهذا العذاب الطويل!!!

لكن يسرا عادت تقطع عليه سيل أفكاره بعبارتها المستفزة:

_تفعل كل هذا لأجل واحدة خدعتك لتهرب منك؟!

_بل لأجل نفسي!!

هتف بها بنبرة حاسمة وهو يعاود الالتفات إليها قبل أن يردف بصدق:

_لأجل نفسي يا يسرا...نفسي التي وجدتها على طريق الحق ولن أضيعها ثانيةً بين متاهات الضلال...

ثم صمت لحظة ليردف بنبرة أكثر حسماً:

_أما جنة...فسأجدها...ولن أحكم عليها حتى أسمع منها...ساعتها فقط سأقول كلمتي بشأنها!

===========

إهداء

_إلى "شبه" رجل نظر في مرآته فظن نفسه رجلاً...

ولو نظر في مرآتي لأدرك الفارق!!!

قرأتها زهرة في المطعم -الذي صار محل اجتماعهن معاً -بصوت مسموع على خاتمة رواية طيف الجديدة...

فضحكن جميعاً بصوت مسموع عدا جنة التي أشاحت بوجهها دون رد...

عندما سألت ماسة طيف باهتمام:

_لمن هذا الإهداء يا طيف؟!يبدو مقصوداً!

ثم صمتت لحظة لتردف ببعض الحرج:

_ألا ترينه غريباً بعض الشئ؟!

ضحكت طيف ساخرة وهي تستخرج إحدى سجائرها من علبتها قائلةً:

_لو كان بيدي لعممتها على جميع الرجال...لكن ما باليد حيلة!

هنا ضحكت ماسة ببعض المرح لتقول مدافعة:

_لا...ليس كل الرجال سواء...أخي كاد يموت حزناً على زوجته الأولى وظل مخلصاً لها...ورغم أن الظروف اضطرته لزواج ثانٍ لكنه لم يمس الأخرى وفاءً لحبيبته.

فضحكت طيف ضحكة ساخرة طويلة قبل أن تمط نهايات كلماتها بحركة مقصودة مع قولها باستهجان:

_الظروووووف اضطرته ؟!!ولم يمسهاااا؟!!المسكييييييين!!!!!

ثم صمتت لحظة وهي تلوح بسبابتها في وجه ماسة مردفة بتهكم:

_أخوكِ هذا إما أنه يكذب عليكِ أو أنه كائن فضائي هبط على كوكبنا بالخطأ!

ضحكن جميعاً بصخب رغم أن عبارتها أثارت شجن جنة وهي تشعر بهذا الحديث يؤجج ظنونها بشأن فهد مع يسرا...

لكنها عادت تتحسس بطنها بأمل وهي تدعو الله صامتة أن يحفظه لها حتى تعود إليه بابنته!!!

فيما أشعلت طيف سيجارتها لتأخذ منها نفساً عميقاً قبل أن تنفثه مع عبارتها التي غلبها فيها شرودها:

_آه...!!!من يقول أن ابنة "أم طيف" التي كانت تنام على الأرصفة دون عشاء..تجلس الآن في أفخم مطاعم "أبو ظبي "تشرب سيجارتها بتلذذ وتسب الرجال كما تشاء!!

تبادلن جميعاً نظرات متفاوتة بمشاعرها...

كانت أقواهن فيها جنة التي لم يعجبها هذا الوضع فقالت ببعض الصرامة:

_أحسني حمد الله على نعمته إذن بدلاً من هذا التمرد.

عادت إليها طيف بنظراتها المشتعلة...لكنها أردفت بغضب حقيقي هذه المرة:

_وأطفئي هذه اللعينة وإلا سأقوم!

تنمرت ملامح طيف بعناد فضح رفضها لكن ماسة حاولت تلطيف الأجواء بقولها لطيف:

_لأجل طفلها يا طيف...أنتِ تعلمين أن ...

قطعت عبارتها عندما أطفأت طيف سيجارتها بحركة قوية في منفضة السجائر القريبة وهي ترمق جنة بنظرة ساخطة...قبل أن تقول باعتداد:

_حسناً...لأجل ظروف حملك فقط...أنا "صعيدية" وأفهم في الأصول!!

_صعيدية؟!!

هتفت بها دعاء بدهشة وهي تتفحص ملامحها باهتمام مع قولها الودود:

_وأنا أيضاً...من أي بلدان الصعيد أنتِ!!

وهنا اتسعت عينا ماسة بصدمة وطيف تذكر اسم المدينة ببساطة...

ثم التقت عيناها مع دعاء بنظرات ذات مغزى...

قبل أن تشير -الاثنتان -بسبابتيهما نحوها مع هتافهما المذهول معاً في نفس الوقت:

_أنتِ طيف؟!!

أجفلت طيف من ردة فعلهما المتطرفة...

فعادت برأسها للوراء في حذر وهي ترمقهما بتشكك قبل أن ترفع أحد حاجبيها مع قولها:

_ماذا؟!هل صرت مشهورة هكذا؟!

ظلت الصدمة تكسو ملامح ماسة ودعاء للحظات بعدها قبل أن تهتف الأخيرة بتشتت:

_حقاً...الدنيا ضيقة كما يقولون...

ثم عادت تشير نحوها بسبابتها في حركة عصبية مع استطرادها:

_أنتِ طيف؟!!يالجبروتك!!!لم أصدق ماسة عندما أخبرتني بخطتك الجهنمية التي دبرتها مع عاصي وانطلت على حسام...كنت أسأل نفسي دوماً عن طبيعة تلك المرأة التي استطاعت خداع رجلين كعاصي الرفاعي وحسام القاضي!!!

ثم هزت رأسها مع ابتسامة شاحبة رافقت قولها:

_والآن عرفت!!

ضاقت عينا طيف بنظرات مشتعلة وهي تقول من بين أسنانها:

_حسام القاضي!!!من أنت بالضبط؟!

راقبت جنة الحوار بعينين حذرتين ...

فيما اكتفت حسناء بابتسامتها العابثة ...

بينما بدت زهرة -المنبهرة دائماً- كمن يشاهد فيلماً سينمائياً ثلاثي الأبعاد!!!

عندما اتسعت ابتسامة دعاء لتتحول لضحكة ساخرة مع قولها:

_زوجته!!

_ماذا؟!

هتفت بها طيف بانفعال وهي تخبط بكفها على المائدة بحركة عصبية لفتت إليهما أنظار الحضور...

فتراجعت دعاء بظهرها وهي ترفع راحتها أمام وجهها لتقول مدافعة:

_كنت!!

أطلقت حسناء ضحكة عالية وقد شعرت بطرافة الموقف...

فرمقتها طيف بنظرة زاجرة ثم عادت ببصرها نحو دعاء صامتة للحظات...

قبل أن تستعيد ثباتها وابتسامتها الساخرة مع قولها:

_الآن فهمت....إذن هو ذاك "النذل خائب الرجا" الذي حكيتِ لنا عنه من قبل....من تخلى عنكِ في محنتك بمنتهى الصفاقة!

ثم شردت ببصرها لتردف بسخرية مريرة:

_لا فائدة...النذالة في دمه!!

ترددت دعاء للحظات ولازالت الصدمة تزلزل وعيها...

ثم حسمت أمرها أخيراً لتقول بحزم:

_لا يا طيف...سأقول ما له وما عليه...أنتِ دمرت حسام بفعلتك هذه...أي قسوةٍ امتلكتِها كي تفعلي به هذا؟!لقد جعلتِه يعيش بذنبك طوال هذه الأيام وهو يرى نفسه السبب في انتحارك...

_ذنب؟!وهل يعرف مثله الشعور بالذنب؟!

هتفت بها طيف بحقد وشا بمدى جرحها وهي تهب واقفةً مكانها...

وذهنها يستعيد ذكرياتها التي طمستها معه قهراً...

ليستعيد قلبها الشعور بطعنة غدره وكأن دماءه لا تزال رطبةً على راحتيها!!!

فيما هتفت دعاء بانفعال:

_لقد سجن نفسه طوال هذه الأيام بين ذكرياته معك...ثوب الزفاف الذي رسمته أناملك جعله حقيقة لألبسه أنا...عقد الفل الذي تمنيتِ تزيين رأسكِ به لم يغادر خزانة ملابسه ...ندبتك التي تركتِها في قلبه صارت بصمة مميزة لقسوته مع الجميع وعلى نفسه أولاً...

ثم هزت رأسها لتقول باستنكار:

_لا أدري أي عشقٍ أسود هذا الذي جمع بينكما لتنتهيا معاً بهذا التشوه؟!!

هنا انهارت طيف جالسةً على مقعدها وقد أبت أن يظهر شئُ من تأثرها على ملامحها الجامدة...

لكن ارتجافة أناملها فضحتها وهي تقول بنبرة لم تفقد صلابتها:

_هو الذي أخبركِ بهذه التفاصيل؟!

صمتت دعاء دون رد وهي تطرق برأسها...

فأردفت طيف بنفس النبرة:

_ماذا كنتِ تنتظرين مني بعد صفعته لي؟!أن أدير له خدي الآخر؟!لا ...لست أنا...علمتني الأيام أن الصفعة ترد بعشرٍ وأكثر!!

ثم رفعت أنفها لتقول باعتداد:

_لست نادمة...هو كان يستحق كل هذا العذاب...وأكثر!

أشاحت دعاء بوجهها في اعتراض وقد آلمها كل هذا الموقف بقسوته...

لم تتصور يوماً أن تلتقي ب"طيف حسام" وجهاً لوجه...

وليتها ما فعلت!!!

ليتها ما رأت كيف يحولنا الانتقام لمسخ مشوه ربما لا يقوى صاحبه نفسه على النظر إليه!!!

لكن طيف استعادت تماسكها كاملاً بسرعة تحسد عليها وهي تعاود سؤالها بحذر:

_المهم...دعكِ من ذاك البائس وأخبريني...من أين تعرفين عاصي الرفاعي؟!

_عاصي زوجي أنا!

قالتها ماسة بنبرة ثابتة وهي تواجه طيف بنظراتها القوية...

قبل أن تردف بخفوت:

_وهو الذي أخبرني بالحقيقة كلها!

فابتسمت طيف بسخرية وهي تتلاعب بحزام حقيبتها بحركة عصبية مع قولها المتهكم:

_ياالله!!!!ما هذا اليوم اللطيف؟!لولا أنني أعرفكما من زمن لقلت أنه "برنامج مقالب "وأنا بطلة الحلقة!!!

رمقتها ماسة بنظرة طويلة وقد أدركت أن سخريتها السوداء هذه تخفي جرحاً كبيراً...

ولا تدري لماذا شعرت في هذه اللحظة بالذات أنها تشبه عاصي كثيراً...

نفس قناع القسوة الذي يدفن تحته أطناناً من ألم!!!

نفس ستار القوة الذي يتوارى خلفه قلبٌ كسير!!!

نفس غيوم جبروت كثيفة اختفى خلفها قمر الحب مدحوراً!!!

ترى هل تلومهما؟!

أم تلوم الظروف التي دفعتهما لهذا؟!!

لا!!!

لن تلقي باللوم دوماً على الظروف...

ربما لم نختر البدايات لكن النهاية تكون دوماً قرارنا وخيارنا!!!

لهذا عادت تقول لطيف بحزم أقوى:

_عاصي كان يبحث عنك طوال هذه الفترة كي يعوضك عما فات...لكنكِ هربتِ منه بعدما حصلتِ على نصيبك من إرث أبيكِ...فعلامَ تلوميه؟!

هنا عادت طيف تقف مكانها لتقول بقسوة :

_أعطاني حفنة أموال واستنكف أن يعترف بي أمام الناس وكأنني مجرد "كلب أجرب" ألقى إليه عظمة ليصرفه بعيداً...ياللكرم!!

ثم تناولت حقيبتها وهي تردف بنبرة عاد إليها تهكمها:

_عاصي الرفاعي لا يفكر في أحد سوى نفسه...لو كان أفضل من هذا لما وصلتِ أنتِ إلى هنا!!

عقدت ماسة حاجبيها بضيق ودعاء تربت على ركبتها خفية...

فيما ارتدت طيف نظارتها الشمسية باعتداد قبل أن تلوح بسبابتها في وجهيهما قائلة بصرامة:

_لا أريد أن يعرف أحد عن حقيقة وجودي هنا.

ثم رفعت أنفها لتردف بفظاظة:

_بل لا أريد أن أراكما ثانيةً من الأساس...وداعاً!!

قالتها وهي تغادر المكان بخطوات ثابتة تاركةً خلفها سحابةً سوداء من همّ أظل المكان بعد طول صخب...

ليسود الصمت على الألسنة بينما تغلي القلوب على مراجل الوجع !!!

===========

طيري يا طيارة طيري

يا ورق وخيطان

بدي أرجع بنت صغيرة

ع سطح الجيران

وينساني الزمان ع سطح الجيران

_أوقف هذه الأغنية!!

هتفت بها ماسة بانفعال لم يجده هو مبرراً وهي تشير نحو هاتفه بأنامل مرتجفة...

فالتفت نحوها بدهشة مستنكرة أجفلتها للحظات...

قبل أن تغمغم بنبرة اعتذار مرتبكة:

_آسفة يا "دكتور"...لم أقصد ...كن على راحتك...سآتيك بعد قليل!

قالتها وهي تعطيه ظهرها لتنصرف...

وقد أشعلت كلمات هذه الأغنية بالذات حنيناً لا يكاد ينطفئ بصدرها...

كيف تنسى أنها أول ما غنته بصوتها أمامه؟!!

كيف تنسى ملامح وجهه وقتها وهو يتأملها كساحرة هبطت عليه من أعالي الجنان لتسكن أرضه؟!!

كيف تنسى عبارته وقتها:

_صوتك يشبهك...قوي رقيق ساحر...لكنه كسير!!

كيف تنسى عتابه المطعم بنكهة- غيرته -وهو ينهاها عن الغناء هناك في الحديقة ساعتها....

قبل أن يجذبها من كفها نحو سطح القصر ليمنحها الحرية كي تفعل ما تشاء هناك ؟!!

كيف تنسى ؟!!

والنسيان في حق رجل مثله "كبيرةٌ "لا تمحوها توبة...

لكنه "فريضةٌ "لا تسقط عن مُستطيع!!!

فما حيلتها ؟!!

ولازال "سيد الأضداد" متكئاً على عرش روحها يبسط هيمنته...

إلا على جواد جامح من كبريائها الذي لم يروضه عشقها بعد!!!

_ماسّة!

بلكنته المميزة نطقها ليخرجها من شرودها فالتفتت نحوه من جديد ...

لتلتقي بنظراته الحنون مع أنامله التي امتدت لهاتفه توقف الأنغام ...

قبل أن يقول بابتسامته العذبة:

_ها قد توقفت الأغنية...ماذا كنتِ تريدين؟!

احمرت وجنتاها بخجل وقد هُيئ إليها أنه قد قرأ أفكارها بعينيه النافذتين هاتين...

لتتنحنح بارتباك مع غمغمتها بكلمات متقطعة:

_لم أقصد ...التدخل...فقط. ..هذه...الأغنية...

ضحكته الصافية المنطلقة قاطعت كلماتها المتعثرة...

ليزداد احمرار وجنتيها مع قوله المرح أخيراً:

_أحب رؤيتك مرتبكة...تبدين مختلفة كثيراً عن تلك الواثقة الحاسمة التي يعرفها الجميع هنا!

ثم لوح بسبابته في وجهها ليردف بنفس المرح:

_طوال عمري كنت مولعاً برؤية الوجه الآخر للعملة.

ابتسمت أخيراً بمرح مشوب بخجلها وهي تطرق برأسها...

فأشار للكرسي أمام مكتبه ليقول بنبرة أكثر جدية :

_والآن اجلسي...وأخبريني ماذا كنتِ تريدين!

امتثلت لأمره صامتة للحظات قبل أن تستعيد تماسكها لتقول بامتنان:

_جئت أشكرك على مساعدتي...ليس فقط لأجل نجاح العملية...لكن لأنك ساعدتني في التكتم على الأمر قدر المستطاع.

نظر إليها نظرة طويلة وكأنه يقرأ دواخلها...

قبل أن يقول بنبرة متسائلة:

_لم يكن الأمر بهذه الصعوبة...لكن ما يحيرني حقاً لماذا تعمدتِ ألا تجري هذه الجراحة هنا في المشفى ؟!ولماذا سعيتِ لإخفاء الأمر بهذا الحرص؟!

صمتت طويلاً دون رد وقد عجزت عن ذكر أسبابها الحقيقية...

أو فلنقل -سببها الحقيقي- فليس لديها غيره!!!

نعم...بالضبط...

عاصي ...ومن غيره؟!!

هي -شبه- واثقة أنه يراقبها بطريقة ما ها هنا!!!

ولا تريده أن يعرف شيئاً عن أمر جراحتها هذه!!!

ألم يتخلَّ عنها لأجل الولد...

فليحصل عليه من غيرها إذن!!!

هو لا يستحق أن يكون والد ابنها...

لا يستحق هذه الفرحة أبداً!!!

لهذا أخذت نفساً عميقاً ثم قالت بتحفظ:

_هذه طبيعتي...لا أحب أن يعرف أحدٌ شيئاً عن حياتي الخاصة.

ابتسم بتفهم وهو يراقب ملامحها الجامدة ليقول برفق:

_نعم...لقد لاحظت هذا أيضاً طوال فترة عملك معنا هنا الفترة السابقة...

ثم صمت لحظة ليردف بإعجاب لم يستطع كتمانه:

_صندوق مزخرف بنقوش زاهية...لكنه مغلق!!

ابتسمت لغرابة تشبيهه لتهز رأسها مع قولها ببعض الشجن:

_أنت تعلم أن الناس لا يتركون أحداً وشأنه...ولا أحب أن تكون شئوني الشخصية مثار أحاديث الناس هنا!

_ماسة!

هتفت بها زهرة وهي تدخل من الباب باندفاع لترمقهما بنظرة ملتاعة..

فالتفتت نحوها ماسة وهي تقول بترقب:

_ما الأمر يا زهرة؟!تبدين منزعجة!!!

حاولت زهرة السيطرة على انفعالها الهادر الذي يتملكها -كعادتها- كلما رأتهما سوياً..

لتقول بأقصى ما استطاعته من هدوء:

_عفواً لمقاطعتكما...لكن مريم مريضة...أنتِ تعلمين أنها مريضة "سكر" وحملها يزيد الأمر سوءاً...هي تحتاج لتعليق بعض المحاليل وأنا لدي نوبتجية مسائية اليوم...هلا ذهبتِ إليها بدلاً مني؟!

أومأت ماسة برأسها موافقة قبل أن تعاود التفاتها لجهاد بابتسامة ممتنة:

_حسناً يا "دكتور"....سأضطر للانصراف...أشكرك مرة أخرى!!

منحها جهاد أجمل ابتساماته قبل أن يعاود الانشغال بأوراقه..

فيما رمقته زهرة بنظرة آسفة قبل أن تغادر مع ماسة التي بادرتها بقولها:

_أعطني عنوان مريم...وأنا سأبيت معها الليلة!

أومأت زهرة برأسها وهي تعطيها العنوان بفتور...

لكن ماسة لم تنتبه لهذا وهي تهرول للخروج ...

فتنهدت زهرة بحرارة وهي تعاود الالتفات نحو غرفة جهاد بيأس...

قبل أن تعود لعملها...

بينما توجهت ماسة للعنوان الذي معها...

لتفاجأ بحالة مريم السيئة وهي تفتح لها الباب بتهالك رغم محاولتها للتظاهر بالتماسك:

_ماسة!!ما هذه المفاجأة؟!أين زهرة؟!

رمقتها ماسة بنظرة مشفقة وهي تحتضن كتفيها بذراعها لتقول بحنان عاتب:

_ماذا نفعل في عنادك هذا؟!ألم نطلب منكِ كثيراً أن تأتي للإقامة معي أو مع زهرة في شقتها؟!ظروف حملكِ هذه لا تتفق أبداً مع عيشكِ وحدك!!

ابتسمت جنة ابتسامة شاحبة وهي تقول بإعياء واضح:

_حسناً...يبدو أنكما على حق...كانت ليلة صعبة حقاً...حتى أنني خشيت على الطفلة.

قالتها وهي تتحسس بطنها برفق...

فأسندتها ماسة حتى أوصلتها إلى فراشها الذي عاودت الاستلقاء عليه ...

قبل أن تبدأ ماسة في تعليق المحاليل على القائم المعدني جوار الفراش...

حتى انتهت مما تفعله...

فجلست جوار جنة على طرف الفراش لتربت على كفها قائلة بحنان :

_لا تخافي...ستكونين بخير!

أغمضت جنة عينيها وهي تكاد تعتصر قماش قميصها فوق بطنها لتهمس بصوت متهدج:

_أخاف عليها هي يا ماسة...أنتِ لا تعلمين بماذا ضحيت لأجلها!!

رمقتها ماسة بنظرة مشفقة طويلة وهي تشعر أنها تخفي سراً كبيراً ومعاناةً أكبر...

ورغم أنها لم تعرفها إلا منذ ما يقارب الشهرين...

لكن اجتماعهن -شبه اليومي- بذاك المطعم جعل المسافات تقصر كثيراً بين القلوب...

وكما حكت لهن ماسة عن حكايتها مع عاصي بينما تحفظت عن ذكر جاسم الصاوي...

احترمت بتفهم كبير تحفّظ مريم هي الأخرى عن ذكر أي شئ يتعلق بحياتها الخاصة...

ولو أنها لم تنكر سر هذه الألفة التي كانت تشعر بها نحوها هي بالذات...!!!!

لهذا عادت تربت على كفها برفق قائلة :

_لا بأس...ستنسين كل هذا التعب عندما تتلقفينها بين ذراعيك...لترينها بعينيك أجمل طفلة في العالم.

ثم صمتت لحظة لتسألها بمرح محاولةً التخفيف عنها:

_هل فكرتِ في اسم لها؟!

هنا فتحت جنة عينيها ببطء لتبتسم بشرود مع همسها:

_والدها أسماها منذ زمن بعيد..."ملك"!

ابتسمت ماسة وهي تلاحظ ذاك الحزن الذي ارتسم بعيني رفيقتها مع عاطفة التمعت كالشمس في عينيها...لتقول بمواساة:

_يبدو أنكِ تحبينه كثيراً...لن أسألكِ عن تفاصيل شخصية ربما لا تحبين الإفصاح عنها...لكنني أدعو الله بحق أن يجمعكِ به قريباً.

_يارب يا ماسة...يارب!

همست بها جنة بحرارة قبل أن تغلق عينيها مستسلمة لإعيائها الذي أسلمها لنوم طويل...

فتنهدت ماسة بحرارة وهي تراقب ملامحها بقلق مشوب بحنانها...

قبل أن تقوم من مكانها لتتمدد جوارها على الفراش الآخر وعيناها تراقبان المحلول المعلق باهتمام...

قبل أن تنسحب منها أفكارها عنوة لمنطقة بعيدة...

لا...للعجب لم تكن لعاصي هذه المرة!!!

بل...ل"جهاد"!!!

ذاك الرجل الذي ساعدها كثيراً منذ جاءت إلى هنا...

وطوقها بمعروفه الذي بدأ بمساعدتها في العمل..

وانتهى بأن كان سبباً في علاجها!!!

ولأول مرة تنتبه أن "جهاد" يمثل "النقيض" لصفات "عاصي"!!!

مثاليته وتواضعه وإيمانه...أمام غرور عاصي وجبروته...

مرحه المناسب لصغر سنه...أمام وقار عاصي الذي يصل لحد الغموض كثيراً...

تلك الهالة المضيئة المحيطة دوماً به كملاكٍ رحيم...أمام قسوة عاصي التي جعلت الجميع يمنحونه بجدارة لقب "شيطان "!!!

غريب!!!

وكأنما يمثل كل رجلٍ منهما نصفاً عكسياً من اللوحة!!!

أحدهما أبيض...والآخر...أسود!!

وعند خاطرها الأخير هزت رأسها بعنف وهي تنهى نفسها عن التفكير في هذا الأمر أكثر...

لتنتبه للمحلول الذي كاد ينتهي تقريباً...

فقامت من مكانها لتنزع العبوة الفارغة وتضع أخرى مكانها...

لتعاود بعدها الجلوس على فراشها تنتظر انتهاء هذه الليلة ...

وبعدها بساعات كان الصباح قد أشرق على الدنيا...

فتثاءبت بإرهاق ثم قامت لتوقظ جنة برفق هامسةً :

_قومي يا مريم...أريد أن أقيس لكِ نسبة "السكر" حتى نطمئن!

فتحت جنة عينيها وهي تشعر بالكثير من التحسن...

فقامت من نومتها وهي تقول بامتنان:

_شكراً يا ماسة...أتعبتكِ معي.

لكن ماسة ابتسمت لها بحنان لتقول بصدق:

_المهم أننا اطمأننا عليكِ.

وبعدها بقليل كانتا تقفان في شرفة الشقة الصغيرة تتبادلان الأحاديث بود...

عندما سألت جنة ماسة باهتمام و"زهرة هي من تشغل بالها الآن":

_ما رأيك في دكتور جهاد؟!

التفتت نحوها ماسة بحدة وقد أزعجها السؤال لسبب لم تشأ الاعتراف به...

فابتسمت جنة بما يشبه الاعتذار مع قولها:

_مجرد ثرثرة!!

تنهدت ماسة بحرارة ثم قالت بشرود متشح بالغموض:

_أحياناً أشعر أنني محظوظة حقاً...رغم أن القدر بدا وكأنه يحرمني أبسط حقوقي...لكن عطايا السماء لم تنقطع عني يوماً...وكأن القدر الذي كان يمنعني بيد ...كان يمنحني باليد الأخرى.

عقدت جنة حاجبيها بقلق وقد أساءت تفسير كلمات ماسة ....

ماسة التي كانت غافلةً عما فهمته جنة وهي تردف بنفس النبرة الغامضة:

_دكتور جهاد ساعدني كثيراً هنا...شخصية جديرة بالاحترام حقاً.

أطرقت جنة برأسها للحظة قبل أن تسألها مباشرة دون مواربة:

_ماسة...هل يتعدى الأمر معك حدود الامتنان والاحترام؟!

صمتت ماسة للحظات تفكر...

قبل أن تنفرج شفتاها وهي تهم بالرد عندما حانت منها التفاتةٌ نحو العصفورين هناك...

فابتسمت بسعادة وهي تتوجه نحوهما لتقول بمرح:

_ياللجمال!!!كم أعشق العصافير!!

_فهد وجنة!!

قالتها جنة بابتسامة شاردة وهي تعقد ساعديها أمام صدرها...

فتجمدت ماسة مكانها للحظات وقد كان للاسمين معاً دويٌ هائل في أعماقها!!!

_فهد وجنة!!!

_مريضة سكر!!!

_هل رأيتكِ من قبل؟!!

_شحوب وجه جاسم الصاوي مع قوله:

_لماذا الإمارات بالذات؟!!

_خريجة حقوق!!!

_فهد وجنة!!!

_جنة!!!!!

_جنة!!!!!!

كانت هذه الومضات تتوالى تباعاً في ذاكرتها لتلتمع الحقيقة فجأة في ذهنها...

الآن تذكر أين رأتها...

فهد أراها صورتهما معاً ذات يوم لكنها لم تنتبه لهذا!!!

يالله!!!

سبحانه يدبر الأمر!!!

طوال هذه الأيام وهو يكاد يجن بحثاً عنها وهي هنا جوارها هي!!!

أخيراً يا فهد...

عثرنا على جنتك المفقودة!!!

لكن...لماذا فعلت جنة هذا؟!!

_أخاف عليها هي يا ماسة...أنت لا تعلمين بماذا ضحيت لأجلها!!!!

اذن هذه هي الحكاية!!!!

جنة خافت على جنينها من بطش جاسم الصاوي الذي كان سينالها مع فهد إن آجلاً أو عاجلاً...

فآثرت الابتعاد حتى تطمئن!!!

معها حق!!!

لكن...فهد!!!

فهد يجب أن يعرف!!!

_ماسة!

هتفت بها جنة تنتشلها من صدمتها وهي تقترب منها -غافلةً عما يدور برأسها -لتقول بنبرة عاتبة:

_هل تتهربين من السؤال؟!

_أي سؤال؟!

تمتمت بها ماسة بتشوش حقيقي وهي تعاود النظر إليها بتفحص...

فابتسمت جنة وهي ترفع أحد حاجبيها بنبرة محذرة:

_جهاد يا ماسة!

ظلت ماسة تنظر إليها لدقيقة كاملة لا تكاد تعي ما تقوله هي...

حتى سألتها أخيراً :

_متى غادرتِ مصر يا.....مريم؟!

عقدت جنة حاجبيها بدهشة من توقيت السؤال ...

قبل أن تهز كتفيها لتجيب ببساطة:

_سبتمبر الماضي.... لماذا؟!

هنا ابتسمت ماسة ابتسامة واسعة وهي تحتضنها بقوة أمام نظراتها المندهشة...

ثم ربتت على بطنها البارز بحركة حانية...

قبل أن تقول لها بغموض:

_سأعد لكِ مفاجأة هائلة ستشكرينني عليها.

أمالت جنة رأسها بتساؤل...

لكن ماسة توجهت نحو الباب لتنتزع حقيبتها بسرعة مع قولها المتعجل:

_تذكرت أمراً هاماً يستدعي رحيلي..سأعود إليكِ بعد قليل....سلام!

قالتها وهي تصفق الباب خلفها بعنف لتغادر...

فهزت جنة رأسها ولم يسعفها ذكاؤها بتفسير لتصرفها إلا مجرد هروب من سيرة "جهاد" الملغمة!!!

بينما هبطت ماسة الدرج بسرعة ولم تكد تصل لمدخل البناية...

حتى تناولت هاتفها لتتصل به وما إن سمعت صوته حتى هتفت بسعادة:

_وجدتها يا فهد..وجدت جنة!!!

===========

سمعت رنين الجرس فتحاملت على نفسها لتقف عندما عاودها الدوار المصاحب لانخفاض ضغطها...

لاريب أنها ماسة أو زهرة جاءتا تطمئنان عليها....

سارت بخطوات متعثرة نحو باب الشقة لتلتقط وشاحها العريض مغطية به نصف جسدها العلوي قبل أن تفتح الباب لتصطدم بنظراته القاسية...

هيئ إليها أن قلبها قد توقف عن النبض للحظات...

قبل أن يعاوده جنون دقاته بثورة بثت ألماً حقيقياً بين ضلوعها...

فهد!!!

هل هو فهد حقاً؟!!

أم أنه حلمٌ جديد من أحلامها -التي لا تنتهي- به؟!!

نعم...إنه...هو..هو...!!!

وكأن الشهور لم تمرّ...

وكأنها منذ دقائق فقط كانت...على صدره!!!

ازداد شعورها بالدوار وهي بالكاد تتحامل على نفسها لتحافظ على ثباتها...

ليرتجف جسدها أكثر مع همستها التي انفلتت باسمه بحرارة شوقها إليه:

_فهد!

فيما اقترب هو ببطء ليدخل ويغلق الباب خلفه وعيناه لا تحيدان عن عينيها بنظرة مظلمة أهلكت قلبها ترقباً...

خاصةً عندما همس أخيراً بنبرة جامدة:

_جيدٌ أنكِ لازلتِ تذكرين!!

انفرجت شفتاها وكأنها تبحث عن كلمات لكن صدمتها ألجمتها...

عندما هوت صفعته العنيفة على وجهها فجأة لتدمي شفتيها...!!!!

كتمت صرختها بكفها وهي تتحاشى النظر إليه...

فلم يشعر بنفسه وهو يجذبها نحوه ليطوقها بذراعيه بعنف يعتصرها اعتصاراً جعلها عاجزةً عن منع تأوهاتها...

وبينما كانت قبضتاه على ظهرها توسعانها ضرباً ...

كانت شفتاه على وجهها في وادٍ آخر!!!

كانت يداه تتنفسان عن غضب يحرق صدره كبركان...

بينما بدت قبلاته وكأنها تعتذر...

تعاتب...

تشرح..

وتفسر...

وتقسم أنها لازالت على العهد!!

هو لم يكن يفهم مشاعره....

لكنها هي -للعجب- كانت تفهمه!!!

نعم...رغم أنها كانت غائبةً تماماً عن شعورها وكأنها فجأة فقدت إحساسها إلا به ...

هو فقط!!!

لحظاتٌ مرت عليها كغريقة تجاهد فقط للوصول لسطح الماء ...

تريد فقط أن تتنفس...

أن تدرك...

أن توقن فقط أن هذا حقيقي!!!

قبل أن يعود إليها إحساسها تدريجياً بهذا الألم الذي اكتسح جسدها تدريجياً بفعل ضرباته...

لكنها عجزت عن التأوه مع اعتقاله لشفتيها بين شفتيه فيما بدا كقبلة...

لكنه كان أشبه بإعصار!!!

بينما كان هو أبعد ما يكون عن تحكمه في أي شئ!!!

رغم سابق حديثه مع نفسه بالتريث...

ونصائح ماسة له قبلها أن يسمعها أولاً...

لكنه الآن يجد نفسه وكأنه فقد السيطرة على جسده...

على قلبه...

على روحه...

على دمعه الذي امتزج بدموعها وبشرته تلاصق بشرتها ...

وجسده يضمها فيما لا يدري إذا كان عناقاً أو معركة!!!

حتى شعر بها تتهاوى بين ذراعيه أخيراً فاقدةً ثباتها...

سقطت على ركبتيها...

لكنه لم يفلتها بل ظل ملتصقاً بها ليسقط على ركبتيه هو الآخر...

قبل أن يبتعد بوجهه عنها أخيراً ليهمس وسط أنفاسه اللاهثة :

_لماذا؟!!الماذا؟!!الماذا؟!!

كانت وتيرة صوته تزداد انفعالاً كل مرة حتى وصلت حد الصراخ في آخر مرة...

ليردف بثورة عارمة:

_امنحيني سبباً واحداً ل...

انقطعت عبارته وعيناه تصطدمان أخيراً ببطنها البارز أمامه...

لتتسمر نظراته عليه لدقيقة كاملة...

قبل أن يرفع عينيه إليها أخيراً ليهزها بين ذراعيه بعنف هاتفاً بصوت متهدج:

_مَلَك؟!مَلَك...صحيح؟!!قولي أنها هي!!!

كانت عاجزة عن الرد مع كل هذا الانفعال والألم...

فاكتفت بإيماءة ضعيفة...

ليهز هو رأسه بانفعال وقد عجز عن الكلام...

بل عن التنفس!!!

جنة لم تعد وحدها...عادت إليه مع "مَلكه" تماماً كما كان يرى في حلمه...

والآن ...ماذا يفعل؟!!!

هل يضحك؟!

هل يبكي؟!

يحتضنها؟!

يضربها؟!!

من جديدٍ يُقبّلها؟!

أم يقتلها؟!!!!!

لكنها قطعت عليه حيرته عندما تخاذل جفناها أخيراً مستسلمةً لإغماء تام...

==============

_هل هذه وصيتي يا فهد؟!

همست بها ماسة مؤنبة وهي تحقن جنة -الغائبة عن الوعي - بشئ ما في ذراعها فيما كان فهد متشبثاً بكفها في استماتة...

وعيناه معلقتان بها رغم هتافه العاصف لماسة:

_ولماذا لم تخبريني عن حملها؟!هل تحولت أنا ل"المغفل" الذي يخدعه الجميع؟!!

وضعت ماسة سبابتها على شفتيها محذرة قبل أن تهمس بعتاب:

_أخفض صوتك...دعها تسترِح.

ثم ألقت المحقن الفارغ في السلة جوار الفراش وعيناها تصطدمان بأثر أنامله على خدّ جنة و جرح شفتيها الصغير...

لتعاود النظر إليه مع همسها المستنكر:

_ضربتها يا فهد؟!طاوعك قلبها لفعلها بعد كل ما عانيتِه في فراقها؟!!

ظلت عيناه على حصارهما المستميت لوجه جنة تفضحان الذنب المستعر بأعماقه...

لكنه عاد يهمس بسخط:

_دعكِ من هذا وقولي لي....لماذا لم تخبريني عن أمر حملها هذا؟!

رمقتها ماسة بنظرة مشفقة طويلة قبل أن تهمس بصوت خفيض:

_أولاً أنت لم تمنحني فرصة لإخبارك بأي شئ...لم أكد أعلمك بشكوكي حتى أغلقت الاتصال بعنف لأفاجأ بك هنا بعدها بأقل من يوم واحد...

ثم صمتت لحظة لتردف:

_ثانياً..كنت أريدها مفاجأة سعيدة لك...تراها بعينيك أفضل من أن تسمعها!

فارتفع حاجباه بتأثر ليبتسم رغماً عنه مع همسه المنفعل:

_وأي مفاجأة!!!

ثم التفت نحو ماسة أخيراً ليسألها بقلق:

_متى ستفيق؟!

ابتسمت ماسة وهي تربت على كفه لتهمس بحذر:

_أريدها أن تنام لأطول وقت...أنت تعلم أنها مريضة سكر...ونوبات دوارها صارت شديدة التقارب...ظروف حملها صعبة وقد عانت كثيراً وحدها...

استفزته كلماتها أكثر فكز على أسنانه ليهمس بغضب مكتوم:

_وما الذي دفعها لهذه الوحدة سوي حماقتها وغرورها؟!!

نظرت ماسة إليه بعتاب لتهمس مؤنبة:

_ظننتك ستطير فرحاً برؤيتها من جديد...ما جدوى الحب إذن لو لم يمنحك القوة على مسامحتها؟!على الأقل استمع لمبرراتها!!!

زفر زفرة مشتعلة دون رد فهزت رأسها لتهمس محذرة:

_فهد...انفعالها الأخير هذا قد يزيد تعبها...لهذا سأطلب منك...

ثم صمتت لحظة لتردف بتردد:

_أن تتركها ولو...

_أتركها؟!!!أنتِ تحلمين!!!!

عاد يهتف بها بنبرة عصبية وكفه يضغط راحتها أكثر بحركة تلقائية...

فتأوهت جنة أخيراً بخفوت لتلتفت إليها عينا فهد وماسة التي هتفت بلهفة:

_جنة؟!أنتِ بخير؟!

فتحت جنة عينيها ببطء لتنظر لماسة نظرة طويلة قبل أن تهمس بضعف ولازالت لم تستعد وعيها كاملاً:

_ماسة...كيف عرفتِ اسمي؟!

حافظ فهد على صمته المتفحص لها مكتفياً باحتضان كفه المتشنج لكفها...

فيما ابتسمت ماسة لتقول بحنان:

_أنا أخت فهد!

هزت جنة رأسها في عدم تصديق لتمد عينيها نحو فهد بنظرة متسائلة...

لكنه حافظ على صمته المشتعل فقامت ماسة واقفة لتربت على كتفها برفق قائلة:

_فهد سيخبرك بكل شئ...لكنني مضطرة للانصراف الآن !

ثم رمقت فهد بنظرة تحذير أخيرة -لم يلتفت إليها مع تشبث نظراته بجنة -لتردف :

_اعتنِ بها...ولو احتجت شيئاً هاتفني !

قالتها ثم تركتهما لتغلق باب الغرفة خلفها...

فأغمضت جنة عينيها بإعياء لتهمس بصوت بالغ الضعف:

_هل هي أختك التي كنت تبحث عنها؟!

لم يرد عليها ولازال جسده كله متشنجاً بانفعاله...

فانفلتت من شفتيها أنةٌ خافتة وهي تود لو تملك فقط القدرة لفتح عينيها كي تنظر إليه...

لكنها لم تستطع...

جسدها كان مستسلماً لشديد وَهَنه...

فاضطرت للاكتفاء بهمسها الذي كان -بالكاد- يسمعه:

_أريد أن أتكلم معك...اسمعني...

لكنه قاطعها بوضع أنامله -الحرة-على شفتيها مع ضغطه لأناملها في كفه الآخر...

ليهمس بحزم لم تغادره قسوة نبراته:

_نامي الآن...ولنا حديثٌ طويل في الصباح عندما..

انقطعت عبارته عندما شعر بشفتيها تضمان أنامله عليهما بقبلة بدت شديدة الوهن...

لكنها جعلت جسده كله يقشعر تأثراً بها...!!!

فانعقد حاجباه بقوة قبل أن ينحنى عليها بجذعه وهو يهمّ برِيّ اشتياقه العاصف إليها...

لكنه تراجع بأقصى ما استطاع من عزم مراعياً حالتها...

ليظل جسده مشدوداً بقوة انفعاله حتى شعر بانتظام أنفاسها أخيراً ...

فعاد يميل عليها بجذعه ليقبل بطنها بعمق هذه المرة ...

قبل أن يأخذ نفساً عميقاً ليعاود تقبيله مرة بعد مرة...

تتخلل هذه المرات همسته المرتعشة:

_الحمد لله!

لم يدرِ كم ظل يفعلها ولا يقولها...

لكنه انتبه لنفسه أخيراً على صوت آذان الفجر...

فابتسم بسكينة وهو ينتبه أنه لم ينم منذ أكثر من يوم كامل...

بالتحديد منذ أخبرته ماسة عن الأمر...

لكنه قام من مكانه ليستكشف المكان بفضول...

قبل أن يتوضأ ليصلي وقد شعر أنه اغتسل بفرحته الجديدة ب"مَلَكه " القادمة...

والتي أحسها وقتها أعظم هدايا "قدره" بعد عودة جنة إليه!!!

ولم يكد ينتهي من صلاته حتى انتبه لصوت زقزقة "العصفورين " بالشرفة الخارجية...

فخرج إليهما ليتأملهما بنظرة متفحصة...

قبل أن يبتسم ابتسامة جانبية مع همسته التي فاضت بعاطفته مع غيظه:

_أيتها العاشقة الحمقاء...كم أحبك!!!

قالها ثم تنهد بعمق ...

قبل أن يعاود طريقه إلى غرفة جنة حيث رمق وجهها النائم بنظرة عاتبة طويلة وسط فيوض عشق واشتياق...

ثم توجه إلى نافذة غرفتها ليفتحها بهدوء مراقباً شروق الشمس بعينين زائغتين...

الآن بدأ يفهم لماذا فعلت جنة هذا...

طبيعتها "الثورية" لم تكن لترتضي الهروب حلاً...

وخوفها على طفلتهما أيدت هذا الموقف!!!

لكن...أين كان هو من حساباتها هذه؟!!

أم تراه كان محل "اختبار الأستاذة" لترى كم من الدرجات سيحصل بعد آخر دروسها معه؟!!!!

_فهد!

همستها الضعيفة قطعت أفكاره رغم خفوتها...

وكأنما كان ينتظرها قلبه بكل اشتياق كي يعاود خفقاته على لحنها كما كان في الماضي...

فأخذ نفساً عميقاً يتمالك مشاعره قبل أن يستدير بجسده نحوها ليحتكر نظراتها بعينيه العاتبتين...

ثم أخذ طريقه نحوها ليهمس أخيراً على بعد خطوة واحدة منها:

_فتحت النافذة يا أستاذة...لكن أظنكِ ما عدتِ تحتاجينني... ولا أنا أحتاجكِ أكثر!

ضربتها قسوة عبارته في مقتل...

فرمقته بنظرة مصدومة للحظة وقد ارتجفت شفتاها بقوة...

قبل أن تقوم من نومتها مستندةً على راحتيها لتهتف بألم:

_لا...لا تقل هذا ...اسمعني أولاً.

كز على أسنانه وهو يقبض كفيه بقوة قبل أن يعطيها ظهره مقاوماً انفعاله...

فأزاحت غطاءها برفق لتقوم وتقف خلفه للحظات...

ثم مدت أناملها لتلامس كتفه مع همسة باسمه...

فانتفض جسده انتفاضة أجفلتها وهو يستدير نحوها ليضغط ذراعيها بكفيه بقوة غضبه مع هتافه الثائر:

_تكلمي...لماذا فعلتِ هذا؟!

_حتى لا أكرهك ولا تكرهني...

هتفت بها بانفعال مشابه وهي تتشبث بأناملها في قميصه...

فاهتزت نظراته للحظات مع استطرادها القوي:

_حتى لا ينطفئ ما بيننا...حتى تعيش ابنتنا في النور لا في الظلام!!!

ازداد انعقاد حاجبيه وهو لا يزال يرمقها بنظراتها الغاضبة...

بينما استمر جسدها على ارتجافه رغم محاولتها للتماسك:

_لقد علمت بحملي في نفس يوم زفافك من يسرا...ليلتها جئتني أنت تمنحني عقد زواج جديد بشروط جديدة...ترددت أن أخبرك وقتها...كنت أعلم أنك لا تفكر سوى في الهرب...ربما لو كان الأمر يتعلق بي وحدي لوافقتك على ما تريد...لكنني وقتها...

ترنحت مكانها للحظة فازداد تشبثه به تلقائياً عندما أسندت جبينها على صدره لتهمس بصوت متهدج:

_خفت...خفت يا فهد...أبوك لم يرحم ابنته فهل كان سيرحم ابنتي أنا؟!!

ثم مرغت وجهها في صدره لتردف بنبرة أكثر وجعاً :

_أنا التي كنت دوماً أقول أنني امرأة ليس لديها ما تخسره...فجأة وجدتني أملك ما سأبكي عليه دماً بدل الدموع لو خسرته...أنت وحبنا...وابنتنا!

ورغم أن حديثها بدا له منطقياً لكنه اعتصر ذراعيها بقبضتيه أكثر وهو يهتف بغضب:

_وهكذا أخذت الأستاذة قرارها وحدها...فهد الضعيف لن يحميها هي وابنتها...وهي التي ستحمل راية الجهاد حتى تصل لهدفها وحدها ...صحيح؟!!

رفعت إليه عينين لاتزالان آسرتين بوهج البندق الذي اشتعل ببريق قوته الآن مع قولها :

_كانت فرصة لكلينا...فرصتك لتدرك مدى قوتك وتشبثك بطريقك الجديد بعيداً عن تأثرك بي...وفرصتي للابتعاد عن شر جاسم الصاوي حتى أطمئن علي ابنتي.

وهنا هزها هو بعنف ليهتف بانفعال هادر:

_ووسط كل هذا لم تفكري فيّ أنا؟!!في قسوة إحساسي بفقدك؟!!أنتِ التي جربتِ هذا الشعور من قبل بمرارته كيف ارتضيتِه لي؟!!

أغمضت عينيها بألم دون رد...

فارتجفت نبرته وهو يردف بنفس الانفعال:

_كدت أموت حسرةً عليكِ وأنتِ هنا تراقبينني كطفلٍ يجتاز اختباره!!!

فتحت عينيها ببطء لتنهمر دموعها على وجنتيها مع همسها الذي امتزج بنكهة الاعتذار:

_وكيف تظنها كانت حياتي هنا دونك؟!!مهددة بالخوف والوحدة...والغيرة!

_غيرة؟!!

هتف بها باستنكار فعلا صوتها وهي تحاول تخليص ذراعيها من قبضتيه دون جدوى:

_نعم...غيرة...كل يوم كنت أطالع أخبارك كالغرباء أنتظر خبراً يهدئ لوعتي أنك طلقتها...كل لحظة كانت تمر بي هنا وحدي كانت تذبحني بهواجسي وأنا أتخيلك معها ...نسيتني بين أحضانها ...

_اخرسي يا جنة...اخرسي حتى لا أحطم رأسك الذي فعل بنا كل هذا!!!!

صرخ بها بغضب مقاطعاً كلماتها...

حمقاء هذه؟!!

مجنونة!!!

عن أي غيرة تتحدث؟!!

وعن أي امرأة تحكي؟!!

هي التي تركته خلفها جثة بلا روح تظن أن إحداهن قد مرت يوماً على ناظريه!!!!

لكن لا بأس...

مادامت تظن هذا فسيجعلها واحدة من طرقه لعقابها الذي ينتوي ألا يمرره إلا عسيراً!!!

لهذا تجاهل نظراتها الراجية بعد صمت قصير...

ليقول بحزم وهو ينظر في عينيها:

_لم تجيدي حساباتك هذه المرة يا أستاذة...أنتِ تركتِني برغبتك فلا تلوميني لو تمسكت بمن بقيت جواري في محنتي!

تجمدت عيناها على شفتيه للحظات قبل أن يسكن جسدها تماماً مع تساؤلها بنبرة مرتعشة:

_هل تعني أنك...أنك...أتممت زواجك بها؟!

انعقد حاجباه بشدة ثم فك قبضتيه من على ساعديها أخيراً ليعقدهما أمام صدره هاتفاً بنبرة متحدية:

_والآن ماذا؟!هل تملكين الجرأة على محاسبتي؟!

وكأنما كان ذراعاه هما ما يسندانها...فلم يكد يرفعهما حتى ترنحت مكانها من جديد...

لتتهاوى جالسةً على طرف الفراش ...

فارتجفت عيناه بمزيج من الخوف والإشفاق لكنه عاد يتمسك بقسوة نظراته...

عندما تمتمت هي بمرارة احتلت شرود نظراتها:

_إذن ما كان يقال صحيح؟!أنت اعتبرتها زوجتك حقاً؟!لم تتغير لأجلي؟!

كز على أسنانه بغضب وهو يتأمل ملامحها البائسة بغيظ هاتفاً:

_بلى تغيرت...لكن ليس لأجلك...لأجل نفسي...ألم يكن هذا درس الأستاذة لتلميذها البليد ؟!!لكن لم يخبرني أحد أنه كان من المفترض أن أبقى راهباً بعدك!!!

كان يعلم أنه يذبحها بقسوته لكن ما الذي يساويه هذا أمام ما لاقاه هو لشهور مضت...؟!!!

أما هي فقد أطرقت برأسها الذي أخفته بين راحتيها محاولةً التشبث بما تبقى لها من عقل لتدرك كل هذا الذي يحدث....

لتهمس أخيراً بعد صمت قصير:

_اتركني وحدي لبعض الوقت!

لكن كلماتها أججت غضبه أكثر ...غضبه منها ولأجلها...

لهذا عاود جذبها من مرفقها نحوه من جديد ليهتف بانفعال:

_انسيْ هذه الكلمة تماماً...من الآن لن تتحركي خطوة واحدة بعيداً عني...لو استطعت أن أحصي أنفاسك فسأفعل!

أمسكت جانب رأسها في إعياء وهي تغمغم ب-ما حاولت جعله- نبرة قوية:

_أرجوك يا فهد...أنا بالكاد أحاول استيعاب كل هذه المفاجآت...رأسي يكاد ينفجر!

ظل عاقداً حاجبيه للحظات يفكر في رد موارب ثم غلبه إشفاقه عليها...

فدفعها برفق ليمددها على الفراش قبل أن يقول بصرامة:

_ابقيْ هنا حتى أحضر لكِ ما تأكلينه!

هزت رأسها باعتراض وهي تهمّ بالحديث لكنه قاطعها بنبرة أكثر جفافاً:

_لا أفعلها لأجلك...بل لأجل ابنتي!

أشاحت بوجهها هاربةً من عينيه فرمقها بنظرة عاصفة أخيرة...

قبل أن يغادر الغرفة ليعود بعد قليل حاملاً صينية الطعام التي وضعها جوارها على الفراش...

لكنها لم تستطع رفع عينيها إليه فتمتمت بما يشبه الشكر...

قبل أن تلتفت بعينيها نحو دوائها على الكومود...

ليخفق قلبها بقوة وهي تجده يتناوله كما كان يفعل دوماً...

قبل أن ينتزع منه قرصاً قربه ببطء من شفتيها...

ثم توقف عند اللحظة الأخيرة ليضعه بعنف على الصينية أمامها هاتفاً ببرود:

_تناوليه وحدكِ كما عودتِ نفسك طوال هذه الأيام!

دمعت عيناها بمزيج من قهر وندم وقد بدت لها حركته كصفعة على وجهها!!!!

ثم أشاحت بوجهها عنه وهي تضغط شفتيها كاتمةً بكاءها بصعوبة ...فزفر بقوة ليهتف بنبرة حادة:

_كفى دلالاً وتناولي إفطارك...سأحاول تدبر الأمر لنسافر اليوم.

عادت تلتفت نحوه بحدة لتهتف بدهشة:

_نسافر؟!إلى أين؟!

اقترب بوجهه من وجهها لتصطدم بنظراته القاسية مع إجابته الأكثر قسوة:

_لا تسألي...من الآن أنتِ لا رأي لكِ في أي شئ...هل تفهمين؟!

انعقد حاجباها بغضب وشت به ملامحها رغم إعيائها...

لكنه عاد يشير للطعام هاتفاً بصرامة:

_هيا بسرعة...!!

تصنعت التماسك وهي تمد أنامل مرتجفة نحو قرص دوائها الذي تناولته بنفسها...

ثم شرعت في تناول طعامها دون شهية حقيقية سوى لإسكاته...

لم تتصور يوماً أن يعاملها فهد بهذه الطريقة...

لكن تباً لها...

ماذا كانت تتوقع إذن بعد ما فعلته ؟!!

فهد الصاوي لن يمرر لها فعلتها على خير...

هي تعرف طبعه جيداً!!

لكن...هل بقي لها من عشقه شفيع؟!!

أم أن الأيام طمست نقوش ذاك الهوى ؟!!

شعرت أنها ستغص بالطعام في حلقها فتناولت كوب الماء لتتجرعه ببطء...

دون أن ترفع عينيها إليه...

وربما لو فعلت لرأت كم الاشتياق الذي كان يفيض بهما كشلال هادر بلا بداية ولا نهاية...

عيناه كانتا تتشربان كل تفاصيلها بنَهَم ولو كان الأمر بيده لما ترك موضع أنملة على بشرتها لا تمسه شفتاه !!!

لكنه لن يتجاوز عن صنيعها هكذا بتهاون!!!

ليس بعد كل ما لاقاه بسببها...

ربما تبدو له أسبابها ب-بعض- المنطقية لكنه مع هذا لن يسامحها بهذه البساطة!!!

لكن تساؤلاً ما تبادر لذهنه الآن جعله يتخلى عن صمته المشتعل:

_لماذا لم تبلغيني بالحقيقة بعد وفاة أبي؟!ماذا كنتِ تنتظرين؟!

أزاحت الصينية جانباً ثم صمتت للحظات قبل أن تقول ولازالت تحافظ على خصامها الطويل لعينيه:

_كنت أريد أن أعرف ماذا ستفعل في حياتك بعده...

ثم أخذت نفساً عميقاً لتردف بنبرة مرتجفة:

_كنت أنتظر أن أضع طفلتنا لعلها ...

قطعت عبارتها وقد استنكفت أن تكمل معناها الذي بدا لها استجداءً لمشاعره...

ورغم أن معناها وصله كاملاً لكنه أراد المزيد من تقريعها فهتف بتهكم:

_نعم...أردتِ أن تتبيني هل أستحق أبوتي لها أم لا...الأستاذة كانت تنتظر المزيد من أدلة البراءة قبل أن تصدر حكمها بشأني!

عادت تطرق برأسها دون رد...

عندما زفر هو بغضب لينتزع الصينية من أمامها هاتفاً بنفاد صبر:

_هيا لنحضر حقيبتك...ليس لدينا وقت!

قالها وهو يحمل الصينية ليغادر الغرفة فقامت من مكانها لتراقب ظهره المنصرف بحسرة ذائبة في مرارتها...

هل فعلها فهد حقاً؟!!

هل اتخذ لنفسه زوجة بعدها؟!!

هل سلم جسده لسواها؟!!

قلبها يخبرها أنه لم يفعلها أبداً...

لكن عقلها يهتف :وما يمنعه؟!!

ومن يلومه؟!

ألم يكن يظنها ميتة؟!!

فهل كُتب الوفاء على الأحياء والأموات؟!

هي أحبته هو بعد حسن...

فكيف تعاتبه لو أحب يسرا بعدها؟!!

والفكرة نفسها كانت مسمومةً بما يكفي لتغييب عقلها بضلالاته أكثر...

لكن أفكارها انقطعت عندما عاود دخوله للغرفة ليقول بنفس النبرة الحازمة:

_لقد أجريت اتصالاتي الآن بشأن السفر...

ثم ابتسم ليردف بسخرية متعمداً استفزازها:

_الأمور تسير بسهولة تليق ب..."ابن الصاوي" و الأستاذة.....!!!

لكنها أشاحت بوجهها وقد عجزت عن الرد...

فزفر بقوة قبل أن يفتح خزانة ملابسها بعنف منتزعاً تلك الحقيبة بالأعلى...

ثم امتدت أنامله لتجمع ما بداخلها من ملابس عشوائياً...

فاقتربت منه لتلملم حاجياتها هي الأخرى وقد آثرت السّلْم بطاعته الآن...

عندما سقط شئُ ما من الخزانة تحت قدميه جعله يهتف بغيظ:

_ما الذي تفعله هذه هنا؟!

أطرقت بوجهها في خجل دون أن تجد رداً...

بينما عاد هو يتأملها بتأثر وقد غلبت عاطفته غيظه...

فقد كان الشئ الذي سقط هو إحدى "مناماته"!!!

وبالتحديد -مفضلتها "الكحلية" - التي ابتاعتها له بنفسها في مناسبة ما!!!

والتي أحضرتها معها هنا -كما يبدو -لتكون ذكرى لها منه!!!

لهذا لم يشعر بنفسه وهو يجذبها إليه بعنف ليخفي وجهها في صدره مطوقاً إياها بين ذراعيه...

فارتج جسدها هي ببكاء طال كتمانه وما عادت تقوى عليه أكثر...

ليشتعل قلبه بين جنباته اشتياقاً -سيطر عليه باقتدار- وهو يضربها بقبضته برفق على ظهرها هاتفاً بغيظ:

_أيتها الحمقاء المجنونة المختلة...سأبقى طوال عمري أضربك كلما أتذكر ما فعلتِه بنا!!

ظلت تبكي بين ذراعيه عاجزة عن الرد...

فزفر بقوة ليهمس جوار أذنها بنبرة عاتبة:

_من يراكِ تبكين بهذا الضعف لا يصدق أنكِ من وضع خطةً بهذه القسوة!

رفعت إليه عينيها أخيراً لتهمس بنبرة متهالكة:

_لو كنت فهمتني حقاً...لما تعجبت...جنة الرشيدي لم تهرب يوماً من معركة !

شدد ضغط ذراعيه حولها حتى تأوهت بألم مع همسه المنفعل:

_وماذا تسمين فعلتك هذه؟!ألم تكن هروباً؟!

هزت رأسها نفياً وهي تهتف مدافعة:

_كنت سأعود بعد أن أضع ابنتي... قوية بلا نقاط ضعف...أحارب معها ولأجلها!!

وكأنما ذكرته كلماتها ب"فرحته الجديدة" ليجد نفسه يلصقها بجدار الخزانة ليتحسس بطنها البارز بكفيه بأنامل مرتجفة مع همسه العاتب:

_ملك!!!هل تعلمين كم مرةً حلمت بها معكِ في حضني؟!!كيف أسامحكِ على تلك الشهور الطويلة التي حرمتني فيها من متابعة نموها معك؟!

فارتجف جسدها تأثراً وهي تهمس بألم مشوب بغيرتها:

_أنت كنت في حضن زوجتك ...بينما كنا أنا وهي وحدنا!

رمقها بنظرة طويلة وهو يجاهد جهاداً كي يمنع نفسه عنها...

ثم زفر أخيراً بقوة وهو يزيحها جانباً برفق مع قوله الصارم:

_لا تعطلينا في كلام فارغ!

أثارتها عبارته أكثر فتشبثت أناملها بكتفه لتهتف بنبرة متنمرة:

_كلام فارغ؟!لا يا فهد...أنا لن أقبل هذا الوضع أبداً...لن أكون زوجة ثانية مهما حدث!!!

رمقها بنظرة جانبية وقد تعمد تجاهلها للحظات...

قبل أن يغلق باب الخزانة بعنف أجفلها ...

ليلتفت نحوها أخيراً هاتفاً ببطء قاس:

_أنتِ من وضعتنا في هذا الموقف...فاحتملي نتيجة خياراتك يا أستاذة!!!

عضت على شفتها بقهر وهي ترمقه بنظرة مشتتة زادت إشفاقه عليها لكنه أراد أن يعلمها درساً...

فتجاهل مشاعره وهو يعاود القول بنفس النبرة القاسية:

_هيا بدلي ملابسك بسرعة.

أطرقت برأسها للحظات تحاول استيعاب كل هذا الذي يحدث...

لتهمس بعدها بخفوت:

_هل سنعود إلى شقتنا في مصر؟!

_بل بيتي الذي أقيم فيه مع يسرا!!

قالها ببطء مستفز وهو يتفرس قسماتها التي غزتها الدهشة مع الاستنكار...

قبل أن تنفجر فيه أخيراً بصراخها :

_ماذا؟!تريد أن تجمع بيننا في بيت واحد؟!هل هذا هو عقابك؟!مستحيل!!

كتم ابتسامته بصعوبة وهو يراها أخيراً بردائها "الثوري" القديم الذي أعاد وهج البندق لعينيها كأروع ما يكون...

نعم يا أستاذة...

هكذا أريدكِ دوماً أن تكوني!!!

ثائرة كجواد جامح... وحدي أنا من يجيد ترويضه!!

وسأفعل يا جنتي...سأفعل!!!

آن الأوان أن تنقلب الأدوار لألقنك أنا الدرس الأخير هذه المرة...!!!

لكنه قطع على نفسه أفكاره وهو يتجاهل عبارتها عمداً...

ليمد أنامله ببطء فيفك أزرار منامتها مع قوله البارد:

_يبدو أنني سأضطر لمساعدتك في تبديل ملابسك كي لا نتأخر!!

اشتعلت ملامحها بالغيظ وهي تزيح كفيه بعنف عنها لتهتف بانفعال:

_لا تعاملني بهذه الطريقة !قد أكون أخطأت عندما...

هنا كان قد فقد السيطرة على نفسه تماماً ووهج البندق في عينيها يفقده صوابه كأول مرة رآها فيها...

فانقطعت عبارتها بين شفتيه عندما ضمها إليه بأحد ساعديه بينما ألصق وجهها بوجهه بكفه الآخر ...

لدقائق مرت بهما عاصفة في عاطفة أشعلها اشتياق ولم يطفئها عتاب...

بل زادها عنفاً وصخباً!!!

حتى ابتعد بوجهه عنها أخيراً ليهمس بحرارة وأنامله تعتصر خصرها بقوة انفعاله:

_سأقتص منكِ ألف عام...وبعدها أعوض شوقي ألف ألف عام...ثم أذوب في عينيكِ ما بقي من الدهر!

دمعت عيناها بتأثر وهي تحاول البحث بعينيه عن دليل خيانة يزعمها...

فلم تجد سوى- ألف- برهان على عشق موصد ب-ألف- رتاج لم تملك- أحدهم- سواها!!!

لهذا تشبثت أناملها بقميصه بعمق احتياجها وهي تنهل من سحر عشقه الأبنوسي الذي التمع في عينيه لتهمس برجاء :

_أما أنا فلا أريد سوى دقيقة واحدة...دقيقة واحدة يتوقف فيها الزمان ...أحبك فيها كما أشتهي دون قيود...دون ذنوب...دون ماضٍ...دون خوف...أذوب فيها بين ذراعيك ببساطة أنثى لا تجيد من أبجدية العشق سوى حروف اسمك...أخلع عني كل أقنعة قوتي الزائفة وأفتخر بضعفي أمام سلطان حبك...دقيقة واحدة أرمي فيها كل تاريخي ورائي وأبعث معك من جديد ...دقيقة واحدة أزفر فيها هواء فاسداً خنق صدري وأبدأ معك شهيقاً بمذاقك أنت...دقيقة واحدة وبعدها لن أبالي لو أموت!

_موت؟!ثانية يا جنة؟!

همس بها بين شفتيها بألم قبل أن تعاود شفتاه القصاص من أيام اشتياق طويلة...

لتنساب قبلاته في مزيج مدهش من حرارة الشمس وانتعاش موج البحر...

مزيج هدهد أنوثتها بمزيج من قوة وتدليل فلم تملك معه سوى الاستسلام لهذا الطوفان الجارف...

قبل أن ينتزع نفسه انتزاعاً من نعيم قربها هذا ....

ليبعدها ببعض الحزم أخيراً هامساً بقسوة مصطنعة بين أنفاسه اللاهثة:

_هيا ...ليس لدينا وقت!!!

وبعدها بقليل كانت تجاوره على متن الطائرة العائدة إلى مصر...

كانت تختلس النظر نحو جانب وجهه لعلها تتبين نواياه ...

لكن ملامحه كانت مصطبغة بقسوته الجامدة وكأنه لا يبالي بها...

على عكس أنامله التي كانت تعتصر كفها على مسند المقعد جواره وكأنما يخشى هروبها من جديد!!!

ولم تكد الطائرة تبدأ إقلاعها حتى عاد الدوار يداهمها فانفلتت منها أنةٌ خافتة وهي تسند رأسها على أناملها ...

ليلتفت هو نحوها أخيراً هامساً بقلق:

_أنت بخير؟!هل أستدعي طبيب الطائرة؟!

أسندت رأسها على ظهر مقعدها بإعياء لتهمس بتماسك مصطنع:

_أنا بخير...أحتاج فقط للنوم.

قالتها وهي تغمض عينيها باستسلام لذاك الوهن الذي تملك جسدها ليريح عقلها من دوامة أفكاره وهواجسه...

لتشعر به بعد بضع دقائق بين يقظتها ومنامها وقد ترك كفها أخيراً...

لكن ليضم كتفيها بذراعه مسنداً ذقنه على رأسها الذي استقر على صدره...

فابتسمت بضعف ليكون هذا آخر إدراكها قبل أن تسقط تماماً في النوم...

بينما انتظر هو بترقب حتى انتظمت أنفاسها معلنةً تمام نومها...

ليبتسم ابتسامة واسعة وهو يضمها إليه أكثر...

لا يكاد يصدق أنها الآن بين ذراعيه...

وليست هي فقط بل و...ابنته أيضاً!!!

فانحنى برأسه يقتنص قبلة عميقةً من وجنتها المحمرة بفعل النوم ودفء المكان...

ثم أتبع قبلته ب"عضّة" مغتاظة خفيفة لخدّها جعلتها تتململ قليلاً قبل أن تعود لنومها...

لتتسع ابتسامته وهو يضم رأسها بذراعه الآخر يكاد يخفيه في صدره بتملك مع همسه الذي امتزج مكره بعاطفته:

_اشتقتكِ يا جنتي ...لكن فهد الصاوي لا يترك ثأره أبداً...!!!

قالها ثم غرق بأفكاره في وادٍ آخر...

نعم...يسرا...

ومن غيرها؟!!

صحيح أن حالتها تحسنت كثيراً مؤخراً لكنه لا يستطيع تركها هكذا ببساطة في آخر مرحلة من العلاج...

وربما كان هذا هو السبب الحقيقي لرغبته في بقائه - وجنة- معها في نفس البيت...

لا ...ليست قسوة...

لكنه يريد أن تقطع يسرا أملها -الذي لم يمنحه لها من الأساس-

أن تدرك أن طريقها معه سيكون- كما بدأ - مسدوداً حتى تبحث عن طريق غيره...

هذا بالإضافة لرغبته في تلقين الأستاذة درساً!!!

وعلى ذكر الأستاذة عادت عيناه تتعلقان بأهدابها الحارسة لكنوز البندق...

فعادت ابتسامته تملأ وجهه وهو يداعب وجنتها بأنامله ...

الآن تشهد الدنيا أنها زوجته وحبيبته...

خبرٌ كهذا لن يخفى على أحد بعد!!!

انقطعت أفكاره عندما أعلن ذاك الصوت وصول الطائرة ...

فتنهد بحرارة وهو يميل على وجنتها -المغرية- بقبلة أخيرة...

قبل أن يتنحنح ليستعيد قناع جموده مع هتافه وهو يهزها برفق:

_جنة...استيقظي...لقد وصلنا!

رفعت إليه رأسها بعد عدة تأوهات ضعيفة لتستعيد إدراكها تدريجياً...

قبل أن تهمس أخيراً وهي تتلفت حولها بدهشة مشوبة بالقلق:

_فهد...أنت حقاً تنتوي جمعي مع يسرا ببيت واحد؟!

ابتسم ابتسامة جانبية وهو يشيح بوجهه دون رد...

لكنها عادت تتشبث بكتفه لتهمس بانفعال:

_لا تتلاعب بي...أنت لن تفعل هذا...أنت فقط تهددني...صحيح؟!!

لم يرد عليها للحظات ...

ثم قام واقفاً ليجذبها معه قائلاً ببرود:

_هل رأيتِ رجلاً عاقلاً يضحي بزوجة مثل يسرا الصباحي لأجل واحدة خدعته بموتها المزعوم؟!

اتسعت عيناها في ارتياع وهي تتفرس في ملامحه محاولةً تبين صدقه من كذبه...

لكنه حافظ على جمود ملامحه وهو يسير جوارها ليغادرا الطائرة محافظاً على صمته الطويل...

حتى غادرا المطار لكنه ما كاد يصل للسيارة التي كانت تنتظره...

حتى فوجئ بصوت يعرفه يهتف خلفهما:

_جنة؟!معقول؟!!

فاستدار بجسده نحو مصدر الصوت...

قبل أن يتشبث ساعده بخصر جنة التي ترنحت مكانها انفعالاً وهي تتمتم بصوت مرتجف:

_رؤى!!!

===================

_ماسة...دكتور عصام يريدك في غرفة العمليات...حالة طوارئ!

هتفت بها رئيستها في العمل فأتمت استعداداتها قبل أن تسألها باهتمام:

_ما هي الحالة؟!

هزت رئيستها رأسها بتأثر مع قولها:

_رجلٌ مصاب...أحدهم ترصده...ثم أطلق النار على ظهره غدراً...وهو وحده!!!

ولا تدري لماذا ازدادت نبضات قلبها جنوناً وقتها...

وهي تجد نفسها تندفع بسرعة نحو غرفة العمليات لتتفحص ملامح الرجل بارتياع...

ورغم أن ملامحه كانت بعيدة الشبه عن عاصي...

لكن ذاك الشيب في فوديه -مع ما روته المرأة من تفاصيل تزورها في كوابيسها كل ليلة -جعل جسدها ينتفض بخوف حقيقي وجملة المرأة تدوي في رأسها...

_كان وحده!!!

_وحده!!!

لتجد دموعها تسقط على وجنتيها بقوة وهي تراقب نزيف الدم الذي أغرق الملاءة تحته مع هتاف الطبيب بصرامة:

_كفي عن البكاء وقومي بعملك!

ارتجف جسدها أكثر وأناملها ترتعد على الأدوات مع هتافها الباكي:

_أرجوك يا دكتور افعل ما بوسعك...يمكنني التبرع له بالدم لو كان يحتاجه!!

رمقها الطبيب بنظرة مستنكرة وهو يحاول إنقاذ الرجل قدر استطاعته...

فيما عجزت هي عن التماسك أكثر لتزداد حالتها سوءاً حتى وصلت حد الانهيار...

ما دعا الطبيب لإخراجها قسراً من غرفة العمليات!!!

لكنها بقيت خارجها منهارةً وقد عجزت قدماها عن حملها فتهاوت على أحد الكراسي...

لا تدري ما هذا الذي أصابها !!!

منظر الرجل وهو غارقٌ في دمائه لا يكاد يفارق مخيلتها...

_كان وحده!!!

اعتصرت قبضة باردة قلبها وهي تتذكر كيف دفعتها حماقتها لقطع أي اتصال بينها وبين عاصي طوال هذه الأيام...

نعم...منذ ذاك اليوم الذي هاتفته فيه عقب وفاة جاسم الصاوي وقد غيرت رقم هاتفها عامدة كي لا يصل إليها...

لقد ظننت نفسها صارت قوية بما يكفي لتتخطى هذا الحاجز من عاطفتها اليائسة نحوه...

لتأتي هذه الحادثة فتحيي لهيب مشاعرها !!!

فتجد نفسها تربط -لا شعورياً- بينه وبين ذاك الرجل بالداخل!!!

_كان وحده!!

كادت تصرخ بحرقة والعبارة اللعينة لازالت تدوي برأسها حتى فتح باب الغرفة أخيراً فاندفعت نحو الطبيب لتسأله بلهفة وسط دموعها:

_أنقذته؟!

_مات!

قالها الطبيب بجمود عملي اكتسبه من كثرة معايشته لهذه الأحداث...

فصرخت صرخة قصيرة وهي تردد خلفه بلا وعي:

_مات!!!كان وحده!!!مات!!!

اندفعت نحوها إحدى زميلاتها لتهدئتها فيما لوح الطبيب بسبابته في وجهها ليقول بحزم:

_لو بقيتِ على هذه الحالة فلن تدخلي معي غرفة الجراحة بعد الآن أبداً!!

لكنها لم تكن تسمعه وعقلها مغيبٌ بهواجسه بين الحقيقة والخيال!!!

لتنتشلها كلمات زميلتها من سيل أفكارها العاصفة وهي تربت على كتفها بإشفاق:

_اهدئي حبيبتي...إنه قدره!!!

_قدره!!!

تمتمت بها بحسرة ولازال جسدها ينتفض بانفعاله...

ثم طلبت هاتف زميلتها هامسةً بصوت متهدج:

_سأجري مكالمة مهمة!

كانت أناملها ترتجف على شاشة الهاتف وهي تكاد تفقد وعيها ترقباً...

ليسقط قلبها بين قدميها عندما كاد الرنين ينقطع دون رد...

قبل أن تعود لها الحياة أخيراً مع ذبذبات صوته التي قطعت صوت الرنين أخيراً...

احتضنت الهاتف بقوة للحظات حتى هدأت خفقات قلبها المذعورة...

ثم أغلقت الاتصال دون كلمة واحدة...

لتعود بخطوات متثاقلة نحو زميلتها لترد لها أمانتها أمام نظراتها المشفقة!!!

وكأنما استنزفها هذا الموقف تماماً لتجد نفسها تخرج من المشفى نحو حديقته الخلفية...

حيث جلست على إحدى الأرائك هناك تحيط رأسها بكفيها محاولةً استعادة ثباتها الذي فقدته هكذا ببساطة بمجرد حادث عابر!!!

ترى هل أخطأتِ حقاً يا ماسة؟!!

هل قسا قلبكِ كما تزعم رحمة؟!!

أم أنك تسيرين على الدرب الصحيح كي لا تنكسر روحك بعد؟!

أنتِ لم تحتملي مجرد مصادفة استحضرت أعظم كوابيسك بفقده...

فهل تحتملين لو صار الكابوس حقيقة؟!!

لكن...هل عسى وجودكِ جواره يشكل فارقاً؟!!

ربما...نعم..

ربما...لا...

كفك الممدود لجسده- الذي يغرق بكامله في بحر خطاياه- قد ينقذه...

لكنه قد يجذبكِ إليه لتغرقا معاً!!!

فمن يحكم بينكما الآن...

من يستطيع الفصل بين "ماستكِ" و"شيطانه"؟!!

_هل أستطيع الجلوس؟!

رفعت إليه عينيها بحدة عندما ميزت صوته الحنون بلكنته المميزة..

فجلس جوارها محافظاً على مسافة مناسبة وهو يتأمل هيئتها المزرية بإشفاق مع قوله:

_لم أصدق عندما أخبروني أنكِ منهارة هكذا بسبب "حالة"!!

أطرقت برأسها دون رد...

فعاد يقول باهتمام:

_ما الأمر يا ماسة؟! دكتور عصام مستاء كثيراً من تصرفك ...وأنا أيضاً مندهش...لقد حضرتِ معي الكثير من العمليات الجراحية من قبل...وكانت أصعب من هذه...فما الجديد؟!

عادت دموعها تسيل على وجنتيها وقد عجزت عن الرد...

فلانت ملامحه وهو يقترب بوجهه منها قائلاً بود:

_ماسة...أنا لست فقط زميلك أو طبيبك المعالج...أنا أعتبر نفسي مسئولاً عنكِ هنا بتوصية من عزيز...أخبريني ما الذي يزعجك هكذا!

مسحت دموعها بأناملها وهي تهز رأسها بلا معنى...

فتفرس ملامحها للحظات قبل أن يقرر الحديث مباشرة:

_حدسي يخبرني أن الأمر متعلق بزوجك...لماذا لم تعودي إليه بمصر عقب نجاح العملية؟!ظننت أن هذا أول ما ستفعله امرأة في ظروفك!!

التفتت إليه بحدة لتلتقي عيناهما بهذا القرب لأول مرة...

فيلمح ما بماستيها من العذاب المستعر بألم لم يفهم سببه...

وإن شعر به ينفد إلى قلبه مستنفراً خلاياه كلها للذود عنها...

فخفض بصره عنها وهو يشعر بإثم انجذابه هذا نحوها ...

لكن هذا لم يمنعه من قوله بنبرته الودود:

_لا أقصد التدخل في شئونك...لو لم تريدي الحديث فلا بأس!

عضت على شفتها بتوتر تكتم انفعالها ...

فعاود رفع عينيه إليها مع تساؤله:

_هل أرحل وأتركك وحدك؟!

هزت رأسها ببطء لتهمس أخيراً ببعض التماسك:

_لا داعي لدهشتك يا دكتور...أنا وزوجي...منفصلان!

ورغم الارتياح الذي بدا على وجهه والذي أثار دهشتها...

لكنه عاد يلجم مشاعره وهو يسألها باهتمام:

_طلاق؟!

وخزت الكلمة قلبها بألم أثار غيظها أكثر...

لتجد نفسها تهتف وكأنها تعاند مشاعرها:

_ليس بعد...لكن سيحدث قريباً...أنا أريده وسأحصل عليه!

عاد برأسه للوراء وهو يتأمل ملامحها باستغراب مع تساؤله:

_هل هذا ما يثير ضيقك هكذا؟!

زفرت بقوة ثم أخذت نفساً عميقاً لتقول أخيراً وهي تنظر للسماء بشرود:

_أنت تعرف هذا الشعور جيداً لأنك جربته..شعور أن ينتزع أحدهم منك وطناً لا تملك العودة إليه...تبقي الأماكن بعينيك متشابهة مهما تعدد جمالها ...و تبقى أنت مجرد غريب فيها...ووحده هو يبقى وطناً...

انعقد حاجباه بشدة وكلامها يعيد غرس الألم بين ضلوعه...

ليسألها بترقب:

_ومن انتزع منكِ "وطنك"؟!

عادت عيناها تدمعان وهي تراقب سرب طيرٍ في السماء أوشك على العودة لمسكنه في هذا الوقت من الغروب...

لتهمس بألم سكن حروف كلماتها:

_ليتني أعلم من فعلها ..ليتني أعلم عدوي كي أهزمه...ليتني أدرك خطئي كي أصلحه...أنا وجدت نفسي هكذا فجأة منبوذة في العراء...لا أعرف أين الملجأ!

ارتفع حاجباه بتأثر وهو يراقب عينيها اللتين التمعتا بحزن آسر...

وهي تردف بنفس النبرة الكسيرة:

_يمكنني أن أخبرك قصة تسمعها كثيراً عن زوجة عقيم حظي زوجها بأخرى طمعاً في الولد...فانتصرت لكبريائها وتركته...قصة شهيرة تحدث كل يوم مئات المرات...لكن تبقى الحقيقة في القلب نسخة ألم واحدة لن تتكرر...قصة مميزة بتفرد أبطالها...قصة حب لم يصمد ليدافع عن نفسه...فداسته أقدام المصالح...

ثم تهدج صوتها مع نشيجها بعدها :

_مات...ومتنا معه!

تعالت شهقاتها بعدها ببكاء لم تستطع منعه...

فامتدت أنامله دون وعي وكأنه سيربت على كتفها...

قبل أن يتراجع في آخر لحظة وهو يزفر بقوة مع همسه الخفيض:

_ليتني ما سألتك...لقد زدت عذابك بهذا الحديث!!

حاولت السيطرة على أنفاسها المختنقة بصعوبة...

لتستعيد تماسكها بعد فترة قبل أن تقوم من مكانها لتقول وهي تمسح دموعها بقوة :

_أنا بخير...ربما فقط أحتاج لإجازة...لا أظنني سآتي غداً.

قالتها وهي تنصرف بخطوات سريعة كأنها تهرب...

والحق أنها فعلاً كانت كذلك**!!!**

هذا الرجل يربكها...

وجوده حولها يذكرها دوماً بعاصي...

لا...ليس الأمر كونه يشبهه...

بل كونه نقيضه تماماً...

نقيضه الذي -ربما- تتمناه**!!!**

وعند خاطرها الأخير توقفت مكانها للحظة...

وكأنها بهذا تمنع طوفان أفكارها الهادر...

ثم عادت لغرفتها بالمشفى لتبدل ملابسها قبل أن تأخذ طريقها لشقتها...

طريقها الذي قصّرت مسافته طول أفكارها الشاردة...

حتى وصلت أخيراً لتتلقاها دعاء متعجبة من حضورها الباكر ووجهها الذي امتزج شحوبه بدموعه...

لكنها هتفت بنفاد صبر:

_لا أريد الحديث الآن يا دعاء...سأنام طويلاً...لا توقظيني حتى أفعل وحدي.

لكنها لم تكد تتوجه نحو غرفتها...

حتى سمعت رنين الجرس المتصل وكأن الطارق لا يرفع يديه من عليه...

تبادلت مع دعاء نظراتٍ منزعجة...

قبل أن تتوجه نحو الباب لتفتحه...

فاصطدمت بوجه زهرة المحتقن تصرخ فيها بحدة:

_لم أكن أظنكما بتلك الأخلاق!!!

تبادلت ماسة مع دعاء نظرات قلقة قبل أن تلتفت إليها بقولها المندهش:

_أي أخلاق؟!ماذا تقصدين؟!

هزت زهرة رأسها بعنف وهي تناولها هاتفها لتستمر في صراخها الهادر:

_أنت والدكتور المحترم...الصورة لفت المشفى كله...فضيحتكما الجديدة حديث الجميع الآن!

شهقت دعاء بعنف فيما انتزعت ماسة منها الهاتف لينعقد حاجباها بغضب وهي ترى الصور التي يبدو أنها التقطت لهما بينما كانا يجلسان معاً منذ قليل...

كلها تبدو طبيعية...باستثناء تلك التي امتدت فيها أنامله تكاد تلامس كتفيها وفي عينيه نظرة تحمل عاطفةً لا يمكن إنكارها!!!

وهنا...ابتسمت ماسة ساخرة وهي تخبط رأسها في باب الشقة ببعض العنف مع همستها:

_كَمُلت!

ربما في ظروفٍ أخرى كانت لتغضب أو تثور...

تقلق...

تخاف من فضيحة هي بريئة منها!!!

لكنها الآن لم تعد تبالي بأي شئ!!!

مرحباً بمصائب الدنيا كلها...

هل بقي في الكون ما هو أسوأ؟!!

لكن زهرة أساءت فهم ابتسامتها ولا مبالاتها فهتفت بها بانهيار تام:

_من أين أتيتِ؟!هل ابتليتُ أنا بكِ؟!مريم اختفت منذ آخر مرة زرتِها أنتِ فيها...والآن تخطفين جهاد مني أيضاً...؟!!

وكأنما شعرت بالندم على عبارتها الأخيرة فلم تكد تتفوه بها حتى اندفعت نحو شقتها المقابلة لتصفق بابها خلفها بعنف ...

وقد نسيت حتى أن تستعيد هاتفها!!!

هاتفها الذي تناولته دعاء من ماسة وهي تغلق الباب برفق لتتأمل الصور بأسف مع قولها العاتب:

_ما هذا يا ماسة؟!

زفرت ماسة بقوة ثم همست بنبرة باردة:

_سوء تفاهم!

نظرت إليها دعاء بترقب تنتظر تفسيراً لما تراه...

لكن ماسة أخذت منها الهاتف لتعود به إلى غرفتها ...

قبل أن تغلق بابها خلفها دون كلمة واحدة...

وهل بقي في الدنيا كلامٌ يقال!!!!

=============

_ادخلي يا دعاء!

هتفت بها ماسة بعد وقت طويل وهي ترفع الغطاء على جسدها المستلقي على فراشها...

قبل أن تعطي ظهرها للباب بعدما سمعت صوت الطرقات عليه...

ثم مسحت دموعها وهي تسمع صوت الباب يفتح لتقول بتماسك أجادت ادعاءه:

_لقد سمعت صوت رنين الجرس...لابد أنها زهرة جاءت لأجل هاتفها...ستجدينه عندكِ على الكومود.

لم يصلها رد على عبارتها مع اقتراب الخطوات...

فرفعت الغطاء حتى رأسها لتهتف بشبه انهيار:

_لا أريد الحديث الآن يا دعاء...دعيني ومصيبتي!!!

_وما هي مصيبتك؟!

اتسعت عيناها بصدمة وهي تميز صوته خلفها...!!

بل على بعد أنفاس منها...!!!!!

أنامله رفعت الغطاء من على رأسها بقوته المعهودة لتداعب وجنتها ورقبتها بحميمية دافئة ...

قبل أن تعرف طريقها لمنابت شعرها مع استرساله الحار جوار أذنها:

_هل جئت في الوقت المناسب؟!

عاصي؟!!!

عاصي !!!!!

هل هو حقاً هنا؟!!

هل جاء خلفها الآن؟!!

عجباً لذاك الرباط القدري الغريب بينهما!!!

عجباً لقلبين يتصلان رغم كل هذا البعاد!!!

عجباً لنداء لم يخذلها يوماً في تلبيته ...

ولم تخذله -هي -يوماً في التعلق بسواه!!!!

لم تترك مجالاً للسؤال أو الصدمة سوى لحظات...

قبل أن تستدير بجسدها نحوه لتلتهم تفاصيل ملامحه بشوق أجادت -هي- دفنه خلف قناع جمودها...

ذاك القناع الذي أقسمت ألا يتشقق بعد الآن أبداً!!!

بينما عجز -هو -عن منع أشعة شموسه الزيتونية التي طوقتها بعاطفة جبارة...

وهو يرفعها من كتفيها نحوه ليحاول البحث في بحار فضتها عن كنوز عشق كانت يوماً له...

أو على الأقل -ما بقي له - منها!!!

لكنه...لم يتبين شيئاً!!!

نعم...لأول مرة يشعر بأنه يقف أمام جدار هائل لا تكشفه مرايا عينيها كعادتها...

ليسود بينهما صمت طويل...

قطعته هي بقولها الذي تصنعت برودته بشق الأنفس:

_لماذا جئت؟!

ورغم خيبته من لقائها الفاتر لكن السعادة التي ملأت روحه بحق الآن جعلته يتغاضى عن هذا....

ليهمس أمام عينيها بصوت متهدج بفرحة لم ترَها في عينيه من قبل:

_جئتكِ لتفرحي معي...لم أطق صبراً حتى أخبركِ.

ضاقت عيناها بشك وهي ترمقه بنظرة متسائلة...

فابتسم ابتسامة واسعة شعرت بها صادقة لأبعد حد مع استطراده وهو يهز وجهه بانفعال:

_لقد عادت خطوط اللعبة في يدي كما وعدتك...كلها يا ماسة ...كلها!!!

ابتسمت ابتسامة جانبية تشبه ابتسامته -هو - القديمة...

ثم نزعت كفيه من على كتفيها لتنهض من على الفراش ...

قبل أن تعطيه ظهرها وهي تتوجه نحو النافذة التي فتحتها لتأخذ نفساً عميقاً من هواء الليل البارد لعله يطفئ نيران صدرها...

وقد أنبأها حدسها أن مجيئه إليها هنا يخفي الكثير الذي لن يروقها...

وهل بقي في جعبته ما يثير لديها الفرح؟!!

لقد فقدت -لعبه السحرية- بريقها المتراقص بأضوائه أمام قلبٍ لم يعد يتقافز أمامه بطفولة بلهاء!!

وكيف لا بعدما اقترف الخطيئة التي لا تغتفر؟!!

لقد سمح لسواها بتملكه فهل بعد هذا كلام؟!!

بينما راقبها هو ببعض الذنب الممتزج باشتياقه وقد شعر أنها تخفي جرحاً عميقاً خلف سدود كتمانها ...

لكنه لن يتركها حتى تعترف به على صدره كعادتها...

لن يترك لها -بعد الآن- مثقال ذرة من حزن في قلبها...

خاصةً تلك الليلة التي يعتبرها أعظم ليلة في حياته!!!

لهذا قام من مكانه ليتوجه نحوها هامساً بنبرة دافئة تشعر دوماً أنها شفرتها هي الخاصة لديه:

_كنتِ دوماً تميمة حظي...منذ دخلتِ حياتي وقد علمت أنها لن تعود أبداً كما كانت.

ظلت تعطيه ظهرها محاولةً إخماد بركان عاطفتها التي لو سلمت لها فلربما ألقت نفسها بين ذراعيه تتوسله العودة دون شروط...

لهذا احتضنت جسدها بذراعيها بقوة وكأنها تقطع على نفسها هذا الشعور لتقول بنبرة جامدة:

_لا داعي للمقدمات...قل ما عندك!

لم ينتبه لنفور لهجتها وهو يحتضن كتفيها براحتيه ليديرها نحوه ملتقطاً نظراتها بهيمنة مسيطرة قبل أن يهتف بانفعال:

_أخبرتكِ أنني أنا عاصي الرفاعي...متى أردت شيئاً فلابد أن يستجيب القدر!

اتسعت ابتسامتها الساخرة ولازالت تكتف ساعديها مع لفظتها المتهكمة:

_حقاً؟!

لكنه لم يكترث لرنة السخرية في صوتها مع اعتصاره لكتفيها وهو يهتف بلهجة منتصرة:

_لقد تخلصت من ذاك الرجل الذي كان يهددني...وعرفت أن حسام القاضي هو من كان خلفه .. لم أستطع النيل من الأخير بعد...لكن لا بأس...دوره سيأتي قريباً.

ورغم اشمئزازها من رائحة الدم المنغمسة بالانتقام والتي فاحت بين حروف كلماته...

لكنها شعرت ببعض الارتياح لحديثه وقد اطمأن قلبها عليه أخيراً لتهمس بصدق لم تتكلفه:

_الحمد لله.

بينما عاد هو يهز كتفيها بانفعال أكبر مع قوله بفرحة حقيقة لم تتبينها في عينيه من قبل:

_حلم عمري تحقق يا ماسة..تلك المرأة حملت بطفلي منذ بضعة أشهر...ومنذ أيام فقط تأكدت أنه سيكون ذكراً...ذكراً من صلبي يحمل اسمي بعدي...يرث كل هذا الذي تعبت عمراً في بنائه...

ثم ارتجف صوته رغماً عنه وهو يهمس بسعادة دمعت لها عيناه تأثراً:

_سيحبني مثلما أحببتني أنتِ....لن أجعله يكرهني كما فعل بي حماد الرفاعي...سيكون سندي وظهري وصاحبي وخليفتي...هل تدركين قيمة هذا عندي؟!

خفق قلبها كالذبيح بين ضلوعها وهي تئن بألم جعلها تغمض عينيها رغماً عنها....

ماذا عساها تقول الآن؟!!

هل تسعد لأجل هذا القلب "الشقي" الذي أوشك على التخضب ب"حنّاء" فرحته أخيراً بعد طول حرمانه؟!!

أم تتحسر لأن هذه الفرحة لم تكن من نصيبها هي معه؟!!

هل تحتضنه وتقبل جبينه بتهانٍ تعزفها "مثاليتها" الوردية؟!

أم تلعن ذاك الخبر وترجو السماء ألا تجيب دعاءه بكل أنانية؟!!

وهل يسمى الحب حباً إلا ب-ببعض- قطرات الأنانية فوق كئوس العطاء؟!!

ووسط حيرتها هذه لم يسعها إلا أن تفتح عينيها أخيراً محاولةً السيطرة على أنفاسها اللاهثة لتهمس بصوت متهدج:

_لم تخبرني بعد...لماذا جئت؟!

نظر إليها بتفحص وقد بدأ يشعر بعظم سُمك الجدار -اللا مرئي-بينهما...

فتراجعت ابتسامته شيئاً فشيئاً حتى همس أخيراً بعد صمت قصير:

_جئت لأعيدكِ معي...لتشاركيني فرحتي القادمة.

وهنا ضربته ضحكتها الساخرة الطويلة كطعنة رمح...

ضحكة رنانة بدويٍ غريب على لحن صوتها البرئ!!!

فهزها بين ذراعيه بعنف هاتفاً بضيق زاده انفعاله صخباً:

_لماذا تضحكين هكذا؟!لقد سمحت لك بالسفر فقط خوفاً عليكِ من ذاك الخطر هناك...والآن ما عاد هناك مبررٌ لبقائك هنا...ستعودين معي ...لنبدأ معاً في علاجك.

حلت ارتباط ساعديها لتنزع كفيه عنها ...ثم هزت رأسها لتقول بتهكم قاسٍ:

_علاجي؟!!لقد فقد السيد عاصي مهارته في تقصي أخباري إذن!

كانت سهام فضتها المشتعلة تحرق كل ما تطاله نظراتها من غابات زيتونه...

فانعقد حاجباه بشدة لتشتعل عيناه بغضب فجرته لهجتها المستفزة...

عندما توهجت عيناها ببريق شراسة غريب على إشعاع ماستها وهي تقول بنفس النبرة:

_جئتَ لتشاركني فرحتك؟!! حسناً...أنا أيضاً أريد أن أشاركك فرحتي!!!

ثم أشارت بكفها على صدرها لتردف بثبات:

_أنا أجريت جراحة ناجحة...وتم علاجي بالفعل..اليوم أستطيع إنجاب طفل متى شاء ربي.

اتسعت عيناه بصدمة للحظات وهو يتفرس ملامحها غير مصدق...

ما هذا الذي تهذي به؟!!

الآن فقط يحدث هذا!!!

الآن تزعم أنها يمكنها منحه طفلاً؟!!!

بعد ماذا؟!!

بعدما تورط بزيجة أخرى؟!!

لكن...لا بأس ...

ما الضير في ولد واثنين وثلاثة بل عشرة...

لقد عاد الحظ يضحك في وجهه فلينهل إذن من نصيبه ما شاء!!!

لكنها لكزته بسبابتها في صدره لتوقظه من نشوة ظفره وهي تهتف بصرامة قاسية:

_لكنك لن تكون أباه!!!

كز على أسنانه بغضب وهو يشعر بمفاجأتها تفقده كلماته...

ما الذي تعنيه بكلماتها الخرقاء؟!!

وكيف لم يعلم عن أمر هام كهذا وهو الذي كانت تصله أخبارها أولاً بأول؟!!

كيف استطاعت تدبر أمرٍ كهذا وحدها؟!!

بل...ما الذي تقصده بكونه لن يكون أبا طفلها؟!!

هل ستعود لحماقاتها وترهاتها عن رغبتها بالطلاق؟!!

لكنها عادت تقطع عليه هدير أفكاره عندما سول لها -شيطانها -فكرتها الجهنميةبالانتقام...

فامتدت أناملها لهاتف زهرة الذي نسيته هناك لتعبث فيه للحظات...

قبل أن ترفعه بصورتها مع -جهاد- أمام وجهه لتهتف بنبرة قاسية:

_افرح معي يا عاصي...كما تريدني أن أفرح معك...قلب ماستك تعلق بغيرك .

قالت عبارتها الأخيرة بنبرة أقرب لصراخ الذبيح..

لنحيب الثكلى...

ولعويل الجريح...

لكنها لم تحسب حساب هذا -الإعصار -الذي اجتاح الغرفة بعدما وقعت عيناه على الصورة...!!!!!!

والذي كان الهاتف المهشم أوله...

وصراخه الهائج بكلمات مبعثرة تتلوه...

قبل أن تجد عنقها معتصراً بأكمله بين أنامله بوحشية لم تتخيلها في أبشع كوابيسها...!!!!

ووسط صدمتها بما يحدث غفلت عن واقعها الآن للحظات...

وعيناها تتشبثان بعينيه وكأنها تقرأ فيهما ما بقي لها من مصير!!!!

لتقسم لنفسها الآن فقط.. أنها لم ترهما يوماً كما الآن!!!

لا...عيناه لم تكونا مشتعلتين كعهده عندما يغضب....

بل محترقتين...!!!!

محترقتين تماماً!!!

متفحمتين برماد قلب لم يتوقع أن تأتيه الضربة من ها هنا!!!

ماسة!!!!

ماسته النقية تعلقت بغيره!!!!

وجهها اقترن بوجه آخر ولو في -صورة-!!!!!

بل...وتعترف بهذا بمنتهى الصفاقة وكأن...

وكأن ما خفي كان أعظم!!!

لم يشعر بنفسه وأنامله تواصل اعتصارها لرقبتها مع ذاك القطران الأسود من الغضب الذي سرى بين أوردته...

بينما لم تكترث هي لألمها ولا لخوفها...

بل هتفت باستماتة وكأنها لم تعد تبالي بحياة أو موت:

_افرح يا عاصي...افرح يا من تظن شمس الدنيا تشرق وتغرب بين كفيك!!!

فالتمعت عيناه ببريق حقيقي من- دموع- ظللت غابات زيتونه لتحرق كبرياءه بنيران عجزه وهو يصرخ بثورة عارمة:

_سأقتله...وأقتلك قبله!!

_ألم تقتلني بعد؟!!

همست بها بأنفاس شارفت على الاختناق ثم سعلت بقوة وقد شعرت بقرب نهايتها...

لكنها عاودت همسها بمرارة:

_أنت دفنتني حية...صدقني لم يعد لديّ فارق بين موت وحياة!

ثم ألقت بسهمها الأخير وهي تكاد تلفظ آخر أنفاسها:

_كُتب عليك أن تقتل كل امرأة زعمت يوماً حبها!!!

كز على أسنانه بغضب أكبر وهو يشدد ضغط أنامله على رقبتها بمزيج من ثورة وألم...

ألم قلب ذبح بخنجر غدر في أشد لحظاته أمناً!!!

ربما كان مغالياً عندما جاء يخبرها عن حمل زوجته الأخرى...

لكنه لم يحسبها هكذا!!!

هو لم يكن كاذباً عندما زعم أنه جاء إليها لتفرح معه!!!

لم يكن لديه من يفعل معه ....سواها!!!

نعم...عاصي الرفاعي مع كل نفوذه وسطوته وتجمهر الناس حول إشارة من بنانه كان مجرد قلب وحيد...

لم يأنس إلا بها هي!!!

قد يلومه أحدهم لو علم أنه جاء يخبرها عن فرحته بطفله من امرأة" أخرى"!!!

لكنه هو وحده يعلم أنه ليس هناك "أخرى"...

هي امرأته الوحيدة مهما تَسَمّت بهذا نساءٌ في عالمه!!!

هي المعشوقة العاشقة... المغدورة الغادرة!!!

هي البريئة التي- تدعي - الآن إثماً سيموت كمداً لو- صدقت- به!!!

وسيموت ألماً لو -كذبت -به فقط ...لتعذيبه!!!

معقول؟!

هل يمكن أن تكون صادقة؟!!

لا...!!

بل...ربما...نعم!!!

حشرجة أنينها المكتوم قطعت أفكاره العاصفة فتراخت أنامله على رقبتها رويداً رويداً ...

عندما سعلت هي بقوة للحظات قبل أن تتلاحق أنفاسها وهي تدفعه بعيداً عنها بقوة مع هتافها اللاهث:

_طلقني...واحفظ ما بقي لك من رجولة معي!!!

ازداد انعقاد حاجبيه مع عينيه اللتين أغلقهما بقوة وكأنه استنكف أن تقرأ هي مرارتهما...

فيما كانت هي في وادٍ آخر وقد أعماها شيطان قسوتها لتردف بصوت هادر:

_أقسمت لك يوماً أنني سأجعلك تطلقني رغماً عنك...طلقني وإلا خنتك كمن سبقتني!!

فتح عينيه بعنف ليختلج قلبها في صدرها وهي تلمح الدمع الذي تجمد بعينيه لدقائق طالت كدهور...

دهور من جراح عجزت أن تجد من يداويها...

تراجعت فيها أمواج قسوتها الفضية لتخلف وراءها فضاء واسعاً من ندم ما عاد يجدي...

لكن...ماذا عساه كان يتوقع منها؟!!

أن تطلق زغاريد الفرح وهو يسحبها خلفه كقطة مطيعة ليعيدها ل"حرملك" نسائه؟!!

أن تقنع بدورها ك"رقم" في سجله وتُقبّل ظاهر كفها وباطنه رضًا بصنيعه؟!!

لا...لا كانت هي ...

ولا كانت الدنيا لو فعلتها.!!!

لعن الله عشقاً أذل صاحبه فلم يرفع له هامة ولم يعز له جبين!!!

وبهذا الخاطر الأخير عادت تقترب منه بحذر لتهمس بحزم:

_عذراً لو أفسدت عليك حفلك...عد لحياتك يا عاصي...واستمتع بكأس قدرك الممتلئ...ودعني أنا لكأسي فلا أظننا سنقرع كأسينا بعد!!!

كانت دقات قلبه المدوية تعزف لحن الخسارة بشجن حزين...

لكنه أجاد ستر ضعفه خلف غلالة رائقة من جمود احتل ملامحه لدقيقة كاملة أخرى....

قبل أن يهمس بصوت شديد الخفوت لكنه كان على قلبها كقرع الطبول:

_أنتِ لم تفسدي حفلاً...أنتِ سلبتِني ما بقي من عمر!

ثم تحرك بضع خطوات مبتعداً عنها ليهمس بنبرة ميتة وهو يعطيها ظهره:

_لو عاقبتكِ بقانون عاصي الرفاعي لكنتِ ميتةً بين ذراعيّ منذ لفظت أول كلماتك.

ثم صمت لحظة ليردف بجمود كانت تدرك جيداً ماذا وراؤه:

_لكنك كعادتكِ تكسرين كل قوانيني!

وابتسامته الجانبية عادت لشفتيه- كانتفاضة طير ذبيح - مع استطراده:

_على الأقل...أفلتت إحدى نسائي من أسري حية!

ساد صمت طويل بعدها وكلاهما يعطي الآخر ظهره وقد أدركا أنها ربما تكون آخر مرة يلتقيان فيها...

كلاهما كان يعلم أن الجرح هذه المرة لن تداويه كلمات...

وأن القطار -ربما- وصل بهما لآخر محطاته...

فلم يعد هناك بعد الوصول إلا النهاية!!!

لتأتي كلمتها الأخيرة مكسوةً ببريق زائف من انتصار خدعها به كبرياؤها :

_ستطلقني!

والإجابة قصمت ظهرها -قبله- وهو يسير أخيراً نحو باب الغرفة ليفتحه هامّاً بالرحيل أخيراً

ودون أن ينظر إليها مع انحناءة رأسٍ لم يعرفها -مثله- يوماً:

_ظننتكِ ستصلحين ما أفسدته سنوات عمري قبلك...لكنكِ أنتِ...أنتِ كسرتِني!!

=========

الفصل الثالث والثلاثون

_صرتَ تجيد الحساب يا شيخ "محمد"!!

هتف بها عبد الله بحنان مشوب بالفخر وهو يرى الصغير يتناول النقود من أحد الزبائن في المحل ليقلبها بين أنامله الصغيرة وكأنه- حقاً -يعدها...

قبل أن يقول بصوت جاد رغم نبرته الطفولية:

_مضبوط!

هنا علا صوت عبد الله بضحكته دون تحفظ وهو ما كان غريباً على طبيعته الجادة...

لتلتفت له أنظار الجميع من عاملين وزبائن بمزيج من حنان وإشفاق...

وقد أدركوا أن الشيخ الذي حُرم من الإنجاب طوال هذه السنوات قد وجد ضالته أخيراً ولو في ولدٍ ليس من صلبه!!

ومن يدري؟!!

ربما منّ عليه القدر بذرية تحمل اسمه من زوجته الجديدة !!!

لكنه كان غافلاً عن نظراتهم بتعلق عينيه بالصغير "المعجزة"!!!

نعم...هكذا كان يراه منذ وقت ليس بالقصير!!

بالتحديد منذ تلك الليلة العصيبة التي علم فيها عن زواج صفا والتي شعر فيها أن هذا الطفل هو هدية القدر له كي يطفئ نيران قلبه ...

وقد كان!!!

فهو و الصغير يرتبطان كل يوم أكثر من سابقه...

ورغم أن علاقته بفتون لازالت متجمدة تحت ثلوج "شعوره بالذنب" ...

لكن علاقته بمحمد تبدو كشمس حب دافئة...

ومن يدري...ربما تذيب هذه الثلوج يوماً!!!

لكن الصغير قطع أفكاره وهو يضع كفيه الصغيرين على وجنتيه مع تساؤله ببراءة:

_متى سيكون لي لحيةٌ مثلك؟!

ابتسم عبد الله وهو يضمه إليه ليقول بحنان:

_عندما تكبر ستكون مثلي في كل شئ...كما تريد!

هنا رفع محمد رأسه إليه ليقول بنفس النبرة البريئة:

_وأتزوج اثنتين مثلك!!

هنا تغيرت ملامح عبد الله للحظات وقد دفعته كلمات الصغير- العفوية- لجحيم ذكرياته من جديد...

لكنه اغتصب ابتسامة باهتة على شفتيه مع قوله باقتضاب:

_إلا هذه!

رمقه الصغير بنظرة متسائلة لكنه عاد يشاغله بمنحه المزيد من النقود لعدّها...

فاستجاب الصغير بسرعة لتعود تعليقاته المرحة تملأ وجه عبد الله بضحكات صافية...

وفي ركن المحل الآخر وقفت -هي- تراقبهما بألم شق قلبها نصفيْن!!!

نظراته الحنون نحو الصغير كانت تخترق صدرها كسهام مشتعلة!!!

تلك النظرات التي تمنت يوماً لو يحملها لطفلٍ منها - هي-!!!

كانت ترتدي عباءة سوداء فضفاضة ...

و قد أسدلت نقاباً على وجهها حمدت له مداراة دموعها التي أحرقت وجنتيها وهي تراقب بعينيها خسارة عمرها!!

عبد الله نسيها!!

نسيها وانغمس في حياته مع امرأة ليست "هي"!!!

وطفلٍ ليس "منها"!!

يضحك الآن ملء شدقيه وهي التي تبيت لياليها غارقةً بدموعها!!!

انسلخ من جلد "عشق" ظنته سيبقى طوال العمر ...

وكم كانت واهمة!!!

فيالعقوقك يا "ابن قلبي"!!!

يالعقوقك!!

_تريدين شيئاً آخر سيدتي؟!

هتاف البائع قطع عليها نحيب أفكارها فهزت رأسها نفياً دون رد وهي تعاود التفاتها نحوه لتعطيه ما بيدها من نقود...

ثم تناولت منه ما -ادّعت- شراءه وقد عجزت عن منع دموعها التي أغرقت نقابها...

لتستدير بجسدها محاولةً اختلاس نظرة أخيرة من -معذبها- لتجده فجأة أمامها!!!

شهقتها العنيفة لفتت انتباهه فالتفت نحوها بدوره ليتعجب من هذه المرأة المنتقبة التي ابتل نقابها بدموعها...

قبل أن يعقد حاجبيه بشدة وهو ينظر لعينيها بشك!!

لكنها اندفعت تغادر المكان بسرعة تكاد تتعثر في خطواتها وتلاحقها نظراته التي غلبت لهفتها تشككها...

ولم تكد تستقل سيارتها حتى أخذت عدة أنفاس عميقة...

ثم ألقت رأسها على المقود تفرغ ما بقي بعينيها من دموع...

وقد فتّت لقاء -عينيهما- الأخير آخر صخور مقاومتها ليتناثر حصاها كالجمر المشتعل بين جنبات روحها...

عندما يمتزج لهب "الاشتياق" ب"ألغام" الانتقام فالانفجار قادمٌ لا محالة..

انفجارٌ س"تكون" هي ضحيته قبله!!!

بل "كانت" ...!!!

كانت وانتهى الأمر!!!!

لقد ظننت أنها ستجلده بسياط "خيانتها" له كما فعل هو...

لكنها اكتشفت أنها كانت تجلد نفسها -هي-

تجلدها بنظرات أنس ولمساته التي تطلبها بنفسها كل مرة...

ثم تنهار بعدها في بكاء صامت!!

تظن نفسها تروي ظمأ أنوثتها المطعونة...

لكن الحقيقة أنها كمن يشرب من ماء البحر فلا يزيده إلا عطشاً!!!

لقد تشوشت الرؤية في عينيها فصارت ترى علاقتها ب"أنس" خيانة...

بينما لا يزال وفاء قلبها ل"ابن قلبها"!!

فيالها من ضالة!!!

وعند خاطرها الأخير أطلقت آهة ألم عالية استودعتها كل مشاعرها المتخبطة...

قبل أن تتمالك نفسها بشق الأنفس لتعاود تشغيل سيارتها للعودة إلى منزلها...

منزل"عبد الله" والذي صار الآن ل"أنس"...

وهي- الحمقاء- لازالت لا تدرك تبعات هذا!!!

وخلف حطام ذكرياتها ما بين "نعيم" عاشته معه كعاشقة...

و"جحيم" هوت في سعيره بعده كعاصية...

تلونت أفكارها بين "حمرة" العشق و"سواد" الانتقام...

حتى فتحت أخيراً باب المنزل لتجده واقفاً أمامها يتفحصها لبضع لحظات بملامح جامدة....

قبل أن يسألها بلهجته التي تزيد عذابها بما تحتويه من ألم وعتاب:

_أين كنتِ يا ابنة عمي بهذا الزي؟!

أغلقت الباب خلفها برفق وهي تنتبه لملاحظته لما ترتديه...

وهو ما زاد ارتباكها و عصبية صياحها الهادر:

_كنت أينما كنت!!!

رمقها بنظرة عاتبة طويلة وقد بدا على وجهه- الشاحب -آثار معاناته بها...ولها...

لكن قلبها -المضطرب- تحسس -بطحة رأسه-بخطيئته العشقية...

فأخطأ تأويل "عتاب" نظراته إلى "شك" لم تكن لتسمح هي به!!!

فصمتت لحظة لتخلع عنها نقابها بحركة عنيفة وقد أخذتها العزة بالإثم لتعاود هتافها المنفعل:

_لماذا تنظر إليّ هكذا؟!!قبل أن تأخذك ظنونك بعيداً تذكر من أنا وما هي أخلاقي...صفا المعموري لن تفكر حتى مجرد تفكير بخيانة !!

كانت أنفاسها قد وصلت حد اللهاث في كلماتها الأخيرة واشية بما يجيش في صدرها من مشاعر صاخبة...

فاقترب منها ببطء لتلتوي شفتاه بابتسامة جانبية مع قوله وهو يشيح بوجهه عنها:

_الخيانة ليست بالجسد فقط يا ابنة عمي!

وكأنما أثارت عبارته جنونها أكثر فتحول هتافها لصراخ حقيقي :

_كفّ عن الحديث معي بهذه الطريقة...إذا كان لك حقٌ عندي فخذه لكن لا تعاملني هكذا كمجنونة!!!

_كلانا مجنونٌ...فكيف أعاتبك وأنا مثلك؟!!

قالها وهو يلتفت نحوها بحدة ...لتمتزج مرارة كلماته مع شروده:

_كلانا فضّل أن يبقى سجين عشق بلا أمل على أن ينطلق حراً في سماء خلت منه!!

ارتجف جسدها بانفعالها وهي تتقدم خطوة لتعطيه ظهرها وقد عجزت عن مواجهته بعينيها...

هل تجرؤ الآن أن تعترف أنها تشعر بالذنب نحو أنس؟!!!

لا...!!!

العجيب أنها وسط كل هذا لم تشعر بمثقال ذرة من ذنب نحوه!!!

كل إحساسها كان منصباً في بؤرة "الخزي" من اكتشافه أنها لا تزال هائمة بعبد الله!!!

كبرياؤها كان أهم عندها من جرحها لرجولته!!!

ووسط كل هذا الضباب الذي كان يغشي عينيها لم تكن تنتبه أنها -حقيقةً وبعيداً عن قوانين الهوى -لم تعد تنتمي ل"ابن قلبها"...

بل لذاك الرجل الواقف- خلفها- حقيقةً ومجازاً!!!

نعم. ..خلف -ظهرها- الآن يقف أنس كما وقف خلف -قلبها- العمر كله!!!

لهذا لم يكن عجيباً أن تقطر القسوة من كلماتها :

_دع أحاديث العاشقين هذه للمراهقين...نحن الآن ناضجان بما يكفي لنكمل حياتنا كراشديْن!

لم يلتفت نحوها مع اتساع ابتسامته المريرة وقد أنبأته -ملامحها قبل ثيابها- بأينما كانت منذ قليل...

صفا المعموري التي يتباهى لسانها الآن بتمرده على سلطان العشق هي أول من ترصف في أغلاله!!!

لكنه لن يجادلها بعد...

سيفني ما تبقى من عمره ليعيدها لنفسها...

لتعود "صافي" القديمة التي كانت براءتها تنافس حنانها على ملامحها...

بعيداً عن هذه القاسية المتكبرة المتعجرفة التي لا يكاد يعرفها وقتما يراها!!!

لهذا أخذ نفساً عميقاً ثم قال بنبرة باردة لم تخلُ من صرامة:

_أنا ذاهبٌ لقضاء بعض شئوني...ولن أسمح لكِ بالخروج بعد إلا بإذني.

ورغم شعورها بالضيق من لهجته التي كانت تستنفر شعوراً بالذنب أرادت وأده في مهده...

لكنها لم تجد ما ترد به عليه بينما تقدم هو نحو الباب ليفتحه ...

_أريد أن نتبنى طفلاً!!

والجملة فاجأتها هي قبله!!!

لم تعرف كيف قفزت هذه الفكرة المجنونة لرأسها هكذا في لحظة !!!

لكنه تمالك دهشته قبلها ليبتسم ابتسامة جانبية وهو يعيد غلق الباب مع استدارته نحوها:

_ولماذا الآن بالذات ترغبين في هذا؟!

ثم تقدم منها ليقف قبالتها تماماً مع استطراده:

_لم تفكري فيها طيلة سنوات زواجك السابقة!!

فأخذت نفساً عميقاً ثم قالت بتهكم مرير:

_بل فكرت...لكن الشيخ كان يرفض!!

ثم ضحكت ضحكة مكتومة وهي تردف بسخرية قاسية:

_كان يزعم حرمته شرعاً...الشيخ الورع استحرم أن يتبنى طفلاً بينما استحل النظر لخادمتي!!!

قالت كلمتها الأخيرة بازدراء غلب حسرتها ...

فتنهد بحرارة ثم أمسك كتفيها ليقول بحزم:

_ربما لو توقفتِ عن النظر إليها كخادمتك لبدأتِ الطريق الصحيح لحل مشكلتك!

أطلقت صيحة غاضبة وهي تمسك صدغيها بأناملها لتهتف بانفعال:

_هل ستعود لهذا الحديث؟! أنا مللت كلامك بهذه الصورة!

توهجت عيناه ببريق عاصف من عاطفة فتيّة لكنها للأسف لم تستطع اختراق جدران قلاعها العصية...

بينما احتضنت أنامله وجنتيها برفق مع همسه الحازم:

_أما أنا فلم أملّ ولن أمل حتى أعيدك لنفسك!

لانت نظراتها شيئاً فشيئاً أمام هذا الفيض الغامر من حنان لم يكن لينساب هكذا إلا من رجل مثله!!

خاصةً في هذا الموقف الذي انتهك رجولته!!!

فأغمضت عينيها بقوة للحظات ..قبل أن تهمس بنبرة مشتتة:

_أنس...أنا أعرف أنك تحملتني كثيراً...لكنني ...

_هل رأيتِه مع ابن زوجته؟!!

وسؤاله المفاجئ بنبرته الخبيرة لم يقطع عبارتها فحسب!!!

بل أعاد إذكاء نيرانها بكل قوتها لتعود تصرخ بانفعال:

_لا تقل زوجته...هي خادمة...مجرد خادمة حقيرة أغوته ليكتب لها ورقة رسمية...هل كل من كتب ورقة تزوج؟!!

شدد ضغط أنامله على وجهها لتلتمع عيناه بنظرة أكثر قوة مع قوله بنبرة حازمة:

_هذا ما يجب أن تدركيه أنتِ يا ابنة عمي...هذه الورقة التي تتهاونين بها سيف على رقبة أصحابها...سيفٌ ذبحكما معاً يوم تساهل هو في أيمان طلاقاته المتعددة وأسرفتِ أنتِ في معايرته بفضلك عليه!!

هزت رأسها في نفور من مجرد الاستماع إليه...

بينما زفر هو بقوة ليردف بنبرة شاردة:

_وسيفٌ على رقبتي أنا الآن...وأنا أبذل ما بوسعي كي أتذكر أنك زوجتي وأتناسى هذا في نفس الوقت!!

لكن الألم المسافر بين حروف كلماته لم يجد له صدًى بين جدران قسوتها الجديدة...

فلم تتبين شيئاً مما قاله وذهنها منشغلٌ فقط بما تتمناه الآن...

أن تتبنى طفلاً ذكراً!!!

إذا كان عبد الله يتنعم الآن بولد فهي لن تكون أقل منه!!!

_وماذا لو حظي هو بطفل من صلبه؟!

قالها أنس وكأنه قرأ أفكارها بعينيها...

فشهقت بعنف وهي تنظر إليه وقد ذبحتها عبارته ذبحاً!!!

لكنه تعمد هذه القسوة وهو يردف بنبرته التي امتزج تهكمها بمرارتها:

_كيف ستعلو قدمكِ على رأسه وقتها إذن؟!!

اتسعت عيناها بصدمة للحظات وكأنها لا تصدق أنه قال هذه الكلمات...

لتسأله أخيراً بنبرة مرتعشة:

_هل تعيّرني بعدم الإنجاب يا أنس؟!

فأغمض عينيه بقوة وقد آلمه أن تسيئ الظن به...

لكنه عاد يفتحهما بعدها ليلوح بسبابته في وجهها قائلاً بحزم:

_بل أردكِ للرضا بقدرك يا ابنة عمي...أحاول أن أدفعكِ بعيداً عن مخالب غرورك التي تنهش روحك الحقيقية

بحنانها وبراءتها...قد لا يعجبكِ كلامي الآن...لكنني ستشكرينني عليه يوماً ما.

قالها وهو يبتعد عنها ليعاود طريقه للخروج بخطوات مندفعة قبل أن يتوقف ليلتفت نحوها بقراره الأخير:

_لن نتبنى طفلاً يا صفا...سأكسر هذه الحلقة التي تصرين على الدوران فيها.

====================

_هل نام؟!

سألها عبد الله هامساً وهو يراقب جسد الصغير المستكين في فراشه بعد عودتهما من المحل آخر اليوم...

فأومأت فتون برأسها وهي ترفع الغطاء على جسد الصغير لتهمس بحنانها الفطري:

_نعم...لقد كاد يطير فرحاً وهو يحكي لي عن يومه الطويل معك.

ثم ابتسمت لتقول بامتنان حاولت به مداراة عاطفتها نحوه:

_جزاك الله خيراً يا شيخ...لم أرجُ لابني حياةً أجمل ولا أباً أفضل!

ابتلع غصته بصعوبة وهو يتحاشى النظر إليها كعادته...

نظرات امتنانها هذه تقتله وهو يشعر بتقصيره معها كزوجة!!

لكنه حقاً لا يستطيع فعل ما هو أكثر!!!

بل إنه زار فعلاً طبيباً نفسياً -في السرّ- لعله يحل له مشكلته هذه...

والرجل رأى أن علته الحقيقية تكمن في نفسه...

نفسه التي لازالت ترى زواجه من فتون -خطيئةً- عظمى بحق المرأة التي لم يستطع قلبه الاعتراف بسواها زوجة!!

نفسه التي تؤنبه على تضييعه للنعمة التي كانت بين كفيه...

نفسه التي لازالت ترى كل هذا عقاباً وسخطاً من السماء عليه...

وما زاد فداحة الأمر هو زواج صفا هي الأخرى!!

عقله الباطن صور له أنه هو السبب في دفعها بين ذراعيّ رجل آخر...

فكيف يهنأ بحياته بعدها؟!!

وكيف الهروب من خيالاته -المشتعلة- بها مع رجلٍ سواه استحل ما حُرّم عليه هو ؟!!

الطبيب قال إن الحل يكمن في أن يتصالح مع نفسه "اللوامة" هذه!!

أن يعترف بخطئه لكن ...لا يجعله يعيقه عن إكمال طريقه...

ورغم اقتناعه -عقلياً- بتفسير الطبيب وحكمه...

لكنه لا يزال عاجزاً عن التنفيذ!!!

لقد أجادت صفا تقييد نفسه بأغلال من عاطفتها السخية حتى صار يشعر بعدها بيتمٍ حقيقي...

احتلت كل حصون رجولته بحرفيةٍ لم تتعمدها عندما وضعت يدها على كل ثغور احتياجه...

وهو -الأحمق- الذي تغافل عن كل هذا ليسول له شيطانه أنها لا ترضيه -كامرأة-!!

وهي -الأخرى- تمادت في دور الأم والصديقة وكأنها - بلا وعي- تعين شيطانه عليه!!!

لكن...ما عسى يجديه كل هذا الآن...

لقد نفد سهم القدر وما بقي إلا انتظار المصير!!

_هل ستنام الآن؟!

قالتها فتون تنتشله من شروده فهز رأسه نفياً وهو يقول بهدوء خادع:

_لا...سأسهر اليوم قليلاً.

ابتسمت لتتألق أشعة الفتنة في محياها الوضاء مع قولها ببعض الخجل:

_هل يضايقك لو أجلس معك؟!

وكأنما سرت "عدوى" ابتسامتها إليه قسراً ليقول مع تبسمه بنبرة حانية:

_لا أبداً...على العكس .

اتسعت ابتسامتها الصبوح وهي تقول بحماس غلب خجلها:

_سأعد لنا كوبين من "الينسون" كما تحب!

قالتها وهي تندفع نحو المطبخ بخطوات فضحت سعادتها التي لم يفهمها هو...

وقد حملته عبارتها الأخيرة لتلك -المرأة- المنتقبة الباكية التي رآها صباحاً في المحل...

هل كانت صفا حقاً؟!!

أم أنه كان يتوهم؟!!

قلبه يخبره أن "صفا روحه" لن تنسى "ابن قلبها" مهما حدث...

لكن عقله يحذره من مغبة التفكير في الأمر...

اتقِ الله يا شيخ!!!

هي الآن لم تعد تحل لك!!!

صارت في عصمة رجلٍ آخر ومجرد تفكيرك بها الآن خطيئةٌ تستوجب الاستغفار!!!

وعند خاطره الأخير ارتسمت ابتسامةٌ شاحبة على شفتيه...

سبحان من يقلب الأمور بين النهار والليل...

من كان يقول أن صفا التي كانت يوماً ملء روحه وقلبه وبصره...

الآن مجرد مرورها على خاطره خطيئة؟!!

انقطعت أفكاره عندما قدمت فتون تحمل صينية صغيرة حملت بعض الحلوى مع المشروب لتقول وهي تتوجه نحو شرفة المنزل:

_ما رأيك لو نجلس في الشرفة؟! الجو ليس بارداً الليلة!

أومأ برأسه موافقاً عندما سبقته هي إلى هناك لتضع الصينية على المنضدة الصغيرة في الشرفة...

فجلس هو على الأريكة هناك قبل أن يعاود وقوفه وهو يتلفت حوله ليغير مكانه مع قوله بعفوية:

_تعاليْ واجلسي في هذا الجانب كي لا يراكِ أحد من الجيران!

كتمت ابتسامتها بصعوبة وقد أسعدتها -غيرته- حتى وهي تعلم أنها لا تحمل ما يفوق غيرة "الشيخ "على امرأة تحمل اسمه...

لكنها مع هذا شعرت بشعور غريب يجتاحها وهي تجلس جواره حيثما أشار ...

شعورٍ بأمان حقيقي يزداد رسوخاً بداخلها يوماً بعد يوم...

رغم الشكل الغريب لزواجهما الذي لا يتعدى سطوراً في ورقة!!

لتنقلب سعادتها لدهشة عندما مد هو يده ليناولها كوبها فهتفت بلهفة دون وعي:

_العفو يا شيخ!

عقد حاجبيه بضيق وهو يتفرس ملامحها بأسى ممتزج بتأنيب ضميره...

بعد كل هذا هي لم تتجاوز ذاك الحاجز بينهما...

لازالت علاقتهما تدور في إطار الرجل و "خادمته"...

فهل يلومها أم يلوم نفسه؟!!

وفي ذهنها كانت هي تؤنب نفسها بذات الخاطر!!!

لماذا لا تستطيع العبور نحوه إلا عبر هذا الباب فحسب؟!!

باب امتنان امرأة لرجلٍ منحها ما يفوق حقها بكثير!!!

لكنها تعلم نفسها جيداً...

رغم بساطة حالها وتواضع ظروفها لكن عزة نفسها لن تُمسّ!!!

لن تخطو نحوه خطوة حتى يبادرها هو بالأولى...

ولو لم يستطع فهي مسامحة!!

حقها فيه ليس مجرد علاقة رجل بامرأة في فراش...

حقها فيه أن يمنحها ذاك الشئ وهو يرغبها طواعية...

وهو ما تظنه لا يزال بعيداً طالما "سيدتها" صفا لاتزال تحتل صدارة الصورة!

_فتون!

همسته باسمها دغدغت حواسها بشعور لطيف توردت له وجنتاها لترتجف أناملها الممسكة بالكوب مع همسها:

_نعم يا شيخ!

ابتسم ابتسامة هادئة وهو يرتشف رشفة من كوبه ليقول لها بتباسط لم يعرفه معها يوماً:

_أنا لا أعرف عنكِ شيئاً بخلاف هذه المعلومات البسيطة التي جمعتها قبل زواجي بك...الجميع في بلدتك مدحوا في خلقك وطيب أصلك .

اتسعت ابتسامتها الراضية وهي تقول بنبرتها المميزة ممطوطة النهايات :

_أكرم الله أصلك يا شيخ!أنا نشأت يتيمة الأب وأمي لحقته بعد زواجي مباشرة...تزوجت مرعي وأنا في السابعة عشرة من عمري...كان رجلاً طيباً لكنني تقريباً لم أكن أراه...كان يعمل طوال اليوم كي يوفر لقمة العيش لنا...وعندما انتقلنا من بلدتنا إلى هنا ازداد الوضع سوءاً...المسكين كان يتنقل بين عملين وثلاثة ليعود آخر الليل يكاد لا يرى من أمامه...حتى أن ابنه تقريباً لم يكن يعرف شكله...

ثم تنهدت بحرارة لتردف:

_حتى عمل لديك في المحل لينتهي أجله كما تعلم...وقتها شعرت أن الدنيا كلها اسودت بعيني...ماذا تفعل امرأة مثلي هنا غريبة ووحيدة ومعها طفلها؟!!

ثم صمتت لحظة لتستطرد بشرود:

_فكرت في العودة لبلدتنا لكنني كنت أعلم أن أحداً لن يساعدني...مرعي كان وحيداً مثلي...كما أنني فكرت أن فرص العمل هنا ستكون أفضل...لهذا جئتك أطلب مساعدتك..

ثم التفتت إليه أخيراً من شرودها مع قولها الذي عادت إليه نسائم الامتنان المشوب بعاطفتها:

_وأنت لم تخذلني.

أطرق برأسه دون رد للحظات وهو يتشاغل عن تأثره -اللحظي- بها برشفة أخرى من كوبه . .

قبل أن يعاود سؤالها باهتمام:

_وذاك الوغد حسني...لماذا كان يضايقك؟!

هنا ارتسمت على شفتيها ابتسامة شاحبة وهي تلاعب كوبها بأناملها مع إجابتها :

_حسني فقط؟!الكثيرون فعلوها يا شيخ...ومن يمنعهم عن صيد ثمين مثلي؟!

_ثمين لكن ليس سهلاً!

قالها بحمية مشوبة بالضيق وقد استرجع أحداث ذاك اليوم الذي أنقذها فيه من تعدي ذاك الرجل عليها...

فاتسعت ابتسامتها وهي ترفع رأسها للسماء بقولها:

_المرأة التي تحفظ نفسها فالله أشد لها حفظاً!

ثم عادت إليه ببصرها لتقول بنبرتها الراضية:

_أنت وسيدتي صفا كنتما منحة السماء لي ولابني...لهذا سأبقى طوال عمري مدينة لكما.

عقد حاجبيه بضيق وهو يشيح بوجهه عند ذكرها لصفا!!

هذه المرأة إما في غاية الوفاء أو في غاية البلاهة!!!!

واحدةٌ أخرى في ظروفها كانت ستستغل كل فرصة لتقربه نحوها...

لكنها تبدو له وكأنها تساعده -دون كلمات- على الغرق أكثر في بحار ماضيه السوداء!

لهذا لم يتعجب عندما وقفت أخيراً -وقد لاحظت ضيقه بسيرة صفا- لتقول بنبرة اعتذار:

_اعذرني يا شيخ...يقولون أن لساني المنفلت هذا هو أسوأ ما فيّ...سأعفيك من ثرثرتي وأدخل!

فابتسم وهو يرفع عينيه إليها ليقول بنبرة حانية:

_على العكس...لا أحب أولئك الذين يفكرون قبل أن يتكلموا...حافظي على فطرتك النقية هذه.

عادت وجنتاها تتوردان لتحمد الله سراً على إضاءة المكان الخافتة كي لا تنفضح مشاعرها...

ثم تنحنحت بحرج لتقول وهي تتناول منه كوبه الفارغ:

_هنيئاً يا شيخ!

تلامست أصابعهما للحظات فاختلج قلبها بين ضلوعها بشعورها -الدافئ- نحوه ليزداد احمرار وجنتيها...

بينما بدا هو غافلاً عن هذا وهو يقول شاكراً:

_سلمت يداكِ...تصبحين على خير!

ردت له تحيته بخفوت قبل أن تنسحب من أمامه بخطوات مرتبكة...

لتعيد الصينية إلى المطبخ ثم عادت إلى غرفتها لتغلق بابها خلفها برفق سامحةً لتنهيدة حارة أن تغادرصدرها...

قبل أن تتوجه نحو مرآتها لتتفحص ملامحها باهتمام سرعان ما انقلب إلى رضا وهي تتفحص وجهها الجميل الذي زاده خجله روعة...

وزادته مشاعرها الصاخبة الآن اشتعالاً بفتنته!!

ثم عادت إلى فراشها الذي يشاركها فيه الصغير -النائم الآن- لتحتضنه بقوة رفيقة مع همسها الحالم وكأنه يسمعها:

_قل لي يا محمد ...أنت جربت...كيف هو حنان الشيخ؟!

ثم صمتت لحظة لتردف بنبرة أكثر خفوتاً:

_كيف هي ضمّته عندما يحتضنك؟!كيف هي ضحكته عندما يقبّلك؟!كيف هي نظرته عندما يطيل التحديق فيك؟!

تململ الصغير بين ذراعيها فشهقت بعنف وهي تخشى أن يكون قد سمعها...

فظلت تربت على ظهره برفق حتى عاد جسده يسكن بين ذراعيها...

هنا ابتسمت أخيراً بارتياح مشوب بخجلها وهي تهمس لنفسها هذه المرة:

_كنتِ بعقلك يا فتون...ماذا جرى لك؟!

===========

_"ماما" صفا!!!

هتف بها أحد "أولادها" في المدرسة وهو يندفع نحوها مع شقيقته التي تكبره بالقليل....

فابتسمت بحنانها -النقي- الذي قلّما يحتل ملامحها هذه الأيام...

لتنحني بجذعها وهي تفتح ذراعيها لهما سامحةً لعناقهما الدافئ بسد ثغرات اشتياقها لهذه العاطفة...

قبل أن يرفع الولد رأسه نحوها ليقول بعتاب طفولي:

_نسيتِنا يا "ماما" صفا...لم تعودي تنظمي لنا الحفلات كالسابق!

ظهر بعض الأسى في ملامحها ليختلط بحنانها الفياض...

بينما هتفت البنت وأناملها الصغيرة تلامس خصلات شعر صفا التي بدت خلف حجابها القصير المنحسر:

_لماذا تظهرين شعرك هكذا؟!أنا ارتديت حجابي العام الماضي لأكون مثلك؟!

شعرت بالحرج من كلام الطفلة الذي أعاد إليها شعورها ب-بعض- الذنب...

فاعتدلت واقفةً لتخفي ما ظهر من شعرها تحت وشاحها بحرص قبل أن تقول بنبرة اعتذار:

_أنا انشغلت ببعض ظروفي...أعدكما أن أعود للاهتمام بكم جميعاً من جديد!

ابتسم الطفلان بسعادة وهما يطوقانها معاً في نفس الوقت...

فضحكت ضحكة رائقة وهي تضمهما بذراعيها قبل أن تقول بحزمها الحاني:

_الآن عودا لفصليْكما...وبشروا زملاءكما بمفاجأة قريبة.

صاح الصغيران بفرح وهما يتقافزان في طريقهما للعودة إلى فصليهما...

فتأملتهما بحنان حتى غابا عن ناظريها...

ليختفي الحنان من عينيها رويداً رويداً وتحل محله سهامٌ مشتعلة من غيرة وغضب وصورة "عبد الله" مع "محمد" تعود لتذبح روحها من جديد...

ومعها عاد شيطان "كِبرها" يهيمن على فكرها بتسلط...

عبد الله لن يكون أسعد منها!

هو تزوج...وهي فعلت...

هو يعيش "أبوّته" مع طفل...وهي ستفعل!!

أنس لا يوافق أن تتبنى طفلاً...لكنها ستعرف كيف تقنعه...

أجل...

سيكون لها ولداً تتباهى به في الطرقات وبين الجميع...

ستعيش معه إحساس الأمومة الحقيقي الذي حُرمت منه...

والأهم...ستقهر به عبد الله أكثر وهي تُريه أنها مضت في حياتها بعده ولم تتوقف...

ومن يدري ربما أسعدها القدر بطفلٍ لها من أنس ...د

ساعتها ستكون الضربة -القاصمة- للشيخ!!!

وهو يراها تحقق مع -غيره- ما عجز هو عن تحقيقه معها!!

وهنا ارتسمت ابتسامةٌ متشفية على شفتيها لتغتال ما بقي من براءة حنانها الذي كان هائماً على ملامحها منذ لحظات...

قبل أن تأخذ طريقها بخطوات حاسمة نحو غرفة مكتب أنس وقد قررت أن تعاود مناقشته بشأن أن يتبنيا طفلاً...

ليس هذا فحسب...بل ومعاودة طريق العلاج من جديد...

ولو أن الأطباء أخبروها آخر مرة أن حالتها ميئوسٌ منها...

لكنها لن تستسلم!!!

وبهذا الإصرار فتحت الغرفة متأهبةً لنقاشٍ مشتعل كعهدها معه مؤخراً...

لتفاجأ بالغرفة خالية!!

زفرت بقوة وهي تغلق الباب خلفها تنتظر عودته...

ثم تقدمت نحو مكتبه لتجلس في انتظاره...

لكنها ما كادت تجلس حتى سمعت صوت هاتفه -المكتوم- ينبعث من مكان ما...

تلفتت حولها تبحث عنه ثم وقفت لتبحث عن مصدر الصوت لتجده ينبعث من درج المكتب الأول الذي فتحته بسرعة لتتناول الهاتف محققةً في الاسم الذي لم تتعرفه للأسف...

فآثرت إعادته مكانه حتى يعود صاحبه...

لكن أناملها اصطدمت بذاك المظروف العريض الذي حوى اسم مشفًى كبير أثار فضولها بشدة...

فجلست على كرسيّه لتفتح المظروف وتستخرج أوراقه بحرص...

اتسعت عيناها بصدمة وهي تقرأ التقارير المرفقة به ليخفق قلبها بجنون!!!

أجل...رغم انعدام خبرتها الطبية لكن مقارنةً بسيطة بين أرقام المعدلات الطبيعية والأرقام التي تخصه كانت تكفيها لتدرك أنه حقاً في مصيبة!!

أبعدت الورق عن ناظريها للحظات وهي تتذكر شحوب وجهه الذي كان يزداد يوماً بعد يوم ...

سواد بشرته الممتزج بصفرة غريبة لم تكن عليها يوماً...

شعوره -شبه الدائم- بالإعياء مع نومه الطويل...

انعدام شهيته وتلك "الأقراص" التي كان يتناولها مع طعامه...

كيف لم تنتبه لكل هذا؟!!!

كيف لم تهتم حتى أن تسأل؟!!

لتعود ببصرها إلى الأوراق محاولةً تبين تشخيصٍ ما يساعدها...

عندما فتح هو الباب فجأة لتتسمر عيناه عليها ...

أو -بالأدق -علي أناملها الممسكة بالأوراق!!!!!!

صمتٌ طويلٌ ساد بينهما وكلاهما عاجزٌ عن الكلام...

هي التي كانت متخبطةً في مشاعرها لا تدري ماذا تقول...

الصدمة تراجعت مخلفةً وراءها أسئلةً لا تنتهي...

ومزيجاً فوضوياً من خوف وقلق وإشفاق ...

كل هذا مغلفٌ بوشاح قسوتها الجديدة التي احتلت الصورة الآن لتجعلها تهتف بانفعال:

_ما هذا يا أنس؟!

أغلق الباب خلفه برفق ثم أطرق برأسه دون رد لتسئ هي تأويل رد فعله على أنه خزي!!!

فأردفت بقسوة أكبر:

_أنت خدعتني!!

هنا رفع إليها عينيه بصدمة متمتماً:

_خدعتك!!!

خبطت بكفها على المكتب وهي تلقي بالأوراق لتعود هاتفةً بغضب:

_نعم...خدعتني...أخفيت عني مرضكِ قبل زواجنا...بماذا تسمي هذا يا ابن عمي؟!

تنهد بحرارة وهو يتقدم نحوها ليقف أمامها أخيراً قائلاً بنبرة مشتعلة رغم برودها:

_أسميه حباً...ولا أدري له اسماً آخر.

هبت واقفةً مكانها لتدور حول المكتب حتى صارت قبالته مع هتافها الثائر:

_أي حبٍ هذا الذي يجعلك تخفي عني شيئاً كهذا ولا تمنحني حرية الاختيار؟!أي حبٍ هذا الذي يجعلك تجبرني أن أعيش مع رجل...

قطعت عبارتها القاسية قسراً وهي تشيح بوجهها عنه...

لكن معناها وصله كاملاً...

فابتسم ابتسامة باهتةً وهو يكملها لها:

_أن تعيشي مع رجلٍ مريض طوال عمرك...صحيح؟!

دمعت عيناها بمزيج عواطفها الثائرة وجسدها يرتجف انفعالاً...

فأردف بذات النبرة الميتة:

_لا تخافي يا ابنة عمي...لم يتبقّ الكثير!!

شهقت بحدة وهي تضع كفها على شفتيها...

قبل أن تغرق دموعها وجهها مع تشبث أناملها بكتفيه وهي تهمس بجزع :

_أنس...ماذا تقول؟!هل الأمر خطيرٌ إلى هذا الحد؟!

أطرق برأسه للحظات ثم ازدرد ريقه الجاف ليقول بتماسك :

_تذكرين تلك الفترةالتي اختفيت فيها عقب وفاة أبي؟!معاناته في مرضه الأخير جعلتني أبادر بإجراء تحاليل وفحوصات كثيرة لأنني كنت أشعر ببعض الأعراض التي كان هو يشعر بها....أعدتها مراراً والنتائج كانت متشابهةً كل مرة...

ثم صمت لحظة ليردف:

_أنا مصابٌ بنفس المرض وفي المرحلة الأخيرة أيضاً!!

صرخت صرخة خافتةً وهي تطوق خصره بساعديها بقوة ملقيةً رأسها على صدره لا تعرف هل تمنحه أم تمنح نفسها بعض الأمان...

لكنه حافظ على إرخاء ذراعيه جواره وهو يحاول التشبث بتماسكه قدر استطاعته مع استطراده:

_طالما سألتِني أنتِ لماذا وافقت على زواجنا رغم رفضي في البداية...والآن أخبرك بالسبب كاملاً...فعلتها لأجلك لا لأجلي...فعلتها لأمنحكِ فرصة الاختيار!

رفعت إليه عينين غارقتين بدموعهما وبسؤالهما...فأردف بحسم :

_أجل...الاختيار بين أن تعودي لنفسكِ القديمة..أو أن تمضي في طريق ضلالك الجديد.

هزت رأسها بعدم اتزان ...ليتنهد هو مع قوله بشرود وهو يستعيد مرارة تلك الذكرى:

_ليلة زفافنا...وفي أسعد لحظة كان من الممكن أن تجمعنا معاً...سمعت اعترافك وقتها وأنتِ تبكين وحدكِ في حمام غرفتنا...ساعتها أدركت أن صفا المعموري لن تصفو لها حياة إلا لو عادت إليه.

اتسعت عيناها بصدمة وهي تتمتم مصعوقة:

_العودة إليه!!!مستحيل!!

هنا أزاح ذراعيها عن خصره ليبتعد عنها مع قوله :

_هناك حبٌ يسكننا...وحبٌ نسكنه...الأول قد تطرده القلوب متى اشتهت ساكناً غيره...لكن الثاني لا يسعنا الانتقال خارج حدوده لأننا نعلم أنه وحده السكن!

ثم عاد ليجلس على كرسيّ مكتبه ليشبك كفيه مع استطراده:

_لقد ظننت مثلكِ أنكِ قد تنسينه يوماً..لكنني كنت مخطئاً...أنتِ فقدتِ نفسكِ يوم فقدتِه...ولن ترجعي إليها إلا لو رجعتِ إليه!

هنا تنمرت ملامحها بحدة وهي تشعر بحديثه يعرّي ضعف روحها...

لتعاود هتافها بصوت متحشرج:

_لماذا تخلط الأمور؟!هل تحاول إقناعي أنك تزوجتني لتعيدني إليه؟!!أي رجل أنت؟!

أشاح بوجهه نحو الجدار القريب ليراقب عقارب الساعة بشرود...

وحركتها تمنحه شعوراً بدنوّ الأجل...

بقرب الخلاص من كل هذا العذاب...

قبل أن يقول ببطء:

_أي رجلٍ أنا؟!!رجلٌ منحكِ ما بقي من عمره كي تصلحي به ما بقي من عمرك!

زلزلت عبارته كيانها بما حوته من صدق ...وألم!!

يالله!!

هل هكذا يكون العشق؟!!

هل هكذا يكون الفداء؟!!

هنا عاد جسدها يرتجف ببكائه من جديد وهي تهرع إليه لتنحني عليه فتحتضن كتفيه بقوة مسندةً رأسها على رأسه للحظات...

قبل أن تتمالك قوتها لتهمس بين دموعها:

_من أخبرك أنني سأعود إليه حتى لو تركتني؟!أنا آسفة يا أنس...آسفة حقاً...ماذا أفعل لأعوضك عن كل هذا الألم الذي عشته بسببي؟!كم كنت أنانية حقاً عندما لم أفكر بك...لكنني كنت...كنت...

انقطعت عبارتها بنحيب مرتفع وهي تضمه إليها أكثر...

فجذب ذراعيها برفق يبعدهما من حوله ليرفع رأسه إليها قائلاً بابتسامة شاحبة:

_لا تلومي نفسكِ أكثر...فالأمر لم يخلُ من بعض الأنانية من جهتي...حلمٌ قديم أردت معانقته في عينيكِ قبل رحيلي ...كنت آمل أن يكون التشخيص خاطئاً رغم كل شئ...كنت آمل لو تعطيني الحياة فرصتي معك...لكن الأيام قضت بحكمها بيننا...أنا لكِ وأنتِ...

ثم صمت لحظة مبتلعاً غصة حلقه مع همسه:

_أنتِ له!

=========

_رؤى!

همست بها جنة وسط صدمتها وهي ترى أمامها صديقتها مع راغب ووالدته...

ولم تكن رؤى أقل منها صدمة وهي تراها مع فهد ببطنها البارز أمامها...

ما هذا الذي يحدث؟!

هل حملت جنة بطفل من ابن الصاوي؟!!

ألم يكن قد طلقها كما أخبرتها من قبل وتخلصت منه للأبد؟!

يالحظك السئ يا جنة !!!

يبدو أن هذا الطفل قد ربطكِ بهذا الوغد للأبد!!!

وأنا السبب!!!

كيف أذهب لبيت الله الحرام أتطهر من ذنوبي ولازال ذنبكِ أنت يطوق عنقي؟!!!

أنتِ التي خسرتِ حياتكِ في مغامرة غير محسوبة لأجلي!!!

كانت هذه أفكارها الصاخبة التي ضج بها رأسها وهي تحتضنها بقوة من فرط ارتباكها وتوترها،

وقد دفعها شعور الذنب لهمسة شديدة الخفوت في أذنها:

_أنا آسفة!

وأمامها لم تكن جنة أقل منها شعوراً بالذنب وهي ترى دليل خيانتها لصديقتها متمثلاً في بطنها البارز!!!

ماذا عساها تقول لرؤى؟!!

أنها أحبت الرجل- الذي انتهك حرمة جسدها وكاد يدمر حياتها- بل وتحمل الآن طفله؟!!!

لهذا ردت لها همستها -للعجب-بمثلها وهي ترفع وجهها إليها :

_أنا الآسفة!

لكن رؤى لم تنتبه لها في خضم شعورها بالارتباك...

بل حانت منها التفاتةٌ نحو فهد الذي ابتعد -تلقائياً -عن جنة لبضع خطوات ليسمح لهما بهذا التقارب...

فهد الذي كانت عيناه معلقتين بجنة في قلق مشوب بحنان حقيقي...

ونظراته تفضح عشقاً أصيلاً يختلف عن ذاك -الزائف- الذي رأته هي معه يوماً!!!

مهلاً...مهلاً...!!!!

ليس فهد وحده ...

بل جنة أيضاً...

كفها كان يبحث -خلسةً -عن كفه جوارها حتى التقطه هو فتشبثت به كتعلق الغريق بطوق نجاته...

ملامحها الشاحبة رغم ذبولها بدت وكأنها تبحث عن سكينتها جواره...

معقول؟!!

هل جمع الحب بينهما؟!!

هل عرف العشق طريقاً بين "الأستاذة" صاحبة المبادئ و الوغد "ابن الصاوي"؟!!

_أنتِ إذن جنة؟!!

قالها راغب -مقاطعاً سيل أفكارها العاصف -بمودة مشوبة ببعض التحفظ وهو ينقل بصره بين الجميع ...

حتى استقر بصره أخيراً على رؤى مع استطراده:

_رؤى كانت تشتاقكِ كثيراً...منذ أيام فقط كانت تحدثني عن رغبتها في الاطمئنان عليك.

أيقظت عبارته حذر رؤى وخوفها من أن ينكشف أمرها مع فهد...

فتمالكت صدمتها ببراعة أكثر...

بينما قالت جنة بصوت متهدج:

_أنا أيضاً افتقدتها كثيراً.

هنا ابتسمت رؤى ابتسامة رقيقة وهي تقرأ مشاعر جنة في عينيها لتقول بنبرة ملؤها السكينة:

_أنا في طريقي لأداء فريضة الحج...لا تتصوري فرحتي برؤيتك قبل سفري.

عادت جنة تعض على شفتها بمزيج من شعورها بالتوتر والذنب...

فضغط فهد كفها بقوة وهو يدرك صعوبة الموقف عليها...

وعليه قبلها!!!

ورغم رغبته الصادقة في الاعتذار لرؤى...

ليس رؤى فحسب بل كل فتاة خدعها قبلها...

لكن وجود راغب لم يمكنه حتى من النظر إليها...

راغب الذي مد له يده مصافحاً مع قوله ببعض الدهشة:

_ألست أنت فهد الصاوي؟!

تشنج جسد رؤى بانفعال مكتوم وهي تتبادل مع جنة نظراتٍ وافرة المعاني...

بينما حافظ فهد على ابتسامته الدبلوماسية مدارياً انفعاله وهو يصافحه مع إيماءة برأسه قائلاً:

_تشرفت بلقائك يا سيدي!

هنا رفع راغب حاجبيه بدهشة مما رآه -تواضعاً- غافلاً عما وراءه!!!!!

بينما رأت رؤى ضرورة إنهاء هذا اللقاء سريعاً فعادت تحتضن جنة بقوة لتهمس في أذنها باهتمام حقيقي:

_سعيدة؟!

كلمة واحدة حملت كل ما كان يشغل تفكيرها الآن...!!!!!

وقد قرأت بعيني جنة خجلها من مشاعرها الواضحة كالشمس لابن الصاوي...

لكن من قال أنها عاتبةٌ عليها؟!!

أجل..بعد هدية القدر لها بزوج مثل راغب ما عاد هناك مجالٌ للتفكير في ماضٍ لم يعد يسمن ولا يغني من جوع!!!

بقي فقط أن -تطمئن- على صاحبتها التي دخلت بسببها هذه الدائرة...

وهو ما حدث عندما ابتعدت جنة بوجهها قليلاً لتومئ برأسها في مزيج من إقرار وخجل...

قبل أن تعود جنة لتهمس في أذنها بنفس السؤال...

فردت رؤى بابتسامة واسعة:

_جداً.

قالتها ثم نظرت نحو بطن جنة لتردف بحنان لا تدعيه:

_سأدعو لكِ وللصغيرة بالخير والبركة.

دمعت عينا جنة بتأثر فلم تجد رداً عندما قال راغب بنبرة اعتذار :

_سنضطر للانصراف كي لا نتأخر !

لينتهي اللقاء بنظرة طويلة بين صديقتين وصلتا ل-أفضل- ما يمكن أن تصلا إليه بعد قصتهما الغريبة...!

صحيحٌ أن كلتيهما قد أدركت أن صداقتهما لن تعود كالسابق وقد وقف حاجز الماضي بينهما...

لكن قلبيهما كانا مفعمين بالتسامح والخير...!

وما كادت رؤى تستقر على كرسيها بالطائرة حتى سألها راغب بتعجب:

_هل هي زوجة فهد الصاوي؟!

أومأت رؤى برأسها في اقتضاب فعاد يهز رأسه بحيرة مع قوله:

_لم تخبريني عن هذا...بل إنكِ بدوتِ منزعجةً منه عندما كنا نشاهد جنازة أبيه على شاشة التلفاز!

لكن رؤى -بقوتها الجديدة- تصنعت ابتسامة تناسب قولها:

_زواجهما لازال سرياً لظروف لا داعي لذكرها...وقد كانا مختلفين...ويبدو أن وجود الطفل قد قارب بينهما.

فهز رأسه في إدراك ليقول برفق:

_ليس الطفل فحسب...هو يحبها حقاً!

رمقته بنظرة متسائلة فتناول كفها بين راحتيه لينظر في عمق عينيها هامساً بثقة:

_الرجل يفهم الرجل في أمر كهذا...

ثم ابتسم وهو يغمزها بهمسه:

_خبرة عاشق قديم!

ضحكت بخفة وهي ترفع كفيه لشفتيها قبل أن تدور عيناها في المكان لتطمئن لنوم والدته في الكرسي المجاور...

ثم اختلست قبلة على ظاهر لكفه تبعتها بهمسة حارة:

_الحمد لله!

توهجت عيناه بدفء عاطفته عندما أسندت رأسها على ظهر مقعدها لتهمس بشرود:

_عبد الله كان دوماً يقول لي عبارة لم أفهمها إلا منذ وقتٍ قريب...

ثم صمتت لحظة لتردف:

_قيّدوا النعم بالشكر!

اتسعت ابتسامته العاشقة عندما عاودت هي همسها جوار أذنه:

_لهذا فكل مرة أقول فيها "الحمد لله" أمامك تعادل ألف ألف كلمة حب...أبقاك الله لي يا حبيبي!

ضغط كفها بين راحتيه أكثر وعيناه تموجان بدفء عاطفته...

فيما أغلقت هي عينيها وهي تفكر في عطية السماء الأخيرة لها بلقائها لجنة قبل سفرها...

لعلها تتطهر من آخر ذنب كان يؤرقها بشأنها ...

والآن اطمأنت عليها لعلّ ابن الصاوي يصدق في حبها بعد منة القدر لهما بطفلتهما.

وكأنما كانت تنتظر هذا -السطر الأخير- لتغلق هذه الصفحة في حياتها للأبد...

فسبحان من صدق الوعد للتائبين بجزيل المنح!

وعند خاطرها الأخير راودتها ابتسامة راضية لتعاود همسها بملء روحها وقلبها :

_الحمد لله!

=================

_احملي حقائب السيدة لغرفتي.

قالها فهد للخادمة عقب وصولهما لبيته مع يسرا...

وهو يرمق جنة بنظرة متفحصة وقد روّعه صمتها القاتم طوال الطريق...

واستسلامها الغريب عن طبيعتها -الثورية-!!

لقد توقع أن ترفض المجئ معه إلى هنا بصورة أعنف...

بل إنه لا يبالغ لو قال أنه كان ينتظر منها طوال الطريق أن تفتح باب السيارة وتباغته بهروب آخر...

أي شئٍ توقعه منها بخلاف هذا الاستسلام المميت!!!

لعل لقاءها برؤى هو ما أطفأها هكذا!!!

لكن لا...!!!

رؤى كانت تبدو سعيدة مع ذاك الرجل...

وحديثها مع جنة كان ودوداً للغاية!!!

فلماذا تبدو جنة بهذه الصورة المطفيّة؟!!

لكنها وبرغم أنها بدت وكأنها في عالم آخر....انتفضت من شرودها ببعض الحدة عندما رمقتها الخادمة بنظرة فضولية مع تساؤلها بدهشة:

_غرفتك أم غرفة السيدة يسرا؟!

انعقد حاجبا فهد وهو يضغط كف جنة في راحته قائلاً بحزم:

_غرفتي...هيا أسرعي.

عادت الخادمة ترمق جنة بنظراتها الفضولية وقد تسمرت عيناها على بطنها البارزة قبل أن تعاود سؤالها بتشكك:

_هل أخبر سيدتي يسرا برجوعك؟!

زجرها فهد بعبارة رادعة فاندفعت تحمل الحقيبة نحو غرفته بسرعة...

بينما التفت هو نحو جنة وقد همّ بسؤالها عن أي شئ ليخرجها من صمتها المقلق هذا...

لكنه آثر التراجع حتى يدخلا غرفته...

وما كاد يدخلها حتى أغلق بابها خلفه بالمفتاح الذي رفعه أمام عينيها بحركة ذات مغزى قبل أن يضعه في جيبه ليقول بحزم:

_يؤسفني أن أبلغك أنني لن أثق بعد في بقائك إلا في غرفة مغلقة مفتاحها معي...لم أعد آمنك وعذري معي.

قالها بنبرة مستفزة وقد توقع أن تثير عبارته جنونها لتنتفض بثورة يعرف كيف يطفئها...

أو حتى تتبدل ملامحها الجامدة هذه لبعض الضيق أو الغضب...

لكنها ظلت واقفة مكانها للحظات وكأنها لم تسمعه...

ثم دارت بعينيها في المكان كالمغيبة..

قبل أن تفاجئه بأغرب ردة فعل كان يتوقعها منها...

عندما استدارت نحوه بجسدها لتتشبث أناملها بقميصه مع قولها بعينين مغمضتين:

_احملني!

اتسعت عيناه بدهشة للحظة وكفاه يحتضنان خصرها تلقائياً...

عندما أردفت هي بصوت بدا كالهذيان:

_احملني يا فهد...أريد الخروج من نفسي إليك...لم أعد أريد أن تحملني قدماي بل ذراعاك...

ثم فتحت عينيها ببطء ليسيل المطر البندقي على وجنتيها مع همسها المنهك:

_أنا تعبت!

ارتفع حاجباه في تأثر وهو يدرك جيداً ما خلف عبارتها من مشاعر...

عندما تقول جنة الرشيدي شيئاً كهذا فهذا يعني أن السيل قد بلغ الزبى...

وأن الجهد قد بلغ منها منتهاه...

لقد كانت حروفها تقطر وجعاً...

وجعاً بدا وكأنه دحر قوتها التي ظن أنها لن تقهر يوماً!!!

لينتبه وقتها فقط أنه لم يكن يعاني وحده طوال هذه الأشهر!!!

هي مثله كانت تعاني...وربما أكثر!!!

وحيدة في بلد غريب يطاردها الخوف والقلق ...ولا معين لها سوى نفسها!!

هنا ازداد ضغط كفيه الحاني على خصرها يرفعها إليه مع تشبث ذراعيها بعنقه ليهمس أمام عينيها :

_وكيف لا تتعبين ؟!!ومنذ عرفتكِ وأنتِ تحملين همّ سواكِ ولا تريدين أن يحمل همك أحد!!

كانت عبارته بمزيج عجيب من عتاب وإجلال وإشفاق...

لكن عاطفته طغت على كل هذا وهو يردف بحرارة أذابت صقيع مخاوفها:

_سأحملكِ ما بقي لي من عمر...لو لم يكن بذراعيّ فبقلبي.

ولم تكد تشعر بارتفاع قدميها عن الأرض واستناد جسدها بالكامل عليه حتى انتابها شعور غريب بالراحة لم تعرفه منذ زمن بعيد...

مواجهتها الأخيرة مع رؤى استنزفت ما بقي من قوتها!!!

فوضى مشاعرها التي تأرجحت بين خزي و إحساس غامر بالذنب...

قبل أن تنتهي بشعور عارم بالسكينة والارتياح بعدما منحتها رؤى بوداعتها صك غفرانها الأخير!!

لهذا أخذت نفساً عميقاً ثم زفرته ببطء...

قبل أن تسند جبينها على جبينه وكأنها حقاً ترمي كل أحمالها عليه...

ليشدد هو ضغط ذراعيه الحاملين لها مع همسه الدافئ الذي اكتسب الآن بعض الحزم:

_من هذه اللحظة ستسلمين دفة أمورِكِ لي أنا...الأستاذة ستتخلى عن مقعد الرئاسة لزوجها.

أبعدت وجهها عنه ببطء لتلتقي عيناها بعينيه في حديث طويل...

عتابه أمام اعتذارها...

حنانه أمام لوعتها...

احتواؤه أمام احتياجها...

شوقه أمام شوقها وأكثر...

غرامه يوازي غرامها وأقوى...

وكلاهما يبدو بلا حد...وبلا نهاية!!!

وأخيراً اقترب هو بشفتيه من شفتيها مع همسه بينهما:

_ستثقين بي ...للنهاية!

عادت تغمض عينيها باستسلام متعَب وهي تتلقى فيض عاطفته الذي بثته قبلاته بسخاء...

كانت تؤرجح قدميها في الهواء برفق تتيقن أنها لاتزال محمولةً بين كفيه...

ولولاه ...لسقطت!!!

وكأنما حملها بجنون شغفه بها لعالم بعيد...

عالم تركض فيه ك-طفلة -تطارد ببراءتها حمائم النور في سماءٍ غمامُها واعدٌ بالمطر...

بينما تتمدد على رماله ك-أنثى- مزجت عشقها بأروع فنون الإغواء والمنح...!!!

قبل أن ينقطع سحر المشهد بطرقات عنيفة على الباب جعلتها تعود بقدميها إلى الأرض حقيقةً -لا مجازاً- !

فابتعدت عنه خطوة وهي تعدل ثيابها وقد أدركت بحدسها هوية الطارق...

أو -فلنقل- الطارقة!!!

زفر فهد زفرة قصيرة وهو يحاول تمالك مشاعره قبل أن يتناول المفتاح من جيبه ليتوجه نحو الباب فيفتحه...

اصطدمت ملامحه بعيني يسرا المشتعلتين للحظات...

قبل أن تندفع هي لتدخل الغرفة بخطوات واشية بانفعالها....

وأخيراً وقفت أمام جنة وكلتاهما ترمق الأخرى بنظرات متفحصة...

يسرا التي اشتعلت جنباتها غيرةً وغيظاً وهي ترى على وجه جنة وشفتيها وحجابها المنحسر آثار -معركة- عاطفية لم تبرد بعد!!

لكن هذا لم يساوِ شيئاً أمام صدمتها التي انفجرت بداخلها كبركان وهي ترى بطن جنة البارز أمامها يعدم كل ما تبقي لها من آمال في فهد!!

بينما استعادت جنة المزيد من تماسكها وهي تعدل هيئتها باعتداد يليق بها محاولةً قراءة نظرات يسرا ولغة جسدها...

ليسقط قلبها بين قدميها وهي ترى بعينيها نظرات غيرة لن تصدر إلا من عاشقة...

عاشقة تظن نفسها ذات حق!!!

قبل أن تتحول نظرات يسرا عنها هي إلى فهد لتكتسي بعاطفة حارة ضربتها هي في مقتل...

وهي تتقدم منه لتقول بدلال أجاد وأد مشاعرها بالخيبة والخسارة:

_حمداً لله على سلامتك يا حبيبي...كنت أعلم أنك لن تحتمل البعد عني لأكثر من يوم واحد!

أغمضت جنة عينيها بقوة وشيطان غيرتها يبرر لها سبب تعجيل فهد بالعودة بها لمصر...

لكنها عادت تفتح عينيها على اتساعهما عندما توجهت يسرا نحوها بالحديث لتقول بنبرة متعالية:

_لقد تغير شكلكِ كثيراً...الحمل جعلكِ أكثر شحوباً ...تبدين مريضةً حقاً.

كز فهد على أسنانه وقد فاجأته وقاحة يسرا الزائدة...

لم يتصور أنها -بعد اتفاقهما الواضح- ستلجأ للخداع بهذه الطريقة لإيهام جنة بوجود علاقة حقيقية بينهما...

لكن لمَ العجب؟!

ألم يحاول هو نفسه الإيعاز لجنة بنفس الشئ؟!!

يبدو أنه قد وقع في الشرَك الذي نصبه بنفسه!!!

لكنه بوغت حقاً بقولها المتمادي:

_لا تتعجبي ...فأنا أعرف شكلكِ جيداً...رأيت صورك على هاتف فهد قبل أن يمسحها جميعاً.

شحب وجه جنة أكثر فارتسمت ابتسامة متشفية على وجه يسرا وهي تعقد ساعديها أمام صدرها لتلقي سهمها الأخير:

_نعم...مسحها جميعاً بنفسه ليسترضيني...ليثبت لي أنكِ ما عدتِ تعنينه في شئ!

_يسرا!

هتف بها فهد بحدة وهو يود لو يهشم رأسها على هذا الكذب الصريح...

لكنها التفتت نحوه لتقول بدلالها المستفز:

_لا بأس يا حبيبي...اعذرني لم أقصد...أعرف أنك تخاف على طفلك الذي لولاه لما رددت واحدة مثلها إليك.

ثم عاودت التفاتها نحو جنة لتقلب شفتيها باحتقار مع قولها:

_واحدة غادرة خدعتك طوال هذا الوقت...لكنني أعرف أن فهد الصاوي سيعرف كيف يربيها على فعلتها وهذا سبب آخر لبقائها على ذمتك.

جذبها فهد من مرفقها ببعض القسوة وهو يقول من بين أسنانه:

_عودي إلى غرفتك الآن.

ثم همس في أذنها بخفوت:

_لا تتصرفي بهذه الحقارة...لنا حساب فيما بعد**!**

لكن يسرا أرادت الاستفادة من الموقف لأقصى حد...فضحكت بميوعة وهي تبتعد مع قولها:

_حسناً يا حبيبي ...سأنتظرك وأنفذ ما طلبته**!**

ثم لوحت له بكفها وهي تخرج لتغلق باب الغرفة خلفها وملامح الانتصار الزائف على ملامحها...

عندما التفت هو نحو جنة وقد روّعته ارتعاشة جسدها المنفعلة مع إغماضها لعينيها بقوة...

قبل أن تشبك كفيها ببعضهما كعادتها عندما تريد منح نفسها بعض الدعم!!!

ورغم أن قلبه كاد يذوب خوفاً وإشفاقاً عليها...

لكنه لن يتراجع عن قراره...

جنة يجب أن تتعلم الدرس هذه المرة حتى تستقيم حياتهما فيما بعد...

هو لن يقضي عمره كله موضع اختباراتها وقراراتها الفردية...!!

لهذا قاوم مشاعره ناحيتها ليسودهما صمت قصير للحظات...

قبل أن تقطعه هي بهمسها المرتجف ولازالت مغمضةً عينيها:

_ألن تعاود غلق الباب بالمفتاح؟!

عقد حاجبيه بحيرة وهو يحاول قراءة ما خلف عبارتها...

لكن عناده -الأصيل- جعله ينفذ الأمر بمحاولة للتظاهر بالبرود...

قبل أن يعود إليها ليحتضن كتفيها بكفيه مع سؤاله ببرود لم يخلُ من حذر:

_والآن...ما رأيك فيما سمعتِه يا أستاذة؟!

فتحت عينيها أخيراً لتحتضن عيناها نظراته التي عجزت عيناه عن مداراة العشق فيها...

ينابيع عشق تفجرت بين حدقتيه لتحيي جديباً مقفراً في حدقتيها هي...

نجوم- ليله- الساحر التي ازداد لمعانها أشعلت ظلمة الليل في روحها لتقهر شيطان غيرتها ...

وهنا فقط تذكرت حديث ماسة يوم قالت أن لها أخاً ظل مخلصاً لزوجته بعد رحيلها ورغم أن الظروف اضطرته لزيجة أخرى لكنه لم يمس زوجته...

بالإضافة لحديث الخادمة العابر عن إقامته ويسرا في غرفتين منفصلتين. .

وكأنما تفجرت مع هذه الذكرى طاقةٌ من نور بين جنبات روحها وهي تتذكر كل لحظة حب جمعتهما سوياً...

لتجد نفسها أخيراً تبتسم ابتسامة واهنة وهي تهمس بحسم:

_كاذبة!

اتسعت عيناه بتساؤل وكأنه يسألها المزيد من الإفصاح...

فشردت ببصرها لتردف وكأنها تستعيد حلاوة تلك اللحظة:

_هي كاذبة.. فهد الذي بدا عندما رآني ثانية وكأن روحه قد ردت إليه...لم يكن ليخونني أبداً!

ابتسم ابتسامة جانبية وهو يشيح بوجهه فاحتضنت وجنته براحتها لتعاود التحليق في سماوات ليله الساحر مع استطرادها الدافئ:

_أنت قلت أن رجلاً عاقلاً لن يترك زوجة مثلها لأجلي...لكن من قال أنك عاقل؟!

ثم تطاولت على أطراف أصابعها لتطبع قبلة ناعمة على شفتيه مع همسها المطعم بوهج البندق:

_أنت مجنون بي...كما أنا مجنونة بك!

ازدادت أنفاسه تلاحقاً مع اشتعال عينيه بعاطفته...

لكنه حافظ على صمته مكتفياً بالاستماع إليها عندما تحسست أناملها جبهته مع همسها:

_هذا جبينٌ متعَب كجبيني...لن يستريح أحدهما إلا عندما يستند للآخر...

قالتها وهي تضع راحتها خلف رقبته لتلصق جبهتها بجبهته للحظات...

قبل أن تبتعد بوجهها قليلاً لتتحسس جفنيه بهيام يليق بهمسها:

_وبين عينيك هاتين تشرق شمس حبي وتغرب...مع كل رمشة جفن...يومٌ جديد في عمر هوانا...فكيف أصدق أن غيري حظت منهما ولو بنظرة؟!!

اتسعت ابتسامته رغماً عنه وكفاه ينغرسان أكثر في كتفيها...

عندما انسحبت أناملها أخيراً لشفتيه لتهمس بثقة معشوقة خبيرة:

_قد يكذب لسانك ليعاند ويقسو...لكن نيران شوقك ها هنا لا يمكن إلا أن تكون صادقة.

ثم انسابت أناملها على صدره لتردف أخيراً ببطء وكأنها تتلذذ بها:

_حتى...تزهق...آخر...أنفاسك...لن تفارق...ولن تخون!

ورغم أن قلبه كاد يتوقف بانفعاله بهذا الصخب من مشاعرها التي اشتاقها حد الجنون...

لكنه لم يجد إلا همس عتابه:

_لكنكِ أنت فارقتِ!

أسبلت جفنيها تهرب من لهيب نظراته اللائمة لتهمس بمزيج من ندم وألم:

_وكيف يفارقك من يعيش بك ولك ؟!!

ثم تنهدت بحرارة لترفع عينيها إليه مع استطرادها:

_لا أنا فارقت...ولا أنت خنت!

ورغم الثقة التي كانت تتحدث بها لكن عينيها كانتا مشبعتين برجاء خفي له أن يؤكد لها ما تقول...

فلازالت بقلبها غصة من إبقائه ليسرا على ذمته حتى الآن دونما سبب منطقي تراه...

ورغم رغبته الحقيقية في أن يمنح قلبها سكينته لكنه تشبث بما انتواه من قبل ولن يتراجع عنه...

فرفع أحد حاجبيه ليهمس بمكر:

_لن أريحك يا أستاذة!

وكأنما قطعت كلماته العابثة سحر عاطفية هذه اللحظات...

فمطت شفتيها باستياء وهي تشيح بوجهها ...

ليتآمر رنين هاتفه مع كل هذا عندما التقطه هو ليعقد حاجبيه بضيق ثم فتح الاتصال ليستمع لمحدثه للحظات...

قبل أن يقول بلهجة احترام لا تخلو من ضجر:

_حسناً يا "سيادة اللواء"...سآتيك بعد قليل.

=============

_أين كنت؟!

هتفت بها يسرا بلهفة وهي تستقبله في بهو المنزل فمط شفتيه ليقول بضجر:

_ما هذا الذي فعلتِه منذ قليل؟!هل كان هذا اتفاقنا؟!

احمرت وجنتاها بانفعال وهي تهتف بحنق:

_أي اتفاق؟!ظننتك أحمقاً يوم التزمت بوفائك لامرأة ميتة والآن أجدك أكثر حماقة وأنت تتشبث بها بعد ما فعلته...هي لا تستحق...

_يسرا!

هتف بها زاجراً وهو يلوح بسبابته في وجهها مقترباً منها خطوة ليردف بنبرة حاسمة:

_أنا راعيت ظروفك النفسية لأبعد حد طوال الفترة السابقة...لكنني لن أسمح لكِ بالتدخل بيني وبين جنة...

ثم زفر زفرة قصيرة ليردف متحاشياً النظر إليها:

_أظن الوقت قد حان لننهي اتفاقنا .

شهقت بعنف وهي تتشبث بذراعيه لتهتف بكلمات بعثرها انفعالها:

_لا...مستحيل...أنت لا تعني هذا حقاً...هل هذه مروءتك؟!تتخلى عني وأنا أحتاج إليك!

انعقد حاجباه بضيق وهو يخلص ذراعيه منها برفق ليقول بأقصى ما استطاعه من هدوء:

_أنت تجاوزتِ الشوط الأكبر في علاجك...ووجود جنة الآن سيزيد الأمر سوءاً بالنسبة إليك.

بدأت نحيبها المعتاد وهي تهمس بين دموعها:

_هذه هي الحكاية إذن...ترميني أنا لأجلها؟!

فكظم غيظه بشق الأنفس وهو يلقي سهمه الأخير معها:

_إنها رغبة والدك...هو استدعاني منذ قليل ليتحدث معي بهذا الشأن.

اتسعت عيناها بارتياع وهي تعاود التعلق بذراعه مع هتافها الجزع:

_أبي؟!هل علم شيئاً؟!

هز رأسه نفياً وهو يقول مطمئناً:

_لا...لا تخافي...العلة فيّ أنا!

ثم ابتسم ببعض التهكم مع استطراده:

_هو أيضاً يتهمني بالحماقة لأنني تخليت عن ثروة أبي وتركت طريقه الذهبي الذي كان مرسوماً لي...لم تكن هذه مخططات والدك لزوج ابنته الذي يرجوه.

رفعت كفها إلى شفتيها وهي تتأمله بصدمة...عندما أردف هو بنفس النبرة:

_كما أنه علم عن زواجي بجنة...ليس وحده في الواقع...الأمر صار حديث الناس كلها الآن.

التمعت عيناها بوحشية قاسية للحظات قبل أن تهتف بغضب هستيري:

_ألن يكف عن التدخل في شئوني؟!إلى متى سيظل يختار لي حياتي؟!

تنهد فهد بحرارة ثم صمت للحظات قبل أن يقول ببعض الرفق:

_يسرا...طريقنا سوياً كان مسدوداً من البداية...لقد وضعني القدر في طريقك لأساعدك في مرحلة ما كنتِ تحتاجينني فيها والآن...دورك لتكملي بقية الطريق دوني.

ازداد بريق القسوة الوحشي في عينيها للحظات ...

مع صمت طال لدقائق قبل أن تلين ملامحها تدريجياً مع قولها بنبرة رجاء هذه المرة:

_فلنبقَ معاً لبعض الوقت فحسب...وجودك جواري يمنحني القوة حتى أكمل علاجي...

ثم صمتت لحظة لتردف باستعطاف أقوى:

_أرجوك يا فهد...ليس لديّ الآن من أعتمد عليه غيرك.

بدا التردد على ملامحه وهو يتفحص ملامحها بإشفاق...

عندما عضت هي على شفتها لتهمس بما يشبه الوعد:

_لن أضايقكما...لو أردتني حتى أن أعتذر لها وأشرح لها حقيقة علاقتنا فسأفعل...لكن ابقَ جواري هنا.

أشاح بوجهه في استسلام وقد عجز عن إيجاد رد مع هذه النبرة الذليلة التي تتحدث بها...

لكنها تحركت لتواجهه بعينيها الضارعتين مع همسها:

_أرجوك يا فهد...يمكنك مداهنة والدي لبعض الوقت حتى أستعيد تمام قوتي...أتمم معي صنيعك لآخره.

أومأ برأسه إيجاباً فابتسمت لتشكره بامتنان قبل أن تعود لغرفتها بخطوات شبه راكضة ...

فعاد يتنهد بحرارة وقد وافق طلبها -غرضاً ما- في نفسه...

أجل...بالضبط!!!

درسه -الأخير-للأستاذة!!!

لهذا توجه بخطواتٍ عجلها اشتياقه نحو غرفته ليفتحها بالمفتاح الذي عاود إغلاقها به عقب دخوله ...

لتتلقاه هي بهتافها القلق:

_أين كنت؟!

ابتسم بتسلية وهو يعقد ساعديه أمام صدره ليقول بتهكم:

_هذه ثاني مرة أُسأل فيها نفس السؤال...زوج الاثنتين مسكينٌ حقاً!!

انعقد حاجباها بضيق وهي توكزه بسبابتها في كتفه لتهتف بانفعال:

_لست زوجاً لاثنتين يا فهد...أنت زوجي أنا فقط!

هز كتفيه مغيظاً إياها دون رد...

فزفرت بقوة ثم لانت ملامحها نوعاً وهي تحاول التحكم في انفعالها لتقول :

_ماسة هاتفتني منذ قليل...كانت تريدك لأمر هام...وأنا علمت منها كل شئ...علمت كيف ثبّتَ أنت على طريق توبتك طوال هذه الأيام...وعلمت كيف تخليت عن ثروة أبيك ورددت ما تعرفه من حقوق لأصحابها...وعلمت أن زواجك من يسرا ليس حقيقياً...لكن...

ثم مسدت جبينها بأناملها لتردف بحيرة:

_لكن ما لا أفهمه حقاً هو سبب تمسكك بهذه الزيجة طوال هذا الوقت!

التمعت عيناه بمكر وهو يدرك أن ماسة لم تخبرها شيئاً عن مشكلة يسرا وإدمانها فقد أقسمت له ألا تخبر أحداً عن هذا...

ولاريب أن رأس "الأستاذة" الآن يكاد ينفجر غيظاً وحيرة وهي لا تعرف الحقيقة...

وهو ما يرضيه تماماً في هذه اللحظة!!!

لهذا اتسعت ابتسامته المتسلية وهو يحل ارتباط ساعديه ليبتعد عنها مع قوله باقتضاب:

_ما دمتِ تصدقين ماسة...فاسأليها!

لكنها تشبثت بكتفه بأناملها لتهمس بنبرة عاتبة:

_إلى متى سيطول عقابك؟!

ثم اقتربت أكثر لتعانق عينيه بنظراتها العاشقة مع استرسالها ببعض الدلال:

_أهون عليك يا فهد ؟!تتعب قلبي هكذا؟!

رمقها بنظرة طويلة وهو يصارع رغبته بها...

ثم ابتعد عنها ليبدأ في تبديل ملابسه مع قوله متجاهلاً سؤالها :

_أنا لم أنم منذ أكثر من يومين...أجلي حديثك لوقت آخر.

امتزج الإشفاق باللوم في عينيها وهي ترى الإرهاق البادي على ملامحه ...

حتى توجه نحو الفراش ليتناول "وسادتها" فيرفعها أمام وجهها ليقول بسخرية لائمة:

_هذه وسادتك المشبعة بعطرك...لم أكن أنام إلا عليها...لم تفارقني يوماً منذ تركتني أنت...

ثم اتسعت ابتسامته الساخرة مع استطراده:

_كانت أكثر وفاءً منك!

قالها ثم أعاد الوسادة مكانها أمام عينيها الدامعتين بمزيج من التأثر والشعور بالذنب...

ليستلقي على الفراش مسنداً رأسه على الوسادة قبل أن يغمض عينيه باستسلام لإرهاقه...

فسارت نحوه لتتمدد على الفراش جواره لكنه تحرك ليعطيها ظهره دون كلمة أخرى...!!!

فاستدارت على جانبها نحوه ثم امتدت أنامله تربت على كتفه بحنان مع همسها المفعم بالذنب:

_أنا آسفة يا حبيبي...ربما تراني جاحدة أساءت التصرف...لكن الله وحده يعلم كم كنت أتعذب وحدي دونك...سامحني يا فهد لم أعد أحتمل طريقتك الباردة هذه.

لم يصلها منه رد لوقت بدا لها طويلاً بحق...

فتنهدت بحرارة وهي تسير بأناملها على طول ذراعه برفق مع همسها الخافت وكأنها تسترضيه:

_ على الأقل...قل ل"ملك" تصبحين على خير!

لكن صمته الذي استمر طويلاً ردها خائبة فاستلقت من جديد على ظهرها وهي تعيد أناملها جوارها لتشرد ببصرها في السقف للحظات...

قبل أن تسقط دموعها الصامتة على خدها وهي تدور بعينيها في المكان لتشعر بغربة رهيبة...

لم تتصور يوماً أن ينتابها هذا الشعور وهي في مكان واحد معه...

جواره...لكنه ليس معها!!!

لكن ماذا كانت تتوقع بعد ما فعلته به؟!!

ماسة أخبرتها أنه كاد يموت بحسرته عليها!!!

هي تعلم أنه تعذب بسببها لكنها لم تستطع إلا أن تفعل هذا...

خوفها على طفلهما -المنتظر-غلب أي شعور آخر ولم تكن هنالك طريقةٌ تمنع فهد عن تعقبها إلا أن يظنها ميتة!!

انقطعت أفكارها عندما فوجئت به يستدير نحوها أخيراً ليميل على بطنها بقبلة عميقة مع همسه الحاني:

_تصبحين على خير يا "ملك"!

ابتسمت وسط دموعها عندما ارتفع "خط" قبلاته الطويل في طريقه متمهلاً حتى وصل إلى شفتيها إلى أن لمح دموعها ...

فمسحها بأنامله ليهمس بحنان لم يخلُ من عتاب:

_تصبحين على خير يا أم "ملك"!

وهنا لم تتمالك نفسها وهي تطوقه بذراعيها بكل قوتها لتهمس بانفعال:

_فهد...لا تفعل هذا بي...عاقبني كما تشاء لكن وأنا في حضنك...أنا احتملت فراقك طوال تلك الأيام بصبر...لكنني سأموت حقاً لو شعرت أنك بعيد وأنت معي...

التمعت عيناه بعاطفة أذابتها شوقاً عندما انفرجت شفتاه تهمان بعتاب آخر...

لكن من سيسمح بعتاب ها هنا؟!!

أناملها قطعت الطريق على شفتيه مع همسها الدافئ الذي امتزج تضرعه بدلاله:

_ماذا تطلب لتعفو؟!

قبّل أناملها بعمق قبل أن يزيحها عن شفتيه وعيناه ترويان سطوراً من عشق لم يعرفه إلا لها...

ليعاود همسه أمام بندقيتيه الآسرتين:

_أن تثقي بي!

أومأت برأسها في طاعة ثم عادت تهمس :

_حسناً...لن أسألك عن شئ ترفض الإفصاح عنه. لكنني أريد العودة لشقتنا...لا أريد البقاء هنا.

فامتدت أنامله تداعب شعرها بحنان ناقض خشونة قوله:

_هذا ما أعنيه بقولي أن تثقي بي...أنا أريد أن نبقى هنا...ولن أذكر لكِ أسباباً .

ظهر الرفض في عينيها للحظات وقد غلبتها طبيعتها الثورية العتيدة..

لكن نظراتها لانت رويداً رويداً وشريط حياتهما يمر سريعاً أمام عينيها...

كل موقف أثبت لها فيه أنه قهر شيطانه ببريق ماسة الخير فيه...

كل لحظة جمعت بينهما لم يخذلها فيها بانتكاس أو خيانة...

كل يوم روى فيه بذور عشقه بمطر وفائه لها قريبةً كانت أم بعيدة...!!

لتقطع أخيراً صمتهما الذي طال وهي تضغط بذراعيها على عنقه أكثر مع قبلة عميقة لجبينه ...

قبل أن تحسم أمرها لتهمس بنبرة مطمئنة:

_افعل ما تشاء يا حبيبي...أنا أثق بك!

============

_لقد فقدتِ عقلكِ حقاً!!

هتفت بها رحمة على الهاتف بحدة قبل أن تردف بنبرة آمرة:

_عودي إلى مصر في أقرب وقت...لم أعد آمن على بقائك وحدك!!!

دمعت عينا ماسة وهي تشعر بنفس الشعور الذي كان ينتابها وهي طفلة صغيرة...

عندما كانت تذنب فتلجأ إلى حضن رحمة لا تخاف عقابها بقدر ما ترجو الأمان على صدرها...

وكم هي بحاجة إليه الآن!!

لكن كلمات رحمة المؤنبة عادت تصدح في الهاتف:

_هل هذه تربيتي لكِ؟!!

مسحت دموعها بأناملها وهي تقول بانفعال:

_ماذا كنتِ تريدينني أن أفعل وقد جاء يبشرني بابنه من امرأة أخرى؟!!جاء ليكسرني!!

_لو كان يريد أن يكسركِ لفعلها وأنتِ في قصره من البداية مجرد فتاة لا حول لها ولا قوة...مطعونة في نسبها قبل شرفها!!

هتفت بها رحمة بنبرة صارمة جعلت ماسة تشهق بحدة من قسوة معناها...

لكن رحمة عادت تقول بنبرة أكثر رفقاً :

_تعرفين أنني لا أجامل في الحق يا ابنتي...أنا مدينةٌ لهذا الرجل قبلك بكل ما فعله لكِ..لقد نصركِ يوم ظلمكِ

الناس...رفع رأسك بينهم...أبوكِ الحقيقي رفض إشهار نسبك لكنه هو أعلنكِ زوجته أمام الجميع...

ثم صمتت لحظة لتردف :

_للأسف...هو بناكِ وأنتِ ...هدمتِه!!!

عادت دموع ماسة تسيل على خديها مع استطرادة رحمة الممتزجة بعتابها:

_وكأن دماء جاسم الصاوي انتفضت فجأة في عروقك لتطعني زوجك بكل قسوة..وتطعني نفسكِ قبله...أي عقلٍ كان فيكِ وأنتِ ترمين نفسكِ بهذه التهمة الباطلة؟!أي قلب هذا الذي مكنكِ من ذبحه في عز فرحته ؟!

_وهل ترك لي عقلاً ولا قلباً؟!!

همست بها ماسة وسط دموعها لتردف:

_لم أفكر يا أمي...لم أفكر ولم أشعر سوى بحرقة قلبي وهو يريدني أن أعود لأراه مع امرأة غيري!

_وما ذنب ذاك الطبيب الذي ورطتِه بكذبتك؟!!

هتفت بها رحمة باستنكار فاتسعت عينا ماسة بارتياع وقد بدت أنها لم تدرك هذا إلا للتو!!!

جهاد!!!

عاصي قد يقتله حقاً كما فعل بعدنان من قبل!!!

كيف لم تفكر في هذا وقتها؟!!!

لقد كانت مغيبةً عن عقلها حقاً!!!

لكن رحمة عادت تقطع عليها أفكارها بقولها الصارم:

_عودي يا ماسة...ارجعي لزوجك واحكي له الحقيقة.

صمتت ماسة للحظة قبل أن تغمغم بشرود:

_أرجع؟!!ما عاد لي رجوع!!هو يظنني قد خنته!!!

_مغفلة!!!

هتفت بها رحمة بغيظ قبل أن تردف بانفعال:

_تظنين أن عاصي الرفاعي صدق كلامك؟!!لو كان فعل لما ترككِ حية لحظة واحدة بعدها!!!

_أنا أثق بكِ كما أثق في نفسي!!

دوت عبارته هذه في رأس ماسة فجأة وهي تتذكر يوم قالها لها ...

وقتها كانت تسأله عن استجابته لعودتها للتعامل مع رحمة مع معرفته لسابق علاقتها بعزيز ...

ففاجأها بثقته التي لم تقدرها يومها حق قدرها...

لكن...هل عساها الآن تجدي؟!!

لكن رحمة عادت تنتشلها من شرودها بقولها:

_لقد ترككِ وهو موقنٌ أنكِ لم تفعليها...لكن كذبتكِ ذبحته...أنتِ التي ذقتِ مرارة فضيحة الشرف من قبل تفعلينها الآن طواعية فقط للانتقام منه!!!

هنا علا صوت ماسة بشهقاتها الباكية ...فتنهدت رحمة بحرارة ثم استغفرت الله بصوت مسموع...

لتردف بمزيج من رفق وحزم:

_أخبريه بالحقيقة يا ماسة..ولو أردتِ الانفصال كما تزعمين فافعليها بشرف ...ليست ابنتي أنا من تتدنى إلى هذا المستوى!!

ظلت ماسة على حالها للحظات ...

ثم غمغمت بتشتت:

_ماذا تريْن يا أمي؟!

عادت رحمة تتنهد بحرارة مع قولها:

_أولاً يجب عليكِ أن تفهميه الحقيقة...ولو كنت مكانك لما تركته وبينكما كل هذا الحب!

هنا تنمرت ملامح ماسة وهي تهتف باستنكار:

_أنتِ التي تقولين هذا يا أمي؟!!أنتِ التي جربتِ أن يتركَكِ زوجكِ لأجل امرأة أخرى؟!!

لم تكد تنتبهِ من عبارتها حتى شعرت بالندم على ما تفوهت به...

لقد هزمها شيطان قسوتها حقاً كما تقول رحمة فلم تعد تنتبه لما تقوله ولا لمن تقوله!!!

لكن رحمة تجاوزت عن هذا بصمت قصير وهي تقدر مشاعرها...

قبل أن تقول بحكمة:

_نعم ياابنتي...ولأنني جربت فأنا أدرك الفارق!

ثم صمتت لبعض الوقت قبل أن تردف بإنصاف:

_عاصي الرفاعي لم يتركك لأجل امرأة أخرى...عاصي تركك لأجل ولد يريد أن يستعيد به

ذاته...هو سأم كل هذا السواد المحيط به ولازال يبحث عن بؤرة ضوء لم يجدها إلا فيكِ وفي ابنه الذي يرجوه من كل قلبه...

عادت دموع ماسة تسيل على وجنتيها وكلمات رحمة تكاد تكوي قلبها:

_لو فكرتِ جيداً فستدركين أنه وقف جوارك في كل مرة احتجتِه فيها...فماذا قدمتِ أنتِ له؟!

ورغم أن جزءاً بداخلها كان يوقن بصحة كلام رحمة لكنها عادت تستجيب لشيطان قسوتها مع قولها العاصف:

_كرامتي لن تكون ثمناً لحسن صنيعه معي...هو قدم لي معروفاً و...

_معروفاً؟!هل تسمين ما بينكما "معروفاً"؟!!

عادت رحمة تهتف بها في غيظ مقاطعةً عبارتها ...

فصمتت ماسة قليلاً تفكر...

قبل أن يغلبها كبرياؤها من جديد لتقول أخيراً منهية هذه المكالمة:

_لا أحد يحصل على كل ما يريد...هو أراد الولد فليهنأ به مع أمه...أما أنا فيحق لي أن أرفض كل هذا...

ثم قست نبرتها أكثر مع استطرادها:

_أنا أقسمت لنفسي أنني سأجعله يطلقني رغماً عنه...وهو لم يكن ليفعلها إلا بأمرٍ قاسٍ كالذي فعلته..

ثم أخذت نفساً عميقاً لتردف:

_أما عن جهاد...فمن حسن الحظ أنه في مؤتمر طبي يبدأ من الغد...سأكلم فهد وأطلب منه مساعدتي بشأنه ...هو يمكنه منع عاصي من إيذائه.

قالتها ثم أنهت الاتصال بسرعة رغم يقينها من عدم اقتناع رحمة بما قالته...

لكنها لن تعود عما انتوته**!!**

إذا كان من حقه أن يقتلها غيرةً وحسرة بعد ارتباطه بأخرى...

فلماذا لا يكون لها نفس الحق؟!!!

انقطعت أفكارها عندما سمعت صوت طرقات على الباب تبعها دخول دعاء للغرفة...

دعاء التي احتضنتها بقوة وهي ترى أثر دموعها على وجنتيها فهمست بإدراك:

_والدتك كانت تعاتبك لأجل عاصي؟!!

أومأت ماسة برأسها إيجاباً فعادت دعاء تهمس بتعجب:

_هي دوماً متحيزة له ...وكأنها أمه هو وليست أمك أنت!!

اغتصبت ماسة ابتسامة باهتة بين دموعها وهي تهمس بشرود:

_رحمة تفكر بقلبها...وحديث القلوب وحده لا يكفي!

تنهدت دعاء بحرارة ثم ربتت على كتفها لتقول بتردد:

_أنا لا أدري من منكما المخطئ ومن المصيب؟!من كان يقول أن عاصي الرفاعي الذي كنا نلقبه ب"الشيطان" سيقع في الحب يوماً بهذه الصورة؟!

عادت عينا ماسة تغيمان بدموعهما...عندما أردفت دعاء بأسى:

_لقد رأيت وجهه عندما كان خارجاً من غرفتك...لن أنسى تلك النظرة في عينيه ما حييت...أنتِ أخذت ثأركِ

منه كاملاً كما فعلت طيف بحسام...فليتكما تهنآن بانتقامكما!!

أشاحت ماسة بوجهها لتقول بعناد هزم الحزن في نبراتها:

_سأهنأ...وسأعيش ما بقي لي من عمر كما يرضيني...انتهى وقت الحزن والجرح...من الآن لن أفكر سوى في سعادتي فقط...أنا احترمت خيارات الجميع...عاصي ورحمة وعزيز وحتى جاسم الصاوي...وآن الأوان أن يحترم الجميع قراري.

انفرجت شفتا دعاء وقد همت بالجدال عندما قالت ماسة بحزم لتغير الموضوع:

_أمري مع عاصي انتهى...دعينا الآن نتدبر أمر زهرة...اذهبي إليها وأخبريها أن لا صحةَ لما يدور في خيالها...واعتذري لها عن تهشم هاتفها...سأحضر لها غيره!

فابتسمت دعاء بسخرية وهي تقول بتهكم:

_لا أظنها تهتم بشأن هاتفها المهشم قدر اهتمامها بقلبها المكسور...الفتاة تبدو غارقةً لأذنيها في حب صاحب العينين الزرقاوين...والآن أنتِ غريمتها!

زفرت ماسة بقوة ثم هتفت بنبرة عصبية:

_اخرجي الآن يا دعاء وأخبريها بالحقيقة...لا شأن لي بكل هذا الكلام الفارغ!

عادت دعاء تربت على كتفها برفق ثم تركتها لتخرج إلى شقة زهرة المقابلة...

حيث رنت الجرس لتفتح زهرة الباب بعينين منتفختين مع تساؤلها بتبرم طفولي:

_ماذا تريدين؟!

ابتسمت دعاء رغماً عنها وقد بدت لها زهرة -بمنامتها الحمراء المنقطة بالأبيض ورسوماتها الطفولية مع شعرها الذي اشعث بفوضوية حول وجهها المحمر بفعل البكاء - كطفلة ضالة!!

والحقيقة أنها حقاً كانت كذلك!!!

هذا ما تيقنت منه دعاء عندما دلفت معها إلى الداخل لتقول لها بعد جدال قصير:

_صدقيني يا زهرة...إنها الحقيقة...ماسة غارقة في حب زوجها ولا تفكر في أمر ذاك الطبيب ...

ثم غمغمت بحيرة:

_ماسة نفسها متعجبة لأن جلوسهما في الحديقة كان محض صدفة...من الذي كان يراقبهما بهذه الدقة كي يتمكن من التقاط الصور بهذه السرعة بل وينشرها في المشفى كله كما تزعمين؟!!هي تركته وعادت مباشرةً إلى هنا لتجدكِ خلفها تخبرينها بهذه الكارثة!!!

هنا انهارت زهرة في البكاء من جديد دون رد...

فتفحصتها دعاء ببصرها للحظات ...قبل أن تغمغم بشك:

_زهرة...أنتِ واثقة مما رويتِه بشأن هذه الصور؟!!

ظلت زهرة على بكائها للحظات دون رد...فتنهدت دعاء بحرارة وهي تهمس بإدراك:

_لقد فهمت!

رفعت إليها زهرة عينين مذنبتين...فهزت دعاء رأسها لتردف بأسف:

_هل هذا تأثير طيف الصالح عليكِ؟!أعجبتكِ فكرةالانتقام؟!

رفرفت زهرة برموشها في براءة ناقضت نظرات الذنب في عينيها...

فاقتربت دعاء منها لتحتضن كتفها بحنان ناسب قولها:

_خطتك كانت ساذجة...لكنها آلمت ماسة حقاً!

هنا عادت زهرة لنحيبها مع قولها بكلمات متعثرة:

_لم أقصد ذلك...لا...بل قصدته...أنا كدت أحترق بغيرتي عندما سمعته يسأل عنها بعدما أخبروه عن انهيارها...تعقبته خفيةً حتى وجدته يجلس جوارها ...يحدثها بحنان لم ألمحه في عينيه يوماً...ورغم أنني لم أسمع حديثهما لكنني كدت أموت بحسرتي وهو يخصها بهمساته الدافئة ...وقتها قفزت صورة طيف لخاطري...تذكرت ما فعلته بالرجل الذي لم يحفظ حبها...سول لي شيطاني هذه الفكرة كي أخيف ماسة من الاقتراب منه...التقطتُّ لهما الصور خلسة وعدت خلفها لأريَها إياها!

أومأت دعاء برأسها لتقول باستياء ممتزج بتفهمها:

_هذا ما توقعته...إذن فلم يرَ أحد هذه الصور إلا أنتِ...لكنكِ أردتِ فقط إيهام ماسة بفضيحة كي تتحفظ أكثر في علاقتها به!!

أومأت زهرة برأسها دون رد...

فانتفضت دعاء فجأةً لتقرص أذنها مع هتافها بغيظ:

_متآمر وأهبل؟!

ابتسمت زهرة وسط دموعها لتزداد طلتها حماقة مع استطراد دعاء بنفس النبرة:

_ألم تفكري أيتها الذكية أنه لو كان بينهما شئٌ كما تظنين...فإن الفضيحة التي زعمتِ وجودها قد تدفعهما للارتباط أسرع لو نالت ماسة طلاقها؟!!

وشهقة زهرة الحادة كانت أبلغ دليل على أن هذا الأمرلم يخطر بذهنها!!!

فزفرت دعاء بقوة ثم تركت أذنها لتعدل نظارتها -الداكنة- على عينيها مع قولها أخيراً بجدية تامة:

_اسمعيني جيداً يا زهرة...أمامكِ صورتان لامرأتين خانتهما ظروفهما مع رجليهما...أنا وطيف...طيف اختارت الطريق الأسهل...استسلمت وهي تظن نفسها

مقاتلة...نعم تركت سوس الانتقام ينخر في جسد فطرتها النقية...حتى صارت مسخاً مشوهاً بصورة امرأة حاقدة...أما أنا...

ثم خلعت نظارتها ببطء لتبدو عينها المصابة تحتها والتي أخفت إصابتها بعدسة لاصقة لكنها لازالت تبدو بشكل غير طبيعي لا يلاحظه إلا من يقترب منها بتفحص...

فعقدت زهرة حاجبيها وهي تتفرس في ملامحها بقوة...

عندما استطردت دعاء بصوتها المفعم بالإيمان:

_أنا تقبلت قدري شاكرة...جعلت من جرحي جسراً لغدٍ مشعٍّ بالأمل والرضا...تعلمت درسي جيداً...

ثم لوحت بسبابتها لتردف:

_ارسمي لوحتك أولاً قبل أن تبحثي لها عن إطار!!

عقدت زهرة حاجبيها بتساؤل فابتسمت دعاء وهي تردف بشرود:

_ابنيْ شخصيتك ...أرسيْ أعمدة قوتك...اجعلي جذور روحك تمتد أكثر تحت أرض صلبة بالإيمان...وبعدها

اسمحي لأغصان الحب أن تتشعب وتنمو حتى تعانق أشعة الشمس...

هزت زهرة رأسها بعدم فهم...فتنهدت دعاء بحرارة لتقول ببساطة:

_الرجل ليس تفاصيل اللوحة ولا ألوانها...لكنه قد يكون الإطار الذي يحفظها ويجملها في النهاية...شعوركِ بالحب جميل...لكن الأجمل ألا تفقدي نفسكِ بحثاً عنه!!

شردت زهرة ببصرها تفكر في حديثها مع همسها بقلة حيلة:

_أحبه يا دعاء بل...أعشقه!

فأردفت دعاء بثقة وهي تعاود ارتداء نظارتها:

_اعشقيه كما تشائين لكن لا توقفي عقارب ساعتكِ في انتظاره.

التفتت إليها زهرة من شرودها لتهمس بحسرة:

_الكلام سهل لكن ما حيلتي في قلبي الذي يكاد يقفز خارج ضلوعي كلما رأيته...تلومينني لما فعلته بماسة؟!!ماذا تعرفين عن احتراقي بغيرتي وأنا أراه يخصها بنظراتٍ لم يمنحني إياها يوماً!!!

ربتت دعاء على كتفها وهي تقول بمزيج من حزم ومواساة:

_هو لا يكنّ مشاعر حب نحو ماسة كما تظنين...كما حكت لي هو مجرد انجذاب لامرأة تذكره بوطنه الذي افتقده...هذا بالنسبة إلى ماسة...أما بالنسبة إليكِ فاستمعي لنصيحتي وكفّي عن ملاحقة سراب عشقه...لو كنت مكانك لهربت من هذا الحب الذي كاد يوقعني في الزلل!

هزت زهرة رأسها وهي تتمتم برهبة:

_أهرب؟!

أومأت دعاء برأسها وهي تقول بنبرة حاسمة:

_نعم...اهربي...مادام هذا الحب صار يستخرج أسوأ ما فيكِ...يورثكِ المذلة والضعف...بل كاد يدفعكِ للكذب والمكيدة...

ثم صمتت لحظة لتقول منهيةً هذا الحوار:

_لو لم يمنحنا الحب صورة أفضل في مرايانا فهو حجر مربوطٌ في أقدامنا يعجل برحلتها نحو القاع.

==========

_أنا آسف!

زفرت دعاء بقوة وهي تقرأها في رسالةً على هاتفها قبل أن تضعه جوارها على مكتبها -بعملها الجديد -بضجر...

هذه الرسالة تصلها يومياً على بريدها الاليكتروني دونما توقيع تعرفه...

لكن من سيكون غيره؟!!

يبدو أن "سيادة الرائد" بدأ يراجع نفسه بعد سفرها خاصةً أن عدتها لم تنتهِ بعد....

لكنها هي لن تراجع نفسها بهذا الشأن!

بل إنها تعد الأيام القليلة المتبقية في عدتها بفارغ الصبر كي تطوي هذه الصفحة للأبد...

هو بابٌ أغلق ولن تعاود فتحه!!!

_الجميلة بخير؟!

كانت هذه من مديرها المباشر الذي فوجئت بدخوله فوقفت مكانها لتقول بنبرة متحفظة:

_نعم يا سيدي...شكراً لسؤالك.

أومأ مديرها برأسه ثم قال وهو يتخذ طريقه إلى مكتبه:

_الحقي بي في مكتبي...أريدك في شأن مهم.

مطت شفتيها في استياء وهي تراقب خطواته بتوجس...

مديرها هذا لا يريحها...

نظراته نحوها جائعة تكاد تلتهمها التهاماً...

نظراتٌ من هذا النوع الذي كان يرضي ظمأ أنوثتها قديماً لكنها الآن صارت تدرك قيمة نفسها جيداً...

هي -روحٌ -تستحق الحب قبل أن تكون -جسداً- يستوجب الاشتهاء!!!

ورغم أنها لم تتسلم عملها هنا إلا منذ ما يقارب الشهر لكن لها رصيداً لا بأس به من مضايقات العاملين هنا لها وتحرشاتهم اللفظية بما يليق بوضعها كمطلقة وحيدة هنا...

لكنها تبعته أخيراً بتأهب لتجلس أمامه على مكتبه مع قولها بنبرة جادة:

_خيراً يا سيدي!

رمقها مديرها بنظرة طويلة قبل أن يقول مباشرةً دون مواربة:

_لقد أبلغني الأستاذ(....)بما كان بينكما!

عقدت حاجبيها بضيق وهي تحاول تخمين ما يريده بقوله...

ذاك الرجل- الذي يحكي عنه -تحدث إليها بالأمس يحاول التلميح لها برغبته في الارتباط بها ...

و-الحق- أنه كتلةٌ من المميزات التي تتمناها أي امرأة...

لكنها مع هذا لم تخدعه ...ولم تحاول منحه أملاً زائفاً...

شرحت له حقيقة وضعها باقتضاب قبل أن تتركه وتنصرف...

لكن ملامحه -المصدومة- آنذاك أخبرتها أن العرض لن يعود قائماً بعد ما علمه عن ظروف مرضها وعاهتها!!

لكن...

لماذا يخبرها مديرها بهذا الآن ؟!!

هل فكر الرجل وقرر إعادة عرضه؟!!

لكن مديرها بدا وكأنه قرأ حيرتها على ملامحها الجامدة خلف زجاج نظارتها الداكنة...

فقال بعد صمت قصير:

_أنا الآن أعرف ظروفك كلها...وأريد الزواج منكِ!

عقدت حاجبيها بضيق وهي تشبك أناملها في حجرها لتردد خلفه:

_الزواج مني!

رفع الرجل راحته أمام وجهه وهو يقول بنبرة عملية:

_أنا متزوج بالفعل ولديّ أولاد في مصر...لكنني أحتاج لزوجة هنا تلبي احتياجاتي...سأنفذ لكِ جميع مطالبك لكن بشرط...زواجنا سيكون سرياً .

احمر وجهها بغضب وهي تقف مكانها بانفعال فضحته ارتجافة جسدها...

فاصطنع ابتسامة مداهنة ليقول وهو يعود برأسه إلى الوراء :

_أنا أجيد قراءة النساء...امرأة مثلك لن تسلك طريق الخطأ...لكن فرصها قليلة مع ظروفها الحالية...لهذا أظن أن عرضي هذا سيكون مناسباً لكِ!

أخذت نفساً عميقاً تحاول به تمالك انفعالها قبل أن تقول بنبرة محايدة:

_عدتي لم تنتهِ بعد!

اتسعت ابتسامة الرجل وقد منحه ردها بعض الأمل فعاد يقول وهو يلوح بكفه:

_لن يضيرنا بضعة أيام من الانتظار...المهم أن المبدأ مقبول!

أطرقت برأسها دون رد...

قبل أن تستأذنه في الانصراف عائدةً إلى مكتبها الذي جلست عليه تسند رأسها على كفيها المتشابكين...

عرضيْ زواج في يومين متتاليين!!!

أحدهما فرّ مذعوراً عندما علم عن ظروفها ...

والآخر يريد استغلالها لأجل "زواج متعة" مقنّع!

وكأن أسطورة "الدمية المعيبة" التي فرت منها بمصر لازالت تلاحقها بلعنتها هنا!!!

لكن لا!!

لن تعود للسير في هذه الدائرة المفرغة من جديد!!!

صحيح أن مديرها بوسامته ومركزه يمثل صورةً -قديمة- لما ظننته الرجل المناسب!!

لكن هذه الصورة -نفسها- لم تعد هي المناسبة!!!

هي لم تتحرر من قيد "سيادة الرائد" لتكبل نفسها بقيد جديد...

فليذهبوا ب"أساطيرهم" العتيقة للجحيم ولتحيا هي حرةً بتاج كبريائها!!

وبهذا الخاطر الأخير أخذت قرارها الذي لن تبدله...

لتعاود ممارسة عملها وكأن شيئاً لم يكن!!

==============

_هل ستتركين العمل؟!

هتفت بها ماسة بقلق وهي تستمع منها لما حدث لها مع مديرها بينما كانتا تتسوقان في أحد "المولات" الكبيرة في المدينة...

لكن دعاء كانت منشغلةً بتفحص الواجهات الزجاجية مع قولها بعدم اكتراث:

_لماذا؟!لو تركت الواحدة منا عملها لأجل كل رجل يضايقها لظلت النساء حبيسات بيوتهن!!

ثم التفتت نحوها أخيراً لتغمزها مع قولها المشاكس:

_قناع وجه خشبيّ مني...مع رسالة صغيرة لزوجته الغافلة -دون ذكر اسم المرسل- ستفي بالغرض!

رمقتها ماسة بنظرة مندهشة للحظة قبل أن تنطلق ضاحكة وهي تخبط كفيها مع هتافها:

_أنتِ مصيبة!

ضحكت دعاء بمرح وهي تهز كتفيها قبل أن تقول أخيراً بجدية:

_أنا لن أعيش طوال عمري أفرّ من مضايقات الناس لي...يجب أن أتعلم المواجهة...الدفاع عن حقي...كفاني ما ضاع من عمري في هروب!

أومأت ماسة برأسها في استحسان ثم عادت تسألها بحذر:

_وحسام؟!ألازال يبعث إليكِ برسائله؟!

عادت دعاء تهز كتفيها مع قولها بتهكم لم يخلُ من مرارة:

_حسام هذا حالة مستعصية...شفقتي عليه تغلب أي شعور آخر...لكن...

قطعت عبارتها عندما تجمد بصرها على ذاك القادم قبالتها للحظات...

لتشعر وكأن الأرض قد توقفت بها قبل أن تعاود دورانها بها بسرعة كادت توقعها مكانها!!!

هو هنا؟!!

معقول؟!!

لاحظت ماسة توقفها مكانها وثبات وجهها صوب ذاك الرجل الذي تقدم نحوهما...

ونظراته تحمل من الحزن أضعاف ما تحمله من دهشة...

ورغم أن خطواته نحوهما كانت متعجلة تفضح لهفةً حقيقية...

لكن انقباض أنامله جواره كانت تعكس خشيته من هذا اللقاء!!!

ظلت ماسة ترقبه بتوجس حتى صار على بعد خطوات منهما لتعاود النظر نحو دعاء التي استعادت بعض ثباتها وهي تقول بابتسامة مرتبكة:

_معتصم!

أغمض عينيه بانفعال لتستشعر ماسة تلك الرجفة التي سرت في جسده والتي لم تتعجبها مع ما تعرفه من حب قديم بينهما...

حب بدا وكأنه يجاهد للطفو فوق سطح كلماته الباردة:

_كيف حالك يا دعاء؟!

لم تخدعها برودة لهجته فبعد عاصي الرفاعي قد صارت -خبيرة- بعناد العاشقين!!!

بينما سألته دعاء بمزيج من دهشة وفرح لم تستطع كتمانه:

_ما الذي جاء بك إلى هنا؟!هل تعمل في "أبو ظبي"؟!

_لا...أنا أعمل في دبي...جئت فقط لزيارة خطيبتي!

هنا شعرت ماسة بقبضة خشنة تعتصر قلبها مع إجابته...

فانعقد حاجباها بضيق وهي ترمق دعاء بنظرة مشفقة...

دعاء التي تعلقت عيناها ب"دبلته" الفضية في إصبعه للحظات...

قبل أن تتسع ابتسامتها لتستعيد قناع مرحها الواقي مع قولها :

_مباركٌ...أنت تستحق كل خير!

لكنه حافظ على إطراقه الصامت للحظات ...

قبل أن يقول بما يشبه الاعتذار:

_وأنتِ أيضاً.

ثبتت نظارتها الداكنة على عينيها أكثر وكأنها تحتمي خلفها من إحساسها الخانق الآن...

أو لعلها كانت تريد تذكير نفسها بعهدها الجديد!!

بينما لم يستطع هو رفع عينيه إليها مع قوله المتحفظ:

_تحتاجين شيئاً؟!

ورغم -تقليدية- السؤال لكنه بدا منه هو بالذات مختلفاً!!!

وكيف لا؟!!

وقد حمل لها بأحرف قليلة رصيد أيام طويلة من حب لم يعرفه قلبها إلا له هو...

أعاد لها تاريخها -الوردي- معه بعدما اختنقت أيامها بـ-رمادية- واقعها الجديد...

حتى أنها أطرقت برأسها لعدة لحظات وكأن الإجابة صعبة إلى هذا الحد...!!!

قبل أن ترفع وجهها أخيراً بابتسامة راضية مع قولها:

_شكراً...لا أحتاج شيئاً!

اختلس نظرة خاطفة نحوها وشت بمشاعر جارفة بعينيه...

ثم هز رأسه بتحية خاطفة وهو يداعب دبلته في إصبعه بحركة عصبية رافقت رحيله المتعجل!!

ظلت ماسة تراقب ظهره المنصرف بأسف للحظات ...

قبل أن تلتفت لدعاء التي ظلت ملامحها على حالها من الشرود ...

خطب؟!!

معتصم خطب؟!!

وما المشكلة ؟؟!

ألم تتزوج هي قبله؟!!

ماذا كانت تنتظر إذن ؟!!

أن يبقى عازباً للأبد؟!!!

_غريب!

همست بها ماسة بتعجب لتنتزعها من هدير أفكارها الصاخبة...

فابتسمت ابتسامة شاحبة وهي تجذبها لتعاودا السير مع تساؤلها:

_ما الغريب؟!

هزت ماسة رأسها وهي تقول بدهشة مصطبغة بالضيق:

_تصرفه غريب...ألا يفترض ولو من باب الذوق أن يسألكِ عن أخبارك وعما تفعلينه هنا ؟!!

هنا اتسعت ابتسامة دعاء وهي تعدل وضع حزام حقيبتها على كتفها مع قولها مفسرة:

_لا أستبعد أنه يعرف كل شئ...هو على اتصال دائم بإحدى زميلاتنا في مدينتنا...وأنتِ تعلمين أن أخباراً كهذه لن تخفى على أحد...

ثم صمتت لحظة لتستطرد بشرود:

_لاريب أنه قد علم عن طلاقي بل وإصابتي و مرضي...كل شئ...كل شئ!

رمقتها ماسة بنظرة مشفقة بينما استعادت هي ابتسامتها لتردف بمرح لم يخلُ من مرارة:

_هل تتخيلين العناء الذي تكبدته طوال هذا الوقت كي أخفي عنه هو بالذات سر مرضي الذي كنت أراه مخزياً...لتتكشف الحقيقة كلها بين يوم وليلة؟!وبهذه الصورة المفجعة؟!!

ثم أطرقت برأسها لتهمس بنبرة مهتزة:

_من يلومه لو فضل امرأةً معافاةً على أخرى بظروفي؟!!

تنهدت ماسة بحرارة وهي تتأبط ذراعها مربتةً عليه برفق مع قولها:

_لا تحزني...هو...

_أحزن؟!

هتفت بها دعاء تقاطع عبارتها لتطلق ضحكةً قصيرة لم تدرِ حقاً هل هي صادقة أم من خلف قلبها الموجوع...

لكنها كانت واثقةٌ مما قالته بعدها:

_لو كان خيراً لبقى....!

ثم أردفت أخيراً برضا ظلل ملامحها:

_القدر يدخر الأفضل!

================

كان يستقل سيارته مع زوجته في طريقه إلى المشفى...

لم يكن ينتوي العودة إلى مصر قبل أن يحسم أمره مع ماسته وذاك الرجل الذي لم يتبين بعد من هو...

لكنه فوجئ باتصال هاتفي -بعد خروجه من عندها - من أحد رجاله يخبره أن زوجته مريضة فلم يستطع إلا أن يعود...

رغم أن كل ذرة في كيانه كانت تتوق لتحطيم ذاك الرجل ...

لكن لا بأس...

سيعود إليهما بأقرب وقت ليتدبر هذا الأمر...

الغافلة تظنه صدق تعلقها -المزعوم- بذاك الرجل؟!!!

ولا تدري أنه يحفظها كخطوط كفه!!!

أجل...قلب ماسة لن يعشق سواه!!

لكنه سيحاسبها على تلك الكلمات التي تفوهت بها أشد حساب...

وقبلها سيعلم منها قصة هذه الصورة ولماذا هذا الرجل بالذات!!

لن ينسى لها ما فعلته به تلك الليلة...

لقد هوت به كلماتها المسمومة من علياء فرحته إلى سفح انكساره...

انكساره الذي لن يسامحها عليه أبداً!!!

_أنا خائفة...قلبي منقبض!

همست بها زوجته وهي تتطلع للطريق المقفر حولها والذي اتخذه قائد السيارة فجأة...

فتلفت حوله بدوره ليسأل السائق بنبرته العنيفة:

_لماذا اتخذت هذا الطريق؟!

ارتجف الرجل مكانه وهو يقول بارتباك:

_كي نصل أسرع ...السيدة تبدو مريضة.

شعر عاصي بالتوجس فتحسس مسدسه بجيبه وهو يشعر بالندم لأنه خفف حراسته بعد اطمئنانه لتخلصه من الخطر...

عندما عاودت المرأة قولها وهي تتحسس بطنها :

_لا أدري ما هذا الذي أصابني فجأة...منذ سافرت وأنا أشعر بألم غريب في جسدي كله.

التفت نحوها بقلق وهو يلاحظ شحوب وجهها والعرق الذي تصبب على جبينها ليسألها على -أكثر ما يهمه-:

_هل تشعرين بحركة الطفل؟!

أومأت برأسها إيجاباً وهي تقول مطمئنة إياه:

_حركته طبيعية...لا تقلق...أنا...

قطع عبارتها صوت إطلاق نار قريب جعلها تصرخ بحدة وهي تلتصق به...

فأدرك أنه وقع في فخ ما...ليهتف بالسائق في غضب:

_أنت تعمدت هذا أيها الوغد!

قالها وهو يستخرج مسدسه من جيبه بسرعة لكن الرجل توقف بالسيارة في حركة فجائية...

جعلته يعود بجسده للأمام بحدة قبل أن ينتبه لهؤلاء الرجال الملثمين الذين أحاطوا بالسيارة يصوبون أسلحتهم نحوه...

اتسعت عيناه بصدمة ويداه تتجمدان على سلاحه الوحيد الذي لن يجدي وسط كل هذا...

لكن لا يزال هناك أمل في سيارة حراسه خلفه...

هنا سمع ذاك الصوت جواره:

_ترجل من السيارة مع المرأة الآن.

كز على أسنانه بغضب وهو يقول لزوجته :

_ابقيْ أنتِ هنا.

قالها ثم ترجل من السيارة وهو يلتفت للخلف ليفاجأ بالوضع كاملاً...

سيارة حراسه قد انقلبت على جانبها وقد بدا واضحاً أن كل من فيها قد لقي حتفه!!!

فاجتاحه إعصارٌ من الغضب وهو يرى نفسه لأول مرة بهذا الضعف...

وحده في مواجهة كل هؤلاء...

لا...ليس وحده!

المصيبة أنه ليس وحده!!!!

طفله الذي لايزال في رحم هذه المرأة معه!!!

لهذا تبدل غضبه لخوف خانق وهو يدور بعينيه في المكان حوله بعجز...

قبل أن يعود الرجل صاحب الصوت ليقول بتهكم قاس:

_أخيراً سيد عاصي...هل تدري منذ متى أخطط لهذه اللحظة؟!

ازدرد ريقه الجاف بتوتر وهو يرفع مسدسه في وجه الرجل الملثم الذي عرف من عينيه أنه ذاك الذي التقى به من قبل...

والذي بدت له عيناه وقتها مألوفتين كما هو الآن...

لكن الرجل أطلق رصاصة في الهواء تبعها رجاله بعدة رصاصات منهم ...

قبل أن يقول له بنفس النبرة المتهكمة:

_يمكن لأي من رجالي أن يصيب مسدسك ...لكنني أريدك أن تلقيه أنت بنفسك...

ثم صمت لحظة ليردف باستمتاع :

_ستكون أول فقرات الحفل.

ثم اقترب منه خطوة ليردف:

_حفل وداعك يا سيد عاصي!

اشتعلت ملامح عاصي بالغضب وأنامله تعتصر مسدسه محاولاً تمالك انفعاله...

لكن صراخ زوجته أجفله عندما رأى أحد الرجال يخرجها عُنوةً من مكانها ليوقفها على الجانب الآخر من السيارة مصوباً سلاحه إلى رأسها...

فخفق قلبه بجنون انفعاله وهو يدرك ضعف موقفه...

ليعاود التشبث بسلاحه أكثر ...

صوتٌ بباطنه يدفعه لإطلاق النار على ذاك الرجل الذي اعتدى على حرمته وتحدى جبروته حتى ولو مات في سبيل هذا!!!

يكفيه أن يتحدث الناس بعده أن عاصي الرفاعي لم تنحنِ جبهته يوماً لأحد!!!

لكن صوتاً آخر ضعيفاً يناشده التعقل لعله ينقذ طفله بأي مقابل...

أجل...هو مستعد للتضحية بأي شئ لأجل هذا الطفل الذي انتظره طوال عمره!!!

وبين الصوتين ظل تفكيره مشوشاً للحظات...قبل أن يستمع أخيراً لصوت العقل فألقاه تحت قدميه مستشعراً صوت سقوطه وكأنه انفجارٌ هائل بأذنيه!!!

هنا رفع الرجل لثام وجهه وهو يقول بقسوة وحشية:

_تماماً كما خططت منذ وقت طويل...هذه هي اللحظة التي طالما تمنيتها..عاصي الرفاعي يلقي سلاحه طواعيةً أمامي.

اتسعت عينا عاصي بصدمة وهو يتبين ملامح الرجل ليهمس من بين أسنانه:

_أنت؟!

التمعت عينا الرجل بظفر وهو يدور حول عاصي بحذر ليهتف بظفر:

_نعم...أنا...هل ظننتَ أن دم أخي عدنان سيذهب هدراً؟!

عقد عاصي حاجبيه بشدة وهو يقبض أنامله جواره...

عدنان الذي اعتدى على عرضه مع تلك الخائنة...!!!

وهل لدم -مثله-ثمن؟!!

لكن ماذا عساه يقول الآن؟!!

لن يستطيع أن يفضح سبب فعلته!!!

الموت أهون عليه من أن يعلن أن أحدهم قد سلبه شرفه!!!

و"الستر" لمن واراها التراب أولى!!!

لهذا أطبق شفتيه بقوة فيما استطرد الرجل بنبرة كراهية أقوى:

_أنت قتلته لمجرد أنه خالف أوامرك وعاد إلى هنا...كنت تريد نفيه خارج المدينة طوال عمره فقط لأنه كان يريد الزواج من قريبتنا قبلك...و لَيتك اكتفيت بدمه...ودم زوجتك التي ماتت كمداً بحسرتها بعد زواجك بأخرى...لكنك نفيت أهلي جميعاً من هنا بعدما اغتصبت أرضهم قهراً...

هدر قلب عاصي بعنف وهو يستمع للرجل متذكراً ما يحكي عنه...

عندما أردف هو بنبرة متشفية:

_ظننت أنك الأقوى ونسيت أنه هناك دوماً خلف الذكي من هو أذكى!!!

ثم لوح بسلاحه في وجهه قائلاً:

_بالطبع لم يخطر ببالك أن شخصاً ضعيفاً مثلي هو من يهددك بهذه الضراوة!!

أشاح عاصي بوجهه دون رد للحظات وهو يدرك بداخله صواب كلمات الرجل...

أجل...لم يخطر بباله أن مهدده الذي سرق النوم من عينيه هو ذاك الرجل حقير الشأن!!!

لكنه تمالك دهشته باقتدار قبل أن يعاود النظر إليه بسؤاله :

_من خانني؟!

أصدر الرجل همهمة ساخرة ثم هتف بتلذذ ظافر:

_بل قل...من لم يفعل؟!كل رجالك كانوا على استعداد لفعلها فقط لمن يدفع الثمن!

كز عاصي على أسنانه وهو يغمض عينيه عندما أردف الرجل بنفس النبرة المقيتة:

_لم تزرع سوى الكراهية طوال هذه السنوات...فماذا كنت تنتظر أن تحصد؟!لقد قررت أنا الانتقام منذ وقت طويل...تحالفت مع كل أعدائك الذين كانوا يترصدونك...أنا وحدت كلمتهم لنضمن القضاء عليك...كان يمكنني قتلك منذ زمن بعيد...لكنني أردت أن تعيش أولاً في جحيم من الخوف والترقب...أن تجرب مرارة الشعور بأن الأمور خرجت من يدك...حتى إذا ما جاءت اللحظة الحاسمة أرخيت لك الحبل بطُعم زائف...جعلتك تظن أنك ملكت كل الخيوط من جديد...رجلك سرحان جعلك تصوب وجهك لاتجاه خاطئ كي تتخلى عن حذرك فيمكننا اقتناصك بسهولة أكثر!

ضاقت عينا عاصي بغضب وهو يهمس من بين أسنانه:

_إذن لم يكن حسام القاضي خلفها كما أوهمني!!

ضحك الرجل ساخراً وهو يقول بتشفٍّ:

_سرحان هذا داهية حقاً...لقد كان أكثر من ساعدنا في الإيقاع بك...لقد أدرك وجود عداوة بينك بين وبين ذاك الضابط واستغل الأمر بمهارة ثعلب أجدتَ أنت تدريبه لتكون أول ضحاياه!

أغمض عاصي عينيه وهو لا يكاد يصدق ما يسمعه...

هكذا في لحظة واحدة خانه الجميع!!!

لكن ما سمعه بعدها كان أقسى مما يظن عندما وجه الرجل حديثه لزوجته بقوله :

_عذراً يا سيدتي...خادمتك كانت تضع لكِ نوعاً من الدواء في طعامكِ كي يصيبكِ بهذا التعب...كنا نحتاج لإعادة السيد عاصي من سفره بأقرب وقت ولم نجد أغلى من ولده المنتظر كي نضمن سرعة حضوره.

شهقت المرأة بخوف وهي تحتضن بطنها بذراعيها مدركةً بشاعة القادم...

بينما رفع عاصي رأسه مواجهاً الرجل ليهتف بحدة:

_والآن ...ماذا تريد؟!!

_القصاص!!

هتف بها الرجل بنبرة قاسية لكنها لم ترجف قلب عاصي الذي فتح ذراعيه على اتساعهما وهو يقول ببرود حازم:

_خذ ثأرك...عاصي الرفاعي لا يخاف الموت.

فابتسم الرجل بقسوة ليصوب سلاحه نحو بطن المرأة قائلاً ببطء متعمد:

_ليس أنت ...ولدك أولاً!

_لا!

صرخ بها عاصي بعنف وهو يتقدم نحو الرجل باندفاع ليقف في وجه سلاحه....

لكن الرجال الذين كانوا يتوقعون تصرفه هذا اندفعوا فجأة يطوقونه من كل صوب...

لتغلب الكثرة الشجاعة وينتهي الأمر به بين أيديهم!!!

هنا هتف الرجل بنبرته المقيتة:

_هذا أكثر ما سيوجعك ...طفلك الذي انتظرته طوال هذه السنوات...

تلفت عاصي حوله بعجز قبل أن يطلق صرخة هادرة تردد صداها في المكان المقفر حوله...

ثم عاد يهز رأسه مع صوته الذي تحشرج مع قوله:

_لا تقتله!

لكن القسوة التي سكنت عيني الرجل أخبرته أن القرار ماضٍ لا محالة عندما هتف الرجل بشراسة:

_لست أنا من سيقتله بل...أنت...أنت الذي قتلت ابنك بسواد ماضيك فانظر بعينيك ماذا جنت يداك.

قالها وهو يطلق الرصاص تباعاً نحو بطن المرأة التي انخمدت صرخاتها بعد أول طلقة...

فيما انتفض جسد عاصي وعيناه متشبثتان ببطنها الذي انفجرت منه الدماء بغزارة وكأنه يرى بعينيه جثة طفله ماثلةً أمامه!!!

ليشعر الآن بدويّ هائل في أذنيه من صرخاتٍ عالية لم يعد يميز مصدرها...

تارةً هي صرخات طفل وليد وكأنه يسمع فيها ألم ابنه...

وتارةً هي صرخات حورية وكأنها تعاود تعذيبه بسيفها المزدوج من خيانة وذنب لازال يطوق عنقه...

وتارةً هي صرخات عدنان يوم أطلق النار عليه...

وتارةً هي صرخات طيف يوم رفض الاعتراف بها مكتفياً بحفنة أموال...

لتتعدد الصرخات في أذنيه بصوت كل من ظلمهم يوماً ولم يعد حتى يذكرهم!!!

حتى انتهت بصرخاته هو التي عاد ما يملك التحكم فيها:

_أنا عاصي الرفاعي...لن ينالني ثأر...ولن يهزمني أحد ولا حتى الموت!!!

هنا هوى الرجل بكعب سلاحه على رأسه ليقول باشمئزاز كريه:

_لازلتَ مغروراً لكنني لن أقتلك... سأترك للقدر كلمته الأخيرة فيك.

تشوشت المرئيات بعيني عاصي بفعل الضربة وهو يشعر بدمائه تسيل على جانب رأسه....

ثم وجد الرجال يطوقونه بحبل غليظ ليدفعوه بعنف نحو السيارة قبل أن يصله صوت الرجل يقول بقسوة هادرة:

_سيقود السيارة أحدهم حتى حافة المنحدر الجبلي وبعدها سيتركها تسقط ...

ثم أردف بتلذذ سادي:

_وأنا سأستمتع بالعرض المثير لأرى كيف ستكون نهاية عاصي الرفاعي...الموت السريع لمن مثلك سيكون رحمة لا تستحقها!

لم يشعر عاصي بعدها بشئ وقد تزلزل كيانه كله بشعور رهيب لم يعهده من قبل...

مزيج من صدمة وخزي وألم وانكسار...

كل هذا بنكهة خسارة صار يدرك أنها...الأخيرة!!!

هنا وجد شريط عمره يمر به سريعاً وهو يشعر بحركة السيارة نحو المنحدر...

_أخبرتكِ أنني أنا عاصي الرفاعي...متى أردت شيئاً فلابد أن يستجيب القدر!!!

_لقد عادت خيوط اللعبة كلها في يدي كما وعدتك...كلها!!

_بل أنتِ التي لا تعرفين شيئاً عن عاصي الرفاعي...عاصي الرفاعي هنا هو القانون!!

_أعترف أنني شديد القسوة في عقاب الناس على أخطائهم لكنني لم أعاقب أحداً يوماً على ذنب لم يقصده!!

_أنا الذي استطعت ترويض كل ما و-من -أردت إلا قلبي وأنتِ!!

_اليد التي تمسك سلاحاً لن تستقر فيها فرشاة رسم....والقلب الذي يستهويه إرهاب الأرواح لن تشبع نهمه مجرد لوحة!

_حلم عمري تحقق يا ماسة... سيكون ذكراً...ذكراً من صلبي يحمل اسمي بعدي...يرث كل هذا الذي تعبت عمراً في بنائه...

_سيحبني مثلما أحببتني أنتِ....لن أجعله يكرهني كما فعل بي حماد الرفاعي...سيكون سندي وظهري وصاحبي وخليفتي...هل تدركين قيمة هذا عندي؟!

_لازلت تطمع في كل شئ...المال والبنون والسلطان...والحب!!

_قلبي تعلق بغيرك!

_طلقني وإلا سأخونك كمن سبقتني!

_افرح يا عاصي...افرح يا من تظن شمس الدنيا تشرق وتغرب بين كفيك!

كانت هذه الذكريات تتوالى على صدره كطعنات نافذة...

قبل أن يستفيق منها شبه واعٍ على هبوط السائق من السيارة بسرعة ليتركها تكمل طريق هبوطها العاصف من قمة المنحدر ...

وهنا أدرك عاصي أنها النهاية...

بل...وربما البداية...!!!!

بداية عذاب سيظل يتنفس لظاه سواء حياً أو ميتاً...

لتكون آخر عبارة تدوي في ذهنه وقتها:

_الذنب بعد الذنب قيدٌ فوق قيد...وأنا أدرى الناس بذنوبي وقيودي...فلا تسرفي بحسن ظنك فيّ ...دعي الأيام تصدر حكمها بشأني...

وبعدها أظلمت الدنيا في عينيه تماماً...

ليسقط في جحيم يستحقه من لقبوه يوماً ب"شيطان"!!

===================

_أنتَ مُحالٌ إلى التحقيق يا حسام!!

هتف بها مديره المباشر معنفاً قبل أن يردف بضيق:

_لماذا فعلت هذا؟!خطأٌ كهذا لا يصدر عن ضابط كفءٍ مثلك!

صمت حسام مكتفياً بملامحه الجامدة فيما واصل الرجل تقريعه:

_لقد كنت تعلم بكل ما حدث...وأخذت معك قوةً كافية ....كان بإمكانك أن تمنع ذاك الرجل من قتل زوجة عاصي الرفاعي...أو على الأقل كنت تستطيع منعه من إسقاط السيارة به قبل وصولها للمنحدر...فلماذا انتظرت حتى تفاقم الأمر؟!

_أنا معترفٌ بخطئي يا سيدي...ومستعد للعقوبة.

قالها حسام وهو يشدد من ثباته في وقفته بنفس النبرة الجامدة...فزفر مديره بقوة ليقول ببعض الأسف:

_لن أستطيع الوقوف في صفك هذه المرة...العقاب سيكون شديداً ولا أدري مداه.

أومأ حسام برأسه قبل أن يغادر مكتبه بخطوات ثابتة...

ورغم الجمود الذي كان بادياً على ملامحه لكنه- بداخله -كان يشعر بالارتياح...

لذة الانتقام -الزائفة- كانت تغشي عينيه ببريقها الوهاج...!!

أخيراً نال عاصي الرفاعي عقابه على كل ما اقترفه في حياته...

الآن فقط يمكنه أن يستريح من ذنب "طيفه" القديم...

لقد أُلقي القبض على سرحان وسيوصي بالضغط عليه حتى يعترف أنه هو من أحرق منزلها بها بأوامر من عاصي الرفاعي...

سينال المجرمان عقابهما ويبقى عقابه -هو- على خذلانه القديم لها...

لكن من قال أنه لم ينل عقابه؟!!

عذاب ضميره بها طوال هذه الأيام والذي حرمه السعادة ...

وجعله يشعر بالغربة حتى عن نفسه!!!

انقطعت أفكاره عندما خرج من مقر عمله ليعود إلى منزله...

فتلقته والدته بعينين عاتبتين مع قولها:

_المدينة كلها تتحدث عما حدث لعاصي الرفاعي....لكنني وحدي أعلم أنك كنت خلف هذا.

زفر بقوة وهو يخلع حذاءه متظاهراً بعدم الاكتراث ليقول بهدوء لم يخدعها:

_وماذا فعلت أنا؟!هو صراع بين مجموعة من المجرمين ...أنا فقط انتظرت حتى انتصر أحدهم ثم ألقيت القبض عليه.

سارت نحوه ببطء ثم هزت رأسها لتقول بأسف تجاوز عتابها:

_وتلك المرأة البريئة التي لقيت حتفها مع طفلها؟!ذنبها في رقبة من؟!

انعقد حاجباه بضيق وهو يقول بمكابرة:

_في رقبة زوجها الذي عوقب بها!!

تنهدت بحرارة ثم غمغمت بخفوت:

_لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!!

أشاح بوجهه دون رد فعاودت عتابها المستنكر:

_هل هذا ما تحاول إقناع نفسك به كي تفر من عذاب ضميرك؟!!لكنني أعرف كما تعرف أنت أن حسام القاضي لا يفكر إلا في نفسه...أنت أردت الانتقام من عاصي الرفاعي كي تخلع عن رقبتك طوق ذنبك القديم بأخته.

_أمي...كفاكِ!!

هتف بها في حدة وهو يعطيها ظهره ليعود نحو غرفته صافقاً بابها خلفه بعنف!!

فتأوهت والدته بقوة وهي تنهار جالسةً على كرسيها مع دعائها الذي ما عادت تملك غيره لابنها الوحيد.

فيما خبط هو رأسه بباب غرفته بعنف ثم تلفت حوله وكأنه يبحث عن شيءٍ ما لا يدري ماهيته...

قبل أن يخلع عنه قميصه ليلقيه بعدم اكتراث ...

ثم توجه نحو خزانة ملابسه ليفتحها ملتقطاً بقايا "عقد الفل" الذابل الذي تحسسه بأنامله بشرود...

قبل أن يهمس بأسى:

_انتهت رحلتنا يا طيفي...أخذت لكِ ثأركِ ممن ظلمكِ...ومن نفسي قبله!

ثم صمت بضع دقائق مستعيداً بعض ذكرياته معها ...ليردف أخيراً بشجن:

_أنتِ لم تحترقي وحدك...كلنا احترقنا بذنبك...كلنا!

قالها وهو يسير بما تحمله يداه نحو فراشه الذي جلس عليه...

ليلتقط قداحة سجائره التي ما عادت تفارقه...

ثم أشعل النيران ببطء فيما تبقى من- وريقات الفل - الذابلة...مع همسه الشارد:

_الآن فقط يمكنني إحراقه...الآن أدرك أننا ...انتهينا!!

لينعكس وهج النيران في عينيه الغائمتين بدمع محتبس...

دمعٍ وقف على الحافة بين شعوره ب"المكسب" و"الخسارة"...

دمع رجلٍ نصر شيطانه للنهاية...

أو -ما يظن - أنها النهاية!!!

===============

أستندت على مرفقها وهي تطل بوجهها على ملامحه النائمة جوارها على الفراش بهيام أوجع قلبها من فرط خفقاته...

لا تصدق أنها قد عادت أخيراً إليه...

ابتسمت ابتسامة هانئة وهي تتذكر تفاصيل ليلتهما الدافئة لتمتد أناملها تتحسس بطنها برفق ...

قبل أن تأخذ طريقها نحو وجهه لتتوقف في اللحظة الأخيرة خشية إيقاظه...

لكنه فتح عينيه فجأة ليطالعها بنظرة مشتتة للحظات قبل أن يبتسم مع همسته بصوته الناعس:

_جنتي!

اتسعت ابتسامتها وهي تميل على وجنتيه بقبلتين خفيفتين رافقت همسها في أذنه:

_تحتاجني...وأحتاجك أكثر!

لكنها ما كادت تتم عبارتها حتى قام من نومته بخفة ليحتضن كتفيها بكفيه ...

ثم قلبها على ظهرها برفق ليشرف عليها هو بوجهه ...

قبل أن يرد لها قبلتيها مع عبارتها ثم عانق أخيراً وهج بندقها الأثير مع همسه ببعض الحزم الذي تخلل عاطفته:

_إنها عبارتي أنا...لا أحب قلب الأدوار يا "أستاذة"!

قالها بلهجة ذات مغزى وكأنه يذكرها بعهدهما بالأمس!

فأومأت برأسها وهي تطلق أنيناً خافتاً وقد دفعتها حركته لمزيد من الشعور بالدوار!!

هنا انعقد حاجباه بقلق وهو يتحسس جبهتها بأنامله مع تساؤله:

_تبدين مريضة...سنذهب للمشفى اليوم كي نتفحصك ونطمئن.

لكن غريزة "الأنثى " بداخلها لم تنتبه لسوى لوصفه بأنها -تبدو -مريضة!!

لتتذكر وقتها وصف يسرا لها بالشحوب والتهالك...

فازدردت ريقها ببطء وهي تبسط راحتها على صدره مع سؤالها بمزيج من دلال وترقب:

_فهد...هل قلّ جمالي حقاً بعد الحمل كما قالت يسرا؟!

ارتفع حاجباه بدهشة للحظة وهو يتذكر ما تحكي عنه...ثم وجدها فرصةً سانحة لمعاودة خطة معاقبتها...

فتنحنح دون رد وهو يبتعد عنها برفق... ثم اعتدل ليقوم من جوارها مع قوله بهدوء مصطنع:

_أمر طبيعيٌّ لامرأة في ظروفك!

شهقت بعنف وإجابته تخيب رجاءها بكل برود لتطلق صيحة استنكار غاضبة قبل أن تنتفض من نومتها لتهتف بسخط :

_ظروفي؟!وما هي ظروفي؟!أليس هذا كله لأجل ابنتك؟!

ثم التقطت أنفاسها الثائرة لتردف بغيظ:

_بالطبع تراني شاحبة مادمت تقارنني بشقرائك المبهرجة طوال الوقت!!

كتم ابتسامته بصعوبة وهو يمد لها كفه متجاهلاً عبارتها ليقول ببرود مغيظ:

_قومي كي أسندكِ لتذهبي للحمام...لن تستطيعي الذهاب وحدك!

لكنها دفعت كفه ببعض العنف وهي تزيح الغطاء بحركة عصبية لتتقف مع هتافها الحاد:

_شكراً...أستطيع الذهاب وحدي!!

قالتها وهي تندفع نحو حمام الغرفة لتصفق بابه خلفها بعنف فاضحٍ لغيظها...

هنا سمح هو لابتسامته العابثة بالظهور على شفتيه وهو يهز رأسه بجذل...

ياللنساء!!!!

من كان يراها تتحدث بكل ثقتها في حبه بالأمس لا يصدق غيرتها المشتعلة الآن!!!

لكن لا بأس...

هي تستحق المزيد من الضغط على هذه النقطة كي تدرك عواقب فعلتها!!!

ورغم أنه جاهد نفسه كثيراً ليصبر على تأخرها الذي طال بعدها خلف الباب المغلق...

لكن قلقه عليها غلبه أخيراً ليتوجه نحو باب الحمام الذي طرقه بخفة مع سؤاله بحذر:

_جنة...تحتاجين مساعدة؟!

لم يكد يتم عبارته حتى انفتح الباب بعنف لتطل هي من خلفه بمظهر -أقل ما يوصف به -أنه فاتن!!

كانت شبه عارية إلا من منشفة عريضة غطت جسدها حتى ركبتيها...

وانسدلت خصلات شعرها الكثيفة المبتلة على كتفيها العاريين ..

واحمرت وجنتاها بفعل سخونة الماء أو ربما سخونة انفعالها المغتاظ!!!

كان يتأملها بافتتان نافس العبث في نظراته لكنها دفعته ببعض القوة وهي تزم شفتيها بغضب...

فرفع أحد حاجبيه ليقول مشاكساً:

_ارتدي ملابس ثقيلة كي لا تمرضي أكثر!

التفتت نحوه بحدة وهي تهم بتعليق لاذع لكنه دخل الحمام بدوره ليغلقه في وجهها مع ضحكة طويلة أثارت غيظها أكثر!!!

خرج من الحمام بعد بضع دقائق ليجدها جالسةً أمام كرسي الزينة أمام المرآة...

وقد ارتدت ثوباً قصيراً بحمالتين رفيعتين بدرجات الفيروزي والأزرق...

ثوباً يشبهها بأناقته وبساطته...وفتنته!!!

صدره الضيق الذي احتضن جسدها بنعومة وقد انساب بعدة طبقات خفيفة من "الشيفون" من تحته مدارياً بروز بطنها ...

وتركت شعرها المبتل متموجاً بعفوية على ظهرها إلا من طوقٍ نحاسيّ جعل مع لون عينيها وطلاء شفتيها مزيجاً مبهراً من جمال خاص لن تشاركها فيه امرأةٌ سواها...

فأخذ نفساً عميقاً وهو يملأ عينيه من صورتها ...ثم تقدم نحوها ليمد لها كفه الذي احتضن كفها وهو يوقفها أمامه صامتاً إلا من حديث عينيه الوافي...

ذاك الحديث الذي اخترق قلبها بصدقه لتتلاشى معه سحب ضيقها العابرة...

وتنقلب نيران غيرتها برداً وسلاماً على روحها التي أهدته ابتسامة رقيقة دللها هو بشفتيه للحظات...

قبل أن يهمس بحذر:

_أنا أعرف هذه النظرة...الأستاذة تريد شيئاً...وتعرف أنني سأرفضه!

أسبلت جفنيها للحظات ثم عادت ترفع عينيها إليه بقولها الذي اكتسب الكثير من الجدية:

_أريد العودة لعملي!

_لا!

هتف بها قاطعةً بصورة مباشرة بعدما أفاق من صدمة طلبها الغريب!!!

فعقدت حاجبيها بضيق وهي تهتف باعتراض:

_فهد...لا أظنك جاداً بشأن حبسي هنا في هذا البيت مع تلك المرأة لوقتٍ لا أعرفه مستمتعاً بغيرة كلٍ منا عليك!!!

اقترب بوجهه منها ليلوح بسبابته في وجهها قائلاً بحزم:

_لا...ليس حبسك في هذا "البيت"...بل في هذه" الغرفة"!!

ازداد انعقاد حاجبيها مع زفرة حانقة فأردف بنفس الحزم:

_ليس تعسفاً مني...لكن حالتك الصحية لا تسمح لكِ بما تريدين...وحتى لو كانت تسمح...سأحتاج لوقت طويل للثقة في خروجك من هنا!!

هزت رأسها باعتراض وهي تهتف باستنكار غاضب:

_إذن تريدني أن أبقى طوال اليوم هنا لتحترق أعصابي مع تلك المستفزة دون أن أفهم حقيقة العلاقة بينكما ولا لماذا تبقي أنت على زواجك بها؟!!!!

رمقها بنظرة طويلة للحظات ثم أحاط وجنتيها بأنامله ليقول بنبرة حاسمة:

_تظنين نفسك وحدكِ من تجيدين تلقين الدروس؟!!إنه دوري هذه المرة يا أستاذة!!

دمعت عيناها بعجز وهي تغمض عينيها هرباً من نظراته...

فصمت لبعض الوقت ثم لانت لهجته نوعاً وهو يقول ببعض الرفق:

_ألم نتفق بالأمس أن تثقي بي؟!

حافظت على إغماض عينيها وهي تومئ برأسها ببطء...

فاقترب بوجهه أكثر حتى كاد يلاصق وجهها مع استطراده:

_سأضمن لكِ ألا تقترب منك أو تؤذيكِ ولو بكلمة...هل يرضيكِ هذا؟!

صمتت على وضعها دون رد...فداعب شفتيها بإبهامه مع همسه :

_جنة!

فتحت عينيها ببطء لتقرأ في عينيه بقايا حديثه الطويل...

و-ذكاؤها - يلهمها أن طاعتها ستكون مفتاح قلبه للفترة القادمة!!

أجل...لقد عانى طويلاً من فرط عصيانها وقراراتها الفردية والآن دورها لتمنحه مزية "القوامة"...

خاصةً مع ما يثيره فارق السن بينهما من "حساسية " لم تستشعرها إلا مؤخراً!

لهذا التوت شفتاها بابتسامة واهنة وهي تومئ برأسها من جديد مع همسها :

_حسناً...كما تريد!!

وكأنما منحتها عبارتها فتنة أكبر!!!

جميلةٌ هي عندما تعصى وتثور...وأجمل عندما تطيع وترضى!!!

ثورتها كمذاق "النعناع" الحارق مع انتعاشه...

واستسلامها كمذاق "الشيكولاتة" عندما تذوب في الفم!!

في الحالتين...هي جنةٌ وكفى!!

لهذا تركت أنامله وجنتيها لتداعب حمالتي ثوبها مع همسه العابث:

_إذن...فلنغير الموضوع...ماذا كنتِ تقولين بشأن جمالك الذي قلّ؟!

فاتسعت ابتسامتها وهي تهز كتفيها بدلال مع قولها بشقاوة لذيذة:

_أنت الذي كنت تقول!!

هنا رفع ذقنها إليه ليهمس بين شفتيها بمكر:

_وصدّقتِني؟!

فداعبت أنفه بأنفها دون رد إلا من ضحكة مهلكة أذابت قلبه عشقاً!!!

لتمتد أنامله نحو خصلات شعرها المبتلة مع همسه الدافئ:

_لماذا لم تجففي شعرك؟!ستبردين هكذا!!

لكنها رفعت إليه عينيها بنظرة تدرك تأثيرها عليه مع همسها ذي الدلال:

_أنت تحبه هكذا!

فأطلق آهةً خافتة وهو يضمها إليه بقوة رفيقة ناسبت همسه المشتعل بعاطفته:

_أجدتِ المرافعة يا أستاذة.

ثم ابتعد عنها بوجهه لتسير نظراته بتمهل شغوف على ملامحها وجسدها مثيراً ارتباكها أكثر...

قبل أن يهمس أخيراً بيقين انتقل منه إليها:

_أجمل النساء...ست النساء...بل...كل النساء!

==============

تلفتت حولها بحذر ثم وضعت القرصين في يدها بكوب "اللبن" الذي أعدته الخادمة ل"جنة"...

قبل أن تعدل ثيابها لتخرج من المطبخ متصنعة البرود حتى خرجت إلى بهو المنزل لتعبث أناملها بشاشة هاتفها محاولةً الخروج من جو التوتر هذا الذي يكاد يخلع قلبها من مكانه!!!

آثمة؟!!

نعم..آثمة لكن من يهتم؟!!

هي نفسها لا تهتم لو انكشف الأمر ونالها أي عقاب!!!

المهم أن تتخلص من غريمتها وطفلها...

وبعدها ستتذرع ب-حالتها النفسية -لتبعد عن نفسها أي عقوبة!!!

صحيحٌ أنها وقتها ستضطر لكشف أمر إدمانها لتلك الأقراص أمام والدها...

لكن لا بأس!!

عقابه سيكون أهون ما ستلاقيه في أيامها التالية!!!

المهم لديها الآن أن تطفئ تلك النار التي تشب بداخلها كلما رأت فهد معها...

يمنحها ما بخل به عليها هي!!

هي يسرا الصباحي التي لم يستعصِ عليها شئٌ أرادته!!

انقطعت أفكارها عندما رأت فهد يدخل من باب المنزل أمامها ليقول بهدوء:

_أهلاً يسرا...كيف حالك؟!

أخذت نفساً عميقاً تتمالك به انفعالها ثم قالت بابتسامة واسعة:

_بخير...كيف حالك أنت؟!

ابتسم وهو يقترب منها ليقول برفق:

_طبيبك مسرورٌ للغاية من تقدمك في جلسات علاجك...أنا فخور بك.

ازدردت ريقها بتوتر وقد وخزها ضميرها بعد كلماته هذه...

لكن- شيطانها -غلبها فاصطنعت ضحكة مرحة وهي تقول بدلال:

_الفضل لك!

اتسعت ابتسامته وهو يقترب أكثر ليقول:

_هل تحتاجين شيئاً؟!

نفس السؤال الذي يكرره كل يوم وكأنه واجب ثقيل قبل أن يختفي في غرفته مع غريمتها لبقية اليوم...

لكن لا بأس...لعلها آخر مرة!!!

لهذا هزت رأسها نفياً وهي تمنحه ابتسامة واسعة...

فأخذ طريقه لغرفته مع جنة تتابعه نظراتها التي اكتست بكثير من القلق ...

حتى اختفى من أمام عينيها ليزداد جنون خفقاتها تدريجياً وهي تنتظر القادم بتوجس...

بينما فتح هو باب الغرفة لتتلقاه جنة بلهفة صاحبت قولها:

_الحمد لله يا حبيبي...جئت باكراً اليوم على غير عادتك.

ابتسم وهو يضمها إليه ليرفعها من خصرها فيقبل عينيها كعادته كل يوم ...

ثم همس ببعض الخبث:

_الأستاذة اشتاقتني؟!!

نظرت إليه بتردد وقد غرتها عاطفته بإعادة طلبها الذي رفضه من أيام...

كادت تهتف به أنها ملت البقاء هنا في بيت واحد مع تلك المرأة لا تفعل شيئاً طوال النهار سوى انتظاره في غرفتها المغلقة...

كادت تشكو إليه شعورها -الذي لم تعتده مثلها - هنا بالتطفل والنبذ...

بل إنها كادت تعاود سؤالها الذي يكاد يقتلها فضولاً عن سبب تمسكه بهذه الزيجة التي تكاد توقن أنها لا تتجاوز حبراً على ورق!!!

لكنها تذكرت وعدها له بأن تثق فيه ...

أجل...ثقتها اللامشروطة مقابل هجرها القديم له...

لعله يصفح ويرضى!!!

لهذا ابتلعت كل تساؤلاتها -قسراً -لتمطر وجهه بقبلاتها الناعمة مع همسها الدافئ:

_جداً..جداً!

ثم نظرت لعمق عينيه مع تساؤلها العاتب:

_لكنك لم تصفح بعد!

تلقف نظراتها المشعة بلهفة لم تخفَ عليها ليقرأ في مراياها البندقية ما عجزت هي عن البوح به...

فيتلقى استسلامها برضا ظافر قبل أن تتسع ابتسامته الغامضة وهو ينزلها أرضاً متجاهلاً الرد عليها....

ثم اصطدمت عيناه بكوب اللبن على الكومود جوارها فقال لها باستياء:

_لماذا لم تشربيه؟!هل سنعود لقصة كل ليلة؟!

هزت رأسها وهي تقول باشمئزاز واضح:

_لا يا فهد ...لا أستطيع...ألا يكفي أنك ستحرمني من القهوة ما بقي من شهور الحمل؟!!أنت تعرف عدائي للألبان ومشتقاتها!!

قرص وجنتها مداعباً ثم تناول الكوب ليجلس ويجلسها على قدميه مع همسه أمام شفتيها:

_إذن نشربه سوياً...رشفة لي ورشفة لك!

عادت تهز رأسها نفياً في دلال فمنحها قبلة خفيفة على شفتيها ثم رفع الكوب إليهما مع همسه المشاكس:

_واحدة ...وواحدة!

ضحكت بغنج وهي تتناول منه رشفة مجبرة فرفع الكوب إلى شفتيه ليغمزها هامساً:

_دوري إذن!

ردت له قبلته بمثلها عندما فتح باب الغرفة فجأة لتندفع يسرا إلى الداخل هاتفة بجزع:

_لا يا فهد...لا تشربه!

انتفضت جنة واقفة بفزع وقد شعرت بالحرج يغلبها أكثر من غضبها لتدخّل يسرا بهذه الصورة...

لكن فهد الذي وقف بدوره رمقها بنظرة طويلة قبل أن يشرب الكوب بسرعة أمام عينيها اللتين تجمدتا بذعر للحظات وهي تراه يعيد الكوب الفارغ مكانه...

فاقتربت منه هاتفةً بلهفة مذعورة:

_لماذا شربته؟!

ثم تلفتت حولها في عجز لتعاود هتافها الجنوني أمام نظرات جنة المصعوقة بما يحدث:

_الإسعاف...سأستدعي الإسعاف حالاً!

قالتها وهي تعطيه ظهرها محاولةً الخروج بسرعة لإنقاذه...

لكنه أمسك مرفقها ليقول بحزم:

_انتظري!

التفتت نحوه بحدة لتصرخ بين دموع الخوف التي أغرقت وجهها:

_لا وقت لديك!أنت لا تفهم!!

_بل أنتِ التي لا تفهمين!

هتف بها بنبرة أكثر صرامة فاتسعت عيناها بارتياح مع استطراده :

_ليس مسموماً!

شهقت جنة بعنف وهي تضع كفها على شفتيها وقد فهمت الوضع في لحظة...

بينما ظلت يسرا ترمق وجه فهد الصارم بصدمة للحظات...

قبل أن يقول هو من بين أسنانه:

_تظنينني كنت سآمنكِ على زوجتي وابنتي؟!!

عادت دموع يسرا تنهمر على وجهها بانهيار تام مع استطراده العاصف:

_أنا فقط أردت أن أمنحكِ الفرصة كاملة...لقد قدمت لكِ ألف يد للمساعدة لكنكِ أنهيتِ الطريق بطعنة غادرة!

نقلت جنة بصرها بينهما بذهول ممتزج بحيرتها وهي لا تفهم شيئاً مما يدور...

فيما هتفت يسرا من بين دموعها:

_فعلت هذا لأجلك...لم أحتمل أن تبتعد عني...أنت الانسان الوحيد الذي وقف جواري لشخصي لا لنفوذ أبي...

_ورددتِ له الجميل!!

هتف بها وهو يمط شفتيه باحتقار...

فزاد جنونها وهي تلوح بسبابتها نحو جنة مع صراخها الثائر:

_هي الدخيلة بيننا...أنا تزوجتك وهي ليست على ذمتك...هي سرقتك مني...وأنا يسرا الصباحي لا أترك حقي لأحد!

_يسرا!

والهتاف هذه المرة كان من المرأة الواقفة عند الباب ...

والتي التفتت نحوها يسرا لتخمد كل براكين ثورتها في لحظة مع همسها اللاهث:

_أمي!

اندفعت المرأة نحوها لتحتضنها بقوة في لقاء عاطفي صاخب دام للحظات...

قبل أن يقول فهد مخاطباً يسرا:

_هكذا أكون قد أتممت آخر خطواتي معك...لقد طلبت من والدتك العودة لتكون جوارك...فلا أظنني سأبقى هنا بعد الآن.

رفعت إليه يسرا وجهها بحدة لتنقل بصرها بينه وبين والدتها للحظات...

قبل أن تصطدم بنظرات والدتها العاتبة...فهتفت بذعر هستيري:

_لا تصدقيه يا أمي...لست سيئة إلى هذا الحد...أنا...أنا...

ثم ارتمت في حضنها من جديد لتصرخ بانهيار تام:

_بل صدقيه...أنتم فعلتم بي هذا...أنتم تركتموني...لهذا أنا ضائعة...ضالة...فاشلة...ومجرمة أيضاً...

ضمتها أمها وهي تشاركها دموع حسرتها...

فعادت يسرا تهمس بألم:

_خاسرة يا أمي...خاسرة!!

دمعت عينا جنة بتأثر وهي تلتصق بفهد عاجزةً عن فهم ما يدور...

فضمها إليه بذراعه وهو يمنحها نظرة مطمئنة...

عندما رفعت يسرا وجهها فجأة نحو أمها لتهتف بهلع:

_لا تخبري أبي!! سيقتلني لو عرف!!

أومأت الأم برأسها وهي تمسح دموعها لتقول بتماسك مصطنع:

_تعاليْ معي الآن فقط...ولا تخافي!

نظرت إليها يسرا بتشتت قبل أن تعود ببصرها نحو فهد بنظرات زائغة...

مع غمغمتها بكلمات مبعثرة وهي تمد كفيها نحوه بضراعة :

_فهد...لا تتركني...لن أكررها...ابقَ هنا..

لكن الأم سحبتها معها برفق وهي على حالها تكرر هذيانها بشرود حتى خرجتا من الغرفة...

فزفر فهد بقوة ثم التفت نحو جنة هاتفاً بحزم:

_بدلي ملابسك...آن الأوان أن نعود إلى شقتنا.

==================

_كيف علمت أن اللبن مسموم؟!

هتفت بها جنة أخيراً وهي تستقل معه سيارته في طريقهما لشقته...فقال دون أن ينظر إليها:

_الخادمة كانت تراقبها في غيابي...كنت أشعر أنها تدبر لأمر ما...لكنني لم أتصور أن تصل بها الأمور لهذا الحد!

زفرت جنة بإرهاق وهي تمسد جبينها لتغمغم بشرود:

_لم تبدُ لي طبيعية إطلاقاً...غيرة المرأة قد تدفعها لتصرفات مجنونة لكن أن يصل الأمر للقتل...فهو ما أراه متطرفاً حقاً!

ثم التفتت إليه لتردف بحيرة:

_الإنسان لا يفكر في القتل بهذه السهولة!!

تنهد بحرارة ثم قال بضيق:

_يسرا ليست امرأة طبيعية...لقد كانت تتلقى علاجاً طويلاً بعد فترة إدمانها للمخدرات...وحالتها النفسية لم تكن مستقرة.

عقدت جنة حاجبيها للحظات ثم قالت بمزيج من عتاب وحيرة:

_ولماذا تركتني معها في بيت واحد ما دمت تعلم هذا؟!!هل جرؤت على المغامرة بي وبابنتنا؟!

رمقها بنظرة جانبية ثم عاد يقول بحزم:

_أخبرتك أن الوضع كله كان تحت سيطرتي...كما أنني لم أكن أتصرف معها من تلقاء نفسي...طبيبها المعالج اقترح هذا عندما شرحت له الأمر كاملاً...كان يريد أن يعرف مدى تقبلها الجديد للضغوط النفسية الجديدة .

ثم زفر بقوة ليردف:

_كنت مضطراً للبقاء معها حتى يتوفر بديل عاطفي مناسب...لهذا هاتفت والدتها وطلبت منها سرعة الحضور!

تأملت جنة جانب وجهه للحظات تفكر في هذه المعلومات الجديدة...قبل أن تهمس في إدراك:

_إذن كان هذا سبب بقائك معها طوال هذه الأيام!

أومأ برأسه دون رد...فامتدت أناملها لتتلمس أنامله على المقود مع همسها الدافئ:

_أنا فخورة بك يا حبيبي...الآن فخورة حقاً!

لكنه عاد يرمقها بنظرة جانبية قبل أن يعود برأسه للوراء مع همسه الآسف:

_أما أنا فحزينٌ حقاً...تعب هذه الأيام كلها معها راح هدراً...كنت أتمنى لو تكمل طريقها السويّ لآخره.

أومأت جنة برأسها ثم قالت بتعقل:

_أنت فعلت ما بوسعك لكن يبقى الصراع دوماً دائراً في نفس كل منا بين الخير والشر...

التفت نحوها بنظرة عميقة فاستطردت بابتسامة واهنة:

_لا أحد يملك السلطة لتغيير شخص آخر مالم يكن الشخص نفسه راغباً في هذا...هي ورقة مصيرك لن تُكتَب إلا بخط يدك وإلا ما كان هناك في النهاية ثواب وعقاب!!

أومأ برأسه موافقاً وهو يعود ببصره للطريق...

عندما تلفتت هي حولها أخيراً لتقول بدهشة:

_إلى أين سنذهب؟!هذا ليس الطريق لشقتنا!

فابتسم ابتسامة غامضة وهو يميل رأسه دون رد...

لتعاود هي تلمس أنامله مع ابتسامتها التي اتسعت بحق لتهمس بعد لحظات صمت قصيرة:

_هل تفكر في ما أفكر فيه؟!!

لم يرد عليها سوى بنظرات دافئة حملت كل مشاعره...

فبادلته إياها بأخرى أكثر دفئاً...

حتى توقفت السيارة أخيراً في نفس المكان الذي كانا فيه أول مرة عندما ضربته ب"مديتها" في ذقنه...

فتلفتت جنة حولها لتنطلق منها آهة خافتة مع همسها الشارد:

_يالله!!!من كان يقول أن نجتمع هنا في نفس المكان بعد كل هذه الأيام...وقد تغيرت القلوب وتبدل حديث العقول؟!!

ثم التفتت نحوه لتلتقط نظراته العاشقة مع همسها المطعم بعاطفته:

_كنت أشعر أنك ستأتي بنا إلى هنا الليلة ...هنا كانت البداية أول مرة...ومن هنا أيضاً سنبدأ الليلة عهداً جديداً!

امتدت أنامله تلامس وجنتها برفق وهو يتلقى هدايا عشقها البندقية التي فاضت عليه بسخاء ...

ليهمس بنبرة دافئة:

_كيف تفهمينني هكذا؟!

احتضنت أنامله على وجنتها بحنان لتجيبه :

_لأن قلبك ينبض في صدري أنا...أسمع دقاته ربما قبل أن تسمعها أنت.

أغمض عينيه بتأثر للحظات ثم عاد يهمس بأسف:

_أكثر ما يؤلمني أنني لن أستطيع أن أحكي قصتنا لابنتنا...بل سأبقى طوال عمري أعيش خائفاً أن يرد لي القدر ذنبي فيها!

لكنها تلمست جفنيه المغمضين بأناملها حتى فتحهما لتهمس أمام عينيه بحسم:

_بل سنخبرها بها معاً...سنخبرها عن أقوى رجل عرفته في حياتي...رجل تحدى شيطان نفسه وحده حتى قهره في النهاية...رجلٌ صدق الله التوبة فصدقه الله الثبات وحسن الجزاء...رجلٌ أفتخر به وستفتخر به ابنته مثلي!

ظل يرمقها بنظرات طويلة للحظات...

ثم ابتسم أخيراً وهو يومئ برأسه عندما اقتربت هي بوجهها لتطبع قبلةً عميقة على "ندبة" ذقنه القديمة...

وكأنها تؤكد له ما تقول...

لتشتعل خلاياه بعمق تأثره بها لكنه تمالك نفسه ليبتعد عنها مع قوله المشاكس:

_تقبّلينني في الشارع!!فعل فاضح في الطريق العام يا أستاذة!!

ابتعدت عنه بدورها مع صيحة استنكار أطلقتها فضحك ضحكة مجلجلة وهو يعيد تشغيل السيارة ....ليردف بمكر:

_أنا الآن رجل منضبط وأخاف على سمعتي!!

عادت بظهرها للوراء وهي تكتف ساعديها بغضب مصطنع...لكنه عاد يغمزها بخفة...

فابتسمت رغماً عنها وهي تشيح بوجهها ...

لا تكاد تصدق أنها وصلت معه أخيراً لبر الأمان...

لتتحسس بطنها ساعتها بمزيج من الارتياح والأمل...

قبل أن تغمض عينيها طوال الطريق تستعيد ذكرياتهما الهانئة معاً:

_غداً عندما يمر العمر بنا ستدركين أن كلينا كان طوق نجاة لصاحبه...

_في كل يوم سأفتح لكِ النافذة لتبدد كل هذا الظلام الذي تحبسين نفسك فيه...وسأسندكِ حتي تقومي ولو رغم أنفكِ وإلا فسأحملكِ قهراً لتنهضي من سقوطك هذا الذي لا يليق بكِ ...وسأغسل لكِ وجهكِ بيدي لأزيل عنه إرهاق سهرك ودموعك....ثم أقبلكِ هكذا...قبلتين إحداهما تذكركِ بأنكِ تحتاجينني...والأخرى بأنني أحتاجكِ أكثر!!

_أقسم لكِ بحق من جعلكِ نوراً في طريقي ألا أعود لظلمتي بعدكِ أبداً...

_نعم يا جنتي...هكذا يكون مكانكِ دوماً على صدري...عيناكِ حبيبتاي أقرب ما تكونان لقلبي...رموشهما تكاد تعانق دقاته...

_انزعي الأسود من ألواني وامنحيني لوناً يشبهكِ في نقائه وطهره...شيطانٌ أنا جاءكِ ليتوب على يديكِ فتكونين له جنة...ألا تقبلين؟!

_من قال إنك حبيبتي؟!أنتِ أمي وابنتي وصديقتي ...أنتِ ست النساء وكل النساء!

_حتى تزهق آخر أنفاسي لا أفارق ولا أخون!

كانت ابتسامتها الآن كالشمس على محياها وسيل ذكرياتها معه يجرف ما مضى من أحزان...

عندما شعرت بتوقف السيارة أخيراً حينما وصلا لمكان شقتهما التي اشتاقتها...

كانت تسير جواره بخطوات شبه طائرة وهي لا تصدق أنها عادت إليها أخيراً...

حتى دخلا معاً فدارت عيناها في المكان باشتياق كاد يوقف قلبها انفعالاً...

عندما انحنى هو بخفة ليضع أحد ذراعيه تحت ركبتيها حاملاً إياها بين ذراعيه مع همسه بين شفتيها:

_هكذا تُستقبل جنتي في بيتها!

انفرجت شفتاها تهمان بالرد لكنه لم يمنحها الفرصة مع -زلزال -عاطفته الذي قلب كيانها في لحظات...

فلم تعد تسمع سوى صوت كهدير البحر في أذنيها وقد أغمضت عينيها باستسلام لذيذ...

حتى شعرت به يضعها برفق على فراشهما لينزع عنها حذاءها ...

ثم امتدت أنامله تزيح عنها حجابها برفق قبل أن ينزع عنها رابطة شعرها الكثيف ليفرده حولها على الوسادة باستمتاع ...

دارت أنامله على ملامحها بهيام أمسكت عنه كلماته إلا من سبعة أحرف:

_جنتي...هنا!

بلهجة بين سؤال وتقرير!!!

سبعة أحرف فقط لكنها صنعت مع لمعة عينيه الحقيقية بتهدج نبراته لوحةً أسطورية من عشق ...!!!

سبعة أحرف فقط لكنها اختزلت كل كلام الشوق الذي دار على ألسنة العاشقين قبلهما ليتوج قلبها بطوق من ياسمين ...

سبعة أحرف...!!

وهل للحروف مكيالٌ في موازين الهوى؟!!

لهذا دمعت عيناها بتأثر وهي تتعلق بذراعيها في عنقه مع همسها:

_أجل حبيبي...أنا هنا..وسأبقى دوماً هنا...

ثم صمتت لحظة لتسأله بمزيج من دلال ورجاء:

_سامحتني؟!

تألقت عيناه بمزيج من عشقه الصارخ ومكره العابث للحظات...

قبل أن يقترب منها بوجهه أكثر مع همسه بكِبرياء رجوليّ:

_فكري ...واتعبي كثيراً كي تصالحيني!عوضيني عن كل لحظة عذاب عشتها بسببك!

رفعت حاجبيها بدهشة للحظة ثم ابتسمت وهي تشدد ضغط ذراعيها على عنقه تقربه منها أكثر مع همسها الدافئ:

_تغيرتَ كثيراً يا حبيبي...لم تعد ك"فهد"الذي كان خوفه يصبغ عاطفته... ولا ك"ابن الصاوي" الذي كان غروره يخنقها...أنت الآن في وسط الطريق بينهما ...رجلٌ يعرف كيف يجيد مزج العشق بالكبرياء في مزيج خاص يحمل بصمته وحده.

ابتسم ابتسامته الآسرة وهو يتلمس بطنها بأنامله هامساً:

_نعم...ما بين فهد و"ابن الصاوي" ...أنا الآن "أبو ملك"!!

ثم انحنى برأسه نحوها يكتب على صفحة بشرتها سطوراً من غرام وصل لأقصى حدود الشغف...

لتقابله هي بفيض من عاطفتها السخية...

عندما شعر بها فجأة تتجمد بين ذراعيه فرفع عينيه إليها بنظرة متسائلة...

ليلاحظ ثبات نظراتها على شئٍ ما جوار رأسها على الوسادة...!!!

ابتعد عنها ببطء وهو يتبين طبيعة ذاك الشئ الذي أثار حفيظتها...

والذي كان "وشاحاً" نسائياً !!!

وبالتأكيد لا يخصها هي!!

فابتسم ابتسامة جانبية وملامحه تعود لسابق جمودها وهو يحاول تمالك أنفاسه اللاهثة للحظات...

قبل أن يتناوله بين أنامله ليغمغم بأسف مصطنع:

_ياللحظ!!دليل خيانة واضح...صاحبته نسيته هنا...سأخبرها ألا تفعل في المرة القادمة!!

ظلت ملامحها ساكنةً للحظات وهي تنقل بصرها بينه وبين الوشاح ...

حتى ابتسمت أخيراً لتهمس بثقة:

_هو ل"ماسة"...صحيح؟!

اتسعت ابتسامته الجانبية وهو يشيح بوجهه دون رد...

فلامست وجنته بأناملها لتردف بنبرة مؤكدة:

_أنت لن تسمح لسواها بالدخول لشقتنا هنا!!

ثم استطردت بنبرة شاردة:

_ماسة كانت تحكي لنا دوماً عن أخيها الذي حافظ على وفائه لزوجته بعد رحيلها...وقتها تمنيت لو أعود فأجدك مثله...

ثم التفتت إليه من شرودها لتهمس بسعادة نافست عشقها على نبرات صوتها:

_وعدت لأجدك أفضل مما تمنيت!!

عاد ببصره إليها ليزداد بريق نجوم ليله الساحر ...

والذي غرقت فيه زوارقها البندقية للحظات ما عادت تتبين لها طولاً من قصر..

حتى همس هو أخيراً بنبرة ذات مغزى:

_صرتِ تثقين بي يا "أستاذة"!!

وهنا عاود ذراعاها التعلق بعنقه لتجذبه نحوها من جديد مع همسها الحار:

_أنت "الأستاذ"...يا قلب "الأستاذة"!

===============

_أنا سعيدٌ لأن العمر الذي أشرق بحبك انتهى معك!!!

دمعت عيناها بألم أمام صورته على مكتبه في المدرسة...

وهي تتذكر أنها كانت آخر عباراته لها قبل أن تفيض روحه إلى بارئها!!!

أجل...لقد رحل أنس!!!

رحل بسرعة لم تتصورها وكأن حياتها معه كانت مجرد طيف!!!

رحل بعد أن علمها الدرس الأهم في حياتها...

قيمة التضحية الحقيقية!!!

هي التي عاشت طوال هذه السنوات تتشدق بحبها -العظيم- لعبد الله...

لتدرك الآن فقط ماذا يفعل المحب الحقيقي!!!

بل...ماذا يفعل بنا الحب الحقيقي!!!

أجل...الحب الحقيقي هو الذي "يغسل" القلب من "دنس" أنانيته...

ليسمو به فوق غمام العطاء...

العطاء- الحق- وليس عطاء -المنة- الذي كان يغلف علاقتها بعبد الله!!!

رحل أنس!!

رحل بعدما صفعها الصفعة التي كانت تحتاجها لتفيق...

لتعود إلى روحها القديمة بعيداً عن شروخ كيانها الذي تصدع بقسوة ما لقي من آلام...

رحل بعدما علمها أن الانتقام يمثل بجثث القلوب بعد ذبحها...

فهل بعد هذا بشاعة؟!!

رحل أنس!!

رحل وقد أعطاها كل ما يمكنه منحه...دون أن يأخذ منها أقل ما يمكنها إعطاؤه!!

رحل بسرعة و-كأنه -كان يريد تعجيل خلاصه من عذابه بها...

وتعجيل خلاصها هي من قيدها!

رحل خفيفاً كالنسيم فلم يدع لها حتى فرصةً لتكون معه قبل موته...

وكأن القدر شاء أن يدخل حياتها فقط ليعيد ترميم بنيانها المكسور ثم يتركه لغيره!!!

رحل أنس!!

رحل بعدما كسر صنم "كِبرها" ليوقفها أمام مرآتها بحجمها الطبيعي...

و"يهدي" إليها عيوبها التي ما كانت تراها...

جعلها تدرك أن نهايتها مع عبد الله لم تكن ذنبه وحده...

بل "ذنبهما" المشترك!!

أخرجها من "عباءة " الضحية الملائكية"المهلهلة " ليلبسها رداءً يناسب حقيقة وضعها كبشر يخطئ ويصيب!!

_عودي إليه يا صفا...لكن عودي لنفسكِ أولاً...لا تجعلي تضحيتي بلا قيمة!

تلمست أناملها صورته وهي تتذكر عبارته السابقة وتتذكر معها حالها -الغريب- بعد طلاقها من عبد الله...

كيف انحدرت لهذا السفح؟!!

كيف فرطت في وشاح روحها الأبيض لتلطخه بحمرة ذنوبها ؟!!

كيف عميت عيناها عن جرحها لأنس الذي كانت غافلةً عنه بجرحها هي؟!!

كيف انساقت كالخرقاء خلف رغبة محمومة بالانتقام لتنسى من سيكون ضحاياها بعده؟!!

لماذا لا تسير القلوب وفقاً لأهواء عقولنا؟!!

لماذا لم تعشقه هو بدلاً من حبها اليائس لعبد الله؟!!

لماذا وهي -صاحبة العقل السديد- كانت بهذا الغباء في الحب؟!!

لكن...هل ستراها ستعود لهذه النبرة ثانية؟!!

لا يا صفا...

عودي مكانكِ في كفة الميزان واعترفي بخطئك...

أحرقي شيطان غروركِ الذي دمركِ هذا...

أحرقيه !!!

انقطعت أفكارها عندما سمعت صوت طرقات على الباب فوقفت مكانها ليدخل المدير الجديد للمدرسة ...

والذي رمقها بنظرة مشفقة طويلة قبل أن يقول بأسف:

_عذراً يا سيدتي...لكن..

قاطعته بإشارة من كفها وهي تقوم من مكانها لتتناول تلك العلبة الاي جمعت فيها حاجيات أنس...

قبل أن تتبعها بصورته التي كانت على مكتبه...

ثم قالت بتماسك :

_تفضل بالدخول...أنا جمعت كل شئ!

أطرق الرجل برأسه ثم قال بحزن صادق:

_السيد أنس كان رجلاً عظيماً...المدرسة هنا ستسير وفقاً للخطة التي كان يعتمدها.

أومأت برأسها للحظات ثم رفعته لتقول بحزم:

_كل شيءٍ سيسير هنا كما كان حياً تماماً...أنا سأعاونك بكل طاقتي ليبقى الحال كما هو ...بل وأفضل!

منحها الرجل ابتسامة مشجعة وبضع كلمات عزاء...

لكنها كانت غافلةً عن كل هذا وهي تغادر المدرسة بخطوات متثاقلة...

لتضع العلبة في سيارتها بحرص قبل أن تستقلها لتقودها نحو وجهتها في تلك البناية هناك...

ثم ترجلت منها لترفع رأسها كي تتأكد أنه العنوان المذكور...

استقلت المصعد لتتوجه نحو ذاك المكتب...

قبل أن يستقبلها صاحبه المحامي بترحاب مقتضب قابلته بعبارتها:

_لقد جئت إليك بتوصية خاصة من بعض معارفي كي تساعدني في سرعة إتمام ما انتويته.

هز الرجل رأسه بتفهم وهو ينتظر عبارتها التالية...

بينما صمتت هي لدقيقة كاملة وكأنها تريد التيقن مما عزمت عليه...

هديتها الأخيرة لأنس...لعلها تعوضه بعد مماته ما عجزت عن فعله له وهو على قيد الحياة...

لعلها تتخلص من "لعنة" المال الذي أورثها الكبر والتعالي لتستعيد "ماسة" روحها النقية بعدها...

لعلها تكفر عن ذنوب ما مضى من عمرها قبل أن تعود لطريقها الذي حادت عنه...

لهذا تنفست بعمق أخيراً ثم حسمت أمرها لتقول بحزم:

_أريد تحويل كل ثروتي وإرثي من زوجي -رحمه الله- إلى سيولة نقدية لصالح مجمع خيريّ سأنشئه باسمه.

ثم صمتت لحظة لتردف:

_مجمع "أنس العطاء" الخيريّ.

================

في المطعم الذي كان يضم رفقتهن منذ وقت قصير جلست ماسة مع دعاء وحدهما على إحدى الموائد ...

لتتلفت ماسة حولها قائلةً بحسرة:

_ها قد تفرقت جماعتنا !!هذا ما فعله بنا الرجال !!

فابتسمت دعاء وهي تقول بتعقل لم يغادره مرحها:

_صرتِ تتكلمين مثل طيف!!

هزت ماسة رأسها بلا معنى ...فأردفت دعاء بشرود:

_كل امرئ يعجبه عقله!!طيف اختفت منذ مواجهتنا لها رافضةً مواجهة ماضيها بأخطائه...وزهرة تركت العمل بالمشفى هرباً من حب ذي العينين الزرقاوين وصارت تتجنب لقاءنا خجلاً من نفسها...

ثم ابتسمت لتردف بشقاوة :

_وحدها جنة المحظوظة بأخيكِ...واحدة أفلتت من جماعتنا البائسة!!

ابتسمت ماسة ببعض الشجن وذكرى غابات الزيتون تعاود احتلال مقلتيها بمزيج من ألم واشتياق...

لكنها قهرت هذا الشعور بقوةٍ صارت تجيدها مؤخراً ...

ثم تلفتت حولها محاولةً التشاغل حتى لمحته جالساً على المائدة أمامهما...

فعقدت حاجبيها لتهمس بدهشة:

_دعاء...أليس هذا معتصم؟!!

التفتت دعاء خلفها لتراه قد قام من مقعده ليتوجه نحوهما فازدادت ضربات قلبها عدواً وهي تنتظره بترقب...حتى صار أمامهما فقال بابتسامة واسعة:

_مساء الخير!

وقفت ماسة مكانها وقد أدركت بحدسها أنه يريد الانفراد بدعاء فرمقت دعاء بنظرة مؤازرة ثم قالت وهي تتناول حقيبتها:

_سأضطر للانصراف الآن...أراكِ في البيت.

هزت دعاء رأسها بارتباك وهي تتابع رحيل ماسة بتشتت...بينما جلس معتصم مكانها ليقول لها بنبرة دافئة:

_كيف حالك؟!

احمرت وجنتاها بخجل وهي تومئ برأسها دون رد...فابتسم مع همسته الحارة:

_افتقدتك!

خفق قلبها بجنون وهي تسمعه منه بهذه الطريقة التي أذابتها...

لكن نظرةً منها إلى دبلته التي طوقت إصبعه وأدت شعورها في مهده لتهمس بنبرة عاتبة:

_معتصم!هذا لا يجوز!

اتسعت ابتسامته وهو يقترب بجذعه ليستند بمرفقيه على المائدة متفحصاً ملامحها مع قوله بمكر:

_ما هذا الذي لا يجوز؟!

تلفتت حولها بارتباك وهي تعدل نظرتها الداكنة على عينيها لتهمس ببعض الحزم:

_كل هذا لا يجوز...جلستك معي هكذا...وكلامك المتباسط هذا...خاصةً وأنك مرتبط!

أطرق برأسه للحظة ثم عاد يرفع عينيه إليها لتمتد أنامله بخفة نحو نظارتها التي خلعها عنها مع قوله الحازم:

_أضيفي هذا إذن إلى قائمة "ما لا يجوز"!!

شهقت بحدة وهي تراه يضع نظارتها في جيبه ليردف بنفس النبرة الحاسمة:

_لن تعودي بحاجتها بعد الآن...أنا أحب شكلك هكذا!

دمعت عيناها انفعالاً وهي تود لو تنشق الأرض الآن وتبتلعها!!!

هو بالذات لم تكن تحب أن يراها هكذا..

صحيحٌ أن العدسة اللاصقة تجعل شكلها "شبه طبيعي" لكن واحداً مثله عايشها طويلاً سيدرك الفارق!!

لهذا أطرقت برأسها ببعض الخزي وقد ألجمت مشاعرها لسانها...

عندما همس هو بمزيج من حنان وقوة:

_انظري إليّ .

وكأنما كان الأمر بهذه الصعوبة لتستغرق دقيقةً كاملة قبل أن ترفع عينيها إليه...!!!

ولم تكد نظراتهما تتلاقى حتى همس بملء روحه:

_أحبك!

اغرورقت عيناها بالدموع وقد انفرجت شفتاها بعدم تصديق...

قبل أن يجول بصرها على ملامحه يبحث عن دليل يُكذّبه...لكنها وجدت -بدلاً عنه- ألف برهان صدق!!!

فأشاحت بوجهها لتهمس بارتباك:

_معتصم...أنت دوماً تختار التوقيت الخاطئ لاعترافك...هل تذكر أول مرة؟!والآن...الآن...

قطعت عبارتها قسراً وقد تهدج صوتها بانفعالها ...

لكنه ناداها بهمسة دافئة لتعود بوجهها إليه قبل أن يخلع دبلته من إصبعه ليناولها لها مع قوله :

_اقرئي الاسم عليها!

تناولتها منه بأنامل مرتجفة وقد قرأ "قلبها" الاسم قبل "عينيها"!!

"دعاء"!!!

أجل...هذا هو الاسم الذي كان منقوشاً على دبلته!!!

لهذا وضعت أناملها على شفتيها ودموع تأثرها تغلبها عندما أردف هو بعاطفة صادقة:

_اشتريتها تلك الليلة التي أخبروني فيها عن طلاقك منذ علمت عما حدث وأنا عزمت ألا تكوني... لغيري...كنت على وشك العودة إليكِ بمصر لهذا كدت أطير فرحاً عندما علمت أنكِ آتيةٌ بنفسك إلى هنا...

ثم تناول هاتفها الموضوع جوارها ليستطرد ببعض الألم:

_كنتِ لا تزالين في عدتك...لكنني لم أملك إلا رسائل تحمل اعتذاراً بلا توقيع...وحتى عندما تبعتك في "المول" لم أستطع مصارحتك بشئ فقد كنت أرى أنه ليس حقي بعد!!

اتسعت عيناها بصدمة وهي تشير نحوه بسبابتها مع تساؤلها:

_أنت؟!!أنت صاحب رسائل الاعتذار؟!

أطرق برأسه صامتاً للحظات ثم رفع رأسه إليها ليقول بندم:

_ليت الاعتذار يجدي!!كل العمر لن يكفيني كي أعوضك عن خذلاني لكِ!

هزت رأسها ولا تزال لا تصدق كل هذا ...بينما أردف هو :

_كلانا وقف أمام خزيه من ظروف لم تكن له يدٌ فيها...وربما لو كنا تصارحنا لكنا تشاركنا الحمل معاً ووفرنا على قلبينا ما ذقناه من عناء.

أخفت وجهها بين راحتيها وهي عاجزةٌ عن الرد...

لتهطل كلماته العذبة صيباً نافعاً على جديب روحها:

_أنا أحبك...أحبك كما أنتِ...طيبتك ومرحك...روحكِ التي تسمو بكِ لمقام الملائكة...اعتزازك بنفسك...قوتك التي لم تخذلكِ يوماً...وحنانكِ الذي أكاد أستشعره ينير قلبي كألف قمر.

_معتصم!

همست بها برجاء ولا تزال تخفي بين كفيها مخافة مواجهة عينيه...

عندما همس هو أخيراً :

_تزوجيني!

جمدتها الصدمة للحظات قبل أن تزيح أناملها من على وجهها برفق..

لتتلقى عطايا عاطفته التي التمعت بين عينيه الحبيبتين...

معقول؟!!

هل هكذا يكون مذاق الحلم عندما يتحقق؟!!

هل هكذا تكون حلاوة الحب عندما يصفو؟!!

هل هكذا يكون كرم القدر عندما يمنح؟!!

سعيدة...

بل طائرة!!!

أجل طائرة تكاد تلامس أناملها نجوم السماء!!!

لكنها خائفة...بل مرعوبة!!!

لن تحتمل الخذلان هذه المرة!!!

لهذا عادت تسأله بنبرة مرتعشة:

_زواج؟!بهذه السرعة؟!

فتنهد بحرارة وهو يكرر كلمتها:

_سرعة؟!!

رفرفت برموشها دون رد وقد سمعت بقلبها عبارته قبل أن يتفوه بها:

_هل تعلمين منذ متى أنتظر أن يتحقق حلمي بكِ؟!

أغمضت عينيها طويلاً وشريط حياتها يمر سريعاً أمام عينيها ...

مرضها الذي كان يخزيها في طفولتها ويقطع عليها طريق الحلم في مراهقتها...

سخرية الرفيقات وشفقة الأهل وشماتة الحاسدين...

أسطورة "الدمية المعيبة" التي أفسدت عليها عمرها وجعلتها ترتبط بحسام...

معاناتها البائسة في زواجها والتي انتهت بطلاق ذائع الصيت افتضحت معه حقيقة مرضها ...

وأخيراً عاهتها التي صارت ملازمةً لها !!

لهذا سالت دموعها دون قصد على خديها وهي تهمس دون أن تفتح عينيها:

_هل تدري تبعات ما تتحدث عنه؟!هل تدري بمن تريد الزواج؟!واحدةٍ مطلقة بمرضي وعاهتي ...

لكنه قاطع عبارتها وهو ينقر بإصبعه على ظاهر كفها المبسوط على المائدة مع همسه الحازم :

_أنتِ دعاء...وكفى!هذا كل ما يعنيني.

فتحت عينيها ببطء من جديد تتفرس ملامحه بتلك السعادة "المرتعشة خوفاً"!!

لكن ابتسامته العاشقة ونظراته الشغوف نسفت جبال الخوف في خرائطها فلم تُبقِ إلا وديان حب خصبة تزهو بخضرة زروعها تحت المطر...

لتولد ابتسامة عذراء على شفتيها لم تعرف مثلها قبل هذه اللحظة وأناملها تداعب سلسلة عنقها بصورة والديها عليها ...

وكأنها تخبرهما بصمت أن قد الأوان ليستريحا...

لا بمجرد "رجل" تأوي تحت ظل "جداره"...

بل بحب "يسبقه احترامٌ " قد فرش له البُسُط كي تكون خطواته أكثر راحة ...وأماناً!!!

بينما تثاقلت نظراته هو على شفتيها للحظات قبل أن تتسع ابتسامته مع قوله الأخير :

_قريباً نسافر مصر لإتمام زواجنا...أمي تنتظرك على أحر من الجمر.

=============

ليلةٌ طويلةٌ أخرى تقضيها هنا وحدها بعدما عادت دعاء إلى مصر لتتم زواجها بمعتصم...

معتصم الذي -رغم رقة حاله وفقر إمكانياته- هو سعادة دعاء الحقيقية...

كم تمنت لو تعود معها لتراها ليلة عرسها سعيدةً بحق هذه المرة وليست كسابقتها...

لكنها كانت تقطع على نفسها أي سبيل قد يجمعها ب"سيد القلب العاصي"!!!

ليلةٌ موحشة كئيبة تشبه كل لياليها بعده...

صمته- الذي طال هذا-بعد لقائهما الأخير يقلقها ويثير حفيظتها مع رجل -مثله- لن يسكت على فعلتها أبداً...!!!!

فمنذ رحل عنها آخر مرة وهي لم تسمع عنه شيئاً...

تراه انشغل عنها بطفله المنتظر وزوجته المحظيّة بعدما منحته- كنز عمره- الذي تمناه؟!!

أم أنها -هي-كسرته حقاً كما أخبرها في آخر حوار بينهما؟!!

تنهدت بحرارة وهي ترتشف رشفة صغيرة من كوب عصير بارد يشبه أيام عمرها الآن...

عندما قطع أفكارها صوت رنين هاتفها باسم صار يؤرقها كثيراً!!!

فترددت طويلاً قبل أن تفتح الاتصال لتقول بهدوء متحفظ:

_دكتور جهاد !حمداً لله على سلامتك!

كان قد عاد -لتوه- من المؤتمر الذي غاب فيه قرابة الشهر وأول ما فكر فيه هو الاطمئنان عليها ...

فقد كانت تشغل تفكيره كثيراً طوال تلك الفترة الماضية التي قضاها خارج البلاد...

لهذا حمل صوته الكثير من لهفته رغم تحفظ نبراته:

_آسف على إزعاجك في هذا الوقت لكنني أردت الاطمئنان عليكِ فلم أعلم عنكِ شيئاً منذ آخر مرة تحدثنا فيها.

وكأنما جرّتها كلماته لذاك اليوم المشتعل والذي انتهى أسوأ نهاية...

فدفعها شعور الذنب والخوف من بطش عاصي الرفاعي لسؤاله ب-قلق- أساء هو فهمه:

_أنت بخير؟!لم تتعرض لما يسوؤك هناك؟!

ليبتسم ابتسامة لم ترَها وهو يقول بلكنته المميزة:

_نعم يا ماسّة ...بألف خير!

تنهدت بكثير من الارتياح ثم غمغمت بتحفظ:

_حسناً يا دكتور...شكراً لاهتمامك ...أراك غداً.

قالتها ثم أغلقت الاتصال بسرعة وكأن مجرد أنفاسها التي تشاركتها معه على الهاتف أحرقتها بالذنب!!

ذاك الذنب الذي لن تسامح نفسها عليه أبداً !!!

لقد ورطت نفسها وورطته في شبكة عنكبوت ضخمة قد تبتلعهما معاً بلا رحمة....

وصمت عاصي الطويل هذا يخيفها أكثر!!!!

انقطعت أفكارها عندما سمعت صوت رنين الجرس فشهقت بحدة وذهنها يستعيد ذكرى- زيارته- البعيدة...

ثم قامت من مكانها لترتدي وشاحها بإهمال قبل أن تسأل عن هوية الطارق بصوتٍ- ملؤه الرهبة- ليأتيها صوته الحبيب مطمئناً:

_أنا يا ماسة!

فضحكت بمزيج من الارتياح والاشتياق لتفتح الباب فيطالعها وجهه المبتسم:

_اشتقتكِ يا "حبيبة أخيكِ"!

هتف بها فهد وهو يطوقها بذراعيه بحنانه المعهود قبل أن يدخل ليغلق الباب خلفه مع استطراده المرح:

_كل يوم تزدادين جمالاً هكذا؟!بريقك صار يغشي البصر يا ماستنا!!

خبطته بكفها في كتفه بمرح لتقول وهي تجذبه من كفه نحو الأريكة:

_نصاب كالعادة!!

ضحك بخفة وهو يجلس جوارها على الأريكة بإرهاق فتأملته بحنان مع تساؤلها الذي فضح سعادتها بحضوره:

_لماذا لم تخبرني أنك قادم؟!

قرص وجنتها بمرح وحاجباه يتراقصان بمشاكسة:

_تفتيش مفاجئ !

ضحكت باطمئنان حقيقي وهي تلقي رأسها على كتفه فقبل جبينها بمودة ثم قال أخيراً بجدية:

_آن الأوان أن تعودي معي كي تكوني جوار جنة وتستقبلي ملك الصغيرة على ذراعيكِ!

رفعت رأسها إليه بحدة لتغمغم بارتباك:

_أعود؟!لا يا فهد لن أستطيع!

بدا وكأنه كان يتوقع هذا الجواب فتنهد بحرارة ثم قال بحزم:

_لم يعد هناك مبرر لبقائك هنا...لقد تم علاجك ...واستعدتِ تماسكك...والأهم...

ثم استخرج ورقة مطوية من جيبه ليردف بارتياح:

_حريتك!!

خفق قلبها بجنون وهي تنظر إلى الورقة برعب كمن تلقى حكماً بإعدامه...!!!

لتزدرد ريقها الجاف بصعوبة مع همسها:

_أي ورقة هذا؟!

رمقها بنظرة مشفقة طويلة وقد أدرك من ردة فعلها أن قلبها لا يزال معلقاً بذاك الرجل...

لكنه لن يسمح لها بالمزيد من التشبث بحبال مهترئة...!

لهذا فضّ الورقة المطوية ليفردها أمام عينيها مع قوله الحاسم :

_ورقة طلاق...عاصي الرفاعي طلقك غيابياً!

شحبت ملامحها تماماً حتى بدت كالميتة وهي تتناول منه الورقة بأنامل مرتجفة لتقرأها بعينين زائغتين...

عاصي طلقها؟!!

معقول؟!!

منحها حريتها بهذه السهولة؟!!

سهولة؟!!

أي سهولة؟!!!!!

هي ذبحت رجولته ليلة أخبرته بتعلقها بآخر...

أهدرت دم كبريائه يوم هددته بخيانة ...

وخنقت ما بقي من أنفاس حب مريض -كحبهما- فسلمته لقبره!!!

هل طلقها عاصي حقاً؟!!

لماذا؟!!

صدق خيانتها حقاً؟!!

أم انتصر لكبريائه؟!!

أو لعله زهد فيها بعد فرحته بطفله؟!!

لكن ...لا!!!

مهلاً...مهلاً!!!

عاصي الذي تعرفه لن يفرط فيها بهذه البساطة!!!

_لو فعلتها يوماً فاعلمي أن آخر دقات قلبي لحقتها...لن أفرط فيكِ إلا وأنا أثق ألا حياة بعدك!

وضعت أناملها على شفتيها و ذكرى كلماته تغرس الشوك بين ضلوعها المشتعلة بحريق أسود...

_روحكِ صارت معلقةً بي في جحيم واحد...لو تخلصت روحي من سعيرها فأعدكِ أن أمنحكِ خلاصكِ!

هنا سالت دموعها على وجنتيها وهي تهز رأسها بعدم تصديق...

_أنتِ لم تفسدي حفلاً...أنتِ سلبتِني ما بقي من عمر!!

وحينها شهقت بعنف وكأنها تطلب المزيد من الهواء لقلب يكاد يموت بحسرته وترقبه...

_ظننتكِ ستصلحين ما أفسدته سنوات عمري قبلكِ لكنكِ أنتِ...أنتِ كسرتِني!!

_كسرتني!!!

_كسرتني!!!

هنا انتفضت من مكانها بعنف لتهتف بين دموعها بلهفة:

_عاصي ليس بخير...ليس بخير!

عقد فهد حاجبيه بقلق وهو يقوم ليحتضنها مهدئاً لكنها دفعته لتستمر بصراخها الهائج:

_قل لي ماذا حدث له!!!عاصي لن يفعلها هكذا !!!

أشاح بوجهه دون رد للحظات فتشبثت بذراعه لتردف بنفس الانفعال:

_أنت أجبرته؟!!لكن...لا...عاصي لن يفعلها مجبراً ولو على رقبته!!!أنا أعرفه جيداً!

لكن فهد تمالك انفعاله باقتدار وهو يعاود النظر إليها ليقول بمواربة:

_ماذا كنتِ تنتظرين منه بعدما زعمتِه أنتِ؟!لقد كدت أجن يوم أخبرتني أنت عما دار بينكما آخر لقاء وعلمتُ من وقتها أنها النهايه..لماذا تتعجبين الأمر هكذا؟!!

ثم صمت لحظةً وذكرى بعيدة- من مراهقته- تغزو مخيلته:

_الخيانة أقسى ما يواجهه رجل من شعور...إذا كانت تحرق قلب المرأة فهي تقصم ظهر الرجل!!

عادت تهز رأسها في عدم تصديق وهي تبسط راحتها على صدرها لتهمس بين دموعها:

_لا...لا...هو ليس بخير...قلبي لن يكذبني بشأنه!!

هنا أخذ فهد نفساً عميقاً وقد قرر تغليب صوت العقل على القلب في هذا الموقف الصعب...

ليحتضن كتفيها بكفيه ناظراً لعمق عينيها الزائغتين مع قوله الحازم:

_أنتِ طلبتِها ونلتِها...فأكملي طريقك ولا تلتفتي للخلف...الآن تنسين كل ما كان من ماضيكِ وتبدئين صفحة جديدة...ماسة جاسم الصاوي التي لن تُعيّر بنسب ولن تُسجن في قصر بورقة زواج ...

ثم صمت لحظة ليردف:

_ولن تهرب من شئ بعد...بل ستحصد ثمار صبرها الطويل...ستضحك كما لم تضحك من قبل...وستغير رداء قلبها القديم المهلهل بآخر جديد يليق بها .

نظرت إليه بتشتت قبل أن تهمس بألم:

_وهل تتغير أردية القلوب ؟!

زفر بقوة ثم هزها من كتفيها ليهتف بحنق:

_لم أكره شيئاً في حياتي مثل أنصاف الحلول...أنتِ ضغطتِ عليه كي يطلقك بأقسى طريقة فلماذا تتراجعين الآن؟!

كان يعلم أنه يقسو عليها لكنه كان يدرك تماماً أن هذا ما تحتاجه أخته الآن...

قصتها مع عاصي الرفاعي انتهت بعد ما حدث ...

وماسة تستحق بداية جديدة مع رجلٍ "طبيعي"!!!

لن يسمح لها أن تفني ما تبقى من زهرة عمرها مع رجلٍ ب-ظروفه الحالية-!!!

لقد نالت من قسوة أيامها الكثير ولا ينقصها المزيد من العذاب!!!

لهذا شعر ببعض الارتياح عندما مسحت دموعها بأناملها أخيراً لتومئ برأسها مع همسها الخفيض:

_معك حق!!الأمر انتهى ومن الحُمق أن أتراجع الآن.

اغتصب ابتسامة باهتة على شفتيه وهو يقبل جبينها ليقول بحنان:

_هكذا تماماً يا "حبيبة أخيك"!اطوي هذه الصفحة كي نبدأ من جديد.

عادت تومئ برأسها في تشتت قبل أن تستعيد قناع تماسكها ببعض الثبات...

لتقضي معه بعض الوقت في أحاديث لم تكد تتبين منها شيئاً وسط شرودها بذكرياتها -العامرة-مع سيد قلبها...

حتى انتهى بها المقام في غرفتها وحيدة...

فاستلقت على الفراش تتطلع للسقف بشرود...

ودموعها تنافس ذكرياتها في كثافة هطولها على جديب قلبها النقفر...

_العاقل لا يستمد قوته من ضعيف!

_الغريق لا يستأذنه أحد قبل أن ينقذه!

_ماسة متصدعة بكثرة خدوشها لكنها تبقى ماسة...فقط لمن يقدر قيمتها!!!

_ظننت أن ماسةً قد عانت من كثرة خدوشها لن تنخدع بصور المرايا المكسورة!

_لن تزوركِ كوابيسك في غرفة عاصي الرفاعي!

_لا تخافي ولا تحزني.. ماستي الثمينة لن يخدشها شئ بعد اليوم!

_عيناكِ خطيرتان جداً في ليلة كهذه...عندما يغيب القمر فكأنه يستودع فيهما كل نوره وسحره!

ظلت تتقلب على الفراش كمن يتقلب على جمر وذكرياتها معه تكوي قلبها بأسياخ من نار...

فهد محق ...

يجب أن تستمع لصوت العقل ...

لكن...أي عقل؟!!

ليس قبل أن تفهم لماذا فعل عاصي هذا ...والآن بالذات!!!

ولماذا طلقها هكذا دون حتى أن يسمح لها بلقاء أخير أو كلمة واحدة؟!!

غريب...

بل...مهلك!!!

أجل...ليس أقسى من فراقٍ منتظر إلا رحيلٌ مباغت!!!

وهو ذبحها بكليهما معاً!!!

_لو تخلصت روحي من سعيرها فأعدكِ أن أمنحكِ خلاصك!

_لو فعلتها يوماً فاعلمي أن آخر دقات قلبي لحقتها...لن أفرط فيكِ إلا وأنا أثق ألا حياة بعدك!!

ظلت هذه الكلمات تدوي في رأسها بصدًى عالٍ...

حتى انتفضت فجأة من نومتها لتتناول هاتفها من جوارها بانفعال...

قبل أن تتصل برقم دعاء غير آبهةٍ بالوقت المتأخر من الليل....

ولم تكد تسمع صوتها الناعس حتى بادرتها بقولها:

_دعاء...أقسمي بالله أنكِ ستخبرينني بالحقيقة.

صمت قصير على الجانب الآخر من الاتصال ساد للحظات...

وجعل قلب ماسة ينتفض بلوعته أكثر...

فعادت تهتف بها بانفعال:

_قولي يا دعاء...ماذا حدث لعاصي؟!ماذا تخفون عني؟!!

والجواب وصلها قاسياً رغم محاولة دعاء الترفق في إخبارها بما حدث...

لتتسع عيناها بصدمة وأذناها تطنان بدويٍ رهيب...

قبل أن يسقط الهاتف من يدها مع ارتخاء ذراعها جوارها...

عاصي!!!

هل هذا حقيقي؟!

لا...لا...لن تصدق أن يكون هذا مصيره في النهاية!!!

شموسه الدافئة التي طالما ظللت بحار فضتها ...

غابات زيتونه التي طالما اشتعلت بغضبها وغموضها...

خيوط نظراته اللامعة التي طالما تشبثت بها في رحلتها لسبر أغواره...

والآن؟!!!!

الآن...

تلاشت الخيوط وغربت الشموس...

وانطفأت.....

انطفأت غابات الزيتون!!!

============

الفصل الرابع والثلاثون

_مساء الجمال!

قالها عزيز بمرحه الذي ما عاد يفارقه وهو يدخل عليها الشرفة الخارجية في بيت رحمة حيث جلست تراقب الشارع كعادتها...

فالتفتت نحوه بابتسامة واسعة وهي تتحسس بطنها البارز في شهر حملها الأخير لتقول بمزيج من دلال وارتياح:

_مساء الخير!

ابتسم بحنان وهو يجلس على الكرسي أمامها فسألته باهتمام:

_هل نامت أمي؟!

أومأ برأسه إيجاباً لتختفي ابتسامته تدريجياً مع قوله بأسف:

_نامت بعد ما هاتفت ماسة وأخبرتها أنها ستعود إلى مصر أخيراً بعد علمها بما حدث لعاصي الرفاعي!

هزت ميادة رأسها بتعجب وهي تقول :

_من كان يصدق أن يحدث له كل هذا؟!لقد انقلب حاله كله في غمضة عين!

فزفر عزيز بقوة ليرد بشرود:

_مسكينة ماسة...تكاد تجنّ منذ علمت عن الأمر...ورغم أنه طلقها لكنني أعرف ماسة جيداً...لن تهدأ حتى تعود إليه.

تأملته ميادة بتفحص وهي تقرأ ملامحه بقلبها قبل عينيها كما تعودت منذ زمن...

نعم "قلبها" الآن يغلب "عقلها" السديد في استكشاف بواطنه...

ليجيئ أوان اعترافها بأن قلبها صار معه "سيد الطاولة"!!!

غيرة؟!!

لا لا لا!!!

هي الآن تثق أن مشاعره نحو ماسة لا تتجاوز إحساسه بالمسئولية نحوها ...

وأن "حياة عزيز" لم تعد إلا ل"ميادة" و "ميادة" كما يخبرها دوماً!!

لكنه التفت إليها أخيراً من شروده ليسألها وقد عاودته ابتسامته :

_قولي لي...لماذا تحبين الجلوس هنا؟!

تنهدت بحرارة وهي تعود ببصرها نحو الشارع الضيق المزدحم بالمارة والأطفال رغم الوقت المتأخر نسبياً من الليل لتقول بابتسامة راضية:

_تفاصيل المكان تخطف قلبي يا عزيز...جو حميمي دافئ كنت أفتقده طوال عمري...ذاك الرجل الذي يقوم بتأجير الدراجات للصبية...والآخر الذي يبيع "غزل البنات"...أصوات الساهرين في المقهى...مع صوت "أم كلثوم" المميز...ثرثرة النساء في الشرفات بصوت مسموع وصراخهن على أطفالهن في الشارع...أمان حقيقي يا عزيز...أماااان!

ثم صمتت لحظة لتردف بشرود:

_خرجت صباحاً لأشتري بعض لوازمي...وأثناء عودتي قابلت إحدى صديقاتي على ناصية الشارع

القريب...تعجبت من سكنايَ هنا...ولا أخفيك قولاً أنني شعرت ببعض الحرج لكن نظرةً واحدة لهذه الشرفة من الخارج أعادت لي سكينتي وثقتي في صحة قراري.

ومع ابتسامتها التي فاضت بالسعادة استطردت:

_أنا أحب هذا المكان يا عزيز...أحبه بحق!!

اتسعت ابتسامته وهو يتأملها بحنانه المعهود لتتسع عيناه بدهشة وهو يجدها تشير بإصبعها نحو شئ ما هناك مع تساؤلها الفضولي:

_ما هذا ؟!

التفت برأسه ليرى ما تشير إليه ثم ضحك بانطلاق وهو يرى الرجل الذي حمل قارورة الشراب الضخمة مع ذاك الصوت المميز لقطعتيه المعدنيتين عندما يخبطهما معاً ...

ليقول أخيراً بمرح:

_إنه "عرقسوس" يا سيدتي...مشروب شعبي أصيل...أراهن أنكِ لم تجربيه من قبل!

التمعت عيناها كطفلة منبهرة فانطلقت منه ضحكة أخرى قبل أن يقف مكانه لينادي الرجل:

_"عمي جمال"!!احجز لي كوبين حتى أجئ إليك.

ثم تركها بسرعة ليخرج إلى الرجل حيث تناول منه "حمولته الثمينة" ليعود إليها بها ...

لكنها ما كادت تمد كفها نحوه حتى تلفت حوله قبل أن يهمس لها بخفوت:

_عيب! "العرقسوس" لا يُشرَب هكذا في الشرفات!!

ورغم أن العبث كان يفوح من كلماته لكنها تصنعت تصديقه وهي تضع كفها خلف ظهرها بحركة "الحوامل" الشهيرة لتنهض من مكانها قبل أن تتبعه إلى غرفتهما ...

ثم تناولت الكوب منه لتقول بدلال:

_والآن علمني كيف يشربون هذا؟!

لكنه اقترب منها ليقول مشاكساً :

_هل صدقتِ حقاً أن له طريقة خاصة؟!

ثم رفعه لشفتيها ليقول بعينين ملتمعتين:

_أنا فقط لم أحب أن تشربيه في الشرفة!

ثم امتدت أنامله لشعرها ليقول بنبرة دافئة وقد وجدها فرصة ليحدثها بأمر يشغله منذ وقت طويل:

_تعلمين أنني لم أتدخل يوماً في مظهرك كي لا أقيدك بما لا ترغبين...لكنني لا أحب أن يراكِ أحد تجلسين بشعرك المكشوف هكذا!

ورغم اعتدادها الدائم بتصرفاتها وأفعالها التي لا تحب أن يتدخل فيها أحد...

لكن رائحة الغيرة التي فاحت من كلماته أشبعت قلبها بشعور لذيذ دلل أنوثتها باقتدار...

فارتشفت رشفة من الكوب باستكشاف لتعلو "رغوته" المميزة شفتيها مع تساؤلها بنفس الدلال:

_"قلب الشاعر" يغار على "أم ابنته"!!

لكنه فاجأها بقبلته التي امتزج مذاقها بمذاق المشروب المميز مع همسه الحار:

_بل على "حبيبته"!

تجمدت ملامحها للحظات وهي تتفرس وجهه بعدم تصديق...

قبل أن تتمتم بترقب:

_حبيبته!

فدارت أنامله على وجهها ببطء مع همسه الدافئ:

_وهل من دليل على صدقها إلا أنني لم أفكر فيها قبل أن أقولها؟!كل يوم يمر علينا معاً يزداد قلبي بكِ تعلقاً ...صورتكِ التي يزداد وضوح نقائها ساعة بعد ساعة تمتلكني بشعور لا يمكن أن أسميه إلا حباً!

دمعت عيناها بتأثر وهي تحلق بعاطفتها في سماواته الزمردية التي كانت تمطرها الآن عشقاً تراه لأول مرة بهذا النقاء...

لتتشبث أناملها بقميصه مع همسها الذي مزج قوتها العتيدة بضعف غريب:

_قلها ثانيةً يا عزيز...أريد أن أسمعها حتى أملّ منها ولا أظنني سأفعل...امحُ بها ما مضى من عمري كله...لا أريد أن أتذكر شيئاً سوى أنك أنت...أنت عائلتي التي لن ينتزعها مني أحد...أجلسني على ساقيك كطفلتك كما لم يفعل أحد معي من قبل...أخبرني أنني أستحق

الحب...أسمعني صفاتي بعينيك كما تراني ...بدّد خوف قلبي الذي ما عاد يجد أمانه إلا معك.

فابتسم وهو يريح رأسها على صدره ليهمس بحنان:

_هل تذكرين حديثنا يوماً عن مسافريْن في قطارين يسيران متعاكسيْن...تلامست أناملهما ساعة التقاء القطارين...وبعدها مضى كل منهما في طريقه؟!!

ضحكت وهي ترفع عينيها إليه لتقول بثقتها المميزة:

_يومها أخبرتك إن أحد القطارين سيغير طريقه ليلحق بالآخر...وقد صدقت!!

هنا رفع أناملها لشفتيه ليقبلها بامتنان مع همسه أخيراً:

_شكراً لأنك أجدتِ السعي خلف قلبي حتى امتلكتِه كاملاً...

ثم صمت لحظة ليردف أمام عينيها بأول عبارة حب يقصدها بها وحدها:

_أسري في فضاء عشقك...حرية!

==========

_ياالله!!كم تشبهك يا عزيز!!

هتفت بها رحمة بسعادة في المشفى وهي تضم حفيدتها لأول مرة ...

فتلقفها منها عزيز بلهفة ليتفحص ملامحها المنمنمة برهبة ممتلئة بشعور غريب تعرفه روحه لأول مرة...

قطعة اللحم الصغيرة هذه ...ابنته!!

ورغم أنه لم يمكنه تمييز شئ من ملامحها التي تشبهه كما تزعم رحمة...

لكن ما إن فتحت الصغيرة عينيها حتى ابتسم وهو يراهما زمردتين كعينيه!!!

_عزيز...هاتها!

همست بها ميادة بضعف وهي تمد له ذراعيها فقربها منها فقط ليمكنها من رؤيتها مع قوله الحاني:

_لن تستطيعي حملها الآن ...سأحملها أنا لكِ.

ابتسمت بوهن وهي تطالع ملامح الصغيرة بانبهار مع همسها الواهي:

_نسخة منك يا عزيز!

فقبلها على جبينها بعمق وهو يربت على وجنتها قائلاً بحنان:

_بعد كل هذا التعب الذي رأيتِه أنتِ في ولادتها ...كان يجدر أن تشبهكِ أنت!

هنا ضحكت والدة ميادة وهي تجلس جوار ابنتها على الفراش لتربت على كتفها قائلة ك"حماة" أصيلة:

_الملامح تتبدل...يقولون في الأمثال "البنت لأمها"...غداً تكون نسخة منها!

فابتسمت رحمة بحنانها المعهود وهي تخاطب ميادة:

_المهم سلامتك يابنتي...يشهد الله إنني لم أتوقف عن الدعاء لكِ.

اتسعت ابتسامة ميادة الواهنة وهي تنقل بصرها بين الجميع بارتياح وقد غمرت روحها سكينة هائلة...

هل يمكن أن تنال يوماً سعادة أكبر من هذه؟!!

ابنتها في حضنها ...

وزوجها حبيبها جوارها...

حماتها تعاملها كابنتها...

وحتى والدتها تحسنت علاقتها بها كثيراً...

والفضل لعزيز!!!

عزيز الذي كان تميمة حظها في هذه الدنيا...

منذ دخل عالمها ليملأه لها بفراشات الحب ...

حتى وإن رأى الجميع عكس ذلك!!!

أجل...هي ليست بهذه الحماقة لتتغابى عن سخرية رفيقاتها ومعارفها منها بعد موافقتها للسكنى معه في ذاك الحي الشعبي الفقير...بل وبصحبة أمه!!!

لكنها وحدها من ترى الصورة الصحيحة!

وحدها من تدرك القيمة الحقيقية!!

هي "صفقة رابحة"...بل...هي صفقة العمر كله!!!

انقطعت أفكارها عندما سمعت صوت طرقات خافتة على الباب عقبها دخول والدها مع والد عزيز!

ولم تكد رحمة ترى شاكر حتى انسحبت بهدوء خارجةً من الغرفة تلاحقها نظراته العميقة...

قبل أن يعود ببصره نحو عزيز الذي مد له يده مصافحاً ليقول بتحفظ:

_أهلاً أبي...أهلاً عمي!

صافحه والد ميادة بدوره وقد خلق وجود الصغيرة نوعاً من البهجة أزال بعضاً من الرواسب القديمة...

عندما حمل شاكر الصغيرة ليتفحصها بحنان احتل نظراته مع قوله الشارد:

_لها عيناك...وعينا والدتك!

فابتسم عزيز وهو يقول بنبرة ذات مغزى:

_نعم...وسأحرص أن تربيها أمي لتكون مثلها!

رمقه شاكر بنظرة طويلة راجية قبل أن يقول بعتاب:

_ووالدك يا عزيز؟!أليس له حقٌّ عليك؟!

أشاح عزيز بوجهه للحظة ثم قال باقتضاب:

_هذا ليس وقتاً مناسباً للعتاب يا أبي.

لكن شاكر ناول الصغيرة لجدتها برفق قبل أن يعاود التفاته نحوه ليقول برفق:

_أريد التحدث معك ...سأنتظرك غداً في مكتبي ..لعل ميلاد الصغيرة يكون صفحة جديدة بيننا.

أومأ عزيز برأسه إيجاباً فاستأذنهم شاكر في الانصراف ليخرج من الغرفة بحثاًَعنها...

وأمام أحد النوافذ التي كانت تطل على حديقة المشفى لمحها هناك واقفة...

فاقترب منها ببطء حتى صار على بعد خطوات منها ليقول أخيراً وقد أدرك أنه قد آن أوان هذا الاعتراف:

_بعد كل هذا العمر...لم أندم على خطأ اقترفته قدر ندمي على تفريطي فيكِ**!**

لكنها ظلت ثابتةً مكانها دون حتى أن تلتفت نحوه وكأنها كانت كانت تتوقع مجيئه...بل واعترافه**!!!**

لتصمت للحظات طالت قبل أن تقول بصلابتها المعهودة:

_لا تمنح غالياً لزاهدٍ فيه**!!**

عقد حاجبيه بتساؤل وقد عجز عن فهم عبارتها...

فاستدارت نحوه لتقول بتسامح ليس بغريب عنها:

_ندمك غالٍ يا شاكر ...لكنه ما عاد يعنيني...أنا رضيت بنصيبي والقدر عوضني بأفضل مما تمنيت...

ثم عادت تشرد ببصرها وشريط عمرها يمر أمام ناظريها مع قولها:

_عمري لم يضع هدراً...ربيت ابنة ليست لي...فردها لي القدر في كهولتي ابنتين وولداً ...

ثم ابتسمت وهي تعود إليه ببصرها لتردف:

_واليوم...حفيدة!

أطرق برأسه دون رد وهو يشعر بكلماتها تكوي جرحه الحي...

هو الذي ضاع عمره كله هدراً سعياً خلف مال رماه ابنه في وجهه ليهجره!!!

والآن صار وحيداً لا يدري لحياته هدفاً ولا غاية!!!

لقد استقوى على ضعف رحمة يوماً فحرمها كل شئ...

والآن تبدلت الأدوار...وربحت رحمة...

ربحت كل شئ!!!

لهذا رفع عينيه إليها أخيراً ليقول بتردد:

_كيف أعوضك عن كل ما فات؟!

فاتسعت ابتسامتها وهي تقول بطيبتها المعهودة:

_أنا مسامحة...المهم عندي هو ابنك..

ثم صمتت لحظة لتقول ببعض الحزم:

_لا أريدك أن تخسره ولا أن يخسرك...وازن أمورك كما تراها لكن ضع ابنك في المقدمة.

قالتها ثم غادرته بخطوات ثابتة لتعود لغرفة ميادة تلاحقها نظراته الآسفة...

لقد ندم لكن بعد فوات الأوان...

لكن لعله يصلح الأمور مع عزيز عساه ينقذ ما بقي له من عمر...

============

_ماسّة!

قالها جهاد بلكنته المميزة والتي شابها بعض الحزن الآن وهو يردف:

_هل ستتركين العمل معنا حقاً؟!

فأومأت ماسة برأسها وهي تقف أمامه في مكتبه بالمشفى ...

ثم حاولت التشبث بما بقي من تماسكها لتقول بتحفظ:

_نعم...يجب أن أعود إلى مصر!

رمقها بنظرة متسائلة طويلة لكنها تجاهلتها فتنهد بحرارة ليقول بعدها مباشرة دون مواربة:

_هل للأمر علاقةٌ بطلاقك؟!

انتفضت مكانها بغضب وهي تسأله بنبرات مشتعلة:

_وكيف علمت عن طلاقي؟!

حافظت ملامحه على هدوئها الظاهر وإن شابها الكثير من التفهم مع إجابته المقتضبة:

_عزيز!

مطت ماسة شفتيها باستياء وهي تشيح بوجهها دون رد...

فلوح بكفه ليقول مهدئاً:

_هلا جلستِ كي نتفاهم!

هزت رأسها نفياً وهي تهتف بانفعال فجرته كثرة ضغوطها:

_علامَ نتفاهم؟!أنا سلمت كل ما يتعلق بعملي هنا وحجزت مكاني في أول طائرة عائدة إلى مصر...فهل أنت وصيٌّ عليّ؟!

رمقها بنظرة عاتبة طويلة دون كلمات فزفرت بقوة ثم انهارت جالسةً على الكرسي لتقول بصوت متهدج:

_أنا آسفة...لم أقصد...

انقطعت عبارتها بسيل دموعها وهي تلوح بأناملها المرتجفة بعجز...

لم تعد تدري ماذا أصابها...!!!!

هي في حالة عدم اتزان منذ علمت عما حدث لعاصي...

ورغم أن فهد قد أكد لها ما عرفته من دعاء لكنها لا تزال لا تصدق...

ولن تفعل حتى تراه بعينيها!!!

يقولون أنه فقد بصره!!

يقولون إن أعداءه تربصوا به ليوقعوه في فخ حقير لكنه نجا من الموت بأعجوبة ومع هذا لم يخلُ الأمر من إصابات بالغة عولج منها حتى تماثل للشفاء ...

لكن صدمته بما حدث لابنه أمام عينيه أصابته بعمًى مؤقت!!

أو -كما أخبرها فهد- هو الذي يرفض أن يرى!!

وكأنما يعاقبه -عقله الباطن- بهذه الطريقة وقد رأى نفسه السبب فيما حدث لابنه!!!

وما يحرقها حرقاً أن كل هذا حدث له وهي هنا لا تعلم شيئاً عن أي من هذا...!!!

هي التي كانت تستغرب صمته الطويل بعد آخر لقاء بينهما ولم تدرِ أي عذابٍ كان يكابده وحده!!

لقد صدق يوم قال إنه سمح بسفرها خوفاً عليها من الخطر...وليتها بقيت!!!

ليتها استمعت لحديث رحمة وقتما نصحتها !!!

ليتها كانت درعه الأخير قبل أن يصيبه أي سوء!!!

ليتها!!!

_ابقيْ هنا!

همسه الحاني بنبرته التي حملت بعض الرجاء أخرجتها من هدير أفكارها العاصف لتلتفت نحوه بتشتت...

فيما استطرد هو بنفس النبرة:

_أنا لا أعلم لماذا تريدين العودة..لكنني أرغب حقاً في وجودكِ هنا...

ثم ازدرد ريقه ببطء لتلتمع عيناه بصفائهما مع همسه الذي ارتعش قليلاً:

_ماسّة...أنا....أنا...

_أنت سجين!

قالتها بمرارة خالطت حروفها وهي تتعمد قطع عبارته التي كادت تقسم بما ينتوي نطقه بعدها...

فعقد حاجبيه بضيق وهو يهز رأسه بتساؤل...

لتتنهد هي بحرارة قبل أن تطرق برأسها مع قولها:

_سجينٌ لفكرة الوطن الذي حُرمتَ منه...خرجت منه بجسدك لكن قلبك لايزال يرتع كالطفل بين ربوعه...

ثم رفعت عينيها إليه لتقول بانفعال:

_اخرج من سجنك...افتح عينيك...لو فتحتهما فسترى أشياء لا تراها...وأناساً خيراً مني يستحقون أن تراهم!

قالت عبارتها الأخيرة وصورة زهرة تملأ مخيلتها بفكرة ساخرة...

هل كُتب علينا أن نقابل الحب الصحيح في الوقت الخاطئ...؟!!

أن نقابل الحب الخطأ في الوقت الصحيح...؟!!

لماذا لا تقابل "قطعة البازل" مكانها المضبوط في رقعة اللوحة؟!!

حب صحيح في وقت صحيح لتكون النتيجة قلباً "غير مكسور"!!!

بينما عجز هو عن فهم عبارتها ليتفحصها ببصره للحظات قبل أن يتساءل بحيرة:

_من تقصدين؟!

فوقفت مكانها أخيراً لتقول بمواربة:

_لن أستطيع البوح بما هو أكثر...ربما لو كنت سعيد الحظ بما يكفي لأدركت ما فاتك من جوائز القدر قبل فوات الأوان!

لكنه بدا غافلاً عما تقصده عندما وقف بدوره وهو يقول برجاء أخير:

_ألن تعودي؟!

هزت رأسها نفياً وهي تقول بشرود:

_هل تذكر حديثنا يوم تكلمنا عن الوطن المسلوب؟!وطني ينتظرني لأحرره !

ورغم أنه فهم ما تعنيه بقولها لكنه عاد يسألها أخيراً بمزيج من إشفاق وترقب:

_ألن تلتقي طرقنا يوماً؟!

فالتفتت إليه من شرودها وسخرية أفكارها المريرة تعاودها...

ها قد أصبح بيدك الخيار يا "سيدة " قرارك ...

ومع هذا تصرين أن تبقيْ "أَمَة" عشقه!!

القدر يمنحكِ بيمينه رجلاً يرتضيه عقلك...

ويقبض يسراه على رجلٍ يشتهيه قلبك...

فهل فاز يوماً من عاند القدر؟!!

لا...لا يا غافلة!!!

إنها ليست منحةً بل ...اختبار!!

والحب كما كل "المطالب" لا ينال ب"التمني" بل يؤخذ غلاباً!!

هي معركتك الأخيرة فاربحيها وتربعي على عرش انتصارك...

أو استشهدي في ميدانها بشرف القتال!!

وبهذا الخاطر الأخير أخذت نفساً عميقاً لتقول بحسم:

_الطرق المتوازية لا تتلاقى...أتمنى لك التوفيق يا "دكتور".

==========

_هل علمت مفاجأة عزة لك يا راغب؟!من الجيد أنك لم تأخذها معكم للحج!

قالتها هيام بنبرتها التي عادت إليها رائحة المكيدة مؤخراً ....

بينما كان الجميع يتناولون الغداء معاً في بيت "الحاجة" كعادتهم يوم الجمعة....

فشعرت رؤى بالتوتر وهي تنقل بصرها بين عزة وراغب...

لكن راغب أمسك كفها تحت المائدة مطمئناً وهو يتجاهل هيام التي يبدو أنها عادت لحماقاتها ليسأل عزة بهدوء:

_ما الأمر يا عزة؟!

هزت عزة رأسها في إشارة لكونها لا تعلم شيئاً ...فاستطردت هيام مخاطبةً عفاف بنبرة شامتة:

_يبدو أن الله استجاب لدعواتك يا أمي...أخيراً ستحملين ابن راغب بين ذراعيكِ!

شهقت عزة بقوة وقد بدت الدهشة على ملامحها....

فيما اتسعت عينا عفاف بصدمة للحظة قبل أن تنظر لرؤى نظرة طويلة ....

رؤى التي أطرقت برأسها وقد ارتجف جسدها ليزداد ضغط كف راغب على أناملها مع سؤاله لعزة بغضب مكتوم:

_هل هذا الأمر صحيح يا عزة؟!

كانت الصدمة على وجه عزة الممتقع واضحة لكن أخا راغب وقف مكانه ليصافحه بقوة مع قوله بحرارة:

_مبارك يا أخي...فرحت لك كثيراً!!

اقتضت مصافحتهما أن يترك راغب كف رؤى ولم يكد يفعلها حتى وقفت مكانها لتقول بنبرة مختنقة:

_مبارك يا عزة...مبارك يا أمي!

ثم صمتت لحظة لتردف:

_أنا أشعر بالتعب منذ الصباح...سأصعد شقتي لأستريح.

قالتها وهي تندفع لتغادر المكان بخطوات سريعة تحت نظرات راغب الملتاعة...

قبل أن يعود ببصره نحو عزة التي هزت رأسها له نفياً في إشارة خفية لكونها لا تعلم شيئاً ...

فالتفت نحو هيام التي فاضت ملامحها بالانتصار وقد أدرك زيف ما يقال!!!

فأخذ نفساً عميقاً وهو يحاول ترتيب أفكاره قبل أن يقول لأمه بتهذيبه المعهود:

_عفواً يا أمي...سأصعد لرؤى.

أومأت عفاف برأسها وقد بدا على وجهها التفكيرهي الأخرى...قبل أن تربت على كتف عزة لتقول بفرحة باهتة:

_مبارك يا ابنتي!

قالتها وهي تقوم من مكانها لتتوجه بصمت نحو غرفتها التي أغلقت بابها خلفها....

فيما صعد راغب درجات السلم عدواً نحو شقتهما ليجدها واقفةً تستند على أحد المقاعد وقد أغرقت دموعها وجهها...

فأدار كتفيها نحوه ليحتضنها بقوة مع هتافه المنفعل:

_يالله!!هل صدقتِها يا رؤى؟!

صمتت دون رد وهي تخفي وجهها في صدره فضمها إليه أكثر يحتوي ارتجافة جسدها قبل أن يبعدها ليتفحص ملامحها مع همسه الذي امتزج عتابه بعاطفته:

_هل تشكّين فيّ بعد كل هذا؟!

مسحت دموعها بأناملها وهي تهز رأسها نفياً لتهمس أخيراً :

_أنا أعلم أنها كاذبة...أنا فقط حزينة لأنها أفسدت علينا فرحتنا!

رمقها بنظرة متسائلة وهو يربت على وجنتها برفق...فتحسست بطنها بأناملها لتهمس وداعتها المعهودة:

_أنا أخبرت أمي صباح اليوم عن الأمر ...ويبدو أن هيام سمعتنا وتصرفت هكذا لتنصر شقيقتها من وجهة نظرها!

نقل بصره بشك بين عينيها وأناملها على بطنها قبل أن يبتسم وهو يسألها بحذر:

_أي أمر هذا الذي أخبرتِ به أمي؟!!أنتِ....؟!!

أومأت برأسها إيجاباً وهي تعاود إخفاء وجهها في صدره لكنه ابتعد عنها ليتفرس ملامحها بفرحة غامرة مع هتافه المنفعل:

_رؤى!!معقول؟!أنا ...أنا....

عجز عن إكمال عبارته وهو يمطر وجهها بقبلاته الحارة وسط ضحكاتها التي امتزجت بدموعها ...

قبل أن يخبط جبهتها بجبهته برفق مع هتافه العاتب:

_أي شئ يمكن أن يفسد فرحتنا هذه يا حمقاء؟!هذه فرحة يهون فداها كل شئ!

ثم احتضنها وهو يسند رأسه على رأسها ليخفيها بالكامل بين ذراعيه وهو يتأوه بقوة قبل أن يهمس بتأثر:

_تعلمين كم تمنيتها؟!كم دعوت الله بها؟!

ثم رفع ذقنها إليه ليردف بنبرة دافئة:

_قدْر ما أحببتك...وياله من قدْر!!!

ابتسمت وهي ترتفع بجسدها لتقبل جبينه مع سؤالها بنبرتها الطفولية:

_تريده ولداً أم بنتاً؟!

_المهم أنه منكِ أنتِ!!

همس بها بحرارة بين شفتيها قبل أن يتبع همسته بقبلته -الأثيرة- على شق ذقنها...

ثم جذبها برفق نحو المرآة ليحتضن ظهرها ويواجه انعكاس صورتهما بقوله الذي مزج جديته بعبثه:

_أريدكِ أن تطيلي النظر في المرآة قدر استطاعتك...وخاصةً لطابع حسنكِ هذا...كي يشبهكِ صغيرنا.

ثم عاد يديرها نحوه ليردف بتلذذ وهو يغمض عينيه يستحضر الصورة :

_أريد أن يكون هذا أول ما أميزه في ملامحه عندما أحمله بين ذراعي!

ضحكت بسعادة خالصة وهي تراقب الفرحة التي كست ملامحه بهذا العمق...

كيف يمكنها وصف سعادتها الآن بهذا الطفل؟!

رغم كل بشائر القبول التي حظيت بها من رب غفور رحيم...

ستبقى بشارة هذا الطفل هي الأجذل والأجمل!

لكنها عادت تتذكر ما حدث منذ قليل فهمست ببعض القلق:

_راغب..ماذا سنفعل مع عزة وهيام؟!

فتح عينيه أخيراً وهو يعقد حاجبيه بتفكير عميق ...

عزة تغيرت كثيراً منذ بدأت مشروعها الجديد...

وكأن نجاحها أكسبها المزيد من القوة والثقة في نفسها!!

وبشخصيتها الجديدة هذه هو يتوقع أن تكون هي نفسها من يتصدى لهيام في الفترة القادمة!

لهذا قال أخيراً بتعقل:

_لو صدق ظني ...نحن لن نفعل شيئاً...عزة الآن هي من ستفعل!

هزت رأسها بتساؤل فربت على وجنتها برفق مردفاً:

_لا تشغلي بالك بشئ من هذا...افرحي بطفلنا فحسب!

فابتسمت وهو تقول بشرود:

_أمي كانت في غاية السعادة عندما أخبرتها...كانت تظنني...أقصد...كما أخبرتها...

تلعثمت في عبارتها الأخيرة وهي تشيح بوجهها ...

فقد شعرت بالحرج من تذكيره بكذبته عندما زعم أنها لا تنجب مبرراً زواجه من عزة!!!

لكنه أدار وجهها نحوه ليلتقط نظراتها بفيض عاطفته مع قوله بما يشبه الاعتذار:

_الآن تستعيدين مكانتك هنا كاملة...كما تستحقين!

ثم قرص وجنتها مداعباً وهو يقول بعتاب مصطنع:

_لكنني غاضبٌ منكِ!

رمقته بنظرة متسائلة فأردف لائماً:

_لماذا لم تخبريني أنا أولاً؟!

احمرت وجنتاها خجلاً كعادتها عندما تنفعل مع قولها المتلعثم:

_لم أكن متأكدة...أنت تعلم ألا خبرة لي في هذه الأمور...وسألت أمي ف...

قاطعها ضاحكاً بتلذذ وهو يرى ارتباكها وتلعثمها يزيد وضوح طلتها الطفولية ليقول بتعجب مرِح:

_لا أصدق أن صغيرتي ستكون "أماً"!!!لا يمكنني استيعابكِ أبداً في هذا الدور!!

فضحكت بدورها وهي تلقي رأسها على صدره لتهمس :

_أنا أيضاً مرعوبة من هذه الفكرة!

لكنها رفعت عينيها إليه أخيراً لتهمس بنبرة حملت من الصدق أضعاف ما حملته من الدلال:

_لكنك علمتني ألا أخاف من شئ ما دمت معك!

========

_لماذا فعلتِ هذا يا هيام؟!

هتفت بها عزة وهي تجذبها نحو إحدى الغرف لتغلق الباب خلفها مكملةً عتابها:

_هل هذه أمورٌ يجوز فيها الكذب؟!

مطت هيام شفتيها في استياء مع قولها باستنكار:

_وهل كنت أتركها تفرح بتميزها عنكِ أيتها البلهاء؟!

زفرت عزة بقوة وهي تلوح بذراعها قائلةً بضيق:

_أي تميز هذا؟! ألن تكفي عن التفكير بهذه الطريقة؟!

عقدت هيام حاجبيها وهي تقول بغضب:

_أي طفل صغير يمكنه إدراك أن زوجك لا يعدل بينكما...يكفي هذا الموقف الأخيرعندما اصطحبها معه للحج ولم يفعل معك.

فهتفت عزة مدافعة:

_هو عرض عليّ بالفعل...وأنا رفضت لأجل مشروعي.

فأطلقت هيام زفرة غاضبة وهي تقول بضيق:

_ومشروعك هذا أيضاً!!!أين كان عقلك وأنتِ تزجين بنفسك في مجال كهذا بينما هي تتبختر في مشيتها للجامعة ؟!أي مقارنة بينكما ستكون لصالحها وأنت تساعدينها في هذا بمنتهى الحماقة!

لكن عزة تجرأت أخيراً لتقول لها بحزم:

_هيام...كفاكِ تدخلاً في شئوني...أنا لم أعد صغيرة...هذه الزيجة لم تكن تروقني منذ البداية...وأنتِ التي أجبرتني علي الموافقة!

اتسعت عينا هيام بصدمة وهي ترى عزة تحدثها بهذه الطريقة ربما لأول مرة في حياتها...

بينما استطردت عزة بنبرة اتهام:

_ألم تفكري كيف سيكون منظري أمام الجميع بعدما يثبت كذب ادعائك؟!

فلوحت هيام بكفها لتقول بتذمر:

_من يدري ربما تحملين أنتِ الأخرى من زوجكِ !!وإلا يمكننا الزعم بخطإ التحليل!!

ثم أردفت بغيظ:

_المهم ألا تشمت فيكِ تلك الفتاة وتشعر بانتصارها عليكِ الآن!

هزت عزة رأسها بيأس من مجادلتها فصمتت للحظات...

قبل أن تلقي قنبلتها المدوية:

_هيام...أنا سأطلب الطلاق من راغب!

والجواب كان صيحة استنكار عالية من تلك النارية أمامها...

لكن عزة رفعت رأسها لتقول بحزم:

_لم أعد أريد هذه الزيجة!

لطمت هيام خدّها بحسرة وقد خرس لسانها غضباً وعجزاً...فيما استطردت عزة بنفس النبرة القوية:

_إحدى السيدات اللائي يتعاملن معي جلبت لي فرصة ممتازة...فقرة كاملة في أحد قنوات الطبخ الشهيرة على

التلفاز...سأترك هذا الحي بأكمله وأبدأ من جديد في مكان لا يعرفني فيه أحد ليعيّرني بماضٍ لم يكن لي ذنب فيه...وفي نفس الوقت أمارس هوايتي التي أعشقها وأبرع فيها.

_تخاريف!!ومن سيسمح لك بهذا؟!

هتفت بها هيام باستنكار ووجهها يكاد ينفجر غيظاً...

فكتفت عزة ساعديها بقولها :

_حياتي وأنا حرةٌ فيها!

نظرت إليها هيام بصدمة وهي لا تصدق جرأتها الجديدة!!

من علمها أن تقف في وجهها هكذا؟!!

لقد تعودت دوماً أن تأخذ لها قراراتها بحكم مسئوليتها عنها؟!!

فهل كبرت الصغيرة الآن وتريد التمرد؟!!!

وعند فكرتها الأخيرة لكزتها في كتفها بغيظ لتقول مهددة:

_أنتِ تفسدين حياتك ...عودي لعقلك يا بلهاء...كما أن راغب لن يسمح بهذا أبداً.

فأخذت عزة نفساً عميقاً وهي تدرك نجاحها أخيراً في المواجهة والمطالبة بحقوقها...

بدأتها بهيام وستكملها في مشوار عمرها كله ...

لن تسمح لأحد بعد أن يتحكم في مصيرها ...

هي ستكون سيدة القرار!!!

لهذا ابتسمت رغماً عنها وهي تعطيها ظهرها لترد على عبارتها الأخيرة ببرود مصطنع:

_لا تقلقي بشأن راغب...سأكلم رؤى كي تقنعه!

===========

_مبارك يا "ست البنات"!!!

هتف بها عبد الله بفرحة حقيقية وهو يقبل جبينها بعمق بينما يزورها في بيتها كعهده مؤخراً وقد علم عن نبأ حملها...

فشعرت رؤى بالذنب وهي تتبادل مع راغب نظرات ذات مغزى لتقول بارتباك:

_سلمتَ يا أخي!

صافح عبد الله راغب بحرارة وهو يربت على كتفه ليقول مهنئاً:

_بارك الله لكما...لقد كنت أطلبها من الله لكما في كل وقت!

ثم تنهد بحرارة ليقول بأسف:

_سبحان الله...رؤى حملت بطفلٍ منك قبل الأخرى التي تزوجتها لأجل الولد!

عاد راغب ورؤى يتبادلان نظرات الذنب على- كذبتهما القديمة-...

بينما كان عبد الله غافلاً عن هذا وهو يقول بشرود:

_وَكان الإنسان عجولاً!

لكن رؤى اجتذبته من شروده وهي تقول بحنانها المعهود :

_العقبى لك يا عبد الله!

فأطرق عبد الله برأسه للحظات قبل أن يهمس بخفوت:

_سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب!

ثم عاود رفع رأسه نحوها وهو يقول بحزم حانٍ:

_انتبهي لنفسك هذه الأيام...ولو احتجتِ شيئاً أخبريني.

أومأت برأسها إيجاباً وهي تشير لراغب إشارة خفية أن ينصرف فتنحنح مستأذناً ليغادرهما بحجة واهية....

بينما سألته هي باهتمام:

_هل علمت عما حدث لصفا؟!

أومأ برأسه دون رد ...فعادت تقول برجاء:

_ردّها إليك يا عبد الله...لا غنى لأحدكما عن الآخر والله لطف بكما في حكمه ومنحكما هذه الفرصة من جديد...صحيحٌ أنني حزينة على وفاة زوجها في ريعان شبابه لكنني منذ سمعت الخبر وأنا أشعر أنها قد تكون بداية جديدة لكما.

لكنه هز رأسه ليقول بأسف:

_لن أتخلى عن فتون ومحمد...لن أستطيع... لأجل محمد على الأقل...أنا ارتبطت به جداً وهو أيضاً.

فازدردت رؤى ريقها ببطء لتقول بتردد:

_ألا يمكن أن تجمعهما معاً؟!حالتكم هذه من الحالات التي لأجلها شرع التعدد...وأنت يمكنك العدل بينهما.

فابتسم ساخراً ليقول بتهكم:

_تظنين أن صفا المعموري ستقبل أن تكون زوجة ثانية؟!ومع مَن؟!من كانت خادمتها؟!

لكن رؤى هتفت معارضة:

_صفا تغيرت يا عبد الله...يوم ذهبت لتعزيتها وجدتها قد عادت لطبيعتها القديمة...ما مرت به ليس هيناً على الإطلاق!

فتنهد بحرارة مطرقاً برأسه ليقول بحسم:

_لن ترضى بهذا يا رؤى...ولو رضيت هي ما يدريني أن فتون هي الأخرى ستقبل؟!

ثم صمت لحظة ليردف بأسف:

_للأسف...أبوابنا مغلقة حتى لو ظننا العكس!

ربتت رؤى على كتفه بمواساة فرفع رأسه إليها ليوصيها أخيراً:

_كوني جوارها هذه الأيام ...لو استطعتِ أن تزوريها كل يوم فافعلي...هي تحتاجك الآن!

تهدج صوته رغماً عنه في عبارته الأخيرة فاضحاً شعوره ...

فابتلع غصة حلقه وهي تومئ له برأسها موافقة قبل أن يغادر شقتها بهدوء لتتقاذفه أمواج أفكاره بشرود طويل طوال طريق عودته إلى منزله...

شئ من الأمل يغزو صدره رغماً عنه بعد ما حدث...

قلبه الذي لم ينبض بحب امرأة سواها لا يمكنه نكران فرحته ولو بمجرد بصيص خافت من الضوء أن تعود إليه...

لكنه يعرف صفا جيداً...

حتى لو استطاع هو التغلب على مرارة شعوره -كرجل- بأنها كانت يوماً ما لغيره...

هي لن تفعلها!!!

كِبرها العتيد سيمنعها العودة إليه إلا لو طلّق فتون...

وفتون "لديه" تعني "محمد"...

محمد الذي لن يستطيع الآن التفريط فيه مهما حدث!!!

وهكذا فالحلقة مفرغة يدورون فيها جميعاً...

ولا حلّ!!

انقطعت أفكاره عندما وصل أخيراً لمنزله ففتح الباب بهدوء ليستقبله الصغير بعاصفة شقاوته المعهودة...

والتي بددت بعضاً من شجون روحه لبعض الوقت...

قبل أن تأخذه منه فتون لغرفتهما التي اختفيا فيه أخيراً...

ليعود عبد الله وحده إلى غرفته ...

وتعود معه ذكرياته الدافئة معها لتنغص عليه صفو حياته كما العادة!!

لم يدرِ كم ظل يتقلب على الفراش وقد جافاه النوم...

حتى قام من نومته أخيراً ليستغفر الله بصوت مسموع...

صلى ركعتين من الليل بدعاء خاشع ثم خرج إلى صالة المنزل ليفاجأ بالصغير يبكي وحده في الظلام!

انعقد حاجباه بشدة وهو يندفع نحوه ليحتضنه بقوة مع همسه القلق:

_لماذا تبكي؟!

فتعلق الصغير بعنقه وهو يهمس بحزن طفولي:

_أمي...لا أدري ماذا بها!

ازداد انعقاد حاجبي عبد الله وهو يستفسر منه أكثر ليجيبه الصغير بعفويته:

_لا تكف عن البكاء ليل نهار عندما تظنني لا أراها.

التفت عبد الله برأسه نحو غرفتها المفتوحة ليسأله بحذر:

_هل هي نائمة الآن؟!

أومأ الصغير برأسه وهو يقول بذكاء سابق لسنّه:

_هي لا تعلم أنني أتظاهر بالنوم كي أرى ما ستفعله ...وعندما تتوهم أنني قد نمت تعود لبكائها الصامت.

ثم اشتدت حدة بكائه وهو يتعلق بعنقه أكثر مع قوله الذي مزق قلب عبد الله:

_أخشى أن تمرض وتختفي مثل أبي!

ضمه عبد الله بقوة أكبر وهو يربت على ظهره ليقول له بحنان:

_لا تخف...أنا سأحل هذه المشكلة صباحاً لكن بشرط!

رفع الصغير رأسه إليه بتأهب فلوح بسبابته في وجهه ليقول بحزم:

_لن تخبرها أنك قلت لي شيئاً!

أومأ الصغير برأسه موافقاً ...فأردف عبد الله :

_ولن تبكي أنت في الظلام وحدك بعد!

فرفع الصغير إصبعيه ليقول بذكاء:

_هذان شرطان وليس واحداً!

فابتسم عبد الله وهو يقرص وجنته مداعباً قبل أن يمد له يده مصافحاً مع قوله:

_كلام رجال يا "شيخ" محمد!

فصافحه الصغير بقوة تليق به مع قوله بحماس وقد نسي حزنه :

_كلام رجال يا "شيخ" عبد الله!

فاتسعت ابتسامة عبد الله وهو يقوم معه ليقول بحنان:

_ستنام معي الليلة...لأحكي لك بقية الحكاية.

وهكذا نام الصغير بين ذراعيه لتنتهي هذه الليلة به مسهداً مؤرقاً كسابقات الليالي وهو يفكر في حديث الصغير الذي أيّد قراره السابق...

فتون تخشى أن يتخلى عنها وعن الصغير لكنها -كعهدها- لن تطالبه بشئ...

والواجب عليه الآن أن يؤمن خوفها ويمنحها السكينة من أجلها ومن أجل الصغير...

لهذا ما كاد يلمحها صباحاً وهي تغادر غرفتها حتى بادرها بقوله:

_أريد التحدث إليكِ !

فانقبض قلبها بقوة وهي تهمس بتوجس:

_خيراً يا شيخ!أين محمد؟!

تفحص ملامحها الشاحبة بأسف ثم قال وهو يتلفت حوله:

_محمد نائم في غرفتي...تعاليْ نجلس!

سارت خلفه ودقات قلبها تكاد تتواثب ترقباً ...

تدعو الله بصمت أن يخيب ظنها فيما يريدها لأجله !!

ولم تكد تجلس جواره حتى التفت نحوها ليقول بحزم رفيق:

_أنا أعلم جيداً ما تفكرين به بعد وفاة زوج صفا...وأعلم أنك لا ترجين شيئاً من زواجنا سوى الاطمئنان على محمد .

خفضت عنه بصرها بحياء وهي تخشى أن تفضحها نظراتها...

ماذا عساها تخبره؟!

أن قلبها -الأحمق- تعلق به!!

أنها تناست حبه الواضح كالشمس لصفا وسمحت لنفسها بهذا الحلم الذي ليس لها!!!

أنها لم تعد تريد من هذه الدنيا إلا أن تبقى جواره حتى ولو بقيا على حال زواجهما الغريب هذا!!

عجيب؟!!

لا...ليس عجيباً!!!

امرأة بلا خبرة مثلها لم ترَ من هذه الدنيا سوى الامتهان والاستغلال فمن الطبيعي جداً أن تهيم برجل مثل هذا ...

رجل منحها دون أن تطلب!!

لتعيش في كنفه أماناً حقيقياً !!!

أماناً...يوشك الآن أن يزول!!

لكنه انتشلها من أفكارها ليقول بحسم:

_لن أتخلى عنكِ ولا عن محمد...هذه كلمتي ولن أخلفها.

رفعت عينيها إليه بلهفة لم تتعمدها لتولد على شفتيها ابتسامة حقيقية أشعت بها عاطفتها على محياها الصبوح فزادته فتنةً على فتنته...

لكنه لم ينتبه لكل هذا وهو غارق في شروده ليهمس أخيراً :

_لم يتغير شئ!!

ثم قام ليتركها وحدها تراقب ظهره المنصرف بمزيج من مشاعرها المختلطة...

فرحتها بوعده...أمام حزنها للوعته...

أمانها بقربه...أمام خوفها من فقده...

أملها فيه...أمام يأسها منه...

وأخيراً...

تعلقها به...وتعلقه هو بسواها!!

وعند خاطرتها الأخيرة لمعت في ذهنها فكرة وازت قوله الأخير..

"لم ...يتغير.. شئ"!!!

أو...ربما من يدري؟!!!

قد يكون الكثير ...تغير!!!

========

_كل واحد أوسم من سابقه!

_الأول ضابط غني...والثاني سيأخذها معه إلى دبي!

_كيف يمكنها الإيقاع بهم تلك الماكرة؟!!

_كل هذا وهي بمرضها وعاهتها؟!ماذا كانت ستفعل إذن لو كانت طبيعية مثلنا؟؟!!

_غداً يزهدها ويطلقها كمن سبقه!!

_وما يدريكِ ساعتها لعل الثالث يكون أفضل من كليهما معاً!!

كانت تسمع هذه الهمزات-وما شابهها- طوال الأيام السابقة عقب عودتها لمدينتهما ومعرفة الناس بقرب زواجها من معتصم ...

والآن -وفي ليلة زفافهما- تكاد تراها رأي العين في نظراتهم الحاسدة وغمزاتهم المتبادلة!!!

لكن العجيب أنها ...لا تهتم!!!

كلماتهم التي كانت تصيبها كسهام مسمومة صارت الآن تضحكها!!!

وكأنها تسامت فوق الغمام لترى المشهد من أعلى بصورة أفضل!!

مساكين هم بأفكارهم لكنها لن تسمح لهم أن يسمموا حياتها بعد!!!

انقطعت أفكارها عندما دخل عليها عمها غرفتها بابتسامة واسعة ليخبرها أن المأذون وصل...

فألقت نظرة أخيرة على ثوبها الذي اختارته- بنفسها- هذه المرة...

قبل أن تبتسم بثقة وهي تتأبط ذراع الرجل ليخرج بها إلى صالة بيت والدها حيث أصرت هي أن يتم الزفاف ها هنا!!!

رفعت رأسها برضا ممزوج بالكبرياء وهي تخطو بخطوات ثابتة نحو معتصم الذي فاضت عيناه بعشق ما عاد يوقفه...

ليتلقف كفها أخيراً بقوة رفيقة وعيناه تكادان تقسمان أنه الآن قد نال نجمة من السماء!!!

جلست جواره بمزيج من سعادة وخجل كما يليق بعروس تجرب هذه الفرحة لأول مرة!!!

أجل...لأول مرة!!!

لأول مرة هي سعيدةٌ حقاً ب-زوجها- لا بمجرد "زواجها"!!!

لأول مرة لا تربط رضاها ب"الناس" بل...ب"رب الناس"!!!

لأول مرة لا تجد مكافأتها في" نظراتهم" ...بل في "دفء" أمان كفها بين كفيه!!

وساعتها فقط تذكرت تلك الرؤيا التي رأتها قبل حادث مصابها!!

الآن فقط يمكنها تأويلها!!

الجنة كانت في الرضا....

والجبل كان صمودها...

والعطية من السماء كانت بقدر الصبر!!!

وهنا فقط تلفتت حولها لا لتبحث عن نظرات ترضي "نقصاً" ما عادت تستشعره...

بل تستعيد صورة والديها هنا في هذا المكان ...

لتهمس في نفسها برضا:

_ابنتكما سعيدة...الآن سعيدة حقاً!

_توقيع العروس!

انتزعتها العبارة من شرودها لتمسك القلم بأنامل مرتجفة فازداد ضغط كفه على كفها في مؤازرة...

لتزداد أناملها ثباتاً وهي تمنحه التوقيع بسلاسة!

هنا تعالى صوت الزغاريد حولها وتعالى معها خفقان قلبها بدقات ترقص فرحاً...

وهمسته التي اخترقت أذنها تفوق كل هذا الضجيج :

_أحبك!

لتلتفت نحوه بخجل فيما استطرد هو بعبثه الذي عاد يسكن نبراته:

_لا رقص!أريد أن تكون الرقصة الأولى لنا ونحن وحدنا!

ثم مال على أذنها ليردف بخبث:

_أنا لا أضمن نفسي وأنتِ تعرفين جنوني!

ضحكت بخجل وهي تطرق برأسها لتتقاذفهما بعدها موجات التهاني المتعارف عليها في هذه الظروف...

كانت الوجوه تتبدل أمام ناظريهما لكن كليهما لم يكن يرى إلا صاحبه!!!

وانتهى الحفل...وبدأ الاحتفال الحقيقي!!!

أجل...ما كاد يختلي بها بعد رحيل الجميع حتى أمسك كتفيها بقوة لينظر لعمق عينيها هامساً بصدق مس قلبها:

_حلم...أنتِ حلم!

احمرت وجنتاها بخجل وهي تسمعها منه بهذه الحرارة ...

فيما كان هو غارقاً في تفاصيلها تماماً كما كان يراها في أحلامه...

لتتلمسها أنامله برقة خاشعة مع همسه الذي أذابها بعاطفته:

_لا...أنتِ حقيقة أجمل من أي حلم!

ارتسمت على شفتيها ابتسامة مرتجفة انتهت بشهقة خافتة وهو يجذبها نحوه بقوة ليلصقها بصدره مع همسه في أذنها:

_أشعر وكأنني كنت في سباق طويل ...والآن فقط يمكنني التقاط أنفاسي!

أفلتت منها أنّةٌ خافتة وهي ترفع عينيها إليه قبل أن تهمس بصدق:

_هل تعلم أنه هو نفس إحساسي؟!

رمقها بنظرة عميقة وهو يدرك إحساسها الذي كان يشاطرها إياه...

أجل...رغم أنه لم يفتح معها الحديث عن الماضي منذ عاد إليها...

لكن قلبه يخبره أنها لم تعشق غيره!!

وأن ذاك الرجل لم ينل منها أكثر من "حق جسد" لا يعنيه كثيراً....

صحيحٌ أنه يحترق بغيرته كلما تذكر هذا الأمر لكنه يحمل نفسه المسئولية معها...

هو خذلها...وهي استسلمت!!!

لكن ..ما عاد يجدي الندم!!!

بينما كانت هي غارقةٌ في إحساسها الجديد بهذه السعادة...

سعادة نقية لا تشوبها شائبة من حزن أو خوف أو انتقاص...

وكأن ما مضى من عمرها قبل اليوم كان" حرفاً واحداً "...

والآن "تكتمل "الكلمة...الجملة....بل الحديث كله!

لتنقطع أفكارها عندما مال على شفتيها أخيراً بقبلة ناعمة بعمق إحساسه بها قبل أن يحتضن وجنتيها ليهمس بحنان دافئ:

_الآن فقط يا حبيبتي...الآن يبدأ العمر!

======

_قصر السيد عاصي الرفاعي.

قالتها لسائق سيارة الأجرة وهي تخفي عينيها الدامعتين خلف نظارتها الشمسية ...

لقد جاءت هنا خفيةً دون أن تخبر فهد الذي لا يزال معترضاً على رجوعها لعاصي...

ورغم شعورها بالذنب لأنها فعلتها دون إذنه لكن لا شئ يعلو فوق رغبتها الآن برؤية عاصي مهما كان الثمن!!!

توقف بها الرجل أمام المكان فترجلت من السيارة لتتوجه نحو القصر...

أو -بالأدق- ما تبقى منه!!!!!!!!!

أجل ...فأمام عينيها- المصدومتين -كان سور القصر لا يزال كما هو لكن ما بداخله لم يكن سوى حطام!!!

انقبض قلبها بعنف وهي تندفع نحو البوابة تكاد تتعثر في خطواتها الملهوفة وعيناها تجوبان المكان بذعر...

ما هذا الذي تراه؟!!

هل هذا قصر الرفاعي حقاً أم أنها ضلت العنوان؟!!

_ستعودين...ستعودين كما عدتِ اليوم...وكما ستعودين كل مرة تشتاقين فيها إلى هذا المكان...لكن ربما لن أكون أنا هنا في المرة القادمة!

أفلتت منها صيحة خافتة وهي تتذكر عبارته السابقة...

ليرتجف جسدها انفعالاً وعيناها تدوران في المكان بهلع تبحثان عنه...

أو عمن يدلها عليه...

حتى لمحت حارس البوابة يهرول نحوها قائلاً باحترام مشوب بالأسف:

_حمداً لله على سلامتك يا سيدتي...هل رأيتِ ما حدث؟!

بسطت كفها على صدرها محاولةً تمالك أنفاسها لتسأله بين دموعها بصوت متحشرج:

_ماذا حدث؟!

لوح الرجل بكفه نحو الحطام خلف السور وهو يقول بحسرة :

_السيد عاصي هدم القصر!

شهقت بعنف وهي لا تكاد تصدق ما تسمعه ...فيما استطرد الرجل بنبرة أكثر تعجباً:

_بعدما غادر المشفى بأيام....فوجئنا به يفعلها...وأمر ألا يُزال هذا الحطام من هنا...بل يبقى هكذا كما هو!!

فازدردت ريقها ببطء وهي تعاود التلفت حولها لتسأله بمزيج من دهشة ورهبة:

_وأين هو الآن؟!

هز الرجل رأسه أسفاً وهو يقول :

_لا أحد يعلم يا سيدتي ...لكن الناس يتحدثون أن الحادث قد غيره تماماً...رد ما أمكنه رده من حقوق لأصحابها...ثم اختفى فلم يره أحد بعدها.

هزت ماسة رأسها وهي تصرخ بحدة فجرها انفعالها:

_ماذا تعني بأنه اختفى؟!!رجلٌ كعاصي الرفاعي يختفي هكذا دون أن يراه أحد أو يعلم عنه شيئاً؟!!أين حراسه؟!أين رجاله؟!

فازداد ارتباك الرجل وهو يقول مدافعاً:

_أقسم لكِ يا سيدتي إنها الحقيقة...لا أحد من رجاله يعرف عنه شيئاً...

ثم صمت للحظات قبل أن يقول بتردد:

_بعض الناس يقولون أنه فضل أن يترك المدينة بعد ما حدث ...وآخرون يزعمون أنها مجرد فترة مؤقتة سيعود بعدها كما كان بعد ما يتغلب على حزنه...والبعض يرى...

قطع عبارته مشفقاً من إكمالها فعادت تحثه ليكملها بقولها المنفعل:

_يرى ماذا؟!تكلّمْ!

تراجع الرجل بظهره خطوة ثم أطرق برأسه ليقول بأسف:

_يظنونه .....انتحر!

شهقت بعنف محاولةً استيعاب الكلمة التي اخترقت سمعها....قبل أن تهتف بانفعال ملوحةً بذراعها:

_مجانين!!عاصي الرفاعي لن يفعلها أبداً...عاصي سيعود...هل تفهم؟! سيعود!!!

عاد الرجل يقترب منها ليهدئها ببضع عبارات مطمئنة وقد روّعه منظرها المثير للشفقة...

لكنها خلعت نظارتها لترفعها فوق رأسها وهي تمسح دموعها مع هتافها :

_قل لهم أن عاصي سيعود ...سيعود أقوى مما كان ...وسيبني قصره ثانية...

رمقها الرجل بنظرة مشفقة طويلة بينما غابت هي عن إدراكها وهي تهز رأسها لتردف بما بدا كالهذيان:

_وحتى لو لم يعد...سيكون في مكان أفضل...سيبني نفسه فيه من جديد...عاصي الرفاعي لن ينهزم...لن ينهزم!!

ظلت ترددها طويلاً بين دموعها حتى دمعت عينا الرجل هو الآخر متأثراً....

حتى أفاقت لنفسها أخيراً فعاودت مسح دموعها وهي تبتعد عن المكان بخطوات متثاقلة...

عاصي اختفى بعد ما هدم قصره!!!

لم يحتمل أن يتحدث الناس أنه فقد سطوته؟!!

أم أنه كره ماضيه بعد فقدانه لابنه فألقى كل شئ خلف ظهره؟!!

أو لعله...قرر البحث عن بداية جديدة في مكان لا يعرفه فيه أحد!!!

كاد رأسها ينفجر بأفكارها التي لم تعرف لها أولاً من آخر...

حائرةٌ بمشاعرها بين سعادتها لهزيمته شيطانه أخيراً وبين قلقها عليه!!

تود الآن لو تبتسم....لو تضحك كما لم تفعل من قبل...

لو تتقافز في مكانها لتصرخ بأعلى صوتها أنها تحبه!!!

أجل...الآن تستطيع قولها دون خجل...دون ندم..دون صراعها العتيد بين قلبها وعقلها!!!

وتود الآن لو تبكي...لو تطرق كل أبواب الناس تسألهم عنه ....

لو تجلس على قارعة الطريق لعل أحد المارة يجلب لها عنه خبراً!!!

وبين صراع مشاعرها هذه بزغت هذه الحقيقة الآن في ذهنها كالشمس!

عاصي لم يهدم القصر فحسب!

عاصي هدم جبروت عائلة الرفاعي الذي توارثته جيلاً بعد جيل...

كسر الحلقة التي داروا فيها ليتحرر بنفسه من لعنة الظلم التي حلت على رأسه...

عاصي لم يرد الحقوق لأصحابها فحسب!

بل رد لروحه "ماسة فطرتها" بعدما أجلاها بتوبته لتعود أكثر بريقاً...

عاصي لم يدهس ماضيه تحت قدميه فحسب!

بل دهس معه كل خطاياه وكأنه بهذا أخذ أولى خطواته للتحرر...

عاصي لم يكن ضعيفاً عندما فعلها...

بل كان-كما عهدته- بمنتهى القوة!!!

لكن...أين هو الآن؟!!

إلى أي مكان ذهب هكذا ليختفي دون أثر؟!!

وعند سؤالها الأخير التفتت بظهرها نحو-حطام- القصر الذي بدا لها بعيداً ...بعيداً...

لتستعيد بذهنها كنز ذكرياتها الثمين هنا وقد مرت بذاكرتها تباعاً بحلوها ومرها...

ودموعها تعاود هزيمتها من جديد قبل أن تمسحها بقوة مع همسها لنفسها بحزم:

_سأجدك ...سأجدك ولو ظللت أبحث عنك عمري كله.

ظلت ترددها لنفسها طوال طريق عودتها حتى استقبلها فهد في شقته أخيراً ليسألها بحدة:

_أين ذهبتِ دون أن تخبريني؟!

ورغم أن طريقته الآن كانت أبعد ما تكون عن حنانه المعهود معها لكنها لم تستطع إلا أن ترتمي بين ذراعيه وهي تقول بين دموعها بكلمات متعثرة:

_عاصي تغير...هدم القصر...و هزم شيطانه..لكنه اختفى.

زفر بقوة وهو يمسك كتفيها ليبعدها عنه برفق مع قوله المنفعل:

_أعلم كل هذا..لكن هذا لم يعد يعنينا...متى ستفيقين من جنونك هذا؟!

هزت رأسها بانفعال وهي تهمس مصدومة:

_تعلم؟!

لكنه هزها بقوة وهو يجيب بانفعال:

_نعم ...أعلم...لكنني لن أسمح لكِ أن تضيعي عمرك بحثاً عنه...القدر منحكِ فرصة لبداية جديدة...فلماذا تتشبثين بماضٍ يكسركِ؟!

نفضت ذراعيه عنها وهي تهتف بانفعال مماثل:

_لأنه تغير...حاد عن طريقه الخاطئ !

_بعد ماذا؟!

هتف بها بحدة وهو يعاود اقترابه منها ليردف:

_لن تستقيم لكما حياةٌ بعد الآن...هو لن ينسى لكِ زعمكِ بخيانته...وأنتِ لن تسعدي بحياتك مع رجل بظروفه...رجوعكِ إليه حماقة ستستجلب لكِ المزيد من العذاب.

أحنت رأسها الذي أخفته بين كفيها لتعاود بكاءها بحرقة مزقت قلبه...

فعاد يزفر بقوة قبل أن يقترب ليعاود ضمها إليه برفق مع قوله بنبرة أرق:

_أنا مدركٌ أن شعوركِ نحوه الآن بالشفقة هو الذي يدفعكِ لهذا القرار...لكن...

_ليست شفقة!

هتفت بها وهي ترفع وجهها نحوه بحدة لتردف بحسم:

_لو كنت عدت ووجدته لايزال غارقاً في طغيانه ما كنت فكرت في العودة إليه...لكنني الآن وقد أدركت صدق توبته فلن يمنعني شئ عنه!

مط شفتيه باستياء وهو يشيح بوجهه للحظات قبل أن يعاود الالتفات نحوها ليقول بضيق:

_وما يدريكِ أن ما حدث مع زوجته لن يحدث معك؟!هل تريدينني أن أخاطر بحياتك مع رجل كثير الأعداء مثله؟!!

فاتسعت عيناها باستنكار لتهتف مدافعة:

_لا...الوضع الآن مختلف...هو لن...

لكنه قاطعها بعنف مع قوله الصارم:

_انتهينا...لن أغامر بكِ مع ذاك الرجل من جديد...قصتكما انتهت عند هذا الحد...سيختفي من حياتك كما أراد هو ...وكما ينبغي أن يكون!!

==========

_لازالت مضربةً عن الطعام؟!

هتف بها فهد بضيق وهو يلقي نظرةً طويلة على باب غرفتها المغلق في شقته....

فجذبته جنة من كفه نحو غرفتهما التي أغلقت بابها خلفها لتقول بحنانها المعهود:

_اهدأ حتى نستطيع حل الموضوع!

زفر بقوة وهو يحل أزرار قميصه ليخلعه بعنف مع هتافه العصبي:

_أي حل؟!تريدينني أن أطاوعها في جنونها هذا؟!لن أسمح لها أن تضيع بقية عمرها مع رجل بدافع الشفقة!

ابتسمت بهدوء وهي تقترب منه لتربت على صدره قائلةً بتعقل:

_ماسة لن تعود إليه بدافع الشفقة...وأنت يجب أن تدرك هذا!

أشاح بوجهه دون رد فاحتضنت وجنته براحتها لتقول بنبرتها الحانية:

_أنت لا تفهم مكانة ذاك الرجل لديها...أختك تربت بلا أب ولا أخ ...حياتها افتقدت حنان الرجل الممتزج بقوته...حتى عندما أحبت عزيز خذلتهما الظروف لتجد نفسها وحدها...ووسط كل هذا يظهر عاصي الرفاعي في حياتها ليمنحها كل ما افتقدته...لهذا لم يكن غريباً أن تعشقه بكل جوارحها ...لكن شيطان جبروته وأنانيته سد عليهما الطريق...والآن وقد هزم شيطانه فهي لن تسمح لشئ أن يقف بينهما!

قبل جبينها برفق ثم قال مبرراً:

_أنتما تفكران بعاطفتكما...أما أنا فأحكم عقلي الذي لا يرى مستقبلاً لهذه العلاقة...ماسة تعذبت كثيراً وتستحق أن تستريح أخيراً مع رجل بظروف طبيعية.

أومأت برأسها في تفهم بينما استطرد هو بعد تنهيدة حارة:

_هل تتصورين خوفي عليها كلما تخيلت أنها كان من الممكن أن تكون مكان زوجته التي قُتلت غدراً؟!

فابتسمت وهي ترتدي "زيّ" مهنتها لتلوح بسبابتها في وجهه قائلة:

_لو فكرت بإنصاف لوجدت أن عاصي نفسه هو الذي منعها هذا المصير عندما أبعدها عن هذا الخطر!

عاد يشيح بوجهه دون رد...فاستطردت مدافعة:

_لن يفرّ أحدٌ من قدره يا فهد...والرجل ألقى ماضيه كله خلفه...كما أن أختك مدينةٌ له بالمساعدة كما فعل هو من قبل!

هنا التفت نحوها بحدة ليقول بانفعال:

_هذا بالضبط ما أعنيه...عودتها إليه لن تتجاوز امتناناً لدين قديم ...إلى متى سيصمد هذا مع صعوبة حياتها مع رجلٍ بظروفه الحالية؟!

لكنها هزت رأسها نفياً مع قولها الواثق:

_ظروفه هذه مؤقتة...الأطباء قالوا أنه لا يعاني أي سبب عضوي يفقده البصر...الأمر كله نفسي مرتبطٌ بصدمته بعد ما حدث لزوجته وابنه أمام ناظريه...هو يحمل نفسه مسئولية ما حدث وكأن عقله الباطن يعاقب نفسه برفضه للإبصار...وهذا في رأيي يعني أنه حقاً قد تغير...هو فقط يحتاج لدعم نفسي جواره ...وماسة ستمنحه هذا بسخاء ...ليس امتناناً ولا شفقة...بل حباً يصل حد الجنون.

رفع رأسه لأعلى للحظات صامتاً يتفكر في كلماتها...

فتعلقت بذراعيها في عنقه لترمي بسهمها الأخير:

_أنت جربت حرقة القلب عندما يفقد مالكه ولن ترضى بمثلها لهما معا...بعض الأمور تحتاج أن نحكّم فيها قلوبنا قبل عقولنا.

خفض بصره نحوها بتردد فمنحته قبلةً خفيفة على شفتيه مع همستها الأخيرة:

_فكر في الأمر...وأنا أثق في قرارك الأخير.

ربت على رأسها برفق وهو يتوجه معها نحو فراشهما استعداداً للنوم...

لكنه لم يستطع أن ينام مع كل هذه الأفكار التي تملأ رأسه...

عقله يحذره من مغبة هذه العلاقة على أخته الوحيدة...

لكن شعوره يتفق مع كلمات جنة التي ألقتها على مسامعه منذ قليل!

وبينهما يقف هو حائراً يخاف أن يضيعها بأحد القرارين.

حتى اطمأن قلبه أخيراً لأحدهما!

فنفض الغطاء عنه بخفة وهو يلقي نظرةً على جنة التي استسلمت لنوم عميق...

ثم قام ليغادر غرفتهما بخطوات متثاقلة حيث توجه إلى المطبخ الذي استقرت على طاولته صينية الطعام الذي

رفضته ماسة فأعاد تسخينه بشرود ثم حمل الصينية ليتوجه إلى غرفتها ...

وبعد طرقات قوية فتحت هي الباب لتطالعه بملامحها الشاحبة وهي تتحاشى النظر إليه ...

فابتسم ليقول بخشونة مصطنعة:

_دعيني أدخل يا "بنت"!

أطرقت برأسها لتقول بعناد:

_لا أريد تناول الطعام.

لكنه لكزها بكتفه ليزيحها من طريقه قبل أن يضع صينية الطعام على الكومود جوارها مع قوله وهو يتلفت حوله:

_هل هذه غرفة أم "مقبرة"؟!

زفرت بقوة وهي تشيح بوجهها عندما فتح هو النافذة ليقول مشاكساً:

_تُب عليّ يا رب من فتح النوافذ للنساء البائسات!

فابتسمت ابتسامة شاحبة وهي تطرق برأسها عندما عاود هو التفاته نحوها ليقول بنبرة آمرة:

_تناولي طعامك وكُفّي عن لعب الأطفال هذا!

لكنها بقيت واقفة مكانها تكتف ساعديها بعناد فابتسم وهو يقترب منها قائلاً:

_حسناً...ما دمتِ تصرين على التصرف كالأطفال فسأعاملكِ مثلهم.

ثم قرص وجنتها مداعباً ليردف :

_لو أنهيتِ طعامكِ فسأبدأ غداً السعي لأعرف مكانه!

أشرقت ملامحها فجأة وهي تتفرس ملامحه تتبين مدى جديته قبل أن تهتف بلهفة:

_حقاً؟!

أومأ برأسه إيجاباً وهو يجذبها من كفها ليجلسها جواره على الفراش...

قبل أن يشير بيده نحو الطعام دون كلام...

فابتسمت وهي تبدأ في تناوله بسرعة حتى كادت تغص به فسعلت بقوة ليناولها كوب الماء قائلاً بمرح:

_مهلاً أيتها المتعجلة!ستموتين قبل أن نجد "المجنون " الآخر!

ارتشفت رشفة من الكوب ابتلعت معها غصتها قبل أن تخبطه في كتفه لتقول بعتاب:

_عاصي ليس مجنوناً!

مط شفتيه دون رد وهو يعاود إشارته نحو الطعام ثم راقبها بحنان وهي تتناوله بحذر مع نظراتها المترقبة نحوه...

قبل أن تسأله أخيراً برجاء:

_فهد...أنت جاد حقاً في مساعدتك لي؟!هل اقتنعت؟!

هز رأسه نفياً فعادت ملامحها تتجهم ليطلق هو ضحكة عالية مع قوله المازح:

_أفعلها فقط للتخلص منكِ كي يخلو لي البيت مع جنتي!

هنا ابتسمت وهي ترمقه بنظرة امتنان فيما تأملها هو بتفحص للحظات قبل أن يسألها بجدية تامة هذه المرة:

_لآخر مرة أسألك...واثقةٌ أنتِ من قراركِ هذه المرة؟!هل تدركين ما ينتظرك معه بعد ما حدث؟!

أومأت برأسها إيجاباً وهي تقول بشرود:

_لم أكن واثقةً في قرار أخذته كثقتي في هذا...ربما يبدو لك الوضع وكأنه هو الذي يحتاجني لكن الحقيقة أنني أنا من أحتاجه...حياتي لن تستقيم إلا به...هو وحده.

ثم أزاحت الصينية جانباً لتقترب منه أكثر مردفةً بامتنان:

_صدقني أفضل ما يمكن أن تفعله لي هو أن تعرف مكانه...أختك لن تستريح حتى تجده.

فابتسم وهو يربت على كتفها ليقول أخيراً:

_حسناً يا "حبيبة أخيكِ"...فلنجد "فارسكِ الهارب" ولنرَ كيف ستنتهي قصتكما!

===============

كان جالساً على كرسيه في غرفته التي ما عاد يفارقها...

بيته الصغير هنا صار كل ما يعنيه من هذه الدنيا...

بيتٌ بسيط في تلك المدينة الساحلية البعيدة عن العمران...

هو نفس المكان الذي اختفى فيه عقب وفاة حورية...

أجمل ما فيه أنه منعزل بخصوصية يحتاجها هو الآن أكثر من أي وقت مضى...

كما أنه يطل على البحر بمنظر مميز ...

منظرٍ لازال يذكره ساحراً رغم أنه لا يراه!!

لكن كفاه أنه يسمع صوت ارتطام الأمواج بالصخور والذي يشبه هدير أفكاره العاصفة التي صارت سجنه الجديد...

فأين المفر من جحيمه إذا كانت نيرانه بين ضلوعه؟!!

ممزقٌ هو كما لم يكن من قبل...

ينتظر النهاية باستسلام أقرب منه إلى الصبر!!

حياته البسيطة هنا كانت حلماً يوماً ما....

حلماً طالما تمناه سراً فأتاه لكن...بعد النهاية...

بعد الخساره...

بعد الخلاص!!!

انقطعت أفكاره عندما سمع رنين الجرس فأرهف سمعه يتبين من الطارق...

لعل الخادم العجوز الذي يقيم معه قد بعث في طلب شئ...

الخادم الذي -للعجب- هو الوحيد الذي وقف جواره الآن في محنته...

رغم أنه طرده من قصره يوماً!!!

أجل..فالرجل- الذي كان يعتبره كابنه لأنه كان يعمل لديهم منذ عهد حماد الرفاعي -جاءه يومها ينصحه بعد وفاة والده ألا يكون مثله...

أخبره أن والدته -التي ماتت في صغره فلم يستطع حتى تذكر الكثير عنها -كانت تدعو الله ليل نهار ألا يجعل له نصيباً من طغيان أبيه!!!

ليلتها عنّفه بشدة وطرده من قصره شر طردة وقد أعماه بريق شعوره الجديد وقتها بالقوة والسلطة!!

والآن وقد فقد كل هذا يجد نفسه يتساءل...

ماذا لو كان استمع لنصيحة الرجل من البداية؟!!

لو...!!

كيف يمكنه وصف شعوره عندما أفاق بعد الحادث لتهاجمه تفاصيله في صحوته قبل منامه!!!

لازال صوت الصرخات التي سمعها ليلتها تدوي في أذنه كل ليلة ...

صرخات لا يدري هل كانت حقيقية أم من نسج خياله لكنها تزلزل كيانه ...

لقد ظن أنه سيتخلص منها عندما يهدم القصر ...

رمز الطغيان والجبروت الذي توارثته عائلته جيلاً بعد جيل!

لكنها للأسف لازالت تؤرق مناماته ومعها صورةٌ بالدم لطفل تمناه من كل قلبه...

ومات ...دون أن يراه...

بل...وبسببه!!!

انقطعت أفكاره بتنهيدة حارة وهو يغمض عينيه بألم!!!

سواءٌ فتح عينيه أو أغمضها فجحيم آخر مشهد رآه بهما لا يزال محتبساً بين حدقتيه !!

مشهد دماء ابنه المختلطة بدماء امرأة راحت حياتها غدراً بلا ذنب سوى أن عاصي الرفاعي أدخلها في دائرته الملعونة!!

وكم يحمد للقدر أن غادرتها- سواها- قبل أن يصيبها مكروه!

هنا تخللت أنفه رائحةٌ عطرية غريبة فعقد حاجبيه بشدة وهو يشعر بدخول -أحدهم- المكان...

فوقف مكانه وأنامله تتشبث بعصاه أكثر مع قوله :

_مَن؟!

وضعت أناملها على شفتيها تكتم أنفاسها بينما عجزت عن منع دموعها التي أغرقت وجهها وهي تراه بهذه الصورة...

عاصفةٌ هوجاء من مشاعر مختلطة ضربت قلاع تماسكها الذي حاولت إقناع نفسها به طوال طريقها إلى هنا...

اشتياقٌ يكاد يسحق خلاياها برجاء مشتعل أن ترتمي بين ذراعيه!!

ندمٌ على استجابتها لشيطان قسوتها يوماً وتركها له يواجه مصيره وحده!!!

حزنٌ على عجزه الذي يكسر أي رجل...فكيف الحال بمن هو مثله؟!!

وإجلالٌ لقوته التي جعلته يرجع عن ضلاله القديم ليبدأ الطريق من أوله...

فالكثير يخطئون...يضلون...

والقليل يندمون ...يأسفون ...

لكن أقل القليل من يستطيعون إيجاد طرف خيط البداية بقوة لن يردعها يأس !!

ومن كعاصي الرفاعي في قوته؟!!

جبارٌ كان في طغيانه...

وعظيمٌ هو في توبته!!

ورغم أن كل ذرة في كيانها كانت تستحلفها أن تقترب...

أن تلغي هذه المسافة القصيرة بينهما لتعود لوطنها الأصيل على صدره!!!

لكنها مع هذا لم تستطع سوى أن تبقى على حالها ..

وكأنما شُلّت أطرافها فلم تعد تملك على جسدها إرادة!

_ماسة!

وكأنما أذابت همسته -رغم جمودها- صقيع أطرافها أخيراً....

لتبدأ حركتها نحوه ببطء مع استطراده بنفس النبرة الجامدة:

_لن يزورني أحدٌ هنا إلا أنتِ!

لم يكد يتم عبارته حتى استجابت لدعاء جوارحها بقربه...

ارتمت على صدره تطوقه بذراعيها بقوة وهي تكتم دموعها بكل ما أوتيت من عزم!!

كل دمعة منها الآن ستجرحه وهي عاهدت نفسها أن تُخضع كل مشاعرها كي لا تؤذيه !!!

نعم...به كانت قويةً يوماً...

ولأجله الآن ستكون أقوى!!

بينما حافظ هو على جموده الظاهري وهو يدفعها عنه ببعض الخشونة بذراعه الحر بينما يتشبث ذراعه الآخر بعصاه بقوة شعر معها بتنميل خفيف في ذراعه...

لا يدري هل هو بفعل ضغطتها على ضلعه المصاب...

أم بسبب انفعاله للقياها!!!

لقياها الذي كما يتمناه...يخشاه!!!

لكنه أخفى انفعاله باقتدار وهو يواصل دفعها بعيداً عنه بينما تتشبث هي به لتهمس أخيراً برجاء:

_اتركني...أرجوك...دعني فقط ...ألتقط أنفاسي!

قالتها وهي حقاً تعنيها...

أنفاسها دونه كانت مختنقة وكأن ضلوعها أقسمت ألا تعانق ذرات الهواء إلا مشبعةً برائحته!!!

والآن تجد نفسها تسحب الشهيق تلو الآخر بعمق كغريق أدرك -بعد نجاته-مذاق الحياة!

لهذا تهدج صوتها في كلمتها الأخيرة وهي تدفن وجهها في صدره...

تتنشق عبيره الذي افتقدته حد الجنون!

تلامس بشرة صدره عبر فتحة قميصه بجبينها وكأنها لا تصدق أنهما أخيراً معاً...

جسداهما متلاصقان كقلبيهما!!!

لن يفرقهما بعد شئ!!!

حتى عناده ...ستقهره!!

هو الآن لها مهما فعل...مهما رفض...مهما حدث!!!

لكنه انتزعها من إحساسها عندما أبعدها أخيراً عنه ليقول ببرود لم يُفقِد صوته قوته:

_لماذا جئتِ؟!

فعادت تأخذ نفساً عميقاً تستعد لمعركتها القادمة معه ...قبل أن تقول بصوت لا يقل عنه قوة:

_جئت لأن مكاني هنا!

فابتسم ساخراً وهو يقول بنبرة أسد جريح:

_أنتِ ذكية بما يكفي لتدركي انني لن اقبل الشفقة.

فدمعت عيناها رغماً عنها لكنها استعادت تماسكها وهي تتناول كفه لتضعه على صدرها مع همسها الذي امتزجت قوته بعاطفته:

_وأنت تعرفني بما يكفي لتدرك الفارق عندي بين الشفقة والحب...

ثم ازدردت ريقها لتردف بنبرة أكثر حرارة:

_بين الشفقة والفخر!

_فخر؟!

غمغم بها بنفس النبرة الساخرة وهو ينزع كفه منها ببعض العنف...

فهتفت بيقين:

_نعم...فخر...فخرٌ بذاك الرجل الذي انقلب كل جبروت عصيانه إلى فيض نقي من ندم وتوبة.

ثم عادت تتشبث بأنامله أكثر وكأنها تغرس كلماتها غرساً بين ضلوعه:

_أنا لم أعد لأواسيك في مصيبتك...أنا عدت لأشاركك فرحتك بميلادك الجديد.

لكنه أشاح بوجهه دون رد...فأردفت بما يشبه الرجاء:

_أعلم أنك الآن لست بحاجتي...لكنني أنا أحتاجك...وأنت لم تخذلني في أي مرة احتجتكِ فيها!

صمت طويلاً دون رد إلا من خفقات قلب هادرة أعلنت عصيانها على بروده هذا...قبل أن ينتزع أنامله منها بقوله الجامد:

_لم يعد لديّ ما أمنحهُ لكِ.

لتجيبه بقولها الذي يقطر صدقاً :

_أنت فقط...أنت كل ما أرجوه!

ظلت ملامحه على جمودها وكأنها بلا حياة...

رغم أنه كان يتوقع عودتها في كل لحظة...

لكنه كان يدعو الله ألا تأتي!!!

أجل...لقد عرف قلبه أخيراً طريق الدعاء بعد تخففه من بعض آثامه...

وإن كان لايزال يرى طريق الغفران بعيداً!!

ومع هذا خصها هي بهذه الدعوة لأنه كان يدرك أثرها على نفسه!!!

هو الذي اعتاد موته -المُقنّع- هنا ولا يريد أن تمنحه الأمل الذي يبعثه من جديد!!!

هو يستحق أن يعيش ما بقي من عمره وحيداً منبوذاً هنا...

وهي تستحق بدايةً جديدة بلا آثام...

فقط لو يخرج قلبها من المعادلة!!!

قلبها الذي يثق -تمام الثقة- أنه لن يخفق إلا له!!!

وليس أسوأ من الشك في حبها إلا اليقين به!!

وليس أقسى من فراقها إلا عودتها بين ذراعيه!!

فأي عذابٍ هذا!!

أي عذاب!!!

لكنها وكأنها قرأت بإحساسها به ما يجيش بصدره...

فاقتربت منه لتتلمس وجنته بأناملها مع همسها :

_أنت قلت لي يوماً إنك لن تفرط فيّ إلا وأنت تثق ألا حياة بعدي.

فابتسم ساخراً وهو يلوح بذراعه على اتساعه مع همسه الذي بدأ يكتسب نوعاً من المرارة:

_وهل ترين هنا حياة؟!!

لكنها شددت ضغط أناملها الرفيق على وجنته وهي تجيبه بحزم:

_نعم...هنا كل الحياة!

أزاح أناملها عن وجهه وهو يعطيها ظهره لكنها لم تستسلم بل أسندت راحتيها المبسوطتين على ظهره وهي تقول بنفس النبرة القوية المفعمة بعاطفتها وكأنها تعيده قسراً لذكرياتهما:

_أنت نفسك قلت انني كلي لك...قلبي لك...جسدي لك...صرخاتي واغنياتي كلها لك....لك وحدك.

لكن صوته العميق وصلها مشبعاً بما لم تدرِ هل هو استسلام قوة أم يأس:

_وانتِ قلت إن السماء لا تكافي الشياطين بالماسات....كنت محقة!

تحركت بجسدها لتعاود الوقوف قبالته مع هتافها بصدق:

_لم تعد شيطاناً يا عاصي...أنت لم تخيب ظني في قوتك ...أجدتَ إدارة دفة سفينتك لتنجو بها!

وكأنما أعادته كلماتها لأقسى ذكرياته ...

فاختلجت عضلة فكه مع إغماضه لعينيه وهو يقول بصوت متحشرج:

_نجوت وحدي...بعدما غرق الجميع بسببي.

سالت دموعها على وجنتيها وهي تدرك إلى أي جحيم سحبته أفكاره الآن...

لكنها أجادت السيطرة على نفسها وهي تعاود مسح دموعها بصمت ...

قبل أن تتشبث أناملها بقميصه مع قولها بمزيج من قوة ورجاء:

_ألم تعلمني أنت كيف ينهض المرء من عثرته ليعاود السير دون ملل؟!الآن دورك أستاذي كي تطبق هذا الدرس!

ظل مغمضاً عينيه للحظات قبل أن يفتحهما قائلاً بحسم:

_حتى لو عاودت السير...سأقطع الطريق وحدي!

لكنها بدت وكأنها كانت تتوقع هذه الإجابة فصمتت لحظة...قبل أن تعاود تذكيره بعهدهما القديم:

_أذكر واحداً قال يوماً إن الرجل لا يترك امرأته لغيره...بل لا يتركها أبداً!

هنا عاود الابتعاد عنها بظهره وهو يزيح كفيها عن صدره قائلاً بخشونة:

_لم تعودي امرأتي!

ورغم أن عبارته أوجعت قلبها لأبعد حد...لكنها عاودت اقترابها منه مع هتافها بقوة منفعلة:

_بل امرأتك وحدك ما حييت...

ثم تشبث كفاها بعضديه بإصرار مع استطرادها:

_أخذتها أنت يوماً قسراً واليوم أمنحها لك طواعية..نعم ...قلب ماسة لك...وسيبقى لك.

لكنه عاد يبتسم ساخراً وهو يتذكر عبارتها في لقائهما -الكارثي- الأخير ليقول بنبرته الجامدة:

_آخر مرة رأيتكِ فيها قلتِ إن قلب ماستي تعلق بغيري...الآن يمكنكِ...

لكنها قاطعت عبارته بأناملها التي وضعتها على شفتيه وعبارته تذكرها بذنبها الأخير...

لتفقد تماماً سيطرتها التي دموعها التي انهمرت الآن على وجهها قبل أن تهمس بين شهقاتها:

_أرجوك لا تقل إنك صدقتني وقتها....طوال الأيام السابقة وأنا أصبّرنفسي أن عاصي الذي يحفظ تفاصيلي كاملة لن يصدق مزاعمي...ربما لولا هذا لأصابني الجنون ...

ثم أسندت جبينها على صدره لتردف بندم:

_سامحني يا عاصي...سامح كبريائي الذي دفعني لهذه القسوة...سامح صغيرتك المذنبة ...

كانت خفقات قلبه الآن تدوي في أذنيها فاضحةً ما يداريه بهذا الجمود الساخر وتلك الخشونة المنفرة...

تخبرها بما عجز هو عن البوح به كعادته...

تطمئنها أنه لن يردها خائبة...!

لهذا أردفت بملء ما تحمله روحها من ندم:

_أما أنا فلن أسامح نفسي أبداً على كل لحظة ألم عشتها أنت وحدك دوني.

ظل صامتاً دون رد وقد تجمد بصره بلا حياة...

فرفعت وجهها إليه لتسحب أنامله ببطء فتسير بها على وجنتيها مع استطرادها:

_امسح دموعي بنفسك كما كنت دوماً تفعل...امنحني سكينتي التي لن أجدها إلا معك...أنتَ أطلقت سراحي لأنك خلصتَ روحك من سعيرها...وأنا عدتُ إليك لأنني أراك وحدك جنتي.

وكأنها كانت تريد أن تضغط بكلماتها على احتياجها هي إليه ...لا العكس!!!

كانت تريد أن تكون عودتهما منةً منه عليها لا تفضلاً منها عليه!!

والواقع أن هذا كان إحساسها حقاً...لا مجرد مراعاةً لظروفه!!

أجل...هي كانت تشعر الآن أنها تحتاجه أكثر من احتياجه هو لها!!!

هو رجلٌ أراحه -يأسه- الذي استسلم له ولم يعد يطمع في المزيد...

لكنها -هي- لازالت تتنفس -أملها - بأن يعودا معاً!!!

لهذا عادت تقول بإصرار:

_لن أتركك يا عاصي...حتى لو طردتني من هنا سأبقى جالسةً على باب هذا البيت حتى تفتح لي...لن تمنعني قوة في هذه الدنيا من أن أستعيد أماني بين ذراعيك.

هنا ما عاد هو قادراً على السيطرة على مشاعره الجامحة ورغبته بها تزأر بين مد وجزر...

لتشتعل ملامحه أخيراً هاتفاً بثورة عارمة نسفت كل جبال جموده:

_بل ستخرجين ...وللأبد...لا أريد رؤيتكِ هنا ثانيةً...أنا تركت ماضيّ كله خلف ظهري...وأنتِ أول من رغبت في التخلص منه!

ورغم أن صوته المرتفع كاد يحطم الجدران بحدته لكنها لم تتحرك مقدار أنملة...

ثورته العاصفة كانت برداً وسلاماً على قلبها الذي كاد يحترق بجمود -لهجته-منذ بدأ هذا اللقاء...

والآن تشعر أنها قد بدأت في إصابة هدفٍ ...

ولن تبرح حتى تبلغ!!!

لهذا ظلت واقفة مكانها ثابتة للحظات وكأنها تمنحه فرصةً كي يهدأ...

قبل أن تقع عيناها على ما جعل قلبها يخفق بجنون!!!

أجل...فهناك في زاوية الغرفة كان هناك قائمٌ خشبي تستند عليه لوحةٌ بيضاء...

والعجيب أنها لم تكن خالية!!!

خطوطٌ فوضوية كانت تنتشر على أركانها وكأنه هو من رسمها!!!

اقتربت منها ببطء تجذبها قوةٌ لا مرئية لتتلمسها أصابعها بمشاعر جارفة...

فرغم أنها لم تتجاوز مجرد "شخابيط" بلا معنى...

لكنها ميزت بينها رسماً "شبه واضح" لعينين بحدقتين فضيتين!!!

عاصي عاد يرسم!!!

أنامله صالحت -فرشاة الرسم- بعدما خاصمت السلاح!!!

وأول محاولاته كانت...عيناها !!!

عيناها هي!!!

حاولت أن تبحث بين الخطوط عن شئٍ آخر يمكنها تمييزه فلم تستطع!!!

كلها كانت أشبه بهذيان روحه الجريحة التي نفثت سم آلامها عبر هذه الخطوط !!!

ورغم تشوش ما رأته لكنها كادت تجزم أنه لو عاد إليه بصره فسيبرع في هذا المجال!!!

ولما طال صمتها المتأمل للوحته سمعت صوته خلفها يهمس بحذر:

_هل رحلتِ؟!

هنا التفتت نحوه بحدة صامتة للحظات....

قبل أن تندفع لتتعلق بذراعيها في عنقه بكل قوة عاطفتها مع همسها الحار:

_أرحل؟!إلى أين أرحل بعد ما رأيته؟!!

ثم رفعت وجهها إليه رغم يقينها أنه لا يراها لتردف بمطر عشق هطل بين حروفها العاشقة:

_أنت...كنت...ترسمني...مهري الذي طلبته يوماً !

عقد حاجبيه بشدة وهو يقبض أنامله جواره غضباً من رؤيتها لخطوطه "البلهاء" كما كان يراها...

لتسقط عصاه من يده لكنه ما كاد ينحني ليلتقطها حتى تشبثت ماسة به أكثر مع همسها :

_عاصي الرفاعي لا ينحني.

ثم تشبثت بكفه لتردف بنبرة مخلصة:

_أنا عصاك يا سيد قلبي...أنا زوجتك وابنتك وصديقتك وحبيبتك...مهما أبعدني عنادك فعشقنا سيردني بين ذراعيك!

لم يدرِ ما الذي فعلته به كلماتها وهو يسمعها منها لأول مرة هكذا...

بهذه الحرارة وبهذا الإخلاص!!!

وكأنما هدمت في لحظة كل سدود تماسكه المزعوم...

حتى أنه عندما أراد رفع ذراعيه ليبعدها عنه من جديد...

فوجئ بهما يضمانها إليه أكثر!!!

ولأول مرة منذ أفاق بعد الحادث يتكلم عنه!!!

أجل...تماماً كذاك اليوم الذي باح لها فيه بمكنون صدره عقب وفاة حورية!!!!

دفن وجهه في عنقها وهو يغمض عينيه بقوة مع همسه شديد الخفوت:

_مات...ابني مات يا ماسة...مات بسببي!

ورغم أن همسه كان -بالكاد- يُسمع لكنه كان على قلبها كدويّ الرعد!!!!

همسه الذي كان يتساقط منه وجعٌ بحجم الجبال...

وندمٌ بعمق البحر...!!!

فعضت على شفتها بقوة وهي تضمه بكل عزمها تكاد تقسم أنه لم يحدث أحداً قبلها عن خبيئة صدره!!!

السيد المكابر أخفى جرحه عن العالمين...إلا عنها هي!!!

تماماً كما لم تتعر-ّ ندوب ظهره بجروح الماضي المخزي- إلا أمامها!!!

كذلك لم يُظهر ندوب- روحه - الكسيرة إلا لها!!!

لهذا لم تستطع السيطرة على نبرات صوتها المتهدجة وهي تهمس بحرارة:

_القدر سيعوضك بكرمه...أنا واثقة من عطايا ربي!!!

تركته لبعض الوقت يفرغ حزنه وألمه بين ذراعيها مكتفيةً بعناقهما الصامت...

ثم تشبثت بكتفيه لترفع وجهها نحوه قائلةً بمزيج عاطفتها المتشحة بقوتها:

_عاصي...أنا لم آتِ وحدي ...فهد بالخارج ومعه المأذون!

عاد حاجباه ينعقدان بانفعال وقد انفرجت شفتاه بصدمة...

لكنها احتضنت وجهه بأناملها لتردف بمزيج من رجاء وحزم كانا يحتاجانه الآن معاً:

_ستردني إليك...لا تكابر يا عاصي...أنت تعلم أن لا حياة لأحدنا دون الآخر...

صمت طويلاً دون رد وملامحه تفضح معاناته الصامتة باقتدار...

لكنها وضعت كفها على صدره لتردف بنبرة أكثر حرارة:

_أما آن لجروح الروح أن تلتئم؟! أما آن ل"عاصي" القلب أن يطيع؟

الفصل الخامس والثلاثون

_اعتنيْ بنفسك...ولو احتجتِ شيئاً هاتفيني.

قالها فهد وهو يستعد لمغادرتهما عقب إتمام عقد الزواج قبل أن يرمق عاصي الذي بدت على وجهه أمارات معاناته الصامتة...

ليميل على أذنها هامساً بحزم حنون:

_مهمتك صعبة...كوني صبورة!

أومأت ماسة برأسها مطمئنة فمنحها عناقاً مؤازراً أخيراً قبل أن يعود بخطوات ثابتة نحو عاصي ليصافحه بود مع قوله:

_مبارك يا سيد عاصي.

صافحه عاصي بحاجبين منعقدين مكتفياً بإيماءة صامتة ليغادرهما فهد بعدها ومعه الخادم...

وما إن شعرت ماسة بخلوّ المكان حتى اندفعت نحو عاصي لتتعلق بذراعيها في عنقه مع قولها بمرح لم تعرفه يوماً:

_سجل يا تاريخ! ماسة أحرزت أول هدف انتصار في هذه العلاقة!

ضمها بأحد ذراعيه بينما حافظ على الآخر جواره...

ليبتسم ابتسامة شاحبة ولازال حاجباه على انعقادهما فابتسمت بحنان وهي تمد أناملها لتفك انعقادهما بنفسها هامسةً بعاطفتها السخية:

_ابتسامة وتقطيبة...ذراعٌ يعانق وآخر يتمنّع...ملامح صاخبةٌ بالحديث مع شفاه مطبقة بالصمت..

ثم صمتت لحظة لتطبع على شفتيه "هدية" ناعمة تليق بهمسها:

_ستبقى "سيد الأضداد" الذي أعشقه بكل تناقضاته!!

أفلتت أنّة خافتةٌ من بين شفتيه تزامنت مع ضغط ذراعه المحتضن لها أكثر فأتبعت "هديتها" اليتيمة بالمزيد والمزيد على شفتيه مع استطرادها الهائم:

_حبنا المنقوص اكتمل...أخيراً.

ثم تأوهت بخفوت وهي تخفي وجهها في صدره هامسة
:

_أخبرك سراً؟!

انفرجت شفتاه للحظة قبل أن يعاود إطباقهما من جديد مكتفياً بضغط ذراعه الذي اشتد عليها رغم حركة أنامله "الرفيقة" التي صاحبته على طول ظهرها مع استطرادها:

_تلك الأيام التي تلت فراقنا كنت أعاتب نفسي فيك...لماذا لم أعشقك يوماً كما تعشق المرأة زوجها؟!لماذا بقيت علاقتنا محصورة في إطار الصداقة تارة والأبوة تارة أخرى؟!حتى في أشد لحظاتنا العاطفية حميميّةً كنت أكتفي بالأخذ دون العطاء!

ثم رفعت عينيها إليه تعانق غابات زيتونه التي تفتقد اشتعالها القديم لتهمس بحرارة:

_قمصاني الطويلة...عقدة شعري المعقوص...صقيع كلماتي المتحجرة...كل هذا يجب أن يتغير!

وكأنما داعبت كلماتها وتراً منسياً في قلبه!!

هو لم يكن "غافلاً" عن "تحفظها" هذا الذي تحكي عنه لكنه كان يدرك ب"حدسه" منبعه !!

ماسة امرأة لا تجيد الرقص على حبال "المتاح" بدعوى "الرضا"...

"رقصتها" ينبغي أن تكون على أرض ثابتة ملساء تناسب "رشاقة" خطواتها العاشقة...

وإلا فكيف تأمن "حافية القدمين" من "أشواك" المصير؟!!

"رقصتها" ينبغي أن تكون في مكان هادئ...وبلا ألحان!!

رنين "خلخال" أنوثتها لا يحتاج لصخب نغمٍ يشوش عليه!!

يكفيها إغواء "نظرة" تنفلت كجواد طليق من بين رموشها الحارسة ...

لتحمل لهب الشمس و حِدّة السيف ولذة العسل!!!

"رقصتها" لا كرقص "الغواني"في ظلام الحيرة والشكوك...

بل كرقص "الملكات" على بلاط القصور تحت الأضواء...

أو كرقص "حوريات البحر" عندما يصعدن برؤوسهن فوق الماء ليعانقن الشمس ويسحرن أعين البشر!!!

"رقصة" ماسة العاشقة كشعاع الشمس...

سحره "يكتمل" في حريته واختراقه لكل ما يشرق عليه...

و"ينقص" عندما تحجبه الجدران!!!

لهذا لم يتعجب عندما شعر بأناملها تتحسس وجهه برقة مثيرة مع همسها:

_أشتاق الآن أن أفرد شعري على كتفيك...أن أرتدي لأجلك أرق أثوابي...أن أُسمعك أَحرّ عبارات الغزل ...همساتٍ لم يعرفها قلبي إلا لك...لك وحدك!

ثم مدت أناملها تنتزع عنها حجابها لتحرر شعرها من رباطه قبل أن تهز رأسها برفق مع استطرادها:

_أريدك أن تراني الليلة كأجمل مرة رأيتني فيها!

التوت شفتاه بابتسامة ساخرة متشحة بالمرارة لكن شفتيها المغرمتين كانتا لها بالمرصاد...

مرة...تلو مرة...تلو مرة...

حتى تحولت ابتسامته الساخرة لأخرى راغبة ناسبت همسها هي الدافئ بعدها:

_لن تراني يوماً أفضل مما ستراني الآن...منذ متى يبصر العاشقون بعيونهم؟!

ثم سحبت أنامله الحرة قسراً لتدور بها على ملامحها مردفة:

_أرأيت؟!معي حق؟!صحيح؟!

تأوه بخفوت وصورتها في مخيلته تسطع وسط كل هذا الظلام كشمس متوهجة...

هو يراها!!!

حقاً يراها!!!

عيناها تلتمعان ببحور فضتهما وتنبضان بعشق لم يشعر بهدير موجه- كما الآن -من قبل!!

رموشها ترفرف فوقهما كحمائم حرة بلا قيود...

شفتاها تشتعلان بعاطفة هو وحده يعرف كيف يطفئها ...

وخصلات شعرها تهيم بفوضوية حول وجهها لتعمق الإحساس ب"حرية اللوحة" !!!

لوحة؟!!!!!

نعم...وهل أجمل من هذه لوحة؟!!

لكنه وبرغم الصخب المشتعل في أعماقه ظل صامتاً دون رد...

هو "رجلٌ" لا يعشق بلسانه!!

كلمات الحب لديه "عملة زائفة" لا يُتعامَل بها في "سوق" المغرمين!!

و هي "امرأة" لا تسمع في الحب ب"أذنيها"...

بل ب"قلبها"!!

قلبها الذي كان يسمع الآن دويّ دقات قلبه يكاد يقسم بسخاء على ما بخلت به كلماته!!

لهذا خفضت رأسها لتميل على صدره أخيراً بقبلة عميقة مع همسها:

_قلبك يفهمني عندما أخصه بقبلاتي...يدرك معناها تماماً كما أريده .

ثم بسطت كفها على صدره مكان قلبه تماماً لتردف:

_قلتَ لي يوماً إن الحب تمثال من شمع ينصهر بلهب الخطايا...لكن حبنا كان من حجر...صمد في وجه اللهب حتى انطفأ وبقي هو راسخاً مكانه!

أطلق آهة خافتة وهو يشيح بوجهه وكأنه يهرب من فيض عشقها هذا الذي يرى نفسه لا يستحقه...

لكن "الصرخات" عادت تدوي في أذنيه كما كانت ليلة الحادث...!!!!!!!

وكما تبعتها في كل ليلة بعدها!!!

تلك "الصرخات" التي أيقظت ضميره لتجلده بسياط الذنب...

وكأنها في كل مرة تذكره بذنوبه...

بماضيه...

بما يجب أن ينتظره من عقاب...!!

تلك "الصرخات" التي تحمل له كل مرة نفس النبوءة...

"لن تفرح"...

"لن تهنأ يوماً بمعاش"

"لن تنال من النار دفئاً...بل احتراقاً"

"حتى التوبة حرّمت على شيطان مثلك"

"ستعيش عاصياً وتموت وحيداً"

"لن تفرح"

"لن تفرح"!!!

فارتجف جسده ارتجافة خفيفة وعرقٌ خفيف قد بدأ يظهر على جبينه ...

لتقرأ هي خبيئته بما يحمله قلبها العاشق من دراية به...

فاحتضنت وجنتيه براحتيها تداعبهما بحنان مع همسها الذي حمل الآن بعض الرجاء:

_أريد أن أطلب منك شيئاً...وأرجو ألا تخيب رجائي!

تنهد بحرارة حارقة وكأنه يخرج معها بعضاً من لهيب روحه...

قبل أن يومئ برأسه منتظراً كلماتها عندما استجمعت هي شجاعتها لتهمس مناقضةً كل ما يملؤها من خجل:

_أريد أن نفرح هذه الليلة...أن ننسى كل ما كان بل وما سيكون...

ازداد انعقاد حاجبيه لتدرك صعوبة ما تطلبه لكنها لم تستسلم...

بل التصقت به أكثر لتردف بنبرة أكثر حرارة:

_إذا كنت أنت زاهداً في فرحتك بي...فأنا أذوب اشتياقاً لفرحتي بك...لن أدّعي صبراً لا أملكه...اخرج من سجنك وانطلق معي بلا قيود...

كانت تعلم أنها تطلب ما يقارب المستحيل...

وأن الرجل الذي عاد "من قلب الموت " محملاً بأوزاره لن يتقبل ببساطة بتلات الحب التي تلقيها تحت قدميه...

لكنها معه تسير بحدسها...

عاصي سيخرج من سجنه!!!

سيتحرر من كل هذه الأغلال التي كبلت روحه وأولها قيوده هو لنفسه!!!

يجب أن يتحرر من عقدة ذنبه ليرى نفسه الآن كما تراه هي...

بطلاً حقيقياً !!

وهل من بطولة أعظم من أن ينتشل المرء نفسه من بئر معصيته العميق ليتعلق بحافته نحو الخروج لطريق التوبة؟!!

خاصةً لرجلٍ في سنه وسابق مكانته ونفوذه!!!

هي لا تريد مجرد علاقة جسد بجسد...

بل تشبث روح بروح ليحلقا معاً خارج أسوار هذا الجحيم من ماضٍ وذنب!

لكن صمته المشتعل أمامها -والذي طال كثيراً -جعلها تشك أنها تسرعت في هذا الأمر...

وأنه ليس مؤهلاً بعد لشئ كهذا مع ما تموج به روحه من يأس مثقل بالذنب!

لهذا ارتخت أناملها على وجنتيه برفق لتبتعد عنه خطوة...

لا...ليس كبرياؤها ما أبعدها هذه المرة...

بل احترامها لحزنه!!!

لهذا أخذت نفساً عميقاً ثم همست بحنان لا تدعيه:

_لا بأس...كما تريد...لكن اعلم أنني لن أيأس منك أبداً...لن أهدأ حتى أعيد لك ضحكتك ..كما أعدت لي ضحكتي.

ظل وجهه على جموده وإن اختلجت عضلة فكه واشية بانفعاله...

لتردف هي أخيراً بملء روحها العاشقة:

_لن أنام هذه الليلة ...سأبقى أملأ عيني من ملامحك التي افتقدتها...طوال هذه الليالي وأنا ......آآآه!

انقطعت عبارتها بآهة ألم لذيذة عندما تمرد ذراعه الحر أخيراً على جموده ليضمها إليه مع ذراعه الآخر بكل قوته قبل أن تذوب بقية حروفها بين شفتيه...

واختفي العالم كله في لحظات...!!!!

عندما غابت أنامله في رحلتها -التي افتقدتها - لمنابت شعرها بحركته الأثيرة...

وامتزجت خفقات قلبيهما فيما بدأ صاخباً مدوياً كقرع الطبول...

قبل أن يخفت رويداً رويداً حتى قارب هسيس النسيم...

دفءٌ بدفء...والبادي أكرم...

شوقٌ بشوق...والبادي أسعد...

وعدٌ بوعد...والبادي أصدق...

بل...

عشقٌ بعشق...وليس منهما بادئٌ ولا لاحق...

فكلاهما الآن في عز رحلته ...منطلق!!!

=========

_صباحية مباركة يا عروسي!

همس بها معتصم بحرارة في أذنها وذراعاه يطوقانها بدفء مع توهج عينيه بعاطفته وهو يردف:

_أم أقول يا حلمي؟!

فانطلقت منها أنّة خافتة وهي تعانق نظراته العاشقة بلهفة ناسبت همسها ذا الدلال:

_كنت تحلم بي؟!

فازداد ضغطه الحاني لها وهو يهمس بحرارة:

_كنتِ أغلى حلم!!

ثم ضحك ببعض الخجل وقد احمرت أذناه قليلاً ليناقض هذا خشونة صوته المرتبك بعدها:

_يوماً ما قد ...أقصد...لديّ شئٌ ربما...تحبين رؤيته!!

قالها وهو يحل ذراعيه من حولها لتعبث أنامله بخصلات شعره وهو ينهض من نومته في ارتباك جعلها تنطلق ضاحكةً للحظات...

قبل أن تقوم بدورها لتحتضن وجنته براحتها هامسةً بمرح لم يخفِ عاطفتها:

_ماذا حدث في هذه الدنيا؟!معتصم العابث تحمر أذناه خجلاً!!!

فخبطها على كتفها بخفة وهو يغلظ صوته هاتفاً بمزيج من خشونة وعبث:

_خجل؟!!دعينا نختبر هذا الخجل إذن!!

قالها وهو يجذبها نحوه ببعض العنف لكنها عادت تضحك بانطلاق وهي تبسط راحتها أمام وجهه قائلةً بما يشبه الاعتذار:

_سحبتها!!

فضحك بدوره وهو يضمها برفق ليقبل رأسها بينما رفعت هي عينيها إليه لتقول برجاء جاد هذه المرة:

_ما هذا الذي كنت تريدني أن أراه؟!

تنهد بخفة ثم عاود تقبيل رأسها ...

قبل أن ينهض من جوارها ليفتح الكومود جواره حيث استخرج منه بعض الأوراق التي ناولها لها مع قوله الذي امتزج بعاطفته:

_تبيّني التواريخ تحت تواقيعي!

ابتسمت بفرحة غامرة وهي ترى خطوطه البسيطة بقلم "الرصاص" والتي رسمت وجهاً يشبه وجهها ...

وتحته كانت حروف اسمها مكتوبةً بطريقة خاصة ...

والعجيب أن هذا كان مكرراً في جميع الأوراق التي تشابهت خطوطها إلا من تواريخها التي وشت لها

بقِدَم عاطفته !!!

فرفعت عينيها إليه بابتسامة حب واسعة ليعاود استلقاءه جوارها هاتفاً بمرح لا يخلو من حرج:

_يوماً ما وقعت إحداها في يد أمي...فعلمت عن شعوري نحوك...يومها أحسست بنفس إحساسي عندما كنت أتسلق سور المدرسة هرباً فيضبطني الحارس متلبساً!!!

علت ضحكاتها الرنانة بعاطفتها المشبعة بسعادتها للحظات قبل أن تعود ملامحها لسابق هدوئها مع سؤالها ببعض الحرج:

_بخصوص والدتك...هل قبلت زواجنا هكذا ببساطة رغم ظروفي؟!

لكنه ضحك ضحكة رائقة وهو يشعث شعرها بأنامله مشاكساً مع همسه :

_أنتِ لا تعرفين "زوزو"...غداً عندما تعاشرينها جيداً ستعلمين إنها لا تبالي بشئ في هذه الدنيا سوى سعادتي أنا وأخي.

ثم قبل جبينها بعمق عاطفته ليردف بصدق اخترق قلبها:

_وهي أدركت أن سعادتي لن تكون إلا معكِ.

ورغم أن عبارته أرضت غرور أنوثتها لكنها مطت شفتيها لتقول بمزيج من عتب ودلال :

_وهؤلاء الفتيات اللاتي...

_شظايا زجاج!!

هتف بها بحسم مقاطعاً عبارتها فأطلقت همهمة متسائلة قبل أن يقترب منها لينظر لعمق عينيها مفسراً:

_كل النساء بعيني شظايا زجاج وتبقين أنتِ ماستي ..

ثم صمت لحظة ليردف بين شفتيها :

_ماستي الوحيدة.

أغمضت عينيها بهيام تتلقى فيوض عاطفته بفخر عاشقة راضية...

ورغم أنه لم يكن أول عهدها بفورة المشاعر هذه لكنها كانت معه تختلف...

عندما يتصالح القلب والجسد ليمنحا تاج الملك لعاشق واحد...

فهذه هي "شرعية" السلطة لمُلكٍ ثابت لن يتزعزع!!

لتمضي بهما الدقائق لاهثة في عدوها حتى همس هو أخيراً وهو يضمها لصدره مستعيداً ذكرياته العامرة معها:

_قبل اعترافي لكِ ذاك اليوم...هل كنتِ تعلمين إني أحبك؟!

فابتسمت وهي ترفع عينيها إليه هامسةً بشقاوة:

_كنت أشك!

لكنه ضحك وهو يربت على وجنتها قبل أن يتنهد وهو يهمس بجدية تامة:

_أما أنا فكنت واثقاً من حبك لي...ولعل هذا ما كان يعذبني أكثر!

امتزجت عبارته الأخيرة بالكثير من الألم والعجز ...

لكنها قرأت ما يريد قوله في عينيه فوضعت أناملها على شفتيه مع همسها الراجي:

_معتصم...أنا صرت قوية بما يكفي لأنسى كل ما لا يروقني من ماضٍ ذهب ولن يعود...فلا تشغل بالك به.

فهز رأسه ليقول بأسف:

_فقط لو كنت أعلم عما يبعدك عني قبل فوات الأوان!!!لو كنتِ...

_معتصم!!

قاطعت بهمستها الرقيقة عبارته قبل أن تبتسم لتردف برضا:

_ألم تتعلم شيئاً بعد كل هذا؟!هي درجاتٌ وجب علينا صعودها درجة درجة...حتى نصل لآخر درجة...أنا تعلمت ألا ألوم البدايات فلولاها لما كانت النهاية...أجمل نهاية!!

_أحبك!!

لم يجد أفضل منها رداً على عبارتها ...

لا...بل وجد!!!!

غيمات قبلاته التي عادت تمطرها عشقاً على وجهها لتنبت الفرح بين جنبات روحها الراضية...

قبل أن تطوقه هي بذراعيها أخيراً لتقول بدلال:

_مطلبٌ أخير...شديد الصعوبة...لكن حبيبي معتصم لن يرفضه لعروسه !!

فارتفع حاجبه بمكر وهو يداعب أنفها بأنفه مشاكساً مع قوله:

_بدأنا الاستغلال!

وجوابها كان ضحكة رائقة قبل أن تتنحنح بحرج لتخبره بمطلبها...

والذي كان حقاً...شديد الصعوبة!!!!

==============

_لم تمت!!

تمتم بها حسام مصدوماً وهو يقرأ اعترافات سرحان في محاضر النيابة بعدما ألقي القبض عليه...

قبل أن يهز رأسه بذهول وهو يحاول استيعاب كل هذه الحقائق التي كانت غائبة عنه...

عاصي لم يقتل طيف...

الجثة المتفحمة في المنزل المحترق لم تكن لها!!!

وهو الذي ظن أن عاصي تدخل بنفوذه لإيقاف التحقيق في هذا الأمر ليغطي على جريمته...

ليكتشف الآن أنه فعلها ليساعدها على الهرب!!!

وهي؟!!!

هي خدعته ب"رسالة"!!!

رسالة!!!!!!!!

رسالة دمرتك يا حسام!!!

جعلتك تعيش في عذاب ضميرك طوال هذا الوقت!!!!!

أيقظت وحش الانتقام بداخلك فلم تهدأ حتى فتك بكل شئ!!!

رسالة!!!!!

أيّ غرٍ ساذج كنت وأنت تبكيها طوال هذه الليالي؟!!!

أي قلب أحمق كنت تمتلك وأنت تناجي "عقد الفل" خاصتها كل ليلة!!!

بل أي عقلٍ كان فيك وأنت تصدق تمثيليتها هذه بمنتهى الاستسلام؟!!

أحمق...

غبي...

والآن ...مجرم!!!!

نعم...مجرم!!!!

من منكما الدائن الآن...ومن المدين؟!!

أنت أم عاصي؟!!

عاصي لم يقتل أخته!!!

لكنك أنت...أنت كنت سبباً في مقتل زوجته وابنه!!!

خنت ضمير وظيفتك لتحقق انتقاماً مزيفاً لواحدة لم تمت!!!

لم تمت!!!!

عاد يهز رأسه بذهول قبل أن تنفلت منه ضحكة قصيرة...

لم تلبث أن تلتها ضحكاتٌ أُخَر ناقضت ذاك الدمع المتجمد في عينيه مع هتافه المنفعل:

_آه يا بنت "الرفاعي" !

انقطعت أفكاره عندما سمع صوت طرقاتٍ هادئة على باب مكتبه فرفع عينيه نحوه...

قبل أن يقف مكانه ليهتف بدهشة:

_أنتِ؟!ماذا تفعلين هنا؟!

ازدردت ريقها ببعض التوتر قبل أن تسير نحوه بخطوات ثابتة لتقول بنبرة هادئة:

_كيف حالك يا حسام؟!

قالتها وهي لا تكاد تصدق أنها تقف أمامه من جديد...

هي -بالكاد- أقنعت معتصم أن يسمح لها بهذه الزيارة التي تأخرت لكن ...لعلها تدرك بعضاً مما يمكن إنقاذه!!!

بينما لم يكن هو في حالٍ يسمح له بالثرثرة...

فوضى أعماقه الآن كانت تكتسحه بلا رحمة لتزيد من خشونة طباعه...

لهذا هتف بنبرة جافة:

_ماذا تريدين أنتِ الأخرى؟!جئتِ تشمتين في سذاجة المخدوع أم تغيظين زوجك السابق بزواجك الجديد؟!

لكنها بدت وكأنها كانت تتوقع هذا الرد عندما صمتت قليلاً قبل أن تقول بنفس النبرة الهادئة:

_لا هذا ولا ذاك...جئت كي أريحك!

_تريحينني؟!!

هتف بها باستنكار وهو يلوح بذراعه قبل أن يهتف بغضب هادر:

_هاتي ما لديكِ أنتِ الأخرى... لا ينقصني دهاء النساء هذا!!!

تقبلت ثورته بتفهم وهي تدرك شعوره الآن...

حديثه الغارق في مرارته عن "سذاجة المخدوع" يعني أنه اكتشف الحقيقة...

اكتشفها في وقت متأخر للأسف!!!

لهذا تنهدت بحرارة ثم قالت بحذر:

_أنت علمت أنها لا تزال على قيد الحياة؟!

فابتسم ساخراً يداري هزيمته وهو يكتف ساعديه مع قوله:

_كنتِ تعلمين؟!

أومأت برأسها إيجاباً وهي تواجهه بثبات نظراتها لتلقي الحقيقةكاملة:

_قابلتها في أبو ظبي...مصادفةٌ جديدة من مصادفات القدر التي لا تنتهي.

فانعقد حاجباه بشدة مع اشتعال ملامحه وهو يسألها بانفعال:

_قابلتِها؟!

أغمضت عينيها بقوة للحظة تستجمع شجاعتها قبل أن تقول بحزم:

_نعم...قابلتها...لا تحقد عليها كثيراً فهي ليست هانئة...كلاكما مسخ شوهه انتقامه!!!

هنا دار هو حول المكتب ليقف قبالتها تماماً مع هتافه الثائر:

_ولماذا لم تخبريني من قبل؟!الآن تفضلتِ بإخباري الحقيقة؟!!بعد ماذا؟!بعد ما تلوثت يداي بالدم؟!

دمعت عيناها وهي تشعر ببعض الذنب لكنها أصرت أن تتم ما بدأته عندما قالت بثبات:

_لم أكن أعلم أنك تخطط للانتقام من عاصي بهذه الطريقة...كما أنها طلبت منا ألا يعرف أحد عن الأمر.

فضحك ضحكة ساخرة وهو يشيح عنها بوجهه الذي عجز عن إخفاء انفعاله...لتردف هي:

_أنا جئت أخبرك بالحقيقة كي تحسن تقييم أمورك...للأسف تأخرت أنا كثيراً في إبلاغك بها ...لكنني واثقة أنك لن تستريح حتى تلتقيها من جديد....هذا اللقاء الذي يحتاجه كلاكما ليداوي نفسه من جرح الآخر حتى يستطيع أن يكمل طريقه.

عاد يضحك مرة أخرى ساخراً قبل أن يعاود النظر إليها بقوله المنفعل:

_سعيكم مشكور يا ذات الجناحات البيضاء...إذا كنتِ أنهيتِ محاضرتك فتفضلي بالخروج !!

فرمقته بنظرة أسف ٍ طويلة قبل أن تغمغم :

_أعانك الله على نفسك يا حسام.

قالتها وهي تعطيه ظهرها لتنصرف بخطوات مثقلةٍ بمزيج شعورها من أسف وإشفاق...

ليضم هو قبضتيه جواره بغضب وهو يكز على أسنانه بغيظ..

أبو ظبي!!!!!

المخادعة تحرقه بعذاب ضميره هنا وهي تتسكع مسافرةً بين البلدان؟!!!

تسرق منه راحة باله بحروف رسالة بينما تعيش حياتها بحرية؟!!!

لكن...ألم يكن من الأجدر به -وهو الذي يزعم حبها- أن يكون الآن طائراً من فرط سعادته بأنها لم تمت؟!!!!

ربما لو لم يكن قد تورط بانتقامه لكان حقاً كذلك!!!

لكن رائحة الدم التي تفوح من بين أنامله المذنبة تزكم أنفه عن هذا الشعور!!!

لا...ليس الأمر فقط متعلقاً بصفعة -خديعتها - على وجه غروره!!!

بل بعذاب ضميره -الحقيقي- هذه المرة وهو موقنٌ من سواد فعلته!!!!

انقطعت أفكاره من جديد عندما وصله استدعاء من مديره المباشر في مكتبه...

فابتسم ساخراً وهو يتوجه إلى هناك بخطًى متثاقلة...

لماذا يستدعيه الآن؟!!

هل جدّ جديدٌ بشأن عقابه على فعلته؟!!

هو يتوقع أسوأ عقاب خاصةً وهو مقرٌّ بتقصيره!!!

لكن...لا بأس!!!

لعل هذا العقاب يخمد نيران روحه المتأججة ....

طرق باب المكتب برفق ثم دخل يواجه الرجل بملامح جامدة...

لكن الرجل ابتسم ابتسامة ودود ناسبت قوله:

_أعرف أنك تنتظر أخباراً سيئة...لكن لا تقلق...أنا تحدثت معهم بشأنك ..وتاريخك المشرف شفع لك...خاصةً أن أحداً لم يتقدم ببلاغ شخصي ضدك ...لهذا يمكننا تدبر الأمر فيما بيننا...أنا مقدر لظروفك النفسية السيئة بعد طلاقك الثاني..من المؤكد أنك لم تقصد هذا التقصير..فأنا أعرف عن كفاءتك منذ زمن بعيد..لهذا سأتجاوز عن هذا الأمر مكتفياً ب"لفت نظر" لكن هذا قد يستوجب نقلك لإحدى المناطق النائية...لا تقلق...لن يطول هذا الأمر ...حتى...

كان الرجل مستمراً في حديثه الذي غاب هو عن بقية تفاصيله...

فيما ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ...

ها قد نفدت من العقاب يا "سيادة الرائد"!!

أنقذتك وظيفتك ومعارفك وتاريخك "المشرف"!!!

دم هذه المرأة مع طفلها سيضيع هدراً فداءً لانتقامك السخيف!!!

لعبة...

بدأتها امرأة وسار هو خلفها كطفل أحمق...

والثمن دفعته امرأة أخرى وطفل برحمها لم يرَ الدنيا بعد!!!

فأي ظلم؟!

أي ظلم!!!

وهنا عادت مشاهد متفرقة من حياته مع دعاء تؤرق مخيلته بالمزيد من الذنب...

حتى كاد رأسه ينفجر من فرط غيظه ...

كم عذب تلك البائسة بذنب -أخرى- أجادت العبث به كدمية خرقاء!!!

"أخرى" لم يعشق امرأة غيرها ...ولم تخدعه امرأة سواها!!!

"أخرى" جعلته يسير حافياً على نصل السيف بينما تتراقص هي طرباً حول دمائه...

حقاً ...لو كانت الخديعة امرأةً لكانت هي بلا منازع!!!

_حسام ...هل تسمعني؟!

أيقظه هتاف مديره من شروده فالتفت نحوه بنظرات مشتتة...

ليرمقه الرجل بنظرة مشفقة ناسبت قوله:

_عملنا صعب يا ابني...ستواجه الكثير من هذه الأمور ...لكن يجب أن تتعلم أن تفصل بين حياتك الشخصية وبين واجبات عملك...

ثم صمت لحظة ليردف:

_يمكنك الحصول على إجازة لتريح أعصابك فأحوالك لا تعجبني مؤخراً.

فهز حسام رأسه ليقول مصدقاً على قوله:

_أجل...أنا أحتاج حقاً لإجازة...إجازة طويلة.

ثم أخذ نفساً عميقاً ليقول بعينين مغمضتين:

_سأتقدم إلى سيادتك بطلب وأرجو قبوله...

فضاقت عينا الرجل بنظرة متسائلة عندما منحه هو قراره الأخير:

_طلب "استقالة"!

==========

_الأزرق للصبية والوردي للفتيات...ستفسدين الذوق العام يا أستاذة!

هتف بها فهد وهو يسير معها لشراء لوازم العزيزة القادمة فالتفتت نحوه لتقول بمرح:

_لا شأن لي بالذوق العام...ابنتي وأنا حرة التصرف في شئونها!

لكنه هز رأسه ليقول مشاكساً:

_كل الثياب زرقاء وفيروزية...كزيّ المساجين!!!

انفلتت منها ضحكة عالية جذبت نحوهما أنظار بعض المارة في هذا "المول" الضخم الذي اكتظ برواده ...

فجذبها من مرفقها نحوه ليهمس بغيرة مشتعلة:

_كم مرةٍ أخبرتك ألا تضحكي هكذا وسط الناس؟!

زمت شفتيها بحرج وهي تلتصق به أكثر مع تربيتتها على ذراعه بهمستها:

_آسفة!

لكنه رمقها بنظرة حانقة وجدت لها مبررها مع تلك الهمهمة التي انبعثت خلفها:

_أليس هذا فهد الصاوي؟!

فأشاحت بوجهها هي الأخرى في ضجر وهي تهمس له:

_دعنا نغادر هذا المكان...أنا تعبت!

_لا!

هتف بها قاطعة عندما شعرت بمن خلفهما يتقدمونهما ليرمقونهما بنظرات فضولية وابتسامات متظارفة...

قبل أن يمضوا في طريقهم...

بينما لم يكترث فهد بهذا وهو يقول بتجهم:

_لا تهتمي...غداً ينسون!

أكملت سيرها جواره بوجوم لبضع دقائق حتى شعرت به يضغط أناملها في راحته مع ميله على أذنها بهمسته:

_غاضبة؟!

فرفعت إليه عينيها بنظرة ضائقة لانت رويداً رويداً أمام نظراته الحنون حتى ابتسمت أخيراً ...

قبل أن تهمس ببعض القلق:

_هل تظن حياتنا ستستقيم هنا؟!تاريخ والدك؟!شهرته؟!علاقاته؟!

ثم ازدردت ريقها بتوتر لتردف:

_أعداؤه!!!

لكنه عاد ينظر أمامه ليقول بحزم واثق:

_لا تشغلي بالك بهذا...أنا تخلصت من إرث والدي الفاسد كله.....بما فيه سجل عداواته...صحيحٌ أن فضول الناس سيطاردني لبعض الوقت لكنهم غداً ينسون عندما تنسحب الأضواء لأناسٍ آخرين.

أومأت برأسها موافقةً وقد منحتها كلماته بعض الأمان ...لتسأله بعدها باهتمام:

_ومشروعك الجديد؟!

_لا تقلقي...خبرتي مع أبي نفعتني كثيراً...ولعل هذا ما يمنحني بعض الأمل في القادم.

قالها مطمئناً إياها وقد نجح حقاً فقد تنهدت بارتياح أخيراً لتقول بابتسامة واسعة:

_الحمد لله!

والغريب أنه كان يرددها هو الآخر في نفسه سراً وهو يشعر براحة غريبة مع سيره معها هكذا...

مطمئناً...مرتاح البال...

لقد عاش جاسم الصاوي ومات دون أن يجرب شعوراً كهذا !!!

لا يذكر أنه رآه مرة يتحرك دون حرس شخصي!!!

ورغم تظاهره الدائم بالقوة والتسلط...

لكنه -وحده- كان يرى في عينيه تلك النظرة الخائفة!!!

نظرة رجلٍ خاسر يتوقع أن تأتيه النهاية المخزية في أي وقت!!!

لهذا يحمد الله أنه أفاق لنفسه في الوقت المناسب قبل أن يسير نحو نفس المصير!!

انقطعت أفكاره عندما رن هاتفه فتناوله ليطالع اسم المتصل ببعض الضيق قبل أن يقول لجنة بحزم:

_ادخلي أنتِ هذا المحل وأنا سأنتظركِ هنا حتى أنتهي من مكالمتي.

نقلت بصرها بينه وبين الهاتف بتوجس قابله هو بنظرة رادعة...

فزفرت ببعض الضيق قبل أن تدخل للمحل كما أشار...

ولم تكد تمضى بضع دقائق حتى عادت إليه لتجده قد أنهى مكالمته وقد وقف واجماً بشرود...

فاقتربت منه وهي تسأله باهتمام:

_مَن كان هذا؟!

التفت إليها من شروده ليبتسم ابتسامة عابثة وهو يرفع أحد حاجبيه مع همسه بمكر:

_ولماذا "هذا" وليست "هذه"؟!!

فابتسمت وهي تلكزه في كتفه قبل أن تعاود سيرها معه ليجيبها هو عن تساؤلها:

_حسام!

عقدت حاجبيها بضيق وهي تهز رأسها لتقول بانفعال:

_أعوذ بالله!ألازلتَ على علاقة به بعد ما فعله بعاصي؟!

زفر بقوة ثم صمت قليلاً ليردف بعد فترة :

_الأمر أعمق مما تظنين...أنا أعلم أن الخيوط متشابكة حد التعقيد...لكنني أفهم حسام جيداً وأعرف كيف يفكر.

عادت تهز رأسها بتساؤل ...فاستطرد بشرود:

_قد يبدو الأمر سطحياً وكأنه استغل وظيفته ليحقق انتقاماً رخيصاً...لكنه لم يحسبها هكذا...هو وقتها فكر أنه يستغل وظيفته حقاً لكن ليحضر حق امرأة ضعيفة لن يطالب به أحد...كان يظن أن عاصي أحرق البيت بأخته بعدما أجبرها على إرسال رسالة له كي يبدو الأمر كانتحار...

أشاحت بوجهها في عدم اقتناع ...بينما أردف هو مدافعاً:

_لو كان سيئاً كما تظنين لما تعذب بذنب طيف طوال هذه الأيام...لما خاطر بعقابه في عمله عندما ينكشف الأمر...حسام حقق العدل كما يراه هو لا كما نراه نحن.

فعادت تلتفت نحوه لتهتف بسخط :

_الحكاية ليست فيما يراه أو فيما نراه...الحكاية في تلك المرأة وطفلها اللذيْن سيحمل وزرهما مابقي له من

عمر...في إصابة عاصي التي لا ندري إلى الآن مداها...في خيانته للقسم الذي أقسم عليه في وظيفته.

هنا أومأ هو برأسه موافقاً ليقول بأسف:

_حسام قدم استقالته بعد ما عرف الحقيقة.

فمطت شفتيها باستياء وهي تقول باندفاع:

_أقل واجب!!الآن يمكنني القول أن لديه بعضاً من ضمير...لكنني عند رأيي...ذنبه سيبقى في عنقه طوال عمره ولا أدري كيف سيكفر عنه!!

صمت طويلاً دون رد ...قبل أن يهز رأسه بأسف ناسب قوله:

_هو أيضاً يرى هذا...لأول مرة أجدني عاجزاً عن مساندته كصديق...ليس فقط لأن الأمر يتعلق بزوج أختي لكن لأنني لا أجد له من فعلته مخرجاً.

ثم صمت لحظة ليردف أخيراً:

_وكأنما كُتِب عليه أن يبقى أسير ذنوبه طوال عمره...وما أقساه من شعور لو تعلمين!!

============

سارت بما تحمله بين يديها نحوه وهي تراقبه بعينيها العاشقتين...

كان جالساً أمام النافذة المفتوحة المطلة على البحر وأنامله منقبضةٌ على مسنديْ المقعد بقوة جعلتها تدرك الكثير عن طغيان مشاعره...

ورغم أنه كان يعطيها ظهره لكنها كانت تقرأ حزنه اليائس في سكون جسده...

ظهره الذي استقام كما ينبغي في جلسته مع ما تدركه من حمولٍ عليه!!

حتى صارت على بعد خطوة منه فوضعت ما بيدها جانباً ثم تناولت كفه بقبلة على ظاهره مع همسها بدلال ممتزج بعاطفتها:

_هذه لأبـي!

حملت ملامحه بعض الارتياح وقد التوت شفتاه بشبه ابتسامة عندما حطت شفتاها بعدها على جبينه لتردف:

_وهذه لصديقي!

فاتسعت ابتسامته نوعاً بينما واصلت شفتاها طريقها لشفتيه بقبلة ناعمة ناسبت همسها الحار:

_وهذه لحبيبي وسيد قلبي!

تلقفها بين ذراعيه ليجلسها على ركبتيه مع همسه بصوته الذي لم يغادره حزنه بعد:

_صباح الخير...أين كنتِ؟!...لقد سمعت صوتكِ منذ وقت طويل تنادين الخادم!

فابتسمت وهي تتناول شريحةً من البيتزا التي أعدتها لتقربها من فمه هامسةً بمرح:

_كنت أعد لك هذه !

لكنه أشاح بوجهه ليمسك كفها قائلاً ببعض الخشونة:

_أستطيع تناول طعامي وحدي!

ورغم أن -سوء فهمه- قد ضايقها لكنها عادت تميل على أنامله الممسكة لكفها بقبلة عميقة مع قولها بتفهم:

_لا أفعلها لأنك تحتاجها...بل لأني أحب فعلها!

عقد حاجبيه بضيق تقبلته هي بصبر وهي تدرك ما يعانيه لتعاود تقريب الطعام من فمه مع استطرادها:

_لم تتذوق يوماً طعاماً من صنع يدي...هيا أخبرني عن رأيك بصراحة!

ظل حاجباه منعقدين للحظات حتى ظننته سيرفض...

قبل أن تنفرج شفتاه ببطء ليقضم قطعةً من طرف الشريحة ثم همس بعد لحظات باقتضاب:

_جيدة...سلمت يداك.

ربتت على وجنته برفق ثم انتبهت لأن جلستها هذه قد تكون تؤلم ساقيه مع ما علمته عن سابق إصاباته بعد الحادث...

فتحركت لتعاود وقوفها لكنه بدا وكأنه قد قرأ أفكارها كعادته فتشبث بها مع قوله بحزم:

_ابقيْ كما أنتِ...أنا بخير!

هنا ابتسمت بحنان وهي تعاود إطعامه بأحد كفيها بينما تتحسس وجهه بكفها الآخر مع همسها الذي فاض بعشق ما عادت تخفيه:

_هذا هو سر ما بيننا...كلانا يقرأ الآخر بمنتهى الشفافية دون كلمات...هذا ما يفوق الحب بكثير...إنه شفرة خاصة بين قلبينا فحسب!

ثم استمرت فيما تفعله وهي تردف بشرود:

_هل تعلم أنني كنت أحلم بك في تلك الفترة التي عقبت الحادث قبل أن أعلم عنه؟!كنت أراك تمد يديك نحوي لكن ذراعيّ كانا قصيرين ...لم يكونا يصلان إليك أبداً...وكنت أستيقظ من نومي كل ليلة بعدها وأنا أشعر أنني...أنني...لا أدري كيف أصف لك ...

بدا على وجهه بعض الاهتمام الذي كسر جموده وهو يلوك طعامه صامتاً...

فتنهدت بحرارة وهي تسند جبينها على كتفه لتهمس:

_ذابلة ...مطفية...كسيرة...هل تصدقني لو قلت إنني بعد كل حلم كهذا كنت أشعر باختناق أنفاسي وكأن ثقلاً ما يجثم على صدري ؟!!!حتى أنني كل ليلة قبل نومي كنت أدعو ألا يراودني ذات الحلم...لكنه كان ينتابني بإصرار عجيب...حتى كانت تلك الليلة التي علمت فيها عما حدث لك ...ليلتها لم تغفُ عيناي سوى بضع دقائق لأرى نفس الحلم ...نفس اللهفة في ندائك...نفس العتب في عينيّ...نفس القصر في ذراعيّ...لكن ...طاقةً غامضةً من نور ساطع ضربت ظهري فجأة لأجدني فجأة بين ذراعيك!

ثم رفعت عينيها إليه لتردف بابتسامة رآها بقلبه دون عينيه:

_لازلت أذكر شعوري بدفئي بين ذراعيك في حلمي ساعتها...لمعة عينيكِ الصافية كما لم أرهما من قبل...ولعل هذا هو ما هوّن عليّ مصابي وقتها.

انفرجت شفتاه وكأنه سيهمّ بالحديث لكنه عاود إطباقهما بإصرار مع انعقاد حاجبيه لتدرك هي صعوبة أن يتحدث عن ذاك الأمر...

ورغم أنها في ظروف أخرى كانت ستتقبل صمته لكنها تدرك الآن أن حديثه هو علاجه!!!

كلامه عن الأمر سيريحه من "جلد الذات" هذا الذي يمارسه على نفسه...

لهذا ستضغط عليه بكل ما أوتيت من قوة ليبوح لها بمكنون صدره عساه يخفف بعضاً من أوزار نفسه المشبعة بيأسها!!!

كان قد انتهى من تناول طعامه فعرضت عليه قطعةً أخرى رفضها باقتضاب قبل أن يعود لصمته المشتعل...

فمسحت يدها بمحرمة ورقية ثم تنفست بعمق تتأهب لمعركتها التالية قبل أن تسأله مباشرة:

_لماذا هدمت القصر؟!

ازداد انعقاد حاجبيه وهو يشيح بوجهه ليتجاهل سؤالها هاتفاً ببرود لم يخدعها:

_هل ضايقكِ الأمر؟!هل تزعمين أنكِ كنتِ تحبينه؟!

بسطت كفها على صدره بحركتها التي تعلم كم تريحه لتجيبه بشرود مصطبغ بالشجن:

_أكذب لو قلت لك لم أحبه...غرفة الحديقة بكرمة العنب التي طالما احتضنت حزني...غرفتك الهادئة التي طالما منحتني سكينتي...فضاء سطحه الواسع حيث استقرت طائرتي الورقية...وحتى تلك المساحة الخالية في خلفيته والتي خصصتها لتدريبات سلاحك....نعم...سأفتقد كل هذا ما بقي من عمري ...لكن...

ثم صمتت للحظة لتردف بمزيج قوتها وعاطفتها الفريد:

_لو كنت هنا وقتها لهدمته قبلك!

فارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة وهو يسألها:

_لماذا؟!

هنا ازداد ضغط كفها على صدره لتقول برقة مشاكسة:

_لا تراوغني بمكرك...أنا سألت أولاً!

ذابت ابتسامته على شفتيه رويداً رويداً حتى تلاشت تماماً مع أطياف ذكرياته التي عادت تراوده ...

لتنهش روحه بمخالب الذنب من جديد...

لكنها اكتنفت رأسه بين كفيها لتضمه لصدرها قبل أن تحوطه بذراعيها في احتواء كانت تحتاجه الآن مثله ...وربما أكثر!!

لتهمس في أذنه بحنان :

_تكلم يا عاصي...تكلم لأجلك لا لأجلي...أنا أكاد أقسم على ما يشعر به قلبك الآن...لكنني أريد أن أسمعه منك...تكلم حتى تسامح نفسك!

كان صوتها يصله وهو بين ذراعيها وكأنما هو ترنيمة سلام هبطت من السماء على مسافر ليلٍ وحيد في صحرائه فآنسته...

أو كقطرات مطر عنيدة تحدت أحجار يأسه حتى صدعتها...

ورغم أنه كان يعتبر حديث نفسه عزيزاً لن يظهره لأحد...

لكنه بين ذراعيها الآن وقد غابت عيناه إلا عن ظلمة ما عادت تفارقه...

وصمّت أذناه إلا عن هدير دقات قلبها التي يتردد صداها مع دقات قلبه بنفس الإيقاع...

وغفل إدراكه إلا عن فيض حنانها الذي احتواه باقتدار لن يجيده مثلها...

وجد نفسه يهمس أخيراً بخفوت :

_لم أكن يوماً غافلاً عن ذنوبي...بل إنني لا أبالغ لو قلت إنني كنت أحفظها واحداً واحداً...كل ذنب كان يقع على قلبي كجلدة سوط تؤلم في البداية قبل أن يختفي الوجع لتحل محله ندبة...يوماً بعد يوم...ذنباً بعد ذنب...ندبةً بعد ندبة ...تشوه القلب بخطاياه...زعمت أنني لن أكترث بالنهاية...ورغم أني كنت أنتظر عقاب السماء لكنني لم أكن أخشاه..

عضت على شفتها بانفعال ثم امتدت أناملها عبر فتحة قميصه نحو ما طالته من ندوب ظهره وكتفيه...

لتلامسها برفق مع همسها الدافئ:

_لم تعد تؤلم ...صحيح؟!هكذا أيضاً ندوب القلب...الزمن كفيل بجروحنا فقط لو صدقنا العزم ومنحناه الفرصة.

لكنه هز رأسه ليهمس:

_من قال إنها لا تؤلم؟!وأي زمنٍ هذا الذي يداوي الجراح؟!

ازدردت ريقها تبتلع غصة ألمها لأجله بينما استطرد هو بنفس الخفوت الذي يقطر ألماً:

_لقد صعدت سلم مطامعي درجة درجة حتى إذا ما وصلت لقمّته.... سقطت!

تهدج صوته في كلمته الأخيرة فضمته إليها أكثر وهي تقبل رأسه بعمق ليسودهما صمت قصير...

قبل أن يردف هو بنفس النبرة :

_لكنني عندما رأيت الموت بعيني علمت أنني لم أكن بالشجاعة التي تخيلتها...علمت ضعف قدري جيداً أمام مشيئة القدر...وجدتني أستعيد شريط حياتي كله لأتمنى نقطة رجوع...و بعدما أفقت...ووسط شعوري بهذا العجز الكامل الذي تذوقته لأول مرة لم أتمكن من الشعور بالسعادة لهذه الفرصة الجديدة التي كان ثمنها دماء امرأة لا ذنب لها وابنٍ كان هو كل أملي في هذه الدنيا.

دمعت عيناها بتأثر وهي تسمعه يتحدث بهذا الانطلاق لأول مرة منذ عرفته...

حديثه الذي كان دوماً مقتضباً بعبارات يمكنها عدّ كلماتها بالضبط ...

الآن تسمعه منه بتحرر و كأن سدود كتمانه انهارت فجأة ليفيض خلفها طوفان روحه الثائرة...

عاصي تغير حقاً!!

السيد المكابر باح أخيراً بحديث نفسه...

وياله من حديث!!!

لهذا لم تتعجب عندما رفع رأسه أخيراً ليهمس بنبرة أقوى:

_بعد ما أفقت من صدمة الحادث...لا أخفيكِ أن شيطاني غلبني أول الأمر ليطوقني بقيد جديد...عاصي الرفاعي لن ينكسر...ماذا لو فقد ابناً وزوجة؟!أو حتى زوجتين؟!هل عدمت الأرض نساءها؟!سيتزوج من جديد وينجب طفلاً واثنين وعشرة...لكن...

ثم تأوه بقوة مزقت قلبها بحرقتها مع استطراده:

_تلك الصرخات ردتني!!

فانعقد حاجباها بشدة وهي تردد خلفه :

_صرخات؟!أي صرخات؟!

هنا هز رأسه بقوة وهو يهتف بانفعال:

_صرخاتٌ لا تغادر أذني بعد الحادث..تارةً هي صرخات طفل صغير...وتارةً هي صرخات امرأة...وأخرى هي متداخلة بأصوات لا أميزها...صرخات عذاب لا تتوقف..ظننت أنني سأتخلص منها عندما أترك الماضي خلفي لكنها لم تفارقني إلى الآن.

سالت دموعها على وجنتيها وهي ترى بعينيها حد معاناته ...

لكنها تشبثت بتماسكها كاملاً لتسأله بنبرة قوية:

_لماذا ترفض العلاج؟!الأطباء يقولون إن ما تمر به ينبع من داخلك...أنت الذي ترفض مساعدة نفسك...لماذا يا عاصي؟!

_لأنني لا أستحق!

هتف بها بحدة وهو يهز كتفيها بانفعال قبل أن يدفعها ببعض الخشونة ليوقفها ويقف مكانه مع استطراده:

_لا أريد الاستجابة لهذا الهراء الذي يدعونه...لا أريد أن يسخر أحد مني...

ثم زفر زفرة حارقة ليردف:

_لا أريد انتظار أمل لن يأتي...هو كأس عقابي الذي سأرتشفه كاملاً حتى آخر قطرة!

لكنها هزت رأسها بعدم اقتناع وهي تهتف معارضة:

_أنت بهذا تظلم نفسك..لماذا لا...

_لن أتناقش في هذا الأمر!

هتف بها قاطعةً في وجهها ليبتر بها عبارتها بقوته المعهودة قبل أن يستطرد بنبرة أكثر صرامة:

_لم يجبركِ أحدٌ على احتمال هذا الوضع...فتأقلمي مع أنه لن يتغير!!

ورغم أن حديثه آلمها بخشونته لكنها كانت تشتمّ فيه رائحة انكسار روحه بذنبها ...

رائحة خوفه الذي لا يريد الاعتراف به من مزيد ضربات القدر...

رائحة ألمه من "أمسٍ "تبخرت كنوزه -المزعومة- كأن لم تكن ...

و"غدٍ" ينذره بشؤم فقرٍ جديد!!!

لهذا احتملت جفاف عبارته صابرة وهي تتشبث بعضديه بقوة ناسبت همسها :

_مجرد وجودي هنا معك وحدنا في هذا المكان حلمٌ...حلمٌ جميل لا أريد الاستيقاظ منه أبداً...لكنني سأكون أنانيةً حقاً لو تركتك لما تريد...أنت قلت لي يوماً إن الغريق لا يستأذنه أحد قبل أن ينقذه.

لكنه تنهد أخيراً بحرارة قبل أن يطلق آهة عميقة عقبها همسه اليائس:

_مضى وقت الإنقاذ يا صغيرتي...غريقك الآن في القاع!!

=====

غادرت المطار لتستقل تلك السيارة الخاصة التي تنتظرها في المدينة بتوصية منها ....قبل أن تقول للسائق بغطرسة :

_أريد الذهاب لقصر الرفاعي.

اختلس الرجل نظرةً جانبية نحوها لتجذبه هيئتها بالغة الأناقة والترف...قبل أن يغمغم متظارفاً:

_هل صار معلماً سياحياً الآن؟!

فخلعت نظارتها الشمسية لترمقه بنظرة قاسية ناسبت قولها:

_حافظ على عملك أيها الظريف وابتلع لسانك هذا طوال الطريق !

عاد الرجل ببصره نحو الطريق ساخطاً فيما شردت هي ببصرها وهي تتابع المرئيات حولها بمزيد من لهفة وشجن...

رغم أنها أقسمت لنفسها وهي تغادر هذه المدينة يوماً أنها لن تعود...

لكنها فعلتها!!!

لماذا؟!!

مكالمةٌ هاتفية من ماسة أخبرتها بما حدث لعاصي وطلبت منها الحضور لعل وجودها جواره يشكل فارقاً في حالته النفسية...

صحيحٌ أنها أغلقت الاتصال في وجهها يومها دون الاستماع لبقية التفاصيل- بمنتهى الصفاقة- مدّ عيةً عدم الاكتراث...

لكنها وجدت نفسها تحجز لنفسها مكاناً في أول طائرة عائدة إلى مصر...

لن تفوت هذه الفرصة للشماتة في ابن الرفاعي بعد ما ناله!!!

لقد رفض الاعتراف بها وسار على نهج أبيه مكتفياً بحفنة أموال ألقاها في وجهها...

والآن دورها لتتشفى فيه وقد رد له القدر ضربته!!!

أجل ...هي تشفق على زوجته المسكينة التي ماتت مع طفلها بعد ما نالتها لعنته...

لكن هذا لا ينفي فرحتها بعدالة القدر مع طاغية مثله!!!

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيها عند خاطرها الأخير...

لم تلبث أن اكتست ببعض الشجن وذكرياتها تنساب رغماً عنها مع انتقال نظراتها عبر البيوت والشوارع...

هنا عاشت أقسى ذكرياتها...

و...أجملها!!!

أجل...رغم أنها تأبى الاعتراف بهذا لكنها...الحقيقة!!!

لهذا احتبست دمعة غادرة بين رموشها والسيارة تمر على بيت حسام الذي لا يزال كما هو...

بدهانه المميز الأنيق وطوابقه الفخمة وسطحه الذي شهد العديد من ذكرياتهما معاً...

وعلى ذكر حسام خفق قلبها رغماً عنها وهي تعود لنفس العبارة...

"عدالة القدر"!!!

الرجل العظيم -الذي رفضها يوماً لأجل من هي أفضل- لم يعرف سعادةً بعدها!!!

إحداهنّ رفضته بعد معايرته بعدم الإنجاب...

والأخرى أفلتت بنفسها من جحيم أنانيته وجنونه!!!

صحيحٌ أن دعاء زعمت لها أنه لم ينسَها ...

لكن ..بماذا أفادها تذكّره؟!!

هي لم تؤمن يوماً ب"حب أول" و"حب أخير"...

ولا "حب قويٍ "ولا "حب ضعيف"...

عقيدتها في الحب إنه إما "غنيٌ " أو "فقير"...

الأول -يكفيك -عن كل العالم فلا تحتاج سواه...

والثاني- يُلجئك -إلى كل العالم تتسول منه ما تحتاجه!!!

وحبه هو كان فقيراً...بل...معدماً!!!

تنهدت بحرارة عند خاطرتها الأخيرة لتكتشف توقف السيارة أمام القصر...

أو -بالأدق- ما كان قصراً!!!

لتتسع عيناها بصدمة قبل أن تسأل السائق -المتبرم- بدهشة:

_ماذا حدث للقصر؟!

فقال الرجل ببرود دون أن ينظر إليها:

_هدمه صاحبه!!

زفرت بقوة ثم عادت تهتف بنفاد صبر:

_التفاصيل يا رجل...انطق!!!

فانطلق الرجل يحكي لها ما يتداوله أهل المدينة مما حدث لعاصي بما في ذلك اختفاؤه الغريب بعدها...

لينعقد حاجباها بمزيج من دهشة وانفعال...

قبل أن تعود ببصرها نحو أنقاض القصر البعيدة...

ورغماً عنها راودتها هذه الذكرى عندما أتت إلى هنا مع والدتها وهي بعد طفلة صغيرة ليطردهما حماد الرفاعي شر طردة...

ومنذ ذاك اليوم وقد كانت أقصى أمانيها أن تعود إليه ظافرة مسيطرة...

أن تمتلكه كما يفترض أن يكون حقها...

أجل ...ذاك القصر لم يغادر مخيلتها يوماً كرمزٍ لقوةٍ أرادتها...ولم تنلها...

حقٍ فقدته...ولن تهدأ حتى تستعيده!!!

والآن ذهب كل هذا كهشيم تذروه الرياح...

مات حماد الرفاعي...

وفقد عاصي بصره وسطوته ...

وانقض القصر فما بقي من كل هذا إلا حطام!

هنا اعتصرت قبضة باردة قلبها وهي تدور بعينيها في المكان بأسًى حقيقي...

قبل أن تتناول هاتفها لتتصل برقم ما...وما إن فتح الاتصال حتى تنحنحت لتعود لصوتها قوته مع قولها:

_أنا في مصر...أين أنتما الآن؟!

======

_عاصي!

همست بها بعاطفتها الدافئة وهي تبسط كفيها على كتفيه بينما كان هو جالساً على كرسيه في جلسته التي قلّما يغيرها الآن أمام النافذة المفتوحة...

ورغم أن ملامحه بقيت على جمودها لكن نبرة صوته حملت بعضاً من دفء شعوره بها وهو يمد أنامله لتحتضن كفيها على كتفيه مع همسه :

_أين كنتِ؟!

فمالت بجسدها عليه لتطبع على رأسه قبلةً عميقة قبل أن تهمس بتردد:

_لدينا ضيف!

تشنجت أنامله ليزداد ضغطها على كفيها مع انعقاد حاجبيه بقوة ناسبت هتافه:

_مَن؟!

صمتت للحظات دون رد قبل أن تتوجه ببصرها نحو طيف الواقفة هناك...

طيف التي تجمدت مكانها وهي تنظر إليه برهبةٍ احتلت ملامحها رغماً عنها...

وسؤالٌ واحد يكتسح كيانها بلا رحمة...

من هذا؟!!

هل هو عاصي الرفاعي حقاً؟!!

لا...لا...

هذا الشيب الذي ازداد غزوه لفوديه وكأنما تضاعف عمره فجأة...

هذا الانكسار الذي هزم عنفوان ملامحه...

هذه الجِلسة البائسة البعيدة تماماً عن جِلسته المهيمنة المعتادة على كرسيه في قصره!!!

أين هذا العاجز البائس من عاصي الرفاعي الذي كانت كلمته تزلزل الدنيا؟!

هل جاءت شامتةً حقاً؟!!!

ما بالها إذن لا تستطيع الآن هذا؟!!

كل ما يملؤها الآن شعور جارف بالرهبة مع تلك القشعريرة التي تسري في جسدها كله...

لكنها أخيراً استطاعت التقدم نحوه بخطوات متثاقلة...

قبل أن تتبادل مع ماسة نظرات ذات مغزى صاحبت هتافه هو المتوتر:

_من هنا يا ماسة؟!

ازداد تشبث ماسة بكتفيه فيما قالت طيف أخيراً بصوت متحشرج:

_أنا...طيف!

ازداد انعقاد حاجبيه للحظات ولازال قابضاً على أنامل ماسة بقوة ...قبل أن يتمتم بدهشة:

_طيف!!!

هنا تمالكت طيف دموعها بصعوبة وهي تستعيد بذهنها ما روته لها ماسة منذ قليل...

كل ما حدث لعاصي كان بسببها هي...

ربما يحمل هو أوزار أعدائه لكن حسام منع تدخل الأمن لإنقاذه ظناً منه أنه ينتقم لها!!!!

ربما لولا هذا لتمكنوا من إدراكه في الوقت المناسب قبل أن يفقد زوجته وطفله...

بل و...بصره!!!!

لكن ماسة رمقتها بنظرة لائمة جعلتها تتماسك قليلاً قبل أن تغمغم بصوت متحشرج:

_كيف حالك ..."سيد" عاصي؟!

أجل... نادته كآخر مرة التقته فيها ليلة سلمها نقودها شريطة ألا يعلم أحدٌ عن سرها شيئاً...

ورغم أن "النقود" منحتها "قشوراً" من أمان طالما افتقده عالمها ...

لكنها وقتها تمنت حقاً لو يمنحها "أماناً حقيقياً" باعترافه بها!!

أمنيةً ماتت سريعاً كغيرها من أمنيات اختنقت بدخان قسوة عالمها !!

لكنه -ومع رسميّة لهجتها المختنقة -شعر بدفء غريب انبعث من مجرد وجودها هنا...

لتنفرج شفتاه قليلاً وكأنه يبحث عن كلمات قبل أن يقول أخيراً :

_أين كنتِ؟!

فتبادلت مع ماسة نظراتٍ وافرة المعاني قبل أن تتنحنح ماسة أخيراً وهي تسحب كفيها منه ببطء لتقول بمرح مصطنع:

_سأترككما تتحدثان بحرية...لاريب أن لديكما الكثير من الحكايات.

قالتها وهي ترمق طيف بنظرة أخيرة مزجت حذرها برجائها قبل أن تغادرهما بخطوات متثاقلة ...

عندما التوت شفتا عاصي بابتسامة شاحبة وهو يسألها بنبرة غريبة:

_ألا يزال شكلكِ كآخر مرة رأيتكِ فيها؟!

قالها وهو يستعيد صورتها في ذهنه منذ لقائهما الأخير...

سمراء نحيفة القوام تفتقر لمقاييس الجمال المتعارف عليها...

لكن عينيها متوهجتين بشعلة خاطفة تأسر الأنظار...

يومها شعر أن هذه الفتاة سيكون لها شأنٌ عظيم وقد صدق حدسه فها هي الآن ترد بمزيج من ثقة وحسرة لم تخطئ طريقها لقلبه:

_بل أفضل بكثير!

هنا اتسعت ابتسامته بمزيج من حنان ورضا...

فيما استطردت هي بنفس النبرة:

_سافرت و صنعت لنفسي كياناً جديداً يليق بي...الآن أنا كاتبة معروفة يُشار إليّ بالبنان ولا يقف أحدهم ليتساءل عن أصلي ونسبي...

ثم صمتت لحظة لتردف:

_أنا فحسب!

ورغم أن عبارتها كانت تحمل رائحة غرور صريحة لكنه وحده كان يدرك ما خلفها من احتياج تداريه ببراعة...

احتياجٍ رآه قلبه دون عينيه...

وكم نحتاج أحياناً لأن نغمض عيوننا كي نرى الصورة أفضل!!!

أجل هكذا كان حاله الآن وهو يهز رأسه ليقول :

_لقد بحثت عنكِ طويلاً لكنني لم أعثر لكِ على أثر!

فكتفت ساعديها وهي تعتدل في وقفتها لتقول بتهكم حمل رائحة العتاب:

_لو كنت جاداً في البحث لوجدتني...لكن الحقيقة أنك وجدتها فرصةً للتخلص من عبء ثقيل!

وكأنما أعادت له كلماتها جلدات ذكرياته القديمة بأصداء ذنوبه المدوية...

لينعقد حاجباه من جديد وقد احتقنت ملامحه بمعاناته ...

معاناته التي قرأتها هي الآن بحدسها...

لتلين نبرتها نوعاً وهي تحكي له باقتضاب عما جدّ من أخبارها مروراً بلقائها -القدريّ الغريب-بماسة في سفرها ...

حتى ختمت حديثها بقولها:

_عذراً ..لا أقصد التقليب في دفاتر الماضي...مجرد ثرثرة.

لكن ملامحه بقيت على حالها من الألم الممتزج بعجزه والذي فاح من عبارته التالية:

_لماذا جئتِ اليوم؟!

هنا ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة وهي تتفحص ملامحه بأسى...

ماذا عساها تخبره؟!!

إنها جاءت لتشمت فيه؟!!

لترى بعينيها انكساره وذله؟!!!

لا...لن تفعلها!!!

لا شفقةً ولا تعاطفاً...بل لأنها ما عادت كذلك!!!

أجل...مرآه بهذه الصورة لم يُشفِ غليلها كما كانت تظن...

بل أحيا رماداً من عاطفةٍ ظنتها احترقت للأبد!!!

لكنها أبت الاعتراف بهذا صراحةً فتنهدت بحرارة ثم اقتربت منه خطوة لتقول بنبرة محايدة:

_أخبرني أنت...لماذا تظنني جئت اليوم؟!

أغمض عينيه بقوة وكأنما سيشكل هذا فارقاً وسط كل هذا الظلام الذي يحياه!!!!

ظلامٍ لم يعد يخشاه...على العكس...لقد صار يأنس به!!

وكيف لا وهو يجعل قلبه يبصر ما عجزت عنه عيناه!!!

قلبه الذي يخبره الآن أن هذه المرأة تشبهه!!!

بل...هي وجهه "الأنثوي" الآخر!!!

جفاف عباراتها يداري الكثير من أحاديث روحٍ مثقلةٍ بهمومها...

لكنه يعجز عن مداراة عاطفةٍ يراها الآن جيداً...

عاطفةٍ حقيقية بعيدة عن شفقة أو ادعاء!!

لهذا أخذ نفساً عميقاً ثم مد ذراعيه ببطء نحوها مع همسه الذي لم يفقد قوته رغم خفوته:

_اقتربي.

اتسعت عيناها بصدمة لدقيقة كاملة وهي ترمق ذراعيه الممدودين نحوها بذهول...

لم تتصور للحظة أن يأتي اليوم الذي يمنحها فيه هذا الرجل عناقاً!!!

بل إنها لا تزال تذكر ارتجافة كفها يوم صافحها في لقائهما الأخير ...

وكأنها لم تصدق وقتها أنّ تلامساً جسدياً ما قد يكون هناك بين "السيد " و"أخته" غير الشرعية الملطخة بعارها!!!

ولما طال صمتها المذهول أمامه استند هو لمسندي مقعده بقوة قبل أن يقف مكانه ليعاود مد ذراعيه نحوها دون كلمات...

هنا لم تشعر بنفسها وهي ترتمي بين ذراعيه لتطوقه بحرارة وقد ذابت كلماتها على شفتيها هي الأخرى!!!

سامحته؟!!

معقول؟!!

لا...لم تفعل...

أو...ربما فعلت...

لا يهم!!!

لم يعد يهم!!!

المهم الآن أن تتنعم بهذا العناق الذي افتقدته من سنوات طويلة... طويلة...

ربما بطول عمرها كله!!!

هل تجرؤ الآن على الاعتراف بأنها كبرت...وما كبرت؟!!

عاشت...وما عاشت؟!!!

نعم..لا تزال هناك بين جنبات روحها طفلةٌ ثائرة تطالب بحقها في مشاعر افتقدتها...

عالمها -المريض- بحرمانه ربما يئن بحاجته لهذا الدواء!!!

لهذا صمتت طويلاً مكتفيةً بتربيتاتها الصامتة على ظهره حتى تجمدت أناملها أخيراً مع همسه الحازم:

_سأعترف بنسبك أمام الجميع!

رفعت عينيها إليه بدهشة للحظات قبل أن تولد على شفتيها ابتسامة واهنة مع همسها:

_فات الأوان...لكنني أشكرك على كل حال!

هز رأسه بتساؤل وهو يتمنى الآن لو يقرأ نظراتها ...بينما تنهدت هي بحرارة لتردف:

_أنا لديّ الآن عالمي وحياتي...وأنت تركت مدينتنا من الأساس...لم يعد هناك جدوى مما تتحدث عنه!!

فانعقد حاجباه بضيق وهو يشعر بأنه معها الآن خالي اليدين...

يوماً ما كان قادراً على المنح...لكنه قبض يده!!!

واليوم يتمنى لو يستطيع العطاء...لكنه عاجز!!!

بينما عادت هي تقول وهي تبتعد عنه أخيراً :

_تكفيني مجرد رغبتك في هذا...هي تعني الكثير لديّ حقاً!

ثم ابتعدت عنه أكثر وكأنما تهرب من ضعف مشاعرها الذي ساءها أن ينتابها الآن لتقول بنبرة خرجت رغماً عنها جافة:

_سأضطر للانصراف الآن...لكنني سأزورك مرة أخرى قبل سفري...أتمنى لك الشفاء.

_هل سامحتِني؟!!

ودّ لو أمكنه أن يسألها هذا السؤال بنفس البساطة التي توارد بها لخاطره...

لكنه عجز!!!

لا...ليس كبرياؤه هذه المرة بل يقينه!!

أجل يقينه في كونها سامحته رغم أنه لم يسمعها منها...

يقينه الذي جعله الآن يبتسم ابتسامة حقيقية وهو يقول بنبرة دافئة:

_كنت أتمنى لو تبقين معنا هنا...لكنني أشعر أنك وجدتِ نفسك في عالمك الجديد!

فارتفع حاجباها بتأثر وهي تشعر بصدق عرضه هذا ...

لكنها تمسكت بنبرتها الجافة وهي تقول أخيراً بحسم:

_بالضبط!

ثم ودعته بعبارات مقتضبة قبل أن تغادر المكان بخطوات شبه راكضة وكأنها تهرب !!

والحقيقة أنها كانت حقاً كذلك!!!

كانت تهرب من شعورها المستحدث هناك بمشاعر وأدها عقلها من زمن تحت رمال نكرانه!!!

لقد استعذبت نهر "جمودها" الحالي ولن تعود لعطش مشاعرها من جديد!!!

وعلى العكس منها كان هو يشعر بفيض غامر من الرضا...

حتى أنه ظل واقفاً مكانه للحظات يحاول الاستماع لما يمكن أن يؤكد له بقاءها أو رحيلها...

لكن ماسة التي كانت تراقبه خفيةً شعرت بالكثير من الارتياح وهي تدرك أهمية هذه الزيارة بالنسبة إليه...

عاصي كان يحتاج هذا حقاً!!!

رغم أن طيف- بطبيعتها الجافة -لم تستطع منحه ما يحتاجه من دعم...

لكن مجرد زيارتها هذه تكفيه ليتجاوز أحد حواجز ذنوبه القديمة!!!!

لهذا اقتربت منه أخيراً لتبسط كفيها على صدره مع همسها الحاني:

_لا أحتاج لسؤالك عن مردود هذه الزيارة...أنت تبدو لي سعيداً بحق!

فابتسم ابتسامة راضية وهو يضمها إليه بقوة هامساً في أذنها:

_شكراً!

تنهدت في ارتياح ثم طبعت قبلةً عميقة على صدره لتقول وكأنها تذكرت شيئاً:

_يوماً ما قلت لي إن عاصي الرفاعي لا يشكر أحداً.

فاتسعت ابتسامته نوعاً وإن حملت بعض الشجن وأنامله تعرف طريقها بين خصلات شعرها مع همسه الدافئ:

_تماماً كما قلت إنك خلقتِ لتكوني كل استثناءاتي!

=======

_جنة وضعت طفلتها!!

هتفت بها ماسة بسعادة وهي تدخل عليه غرفته في جلسته المعتادة أمام النافذة...

فارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة وهو يقول :

_مبارك!

كانت ملامحها تشع بالفرحة وهي تقترب منه لتجلس على ركبتيها على الأرض أمام كرسيه مستندةً بمرفقيها على ساقيه وهي تقول بلهفة:

_ملك !كم أتوق لرؤيتها!!فهد يقول أنها تشبه جنة بينما تقسم جنة أنها نسخة منه!!

ثم ضحكت وهي تهز رأسها لتقول ببساطة غافلةً عن معنى كلماتها بالنسبة إليه:

_فهد يستحق هذه السعادة...لقد تغلب على شيطانه وترك ماضيه كله خلفه...لو كنت سمعت صوته اليوم وهو يخبرني عن ...

قطعت عبارتها فجأة وهي تنتبه لملامحه التي اكتست بمزيج من حزن وألم...

لتلعن نفسها سراً!!

تباً...كيف لم تنتبه لما تفوهت به؟!!

فرحتها بالصغيرة أنستها حذرها في التعامل معه!!

لكن...لا بأس!!

عاصي يجب أن يخرج من هذه الدائرة!!

يجب أن يواجه ماضيه لا أن يهرب منه!!

وهي ستساعده في هذا ...لن تكتفي بمجرد تربيتة على كتفه ...بل ستضغط برفق على موضع الألم حتى تصل معه للعلاج...

وستصل!!!

_لماذا سكتّتِ؟!

سؤاله الجاف قاطع أفكارها لكنها تجاهلته كما ينبغي ...

ثم ابتسمت بحنان انتقل لنبراتها مع قولها :

_إنها تمطر بالخارج ...ما رأيك لو نتمشى قليلاً على الشاطئ؟!

عقد حاجبيه بما يشبه الرفض وهو يقول بنبرة جامدة:

_لم أغادر هذا البيت منذ أتيت!

لكنها وقفت لتسحب كفه نحوها قائلة بمزيج من دلال ورجاء:

_إذن فقد جاء الوقت لتفعل...أنا أرغب في هذا حقاً!

ظهر بعض التردد على وجهه لكنها حسمته بهمستها :

_لأجل خاطري هذه المرة.

فتنهد تنهيدة خافتة قبل أن يقوم من مكانه لتتأبط ذراعه وهي تسير معه نحو باب المنزل الذي فتحته لتستقبل تيار الهواء بانتعاش كان له أثره عليه هو الآخر ...

قبل أن تهمس وهي تتلفت حولها بانبهار ليطالعها مشهد البحر بألوانه الفيروزية الرائقة ...

والتي امتزجت مع ذهبية الرمال على مد البصر:

_كيف عثرت على هذا المكان الساحر؟!إنه أجمل منظر رأيته في حياتي!

فربت على كفها ليجيبها بنبرته الجامدة التي خالطها بعض الشجن:

_بقايا من عهد كنت أملك فيه كل ما تشتهيه عيني!

فالتفتت نحوه بإشفاق لتلتصق به أكثر وقد راودتها نفسها بعبارة مواساة...

لكنها بدلتها سريعاً لتصرفه عن التفكير في الماضي:

_ذوقك يبهرني دوماً...كأنك تنتقي بعيني أنا!

هنا ارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة وهو يسألها بأسى:

_ألازال ذاك البيت الخشبي المهشم هناك على اليسار؟!

دارت بعينيها تبحث عما يقصده حتى وجدت بقايا ألواح خشبية متناثرة هناك ...فعادت إليه ببصرها لتسأله بدهشة :

_نعم ...ما حكاية هذا البيت؟!

فأخذ نفساً عميقاً ثم قال بنفس النبرة:

_دعينا نذهب إليه!!

كان المطر الآن قد خف هطوله إلا عن قطرات خفيفة بينما عادت الشمس تخترق الغيوم على استحياء...

عندما سارت هي جواره تتشبث بذراعه الذي تتأبطه بقوة رفيقة مع قولها باستمتاع :

_هذا هو طقسي المفضل...عندما تمتزج قطرات المطر مع سطوع الشمس..يتناغم تيار الهواء البارد مع الدفء المحبب...أشعر ساعتها وكأن الكون كله تصالح مع نفسه ليمنحنا أجمل ما لديه!

فابتسم ابتسامة حقيقية هذه المرة وهو يقول ببعض الرضا:

_حديثكِ هذا يجعلني أشعر وكأنني أرى كل هذا من جديد.

لكنها توقفت مكانها عندما كانا قد أدركا بغيتهما لتقول له بيقين انتقل منها إليه:

_ستراه من جديد...بمشيئة الله تتلوها إرادتك!

فأشاح عنها بوجهه دون رد لتتلفت هي حولها قائلةً بترقب:

_نحن الآن أمام بقايا ألواح خشبية...هل هي ما تزعم أنها كانت يوماً بيتاً؟!

أومأ برأسه إيجاباً ثم رفع رأسه للسماء ليقول بمزيج من أسى وندم:

_كان لرجل فقير يسكن وحده...عرضت عليه ثمناً باهظاً لشرائه لكنه رفض.

فانعقد حاجباها بضيق وهي تكمل له ما استنتجته بأسف :

_فهدمته كي تستمتع بخصوصية المكان!

أطرق برأسه دون رد للحظات قبل أن يهمس بتهكم مرير:

_من كان يخبرني وقتها أنني سأهدم قصر الرفاعي بنفسي كما هدمت بيت ذاك الرجل؟!

فتنهدت بحرارة ثم تشبثت بكتفيه لتقول بحزم حنون:

_من الجميل أن نندم على أخطائنا كي لا نكررها...لكن العيب كل العيب أن نجعل منها سجناً يخنق ما بقي من أعمارنا!

هز رأسه بلا معنى وهو يعيد رفع وجهه نحو السماء وقد بدت على ملامحه أمارات معاناته من جديد...

لكنها لم تكن لتسمح له بالغوص فيها أكثر ...

فعادت تتأبط ذراعه لتسير معه على الشاطئ من جديد وهي تقول لتغير الموضوع:

_خادمك العجوز هذا شديد الطيبة...ويحبك حقاً ...طوال الأيام الماضية التي قضيتها هنا وهو لا يترك فرصة ليحدثني عن طفولتك إلا واستغلها بسخاء.

ثم ضحكت ضحكة صافية وهي تلتفت نحوه لتردف بمرح:

_عندما أسمعه يتحدث عن نوادر طفولتك أشعر وكأنه يتحدث عن رجلٍ آخر غير عاصي الرفاعي الذي أعرفه!

فابتسم ابتسامة شاحبة وهو يقول بشرود:

_جاء في وقته...بعدما خانني الجميع لم أكن لأئتمن أحداً إلا هو!

فضغطت ذراعه أكثر وهو تسند رأسها على كتفه متابعةً سيرها مع قولها المفعم بالإيمان:

_هذا ما كنت أقصده...الله سبحانه وتعالى يفرح بتوبتنا ويهيئ لنا سبل الثبات بعدها...

ثم صمتت لحظة لتقول ببطء وكأنها تريد نقشها على جدران روحه لعله يتخفف من شعوره بالذنب:

_لم يكن ليلهمك التوبة وهو يريد بك العذاب!

_تظنين هذا؟!

همس بها بتشكك وقد وقف مكانه فجأة فابتسمت وقد راودها بعض الأمل في إخراجه من دوامته هذه...

لتقول بحرارة:

_ليس ظناً...بل يقيناً!

ولا تدري لماذا شعرت وقتها أن ملامحه قد غشيتها بعض السكينة فاستغلت الفرصة لتجذبه نحو شاطئ الأمل أكثر عندما قالت :

_الخادم أخبرني أنه كان يعمل لديكم عندما كانت والدتك على قيد الحياة...حدثني عنها ...أشعر أنها كانت تختلف عن والدك.

فالتوت شفتاه بشبه ابتسامة وهو يعاود السير مستعيناً بها مع قوله الشارد:

_لا أذكر عنها الكثير...وجه مشبعٌ بالطيبة...ابتسامة حانية...دعوات من القلب أن يحفظني ربي...بضع أغنيات تلاعبني على ألحانها خلسةً في غياب والدي...و...

_كانت تحب الغناء مثلي!!

قاطعته بها ضاحكة وقد أسعدها أن يتخلى عن كتمانه ليبوح بكل هذا الانطلاق...

لكنه هو الآخر كان سعيداً بهذا وهو يبتسم ابتسامة حقيقية مع قوله :

_هي من جعلتني أحب الرسم...لازلت أذكر كيف علمتني ذاك أول مرة ...

ثم صمت لحظة ليردف بأسى:

_تماماً كما أذكر دعوتها الخائفة بألا أكون مثل أبي.

ربتت على كفه مؤازرة دون رد ...ليصمت هو طويلاً هذه المرة قبل أن يردف بشرود:

_رحلت فجأة...كانت المرة الأولى التي أتذوق فيها طعم الفقد...حتى البكاء عليها لم يكن مسموحاً فالرجال لا يبكون كما كان حماد الرفاعي يقول دوماً.

أغمضت عينيها بتأثر وهي تعاود إسناد رأسها على كتفه مع تباطؤ خطواتهما...

القصة الآن صارت واضحة المعالم في ذهنها...

عاصي كان ضحية لغياب أمه وتسلط أبيه...

لكنه -وعندما صار مكانه- وجد نفسه يسلك نفس المنهج...

أساء اختيار البدايات لكنه أدرك النهاية!!!

فسبحان من لم يقنطنا من رحمته...

وجعل التوبة لنا ملجأً حتى تطلع الشمس من مغربها !!!

وبهذا الخاطر الأخير توقفت مكانها أخيراً لتنظر خلفها لبيتهما مع قولها بنبرة ذات مغزى:

_مهما ابتعدنا يمكننا العودة مادام الطريق واضحاً !

فأومأ برأسه دون رد عندما تحركت لتقف قبالته قائلةً بنبرة راجية:

_أريد الذهاب لرؤية طفلة فهد!

فأشاح بوجهه ليقول بنبرة عاد إليها جمودها :

_يمكنكِ الذهاب كما تشائين...لكنني لن أغادر هذا المكان.

ويبدو أنها كانت تتوقع هذا الرد فقد قالت بصبر :

_وأنا عاهدت نفسي ألا أفارقك لحظة واحدة ...لن أذهب إلا وأنت معي!

فانعقد حاجباه بغضب وقد عادت نفسه تشتعل ببركان انفعاله مع هتافه:

_هل تريدين أن يسخر الناس من ذاك العاجز الذي تصطحبينه معكِ؟!أنا لا أريد أن أرى أحداً ولا أن يراني أحد!

لكنها كانت تتفهم شعوره لأبعد حد ...

فتناولت كفيه بين كفيها لتقول بعاطفتها القادرة على اختراق جدران عناده:

_أما أنا فأريد أن يرانا العالم كله معاً...أن تشهد الدنيا أنني أنتمي إليك...إلى عاصي الرفاعي...الرجل الذي لم تأخذه العزة بالإثم لتسحبه نحو مصير أسود...بل قاتل شيطان نفسه حتى انتصر.

وهنا عادت "الصرخات" تدوي في أذنيه من جديد...

بنفس الضراوة...ونفس القسوة...

ونفس الصراع بين -بعض روحه- الذي يجاهد للتشبث بالأمل و-بعض روحه- الذي يستلذ الشعور بيأسه!!!

ليزداد انعقاد حاجبيه وهو يغمض عينيه بقوة محاولاً تجاهل هذا الصوت في أعماقه...

لكن ضغط كفيها على كفيه كان يمنحه دعماً لا مشروطاً...

يمدده بالقوة التي يحتاجها ليقاوم...

لكن ...هل يكفي هذا؟!!

لا يدري...

هو حقاً لا يدري!!!

لهذا صمت للحظات...قبل أن يهمس أخيراً بنبرة متعَبة:

_سأفكر!

وهنا ابتسمت وهي تعاود تأبط ذراعه لتعود معه نحو البيت...

وقد أحسنت تأويل كلمته ...

نعم ..."سأفكر" في قاموس "عاصي الرفاعي" و فيما يخص -مطالبها هي فقط- تساوي "أوافق"!!!!

===========

_أنت أحمق كعهدي بك!!!

هتف بها صديقه باستهجان وهو يستمع لحكايته عن ماسة...

كانا يجلسان في أحد المتنزهات العامة في أبو ظبي حيث انطلق أولاده يلعبون فيما جلسا هما على إحدى الموائد يراقبانهم بحرص...

ليرد جهاد مدافعاً:

_أنت لا تفهمني ...أنا...

_أنت سجين كما أخبرتك هي بالضبط!!!

قاطع بها صديقه عبارته فزفر جهاد بقوة فيما استطرد الرجل ببعض الأسف:

_أنا أشفق على حالك يا جهاد...العمر يمضي بك وأنت لا تشعر...أنت لم تحب تلك المرأة كما تظن ...هي كانت مجرد صورة لوطنك الذي حُرمتَ منه.

هز جهاد رأسه وهو يقول بتشتت:

_لم أزعم أنني أحببتها...لكنني انجذبت نحوها انجذاباً لم أعرفه مع أخرى غيرها...ولو كانت وافقتني لكنت تزوجتها دون تردد.

_الحمد لله أنها رفضت وإلا كان سيبقى خطأ العمر!

هتف بها صديقه باستنكار فمط جهاد شفتيه باستياء عندما صاح الرجل مفسراً:

_ماذا تعرف عنها؟!عاداتها؟!مميزاتها؟!عيوبها؟!طباعها؟!!

فانعقد حاجبا جهاد بشدة وهو ينتبه لهذا ربما لأول مرة...

هو حقاً لم يعرف شيئاً عن ماسة !!!

هي كانت بطبيعتها شديدة التحفظ في حديثها وهو لم يكترث بالسؤال مكتفياً بصورتها في عينيه!!!

نعم...ربما كان صديقه محقاً بعض الشئ...

ربما هو لم يتعلق بها هي قدر تعلقه بصورتها في ذهنه...

صورة الوطن المسلوب!!!

لكن صديقه انتزعه من شروده ليربت على ذراعه قائلاً بتعقل:

_انزع هذه الغشاوة عن عينيك يا صديقي كي لا تفاجأ بقطار العمر وقد ولّى!!

أومأ جهاد برأسه وهو يعود ببصره نحو الأطفال الذين كانوا مستمرين في لعبهم...

ربما لو كان في وقت آخر غير هذا لاكتفى بمراقبتهم الصامتة وهو يسترجع ذكريات طفولته البعيدة في القدس...

لكن الآن -وبعد نصيحة صديقه- وجد نفسه يقوم من مكانه ليشاركهم اللعب بنفسه تحت نظرات صديقه الراضية...

ويبدو أن هذا الموقف قد أعاد إليه المزيد من حيويته لتنطلق ضحكاته صاخبة وسطهم...

حتى غلبهم التعب فعادوا جميعاً للمائدة التي جلس عليها صديقه...

لكنه ما كاد يجلس حتى لمحها جالسةً هناك!!!

نعم...زهرة!!

كانت منهمكة في كتابة شئ ما على إحدى الموائد وحدها وقد بدت غافلةً عنه تماماً....

فانعقد حاجباه بدهشة وهو يتذكر أنه لم يرَها منذ عاد من مؤتمره الأخير ...

ورغم أنه لم ينتبه لغيابها طوال هذه الأيام لكنه الآن يشعر أنه افتقد وجودها حوله...

أحياناً لا نشعر بقيمة الشئ إلا عندما يختفي من أمام ناظرينا!!!

غريب!!!

لماذا تركت العمل بالمشفى هكذا فجأة؟!

وكيف تركته هكذا دون أن تخبره أو تسأل عنه وهو الذي كان يستشعر اهتمامها الدائم به؟!!

وأين عساها تعمل الآن؟!!

كانت هذه التساؤلات تدور بذهنه وهو يقوم من مكانه ليتوجه نحوها بخطوات بطيئة...

قبل أن تتعلق عيناه بحقيبة يدها التي كانت قد علقت في سيرها الجلدي "وشاحاً فلسطينياً" معقوداً بحركة أنيقة!!!

فابتسم ببعض الدهشة وهو يقترب منها أكثر ليلاحظ كوب الشاي الأخضر الذي استقر أمامها على المائدة...

وهنا تذكر معه اهتمامها السابق بأن تحضره له كل يوم أثناء عملهما معاً!!!

_اخرج من سجنك...افتح عينيك...لو فتحتهما فسترى أشياء لا تراها...وأناساً خيراً مني يستحقون أن تراهم!

دوت عبارة ماسة هذه في رأسه أخيراً وهو يتذكر حديثها معه في آخر لقاء...

ترى هل كانت ماسة تقصد زهرة بحديثها هذا؟!!!

نعم...ربما...

بل ...ليتها !!!

كان قد وصل أمامها تماماً في هذه اللحظة...

فرفعت عينيها إليه لتشهق بحدة وهي تقف مكانها بحركة مفاجئة جعلته يبتسم ابتسامته الساحرة وهو يقول بود:

_كيف حالك يا زهرة؟!ما هذه المفاجأة السعيدة؟!

خفق قلبها بجنون وهي تغوص رغماً عنها في بحار عينيه بزرقتها الصافية...

والتي كانت تحمل الآن بعضاً من تودد لم تختبره معه قبلاً إلا نادراً...

لهذا ازدردت ريقها بصعوبة وهي تنتزع عينيها منه أخيراً لتقول بارتباك:

_كيف حالك يا "دكتور"؟!

فسحب كرسياً ليجلس أمامها قبل أن يقول باهتمام:

_لماذا تركتِ العمل معنا؟!لقد عدت من المؤتمر فلم أجدكِ.

عادت تجلس مكانها وهي تفرك كفيها بتوتر عجزت عن التحكم فيه مع قولها المشتت:

_بعض الأشياء كانت...تضايقني!

قالتها وهي تتحاشى النظر لعينيه مما أكد له سابق انطباعه ...

لتتسع ابتسامته ببعض المكر وهو يسألها:

_مثل ماذا؟!

أطرقت برأسها دون رد وهي تحاول تذكر كلمات دعاء لها...

لقد عملت بنصيحتها وتركت العمل بالمشفى إلى عمل جديد...

حاولت قدر استطاعتها الهروب من ذاك الحب الذي لم يجلب لها إلا المتاعب...

لكنها -للأسف- عجزت عن الخروج من دائرته...

لازالت -بحبه- في جهاد كما كانت تزعم دوماً!!!

وعزاؤها الآن أنها تفعلها في صمت...

أجل...لم تعد ترجو منه شيئاً سوى بقايا من حلم تعيش تحت ظلاله!!!

ولماطال صمتها الخجول أمامه عاد يسألها بإلحاح أكبر:

_أخبريني ما الذي ضايقكِ ...ربما أتمكن من إقناع مدير المشفى لتعودي للعمل معنا!

_لا!

هتفت بها قاطعة ببعض القوة وهي ترفع وجهها نحوه أخيراً لتقول بتماسك هش:

_أنا سعيدة في عملي الجديد.

ولا يدري لماذا شعر وقتها ببعض الخيبة ...

بينما حاولت هي السيطرة على انفعالها وهي تتصنع المرح بقولها:

_وكيف حال الجميع في المشفى؟!أبلغهم سلامي!!!

أومأ برأسه موافقاً وهو يشعر بها تنهي الحديث بهذه العبارة...

فكاد يقوم من مكانه عندما رن هاتفها- قدراً -برنة مميزة ل...

نعم...بالضبط..."فيروز"!!!

هنا عدل عن فكرة القيام ليقول لها مشاكساً:

_ألن تفتحي الاتصال أم تفضلين الاستماع ل....فيروز؟!

فاحمرت وجنتاها بخجل وهي تغلق الاتصال بارتباك وقد شعرت بنفسها تكاد تذوب انفعالاً...

ما باله هذه المرة؟!!

ما الذي غيره هكذا؟!!

لقد كانت تجاهد جهاداً كي تحاول فقط صرف نظره إليها....

فكيف الآن تشعر بهذا الاهتمام الغريب في كلامه؟!!

لعله حلم!!!

أجل ...أجل هو حلم وستستيقظ منه قريباً لتحكيه لحسناء التي ستعنفها وتقرص ذراعها وتلعن الحب و"سنينه"كما تفعل دوماً!!!!

لكنه انتزعها من أفكارها عندما تعلقت عيناه بما كانت تكتبه مع سؤاله:

_ماذا كنتِ تكتبين؟!

عدلت حجابها بارتباك وهي تجد صوتها أخيراً لتجيبه :

_محاولة لكتابة رواية...إحدى صديقاتي كاتبة شهيرة هنا وعدتني بالمساعدة لو أعجبتها.

فأطلق صيحة استحسان وهو يتناول الأوراق ليقول ببساطة:

_هل تسمحين لي بقراءتها؟!

ازداد احمرار وجنتيها وهي ترمقه بعينين متسعتين قبل أن تغمغم :

_لا...أقصد...لماذا؟!!

فأمال رأسه متسلياً بردود أفعالها التي لازالت تؤكد انطباعه...

قبل أن يضحك بخفة مع قوله:

_سأعطيكِ رأيي أنا الآخر.

نظرت إليه بتردد وهي تشعر أن قلبها يكاد يقفز خارج ضلوعها...

لكنه أعتقها من كل هذا أخيراً عندما وقف وهو يلوح بالأوراق في يده قائلاً بنبرة حاسمة:

_أنا آتي إلى هنا أيام الجُمَع مع صديقي...أراكِ الجمعة القادمة لأردها إليكِ وأعطيكِ رأيي.

ظلت ترمقه بنظرات مصدومة وهي جالسة مكانها عاجزة عن الوقوف...

فيما منحها هو ابتسامة أخيرة قبل أن يغادرها بخطوات سريعة...

لتراقبه هي -شبه مصعوقة- قبل أن تفيق لنفسها أخيراً...

فهزت رأسها بقوة وهي تتمتم كالمخابيل:

_حلم...حلم...تعاليْ يا حسناء واقرصيني!

=============

_هيا سوياً...بصوتٍ عالٍ...طلع البدر علينا!!

هتفت بها صفا في مسرح المدرسة وهي تدرب "أولادها" على الحفل الجديد ...

فمضى الأطفال ينشدون بصوتهم الجهوري لتتابعهم هي ببصرها في حنان عاد يسكن ملامحها دون شريك...

لتشرد ببصرها وهي تستعيد مشاهد متفرقة من حياتها بدت لها وكأنها بعيدة كالسماء...

غزت الدموع عينيها لكنها قاومتها باستماتة كعهدها مؤخراً كلما مرت بنفس الحالة...

أجل...رغم أنها تهلك نفسها -حرفياً- بين جمعية أنس الخيرية وعملها هنا في المدرسة ...

لكنها عندما تعود إلى بيتها لتستلقي وحدها على فراشها تعود إليها هواجسها...

وليس أقسى على الإنسان من شعوره بالوحدة !!!

خاصةً لامرأة مثلها فقد عالمها فجأة كل أحبائه...

بل إنها لا تبالغ لو قالت إنها كادت تفقد نفسها أيضاً لولا ...أنس!!!

أنس ...طيف عمرها الذي نزع من لوحتها سوادها لتعود لنقائها أخيراً بعد ما وعت درسها جيداً!!

_هناك امرأة تريد مقابلتك ...تنتظرك في غرفة المعلمات.

هتفت بها إحدى العاملات في المدرسة لتقاطع بها أفكارها ...

فالتفتت نحوها لتومئ برأسها قبل أن تلقي للأطفال بعض الأوامر الخاصة بالتنسيق...

ثم مضت نحو غرفة المعلمات حيث كانت خالية إلا من هذه المرأة التي كانت تعطيها ظهرها...

ولم تكد تلتفت نحوها حتى انعقد حاجباها بشدة مع قولها:

_أنتِ!

خفضت فتون بصرها عنها بخجل مع قولها بلكنتها المميزة الخانعة:

_كيف حالك يا "سيدتي" صفا؟!

_سيدتك؟!

هتفت بها صفا بابتسامة ساخرة وهي تشيح عنها بوجهها وقد أشعلت رؤيتها له نيران جرحها القديم...

لكن فتون بدت وكأنها تتفهمها حقاً عندما قالت بتواضع لا تدعيه:

_المقامات محفوظة يا "سيدتي"!

هنا ارتجف جسد صفا بانفعالها وهي لا تدري ماذا تفعل...

رغبة عارمةٌ انتابتها الآن في الصراخ...

في البكاء...

في الجلوس وحيدةً على الأرض في غرفة مغلقة كعادتها مؤخراً...

ما الذي جاءت تفعله "هذه " هنا الآن؟!!

إنها بالكاد تحاول لملمة شتات نفسها المبعثرة بعد كل ما حدث...

تحاول قتل اشتياقها لرجل لم تعشق غيره ولن تفعل!!!

تحاول الالتفاف حول حقيقة أنها لا تقوى على العيش دونه بالتظاهر بأنها "تحيا"!!!

لكن فتون -التي كانت تقريباً تستشعر كل ما يدور بخلدها -عادت تقول بتردد:

_أعلم جيداً إحساسكِ الآن نحوي...لكنني فقط ...أريدك أن تسمعيني.

رمقتها صفا بنظرة يائسة طويلة من خلف ستار دموعها التي كافحت كي لا تسقط...

ربما لو كانت ب"شخصيتها القديمة" لصفعتها على وجهها قبل أن تطردها من هنا شر طردة...

لكنها الآن ...وقد تهاوت كل أعمدة غطرستها القديمة...ما عادت تجد لنفسها قوةً من تعالٍ أو كِبر...

أو حتى مجرد فحيح انتقام!!!

لهذا تنهدت أخيراً بحرارة قبل أن تشير نحو الطاولة المستطيلة الكبيرة لتقول ببقايا من صلابة مهشمة:

_ماذا تريدين؟!

جلست فتون حيثما أشارت لتجلس هي أمامها تتحاشى النظر نحوها...

وكأنها سترى على ملامحها آثار -خيانته- لها...

فاكتفت بإطراقة صامتة عندما قالت فتون تصيب الهدف مباشرة:

_لم يخنكِ يا سيدتي!

رفعت صفا إليها رأسها بحدة وقد اشتعلت عيناها بالغضب من جديد...

فيما استطردت فتون بصوت متهدج:

_ولا أنا...أنا لم أعضّ يد الخير التي امتدت لي...والشيخ كذلك لم يستطع أن...

قطعت عبارتها مرغمة عندما غلبتها دموعها لتتسع عينا صفا بارتياع وهي لا تكاد تصدق ما تحاول فتون التلميح به!!!

فتون التي كانت الآن تقف في أسوأ موقف قد تقف فيه زوجة!!!

وهي تحاول إقناع امرأة أخرى بأن زوجها يحبها هي!!!

موقف غريب لا تذكر أنها حتى سمعت عنه يوماً لكنها للأسف وجدت نفسها منغمسة به...

ربما يتهمها البعض بالحماقة لكنها وحدها تعلم تفسير موقفها...

لقد أحبت عبد الله !!!

قلبها تعلق به في غفلة منها حتى وهي تدرك أنه لم ولن يعشق إلا صفا!!

ربما لو لم تكن أحبته لخرجت بنفسها من هذه العلاقة حتى ولو عادت -مع ابنها- لنقطة الصفر...

لكنها -للأسف- ما عادت تجد أمانها -وطفلها- إلا معه!!!

معه هو الذي عاهدها ألا يتخلى عنها أبداً !!!

وهي امرأة جُبلت على رد المعروف لأهله مهما طال الزمن!!!

لهذا مسحت دموعها بسرعة لتقترب من صفا أكثر مع همسها المرتجف:

_زواجنا لم يتعدّ مجرد ورقة...الشيخ عبد الله لم يعترف إلا بكِ أنتِ زوجة وحبيبة...أنا كنت فقط صنيع معروفٍ أُجبر عليه بعد فضيحة حسني التي تعرفينها.

هنا استفاقت صفا من صدمتها أخيراً لتهتف بانفعال:

_هل تهذين؟!تعنين أنه طوال هذه الشهور لم....؟!!!

أومأت فتون برأسها إيجاباً وهي تقول بحرارة:

_لو أردتِ أن أقسم لك على كتاب الله فسأفعل.

فانفرجت شفتا صفا ببطء مع همسها المصعوق:

_يا ربي!!معقول؟!

فابتسمت فتون ابتسامة واهنة وهي تقول مؤكدة:

_كنت أظنكِ تعرفين الشيخ جيداً...هو لن يعشق سواكِ تماماً كما لن تفعلي أنتِ!!

كانت صفا بالكاد تميز كلماتها وهي غارقة بين ضبابات أفكارها ...

عبد الله لم يخنها!!!

لم يخنها!!!

لم يمس امرأته "حلاله" وفاءً لها هي!!!

"ابن قلبها" لم يزل على "برّه" وهي التي ظنت به "العقوق"!!!

وعند خاطرتها الأخيرة ارتسمت على شفتيها ابتسامة عاشقة...

لكنها ماتت سريعاً كما ولدت ...

وهي تعاود التفكير في الأمر كاملاً...

قبل أن تأخذ نفساً عميقاً وهي تعاود سؤالها بيأس احتل نبراتها رغماً عنها:

_هل جئتِ لتخبريني بهذا فقط؟!

فاستجمعت فتون شجاعتها لتقول بحرارة:

_بل جئت أرجوكِ أن تقبلي العودة إليه!

ورغم أن عبارتها قد صدمتها لكنها عادت بظهرها إلى الوراء وهي تتفحص ملامح فتون بخبرتها قبل أن تضيق عيناها بتساؤل :

_وأنتِ؟!هل ستتركينه؟!

آه!!!

هذا هو مربط الفرس!!!

هذا هو السؤال الذي كانت تتهيأ له من أول اللقاء...

ورغم أنها ظنت أنها أعدت العدة لإجابته لكن صوتها اختنق بعبراته مع همسها:

_لن أقدر...سامحيني يا سيدتي..أنا راضية أن يبقى وضعي معه كما هو...يعلم ربي إنني لم أُرِدْ من هذه الزيجة إلا الستر!

فدارت عينا صفا على ملامحها المنفعلة ...يديها المرتعشتين ...جسدها المرتجف...

قبل أن تعود لتنظر في عمق عينيها مع سؤالها :

_ولماذا لا تنفصلين عنه وتبدئي حياتك مع رجلٍ آخر دون حاجة لتعقيدات هذا الوضع؟!

فأشاحت فتون بوجهها دون رد...

لكن صفا قرأت الجواب - بهلع- على صفحة وجهها...

لتزداد خفقات قلبها جنوناً قبل أن تتمالك نفسها أخيراً لتسألها بهمس خفيض :

_أحببتِه؟!

هنا كانت فتون قد وصلت لآخر حدود احتمالها لتعاود النظر إليها بين فيض دموعها الغزيرة التي تهدجت معها نبراتها:

_سامحيني يا سيدتي...أنا حاولت الوفاء لكِ فيما ملكته...فلا تحاسبيني على ما لم أملكه.

وعند عبارتها الأخيرة كانت قد استسلمت لبكائها الذي خنق ما بقي من كلماتها...

فأسندت صفا جبينها إلى أناملها المتشابكة على الطاولة لتشاركها بكاءها الصامت وهي لا تدري بماذا ترد!!!

وأي كلام يمكن أن يقال في موقف كهذا؟!

وأي عقلٍ يلهمها الرأي السديد؟!!

وأي صبرٍ يمكنها من الصمود؟!

بل...وأي قلبٍ يهاودها في كل هذا؟!!!!

ربما لو كان عبد الله قد استسلم لحياة طبيعية مع امرأة غيرها ونسيها لتركته لما اختاره!!!

لكنه صعّب الأمور على كليهما !!!

لا...ليس هو!!!

بل ...هذا الحب "المريض" الذي جمع بينهما للأبد فأبى ألا يموت...

لهذا وجب "علاجه"!!!

لكن...ماذا عن هذه "البائسة" أمامها؟!!

لماذا لم تكن "أنانية " كغيرها بدلاً من أن تكون بهذه الطيبة التي تقترب من المثالية؟!!

لماذا لم تفعل كبقية النساء فتحاول الاستحواذ على زوج ك-عبد الله -لم تكن لتتمناه في أشد أحلامها جموحاً ؟!!

لماذا تشابك هذا "المثلث" بهذه الصورة العجيبة فلا يكاد هناك حلٌ له إلا ب"كسر" أحد أضلاعه؟!!!

أو...ربما...!!!!!

_ارجعي إليه يا سيدتي...لن تستقيم حياة أحدكما إلا بالآخر!

هتفت بها فتون برجاء لتستعيد معها عبارةً مشابهة قالها لها أنس يوماً!!!

أنس!!!!

أنس الذي علمها التضحية في الحب كيف تكون...

أنس الذي غرس في روحها معنى أن يؤثر المرء حبيبه على نفسه...

أنس الذي منحها ما بقي من عمره كي تصلح به ما بقي من عمرها كما أخبرها يوماً!!!

وقد آن أوان التطبيق!!!

لكن...مهلاً...

صفا...هل جننتِ؟!!

ما هذا الذي تفكرين به؟!!

تريدين أن تعودي إليه ...كزوجة ثانية؟!!

تريدين أن تشاركك فيه امرأة أخرى؟!!

حتى لو احتملتِ عذابات غيرتك...

هل تحتملين أن يتحدث الناس أن زوج صفا المعموري جمع بينها وبين خادمتها؟!!!

_ربما لو توقفتِ عن النظر إليها كخادمتك لبدأتِ الطريق الصحيح في علاج مشكلتك!

عادت عبارة أنس هذه تدوي في أذنيها عند خاطرها الأخير ...

ليحتدم الصراع بين قلبها وعقلها من جديد...

وبينهما وقف ضميرها محكّماً وقد أقسم على العدل...

لترفع عينيها إلى فتون أخيراً وهي تسألها بصوت متهدج:

_هل هو من أرسلكِ؟!

فأجابتها فتون بما توقعته:

_لا...هو لا يعلم عن زيارتي هذه...ولا أريده أن يعلم.

أومأت صفا برأسها دون رد...فقامت فتون واقفةً لتمسح دموعها أخيراً مع قولها :

_سأضطر للمغادرة الآن قبل أن يستيقظ محمد...فكري فيما قلته يا سيدتي..نحن نعيش العمر مرة واحدة...فلماذا لا نعيشه بسعادة؟!

تنهدت صفا بحرارة دون أن تمنحها أي وعود قبل أن تقف بدورها لتودعها بكلمات مقتضبة...

ثم وقفت تراقب ظهرها المنصرف بنظرات وافرة المعاني...

قبل أن ترفع بصرها للسقف وقد كتفت ذراعيها عاجزةً عن اتخاذ قرار...

ورغم أنه كان من المفترض أن تكمل تدريبها ل"أولادها" على الحفل كما وعدتهم...

لكنها كانت تشعر برغبة عارمة في مغادرة هذا المكان الذي اختنقت فيه أنفاسها حد الموت!!!

لهذا تناولت حقيبتها من مكان قريب ثم غادرت المدرسة لتستقل سيارتها دونما وجهةٍ تقصدها...

ورغم خوفها الدائم من تغيير طريقها الذي تسلكه كل يوم نظراً لسوء مستواها في القيادة...

لكن هذا الشعور بالضياع الذي يملؤها كان يدفعها للسير في شوارع لم تختبرها قبلاً...

رغبةٌ عارمة في التمرد على قناعاتها القديمة كلها!!!

كانت تسير بفوضوية...تخرج من شارع وتدخل آخر...

بل وربما عادت لتدخل نفس الشارع من جديد!!!

تشغل مذياع السيارة بأحد الأغاني تارة...قبل أن تغلقه بعنف لتستمع لإحدى سور القرآن تارة أخرى...

ووسط كل هذا كان ذهنها مشتتاً لا تكاد تسمع ولا تعي شيئاً...

حتى توقفت أخيراً في شارع مغلق هادئ لتوقف المذياع وتلتقط أنفاسها بعمق...

قبل أن تغلق عينيها وهي تعود برأسها للوراء سامحةً لدموعها بسكب المزيد من عذاباتها لعلها ...تستريح!!!!

وكيف تفعل وسط طوفان أفكارها الهادر هذا؟!!!

عبد الله يحق له أن يمتلك طفلاً!!!

لن تسمح لأنانيتها بعد أن تقف في طريق هذا!!!

يحق له الزواج بواحدة واثنتين وثلاث ...بل وأربع!!!

تماماً كما يحق لها أن ترفض أن تكون واحدة منهن!!!

لكن...ماذا لو كانت تقبل؟!!

ماذا لو منحته حتى آخر ذرة من كيانها؟!!

ماذا لو ضحت لأجله كما ضحى أنس من أجلها؟!!

ماذا لو ارتضت هذا الوضع -على صعوبته- فقط لأنها تحبه..

بل...تعشقه!!!

وعند خاطرها الأخير فتحت عينيها لتجده...أمامها!!!

هو...هو عبد الله؟!!!

معقول؟!!

لا...هي فقط تتوهمه من فرط ما تفكر فيه!!!

بل...نعم...إنه هو...يتحرك الآن أمام السيارة ليدور حولها...

وكأنما تذكرت وقتها لقاءهما منذ سنوات...

عندما صدمته بسيارتها في الطريق لتكون هذه بداية قصتهما الحقيقية...

والآن ماذا؟!!

هل يمنّ عليهما القدر ببداية- مشابهة- لقصة جديدة؟!!!!

ظلت ترمقه للحظات دون أي انطباع ما بين مصدقة ومكذبة....

حتى شعرت به يفتح الباب جوارها ليستقل السيارة جوارها مع همسه القلق:

_أنتِ بخير؟!

تشنجت أناملها على مقود السيارة وهي تتحاشى النظر نحوه...

نظرة واحدة الآن ربما قد يتهاوى معها ما بقي من حصون مقاومتها...

فلتكتفِ بالكلام إذن!!

لكن ...حتى هذا كان عسيراً!!!

لسانها تجمد مكانه ليشاطر جسدها سكونه إلا من خفقات قلب جامحة أعلنت تمردها على كل هذا!!!

ليعود يهتف هو بقلق أكبر:

_ماذا بكِ يا صفا؟!ما الذي أخبرتك به فتون كي تكوني بهذا الحال؟!أنا أتبعك بسيارتي منذ خرجتِ من المدرسة عقب لقائك بها ...لقد كدتِ تتعرضين لأكثر من حادث بقيادتك المتهورة هذه...حتى توقفتِ هنا...ما الأمر بالضبط؟!

أغمضت عينيها باستسلام وهي تأخذ نفساً عميقاً...

ورغم أن قلقه عليها دغدغ مشاعرها بعاطفة كانت تحتاجها الآن حقاً...

لكنها حافظت على جمود نبراتها وهي تسأله ولازالت مغمضة العينين:

_هل كنت تعلم عن زيارتها؟!

فزفر بقوة وهو يشيح بوجهه مع قوله المفعم بانفعاله:

_محمد استيقظ من نومه مذعوراً عندما لم يجدها...هي تركت هاتفها في المنزل فاتصل بي يخبرني...ولا أدري لماذا شعرت ساعتها أنها عندك...تصرفاتها طوال الفترة السابقة أوحت لي بهذا....وقد صدق حدسي عندما ذهبت إلى المدرسة فوجدتها خارجة من الباب...فكرت أن

ألحق بها لأسألها لكنني وجدتك خارجة خلفها بحالك العجيب هذا...فتبعتك حتى هنا.

أومأت برأسها دون رد...

عندما عاد هو يلتفت إليها بقوله :

_ماذا قالت لكِ؟!

نقرت بأصابعها ببطء على مقود السيارة للحظات قبل أن تقول بنبرة خاوية:

_ما قالته سيبقى بيني وبينها فقط!

فانعقد حاجباه بضيق وهو يعاود الإشاحة بوجهه صامتاً...

لتبادله هي صمتاً بصمت!!!

حتى همست أخيراً :

_كيف حالك؟!

ورغم بساطة سؤالها...

ورغم خفوت صوتها الذي كاد لا يُسمع...

ورغم تشتت نبرتها ما بين شوق وعتاب...

لكن عبير عاطفتها الذي فاح بين حروفها كان كافياً ليزلزل قلبه بعمق شعوره بها...

ليصمت طويلاً قبل أن يرد:

_الجواب عندك يا صفا...

ثم تثاقلت نبرته رغماً عنه مع استطراده بخفوت :

_صفا روحي!

دمعت عيناها بتأثر وكأنها تسمعه منه لأول مرة...

وكأنها لم تكن كنيتها لسنوات عاشتها معه...

وكأنها لم تنقش على جدران قلبها بحروف لن يمحوها زمن ولن تطمسها ذنوب!!!

فضغطت شفتيها بقوة تتمالك ارتجافتهما ولا تزال تتحاشى النظر نحوه...

بينما لم يكن هو أفضل منها حالاً...

ولولا بقيةٌ من تعقل -بالكاد- يلجم جنونه لضمها الآن بين ضلوعه وليكن ما يكون!!!

هو لم يفتقدها يوماً كما يفعل الآن...

كل خلايا جسده تئن باشتياقه إليها ...

إلى عناقها الدافئ الذي كان يحتوي حزنه بحنانها المصطبغ بصبغتها الخاصة...

والتي يثق أن لا أمرأةً ستشاركها فيها!!!

ترى ماذا أخبرتها فتون؟!

هل قالت لها الحقيقة؟!!

أو...ربما العكس؟!!

هل تراها بهذه الملائكية لتذهب إليها وتشرح لها حقيقة الوضع ؟!

أم تراها ذهبت لتزيد الوقيعة بينهما كذباً؟!!

لا...فتون لا تفعلها...

رغم قصر معرفته بها لكنه يثق بطيبة قلبها!!!

إذن...ماذا حدث؟!!

أطلق زفرة مشتعلة أخيرة وهو يشعر بغرابة وضعهما هذا...

وبصمتها الطويل يعمق شعوره بنفورها منه...

وهو ما أذكى نيران غضبه من جديد...

فوضع يده على مقبض الباب يهمّ بمغادرتها ساخطاً وقد عاد تهوره يحكم سيطرته على تصرفاته...

لكنه بدا وكأنه حقاً قد تعلم الدرس!!!

فأخذ نفساً عميقاً وهو يستغفر الله سراً قبل أن يعاود التفاته نحوها بسؤاله الذي مزج حيرته بعتابه:

_هل لنا من عودة؟!

فارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة وهي تقول دون أن تنظر إليه:

_هل تعلم أولاً لمن ستعود ؟!صفا المعموري لم تعد كالسابق...الآن أنا امرأة بلا أي مميزات...لا مال ولا أهل...ولا أولاد...راجع نفسك يا شيخ!!!

وكأنما فجرت عبارتها ينابيع عاطفته كلها ليجد نفسه يهتف بحرارة:

_ومن قال إنني أحببتك لكل هذا؟!أنا أحببت صفا ...صفا فحسب...بحنانها وقوتها...وعاطفتها التي تغنيني عن نساء الدنيا كلها.

هنا سال خطان من الدموع على خديها وهي تتأوه بخفوت قبل أن يظهر وهنها أخيراً في همساتها:

_آه يا عبد الله...طوال هذا العمر لم تقلها لي يوماً بلسانك...ولا أظنك شعرت بها حقاً إلا عندما فقدتني.

فضغط على أسنانه بقوة وهو يهز رأسه يمنة ويسرة بانفعال مع هتافه :

_لا تبكي الآن...أنا بالكاد أمنع نفسي عنكِ.

هنا لاح على شفتيها شبح ابتسامة وهي تراه كما كانت تراه دوماً...

طفلٌ عجول ينتظر حضنها ليجد فيه ضالة أمانه!!!

لهذا مسحت دموعها بخفة وهي تهمس بخفوت:

_حسناً يا شيخ...سأجيب سؤالك...

ثم صمتت لحظة لتمنحه قرارها الأخير:

_نعم...لنا عودة...لكن ...بشرط!!

والشرط هذه المرة كان غريباً على أذنيه...

غريباً بحق!!!

==========

جلس أمام فراشها الصغير يتأمل ملامحها المنمنمة بعاطفة كاسحة ...

هزه بأخد كفيه برفق بينما امتدت أنامل كفه الآخر لتلامس أنامل الصغيرة بحنان...

الصغيرة التي التوت شفتاها بحركة آسرة تبحث عن طعامها قبل أن تفتح عينيها البندقيتين لتبدأ بكاءها كالعادة...

فابتسم بحنان جارف وهو يتناولها بين ذراعيه ليهدهدها برفق مع همسه :

_ششششش...حلوتي جائعة ...الطعام على وصول.

ساعتها شعر بأنامل جنة على كتفه مع قولها بضحكة صافية:

_فهد...أنت غير طبيعي مع "لوكا"...إنك تتعامل معها وكأنها معجزة كونية...لا أصدق أنك لم تنم منذ ولادتها مستمتعاً بتأمل ملامحها هكذا!

فاتسعت ابتسامته وهو يتناول منها رضّاعة "ببرونة" اللبن ليهتف باعتراض:

_لماذا غادرتِ الفراش؟!أنتِ لم تستعيدي عافيتك بعد!

لكنها قبلت كتفه لتقول مطمئنة:

_أنا بخير...لقد مللت من رقدتي هكذا دونما شيءٍ أفعله.

فعاد ببصره للصغيرة ليداعب شفتيها بطرف "الببرونة" قبل أن تبدأ هي بالتقاطه بنهم أثار حنانه أكثر ليقول بنبرة دافئة:

_هل ترِيْنها مثلي بكل هذا الجمال؟!لا أذكر أنني رأيت طفلةً في جمالها!!

ثم تنهد بحرارة ليردف:

_عهدٌ عليّ فداءً لشوق الأشهر الماضية إليها ...أن أدللها ما بقي لي من عمر!!

فأسندت رأسها على كتفه وهي تضمه بأحد ذراعيها بينما امتدت أناملها الحرة تداعب شعر الصغيرة مع همسها:

_أنا أيضاً لم أصدق أن تكون جميلةً هكذا...لقد خطفت أبصار الجميع في المشفى عقب ولادتها...

ثم استطالت على أطراف أصابعها لتطبع على ذقنه قبلة رقيقة مردفة بهيام:

_ابنة فهد الصاوي آسرة مثله!!

فرمقها بنظرة جانبية وهو مستمرٌ في إطعام الصغيرة ليقول مشاكساً:

_هي سحبت البساط من تحت قدمي "الأستاذة"...قلبي الآن لم يعد لك وحدك!

لكنها مالت على جبين الصغيرة بقبلة عميقة وهي تهمس بحنان:

_لا أمانع!

ثم رفعت عينيها نحوه لتقول باهتمام:

_ماسة و عاصي على وشك الوصول ...أنا قلقةٌ بخصوص هذه الزيارة...هل تظنه مؤهلاً الآن لموقف كهذا؟!أنت تعلم عن ظروف فقده لابنه وأخشى أن تهيج هذه الزيارة جروحه !

فصمت فهد لبعض الوقت مكتفياً بتأمل الصغيرة التي لفظت الآن طرف "الببرونة " لتتثاءب بقوة قبل أن تغمض عينيها مستسلمةً للنوم...

هنا تناولتها جنة منه برفق لتهزها بهدوء بين ذراعيها حتى اطمأنت لنومها العميق ...

ثم وضعتها بحرص في فراشها قبل أن تضع سبابتها على شفتيها في إشارة للصمت ...

فابتسم وهو يحتضن خصرها ليسير جوارها خارجيْن من الغرفة ...

ثم اتجه بها نحو الأريكة الخارجية حيث استلقى مسنداً رأسه على ساقيها ليشخص ببصره نحو السقف قائلاً بابتسامة واثقة:

_ماسة تعلم ما تفعله جيداً...هو يرفض العلاج النفسي لكنها تتواصل سراً مع أحد الأطباء وهو الذي يخبرها بما ينبغي عليها عمله معه!

فابتسمت جنة وهي تهز رأسها لتقول برضا:

_ماسة امرأة قوية...هو كان يحتاج امرأة مثلها لتخرجه مما هو فيه...الحب وحده لا يكفي لإصلاح ما أفسده الماضي...حبٌ ضعيف هو طائر مكسور الجناح لن يحلق...حبٌ قوي هو إعصارٌ كاسح قادرٌ على الإطاحة بكل شئ في طريقه...وحب ماسة لعاصي قوي...قوي حقاً!

هنا عاد ببصره إليها لينهل من بئرها البندقيّ العذب مع قبلة عميقة لباطن كفها صاحبت همسه:

_مرافعة عظيمة يا "أستاذة"!

فاتسعت ابتسامتها وهي تميل على جبينه بقبلة عميقة مع همسها:

_يا قلب "الأستاذة"!!

التمعت عيناه ببريق صاخب وهو يرفع ذراعه ليحيط رقبتها بأنامله فيلصق وجهها بوجهه في لقاء عاطفي قصير قطعه رنين جرس الباب !!!!

رفعت وجهها عنه بضحكة عابثة وازتها زفرة ساخطة منه...

قبل أن ينتفض واقفاً ليعدل ملابسه قائلاً ببعض الضيق الذي خالط ابتسامته:

_اضحكي.. اضحكي...ستدفعين ثمن ضحكك هذا فيما بعد....لكن اذهبي الآن وبدلي ملابسك حتى أفتح الباب.

تراقص حاجباها في مشاكسة وهي تقوم بدورها لتقرص وجنته بخفة قبل أن تندفع نحو الداخل...

ليتوجه هو نحو الباب الذي فتحه لتطالعه ماسة بابتسامتها التي صاحبت هتافه الحار:

_افتقدتك يا "حبيبة أخيكِ"!!

قالها وهو يضمها برفق مقبلاً رأسها بحنان قبل أن يمد كفه مصافحاً نحو عاصي الذي بادره بقوله المتحفظ:

_مبارك!

تفحصه فهد ببصره وهو يشعر أن شيئاً ما قد تغير بملامحه منذ آخر مرة رآه فيها...

نعم...رغم أن معاناته الصامتة لاتزال ترسم خطوطها على وجهه...

ورغم أن انعقادة حاجبيه لاتزال تروي الكثير عن عذابات روحه...

لكن شيئاً ما في ابتسامة شاحبة تزينت بها شفتاه منحته بعض الأمل وهو يقول بعفوية:

_العقبى لك!

اتسعت عينا ماسة بترقب وهي تلتفت نحو عاصي بنظرة ملهوفة...

عاصي الذي ازداد انعقاد حاجبيه مع ارتجافة شفتيه الخفيفة عندما عادت ماسة ببصرها نحو فهد بنظرة لائمة جعلته يغمغم ببعض الحرج:

_تفضلا بالدخول!

تشبثت ماسة بذراع عاصي الذي تأبطته بقوة ليدخلا معاً قبل أن يسودهم صمت مكسوٌ بشرارت من توتر حاولت ماسة إذابته بقولها المرح:

_أين "لوكا" ؟!طوال الطريق وأنا أرسم آلاف الصور لها في خيالي.

فضحك فهد بدوره وهو يلوح بسبابته في وجهها قائلاً بفخر:

_امسحي كل هذه الصور...هي أجمل مما تظنين!

ضحكت ماسة بدورها وهي تختلس نظرةً جانبية نحو عاصي الذي عادت إليه ابتسامة واهنة...

فتنهدت بارتياح عندما قدمت جنة أخيراً تحمل الصغيرة النائمة التي ناولتها لماسة بعد عناق دافئ...

لتبتسم ماسة بحنان وهي تتفحص ملامحها مع قولها بانفعال :

_معك حق يا فهد...إنها ساحرة...ساحرة حقاً!!!

ثم هزت رأسها لتردف بانبهار:

_ملك...وهي ملكٌ!!!

ضحك فهد بسعادة وهو يضم جنة إليه بأحد ذراعيه ليقول بمرح:

_تستحق تعب "الأستاذة"!!!

فضحكت جنة بدورها وهي تختلس نظراتٍ مشفقة نحو عاصي الذي بدا وكأنه غائبٌ عن كل هذا!!!

والحقيقة أنه كان كذلك!!!

لقد عادت "الصرخات" تحتل أذنيه من جديد بنفس الدويّ المروع...

مع قبضة فولاذية كانت تعتصر قلبه بمنتهى القسوة!!

لكنه حاول التغلب على هذا بقوة يحسد عليها وهو يغمغم بنبرة خرجت رغماً عنه محتقنة بانفعاله:

_حمداً لله على سلامتكما.

تبادل الجميع نظرات ذات مغزى و قد بدا على الوجوه جميعها تعاطفها مع معاناته الواضحة...

لكن ماسة قطعت هذا بسرعة -رأت وجوبها- وهي تقرب الصغيرة منه لتقول بمرح خالطه بعض الحذر:

_هلّا حملتها؟!

_لا!!

هتف بها بانفعال مفاجئ طغا على محاولته السابقة بالتماسك....

قبل أن يتصبب جبينه بعرق خفيف وقد عادت مشاهد متفرقة من ليلة الحادث تراود مخيلته بضراوة...

فأشار فهد لماسة إشارة خاصة بعينيه كي تعيد الطفلة لجنة ...

قبل أن يحاول تجاوز الأمر بخفة مع قوله :

_ماذا تشربان؟!

لتشاركه جنة مهمته وهي ترمق ماسة بنظرة مؤازرة مع قولها باستنكار مرِح:

_أي شراب؟!!أخوكِ صار بخيلاً...دعكِ منه وتعاليْ لنتناول العشاء...لقد أوصيت الخادمة لتصنع لكِ أطباقك المفضلة.

ثم ضحكت لتردف ببعض المكر:

_بما فيها صنف السمك الذي أحببتِه لأجل السيد عاصي!

فابتسمت ماسة ابتسامة شاحبة وهي تتذكر ما تحكي عنه...

قبل أن تلتفت بأسى نحو عاصي الذي عاد لشروده البائس والذي رافقه طوال الزيارة التي أخفقت في مسعاها للأسف...

أجل...لقد ظننت أن هذه الزيارة ستمهد لها -ما تود الحديث معه بشأنه-

لكن رد فعله هذا أربكها لتدرك أن الأمر لا يزال عسيراً حقاً...!

حتى إذا ما انتهت الزيارة بعبارات ظاهرها المرح وباطنها الإشفاق على حاله...

استسلم كلاهما لصمت صاخب بالمشاعر طوال الطريق

...

حتى وصلا إلى البيت لتفاجأ به يدخل إلى غرفته ليغلقها خلفه ...

قبل أن يصلها صوت محاولاته لإغلاقها بالمفتاح حتى نجح أخيراً...

فألصقت أذنها بالباب بقلق وهي لا تدري ماذا تفعل...

جزء بداخلها يلومها على تعريضه لهذا الموقف الذي لاريب أنه أثار شجونه...

بينما هناك جزء آخر يتمرد على هذه العزلة التي يفرضها هو على نفسه وتساعده هي فيها!!!

العزلة ليست الحل!!!

المواجهة تكون أحياناً أفضل من الهرب!!

وداخل الغرفة كان هو يدور حول نفسه كأسد سجين!!

لماذا طاوعها في الخروج؟!

لماذا خرج عن عزلته؟!!

كيف ظن أن بإمكانه الحياة من جديد بصورة طبيعية؟!!

كيف ولازالت ذنوبه تنغرس كالشوك بين أضلاعه لينبض الألم في صدره مع كل شهيق؟!!

هنا عادت الصرخات تدوي في أذنيه من جديد:

_لن تفرح...

_لن تهنأ...

_طفلك مات بسببك...

_كان من الممكن أن تحمله بين ذراعيك كتلك الصغيرة هذه الليلة لكن جبروتك منعك هذه الفرحة...

_لن تنسى...وماذا تنسى؟!ذنوبك أكبر من أن تُغفر!!

_عاصي الرفاعي الذي كانت ترتجف لاسمه القلوب الآن صار محل شفقتها...

_هو عقابك الذي ستتجرعه ما بقي لك من عمر...

_لن تفرح...

_لن تهنأ...

هنا اشتد زئير صرخاته في أذنيه ليرفع كفيه فيغطيهما بقوة مع آهة عميقة شقت صدره...

قبل أن يشعر باشتعال أعماقه كلها بلهب يأسه...

صورة تلو صورة من ماضيه كانت تغزو الآن مخيلته لتجلده بسياط الندم...

كان يدور حول نفسه غير واعٍ وذراعاه تدفعان شيئاً لا يراه لكنه يشعر به يهاجمه...

يكبله...

بل...يخنقه!!!

كان يسمع صوت نداء ماسة الملهوف بالخارج ترجوه أن يفتح الباب لكنه كان مختلطاً بأصوات صرخاته التي كانت -وحدها- تتحكم في انفعالاته....

ماسة التي كاد تجن قلقاً وهي تسمع صوت آهاته المنفعلة مع جلبة بالداخل لم تتبين مصدرها...

لتتبادل مع الخادم- الذي وقف مذعوراً-بدوره نظرات عاجزة ...

قبل أن تندفع لتخرج من البيت فتدور حوله حتى دفعت النافذة بقوة لتفتحها..

ثم قفزت من خلالها نحو الداخل بخفة لتفاجأ به جاثياً على ركبتيه يغطي أذنيه بكفيه وهو يرفع رأسه لأعلى...

فدمعت عيناها بخوف وهي تجثو على ركبتيها أمامه لتهتف بجزع:

_عاصي!!

تاهت منها كلماتها وهي تراه في هذا الحال ...

لكن عجزها لم يمنعها من إزاحة كفيه عن أذنيه لتضم رأسه بكل قوتها إلى صدرها...

ليصلها صوته المهتز:

_دم!..دم!...لا أميز وسط كل هذا الظلام إلا بريق الدم!!!

فعضت على شفتها بقهر وهي ترفع وجهها إلى السماء تطلب العون...

قبل أن تهمس أخيراً بكل ما أوتيت من قوة ويقين:

_بل نور...نور...أنا لا أميز حولنا إلا أشعة نور...

كان قلبها يخفق بجنون وأنفاسها تتلاحق بسرعة مع لهاثها المنفعل...

لكنها استطردت بنفس القوة:

_نور ينبعث من كل امرئ رددت له حقه...من فرحة طيف بما فعلته لأجلها...من ابن زوجتك الراحلة الذي سيكبر تحت رعايتنا...من كل فعل خيرٍ سيرتضيه قلبك ...

ثم جذبت أنامله قسراً لتلصقها ببطنها مع قولها بقوة أكبر:

_نورٌ سيسطع مع فرحتنا بأول ركلة كرة لابننا...بأول جديلة لابنتنا...نورٌ لن ينطفئ يوماً لأنه ينبع من داخلك.

رفع وجهه إليها بتشتت أخيراً وهو يهز رأسه ما بين أمل وألم!!

لينبئها حدسها أنه الوقت المناسب لمفاجأتها:

_طفلنا في الطريق!

همست بها في وجل وارتجافة جسدها تنتقل إلى ذراعيها المحتضنين لرأسه...

لينعقد حاجباه بشدة مع تمتمته الخافتة:

_ماذا؟!ماذا قلتِ؟!

سالت دموعها على وجنتيها بخوف وهي تعاود رفع عينيها للسماء بدعاء صامت...

قبل أن تستدعي قوتها من جديد بنفس عميق صاحب قولها:

_أنا...حامل!!

ورغم أن العبارة ببساطتها لا تحتمل معنييْن ...لكنه وجد نفسه يتمتم بصدمة:

_حامل؟!حامل؟!

ظل يكررها عدة مرات بذهول وهو يهز رأسه دون وعي...

لتهمس هي بين دموعها:

_نعم...لقد تأكدت من الأمر بالأمس لكنني كنت أريد تأجيل إخبارك به حتى نرى ابنة فهد...كنت...

كانت تشرح له مبرراتها باستفاضة صريحة لكنه لم يكن يسمع شيئاً...

صرخاته عادت تدوي في أذنيه من جديد بصخب ...

_كاذبة...

_هي تخدعك...

_تظن أنها بهذا ستمنحك أملاً جديداً...

_أرأيت كم صرت مثيراً للشفقة !!!!

_حتى لو كانت صادقة هو لن يعيش...سيموت كمن سبقه...

_لعنة ذنبك ستطاردك في أعز من تملك...

_سيموت...سيموت!!

ظلت الكلمة الأخيرة تتردد في أذنيه حتى صرخ فجأة بعنف وهو يدفعها بعيداً مع هتافه :

_لا...لا أريد أملاً جديداً...لا أريد ...

فاستندت براحتيها للأرض وهي تتأوه بخفوت قبل أن تعاود هتافها القوي:

_وأنا لن أسمح لك بهذا اليأس...ستخرج من ظلمة سجنك هذا لأجلي ..لأجل ابننا هذا...ولأجل كل أبنائنا بعده.

ليجاوبها بآهة أخرى وهو يحاول الوقوف مكانه مترنحاً مع تمتمته الخافتة:

_اخرجي الآن...دعيني وحدي.

لكنها وقفت بدورها قبالته لتهتف بنفس القوة:

_أبداً!

فازداد انعقاد حاجبيه للحظات صمت طالت...

مرت عليها كدهور وهي تخشى أن تفشل في السيطرة على انفعاله هذه المرة...

قبل أن يندفع نحوها بذراعيه حتى ظنت أنه سيدفعها من جديد ...

لتفاجأ به يجذبها لصدره بقوة ...

يكاد يعتصرها اعتصاراً بين ضلوعه وهو يخفي وجهه في عنقه كعادته...

مع همسته اليتيمة باسمها:

_ماسة!

ورغم أنه لم يزد عليها لكنها سمعت فيها كل ما عجز عن قوله....

كل لهفته واحتياجه...

كل قلقه وخوفه...

كل ضعفه الذي يحاول وأده تحت رمال كبريائه ...

وكل فرحته التي تجاهد للطفو فوق سطح كل هذه المشاعر المتناقضة!!!

لهذا ابتعدت بوجهها قليلاً ثم أحاطت وجهه براحتيها وهي ترفع عينيها إليه لتهمس برجاء:

_التقط طرف الحبل واصعد من هذا البئر الذي زلت فيه قدمك...أرجوك يا عاصي .

ولم تكد تتم عبارتها حتى فوجئت بشفتيه على وجهها تمطرانها بقبلاته وكأنه يعتذر عن إجهاضه لفرحتها ...

قبلاته التي بدأها ناعمة حنون قبل أن تشتد بقوة انفعاله الذي وصلها كاملاً ...

لتبتسم بارتياح وهي ترد له عطاياه بمثلها ...

قبل أن تهمس في أذنه برجائها الأخير:

_غداً نزور الطبيب لتبدأ علاجك...قلبي يخبرني أن ابننا لن يأتي لهذه الدنيا إلا وعيناك تحتضنانه!

=========

الخاتمة

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا

================

بعد ثمانية أشهر من الأحداث السابقة

===================

_حمداً لله على سلامتك يا "زوزو"!!!

هتف بها معتصم بترحاب حقيقي وهو يضم والدته لصدره في المطار...

فابتسمت المرأة وهي تحتضنه بدورها قبل أن تلتفت لدعاء لتهتف بنبرتها الطيبة:

_اتركني يا "ولد" ...أريد أن أضم ابنتي!

ضحكت دعاء بمرح وهي تستسلم لأحضان المرأة الطيبة للحظات...

قبل أن تقول بصدق:

_افتقدناكِ يا أمي!

ربتت المرأة على ظهرها بحنان قبل أن تمضي في طريقها معهما نحو سيارة معتصم بالخارج...

لتقول بسعادة مشوبة بحنانها:

_بارك الله لك ياابني...السيارة جميلة جداً.

فابتسم معتصم وهو يفتح لها الباب المجاور للسائق ليقول بمرح:

_وددت لو تكوني أول من يركبها يا زوزو...لكن لا بأس...ملحوقة!

ضحكت المرأة ببشاشة وقد انطلق لسانها بالدعاء له...

فيما تأملتهما دعاء من مقعدها الخلفي وهي تشعر بالفرحة المنغمسة بالأمان...

لقد بدأت ظروف معتصم تتحسن تدريجياً...

اشترى هذه السيارة بالتقسيط ولم يكد يدخر مبلغاً مناسباً حتى أرسل في طلب أمه لزيارته هنا أولاً قبل أن يصطحبها لآداء فريضة الحج...

يومها أخبر دعاء أنه كان نذراً عليه وجب قضاؤه...

وها هو ذا يوفيه!!

ابتسمت بحنان وهي تراقب مشاكسته الودود لوالدته طوال الطريق...

قبل أن تفتح حقيبتها لتنظر بداخلها لتلك "القابعة" في حافظتها الجلدية...

أجل...نظارتها السوداء!!!

ورغم أنها لم تعد ترتديها منذ طلب منها معتصم هذا لكنها تحتاج لنظرة إليها من آنٍ لآخر...

كي تذكّر نفسها بعهدها الجديد...

وحسن ظنها في موعود السماء للصابرين!!!

وكم تحتاج لهذا الآن بالذات...

انقطعت أفكارها عندما وصلت بهم السيارة لبيتهم البسيط...

ليصعدوا جميعاً لشقتهم الصغيرة تحيطهم دعوات الأم ومباركاتها التي انتهت بقولها:

_وليد يبلغك السلام...كان يتمنى لو يجئ معي لكن ظروف دراسته لم تسمح.

فضحك معتصم ليقول بحنان:

_الزيارة القادمة ستكون له...دعيه فقط يركز في مذاكرته!

عادت المرأة تدعو لهما معها بالخير والبركة...

فدفعها برفق للغرفة الوحيدة في الشقة ليردف :

_بدلي ملابسك حتى نعد الطعام.

ثم غمزها بمكر قائلاً:

_دعاء أعدت لك "ملوخية " ب"الأنارب"!

ضحكت والدته ضحكة عالية قبل أن توكزه في كتفه لتهتف :

_اشتقت مشاكستك يا "ولد" ...هل تعلم إني لم أطبخها منذ سافرت أنت...قلبي لم يطاوعني!

فاحتضنها بقوة ثم قبل رأسها ليقول بحنان:

_أعلم يا "ست الكل"...أعلم!

وبعد الغداء الذي كان عامراً بمشاعر الود بين ثلاثتهم استأذنتهما والدته للنوم في غرفتها...

فيما تمدد هو جوار دعاء على الأريكة الجانبية في الصالة الصغيرة ليقول بصوتٍ غلبه إرهاقه:

_لا بأس...أعرف أن الشقة ضيقة ...لكنني أعدك عندما تتحسن الأحوال أن نؤجر شقة أكبر.

ابتسمت وهي تربت على كتفه بمؤازرة...

كم تود لو تساعده بمالها لكنه يرفض...

عرضتها عليه مرة وأبت بعدها ألا تكررها لمّا رأت مزيج المرارة والغضب بعينيه...

معتصم عزيز النفس جداً فيما يتعلق بأمر "المال " هذا...

ورغم أنها كانت تضيق بهذا حقاً لكن هذا الأمر جعله يكبر في عينيها أكثر!!!

ورغم أن حياتها المترفة مع حسام برونقها وزخرفها البراق كانت مبهرة...

لكن حياتها الكادحة مع معتصم لها مذاق آخر...

شتان بين قشرة زائفة وجوهر نفيس!!!

حياتها مع حسام كانت قائمة على المظاهر وكلام الناس لهذا لم تصمد أمام أول اختبار...

أما حياتها مع معتصم فهي مشاركة حقيقية ...

على "الحلوة" و "المُرة" كما يقولون!!!

لكنه قطع أفكارها عندما التفت نحوها ليقول بعتاب:

_ألم أطلب منكِ ألا ترتدي "عدستك" في البيت؟!أريحي عينك!

فاتسعت ابتسامتها وهي تقول ببعض الحرج:

_لأجل وجود والدتك فحسب!

هز رأسه رافضاً وهو يقول باعتراض:

_أمي تعلم ظروفك جيداً...ولا أريدك أن تشغلي بالك بهذه الحساسيات!

تنهدت بحرارة وهي تشيح بوجهها دون رد...

قبل أن تعاود التفاتها نحوه لتقول ببعض التردد:

_والدتك كلمتني بشأن موضوع الإنجاب مرة أخرى عندما كنا وحدنا في المطبخ!

مد ذراعه جواره ليضمها إليه برفق مع ابتسامة رفيقة ناقضت قوله المشاكس:

_لعلها ألانت رأسك الصلب هذا!!!

رفعت إليه عينيها بنظرة حائرة وأناملها تتحسس صورة والديها في سلسلة عنقها دون رد...

هذا هو الأمر الذي يشغل بالها منذ أيام...

هي كانت قد اتفقت معه أن يؤجلا موضوع الإنجاب هذا حتى تتحسن ظروفه المادية...

وقد صادف هذا هوًى لديها وهذا الأمر -بالذات- يؤجج مخاوفها القديمة...

نعم...بقدر ما تتمنى طفلاً من الرجل الذي أحبته بكل جوارحها ...

بقدر ما تخشى أن يرث أطفالها مرضها ومعاناتها!!!

الآن فقط جربت شعور والديها ...

خوفهما وقلة حيلتهما...

ألمهما الصامت وسط ظلم مجتمع لا يد لهما فيه!!!

لكن معتصم عاد يفتح معها الأمر من جديد ليطلب منها زيارة الطبيبة زاعماً أنه قد آن الأوان لهذا!!!

فهل تراه قد آن الأوان حقاً؟!

_أنا أعلم بماذا تفكرين!

قالها وهو يضمها إليه أكثر قبل أن يحتضن عينيها الحائرتين بنظراته العاشقة مع استطراده:

_لا تخافي...هو قدرنا الذي سنتقاسمه تحت أي ظرف...أنا واثق أن سعادتي التي بدأت بكِ لن تنتهي أبداً.

تأوهت بخفوت وهي تخفي وجهها في صدره لتهمس برهبة خفية:

_خائفة!

ثم ابتلعت غصتها لتهمس:

_أخاف أن يكون هذا ابتلائي الجديد...أخاف أن أقدم للدنيا دمية معيبة أخرى يقذفونها بألسنتهم ونظراتهم الجارحة...أخاف أن يجبرني حبي لها أن أظلمها بدعوى أني أخاف عليها!!

_لن تفعلي!

همس بها قاطعة في أذنها وأنامله تلملم خصلات شعرها المتهدلة على وجهها...

وتلملم معها شعث أفكارها المتخبطة...

لتأتيها كلماته بطيئة...واثقة...مفعمة بالأمل واليقين:

_كوني واثقة من لطف السماء كما عهدتك...هل تذكرين رؤياكِ التي حكيتِ لي عنها؟!قلبي يخبرني أن طفلنا سيكون سليماً معافًى...وأن الله لن يجزيكِ على صبرك إلا خيراً!

رفعت إليه نظراتها الظمآنة وهي تشعر بحاجتها لأن تسمع منه هو بالذات هذا الكلام...

بينما استطرد هو بنفس النبرة الواثقة:

_وحتى لو حدث ما تخافين منه...ما يضيرنا لو قبلنا قضاءنا برضا؟!

ثم قبل جبينها بعمق ليردف:

_يزعمون أن فاقد الشئ لا يعطيه...لكنهم لا يعلمون أن من فقد هو أقدر الناس على منح ما افتقده ...لهذا أنا أثق أنكِ ستكونين أماً رائعة على كل حال!!

دمعت عيناها بتأثر وأناملها تتشبث بقميصه تطلب منه الدعم...

معتصم لم يخيب ظنها فيه...

حبه لها جعلها أقوى في مواجهة مصيرها...

حتى نوباتها قلت وتيرتها كثيراً مع استقرار حالتها النفسية ...

ربما هو على حق...

الحِمل يقل كثيراً عندما نقتسمه مع من نحب!!!

وبهذا الخاطر الأخير عادت رؤياها -القديمة - تملأ ذهنها لتملأ قلبها نوراً على نور...

فتختفي هواجسها رويداً رويداً...

مع تلك السكينة التي ملأتها وهي تهمس أخيراً بيقين:

_معك حق...غداً نذهب للطبيبة قبل سفركما للحج...عسى الله أن يتم علينا فضله!

=======

_لماذا تأخرتِ؟!

قالها جهاد بابتسامته الآسرة هو يواجهها ببصره متفحصاً بعد انتظار طال في المتنزه الذي يلتقيان فيه...

فتنحنحت بحرج وهي تتحاشى النظر نحوه مع قولها بارتباك:

_حمداً لله على سلامتك!

اتسعت ابتسامته وهو يراقب ارتباكها برضا قبل أن يقول ببطء مشاكس:

_افتقدت...كتاباتك!

رفعت عينيها إليه بحذر وقلبها يخبرها أنه يعني ما يفوق عبارته بكثير...

لتستعيد بذهنها ذاك اليوم الذي التقته فيه هنا عقب قراءته لروايتها بصيغتها الأولى

يومها تأخرت عليه أيضاً...لكن السبب كان مختلفاً!!!

فقد كانت تجرب كل الثياب في خزانة ملابسها...

قبل أن تستقر أخيراً على واحد!!!

كما أنها تفننت في تزيين وجهها بمساحيقها لتجرب عدة مرات...

قبل أن تغسل وجهها بعدها وقد قررت الاستماع لنصيحة جنة التي نصحتها بها يوماً في موقف مشابه !!!

لتذهب إليه كما اتفقا فيفاجئها برأيه الصريح في كتاباتها:

_يقولون إن الكاتب يترك جزءاً من روحه في كتاباته....لكنني لم أجدكِ وسط كل هذا!!

رفعت إليه عينين خجلتين وهي تهمس ببعض الخزي:

_لم تعجبك؟!

فالتمعت عيناه ببريق استكشاف وهو يقول بمكر:

_لم أقل إنها لم تعجبني...قلت...لم أجدك فيها!!

عقدت حاجبيها بتساؤل زاد من براءة طلتها الطفولية...

فابتسم وهو يقلب في الأوراق ليقول بجدية هذه المرة:

_أفكارك مبعثرة...تارة أشعر فيها بالقوة...وتارة أراها بمنتهى الضعف...أحياناً شديدة الرقة حد

الحالمية...وأحياناً شديدة الجفاء حد القسوة...حتى بطلات قصصك مثلك...مذبذبات!

احمرت وجنتاها بخجل وهي تشبك أناملها على الطاولة لتقول مطرقةً برأسها:

_أنا حقاً كذلك...وهذا ما يضايقني في نفسي كثيراً...سريعة الانبهار دائمة التقلب كثيرة الخطأ...ربما...لأن نشأتي كانت منغلقة...ثم وجدت نفسي فجأة مضطرة للتفاعل مع هذا العالم وحدي!

فبدا وكأنه وجدها فرصة سانحة ليتعرف على المزيد عنها...

عندما ضاقت عيناه بمزيد من التفحص وهو يقول بنبرة ودود:

_هلّا حدثتني عنكِ أكثر!!

وقد كانت هذه بداية حديث طال بعدها لساعتين...

كانت تتحدث فيهما دون توقف وكأنها كانت تنتظر هذا الاهتمام...

وكذلك هو الذي بدا مستمتعاً لأقصى حد بحديثها الطفولي البرئ المطعم بعاطفتها النقية نحوه...

حتى انتبهت هي لمرور الوقت فانتفضت واقفة مكانها لتقول بأسف:

_ الوقت سرقنا...مضطرة للانصراف الآن!

ولم يكن هو بأقل منها أسفاً وهو يناولها أوراقها ليقول بنبرة شابها بعض الضيق:

_أنا مضطر للسفر لعدة أشهر.

انقبض قلبها لعبارته وقد ساءها أن باب "الأمل" الذي انفتح أخيراً معه يوشك أن يُغلق...

لكنه منحها أجمل ابتساماته وهو يقول بما يشبه الوعد:

_سأهاتفكِ عندما أعود...أتمنى وقتها أن تكوني قد أعدتِ صياغة روايتك كي تكون أكثر توازناً...راسليني عبر الايميل .

ثم وقف مكانه بدوره ليقابلها بعينيه اللتين توهجتا بزرقتهما الصافية مع استطراده بنبرة ذات مغزى:

_أريد أن أراكِ أنتِ فيها...وقد رست نفسكِ على شاطئ واحد!

أومأت برأسها إيجاباً وهي تنسحب من أمامه بخطوات متثاقلة ...

ثم التفتت نحوه برأسها لتمنحه نظرة طويلة حملت كل مشاعرها قبل أن يختفي عنها طوال هذه الأشهر!!!

_فيمَ شردتِ؟!

انتزعها سؤاله من ذكراها فابتسمت ابتسامة أكثر ثقة وهي تهز كتفيها مع قولها:

_لا شئ...فقط تذكرت رأيك الأول في كتاباتي!

فابتسم بدوره وهو يعود بظهره للوراء على كرسيه ليقول وهو يقرأ ما أرسلته له عبر البريد الاليكتروني:

_لم أقرأ سوى خمس فصول...تطور ممتاز!

ثم صمت لحظة ليشير نحو إحدى صفحاتها مردفاً:

_هذه الخواطر...بها سحر خاص!

أنا لا أحبك كالأخريات...

أنا لا أتاجر بالحديث ...

ولا أبيع الأغنيات...

أنا لا أبدل الأثواب...

كي أبدو أحلى البنات...

لكن أمشط ب-الحب- شعري..

وأطلي بسحر البراءة ثغري...

ولا أمل الأمنيات...

وإن طاف قلبي يوماً ببابك..

سأهمس أحبك...بلا كلمات**!!!**

أنا لا أريدك دمية...

تلهو معي...ألهو بها...

لكن أريدك قصة ...

أزهو بها...

أحيا بها...

نعم أريدك عالماً خلف السحاب والنجمات...

أريدك طيفاً يلملم حزني...

وأجمع فيه كل الصفات...

أريدك حباً يُكذّب من قال

"هذا الزمان بلا معجزات"!

أريدك صبحاً وسكناً ...وحلماً...

لا تزاحمني به ...أخريات!!!

اتسعت ابتسامتها التي حملت قدراً أكبر من الثقة وهي تسمعه يقرأ كلماتها بصوته العذب...

لتقول برضا:

_صديقتي الكاتبة أيضاً ترى هذا...الشهور الماضية كانت محطة فاصلة في حياتي...أحياناً نحتاج لوقفة مع النفس نحدد فيها هدفنا قبل أن نكمل طريقنا على أرض صلبة.

أمال رأسه بتفحص وهو يسألها باهتمام:

_وماذا حدث بالضبط في الأشهر السابقة؟!

أطرقت برأسها دون رد وهي عاجزة عن أن تشرح المزيد...

لقد كانت خطوة ابتعادها عن العمل معه نافعة حقاً...

ليس فقط لأنها جعلتها تدرك عمق مشاعرها نحوه لكن لأن تركيزها في بقية تفاصيل حياتها صار أقوى...

صارت أكثر مهارة في عملها الجديد...

وأكثر اهتماماً بنفسها...

وهو ما كانت تحتاجه لتستقر شخصيتها المذبذبة أكثر...

خاصةً مع طيف الأمل الذي عاد يلون سماءها بألوان قوس قزح مع عودة جهاد ب-نظرته الجديدة- إلى حياتها!!!

ولما طال صمتها أمامه احترم تحفظها في الحديث فتجاهل سؤاله وهو ينقر بأصابعه على المائدة للحظات...

ثم قال بشرود:

_أنا الآخر تغيرت حياتي كثيراً في الأشهر الماضية...لقد حرصت أن أستفيد من سفري الطويل هذا للخروج من دائرة ماضٍ كنت أدور فيها بلا ملل.

قالها وهو يتذكر حديث صديقه وقبله حديث ماسة عن كونه مجرد سجين!!!

ذاك السجن الذي حاول العبور عبر قضبانه مؤخراً ليدرك ما بقي من عمره...

ولو أن ماضيه سيبقى حياً بين ضلوعه أبد الدهر يدعو الله في كل ساعة أن يرده لحضن وطنه...

لكنه تعلم أن الحياة لا تتوقف...بل تستمر!!!

لهذا عاد يبتسم أخيراً وهو يتلقف نظراتها الحنون المشبعة بعاطفتها قائلاً بصدق وجد صداه في قلبها:

_تعلمين أنكِ أول من فكرت في رؤيته عقب عودتي؟!

_أنا؟!

هتفت بها في لهفة مشوبة بخجلها وقد عاد إليها نزقها القديم وغلب طبعها تطبعها!!!!!!

فأطلق ضحكة صافية وهو يشعر أن تعابيرها تروقه لأبعد حد...

يقولون إن الرجل يزهد المرأة التي يشعر بعاطفتها نحوه...

لكن...ليس هو!!!

هو الذي افتقد دفء الوطن والأهل لسنوات ويحتاج لمن يشعر بعاطفته بصدق دون زيف!!!

أما هي فقد ازداد ارتباكها الذي وصل حد الحرج وهي تشعر بنفسها تعود لضعفها القديم معه...

ولما أشفق عليها من هذه المشاعر التي كانت ساطعة على ملامحها كالشمس ...

تنحنح بخفة ثم قال ببعض المرح:

_أنتِ وأولاد صديقي هؤلاء!

ابتسمت وهي تلتفت خلفها حيث أشار لثلاثة أطفال في أعمار متقاربة أتوْا عدواً إليهما الآن مع رجل بدا وكأنه والدهم ...

ليتلقفهم جهاد بأحضانه وضحكاته التي امتزجت بضحكاتهن...

وضحكاتها هي أيضاً!!

بينما تقدم منهم صديقه ليرمق زهرة بنظرة متفحصة قبل أن يغمز لجهاد خفية في إشارة ذات مغزى!!!

ثم ألقى السلام ليجلس معهم على المائدة...

عندما تقدم منهم النادل ليسألهم عما يطلبونه:

فقال جهاد وهو يدور بعينيه بينهم:

_المثلجات للأطفال...مع فنجان قهوة...

ثم استقرت عيناه على زهرة بقوله :

_وكوبان من الشاي الأخضر!

ابتسمت بخجل وهي تطرق برأسها بينما نقل صديقه بصره بينهما ليقول بتخابث:

_قليل الذوق!ألا تسألها أولاً؟!

لكن جهاد ابتسم وهو يواجهها بنظرته العميقة ليقول بنبرة ذات مغزى:

_أنا أعرف ماذا...تحب!!

==========

_السلام عليكم!

هتف بها عبد الله كعادته وهو يعود لبيته بعد صلاة العشاء لتستقبله صفا بحنانها الدافق مع همسها وهي تتعلق بعنقه:

_وعليكم السلام ...تأخرت اليوم يا عبد الله!

ضمها إليه بأحد ذراعيه برفق ثم ربت على وجنتها قائلاً:

_كنت أشتري لمحمد حاجيات الدراسة!

قالها وهو يرفع ذراعه الآخر بما يحمله من أكياس ضخمة...

فدمعت عيناها رغماً عنها وهي تتوجه ببصرها نحو غرفة فتون هناك لتهمس بصوت خفيض:

_لقد نام اليوم مبكراً.

أومأ برأسه وهو يضع ما بيده جانباً ...

قبل أن ينتبه لتلك الدموع التي تحجرت في عينيها فانعقد حاجباه بقلق مع سؤاله:

_ما الأمر يا صفا؟!

قالها وهو يتلفت حوله بحثاً عن فتون لكنه كان يعلم أنه لن يجدها كعهدها كل ليلة...

تغلق على نفسها باب غرفتها كي تمنح صفا "خصوصية" استقباله!!!

لكن دموع صفا الغريبة هذه لا ريب إنها تخصها...

ترى هل بدأ الشجار بينهما كما كان يترقب منذ وافق صفا على قرارها بالجمع بينهما؟!!!

لكن صفا جذبته من ذراعه برفق إلى غرفتها التي أغلقت بابها خلفها ...

قبل أن تداعب لحيته بأنامله بحركتها الحانية لتهمس باسمه بصوت مختنق...

فازداد انعقاد حاجبيه وهو يحتضن خصرها بكفيه مع تساؤله بجزع:

_ماذا بكِ؟!تبدين حزينة!

_بل سعيدة...سعيدة جداً يا عبد الله!!

تهدج بها صوتها حد البكاء الذي كتمته بصعوبة ليهز هو رأسه بانفعال...

فتطلعت هي لعينيه طويلاً قبل أن تهمس:

_فتون...حامل!!

قالتها ثم ارتمت بين ذراعيه لتضمه بكل قوتها...

ذراعاها كانا يتشبثان به تشبثها بالحياة نفسها!!!

ورغم أن جسدها كان يرتجف بقوة بكائها الصامت لكن أناملها كانت منغرسة في قماش قميصه بثبات راسخ...

وكأنها تخشى فقده!!!

وأمامها كان هو عاجزاً عن الرد إلا من ضمته العنيفة لها وهو يحتوي وجهها في صدره...

ليصمت طويلاً وهو يستعيد ما حدث خلال الأشهر الماضية...

وبالذات منذ أخبرته عن شرطها الغريب لتعود إليه!!!

غريب؟!!!

وأي غرابة!!!

لقد تصورها يومها قد أصيبت بالجنون وهي تطلب منه أن يجمع بينها وبين فتون في بيت واحد!!!

لم تستطع كشف ما دار بينها وبين فتون في زيارتها الأخيرة احتراماً لسرها... لكنها اكتفت بعبارتها :

_أريد أن أربي أطفالك بنفسي يا عبد الله!!

يومها لم يستطع النوم وهو لا يكاد يصدق ذاك التغيير الذي طرأ على شخصها -ذي الكبرياء-

ظنها تختبر حبه لها وتمسكه بها...

لكن لقاءاته المتكررة لها بعدها أكدت له جديتها...

حتى أتم زواجه بها من جديد ليفاجأ بها تطلب منه أن يقسم أيام مبيته بينها وبين فتون!!!

ليلتها فكر أن يصارحها بحقيقة أمره معها...

أن يعلن لها أنه لم يستطع أن يمس امرأة سواها...

أن يخبرها أن قلبه لم يزل على عهده...

لكنه لم يفعلها!!!

لماذا؟!

ربما هو شئ بداخله كان يخشى من تجبر صفا على شخص فتون الضعيف لو عرفت عن هذا...

وربما هي خشيته من ألا تصدقه...

وربما لأنه كان -يشك - بشعوره العارم بها أنها ...تعرف الحقيقة أصلاً ولهذا قبلت العودة!!!

لهذا صمت طويلاً يومها دون رد...

حتى فوجئ بها في اليوم التالي تدفعه بنفسها نحو غرفتها!!!

ليلتها كاد يجن من فرط إحساسه بمزيج الذنب والعجز وهو يشعر بنظرات فتون الحائرة بين خجلها وعزة نفسها!!!

لكنه -ومع هذا- لم يستطع أن يمسها تلك الليلة أيضاً!!!

ثم دارت الأيام دورتها لتؤلف بين القلوب...

يوماً بعد يوم..

وساعةً بعد ساعة...

و-مع شعوره الذي ازداد يقينه به أن صفا راضية حقاً بمصيرهم الجديد -

تشقق جدار عزلته عن فتون رويداً رويداً...

حتى تصالح جسده مع قلبه ليتقبلها أخيراً فمنحها -حقها المسلوب- الذي طالما ضيعه!!!

سعيد؟!!

يكذب لو قال أنه كذلك!!!

وهل لزوج "اثنتين" سعادة؟!!

إنه يشعر وكأنه يسير على حد السيف محاولاً العدل بينهما...

وأنّي له هذا؟!!!

لكنه راض!!!

راضٍ بقسمة قدره التي ارتضت له هذا الوضع...

راضٍ بعودة صفا إلى حضنه...

وبرّه بقسمه لفتون واحتفاظه بمحمد "معجزة السماء" كما تحلو له دوماً مناداته!!!

لهذا تنهد أخيراً باستسلام وهو يرفع وجه صفا إليه ليهمس بصوت مختنق:

_تكلمي يا "صفا روحي"...لا تجملي حديثاً ولا تدّعي فرحة...صارحيني بجرحك يا رفيقة العمر.

لكنها مسحت دموعها بأناملها وهي ترفع عينيها إليه لتهمس بابتسامة حقيقية وسط كل هذه الدموع:

_ولأنني رفيقة العمر...فأنا سعيدةٌ لأجلنا معاً...أولادك سيكونون أولادي...أنا سأربيهم هنا تحت عيني...سينادونني "أمي" كما يفعلون مع فتون...اعذرني على هذه الدموع ...أنت تعلم كم تمنيت هذه اللحظة طوال عمري...أن..

انقطعت عبارتها بآهة ألم طويلة وهي تعاود إخفاء وجهها في صدره ...

فضمها بقوة أكبر وهو يهمس بألم:

_يشهد ربي إنني ما تمنيت الولد إلا منكِ أنتِ...أنتِ نعمتي الكبرى .

ظلت تخفي وجهها في صدره لدقائق طالت...

تستمد من حضنه الدافئ أمان عمرها القادم...

عبد الله سيبقى "ابن قلبها" وهي ستبقى "صفا روحه" ...

هذه هي الحقيقة الثابتة التي قد تدور في فلكها أي حقيقة أخرى!!!

هي لا تكذب في فرحتها لأجله ولأجل فتون...

أجل...رغم أنياب غيرة -ليس لها فيها يد- تنهش قلبها بضراوة...

لكن الله -بلطفه- أنزل عليها في هذه اللحظات برداً وسلاماً وهي ترى -بعين خيالها-طفله القادم بين ذراعيها...

هي أول من يحمله ويكبّر في أذنيه...

بل ...وربما تسبق أمه في تقبيله!!!

هي من ستربيه في حضنها ليكون لها ابناً طوال العمر!!

من قال إن الأم فقط هي من تحمل وتضع ؟!!!

الأم هي التي تحنو وتربي و ترعى...

وهي ستكون أماً لأولاد عبد الله كما هي أم لجميع أولادها في المدرسة!!!

لهذا عادت ترفع عينيها إليه أخيراً بابتسامة راضية هذه المرة ...

وهي تسحب أناملها من تشبثها السابق على خصره لتربت بها على صدره مع همسها الحاني الذي لا يجيده مثلها:

_مبارك يا "ابن قلبي"!

دمعت عيناه بتأثر وهو يستشعر صدق فرحتها بالخبر!!

قبل أن يفاجئها بفعلٍ لم تتصور يوماً أن يصدر منه هو بالذات...

لقد قبّل يدها!!!

الشيخ عبد الله بكل كبريائه فعلها!!!

بل إنه لم يرفع أناملها إلى شفتيه بل انحنى بجذعه نحوها لتمنحها شفتاه قبلة امتنان عميقة...

قبل أن يعاود رفع عينيه إليها مع همسه:

_لا كلام لديّ كي أقوله لكِ...لكنكِ تشعرين بي كعهدك...صحيح؟!

أومأت برأسها إيجاباً وهي تعانق عينيه بمشاعرها الصادقة...

لتهمس أخيراً بما يشبه الرجاء:

_اذهب الآن لفتون وشاركها فرحتها بالخبر...هي تشعر بالحرج منذ أخبرتني.

فانعقد حاجباه بضيق وهو يغمغم باعتراض:

_لكن...

فوضعت أناملها على شفتيه تقاطعه وهي تغمض عينيها بقوة مع همسها الذي حمل ألمها رغماً عنها:

_فقط...أحضر محمد لينام معي الليلة...أنا لا أحتاج إلا هذا!

طال صمته الواشي برفضه وهو يشفق عليها من وحدتها هذه الليلة بالذات...

لكنها فتحت عينيها أخيراً لتهمس بحزم أقوى:

_صدقني يا عبد الله...محمد هو من أحتاجه الآن!

رمقها بنظرة متفحصة طويلة ثم تردد قليلاً مع همسه :

_دعيني معكِ هذه الليلة بالذات.

فابتسمت وهي تبتعد عنه مع قولها :

_فتون تحتاجك لتطمئنها على مستقبلها معنا...أما أنا فمطمئنة تماماً!

أشاح بوجهه في عدم اقتناع وقلبه لا يطاوعه في تركها...

لكنها عاودت رجاءها لبضع مراتٍ أُخَر...

حتى أومأ برأسه أخيراً في استسلام...

قبل أن يذهب لغرفة فتون حيث حمل محمد النائم بحذر ليضعه على فراش صفا التي تمددت جواره لتهمس بخفوت:

_أطفئ الأنوار كي لا يقلق ...ودعني معه.

صوب نحوها نظرةً أخيرة حملت كل مشاعره من عشق وامتنان وإشفاق...

وألف ألف وعد ألا يخذلها يوماً!!

ثم ترك الغرفة بخطوات متمهلة ليطفئ الأنوار كما طلبت متوجهاً لتلك التي تنتظره بقلقها هناك!!!

بينما أخذت صفا نفساً عميقاً وشيطانها يغذي خيالاتها بأفكار سوداء عن مستقبلها هنا بعد هذه التطورات الجديدة...

لكنها زفرت زفرة قصيرة ثم استغفرت الله بخفوت...

قبل أن تميل بوجهها نحو الصغير النائم بملامحه الملائكية...

لترتسم على شفتيها ابتسامة حانية وهي تضمه بين ذراعيها برفق لتشرد ببصرها في الفراغ للحظات...

قبل أن تهمس لنفسها بشجن:

_صافي عادت يا أنس...عادت لنفسها كما كنت ترجو...تضحيتك لم تضِع هدراً!!

وفي غرفة فتون وقف عبد الله أمامها بابتسامة هادئة ليشملها بنظرة عطوف مع قوله:

_مبارك!

تقدمت نحوه ببطء وهي تتعلق بعينيه محاولةً قراءة مشاعره الحقيقية قبل أن تهمس بنبرتها الوديعة:

_سعيد يا شيخ؟!

ربت على كتفها برفق ثم مال على رأسها بقبلة قصيرة قبل أن يهمس برضا:

_الحمد لله رب العالمين.

فدمعت عينا بقوة انفعالها وهي تسأله بحذر:

_وسيدتي صفا؟!

تنهد بعمق وهو يبتعد عنها بضع خطوات ثم أعطاها ظهره ليقول بنبرة شاردة:

_ألم تطلب هي منكِ ألا تناديها ب"سيدتي" هذه؟!

فاقتربت منه لتقول بطيبة لا تدعيها:

_لآخر يوم في عمري سأناديها هكذا...ليس فقط لأجلها بل لأجل أن أذكر نفسي بصنيعكما معي!

التفت إليها من شروده بابتسامة متعجبة...

لا يصدق أن الله قد ألف بين قلبيهما هكذا!!!

لكن هذا لم يمنع سؤاله المتردد لها:

_ألا تشعرين بالغيرة منها؟!

أطرقت برأسها للحظات ثم رفعت إليه رأسها بإجابتها المقتضبة:

_جداً!

ارتفع حاجباه بدهشة للحظة من صراحتها المناقضة لقولها السابق...

لكنها أشاحت ببصرها لتقول بهدوء لم يُخفِ مرارتها:

_أغار منها وأعرف أنها تغار مني...هذا أمر طبيعي...لكنني أعرف كما تعرف هي أنك لن تظلم واحدة منا.

تنهد في حرارة وحديثها يضغط على أسوأ مخاوفه...

ليته حقاً يستطيع العدل بينهما!!!

لكن فتون شعرت أنها ربما قد تكون قد تجاوزت في حديثها معه هكذا...

خاصةً مع هذا الحزن الذي كسا ملامحه فجأة!

فاقتربت منه أكثر لتقول مغيرة الموضوع:

_تريد أخاً لمحمد...أم تفضل أن تكون فتاة؟!

وكأنما انتزعته عبارتها من أفكاره فجأة لتلونها ببعض البهجة وهو يحلم بهذه اللحظة...

فابتسم ابتسامة حقيقية هذه المرة وهو يلتفت نحوها ليقول بعفوية:

_فتاة تشبهكِ ستكون كارثة...لن أدعها تخرج من باب البيت!

اتسعت عيناها للحظة وهي تسمعها منه بهذه البساطة...

لقد كانت أول عبارة غزل تسمعها منه!!!

ورغم أنها توقن من شدة جمالها الذي طالما أثنى عليه الناس...

لكن سماعها منه شأن آخر!!!

لهذا خفق قلبها بجنون مع احمرار وجنتيها وهي تطرق بوجهها دون رد...

فيما ابتسم هو لخجلها ليهمس أخيراً بحنان:

_أنتِ طيبة حقاً يا فتون...محظوظٌ أنا بك!

==================

_هل تذكرني يا شيخ؟!

قالها عبد الله لذاك الشيخ الذي التقى به ليلة زواجه بفتون...

تلك الليلة التي قضاها هائماً في الشوارع قبل أن تسحبه قدماه لذاك المسجد الذي أدى فيه صلاة الفجر ليقسم له القدر لقاءه بالشيخ الذي أراحه حديثه وقتها كثيراً...

والذي استقبله الآن ببشاشة عقب صلاة الفجر أيضاً هذه المرة ليقول بنبرة ودودة:

_وهل يُنسَى الصالحون مثلك يا ابني؟!

ابتسم عبد الله بهدوء عندما ربت الشيخ على كتفه ليردف:

_لماذا لم تأتِ من يومها؟!يعلم الله أنك كنت تخطر على بالي كثيراً وكنت أدعو لك !

اتسعت ابتسامة عبد الله وهو يدعو له بدوره جهراً...

عندما اقترب الشيخ منه بجلسته على أرضية المسجد ليسأله باهتمام:

_ماذا جدّ في أمرك يا ابني؟!

تنهد عبد الله بحرارة ثم مضى يحكي له تطورات قصته الأخيرة...

بداية من زواج صفا بأنس ثم موته وعودة صفا إليه مع شرطها الغريب ...

وانتهاء بخبر حمل فتون الذي جدد المياه الراكدة...

والذي يخشى منه على استقرار حياته مع صفا!

كان الشيخ يستمع إليه باهتمام وهو يبتسم ابتسامة هادئة حتى انتهى عبد الله بقوله :

_لقد تغيرت هي كثيراً يا شيخ...كما أنها الآن تعيش في بيتي أنا...أنفق عليها من حُرّ مالي...ولا تدري كم صار يعني هذا لي!

اتسعت ابتسامة الشيخ وهو يقول بتعقل:

_أنت أيضاً تغيرت...زواجها من رجل آخر جعلك تدرك قيمتها الحقيقية...قهر شيطان نفسك الذي كان ينتقص من صورتها في عينيك...روض جموح تهورك وطبعك الانفعالي ...ولعل هذه حكمة المولى عز وجل في تحريم المرأة على زوجها بعدالطلاق الثالث وعدم جواز ردتها إليه إلا بعد زواج آخر صحيح!

فهز عبد الله رأسه مؤيداً وهو يقول بانفعال:

_مهما وصفت لن أستطيع أن أشرح لك قسوة شعوري بهذا الأمر...نارٌ تشتعل بصدري كلما تذكرت...

ثم تأوه بخفوت ليردف:

_الحمد لله رب العالمين...عسى أن يكون هذا تكفيري عن ذنبي معها!

ربت الشيخ على كتفه وهو يدعو له بالهداية...ثم سأله متفحصاً:

_لكن مجيئك اليوم هنا له سر....صحيح؟!

صمت عبد الله لبضع لحظات ثم أومأ برأسه ليقول أخيراً بنبرة مُتعَبة:

_خائف!

عقد الشيخ حاجبيه بتساؤل فيما أردف عبد الله بنفس النبرة:

_خائف ألا أعدل أنا بينهما...لقد قسم القدر بينهما بالعدل...إحداهما معها قلبي والأخرى معها ولدي...وأخشى أن أظلم إحداهما بما ينقص الأخرى!

ثم ابتسم ليقول بسخرية:

_الناس يحسدونني!!الشيخ المحظوظ تزوج من اثنتين...ولا يدركون أي صراعٍ أعيشه معهما!!

أومأ الشيخ برأسه متفهماً ثم قال برفق:

_الله سبحانه وتعالى لم يشرع التعدد للرجال مزيةً وتفضيلاً ...بل من باب القوامة ...وأنت لم تختر هذا الوضع بل فرضته عليك الظروف...ولعلها حكمة القدر لتكون لك ذرية صالحة تعمر الأرض.

فشبك عبد الله أنامله وهو يقول بتخوف:

_أنت تعرف الحديث الشريف ..."من كان له زوجتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقّه مائل"...وأنا جربت مرارة العقاب على التفريط بالحرمان.

فابتسم الشيخ وهو يرد برفق:

_والله سبحانه وتعالى يقول"ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم"...فكيف يعاقبك وهو الذي يقرر أن العدل مستحيل؟!!

انعقد حاجبا عبد الله باهتمام وهو يقول:

_صحيح يا شيخ!!أنا لا أفهم هذه النقطة...كيف يشرع الله التعدد ثم يقضي بعقاب من لا يعدل...وهو عز وجل الذي يقول أننا لن نعدل!!!

اتسعت ابتسامة الشيخ وهو يقول مفسراً:

_العدل المقصود هنا يا ابني هو العدل فيما تملكه جوارحك...لكن العدل القلبي مستحيل...النبي صلي الله عليه وسلم كان يحب السيدة عائشة أكثر من بقية نسائه لكنه كان يعدل بينهن في المعاملة وكان من دعائه صلى

الله عليه وسلم"اللهم إن هذا قَسمي فيما أملك ...فلا تلمني فيما تملك ولا أملك "...يعني قلبه.

هز عبد الله رأسه بفهم بينما صمت الشيخ لحظة ليردف:

_خلاصة القول يا ابني...لا حرج عليك في محبتك لواحدة دون الأخرى ...لكن الإثم هنا أن تفرق بينهما في المعاملة!

هنا ابتسم عبد الله ببعض الارتياح وقد منحته كلمات الشيخ الكثير من السكينة...

فابتسم الشيخ بدوره وهو يقول بحنان أبويّ:

_لا تخف يا ابني...من له نفسٌ لوامة مثلك لن يضل...حتى لو تعثرت خطواته سيعاود طريقه ولو بعد حين.

ثم نظر في ساعته ليردف:

_لقد مر الوقت سريعاً...ها قد حان وقت صلاة الضحى...هيا لنصليها !

أشرقت ملامح عبد الله بنور سكينته وهو يقوم من مكانه ليستند الشيخ على كفه الممدود...

قبل أن يقوم بدوره ليتقدمه خطوة للإمامة...

ثم رفع كفيه بالتكبير...

وخلفه كان عبد الله يحاول استحضار خشوعه للصلاة...

وهو يشعر أن حديث الشيخ أزاح الكثير من هواجس قلبه...

سيؤدي دوره كما كتبه له القدر...

وسيحاول العدل بينهما قدر استطاعته...

لعله يجد راحته في" الرضا والعدل"!!

وبهذا الخاطر الأخير أخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول بملء روحه وعقله:

_الله أكبر!

============

_أهلاً ست البنات!

هتف بها عبد الله بحنان حقيقي وهو يتناول صغيرة رؤى بين ذراعيه ليداعب شفتيها المنمنمتين بأنامله قبل أن يردف بمرح غريب على طبعه الجاد:

_لقد خطفت منكِ اللقب يا رؤى...هي التي صارت ست البنات!

ضحكت رؤى بمرح على فراشها في غرفتها بالمشفى بعد ولادتها ...لتقول وهي تنظر لراغب بحب:

_وست الحسن أيضاً...هل رأيت ذقنها؟!

فضحك عبد الله بانطلاق قبل أن يطبع على ذقن الصغيرة -المشقوق -قبلة عميقة...

بينما هتف راغب بسعادة عارمة مخاطباً عبد الله:

_كنت سأتركها لهم هنا في المشفى لو لم تحمل طابع حسن كشقيقتك !

فعادت رؤى تضحك وهي ترفع كفيها للسماء بقولها:

_الحمد لله..طوال أشهر الحمل وهو مهووس بهذا الأمر!

ضحك الجميع بسعادة وهم يتناولون الصغيرة بدعائهم ...قبل أن تلتفت رؤى لعبد الله بقولها الحنون:

_ومباركٌ لك أنت أيضاً يا أخي...صبرت ونُلت!

تمتم عبد الله بعبارات حمد خافتة ...ثم ناولها الصغيرة ليقول لها بنبرة اعتذار :

_سأضطر للانصراف الآن وسأمر عليكِ في المساء كي أملأ عيني من ست البنات !

قالها وهو يميل على الصغيرة بقبلة أخيرة...قبل أن يغادر الغرفة...

فتابعته رؤى ببصرها لتقول بمزيج من حنان وفرحة:

_أخيراً سيكون أباً!

فصمت راغب للحظات قبل أن يقول بتردد:

_لا أتصور رجلاً يسعد بزواجه من اثنتين...

ثم غمزها مشاكساً:

_أنا بالكاد أحتمل عناء واحدة!

فزمت شفتيها بحركة طفولية وهي ترمقه بنظرة عاتبة جاوبها بضحكة طويلة...

قبل أن يطبع على شفتيها قبلة ناعمة مع همسته:

_حبيبتي أنتِ!

تنهدت بحرارة وهي تضم الصغيرة لصدرها ثم قالت بجدية هذه المرة:

_فتون وصفا حالة خاصة...كل منهما تدرك أنها تملك ما يميزها عن الأخرى وتعرف قدرها جيداً...صفا تعرف أن قلب عبد الله لن يسع غيرها...وفتون راضية بأن تكون أم أولاده...

ثم صمتت لحظة لتردف بشرود:

_زواج صفا من أنس كان النقطة الفاصلة في حياتها...ربما لولا هذا لما قبلت هذا الوضع أبداً...ولظل عبد الله طوال عمره محروماً من طفل من صلبه...فمع عشقه الجارف لها لم يكن ليؤذيها بهذا أبداً...لكنها قبلت هذه التضحية بصبر تُحسَد عليه!!

أومأ برأسه موافقاً قبل أن يسألها ببعض التردد:

_وعبد الله؟! أتعجب كيف رضي أن يعود إليها بعد زواجها السابق؟!هذا أمرٌ يصعب على أي رجل تقبله!!!

فشعرت بالحرج و-كلماته تذكرها بعهدهما القديم -لكنها تجاوزت عن هذا وهي تتشاغل بالنظر إلى الصغيرة النائمة مع قولها:

_لقد سألت صفا عن هذا يوماً فقالت لي أنه لم ولن ينسى هذا أبداً...شئٌ ما بنظرة عينيه إليها قد انكسر...لكن لعل

ما جعله يتقبل هذا الأمر هو شعوره بالذنب...وأنه هو الذي دفعها بيديه لرجل آخر بأيمان طلاقه المتهورة...لقد تعلم كلاهما الدرس بأقسى طريقة...والآن يعلم كل منهما قدر الآخر جيداً!

صمت للحظات مفكراً قبل أن يقول باستسلام:

_وضع صعب على ثلاثتهم...لكن ...له في خلقه شئون!!!

فابتسمت وعيناها البريئتان تحملان الآن لمعة مشاكسة مع قولها :

_ما دام بيتك من زجاج فلا تقذف الناس بالحجارة....كنت لتكون مثله لولا أن عزة أصرت على الطلاق بشدة.

ورغم أنها كانت تمازحه بقولها وهي تدرك أن زواجه من عزة لم يكن حقيقياً...

لكن ملامحه تجهمت فجأة وهو يجلس جوارها على الفراش ليقول بعتاب:

_أنت التي تقولين هذا؟!

أطرقت بوجهها دون رد...فأردف بشرود لم يخلُ من ضيق:

_أكذب عليكِ لو زعمت إنني لم أكن أنتوي إتمام زواجي بها...رغماً عن قلبي كنت سأفعلها ...لكنني أحمد الله أن عصمني القدر من هذا بما حدث وقتها...لو كنت فعلتها لما كان لي معك أي أمل...فلم أكن لأجمع بينك وبين أي امرأة أخرى مهما حدث...لأنني أعرف أنني ما كنت لأعدل بينكما.

هنا شعرت هي ببعض الذنب وهي تعود به إلى تلك الذكريات البغيضة فقالت لتصرفه عنها:

_أنا سعيدة لأجل عزة حقاً...كلما رأيتها على شاشة التلفاز بمظهرها الواثق وابتسامتها المنطلقة واعتدادها بنفسها أشعر بالاعتزاز نحوها.

فابتسم أخيراً ليقول بارتياح :

_أجل...ولعل هذا ما يخفف من شعوري بالذنب نحوها...هي وجدت طريقها وستكمله كما تحب!

لكن رؤى عقدت حاجبيها بقلق وهي تسأله باهتمام:

_لكن...خطيبها السابق...لو خرج من السجن فمن الممكن أن يؤذيها.

هنا التفت هو نحوها ليقول باقتضاب:

_قُتِل!

شهقت بعنف وهي تضم الصغيرة نحوها بحركة تلقائية ...

فأومأ برأسه مؤكداً ليقول ببعض الضيق:

_مشاجرة مع أحد السجناء الخطرين غلبه فيها طبعه السئ...ترصده الرجل وتخلص منه....ربما لولا ثقتي من أننا تخلصنا منه للأبد لما طلقتها خوفاً عليها!

زفرت زفرة قصيرة ثم هزت رأسها لتهمس بخفوت:

_سبحان من يهلك الظالمين بالظالمين!

هنا أصدرت الصغيرة صوتاً خافتاً قبل أن تبدأ بالبكاء فبدأت رؤى في إرضاعها بارتباك يليق بعهدها الأول في هذا الشأن ليراقبها هو ضاحكاً مع قوله:

_لو رأتكِ أمي تائهة هكذا فستأخذها منك لتعتني هي بها.

ضحكت بدورها وهي تتأمل الصغيرة بحنان قبل أن تسأله بترقب:

_ماذا سنسميها؟!

فاقترب منهما أكثر ليتناول أنامل رؤى بأحد كفيه ويمسك كف الصغيرة بالآخر ليقول ببطء متلذذ:

_أول حرف من اسمينا...وآخر حرف من اسمي واسمك.

فعقدت حاجبيها تفكر قبل أن تلتمع عيناها بالجواب:

_رُبَى!

ضحك بسعادة وهو يميل على وجنتها بقبلة ليتبعها بأخرى على جبين الصغيرة ثم تنهد بارتياح مع همسه :

_هكذا نتشارك أنا وأنتِ اسمها...كما تشاركنا كل شئ!

=============

استيقظ من نومه على صوت صرخاتها المكتومة جواره ...

فانعقد حاجباه بقلق وهو ينتفض من نومته ليسألها بلهفة:

_ماسة...لماذا تصرخين؟!

كتمت أنينها بصعوبة وهي تلاحظ الجزع الذي ارتسم على ملامحه لتقول بصوت مختنق:

_أخشى أنني سألد الآن...أنا اتصلت بفهد...هو على وصول!!

ارتجفت شفتاه بقلق وهو يلعن هذا الظلام الذي يجعله لا يميز شيئاً حوله...

كم يتمنى الآن لو يعود إليه بصره لساعة واحدة...

فقط ساعة!!!

يملأ عينيه فيها من ماسته وطفليْه وبعدها لن يبالي لو عادت عيناه لظلامها الأبديّ!!

طفليْه؟!!!!

أجل...لقد عوضه القدر عن طفله الذي فقده باثنين!!!

هكذا أخبرته ماسة وهي تكاد تطير فرحاً منذ أعلمتها طبيبتها بالأمر...

وقتها تمنى لو يراهما على شاشة الجهاز ...يحتضنهما بأنامله ...

يعوض بهذا حرمان شوق سنواتٍ طويلة !!

ولعل هذا هو ما دفعه حقاً ليبدأ العلاج النفسي كما طلبت منه ماسة...

العلاج الذي لم يؤتِ ثماره حتى الآن...للأسف!!!

ربما لطبيعته الكتومة...

وربما لأنه هو نفسه لا يشعر بأحقيته بهذه المنة من السماء!!!

انقطعت أفكاره عندما سمع صوت صرختها جواره من جديد تؤجج نيران عجزه أكثر وهو لا يدري ماذا يفعل الآن...

لتتزامن صرختها هذه مع هذه الصرخات "الشيطانية" التي عادت تزأر في رأسه:

_لن يعيشا...

_بل...وربما هي أيضاً لن تعيش!!!

_ستفقد كل من أحببتهم يوماً عقاباً لك على ماضيك!!

_حتى لو عاشا ...لن تراهما...!!!

_سيكبران أمام الجميع إلا أنت!!!

_أنت الذي طالما زعمت ألّن يعاندك قدر ولن توقفك ظروف...والآن ماذا صرت؟!مجرد رجل عاجز يستجلب الشفقة!!

_يالسخرية!!الآن تحصل على الولد الذي طالما حلمت به ...لكنك أبداً لن تراه!!

_لن تراه!!!

_لن تراه!!!

هنا اشتدت الصرخات بالعبارة الأخيرة ليجد نفسه يرفع كفيه إلى أذنيه ككل مرة وهو عاجز عن احتمال هذا الألم ...

لتفطن هي -بحدسها- لما يدور بداخله من صراع ...

فكتمت صرخاتها قهراً وهي تقترب منه لتضم رأسه إلى صدرها بقوة هامسة بصوت متقطع:

_لا تقلق...سنكون بخير...كلنا...سنكون بخير!!

قالتها ثم ضمت شفتيها بقوة لتخفي ألمها فتفصد جبينها بعرق غزير ...

بينما طوقها هو بذراعيه بقوة وهو يهمس بقلق:

_بماذا تشعرين؟!

أغمضت عينيها بقوة للحظات حتى خفت الألم نوعاً...

فأخذت نفساً عميقاً ثم مدت أناملها لتتناول كفه الذي بسطته على بطنها وهي تقول له في محاولة للتماسك:

_هل تشعر بحركتهما؟!

انعقد حاجباه بشدة وقد توارت "صرخاته" الشيطانية رويداً رويداً مع تلك الحركة المميزة التي شعر بها تحت أنامله ...

تلك الحركة التي كان يترقبها بلهفة طوال الأشهر الماضية وكأنها صارت فجأة همه الشاغل في هذه الحياة...

لهذا ظل يتلمس بطنها بأنامله برفق صاحب همسها الراجي:

_ادعُ الله لنا يا عاصي!

أغمض عينيه بألم ليزداد انعقاد حاجبيه بعجز...

دعاء؟!!

وهل يجوز لمثله دعاء أو تنفتح له أبواب السماء؟!!

هو يشعر أنه مكبلٌ بخطاياه ...

مدفونٌ تحت أنقاض آثامه...

فأنّى له دعاء؟!!

انقطعت أفكاره عندما انفلتت منها صرخة عالية رغماً عنها فاعتصرها بين ذراعيها أكثر ...

ليتزامن هذا مع رنين الجرس الذي فتحه الخادم ليدلف فهد بسرعة إلى الداخل...

ولم تكد تمضي ساعة واحدة حتى كانت هي قد دخلت إلى غرفة العمليات ...

ووقف هو بالغرفة الخارجية مع فهد وجنة ينتظرون خروجها...

تبادل فهد وجنة نظرات مشفقة وهم يرون الألم المنقوش على ملامحه ممتزجاً بقلق جعل أطرافه ترتعش بقوة..

فحاول فهد الاقتراب منه بقوله الرفيق:

_لا تقلق!!

لكنه لم يسمعه ...

تلك الصرخات عادت تدوي في أذنه من جديد...

لينهش القلق قلبه أكثر وأكثر...

_ستعيش وحيداً وتموت وحيداً...

_ستفقد كل من أحببتهم عقاباً لك على ما كان...

_سيموتون بذنبك كما مات ابنك وزوجتك من قبل...

_أنت لا تستحق...لا تستحق!!!

ووسط كل هذه الصرخات وجد همستها البريئة تخترق وعيه:

_ادعُ الله لنا يا عاصي!

فأطبق شفتيه بقوة وهو يهز رأسه يمنة ويسرة بعجز ...

ليته الآن يرى ...!

ليته يستعيد سطوته القديمة فيأمر الجميع أن يبقى مع زوجته ولا يتركها حتى يطمئن...!

وبهذا الخاطر الأخير انفرجت شفتاه أخيراً ليقول مخاطباً فهد بنبرة مختنقة جافة:

_خذني عند باب الغرفة التي دخلتها.

عاد كلٌ من فهد وجنة يتبادلان النظرات المشفقة...

لكن فهد طاوعه مجبراً وهو يرى على وجهه أمارات معاناته الصامتة...

وما كاد هو يصل للباب حتى تلمسه بأنامله بخشية قبل أن يقول بقلق وهو يتعجب عدم سماعه لصوتها:

_لماذا هذا الهدوء الشديد؟!ولماذا تأخروا؟!

فربت فهد على كتفه ليقول مطمئناً:

_الهدوء طبيعي ...و هي دخلت لتوها...لم تتأخر.

لكن حاجباه انعقدا بشدة وقلبه يخفق بصدره بجنون لتتنازعه صرخاته من جديد بضراوة قاتلة:

_لن تفرح...ليس لمن مثلك توبة!

فتقابلها عبارتها النقية يوم قالت له:

_لم يكن ليلهمك التوبة وهو يريد بك العذاب!

وبينهما تصارعت أعماقه بأقوى صراع عرفه منذ الحادث...

صراع كاد يشق صدره نصفين...

حتى كاد يتأوه بقوة وكلا الصوتيْن يتنازعانه:

_ستفقدهم جميعاً...

والآخر منها يقابله...

_سنكون بخير...كلنا...سنكون بخير!!

لتزداد أنفاسه تلاحقاً...

وتزداد أنامله تشبثاً بالباب المغلق ...

وتتساقط قطرات عرقه على جبينه الذي ألصقه بالباب مترقباً...

قبل أن تحسم جملتها الأخيرة الصراع:

_ادع الله لنا!!

هنا انفرجت شفتاه ببطء وانفتحت معهما عيناه بتثاقل...

ليتحرك لسانه أخيراً هامساً بخفوت شديد:

_يارب...يارب!!

كان يرددها بتتابع وكأنه يريد أن يقهر بها تلك الصرخات الشيطانية التي عادت تهاجمه بقسوة...

لكنه ازداد تشبثاً بهمسات دعائه وهو يحرك جبهته على الباب المغلق ببطء...

وكأنما صارت حياته كلها رهينة مَن خلف هذا الباب!!!

لتتوارى الصرخات أخيراً رويداً رويداً...

فيخفت صوتها تدريجياً...

حتى عادت صرخاتٌ أخرى تحتل أذنيه...

صرخاتٌ حقيقية هذه المرة!!!!

أجل...صرخات الصغيرين التي دوت في المكان أخيراً لتملأ قلبه قبل أذنيه...

وتقهر كل ما عداها!!!!!

فدمعت عيناه بفرح ولازالت شفتاه تتمتمان بالدعاء ...

قبل أن ينفتح الباب الذي يستند عليه فجأة!!!!

هنا اصطدم وجهه بصدر الطبيب الذي خرج لتوه قبل أن يتمتم بكلمات اعتذار...

فأغلق عينيه بقوة وهو يبتعد عنه خطوة...

قبل أن يعاود فتحهما ببطء...

لينقشع الظلام شيئاً فشيئاً أمام نظراته المرتعشة...

ثم يغشي النور عينيه اللتين ميزتا ضوء الغرفة ببعض العسر...

مع هتاف فهد الفرح:

_الصغيران بخير...اطمئن!

هنا شعر بشئ من الغرابة وعيناه تجوبان الغرفة بتفحص...

حتى توقفتا على ماسة الراقدة هناك جوار...صغيريه!!!

هل يراهما حقاً؟!!

أم أنه...يتخيل؟!!

ضاقت عيناه بترقب وهو يسير متكئاً على عصاه برفق حتى وصل إليهم...

ولم يكد يميز ملامح الصغيرين حتى ابتسم أخيراً بين دموعه التي ملأت عينيه وهو يلقي عصاه هامساً بصوت مرتعش:

_أنا ...أرى!!!

============

_الحمد لله يا ابنتي...يعلم ربي إن لساني لم يكن يكف عن الدعاء لكما!

هتفت بها رحمة بسعادة بالغة وهي تضم أحد الصغيرين لصدرها في غرفة ماسة ببيت الساحل...

فابتسمت ماسة وهي تقول بفرحة لم تعرفها منذ زمن بعيد:

_أرأيتِ كم تشبهني نور...عيناها فضيتان مثلي!!

ضحكت رحمة بانطلاق وهي تقبل الصغيرة بحنان قبل أن تتناول أخاها لتسألها بترقب:

_وذاك الوسيم...ماذا أسميتماه؟!

اتسعت ابتسامة ماسة وهي تجيبها باعتزاز:

_ضياء!

ارتفع حاجبا رحمة بتأثر وهي تتأمل ملامح الرضيع بتفحص مع همسها:

_سبحان الله!!وكأنها قسمة العدل...هو نسخة من أبيه!!!

تنهدت ماسة بارتياح وهي تسند ظهرها للفراش مع قولها المنغمس بنبرة الحمد:

_عاصي أسماهما نور وضياء...قال إنهما حقاً كذلك...بعدما استعاد بصره فور رؤيتهما!

فهزت رحمة رأسها وهي تعاود التسبيح والتحميد...

فيما استطردت ماسة بنفس النبرة:

_لم أفقد يقيني بالله يوماً...رغم أن جلسات عاصي النفسية لم تكن مجدية...لكنني كنت واثقة إن مجئ الطفلين سيكون له بالغ الأثر...

ثم ابتسمت لتردف بنبرة راضية:

_طبيبه المعالج يقول إن صرخات الطفلين فور ولادتهما صنعت له "صدمة عكسية" لتحارب تلك الصرخات التي كانت تملأ عقله بعد حادث مقتل زوجته لتشبعه بالحقد على نفسه أكثر....تلك الصدمة هي ما ساعدته في استعادة بصره...بل...استعادة يقينه بقبول الله لتوبته!

فرفعت رحمة رأسها للسماء وهي تقول بخشوع:

_سبحان من لم يقنطنا من رحمته مهما بلغت معاصينا!

أومأت ماسة برأسها وهي تنقل بصرها بين الصغيرين بحب...

نور...وضياء!!

هكذا كان اسماهما...وهكذا كانا هما حقاً في حياتها هي وعاصي!!!

عاصي الذي طالما افتقد الحب في عالم أرسى فيه أعمدة طغيانه وجبروته...

حتى انهدم على رأسه لينتهي به وحيداً ك"شيطان" منبوذ!!

لكنه عرف كيف يزيل الغبار عن "ماسة" فطرته ليعود لها بريقها...

وتعود معها سحب الحب واعدةً بصيّب نافع...

قادرٍ على إحياء هذا الجديب بعد طول جفافه!!!

انقطعت أفكارها عندما سمعت صوت الباب يفتح بعد طرقات هادئة ليتبعه دخول عاصي بابتسامة ما عادت تفارق ملامحه...

ابتسامة أزاحت الكثير من تجاعيد الزمن على وجه طالما أثقلته الذنوب...

لتشعر وكأن سنوات عمره عادت به للوراء...

وعاد معها قلبه يانعاً بالرقة والحب!

بينما هتفت رحمة بحنانها الطاغي:

_بارك الله لكما يا ابني!!لكنني عاتبةٌ عليكما لأنني كنت أريد التواجد مع ماسة أثناء ولادتها!

فاتسعت ابتسامة عاصي الحانية وهو يتناول منها الصغير ليضمه إليه برفق وهو يملأ عينيه منه بظمإ نظراته الغارقة بعاطفته مع قوله بنبرة اعتذار:

_الأمر كله تم بسرعة...

ثم تهدج صوته باستطراده ولازالت عيناه متشبثتين بالصغير:

_وكأنه حلم!

تفحصته رحمة بخبرتها في حنان مشوب باعتزازها وهي تلاحظ تأثره...

قبل أن تتنحنح بحرج وهي تقول بنبرة آسفة:

_سأضطر للانصراف الآن...ميادة الصغيرة مريضة ولن أستطيع البقاء هنا أطول.

ثم مالت على ماسة تحتضنها بقوة لتهمس في أذنها بصوت خفيض:

_سأمر عليكِ غداً صباحاً...عزيز يرسل إليكِ سلامه لكنه فضل ألا يأتي حرجاً من عاصي.

أومأت ماسة برأسها وهي تضمها بكل قوتها قبل أن ترفع إليها ماستيْها بعبارتها التي اشتاقتها كلتاهما:

_سأنتظركِ يا "كل الرحمة"!!

اتسعت عينا رحمة بتأثر وهي تسمع منها هذا اللقب الذي لم تسمعه منها منذ عهد بعيد...

بالتحديد منذ تركت لها تلك الرسالة تخبرها فيها بهروبها من حب عزيز!!!

يالله!!!

من يصدق سرعة الأحداث التي دارت بعدها بهذا العنفوان...

ليقف كل منهم في مكانه المضبوط الذي اختاره له القدر؟!!!

وعند خاطرها الأخير ابتسمت بحنان وهي تمنح ماسة قبلة جبين أخيرة...

قبل أن توزع قبلاتها بالعدل على الصغيرين وتغادرهم بخطوات متئدة !!!

ولم تكد تغادر حتى التفتت ماسة نحو عاصي لتقول بدلال مشوب بعتابه:

_هل ستبدأ التمييز بينهما من الآن...حملت ضياء وتركت نور؟!

فابتسم ابتسامةً لم ترَ أروع منها وهو يقبل جبين الصغير بعمق...

قبل أن يضعه جوارها...

ليجلس وهو يحمل الصغيرة التي أمطرها بقبلاته الناعمة وهو يقول بحنانه الفريد:

_للأسف سأميز بينهما...

ثم داعب شعر الصغيرة الأسود الغزير بأنامله ليردف :

_لصالح صاحبة بحار الفضة بالطبع!!

اتسعت ابتسامتها وهي تربت على كتفه لتقول ببعض الدهشة:

_ظننتك ستحب ضياء أكثر!

فتنهد بحرارة ولازالت انامله على طوافها المتبتل بملامح صغيرته ليجيب بشرود:

_كلاهما جزء من روحي يا ماسة...لكنها هي...

ثم صمت لحظة ليلتفت نحوها ملتقطاً نظراتها العاشقة بما يفوقها عشقاً ...مع همسه:

_هي الأقرب لملامحك...فكيف لا تكون الأقرب لقلبي؟!

ضحكت ضحكة رائقة وهي تقترب أكثر لتضمهما معاً ...

قبل أن تحمل الصغير لتقبله هامسة:

_حسناً...دع لي إذن هذا السيد الصغير بغابات زيتونه هذه...ظني أنه سيشابه أباه في قوته وعنفوانه...تصور أنه لا يكف عن البكاء كلما حملت شقيقته...

ثم غمزته لتقول بدلال:

_السيد الصغير يغار...يريد أن يتملكني كأبيه!!!

فضحك بدوره ضحكة صافية عالية وهو يضمهم جميعاً إليه...

لترفع هي إليه عينيها بتنهيدة حارة سبقت قولها المتهدج باقتضاب:

_ضحكتك!

أغمض عينيه بتأثر وهو يضمهم إليه أكثر ...

لتردف هي بسعادة طاغية:

_ياربي!!!لم أظنها ستكون بهذه الروعة...وبهذا الصدق...

ثم اقتربت لتطبع على شفتيه "هدية" ناعمة ناسبت همسها العاشق بعدها:

_ضحكة "سيد الأضداد" تثير الجنون مثله....وعدتك أن أعيدها وقد وفيت!!

==============

في غرفتها ببيت رحمة ...

أمسكت هاتفها تقرأ آخر ما كتبه في مدونته التي فتحها من جديد!!!

أجل...

"قلب الشاعر" فتح قلبه للحب مرةً أخرى أخيراً ليعود بقصيدة جديدة توقن حق اليقين أنها لها...

ورغم أنها لم تكن أول مرة تقرأ فيها أشعاره...

لكن هذه المرة -بالطبع- كانت مميزة...

كانت...بنكهتها هي...

برائحة عشقها المسكيّة التي تغلغلت في حياته...

بل في حياتهما- معاً -لتكون لكليهما إشارة البعث بعد العدم....

يروح زمانٌ ويأتي زمان

وقد بدّل البحر ذي الشطآن...

تمرد قلبي على بؤس ليلي...

وعشق النهار بلا استئذان...

فكنتِ البداية بعد النهاية...

ومن رحم صمتي خلقتِ الكلام...

وكنتِ الحقيقة بعد السرابِ...

وكنتِ الزمان...

وكنتِ المكان...

على كل عمري ...

على وهج نجمي...

بغمضة عينٍ كسبتِ الرِّهان!!!

سلامٌ لقلبك...

ذاك العصيّ الذي احتل أحضاني...

واستكان!

وأيقظ مارد عشقٍ بصدري...

فأقسم من بعد ألا ينام!!

سلامٌ لحبك ...

كالعيد أشرق...بعد الصيام!

قد سرق نبضي

كلص شريف...

وبين الضلوع يهيمن...

يحنو...

كوحش أليف..!

وبين النقيضين يشعل شغفي...

كزهر ربيع ...

وورق خريف!!

فكيف عساني أكتم شدوي

بحبك يا سيدة الغرام؟!!

حرامٌ على العاشقين السكوت...

حرامٌ ...حرام!!

يروح زمانٌ ويأتي زمانٌ...

وتراكِ عينايَ غير البشر...

كأنكِ مطر...

وقُبلة ندى على ورق شجر...

ودعوة قلب هام بعشق...

فاستجاب القدر!

كأنكِ حياه...

وما دونك موتٌ بأي اتجاه...

وكل اتجاه...

كأنكِ عمري الذي ضيعوه...

وحلمي...

الذي ضل عني وتاه!!

فكيف السبيل لرِيّ اشتياقي...

وأنتِ الهلاك ...وأنتِ النجاه؟!!

يروح زمانٌ ويأتي زمان...

وقد بدّل البحر ذي الشطآن...

فما عاد يسعى للمس السرابْ...

وما عاد يرجو عناق السحابْ...

وما عاد يرضى بكأس العذابْ...

وبين ذراعيك نهر الأمان

ومهما تتوه بقلبى خطاه..

ففي عينيكِ لنا عنوان...

في عينيكِ لنا عنوان...

دمعت عيناها بعمق عاطفتها وهي تضم الهاتف لصدرها بقوة...

من كان يقول إن عزيز سيكتب لها هي يوماً كلاماً كهذا؟!!

بل...من كان يقول إن هذه ستكون ردة فعلها عليه؟!!

هي التي طالما كفرت بعهود الهوى ومواثيق العواطف..

الآن ...تذوب أوصالها بالقليل من حروفه!!!

وكيف لا؟!

وهو الذي ادخره لها القدر ليعوضها طفولتها المحرومة التي قضتها منبوذة خلف قضبان وحدتها!!!

ليصير هو ورحمة وميدا الصغيرة عائلتها الحقيقية التي ستتنعم بدفئها ما بقي لها من عمر!!

_مستعدة؟!

قطع بها أفكارها وهو يدخل عليها الغرفة فوقفت مكانها لتومئ برأسها إيجاباً...

بينما يقترب هو بخطوات ثابتة وعيناه راسختان في سواد عينيها ...

حتى صار قبالتها تماماً فابتسمت مع همسها :

_لقد قرأت التعليقات على مدونتك...قصيدتك الأخيرة مكتسحة!

فابتسم بدوره لتتألق عيناه بلمعة العسل الزمردية وهو يتناول كفها ليلثم باطنه مع همسه:

_من قال إنها الأخيرة...هي...الأولى!

اتسعت ابتسامتها وهي تدرك مغزى عبارته لتميل رأسها بدلال يليق بهمسها:

_دعنا نرى!

فمال على شفتيها بقبلة ناعمة ثم همس بما يشبه الوعد:

_كلما يمر بي العمر سأتذكر وقوفك إلى جواري في قراري العنيد...سأتذكر تخليكِ عن كل مظاهر حياتكِ التي طالما كانت كل همك ...فقط لتكوني معي...قد يبدو الأمر وكأنكِ من كنتِ تحتاجين حناني وحنان رحمة...لكن الحقيقة أنني أنا الآخر كنت أحتاج امرأة في قوتك تدعمني .

تنهدت بحرارة ثم ردت بما صارت مقتنعة تماماً به:

_كلانا يكمل الآخر يا عزيز!

هنا ربت على وجنتها برفق مؤيداً قبل أن ينظر في ساعته ليقول :

_أمامنا ساعتين قبل موعدي مع أبي...ميدا صارت بخير تماماً..أمي أعدتها للخروج وصففت لها شعرها..هيا كي لا نتأخر.

أومأت برأسها وهي تتوجه نحو المرآة لتضع وشاحها على رأسها...

لقد استمعت لرغبته أخيراً في أن تتحفظ كثيراً في ثيابها !

خاصةً وهي تشعر أنها بدافع غيرته عليها وليس بغرض التملك والسيطرة!

ولما انتهت من لف وشاحها عادت تتأمل شكلها بحرص...

الآن تخرج معه في نزهة قصيرة كعهده في نهاية كل أسبوع قبل أن يتوجها معاً لوالده مع الصغيرة ...

حيث يكملون سهرتهم سوياً بعد أن يطلعاه على آخر تطورات العمل...

أجل...السيد شاكر بدأ صفحة جديدة مع عزيز عقب ولادة الصغيرة وترك له إدارة أعماله كلها مع ميادة مكتفياً هو بالإشراف...

صحيح أن عزيز رفض في البداية وهو يظنها مجرد خطة لإعادته تحت سلطان أبيه...

لكن السيد شاكر وعده أن يسلم له مقاليد أموره كلها وألا يفرض عليه شيئاً بعد...وقد أوفى!!

وعزيز أيضاً لم يخيب ظنه فيه!!!

طوال هذه الأشهر وهو يجتهد في عمله كي يثبت لأبيه أنه على قدر هذه المسئولية...

وبالطبع...لم يتخلّ عن الإقامة مع رحمة في بيتها !!!

كان هذا من ضمن شروطه مع أبيه -والذي أيدته ميادة بصدق- قبل أن يوافقه على ما أراد!!

انتهت من زينتها الخفيفة لتلتفت نحوه وهي ترفع أحد ذراعيها بحركة استعراضية ...

لتقول بمرح لا يخلو من ثقتها التي يعشقها:

_نجمة!

فضحك ضحكة عالية قبل أن يقترب منها ليردف بنبرة غامضة:

_تنقصكِ إضافة بسيطة!

عقدت حاجبيها بتساؤل عندما استخرج من جيبه ذاك الدبوس الماسيّ على شكل فراشة ليثبته بياقة ثوبها مع همسه :

_هل تذكرتِه؟!

تأوهت بخفوت وهي تتذكر عندما منحتها والدتها هذا الدبوس ليلة زفافها لتخبرها إنه كان أول هدية لها من والدها ...

وأنها ادخرته لها طوال هذه الأعوام لتمنحه لها في تلك الليلة المميزة...

وقتها سخرت منها وكسرته بعنف لتلقيه تحت قدميها لتؤكد لها أنها كافرة بالحب وفراشاته التي تحترق بنيرانه!!!

وكم كانت مخطئة!!!

لهذا رفعت إليه عينيها أخيراً لتهمس بامتنان غارق بعاطفتها:

_أنت أصلحته؟!

فاحتضن وجنتيها بأنامله ليهمس بحب:

_كنت أنتظر هذه اللحظة التي ألبسك فيها إياه وأنا موقنٌ من أنكِ صرتِ تؤمنين بالحب مثلي تماماً!

أغمضت عينيها بقوة للحظات ثم عادت تفتحهما لتهمس بيقين مشبع بعاطفتها:

_أجل...الآن أستحق أنا فراشة الحب الماسية...بعدما منحناها سوياً حرية الانطلاق!

==========

_عزة الأنصاري...مقدمة برنامج "أكلتين وعافية"!!

كانت تجلس في أحد المطاعم القريبة من شقتها الجديدة والتي تقيم فيها الآن وحدها بعدما استقلت بمعيشتها عقب طلاقها من راغب...

عندما سمعت -أحدهم- يحدثها بهذه العبارة...

رفعت رأسها إليه بنظرة تقييمية...

رجلٌ ثلاثيني ممتلئ الجسد بما يقارب البدانة...

لكن هذا أضفى الكثير من الطيبة على ملامحه الوسيمة...

لا تدري سر ارتباط البدانة عندها بالطيبة سواء للرجال أو النساء...!!!

دوما تعتقد إنهم يملكون قلوباً نقية ومشاعر حساسة لأبعد حد...

لكن يبدو أن هذا الرجل سيغير نظرتها ...!!!!

فلم تكد تومئ برأسها إيجاباً حتى سحب المقعد ليجلس أمامها قائلاً ببساطة بدت في موقفهما هذا أقرب للوقاحة:

_رأيت آخر حلقاتك منذ بضعة أيام...من الفاشل الذي يعد لكِ هذه الوصفات؟!

احمرت وجنتاها بانفعال للحظات وقد أعجزها تصرفه السريع عن الرد في أول الأمر...

قبل أن تهتف بحدة:

_أولاً...أنا لم أسمح لك بالجلوس...ثانياً...الجميع يعلمون إن وصفاتي هي إبداعي الشخصي...ثالثاً...احتفظ برأيك السخيف لنفسك فلم يطالبك به أحد!

ارتفع حاجباه بدهشة للحظة قبل أن يغمغم بأسف حقيقي:

_عذراً سيدتي...يبدو أنك أخذت الأمر بصورة شخصية...أنا أردت النصيحة فحسب!

قالها وهو يقوم من مكانه بسرعة لترمقه هي ببعض الندم...

لا تعلم لماذا صارت فجأة هجومية هكذا...

بل...ربما تعلم!!!

لقد عاشت عمرها السابق كله تخشى أحاديث الناس وتخاف ظلمهم لامرأة في ظروفها...

ذاك الخوف الذي مكّن منها شخصيةً حقيرة كخطيبها السابق...

وهو نفسه ما دفعها للقبول بكونها زوجة ثانية لراغب...

والحمد لله إنها خرجت بكرامتها من هذه الزيجة فلم يصبها منها سوى لقب "مطلقة"...

وقطيعة شقيقتها هيام لها بعدما تجرأت على معارضة مخططاتها لها لأول مرة في عمرها!!!

لكن لا بأس...

المهم أنها الآن سيدة مصيرها...

مصيرها الذي ستكتبه بيدها بعدما استغلت فرصة القدر الثانية لها...

عملها الذي صارت حقاً ماهرةً فيه حتى إن حلقات برنامجها في بضعة أشهر صارت تحقق نسبة مشاهدات عالية جداً بالمقارنة بنظيراتها ...

لكن...هل أصابها هذا بالغرور حتى تحرج هذا الرجل هكذا؟!!!

أم أنه فعلاً يستحق؟!!

انقطعت أفكارها بحركة بسيطة عندما اصطدم البدين عقب وقوفه -المفاجئ- بالنادل الذي كان قد أحضر لها "طلبها" لتوه...

لتسقط الصينية بمحتوياتها على قميص البدين بلونه -الأخضر الفاتح جداً- ليصير فجأة "لوحة ألوان"!!!!

أطلق النادل عدة عبارات اعتذار ليقابله البدين بابتسامة متفهمة مع قوله الذي اكتسى بمرح غريب على الموقف:

_لا عليك...أنا فقط أشفق على المسكينة التي ستغسله!!!

ابتسم النادل وهو يعيد اعتذاره المرتبك وقد خشي أن يعنفه مديره...

ليردف البدين ببساطته العفوية دونما اهتمام بنظرات المحيطين الفضولية:

_فقط أحضر لي منشفة مبللة كي أنقذ ما يمكن إنقاذه.

أومأ النادل برأسه بسرعة قبل أن يلتفت لعزة بقوله المرتبك:

_سأحضر لكِ غيره ...سامحيني سيدتي!

لكن عزة لم تكن بقدر "تسامح" هذا البدين عندما هتفت بضيق:

_في المرة القادمة انتبه لخطواتك...هيا أحضره بسرعة فلا وقت لديّ!

اندفع النادل ليحضر لها طلبها من جديد ...

فيما أعطاها البدين ظهره دون كلمة زائدة ليهم بالانصراف ...

فهتفت ببعض التردد:

_انتظر!

التفت نحوها بجسده وهو يشير بسبابته على صدره بتساؤل دون كلام...

وقد التمعت ملامحه الطيبة بجاذبية شقاوة طفولية محببة...

فالتوت شفتاها بشبه ابتسامة وهي تقول بنبرة أرادتها جافة:

_ماذا كنت تريد أن تقول؟!

ارتفع حاجباه بتسلية وهو يشير لقميصه قائلاً بتهكم:

_ماذا؟!لا تقولي إن سحر قميصي المتسخ قد أغراكِ... أو ربما ...

ثم أشار بعينيه لما ترتديه هي مردفاً :

_لأنكِ ترتدين مثله!!!

اتسعت عيناها بدهشة وهي تنظر لقميصها الذي كان يشبه كثيراً لون قميصه...بل وتصميمه البسيط!!!

مع فارق الحجم طبعاً!!!

ولا تدري لماذا ورد في ذهنها ساعتها ما تتداوله إعلانات أدوية التخسيس من فارق قياسات الملابس بصورتي "قبل-بعد" الشهيرة!!!

ترى كم يجب أن يفقد هذا الرجل من وزنه كي يصل لوزنها...

ما لا يقل عن أربعين كيلو جراماً بأهون تقدير!!!

ولا تدري لماذا احتلت ذهنها الآن صورة الممثل الشهير "أحمد حلمي" في فيلمه "إكس لارج"...

ربما لأن هذا البدين كان يشبهه كثيراً...

باستثناء شعر الأخير الذي كان شديد النعومة والكثافة بما منحه مظهراً أكثر وسامة!!

وعند خاطرها الأخير كتمت ابتسامتها بصعوبة لتقول بنفس النبرة الجافة:

_لو كان لديك ما تقوله فافعل...وإلا يمكنك الانصراف!

_هل أنتِ دوماً شديدة الفظاظة هكذا؟!أم أنه غرور المشاهير؟!

قالها بنبرته العفوية وهو يعاود الجلوس ببساطة وكأن عبارته لم تحمل شيئاً من إهانة!!!

فتأففت بنفاد صبر قبل أن تهتف بضيق:

_اسمع يا هذا...إذا كنت ت..

_إيهاب!

قالها ببساطته الشديدة مقاطعاً كلماتها الضائقة ليردف بابتسامة عذبة:

_إيهاب الخولي...مهندس بترول!

زفرت زفرة قصيرة دون رد...فاتسعت ابتسامته المتسلية وهو يتفحص ملامحها بنظراته التي لم تضايقها رغم كل شئ...

فلم تكن بالوقحة الجريئة ولا العابثة المستهينة...

بل كانت فضولية حقاً مطعمةً ببساطته وطيبة ملامحه!!!

هنا كان النادل قد عاد بمنشفة مبللة وأخرى جافة تناولهما منه إيهاب ليعالج ما علق بقميصه قدر المستطاع...

قبل أن يقول بنبرته المرحة:

_تُشكَر يا "ذوق"!!!لا أراك الله مكروهاً في "قميص" لديك!!!

ابتسم النادل ابتسامة حقيقية شابهت ابتسامة عزة في هذه اللحظة...

قبل أن ينقل بصره بينهما بحذر ليقول بتردد مخاطباً إيهاب:

_هل أحضر لك "طلبك" هنا أم على مائدتك؟!

فالتفت نحوها إيهاب بنظرة استئذان حملت لها طابعاً طفولياً لا تدري من أين أتت به!!!

ورغم أنها غضنت وجهها بتعبير ساخط مع تلويح بكفها دون رد...

لكنها كانت تشعر بالفضول حقاً لمعرفة ما الذي يود قوله بشأنها...

لهذا شعرت ببعض الارتياح عندما اعتبر إشارتها موافقة وهو يقول للنادل بنفس النبرة الصاخبة بالمرح:

_"هوت شوكليت"...

ثم صمت لحظة ليلوح بسبابته مع استطراده:

_ سكر "دايت"!!!

ضحك النادل بخفة وهو يشير بسبابته نحو عينيه واحدة تلو الأخرى بتلك الحركة الشهيرة قبل أن ينصرف...

بينما لم تستطع هي منع ابتسامتها المتهكمة وهي تكرر خلفه :

_"دايت"؟!!!

ضحك ضحكة مجلجلة ارتج لها جسده الممتلئ ثم اقترب بجذعه ليقول لها بجدية مصطنعة:

_كلامٌ في سرك...أنا أسير على "الريجيم" الإسلامي الذي يحكون عنه.

انعقد حاجباها بشدة وهي تقول بتشكك:

_"ريجيم" إسلامي؟!!تعني "نظام اللقيمات"؟!!

فهز رأسه نفياً ليقول:

_بل أبسط من هذا...أنا آكل كل ما أريده ثم أدعو الله بخشوع أن يخف وزني!

ابتسمت ابتسامة واسعة وهي تشيح بوجهها للحظة ...

قبل أن تعاود التفاتها نحوه لتقول بجدية تامة هذه المرة:

_ما الذي تنتقده في "برنامجي" بالضبط؟!

أطلق همهمة خافتة عقبها صمت قصير ثم قال أخيراً بنفس الجدية:

_لا أحب أولئك الذين يسايرون "الموضة" لإرضاء "الزبون"...كلهم الآن يلهثون خلف "هوجة" الغذاء

الصحي قليل السعرات...دونما اكتراث لتكلفة هذه الوصفات بالنسبة لمستوى معيشة أغلب المصريين...

انعقد حاجباها باهتمام حقيقي فيما أردف هو بحديث متعقل:

_وصفاتك كلها تلقى رواجاً كبيراً لكن في وسط معين...لماذا لا تحاولين تنويع حلقاتك لتكون وصفاتك في متناول الجميع ؟!لماذا لا توفرين بدائل مناسبة بأسعار أرخص؟!

ثم عاد له مرحه وهو يهز كتفيه مستطرداً:

_لقد حاولت تنفيذ آخر وصفاتك فكلفتني نصف راتب الشهر!!

هنا ارتفع أحد حاجبيها لتقول بتشكك:

_قلت إنك "مهندس بترول"!!!

فابتسم ابتسامة واسعة أظهرت بياض أسنانه و-بياض قلبه معها- وهو يبسط كفه في وجهها في حركة "التخميس" الشهيرة مع قوله:

_ومن شر حاسدٍ إذا حسد!!!

كان النادل قد عاد بطلبيهما معاً وقد وضع أمامها صينيتها التي احتوت طبقاً أجنبياً شهيراً...

بينما وضع أمامه مشروبه لينصرف...

فأشار إيهاب لطبقها ليقول بما بدا وكأنه على علم كبير به:

_طبقك هذا مثلاً...يمكن تنفيذه بصورة أبسط وأقل تكلفة عشر مرات ...لو غيرنا نوع اللحم والجبن المستخدمين...وصدقيني لن يختلف الطعم كثيراً!!

ابتسمت بإعجاب وقد راقتها الفكرة لتقول بنبرة أكثر لطفاً:

_تبدو خبيراً!!

فأطلق همهمة استمتاع طويلة وهو يغمض عينيه ليقول بتلذذ:

_الأكل هذا ...فن!!

اتسعت ابتسامتها وهي تشعر بارتياح عميق نحوه لتقول أخيراً بنبرة هادئة خلت من تحفزها:

_فكرة جيدة وتلائم نشأتي البسيطة...أعدك أن أدرس الأمر...سأعرض الأمر على المخرج و إدارة الإنتاج وربما تكون هذه فكرة "برنامج" رمضان القادم!

فتح عينيه ليبتسم ابتسامته البسيطة وهو يرفع كوبه نحو شفتيه بتلذذ ليرتشف منه رشفة تبعها بقوله:

_وأنا سأبدأ من اليوم في التفكير في اسم مناسب!!!

انعقد حاجباها بما لا تدري هل هو ضيق أم ارتياح...

وعبارته تحمل لها إيحاءً أن هذا لن يكون لقاءهما الأخير...!!!

لكنه صرفها عن التفكير في هذا وهو يشير لقميصها "الفستقي" ليقول باهتمام:

_ألاحظ أنكِ ترتدين هذا اللون كثيراً...هل هي شروط الإنتاج ل"لوجو " القناة و"البرنامج"؟!

فهزت رأسها نفياً وهي تعدل حجابها ببعض الخجل -من ملاحظته-والذي لم يعجبها أن تشعر به الآن...

لتقول ببعض التحفظ:

_الأخضر بدرجاته هو لوني المفضل!

فرفع راحته في وجهها ليقول ببساطته التي كانت الآن - لقلة الذوق- أقرب:

_لا أحبه!!

مطت شفتيها باستياء وهي تشير بعينيها لما يرتديه...

فقال مفسراً:

_هدية! لم أختره

ثم غمزها غمزة خفيفة ليردف بمرح:

_لهذا لم أعنف النادل كثيراً على فعلته ...بل وربما شكرته قبل أن أنصرف!

ابتسمت وهي تشعر نحوه بألفة عجيبة...

فيما استطرد هو بنبرة أكثر جدية:

_محبّو اللون الأخضر يميلون إلى ألانسجام مع الطبيعة و أيضا يتميزون بالحذر الشديد و يعتبرون متوازنين اجتماعياً ليسوا انعزاليين ولا انطوائيين...يحبون التفرج على الأحداث و لا يفضلون أن يكونوا جزءاً منها...لكن من عيوب مدمني اللون الأخضر الخوف الشديد و القلق و هذا يجعلهم يميلون إلى الرفض و التواكل....

انعقد حاجباها باهتمام وهي تشعر باتفاق حديثه هذا مع شخصيتها...

بينما أردف هو ببعض المرح:

_كما أنهم يعانون من نقص الثقة في النفس مع شدة الغيرة لهذا يُنصح بعدم دفع هؤلاء الأشخاص إلى اتخاذ قرار فذلك يسبب لهم ضغطاً عصبياً شديداً.

ازداد انعقاد حاجبيها وقد لامس حديثه وتراً حساساً لديها...

ليقول هو أخيراً وقد عادت إليه ابتسامته "الطيبة":

_عندما يقول لك أحدهم أنه يحب اللون الأخضر...فكأنه يقول لك أنا محتاجٌ لأن تحبني وتحميني!

نقرت بأصابعها على المائدة ثم أطرقت برأسها دون رد...

ورغم أن عبارته الأخيرة تحمل معنى "المغازلة"...

لكنها -منه هو - حملت معنًى آخر ضايقها...

معنى الإشفاق!!!

أجل...عيناه "الطيبتان" حملتا لها شعوراً بكونه يقرأ دواخلها ...

ورغم ما يوحي به مظهره من بساطة ومرح...

لكن كلماته بدت على قدر كبير من العمق...

أو هكذا كان يهيؤ إليها!!!!

هذا ما أوحى إليه به عقلها أخيراً وهو يحذرها من عاقبة الثقة بأشخاص تراهم لأول مرة...

فأخذت نفساً عميقاً ثم رفعت إليه عينيها لتقول بثقة :

_ربما كنت أنا يوماً كما تزعم...لكنني لم أعد!

ثم قربت طبقها لتبدأ في تناول طعامها مع قولها المقتضب الذي أجادت صبغه بالقوة:

_عطلتني عن طعامي حتى برد!!

فارتفع حاجباه بتسلية رغم استيائه من ردة فعلها...

ليستمر هو الآخر في ارتشاف مشروبه الذي أنهاه بسرعة ليقوم واقفاً مع قوله الودود:

_سعدت بلقائك سيدتي...شهية طيبة!

رفعت إليه نظراتها بحذر وكأنها لا تصدق أنه سينصرف بهذه البساطة...

لكنه حقاً قد فعل!!!

أجل رحل ببساطة تشبهه تاركاً إياها خلفه تشعر بأن هذا الرجل...

مختلف!!!

================

_هل رأيتِ يسرا بعد عودتها من لبنان؟!

هتفت بها إحدى رفيقاتها في النادي لتلك الجالسة جوارها والتي أجابتها بسخرية لاذعة:

_يقولون إنها تعاني اكتئاباً حاداً بعدما تركها فهد الصاوي لأجل تلك المحامية!!

ضحكت الأولى ضحكة صاخبة وهي ترد بشماتة ظاهرة:

_وهي التي كانت تزعم أنه يعشق تراب قدميها!!!

ثم رفعت أحد حاجبيها لتقول بنبرة غارقة في الحسد:

_جمالها قشرة...يبدو أنه لا يعجب الرجال...أولاً كان حسام القاضي ثم تلاه فهد الصاوي...وظني أنها لن تستقر يوماً مع رجل...فالرجال لا يحبون فارغات العقول!!!

فتنهدت الأخري لترد بإشفاق مصطنع :

_مسكينة!لعلها الآن تحبس نفسها في غرفتها وتبكي على حظها ال....!!!

انقطعت عبارتها مع انفراج شفتها بذهول وهي تراها تدخل من بوابة النادي بأبهى طلة رأتها عليها يوماً...!!!!

بلوزة قصيرة فضفاضة- بحمالات رفيعة- من الشيفون بلونها الأحمر الغامق الذي تفضله...

بدا من تحتها لون بشرتها العاجي بفتنة ملفتة...

مع بنطال أسود من الجينز تقطع في أماكن مقصودة ليمنح ساقاها إغواءً لم يكن ينقصها!!!!

واستطالت قدماها فوق حذاء بكعب شديد الطول منح خطواتها الراقصة المزيد من الدلال...

وتموجت خصلات شعرها الأشقر بشدة فقصر طوله كثيراً حول وجهها ليمنحه استدارة محببة...

وقد اكتفت من زينتها بظلال دخانية وكحل شديد السواد منح عينيها الخضراوين لمحة شراسة غامضة ...

وطلاء شفاه قرمزي لامع جعل منها "أيقونة" للفتنة العابثة بالعقول!!!!

لهذا لم يكن عجيباً أن تقدمت بخيلاء كعادتها تتجاوز النظرات المخترقة لجسدها بكبرياء يليق بها...

قبل أن تستقر على المائدة التي جلست عليها المرأتان واللتان هتفتا في وقت واحد وكأنهما لم تكونا تغتابانها منذ قليل :

_ياسّو!!!أين كنتِ؟!جلساتنا بدونك لا طعم لها!!!

فالتوت شفتاها بابتسامة ساخرة لتقول بتهكم مرير:

_بي...وبدوني...لاطعم لها!!!

ثم غامت عيناها بشرود أسود ناسب عبارتها:

_تظنون أننا أحياء؟!نحن موتى نسير على الأرض !

قالتها وهي حقاً تشعر بها !!!

طوال الشهور الماضية وهي لا تشعر بداخلها إلا بالخواء!!!

لقد ساعدها السفر مع والدتها كثيراً وربما لولا هذا لأقدمت على الانتحار!!!

فراااغ!!!

حياتها كلها فراغ عريض تسبح هي فيه معلقة بين سماء لن تبلغها وأرض لن تستقر عليها!!

لقد ظننت أن فهد سينتشلها من هذا ...

أما وقد فقدته...

فلم يعد أمامها حل إلا أن تتناسى هذا الوضع...

وستفعل!!!

ستفعل بأي طريقة!!!

بينما تبادلت "العقربتان" رفيقتاها نظرات مفعمة بالسخرية والشماتة التي حاولتا إخفاءها عندما هتفت إحداهما:

_لا تكوني ثقيلة الظل هكذا!!!النادي سيقيم حفلة غداً ...سنشعلها كالمعتاد!!

انطلقت الأخرى ضاحكة بميوعة قبل أن تميل على يسرا لتغمزها بقولها:

_أفيقي من جو "الأبيض والأسود" الكئيب هذا واستمعي لآخر نوادر شلتنا!!!

قالتها ثم انطلقت تروي المزيد من التفاصيل- البذيئة- التي اعتدْن التندر بها في جلساتهن...

فارتسمت على شفتيها ابتسامة شاردة وهي تتلفت بعينيها حولها...

تحاول أن تروي ظمأ أنوثتها من تحديق العيون فيها...

لكن هذا حتى لم يفلح هذه المرة!!!

لهذا زفرت بقوة قبل أن تهتف بسخط لتلك التي بدت وكأن بذاءاتها لن تنتهي:

_كفاكِ ثرثرة!!!

فسكتت مجبورة وهي تتبادل مع الأخرى نظرات واضحة المعاني...

قبل أن تنتفض يسرا واقفة لتهتف بضجر:

_أنا راحلة...لكنني سأحضر حفلة غد !!!

صاحت رفيقتاها عدة صيحات عالية وهما تخبطان كفيهما بالتبادل في حركة حماسية...

فضحكت ضحكة عالية مفتعلة لتتركهما خلفها يتبادلان نظرات مشوبة بالدهشة...

قبل أن تحرك إحداهما أناملها في حركة دائرية متتابعة جوار صدغها في إشارة للجنون!!!

وهو مالم تكن تلك -النارية- ببعيدة عنه على أي حال!!!

فلم تكد تغادر النادي بخطواتها المنفعلة والتي تعثرت بها بسبب كعب حذائها بالغ الطول...

حتى كان أول ما فعلته عندما استقلت السيارة أن خلعت فردتي حذائها لتكسر كعبيهما بعنف...

قبل أن تلقيهما بحركة عصبية من النافذة...

لتأخذ عدة أنفاس عميقة متتابعة قبل أن يرن هاتفها برقم والدتها ...

فتحت الاتصال بسرعة ولم تكد تستمع لبضع كلمات حتى هتفت بانفعال:

_لن أعود للبنان يا أمي...لو أردتِ صالحي حقاً كما تزعمين فعودي أنتِ إلى هنا!!

كانت تعلم أنها تطلب المستحيل...

وأن "اليمامة" التي هربت من بطش رفعت الصباحي لن تعود بهذه البساطة!!!

ولماذا إذن لم تبقَ هي معها هناك ؟!!

لأنها -ببساطة- قد ملّت!!!

لقد ظننت أنها ستعود لحالتها الطبيعية عندما ترجع إلى مصر لكن الواقع أنها تبدو وكأنها تبحث عن شئ لن تجده أبداً!!!!

لهذا أغلقت الاتصال بعنف مع والدتها غير آبهة بعاطفة أو ذوق...

قبل أن ترتجف أناملها على الأزرار ونفسها تراودها باتصال آخر!!!

معقول؟!!

هل ستعود للغرق في هذا البحر الهائج من جديد بعد كل ما حدث؟!!

تعقّلي يا يسرا!!

لا تضيعي تعب الشهور الفائتة هدراً!!!

لا تفقدي نفسك!!

والجواب من "شيطان" نفسها كان ابتسامة ساخرة!!!!

أفقد نفسي؟!

وهل وجدتها كي أفقدها؟!!!

لا فارق بين الصواب والخطأ لمن هي مثلي!!!

في الحالين أنا خاسرة!!!

وبهذا الخاطر الأخير أخذت قرارها النهائي لتضغط زر الاتصال بعنف...

ولم يكد الاتصال يفتح حتى كتمت أنفاسها بقوة وكأنها تخشى القرار ...

لكن رغبة عارمة في التمرد ممتزجة بشعورها الحالي بالضياع جعلتها تهتف أخيراً بحسم:

_نفس الصنف...نفس الكمية!!

ثم أغلقت الاتصال لتعود برأسها للوراء فتستتند بظهرها للمقعد شاردة للحظات...

قبل أن تردف بشرود:

_نفس الضياع!

=======

_كاتبتنا المبدعة...لمن تهدين هذا النجاح؟!

قالتها المذيعة التلفزيونية بابتسامة أنيقة وهي تجلس أمامها في "الاستوديو" ...

فغامت عينا طيف بنظرة شاردة للحظات ...قبل أن تستعيد صلابتها لترد بحسم:

_لنفسي!

ارتسمت الدهشة على وجه المذيعة للحظة مع ارتباك ابتسامتها موحيةً بغرابة الرد...

فيما رفعت طيف أنفها بشموخ لتردف:

_لا تصدقي من يزعمون إن نجاحهم يرجع لأشخاص آخرين...لا أحد يمكنه أن يدفعك في هذا الطريق مالم تكن خطواتك نفسها هي الثابتة!

اتسعت ابتسامة المذيعة وهي تنظر في الأوراق أمامها ...قبل أن تقول لها بمرح لم يخلُ من حذر:

_بعض ناشطي "الفيسبوك" أطلقوا عليكِ لقب "الأرملة السوداء" في إشارة منهم لعدائك الواضح نحو الرجال وتحاملك عليهم في كل كتاباتك...فماذا ترين؟!

فضحكت طيف ضحكة عالية وكأن الأمر أعجبها...ثم تنهدت لتقول بجدية تامة:

_أفكار الكاتب غير ملزمة لأحد...من راقته كتاباتي فليقرأها وإلا فالخيار له.

اصطنعت المذيعة ابتسامة دبلوماسية وهي تدير الحوار بذكاء:

_هل يعني هذا إنك تهربين من الإجابة؟!

أطرقت طيف برأسها للحظات ثم عادت ترفعه بشموخه المعهود لتقول :

_أنا لست متحاملة على "الرجال"...لكن هناك فارق كبير بين "الرجال" و"الذكور"...أعدكِ لو قابلت "رجلا" حقيقياً أن أكتب عنه بمنتهى الحيادية!

اتسعت ابتسامة المذيعة وهي تتعجب جرأة هذه المرأة التي تصرح بشئ كهذا على الهواء...

لكنها تمالكت دهشتها بسرعة تليق بعملها لتقول بنبرة أنيقة:

_ونحن في انتظار إبداعاتك سيدتي.

ثم استدارت بجسدها نحو "الكاميرا" لتردف:

_كانت معنا الكاتبة القديرة "طيف الصالح" والتي حصلت على جائزة الدولة ال"......" بعد روايتها التي حققت أعلى نسب مبيعات لهذا العام ونالت لقب الأكثر شهرة و......

شردت طيف ببصرها وقد صمت أذناها عن بقية عبارة المرأة لتلتمع عيناها ببريق حقيقي ...

بريق دموع!

يتحدثون عن طعم النجاح العذب...

فما بالها الآن لا تشعر إلا بالمرارة!!!

تلك الغصة المستحكمة في حلقها وهي تشعر بالفراغ حولها يكاد يخنقها...

فراغ؟!!

نعم...فراغ رغم كل ما يحيطها من بشر!!!

زيارتها الأخيرة لمصر كانت شديدة الوقع على قلبها الذي ظننته قد مات مختنقاً بدخان حرمانه...

لكن الزيارة -التي بدأت بعاصي وانتهت بحسام -أحيت مومياء عاطفتها لتنهض بأكفانها البيضاء مثيرة الرعب في أعماقها الكافرة بكل هذا!!!

وعلى ذكر حسام تركزت أفكارها المشتتة لترتسم على شفتيها ابتسامة باهتة وهي تتذكر لقاءها الأخير به...

_آنسة طيف...أحدهم يريد مقابلتك....هو ينتظرك هناك في بهو الفندق!

قالها موظف الاستقبال بالفندق الذي كانت تقيم فيه عقب عودتها إليه...

فالتفتت حيثما أشار لترتسم على شفتيها ابتسامة قاسية وهي تتبين ملامح ذاك "المنتظر"!!

اقتربت منه بخطوات ثابتة متئدة ليقف بدوره في انتظارها حتى صارت على مسافة مناسبة منه...

عيناه الصقريتان عادت إليهما حدتهما القاسية وإن اتشحت بطيف شاحب من عاطفة عرفت طريقها لقلبيهما يوماً!!!

أذناه كانتا محمرتين بقوة كعهده عندما ينفعل...

وشفتاه كانتا مطبقتين بقوة لتمنحه مظهراً أقسى...

بينما كان كتفاه متهدلين على عكس ما اعتادته من وقفته الشامخة...

فعادت بعينيها إلى عينيه اللتين تنازعهما الآن صراعٌ من اشتياق وعتاب...

حنينٌ يقبع منزوياً في ركن قصيّ خلف شراسة نظرات نارية احتلت حدقتيه باقتدار...

عندما اقتربت هي منه أكثر محافظةً على جمود نظراتها الثلجية...

اشتاقته؟!!

لا...نعم...لا...نعم...بل ...لا تدري!!!

مهما ادعت من قدرتها على تجاوز هذا الماضي...

مهما لعنت نذالته وجبنه وأنانيته....

مهما أخفت قلبها خلف ألف ستار من قسوة وصلابة...

لن تستطيع نكران هذه الحقيقة...

إنها...افتقدته!!!!

وكيف لا تفعل؟!!!

وجزءٌ من عمرها قد سُطِر على جبينه بمدادٍ لم يكن ليجف أبداً!!!

قطراتٌ من -عطر أنوثتها- لازالت تبلل -قميص رجولته- الذي جعدته سوءات ماضيه....

ومع هذا لازالت تتنشق بين أنفاسه عبير عاطفة -لم تعرفها إلا معه- !!

هو الذي تفتحت براعم قلبها البكر تحت شموس هواه...

قبل أن تذبل على أغصانها بعده؟!!

فكيف بعد كل هذا لا تفتقده؟!

وعند خاطرتها الأخيرة تذكرت كيف انتهت قصتهما...

كيف انتزع من صدرها خنجراً غرسته الليالي ليمنحها بعض الأمل في الحياة...

قبل أن يعاود إغماده في قلبها بقوة أكبر ليبدلها مكان الأمل يأساً وقنوطاً!!!

كيف أنقذها من الموت -غرقاً- في بحار وحدتها....

ليقتلها بعدها -حرقاً- في جحيم غدره!!!

كيف داواها بأحد كفيه لينشب أظافر كفه الآخر في لحم أمانٍ ظنته سيبقى العمر كله معه!!!

فكيف بعد كل هذا تفتقده؟!!

كانت قد وصلت قبالته تماماً في هذه اللحظة لتتلاقى العيون بحديث غريب...

وهل أغرب من حديث تباينت لغاته لتحمل عباراته من كل لغة كلمة؟!!

من كل أبجدية حرف؟!!

هكذا كان الحوار بين عينيهما الآن...

قبل أن يرتفع كفه نحو وجهها بصفعة!!!

صفعة لم تنلها أبداً!!!!

أجل...!!!

أوقفها كفها في اللحظة الأخيرة وهي تناظر عينيه الصقريتين بعينين لا تقلّان عنهما حدة مع همسها الشرس:

_إياك !!

انقبضت أنامله التي أحاطتها قبضتها الصغيرة وبريق عينيها يزداد ضراوة مع استطرادها:

_الزم حدك يا "حضرة الضابط"!!!

_حدّي يا بنت ال......."رفاعي"!!!

همس بها من بين أسنانه بغضب مشتعل بغيظه ...

غضبٍ -على حدته- لكنه أرضى شيطان انتقامها لتبتسم ابتسامة جانبية مع همسها الصلد:

_بالضبط...بنت"الرفاعي"!!

ثم نفضت كفه بعنف لتردف بنبرة أعلى:

_الآن أقولها بملء فمي بعدما أعلن عاصي الرفاعي استعداده الكامل للاعتراف بي!

انعقد حاجباه بشدة وهو يتفرس ملامحها بمزيج مشاعره الهائج...

لتبتعد هي خطوة مع انعقاد ساعديها باستطرادها:

_والآن...كيف انتهت بنا لعبة الحياة يا "حضرة الضابط"؟!!دعني أنا أخبرك!!

انقبض قلبه بعنف إحساسه بالخسارة وقد أدرك بحدسه ما تنتويه ....

قبل قولها وهي ترفع أنفها بشموخ كعهدها الجديد:

_أنا.. طيف الصالح...أخت عاصي الرفاعي..كاتبة ناجحة...وامرأة يتمناها ألف رجل!!

ثم ابتعدت خطوة أخرى لتردف بقسوة تدرك أنها تذبحه :

_أنت...حسام القاضي...ضابط فاشل باع ضميره لينتهي به الأمر بلا عمل...عملك الذي كنت تتكبر به على الناس وعليّ...عاجزٌ عن الإنجاب لفظتك أولى نسائك...ولحقت بها الثانية هرباً من جحيمك...هل أكمل أم نكتفي بهذه القدر؟!

أغمض عينيه بألم وقد أصابته كلماتها في الصميم...

كل كلمة...بل كل حرف كانت تهوي على قلبه كجلدة سوط!!!

لقد أجادت "الماكرة" اختيار سلاحها النافذ بل...ومكان طعنتها القاتلة!!!

لكن...هل سيسكت؟!!

هل سيتركها تتشفى فيه؟!!

هل سيتقبل إهاناتها هذه دون رد؟!!!

هل يفعلها حسام القاضي بغروره وعجرفته؟!!

نعم!!!!

هو -للعجب- فعلها!!!!

بقي صامتاً أمامها للحظات مغمضاً عينيه وكأنه يريد أن يجلد نفسه بكلماتها أكثر...

لعل هذا يطهره من دنس خطاياه!!!

قبل أن يفتحهما ببطء لتختفي نظراته الصقرية خلف غشاوة من جرح وألم...

ثم همس بصوت متقطع لم يفقد قوته بعد:

_أنا..أحببتك...حقاً!

اتسعت عيناها قليلاً وهي لا تكاد تصدق نفسها...

ليس من عبارته نفسها فطالما ألقى كلام الحب على مسامعها....

وإنما من قوله هذا الآن!!!!

الآن؟!!!

الآن وهي تعيّره بعجزه وخسارته؟!!!

لقد توقعت منه ثورة لاعنة...

إهانةً بالغة...

أو ربما صفعة أخرى لن تخطئ طريقها هذه المرة!!!

لكن...

من قال إن عبارته لم تصفعها؟!!!

لقد حلت على صفحة قلبها المكدوم كأعنف صفعة!!!!

وكيف لا؟!!

وهي تشعر بحروفها تقطر صدقاً...

تنبض ألماً...

تنغمس بعتابٍ صادق قيّد قلبها بسلاسل من ندم!!!

ندم؟!!

لا ...!!!

مضى وقت الندم ولا عزاء لرقيقات القلوب!!!

أفيقي لنفسك يا بنت "الرفاعي"!!!

واطعنيه الطعنة الأخيرة!!!

وبهذا الخاطر الأخير ابتعدت خطوة إضافية حتى صارت المسافة بينهما بعيدة نوعاً لتقول أخيراً بنبرة باردة:

_أنت لم تحب يوماً إلا نفسك...حسناتك لك...وذنوبك تلقيها على غيرك....

ثم صمتت لحظة لتردف :

_ومثلك لن يعرف الحب أبداً حتى يحترق بعذاب آثامه...ربما...وأقول ربما... بعدها تكون للرماد حياة!!!

قالتها لتتبادل عيناهما حديثاً عميقاً مفعماً بمشاعره...

قبل أن تشيح بوجهها هاربةً من نظراته لتقول بنبرة غامضة:

_لا تحزن لأجل صفعتك التي أوقفتها أناملي الآن فلم تشفِ غليل انتقامك...صفعتك الحقيقية تركت أثرها الغائر منذ زمن!

التوت شفتاه ب-شبه ابتسامة- مريرة قبل أن يتقدم نحوها ببطء ليتوقف إزاء كتفيها للحظات...

قبل أن يصلها همسها الذبيح بين حسرته وكبريائه:

_أنتِ الشئ الوحيد في حياتي الذي بقي يذكّرني أن لي قلباً...والآن...

التفتت نحوه ببطء لتلتقي عيناهما للحظة بهذا القرب...

فيقرأ كل منهما ما يجيش بصدر الآخر من أحاديث مختلفة تماماً عما تردده كلماتهما...

بمذاق الحب المنغمس بعلقم الانتقام!

قبل أن تتسع ابتسامته المريرة ليتجاوزها ويسير في طريقه بخطوات ثقيلة منهزمة لا تليق به...

بل...ربما...ما عادت تليق به سواها !!!!!!!

_آنسة طيف...كلمة توجهينها لجمهورك في نهاية اللقاء؟!!!

انتشلتها بها المذيعة من ذكراها العاصفة فتنحنحت برفق لتستعيد رباطة جأشها...

ثم واجهت "الكاميرا" بوجهها الذي دمعت عيناه قليلاً مع قولها الأخير:

_احذر ما تتمناه!! فربما عندما تصل لآخر الطريق تدرك أنك كنت....ضالاً!!!

==================

_فهد وجنة!!!

هتفت بها جنة بفرحة بالغة وهي تفتح له باب شقتهما لتجد بيده قفصاً بداخله عصفوران أحدهما أصفر والآخر أزرق...

فضحك وهو يدخل ليغلق الباب خلفه هاتفاً بمشاكسة:

_مفاجأة!!

أطلقت صيحة استحسان عالية وهي تتناول منه القفص لتهتف بمرح:

_حبيبي يا فهد!كنت على وشك أن أطلب منك أن نشتري اثنين بدلاً من اللذين تركتهما هناك .

ثم مدت لهما إصبعها عبر حديد القفص لتردف بحنان:

_أحلى مفاجأة!!أنت أعدت لي أجمل ذكرياتي!!!

فضم خصرها إليه وهو يمنحها إحدى قبلاته العاصفة قبل أن يقول بنبرته العابثة:

_أدام الله علينا رضا الأستاذة!!

ثم تناول القفص ليذهب به إلى شرفة شقتهما حيث وضعه هناك فوق مائدة صغيرة ليقول بلهفة :

_انتظري حتى أوقظ ملك كي تراهما!!ستجنّ بهما!!!

فانطلقت ضاحكة بمرح عندما غادرها ليعود حاملاً الصغيرة التي كانت متذمرة لاستيقاظها من النوم ...

لكنها ما كادت ترى العصفورين حتى ضحكت وهي تمد إليهما كفيها بصيحاتها الطفولية...

فهتف فهد بسرعة وهو يستخرج هاتفه من جيبه:

_هيا يا جنة...موعد صورة اليوم!!!

تقدمت جنة جوارهما لتحيطهما بذراعها فيما ضبط فهد الكاميرا مخاطباً الصغيرة بهتافه المنطلق:

_لوكا...ضحكة "بابا"!!!

لتضحك الصغيرة ضحكتها المميزة وفهد يضغط زر التصوير قبل أن يتأمل الصورة مع جنة باعتزاز ناسب قوله:

_مذهلة!

دمعت عينا جنة بفرحتها وهي تحدق في الصورة بشعور يفوق السعادة بكثير...

هي وفهد وملك وخلفهما العصفوران!!!

لقد أوفى فهد بعهده الذي قطعه على نفسه منذ زمن...

صورة كل يوم للصغيرة حتى إذا ما كبرت يكون لديها "ألبوم صور" بعدد أيام عمرها!!!

وها هي ذي قد تخطت عامها الأول ببضعة أشهر ولازال يحافظ على عادته!!!

تنهدت بارتياح وهي تتأملهما الآن وقد انشغل فهد مع الصغيرة بملاعبة العصفورين لتتذكر كيف كان القدر كريماً معها...

هي التي عانت من وحدتها كثيراً ليعوضها القدر بعائلتها الصغيرة التي ملأت حياتها سعادة ونوراً...

يقولون إن الحب أجمل ما في الوجود...

لكنها ترى أن الأهم من الحب هو الثقة به!!!

تلك الثقة التي منحها لها فهد ولازال يبرهن لها عليها كل يوم يزداد فيه ثباته على طريق الحق رغم المغريات...

ورغم أن الطريق كان صعباً بحق...لكن النهاية كانت تستحق!!!

وكأنما صدّقت الصغيرة على فكرتها الأخيرة عندما انطلقت ضحكاتها الرنانة وفهد يدغدغها بمرح ...

فابتسمت بدورها وهي تكتف ساعديها بقولها مدّعية الغيرة:

_نحن هنا!!!الدلال كله ل"لوكا" وأنا ...راحت أيامي!!!

ليلتفت هو نحوها بحدة قبل أن يتلفت حوله ليقول بمكر عابث:

_لولا أننا في الشرفة لكان لي رد آخر!!

ثم مال على أذنها هامساً بشقاوته اللذيذة:

_موعدنا ليلاً يا أستاذة...كي أثبت لكِ أنكِ في عزّ أيامك!!

فعادت تضحك بانطلاق عندما قاطع حديثهما رنين هاتفه ليفتح الاتصال بقوله المنطلق:

_حبيبة أخيكِ!!!أخيراً !!

ثم صمت لحظات مستمعاً قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة واهنة مع قوله بجدية تامة:

_كنت أعلم أنك ستفعلينها يوماً!!

قالها ثم أغلق الاتصال وعلى وجهه علامات ارتياح كبيرة...

قبل أن يناول الصغيرة لجنة التي حملتها برفق مع قوله :

_أنا ذاهبٌ لزيارة قبر أبي اليوم!!

أومأت جنة برأسها في تفهم وهي ترمقه بنظرة اعتزاز ...قبل أن تسأله باهتمام:

_ماسة ستأتي معك هذه المرة؟!

كانت تعلم أن فهد يواظب على زياراته لقبر أبيه من آنٍ لآخر...

أجل...رغم ما كان بينهما في حياته لكن فهد حافظ على برّه بعد موته!!!

وحدها ماسة كانت ترفض الأمر تماماً...

لكن يبدو أن رأسها قد لان أخيراً فقد قال فهد بارتياح:

_نعم...وددت كثيراً لو تأخذ هذه الخطوة...لو تسامحه...لأجلها هي قبل أن يكون لأجله!!

فابتسمت جنة وهي تقول بشرود:

_لا تزر وازرةٌ وزر أخرى...حتى لو كان هو قد ظلمها في حياته ...فواجبٌ عليها أن تبرّه !

أومأ برأسه موافقاً ليمنحها والصغيرة قبلتين متتابعتين قبل أن يغادرهما بقوله:

_سأذهب الآن لأصطحبها كي نذهب سوياً!

وبعدها بقليل...

كان يقف مع ماسة أمام قبر مميز ببنائه قد خصص مع أشباهه لعلية القوم...

عندما التوت شفتا ماسة بابتسامة شاحبة وهي تتلفت حولها لتقول باستهجان:

_حتى المقابر انتقلت إليها عدوى المظاهر...لا أظنني رأيت قبراً بهذه الفخامة!!

فالتفت إليها فهد بنظرة حنون وهو يدرك ما خلف عبارتها من ألم تريد مداراته...

ليتنهد بدوره بحرارة قبل أن يحيطها بذراعه قائلاً بحزم رفيق:

_الحقد لا يليق بقلبك يا ماسة...دعي قلبكِ وما جاء هنا لأجله!

ظلت ترمقه ببصرها للحظات قبل أن تبتلع غصة حلقها لتعود ببصرها للقبر الذي حمل اسمه...

جاسم الصاوي!!!

امتلأت أعماقها بالمرارة وهي تدرك الآن في هذه اللحظة أن اسمه لم يكن له صدًى لديها إلا بعد موته!!!

هو بخل به عليها علناً في حياته...

والآن ...لم يعد يصيبها منه إلا رجفة باردة وهي تقرأه على قبره!!!

لكنها ومع هذا لم تعد تشعر عليه بحقد كما السابق!!!

فقد رضيت بتصاريف القدر معها كلها...

كرم السماء أدركها بصدق موعودها...

إن مع العسر يسراً!!!

وهنا دار شريط حياتها كله في مخيلتها...

طفولتها الهانئة مع رحمة...

مراهقتها البريئة مع عزيز...

ذكريات حادثها الأليم التي ما عادت تؤرقها بل تمنحها المزيد من القوة...

وأخيراً قصتها العامرة مع سيد قلبها...عاصي!!

والتي أخذت منحنيات ألمها بصعودها وهبوطها حتى وصلت بها أخيراً لبر الأمان!!!

وبهذا الخاطر الأخير استعاد قلبها سكينته...

لتأخذ نفساً عميقاً ثم استغفرت الله بصوت خفيض...

قبل أن ترتفع أناملها بدعاء خاشع لرجلٍ أفضى الآن إلى ما قدمه...

ولم يعد باقياً له من عمله إلا ولد يدعو له!!!

ظلت على هذا الحال لدقائق مغمضة العينين قبل أن يسحبها فهد ليقول بحنان قلق:

_يكفيكِ هذا اليوم!

قالها وهو يشعر بمزيج من القلق والإشفاق عليها من ذكرياتها -خاوية الوفاض- مع أبيه...

فالتفتت نحوه بنظرة مطمئنة قبل أن تومئ برأسها موافقة لتغادر معه المكان...

ولم تكد تستقل معه سيارته حتى سألته بشرود:

_كيف عرفت أنت عن وجود أخت لك قبل عثورك عليّ؟!

فابتسم مدركاً مغزى سؤالها ليقول وهو ينطلق بالسيارة:

_هو أخبرني...تعرض ليلة ما لإطلاق نار...ولما شعر باقتراب أجله أوصاني عليكِ!

فدمعت عيناها رغماً عنها لكنها عضت على شفتها لتهمس بتساؤل:

_ولماذا إذن لم يعترف بي؟!

تنهد فهد بحرارة ثم قال بتعقل:

_هو ذات الصراع القديم بين الضمير والمصلحة...بين العاطفة والعقل...وهو -رحمه الله- أخطأ الاختيار!

أطرقت برأسها للحظات ثم همست بأسى:

_هل تظن أنه قد كان له مبرر في ما فعل؟!

فالتفت فهد نحوها ليقول بعد تفكير :

_قرأت مرة عبارة تقول "لو دخل كل منا قلب الآخر لأشفق عليه"...لقد تعلمت ألا ألوم أحداً على اختياره طالما لم تضعني الظروف مكانه...لا يدري بالعباد إلا رب العباد!

أومأت ماسة برأسها موافقة قبل أن ترفع عينيها إليه لتهمس بابتسامة واهنة:

_أنا سامحته!

ارتفع حاجباه بدهشة للحظة ثم ابتسم بدوره ليقول بشرود:

_وأنا أيضاً...في البداية كان الأمر صعباً...لكن الأيام تدور لتجعل الهم الكبير يصغر حتى يتلاشى.

تنهدت بحرارة وهي تشيح بوجهها لتراقب الطريق بشرود هي الأخرى...

قبل أن ينتزعها هو منه بقوله الذي اكتسب الآن الكثير من المرح:

_ستتناولين العشاء معنا...لوكا صارت قنبلة شقاوة...تعاليْ واستمتعي بانفجاراتها!!!

فضحكت بحنان حقيقي وهي تلتفت نحوه قبل أن تقول بنبرة اعتذار:

_لن أستطيع اليوم...عاصي وحده مع نور وضياء .

ليضحك بدوره وهو يقول مشاكساً:

_نور ليست مشكلة...لكن ضياء هذا كارثة...يقولون "الولد لخاله"!!!

فخبطت كفيها وهي تنطلق ضاحكة بانطلاق هذه المرة لتقول أخيراً بمرح:

_بالطبع كارثة!!!ما بين "أبيه" و"خاله" ...ماذا تنتظر منه أن يكون؟!

===============

جلس على كرسيه الطويل أمام ذاك القائم الخشبي والذي نصبت عليه لوحة رسم سارت عليها فرشاته بمهارة لم يؤثر عليها طول هجرانه لفنه...

قميصه الأبيض بياقته المستديرة الواسعة يشبه إحساسه بصفاء روحه الآن...

وقد أطلق لحيته -نوعاً- مع تهذيبها وسمح لخصلات شعره باستطالة محببة أبرزت لونه المميز ...

والذي صنع مع "غابات الزيتون" في عينيه مزيجاً آسراً خاصةً لعينين -مغرمتين- كعينيها!!!

اقتربت منه بخطوات متئدة وهي تحمل صغيرها الذي أوشك أن يكمل عامه الأول...

حتى صارت جواره تماماً فابتسمت وهي تراقب لوحته بانبهار وشت به نبرتها الهانئة:

_خطفت قلبي يا عاصي!

التفت نحوها برأسه ليمنحها ابتسامة ساحرة ما عادت تفارق شفتيه مع قوله الحنون رغم وقاره:

_مَهر ماسة!

ضحكت بسعادة بالغة وهي تتذكر ذاك اليوم الذي طلبت فيه منه أن يزيد لها في مهرها لوحة لها وسط الطبيعة ...

يومها أخبرها أن اليد التي تصادق السلاح لن تستقر فيها فرشاة رسم!!

لم تكن تعلم وقتها أنه سيفعلها!!!

وأن -مهرها- الذي تأخر هذا سيكون بهذه الروعة...

وهذا الوقْع على قلبها الذي يكاد الآن يضج بدقاته!!!

لهذا ضمت الصغير إليها بأحد ذراعيها ...بينما ضمته هو بالآخر مع قبلة عميقة على وجنته صاحبت همسها:

_تصدقني لو قلت إنها تساوي عندي كنوز الدنيا كلها؟!

فاتسعت ابتسامته وهو يتناول منها الصغير ليداعبه بمرح للحظات...

قبل أن يضمه لصدره بقوة رفيقة وقد أسند ظهر الصغير إلى صدره هو...

ثم وضع -الفرشاة- في يد الصغير التي أمسكها عاصي بنفسه ليعاود الرسم لكن بأنامل الصغير هذه المرة!!!

الصغير الذي كان يطلق الآن ضحكات عالية وقد سرته هذه الحركة ليهتف بصوته الطفولي:

_"بابا"!!

ظل يكررها وسط صيحاته الفرحة العالية وهو يحاول لمس اللوحة بكفه الطليق لكن عاصي أجاد تطويقه بحزمه الحنون مع قوله وكأنه سيفهمه:

_ليس الآن...فيما بعد!

فدمعت عينا ماسة بتأثر وهي تراقبهما بعاطفة فائرة...

عاصي سيعلم ابنه كيف يمسك فرشاة الرسم ...

وليس السلاح كما فعل به أبوه من قبل!!!

لقد وعى الدرس جيداً بعدما دفع الثمن غالياً...

لكنها انتزعت نفسها من شعورها هذا بضحكة صافية وهي تميل على رأس عاصي بقبلة عميقة مع قولها:

_أرأيت كم يشبهك "السيد" الصغير؟!نور نامت بمجرد ما وضعتها في فراشها بينما تشبث هو بي حتى أتيت به إلى هنا.

فضمه عاصي إليه أكثر مكتفياً بابتسامة حانية ولازال يرسم وأنامله قابضة على كف الصغير ...

لتتابعه ماسة ببصرها للحظات تتأمل اللوحة بشرود...

والتي ضمت وجهاً يشبه وجهها بعينيها الفضيتين وسط سماء صافية في أعلى اللوحة...

بينما هناك في أسفلها كان قاربٌ صغير مائل ...

نصفه فوق سطح البحر ونصفه بدا مختفياً أسفله...

وحول القارب كانت أمواج عالية يعلوها زبد أبيض ...

فعقدت حاجبيها بتفكر لتسأله بدهشة:

_ماذا قصدت بها؟!

صمت للحظات مكملاً ما يفعله...

ثم ناولها الصغير الذي كان قد بدأ في البكاء لتحمله برفق على كتفها مع تربيتها على ظهره...

ليقول أخيراً بغموضه العتيد:

_أخبريني أنتِ...ماذا ترين فيها؟!

فابتسمت وهي تقول ببعض المرح:

_اختبار؟!

هنا التفت هو نحوها برأسه لتشرق شموسه الزيتونية على بحار فضتها مع قوله بنبرته المميزة:

_وهل تحتاج ماستي لاختبار ؟!أنتِ دوماً تنجحين في قراءتي وكأن مفاتحي كلها لديكِ!

ضحكت بفخر يليق بعاشقة تسمع هذا الكلام...

ثم عادت تشرد ببصرها في اللوحة لتشير نحو البحر بإصبعها هامسة :

_هذا البحر هو أنت...طالما كنت أشبهك بالبحر...في جنونه وغموضه ...حنانه وسحره...هياجه وسكونه...هو مثلك...يا سيد الأضداد!

_أكملي!

همس بها وهو يحدق مثلها في تفاصيل اللوحة وكأنه يريد أن يراها بعينيها هي ...

فتنهدت بحرارة ثم انتقل إصبعها لصورة وجهها في اللوحة وسط السماء لتقول باعتزاز:

_وهذي أنا...رسمتني مكان الشمس!

فالتفت نحوها بنظرة جانبية مع ابتسامة استحسان لتردف هي بحيرة :

_لكن...هذا القارب!!!

صمتت للحظات وكأنها تبحث عن تفسير لهذا القارب -شبه الغارق-

لكنه أنقذها من حيرتها عندما همس بصوته ذي الشجن:

_هو عمري...نصفه غرق في أعماق حالكة وكم أتمنى لو أدرك النصف الآخر!

كان الصغير قد استسلم للنوم وقتها تماماً فأرقدته على الأريكة المجاورة برفق...

ثم عادت إليه لتحتضن كتفيه بكفيها مع همسها الواثق:

_ستدركه...بل سندركه معاً!!

فرفع إليها رأسه بابتسامة واسعة قبل أن يتناول كفيها بقبلتين متتابعتين...

ثم قام من مكانه أخيراً ليواجهها بقوله :

_تعلمين؟!أنتِ معجزتي في زمانٍ يزعمون إنه بلا معجزات!!

التمعت عيناها ببريق فضتها الذائبة والتي امتزجت بأطياف العشق في مقلتيها مع همسها :

_معك حق...ما بيننا لا يمكن إلا أن يكون هكذا...

ثم صمتت لحظة قبل أن تتعلق بذراعيها في عنقه لتكمل عبارتها بين شفتيه:

_معجزة!

=============

جلست علي رمال الشاطئ تراقب الشروق بابتسامة واسعة...

ورغم أنها لم تكن أول مرة تفعلها فطالما عشقت هذا المنظر ،لكنها تشعر به اليوم مختلفاً...

أم أن الاختلاف نابعٌ من روحها هي هذه المرة؟!

روحها التي تشبعت بفرحتها بعد طول حزن...

وأمانها بعد طول خوف؟!

انقطعت أفكارها عندما شعرت به يرفعها من كتفيها ليوقفها أمامه ...

شموسه الزيتونية تعانق نظراتها العاشقة بحنان لا يجيده مثله...

قبل أن يهمس بعد صمت قصير:

_ماستي والشروق...قصة لن يفهمها إلا أنا وأنتِ!!

اتسعت ابتسامتها وهي تبسط راحتها على صدره بحركتها الأثيرة لديه لتهمس بحب:

_قلتُ يوماً إنك تشبه الشمس...مهما آذانا لهيبها لا يسعنا إلا أن ننتظرها كل شروق....لأن غيابها يعني النهاية!!

خفق قلبه بعنف تحت راحتها ليفضح لها تأثره بما قالته...

فيجيب قلبها بجنون خفقاته هو الآخر!!!

عاصي عاد لتوه من داخل البيت وقد أدى صلاة الفجر!!!

صار يؤديها بحق الآن...

لا رياءً ولا سمعة!!!

وليس مجرد إثبات لسطوة أو واجب اجتماعي !!!

لكنه أداها بقلبه...

قلبه الذي نفض عنه ركام خطاياه بعدما جرب مرارة "العقاب" وحلاوة "التوبة"...

قلبه الذي نصر "ماسة" فطرته على "شيطان" جبروته...

قلبه الذي أنقذ نفسه من الغرق...

وأنقذها هي معه!!!

لهذا اتسعت ابتسامتها العاشقة عندما فاجأها الآن بأن جلس على الرمال متملكاً خصرها بكفيه ...

حتى أجلسها على ركبتيه كذاك اليوم الذي كانا فيه على سطح القصر ...

قبل أن يطيل النظر لبحار فضتها التي غشيتها السكينة الآن مع همسها وكأنها تذكره بعبارته وقتها:

_لم تكن لتترك ماستك تلامس الأرض دون أن تلتقطها!!

اتسعت ابتسامته كثيراً وهو يضمها لصدره بقوة مع همسه الحاني جوار أذنها:

_تقرئين صمتي كعادتك!

فتعلق ذراعاها بعنقه بقوة وهي تراقب شموسه الزيتونية التي عادت لتألقها الحنون ...

ثم همست بملء ما تحمله روحها من حب:

_رغماً عني...أنت أمامي كتاب مفتوح يقرأه قلبي قبل عيني!

فأراح رأسها على صدره ليهمس بحنان مع مسحة من ندم:

_رغم كل ما كان؟!

خفضت ذراعيها المعلقان بعنقه لتعاود ملامسة صدره في موضع القلب تماماً مع همسها الدافئ:

_لولا ما كان...لما وصلنا إلى ما نحن فيه الآن...هو اختبار تجاوزناه معاً حتى ذقنا فرحة نجاحنا.

ثم عادت تدفن وجهها في صدره مع آهة خافتة ناسبت همسها الحار:

_وأي فرحة!!!

هنا امتدت أنامله تداعب خصلات شعرها التي أثارها الهواء بشرود وهو يراقب قرص الشمس الذي بدأ يعلن سلطانه على صفحة السماء ...

قبل أن تولد على شفتيه ابتسامة رائقة مع همسه :

_لم أحلم يوماً بسعادة كهذه ...

ثم رفع ذقنها إليه ليردف بحرارة أذابتها:

_ما كان معنى العمر لو لم تكوني فيه؟**!**

ارتفع حاجباها بتأثر وعيناها تطوقان ملامحه بقوة عشقها...

قبل أن تنسحب أنامله ببطء مثير من شعرها إلى وجنتيها...

ثم طافت أخيراً على شفتيها مع همسه المتوهج بعاطفته:

_غنّي**!**

ابتسمت ابتسامة بعمق عاطفتها الآن نحوه لتهمس بصدق:

_كنت أشعر أنك ستطلبها...حتى لو لم تفتقد أنت صوتي...أنا افتقدت أن أسكب ألحاني على صدرك.

أخذ نفساً عميقاً يملأ صدره من هذا الهواء النقي الذي يحيط به...

فيما بدأت هي غنوتها التي اختارتها لأجله...

ربك لما يريد أحلامنا هتتحقق

وكلامنا هيتصدق والغايب هيعود

ربك لما يريد قلب العاصي يسلم

وعيونا هتتكلم و لا شيء يبقى بعيد

ربك لما يريد الصعب بيتهون

والحزن بيتلون طول ما الايد في للايد

ربك لما يريد هلاقيك بتقربلي

تفتح حضنك قبلي ولا فى بينا حدود

ربك لما يريد

حب لأخر حته في قلبك، دوب دوب

متخبيش شوقك ولا حبك، دوب دوب

سيب احساسك ياخدك ليا

واهجر ناسك واسكن فيا

بكره ده لسه حكاية بعيدة

لسه فى علم الغيب

ربك لما يريد

حب كانك حلم معدي، عيش عيش

متخليش ولا ثانية تعدي، وعيش عيش

خدني لحضنك اروي حنينك

واقسم حزنك بيني وبينك

وارضى بكل اللى بيتقسم

ده المكتوب مكتوب

أنهت غنائها مغمضة العينين كعادتها قبل أن تفتحهما لتصطدم بابتسامته الواسعة على شفتيه ...

ثم أتبعها بقبلته على جبينها مع همسه:

_صوتك مع جمال الشروق سحرٌ .

فابتسمت بدورها قبل أن تحتضن وجنته براحتها لتسأله بدلال:

_هل تذكر أول عبارة قلتها لي في أول لقاء لنا؟!

شرد ببصره مفكراً وهو يسترجع بذهنه أول لقاء لهما...

ليبتسم هامساً بإدراك:

_يومها كنتِ شاردة...فسألتكِ هل ستبقين هكذا طويلاً؟!

تأوهت بخفوت وهي تمرغ وجهها في صدره لتهمس بنبرة دافئة:

_وكأنك تنبأت وقتها بحكايتي معك...أنت لم تنتزعني من شرودي فحسب بل من حزن عمري كله...وكأن ما سبق في حياتي قبلك كان وهماً أفقت منه على حقيقة واحدة...

ثم رفعت عينيها مع شفتيها إلى شفتيه في هدية أخرى ناعمة تليق بهمسها:

_حبنا!

ضمها إليه أكثر وهو يبادلها عاطفتها بأخرى أكثر حرارة...

وأمامهما كانت الشمس تستأنف رحلتها في الشروق...

شعاعها النقي بقوته يبسط سلطانه على المرئيات لينعكس على موج البحر ببريق يشبه "الماس"

فيقهر بروعته "شيطان" الظلام الذي اندحر مهزوماً بعد زوال عتمة الليل!!!

وتتجمع عرائس السحب البيضاء في السماء كشهود عدل...

ترقب الصراع الأزليّ الدائر بينهما كيف سينتهي...

صراعاً بين فطرة الخير و هوى الأنفس...

بين شفافية الروح وعتمة المادة...

بين بياض الحق وسواد الباطل...

صراعاً بين "ماسة" و "شيطان"!!!

تمت بحمد الله

بدأت كتابتها رمضان يونيو

٢٠١٦

وانتهت شعبان مايو

٢٠١٧

جميع أشعار وخواطر الأبطال من كتاباتي

إهداء

إلى رجل يساوي كل العالم...

إلى رجل دللني كابنته...

وتعلق بي كأمه...

واحترمني كمعلمته...

وأحبني كامرأته...

إلى رجل يستحق أن يقال عليه ...."رجل"!!!

انتهى الجزء الأول من سلسلة وهل للرماد حياة...

ماسة وشيطان...

انتظرونا مع الجزء الثاني...

من يعيد قوس قزح؟!